
إحياء علوم الدين
للإمام الغزالي
رضي الله عنه
ربع المنجيات
كتاب
التوبة - الصبر والشكر - الرجاء والخوف - الفقر والزهد - التوحيد والتوكل
المحبة والشوق والأنس والرضا - النية والإخلاص والصدق - المراقبة والمحاسبة
التفكر - ذكر الموت وما بعده
المجلد الرابع
دار المنهاج

الإصدار الثاني ـ الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م



المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع الملك فهد ـ جانب البنك الفرنسي
هاتف رئيسي 00966 12 6326666
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص . ب 22943 ـ جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 62 - 018 - 3

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١م)

ربع المنجيات

كتاب

التوبة ـ الصبر والشكر ـ الرجاء والخوف ـ الفقر والزهد ـ التوحيد والتوكل

المحبة والشوق والأنس والرضا ـ النية والإخلاص والصدق ـ المراقبة والمحاسبة

التفكر ـ ذكر الموت وما بعده

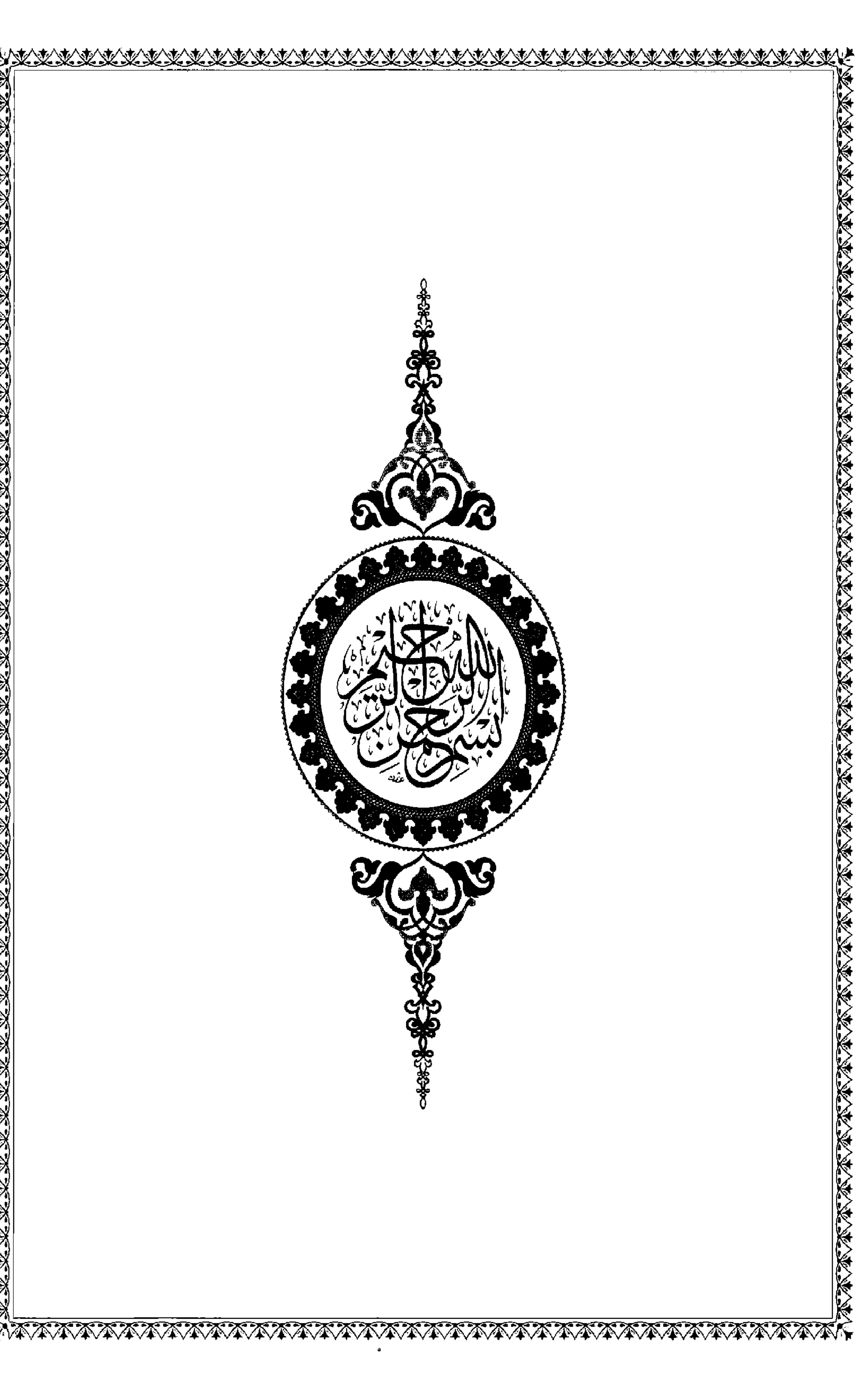
تشرفت بخدمته والعناية به

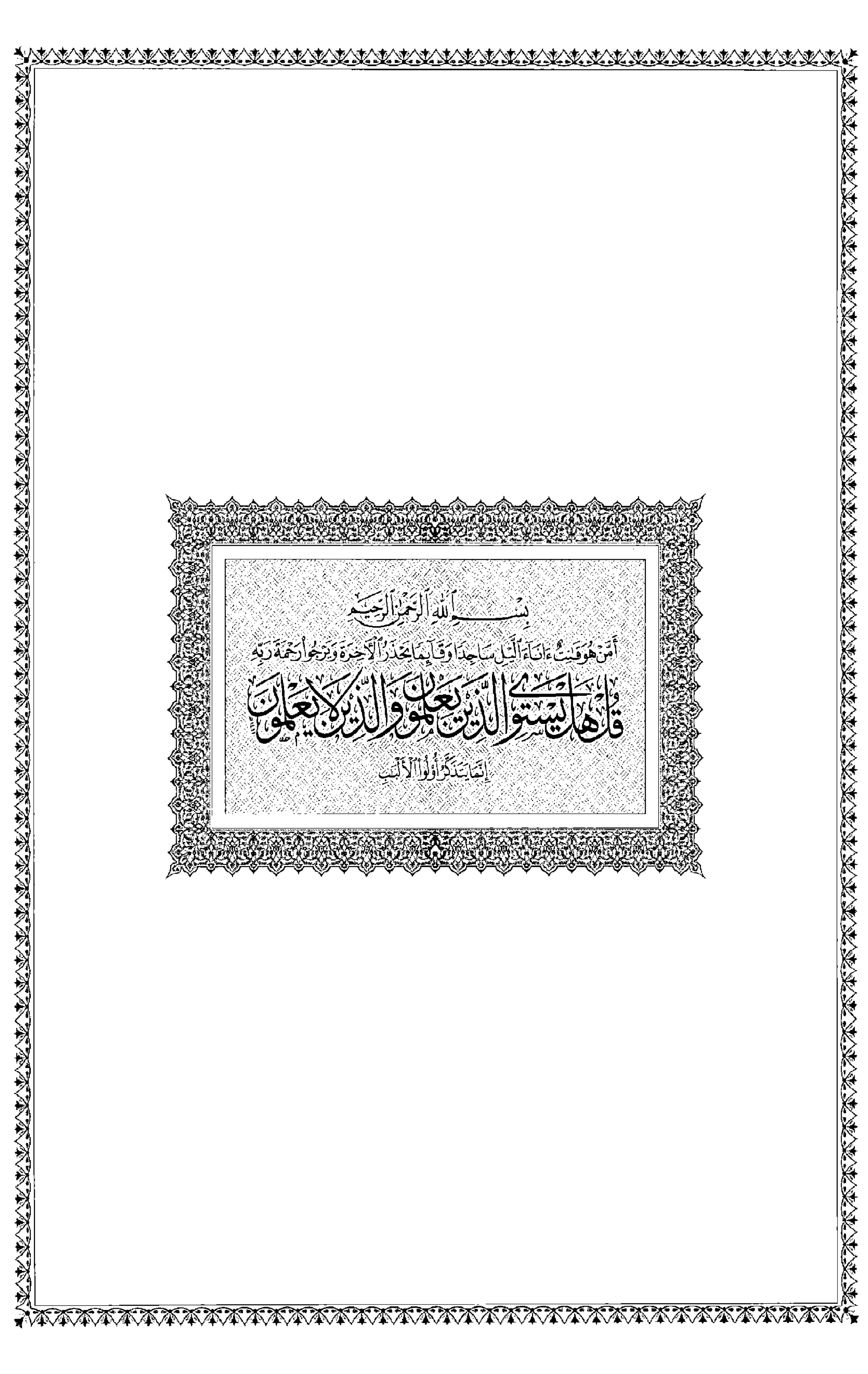
تحقيقاً وضبطاً وتوثيقاً ومراجعة

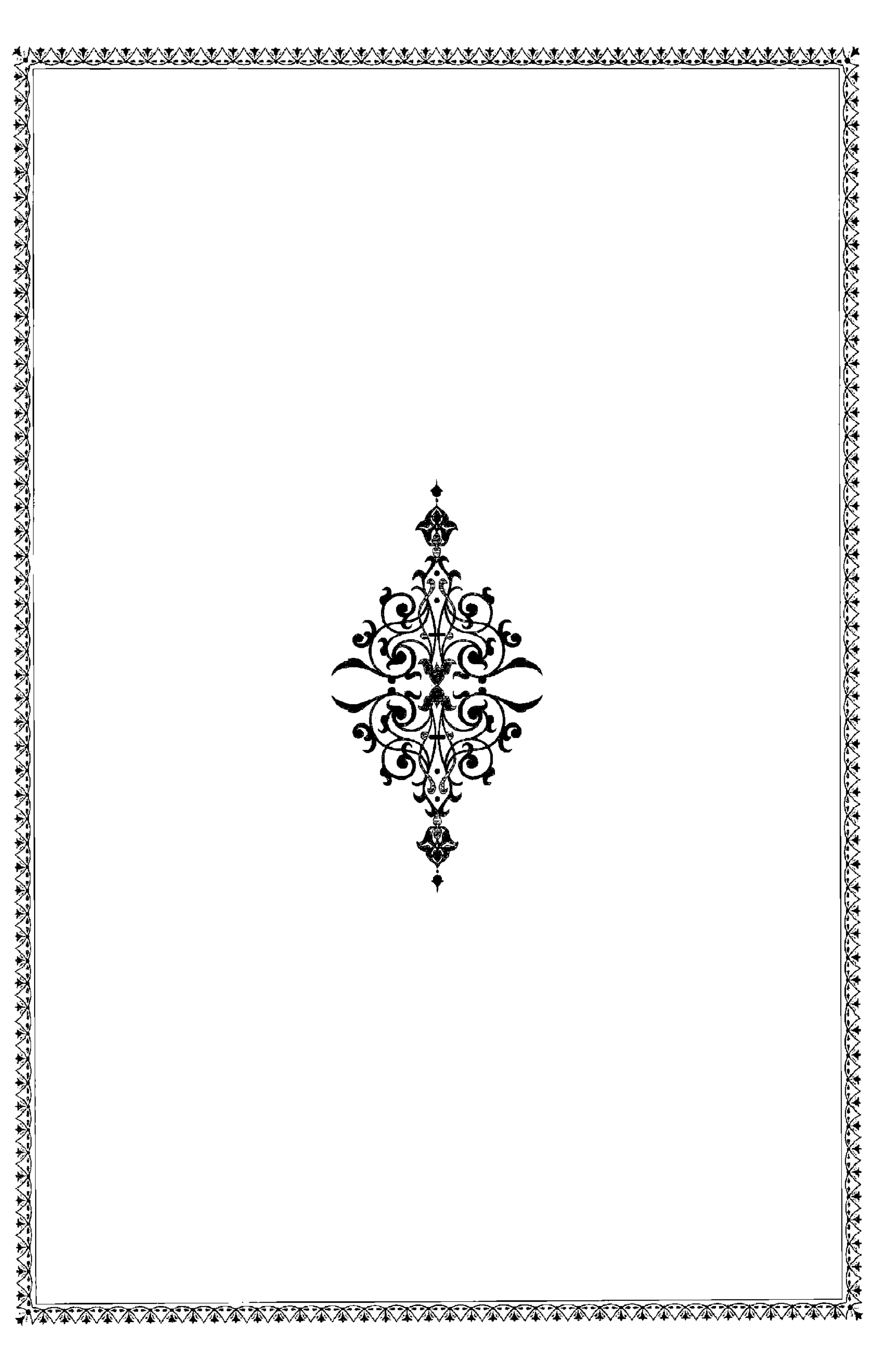
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي



دار المنهاج

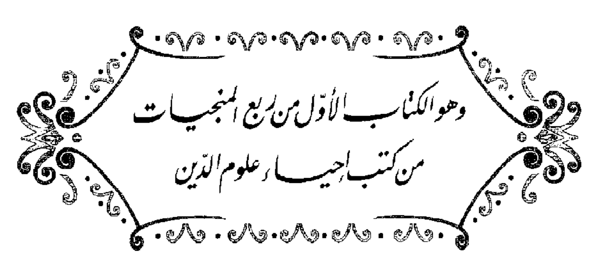

بسم الله الرحمن الرحيم

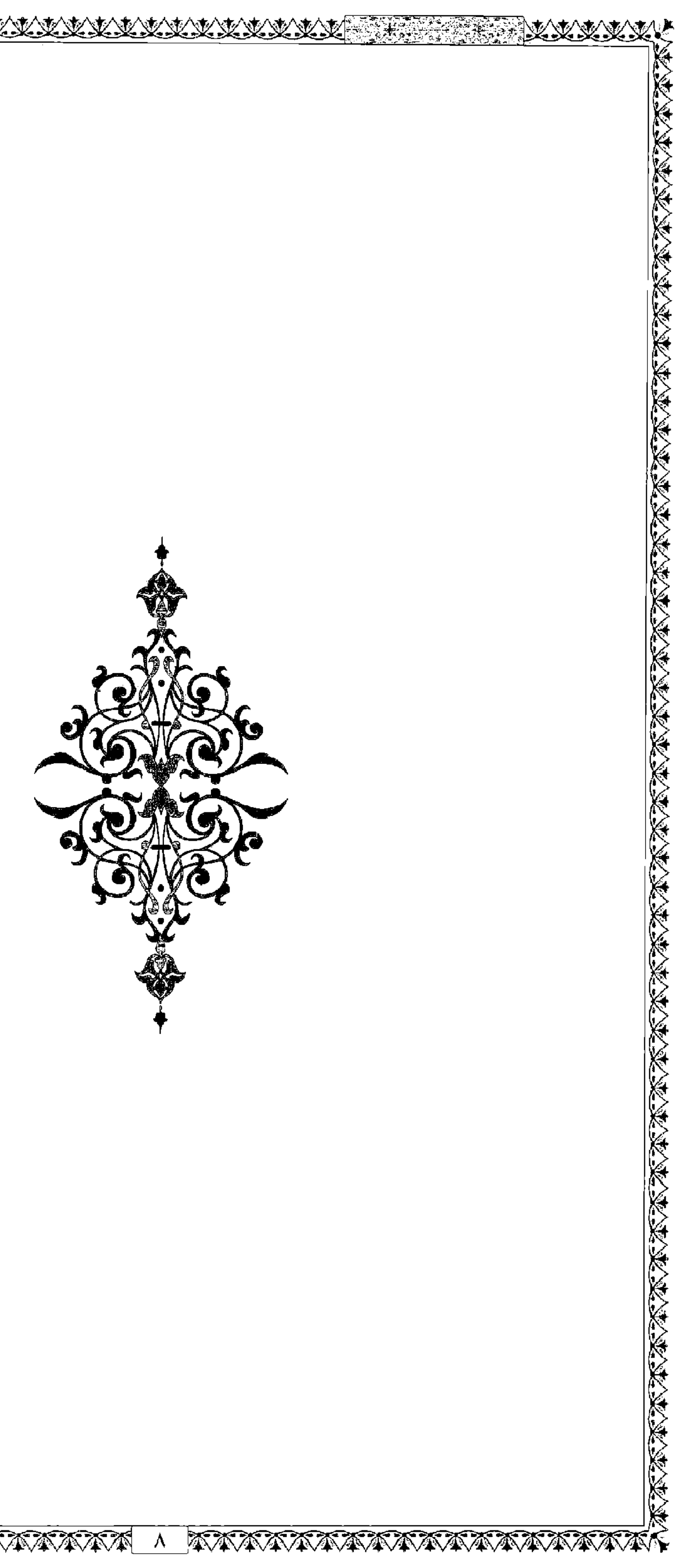

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ



كِتَابُ

التَّوْبَةِ





كتاب التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي بتحميدِهِ يُستفتحُ كلُّ كتابٍ ، وبذكرِهِ يُصدَّرُ كلُّ خطابٍ ، وبحمدِهِ يتنعَّمُ أهلُ النعيمِ في دارِ الثوابِ ، وباسمِهِ يتسلَّى الأشقياءُ وإنْ أرخىٰ دونَهُمُ الحجابَ ، وضربَ بينَهُمْ وبينَ السعداءِ بسورٍ لهُ بابٌ ، باطنُهُ فيهِ الرحمةُ وظاهرُهُ مِنْ قبلِهِ العذابُ .

ونتوبُ إليهِ توبةَ مَنْ يوقنُ أنَّهُ ربُّ الأربابِ ، ومسبِّبُ الأسبابِ ، ونرجوهُ رجاءَ مَنْ يعلمُ أنَّهُ الملكُ الرحيمُ الغفورُ التوَّابُ ، ونمزجُ برجائِنا الخوفَ مزْجَ مَنْ لا يرتابُ أنَّهُ معَ كونِهِ غافرَ الذنبِ وقابلَ التوبِ شديدُ العقابِ .

ونصلِّي علىٰ نبيِّهِ محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ الأكرمينَ صلاةً تنقذُنا مِنْ هولِ المُطَّلَعِ يومَ العرضِ والحسابِ[1] ، وتمهدُ لنا عندَ اللهِ زلفىٰ وحسنَ مآبٍ .

أما بعد :

فإنَّ التوبةَ عنِ الذنوبِ بالرجوعِ إلىٰ ستَّارِ العيوبِ وعلَّامِ الغيوبِ مبدأُ طريقِ السالكينَ ، ورأسُ مالِ الفائزينَ ، وأوَّلُ إقدامِ المريدينَ ، ومفتاحُ استقامةِ المائلينَ ، ومَطلَعُ الاصطفاءِ والاجتباءِ للمقرَّبينَ ، ولأبينا آدمَ صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ سائرِ الأنبياءِ أجمعينَ .

وما أجدرَ بالأولادِ الاقتداءَ بالآباءِ والأجدادِ ، فلا غروَ إنْ أذنبَ الآدميُّ واجترمَ ؛ فهيَ شِنْشِنَةٌ يعرفُها مِنْ أخزمَ ، ومَنْ أشبهَ أباهُ فما ظلمَ ، ولٰكنَّ الأبَ إذا جبرَ بعدَ أنْ كسرَ ، وعَمَرَ بعدَ أنْ هدمَ . . فليكنِ النزوعُ إليهِ في كلا طرفي النفي والإثباتِ ، والوجودِ والعدمِ ، ولقدْ قرعَ آدمُ عليهِ السلامُ سنَّ الندمِ ، وتندَّمَ علىٰ ما سبقَ منهُ وتقدَّمَ ، فمَنِ اتخذَهُ قدوةً في الذنبِ دونَ التوبةِ . . فقدْ زلَّتْ بهِ القدمُ .

بلِ التجرُّدُ لمحضِ الخيرِ دأبُ الملائكةِ المقرَّبينَ ، والتجرُّدُ للشرِّ دونَ التلافي سجيَّةُ الشياطينِ ، والرجوعُ إلى الخيرِ بعدَ الوقوعِ في الشرِّ ضرورةُ الآدميينَ ، فالمتجرِّدُ للخيرِ مَلَكٌ مقرَّبٌ عندَ الملكِ الديَّانِ ، والمتجرِّدُ للشرِّ شيطانٌ ، والمتلافي للشرِّ بالرجوعِ إلى الخيرِ بالحقيقةِ إنسانٌ ، فقدِ ازدوجَ في طينةِ الإنسانِ شائبتانِ ، واصطحبَ فيهِ سجيَّتانِ ، وكلُّ عبدٍ مصحِّحٌ نسبَهُ ؛ إمَّا إلى المَلَكِ ، أوْ إلىٰ آدمَ ، أوْ إلى الشيطانِ :

فالتائبُ قدْ أقامَ البرهانَ علىٰ صحَّةِ نسبِهِ إلىٰ آدمَ عليهِ السلامُ بملازمةِ حدِّ الإنسانِ .

والمصرُّ على الطغيانِ مسجِّلٌ علىٰ نفسِهِ بنسبِ الشيطانِ[2]

فأمَّا تصحيحُ النسبِ بالتجرُّدِ لمحضِ الخيرِ إلى الملائكةِ . . فخارجٌ عنْ حَيِّزِ الإمكانِ ؛ فإنَّ الشرَّ معجونٌ معَ الخيرِ

---

(١) **المُطَّلَع** : ما يطلع عليه من أهوال الآخرة وشدائدها ، ولا يبعد أن تكون المَطْلَع موضع الطلوع ، أو بكسر اللام وقت الطلوع . انظر « مشارق الأنوار » (٣١٩/١) .

(٢) في (ب) : (منتحل لنفسه) بدل (مسجل علىٰ نفسه) .

في طينةِ آدمَ عليهِ السلامُ عجناً محكماً ، لا يخلِّصُهُ إلا إحدىٰ نارينِ ؛ نارِ الندمِ أوْ نارِ جهنَّمَ ، فالإحراقُ بالنارِ ضروريٌّ في تخليصِ جوهرِ الإنسانِ عنْ خبائثِ الشيطانِ .

وإليكَ الآنَ اختيارُ أهونِ الشرَّينِ ، والمبادرةُ إلىٰ أخفِّ النارينِ ، قبلَ أنْ يُطوىٰ بساطُ الاختيارِ ، ويُساقَ إلىٰ دارِ الاضطرارِ ، إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النارِ .

وإذا كانَتِ التوبةُ موقعُها مِنَ الدينِ هـٰذا الموقعُ . . وجبَ تقديمُها في صدْرِ ربعِ المنجياتِ ؛ بشرحِ حقيقتِها ، وشروطِها ، وسببِها ، وعلامتِها ، وثمرتِها ، والآفاتِ المانعةِ منها ، والأدويةِ الميسِّرةِ لها ، ويتضحُ ذلكَ بذكرِ أربعةِ أركانٍ :

الركنُ الأوَّلُ : في نفسِ التوبةِ ، وبيانِ حدِّها وحقيقتِها ، وأنَّها واجبةٌ على الفورِ ، وعلىٰ جميعِ الأشخاصِ ، وفي جميعِ الأحوالِ ، وأنَّها إذا صحَّتْ . . كانَتْ مقبولةً .

الركنُ الثاني : فيما عنهُ التوبةُ ؛ وهيَ الذنوبُ ، وبيانِ انقسامِها إلىٰ صغائرَ وكبائرَ ، وما يتعلَّقُ بالعبادِ وما يتعلَّقُ بحقِّ اللهِ تعالىٰ ، وبيانِ كيفيَّةِ توزُّعِ الدرجاتِ والدركاتِ على الحسناتِ والسيئاتِ ، وبيانِ الأسبابِ التي بها تعظمُ الصغائرُ .

الركنُ الثالثُ : في بيانِ شروطِ التوبةِ ودوامِها ، وكيفيَّةِ تداركِ ما مضىٰ مِنَ المظالمِ ، وكيفيةِ تكفيرِ الذنوبِ ، وبيانِ أقسامِ التائبينَ في دوامِ التوبةِ .

الركنُ الرابعُ : في السببِ الباعثِ على التوبةِ ، وكيفيةِ العلاجِ في حلِّ عقدةِ الإصرارِ مِنَ المذنبينَ .

ويتمُّ المقصودُ بهـٰذِه الأركانِ الأربعةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

الركن الأول
في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها

اعلمْ : أنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ معنىً ينتظمُ ويلتئمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ مرتَّبةٍ : علمٍ ، وحالٍ ، وفعلٍ ، فالعلمُ أوَّلُ ، والحالُ ثانٍ ، والفعلُ ثالثٌ ، والأوَّلُ موجِبٌ للثاني ، والثاني موجِبٌ للثالثِ إيجاباً اقتضاهُ اطرادُ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ في الملكِ والملكوتِ .

أمَّا العلمُ . . فهوَ معرفةُ عظَمِ ضررِ الذنوبِ ، وكونِها حجاباً بينَ العبدِ وبينَ كلِّ محبوبٍ .

فإذا عرفَ ذٰلكَ معرفةً محقَّقةً بيقينٍ غالبٍ علىٰ قلبِهِ . . ثارَ مِنْ هٰذهِ المعرفةِ تألُّمٌ للقلبِ بسببِ فواتِ المحبوبِ ؛ فإنَّ القلبَ مهما شعرَ بفواتِ محبوبِهِ . . تألَّمَ .

فإنْ كانَ فواتُهُ بفعلِهِ . . تأسَّفَ على الفعلِ المفوِّتِ ، فيُسمَّىٰ تألُّمُهُ بسببِ فعلِهِ المفوِّتِ لمحبوبِهِ ندماً .

فإذا غلبَ هٰذا الألمُ على القلبِ واستولىٰ . . انبعثَ مِنْ هٰذا الألمِ في القلبِ حالةٌ أخرىٰ تسمَّىٰ إرادةً وقصداً إلىٰ فعلٍ لهُ تعلُّقٌ بالحالِ ، وبالماضي ، وبالاستقبالِ :

أمَّا تعلُّقُهُ بالحالِ . . فبالتركِ للذنبِ الذي كانَ ملابساً لهُ .

وأمَّا بالاستقبالِ . . فبالعزمِ علىٰ تركِ الذنبِ المفوِّتِ للمحبوبِ إلىٰ آخرِ العمرِ .

وأمَّا بالماضي . . فبتلافي ما فاتَ بالجبْرِ والقضاءِ إنْ كانَ قابلاً للجبْرِ .

فالعلمُ هوَ الأوَّلُ ، وهوَ مطلَعُ هٰذهِ الخيراتِ ، وأعني بهٰذا العلمِ الإيمانَ واليقينَ ؛ فإنَّ الإيمانَ عبارةٌ عنِ التصديقِ بأنَّ الذنوبَ سمومٌ مهلكةٌ ، واليقينَ عبارةٌ عنْ تأكُّدِ هٰذا التصديقِ ، وانتفاءِ الشكِّ عنهُ ، واستيلائِهِ على القلبِ ، فيثمرُ نورُ هٰذا الإيمانِ مهما أشرقَ على القلبِ نارَ الندمِ ، فيتألَّمُ بها القلبُ حيثُ يبصرُ بإشراقِ نورِ الإيمانِ أنَّهُ صارَ محجوباً عنْ محبوبِهِ ؛ كمَنْ يشرقُ عليهِ نورُ الشمسِ وقدْ كانَ في ظلمةٍ ، فسطعَ النورُ عليهِ بانقشاعِ سحابٍ أوِ انحسارِ حجابٍ ، فرأىٰ محبوبَهُ قدْ أشرفَ على الهلاكِ ، فتشتعلُ نيرانُ الحبِّ في قلبِهِ ، فتنبعثُ بتلكَ النيرانِ إرادتُهُ للانتهاضِ للتداركِ .

فالعلمُ ، والندمُ ، والقصدُ المتعلِّقُ بالتركِ في الحالِ والاستقبالِ والتلافي للماضي . . ثلاثةُ معانٍ مرتبةٍ في الحصولِ ، يُطلقُ اسمُ التوبةِ علىٰ مجموعِها .

وكثيراً ما يُطلقُ اسمُ التوبةِ علىٰ معنى الندمِ وحدَهُ ، ويُجعلُ العلمُ كالسابقِ والمقدمةِ ، والتركُ كالثمرةِ والتابعِ المتأخِّرِ ، وبهٰذا الاعتبارِ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الندمُ توبةٌ »[1] ؛ إذْ لا يخلو الندمُ عنْ علمٍ أوجبَهُ وأثمرَهُ ، وعنْ

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

عزمٍ يتبعُهُ ويتلوهُ ، فيكونُ الندمُ محفوفاً بطرفيهِ ؛ أعني : ثمرتَهُ ومثمرَهُ[1]

وبهٰذا الاعتبارِ قيلَ في حدِّ التوبةِ : إنَّهُ ذوبانُ الحشا لما سبقَ مِنَ الخطا[2] ، فإنَّ هٰذا يعرضُ لمجرَّدِ الألمِ .

وكذٰلكَ قيلَ : هوَ نارٌ في القلبِ تلتهبُ ، وصدعٌ في الكبدِ لا ينشعبُ .

وباعتبارِ معنى التركِ قيلَ في حدِّ التوبةِ : إنَّهُ خلعُ لباسِ الجفاءِ ، ونشرُ بساطِ الوفاءِ[3]

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : (التوبةُ : تبديلُ الحركاتِ المذمومةِ بالحركاتِ المحمودةِ ، ولا يتمُّ ذٰلكَ إلا بالخلوةِ ، والصمتِ ، وأكلِ الحلالِ)[4] ، وكأنَّهُ أشارَ إلى المعنى الثالثِ مِنَ التوبةِ .

والأقاويلُ في حدودِ التوبةِ لا تنحصرُ ، وإذا فهمتَ هٰذهِ المعانيَ الثلاثةَ وتلازمَها وترتيبَها . . عرفتَ أنَّ جميعَ ما قيلَ في حدودِها قاصرٌ عنِ الإحاطةِ بجميعِ معانيها ، وطلبُ العلمِ بحقائقِ الأمورِ أهمُّ مِنْ طلبِ الألفاظِ المجرَّدةِ .

* * *

(١) فالمثمر هو العلم ، والثمرة هي العزم .

(٢) والحشا داخل البطن ، وذوبانه بتأثير ألم فيه عن الزلات السابقة . « إتحاف » (٨/٥٠٣) .

(٣) والمراد بخلع لباس الجفاء ألا يعود إلىٰ ما يبعده عن حضرة الله ، وينشر لباس الوفاء بأن يستقيم عليه ، فلا يمر بباله الجفاء حتىٰ ذكره ؛ إذ ذكر الجفاء حال الصفاء جفاء . انظر « الإتحاف » (٨/٥٠٣) .

(٤) تفسير التستري (ص ٧٤) ، وأورده له صاحب « القوت » (١/١٨١) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٤٧) .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم : أنَّ وجوبَ التوبةِ ظاهرٌ بالأخبارِ والآياتِ ، وهوَ واضحٌ بنورِ البصيرةِ عندَ مَنِ انفتحَتْ بصيرتُهُ ، وشرحَ اللهُ بنورِ الإيمانِ صدرَهُ ، حتَّى اقتدرَ علىٰ أنْ يسعىٰ بنورِهِ الذي بينَ يديهِ في ظلماتِ الجهلِ ، مستغنياً عنْ قائدٍ يقودُهُ في كلِّ خطوةٍ ، فالسالكُ إمَّا أعمىً لا يستغني عنِ القائدِ في خطوِهِ ، وإمَّا بصيرٌ يُهدىٰ إلىٰ أوَّلِ الطريقِ ثمَّ يهتدي بنفسِهِ .

وكذٰلكَ الناسُ في طريقِ الدينِ ينقسمونَ هٰذا الانقسامَ ؛ فمِنْ قاصرٍ لا يقدرُ علىٰ مجاوزةِ التقليدِ في خطوِهِ ، فيفتقرُ إلىٰ أنْ يسمعَ في كلِّ قدمٍ نصّاً مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ أوْ سنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وربَّما يعوزُهُ ذٰلكَ فيتحيَّرُ ، فسيرُ هٰذا وإنْ طالَ عمرُهُ وعظمَ جَدُّهُ مختصرٌ ، وخطاهُ قاصرةٌ ، ومِنْ سعيدٍ شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ ، فهوَ علىٰ نورٍ مِنْ ربِّهِ ، يتنبَّهُ بأدنىٰ إشارةٍ لسلوكِ طريقٍ معوصةٍ ، وقطعِ عقباتٍ متعبةٍ ، فيشرقُ في قلبِهِ نورُ القرآنِ ونورُ الإيمانِ ، وهوَ لشدَّةِ نورِ باطنِهِ يجتزئُ بأدنىٰ بيانٍ[1] ، وكأنَّهُ يكادُ زيتُهُ يضيءُ ولوْ لمْ تمسسْهُ نارٌ ، فإذا مسَّتْهُ نارٌ . . فهوَ نورٌ علىٰ نورٍ ، يهدي اللهُ لنورِهِ مَنْ يشاءُ ، فهٰذا لا يحتاجُ إلىٰ نصٍّ منقولٍ في كلِّ واقعةٍ .

فمَنْ هٰذا حالُهُ إذا أرادَ أنْ يعرفَ وجوبَ التوبةِ . . فينظرُ أوَّلاً بنورِ البصيرةِ إلى التوبةِ ما هيَ ، ثمَّ إلى الوجوبِ ما معناهُ ، ثمَّ يجمعُ بينَ معنى الوجوبِ والتوبةِ ، فلا يشكُّ في ثبوتِهِ لها ؛ وذٰلكَ بأنْ يعلمَ أنَّ معنى الواجبِ ما هوَ واجبٌ في الوصولِ إلىٰ سعادةِ الأبدِ ، والنجاةِ مِنْ هلاكِ الأبدِ ، وأنَّهُ لولا تعلُّقُ السعادةِ والشقاوةِ بفعلِ الشيءِ وتركِهِ . . لمْ يكنْ لوصفِهِ بكونِهِ واجباً معنىً معقولٌ ، وقولُ القائلِ : (صارَ واجباً بالإيجابِ) حديثٌ محضٌ ؛ فإنَّ ما لا غرضَ لنا عاجلاً وآجلاً في فعلِهِ وتركِهِ فلا معنىٰ لاشتغالِنا بهِ ، أوجبَهُ علينا غيرُنا أوْ لمْ يوجبْهُ .

فإذا عرفَ معنى الوجوبِ ، وأنَّهُ الوسيلةُ إلىٰ سعادةِ الأبدِ ، وعلمَ أنَّهُ لا سعادةَ في دارِ البقاءِ إلا في لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ كلَّ محجوبٍ عنهُ يشقىٰ لا محالةَ ، مَحولٌ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ، محترقٌ بنارِ الفراقِ ونارِ جهنَّمَ ، وعلمَ أنَّهُ لا مبعِدَ عنْ لقاءِ اللهِ إلا اتباعُ الشهواتِ ، والأنسُ بهٰذا العالمِ الفاني ، والإكبابُ علىٰ حبِّ ما لا بدَّ مِنْ فراقِهِ قطعاً ، وعلمَ أنَّهُ لا مقرِّبَ مِنْ لقاءِ اللهِ إلا قطعُ علاقةِ القلبِ عنْ زخرفِ هٰذا العالمِ ، والإقبالُ بالكليَّةِ على اللهِ ؛ طلباً للأنسِ بهِ بدوامِ ذكرِهِ ، وللمحبةِ لهُ بمعرفةِ جلالِهِ وجمالِهِ علىٰ قدْرِ طاقتِهِ ، وعلمَ أنَّ الذنوبَ التي هيَ إعراضٌ عنِ اللهِ واتباعٌ لمحابِّ الشياطينِ أعداءِ اللهِ المبعدينَ عنْ حضرتِهِ سببُ كونِهِ محجوباً مبعَداً عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا يشكُّ في أنَّ الانصرافَ عنْ طريقِ البعدِ واجبٌ للوصولِ إلى القربِ ، وإنَّما يتمُّ الانصرافُ بالعلمِ والندمِ والعزمِ ، فإنَّهُ ما لمْ يعلمْ أنَّ الذنوبَ أسبابٌ للبعدِ عنِ المحبوبِ . . لمْ يتندَّمْ ولمْ يتوجَّعْ بسببِ سلوكِهِ في طريقِ البعدِ ، وما لمْ يتوجَّعْ . . فلا يرجعُ ، ومعنى الرجوعِ : التركُ والعزمُ ، فلا يشكُّ في أنَّ المعانيَ الثلاثةَ ضروريةٌ في الوصولِ إلى المحبوبِ .

فهٰكذا يكونُ الإيمانُ الحاصلُ عنْ نورِ البصيرةِ .

وأمَّا مَنْ لمْ يترشَّحْ لمثلِ هٰذا المقامِ المرتفعِ ذروتُهُ عنْ حدودِ أفهامِ أكثرِ الخلقِ . . ففي التقليدِ والاتباعِ لهُ مجالٌ

---

(١) يجتزئ : يكتفي .

رحبٌ ، يتوصَّلُ بهِ إلى النجاةِ مِنَ الهلاكِ ، فليلاحظْ فيهِ قولَ اللهِ تعالىٰ ، وقولَ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقولَ السلفِ الصالحينَ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، وهـٰذا أمرٌ على العمومِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . . ﴾ الآيةَ ، ومعنى النصوحِ : الخالصُ للهِ تعالىٰ خالياً عنِ الشوائبِ ، مأخوذٌ مِنَ النُّصْحِ .

ويدلُّ علىٰ فضْلِ التوبةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ حبيبُ اللهِ ، والتائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ »(١)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ المؤمنِ مِنْ رجلٍ نزلَ في أرضٍ دَوِيَّةٍ مهلكةٍ ، معَهُ راحلتُهُ عليها طعامُهُ وشرابُهُ ، فوضعَ رأسَهُ ، فنامَ نومةً ، فاستيقظَ وقدْ ذهبَتْ راحلتُهُ ، فطلبَها ، حتَّىٰ إذا اشتدَّ عليهِ الحرُّ والعطشُ أوْ ما شاءَ اللهُ . . قالَ : أرجعُ إلىٰ مكاني الذي كنتُ فيهِ فأنامُ حتَّىٰ أموتَ ، فوضعَ رأسَهُ علىٰ ساعدِهِ ليموتَ ، فاستيقظَ ، فإذا راحلتُهُ عندَهُ عليها زادُهُ وشرابُهُ ، فاللهُ تعالىٰ أشدُّ فرحاً بتوبةِ العبدِ المؤمنِ مِنْ هـٰذا براحلتِهِ »(٢) ، وفي بعضِ الألفاظِ : « قالَ مِنْ شدَّةِ فرحِهِ ؛ إذْ أرادَ شكْرَ اللهِ : اللهمَّ ؛ أنا ربُّكَ وأنتَ عبدي »(٣)

ويروىٰ عنِ الحسنِ قالَ : لمَّا تابَ اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ . . هنَّأَتْهُ الملائكةُ ، وهبطَ عليهِ جبريلُ وميكائيلُ ودرديائيلُ فقالوا : يا آدمُ ؛ قرَّتْ عينُكَ بتوبةِ اللهِ عليكَ ، فقالَ آدمُ عليهِ السلامُ : يا جبريلُ ؛ فإنْ كانَ بعدَ هـٰذهِ التوبةِ سؤالٌ . . فأينَ مقامي ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا آدمُ ؛ ورَّثْتَ ذرّيتَكَ التعبَ والنصبَ ، وورَّثْتُهُمُ التوبةَ ، فمَنْ دعاني منهُمْ بدعوتِكَ . . لبَّيْتُهُ كما لبَّيْتُكَ ، ومَنْ سألَني المغفرةَ . . لمْ أبخلْ عليهِ ؛ لأنّي قريبٌ مجيبٌ يا آدمُ ، وأحشرُ التائبينَ مِنَ القبورِ مستبشرينَ ضاحكينَ ، ودعاؤُهُمْ مستجابٌ(٤)

والأخبارُ والآثارُ في ذٰلكَ لا تُحصىٰ ، والإجماعُ منعقدٌ مِنَ الأمَّةِ علىٰ وجوبِها ؛ إذْ معناهُ العلمُ بأنَّ الذنوبَ والمعاصيَ مهلكاتٌ ومبعِداتٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا داخلٌ في وجوبِ الإيمانِ ، ولـٰكنْ قدْ تدهشُ الغفلةُ عنهُ ، فمعنىٰ هـٰذا العلمِ إزالةُ هـٰذهِ الغفلةِ ، ولا خلافَ في وجوبِها .

ومِنْ معانيها : تركُ المعاصي في الحالِ ، والعزمُ علىٰ تركِها في الاستقبالِ ، وتداركُ ما سبقَ مِنَ التقصيرِ في سابقِ الأحوالِ ، وذٰلكَ لا يُشكُّ في وجوبِهِ .

وأمَّا التندُّمُ علىٰ ما سبقَ والتحزُّنُ عليهِ . . فواجبٌ ، وهوَ روحُ التوبةِ ، وبهِ تمامُ التلافي ، فكيفَ لا يكونُ واجباً ؟! بلْ هوَ نوعُ ألمٍ يحصلُ ـ لا محالةَ ـ عَقيبَ حقيقةِ المعرفةِ بما فاتَ مِنَ العمرِ وضاعَ في سخطِ اللهِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) كذا في « القوت » (١٧٩/١) ، وقوله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) ، وصدر الحديث نصَّت عليه الآية المتقدمة ، وقد روى ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٨٣) عن الشعبي أنه ذكر حديث ابن ماجه وتلا هـٰذه الآية ، وروىٰ أيضاً (١٨٤) مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه : « إن الله يحب الشاب التائب » .

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) واللفظ له .

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٧) بتقديم وتأخير .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٤٩) .

فإنْ قلتَ : تألُّمُ القلبِ أمرٌ ضروريٌّ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فكيفَ يُوصفُ بالوجوبِ ؟(١)

فاعلمْ : أنَّ سببَهُ تحقيقُ العلمِ بفواتِ المحبوبِ ، ولهُ سبيلٌ إلىٰ تحصيلِ سببِهِ ، وبمثلِ هـٰذا المعنىٰ دخلَ العلمُ تحتَ الوجوبِ ، لا بمعنىٰ أنَّ العلمَ يخلقُهُ العبدُ ويحدثُهُ في نفسِهِ ، فإنَّ ذٰلكَ محالٌ ، بلِ العلمُ والندمُ والفعلُ والإرادةُ والقدرةُ والقادرُ والمقدورُ والكلُّ(٢) مِنْ خلقِ اللهِ وفعلِهِ ، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

هـٰذا هوَ الحقُّ عندَ ذوي البصائرِ ، وما سوىٰ هـٰذا ضلالٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : أفليسَ للعبدِ اختيارٌ في الفعلِ والتركِ ؟

قلنا : نعمْ ، وذٰلكَ لا يناقضُ قولَنا : (إنَّ الكلَّ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ) ، بلِ الاختيارُ أيضاً مِنْ خلقِ اللهِ ، والعبدُ مضطرٌّ في الاختيارِ الذي لهُ ؛ فإنَّ اللهَ إذا خلقَ اليدَ الصحيحةَ ، وخلقَ الطعامَ اللذيذَ ، وخلقَ الشهوةَ للطعامِ في المعدةِ ، وخلقَ العلمَ في القلبِ بأنَّ هـٰذا الطعامَ مسكِّنٌ للشهوةِ ، وخلقَ الخواطرَ المتعارضةَ في أنَّ هـٰذا الطعامَ هلْ فيهِ مضرَّةٌ معَ أنَّهُ يسكِّنُ الشهوةَ ، وهلْ دونَ تناولِهِ مانعٌ يتعذَّرُ معَهُ تناولُهُ أمْ لا ، ثمَّ خلقَ العلمَ بأنَّهُ لا مانعَ . . فعندَ اجتماعِ هـٰذهِ الأسبابِ تنجزمُ الإرادةُ الباعثةُ على التناولِ ، فانجزامُ الإرادةِ بعدَ تردُّدِ الخواطرِ المتعارضةِ وبعدَ قوَّةِ الشهوةِ للطعامِ يسمَّى اختياراً ، ولا بدَّ مِنْ حصولِهِ عندَ تمامِ أسبابِهِ ، فإذا حصلَ انجزامُ الإرادةِ بخلْقِ اللهِ تعالىٰ إيَّاها . . تحرَّكتِ اليدُ الصحيحةُ إلىٰ جهةِ الطعامِ لا محالةَ ؛ إذْ بعدَ تمامِ الإرادةِ والقدرةِ يكونُ حصولُ الفعلِ ضرورياً ، فتحصلُ الحركةُ ، فتكونُ الحركةُ بخلْقِ اللهِ تعالىٰ بعدَ حصولِ القدرةِ وانجزامِ الإرادةِ ، وهما أيضاً مِنْ خلقِ اللهِ ، وانجزامُ الإرادةِ يحصلُ بعدَ صدقِ الشهوةِ والعلمِ بعدمِ الموانعِ ، وهما أيضاً مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، ولـٰكنْ بعضُ هـٰذهِ المخلوقاتِ يترتَّبُ على البعضِ ترتباً جرَتْ بهِ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ في خلقِهِ ، ولنْ تجدَ لسنَّةِ اللهِ تبديلاً ، فلا يخلقُ اللهُ حركةَ اليدِ بكتابةٍ منظومةٍ ما لمْ يخلقْ فيها صفةً تسمَّىٰ قدرةً ، وما لمْ يخلقْ فيها حياةً ، وما لمْ يخلقْ إرادةً مجزومةً ، ولا يخلقُ الإرادةَ المجزومةَ ما لمْ يخلقْ شهوةً وميلاً في النفسِ ، ولا ينبعثُ هـٰذا الميلُ انبعاثاً تاماً ما لمْ يخلقْ علماً بأنَّهُ موافقٌ للنفسِ ؛ إمَّا في الحالِ أوْ في المآلِ ، ولا يخلقُ العلمَ أيضاً إلا بأسبابٍ أخرَ ترجعُ إلىٰ حركةٍ وإرادةٍ وعلمٍ .

فالعلمُ والميلُ الطبيعيُّ أبداً يستتبعُ الإرادةَ الجازمةَ ، والإرادةُ والقدرةُ أبداً تستردفُ الحركةَ ، وهـٰكذا الترتيبُ في كلِّ فعلٍ ، والكلُّ مِنِ اختراعِ اللهِ تعالىٰ ، ولـٰكنْ بعضُ مخلوقاتِهِ شرطٌ لبعضٍ ، فلذٰلكَ يجبُ تقدُّمُ البعضِ وتأخُّرُ البعضِ ؛ كما لا تُخلقُ الإرادةُ إلا بعدَ العلمِ ، ولا يُخلقُ العلمُ إلا بعدَ الحياةِ ، ولا تُخلقُ الحياةُ إلا بعدَ الجسمِ ، فيكونُ خلقُ الجسمِ شرطاً لحدوثِ الحياةِ ، لا أنَّ الحياةَ تتولَّدُ مِنَ الجسمِ ، ويكونُ خلقُ الحياةِ شرطاً لخلقِ العلمِ ، لا أنَّ العلمَ يتولَّدُ مِنَ الحياةِ ، ولـٰكنْ لا يستعدُّ المحلُّ لقبولِ العلمِ إلا إذا كانَ حيّاً ، ويكونُ خلقُ العلمِ شرطاً لجزمِ الإرادةِ ، لا أنَّ العلمَ يولِّدُ الإرادةَ ، ولـٰكنْ لا يقبلُ الإرادةَ إلا جسمٌ حيٌّ عالمٌ .

ولا يدخلُ في الوجودِ إلا ممكنٌ ، وللإمكانِ ترتيبٌ لا يقبلُ التغييرَ ؛ لأنَّ تغييرَهُ محالٌ ، فمهما وُجدَ شرطُ الوصفِ . .

---

(١) أي : كيف يوصف بوجوب الإيجاد وهو موجود بالضرورة لعلمنا بأن من فعل كذا . . فقد عصى الله تعالىٰ ، ومن عصاه . . فقد فاته محبوبه ونأىٰ عن سعادته ؟

(٢) كذا في جميع النسخ : (والكل) بإثبات الواو ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/٥٠٨) بإسقاطها .

استعدَّ المحلُّ بهِ لقبولِ الوصفِ ، فحصلَ ذٰلكَ الوصفُ مِنَ الجودِ الإلـٰهيِّ والقدرةِ الأزليَّةِ عندَ حصولِ الاستعدادِ ، ولمَّا كانَ للاستعدادِ بسببِ الشروطِ ترتيبٌ . . كانَ لحصولِ الحوادثِ بفعلِ اللهِ تعالىٰ ترتيبٌ ، والعبدُ مجرىٰ هـٰذهِ الحوادثِ المرتَّبةِ ، وهيَ مرتَّبةٌ في قضاءِ اللهِ تعالى الذي هوَ واحدٌ كلمحِ البصرِ ، ترتيباً كلِّيّاً لا يتغيَّرُ ، وظهورُها بالتفصيلِ مقدرٌ بقدَرٍ لا يتعداهُ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وعنِ القضاءِ الكلِّيِّ الأزليِّ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ .

وأمَّا العبادُ . . فإنَّهُمْ مسخَّرونَ تحتَ مجاري القضاءِ والقدرِ ، ومِنْ جملةِ القدرِ خلقُ حركةٍ في يدِ الكاتبِ بعدَ خلقِ صفةٍ مخصوصةٍ في يدِهِ تُسمَّى القدرةَ ، وبعدَ خلقِ ميلٍ قويٍّ جازمٍ في نفسِهِ يُسمَّى القصْدَ ، وبعدَ علمٍ بما إليهِ ميلُهُ يُسمَّى الإدراكَ والمعرفةَ .

فإذا ظهرَتْ مِنْ باطنِ الملكوتِ هـٰذهِ الأمورُ الأربعةُ علىٰ جسمِ عبدٍ مسخَّرٍ تحتَ قهْرِ التقديرِ . . سبقَ أهلُ عالمِ الملكِ والشهادةِ المحجوبونَ عنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ وقالوا : أيُّها الرجلُ ؛ قدْ تحرَّكتَ وكتبتَ ورميتَ ، ونُوديَ مِنْ وراءِ حُجُبِ الغيبِ ، وسرادقاتِ الملكوتِ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ، وما قتلتَ إذْ قتلتَ ولـٰكنَّ اللهَ قتلهُمْ ، ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

وعندَ هـٰذا تتحيَّرُ عقولُ القاعدينَ في بحبوحةِ عالمِ الشهادةِ :

فمِنْ قائلٍ : إنَّهُ جبْرٌ محضٌ .

ومِنْ قائلٍ : إنَّهُ اختراعٌ صرْفٌ (١)

ومِنْ متوسِّطٍ مائلٍ إلىٰ أنَّهُ كسبٌ (٢)

ولوْ فُتحَتْ لهمْ أبوابُ السماءِ ، فنظروا إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ . . لظهرَ لهُمْ أنَّ كلَّ واحدٍ صادقٌ مِنْ وجهٍ ، وأنَّ القصورَ شاملٌ لجميعِهِمْ (٣) ، فلمْ يدركْ واحدٌ منهُمْ كنْهَ هـٰذا الأمرِ ، ولمْ يحطْ علمُهُ بجوانبِهِ ، وتمامُ علمِهِ يُنالُ بإشراقِ النورِ مِنْ كوَّةٍ نافذةٍ إلىٰ عالمِ الغيبِ ، وأنَّهُ تعالىٰ عالمُ الغيبِ والشهادةِ لا يظهرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلا مَنِ ارتضىٰ منْ رسولٍ ، وقدْ يُطلعُ على الشهادةِ مَنْ لمْ يدخلْ في حيِّزِ الارتضاءِ .

ومَنْ حرَّكَ سلسلةَ الأسبابِ والمسبَّباتِ ، وعلمَ كيفيَّةَ تسلسلِها ، ووجهَ ارتباطِ مناطِ سلسلتِها بمسبِّبِ الأسبابِ . . انكشفَ لهُ سرُّ القدَرِ ، وعلمَ علماً يقيناً أنْ لا خالقَ إلا اللهُ ، ولا مبدعَ سواهُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ قضيتَ علىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ القائلينَ بالجبْرِ والاختراعِ والكسبِ بأنَّهُ صادقٌ مِنْ وجهٍ ، وهوَ معَ صدقِهِ قاصرٌ ، وهـٰذا متناقضٌ ، فكيفَ يمكنُ فهْمُ ذٰلكَ ؟ وهلْ يمكنُ إيصالُ ذٰلكَ إلى الأفهامِ بمثالٍ ؟

---

(١) أي : من فعل العبد ، وهـٰؤلاء هم القدرية . « إتحاف » (٨/٥١٠) .

(٢) فيسندون الفعل إلى الله ويثبتون للعبد كسباً في الفعل ، وهـٰؤلاء هم الأشاعرة من أهل السنة والجماعة ومن وافقهم في هـٰذه المسألة من الماتريدية ، إلا أنهم سمَّوه جزءاً اختيارياً ، وهـٰؤلاء هم المتوسطة . « إتحاف » (٨/٥١٠) .

(٣) علىٰ تفاوت بينهم ، فقصور المتوسط في إدراك كنه هـٰذا الأمر وتمام علمه ، والطرفان قصورهم في مناقضتهم للتلفيق بين ظواهر النصوص ومقتضيات العقول فضلاً عن ذٰلك ، وسيبين المصنف هـٰذا بمثال في التحريجة الآتية .

فاعلمْ : أنَّ جماعةً مِن العميانِ سمعوا أنَّهُ قدْ حُمِلَ إلى البلدةِ حيوانٌ عجيبٌ يُسمَّى الفيلَ ، وما كانوا قطُّ شاهدوا صورتَهُ ، ولا سمعوا اسمَهُ ، فقالوا : لا بدَّ لنا مِنْ مشاهدتِهِ ومعرفتِهِ باللمسِ الذي نقدرُ عليهِ ، فطلبوهُ ، فلما وصلوا إليهِ . . لمسوهُ ، فوقعَتْ يدُ بعضِ العميانِ على رجلِهِ ، ووقعَتْ يدُ بعضِهِمْ على نابِهِ ، ووقعَتْ يدُ بعضِهِمْ على أذنِهِ ، فقالوا : قدْ عرفناهُ ، فلما انصرفوا . . سألَهُمْ بقيَّةُ العميانِ ، فاختلفَ أجوبتُهُمْ :

فقالَ الذي لمسَ الرجْلَ : إنَّ الفيلَ ما هوَ إلا مثلُ أُسطوانةٍ خشنةِ الظاهرِ ، إلا أنَّهُ ألينُ منها .

وقالَ الذي لمسَ النابَ : ليسَ كما يقولُ ، بلْ هوَ صلْبٌ لا لينَ فيهِ ، وأملسُ لا خشونةَ فيهِ ، وليسَ في غلظِ الأسطوانةِ أصلاً ، بلْ هوَ مثلُ عمودٍ .

وقالَ الذي لمسَ الأُذُنَ : لعمري هوَ ليِّنٌ وفيهِ خشونةٌ ، فصدَّقَ أحدَهُمَا فيهِ ، ولٰكنْ قالَ : ما هوَ مثلَ عمودٍ ، ولا هو مثلَ أُسطوانةٍ ، وإنَّما هوَ مثلُ جلدٍ عريضٍ غليظٍ .

فكلُّ واحدٍ مِنْ هٰؤلاءِ صدقَ مِنْ وجهٍ ، إذْ أخبرَ كلُّ واحدٍ عمَّا أصابَهُ مِنْ معرفةِ الفيلِ ، ولمْ يخرجْ واحدٌ في خبرِهِ عنْ وصفِ الفيلِ ، ولٰكنَّهُمْ بجملتِهِمْ قصَّروا عنِ الإحاطةِ بكُنْهِ صورةِ الفيلِ .

فاستبصرْ بهٰذا المثالِ واعتبرْ بهِ ، فإنَّهُ مثالُ أكثرِ ما اختلفَ الناسُ فيهِ .

وإذا كانَ هٰذا كلاماً يناطحُ علومَ المكاشفةِ ويحرّكُ أمواجَها ، وليسَ ذٰلكَ مِنْ غرضِنا . . فلنرجعْ إلىٰ ما كنَّا بصددِهِ ، وهوَ بيانُ أنَّ التوبةَ واجبةٌ بجميعِ أجزائِها الثلاثةِ : العلمِ ، والندمِ ، والتركِ ، وأنَّ الندمَ داخلٌ في الوجوبِ ؛ لكونِهِ واقعاً في جملةِ أفعالِ اللهِ المحصورةِ بينَ علمِ العبدِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ المتخللةِ بينهُما ، وما هٰذا وصفُهُ فاسمُ الوجوبِ يشملُهُ .

* * *

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أمَّا وجوبُها على الفورِ . . فلا يسترابُ فيهِ[1] ؛ إذْ معرفةُ كونِ المعاصي مهلكاتٍ مِنْ نفسِ الإيمانِ ، وهوَ واجبٌ على الفورِ ، والمتفصّي عنْ وجوبِهِ هوَ الذي عرفَهُ معرفةً زجرَهُ ذٰلكَ عنِ الفعلِ المكروهِ[2] ، فإنَّ هٰذهِ المعرفةَ ليسَتْ مِنْ علومِ المكاشفاتِ التي لا تتعلَّقُ بعملٍ ، بلْ هيَ مِنْ علومِ المعاملةِ ، وكلُّ علمٍ يرادُ ليكونَ باعثاً علىٰ عملٍ . . فلا يقعُ التفصّي عنْ عهدتِهِ ما لمْ يصرْ باعثاً عليهِ ، فالعلمُ بضررِ الذنوبِ إنَّما أُريدَ ليكونَ باعثاً علىٰ تركِها ، فمَنْ لمْ يتركْها . . فهوَ فاقدٌ لهٰذا الجزْءِ مِنَ الإيمانِ .

وهوَ المرادُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يزني الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ »[3] ، وما أرادَ بهِ نفيَ الإيمانِ الذي يرجعُ إلىٰ علومِ المكاشفةِ ؛ كالعلمِ باللهِ ، ووحدانيتِهِ وصفاتِهِ ، وكتبِهِ ، ورسلِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ لا ينافيهِ الزنا والمعاصي ، وإنَّما أرادَ بهِ نفيَ الإيمانِ بكونِ الزنا مبعداً عنِ اللهِ جلَّ جلالُهُ موجباً للمقتِ ؛ كما إذا قالَ الطبيبُ : (هٰذا سمٌّ فلا تتناولْهُ) ، فإذا تناولَهُ . . يُقالُ : (تناولَ وهوَ غيرُ مؤمنٍ) ، لا بمعنىٰ أنَّهُ غيرُ مؤمنٍ بوجودِ الطبيبِ وكونِهِ طبيباً ، وغيرُ مصدّقٍ بهِ ، بلِ المرادُ أنَّهُ غيرُ مصدّقٍ بقولِهِ : (إنَّهُ سمٌّ مهلكٌ) ، فإنَّ العالمَ بالسمِ لا يتناولُهُ أصلاً ، فالعاصي بالضرورةِ ناقصُ الإيمانِ .

وليسَ الإيمانُ باباً واحداً ، بلْ هوَ نيّفٌ وسبعونَ باباً ، أعلاها شهادةُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ ، وأدناها إماطةُ الأذىٰ عنِ الطريقِ[4] ، ومثالُهُ : قولُ القائلِ : ليسَ الإنسانُ موجوداً واحداً ، بلْ هوَ نيّفٌ وسبعونَ موجوداً ، أعلاها القلبُ والروحُ ، وأدناها إماطةُ الأذىٰ عنِ البشرةِ ؛ بأنْ يكونَ مقصوصَ الشاربِ ، مقلومَ الأظفارِ ، نقيَّ البشرةِ عنِ الخبثِ ، حتَّىٰ يتميَّزَ عنِ البهائمِ المرسلَةِ الملوثةِ بأرواثِها ، المستكرهةِ الصورِ بطولِ مخالبِها وأظلافِها .

وهٰذا مثالٌ مطابقٌ ؛ فالإيمانُ كالإنسانِ ، وفقدُ شهادةِ التوحيدِ يوجبُ البطلانَ بالكليَّةِ كفقدِ الروحِ ، والذي ليسَ لهُ إلا شهادةُ التوحيدِ والرسالةِ هوَ كإنسانٍ مقطوعِ الأطرافِ ، مفقوءِ العينِ ، فاقدٍ لجميعِ أعضائِهِ الظاهرةِ والباطنةِ إلَّا أصلَ الروحِ .

وكما أنَّ مَنْ هٰذا حالُهُ قريبٌ مِنْ أنْ يموتَ ، فتزايلُهُ الروحُ الضعيفةُ المنفردةُ التي تخلَّفَ عنها الأعضاءُ التي تمدُّها وتقوّيها . . فكذٰلكَ مَنْ ليسَ لهُ إلا أصلُ الإيمانِ ، وهوَ مقصّرٌ في الأعمالِ ، قريبٌ مِنْ أنْ تُقتلعَ شجرةُ إيمانِهِ إذا صدمَتْها الرياحُ العاصفةُ المحرّكةُ للإيمانِ في مقدمةِ قدومِ ملكِ الموتِ ووروده ، فكلُّ إيمانٍ لمْ يثبتْ في اليقينِ أصلُهُ ، ولمْ تنتشرْ في الأعمالِ فروعُهُ . . لمْ يثبتْ علىٰ عواصفِ الأهوالِ عندَ ظهورِ ناصيةِ ملكِ الموتِ ، وخيفَ عليهِ سوءُ الخاتمةِ ، إلَّا ما سُقيَ بماءِ الطاعاتِ علىٰ توالي الأيامِ والساعاتِ حتَّىٰ رسخَ وثبتَ .

---

(١) وحاصل ما سيذكره في السياق الآتي : هو أن المعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة بالأبدان ، فمن تناول سمّاً بغير علم وأدركه الأسف علىٰ بدنه أترىٰ يخرجه من بدنه بالقيء وغيره على الفور تلافياً لبدنه أو يتراخىٰ في ذٰلك ؟ فإذا كان خوفه علىٰ بدنه يوجب إخراج ما فيه من المهلك . . فالرجوع على الفور من سمائم الذنوب المفوّتة لسعادة الأبد أولىٰ . « إتحاف » (٥١١/٨) .

(٢) المتفصي : كذا بالفاء والصاد المهملة ؛ أي : المتخلص . « إتحاف » (٥١١/٨) .

(٣) رواه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

(٤) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

وقولُ العاصي للمطيع : إنّي مؤمنٌ كما أنَّكَ مؤمنٌ . . كقولِ شجرةِ القرعِ لشجرةِ الصنوبرِ : إنيّ شجرةٌ وأنتِ شجرةٌ ، وما أحسنَ جوابَ شجرةِ الصنوبرِ إذْ قالَتْ : ستعرفينَ اغترارَكِ بشمولِ الاسمِ إذا عصفَتْ رياحُ الخريفِ ، فعندَ ذٰلكَ تنقلعُ أصولُكِ ، وتتناثرُ أوراقُكِ ، وينكشفُ غرورُكِ بالمشاركةِ في اسمِ الشجرِ معَ الغفلةِ عنْ أسبابِ ثباتِ الأشجارِ .

وَسَوْفَ تَرَىٰ إذا انْجَلَى الْغُبَارُ ... أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ [1]

فهٰذا أمرٌ يظهرُ عندَ الخاتمةِ ، وإنَّما انقطعَ نياطُ العارفينَ خوفاً مِنْ دواهي الموتِ ومقدماتِهِ الهائلةِ [2] ، التي لا يثبتُ عليها إلا الأقلُّونَ ، فالعاصي إذا كانَ لا يخافُ الخلودَ في النارِ بسببِ معصيتِهِ كالصحيحِ المنهمكِ في الشهواتِ المضرَّةِ للأبدانِ إذا كانَ لا يخافُ الموتَ بسببِ صحتِهِ ، وإنَّ الموتَ غالباً لا يقعُ فجأةً ، فيُقالُ لهُ : الصحيحُ يخافُ المرضَ ، ثمَّ إذا مرضَ . . خافَ الموتَ ؛ فكذٰلكَ العاصي يخافُ سوءَ الخاتمةِ ، ثمَّ إذا خُتِمَ لهُ بالسوءِ والعياذُ باللهِ . . وجبَ الخلودُ في النارِ ، فالمعاصي للإيمانِ كالمأكولاتِ المضرَّةِ للأبدانِ ، فلا تزالُ تجتمعُ في الباطنِ وتغيّرُ مزاجَ الأخلاطِ وهوَ لا يشعرُ بها إلىٰ أنْ يفسدَ المزاجُ ، فيمرضَ دفعةً ، ثمَّ يموتَ دفعةً ؛ فكذٰلكَ المعاصي

فإنْ كانَ الخائفُ مِنَ الهلاكِ في هٰذهِ الدنيا المنقضيةِ يجبُ عليه تركُ السمومِ وما يضرُّهُ مِنَ المأكولاتِ في كلِّ حالٍ وعلى الفورِ . . فالخائفُ مِنْ هلاكِ الأبدِ أولىٰ بأنْ يجبَ عليهِ ذٰلكَ ، وإنْ كانَ متناولُ السمِّ إذا ندمَ . . يجبُ عليهِ أنْ يتقيَّأَ ويرجعَ عنْ تناولِهِ بإبطالِهِ وإخراجِهِ عنِ المعدةِ علىٰ سبيلِ الفورِ والمبادرةِ ؛ تلافياً لبدنِهِ المشرفِ علىٰ هلاكٍ لا يفوّتُ عليهِ إلا هٰذهِ الدنيا الفانيةَ . . فمتناولُ سمومِ الدينِ وهيَ الذنوبُ أولىٰ بأنْ يجبَ عليهِ الرجوعُ عنها بالتداركِ الممكنِ ما دامَ يبقىٰ للتداركِ مهلةٌ وهوَ العمرُ ، فإنَّ المخوفَ مِنْ هٰذا السمِّ فواتُ الآخرةِ الباقيةِ ، التي فيها النعيمُ المقيمُ والملكُ العظيمُ ، وفي فواتِها نارُ الجحيمِ والعذابُ المقيمُ ، الذي تتصرَّمُ أضعافُ أعمارِ الدنيا دونَ عشْرِ عَشِيرِ مدَّتِهِ ؛ إذْ ليسَ لمدَّتِهِ آخرٌ ألبتةَ .

فالبدارَ البدارَ إلى التوبةِ قبلَ أنْ تعملَ سمومُ الذنوبِ بروحِ الإيمانِ عملاً يجاوزُ الأمرُ فيهِ اختيارَ الأطباءِ ، ولا ينفعُ بعدَهُ الاحتماءُ ، فلا ينجعُ بعدَ ذٰلكَ نصحُ الناصحينَ ووعظُ الواعظينَ ، وتحقُّ الكلمةُ عليهِ بأنَّهُ مِنَ الهالكينَ ، ويدخلُ تحتَ عمومِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولا يغرَّنَّكَ لفظُ الإيمانِ ، فتقولَ : المرادُ بهِ الكافرونَ ؛ إذْ بُيِّنَ لكَ أنَّ الإيمانَ بضعٌ وسبعونَ باباً ، وأنَّ الزانيَ لا يزني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ ، فالمحجوبُ عنِ الإيمانِ الذي هوَ شُعَبٌ وفروعٌ سيحجبُ في الخاتمةِ عنِ الإيمانِ الذي هوَ أصلٌ ، كما أنَّ الشخصَ الفاقدَ لجميعِ الأطرافِ التي هيَ حروفٌ وفروعٌ . . سيُساقُ إلى الموتِ المعدِمِ للروحِ التي هيَ أصلٌ ، فلا بقاءَ للأصلِ دونَ الفرعِ ، ولا وجودَ للفرعِ دونَ الأصلِ ، ولا فرقَ بينَ الأصلِ والفرعِ إلا في شيءٍ واحدٍ ، وهوَ أنَّ وجودَ الفرعِ وبقاءَهُ جميعاً يستدعي وجودَ الأصلِ ، وأمَّا وجودُ الأصلِ . . فلا يستدعي وجودَ الفرعِ ، ولٰكنْ بقاؤُهُ يستدعي وجودَ الفرعِ ، فبقاءُ الأصلِ بالفرعِ [3] ، ووجودُ الفرعِ بالأصلِ .

---

(١) الواو أول البيت عاطفة وليست منه ، وهو من الرجز لبديع الزمان الهمذاني . انظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٤٥) ، و« معجم الأدباء » (٤٠٠/١ ـ ٤٠٤) .

(٢) النياط : الفؤاد ، أو هو عرق علّق به القلب من الوتين ، فإذا قطع . . مات صاحبه .

(٣) أي : قوّته به . « إتحاف » (٥١٤/٨) .

فعلومُ المكاشفةِ وعلومُ المعاملةِ متلازمةٌ كتلازمِ الفرعِ والأصلِ ، فلا يستغني أحدُهُما عنِ الآخرِ وإنْ كانَ أحدُهُما في رتبةِ الأصلِ والآخرُ في رتبةِ التابعِ ، وعلومُ المعاملةِ إذا لمْ تكنْ باعثةً على العملِ . . فعدمُها خيرٌ مِنْ وجودِها ؛ فإنَّها لمْ تعملْ عملَها الذي تُرادُ لهُ ، ثمَّ قامَتْ مؤكِّدةً للحجَّةِ علىٰ صاحبِها ، ولذٰلكَ يُزادُ في عذابِ العالمِ الفاجرِ علىٰ عذابِ الجاهلِ الفاجرِ كما أوردنا مِنَ الأخبارِ في كتابِ العلمِ .

* * *

بيان أنّ وجوب التّوبة عامٌّ في الأشخاص والأحوال فلا ينفكّ عنه أحدٌ ألبتّة

اعلمْ : أنَّ ظاهرَ الكتابِ قدْ دلَّ علىٰ هـٰذا ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فعمَّمَ الخطابَ .

ونورُ البصيرةِ أيضاً يرشدُ إليهِ ؛ إذْ معنى التوبةِ : الرجوعُ عنِ الطريقِ المبعِدِ عنِ اللهِ تعالى ، المقرِّبِ إلى الشيطانِ ، ولا يُتصوَّرُ ذٰلكَ إلا مِنْ عاقلٍ ، ولا تكملُ غريزةُ العقلِ إلا بعدَ كمالِ غريزةِ الشهوةِ والغضبِ وسائرِ الصفاتِ المذمومةِ التي هيَ وسائلُ الشيطانِ إلىٰ إغواءِ الإنسانِ ؛ إذْ كمالُ العقلِ إنَّما يكونُ عندَ مقاربةِ الأربعينَ ، وأصلُهُ إنَّما يتمُّ عندَ مراهقةِ البلوغِ ، ومباديهِ تظهرُ بعدَ سبعِ سنينَ .

والشهواتُ جنودُ الشيطانِ ، والعقولُ جنودُ الملائكةِ ، فإذا اجتمعا . . قامَ القتالُ بينَ الجندينِ بالضرورةِ ؛ إذْ لا يثبتُ أحدُهُما للآخرِ ؛ فإنَّهما ضدَّانِ ، فالتطاردُ بينَهُما كالتطاردِ بينَ الليلِ والنهارِ ، والنورِ والظلمةِ ، فمهما غلبَ أحدُهُما . . أزعجَ الآخرَ بالضرورةِ .

وإذا كانَتِ الشهواتُ تكملُ في الصبا والشبابِ قبلَ كمالِ العقلِ . . فقدْ سبقَ جندُ الشيطانِ ، واستولىٰ على المكانِ ، ووقعَ للقلبِ بهِ أنسٌ ، وألفَ ـ لا محالةَ ـ مقتضياتِ الشهواتِ بالعادةِ ، وغلبَ ذٰلكَ عليهِ ، وتعسَّرَ عليهِ النزوعُ عنهُ .

ثمَّ يلوحُ العقلُ الذي هوَ حزبُ اللهِ وجندُهُ ، ومنقذُ أوليائِهِ مِنْ أيدي أعدائِهِ شيئاً فشيئاً على التدريجِ ؛ فإنْ لمْ يقوَ ولمْ يكملْ . . سلمَتْ مملكةُ القلبِ للشيطانِ[1] ، وأنجزَ اللعينُ موعودَهُ حيثُ قالَ : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وإنْ كمُلَ العقلُ وقويَ . . كانَ أوَّلَ شغلِهِ قمعُ جنودِ الشيطانِ بكسرِ الشهواتِ ، ومفارقةِ العاداتِ ، وردِّ الطبعِ علىٰ سبيلِ القهرِ إلى العباداتِ ، ولا معنىٰ للتوبةِ إلا هـٰذا ، وهوَ الرجوعُ عنْ طريقٍ دليلُهُ الشهوةُ وخفيرُهُ الشيطانُ إلىٰ طريقِ اللهِ تعالىٰ .

وليسَ في الوجودِ آدميٌّ إلا وشهوتُهُ سابقةٌ علىٰ عقلِهِ ، وغريزتُهُ التي هيَ عُدَّةُ الشيطانِ متقدمةٌ علىٰ غريزتِهِ التي هيَ عُدَّةُ الملائكةِ ، فكانَ الرجوعُ عمَّا سبقَ إليهِ علىٰ مساعدةِ الشهواتِ ضرورياً في حقِّ كلِّ إنسانٍ ، نبيّاً كانَ أوْ غبيّاً ، فلا تظنَّنَّ أنَّ هـٰذهِ الضرورةَ اختصَّتْ بآدمَ عليهِ السلامُ ، وقدْ قيلَ[2] : [من الطويل]

فَلا تَحْسَبَنْ هِنْداً لَها الْغَدْرُ وَحْدَها ... سَجِيَّةَ نَفْسٍ كُلُّ غانِيَةٍ هِنْدُ

بلْ هوَ حكْمٌ أزليٌّ مكتوبٌ علىٰ جنسِ الإنسِ ، لا يمكنُ فرضُ خلافِهِ ما لمْ تتبدَّلِ السنةُ الإلـٰهيَّةُ التي لا مطمعَ في تبديلِها .

فإذاً ؛ كلُّ مَنْ بلغَ كافراً جاهلاً فعليهِ التوبةُ مِنْ كفرهِ وجهلِهِ ، فإذا بلغَ مسلماً تبعاً لأبويهِ ، غافلاً عنْ حقيقةِ إسلامِهِ . . فعليهِ التوبةُ عنْ غفلتِهِ بتفهُّمِ معنى الإسلامِ ، فإنَّهُ لا يغني عنهُ إسلامُ أبويهِ شيئاً ما لمْ يسلمْ بنفسِهِ .

فإنْ فهمَ ذٰلكَ . . فعليهِ الرجوعُ عنْ عادتِهِ وإلْفِهِ للاسترسالِ وراءَ الشهواتِ مِنْ غيرِ صارفٍ ؛ بالرجوعِ إلىٰ قالبِ

---

(١) فاستولىٰ عليها بما فيها من العجائب والخزائن ، وصار ما في البدن رعايا له . « إتحاف » (٨/٥١٥) .
(٢) البيت لأبي تمام في « ديوانه بشرح التبريزي » (٢/٨١)

حدودِ اللهِ في المنعِ والإطلاقِ ، والانكفافِ والاسترسالِ ، وهوَ مِنْ أشقِّ أبوابِ التوبةِ ، وفيهِ هلكَ الأكثرونَ ؛ إذْ عجزوا عنهُ ، وكلُّ هـٰذا رجوعٌ وتوبةٌ .

فدلَّ أنَّ التوبةَ فرضُ عينٍ في حقِّ كلِّ شخصٍ ، لا يُتصوَّرُ أنْ يستغنيَ عنها أحدٌ مِنَ البشرِ ، كما لمْ يستغنِ عنها آدمُ عليهِ السلامُ ، فخلقةُ الولدِ لا تتسعُ لما لمْ يتسعْ لهُ خلقةُ الوالدِ أصلاً .

وأمَّا بيانُ وجوبِها على الدوامِ وفي كلِّ حالٍ : فهوَ أنَّ كلَّ بشرٍ لا يخلُو عنْ معصيةٍ بجوارحِهِ ؛ إذْ لمْ يخلُ عنهُ الأنبياءُ عليهمُ السلامُ ، كما وردَ في القرآنِ والأخبارِ مِنْ خطايا الأنبياءِ وتوبتِهِمْ ، وبكائِهِمْ علىٰ خطاياهُم .

فإنْ خلا في بعضِ الأحوالِ عنْ معصيةِ الجوارحِ . . فلا يخلو عنِ الهمِّ بالذنوبِ بالقلبِ [1]

فإنْ خلا في بعضِ الأحوالِ عنِ الهمِّ . . فلا يخلو عنْ وساوسِ الشيطانِ بإيرادِ الخواطرِ المتفرقةِ المذهلةِ عنْ ذكرِ اللهِ .

فإنْ خلا عنهُ . . فلا يخلو عنْ غفلةٍ وقصورٍ في العلمِ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ .

وكلُّ ذلكَ نقصٌ ، ولهُ أسبابٌ ، وتركُ أسبابِهِ بالتشاغلِ بأضدادِهِ رجوعٌ عنْ طريقٍ إلىٰ ضدِّهِ ، والمرادُ بالتوبةِ الرجوعُ ، ولا يُتصوَّرُ الخلوُّ في حقِّ الآدميِّ عنْ هـٰذا النقصِ ، وإنَّما يتفاوتونَ في المقاديرِ ، فأمَّا الأصلُ . . فلا بدَّ منهُ .

ولهـٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليُغانُ علىٰ قلبي ، فأستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ سبعينَ مرَّةً » [2] ، ولذٰلكَ أكرمَهُ اللهُ تعالىٰ بأنْ قالَ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، وإذا كانَ هـٰذا حالَهُ . . فكيفَ حالُ غيرِهِ ؟!

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : لا يخفىٰ أنَّ ما يطرأُ على القلبِ مِنَ الهمومِ والخواطرِ نقصٌ ، وأنَّ الكمالَ في الخلوِّ عنهُ ، وأنَّ القصورَ عنْ معرفةِ كنْهِ جلالِ اللهِ نقصٌ ، وأنَّهُ كلَّما زادَتِ المعرفةُ . . زادَ الكمالُ ، وأنَّ الانتقالَ إلى الكمالِ مِنْ أسبابِ النقصانِ رجوعٌ ، والرجوعُ توبةٌ ؛ ولـٰكنْ هـٰذهِ فضائلُ لا فرائضُ ، وقدْ أطلقتَ القولَ بوجوبِ التوبةِ في كلِّ حالٍ ، والتوبةُ عنْ هـٰذهِ الأمورِ ليسَتْ بواجبةٍ ؛ إذْ دَرْكُ الكمالِ غيرُ واجبٍ في الشرعِ ، فما المرادُ بقولِكَ : (التوبةُ واجبةٌ في كلِّ حالٍ) ؟

فاعلمْ : أنَّهُ قدْ سبقَ أنَّ الإنسانَ لا يخلو في مبدأ خلقتِهِ عنِ اتباعِ الشهواتِ أصلاً ، وليسَ معنى التوبةِ تركَها فقطْ ، بلْ تمامُ التوبةِ بتداركِ ما مضىٰ ، وكلُّ شهوةٍ اتبعَها الإنسانُ ارتفعَ منها ظلمةٌ إلىٰ قلبِهِ كما يرتفعُ مِنْ نَفَسِ الإنسانِ ظلمةٌ إلىٰ وجهِ المرآةِ الصقيلةِ ، فإنْ تراكمَتْ ظلمةُ الشهواتِ . . صارَتْ رَيْناً ؛ كما يصيرُ بخارُ النَّفَسِ في وجهِ المرآةِ عندَ تراكمِهِ خبثاً ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ ، فإذا تراكمَ الرينُ . . صارَ طَبْعاً ، فيُطبعُ علىٰ قلبِهِ ؛ كالخبثِ علىٰ وجهِ المرآةِ إذا تراكمَ وطالَ زمانُهُ . . غاصَ في جرمِ الحديدِ وأفسدَهُ ، وصارَ لا يقبلُ الصقلَ بعدَهُ ، وصارَ كالمطبوعِ مِنَ الخبثِ .

ولا يكفي في تداركِ اتباعِ الشهواتِ تركُها في المستقبلِ ، بلْ لا بدَّ مِنْ محوِ تلكَ الآثارِ التي انطبعَتْ في القلبِ ،

---

(١) وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما من أحد إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا » .

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

كما لا يكفي في ظهورِ الصورِ في المرآةِ قطعُ الأنفاسِ والبخاراتِ المسوّدةِ لوجهها في المستقبلِ ما لمْ يشتغلْ بمحوِ ما انطبعَ فيها مِنَ الآثارِ .

وكما يرتفعُ إلى القلبِ ظلمةٌ مِنَ المعاصي والشهواتِ . . فيرتفعُ إليهِ نورٌ مِنَ الطاعاتِ وتركِ الشهواتِ ، فتنمحي ظلمةُ المعصيةِ بنورِ الطاعةِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[1]

فإذاً ؛ لا يستغني العبدُ في حالٍ مِنْ أحوالِهِ عنْ محوِ آثارِ السيئاتِ عنْ قلبِهِ بمباشرةِ حسناتٍ تضادُّ آثارُها آثارَ تلكَ السيئاتِ .

هـٰذا في قلبٍ حصلَ أوّلاً صفاؤُهُ وجلاؤُهُ ، ثمَّ أظلمَ بأسبابٍ عارضةٍ ، فأمَّا التصقيلُ الأوَّلُ . . ففيهِ يطولُ الشغلُ ؛ إذْ ليسَ شغْلُ الصَّيْقَلِ في إزالةِ الصدأ عنِ المرآةِ كشغْلِهِ في عملِ أصْلِ المرآةِ[2] ، فهـٰذهِ أشغالٌ طويلةٌ لا تنقطعُ أصلاً ، وكلُّ ذٰلكَ يرجعُ إلى التوبةِ .

فأمَّا قولُكَ : (إنَّ هـٰذا لا يُسمَّىٰ واجباً ، بلْ هوَ فضْلٌ وطلبُ كمالٍ) . . فاعلمْ أنَّ الواجبَ لهُ معنيانِ :

أحدُهُما : ما يدخلُ في فتوى الشرعِ ، ويشتركُ فيهِ كافَّةُ الخلقِ ، وهوَ القدْرُ الذي لوِ اشتغلَ كافَّةُ الخلقِ بهِ . . لمْ يخربِ العالمُ ، ولوْ كلِّفَ الناسُ كلُّهُمْ أنْ يتقوا اللهَ حقَّ تقاتِهِ . . لتركوا المعايشَ ، ورفضوا الدنيا بالكليَّةِ ، ثمَّ يؤدِّي ذٰلكَ إلىٰ بطلانِ التقوىٰ بالكليَّةِ ؛ فإنَّهُ مهما فسدتِ المعايشُ . . لمْ يتفرَّغْ أحدٌ للتقوىٰ ، بلْ شغْلُ الحياكةِ والحراثةِ والخَبْزِ يستغرقُ جميعَ عُمُرِ كلِّ واحدٍ فيما يحتاجُ إليهِ ، فجميعُ هـٰذهِ الدرجاتِ ليسَتْ واجبةً بهـٰذا الاعتبارِ .

والواجبُ الثاني : هوَ الذي لا بدَّ منهُ للوصولِ بهِ إلى القرْبِ المطلوبِ مِنْ ربِّ العالمينَ ، والمقامِ المحمودِ بينَ الصديقينَ ، والتوبةُ عنْ جميعِ ما ذكرناهُ واجبةٌ في الوصولِ إليهِ ، كما يُقالُ : الطهارةُ واجبةٌ في صلاةِ التطوُّعِ ؛ أيْ : لمَنْ يريدُها ، فإنَّهُ لا يُوصلُ إليها إلا بها .

فأمَّا مَنْ رضيَ بالنقصانِ والحرمانِ عنْ فضْلِ صلاةِ التطوُّعِ . . فالطهارةُ ليسَتْ واجبةً عليهِ لأجلِها ؛ كما يُقالُ : العينُ والأذنُ واليدُ والرجْلُ شرطٌ في وجودِ الإنسانِ ؛ يعني أنَّهُ شرطٌ لمَنْ يريدُ أنْ يكونَ إنساناً كاملاً ينتفعُ بإنسانيتِهِ ، ويتوصَّلُ بها إلىٰ درجاتِ العلا في الدنيا ، فأمَّا مَنْ قنعَ بأصلِ الحياةِ ، ورضيَ بأنْ يكونَ كلحْمٍ علىٰ وَضَمٍ[3] ، وكخرقةٍ مطروحةٍ . . فليسَ يشترطُ لمثلِ هـٰذهِ الحياةِ عينٌ ويدٌ ورجْلٌ .

فأصلُ الواجباتِ الداخلةِ في فتوى العامَّةِ لا يُوصلُ إلا إلىٰ أصلِ النجاةِ ، وأصلُ النجاةِ كأصلِ الحياةِ ، وما وراءَ أصلِ النجاةِ مِنَ السعاداتِ التي بها تتهيَّأُ الحياةُ يجري مَجرى الأعضاءِ والآلاتِ التي بها تتهيَّأُ الحياةُ ، وفيهِ سَعْيُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ والأمثلِ فالأمثلِ ، وعليهِ كانَ حرصُهُمْ ، وحوالَيْهِ كانَ تطوافُهُمْ ، ولأجلِهِ كانَ رفضُهُمْ لملاذِّ الدنيا بالكليَّةِ ، حتَّى انتهىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ إلىٰ أنْ توسَّدَ حجراً في منامِهِ ، فجاءَ إليهِ الشيطانُ وقالَ : أما كنتَ تركتَ الدنيا للآخرةِ ؟ فقالَ : نعمْ ، وما الذي حدثَ ؟ فقالَ : توسُّدُكَ لهـٰذا الحجرِ تنعُّمٌ بالدنيا ، فلمَ لا تضعُ رأسَكَ على الأرضِ ؟

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٣٦/٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٤٥/٢٠) .

(٢) **الصيقل** : الذي يشحذ السيوف ويجلوها ، وهو ما يعمله صانع المرايا .

(٣) الوضم : الخشبة التي يفرئ عليها اللحم ، أو ما يوضع عليه من خشبة أو خصفة ليوقىٰ ، وقوله : (لحم علىٰ وضم) هو مثل يضرب للضعيف والذليل .

فرمىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ بالحجرِ ، ووضعَ رأسَهُ على الأرضِ [١] ، وكانَ رميُهُ الحجرَ توبةً عنْ ذٰلكَ التنعُّمِ ، أفترىٰ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ لمْ يعلمْ أنَّ وضعَ الرأسِ على الأرضِ لا يسمَّىٰ واجباً في فتاوى العامَّةِ ؟!

أفترىٰ أنَّ نبيَّنا محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا شغلَهُ الثوبُ الذي كانَ عليهِ عَلَمٌ في صلاتِهِ حتَّىٰ نزعَهَ [٢] ، وشغلَهُ شِراكُ نعلِهِ الذي جدَّدَهُ حتَّىٰ أعادَ الشِّراكَ الخليعَ [٣] . . ما علمَ أنَّ ذٰلكَ ليسَ واجباً في شرعِهِ الذي شرعَهُ لكافَّةِ العبادِ ؟! فإذا علمَ ذٰلكَ . . فلمَ تابَ عنهُ بتركِهِ ؟ وهلْ كانَ ذٰلكَ إلَّا لأنَّهُ رآهُ مؤثِّراً في قلبِهِ أثراً يمنعُهُ عنْ بلوغِ المقامِ المحمودِ الذي قدْ وُعِدَ بهِ ؟

أوَترىٰ أنَّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ بعدَ أنْ شربَ اللبنَ ، وعرفَ أنَّهُ مِنْ غيرِ وجهِهِ ، أدخلَ إصبعَهُ في حلقِهِ ليخرجَهُ ، حتَّىٰ كادَ أنْ يخرجَ معَهُ روحُهُ . . ما علمَ مِنَ الفقهِ هٰذا القدْرَ وهوَ أنَّ ما أكلَهُ عنْ جهلٍ فهوَ غيرُ آثمٍ بهِ ، ولا يجبُ في فتوى الفقهِ إخراجُهُ ؟! فلِمَ تابَ عنْ شربِهِ بالتداركِ علىٰ حسَبِ إمكانِهِ بتخليةِ المعدةِ عنهُ ؟! [٤] ، وهلْ كانَ ذٰلكَ إلا لسرٍّ وقرَ في صدرِهِ [٥] ، عرَّفَهُ ذٰلكَ السرُّ : أنَّ فتوى العامَّةِ حديثٌ آخرُ ، وأنَّ خطرَ طريقِ الآخرةِ لا يعرفُهُ إلا الصدِّيقونَ ؟

فتأمَّلْ أحوالَ هٰؤلاءِ الذينَ همْ أعرفُ خلْقِ اللهِ باللهِ ، وبطريقِ اللهِ ، وبمكْرِ اللهِ ، وبمكامنِ الغرورِ باللهِ ، وإيَّاكَ مرَّةً واحدةً أنْ تغرَّكَ الحياةُ الدنيا ، وإيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ ألفَ مرَّةٍ أنْ يغرَّكَ باللهِ الغَرورُ .

فهٰذهِ أسرارٌ مَنِ استنشقَ مباديَ روائحِها . . علمَ أنَّ لزومَ التوبةِ النصوحِ ملازمٌ للعبدِ السالكِ في طريقِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ ، ولوْ عُمِّرَ عمرَ نوحٍ ، وأنَّ ذٰلكَ واجبٌ على الفورِ مِنْ غيرِ مهلةٍ .

ولقدْ صدقَ أبو سليمانَ الدارانيُّ حيثُ قالَ : (لوْ لمْ يبكِ العاقلُ فيما بقيَ مِنْ عمرِهِ إلا علىٰ فوْتِ ما مضىٰ منهُ في غيرِ الطاعةِ . . لكانَ خَليقاً أنْ يحزنَهُ ذٰلكَ إلى المماتِ ، فكيفَ مَنْ يستقبلُ ما بقيَ مِنْ عمرِهِ بمثلِ ما مضىٰ مِنْ جهلِهِ ؟!) [٦]

وإنَّما قالَ هٰذا لأنَّ العاقلَ إذا ملكَ جوهرةً نفيسةً فضاعَتْ منهُ بغيرِ فائدةٍ . . بكىٰ عليها لا محالةَ ، وإنْ ضاعَتْ منهُ وصارَ ضياعُها سببَ هلاكِهِ . . كانَ بكاؤُهُ منها أشدَّ ، وكلُّ ساعةٍ مِنَ العمرِ بلْ كلُّ نَفَسٍ جوهرةٌ نفيسةٌ ، لا خَلَفَ لها ، ولا بدلَ منها ؛ فإنَّها صالحةٌ لأنْ توصلَكَ إلىٰ سعادةِ الأبدِ ، وتنقذَكَ مِنْ شقاوةِ الأبدِ ، وأيُّ جوهرٍ أنفسُ مِنْ هٰذا ؟

فإذا ضيَّعتَها في الغفلةِ . . فقدْ خسرتَ خُسراناً مبيناً ، وإنْ صرفتَها إلىٰ معصيةٍ . . فقدْ هلكتَ هلاكاً فاحشاً .

فإنْ كنتَ لا تبكي علىٰ هٰذهِ المصيبةِ . . فذٰلكَ لجهلِكَ ، ومصيبتُكَ بجهلِكَ أعظمُ مِنْ كلِّ مصيبةٍ ، لٰكنَّ الجهلَ مصيبةٌ لا يعرفُ المصابُ بها أنَّهُ صاحبُ مصيبةٍ ، فإنَّ نومَ الغفلةِ يحولُ بينَهُ وبينَ معرفتِهِ ، والناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا ، فعندَ ذٰلكَ ينكشفُ لكلِّ مفلسٍ إفلاسُهُ ، ولكلِّ مصابٍ مصيبتُهُ ، وقدْ وقعَ اليأسُ عنِ التداركِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (ص ٤٩٣) عن إسماعيل بن أبي خالد .

(٢) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٦٢/٥٥٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) .

(٤) رواه البخاري (٣٨٤٢) .

(٥) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١١٨) ، وأبو داوود في « الزهد » (٣٧) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣١) ، و« ختم الأولياء » (ص ٤٤٢) موقوفاً علىٰ بكر بن عبد الله المزني .

(٦) قوت القلوب (١٧٩/١) .

قالَ بعضُ العارفينَ : إنَّ ملكَ الموتِ عليهِ السلامُ إذا ظهرَ للعبدِ . . أعلمَهُ أنَّهُ قدْ بقيَ مِنْ عمرِكَ ساعةٌ ، وإنَّكَ لا تستأخرُ عنها طرفةَ عينٍ ، فيبدو للعبدِ مِنَ الأسفِ والحسرةِ ما لوْ كانَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها . . لخرجَ منها علىٰ أنْ يضمَّ إلىٰ تلكَ الساعةِ ساعةً أخرىٰ ، ليستعتبَ فيها ويتداركَ تفريطَهُ ، فلا يجدُ إليهِ سبيلاً[1]

وهوَ أوَّلُ ما يظهرُ مِنْ معاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ ، فقيلَ : الأجلُ القريبُ الذي يطلبُهُ العبدُ معناهُ : أنَّهُ يقولُ عندَ كشْفِ الغطاءِ : يا ملكَ الموتِ ؛ أخِّرْني يوماً أعتذرُ فيهِ إلىٰ ربِّي وأتوبُ وأتزوَّدُ صالحاً لنفسي ، فيقولُ : فنيَتِ الأيامُ فلا يومَ ، فيقولُ : فأخِّرْني ساعةً ، فيقولُ : فنيَتِ الساعاتُ فلا ساعةَ ، فيغلقُ عليهِ بابَ التوبةِ ، فيغرغرُ بروحِهِ ، وتتردَّدُ أنفاسُهُ في شراسيفِهِ[2] ، ويتجرَّعُ غصَّةَ اليأسِ عنِ التداركِ ، وحسرةَ الندامةِ علىٰ تضييعِ العمرِ ، فيضطربُ أصلُ إيمانِهِ في صدماتِ تلكَ الأهوالِ ، فإذا زهقَتْ نفسُهُ ؛ فإنْ كانَ قدْ سبقَتْ لهُ مِنَ اللهِ الحسنىٰ . . خرجَتْ روحُهُ على التوحيدِ ، فذٰلكَ حسنُ الخاتمةِ ، وإنْ سبقَ لهُ القضاءُ بالشقوةِ والعياذُ باللهِ . . خرجَتْ روحُهُ على الشكِّ والاضطرابِ ، وذٰلكَ سوءُ الخاتمةِ ، ولمثلِ هٰذا يُقالُ : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ ، بلِ ﴿ ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ ، ومعناهُ : عنْ قربِ عهدٍ بالخطيئةِ ؛ بأنْ يتندَّمَ عليها ، ويمحوَ أثرَها بحسنةٍ يردفُها بها قبلَ أنْ يتراكمَ الرينُ على القلبِ فلا يقبلَ المحوَ[3]

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[4] .

ولذٰلكَ قالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تؤخرِ التوبةَ ؛ فإنَّ الموتَ يأتي بغتةً)[5]

ومَنْ تركَ المبادرةَ إلى التوبةِ بالتسويفِ . . كانَ بينِ خطرينِ عظيمينِ :

أحدُهُما : أنْ تتراكمَ الظلمةُ علىٰ قلبِهِ مِنَ المعاصي حتَّىٰ يصيرَ ريناً وطبْعاً ، فلا يقبلُ المحوَ .

والثاني : أنْ يعاجلَهُ المرضُ أوِ الموتُ ، فلا يجدُ مهلةً للاشتغالِ بالمحوِ .

ولذٰلكَ وردَ في الخبرِ : (إنَّ أكثرَ صياحِ أهلِ النارِ مِنَ التسويفِ)[6]

فما هلكَ مَنْ هلكَ إلا بالتسويفِ ، فيكونُ تسويدُهُ للقلبِ نقداً ، وجلاؤُهُ بالطاعةِ نسيئةً ، إلىٰ أنْ يختطفَهُ الأجلُ ، فيأتي اللهَ بقلبٍ غيرِ سليمٍ ، ولا ينجو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، فالقلبُ أمانةُ اللهِ تعالىٰ عندَ عبدِهِ ، والعمرُ أمانةُ اللهِ عندَهُ ، وكذا سائرُ أسبابِ الطاعةِ ، فمَنْ خانَ في الأمانةِ ولمْ يتداركْ خيانتَهُ . . فأمرُهُ مخطرٌ .

قالَ بعضُ العارفينَ : إنَّ للهِ تعالىٰ إلىٰ عبدِهِ سرَّينِ يسرُّهُما إليهِ علىٰ سبيلِ الإلهامِ ؛ أحدُهُما : إذا خرجَ مِنْ بطنِ

---

(١) قوت القلوب (١/١٨٠) .
(٢) **الشراسيف** : أطراف الأضلاع مما يلي البطن .
(٣) قوت القلوب (٢/١٨٠) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/١٤٥) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٩) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٩٠) عن عثمان بن زائدة يذكر الوصية .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢١٧) عن عبد الله بن المبارك بلفظ : (بلغني أن أكثر تلاقع أهل النار : أفِّ لسوفَ ، أف لسوف) .

أمِّهِ يقولُ لهُ : عبدي ؛ قدْ أخرجتُكَ إلى الدنيا طاهراً نظيفاً ، واستودعتُكَ عمرَكَ وأُتمنتُكَ عليهِ ، فانظرْ كيفَ تحفظُ الأمانةَ ، وانظرْ كيفَ تلقاني ، والثاني : عندَ خروجِ روحِهِ يقولُ : عبدي ؛ ماذا صنعتَ في أمانتي عندَكَ ؟ هلْ حفظتَها حتَّىٰ تلقاني على العهدِ فألقاكَ على الوفاءِ ؟ أوْ أضعتَها فألقاكَ بالمطالبةِ والعقابِ ؟[1]

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ .

* * *

(١) قوت القلوب (١/١٨١) ، والسياق عنده .

بيان أنّ التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة(١)

اعلمْ : أنَّكَ إذا فهمتَ معنى القبولِ . . لمْ تشكَّ في أنَّ كلَّ توبةٍ صحيحةٍ فهيَ مقبولةٌ .

فالناظرونَ بنورِ البصائرِ المستمدُّونَ مِنْ أنوارِ القرآنِ علموا أنَّ كلَّ قلبٍ سليمٍ مقبولٌ عندَ اللهِ ، ومتنعِّمٌ في الآخرةِ في جوارِ اللهِ تعالىٰ ، ومستعدٌّ لأنْ ينظرَ بعينِهِ الباقيةِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، وعلموا أنَّ القلبَ خُلِقَ سليماً في الأصلِ ، فكلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ ، وإنَّما تفوتُهُ السلامةُ بكدورةٍ ترهقُ وجهَهُ مِنْ غَبَرَةِ الذنوبِ وظلمتِها ، وعلموا أنَّ نارَ الندمِ تحرقُ تلكَ الغبرةَ ، وأنَّ نورَ الحسنةِ يمحو عنْ وجهِ القلبِ ظلمةَ السيئةِ ، وأنَّهُ لا طاقةَ لظلامِ المعاصي معَ نورِ الحسناتِ ؛ كما لا طاقةَ لظلامِ الليلِ معَ نورِ النهارِ ، بلْ كما لا طاقةَ لكدورةِ الوسخِ معَ بياضِ الصابونِ ، وكما أنَّ الثوبَ الوسخَ لا يقبلُهُ الملكُ لأنْ يكونَ لباسَهُ . . فالقلبُ المظلمُ لا يقبلُهُ اللهُ تعالىٰ لأنْ يكونَ في جوارِهِ ، وكما أنَّ استعمالَ الثوبِ في الأعمالِ الخسيسةِ يوسِّخُ الثوبَ ، وغسلُهُ بالصابونِ والماءِ الحارِّ ينظِّفُهُ لا محالةَ . . فاستعمالُ القلبِ في الشهواتِ يوسِّخُ القلبَ ، وغسلُهُ بماءِ الدموعِ وحرقةِ الندمِ ينظِّفُهُ ويطهِّرُهُ ويزكِّيهِ ، وكلُّ قلبٍ زكيٍّ طاهرٍ فهوَ مقبولٌ ؛ كما أنَّ كلَّ ثوبٍ نظيفٍ فهوَ مقبولٌ ، فإنَّما عليكَ التزكيةُ والتطهيرُ ، فأمَّا القبولُ . . فمبذولٌ قدْ سبقَ بهِ القضاءُ الأزليُّ الذي لا مردَّ لهُ ، وهوَ المسمَّىٰ فلاحاً في قولِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ .

ومَنْ لمْ يعرفْ علىٰ سبيلِ التحقيقِ معرفةً أقوىٰ وأجلىٰ مِنَ المشاهدةِ بالبصرِ أنَّ القلبَ يتأثَّرُ بالمعاصي والطاعاتِ تأثُّراً متضاداً ؛ يُستعار لأحدِهما لفظُ الظلمةِ كما يُستعارُ للجهلِ ، ويُستعارُ للآخرِ لفظُ النورِ كما يُستعارُ للعلمِ ، وأنَّ بينَ النورِ والظلمةِ تضاداً ضرورياً لا يُتصوَّرُ الجمعُ بينَهُما . . فكأنَّهُ لمْ يعرفْ مِنَ الدينِ إلا قشورَهُ ، ولمْ يعلقْ بهِ إلا أسماؤُهُ ، وقلبُهُ في غطاءٍ كثيفٍ عنْ حقيقةِ الدينِ ، بلْ عنْ حقيقةِ نفسِهِ وصفاتِ نفسِهِ ، ومنْ جهلَ نفسَهُ . . فهوَ بغيرِهِ أجهلُ ، وأعني بهِ قلبَهُ ؛ إذْ بقلبِهِ يعرفُ غيرَ قلبِهِ ، فكيفَ يعرفُ غيرَهُ وهوَ لا يعرفُ قلبَهُ ؟!

فمَنْ يتوهَّمُ أنَّ التوبةَ تصحُّ ولا تُقبلُ كمَنْ يتوهَّمُ أنَّ الشمسَ تطلعُ والظلامُ لا يزولُ ، والثوبَ يغسلُ بالصابونِ والوسخُ لا يزولُ ، إلا أنْ يغوصَ الوسخُ لطولِ تراكمِهِ في تجاويفِ الثوبِ وخللِهِ ، فلا يقوى الصابونُ علىٰ قلعِهِ ، فمثالُ ذٰلكَ أنْ تتراكمَ الذنوبُ حتَّىٰ تصيرَ طبعاً وريناً على القلبِ ، فمثلُ هٰذا القلبِ لا يرجعُ ولا يتوبُ .

نعمْ ؛ قدْ يقولُ باللسانِ : (تبتُ) ، فيكونُ ذٰلكَ كقولِ القصارِ بلسانِهِ : (قدْ غسلتُ الثوبَ) ، وذٰلك لا ينظِّفُ الثوبَ أصلاً ، ما لمْ يغيِّرْ صفةَ الثوبِ باستعمالِ ما يضادُّ الوصفَ المتمكِّنَ منهُ .

فهٰذا حالُ امتناعِ أصلِ التوبةِ ، وهوَ غيرُ بعيدٍ ، بلْ هوَ الغالبُ علىٰ كافَّةِ الخلقِ المقبلينَ على الدنيا ، المعرضينَ عنِ اللهِ بالكليَّةِ .

فهٰذا البيانُ كافٍ عندَ ذوي البصائرِ في قبولِ التوبةِ ، ولٰكنَّا نعضدُ جناحَهُ بنقلِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ ، فكلُّ استبصارٍ لا يشهدُ لهُ الكتابُ والسنَّةُ لا يوثقُ بهِ .

---

(١) بفضل الله تعالىٰ ، لا بطريق الوجوب ؛ إذ لا يجب شيء على الخالق ؛ لأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ ، هٰذا حاصل ما ذكره المصنف في هٰذا الفصل ، وقد أخَّر تلك الشرائط وكان الأولىٰ تقديمها حتىٰ يكون ما في هٰذا الفصل كالمتمم له ، والإيمان بهٰذا واجب ؛ لأنه من عقود الإيمان بالله تعالىٰ . « إتحاف » (٨/٥٢٢) .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الآياتِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ المؤمنِ . . . » الحديثَ[1] ، والفرحُ وراءَ القبولِ ، فهوَ دليلٌ على القبولِ وزيادةٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يبسطُ يدَهُ بالتوبةِ لمسيءِ الليلِ إلى النهارِ ، ولمسيءِ النهارِ إلى الليلِ ، حتَّىٰ تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربِها »[2] ، وبسطُ اليدِ كنايةٌ عنْ طلبِ التوبةِ[3] ، والطالبُ وراءَ القابلِ ، فربَّ قابلٍ ليسَ بطالبٍ ، ولا طالبَ إلا وهوَ قابلٌ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ عملتُمُ الخطايا حتَّىٰ تبلغَ السماءَ ، ثمَّ ندمتُمْ . . لتابَ اللهُ عليكُمْ »[4]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « إنَّ العبدَ ليذنبُ الذنبَ فيدخلُ بهِ الجنَّةَ » ، قيلَ : كيفَ ذٰلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « يكونُ نصبَ عينِهِ تائباً منهُ فارّاً حتَّىٰ يدخلَ الجنَّةَ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفارةُ الذنبِ الندامةُ »[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ »[7]

ويُروىٰ أنَّ حبشيّاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي كنتُ أعملُ الفواحشَ ، فهلْ لي مِنْ توبةٍ ؟ قالَ : « نعمْ » ، فولَّىٰ ثمَّ رجعَ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أكانَ يراني وأنا أعملُها ؟ قالَ : « نعمْ » ، فصاحَ الحبشيُّ صيحةً خرجَتْ فيها نفسُهُ[8]

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمَّا لعنَ إبليسَ . . سألَهُ النَّظِرةَ ، فأنظرَهُ إلىٰ يومِ القيامةِ ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا خرجتُ مِنْ قلبِ ابنِ آدمَ ما دامَ فيهِ الروحُ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : وعزَّتي وجلالي ؛ لا حجبتُ عنهُ التوبةَ ما دام فيه الروحُ[9]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ كما يذهبُ الماءُ الوسخَ »[10]

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩) بنحوه .

(٣) وقبولها ، وهو في حقه تعالىٰ عبارة عن التوسع في الجود ، والتنزيه عن المنع عند اقتضاء الحكمة . « إتحاف » (٥٢٤/٨) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٤٨) ولفظه : « لو أخطأتم حتىٰ تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم . . لتاب عليكم » ، وسيأتي شاهده الذي رواه الترمذي (٣٥٤٠) ، وفيه : « يا بن آدم ؛ لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني . . غفرت لك ولا أبالي . . . » الحديث .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٦٢) عن الحسن مرسلاً ، وبنحوه رواه الطبراني في « الأوسط » (٢١٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٦/٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، ولفظه : « إن العبد ليذنب ذنباً ، فإذا ذكره . . أحزنه ما صنع ، فإذا نظر الله إليه قد أحزنه ما صنع . . غفر له » ، وعند ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه » .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (٢٨٩/١) ، والطبراني في « الكبير » (١٧٢/١٢) .

(٧) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

(٨) رواه أبو طاهر بن العلاف في « زهر الرياض » كما ذكر ذٰلك ابن الجوزي في « تنوير الغبش في فضل السودان والحبش » (ص ١٤٧) .

(٩) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٤/٢) عن أبي قلابة بلفظ المصنف هنا ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٢٩/٣) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٩٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الشيطان قال : وعزتك يا رب ؛ لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، قال الرب : وعزتي وجلالي ؛ لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » .

(١٠) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ ، وهو صحيح المعنىٰ ، وهو بمعنىٰ : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » رواه الترمذي وتقدم قريباً) ، وعلق عليه الحافظ الزبيدي بقوله : (بل روىٰ أبو نعيم في « الحلية » [٢٧٠/١] من حديث شداد بن أوس : « إن التوبة تغسل الحوبة ، وإن الحسنات يذهبن السيئات . . . » الحديث ، فلعل المصنف أشار إلىٰ هٰذا) . « إتحاف » (٥٢٥/٨) .

والأخبارُ في هٰذا لا تُحصىٰ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (أُنزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ في الرجلِ يذنبُ ثمَّ يتوبُ ، ثمَّ يذنبُ ثمَّ يتوبُ)[1]

وقالَ الفضيلُ : (قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : بشّرِ المذنبينَ بأنَّهُمْ إنْ تابوا . . قبلتُ منهُمْ ، وحذّرِ الصديقينَ أنّي إنْ وضعتُ عليهِمْ عدلي . . عذَّبتُهُمْ)[2]

وقالَ طلْقُ بنُ حبيبٍ : (إنَّ حقوقَ اللهِ أعظمُ مِنْ أنْ يقومَ بها العبدُ ، ولٰكنْ أصبحوا تائبينَ وأمسوا تائبينَ)[3]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَنْ ذكرَ خطيئةً ألمَّ بها ، فوجلَ منها قلبُهُ . . محيَتْ عنهُ في أمّ الكتابِ)[4] .

ويُروىٰ أنَّ نبيّاً مِنْ أنبياءِ بني إسرائيلَ أذنبَ ذنباً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : وعزَّتي وجلالي ؛ لئنْ عدتَ . . لأعذِّبَنَّكَ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، وعزَّتِكَ لئنْ لمْ تعصمْني . . لأعودَنَّ ، فعصمَهُ اللهُ تعالىٰ[5]

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّ العبدَ ليذنبُ الذنبَ ، فلا يزالُ نادماً حتَّىٰ يدخلَ الجنَّةَ ، فيقولُ إبليسُ : ليتَني لمْ أوقعْهُ في الذنبِ) .

وقالَ حبيبُ بنُ أبي ثابتٍ : (تُعرضُ على الرجلِ ذنوبُهُ يومَ القيامةِ ، فيمرُّ بالذنبِ فيقولُ : أما إنّي قدْ كنتُ مشفقاً منكَ ، فيُغفرُ لهُ)[6]

ويُروىٰ أنَّ رجلاً سألَ ابنَ مسعودٍ عنْ ذنبٍ ألمَّ بهِ : هلْ لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فأعرضَ عنهُ ابنُ مسعودٍ ، ثمَّ التفتَ إليهِ ، فرأىٰ عينيهِ تذرفانِ ، فقالَ لهُ : إنَّ للجنةِ ثمانيةَ أبوابٍ ، كلُّها تفتحُ وتغلقُ إلا بابَ التوبةِ ، فإنَّ عليهِ ملكاً موكلاً بهِ لا يغلقُ ، فاعملْ ولا تيئسْ[7]

وقالَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ أبي القاسمِ : تذاكرنا معَ عبدِ الرحيمِ توبةَ الكافرِ وقولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، فقالَ : إنّي لأرجو أنْ يكونَ المسلمُ أحسنَ حالاً عندَ اللهِ ، ولقدْ بلغَني أنَّ توبةَ المسلمِ كإسلامٍ بعدَ إسلامٍ[8]

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٤) .

(٢) روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٥/٨) عن عبد العزيز بن أبي رواد .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦٥/٣) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١١٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بنحوه .

(٥) الخبر بنحوه في « القوت » (٦٥/٢) عن آصف ابن خالة سيدنا موسىٰ عليه السلام ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٩٣٦) عن جابر رضي الله عنه قال : رأىٰ رجل جمجمة ، فحدث نفسه بشيء ، قال : فخرَّ ساجداً تائباً مكانه ، قال : فقيل له : ارفع رأسك ، فإنك أنت أنت ، وأنا أنا .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٠٥) عن عروة بن عامر .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٤٢) .

(٨) وعبد الرحيم هو ابن يحيى المعروف بالأسود ، كذا نص عليه في « الإتحاف » (٥٢٦/٨) ، وفي (ب) : (وقد بلغني أن العبد إذا عمل عملاً من أعمال البرّ . . دخل به الجنة ، ولقد بلغني . . .) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ : (لا أحدِّثُكُم إلا عنْ نبيٍّ مرسلٍ أوْ كتابٍ منزلٍ ، إنَّ العبدَ إذا عملَ ذنباً ثمَّ ندمَ عليهِ طرفةَ عينٍ . . سقطَ عنهُ أسرعَ مِنْ طرفةِ عينٍ)[1]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اجلسوا إلى التوَّابينَ ؛ فإنَّهُمْ أرقُّ أفئدةً)[2]

وقالَ بعضُهُمْ : أنا أعلمُ متىٰ يغفرُ اللهُ لي ، قيلَ : ومتىٰ ؟ قالَ : إذا تابَ عليَّ[3]

وقالَ آخرُ : (أنا مِنْ أنْ أُحرمَ التوبةَ أخوفُ مِنْ أنْ أُحرمَ المغفرةَ)[4] أي : المغفرةُ مِنْ لوازمِ التوبةِ وتوابعِها لا محالةَ .

ويُروىٰ أنَّهُ كانَ في بني إسرائيلَ شابٌّ عبدَ اللهَ تعالىٰ عشرينَ سنةً ، ثمَّ عصاهُ عشرينَ سنةً ، ثمَّ نظرَ في المرآةِ فرأى الشيبَ في لحيتِهِ ، فساءَهُ ذٰلكَ ، فقالَ : إلٰهي ؛ أطعتُكَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ عصيتُكَ عشرينَ سنةً ، فإنْ رجعتُ إليكَ أتقبلُني ؟ فسمعَ قائلاً يقولُ ولا يرىٰ شخصاً : أحببتَنا فأحببناكَ ، وتركتَنا فتركناكَ ، وعصيتَنا فأمهلناكَ ، وإنْ رجعتَ إلينا . . قبلناكَ[5]

وقالَ ذو النونِ المصريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إنَّ للهِ عباداً نصبوا أشجارَ الخطايا نصْبَ روامقِ القلوبِ ، وسقوها بماءِ التوبةِ ، فأثمرَتْ ندماً وحزناً ، فجُنُّوا مِنْ غيرِ جنونٍ ، وتبلَّدوا مِنْ غيرِ عيٍّ ولا بَكَمٍ ، وإنَّهُمْ لهُمُ البلغاءُ الفصحاءُ ، العارفونَ باللهِ ورسولِهِ ، ثمَّ شربوا بكأسِ الصفاءِ ، فورثوا الصبرَ علىٰ طولِ البلاءِ ، ثمَّ تولَّهَتْ قلوبُهُمْ في الملكوتِ ، وجالَ فكرُهُمْ بينَ سرايا حُجبِ الجبروتِ ، واستظلُّوا تحتَ رِواقِ الندمِ ، وقرؤوا صحيفةَ الخطايا ، فأورثوا أنفسَهُمُ الجزعَ ، حتَّىٰ وصلوا إلىٰ عُلْوِ الزهدِ بسلَّمِ الورعِ ، فاستعذبوا مرارةَ التركِ للدنيا ، واستلانوا خشونةَ المضجعِ ، حتَّىٰ ظفروا بحبلِ النجاةِ وعروةِ السلامةِ ، فسرحَتْ أرواحُهُمْ في العلا ، حتَّىٰ أناخوا في رياضِ النعيمِ ، وخاضوا في بحرِ الحياةِ ، وردموا خنادقَ الجزعِ ، وعبروا جسورَ الهوىٰ ، حتَّىٰ نزلوا بفناءِ العلمِ ، واستقوا مِنْ غديرِ الحكمةِ ، وركبوا سفينةَ الفطنةِ ، وأقلعوا بريحِ النجاةِ في بحرِ السلامةِ ، حتَّىٰ وصلوا إلىٰ رياضِ الراحةِ ، ومعدنِ العزِّ والكرامةِ)[6]

فهٰذا القدْرُ كافٍ في بيانِ أنَّ كلَّ توبةٍ صحيحةٍ فمقبولةٌ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : أفتقولُ ما قالَهُ المعتزلةُ مِنْ أنَّ قبولَ التوبةِ واجبٌ على اللهِ ؟[7]

فأقولُ : لا أعني بما ذكرتُهُ مِنْ وجوبِ قبولِ التوبةِ على اللهِ إلا ما يريدُهُ القائلُ بقولِهِ : (إنَّ الثوبَ إذا غُسِلَ بالصابونِ . . وجبَ زوالُ الوسخِ ، وإنَّ العطشانَ إذا شربَ الماءَ . . وجبَ زوالُ العطشِ ، وإنَّهُ إذا مُنِعَ الماءَ مدَّةً . . وجبَ العطشُ ، وإنَّهُ إذا دامَ العطشُ . . وجبَ الموتُ) ، وليسَ في شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ما يريدُهُ المعتزلةُ بالإيجابِ على اللهِ تعالىٰ .

---

(١) رواه بنحوه الطبراني كما نص عليه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/٢٠١) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٦) ، وأحمد في « الزهد » (٦٣١) .

(٣) قوت القلوب (١/١٨١) .

(٤) قوت القلوب (١/١٨١) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٢٣) عن إبراهيم بن شيبان ، يحكي هٰذا عن شاب كان عندهم بنحوه .

(٦) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٤) واللفظ له ، وبنحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (٩/٣٣٢) .

(٧) انظر « الإرشاد » (ص ٤٠٣) .

بلْ أقولُ : خلقَ اللهُ تعالى الطاعةَ مكفِّرةً للمعصيةِ والحسنةَ ماحيةً للسيئةِ كما خلقَ الماءَ مزيلاً للعطشِ ، والقدرةُ متسعةٌ بخلافِهِ لوْ سبقَتْ بِهِ المشيئةُ ، فلا واجبَ على اللهِ تعالىٰ ، ولٰكنْ ما سبقتْ بِهِ إرادتُهُ الأزليَّةُ فواجبٌ كونُهُ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما مِنْ تائبٍ إلا وهوَ شاكٌّ في قبولِ توبتِهِ ، والشاربُ للماءِ لا يشكُّ في زوالِ عطشِهِ ، فلِمَ يشكُّ في قبولِ التوبةِ ؟

فأقولُ : شكُّهُ في القبولِ كشكِّهِ في وجودِ شرائطِ الصحَّةِ ، فإنَّ للتوبةِ أركاناً وشروطاً دقيقةً كما سيأتي ، وليسَ يتحقَّقُ وجودُ جميعِ شروطِها ، كالذي يشكُّ في دواءٍ شربَهُ للإسهالِ في أنَّهُ هلْ يسهلُ ، وذٰلكَ لشكِّهِ في حصولِ شروطِ الإسهالِ في الدواءِ ؛ باعتبارِ الحالِ والوقتِ ، وكيفيةِ خلْطِ الدواءِ وطبخِهِ ، وجودةِ عقاقيرِهِ وأدويتِهِ .

فهٰذا وأمثالُهُ موجبٌ للخوفِ بعدَ التوبةِ ، وموجبٌ للشكِّ في قبولِها لا محالةَ ، على ما سيأتي في شروطِها إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

❁ ❁ ❁

الرُّكنُ الثّاني
فيما عنهُ التّوبةُ ، وهيَ الذّنوبُ صغائرُها وكبائرُها

اعلمْ : أنَّ التوبةَ تركُ الذنبِ ، ولا يمكنُ تركُ الشيءِ إلا بعدَ معرفتِهِ ، وإذا كانَتِ التوبةُ واجبةً . . كانَ ما لا يتوصَّلُ إليها إلا بهِ واجباً ، فمعرفةُ الذنوبِ إذاً واجبةٌ .

والذنبُ : عبارةٌ عنْ كلِّ ما هوَ مخالفٌ لأمرِ اللهِ مِنْ تركٍ أوْ فعلٍ ، وتفصيلُ ذٰلكَ يستدعي شرحَ التكليفاتِ مِنْ أوَّلِها إلىٰ آخرِها ، وليسَ ذٰلكَ مِنْ غرضِنا ، ولٰكنَّا نشيرُ إلىٰ مجامعِها وروابطِ أقسامِها ، واللهُ الموفقُ للصوابِ برحمتِهِ .

بيانُ أقسامِ الذّنوبِ بالإضافةِ إلىٰ صفاتِ العبدِ

اعلمْ : أنَّ للإنسانِ أخلاقاً وأوصافاً كثيرةً ، علىٰ ما عُرِفَ شرحُهُ في كتابِ عجائبِ القلبِ وعوالِمِهِ[1] ، ولٰكنْ تنحصرُ مثاراتُ الذنوبِ في أربعِ صفاتٍ : صفاتٍ ربوبيَّةٍ ، وصفاتٍ شيطانيَّةٍ ، وصفاتٍ بهيميةٍ ، وصفاتٍ سبعيةٍ ، وذٰلكَ لأنَّ طينةَ الإنسانِ عُجِنَتْ مِنْ أخلاطٍ مختلفةٍ ، فاقتضىٰ كلُّ واحدٍ مِنَ الأخلاطِ في المعجونِ منهُ أثراً مِنَ الآثارِ ، كما يقتضي السكَّرُ والخلُّ والزعفرانُ في السكنجبينِ آثاراً مختلفةً[2] .

فأمَّا ما يقتضيهِ النزوعُ إلى الصفاتِ الربوبيةِ : فمثلُ الكبرِ ، والفخرِ ، والجبروتِ[3] ، وحبِّ المدحِ والثناءِ والعزِّ والغنىٰ ، وحبِّ دوامِ البقاءِ ، وطلبِ الاستعلاءِ على الكافَّةِ ، حتَّىٰ كأنَّهُ يريدُ أنْ يقولَ : (أنا ربُّكُمُ الأعلىٰ) .

وهٰذا يتشعَّبُ منهُ جملةٌ مِنْ كبائرِ الذنوبِ ، غفلَ عنها الخلْقُ ولمْ يعدُّوها ذنوباً ، وهيَ المهلكاتُ العظيمةُ التي هيَ كالأمَّهاتِ لأكثرِ المعاصي ، كما استقصيناهُ في ربعِ المهلكاتِ .

الثانيةُ : هيَ الصفةُ الشيطانيَّةُ : التي منها يتشعَّبُ الحسدُ ، والبغيُ ، والحيلةُ ، والخداعُ ، والأمرُ بالفسادِ والمنكرِ ، وفيهِ يدخلُ الغشُّ ، والنفاقُ ، والدعوةُ إلى البدعِ والضلالِ .

الثالثةُ : الصفةُ البهيميَّةُ : ومنها يتشعَّبُ الشرهُ ، والكَلَبُ ، والحرْصُ علىٰ قضاءِ شهوةِ البطنِ والفرجِ ، ومنهُ يتشعَّبُ الزنا ، واللواطُ ، والسرقةُ ، وأكلُ مالِ الأيتامِ ، وجمعُ الحطامِ لأجلِ الشهواتِ .

الرابعةُ : **الصفةُ السبعيَّةُ** : ومنها يتشعَّبُ الغضبُ ، والحقدُ ، والتهجُّمُ على الناسِ بالضربِ والشتمِ والقتلِ واستهلاكِ الأموالِ ، ويتفرَّعُ عنها جملٌ مِنَ الذنوبِ .

وهٰذهِ الصفاتُ لها تدريجٌ في الفطرةِ ، فالصفةُ البهيميَّةُ هيَ التي تغلبُ أوَّلاً ، ثمَّ تتلوها الصفةُ السبعيَّةُ ثانياً ، ثمَّ إذا اجتمعَتا . . استعملَتا العقلَ في الخداعِ والمكرِ والحيلةِ ، وهيَ الصفةُ الشيطانيَّةُ ، ثمَّ بالآخرةِ تغلبُ الصفاتُ الربوبيَّةُ ، وهيَ الفخرُ والعزُّ والعلُوُّ ، وطلبُ الكبرياءِ ، وقصدُ الاستيلاءِ علىٰ جميعِ الخلقِ .

فهٰذهِ أمَّهاتُ الذنوبِ ومنابعُها ، ثمَّ تتفجَّرُ الذنوبُ مِنْ هٰذهِ المنابعِ على الجوارحِ ؛ فبعضُها على القلبِ خاصَّةً ؛

---

(١) في (ن) : (وغوائله) بدل (وعوالمه)

(٢) **السكنجبين** : هو مخلوط العسل والخل والسكر لدفع الصفراء ، كلمة فارسية معربة ، أصلها سِكَنْگُبين .

(٣) في غير (أ) : (والجبرية) بدل (والجبروت) ، وهما بمعنىً .

كالكفرِ والبدعةِ والنفاقِ وإضمارِ السوءِ للناسِ ، وبعضُها على العينِ والسمعِ ، وبعضُها على اللسانِ ، وبعضُها على البطنِ والفرجِ ، وبعضُها على اليدينِ والرجلينِ ، وبعضُها علىٰ جميعِ البدنِ ، ولا حاجةَ إلىٰ بيانِ تفصيلِ ذٰلكَ ، فإنَّهُ واضحٌ .

❁ ❁ ❁

قسمةٌ ثانيةٌ :

اعلمْ : أنَّ الذنوبَ تنقسمُ إلىٰ ما بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وإلىٰ ما يتعلَّقُ بحقوقِ العبادِ .

فما يتعلَّقُ بالعبدِ خاصَّةً كتركِ الصلاةِ ، والصومِ ، والواجباتِ الخاصَّةِ بهِ .

وما يتعلَّقُ بحقوقِ العبادِ كتركِهِ الزكاةَ ، وقتلِهِ النفسَ ، وغصبِهِ الأموالَ ، وشتمِهِ الأعراضَ .

وكلُّ متناوَلٍ مِنْ حقِّ الغيرِ فإمَّا نفسٌ ، أوْ طرفٌ ، أوْ مالٌ ، أوْ عرضٌ ، أوْ دِينٌ ، أوْ جاهٌ .

وتناولُ الدِّينِ بالإغواءِ ، والدعاءِ إلى البدعةِ ، والترغيبِ في المعاصي ، وتهييجِ أسبابِ الجراءةِ على اللهِ تعالىٰ ، كما يفعلُهُ بعضُ الوعَّاظِ بتغليبِ جانبِ الرجاءِ علىٰ جانبِ الخوفِ .

وما يتعلَّقُ بالعبادِ فالأمرُ فيهِ أغلظُ ، وما بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ إذا لمْ يكنْ شركاً . . فالعفوُ فيهِ أرجىٰ وأقربُ ، وقدْ جاءَ في الخبرِ : « الدواوينُ ثلاثةٌ : ديوانٌ يُغفرُ ، وديوانٌ لا يُغفرُ ، وديوانٌ لا يتركُ ، فالديوانُ الذي يُغفرُ ذنوبُ العبادِ بينَهُمْ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الديوانُ الذي لا يُغفرُ . . فالشركُ باللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الديوانُ الذي لا يُتركُ . . فمظالمُ العبادِ »[1] أيْ : لا بدَّ أنْ يطالبَ بها حتَّىٰ يتفصَّىٰ عنها .

❁ ❁ ❁

قسمةٌ ثالثةٌ :

اعلمْ : أنَّ الذنوبَ تنقسمُ إلىٰ صغائرَ وكبائرَ ، وقدْ كثرَ اختلافُ الناسِ فيها ، فقالَ قائلونَ : (لا صغيرةَ ، بلْ كلُّ مخالفةٍ للهِ فهيَ كبيرةٌ)[2] ، وهٰذا ضعيفٌ[3] ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ تكفِّرُ ما بينَهُنَّ إنِ اجتنبَتِ الكبائرُ »[4]

وفي لفظٍ آخرَ : « كفاراتٌ لما بينَهُنَّ إلا الكبائرَ »[5]

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٢٤٠/٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٧٥/٤) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٢) وسيأتي قريباً قول ابن عباس رضي الله عنهما : (كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة) ، وقال القشيري في « لطائف الإشارات » (٤٨٧/٣) : (الذنوب كلها كبائر ؛ لأنها مخالفة لأمر الله ، ولٰكن بعضها أكبر من بعض ، ولا شيء أعظم من الشرك) ، ونقل أبو حيان في « البحر المحيط » (٢٣٣/٣) هٰذا إذ قال : (وقد اختلفوا في ذٰلك ، فذهب الجمهور إلىٰ انقسام الذنوب إلىٰ كبائر وصغائر . . . ، وذهب جماعة من الأصوليين منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وأبو المعالي وأبو نصر عبد الرحيم القشيري إلىٰ أن الذنوب كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها : صغيرة بالإضافة إلىٰ ما هو أكبر منها ؛ كما يقال : الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر) .

(٣) انظر « المستصفىٰ » (٢١٣/٢) ، و« الإتحاف » (٥٣٠/٨) .

(٤) رواه مسلم (٢٣٣) .

(٥) كذا في « القوت » (١٤٧/٢) ، ورواه أحمد في « مسنده » (٣٥٩/٢) بلفظ : « كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ : « الكبائرُ : الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدينِ ، وقتْلُ النفسِ ، واليمينُ الغموسُ »[1]

واختلفَ الصحابةُ والتابعونَ في عددِ الكبائرِ مِنْ أربعٍ ، إلىٰ سبعٍ ، إلىٰ تسعٍ ، إلىٰ إحدىٰ عشرةَ ، فما فوقَ ذٰلكَ .

فقالَ ابنُ مسعودٍ : (هُنَّ أربعٌ)[2]

وقالَ ابنُ عمرَ : (هُنَّ سبعٌ)[3]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : (هُنَّ تسعٌ)[4]

وكانَ ابنُ عباسٍ إذا بلغَهُ قولُ ابنِ عمرَ : (الكبائرُ سبعٌ) . . يقولُ : (هُنَّ إلىٰ سبعينَ أقربُ منها إلىٰ سبعٍ)[5]

وقالَ مرَّةً : (كلُّ ما نهى اللهُ عنهُ فهوَ كبيرةٌ)[6]

وقالَ غيرُهُ : (كلُّ ما أوعدَ اللهُ عليهِ بالنارِ فهوَ مِنَ الكبائرِ)[7]

وقالَ بعضُ السلفِ : (كلُّ ما أوجبَ الحدَّ في الدنيا فهوَ كبيرةٌ)[8]

وقيلَ : (إنَّها مبهمةٌ لا يُعرفُ عددُها ، كليلةِ القدْرِ ، وساعةِ يومِ الجمعةِ)[9]

وقالَ ابنُ مسعودٍ لمَّا سُئِلَ عنها : (اقرأْ مِنْ أوَّلِ سورةِ « النساءِ » إلىٰ رأسِ ثلاثينَ آيةً منها عندَ قولِهِ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ ، فكلُّ ما نهى اللهُ عنهُ في هٰذهِ السورةِ إلىٰ ها هنا فهوَ كبيرةٌ)[10]

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : (الكبائرُ سبعَ عشرةَ ، جمعتُها مِنْ جملةِ الأخبارِ ، وجملةُ ما اجتمعَ مِنْ قولِ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ وابنِ عمرَ وغيرِهِمْ :

أربعةٌ في القلبِ : وهيَ الشركُ باللهِ ، والإصرارُ علىٰ معصيتِهِ ، والقنوطُ مِنْ رحمتِهِ ، والأمنُ مِنْ مَكْرِهِ .

---

(١) رواه البخاري (٦٦٧٥) .

(٢) روى الطبراني في « الكبير » (١٥٦/٩) عنه قال : (أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله) ، وسياق المصنف هنا تبع لصاحب « القوت » (١٤٨/٢) ، وجمع غالبها الطبري في « تفسيره » (٥٢/٥/٤) .

(٣) روى الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٢٤٨) عنه قال : (الكبائر : الإشراك بالله ، وقذف المحصنة ـ قال الراوي : أقبلَ الدم ؟ قال : نعم ، ورغماً ـ وقتل النفس ، والفرار يوم الزحف ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وعقوق الوالدين) .

(٤) روى البخاري في « الأدب المفرد » (٨) عن ابن عمر لا ابن عمرو رضي الله عنهم جميعاً : (هن تسع : الإشراك بالله ، وقتل نسمة ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وإلحاد في المسجد ، والذي يستسحر ، وبكاء الوالدين من العقوق . . .) الحديث .

(٥) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٧) .

(٦) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) .

(٧) كذا في « القوت » (١٤٨/٢) ، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن سعيد بن جبير كذٰلك عند الطبري في « تفسيره » (٥٩/٥/٤) .

(٨) رواه الطبري في « تفسيره » (٥٩/٥/٤) عن الضحاك ومجاهد والحسن .

(٩) كذا في « القوت » (١٤٨/٢) ، وقال الشيخ ابن حجر الهيتمي في « الزواجر » (١٥/١) : (واعتمده الواحدي من أصحابنا في « بسيطه » ، فقال : الصحيح : أن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به ، وإلا . . لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ، ولٰكن الله عز وجل أخفىٰ ذٰلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه رجاء أن تجتنب الكبائر ، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطىٰ وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذٰلك) ، ولم يرتضه ، والمصنف رحمه الله تعالىٰ أورد هٰذا ولم يستبعده ، بشرط أن يكون قسماً من الأقسام ، لا علىٰ إطلاقه ، وكتاب ابن حجر الهيتمي « الزواجر عن اقتراف الكبائر » أجمع كتاب في هٰذا الباب كما ذكر الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٣٥/٨) .

(١٠) رواه الطبري في « تفسيره » (٥٢/٥/٤) .

وأربعةٌ في اللسانِ : وهي شهادةُ الزورِ ، وقذفُ المحصنِ ، واليمينُ الغموسُ ؛ وهيَ التي يحقُّ بها باطلاً أوْ يبطلُ بها حقّاً ، وقيلَ : هيَ التي يقتطعُ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ باطلاً ولوْ سواكاً مِنْ أراكٍ ، وسمِّيتْ غموساً لأنَّها تغمسُ صاحبَها في النارِ ، والسحرُ ؛ وهوَ كلُّ كلامٍ يغيِّرُ الإنسانَ وسائرَ الأجسامِ عنْ موضوعاتِ الخلْقةِ .

وثلاثٌ في البطنِ : وهيَ شربُ الخمرِ والمسكرِ مِنْ كلِّ شرابٍ ، وأكلُ مالِ اليتيمِ ظلماً ، وأكلُ الربا وهوَ يعلمُ .

واثنتانِ في الفرجِ : وهما الزنا ، واللواطُ .

واثنتانِ في اليدينِ ؛ وهما القتلُ ، والسرقةُ .

وواحدةٌ في الرجلينِ : وهيَ الفرارُ مِنَ الزحفِ ، الواحدُ مِن اثنينِ ، والعشرةُ مِنْ عشرينَ .

وواحدةٌ في جميعِ الجسدِ : وهيَ عقوقُ الوالدينِ ، قالَ : وجملةُ عقوقِهما أنْ يُقسما عليهِ في حقٍّ فلا يبرَّ قسمَهُما ، وأنْ يسألاهُ حاجةً فلا يعطيَهُما ، وأن يسبَّاهُ فيضربَهُما ، ويجوعانِ فلا يطعمُهما)[١]

هٰذا ما قالَهُ ، وهوَ قريبٌ ، ولٰكنْ ليسَ يحصلُ بهِ تمامُ الشفاءِ ؛ إذْ يمكنُ الزيادةُ عليهِ والنقصانُ منهُ ، فإنَّهُ جعلَ أكلَ الربا ومالِ اليتيمِ مِنَ الكبائرِ ، وهيَ جنايةٌ على الأموالِ ، ولمْ يذكرْ في كبائرِ النفوسِ إلا القتلَ ، فأمَّا فقءُ العينينِ وقطعُ اليدينِ وغيرُ ذٰلكَ مِنْ تعذيبِ المسلمينَ بالضربِ وأنواعِ العذابِ . . فلمْ يتعرَّضْ لهُ ، وضربُ اليتيمِ وتعذيبُهُ وقطعُ أطرافِهِ لا شكَّ في أنَّهُ أكبرُ مِنْ أكلِ مالِهِ .

كيفَ وفي الخبرِ : « مِنَ الكبائرِ السبَّتانِ بالسَّبَّةِ ، ومِنَ الكبائرِ استطالةُ الرجلِ في عرضِ أخيهِ المسلمِ »[٢] ، وهٰذا زائدٌ علىٰ قذْفِ المحصنِ ؟!

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ وغيرُهُ مِنَ الصحابةِ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هيَ أدقُّ في أعينِكُمْ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكبائرِ)[٣]

وقالَتْ طائفةٌ : (كلُّ عمدٍ كبيرةٌ)[٤] ، (وكلُّ ما نهى اللهُ عنهُ فهوَ كبيرةٌ)[٥]

وكشفُ الغطاءِ عنْ هٰذا : أنَّ نظرَ الناظرِ في السرقةِ أهيَ كبيرةٌ أمْ لا لا يصحُّ ما لمْ يفهمْ معنى الكبيرةِ والمرادَ بها ؛ كقولِ القائلِ : (السرقةُ حرامٌ أمْ لا) لا مطمعَ في معرفتِهِ إلا بعدَ تقريرِ معنى الحرامِ أولاً ، ثمَّ البحثِ عنْ وجودِهِ في السرقةِ .

فالكبيرةُ مِنْ حيثُ اللفظُ مبهمٌ ، ليسَ لهُ موضوعٌ خاصٌّ في اللغةِ ولا في الشرعِ ، وذٰلكَ لأنَّ الكبيرَ والصغيرَ مِنَ المضافاتِ ، وما مِنْ ذنبٍ إلا وهوَ كبيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما دونَهُ ، وصغيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَهُ ؛ فالمضاجعةُ معَ الأجنبيةِ كبيرةٌ بالإضافةِ إلى النظرِ ، صغيرةٌ بالإضافةِ إلى الزنا ، وقطعُ يدِ المسلمِ كبيرةٌ بالإضافةِ إلىٰ ضربِهِ ، صغيرةٌ بالإضافةِ إلىٰ قتلِهِ .

---

(١) « قوت القلوب » (١٤٨/٢) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٨٧٧) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه : (من الموبقات) بدل (من الكبائر) ، وعنده (٢٨٥/٣) بلفظه من حديث أنس رضي الله عنه .
(٤) قوت القلوب (١٤٨/٢) .
(٥) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) .

نعمْ ؛ للإنسانِ أنْ يطلقَ علىٰ ما تُوعِّدَ بالنارِ علىٰ فعلِهِ خاصَّةً اسمَ الكبيرةِ ، ونعني بوصفِهِ بالكبيرةِ : أنَّ العقوبةَ بالنارِ عظيمةٌ ، ولهُ أنْ يطلقَ علىٰ ما أُوجبَ الحدُّ عليهِ مصيراً إلىٰ أنَّ ما عُجِّلَ عليهِ في الدنيا عقوبةٌ واجبةٌ . . عظيمٌ ، ولهُ أنْ يطلقَ علىٰ ما وردَ في نصِّ الكتابِ النهيُ عنهُ ، فيقولُ : تخصيصُهُ بالذكرِ في القرآنِ يدلُّ علىٰ عظمِهِ ، ثمَّ يكونُ عظيماً وكبيراً ـ لا محالةَ ـ بالإضافةِ ؛ إذْ منصوصاتُ القرآنِ أيضاً تتفاوتُ درجاتُها .

فهٰذهِ الإطلاقاتُ لا حرجَ فيها ، وما نقلَ مِنْ ألفاظِ الصحابةِ يتردَّدُ بينَ هٰذهِ الجهاتِ ، ولا يبعدُ تنزيلُها علىٰ شيءٍ مِنْ هٰذهِ الاحتمالاتِ .

نعمْ ؛ مِنَ المهمَّاتِ أنْ تعلمَ معنىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ، وقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ كفَّاراتٌ لما بينَهُنَّ إلا الكبائرَ »[1] ؛ فإنَّ هٰذا إثباتُ حكمٍ للكبائرِ .

والحقُّ في ذٰلكَ : أنَّ الذنوبَ منقسمةٌ في نظرِ الشرعِ إلىٰ ما يعلمُ استعظامُهُ إيَّاها ، وإلىٰ ما يعلم أنَّها معدودةٌ في الصغائرِ ، وإلىٰ ما يشكُّ فيهِ فلا يُدرىٰ حكمُهُ .

فالطمعُ في معرفةِ حدٍّ حاصرٍ أوْ عددٍ جامعٍ مانعٍ طلبٌ لما لا يمكنُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ لا يمكنُ إلا بالسماعِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، بأنْ يقولَ : إنِّي أردتُ بالكبائرِ عشراً ، أوْ خمساً ، ويفصِّلُها ، فإنْ لمْ يردْ هٰذا ، بلْ وردَ في بعضِ الألفاظِ : « ثلاثٌ مِنَ الكبائرِ »[2] ، وفي بعضِها : « سبعٌ مِنَ الكبائرِ »[3] ، ثمَّ وردَ أنَّ السَّبتينِ بالسَّبَّةِ الواحدةِ مِنَ الكبائرِ[4] ، وهوَ خارجٌ عنِ السبعِ والثلاثِ . علمَ أنَّهُ لمْ يقصدْ بهِ العددَ والحصرَ ، فكيفَ يطمعُ في عددِ ما لمْ يعدِّدْهُ الشرعُ ؟! وربَّما قصدَ الشرعُ إبهامَهُ ؛ ليكونَ العبادُ منهُ علىٰ وَجَلٍ ، كما أبهمَ ليلةَ القدْرِ ليعظمَ جدُّ الناسِ في طلبِها .

نعمْ ؛ لنا سبيلٌ كلِّيٌّ يمكنُنا أنْ نعرفَ بهِ أجناسَ الكبائرِ وأنواعَها بالتحقيقِ ، وأمَّا أعيانُها . . فنعرفُها بالظنِّ والتقريبِ ، ونعرفُ أيضاً أكبرَ الكبائرِ ، فأمَّا أصغرُ الصغائرِ . . فلا سبيلَ إلىٰ معرفتِهِ .

وبيانُهُ : أنَّا نعلمُ بشواهدِ الشرعِ وأنوارِ البصائرِ جميعاً أنَّ مقصودَ الشرائعِ كلِّها سياقةُ الخلْقِ إلىٰ جوارِ اللهِ تعالىٰ وسعادةِ لقائِهِ ، وأنَّهُ لا وصولَ لهُمْ إلىٰ ذٰلكَ إلا بمعرفةِ اللهِ ومعرفةِ صفاتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أيْ : ليكونوا عبيداً لي ، ولا يكونُ العبدُ عبداً ما لمْ يعرفْ ربَّهُ بالربوبيَّةِ ونفسَهُ بالعبوديَّةِ ، فلا بدَّ أنْ يعرفَ نفسَهُ وربَّهُ ، فهٰذا هوَ المقصودُ الأقصىٰ ببعثةِ الأنبياءِ .

ولٰكنْ لا يتمُّ هٰذا إلا في الحياةِ الدنيا ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الدنيا مزرعةُ الآخرةِ »[5] ، فصارَ حفظُ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدينِ ؛ لأنَّهُ وسيلةٌ إليهِ .

والمتعلِّقُ مِنَ الدنيا بالآخرةِ شيئانِ ؛ النفوسُ والأموالُ ، فكلُّ ما يسدُّ بابَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ فهوَ أكبرُ الكبائرِ ، ويليهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣) .

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٠٥) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٨٧٧) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ مرفوعاً ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » [٨٤٣/٣] ، وأبو بكر ابن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث طارق بن أشيم : « نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته . . . » الحديث ، وإسناده ضعيف) . « إتحاف » (٥٣٩/٨) .

ما يسدُّ بابَ حياةِ النفوسِ ، ويلي ذٰلكَ ما يسدُّ بابَ المعايشِ التي بها حياةُ النفوسِ ، فهٰذهِ ثلاثُ مراتبَ .

فحفظُ المعرفةِ على القلوبِ ، والحياةِ على الأبدانِ ، والأموالِ على الأشخاصِ . . ضروريٌّ في مقصودِ الشرائعِ كلِّها ، وهٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ لا يُتصوَّرُ أنْ يختلفَ فيها المللُ ، فلا يجوزُ أن يبعثَ اللهُ نبيّاً يريدُ ببعثتِهِ إصلاحَ الخلْقِ في دينِهِمْ ودنياهم ثمَّ يأمرُهُمْ بما يمنعُهُمْ عنْ معرفتِهِ ومعرفةِ رسلِهِ ، أوْ يأمرُهُمْ بإهلاكِ النفوسِ وإهلاكِ الأموالِ .

فحصلَ مِنْ هٰذا أنَّ الكبائرَ علىٰ ثلاثِ مراتبَ :

❀ ❀ ❀

المرتبةُ الأولىٰ : ما يمنعُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ رسلِهِ : وهوَ الكفرُ ، فلا كبيرةَ فوقَ الكفرِ ؛ إذِ الحجابُ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ هوَ الجهلُ ، والوسيلةُ المقرّبةُ لهُ إليهِ هيَ العلمُ والمعرفةُ ، وقربُهُ بقدْرِ معرفتِهِ ، وبعدُهُ بقدْرِ جهلهِ .

ويتلو الجهلَ الذي يسمَّىٰ كفراً الأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ ، والقنوطُ مِنْ رحمتِهِ ، فإنَّ هٰذا أيضاً عينُ الجهلِ ، فمَنْ عرفَ اللهَ . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يكونَ آمناً ، ولا أنْ يكونَ آيساً .

ويتلو هٰذهِ الرتبةَ البدعُ كلُّها المتعلّقةُ بذاتِ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، وتفاوتُها علىٰ حسَبِ تفاوتِ الجهلِ بها ، وعلىٰ حسَبِ تعلُّقِها بذاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ ، وبأفعالِهِ وشرائعِهِ ، وبأوامرِهِ ونواهيهِ ، ومراتبُ ذٰلكَ لا تنحصرُ ، وهيَ تنقسمُ إلىٰ ما يعلمُ أنَّها داخلةٌ تحتَ ذكرِ الكبائرِ المذكورةِ في القرآنِ ، وإلىٰ ما يُعلمُ أنَّهُ لا يدخلُ ، وإلىٰ ما يُشكُّ فيهِ ، وطلبُ رفعِ الشكِّ في القسمِ المتوسطِ طمعٌ في غيرِ مطمعٍ .

❀ ❀ ❀

المرتبةُ الثانيةُ : النفوسُ : إذْ ببقائِها وحفظِها تدومُ الحياةُ ، وتحصلُ المعرفةُ باللهِ ، فقتلُ النفسِ ـ لا محالةَ ـ مِنَ الكبائرِ ، وإنْ كانَ دونَ الكفرِ ؛ لأنَّ ذٰلكَ يصدمُ عينَ المقصودِ ، وهٰذا يصدمُ وسيلةَ المقصودِ ؛ إذِ الحياةُ الدنيا لا تُرادُ إلا للآخرةِ ، والتوصلُ إليها بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ .

ويتلو هٰذهِ الكبيرةَ قطعُ الأطرافِ ، وكلُّ ما يفضي إلى الهلاكِ ، حتَّى الضربُ ، وبعضُها أكبرُ مِنْ بعضٍ .

ويقعُ في هٰذهِ الرتبةِ تحريمُ الزنا واللواطِ ؛ لأنَّهُ لوِ اجتمعَ الناسُ على الاكتفاءِ بالذكورِ في قضاءِ الشهواتِ . . انقطعَ النسلُ ، ورفعُ الوجودِ[1] قريبٌ مِنْ قطعِ الوجودِ ، وأمَّا الزنا . . فإنَّهُ لا يفوّتُ أصلَ الوجودِ ، ولٰكنْ يشوّشُ الأنسابَ ، ويبطلُ التوارثَ والتناصرَ ، وجملةً مِنَ الأمورِ التي لا ينتظمُ العيشُ إلا بها ، بلْ كيفَ يتمُّ النظامُ معَ إباحةِ الزنا ولا ينتظمُ أمورُ البهائمِ ما لمْ يتميَّزِ الفحلُ منها بإناثٍ يختصُّ بها عنْ سائرِ الفحولِ ؟! ولذٰلكَ لا يتصوَّرُ أنْ يكونَ الزنا مباحاً في شرعٍ قُصِدَ بهِ الإصلاحُ .

وينبغي أنْ يكونَ الزنا في الرتبةِ دونَ القتلِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يفوِّتُ دوامَ الوجودِ ، ولا يمنعُ أصلَهُ ، ولٰكنْ يفوِّتُ تمييزَ الأنسابِ ، ويحرِّكُ مِنَ الأسبابِ ما يكادُ يفضي إلى التقاتلِ ، وينبغي أنْ يكونَ أشدَّ مِنَ اللواطِ ؛ لأنَّ الشهوةَ داعيةٌ إليهِ مِنَ الجانبينِ ، فيكثرُ وقوعُهُ ، ويعظمُ أثرُ الضررِ بكثرتِهِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) في غير (أ ، س) : (ودفع الوجود) بدل (ورفع الوجود)

المرتبةُ الثالثةُ : **الأموالُ** : فإنَّها معايشُ الخلْقِ ، فلا يجوزُ تسليطُ الناسِ علىٰ تناولِها كيفَ شاؤوا حتَّىٰ بالاستيلاءِ والسرقةِ وغيرِهما ، بلْ ينبغي أنْ تحفظَ لتبقىٰ ببقائِها النفوسُ ، إلا أنَّ الأموالَ إذا أُخذَتْ . . أمكنَ استردادُها ، وإنْ أُكلَتْ . . أمكنَ تغريمُها ، فليسَ يعظمُ الأمرُ فيها .

نعمْ ؛ إذا جرىٰ تناولُها بطريقٍ يعسرُ التداركُ لهُ . . فينبغي أنْ يكونَ ذٰلكَ مِنَ الكبائرِ ، وذٰلكَ بأربعِ طرقٍ :

أحدُها : الخفيةُ ، وهيَ السرقةُ ، فإنَّهُ إذا لمْ يطلعْ عليهِ غالباً . . فكيفَ يتداركُ ؟

الثاني : أكلُ مالِ اليتيمِ ، وهٰذا أيضاً مِنَ الخفيةِ ، وأعني بهِ في حقِّ الوليِّ والقيِّمِ ، فإنَّهُ مؤتمنٌ فيهِ ، وليسَ لهُ خصمٌ سوى اليتيمِ ، وهوَ صغيرٌ لا يعرفُهُ ، فتعظيمُ الأمرِ فيهِ واجبٌ ، بخلافِ الغصْبِ ؛ فإنَّهُ ظاهرٌ يعرفُ ، وبخلافِ الخيانةِ في الوديعةِ ؛ فإنَّ المودِعَ خصمٌ فيهِ ينتصفُ لنفسِهِ .

الثالثُ : تفويتُها بشهادةِ الزورِ .

الرابعُ : أخذُ الوديعةِ وغيرِها باليمينِ الغموسِ .

فإنَّ هٰذهِ طرقٌ لا يمكنُ فيها التداركُ ، ولا يجوزُ أنْ تختلفَ الشرائعُ في تحريمِها أصلاً ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، وكلُّها دونَ الرتبةِ الثانيةِ المتعلِّقةِ بالنفوسِ .

وهٰذهِ الأربعةُ جديرةٌ بأنْ تكونَ مرادةً بالكبائرِ ، وإنْ لمْ يُوجبِ الشرعُ الحدَّ في بعضِها ، ولٰكنْ كثَّرَ الوعيدَ عليها ، وعظَّمَ في مصالحِ الدنيا تأثيرَها .

وأمَّا أكلُ الربا . . فليسَ فيهِ إلا أكلُ مالِ الغيرِ بالتراضي ، معَ الإخلالِ بشرطٍ وضعَهُ الشرعُ ، ولا يبعدُ أنْ تختلفَ الشرائعُ في مثلِهِ ، وإذا لمْ يُجعلِ الغصبُ الذي هوَ أكلُ مالِ الغيرِ بغيرِ رضاهُ وبغيرِ رضا الشرعِ مِنَ الكبائرِ . . فأكلُ الربا أكلٌ برضا المالكِ ، ولٰكنْ دونَ رضا الشرعِ ، وإنْ عظَّمَ الشرعُ الربا بالزجرِ عنهُ . . فقدْ عظَّمَ أيضاً الظلمَ بالغصبِ وغيرِهِ وعظَّمَ الخيانةَ ، والمصيرُ إلىٰ أنَّ أكلَ دانقٍ بالخيانةِ أوِ الغصبِ مِنَ الكبائرِ فيهِ نظرٌ ، وذٰلكَ واقعٌ في مظنَّةِ الشكِّ ، وأكثرُ ميلِ الظنِّ إلىٰ أنَّهُ غيرُ داخلٍ تحتَ الكبائرِ ، بلْ ينبغي أنْ تختصَّ الكبيرةُ بما لا يجوزُ اختلافُ الشرائعِ فيهِ ؛ ليكونَ ضرورياً في الدينِ .

❁ ❁ ❁

فيبقىٰ ممَّا ذكرَهُ أبو طالبٍ المكيُّ : القذفُ ، والشربُ ، والسحرُ ، والفرارُ مِنَ الزحفِ ، وعقوقُ الوالدينِ :

أمَّا الشربُ لما يزيلُ العقلَ : فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ مِنَ الكبائرِ ، وقدْ دلَّ عليهِ تشديداتُ الشرعِ وطريقُ النظرِ أيضاً ؛ لأنَّ العقلَ محفوظٌ كما أنَّ النفسَ محفوظةٌ ، بلْ لا خيرَ في النفسِ دونَ العقلِ ، فإزالةُ العقلِ مِنَ الكبائرِ ، ولٰكنْ هٰذا لا يجري في قطرةٍ مِنَ الخمرِ ، ولا شكَّ في أنَّهُ لوْ شربَ ماءً فيهِ قطرةٌ مِنَ الخمرِ . . لمْ يكنْ ذٰلكَ كبيرةً ، وإنَّما هوَ شربُ ماءٍ نجسٍ ، فالقطرةُ وحدَها في محلِّ الشكِّ ، وإيجابُ الشرعِ الحدَّ بهِ يدلُّ علىٰ تعظيمِ أمرِهِ ، فيُعدُّ ذٰلكَ مِنَ الكبائرِ بالشرعِ ، وليسَ في القوَّةِ البشريَّةِ الوقوفُ علىٰ جميعِ أسرارِ الشرعِ ، فإنْ ثبتَ إجماعٌ في أنَّهُ كبيرةٌ . . وجبَ الاتباعُ ، وإلا . . فللتوقفِ فيهِ مجالٌ [1]

❁ ❁ ❁

---

(١) وقال ابن حجر الهيتمي في « الزواجر » (٢/٣١١) : (أما شرب الخمر ولو قطرة منها . . فكبيرة إجماعاً) .

وأمَّا القذفُ : فليسَ فيهِ إلا تناولُ الأعراضِ ، والأعراضُ دونَ الأموالِ في الرتبةِ ولتناولِها مراتبُ ، وأعظمُها التناولُ بالقذفِ بالإضافةِ إلىٰ فاحشةِ الزنا ، وقدْ عظَّمَ الشرعُ أمرَهُ ، وأظنُّ ظنّاً غالباً أنَّ الصحابةَ كانوا يعدُّونَ كلَّ ما يجبُ الحدُّ به كبيرةً ، فهوَ بهـٰذا الاعتبارِ لا تكفِّرُهُ الصلواتُ الخمسُ ، وهوَ الذي نريدُهُ بالكبيرةِ الآنَ ، ولـٰكنْ مِنْ حيثُ إنَّهُ يجوزُ أنْ تختلفَ فيهِ الشرائعُ فالقياسُ بمجرَّدِهِ لا يدلُّ علىٰ كبرِهِ وعظمِهِ ، بلْ كانَ يجوزُ أنْ يردَ الشرعُ بأنَّ العدلَ الواحدَ إذا رأىٰ إنساناً يزني . . فلهُ أنْ يشهدَ عليهِ ، ويُجلدُ المشهودُ عليهِ بمجرَّدِ شهادتِهِ ، فإنْ لمْ تُقبلْ شهادتُهُ . . فحدُّهُ ليسَ ضرورياً في مصالحِ الدنيا ، وإنْ كانَ على الجملةِ مِنَ المصالحِ الظاهرةِ الواقعةِ في رتبةِ الحاجاتِ .

فإذاً ؛ هـٰذا أيضاً يلتحقُ بالكبائرِ في حقِّ مَنْ عرفَ حكْمَ الشرعِ ، فأمَّا مَنْ ظنَّ أنَّ لهُ أنْ يشهدَ وحدَهُ ، أوْ ظنَّ أنَّهُ يساعدُهُ على الشهادةِ غيرُهُ . . فلا ينبغي أنْ يُجعلَ في حقِّهِ مِنَ الكبائرِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا السحرُ : فإنْ كانَ فيهِ كفرٌ . . فكبيرةٌ ، وإلا . . فعظمُهُ بحسَبِ الضررِ الذي يتولَّدُ منهُ ؛ مِنْ هلاكِ نفسٍ ، أوْ مرضٍ ، أوْ غيرِهِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الفرارُ مِنَ الزحفِ وعقوقُ الوالدينِ : فهـٰذا أيضاً ينبغي أنْ يكونَ مِنْ حيثُ القياسُ في محلِّ التوقُّفِ ، وإذا قُطِعَ بأنَّ سبَّ الناسِ بكلِّ شيءٍ سوى الزنا وضرْبَهُمْ والظلمَ لهُمْ بغصْبِ أموالِهِمْ وإخراجِهِمْ مِنْ مساكنِهِمْ وبلادِهِمْ وإجلائِهِمْ مِنْ أوطانِهِمْ ليسَ مِنَ الكبائرِ ؛ إذْ لمْ يُنقلْ ذٰلكَ في السبعَ عشرةَ كبيرةً ، وهوَ أكثرُ ما قيلَ فيهِ . . فالتوقُّفُ في هـٰذا أيضاً غيرُ بعيدٍ ، ولـٰكنَّ الحديثَ يدلُّ علىٰ تسميتِهما كبيرةً ، فلتُلحقْ بالكبائرِ .

فإذاً ؛ رجعَ حاصلُ الأمرِ إلىٰ أنَّا نعني بالكبيرةِ : ما لا تكفِّرُهُ الصلواتُ الخمسُ بحكمِ الشرعِ ، وذٰلكَ ممَّا انقسمَ إلىٰ ما عُلِمَ أنَّهُ لا تكفِّرُهُ قطعاً ، وإلىٰ ما ينبغي أنْ تكفِّرَهُ ، وإلىٰ ما يُتوقَّفُ فيهِ ، والمتوقَّفُ فيهِ بعضُهُ مظنونٌ بالنفي والإثباتِ ، وبعضُهُ مشكوكٌ فيهِ ، وهوَ شكٌّ لا يزيلُهُ إلا نصُّ كتابٍ أو سنَّةٍ ، وإذْ لا مطمعَ فيهما . . فطلبُ رفعِ الشكِّ فيهما محالٌ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فهـٰذا إقامةُ برهانٍ على استحالةِ معرفةِ حدِّها ، فكيفَ يَرِدُ الشرعُ بما يستحيلُ معرفةُ حدِّهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ كلَّ ما لا يتعلَّقُ بهِ حكْمٌ في الدنيا فيجوزُ أنْ يتطرَّقَ إليهِ الإبهامُ ؛ لأنَّ دارَ التكليفِ هيَ دارُ الدنيا ، والكبيرةُ على الخصوصِ لا حكمَ لها في الدنيا مِنْ حيثُ إنَّها كبيرةٌ ، بلْ كلُّ موجباتِ الحدودِ معلومةٌ بأسمائِها ؛ كالسرقةِ والزنا وغيرِهما ، وإنَّما حكمُ الكبيرةِ أنَّ الصلواتِ الخمسَ لا تكفِّرُها ، وهـٰذا أمرٌ يتعلَّقُ بالآخرةِ ، والإبهامُ أليقُ بهِ ؛ حتَّىٰ يكونَ الناسُ علىٰ وَجَلٍ وحذرٍ ، فلا يتجرؤونَ على الصغائرِ اعتماداً على الصلواتِ الخمسِ ، وكذٰلكَ اجتنابُ الكبائرِ يكفِّرُ الصغائرَ بموجبِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ .

ولـٰكنَّ اجتنابَ الكبيرةِ إنَّما يكفِّرُ الصغيرةَ إذا اجتنبَها معَ القدرةِ والإرادةِ ، كمَنْ يتمكَّنُ مِنِ امرأةٍ ومِنْ مواقعتِها ، فيكفُّ نفسَهُ عنِ الوقاعِ ويقتصرُ علىٰ نظرٍ أو لمسٍ ؛ فإنَّ مجاهدةَ نفسِهِ في الكفِّ عنِ الوقاعِ أشدُّ تأثيراً في تنويرِ قلبِهِ

مِنْ إقدامِهِ على النظرِ في إظلامِهِ ، فهٰذا معنىٰ تكفيرِهِ ، فإنْ كانَ عنِّيناً ، أو لمْ يكنِ امتناعُهُ إلا بالضرورةِ للعجزِ ، أوْ كانَ قادراً ولٰكنِ امتنعَ لخوفِ أمرٍ آخرَ . . فهٰذا لا يصلحُ للتكفيرِ أصلاً .

وكلُّ مَنْ لا يشتهي الخمرَ بطبعِهِ ، ولوْ أُبيحَ لهُ . . لما شربَهُ ؛ فاجتنابُهُ لا يكفِّرُ عنهُ الصغائرَ التي هيَ مِنْ مقدّماتِهِ ؛ كسماعِ الملاهي والأوتارِ .

نعمْ ؛ مَنْ يشتهي الخمرَ وسماعَ الأوتارِ ، فيمسكُ نفسَهُ بالمجاهدةِ عنِ الخمرِ ، ويطلقُها في السماعِ . . فمجاهدةُ النفسِ بالكفِّ ربَّما تمحو عنْ قلبِهِ الظلمةَ التي ارتفعَتْ إليهِ مِنْ معصيةِ السماعِ .

وكلُّ هٰذِهِ أحكامٌ أخرويَّةٌ يجوزُ أنْ يبقىٰ بعضُها في محلِّ الشكِّ ، وتكونَ مِنَ المتشابهاتِ ، ولا يُعرفُ تفصيلُها إلا بالنصِّ ، ولمْ يردِ النصُّ بعددٍ ولا حدٍّ جامعٍ ، بلْ وردَ بألفاظٍ متفرِّقةٍ مختلفةٍ ، فقدْ روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « الصلاةُ إلى الصلاةِ كفارةٌ ، ورمضانُ إلىٰ رمضانَ كفارةٌ ، إلا مِنْ ثلاثٍ : إشراكٍ باللهِ ، وتركِ السنَّةِ ، ونكثِ الصفقةِ » ، قيلَ : وما تركُ السنَّةِ ؟ قالَ : « الخروجُ مِنَ الجماعةِ ، ونكثُ الصفقةِ أنْ يبايعَ رجلاً ثمَّ يخرجَ عليهِ بالسيفِ يقاتلُهُ »[1] ، فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ الألفاظِ لا يحيطُ بالعددِ كلِّهِ ، ولا يدلُّ علىٰ حدٍّ جامعٍ ، فيبقىٰ ـ لا محالةَ ـ مبهماً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : الشهادةُ لا تُقبلُ إلا ممَّنْ يجتنبُ الكبائرَ ، والورعُ عنِ الصغائرِ ليسَ شرطاً في قبولِ الشهادةِ ، وهٰذا مِنْ أحكامِ الدنيا .

فاعلمْ : أنَّا لا نخصِّصُ ردَّ الشهادةِ بالكبائرِ ، فلا خلافَ في أنَّ مَنْ يسمعُ الملاهيَ ، ويلبسُ الديباجَ ، ويتختَّمُ بخاتمِ الذهبِ ، ويشربُ مِنْ أواني الذهبِ والفضةِ . . لا تقبلُ شهادتُهُ ، ولمْ يذهبْ أحدٌ إلىٰ أنَّ هٰذِهِ الأمورَ مِنَ الكبائرِ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا شربَ الحنفيُّ النبيذَ . . حددتُهُ ولمْ أردَّ شهادتَهُ) ، فقدْ جعلَهُ كبيرةً بإيجابِ الحدِّ عليهِ ، ولمْ يردَّ بِهِ الشهادةَ ، فدلَّ علىٰ أنَّ الشهادةَ نفياً وإثباتاً لا تدورُ على الصغائرِ والكبائرِ .

بلْ كلُّ الذنوبِ تقدحُ في العدالةِ ، إلا ما لا يخلو الإنسانُ عنهُ غالباً بضرورةِ مجاري العاداتِ ؛ كالغيبةِ ، والتجسُّسِ ، وسوءِ الظنِّ ، والكذبِ في بعضِ الأقوالِ ، وسماعِ الغيبةِ ، وتركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، وأكلِ الشبهاتِ ، وسبِّ الولدِ والغلامِ ، وضربِهِما بحكمِ الغضبِ زائداً علىٰ حدِّ المصلحةِ ، وإكرامِ السلاطينِ الظلمةِ ، ومصادقةِ الفجَّارِ ، والتكاسلِ عنْ تعليمِ الأهلِ والولدِ جميعَ ما يحتاجونَ إليهِ مِنْ أمرِ الدينِ ؛ فهٰذِهِ ذنوبٌ لا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ الشاهدُ عنْ قليلِها أوْ كثيرِها إلا بأنْ يعتزلَ الناسَ ، ويتجرَّدَ لأمرِ الآخرةِ ، ويجاهدَ نفسَهُ مدَّةً ، بحيثُ يبقىٰ علىٰ سجيتِهِ[2] معَ المخالطةِ بعدَ ذٰلكَ ، ولوْ لمْ يُقبلْ إلا قولُ مثلِهِ . . لعزَّ وجودُهُ ، وبطلَتِ الأحكامُ والشهاداتُ ، وليسَ لبسُ الحريرِ ، وسماعُ الملاهي ، واللعبُ بالنردِ ، ومجالسةُ أهلِ الشُّرْبِ في وقتِ الشربِ ، والخلوةُ بالأجنبياتِ ، وأمثالُ هٰذِهِ الصغائرِ . . مِنْ هٰذا القبيلِ ، فإلىٰ مثلِ هٰذا المنهاجِ ينبغي أنْ يُنظرَ في قبولِ الشهادةِ وردِّها ، لا إلى الكبيرةِ والصغيرةِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٢٢٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٢٥٩) .

(٢) في غير (أ) : (سمته) بدل (سجيته) .

ثمَّ آحادُ هٰذهِ الصغائرِ التي لا تُردُّ الشهادةُ بها . . لوْ واظبَ عليها لأثَّرَتْ في ردِّ الشهادةِ ؛ كمنِ اتخذَ الغيبةَ وثلْبَ الناسِ عادةً ، وكذٰلكَ مجالسةُ الفجَّارِ ومصادقتُهُمْ .

والصغيرةُ تكبرُ بالمواظبةِ ؛ كما أنَّ المباحَ يصيرُ صغيرةً بالمواظبةِ ، كاللعبِ بالشطرنجِ ، والترنُّمِ بالغناءِ على الدوامِ ، وغيرِهِ .

فهٰذا بيانُ حكمِ الصغائرِ والكبائرِ .

* * *

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلمْ : أنَّ الدنيا مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، والآخرةَ مِنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، وأعني بالدنيا : حالتَكَ قبلَ الموتِ ، وبالآخرةِ : حالتَكَ بعدَ الموتِ ، فدنياكَ وآخرتُكَ صفاتُكَ وأحوالُكَ ، يسمَّى القريبُ الداني منها دنيا ، والمتأخِّرُ آخرةً .

ونحنُ الآنَ نتكلَّمُ مِنَ الدنيا في الآخرةِ ، فإنَّا الآنَ في الدنيا وهيَ عالمُ الملكِ ، وغرضُنا شرحُ الآخرةِ وهيَ عالمُ الملكوتِ ، ولا يُتصوَّرُ شرحُ عالمِ الملكوتِ في عالمِ الملكِ إلا بضربِ الأمثالِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ ، وهذا لأنَّ عالمَ الملكِ نومٌ بالإضافةِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا »[1] ، وما سيكونُ في اليقظةِ لا يتبيَّنُ لكَ في النومِ إلا بضربِ الأمثالِ المحوجةِ إلى التعبيرِ ، فكذلكَ ما سيكونُ في يقظةِ الآخرةِ لا يتبيَّنُ في نومِ الدنيا إلا في كسوةِ الأمثالِ ، وأعني بكسوةِ الأمثالِ : ما تعرفُهُ مِنْ علمِ التعبيرِ[2]

ويكفيكَ منهُ إنْ كنتَ فطناً ثلاثةُ أمثلةٍ :

فقدْ جاءَ رجلٌ إلى ابنِ سيرينَ[3] فقالَ : رأيتُ كأنَّ في يدي خاتماً أختمُ بهِ أفواهَ الرجالِ وفروجَ النساءِ ، فقالَ : إنَّكَ مؤذِّنٌ تؤذِّنُ في رمضانَ قبلَ طلوعِ الفجرِ ، قالَ : صدقتَ .

وجاءَ رجلٌ آخرُ فقالَ : رأيتُ كأنِّي أصبُّ الزيتَ في الزيتونِ ، فقالَ : إنْ كانَ تحتَكَ جاريةٌ اشتريتَها . . ففتِّشْ عنْ حالِها ؛ فإنَّها أمُّكَ سُبِيَتْ في صغرِكَ ؛ لأنَّ الزيتونَ أصلُ الزيتِ ، فهوَ ردٌّ إلى الأصلِ ، فنظرَ ، فإذا جاريتُهُ كانَتْ أمَّهُ وقدْ سبيَتْ في صغرِهِ .

وقالَ لهُ آخرُ : رأيتُ كأنِّي أقلِّدُ الدرَّ في أعناقِ الخنازيرِ ، فقالَ : إنَّكَ تعلِّمُ الحكمةَ غيرَ أهلِها ، فكانَ كما قالَ .

والتعبيرُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ مثالٌ يعرِّفُكَ طريقَ ضربِ الأمثالِ ، وإنَّما نعني بالمثالِ أداءَ المعنىٰ في صورةٍ إنْ نُظِرَ إلىٰ معناهُ . . وُجِدَ صادقاً ، وإنْ نُظِرَ إلىٰ صورتِهِ وُجِدَ كاذباً ، فالمؤذِّنُ إنْ نظرَ إلىٰ صورةِ الخاتمِ والختْمِ بهِ على الفروجِ . . رآهُ كاذباً ؛ فإنَّهُ لمْ يختمْ بهِ قطُّ ، وإنْ نظرَ إلىٰ معناهُ . وجدَهُ صادقاً ؛ إذْ قدْ صدرَ منهُ روحُ الختمِ ومعناهُ ، وهوَ المنعُ الذي يرادُ الختمُ لهُ .

وليسَ للأنبياءِ أنْ يتكلَّموا معَ الخلْقِ إلا بضربِ الأمثالِ ؛ لأنَّهُمْ كُلِّفوا أنْ يكلِّموا الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، وقدْرُ عقولِهِمْ أنَّهُمْ في النومِ ، والنائمُ لا يُكشفُ لهُ عنْ شيءٍ إلا بمثالٍ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا وعرفوا أنَّ المثلَ صادقٌ .

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمنِ »[4] ، وهوَ مِنَ المثالِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما يعزىٰ إلىٰ علي بن أبي طالب) ، قال الحافظ الزبيدي : (وهكذا أورده الشريف الموسوي في « نهج البلاغة » من كلام أمير المؤمنين ، وذكره أبو نعيم في « الحلية » [٧/٥٢] في ترجمة سفيان الثوري) . « إتحاف » (٨/٥٤٨) .

(٢) انظر للمصنف « مشكاة الأنوار » (ص ٥٢) .

(٣) التابعي البصري الثقة ، رأس المعبرين رحمه الله تعالىٰ ، وكان يضاهي الحسن في علمه وورعه ، وفيه القول المشهور الذي يستدل به علىٰ (أو) للتخيير : جالس الحسن أو ابن سيرين . « إتحاف » (٨/٥٤٨) .

(٤) رواه مسلم (٢٦٥٤) .

الذي لا يعقلُهُ إلا العالمونَ ، فأمَّا الجاهلُ . . فلا يجاوزُ قدْرُهُ ظاهرَ المثالِ ؛ لجهلِهِ بالتفسيرِ الذي يُسمَّىٰ تأويلاً ؛ كما يُسمَّىٰ تفسيرُ ما يُرىٰ مِنَ الأمثلةِ في النومِ تعبيراً ، فيثبتُ للهِ تعالىٰ يداً وإصبعاً ، تعالى اللهُ عنْ قولِهِ علوّاً كبيراً .

وكذٰلكَ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »[1] ، فإنَّه لا يفهمُ مِنَ الصورةِ إلا اللونَ والشكلَ والهيئةَ ، فيثبتُ للهِ تعالىٰ مثلَ ذٰلكَ ، تعالى اللهُ عنْ قولِهِ علوّاً كبيراً .

ومِنْ ها هنا زلَّ مَنْ زلَّ في صفاتِ الإلٰهيَّةِ ، حتَّىٰ في الكلامِ ، وجعلوهُ صوتاً وحرفاً ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الصفاتِ ، والقولُ فيهِ يطولُ .

وكذٰلكَ قدْ يردُ في أمرِ الآخرةِ ضربُ أمثلةٍ يكذِّبُ بها الملحدُ ؛ لجمودِ نظرِهِ علىٰ ظاهرِ المثالِ ، وتناقضِهِ عندَهُ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ بالموتِ يومَ القيامةِ في صورةِ كبشٍ أملحَ فيذبحُ »[2] ، فيثورُ الملحدُ الأحمقُ ويكذِّبُ بهِ ، ويستدلُّ بهِ علىٰ كذبِ الأنبياءِ ، ويقولُ : يا سبحانَ اللهِ !! الموتُ عرضٌ ، والكبشُ جسمٌ ، فكيفَ ينقلبُ العرضُ جسماً ؟ وهلْ هٰذا إلا محالٌ ؟!

ولٰكنَّ اللهَ تعالىٰ عزلَ هٰؤلاءِ الحمقىٰ عنْ معرفةِ أسرارِهِ فقالَ : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ ولا يدري المسكينُ أنَّ مَنْ قالَ : رأيتُ في منامي أنَّهُ جِيءَ بكبشٍ ، وقيلَ : هٰذا هوَ الوباءُ الذي في البلدِ ، وذبحَ ، فقالَ المعبِّرُ : صدقتَ ، والأمرُ كما رأيتَ ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ هٰذا الوباءَ ينقطعُ ولا يعودُ قطُّ ؛ لأنَّ المذبوحَ وقعَ اليأسُ عنهُ .

فإذاً ؛ المعبِّرُ صادقٌ في تعبيرِهِ[3] ، وهوَ صادقٌ في رؤيتِهِ ، وترجعُ حقيقتُهُ إلىٰ أنَّ الملكَ الموكَّلَ بالرؤيا ـ وهوَ الذي يُطْلِعُ الأرواحَ عندَ النومِ علىٰ ما في اللوحِ المحفوظِ ـ عرَّفَهُ ما في اللوحِ المحفوظِ بمثالٍ ضربَهُ لهُ ؛ لأنَّ النائمَ إنَّما يحتملُ المثالَ ، فكانَ مثالُهُ صادقاً ، وكانَ معناهُ صحيحاً .

فالرسلُ أيضاً إنَّما يكلِّمونَ الناسَ في الدنيا ، وهيَ بالإضافةِ إلى الآخرةِ نومٌ ، فيوصلونَ المعانيَ إلىٰ أفهامِهِمْ بالأمثلةِ ؛ حكمةً مِنَ اللهِ ، ولطفاً بعبادِهِ ، وتيسيراً لإدراكِ ما يعجزونَ عنْ إدراكِهِ دونَ ضربِ المثلِ ، فقولُهُ : « يُؤتىٰ بالموتِ في صورةِ كبشٍ أملحَ » مثالٌ ضربَهُ ليوصلَ إلى الأفهامِ حصولَ اليأسِ مِنَ الموتِ ، وقدْ جُبلَتِ القلوبُ على التأثُّرِ بالأمثلةِ ، وثبوتِ المعاني فيها بواسطتِها ، ولذٰلكَ عبَّرَ القرآنُ بقولِهِ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ عنْ نهايةِ القدرةِ ، وعبَّرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « قلبُ المؤمنِ بين إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ »[4] عنْ سرعةِ التقليبِ ، وقدْ أشرنا إلىٰ حكمةِ ذٰلكَ في كتابِ قواعدِ العقائدِ مِنْ ربعِ العباداتِ ، فلنرجعِ الآنَ إلى الغرضِ .

فالمقصودُ : أنَّ تعريفَ توزُّعِ الدرجاتِ والدركاتِ على الحسناتِ والسيئاتِ لا يمكنُ أنْ يفهمَ إلا بضربِ الأمثالِ ، فليُفهمْ مِنَ المثالِ الذي نضربُهُ معناهُ لا صورتُهُ ، فنقولُ :

الناسُ في الآخرةِ ينقسمونَ أصنافاً ، وتتفاوتُ درجاتُهُمْ ودركاتُهُمْ في السعادةِ والشقاوةِ تفاوتاً لا يدخلُ تحتَ الحصرِ ، كما تفاوتوا في سعادةِ الدنيا وشقاوتِها ، ولا تفارقُ الآخرةُ الدنيا في هٰذا المعنىٰ أصلاً ألبتةَ ؛ فإنَّ مدبِّرَ الملكِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦١٢/١١٥) ، وبيَّن بعض سرّه في « مشكاة الأنوار » (ص ٥٩) ، وسيأتي قريباً الحديث عنه .
(٢) رواه البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) .
(٣) في غير (د ، س) : (في تصديقه) بدل (في تعبيره) .
(٤) تقدم قريباً .

والملكوتِ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، وسنَّتُهُ الصادرةُ عنْ إرادتِهِ الأزليَّةِ مطردةٌ لا تبديلَ لها ، إلا أنَّا إنْ عجزنا عنْ إحصاءِ آحادِ الدرجاتِ . . فلا نعجزُ عنْ إحصاءِ الأجناسِ ، فنقولُ :

الناسُ في الآخرةِ ينقسمونَ بالضرورةِ إلىٰ أربعةِ أقسامٍ : هالكينَ ، ومعذَّبينَ ، وناجينَ ، وفائزينَ[1]

ومثالُهُ في الدنيا : أنْ يستوليَ مَلكٌ مِنَ الملوكِ علىٰ إقليمٍ ، فيقتلَ بعضَهُمْ فهُمُ الهالكونَ ، ويعذِّبَ بعضَهُمْ مدَّةً ولا يقتلَهُمْ فهُمُ المعذَّبونَ ، ويخليَ بعضَهُمْ فهُمُ الناجونَ ، ويخلعَ علىٰ بعضِهِمْ فهُمُ الفائزونَ .

فإنْ كانَ الملكُ عادلاً . . لمْ يقسمْهُمْ كذٰلكَ إلا باستحقاقٍ ، فلا يقتلُ إلا جاحداً لاستحقاقِهِ الملكَ ، معانداً لهُ في أصلِ الدولةِ ، ولا يعذِّبُ إلا مَنْ قصَّرَ في خدمتِهِ معَ الاعترافِ بملكِهِ وعلوِّ درجتِهِ ، ولا يخلي إلا معترفاً لهُ برتبةِ الملكِ لٰكنَّهُ لمْ يقصِّرْ ليعذَّبَ ولمْ يخدمْ ليخلعَ عليهِ ، ولا يخلعُ إلا علىٰ مَنْ أبلىٰ عذْرَهُ في الخدمةِ والنصرةِ[2]

ثمَّ ينبغي أنْ تكونَ خِلَعُ الفائزينَ متفاوتةَ الدرجاتِ بحسَبِ درجاتِ خدمتِهِمْ ، وإهلاكُ الهالكينَ إمَّا تخفيفاً بحزِّ الرقبةِ ، أوْ تنكيلاً بالمُثْلةِ بحسَبِ درجاتِ معانداتِهِمْ ، وتعذيبُ المعذَّبينَ في الخفَّةِ والشدَّةِ ، وطولِ المدَّةِ وقصرِها ، واتحادِ أنواعِها واختلافِها . . بحسبِ درجاتِ تقصيرِهِمْ ، فتنقسمُ كلُّ رتبةٍ مِنْ هٰذهِ الرتبِ إلىٰ درجاتٍ لا تحصىٰ ولا تنحصرُ ، فكذٰلكَ فافهمْ أنَّ الناسَ في الآخرةِ هٰكذا يتفاوتونَ ؛ فمِنْ هالكٍ ، ومِنْ معذَّبٍ مدَّةً ، ومِنْ ناجٍ يحلُّ في دارِ السلامةِ ، ومِنْ فائزٍ .

والفائزونَ ينقسمونَ إلىٰ مَنْ يحلونَ في جناتِ عدنٍ ، أوْ جناتِ المأوىٰ ، أوْ جناتِ الفردوسِ ، والمعذَّبونَ ينقسمونَ إلىٰ مَنْ يُعذَّبُ قليلاً ، وإلىٰ مَنْ يُعذَّبَ ألفَ سنةٍ إلىٰ سبعةِ آلافِ سنةٍ ، وذٰلكَ آخرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ كما وردَ في الخبرِ[3] ، وكذٰلكَ الهالكونَ الآيسونَ مِنْ رحمةِ اللهِ تتفاوتُ دركاتُهُمْ ، وهٰذهِ الدرجاتُ والدركاتُ بحسَبِ اختلافِ الطاعاتِ والمعاصي ، فلنذكرْ كيفيَّةَ توزُّعِها عليها .

❁ ❁ ❁

أمَّا الرتبةُ الأولىٰ : وهيَ الهُلَّاكُ :

ونعني بالهُلَّاكِ : الآيسينَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذِ الذي قتلَهُ الملكُ في المثالِ الذي ضربناهُ أيسَ مِنْ رضا الملكِ وإكرامِهِ ، فلا تغفُلْ عنْ معاني المثالِ .

وهٰذهِ الدرجةُ لا تكونُ إلا للجاحدينَ والمعرضينَ ، المتجرِّدينَ للدنيا ، المكذِّبينَ باللهِ ورسلِهِ وكتبِهِ ؛ فإنَّ السعادةَ

---

(١) لأنهم لا يخلون عن سعادة أو شقاوة ، والشقاوة إن كانت بالشرك والكفر وجحود صفات الربوبية . . فهم الهالكون ، فإن كان مع وجود الإقرار بالربوبية نوع عصيان ومخالفة . . فهم المعذبون ، والسعادة إن كانت بالإيمان بالله وبما جاء به الرسل . . فهم الناجون ، فإن كان مع ذٰلك نبذ الدنيا وإقبال على الله بالكلية . . فهم الفائزون ، فهٰذا وجه الحصر في الأقسام المذكورة . « إتحاف » (٨/٥٥١) .

(٢) أبلىٰ في قوله : (أبلىٰ عذره) بمعنىٰ أظهر ؛ كما يقال : فلان أبلىٰ في الحرب ؛ أي : أظهر بأسه ، وقال المطرِّزي في « المغرب » (ب ل ي) : (وقوله : أبلىٰ عذره إلا أنه مجارف ؛ أي : اجتهد في العمل إلا أنه مجدود غير مرزوق) .

(٣) هٰذا المعنىٰ عند صاحب « القوت » (٢/١٥٠) ولفظه : (وقد جاء في الخبر : « آخر من يخرج من النار وهو أيضاً آخر من يدخل الجنة » ، فلعله ـ والله أعلم ـ بعد سبعة آلاف سنة) ، وكان قد روىٰ قبله خبراً عن أبي سعيد الخدري أو غيره من الصحابة كما ذكر : (والله ؛ لا يخرج عبد من النار بعد أن دخلها حتىٰ يقيم فيها سبعة آلاف سنة) . وحديث « آخر من يدخل الجنة » دون ذكر المدة عند مسلم (١٨٧) ، وجاء عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلىٰ يوم أفنيت ، وذٰلك سبعة آلاف سنة » .

الأخرويَّةَ في القرْبِ مِنَ اللهِ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ ، وذٰلكَ لا يُنالُ أصلاً إلا بالمعرفةِ التي يعبَّرُ عنها بالإيمانِ والتصديقِ ، والجاحدونَ همُ المنكرونَ ، والمكذِّبونَ همُ الآيسونَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ أبدَ الآبادِ ، وهمُ الذينَ يكذِّبونَ بربِّ العالمينَ وبأنبيائِهِ المرسلينَ ، وهمْ عنْ ربِّهِمْ يومئذٍ محجوبونَ لا محالةَ ، وكلُّ محجوبٍ عنْ محبوبِهِ فمحولٌ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ، فهوَ ـ لا محالةَ ـ يكونُ محترقاً معَ جهنَّمَ بنارِ الفراقِ .

ولذٰلكَ قالَ العارفونَ : (ليسَ خوفُنا مِنْ نارِ جهنَّمَ ، ولا رجاؤُنا للحورِ العينِ ، وإنَّما مطلبُنا اللقاءُ ، ومهربُنا مِنَ الحجابِ فقطْ)[١]

وقالوا : مَنْ يعبدُ اللهَ لعوضٍ . . فهوَ لئيمٌ ؛ كأنْ يعبدَهُ لطلبِ جنَّتِهِ أوْ لخوفِ نارِهِ ، بلِ العارفُ يعبدُهُ لذاتِهِ ، فلا يطلبُ إلا ذاتَهُ فقطْ ، فأمَّا الحورُ العينُ والفواكهُ . . فقدْ لا يشتهيها ، وأمَّا النارُ . . فقدْ لا يتَّقيها ؛ إذْ نارُ الفراقِ إذا استولَتْ . . ربَّما غلبَتِ النارَ المحرقةَ للأجسامِ ، فإنَّ نارَ الفراقِ هيَ نارُ اللهِ الموقدةُ ، التي تطلعُ على الأفئدةِ ، ونارُ جهنَّمَ لا شغلَ لها إلا معَ الأجسامِ ، وألمُ الأجسامِ يستحقرُ معَ ألمِ الفؤادِ ، ولذٰلكَ قيلَ[٢] : [من المنسرح]

فَفِي فُؤَادِ الْمُحِبِّ نَارُ جَوىً أَحَرُّ نَارِ الْجَحِيمِ أَبْرَدُهَا

ولا ينبغي أنْ تنكرَ هٰذا في عالمِ الآخرةِ ؛ إذْ لهُ نظيرٌ مشاهدٌ في عالمِ الدنيا ، فقدْ رُئِيَ مَنْ غلبَ عليهِ الوجدُ فعدا على النارِ ، وعلىٰ أصولِ القصبِ الجارحةِ للقدمِ ، وهوَ لا يحسُّ بهِ لفرطِ غلبةِ ما في قلبِهِ[٣] ، وترى الغضبانَ يستولي عليهِ الغضبُ في القتالِ ، فتصيبُهُ جراحاتٌ وهوَ لا يشعرُ بها في الحالِ ؛ لأنَّ الغضبَ نارٌ في القلبِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الغضبُ قطعةٌ مِنَ النارِ »[٤]

واحتراقُ الفؤادِ أشدُّ منِ احتراقِ الأجسادِ ، والأشدُّ يبطلُ الإحساسَ بالأضعفِ كما تراهُ ، فليس التألُّمُ مِنَ النارِ والسيفِ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ يفرِّقُ بينَ جزأينِ يرتبطُ أحدُهُما بالآخرِ برابطةِ التأليفِ الممكنِ في الأجسامِ ، فالذي يفرِّقُ بينَ القلبِ وبينَ محبوبِهِ المرتبطِ بهِ برابطةِ تأليفٍ أشدَّ إحكاماً مِنْ تأليفِ الأجسامِ . . فهوَ أشدُّ إيلاماً إنْ كنتَ مِنْ أربابِ البصائرِ وأربابِ القلوبِ .

ولا يبعدُ ألا يدركَ مَنْ لا قلبَ لهُ شدَّةَ هٰذا الألمِ ، ويستحقرَهُ بالإضافةِ إلىٰ ألمِ الجسمِ ، فالصبيُّ لوْ خيِّرَ بينَ ألمِ الحرمانِ عنِ الكرةِ والصولجانِ وبينَ ألمِ الحرمانِ عنْ رتبةِ السلطانِ . . لمْ يحسَّ بألمِ الحرمانِ عنْ رتبةِ السلطانِ أصلاً ، ولمْ يعدَّ ذاكَ ألماً ، بلْ قالَ : العدْوُ في الميدانِ معَ الصولجانِ أحبُّ إليَّ مِنْ سريرِ ألفِ سلطانٍ معَ الجلوسِ عليهِ ، بلْ مَنْ تغلبُهُ شهوةُ البطنِ لوْ خيِّرَ بينَ الهريسةِ والحلواءِ وبينَ فعلٍ جميلٍ يقهرُ بهِ الأعداءَ ويفرحُ بهِ الأصدقاءَ . . لآثرَ الهريسةَ والحلواءَ .

وهٰذا كلُّهُ لفقدِ المعنى الذي بوجودِهِ يصيرُ الجاهُ محبوباً ، ووجودِ المعنى الذي بوجودِهِ يصيرُ الطعامُ لذيذاً ، وذٰلكَ

---

(١) وهٰذا كقول علي بن الموفق الذي رواه البيهقي في « الشعب » (٤٢٧) : (اللهمَّ ؛ إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك ، فعذبني بها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك حبّاً مني لجنتك وشوقاً إليها . . فاحرمنيها ، وإن كنت تعلم أني إنما أعبدك حبّاً مني لك وشوقاً إلىٰ وجهك الكريم . . فأبحنيه مرَّة واصنع ما شئت) .

(٢) البيت للمتنبي ، في « ديوانه بشرح العكبري » (٢٩٦/١) .

(٣) وهو أبو الحسين النوري ، وقد روىٰ قصته الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٤٢/٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٤) ، وأوردها الطوسي في « اللمع » (ص ٣٦٣) .

(٤) رواه الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم . . . » .

لمَنِ استرقَّتْهُ صفاتُ البهائمِ والسباعِ ، ولمْ تظهرْ فيهِ صفاتُ الملائكةِ التي لا يناسبُها ولا يلذُّ لها إلا القربُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، ولا يؤلمُها إلا البعدُ والحجابُ .

وكما لا يكونُ الذوقُ إلا في اللسانِ والسمعُ إلا في الآذانِ . . فلا تكونُ هـٰذهِ الصفةُ إلا في القلبِ ، فمَنْ لا قلبَ لهُ ليسَ لهُ هـٰذا الحسُّ ، كمَنْ لا سمعَ لهُ ولا بصرَ ليسَ لهُ لذَّةُ الألحانِ ، وحسنُ الصورِ والألوانِ .

وليسَ لكلِّ إنسانٍ قلبٌ ، ولوْ كانَ . . لما صحَّ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ، فجعلَ مَنْ لمْ يتذكَّرْ بالقرآنِ مفلساً مِنَ القلبِ ، ولستُ أعني بالقلبِ هـٰذا الذي تكتنفُهُ عظامُ الصدرِ مِنْ عالمِ الخلقِ ، بلْ أعني بهِ السرَّ الذي هوَ مِنْ عالمِ الأمرِ ، وهـٰذا اللحمُ الذي هوَ مِنْ عالمِ الخلقِ عرشُهُ ، والصدرُ كرسيُّهُ [1] ، وسائرُ الأعضاءِ عالمُهُ ومملكتُهُ ، وللهِ الخلْقُ والأمرُ جميعاً ، ولـٰكنَّ ذٰلكَ السرَّ الذي قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ هوَ الملكُ والأميرُ ؛ لأنَّ بينَ عالمِ الأمرِ وبينَ عالمِ الخلقِ ترتيباً ، وعالمُ الأمرِ أميرٌ علىٰ عالمِ الخلقِ ، وهيَ اللطيفةُ التي إذا صلحَتْ . . صلحَ لها سائرُ الجسدِ ، مَنْ عرفَها . . فقدْ عرفَ نفسَهُ ، ومَنْ عرفَ نفسَهُ . . فقدْ عرفَ ربَّهُ ، وعندَ ذٰلكَ يشَمُّ العبدُ مباديَ روائحِ المعنى المطويِّ تحتَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ » [2] ، ونظرَ بعينِ الرحمةِ إلى الجامدينَ علىٰ ظاهرِ لفظِهِ ، وإلى المتعسِّفينَ في طرقِ تأويلِهِ ، وإنْ كانَتْ رحمتُهُ على الجامدِ على اللفظِ أكثرَ مِنْ رحمتِهِ على المتعسِّفِ في التأويلِ ؛ لأنَّ الرحمةَ علىٰ قدْرِ المصيبةِ ، ومصيبةُ أولـٰئكَ أكثرُ وإنِ اشتركوا في مصيبةِ الحرمانِ عنْ حقيقةِ الأمرِ ، فالحقيقةُ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ ، وهيَ حكمتُهُ يختصُّ بها مَنْ يريدُ ، ومَنْ يؤتَ الحكمةَ فقدْ أوتيَ خيراً كثيراً .

ولنعدْ إلى الغرضِ ، فقدْ أرخينا الطِّوَلَ [3] ، وطوَّلْنا النَّفَسَ في أمرٍ هوَ أعلىٰ مِنْ علومِ المعاملةِ التي نقصدُها في هـٰذا الكتابِ ، فقدْ ظهرَ أنَّ رتبةَ الهُلَّاكِ ليسَتْ إلا للجهَّالِ المكذِّبينَ ، وشهادةُ ذٰلكَ مِنْ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا تدخلُ تحتَ الحصرِ ، فلذٰلكَ لمْ نوردْها .

❁ ❁ ❁

الرتبةُ الثانيةُ : رتبةُ المعذَّبينَ :

وهـٰذهِ رتبةُ مَنْ تحلَّىٰ بأصلِ الإيمانِ ، ولـٰكنْ قصَّرَ في الوفاءِ بمقتضاهُ ، فإنَّ رأسَ الإيمانِ هوَ التوحيدُ ، وهوَ ألا يعبدَ إلا اللهَ ، ومَنِ اتبعَ هواهُ . . فقدِ اتخذَ إلـٰهَهُ هواهُ ، فهوَ موحِّدٌ بلسانِهِ لا بالحقيقةِ ، بلْ معنىٰ قولِكَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، وهوَ أنْ تذرَ بالكليَّةِ غيرَ اللهِ ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ ، ولمَّا كانَ الصراطُ المستقيمُ الذي لا يكملُ التوحيدُ إلا بالاستقامةِ عليهِ أدقَّ مِنَ الشعرِ ، وأحدَّ مِنَ السيفِ ، مثلَ الصراطِ الموصوفِ في الآخرةِ ، فلا ينفكُّ بشرٌ عنْ ميلٍ عنِ الاستقامةِ ولوْ في أمرٍ يسيرٍ ، ولا يخلو عنِ اتباعِ الهوىٰ ولوْ في فعلٍ قليلٍ ، وذٰلكَ قادحٌ في كمالِ التوحيدِ بقدْرِ ميلِهِ عنِ الصراطِ المستقيمِ . . فذٰلكَ يقتضي ـ لا محالةَ ـ نقصاناً في درجةِ القربِ ، ومعَ كلِّ نقصانٍ نارانِ ؛ نارُ الفراقِ لذٰلكَ الكمالِ الفائتِ بالنقصانِ ، ونارُ

---

(١) تقدم هـٰذا من قول سهل بن عبد الله ، وانظر « قوت القلوب » (٢٣١/١) .

(٢) رواه مسلم (١١٥/٢٦١٢) .

(٣) الطِّوَل : الحبل يطوَّل للدابة توسيعاً لمجال رعيها ، وهو مجاز عن تطويل الكلام هنا

جهنَّمَ كما وصفَها القرآنُ ، فيكونُ كلُّ مائلٍ عنِ الصراطِ المستقيمِ معذَّباً مرَّتينِ مِنْ وجهينِ ، ولـٰكنَّ شدَّةَ ذلكَ العذابِ وخفَّتَهُ وتفاوتَهُ بحسَبِ طولِ المدَّةِ إنَّما يكونُ بسببِ أمرينِ :

أحدُهُما : قوَّةُ الإيمانِ وضعفُهُ .

والثاني : كثرةُ اتباعِ الهوىٰ وقلَّتُهُ .

وإذْ لا يخلو بشرٌ في غالبِ الأمرِ عنْ واحدٍ مِنَ الأمرينِ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ، ولذلكَ قالَ الخائفونَ مِنَ السلفِ : (إنَّما خوفُنا لأنَّا تيقَّنَّا أنَّا على النارِ واردونَ ، وشكَكْنا في النجاةِ)[1]

ولمَّا روى الحسنُ الخبرَ الواردَ فيمَنْ يخرجُ مِنَ النارِ بعدَ ألفِ عامٍ ، وأنَّهُ ينادي : يا حنَّانُ ، يا منَّانُ . . قالَ الحسنُ : (يا ليتني كنتُ ذلكَ الرجلَ)[2]

واعلمْ : أنَّ في الأخبارِ ما يدلُّ علىٰ أنَّ آخرَ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ بعدَ سبعةِ آلافِ سنةٍ[3] ، وأنَّ الاختلافَ في المدَّةِ بينَ اللحظةِ وبينَ سبعةِ آلافِ سنةٍ ، حتَّىٰ قدْ يجوزُ بعضُهُمْ على النارِ كبرقٍ خاطفٍ ، ولا يكونُ لهُ فيها لبثٌ[4] ، وبينَ اللحظةِ وسبعةِ آلافِ سنةٍ درجاتٌ متفاوتةٌ ، مِنَ اليومِ ، والأسبوعِ ، والشهرِ ، وسائرِ المُدَدِ ، وإنَّ الاختلافَ بالشدَّةِ لا نهايةَ لأعلاهُ ، وأدناهُ التعذيبُ بالمناقشةِ في الحسابِ ؛ كما أنَّ الملكَ قدْ يعذِّبُ بعضَ المقصِّرينَ في الأعمالِ بالمناقشةِ في الحسابِ ، ثمَّ يعفو ، وقدْ يضربُ بالسياطِ ، وقدْ يعذِّبُ بأنواعٍ أُخرَ مِنَ العذابِ .

ويتطرَّقُ إلى العذابِ اختلافٌ ثالثٌ في غيرِ المدَّةِ والشدَّةِ ، وهوَ اختلافُ الأنواعِ ؛ إذْ ليسَ مَنْ يعذَّبُ بمصادرةِ المالِ فقطْ كمَنْ يُعذَّبُ بأخذِ المالِ ، وقتلِ الولدِ ، واستباحةِ الحريمِ ، وتعذيبِ الأقاربِ ، والضربِ ، وقطعِ اللسانِ واليدِ والأنفِ والأذنِ وغيرِهِ ، فهـٰذهِ الاختلافاتُ ثابتةٌ في عذابِ الآخرةِ ، دلَّ عليها قواطعُ الشرعِ ، وهيَ بحسَبِ اختلافِ قوَّةِ الإيمانِ وضعفِهِ ، وكثرةِ الطاعاتِ وقلَّتِها ، وكثرةِ السيئاتِ وقلَّتِها .

أمَّا شدَّةُ العذابِ . . فبشدَّةِ قبحِ السيئاتِ وكبرِها ، وأمَّا كثرتُهُ . . فبكثرتِها ، وأمَّا اختلافُ أنواعِهِ . . فباختلافِ أنواعِ السيئاتِ ، وقدِ انكشفَ هـٰذا لأربابِ القلوبِ معَ شواهدِ القرآنِ بنورِ الإيمانِ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ ، وبقولِهِ سبحانَهُ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا

---

(١) فقد روى ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٩) عن بكر بن عبد الله المزني قال : لما نزلت هـٰذه الآية : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ . . ذهب عبد الله بن رواحة إلىٰ بيته فبكىٰ ، فجاءت امرأته فبكت ، فجاءت الخادم فبكت ، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون ، فلما انقطعت عبرته . . قال : يا أهلاه ؛ ما الذي أبكاكم ؟ قالوا : لا ندري ، ولـٰكن رأيناك بكيت فبكينا ، قال : إنه أنزلت علىٰ رسول الله آية ينبئني فيها ربي عز وجل أني وارد النار ، ولم ينبئني أني صادر عنها ، فذلك الذي أبكاني .

(٢) كذا في « القوت » (١٥٠/٢) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٢٣٠/٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ولم يذكر قول الحسن ، وساق قول الحسن من رواية أبي بكر الآجري ابنُ حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص ٣٥) .

(٣) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٣٩) .

(٤) روىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٢٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « يمر الناس علىٰ جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تخطف الناس يميناً وشمالاً ، وعلىٰ جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، فمن الناس من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الفرس ، ومنهم من يسعىٰ سعياً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم من يزحف زحفاً . . . » الحديث .

سَعَىٰ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا وردَ في الكتابِ والسنةِ ؛ مِنْ كونِ العقابِ والثوابِ جزاءً على الأعمالِ .

وكلُّ ذٰلكَ بعدْلٍ لا ظلمَ فيهِ ، وجانبُ العفوِ والرحمةِ أرجحُ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ فيما حكىٰ عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَتْ رحمتي غضبي »[1]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فإذاً ؛ هٰذهِ الأمورُ الكليَّةُ مِنِ ارتباطِ الدرجاتِ والدركاتِ بالحسناتِ والسيئاتِ معلومةٌ بقواطعِ الشرعِ ونورِ المعرفةِ ، فأمَّا التفصيلُ . . فلا يُعرفُ إلا ظنّاً ، ومستندُهُ ظواهرُ الأخبارِ ونوعُ حدسٍ يُستمدُّ مِنْ أنوارِ الاستبصارِ بعينِ الاعتبارِ .

فنقولُ : كلُّ مَنْ أحكمَ أصلَ الإيمانِ ، واجتنبَ جميعَ الكبائرِ ، وأحسنَ جميعَ الفرائضِ ؛ أعني : الأركانَ الخمسةَ ، ولـمْ يكنْ منهُ إلا صغائرُ متفرقةٌ لمْ يصرَّ عليها . . فيشبهُ أنْ يكونَ عذابُهُ بالمناقشةِ في الحسابِ فقطْ ، فإنَّهُ إذا حُوسبَ . . رجحَتْ حسناتُهُ علىٰ سيئاتِهِ ؛ إذْ وردَ في الأخبارِ : أنَّ الصلواتِ الخمسَ ، والجمعةَ ، وصومَ رمضانَ . . كفارةٌ لما بينَهنَّ[2] ، وكذٰلكَ اجتنابُ الكبائرِ بحكمِ نصِّ القرآنِ مكفِّرٌ للصغائرِ[3] ، وأقلُّ درجاتِ التكفيرِ أنْ يُدفعَ العذابُ إنْ لمْ يُدفعِ الحسابُ ، وكلُّ مَنْ هٰذا حالُهُ فقدْ ثقلَتْ موازينُهُ ، فينبغي أنْ يكونَ بعدَ ظهورِ الرجحانِ في الميزانِ ، وبعدَ الفراغِ مِنَ الحسابِ . . في عيشةٍ راضيةٍ .

نعم ؛ التحاقُهُ بأصحابِ اليمينِ أوْ بالمقربينَ ، ونزولُهُ في جناتِ عدْنٍ أوْ في الفردوسِ الأعلىٰ . . فذٰلكَ يتبعُ أصنافَ الإيمانِ ؛ لأنَّ الإيمانَ إيمانانِ :

إيمانٌ تقليديٌّ كإيمانِ العوامِّ ؛ يصدِّقونَ بما يسمعونَ ويستمرُّونَ عليهِ .

وإيمانٌ كشفيٌّ يحصلُ بانشراحِ الصدْرِ بنورِ اللهِ ، حتَّىٰ ينكشفَ فيهِ الوجودُ كلُّهُ علىٰ ما هوَ عليهِ ، فيتضحَ أنَّ الكلَّ إلى اللهِ مرجعُهُ ومصيرُهُ ؛ إذْ ليسَ في الوجودِ إلا اللهُ تعالىٰ وصفاتُهُ وأفعالُهُ[4]

فهٰذا الصنفُ همُ المقرَّبونَ النازلونَ في الفردوسِ الأعلىٰ ، وهمْ علىٰ غايةِ القرْبِ مِنَ الملأ الأعلىٰ ، وهمْ أيضاً علىٰ أصنافٍ ؛ فمنهُمُ السابقونَ ، ومنهُمْ مَنْ دونَهُمْ ، وتفاوتُهُمْ بحسَبِ تفاوتِ معرفتِهِمْ باللهِ تعالىٰ ، ودرجاتُ العارفينَ في المعرفةِ باللهِ تعالىٰ لا تنحصرُ ؛ إذِ الإحاطةُ بكنْهِ جلالِ اللهِ غيرُ ممكنةٍ ، وبحرُ المعرفةِ ليسَ لهُ ساحلٌ وعمقٌ ، وإنَّما يغوصُ فيهِ الغوَّاصونَ بقدْرِ قواهُمْ ، وبقدْرِ ما سبقَ لهُمْ مِنَ اللهِ تعالىٰ في الأزلِ ، فالطريقُ إلى اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لمنازلِهِ ، فالسالكونَ لسبيلِ اللهِ لا نهايةَ لدرجاتِهِمْ .

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥١) بلفظه هنا ، وأصله عند البخاري كذٰلك (٣١٩٤) .

(٢) رواه مسلم (١٦/٢٣٣) .

(٣) وهو قوله عز من قائل : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ .

(٤) وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، لا أنه يصير هالكاً من الأوقات ، بل هو هالك أزلاً وأبداً لا يتصور إلا كذٰلك ، فإن كل شيء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته . . فهو عدم محض ، وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأزل . . فيكون الموجود وجه الله فقط ، ولكل شيء وجهان ؛ وجه إلىٰ نفسه ، ووجه إلىٰ ربه ، فهو باعتبار وجه نفسه عدم ، وباعتبار وجه الله موجود ؛ إذ لا موجود إلا الله ووجهه) . « إتحاف » (٥٥٦/٨) ، وهو من كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » (ص ٤٠) .

وأمَّا المؤمنُ إيماناً تقليدياً . . فهوَ مِنْ أصحابِ اليمينِ ، ودرجتُهُ دونَ درجةِ المقرَّبينَ ، وهمْ أيضاً علىٰ درجاتٍ ، فالأعلىٰ مِنْ درجاتِ أصحابِ اليمينِ تقاربُ رتبتُهُ رتبةَ الأدنىٰ مِنْ درجاتِ المقرَّبينَ .

هٰذا حالُ مَنِ اجتنبَ كلَّ الكبائرِ ، وأدَّى الفرائضَ كلَّها ؛ أعني : الأركانَ الخمسةَ التي هيَ النطقُ بكلمةِ الشهادةِ باللسانِ ، والصلاةُ ، والزكاةُ ، والصومُ ، والحجُّ .

فأمَّا مَنِ ارتكبَ كبيرةً أوْ كبائرَ ، أوْ أهملَ بعضَ أركانِ الإسلامِ ؛ فإنْ تابَ توبةً نصوحاً قبلَ قرْبِ الأجلِ . . التحقَ بمَنْ لمْ يرتكبْ ؛ لأنَّ التائبَ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ ، والثوبُ المغسولُ كالذي لمْ يتوسَّخْ أصلاً .

وإنْ ماتَ قبلَ التوبةِ . . فهٰذا أمرٌ مخطرٌ عندَ الموتِ ؛ إذْ ربَّما يكونُ موتُهُ على الإصرارِ سبباً لتزلزلِ إيمانِهِ ، فيُختمُ لهُ بسوءِ الخاتمةِ ، لا سيما إذا كانَ إيمانُهُ تقليدياً .

فإنَّ التقليدَ وإنْ كانَ جزماً فهوَ قابلٌ للانحلالِ بأدنىٰ شكٍّ وخيالٍ ، والعارفُ البصيرُ أبعدُ مِنْ أنْ يُخافَ عليهِ سوءُ الخاتمةِ ، وكلاهما إنْ ماتا على الإيمانِ يعذَّبانِ ـ إلا أنْ يعفوَ اللهُ ـ عذاباً يزيدُ علىٰ عذابِ المناقشةِ في الحسابِ ، وتكونُ كثرةُ العقابِ مِنْ حيثُ المدَّةُ بحسَبِ كثرةِ مدَّةِ الإصرارِ ، ومِنْ حيثُ الشدَّةُ بحسَبِ قبحِ الكبائرِ ، ومِنْ حيثُ اختلافُ النوعِ بحسَبِ اختلافِ أصنافِ السيئاتِ .

وعندَ انقضاءِ مدَّةِ العقابِ ينزلُ البُلْهُ المقلِّدونَ في درجاتِ أصحابِ اليمينِ ، والعارفونَ المستبصرونَ في أعلىٰ عليّينَ ، ففي الخبرِ : « آخرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ يُعطىٰ مثلَ الدنيا كلِّها عشرةَ أضعافٍ »[1]

ولا تظنَّنَّ أنَّ المرادَ بهِ تقديرُهُ بالمساحةِ لأطرافِ الأجسامِ ، بأنْ يُقابلَ فرسخٌ بفرسخينِ أوْ عشرةٍ ، فإنَّ هٰذا جهلٌ بطريقِ ضَربِ الأمثالِ ، بلْ هٰذا كقولِ القائلِ : (أخذَ منهُ جملاً وأعطاهُ عشرةَ أمثالِهِ) ، وكانَ الجملُ يساوي عشرةَ دنانيرَ ، فأعطاهُ مئةَ دينارٍ ، فإنْ لمْ يفهمْ مِنَ المثلِ إلا المثلَ في الوزنِ والثقلِ . . فلا تكونُ مئةُ دينارٍ لوْ وُضعَتْ في كفَّةِ الميزانِ والجملُ في الكفَّةِ الأخرىٰ عشرَ عَشِيرِهِ ، بلْ هوَ موازنةُ معاني الأجسامِ وأرواحِها ، دونَ أشخاصِها وهياكلِها ، فإنَّ الجملَ لا يُقصدُ لثقلِهِ وطولِهِ وعرضِهِ ومساحتِهِ ، بلْ لماليَّتِهِ ، فروحُهُ الماليَّةُ ، وجسمُهُ اللحمُ والدمُ ، ومئةُ دينارٍ عشرةُ أمثالِهِ بالموازنةِ الروحانيَّةِ ، لا بالموازنةِ الجسمانيَّةِ ، وهٰذا صادقٌ عندَ مَنْ يعرفُ روحَ الماليَّةِ مِنَ الذهبِ والإبلِ ، بلْ لوْ أعطاهُ جوهرةً وزنُها مثقالٌ ، وقيمتُها مئةُ دينارٍ ، وقالَ : (أعطيتُهُ عشرةَ أمثالِهِ) . . كانَ صادقاً ، ولٰكنْ لا يدركُ صدقَهُ إلا الجوهريُّ ؛ فإنَّ روحَ الجوهريَّةِ لا تُدركُ بمجرَّدِ البصرِ ، بلْ بفطنةٍ أخرىٰ وراءَ البصرِ ، فلذٰلكَ يكذِّبُ بهِ الصبيُّ بلِ القرويُّ والبدويُّ ، ويقولُ : (ما هٰذهِ الجوهرةُ إلا حجرٌ وزنُهُ مثقالٌ ، ووزنُ الجملِ ألفُ ألفِ مثقالٍ ، فقدْ كذبَ في قولِهِ : إنِّي أعطيتُهُ عشرةَ أمثالِهِ) ، والكاذبُ بالتحقيقِ هوَ الصبيُّ ، ولٰكنْ لا سبيلَ إلىٰ تحقيقِ ذٰلكَ عندَهُ إلا بأنْ يُنتظرَ بهِ البلوغُ والكمالُ ، وأنْ يحصلَ في قلبِهِ النورُ الذي بهِ يدركُ أرواحَ الجواهرِ وسائرِ الأموالِ ، فعندَ ذٰلكَ ينكشفُ لهُ الصدقُ .

والعارفُ عاجزٌ عنْ تفهيمِ المقلِّدِ القاصرِ صدقَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هٰذهِ الموازنةِ ؛ إذْ يقولُ : « الجنةُ في السماواتِ » ، كما وردَ في الأخبارِ[2] ، والسماواتُ مِنَ الدنيا ، فكيفَ يكونُ عشرةُ أمثالِ الدنيا في

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧١) ، ومسلم (١٨٦)

(٢) وليس المراد اللفظ بعينه ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٠٣/٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (الجنة في السماء السابعة العليا) ، ثم قرأ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ .

الدنيا ؟ وهـٰذا كما يعجزُ البالغُ عنْ تفهيمِ الصبيِّ تلكَ الموازنةَ ، وكذٰلكَ تفهيمِ البدويِّ .

وكما أنَّ الجوهريَّ مرحومٌ إذا بُلِيَ بالبدويِّ والقرويِّ في تفهيمِ تلكَ الموازنةِ . . فالعارفُ أيضاً مرحومٌ إذا بُلِيَ بالبليدِ الأبلهِ في تفهيمِ هـٰذهِ الموازنةِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ارحموا ثلاثةً : عالماً بينَ الجهَّالِ ، وغنيَّ قومٍ افتقرَ ، وعزيزَ قومٍ ذلَّ »[1]

والأنبياءُ مرحومونَ بينَ الأمَّةِ بهـٰذا السببِ ، ومقاساتُهُمْ لقصورِ عقولِ الأممِ فتنةٌ لهُمْ ، وامتحانٌ وابتلاءٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وبلاءٌ موكلٌ بهِمْ سبقَ بتوكيلِهِ القضاءُ الأزليُّ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البلاءُ موكلٌ بالأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ فالأمثلِ »[2]

فلا تظنَّنَّ أنَّ البلاءَ بلاءُ أيوبَ عليهِ السلامُ ، وهوَ الذي ينزلُ بالبدنِ ، فإنَّ بلاءَ نوحٍ عليهِ السلامُ أيضاً مِنَ البلاءِ العظيمِ ؛ إذْ بُلِيَ بجماعةٍ كانَ لا يزيدُهُمْ دعاؤُهُ إلى اللهِ إلا فراراً ، ولذٰلكَ لمَّا تأذَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بكلامِ بعضِ الناسِ قالَ : « رحمَ اللهُ أخي موسىٰ ؛ لقدْ أُوذيَ بأكثرَ مِنْ هـٰذا فصبرَ »[3]

فإذاً ؛ كما لا يخلو الأنبياءُ عنِ الابتلاءِ بالجاحدينَ . . فلا يخلو الأولياءُ والعلماءُ عنِ الابتلاءِ بالجاهلينَ ، ولذٰلكَ قلَّما انفكَّ الأولياءُ عنْ ضروبٍ مِنَ الإيذاءِ وأنواعِ البلاءِ ؛ بالإخراجِ مِنَ البلادِ ، والسعايةِ بهِمْ إلى السلاطينِ ، والشهادةِ عليهِمْ بالكفرِ والخروجِ عنِ الدينِ .

وواجبٌ أنْ يكونَ أهلُ المعرفةِ عندَ أهلِ الجهلِ مِنَ الكافرينَ ؛ كما يجبُ أنْ يكونَ المعتاضُ عنِ الجملِ الكبيرِ جوهرةً صغيرةً عندَ الجاهلينَ مِنَ المبذِّرينَ المضيِّعينَ .

فإذا عرفتَ هـٰذهِ الدقائقَ . . فآمِنْ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّهُ يُعطىٰ آخرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ مثلَ الدنيا عشرَ مرَّاتٍ ، وإيَّاكَ أنْ يقتصرَ تصديقُكَ علىٰ ما يدركُهُ البصرُ والحواسُّ فقطْ ، فتكونَ حماراً برِجْلينِ ؛ لأنَّ الحمارَ يشاركُكَ في الحواسِّ الخمسِ ، وإنَّما أنتَ مفارقٌ للحمارِ بسرٍّ إلـٰهيٍّ عُرِضَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أنْ يحملْنَهُ وأشفقنَ منهُ ، فإدراكُ ما يخرجُ عنْ عالمِ الحواسِّ الخمسِ لا يُصادفُ إلا في عالمِ ذٰلكَ السرِّ الذي بهِ فارقتَ الحمارَ وسائرَ البهائمِ ، فمَنْ ذهلَ عنْ ذٰلكَ ، وعطَّلَهُ وأهملَهُ ، وقنعَ بدرجةِ البهائمِ ، ولمْ يجاوزِ المحسوساتِ . . فهوَ الذي أهلكَ نفسَهُ بتعطيلِها ، ونسيَها بالإعراضِ عنها ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، فكلُّ مَنْ لمْ يعرفْ إلا المدرَكَ بالحواسِّ . . فقدْ نسيَ اللهَ ؛ إذْ ليسَ ذاتُ اللهِ مدركاً في هـٰذا العالمِ بالحواسِّ الخمسِ[4] ، وكلُّ مَنْ نسيَ اللهَ . . أنساهُ اللهُ ـ لا محالةَ ـ نفسَهُ ، ونزلَ إلىٰ رتبةِ البهائمِ ، وتركَ الترقيَ إلىٰ أفقِ الملأ الأعلىٰ ، وخانَ في الأمانةِ التي أودعَهُ اللهُ تعالىٰ إيَّاها وأنعمَ بها عليهِ ، كافراً لنعمتِهِ ومتعرضاً لنقمتِهِ ، إلا أنَّهُ أسوأُ حالاً مِنَ البهيمةِ ؛ فإنَّ البهيمةَ تتخلَّصُ بالموتِ ، وأمَّا هـٰذا . . فعندَهُ أمانةٌ سترجعُ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ مودِعِها ، فإليهِ مرجعُ الأمانةِ ومصيرُها .

---

(١) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٩٨/٢) بتقديم وتأخير ، من طريق عيسى بن طهمان عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وقد ضعَّف فيه عيسىٰ ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٥٩/٨) : (لكن وجد بخط الحافظ ابن حجر ما نصه : عيسىٰ ثقة ، لم يتكلم فيه غير ابن حبان ، وقد احتج به البخاري والنسائي والأئمة ممن دونه) ، وانظر « تهذيب التهذيب » (٣٥٩/٣)

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٤٣٩) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) .

(٣) رواه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

(٤) في (أ) : (في هـٰذا العالم المحبوس بالحواس الخمس) .

وتلكَ الأمانةُ كالشمسِ الزاهرةِ ، وإنَّما هبطَتْ إلى هـٰذا القالبِ الفاني وغربَتْ فيهِ ، وستطلعُ هـٰذهِ الشمسُ عندَ خرابِ القالبِ مِنْ مغربِها ، وتعودُ إلىٰ بارئِها وخالقِها ؛ إمَّا مظلمةً منكسفةً ، وإمَّا زاهرةً مشرقةً ، والزاهرةُ المشرقةُ غيرُ محجوبةٍ عن حضرةِ الربوبيَّةِ ، والمظلمةُ أيضاً راجعةٌ إلى الحضرةِ ؛ إذِ المرجعُ والمصيرُ للكلِّ إليهِ ، إلا أنَّها ناكسةٌ رؤوسَها عنْ جهةِ أعلىٰ عليينَ إلىٰ جهةِ أسفلِ السافلينَ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، فبيَّنَ أنَّهُمْ عندَ ربِّهِمْ ، إلا أنَّهُمْ منكوسونَ منحوسونَ ، قدِ انقلبَتْ وجوهُهُمْ إلىٰ أقفيتِهِمْ ، وانتكسَتْ رؤوسُهُمْ عنْ جهةِ فوقٍ إلىٰ جهةِ أسفلَ ، وذٰلكَ حكمُ اللهِ تعالىٰ فيمَنْ حرمَهُ توفيقَهُ ، ولمْ يهدِهِ طريقَهُ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الضلالِ ، والنزولِ إلىٰ منازلِ الجهَّالِ .

فهـٰذا حكمُ انقسامِ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ ، ويُعطىٰ مثلَ عشرةِ أمثالِ الدنيا أوْ أكثرَ ، ولا يخرجُ مِنَ النارِ إلا موحِّدٌ ، ولستُ أعني بالتوحيدِ أنْ يقولَ بلسانِهِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، فإنَّ اللسانَ مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، فلا ينفعُ إلا في عالمِ الملكِ ، فيدفعُ السيفَ عنْ رقبتِهِ ، وأيديَ الغانمينَ عنْ مالِهِ[1] ، ومدَّةُ الرقبةِ والمالِ مدَّةُ الحياةِ ، فحيثُ لا تبقىٰ رقبةٌ ولا مالٌ . . لا ينفعُ القولُ باللسانِ ، وإنَّما ينفعُ الصدْقُ في التوحيدِ ، **وكمالُ التوحيدِ** : ألا يرى الأمورَ كلَّها إلا مِنَ اللهِ ، **وعلامتُهُ** : ألا يغضبَ علىٰ أحدٍ مِنَ الخلقِ بما يجري عليهِ ؛ إذْ لا يرى الوسائطَ ، وإنَّما يرىٰ مسبِّبَ الأسبابِ كما سيأتي تحقيقُهُ في كتابِ التوكُّلِ .

وهـٰذا التوحيدُ متفاوتٌ ؛ فمِنَ الناسِ مَنْ لهُ مِنَ التوحيدِ مثلُ الجبالِ ، ومنهُمْ مَنْ لهُ مثقالٌ ، ومنهُمْ مَنْ لهُ مقدارُ خردلةٍ وذرَّةٍ ، فمَنْ في قلبِهِ مثقالُ دينارٍ مِنْ إيمانٍ . . فهوَ أوَّلُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ ، وفي الخبرِ : « يُقالُ : أخرجوا مِنَ النارِ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ دينارٍ مِنْ إيمانٍ »[2] ، وآخرُ مَنْ يخرجُ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ ، وما بينَ المثقالِ والذرَّةِ علىٰ قدرِ تفاوتِ درجاتِهِمْ يخرجونَ بينَ طبقةِ المثقالِ وبينَ طبقةِ الذرَّةِ[3] ، والموازنةُ بالمثقالِ والذرَّةِ علىٰ سبيلِ ضربِ المثلِ ؛ كما ذكرناهُ في الموازنةِ بينَ أعيانِ الأموالِ وبينَ النقودِ .

وأكثرُ ما يُدخلُ الموحدينَ النارَ مظالمُ العبادِ ، فديوانُ العبادِ هوَ الديوانُ الذي لا يُتركُ[4] ، فأمَّا بقيَّةُ السيئاتِ . . فيتسارعُ العفوُ والتكفيرُ إليها ، ففي الأثرِ : (إنَّ العبدَ ليوقفُ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ولهُ مِنَ الحسناتِ أمثالُ الجبالِ ، لوْ سلمَتْ لهُ . . لكانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، فيقومُ أصحابُ المظالمِ ، فيكونُ قدْ سبَّ عرضَ هـٰذا ، وأخذَ مالَ هـٰذا ، وضربَ هـٰذا ، فيقتصُّ لهُمْ مِنْ حسناتِهِ حتَّىٰ لا تبقىٰ لهُ حسنةٌ ، فتقولُ الملائكةُ : يا ربُّ ؛ هـٰذا قدْ فنيَتْ حسناتُهُ ، وبقيَ طالبونَ كثيرٌ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ألقوا مِنْ سيئاتِهِمْ علىٰ سيئاتِهِ ، وصكُّوا لهُ صكّاً إلى النارِ)[5]

---

(١) وذٰلك قوله صلى الله عليه وسلم ـ الذي رواه البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) ـ : « أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا : لا إلـٰه إلا الله ، فإذا قالوها . . عصموا مني دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وحسابهم على الله عز وجل » . « إتحاف » (٥٦١/٨) ، ويؤكد التخصيص بالقلب حديث الشعيرة والبرة والذرة الآتي تعليقاً .

(٢) هو جزء من حديث طويل رواه البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) .

(٣) ففي حديث الشفاعة المشهور ، وهو عند البخاري (٧٤١٠) ، ومسلم (١٩٣) : « يخرج من النار من قال : لا إلـٰه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إلـٰه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إلـٰه إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة » .

(٤) فقد روىٰ ذٰلك مرفوعاً عن السيدة عائشة رضي الله عنها أحمد في « المسند » (٢٤٠/٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٧٥/٤) .

(٥) كذا في « القوت » (١٤٩/٢) ، وهو بنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢/٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو قريب من حديث المفلس المشهور .

وكما يهلِكُ هوَ بسيئةِ غيرِهِ بطريقِ القصاصِ فكذٰلكَ ينجو المظلومُ بحسنةِ الظالمِ ؛ إذْ ينقلُ إليهِ عوضاً عمَّا ظلمَهُ بهِ ، وقدْ حُكِيَ عنِ ابنِ الجلاءِ أنَّ بعضَ إخوانِهِ اغتابَهُ ، ثمَّ أرسلَ إليهِ يستحلُّهُ ، فقالَ : لا أفعلُ ، ليسَ في صحيفتي حسنةٌ أفضلَ منها ، فكيفَ أمحوها ؟!(1)

وقالَ هوَ وغيرُهُ : (ذنوبُ إخواني مِنْ حسناتي ، أريدُ أنْ أزيِّنَ بها صحيفتي)(2)

فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنِ اختلافِ أحوالِ العبادِ في المعادِ في درجاتِ السعادةِ والشقاوةِ ، وكلُّ ذٰلكَ حكمٌ بظاهرِ الأسبابِ ، يضاهي حكْمَ الطبيبِ على مريضٍ بأنَّهُ يموتُ ـ لا محالةَ ـ ولا يقبلُ العلاجَ ، وعلى مريضٍ آخرَ بأنَّ عارضَهُ خفيفٌ وعلاجَهُ هيِّنٌ ، فإنَّ ذٰلكَ ظنٌّ يصيبُ في أكثرِ الأحوالِ ، ولٰكنْ قدْ يثوبُ إلى المشرفِ على الهلاكِ نفسُهُ مِنْ حيثُ لا يشعرُ الطبيبُ ، وقدْ يُساقُ إلى ذي العارضِ الخفيفِ أجلُهُ مِنْ حيثُ لا يطَّلعُ عليهِ ، وذٰلكَ لأسرارِ اللهِ تعالى الخفيَّةِ في أرواحِ الأحياءِ ، وغموضِ الأسبابِ التي رتَّبَها مسبِّبُ الأسبابِ بقدَرٍ معلومٍ ؛ إذْ ليسَ في قوَّةِ البشرِ الوقوفُ على كنهِها ، فكذٰلكَ النجاةُ والفوزُ في الآخرةِ لهما أسبابٌ خفيَّةٌ ، ليسَ في قوَّةِ البشرِ الاطلاعُ عليها ، يعبَّرُ عنْ ذٰلكَ السببِ الخفيِّ المفضي إلى النجاةِ بالعفوِ والرضا ، وعمَّا يفضي إلى الهلاكِ بالغضبِ والانتقامِ ، ووراءَ ذٰلكَ سرُّ المشيئةِ الإلٰهيةِ الأزليَّةِ التي لا يطلعُ الخلقُ عليها ، فلذٰلكَ يجبُ علينا أنْ نجوِّزَ العفوَ عنِ العاصي وإنْ كثرَتْ سيئاتُهُ الظاهرةُ ، والغضبَ على المطيعِ وإنْ كثرَتْ طاعاتُهُ الظاهرةُ ؛ فإنَّ الاعتمادَ على التقوى ، والتقوى في القلبِ ، وهوَ أغمضُ مِنْ أنْ يطلعَ عليهِ صاحبُهُ ، فكيفَ غيرُهُ ؟!

ولٰكنْ قدِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ أنَّهُ لا عفوَ عنْ عبدٍ إلا بسببٍ خفيٍّ فيهِ يقتضي العفوَ ، ولا غضبَ إلا بسببٍ باطنٍ يقتضي البعدَ مِنَ اللهِ تعالى ، ولولا ذٰلكَ . . لمْ يكنِ العفوُ والغضبُ جزاءً على الأعمالِ والأوصافِ ، ولوْ لمْ يكنْ جزاءً . . لمْ يكنْ عدلاً ، ولوْ لمْ يكنْ عدلاً . . لمْ يصحَّ قولُهُ تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، ولا قولُهُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ، وكلُّ ذٰلكَ صحيحٌ ، فليسَ للإنسانِ إلا ما سعى ، وسعيُهُ هوَ الذي يُرى ، وكلُّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ ، فلمَّا زاغوا . . أزاغَ اللهُ قلوبَهُمْ ، ولمَّا غيَّروا ما بأنفسِهِمْ . . غيَّرَ اللهُ ما بهِمْ ؛ تحقيقاً لقولِهِ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

وهٰذا كلُّهُ قدِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ انكشافاً أوضحَ مِنَ المشاهدةِ بالبصرِ ؛ إذِ البصرُ يمكنُ الغلطُ فيهِ ، إذْ قدْ يرى البعيدَ قريباً ، والكبيرَ صغيراً ، ومشاهدةُ القلبِ لا يمكنُ الغلطُ فيها ، وإنَّما الشأنُ في انفتاحِ بصيرةِ القلبِ ، وإلا . . فما يرى بها بعدَ الانفتاحِ فلا يتصوَّرُ فيهِ الكذبُ(3) ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾(4)

❀ ❀ ❀

---

(1) قوت القلوب (٢/١٥٠) .

(2) هو من تتمة قول ابن الجلاء السابق كما في « القوت » (٢/١٥٠) .

(3) **فإن قلت** : نرى جماعة من أرباب العقول يغلطون في نظرهم . . **فاعلم** : أن فيهم خيالات وأوهاماً واعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل ، فالغلط منسوب إليها ، فأما العقل المجرد إذا تجرَّد عن غشاوة الوهم والخيال . . لم يتصور أن يغلط ، بل يرى الأشياء على ما هي عليه ، وفي تجرده عسر . « إتحاف » (٨/٥٦٣) .

(4) أي : من عجائب الملكوت الأعلى ، وذٰلك لأن البصر من عالم الشهادة والحس ، والبصيرة من عالم الملكوت ، لا ترى بالأبصار ، وإنما تشاهد ببصيرة القلب . « إتحاف » (٨/٥٦٤) .

الرتبةُ الثالثةُ : رتبةُ الناجينَ :

وأعني بالنجاةِ : السلامةَ فقطْ ، دونَ السعادةِ والفوزِ ، وهُمْ قومٌ لمْ يخدموا ليُخلعَ عليهِمْ ، ولمْ يقصّروا فيعذَّبوا ، ويشبهُ أنْ يكونَ هـٰذا حالَ المجانينِ ، والصبيانِ مِنَ الكفارِ ، والمعتوهينَ ، والذينَ لمْ تبلغهُمُ الدعوةُ في أطرافِ البلادِ وعاشوا على البَلَهِ وعدمِ المعرفةِ ، فلمْ يكنْ لهُمْ معرفةٌ ، ولا جحودٌ ، ولا طاعةٌ ، ولا معصيةٌ ، ولا وسيلةٌ تقرِّبُهُمْ ، ولا جنايةٌ تبعدُهُمْ ، فما همْ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ولا مِنْ أهلِ النارِ ، بلْ ينزلونَ في منزلةٍ بينَ المنزلتينِ ، ومقامٍ بينَ المقامينِ ، عبَّرَ الشرعُ عنهُ بالأعرافِ ، وحلولُ طائفةٍ مِنَ الخلقِ فيهِ معلومٌ يقيناً مِنَ الآياتِ والأخبارِ [١] ، ومِنْ أنوارِ الاعتبارِ .

فأمَّا الحكمُ على العينِ ؛ كالحكمِ مثلاً بأنَّ الصبيانَ منهُمْ . . فهـٰذا مظنونٌ وليسَ بمستيقنٍ ، والاطلاعُ عليهِ تحقيقاً في عالمِ النبوَّةِ ، ويبعدُ أنْ ترتقيَ إليهِ رتبةُ الأولياءِ والعلماءِ ، والأخبارُ في حقِّ الصبيانِ أيضاً متعارضةٌ ، حتَّىٰ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها لمَّا ماتَ بعضُ الصبيانِ : طوبىٰ لهُ عصفورٌ مِنْ عصافيرِ الجنَّةِ ، فأنكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذٰلكَ وقالَ : « وما يدريكِ ؟! » [٢]

فإذاً ؛ الإشكالُ والاشتباهُ أغلبُ في هـٰذا المقامِ .

❀ ❀ ❀

الرتبةُ الرابعةُ : رتبةُ الفائزينَ :

وهُمُ العارفونَ دونَ المقلِّدينَ ، وهُمُ المقرَّبون السابقونَ ، فإنَّ المقلِّدَ وإنْ كانَ لهُ فوزٌ على الجملةِ بمقامٍ في الجنَّةِ فهوَ مِنْ أصحابِ اليمينِ ، وهـٰؤلاءِ هُمُ المقرَّبونَ ، وما يلقىٰ هـٰؤلاءِ يجاوزُ حدَّ البيانِ .

والقدْرُ الممكنُ ذكرُهُ ما فصَّلَهُ القرآنُ ، فليسَ بعدَ بيانِ اللهِ بيانٌ ، والذي لا يمكنُ التعبيرُ عنهُ في هـٰذا العالمِ فهوَ الذي أجملَهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : « أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأَتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ » [٣]

والعارفونَ مطلبُهُمْ تلكَ الحالةُ التي لا يُتصوَّرُ أنْ تخطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ في هـٰذا العالمِ ، فأمَّا الحورُ والقصورُ ، والفواكهُ واللبنُ والعسلُ والخمرُ ، والحليُّ والأساورُ . . فإنَّهُمْ لا يحرصونَ عليها ، ولوْ أُعطوها . . لمْ يقنعوا بها ، ولا يطلبونَ إلا لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ ، فهيَ غايةُ السعاداتِ ، ونهايةُ اللذَّاتِ .

ولذٰلكَ لمَّا قيلَ لرابعةَ العدويَّةِ رحمةُ اللهِ عليها : كيفَ رغبتُكِ في الجنَّةِ ؟ فقالَتْ : الجارُ ثمَّ الدارُ .

فهـٰؤلاءِ قومٌ شغلَهُمْ حبُّ ربِّ الدارِ عنِ الدارِ وزينتِها ، بلْ عنْ كلِّ شيءٍ سواهُ ، حتَّىٰ عنْ أنفسِهِمْ ، ومثالُهُمْ مثالُ العاشقِ المستهتَرِ بمعشوقِهِ ، المستوفي همَّهُ بالنظرِ إلىٰ وجهِهِ والفكرِ فيهِ ، فإنَّهُ في حالِ الاستغراقِ غافلٌ عنْ نفسِهِ ، لا

---

(١) إذ قال عز من قائل : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ﴾ ، وروى الطبراني في « الصغير » (٢٣٨/١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال : « هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم ، فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ، ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة ، وهم على سور بين الجنة والنار . . . » الحديث ، وانظر ما أورد الحافظ الزبيدي من الأخبار في « الإتحاف » (٥٦٤/٨) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٢) .

(٣) حديث قدسي رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

يحسُّ بما يصيبُهُ في بدنِهِ ، ويُعبَّرُ عنْ هٰذهِ الحالةِ بأنَّهُ فنيَ عنْ نفسِهِ ، ومعناهُ : أنَّهُ صارَ مستغرقاً بغيرِهِ ، وصارَتْ همومُهُ همّاً واحداً وهوَ محبوبُهُ ، ولمْ يبقَ فيهِ متسعٌ لغيرِ محبوبِهِ حتَّىٰ يلتفتَ إليهِ ، لا إلىٰ نفسِهِ ولا إلىٰ غيرِهِ .

وهٰذهِ الحالةُ هيَ التي توصلُ في الآخرةِ إلىٰ قرَّةِ عينٍ لا يُتصوَّرُ أنْ تخطرَ في هٰذا العالمِ علىٰ قلبِ بشرٍ ، كما لا يُتصوَّرُ أنْ تخطرَ صورةُ الألوانِ والألحانِ علىٰ قلبِ الأصمّ والأكمَهِ ، إلا أنْ يُرفعَ الحجابُ عنْ سمعِهِ وبصرِهِ ، فعندَ ذٰلكَ يدركُ حالَةً يعلمُ قطعاً أنَّهُ لمْ يُتصوَّرْ أنْ تخطرَ ببالِهِ قبلَ ذٰلكَ صورتُها ، فالدنيا حجابٌ على التحقيقِ ، وبرفعِهِ ينكشفُ الغطاءُ ، فعندَ ذٰلكَ يدركُ ذوقَ الحياةِ الطيبةِ ، وأنَّ الدارَ الآخرةَ لهيَ الحيوانُ لوْ كانوا يعلمونَ .

فهٰذا القدْرُ كافٍ في بيانِ توزُّعِ الدرجاتِ على الحسناتِ ، والدركاتِ على السيئاتِ ، واللهُ الموفِّقُ بلطفِهِ .

❋ ❋ ❋

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلمْ : أنَّ الصغيرةَ تكبرُ بأسبابٍ :

منها الإصرارُ والمواظبةُ : ولذٰلكَ قيلَ : « لا صغيرةَ معَ إصرارٍ ، ولا كبيرةَ معَ استغفارٍ »(١) ، فكبيرةٌ واحدةٌ تنصرمُ ولا يتبعُها مثلُها لوْ تُصوِّرَ ذٰلكَ . . لكانَ العفوُ عنها أرجىٰ مِنْ صغيرةٍ يواظبُ العبدُ عليها .

ومثالُ ذٰلكَ مثالُ قطراتٍ مِنَ الماءِ تقعُ على الحجرِ علىٰ توالٍ فتؤثِّرُ فيهِ ، وذٰلكَ القدْرُ مِنَ الماءِ لوْ صُبَّ عليهِ دفعةً واحدةً . . لمْ يؤثِّرْ .

ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأعمالِ أدومُها وإنْ قلَّ »(٢) ، والأشياءُ تُستبانُ بأضدادِها ، فإنْ كانَ النافعُ مِنَ العملِ هوَ الدائمَ وإنْ قلَّ ، والكثيرُ المتصرِّمُ قليلُ النفعِ في تنويرِ القلبِ وتطهيرِهِ . . فكذٰلكَ القليلُ مِنَ السيئاتِ إذا دامَ . . عظمَ تأثيرُهُ في إظلامِ القلبِ .

إلا أنَّ الكبيرةَ قلَّما يُتصوَّرُ الهجومُ عليها بغتةً مِنْ غيرِ سوابقَ ولواحقَ مِنْ جملةِ الصغائرِ ، فقلَّما يزني الزاني بغتةً مِنْ غيرِ مراودةٍ ومقدِّماتٍ ، وقلَّما يقتلُ القاتلُ بغتةً مِنْ غيرِ مشاحنةٍ سابقةٍ ومعاداةٍ ، فكلُّ كبيرةٍ تكتنفُها صغائرُ سابقةٌ ولاحقةٌ ، ولوْ تُصوِّرتْ كبيرةٌ وحدَها بغتةً ولمْ يتفقْ إليها عَوْدٌ . . ربَّما كانَ العفوُ فيها أرجىٰ مِنْ صغيرةٍ واظبَ الإنسانُ عليها عمرَهُ .

❁ ❁ ❁

ومنها أنْ يستصغرَ الذنبَ : فإنَّ الذنبَ كلَّما استعظمَهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ . . صغرَ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وكلَّما استصغرَهُ . . كبرَ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ استعظامَهُ يصدرُ عنْ نفورِ القلبِ عنهُ ، وكراهيتِهِ لهُ ، وذٰلكَ النفورُ يمنعُ مِنْ شدَّةِ تأثُّرِهِ بهِ ، واستصغارُهُ يصدرُ عنِ الإلفِ بهِ ، وذٰلكَ يوجبُ شدَّةَ الأثرِ في القلبِ ، والقلبُ هوَ المطلوبُ تنويرُهُ بالطاعاتِ ، والمحذورُ تسويدُهُ بالسيئاتِ ، ولذٰلكَ لا يؤاخذُ بما يجري عليهِ في الغفلةِ ، فإنَّ القلبَ لا يتأثَّرُ بما يجري في الغفلةِ .

وقدْ جاءَ في الخبرِ : « المؤمنُ يرىٰ ذنبَهُ كالجبلِ فوقَهُ يخافُ أنْ يقعَ عليهِ ، والمنافقُ يرىٰ ذنبَهُ كذبابٍ مرَّ علىٰ أنفِهِ فأطارَهُ »(٣)

وقالَ بعضُهُمْ : (الذنبُ الذي لا يُغفرُ قولُ العبدِ : ليتَ كلَّ شيءٍ عملتُهُ مثلُ هٰذا)(٤)

وإنَّما يعظمُ الذنبُ في قلبِ المؤمنِ لعلمِهِ بجلالِ اللهِ ، فإذا نظرَ إلىٰ عظمِ مَنْ عصىٰ بذٰلكَ الذنبِ . . رأى الصغيرةَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٢) بنحوه .

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٨) عن الحارث بن سويد قال : حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين ؛ أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه ، وذكره أوّلاً ، وذُكر بعد حديث : « لله أفرح بتوبة العبد » ، ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وصرح أحمد في « المسند » (١/٣٨٣) برواية بوقفه .

(٤) قوت القلوب (١/١٨١) .

كبيرةً ، وقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : (لا تنظرْ إلىٰ قلَّةِ الهديةِ ، وانظرْ إلىٰ عظمِ مهديها ، ولا تنظرْ إلىٰ صغرِ الخطيئةِ ، وانظرْ إلىٰ كبرياءِ مَنْ واجهتَهُ بها)(١)

وبهـٰذا الاعتبارِ قالَ بعضُ العارفينَ : (لا صغيرةَ ، بلْ كلُّ مخالفةٍ فهيَ كبيرةٌ)(٢)

ولذٰلكَ قالَ بعضُ الصحابةِ للتابعينَ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هيَ في أعينِكُمْ أدقُّ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الموبقاتِ)(٣) إذْ كانَتْ معرفةُ الصحابةِ بجلالِ اللهِ تعالىٰ أتمَّ ، فكانَتِ الصغائرُ عندَهُمْ بالإضافةِ إلىٰ جلالِ اللهِ تعالىٰ كبائرَ .

وبهـٰذا السببِ يعظمُ مِنَ العالمِ ما لا يعظمُ مثلُهُ مِنَ الجاهلِ ، ويُتجاوزُ عنِ العاميِّ في أمورٍ لا يُتجاوزُ في أمثالِها عنِ العارفِ ؛ لأنَّ الذنبَ والمخالفةَ يكبرُ بمعرفةِ قدْرِ المخالَفِ .

❁ ❁ ❁

ومنها السرورُ بالصغيرةِ : والفرحُ والتبجُّحُ بها ، واعتدادُ التمكُّنِ مِنْ ذٰلكَ نعمةً ، والغفلةُ عنْ كونِهِ سببَ الشقاوةِ ، فكلَّما غلبَتْ حلاوةُ الصغيرةِ عندَ العبدِ . . كبرَتِ الصغيرةُ ، وعظمَ أثرُها في تسويدِ قلبِهِ ، حتَّىٰ إنَّ مِنَ المذنبينَ مَنْ يتمدَّحُ بذنبِهِ ويتبجَّحُ بهِ ؛ لشدَّةِ فرحِهِ بمقارفتِهِ إيَّاهُ ، كما يقولُ : أما رأيتَني كيفَ مزَّقتُ عرضَهُ ؟ ويقولُ المناظرُ في مناظرتِهِ : أما رأيتَني كيفَ فضحتُهُ ؟ وكيفَ ذكرتُ مساوئَهُ حتَّىٰ أخجلتُهُ ؟ وكيفَ استخففتُ بهِ ؟ وكيفَ لبَّستُ عليهِ ؟ ويقولُ المعاملُ في التجارةِ : أما رأيتَ كيفَ روَّجتُ عليهِ الزائفَ ؟ وكيفَ خدعتُهُ ؟ وكيفَ غبنْتُهُ في مالِهِ ؟ وكيفَ استحمقتُهُ ؟

فهـٰذا وأمثالُهُ تكبرُ بهِ الصغائرُ ، فإنَّ الذنوبَ مهلكاتٌ ، وإذا دُفعَ العبدُ إليها ، وظفرَ الشيطانُ بهِ في الحملِ عليها . . فينبغي أنْ يكونَ في مصيبةٍ وتأسُّفٍ بسببِ غلبةِ العدوِّ عليهِ ، وبسببِ بعدِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فالمريضُ الذي يفرحُ بأنْ ينكسرَ إناؤُهُ الذي فيهِ دواؤُهُ حتَّىٰ يتخلَّصَ مِنْ ألمِ شربِهِ . . لا يُرجىٰ شفاؤُهُ .

❁ ❁ ❁

ومنها أنْ يتهاونَ بسترِ اللهِ عليهِ وحلمِهِ عنهُ وإمهالِهِ إيَّاهُ : ولا يدري أنَّهُ إنَّما يُمهَلُ مقتاً ليزدادَ بالإمهالِ إثماً ، فيظنُّ أنَّ تمكُّنَهُ مِنَ المعاصي عنايةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ بهِ ، فيكونُ ذٰلكَ لأمنِهِ مِنْ مكرِ اللهِ ، وجهلِهِ بمكامنِ الغرورِ باللهِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ .

❁ ❁ ❁

ومنها أنْ يأتيَ الذنبَ ويظهرَهُ : بأنْ يذكرَهُ بعدَ إتيانِهِ ، أوْ يأتيَهُ علىٰ ملأٍ ومشهدٍ مِنْ غيرِهِ ، فإنَّ ذٰلكَ منهُ جنايةٌ علىٰ سترِ اللهِ الذي أسدلَهُ عليهِ ، وتحريكٌ لرغبةِ الشرِّ فيمَنْ أسمعَهُ ذنبَهُ أوْ أشهدَهُ فعلَهُ ، فهما جنايتانِ انضمتا إلىٰ جنايتِهِ . . فغلظَتْ بهِ .

---

(١) قوت القلوب (١٨٢/١) .

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) بنحوه ، واختار ذٰلك القول أبو إسحاق الإسفرايني وأبو بكر الباقلاني وإمام الحرمين في « الإرشاد » والقشيري في « المرشدة » ، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في « تفسيره » واعتمد عليه التقي السبكي . « إتحاف » (٥٧١/٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) .

فإنِ انضافَ إلىٰ ذٰلكَ الترغيبُ للغيرِ فيهِ ، والحملُ عليهِ ، وتهيئةُ الأسبابِ لهُ . . صارَتْ جنايةً رابعةً ، وتفاحشَ الأمرُ ، وفي الخبرِ : « كلُّ الناسِ معافىً إلا المجاهرينَ ، يبيتُ أحدُهُمْ علىٰ ذنبٍ قدْ سترَهُ اللهُ عليهِ ، فيصبحُ فيكشفُ سترَ اللهِ ويتحدَّثُ بذنبِهِ »[١] ، وهٰذا لأنَّ مِنْ صفاتِ اللهِ ونعمِهِ أنَّهُ يظهرُ الجميلَ ويسترُ القبيحَ ، ولا يهتكُ السترَ ، فالإظهارُ كفرانٌ لهٰذهِ النعمةِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (لا تذنبْ ، فإنْ كانَ ولا بدَّ . . فلا ترغِّبْ غيرَكَ فيهِ فتذنبَ ذنبينِ)[٢]

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما انتهكَ المرءُ مِنْ أخيهِ حرمةً أعظمَ مِنْ أنْ يساعدَهُ علىٰ معصيةٍ ثمَّ يهوِّنَها عليهِ)[٣]

❀ ❀ ❀

ومنها أنْ يكونَ المذنبُ عالماً يُقتدىٰ بهِ : فإذا فعلَهُ بحيثُ يُرىٰ ذٰلكَ منهُ . . كبرَ ذنبُهُ ؛ كلبسِ العالمِ الإبريسمَ ، وركوبِهِ مراكبَ الذهبِ والفضةِ ، وأخذِهِ مالَ الشبهةِ مِنْ أموالِ السلاطينِ ، ودخولِهِ على السلاطينِ ، وتودُّدِهِ إليهِمْ[٤] ، ومساعدتِهِ إيَّاهُمْ بتركِ الإنكارِ عليهِمْ ، وإطلاقِهِ اللسانَ في الأعراضِ ، وتعديهِ باللسانِ في المناظرةِ ، وقصدِهِ الاستخفافَ ، واشتغالِهِ مِنَ العلومِ بما لا يُقصدُ منهُ إلا الجاهُ ؛ كعلمِ الجدلِ والمناظرةِ ، فهٰذهِ ذنوبٌ يُتبعُ العالمُ عليها ، فيموتُ العالمُ ويبقىٰ شرُّهُ مستطيراً في العالمِ آماداً متطاولةً ، فطوبىٰ لمَنْ إذا ماتَ . . ماتَتْ معَهُ ذنوبُهُ .

وفي الخبرِ : « مَنْ سنَّ سنَّةً سيئةً . . فعليهِ وزرُها ووزرُ مَنْ عملَ بها لا ينقصُ مِنْ أوزارِهِمْ شيئاً »[٥]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ ، والآثارُ : ما يلحقُ مِنَ الأعمالِ بعدَ انقضاءِ العملِ والعاملِ .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ويلٌ للعالمِ مِنَ الأتباعِ ، يزلُّ زلَّةً فيرجعُ عنها ، ويحتملُها الناسُ فيذهبونَ بها في الآفاقِ)[٦]

وقال بَعضُهُمْ : (مثلُ زلَّةِ العالمِ مثلُ انكسارِ السفينةِ ، تغرقُ ويغرقُ أهلُها)[٧]

وفي الإسرائيلياتِ : أنَّ عالماً كانَ يُضلُّ الناسَ بالبدعةِ ، ثمَّ أدركتْهُ توبةٌ ، فعملَ في الإصلاحِ دهراً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قُلْ لهُ : إنَّ ذنبَكَ لوْ كانَ فيما بيني وبينَكَ . . لغفرتُهُ لكَ ، ولٰكنْ كيفَ بمَنْ أضللتَ مِنْ عبادي فأدخلتَهُمُ النارَ ؟![٨]

---

(١) قوت القلوب (١/١٨٣) ، ورواه بنحوه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .
(٢) قوت القلوب (١/١٨٣) .
(٣) قوت القلوب (١/١٨٣) .
(٤) في (ب ، ج) : (وتردده إليهم) بدل (وتودده إليهم) .
(٥) رواه مسلم (١٠١٧)
(٦) قوت القلوب (١/١٨٣) .
(٧) القول لعبد الله بن المعتز ، رواه عنه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٦٤٦) .
(٨) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣١٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٠٤٦) عن خالد الربعي ، وقد نقل الخبر صاحب « القوت » (١/١٨٤) وقال عقبه : (فأما استحلال المعصية وإحلالها للغير . . فليس من هٰذه الأبواب في شيء ، إنما ذٰلك خروج عن الملة وتبديل للشريعة ، وهو الكفر بالله تعالىٰ) .

فبهـٰذا يتضحُ أنَّ أمرَ العلماءِ مخطرٌ ، فعليهِمْ وظيفتانِ :

إحداهُما : تركُ الذنبِ .

والأخرىٰ : إخفاؤُهُ .

وكما تتضاعفُ أوزارُهُمْ على الذنوبِ فكذٰلكَ يتضاعفُ ثوابُهُمْ على الحسناتِ إذا اتُّبِعوا .

فإذا تركَ التجمُّلَ والميلَ إلى الدنيا ، وقنعَ منها باليسيرِ ، ومِنَ الطعامِ بالقوتِ ، ومِنَ الكسوةِ بالخلَقِ ، فيُتَّبَعُ عليهِ ، ويقتدي بهِ العلماءُ والعوامُّ ، فيكونُ لهُ مثلُ ثوابِهِمْ ، وإنْ مالَ إلى التجمُّلِ . . مالَتْ طباعُ مَنْ دونَهُ إلى التشبُّهِ بهِ ، ولا يقدرونَ على التجمُّلِ إلا بخدمةِ السلاطينِ ، وجمعِ الحطامِ مِنَ الحرامِ ، ويكونُ هوَ السببَ في جميعِ ذٰلكَ ، فحركاتُ العلماءِ في طوريِ الزيادةِ والنقصانِ تتضاعفُ آثارُها ؛ إمَّا بالربحِ ، وإمَّا بالخسرانِ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في تفاصيلِ الذنوبِ التي التوبةُ توبةٌ عنها .

* * *

الرُّكنُ الثَّالِثُ
في تمامِ التّوبةِ وشروطِها في دوامِها إلى آخرِ العمرِ

قدْ ذكرنا أنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ ندمٍ يورثُ عزماً وقصداً ، وذٰلكَ الندمُ أورثَهُ العلمُ بكونِ المعاصي حائلاً بينَهُ وبينَ محبوبِهِ .

ولكلِّ واحدٍ مِنَ العلمِ والندمِ والعزمِ دوامٌ وتمامٌ ، ولتمامِها علامةٌ ، ولدوامِها شرطٌ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِها .

أمَّا العلمُ : فالنظرُ فيهِ نظرٌ في سببِ التوبةِ ، وسيأتي .

وأمَّا الندمُ : فهوَ توجُّعُ القلبِ عندَ شعورِهِ بفواتِ المحبوبِ ، وعلامتُهُ : طولُ الحسرةِ والحزنِ ، وانسكابُ الدمعِ وطولُ البكاءِ والفكرِ ، فمَنِ استشعرَ عقوبةً نازلةً بولدِهِ أوْ ببعضِ أعزَّتِهِ .. طالَ عليهِ بكاؤُهُ لمصيبتِهِ ، وأيُّ عزيزٍ أعزُّ عليهِ مِنْ نفسِهِ ؟! وأيُّ عقوبةٍ أشدُّ مِنَ النارِ ؟! وأيُّ سببٍ أدلُّ علىٰ نزولِ العقوبةِ مِنَ المعاصي ؟! وأيُّ مخبرٍ أصدقُ مِنَ اللهِ ورسولِهِ ؟!

ولوْ حدَّثَهُ إنسانٌ واحدٌ يسمَّىٰ طبيباً أنَّ ولدَهُ المريضَ لا يبرأُ ، وأنَّهُ سيموتُ منهُ .. طالَ في الحالِ حزنُهُ ، فليسَ ولدُهُ بأعزَّ مِنْ نفسِهِ ، ولا الطبيبُ بأعلمَ ولا أصدقَ مِنَ اللهِ ورسولِهِ ، ولا الموتُ بأشدَّ مِنَ النارِ ، ولا المرضُ بأدلَّ على الموتِ مِنَ المعاصي علىٰ سخطِ اللهِ تعالىٰ ، والتعرضِ بها للنارِ .

فألمُ الندمِ كلَّما كانَ أشدَّ .. كانَ تكفيرُ الذنوبِ بهِ أرجىٰ ، فعلامةُ صحَّةِ الندمِ رقَّةُ القلبِ ، وغزارةُ الدمعِ ، وفي الخبرِ : (جالسوا التوَّابينَ ؛ فإنَّهُمْ أرقُّ أفئدةً)[1]

ومِنْ علامتِهِ : أنْ تتمكَّنَ مرارةُ تلكَ الذنوبِ في قلبِهِ بدلاً مِنْ حلاوتِها ، فيستبدلُ بالميلِ كراهيةً ، وبالرغبةِ نفرةً .

وفي الإسرائيلياتِ : أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ قالَ لبعضِ أنبيائِهِ وقدْ سألَهُ قبولَ توبةِ عبدٍ بعدَ أنِ اجتهدَ سنينَ في العبادةِ ولمْ يرَ قبولَ توبتِهِ فقالَ : وعزَّتي وجلالي ؛ لوْ شفعَ فيهِ أهلُ السماواتِ والأرضِ ما قبلتُ توبتَهُ وحلاوةُ ذٰلكَ الذنبِ الذي تابَ منهُ في قلبِهِ[2]

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فالذنوبُ هيَ أعمالٌ مشتهاةٌ بالطبعِ ، فكيفَ يجدُ مرارتَها ؟

فأقولُ : مَنْ تناولَ عسلاً كانَ فيهِ سمٌّ ولمْ يدركْهُ بالذوقِ واستلذَّهُ ، ثمَّ مرضَ وطالَ مرضُهُ وألمُهُ ، وتناثرَ شعرُهُ ، وفُلِجَتْ أعضاؤُهُ ، فإذا قدِّمَ إليهِ عسلٌ فيهِ مثلُ ذٰلكَ السمِّ وهوَ في غايةِ الجوعِ والشهوةِ للحلاوةِ .. فهلْ تنفرُ نفسُهُ عنْ ذٰلكَ العسلِ أمْ لا ؟

فإنْ قلتَ : لا ، فهوَ جحدٌ للضرورةِ والمشاهدةِ ، بلْ ربَّما تنفرُ عنِ العسلِ الذي ليسَ فيهِ سمٌّ أيضاً ؛ لشبهِهِ بهِ !!

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٦) ، وأحمد في « الزهد » (٦٣١) موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه

(٢) قوت القلوب (١٨١/١) .

فوجدانُ التائبِ مرارةَ الذنبِ كذٰلكَ يكونُ ، وذٰلكَ لعلمِهِ بأنَّ كلَّ ذنبٍ فذوقُهُ ذوقُ العسلِ ، وعملُهُ عملُ السمّ .

ولا تصحُّ التوبةُ ولا تصدقُ إلا بمثلِ هٰذا الإيمانِ ، ولمَّا عزَّ مثلُ هٰذا الإيمانِ . . عزَّتِ التوبةُ والتائبونَ ، فلا ترىٰ إلا معرضاً عنِ اللهِ تعالىٰ ، متهاوناً بالذنوبِ ، مصرّاً عليها .

فهٰذا شرطُ تمامِ الندمِ .

وينبغي أنْ يدومَ إلى الموتِ ، وينبغي أنْ يجدَ هٰذهِ المرارةَ في جميعِ الذنوبِ وإنْ لمْ يكنْ قدِ ارتكبها مِنْ قبلُ ؛ كما يجدُ متناولُ السمّ في العسلِ النفرةَ مِنَ الماءِ البارِدِ مهما علمَ أنَّ فيهِ مثلَ ذٰلكَ السمّ ؛ إذْ لمْ يكنْ ضررُهُ مِنَ العسلِ ، بلْ ممَّا فيهِ ، ولمْ يكنْ ضررُ التائبِ مِنْ سرقتِهِ وزناهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ سرقةٌ وزناً ، بلْ مِنْ حيثُ مخالفتُهُ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ جارٍ في كلِّ ذنبٍ .

وأمَّا القصدُ الذي ينبعثُ منهُ ، وهوَ إرادةُ التداركِ : فلهُ **تعلُّقٌ بالحالِ** ؛ وهوَ موجِبٌ تركَ كلِّ محظورٍ هوَ ملابسٌ لهُ ، وأداءَ كلِّ فرضٍ هوَ متوجِّهٌ عليهِ في الحالِ ، ولهُ **تعلُّقٌ بالماضي** ؛ وهوَ تداركُ ما فرطَ ، وله **تعلُّقٌ بالمستقبلِ** ؛ وهوَ دوامُ الطاعةِ ودوامُ تركِ المعصيةِ إلى الموتِ .

وشرطُ صحتِهِ فيما يتعلَّقُ بالماضي : أنْ يردَّ فكرَهُ إلىٰ أوَّلِ يومٍ بلغَ فيهِ بالسنِّ أوِ الاحتلامِ ، ويفتِّشَ عمَّا مضىٰ مِنْ عمرِهِ سنةً سنةً ، وشهراً شهراً ، ويوماً يوماً ، ونَفَساً نَفَساً ، وينظرَ إلى الطاعاتِ ما الذي قصَّرَ فيهِ منها ، وإلى المعاصي ما الذي قارفَهُ منها .

فإنْ كانَ قدْ تركَ صلاةً ، أوْ صلَّاها في ثوبٍ نجسٍ ، أوْ صلَّاها بنيَّةٍ غيرِ صحيحةٍ لجهلِهِ بشرطِ النيَّةِ . . فيقضيها عنْ آخرِها ، فإنْ شكَّ في عددِ ما فاتَهُ منها . . حسبَ مِنْ مدَّةِ بلوغِهِ وتركَ القدْرَ الذي يستيقنُ أنَّهُ أدَّاهُ ، ويقضي الباقيَ ، ولهُ أنْ يأخذَ فيهِ بغالبِ الظنِّ ، ويصلُ إليهِ علىٰ سبيلِ التحرّي والاجتهادِ .

وأمَّا الصومُ . . فإنْ كانَ قدْ تركَهُ في سفرٍ ولمْ يقضِهِ ، أوْ أفطرَ عمداً ، أوْ نسيَ النيَّةَ بالليلِ ولمْ يقضِ . . فيتعرَّفُ مجموعَ ذٰلكَ بالتحرّي والاجتهادِ ، ويشتغلُ بقضائِهِ .

وأمَّا الزكاةُ . . فيحسبُ جميعَ مالِهِ ، وعددَ السنينَ مِنْ أوَّلِ ملكِهِ ، لا مِنْ زمانِ البلوغِ ؛ فإنَّ الزكاةَ واجبةٌ في مالِ الصبيّ ، فيؤدِّي ما علمَ بغالبِ الظنِّ أنَّهُ في ذمَّتِهِ ، فإنْ أدَّاهُ لا علىٰ وجهٍ يوافقُ مذهبَهُ ؛ بأنْ لمْ يُصرفْ إلى الأصنافِ الثمانيةِ ، أوْ أخرجَ البدلَ وهوَ علىٰ مذهبِ الشافعيّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ . . فيقضي جميعَ ذٰلكَ ، فإنَّ ذٰلكَ لا يجزئُهُ أصلاً ، وحسابُ الزكاةِ ومعرفةُ ذٰلكَ يطولُ ، ويحتاجُ فيهِ إلىٰ تأمُّلٍ شافٍ ، ويلزمُهُ أنْ يسألَ عنْ كيفيَّةِ الخروجِ عنْهُ العلماءَ .

وأمَّا الحجُّ . . فإنْ كانَ قدِ استطاعَ في بعضِ السنينَ ولمْ يتفقْ لهُ الخروجُ وهوَ الآنَ قدْ أفلسَ . . فعليهِ الخروجُ ، فإنْ لمْ يقدرْ معَ الإفلاسِ . . فعليهِ أنْ يكتسبَ مِنَ الحلالِ قدْرَ الزادِ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ كسبٌ ولا مالٌ . . فعليهِ أنْ يسألَ الناسَ ليُصرفَ إليهِ مِنَ الزكواتِ أوِ الصدقاتِ ما يحجُّ بهِ ؛ فإنَّهُ إنْ ماتَ قبلَ الحجِّ . . ماتَ عاصياً ، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ ماتَ ولمْ يحجَّ . . فليمتْ إنْ شاءَ يهودياً وإنْ شاءَ نصرانياً »[1] ، والعجزُ الطارئُ بعدَ القدرةِ لا يُسقطُ عنهُ الحجَّ .

فهٰذا طريقُ تفتيشِهِ عنِ الطاعاتِ وتداركِها .

---

(1) رواه الترمذي (٨١٢) ، والدارمي في « سننه » (١٨٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥١/٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٣٤/٤) وقال : (وهٰذا وإن كان إسناده غير قوي . . فله شاهد من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . .) وذكره .

وأمَّا المعاصي . . فينبغي أنْ يفتِّشَ مَنْ أوَّلِ بلوغِهِ عنْ سمعِهِ ، وبصرِهِ ، ولسانِهِ ، وبطنِهِ ، ويدِهِ ، ورجلِهِ ، وفرجِهِ ، وسائرِ جوارحِهِ ، ثمَّ ينظرَ في جميعِ أيَّامِهِ وساعاتِهِ ، ويفصِّلَ عندَ نفسِهِ ديوانَ معاصيهِ ، حتَّىٰ يطَّلعَ علىٰ جميعِها ؛ صغائرِها وكبائرِها ، ثمَّ ينظرَ فيها : فما كانَ مِنْ ذٰلكَ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ لا يتعلَّقُ بمظلمةِ العبادِ ؛ كنظرٍ إلىٰ غيرِ محرمٍ ، وقعودٍ في مسجدٍ معَ الجنابةِ ، ومسِّ مصحفٍ بغيرِ وضوءٍ ، واعتقادِ بدعةٍ ، وشربِ خمرٍ ، وسماعِ ملاهٍ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا لا يتعلَّقُ بمظالمِ العبادِ . . فالتوبةُ عنها بالندمِ والتحسُّرِ عليها ، وبأنْ يحسبَ مقدارَها مِنْ حيثُ الكثرةُ ومِنْ حيثُ المدَّةُ ، ويطلبَ لكلِّ معصيةٍ منها حسنةً تناسبُها ، فيأتيَ مِنَ الحسناتِ بمقدارِ تلكَ السيئاتِ ، أخذاً مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقِ اللهَ حيثُ كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[1] ، بلْ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

فيكفِّرُ سماعَ الملاهي بسماعِ القرآنِ وبمجالسِ الذكرِ ، ويكفِّرُ القعودَ في المسجدِ جنباً بالاعتكافِ فيهِ معَ الاشتغالِ بالعبادةِ ، ويكفِّرُ مسَّ المصحفِ محدثاً بإكرامِ المصحفِ ، وكثرةِ قراءةِ القرآنِ منهُ ، وكثرةِ تقبيلِهِ[2] ، وبأنْ يكتبَ مصحفاً ويجعلَهُ وقفاً ، ويكفِّرُ شربَ الخمرِ بالتصدُّقِ بكلِّ شرابٍ حلالٍ هوَ أطيبُ منهُ وأحبُّ إليهِ .

وعدُّ جميعِ المعاصي غيرُ ممكنٍ ، وإنَّما المقصودُ سلوكُ طريقِ المضادَّةِ ، فإنَّ المرضَ يعالجُ بضدِّهِ ، فكلُّ ظلمةٍ ارتفعَتْ إلى القلبِ بمعصيةٍ فلا يمحوها إلا نورٌ يرتفعُ إليها بحسنةٍ تضادُّها ، والمتضادَّاتُ هيَ المتناسباتُ ، فلذٰلكَ ينبغي أنْ يمحوَ كلَّ سيئةٍ بحسنةٍ مِنْ جنسِها لكيْ تضادَّها ، فإنَّ البياضَ يزالُ بالسوادِ ، لا بالحرارةِ والبرودةِ .

وهٰذا التجريدُ والتحقيقُ مِنَ التلطُّفِ في طريقِ المحوِ ، فالرجاءُ فيهِ أصدقُ ، والثقةُ بهِ أكثرُ مِنْ أنْ يواظبَ علىٰ نوعٍ واحدٍ مِنَ العباداتِ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ أيضاً مؤثراً في المحوِ .

فهٰذا حكمُ ما بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ الشيءَ يكفَّرُ بضدِّهِ أنَّ حبَّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وأثرُ اتباعِ الدنيا في القلبِ السرورُ بها ، والإلْفُ لها ، والحنينُ إليها ، فلا جرمَ كانَ كلُّ أذىً يصيبُ المسلمَ ينبو بسببِهِ قلبُهُ عنِ الدنيا يكونُ كفارةً لهُ ؛ إذِ القلبُ يتجافىٰ بالهمومِ والغمومِ عنْ دارِ الهمومِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنَ الذنوبِ ذنوبٌ لا يكفِّرُها إلا الهمومُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « إلا الهمُّ بطلبِ المعيشةِ »[3]

وفي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « إذا كثرَتْ ذنوبُ العبدِ ولمْ تكنْ لهُ أعمالٌ تكفِّرُها . . أدخلَ اللهُ تعالىٰ عليهِ الهمومَ ، فتكونُ كفَّارةً لذنوبِهِ »[4]

ويُقالُ : (إنَّ الهمَّ الذي يدخلُ على القلبِ والعبدُ لا يعرفُهُ هوَ ظلمةُ الذنوبِ والهمُّ بها ، وشعورُ القلبِ بوقفةِ الحسابِ وهولِ المطَّلَعِ)[5]

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٣٦/٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٤٥/٢٠) .

(٢) ووضعه على العينين ، ورفعه في أشرف المواضع . « إتحاف » (٥٧٦/٨) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٣٥/٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠٠/٥٤) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١٥٧/٦) بنحوه .

(٥) بنحوه عند صاحب « القوت » (١٨٦/١) .

فإنْ قلتَ : همُّ الإنسانِ غالباً بمالِهِ وولدِهِ وجاهِهِ ، وهوَ خطيئةٌ ، فكيفَ يكونُ كفَّارةً ؟

فاعلمْ : أنَّ الحبَّ لهُ خطيئةٌ ، والحرمانَ عنهُ كفَّارةٌ ، ولوْ تمتَّعَ بهِ . . لتمَّتِ الخطيئةُ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ دخلَ علىٰ يوسفَ عليهِ السلامُ في السجنِ ، فقالَ لهُ : كيفَ تركتَ الشيخَ الكئيبَ ؟ فقالَ : قدْ حزنَ عليكَ حزنَ مئةِ ثكلىٰ ، قالَ : فما لهُ عندَ اللهِ ؟ قالَ : أجرُ مئةِ شهيدٍ[١]

فإذاً ؛ الهمومُ أيضاً مكفِّراتٌ حقوقَ اللهِ .

فهـٰذا حكمُ ما بينَهُ وبينَ اللهِ .

وأمَّا مظالمُ العبادِ . . ففيها أيضاً معصيةٌ وجنايةٌ علىٰ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ نهىٰ عنْ ظلمِ العبادِ أيضاً ، فما يتعلَّقُ منهُ بحقِّ اللهِ تعالىٰ تداركَهُ بالندمِ والتحسُّرِ ، وتركِ مثلِهِ في المستقبلِ ، والإتيانِ بالحسناتِ التي هيَ أضدادُها ، فيقابلُ إيذاءَهُ الناسَ بالإحسانِ إليهِمْ ، ويكفِّرُ غصْبَ أموالِهِمْ بالتصدُّقِ بملكِهِ الحلالِ ، ويكفِّرُ تناولَ أعراضِهِمْ بالغيبةِ والقدحِ فيهِمْ بالثناءِ علىٰ أهلِ الدينِ وإظهارِ ما يعرفُ مِنْ خصالِ الخيرِ مِنْ أقرانِهِ وأمثالِهِ ، ويكفِّرُ قتْلَ النفوسِ بإعتاقِ الرقابِ ؛ لأنَّ ذٰلكَ إحياءٌ ؛ إذِ العبدُ مفقودٌ لنفسِهِ ، موجودٌ لسيِّدِهِ ، فالإعتاقُ إيجادٌ لا يقدرُ الإنسانُ علىٰ أكثرَ منهُ ، فيقابلُ الإعدامَ بالإيجادِ ، وبهـٰذا تعرفُ أنَّ ما ذكرناهُ مِنْ سلوكِ طريقِ المضادةِ في التكفيرِ والمحوِ مشهودٌ لهُ في الشرعِ ، حيثُ كفَّرَ القتلَ بإعتاقِ رقبةٍ ، ثمَّ إذا فعلَ ذٰلكَ كلَّهُ . . لمْ ينجِهِ ولمْ يكفِهِ ما لمْ يخرجْ عنْ مظالمِ العبادِ ، ومظالمُ العبادِ إمَّا في النفوسِ ، أوِ الأموالِ ، أوِ الأعراضِ ، أوِ القلوبِ ؛ أعني بهِ : الإيذاءَ المحضَ .

أمَّا النفوسُ : فإنْ جرىٰ عليهِ قتلُ خطأً . . فتوبتُهُ بتسليمِ الديةِ ووصولِها إلى المستحقِّ ؛ إمَّا منهُ أوْ مِنْ عاقلتِهِ ، وهوَ في عهدةِ ذٰلكَ قبلَ الوصولِ ، وإنْ كانَ عمداً موجباً للقصاصِ . . فبالقصاصِ ، **فإنْ لمْ يُعرفْ** . . **فيجبُ عليهِ أنْ يعترفَ** عندَ وليِّ الدمِ ، ويحكِّمَهُ في روحِهِ ، فإنْ شاءَ عفا عنهُ ، وإنْ شاءَ . . قتلَهُ ، ولا تسقطُ عهدتُهُ إلا بهـٰذا ، ولا يجوزُ لهُ الإخفاءُ .

وليسَ هـٰذا كما لوْ زنىٰ ، أوْ شربَ ، أوْ سرقَ ، أوْ قطعَ الطريقَ ، أوْ باشرَ ما يجبُ فيهِ حدٌّ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ لا يلزمُهُ في التوبةِ أنْ يفضحَ نفسَهُ ، ويهتكَ سترَهُ ، ويلتمسَ مِنَ الوالي استيفاءَ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ عليهِ أنْ يتسترَ بسترِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويقيمَ حدَّ اللهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ بأنواعِ المجاهدةِ والتعذيبِ ، فالعفوُ في محضِ حقوقِ اللهِ تعالىٰ قريبٌ مِنَ التائبينَ النادمينَ .

فإنْ رفعَ أمرَهُ إلى الوالي حتَّىٰ أقامَ عليهِ الحدَّ . . وقعَ موقعَهُ ، وتكونُ توبتُهُ صحيحةً مقبولةً عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ بدليلِ ما رُوِيَ أنَّ ماعزَ بنَ مالكٍ أتىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي قدْ ظلمتُ نفسي وزنيتُ ، وإنِّي أريدُ أنْ تطهِّرَني ، فردَّهُ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . أتاهُ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي قدْ زنيتُ ، فردَّهُ الثانيةَ والثالثةَ ، فلمَّا كانَ في الرابعةِ . . أمرَ بهِ فحُفرَ لهُ حفيرةٌ ، ثمَّ أمرَ بهِ فرُجمَ ، فكانَ الناسُ فيه فرقتينِ ؛ قائلٌ يقولُ : لقدْ هلكَ ، لقدْ أحاطَتْ بهِ خطيئتُهُ ، وقائلٌ يقولُ : ما توبةٌ أفضلَ مِنْ توبةِ ماعزٍ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ تابَ توبةً لوْ قسمَتْ بينَ أمَّةٍ . . لوسعَتْهُمْ »[٢]

---

(١) كذا في « القوت » (١٨٦/١) ، وبنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (٦٠/١٣/٨) .

(٢) رواه مسلم (١٦٩٥) .

وجاءتِ الغامديَّةُ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي قدْ زنيتُ فطهِّرْني ، فردَّها ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . قالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ لِمَ تردُّني ؟ لعلَّكَ تريدُ أنْ تردِّدَني كما ردَّدْتَ ماعزاً ، فواللهِ ؛ إنِّي لحبلىٰ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إمَّا لا . . فاذهبي حتَّىٰ تلدي » ، فلمَّا ولدَتْ . . أتَتْ بالصبيِّ في خرقةٍ ، فقالَتْ : هٰذا قدْ ولدتُهُ ، قالَ : « اذهبي فأرضعيهِ حتَّىٰ تفطميهِ » ، فلمَّا فطمَتْهُ . . أتَتْ بالصبيِّ وفي يدهِ كسرةُ خبزٍ ، وقالَتْ : هٰذا يا نبيَّ اللهِ قدْ فطمتُهُ ، وقدْ أكلَ الطعامَ ، فدفعَ الصبيَّ إلىٰ رجلٍ مِنَ المسلمينَ ، ثمَّ أمرَ بها ، فحفرَ لها إلىٰ صدرِها ، وأمرَ الناسَ فرجموها ، فأقبلَ خالدُ بنُ الوليدِ بحجرٍ ، فرمىٰ رأسَها ، فتنضَّحَ الدمُ علىٰ وجهِهِ ، فسبَّها ، فسمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبَّهُ إيَّاها ، فقالَ : « مهلاً يا خالدُ ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لقدْ تابَتْ توبةً لوْ تابَها صاحبُ مكسٍ . . لغفرَ لهُ » ، ثمَّ أمرَ بها فصُلِّيَ عليها ودفنَتْ[1]

وأمَّا القصاصُ وحدُّ القذفِ . . فلا بدَّ مِنْ تحكيمِ المستحقِّ فيهِ[2] ، وإنْ كانَ المتناولُ مالاً قدْ تناولَهُ بغصْبٍ أوْ خيانةٍ أوْ غبنٍ في معاملةٍ بنوعِ تلبيسٍ ؛ كترويجِ زائفٍ ، أوْ سَترِ عيبٍ مِنَ المبيعِ ، أوْ نقصِ أجرةِ أجيرٍ ، أوْ منعِ أجرتِهِ ، فكلُّ ذٰلكَ يجبُ أنْ يفتشَ عنهُ ، لا مِنْ حدِّ بلوغِهِ ، بلْ مِنْ أوَّلِ حدِّ وجودِهِ ، فإنَّ ما يجبُ في مالِ الصبيِّ يجبُ على الصبيِّ إخراجُهُ بعدَ البلوغِ إنْ كانَ الوليُّ قدْ قصَّرَ فيهِ ، فإنْ لمْ يفعلْ كانَ ظالماً مطالباً بهِ ؛ إذْ يستوي في الحقوقِ الماليَّةِ الصبيُّ والبالغُ ، وليحاسبْ نفسَهُ على الحبَّاتِ والذرَّاتِ مِنْ أوَّلِ يومِ حياتِهِ إلىٰ يومِ توبتِهِ قبلَ أنْ يُحاسبَ في القيامةِ ، وليناقشْ نفسَهُ قبلَ أنْ يُناقشَ ، فمَنْ لمْ يُحاسبْ نفسَهُ في الدنيا . . طالَ في الآخرةِ حسابُهُ .

فإذا حصلَ مجموعُ ما عليهِ بظنٍّ غالبٍ ونوعٍ مِنَ الاجتهادِ ممكنٍ . . فليكتبْهُ ، وليكتبْ أساميَ أصحابِ المظالمِ واحداً واحداً ، وليطفْ في نواحي العالمِ وليطلبْهُمْ ، وليستحلَّهُمْ أوْ ليؤدِّ حقوقَهُمْ .

وهٰذهِ التوبةُ تشقُّ على الظلمةِ وعلى التجَّارِ ، فإنَّهُمْ لا يقدرونَ علىٰ طلبِ المعاملينَ كلِّهِمْ ، ولا علىٰ طلبِ ورثتِهِمْ ، ولٰكنْ علىٰ كلِّ واحدٍ منهُمْ أنْ يفعلَ منهُ ما يقدرُ عليهِ ، فإنْ عجزَ . . فلا يبقىٰ لهُ طريقٌ إلا أنْ يكثرَ مِنَ الحسناتِ حتَّىٰ تفيضَ منهُ يومَ القيامةِ ، فتُؤخذُ حسناتُهُ وتُوضعُ في موازينِ أربابِ المظالمِ ، ولتكنْ كثرةُ حسناتِهِ بقدْرِ كثرةِ مظالمِهِ ، فإنَّهُ إنْ لمْ تفِ بها حسناتُهُ . . حُمِّلَ مِنْ سيِّئاتِ أربابِ المظالمِ ، فيهلكُ بسيِّئاتِ غيرِهِ .

فهٰذا طريقُ كلِّ تائبٍ في ردِّ المظالمِ ، وهٰذا يوجبُ استغراقَ العمرِ في الحسناتِ لوْ طالَ العمرُ بحسَبِ طولِ مدَّةِ المظالمِ ، فكيفَ وذٰلكَ ممَّا لا يُعرفُ وربَّما يكونُ الأجلُ قريباً ؟! فينبغي أنْ يكونَ تشمُّرُهُ للحسناتِ والوقتُ ضيِّقٌ أشدَّ مِنْ تشمُّرِهِ الذي كانَ في المعاصي في متَّسعِ الأوقاتِ .

هٰذا حكْمُ المظالمِ الثابتةِ في ذمَّتِهِ .

أمَّا أموالُهُ الحاضرةُ . . فليردَّ إلى المالكِ ما يعرفُ لهُ مالكاً معيَّناً ، وما لا يعرفُ لهُ مالكاً . . فعليهِ أنْ يتصدَّقَ بهِ ، فإنِ اختلطَ الحرامُ بالحلالِ . . عرفَ قدْرَ الحرامِ بالاجتهادِ ، وتصدَّقَ بذٰلكَ المقدارِ كما سبقَ تفصيلُهُ في كتابِ الحلالِ والحرامِ .

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) متابعة للحديث السابق ، ومفرداً كما هو هنا ، وقوله : « إما لا » : هو بكسر الهمز وتشديد الميم وبالإمالة ، وفي غير (ب ، س) : (أما الآن) بدل (إما لا) ، وهو غلط كما قاله الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٨٠/٨) ، قال الإمام النووي في « شرح مسلم » (٢٠٣/١١) : (ومعناه : إذا أبيت أن تستري على نفسك وتتوبي وترجعي عن قولك . . فاذهبي حتى تلدي فتُرجمين بعد ذٰلك) .

(٢) فإن شاء . . اقتصَّ ، وإن شاء . . عفا ، وكذا في حدِّ القذف . « إتحاف » (٥٨٢/٨) .

وأمَّا الجنايةُ على القلوبِ بمشافهةِ الناسِ بما يسوءُهُمْ أوْ يعيبُهُمْ في الغيبةِ . . فليطلبْ كلَّ مَنْ تعرَّضَ لهُ بلسانِهِ ، أوْ آذىٰ قلبَهُ بفعلٍ مِنْ أفعالِهِ ، وليستحلَّ واحداً واحداً منهُمْ ، ومَنْ ماتَ أوْ غابَ . . فقدْ فاتَ أمرُهُ ، ولا تداركَ لهُ إلا بتكثيرِ الحسناتِ ، لتُؤخذَ منهُ عوضاً في القيامةِ ، وأمَّا مَنْ وجدَهُ وأحلَّهُ بطيبةِ قلبٍ منهُ . . فذٰلكَ كفَّارتُهُ ، وعليهِ أنْ يعرِّفَهُ قدْرَ جنايتِهِ وتعرُّضَهُ لهُ ، فالاستحلالُ المبهمُ لا يكفي ، وربَّما لوْ عرفَ ذٰلكَ وكثرةَ تعدِّيهِ عليهِ . . لمْ تطبْ نفسُهُ بالإحلالِ ، وادخرَ ذٰلكَ في القيامةِ ذخيرةً يأخذُها مِنْ حسناتِهِ ، أوْ يحمِّلُهُ مِنْ سيئاتِهِ .

فإنْ كانَ في جملةِ جنايتِهِ على الغيرِ ما لوْ ذكرَهُ وعرفَهُ لتأذَّىٰ بمعرفتِهِ ؛ كزناهُ بجاريتِهِ أوْ أهلِهِ ، أوْ نسبتِهِ باللسانِ إلىٰ عيبٍ مِنْ خفايا عيوبِهِ يعظمُ أذاهُ مهما شوَّفَهُ بهِ . . فقدِ انسدَّ عليهِ طريقُ الاستحلالِ ، فليسَ لهُ إلا أنْ يستحلَّ مبهماً ، ثمَّ تبقىٰ لهُ مظلمةٌ فليجبرْها بالحسناتِ كما يجبرُ مظلمةَ الميتِ والغائبِ ، فأمَّا الذكرُ والتعريفُ . . فهوَ سيئةٌ جديدةٌ يجبُ الاستحلالُ منها ، ومهما ذكرَ جنايتَهُ وعرَّفَهُ المجنيَّ عليهِ فلمْ تسمحْ نفسُهُ بالإحلالِ . . بقيتِ المظلمةُ عليهِ ؛ فإنَّ هٰذا حقُّهُ ، فعليهِ أنْ يتلطَّفَ بهِ ، ويسعىٰ في مهمَّاتِهِ وأغراضِهِ ، ويظهرَ مِنْ حبِّهِ والشفقةِ عليهِ ما يستميلُ بهِ قلبَهُ ، فإنَّ الإنسانَ عبدُ الإحسانِ ، وكلُّ مَنْ نفرَ بسيئةٍ . . مالَ بحسنةٍ ، فإذا طابَ قلبُهُ بكثرةِ تودُّدِهِ وتلطُّفِهِ . . سمحَتْ نفسُهُ بالإحلالِ ، فإنْ أبىٰ إلَّا الإصرارَ . . فيمكنُ أنْ يكونَ تلطُّفُهُ بهِ واعتذارُهُ إليهِ مِنْ جملةِ حسناتِهِ التي يمكنُ أنْ يجبرَ بها في القيامةِ جنايتَهُ .

وليكنْ قدْرُ سعيِهِ في فرحِهِ وسرورِ قلبِهِ بتودُّدِهِ وتلطُّفِهِ كقدْرِ سعيِهِ في إيذائِهِ ؛ حتَّىٰ إذا قاومَ أحدُهُما الآخرَ أوْ زادَ عليهِ . . أُخِذَ ذٰلكَ منهُ عوضاً في القيامةِ بحكمِ اللهِ بهِ عليهِ ؛ كمَنْ أتلفَ في الدنيا مالاً ، فجاءَ بمثلِهِ ، فامتنعَ مَنْ لهُ المالُ عنِ القبولِ وعنِ الإبراءِ ، فإنَّ الحاكمَ يحكمُ عليهِ بالقبضِ منهُ شاءَ أمْ أبىٰ ، فكذٰلكَ يحكمُ في صعيدِ القيامةِ أحكمُ الحاكمينَ وأعدلُ المقسطينَ .

وفي المتفقِ عليهِ مِنَ « الصحيحينِ » عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كانَ فيمَنْ كانَ قبلَكُمْ رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفساً ، فسألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ ، فدُلَّ علىٰ راهبٍ ، فأتاهُ فقالَ : إنَّهُ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفساً ، فهلْ لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فقالَ : لا ، فقتلَهُ ، فكمَّلَ بهِ مئةً ، ثمَّ سألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ ، فدُلَّ علىٰ رجلٍ عالمٍ ، فقالَ لهُ : إنَّهُ قتلَ مئةَ نفسٍ ، فهلْ لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فقالَ : نعمْ ، ومَنْ يحولُ بينَهُ وبينَ التوبةِ ؟ انطلقْ إلىٰ أرضِ كذا وكذا ، فإنَّ بها أناساً يعبدونَ اللهَ عزَّ وجلَّ ، فاعبدِ اللهَ معَهُمْ ولا ترجعْ إلىٰ أرضِكَ ، فإنَّها أرضُ سوءٍ ، فانطلقَ ، حتَّىٰ إذا نَصَفَ الطريقُ . . أتاهُ الموتُ ، فاختصمَتْ فيهِ ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ ، فقالَتْ ملائكةُ الرحمةِ : جاءَ تائباً مقبلاً بقلبِهِ إلى اللهِ ، وقالَتْ ملائكةُ العذابِ : إنَّهُ لمْ يعملْ خيراً قطُّ ، فأتاهُمْ ملكٌ في صورةِ آدميٍّ ، فجعلوهُ حَكَماً بينَهُمْ ، فقالَ : قيسوا ما بينَ الأرضينِ ، فإلىٰ أيتِهما كانَ أدنىٰ . . فهوَ لها ، فقاسوا ، فوجدوهُ أدنىٰ إلى الأرضِ التي أرادَ ، فقبضَتْهُ ملائكةُ الرحمةِ » ، وفي روايةٍ : « فكانَ إلى القريةِ الصالحةِ أقربَ منها بشبرٍ ، فجُعِلَ مِنْ أهلِها » ، وفي روايةٍ : « فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ هٰذهِ أنْ تباعدي ، وإلىٰ هٰذهِ أنْ تقرَّبي ، وقالَ : قيسوا ما بينَهُما ، فوجدوهُ إلىٰ هٰذهِ أقربَ بشبرٍ ، فغُفِرَ لهُ »[1]

فبهٰذا تعرفُ أنَّهُ لا خلاصَ إلا برجحانِ ميزانِ الحسناتِ ولوْ بمثقالِ ذرَّةٍ ، فلا بدَّ للتائبِ مِنْ تكثيرِ الحسناتِ .

هٰذا حكمُ القصدِ المتعلِّقِ بالماضي .

---

(١) هو كما قال المصنف رحمه الله تعالىٰ عند البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ والروايات له .

فأمَّا العزمُ المرتبطُ بالاستقبالِ : فهوَ أنْ يعقدَ معَ اللهِ عقداً مؤكَّداً ، ويعاهدَهُ بعهدٍ وثيقٍ ألا يعودَ إلىٰ تلكَ الذنوبِ ، ولا إلىٰ أمثالِها ؛ كالذي يعلمُ في مرضِهِ أنَّ الفاكهةَ تضرُّهُ مثلاً ، فيعزمُ عزماً جزْماً أنَّهُ لا يتناولُ الفاكهةَ ما لمْ يزلْ مرضُهُ ، فإنَّ هـٰذا العزمَ يتأكَّدُ في الحالِ وإنْ كانَ يُتصوَّرُ أنْ تغلبَهُ الشهوةُ في ثاني الحالِ ، ولـٰكنْ لا يكونُ تائباً ما لمْ يتأكَّدْ عزمُهُ في الحالِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يتمَّ ذٰلكَ للتائبِ في أوَّلِ أمرِهِ إلا بالعزلةِ ، والصمتِ ، وقلَّةِ الأكلِ والنومِ ، وإحرازِ قوتٍ حلالٍ .

فإنْ كانَ لهُ مالٌ موروثٌ حلالٌ ، أوْ كانَتْ لهُ حرفةٌ يكتسبُ بها قدْرَ الكفايةِ . . فليقتصرْ عليهِ ، فإنَّ رأسَ المعاصي أكلُ الحرامِ ، فكيفَ يكونُ تائباً معَ الإصرارِ عليهِ ؟!

ولا يكتفي بالحلالِ وتركِ الشبهاتِ مَنْ لا يقدرُ علىٰ تركِ الشهواتِ في المأكولاتِ والملبوساتِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (مَنْ صدقَ في تركِ شهوةٍ ، وجاهدَ نفسَهُ للهِ سبعَ مرَّاتٍ . . لمْ يبتلَ بها)(١)

وقالَ آخرُ : (مَنْ تابَ مِنْ ذنبٍ واستقامَ عليهِ سبعَ سنينَ . . لمْ يعدْ إليهِ أبداً)(٢)

ومِنْ مهمَّاتِ التائبِ إذا لمْ يكنْ عالماً : أنْ يتعلَّمَ ما يجبُ عليهِ في المستقبلِ وما يحرمُ عليهِ ؛ حتَّىٰ يمكنَهُ الاستقامةُ ، وإنْ لمْ يؤثِرِ العزلةَ . . لمْ تتمَّ لهُ الاستقامةُ المطلقةُ ، إلا أنْ يتوبَ عنْ بعضِ الذنوبِ ؛ كالذي يتوبُ عنِ الشربِ والزنا والغصْبِ مثلاً ، وليسَتْ هـٰذهِ توبةً مطلقةً ، وقدْ قالَ بعضُ الناسِ : (إنَّ هـٰذهِ التوبةَ لا تصحُّ)(٣) .

وقالَ قائلونَ : (تصحُّ)(٤)

ولفظُ الصحَّةِ في هـٰذا المقامِ مجملٌ ، بلْ نقولُ لمَنْ قالَ : (لا تصحُّ) : إنْ عنيتَ بهِ أنَّ تركَهُ بعضَ الذنوبِ لا يفيدُ أصلاً ، بلْ وجودُهُ كعدمِهِ . . فما أعظمَ خطأَكَ ، فإنَّا نعلمُ أنَّ كثرةَ الذنوبِ سببٌ لكثرةِ العقابِ ، وقلَّتَها سببٌ لقلَّتِهِ .

ونقولُ لمَنْ قالَ : (تصحُّ) : إنْ أردتَ بهِ أنَّ التوبةَ عنْ بعضِ الذنوبِ توجبُ قبولاً يوصلُ إلى النجاةِ والفوزِ . . فهـٰذا أيضاً خطأٌ ، بلِ النجاةُ والفوزُ بتركِ الجميعِ

هـٰذا حكْمُ الظاهرِ ، ولسنا نتكلَّمُ في خفايا أسرارِ عفوِ اللهِ .

وإنْ قالَ مَنْ ذهبَ إلىٰ أنَّها لا تصحُّ : إنِّي أردتُ بِهِ أنَّ التوبةَ عبارةٌ عنِ الندمِ ، وإنَّما يندمُ على السرقةِ مثلاً لكونِها معصيةً ، لا لكونِها سرقةً ، ويستحيلُ أنْ يندمَ عليها دونَ الزنا إنْ كانَ توجُّعُهُ لأجلِ المعصيةِ ؛ فإنَّ العلَّةَ شاملةٌ لهما ؛ إذْ مَنْ يتوجَّعُ علىٰ قتلِ ولدِهِ بالسيفِ يتوجَّعُ علىٰ قتلِهِ بالسكينِ ؛ لأنَّ توجُّعَهُ بفواتِ محبوبِهِ سواءٌ كانَ بالسيفِ أوْ بالسكينِ ، فكذٰلكَ توجُّعُ العبدِ بفواتِ محبوبِهِ ، وذٰلكَ بالمعصيةِ سواءً عصىٰ بالسرقةِ أوْ بالزنا ، فكيفَ يتوجَّعُ على البعضِ دونَ البعضِ ؟! فالندمُ حالةٌ يوجبُها العلمُ بكونِ المعصيةِ مفوتةً للمحبوبِ مِنْ حيثُ إنَّها معصيةٌ ، فلا يتصوَّرُ أنْ يكونَ علىٰ بعضِ المعاصي دونَ بعضٍ ، ولوْ جازَ هـٰذا . . لجازَ أنْ يتوبَ مَنْ شربَ الخمرَ مِنْ أحدِ الدَّنَّينِ دونَ الآخرِ ، فإنِ استحالَ ذٰلكَ مِنْ حيثُ إنَّ المعصيةَ في الخمرينِ واحدةٌ ، وإنَّما الدِّنانُ ظروفٌ . . فكذٰلكَ أعيانُ المعاصي آلاتٌ للمعصيةِ ، والمعصيةُ مِنْ حيثُ مخالفةُ الأمرِ واحدةٌ .

---

(١) قوت القلوب (١/١٨٨) ، وقريب منها كلمة أبي يزيد البسطامي المشهورة التي رواها القشيري في « رسالته » (ص ٦٧) : (ومن صدق في ترك شهوة . . ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالىٰ أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له) .

(٢) قوت القلوب (١/١٨٨) ، وقوله : (واستقام عليه) أي : علىٰ توبته من ذٰلك الذنب ، وسقطت (عليه) من « القوت » وهو المناسب للسياق .

(٣) وهو المحكي عن المعتزلة . « إتحاف » (٨/٥٨٤) .

(٤) وهو المحكي عن أهل السنة والجماعة . « إتحاف » (٨/٥٨٤) .

فإذاً ؛ معنىٰ عدمِ الصحَّةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ وعدَ التائبينَ رتبةً ، وتلكَ الرتبةُ لا تُنالُ إلا بالندمِ ، ولا يُتصوَّرُ الندمُ علىٰ بعضِ المتماثلاتِ ، فهوَ كالمِلْكِ المرتَّبِ على الإيجابِ والقبولِ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يتمَّ الإيجابُ والقبولُ . يُقالُ : إنَّ العقدَ لمْ يصحَّ ؛ أيْ : لا تترتَّبُ عليهِ الثمرةُ ، وهوَ المِلْكُ .

وتحقيقُ هٰذا : أنَّ ثمرةَ مجرَّدِ التركِ أنْ ينقطعَ عنهُ عقابُ ما تركَهُ ، وثمرةَ الندمِ تكفيرُ ما سبقَ ، فتركُ السرقةِ لا يكفِّرُ السرقةَ ، بلِ الندمُ عليها يكفِّرُها ، ولا يُتصوَّرُ الندمُ إلا لكونِها معصيةً ، وذٰلكَ يعمُّ جميعَ المعاصي .

وهٰذا كلامٌ مفهومٌ واقعٌ ، يستنطقُ المنصِفَ بتفصيلٍ بهِ ينكشفُ الغطاءُ ، فنقولُ : التوبةُ عنْ بعضِ الذنوبِ لا تخلو : إمَّا أنْ تكونَ عنِ الكبائرِ دونَ الصغائرِ ، أوْ عنِ الصغائرِ دونَ الكبائرِ ، أوْ عن كبيرةٍ دونَ كبيرةٍ .

❁ ❁ ❁

أمَّا التوبةُ عنِ الكبائرِ دونَ الصغائرِ : فأمرٌ ممكنٌ ؛ لأنَّهُ يعلمُ أنَّ الكبائرَ أعظمُ عندَ اللهِ ، وأجلبُ لسخطِ اللهِ ومقتِهِ ، والصغائرَ أقربُ إلىٰ تطرُّقِ العفوِ إليها ، فلا يستحيلُ أنْ يتوبَ عنِ الأعظمِ ويتندَّمَ عليهِ ؛ كالذي يجني علىٰ أهلِ الملكِ وحرمِهِ ، ويجني علىٰ دابَّتِهِ ، فيكونُ خائفاً مِنَ الجنايةِ على الأهلِ ، مستحقراً للجنايةِ على الدابَّةِ ، والندمُ بحسَبِ استعظامِ الذنبِ ، واعتقادِ كونِهِ مبعِداً عنِ اللهِ تعالىٰ .

وهٰذا ممكنٌ وجودُهُ في الشرعِ ، فقدْ كثرَ التائبونَ في الأعصارِ الخاليةِ ولمْ يكنْ أحدٌ منهُمْ معصوماً ، فلا تستدعي التوبةُ العصمةَ ، والطبيبُ قدْ يحذِّرُ المريضَ العسلَ تحذيراً شديداً ، ويحذِّرُهُ السكَّرَ تحذيراً أخفَّ منهُ ، علىٰ وجهٍ يشعرُ معَهُ بأنَّهُ ربَّما لا يظهرُ ضررُ السكَّرِ أصلاً ، فيتوبُ المريضُ بقولِهِ عنِ العسلِ دونَ السكَّرِ ، فهٰذا غيرُ محالٍ وجودُهُ ، وإنْ أكلَهُما جميعاً بحكْمِ شهوتِهِ . . ندمَ علىٰ أكلِ العسلِ دونَ السكَّرِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : أنْ يتوبَ عنْ بعضِ الكبائرِ دونَ بعضٍ : وهٰذا أيضاً ممكنٌ ؛ لاعتقادِهِ أنَّ بعضَ الكبائرِ أشدُّ وأغلظُ مِنْ بعضٍ عندَ اللهِ ؛ كالذي يتوبُ عنِ القتلِ والنهبِ والظلمِ ومظالمِ العبادِ لعلمِهِ أنَّ ديوانَ العبادِ لا يُتركُ ، وما بينَهُ وبينَ اللهِ يتسارعُ العفوُ إليهِ .

فهٰذا أيضاً ممكنٌ ، كما في تفاوتِ الكبائرِ والصغائرِ ؛ لأنَّ الكبائرَ أيضاً متفاوتةٌ في أنفسِها وفي اعتقادِ مرتكبِيها .

وكذٰلكَ قدْ يتوبُ عنْ بعضِ الكبائرِ التي لا تتعلَّقُ بالعبادِ ، كما يتوبُ عنْ شربِ الخمرِ دونَ الزنا مثلاً ؛ إذْ يتضحُ لهُ أنَّ الخمرَ مفتاحُ الشرورِ ، وأنَّهُ إذا زالَ عقلُهُ . . ارتكبَ جميعَ المعاصي وهوَ لا يدري ، فبحسَبِ ترجُّحِ شربِ الخمرِ عندَهُ ينبعثُ منهُ خوفٌ يوجبُ ذٰلكَ تركاً في المستقبلِ وندماً على الماضي .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : أنْ يتوبَ عنْ صغيرةٍ أوْ صغائرَ وهوَ مصرٌّ علىٰ كبيرةٍ يعلمُ أنَّها كبيرةٌ : كالذي يتوبُ عنِ الغيبةِ أوْ عنِ النظرِ إلىٰ غيرِ المحرمِ أو ما يجري مَجراهُ وهوُ مصرٌّ علىٰ شربِ الخمرِ ، وهوَ أيضاً ممكنٌ ، ووجهُ إمكانِهِ : أنَّهُ ما مِنْ مؤمنٍ إلا وهوَ خائفٌ علىٰ معاصيهِ[1] ، ونادمٌ علىٰ فعلِهِ ندماً إمَّا ضعيفاً وإمَّا قوياً ، ولٰكنْ تكونُ لذَّةُ نفسِهِ في تلكَ المعصيةِ

---

(١) كذا (علىٰ معاصيه) ، ومن معاني (على) التعليل ؛ أي : خائف لوجود معاصيه .

أقوىٰ مِنْ ألمِ قلبِهِ في الخوفِ منها لأسبابٍ توجبُ ضعفَ الخوفِ ؛ مِنَ الجهلِ والغفلةِ ، وأسبابٍ توجبُ قوَّةَ الشهوةِ ، فيكونُ الندمُ موجوداً ، ولٰكنْ لا يكونُ مليئاً بتحريكِ العزمِ[1] ، ولا قويّاً عليهِ ، فإنْ سلمَ عنْ شهوةٍ أقوىٰ منهُ ، بأنْ لمْ يعارضْهُ إلا ما هوَ أضعفُ . . قهرَ الخوفُ الشهوةَ وغلبَها ، وأوجبَ ذٰلكَ تركَ المعصيةِ .

وقدْ تشتدُّ ضراوةُ الفاسقِ بالخمرِ ، فلا يقدرُ على الصبرِ عنها ، وتكونُ لهُ ضراوةٌ ما بالغيبةِ وثلبِ الناسِ والنظرِ إلىٰ غيرِ المحرمِ ، وخوفُهُ مِنَ اللهِ قدْ بلغَ مبلغاً يقمعُ هٰذهِ الشهوةَ الضعيفةَ دونَ القويَّةِ ، فيوجبُ غلبةُ جندِ الخوفِ انبعاثَ العزمِ للتركِ ، بلْ يقولُ هٰذا الفاسقُ في نفسِهِ : (إنْ قهرَني الشيطانُ بواسطةِ غلبةِ الشهوةِ في بعضِ المعاصي . . فلا ينبغي أنْ أخلعَ العذارَ وأرخي العِنانَ بالكليَّةِ ، بلْ أجاهدُهُ في بعضِ المعاصي ، فعساني أغلبُهُ ، فيكونُ قهري لهُ في البعضِ كفارةً لبعضِ ذنوبي) ، ولوْ لمْ يُتصوَّرْ هٰذا . . لما تُصوِّرَ مِنَ الفاسقِ أنْ يصلِّيَ ويصومَ ، ولقيلَ لهُ : (إنْ كانَتْ صلاتُكَ لغيرِ اللهِ . . فلا تصحُّ ، وإنْ كانَتْ للهِ . . فاتركِ الفسقَ للهِ ، فإنَّ أمرَ اللهِ فيهِ واحدٌ ، فلا يُتصوَّرُ أنْ تقصدَ بصلاتِكَ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ ما لمْ تتقرَّبْ بتركِ الفسقِ) ، وهٰذا محالٌ ، بلْ يقولُ : (للهِ تعالىٰ عليَّ أمرانِ ، ولي على المخالفةِ فيهما عقوبتانِ ، وأنا مليءٌ في أحدِهما بقهْرِ الشيطانِ ، عاجزٌ عنهُ في الآخرةِ ، فأنا أقهرُهُ فيما أقدرُ عليهِ ، وأرجو بمجاهدتي فيهِ أنْ يُكفِّرَ عني بعضُ ما عجزتُ عنهُ لفرطِ شهوتي) ، فكيفَ لا يُتصوَّرُ هٰذا وهوَ حالُ كلِّ مسلمٍ ؟! إذْ لا مسلمَ إلا وهوَ جامعٌ بينَ طاعةِ اللهِ ومعصيتِهِ ، ولا سببَ لهُ إلا هٰذا .

وإذا فهمَ هٰذا . . فهمَ أنَّ غلبةَ الخوفِ للشهوةِ في بعضِ الذنوبِ ممكنٌ وجودُها ، والخوفُ إذا كانَ مِنْ فعلٍ ماضٍ أورثَ الندمَ ، والندمُ يورثُ العزمَ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الندمُ توبةٌ »[2] ، ولمْ يشترطِ الندمَ علىٰ كلِّ ذنبٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ »[3] ، ولمْ يقلِ : التائبُ مِنَ الذنوبِ كلِّها

وبهٰذهِ المعاني تبيَّنَ سقوطُ قولِ القائلِ : إنَّ التوبةَ عنْ بعضِ الذنوبِ غيرُ ممكنةٍ ؛ لأنَّها متماثلةٌ في حقِّ الشهوةِ ، وفي حقِّ التعرُّضِ لسخطِ اللهِ تعالىٰ .

نعمْ ؛ يجوزُ أنْ يتوبَ عنْ شربِ الخمرِ دونَ النبيذِ ؛ لتفاوتِهِما في اقتضاءِ السخطِ ، ويتوبَ عنِ الكثيرِ دونَ القليلِ ؛ لأنَّ لكثرةِ المعصيةِ تأثيراً في كثرةِ العقوبةِ ، فيساعدُ الشهوةَ بالقدْرِ الذي يعجزُ عنهُ ، ويتركُ بعضَ شهوتِهِ للهِ تعالىٰ ، كالمريضِ الذي حذَّرَهُ الطبيبُ الفاكهةَ ، فإنَّهُ قدْ يتناولُ قليلَها ، ولٰكنْ لا يستكثرُ منها .

فقدْ حصلَ مِنْ هٰذا : أنَّهُ لا يمكنُ أنْ يتوبَ عنْ شيءٍ ولا يتوبَ عنْ مثلِهِ ، بلْ لا بدَّ وأنْ يكونَ ما تابَ عنهُ مخالفاً لما بقيَ عليهِ ؛ إمَّا في شدَّةِ المعصيةِ ، وإمَّا في غلبةِ الشهوةِ ، وإذا حصلَ هٰذا التفاوتُ في اعتقادِ التائبِ . . تُصوِّرَ اختلافُ حالِهِ في الخوفِ والندمِ ، فيُتصوَّرُ اختلافُ حالِهِ في التركِ ، فندمُهُ علىٰ ذٰلكَ الذنبِ ووفاؤُهُ بعزمِهِ على التركِ يلحقُهُ بمَنْ لمْ يذنبْ ، وإنْ لمْ يكنْ قدْ أطاعَ اللهَ في جميعِ الأوامرِ والنواهي .

❁ ❁ ❁

---

(1) المليء : بوزن فعيل ، هنا وفي سياقات آتية بمعنى : قادر .

(2) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

(3) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

فإنْ قلتَ : فهلْ تصحُّ توبةُ العنّينِ مِنَ الزنا الذي قارفَهُ قبلَ طريانِ العنَّةِ ؟

فأقولُ : لا ؛ لأنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ ندمٍ يبعثُ العزمَ على التركِ فيما يقدرُ علىٰ فعلِهِ ، وما لا يقدرُ علىٰ فعلِهِ فقدِ انعدمَ بنفسِهِ ، لا بتركِهِ إيَّاهُ .

ولٰكنِّي أقولُ : لوْ طرأَ عليهِ بعدَ العنَّةِ كشفٌ ومعرفةٌ تحقَّقَ بهِ ضررَ الزنا الذي قارفَهُ ، وثارَ منهُ احتراقٌ وتحسُّرٌ وندمٌ ؛ بحيثُ لوْ كانَتْ شهوةُ الوقاعِ باقيةً لكانَتْ حرقةُ الندمِ تقمعُ تلكَ الشهوةَ وتغلبُها . فإنِّي أرجو أنْ يكونَ ذٰلكَ مكفِّراً لذنبِهِ ، وماحياً عنهُ سيِّئتَهُ ؛ إذْ لا خلافَ في أنَّهُ لوْ تابَ قبلَ طريانِ العنَّةِ وماتَ عَقيبَ التوبةِ . . كانَ مِنَ التائبينَ وإنْ لمْ تطرأْ عليهِ حالةٌ تهيجُ فيها الشهوةُ ، وتتيسَّرُ فيها أسبابُ القضاءِ للشهوةِ ، ولٰكنَّهُ تائبٌ باعتبارِ أنَّ ندمَهُ بلغَ مبلغاً أوجبَ صرْفَ قصدِهِ عنِ الزنا لوْ ظهرَ قصدُهُ .

فإذاً ؛ لا يستحيلُ أنْ تبلغَ قوَّةُ الندمِ في حقِّ العنِّينِ هٰذا المبلغَ ، إلا أنَّهُ لا يعرفُهُ مِنْ نفسِهِ ، فإنَّ كلَّ مَنْ لا يشتهي شيئاً يقدِّرُ نفسَهُ قادراً علىٰ تركِهِ بأدنىٰ خوفٍ ، واللهُ تعالىٰ مطلعٌ علىٰ ضميرِهِ وعلىٰ مقدارِ تندُّمِهِ ، فعساهُ يقبلُهُ منهُ ، بلِ الظاهرُ أنَّهُ يقبلُهُ .

والحقيقةُ في هٰذا كلِّهِ ترجعُ إلىٰ أنَّ ظلمةَ المعصيةِ تنمحي عنِ القلبِ بشيئينِ :

أحدُهُما : حرقةُ الندمِ .

والآخرُ : شدَّةُ المجاهدةِ بالتركِ في المستقبلِ .

وقدِ امتنعَتِ المجاهدةُ بزوالِ الشهوةِ ، ولٰكنْ ليسَ محالاً أنْ يقوى الندمُ بحيثُ يقوىٰ علىٰ محوِها دونَ المجاهدةِ ، ولولا هٰذا . . لقلنا : إنَّ التوبةَ لا تُقبلُ ما لمْ يعشِ التائبُ بعدَ التوبةِ مدَّةً يجاهدُ نفسَهُ في عينِ تلكَ الشهوةِ مرَّاتٍ كثيرةً ، وذٰلكَ ممَّا لا يدلُّ ظاهرُ الشرعِ على اشتراطِهِ أصلاً

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : إذا فرضْنا تائبينِ ؛ أحدُهُما : سكنتْ نفسُهُ عنِ النزوعِ إلى الذنبِ ، والآخرُ : بقيَ في نفسِهِ نزوعٌ إليهِ وهوَ يجاهدُها ويمنعُها ، فأيُّهُما أفضلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا ممَّا اختلفَ العلماءُ فيهِ :

فقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ وأصحابُ أبي سليمانَ الدارانيِّ : إنَّ المجاهدَ أفضلُ ؛ لأنَّ لهُ معَ التوبةِ فضْلَ الجهادِ .

وقالَ علماءُ البصرةِ : ذٰلكَ الآخرُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ لوْ فترَ في توبتِهِ . . كانَ أقربَ إلى السلامةِ مِنَ المجاهدِ الذي هوَ في عرضةِ القصورِ عنِ المجاهدةِ .

وما قالَهُ كلُّ واحدٍ مِنَ الفريقينِ لا يخلو عنْ حقٍّ وعنْ قصورٍ عنْ كمالِ الحقيقةِ .

والحقُّ فيهِ : أنَّ الذي انقطعَ نزوعُ نفسِهِ لهُ حالتانِ :

إحداهُما : أنْ يكونَ انقطاعُ نزوعِهِ إليهِ لفتورٍ في نفسِ الشهوةِ فقطْ ، فالمجاهدةُ أفضلُ مِنْ هٰذا ؛ إذْ تركُهُ بالمجاهدةِ قدْ دلَّ علىٰ قوَّةِ يقينِهِ ، واستيلاءِ دينِهِ علىٰ شهوتِهِ ، فهوَ دليلٌ قاطعٌ علىٰ قوَّةِ اليقينِ ، وعلىٰ قوَّةِ الدينِ ، وأعني بقوَّةِ

الدينِ : قوّةَ الإرادةِ التي تنبعثُ بإشارةِ اليقينِ ، وتقمعُ الشهوةَ المنبعثةَ بإشارةِ الشياطينِ ، فهاتان قوّتانِ تدلُّ المجاهدةُ عليهما قطعاً .

وقولُ القائلِ : (إنَّ هـٰذا أسلمُ ؛ إذْ لوْ فترَ . . لا يعودُ إلى الذنبِ) ، فهـٰذا صحيحٌ ، ولـٰكنِ استعمالُ لفظِ الأفضلِ فيهِ خطأٌ ، وهوَ كقولِ القائلِ : (العنينُ أفضلُ مِنَ الفحلِ ؛ لأنَّهُ في أمنٍ مِنْ خطرِ الشهوةِ ، والصبيُّ أفضلُ مِنَ البالغِ ؛ لأنَّهُ أسلمُ ، والمفلسُ أفضلُ مِنَ الملكِ القاهرِ القامعِ لأعدائِهِ ؛ لأنَّ المفلسَ لا عدوَّ لهُ والملكُ ربَّما يُغلبُ مرَّةً وإنْ غلبَ مرَّاتٍ) ، وهـٰذا كلامُ رجلٍ سليمِ القلبِ ، قاصرِ النظرِ على الظواهرِ ، غيرِ عالمٍ بأنَّ العزَّ في الأخطارِ ، وأنَّ العلوَّ شرطُهُ اقتحامُ الأغرارِ ، بلْ هوَ كقولِ القائلِ : (الصيَّادُ الذي ليسَ لهُ فرسٌ ولا كلبٌ أفضلُ في صناعةِ الاصطيادِ وأعلىٰ رتبةً مِنْ صاحبِ الكلبِ والفرسِ ؛ لأنَّهُ آمنٌ مِنْ أنْ يجمحَ بِهِ فرسُهُ فتنكسرَ أعضاؤُهُ عندَ السقوطِ على الأرضِ ، وآمنٌ مِنْ أنْ يعضَّهُ الكلبُ ويعتديَ عليهِ) ، وهـٰذا خطأٌ ، بلْ صاحبُ الفرسِ والكلبِ إذا كانَ قوياً عالماً بطريقِ تأديبِهما أعلىٰ رتبةً وأحرىٰ بدرْكِ سعادةِ الصيدِ .

الحالةُ الثانيةُ : أنْ يكونَ بطلانُ النزوعِ بسببِ قوَّةِ اليقينِ ، وصدقِ المجاهدةِ السابقةِ ، إذْ بلغَ مبلغاً قمعَ هيجانَ الشهوةِ ، حتَّىٰ تأدبَتْ بأدبِ الشرعِ ، فلا تهيجُ إلا بإشارةِ الدينِ ، وقدْ سكنَ بسببِ استيلاءِ الدينِ عليهِ ، فهـٰذا أعلىٰ رتبةً مِنَ المجاهدِ المقاسي لهيجانِ الشهوةِ وقمعِها .

وقولُ القائلِ : (لذٰلكَ فضلُ الجهادِ) قصورٌ عنِ الإحاطةِ بمقصودِ الجهادِ ؛ فإنَّ الجهادَ ليسَ مقصوداً لعينِهِ ، بلِ المقصودُ قطعُ ضراوةِ العدوِّ حتَّىٰ لا يستجرَّكَ إلىٰ شهواتِهِ ، وإنْ عجزَ عنِ استجرارِكَ . . فلا يصدُّكَ عنْ سلوكِ طريقِ الدينِ ، فإذا قهرتَهُ وحصَّلْتَ المقصودَ . . فقدْ ظفرتَ ، وما دمتَ في المجاهدةِ . . فأنتَ بعدُ في طلبِ الظفرِ .

ومثالُهُ كمثالِ مَنْ قهرَ العدوَّ واسترقَّهُ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ هوَ مشغولٌ بالجهادِ في صفِّ القتالِ ولا يدري كيفَ يسلمُ .

ومثالُهُ أيضاً مثالُ مَنْ علَّمَ كلبَ الصيدِ وراضَ الفرسَ ، فهما نائمانِ عندَهُ بعدَ تركِ الكلبِ الضراوةَ والفرسِ الجماحَ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ هوَ مشغولٌ بمقاساةِ التأديبِ بعدُ .

ولقدْ زلَّ في هـٰذا فريقٌ ، فظنُّوا أنَّ الجهادَ هوَ المقصودُ الأقصىٰ ، ولمْ يعلموا أنَّ ذٰلكَ طلبٌ للخلاصِ مِنْ عوائقِ الطريقِ ، وظنَّ آخرونَ أنَّ قمعَ الشهواتِ وإماطتَها بالكليَّةِ مقصودٌ ، حتَّىٰ جرَّبَ بعضُهُمْ نفسَهُ فعجزَ عنهُ ، فقالَ : (هـٰذا محالٌ) ، فكذَّبَ بالشرعِ ، وسلكَ سبيلَ الإباحةِ ، واسترسلَ في اتباعِ الشهواتِ ، وكلُّ ذٰلكَ جهلٌ وضلالٌ ، وقدْ قرَّرْنا ذٰلكَ في كتابِ رياضةِ النفسِ مِن ربعِ المهلكاتِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما قولُكَ في تائبينِ : أحدُهُما نسيَ الذنبَ ولمْ يشتغلْ بالتفكُّرِ فيهِ ، والآخرُ جعلَهُ نصبَ عينِهِ فلا يزالُ يتفكَّرُ فيهِ ويحترقُ ندماً عليهِ ، أيُّهُما أفضلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا أيضاً قدِ اختلفوا فيه :

فقالَ بعضُهُمْ : (حقيقةُ التوبةِ أنْ تنصبَ ذنبكَ بينَ عينيكَ) .

وقالَ آخرونَ : (حقيقةُ التوبةِ أنْ تنسىٰ ذنبَكَ) .

وكلُّ واحدٍ مِنَ المذهبينِ عندَنا حقٌّ ، ولـٰكنْ بالإضافةِ إلىٰ حالينِ .

وكلامُ المتصوّفةِ أبداً يكونُ قاصراً ، فإنَّ عادةَ كلِّ واحدٍ منهُمْ أنْ يخبرَ عنْ حالِ نفسِهِ فقطْ ، ولا يهمُّهُ حالُ غيرِهِ ، فتختلفُ الأجوبةُ لاختلافِ الأحوالِ ، وهـٰذا نقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ العلمِ ، فإنَّ معرفةَ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ أفضلُ وأعلىٰ ، ولـٰكنَّهُ كمالٌ بالإضافةِ إلى الهمَّةِ والإرادةِ والجدِّ ، حيثُ يكونُ صاحبُهُ مقصورَ النظرِ علىٰ حالِ نفسِهِ ، لا يهمُّهُ أمرُ غيرِهِ ؛ إذْ طريقُهُ إلى اللهِ نفسُهُ ، ومنازِلُهُ أحوالُهُ ، وقدْ يكونُ طريقُ العبدِ إلى اللهِ العلمَ والتعليمَ ، فالطرقُ إلى اللهِ تعالىٰ كثيرةٌ وإنْ كانَتْ مختلفةً في القربِ والبعدِ ، واللهُ أعلمُ بمَنْ هوَ أهدىٰ سبيلاً ، معَ الاشتراكِ في أصلِ الهدايةِ .

فأقولُ : تصوُّرُ الذنبِ وذكرُهُ والتفجُّعُ عليهِ كمالٌ في حقِّ المبتدئِ المريدِ ؛ لأنَّهُ إذا نسيَهُ . . لمْ يكثرِ احتراقُهُ ، فلا تقوىٰ إرادتُهُ وانبعاثُهُ لسلوكِ الطريقِ ، ولأنَّ ذٰلكَ يستخرجُ منهُ الحزنَ والخوفَ الوازعَ عنِ الرجوعِ إلىٰ مثلِهِ ، فهوَ بالإضافةِ إلى الغافلِ كمالٌ ، ولـٰكنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ سالكِ الطريقِ نقصانٌ ؛ فإنَّهُ شغلٌ مانعٌ عنْ سلوكِ الطريقِ ، بلْ سالكُ الطريقِ ينبغي ألا يعرِّجَ علىٰ غيرِ السلوكِ ، فإنْ ظهرَتْ لهُ مبادي الوصولِ ، وانكشفَتْ لهُ أنوارُ المعرفةِ ولوامعُ الغيبِ . . استغرقَهُ ذٰلكَ ، ولمْ يبقَ فيهِ متسعٌ للالتفاتِ إلىٰ ما سبقَ مِنْ أحوالِهِ ، وهوَ الكمالُ .

بلْ لوْ عاقَ المسافرَ عنِ الطريقِ إلىٰ بلدٍ مِنَ البلادِ نهرٌ حاجزٌ . . طالَ تعبُ المسافرِ في عبورِهِ مدةً ، مِنْ حيثُ إنَّهُ كانَ قدْ خرَّبَ جسرَهُ مِنْ قبلُ ، فلو جلسَ علىٰ شاطئِ النهرِ بعدَ عبورِهِ يبكي متأسِّفاً علىٰ تخريبِهِ الجسرَ . . كانَ هـٰذا مانعاً آخرَ اشتغلَ بهِ بعدَ الفراغِ عنْ ذٰلكَ المانعِ .

نعمْ ؛ إنْ لمْ يكنِ الوقتُ وقتَ الرحيلِ ، بأنْ كانَ ليلاً فتعذَّرَ السلوكُ ، أوْ كانَ علىٰ طريقِهِ أنهارٌ وهوَ يخافُ علىٰ نفسِهِ أنْ يمرَّ بها[1] . . فليطلْ بالليلِ بكاؤُهُ وحزنُهُ علىٰ تخريبِ الجسرِ ؛ ليتأكَّدَ بطولِ الحزنِ عزمُهُ علىٰ ألا يعودَ إلىٰ مثلِهِ ، فإنْ حصلَ لهُ مِنَ التنبُّهِ ما وثقَ بنفسِهِ أنَّهُ لا يعودُ إلىٰ مثلِهِ . . فسلوكُ الطريقِ أولىٰ بهِ مِنَ الاشتغالِ بذكرِ تخريبِ الجسرِ والبكاءِ عليهِ ، وهـٰذا لا يعرفُهُ إلا مَنْ عرفَ الطريقَ والمقصدَ ، والعائقَ وطريقَ السلوكِ ، وقدْ أشرنا إلىٰ تلويحاتٍ منهُ في كتابِ العلمِ وفي ربعِ المهلكاتِ .

بلْ نقولُ : شرطُ دوامِ التوبةِ أنْ يكونَ كثيرَ الفكرِ في النعيمِ في الآخرةِ لتزيدَ رغبتُهُ ، ولـٰكنْ إنْ كانَ شاباً . . فلا ينبغي أنْ يطيلَ فكرَهُ في كلِّ ما لهُ نظيرٌ في الدنيا ؛ كالحورِ والقصورِ ، فإنَّ ذٰلكَ الفكرَ ربَّما يحرِّكُ رغبتَهُ ، فيطلبُ العاجلةَ ولا يرضىٰ بالآجلةِ ، بلْ ينبغي أنْ يتفكَّرَ في لذَّةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ فقط ، فذٰلكَ لا نظيرَ لهُ في الدنيا ، فكذٰلكَ تذكُّرُ الذنبِ قدْ يكونُ محرّكاً للشهوةِ ، فالمبتدئُ أيضاً قدْ يستضرُّ بهِ ، فيكونُ النسيانُ أفضلَ لهُ عندَ ذٰلكَ .

ولا يصدَّنَّكَ عنِ التصديقِ بهـٰذا التحقيقِ ما يُحكىٰ لكَ مِنْ بكاءِ داوودَ عليهِ السلامُ ونياحتِهِ[2] ، فإنَّ قياسَكَ نفسَكَ على الأنبياءِ قياسٌ في غايةِ الاعوجاجِ ؛ لأنَّهُمْ قدْ ينزلونَ في أقوالِهِمْ وأفعالِهِمْ إلى الدرجاتِ اللائقةِ بأممِهِمْ ، فإنَّهُمْ ما بُعثوا إلا لإرشادِهِمْ ، فعليهِمُ التلبُّسُ بما تنتفعُ أممُهُمْ بمشاهدتِهِ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ نازلاً عنْ ذروةِ مقامِهِمْ ، فقدْ كانَ

---

(١) في (أ) : (أن يخرجها) ، وفي (ب) : (أن يجريها) ، وفي بقية النسخ : (أن يخربها) بدل (أن يمر بها) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

(٢) تقدم في ذٰلك أخبار ، والاعتراض وجوابه أورده كذٰلك صاحب « القوت » (١٨٢/١) ، وجواب المصنف هنا قريب منه .

في الشيوخِ مَنْ لا يشيرُ علىٰ مريدِهِ بنوعِ رياضةٍ إلا ويخوضُ معَهُ فيها ، وقدْ كانَ مستغنياً عنها ؛ لفراغِهِ عنِ المجاهدةِ وتأديبِ النفسِ ، ولـٰكنْ تسهيلاً للأمرِ على المريدِ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنّي لا أنسىٰ ، ولـٰكنّي أُنسَّىٰ لأشرّعَ » ، وفي لفظٍ : « إنَّما أسهو لأسنَّ »[1] .

ولا تعجبْ مِنْ هـٰذا ؛ فإنَّ الأممَ في كنفِ شفقةِ الأنبياءِ كالصبيانِ في كنفِ شفقةِ الآباءِ ، وكالمواشي في كنفِ الرعاةِ ، أما ترى الأبَ إذا أرادَ أنْ يستنطقَ ولدَهُ الصغيرَ كيفَ ينزلُ إلىٰ درجةِ نطقِ الصبيّ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ : « كِخْ كِخْ » لمَّا أخذَ تمرةً مِنْ تمْرِ الصدقةِ ووضعَها في فيهِ[2] ، وما كانَتْ فصاحتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تقصُرُ عنْ أنْ يقولَ : ارمِ هـٰذهِ التمرةَ ؛ فإنَّها حرامٌ ، ولـٰكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ علمَ أنَّهُ لا يفهمُ منطقَهُ تركَ فصاحتَهُ ونزلَ إلىٰ لُكْنتِهِ ، بلِ الذي يعلِّمُ شاةً أوْ طائراً يصوّتُ بهِ رغاءً أوْ صفيراً تشبُّهاً بالبهيمةِ والطائرِ ، وتلطُّفاً في تعليمِهِ ، فإيَّاكَ أنْ تغفُلَ عنْ أمثالِ هـٰذهِ الدقائقِ ، فإنَّها مزلَّةُ أقدامِ العارفينَ فضلاً عنِ الغافلينَ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١٠٠/١) بلاغاً ، قال ابن عبد البر في « التمهيد » (٣٧٥/٢٤) : (أما هـٰذا الحديث بهـٰذا اللفظ . . فلا أعلمه يروىٰ عن النبي صلى الله عليه وسلم بوجه من الوجوه مسنداً ولا مقطوعاً من غير هـٰذا الوجه والله أعلم ، وهو أحد الأحاديث الأربعة في « الموطأ » التي لا توجد في غيره مسندة ولا مرسلة والله أعلم ، ومعناه صحيح في الأصول) ، وقال أبو الطاهر الأنماطي : (وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه الأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به ، وادّعىٰ بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسنداً) . « إتحاف » (٥٩٢/٨) .

(٢) رواه البخاري (١٤٩١) ، ومسلم (١٠٦٩) وقد تقدم ، وكِخْ : كلمة ردع للطفل مثل : يَعْ ، قيل : هي لفظة فارسية ، وبكونها فارسية جاء التصريح في « البخاري » (٣٠٧٢) ، وأصلها في الفارسية : كِخْكِخْ مركبة ، وتستعمل عندهم كاستعمال (يَعْ) عند العرب .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

اعلمْ : أنَّ التائبينَ في التوبةِ على أربعِ طبقاتٍ :

الطبقةُ الأولى : أنْ يتوبَ العاصي ويستقيمَ على التوبةِ إلى آخرِ عمرِهِ ، فيتداركُ ما فرطَ مِنْ أمرِهِ ، ولا يحدِّثُ نفسَهُ بالعودِ إلى ذنوبِهِ ، إلا الزلاتِ التي لا ينفكُّ البشرُ عنها في العاداتِ مهما لمْ يكنْ في رتبةِ النبوَّةِ .

فهٰذهِ هيَ الاستقامةُ في التوبةِ ، وصاحبُها هوَ السابقُ بالخيراتِ ، المستبدِلُ بالسيئاتِ حسناتٍ .

واسمُ هٰذهِ التوبةِ **التوبةُ النصوحُ** ، واسمُ هٰذهِ النفسِ الساكنةِ **النفسُ المطمئنةُ** ، التي ترجعُ إلى ربِّها راضيةً مرضيةً ، وهٰؤلاءِ هُمُ الذينَ إليهِمُ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَ المفردونَ ، المستهتَرونَ بذكرِ اللهِ تعالى ، وضعَ الذكرُ عنهُمْ أوزارَهُمْ ، فوردُوا القيامةَ خفافاً »[1] ، فإنَّ فيهِ إشارةً إلى أنَّهُمْ كانوا تحتَ أوزارٍ وضعَها الذكرُ عنهُمْ .

وأهلُ هٰذهِ الطبقةِ على رتبٍ مِنْ حيثُ النزوعُ إلى الشهواتِ ؛ فمِنْ تائبٍ سكنَتْ شهواتُهُ تحتَ قهرِ المعرفةِ ففترَ نزاعُها ، ولمْ يشغلْهُ عنِ السلوكِ صراعُها ، وإلى مَنْ لا ينفكُّ عنْ منازعةِ النفسِ ، ولٰكنَّهُ مليءٌ بمجاهدتِها وردِّها .

ثمَّ تتفاوتُ درجاتُ النزاعِ أيضاً بالكثرةِ والقلَّةِ وباختلافِ المدَّةِ وباختلافِ الأنواعِ ، وكذٰلكَ يختلفونَ مِنْ حيثُ طولُ العمرِ ؛ فمِنْ مختطفٍ يموتُ قريباً مِنْ توبتِهِ ، يُغبطُ على ذٰلكَ لسلامتِهِ وموتِهِ قبلَ الفترةِ ، ومِنْ ممهلٍ طالَ جهادُهُ وصبرُهُ ، وتمادَتِ استقامتُهُ وكثرَتْ حسناتُهُ ، وحالُ هٰذا أعلى وأفضلُ ؛ إذْ كلُّ سيئةٍ فإنَّما تمحوها حسنةٌ ، حتَّى قالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّما يكفِّرُ الذنبَ الذي ارتكبَهُ العاصي عشرَ مرَّاتٍ أنْ يتمكَّنَ منهُ عشرَ مراتٍ معَ صدْقِ الشهوةِ ، ثمَّ يصبرَ عنهُ ويكسرَ شهوتَهُ خوفاً مِنَ اللهِ تعالى) ، واشتراطُ هٰذا بعيدٌ ، وإنْ كانَ لا يُنكرُ عظمُ أثرِهِ لوْ فرضَ ، ولٰكنْ لا ينبغي للمريدِ الضعيفِ أنْ يسلكَ هٰذا الطريقَ فيهيِّجَ الشهوةَ ، ويحضرَ الأسبابَ حتَّى يتمكَّنَ ، ثمَّ يطمعَ في الانكفافِ ؛ فإنَّهُ لا يؤمنُ خروجُ عِنانِ الشهوةِ عنِ اختيارِهِ ، فيقدمَ على المعصيةِ وينقضَ توبتَهُ ، بلْ طريقُهُ الفرارُ مِنِ ابتداءِ أسبابِهِ الميسرةِ لهُ ، حتَّى يسدَّ طرقَها على نفسِهِ ، ويسعى معَ ذٰلكَ في كسرِ شهوتِهِ بما يقدرُ عليهِ ، فبهِ تسلمُ توبتُهُ في الابتداءِ .

❁ ❁ ❁

الطبقةُ الثانيةُ : تائبٌ سلَكَ طريقَ الاستقامةِ في أمَّهاتِ الطاعاتِ وتركِ كبائرِ الفواحشِ كلِّها ، إلا أنَّهُ ليسَ ينفكُّ عنْ ذنوبٍ تعتريهِ ، لا عنْ عمدٍ وتجريدِ قصدٍ ، ولٰكنْ يُبتلى بها في مجاري أحوالِهِ مِنْ غيرِ أنْ يقدمَ عزماً على الإقدامِ عليها ، ولٰكنَّهُ كلَّما أقدمَ عليها . . لامَ نفسَهُ وندمَ وتأسَّفَ ، وجدَّدَ عزمَهُ على أنْ يتشمَّرَ للاحترازِ مِنْ أسبابِها التي تعرِّضُهُ لها .

وهٰذهِ النفسُ جديرةٌ بأنْ تكونَ هيَ **النفسَ اللوَّامةَ** ؛ إذ تلومُ صاحبَها على ما يستهدفُ لهُ مِنَ الأحوالِ الذميمةِ ، لا عنْ تصميمِ عزمٍ وتخميرِ رأيٍ وقصدٍ ، وهٰذهِ أيضاً رتبةٌ عاليةٌ وإنْ كانَتْ نازلةً عنِ الطبقةِ الأولى ، وهيَ أغلبُ أحوالِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦) مقتصراً على أوله ، وفيه : « سبق المفردون » ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ، وعند الترمذي (٣٥٢٠) وفيه : « المستهترون في ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً » .

التائبينَ ؛ لأنَّ الشرَّ معجونٌ بطينةِ الآدميِّ قلَّما ينفكُّ عنهُ ، وإنَّما غايةُ سعيِهِ أنْ يغلبَ خيرُهُ شرَّهُ حتَّىٰ يثقلَ ميزانُهُ ، فترجحَ كفَّةُ الخيراتِ ، فأمَّا أنْ تخلوَ بالكليَّةِ كفَّةُ السيئاتِ . . فذٰلكَ في غايةِ البعدِ .

وهٰؤلاءِ لهُمْ حسنُ الوعدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ .

فكلُّ إلمامٍ يقعُ بصغيرةٍ لا عنْ توطينِ نفسِهِ عليهِ فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ مِنَ اللممِ المعفوِّ عنهُ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، فأثنىٰ عليهِمْ معَ ظلمِهِمْ لأنفسِهِمْ ؛ لتندُّمِهِمْ ولومِهِمْ أنفسَهُمْ عليهِ .

وإلىٰ مثلِ هٰذهِ الرتبةِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : « خيارُكُمْ كلُّ مفتَّنٍ توَّابٍ »(1)

وفي خبرٍ آخرَ : « المؤمنُ كالسنبلةِ ، تفيءُ أحياناً وتميلُ أحياناً »(2)

وفي الخبرِ : « لا بدَّ للمؤمنِ مِنْ ذنبٍ يأتيهِ الفينةَ بعدَ الفينةِ »(3) أي : الحينَ بعدَ الحينِ .

فكلُّ ذٰلكَ أدلَّةٌ قاطعةٌ علىٰ أنَّ هٰذا القدْرَ لا ينقضُ التوبةَ ، ولا يلحقُ صاحبَها بدرجةِ المصرِّينَ .

ومَنْ يُؤْيِسُ مثلَ هٰذا عنْ درجةِ التائبينَ كالطبيبِ الذي يُؤْيِسُ الصحيحَ عنْ دوامِ الصحةِ بما يتناولُهُ مِنَ الفواكِهِ والأطعمةِ الحارَّةِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ مِنْ غيرِ مداومةٍ واستمرارٍ ، وكالفقيهِ الذي يُؤْيِسُ المتفقِّهَ عنْ نيلِ درجةِ الفقهاءِ بفتورِهِ عنِ التكرارِ والتعليقِ في أوقاتٍ نادرةٍ غيرِ متطاولةٍ ولا كثيرةٍ(4) ، وذٰلكَ يدلُّ علىٰ نقصانِ الطبيبِ والفقيهِ ، بلِ الفقيهُ في الدينِ هوَ الذي لا يُؤْيِسُ الخلقَ عنْ درجاتِ السعاداتِ بما يتفقُ لهُمْ مِنَ الفتراتِ ومقارفةِ السيئاتِ المختطفاتِ .

قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ بني آدمَ خطَّاءٌ ، وخيرُ الخطَّائينَ التوَّابونَ المستغفرونَ »(5)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « المؤمنُ واهٍ راقعٌ ، فخيرُهُمْ مَنْ ماتَ علىٰ رقعِهِ »(6) أيْ : واهٍ بالذنوبِ ، راقعٌ بالتوبةِ والندمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ، فما وصفَهُمْ بعدمِ السيئةِ أصلاً .



(1) رواه البزار في « مسنده » (٧٠٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٩) ، ورواه موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه ابنُ أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٧) .

(2) رواه أحمد في « المسند » (٣٨٧/٣) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « مثل المؤمن مثل السنبلة ، تستقيم مرة وتخرُّ مرة ، ومثل الكافر مثل الأرزة ، لا تزال مستقيمة حتىٰ تخرَّ ولا تشعر » ، ورواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٢٨٩/٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٠٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « مثل المؤمن مثل السنبلة تميل أحياناً وتقوم أحياناً » .

(3) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٤/١١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٢٢) .

(4) **والمراد بالتكرار** : إعادة ما يحصله في درسه مرة بعد أخرىٰ حتىٰ يرسخ في الذهن ، **والتعليق** : أن يعلق ما يسمع من فوائد الشيوخ في أوراق . « إتحاف » (٥٩٦/٨) .

(5) كذا في « القوت » (١٨٨/١) ، ورواه الترمذي (٢٤٩٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) ، وعند ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٨) بلفظ المصنف ولٰكن من كلام عون العقيلي .

(6) كذا في « القوت » (١٨٨/١) ، ورواه الطبراني في « الصغير » (٦٦/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٢١) .

الطبقةُ الثالثةُ : أنْ يتوبَ ويستمرَّ على الاستقامةِ مدّةً ، ثمَّ تغلبُهُ شهوتُهُ في بعضِ الذنوبِ ، فيقدمُ عليها عنْ قصدٍ وصدقِ شهوةٍ ؛ لعجزِهِ عنْ قهرِ الشهوةِ ، إلا أنَّهُ معَ ذٰلكَ مواظبٌ على الطاعاتِ ، وتاركٌ جملةً مِنَ الذنوبِ معَ القدرةِ والشهوةِ ، وإنَّما قهرَتْهُ هٰذهِ الشهوةُ الواحدةُ أوِ الشهوتانِ وهوَ يودُّ لوْ أقدرَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ قمعِها وكفاهُ شرَّها ، هٰذا أمنيتُهُ في حالِ قضاءِ الشهوةِ ، وعندَ الفراغِ يتندَّمُ ويقولُ : (ليتَني لمْ أفعلْهُ ، وسأتوبُ عنهُ ، وأجاهدُ نفسي في قهرِها) ، لٰكنَّهُ تسوِّلُ نفسُهُ ، ويسوِّفُ توبتَهُ مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، ويوماً بعدَ يومٍ .

فهٰذهِ النفسُ هيَ التي تسمَّى **النفسَ المسوِّلةَ** ، وصاحبُها مِنَ الذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهم : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ ، فأمرُهُ مِنْ حيثُ مواظبتُهُ على الطاعاتِ وكراهتُهُ لما تعاطاهُ مرجوٌّ ، فعسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهِ ، وعاقبتُهُ مخطرةٌ مِنْ حيثُ تسويفُهُ وتأخيرُهُ ، فربمَّا يختطَفُ قبلَ التوبةِ ، ويقعُ أمرُهُ في المشيئةِ [1] ، فإنْ تداركَهُ اللهُ بفضلِهِ ، وجبرَ كسرَهُ ، وامتنَّ عليهِ بالتوبةِ . . التحقَ بالسابقينَ ، وإنْ غلبَتْهُ شقوتُهُ ، وقهرَتْهُ شهوتُهُ . . فيُخشىٰ أنْ يحقَّ عليهِ في الخاتمةِ ما سبقَ عليهِ مِنَ القولِ في الأزلِ ؛ لأنَّهُ مهما تعذَّرَ على المتفقِّهِ مثلاً الاحترازُ عنْ شواغلِ التعلُّمِ . . دلَّ تعذُّرُهُ علىٰ أنَّهُ سبقَ لهُ في الأزلِ أنْ يكونَ مِنَ الجاهلينَ ، فيضعفُ الرجاءُ في حقِّهِ ، وإذا يُسرَتْ لهُ أسبابُ المواظبةِ على التحصيلِ . . دلَّ علىٰ أنَّهُ سبقَ لهُ في الأزلِ أنْ يكونَ مِنْ جملةِ العالمينَ ، فكذٰلكَ ارتباطُ سعاداتِ الآخرةِ ودركاتِها بالحسناتِ والسيئاتِ بحكْمِ تقديرِ مسبِّبِ الأسبابِ ؛ كارتباطِ المرضِ والصحَّةِ بتناولِ الأغذيةِ والأدويةِ ، وارتباطِ حصولِ فقهِ النفسِ الذي بهِ تُستحقُّ المناصبُ العليَّةُ في الدنيا بتركِ الكسلِ والمواظبةِ علىٰ تفقيهِ النفسِ ، فكما لا يصلحُ لمنصبِ الرئاسةِ والقضاءِ والتقدُّمِ بالعلمِ إلا نفسٌ صارَتْ فقيهةً بطولِ التفقيهِ . . فلا يصلحُ لملكِ الآخرةِ ونعيمِها ولا للقربِ مِنْ ربِّ العالمينَ إلا قلبٌ سليمٌ صارَ طاهراً بطولِ التزكيةِ والتطهيرِ .

هٰكذا سبقَ في الأزلِ بتدبيرِ ربِّ الأربابِ .

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ، فمهما وقعَ العبدُ في ذنبٍ ، فصارَ الذنبُ نقداً والتوبةُ نسيئةً . . كانَ هٰذا مِنْ علاماتِ الخذلانِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ سبعينَ سنةً ، حتَّىٰ يقولَ الناسُ : إنَّهُ مِنْ أهلِها ، ولا يبقىٰ بينَهُ وبينَ الجنةِ إلا شبرٌ ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخلُها » [2]

فإذاً ؛ الخوفُ مِنَ الخاتمةِ قبلَ التوبةِ ، وكلُّ نَفَسٍ فهوَ خاتمةُ ما قبلَهُ ؛ إذْ يمكنُ أنْ يكونَ الموتُ متصلاً بهِ ، فليراقِبِ الأنفاسَ ، وإلا . . وقعَ المحذورُ ، ودامَتِ الحسراتُ حينَ لا ينفعُ التحسُّرُ .

❁ ❁ ❁

الطبقةُ الرابعةُ : أنْ يتوبَ ويجريَ مدَّةً على الاستقامةِ ، **ثمَّ يعودَ إلىٰ مقارفةِ الذنبِ أوِ الذنوبِ مِنْ غيرِ أنْ يحدِّثَ** نفسَهُ بالتوبةِ ، ومِنْ غيرِ أنْ يتأسَّفَ علىٰ فعلِهِ ، بلْ ينهمكُ انهماكَ الغافلِ في اتباعِ شهوتِهِ .

فهٰذا مِنْ جملةِ المصرِّينَ ، وهٰذهِ النفسُ هيَ **النفسُ الأمَّارةُ بالسوءِ** الفرَّارةُ مِنَ الخيرِ ، ويُخافُ علىٰ هٰذا سوءُ

---

(١) وإنما كان مثل هٰذا مخطراً لأن خفايا المكر والألطاف دقيق لا اطلاع لأحد عليه . « إتحاف » (٨/٥٩٧) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) ، وليس فيه لفظ : (سبعين سنة) ، وهو عند ابن راهويه في « مسنده » (١٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٣/٧٥) .

الخاتمةِ ، وأمرُهُ في مشيئةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ ختمَ لهُ بالسوءِ . . شقيَ شقاوةً لا آخرَ لها ، وإنْ ختمَ لهُ بالحسنىٰ حتَّىٰ ماتَ علىٰ التوحيدِ . . فيُنتظرُ لهُ الخلاصُ مِنَ النارِ ولوْ بعدَ حينٍ ، ولا يستحيلُ أنْ يشملَهُ عمومُ العفوِ بسببٍ خفيٍّ لا يُطلعُ عليهِ ؛ كما لا يستحيلُ أنْ يدخلَ الإنسانُ خراباً ليجدَ كنزاً فيتفقَ أنْ يجدَهُ ، ولا أنْ يجلسَ في البيتِ ليجعلَهُ اللهُ عالماً بالعلومِ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ كما كانَ للأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ، فطلبُ المغفرةِ بالطاعاتِ كطلبِ العلمِ بالجهدِ والتكرارِ ، وطلبِ المالِ بالتجارةِ وركوبِ البحارِ ، وطلبُها بمجرَّدِ الرجاءِ معَ خرابِ الأعمالِ كطلبِ الكنوزِ في المواضعِ الخربةِ ، وطلبِ العلومِ مِنْ تعليمِ الملائكةِ ، وليتَ مَنِ اجتهدَ وتعبَ . . تعلَّمَ ، وليتَ مَنِ اتجرَ وركبَ البحارَ . . استغنىٰ ، وليتَ مَنْ صامَ وصلَّىٰ . . غفرَ لهُ ، فالناسُ كلُّهُمْ محرومونَ إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ محرومونَ إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ محرومونَ إلا المخلصونَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ[1]

وكما أنَّ مَنْ خرَّبَ بيتَهُ وضيَّعَ مالَهُ وتركَ نفسَهُ وعيالَهُ جياعاً يزعمُ أنَّهُ ينتظرُ فضلَ اللهِ بأنْ يرزقَهُ كنزاً يجدُهُ تحتَ الأرضِ في بيتِهِ الخربِ يُعدُّ عندَ ذوي البصائرِ مِنَ الحمقىٰ والمغرورينَ وإنْ كانَ ما ينتظرُهُ غيرَ مستحيلٍ في قدرةِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ . . فكذٰلكَ مَنْ ينتظرُ المغفرةَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ وهوَ مقصِّرٌ عَنِ الطاعةِ مصرٌّ على الذنوبِ غيرُ سالكٍ سبيلَ المغفرةِ ، معدودٌ عندَ أربابِ القلوبِ مِنَ المعتوهينَ .

والعجبُ مِنْ عقلِ هٰذا المعتوهِ ، وترويجِهِ حماقتَهُ في صيغةٍ حسنةٍ ؛ إذْ يقولُ : (إنَّ اللهَ كريمٌ وجنتُهُ ليسَتْ تضيقُ عنْ مثلي[2] ، ومعصيتي ليسَتْ تضرُّهُ) ، ثمَّ تراهُ يركبُ البحارَ ، ويقتحمُ الأخطارَ في طلبِ الدينارِ ، وإذا قيلَ لهُ : (إنَّ اللهَ كريمٌ ، ودنانيرُ خزائنِهِ ليسَتْ تقصرُ عنْ فقرِكَ ، وكسلُكَ بتركِ التجارةِ ليسَ يضرُّهُ ، فاجلسْ في بيتِكَ ، فعساهُ يرزقُكَ مِنْ حيثُ لا تحتسبُ) ، فيستحمقُ قائلَ هٰذا الكلامِ ويستهزئُ بهِ ، ويقولُ : (ما هٰذا الهوسُ ؟! السماءُ لا تمطرُ ذهباً ولا فضةً ، وإنَّما يُنالُ ذٰلكَ بالكسبِ ، هٰكذا قدَّرَهُ ربُّ الأربابِ وأجرىٰ بهِ سنَّتَهُ ولا تبديلَ لسنَّةِ اللهِ) .

ولا يعلمُ المغرورُ أنَّ ربَّ الآخرةِ وربَّ الدنيا واحدٌ ، وأنَّ سنتَهُ لا تبديلَ لها فيهما جميعاً ، وأنَّهُ قدْ أخبرَ إذْ قالَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فكيفَ يعتقدُ أنَّهُ كريمٌ في الآخرةِ وليسَ بكريمٍ في الدنيا ؟! وكيفَ يقولُ : ليسَ مقتضى الكرمِ الفتورَ عنْ كسبِ المالِ ، ومقتضاهُ الفتورُ عنِ العملِ للملكِ المقيمِ والنعيمِ الدائمِ ، وأنَّ ذٰلكَ بحكْمِ الكرمِ يعطيهِ مِنْ غيرِ جهدٍ في الآخرةِ ، وهٰذا يمنعُهُ معَ شدَّةِ الاجتهادِ في غالبِ الأمرِ في الدنيا ، وينسىٰ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ؟!

فنعوذُ باللهِ مِنَ العمىٰ والضلالِ ، فما هٰذا إلا انتكاسٌ علىٰ أمِّ الراسِ ، وانغماسٌ في ظلماتِ الجهلِ ، وصاحبُهُ جديرٌ بأنْ يكونَ داخلاً تحتَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أيْ : أبصرنا أنَّكَ صدقْتَ إذْ قلتَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فارجعْنا نسعىٰ ، وعندَ ذٰلكَ لا يمكِّنُ مِنَ الانقلابِ ، ويحقُّ عليهِ العذابُ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ دواعي الجهلِ والشكِّ والارتيابِ السائقِ بالضرورةِ إلىٰ سوءِ المنقلبِ والمآبِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) سبق هٰذا القول أثراً ، وبيان جواز الإبدال في الاستثناء الموجب علىٰ لغة أو تأويل ، وانظر « الدر المصون » (٥٢٨/٢) .
(٢) في (أ) : (ورحمته واسعة) بدل (وجنته) .

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إمّا عن قصدٍ وشهوةٍ غالبة ، أو عن إلمامٍ بحكم الاتفاق

اعلمْ : أنَّ الواجبَ عليهِ التوبةُ والندمُ والاشتغالُ بالتكفيرِ بحسنةٍ تضادُّهُ كما ذكرنا طريقَهُ ، فإنْ لمْ تساعدْهُ النفسُ على العزمِ على التركِ لغلبةِ الشهوةِ . . فقدْ عجزَ عنْ أحدِ الواجبينِ ، فلا ينبغي أنْ يتركَ الواجبَ الثاني ، وهوَ أنْ يدرأَ بالحسنةِ السيئةَ لتمحوَها ، فيكونَ ممَّنْ خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً .

والحسناتُ المكفِّرةُ للسيئاتِ : إمَّا بالقلبِ ، وإمَّا باللسانِ ، وإمَّا بالجوارحِ ، ولتكنِ الحسنةُ في محلِّ السيئةِ ، وفيما يتعلَّقُ بأسبابِها .

فأما بالقلبِ : فليكفِّرْهُ بالتضرُّعِ إلى اللهِ تعالىٰ في سؤالِ المغفرةِ والعفوِ ، ويتذلَّلْ تذلُّلَ العبدِ الآبقِ ، ويكونُ ذلُّهُ بحيثُ يظهرُ لسائرِ العبادِ ، وذٰلكَ بنقصانِ كبْرِهِ فيما بينَهُمْ ، فما للعبدِ الآبقِ المذنبِ وجهٌ للتكبُّرِ علىٰ سائرِ العبادِ[١] ، وكذٰلكَ يضمرُ بقلبِهِ الخيراتِ للمسلمينَ والعزمَ على الطاعاتِ .

وأمَّا باللسانِ : فبالاعترافِ بالظلمِ والاستغفارِ ، فيقولُ : (ربِّ ؛ ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءاً ، فاغفرْ لي ذنوبي) ، وكذٰلكَ يكثرُ مِنْ ضروبِ الاستغفارِ ، كما أوردناهُ في كتابِ الدعواتِ والأذكارِ .

وأمَّا بالجوارحِ : فبالطاعاتِ ، والصدقاتِ ، وأنواعِ العباداتِ ، وفي الآثارِ ما يدلُّ علىٰ أنَّ الذنبَ إذا أُتبعَ بثمانيةِ أعمالٍ كانَ العفوُ عنهُ مرجوّاً ، أربعةٌ مِنْ أعمالِ القلوبِ وهيَ التوبةُ أوِ العزمُ على التوبةِ ، وحبُّ الإقلاعِ عنِ الذنبِ ، وخوفُ العقابِ عليهِ ، ورجاءُ المغفرةِ لهُ ، وأربعةٌ مِنْ أعمالِ الجوارحِ ، وهيَ أنْ يصلِّيَ عَقيبَ الذنبِ ركعتينِ[٢] ، ثمَّ يستغفرَ اللهَ تعالىٰ بعدَهُما سبعينَ مرَّةً[٣] ، ويقولَ : سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ مئةَ مرَّةٍ ، ثمَّ يتصدَّقَ بصدقةٍ ، ثمَّ يصومَ يوماً[٤] .

وفي بعضِ الآثارِ : « يسبغُ الوضوءَ ، ويدخلُ المسجدَ ويصلِّي ركعتينِ »[٥]

وفي بعضِ الأخبارِ : « يصلِّي أربعَ ركعاتٍ »[٦]

---

(١) والكبر والمعصية لا يجتمعان في قلب مؤمن . « إتحاف » (٨/٦٠٢) .

(٢) وذٰلك بعد أن يتوضأ ، وإن اغتسل . . كان أكمل ، وإن أمكنه أن يغسل الثياب التي عصى الله فيها . . كان أكمل ؛ فإن طهارة الظاهر عنوان طهارة الباطن ، وإذا كانت الصلاة في موضع خال عن اشتغال وعن توهم الرياء والسمعة في بال . . كان أكمل . « إتحاف » (٨/٦٠٢) .

(٣) مع البكاء إن أمكن ، وإلا . . فبالتباكي وقلب حزين علىٰ ما سبق له من المعصية ، ويجعلها نصب عينيه . « إتحاف » (٨/٦٠٢) .

(٤) قوت القلوب (١/١٩٠) .

(٥) فقد روى الترمذي (٤٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠١٧٥ ، ١٠١٧٧) مرفوعاً وموقوفاً ، وابن ماجه (١٣٩٥) من حديث الصديق الأكبر رضي الله عنه نحوه ، ولم يذكر المسجد ، وعند البيهقي في « الشعب » (٦٦٨٠) من حديث الحسن مرسلاً : « ما أذنب عبد ذنباً ، ثم توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلىٰ براز من الأرض ، فصلىٰ ركعتين ، واستغفر الله من ذٰلك الذنب . . إلا غفر له » .

(٦) إذ روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (١٣٨٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٦٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة ، فكان ذات يوم جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة ، فأذن له ، فخرج في يوم مطير ، فإذا هو بامرأة علىٰ غدير تغتسل ، فلما رآها . . جلس منها مجلس الرجل من امرأته ، وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة ، فقام نادماً ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذٰلك له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلِّ أربع ركعات » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

وفي الخبرِ : « إذا عملتَ سيئةً . . فأتبعْها حسنةً تكفِّرْها ، السرُّ بالسرِّ والعلانيةُ بالعلانيةِ »(١)

ولذٰلكَ قيلَ : (صدقةُ السرِّ تكفِّرُ ذنوبَ الليلِ ، وصدقةُ الجهرِ تكفِّرُ ذنوبَ النهارِ)(٢)

وفي الخبرِ الصحيحِ : أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنِّي عالجتُ امرأةً ، فأصبتُ منها كلَّ شيءٍ إلا المسيسَ ، فاقضِ عليَّ بحكْمِ اللهِ تعالىٰ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَما صلَّيتَ معنا صلاةَ الغداةِ ؟ » قالَ : بلىٰ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ »(٣)

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ ما دونَ الزنا مِنْ معالجةِ النساءِ صغيرةٌ ؛ إذْ جعلَ الصلاةَ كفارةً لهُ بمقتضىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ كفارةٌ لما بينهُنَّ إلا الكبائرَ » .

فعلى الأحوالِ كلِّها ينبغي أنْ يحاسبَ نفسَهُ كلَّ يومٍ ، ويجمعَ سيئاتِهِ ، ويجتهدَ في دفعِها بالحسناتِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يكونُ الاستغفارُ نافعاً مِنْ غيرِ حلِّ عقدةِ الإصرارِ وفي الخبرِ : « المستغفرُ مِنَ الذنبِ وهوَ مصرٌّ عليهِ كالمستهزئِ بآياتِ اللهِ »(٤) ، وكانَ بعضُهُمْ يقولُ : (أستغفرُ اللهَ مِنْ قولي : أستغفرُ اللهَ)(٥) ، وقيلَ : (الاستغفارُ باللسانِ توبةُ الكذابينَ)(٦) ، وقالَتْ رابعةُ العدويَّةُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ)(٧)

فاعلمْ : أنَّهُ قدْ وردَ في فضلِ الاستغفارِ أخبارٌ خارجةٌ عنِ الحصرِ ، ذكرناها في كتابِ الأذكارِ والدعواتِ ، حتَّىٰ قرنَ اللهُ الاستغفارَ ببقاءِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فكانَ بعضُ الصحابةِ يقولُ : (كانَ لنا أمانانِ ، ذهبَ أحدُهُما وهوَ كونُ الرسولِ فينا ، وبقيَ الاستغفارُ معنا ، فإنْ ذهبَ . . هلكنا)(٨)

فنقولُ : الاستغفارُ الذي هوَ توبةُ الكذابينَ : هوَ الاستغفارُ بمجرَّدِ اللسانِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ للقلبِ فيهِ شِرْكةٌ ؛ كما يقولُ الإنسانُ بحكْمِ العادةِ وعنْ رأسِ الغفلةِ : (أستغفرُ اللهَ) ، وكما يقولُ إذا سمعَ صفةَ النارِ : (نعوذُ باللهِ منها) مِنْ غيرِ أنْ يتأثَّرَ بهِ قلبُهُ ، وهٰذا يرجعُ إلىٰ مجرَّدِ حركةِ اللسانِ ، ولا جدوىٰ لهُ .

فأمَّا إذا انضافَ إليهِ تضرُّعُ القلبِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وابتهالُهُ في سؤالِ المغفرةِ عنْ صدقِ إرادةٍ وخلوصِ نيَّةٍ ورغبةٍ ، فهٰذهِ حسنةٌ في نفسِها ، فتصلحُ لأنْ تُدفعَ بها السيئةُ ، وعلىٰ هٰذا تحملُ الأخبارُ الواردةُ في فضلِ

---

(١) هو من وصيته صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٦٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٥٩/٢٠) .

(٢) هو عند صاحب « القوت » (١٩٠/١) بلفظ : (صدقة الليل تكفر ذنوب النهار ، وصدقة السر تكفر ذنوب الليل) .

(٣) رواه البخاري (٥٢٦) ، ومسلم (٢٧٦٣) واللفظ أقرب له ، والمسيس في الحديث كناية عن الجماع .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٨٥) من حديث ابن عباس مرفوعاً

(٥) كذا في « القوت » (١٨٩/١) ، وذكر الكلاباذي في « التعرُّف » (ص ٩٣) أنه من قول رابعة .

(٦) ذكره الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٤٩) لرابعة ، ونحوه ذكره القشيري في « رسالته » (ص ١٨٤) لذي النون المصري .

(٧) كذا في « القوت » (١٨٩/١) ، وعند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٤٩) : (توبتنا تحتاج إلىٰ توبة) .

(٨) رواه أحمد في « المسند » (٣٩٣/٤) من قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، كما روي أيضاً عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم ، وروى الترمذي (٣٠٨٢) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعاً : « أنزل الله عليَّ أمانين لأمتي : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فإذا مضيت . . تركت فيهم الاستغفار إلىٰ يوم القيامة » .

الاستغفارِ ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أصرَّ مَنِ استغفرَ ولوْ عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً »[1] ، وهوَ عبارةٌ عنِ الاستغفارِ بالقلبِ .

وللتوبةِ والاستغفارِ درجاتٌ ، وأوائلُها لا تخلو عنِ الفائدةِ وإنْ لمْ تنتهِ إلىٰ أواخرِها ، ولذٰلكَ قالَ سهلٌ : (لا بدَّ للعبدِ في كلِّ حالٍ مِنْ مولاهُ ، فأحسنُ أحوالِهِ أنْ يرجعَ إليهِ في كلِّ شيءٍ ، فإنْ عصىٰ . . قالَ : يا ربِّ ؛ استرْ عليَّ ، فإذا فرغَ مِنَ المعصيةِ . . قالَ : يا ربِّ ؛ تبْ عليَّ ، فإذا تابَ . . قالَ : يا ربِّ ؛ ارزقني العصمةَ ، وإذا عملَ . . قالَ : يا ربِّ ؛ تقبلْ منِّي)[2]

وسُئِلَ أيضاً عنِ الاستغفارِ الذي يكفِّرُ الذنوبَ ، فقالَ : (أوَّلُ الاستغفارِ الاستجابةُ ، ثمَّ الإنابةُ ، ثمَّ التوبةُ ، فالاستجابةُ أعمالُ الجوارحِ ، والإنابةُ أعمالُ القلوبِ ، والتوبةُ إقبالُهُ علىٰ مولاهُ بأنْ يتركَ الخلْقَ ، ثمَّ يستغفرُ اللهَ مِنْ تقصيرِهِ الذي هوَ فيهِ ، ومِنَ الجهلِ بالنعمةِ وتركِ الشكرِ ، فعندَ ذٰلكَ يُغفرُ لهُ ، ويكونُ عندَهُ مأواهُ ، ثمَّ التنقُّلُ إلى الانفرادِ ، ثمَّ الثباتُ ، ثمَّ البيانُ ، ثمَّ القرْبُ ، ثمَّ المعرفةُ ، ثمَّ المناجاةُ ، ثمَّ المصافاةُ ، ثمَّ الموالاةُ ، ثمَّ محادثةُ السرِّ وهوَ الخلَّةُ ، ولا يستقرُّ هٰذا في قلبِ عبدٍ حتَّىٰ يكونَ العلمُ غذاءَهُ ، والذكرُ قوامَهُ ، والرضا زادَهُ ، والتوكُّلُ صاحبَهُ ، ثمَّ ينظرُ اللهُ إليهِ ، فيرفعُهُ إلى العرشِ ، فيكونُ مقامُهُ مقامَ حملةِ العرشِ)[3]

وسُئِلَ أيضاً عنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ حبيبُ اللهِ »[4] ، فقالَ : (إنَّما يكونُ حبيباً إذا كانَ فيهِ جميعُ ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ . . . ﴾ الآيةَ) ، وقالَ : (الحبيبُ هوَ الذي لا يدخلُ فيما يكرهُهُ حبيبُهُ) .

والمقصودُ : أنَّ للتوبةِ ثمرتينِ :

إحداهُما : تكفيرُ السيئاتِ ، حتَّىٰ يصيرَ كمَنْ لا ذنبَ لهُ .

والثانيةُ : نيلُ الدرجاتِ ، حتَّىٰ يصيرَ حبيباً .

وللتكفيرِ أيضاً درجاتٌ ، فبعضُهُ محوٌ لأصلِ الذنبِ بالكليَّةِ ، وبعضُهُ تخفيفٌ لهُ ، ويتفاوتُ ذٰلكَ بتفاوتِ درجاتِ التوبةِ ، فالاستغفارُ بالقلبِ والتداركُ بالحسناتِ وإنْ خلا عنْ حلِّ عقدةِ الإصرارِ مِنْ أوائلِ الدرجاتِ فليسَ يخلو عنِ الفائدةِ أصلاً ، فلا ينبغي أنْ يُظنَّ أنَّ وجودَها كعدمِها ، بلْ عرفَ أهلُ المشاهدةِ وأربابُ القلوبِ معرفةً لا ريبَ فيها أنَّ قولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ صدقٌ ، وأنَّهُ لا تخلو ذرَّةٌ مِنَ الخيرِ عنْ أثرٍ ، كما لا تخلو شعيرةٌ تطرحُ في الميزانِ عنْ أثرٍ ، ولوْ خلَتِ الشعيرةُ الأولىٰ عنْ أثرٍ . . لكانَتِ الثانيةُ مثلَها ، ولكانَ لا يترجَّحُ الميزانُ بأحمالِ الذرّاتِ ، وذٰلكَ بالضرورةِ محالٌ ، بلْ ميزانُ الحسناتِ يترجَّحُ بذراتِ الخيراتِ إلىٰ أنْ يثقلَ فتُشِيلَ كفَّةَ السيئاتِ ، فإيَّاكَ أنْ تستصغرَ ذرَّاتِ الطاعاتِ فلا تأتيَها ، وذراتِ المعاصي فلا تتقيَها ؛ كالمرأةِ الخرقاءِ ، تكسلُ عنِ الغزلِ تعلُّلاً بأنَّها لا تقدرُ في كلِّ ساعةٍ إلا علىٰ خيطٍ واحدٍ وتقولُ : (أيُّ غنىً يحصلُ بخيطٍ ؟ وما وقْعُ ذٰلكَ في الثيابِ ؟!) ، ولا تدري المعتوهةُ أنَّ ثيابَ الدنيا اجتمعَتْ خيطاً خيطاً ، وأنَّ أجسامَ العالمِ معَ اتساعِ أقطارِهِ اجتمعَتْ ذرَّةً ذرَّةً .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥١٤) ، والترمذي (٣٥٥٩) .

(٢) قوت القلوب (١/١٩٠) .

(٣) قوت القلوب (١/١٩٠) ، وقد زاد في المعطوفات : (والتفويض مراده ، والتوكل صاحبه . . .) .

(٤) هٰذا الحديث قد نصَّ عليه قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وروى ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله يحب الشاب التائب » .

فإذاً ؛ التضرُّعُ والاستغفارُ بالقلبِ حسنةٌ لا تضيعُ عندَ اللهِ أصلاً ، بلْ أقولُ : الاستغفارُ باللسانِ أيضاً حسنةٌ ؛ إذْ حركةُ اللسانِ بها عنْ غفلةٍ خيرٌ منْ حركةِ اللسانِ في تلكَ الساعةِ بغيبةِ مسلمٍ أوْ فضولِ كلامٍ ، بلْ هوَ خيرٌ مِنَ السكوتِ عنهُ ، فيظهرُ فضلُهُ بالإضافةِ إلى السكوتِ عنهُ ، وإنَّما يكونُ نقصاناً بالإضافةِ إلىٰ عملِ القلبِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ لشيخِهِ أبي عثمانَ المغربيِّ : إنَّ لساني في بعضِ الأحوالِ[1] يجري بالذكرِ والقرآنِ وقلبي غافلٌ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ إذِ استعملَ جارحةً مِنْ جوارحِكَ في الخيرِ ، وعوَّدَهُ الذكرَ ، ولمْ يستعملْهُ في الشرِّ ، ولمْ يعوِّدْهُ الفضولَ .

وما ذكرَهُ حقٌّ ، فإنَّ تعوُّدَ الجوارحِ للخيراتِ حتَّىٰ يصيرَ لها ذلكَ كالطبعِ يدفعُ جملةً مِنَ المعاصي ، فمَنْ تعوَّدَ لسانُهُ الاستغفارَ إذا سمعَ مِنْ غيرِهِ كذباً . . سبقَ لسانُهُ إلىٰ ما تعوَّدَهُ فقالَ : (أستغفرُ اللهَ) ، ومَنْ تعوَّدَ الفضولَ . . سبقَ لسانُهُ إلىٰ أنْ يقولَ : (ما أحمقَكَ ، وما أقبحَ كذبَكَ !!) ، ومَنْ تعوَّدَ الاستعاذةَ إذا حُدِّثَ بظهورِ مبادي الشرِّ مِنْ شريرٍ . . قالَ بحكْمِ سبقِ اللسانِ : (نعوذُ باللهِ) ، وإذا تعوَّدَ الفضولَ . . قالَ : (لعنَهُ اللهُ) ، فيعصي في إحدى الكلمتينِ ويسلمُ في الأخرىٰ ، وسلامتُهُ أثرُ اعتيادِ لسانِهِ الخيرَ ، وهوَ مِنْ جملةِ معاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ومعاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فانظرْ كيفَ ضاعفَها إذْ جعلَ الاستغفارَ في الغفلةِ عادةَ اللسانِ حتَّىٰ دفعَ بتلكَ العادةِ شرَّ العصيانِ بالغيبةِ واللعنِ والفضولِ ، هـٰذا تضعيفٌ في الدنيا لأدنى الطاعاتِ ، وتضعيفُ الآخرةِ أكبرُ ، لوْ كانوا يعلمونَ .

فإيَّاكَ وأنْ تلمحَ في الطاعاتِ مجرَّدَ الآفاتِ ، فتفترَ رغبتُكَ عنِ العباداتِ ، فإنَّ هـٰذهِ مكيدةٌ روَّجَها الشيطانُ بلعنتِهِ على المغرورينَ ، وخيَّلَ إليهِمْ : إنَّكُمْ أربابُ البصائرِ ، وأهلُ التفطُّنِ للخفايا والسرائرِ ، فأيُّ خيرٍ في ذكرٍ باللسانِ معَ غفلةِ القلبِ ؟!

فانقسمَ الخلقُ في هـٰذهِ المكيدةِ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : ظالمٌ لنفسِهِ ، ومقتصدٌ ، وسابقٌ بالخيراتِ .

أمَّا السابقُ : فقالَ : (صدقتَ يا ملعونُ ، ولـٰكنْ هيَ كلمةُ حقٍّ أردتَ بها باطلاً ، فلا جرمَ أعذِّبُكَ مرَّتينِ ، وأرغمُ أنفَكَ مِنْ وجهينِ ، فأضيفُ إلىٰ حركةِ اللسانِ حركةَ القلبِ) ، فكانَ كالذي داوىٰ جرْحَ الشيطانِ بنثرِ الملحِ عليهِ .

وأمَّا الظالمُ المغرورُ : فاستشعرَ في نفسِهِ خيلاءَ الفطنةِ لهـٰذهِ الدقيقةِ ، ثمَّ عجزَ عنِ الإخلاصِ بالقلبِ ، فتركَ معَ ذلكَ تعويدَ اللسانِ بالذكرِ ، فأسعفَ الشيطانَ بمرادِهِ ، وتدلَّىٰ بحبلِ غرورِهِ ، فتمَّتْ بينَهُما المشاكلةُ والموافقةُ ، كما قيلَ : (وافقَ شنٌّ طبقَهْ ، وافقَهُ فاعتنقَهُ)[2]

وأمَّا المقتصدُ : فلمْ يقدرْ علىٰ إرغامِهِ بإشراكِ القلبِ في العملِ ، وتفطَّنَ لنقصانِ حركةِ اللسانِ بالإضافةِ إلى القلبِ ، ولـٰكنِ اهتدىٰ إلىٰ كمالِهِ بالإضافةِ إلى السكوتِ والفضولِ ، فاستمرَّ عليهِ ، وسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يشركَ القلبَ معَ اللسانِ في اعتيادِ الخيرِ .

فكانَ السابقُ كالحائكِ الذي ذُمَّتْ حياكتُهُ فتركَها وأصبحَ كاتباً ، والظالمُ المتخلِّفُ كالذي تركَ الحياكةَ أصلاً

---

(١) في (س) : (الأوقات) بدل (الأحوال) .

(٢) مثل مشهور يضرب لاثنين جمعتهما حالة واحدة فاتفقا بها ، ومنهم من يجعله رجزاً مجزوءاً ، وشنٌّ وطبقٌ اسمان لرجلين على الراجح ، أو علمان علىٰ قبيلتين ، أو علىٰ رجل وامرأة ، وقيل غير ذلك ، والهاء في (طبقه) للسكت لموافقة السجعة في الأوليين ، وانظر « مجمع الأمثال » (٤٨٨/٣) ، وقال فيه الميداني : (وزاد المتأخرون فيه : وافقه فاعتنقه) .

وأصبحَ كنَّاساً ، والمقتصدُ كالذي عجزَ عنِ الكتابةِ فقالَ : (لا أنكرُ مذمَّةَ الحياكةِ ، ولٰكنَّ الحائكَ مذمومٌ بالإضافةِ إلى الكاتبِ ، لا بالإضافةِ إلى الكنَّاسِ ، فإذا عجزتُ عنِ الكتابةِ . . فلا أتركُ الحياكةَ) .

ولذٰلكَ قالَتْ رابعةُ العدويَّةُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ) ، فلا تظنَّ أنَّها تذمُّ حركةَ اللسانِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ذكرُ اللهِ ، بلْ تذمُّ غفلةَ القلبِ ، فهوَ يحتاجُ إلى الاستغفارِ مِنْ غفلةِ قلبِهِ ، لا مِنْ حركةِ لسانِهِ ، فإنْ سكتَ عنِ الاستغفارِ باللسانِ أيضاً . . احتاجَ إلى استغفارينِ ، لا إلى استغفارٍ واحدٍ .

فهٰكذا ينبغي أنْ تفهمَ ذمَّ ما يُذمُّ ، وحمدَ ما يُحمدُ ، وإلا . . جهلتَ معنىٰ ما قالَ القائلُ الصادقُ : (حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبينَ)[1] ، فإنَّ هٰذهِ أمورٌ تثبتُ بالإضافةِ ، فلا ينبغي أنْ تُؤخذَ مِنْ غيرِ إضافةٍ[2] ، بلْ ينبغي ألا تستحقرَ ذرَّاتِ الطاعاتِ والمعاصي ، ولذٰلكَ قالَ جعفرٌ الصادقُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خبَّأَ ثلاثاً في ثلاثٍ ؛ رضاهُ في طاعتِهِ ، فلا تحْقِروا منها شيئاً ؛ فلعلَّ رضاهُ فيهِ ، وخبَّأَ غضبَهُ في معاصيهِ ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعلَّ غضبَهُ فيهِ ، وخبَّأَ ولايتَهُ في عبادِهِ ، فلا تحقروا منهُمْ أحداً ، فلعلَّهُ وليُّ اللهِ تعالىٰ) ، وزادَ : (وخبَّأَ إجابتَهُ في دعائِهِ ، فلا تتركوا الدعاءَ ، فربَّما كانتِ الإجابةُ فيهِ)[3]

* * *

---

(١) كلمة مشهورة لأبي سعيد الخرّاز ، تقدمت للمصنف غير مرة .

(٢) في (ب) هنا زيادة : (فلا ينبغي أن توجد وحدها) .

(٣) قوت القلوب (٢٠٧/١) ، ورواه البيهقي في « الزهد » (٧٥٩) من كلام ذي النون المصري رحمه الله تعالىٰ .

الرُّكنُ الرَّابعُ
في دواءِ التّوبة وطريقِ العلاجِ لحلِّ عقدةِ الإصرار

اعلمْ : أنَّ الناسَ قسمانِ :

ـ شابٌّ لا صبوةَ لهُ ، نشأَ على الخيرِ واجتنابِ الشرِّ ، وهوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يعجبُ ربُّكَ مِنْ شابٍ ليسَتْ لهُ صبوةٌ »[1] ، وهـٰذا عزيزٌ نادرٌ .

ـ القسمُ الثاني : هوَ الذي لا يخلو عنْ مقارفةِ الذنوبِ ، ثمَّ همْ ينقسمونَ إلىٰ مصرّينَ وإلىٰ تائبينَ ، وغرضُنا أنْ نبيِّنَ العلاجَ في حلِّ عقدةِ الإصرارِ ، ونذكرَ الدواءَ فيهِ .

فاعلمْ : أنَّ شفاءَ التوبةِ لا يحصلُ إلا بالدواءِ ، ولا يقفُ على الدواءِ مَنْ لا يقفُ على الداءِ ؛ إذْ لا معنىً للدواءِ إلا مناقضةُ أسبابِ الداءِ ، فكلُّ داءٍ حصلَ مِنْ سببٍ فدواؤُهُ حلُّ ذٰلكَ السببِ ورفعُهُ وإبطالُهُ ، ولا يبطلُ الشيءُ إلا بضدِّهِ .

ولا سببَ للإصرارِ إلا الغفلةُ والشهوةُ ، ولا يضادُّ الغفلةَ إلا العلمُ ، ولا يضادُّ الشهوةَ إلا الصبرُ علىٰ قطعِ الأسبابِ المحرّكةِ للشهوةِ ، والغفلةُ رأسُ الخطايا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

فلا دواءَ إذاً للتوبةِ إلا معجونٌ يعجنُ مِنْ حلاوةِ العلمِ ومرارةِ الصبرِ ؛ كما يجمعُ السَّكَنْجَبينُ بينَ حلاوةِ السكرِ وحموضةِ الخلِّ ، ويُقصدُ بكلِّ واحدٍ منهُما غرضٌ آخرُ في العلاجِ بمجموعِهِما ، بقمعِ الأسبابِ المهيّجةِ للصفراءِ ؛ فهـٰكذا ينبغي أنْ تفهمَ علاجَ القلبِ عمَّا بهِ مِنْ مرضِ الإصرارِ .

فإذاً ؛ لهـٰذا الدواءِ أصلانِ : أحدُهُما : العلمُ ، والآخرُ : الصبرُ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِهِما .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : أينفعُ كلُّ علمٍ لحلِّ الإصرارِ أمْ لا بدَّ مِنْ علمٍ مخصوصٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ العلومَ بجملتِها أدويةٌ لأمراضِ القلوبِ ، ولـٰكنْ لكلِّ مرضٍ علمٌ يخصُّهُ ؛ كما أنَّ علمَ الطبِّ نافعٌ في علاجِ الأمراضِ بالجملةِ ، ولـٰكنْ يخصُّ كلَّ علَّةٍ علمٌ مخصوصٌ ؛ فكذٰلكَ داءُ الإصرارِ .

فلنذكرْ خصوصَ ذٰلكَ العلمِ علىٰ موازنةِ مرضِ الأبدانِ ؛ ليكونَ أقربَ إلى الفهمِ ، فنقولُ :

يحتاجُ المريضُ إلى التصديقِ بأمورٍ أربعةٍ :

الأوَّلُ : أنْ يصدِّقَ على الجملةِ بأنَّ للمرضِ والصحَّةِ أسباباً يتوصَّلُ إليها بالاختيارِ ، علىٰ ما رتَّبَهُ مسبِّبُ الأسبابِ ، وهـٰذا هوَ الإيمانُ بأصلِ الطبِّ ، فإنَّ مَنْ لا يؤمنُ بهِ . . لا يشتغلُ بالعلاجِ ، ويحقُّ عليهِ الهلاكُ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٥١/٤) ، والطبراني في « الكبير » (٣٠٩/١٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه موقوفاً عليه ابنُ المبارك في « الزهد » (٣٤٩) ، **والعجب** : كون الشيء خارجاً عن نظائره من جنسه حتىٰ يكون نظره في صفة ويكون استعظام الشيء واستكباره لخروجه عن العادة وبعده ، وذٰلك مما يتنزه عن مثله الباري تعالىٰ ، فيؤول بمعنىً يعظم قدره عنده فيحيز له أجره ، وإنما عبر بذٰلك تقريباً لأفهام العرب . « إتحاف » (٦٠٨/٨) .

وهٰذا وِزانُهُ ممَّا نحنُ فيهِ الإيمانُ بأصلِ الشرعِ ، وهوَ أنَّ للسعادةِ في الآخرةِ سبباً هوَ الطاعةُ ، وللشقاوةِ سبباً هوَ المعصيةُ ، وهٰذا هوَ الإيمانُ بأصلِ الشرائعِ ، وهٰذا لا بدَّ مِنْ حصولِهِ إمَّا عنْ تحقيقٍ أوْ تقليدٍ ، وكلاهُما مِنْ جملةِ الإيمانِ .

الثاني : أنَّهُ لا بدَّ أنْ يعتقدَ المريضُ في طبيبٍ معيَّنٍ أنَّهُ عالمٌ بالطبِّ ، حاذقٌ فيهِ ، صادقٌ فيما يعبِّرُ عنهُ ، لا يلبِّسُ ولا يكذبُ ، فإنَّ إيمانَهُ بأصلِ الطبِّ لا ينفعُهُ بمجرَّدِهِ دونَ هٰذا الإيمانِ .

ووِزانُهُ ممَّا نحنُ فيهِ العلمُ بصدْقِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والإيمانُ بأنَّ كلَّ ما يقولُهُ حقٌّ وصدْقٌ ، لا كذبَ فيهِ ولا خُلْفَ .

الثالثُ : أنَّهُ لا بدَّ أنْ يصغيَ إلى الطبيبِ فيما يحذِّرُهُ مضرَّتَهُ ؛ مِنْ تناولِ الفواكهِ ، والأسبابِ المضرَّةِ على الجملةِ ، حتَّىٰ يغلبَ عليهِ الخوفُ في تركِ الاحتماءِ ، فتكونَ شدَّةُ الخوفِ باعثةً لهُ على الاحتماءِ .

ووِزانُهُ مِنَ الدينِ الإصغاءُ إلى الآياتِ والأخبارِ المشتملةِ على الترغيبِ في التقوىٰ والتحذيرِ مِنِ ارتكابِ الذنوبِ واتباعِ الهوىٰ ، والتصديقُ بجميعِ ما يُلقىٰ إلىٰ سمعِهِ مِنْ ذٰلكَ مِنْ غيرِ شكٍّ واسترابةٍ ، حتَّىٰ ينبعثَ بِهِ الخوفُ المقوّي على الصبرِ ، الذي هوَ الركنُ الآخرُ في العلاجِ .

الرابعُ : أنْ يصغيَ إلى الطبيبِ فيما يخصُّ مرضَهُ ، وفيما يلزمُهُ في نفسِهِ الاحتماءُ عنهُ ؛ ليعرِّفَهُ أوَّلاً تفصيلَ ما يضرُّهُ مِنْ أفعالِهِ وأحوالِهِ ، ومأكولِهِ ومشروبِهِ ، فليسَ علىٰ كلِّ مريضٍ الاحتماءُ عنْ كلِّ شيءٍ ، ولا ينفعُهُ كلُّ دواءٍ ، بلْ لكلِّ علَّةٍ خاصَّةٍ علمٌ خاصٌّ ، وعلاجٌ خاصٌّ .

ووِزانُهُ مِنَ الدينِ أنَّ كلَّ عبدٍ فليسَ يُبتلىٰ بكلِّ شهوةٍ ، وارتكابِ كلِّ ذنبٍ ، بلْ لكلِّ مؤمنٍ ذنبٌ مخصوصٌ أوْ ذنوبٌ مخصوصةٌ ، وإنَّما حاجتُهُ في الحالِ مرهقةٌ إلى العلمِ بأنَّها ذنوبٌ ، ثمَّ إلى العلمِ بآفاتِها وقدْرِ ضررِها في الدينِ ، ثمَّ إلى العلمِ بكيفيةِ التوصُّلِ إلى الصبرِ عنها ، ثمَّ إلى العلمِ بكيفيةِ تكفيرِ ما سبقَ منها ، فهٰذهِ علومٌ يختصُّ بها أطباءُ الدينِ ، وهمُ العلماءُ الذينَ هُمْ ورثةُ الأنبياءِ .

فالعاصي إنْ علمَ عصيانَهُ . . فعليهِ طلبُ العلاجِ مِنَ الطبيبِ ، وهوَ العالمُ ، فإنْ كانَ لا يدري أنَّ ما يرتكبُهُ ذنبٌ . . فعلى العالمِ أنْ يعرِّفَهُ ذٰلكَ ، وذٰلكَ بأنْ يتكفَّلَ كلُّ عالمٍ بإقليمٍ أوْ بلدةٍ أوْ محلَّةٍ أوْ مسجدٍ أوْ مشهدٍ فيعلِّمَ أهلَهُ دينَهُمْ ، ويميِّزَ ما يضرُّهُمْ عمَّا ينفعُهُمْ ، وما يشقيهِمْ عمَّا يسعدُهُمْ ، ولا ينبغي أنْ يصبرَ إلىٰ أنْ يُسألَ عنهُ ، بلْ ينبغي أنْ يتصدَّىٰ لدعوةِ الناسِ إلىٰ نفسِهِ ، فإنَّهُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، والأنبياءُ ما تركوا الناسَ علىٰ جهلِهِمْ ، بلْ كانوا ينادونَهُمْ في مجامعِهِمْ ، ويدورونَ علىٰ أبوابِ دورِهِمْ في الابتداءِ ، ويطلبونَ واحداً واحداً فيرشدونَهُمْ ، فإنَّ مرضى القلوبِ لا يعرفونَ مرضَهُمْ ؛ كما أنَّ الذي ظهرَ علىٰ وجهِهِ برصٌ ولا مرآةَ معَهُ لا يعرفُ برصَهُ ما لمْ يعرِّفْهُ غيرُهُ ، وهٰذا فرضُ عينٍ على العلماءِ كافةً .

وعلى السلاطينِ كافةً أنْ يرتِّبوا في كلِّ قريةٍ وكلِّ محلَّةٍ فقيهاً متديِّناً ، يعلِّمُ الناسَ دينَهُمْ ، فإنَّ الخلقَ لا يُولدونَ إلا جهَّالاً ، فلا بدَّ مِنْ تبليغِ الدعوةِ إليهِمْ في الأصلِ والفرعِ ، فالدنيا دارُ المرضىٰ ؛ إذ ليسَ في بطنِ الأرضِ إلا ميِّتٌ ، ولا علىٰ ظهرِها إلا سقيمٌ ، ومرضُ القلوبِ أكثرُ مِنْ مرضِ الأبدانِ ، والعلماءُ أطباءُ القلوبِ ، والسلاطينُ قُوَّامُ دارِ المرضىٰ ، فكلُّ مريضٍ لمْ يقبلِ العلاجَ بمداواةِ العالمِ يُسلَّمُ إلى السلطانِ ليكفَّ شرَّهُ ، كما يُسلِّمُ الطبيبُ المريضَ الذي لا يحتمي أوِ الذي غلبَ عليهِ الجنونُ إلى القيِّمِ ليقيِّدَهُ بالسلاسلِ والأغلالِ ويكفَّ شرَّهُ عنْ نفسِهِ وعنْ سائرِ الناسِ .

وإنَّما صارَ مرضُ القلوبِ أكثرَ مِنْ مرضِ الأبدانِ لثلاثِ عللٍ :

إحداها : أنَّ المريضَ بهِ لا يدري أنَّهُ مريضٌ .

والثانيةُ : أنَّ عاقبتَهُ غيرُ مشاهدةٍ في هاذا العالمِ ، بخلافِ مرضِ البدنِ ، فإنَّ عاقبتَهُ موتٌ مشاهدٌ ، تنفرُ الطباعُ منهُ ، وما بعدَ الموتِ غيرُ مشاهدٍ ، وعاقبةُ الذنوبِ موتُ القلبِ ، وهوَ غيرُ مشاهدٍ في هاذا العالمِ ، فقلَّتِ النفرةُ عنِ الذنوبِ وإنْ علمَها مرتكبُها ، فلذٰلكَ تراهُ يتكلُ علىٰ فضلِ اللهِ في مرضِ القلبِ ويجتهدُ في علاجِ مرضِ البدنِ مِنْ غيرِ اتكالٍ .

والثالثةُ ـ وهيَ الداءُ العضالُ ـ : فقدُ الطبيبِ ، فإنَّ الأطباءَ همُ العلماءُ ، وقدْ مرضوا في هاذهِ الأعصارِ مرضاً شديداً عجزوا عنْ علاجِهِ ، وصارَتْ لهُمْ سلوةٌ في عمومِ المرضِ حتَّىٰ لا يظهرَ نقصانُهُمْ ، فاضطروا إلىٰ إغواءِ الخلقِ ، والإشارةِ عليهِمْ بما يزيدُهُمْ مرضاً ؛ لأنَّ الداءَ المهلكَ هوَ حبُّ الدنيا ، وقدْ غلبَ هاذا الداءُ على الأطباءِ ، فلمْ يقدروا علىٰ تحذيرِ الخلقِ منهُ ؛ استنكافاً مِنْ أنْ يُقالَ لهُمْ : فما بالُكُمْ تأمرونَ بالعلاجِ وتنسونَ أنفسَكُمْ ؟! فبهاذا السببِ عمَّ على الخلقِ الداءُ ، وعظمَ الوباءُ ، وانقطعَ الدواءُ ، وهلكَ الخلقُ لفقدِ الأطباءِ ، بلِ اشتغلَ الأطباءُ بفنونِ الإغواءِ ، فليتَهُمْ إذْ لمْ ينصحوا . . لمْ يغشُّوا ، وإذْ لمْ يصلحوا . . لمْ يفسدوا ، وليتَهُمْ سكتوا وما نطقوا ، فإنَّهُمْ إذا تكلموا . . لمْ يهمُّهُمْ في مواعظِهِمْ إلا ما يرغِّبُ العوامَّ(١) ، ويستميلُ قلوبَهُمْ ، ولا يتوصَّلونَ إلىٰ ذٰلكَ إلا بالإرجاءِ وتغليبِ أسبابِ الرجاءِ ، وذكرِ دلائلِ الرحمةِ ؛ لأنَّ ذٰلكَ ألذُّ في الأسماعِ ، وأخفُّ على الطباعِ ، فتنصرفُ الخلقُ عنْ مجالسِ الوعظِ وقدِ استفادوا مزيدَ جراءةٍ على المعاصي ، ومزيدَ ثقةٍ بفضْلِ اللهِ .

ومهما كانَ الطبيبُ جاهلاً أوْ خائناً . . أهلكَ بالدواءِ حيثُ يضعُهُ في غيرِ موضعِهِ ، فالرجاءُ والخوفُ دواءانِ ، ولٰكنْ لشخصينِ متضادي العلَّةِ ؛ أمَّا الذي غلبَ عليهِ الخوفُ حتَّىٰ هجرَ الدنيا بالكليَّةِ ، وكلَّفَ نفسَهُ ما لا تطيقُ ، وضيَّقَ العيشَ علىٰ نفسِهِ بالكليَّةِ . . فتُكسرُ سَوْرةُ إسرافِهِ في الخوفِ بذكرِ أسبابِ الرجاءِ ؛ ليعودَ إلى الاعتدالِ .

وكذا المصرُّ على الذنوبِ المشتهي للتوبةِ الممتنعُ عنها بحكْمِ القنوطِ واليأسِ استعظاماً لذنوبِهِ التي سبقَتْ . . يُعالجُ أيضاً بأسبابِ الرجاءِ ؛ حتَّىٰ يطمعَ في قبولِ التوبةِ فيتوبَ .

فأمَّا معالجةُ المغرورِ المسترسلِ في المعاصي بذكرِ أسبابِ الرجاءِ . . فيضاهي معالجةَ المحرورِ بالعسلِ طلباً للشفاءِ ، وذٰلكَ مِنْ دأبِ الجهَّالِ والأغبياءِ .

فإذاً ؛ فسادُ الأطباءِ هوَ الداءُ المعضلُ الذي لا يقبلُ الدواءَ أصلاً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فاذكرِ الطريقَ الذي ينبغي أنْ يسلكَهُ الواعظُ في وعظِهِ معَ الخلقِ .

فاعلمْ : أنَّ ذٰلكَ يطولُ ولا يمكنُ استقصاؤُهُ .

❁ ❁ ❁

نعمْ ؛ نشيرُ إلى الأنواعِ النافعةِ في حلِّ عقدةِ الإصرارِ ، وحملِ الناسِ علىٰ تركِ الذنوبِ ، وهيَ أربعةُ أنواعٍ :

---

(١) في (د) : (يذعن العوام) ، وفي بقية النسخ : (يزعق العوام) بدل (يرغب العوام) ، والمثبت من (ق) .

النوعُ الأوَّلُ : أنْ يذكرَ ما في القرآنِ مِنَ الآياتِ المخوفةِ للمذنبينَ والعاصينَ ، وكذٰلكَ ما وردَ مِنَ الأخبارِ والآثارِ :

مثلَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ يومٍ طلعَ فجرُهُ ولا ليلةٍ غابَ شفقُها إلا وملكانِ يتجاوبانِ بأربعةِ أصواتٍ ؛ يقولُ أحدُهُما : يا ليتَ هٰذا الخلْقَ لمْ يُخلقوا ، ويقولُ الآخرُ : يا ليتَهُمْ إذْ خُلقوا . . علموا لماذا خُلقوا ، فيقولُ الآخرُ : يا ليتَهُمْ إذْ علموا لماذا خُلقوا . . عملوا بما علموا ـ وفي بعضِ الرواياتِ : تجالسوا فتذاكروا ما علموا ـ ويقولُ الآخرُ : يا ليتَهُمْ إذْ لمْ يعملوا بما علموا . . تابوا ممَّا عملوا »[1]

وقالَ بعضُ السلفِ : (إذا أذنبَ العبدُ . . أمرَ صاحبُ اليمينِ صاحبَ الشمالِ وهوَ أميرٌ عليهِ أنْ يرفعَ القلمَ عنهُ ستَّ ساعاتٍ ، فإنْ تابَ واستغفرَ . . لمْ يكتبْها عليهِ ، وإنْ لمْ يستغفرْ . . كتبَها)[2]

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما مِنْ عبدٍ يعصي إلا استأذنَ مكانُهُ مِنَ الأرضِ أنْ يخسفَ بهِ ، واستأذنَ سقفُهُ مِنَ السماءِ أنْ يسقطَ عليهِ كسفاً ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ للأرضِ والسماءِ : كُفَّا عنْ عبدي وأمهلاهُ ، فإنَّكُما لمْ تخلقاهُ ، ولوْ خلقتماهُ . . لرحمتماهُ ، ولعلَّهُ يتوبُ إليَّ فأغفرَ لهُ ، ولعلَّهُ يستبدلُ صالحاً فأبدلَهُ لهُ حسناتٍ ، فذٰلكَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾)[3]

وفي حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (الطابعُ معلقٌ بقائمةِ العرشِ ، فإذا انتهكَتِ الحرماتُ واستحلَّتِ المحارمُ . . أرسلَ اللهُ الطابعَ ، فيطبعُ على القلوبِ بما فيها)[4]

وفي حديثِ مجاهدٍ : (القلبُ مثلُ الكفِّ المفتوحةِ ، كلَّما أذنبَ العبدُ ذنباً . . انقبضَتْ إصبعٌ حتَّىٰ تنقبضَ الأصابعُ كلُّها ، فيُسدُّ على القلبِ ، فذٰلكَ هوَ القفلُ)[5]

وقالَ الحسنُ : (إن بينَ العبدِ وبينَ اللهِ حدّاً مِنَ المعاصي معلوماً ، إذا بلغَهُ العبدُ . . طبعَ اللهُ علىٰ قلبِهِ ، فلمْ يوفِّقْهُ بعدَها لخيرٍ)[6]

والأخبارُ والآثارُ في ذمِّ المعاصي ومدحِ التائبينَ لا تحصىٰ ، فينبغي أنْ يستكثرَ الواعظُ منها إنْ كانَ وارثَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُ ما خلَّفَ ديناراً ولا درهماً ، إنَّما خلَّفَ العلمَ والحكمةَ ، وورَّثَهُ كلَّ عالمٍ بقدْرِ ما أصابَهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) كذا في « القوت » (١٩٠/١) ، ووقع في النسخ : (إذ لم يعلموا) بدل (علموا) ، وصحح من « القوت » ، وقد قال الإمام أبو طالب في هٰذا : (وفي أخبار متفرقة جمعناها . . .) ، وقال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده هٰكذا ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث ابن عمر : « إن ملكاً ينادي في كل يوم وليلة : أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده . . . » الحديث ، وفيه : « ليت الخلائق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا . . علموا لماذا خلقوا ، فتجالسوا بينهم فتذاكروا . . . » الحديث) . « إتحاف » (٦١٢/٨) ، وانظر « تفسير الثعلبي » (٩٢/٨) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٣٤) ، و« حلية الأولياء » (١٤٢/٦) .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٠/١) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (١٩١/٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٦٤٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) كذا في « القوت » (١٨٧/١) .

(٤) الخبر في جميع النسخ عن عمر الفاروق رضي الله عنه ، وهو في « القوت » (١٨٥/١) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وكذا رواه عنه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٣) مرفوعاً .

(٥) قوت القلوب (١٨٥/١) .

(٦) نسبه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦١٣/٨) لصاحب « القوت » .

النوعُ الثاني : حكاياتُ الأنبياءِ والسلفِ الصالحينَ ، وما جرىٰ عليهِمْ مِنَ المصائبِ بسببِ ذنوبِهِمْ :

فذٰلكَ شديدُ الوقعِ ظاهرُ النفعِ في قلوبِ الخلقِ ، مثلَ أحوالِ آدمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في عصيانِهِ ، وما لقيَهُ مِنَ الإخراجِ مِنَ الجنةِ ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّهُ لمَّا أكلَ مِنَ الشجرةِ . . تطايرَتِ الحللُ عنْ جسدِهِ ، وبدَتْ عورتُهُ ، فاستحيا التاجُ والإكليلُ مِنْ وجهِهِ أنْ يرتفعا عنهُ ، فجاءَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فأخذَ التاجَ عنْ رأسِهِ ، وحلَّ الإكليلَ عنْ جبينِهِ ، ونُودِيَ مِنْ فوقِ العرشِ : اهبطا مِنْ جواري ؛ فإنَّهُ لا يجاورُني مَنْ عصاني ، قالَ : فالتفتَ آدمُ إلىٰ حوَّاءَ باكياً وقالَ : هٰذا أوَّلُ شؤمِ المعصيةِ ، أُخرجنا مِنْ جوارِ الحبيبِ[1]

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ داوودَ عليهِما السلامُ لمَّا عُوقبَ علىٰ خطيئتِهِ لأجلِ التمثالِ الذي عُبدَ في دارِهِ أربعينَ يوماً[2] ، وقيلَ : لأنَّ المرأةَ سألَتْهُ أنْ يحكمَ لأبيها ، فقالَ : نعمْ ، ولمْ يفعلْ ، وقيلَ : بلْ أحبَّ بقلبِهِ أنْ يكونَ الحكْمُ لأبيها علىٰ خصمِهِ لمكانِها منهُ ؛ فسُلبَ ملكُهُ أربعينَ يوماً ، فهربَ تائهاً علىٰ وجهِهِ ، فكانَ يسألُ بكفِّهِ فلا يطعمُ ، فإذا قالَ : أطعموني فإنِّي سليمانُ بنُ داوودَ . . شُجَّ وضربَ ، وحُكِيَ أنَّهُ استطعمَ مِنْ بيتٍ لامرأةٍ ، فطردَتْهُ وبزقَتْ في وجهِهِ ، وفي روايةٍ فأخرجَتْ عجوزٌ جرَّةً فيها بولٌ فصبَّتْهُ علىٰ رأسِهِ ، إلىٰ أنْ أُخرجَ الخاتمُ مِنْ بطنِ الحوتِ ، فلبسَهُ بعدَ انقضاءِ الأربعينَ أيامِ العقوبةِ ، قالَ : فجاءَتِ الطيرُ فعكفَتْ علىٰ رأسِهِ ، وجاءَتِ الجنُّ والشياطينُ والوحوشُ فاجتمعَتْ حولَهُ ، واعتذرَ إليهِ بعضُ مَنْ كانَ جنىٰ عليهِ ، فقالَ : لا ألومُكُمْ فيما فعلتُمْ مِنْ قبلُ ، ولا أحمدُكُمْ في عذرِكُم ؛ لأنَّ هٰذا أمرٌ كانَ مِنَ السماءِ ولا بدَّ منهُ[3]

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ أنَّ رجلاً تزوَّجَ امرأةً مِنْ بلدةٍ أخرىٰ ، وأرسلَ عبدَهُ ليحملَها إليهِ ، فراودَتْهُ نفسُهُ وطالبَتْهُ بها ، فجاهدَها واستعصمَ ، قالَ : فنبَّأَهُ اللهُ تعالىٰ ببركةِ تقواهُ ، فكانَ نبياً في بني إسرائيلَ[4]

وفي قصصِ موسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ للخضرِ عليهِ السلامُ : بِمَ أطلعَكَ اللهُ علىٰ علمِ الغيبِ ؟ قالَ : بتركِ المعاصي لأجلِ اللهِ تعالىٰ[5]

ورُوِيَ أنَّ الريحَ كانَتْ تسيرُ بسليمانَ عليهِ السلامُ ، فنظرَ إلىٰ قميصِهِ نظرةً ، وكانَ عليهِ قميصٌ جديدٌ ، فكأنَّهُ أعجبَهُ ، قالَ : فوضعَتْهُ الريحُ ، فقالَ : لِمَ فعلتِ ولمْ آمرْكِ ؟ قالَتْ : إنَّما نطيعُكَ إذا أطعتَ اللهَ[6]

ورُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ يعقوبَ عليهِ السلامُ : أتدري لِمَ فرَّقتُ بينَكَ وبينَ ولدِكَ يوسفَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : لقولِكَ لإخوتِهِ : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ ، لِمَ خفتَ عليهِ الذئبَ ولمْ ترجُني ؟! ولِمَ نظرتَ إلىٰ غفلةِ إخوتِهِ ولمْ تنظرْ إلىٰ حفظي لهُ ؟! وتدري لِمَ رددتُهُ عليكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : لأنكَ رجوتني وقلتَ : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ ، وبما قلتَ : ﴿ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾[7]

---

(١) كذا في « القوت » (١٨٤/١) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٣/٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٩/٧) عن مجاهد .

(٢) والخبر مبسوط عند الطبري في « تاريخه » (٤٩٦/١) من رواية وهب بن منبه ، وكان ذٰلك من زوجه جرادة ، ولم يكن اتخاذ التماثيل محرماً في شريعته ، كما أن هٰذا التمثال عُبد بغير علمه ، فتسمية ذٰلك خطيئة لرفيع مقامه عليه الصلاة والسلام .

(٣) كذا برواياته في « القوت » (١٨٤/١) ، وقد رواه بنحوه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٩٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) قوت القلوب (١٨٧/١) .

(٥) قوت القلوب (١٨٧/١) .

(٦) قوت القلوب (١٨٤/١) .

(٧) قوت القلوب (١٩١/١) .

وكذلكَ لمَّا قالَ يوسفُ لصاحبِ الملكِ : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[١] .

وأمثالُ هٰذهِ الحكاياتِ لا تنحصرُ ، ولمْ يردْ بها القرآنُ والأخبارُ ورودَ الأسمارِ ، بلِ الغرضُ بها الاعتبارُ والاستبصارُ ؛ لتعلمَ أنَّ الأنبياءَ عليهمُ السلامُ لمْ يُتجاوزْ عنهُمْ في الذنوبِ الصغارِ ، فكيفَ يُتجاوزُ عنْ غيرِهِمْ في الذنوبِ الكبارِ ؟!

نعمْ ؛ كانَتْ سعادتُهُمْ في أنْ عُوجلوا بالعقوبةِ ولمْ يُؤخَّروا إلى الآخرةِ ، والأشقياءُ يُمهلونَ ليزدادوا إثماً ، ولأنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ وأكبرُ ، فهٰذا أيضاً ممَّا ينبغي أنْ يكثرَ جنسُهُ علىٰ أسماعِ المصرِّينَ ؛ فإنَّهُ نافعٌ في تحريكِ دواعي التوبةِ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الثالثُ : أنْ يقرِّرَ عندَهُمْ أنَّ تعجيلَ العقوبةِ في الدنيا متوقَّعٌ على الذنبِ ، وأنَّ كلَّ ما يصيبُ العبدَ مِنَ المصائبِ فهوَ بسببِ جناياتِهِ :

فربَّ عبدٍ يتساهلُ في أمرِ الآخرةِ ، ويخافُ مِنْ عقوبةِ اللهِ في الدنيا أكثرَ ؛ لفرطِ جهلِهِ ، فينبغي أنْ يُخوَّفَ بهِ ؛ فإنَّ الذنوبَ كلَّها يُتعجَّلُ في الدنيا شؤمُها في غالبِ الأمرِ ، كما حُكِيَ في قصَّةِ داوودَ وسليمانَ عليهما السلامُ ، حتَّىٰ إنَّهُ قدْ يضيقُ على العبدِ رزقُهُ بسببِ ذنوبِهِ ، وقدْ تسقطُ منزلتُهُ مِنَ القلوبِ ويستولي عليهِ أعداؤُهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليُحرمُ الرزقَ بالذنبِ يصيبُهُ »[٢]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إنِّي لأحسبُ أنَّ العبدَ ينسى العلمَ بالذنبِ يصيبُهُ)[٣] ، وهوَ معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قارفَ ذنباً . . فارقَهُ عقلٌ لا يعودُ إليهِ أبداً »[٤]

وقالَ بعضُ السلفِ : (ليسَتِ اللعنةُ سواداً في الوجهِ ، ونقصاً في المالِ ، إنَّما اللعنةُ ألا تخرجَ مِنْ ذنبٍ إلا وقعتَ في مثلِهِ أوْ شرٍّ منهُ)[٥]

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ اللعنةَ هيَ الطردُ والإبعادُ ، فإذا لمْ يُوفَّقْ للخيرِ ، ويُسِّرَ لهُ الشرُّ . . فقدْ أُبعِدَ ، والحرمانُ مِنْ رزقِ التوفيقِ أعظمُ حرمانٍ ، وكلُّ ذنبٍ فإنَّهُ يدعو إلىٰ ذنبٍ آخرَ ويتضاعفُ ، فيُحرمُ العبدُ بهِ عنْ رزقِهِ النافعِ مِنْ مجالسةِ العلماءِ المنكرينَ للذنوبِ ، ومِنْ مجالسةِ الصالحينَ ، بلْ يمقتُهُ اللهُ تعالىٰ فيمقتُهُ الصالحونَ .

وحُكِيَ عنْ بعضِ العارفينَ أنَّهُ كانَ يمشي في وسطِ الوحْلِ جامعاً ثيابَهُ محترزاً ، إذْ زلقَتْ رجلُهُ وسقطَ ، فقامَ فجعلَ يمشي في وسطِ الوحْلِ ويبكي ويقولُ : هٰذا مثلُ العبدِ ، لا يزالُ يتوقَّى الذنوبَ ويجانبُها حتَّىٰ يقعَ في ذنبٍ وذنبينِ ، فعندَها يخوضُ في الذنوبِ خوضاً[٦]

---

(١) قوت القلوب (١/١٩١) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٢٢) ضمن خبر مرفوع أوله : « لا يزيد في العمر إلا البر » ، ورواه ابن المبارك مفرداً مرفوعاً في « الزهد » (٨٦) ، وهو في « القوت » (١/١٨٤) .

(٣) قوت القلوب (١/١٨٤) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٧/٢٣١) .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٣٢) ، وكذا هو عند صاحب « القوت » (١/١٨٥) .

(٦) قوت القلوب (١/١٨٧) .

وهوَ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الذنبَ تُتعجَّلُ عقوبتُهُ بالانجرارِ إلىٰ ذنبٍ آخرَ ، ولذٰلكَ قالَ الفضيلُ : (ما أنكرتَ مِنْ تغيُّرِ الزمانِ وجفاءِ الإخوانِ فذنوبُكَ ورَّثَتْكَ ذٰلكَ)[1]

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي لأعرفُ عقوبةَ ذنبي في سوءِ خلقِ حماري)[2]

وقالَ آخرُ : (أعرفُ العقوبةَ حتَّىٰ في فأرِ بيتي)[3]

وقالَ بعضُ صوفيةِ الشامِ : نظرتُ إلىٰ غلامٍ نصرانيٍّ حسنِ الوجهِ ، فوقفتُ أنظرُ إليهِ ، فمرَّ بي ابنُ الجلاءِ الدمشقيُّ ، فأخذَ بيدي ، فاستحييتُ منهُ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ سبحانَ اللهِ !! تعجبتُ منْ هٰذهِ الصورةِ الحسنةِ وهٰذهِ الصنعةِ المحكمةِ كيفَ خُلقَتْ للنارِ ، فغمزَ يدي وقالَ : لتجدنَّ عقوبتَها بعدَ حينٍ ، قالَ : فعوقبتُ بها بعدَ ثلاثينَ سنةً[4]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الاحتلامُ عقوبةٌ)[5]

وقالَ : (لا تفوتُ أحداً صلاةُ جماعةٍ إلا بذنبٍ يذنبُهُ)[6]

وفي الخبرِ : (ما أنكرتُمْ مِنْ زمانِكُمْ فبما غيَّرتُمْ مِنْ أعمالِكُمْ)[7] .

وفي الخبرِ : (يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعبدِ إذا آثرَ شهوتَهُ علىٰ طاعتي . . أنْ أحرمَهُ لذيذَ مناجاتي)[8] .

وحُكِيَ عنْ أبي عمرِو بنِ علوانَ في قصَّةٍ تطولُ قالَ فيها : كنتُ قائماً أصلِّي ذاتَ يومٍ ، فخامرَ قلبي هوىً طاولتُهُ بفكرتي ، حتَّىٰ تولَّدَ منهُ شهوةُ الرجالِ ، فوقعتُ إلى الأرضِ واسودَّ جسدي كلُّهُ ، فاستترتُ في البيتِ ، فلمْ أخرجْ ثلاثةَ أيامٍ ، وكنتُ أعالجُ غسلَهُ في الحمامِ بالصابونِ فلا يزدادُ إلا سواداً ، حتَّى انكشفَ بعدَ ثلاثٍ ، فلقيتُ الجنيدَ وكانَ قدْ وجَّهَ إليَّ فأشخصَني مِنَ الرقَّةِ ، فلمَّا أتيتُهُ . . قالَ لي : أما استحييتَ مِنَ اللهِ تعالىٰ كنتَ قائماً بينَ يديهِ فسامرتَ نفسَكَ بشهوةٍ حتَّى استولَتْ عليكَ[9] وأخرجَتْكَ مِنْ بينِ يدي اللهِ تعالىٰ ؟! فلولا أنِّي دعوتُ اللهَ لكَ وتبتُ إليهِ عنكَ . . للقيتَ اللهَ تعالىٰ بذٰلكَ اللونِ ، قالَ : فعجبتُ كيفَ علمَ ذٰلكَ وهوَ ببغدادَ وأنا بالرقَّةِ !![10]

واعلمْ : أنَّهُ لا يذنبُ العبدُ ذنباً إلا ويسودُّ وجهُ قلبِهِ ، فإنْ كانَ سعيداً . . ظهرَ السوادُ علىٰ ظاهرِهِ لينزجرَ ، وإنْ كانَ شقيّاً . . أُخفيَ عنهُ حتَّىٰ ينهمكَ ويستوجبَ النارَ .

والأخبارُ كثيرةٌ في آفاتِ الذنوبِ في الدنيا ؛ مِنَ الفقرِ ، والمرضِ ، وغيرِهِ ، بلْ مِنْ شؤمِ الذنبِ في الدنيا على الجملةِ : أنْ يكتسبَ ما بعدَهُ صفتَهُ ، فإنِ ابتليَ بشيءٍ . . كانَ عقوبةً لهُ ، ويُحرمُ جميلَ الرزقِ حتَّىٰ يتضاعفَ شقاؤُهُ ، وإنْ أصابتْهُ نعمةٌ . . كانَتِ استدراجاً لهُ ، ويُحرمُ جميلَ الشكرِ حتَّىٰ يُعاقبَ علىٰ كفرانِهِ .

---

(١) قوت القلوب (١٨٥/١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٩/٨) عن الفضيل بن عياض .

(٣) قوت القلوب (١٨٥/١) .

(٤) قوت القلوب (١٨٥/١) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٦/٩) .

(٦) قوت القلوب (١٨٥/١) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٩/٥) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٧٠٩) من قول أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٨) قوت القلوب (١٨٥/١) .

(٩) في (ج ، د ، س) : (استولت عليك برقة) .

(١٠) قوت القلوب (١٨٦/١) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/٤٣) .

وأمَّا المطيعُ . . فمِنْ بركةِ طاعتِهِ أنْ تكونَ كلُّ نعمةٍ في حقِّه جزاءً علىٰ طاعتِهِ ، ويُوفَّقُ لشكرِها ، وكلُّ بليَّةٍ كفارةً لذنوبِهِ ، وزيادةً في درجاتِهِ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الرابعُ : ذكرُ ما وردَ مِنَ العقوباتِ علىٰ آحادِ الذنوبِ :

كالخمرِ ، والزنا ، والسرقةِ ، والقتلِ ، والغيبةِ ، والكبرِ ، والحسدِ ، وذٰلكَ ممَّا لا يمكنُ حصرُهُ ، وذكرُهُ معَ غيرِ أهلِهِ وضعٌ للدواءِ في غيرِ موضعِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ العالمُ كالطبيبِ الحاذقِ ؛ ليستدلَّ أوَّلاً بالنبضِ ، والسحنةِ ووجوهِ الحركاتِ على العللِ الباطنةِ ، ويشتغلَ بعلاجِها ، فليستدلَّ بقرائنِ الأحوالِ علىٰ خفايا الصفاتِ ، وليتعرَّضْ لما وقفَ عليهِ اقتداءً برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حيثُ قالَ له رجلٌ : أوصني يا رسولَ اللهِ ولا تكثرْ عليَّ ، فقالَ : « لا تغضبْ »[1]

وقالَ لهُ آخرُ : أوصني يا رسولَ اللهِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عليكَ باليأسِ ممَّا في أيدي الناسِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ هوَ الغنىٰ ، وإيَّاكَ والطمعَ ؛ فإنَّهُ الفقرُ الحاضرُ ، وصلِّ صلاةَ مودِّعٍ ، وإيَّاكَ وما يُعتذرُ منهُ »[2]

وقالَ رجلٌ لمحمدِ بنِ واسعٍ : أوصني ، فقالَ : أوصيكَ أنْ تكونَ ملكاً في الدنيا والآخرةِ ، فقالَ : كيفَ لي بذٰلكَ ؟ قالَ : الزمِ الزهدَ في الدنيا[3]

فكأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ توسَّمَ في السائلِ الأوَّلِ مخايلَ الغضبِ فنهاهُ عنهُ ، وفي السائلِ الآخرِ مخايلَ الطمعِ في الناسِ وطولِ الأملِ ، وتخيَّلَ محمدُ بنُ واسعٍ في السائلِ مخايلَ الحرصِ على الدنيا .

وقالَ رجلٌ لمعاذٍ : أوصني ، فقالَ : (كنْ رحيماً أكنْ لكَ بالجنَّةِ زعيماً)[4]

فكأنَّهُ تفرَّسَ فيهِ آثارَ الفظاظةِ والغلظةِ .

وقالَ رجلٌ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : أوصني ، فقالَ : إيَّاكَ والناسَ ، وعليكَ بالناسِ ، ولا بدَّ مِنَ الناسِ ، فإنَّ الناسَ همُ الناسُ ، وليسَ كلُّ الناسِ بالناسِ ، ذهبَ الناسُ ، وبقيَ النسناسُ ، وما أراهُمْ بالناسِ ، بلْ غُمسوا في ماءِ الناسِ[5]

فكأنَّهُ تفرَّسَ فيهِ آفةَ المخالطةِ ، وأخبرَ عمَّا كانَ هوَ الغالبَ علىٰ حالِهِ في وقتِهِ ، وكانَ الغالبُ أذاهُ بالناسِ ، والكلامُ علىٰ قدْرِ حالِ السائلِ أولىٰ مِنْ أنْ يكونَ بحسَبِ حالِ القائلِ .

وكتبَ معاويةُ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهما أنِ اكتبي لي كتاباً توصيني فيهِ ولا تكثري ، فكتبَتْ إليهِ : (مِنْ عائشةَ

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٥٠) .

(٤) عزاه الحافظ الزبيدي إلىٰ صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/٦٢٠) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/٣١٤) ، وقال : (قال إبراهيم : أما قولي : « عليك بالناس » . . بمجالسة العلماء ، وأما قولي : « وإياك والناس » . . إياك ومجالسة السفهاء ، وأما قولي : « لا بد من الناس » . . لا بد من الصلوات الخمس والجمعة والحج والجهاد واتباع الجنائز والشراء والبيع ونحوه ، وأما قولي : « الناس هم الناس » . . الفقهاء والحكماء ، وأما قولي : « ليس الناس بالناس » . . أهل الأهواء والبدع ، وأما قولي : « ذهب الناس » . . ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأما قولي : « وبقي النسناس » . . يعني من يروي عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأما قولي : « وما أراهم بالناس ، إنما هم غمسوا في ماء الناس » . . نحن وأمثالنا) .

إلىٰ معاوية ، سلامٌ عليكَ ، أمَّا بعدُ : فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنِ التمسَ رضا الناسِ بسخطِ اللهِ . . وكلَهُ اللهُ إلى الناسِ ، ومَنِ التمسَ رضا اللهِ بسخطِ الناسِ . . كفاهُ اللهُ مؤونةَ الناسِ » ، والسلامُ عليكَ)[1] .

فانظرْ إلىٰ فقهِها كيفَ تعرَّضَتْ للآفةِ التي تكونُ الولاةُ بصددِها ، وهيَ مراعاةُ الناسِ وطلبُ مرضاتِهِمْ .

وكتبَتْ إليهِ مرَّةً أخرىٰ : (أمَّا بعدُ : فاتقِ اللهَ ؛ فإنَّكَ إذا اتقيتَ اللهَ . . كفاكَ الناسَ ، وإذا اتقيتَ الناسَ . . لمْ يغنوا عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً ، والسلامُ)[2]

فإذاً ؛ علىٰ كلِّ ناصحٍ أنْ تكونَ عنايتُهُ مصروفةً إلىٰ تفرُّسِ الصفاتِ الخفيَّةِ ، وتوسُّمِ الأحوالِ اللائقةِ ؛ ليكونَ اشتغالُهُ بالمهمِّ ، فإنَّ حكايةَ جميعِ مواعظِ الشرعِ معَ كلِّ واحدٍ غيرُ ممكنةٍ ، والاشتغالُ بوعظِ مَنْ هوَ مستغنٍ عنِ الوعظِ فيهِ تضييعُ زمانٍ .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : فإنْ كانَ الواعظُ يتكلَّمُ في جمعٍ ، أوْ سألَهُ مَنْ لا يدري باطنَ حالِهِ أنْ يعظَهُ . . فكيفَ يفعلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ طريقَهُ في ذٰلكَ أنْ يعظَهُ بما يشتركُ كافَّةُ الخلقِ في الحاجةِ إليهِ ؛ إمَّا على العمومِ ، وإمَّا على الأكثرِ ، فإنَّ في علومِ الشرعِ أغذيةً وأدويةً ، فالأغذيةُ للكافَّةِ ، والأدويةُ لأربابِ العللِ .

ومثالُهُ : ما رُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ لأبي سعيدٍ الخدريِّ : أوصني ، فقالَ : (عليكَ بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّها رأسُ كلِّ خيرٍ ، وعليكَ بالجهادِ ؛ فإنَّهُ رهبانيةُ الإسلامِ ، وعليكَ بالقرآنِ ؛ فإنَّهُ نورٌ لكَ في أهلِ الأرضِ وذكرٌ لكَ في أهلِ السماءِ ، وعليكَ بالصمتِ إلا مِنْ خيرٍ ؛ فإنَّكَ بذٰلكَ تغلبُ الشيطانَ)[3] .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : أوصني ، فقالَ : (أعزَّ أمرَ اللهِ يعزَّكَ اللهُ)[4]

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ زاحمِ العلماءَ بركبتيكَ ، ولا تجادلْهُمْ فيمقتوكَ ، وخذْ مِنَ الدنيا بلاغَكَ ، وأنفقْ فضولَ كسبِكَ لآخرتِكَ ، ولا ترفضِ الدنيا كلَّ الرفضِ فتكونَ عيالاً ، وعلىٰ أعناقِ الرجالِ كلّاً ، وصمْ صوماً يكسرُ شهوتَكَ ، ولا تصمْ صوماً يضرُّ بصلاتِكَ ؛ فإنَّ الصلاةَ أفضلُ مِنَ الصومِ ، ولا تجالسِ السفيهَ ، ولا تخالطْ ذا الوجهينِ)[5]

وقالَ أيضاً لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تضحكْ مِنْ غيرِ عجبٍ ، ولا تمشِ في غيرِ أربٍ ، ولا تسألْ عمَّا لا يعنيكَ ، ولا تضيِّعْ مالَكَ وتصلحَ مالَ غيرِكَ ؛ فإنَّ مالَكَ ما قدمتَ ، ومالَ غيرِكَ ما تركتَ ، يا بنيَّ ؛ إنَّ مَنْ يرحمْ . . يُرحمْ ، ومَنْ يصمتْ . . يسلمْ ، ومَنْ يقلِ الخيرَ . . يغنمْ ، ومَنْ يقلِ الشرَّ . . يأثمْ ، ومَنْ لا يملكْ لسانَهُ . . يندمْ) .

وقالَ رجلٌ لأبي حازمٍ : أوصني ، فقالَ : (كلُّ ما لوْ جاءَكَ الموتُ عليهِ رأيتَهُ غنيمةً . . فالزمْهُ ، وكلُّ ما لوْ جاءَكَ الموتُ عليهِ رأيتَهُ مصيبةً . . فاجتنبْهُ)[6]

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٤) ولفظه : « من التمس رضا الله بسخط الناس . . كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله . . وكله الله إلى الناس » .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٩١) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٠) ، ورواه أحمد في « المسند » (٨٢/٣) من حديثه مرفوعاً .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨) .

(٥) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩١) عن الربيع الخولاني بنحوه .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٧/٥) بنحوه ، والسائل المستوصي هو عمر بن عبد العزيز .

وقالَ موسىٰ للخضرِ عليهما السلامُ : أوصني ، فقالَ : (كُنْ بسَّاماً ولا تكنْ غضَّاباً ، وكُنْ نفَّاعاً ولا تكنْ ضرَّاراً ، وانزعْ عنِ اللجاجةِ ، ولا تمشِ في غيرِ حاجةٍ ، ولا تضحكْ مِنْ غيرِ عجبٍ ، ولا تعيّرِ الخطائينَ بخطاياهُمْ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ يا بنَ عمرانَ)[1]

وقالَ رجلٌ لمحمدِ بنِ كرَّامٍ : أوصني ، فقالَ : (اجتهدْ في رضا خالقِكَ بقدْرِ ما تجتهدُ في رضا نفسِكَ) .

وقالَ رجلٌ لحامدٍ اللفافِ : أوصني ، فقالَ : اجعلْ لدينِكَ غلافاً كغلافِ المصحفِ كي لا تدنسَهُ الآفاتُ ، فقالَ : وما غلافُ الدينِ ؟ قالَ : تركُ طلبِ الدنيا إلا ما لا بدَّ منهُ ، وتركُ كثرةِ الكلامِ إلا فيما لا بدَّ منه ، وتركُ مخالطةِ الناسِ إلا فيما لا بدَّ منهُ .

وكتبَ الحسنُ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمهُما اللهُ تعالىٰ : (أمَّا بعدُ : فخفْ ما خوَّفَكَ اللهُ ، واحذرْ ما حذَّرَكَ اللهُ ، وخذْ ممَّا في يديكَ لما بينَ يديكَ ، فعندَ الموتِ يأتيكَ الخبرُ اليقينُ ، والسلامُ) .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الحسنِ يسألُهُ أنْ يعظَهُ ، فكتبَ إليهِ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الهولَ الأعظمَ والأمورَ المفظعاتِ أمامَكَ ، ولا بدَّ لكَ مِنْ مشاهدةِ ذٰلكَ ؛ إمَّا بالنجاةِ ، وإمَّا بالعطبِ ، واعلمْ أنَّ مَنْ حاسبَ نفسَهُ . . ربحَ ، ومَنْ غفلَ عنها . . خسرَ ، ومَنْ نظرَ في العواقبِ . . نجا ، ومَنْ أطاعَ هواهُ . . ضلَّ ، ومَنْ حلمَ . . غنمَ ، ومَنْ خافَ . . أمِنَ ، ومَنْ أمِنَ . . اعتبرَ ، ومَنِ اعتبرَ . . أبصرَ ، ومَنْ أبصرَ . . فهمَ ، ومَنْ فهمَ . . علمَ ، فإذا زللتَ . . فارجعْ ، وإذا ندمتَ . . فأقلعْ ، وإذا جهلتَ . . فاسألْ ، وإذا غضبتَ . . فأمسكْ) .

وكتبَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الدنيا دارُ عقوبةٍ ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ لهُ ، وبها يغترُّ مَنْ لا علمَ عندَهُ ، فكُنْ فيها يا أميرَ المؤمنينَ كالمداوي جرحَهُ ، يصبرُ علىٰ شدَّةِ الدواءِ لما يخافُ مِنْ عاقبةِ الداءِ)[2]

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ عديِّ بنِ أرطاةَ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الدنيا عدوَّةُ أولياءِ اللهِ ، وعدوَّةُ أعداءِ اللهِ ، أمَّا أولياؤُهُ : فغمَّتْهُمْ ، وأمَّا أعداؤُهُ : فغرَّتْهُمْ)[3]

وكتبَ أيضاً إلىٰ بعضِ عمَّالِهِ : (أمَّا بعدُ : فقدْ أمكنتْكَ القدرةُ مِنْ ظلمِ العبادِ ، فإذا هممْتَ بظلمِ أحدٍ . . فاذكرْ قدرةَ اللهِ عليكَ ، واعلمْ أنَّكَ لا تأتي إلى الناسِ شيئاً إلا كانَ زائلاً عنهُمْ باقياً عليكَ ، واعلمْ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ آخذٌ للمظلومينَ مِنَ الظالمينَ ، والسلامُ) .

فهٰكذا ينبغي أنْ يكونَ وعظُ العامَّةِ ، ووعظُ مَنْ لا يدري خصوصَ واقعتِهِ ، فهٰذهِ المواعظُ مثلُ الأغذيةِ التي يشتركُ الكافَّةُ في الانتفاعِ بها ، ولأجلِ فقْدِ مثلِ هٰؤلاءِ الوعَّاظِ انحسمَ بابُ الاتعاظِ ، وغلبتِ المعاصي ، واستشرى الفسادُ ، وبُلِيَ الخلقُ بوعَّاظٍ يزخرفونَ أسجاعاً ، وينشدونَ أبياتاً ، ويتكلَّفونَ ذكرَ ما ليسَ في سعةِ علمِهِمْ ، ويتشبَّهونَ بحالِ غيرِهِمْ ، فسقطَ عنْ قلوبِ العامَّةِ وقارُهُمْ ، ولمْ يكنْ كلامُهُمْ صادراً مِنَ القلبِ ليصلَ إلى القلبِ ، بلِ القائلُ متصلِّفٌ ، والمستمعُ متكلِّفٌ ، وكلُّ واحدٍ منهُما مدبرٌ ومتخلِّفٌ .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٤٠) .

(٢) تقدم صدره مرفوعاً ، والخبر هنا عن مطرف أورده المسعودي في « مروج الذهب » (٢٠/٤) نقلاً عن المدائني .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٤٣) .

وإذا كانَ طلبُ الطبيبِ أوَّلَ علاجِ المرضىٰ . . فطلبُ العلماءِ أوَّلُ علاجِ العاصينَ ، **فهٰذا أحدُ أركانِ العلاجِ وأصولِهِ .**

الأصلُ الثاني : الصبرُ ، ووجهُ الحاجةِ إليهِ أنَّ المريضَ إنَّما يطولُ مرضُهُ لتناولِهِ ما يضرُّهُ ، وإنَّما يتناولُ ذٰلكَ إمَّا لغفلتِهِ عنْ مضرَّتِهِ ، وإمَّا لشدَّةِ غلبةِ شهوتِهِ ، فلهُ سببانِ ، فما ذكرناهُ هوَ علاجُ الغفلةِ ، فيبقىٰ علاجُ الشهوةِ ، وطريقُ علاجِها قدْ ذكرناهُ في كتابِ رياضةِ النفسِ .

وحاصلُهُ : أنَّ المريضَ إذا اشتدَّتْ ضراوتُهُ لمأكولٍ مضرٍّ . . فطريقُهُ أنْ يستشعرَ عظمَ ضررِهِ ، ثمَّ يُغيِّبُ ذٰلكَ عنْ عينِهِ فلا يُحضرُهُ ، ثمَّ يتسلَّىٰ عنهُ بما يقربُ منهُ في صورتِهِ ولا يكثرُ ضررُهُ ، ثمَّ يصبرُ بقوَّةِ الخوفِ على الألمِ الذي ينالُهُ في تركِهِ ، فلا بدَّ علىٰ كلِّ حالٍ مِنْ مرارةِ الصبرِ ؛ فكذٰلكَ يعالجُ الشهوةَ في المعاصي ، كالشابِّ مثلاً إذا غلبَتْهُ الشهوةُ ، فصارَ لا يقدرُ علىٰ حفظِ عينِهِ ، أوْ حفظِ قلبِهِ ، أوْ حفظِ جوارحِهِ في السعيِ وراءَ شهوتِهِ . . فينبغي أنْ يستشعرَ ضررَ ذنبِهِ ؛ بأنْ يستقرئَ المخوفاتِ التي جاءَتْ فيهِ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإذا اشتدَّ خوفُهُ . . تباعدَ مِنَ الأسبابِ المهيِّجةِ لشهوتِهِ ، ومهيِّجُ الشهوةِ مِنْ خارجٍ هوَ حضورُ المشتهىٰ والنظرُ إليهِ ، وعلاجُهُ : الهربُ والعزلةُ ، ومِنْ داخلٍ تناولُ لذائذِ الأطعمةِ ، وعلاجُهُ : الجوعُ والصومُ الدائمُ ، وكلُّ ذٰلكَ لا يتمُّ إلا بصبرٍ ، ولا يصبرُ إلا عنْ خوفٍ ، ولا يخافُ إلا عنْ علمٍ ، ولا يعلمُ إلا عنْ بصيرةٍ وافتكارٍ أوْ عنْ سماعٍ وتقليدٍ .

فأوَّلُ الأمرِ حضورُ مجالسِ الذكرِ ، ثمَّ الاستماعُ مِنْ قلبٍ مجرَّدٍ عنْ سائرِ الشواغلِ ، مصروفٍ إلى السماعِ ، ثمَّ التفكُّرُ فيهِ لتمامِ الفهمِ ، وينبعثُ مِنْ تمامِهِ ـ لا محالةَ ـ خوفُهُ ، وإذا قويَ الخوفُ . . تيسَّرَ بمعونتِهِ الصبرُ ، وانبعثَتِ الدواعي لطلبِ العلاجِ ، وتوفيقُ اللهِ وتيسيرُهُ مِنْ وراءِ ذٰلكَ .

فمَنْ أعطىٰ مِنْ قلبِهِ حسنَ الإصغاءِ ، واستشعرَ الخوفَ فاتقىٰ ، وانتظرَ الثوابَ وصدَّقَ بالحسنىٰ . . فسييسرُهُ اللهُ تعالىٰ لليسرىٰ ، وأمَّا مَنْ بخلَ واستغنىٰ وكذَّبَ بالحسنىٰ . . فسييسرُهُ اللهُ للعسرىٰ ، ثمَّ لا يغني عنهُ ما اشتغلَ بهِ مِنْ ملاذِّ الدنيا مهما هلكَ وتردىٰ ، وما على الأنبياءِ إلا شرْحُ طرقِ الهدىٰ ، وإنَّما للهِ الآخرةُ والأولىٰ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فقدْ رجعَ الأمرُ كلُّهُ إلى الإيمانِ ؛ لأنَّ تركَ الذنبِ لا يمكنُ إلا بالصبرِ ، والصبرُ لا يمكنُ إلا بمعرفةِ الخوفِ ، والخوفُ لا يحصلُ إلا بالعلمِ ، والعلمُ لا يحصلُ إلا بالتصديقِ بعظمِ ضررِ الذنوبِ ، والتصديقُ بعظمِ ضررِ الذنوبِ هوَ تصديقُ اللهِ ورسولِهِ ، وهوَ الإيمانُ ، فكأنَّ مَنْ أصرَّ على الذنبِ . . لمْ يصرَّ إلا لأنَّهُ غيرُ مؤمنٍ !!

فاعلمْ : أنَّ هٰذا لا يكونُ لفقدِ الإيمانِ ، بلْ يكونُ لضعفِ الإيمانِ ؛ إذْ كلُّ مؤمنٍ مصدِّقٌ بأنَّ المعصيةَ سببُ البعدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وسببُ العقابِ في الآخرةِ ، **ولٰكنْ سببُ وقوعِهِ في الذنبِ أمورٌ :**

أحدُها : أنَّ العقابَ الموعودَ غيبٌ ليسَ بحاضرٍ ، والنفسُ جبلَتْ متأثرةً بالحاضرِ ، فتأثرُها بالموعودِ ضعيفٌ بالإضافةِ إلىٰ تأثُّرِها بالحاضرِ .

الثاني : أنَّ الشهواتِ الباعثةَ على الذنوبِ لذَّاتُها ناجزةٌ ، وهيَ في الحالِ آخذةٌ بالمُخَنَّقِ[1] ، وقدْ قويَ ذٰلكَ واستولىٰ

---

(1) **المخنَّق** : موضع الخنق من العنق .

بسببِ الاعتيادِ والإلفِ ، والعادةُ طبيعةٌ خامسةٌ ، والنزوعُ عنِ العاجلِ لخوفِ الآجلِ شديدٌ على النفسِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وقدْ عبَّرَ عنْ شدَّةِ الأمرِ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ ، وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ »[1] .

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ النارَ ، فقالَ لجبريلَ عليهِ السلامُ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ إليها ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا يسمعُ بها أحدٌ فيدخلُها ، فحفَّها بالشهواتِ ثمَّ قالَ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لقدْ خشيتُ ألا يبقىٰ أحدٌ إلا دخلَها ، وخلقَ الجنَّةَ ، فقالَ لجبريلَ عليهِ السلامُ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا يسمعُ بها أحدٌ إلا دخلَها ، فحفَّها بالمكارهِ ثمَّ قالَ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ إليها ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لقدْ خشيتُ ألا يدخلَها أحدٌ »[2] .

فإذاً ؛ كونُ الشهوةِ مرهقةً في الحالِ وكونُ العقابِ متأخراً إلى المآلِ سببانِ ظاهرانِ في الاسترسالِ معَ حصولِ أصلِ الإيمانِ .

فليسَ كلُّ مَنْ شربَ في مرضِهِ ماءَ الثلجِ لشدَّةِ عطشِهِ مكذِّباً بأصلِ الطبِّ ، ولا مكذِّباً بأنَّ ذٰلكَ مضرٌّ في حقِّهِ ، ولٰكنَّ الشهوةَ تغلبُهُ ، وألمُ الصبرِ عنهُ ناجزٌ ، فيهونُ عليهِ الألمُ المنتظرُ .

الثالثُ : أنَّهُ ما مِنْ مذنبٍ مؤمنٍ إلا وهوَ في الغالبِ عازمٌ على التوبةِ ، وتكفيرِ السيئاتِ بالحسناتِ ، وقدْ وُعِدَ بأنَّ ذٰلكَ يجبرُهُ ، إلا أنَّ طولَ الأملِ غالبٌ على الطباعِ ، فلا يزالُ يسوِّفُ التوبةَ والتكفيرَ ، فمِنْ حيثُ رجاؤُهُ التوفيقَ للتوبةِ ربَّما يقدمُ عليهِ معَ الإيمانِ .

الرابعُ : أنَّهُ ما مِنْ مؤمنٍ موقنٍ إلا وهوَ معتقدٌ أنَّ الذنبَ لا يوجبُ العقوبةَ إيجاباً لا يمكنُ العفوُ عنها ، فهوَ يذنبُ وينتظرُ العفوَ ؛ اتكالاً على فضْلِ اللهِ تعالىٰ .

فهٰذهِ أسبابٌ أربعةٌ موجبةٌ للإصرارِ على الذنبِ معَ بقاءِ أصلِ الإيمانِ .

نعمْ ؛ قدْ يقدمُ المذنبُ بسببٍ خامسٍ يقدحُ في أصلِ إيمانِهِ ، وهوَ كونُهُ شاكاً في صدقِ الرسلِ ، وهٰذا هوَ الكفرُ ؛ كالذي يحذِّرُهُ الطبيبُ عنْ تناولِ ما يضرُّهُ في المرضِ ، وكانَ المحذِّرُ ممَّنْ لا يَعتقدُ فيهِ أنَّهُ عالمٌ بالطبِّ ، فيكذِّبُهُ أوْ يشكُّ فيهِ ، فلا يبالي بهِ ، فهٰذا هوَ الكفرُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما علاجُ الأسبابِ الخمسةِ ؟

فأقولُ : هوَ الفكرُ ، وذٰلكَ بأنْ يقرِّرَ على نفسِهِ في السببِ الأوَّلِ ـ وهوَ تأخُّرُ العقابِ ـ أنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ آتٍ ، وأنَّ غداً لناظرِهِ قريبٌ ، وأنَّ الموتَ أقربُ إلىٰ كلِّ أحدٍ مِنْ شراكِ نعلِهِ ، فما يدريهِ لعلَّ الساعةَ قريبٌ ، والمتأخِّرُ إذا وقعَ . . صارَ ناجزاً ، ويذكِّرَ نفسَهُ أنَّهُ أبداً في دنياهُ يتعبُ في الحالِ لخوفِ أمرٍ في الاستقبالِ ؛ إذْ يركبُ البحارَ ويقاسي الأسفارَ

(١) رواه مسلم (٢٨٢٣) ، وبنحوه هو عند البخاري كذلك (٦٤٨٧) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٧٤٤) ، والترمذي (٢٥٦٠) ، والنسائي (٣/٧) .

لأجلِ الربحِ الذي يظنُّ أنَّهُ قدْ يحتاجُ إليهِ في ثاني الحالِ ، بلْ لوْ مرضَ فأخبرَهُ نصرانيٌّ طبيبٌ بأنَّ شربَ الماءِ الباردِ يضرُّهُ ويسوقُهُ إلى الموتِ ، وكانَ الماءُ الباردُ ألذَّ الأشياءِ عندَهُ . . تركَهُ معَ أنَّ الموتَ ألمُهُ لحظةٌ إذا لمْ يخفْ ما بعدَهُ ، ومفارقتُهُ للدنيا لا بدَّ منها ، فكمْ نسبةُ وجودِهِ في الدنيا إلىٰ عدمِهِ أزلاً وأبداً ؟!

فلينظرْ كيفَ يبادرُ إلىٰ تركِ ملاذِّهِ بقولِ ذمّيٍّ لمْ تقمْ معجزةٌ علىٰ طبِّهِ ، فيقولُ : كيفَ يليقُ بعقلي أنْ يكونَ قولُ الأنبياءِ المؤيدينَ بالمعجزاتِ عندي دونَ قولِ نصرانيٍّ يدَّعي الطبَّ لنفسِهِ بلا معجزةٍ علىٰ طبِّهِ ، ولا يشهدُ لهُ إلا عوامُّ الخلقِ ؟!

وكيفَ يكونُ عذابُ النارِ أخفَّ عندي مِنْ عذابِ المرضِ وكلُّ يومٍ في الآخرةِ بمقدارِ خمسينَ ألفَ سنةٍ مِنْ أيامِ الدنيا ؟!

وبهٰذا التفكُّرِ بعينِهِ يعالجُ اللذَّةَ الغالبةَ عليهِ ، ويكلِّفُ نفسَهُ تركَها ، ويقولُ : إذا كنتُ لا أقدرُ علىٰ تركِ لذّاتي أيامَ العمرِ وهيَ أيامٌ قلائلُ . . فكيفَ أقدرُ علىٰ ذٰلكَ أبدَ الآبادِ ؟!

وإذا كنتُ لا أطيقُ ألمَ الصبرِ . . فكيفَ أطيقُ ألمَ النارِ ؟!

وإذا كنتُ لا أصبرُ عنْ زخارفِ الدنيا معَ كدوراتِها وتنغُّصِها وامتزاجِ صفوِها بكدرِها . . فكيفَ أصبرُ عنْ نعيمِ الآخرةِ ؟!

وأمَّا تسويفُ التوبةِ . . فيعالجُهُ بالفكرِ في أنَّ أكثرَ صياحِ أهلِ النارِ مِنَ التسويفِ ؛ لأنَّ المسوِّفَ يبني الأمرَ علىٰ ما ليسَ إليهِ ، وهوَ البقاءُ ، فلعلَّهُ لا يبقىٰ ، وإنْ بقيَ . . فلا يقدرُ على التركِ غداً كما لا يقدرُ عليهِ اليومَ .

فليتَ شعري ؛ هلْ عجزَ في الحالِ إلا لغلبةِ الشهوةِ ، والشهوةُ ليسَتْ تفارقُهُ غداً بلْ تتضاعفُ ؛ إذْ تتأكَّدُ بالاعتيادِ ، فليسَتِ الشهوةُ التي أكَّدَها الإنسانُ بالعادةِ كالتي لمْ يؤكِّدْها ، وعنْ هٰذا هلكَ المسوِّفونَ ؛ لأنَّهُمْ يظنُّونَ الفرقَ بينَ المتماثلينِ ، ولا يظنُّونَ أنَّ الأيامَ متشابهةٌ في أنَّ تركَ الشهواتِ فيها أبداً شاقٌّ ، وما مثالُ المسوِّفِ إلا مثالُ مَنِ احتاجَ إلىٰ قلْعِ شجرةٍ ، فرآها قويَّةً لا تنقلعُ إلا بمشقَّةٍ شديدةٍ ، فقالَ : (أؤخِّرُها سنةً ثمَّ أعودُ إليها) ، وهوَ يعلمُ أنَّ الشجرةَ كلَّما بقيَتْ ازدادَ رسوخُها ، وهوَ كلَّما طالَ عمرُهُ . . ازدادَ ضعفُهُ ، فلا حماقةَ في الدنيا أعظمُ مِنْ حماقتِهِ ؛ إذْ عجزَ معَ قوَّتِهِ عنْ مقاومةِ ضعيفٍ ، فأخذَ ينتظرُ الغلبةَ عليهِ إذا ضعفَ هوَ في نفسِهِ وقويَ الضعيفُ .

وأمَّا المعنى الرابعُ ـ وهوَ انتظارُ عفوِ اللهِ تعالىٰ ـ فعلاجُهُ ما سبقَ ، فمَنْ ينفقُ جميعَ أموالِهِ ويتركُ نفسَهُ وعيالَهُ فقراءَ ، منتظراً مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يرزقَهُ العثورَ علىٰ كنزٍ في أرضٍ خربةٍ . . فإنَّ إمكانَ العفوِ عنِ الذنبِ مثلُ هٰذا الإمكانِ ، وهوَ مثلُ مَنْ وقعَ النهبُ مِنَ الظلمةِ في بلدِهِ ، وذخائرُ أموالِهِ في صحنِ دارِهِ وقدرَ علىٰ دفنِها وإخفائِها ، فلمْ يفعلْ ، وقالَ : أنتظرُ مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يسلِّطَ غفلةً أوْ عقوبةً على الظالمِ الناهبِ حتَّىٰ لا يتفرَّغَ إلىٰ داري ، أوْ إذا انتهىٰ إلىٰ داري . . ماتَ علىٰ بابِ الدارِ ، فإنَّ الموتَ ممكنٌ ، والغفلةَ ممكنةٌ ، وقدْ حُكِيَ في الأسمارِ أنَّ مثلَ ذٰلكَ وقعَ ، فأنا أنتظرُ مِنْ فضْلِ اللهِ مثلَهُ !!

فمنتظرُ هٰذا منتظرُ أمرٍ ممكنٍ ، ولٰكنَّهُ في غايةِ الحماقةِ والجهلِ ؛ إذْ قدْ لا يمكنُ ولا يكونُ .

وأمَّا الخامسُ ـ وهوَ الشكُّ ـ فهٰذا كفرٌ ، وعلاجُهُ الأسبابُ التي تعرِّفُهُ صدقَ الرسلِ ، وذٰلكَ يطولُ ، ولٰكنْ يمكنُ أنْ

يُعالجَ بعلمٍ قريبٍ يليقُ بحدِّ عقلِهِ ، فيُقالُ لهُ : ما قالَهُ الأنبياءُ المؤيَّدونُ بالمعجزاتِ هلْ صدقُهُ ممكنٌ أوْ تقولُ : أعلمُ أنَّهُ محالٌ كما أعلمُ استحالةَ كونِ شخصٍ واحدٍ في مكانينِ في حالةٍ واحدةٍ ؟

فإنْ قالَ : (أعلمُ استحالتَهُ كذلكَ) . . فهوَ أخرقُ معتوهٌ ، وكأنَّهُ لا وجودَ لمثلِ هذا في العقلاءِ .

وإنْ قالَ : (أنا شاكٌّ فيهِ) . . فيُقالُ : لوْ أخبركَ شخصٌ واحدٌ مجهولٌ عندَ تركِكَ طعامَكَ في البيتِ لحظةً أنَّهُ قدْ ولغَتْ فيهِ حيَّةٌ وألقَتْ سمَّها فيهِ ، وجوزتَ صدقَهُ . . فهلْ تأكلُهُ أوْ تتركُهُ وإنْ كانَ ألذَّ الأطعمةِ ؟ فيقولُ : (أتركُهُ لا محالةَ ؛ لأنيِّ أقولُ : إنْ كذبَ . . فلا يفوتُني إلا هذا الطعامُ ، والصبرُ عنهُ وإنْ كانَ شديداً فهوَ قريبٌ ، وإنْ صدقَ . . فتفوتُني الحياةُ ، والموتُ بالإضافةِ إلىٰ ألمِ الصبرِ عنِ الطعامِ وإضاعتِهِ شديدٌ) ، فيُقالُ لهُ : يا سبحانَ اللهِ !! كيفَ تؤخِّرُ صدقَ الأنبياءِ كلِّهِمْ معَ ما ظهرَ لهُمْ مِنَ المعجزاتِ وصدقَ كافَّةِ العلماءِ والأولياءِ والحكماءِ بلْ جميعِ أصنافِ العقلاءِ ولستُ أعني بهِمْ جهَّالَ العوامِّ ، بلْ ذوي الألبابِ . . عنْ صدقِ رجلٍ واحدٍ مجهولٍ لعلَّ لهُ غرضاً فيما يقولُ ؟!

فليسَ في العقلاءِ إلا مَنْ صدَّقَ باليومِ الآخرِ ، وأثبتَ ثواباً وعقاباً ، وإنِ اختلفوا في كيفيتِهِ ، فإنْ صدقوا . . فقدْ أشرفتَ علىٰ عذابٍ يبقىٰ أبدَ الآبادِ ، وإنْ كذبوا . . فلا يفوتُكَ إلا بعضُ شهواتِ هذهِ الدنيا الفانيةِ المكدرةِ .

فلا يبقىٰ لهُ توقُّفٌ إنْ كانَ عاقلاً معَ هذا الفكرِ ؛ إذْ لا نسبةَ لمدَّةِ العمرِ إلىٰ أبدِ الآبادِ ، بلْ لوْ قدَّرْنا أنَّ الدنيا مملوءةٌ بالذُّرَةِ ، وقدَّرْنا طائراً يلتقطُ في كلِّ ألفِ ألفِ سنةٍ حبَّةً واحدةً منها . . لفنيَتِ الذُّرةُ ، ولمْ ينقصْ من أبدِ الآبادِ شيءٌ ، فكيفَ يفترُ رأيُ العاقلِ في الصبرِ عنِ الشهواتِ مئةَ سنةٍ مثلاً لأجلِ سعادةٍ تبقىٰ أبدَ الآبادِ وذلكَ لا منتهىٰ لهُ ؟!

ولذلكَ قالَ أبو العلاءِ المعرِّيُّ [1] : [من الكامل]

قالَ المُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاهُما ... لا تُبْعَثُ الأَمْواتُ قُلْتُ إِلَيْكُما

إِنْ صَحَّ قَوْلُكُما فَلَسْتُ بِخاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسارُ عَلَيْكُما

ولذلكَ قالَ أميرُ المؤمنينَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لبعضِ مَنْ قصرَ عقلُهُ عنْ فهمِ تحقيقِ الأمورِ وكانَ شاكّاً : (إنْ صحَّ ما قلتُ . . فقدْ تخلصنا جميعاً ، وإلا . . فقدْ تخلصنا وهلكتَ) [2] أي : العاقلُ يسلكُ طريقَ الأمنِ في جميعِ الأحوالِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : هذهِ الأمورُ جليَّةٌ ، ولكنَّها ليسَتْ تُنالُ إلا بالفكرِ ، فما بالُ القلوبِ هجرَتِ الفكرَ فيها واستثقلَتْهُ ؟ وما علاجُ القلوبِ لردِّها إلى الفكرِ لا سيما مَنْ آمنَ بأصلِ الشرعِ وتفصيلِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المانعَ مِنَ الفكرِ أمرانِ :

أحدُهُما : أنَّ الفكرَ النافعَ هوَ الفكرُ في عقابِ الآخرةِ ، وأهوالِها وشدائدِها ، وحسراتِ العاصينَ في الحرمانِ عنِ النعيمِ المقيمِ ، وهذا فكرٌ لذَّاعٌ مؤلمٌ للقلبِ ، فينفرُ القلبُ عنهُ ، ويتلذَّذُ بالفكرِ في أمورِ الدنيا على سبيلِ التفرُّجِ والاستراحةِ .

والثاني : أنَّ الفكرَ شغلٌ في الحالِ مانعٌ مِنْ لذائذِ الدنيا وقضاءِ الشهواتِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلا ولهُ في كلِّ حالةٍ مِنْ أحوالِهِ ونَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ شهوةٌ قدْ تسلطَتْ عليهِ واسترقَّتْهُ ، فصارَ عقلُهُ مسخَّراً لشهوتِهِ ، فهوَ مشغولٌ بتدبيرِ

---

(١) شرح اللزوميات (٣/١٣٣) .

(٢) أورده الشريف في « نهج البلاغة » . « إتحاف » (٨/٤٣٢) .

حيلتِهِ ، وصارَتْ لذَّتُهُ في طلبِ الحيلةِ فيهِ أوْ في مباشرةِ قضاءِ الشهوةِ ، والفكرُ يمنعُهُ مِنْ ذٰلكَ .

وأمَّا علاجُ هٰذينِ المانعينِ :

فهو أنْ يقولَ لقلبِهِ : ما أشدَّ غباوتَكَ في الاحترازِ مِنَ الفكرِ في الموتِ وما بعدَهُ تألُّماً بذكرِهِ معَ استحقارِ ألمِ مواقعتِهِ !! فكيفَ تصبرُ علىٰ مقاساتِهِ إذا وقعَ وأنتَ عاجزٌ عنِ الصبرِ علىٰ تقديرِ الموتِ وما بعدَهُ ومتألِّمٌ بهِ ؟!

وأمَّا الثاني وهوَ كونُ الفكرِ مفوِّتاً للذَّاتِ الدنيا . . فهوَ أنْ يتحقَّقَ أنَّ فواتَ لذَّاتِ الآخرةِ أشدُّ وأعظمُ ، فإنَّها لا آخرَ لها ، ولا كدورةَ فيها ، ولذَّاتُ الدنيا سريعةُ الدثورِ[1] ، وهيَ مشوبةٌ بالمكدِّراتِ ، فما فيها لذَّةٌ صافيةٌ عنْ كدرٍ ، وكيفَ وفي التوبةِ عنِ المعاصي والإقبالِ على الطاعةِ تلذُّذٌ بمناجاةِ اللهِ تعالىٰ ، واستراحةٌ بمعرفتِهِ وطاعتِهِ وطولِ الأنسِ بهِ ؟! ولوْ لمْ يكنْ للمطيعِ جزاءٌ علىٰ عملِهِ إلا ما يجدُهُ مِنْ حلاوةِ الطاعةِ ، وروحِ الأنسِ بمناجاةِ اللهِ تعالىٰ . . لكانَ ذٰلكَ كافياً ، فكيفَ بما ينضافُ إليهِ مِنْ نعيمِ الآخرةِ ؟!

نعمْ ؛ هٰذهِ اللذَّةُ لا تكونُ في ابتداءِ التوبةِ ، ولٰكنَّها بعدَما يصبرُ عليها مدةً مديدةً[2] ، وقدْ صارَ الخيرُ ديدناً كما كانَ الشرُّ ديدناً ، فالنفسُ قابلةٌ ما عوَّدتَها تتعوَّدُ ، والخيرُ عادةٌ ، والشرُّ لجاجةٌ .

فإذاً ؛ هٰذهِ الأفكارُ هيَ المهيِّجةُ للخوفِ المهيِّجِ لقوَّةِ الصبرِ عنِ اللذَّاتِ ، ومهيِّجُ هٰذهِ الأفكارِ وعظُ الوعَّاظِ ، وتنبيهاتٌ تقعُ للقلبِ بأسبابٍ تتفقُ لا تدخلُ في الحصرِ ، فيصيرُ الفكرُ موافقاً للطبعِ ، فيميلُ القلبُ إليهِ ، ويعبَّرُ عنِ السببِ الذي أوقعَ الموافقةَ بينَ الطبعِ وبينَ الفكرِ الذي هوَ سببُ الخيرِ بالتوفيقِ ؛ إذِ التوفيقُ هوَ التأليفُ بينَ الإرادةِ وبينَ المعنى الذي هوَ طاعةٌ نافعةٌ في الآخرةِ .

وقدْ رُوِيَ في حديثٍ طويلٍ أنَّهُ قامَ عمَّارُ بنُ ياسرٍ فقالَ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أخبِرْنا عنِ الكفرِ علىٰ ماذا بُنِيَ ؟ فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : علىٰ أربعِ دعائمَ : على الجفاءِ ، والعمىٰ ، والغفلةِ ، والشكِّ ، فمَنْ جفا . . احتقرَ الحقَّ ، وجهرَ بالباطلِ ، ومقتَ العلماءَ ، ومَنْ عميَ . . نسيَ الذكرَ ، ومَنْ غفلَ . . حادَ عنِ الرشدِ ، وغرَّتْهُ الأمانيُّ ، فأخذَتْهُ الحسرةُ والندامةُ ، وبدا لهُ مِنَ اللهِ ما لمْ يكنْ يحتسبُ[3]

فما ذكرناهُ بيانٌ لبعضِ آفاتِ الغفلةِ عنِ التفكُّرِ ، وهٰذا القدْرُ في التوبةِ كافٍ ، وإذا كانَ الصبرُ ركناً مِنْ أركانِ دوامِ التوبةِ . . فلا بدَّ مِنْ بيانِ الصبرِ ، فنذكرُهُ في كتابٍ مفردٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

تمَّ كتابُ التوبة

وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله حق حمده ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين وسلامه

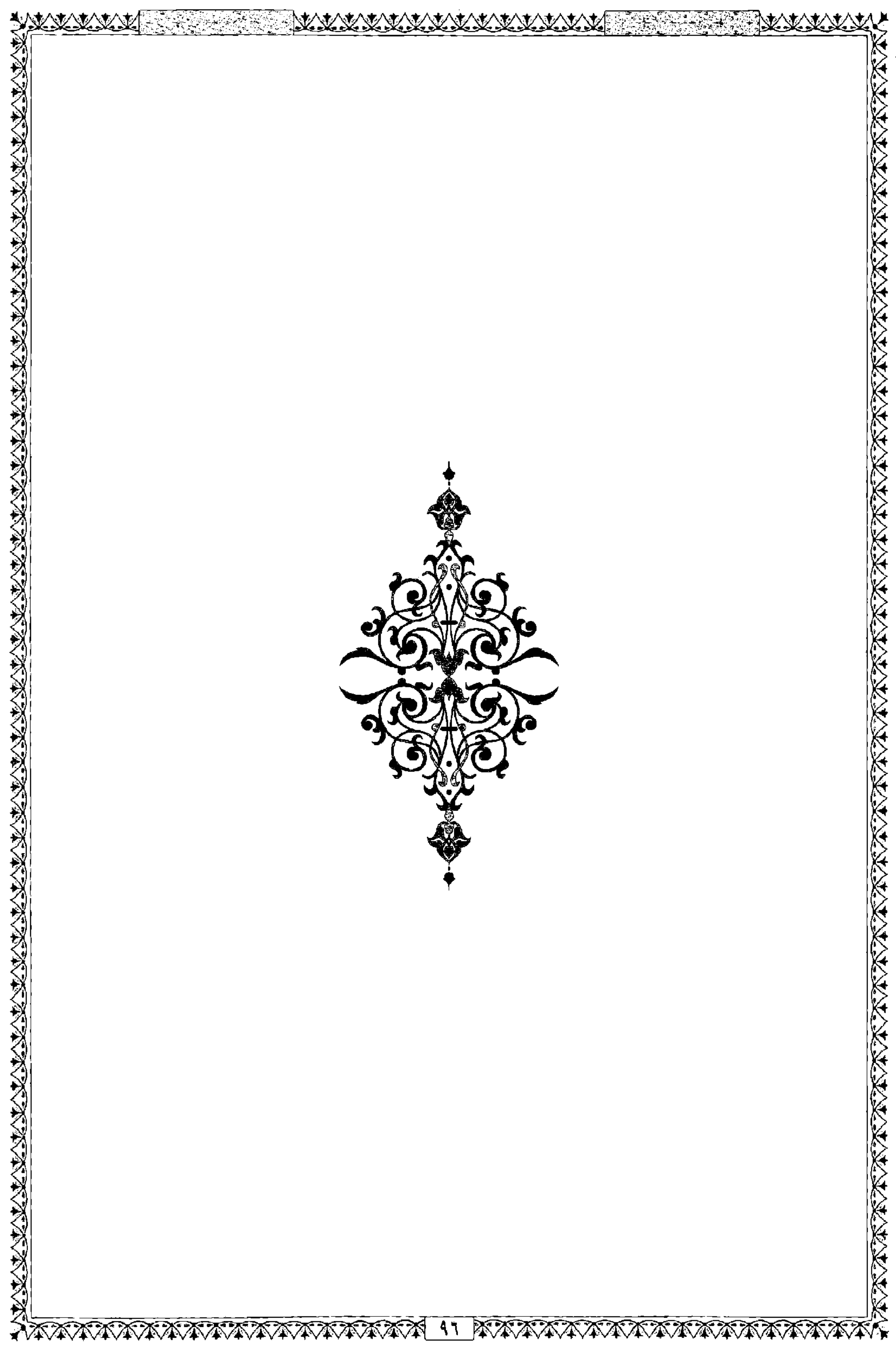
يتلوه كتاب الصبر والشكر

---

(١) أي : الذهاب والانطماس . « إتحاف » (٦٢٩/٨)

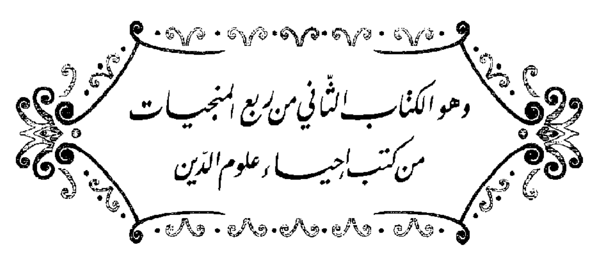
(٢) في النسخ : (ولٰكنه يصبر عليه مديدة) ، والمثبت من (ق) .

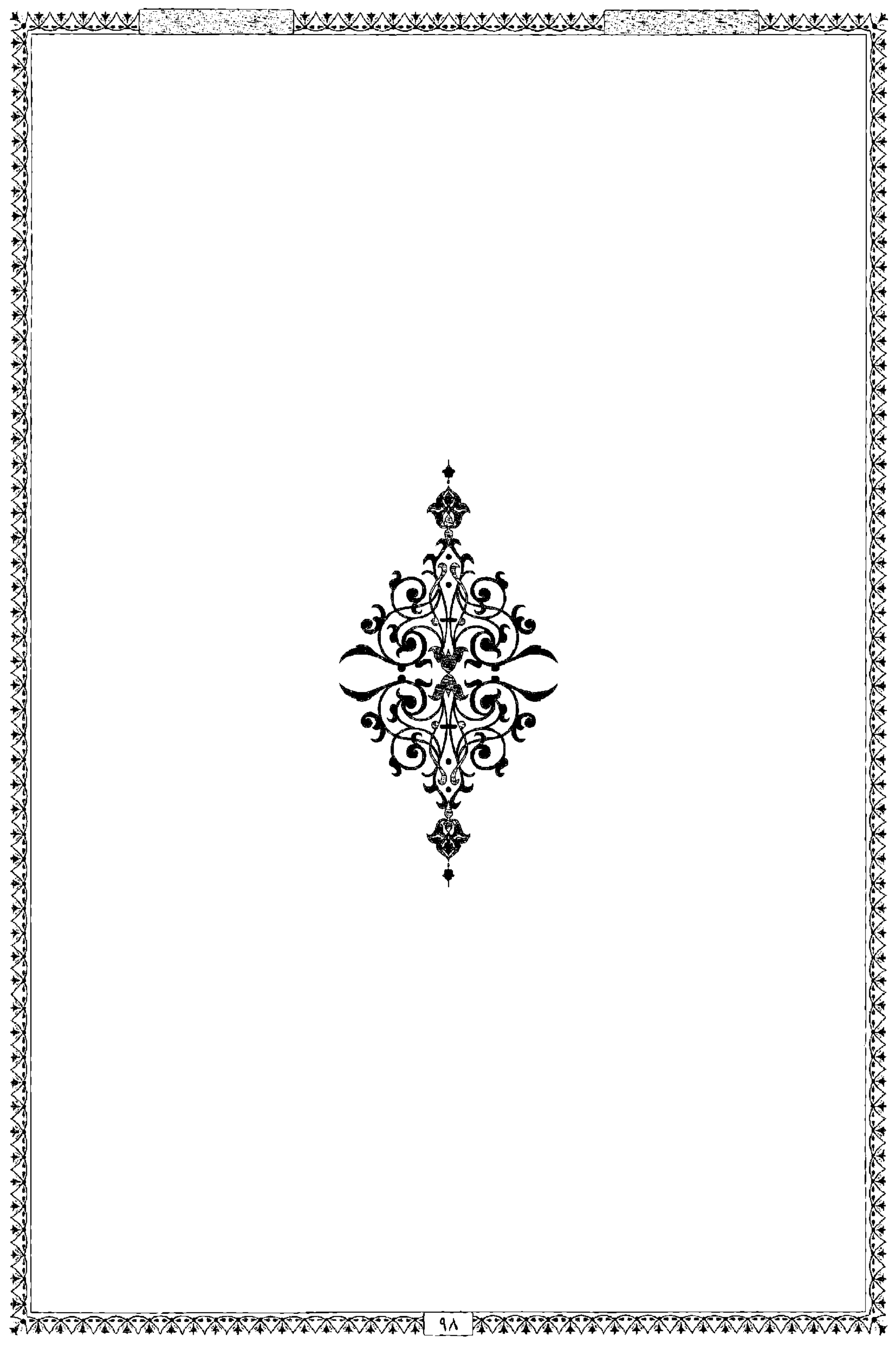
(٣) كذا في « القوت » (١٨٨/١) ، وزاد : (ومن شكَّ . . تاه في الضلالة) .



كِتَابُ

الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ





كتاب الصّبر والشّكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ أهلِ الحمدِ والثناءِ ، المتفرّدِ برداءِ الكبرياءِ ، المتوحّدِ بصفاتِ المجدِ والعلاءِ ، المؤيّدِ صفوةَ الأولياءِ ، بقوّةِ الصبرِ على السرَّاءِ والضرَّاءِ ، والشكرِ على البلاءِ والنعماءِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيّدِ الأنبياءِ ، وعلىٰ أصحابِهِ سادةِ الأصفياءِ ، وعلىٰ آلِهِ قادةِ البررةِ الأتقياءِ ، صلاةً محروسةً بالدوامِ عنِ الفناءِ ، ومصونةً بالتعاقبِ عنِ التصرُّمِ والانقضاءِ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الإيمانَ نصفانِ ، نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ ؛ كما وردَتْ بهِ الآثارُ ، وشهدَتْ لهُ الأخبارُ [1] ، وهما أيضاً وصفانِ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالىٰ ، واسمانِ مِنْ أسمائِهِ الحسنىٰ ؛ إذْ سمَّىٰ نفسَهُ صبوراً وشكوراً ، فالجهلُ بحقيقةِ الصبرِ والشكرِ جهلٌ بكلا شطري الإيمانِ ، ثمَّ هوَ غفلةٌ عنْ وصفينِ مِنْ أوصافِ الرحمٰنِ ، ولا سبيلَ إلى الوصولِ إلى القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلا بالإيمانِ ، وكيفَ يُتصوَّرُ سلوكُ سبيلِ الإيمانِ دونَ معرفةِ ما بهِ الإيمانُ ومَنْ بهِ الإيمانُ ؟! والتقاعدُ عنْ معرفةِ الصبرِ والشكرِ تقاعدٌ عنْ معرفةِ مَنْ بهِ الإيمانُ ، وعنْ إدراكِ ما بهِ الإيمانُ ، فما أحوجَ كلا الشطرينِ إلى الإيضاحِ والبيانِ ، ونحنُ نوضحُ كلا الشطرينِ في كتابٍ واحدٍ لارتباطِ أحدِهما بالآخرِ إنْ شاءَ اللهُ .

* * *

---

(١) فقد روى البيهقي في « الشعب » (٩٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الإيمان نصفان ، نصف في الصبر ونصف في الشكر » ، وروى الطبراني في « الكبير » (١٠٤/٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان) .

الشَّطْرُ الأوّلُ
في الصّبر

وفيهِ بيانُ فضيلةِ الصبرِ ، وبيانُ حدِّهِ وحقيقتِهِ ، وبيانُ كونِهِ نصفَ الإيمانِ ، وبيانُ اختلافِ أساميهِ باختلافِ متعلَّقاتِهِ ، وبيانُ أقسامِهِ ، بحسَبِ اختلافِ القوَّةِ والضعفِ ، وبيانُ مظانِّ الحاجةِ إلى الصبرِ ، وبيانُ دواءِ الصبرِ وما يُستعانُ بهِ عليهِ .

فهيَ سبعةُ فصولٍ تشتملُ علىٰ جميعِ مقاصدِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

بيان فضيلة الصّبر

قدْ وصفَ اللهُ تعالى الصابرينَ بأوصافٍ ، وذكرَ الصبرَ في القرآنِ في نيِّفٍ وسبعينَ موضعاً ، وأضافَ أكثرَ الخيراتِ والدرجاتِ إلى الصبرِ ، وجعلَها ثمرةً لهُ .

فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فما مِنْ قربةٍ إلا وأجرُها بتقديرٍ وحسابٍ إلا الصبرَ .

ولأجلِ كونِ الصومِ مِنَ الصبرِ ـ فإنَّهُ نصفُ الصبرِ [1] ـ قالَ اللهُ تعالى : « الصومُ لي وأنا أجزي بهِ » [2] ، فأضافَهُ إلىٰ نفسِهِ مِنْ بينِ سائرِ العباداتِ .

ووعدَ الصابرينَ بأنَّهُ معَهُمْ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وعلَّقَ النصرَ على الصبرِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ .

وجمعَ للصابرينَ بينَ أمورٍ لمْ يجمعْها لغيرِهِمْ فقالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ ، فالهدىٰ والصلواتُ والرحمةُ مجموعةٌ للصابرينَ .

واستقصاءُ جميعِ الآياتِ في مقامِ الصبرِ يطولُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ » [3] ، علىٰ ما سيأتي وجهُ كونِهِ نصفاً .

---

(١) هو جزء من حديث مرفوع رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤/٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٢٧/١٣) ، وأوقفه الطبراني في « الكبير » (١٠٤/٩) علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ ، ومَنْ أُعطيَ حظَّهُ منهُما . . لمْ يبالِ بما فاتَهُ مِنْ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ولأَنْ تصبروا علىٰ مثلِ ما أنتُمْ عليهِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يوافيَني كلُّ امرئٍ منكُمْ بمثلِ عملِ جميعِكُمْ ، ولـٰكنِّي أخافُ أنْ تُفتحَ عليكُمُ الدنيا بعدي ، فينكرَ بعضُكُمْ بعضاً ، وينكرَكُمْ أهلُ السماءِ عندَ ذٰلكَ ، فمَنْ صبرَ واحتسبَ . . ظفرَ بكمالِ ثوابِهِ » ، ثمَّ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[1]

وروىٰ جابرٌ أنَّهُ سُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإيمانِ ، فقالَ : « الصبرُ والسماحةُ »[2]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « الصبرُ كنزٌ مِنْ كنوزِ الجنَّةِ »[3]

وسُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مرَّةً : ما الإيمانُ ؟ فقالَ : « الصبرُ »[4] ، وهـٰذا يشبهُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجُّ عرفةُ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « أفضلُ الأعمالِ ما أُكرهَتْ عليهِ النفوسُ »[6]

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : تخلَّقْ بأخلاقي ، وإنَّ مِنْ أخلاقي أنِّي أنا الصبورُ[7]

وفي حديثِ عطاءٍ عنِ ابنِ عباسٍ : لمَّا دخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الأنصارِ فقالَ : « أمؤمنونَ أنتُمْ ؟ » فسكتوا ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : نعمْ يا رسولَ اللهِ ؛ فقالَ : « وما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ » فقالوا : نشكرُ على الرخاءِ ، ونصبرُ على البلاءِ ، ونرضىٰ بالقضاءِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مؤمنونَ وربِّ الكعبةِ »[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « في الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ »[9]

وقالَ المسيحُ عليهِ السلامُ : (إنَّكُمْ لا تدركونَ ما تحبُّونَ إلا بصبرِكُمْ علىٰ ما تكرهونَ)[10]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ الصبرُ رجلاً . . لكانَ كريماً ، واللهُ يحبُّ الصابرينَ »[11]

والأخبارُ في هـٰذا ممَّا لا يُحصىٰ .

❀ ❀ ❀

---

(١) كذا أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١/١٩٤) من حديث شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٦١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، ورواه أحمد في « المسند » (٤/٣٨٥) من حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه .

(٣) قال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده) ، وروى الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/١١٧) من حديث أنس مرفوعاً : « ثلاث من كنوز البر : إخفاء الصدقة ، وكتمان الشكوىٰ ، وكتمان المصيبة . . . » الحديث .

(٤) روى الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٨٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » .

(٥) رواه أبو داوود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٥/٢٥٦) .

(٦) كذا في « القوت » (١/١٩٥) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١٣) .

(٧) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٧) .

(٨) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٢٣) بنحوه ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/١٩٤) .

(٩) رواه الضياء في « المختارة » (١٤) ، وأحمد في « المسند » (١/٣٠٧) .

(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٨٦) .

(١١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ وُجِدَ في رسالةِ عمرَ بنِ الخطابِ إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُما : (عليكَ بالصبرِ ، واعلمْ أنَّ الصبرَ صبرانِ ، أحدُهُما أفضلُ مِنَ الآخرِ ، الصبرُ في المصيباتِ حسنٌ ، وأفضلُ منهُ الصبرُ عمَّا حرَّمَ اللهُ تعالىٰ ، واعلمْ أنَّ الصبرَ مِلاكُ الإيمانِ ، وذٰلكَ بأنَّ التقوىٰ أفضلُ البرِّ ، والتقوىٰ بالصبرِ)(١)

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (بُنِيَ الإيمانُ علىٰ أربعِ دعائمَ : اليقينُ ، والصبرُ ، والجهادُ ، والعدْلُ)(٢)

وقالَ أيضاً : (الصبرُ مِنَ الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ مِنَ الجسدِ ، ولا جسدَ لمَنْ لا رأسَ لهُ ، ولا إيمانَ لمَنْ لا صبرَ لهُ)(٣) .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (نعمَ العِدْلانِ ونعمتِ العِلاوةُ للصابرينَ) ؛ يعني بالعدلينِ : الصلاةَ والرحمةَ ، وبالعلاوةِ : الهدىٰ ، والعِلاوةُ ما يُحملُ فوقَ العدلينِ على البعيرِ ، وأشارَ بهِ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾(٤)

وكانَ حبيبُ بنُ أبي حبيبٍ إذا قرأَ هٰذهِ الآيةَ : ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ . . بكىٰ وقالَ : (وا عجباهُ !! أعطىٰ وأثنىٰ) أيْ : هوَ المعطي للصبرِ وهوَ المثنىٰ عليهِ(٥)

وقالَ أبو الدرداءِ : (ذروةُ الإيمانِ الصبرُ للحكمِ ، والرضا بالقدَرِ)(٦)

هٰذا بيانُ فضيلةِ الصبرِ مِنْ حيثُ النقلُ .

وأمَّا مِنْ حيثُ النظرُ بعينِ الاعتبارِ . . فلا تفهمُهُ إلا بعدَ فهمِ حقيقةِ الصبرِ ومعناهُ ؛ إذْ معرفةُ الفضيلةِ والرتبةِ معرفةُ صفةٍ ، فلا تحصلُ قبلَ معرفةِ الموصوفِ ، فلنذكرْ حقيقتَهُ ومعناهُ ، وباللهِ التوفيقُ .

* * *

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٩/٦) : (رواه إبراهيم بن بشار الرمادي عن سفيان عن والد إدريس بن عبد الله عن سعيد بن أبي بردة بن أبي موسىٰ عن أبيه ، وكان أبو موسىٰ قد أوصىٰ إلى ابنه أبي بردة رسائل عمر التي كان يكتبها إليه) ، ورواه مختصراً ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٨٨٢٧) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨) ، وهو في « القوت » (١/١٩٤) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٧٩) ، وهو في « القوت » (١/١٩٤) .

(٤) كذا في « القوت » (١/١٩٤) ، وقد رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٢٧٠) .

(٥) أورده الطرطوشي في « سراج الملوك » (١/٣٩٧) ، والرب إذا أثنىٰ علىٰ أعمال عباده . . فقد أثنىٰ علىٰ فعل نفسه ؛ لأن أعمالهم من خلقه . « إتحاف » (٩/٧) ، وسيؤكد هٰذا المعنى المصنف ، والمثنىٰ بالمقصورة لا بالياء ، كما سيُوضَّح في بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالىٰ .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢١٦) ، وزاد : (والإخلاص في التوكل ، والاستسلام للرب عز وجل) .

بيان حقيقة الصّبر ومعناه

اعلمْ : أنَّ الصبرَ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ ، ومنزلٌ مِنْ منازلِ السالكينَ ، وجميعُ مقاماتِ الدينِ إنَّما تنتظمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : معارفُ ، وأحوالٌ ، وأعمالٌ .

فالمعارفُ هيَ الأصولُ ، وهيَ التي تورثُ الأحوالَ ، والأحوالُ تثمرُ الأعمالَ ، فالمعارفُ كالأشجارِ ، والأحوالُ كالأغصانِ ، والأعمالُ كالثمارِ ، وهاذا مطردٌ في جميعِ منازلِ السالكينَ إلى اللهِ تعالىٰ .

واسمُ الإيمانِ تارةً يختصُّ بالمعارفِ ، وتارةً يُطلقُ على الكلِّ ؛ كما ذكرناهُ في اختلافِ اسمِ الإيمانِ والإسلامِ في كتابِ قواعدِ العقائدِ ، وكذلكَ الصبرُ لا يتمُّ إلا بمعرفةٍ سابقةٍ ، وبحالةٍ قائمةٍ ، فالصبرُ على التحقيقِ عبارةٌ عنها ، والعملُ هوَ كالثمرةِ يصدرُ عنها ، ولا يُعرفُ هاذا إلا بمعرفةِ كيفيَّةِ الترتيبِ بينَ الملائكةِ والإنسِ والبهائمِ ؛ فإنَّ الصبرَ خاصِّيَّةُ الإنسِ ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ في البهائمِ والملائكةِ ؛ أمَّا في البهائمِ . . فلنقصانِها ، وأمَّا في الملائكةِ . . فلكمالِها .

وبيانُهُ : أنَّ البهائمَ سُلِّطَتْ عليها الشهواتُ ، وصارَتْ مسخَّرةً لها ، فلا باعثَ لها على الحركةِ والسكونِ إلا الشهوةُ ، وليسَ فيها قوَّةٌ تصادمُ الشهوةَ وتردُّها عنْ مقتضاها حتَّىٰ يُسمَّىٰ ثباتُ تلكَ القوَّةِ في مقابلةِ مقتضى الشهوةِ صبراً .

وأمَّا الملائكةُ عليهمُ السلامُ . . فإنَّهُمْ جُرِّدوا للشوقِ إلى الحضرةِ الربوبيةِ ، والابتهاجِ بدرجةِ القرْبِ منها ، ولمْ تُسلَّطْ عليهِمْ شهوةٌ صارفةٌ صادَّةٌ عنها حتَّىٰ تحتاجَ إلىٰ مصادمةِ ما يصرفُها عنْ حضرةِ الجلالِ بجندٍ آخرَ يغلبُ الصوارفَ .

وأمَّا الإنسانُ . . فإنَّهُ خُلِقَ في ابتداءِ الصبَا ناقصاً مثلَ البهيمةِ ، لمْ يُخلقْ فيهِ إلا شهوةُ الغذاءِ الذي هوَ محتاجٌ إليهِ ، ثمَّ تظهرُ فيهِ شهوةُ اللعبِ والزينةِ ، ثمَّ شهوةُ النكاحِ على الترتيبِ(1) ، وليسَ لهُ قوَّةُ الصبرِ ألبتةَ ؛ إذِ الصبرُ عبارةٌ عنْ ثباتِ جندٍ في مقابلةِ جندٍ آخرَ قامَ القتالُ بينَهُما لتضادِّ مقتضياتِهِما ومطالبِهِما ، وليسَ في الصبيِّ إلا جندُ الهوىٰ كما في البهائمِ .

ولاكنَّ اللهَ تعالىٰ بفضلِهِ وسعةِ جودِهِ أكرمَ بني آدمَ ، ورفعَ درجتَهُمْ عنْ درجةِ البهائمِ ، فوكلَ بهِ عندَ كمالِ شخصِهِ بمقاربةِ البلوغِ ملكينِ ؛ أحدُهُما يهديهِ ، والآخرُ يقوّيهِ ، فتميَّزَ بمعونةِ الملكينِ عنِ البهائمِ ، واختُصَّ بصفتينِ ؛ إحداهُما معرفةُ اللهِ تعالىٰ ومعرفةُ رسولِهِ ، ومعرفةُ المصالحِ المتعلِّقةِ بالعواقبِ ، وكلُّ ذلكَ حاصلٌ مِنَ الملكِ الذي إليهِ الهدايةُ والتعريفُ ، فالبهيمةُ لا معرفةَ لها ولا هدايةَ إلىٰ مصلحةِ العواقبِ ، بلْ إلىٰ مقتضىٰ شهوتِها في الحالِ فقطْ ، فلذلكَ لا تطلبُ إلا اللذيذَ ، فأمَّا الدواءُ النافعُ معَ كونِهِ مضراً في الحالِ . . فلا تطلبُهُ ولا تعرفُهُ .

فصارَ الإنسانُ بنورِ الهدايةِ يعرفُ أنَّ اتباعَ الشهواتِ لهُ مغبَّاتٌ مكروهةٌ في العاقبةِ ، ولاكنْ لمْ تكنْ هاذهِ الهدايةُ كافيةً ما لمْ تكنْ لهُ قدرةٌ علىٰ تركِ ما هوَ مضرٌّ ، فكمْ مِنْ مضرٍّ يعرفُهُ الإنسانُ ـ كالمرضِ النازلِ بهِ مثلاً ـ ولاكنْ لا قدرةَ لهُ علىٰ دفعِهِ ، فافتقرَ إلىٰ قدرةٍ وقوَّةٍ يدفعُ بها في نحرِ الشهواتِ فيجاهدُها بتلكَ القوَّةِ حتَّىٰ يقطعَ عداوتَها عنْ نفسِهِ ، فوكلَ اللهُ تعالىٰ بهِ ملكاً آخرَ يسدِّدُهُ ويؤيِّدُهُ ويقوِّيهِ بجنودٍ لمْ ترَوها ، وأمرَ هاذا الجندَ بقتالِ جندِ الشهوةِ ، فتارةً يضعفُ

(1) إلىٰ أن يظهر فيه الرغبة في طلب الكمال ، والنظر للعاقبة ، وعصيان مقتضىٰ تلك الشهوات . « إتحاف » (٩/٩) .

هـٰذا الجندُ ، وتارةً يقوىٰ ، وذٰلكَ بحسَبِ إمدادِ اللهِ تعالىٰ عبدَهُ بالتأييدِ ؛ كما أنَّ نورَ الهدايةِ أيضاً يختلفُ في الخلقِ اختلافاً لا ينحصرُ ، فلنسمِّ هـٰذهِ الصفةَ التي بها فارقَ الإنسانُ البهائمَ في قمعِ الشهواتِ وقهرِها : باعثاً دينيّاً ، ولنسمِّ مطالبةَ الشهواتِ بمقتضياتِها : باعثَ الهوىٰ .

وليُفهمْ أنَّ القتالَ قائمٌ بينَ باعثِ الدينِ وباعثِ الهوىٰ ، والحربُ بينَهُما سجالٌ ، ومعركةُ هـٰذا القتالِ قلبُ العبدِ ، ومددُ باعثِ الدينِ مِنَ الملائكةِ الناصرينَ لحزبِ اللهِ تعالىٰ ، ومددُ باعثِ الشهوةِ مِنَ الشياطينِ الناصرينَ لأعداءِ اللهِ تعالىٰ[1] ، **فالصبرُ** : **عبارةٌ عنْ ثباتِ باعثِ الدينِ في مقابلةِ باعثِ الشهوةِ** ، فإنْ ثبتَ حتَّىٰ قهرَهُ واستمرَّ علىٰ مخالفةِ الشهوةِ . . فقدْ نصرَ حزبَ اللهِ والتحقَ بالصابرينَ ، وإنْ تخاذلَ وضعفَ حتَّىٰ غلبَتِ الشهوةُ ولمْ يصبرْ في دفعِها . . التحقَ بأتباعِ الشياطينِ .

فإذاً ؛ تركُ الأفعالِ المشتهاةِ عملٌ يثمرُهُ حالٌ يُسمَّى الصبرَ ، وهوَ ثباتُ باعثِ الدينِ الذي هوَ في مقابلةِ باعثِ الشهوةِ ، وثباتُ باعثِ الدينِ حالٌ تثمرُها المعرفةُ بعداوةِ الشهواتِ ومضادَّتِها لأسبابِ السعاداتِ في الدنيا والآخرةِ ، فإذا قويَ يقينُهُ ـ أعني المعرفةَ التي تُسمَّىٰ إيماناً ـ وهوَ اليقينُ بكونِ الشهوةِ عدوّاً قاطعاً لطريقِ اللهِ تعالىٰ . . قويَ ثباتُ باعثِ الدينِ ، وإذا قويَ ثباتُهُ . . تمَّتِ الأفعالُ علىٰ خلافِ ما تتقاضاهُ الشهوةُ ، فلا يتمُّ تركُ الشهوةِ إلا بقوَّةِ باعثِ الدينِ المضادِّ لباعثِ الشهوةِ ، وقوَّةُ المعرفةِ والإيمانِ تقبّحُ مغبَّةَ الشهواتِ وسوءَ عاقبتِها ، وهـٰذانِ الملكانِ هما المتكفِّلانِ بهـٰذينِ الجندينِ بإذنِ اللهِ تعالىٰ وتسخيرِهِ إيَّاهُما ، وهما مِنَ الكرامِ الكاتبينَ ، وهما الملكانِ الموكلانِ بكلِّ شخصٍ مِنَ الآدميينَ .

وإذا عرفتَ أنَّ رتبةَ الملكِ الهادي أعلىٰ مِنْ رتبةِ الملكِ المقوّي . . لمْ يخفَ عليكَ أنَّ جانبَ اليمينِ الذي هوَ أشرفُ الجانبينِ مِنْ جنبتَي الدَّسْتِ ينبغي أنْ يكونَ مسلماً لهُ[2] ، فهوَ إذاً صاحبُ اليمينِ ، والآخرُ صاحبُ الشمالِ .

وللعبدِ طورانِ في الغفلةِ والفكرِ ، وفي الاسترسالِ والمجاهدةِ ، فهوَ بالغفلةِ معرضٌ عنْ صاحبِ اليمينِ ومسيءٌ إليهِ ، فيكتبُ إعراضَهُ سيئةً ، وبالفكرِ مقبلٌ عليهِ ليستفيدَ منهُ الهدايةَ ، فهوَ بهِ محسنٌ ، فيكتبُ إقبالَهُ لهُ حسنةً ، وكذا بالاسترسالِ هوَ معرضٌ عنْ صاحبِ الشمالِ تاركٌ للاستمدادِ منهُ ، فهوَ بهِ مسيءٌ إليهِ ، فيثبتُ عليهِ سيئةً ، وبالمجاهدةِ مستمدٌّ مِنْ جنودِهِ ، فيثبتُ لهُ بهِ حسنةً .

وإنَّما ثبتَتْ هـٰذهِ الحسناتُ والسيئاتُ بإثباتِهِما ، فلـٰذلكَ سُمِّيا كراماً كاتبينَ ، أمَّا (الكرامَ) . . فلانتفاعِ العبدِ بكرمِهِما ، ولأنَّ الملائكةَ كلَّهُمْ كرامٌ بررةٌ ، وأمَّا (الكاتبينَ) . . فلإثباتِهِما الحسناتِ والسيئاتِ ، وإنَّما يكتبانِ في صحائفَ مطويَّةٍ في سرِّ القلبِ ومطويةٍ عنْ سرِّ القلبِ ؛ حتَّىٰ لا يُطلعَ عليهِ في هـٰذا العالمِ ، فإنَّهُما وكتْبَتَهُما وخطَّهُما وصحائفَهُما وجملةَ ما يتعلَّقُ بهما مِنْ جملةِ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، لا مِنْ عالمِ الشهادةِ ، وكلُّ شيءٍ مِنْ عالمِ الملكوتِ لا تدركُهُ الأبصارُ في هـٰذا العالمِ[3]

---

(١) ومعرفة هـٰذا من الإيمان بالله تعالىٰ ، وهو تصديق الله تعالىٰ فيما أخبر به من عداوة النفس والشيطان والشهوات للعقل والمعرفة والملك الملهم للخير ، وأن الشهوات والنفس من حزب الشيطان ، والمعرفة والعقل والملائكة من جند الله وحزبه ، وهـٰذا الإيمان واجب لا يستغني عنه سالك لطريق الله تعالىٰ . « إتحاف » (٩/٩) .

(٢) الدَّسْت : لفظة فارسية ، لها معان عديدة ، أشهرها اليد ، ويطلق على المجلس الذي يتصدره الكبراء .

(٣) والعبارة في (ج) : (وسرُّ عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هـٰذا العالم) .

ثمَّ تُنشرُ هٰذهِ الصحائفُ المطويَّةُ عنهُ مرَّتينِ ؛ مرَّةً في القيامةِ الصغرىٰ ، ومرَّةً في القيامةِ الكبرىٰ ، وأعني بالقيامةِ الصغرىٰ : حالةَ الموتِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ . . فقدْ قامَتْ قيامتُهُ »[1] ، وفي هٰذهِ القيامةِ يكونُ العبدُ وحدَهُ ، وعندَها يُقالُ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، وفيها يُقالُ : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، أمَّا في القيامةِ الكبرى الجامعةِ لكافةِ الخلقِ . . فلا يكونُ وحدَهُ ، بلْ ربَّما يُحاسبُ على ملأٍ مِنَ الخلقِ ، وفيها يُساقُ المتقونَ إلى الجنَّةِ والمجرمونَ إلى النارِ زمراً لا آحاداً .

والهولُ الأوَّلُ هوَ هولُ القيامةِ الصغرىٰ ، ولجميعِ أهوالِ القيامةِ الكبرىٰ نظيرٌ في القيامةِ الصغرىٰ ؛ مثلُ زلزلةِ الأرضِ مثلاً ، فإنَّ أرضَكَ الخاصَّةَ بكَ تزلزلُ في الموتِ ؛ فإنَّكَ تعلمُ أنَّ الزلزلةَ إذا نزلَتْ ببلدةٍ . . صدقَ أنْ يُقالَ : (قدْ زُلزلَتْ أرضُهُمْ) وإنْ لمْ تُزلزلِ البلادُ المحيطةُ بها ، بلْ لوْ زُلزلَ مسكنُ الإنسانِ ودارُهُ . . فقدْ حصلَتِ الزلزلةُ في حقِّهِ ؛ لأنَّهُ إنَّما يتضرَّرُ عندَ زلزلةِ جميعِ الأرضِ بزلزلةِ مسكنِهِ لا بزلزلةِ مسكنِ غيرِهِ ، فحصَّتُهُ مِنَ الزلزلةِ قدْ توفَّرَتْ مِنْ غيرِ نقصانٍ .

واعلمْ : أنَّكَ أرضيٌّ مخلوقٌ مِنَ الترابِ ، وحظُّكَ الخاصُّ مِنَ الترابِ بدنُكَ فقطْ ، فأمَّا بدنُ غيرِكَ . . فليسَ بحظِّكَ ، والأرضُ التي أنتَ جالسٌ عليها بالإضافةِ إلىٰ بدنِكَ ظرفٌ ومكانٌ ، وإنَّما تخافُ مِنْ تزلزلِهِ أنْ يتزلزلَ بدنُكَ بسببِهِ ، وإلا . . فالهواءُ أبداً متزلزلٌ وأنتَ لا تخشاهُ ؛ إذْ ليسَ يتزلزلُ بهِ بدنُكَ ، فحظُّكَ مِنْ زلزلةِ الأرضِ كلِّها زلزلةُ بدنِكَ فقطْ ، فهوَ أرضُكَ وترابُكَ الخاصُّ بكَ ، وعظامُكَ جبالُ أرضِكَ ، ورأسُكَ سماءُ أرضِكَ ، وقلبُكَ شمسُ أرضِكَ ، وسمعُكَ وبصرُكَ وسائرُ حواسِّكَ نجومُ سمائِكَ ، ومفيضُ العرقِ مِنْ بدنِكَ بحرُ أرضِكَ ، وشعورُكَ نباتُ أرضِكَ ، وأطرافُكَ أشجارُ أرضِكَ ، وهٰكذا إلىٰ جميعِ أجزائِكَ ، فإذا انهدمَ بالموتِ أركانُ بدنِكَ . . فقدْ زُلزلتِ الأرضُ زلزالَها ، فإذا انفصلَتِ العظامُ مِنَ اللحومِ . . فقدْ حُملَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكتا دكَّةً واحدةً ، فإذا رَمَّتِ العظامُ . . فقدْ نُسفَتِ الجبالُ نسفاً ، فإذا أظلمَ قلبُكَ عندَ الموتِ . . فقدْ كُورَتِ الشمسُ تكويراً ، فإذا بطلَ سمعُكَ وبصرُكَ وسائرُ حواسِّكَ . . فقدِ انكدرتِ النجومُ انكداراً ، فإذا انشقَّ دماغُكَ . . فقدِ انشقَّتِ السماءُ انشقاقاً ، فإذا انفجرَ مِنْ هولِ الموتِ عرقُ جبينِكَ . . فقدْ فُجّرَتِ البحارُ تفجيراً ، فإذا التفَّتْ إحدىٰ ساقيكَ بالأخرىٰ وهما مطيَّتاكَ . . فقدْ عُطِّلَتِ العشارُ تعطيلاً ، فإذا فارقَتِ الروحُ الجسدَ . . فقدْ حُملَتِ الأرضُ فمُدَّتْ حتَّىٰ ألقَتْ ما فيها وتخلَّتْ .

ولستُ أطوِّلُ بموازنةِ جميعِ الأحوالِ والأهوالِ ، ولٰكنِّي أقولُ : بمجرَّدِ الموتِ تقومُ عليكَ هٰذهِ القيامةُ الصغرىٰ ، ولا يفوتُكَ مِنَ القيامةِ الكبرىٰ شيءٌ ممَّا يخصُّكَ ، بلْ ما يخصُّ غيرَكَ ، فإنَّ بقاءَ الكواكبِ في حقِّ غيرِكَ ماذا ينفعُكَ وقدِ انتثرَتْ حواسُّكَ التي بها تنتفعُ بالنظرِ إلى الكواكبِ ، والأعمىٰ يستوي عندَهُ الليلُ والنهارُ ، وكسوفُ الشمسِ وانجلاؤُها ؛ لأنَّها قدْ كسفَتْ في حقِّهِ دفعةً واحدةً ، وهوَ حصتُهُ منها ، فالانجلاءُ بعدَ ذٰلكَ حصَّةُ غيرِهِ ، ومَنِ انشقَّ رأسُهُ . . فقدِ انشقَّتْ سماؤُهُ ؛ إذِ السماءُ عبارةٌ عمَّا يلي جهةَ الرأسِ ، فمَنْ لا رأسَ لهُ لا سماءَ لهُ ، فمِنْ أينَ ينفعُهُ بقاءُ السماءِ لغيرِهِ ؟!

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » (١٧٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١١١٧) من حديث أنس رضي الله عنه ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٥/٥) عن ابن بشار السلمي قال : خطب عمر الناس فقال : أيها الناس ؛ لا يبعدن عليكم ولا يطولن يوم القيامة ؛ فإنه من وافته منيته . . فقد قامت عليه قيامته .

وروى الدولابي في « الكنىٰ » (٨٩/٢) عن أبي قيس عبد الرحمٰن بن ثروان قال : صلىٰ علقمة علىٰ جنازة فقال : (أما هٰذا . . فقد قامت قيامته) ، ومن حديثه عن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : (يقولون : القيامة القيامة ، وإنما قيامة أحدكم موته) .

فهٰذهِ هيَ القيامةُ الصغرىٰ ، والخوفُ بعدُ أسفلَ ، والهولُ بعدُ مدَّخرٌ ، وذٰلكَ إذا جاءَتِ الطامَّةُ الكبرىٰ ، وارتفعَ الخصوصُ ، وبطلَتِ السماواتُ والأرضُ ، ونُسفَتِ الجبالُ ، وتمَّتِ الأهوالُ .

واعلمْ : أنَّ هٰذهِ الصغرىٰ وإنْ طوَّلنا في وصفِها فإنَّا لمْ نذكرْ عُشْرَ عَشِيرِ أوصافِها ، وهيَ بالنسبةِ إلى القيامةِ الكبرىٰ كالولادةِ الصغرىٰ بالنسبةِ إلى الولادةِ الكبرىٰ ، فإنَّ للإنسانِ ولادتينِ ؛ إحداهُما الخروجُ مِنَ الصلبِ والترائبِ إلىٰ مستودعِ الأرحامِ ، فهوَ في الرحمِ في قرارٍ مكينٍ إلىٰ قدَرٍ معلومٍ ، ولهُ في سلوكِهِ إلى الكمالِ منازلُ وأطوارٌ ؛ مِنْ نطفةٍ ، وعلقةٍ ، ومضغةٍ ، وغيرِها ، إلىٰ أنْ يخرجَ مِنْ مضيقِ الرحمِ إلىٰ فضاءِ العالمِ ، فنسبةُ عمومِ القيامةِ الكبرىٰ إلىٰ خصوصِ القيامةِ الصغرىٰ كنسبةِ سَعَةِ فضاءِ العالمِ إلىٰ سعةِ فضاءِ الرحمِ ، ونسبةُ سعةِ العالمِ الذي يقدمُ عليهِ العبدُ بالموتِ إلىٰ سعةِ فضاءِ الدنيا كنسبةِ فضاءِ الدنيا أيضاً إلى الرحمِ ، بلْ أوسعُ وأعظمُ ، فقِسِ الآخرةَ بالأولىٰ ، فما خلقُكُمْ ولا بعثُكُمْ إلا كنفسٍ واحدةٍ ، وما النشأةُ الثانيةُ إلا علىٰ قياسِ النشأةِ الأولىٰ ، بلْ أعدادُ النشآتِ ليسَتْ محصورةً في اثنتينِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فالمقرُّ بالقيامتينِ مؤمنٌ بعالمِ الغيبِ والشهادةِ ، وموقنٌ بالمُلْكِ والملكوتِ ، والمقرُّ بالقيامةِ الصغرىٰ دونَ الكبرىٰ ناظرٌ بالعينِ العوراءِ إلىٰ أحدِ العالمينِ ، وذٰلكَ هوَ الجهلُ والضلالُ ، والاقتداءُ بالأعورِ الدجَّالِ ، فما أعظمَ غفلتَكَ يا مسكينُ ـ وكلُّنا ذٰلكَ المسكينُ ـ وبينَ يديكَ هٰذهِ الأهوالُ ، فإنْ كنتَ لا تؤمنُ بالقيامةِ الكبرىٰ للجهلِ والضلالِ . . أفلا تكفيكَ دلالةُ القيامةِ الصغرىٰ ؟!

أوَما سمعتَ قولَ سيِّدِ الأنبياءِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفىٰ بالموتِ واعظاً » ؟![1]

أوَما سمعتَ بكربِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ الموتِ حتَّىٰ قالَ : « اللهمَّ ؛ هوِّنْ علىٰ محمدٍ سكراتِ الموتِ » ؟![2] .

أوَما تستحي مِنِ استبطائِكَ هجومَ الموتِ اقتداءً برعاعِ الغافلينَ الذينَ لا ينظرونَ إلا صيحةً واحدةً تأخذُهُمْ وهُمْ يخصِّمونَ ، فلا يستطيعونَ توصيةً ولا إلىٰ أهلِهِمْ يرجعونَ ، فيأتيهِمُ المرضُ نذيراً مِنَ الموتِ فلا ينزجرونَ ، ويأتيهِمُ الشيبُ رسولاً منهُ فما يعتبرونَ ؟!

فيا حسرةً على العبادِ ، ما يأتيهِمْ مِنْ رسولٍ إلا كانوا بهِ يستهزئونَ ، أفيظنُّونَ أنَّهُمْ في الدنيا خالدونَ ؟!

أوَلَمْ يرَوا كمْ أهلكنا قبلَهُمْ مِنَ القرونِ أنَّهُمْ إليهِمْ لا يرجعونَ ؟!

أمْ يحسبونَ أنَّ الموتىٰ سافروا مِنْ عندِهِمْ فهمْ معدومونَ ؟!

كلا ، إنْ كلٌّ لمَّا جميعٌ لدينا محضرونَ ، ولٰكنْ ما تأتيهِمْ مِنْ آيةٍ مِنْ آياتِ ربِّهِمْ إلا كانوا عنها معرضينَ ، وذٰلكَ لأنَّا جعلنا مِنْ بينِ أيديهِمْ سدّاً ومِنْ خلفِهِمْ سدّاً ، فأغشيناهُمْ فهُمْ لا يبصرونَ ، وسواءٌ عليهِمْ أأنذرتَهُمْ أمْ لمْ تنذرْهُمْ لا يؤمنونَ .

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) .

(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : « اللهم ؛ أعني علىٰ غمرات الموت أو سكرات الموت » وروى البخاري (٤٤٤٦) ، والنسائي (٤/٦) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : (مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي ، فلا أكره شدة الموت لأحد بعدما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

ولنرجعْ إلى الغرضِ ، فإنَّ هٰذهِ تلويحاتٌ تشيرُ إلىٰ أمورٍ هيَ أعلىٰ مِنْ علومِ المعاملةِ ، فنقولُ :

قدْ ظهرَ أنَّ الصبرَ عبارةٌ عنْ ثباتِ باعثِ الدينِ في مقاومةِ باعثِ الهوىٰ ، وهٰذهِ المقاومةُ مِنْ خاصَّةِ الآدميينَ ؛ لما وُكِلَ بهِمْ مِنَ الكرامِ الكاتبينَ ، ولا يكتبانِ شيئاً على الصبيانِ والمجانينِ ؛ إذْ قدْ ذكرنا أنَّ الحسنةَ في الإقبالِ على الاستفادةِ منهما ، والسيئةَ في الإعراضِ عنهما ، وما للصبيانِ والمجانينِ سبيلٌ إلى الاستفادةِ ، فلا يُتصوَّرُ منهما إقبالٌ وإعراضٌ ، وهما لا يكتبانِ إلا الإقبالَ والإعراضَ مِنَ القادرينَ على الإقبالِ والإعراضِ .

ولعمري ؛ إنَّهُ قدْ تظهرُ مبادي إشراقِ نورِ الهدايةِ عندَ سنِّ التمييزِ ، وتنمو على التدريجِ إلىٰ سنِّ البلوغِ ؛ كما يبدو نورُ الصبحِ إلىٰ أنْ يطلعَ قرصُ الشمسِ ، ولٰكنَّها هدايةٌ قاصرةٌ لا ترشدُ إلىٰ مضارِّ الآخرةِ ، بلْ إلىٰ مضارِّ الدنيا ، فلذٰلكَ يُضربُ علىٰ تركِ الصلواتِ ناجزاً ولا يُعاقبُ في الآخرةِ ، ولا يُكتبُ عليهِ مِنَ الصحائفِ ما يُنشرُ في الآخرةِ ، بلْ على القيِّمِ العدْلِ ، والوليِّ البرِّ الشفيقِ ، إنْ كانَ مِنَ الأبرارِ ، وكانَ علىٰ سمتِ الكرامِ البررةِ الأخيارِ . . أنْ يكتبَ على الصبيِّ سيئتَهُ وحسنتَهُ علىٰ صحيفةِ قلبِهِ ، فيكتبُهُ عليهِ بالحفظِ ، ثمَّ ينشرُهُ عليهِ بالتعريفِ ، ثمَّ يعذِّبُهُ عليهِ بالضربِ ، فكلُّ وليٍّ هٰذا سمتُهُ في حقِّ الصبيِّ فقدْ ورثَ أخلاقَ الملائكةِ ، واستعملَها في حقِّ الصبيِّ ، فينالُ بها درجةَ القرْبِ مِنْ ربِّ العالمينَ كما نالَتْهُ الملائكةُ ، فيكونُ معَ النبيِّينَ والمقرَّبينَ والصدِّيقينَ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا وكافلُ اليتيمِ كهاتينِ في الجنَّةِ » وأشارَ إلىٰ إصبعيهِ الكريمتينِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1]

❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري (٥٣٠٤) ، والترمذي (١٩١٨) بنحوه .

بيان كون الصّبر نصف الإيمان

اعلم : أنَّ الإيمانَ تارةً يختصُّ في إطلاقِهِ بالتصديقاتِ بأصولِ الدينِ ، وتارةً يُخصُّ بالأعمالِ الصالحةِ الصادرةِ منها ، وتارةً يُطلقُ عليهما جميعاً .

وللمعارفِ أبوابٌ ، وللأعمالِ أبوابٌ ، ولاشتمالِ لفظِ الإيمانِ علىٰ جميعِها كانَ الإيمانُ نيّفاً وسبعينَ باباً ، واختلافُ هٰذهِ الإطلاقاتِ ذكرناهُ في كتابِ قواعدِ العقائدِ مِنْ ربعِ العباداتِ ، **ولٰكنَّ الصبرَ نصفُ الإيمانِ باعتبارينِ ، وعلىٰ مقتضىٰ إطلاقينِ**

أحدُهُما : أنْ يُطلقَ على التصديقاتِ والأعمالِ جميعاً ، فيكونَ للإيمانِ ركنانِ : أحدُهُما اليقينُ ، والآخرُ الصبرُ ، والمرادُ باليقينِ : المعارفُ القطعيَّةُ الحاصلةُ بهدايةِ اللهِ تعالىٰ عبدَهُ إلىٰ أصولِ الدينِ ، والمرادُ بالصبرِ : العملُ بمقتضى اليقينِ ؛ إذِ اليقينُ يعرِّفُهُ أنَّ المعصيةَ ضارَّةٌ ، والطاعةَ نافعةٌ ، ولا يمكنُ تركُ المعصيةِ والمواظبةُ على الطاعةِ إلا بالصبرِ ، وهوَ استعمالُ باعثِ الدينِ في قهرِ باعثِ الهوىٰ والكسلِ ، فيكونُ الصبرُ نصفَ الإيمانِ بهٰذا الاعتبارِ .

ولهٰذا جمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَهُما فقالَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتُم اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ . . . » الحديثَ إلىٰ آخرِهِ[1]

الاعتبارُ الثاني : أنْ يُطلقَ على الأحوالِ المثمرةِ للأعمالِ لا على المعارفِ ، وعندَ ذٰلكَ ينقسمُ جميعُ ما يلاقيهِ العبدُ إلىٰ ما ينفعُهُ في الدنيا والآخرةِ أوْ يضرُّهُ فيهما ، ولهُ بالإضافةِ إلىٰ ما يضرُّهُ حالُ الصبرِ ، وبالإضافةِ إلىٰ ما ينفعُهُ حالُ الشكرِ ، فيكونُ الشكرُ أحدَ شطريِ الإيمانِ بهٰذا الاعتبارِ كما كانَ اليقينُ أحدَ الشطرينِ بالاعتبارِ الأوَّلِ .

وبهٰذا النظرِ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الإيمانُ نصفانِ : نصفٌ صبرٌ ، ونصفٌ شكرٌ) ، وقدْ يُرفعُ أيضاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

ولمَّا كانَ الصبرُ صبراً عنْ بواعثِ الهوىٰ بثباتِ باعثِ الدينِ ، وكانَ باعثُ الهوىٰ قسمينِ ؛ باعثٌ مِنْ جهةِ الشهوةِ ، وباعثٌ مِنْ جهةِ الغضبِ ، فالشهوةُ لطلبِ اللذيذِ ، والغضبُ للهربِ مِنَ المؤلمِ ، وكانَ الصومُ صبراً عنْ مقتضى الشهوةِ فقطْ ، وهيَ شهوةُ البطنِ والفرجِ دونَ مقتضى الغضبِ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهٰذا الاعتبارِ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »[3] ؛ لأنَّ كمالَ الصبرِ بالصبرِ عنْ دواعي الشهوةِ ودواعي الغضبِ جميعاً ، فيكونُ الصومُ بهٰذا الاعتبارِ ربعَ الإيمانِ .

فهٰكذا ينبغي أنْ تفهمَ تقديراتِ الشرعِ بحدودِ الأعمالِ والأحوالِ ونسبتِها إلى الإيمانِ ، **والأصلُ فيهِ** : أنْ تعرفَ كثرةَ أبوابِ الإيمانِ ، وأنَّ اسمَ الإيمانِ يُطلقُ علىٰ وجوهٍ مختلفةٍ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/١٩٤) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/١٠٤) بنحوه .

(٣) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلمْ : أنَّ الصبرَ ضربانِ :

أحدهما : ضربٌ بدنيٌّ ؛ كتحمُّلِ المشاقِّ بالبدنِ والثباتِ عليها ، وهوَ إمَّا بالفعلِ ؛ كتعاطي الأعمالِ الشاقَّةِ إمَّا مِنَ العباداتِ أوْ مِنْ غيرِها ، وإمَّا بالاحتمالِ ؛ كالصبرِ على الضربِ الشديدِ والمرضِ العظيمِ والجراحاتِ الهائلةِ ، وذلكَ قدْ يكونُ محموداً إذا وافقَ الشرعَ .

ولٰكنَّ المحمودَ التامَّ هوَ :

الضربُ الآخرُ : وهوَ **الصبرُ النفسيُّ** عنْ مشتهياتِ الطبعِ ومقتضياتِ الهوىٰ .

ثمَّ هٰذا الضربُ إنْ كانَ صبراً عنْ شهوةِ البطنِ والفرجِ . . سُمِّيَ **عفةً** ، وإنْ كانَ عنِ احتمالِ مكروهٍ . . اختلفَتْ أساميهِ عندَ الناسِ باختلافِ المكروهِ الذي عليهِ الصبرُ .

فإنْ كانَ في مصيبةٍ . . اقتصرَ على اسمِ **الصبرِ** ، وتضادُّهُ حالةٌ تُسمَّى **الجزعَ والهلعَ** ؛ وهوَ إطلاقُ داعي الهوىٰ ليسترسلَ في رفعِ الصوتِ وضربِ الخدودِ وشقِّ الجيوبِ وغيرِها .

وإنْ كانَ في احتمالِ الغنىٰ . . سُمِّيَ **ضبطَ النفسِ** ، وتضادُّهُ حالةٌ تُسمَّى **البطرَ** .

وإنْ كانَ في حربٍ ومقاتلةٍ . . سُمِّيَ **شجاعةً** ، ويضادُّهُ **الجبنُ** .

وإنْ كانَ في كظمِ الغيظِ والغضبِ سُمِّيَ **حلماً** ، ويضادُّهُ **التذمُّرُ** .

وإنْ كانَ في نائبةٍ مِنْ نوائبِ الزمانِ مضجرةٍ . . سُمِّيَ **سعةَ الصدرِ** ، ويضادُّهُ **الضجرُ والتبرُّمُ وضيقُ الصدرِ** .

وإنْ كانَ في إخفاءِ كلامٍ . . سُمِّيَ **كتمانَ السرِّ** ، وسُمِّيَ صاحبُهُ كَتُوماً .

وإنْ كانَ عنْ فضولِ العيشِ . سُمِّيَ **زهداً** ، ويضادُّهُ **الحرصُ** .

وإنْ كانَ صبراً علىٰ قدْرٍ يسيرٍ مِنَ الحظوظِ . . سُمِّيَ **قناعةً** ، ويضادُّهُ **الشرهُ** .

فأكثرُ أخلاقِ الإيمانِ داخلٌ في الصبرِ ، ولذٰلكَ لمَّا سُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مرَّةً عنِ الإيمانِ . . قالَ : « هوَ الصبرُ »(١) ؛ لأنَّهُ أكثرُ أعمالِهِ وأعزُّها ؛ كما قالَ : « الحجُّ عرفةُ »(٢)

وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ أقسامَ ذٰلكَ وسمَّى الكلَّ صبراً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ أي : المصيبةِ ، ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي : الفقرِ ، ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أي : المحاربةِ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

فإذاً ؛ هٰذهِ أقسامُ الصبرِ باختلافِ متعلَّقاتِها ، ومَنْ يأخذُ المعانيَ مِنَ الأسامي يظنُّ أنَّ هٰذهِ أحوالٌ مختلفةٌ في ذواتِها وحقائقِها مِنْ حيثُ رأى الأساميَ مختلفةً ، والذي يسلكُ الطريقَ المستقيمَ وينظرُ بنورِ اللهِ . . يلحظُ المعانيَ

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (٣١) .

(٢) رواه أبو داوود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٥/٢٥٦) .

أوّلاً ، فيطلعُ على حقائقِها ، ثمَّ يلاحظُ الأسامي ؛ فإنَّها وُضعَتْ دلالةً على المعاني ، فالمعاني هيَ الأصولُ ، والألفاظُ هيَ التوابعُ ، ومَنْ يطلبُ الأصولَ مِنَ التوابعِ . . لا بدَّ وأنْ يزلَّ ، وإلى الفريقينِ الإشارةُ بقولِهِ تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فإنَّ الكفارَ لمْ يغلطوا فيما غلطوا فيهِ إلا بمثلِ هٰذهِ الانعكاساتِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بكرمِهِ ولطفِهِ .

* * *

بيان انقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلمْ : أنَّ باعثَ الدينِ بالإضافةِ إلىٰ باعثِ الهوىٰ لهُ ثلاثةُ أحوالٍ :

أحدُها : أنْ يقهرَ داعيَ الهوىٰ فلا تبقىٰ لهُ قوَّةُ المنازعةِ :

ويتوصَّلُ إليهِ بدوامِ الصبرِ ، وعندَ هـٰذا يقالُ : (مَنْ صبرَ . . ظفرَ) ، والواصلونَ إلىٰ هـٰذهِ الرتبةِ همُ الأقلُّونَ ، فلا جرمَ همُ الصدِّيقونَ المقرَّبونَ ، الذينَ قالوا : (ربُّنا اللهُ) ثمَّ استقاموا ، فهـٰؤلاءِ لازموا الطريقَ المستقيمَ ، واستوَوا على الصراطِ القويمِ ، واطمأنَّتْ نفوسُهُمْ علىٰ مقتضىٰ بواعثِ الدينِ ، وإيَّاهُمْ ينادي المنادي : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۞ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴾

❁ ❁ ❁

الحالةُ الثانيةُ : أنْ تغلبَ دواعي الهوىٰ وتسقطَ بالكليَّةِ منازعةُ باعثِ الدينِ :

فيسلِمُ نفسَهُ إلىٰ جندِ الشياطينِ ، ولا يجاهدُ ليأسِهِ منَ المجاهدةِ ، وهـٰؤلاءِ همُ الغافلونَ ، وهمُ الأكثرونَ ، وهمُ الذينَ استرقَّتْهُمْ شهواتُهُمْ ، وغلبَتْ عليهِمْ شِقْوتُهُمْ ، فحكَّموا أعداءَ اللهِ في قلوبِهِمُ التي هيَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ تعالىٰ ، وأمرٌ مِنْ أمورِ اللهِ ، وإليهِمُ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ ، وهـٰؤلاءِ همُ الذينَ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فخسرَتْ صفقتُهُمْ ، وقيلَ لمَنْ قصدَ إرشادَهُمْ : ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾

وهـٰذهِ الحالةُ علامتُها اليأسُ والقنوطُ والغرورُ بالأمانيِّ ، وهوَ غايةُ الحمقِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »[1]

وصاحبُ هـٰذهِ الحالةِ إذا وُعِظَ . . قالَ : (أنا مشتاقٌ إلى التوبةِ ، ولـٰكنَّها قدْ تعذَّرَتْ عليَّ ، فلستُ أطمعُ فيها) ، أوْ لمْ يكنْ مشتاقاً إلى التوبةِ ، ولـٰكنْ قالَ : (إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ كريمٌ ، فلا حاجةَ بهِ إلىٰ توبتي) .

وهـٰذا المسكينُ قدْ صار عقلُهُ رقيقاً لشهوتِهِ ، فلا يستعملُ عقلَهُ إلا في استنباطِ دقائقِ الحيلِ التي بها يتوصَّلُ إلىٰ قضاءِ شهوتِهِ ، فقدْ صارَ عقلُهُ في يدِ شهواتِهِ كمسلمٍ أسيرٍ في أيدي الكفارِ ، فهُمْ يَستَسْخِرُونَهُ في رعايةِ الخنازيرِ ، وحفظِ الخمورِ وحملِها ، ومحلُّهُ عندَ اللهِ تعالىٰ محلُّ مَنْ يقهرُ مسلماً ويسلمُهُ إلى الكفارِ ويجعلُهُ أسيراً عندَهُمْ ؛ لأنَّ تفاحشَ جنايتِهِ سببُهُ أنَّهُ سخَّرَ ما كانَ حقُّهُ ألا يستسخرَهُ[2] وسلَّطَ ما حقُّهُ أنْ يُتسلَّطَ عليهِ ، وإنَّما استحقَّ المسلمُ أنْ يكونَ متسلِّطاً لما فيهِ مِنْ معرفةِ اللهِ وباعثِ الدينِ ، وإنَّما استحقَّ الكافرُ أن يكونَ متسلَّطاً عليهِ لما فيهِ مِنَ الجهلِ بالدينِ وباعثِ الشياطينِ ، وحقُّ المسلمِ علىٰ نفسِهِ أوجبُ مِنْ حقِّ غيرِهِ عليهِ ، فمهما سخَّرَ المعنى الشريفَ الذي هوَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وفيهما : « العاجز » بدل « الأحمق » ، وورد لفظ (الأحمق) عند ابن سلَّام في « غريب الحديث » (١٣٤/٣) ، دان نفسه : جعلها منقادة مطيعة لربِّها تعالىٰ ، وتمنَّىٰ على الله : فهو مع تقصيره في طاعة الله واتباع الشهوات . . لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنىٰ على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار . انظر « الإتحاف » (٤٤/٧) .

(٢) في النسخ : (أن يستسخر) بدل (ألا يستسخره) والمثبت من نسخة الحافظ الزبيدي .

مِنْ حزبِ اللهِ وجندِ الملائكةِ للمعنى الخسيسِ الذي هوَ مِنْ حزبِ الشياطينِ المبعدينَ عنِ اللهِ تعالىٰ . . كانَ كمَنْ أرقَّ مسلماً لكافرٍ ، بلْ هوَ كمَنْ قصدَ الملكَ المنعِمَ عليهِ فأخذَ أعزَّ أولادِهِ وسلَّمَهُ إلىٰ أبغضِ أعدائِهِ .

فانظرْ كيفَ يكونُ كفرانُهُ لنعمتِهِ ، واستيجابُهُ لنقمتِهِ ؛ لأنَّ الهوىٰ أبغضُ إلٰهٍ عُبِدَ في الأرضِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، والعقلَ أعزُّ موجودٍ خُلِقَ علىٰ وجهِ الأرضِ .

❁ ❁ ❁

الحالةُ الثالثةُ : **أنْ تكونَ الحربُ سِجالاً بينَ الجندينِ ، فتارةً لهُ اليدُ عليها ، وتارةً لها عليهِ** :

وهٰذا مِنَ المجاهدينَ يُعدُّ مثلُهُ لا مِنَ الظافرينَ ، وأهلُ هٰذهِ الحالةِ همُ الذينَ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، عسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهِمْ .

هٰذا باعتبارِ القوَّةِ والضعفِ .

ويتطرَّقُ إليهِ أيضاً ثلاثةُ أحوالٍ **باعتبارِ عددِ ما يُصبرُ عنهُ** ؛ فإنَّهُ إمَّا أنْ يغلبَ جميعَ الشهواتِ ، أوْ لا يغلبَ شيئاً منها ، أوْ يغلبَ بعضَها دونَ بعضٍ ، وتنزيلُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ علىٰ مَنْ عجزَ عنْ بعضِ الشهواتِ دونَ بعضٍ أولىٰ ، والتاركونَ للمجاهدةِ معَ الشهواتِ مطلقاً يُشبَّهونَ بالأنعامِ ، بلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً ؛ إذِ البهيمةُ لمْ تُخلقْ لها المعرفةُ والقدرةُ التي بها تجاهدُ مقتضى الشهواتِ ، وهٰذا قدْ خُلِقَ ذٰلكَ لهُ ولٰكنْ عطَّلَهُ ، فهوَ الناقصُ حقّاً ، المدبرُ يقيناً ، ولذٰلكَ قيلَ (1) : [من الوافر]

وَلَـمْ أَرَ فِـي عُـيُـوبِ الـنَّـاسِ عَـيْـبـاً ... كَـنَـقْـصِ الْـقَـادِرِيـنَ عَـلَـى الـتَّـمَـامِ

❁ ❁ ❁

وينقسمُ الصبرُ أيضاً **باعتبارِ اليسرِ والعسرِ** إلىٰ ما يشقُّ على النفسِ فلا يمكنُ الدوامُ عليهِ إلا بجهدٍ جهيدٍ وتعبٍ شديدٍ ، ويُسمَّىٰ ذٰلك تصبُّراً ، وإلىٰ ما يكونُ مِنْ غيرِ شدَّةِ تعبٍ ، بلْ يحصلُ بأدنىٰ تحاملٍ على النفسِ ، ويُخصُّ ذٰلكَ باسمِ الصبرِ ، وإذا دامَ التقوىٰ وقويَ التصديقُ بما في العاقبةِ مِنَ الحسنىٰ . . تيسَّرَ الصبرُ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

ومثالُ هٰذهِ القسمةِ قدرةُ المصارعِ علىٰ غيرِهِ ؛ فإنَّ الرجلَ القويَّ يقدرُ علىٰ أنْ يصرعَ الضعيفَ بأدنىٰ حملةٍ وأيسرِ قوَّةٍ ، بحيثُ لا يلقاهُ في مصارعتِهِ إعياءٌ ولا لغوبٌ ، ولا تضطربُ فيهِ نفسُهُ ولا ينبهرُ ، ولا يقوىٰ علىٰ أنْ يصرعَ الشديدَ إلا بتعبٍ ومزيدِ جهدٍ وعرقِ جبينٍ ، فهٰكذا تكونُ المصارعةُ بين باعثِ الدينِ وباعثِ الهوىٰ ، فإنَّه على التحقيقِ صراعٌ بينَ جنودِ الملائكةِ وجنودِ الشياطينِ ، ومهما أذعنَتِ الشهواتُ وانقمعَتْ ، وتسلَّطَ باعثُ الدينِ واستولىٰ ، وتيسَّرَ الصبرُ بطولِ المواظبةِ . . أورثَ ذٰلكَ مقامَ الرضا كما سيأتي في كتابِ الرضا ، فالرضا أعلىٰ مِنَ الصبرِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعبدِ اللهَ على الرضا ، فإنْ لمْ تستطعْ . . ففي الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ » (2)

وقالَ بعضُ العارفينَ : (أهلُ الصبرِ علىٰ ثلاثِ مقاماتٍ ؛ أَوَّلُها : تركُ الشكوىٰ ، وهٰذهِ درجةُ التائبينَ ، والثانيةُ :

---

(1) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٤/١٤٥) .

(2) رواه الضياء في « المختارة » (١٤) ، وأحمد في « المسند » (١/٣٠٧) .

الرضا بالمقدورِ ، وهٰذهِ درجةُ الزاهدينَ ، والثالثةُ : المحبةُ لما يصنعُ بهِ مولاهُ ، وهٰذهِ درجةُ **الصدِّيقينَ**)[1] .

وسنبيّنُ في كتابِ المحبّةِ أنَّ مقامَ المحبّةِ أعلىٰ مِنْ مقامِ الرضا ؛ كما أنَّ مقامَ الرضا أعلىٰ مِنْ مقامِ الصبرِ ، وكأنَّ هٰذا الانقسامَ يجري في صبرٍ خاصٍّ ، وهوَ الصبرُ على المصائبِ والبلايا .

واعلمْ : أنَّ الصبرَ أيضاً ينقسمُ **باعتبارِ حكمِهِ** إلىٰ فرضٍ ، ونفلٍ ، ومكروهٍ ، ومحرَّمٍ .

فالصبرُ عنِ المحظوراتِ فرضٌ ، وعلى المكارهِ نفلٌ ، والصبرُ على الأذى المحظورِ محظورٌ ؛ كمَنْ تُقطعُ يدُهُ أوْ يدُ ولدِهِ وهوَ يصبرُ عليهِ ساكتاً ، وكمَنْ يُقصدُ حريمُهُ بشهوةٍ محظورةٍ فتهيجُ غيرتُهُ ، فيصبرُ عنْ إظهارِ الغيرةِ ، ويسكتُ علىٰ ما يجري علىٰ أهلِهِ ، فهٰذا الصبرُ محرَّمٌ ، والصبرُ المكروهُ هوَ الصبرُ علىٰ أذىً ينالُهُ بجهةٍ مكروهةٍ في الشرعِ .

فليكنِ الشرعُ محكَّ الصبرِ ، فكونُ الصبرِ نصفَ الإيمانِ لا ينبغي أنْ يُخيَّلَ إليكَ أنَّ جميعَهُ محمودٌ ، بلِ المرادُ بهِ أنواعٌ مِنَ الصبرِ مخصوصةٌ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/١٩٩) .

بيان مظانّ الحاجة إلى الصّبر وأنّ العبد لا يستغني عنه في حالٍ من الأحوال

اعلمْ : أنَّ جميعَ ما يلقى العبدُ في هٰذهِ الحياةِ لا يخلو مِنْ نوعينِ :

أحدُهُما : هوَ الذي يوافقُ هواهُ .

والآخرُ : هو الذي لا يوافقُهُ بلْ يكرهُهُ .

وهوَ محتاجٌ إلى الصبرِ في كلِّ واحدٍ منهُما ، وهوَ في جميعِ الأحوالِ لا يخلو عنْ أحدِ هٰذينِ النوعينِ أوْ عنْ كليهِما ، فهو إذاً لا يستغني قطُّ عنِ الصبرِ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الأوَّلُ : ما يوافقُ الهوىٰ :

وهوَ الصحةُ ، والسلامةُ ، والمالُ ، والجاهُ ، وكثرةُ العشيرةِ ، واتساعُ الأسبابِ ، وكثرةُ الأتباعِ والأنصارِ ، وجميعُ ملاذِّ الدنيا ، وما أحوجَ العبدَ إلى الصبرِ علىٰ هٰذهِ الأمورِ ؛ فإنَّهُ إنْ لمْ يضبطْ نفسَهُ عنِ الاسترسالِ والركونِ إليها ، والانهماكِ في ملاذِّها المباحةِ منها . . أخرجَهُ ذٰلكَ إلى البطرِ والطغيانِ ، فإنَّ الإنسانَ ليطغىٰ أنْ رآهُ استغنىٰ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ العارفينَ : (البلاءُ يصبرُ عليهِ المؤمنُ ، والعوافي لا يصبرُ عليها إلا صدِّيقٌ)[1]

وقالَ سهلٌ : (الصبرُ على العافيةِ أشدُّ مِنَ الصبرِ على البلاءِ)[2]

ولمَّا فُتحَتْ أبوابُ الدنيا على الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ . . قالوا : (ابتلينا بفتنةِ الضرَّاءِ فصبرنا ، وابتلينا بفتنةِ السرَّاءِ فلمْ نصبرْ)[3]

ولذٰلكَ حذَّرَ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ مِنْ فتنةِ المالِ والزوجِ والولدِ فقالَ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ محزنةٌ »[4]

ولمَّا نظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى ابنِهِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ يتعثَّرُ في قميصِهِ . . نزلَ عنِ المنبرِ واحتضنَهُ ثمَّ قالَ : « صدقَ اللهُ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، إنِّي لمَّا رأيتُ ابني يتعثَّرُ . . لمْ أملكْ نفسي أنْ أخذتُهُ »[5] .

ففي ذٰلكَ عبرةٌ لأولي الأبصارِ .

فالرجلُ كلُّ الرجلِ مَنْ يصبرُ على العافيةِ ، ومعنى الصبرِ عليها : ألا يركنَ إليها ، ويعلمَ أنَّ كلَّ ذٰلكَ مستودعٌ عندَهُ ،

---

(١) قوت القلوب (١٩٧/١) ، والسياق عنده .

(٢) قوت القلوب (١٩٧/١) .

(٣) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢١٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٤) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٠٣٢) .

(٥) رواه أبو داوود (١١٠٩) ، والترمذي (٣٧٧٤) ، والنسائي (١٠٨/٣) ، وابن ماجه (٣٦٠٠) ، وقالوا : (الحسن والحسين) رضي الله عنهما .

وعسىٰ أنْ يُسترجعَ على القرْبِ ، وألا يرسلَ نفسَهُ في الفرحِ بها ، ولا ينهمكَ في التنعُّمِ واللذَّةِ واللهوِ واللعبِ ، وأنْ يرعىٰ حقوقَ اللهِ في مالِهِ بالإنفاقِ ، وفي بدنِهِ ببذلِ المعونةِ للخلقِ ، وفي لسانِهِ ببذلِ الصدقِ ، وكذٰلكَ في سائرِ ما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ ، وهٰذا الصبرُ متصلٌ بالشكرِ ، فلا يتمُّ إلا بالقيامِ بحقِّ الشكرِ كما سيأتي .

وإنَّما كانَ الصبرُ على السرَّاءِ أشدَّ لأنَّهُ مقرونٌ بالقدرةِ ، ومِنَ العصمةِ ألا تقدرَ ، والصبرُ على الحجامةِ والفصْدِ إذا تولَّاهُ غيرُكَ أيسرُ مِنَ الصبرِ علىٰ فصدِكَ نفسَكَ وحجامتِكَ نفسَكَ ، والجائعُ عندَ غيبةِ الطعامِ أقدرُ على الصبرِ منهُ إذا حضرَتْهُ الأطعمةُ الطيبةُ اللذيذةُ وقدرَ عليها ، فلهٰذا عظمَتْ فتنةُ السرَّاءِ .

❀ ❀ ❀

النوعُ الثاني : ما لا يوافقُ الهوىٰ والطبعَ :

وذٰلكَ لا يخلو : إمَّا أنْ يرتبطَ باختيارِ العبدِ ؛ كالطاعاتِ والمعاصي ، أوْ لا يرتبطَ باختيارِهِ ؛ كالمصائبِ والنوائبِ ، أوْ لا يرتبطَ أوَّلُهُ باختيارِهِ ولٰكنْ لهُ اختيارٌ في إزالتِهِ ؛ كالتشفِّي مِنَ المؤذي بالانتقامِ منهُ ، فهيَ ثلاثةُ أقسامٍ .

❀ ❀ ❀

القسمُ الأوَّلُ : ما يرتبطُ باختيارِهِ :

وهوَ سائرُ أفعالِهِ التي تُوصفُ بكونِها طاعةً أوْ معصيةً ، وهما ضربانِ :

الضربُ الأوَّلُ : الطاعةُ : والعبدُ يحتاجُ إلى الصبرِ عليها ، فالصبرُ على الطاعةِ شديدٌ ؛ لأنَّ النفسَ بطبعِها تنفرُ عنِ العبوديةِ ، وتشتهي الربوبيةَ ، ولذٰلكَ قالَ بعضُ العارفينَ : ما مِنْ نفسٍ إلا وهيَ مضمرةٌ ما أظهرَهُ فرعونُ مِنْ قولِهِ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، ولٰكنْ فرعونُ وجدَ لَهُ مجالاً وقبولاً فأظهرَهُ ؛ إذِ استخفَّ قومَهُ فأطاعوهُ ، وما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ يدَّعي ذٰلكَ معَ عبدِهِ وخادمِهِ وأتباعِهِ وكلِّ مَنْ هوَ تحتَ قهرِهِ وطاعتِهِ وإنْ كانَ ممتنعاً مِنْ إظهارِهِ ، فإنَّ امتعاضَهُ وغيظَهُ عندَ تقصيرِهِمْ في خدمتِهِ واستبعادَهُ ذٰلكَ ليسَ يصدرُ إلا عنْ إضمارِ الكبرِ ومنازعةِ الربوبيةِ في رداءِ الكبرياءِ .

فإذاً ؛ العبوديةُ شاقَّةٌ على النفسِ مطلقاً ، ثمَّ مِنَ العباداتِ ما يُكرهُ بسببِ الكسلِ كالصلاةِ ، ومنها ما يُكرهُ بسببِ البخلِ كالزكاةِ ، ومنها ما يُكرهُ بسببِهِما جميعاً كالحجِّ والجهادِ ، فالصبرُ على الطاعةِ صبرٌ على الشدائدِ ، ويحتاجُ المطيعُ إلى الصبرِ علىٰ طاعتِهِ في ثلاثِ أحوالٍ :

ـ **الحالةُ الأولىٰ : قبلَ الطاعةِ** : وذٰلكَ في تصحيحِ النيَّةِ ، والإخلاصِ ، والصبرِ عنْ شوائبِ الرياءِ ودواعي الآفاتِ ، وعقدِ العزمِ على الإخلاصِ والوفاءِ ، وذٰلكَ مِنَ الصبرِ الشديدِ عندَ مَنْ يعرفُ حقيقةَ النيَّةِ والإخلاصِ وآفاتِ الرياءِ ومكايدِ النفسِ ، وقدْ نبَّهَ عليهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوىٰ »[1] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

ولهٰذا المعنىٰ قدَّمَ اللهُ تعالى الصبرَ على العملِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ .

ـ **الحالةُ الثانيةُ : حالةُ العملِ** : كي لا يغفُلَ عنِ اللهِ تعالىٰ في أثناءِ عملِهِ ، ولا يتكاسلَ عنْ تحقيقِ آدابِهِ وسننِهِ ، ويدومَ علىٰ شرطِ الأدبِ إلىٰ آخرِ العملِ ، فيلازمُ الصبرَ عنْ دواعي الفتورِ إلى الفراغِ ، وهٰذا أيضاً مِنْ

---

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

شدائدِ الصبرِ ، ولعلَّهُ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۞ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أيْ : صبروا إلىٰ تمامِ العملِ .

ـ **الحالةُ الثالثةُ : بعدَ الفراغِ مِنَ العملِ : إذْ يحتاجُ إلى الصبرِ** عنْ إفشائِهِ والتظاهرِ بهِ للسمعةِ والرياءِ ، والصبرِ عنِ النظرِ إليهِ بعينِ العجْبِ ، وعنْ كلِّ ما يبطلُ عملَهُ ويحبطُ أثرَهُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ ، وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ ، فمَنْ لمْ يصبرْ بعدَ الصدقةِ عنِ المنِّ والأذىٰ . . فقدْ أبطلَ عملَهُ .

والطاعاتُ تنقسمُ إلىٰ فرضٍ ونفلٍ ، وهوَ محتاجٌ إلى الصبرِ عليهِما جميعاً ، وقدْ جمعَهما اللهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ، فالعدْلُ هوَ الفرضُ ، والإحسانُ هوَ النفلُ ، وإيتاءُ ذي القربىٰ هوَ المروءةُ وصلةُ الرحمِ ، وكلُّ ذٰلكَ يحتاجُ إلىٰ صبرٍ .

الضربُ الثاني : المعاصي : فما أحوجَ العبدَ إلى الصبرِ عنها !! وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ أنواعَ المعاصي في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المهاجرُ مَنْ هجرَ السوءَ ، والمجاهدُ مَنْ جاهدَ هواهُ »[1]

والمعاصي مقتضىٰ باعثِ الهوىٰ ، وأشدُّ أنواعِ الصبرِ عنِ المعاصي الصبرُ عنِ المعاصي التي صارَتْ مألوفةً بالعادةِ ، فإنَّ العادةَ طبيعةٌ خامسةٌ ، فإذا انضافَتِ العادةُ إلى الشهوةِ . . تظاهرَ جندانِ مِنْ جنودِ الشيطانِ علىٰ جندِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يقوىٰ باعثُ الدينِ علىٰ قمعِهِما .

ثمَّ إنْ كانَ ذٰلكَ الفعلُ ممَّا يتيسَّرُ فعلُهُ . . كانَ الصبرُ عنهُ أثقلَ على النفسِ ؛ كالصبرِ عنْ معاصي اللسانِ ؛ مِنَ الغيبةِ ، والكذبِ ، والمراءِ ، والثناءِ على النفسِ تعريضاً وتصريحاً ، وأنواعِ المزحِ المؤذي للقلوبِ ، وضروبِ الكلماتِ التي يُقصدُ بها الإزراءُ والاستحقارُ ، وذكرِ الموتىٰ والقدحِ فيهِم وفي علومِهِمْ وسيرِهِمْ ومناصبِهِمْ ، فإنَّ ذٰلكَ في ظاهرِهِ غيبةٌ ، وفي باطنِهِ ثناءٌ على النفسِ ، فللنفسِ فيهِ شهوتانِ : إحداهُما : نفيُ الغيرِ ، والأخرىٰ : إثباتُ نفسِهِ ، وبهِما تتمُّ لهُ الربوبيةُ التي في طبعِهِ ، وهيَ ضدُّ ما أُمرَ بهِ مِنَ العبوديةِ ، ولاجتماعِ الشهوتينِ وتيسُّرِ تحريكِ اللسانِ ، ومصيرِ ذٰلكَ معتاداً في المحاوراتِ . . يعسرُ الصبرُ عنها ، وهيَ أكبرُ الموبقاتِ ، حتَّىٰ بطلَ استنكارُها واستقباحُها مِنَ القلوبِ ؛ لكثرةِ تكررِها ، وعمومِ الأنسِ بها ، فترى الإنسانَ يلبسُ حريراً مثلاً فيُستبعدُ ذٰلكَ منهُ غايةَ الاستبعادِ ، ويطلقُ لسانَهُ طولَ النهارِ في أعراضِ الناسِ ولا يُستنكرُ ذٰلكَ معَ ما وردَ في الخبرِ مِنْ أنَّ الغيبةَ أشدُّ مِنَ الزنا[2] ، ومَنْ لمْ يملكْ لسانَهُ في المحاوراتِ ، ولمْ يقدرْ على الصبرِ علىٰ ذٰلكَ . . فيجبُ عليهِ العزلةُ والانفرادُ ، فلا ينجيهِ غيرُهُ ، فالصبرُ على الانفرادِ أهونُ مِنَ الصبرِ على السكوتِ معَ المخالطةِ

وتختلفُ شدَّةُ الصبرِ في آحادِ المعاصي باختلافِ داعيةِ تلكَ المعصيةِ في قوَّتِها وضعفِها ، وأيسرُ مِنْ حركةِ اللسانِ حركةُ الخواطرِ باختلاجِ الوساوسِ ، فلا جرمَ يبقىٰ حديثُ النفسِ في العزلةِ ، ولا يمكنُ الصبرُ عنهُ أصلاً ، إلا بأنْ يغلبَ على القلبِ همٌّ آخرُ في الدينِ يستغرقُهُ ؛ كمَنْ أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ ، وإلا . . فإنْ لمْ يستعملِ الفكرَ في شيءٍ معيَّنٍ . . لمْ يُتصوَّرْ فتورُ الوسواسِ عنهُ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه بنحوه الحاكم في « المستدرك » (١١/١) ضمن خطبة له صلى الله عليه وسلم من حديث فضالة رضي الله عنه ، ولفظه : « والمجاهد من جاهد نفسه ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٤) .

القسمُ الثاني : ما لا يرتبطُ هجومُهُ باختيارِهِ ولهُ اختيارٌ في دفعِهِ :

كما لوْ أُوذيَ بفعلٍ أوْ قولٍ ، أوْ جُنِيَ عليهِ في نفسِهِ أوْ مالِهِ ، فالصبرُ علىٰ ذٰلكَ بتركِ المكافأةِ تارةً يكونُ واجباً ، وتارةً يكونُ فضيلةً .

قالَ بعضُ الصحابةِ : (ما كنَّا نعدُّ إيمانَ الرجلِ إيماناً إذا لمْ يصبرْ على الأذىٰ)[1] .

وقدْ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ في قولِهِ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وقسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّةً مالاً ، فقالَ بعضُ الأعرابِ مِنَ المسلمينَ : هٰذهِ قسمةٌ ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ ، فأُخبرَ بذٰلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فاحمرَّتْ وجنتاهُ ثمَّ قالَ : « رحمَ اللهُ أخي موسىٰ ، لقدْ أُوذيَ بأكثرَ مِنْ هٰذا فصبرَ »[2] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أيْ : تصبروا عنِ المكافأةِ ، ولذٰلكَ مدحَ اللهُ تعالى العافينَ عنْ حقوقِهِمْ في القصاصِ وغيرِهِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلْ مَنْ قطعَكَ ، وأعطِ مَنْ حرمَكَ ، واعفُ عمَّنْ ظلمَكَ »[3]

ورأيتُ في الإنجيلِ : قالَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ : لقدْ قيلَ لكُمْ مِنْ قبلُ[4] : إنَّ السنَّ بالسنِّ والأنفَ بالأنفِ ، وأنا أقولُ لكُمْ : لا تقاوموا الشرَّ بالشرِّ ، بلْ مَنْ ضربَ خدَّكَ الأيمنَ . . فحوِّلْ إليهِ الخدَّ الأيسرَ ، ومَنْ أخذَ رداءَكَ . . فأعطِهِ إزارَكَ ، ومَنْ سخَّرَكَ لتسيرَ معهُ ميلاً . . فسِرْ معَهُ ميلينِ .

وكلُّ ذٰلكَ أمرٌ بالصبرِ على الأذىٰ ، فالصبرُ علىٰ أذى الناسِ مِنْ أعلىٰ مراتبِ الصبرِ ؛ لأنَّهُ يتعاونُ فيهِ باعثُ الدينِ وباعثُ الشهوةِ والغضبِ جميعاً .

❀ ❀ ❀

القسمُ الثالثُ : ما لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ أوَّلُهُ وآخرُهُ :

كالمصائبِ ؛ مثلُ موتِ الأعزَّةِ ، وهلاكِ الأموالِ ، وزوالِ الصحَّةِ بالمرضِ ، وعمى العينِ ، وفسادِ الأعضاءِ ، وبالجملةِ سائرُ أنواعِ البلاءِ ، فالصبرُ علىٰ ذٰلكَ مِنْ أعلىٰ مقاماتِ الصبرِ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (الصبرُ في القرآنِ علىٰ

---

(١) هو في « القوت » (١٩٥/١) بلفظ : (وقال بعض العلماء : ما كنا نعد إيمان من لم يؤذ فيحتمل الأذىٰ ويصبر عليه إيماناً) .

(٢) رواه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٥٨/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٢٣) .

(٤) أي : في التوراة ، وذٰلك مصداق قول الحق جل وعلا : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾

ثلاثةِ أوجهٍ : صبرٌ علىٰ أداءِ فرائضِ اللهِ تعالىٰ ، فلهُ ثلاثُ مئةِ درجةٍ ، وصبرٌ عنْ محارمِ اللهِ تعالىٰ ، فلهُ ستُّ مئةِ درجةٍ ، وصبرٌ على المصيبةِ عندَ الصدمةِ الأولىٰ ، فلهُ تسعُ مئةِ درجةٍ)[١]

وإنَّما فُضِّلَتْ هـٰذهِ الرتبةُ معَ أنَّها مِنَ الفضائلِ علىٰ ما قبلَها وهيَ مِنَ الفرائضِ . . لأنَّ كلَّ مؤمنٍ يقدرُ على الصبرِ عنِ المحارمِ ، فأمَّا الصبرُ علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ . . فلا يقدرُ عليهِ إلا الأنبياءُ ؛ لأنَّهُ بضاعةُ الصدِّيقينَ ، فإنَّ ذٰلكَ شديدٌ على النفسِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسألُكَ مِنَ اليقينِ ما تهوِّنُ بهِ عليَّ مصائبَ الدنيا »[٢] ، فهـٰذا صبرٌ مستندُهُ حسنُ اليقينِ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (واللهِ ؛ ما نصبرُ علىٰ ما نحبُّ ، فكيفَ نصبرُ علىٰ ما نكرَهُ ؟!)[٣]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذا وجَّهتُ إلىٰ عبدٍ مِنْ عبيدي مصيبةً في بدنِهِ أوْ مالِهِ أوْ ولدِهِ ثمَّ استقبلَ ذٰلكَ بصبرٍ جميلٍ . . استحييتُ منهُ يومَ القيامةِ أنْ أنصبَ لهُ ميزاناً أوْ أنشرَ لهُ ديواناً »[٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انتظارُ الفرجِ بالصبرِ عبادةٌ »[٥]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ مؤمنٍ أُصيبَ بمصيبةٍ فقالَ كما أمرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ أْجُرْني في مصيبتي وأعقبْني خيراً منها . . إلا فعلَ اللهُ ذٰلكَ بهِ »[٦]

وقالَ أنسٌ : حدَّثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : « يا جبريلُ ؛ ما جزاءُ مَنْ سلبتُ كريمتيهِ ؟ قالَ : سبحانَكَ لا علمَ لنا إلا ما علمتَنا ، قالَ تعالىٰ : جزاؤُهُ الخلودُ في داري ، والنظرُ إلىٰ وجهي »[٧]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذا ابتليتُ عبدي ببلاءٍ فصبرَ ولمْ يشكُني إلىٰ عوَّادِهِ . . أبدلتُهُ لحماً خيراً مِنْ لحمِهِ ، ودماً خيراً مِنْ دمِهِ ، فإنْ أبرأتُهُ . . أبرأتُهُ ولا ذنبَ لهُ ، وإنْ توفَّيتُهُ . . فإلىٰ رحمتي »[٨]

وقالَ داوودُ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ ما جزاءُ الحزينِ الذي يصبرُ على المصائبِ ابتغاءَ مرضاتِكَ ؟ قالَ : جزاؤُهُ أنْ ألبسَهُ لباسَ الإيمانِ فلا أنزعَهُ عنهُ أبداً[٩]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمة اللهِ عليه في خطبتِهِ : (ما أنعمَ اللهُ علىٰ عبدٍ نعمةً فانتزعَها منهُ وعوَّضَهُ منها الصبرَ إلا كانَ ما عوَّضَهُ منها أفضلَ ممَّا انتزعَ منهُ) ، وقرأَ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[١٠]

---

(١) كذا في « القوت » (١٩٨/١) ، وروى الديلمي نحوه مرفوعاً في « مسند الفردوس » (٣٨٤٦) من حديث علي رضي الله عنه .
(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠١٦١) ، والحاكم في « المستدرك » (١٥٢٨/) .
(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٢٥) .
(٤) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٢٢) ، وابن عدي في « الكامل » (١٥٠/٧) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٦٢) .
(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٥٣١) .
(٦) رواه مسلم (٩١٨) .
(٧) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٨٥٠) ، وعند البخاري (٥٦٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر . . عوضته منهما الجنة » .
(٨) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣٤٨/١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٧٥/٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٩٤٠/٢) عن عطاء بن يسار مرسلاً .
(٩) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٧/٤) .
(١٠) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٩٨/٥) .

وسُئِلَ الفضيلُ عنِ الصبرِ فقالَ : هوَ الرضا بقضاءِ اللهِ ، قيلَ : وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : الراضي لا يتمنَّىٰ فوقَ منزلتِهِ[1] .

وقيلَ : حُبسَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ في المارستانِ ، فدخلَ عليهِ جماعةٌ فقالَ : مَنْ أنتُمْ ؟ قالوا : أحباؤُكَ جاؤُوكَ زائرينَ ، فأخذَ يرميهِمْ بالحجارةِ ، فأخذوا يهربونَ منهُ ، فقالَ : لوْ كنتُمْ أحبَّائي . . لصبرتُمْ علىٰ بلائي[2] .

وكانَ بعضُ العارفينَ في جيبِهِ رقعةٌ يخرجُها كلَّ ساعةٍ ويطالعُها ، وكانَ فيها : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[3] .

ويُقالُ : إنَّ امرأةَ فتحٍ الموصليِّ عثرَتْ ، فانقطعَ ظفرُها ، فضحكَتْ ، فقيلَ لها : أما تجدينَ الوجعَ ؟ فقالَتْ : إنَّ لذةَ ثوابِهِ أزالَتْ عنْ قلبي مرارةَ وجعِهِ[4] .

وقالَ داوودُ لسليمانَ عليهما السلامُ : (يُستدلُّ علىٰ تقوى المؤمنِ بثلاثٍ : حسنُ التوكلِ فيما لمْ ينلْ ، وحسنُ الرضا فيما قدْ نالَ ، وحسنُ الصبرِ فيما قدْ فاتَ)[5] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ إجلالِ اللهِ ومعرفةِ حقِّهِ ألا تشكوَ وجعَكَ ولا تذكرَ مصيبتَكَ »[6] .

ويُروىٰ عنْ بعضِ الصالحينَ أنَّهُ خرجَ يوماً وفي كمِّهِ صرَّةٌ ، فافتقدَها ، فإذا هيَ قدْ أُخذَتْ مِنْ كمِّهِ ، فقالَ : باركَ اللهُ لهُ فيها ، لعلَّهُ أحوجُ إليها منِّي .

ورُوِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : مررتُ علىٰ سالمٍ مولىٰ أبي حذيفةَ في القتلىٰ ـ وذٰلكَ باليمامةِ في ردَّةِ بني حنيفةَ ـ وبهِ رمقٌ ، فقلتُ لهُ : أسقيكَ ماءً ؟ فقالَ : جُرَّني قليلاً إلى العدوِّ واجعلِ الماءَ في الترسِ فإنِّي صائمٌ ، فإنْ عشتُ إلى الليلِ . . شربتُهُ .

فهٰكذا كانَ صبرُ سالكي طريقِ الآخرةِ علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فبماذا تُنالُ درجةُ الصبرِ في المصائبِ وليسَ الأمرُ إلى اختيارِهِ ، فهوَ مضطرٌّ شاءَ أمْ أبىٰ ، فإنْ كانَ المرادُ بهِ ألا تكونَ في نفسِهِ كراهيةٌ للمصيبةِ . . فذٰلكَ غيرُ داخلٍ في الاختيارِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ إنَّما يخرجُ عنْ مقامِ الصابرينَ بالجزعِ ، وشقِّ الجيوبِ ، وضربِ الخدودِ ، والمبالغةِ في الشكوىٰ ، وإظهارِ الكآبةِ ، وتغييرِ العادةِ في الملبسِ والمفرشِ والمطعمِ ، وهٰذهِ الأمورُ داخلةٌ تحتَ اختيارِهِ ، فينبغي أنْ يجتنبَ جميعَها ، ويظهرَ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، ويبقىٰ مستمراً علىٰ عادتِهِ ، ويعتقدَ أنَّ ذٰلكَ كانَ وديعةً فاستُرجعَتْ ؛ كما رُوِيَ عنِ الرُّميصاءِ أمِّ سُليمٍ رحمها اللهُ أنَّها قالَتْ : تُوفِّيَ ابنٌ لي وزوجي أبو طلحةَ غائبٌ ، فقمتُ فسجَّيتُهُ في ناحيةِ البيتِ ، فقدمَ

---

(١) روى ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (١٦) عن الفضيل يقول : (الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٨) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٨) ولفظه : وقال بعضهم : كنت بمكة ، فرأيت فقيراً طاف بالبيت ، وأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها ومرَّ ، فلما كان بالغد . . فعل مثل ذٰلك ، فترقبته أياماً وهو يفعل مثل ذٰلك ، فيوماً من الأيام طاف ونظر في الرقعة ، وتباعد قليلاً وسقط ميتاً ، فأخرجت الرقعة من جيبه ، فإذا فيها : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥١٩) .

(٥) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٦٦) .

(٦) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » [٢٢٣] من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال : من الصبر ألا تحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك) . « إتحاف » (٩/ ٢٩) ، وقول سفيان رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٩) أيضاً .

أبو طلحةَ ، فقمتُ فهيَّأتُ لهُ إفطارَهُ ، فجعلَ يأكلُ ، وقالَ : كيفَ الصبيُّ ؟ فقلتُ : بأحسنِ حالٍ بحمدِ اللهِ ومنِّهِ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنْ منذُ اشتكىٰ بأسكنَ منهُ الليلةَ ، ثمَّ تصنَّعتُ لهُ أحسنَ ما كنتُ أتصنَّعُ قبلَ ذٰلكَ ، حتَّىٰ أصابَ منِّي حاجتَهُ ، ثمَّ قلتُ : ألا تعجبُ مِنْ جيرانِنا ؟ قالَ : وما لهُمْ ؟ قلتُ : أُعيروا عاريةً ، فلمَّا طُلبَتْ منهُمْ واسترُجِعتْ . . جزعوا ، فقالَ : بئسَ ما صنعوا ، فقلتُ : هـٰذا ابنُكَ كانَ عاريةً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّ اللهَ قدْ قبضَهُ إليهِ ، فحمدَ اللهَ واسترجعَ ، ثمَّ غدا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرَهُ ، فقالَ : « اللهمَّ ؛ باركْ لهُمْ في ليلتِهِمْ » ، قالَ الراوي[1] : فلقدْ رأيتُ لهُمْ بعدَ ذٰلكَ في المسجدِ سبعةً ، كلُّهُمْ قدْ قرؤوا القرآنَ[2]

ورَوىٰ جابرٌ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « رأيتُني دخلتُ الجنَّةَ ؛ فإذا أنا بالرُّميصاءِ امرأةِ أبي طلحةَ »[3]

وقدْ قيلَ : (الصبرُ الجميلُ هوَ ألا يُعرفَ مَنْ صاحبُ المصيبةِ إذْ يشبهُ غيرَهُ)[4]

ولا يخرجُهُ عنْ حدِّ الصابرينَ توجُّعُ القلبِ ، ولا فيضانُ العينِ بالدمعِ ؛ إذْ يكونُ منْ جميعِ الحاضرينَ لأجلِ الموتِ سواءً ، ولأنَّ البكاءَ توجُّعُ القلبِ على الميتِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مقتضى البشريَّةِ ، ولا يفارقُ الإنسانَ إلى الموتِ ، ولذٰلكَ لمَّا ماتَ إبراهيمُ ولدُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فاضَتْ عيناهُ ، فقيلَ لهُ : أما نهيتَنا عنْ هـٰذا ؟ فقالَ : « إنَّ هـٰذهِ رحمةٌ ، وإنَّما يرحمُ اللهُ مِنْ عبادِهِ الرحماءَ »[5]

بلْ ذٰلكَ أيضاً لا يخرجُ عنْ مقامِ الرضا ، فالمقدمُ على الفصدِ والحجامةِ راضٍ بهِ وهوَ متألِّمٌ بسببِهِ لا محالةَ ، وقدْ تفيضُ عينُهُ إذا عظمَ ألمُهُ ، وسيأتي ذٰلكَ في كتابِ الرضا إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

وكتبَ ابنُ أبي نَجيحٍ يُعزِّي بعضَ الخلفاءِ فكتبَ : (إنَّ أحقَّ مَنْ عرفَ حقَّ اللهِ تعالىٰ فيما أُخِذَ منهُ مَنْ عظَّمَ حقَّ اللهِ تعالىٰ عندَهُ فيما أبقاهُ لهُ ، واعلمْ أنَّ الماضيَ قبلَكَ هوَ الباقي لكَ ، والباقيَ بعدكَ هوَ المأجورُ فيكَ ، واعلمْ أنَّ أجرَ الصابرينَ فيما يُصابونَ بهِ أعظمُ مِنَ النعمةِ عليهِمْ فيما يُعافَونَ فيهِ)[6]

فإذاً ؛ مهما دفعَ الكراهةَ بالتفكُّرِ في نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالثوابِ . . نالَ درجةَ الصابرينَ .

نعمْ ؛ مِنْ كمالِ الصبرِ كتمانُ المرضِ والفقرِ وسائرِ المصائبِ ، وقدْ قيلَ : (مِنْ كنوزِ البرِّ كتمانُ المصائبِ والأوجاعِ والصدقةِ)[7]

فقدْ ظهرَ لكَ بهـٰذهِ التقسيماتِ أنَّ وجوبَ الصبرِ عامٌّ في جميعِ الأحوالِ والأفعالِ ، فإنَّ الذي كُفِيَ الشهواتِ كلَّها واعتزلَ وحدَهُ . . فلا يستغني عنِ الصبرِ على العزلةِ والانفرادِ ظاهراً ، وعنِ الصبرِ عنْ وساوسِ الشيطانِ باطناً ، فإنَّ اختلاجَ الخواطرِ لا يسكنُ ، وأكثرُ جولانِ الخاطرِ إنَّما يكونُ في فائتٍ لا تداركَ لهُ ، أوْ في مستقبلٍ لا بدَّ وأنْ يحصلَ

---

(١) وهو عَباية بن رفاعة

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢٨/٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٩/٢) ، وأصله عند البخاري (٥٤٧٠) ، ومسلم (٢١٤٤) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٧٩) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٨) بنحوه .

(٥) رواه البخاري (١٣٠٣) ، ومسلم (٢٣١٥) بنحوه ، ووقع هـٰذا القول عندما رفع إليه عليه الصلاة والسلام ابن لابنة له كما هو عند البخاري (١٣٨٤) ، ومسلم (٩٢٣) .

(٦) قوت القلوب (١٩٥/١) .

(٧) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٩٧/٨) مرفوعاً .

منهُ ما هوَ مقدَّرٌ ، فهوَ كيفَما كانَ تضييعُ زمانٍ ، وآلةُ العبدِ قلبُهُ وبضاعتُهُ عمرُهُ ، فإذا غفلَ القلبُ في نَفَسٍ واحدٍ عنْ ذكرٍ يستفيدُ بهِ أنساً باللهِ تعالىٰ ، أوْ عنْ فكرٍ يستفيدُ بهِ معرفةً باللهِ تعالىٰ ليستفيدَ بالمعرفةِ محبةَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مغبونٌ ، هـٰذا إنْ كانَ فكرُهُ ووسواسُهُ في المباحاتِ مقصوراً عليهِ ، ولا يكونُ كذٰلكَ غالباً ، بلْ يتفكَّرُ في وجوهِ الحيلِ لقضاءِ الشهواتِ ؛ إذْ لا يزالُ ينازعُ كلَّ مَنْ تحرَّكَ علىٰ خلافِ غرضِهِ في جميعِ عمرِهِ ، أوْ مَنْ يتوهَّمُ بهِ أنَّهُ ينازعُهُ ويخالفُ أمرَهُ أوْ غرضَهُ بظهورِ أمارةٍ لهُ منهُ ، بلْ يقدِّرُ المخالفةَ مِنْ أخلصِ الناسِ في حبّهِ ، حتَّىٰ في أهلِهِ وولدِهِ ، ويتوهَّمُ مخالفتَهُمْ لهُ ، ثمَّ يتفكَّرُ في كيفيةِ زجرِهِمْ وكيفيةِ قهرِهِمْ وجوابِهِمْ عمَّا يتعلَّلونَ بهِ في مخالفتِهِ ، ولا يزالُ في شغلٍ دائمٍ .

فللشيطانِ جندانِ ؛ جندٌ يطيرُ ، وجندٌ يسيرُ ، والوسواسُ عبارةٌ عنْ حركةِ جندِهِ الطيَّارِ ، والشهوةُ عبارةٌ عنْ حركةِ جندِهِ السيَّارِ ، وهـٰذا لأنَّ الشيطانَ خُلِقَ مِنَ النارِ ، وخُلِقَ الإنسانُ مِنْ صلصالٍ كالفخارِ ، والفخارُ قدِ اجتمعَ فيهِ معَ النارِ الطينُ ، والطينُ طبعُهُ السكونُ ، والنارُ طبعُها الحركةُ ، فلا يُتصوَّرُ نارٌ مشتعلةٌ لا تتحرَّكُ ، بلْ لا تزالُ تتحرَّكُ بطبعِها ، وقدْ كُلِّفَ الملعونُ المخلوقُ مِنَ النارِ أنْ يطمئنَّ عنْ حركتِهِ ساجداً لما خُلِقَ مِنَ الطينِ ، فأبىٰ واستكبرَ واستعصىٰ ، وعبَّرَ عنْ سببِ استعصائِهِ بأنْ قالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ .

فإذاً ؛ حيثُ لمْ يسجدِ الملعونُ لأبينا آدمَ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ . . فلا ينبغي أنْ يُطمعَ في سجودِهِ لأولادِهِ ، ومهما كفَّ عنِ القلبِ وسواسَهُ وعدوانَهُ ، وطيرانَهُ وجولانَهُ . . فقدْ أظهرَ انقيادَهُ وإذعانَهُ ، وانقيادُهُ بالإذعانِ سجودٌ منهُ ، فهوَ روحُ السجودِ ، وإنَّما وضْعُ الجبهةِ على الأرضِ قالبُهُ وعلامتُهُ الدالَّةُ بالاصطلاحِ عليهِ ، ولوْ جُعلَ وضعُ الجبهةِ على الأرضِ علامةَ استخفافٍ بالاصطلاحِ . . لتُصوِّرَ ذٰلكَ ، كما أنَّ الانبطاحَ بينَ يدي المعظَّمِ المحترمِ يُرى استخفافاً بالعادةِ .

فلا ينبغي أنْ يدهشَكَ صدفُ الجوهرِ عنِ الجوهرِ ، وقالبُ الروحِ عنِ الروحِ ، وقشرُ اللبِّ عنِ اللبِّ ، فتكونَ ممَّنْ قيَّدَهُ عالمُ الشهادةِ بالكليَّةِ عنْ عالمِ الغيبِ ، وتحقَّقْ أنَّ الشيطانَ مِنَ المنظرينَ ، فلا يتواضعُ لكَ بالكفِّ عنِ الوسواسِ إلىٰ يومِ الدينِ ، إلا أنْ تصبحَ وهمومُكَ همٌّ واحدٌ ، فتشغلَ قلبَكَ باللهِ وحدَهُ ، فلا يجدُ الملعونُ مجالاً فيكَ ، فعندَ ذٰلكَ تكونُ مِنْ عبادِ اللهِ المخلصينَ ، الداخلينَ في الاستثناءِ عنْ سلطنةِ هـٰذا اللعينِ .

ولا تظنَّنَّ أنَّهُ يخلو عنهُ قلبٌ فارغٌ ، بلْ هوَ سيَّالٌ يجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدمِ ، وسيلانُهُ مثلُ الهواءِ في القدحِ ، فإنَّكَ إنْ أردتَ أنْ يخلوَ القدحُ عنِ الهواءِ مِنْ غيرِ أنْ تشغلَهُ بالماءِ أوْ بغيرِهِ . . فقدْ طمعتَ في غيرِ مطمعٍ ، بلْ بقدْرِ ما يخلو مِنَ الماءِ يدخلُ فيهِ الهواءُ لا محالةَ ، فكذٰلكَ القلبُ المشغولُ بفكرٍ مهمٍّ في الدينِ يخلو عنْ جولانِ الشياطينِ ، وإلا . . فمَنْ غفلَ عنِ اللهِ تعالىٰ ولوْ في لحظةٍ فليسَ لهُ في تلكَ اللحظةِ قرينٌ إلا الشيطانُ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يبغضُ الشابَّ الفارغَ »[1] ، وهـٰذا لأنَّ الشابَّ إذا تعطَّلَ عنْ عملٍ يشغلُ باطنَهُ بمباحٍ يستعينُ بهِ علىٰ دينِهِ . . كانَ ظاهرُهُ فارغاً ، ولمْ يبقَ قلبُهُ فارغاً ، بلْ يعشِشُ فيهِ الشيطانُ ويبيضُ ويفرِّخُ ، ثمَّ تزدوجُ أفراخُهُ أيضاً وتبيضُ مرَّةً أخرىٰ وتفرِّخُ ، وهـٰكذا يتوالدُ نسلُ الشيطانِ توالداً أسرعَ مِنْ توالدِ سائرِ الحيواناتِ ؛ لأنَّ طبعَهُ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده) . « إتحاف » (٣٣/٩) ، وروى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٠/١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس في أمر دنيا ولا آخرة) .

مِنَ النارِ ، وإذا وجدَ الحَلْفاءَ اليابسةَ . . كثرَ توالدُهُ ، فلا يزالُ تتوالدُ النارُ مِنَ النارِ ، ولا تنقطعُ ألبتةَ ، بلْ تسري شيئاً فشيئاً على الاتصالِ ، فالشهوةُ في نفسِ الشابِّ للشيطانِ كالحلفاءِ اليابسةِ للنارِ ، وكما لا تبقى النارُ إذا لمْ يبقَ لها قوتٌ وهوَ الحطبُ . . فلا يبقىٰ للشيطانِ مجالٌ إذا لمْ تكنْ شهوةٌ .

فإذاً ؛ إذا تأمّلتَ . . علمتَ أنَّ أعدىٰ عدوِّكَ شهوتُكَ ، وهيَ صفةُ نفسِكَ ، ولذٰلكَ قالَ الحسينُ بنُ منصورٍ الحلَّاجُ حينَ كانَ يُصلبُ وقدْ سُئِلَ عنِ التصوُّفِ ما هوَ ؟ فقالَ : (هيَ نفسُكَ ، إنْ لمْ تشغلْها . . شغلَتْكَ)[1]

فإذاً ؛ حقيقةُ الصبرِ وكمالُهُ الصبرُ عنْ كلِّ حركةٍ مذمومةٍ ، وحركةُ الباطنِ أولىٰ بالصبرِ عنْ ذٰلكَ ، وهٰذا صبرٌ دائمٌ لا يقطعُهُ إلا الموتُ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢٨/٨) .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلمْ : أنَّ الذي أنزلَ الداءَ أنزلَ الدواءَ ووعدَ الشفاءَ ، فالصبرُ وإنْ كانَ شاقّاً أوْ ممتنعاً فتحصيلُهُ يمكنُ بمعجونِ العلمِ والعملِ ، فالعلمُ والعملُ هما الأخلاطُ التي منها تُركبُ الأدويةُ لأمراضِ القلوبِ كلِّها ، ولٰكنْ يحتاجُ كلُّ مرضٍ إلىٰ علمٍ آخرَ وعملٍ آخرَ .

وكما أنَّ أقسامَ الصبرِ مختلفةٌ فأقسامُ العللِ المانعةِ منهُ مختلفةٌ ، وإذا اختلفَتِ العللُ . . اختلفَ العلاجُ ؛ إذْ معنى العلاجِ مضادَّةُ العلَّةِ وقمعُها ، واستيفاءُ ذٰلكَ ممَّا يطولُ ، ولٰكنَّا نعرِّفُ الطريقَ في بعضِ الأمثلةِ فنقولُ :

إذا افتقرَ إلى الصبرِ عنْ شهوةِ الوقاعِ مثلاً وقدْ غلبَتْ عليهِ الشهوةُ بحيثُ ليسَ يملكُ معَها فرجَهُ ، أوْ يملكُ فرجَهُ ولٰكنْ ليسَ يملكُ عينَهُ ، أوْ يملكُ عينَهُ ولٰكنْ ليسَ يملكُ قلبَهُ ونفسَهُ ؛ إذْ لا تزالُ تحدِّثُهُ بمقتضياتِ الشهوةِ ، ويصرفُهُ ذٰلكَ عنِ المواظبةِ على الذكرِ والفكرِ والأعمالِ الصالحةِ . . فنقولُ :

قدْ قدَّمنا أنَّ الصبرَ عبارةٌ عنْ مصارعةِ باعثِ الدينِ معَ باعثِ الهوىٰ ، وكلُّ متصارعينِ أردنا أنْ يغلبَ أحدُهُما الآخرَ فلا طريقَ لنا فيهِ إلا بتقويةِ مَنْ أردنا أنْ تكونَ لهُ اليدُ العليا وتضعيفِ الآخرِ ، فلزمَنا ها هنا تقويةُ باعثِ الدينِ وتضعيفُ باعثِ الشهوةِ .

❀ ❀ ❀

فأمّا باعثُ الشهوةِ . . فسبيلُ تضعيفِهِ ثلاثةُ أمورٍ :

أحدُها : أنْ ننظرَ إلىٰ مادةِ قوتِهِ ، وهيَ الأغذيةُ الطيّبةُ المحرّكةُ للشهوةِ مِنْ حيثُ نوعُها ومِنْ حيثُ كثرتُها ، فلا بدَّ مِنْ قطعِها بالصومِ الدائمِ معَ الاقتصارِ عندَ الإفطارِ علىٰ طعامٍ قليلٍ في نفسِهِ ، ضعيفٍ في جنسِهِ ، فيحترزُ منَ اللحمِ والأطعمةِ المهيِّجةِ للشهوةِ .

والثاني : قطعُ أسبابِهِ المهيّجةِ لهُ في الحالِ ، فإنَّهُ إنَّما يهيجُ بالنظرِ إلىٰ مظانِّ الشهوةِ ؛ إذِ النظرُ يحرِّكُ القلبَ ، والقلبُ يحرِّكُ الشهوةَ ، وهٰذا يحصلُ بالعزلةِ ، والاحترازِ عنْ مظانِّ وقوعِ البصرِ على الصورِ المشتهاةِ ، والفرارِ منها بالكليَّةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ »[1] ، وهٰذا سهمٌ يسدِّدُهُ الملعونُ ولا ترسَ يمنعُ منهُ إلا تغميضُ الأجفانِ ، أوِ الهربُ مِنْ صوبِ رميِهِ ، فإنَّهُ إنَّما يرمي هٰذا السهمَ عنْ قوسِ الصورِ ، فإذا انفتلتَ عنْ صوْبِ الصورِ . . لمْ يصبْكَ سهمُهُ .

والثالثُ : تسليةُ النفسِ بالمباحِ مِنَ الجنسِ الذي تشتهيهِ ، وذٰلكَ بالنكاحِ ، فإنَّ كلَّ ما يشتهيهِ الطبعُ ففي المباحاتِ مِنْ جنسِهِ ما يغني عنِ المحظوراتِ منهُ ، وهٰذا هوَ العلاجُ الأنفعُ في حقِّ الأكثرِ ، فإنَّ قطعَ الغذاءِ يضعفُ عنْ سائرِ الأعمالِ ، ثمَّ قدْ لا يقمعُ الشهوةَ في حقِّ أكثرِ الرجالِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالباءةِ ، فمَنْ لمْ يستطعْ . . فعليهِ بالصومِ ؛ فإنَّ الصومَ لهُ وجاءٌ »[2]

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١٤/٤) .

(٢) رواه الضياء في « المختارة » (١٨٥٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٨١٩٩) .

فهٰذهِ ثلاثةُ أسبابٍ ، فالعلاجُ الأوَّلُ ـ وهوَ قطعُ الطعامِ ـ يضاهي قطعَ العلفِ عنِ البهيمةِ الجموحِ وعنِ الكلبِ الضاري ليضعفَ فتسقطَ قوَّتُهُ ، والثاني يضاهي تغييبَ اللحمِ عنِ الكلبِ وتغييبَ الشعيرِ عنِ البهيمةِ حتَّىٰ لا تتحرَّكَ بواطنُها بسببِ مشاهدتِها ، والثالثُ يضاهي تسليتَها بشيءٍ قليلٍ ممَّا يميلُ إليهِ طبعُها حتَّىٰ يبقىٰ معَها مِنَ القوَّةِ ما تصبرُ بهِ على التأديبِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا تقويةُ باعثِ الدينِ . . فإنَّما تكونُ بطريقينِ :

أحدُهُما : إطماعُهُ في فوائدِ المجاهدةِ وثمراتِها في الدينِ والدنيا ، وذٰلكَ بأنْ يكثرَ فكرُهُ في الأخبارِ التي أوردناها في فضلِ الصبرِ ، وفي حسنِ عواقبِهِ في الدنيا والآخرةِ ، وفي الأثرِ أنَّ ثوابَ الصبرِ على المصيبةِ أكثرُ ممَّا فاتَ(١) ، وأنَّهُ بسببِ ذٰلكَ مغبوطٌ بالمصيبةِ ؛ إذْ فاتَهُ ما لا يبقىٰ معَهُ إلا مدَّةَ الحياةِ ، وحصلَ لهُ ما يبقىٰ بعدَ موتِهِ أبدَ الآبادِ ، ومَنْ أسلمَ خسيساً في نفيسٍ . . فلا ينبغي أنْ يحزنَ لفواتِ الخسيسِ في الحالِ .

وهٰذا مِنْ بابِ المعارفِ ، وهوَ مِنَ الإيمانِ ، فتارةً يضعفُ وتارةً يقوىٰ ، فإنْ قويَ . . قويَ باعثُ الدينِ ، وهيَّجَهُ تهييجاً شديداً ، وإنْ ضعفَ . . ضعَّفَهُ ، وإنَّما قوَّةُ الإيمانِ يُعبَّرُ عنها باليقينِ ، وهوَ المحرِّكُ لعزيمةِ الصبرِ ، وأقلُّ ما أُوتيَ الناسُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ(٢)

والثاني : أنْ يعوِّدَ هٰذا الباعثَ مصارعةَ باعثِ الهوىٰ تدريجاً ، قليلاً قليلاً ، حتَّىٰ يدركَ لذَّةَ الظفرِ بها ، فيستجرئَ عليها ، وتقوىٰ مُنَّتُهُ في مصارعتِها ؛ فإنَّ الاعتيادَ والممارسةَ للأعمالِ الشاقَّةِ تؤكِّدُ القوى التي تصدرُ منها تلكَ الأعمالُ ، ولذٰلكَ تزيدُ قوَّةُ الحمَّالينَ والفلَّاحينَ والمقاتلينَ وبالجملةِ : فقوةُ الممارسينَ للأعمالِ الشاقَّةِ تزيدُ علىٰ قوَّةِ الخيَّاطينَ والعطَّارينَ والفقهاءِ والصالحينَ ، وذٰلكَ لأنَّ قواهُمْ لمْ تتأكَّدْ بالممارسةِ .

فالعلاجُ الأوَّلُ يضاهي إطماعَ المصارعِ في الخلعةِ عندَ الغلبةِ ، ووعدَهُ بأنواعِ الكرامةِ ؛ كما وعدَ فرعونُ سحرتَهُ عندَ إغرائِهِ إيَّاهُمْ بموسىٰ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

والثاني يضاهي تعويدَ الصبيِّ الذي يُرادُ منهُ المصارعةُ والمقاتلةُ بمباشرةِ أسبابِ ذٰلكَ منذُ الصبا حتَّىٰ يأنسَ بهِ ، ويستجرئَ عليهِ ، وتقوىٰ فيهِ مُنَّتُهُ ، فمَنْ تركَ بالكليَّةِ المجاهدةَ بالصبرِ . . ضعفَ فيهِ باعثُ الدينِ ، ولا يقوىٰ على الشهوةِ وإنْ ضعفَتْ ، ومَنْ عوَّدَ نفسَهُ مخالفةَ الهوىٰ . . غلبَها مهما أرادَ .

فهٰذا منهاجُ العلاجِ في جميعِ أنواعِ الصبرِ ، ولا يمكنُ استيفاؤُهُ ، وإنَّما أشدُّها كفُّ الباطنِ عنْ حديثِ النفسِ ، وإنَّما يشتدُّ ذٰلكَ علىٰ مَنْ تفرَّغَ لهُ ؛ بأنْ قمعَ الشهواتِ الظاهرةَ والباطنةَ كلَّها ، وآثرَ العزلةَ ، وجلسَ للمراقبةِ والذكرِ والفكرِ ، فإنَّ الوسواسَ لا يزالُ يجاذبُهُ مِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ ، وهٰذا لا علاجَ لهُ ألبتةَ إلا قطعُ العلائقِ كلِّها ظاهراً وباطناً ؛ بالفرارِ عنِ الأهلِ والولدِ ، والمالِ والجاهِ ، والرفقاءِ والأصدقاءِ ، والاعتزالِ إلىٰ زاويةٍ بعدَ إحرازِ قدْرٍ يسيرٍ مِنَ القوتِ ، وبعدَ القناعةِ بهِ .

---

(١) لعله يشير إلىٰ قول ابن عباس رضي الله عنهما : (. . . وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولىٰ ، فله تسع مئة درجة) ، وهو مروي في « القوت » (١/١٩٨) .

(٢) قوت القلوب (١/٩٤) .

ثُمَّ كلُّ ذٰلكَ لا يكفي ما لمْ تصرِ الهمومُ همّاً واحداً ، وهوَ اللهُ تعالىٰ ، ثُمَّ إذا غلبَ ذٰلكَ على القلبِ . . فلا يكفي ذٰلكَ ما لمْ يكنْ لهُ مجالٌ في الفكرِ ، وسيرٌ بالباطنِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وعجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وسائرِ أبوابِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ إذا استولىٰ ذٰلكَ علىٰ قلبِهِ . . دفعَ اشتغالُهُ بذٰلكَ محادثةَ[1] الشيطانِ ووسواسَهُ .

وإنْ لمْ يكنْ لهُ سيرٌ بالباطنِ . . فلا ينجيهِ إلا الأورادُ المتواصلةُ المترتبةُ في كلِّ لحظةٍ ؛ مِنَ القراءةِ ، والأذكارِ ، والصلواتِ ، ويحتاجُ معَ ذٰلكَ إلىٰ تكليفِ القلبِ الحضورَ ، فإنَّ الفكرَ بالباطنِ هوَ الذي يستغرقُ القلبَ دونَ الأورادِ الظاهرةِ .

ثُمَّ إذا فعلَ كلَّ ذٰلكَ . . لمْ يسلمْ لهُ مِنَ الأوقاتِ إلا بعضُها ؛ إذْ لا يخلو في جميعِ أوقاتِهِ عنْ حوادثَ تتجدَّدُ فتشغلُهُ عنِ الفكرِ والذكرِ ؛ مِنْ مرضٍ ، وخوفٍ ، وإيذاءٍ مِنْ إنسانٍ ، وطغيانٍ مِنْ مخالطٍ ؛ إذْ لا يستغني عنْ مخالطةِ مَنْ يعينُهُ في بعضِ أسبابِ المعيشةِ .

فهٰذا أحدُ الأنواعِ الشاغلةِ .

وأمَّا النوعُ الثاني : فهوَ ضروريٌّ أشدُّ ضرورةً مِنَ الأولِ ، وهوَ اشتغالُهُ بالمطعمِ والملبسِ وأسبابِ المعاشِ ، فإنَّ تهيئةَ ذٰلكَ أيضاً تحوجُ إلىٰ شغلٍ إنْ تولَّاهُ بنفسِهِ ، وإنْ تولَّاهُ غيرُهُ . . فلا يخلو عنْ شغلِ قلبٍ بمَنْ يتولاهُ ، ولٰكنْ بعدَ قطعِ العلائقِ كلِّها تسلمُ لهُ أكثرُ الأوقاتِ إنْ لمْ تهجمْ عليهِ ملمَّةٌ أوْ واقعةٌ ، وفي تلكَ الأوقاتِ يصفو القلبُ ، ويتيسَّرُ لهُ الفكرُ ، وينكشفُ فيهِ مِنْ أسرارِ اللهِ تعالىٰ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ما لا يقدرُ علىٰ عُشْرِ عَشِيرِهِ في زمانٍ طويلٍ لوْ كانَ مشغولَ القلبِ بالعلائقِ ، والانتهاءُ إلىٰ هٰذا هوَ أقصى المقاماتِ التي يمكنُ أنْ تُنالَ بالاكتسابِ والجهدِ .

فأمَّا مقاديرُ ما ينكشفُ ، ومبالغُ ما يردُ مِنْ لطفِ اللهِ تعالىٰ في الأحوالِ والأعمالِ . . فذٰلكَ يجري مَجرى الصيدِ ، وهوَ بحسبِ الرزقِ ، فقدْ يقلُّ الجهدُ ويجلُّ الصيدُ ، وقدْ يطولُ الجهدُ ويقلُّ الحظُّ ، والمعوَّلُ وراءَ هٰذا الاجتهادِ علىٰ جذبةٍ مِنْ جذباتِ الرحمٰنِ ، فإنَّها توازي أعمالَ الثقلينِ ، وليسَ ذٰلكَ باختيارِ العبدِ .

نعم ؛ اختيارُ العبدِ في أنْ يتعرَّضَ لتلكَ الجذبةِ ؛ بأنْ يقطعَ عنْ قلبِهِ جواذبَ الدنيا ، فإنَّ المجذوبَ إلىٰ أسفلِ سافلينَ لا ينجذبُ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، وكلُّ منهومٍ بالدنيا فهوَ منجذبٌ إليها ، فقطعُ العلائقِ الجاذبةِ هوَ المرادُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ لربِّكُمْ في أيامِ دهرِكُمْ نفحاتٍ ، ألا فتعرَّضوا لها »[2] ، وذٰلكَ لأنَّ تلكَ النفحاتِ والجذباتِ لها أسبابٌ سماويَّةٌ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وهٰذا مِنْ أعلىٰ أنواعِ الرزقِ ، والأمورُ السماويَّةُ غائبةٌ عنَّا ، فلا ندري متىٰ ييسِّرُ اللهُ أسبابَ الرزقِ ، فما علينا إلا تفريغُ المحلِّ والانتظارُ لنزولِ الرحمةِ وبلوغِ الكتابِ أجلَهُ ؛ كالذي يصلحُ الأرضَ وينقِّيها مِنَ الحشيشِ ، ويبثُّ البذرَ فيها ، وكلُّ ذٰلكَ لا ينفعُهُ إلا بمطرٍ ، ولا يدري متىٰ يقدِّرُ اللهُ أسبابَ المطرِ ، إلا أنَّهُ يثقُ بفضلِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِهِ أنَّهُ لا يخلي سنةً عنْ مطرٍ ، فكذٰلكَ قلَّما تخلو سنةٌ وشهرٌ ويومٌ عنْ جذبةٍ مِنَ الجذباتِ ونفحةٍ مِنَ النفحاتِ .

فينبغي أنْ يكونَ العبدُ قدْ طهَّرَ القلبَ مِنْ حشيشِ الشهواتِ ، وبذرَ فيهِ بذرَ الإرادةِ والإخلاصِ ، وعرضَهُ لمهابِّ رياحِ

---

(١) في (ن) : (بذٰلك مجاذبة) بدل (بذٰلك محادثة) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٣٣/١٩) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٣٣٩/٥) بنحوه .

الرحمةِ ، وكما يقوى انتظارُ الأمطارِ في أوقاتِ الربيعِ وعندَ ظهورِ الغيمِ . . فيقوى انتظارُ تلكَ النفحاتِ في الأوقاتِ الشريفةِ وعند اجتماعِ الهممِ وتساعدِ القلوبِ ؛ كما في يومِ عرفةَ ، ويومِ الجمعةِ ، وأيامِ رمضانَ ؛ فإنَّ الهممَ والأنفاسَ أسبابٌ بحكْمِ تقديرِ اللهِ تعالىٰ لاستدرارِ رحمتِهِ ، حتَّىٰ تستدرُّ بها الأمطارُ في أوقاتِ الاستسقاءِ ، وهي لاستدرارِ أمطارِ المكاشفاتِ ولطائفِ المعارفِ مِنْ خزائنِ الملكوتِ أشدُّ مناسبةً منها لاستدرارِ قطراتِ الماءِ واستجرارِ الغيومِ مِنْ أقطارِ الجبالِ والبحارِ .

بلِ الأحوالُ والمكاشفاتُ حاضرةٌ معَكَ في قلبِكَ ، وإنَّما أنتَ مشغولٌ عنها بعلائقِكَ وشهواتِكَ ، فصارَ ذٰلكَ حجاباً بينَكَ وبينَها ، فلا تحتاجُ إلا إلىٰ أنْ تكسرَ البثقَ [1] ، ويُرفعَ الحجابُ ، فتُشرقُ أنوارُ المعارفِ مِنْ باطنِ القلبِ ، وإظهارُ ماءِ الأرضِ بحفْرِ القُنىٰ أسهلُ وأقربُ مِن استنزالِ الماءِ إليها مِنْ مكانٍ بعيدٍ منخفضٍ عنها ، ولكونِهِ حاضراً في القلبِ ومنسيّاً بالشغلِ عنهُ سمَّى اللهُ تعالىٰ جميعَ معارفِ الإيمانِ تذكُّراً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

فهٰذا هوَ علاجُ الصبرِ عنِ الوساوسِ والشواغلِ ، وهوَ آخرُ درجاتِ الصبرِ .

وإنَّما الصبرُ عنِ العلائقِ كلِّها مقدَّمٌ على الصبرِ عنِ الخواطرِ ، قالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (المسيرُ مِنَ الدنيا إلى الآخرةِ سهلٌ على المؤمنِ ، وهجرانُ الخلقِ في جنبِ الحقِّ شديدٌ ، والمسيرُ مِنَ النفسِ إلى اللهِ تعالىٰ صعبٌ شديدٌ ، والصبرُ معَ اللهِ أشدُّ) [2]

فذكرَ شدةَ الصبرِ عنْ شواغلِ القلبِ ، ثمَّ شدةَ هجرانِ الخلقِ ، وأشدُّ العلائقِ على النفسِ علاقةُ الخلقِ وحبُّ الجاهِ ؛ فإنَّ لذةَ الرئاسةِ والغلبةِ والاستعلاءِ والاستتباعِ أغلبُ اللذاتِ في الدنيا علىٰ نفوسِ العقلاءِ ، وكيفَ لا تكونُ أغلبَ اللذاتِ ومطلوبُها صفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ وهيَ الربوبيةُ ؟! والربوبيةُ محبوبةٌ ومطلوبةٌ بالطبعِ للقلبِ ؛ لما فيهِ مِنَ المناسبةِ للأمورِ الربوبيةِ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

وليسَ القلبُ مذموماً علىٰ حبِّهِ ذٰلكَ ، وإنَّما هوَ مذمومٌ علىٰ غلطٍ وقعَ لهُ بسببِ تغريرِ الشيطانِ اللعينِ المبعدِ عنْ عالمِ الأمرِ ، إذْ حسدَهُ علىٰ كونِهِ مِنْ عالمِ الأمرِ ، فأضلَّهُ وأغواهُ ، وكيفَ يكونُ مذموماً عليهِ وهوَ يطلبُ سعادةَ الآخرةِ ؟! ليسَ يطلبُ إلا بقاءً لا فناءَ فيهِ ، وعزّاً لا ذلَّ فيهِ ، وأمناً لا خوفَ فيهِ ، وغنىً لا فقرَ فيهِ ، وكمالاً لا نقصانَ فيهِ ، وهٰذهِ كلُّها مِنْ أوصافِ الربوبيَّةِ ، وليسَ مذموماً علىٰ طلبِ ذٰلكَ ، بلْ حقُّ كلِّ عبدٍ أنْ يطلبَ ملكاً عظيماً لا آخرَ لهُ ، وطالبُ الملكِ طالبٌ للعلوِّ والعزِّ والكمالِ لا محالةَ ، ولٰكنِ الملكُ ملكانِ :

ملكٌ مشوبٌ بأنواعِ الآلامِ ، وملحوقٌ بسرعةِ الانصرامِ ، ولٰكنَّهُ عاجلٌ ، وهوَ في الدنيا .

وملكٌ مخلَّدٌ دائمٌ لا يشوبُهُ كدرٌ ولا ألمٌ ، ولا يقطعُهُ قاطعٌ ، ولٰكنَّهُ آجلٌ .

وقدْ خُلقَ الإنسانُ عجولاً راغباً في العاجلةِ ، فجاءَ الشيطانُ وتوسَّلَ إليهِ بواسطةِ العجلةِ التي في طبعِهِ ، فاستغواهُ بالعاجلةِ ، وزيَّنَ لهُ الحاضرةَ ، وتوسَّلَ إليهِ بواسطةِ الحمقِ ، فوعدَهُ بالغرورِ في الآخرةِ ، ومنَّاهُ معَ ملكِ الدنيا ملكَ

---

(١) البثق : اسم الموضع الذي حفره الماء ، واسم للمكان المكسور ، واستعمال هٰذه اللفظة يناسب قوله : (بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك) ، وفي (ب) : (تكسر النفس) .
(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٢٤) .

الآخرةِ ، كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ الأمانيَّ »[١] ، فانخدعَ المخذولُ بغرورِهِ ، واشتغلَ بطلبِ عزِّ الدنيا وملكِها علىٰ قدْرِ إمكانِهِ ، ولمْ يتدلَّ الموفَّقُ بحبلِ غرورِهِ ؛ إذْ علمَ مداخلَ مكْرِهِ ، فأعرضَ عنِ العاجلةِ ، فعُبِّرَ عنِ المخذولينَ وقيلَ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

ولمَّا استطارَ مكرُ الشيطانِ في كافَّةِ الخلقِ . . أرسلَ اللهُ الملائكةَ إلى الرسلِ ، فأوحَوا إليهِمْ ما تمَّ على الخلقِ مِنْ إهلاكِ العدوِّ وإغوائِهِ ، فاشتغلوا بدعوةِ الخلقِ إلى الملْكِ الحقيقيِّ عنِ الملْكِ المجازيِّ الذي لا أصلَ لهُ إنْ سلمَ ، ولا دوامَ لهُ أصلاً ، فنادَوا فيهِمْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

فالتوراةُ والإنجيلُ والزبورُ والفرقانُ وصحفُ موسىٰ وإبراهيمَ وكلُّ كتابٍ منزلٍ . . ما أُنزلَ إلا لدعوةِ الخلقِ إلى الملْكِ الدائمِ المخلَّدِ ، والمرادُ منهُمْ أنْ يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرةِ ، أمَّا ملكُ الدنيا . . فبالزهدِ فيها ، والقناعةِ باليسيرِ منها ، وأمَّا ملكُ الآخرةِ . . فبالقربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بدرْكِ بقاءٍ لا فناءَ فيهِ ، وعزٍّ لا ذلَّ فيهِ ، وقرَّةِ عينٍ أُخفيَتْ في هـٰذا العالمِ لا تعلمُها نفسٌ مِنَ النفوسِ .

والشيطانُ يدعوهُمْ إلىٰ ملكِ الدنيا لعلمِهِ بأنَّ ملكَ الآخرةِ يفوتُ بهِ ؛ إذِ الدنيا والآخرةُ ضرَّتانِ ، ولعلمِهِ بأنَّ الدنيا لا تسلمُ لهُ أيضاً ، ولوْ كانَتْ تسلمُ لهُ . . لكانَ يحسدُهُ أيضاً ، ولـٰكنْ ملكُ الدنيا لا يخلو عنِ المنازعاتِ والمكدِّراتِ وطولِ الهمومِ في التدبيراتِ ، وكذا سائرُ أسبابِ الجاهِ ، ثمَّ كما تسلمُ وتتمُّ الأسبابُ ينقضي العمرُ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ ، فضربَ اللهُ تعالىٰ لها مثلاً فقالَ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ .

والزهدُ في الدنيا لـمَّا أنْ كانَ ملكاً حاضراً . . حسدَهُ الشيطانُ عليهِ ، فصدَّهُ عنهُ ، **ومعنى الزهدِ** : أنْ يملكَ العبدُ شهوتَهُ وغضبَهُ ، فينقادانِ لباعثِ الدينِ وإشارةِ الإيمانِ ، وهـٰذا ملكٌ بالاستحقاقِ ؛ إذْ بهِ يصيرُ صاحبُهُ حرّاً ، وباستيلاءِ الشهوةِ عليهِ يصيرُ عبداً لفرجِهِ وبطنِهِ وسائرِ أغراضِهِ ، فيكونُ مسخَّراً مثلَ البهيمةِ ، مملوكاً يستجرُّهُ زمامُ الشهوةِ آخذاً بمُخَنَّقِهِ إلىٰ حيثُ يريدُ ويهوىٰ .

فما أعظمَ اغترارَ الإنسانِ !! إذْ ظنَّ أنَّهُ ينالُ الملكَ بأنْ يصيرَ مملوكاً ، وينالُ الربوبيَّةَ بأنْ يصيرَ عبداً !! ومثلُ هـٰذا هلْ يكونُ إلا معكوساً في الدنيا ، منكوساً في الآخرةِ ؟!

ولهـٰذا قالَ بعضُ الملوكِ لبعضِ الزهَّادِ : هلْ مِنْ حاجةٍ ؟ فقالَ : كيفَ أطلبُ منكَ حاجةً وملكي أعظمُ مِنْ ملكِكَ ، فقالَ : كيفَ ؟ قالَ : مَنْ أنتَ عبدُهُ فهوَ عبدٌ لي ، فقالَ : كيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : أنتَ عبدُ شهوتِكَ وغضبِكَ وفرجِكَ وبطنِكَ ، وقدْ ملكتُ هـٰؤلاءِ كلَّهُمْ فهُمْ عبيدٌ لي[٢]

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

(٢) وممن حكي عنه هـٰذا بعد عصر المصنف الشيخُ الجليل أبو الغيث بن جميل . انظر « الإرشاد والتطريز » (ص ١٤٢) .

فهٰذا إذاً هوَ الملكُ في الدنيا ، وهوَ الذي يسوقُ إلى الملكِ في الآخرةِ ، فالمنخدعونَ بغرورِ الشيطانِ خسروا الدنيا والآخرةَ جميعاً ، والذين وُفِّقوا للاشتدادِ على الصراطِ المستقيم فازوا بالدنيا والآخرةِ جميعاً .

فإذا عرفتَ الآنَ معنى الملْكِ والربوبيَّةِ ، ومعنى التسخيرِ والعبوديةِ ، ومدخلَ الغلطِ في ذٰلكَ ، وكيفَ تعميةُ الشيطانِ وتلبيسُهُ . . يسهلُ عليكَ النزوعُ عنِ الملكِ والجاهِ والإعراضُ عنهما ، والصبرُ عندَ فواتِهما ؛ إذْ تصيرُ بتركِهما ملكاً في الحالِ ، وترجو بهِ ملْكاً في الآخرةِ .

ومَنْ كُوشفَ بهٰذهِ الأمورِ بعدَ أنْ ألفَ الجاهَ وأنسَ بهِ ورسخَتْ فيهِ بالعادةِ مباشرةُ أسبابِهِ . . فلا يكفيهِ في العلاجِ مجرَّدُ العلمِ والكشفِ ، بلْ لا بدَّ وأنْ يضيفَ إليهِ العملَ ، وعملُهُ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : أنْ يهربَ عنْ موضعِ الجاهِ كي لا يشاهدَ أسبابَهُ ، فيعسرَ عليهِ الصبرُ معَ الأسبابِ ؛ كما يهربُ مَنْ غلبَتْهُ الشهوةُ عنْ مشاهدةِ الصورِ المحرِّكةِ ، ومَنْ لمْ يفعلْ هٰذا . . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ في سعةِ الأرضِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ .

الثاني : أنْ يكلِّفَ نفسَهُ في أعمالِهِ أفعالاً تخالفُ ما اعتادَهُ ، فيبدِّلُ التكلُّفَ بالتبذُّلِ ، وزيَّ الحشمةِ بزيِّ التواضعِ ، وكذٰلكَ كلُّ هيئةٍ وحالٍ وفعلٍ في مسكنٍ وملبسٍ ومطعمٍ وقيامٍ وقعودٍ كانَ يعتادُهُ وفاءً بمقتضىٰ جاهِهِ ، فينبغي أنْ يبدِّلَها بنقائضِها ، حتَّىٰ يرسخَ باعتيادِ ذٰلكَ ضدُّ ما رسخَ فيهِ مِنْ قبلُ باعتيادِ ضدِّهِ ، فلا معنىٰ للمعالجةِ إلا المضادَّةُ .

الثالثُ : أنْ يراعيَ في ذٰلكَ التلطُّفَ والتدريجَ ، فلا ينتقلَ دفعةً واحدةً إلى الطرفِ الأقصىٰ مِنَ التبذُّلِ ، فإنَّ الطبعَ نفورٌ ، ولا يمكنُ نقلُهُ عنْ أخلاقِهِ إلا بالتدريجِ ، فيتركُ البعضَ ويسلِّي نفسَهُ بالبعضِ ، ثمَّ إذا قنعَتْ نفسُهُ بذٰلكَ البعضِ . . ابتدأَ بتركِ البعضِ مِنْ ذٰلكَ البعضِ ، إلىٰ أنْ يقنعَ بالبقيَّةِ ، وهٰكذا يفعلُ شيئاً فشيئاً ، إلىٰ أنْ يقمعَ تلكَ الصفاتِ التي رسخَتْ فيهِ .

وإلىٰ هٰذا التدريجِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ هٰذا الدِّينَ متينٌ ، فأوغلْ فيهِ برفقٍ ، ولا تبغِّضْ إلىٰ نفسِكَ عبادةَ اللهِ ؛ فإنَّ المنبتَّ لا أرضاً قطعَ ولا ظهراً أبقىٰ »[1]

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا تشادُّوا هٰذا الدينَ ؛ فإنَّ مَنْ يشادُّهُ يغلبْهُ »[2]

فإذاً ؛ ما ذكرناهُ في علاجِ الصبرِ عنِ الوسواسِ وعنِ الشهوةِ وعنِ الجاهِ . . أضفْهُ إلىٰ ما ذكرناهُ مِنْ قوانينِ طرقِ المجاهدةِ في كتابِ رياضةِ النفسِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ واتخذْهُ دستورَكَ ؛ لتعرفَ بهِ علاجَ الصبرِ في جميعِ الأقسامِ التي فصلناها مِنْ قبلُ ؛ فإنَّ تفصيلَ الآحادِ يطولُ ، ومَنْ راعى التدريجَ . . ترقَّىٰ بهِ الصبرُ إلىٰ حالةٍ يشقُّ عليهِ الصبرُ دونَهُ كما كانَ يشقُّ عليهِ الصبرُ معَهُ ، فتنعكسُ أمورُهُ ، فيصيرُ ما كانَ محبوباً عندَهُ ممقوتاً ، وما كانَ مكروهاً عندَهُ مشرباً هنيئاً لا يصبرُ عنهُ ، وهٰذا لا يُعرفُ إلا بالتجربةِ والذوقِ ، ولهُ نظيرٌ في العاداتِ ، فإنَّ الصبيَّ يُحملُ على التعلُّمِ في الابتداءِ قهراً ، فيشقُّ عليهِ الصبرُ عنِ اللعبِ والصبرُ معَ العلمِ ، حتَّىٰ إذا انفتحَتْ بصيرتُهُ وأنسَ بالعلمِ . . انقلبَ الأمرُ ، فصارَ يشقُّ عليهِ الصبرُ عنِ العلمِ والصبرُ على اللعبِ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٦٠٢) .

(٢) رواه البخاري (٣٩) بنحوه .

وإلىٰ هـٰذا يشيرُ ما حُكِيَ عنْ بعضِ العارفينَ أنَّهُ سألَ الشبليَّ عنِ الصبرِ : أيُّهُ أشدُّ ؟ فقالَ : الصبرُ في اللهِ تعالىٰ ، فقالَ : لا ، فقالَ : الصبرُ للهِ ، قالَ : لا ، قالَ : الصبرُ معَ اللهِ ، قالَ : لا ، قالَ : فأيش ؟ قالَ : الصبرُ عنِ اللهِ ، فصرخَ الشبليُّ صرخةً كادَتْ روحُهُ تتلفُ[١]

وقدْ قيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ : (اصبروا في اللهِ ، وصابروا باللهِ ، ورابطوا معَ اللهِ)[٢] .

وقيلَ : (الصبرُ للهِ عناءٌ[٣] ، والصبرُ باللهِ بقاءٌ ، والصبرُ معَ اللهِ وفاءٌ ، والصبرُ عنِ اللهِ جفاءٌ)[٤]

وقدْ قيلَ في معناهُ[٥] : [من البسيط]

وَالـصَّـبْـرُ عَـنْـكَ فَـمَـذْمُـومٌ عَـواقِـبُـهُ ... وَالـصَّـبْـرُ فِـي سـائِـرِ الأَشْـيـاءِ مَـحْـمُـودُ

وقيلَ أيضاً[٦] : [من الرجز]

اَلـصَّـبْـرُ يَـجْـمُـلُ فِـي الْـمَـواطِـنِ كُلِّها ... إِلَّا عَـلَـيْـكَ فَـإِنَّـهُ لا يَـجْـمُـلُ

هـٰذا آخرُ ما أردنا شرحَهُ مِنْ علومِ الصبرِ وأسرارِهِ .

* * *

---

(١) الخبر عند الطوسي في « اللمع » (ص ٧٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٢٦) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٧) .

(٣) في غير (ب ، د) : (غنىً) بدل (عناء) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٣٢٧) .

(٥) البيت للحلاج . انظر « ذيل تاريخ بغداد » لابن النجار (١٩/٨٩) .

(٦) البيت للشبلي في « ديوانه » (ص ١١٩) .

الشَّطْرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في الشكر

ولهُ ثلاثةُ أركانٍ :

الركنُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الشكرِ وحقيقتِهِ ، وأقسامِهِ وأحكامِهِ .

الركنُ الثاني : في حقيقةِ النعمةِ ، وأقسامِها الخاصَّةِ والعامَّةِ .

الركنُ الثالثُ : في بيانِ الأفضلِ مِنَ الصبرِ والشكرِ .

الركن الأوّل : في نفس الشّكر

بيان فضيلة الشّكر

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قرنَ الشكرَ بالذكرِ في كتابِهِ معَ أنَّه قالَ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ إخباراً عنْ إبليسَ اللعينِ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، قيلَ : هوَ طريقُ الشكرِ[1]

ولعلوِّ رتبةِ الشكرِ طعنَ اللعينُ في الخلقِ فقالَ : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

وقدْ قطعَ اللهُ تعالىٰ بالمزيدِ معَ الشكرِ ولمْ يستثنِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، واستثنىٰ في خمسةِ أشياءَ ؛ في الإغناءِ ، والإجابةِ ، والرزقِ ، والمغفرةِ ، والتوبةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وهوَ خلقٌ مِنْ أخلاقِ الربوبيَّةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وقدْ جعلَ اللهُ الشكرَ مفتاحَ كلامِ أهلِ الجنةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

❀ ❀ ❀

(١) قوت القلوب (٢٠٣/١) .

وأمَّا الأخبار :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الطاعمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصابرِ »[1]

ورُوِيَ عنْ عطاءٍ أنَّهُ قالَ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فقلتُ : أخبرينا بأعجبِ ما رأيتِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبكَتْ وقالَتْ : وأيُّ شأنِهِ لَمْ يكنْ عجباً ؟! إنَّهُ أتاني ليلةً فدخلَ معي في فراشي ـ أوْ قالَتْ : في لحافي ـ حتَّىٰ مسَّ جلدُهُ جلدِي ، ثمَّ قالَ : « يا بنةَ أبي بكرٍ ؛ ذريني أتعبَّدُ لربِّي ؟ » ، قالَتْ : قلتُ : إنِّي أحبُّ قربَكَ لكنِّي أوثرُ هواكَ ، فأذنتُ لهُ ، فقامَ إلىٰ قربةِ ماءٍ ، فتوضَّأَ فلمْ يكثرْ صبَّ الماءِ ، ثمَّ قامَ يصلِّي ، فبكىٰ حتَّىٰ سالَتْ دموعُهُ علىٰ صدرِهِ ، ثمَّ ركعَ فبكىٰ ، ثمَّ سجدَ فبكىٰ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ فبكىٰ ، فلمْ يزلْ كذٰلكَ حتَّىٰ جاءَ بلالٌ فآذنَهُ بالصلاةِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يبكيكَ وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟ قالَ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ، ولِمَ لا أفعلُ وقدْ أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليَّ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴾ الآياتِ ؟! »[2]

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ البكاءَ ينبغي ألا ينقطعَ أبداً ، وإلىٰ هٰذا السرِّ يشيرُ ما رُوِيَ أنَّهُ مرَّ بعضُ الأنبياءِ بحجرٍ صغيرٍ يخرجُ منهُ ماءٌ كثيرٌ ، فتعجَّبَ منهُ ، فأنطقَهُ اللهُ تعالىٰ فقالَ : منذُ سمعتُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ فأنا أبكي مِنْ خوفِهِ ، فسألَهُ أنْ يجيرَهُ مِنَ النارِ ، فأجارَهُ ، ثمَّ رآهُ بعدَ مدَّةٍ مثلَ ذٰلكَ ، فقالَ : لِمَ تبكي الآنَ ؟ فقالَ : ذٰلكَ بكاءُ الخوفِ ، وهٰذا بكاءُ الشكرِ والسرورِ[3]

وقلبُ العبدِ كالحجارةِ أوْ أشدُّ قسوةً ، ولا تزولُ قسوتُهُ إلا بالبكاءِ في حالِ الخوفِ والشكرِ جميعاً

ورُوِيَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُنادىٰ يومَ القيامةِ : ليقمِ الحمَّادونَ ، فتقومُ زمرةٌ ، فيُنصبُ لهُمْ لواءٌ فيدخلونَ الجنَّةَ » ، قيلَ : ومَنِ الحمَّادونَ ؟ قالَ : « الذينَ يشكرونَ اللهَ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « على السرَّاءِ والضرَّاءِ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحمدُ رداءُ الرحمٰنِ »[5]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ أيوبَ عليهِ السلامُ : (إنِّي رضيتُ بالشكرِ مكافأةً مِنْ أوليائي . . .) في كلامٍ طويلٍ[6]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ أيضاً في صفةِ الصابرينَ : (دارُهُمْ دارُ السلامِ ، إذا دخلوها . . ألهمتُهُمُ الشكرَ وهوَ خيرُ الكلامِ ، وعندَ الشكرِ أستزيدُهُمْ ، وبالنظرِ إليَّ أزيدُهُمْ)[7]

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٧٦٤) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٥٢١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣١٠) ، عن عطاء ومعه عبيد بن عمير رحمهما الله تعالىٰ ، ورواه مختصراً من حديثها رضي الله عنها مسلم (٢٨٢٠) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٣١٤) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٠٦/١) بالروايتين ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٩/١٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٠٢/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦٩/٥) .

(٥) كذا في « القوت » (٢٠٥/١) حيث قال : (وفي الخبر . . .) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢٦/١) عن الضحاك ولم يرفعه ، وتقدم : « الكبرياء رداؤه » .

(٦) قوت القلوب (٢٠٣/١) .

(٧) قوت القلوب (٢٠٤/١) .

ولمَّا نزلَ في الكنوزِ ما نزلَ[1] . قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : فأيَّ المالِ نتخذُ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليتخذْ أحدُكُمْ لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً »[2] ، فأمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ باقتناءِ القلبِ الشاكرِ بدلاً مِنَ المالِ .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الشكرُ نصفُ الإيمانِ)[3]

* * *

(١) وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . « إتحاف » (٤٨/٩) .
(٢) رواه الترمذي (٣٠٩٤) ، وابن ماجه (١٨٥٦) .
(٣) قوت القلوب (٢٠٣/١) .

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلمْ : أنَّ الشكرَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكينَ ، وهوَ أيضاً ينتظمُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، فالعلمُ هوَ الأصلُ ، فيورثُ الحالَ ، والحالُ يورثُ العملَ .

أمَّا العلمُ : فهوَ معرفةُ النعمةِ مِنَ المنعِمِ ، **والحالُ** : هوَ الفرحُ الحاصلُ بإنعامِهِ ، **والعملُ** : هوَ القيامُ بما هوَ مقصودُ المنعِمِ ومحبوبُهُ ، ويتعلَّقُ ذٰلكَ العملُ بالقلبِ وبالجوارحِ وباللسانِ ، ولا بدَّ مِنْ بيانِ جميعِ ذٰلكَ ليحصلَ بمجموعِهِ الإحاطةُ بحقيقةِ الشكرِ ، فإنَّ كلَّ ما قيلَ في حدِّ الشكرِ قاصرٌ عنِ الإحاطةِ بكمالِ معانيهِ .

❀ ❀ ❀

فالأصلُ الأوَّلُ : العلمُ :

وهوَ علمٌ بثلاثةِ أمورٍ : بعينِ النعمةِ ، ووجهِ كونِها نعمةً في حقِّهِ ، وبذاتِ المنعمِ ووجودِ صفاتِهِ التي بها يتمُّ الإنعامُ ويصدرُ الإنعامُ منهُ عليهِ ، فإنَّهُ لا بدَّ مِنْ نعمةٍ ومنعِمٍ ومنعَمٍ عليهِ تصلُ إليهِ النعمةُ مِنَ المنعِمِ بقصدٍ وإرادةٍ ، فهٰذهِ الأمورُ لا بدَّ مِنْ معرفتِها ، هٰذا في حقِّ غيرِ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا في حقِّ اللهِ تعالىٰ . . فلا يتمُّ الإيمانُ إلا بأنْ يعرفَ أنَّ النعمَ كلَّها مِنَ اللهِ ، وأنَّهُ هوَ المنعمُ ، والوسائطَ مسخرونَ مِنْ جهتِهِ ، وهٰذهِ المعرفةُ وراءَ التقديسِ والتوحيدِ ؛ إذْ دخلَ التقديسُ والتوحيدُ فيها ، بلِ الرتبةُ الأولىٰ في معارفِ الإيمانِ التقديسُ ، ثمَّ إذا عرفَ ذاتاً مقدسةً . . فيعرفُ أنَّهُ لا مقدَّسَ إلا واحدٌ ، وما عداهُ غيرُ مقدَّسٍ ، وهوَ التوحيدُ ، ثمَّ يعلمُ أنَّ كلَّ ما في العالمِ فهوَ موجودٌ مِنْ ذٰلكَ الواحدِ فقطْ ، فالكلُّ نعمةٌ منهُ ، فتقعُ هٰذهِ المعرفةُ في الرتبةِ الثالثةِ ؛ إذْ ينطوي فيها معَ التقديسِ والتوحيدِ كمالُ القدرةِ والانفرادُ بالفعلِ ، وعنْ هٰذا عبَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ اللهِ . . فلهُ عشرُ حسناتٍ ، ومَنْ قالَ : لا إلٰهَ إلا اللهُ . . فلهُ عشرونَ حسنةً ، ومَنْ قالَ : الحمدُ للهِ . . فلهُ ثلاثونَ حسنةً »[١]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ الذكرِ لا إلٰه إلا اللهُ ، وأفضلُ الدعاءِ الحمدُ للهِ »[٢]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليسَ شيءٌ مِنَ الأذكارِ يُضاعفُ كما يُضاعفُ الحمدُ للهِ »[٣]

ولا تظنَّنَّ أنَّ هٰذهِ الحسناتِ بإزاءِ تحريكِ اللسانِ بهٰذهِ الكلماتِ مِنْ غيرِ حصولِ معانيها في القلبِ ، فسبحانَ اللهِ كلمةٌ تدلُّ على التقديسِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ كلمةٌ تدلُّ على التوحيدِ ، والحمدُ للهِ كلمةٌ تدلُّ علىٰ معرفةِ النعمةِ مِنَ الواحدِ الحقِّ ، فالحسناتُ بإزاءِ هٰذهِ المعارفِ التي هيَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ واليقينِ .

واعلمْ : أنَّ تمامَ هٰذهِ المعرفةِ ينفي الشركَ في الأفعالِ ، فمَنْ أنعمَ عليهِ ملكٌ مِنَ الملوكِ بشيءٍ ؛ فإنْ رأىٰ لوزيرِهِ أوْ

---

(١) قوت القلوب (٢٠٥/١)

(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٣) ، وابن ماجه (٣٨٠٠) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٠٥/١) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢٣١/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٨٣) من كلام إبراهيم النخعي بلفظ : (إن الحمد لله أكثر الكلام تضعيفاً) .

لوكيلِهِ دخلاً في تيسيرِ ذٰلكَ وإيصالِهِ إليهِ . . فهوَ إشراكٌ بهِ في النعمةِ ، فلا يرى النعمةَ مِنَ الملكِ مِنْ كلِّ وجهٍ ، بلْ منهُ بوجهٍ ، ومنْ غيرِهِ بوجهٍ ، فيتوزَّعُ فرحُهُ عليهِما ، فلا يكونُ موحداً في حقِّ الملكِ .

نعمْ ؛ لا يغضُّ مِنْ توحيدِهِ في حقِّ الملكِ وكمالِ شكرِهِ أنْ يرى النعمةَ الواصلةَ إليهِ بتوقيعِهِ الذي كتبَهُ بقلمِهِ ، وبالكاغدِ الذي كتبَهُ عليهِ ، فإنَّهُ لا يفرحُ بالقلمِ والكاغدِ ولا يشكرُهُما ؛ لأنَّهُ لا يثبتُ لهما دخلاً مِنْ حيثُ هما موجودانِ بأنفسِهِما ، بلْ مِنْ حيثُ هما مسخَّرانِ تحتَ قدرةِ الملكِ ، وقدْ يعلمُ أنَّ الوكيلَ الموصلَ والخازنَ أيضاً مضطرانِ مِنْ جهةِ الملكِ في الإيصالِ ، وأنَّهُ لوْ ردَّ الأمرَ إليهِ ولمْ يكنْ مِنْ جهةِ الملكِ إرهاقٌ وأمرٌ جزْمٌ يخافُ عاقبتَهُ . . لما سلَّمَ إليهِ شيئاً ، فإذا عرفَ ذٰلكَ . . كانَ نظرُهُ إلى الخازنِ الموصلِ كنظرِهِ إلى القلمِ والكاغدِ ، فلا يورثُ ذٰلكَ شركاً في توحيدِهِ مِنْ إضافةِ النعمةِ إلى الملكِ .

وكذٰلكَ مَنْ عرفَ اللهَ سبحانَهُ وعرفَ أفعالَهُ . . علمَ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّراتٌ بأمرِهِ كالقلمِ مثلاً في يدِ الكاتبِ ، وأنَّ الحيواناتِ التي لها اختيارٌ مسخَّراتٌ في نفسِ اختيارِها ، فإنَّ اللهَ هوَ المسلِّطُ للدواعي عليها لتفعلَ شاءَتْ أمْ أبتْ ؛ كالخازنِ المضطرِّ الذي لا يجدُ سبيلاً إلىٰ مخالفةِ الملكِ ، ولوْ خُلِّيَ ونفسَهُ . . لما أعطاكَ ذرَّةً ممَّا في يدِهِ ، فكلُّ مَنْ وصلَ إليكَ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ علىٰ يدِهِ فهوَ مضطرٌّ ؛ إذْ سلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهِ الإرادةَ وهيَّجَ عليهِ الدواعيَ ، وألقىٰ في نفسِهِ أنَّ خيرَهُ في الدنيا والآخرةِ في أنْ يعطيَكَ ما أعطاكَ ، وأنَّ غرضَهُ المقصودَ عندَهُ في الحالِ والمآلِ لا يحصلُ إلا بهِ ، وبعدَ أنْ خلقَ اللهُ لهُ هٰذا الاعتقادَ . . فلا يجدُ سبيلاً إلىٰ تركِهِ ، فهوَ إذاً إنَّما يعطيكَ لغرضِ نفسِهِ لا لغرضِكَ ، ولوْ لمْ يكنْ غرضُهُ في العطاءِ . . لما أعطاكَ ، ولوْ لمْ يعلمْ أنَّ منفعتَهُ في منفعتِكَ . . لما نفعَكَ ، فهوَ إذاً إنَّما يطلبُ نفعَ نفسِهِ بنفعِكَ ، فليسَ منعماً عليكَ ، بلِ اتخذَكَ وسيلةً إلىٰ نعمةٍ أخرىٰ هوَ يرجوها ، وإنَّما الذي أنعمَ عليكَ هوَ الذي سخَّرَهُ لكَ ، وألقىٰ في قلبِهِ مِنَ الاعتقاداتِ والإراداتِ ما صارَ بهِ مضطراً إلى الإيصالِ إليكَ .

فإنْ عرفتَ الأمورَ كذٰلكَ . . فقدْ عرفتَ اللهَ وعرفتَ فعلَهُ ، وكنتَ موحِّداً ، وقدرتَ علىٰ شكرِهِ ، بلْ كنتَ بهٰذهِ المعرفةِ بمجرَّدِها شاكراً .

ولذٰلكَ قالَ موسىٰ عليهِ السلامُ في مناجاتِهِ : إلٰهي ؛ خلقتَ آدمَ بيدِكَ ، وفعلتَ وفعلتَ ، فكيفَ شكرَكَ ؟ فقالَ : علمَ أنَّ كلَّ ذٰلكَ منِّي ، فكانَتْ معرفتُهُ شكراً[1]

فإذاً ؛ لا شكرَ إلا بأنْ تعرفَ أنَّ الكلَّ منهُ ، فإنْ خالجَكَ ريبٌ في هٰذا . . لمْ تكنْ عارفاً لا بالنعمةِ ولا بالمنعمِ ، فلا تفرحُ بالمنعمِ وحدَهُ بلْ بغيرِهِ ، فبنقصانِ معرفتِكَ ينقصُ حالُكَ في الفرحِ ، وبنقصانِ فرحِكَ ينقصُ عملُكَ .

فهٰذا بيانُ هٰذا الأصلِ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثاني : الحالُ المستمدَّةُ مِنْ أصلِ المعرفةِ :

وهوَ الفرحُ بالمنعمِ معَ هيئةِ الخضوعِ والتواضعِ ، وهوَ أيضاً في نفسِهِ شكرٌ علىٰ تجرُّدِهِ ؛ كما أنَّ المعرفةَ شكرٌ ،

---

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٣١٣) ، ورواه بنحوه هناد في « الزهد » (٧٧٧) .

ولكنْ إنَّما يكونُ شكراً إذا كانَ جامعاً شروطَهُ ، وشرطُهُ أنْ يكونَ فرحُكَ بالمنعمِ لا بالنعمةِ ولا بالإنعامِ ، ولعلَّ هٰذا ممَّا يتعذَّرُ عليكَ فهمُهُ ، فنضربُ لكَ مثلاً فنقولُ :

الملكُ الذي يريدُ الخروجَ إلىٰ سفرٍ فأنعمَ بفرسٍ علىٰ إنسانٍ يُتصوَّرُ أنْ يفرحَ المنعَمُ عليهِ بالفرسِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنْ يفرحَ بالفرسِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فرسٌ ، وإنَّهُ مالٌ يُنتفعُ بهِ ، ومركوبٌ يوافقُ غرضَهُ ، وإنَّهُ جوادٌ نفيسٌ ، وهٰذا فرحُ مَنْ لا حظَّ لهُ في الملكِ ، بلْ غرضُهُ الفرسُ فقطْ ، ولوْ وجدَهُ في صحراءَ فأخذَهُ . لكانَ فرحُهُ مثلَ هٰذا الفرحِ .

الوجهُ الثاني : أنْ يفرحَ بهِ لا مِنْ حيثُ إنَّهُ فرسٌ ، بلْ مِنْ حيثُ يستدلُّ بهِ علىٰ عنايةِ الملكِ بهِ وشفقتِهِ عليهِ واهتمامِهِ بجانبِهِ ، حتَّىٰ لوْ وجدَ هٰذا الفرسَ في صحراءَ أوْ أعطاهُ إيَّاهُ غيرُ الملكِ . . لكانَ لا يفرحُ بهِ أصلاً ؛ لاستغنائِهِ عنِ الفرسِ أصلاً ، واستحقارِهِ لهُ بالإضافةِ إلىٰ مطلوبِهِ مِنْ نيلِ المحلِّ في قلبِ الملكِ .

الوجهُ الثالثُ : أنْ يفرحَ بهِ ليركبَهُ فيخرجَ في خدمةِ الملكِ ويحتملَ مشقَّةَ السفرِ لينالَ بخدمتِهِ رتبةَ القرْبِ منهُ ، وربَّما يرتقي إلىٰ درجةِ الوزارةِ ، مِنْ حيثُ إنَّهُ ليسَ يقنعُ بأنْ يكونَ محلُّهُ في قلبِ الملكِ أنْ يعطيَهُ فرساً ويُعنىٰ بهِ هٰذا القدرَ مِنَ العنايةِ ، بلْ هوَ طالبٌ لئلا ينعمَ الملكُ بشيءٍ مِنْ مالِهِ علىٰ أحدٍ إلا بواسطتِهِ ، ثمَّ إنَّهُ ليسَ يريدُ مِنَ الوزارةِ الوزارةَ أيضاً ، بلْ يريدُ مشاهدةَ الملكِ والقرْبَ منهُ ، حتَّىٰ لوْ خُيِّرَ بينَ القرْبِ دونَ الوزارةِ ، وبينَ الوزارةِ دونَ القربِ . . لاختارَ القرْبَ .

فهٰذهِ ثلاثُ درجاتٍ .

فالأولىٰ لا يدخلُ فيها معنى الشكرِ أصلاً ؛ لأنَّ نظرَ صاحبِها مقصورٌ على الفرسِ ، ففرحُهُ بالفرسِ لا بالمعطي ، وهٰذا حالُ كلِّ مَنْ فرحَ بنعمةٍ مِنْ حيثُ إنَّها لذيذةٌ وموافقةٌ لغرضِهِ ، فهوَ بعيدٌ عنْ معنى الشكرِ .

والثانيةُ داخلةٌ في معنى الشكرِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فرحٌ بالمنعِمِ ، ولٰكنْ لا مِنْ حيثُ ذاتُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ معرفةُ عنايتِهِ التي تستحثُّهُ على الإنعامِ في المستقبلِ ، وهٰذا حالُ الصالحينَ الذينَ يعبدونَ اللهَ ويشكرونَهُ خوفاً مِنْ عقابِهِ ورجاءً لثوابِهِ .

وإنَّما الشكرُ التامُّ في الفرحِ الثالثِ ، وهوَ أنْ يكونَ فرحُ العبدِ بنعمةِ اللهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ يقدرُ بها على التوصُّلِ إلى القرْبِ منهُ تعالىٰ والنزولِ في جوارِهِ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ على الدوامِ ، فهٰذا هوَ الرتبةُ العليا ، وأمارتُهُ : ألا يفرحَ مِنَ الدنيا إلا بما هوَ مزرعةُ الآخرةِ ويعينُهُ عليها ، ويحزنَ بكلِّ نعمةٍ تلهيهِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وتصدُّهُ عنْ سبيلِهِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يريدُ النعمةَ لأنَّها لذيذةٌ كما لمْ يردْ صاحبُ الفرسِ الفرسَ لأنَّهُ جوادٌ ومهملجٌ[١] ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ يحملُهُ في صحبةِ الملكِ حتَّىٰ تدومَ مشاهدتُهُ لهُ وقربُهُ منهُ ، ولذٰلكَ قالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (الشكرُ رؤيةُ المنعِمِ لا رؤيةُ النعمةِ)[٢]

وقالَ الخوَّاصُ : (شكرُ العامَّةِ على المطعمِ والملبسِ والمشربِ ، وشكرُ الخاصَّةِ علىٰ وارداتِ القلوبِ)[٣]

وهٰذهِ رتبةٌ لا يدركُها كلُّ مَنِ انحصرَتْ عندَهُ اللذَّاتُ في البطنِ والفرجِ ومدركاتِ الحواسِّ مِنَ الألوانِ والأصواتِ وخلا عنْ لذَّةِ القلبِ ، فإنَّ القلبَ لا يلتذُّ في حالِ الصحةِ إلا بذكرِ اللهِ تعالىٰ ومعرفتِهِ ولقائِهِ ، وإنَّما يلتذُّ بغيرِهِ إذا

---

(١) المهملج : لفظة فارسية ، السريع السير في بخترة وحسن .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٣١٢) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٣١٢) .

مرضَ بسوءِ العاداتِ كما يلتذُّ بعضُ الناسِ بأكلِ الطينِ ، وكما يستبشعُ بعضُ المرضى الأشياءَ الحلوةَ ويستحلي الأشياءَ المرَّةَ ، كما قيلَ [1] : [من الوافر]

وَمَـــنْ يَـــكُ ذا فَـــمٍ مُـــرٍّ مَـــرِيـــضٍ ... يَـجِـــدْ مُـــرّاً بِـــهِ الْـمـــاءَ الـــزُّلالا

فإذاً ؛ هٰذا شرطُ الفرحِ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ لمْ تكنْ إبلٌ . . فمِعْزىً ، فإنْ لمْ يكنْ هٰذا . . فالدرجةُ الثانيةُ ، أمَّا الأولىٰ . . فخارجةٌ عنْ كلِّ حسابٍ ، فكمْ مِنْ فرقٍ بينَ مَنْ يريدُ الملكَ للفرسِ ، ومَنْ يريدُ الفرسَ للملكِ ، وكمْ مِنْ فرقٍ بينَ مَنْ يريدُ اللهَ لينعمَ عليهِ ، وبينَ مَنْ يريدُ نعمَ اللهِ ليصلَ بها إليهِ .

❋ ❋ ❋

الأصلُ الثالثُ : **العملُ بموجَبِ الفرحِ الحاصلِ مِنْ معرفةِ المنعمِ** :

وهٰذا العملُ يتعلَّقُ بالقلبِ ، وباللسانِ ، وبالجوارحِ .

أمَّا بالقلبِ . . فقصدُ الخيرِ وإضمارُهُ لكافَّةِ الخلقِ .

وأمَّا باللسانِ . . فإظهارُ الشكرِ للهِ تعالىٰ بالتحميداتِ الدالَّةِ عليهِ .

وأمَّا بالجوارحِ . . فاستعمالُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في طاعتِهِ ، والتوقي مِنَ الاستعانةِ بها علىٰ معصيتِهِ ، حتَّىٰ إنَّ شكرَ العينينِ أنْ تسترَ كلَّ عيبٍ تراهُ لمسلمٍ ، وشكرَ الأذنينِ أنْ تسترَ كلَّ عيبٍ تسمعُهُ فيهِ ، فيدخلُ هٰذا في جملةِ شكرِ النعمِ لهٰذهِ الأعضاءِ ، والشكرُ باللسانِ لإظهارِ الرضا عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ مأمورٌ بهِ ؛ فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « كيفَ أصبحتَ ؟ » فقالَ : بخيرٍ ، فأعادَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ السؤالَ ، فأعادَ الرجلُ الجوابَ ، حتَّىٰ قالَ في الثالثةِ : بخيرٍ أحمدُ اللهَ وأشكرُهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هٰذا الذي أردتُ منكَ » [2]

وكانَ السلفُ يتساءلونَ ونيَّتُهُمُ استخراجُ الشكرِ للهِ تعالىٰ ؛ ليكونَ الشاكرُ مطيعاً ، والمستنطقُ لهُ بهِ مطيعاً ، وما كانَ قصدُهُمُ الرياءَ بإظهارِ الشوقِ [3]

وكلُّ عبدٍ سُئِلَ عنْ حالٍ فهوَ بينَ أنْ يشكرَ أوْ يشكوَ أوْ يسكتَ ، فالشكرُ طاعةٌ ، والشكوىٰ معصيةٌ قبيحةٌ مِنْ أهلِ الدينِ ، وكيفَ لا تقبحُ الشكوىٰ مِنْ ملكِ الملوكِ وبيدِهِ كلُّ شيءٍ إلىٰ عبدٍ مملوكٍ لا يقدرُ علىٰ شيءٍ ؟! فالأحرىٰ بالعبدِ إنْ لمْ يحسنِ الصبرَ على البلاءِ والقضاءِ ، وأفضىٰ بهِ الضعفُ إلى الشكوىٰ . . أنْ تكونَ شكواهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فهوَ المبلي وهوَ القادرُ علىٰ إزالةِ البلاءِ ، وذلُّ العبدِ لمولاهُ عزٌّ ، والشكوىٰ إلىٰ غيرِهِ ذلٌّ ، وإظهارُ الذلِّ للعبيدِ معَ كونِهِمْ أذلَّاءَ قبيحٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾

فالشكرُ باللسانِ مِنْ جملةِ الشكرِ .

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/٢٢٨) .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٠٤) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٣٧) ، والطبراني في « الدعاء » (١٩٣٩) من حديث فضيل بن عمرو معضلاً بنحوه ، ورواه في « الأوسط » (٤٣٧٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وليس فيه ذكر تكرار السؤال .

(٣) فقد روىٰ مالك في « الموطأ » (٢/٩٦١) عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب ، وسلَّمَ عليه رجل فردَّ عليه السلام ، ثم سأل عمرُ الرجلَ : كيف أنت ؟ فقال : أحمد إليك الله ، فقال عمر : ذٰلك الذي أردت منك .

وقدْ رُوِيَ أنَّ وفداً قدموا علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ ، فقامَ شابٌّ ليتكلَّمَ ، فقالَ عمرُ : الكبرَ الكبرَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لوْ كانَ الأمرُ بالسنِّ . . لكانَ في المسلمينَ مَنْ هوَ أسنُّ منكَ ، فقالَ : تكلَّمْ ، فقالَ : لسنا وفدَ الرغبةِ ، ولا وفدَ الرهبةِ ، أمَّا الرغبةُ . . فقدْ أوصلَها إلينا فضلُكَ ، وأمَّا الرهبةُ . . فقدْ آمَنَنا منها عدلُكَ ، وإنَّما نحنُ وفدُ الشكرِ ، جئناكَ نشكرُكَ باللسانِ وننصرفُ[1]

فهٰذهِ هيَ أصولُ معاني الشكرِ المحيطةُ بمجموعِ حقيقتِهِ .

❁ ❁ ❁

فأمَّا قولُ مَنْ قالَ : (إنَّ الشكرَ هوَ الاعترافُ بنعمةِ المنعمِ علىٰ وجهِ الخضوعِ)[2] . . فهوَ نظرٌ إلىٰ فعلِ اللسانِ معَ بعضِ أحوالِ القلبِ .

وقولُ مَنْ قالَ : (إنَّ الشكرَ هوَ الثناءُ على المحسنِ بذكرِ إحسانِهِ)[3] نظرٌ إلىٰ مجرَّدِ عملِ اللسانِ .

وقولُ القائلِ : (إنَّ الشكرَ هوَ اعتكافٌ علىٰ بساطِ الشهودِ بإدامةِ حفظِ الحرمةِ)[4] جامعٌ لأكثرِ معاني الشكرِ ، لا يشذُّ منهُ إلا عملُ اللسانِ .

وقولُ حمدونٍ القصارِ : (شكرُ النعمةِ أنْ ترىٰ نفسَكَ في الشكرِ طفيليّاً)[5] إشارةٌ إلىٰ أنَّ معنى المعرفةِ مِنْ معاني الشكرِ فقطْ .

وقولُ الجنيدِ : (الشكرُ ألَّا ترىٰ نفسَكَ أهلاً للنعمةِ)[6] إشارةٌ إلىٰ حالٍ مِنْ أحوالِ القلبِ على الخصوصِ .

وهٰؤلاءِ أقوالُهُمْ تعربُ عنْ أحوالِهِمْ ، ولذٰلكَ تختلفُ أجوبتُهُمْ ولا تتفقُ ، ثمَّ قدْ يختلفُ جوابُ كلِّ واحدٍ في حالتينِ ؛ لأنَّهُمْ لا يتكلَّمونَ إلا عنْ حالتِهِمُ الراهنةِ الغالبةِ عليهِمْ ؛ اشتغالاً بما يهمُّهُمْ عمَّا لا يهمُّهُمْ ، أوْ يتكلَّمونَ بما يرونَهُ لائقاً بحالِ السائلِ ؛ اقتصاراً علىٰ ذكرِ القدْرِ الذي يحتاجُ إليهِ ، وإعراضاً عمَّا لا يحتاجُ إليهِ ، فلا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ ما ذكرناهُ طعنٌ عليهِمْ ، وأنَّهُ لوْ عُرِضَ عليهِمْ جميعُ المعاني التي شرحناها . . كانوا ينكرونَها ، بلْ لا يُظنُّ ذٰلكَ بعاقلٍ أصلاً ، إلا أنْ تُفرضَ منازعةٌ مِنْ حيثُ اللفظُ في أنَّ اسمَ الشكرِ في وضعِ اللسانِ هلْ يشملُ جميعَ المعاني ، أمْ يتناولُ بعضَها مقصوداً وبقيةُ المعاني تكونُ مِنْ توابعِها ولوازمِها ؟

ولسنا نقصدُ في هٰذا الكتابِ شرحَ موضوعاتِ اللغاتِ ، فليسَ ذٰلكَ مِنْ علمِ طريقِ الآخرةِ في شيءٍ ، واللهُ الموفقُ برحمتِهِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٣٣/٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩٤/٦٨) ، وكذا أورده القشيري في « رسالته » (ص ٣١٤) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص ٣١١) .
(٣) هٰذا ما جعله حقيقة الشكر الإمام القشيري في تفسيره « لطائف الإشارات » (٣٨٠/١) ، وأورده في « رسالته » (ص ٣١١) .
(٤) وهو شكر القلب كما أورده القشيري في « رسالته » (ص ٣١١) .
(٥) الرسالة القشيرية (ص ٣١١) .
(٦) الرسالة القشيرية (ص ٣١٢) .

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعلَّهُ يخطرُ ببالِكَ : أنَّ الشكرَ إنَّما يُعقلُ في حقِّ منعِمٍ هوَ صاحبُ حظٍّ في الشكرِ ، فإنَّا نشكرُ الملوكَ إمَّا بالثناءِ ليزيدَ محلُّهُمْ في القلوبِ ، ويظهرَ كرمُهُمْ عندَ الناسِ فيزيدَ بهِ صيتُهُمْ وجاهُهُمْ ، أوْ بالخدمةِ التي هيَ إعانةٌ لهُمْ علىٰ بعضِ أغراضِهِمْ ، أوْ بالمثولِ بينَ أيديهِمْ في صورةِ الخدمِ وذٰلكَ تكثيرٌ لسوادِهِمْ وسببٌ لزيادةِ جاهِهِمْ ، فلا يكونُ شاكراً لهُمْ إلا بشيءٍ مِنْ ذٰلكَ ، وهٰذا محالٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّ اللهَ تعالىٰ منزَّهٌ عنِ الحظوظِ والأغراضِ ، مقدَّسٌ عنِ الحاجةِ إلى الخدمةِ والإعانةِ ، وعنْ نشرِ الجاهِ والحشمةِ بالثناءِ والإطراءِ ، وعنْ تكثيرِ سوادِ الخدمِ بالمثولِ بينَ يديهِ راكعاً أوْ ساجداً ، فشكرُنا إيَّاهُ بما لا حظَّ لهُ فيهِ يضاهي شكرَنا الملكَ المنعِمَ علينا بأنْ ننامَ في بيوتِنا أوْ نسجدَ أوْ نركعَ ؛ إذْ لا حظَّ للملكِ فيهِ وهوَ غائبٌ لا علمَ لهُ ، ولا حظَّ للهِ تعالىٰ في أفعالِنا كلِّها .

والوجهُ الثاني : أنَّ جميعَ ما نتعاطاهُ باختيارِنا فهوَ نعمةٌ أخرىٰ علينا مِنْ نعمِ اللهِ ؛ إذْ جوارحُنا وقدرتُنا وإرادتُنا وداعيتُنا وسائرُ الأمورِ التي هيَ أسبابُ حركتِنا ونفْسُ حركتِنا . . مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ونعمتِهِ ، فكيفَ نشكرُ نعمتَهُ بنعمتِهِ ؟ ولوْ أعطانا الملكُ مركوباً ، فأخذنا مركوباً آخرَ لهُ وركبناهُ أوْ أعطانا الملكُ مركوباً آخرَ . . لمْ يكنِ الثاني شكراً للأوَّلِ منَّا ، بلْ كانَ الثاني يحتاجُ إلىٰ شكرٍ كما يحتاجُ الأوَّلُ ، ثمَّ لا يمكنُ شكرُ الشكرِ إلا بنعمةٍ أخرىٰ ، فيؤدي ذٰلكَ إلىٰ أنْ يكونَ الشكرُ محالاً في حقِّ اللهِ تعالىٰ مِنْ هٰذينِ الوجهينِ ، ولسنا نشكُّ في الأمرينِ جميعاً ، والشرعُ قدْ وردَ بهِ ، فكيفَ السبيلُ إلى الجمعِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا الخاطرَ قدْ خطرَ لداوودَ عليهِ السلامُ ، وكذٰلكَ لموسىٰ عليهِ السلامُ ، فقالَ : يا ربِّ ، كيفَ أشكرُكَ وأنا لا أستطيعُ أنْ أشكرَكَ إلا بنعمةٍ ثانيةٍ مِنْ نعمِكَ ؟ وفي لفظٍ آخرَ : وشكري لكَ نعمةٌ أخرىٰ منكَ توجبُ عليَّ الشكرَ لكَ ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إذا عرفتَ هٰذا . . فقدْ شكرتَني ، وفي خبرٍ آخرَ : إذا عرفتَ أنَّ النعمَ منِّي . . رضيتُ منكَ بذٰلكَ شكراً[1]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ فهمتُ السؤالَ وفهمي قاصرٌ عنْ إدراكِ معنىٰ ما أُوحيَ إليهِمْ ، فإنِّي أعلمُ استحالةَ الشكرِ للهِ تعالىٰ ، فأمَّا كونُ العلمِ باستحالةِ الشكرِ شكراً . . فلا أفهمُهُ ، فإنَّ هٰذا العلمَ أيضاً نعمةٌ منهُ ، فكيفَ صارَ شكراً ؟ وكأنَّ الحاصلَ يرجعُ إلىٰ أنَّ مَنْ لمْ يشكرْ فقدْ شكرَ ، وأنَّ قبولَ الخلعةِ الثانيةِ مِنَ الملكِ شكرٌ للخلعةِ الأولىٰ ، والفهمُ قاصرٌ عنْ دركِ السرِّ فيهِ ، فإنْ أمكنَ تعريفُ ذٰلكَ بمثالٍ ؛ فهوَ مهمٌّ في نفسِهِ .

فاعلمْ : أنَّ هٰذا قرعُ بابٍ مِنَ المعارفِ ، وهيَ أعلىٰ مِنْ علومِ المعاملةِ ، ولٰكنَّا نشيرُ منها إلىٰ ملامحَ ونقولُ : ها هنا نظرانِ :

نظرٌ بعينِ التوحيدِ المحضِ : وهٰذا النظرُ يعرِّفُكَ قطعاً أنَّهُ الشاكرُ وأنَّهُ المشكورُ ، وأنَّهُ المحبُّ وأنَّهُ المحبوبُ ،

---

(١) كذا في « القوت » (٢٠٤/١) .

وهٰذا نظرُ مَنْ عرفَ أنْ ليسَ في الوجودِ غيرُهُ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، وأنَّ ذٰلكَ صدقٌ في كلِّ حالٍ أزلاً وأبداً ؛ لأنَّ الغيرَ هوَ الذي يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ بنفسِهِ قوامٌ ، ومثلُ هٰذا الغيرِ لا وجودَ لهُ ، بلْ هوَ محالٌ أنْ يوجدَ ؛ إذِ الموجودُ المحقَّقُ هوَ القائمُ بنفسِهِ ، وما ليسَ لهُ بنفسِهِ قوامٌ فليسَ لهُ بنفسِهِ وجودٌ ، بلْ هوَ قائمٌ بغيرِهِ ، فهوَ موجودٌ بغيرِهِ ، فإنِ اعتُبرَ ذاتُهُ ولمْ يُلتفَتْ إلىٰ غيرِهِ . . لمْ يكنْ لهُ وجودٌ ألبتةَ ، وإنَّما الموجودُ هوَ القائمُ بنفسِهِ ، والقائمُ بنفسِهِ هوَ الذي لوْ قُدِّرَ عدمُ غيرِهِ . . بقيَ موجوداً ، فإنْ كانَ معَ قيامِهِ بنفسِهِ يقومُ بوجودِهِ وجودُ غيرِهِ . . فهوَ قيُّومٌ ، ولا قيُّومَ إلا واحدٌ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ غيرُ ذٰلكَ .

فإذاً ؛ ليسَ في الوجودِ غيرُ الحيِّ القيُّومِ ، وهوَ الواحدُ الصمدُ ، فإنْ نظرتَ مِنْ هٰذا المقامِ . . علمتَ أنَّ الكلَّ منهُ مصدرُهُ ، وإليهِ مرجعُهُ ، فهوَ الشاكرُ وهوَ المشكورُ ، وهوَ المحبُّ وهوَ المحبوبُ .

ومِنْ ها هنا نظرَ حبيبُ بنُ أبي حبيبٍ حيثُ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ فقالَ : (وا عجباهُ !! أعطىٰ وأثنىٰ)[1] ، أشارَ إلىٰ أنَّهُ إذا أثنىٰ علىٰ عطائِهِ . . فعلىٰ نفسِهِ أثنىٰ ، فهوَ المثني وهوَ المثنىٰ عليهِ .

ومِنْ ها هنا نظرَ الشيخُ أبو سعيدٍ المِيهَنيُّ حيثُ قُرِئَ بينَ يديهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، فقالَ : (لعمري يحبُّهُمْ ، ودعْهُ يحبُّهُمْ ، فبحقٍّ يحبُّهُمْ لأنَّهُ إنَّما يحبُّ نفسَهُ) ، أشارَ بهِ إلىٰ أنَّهُ المحبُّ وأنَّهُ المحبوبُ .

وهٰذهِ رتبةٌ عاليةٌ لا تفهمُها إلا بمثالٍ علىٰ حدِّ عقلِكَ ، ولا يخفىٰ عليكَ أنَّ المصنِّفَ إذا أحبَّ تصنيفَهُ . . فقدْ أحبَّ نفسَهُ ، والصانعُ إذا أحبَّ صنعتَهُ . . فقدْ أحبَّ نفسَهُ ، والوالدُ إذا أحبَّ ولدَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ولدُهُ . . فقدْ أحبَّ نفسَهُ ، وكلُّ ما في الوجودِ سوى اللهِ فهوَ تصنيفُ اللهِ وصنعتُهُ ، فإنْ أحبَّهُ فما أحبَّ إلا نفسَهُ ، وإذا لمْ يحبَّ إلا نفسَهُ . . فبحقٍّ أحبَّ ما أحبَّ .

وهٰذا كلُّهُ نظرٌ بعينِ التوحيدِ ، وتعبِّرُ الصوفيَّةُ عنْ هٰذهِ الحالةِ بفناءِ النفسِ ؛ أيْ : فنيَ عنْ نفسِهِ وعنْ غيرِ اللهِ ، فلمْ يرَ إلا اللهَ ، فمَنْ لمْ يفهمْ هٰذا . . ينكرُ عليهِمْ ويقولُ : كيفَ فنِيَ وطولُ طللِهِ أربعةُ أذرعٍ[2] ، ولعلَّهُ يأكلُ في كلِّ يومٍ أرطالاً مِنَ الخبزِ ؟! فيضحكُ عليهِمُ الجهَّالُ ؛ لجهلِهِمْ بمعاني كلامِهِمْ ، وضرورةُ العارفينَ أنْ يكونوا ضُحْكَةً للجاهلينَ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾ ، ثمَّ بيَّنَ سبحانَهُ أنَّ ضحكَ العارفينَ عليهِمْ غداً أعظمُ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ ، وكذٰلكَ أمَّةُ نوحٍ كانوا يضحكونَ عليهِ عندَ اشتغالِهِ بعملِ السفينةِ ، ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ .

فهٰذا أحدُ النظرينِ .

❀ ❀ ❀

النظرُ الثاني : نظرُ مَنْ لمْ يبلغْ إلىٰ مقامِ الفناءِ عنْ نفسِهِ : وهٰؤلاءِ قسمانِ :

ـ قسمٌ لمْ يثبتوا إلا وجودَ أنفسِهِمْ ، وأنكروا أنْ يكونَ لهُمْ ربٌّ يُعبدُ ، وهٰؤلاءِ هُمُ العميانُ المنكوسونَ ، وعماهُمْ في كلتا العينينِ ؛ لأنَّهُمْ نفَوا ما هوَ الثابتُ تحقيقاً ، وهوَ القيُّومُ الذي هوَ قائمٌ بنفسِهِ ، وقائمٌ علىٰ كلِّ

---

(١) أورده الطرطوشي في « سراج الملوك » (١/٣٩٧) .

(٢) **الطلل** : الشخص ، يقال : حيا الله طللك وطلالتك ؛ أي : شخصك .

نفسٍ بما كسبَتْ ، وكلُّ قائمٍ فقائمٌ بهِ ، ولمْ يقتصروا علىٰ هٰذا حتَّىٰ أثبتوا أنفسَهُمْ !! ولوْ عرفوا . . لعلموا أنَّهُمْ مِنْ حيثُ هُمْ هُمْ لا ثباتَ لهُمْ ، ولا وجودَ لهُمْ ، وإنَّما وجودُهُمْ مِنْ حيثُ أُوجدوا ، لا مِنْ حيثُ وُجدوا ، وفرقٌ بينَ الموجودِ وبينَ الموجَدِ ، وليسَ في الوجودِ إلا موجودٌ واحدٌ وموجَدٌ ، فالموجودُ حقٌّ ، والموجَدُ باطلٌ مِنْ حيثُ هوَ هوَ ، والموجودُ قائمٌ وقيُّومٌ ، والموجَدُ هالكٌ وفانٍ ، وإذا كانَ كلُّ مَنْ عليها فانياً . . فلا يبقىٰ إلا وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرامِ .

ـ الفريقُ الثاني ليسَ بهِم عمىً ، ولٰكنْ بهِمْ عَوَرٌ ، يبصرونَ بإحدى العينينِ وجودَ الموجودِ الحقِّ فلا ينكرونَهُ ، والعينُ الأخرىٰ إنْ تمَّ عماها . . لمْ يُبصرْ بها فناءُ غيرِ الموجودِ الحقِّ ، فأثبتَ موجوداً آخرَ معَ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذا مشركٌ تحقيقاً ، كما كانَ الذي قبلَهُ جاحداً تحقيقاً ، فإنْ جاوزَ حدَّ العمىٰ إلى العمشِ . . أدركَ تفاوتاً بينَ الموجودينِ ، فأثبتَ عبداً وربّاً ، فبهٰذا القدْرِ مِنْ إثباتِ التفاوتِ والنقصِ مِنَ الموجودِ الآخرِ دخلَ في حدِّ التوحيدِ .

ثمَّ إنْ كُحِلَ بصرُهُ بما يزيدُ في أنوارِهِ . . فيقلُّ عمشُهُ ، وبقدْرِ ما يزيدُ في بصرِهِ يظهرُ لهُ نقصانُ ما أثبتَهُ سوى اللهِ تعالىٰ ، فإنْ بقيَ في سلوكِهِ كذٰلكَ . . فلا يزالُ يفضي بهِ النقصانُ إلى المحوِ ، فينمحي عنْ رؤيةِ ما سوى اللهِ ، فلا يرىٰ إلا اللهَ ، فيكونُ قدْ بلغَ كمالَ التوحيدِ .

وحيثُ أدركَ نقصاً في وجودِ ما سوى اللهِ تعالىٰ . . دخلَ في أوائلِ التوحيدِ ، وبينَهُما درجاتٌ لا تُحصىٰ ، فيها تتفاوتُ درجاتُ الموحِّدينَ .

وكتبُ اللهِ المنزَلةُ علىٰ ألسنةِ رسلِهِ هيَ الكحْلُ الذي بهِ يحصلُ أنوارُ الأبصارِ ، والأنبياءُ هُمُ الكحَّالونَ ، وقد جاؤوا داعينَ إلى التوحيدِ المحضِ ، وترجمتُهُ قولُ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، ومعناهُ : ألا يرىٰ إلا الواحدَ الحقَّ ، والواصلونَ إلىٰ كمالِ التوحيدِ هُمُ الأقلُّونَ ، والجاحدونَ والمشركونَ أيضاً قليلونَ ، وهُمْ على الطرفِ الأقصى المقابلِ لطرفِ التوحيدِ ؛ إذْ عبدةُ الأوثانِ قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ، فكانوا داخلينَ في أوائلِ أبوابِ التوحيدِ دخولاً ضعيفاً ، والمتوسطونَ هُمُ الأكثرونَ ، وفيهِمْ مَنْ تنفتحُ بصيرتُهُ في بعضِ الأحوالِ ، فتلوحُ لهُ حقائقُ التوحيدِ ولٰكنْ كالبرقِ الخاطفِ لا يثبتُ ، وفيهِمْ مَنْ يلوحُ لهُ ذٰلكَ ويثبتُ زماناً ولٰكنْ لا يدومُ ، والدوامُ فيهِ عزيزٌ .

لِكُلِّ إِلَىٰ شَأْوِ الْعُلا حَرَكَاتُ ... وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي الرِّجَالِ ثَبَاتُ [1]

ولمَّا أُمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بطلبِ القربِ ، فقيلَ لهُ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ . قالَ في سجودِهِ : « أعوذُ بعفوكَ مِنْ عقابِكَ ، وأعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وأعوذُ بكَ منكَ ، لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[2] ، فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعوذُ بعفوكَ مِنْ عقابِكَ » كلامٌ عنْ مشاهدةِ فعلِ اللهِ فقطْ ، فكأنَّهُ لمْ يرَ إلا اللهَ وأفعالَهُ ، فاستعاذَ بفعلِهِ مِنْ فعلِهِ ، ثمَّ اقتربَ ففنيَ عنْ مشاهدةِ الأفعالِ ، وترقَّىٰ إلىٰ مصادرِ الأفعالِ وهيَ الصفاتُ فقالَ : « أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ » ، وهما صفتانِ ، ثمَّ رأىٰ ذٰلكَ نقصاناً في التوحيدِ ، فاقتربَ ورقيَ مِنْ مقامِ مشاهدةِ الصفاتِ إلىٰ مشاهدةِ الذاتِ فقالَ : « أعوذُ بكَ منكَ » ، وهٰذا فرارٌ منهُ إليهِ مِنْ غيرِ رؤيةِ فعلٍ وصفةٍ ، ولٰكنَّهُ رأىٰ نفسَهُ فارّاً منهُ إليهِ ، ومستعيذاً ومثنياً ، ففنيَ عنْ مشاهدةِ نفسِهِ ؛ إذْ رأىٰ ذٰلكَ نقصاناً ، واقتربَ فقالَ : أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ لا أحصي

---

(١) البيت من الطويل ، وهو لابن الحَريش الأصبهاني . انظر « تتمة يتيمة الدهر » (١٣٦/٥) .

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) ، والنسائي (٢٨٣/٨) .

ثناءً عليكَ ، فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أحصي » خبرٌ عنْ فناءِ نفسِهِ وخروجِهِ عنْ مشاهدَتِها[1] ، وقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ » بيانٌ أنَّهُ المثني وهوَ المثنىٰ عليهِ ، وأنَّ الكلَّ منهُ بدأَ وإليهِ يعودُ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، فكانَ أوَّلُ مقاماتِهِ نهايةَ مقاماتِ الموحِّدينَ ، وهوَ ألا يرىٰ إلا اللهَ تعالىٰ وأفعالَهُ ، فيستعيذُ بفعلٍ مِنْ فعلٍ ، فانظرْ إلىٰ ماذا انتهتْ نهايتُهُ إذِ انتهىٰ إلى الواحدِ الحقِّ ، حتَّى ارتفعَ مِنْ نظرِهِ ومشاهدتِهِ سوى الذاتِ الحقِّ .

ولقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يرقىٰ مِنْ رتبةٍ إلىٰ أخرىٰ إلا ويرى الأولىٰ بعداً بالإضافةِ إلى الثانيةِ ، فكانَ يستغفرُ اللهَ مِنَ الأولىٰ ، ويرىٰ ذٰلكَ نقصاناً في سلوكِهِ وتقصيراً في مقامِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليُغانُ علىٰ قلبي حتَّىٰ أستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ سبعينَ مرَّةً »[2] ، فكأنَّ ذٰلكَ لترقيهِ إلىٰ سبعينَ مقاماً بعضُها فوقَ البعضِ ، أوائلُها وإنْ كانَ مجاوزاً أقصىٰ غاياتِ الخلقِ ، ولٰكنْ كانَ نقصاناً بالإضافةِ إلىٰ أواخرِها ، فكانَ استغفارُهُ لذٰلكَ .

ولمَّا قالَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أليسَ قدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ فما هٰذا البكاءُ في السجودِ ، وما هٰذا الجهدُ الشديدُ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً »[3] ، معناهُ : أفلا أكونُ طالباً للمزيدِ في المقاماتِ ، فإنَّ الشكرَ سببُ الزيادةِ ، حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وإذْ تغلغلنا في بحارِ علومِ المكاشفةِ . . فلنقبضِ العِنانَ ، ولنرجعْ إلىٰ ما يليقُ بعلومِ المعاملةِ ، فنقولُ :

الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ بُعثوا لدعوةِ الخلقِ إلىٰ كمالِ التوحيدِ الذي وصفناهُ ، ولٰكنْ بينَهُمْ وبينَ الوصولِ إليهِ مسافةٌ بعيدةٌ ، وعقباتٌ شديدةٌ ، وإنَّما الشرعُ كلُّهُ تعريفُ طريقِ سلوكِ تلكَ المسافةِ ، وقطعِ تلكَ العقباتِ ، وعندَ ذٰلكَ يكونُ النظرُ عنْ مشاهدةٍ أخرىٰ ومقامٍ آخرَ ، فيظهرُ في ذٰلكَ المقامِ وبالإضافةِ إلىٰ تلكَ المشاهدةِ الشكرُ والشاكرُ والمشكورُ ، ولا يُعرفُ ذٰلكَ إلا بمثالٍ ، فأقولُ :

يمكنُكَ أنْ تفهمَ أنَّ ملكاً مِنَ الملوكِ أرسلَ إلىٰ عبدٍ قدْ بعُدَ منهُ مركوباً وملبوساً ونقداً ؛ لأجلِ زادِهِ في الطريقِ حتَّىٰ يقطعَ بهِ مسافةَ البعدِ ويقربَ مِنْ حضرةِ الملكِ ، ثمَّ يكونُ لهُ حالتانِ :

إحداهما : أنْ يكونَ قصدُهُ مِنْ وصولِ العبدِ إلىٰ حضرتِهِ أنْ يقومَ ببعضِ مهمَّاتِهِ ، ويكونَ لهُ عنايةٌ في خدمتِهِ .

والثانيةُ : ألا يكونَ للملكِ حظٌّ في العبدِ ، ولا حاجةَ بهِ إليهِ ، بلْ حضورُهُ لا يزيدُ في ملكِهِ ؛ لأنَّهُ لا يقوىٰ على القيامِ بخدمةٍ تغني منهُ غَناءً[4] ، وغيبتُهُ لا تنقصُ مِنْ ملكِهِ ، فيكونُ قصدُهُ مِنَ الإنعامِ عليهِ بالمركوبِ والزادِ أنْ يحظى العبدُ بالقربِ منهُ ، وينالَ سعادةَ حضرتِهِ ؛ لينتفعَ هوَ في نفسِهِ ، لا لينتفعَ الملكُ بهِ وبانتفاعِهِ . فينزلُ العبادُ مِنَ اللهِ تعالىٰ في المنزلةِ الثانيةِ ، لا في المنزلةِ الأولىٰ ، فإنَّ الأولىٰ محالٌ على اللهِ ، والثانيةَ غيرُ محالٍ .

---

(١) في غير (د) : (عن مشاهدته) بدل (عن مشاهدتها) .

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

(٣) رواه مسلم (٢٨٢٠) .

(٤) **الغَناء** : النفع .

ثمَّ اعلمْ أنَّ العبدَ لا يكونُ شاكراً في الحالةِ الأولىٰ بمجرَّدِ الركوبِ والوصولِ إلىٰ حضرتِهِ ما لَمْ يقمْ بخدمتِهِ التي أرادَها الملكُ منهُ ، وأمَّا في الحالةِ الثانيةِ . . فلا يحتاجُ إلى الخدمةِ أصلاً ، ومعَ ذٰلكَ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ شاكراً وكافراً ، ويكونُ شكرُهُ بأنْ يستعملَ ما أنفذَهُ إليهِ مولاهُ فيما أحبَّهُ لأجلِهِ لا لأجلِ نفسِهِ ، وكفرُهُ ألا يستعملَ ذٰلكَ فيهِ بأنْ يعطِّلَهُ أوْ يستعملَهُ فيما يزيدُ في بعدِهِ منهُ .

فمهما لبسَ العبدُ الثوبَ وركبَ المركوبَ ولمْ ينفقِ الزادَ إلا في الطريقِ . . فقدْ شكرَ مولاهُ ؛ إذِ استعملَ نعمتَهُ في محبَّتِهِ ؛ أيْ : فيما أحبَّهُ لعبدِهِ لا لنفسِهِ .

وإنْ ركبَهُ واستدبرَ حضرتَهُ ، وأخذَ يبعدُ منهُ . . فقدْ كفرَ نعمتَهُ ؛ أي : استعملَها فيما كرهَهُ مولاهُ لعبدِهِ لا لنفسِهِ .

وإنْ جلسَ ولمْ يركبْ لا في طلبِ القربِ ولا في طلبِ البعدِ . . فقدْ كفرَ أيضاً نعمتَهُ ؛ إذْ أهملَها وعطَّلَها ، وإنْ كانَ هٰذا دونَ ما لوْ بعدَ منهُ .

فكذٰلكَ خلقَ اللهُ سبحانَهُ الخلقَ ، وهُمْ في ابتداءِ فطرتِهِمْ يحتاجونَ إلى استعمالِ الشهواتِ ؛ لتكملَ بها أبدانُهُمْ ، فيبعدونَ بها عنْ حضرتِهِ ، وإنَّما سعادتُهُمْ في القرْبِ منهُ ، فأعدَّ لهُمْ مِنَ النعمِ ما يقدرونَ على استعمالِها في نيلِ درجةِ القرْبِ ، وعنْ بعدِهِمْ وقربِهِمْ عبَّرَ اللهُ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . ﴾ الآيةَ .

فإذاً ؛ نعمُ اللهِ تعالىٰ آلاتٌ يترقَّى العبدُ بها عنْ أسفلِ السافلينَ ، خلقَها اللهُ تعالىٰ لأجلِ العبدِ حتَّىٰ ينالَ بها سعادةَ القربِ ، واللهُ تعالىٰ غنيٌّ عنهُ قرُبَ أمْ بعُدَ ، والعبدُ فيها بينَ أنْ يستعملَها في الطاعةِ فيكونَ قدْ شكرَ لموافقتِهِ محبَّةَ مولاهُ ، وبينَ أنْ يستعملَها في معصيتِهِ فقدْ كفرَ لاقتحامِهِ ما يكرهُهُ مولاهُ ولا يرضاهُ لهُ ، فإنَّ اللهَ لا يرضىٰ لعبادِهِ الكفرَ والمعصيةَ ، وإنْ عطَّلَها ولمْ يستعملْها في طاعةٍ ولا معصيةٍ . . فهوَ أيضاً كفرانٌ للنعمةِ بالتضييعِ ، وكلُّ ما خُلقَ في الدنيا إنَّما خُلقَ آلةً للعبدِ ليتوصَّلَ بهِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ونيلِ القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ مطيعٍ فهوَ بقدْرِ طاعتِهِ شاكرٌ نعمةَ اللهِ في الأسبابِ التي استعملَها في الطاعةِ ، وكلُّ كسلانَ تركَ الاستعمالَ أوْ عاصٍ استعملَها في طريقِ البعدِ . . فهوَ كافرٌ جارٍ في غيرِ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ ، فالمعصيةُ والطاعةُ تشملُهما المشيئةُ ، ولٰكنْ لا تشملُهُما المحبَّةُ والكراهةُ ، بلْ رُبَّ مرادٍ محبوبٌ ، ورُبَّ مرادٍ مكروهٌ ، ووراءَ بيانِ هٰذهِ الدقيقةِ سرُّ القدرِ الذي مُنِعَ مِنْ إفشائِهِ ، وقدِ انحلَّ بهٰذا الإشكالُ الأوَّلُ ، وهوَ أنَّهُ إذا لمْ يكنْ للمشكورِ حظٌّ فكيفَ يكونُ الشكرُ .

وبهٰذا أيضاً ينحلُّ الإشكالُ الثاني ، فإنَّا لمْ نعنِ بالشكرِ إلا انصرافَ نعمةِ اللهِ في جهةِ محبَّةِ اللهِ ، فإذا انصرفَتِ النعمةُ في جهةِ المحبَّةِ بفعلِ اللهِ تعالىٰ . . فقدْ حصلَ المرادُ ، وفعلُكَ عطاءٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ومِنْ حيثُ أنتَ محلُّهُ فقدْ أثنىٰ عليكَ ، وثناؤُهُ نعمةٌ أخرىٰ منهُ إليكَ ، فهوَ الذي أعطىٰ ، وهوَ الذي أثنىٰ ، فصارَ أحدُ فعليهِ سبباً لانصرافِ فعلِهِ الثاني إلىٰ جهةِ محبَّتِهِ ، فلهُ الشكرُ علىٰ كلِّ حالٍ ، وأنتَ موصوفٌ بأنَّكَ شاكرٌ ؛ بمعنىٰ أنَّكَ محلُّ المعنى الذي الشكرُ عبارةٌ عنهُ ، لا بمعنىٰ أنَّكَ موجدٌ لهُ ؛ كما أنَّكَ موصوفٌ بأنَّكَ عارفٌ وعالمٌ لا بمعنىٰ أنَّكَ خالقُ العلمِ وموجدُهُ ولٰكنْ بمعنىٰ أنَّكَ محلٌّ لهُ ، وقدْ وُجدَ بالقدرةِ الأزليَّةِ فيكَ ، فوصفُكَ بأنَّكَ شاكرٌ إثباتُ شيئيَّةٍ لكَ ، وأنتَ شيءٌ إذْ جعلَكَ خالقُ الأشياءِ شيئاً ، وإنَّما أنتَ لا شيءَ إذا كنتَ أنتَ ظانّاً لنفسِكَ شيئيَّةً مِنْ ذاتِكَ ، فأمَّا باعتبارِ النظرِ إلى الذي جعلَ الأشياءَ أشياءَ . . فأنتَ شيءٌ إذْ جعلَكَ شيئاً ، فإنْ قُطعَ النظرُ عنْ جعلِهِ . . كنتَ لا شيءَ تحقيقاً .

وإلى هٰذا أشارَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « اعملوا ؛ فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ » لمَّا قيلَ لهُ : ففيمَ العملُ إذا كانتِ الأشياءُ قدْ فُرِغَ منها مِنْ قبلُ ؟[١]

فبيَّنَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ الخلقَ مجاري قدرةِ اللهِ تعالىٰ ومحلُّ أفعالِهِ وإنْ كانوا همْ أيضاً مِنْ أفعالِهِ ، ولٰكنْ بعضُ أفعالِهِ محلٌّ للبعضِ ، وقولُهُ : « اعملوا » وإنْ كانَ جارياً علىٰ لسانِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فهوَ فعلٌ مِنْ أفعالِهِ ، وهوَ سببٌ لعلمِ الخلقِ بأنَّ العملَ نافعٌ ، وعلمُهُمْ فعلٌ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، والعلمُ سببٌ لانبعاثِ داعيةٍ جازمةٍ إلى الحركةِ والطاعةِ ، وانبعاثُ الداعيةِ أيضاً مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ سببٌ لحركةِ الأعضاءِ ، وهيَ أيضاً مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، ولٰكنْ بعضُ أفعالِهِ سببٌ لبعضٍ ؛ أيِ : الأوَّلُ شرطٌ للثاني ؛ كما كانَ خلقُ الجسمِ سبباً لخلْقِ العرضِ ؛ إذْ لا يُخلقُ العرضُ قبلَهُ ، وخلْقُ الحياةِ شرطٌ لخلْقِ العلمِ ، وخلْقُ العلمِ شرطٌ لخلْقِ الإرادةِ ، والكلُّ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، وبعضُها سببٌ للبعضِ ؛ أي : هوَ شرطٌ ، ومعنىٰ كونِهِ شرطاً : أنَّهُ لا يستعدُّ لقبولِ فعلِ الحياةِ إلا جوهرٌ ، ولا يستعدُّ لقبولِ العلمِ إلا ذو حياةٍ ، ولا لقبولِ الإرادةِ إلا ذو علمٍ ، فيكونُ بعضُ أفعالِهِ سبباً للبعضِ بهٰذا المعنىٰ ، لا بمعنىٰ أنَّ بعضَ أفعالِهِ موجِدٌ لغيرِهِ ، بلْ ممهِّدٌ شرطَ الحصولِ لغيرِهِ ، وهٰذا إذا حُقِّقَ . . ارتقىٰ إلىٰ درجةِ التوحيدِ الذي ذكرناهُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلِمَ قالَ اللهُ تعالى : اعملوا ، وإلا . . فأنتم معاقبونَ ومذمومونَ على العصيانِ ، وما إلينا شيءٌ ، فكيفَ نُذمُّ وإنَّما الكلُّ إلى اللهِ تعالىٰ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا القولَ مِنَ اللهِ تعالىٰ سببٌ لحصولِ اعتقادٍ فينا ، والاعتقادُ سببٌ لهيجانِ الخوفِ ، وهيجانُ الخوفِ سببٌ لتركِ الشهواتِ والتجافي عنْ دارِ الغرورِ ، وذٰلكَ سببٌ للوصولِ إلىٰ جوارِ اللهِ ، واللهُ تعالىٰ مسبِّبُ الأسبابِ ومرتِّبُها ، فمَنْ سبقَ لهُ في الأزلِ السعادةُ . . يسَّرَ لهُ هٰذهِ الأسبابَ حتَّىٰ يقودَهُ بسلسلتِها إلى الجنةِ ، ويُعبَّرُ عنْ مثلِهِ بأنَّ كُلّاً ميسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ ، ومَنْ لمْ يسبقْ لهُ مِنَ اللهِ الحسنىٰ . بعُدَ عنْ سماعِ كلامِ اللهِ تعالىٰ وكلامِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكلامِ العلماءِ ، فإذا لمْ يسمعْ . . لمْ يعلمْ ، وإذا لمْ يعلمْ . . لمْ يخفْ ، وإذا لمْ يخفْ . . لمْ يتركِ الركونَ إلى الدنيا ، وإذا لمْ يتركِ الركونَ إلى الدنيا . . بقيَ في حزْبِ الشيطانِ ، وإنَّ جهنَّمَ لموعدُهُمْ أجمعينَ .

فإذا عرفتَ هٰذا . . تعجبتَ مِنْ قومٍ يُقادونَ إلى الجنَّةِ بالسلاسلِ ، فما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ مقودٌ إلى الجنَّةِ بسلاسلِ الأسبابِ ، وهوَ تسليطُ العلمِ والخوفِ عليهِ ، وما مِنْ مخذولٍ إلا وهوَ مقودٌ إلى النارِ بالسلاسلِ ، وهوَ تسليطُ الغفلةِ والأمنِ والغرورِ عليهِ ، فالمتقونَ يُساقونَ إلى الجنَّةِ قهراً ، والمجرمونَ يُقادونَ إلى النارِ قهراً ، ولا قاهرَ إلا اللهُ الواحدُ القهَّارُ ، ولا قادرَ إلا الملكُ الجبَّارُ ، وإذا انكشفَ الغطاءُ عنْ أعينِ الغافلينَ فشاهدوا الأمرَ كذٰلكَ . . سمعوا عندَ ذٰلكَ نداءَ المنادي : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ، ولقدْ كانَ الملكُ للهِ الواحدِ القهَّارِ كلَّ يومٍ لا ذٰلكَ اليومَ على الخصوصِ ، ولٰكنِ الغافلونَ لا يسمعونَ هٰذا النداءَ إلا ذٰلكَ اليومَ ، فهوَ نبأٌ عمَّا يتجدَّدُ للغافلينَ مِنْ كشفِ الأحوالِ ، حيثُ لا ينفعُهُمُ الكشفُ ، فنعوذُ باللهِ الحليمِ الكريمِ مِنَ الجهلِ والعمىٰ ، فإنَّهُ أصلُ أسبابِ الهلاكِ .

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٧) .

بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلمْ : أنَّ فعلَ الشكرِ وتركَ الكفرانِ لا يتمُّ إلا بمعرفةِ ما يحبُّهُ اللهُ تعالىٰ عمَّا يكرهُهُ ؛ إذْ معنى الشكرِ استعمالُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في محابِّهِ ، ومعنى الكفرِ نقيضُ ذٰلكَ ؛ إمَّا بتركِ الاستعمالِ ، أوْ باستعمالِها في مكارهِهِ ، ولتمييزِ ما يحبُّهُ اللهُ تعالىٰ عمَّا يكرهُهُ مدركانِ :

أحدُهُما : السمعُ ، ومستندُهُ الآياتُ والأخبارُ .

والثاني : بصيرةُ القلبِ ، وهوَ النظرُ بعينِ الاعتبارِ .

وهٰذا الأخيرُ عسيرٌ ، وهوَ لأجلِ ذٰلكَ عزيزٌ ، فلذٰلكَ أرسلَ اللهُ تعالى الرسلَ ، وسهَّلَ بهِمُ الطريقَ على الخلقِ ، ومعرفةُ ذٰلكَ تنبني علىٰ معرفةِ جميعِ أحكامِ الشرعِ في أفعالِ العبادِ ، فمَنْ لا يطلعُ علىٰ أحكامِ الشرعِ في جميعِ أفعالِهِ . . لمْ يمكنْهُ القيامُ بحقِّ الشكرِ أصلاً .

وأمَّا الثاني ـ وهوَ النظرُ بعينِ الاعتبارِ ـ فهوَ إدراكُ حكمةِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ موجودٍ خلقَهُ ؛ إذْ ما خلقَ شيئاً في العالمِ إلا وفيهِ حكمةٌ ، وتحتَ الحكمةِ مقصودٌ ، وذٰلكَ المقصودُ هوَ المحبوبُ ، وتلكَ الحكمةُ منقسمةٌ إلىٰ جليَّةٍ وخفيَّةٍ .

أمَّا الجليَّةُ . . فكالعلمِ بأنَّ مِنَ الحكمةِ في خلقِ الشمسِ أنْ يحصلَ بها الفرقُ بينَ الليلِ والنهارِ ، فيكونَ النهارُ معاشاً ، والليلُ لباساً ، فتتيسَّرَ الحركةُ عندَ الإبصارِ ، والسكونُ عندَ الاستتارِ ، فهٰذا مِنْ جملةِ حِكَمِ الشمسِ لا كلِّ الحِكَمِ فيها ، بلْ فيها حكمٌ أخرىٰ كثيرةٌ دقيقةٌ .

وكذٰلكَ معرفةُ الحكمةِ في الغيمِ ونزولِ الأمطارِ ، وذٰلكَ لانشقاقِ الأرضِ بأنواعِ النباتِ مطعماً للخلْقِ ومرعىً للأنعامِ ، وقدِ انطوى القرآنُ علىٰ جملةٍ مِنَ الحكمِ الجليَّةِ التي تحتملُها أفهامُ الخلقِ دونَ الدقيقِ الذي يقصرونَ عنْ فهمِهِ ، إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا . . . ﴾ الآياتِ .

وأمَّا الحكمةُ في سائرِ الكواكبِ السيَّارةِ منها والثوابتِ . . فخفيَّةٌ ، لا يطلعُ عليها أكثرُ الخلقِ ، والقدْرُ الذي يحتملُهُ فهْمُ الخلقِ أنَّها زينةٌ للسماءِ ؛ لتستلذَّ العينُ بالنظرِ إليها ، وأشارَ إليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ ، فجميعُ أجزاءِ العالمِ ؛ سماؤُهُ وكواكبُهُ ، ورياحُهُ وبحارُهُ ، وجبالُهُ ومعادنُهُ ، ونباتُهُ وحيواناتُهُ وأعضاءُ حيواناتِهِ . . لا تخلو ذرَّةٌ مِنْ ذرَّاتِهِ عنْ حِكَمٍ كثيرةٍ ، مِنْ حكمةٍ واحدةٍ إلىٰ عشرةٍ إلىٰ ألفٍ إلىٰ عشرةِ آلافٍ .

وكذٰلكَ أعضاءُ الحيوانِ تنقسمُ إلىٰ ما يُعرفُ حكمتُها ؛ كالعلمِ بأنَّ العينَ للإبصارِ لا للبطشِ ، واليدَ للبطشِ لا للمشيِ ، والرجْلَ للمشيِ لا للشمِّ ، فأمَّا الأعضاءُ الباطنةُ مِنَ الأمعاءِ والمرارةِ والكليةِ والكبدِ ، وآحادِ العروقِ والأعصابِ والعضلاتِ ، وما فيها مِنَ التجاويفِ والالتفافِ والاشتباكِ والانحرافِ والدقَّةِ والغلظِ ، وسائرِ الصفاتِ . . فلا يعرفُ الحكمةَ فيها كافَّةُ الناسِ ، والذينَ يعرفونَها لا يعرفونَ منها إلا قدراً يسيراً بالإضافةِ إلىٰ ما في علمِ اللهِ تعالىٰ ، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فإذاً ؛ كلُّ مَنِ استعملَ شيئاً في جهةٍ غيرِ الجهةِ التي خُلِقَ لها ، ولا على الوجهِ الذي أُريدَ بهِ . . فقدْ كفرَ فيهِ نعمةَ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ ضربَ غيرَهُ بيدِهِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اليدِ ؛ إذْ خُلقَتْ لهُ اليدُ ليدفعَ بها عَنْ نفسِهِ ما يهلكُهُ ويأخذَ ما ينفعُهُ ،

لا ليهلكَ بها غيرَهُ ، ومَنْ نظرَ إلىٰ وجهِ غيرِ المَحْرمِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ العينِ ونعمةَ الشمسِ ؛ إذِ الإبصارُ يتمُّ بهما ، وإنَّما خُلقَتا ليبصرَ بهما ما ينفعُهُ في دينِهِ ودنياهُ ، ويتقيَ بهما ما يضرُّهُ فيهما ، فقدِ استعملَهُما في غيرِ ما أُريدَتا بهِ ، وهٰذا لأنَّ المرادَ مِنْ خلقِ الخلْقِ وخلْقِ الدنيا وأسبابِها أنْ يستعينَ الخلْقُ بهما على الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا وصولَ إليهِ إلا بمحبَّتِهِ والأنسِ بهِ في الدنيا ، والتجافي عنْ غرورِ الدنيا ، ولا أنسَ إلا بدوامِ الذكرِ ، ولا محبَّةَ إلا بالمعرفةِ الحاصلةِ بدوامِ الفكرِ ، ولا يمكنُ الدوامُ على الذكرِ والفكرِ إلا بدوامِ البدنِ ، ولا يبقى البدنُ إلا بالغذاءِ ، ولا يتمُّ الغذاءُ إلا بالأرضِ والماءِ والهواءِ ، ولا يتمُّ ذٰلكَ إلا بخلْقِ السماءِ والأرضِ ، وخلْقِ سائرِ الأعضاءِ ظاهراً وباطناً ، فكلُّ ذٰلكَ لأجلِ البدنِ ، والبدنُ مطيَّةُ النفسِ ، والراجعُ إلى اللهِ تعالىٰ هيَ النفْسُ المطمئنَّةُ بطولِ العبادةِ والمعرفةِ ، فلذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾

فكلُّ مَنِ استعملَ شيئاً في غيرِ طاعةِ اللهِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ في جميعِ الأسبابِ التي لا بدَّ منها لإقدامِهِ علىٰ تلكَ المعصيةِ ، ولنذكرْ مثالاً واحداً للحِكَمِ الخفيَّةِ التي ليسَتْ في غايةِ الخفاءِ حتَّىٰ تعتبرَ بها ، وتعلمَ طريقةَ الشكرِ والكفرانِ على النعمِ ، فنقولُ :

مِنْ نعمِ اللهِ تعالىٰ خلْقُ الدراهمِ والدنانيرِ ، وبهما قوامُ الدنيا ، وهما حجرانِ لا منفعةَ في أعيانِهما ، ولٰكنْ يُضطرُّ الخلقُ إليهما مِنْ حيثُ إنَّ كلَّ إنسانٍ محتاجٌ إلىٰ أعيانٍ كثيرةٍ في مطعمِهِ وملبسِهِ وسائرِ حاجاتِهِ ، وقدْ يعجزُ عمَّا يحتاجُ إليهِ ، ويملكُ ما يستغني عنهُ ؛ كمَنْ يملكُ الزعفرانَ مثلاً وهوَ محتاجٌ إلىٰ جَمَلٍ يركبُهُ ، ومَنْ يملكُ الجمَلَ ربَّما يستغني عنهُ ويحتاجُ إلى الزعفرانِ ، فلا بدَّ بينَهُما مِنْ معاوضةٍ ، ولا بدَّ في مقدارِ العوضِ مِنْ تقديرٍ ؛ إذْ لا يبذُلُ صاحبُ الجَمَلِ جَمَلَهُ بكلِّ مقدارٍ مِنَ الزعفرانِ ، ولا مناسبةَ بينَ الزعفرانِ والجملِ حتَّىٰ يُقالَ : يُعطىٰ منهُ مثلَهُ في الوزنِ أوِ الصورةِ ، وكذا مَنْ يشتري داراً بثيابٍ ، أوْ عبداً بخفٍّ ، أوْ دقيقاً بحمارٍ ، فهٰذهِ الأشياءُ لا تناسبَ فيها ، فلا يدري أنَّ الجملَ كمْ يساوي بالزعفرانِ ، فتتعذَّرُ المعاملاتُ جداً ، فافتقرَتْ هٰذهِ الأعيانُ المتنافرةُ المتباعدةُ إلىٰ متوسِّطٍ بينَها يحكمُ فيها بحكمٍ عدلٍ ، فيعرفُ مِنْ كلِّ واحدٍ رتبتَهُ ومنزلتَهُ ، حتَّىٰ إذا تقرَّرَتِ المنازلُ ، وترتبَتِ الرتبُ . . علمَ بعدَ ذٰلكَ المساويَ مِنْ غيرِ المساوي ، فخلقَ اللهُ تعالى الدنانيرَ والدراهمَ حاكمينِ ومتوسطينِ بينَ سائرِ الأموالِ ، حتَّىٰ تُقدَّرَ الأموالُ بهما ، فيُقالُ : هٰذا الجملُ يساوي مئةَ دينارٍ ، وهٰذا القدْرُ مِنَ الزعفرانِ يساوي مئةً ، فهما مِنْ حيثُ إنَّهُما متساويانِ بشيءٍ واحدٍ إذاً متساويانِ ، وإنَّما أمكنَ التعديلُ بالنقدينِ إذْ لا غرضَ في أعيانِهما ، ولوْ كانَ في أعيانِهما غرضٌ . . ربَّما اقتضىٰ خصوصُ ذٰلكَ الغرضِ في حقِّ صاحبِ الغرضِ ترجيحاً ولمْ يقتضِ ذٰلكَ في حقِّ مَنْ لا غرضَ لهُ ، فلا ينتظمُ الأمرُ ، فإذاً ؛ خلقَهُما اللهُ تعالىٰ لتتداولَهُما الأيدي ، ويكونا حاكمينِ بينَ الأموالِ بالعدْلِ .

ولحكمةٍ أخرىٰ ؛ وهيَ التوسُّلُ بهما إلىٰ سائرِ الأشياءِ ؛ لأنَّهُما عزيزانِ في أنفسِهما ، ولا غرضَ في أعيانِهما ، ونسبتُهُما إلىٰ سائرِ الأموالِ نسبةٌ واحدةٌ ، فمَنْ ملكَهُما فكأنَّهُ ملكَ كلَّ شيءٍ ، لا كمَنْ ملكَ ثوباً ، فإنَّهُ لمْ يملكْ إلا الثوبَ ، فلوِ احتاجَ إلىٰ طعامٍ . . ربَّما لمْ يرغبْ صاحبُ الطعامِ في الثوبِ ؛ لأنَّ غرضَهُ في دابَّةٍ مثلاً ، فاحتيجَ إلىٰ شيءٍ هوَ في صورتِهِ كأنَّهُ ليسَ بشيءٍ ، وهوَ في معناهُ كأنَّهُ كلُّ الأشياءِ ، والشيءُ إنَّما تستوي نسبتُهُ إلى المختلفاتِ إذا لمْ تكنْ لهُ صورةٌ خاصَّةٌ يفيدُها بخصوصِها ؛ كالمرآةِ لا لونَ لها وتحكي كلَّ لونٍ ، فكذٰلكَ النقدُ لا غرضَ فيهِ وهوَ وسيلةٌ إلىٰ كلِّ غرضٍ ، وكالحرفِ لا معنىٰ لهُ في نفسِهِ وتظهرُ بهِ المعاني في غيرِهِ ، فهٰذهِ هيَ الحكمةُ الثانيةُ .

وفيهما أيضاً حِكَمٌ يطولُ ذكرُها ، فكلُّ مَنْ عملَ فيهما عملاً لا يليقُ بالحِكَمِ بلْ يخالفُ الغرضَ المقصودَ بالحِكَمِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ فيهما ، فإذاً ؛ مَنْ كنزَهُما . . فقدْ ظلمَهُما وأبطلَ الحكمةَ فيهما ، وكانَ كمَنْ حبسَ حاكمَ المسلمينَ في سجْنٍ يمتنعُ عليهِ الحكْمُ بسببِهِ ؛ لأنَّهُ إذا كُنِزَ . . فقدْ ضُيِّعَ ، ولا يحصلُ الغرضُ المقصودُ بهِ ، وما خُلقَتِ الدراهمُ والدنانيرُ لزيدٍ خاصَّةً ولا لعمروٍ خاصَّةً ؛ إذْ لا غرضَ للآحادِ في أعيانِهما ، فإنَّهُما حجرانِ ، وإنَّما خُلقا لتتداولَهُما الأيدي فيكونا حاكمينِ بينَ الناسِ ، وعلامةً معرِّفةً للمقاديرِ مقوِّمةً للمراتبِ ، فأخبرَ اللهُ الذينَ يعجزونَ عنْ قراءةِ الأسطرِ الإلـٰهيةِ المكتوبةِ علىٰ صفحاتِ الموجوداتِ بخطٍّ إلـٰهيٍّ لا حرفَ فيهِ ولا صوتَ ، الذي لا يُدركُ بعينِ البصرِ بلْ بعينِ البصيرةِ . . أخبرَ هـٰؤلاءِ العاجزينَ بكلامٍ سمعوهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ وصلَ إليهِمْ بواسطةِ الحرفِ والصوتِ المعنى الذي عجزوا عنْ إدراكِهِ فقالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وكلُّ مَنِ اتخذَ مِنَ الدراهمِ والدنانيرِ آنيةً مِنْ ذهبٍ أوْ فضَّةٍ . . فقدْ كفرَ النعمةَ ، وكانَ أسوأَ حالاً ممَّنْ كنزَ ؛ لأنَّ مثالَ هـٰذا مثالُ مَنِ استسخرَ حاكمَ البلدِ في الحياكةِ والكنْسِ والأعمالِ التي يقومُ بها أخسَّاءُ الناسِ ، والحبسُ أهونُ منهُ ، وذٰلكَ أنَّ الخزفَ والحديدَ والرصاصَ والنحاسَ تنوبُ منابَ الذهبِ والفضَّةِ في حفظِ المائعاتِ عنْ أنْ تتبدَّدَ ، وإنَّما الأواني لحفظِ المائعاتِ ، ولا يكفي الخزفُ والحديدُ في المقصودِ الذي أُريدَ بهِ النقودُ ، فمَنْ لمْ ينكشفْ لهُ هـٰذا . . انكشفَ لهُ بالترجمةِ الإلـٰهيةِ وقيلَ لهُ : « مَنْ شربَ في آنيةٍ مِنْ ذهبٍ أوْ فضةٍ . . فكأنَّما يجرجرُ في بطنِهِ نارَ جهنَّمَ »[1]

وكلُّ مَنْ عاملَ معاملةَ الربا على الدراهمِ والدنانيرِ . . فقدْ كفرَ النعمةَ وظلمَ ؛ لأنَّهُما خُلقا لغيرِهما لا لأنفسِهما ؛ إذْ لا غرضَ في عينِهما ، فإذا اتَّجرَ في عينِهما . . فقدِ اتخذَهُما مقصوداً علىٰ خلافِ وضْعِ الحكمةِ ؛ إذْ طلبُ النقدِ لغيرِ ما وُضِعَ لهُ ظلمٌ ، ومَنْ معَهُ ثوبٌ ولا نقدَ معَهُ فقدْ لا يقدرُ علىٰ أنْ يشتريَ بهِ طعاماً ودابَّةً ؛ إذْ ربما لا يُباعُ الطعامُ والدابَّةُ بالثوبِ ، فهوَ معذورٌ في بيعِهِ بنقدٍ ليحصِّلَ النقدَ فيتوصَّلَ بهِ إلىٰ مقصودِهِ ، فإنَّهُما وسيلتانِ إلى الغيرِ ، لا غرضَ في أعيانِهما ، ووقْعُهُما مِنَ الأموالِ كوقْعِ الحرفِ مِنَ الكلامِ ؛ كما قالَ النحويونَ : (إنَّ الحرفَ هوَ الذي جاءَ لمعنىً في غيرِهِ) ، وكموقعِ المرآةِ مِنَ الألوانِ ، فأمَّا مَنْ مَعَهُ نقدٌ ؛ فلوْ جازَ لهُ أنْ يبيعَ بالنقدِ ، فيتخذَ التعاملَ على النقدِ غايةَ عملِهِ . . فيبقى النقدُ متقيّداً عندَهُ ، وينزلُ منزلةَ المكنوزِ ، وتقييدُ الحاكمِ والبريدِ الموصلِ إلى الغيرِ ظلمٌ ؛ كما أنَّ حبسَهُ ظلمٌ ، فلا معنىٰ لبيعِ النقدِ بالنقدِ إلا باتخاذِ النقدِ مقصوداً للادِّخارِ ، وهوَ ظلمٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلِمَ جازَ بيعُ أحدِ النقدينِ بالآخرِ ؟ ولِمَ جازَ بيعُ الدرهمِ بمثلِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ أحدَ النقدينِ يخالفُ الآخرَ في مقصودِ التوسُّلِ ؛ إذْ قدْ يتيسَّرُ التوصُّلُ بأحدِهِما مِنْ حيثُ كثرتُهُ كالدراهمِ ، فتتفرَّقُ في الحاجاتِ قليلاً قليلاً ، ففي المنعِ منهُ ما يشوّشُ المقصودَ الخاصَّ بهِ ، وهوَ تيسُّرُ التوصُّلِ بهِ إلىٰ غيرِهِ .

وأمَّا بيعُ الدرهمِ بدرهمٍ يماثلُهُ . . فجائزٌ مِنْ حيثُ إنَّ ذٰلكَ لا يرغبُ فيهِ عاقلٌ مهما تساويا ، ولا يشتغلُ بهِ تاجرٌ ؛ فإنَّهُ عبثٌ يجري مَجرىٰ وضعِ الدرهمِ على الأرضِ وأخذِهِ بعينِهِ ، ونحنُ لا نخافُ على العقلاءِ أنْ يصرفوا أوقاتَهُمْ

---

(١) كما روىٰ ذٰلك البخاري (٥٦٣٤) ، ومسلم (٢٠٦٥) .

إلىٰ وضعِ الدرهمِ على الأرضِ وأخذِهِ بعينِهِ ، فلا نمنعُ ممَّا لا تتشوَّفُ النفوسُ إليهِ ، إلا أنْ يكونَ أحدُهُما أجودَ مِنَ الآخرِ ، وذٰلكَ أيضاً لا يُتصوَّرُ جريانُهُ ؛ إذْ صاحبُ الجيِّدِ لا يرضىٰ بمثلِهِ مِنَ الرديءِ ، فلا ينتظمُ العقدُ ، وإنْ طلبَ زيادةً في الرديءِ . . فذٰلكَ ممَّا قدْ يقصدُهُ ، فلا جرمَ نمنعُهُ منهُ ، ونحكمُ بأنَّ جيِّدَها ورديئَها سواءٌ ؛ لأنَّ الجودةَ والرداءةَ ينبغي أنْ يُنظرَ إليهِما فيما يُقصدُ في عينِهِ ، وما لا غرضَ في عينِهِ فلا ينبغي أنْ يُنظرَ إلىٰ مصارفاتٍ دقيقةٍ في صفاتِهِ ، وإنَّما الذي ظلمَ هوَ الذي ضربَ النقودَ مختلفةً في الجودةِ والرداءةِ حتَّىٰ صارَتْ مقصودةً في أعيانِها ، وحقُّها ألا تُقصدَ .

وأمَّا إذا باعَ درهماً بدرهمٍ مثلِهِ نسيئةً . . فإنَّما لمْ يجزْ ذٰلكَ لأنَّهُ لا يقدمُ علىٰ هٰذا إلا مسامحٌ قاصدٌ للإحسانِ ، ففي القرْضِ ـ وهوَ مكرمةٌ ـ مندوحةٌ عنهُ ؛ لتبقىٰ صورةُ المسامحةِ ، فيكونَ لهُ حمدٌ وأجرٌ ، والمعاوضةُ لا حمدَ فيها ولا أجرَ ، فهوَ أيضاً ظلمٌ ؛ لأنَّهُ إضاعةُ خصوصِ المسامحةِ وإخراجُها في معرضِ المعاوضةِ .

وكذٰلكَ الأطعمةُ خُلقَتْ ليُتغذَّىٰ بها ، أوْ يُتداوىٰ بها ، فلا ينبغي أنْ تُصرفَ عنْ جهتِها ، فإنَّ فتحَ بابِ المعاملةِ فيها يوجبُ تقييدَها في الأيدي ، ويؤخِّرُ عنها الأكلَ الذي أُريدَتْ لهُ ، فما خُلِقَ الطعامُ إلا ليُؤكلَ ، والحاجةُ إلى الأطعمةِ شديدةٌ ، فينبغي أنْ تُخرجَ عنْ يدِ المستغني عنها إلى المحتاجِ ، ولا يتعاملُ على الأطعمةِ إلا مستغنٍ عنها ؛ إذْ مَنْ معَهُ طعامٌ فلِمَ لا يأكلُهُ إنْ كانَ محتاجاً ، ولِمَ يجعلهُ بضاعةَ تجارةٍ ؟ وإنْ جعلَهُ بضاعةَ تجارةٍ . . فليبعْهُ ممَّنْ يطلبُهُ بعوضٍ غيرِ الطعامِ ليكونَ محتاجاً إليهِ ، فأمَّا مَنْ يطلبُهُ بعينِ ذٰلكَ الطعامِ . . فهوَ أيضاً مستغنٍ عنهُ ، ولهٰذا وردَ في الشرعِ لعْنُ المحتكرِ ، ووردَ فيهِ مِنَ التشديداتِ ما ذكرناهُ في كتابِ آدابِ الكسبِ .

نعمْ ؛ بائعُ البُرِّ بالتمرِ معذورٌ ؛ إذْ أحدُهُما لا يسدُّ مسدَّ الآخرِ في الغرضِ ، وبائعُ صاعٍ مِنَ البُرِّ بصاعٍ منهُ غيرُ معذورٍ ، ولٰكنَّهُ عابثٌ ، فلا يحتاجُ إلىٰ منعٍ ؛ لأنَّ النفوسَ لا تسمحُ بهِ إلا عندَ التفاوتِ في الجودةِ ، ومقابلةُ الجيِّدِ بمثلِهِ مِنَ الرديءِ لا يرضىٰ بها صاحبُ الجيِّدِ ، وأمَّا جيِّدٌ برديئينِ . . فقدْ يُقصدُ ، ولٰكنْ لمَّا كانتِ الأطعمةُ مِنَ الضرورياتِ ، والجيِّدُ يساوي الرديءَ في أصلِ الفائدةِ ، ويخالفُهُ في وجوهِ التنعُّمِ . . أسقطَ الشرعُ غرضَ التنعُّمِ فيما هوَ القوامُ .

فهٰذهِ حكمةُ الشرعِ في تحريمِ الربا ، وقدِ انكشفَ لنا هٰذا بعدَ الإعراضِ عنْ فنِّ الفقهِ[1] ، فليُلحقْ هٰذا بفنِّ الفقهياتِ ؛ فإنَّهُ أقوىٰ مِنْ جميعِ ما أوردناهُ في الخلافياتِ .

وبهٰذا يتضحُ رجحانُ مذهبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ في التخصيصِ بالأطعمةِ دونَ المكيلاتِ ، إذْ لوْ دخلَ الجصُّ فيهِ . . لكانتِ الثيابُ والدوابُّ أولىٰ بالدخولِ ، ولولا الملحُ . . لكانَ مذهبُ مالكٍ رحمةُ اللهِ عليهِ أقومَ المذاهبِ فيهِ ؛ إذْ خصَّصَهُ بالأقواتِ ، ولٰكنْ كلُّ معنىً يرعاهُ الشرعُ فلا بدَّ أنْ يُضبطَ بحدٍّ ، وتحديدُ هٰذا كانَ ممكناً بالقوتِ ، وكانَ ممكناً بالمطعومِ ، فرأى الشرعُ التحديدَ بجنسِ المطعومِ أحرىٰ لكلِّ ما هوَ ضرورةُ البقاءِ ، وتحديداتُ الشرعِ قدْ تحيطُ بأطرافٍ لا يقوىٰ فيها أصلُ المعنى الباعثِ على الحكمِ ، ولٰكنَّ التحديدَ يقعُ كذٰلكَ بالضرورةِ ، ولوْ لمْ يُحدَّ . . لتحيَّرَ الخلقُ في تتبُّعِ جوهرِ المعنىٰ معَ اختلافِهِ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فعينُ المعنىٰ بكمالِ قوَّتِهِ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، فيكونُ الحدُّ ضرورياً ، فلذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ ، ولأنَّ أصولَ هٰذهِ المعاني لا تختلفُ فيها الشرائعُ ، وإنَّما تختلفُ في وجوهِ التحديدِ ؛ كما يحدُّ شرعُ عيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ تحريمَ الخمرِ

---

(١) وذٰلك عند خروجه من دار السلام ببغداد . « إتحاف » (٩/٦٨) .

بالسكْرِ ، وقدْ حدَّهُ شرعُنا بكونِهِ مِنْ جنسِ المسكرِ ؛ لأنَّ قليلَهُ يدعو إلىٰ كثيرِهِ ، والداخلُ في الحدودِ داخلٌ في التحريمِ بحكمِ الحسمِ[1] ، كما دخلَ أصلُ المعنىٰ بالحكمةِ الأصليَّةِ .

فهٰذا مثالٌ واحدٌ لحكمةٍ خفيَّةٍ مِنْ حِكَمِ النقدينِ ، فينبغي أنْ يعتبرَ شكرَ النعمةِ وكفرانَها بهٰذا المثالِ ، فكلُّ ما خُلِقَ لحكمةٍ . . فلا ينبغي أنْ يُصرفَ عنها ، ولا يعرفُ هٰذا إلا مَنْ قدْ عرفَ الحكمةَ ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، ولٰكنْ لا تُصادَفُ جواهرُ الحِكَمِ في قلوبٍ هيَ مزابلُ الشهواتِ وملاعبُ الشياطينِ ، بلْ لا يتذكَّرُ إلا أولو الألبابِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ »[2]

وإذا عرفتَ هٰذا المثالَ . . فقسْ عليهِ حركتَكَ وسكونَكَ ، ونطقَكَ وسكوتَكَ ، وكلَّ فعلٍ صادرٍ منكَ ؛ فإنَّهُ إمَّا شكرٌ وإمَّا كفرٌ ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ عنهُما ، وبعضُ ذٰلكَ نصفُهُ في لسانِ الفقهِ الذي تناطقَ بهِ عوامُّ الناسِ بالكراهةِ وبعضُهُ بالحظْرِ ، وكلُّ ذٰلكَ عندَ أربابِ القلوبِ موصوفٌ بالحظْرِ ، فأقولُ مثلاً :

لو استنجيتَ باليمينِ . . فقدْ كفرتَ نعمةَ اليدينِ ؛ إذْ خلقَ اللهُ لكَ اليدينِ ، وجعلَ إحداهُما أقوىٰ مِنَ الأخرىٰ ، فاستحقَّ الأقوىٰ بمزيدِ رجحانِهِ في الغالبِ التشريفَ والتفضيلَ ؛ إذْ تفضيلُ الناقصِ عدولٌ عنِ العدْلِ ، واللهُ لا يأمرُ إلا بالعدلِ ، ثمَّ أحوجَكَ مَنْ أعطاكَ اليدينِ إلىٰ أعمالٍ بعضُها شريفةٌ كأخذِ المصحفِ ، وبعضُها خسيسةٌ كإزالةِ النجاسةِ ، فإذا أخذتَ المصحفَ باليسارِ وأزلتَ النجاسةَ باليمينِ . . فقدْ خصصتَ الشريفَ بما هوَ خسيسٌ ، فغضضتَ مِنْ حقِّهِ وظلمتَهُ وعدلتَ عنِ العدْلِ .

وكذٰلكَ إذا بصقتَ مثلاً في جهةِ القبلةِ أوِ استقبلتَها في قضاءِ الحاجةِ . . فقدْ كفرتَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ في خلْقِ الجهاتِ وخلْقِ سعةِ العالمِ ؛ لأنَّهُ خلقَ الجهاتِ لتكونَ متسعَكَ في حركتِكَ ، وقسمَ الجهاتِ إلىٰ ما لمْ يشرِّفْها ، وإلىٰ ما شرَّفَها بأنْ وضعَ فيها بيتاً أضافَهُ إلىٰ نفسِهِ استمالةً لقلبِكَ إليهِ ؛ ليتقيَّدَ بهِ قلبُكَ ، فيتقيَّدَ بسببِهِ بدنُكَ في تلكَ الجهةِ علىٰ هيئةِ الثباتِ والوقارِ إذا عبدتَ ربَّكَ ، وكذٰلكَ انقسمَتْ أفعالُكَ إلىٰ ما هيَ شريفةٌ كالطاعاتِ ، وإلىٰ ما هيَ خسيسةٌ كقضاءِ الحاجةِ ورمي البصاقِ ، فإذا رميتَ بصاقَكَ إلىٰ جهةِ القبلةِ . . فقدْ ظلمتَها وكفرتَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ عليكَ بوضعِ القبلةِ التي بوضعِها كمالُ عبادتِكَ .

وكذٰلكَ إذا لبستَ خفَّكَ فابتدأتَ باليسرىٰ . . فقدْ ظلمتَ ؛ لأنَّ الخفَّ وقايةٌ للرجْلِ ، فللرجْلِ فيهِ حظٌّ ، والبدايةُ في الحظوظِ ينبغي أنْ تكونَ بالأشرفِ ، فهوَ العدْلُ والوفاءُ بالحكمةِ ، ونقيضُهُ ظلمٌ وكفرانٌ لنعمةِ الرجْلِ والخفِّ ، وهٰذا عندَ العارفينَ كبيرةٌ وإنْ سمَّاهُ الفقيهُ مكروهاً ، حتىٰ إنَّ بعضَهُمْ كانَ قدْ جمعَ أكراراً مِنَ الحنطةِ ، وكانَ يتصدَّقُ بها ، فسُئِلَ عنْ سببِهِ فقالَ : لبستُ المداسَ مرَّةً فابتدأتُ بالرجلِ اليسرىٰ سهواً ، فأريدُ أنْ أكفِّرَهُ بالصدقةِ .

نعم ؛ الفقيهُ لا يقدرُ علىٰ تفخيمِ الأمرِ في هٰذهِ الأمورِ ؛ لأنَّهُ مسكينٌ ، بُلِيَ بإصلاحِ العوامِّ الذينَ تقربُ درجتُهُمْ مِنْ درجةِ الأنعامِ وهُمْ منغمسونَ في ظلماتٍ أطمَّ وأعظمَ مِنْ أنْ تظهرَ أمثالُ هٰذهِ الظلماتِ بالإضافةِ إليها ، فقبيحٌ أنْ يُقالَ : الذي شربَ الخمرَ وأخذَ القدحَ بيسارِهِ فقدْ تعدَّىٰ مِنْ وجهينِ : أحدُهُما : الشربُ ، والآخرُ : الأخذُ باليسارِ ، ومَنْ

(١) وفي بعض النسخ : (بحكمة الحسم) بدل (بحكم الحسم) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٥٣) .

باعَ خمراً في وقتِ النداءِ يومَ الجمعةِ فقبيحٌ أنْ يُقالَ : خالفَ مِنْ وجهينِ : أحدُهُما : بيعُ الخمرِ ، والآخرُ : البيعُ في وقتِ النداءِ ، ومَنْ قضىٰ حاجتَهُ في محرابِ المسجدِ مستدبرَ القبلةِ فقبيحٌ أنْ يُذكرَ تركُهُ الأدبَ في قضاءِ الحاجةِ مِنْ حيثُ إنَّهُ لمْ يجعلِ القبلةَ عنْ يمينِهِ !!

فالمعاصي كلُّها ظلماتٌ ، وبعضُها فوقَ بعضٍ ، فينمحقُ بعضُها في جنْبِ البعضِ ، فالسيِّدُ قدْ يعاقبُ عبدَهُ إذا استعملَ سكينَهُ بغيرِ إذنِهِ ، ولٰكنْ لوْ قتلَ بتلكَ السكينِ أعزَّ أولادِهِ . . لمْ يبقَ لاستعمالِ السكينِ بغيرِ إذنِهِ حكْمٌ ونكايةٌ في نفسِهِ ، فكلُّ ما راعاهُ الأنبياءُ والأولياءُ مِنَ الآدابِ وتسامحنا فيهِ في الفقهِ معَ العوامِّ . فسببُهُ هٰذهِ الضرورةُ ، وإلا . . فكلُّ هٰذهِ المكارهِ عدولٌ عنِ العدْلِ ، وكفرانٌ للنعمةِ ، ونقصانٌ عنِ الدرجةِ المبلغةِ للعبدِ إلىٰ درجاتِ القرْبِ .

نعمْ ؛ بعضُها يؤثِّرُ في العبدِ بنقصانِ القربِ وانحطاطِ المنزلةِ ، وبعضُها يخرجُ بالكليَّةِ عنْ حدودِ القرْبِ إلىٰ عالمِ البعدِ الذي هوَ مستقرُّ الشياطينِ .

وكذٰلكَ مَنْ كسَرَ غصناً مِنْ شجرةٍ مِنْ غيرِ حاجةٍ ناجزةٍ مهمةٍ ومِنْ غيرِ غرضٍ صحيحٍ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ في خلقِ الأشجارِ وخلْقِ اليدِ .

أمَّا اليدُ . . فإنَّها لمْ تُخلقْ للعبثِ ، بلْ للطاعةِ والأعمالِ المعينةِ على الطاعةِ .

وأمَّا الشجرُ . . فإنَّما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، وخلقَ لهُ العروقَ ، وساقَ إليهِ الماءَ ، وخلقَ فيهِ قوَّةَ الاغتذاءِ والنماءِ . . ليبلغَ منتهىٰ نشوئِهِ فينتفعَ بِهِ عبادُهُ ، فكسرُهُ قبلَ منتهىٰ نشوئِهِ لا علىٰ وجهٍ ينتفعُ بِهِ عبادُهُ مخالفةٌ لمقصودِ الحكمةِ ، وعدولٌ عنِ العدْلِ ، فإنْ كانَ لهُ غرضٌ صحيحٌ . . فلهُ ذٰلكَ ؛ إذِ الشجرُ والحيوانُ جُعِلَا فداءً لأغراضِ الإنسانِ ؛ فإنَّهُما جميعاً فانيانِ هالكانِ ، فإفناءُ الأخسِّ في بقاءِ الأشرفِ مدَّةً ما أقربُ إلى العدْلِ مِنْ تضييعِهِما جميعاً ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ .

نعمْ ؛ إنْ كسرَ ذٰلكَ مِنْ ملكِ غيرِهِ . . فهوَ ظالمٌ أيضاً وإنْ كانَ محتاجاً ؛ لأنَّ كلَّ شجرةٍ بعينِها لا تفي بحاجاتِ عبادِ اللهِ كلِّهِمْ ، بلْ تفي بحاجةٍ واحدةٍ ، ولوْ خُصِّصَ واحدٌ بها مِنْ غيرِ رجحانٍ واختصاصٍ . . كانَ ظلماً ، وصاحبُ الاختصاصِ هوَ الذي حصَّلَ البذرَ ووضعَهُ في الأرضِ وساقَ إليهِ الماءَ وقامَ بالتعهُّدِ ، فهوَ أولىٰ بِهِ مِنْ غيرِهِ ، فيرجحُ جانبُهُ بذٰلكَ ، فإنْ نبتَ ذٰلكَ في مواتِ الأرضِ لا بسعيِ آدميٍّ اختصَّ بمغرسِهِ أوْ بغرسِهِ . . فلا بدَّ مِنْ طلبِ اختصاصٍ آخرَ ، وهوَ السبْقُ إلىٰ أخذِهِ ، فللسابقِ خاصِّيَّةُ السبقِ ، فالعدْلُ أنْ يكونَ هوَ أولىٰ بهِ ، وعبَّر الفقهاءُ عنْ هٰذا الترجيحِ بالملكِ ، وهوَ مجازٌ محضٌ ؛ إذْ لا ملكَ إلا لملكِ الملوكِ الذي لهُ ما في السماواتِ والأرضِ ، وكيفَ يكونُ العبدُ مالكاً وهوَ في نفسِهِ ليسَ يملكُ نفسَهُ بلْ هوَ ملكُ غيرِهِ ؟!

نعم ؛ الخلقُ عبادُ اللهِ ، والأرضُ مائدةُ اللهِ ، وقدْ أذنَ لهُمْ في الأكلِ مِنْ مائدتِهِ بقدْرِ حاجتِهِمْ ؛ كالملكِ ينصبُ مائدةً لعبيدِهِ ، فمَنْ أخذَ لقمةً بيمينِهِ واحتوتْ عليها براجمُهُ ، فجاءَ عبدٌ آخرُ وأرادَ انتزاعَها مِنْ يدِهِ . . لمْ يُمكَّنْ منهُ ، لا لأنَّ اللقمةَ صارَتْ ملكاً لهُ بالأخذِ باليدِ ؛ فإنَّ اليدَ وصاحبَ اليدِ أيضاً مملوكٌ ، ولٰكنْ إذا كانَتْ كلُّ لقمةٍ بعينِها لا تفي بحاجةِ كلِّ العبيدِ . . فالعدْلُ في التخصيصِ عندَ حصولِ ضربٍ مِنَ الترجيحِ والاختصاصِ والأخذِ . . اختصاصٌ ينفردُ بِهِ العبدُ ، فمنعُ مَنْ لا يدلي بذٰلكَ الاختصاصِ عنْ مزاحمتِهِ عدْلٌ

فهٰكذا ينبغي أنْ تفهمَ أمرَ اللهِ في عبادِهِ ، ولذٰلكَ نقولُ : مَنْ أخذَ مِنْ أموالِ الدنيا أكثرَ مِنْ حاجتِهِ وكنزَهُ وأمسكَهُ وفي عبادِ اللهِ مَنْ يحتاجُ إليهِ . . فهوَ ظالمٌ ، وهوَ منَ الذينَ يكنزونَ الذهبَ والفضَّةَ ولا ينفقونَها في سبيلِ اللهِ ، وإنَّما سبيلُ اللهِ طاعتُهُ ، وزادُ الخلقِ في طاعتِهِ أموالُ الدنيا ؛ إذْ بها تندفعُ ضروراتُهُمْ وترتفعُ حاجاتُهُمْ .

نعمْ ؛ لا يدخلُ هٰذا في حدِّ فتاوى الفقهِ ؛ لأنَّ مقاديرَ الحاجاتِ خفيَّةٌ ، والنفوسُ في استشعارِ الفقرِ في الاستقبالِ مختلفةٌ ، وأواخرُ الأعمارِ غيرُ معلومةٍ ، فتكليفُ العوامِّ ذٰلكَ يجري مَجرىٰ تكليفِ الصبيانِ الوقارَ والتؤدةَ والسكوتَ عنْ كلِّ كلامٍ غيرِ مهمٍّ ، وهُمْ بحكْمِ نقصانِهِمْ لا يطيقونَهُ ، فتركنا الاعتراضَ عليهِمْ في اللعبِ واللهوِ ، وإباحتُنا إيَّاهُمْ ذٰلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّ اللهوَ واللعبَ حقٌّ ؛ فكذٰلكَ إباحتُنا للعوامِّ حفْظَ الأموالِ والاقتصارَ في الإنفاقِ علىٰ قدْرِ الزكواتِ لضرورةِ ما جُبلوا عليهِ مِنَ البخلِ . . لا يدلُّ علىٰ أنَّهُ غايةُ الحقِّ .

وقدْ أشارَ القرآنُ إليهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾[1] ، بلِ الحقُّ الذي لا كدورةَ فيهِ والعدْلُ الذي لا ظلمَ فيهِ ألا يأخذَ أحدٌ مِنْ عبادِ اللهِ مِنْ مالِ اللهِ إلا بقدْرِ زادِ الراكبِ ، وكلُّ عبادِ اللهِ ركَّابٌ لمطايا الأبدانِ إلىٰ حضرةِ الملكِ الديَّانِ ، فمتىٰ أخذَ زيادةً عليهِ ، ومنعَهُ عنْ راكبٍ آخرَ محتاجٍ إليهِ . . فهوَ ظالمٌ تاركٌ للعدْلِ ، وخارجٌ عنْ مقصودِ الحكمةِ ، وكافرٌ نعمةَ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالقرآنِ والرسولِ والعقلِ وسائرِ الأسبابِ التي بها عرفَ أنَّ ما سوىٰ زادِ الراكبِ وبالٌ عليهِ في الدنيا والآخرةِ .

فمَنْ فهمَ حكمةَ اللهِ تعالىٰ في جميعِ أنواعِ الموجوداتِ . . قدرَ على القيامِ بوظيفةِ الشكرِ ، واستقصاءُ ذٰلكَ يحتاجُ إلىٰ مجلداتٍ ، ثمَّ لا يفي إلا بالقليلِ ، وإنَّما أوردنا هٰذا القدْرَ ليُعلمَ علَّةُ الصدقِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ ، وفرحِ إبليسَ لعنَهُ اللهُ بقولِهِ : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ ، فلا يعرفُ معنىٰ هٰذهِ الآيةِ مَنْ لمْ يعرفْ هٰذا كلَّهُ وأموراً أخرَ وراءَ هٰذا تنقضي الأعمارُ دونَ استقصاءِ مباديها ، فأمَّا تفسيرُ الآيةِ ومعنىٰ لفظِها . . فيعرفُهُ كلُّ مَنْ يعرفُ اللغةَ ، وبهٰذا يتبيَّنُ لكَ الفرقُ بينَ المعنىٰ والتفسيرِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ رجعَ حاصلُ هٰذا الكلامِ إلىٰ أنَّ للهِ تعالىٰ حكمةً في كلِّ شيءٍ ، وأنَّهُ جعلَ بعضَ أفعالِ العبادِ سبباً لتمامِ تلكَ الحكمةِ وبلوغِها غايةَ المرادِ منها ، وجعلَ بعضَ أفعالِهِمْ مانعاً مِنْ تمامِ الحكمةِ ، فكلُّ فعلٍ وافقَ مقتضى الحكمةِ حتَّى انساقَتِ الحكمةُ إلىٰ غايتِها . . فهوَ شكرٌ ، وكلُّ ما خالفَ ومنعَ الأسبابَ مِنْ أنْ تنساقَ إلى الغايةِ المرادةِ بها . . فهوَ كفرانٌ ، وهٰذا كلُّهُ مفهومٌ ، ولٰكنَّ الإشكالَ باقٍ ، وهوَ أنَّ فعلَ العبدِ المنقسمَ إلىٰ ما يتمِّمُ الحكمةَ وإلىٰ ما يدفعُها . . هوَ أيضاً مِنْ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، فأينَ العبدُ في البينِ حتَّىٰ يكونَ شاكراً مرَّةً وكافراً أخرىٰ ؟

فاعلمْ : أنَّ تمامَ التحقيقِ في هٰذا يُستمدُّ مِنْ تيارِ بحرٍ عظيمٍ مِنْ علومِ المكاشفاتِ ، وقدْ رمزنا فيما سبقَ إلىٰ تلويحاتٍ بمباديها ، ونحنُ الآنَ نعبِّرُ بعبارةٍ وجيزةٍ عنْ آخرِها وغايتِها ، يفهمُها مَنْ عرفَ منطقَ الطيرِ ، ويجحدُها مَنْ عجزَ عنِ الإيضاعِ في السيرِ[2] ، فضلاً عنْ أنْ يجولَ في جوِّ الملكوتِ جولانَ الطيرِ ، فنقولُ :

إنَّ للهِ سبحانَهُ في جلالِهِ وكبريائِهِ صفةً عنها يصدرُ الخلقُ والاختراعُ ، وتلكَ الصفةُ أعلىٰ وأجلُّ مِنْ أنْ تلمحَها

---

(١) أي : متىٰ يبالغ في سؤالكم حتىٰ لا تبقوا منها شيئاً إلا وقد صرفتموه في سبيل الحق . . تبخلوا ، وذٰلك مقتضى الجبلية . « إتحاف » (٩/٧١) .
(٢) أي : الإسراع في السير .

عينُ واضعِ اللغةِ حتَّىٰ يعبّرَ عنها بعبارةٍ تدلُّ علىٰ كنْهِ جلالِها وخصوصِ حقيقتِها ، فلمْ يكنْ لها في العالمِ عبارةٌ لعلوِّ شأنِها وانحطاطِ رتبةِ واضعي اللغاتِ عنْ أنْ يمتدَّ طرفُهُمْ إلىٰ مبادي إشراقِها ، فانخفضَتْ عنْ ذروتِها أبصارُهُمْ كما تنخفضُ أبصارُ الخفافيشِ عنْ نورِ الشمسِ ، لا لغموضٍ في نورِ الشمسِ ، ولٰكنْ لضعفٍ في أبصارِ الخفافيشِ ، فاضطرَّ الذينَ فُتحَتْ أبصارُهُمْ لملاحظةِ جلالِها إلىٰ أنْ يستعيروا مِنْ حضيضِ عالمِ المتناطقينَ باللغاتِ عبارةً تفهمُ مِنْ مبادي حقائقِها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسمَ القدرةِ ، فتجاسرنا بسببِ استعارتِهِمْ على النطقِ فقلنا : للهِ تعالىٰ صفةٌ هيَ القدرةُ ، عنها يصدرُ الخلْقُ والاختراعُ .

ثمَّ الخلْقُ ينقسمُ في الوجودِ إلىٰ أقسامٍ وخصوصِ صفاتٍ ، ومصدرُ انقسامِ هٰذهِ الأقسامِ واختصاصُها بخصوصِ صفاتِها صفةٌ أخرى استُعيرَ لها بمثلِ الضرورةِ التي سبقَتْ عبارةُ المشيئةِ ، فهيَ توهمُ منها أمراً مجملاً عندَ المتناطقينَ باللغاتِ التي هيَ حروفٌ وأصواتُ المتفاهمينَ بها ، وقصورُ لفظِ المشيئةِ عنِ الدلالةِ علىٰ كنهِ تلكَ الصفةِ وحقيقتِها كقصورِ لفظِ القدرةِ .

ثمَّ انقسمَتِ الأفعالُ الصادرةُ مِنَ القدرةِ إلىٰ ما ينساقُ إلى المنتهى الذي هوَ غايةُ حكمتِها وإلىٰ ما يقفُ دونَ الغايةِ ، وكانَ لكلِّ واحدٍ نسبةٌ إلىٰ صفةِ المشيئةِ ؛ لرجوعِها إلى الاختصاصاتِ التي بها تتمُّ القسمةُ والاختلافُ ، فاستُعيرَ لنسبةِ البالغِ غايتَهُ عبارةُ المحبَّةِ ، واستُعيرَ لنسبةِ الواقفِ دونَ غايتِهِ عبارةُ الكراهةِ ، وقيلَ : إنَّهُما جميعاً داخلانِ في وصفِ المشيئةِ ، ولٰكنْ لكلِّ واحدٍ خاصِّيَّةٌ أخرىٰ في النسبةِ ، يوهمُ لفظُ المحبَّةِ والكراهةِ منهُما أمراً مجملاً عندَ طالبي الفهمِ مِنَ الألفاظِ واللغاتِ .

ثمَّ انقسمَ عبادُهُ الذينَ هُمْ أيضاً مِنْ خلقِهِ واختراعِهِ إلىٰ مَنْ سبقَتْ لهُ في المشيئةِ الأزليَّةِ أنْ يستعملَهُ لاستيقافِ حكمتِهِ دونَ غايتِها ، ويكونُ ذٰلكَ قهراً في حقِّهِمْ بتسليطِ الدواعي والبواعثِ عليهِمْ ، وإلىٰ مَنْ سبقَتْ لهُمْ في الأزلِ أنْ يستعملَهُمْ لسياقةِ حكمتِهِ إلىٰ غايتِها في بعضِ الأمورِ ، فكانَ لكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقينِ نسبةٌ إلى المشيئةِ خاصَّةٌ ، فاستُعيرَ لنسبةِ المستعمَلينَ في إتمامِ الحكمةِ بهِمْ عبارةُ الرضا ، واستُعيرَ للذينَ استوقفَ بهِمْ أسبابَ الحكمةِ دونَ غايتِها عبارةُ الغضبِ ، فظهرَ علىٰ مَنْ غضبَ عليهِ في الأزلِ فعلٌ وقفَتِ الحكمةُ بهِ دونَ غايتِها ، فاستُعيرَ لهُ الكفرانُ ، وأُردفَ ذٰلكَ بنقمةِ اللعنِ والمذمَّةِ زيادةً في النكالِ ، وظهرَ علىٰ مَنِ ارتضاهُ في الأزلِ فعلٌ انساقَتْ بسببِهِ الحكمةُ إلىٰ غايتِها ، فاستُعيرَ لهُ عبارةُ الشكرِ ، وأُردفَ بخلعةِ الثناءِ والإطراءِ زيادةً في الرضا والقبولِ والإقبالِ .

فكانَ الحاصلُ أنَّهُ تعالىٰ أعطى الجمالَ ثمَّ أثنىٰ ، وأعطى النكالَ ثمَّ قبَّحَ وأردىٰ ، وكانَ مثالُهُ أنْ ينظِّفَ الملكُ عبدَهُ الوسخَ عنْ أوساخِهِ ، ثمَّ يلبسَهُ مِنْ محاسنِ ثيابِهِ ، فإذا تمَّمَ زينتَهُ . . قالَ : يا جميلُ ؛ ما أجملَكَ وأجملَ ثيابَكَ وأنظفَ وجهَكَ !! فيكونُ بالحقيقةِ هوَ المجمِّلَ وهوَ المثنيَ على الجمالِ ، فهوَ المُثنىٰ عليهِ بكلِّ حالٍ ، وكأنَّهُ لمْ يثنِ مِنْ حيثُ المعنىٰ إلا علىٰ نفسِهِ ، وإنَّما العبدُ هدفُ الثناءِ مِنْ حيثُ الظاهرُ والصورةُ .

فهٰكذا كانتِ الأمورُ في أزلِ الآزالِ ، وهٰكذا تسلسلتِ الأسبابُ والمسبَّباتُ بتقديرِ ربِّ الأربابِ ومسبِّبِ الأسبابِ ، ولمْ يكنْ ذٰلكَ عنِ اتفاقٍ وبحثٍ ، بلْ عنْ إرادةٍ وحكمةٍ ، وحكمٍ حقٍّ وأمرٍ جزْمٍ استُعيرَ لهُ لفظُ القضاءِ ، وقيلَ : إنَّهُ كلمحٍ بالبصرِ أوْ هوَ أقربُ ، ففاضَتْ بحارُ المقاديرِ بحكْمِ ذٰلكَ القضاءِ الجزْمِ بما سبقَ بهِ التقديرُ ، فاستُعيرَ لترتُّبِ آحادِ المقدوراتِ بعضِها علىٰ بعضٍ لفظُ القَدَرِ ، فكانَ لفظُ القضاءِ بإزاءِ الأمرِ الواحدِ الكلِّيِّ ، ولفظُ القَدَرِ بإزاءِ التفصيلِ المتمادي إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وقيلَ : إنَّ شيئاً مِنْ ذٰلكَ ليسَ خارجاً عنِ القضاءِ والقدَرِ ، فخطرَ لبعضِ العبادِ أنَّ القسمةَ لماذا

اقتضتْ هٰذا التفصيلَ ؟ وكيفَ انتظمَ العدْلُ معَ هٰذا التفاوتِ والتفضيلِ ؟ وكانَ بعضُهُمْ لقصورِهِ لا يطيقُ ملاحظةَ كنْهِ هٰذا الأمرِ والاحتواءِ علىٰ مجامعِهِ ، فأُلجموا عمَّا لمْ يطيقوا خوضَ غمرتِهِ بلجامِ المنعِ ، وقيلَ لهُمُ : اسكتوا ، فما لهٰذا خلقتُمْ ، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُمْ يُسألونَ .

وامتلأَتْ مشكاةُ بعضِهِمْ نوراً مقتبَساً مِنْ نورِ اللهِ تعالىٰ في السماواتِ والأرضِ ، وكانَ زيتُهُمْ أوَّلاً صافياً يكادُ يضيءُ ولوْ لمْ تمسسْهُ نارٌ ، فمسَّتْهُ نارٌ ، فاشتعلَ نوراً علىٰ نورٍ ، فأشرقَتْ أقطارُ الملكوتِ بينَ أيديهِمْ بنورِ ربِّها ، فأدركوا الأمورَ كلَّها علىٰ ما هيَ عليهِ ، فقيلَ لهُمْ : تأدَّبوا بآدابِ اللهِ تعالىٰ واسكتوا ، وإذا ذُكِرَ القَدَرُ . . فأمسكوا ؛ فإنَّ للحيطانِ آذاناً ، وحوالَيْكُمْ ضعفاءُ الأبصارِ ، فسيروا بسيرِ أضعفِكُمْ ، ولا تكشفوا حجابَ الشمسِ لأبصارِ الخفافيشِ ، فيكونَ ذٰلكَ سببَ هلاكِهِمْ ، فتخلَّقوا بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ، وانزلوا إلىٰ سماءِ الدنيا مِنْ منتهىٰ علوِّكُمْ ليأنسَ بكُمُ الضعفاءُ ، ويقتبسوا مِنْ بقايا أنوارِكُمُ المشرقةِ مِنْ وراءِ حجابِكُمْ ؛ كما يقتبسُ الخفافيشُ مِنْ بقايا نورِ الشمسِ والكواكبِ في جنحِ الليلِ ، فيحيا بهِ حياةً يحتملُها شخصُهُ وحالُهُ ، وإنْ كانَ لا يحيا بهِ حياةَ المتردِّدينَ في كمالِ نورِ الشمسِ ، وكونوا كمَنْ قيلَ فيهِمْ[1] : [من الطويل]

شَرِبْنا شَراباً طَيِّباً عِنْدَ طَيِّبٍ ... كَذاكَ شَرابُ الطَّيِّبِينَ يَطِيبُ
شَرِبْنا وَأَهْرَقْنا عَلَى الأَرْضِ فَضْلَةً ... وَلِلأَرْضِ مِنْ كَأْسِ الْكِرَامِ نَصِيبُ

فهٰكذا كانَ أوَّلُ هٰذا الأمرِ وآخرُهُ ، ولا تفهمُهُ إلا إذا كنتَ أهلاً لهُ ، وإذا كنتَ أهلاً لهُ . . فتحتَ العينَ وأبصرتَ ، فلا تحتاجُ إلىٰ قائدٍ يقودُكَ ، والأعمىٰ يمكنُ أنْ يُقادَ ، ولٰكنْ إلىٰ حدٍّ ما ، فإذا ضاقَ الطريقُ وصارَ أحدَّ مِنَ السيفِ وأدقَّ مِنَ الشعرِ . . قدرَ الطائرُ علىٰ أنْ يطيرَ عليهِ ، ولمْ يقدرْ علىٰ أنْ يستجرَّ وراءَهُ أعمىٰ ، وإذا دقَّ المجالُ ولطُفَ لطْفَ الماءِ مثلاً ، ولمْ يمكنِ العبورُ إلا بالسباحةِ . . فقدْ يقدرُ الماهرُ بصنعةِ السباحةِ أنْ يعبرَ بنفسِهِ ، وربَّما لمْ يقدرْ علىٰ أنْ يستجرَّ وراءَهُ آخرَ .

فهٰذهِ أمورٌ نسبةُ السيرِ عليها إلى السيرِ علىٰ ما هوَ مجالُ جماهيرِ الخلْقِ كنسبةِ المشيِ على الماءِ إلى المشيِ على الأرضِ ، والسباحةُ يمكنُ أنْ تُتعلَّمَ ، فأمَّا المشيُ على الماءِ . . فلا يُكتسبُ بالتعلُّمِ ، بلْ يُنالُ بقوَّةِ اليقينِ ، ولذٰلكَ قيلَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ يُقالُ : إنَّهُ مشىٰ على الماءِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لو ازدادَ يقيناً . . لمشىٰ على الهواءِ »[2]

فهٰذهِ رموزٌ وإشاراتٌ إلىٰ معنى الكراهةِ والمحبَّةِ ، والرضا والغضبِ ، والشكرِ والكفرانِ ، لا يليقُ بعلمِ المعاملةِ أكثرُ منها .

وقدْ ضربَ اللهُ مثلاً لذٰلكَ تقريباً إلىٰ أفهامِ الخلْقِ ؛ إذْ عرَّفَ أنَّهُ ما خلقَ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدوهُ ، فكانَتْ عبادتُهُمْ غايةَ الحكمةِ في حقِّهِمْ ، ثمَّ أخبرَ أنَّ لهُ عبدينِ ؛ يحبُّ أحدَهُما ، واسمُهُ جبريلُ وروحُ القدُسِ والأمينُ ، وهوَ عندَهُ محبوبٌ مطاعٌ أمينٌ مكينٌ ، ويبغضُ الآخرَ ، واسمُهُ إبليسُ ، وهوَ اللعينُ ، المُنْظَرُ إلىٰ يومِ الدينِ .

ثمَّ أحالَ **الإرشادَ** إلىٰ جبريلَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ

---

(١) انظر « زهر الأكم » (١/٢٦٥) .

(٢) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٤٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهو كذٰلك عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣٠٣) ، وانظر « الإتحاف » (٩/٧٥) .

عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ، وأحالَ الإغواءَ علىٰ إبليسَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ، والإغواءُ : هوَ استيقافُ العبادِ دونَ بلوغِ غايةِ الحكمةِ ، فانظرْ كيفَ نسبَهُ إلى العبدِ الذي غضبَ عليهِ ، والإرشادُ : سياقةٌ لهُمْ إلى الغايةِ ، فانظرْ كيفَ نسبَهُ إلى العبدِ الذي أحبَّهُ .

وعندَكَ في العادةِ لهُ مثالٌ ؛ فالملكُ إذا كانَ محتاجاً إلىٰ مَنْ يسقيهِ الشرابَ وإلىٰ مَنْ يحجمُهُ وينظِّفُ فِناءَ منزلِهِ عنِ القاذوراتِ وكانَ لهُ عبدانِ . . فلا يعيِّنُ للحجامةِ والتنظيفِ إلا أقبحَهُما وأخسَّهُما ، ولا يفوِّضُ حملَ الشرابِ الطيِّبِ إلا إلىٰ أحسنِهما وأكملِهما وأحبِّهما إليهِ .

ولا ينبغي أنْ تقولَ : هٰذا فعلي ، فلِمَ يكونُ فعلُهُ علىٰ وزانِ فعلي ؟ فإنَّكَ أخطأتَ إذْ أضفتَ ذٰلكَ إلىٰ نفسِكَ ، بلْ هوَ الذي صرفَ داعيتَكَ لتخصيصِ الفعلِ المكروهِ بالشخصِ المكروهِ والفعلِ المحبوبِ بالشخصِ المحبوبِ ؛ إتماماً للعدْلِ ، فإنَّ عدْلَهُ تارةً يتمُّ بأمورٍ لا مدخلَ لكَ فيها ، وتارةً يتمُّ فيكَ ، فإنَّكَ أيضاً مِنْ أفعالِهِ ، فداعيتُكَ وقدرتُكَ ، وعلمُكَ وعملُكَ ، وسائرُ أسبابِ حركاتِكَ في التعيينِ . . هوَ فعلُهُ الذي رتَّبَهُ بالعدلِ ترتيباً تصدرُ منهُ الأفعالُ المعتدلةُ ، إلا أنَّكَ لا ترىٰ إلا نفسَكَ ، فتظنُّ أنَّ ما يظهرُ عليكَ في عالمِ الشهادةِ ليسَ لهُ سببٌ مِنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، فلذٰلكَ تضيفُهُ إلىٰ نفسِكَ .

وإنَّما أنتَ مثلُ الصبيِّ الذي ينظرُ ليلاً إلىٰ لعبِ المشعوذِ الذي يخرجُ صوراً مِنْ وراءِ حجابٍ ترقصُ وتزعقُ وتقومُ وتقعدُ ، وهيَ مؤلَّفةٌ مِنْ خرقٍ لا تتحرَّكُ بأنفسِها ، وإنَّما تحرِّكُها خيوطٌ شعريَّةٌ دقيقةٌ لا تظهرُ في ظلامِ الليلِ ، ورؤوسُها في يدِ المشعوذِ ، وهوَ محتجبٌ عنْ أبصارِ الصبيانِ ، فيفرحونَ ويتعجَّبونُ ؛ لظنِّهِمْ أنَّ تلكَ الخرقَ ترقصُ وتلعبُ وتقومُ وتقعدُ ، وأمَّا العقلاءُ . . فإنَّهُمْ يعلمونَ أنَّ ذٰلكَ تحريكٌ وليسَ بتحرُّكٍ ، ولٰكنَّهُمْ ربَّما لا يعلمونَ كيفَ تفصيلُهُ ، والذي يعلمُ بعضَ تفصيلِهِ لا يعلمُهُ كما يعلمُهُ المشعوذُ الذي الأمرُ إليهِ والجاذبةُ بيدِهِ .

فكذٰلكَ صبيانُ أهلِ الدنيا ، والخلقُ كلُّهُمْ صبيانٌ بالنسبةِ إلى العلماءِ ، ينظرونَ إلىٰ هٰذهِ الأشخاصِ فيظنُّونَ أنَّها المتحرِّكةُ ، فيحيلونَ عليها ، والعلماءُ يعلمونَ أنَّهُمْ محرَّكونَ إلا أنَّهُمْ لا يعرفونَ كيفيَّةَ التحريكِ وهُمُ الأكثرونَ ، إلا العارفونَ والعلماءُ الراسخونَ ، فإنَّهُمْ أدركوا بحدَّةِ أبصارِهِمْ خيوطاً دقيقةً عنكبوتيَّةً ، بلْ أدقُّ منها بكثيرٍ ، معلَّقةً مِنَ السماءِ متشبثةَ الأطرافِ بأشخاصِ أهلِ الأرضِ ، لا تُدركُ تلكَ الخيوطُ لدقَّتِها بهٰذهِ الأبصارِ الظاهرةِ ، ثمَّ شاهدوا رؤوسَ تلكَ الخيوطِ في مناطاتٍ لها هيَ معلَّقةٌ بها ، وشاهدوا لتلكَ المناطاتِ مقابضَ هيَ في أيدي الملائكةِ المحرِّكينَ للسماواتِ ، وشاهدوا أبصارَ ملائكةِ السماواتِ مصروفةً إلىٰ حملةِ العرشِ ، ينتظرونَ منهُم ما ينزلُ عليهِمْ مِنَ الأمرِ مِنْ حضرةِ الربوبيَّةِ كيْ لا يعصوا اللهَ ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمرونَ .

وعُبِّرَ عنْ هٰذهِ المكاشفاتِ في القرآنِ فقيلَ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وعُبِّرَ عنِ انتظارِ ملائكةِ السماواتِ لما ينزلُ إليهِمْ مِنَ الأمرِ والقدَرِ فقيلَ : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

وهٰذهِ أمورٌ لا يعلمُ تأويلَها إلا اللهُ والراسخونَ في العلمِ ، وعبَّرَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عنِ اختصاصِ الراسخينَ في العلمِ بعلومٍ لا تحتملُها أفهامُ الخلقِ حيثُ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ فقالَ : (لوْ ذكرتُ ما أعرفُهُ مِنْ معنىٰ هٰذهِ الآيةِ . . لرجمتُموني) ، وفي لفظٍ آخرَ : (لقلتُمْ : إنَّهُ كافرٌ)[(١)]

(١) كذا في « القوت » (٢٥٣/١) ، وبنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (١٨٨/٢٨/١٤) .

ولنقتصرْ علىٰ هـٰذا القدْرِ ، فقدْ خرجَ عِنانُ الكلامِ عنْ قبضةِ الاختيارِ ، وامتزجَ بعلمِ المعاملةِ ما ليسَ منهُ ، فلنرجعْ إلىٰ مقاصدِ الشكرِ ، فنقولُ :

إذا رجعَ حقيقةُ الشكرِ إلىٰ كونِ العبدِ مستعملاً في إتمامِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ . . فأشكرُ العبادِ أحبُّهُمْ إلى اللهِ وأقربُهُمْ إليهِ ، وأقربُهُمْ إلى اللهِ الملائكةُ ، ولهُمْ أيضاً ترتيبٌ ، وما منهُمْ إلا لهُ مقامٌ معلومٌ ، وأعلاهُمْ في رتبةِ القرْبِ ملكٌ اسمُهُ إسرافيلُ عليهِ السلامُ ، وإنَّما علوُّ درجتِهِمْ لأنَّهُمْ في أنفسِهِمْ كرامٌ بررةٌ ، وقدْ أصلحَ اللهُ تعالىٰ بهِمُ الأنبياءَ عليهِمُ السلامُ وهُمْ أشرفُ مخلوقٍ علىٰ وجهِ الأرضِ ، وتلي درجتَهُمْ درجةُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، فإنَّهُمْ في أنفسِهِمْ أخيارٌ ، وقدْ هدى اللهُ بهِمْ سائرَ الخلْقِ ، وتمَّمَ بهِمْ حكمتَهُ ، وأعلاهُمْ رتبةً نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ أكملَ اللهُ بهِ الدينَ ، وختمَ بهِ النبيِّينَ ، ويليهِمُ العلماءُ الذينَ هُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، فإنَّهُمْ في أنفسِهِمْ صالحونَ ، وقدْ أصلحَ اللهُ بهِمْ سائرَ الخلقِ ، ودرجةُ كلِّ واحدٍ منهُمْ بقدْرِ ما أصلحَ مِنْ نفسِهِ ومِنْ غيرِهِ ، ثمَّ يليهِمُ السلاطينُ بالعدْلِ ؛ لأنَّهُمْ أصلحوا دنيا الخلْقِ كما أصلحَ العلماءُ دينَهُمْ ، ولأجلِ اجتماعِ الدينِ والملكِ والسلطنةِ لنبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . كانَ أفضلَ مِنْ سائرِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ؛ فإنَّهُ أكملَ اللهُ بهِ صلاحَ دينِهِمْ ودنياهُمْ ، ولمْ يكنِ السيفُ والملكُ لغيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ، ثمَّ يلي العلماءَ والسلاطينَ الصالحونَ الذينَ أصلحوا نفوسَهُمْ فقطْ ، فلمْ تتمَّ حكمةُ اللهِ بهِمْ إلا فيهِمْ ، ومَنْ عدا هـٰؤلاءِ . . فهمَجٌ رَعاعٌ .

واعلمْ : أنَّ السلطانَ بهِ قوامُ الدينِ ، فلا ينبغي أنْ يُستحقرَ وإنْ كانَ ظالماً فاسقاً ، قال عمرُو بنُ العاصِ : (إمامٌ غشومٌ خيرٌ مِنْ فتنةٍ تدومُ)[1]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ عليكُمْ أمراءُ يفسدونَ وما يصلحُ اللهُ بهِمْ أكثرُ ، فإنْ أحسنوا . . فلهُمُ الأجرُ وعليكُمُ الشكرُ ، وإنْ أساؤوا . . فعليهِمُ الوزرُ وعليكُمُ الصبرُ »[2] .

وقالَ سهلٌ : (مَنْ أنكرَ إمامةَ السلطانِ . . فهوَ زنديقٌ ، ومَنْ دعاهُ السلطانُ فلمْ يجبْ . . فهوَ مبتدعٌ ، ومَنْ أتاهُ مِنْ غيرِ دعوةٍ . . فهوَ جاهلٌ)[3]

وسُئِلَ : أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ فقالَ : السلطانُ ، فقيلَ : كنَّا نرىٰ أنَّ شرَّ الناسِ السلطانُ !! فقالَ : مهلاً ، إنَّ للهِ تعالىٰ كلَّ يومٍ نظرتينِ ، نظرةٌ إلىٰ سلامةِ أموالِ المسلمينَ ، ونظرةٌ إلىٰ سلامةِ أبكارِهِمْ ، فيطلعُ في صحيفتِهِ ، فيغفرُ لهُ جميعَ ذنوبِهِ[4]

وكانَ يقولُ : (الخشباتُ السودُ المعلَّقةُ علىٰ أبوابِهِمْ خيرٌ مِنْ سبعينَ قاصّاً يقصُّونَ)[5]

* * *

---

(١) قوت القلوب (١٢٥/٢) ، **والغشوم** : الظالم .

(٢) كذا في « القوت » (١٢٥/٢) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٢٢٠/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٩٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، وروى الطبراني في « الكبير » (١٣٢/١٠) من حديثه رضي الله عنه : اصبروا ؛ فإن جور إمام خمسين عاماً خير من هرج شهر ، وذلك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا بد للناس من إمارة برة أو فاجرة ، فأما البرة . . فتعدل في القسم ، ويقسم بينكم فيئكم بالسوية ، وأما الفاجرة . . فيبتلىٰ فيها المؤمن ، والإمارة الفاجرة خير من الهرج » ، قيل : يا رسول الله ؛ وما الهرج ؟ قال : « القتل والكذب » .

(٣) قوت القلوب (١٢٥/٢) .

(٤) قوت القلوب (١٢٥/٢) . وفي (أ) : (أبصارهم) ، وفي (د) : (أبدانهم) .

(٥) قوت القلوب (١٢٥/٢) .

الركن الثاني من أركان الشكر : ما عليه الشكر

وهوَ النعمةُ ، ولنذكرْ فيهِ حقيقةَ النعمةِ ، وأقسامَها ، ودرجاتِها ، وأصنافَها ، ومجامعَها فيما يخصُّ ويعمُّ ، فإنَّ إحصاءَ نعمِ اللهِ علىٰ عبادِهِ خارجٌ عنْ مقدورِ البشرِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ .

فنقدِّمُ أموراً كليَّةً تجري مَجرى القوانينِ في معرفةِ النعَمِ ، ثمَّ نشتغلُ بذكرِ الآحادِ ، واللهُ الموفقُ للصوابِ .

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلمْ : أنَّ كلَّ خيرٍ ولذَّةٍ وسعادةٍ ، بلْ كلَّ مطلوبٍ ومؤْثَرٍ فإنَّهُ يُسمَّىٰ نعمةً ، ولـٰكنَّ النعمةَ بالحقيقةِ هيَ السعادةُ الأخرويَّةُ ، وتسميةُ ما عداها نعمةً وسعادةً إمَّا غلطٌ وإمَّا مجازٌ ؛ كتسميةِ السعادةِ الدنيويةِ التي لا تعينُ على الآخرةِ نعمةً ، فإنَّ ذٰلكَ غلطٌ محضٌ ، وقدْ يكونُ اسمُ النعمةِ للشيءِ صدقاً ، ولـٰكنْ يكونُ إطلاقُهُ على السعادةِ الأخرويَّةِ أصدقَ ؛ ككلِّ سببٍ يوصلُ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ويعينُ عليها ، إمَّا بواسطةٍ واحدةٍ أوْ بوسائطَ ، فإنَّ تسميتَهُ نعمةً صحيحٌ وصدقٌ ؛ لأجلِ أنَّهُ يفضي إلى النعمةِ الحقيقيةِ .

❁ ❁ ❁

والأسبابُ المعينةُ واللذَّاتُ المسمَّاةُ نعمةً نشرحُها بتقسيماتٍ :

القسمةُ الأولىٰ :

أنَّ الأمورَ كلَّها بالإضافةِ إلينا تنقسمُ إلىٰ ما هوَ نافعٌ في الدنيا والآخرةِ جميعاً ؛ كالعلمِ وحسْنِ الخلُقِ ، وإلىٰ ما هوَ ضارٌّ فيهِما جميعاً ؛ كالجهلِ وسوءِ الخلُقِ ، وإلىٰ ما ينفعُ في الحالِ ويضرُّ في المآلِ ؛ كالتلذُّذِ باتباعِ الشهواتِ ، وإلىٰ ما يضرُّ في الحالِ ويؤلمُ ولـٰكنْ ينفعُ في المآلِ ؛ كقمعِ الشهواتِ ومخالفةِ النفسِ .

فالنافعُ في الحالِ والمآلِ هوَ النعمةُ تحقيقاً ؛ كالعلمِ وحسْنِ الخلقِ ، والضارُّ فيهِما هوَ البلاءُ تحقيقاً ؛ وهوَ ضدُّهُما .

والنافعُ في الحالِ المضرُّ في المآلِ بلاءٌ محضٌ عندَ ذوي الأبصارِ وتظنُّهُ الجهَّالُ نعمةً ، ومثالُهُ : الجائعُ إذا وجدَ عسلاً فيهِ سمٌّ ، فإنَّهُ يعدُّهُ نعمةً إنْ كانَ جاهلاً ، وإذا علمَهُ . . علمَ أنَّ ذٰلكَ بلاءٌ سيقَ إليهِ .

والضارُّ في الحالِ النافعُ في المآلِ نعمةٌ عندَ ذوي الألبابِ ، بلاءٌ عندَ الجهَّالِ ، ومثالُهُ : الدواءُ البشعُ في الحالِ مذاقُهُ ، إلا أنَّهُ شافٍ مِنَ الأمراضِ والأسقامِ وجالبٌ للصحَّةِ والسلامةِ ، فالصبيُّ الجاهلُ إذا كُلِّفَ شربَهُ . . ظنَّهُ بلاءً ، والعاقلُ يعدُّهُ نعمةً ويتقلَّدُ المنَّةَ ممَّنْ يهديهِ إليهِ ويقربُهُ منهُ ويهيّئُ لهُ أسبابَهُ ، فلذٰلكَ تمنعُ الأمُّ ولدَها مِنَ الحجامةِ والأبُ يدعوهُ إليها ، فإنَّ الأبَ بكمالِ عقلِهِ يلحظُ العاقبةَ ، والأمَّ لقصورِها وفرْطِ حبِّها تلحظُ الحالَ ، والصبيَّ لجهلِهِ يتقلَّدُ منَّةً مِنْ أمِّهِ دونَ أبيهِ ، ويأنسُ إليها وإلىٰ شفقتِها ، ويقدِّرُ الأبَ عدواً لهُ ، ولوْ عقلَ . . لعلمَ أنَّ الأمَّ عدوٌّ باطنٌ في صورةِ صديقٍ ؛ لأنَّ منعَها إيَّاهُ مِنَ الحجامةِ يسوقُهُ إلىٰ أمراضٍ وآلامٍ أشدَّ مِنَ الحجامةِ ، ولـٰكنَّ الصديقَ الجاهلَ شرٌّ مِنَ العدوِّ العاقلِ ، وكلُّ إنسانٍ فإنَّهُ صديقُ نفسِهِ ، ولـٰكنَّهُ صديقٌ جاهلٌ ، فلذٰلكَ تعملُ بهِ ما لا يعملُ بهِ العدوُّ .

❁ ❁ ❁

قسمةٌ ثانيةٌ :

اعلمْ : أنَّ الأسبابَ الدنيويَّةَ مختلطةٌ ، قدِ امتزجَ خيرُها بشرِّها ، فقلَّما يصفو خيرُها ؛ كالمالِ والأهلِ والولدِ والأقاربِ والجاهِ وسائرِ الأسبابِ ، ولـٰكنْ تنقسمُ إلىٰ ما نفعُهُ أكثرُ مِنْ ضرِّهِ ؛ كقدْرِ الكفايةِ مِنَ المالِ والجاهِ وسائرِ الأسبابِ ، وإلىٰ ما ضرُّهُ أكثرُ مِنْ نفعِهِ في حقِّ أكثرِ الأشخاصِ ؛ كالمالِ الكثيرِ والجاهِ الواسعِ ، وإلىٰ ما يكافئُ ضررُهُ نفعَهُ ، وهـٰذهِ أمورٌ تختلفُ بالأشخاصِ ، فربَّ إنسانٍ صالحٍ ينتفعُ بالمالِ الصالحِ وإنْ كثُرَ ، فينفقُهُ في سبيلِ اللهِ ، ويصرفُهُ إلى الخيراتِ ، فهوَ معَ هـٰذا التوفيقِ نعمةٌ في حقِّهِ ، وربَّ إنسانٍ يستضرُّ بالقليلِ أيضاً ؛ إذْ لا يزالُ مستصغراً لهُ شاكياً مِنْ ربِّهِ ، طالباً للزيادةِ عليهِ ، فيكونُ ذٰلك معَ هـٰذا الخذلانِ بلاءً في حقِّهِ .

❁ ❁ ❁

قسمةٌ ثالثةٌ :

اعلمْ : أنَّ الخيراتِ باعتبارٍ آخرَ تنقسمُ إلىٰ ما هوَ مؤثَّرٌ لذاتِهِ لا لغيرِهِ ، وإلىٰ مؤثَّرٍ لغيرِهِ ، وإلىٰ مؤثَّرٍ لذاتِهِ ولغيرِهِ .

فالأوَّلُ : ما يُؤثَرُ لذاتِهِ لا لغيرِهِ ؛ كلذَّةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، وسعادةِ لقائِهِ ، وبالجملةِ سعادةُ الآخرةِ التي لا انقضاءَ لها ؛ فإنَّها لا تُطلبُ ليُتوصَّلَ بها إلىٰ غايةٍ أخرىٰ مقصودةٍ وراءَها ، بلْ تُطلبُ لذاتِها .

الثاني : ما يُقصدُ لغيرِهِ ولا غرضَ أصلاً في ذاتِهِ ؛ كالدراهمِ والدنانيرِ ، فإنَّ الحاجاتِ لوْ كانَتْ لا تنقضي بها . . لكانَتْ هيَ والحصباءُ بمثابةٍ واحدةٍ ، ولـٰكنْ لمَّا كانَتْ وسيلةً إلى اللذَّاتِ سريعةَ الإيصالِ إليها . . صارَتْ عندَ الجهَّالِ محبوبةً في أنفسِها ، حتَّىٰ يجمعونَها ويكنزونَها ويتصارفونَ عليها بالربا ، ويظنُّونَ أنَّها مقصودةٌ ، ومثالُ هـٰؤلاءِ مثالُ مَنْ يحبُّ شخصاً ، فيحبُّ بسببِهِ رسولَهُ الذي يجمعُ بينَهُ وبينَهُ ، ثمَّ ينسىٰ في محبَّةِ الرسولِ محبَّةَ الأصلِ ، فيعرضُ عنهُ طولَ عمرِهِ ولا يزالُ مشغولاً بتعهُّدِ الرسولِ ومراعاتِهِ وتفقُّدِهِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ والضلالِ .

الثالثُ : ما يُقصدُ لذاتِهِ ولغيرِهِ ؛ كالصحَّةِ والسلامةِ ، فإنَّها تُقصدُ ليقدرَ بسببِها على الفكرِ والذكرِ الموصلينِ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، أوْ ليتوصَّلَ بها إلى استيفاءِ لذَّاتِ الدنيا ، وتُقصدُ أيضاً لذاتِها ، فإنَّ الإنسانَ وإنِ استغنىٰ عنِ المشيِ الذي تُرادُ سلامةُ الرجْلِ لأجلِهِ فيريدُ أيضاً سلامةَ الرجْلِ مِنْ حيثُ إنَّها سلامةٌ .

فإذاً ؛ المؤثَرُ لذاتِهِ فقطْ هوَ الخيرُ والنعمةُ تحقيقاً ، وما يُؤثَرُ لذاتِهِ ولغيرِهِ أيضاً فهو نعمةٌ ، ولـٰكنْ دونَ الأوَّلِ ، فأمَّا ما لا يُؤثَرُ إلا لغيرِهِ ؛ كالنقدينِ . . فلا يُوصفانِ في أنفسِهِما مِنْ حيثُ إنَّهُما جوهرانِ بأنَّهُما نعمةٌ ، بلْ مِنْ حيثُ هما وسيلتانِ ، فيكونانِ نعمةً في حقِّ مَنْ يقصدُ أمراً ليسَ يمكنُهُ أنْ يتوصَّلَ إليهِ إلا بهما ، فلوْ كانَ مقصدُهُ العلمَ والعبادةَ ومعَهُ الكفايةُ التي هيَ ضرورةُ حياتِهِ . . استوىٰ عندَهُ الذهبُ والمدرُ ، فكانَ وجودُهُما وعدمُهُما عندَهُ بمثابةٍ واحدةٍ ، بلْ ربما شغلَهُ وجودُهُما عنِ الفكرِ والعبادةِ ، فيكونانِ بلاءً في حقِّهِ ولا يكونانِ نعمةً .

❁ ❁ ❁

قسمةٌ رابعةٌ :

اعلمْ : أنَّ الخيراتِ باعتبارٍ آخرَ تنقسمُ إلىٰ نافعٍ ، وجميلٍ ، ولذيذٍ ؛ فاللذيذُ : هوَ الذي تُدركُ راحتُهُ في الحالِ ، والنافعُ : هوَ الذي يفيدُ في المآلِ ، والجميلُ : هوَ الذي يُستحسنُ في سائرِ الأحوالِ .

والشرورُ أيضاً تنقسمُ إلىٰ ضارٍّ ، وقبيحٍ ، ومؤلمٍ .

وكلُّ واحدٍ من القسمينِ ضربانِ : مطلقٌ ومقيَّدٌ .

فالمطلقُ : هوَ الذي اجتمعَ فيهِ الأوصافُ الثلاثةُ ؛ أمَّا في الخيرِ . . فكالعلمِ والحكمةِ ؛ فإنَّها نافعةٌ وجميلةٌ ولذيذةٌ عندَ أهلِ العلمِ والحكمةِ ، وأمَّا في الشرِّ . . فكالجهلِ ، فإنَّهُ ضارٌّ وقبيحٌ ومؤلمٌ ، وإنَّما يحسُّ الجاهلُ بألمِ جهلِهِ إذا عرفَ أنَّهُ جاهلٌ ؛ بأنْ يرىٰ غيرَهُ عالماً ، ويرىٰ نفسَهُ جاهلاً ، فيدركَ ألمَ النقصِ ، فتنبعثَ منهُ شهوةُ العلمِ اللذيذةُ ، ثمَّ قدْ يمنعُهُ الحسدُ والكبْرُ والشهواتُ البدنيَّةُ عنِ التعلُّمِ ، فيتجاذبُهُ متضادَّانِ ، فيعظمُ ألمُهُ ، فإنَّهُ إنْ تركَ التعلُّمَ . . تألَّمَ بالجهلِ ودرْكِ النقصانِ ، وإنِ اشتغلَ بالتعلُّمِ . . تألَّمَ بتركِ الشهواتِ أوْ بتركِ الكبْرِ وذلِّ التعلُّمِ ، ومثلُ هاذا الشخصِ لا يزالُ في عذابٍ دائمٍ لا محالةَ .

والضربُ الثاني : مقيَّدٌ : وهوَ الذي جمعَ بعضَ هاذهِ الأوصافِ دونَ بعضٍ ، فربَّ نافعٍ مؤلمٌ ؛ كقطْعِ الإصبعِ المتآكلةِ والسِّلعةِ الخارجةِ مِنَ البدنِ[1] ، وربَّ نافعٍ قبيحٌ ؛ كالحمقِ ، فإنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الأحوالِ نافعٌ ، وقدْ قيلَ : (استراحَ مَنْ لا عقلَ لهُ) ، فإنَّهُ لا يهتمُّ بالعاقبةِ ، فيستريحُ في الحالِ إلىٰ أنْ يحينَ وقتُ هلاكِهِ ، وربَّ نافعٍ مِنْ وجهٍ ضارٌّ مِنْ وجهٍ ؛ كإلقاءِ المالِ في البحرِ عندَ خوفِ الغرقِ ، فإنَّهُ ضارٌّ للمالِ ، ونافعٌ للنفْسِ في نجاتِها .

والنافعُ قسمانِ : ضروريٌّ ؛ كالإيمانِ وحسْنِ الخلقِ في الإيصالِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ، وأعني بهما العلمَ والعملَ ؛ إذْ لا يقومُ مقامَهُما ألبتةَ غيرُهُما ، وإلىٰ ما لا يكونُ ضرورياً ؛ كالسكنجبينِ مثلاً في تسكينِ الصفراءِ ، فإنَّهُ قدْ يمكنُ تسكينُها بما يقومُ مقامَهُ .

❀ ❀ ❀

قسمةٌ خامسةٌ :

اعلمْ : أنَّ النعمةَ يُعبَّرُ بها عنْ كلِّ لذيذٍ ، واللذَّاتُ بالإضافةِ إلى الإنسانِ مِنْ حيثُ اختصاصُهُ بها أوْ مشاركتُهُ لغيرِهِ ثلاثةُ أنواعٍ : عقليَّةٌ ، وبدنيَّةٌ مشتركةٌ معَ بعضِ الحيواناتِ ، وبدنيَّةٌ مشتركةٌ معَ جميعِ الحيواناتِ .

أمَّا العقليَّةُ . . فكلذَّةِ العلمِ والحكمةِ ؛ إذْ ليسَ يستلذُّها السمعُ والبصرُ والشمُّ ، ولا البطنُ ولا الفرجُ ، وإنَّما يستلذُّها القلبُ ؛ لاختصاصِهِ بصفةٍ يُعبَّرُ عنها بالعقلِ ، وهاذهِ أقلُّ اللذاتِ وجوداً ، وهيَ أشرفُها .

أمَّا قلَّتُها . . فلأنَّ العلمَ لا يستلذُّهُ إلا عالمٌ ، والحكمةَ لا يستلذُّها إلا حكيمٌ ، وما أقلَّ أهلَ العلمِ والحكمةِ ، وما أكثرَ المتسمِّينَ باسمِهِمْ والمترسِّمينَ برسومِهِمْ .

وأمَّا شرفُها . . فلأنَّها لازمةٌ لا تزولُ أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرةِ ، ودائمةٌ لا تُملُّ ، فالطعامُ يُشبعُ منهُ فيُملُّ ، وشهوةُ الوقاعِ يُفرغُ منها فتُستثقلُ ، والعلمُ والحكمةُ قطُّ لا يُتصوَّرُ أنْ تُملَّ وتُستثقلَ .

ومَنْ قدرَ على الشريفِ الباقي أبدَ الآبادِ إذا رضيَ بالخسيسِ الفاني في أقربِ الآمادِ . . فهوَ مصابٌ في عقلِهِ ، محرومٌ لشقاوتِهِ وإدبارِهِ ، وأقلُّ أمرٍ فيهِ أنَّ العلمَ والعقلَ لا يحتاجُ إلىٰ أعوانٍ وحفظةٍ بخلافِ المالِ ؛ إذِ العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ ، والعلمُ يزيدُ بالإنفاقِ والمالُ ينقصُ بالإنفاقِ ، والمالُ يُسرقُ والولايةُ يُعزلُ عنها والعلمُ لا تمتدُّ إليهِ

---

(١) السلعة : زيادة تحدث في الجسد ؛ كالغدة والخرَّاج .

أيدي السرَّاقِ بالأخذِ ، ولا أيدي السلاطينِ بالعزْلِ ، فيكونُ صاحبُهُ في رَوْحِ الأمنِ أبداً ، وصاحبُ المالِ والجاهِ في كَرْبِ الخوفِ أبداً .

ثمَّ العلمُ نافعٌ ولذيذٌ وجميلٌ في كلِّ حالٍ أبداً ، والمالُ تارةً يجذبُ إلى الهلاكِ ، وتارةً يجذبُ إلى النجاةِ ، ولذٰلكَ ذمَّ اللهُ تعالى المالَ في القرآنِ في مواضعَ وإنْ سمَّاهُ خيراً في مواضعَ .

وأمَّا قصورُ أكثرِ الخلقِ عنْ إدراكِ لذَّةِ العلمِ . . فإمَّا لعدمِ الذوْقِ ، فمَنْ لمْ يذقْ . . لمْ يعرفْ ولمْ يشتقْ ؛ إذِ الشوقُ تبعُ الذوقِ ، وإمَّا لفسادِ أمزجتِهِمْ ومرضِ قلوبِهِمْ بسببِ اتباعِ الشهواتِ ؛ كالمريضِ الذي لا يدركُ حلاوةَ العسلِ ويراهُ مرّاً ، وإمَّا لقصورِ فطرتِهِمْ ؛ إذْ لمْ تُخلقْ لهُمْ بعدُ الصفةُ التي بها يُستلذُّ العلمُ ؛ كالطفلِ الرضيعِ الذي لا يدركُ لذَّةَ العسلِ والطيورِ السمانِ ، ولا يستلذُّ إلا اللبنَ ، وذٰلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّها ليسَتْ لذيذةً ، ولا استطابتُهُ للبنِ تدلُّ علىٰ أنَّهُ ألذُّ الأشياءِ .

فالقاصرونَ عنْ درْكِ لذَّةِ العلمِ والحكمةِ ثلاثةٌ : إمَّا مَنْ لمْ يحيَ بعدُ باطنُهُ كالطفلِ ، وإمَّا مَنْ ماتَ بعدَ الحياةِ باتباعِ الشهواتِ ، وإمَّا مَنْ مرضَ بسببِ اتباعِ الشهواتِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ إشارةٌ إلىٰ مرضِ العقولِ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ إشارةٌ إلىٰ مَنْ لمْ يحيَ حياةً باطنةً ، وكلُّ حيٍّ بالبدنِ ميّتٍ بالقلبِ فهوَ عندَ اللهِ مِنَ الموتىٰ وإنْ كانَ عندَ الجهَّالِ مِنَ الأحياءِ ، ولذٰلكَ كانَ الشهداءُ أحياءً عندَ ربِّهِمْ يُرزقونَ فرحينَ وإنْ كانوا موتىٰ بالأبدانِ .

الثانيةُ : لذةٌ يشاركُ الإنسانُ فيها بعضَ الحيواناتِ : كلذَّةِ الرئاسةِ والغلبةِ والاستيلاءِ ، وذٰلكَ موجودٌ في الأسدِ والنمرِ وبعضِ الحيواناتِ .

الثالثةُ : ما يشاركُ الإنسانُ بها سائرَ الحيواناتِ : كلذةِ البطْنِ والفرْجِ ، وهٰذهِ أكثرُها وجوداً ، وهي أخسُّها ، ولذٰلكَ اشتركَ فيها كلُّ ما دبَّ ودرجَ حتَّىٰ الديدانُ والحشراتُ .

ومَنْ جاوزَ هٰذهِ الرتبةَ . . تشبثَتْ بهِ لذَّةُ الغلبةِ ، وهيَ أشدُّها التصاقاً بالمتعاقلينَ (١) ، فإنْ جاوزَ ذٰلكَ . . ارتقىٰ إلى الثالثةِ ، فصارَ أغلبُ اللذَّاتِ عليهِ لذةَ العلمِ والحكمةِ ، لا سيما لذَّةُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وهٰذهِ رتبةُ الصدِّيقينَ ، ولا يُنالُ تمامُها إلا بخروجِ استيلاءِ حبِّ الرئاسةِ مِنَ القلبِ ، وآخرُ ما يخرجُ مِنْ رؤوسِ الصدِّيقينَ حبُّ الرئاسةِ ، وأمَّا شرهُ البطْنِ والفرْجِ . . فكسرُهُ ممَّا يقوىٰ عليهِ الصالحونَ ، وشهوةُ الرئاسةِ لا يقوىٰ علىٰ قهرِها إلا الصدِّيقونَ ، فأمَّا قمعُها بالكليَّةِ حتَّىٰ لا يقعَ بها الإحساسُ على الدوامِ وفي اختلافِ الأحوالِ . . فيشبهُ أنْ يكونَ خارجاً عنْ مقدورِ البشرِ .

نعمْ ؛ تغلبُ لذَّةُ معرفةِ اللهِ في أحوالٍ لا يقعُ معَها الإحساسُ بلذَّةِ الرئاسةِ والغلبةِ ، ولٰكنْ ذٰلكَ لا يدومُ طولَ العمرِ ، بلْ تعتريهِ الفتراتُ ، فتعودُ إليهِ الصفاتُ البشريَّةُ ، فتكونُ موجودةً ولٰكنْ تكونُ مقهورةً لا تقوىٰ علىٰ حمْلِ النفسِ على العدولِ عنِ العدْلِ .

وعندَ هٰذا تنقسمُ القلوبُ إلىٰ أربعةِ أقسامٍ :

قلبٌ لا يحبُّ إلا اللهَ تعالىٰ ، ولا يستريحُ إلا بزيادةِ المعرفةِ بهِ والفكرِ فيهِ ، **وقلبٌ** لا يدري ما لذَّةُ المعرفةِ ، وما

---

(١) في (د) : (المتغافلين) .

معنى الأنسِ باللهِ ، وإنَّما لذتُهُ بالجاهِ والرئاسةِ والمالِ وسائرِ الشهواتِ البدنيَّةِ ، **وقلبٌ أغلبُ** أحوالِهِ الأنسُ باللهِ سبحانَهُ والتلذُّذُ بمعرفتِهِ والفكرِ فيهِ ، ولـٰكنْ قدْ يعتريهِ في بعضِ الأحوالِ الرجوعُ إلىٰ أوصافِ البشريَّةِ ، **وقلبٌ أغلبُ** أحوالِهِ التلذُّذُ بالصفاتِ البشريةِ ويعتريهِ في بعضِ الأحوالِ تلذُّذٌ بالعلمِ والمعرفةِ .

أمَّا الأوَّلُ . . فإنْ كانَ ممكناً في الوجودِ فهوَ في غايةِ البعدِ .

وأمَّا **الثاني** . . فالدنيا طافحةٌ بهِ .

وأمَّا الثالثُ والرابعُ . . فموجودانِ ولـٰكنْ علىٰ غايةِ الندورِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ ذٰلكَ إلا نادراً شاذّاً ، وهوَ معَ الندورِ يتفاوتُ في القلَّةِ والكثرةِ ، وإنَّما تكونُ كثرتُهُ في الأعصارِ القريبةِ مِنْ أعصارِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، فلا يزالُ يزدادُ العهدُ طولاً وتزدادُ مثلُ هـٰذهِ القلوبِ قلَّةً إلىٰ أنْ تقربَ الساعةُ ، ويقضيَ اللهُ أمراً كانَ مفعولاً .

وإنَّما وجبَ أنْ يكونَ هـٰذا نادراً ؛ لأنَّهُ مبادي ملكِ الآخرةِ ، والملكُ عزيزٌ ، والملوكُ لا يكثرونَ ، فكما لا يكونُ الفائقُ في الملكِ والجمالِ إلا نادراً وأكثرُ الناسِ مِنْ دونِهِمْ . . فكذا في ملكِ الآخرةِ ، فإنَّ الدنيا مرآةُ الآخرةِ ، فإنَّها عبارةٌ عنْ عالمِ الشهادةِ ، والآخرةُ عبارةٌ عنْ عالمِ الغيبِ ، وعالمُ الشهادةِ تابعٌ لعالمِ الغيبِ ؛ كما أنَّ الصورةَ في المرآةِ تابعةٌ لصورةِ الناظرِ في المرآةِ ، والصورةُ في المرآةِ وإنْ كانَتْ هيَ الثانيةَ في رتبةِ الوجودِ فإنَّها أولىٰ في حقِّ رؤيتِكَ ، فإنَّكَ لا ترىٰ نفسَكَ ، وترىٰ صورتَكَ في المرآةِ أوَّلاً ، فتعرفُ بها صورتَكَ التي هيَ قائمةٌ بكَ ثانياً علىٰ سبيلِ المحاكاةِ ، فانقلبَ التابعُ في الوجودِ متبوعاً في حقِّ المعرفةِ ، وانقلبَ المتأخِّرُ متقدماً ، وهـٰذا نوعٌ مِنَ الانعكاسِ ، ولـٰكنَّ الانعكاسَ والانتكاسَ ضرورةُ هـٰذا العالمِ ، فكذٰلكَ عالمُ الملكِ والشهادةِ محاكٍ لعالمِ الغيبِ والملكوتِ .

فمِنَ الناسِ مَنْ يُسِّرَ لهُ نظرُ الاعتبارِ ، فلا ينظرُ في شيءٍ مِنْ عالمِ الملكِ إلا ويعبرُ بهِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، فيُسمَّىٰ عبورُهُ عبرةً ، وقدْ أُمرَ الخلقُ بهِ ، فقيلَ : ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ .

ومنهُمْ مَنْ عميَتْ بصيرتُهُ فلمْ يعبرْ ، فاحتُبسَ في عالمِ الملكِ والشهادةِ ، وستُفتحُ إلىٰ حبسِهِ أبوابُ جهنَّمَ ، وهـٰذا الحبسُ مملوءٌ ناراً منْ شأنِها أنْ تطلعَ على الأفئدةِ ، إلا أنَّ بينَهُ وبينَ إدراكِ ألمِها حجاباً ، فإذا رُفعَ ذٰلكَ الحجابُ بالموتِ . . أدركَ .

وعنْ هـٰذا أظهرَ اللهُ الحقَّ علىٰ لسانِ قومٍ استنطقَهُمْ بالحقِّ [1] ، فقالوا : (الجنَّةُ والنارُ مخلوقتانِ) ، ولـٰكنِ الجحيمُ تُدركُ مرَّةً بإدراكٍ يُسمَّىٰ علمَ اليقينِ ، ومرَّةً بإدراكٍ آخرَ يُسمَّىٰ عينَ اليقينِ ، وعينُ اليقينِ لا يكون إلا في الآخرةِ ، وعلمُ اليقينِ قدْ يكونُ في الدنيا ، ولـٰكنْ للذينَ وفرَ حظُّهُمْ مِنْ نورِ اليقينِ ، فلذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴾ أيْ : في الدنيا ، ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴾ أيْ : في الآخرةِ .

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ القلبَ الصالحَ لملكِ الآخرةِ لا يكونُ إلا عزيزاً كالشخصِ الصالحِ لملكِ الدنيا .

❀ ❀ ❀

قسمةٌ سادسةٌ حاويةٌ لمجامعِ النعَمِ :

اعلمْ : أنَّ النعمَ تنقسمُ إلىٰ ما هيَ غايةٌ مطلوبةٌ لذاتِها ، وإلىٰ ما هيَ مطلوبةٌ لأجلِ الغايةِ .

---

(١) قوله : (وعن هـٰذا) أي : بسبب ما ذكر ، فعنْ هنا للتسبب ، والمراد بالقوم : أهل السنة والجماعة .

أمَّا الغايةُ . . فإنَّها سعادةُ الآخرةِ ، ويرجعُ حاصلُها إلىٰ أربعةِ أمورٍ : بقاءٌ لا فناءَ لهُ ، وسرورٌ لا غمَّ فيهِ ، وعلمٌ لا جهلَ معَهُ ، وغنىً لا فقرَ بعدَهُ ، وهيَ النعمةُ الحقيقيَّةُ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا عيشَ إلا عيشُ الآخرةِ » ، وقالَ ذٰلكَ مرَّةً في الشدَّةِ تسليةً للنفسِ ، وذٰلكَ في وقتِ حفرِ الخندقِ في شدَّةِ الضرِّ ، وقالَ ذٰلكَ مرَّةً في السرورِ منعاً للنفسِ مِنَ الركونِ إلىٰ سرورِ الدنيا ، وذٰلكَ عندَ إحداقِ الناسِ بهِ في حجَّةِ الوداعِ[1]

وقالَ رجلٌ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ تمامَ النعمةِ ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وهلْ تعلمُ ما تمامُ النعمةِ ؟ » ، قالَ : لا ، قالَ : « تمامُ النعمةِ دخولُ الجنةِ »[2]

وأمَّا الوسائلُ . . فتنقسمُ إلى الأقربِ الأخصِّ ؛ كفضائلِ النفسِ ، وإلىٰ ما يليهِ في القرْبِ ؛ كفضائلِ البدنِ ، وهوَ الثاني ، وإلىٰ ما يليه في القربِ ويجاوزُ إلىٰ غيرِ البدنِ ؛ كالأسبابِ المطيفةِ بالبدنِ مِنَ المالِ والأهلِ والعشيرةِ ، وإلىٰ ما يجمعُ بينَ هٰذهِ الأسبابِ الخارجةِ عنِ النفسِ وبينَ الحاصلةِ للنفسِ ؛ كالتوفيقِ والهدايةِ ، فهيَ إذاً أربعةُ أنواعٍ .

النوعُ الأوَّلُ وهوَ الأخصُّ : الفضائلُ النفسيَّةُ : ويرجعُ حاصلُها معَ انشعابِ أطرافِها إلى الإيمانِ وحسْنِ الخلقِ ، وينقسمُ الإيمانُ إلىٰ علمِ المكاشفةِ ؛ وهوَ العلمُ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ ورسلِهِ ، وإلىٰ علومِ المعاملةِ .

وحسْنُ الخلقِ ينقسمُ إلىٰ قسمينِ : تركُ مقتضى الشهوةِ والغضبِ واسمُهُ العفَّةُ ، ومراعاةُ العدْلِ في الكفِّ عنْ مقتضى الشهواتِ والإقدامِ حتَّىٰ لا يمتنعَ أصلاً ولا يقدمَ كيفَ شاءَ ، بلْ يكونُ إقدامُهُ وإحجامُهُ بالميزانِ العدْلِ الذي أنزلَهُ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ لسانِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾

فمَنْ خصىٰ نفسَهُ ليزيلَ شهوةَ النكاحِ ، أوْ تركَ النكاحَ معَ القدرةِ والأمنِ مِنَ الآفاتِ ، أوْ تركَ الأكلَ حتَّىٰ ضعفَ عنِ العبادةِ والذكرِ والفكرِ . . فقدْ أخسرَ الميزانَ ، ومَنِ انهمَكَ في شهوةِ البطنِ والفرجِ . . فقدْ طغىٰ في الميزانِ ، وإنَّما العدْلُ أنْ يخلوَ وزنُهُ وتقديرُهُ عنِ الطغيانِ والخسرانِ ، فتعتدلَ بهِ كفتا الميزانِ .

فإذاً ؛ الفضائلُ الخاصَّةُ بالنفسِ المقربةُ إلى اللهِ تعالىٰ أربعةٌ : علمُ مكاشفةٍ ، وعلمُ معاملةٍ ، وعفةٌ ، وعدالةٌ ، ولا يتمُّ هٰذا في غالبِ الأمرِ إلا بالنوعِ الثاني ، وهيَ الفضائلُ البدنيَّةُ ، وهي أربعةٌ : الصحةُ ، والقوَّةُ ، والجمالُ ، وطولُ العمرِ ، ولا تتهيَّأُ هٰذهِ الأمورُ الأربعةُ إلا بالنوعِ الثالثِ ، وهيَ النعَمُ الخارجةُ المطيفةُ بالبدنِ ، وهيَ أربعةٌ : المالُ ، والأهلُ ، والجاهُ ، وكرمُ العشيرةِ ، ولا ينتفعُ بشيءٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ الخارجةِ والبدنيَّةِ إلا بالنوعِ الرابعِ ، وهيَ الأسبابُ التي تجمعُ بينَها وبينَ ما يناسبُ الفضائلَ النفسيَّةَ الداخلةَ ، وهيَ أربعةٌ : هدايةُ اللهِ ، ورشدُهُ ، وتسديدُهُ ، وتأييدُهُ .

فمجموعُ هٰذهِ النعَمِ ستَّ عشرةَ ؛ إذْ قسمناها إلىٰ أربعةٍ وقسمنا كلَّ واحدةٍ منَ الأربعةِ إلىٰ أربعةٍ .

وهٰذهِ الجملةُ يحتاجُ البعضُ منها إلى البعضِ ؛ إمَّا حاجةً ضروريَّةً ، أوْ نافعةً .

أمَّا الحاجةُ الضروريَّةُ . . فكحاجةِ سعادةِ الآخرةِ إلى الإيمانِ وحسْنِ الخلقِ ؛ إذْ لا سبيلَ إلى الوصولِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ألبتةَ إلا بهما ، فليسَ للإنسانِ إلا ما سعىٰ ، وليسَ لأحدٍ في الآخرةِ إلا ما تزوَّدَ مِنَ الدنيا ، وكذٰلكَ حاجةُ الفضائلِ النفسيَّةِ بكسبِ العلومِ وتهذيبِ الأخلاقِ إلىٰ صحَّةِ البدنِ ضروريٌّ .

---

(١) رواه الشافعي كما في « الأم » (٣/٣٩١) عن مجاهد مرسلاً

(٢) رواه الترمذي (٣٥٢٧) .

وأمَّا الحاجةُ النافعةُ على الجملةِ . . فكحاجةِ هـٰذهِ النعمِ النفسيَّةِ والبدنيَّةِ إلى النعمِ الخارجةِ ؛ مثلُ المالِ والعزِّ والأهلِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ لوْ عُدِمَ . . ربما تطرَّقَ الخللُ إلىٰ بعضِ النعمِ الداخلةِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما وجهُ الحاجةِ لطريقِ الآخرةِ إلى النعمِ الخارجةِ مِنَ المالِ والأهلِ والجاهِ والعشيرةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذهِ الأسبابَ جاريةٌ مجرى الجناحِ المبلِّغِ والآلةِ المسهِّلةِ للمقصودِ .

أمَّا المالُ : فالفقيرُ في طلبِ العلمِ والكمالِ وليسَ معَهُ كفايةٌ كساعٍ إلى الهيجا بغيرِ سلاحٍ (١) ، وكبازٍ يرومُ الصيدَ بلا جناحٍ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **نعْمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ** » (٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعْمَ العونُ علىٰ تقوى اللهِ المالُ » (٣)

وكيفَ لا ومَنْ عدمَ المالَ . . صارَ مستغرقَ الأوقاتِ في طلبِ الأقواتِ ، وفي تهيئةِ اللباسِ والمسكنِ وضروراتِ المعيشةِ ؟!

ثمَّ يتعرَّضُ لأنواعٍ مِنَ الأذىٰ تشغلُهُ عنِ الذكرِ والفكرِ ، ولا تندفعُ إلا بسلاحِ المالِ ، ثمَّ معَ ذٰلكَ يُحرمُ عنْ فضيلةِ الحجِّ والزكاةِ والصدقاتِ وإفاضةِ الخيراتِ !!

وقالَ بعضُ الحكماءِ وقدْ قيلَ لهُ : ما النعيمُ ؟ فقالَ : الغنىٰ ؛ فإنِّي رأيتُ الفقيرَ لا عيشَ لهُ ، قيلَ : زدْنا ، قالَ : الأمنُ ؛ فإنِّي رأيتُ الخائفَ لا عيشَ لهُ ، قيلَ : زدْنا ، قالَ : العافيةُ ؛ فإنِّي رأيتُ المريضَ لا عيشَ لهُ ، قيلَ : زدْنا ، قالَ : الشبابُ ؛ فإنِّي رأيتُ الهرمَ لا عيشَ لهُ (٤)

وكأنَّ ما ذكرَهُ إشارةٌ إلىٰ نعيمِ الدنيا ، ولـٰكنَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ معينٌ على الآخرةِ فهوَ نعمةٌ ، ولذٰلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أصبحَ معافىً في بدنِهِ ، آمناً في سربِهِ ، عندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حِيزَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها » (٥) .

وأمَّا الأهلُ والولدُ الصالحُ : فلا يخفىٰ وجهُ الحاجةِ إليهما ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعْمَ العونُ على الدينِ **المرأةُ الصالحةُ** » (٦)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الولدِ : « إذا ماتَ العبدُ . . انقطعَ عملُهُ إلا مِنْ ثلاثٍ : ولدٌ صالحٌ يدعو لهُ . . . » الحديثَ (٧) ، وقدْ ذكرنا فوائدَ الأهلِ والولدِ في كتابِ النكاحِ .

---

(١) **الهيجا** : الحرب .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٩٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١٠) .

(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٣١٧) من حديث محمد بن المنكدر مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٢٤) من كلام محمد بن المنكدر .

(٤) قوت القلوب (١/٢٠٩) .

(٥) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه مرفوعاً ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/٢٤٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً .

(٦) رواه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » .

(٧) رواه مسلم (١٦٣١) .

وأمَّا الأقاربُ : فمهما كثرَ أولادُ الرجلِ وأقاربُهُ . . كانوا لهُ مثلَ الأعينِ والأيدي ، فيتيسَّرُ لهُ بسببِهِمْ مِنَ الأمورِ الدنيويَّةِ المهمَّةِ في دينِهِ ما لوِ انفردَ بهِ . . لطالَ شغلُهُ ، وكلُّ ما يفرغُ قلبَكَ عنْ ضروراتِ الدنيا فهوَ معينٌ لكَ على الدينِ ، فهوَ إذاً نعمةٌ .

وأمَّا العزُّ والجاهُ : فبهِ يدفعُ الإنسانُ عنْ نفسِهِ الذلَّ والضيمَ ، ولا يستغني عنهُ مسلمٌ ، فإنَّهُ لا ينفكُّ عنْ عدوٍّ يؤذيهِ ، وظالمٍ يشوّشُ عليهِ علمَهُ وعملَهُ وفراغَهُ ، ويشغلُ قلبَهُ ، وقلبُهُ رأسُ مالِهِ ، وإنَّما تندفعُ هٰذهِ الشواغلُ بالعزِّ والجاهِ ، ولذٰلكَ قيلَ : (الدينُ والسلطانُ توءمانِ) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ .

ولا معنىٰ للجاه إلا ملكُ القلوبِ ؛ كما لا معنىٰ للغنىٰ إلا ملكُ الدراهمِ ، ومَنْ ملكَ القلوبَ . . تسخَّرَتْ لهُ أربابُ القلوبِ لدفعِ الأذىٰ عنهُ ، فكما يحتاجُ الإنسانُ إلىٰ سقفٍ يدفعُ عنهُ المطرَ ، وجبَّةٍ تدفعُ عنهُ البردَ ، وكلبٍ يدفعُ الذئبَ عنْ ماشيتِهِ . . فيحتاجُ أيضاً إلىٰ مَنْ يدفعُ الشرَّ بهِ عنْ نفسِهِ .

وعلىٰ هٰذا القصدِ كانَ الأنبياءُ الذينَ لا ملكَ لهُمْ ولا سلطنةَ يراعونَ السلاطينَ ويطلبونَ عندَهُمُ الجاهَ ، وكذٰلكَ علماءُ الدينِ ، لا علىٰ قصدِ التناولِ مِنْ خزائنِهِمْ أوِ الاستئثارِ والاستكثارِ في الدنيا بمتابعتِهِمْ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ نعمةَ اللهِ تعالىٰ علىٰ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ نصرَهُ وأكملَ دينَهُ وأظهرَهُ علىٰ جميعِ أعدائِهِ ومكَّنَ لهُ في القلوبِ حبَّهُ حتَّى اتسعَ بهِ عزُّهُ وجاهُهُ . . كانَتْ أقلَّ مِنْ نعمتِهِ عليهِ حيثُ كانَ يُؤذىٰ ويُضربُ حتَّى افتقرَ إلى الهربِ والهجرةِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : كرمُ العشيرةِ وشرفُ الأهلِ هوَ مِنَ النعمِ أمْ لا ؟

فأقولُ : نعمْ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأئمَّةُ مِنْ قريشٍ »(١)

ولذٰلكَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من أكرمِ الناسِ أُرُومةً في نسبِ آدمَ عليهِ السلامُ(٢)

ولذٰلك قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تخيَّروا لنطفِكُمُ الأكفاءَ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ وخضراءَ الدِّمَنِ » ، فقيلَ : وما خضراءُ الدمنِ ؟ قالَ : « المرأةُ الحسناءُ في المنبتِ السوءِ »(٤)

فهٰذا أيضاً مِنَ النعمِ ، ولستُ أعني بهِ الانتسابَ إلى الظلمةِ وأربابِ الدنيا ، بلِ الانتسابَ إلىٰ شجرةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإلىٰ أئمةِ العلماءِ ، وإلى الصالحينَ والأبرارِ المتزيِّنينَ بالعلمِ والعملِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٩٠٩) .

(٢) **الأرومة** : الأصل ، وروىٰ مسلم (٢٢٧٦) عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفىٰ قريشاً من كنانة ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

(٣) رواه ابن ماجه (١٩٦٨) ، والحاكم في « المستدرك » (١٦٣/٢) .

(٤) رواه الرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٨٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٥٧) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٥٣٧) .

فإنْ قلتَ : فما غناءُ الفضائلِ البدنيَّةِ ؟

فأقولُ : لا خفاءَ بشدَّةِ الحاجةِ إلى الصحةِ وإلى القوَّةِ وإلىٰ طولِ العمرِ ؛ إذْ لا يتمُّ علمٌ وعملٌ إلا بهما ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ »[١]

وإنَّما يُستحقرُ مِنْ جملتِهِ أمرُ الجمالِ ، فيُقالُ : يكفي أنْ يكونَ البدنُ سليماً مِنَ الأمراضِ الشاغلةِ عنْ تحرّي الخيراتِ ، ولعمري ؛ الجمالُ قليلُ الغَناءِ ، ولٰكنَّهُ مِنَ الخيراتِ أيضاً ، أمَّا في الدنيا . . فلا يخفىٰ نفعُهُ فيها ، وأمَّا في الآخرةِ . . فمِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّ القبيحَ مذمومٌ ، والطباعُ عنهُ نافرةٌ ، وحاجاتُ الجميلِ إلى الإجابةِ أقربُ ، وجاهُهُ في الصدورِ أوسعُ ، فكأنَّهُ مِنْ هٰذا الوجهِ جناحٌ مبلغٌ كالمالِ والجاهِ ؛ إذْ هوَ نوعُ قدرةٍ ، إذْ يقدرُ الجميلُ الوجهِ علىٰ تنجيزِ حاجاتٍ لا يقدرُ عليها القبيحُ ، وكلُّ معينٍ علىٰ قضاءِ حاجاتِ الدنيا فمعينٌ على الآخرةِ بواسطتِها .

والثاني : أنَّ الجمالَ في الأكثرِ يدلُّ علىٰ فضيلةِ النفسِ ؛ لأنَّ نورَ النفسِ إذا تمَّ إشراقُهُ . . تأدَّىٰ إلى البدنِ[٢] ، فالمنظرُ والمخبرُ كثيراً ما يتلازمانِ .

ولذٰلكَ عوَّلَ أصحابُ الفراسةِ في معرفةِ مكارمِ النفسِ علىٰ هيئاتِ البدنِ وقالوا : الوجهُ والعينُ مرآةُ الباطنِ ، ولذٰلكَ يظهرُ فيهِ أثرُ الغضبِ والسرورِ والغمِّ .

ولذٰلكَ قيلَ : (طلاقةُ الوجهِ عنوانُ ما في النفسِ) ، وقيلَ : (ما في الأرضِ قبيحٌ إلا ووجهُهُ أحسنُ ما فيهِ) .

واستعرضَ المأمونُ جيشاً ، فعُرِضَ عليهِ رجلٌ قبيحٌ ، فاستنطقَهُ ، فإذا هوَ ألكنُ ، فأسقطَ اسمَهُ مِنَ الديوانِ وقالَ : الروحُ إذا أشرقَتْ على الظاهرِ . . فصباحَةٌ ، أوْ على الباطنِ . . ففصاحةٌ ، وهٰذا ليسَ لهُ ظاهرٌ ولا باطنٌ[٣]

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلبوا الخيرَ عند حسانِ الوجوهِ »[٤]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (إذا بعثتُمْ رسولاً . . فاطلبوا حسنَ الوجهِ ، حسنَ الاسمِ)[٥]

وقالَ الفقهاءُ : إذا تساوتْ درجاتُ المصلِّينَ . . فأحسنُهُمْ وجهاً أولاهُمْ بالإمامةِ[٦]

وقالَ اللهُ تعالىٰ ممتنّاً بذٰلك : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾

ولسنا نعني بالجمالِ ما يحرِّكُ الشهوةَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ أنوثةٌ ، وإنَّما نعني بهِ ارتفاعَ القامةِ على الاستقامةِ ، معَ

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٦/٦) من حديث عبد الله بن حنطب ، وبلفظ : « إن السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل » ، وروى الترمذي (٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » .

(٢) وكلُّ شخص فله حكمان : أحدهما من قبل جسمه وهو منظره ، والآخر من قبل نفسه وهو مخبره . « إتحاف » (٩٠/٩) .

(٣) كذا في « الذريعة » (ص ١١٥)

(٤) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٤٦) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٧٥٩) ، والخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٤٢) من حديث جبرة بنت محمد بن ثابت عن أبيها عن عائشة مرفوعاً ، ورواه عبد بن حميد في « مسنده » (٧٥٢) من حديث ابن عمر مرفوعاً ، والطبراني في « الكبير » (٨١/١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٥) روىٰ هٰذا مرفوعاً أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) وروىٰ فيه البيهقي حديثاً مرفوعاً في « السنن الكبرىٰ » (١٢١/٣) ، وفيه : « فإن كانوا في السن سواء . . . فأحسنهم وجهاً » .

الاعتدالِ في اللحمِ ، وتناسبِ الأعضاءِ ، وتناصفِ خلقةِ الوجهِ ، بحيث لا تنبو الطباعُ عنِ النظرِ إليهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ أدخلتَ المالَ والجاهَ والنسبَ والأهلَ والولدَ في حيّزِ النعمِ وقدْ ذمَّ اللهُ تعالى المالَ والجاهَ ، وكذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، وكذا العلماءُ ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في ذمّ النسبِ : (الناسُ أبناءُ ما يحسنونَ)[2] ، و(قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يحسنُهُ)[3] ، وقيلَ : (المرءُ بنفسِهِ لا بأبيهِ) ، فما معنىٰ كونِها نعمةً معَ كونِها مذمومةً شرعاً ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ يأخذُ العلومَ مِنَ الألفاظِ المنقولةِ المؤولةِ والعموماتِ المخصصَّةِ . . كانَ الضلالُ عليهِ أغلبَ ما لمْ يهتدِ بنورِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ إدراكِ العلومِ علىٰ ما هيَ عليهِ ، ثمَّ ينزّلُ النقلَ علىٰ وفْقِ ما ظهرَ لهُ منها ؛ بالتأويلِ مرَّةً ، وبالتخصيصِ أخرىٰ ، فهٰذهِ نعمٌ معينةٌ علىٰ أمرِ الآخرةِ لا سبيلَ إلىٰ جحدِها ، إلا أنَّ فيها فتناً ومخاوفَ .

فمثالُ المالِ مثالُ الحيَّةِ التي فيها ترياقٌ نافعٌ وسمٌّ ناقعٌ ، فإنْ أصابَها المعزّمُ الذي يعرفُ وجهَ الاحترازِ عنْ سمِّها وطريقَ استخراجِ ترياقِها النافعِ . . كانَتْ نعمةً ، وإنْ أصابَها السوادِيُّ الغرُّ . . فهيَ عليهِ بلاءٌ وهلاكٌ .

وهوَ مثلُ البحرِ الذي تحتَهُ أصنافُ الجواهرِ واللآلئِ ، فمَنْ ظفرَ بالبحرِ ؛ فإنْ كانَ عالماً بالسباحةِ وطريقِ الغوْصِ وطريقِ الاحترازِ عنْ مهلكاتِ البحرِ . . فقدْ ظفرَ بنعمِهِ ، وإنْ خاضَهُ جاهلاً بذٰلكَ . . فقدْ هلكَ .

فلذٰلكَ مدحَ اللهُ تعالى المالَ وسمَّاهُ خيراً ، ومدحَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « نعمَ العونُ علىٰ تقوى اللهِ تعالى المالُ »[4]

وكذٰلكَ مدحَ الجاهَ والعزَّ ؛ إذْ منَّ اللهُ تعالىٰ علىٰ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنْ أظهرَهُ على الدينِ كلِّهِ ، وحبَّبَهُ في قلوبِ الخلقِ ، وهوَ المعنيُّ بالجاهِ ، ولٰكنِ المنقولُ في مدحِهِما قليلٌ ، والمنقولُ في ذمّ المالِ والجاهِ كثيرٌ ، وحيثُ ذُمَّ الرياءُ فهوَ ذمُّ الجاهِ ، إذِ الرياءُ مقصودُهُ اجتلابُ القلوبِ ، ومعنى الجاهِ ملكُ القلوبِ ، وإنَّما كثرَ هٰذا وقلَّ ذاكَ لأنَّ الناسَ أكثرُهُمْ جهَّالٌ بطريقِ الرقيةِ لحيَّةِ المالِ ، وطريقِ الغوْصِ في بحرِ الجاهِ ، فوجبَ تحذيرُهُمْ ؛ فإنَّهُمْ يهلكونَ بِسُمّ المالِ قبلَ الوصولِ إلىٰ ترياقِهِ ، ويهلكُهُمْ تمساحُ بحرِ الجاهِ قبلَ العثورِ علىٰ جواهرِهِ ، ولوْ كانا في أعيانِهِما مذمومينِ بالإضافةِ إلىٰ كلِّ أحدٍ . . لما تُصوّرَ أنْ ينضافَ إلى النبوَّةِ الملْكُ ؛ كما كانَ لرسولِنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا أنْ ينضافَ إليها الغنىٰ ؛ كما كانَ لسليمانَ عليهِ السلامُ .

فالناسُ كلُّهُمْ صبيانٌ ، والأموالُ حيَّاتٌ ، والأنبياءُ والعارفونَ معزّمونَ ، فقدْ يضرُّ الصبيَّ ما لا يضرُّ المعزِّمَ .

نعم ؛ المعزّمُ لوْ كانَ لهُ ولدٌ يريدُ بقاءَهُ وإصلاحَهُ وقدْ وجدَ حيَّةً وعلمَ أنَّهُ لوْ أخذَها لأجلِ ترياقِها لاقتدىٰ بهِ ولدُهُ وأخذَ الحيَّةَ إذا رآها ليلعبَ بها فيهلَكَ . . فلهُ غرضٌ في الترياقِ ، ولهُ غرضٌ في حفْظِ الولدِ ، فواجبٌ عليهِ أنْ يزنَ غرضَهُ

---

(١) روى الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » .

(٢) كذا أورده الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص ٤٨) .

(٣) كذا أورده العسكري في « ديوان المعاني » (١٤٦/١) .

(٤) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٣١٧) من حديث محمد بن المنكدر مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٢٤) من كلام محمد بن المنكدر .

في الترياقِ بغرضِهِ في حفْظِ الولدِ ، فإذا كانَ يقدرُ على الصبرِ عنِ الترياقِ ولا يستضرُّ بِهِ ضرراً كثيراً ، ولوْ أخذَها لأخذها الصبيُّ ، ويعظمُ ضررُهُ بهلاكِهِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يهربَ عنِ الحيَّةِ إذا رآها ويشيرُ على الصبيّ بالهربِ ، ويقبّحُ صورتَها في عينِهِ ، ويعرِّفُهُ أنَّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منهُ أحدٌ ، ولا يحدِّثُهُ أصلاً بما فيها مِنْ نفعِ الترياقِ ؛ فإنَّ ذلكَ ربما يغرُّهُ فيقدمُ عليهِ مِنْ غيرِ تمامِ المعرفةِ .

وكذلكَ الغوَّاصُ إذا علمَ أنَّهُ لوْ غاصَ في البحرِ بمرأىً مِنْ ولدِهِ لاتبعَهُ وهلكَ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يحذِّرَ الصبيَّ ساحلَ البحرِ والنهرِ ، فإنْ كانَ لا ينزجرُ الصبيُّ بمجرَّدِ الزجرِ مهما رأىٰ أباهُ يحومُ حولَ الساحلِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يبعُدَ مِنَ الساحلِ معَ الصبيّ ولا يقربَ منهُ بينَ يديهِ .

فكذلكَ الأمَّةُ في حجرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ كالصبيانِ الأغبياءِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا لكُمْ مثلُ الوالدِ لولدِهِ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّكُمْ تتهافتونَ على النارِ تهافتَ الفراشِ وأنا آخذٌ بحُجزِكُمْ »(٢)

وحظُّهُمُ الأوفرُ في حفْظِ أولادِهِمْ عنِ المهالكِ ، فإنَّهُمْ لمْ يُبعثوا إلا لذلكَ ، وليسَ لهُمْ في المالِ حظٌّ إلا بقدْرِ القوتِ ، فلا جرمَ اقتصروا علىٰ قدْرِ القوتِ ، وما فضلَ فلمْ يمسكوهُ ، بلْ أنفقوهُ ؛ فإنَّ الإنفاقَ فيهِ الترياقُ ، وفي الإمساكِ السمُّ ، ولوْ فُتِحَ للناسِ بابُ كسبِ المالِ ورُغِّبوا فيهِ . . لمالوا إلىٰ سمِّ الإمساكِ ، ورغبوا عنْ ترياقِ الإنفاقِ ، فلذلكَ قُبِّحَتِ الأموالُ ، والمعنيُّ بِهِ تقبيحُ إمساكِها ، والحرصِ عليها للاستكثارِ منها ، والتوسعِ في نعيمِها بما يوجبُ الركونَ إلى الدنيا ولذَّاتِها ، فأمَّا أخذُها بقدْرِ الكفايةِ ، وصرْفُ الفاضلِ إلى الخيراتِ . . فليسَ بمذمومٍ .

وحقُّ كلِّ مسافرٍ ألا يحملَ إلا بقدْرِ زادِهِ في السفرِ إذا صمَّمَ العزمَ علىٰ أنْ يختصَّ بما يحملُهُ ، فأمَّا إنْ سمحَتْ نفسُهُ بإطعامِ الطعامِ وتوسيعِ الزادِ على الرفقاءِ . . فلا بأسَ بالاستكثارِ ، وقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليكنْ بلاغُ أحدِكُمْ مِنَ الدنيا كزادِ الراكبِ »(٣) معناهُ : لأنفسِكُمْ خاصَّةً ، وإلا . . فقدْ كانَ فيمَنْ يروي هٰذا الحديثَ ويعملُ بِهِ مَنْ يأخذُ مئةَ ألفِ درهمٍ في موضعٍ واحدٍ ويفرِّقُها في موضعِهِ ، ولا يمسكُ منها حبَّةً(٤)

ولمَّا ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ الأغنياءَ يدخلونَ الجنَّةَ بشدَّةٍ . . استأذنَهُ عبدُ الرحمٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ في أنْ يخرجَ عنْ جميعِ ما يملكُهُ ، فأذنَ لهُ ، فنزلَ جبريلُ عليهِ السلامُ وقالَ : « مُرْهُ بأنْ يطعمَ المسكينَ ، ويكسوَ العاريَ ، ويقريَ الضيفَ . . . » الحديثَ(٥)

فإذاً ؛ النعمُ الدنيويَّةُ مشوبةٌ ، قدِ امتزجَ داؤُها بدوائِها ، ومرجوُّها بمَخُوفِها ، ونفعُها بضرِّها ، فمَنْ وثقَ ببصيرتِهِ

---

(١) رواه أبو داوود (٨) ، والنسائي (٣٨/١) ، وابن ماجه (٣١٣) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

(٣) رواه الترمذي (١٧٨٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتِ اللحوق بي . . فليكفكِ من الدنيا كزاد الراكب . . . » ، ورواه ابن ماجه (٤١٠٤) عن سلمان رضي الله عنه قال : (عهد إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب . . .) .

(٤) منهم السيدة المبجلة عائشة رضي الله عنها ، كما سبق ذكر ذلك عنها في كتاب (ذم البخل) عند بدء الكلام علىٰ حكايات الأسخياء وكذا سلمان رضي الله عنه ، فقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٩٨/١) : (أن عطاءه كان خمسة آلاف درهم ، وكان أميراً علىٰ زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين ، وكان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها ، وإذا خرج عطاؤه . . أمضاه ويأكل من سفيف يده) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١١/٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٩/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) .

وكمالِ معرفتِهِ . . فلهُ أنْ يقرُبَ منها متقياً داءَها ومستخرجاً دواءَها ، ومَنْ لا يقدرُ علىٰ ذٰلكَ . . فالبعدَ البعدَ ، والفرارَ الفرارَ عنْ مظانِّ الأخطارِ ، فلا تعدلْ بالسلامةِ شيئاً في حقِّ هٰؤلاءِ ، وهُمُ الخلْقُ كلُّهُمْ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ وهداهُ لطريقِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما معنى النعَمِ التوفيقيَّةِ الراجعةِ إلى الهدايةِ والرشدِ والتأييدِ والتسديدِ ؟

فاعلمْ : أنَّ التوفيقَ لا يستغني عنهُ أحدٌ ، **وهوَ عبارةٌ عنِ التأليفِ والتلفيقِ بينَ إرادةِ العبدِ وبينَ قضاءِ اللهِ وقدَرِهِ** ، وهٰذا يشملُ الشرَّ والخيرَ ، وما هوَ سعادةٌ وما هوَ شقاوةٌ ، ولٰكنْ جرتِ العادةُ بتخصيصِ اسمِ التوفيقِ بما يوافقُ السعادةَ مِنْ جملةِ قضاءِ اللهِ تعالىٰ وقدَرِهِ ، كما أنَّ الإلحادَ عبارةٌ عنِ الميلِ ، فخُصِّصَ بمَنْ يميلُ إلى الباطلِ عنِ الحقِ ، وكذا الارتدادُ .

ولا خفاءَ بالحاجةِ إلى التوفيقِ ، ولذٰلكَ قيلَ[1] : [من الطويل]

إذا لَـمْ يَـكُـنْ عَـوْنٌ مِـنَ اللهِ لِلْفَتَىٰ ... فَـأَكْـثَـرُ ما يَـجْـنِـي عَـلَـيْـهِ اجْـتِـهـادُهُ

فأمَّا الهدايةُ :

فلا سبيلَ لأحدٍ إلىٰ طلبِ السعادةِ إلا بها ؛ لأنَّ داعيةَ الإنسانِ قدْ تكونُ مائلةً إلىٰ ما فيهِ صلاحُ آخرتِهِ ، ولٰكنْ إذا لمْ يعلمْ ما فيهِ صلاحُ آخرتِهِ حتَّىٰ يظنُّ الفسادَ صلاحاً . . فمِنْ أينَ ينفعُهُ مجرَّدُ الإرادةِ ؟! فلا فائدةَ في الإرادةِ والقدرةِ والأسبابِ إلا بعدَ الهدايةِ .

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ يدخلُ الجنَّةَ إلا برحمةِ اللهِ تعالىٰ » أي : بهدايتِهِ ، فقيلَ : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ولا أنا »[2]

وللهدايةِ ثلاثُ منازلَ :

الأولىٰ : معرفةُ طريقِ الخيرِ والشرِّ المشارِ إليهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ ، وقدْ أنعمَ اللهُ تعالىٰ بهِ علىٰ كافَّةِ عبادِهِ ، بعضُهُ بالعقلِ ، وبعضُهُ علىٰ لسانِ الرسلِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ، فأسبابُ الهدىٰ هيَ الكتبُ والرسلُ وبصائرُ العقولِ ، وهيَ مبذولةٌ ، ولا يمنعُ منها إلا الحسدُ ، والكبرُ ، وحبُّ الدنيا ، والأسبابُ التي تعمي القلوبَ وإنْ كانَتْ لا تعمي الأبصارَ .

قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

ومِنْ جملةِ المعميِاتِ الإلْفُ والعادةُ وحبُّ استصحابِهِما ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ . . . ﴾ الآيةَ .

---

(١) البيت لسيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ٢٦٤) .

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) بنحوه ، وقال في « الذريعة » (ص ١٩٩) معقِّباً : (تنبيهاً أنه لو توهمت رحمته مرتفعة ابتداءً وانتهاءً . . ما كان لنا سبيل إلىٰ ذٰلك) .

وعنِ الكبرِ والحسدِ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ .

فهٰذهِ المعمياتُ هيَ التي منعَتِ الاهتداءَ .

والهدايةُ الثانيةُ : وراءَ هٰذهِ الهدايةِ العامَّةِ ، وهيَ التي يمدُّ اللهُ تعالىٰ بها العبدَ حالاً بعدَ حالٍ ، وهيَ ثمرةُ المجاهدةِ ، حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ .

والهدايةُ الثالثةُ : وراءَ الثانيةِ ، وهوَ النورُ الذي يشرقُ في عالمِ النبوَّةِ والولايةِ بعدَ كمالِ المجاهدةِ ، فيهتدي بها إلىٰ ما لا يهتدي إليهِ بالعقلِ الذي يحصلُ التكليفُ وإمكانُ تعلُّمِ العلومِ بهِ ، وهوَ الهدى المطلقُ ، وما عداهُ حجابٌ لهُ ومقدماتٌ ، وهوَ الذي شرَّفَهُ اللهُ تعالىٰ بتخصيصِ الإضافةِ إليهِ وإنْ كانَ الكلُّ مِنْ جهتِهِ تعالىٰ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ .

وهوَ المسمَّىٰ حياةً في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ ، والمعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

وأمَّا الرشدُ :

فنعني بهِ العنايةَ الإلٰهيَّةَ التي تعينُ الإنسانَ عندَ توجُّهِهِ إلىٰ مقاصدِهِ ، فتقوِّيهِ علىٰ ما فيهِ صلاحُهُ ، وتفتِّرُهُ عمَّا فيهِ فسادُهُ ، ويكونُ ذٰلكَ مِنَ الباطنِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ ، **فالرشدُ** : عبارةٌ عنْ هدايةٍ باعثةٍ إلىٰ جهةِ السعادةِ ، محرِّكةٍ إليها ، فالصبيُّ إذا بلغَ خبيراً بحفْظِ المالِ وطرقِ التجارةِ والاستنماءِ ولٰكنَّهُ معَ ذٰلكَ يبذِّرُ ولا يريدُ الاستنماءَ . . لا يُسمَّىٰ رشيداً ، لا لعدمِ هدايتِهِ ، بلْ لقصورِ هدايتِهِ عنْ تحريكِ داعيتِهِ ، فكَمْ مِنْ شخصٍ يقدمُ علىٰ ما يعلمُ أنَّهُ يضرُّهُ ، فقدْ أُعطيَ الهدايةَ ومُيِّزَ بها عنِ الجاهلِ الذي لا يدري أنَّهُ يضرُّهُ ، ولٰكنْ ما أُعطيَ الرشدَ ، فالرشدُ بهٰذا الاعتبارِ أكملُ مِنْ مجرَّدِ الهدايةِ إلىٰ وجوهِ الأعمالِ ، وهيَ نعمةٌ عظيمةٌ .

وأمَّا التسديدُ :

فهوَ توجيهُ حركاتِهِ إلىٰ صوبِ المطلوبِ ، وتيسُّرُها عليهِ ليستدَّ في صوبِ الصوابِ في أسرعِ وقتٍ ، فإنَّ الهدايةَ بمجرَّدِها لا تكفي ، بلْ لا بدَّ مِنْ هدايةٍ محرِّكةٍ للداعيةِ وهيَ الرشدُ ، والرشدُ لا يكفي ، بل لا بدَّ مِنْ تيسيرِ الحركاتِ بمساعدةِ الأعضاءِ والآلاتِ حتَّىٰ يتمَّ المرادُ ممَّا انبعثَتِ الداعيةُ إليهِ .

فالهدايةُ : محضُ التعريفِ ، والرشدُ : هوَ تنبيهُ الداعيةِ لتستيقظَ وتتحرَّكَ ، والتسديدُ : إعانةٌ ونصرةٌ بتحريكِ الأعضاءِ في صوبِ السدادِ .

وأمَّا التأييدُ :

فكأنَّهُ جامعٌ للكلِّ ، وهوَ عبارةٌ عنْ تقويةِ أمرِهِ بالبصيرةِ مِنْ داخلٍ وتقويةِ البطشِ ومساعدةِ الأسبابِ مِنْ خارجٍ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ ، وتقرُبُ منهُ العصمةُ ، وهيَ عبارةٌ عنْ جودٍ إلٰهيٍّ يسبحُ في الباطنِ يقوىٰ بهِ الإنسانُ علىٰ تحرِّي الخيرِ وتجنُّبِ الشرِّ ، حتَّىٰ يصيرَ كمانعٍ مِنْ باطنِهِ غيرِ محسوسٍ ، وإيَّاهُ عُنيَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ .

فهٰذهِ هيَ مجامعُ النعمِ ، ولنْ تتثبَّتَ إلا بما يخوِّلُهُ اللهُ مِنَ الفهمِ الصافي الثاقبِ ، والسمعِ الواعي ، والقلبِ البصيرِ المتواضعِ المراعي ، والمعلِّمِ الناصحِ ، والمالِ الزائدِ علىٰ ما يقصرُ عنِ المهمَّاتِ بقلَّتِهِ ، القاصرِ عمَّا يشغلُ عنِ الدينِ بكثرتِهِ ، والعزِّ الذي يصونُهُ عنْ سفهِ السفهاءِ وظلْمِ الأعداءِ .

ويستدعي كلُّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ الستةَ عشرَ أسباباً ، وتستدعي تلكَ الأسبابُ أسباباً ، إلىٰ أنْ تنتهيَ بالآخرةِ إلىٰ دليلِ المتحيِّرينَ وملجأ المضطرينَ ، وذٰلكَ ربُّ الأربابِ ومسبِّبُ الأسبابِ .

وإذا كانَتْ تلكَ الأسبابُ طويلةً لا يحتملُ مثلُ هٰذا الكتابِ استقصاءَها . . فلنذكرْ منها أنموذجاً ؛ ليُعلمَ بهِ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ ، وباللهِ التوفيقُ .

* * *

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلمْ : أنَّا جمعنا النعَمَ في ستةَ عشرَ ضرباً ، وجعلنا صحَّةَ البدنِ نعمةً مِنَ النعمِ الواقعةِ في الرتبةِ المتأخرةِ .

فهٰذهِ النعمةُ الواحدةُ لوْ أردنا أنْ نستقصيَ الأسبابَ التي بها تمَّتْ هٰذهِ النعمةُ . . لمْ نقدرْ عليها ، ولٰكنِ الأكلُ أحدُ أسبابِ الصحَّةِ .

فلنذكرْ نبذةً مِنْ جملةِ الأسبابِ التي بها تتمُّ نعمةُ الأكلِ

ولا يخفىٰ أنَّ الأكلَ فعلٌ ، وكلُّ فعلٍ مِنْ هٰذا النوعِ فهوَ حركةٌ ، وكلُّ حركةٍ فلا بدَّ لها مِنْ جسمٍ متحرِّكٍ هوَ آلتُها ، ولا بدَّ لها مِنْ قدرةٍ على الحركةِ ، ولا بدَّ مِنْ إرادةٍ للحركةِ ، ولا بدَّ مِنْ علمٍ بالمرادِ وإدراكٍ لهُ ، ولا بدَّ للآكلِ مِنْ مأكولٍ ، ولا بدَّ للمأكولِ مِنْ أصلٍ منهُ يحصلُ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ صانعٍ يصلحُهُ .

فلنذكرْ أسبابَ الإدراكِ ، ثمَّ أسبابَ الإراداتِ ، ثمَّ أسبابَ القدرةِ ، ثمَّ أسبابَ المأكولِ علىٰ سبيلِ التلويحِ لا علىٰ سبيلِ الاستقصاءِ .

* * *

الطرف الأول : في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ النباتَ ، وهوَ أكملُ وجوداً مِنَ الحجرِ والمدرِ ، والحديدِ والنحاسِ ، وسائرِ الجواهرِ التي لا تنمو ولا تغتذي ، فإنَّ النباتَ خُلِقَ فيهِ قوَّةٌ بها يجتذبُ الغذاءَ إلىٰ نفسِهِ مِنْ جهةِ أصلِهِ وعروقِهِ التي في الأرضِ ، وهيَ لهُ آلاتٌ فيها يجتذبُ الغذاءَ ، وهيَ العروقُ الدقيقةُ التي تراها في كلِّ ورقةٍ ، ثمَّ تغلظُ أصولُها ثمَّ تتشعَّبُ ، ولا تزالُ تستدقُّ وتتشعَّبُ إلىٰ عروقٍ شعريَّةٍ تنبسطُ في أجزاءِ الورقةِ حتَّىٰ تغيبَ عنِ البصرِ .

إلا أنَّ النباتَ معَ هٰذا الكمالِ ناقصٌ ، فإنَّهُ لوْ أعوزَهُ غذاءٌ يُساقُ إليهِ ويماسُّ أصلَهُ . . جفَّ ويبسَ ، ولمْ يمكنْهُ طلبُ الغذاءِ مِنْ موضعٍ آخرَ ، فإنَّ الطلبَ إنَّما يكونُ بمعرفةِ المطلوبِ وبالانتقالِ إليهِ ، والنباتُ عاجزٌ عنْ ذٰلكَ ، فمِنْ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ أنْ خلقَ لكَ آلةَ الإحساسِ ، وآلةَ الحركةِ في طلبِ الغذاءِ ، فانظرْ إلىٰ ترتيبِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ في خلْقِ الحواسِّ الخمسِ التي هي آلةُ الإدراكِ .

فأولُها حاسَّةُ اللمْسِ ، وإنَّما خُلقَتْ لكَ حتَّىٰ إذا مسَّتْكَ نارٌ محرقةٌ أوْ سيفٌ جارحٌ . . تحسُّ بهِ فتهربُ منهُ ، وهٰذا أوَّلُ حسٍّ يُخلقُ للحيوانِ ، ولا يُتصوَّرُ حيوانٌ إلا ويكونُ لهُ هٰذا الحسُّ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يحسَّ أصلاً . . فليسَ بحيوانٍ ، وأنقصُ درجاتِ الحسِّ أنْ يحسَّ بما يلاصقُهُ ويماسُّهُ ، فإنَّ الإحساسَ بما يبعدُ منهُ إحساسٌ أتمُّ لا محالةَ ، وهٰذا الحسُّ موجودٌ لكلِّ حيوانٍ ، حتَّى الدودةُ التي في الطينِ ، فإنَّها إذا غُرِزَ فيها إبرةٌ . . انقبضَتْ للهربِ ، لا كالنباتِ ؛ فإنَّ النباتَ يُقطعُ فلا ينقبضُ ؛ إذْ لا يحسُّ بالقطعِ .

إلا أنَّكَ لوْ لمْ يُخلقْ لكَ إلا هٰذا الحسُّ . . لكنتَ ناقصاً كالدودِ لا تقدرُ علىٰ طلبِ الغذاءِ مِنْ حيثُ يبعدُ عنكَ ، بلْ ما يمسُّ بدنَكَ فتحسُّ بهِ ، فتجذبُهُ إلىٰ نفسِكَ فقطْ ، فافتقرتَ إلىٰ حسٍّ تدركُ بهِ ما بعُدَ عنكَ ، فخلقَ لكَ الشمَّ .

إلا أنَّكَ تدركُ بهِ الرائحةَ ، ولا تدري أنَّها جاءَتْ مِنْ أيِّ ناحيةٍ ، فتحتاجُ إلىٰ أنْ تطوفَ كثيراً مِنَ الجوانبِ ، فربَّما تعثرُ على الغذاءِ الذي شممتَ ريحَهُ وربَّما لمْ تعثرْ ، فتكونُ في غايةِ النقصانِ لوْ لمْ يخلقْ لكَ إلا هٰذا ، فخلقَ لكَ البصرَ لتدركَ بهِ ما بعُدَ عنكَ ، وتدركَ جهتَهُ ، فتقصدَ تلكَ الجهةَ بعينِها .

إلا أنَّهُ لوْ لمْ يخلقْ لكَ إلا هٰذا . . لكنتَ ناقصاً ؛ إذْ لا تدركُ بهٰذا ما وراءَ الجدرانِ والحجبِ ، فتبصرُ غذاءً ليسَ بينَكَ وبينَهُ حجابٌ ، وتبصرُ عدوّاً لا حجابَ بينَكَ وبينَهُ ، وأمّا ما بينكَ وبينَهُ حجابٌ فلا تبصرُهُ وقدْ لا ينكشفُ الحجابُ إلا بعدَ قربِ العدوِّ فتعجزَ عنِ الهربِ ، فخلقَ لكَ السمعَ حتَّىٰ تدركَ بهِ الأصواتَ مِنْ وراءِ الجدرانِ والحجبِ عندَ جريانِ الحركاتِ ، ولأنَّكَ لا تدركُ بالبصرِ إلا شيئاً حاضراً ، وأمَّا الغائبُ . . فلا يمكنُكَ معرفتُهُ إلا بكلامٍ ينتظمُ مِنْ حروفٍ وأصواتٍ تُدركُ بحسِّ السمعِ ، فاشتدَّتْ إليهِ حاجتُكَ ؛ فخلقَ لكَ ذٰلكَ ، ومُيِّزتَ بفهمِ الكلامِ عنْ سائرِ الحيواناتِ .

وكلُّ ذٰلكَ ما كانَ يغنيكَ لوْ لمْ يكنْ لكَ حسُّ الذوقِ ؛ إذْ يصلُ الغذاءُ إليكَ فلا تدري أنَّهُ موافقٌ لكَ أوْ مخالفٌ ، فتأكلُهُ فتهلكُ ؛ كالشجرةِ يُصبُّ في أصلِها كلُّ مائعٍ ولا ذوقَ لها ، فتجذبُهُ وربَّما يكونُ ذٰلكَ سببَ جفافِها .

ثمَّ كلُّ ذٰلكَ لا يكفيكَ لوْ لمْ يُخلقْ في مقدِّمةِ دماغِكَ إدراكٌ آخرُ يُسمَّىٰ حسّاً مشتركاً تتأدَّىٰ إليهِ هٰذهِ المحسوساتُ الخمسُ وتجتمعُ فيهِ ، ولولاهُ . . لطالَ الأمرُ عليكَ ، فإنَّكَ إذا أكلتَ شيئاً أصفرَ مثلاً ، فوجدتَهُ مرّاً مخالفاً لكَ فتركتَهُ ؛ فإذا رأيتَهُ مرَّةً أخرىٰ . . فلا تعرفُ أنَّهُ مضرٌّ ما لمْ تذقْهُ ثانياً لولا الحسُّ المشتركُ ؛ إذِ العينُ تبصرُ الصفرةَ ولا تدركُ

المرارةَ ، فكيفَ تمتنعُ عنهُ والذوقُ يدركُ المرارةَ ولا يدركُ الصفرةَ ، فلا بدَّ مِنْ حاكمٍ تجتمعُ عندَهُ الصفرةُ والمرارةُ جميعاً ، حتَّىٰ إذا أدركَ الصفرةَ . . حكمَ بأنَّهُ مرٌّ ، فيمتنعُ عنْ تناولِهِ ثانياً .

وهٰذا كلُّهُ تشاركُكَ فيهِ الحيواناتُ ؛ إذْ للشاةِ هٰذهِ الحواسُّ كلُّها ، فلوْ لمْ يكنْ لكَ إلا هٰذا . . لكنتَ ناقصاً ، فإنَّ البهيمةَ يُحتالُ عليها فتُؤخذُ ، فلا تدري كيفَ تدفعُ الحيلةَ عنْ نفسِها وكيفَ تتخلَّصُ إذا قُيِّدَتْ ، وقدْ تلقي نفسَها في البئرِ ولا تدري أنَّ ذٰلكَ يهلكُها ، وكذٰلكَ قدْ تأكلُ البهيمةُ ما تستلذُّهُ في الحالِ ويضرُّها في ثاني الحالِ ، فتمرضُ وتموتُ ؛ إذْ ليسَ لها إلا الإحساسُ بالحاضرِ ، فأمَّا إدراكُ العواقبِ . . فلا ، فميَّزَكَ اللهُ تعالىٰ وأكرمَكَ بصفةٍ أخرىٰ هيَ أشرفُ مِنَ الكلِّ ، وهيَ العقلُ ، فبهِ تدركُ مضرَّةَ الأطعمةِ ومنفعتَها في الحالِ والمآلِ ، وبهِ تدركُ كيفيَّةَ طبخِ الأطعمةِ وتأليفِها وإعدادِ أسبابِها ، فتنتفعُ بعقلِكَ في الأكلِ الذي هوَ سببُ صحَّتِكَ ، وهوَ أخسُّ فوائدِ العقلِ وأقلُّ الحِكَمِ فيهِ ، بلِ الحكمةُ الكبرىٰ فيهِ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ومعرفةُ أفعالِهِ ومعرفةُ الحكمةِ في عالمِهِ .

وعندَ ذٰلكَ تنقلبُ فائدةُ الحواسِّ الخمسِ في حقِّكَ ، فتكونُ الحواسُّ الخمسُ كالجواسيسِ وأصحابِ الأخبارِ الموكَّلينَ بنواحي المملكةِ ، وقدْ وُكِّلَتْ كلُّ واحدةٍ منها بأمرٍ تختصُّ بهِ ، فواحدةٌ منها بأخبارِ الألوانِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الأصواتِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الروائحِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الطعومِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الحرِّ والبردِ ، والخشونةِ والملاسةِ ، واللينِ والصلابةِ ، وغيرِها .

وهٰذهِ البُرُدُ والجواسيسُ يقتنصونَ الأخبارَ مِنْ أقطارِ المملكةِ ، ويسلمونَها إلى الحسِّ المشتركِ ، والحسُّ المشتركُ قاعدٌ في مقدمةِ الدماغِ ، مثلُ صاحبِ القصصِ والكتبِ علىٰ بابِ الملكِ ، يجمعُ القصصَ والكتبَ الواردةَ مِنْ نواحي العالمِ ، فيأخذُها وهيَ مختومةٌ ؛ ويسلِّمُها إذْ ليسَ لهُ إلا أخذُها وجمعُها وحفظُها ، فأمَّا معرفةُ حقائقِ ما فيها . . فلا ، ولٰكنْ إذا صادفَ القلبَ العاقلَ الذي هوَ الأميرُ والملكُ . . سلَّمَ الإنهاءاتِ المختومةَ إليهِ ، فيفتشُها الملكُ ويطلعُ منها علىٰ أسرارِ المملكةِ ، ويحكمُ فيها بأحكامٍ عجيبةٍ لا يمكنُ استقصاؤُها في هٰذا المقامِ ، وبحسَبِ ما يلوحُ لهُ مِنَ الأحكامِ والمصالحِ يحرِّكُ الجنودَ ، وهيَ الأعضاءُ ، مرَّةً في الطلبِ ، ومرَّةً في الهربِ ، ومرَّةً في إتمامِ التدبيراتِ التي تعنُّ لهُ .

فهٰذهِ سياقةُ نعمةِ اللهِ عليكَ في الإدراكاتِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّا استوفيناها ؛ فإنَّ الحواسَّ الظاهرةَ هيَ بعضُ الإدراكاتِ ، والبصرُ واحدٌ مِنْ جملةِ الحواسِّ ، والعينُ آلةٌ واحدةٌ لهُ ، وقدْ رُكِبَتِ العينُ مِنْ عشرِ طبقاتٍ مختلفةٍ ، بعضُها رطوباتٌ وبعضُها أغشيةٌ ، وبعضُ الأغشيةِ كأنَّها نسجُ العنكبوتِ ، وبعضُها كالمشيمةِ ، وبعضُ تلكَ الرطوباتِ كأنَّهُ بياضُ البيضِ ، وبعضُها كأنَّهُ الجمْدُ ، ولكلِّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الطبقاتِ العشرِ صفةٌ وصورةٌ ، وشكلٌ وهيئةٌ ، وعرْضٌ وتدويرٌ وتركيبٌ ، لوِ اختلَّتْ طبقةٌ واحدةٌ مِنْ جملةِ العشرِ ، أوْ صفةٌ واحدةٌ مِنْ صفاتِ كلِّ طبقةٍ . . لاختلَّ البصرُ ، وعجزَ عنهُ الأطباءُ والكحَّالونَ كلُّهُمْ .

فهٰذا في حسٍّ واحدٍ ، فقسْ بهِ حاسَّةَ السمعِ وسائرَ الحواسِّ ، بلْ لا يمكنُ أنْ تُستوفىٰ حِكَمُ اللهِ تعالىٰ وأنواعُ نِعَمِهِ في جسمِ البصرِ وطبقاتِهِ في مجلَّداتٍ كثيرةٍ ، معَ أنَّ جملتَهُ لا تزيدُ علىٰ جوزةٍ صغيرةٍ ، فكيفَ ظنُّكَ بجميعِ البدنِ وسائرِ أعضائِهِ وعجائبِهِ ؟!

فهٰذهِ مرامزُ إلىٰ نعمِ اللهِ تعالىٰ بخلْقِ الإدراكاتِ .

* * *

الطَّرف الثّاني : في أصناف النِّعم في خلق الإرادات

اعلمْ : أنَّهُ لوْ خُلِقَ لكَ البصرُ حتَّىٰ تدركَ بهِ الغذاءَ مِنْ بعْدٍ ولمْ يُخلقْ لكَ ميلٌ في الطبعِ وشوقٌ إليهِ وشهوةٌ لهُ تستحثُّكَ على الحركةِ . . لكانَ البصرُ معطَّلاً ، فكَمْ مِنْ مريضٍ يرى الطعامَ وهوَ أنفعُ الأشياءِ لهُ وقدْ سقطَتْ شهوتُهُ ، فلا يتناولُهُ ، فيبقى البصرُ والإدراكُ معطَّلاً في حقِّهِ .

فاضطررتَ إلىٰ أنْ يكونَ لكَ ميلٌ إلىٰ ما يوافقُكَ يُسمَّىٰ شهوةً ، ونفرةٌ عمَّا يخالفُكَ تُسمَّىٰ كراهةً ؛ لتطلبَ بالشهوةِ ، وتهربَ بالكراهةِ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ فيكَ شهوةَ الطعامِ ، وسلَّطَها عليكَ ، ووكلَها بكَ ؛ كالمتقاضي الذي يضطرُّكَ إلى التناولِ ، حتَّىٰ تتناولَ وتتغذَّىٰ ، فتبقىٰ بالغذاءِ ، وهٰذا ممَّا يشاركُكَ فيهِ الحيوانُ دونَ النباتِ .

ثمَّ هٰذهِ الشهوةُ لوْ لمْ تسكنْ إذا أخذتَ مقدارَ الحاجةِ . . أسرفتَ وأهلكتَ نفسَكَ ، فخلقَ اللهُ لكَ الكراهةَ عندَ الشبعِ ؛ لتتركَ الأكلَ بها ، لا كالزرعِ ، فإنَّهُ لا يزالُ يجتذبُ الماءَ إذا انصبَّ في أسافلِهِ حتَّىٰ يفسدَ ، فيحتاجُ إلىٰ آدميٍّ يقدِّرُ غذاءَهُ بقدْرِ الحاجةِ ، فيسقيهِ مرَّةً ويقطعُ عنهُ الماءَ أخرىٰ .

وكما خُلقَتْ لكَ هٰذهِ الشهوةُ حتَّىٰ تأكلَ فيبقىٰ بهِ بدنُكَ . . خلقَ لكَ شهوةَ الوقاعِ حتَّىٰ تجامعَ فيبقىٰ بهِ نسلُكَ .

ولوْ قصصنا عليكَ عجائبَ صنعِ اللهِ تعالىٰ في خلْقِ الرحمِ ، وخلْقِ دمِ الحيضِ ، وتأليفِ الجنينِ مِنَ المنيِّ ودمِ الحيضِ ، وكيفيَّةِ خلْقِ الأنثيينِ والعروقِ السالكةِ إليها مِنَ الفقارِ الذي هوَ مستقرُّ النطفةِ ، وكيفيَّةِ انصبابِ ماءِ المرأةِ مِنَ الترائبِ بواسطةِ العروقِ ، وكيفيَّةِ انقسامِ مقعَّرِ الرحمِ إلىٰ قوالبَ تقعُ النطفةُ في بعضِها فتتشكَّلُ بشكلِ الذكورِ ، وتقعُ في بعضِها فتتشكَّلُ بشكلِ الإناثِ ، وكيفيَّةِ إدارتِها في أطوارِ خلقِها مضغةً وعلقةً ، ثمَّ عظماً ولحماً ودماً ، وكيفيَّةِ قسمةِ أجزائِها إلىٰ رأسٍ ورجْلٍ وبطنٍ وظهرٍ ويدٍ وسائرِ الأعضاءِ . . لقضيتَ مِنْ أنواعِ نعَمِ اللهِ تعالىٰ عليكَ في مبدأ خلقِكَ كلَّ العجبِ فضلاً عمَّا تراهُ الآنَ ، ولٰكنَّا لسنا نريدُ أنْ نتعرَّضَ إلا لنعَمِ اللهِ تعالىٰ في الأكلِ وحدَهُ كي لا يطولَ الكلامُ .

فإذاً ؛ شهوةُ الطعامِ أحدُ ضروبِ الإراداتِ ، وذٰلكَ لا يكفيكَ ، فإنَّهُ تأتيكَ المهلكاتُ مِنَ الجوانبِ ، فلوْ لمْ يُخلقْ فيكَ الغضبُ الذي بهِ تدفعُ كلَّ ما يضادُّكَ ولا يوافقُكَ . . لبقيتَ عرضةً للآفاتِ ، ولأُخِذَ منكَ كلُّ ما حصَّلتَهُ مِنَ الغذاءِ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ يشتهي ما في يديكَ ، فتحتاجُ إلىٰ داعيةٍ في دفعِهِ ومقاتلتِهِ ، وهيَ داعيةُ الغضبِ الذي بهِ تدفعُ كلَّ ما يضادُّكَ ولا يوافقُكَ .

ثمَّ هٰذا لا يكفيكَ ؛ إذِ الشهوةُ والغضبُ لا يدعوانِ إلا إلىٰ ما يضرُّ وينفعُ في الحالِ ، وأمَّا في المآلِ . . فلا تكفي فيهِ هٰذهِ الإرادةُ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ لكَ إرادةً أخرىٰ مسخَّرةً تحتَ إشارةِ العقلِ المعرِّفِ للعواقبِ ؛ كما خلقَ الشهوةَ والغضبَ مسخَّرةً تحتَ إدراكِ الحسِّ المدركِ للحالةِ الحاضرةِ ، فتمَّ بها انتفاعُكَ بالعقلِ ؛ إذْ كانَ مجرَّدُ المعرفةِ بأنَّ هٰذهِ الشهوةَ مثلاً تضرُّكَ لا يغنيكَ في الاحترازِ عنها ما لم يكنْ لكَ ميلٌ إلى العملِ بموجَبِ المعرفةِ ، وهٰذهِ الإرادةُ أفردتَ بها عنِ البهائمِ إكراماً لبني آدمَ ، كما أفردتَ بمعرفةِ العواقبِ ، وقدْ سمَّينا هٰذهِ الإرادةَ باعثاً دينياً ، وفصلناهُ في كتابِ الصبرِ تفصيلاً أوفىٰ مِنْ هٰذا .

❋ ❋ ❋

الطرف الثالث : في نعم الله تعالىٰ في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلمْ : أنَّ الحسَّ لا يفيدُ إلا الإدراكَ ، والإرادةُ لا معنىٰ لها إلا الميلُ إلى الطلبِ أوِ الهربِ ، وهـٰذا لا كفايةَ فيهِ ما لمْ تكنْ فيكَ آلةُ الطلبِ والهربِ ، فكَمْ مِنْ زَمِنٍ مشتاقٍ إلىٰ شيءٍ بعيدٍ عنهُ مدركٍ لهُ ، ولـٰكنَّهُ لا يمكنُهُ أنْ يمشيَ إليهِ لفقدِ رجْلِهِ ، أوْ لا يمكنُهُ أنْ يتناولَهُ لفقدِ يدِهِ ، أوْ لفلجٍ وخَدَرٍ فيهما ، فلا بدَّ مِنْ آلاتٍ للحركةِ ، وقدرةٍ في تلكَ الآلاتِ على الحركةِ ؛ لتكونَ حركتُها بمقتضى الشهوةِ طلباً ، وبمقتضى الكراهةِ هرباً ، فلذٰلكَ خلقَ اللهُ تعالىٰ لكَ الأعضاءَ التي تنظرُ إلىٰ ظاهرِها ولا تعرفُ أسرارَها ، فمنها ما هوَ للطلبِ والهربِ ؛ كالرجْلِ للإنسانِ ، والجناحِ للطيرِ ، والقوائمِ للدوابِّ ، ومنها ما هوَ للدفعِ ؛ كالأسلحةِ للإنسانِ ، والقرونِ للحيواناتِ ، وفي هـٰذا تختلفُ الحيواناتُ اختلافاً كثيراً ؛ فمنها ما يكثرُ أعداؤُهُ ويبعدُ غذاؤُهُ ، فيحتاجُ إلىٰ سرعةِ الحركةِ ، فخُلِقَ لهُ الجناحُ ليطيرَ بسرعةٍ ، ومنها ما خُلِقَ لهُ أربعُ قوائمَ ، ومنها ما له رجْلانِ ، ومنها ما يدبُّ ، وذكرُ ذٰلكَ يطولُ .

فلنذكرِ الأعضاءَ التي بها يتمُّ الأكلُ فقطْ ؛ ليقاسَ عليها غيرُها ، فنقولُ :

رؤيتُكَ الطعامَ مِنْ بعدٍ وحركتُكَ إليهِ لا تكفي ما لمْ تتمكَّنْ منْ أنْ تأخذَهُ ، فافتقرتَ إلىٰ آلةٍ باطشةٍ ، فأنعمَ اللهُ تعالىٰ عليكَ بخلْقِ اليدينِ ، وهما طويلتانِ ممتدَّتانِ إلى الأشياءِ ، ومشتملتانِ علىٰ مفاصلَ كثيرةٍ لتتحرَّكَ في الجهاتِ ، فتمتدُّ وتنثني إليكَ ، فلا تكونُ كخشبةٍ منصوبةٍ ، ثمَّ جعلَ رأسَ اليدِ عريضاً بخلْقِ الكفِّ ، ثمَّ قسَّمَ رأسَ الكفِّ بخمسةِ أقسامٍ هيَ الأصابعُ ، وجعلَها في صفَّينِ بحيثُ يكونُ الإبهامُ في جانبٍ ويدورُ على الأربعةِ الباقيةِ ، ولوْ كانَتْ مجتمعةً أوْ متراكمةً . . لمْ يحصلْ بها تمامُ غرضِكَ ، فوضعَها وضعاً إنْ بسطتَها . . كانَتْ لكَ مجرفةً ، وإنْ ضممتَها . . كانَتْ لكَ مغرفةً ، وإنْ جمعتَها . . كانَتْ لكَ آلةً للضربِ ، وإنْ نشرتَها ثمَّ قبضتَها . . كانَتْ لكَ آلةً في القبضِ ، ثمَّ خلقَ لها أظفاراً ، وأسندَ إليها رؤوسَ الأصابعِ حتَّىٰ لا تتفتَّتَ ، وحتَّىٰ تلتقطَ بها الأشياءَ الدقيقةَ التي لا تحويها الأصابعُ ، فتأخذَها برؤوسِ أظفارِكَ .

ثمَّ هبْ أنَّكَ أخذتَ الطعامَ باليدِ . . فمِنْ أينَ يكفيكَ هـٰذا ما لمْ يصلْ إلى المعدةِ وهيَ في الباطنِ ، فلا بدَّ وأنْ يكونَ مِنَ الظاهرِ دهليزٌ إليها ؛ حتَّىٰ يدخلَ الطعامُ منهُ ، فجعلَ الفمَ منفذاً إلى المعدةِ معَ ما فيهِ مِنَ الحِكَمِ الكثيرةِ سوىٰ كونِهِ منفذاً للطعامِ إلى المعدةِ .

ثمَّ إنْ وضعتَ الطعامَ في الفمِ وهوَ قطعةٌ واحدةٌ . . فلا يتيسَّرُ ابتلاعُهُ ، فتحتاجُ إلىٰ طاحونةٍ تطحنُ بها الطعامَ ، فخلقَ لكَ اللحيينِ مِنْ عظمينِ ، وركَّبَ فيهما الأسنانَ ، وطبَّقَ الأضراسَ مِنَ العليا على السفلىٰ لتطحنَ بهما الطعامَ طحناً .

ثمَّ الطعامُ تارةً يحتاجُ إلى الكسرِ ، وتارةً إلى القطعِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ طحنٍ بعدَ ذٰلكَ ، فقسَّمَ الأسنانَ إلىٰ عريضةٍ طواحنَ كالأضراسِ ، وإلىٰ حادَّةٍ قواطعَ كالرَّباعِياتِ ، وإلىٰ ما يصلحُ للكسرِ كالأنيابِ .

ثمَّ جعلَ مفصِلَ اللحيينِ متخلخلاً بحيثُ يتقدَّمُ الفكُّ الأسفلُ ويتأخَّرُ ؛ حتَّىٰ يدورَ على الفكِّ الأعلىٰ دورانَ الرحىٰ ، ولولا ذٰلكَ . . لما تيسَّرَ إلا ضربُ أحدِهما على الآخرِ ؛ مثلَ تصفيقِ اليدينِ مثلاً ، وبذٰلكَ لا يتمُّ الطحنُ ، فجعلَ اللحيَ

الأسفلَ متحرِّكاً حركةً دوريَّةً ، واللحيَ الأعلىٰ ثابتاً لا يتحرَّكُ ، فانظرْ إلىٰ عجيبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ !! فإنَّ كلَّ رحىً صنعَهُ الخلْقُ فيثبتُ منهُ الحجرُ الأسفلُ ويدورُ الأعلىٰ إلا هٰذا الرحى الذي صنعَهُ اللهُ تعالىٰ ؛ إذْ يدورُ منهُ الأسفلُ على الأعلىٰ ، فسبحانَهُ ما أعظمَ شانَهُ وأعزَّ سلطانَهُ وأتمَّ برهانَهُ وأوسعَ امتنانَهُ !!

ثمَّ هبْ أنَّكَ وضعتَ الطعامَ في فضاءِ الفمِ . . فكيفَ يتحرَّكُ الطعامُ إلىٰ ما تحتَ الأسنانِ ؟ أوْ كيفَ تستجرُّهُ الأسنانُ إلىٰ نفسِها ؟ أوْ كيفَ يتصرَّفُ باليدِ في داخلِ الفمِ ؟ فانظرْ كيفَ أنعمَ اللهُ تعالىٰ عليكَ بخلْقِ اللسانِ ، فإنَّهُ يطوفُ في جوانبِ الفمِ ويردُّ الطعامَ مِنَ الوسطِ إلى الأسنانِ بحسَبِ الحاجةِ كالمجرفةِ التي تردُّ الطعامَ إلى الرحىٰ ، هٰذا معَ ما فيهِ مِنْ فائدةِ الذوْقِ ، وعجائبِ قوَّةِ النطْقِ التي لسنا نطنبُ بذكرِها .

ثمَّ هبْ أنَّكَ قطعتَ الطعامَ وطحنتَهُ وهوَ يابسٌ . . فلا تقدرُ على الابتلاعِ إلا بأنْ ينزلقَ إلى الحلقِ بنوعِ رطوبةٍ ، فانظرْ كيفَ خلقَ اللهُ تعالىٰ تحتَ اللسانِ عيناً يفيضُ اللعابُ منها وينصبُّ بقدْرِ الحاجةِ ؛ حتَّىٰ ينعجنَ بهِ الطعامُ ، فانظرْ كيفَ سخَّرَها لهٰذا الأمرِ ، فإنَّكَ ترى الطعامَ مِنْ بعدٍ ، فتثورُ المسكينةُ للخدمةِ[1] ، وينصبُّ اللعابُ حتَّىٰ تتحلَّبَ أشداقُكَ والطعامُ بعدُ بعيدٌ عنكَ .

ثمَّ هٰذا الطعامُ المطحونُ المنعجنُ مَنْ يوصلُهُ إلى المعدةِ وهوَ في الفمِ ولا تقدرُ علىٰ أنْ تدفعَهُ باليدِ ، ولا في المعدةِ يدٌ حتَّىٰ تمتدَّ فتجذبَ الطعامَ ؟ فانظرْ كيفَ هيَّأَ اللهُ تعالى المريءَ والحَنْجَرةَ ، وجعلَ علىٰ رأسِها طبقاتٍ تنفتحُ لأخذِ الطعامِ ، ثمَّ تنطبقُ وتنضغطُ حتَّىٰ يتقلَّبَ الطعامُ بضغطِهِ ، فيهويَ إلى المعدةِ في دهليزِ المريءِ .

فإذا وردَ الطعامُ على المعدةِ وهوَ خبزٌ وفاكهةٌ مقطعةٌ . . فلا يصلحُ لأنْ يصيرَ لحماً وعظماً ودماً علىٰ هٰذهِ الهيئةِ ، بل لا بدَّ وأنْ يُطبخَ طبخاً تامّاً حتىٰ تتشابَهَ أجزاؤُهُ ، فخلقَ اللهُ تعالى المعدةَ علىٰ هيئةِ قدْرٍ ، فيقعُ فيها الطعامُ ، فتحتوي عليهِ ، وتنغلقُ عليهِ الأبوابُ ، فلا يزالُ لابثاً فيها حتَّىٰ يتمَّ الهضمُ والنضْجُ بالحرارةِ التي تحيطُ بالمعدةِ مِنَ الأعضاءِ الباطنةِ ؛ إذْ مِنْ جانبِها الأيمنِ الكبدُ ، ومِنَ الأيسرِ الطحالُ ، ومِنْ قدَّامِ التَّرْبُ[2] ، ومِنْ خلفٍ لحمُ الصلْبِ ، فتتعدَّى الحرارةُ إليها مِنْ تسخينِ هٰذهِ الأعضاءِ مِنَ الجوانبِ ، حتَّىٰ ينطبخَ الطعامُ ويصيرَ مائعاً متشابهاً ، يصلحُ للنفوذِ في تجاويفِ العروقِ ، وعندَ ذٰلكَ يشبهُ ماءَ الشعيرِ في تشابهِ أجزائِهِ ورقَّتِهِ ، وهوَ بعدُ لا يصلحُ للتغذيةِ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ بينَها وبينَ الكبدِ مجاريَ مِنَ العروقِ ، وجعلَ لها فوهاتٍ كثيرةً حتَّىٰ ينصبَّ الطعامُ فيها ، فينتهيَ إلى الكبدِ .

والكبدُ معجونٌ مِنْ طينةِ الدمِ حتَّىٰ كأنَّهُ دمٌ ، وفيهِ عروقٌ كثيرةٌ شعريَّةٌ منتشرةٌ في أجزاءِ الكبدِ ، فينصبُّ الطعامُ الرقيقُ النافذُ فيها ، وينتشرُ في أجزائِها ، حتَّىٰ تستوليَ عليهِ قوَّةُ الكبدِ ، فتصبغُهُ بلونِ الدمِ ، فيستقرُّ فيها ريثما يحصلُ لهُ نضجٌ آخرُ ، ويحصلُ لهُ هيئةُ الدمِ الصافي الصالحِ لغذاءِ الأعضاءِ ، إلا أنَّ حرارةَ الكبدِ هيَ التي تنضجُ هٰذا الدمَ ، فيتولَّدُ مِنْ هٰذا الدمِ فضلتانِ كما يتولَّدُ في جميعِ ما يُطبخُ : إحداهُما : شبيهةٌ بالدرديِّ والعكرِ[3] ، وهوَ الخلطُ السوداويُّ ، والأخرىٰ : شبيهةٌ بالرغوةِ ، وهيَ الصفراءُ ، ولوْ لمْ تُفصلْ عنهُما هاتانِ الفضلتانِ . . فسدَ مزاجُ الأعضاءِ ، فخلقَ اللهُ تعالى المرارةَ والطحالَ ، وجعلَ لكلِّ واحدٍ منهُما عنقاً ممدوداً إلى الكبدِ داخلاً في تجويفِهِ ، فتجذبُ المرارةُ الفضلةَ

---

(١) في نسخة الحافظ الزبيدي (١٠٨/٨) : (فيثور الحنكان للخدمة) .

(٢) الترب : شحم رقيق يغشّي الكرش والأمعاء .

(٣) الدردي والعكر : ما يركد في أسفل كل مائع كالأشربة والأدهان .

الصفراويّةَ ، ويجذبُ الطحالُ العكرَ السوداويَّ ، فيبقى الدمُ صافياً ليسَ فيهِ إلا زيادةُ رقَّةٍ ورطوبةٍ لما فيهِ مِنَ المائيَّةِ ، ولولاها . . لما انتشرَ في تلكَ العروقِ الشعريَّةِ ، ولا خرجَ منها متصاعداً إلى الأعضاءِ ، فخلقَ اللهُ تعالى الكليتينِ ، وأخرجَ مِنْ كلِّ واحدةٍ منهُما عنقاً طويلاً إلى الكبدِ ، ومِنْ عجائبِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ أنَّ عنقَهُما ليسَ داخلاً في تجويفِ الكبدِ ، بلْ متصلٌ بالعروقِ الطالعةِ مِنْ حدبةِ الكبدِ ، حتَّىٰ يجذبَ مائيتَها بعدَ الطلوعِ مِنَ العروقِ الدقيقةِ التي في الكبدِ ، إذْ لو اجتُذبَ قبلَ ذٰلكَ . . لغلظَ ولـمْ يخرجْ مِنَ العروقِ ، فإذا انفصلَتْ منهُ المائيَّةُ . . فقدْ صارَ الدمُ صافياً مِنَ الفضلاتِ الثلاثِ ، نقيّاً مِنْ كلِّ ما يفسدُ الغذاءَ .

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ أطلعَ مِنَ الكبدِ عروقاً ، ثمَّ قسمَها بعدَ الطلوعِ أقساماً ، وشعبَ كلَّ قسمٍ بشعبٍ ، وانتشرَ ذٰلكَ في البدنِ كلِّهِ مِنَ الفَرْقِ إلى القدمِ ظاهراً وباطناً ، فيجري الدمُ الصافي فيها ، ويصلُ إلىٰ سائرِ الأعضاءِ ، حتَّىٰ تصيرَ العروقُ المنقسمةُ شعريَّةً كعروقِ الأوراقِ في الأشجارِ ، بحيثُ لا تدركُ بالأبصارِ ، فيصلُ منها الغذاءُ بالرشحِ إلىٰ سائرِ الأعضاءِ .

ولوْ حلَّتْ بالمرارةِ آفةٌ فلمْ تجذبْ الفضلةَ الصفراوية . . فسدَ الدمُ ، وحصلَ منهُ الأمراضُ الصفراويَّةُ ؛ كاليرقانِ والبثورِ والحمرةِ ، وإنْ حلَّتْ بالطحالِ آفةٌ فلمْ يجذبِ الخلطَ السوداويَّ . . حدثَتِ الأمراضُ السوداويَّةُ ؛ كالبهقِ والجذامِ والماليخوليا وغيرِها[1] ، وإنْ لمْ تندفعِ المائيةُ نحوَ الكلىٰ . . حدثَ منهُ الاستسقاءُ وغيرُهُ[2] .

ثمَّ انظرْ إلىٰ حكمةِ الفاطرِ الحكيمِ كيفَ رتَّبَ منافعَ علىٰ هٰذهِ الفضلاتِ الثلاثِ الخسيسةِ :

أمَّا المرارةُ . . فإنَّها تجذبُ بأحدِ عنقيها وتقذفُ بعنقٍ آخرَ إلى الأمعاءِ ؛ ليحصلَ بهِ في ثفلِ الطعامِ رطوبةٌ مزلقةٌ ، ويحدثَ في الأمعاءِ لذعٌ يحرِّكُها للدفعِ ، فتنضغطَ حتَّىٰ يندفعَ الثفلُ وينزلقَ ، وتكونُ صفرتُهُ لذٰلكَ .

وأمَّا الطحالُ . . فإنَّهُ يحيلُ تلكَ الفضلةَ إحالةً يحصلُ بها فيهِ حموضةٌ وقبضٌ ، ثمَّ يرسلُ منها في كلِّ يومٍ شيئاً إلىٰ فمِ المعدةِ ، فيحرِّكُ الشهوةَ بحموضتِهِ ، وينبهها ويثيرُها ، ويخرجُ الباقيَ معَ الثفلِ .

وأمَّا الكليةُ . . فإنَّها تغتذي بما في تلكَ المائيَّةِ مِنْ دمٍ ، وترسلُ الباقيَ إلى المثانةِ .

ولنقتصرْ علىٰ هٰذا القدْرِ مِنْ بيانِ نعَمِ اللهِ تعالىٰ في الأسبابِ التي أُعدَّتْ للأكلِ ، ولوْ ذكرنا كيفيَّةَ احتياجِ الكبدِ إلى القلبِ والدماغِ ، واحتياجَ كلِّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأعضاءِ الرئيسةِ إلىٰ صاحبِهِ ، وكيفيَّةَ انشعابِ العروقِ الضواربِ مِنَ القلبِ إلىٰ سائرِ البدنِ التي بواسطتِها تصلُ الروحُ[3] ، وكيفيَّةَ انشعابِ الأعصابِ مِنَ الدماغِ إلىٰ سائرِ البدنِ وبواسطتِها يصلُ الحسُّ ، وكيفيَّةَ انشعابِ العروقِ السواكنِ مِنَ الكبدِ إلىٰ سائرِ البدنِ وبواسطتِها يصلُ الغذاءُ ، ثمَّ كيفيَّةَ تركيبِ الأعضاءِ ، وعددَ عظامِها وعضلاتِها وعروقِها ، وأوتارِها ورباطاتِها ، وغضاريفِها ورطوباتِها . . لطالَ الكلامُ ، وكلُّ ذٰلكَ محتاجٌ إليهِ للأكلِ ولأمورٍ أُخرَ سواهُ .

بلْ في الآدميِّ آلافٌ مِنَ العضلاتِ والعروقِ والأعصابِ ، مختلفةٌ بالصغرِ والكبرِ ، والدقَّةِ والغلظِ ، وكثرةِ الانقسامِ وقلَّتِهِ ، ولا شيءَ منها إلا وفيهِ حكمةٌ أو اثنتانِ أوْ ثلاثٌ أوْ أربعٌ إلىٰ عشرٍ وزيادةٍ ، وكلُّ ذٰلكَ نعَمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليكَ ، لوْ سكنَ مِنْ جملتِها عرقٌ متحرِّكٌ ، أوْ تحرَّكَ عرقٌ ساكنٌ . . لهلكتَ يا مسكينُ .

---

(١) **الماليخوليا** : مرض يثوّر الوساوس والظنون والخوف .

(٢) **الاستسقاء** : مرض احتباس السوائل في الجسم .

(٣) **والمراد بالروح هنا** : البخار اللطيف الذي محلّه القلب ، كما سيبينه المصنف قريباً .

فانظرْ إلىٰ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ أوَّلاً ؛ لتقوىٰ بعدَها على الشكرِ ، فإنَّكَ لا تعرفُ مِنْ نعمةِ اللهِ تعالىٰ إلا الأكلَ وهوَ أخسُّها ، ثمَّ لا تعرفُ منها إلا أنَّكَ تجوعُ فتأكلُ ، والحمارُ أيضاً يعلمُ أنَّهُ يجوعُ فيأكلُ ، ويتعبُ فينامُ ، ويشتهي فيجامعُ ، ويستريحُ فيُشْمَصُ ويُرمَحُ [1] ، فإذا لمْ تعرفْ أنتَ مِنْ نفسِكَ إلا ما يعرفُهُ الحمارُ . . فكيفَ تقومُ بشكرِ نعَمِ اللهِ عليكَ ؟!

وهٰذا الذي رمزنا إليهِ على الإيجازِ قطرةٌ مِنْ بحرٍ واحدٍ مِنْ بحارِ نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ فقطْ ، فقسْ على الإجمالِ ما أهملناهُ مِنْ جملةِ ما عرفناهُ حذراً مِنَ التطويلِ .

وجملةُ ما عرفناهُ وعرفَهُ الخلقُ كلُّهُمْ بالإضافةِ إلىٰ ما لمْ يعرفوهُ مِنْ نعمِ اللهِ تعالىٰ أقلُّ مِنْ قطرةٍ مِنْ بحرٍ ، إلا أنَّ مَنْ علمَ شيئاً مِنْ هٰذا . . أدركَ شمَّةً مِنْ معاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ .

ثمَّ انظرْ كيفَ ربطَ اللهُ تعالىٰ قوامَ هٰذهِ الأعضاءِ وقوامَ منافعِها وإدراكاتِها وقوَّاها ببخارٍ لطيفٍ يتصاعدُ مِنَ الأخلاطِ الأربعةِ ، ومستقرُّهُ القلبُ ، ويسري في جميعِ البدنِ بواسطةِ العروقِ الضوارِبِ ، فلا ينتهي إلىٰ جزءٍ مِنْ أجزاءِ البدنِ إلا ويحدثُ عندَ وصولِهِ في تلكَ الأجزاءِ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ قوَّةِ حسٍّ وإدراكٍ ، وقوَّةِ حركةٍ وغيرِها ؛ كالسراجِ الذي يُدارُ في أطرافِ البيتِ ، فلا يصلُ إلىٰ جزءٍ إلا ويحصلُ بسببِ وصولِهِ ضوءٌ علىٰ أجزاءِ البيتِ مِنْ خلْقِ اللهِ تعالىٰ واختراعِهِ ، ولٰكنَّهُ جعلَ السراجَ سبباً لهُ بحكمتِهِ .

وهٰذا البخارُ اللطيفُ هوَ الذي تسمِّيهِ الأطباءُ الروحَ ، ومحلُّهُ القلبُ ، ومثالُهُ جرمُ نارِ السراجِ ، والقلبُ لهُ كالمَسْرَجةِ [2] ، والدمُ الأسودُ الذي في باطنِ القلبِ لهُ كالفتيلةِ ، والغذاءُ لهُ كالزيتِ ، والحياةُ الظاهرةُ في سائرِ أعضاءِ البدنِ بسببِهِ كالضوءِ للسراجِ في جملةِ البيتِ ، وكما أنَّ السراجَ إذا انقطعَ زيتُهُ انطفأَ . . فسراجُ الروحِ أيضاً ينطفئُ مهما انقطعَ غذاؤُهُ .

وكما أنَّ الفتيلةَ قدْ تحترقُ وتصيرُ رماداً ، بحيثُ لا تقبلُ الزيتَ ، فينطفئُ السراجُ معَ كثرةِ الزيتِ . . فكذٰلكَ الدمُ الذي تشبَّثَ بِهِ هٰذا البخارُ في القلبِ قدْ يحترقُ بفرْطِ حرارةِ القلبِ ، فينطفئُ معَ وجودِ الغذاءِ ، فإنَّهُ لا يقبلُ الغذاءَ الذي يبقىٰ بِهِ الروحُ كما لا يقبلُ الرمادُ الزيتَ قبولاً تنشبَّثُ النارُ بِهِ .

وكما أنَّ السراجَ تارةً ينطفئُ بسببٍ مِنْ داخلٍ كما ذكرناهُ ، وتارةً بسببٍ مِنْ خارجٍ كريحٍ عاصفٍ . . فكذٰلكَ الروحُ تارةً تنطفئُ بسببٍ مِنْ داخلٍ ، وتارةً بسببٍ مِنْ خارجٍ وهوَ القتلُ ، وكما أنَّ انطفاءَ السراجِ بفناءِ الزيتِ ، أوْ بفسادِ الفتيلةِ ، أوْ بريحٍ عاصفٍ ، أوْ بإطفاءِ إنسانٍ لا يكونُ إلا بأسبابٍ مقدَّرةٍ في علمِ اللهِ تعالىٰ مرتبةٍ ، ويكونُ كلُّ ذٰلكَ بقدَرٍ . . فكذٰلكَ انطفاءُ الروحِ ، وكما أنَّ انطفاءَ السراجِ هوَ منتهىٰ وقتِ وجودِهِ ، فيكونُ ذٰلكَ أجلَهُ الذي أُجِّلَ لهُ في أمِّ الكتابِ . . فكذٰلكَ انطفاءُ الروحِ .

وكما أنَّ السراجَ إذا انطفأَ أظلمَ البيتُ كلُّهُ . . فالروحُ إذا انطفأَ أظلمَ البدنُ كلُّهُ ، وفارقَتْهُ أنوارُهُ التي كانَ يستفيدُها مِنَ الروحِ ، وهيَ أنوارُ الإحساساتِ والقُدَرِ والإراداتِ وسائرِ ما يجمعُها معنىٰ لفظِ الحياةِ .

فهٰذا أيضاً رمزٌ وجيزٌ إلىٰ عالمٍ آخرَ مِنْ عوالمِ نعمِ اللهِ تعالىٰ وعجائبِ صنعِهِ وحكمتِهِ ؛ ليعلمَ أنَّهُ لوْ كانَ البحرُ

---

(١) الشمص : ضرب الدابة وطردها لاستنهاضها ، والرَّمْح مثله ، أو هو وصف للدابة إن رفست .

(٢) المسرجة : التي فيها الفتيلة والزيت .

مداداً لكلماتِ ربِّي . . لنفدَ البحرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ ربِّي ، فتَعْساً لمَنْ كفرَ باللهِ تَعْساً ، وسُحْقاً لمَنْ كفرَ نعمتَهُ سُحقاً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ وصفتَ الروحَ ومثَّلتَهُ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سُئِلَ عنِ الروحِ فلمْ يزدْ علىٰ أنْ قالَ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، فلِمَ لمْ يصفْهُ لهُمْ علىٰ هـٰذا الوجهِ ؟[1]

فاعلمْ : أنَّ هـٰذهِ غفلةٌ عنِ الاشتراكِ الواقعِ في لفظِ الروحِ ، فإنَّ الروحَ يُطلقُ لمعانٍ كثيرةٍ لا نطوِّلُ بذكرِها ، ونحنُ إنَّما وصفنا مِنْ جملتِها جسماً لطيفاً تسمِّيهِ الأطباءُ روحاً ، وقدْ عرفوا صفتَهُ ووجودَهُ ، وكيفيَّةَ سريانِهِ في الأعضاءِ ، وكيفيَّةَ حصولِ الإحساسِ والقوىٰ في الأعضاءِ بهِ ، حتَّىٰ إذا خدِرَ بعضُ الأعضاءِ . . علموا أنَّ ذٰلكَ لوقوعِ سدَّةٍ في مجرَىٰ هـٰذا الروحِ ، فلا يعالجونَ موضعَ الخدَرِ ، بلْ منابتَ الأعصابِ ومواقعَ السدةِ فيها ، ويعالجونَها بما يفتحُ السدةَ ، فإنَّ هـٰذا الجسمَ بلطفِهِ ينفذُ في شباكِ العصبِ ، وبواسطتِهِ يتأدَّىٰ مِنَ القلبِ إلىٰ سائرِ الأعضاءِ ، وما ترتقي إليهِ معرفةُ الأطباءِ فأمرُهُ سهلٌ نازلٌ .

وأمَّا الروحُ التي هيَ الأصلُ ، وهيَ التي إذا فسدَتْ فسدَ لها سائرُ البدنِ . . فذٰلكَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ لمْ نصفْهُ ، ولا رخصةَ في وصفِهِ إلا بأنْ يُقالَ : هوَ أمرٌ ربَّانيٌّ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، والأمورُ الربَّانيَّةُ لا تحتملُ العقولُ وصفَها ، بل تتحيَّرُ فيها عقولُ أكثرِ الخلقِ ، وأمَّا الأوهامُ والخيالاتُ . . فقاصرةٌ عنها بالضرورةِ قصورَ البصرِ عنْ إدراكِ الأصواتِ ، وتتزلزلُ في ذكرِ مبادي وصفِها معاقدُ العقولِ المقيدةِ بالجوهرِ والعرضِ ، المحبوسةِ في مضيقِها ، فلا يُدركُ بالعقلِ شيءٌ مِنْ وصفِهِ ، بلْ بنورٍ آخرَ أعلىٰ وأشرفَ مِنَ العقلِ ، يشرقُ ذٰلكَ النورُ في عالمِ النبوَّةِ والولايةِ ، نسبتُهُ إلى العقلِ نسبةُ العقلِ إلى الوهمِ والخيالِ .

وقدْ خلقَ اللهُ تعالى الخلْقَ أطواراً ، فكما يدركُ الصبيُّ المحسوساتِ ولا يدركُ المعقولاتِ ؛ لأنَّ ذٰلكَ طورٌ لمْ يبلغْهُ بعدُ . . فكذٰلكَ يدركُ البالغُ المعقولاتِ ولا يدركُ ما وراءَها ؛ لأنَّ ذٰلكَ طورٌ لمْ يبلغْهُ بعدُ ، وإنَّهُ لمقامٌ شريفٌ ، ومشربٌ عذبٌ ، ورتبةٌ عاليةٌ ، فيها يُلحظُ جنابُ الحقِّ بنورِ الإيمانِ واليقينِ ، وذٰلكَ المشربُ أعزُّ مِنْ أنْ يكونَ شريعةً لكلِّ واردٍ ، بلْ لا يطلعُ عليهِ إلا واحدٌ بعدَ واحدٍ ، ولجنابِ الحقِّ صدرٌ ، وفي مقدمةِ الصدرِ مجالٌ وميدانٌ رحبٌ ، وعلىٰ أوَّلِ الميدانِ عتبةٌ هيَ مستقرُّ ذٰلكَ الأمرِ الربَّانيِّ ، فمَنْ لمْ يكنْ لهُ علىٰ هـٰذهِ العتبةِ جوازٌ ، ولا لحافظِ العتبةِ مشاهدةٌ . . استحالَ أنْ يصلَ إلى الميدانِ ، فكيفَ بالانتهاءِ إلىٰ ما وراءَهُ مِنَ المشاهداتِ العاليةِ ؟!

ولذٰلكَ قيلَ : (مَنْ لمْ يعرفْ نفسَهُ . . لمْ يعرفْ ربَّهُ)[2] ، وأنَّىٰ يُصادفُ هـٰذا في خزانةِ الأطباءِ ؟! ومِنْ أينَ للطبيبِ أنْ يلاحظَهُ ؟ بلِ المعنى المسمَّىٰ روحاً عندَ الطبيبِ بالإضافةِ إلىٰ هـٰذا الأمرِ الربَّانيِّ كالكرةِ التي يحرِّكُها صولجانُ الملكِ بالإضافةِ إلى الملكِ ، فمَنْ عرفَ الروحَ الطبِّيَّ فظنَّ أنَّهُ أدركَ الأمرَ الربَّانيَّ كانَ كمَنْ رأى الكرةَ التي يحرِّكُها صولجانُ الملكِ فظنَّ أنَّهُ رأى الملكَ ، ولا يُشكُّ في أنَّ خطأَهُ فاحشٌ ، وهـٰذا الخطأُ أفحشُ منهُ جداً .

ولمَّا كانتِ العقولُ التي بها يحصلُ التكليفُ وبها تُدركُ مصالحُ الدنيا عقولاً قاصرةً عنْ ملاحظةِ كنْهِ هـٰذا الأمرِ . .

---

(١) أي : عليّ أنه يخار لطيف محلّه القلب ، وحديث السؤال عن الروح رواه البخاري (٤٧٢١) ، ومسلم (٢٧٩٤)

(٢) أورده ابن عطية في « المحرر الوجيز » (٥/٢٩١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

لمْ يأذنِ اللهُ تعالىٰ لرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يتحدَّثَ عنهُ ، بلْ أمرَهُ أنْ يكلِّمَ الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، ولمْ يذكرِ اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ مِنْ حقيقةِ هٰذا الأمرِ شيئاً ، لٰكنْ ذكرَ نسبتَهُ وفعلَهُ ، ولمْ يذكرْ ذاتَهُ ؛ أمَّا نسبتُهُ . . ففي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، وأمَّا فعلُهُ . . فقدْ ذُكِرَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۞ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .

ولنرجعِ الآنَ إلى الغرضِ ، فإنَّ المقصودَ ذكْرُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في الأكلِ ، فقدْ ذكرنا بعضَ نعمِ اللهِ تعالىٰ في آلاتِ الأكلِ .

* * *

الطّرف الرّابع : في نعم الله تعالىٰ في الأصول الّتي منها تحصل الأطعمة وتصير صالحةً لأن يصلحها الآدميّ بعد ذلك بصنعته

اعلمْ : أنَّ الأطعمةَ كثيرةٌ ، وللهِ تعالىٰ في خلقِها عجائبُ كثيرةٌ لا تُحصىٰ ، وأسبابٌ متواليةٌ لا تتناهىٰ ، وذكرُ ذٰلكَ في كلِّ طعامٍ ممَّا يطولُ ، فإنَّ الأطعمةَ إمَّا أدويةٌ ، وإمَّا فواكهُ ، وإمَّا أغذيةٌ ، فلنأخذِ الأغذيةَ ؛ فإنَّها الأصلُ ، ولنأخذْ مِنْ جملتِها حبَّةً مِنَ البُرِّ ، ولندعْ سائرَ الأغذيةِ ، فنقولُ :

إذا وجدتَ حبَّةً أوْ حبَّاتٍ ، فلوْ أكلتَها . . فنيَتْ وبقيتَ جائعاً ، فما أحوجَكَ إلىٰ أنْ تنموَ الحبَّةُ في نفسِها ، وتزيدَ وتتضاعفَ حتَّىٰ تفيَ بتمامِ حاجتِكَ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ في حبَّةِ الحنطةِ مِنَ القوىٰ ما تغتذي بِهِ كما خلقَ فيكَ ؛ فإنَّ النباتَ إنَّما يفارقُكَ في الحسِّ والحركةِ ، ولا يخالفُكَ في الاغتذاءِ ؛ لأنَّهُ يغتذي بالماءِ ويجتذبُ إلىٰ باطنِهِ بواسطةِ العروقِ كما تغتذي أنتَ وتجتذبُ ، ولسنا نطنبُ في ذكرِ آلاتِ النباتِ في اجتذابِ الغذاءِ إلىٰ نفسِهِ ، ولٰكنْ نشيرُ إلىٰ غذائِهِ فنقولُ :

كما أنَّ الخشبَ والترابَ لا يغذِّيكَ ، بلْ تحتاجُ إلىٰ طعامٍ مخصوصٍ . . فكذٰلكَ الحبَّةُ لا تغتذي بكلِّ شيءٍ ، بلْ تحتاجُ إلىٰ شيءٍ مخصوصٍ ؛ بدليلِ أنَّكَ لوْ تركتَها في البيتِ . . لمْ تزدْ ؛ لأنَّهُ ليسَ يحيطُ بها إلا الهواءُ ، ومجرَّدُ الهواءِ لا يصلحُ لغذائِها ، ولوْ تركتَها في الماءِ . . لمْ تزدْ ، ولوْ تركتَها في أرضٍ لا ماءَ فيها . . لمْ تزدْ ، بلْ لا بدَّ مِنْ أرضٍ فيها ماءٌ يمتزجُ ماؤُها بالأرضِ فيصيرُ طيناً ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾

ثمَّ لا يكفي الماءُ والترابُ ؛ إذْ لوْ تُركَتْ في أرضٍ نديَّةٍ صلبةٍ متراكمةٍ . . لمْ تنبتْ ؛ لفقدِ الهواءِ ، فيحتاجُ إلىٰ تركِها في أرضٍ رَخوةٍ متخلخلةٍ ، يتغلغلُ الهواءُ إليها .

ثمَّ الهواءُ لا يتحرَّكُ إليها بنفسِهِ ، فيحتاجُ إلىٰ ريحٍ تحرِّكُ الهواءَ وتضربُهُ بقهْرٍ وعنفٍ على الأرضِ حتَّىٰ ينفذَ فيها ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ وإنَّما إلقاحُها في إيقاعِ الازدواجِ بينَ الهواءِ والماءِ والأرضِ .

ثمَّ كلُّ ذٰلكَ لا يغنيكَ لوْ كانَ في بردٍ مفرطٍ وشتاءٍ شاتٍ ، فتحتاجُ إلىٰ حرارةِ الربيعِ والصيفِ .

فقدْ بانَ احتياجُ غذائِهِ إلىٰ هٰذهِ الأربعةِ ، فانظرْ إلىٰ ماذا يحتاجُ كلُّ واحدٍ ؛ إذْ يحتاجُ الماءُ لينساقَ إلىٰ أرضِ الزراعةِ مِنَ البحارِ والعيونِ والأنهارِ والسواقي ، فانظرْ كيفَ خلقَ اللهُ البحارَ ، وفجَّرَ العيونَ ، وأجرىٰ منها الأنهارَ .

ثمَّ الأرضُ ربَّما تكونُ مرتفعةً والمياهُ لا ترتفعُ إليها ، فانظرْ كيفَ خلقَ الغيومَ وكيفَ سلَّطَ الرياحَ عليها لتسوقَها بإذنِهِ إلىٰ أقطارِ الأرضِ ، وهيَ سُحُبٌ ثِقالٌ حواملُ بالماءِ ، ثمَّ انظرْ كيفَ يرسلُهُ مدراراً على الأراضي في وقتِ الربيعِ والخريفِ علىٰ حسبِ الحاجةِ .

وانظرْ كيفَ خلقَ الجبالَ حافظةً للمياهِ ، تتفجَّرُ منها العيونُ تدريجاً ، فلوْ خرجَتْ دفعةً . . لغرقتِ البلادُ ، وهلكَ الزرعُ والمواشي ، ونعمُ اللهِ تعالىٰ في الجبالِ والسحابِ والبحارِ والأمطارِ لا يمكنُ إحصاؤُها .

وأمَّا الحرارةُ . . فإنَّها لا تحصلُ بينَ الماءِ والأرضِ ، وكلاهما باردانِ ، فانظرْ كيفَ سخَّرَ الشمسَ ، وكيفَ خلقَها معَ

بعدِها عنِ الأرضِ مسخِّنةً للأرضِ في وقتٍ دونَ وقتٍ ؛ ليحصلَ البردُ عندَ الحاجةِ إلى البردِ ، والحرُّ عندَ الحاجةِ إلى الحرِّ ، فهـٰذهِ إحدىٰ حكَمِ الشمسِ ، والحكَمُ فيها أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ .

ثـمَّ النباتُ إذا ارتفعَ عنِ الأرضِ . . كانَ في الفواكهِ انعقادٌ وصلابةٌ ، فتفتقرُ إلىٰ رطوبةٍ تنضجُها ، فانظرْ كيفَ خلقَ القمرَ وجعلَ مِنْ خاصّيتِهِ الترطيبَ ، كما جعلَ مِنْ خاصّيةِ الشمسِ التسخينَ ، فهوَ ينضجُ الفواكهَ ويصبُغُها بتقديرِ الفاطرِ الحكيمِ ، ولذٰلكَ لوْ كانَتِ الأشجارُ في ظلٍّ يمنعُ شروقَ الشمسِ والقمرِ وسائرِ الكواكبِ عليها . . لكانَتْ فاسدةً ناقصةً ، حتَّىٰ إنَّ الشجرةَ الصغيرةَ تفسدُ إذا أظلَّتْها شجرةٌ كبيرةٌ ، وتعرفُ ترطيبَ القمرِ بأنْ تكشفَ رأسَكَ لهُ بالليلِ ، فتغلبَ علىٰ رأسِكَ الرطوبةُ التي يُعبَّرُ عنها بالزكامِ ، فكما يرطِّبُ رأسَكَ يرطِّبُ الفواكهَ أيضاً .

ولا نطوِّلُ فيما لا مطمعَ في استقصائِهِ ، بلْ نقولُ :

كلُّ كوكبٍ في السماءِ فقدْ سُخِّرَ لنوعِ فائدةٍ كما سُخِّرَتِ الشمسُ للتسخينِ والقمرُ للترطيبِ ، فلا يخلو واحدٌ منها عنْ حكَمٍ كثيرةٍ لا تفي قوَّةُ البشرِ بإحصائِها ، ولوْ لمْ يكنْ كذٰلكَ . . لكانَ خلقُها عبثاً وباطلاً ، ولمْ يصحَّ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ ، وكما أنَّهُ ليسَ في أعضاءِ بدنِكَ عضوٌ إلا لفائدةٍ . . فليسَ في أعضاءِ بدنِ العالمِ عضوٌ إلا لفائدةٍ ، والعالمُ كلُّهُ كشخصٍ واحدٍ ، وآحادُ أجسامِهِ كالأعضاءِ لهُ ، وهيَ متعاونةٌ تعاونَ أعضاءِ بدنِكَ في جملةِ بدنِكَ ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ .

ولا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ الإيمانَ بأنَّ النجومَ والشمسَ والقمرَ مسخراتٌ بأمرِ اللهِ تعالىٰ في أمورٍ جُعلَتْ أسباباً لها بحكْمِ الحكمةِ . . مخالفٌ للشرعِ ؛ لما وردَ فيهِ مِنَ النهيِ عنْ تصديقِ المنجِّمينَ وعنْ علمِ النجومِ[1] ، **بلِ المنهيُّ عنهُ في النجومِ أمرانِ :**

أحدُهُما : أنْ تصدِّقَ بأنَّها فاعلةٌ لآثارِها مستقلَّةٌ بها ، وأنَّها ليسَتْ مسخَّرةً تحتَ تدبيرِ مدبِّرٍ خلقَها وقهرَها ، وهـٰذا كفرٌ .

والثاني : تصديقُ المنجِّمينَ في تفصيلِ ما يخبرونَ عنهُ مِنَ الآثارِ التي لا يشتركُ كافَّةُ الخلقِ في دركِها ؛ لأنَّهُمْ يقولونَ ذٰلكَ عنْ جهلٍ ، فإنَّ علمَ أحكامِ النجومِ كانَ معجزةً لبعضِ الأنبياءِ[2] ، ثـمَّ اندرسَ ذٰلكَ العلمُ ، فلمْ يبقَ منهُ إلا ما هوَ مختلطٌ لا يتميَّزُ فيهِ الصوابُ عنِ الخطأ ، فاعتقادُ كونِ الكواكبِ أسباباً لآثارٍ تحصلُ بخلْقِ اللهِ تعالىٰ في الأرضِ وفي النباتِ وفي الحيوانِ . . ليسَ قادحاً في الدينِ ، بلْ هوَ حقٌّ ، ولـٰكنْ دعوى العلمِ بتلكَ الآثارِ على التفصيلِ معَ الجهلِ قادحٌ في الدينِ ، ولذٰلكَ إذا كانَ معَكَ ثوبٌ غسلتَهُ وتريدُ تجفيفَهُ ، فقالَ لكَ غيرُكَ : (أخرجِ الثوبَ وابسطْهُ ؛ فإنَّ الشمسَ قدْ طلعَتْ وحميَ الهواءُ) . . لا يلزمُكَ تكذيبُهُ ، ولا يلزمُكَ الإنكارُ عليهِ بحوالتِهِ حَمْيَ الهواءِ علىٰ طلوعِ الشمسِ ، وإذا سألتَ عنْ تغيُّرِ وجهِ الإنسانِ بذٰلكَ ، فقالَ : (قرعَتْني الشمسُ في الطريقِ فاسودَّ وجهي) . . لمْ يلزمْكَ تكذيبُهُ بذٰلكَ ، وقسْ بهـٰذا سائرَ الآثارِ .

إلا أنَّ الآثارَ بعضُها معلومٌ وبعضُها مجهولٌ ، فالمجهولُ لا يجوزُ دعوى العلمِ فيهِ ، والمعلومُ بعضُهُ معلومٌ للناسِ

---

(١) فقد روىٰ أبو داوود (٣٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٧٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « من اقتبس علماً من النجوم . . اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٧٨/١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٧٧٦) مرفوعاً : « يا علي ؛ لا تجالس أصحاب النجوم »

(٢) قيل : هو إدريس ، وقيل : هو دانيال . « إتحاف » (١١٨/٩) ، وفي (أ) : (لأنهم لا يقولون ذلك عن جهل ؛ فإن علم أحكام . . .) ، ولا يبعد .

كافَّةً ؛ كحصولِ الضياءِ والحرارةِ بطلوعِ الشمسِ ، وبعضُهُ لبعضِ الناسِ ؛ كحصولِ الزكامِ بشروقِ القمرِ .

فإذاً ؛ الكواكبُ ما خُلقَتْ عبثاً ، بلْ فيها حكَمٌ كثيرةٌ لا تُحصىٰ ، ولهـٰذا نظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى السماءِ وقرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ثمَّ قالَ : « ويلٌ لمَنْ قرأَ هـٰذهِ الآيةَ ثمَّ مسحَ بها سَبَلَتَهُ »[1] ، ومعناهُ : أنْ يقرأَ ويتركَ التأمُّلَ ، ويقتصرَ مِنْ فهمِ ملكوتِ السماواتِ علىٰ أنْ يعرفَ لونَ السماءِ وضوءَ الكواكبِ ، وذٰلكَ ممَّا تعرفُهُ البهائمُ أيضاً ، فمَنْ قنعَ منهُ بمعرفةِ ذٰلكَ . . فهوَ الذي مسحَ بها سبلتَهُ .

فللهِ تعالىٰ في ملكوتِ السماواتِ والآفاقِ والأنفسِ والحيواناتِ والنباتِ عجائبُ يطلبُ معرفتَها المحبُّونَ للهِ تعالىٰ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ عالماً . . فلا يزالُ مشغوفاً بطلبِ تصانيفِهِ ؛ ليزدادَ بمزيدِ الوقوفِ علىٰ عجائبِ علمِهِ حبّاً لهُ ، فكذٰلكَ الأمرُ في عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ العالمَ كلَّهُ مِنْ تصنيفِهِ ، بلْ تصنيفُ المصنِّفينَ مِنْ تصنيفِهِ الذي صنَّفَهُ بواسطةِ قلوبِ عبادِهِ ، فإنْ تعجَّبتَ مِنْ تصنيفٍ . . فلا تتعجَّبْ مِنَ المصنِّفِ ، بلْ مِنَ الذي سخَّرَ المصنِّفَ لتصنيفِهِ بما أنعمَ عليهِ مِنْ هدايتِهِ وتسديدِهِ وتعريفِهِ ، كما إذا رأيتَ لُعَبَ المشعوذِ ترقصُ وتتحرَّكُ حركاتٍ موزونةً متناسبةً . . فلا تتعجَّبْ مِنَ اللعبِ ؛ فإنَّها خِرَقٌ محرَّكةٌ لا متحرِّكةٌ ، ولـٰكنْ تعجَّبْ مِنْ حذْقِ المشعوذِ المحرِّكِ لها بروابطَ دقيقةٍ خفيَّةٍ عنِ الأبصارِ .

فإذاً ؛ المقصودُ أنَّ غذاءَ النباتِ لا يتمُّ إلا بالماءِ والهواءِ والشمسِ والقمرِ والكواكبِ ، ولا يتمُّ ذٰلكَ إلا بالأفلاكِ التي هيَ مركوزةٌ فيها ، ولا تتمُّ الأفلاكُ إلا بحركاتِها ، ولا تتمُّ حركاتُها إلا بملائكةٍ سماويَّةٍ يحرِّكونَها ، وكذٰلكَ يتمادىٰ ذٰلكَ إلىٰ أسبابٍ بعيدةٍ تركنا ذكرَها تنبيهاً بما ذكرناهُ علىٰ ما أهملناهُ ، ولنقتصرْ علىٰ هـٰذا مِنْ ذكرِ أسبابِ غذاءِ النباتِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) كذا لفظه في « القوت » (٢٥٤/١) ، وروى ابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) نحوه ، والسَّبَلَة : الشارب ، أو الدائرة في وسط الشفة العليا ، أو ما على الذقن إلى طرف اللحية .

الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلمْ : أنَّ هـٰذهِ الأطعمةَ كلَّها لا تُوجدُ في كلِّ مكانٍ ، بلْ لها شروطٌ مخصوصةٌ لأجلِها تُوجدُ في بعضِ الأماكنِ دونَ بعضٍ ، والناسُ منتشرونَ علىٰ وجهِ الأرضِ ، وقدْ تبعدُ عنهُمُ الأطعمةُ ، ويحولُ بينَهُمْ وبينَها البحارُ والبراري .

فانظرْ كيفَ سخَّرَ اللهُ تعالى التجَّارَ ، وسلَّطَ عليهِمْ حرْصَ المالِ وشرهَ الربحِ ، معَ أنَّهُ لا يغنيهِمْ في غالبِ الأمرِ شيئاً ، بلْ يجمعونَ ؛ فإمَّا أنْ تغرقَ بها السفنُ ، أوْ تنهبَها قطَّاعُ الطريقِ ، أوْ يموتوا في بعضِ البلادِ فيأخذُها السلاطينُ ، وأحسنُ أحوالِهِمْ أنْ يأخذَها ورثتُهُمْ وهُمْ أشدُّ أعدائِهِمْ لوْ عرفوا .

فانظرْ كيفَ سلَّطَ اللهُ الجهلَ والغفلةَ عليهِمْ ، حتَّىٰ يقاسونَ الشدائدَ في طلبِ الربحِ ويركبونَ الأخطارَ ، ويغررونَ بالأرواحِ في ركوبِ البحارِ ، فيحملونَ الأطعمةَ وأنواعَ الحوائجِ مِنْ أقصى الشرقِ والغربِ إليكَ .

وانظرْ كيفَ علَّمَهُمُ اللهُ تعالىٰ صناعةَ السفنِ ، وكيفيَّةَ الركوبِ فيها ، وانظرْ كيفَ خلقَ الحيواناتِ ، وسخَّرَها للركوبِ والحمْلِ في البراري ، وانظرْ إلى الإبلِ كيفَ خُلقَتْ ، وإلى الفرسِ كيفَ أُمدَّتْ بسرعةِ الحركةِ ، وإلى الحمارِ كيفَ جُعِلَ صبوراً على التعبِ ، وإلى الجمالِ كيفَ تقطعُ البراريَ وتطوي المراحلَ تحتَ الأعباءِ الثقيلةِ على الجوعِ والعطشِ ، وانظرْ كيفَ سيَّرَهُمُ اللهُ تعالىٰ بواسطةِ السفنِ والحيواناتِ في البرِّ والبحرِ ليحملوا إليكَ الأطعمةَ وسائرَ الحوائجِ .

وتأمَّلْ ما يحتاجُ إليهِ الحيواناتُ مِنْ أسبابِها وأدواتِها وعلفِها ، وما تحتاجُ إليهِ السفنُ ، فقدْ خلقَ اللهُ تعالىٰ جميعَ ذٰلكَ إلىٰ حدِّ الحاجةِ وفوقَ الحاجةِ ، وإحصاءُ ذٰلكَ غيرُ ممكنٍ ، ويتمادىٰ هـٰذا إلىٰ أمورٍ خارجةٍ عنِ الحصْرِ نرىٰ تركَها طلباً للإيجازِ .

❋ ❋ ❋

الطرف السادس : في إصلاح الأطعمة

اعلمْ : أنَّ الذي ينبتُ في الأرضِ مِنَ النباتِ ، وما يُخلقُ مِنَ الحيواناتِ . . لا يمكنُ أنْ يُقضمَ ويُؤكلَ وهوَ كذٰلكَ ، بلْ لا بدَّ في كلِّ واحدٍ مِنْ إصلاحٍ وطبخٍ وتركيبٍ وتنظيفٍ بإلقاءِ البعضِ وإبقاءِ البعضِ ، إلىٰ أمورٍ أُخرَ لا تُحصىٰ ، واستقصاءُ ذٰلكَ في كلِّ طعامٍ طويلٌ ، فلنعيّنْ رغيفاً واحداً ، ولننظرْ إلىٰ ما يحتاجُ إليهِ الرغيفُ الواحدُ حتَّىٰ يستديرَ ويصلحَ للأكلِ مِنْ بعدِ إلقاءِ البذرِ في الأرضِ .

فأوَّلُ ما يحتاجُ إليهِ الحرَّاثُ ؛ ليزرعَ ويصلحَ الأرضَ ، ثمَّ الثورُ الذي يثيرُ بهِ الأرضَ والفَدَانُ وجميعُ أسبابِهِ ، ثمَّ بعدَ ذٰلكَ التعهُّدُ بسقيِ الماءِ مدَّةً ، ثمَّ تنقيةُ الأرضِ مِنَ الحشيشِ ، ثمَّ الحصادُ ، ثمَّ الفركُ والتنقيةُ ، ثمَّ الطحنُ ، ثمَّ العجْنُ ، ثمَّ الخبْزُ .

فتأمَّلْ عددَ هٰذهِ الأفعالِ التي ذكرناها وما لمْ نذكرْهُ ، وعددَ الأشخاصِ القائمينَ بها ، وعددَ الآلاتِ التي يُحتاجُ إليها مِنَ الحديدِ والخشبِ والحجرِ وغيرِهِ .

وانظرْ إلىٰ أعمالِ الصنَّاعِ في إصلاحِ آلاتِ الحراثةِ والطحْنِ والخبْزِ ؛ مِنْ نجَّارٍ وحدَّادٍ وغيرِهما ، وانظرْ إلىٰ حاجةِ الحدَّادِ إلى الحديدِ والرصاصِ والنحاسِ ، وانظرْ كيفَ خلقَ اللّٰهُ تعالى الجبالَ والأحجارَ والمعادنَ ، وكيفَ جعلَ الأرضَ قطعاً متجاوراتٍ مختلفةً .

فإنْ فتشتَ . . علمتَ أنَّ رغيفاً واحداً لا يستديرُ بحيثُ يصلحُ لأكلِكَ يا مسكينُ ما لمْ يعملْ عليهِ أكثرُ مِنْ ألفِ صانعٍ ، فابتُدئَ مِنَ المَلَكِ الذي يزجي السحابَ لينزلَ الماءَ ، إلىٰ آخرِ الأعمالِ مِنْ جهةِ الملائكةِ ، حتَّىٰ تنتهيَ النوبةُ إلىٰ عملِ الإنسانِ ، فإذا استدارَ . . طلبَهُ قريبٌ مِنْ سبعةِ آلافِ صانعٍ ، كلُّ صانعٍ أصلٌ مِنْ أصولِ الصنائعِ التي بها تتمُّ مصلحةُ الخلقِ .

ثمَّ تأمَّلْ كثرةَ أعمالِ الإنسانِ في تلكَ الآلاتِ ، حتَّىٰ إنَّ الإبرةَ التي هيَ آلةٌ صغيرةٌ فائدتُها خياطةُ اللباسِ الذي يمنعُ البردَ عنكَ لا تكملُ صورتُها مِنْ حديدةٍ تصلحُ للإبرةِ إلا بعدَ أنْ تمرَّ علىٰ يدِ الإبْريِّ خمساً وعشرينَ مرَّةً ، يتعاطىٰ في كلِّ مرَّةٍ منها عملاً ، فلوْ لمْ يجمعِ اللّٰهُ تعالى البلادَ ، ولمْ يسخِّرِ العبادَ ، وافتقرتَ إلىٰ عملِ المِنْجلِ الذي تحصدُ بهِ البرَّ مثلاً بعدَ نباتِهِ . . لنفدَ عمرُكَ وعجزتَ عنهُ .

أفلا ترىٰ كيفَ هدى اللّٰهُ عبدَهُ الذي خلقَهُ مِنْ نطفةٍ قذرةٍ لأَنْ يعملَ هٰذهِ الأعمالَ العجيبةَ والصنائعَ الغريبةَ ؟!

فانظرْ إلى المقراضِ مثلاً وهما جَلَمانِ متطابقانِ ، ينطبقُ أحدُهُما على الآخرِ ، فيتناولانِ الشيءَ معاً ويقطعانِهِ بسرعةٍ ، ولوْ لمْ يكشفِ اللّٰهُ تعالىٰ طريقَ اتخاذِهِ بفضلِهِ وكرمِهِ لمَنْ قبلَنا ، وافتقرنا إلى استنباطِ الطريقِ فيهِ بفكرِنا ، ثمَّ إلى استخراجِ الحديدِ مِنَ الحجرِ ، وإلىٰ تحصيلِ الآلاتِ التي بها يُعملُ المقراضُ ، وعُمِّرَ الواحدُ منَّا عمرَ نوحٍ ، وأُوتيَ أكملَ العقولِ . . لقصرَ عمرُهُ عنِ استنباطِ الطريقِ في إصلاحِ هٰذهِ الآلةِ وحدَها فضلاً عنْ غيرِها .

فسبحانَ مَنْ ألحقَ ذوي الأبصارِ بالعميانِ !! وسبحانَ مَنْ منعَ التبيُّنَ معَ هٰذا البيانِ !!

فانظرِ الآنَ لوْ خلا بلدُكَ عنِ الطحانِ مثلاً ، أوْ عنِ الحدَّادِ ، أوْ عنِ الحجَّامِ الذي هوَ أخسُّ العمَّالِ ، أوْ عنِ الحائكِ ،

أوْ عنْ واحدٍ مِنْ جملةِ الصنَّاعِ . . ماذا يصيبُكَ مِنَ الأذىٰ ، وكيفَ تضطربُ عليكَ أمورُكَ كلُّها ، فسبحانَ مَنْ سخَّرَ بعضَ العبادِ لبعضٍ حتَّىٰ نفذَتْ بهِ مشيئتُهُ ، وتمَّتْ بهِ حكمتُهُ .

ولنوجزِ القولَ في هٰذهِ الطبقةِ أيضاً ، فإنَّ الغرضَ التنبيهُ على النعَمِ دونَ الاستقصاءِ .

* * *

الطرف السابع : في إصلاح المصلحين

اعلمْ : أنَّ هٰؤلاءِ الصنَّاعَ المصلحينَ للأطعمةِ وغيرِها لوْ تفرَّقَتْ آراؤُهُمْ وتنافرَتْ طباعُهُمْ تنافرَ طباعِ الوحشِ . . لتبدَّدوا وتباعدوا ، ولمْ ينتفعْ بعضُهُمْ ببعضٍ ، بلْ كانوا كالوحوشِ لا يحويهِمْ مكانٌ واحدٌ ، ولا يجمعُهُمْ غرضٌ واحدٌ ، فانظرْ كيفَ ألَّفَ اللهُ تعالىٰ بينَ قلوبِهِمْ ، وسلَّطَ الأنْسَ والمحبَّةَ عليهِمْ ، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ ، فلأجلِ الإلْفِ وتعارفِ الأرواحِ اجتمعوا وائتلفوا ، وبنَوُا المدنَ والبلادَ ورتبوا المساكنَ والدورَ متقاربةً متجاورةً ، ورتبوا الأسواقَ والخاناتِ وسائرَ أصنافِ البقاعِ ، ممَّا يطولُ إحصاؤُهُ .

ثمَّ هٰذهِ المحبَّةُ تزولُ بأغراضٍ يتزاحمونَ عليها ، ويتنافسونَ فيها ، ففي جبلةِ الإنسانِ الغيظُ والحسدُ والمنافسةُ ، وذٰلكَ مما يؤدي إلى التقاتلِ والتنافرِ ، فانظرْ كيفَ سلَّطَ اللهُ تعالى السلاطينَ وأمدَّهُمْ بالقوَّةِ والعدةِ والأسبابِ ، وألقىٰ رعبَهُمْ في قلوبِ الرعايا حتَّىٰ أذعنوا لهُمْ طوعاً وكرهاً ، وكيفَ هدى السلاطينَ إلىٰ طريقِ إصلاحِ البلادِ ، حتَّىٰ رتَّبوا أجزاءَ البلدِ كأنَّها أجزاءُ شخصٍ واحدٍ ، تتعاونُ علىٰ غرضٍ واحدٍ ، ينتفعُ البعضُ منها بالبعضِ ، فرتَّبوا الرؤساءَ والقضاةَ والشِّحَنَ وزعماءَ الأسواقِ[1] ، واضطروا الخلْقَ إلىٰ قانونِ العدْلِ ، وألزموهُمُ التساعدَ والتعاونَ ، حتَّىٰ صارَ الحدَّادُ ينتفعُ بالقصَّابِ والخبَّازِ وسائرِ أهلِ البلدِ ، وكلُّهُمْ ينتفعونَ بالحدَّادِ ، وصارَ الحجَّامُ ينتفعُ بالحرَّاثِ ، والحرَّاثُ بالحجَّامِ ، وينتفعُ كلٌّ واحدٍ بكلِّ واحدٍ بسببِ ترتُّبِهِمْ واجتماعِهِمْ وانضباطِهِمْ تحتَ ترتيبِ السلطانِ وجمعِهِ ؛ كما يتعاونُ جميعُ أعضاءِ البدنِ وينتفعُ بعضُها ببعضٍ .

وانظرْ كيفَ بعثَ الأنبياءَ عليهِمُ السلامُ حتَّىٰ أصلحوا السلاطينَ المصلحينَ للرعايا ، وعرَّفوهُمْ قوانينَ الشرعِ في حفْظِ العدْلِ بينَ الخلقِ ، وقوانينَ السياسةِ في ضبطِهِمْ ، وكشفوا مِنْ أحكامِ الإمامةِ والسلطنةِ وأحكامِ الفقهِ ما اهتدَوا بهِ إلىٰ إصلاحِ الدنيا ، فضلاً عمَّا أرشدوهُمْ إليهِ مِنْ إصلاحِ الدينِ .

وانظرْ كيفَ أصلحَ اللهُ تعالى الأنبياءَ بالملائكةِ ، وكيفَ أصلحَ الملائكةَ بعضَهُمْ ببعضٍ ، إلىٰ أنْ ينتهيَ إلى الملكِ المقرَّبِ الذي لا واسطةَ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

فالخبَّازُ يخبزُ العجينَ ، والطحَّانُ يصلحُ الحبَّ بالطحْنِ ، والحرَّاثُ يصلحُهُ بالحصادِ ، والحدَّادُ يصلحُ آلاتِ الحراثةِ ، والنجَّارُ يصلحُ آلاتِ الحدَّادِ ، وكذا جميعُ أربابِ الصناعاتِ المصلحينَ لآلاتِ الأطعمةِ ، والسلطانُ يصلحُ الصنَّاعَ ، والأنبياءُ يصلحونَ العلماءَ الذينَ هُمْ ورثتُهُمْ ، والعلماءُ يصلحونَ السلاطينَ ، والملائكةُ يصلحونَ الأنبياءَ ، إلىٰ أنْ ينتهيَ إلىٰ حضرةِ الربوبيَّةِ التي هيَ ينبوعُ كلِّ نظامٍ ، ومطلعُ كلِّ حسنٍ وجمالٍ ، ومنشأُ كلِّ ترتيبٍ وتأليفٍ ، وكلُّ ذٰلكَ نعَمٌ مِنْ ربِّ الأربابِ ومسببِ الأسبابِ ، ولولا فضلُهُ وكرمُهُ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ . . لما اهتدينا إلىٰ معرفةِ هٰذهِ النبذةِ اليسيرةِ مِنْ نعَمِ اللهِ تعالىٰ ، ولولا عزلُهُ إيَّانا عنْ أنْ نطمحَ بعينِ الطمعِ إلى الإحاطةِ بكنْهِ نعَمِهِ . . لتشوَّفنا إلىٰ طلبِ الإحاطةِ والاستقصاءِ ، ولٰكنَّه تعالىٰ عزلَنا بحكْمِ القهرِ والقدرةِ فقالَ تعالىٰ : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾

---

(١) **الشِّحن** : جمع شِحنة ، لفظة فارسية بمعنىٰ نائب الحاكم ومسؤول الأمن .

فإنْ تكلمنا . . فبإذنِهِ انبسطنا ، وإنْ سكتنا . . فبقهرِهِ انقبضنا ؛ إذْ لا معطيَ لما منعَ ، ولا مانعَ لما أعطى ؛ لأنَّا في كلِّ لحظةٍ مِنْ لحظاتِ العمرِ قبلَ الموتِ نسمعُ بسمعِ القلوبِ نداءَ الملكِ الجبَّارِ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ، فالحمدُ للهِ الذي ميَّزَنا عنِ الكفَّارِ ، وأسمعَنا هاذا النداءَ قبلَ انقضاءِ الأعمارِ .

* * *

الطرف الثامن : في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام

ليسَ يخفىٰ عليكَ ما سبقَ مِنْ نعمةِ اللهِ في خلقِ الملائكةِ بإصلاحِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ وهدايتِهِمْ ، وتبليغِ الوحيِ إليهِمْ ، ولا تظنَّنَّ أنَّهُمْ مقتصرونَ في أفعالِهِمْ علىٰ ذٰلكَ القدْرِ ، بلْ طبقاتُ الملائكةِ معَ كثرتِها وترتُّبِ مراتبِها تنحصرُ بالجملةِ في ثلاثِ طبقاتٍ : الملائكةُ الأرضيَّةُ ، والسماويَّةُ ، وحملةُ العرشِ .

فانظرْ كيفَ وكلَهُمُ اللهُ تعالىٰ بكَ فيما يرجعُ إلى الأكلِ والغذاءِ الذي ذكرناهُ دونَ ما يجاوزُ ذٰلكَ مِنَ الهدايةِ والإرشادِ وغيرِهما .

واعلمْ : أنَّ كلَّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ بدنِكَ ، بلْ مِنْ أجزاءِ النباتِ . . لا يتغذَّىٰ إلا بأنْ يُوكلَ بهِ سبعةٌ مِنَ الملائكةِ هوَ أقلُّهُ إلىٰ عشرةٍ ، إلىٰ مئةٍ ، إلىٰ ما وراءَ ذٰلكَ .

وبيانُهُ : أنَّ معنى الغذاءِ أنْ يقومَ جزءٌ مِنَ الغذاءِ مقامَ جزءٍ قدْ تلفَ ، وذٰلكَ الغذاءُ يصيرُ دماً في آخرِ الأمرِ ، ثمَّ يصيرُ لحماً وعظماً ، فإذا صارَ لحماً وعظماً . . تمَّ اغتذاؤُكَ ، والدمُ واللحمُ أجسامٌ ليسَ لها قدرةٌ ومعرفةٌ واختيارٌ ، فهي لا تتحرَّكُ بأنفسِها ، ولا تتغيَّرُ بأنفسِها ، ومجرَّدُ الطبعِ لا يكفي في تردُّدِها في أطوارِها ، كما أنَّ البُرَّ بنفسِهِ لا يصيرُ طحيناً ، ثمَّ عجيناً ، ثمَّ خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصنَّاعٍ ؛ فكذٰلكَ الدمُ بنفسِهِ لا يصيرُ لحماً وعظماً وعرقاً وعصباً إلا بصنَّاعٍ ، والصنَّاعُ في الباطنِ هُمُ الملائكةُ ؛ كما أنَّ الصنَّاعَ في الظاهرِ هُمْ أهلُ البلدِ ، وقدْ أسبغَ اللهُ تعالىٰ عليكَ نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً ، فلا ينبغي أنْ تغفُلَ عنْ نعمِهِ الباطنةِ ، فأقولُ :

لا بدَّ مِنْ مَلَكٍ يجذبُ الغذاءَ إلىٰ جوارِ اللحمِ والعظمِ ، فإنَّ الغذاءَ لا يتحرَّكُ بنفسِهِ ، ولا بدَّ مِنْ مَلَكٍ آخرَ يمسكُ الغذاءَ في جوارِهِ ، ولا بدَّ مِنْ ثالثٍ يخلعُ عنهُ صورةَ الدمِ ، ولا بدَّ مِنْ رابعٍ يكسوهُ صورةَ اللحمِ والعظمِ والعرقِ ، ولا بدَّ مِنْ خامسٍ يدفعُ الفضْلَ الفاضلَ عنْ حاجةِ الغذاءِ ، ولا بدَّ مِنْ سادسٍ يلصقُ ما اكتسبَ صفةَ العظمِ بالعظمِ ، وما اكتسبَ صفةَ اللحمِ باللحمِ ؛ حتَّىٰ لا يكونَ منفصلاً ، ولا بدَّ مِنْ سابعٍ يرعى المقاديرَ في الإلصاقِ ، فيلحقُ بالمستديرِ ما لا يبطلُ استدارتَهُ ، وبالعريضِ ما لا يزيلُ عرْضَهُ ، وبالمجوَّفِ ما لا يبطلُ تجويفَهُ ، ويحفظُ علىٰ كلِّ واحدٍ قدْرَ حاجتِهِ ، فإنَّهُ لوْ جُمِعَ مثلاً مِنَ الغذاءِ علىٰ أنفِ الصبيِّ ما يجمعُ علىٰ فخذِهِ . . لكبرَ أنفُهُ ، وبطلَ تجويفُهُ ، وتشوَّهَتْ صورتُهُ ، بلْ ينبغي أنْ يسوقَ إلى الأجفانِ معَ رقَّتِها ، وإلى الحدقةِ معَ صفائِها ، وإلى الأفخاذِ معَ غلظِها ، وإلى العظْمِ معَ صلابتِهِ . . ما يليقُ بكلِّ واحدٍ منها مِنْ حيثُ القدْرُ والشكلُ ، وإلا . . بطلَتِ الصورةُ ، وربما بعضُ المواضعِ ، وضعفَ بعضُ المواضعِ ، بلْ لوْ لمْ يراعِ هـٰذا الملكُ العدْلَ في القسمةِ والتقسيطِ ؛ فساقَ إلىٰ رأسِ الصبيِّ وسائرِ بدنِهِ مِنَ الغذاءِ ما ينمو بهِ إلا إحدى الرجْلينِ مثلاً . . لبقيَتْ تلكَ الرجْلُ كما كانَتْ في حدِّ الصغرِ ، وكبرَ جميعُ البدنِ ، فكنتَ ترىٰ شخصاً في ضخامةِ رجُلٍ ولهُ رجْلٌ واحدةٌ كأنَّها رجْلُ صبيٍّ ، فلا ينتفعُ بنفسِهِ ألبتةَ .

فمراعاةُ هـٰذهِ الهندسةِ في هـٰذهِ القسمةِ مفوَّضةٌ إلىٰ ملكٍ مِنَ الملائكةِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ الدمَ بطبعِهِ يهندسُ شكْلَ نفسِهِ ، فإنَّ محيلَ هـٰذهِ الأمورِ على الطبعِ جاهلٌ لا يدري ما يقولُ .

فهـٰذهِ هيَ الملائكةُ الأرضيَّةُ .

وقدْ شُغلوا بكَ وأنتَ في النومِ تستريحُ ، وفي الغفلةِ تتردَّدُ ، وهُمْ يصلحونَ الغذاءَ في باطنِكَ ، ولا خبرَ لكَ منهُمْ ،

وذٰلكَ في كلِّ جزءٍ مِنْ أجزائِكَ التي لا تتجزَّأُ ، حتَّىٰ يفتقرُ بعضُ الأجزاءِ كالعينِ والقلبِ إلىٰ أكثرَ مِنْ مئةِ ملكٍ ، تركنا تفصيلَ ذٰلكَ للإيجازِ .

والملائكةُ الأرضيَّةُ مددُهُمْ مِنَ الملائكةِ السماويَّةِ علىٰ ترتيبٍ معلومٍ ، لا يحيطُ بكنهِهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، ومددُ الملائكةِ السماويَّةِ مِنْ حملةِ العرشِ ، والمنعِمُ علىٰ جميعِهِمْ بالتأييدِ والهدايةِ والتسديدِ المهيمنُ القدُّوسُ المنفردُ بالملْكِ والملكوتِ والعزَّةِ والجبروتِ ، جبَّارُ السماواتِ والأرضِ ، مالكُ الملكِ ذو الجلالِ والإكرامِ .

والأخبارُ الواردةُ في الملائكةِ الموكلينَ بالسماواتِ والأرضِ وأجزاءِ النباتِ والحيواناتِ حتَّىٰ كلِّ قطرةٍ مِنَ المطرِ ، وكلِّ سحابٍ ينجرُّ مِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ . . أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ، فلذٰلكَ تركنا الاستشهادَ بِهِ [1] .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهلَّا فوَّضتَ هٰذهِ الأفعالَ إلىٰ ملكٍ واحدٍ ، ولِمَ افتقرَ إلىٰ سبعةِ أملاكٍ ، والحنطةُ أيضاً تحتاجُ إلىٰ مَنْ يطحنُ أولاً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يميزُ عنهُ النخالةَ ويدفعُ الفضلةَ ثانياً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يصبُّ الماءَ عليهِ ثالثاً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يعجنُ رابعاً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يقطعُهُ كراتٍ مدورةً خامساً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يرقِّقُها رغفاناً عريضةً سادساً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يلصقُها بالتنورِ سابعاً ، ولٰكنْ قدْ يتولىٰ جميعَ ذٰلكَ رجلٌ واحدٌ يستقلُّ بهِ ، فهلَّا كانَتْ أعمالُ الملائكةِ باطناً كأعمالِ الإنسِ ظاهراً .

فاعلمْ : أنَّ خلقةَ الملائكةِ تخالفُ خلقةَ الإنسِ ، وما مِنْ واحدٍ منهُمْ إلا وهوَ وحدانيُّ الصفةِ ، ليسَ فيهِ خلطٌ وتركيبٌ ألبتةَ ، فلا يكونُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ إلا فعلٌ واحدٌ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ ، فلذٰلكَ ليسَ بينَهُمْ تنافسٌ وتقاتلٌ ، بلْ مثالُهُمْ في تعيُّنِ مرتبةِ كلِّ واحدٍ منهُمْ وفعلِهِ مثالُ الحواسِّ الخمسِ ، فإنَّ البصرَ لا يزاحمُ السمعَ في إدراكِ الأصواتِ ، ولا الشمُّ يزاحمُهُما ، ولا هما ينازعانِ الشمَّ ، وليسَ كاليدِ والرجْلِ ؛ فإنَّكَ قدْ تبطشُ بأصابعِ الرجْلِ بطشاً ضعيفاً ، فتزاحمُ بِهِ اليدَ ، وقدْ تضربُ غيرَكَ برأسِكَ فتزاحمُ اليدَ التي هيَ آلةُ الضربِ ، ولا كالإنسانِ الواحدِ الذي يتولَّى بنفسِهِ الطحْنَ والعجْنَ والخبْزَ ؛ فإنَّ هٰذا نوعٌ مِنَ الاعوجاجِ والعدولِ عنِ العدْلِ ، سببُهُ اختلافُ صفاتِ الإنسانِ واختلافُ دواعيهِ ، فإنَّهُ ليسَ وحدانيَّ الصفةِ ، فلمْ يكنْ وحدانيَّ الفعلِ .

ولذٰلكَ ترى الإنسانَ يطيعُ اللهَ مرَّةً ويعصيهِ أخرىٰ ؛ لاختلافِ دواعيهِ وصفاتِهِ ، وذٰلكَ غيرُ ممكنٍ في طباعِ الملائكةِ ، بلْ هُمْ مجبولونَ على الطاعةِ ، لا مجالَ للمعصيةِ في حقِّهِمْ ، فلا جرمَ لا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ، ويفعلونَ ما يُؤمرونَ ، ويسبِّحونَ الليلَ والنهارَ لا يفترونَ ، والراكعُ منهُمْ راكعٌ أبداً ، والساجدُ منهُمْ ساجدٌ أبداً ، والقائمُ قائمٌ أبداً ، لا اختلافَ في أفعالِهِمْ ولا فتورَ ، ولكلِّ واحدٍ مقامٌ معلومٌ لا يتعدَّاهُ [2] .

وطاعتُهُمْ للهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ لا مجالَ للمخالفةِ فيهِمْ يمكنُ أنْ تُشبَّهَ بطاعةِ أطرافِكَ لكَ ؛ فإنَّكَ مهما جزمتَ الإرادةَ بفتحِ الأجفانِ . . لمْ يكنْ للجفنِ الصحيحِ تردُّدٌ واختلافٌ في طاعتِكَ مرَّةً ومعصيتِكَ أخرىٰ ، بلْ كأنَّهُ منتظرٌ لأمرِكَ

---

(١) ينظر « الحبائك في أخبار الملائك » لمزيد التوسع ، ففيه ما يشفي ويكفي .

(٢) وقد روى المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٢٦٠) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٥١٥) مرفوعاً : « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ، ما منهم ملك يقطر دمعة من عينه إلا وقعت ملكاً قائماً يصلي ، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السماوات والأرض ، لم يرفعوا رؤوسهم ، لا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة ، وإن منهم ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السماوات والأرض ، فلا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة ، فإذا رفعوا رؤوسهم ونظروا إلىٰ وجه الله . . قالوا : سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك » .

ونهيكَ ، ينفتحُ وينطبقُ متصلاً بإشارتِكَ ، فهٰذا يشبهُهُ مِنْ وجهٍ ، لٰكنْ يخالفُهُ مِنْ وجهٍ ؛ إذِ الجفنُ لا علمَ لهُ بما يصدرُ منهُ مِنَ الحركةِ فتحاً وإطباقاً ، والملائكةُ أحياءٌ عالمونَ بما يفعلونَ .

فإذاً ؛ هٰذهِ نعمةُ اللهِ عليكَ في الملائكةِ الأرضيَّةِ والسماويَّةِ ، وحاجتُكَ إليهما في غرضِ الأكلِ فقطْ دونَ ما عداها مِنَ الحركاتِ والحاجاتِ كلِّها ، فإنَّا لمْ نطوِّلْ بذكرِها .

فهٰذهِ طبقةٌ أخرىٰ مِنْ طبقاتِ النعَمِ ، ومجامعُ الطبقاتِ لا يمكنُ إحصاؤُها ، فكيفَ آحادُ ما يدخلُ تحتَ مجامعِ الطبقاتِ ؟!

فإذاً ؛ قدْ أسبغَ اللهُ تعالىٰ عليكَ نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً ، ثمَّ قالَ : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ ، فتركُ باطنِ الإثمِ ممَّا لا يعرفُهُ الخلقُ مِنَ الحسدِ وسوءِ الظنِّ والبدعةِ وإضمارِ الشرِّ للناسِ إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ آثامِ القلوبِ . . هوَ الشكرُ للنعمِ الباطنةِ ، وتركُ الإثمِ الظاهرِ بالجوارحِ شكرٌ للنعمةِ الظاهرةِ .

بلْ أقولُ : كلُّ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ ولوْ في تطريفةٍ واحدةٍ ؛ بأنْ فتحَ جفنَهُ مثلاً حيثُ يجبُ غضُّ البصرِ . . فقدْ كفرَ كلَّ نعمةٍ للهِ تعالىٰ عليهِ في السماواتِ والأرضِ وما بينَهُما ، فإنَّ كلَّ ما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ حتَّى الملائكةِ والسماواتِ والأرضِ والحيوانِ والنباتِ بجملتِهِ نعمةٌ علىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ العبادِ ، قدْ تمَّ بهِ انتفاعُهُ وإنِ انتفعَ غيرُهُ أيضاً بهِ ؛ فإنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ تطريفةٍ بالجفنِ نعمتينِ في نفسِ الجفنِ ؛ إذْ خلقَ تحتَ كلِّ جفنٍ عضلاتٍ ولها أوتارٌ ورباطاتٌ متصلةٌ بأعصابِ الدماغِ ، بها يتمُّ انخفاضُ الجفنِ الأعلىٰ وارتفاعُ الجفنِ الأسفلِ ، وعلىٰ كلِّ جفنٍ شعورٌ سودٌ ، ونعمةُ اللهِ في سوادِها أنَّها تجمعُ ضوءَ العينِ ؛ إذِ البياضُ يفرِّقُ الضوءَ ، والسوادُ يجمعُهُ ، ونعمةُ اللهِ تعالىٰ في ترتيبِها صفّاً واحداً أنْ يكونَ مانعاً للهوامِّ مِنَ الدبيبِ إلىٰ باطنِ العينِ ، ومتشبثاً للأقذاءِ التي تتناثرُ في الهواءِ ، ولهُ في كلِّ شعرةٍ منها نعمتانِ مِنْ حيثُ لينُ أصلِها ، ومعَ اللينِ قُوِّمَ نصبُها ، ولهُ في اشتباكِ الأهدابِ نعمةٌ أعظمُ مِنَ الكلِّ ، وهوَ أنَّ غبارَ الهواءِ قدْ يمنعُ مِنْ فتحِ العينِ ، ولوْ طبَّقَ . . لمْ يبصرْ ، فيجمعُ الأجفانَ مقدارَ ما تتشابكُ الأهدابُ ، فينظرُ مِنْ وراءِ شبَّاكِ الشعرِ ، فيكونُ شبَّاكُ الشعرِ مانعاً مِنْ وصولِ القذىٰ مِنْ خارجٍ ، وغيرَ مانعٍ مِنِ امتدادِ البصرِ مِنْ داخلٍ .

ثمَّ إنْ أصابَ الحدقةَ غبارٌ . . فقدْ خلقَ أطرافَ الأجفانِ حادَّةً منطبقةً على الحدقةِ ، كالمصقلةِ للمرآةِ ، فيطبقُها مرَّةً أوْ مرَّتينِ وقدِ انصقلَتِ الحدقةُ مِنَ الغبارِ ، وخرجَتِ الأقذاءُ إلىٰ زوايا العينِ والأجفانِ ، والذبابُ لما لمْ يكنْ لحدقتِهِ جفنٌ . . خلقَ لهُ يدينِ ، فتراهُ على الدوامِ يمسحُ بهما حدقتيهِ ليصقلَهُما مِنَ الغبارِ .

وإذْ تركنا الاستقصاءَ لتفاصيلِ النعَمِ لافتقارِهِ إلىٰ تطويلٍ يزيدُ علىٰ أصلِ هٰذا الكتابِ ، ولعلَّنا نستأنفُ لهُ كتاباً مقصوداً فيهِ إنْ أمهلَ الزمانُ وساعدَ التوفيقُ ، نسمِّيهِ : « عجائبَ صنْعِ اللهِ تعالىٰ »[1] . . فلنرجعْ إلىٰ غرضِنا ، فنقولُ :

مَنْ نظرَ إلىٰ غيرِ مَحْرمٍ . . فقدْ كفرَ بفتحِ العينِ نعمةَ اللهِ في الأجفانِ[2] ، ولا تقومُ الأجفانُ إلا بعينٍ ، ولا العينُ إلا برأسٍ ، ولا الرأسُ إلا بجميعِ البدنِ ، ولا البدنُ إلا بالغذاءِ ، ولا الغذاءُ إلا بالماءِ والأرضِ والهواءِ والمطرِ والغيمِ والشمسِ والقمرِ ، ولا يقومُ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ إلا بالسماواتِ ، ولا السماواتُ إلا بالملائكةِ ، فإنَّ الكلَّ كالشيءِ الواحدِ ، يرتبطُ البعضُ

---

(١) ذكره ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/٢٢٧) ضمن ما سرد للمصنف رحمه الله تعالىٰ من مؤلفات ، ولعله هو كتاب « الحكمة من مخلوقات الله عز وجل » نفسه ؛ إذ يقول الإمام الغزالي في مقدمته : (إنه لما كان الطريق إلىٰ معرفة الله سبحانه التعظيم له بالنظر إلىٰ مخلوقاته ، والتفكر في عجائب مصنوعاته ، وفهم الحكمة . . .) ، والله تعالىٰ أعلم .

(٢) قوله : (من نظر إلىٰ غير محرم) سقط من جميع النسخ ، وأثبت من (ق) ونسخة الحافظ الزبيدي .

منهُ بالبعضِ ارتباطَ أعضاءِ البدنِ بعضِها ببعضٍ ، فإذاً ؛ قدْ كفرَ كلَّ نعمةٍ للهِ تعالىٰ في الوجودِ مِنْ منتهى الثريَّا إلىٰ منتهى الثرىٰ ، فلمْ يبقَ فلكٌ ولا ملكٌ ولا حيوانٌ ولا نباتٌ ولا جمادٌ إلا ويلعنُهُ ، ولذٰلكَ وردَ في الأخبارِ أنَّ البقعةَ التي يجتمعُ فيها الناسُ إمَّا أنْ تلعنَهُمْ إذا تفرَّقوا أوْ تستغفرَ لهُمْ[1] ، وكذٰلكَ وردَ أنَّ العالِمَ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ حتَّى الحوتُ في البحرِ[2] ، وأنَّ الملائكةَ يلعنونَ العصاةَ[3] ، في ألفاظٍ كثيرةٍ لا يمكنُ إحصاؤُها ، وكلُّ ذٰلكَ إشارةٌ إلىٰ أنَّ العاصيَ بتطريفةٍ واحدةٍ جنىٰ علىٰ جميعِ ما في الملكِ والملكوتِ ، وقدْ أهلكَ نفسَهُ ، إلا أنْ يتبعَ السيئةَ بحسنةٍ تمحوها ، فيتبدَّلُ اللعنُ بالاستغفارِ ، فعسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهِ ويتجاوزَ عنهُ .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ أيُّوبَ عليهِ السلامُ : (يا أيوبُ ؛ ما مِنْ عبدٍ لي مِنَ الآدميينَ إلا ومعَهُ ملكانِ ، فإذا شكرني علىٰ نعمائي . . قالَ الملكانِ : اللهمَّ ؛ زدْهُ نعماً علىٰ نعمٍ ، فإنَّكَ أهلُ الحمدِ والشكرِ ، فكُنْ مِنَ الشاكرينَ قريباً ، فكفىٰ بالشاكرينَ علوَّ رتبةٍ عندي أنِّي أشكرُ شكرَهُمْ ، وملائكتي يدعونَ لهُمْ ، والبقاعُ تحبُّهُمْ ، والآثارُ تبكي عليهِمْ)[4]

وكما عرفتَ أنَّ في كلِّ طرفةِ عينٍ نعماً كثيرةً . . فاعلمْ أنَّ في كلِّ نَفَسٍ ينبسطُ وينقبضُ نعمتينِ ؛ إذْ بانبساطِهِ يخرجُ الدخانُ المحترقُ مِنَ القلبِ ، ولوْ لمْ يخرجْ . . لهلكَ ، وبانقباضِهِ يجمعُ روحَ الهواءِ إلى القلبِ ، ولوْ سُدَّ متنفسُهُ . . لاحترقَ قلبُهُ بانقطاعِ روحِ الهواءِ وبرودتِهِ عنهُ وهلكَ .

بلِ اليومُ والليلةُ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، وفي كلِّ ساعةٍ قريبٌ مِنْ ألفِ نفسٍ ، وكلُّ نفسٍ قريبٌ مِنْ عشرِ لحظاتٍ ، فعليكَ في كلِّ لحظةٍ آلافُ آلافِ نعمةٍ في كلِّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ بدنِكَ ، بلْ في كلِّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ العالمِ ، فانظرْ هلْ يُتصوَّرُ إحصاءُ ذٰلكَ أمْ لا ؟!

ولمَّا انكشفَ لموسىٰ عليهِ السلامُ حقيقةُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ . . قالَ : (إلٰهي ؛ كيفَ أشكرُكَ ولكَ في كلِّ شعرةٍ مِنْ جسدي نعمتانِ ؛ أنْ لينتَ أصلَها ، وأنْ طمستَ رأسَها ؟!)[5]

ولذٰلكَ وردَ في الأثرِ : (مَنْ لمْ يعرفْ نعمَ اللهِ إلا في مطعمِهِ ومشربِهِ . . فقدْ قلَّ علمُهُ ، وحضرَ عذابُهُ)[6]

وجميعُ ما ذكرناهُ يرجعُ إلى المطعمِ والمشربِ ، فاعتبرْ ما سواهُ مِنَ النعمِ بهِ ، فإنَّ البصيرَ لا تقعُ عينُهُ في العالمِ علىٰ شيءٍ ولا يلمُّ خاطرُهُ بموجودٍ إلا ويتحقَّقُ أنَّ للهِ فيهِ نعمةً عليهِ .

فلنتركِ الاستقصاءَ والتفصيلَ ؛ فإنَّهُ طمعٌ في غيرِ مَطْمَعٍ .

* * *

---

(١) بهٰذا اللفظ قد قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، والمعنىٰ مبثوث في كتب السنة ، روى الترمذي (٣٢٥٥) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات . . بكيا عليه ، فذٰلك قوله عز وجل : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ » . وروىٰ أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢٤٦٨/٥) عن مالك بن عتاهية رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الأرض لتستغفر للمصلي في السراويل » ، وفي خبر أيوب عليه السلام الآتي ما يفيد هٰذا المعنىٰ كذٰلك .

(٢) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٣) روىٰ مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من أشار إلىٰ أخيه بحديدة . . فإن الملائكة تلعنه حتىٰ يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه » ، وروى الطبري في « تفسيره » (٧٥/٢/٢) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ عن قتادة : (هم الملائكة) .

(٤) قوت القلوب (٢١٠/١) .

(٥) قوت القلوب (٢٠٩/١)

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٠/١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلمْ : أنَّهُ لمْ يقصرْ بالخلقِ عنْ شكرِ النعمةِ إلا الجهلُ والغفلةُ ، فإنَّهُمْ مُنعوا بالجهلِ والغفلةِ عنْ معرفةِ النعَمِ ، ولا يُتصوَّرُ شكرُ النعمةِ إلا بعدَ معرفتِها ، ثمَّ إنَّهُمْ إنْ عرفوا نعمةً ظنُّوا أنَّ الشكرَ عليها أنْ يقولَ بلسانِهِ : الحمدُ للهِ ، الشكرُ للهِ ، ولمْ يعرفوا أنَّ معنى الشكرِ أنْ يستعملَ النعمةَ في إتمامِ الحكمةِ التي أُريدَتْ بها ، وهيَ طاعةُ اللهِ تعالىٰ ، فلا يمنعُ مِنَ الشكرِ بعدَ حصولِ هاتينِ المعرفتينِ إلا غلبةُ الشهوةِ واستيلاءُ الشيطانِ .

أمَّا الغفلةُ عنِ النعمِ . . فلها أسبابٌ ، وأحدُ أسبابِها أنَّ الناسَ بجهلِهِمْ لا يعدُّونَ ما يعمُّ الخلقَ ويسلمُ لهُمْ في جميعِ أحوالِهِمْ نعمةً ، فلذٰلكَ لا يشكرونَ علىٰ جملةِ ما ذكرناهُ مِنَ النعمِ ؛ لأنَّها عامَّةٌ للخلْقِ مبذولةٌ لهُمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ، فلا يرىٰ كلُّ واحدٍ لنفسِهِ اختصاصاً بهِ ، فلا يعدُّهُ نعمةً ، فلا تراهُمْ يشكرونَ اللهَ تعالىٰ علىٰ روحِ الهواءِ ، ولوْ أُخذَ بمُخَنَّقِهِمْ لحظةً حتَّى انقطعَ الهواءُ عنهُمْ . . ماتوا ، ولوْ حُبسوا في بيتِ حمامٍ فيهِ هواءٌ حارٌّ ، أوْ في بئرٍ فيهِ هواءٌ ثقُلَ برطوبةِ الماءِ . . ماتوا غمّاً ، فإنِ ابتليَ واحدٌ منهُمْ بشيءٍ مِنْ ذٰلكَ ثمَّ نجا . . ربَّما قدَّرَ ذٰلكَ نعمةً ، وشكرَ اللهَ عليها ، وهٰذا غايةُ الجهلِ ؛ إذْ صارَ شكرُهُمْ موقوفاً علىٰ أنْ تُسلبَ عنهُمُ النعمةُ ثمَّ تُردُّ عليهِمْ في بعضِ الأحوالِ ، والنعمةُ في جميعِ الأحوالِ أولىٰ بأنْ تُشكرَ مِنَ النعمةِ في بعضِها ، فلا ترى البصيرَ يشكرُ صحَّةَ بَصرِهِ إلىٰ أنْ تعمىٰ عينُهُ ، فعندَ ذٰلكَ لوْ أُعيدَ عليهِ بصرُهُ . . أحسَّ بهِ وشكرَهُ وعدَّهُ نعمةً .

ولمَّا كانَتْ رحمةُ اللهِ واسعةً على الخلقِ ، مبذولةً لهُمْ في جميعِ الأحوالِ[١] . . فلمْ يعدَّهُ الجاهلُ نعمةً ، وهٰذا الجاهلُ مثلُ العبدِ السوءِ ، حقُّهُ أنْ يُضربَ دائماً ، حتَّىٰ إذا تُركَ ضربُهُ ساعةً . . تقلَّدَ بهِ منَّةً ، فإنْ تُركَ ضربُهُ على الدوامِ . . غلبَهُ البطرُ وتركَ الشكرَ ، فصارَ الناسُ لا يشكرونَ إلا المالَ الذي يتطرَّقُ الاختصاصُ إليهِ مِنْ حيثُ الكثرةُ والقلَّةُ ، وينسونَ جميعَ نعَمِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ .

كما شكا بعضُهُمْ فقرَهُ إلىٰ بعضِ أربابِ البصائرِ ، وأظهرَ شدَّةَ اغتمامِهِ بهِ ، فقالَ لهُ : أيسرُّكَ أنَّكَ أعمىٰ ولكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أيسرُّكَ أنَّكَ أخرسُ ولكَ عشرةُ آلافٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أيسرُّكَ أنَّكَ أقطعُ اليدينِ والرجلينِ ولكَ عشرونَ ألفاً ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أيسرُّكَ أنَّكَ مجنونٌ ولكِ عشرةُ آلافِ درهمٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أما تستحي أنْ تشكوَ مولاكَ ولهُ عندَكَ عروضٌ بخمسينَ ألفاً ؟![٢]

وحُكِيَ أنَّ بعضَ القرَّاءِ اشتدَّ بهِ الفقرُ حتَّىٰ ضاقَ بهِ ذرعاً ، فرأىٰ في المنامِ كأنَّ قائلاً يقولُ لهُ : تودُّ أنَّا أنسيناكَ سورةَ (الأنعامِ) وأنَّ لكَ ألفَ دينارٍ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فسورةَ (هودٍ) ؟ قالَ : لا ، قالَ : فسورةَ (يوسفَ) ؟ قالَ : لا ، فلمْ يزلْ يعدِّدُ عليهِ سوراً ، ثمَّ قالَ : فمعَكَ قيمةُ مئةِ ألفِ دينارٍ وأنتَ تشكو ؟! فأصبحَ وقدْ سُرِّيَ عنهُ[٣]

ودخلَ ابنُ السمَّاكِ علىٰ بعضِ الخلفاءِ وبيدِهِ كوزُ ماءٍ يشربُهُ ، فقالَ لهُ : عظْني ، فقالَ : لوْ لمْ تُعطَ هٰذهِ الشربةَ إلا

---

(١) والعبارة في غير (أ) : (ولما كانت رحمة الله واسعة . . عمَّ الخلق ، وبذل لهم في جميع الأحوال . . .) .

(٢) قوت القلوب (١/٢١٠) .

(٣) قوت القلوب (١/٢١٠) .

ببذلِ جميعِ أموالِكَ وإلا . . بقيتَ عطشانَ . . فهلْ كنتَ تعطيهِ ؟ قالَ : نعمْ ، فقالَ : لوْ لمْ تُعطَ إلا بملكِكَ كلِّهِ . . فهلْ كنتَ تتركُهُ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فلا تفرحْ بملْكٍ لا يساوي شربةَ ماءٍ[1] .

فبهاذا يتبيَّنُ أنَّ نعمةَ اللهِ تعالىٰ على العبدِ في شربةِ ماءٍ عندَ العطشِ أعظمُ مِنْ ملكِ الأرضِ كلِّها .

وإذا كانَتِ الطباعُ مائلةً إلى اعتدادِ النعمةِ الخاصَّةِ نعمةً دونَ العامَّةِ وقدْ ذكرنا النعَمَ العامَّةَ . . فلنذكرْ إشارةً وجيزةً إلى النعَمِ الخاصَّةِ ، فنقولُ :

ما مِنْ عبدٍ إلا ولوْ أنعمَ النظرَ في أحوالِهِ . . رأىٰ مِنَ اللهِ تعالىٰ نعمةً أو نعماً كثيرةً تخصُّهُ ، لا يشاركُهُ فيها الناسُ كافَّةً ، بلْ يشاركُهُ عددٌ يسيرٌ مِنَ الناسِ ، وربَّما لا يشاركُهُ فيها أحدٌ ، وذٰلكَ يعترفُ بهِ كلُّ عبدٍ في ثلاثةِ أمورٍ : في العقلِ ، والخُلُقِ ، والعلمِ .

أمَّا العقلُ : فما مِنْ عبدٍ للهِ تعالىٰ إلا وهوَ راضٍ عنِ اللهِ تعالىٰ في عقلِهِ ، يعتقدُ أنَّهُ أعقلُ الناسِ ، وقلَّما يسألُ اللهَ العقلَ ، وإنَّ مِنْ شرفِ العقلِ أنْ يفرحَ بهِ الخالي عنهُ كما يفرحُ بهِ المتصفُ بهِ ، فإذا كانَ اعتقادُهُ أنَّهُ أعقلُ الناسِ . فواجبٌ عليهِ أنْ يشكرَهُ ؛ لأنَّهُ إنْ كانَ كذٰلكَ . . فالشكرُ واجبٌ عليهِ ، وإنْ لمْ يكنْ ولٰكنَّهُ يعتقدُ أنَّهُ كذٰلكَ . . فهوَ نعمةٌ في حقِّهِ ، فمَنْ وضعَ كنزاً تحتَ الأرضِ فهوَ يفرحُ بهِ ويشكرُ عليهِ ، فإنْ أُخذَ الكنزُ مِنْ حيثُ لا يدري . . فيبقىٰ فرحُهُ بحسَبِ اعتقادِهِ ، ويبقىٰ شكرُهُ ؛ لأنَّهُ في حقِّهِ كالباقي .

وأمَّا الخُلُقُ : فما مِنْ عبدٍ إلا ويرىٰ مِنْ غيرِهِ عيوباً يكرهُها وأخلاقاً يذمُّها ، وإنَّما يذمُّها مِنْ حيثُ يرىٰ نفسَهُ بريئاً عنها ، فإذا لمْ يشتغلْ بذمِّ الغيرِ . . فينبغي أنْ يشتغلَ بشكرِ اللهِ ؛ إذْ حسَّنَ خُلُقَهُ وابتلىٰ غيرَهُ بالخُلُقِ السيِّئِ .

وأمَّا العلمُ : فما مِنْ أحدٍ إلا ويعرفُ مِنْ بواطنِ أمورِ نفسِهِ وخفايا أفكارِهِ ما هوَ منفردٌ بهِ ، ولوْ كُشِفَ الغطاءُ حتَّى اطلعَ عليهِ أحدٌ مِنَ الخلقِ . . لافتضحَ ، فكيفَ لوِ اطلعَ الناسُ كافَّةً ؟!

فإذاً ؛ لكلِّ عبدٍ علمٌ بأمرٍ خاصٍّ لا يشاركُهُ فيهِ أحدٌ مِنْ عبادِ اللهِ ، فلِمَ لا يشكرُ سترَ اللهِ الجميلَ الذي أرسلَهُ علىٰ وجهِ مساوئِهِ ، فأظهرَ الجميلَ وسترَ القبيحَ ، وأخفىٰ ذٰلكَ عنْ أعينِ الخلقِ ، وخصَّصَ علمَهُ بهِ حتَّىٰ لا يطلعَ عليهِ أحدٌ ؟!

فهٰذهِ ثلاثٌ مِنَ النعَمِ خاصَّةٌ يعترفُ بها كلُّ عبدٍ ؛ إمَّا مطلقاً ، وإمَّا في بعضِ الأمورِ ، فلننزلْ عنْ هٰذهِ الطبقةِ إلىٰ طبقةٍ أخرىٰ أعمَّ منها قليلاً ، فنقولُ :

ما مِنْ عبدٍ إلا وقدْ رزقَهُ اللهُ تعالىٰ في صورتِهِ أوْ شخصِهِ ، أوْ أخلاقِهِ أوْ صفاتِهِ ، أوْ أهلِهِ أوْ ولدِهِ ، أوْ مسكنِهِ أوْ بلدِهِ ، أوْ رفيقِهِ أوْ أقاربِهِ ، أو عزِّهِ أوْ جاهِهِ ، أوْ في سائرِ محابِّهِ أموراً لوْ سُلبَ ذٰلكَ منهُ وأُعطيَ ما خُصِّصَ بهِ غيرُهُ . . لكانَ لا يرضىٰ بهِ ، وذٰلكَ مثلُ أنْ جعلَهُ مؤمناً لا كافراً ، وحيّاً لا جماداً ، وإنساناً لا بهيمةً ، وذكراً لا أنثىٰ ، وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإنَّ كلَّ هٰذهِ خصائصُ وإنْ كانَ فيها عمومٌ أيضاً ؛ فإنَّ هٰذهِ الأحوالَ لوْ بُدِّلَتْ بأضدادِها . . لمْ يرضَ بها ، بلْ لهُ أمورٌ لا يبدِّلُها بأحوالِ الآدميينَ أيضاً ، وذٰلكَ إمَّا أنْ يكونَ بحيثُ لا يبدِّلُهُ بما خُصَّ بهِ أحدٌ مِنَ الخلقِ ، أوْ لا يبدِّلُهُ بما خُصَّ بهِ الأكثرُ ، فإذا كانَ لا يبدِّلُ حالَ نفسِهِ بحالِ غيرِهِ . . فإذاً حالُهُ أحسنُ مِنْ حالِ غيرِهِ ، فإنْ كانَ لا

---

(١) والخبر في (أ) : (ودخل ابن السماك على الرشيد وفي يده كوز ماء ليشربه ، فقال : عظني ، قال : أرأيت لو منعت هاذه الشربة أكنت مفتديها بملكك ؟ قال : بلىٰ ، قال : اشرب هنيئاً ، فشرب ، ثم قال : أرأيت لو منعت إخراجها أكنت مفتديها بملكك ؟ قال : بلىٰ ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ وما قدر ملك لا يساوي شربة وبولة ؟!) ، وقد رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٣٤)

يعرفُ شخصاً يرتضي لنفسِهِ حالَهُ بدلاً عنْ حالِ نفسِهِ إمَّا على الجملةِ وإمَّا في أمرٍ خاصٍّ . . فإذاً للهِ تعالىٰ عليهِ نعمٌ ليسَتْ لهُ علىٰ أحدٍ مِنْ عبادِهِ سواهُ ، وإنْ كانَ يبدِّلُ حالَ نفسِهِ بحالِ بعضِهِمْ دونَ البعضِ . . فلينظرْ إلىٰ عددِ المغبوطينَ عندَهُ ، فإنَّهُ ـ لا محالةَ ـ يراهُمْ أقلَّ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِمْ ، فيكونُ مَنْ دونَهُ في الحالِ أكثرَ بكثيرٍ ممَّنْ هوَ فوقَهُ ، فما بالُهُ ينظرُ إلىٰ مَنْ فوقَهُ ليزدريَ نعَمَ اللهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ ولا ينظرُ إلىٰ مَنْ دونَهُ ليستعظمَ نعمَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ؟! وما بالُهُ لا يسوِّي دنياهُ بدينِهِ ؟ أليسَ إذا لامَتْهُ نفسُهُ علىٰ سيئةٍ يقارفُها يعتذرُ إليها بأنَّ في الفسَّاقِ كثرةً ، فينظرُ أبداً في الدينِ إلىٰ مَنْ دونَهُ لا إلىٰ مَنْ فوقَهُ ؟! فلِمَ لا يكونُ نظرُهُ في الدنيا كذٰلكَ ؟

فإذا كانَ حالُ أكثرِ الخلقِ في الدينِ خيراً منهُ ، وحالُهُ في الدنيا خيراً مِنْ حالِ أكثرِ الخلْقِ . . فكيفَ لا يلزمُهُ الشكرُ ؟!

ولهٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ نظرَ في الدنيا إلىٰ مَنْ هوَ دونَهُ ، ونظرَ في الدينِ إلىٰ مَنْ هوَ فوقَهُ . . كتبَهُ اللهُ صابراً وشاكراً ، ومَنْ نظرَ في الدنيا إلىٰ مَنْ هوَ فوقَهُ ، وفي الدينِ إلىٰ مَنْ هوَ دونَهُ . . لمْ يكتبْهُ اللهُ صابراً ولا شاكراً »[١] .

فإذاً ؛ كلُّ مَنِ اعتبرَ حالَ نفسِهِ وفتَّشَ عمَّا خُصَّ بهِ . . وجدَ للهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ نعماً كثيرةً ، لا سيَّما مَنْ خُصَّ بالسنَّةِ والإيمانِ ، والعلمِ والقرآنِ ، ثمَّ الفراغِ والصحَّةِ والأمنِ وغيرِ ذٰلكَ .

ولذٰلكَ قيلَ[٢] : [من البسيط]

مَنْ شاءَ عيشاً رحيباً يستطيبُ بِهِ فـي دينِـهِ ثـم فـي دنـياهُ إقبـالا

فـلـينظرَنَّ إلىٰ مَـنْ فـوقَـهُ ورعـاً ولـيـنظرَنَّ إلـىٰ مَـنْ دونَـهُ مـالا

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ يستغنِ بآياتِ اللهِ . . فلا أغناهُ اللهُ »[٣] ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ نعمةِ العلمِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ القرآنَ هوَ الغنى الذي لا غنىٰ بعدَهُ ولا فقرَ معَهُ »[٤]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ آتاهُ اللهُ القرآنَ فظنَّ أنَّ أحداً أغنىٰ منهُ . . فقدِ استهزأَ بآياتِ اللهِ »[٥] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليسَ منَّا مَنْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ »[٦]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كفىٰ باليقينِ غنىً »[٧]

وقالَ بعضُ السلفِ : (يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ عبداً أغنيتُهُ عنْ ثلاثةٍ لقدْ أتممتُ عليهِ نعمتي ؛ عنْ سلطانٍ يأتيهِ ، وطبيبٍ يداويهِ ، وعمَّا في يدِ أخيهِ)[٨] ، وعبَّرَ الشاعرُ عنْ هٰذا فقالَ[٩] : [من الهزج]

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٢) .
(٢) البيتان لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص ٢٨٤) .
(٣) كذا في « القوت » (٢١٠/١) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٣٢/٩) .
(٤) رواه أبو يعلى في « مسنده » (٢٧٧٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥٥/١) من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه .
(٥) قوت القلوب (٢١٠/١) ، وروى البخاري في « التاريخ الكبير » (٢٦٥/٣) نحوه .
(٦) رواه البخاري (٧٥٢٧) .
(٧) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) .
(٨) قوت القلوب (٢١٠/١) .
(٩) البيتان متنازع في نسبتهما ، فهما في « زهر الآداب » (٨٢٧/٢) لمنصور الفقيه ، وفي « محاضرات الأدباء » (٣١٣/٢ ـ ٣١٤) لأبي العتاهية ، وفي « تاريخ دمشق » (٤١٦/٥١) للإمام الشافعي .

إذا الْـــقُـــوتُ تـــأَتَّـــىٰ لَـــ ـــكَ وَ الـــصِّـــحَّـــةُ وَ الأَمْـــنُ
وَأَصْـــبَـــحْـــتَ أَخـــا حُـــزْنٍ فَـــلا فـــارَقَـــكَ الْـــحُـــزْنُ

بلْ أرشقُ العباراتِ وأفصحُ الكلماتِ كلامُ أفصحِ مَنْ نطقَ بالضادِ ، حيثُ عبَّرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ هـٰذا المعنىٰ فقالَ : « مَنْ أصبحَ آمناً في سربِهِ ، معافىً في بدنِهِ ، عندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حيزَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها »[1]

ومهما تأمَّلتَ الناسَ كلَّهُمْ . . وجدتَهُمْ يشكونَ ويتألَّمونَ مِنْ أمورٍ وراءَ هـٰذهِ الثلاثِ معَ أنَّها وبالٌ عليهِمْ ، ولا يشكرونَ نعمةَ اللهِ في هـٰذهِ الثلاثِ ، ولا يشكرونَ نعمةَ اللهِ عليهِم في الإيمانِ الذي بهِ وصولُهُمْ إلى النعيمِ المقيمِ والملكِ العظيمِ .

بلِ البصيرُ ينبغي ألا يفرحَ إلا بالمعرفةِ واليقينِ والإيمانِ ، بلْ نحنُ نعلمُ مِنَ العلماءِ مَنْ لوْ سُلِّمَ إليهِ جميعُ ما دخلَ تحتَ قدرةِ ملوكِ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ مِنْ أموالٍ وأتباعٍ وأنصارٍ وقيلَ لهُ : خُذْ هـٰذا عوضاً عنْ علمِكَ ، بلْ عنْ عُشْرِ عَشِيرِ علمِكَ . . لمْ يأخذْهُ ، وذلكَ لرجائِهِ أنَّ نعمةَ العلمِ تفضي بهِ إلىٰ قرْبِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ في الآخرةِ ، بلْ لوْ قيلَ لهُ : لكَ في الآخرةِ ما ترجوهُ بكمالِهِ ، فخذْ هـٰذهِ اللذّاتِ في الدنيا بدلاً عنِ التذاذِكَ بالعلمِ في الدنيا وفرحِكَ بهِ . . لكانَ لا يأخذُهُ ؛ لعلمِهِ بأنَّ لذَّةَ العلمِ دائمةٌ لا تنقطعُ وثابتةٌ لا تُسرقُ ولا تُغصبُ ولا يُنافسُ فيها ، وأنَّها صافيةٌ لا كدورةَ فيها ، ولذَّاتُ الدنيا كلُّها ناقصةٌ ومكدَّرةٌ ومشوشةٌ لا يفي مرجوُّها بمَخُوفِها ، ولا لذَّتُها بألمِها ، ولا فرحُها بغمِّها ، هـٰكذا رُئِيَ إلى الآنَ ، وهـٰكذا تكونُ ما بقيَ الزمانُ ، إذْ ما خُلقَتْ لذَّاتُ الدنيا إلا لتُجلبَ بها العقولُ الناقصةُ وتُخدعَ ؛ حتَّىٰ إذا انخدعَتْ وتقيَّدَتْ بها . . أبتْ عليها واستعصَتْ ؛ كالمرأةِ الجميلِ ظاهرُها ، تتزيَّنُ للشابِّ الشبقِ الغبيِّ ، حتَّىٰ إذا تقيَّدَ بها قلبُهُ . . استعصَتْ عليهِ واحتجبَتْ عنهُ ، فلا يزالُ معَها في عناءٍ دائمٍ وتعبٍ قائمٍ ، وكلُّ ذلكَ باغترارِهِ بلذَّةِ النظرِ إليها في لحظةٍ ، ولوْ عقلَ وغضَّ البصرَ واستهانَ بتلكَ اللذَّةِ . . سلمَ جميعَ عمرِهِ ، فهـٰكذا وقعَتْ أربابُ الدنيا في شباكِ الدنيا وحبائلِها .

ولا ينبغي أنْ نقولَ : إنَّ المعرضَ عنِ الدنيا متألِّمٌ بالصبرِ عنها ؛ فإنَّ المقبلَ عليها أيضاً متألِّمٌ بالصبرِ عليها وحفظِها وتحصيلِها ودفعِ القُصُودِ عنها[2] ، وتألُّمُ المعرضِ يفضي إلىٰ لذَّةٍ في الآخرةِ ، وتألُّمُ المقبلِ يفضي إلىٰ آلامٍ في الآخرةِ ، فليقرأ المعرضُ عنِ الدنيا علىٰ نفسِهِ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ .

فإذاً ؛ إنَّما انسدَّ طريقُ الشكرِ على الخلْقِ لجهلِهِمْ بضروبِ النعمِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والخاصَّةِ والعامَّةِ .



فإنْ قلتَ : فما علاجُ هـٰذهِ القلوبِ الغافلةِ حتَّىٰ تشعرَ بنعمِ اللهِ تعالىٰ فعساها تشكرُ ؟

فأقولُ : أمَّا القلوبُ البصيرةُ . . فعلاجُها التأمُّلُ فيما رمزنا إليهِ مِنْ أصنافِ نعَمِ اللهِ تعالى العامَّةِ ، وأمَّا القلوبُ البليدةُ التي لا تعُدُّ النعمةَ نعمةً إلا إذا خصَّتْها ، أوْ أُشعرَ بالبلاءِ معها . . فسبيلُهُ أنْ ينظرَ أبداً إلىٰ مَنْ دونَهُ ، ويفعلَ ما كانَ يفعلُهُ بعضُ الصوفيَّةِ ، إذْ كانَ يحضرُ كلَّ يومٍ دارَ المرضىٰ والمقابرَ والمواضعَ التي تُقامُ فيها الحدودُ ، فكانَ يحضرُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) .

(٢) وفي (ق) ونسخة الحافظ الزبيدي : (اللصوص) بدل (القصود) . « إتحاف » (٩/١٣٣) .

دارَ المرضىٰ ويشاهدُ أنواعَ بلاءِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ ، ثمَّ يتأمَّلُ في صحتِهِ وسلامتِهِ ؛ ليشعرَ قلبُهُ بنعمةِ الصحَّةِ عندَ شعورِهِ ببلاءِ الأمراضِ ويشكرَ اللهَ تعالىٰ ، ويشاهدُ الجناةَ الذينَ يُقتلونَ وتُقطعُ أطرافُهُمْ ويُعذَّبونَ بأنواعِ العذابِ ؛ ليشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ عصمتِهِ مِنَ الجناياتِ ومِنْ تلكَ العقوباتِ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ نعمةِ الأمنِ ، ويحضرُ المقابرَ فيعلمُ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إلى الموتىٰ أنْ يُردُّوا إلى الدنيا ولوْ يوماً واحداً ؛ أمَّا مَنْ عصى اللهَ . . فليتدارك ، وأمَّا مَنْ أطاعَ . . فليزيدَ في طاعتِهِ ، فإنَّ يومَ القيامةِ يومُ التغابنِ ، فالمطيعُ مغبونٌ ؛ إذْ يرىٰ جزاءَ طاعتِهِ فيقولُ : كنتُ أقدرُ علىٰ أكثرَ مِنْ هـٰذهِ الطاعاتِ ، فما أعظمَ غبني إذْ ضيَّعتُ بعضَ الأوقاتِ في المباحاتِ !! وأمَّا العاصي . . فغبنُهُ ظاهرٌ ، فإذا شاهدَ المقابرَ ، وعلمَ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إليهِمْ أنْ يكونَ قدْ بقيَ لهُمْ مِنَ العمرِ ما بقيَ لهُ . . فيصرفُ بقيَّةَ العمرِ إلىٰ ما يشتهي أهلُ القبورِ العودَ لأجلِهِ ؛ ليكونَ ذٰلكَ معرفةً لنعمةِ اللهِ في بقيَّةِ العمرِ ، بلْ في الإمهالِ في كلِّ نَفَسٍ مِنَ الأنفاسِ ، وإذا عرفَ تلكَ النعمةَ . . شكرَ بأنْ يصرفَ العمرَ إلىٰ ما خُلِقَ العمرُ لأجلِهِ ، وهوَ التزوُّدُ مِنَ الدنيا للآخرةِ .

فهـٰذا علاجُ هـٰذهِ القلوبِ الغافلةِ لتشعرَ بنعمِ اللهِ تعالىٰ فعساها تشكرُ .

ولقدْ كانَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ معَ تمامِ استبصارِهِ يستعينُ بهـٰذهِ الطريقِ تأكيداً للمعرفةِ ، فكانَ قدْ حفرَ في دارِهِ قبراً ، فكانَ يضعُ غُلّاً في عنقِهِ وينامُ في لحدِهِ ثمَّ يقولُ : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا ﴾ ، ثمَّ يقومُ ويقولُ : يا ربيعُ ؛ قدْ أُعطيتَ ما سألتَ ، فاعملْ قبلَ أنْ تسألَ الرجوعَ فلا ترجعَ [1]

وممَّا ينبغي أنْ تُعالجَ بِهِ القلوبُ البعيدةُ عنِ الشكرِ أنْ تعرفَ أنَّ النعمةَ إذا لمْ تُشكرْ . . زالَتْ ولمْ تعدْ ، ولذٰلكَ كانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (عليكُمْ بمداومةِ الشكرِ على النعمِ ، فقلَّ نعمةٌ زالَتْ عنْ قومٍ فعادَتْ إليهِمْ) [2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (النعَمُ وحشيَّةٌ ، فقيِّدوها بالشكرِ) [3]

وفي الخبرِ : (ما عظمَتْ نعمةُ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبدٍ إلا كثرَتْ حوائجُ الناسِ إليهِ ، فمَنْ تهاونَ بهِمْ . . عرَّضَ تلكَ النعمةَ للزوالِ) [4]

وقالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

فهـٰذا تمامُ هـٰذا الركنِ .

* * *

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١١/٣١١) .

(٢) قوت القلوب (١/٢٠٩) ، والسياق عنده .

(٣) قوت القلوب (١/٢٠٩)

(٤) كذا في « القوت » (١/٢٠٩) ، وأصله من كلام لسيدنا علي رضي الله عنه رواه له ابن الطيوري في « الطيوريات » (٤٦٢) .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلَّكَ تقولُ : ما ذكرتَهُ في النعمِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ موجودٍ نعمةً ، وهـٰذا يشيرُ إلىٰ أنَّ البلاءَ لا وجودَ لهُ أصلاً ، فما معنى الصبرِ إذاً ؟ وإنْ كانَ البلاءُ موجوداً . . فما معنى الشكرِ على البلاءِ وقدِ ادَّعىٰ مدَّعونَ أنَّا نشكرُ على البلاءِ فضلاً عنِ الشكرِ على النعمةِ ، فكيفَ يُتصوَّرُ الشكرُ على البلاءِ ؟ وكيفَ يُشكرُ علىٰ ما يُصبرُ عليهِ والصبرُ على البلاءِ يستدعي ألماً والشكرُ يستدعي فرحاً وهما متضادانِ ؟ وما معنىٰ ما ذكرتُموهُ مِنْ أنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ ما أوجدَهُ نعمةً علىٰ عبادِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ البلاءَ موجودٌ كما أنَّ النعمةَ موجودةٌ ، والقولَ بإثباتِ النعمةِ يوجبُ القولَ بإثباتِ البلاءِ ؛ **لأنَّهُما** متضادانِ ، ففقدُ البلاءِ نعمةٌ ، وفقدُ النعمةِ بلاءٌ ، ولـٰكنْ قدْ سبقَ أنَّ النعمةَ تنقسمُ إلىٰ نعمةٍ **مطلقةٍ مِنْ كلِّ وجهٍ** ؛ أمَّا في الآخرةِ . . فكسعادةِ العبدِ بالنزولِ في جوارِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا في الدنيا . . فكالإيمانِ وحسنِ الخلقِ وما يعينُ عليهما ، وإلىٰ نعمةٍ **مقيَّدةٍ مِنْ وجهٍ دونَ وجهٍ** ؛ كالمالِ الذي يصلحُ الدينَ مِنْ وجهٍ ويفسدُهُ مِنْ وجهٍ .

فكذٰلكَ البلاءُ ينقسمُ إلىٰ مطلقٍ ومقيَّدٍ ؛ أمَّا **المطلقُ** في الآخرةِ . . فالبعدُ مِنَ اللهِ تعالىٰ إمَّا مدَّةً وإمَّا أبداً ، وأمَّا في الدنيا . . فالكفرُ والمعصيةُ وسوءُ الخلقِ ، وهيَ التي تفضي إلى البلاءِ المطلقِ ، وأمَّا **المقيَّدُ** . . فكالفقرِ والمرضِ والخوفِ وسائرِ أنواعِ البلاءِ التي لا تكونُ بلاءً في الدينِ بلْ في الدنيا .

فالشكرُ المطلقُ للنعمةِ المطلقةِ ، أمَّا البلاءُ المطلقُ في الدنيا . . فقدْ لا يُؤمرُ بالصبرِ عليهِ ؛ لأنَّ الكفرَ بلاءٌ ، ولا معنىٰ للصبرِ عليهِ ، وكذا المعصيةُ ، بلْ حقُّ الكافرِ أنْ يتركَ كفرَهُ وكذا حقُّ العاصي .

نعم ؛ الكافرُ قدْ لا يعرفُ أنَّهُ كافرٌ ، فيكونُ كمَنْ بهِ علَّةٌ وهوَ لا يتألَّمُ بها بسببِ غَشْيةٍ أوْ غيرِها ، فلا صبرَ عليهِ ، والعاصي يعرفُ أنَّهُ عاصٍ ، فعليهِ تركُ المعصيةِ ، بلْ كلُّ بلاءٍ يقدرُ الإنسانُ علىٰ دفعِهِ فلا يُؤمرُ بالصبرِ عليهِ ، فلوْ تركَ الإنسانُ الماءَ معَ طولِ العطشِ حتَّىٰ عظمَ ألمُهُ . . فلا يُؤمرُ بالصبرِ عليهِ ، بلْ يُؤمرُ بإزالةِ الألمِ ، وإنَّما الصبرُ علىٰ ألمٍ ليسَ إلى العبدِ إزالتُهُ .

فإذاً ؛ يرجعُ الصبرُ في الدنيا إلىٰ ما ليسَ ببلاءٍ مطلقٍ ، بلْ يجوزُ أنْ يكونَ نعمةً مِنْ وجهٍ ، فلذٰلكَ يُتصوَّرُ أنْ تجتمعَ عليهِ وظيفةُ الصبرِ والشكرِ ، فإنَّ الغنىٰ مثلاً يجوزُ أن يصيرَ سببَ هلاكِ الإنسانِ ، حتَّىٰ يُقصدُ بسببِ مالِهِ ، فيُقتلُ وتُقتلُ أولادُهُ ، والصحةُ أيضاً كذٰلكَ ، فما مِنْ نعمةٍ مِنْ هـٰذهِ النعمِ الدنيويةِ إلا ويجوزُ أنْ تصيرَ بلاءً ، ولـٰكنْ بالإضافةِ إليهِ ، فكذٰلكَ ما مِنْ بلاءٍ إلا ويجوزُ أنْ يصيرَ نعمةً ، ولـٰكنْ بالإضافةِ إلىٰ حالِهِ ، فربَّ عبدٍ تكونُ الخيرةُ لهُ في الفقرِ والمرضِ ، ولوْ صحَّ بدنُهُ وكثرَ مالُهُ . . لبطرَ وبغىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليحمي عبدَهُ المؤمنَ مِنَ الدنيا وهوَ يحبُّهُ كما يحمي أحدُكُمْ مريضَهُ »[1]

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٩) .

وكذٰلكَ الزوجةُ والولدُ والقريبُ وكلُّ ما ذكرناهُ في الأقسامِ الستةَ عشرَ مِنَ النعمِ سوى الإيمانِ وحسنِ الخلقِ . . فإنَّها يُتصوَّرُ أنْ تكونَ بلاءً في حقِّ بعضِ الناسِ ، فتكونَ أضدادُها إذاً نعماً في حقِّهِمْ ، إذْ قدْ سبقَ أنَّ المعرفةَ كمالٌ ونعمةٌ ، فإنَّها صفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، ولـٰكنْ قدْ تكونُ على العبدِ في بعضِ الأمورِ بلاءً ، ويكونُ فقدُها نعمةً .

مثالُهُ : جهلُ الإنسانِ بأجلِهِ ، فإنَّهُ نعمةٌ عليهِ ؛ إذْ لوْ عرفَهُ . . ربما تنغَّصَ عليهِ العيشُ ، وطالَ بذٰلكَ غمُّهُ .

وكذٰلكَ جهلُهُ بما يضمرُهُ الناسُ عليهِ مِنْ معارفِهِ وأقاربِهِ نعمةٌ عليهِ ؛ إذْ لوْ رُفِعَ السترُ وأُطلِعَ عليهِ . . لطالَ ألمُهُ وحقدُهُ وحسدُهُ واشتغالُهُ بالانتقامِ .

وكذٰلكَ جهلُهُ بالصفاتِ المذمومةِ مِنْ غيرِهِ نعمةٌ عليهِ ؛ إذْ لوْ عرفَها . . أبغضَهُ وآذاهُ ، وكانَ ذٰلكَ وبالاً عليهِ في الدنيا والآخرةِ .

بلْ جهلُهُ بالخصالِ المحمودةِ في غيرِهِ قدْ يكونُ نعمةً عليهِ ، فإنَّهُ ربما يكونُ وليّاً للهِ تعالىٰ وهوَ يُضطرُّ إلىٰ إيذائِهِ وإهانتِهِ ، ولوْ عرفَ ذٰلكَ وآذىٰ . . كانَ إثمُهُ أعظمَ لا محالةَ ، فليسَ مَنْ آذىٰ نبيّاً أوْ وليّاً وهوَ يعرفُ كمَنْ آذىٰ وهوَ لا يعرفُ .

ومنها إبهامُ اللهِ تعالىٰ أمرَ القيامةِ ، وإبهامُهُ ليلةَ القدرِ ، وساعةَ يومِ الجمعةِ ، وإبهامُهُ بعضَ الكبائرِ ، فكلُّ ذٰلكَ نعمةٌ ؛ لأنَّ هـٰذا الجهلَ يوفِّرُ دواعيَكَ على الطلبِ والاجتهادِ .

فهـٰذهِ وجوهُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في الجهلِ ، فكيفَ في العلمِ ؟!

وحيثُ قلنا : إنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ موجودٍ نعمةً . . فهوَ حقٌّ ، وذٰلكَ مطردٌ في حقِّ كلِّ أحدٍ ، ولا يُستثنىٰ عنهُ بالظنِّ إلا الآلامُ التي يخلقُها في بعضِ الناسِ ، وهيَ أيضاً قدْ تكونُ نعمةً في حقِّ المتألِّمِ بها ، فإنْ لمْ تكنْ نعمةً في حقِّهِ ؛ كالألمِ الحاصلِ مِنَ المعصيةِ ، كقطعِهِ يدَ نفسِهِ ، ووشمِهِ بشرتَهُ ، فإنَّهُ يتألَّمُ بهِ وهوَ عاصٍ بهِ ، وألمِ الكفَّارِ في النارِ . . فهيَ أيضاً نعمةٌ ، ولـٰكنْ في حقِّ غيرِهِمْ مِنَ العبادِ لا في حقِّهِمْ ، فإنَّ مصائبَ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ العذابَ وعذَّبَ بهِ طائفةً . . لما عرفَ المتنعِّمونَ قدْرَ نعمتِهِ ، ولا كثرَ فرحُهُمْ بها ، ففرحُ أهلِ الجنَّةِ إنَّما يتضاعفُ إذا تفكَّروا في آلامِ أهلِ النارِ ، أما ترىٰ أهلَ الدنيا ليسَ يشتدُّ فرحُهُمْ بنورِ الشمسِ معَ شدَّةِ حاجتِهِمْ إليها مِنْ حيثُ إنَّها عامَّةٌ مبذولةٌ ؟ ولا يشتدُّ فرحُهُمْ بالنظرِ إلىٰ زينةِ السماءِ وهيَ أحسنُ مِنْ كلِّ بستانٍ لهُمْ في الأرضِ يجتهدونَ في عمارتِهِ ، ولـٰكنْ زينةُ السماءِ لمَّا عمَّتْ . . لمْ يشعروا بها ، ولمْ يفرحوا بسببِها ؟

فإذاً ؛ قدْ صحَّ ما ذكرناهُ مِنْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يخلقْ شيئاً إلا وفيهِ حكمةٌ ، ولا خلقَ شيئاً إلا وفيهِ نعمةٌ ، إمَّا علىٰ جميعِ عبادِهِ ، أوْ علىٰ بعضِهِمْ ، فإذاً في خلقِ اللهِ تعالى البلاءَ أيضاً نعمةٌ ، إمَّا على المبتلىٰ أو علىٰ غيرِ المبتلىٰ ، فإذاً كلُّ حالةٍ لا تُوصفُ بأنَّها بلاءٌ مطلقٌ ولا نعمةٌ مطلقةٌ فيجتمعُ فيها على العبدِ وظيفتانِ : الصبرُ والشكرُ جميعاً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهما متضادانِ ، فكيفَ يجتمعانِ ؟! إذْ لا صبرَ إلا علىٰ غمٍّ ، ولا شكرَ إلا علىٰ فرحٍ .

فاعلمْ : أنَّ الشيءَ الواحدَ قدْ يُغتمُّ بهِ مِنْ وجهٍ ، ويُفرحُ بهِ مِنْ وجهٍ آخرَ ، فيكونُ الصبرُ مِنْ حيثُ الاغتمامُ ، والشكرُ مِنْ حيثُ الفرحُ .

وفي كلِّ فقرٍ ومرضٍ وخوفٍ وبلاءٍ في الدنيا خمسةُ أمورٍ ينبغي أنْ يفرحَ العاقلُ بها ويشكرَ عليها :

أحدُها : أنَّ كلَّ مصيبةٍ ومرضٍ فيُتصوَّرُ أنْ يكونَ أكبرُ منها ؛ إذْ مقدوراتُ اللهِ تعالىٰ لا تتناهىٰ ، فلوْ ضعَّفَها اللهُ تعالىٰ وزادَها . . ماذا كانَ يردُّهُ ويحجزُهُ ؟ فليشكرْ إذْ لمْ تكنْ أعظمُ منها في الدنيا .

الثاني : أنَّهُ كانَ يمكنُ أنْ تكونَ مصيبتُهُ في دينِهِ ، قالَ رجلٌ لسهلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلَ اللصُّ بيتي وأخذَ متاعي ، فقالَ : اشكرِ اللهِ تعالىٰ ، لوْ دخلَ الشيطانُ قلبَكَ وأفسدَ التوحيدَ . . ماذا كنتَ تصنعُ ؟[1]

ولذٰلكَ استعاذَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في دعائِهِ إذْ قالَ : (اللهمَّ ؛ لا تجعلْ مصيبتي في ديني)[2]

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (ما ابتليتُ ببلاءٍ إلا كانَ للهِ تعالىٰ عليَّ فيهِ أربعُ نعَمٍ ؛ إذْ لمْ يكنْ في ديني ، وإذْ لمْ يكنْ أعظمَ منهُ ، وإذْ لمْ أُحرمِ الرضا بهِ ، وإذْ أرجو الثوابَ عليهِ)[3]

وكانَ لبعضِ أربابِ القلوبِ صديقٌ ، فحبسَهُ السلطانُ ، فأرسلَ إليهِ يعلمُهُ ويشكو إليهِ ، فقالَ لهُ : اشكرِ اللهَ ، فضربَهُ ، فأرسلَ إليهِ يعلمُهُ ويشكو إليهِ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ ، فجيءَ بمجوسيٍّ فحُبسَ عندَهُ وكانَ مبطوناً ، فقُيِّدَ ، وجُعلَ حلقةٌ مِنْ قيدِهِ في رجْلِهِ وحلقةٌ في رجْلِ المجوسيِّ ، فأرسلَ إليهِ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ ، فكانَ يحتاجُ المجوسيُّ إلىٰ أنْ يقومَ مرَّاتٍ وهوَ يحتاجُ أنْ يقومَ معَهُ ويقفَ علىٰ رأسِهِ حتَّىٰ يقضيَ حاجتَهُ ، فكتبَ إليهِ بذٰلكَ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ ، فقالَ : إلىٰ متىٰ هٰذا ؟! وأيُّ بلاءٍ أعظمُ مِنْ هٰذا ؟! فقالَ : لوْ جُعلَ الزنَّارُ الذي في وسطِهِ علىٰ وسطِكَ . . ماذا كنتَ تصنعُ ؟![4]

فإذاً ؛ ما مِنْ إنسانٍ قدْ أُصيبَ ببلاءٍ إلا ولوْ تأمَّلَ حقَّ التأمُّلِ في سوءِ أدبِهِ ظاهراً وباطناً في حقِّ مولاهُ . . لكانَ يرىٰ أنَّهُ يستحقُّ أكثرَ ممَّا أُصيبَ بهِ عاجلاً وآجلاً ، ومَنِ استحقَّ عليكَ أنْ يضربَكَ مئةَ سوطٍ ، فاقتصرَ علىٰ عشرةٍ . . فهوَ مستحقٌّ للشكرِ ، ومَنِ استحقَّ عليكَ أنْ يقطعَ يديكَ ، فتركَ إحداهُما . . فهوَ مستحقٌّ للشكرِ .

ولذٰلكَ مرَّ بعضُ الشيوخِ في شارعٍ ، فصُبَّ علىٰ رأسِهِ طشتٌ مِنْ رمادٍ ، فسجدَ للهِ تعالىٰ سجدةَ الشكرِ ، فقيلَ لهُ : ما هٰذهِ السجدةُ ؟ فقالَ : كنتُ أنتظرُ أنْ تُصبَّ عليَّ النارُ ، فالاقتصارُ على الرمادِ نعمةٌ[5]

وقيلَ لبعضِهِمْ : ألا تخرجُ إلى الاستسقاءِ ؛ فقدِ احتبسَتِ الأمطارُ ؟ فقالَ : أنتُمْ تستبطئونَ المطرَ وأنا أستبطئُ الحجرَ[6]

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : كيفَ أفرحُ وأرىٰ جماعةً ممَّنْ زادَتْ معصيتُهُمْ علىٰ معصيتي ولمْ يُصابوا بمثلِ ما أُصبتُ بهِ حتَّى الكفارِ ؟!

فاعلمْ : أنَّ الكافرَ قدْ خُبِّئَ لهُ ما هوَ أكثرُ ، وإنَّما أُمهلَ حتَّىٰ يستكثرَ مِنَ الإثمِ ، ويطولَ عليهِ العقابُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ .

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٣١٣) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٩٨٣٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٣٧) .

(٣) قوت القلوب (٢١١/١) دون نسبة بنحوه .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٣١٣) .

(٥) وهو أبو عثمان الزاهد ، وعبارته كما في « الرسالة القشيرية » (ص ٤١٤) : (من استحق أن يصب عليه النار فصولح على الرماد . . لم يجز له أن يغضب) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٧٣/٢) ، وصاحب الخبر هو مالك بن دينار .

وأمَّا العاصي . . فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّ في العالمِ مَنْ هوَ أعصىٰ منكَ ؟! وربَّ خاطرٍ بسوءِ أدبٍ في حقِّ اللهِ تعالىٰ وفي صفاتِهِ أعظمُ وأطمُّ مِنْ شربِ الخمرِ والزنا وسائرِ المعاصي بالجوارحِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ في مثلِهِ : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ، فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّ غيرَكَ أعصىٰ منكَ ؟!

ثمَّ لعلَّهُ قدْ أُخِّرَتْ عقوبتُهُ إلى الآخرةِ وعُجِّلَتْ عقوبتُكَ في الدنيا ، فلِمَ لا تشكرُ اللهَ تعالىٰ علىٰ ذٰلكَ ؟

وهٰذا هوَ الوجهُ **الثالثُ** في الشكرِ ، وهوَ أنَّهُ ما مِنْ عقوبةٍ إلا وكانَ يُتصوَّرُ أنْ تُؤخَّرَ إلى الآخرةِ ، ومصائبُ الدنيا يُتسلَّىٰ عنها بأسبابٍ أُخرَ تهوِّنُ المصيبةَ فيخفُّ وقعُها ، ومصيبةُ الآخرةِ تدومُ ، وإنْ لمْ تدمْ . . فلا سبيلَ إلىٰ تخفيفِها بالتسلِّي ، إذْ أسبابُ التسلِّي مقطوعةٌ بالكليَّةِ في الآخرةِ عنِ المعذَّبينَ

ومَنْ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ في الدنيا . . فلا يُعاقبُ ثانياً ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ إذا أذنبَ ذنباً ، فأصابَتْهُ شِدَّةٌ أوْ بلاءٌ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يعذِّبَهُ ثانياً »[1]

الرابعُ : أنَّ هٰذهِ المصيبةَ والبليَّةَ كانَتْ مكتوبةً عليهِ في أمِّ الكتابِ ، وكانَ لا بدَّ مِنْ وصولِها إليهِ ، وقدْ وصلَتْ ، ووقعَ الفراغُ ، واستراحَ مِنْ بعضِها أوْ مِنْ جميعِها ، فهٰذهِ نعمةٌ .

الخامسُ : أنَّ ثوابَها أكثرُ منها ؛ فإنَّ مصائبَ الدنيا طرقٌ إلى الآخرةِ مِنْ وجهينِ :

ـ **أحدُهُما** : الوجهُ الذي يكونُ بهِ الدواءُ الكريهُ نعمةً في حقِّ المريضِ ، ويكونُ المنعُ مِنْ أسبابِ اللعبِ نعمةً في حقِّ الصبيِّ ، فإنَّهُ لوْ خُلِّيَ واللعبَ . . كانَ يمنعُهُ ذٰلكَ عنِ العلمِ والأدبِ ، فكانَ يخسرُ جميعَ عمرِهِ ؛ فكذٰلكَ المالُ والأهلُ والأقاربُ والأعضاءُ حتَّى العينُ التي هيَ أعزُّ الأشياءِ قدْ تكونُ سبباً لهلاكِ الإنسانِ في بعضِ الأحوالِ .

بلِ العقلُ الذي هوَ أعزُّ الأمورِ قدْ يكونُ سبباً لهلاكِهِ ، فالملحدةُ غداً يتمنَّونَ لوْ كانوا مجانينَ أوْ صبياناً ولمْ يتصرَّفوا بعقولِهِمْ في دينِ اللهِ تعالىٰ ، فما مِنْ شيءٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ يُوجدُ مِنَ العبدِ إلا ويُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ فيهِ خيرةٌ دينيَّةٌ ، فعليهِ أنْ يحسنَ الظنَّ باللهِ تعالىٰ ، ويقدِّرَ فيهِ الخيرةَ ويشكرَهُ عليهِ ؛ فإنَّ حكمةَ اللهِ تعالىٰ واسعةٌ ، وهوَ بمصالحِ العبادِ أعلمُ مِنَ العبادِ ، وغداً يشكرُهُ العبادُ على البلايا إذا رأَوا ثوابَ اللهِ على البلايا كما يشكرُ الصبيُّ بعدَ العقلِ والبلوغِ أستاذَهُ وأباهُ علىٰ ضربِهِ وتأديبِهِ ؛ إذْ يدركُ ثمرةَ ما استفادَهُ مِنَ التأديبِ ، والبلاءُ تأديبٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وعنايتُهُ بعبادِهِ أتمُّ وأوفرُ مِنْ عنايةِ الآباءِ بالأولادِ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، فقالَ : « لا تتهمِ اللهَ في شيءٍ قضاهُ عليكَ »[2]

ونظرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى السماءِ فضحكَ ، فسُئِلَ ، فقالَ : « عجبتُ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ للمؤمنِ ؛ إنْ قضىٰ لهُ بالسرَّاءِ . . رضيَ وكانَ خيراً لهُ ، وإنْ قضىٰ لهُ بالضرَّاءِ . . رضيَ وكانَ خيراً لهُ !! »[3]

ـ **الوجهُ الثاني** : أنَّ رأسَ الخطايا المهلكةِ حبُّ الدنيا ، ورأسَ أسبابِ النجاةِ التجافي بالقلبِ عنْ دارِ الغرورِ ، ومواتاةُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) ولفظه : « من أصاب حدّاً فعُجِّل عقوبتُه في الدنيا . . فالله أعدل من أن يثنِّيَ علىٰ عبده العقوبة في الآخرة ، ومن أصاب حدّاً فستره الله عليه وعفا عنه . . فالله أكرم من أن يعود إلىٰ شيء قد عفا عنه » .

(٢) كذا في « القوت » (٢١٧/١) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٢٠٤/٤) ، (٣١٨/٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٢٦٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢١٧/١) ، وهو عند مسلم (٢٩٩٩) دون ذكر النظر إلى السماء والضحك ، وقد ورد ذكر ذلك في أخبار مقاربة ، انظر « الإتحاف » (١٤١/٩) .

النعمِ علىٰ وَفْقِ المرادِ مِنْ غيرِ امتزاجٍ ببلاءٍ ومصيبةٍ تورثُ طمأنينةَ القلبِ إلى الدنيا وأنساً بها ، حتَّىٰ تصيرَ كالجنَّةِ في حقِّهِ ، فيعظمُ بلاؤُهُ عندَ الموتِ بسببِ مفارقتِهِ ، وإذا كثرَتْ عليهِ المصائبُ . . انزعجَ قلبُهُ عنِ الدنيا ، ولمْ يسكنْ إليها ، ولمْ يأنسْ بها ، وصارَتْ سجناً عليهِ ، وكانَتْ نجاتُهُ منها غايةَ اللذَّةِ ؛ كالخلاصِ مِنَ السجنِ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ »(١) ، والكافرُ كلُّ مَنْ أعرضَ عنِ اللهِ تعالىٰ ولمْ يردْ إلا الحياةَ الدنيا ، ورضيَ بها ، واطمأنَّ إليها ، والمؤمنُ كلُّ منقلعٍ بقلبِهِ عنِ الدنيا ، شديدِ الحنينِ إلى الخروجِ منها ، والكفرُ بعضُهُ ظاهرٌ وبعضُهُ خفيٌّ ، وبقدْرِ حبِّ الدنيا في القلبِ يسري فيهِ الشركُ الخفيُّ ، بلِ الموحِّدُ المطلقُ هوَ الذي لا يحبُّ إلا الواحدَ الحقَّ .

فإذاً ؛ في البلاءِ نعَمٌ مِنْ هٰذا الوجهِ ، فيجبُ الفرحُ بهِ .

وأمَّا التألُّمُ . . فهوَ ضروريٌّ ، وذٰلكَ يضاهي فرحَكَ عندَ الحاجةِ إلى الحجامةِ بمَنْ يتولَّىٰ حجامتَكَ مجاناً ، أوْ يسقيكَ دواءً نافعاً بشعاً مجاناً ؛ فإنَّكَ تتألَّمُ وتفرحُ ، فتصبرُ على الألمِ ، وتشكرُهُ علىٰ سببِ الفرحِ ، فكلُّ بلاءٍ في الأمورِ الدنيويَّةِ مثالُهُ الدواءُ الذي يؤلمُ في الحالِ وينفعُ في المآلِ .

بلْ مَنْ دخلَ دارَ ملكٍ للنضارةِ(٢) ، وعلمَ أنَّهُ يخرجُ منها لا محالةَ ، فرأىٰ وجهاً حسناً لا يخرجُ معَهُ مِنَ الدارِ . . كانَ ذٰلكَ وبالاً وبلاءً عليهِ ؛ لأنَّهُ يورثُهُ الأنسَ بمنزلٍ لا يمكنُهُ المُقامُ فيهِ ، ولوْ كانَ عليهِ في المُقامِ خطرٌ مِنْ أنْ يطلعَ عليهِ الملكُ فيعذِّبَهُ ، فأصابَهُ ما يكرهُ حتَّىٰ نفرَهُ عنِ المقامِ . . كانَ ذٰلكَ نعمةً عليهِ ، والدنيا منزلٌ ، وقدْ دخلَها الناسُ مِنْ بابِ الرحمِ ، وهُمْ خارجونَ عنها مِنْ بابِ اللحدِ ، فكلُّ ما يحقِّقُ أنسَهُمْ بالمنزلِ فهوَ بلاءٌ ، وكلُّ ما يزعجُ قلوبَهُمْ عنها ويقطعُ أنسَهُمْ بها فهوَ نعمةٌ ، فمَنْ عرفَ هٰذا . . تُصوِّرَ منهُ أنْ يشكرَ على البلاءِ ، ومَنْ لمْ يعرفْ هٰذهِ النعمةَ في البلاءِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ الشكرُ ؛ لأنَّ الشكرَ يتبعُ معرفةَ النعمةِ بالضرورةِ ، ومَنْ لا يؤمنُ بأنَّ ثوابَ المصيبةِ أكبرُ مِنَ المصيبةِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ الشكرُ على المصيبةِ .

وحُكِيَ أنَّ أعرابياً عزَّى ابنَ عباسٍ علىٰ أبيهِ رضي الله عنهُما فقالَ(٣) : [من الكامل]

اِصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صابِرِينَ فَإِنَّما ... صَبْرُ الرَّعِيَّةِ بَعْدَ صَبْرِ الرَّاسِ

خَيْرٌ مِنَ الْعَبَّاسِ أَجْرُكَ بَعْدَهُ ... وَاللهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

فقالَ ابنُ عباسٍ : ما عزَّاني أحدٌ أحسنَ مِنْ تعزيتِهِ(٤)

والأخبارُ الواردةُ في الصبرِ على المصائبِ كثيرةٌ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يردِ اللهُ بهِ خيراً . . يصبْ منهُ »(٥)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : إذا وجَّهتُ إلىٰ عبدٍ مِنْ عبيدي مصيبةً في بدنِهِ أوْ مالِهِ أوْ ولدِهِ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦) .

(٢) أي : التفرج .

(٣) البيتان في « التذكرة الحمدونية » (٢٤٧/٤) بسياق مختلف .

(٤) قوت القلوب (٢١١/١) .

(٥) رواه البخاري (٥٦٤٥) .

ثمَّ استقبلَ ذلكَ بصبرٍ جميلٍ . . استحييتُ منهُ يومَ القيامةِ أنْ أنصبَ لهُ ميزاناً أوْ أنشرَ لهُ ديواناً »[١]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما مِنْ عبدٍ أُصيبَ بمصيبةٍ ، فقالَ كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ أْجُرْني في مصيبتي ، وأعقبْني خيراً منها . . إلا فعلَ اللهُ ذٰلكَ بهِ »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : مَنْ سلبتُ كريمتيهِ . . فجزاؤُهُ الخلودُ في داري ، والنظرُ إلىٰ وجهي »[٣] .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ذهبَ مالي ، وسقمَ جسمي ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا خيرَ في عبدٍ لا يذهبُ مالُهُ ولا يسقمُ جسمُهُ ، إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً . . ابتلاهُ ، وإذا ابتلاهُ . . صبَّرَهُ »[٤]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ الرَّجلَ لتكونُ لهُ الدرجةُ عندَ اللهِ تعالىٰ لا يبلغُها بعملٍ حتَّىٰ يُبتلىٰ ببلاءٍ في جسمِهِ ، فيبلغُها بذٰلكَ »[٥]

وعنْ خبَّابِ بنِ الأرتِّ قالَ : أتينا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ متوسِّدٌ بردائِهِ في ظلِّ الكعبةِ ، فشكونا إليهِ ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا تدعو اللهَ تستنصرُهُ لنا ، فجلسَ محمرّاً لونُهُ ، ثمَّ قالَ : « إنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ ليُؤتىٰ بالرجلِ ، فيُحفرُ لهُ في الأرضِ حفيرةٌ ، ويُجاءُ بالمنشارِ ، فيوضعُ علىٰ رأسِهِ ، فيُجعلُ فرقتينِ ، ما يصرفُهُ ذٰلكَ عنْ دينِهِ »[٦]

وعنْ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ قالَ : (أيُّما رجلٍ حبسَهُ السلطانُ ظلماً فماتَ . . فهوَ شهيدٌ ، وإنْ ضربَهُ فماتَ . . فهوَ شهيدٌ)[٧] . وقالَ أيضاً : (مِنْ إجلالِ اللهِ ومعرفةِ حقِّهِ ألا تشكوَ وجعَكَ ، ولا تذكرَ مصيبتَكَ)[٨]

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (تُولدونَ للموتِ ، وتعمرونَ للخرابِ ، وتحرصونَ علىٰ ما يفنىٰ ، وتذرون ما يبقىٰ ، ألا حبذا المكروهاتُ الثلاثُ : الفقرُ والمرضُ والموتُ)[٩]

وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً ، وأرادَ أنْ يصافيَهُ . . صَبَّ عليهِ البلاءَ صبّاً ، وثجَّهُ عليهِ ثجّاً ، فإذا دعاهُ . . قالَتِ الملائكةُ : صوتٌ معروفٌ ، فإنْ دعاهُ ثانياً فقالَ : يا ربِّ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : لبَّيكَ عبدي وسعديكَ ، لا تسألُني شيئاً إلّا أعطيتُكَ أوْ دفعتُ عنكَ ما هوَ خيرٌ ، وادَّخرتُ لكَ عندي ما هوَ أفضلُ منهُ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . جيءَ بأهلِ الأعمالِ ، فوُفُّوا أعمالَهُمْ بالميزانِ ، أهلُ الصلاةِ والصيامِ والصدقةِ والحجِّ ، ثمَّ يُؤتىٰ بأهلِ البلاءِ . . فلا يُنصبُ لهُمْ ميزانٌ ، ولا ينشرُ لهُمْ ديوانٌ ، يُصبُّ عليهِمُ الأجرُ صبّاً كما كان يُصبُّ

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٢٢) ، وابن عدي في « الكامل » (١٥٠/٧) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٦٢) .
(٢) رواه مسلم (٩١٨) ، و(أجرني) : يجوز فيه أيضاً مد الهمزة والقصر والوصل ، (آجرني ، أَجِرني ، جُرني) ؛ بمعنىٰ طلب الأجر على المد والوصل ، أو من الإجارة على القصر .
(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٨٥٠) ، وعند البخاري (٥٦٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر . عوضته منهما الجنة » .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٥٤) .
(٥) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢٩٠٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٤٤/١) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٦) رواه البخاري (٣٦١٢) ، وأبو داوود (٢٦٤٩) .
(٧) أورده الأبشيهي في « المستطرف » (٣٣٥/٢) .
(٨) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » [٢٢٣] من رواية سفيان عن بعض الفقهاء) . « الإتحاف » (٢٩/٩) . وقول سفيان رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٩/٦) أيضاً .
(٩) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦٣/٤٧) .

عليهِمُ البلاءُ صبّاً ، فيودُّ أهلُ العافيةِ في الدنيا لوْ أنَّهُمْ كانَتْ تُقرضُ أجسادُهُمْ بالمقاريضِ لما يرونَ ما يذهبُ بِهِ أهلُ البلاءِ مِنَ الثوابِ ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ »(١)

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قالَ : (شكا نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ إلىٰ ربِّهِ فقالَ : يا ربِّ ؛ العبدُ المؤمنُ يطيعُكَ ويجتنبُ معاصيَكَ ، تزوي عنهُ الدنيا ، وتعرضُ لهُ البلاءَ ، ويكونُ العبدُ الكافرُ لا يطيعُكَ ويجترئُ عليكَ وعلىٰ معاصيكَ ، تزوي عنهُ البلاءَ ، وتبسطُ لهُ الدنيا ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّ العبادَ لي ، والبلاءَ لي ، وكلٌّ يسبِّحُ بحمدي ، فيكونُ المؤمنُ عليهِ مِنَ الذنوبِ ، فأزوي عنهُ الدنيا ، وأعرضُ لهُ البلاءَ ، فيكونُ كفارةً لذنوبِهِ ؛ حتَّىٰ يلقاني فأجزيَهُ بحسناتِهِ ، ويكونُ الكافرُ لهُ الحسناتُ ، فأبسطُ لهُ في الرزقِ ، وأزوي عنهُ البلاءَ ، فأجزيهِ بحسناتِهِ في الدنيا ؛ حتَّىٰ يلقاني فأجزيَهُ بسيئاتِهِ)(٢)

ورُوِيَ أنَّهُ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ . . قالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : كيفَ الفرحُ بعدَ هـٰذهِ الآيةِ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « غفرَ اللهُ لكَ يا أبا بكرٍ ؛ ألستَ تمرضُ ؟ ألستَ يصيبُكَ الأذىٰ ؟ ألستَ تحزنُ ؟ فهـٰذا ما تُجزونَ بهِ »(٣) ؛ يعني : أنَّ جميعَ ما يصيبُكَ يكونُ كفارةً لذنوبِكَ .

وعنْ عقبةَ بنِ عامرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا رأيتُمُ الرجلَ يعطيهِ اللهُ ما يحبُّ وهوَ مقيمٌ علىٰ معصيتِهِ . . فاعلموا أنَّ ذٰلكَ استدراجٌ ، ثمَّ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ »(٤) ، يعني : لمَّا تركوا ما أُمروا بهِ . . فتحنا عليهِمْ أبوابَ الخيراتِ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ ﴾ أيْ : بما أُعطوا مِنَ الخيرِ ، ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ .

وعنِ الحسنِ البصريِّ رحمَهُ اللهُ : أنَّ رجلاً مِنَ الصحابةِ رأى امرأةً كانَ يعرفُها في الجاهليةِ ، فكلَّمَها ثمَّ تركَها ، فجعلَ الرجلُ يلتفتُ إليها وهوَ يمشي ، فصدمَتْهُ حائطٌ ، فأثَّرَ في وجهِهِ ، فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأخبرَهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . عجَّلَ لهُ عقوبةَ ذنبِهِ في الدنيا »(٥)

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : ألا أخبرُكُمْ بأرجىٰ آيةٍ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ قالوا : بلىٰ ، فقرأَ عليهِمْ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ ، فالمصائبُ في الدنيا بكسبِ الأوزارِ ، فإذا عاقبَهُ اللهُ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يعذبَهُ ثانياً ، وإنْ عفا عنهُ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يعذِّبَهُ يومَ القيامةِ(٦)

وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما تجرعَ عبدٌ قطُّ جرعتينِ أحبَّ إلى اللهِ مِنْ جرعةِ غيظٍ ردَّها بحلمٍ ، وجرعةِ مصيبةٍ يصبرُ الرجلُ لها ، ولا قطرَتْ قطرةٌ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ قطرةِ دمٍ أهريقَتْ في سبيلِ اللهِ ، أوْ قطرةِ دمعٍ في سوادِ الليلِ وهوَ ساجدٌ ولا يراهُ إلا اللهُ تعالىٰ ، وما خطا عبدٌ خطوتينِ أحبَّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ خطوةٍ إلىٰ صلاةِ الفريضةِ ، وخطوةٍ إلىٰ صلةِ الرحمِ »(٧)

---

(١) رواه بتمامه التميمي في « المحن » (ص ٢٨٦) ، والترمذي (٢٤٠٢) روىٰ بعضه ، وهو قوله : « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطىٰ أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض » .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٢٣/٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١١/١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩١٠) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١٤٥/٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٩٢٦٨) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٨٧/٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩١١) عن الحسن عن عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه .

(٦) رواه مرفوعاً الحاكم في « المستدرك » (٣٨٨/٤) ، وأحمد في « المسند » (٨٥/١) .

(٧) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر ابن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث علي بن أبي طالب ، دون ذكر القطرتين ، وفيه محمد بن

وعنْ أبي الدرداءِ قالَ : تُوفي ابنٌ لسليمانَ بنِ داوودَ عليهما السلامُ ، فوجدَ عليهِ وجداً شديداً ، فأتاهُ ملكانِ ، فجلسا بينَ يديهِ في زيِّ الخصومِ ، فقالَ أحدُهُما : بذرتُ بذراً ، فلمَّا استحصدَ . . مرَّ بهِ هٰذا فأفسدَهُ ، فقالَ للآخرِ : ما تقولُ ؟ فقالَ : أخذتُ الجادةَ فأتيتُ علىٰ زرعٍ ، فنظرتُ يميناً وشمالاً فإذا الطريقُ عليهِ ، فقالَ سليمانُ عليهِ السلامُ : ولِمَ بذرتَ على الطريقِ ؟ أما علمتَ أنْ لا بدَّ للناسِ مِنَ الطريقِ ؟! قالَ : فلِمَ تحزنُ علىٰ ولدِكَ ؟ أما علمتَ أنَّ الموتَ سبيلُ الآخرةِ ؟! فتابَ سليمانُ عليهِ السلامُ إلىٰ ربِّهِ ، ولمْ يجزعْ علىٰ ولدِهِ بعدَ ذٰلكَ[1]

ودخلَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ على ابنٍ لهُ مريضٍ ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ لأنْ تكونَ في ميزاني أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أكونَ في ميزانِكَ ، فقالَ : يا أبتِ ؛ لأَنْ يكونَ ما تحبُّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يكونَ ما أحبُّ[2]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ نُعيَ إليهِ ابنةٌ لهُ ، فاسترجعَ وقالَ : عورةٌ سترَها اللهُ ، ومؤنةٌ كفاها اللهُ ، وأجرٌ قدْ ساقَهُ اللهُ ، ثمَّ نزلَ فصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ قالَ : قدْ صنعنا ما أمرَ اللهُ تعالىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[3]

وعنِ ابنِ المباركِ أنَّهُ ماتَ لهُ ابنٌ ، فعزَّاهُ مجوسيٌّ يعرفُهُ فقالَ لهُ : ينبغي للعاقلِ أنْ يفعلَ اليومَ ما يفعلُهُ الجاهلُ بعدَ خمسةِ أيامٍ ، فقالَ ابنُ المباركِ : اكتبوا عنهُ هٰذهِ[4]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ليبتلي العبدَ بالبلاءِ بعدَ البلاءِ ، حتَّىٰ يمشيَ على الأرضِ وما لهُ ذنبٌ)[5]

وقالَ الفضيلُ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليتعاهدُ عبدَهُ المؤمنَ بالبلاءِ كما يتعاهدُ الرجلُ أهلَهُ بالخيرِ)[6]

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحتجُّ على الخلقِ يومَ القيامةِ بأربعةِ أنفسٍ علىٰ أربعةِ أجناسٍ : على الأغنياءِ بسليمانَ ، وعلى الفقراءِ بعيسىٰ ، وعلى العبيدِ بيوسفَ ، وعلى المرضىٰ بأيوبَ ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ) .

ورُوِيَ أنَّ زكريا عليهِ السلامُ لمَّا هربَ مِنَ الكفارِ مِنْ بني إسرائيلَ ، واختفىٰ في الشجرةِ ، فعرفوا ذٰلك ، فجيءَ بالمنشارِ ، فنُشرَتِ الشجرةُ حتَّىٰ بلغَ المنشارُ إلىٰ رأسِ زكريا ، فأنَّ منهُ أنَّةً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا زكريا ؛ لئنْ صعدَتْ منكَ أنَّةٌ ثانيةٌ لأمحونَّكَ مِنْ ديوانِ النبوَّةِ ، فعضَّ زكريا عليهِ السلامُ على الصبرِ حتَّىٰ قُطعَ بشطرينِ[7]

صدقة ، وهو الفدكي ، منكر الحديث ، وروى ابن ماجه [٤١٨٩] من حديث ابن عمر بإسناد جيد : « ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » [٦٢٠٥] من حديث أبي أمامة : « ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل » ، وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي ، منكر الحديث) . « إتحاف » (١٤٥/٩) . وروى ابن وهب في « جامعه » (٤٧٨) حديث الجرعتين مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤١٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٥٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨١) .

(٣) عزاه الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص ٢١٥) لابن أبي الدنيا في « العزاء » .

(٤) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٣٣٨/٤) .

(٥) روى الحاكم في « المستدرك » (٣٤٧/١) عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه مرفوعاً ، والطبراني في « الكبير » (١٢٩/٢) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

(٦) روي هٰذا من حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً كما هو عند البيهقي في « الشعب » (٩٦٤٨) ، وبلفظ : « إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بخير » ، قال حذيفة : وإنَّ أقرَّ أيامي لعيني يوم أدخل علىٰ أهلي فيشكون إلي الحاجة .

(٧) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٥) عن وهب بن منبه .

وقالَ أبو مسعودٍ البلخيُّ : (مَنْ أُصيبَ بمصيبةٍ فمزَّقَ ثوباً ، أوْ ضربَ صدراً . . فكأنَّما أخذَ رمحاً يريدُ أنْ يقاتلَ بهِ ربَّهُ عزَّ وجلَّ)[1]

وقالَ لقمانُ رحمهُ اللهُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنَّ الذهبَ يُجرَّبُ بالنارِ ، والعبدُ الصالحُ يُجرَّبُ بالبلاءِ ، فإذا أحبَّ اللهُ قوماً . . ابتلاهُمْ ، فمَنْ رضيَ . . فلهُ الرضا ، ومَنْ سخطَ . . فلهُ السخطُ)[2]

وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : أصبحتُ يوماً أشتكي ضرسي ، فقلتُ لعمِّي : ما نمتُ البارحةَ مِنْ وجعِ الضرسِ ، حتَّىٰ قلتُها ثلاثاً ، فقالَ : لقدْ أكثرتَ مِنْ شكوىٰ ضرسِكَ في ليلةٍ واحدةٍ ، وقدْ ذهبَتْ عيني هـٰذهِ منذ ثلاثينَ سنةً ما علمَ بها أحدٌ[3]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عزيرٍ عليهِ السلامُ : إذا نزلَتْ بكَ بليَّةٌ . . فلا تشكُني إلىٰ خلقي ، واشكُ إليَّ كما لا أشكوكَ إلىٰ ملائكتي إذا صعدَتْ بمساوئِكَ وفضائحِكَ[4] ، نسألُ اللهَ مِنْ عظيمِ لطفِهِ وكرمِهِ سترَهُ الجميلَ في الدنيا والآخرةِ .

* * *

---

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٣٥٧/٤) .

(٢) هـٰذا القول متوازع في المرفوع ، فقد روى الطبراني في « الكبير » (١٦٦/٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٣١٤/٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار . . . » الحديث ، وروى الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً . . ابتلاهم ، فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط » .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٨٣) عن ابن أخٍ للأحنف ، وصاحب القول هو الأحنف نفسه ، ورواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣٢٩/١٢) عن الأحنف وعمه المتشمس بن معاوية ولم يعيّن الشكوىٰ .

(٤) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « أوحى الله عز وجل إلىٰ أخي العزير : يا عزير . . . » الخبر .

بيان فضل النّعمة على البلاء

لعلَّكَ تقولُ : هاذِهِ الأخبارُ تدلُّ علىٰ أنَّ البلاءَ في الدنيا خيرٌ مِنَ النعَمِ ، فهلْ لنا أنْ نسألَ اللهَ البلاءَ ؟

فأقولُ : لا وجهَ لذٰلكَ ؛ لما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يستعيذُ في دعائِهِ مِنْ بلاءِ الدنيا وبلاءِ الآخرةِ[1] ، وكانَ يقولُ هوَ والأنبياءُ عليهِمُ السلامُ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[2] ، وكانوا يستعيذونَ مِنْ شماتةِ الأعداءِ وغيرِها[3]

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الصبرَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ سألتَ اللهَ البلاءَ . . فاسألْهُ العافيةَ »[4]

وروى الصدِّيقُ رضوانُ اللهِ عليهِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « سلوا اللهَ العافيةَ ، فما أُعطيَ أحدٌ أفضلَ مِنَ العافيةِ إلا اليقينَ »[5] ، وأشارَ باليقينِ إلىٰ عافيةِ القلبِ عنْ مرضِ الجهلِ والشكِّ ، فعافيةُ القلبِ أعلىٰ مِنْ عافيةِ البدنِ .

وقالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ : (الخيرُ الذي لا شرَّ فيهِ العافيةُ معَ الشكرِ ، فكَمْ مِنْ منعَمٍ عليهِ غيرُ شاكرٍ)[6]

وقالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ : (لأنْ أُعافىٰ فأشكرَ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أُبتلىٰ فأصبرَ)[7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « وعافيتُكَ أحبُّ إليَّ »[8]

وهاذا أظهرُ مِنْ أنْ يُحتاجَ فيهِ إلى استشهادٍ ، وهاذا لأنَّ البلاءَ صارَ نعمةً باعتبارينِ :

أحدُهُما : بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ أكثرُ منهُ ؛ إمَّا في الدنيا ، أوْ في الدينِ .

والآخرُ : بالإضافةِ إلىٰ ما يُرجىٰ مِنَ الثوابِ ، فينبغي أنْ يسألَ اللهَ تمامَ النعمةِ في الدنيا ، ودفعَ ما فوقَهُ مِنَ البلاءِ ، ويسألَهُ الثوابَ في الآخرةِ على الشكرِ علىٰ نعمِهِ ، فإنَّهُ قادرٌ علىٰ أنْ يعطيَ على الشكرِ ما يعطيهِ على الصبرِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ بعضُهُمْ : (أودُّ أنْ أكونَ جسراً على النارِ يعبرُ عليَّ الخلقُ كلُّهُمْ فينجونَ ، وأكونَ أنا في النارِ) .

---

(١) إذ روى أحمد في « مسنده » (١٨١/٤) من حديث بسر بن أرطاة رضي الله عنه مرفوعاً : « وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » .

(٢) وكان هاذا من أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام كما روىٰ ذٰلك مسلم (٣٦٩٠) .

(٣) رواها النسائي (٢٦٥/٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٣١/١) .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٢٧) ولم يذكر أن القائل هو علي رضي الله عنه ، وعيَّنه في الحديث (٣٥٦٤) .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) بنحوه .

(٦) كذا في « القوت » (٢٠٦/١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٥٤/٤) عن عون بن عبد الله .

(٧) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٤٦٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٠/٢) .

(٨) كذا في « القوت » (٢٠٦/١) ، وهي قطعة من الدعاء المشهور له صلى الله عليه وسلم يوم خرج إلى الطائف يدعو ثقيفاً ، وأورده ابن هشام في « سيرته » (٤٢٠/١) ولفظه : « ولكن عافيتك هي أوسع لي » ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن الجوزي في « السيرة » . . . ، وكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الدعاء » من رواية حسان بن عطية مرسلاً ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسنداً وفيه من يجهل) . « إتحاف » (١٤٨/٩) .

وقالَ سمنونٌ[١] : [من مخلع البسيط]

وَلَـيْـسَ لِـي فِـي سِـوَاكَ حَـظٌّ فَـكَـيْـفَـمَـا شِـئْـتَ فَـاخْـتَـبِـرْنِـي

فهٰذا منْ هٰؤلاءِ سؤالٌ للبلاءِ .

فاعلمْ : أنَّهُ حُكِيَ عنْ سمنونٍ رحمَهُ اللهُ أنَّهُ بُلِيَ بعدَ هٰذا البيتِ بعلَّةِ الحصرِ ، فكانَ بعدَ ذٰلكَ يدورُ على أبوابِ المكاتبِ ويقولُ للصبيانِ : (ادعوا لعمِّكُمُ الكذَّابِ) .

وأمَّا محبَّةُ الإنسانِ ليكونَ هوَ في النارِ دونَ سائرِ الخلقِ . . فغيرُ ممكنةٍ ، ولٰكنْ قدْ تغلبُ المحبَّةُ على القلبِ ، حتَّىٰ يظنَّ المحبُّ بنفسِهِ حبّاً لمثلِ ذٰلكَ ، فمَنْ شربَ بكأسِ المحبةِ . . سكرَ ، ومَنْ سكرَ . . توسَّعَ في الكلامِ ، ولوْ زايلَهُ سكرُهُ . . علمَ أنَّ ما غلبَ عليهِ كانَ حالةً لا حقيقةَ لها ، فما سمعتَهُ مِنْ هٰذا الفنِّ فهوَ كلامُ العشَّاقِ الذينَ أفرطَ حبُّهُمْ ، وكلامُ العشَّاقِ يُستلذُّ سماعُهُ ولا يُعوَّلُ عليهِ ؛ كما حُكِيَ أنَّ فاختةً كانَ يراودُها زوجُها فمنعَتْهُ ، فقالَ : ما الذي يمنعُكِ عنِّي ولوْ أردتِ أنْ أقلبَ لكِ ملكَ سليمانَ ظهراً لبطنٍ . . لفعلتُهُ لأجلِكِ ، فسمعَهُ سليمانُ عليهِ السلامُ ، فاستدعاهُ وعاتبَهُ ، فقالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ كلامُ العشَّاقِ لا يُحكىٰ[٢] ، وهوَ كما قالَ .

وقولُ الشاعرِ[٣] : [من الوافر]

أُرِيـدُ وِصَـالَـهُ وَيُـرِيـدُ هَـجْـرِي فَـأَتْـرُكُ مَـا أُرِيـدُ لِـمَـا يُـرِيـدُ

هوَ أيضاً محالٌ ، ومعناهُ : أنِّي أريدُ ما لا أريدُ ؛ لأنَّ مَنْ أرادَ الوصالَ ما أرادَ الهجرَ ، فكيفَ أرادَ الهجرَ الذي لمْ يردْهُ ؟! بلْ لا يصدقُ هٰذا الكلامُ إلا بتأويلينِ :

أحدُهُما : أنْ يكونَ ذٰلكَ في بعضِ الأحوالِ حتَّىٰ يكتسبَ بهِ رضاهُ الذي يتوصَّلُ بهِ إلىٰ مرادِ الوصالِ في الاستقبالِ ، فيكونُ الهجرانُ وسيلةً إلى الرضا ، والرضا وسيلةً إلىٰ وصالِ المحبوبِ ، والوسيلةُ إلى المحبوبِ محبوبٌ ، فيكونُ مثالُهُ مثالَ محبِّ المالِ إذا أسلمَ درهماً في درهمينِ ، فهوَ بحبِّ الدرهمينِ يتركُ الدرهمَ في الحالِ .

الثاني : أنْ يصيرَ رضاهُ عندَهُ مطلوباً مِنْ حيثُ إنَّهُ رضاً فقطْ ، ويكونُ لهُ لذَّةٌ في استشعارِهِ رضا محبوبِهِ منهُ تزيدُ تلكَ اللذَّةُ علىٰ لذَّتِهِ في مشاهدتِهِ معَ كراهتِهِ ، فعندَ ذٰلكَ يُتصوَّرُ أنْ يريدَ ما فيهِ الرضا ، فلذٰلكَ قدِ انتهىٰ حالُ بعضِ المحبِّينَ إلىٰ أنْ صارَتْ لذتُّهُمْ في البلاءِ معَ استشعارِهِمْ رضا اللهِ عنهُمْ أكثرَ مِنْ لذَّاتِهِمْ في العافيةِ مِنْ غيرِ شعورِ الرضا ، فهٰؤلاءِ إذا قدَّروا رضاهُ في البلاءِ . . صارَ البلاءُ أحبَّ إليهِمْ مِنَ العافيةِ ، وهٰذهِ حالةٌ لا يبعدُ وقوعُها في غلباتِ الحبِّ ، ولٰكنَّها لا تثبتُ ، وإنْ ثبتَتْ مثلاً . . فهلْ هيَ حالةٌ صحيحةٌ أمْ حالةٌ اقتضَتْها حالةٌ أخرىٰ وردَتْ على القلبِ فمالَتْ بهِ عنِ الاعتدالِ ؟ هٰذا فيهِ نظرٌ ، وذكرُ تحقيقِهِ لا يليقُ بما نحنُ فيهِ .

وقدْ ظهرَ بما سبقَ أنَّ العافيةَ خيرٌ مِنَ البلاءِ ، فنسألُ اللهَ تعالى المنانَ بفضلِهِ علىٰ جميعِ خلقِهِ العفوَ والعافيةَ في الدينِ والدنيا والآخرةِ لنا ولجميعِ المسلمينَ .

* * *

(١) عقلاء المجانين (ص ٣٣٩) ، والرسالة القشيرية (ص ٨٨) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٥٣٠) بنحوه ، **والفاختة** : الحمامةُ المطوقة .

(٣) البيت لابن المنجم الواعظ . انظر « فوات الوفيات » (٣٠١/٢) ، و« الوافي بالوفيات » (٢٦٨/١٨) .

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلمْ : أنَّ الناسَ اختلفوا في ذٰلكَ :

فقالَ قائلونَ : الصبرُ أفضلُ مِنَ الشكرِ .

وقالَ آخرونَ : الشكرُ أفضلُ .

وقالَ آخرونَ : هما سيَّانِ .

وقالَ آخرونَ : يختلفُ ذٰلكَ باختلافِ الأحوالِ .

واستدلَّ كلُّ فريقٍ بكلامٍ شديدِ الاضطرابِ ، بعيدٍ عنِ التحصيلِ ، فلا معنىٰ للتطويلِ بالنقلِ ، بلِ المبادرةُ إلىٰ إظهارِ الحقِّ أولىٰ ، فنقولُ : **في بيانِ ذٰلكَ مقامانِ** :

المقامُ الأوَّلُ : **البيانُ علىٰ سبيلِ التساهلِ** :

وهوَ أنْ يُنظرَ إلىٰ ظاهرِ الأمرِ ، ولا يُطلبَ بالتفتيشِ تحقيقُهُ ، وهوَ البيانُ الذي ينبغي أنْ يُخاطبَ بهِ عوامُّ الخلقِ ؛ لقصورِ أفهامِهِمْ عنْ دركِ الحقائقِ الغامضةِ ، وهٰذا الفنُّ مِنَ الكلامِ هوَ الذي ينبغي أنْ يعتمدَهُ الوعَّاظُ ؛ إذْ مقصودُ كلامِهِمْ مِنْ مخاطبةِ العوامِّ إصلاحُهُمْ ، والظِّئْرُ المشفقةُ لا ينبغي أنْ تصلحَ الصبيَّ الطفلَ بالطيورِ السمانِ وضروبِ الحلاواتِ ، بلْ باللبنِ اللطيفِ ، وعليها أنْ تؤخِّرَ عنهُ أطايبَ الأطعمةِ إلىٰ أنْ يصيرَ محتملاً لها بقوَّتِهِ ، ويفارقَ الضعفَ الذي هوَ عليهِ في بِنْيَتِهِ ، فنقولُ :

هٰذا المقامُ في البيانِ يأبى البحثَ والتفصيلَ ، ومقتضاهُ النظرُ إلى الظاهرِ المفهومِ مِنْ مواردِ الشرعِ ، وذٰلكَ يقتضي تفضيلَ الصبرِ ؛ فإنَّ الشكرَ وإنْ وردَتْ أخبارٌ كثيرةٌ في فضلِهِ ، فإذا أُضيفَ إليهِ ما وردَ في فضيلةِ الصبرِ . . كانَتْ فضائلُ الصبرِ أكثرَ ، بلْ فيهِ ألفاظٌ صريحةٌ في التفضيلِ ؛ كقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ أفضلِ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ »[1]

وفي الخبرِ : (يُؤتىٰ بأشكرِ أهلِ الأرضِ ، فيجزيهِ اللهُ جزاءَ الشاكرينَ ، ويُؤتىٰ بأصبرِ أهلِ الأرضِ ، فيُقالُ لهُ : أترضىٰ أنْ نجزيَكَ كما جزينا هٰذا الشاكرَ ، فيقولُ : نعمْ يا ربِّ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كلَّا ، أنعمتُ عليهِ فشكرَ ، وابتليتُكَ فصبرتَ ، لأضعِّفَنَّ لكَ الأجرَ عليهِ ، فيُعطىٰ أضعافَ جزاءِ الشاكرينَ)[2]

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وأمَّا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الطاعمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصابرِ »[3] . . فهوَ دليلٌ على الفضيلةِ في الصبرِ ؛ إذْ ذكرَ ذٰلكَ في معرضِ المبالغةِ لرفعِ درجةِ الشكرِ ، فألحقَهُ بالصبرِ ، فكانَ هٰذا منتهىٰ درجتِهِ ، ولولا أنَّهُ فُهِمَ مِنَ

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١٩٤/١) من حديث شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « من أقلّ » بدل « من أفضل » .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٥/١) ، ولم يذكر رفعه .

(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٧٦٤) .

الشرعِ علوُّ درجةِ الصبرِ . . لما كانَ إلحاقُ الشكرِ بهِ مبالغةً في الشكرِ ، وهوَ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجمعةُ حجُّ المساكينِ »[(١)] ، « وجهادُ المرأةِ حسنُ التَّبعُّلِ »[(٢)] ، وكقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شاربُ الخمرِ كعابدِ وثنٍ »[(٣)] ، وأبداً المشبَّهُ بهِ ينبغي أنْ يكونَ أعلىٰ رتبةً ، فكذٰلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ »[(٤)] لا يدلُّ علىٰ أنَّ الشكرَ مثلُهُ ، وهوَ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »[(٥)] ؛ فإنَّ كلَّ ما ينقسمُ بقسمينِ يُسمَّىٰ أحدُهُما نصفاً وإنْ كانَ بينَهُما تفاوتٌ ؛ كما يُقالُ : الإيمانُ هوَ العلمُ والعملُ ، فالعملُ نصفُ الإيمانِ ، فلا يدلُّ ذٰلكَ علىٰ أنَّ العملَ يساوي العلمَ .

وفي الخبرِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آخرُ الأنبياءِ دخولاً الجنَّةَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِما السلامُ ؛ لمكانِ ملكِهِ ، وآخرُ أصحابي دخولاً الجنَّةَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ عوفٍ ؛ لمكانِ غناهُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « يدخلُ سليمانُ بعدَ الأنبياءِ بأربعينَ خريفاً »[(٦)]

وفي الخبرِ : (أبوابُ الجنَّةِ كلُّها مصراعانِ إلا بابَ الصبرِ ، فإنَّهُ مصراعٌ واحدٌ ، وأوَّلُ مَنْ يدخلُهُ أهلُ البلاءِ أمامَهُمْ أيُّوبُ عليهِ السلامُ)[(٧)]

وكلُّ ما وردَ في فضائلِ الفقرِ يدلُّ علىٰ فضيلةِ الصبرِ ؛ لأنَّ الصبرَ حالُ الفقيرِ ، والشكرَ حالُ الغنيِّ .

فهٰذا هوَ المقامُ الذي يقنعُ العوامَّ ، ويكفيهِمْ في الوعظِ اللائقِ بهِمْ ، والتعريفِ لما فيهِ صلاحُ دينِهِمْ .



المقامُ الثاني : هوَ البيانُ الذي نقصدُ بهِ تعريفَ أهلِ العلمِ والاستبصارِ بحقائقِ الأمورِ بطريقِ الكشفِ والإيضاحِ :

فنقولُ فيهِ : كلُّ أمرينِ مبهمينِ لا تمكنُ الموازنةُ بينَهُما معَ الإبهامِ ما لَمْ يُكشفْ عنْ حقيقةِ كلِّ واحدٍ منهُما ، وكلُّ مكشوفٍ يشتملُ علىٰ أقسامٍ لا تمكنُ الموازنةُ بينَ الجملةِ والجملةِ ، بلْ يجبُ أنْ تُفردَ الآحادُ بالموازنةِ حتَّىٰ يتبيَّنَ الرجحانُ ، والصبرُ والشكرُ أقسامُهُما وشعبُهُما كثيرةٌ ، فلا يتبيَّنُ حكمُهُما في الرجحانِ والنقصانِ معَ الإجمالِ ، فنقولُ :

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٦٠/٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣٠/٣٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١١٥٢) عن علي رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خبر ، وروى ابن أبي الدنيا في « العيال » (٥٢٨) حديث وافدة النساء التي وصفت من حال الرجال ما لا يبلغ شأوه النساء وفيه : « أقرئي النساء عني وقولي لهن : إن طاعة الزوج تعدل ما هناك ، وقليل منكن تفعله . . . » الخبر .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٣٧٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤/٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٢٧/١٣) ، وأوقفه الطبراني في « الكبير » (١٠٤/٩) علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٥) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

(٦) كذا في « القوت » (٢٠٣/١) ، وقد روى الطبراني في « الأوسط » (٤١٢٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « الأنبياء كلهم يدخلون الجنة قبل داوود وسليمان بألفي عام . . . » الحديث ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٩٠٩) بلفظ : « يدخل الأنبياء كلهم قبل داوود وسليمان الجنة بأربعين عاماً » ، وروى البزار في « مسنده » (٧٠٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمٰن بن عوف ، والذي نفس محمد بيده لن يدخلها إلا حبواً » .

(٧) كذا في « القوت » (٢٠٣/١) ، ولم يرفعه ، بل قال : (وقد جاء في الآثار . . .) .

قدْ ذكرنا أنَّ هٰذهِ المقاماتِ تنتظمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : علومٌ ، وأحوالٌ ، وأعمالٌ ، والشكرُ والصبرُ وسائرُ المقاماتِ هيَ كذٰلكَ ، وهٰذهِ الثلاثةُ إذا وُزنَ البعضُ منها بالبعضِ . . لاحَ للناظرينَ إلى الظواهرِ أنَّ العلومَ تُرادُ للأحوالِ ، والأحوالُ تُرادُ للأعمالِ ، والأعمالُ هيَ الأفضلُ ، وأمَّا أربابُ البصائرِ . . فالأمرُ عندَهُمْ بالعكسِ مِنْ ذٰلكَ ، فإنَّ الأعمالَ تُرادُ للأحوالِ ، والأحوالُ تُرادُ للعلومِ ، فالأفضلُ العلومُ ، ثمَّ الأحوالُ ، ثمَّ الأعمالُ ؛ لأنَّ كلَّ مرادٍ لغيرِهِ فذٰلكَ الغيرُ ـ لا محالةَ ـ أفضلُ منهُ .

وأمَّا آحادُ هٰذهِ الثلاثةِ . . فالأعمالُ قدْ تتساوىٰ وقدْ تتفاوتُ إذا أُضيفَ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، وكذا آحادُ الأحوالِ إذا أُضيفَ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، وكذا آحادُ المعارفِ .

وأفضلُ المعارفِ علومُ المكاشفةِ ، وهيَ أرفعُ مِنْ علومِ المعاملةِ ، بلْ علومُ المعاملةِ دونَ المعاملةِ ؛ لأنَّها ترادُ للمعاملةِ ، ففائدتُها إصلاحُ العملِ ، وإنَّما فضلُ العالمِ بالمعاملةِ على العابدِ إذا كانَ علمُهُ ممَّا يعمُّ نفعُهُ ، فيكونُ بالإضافةِ إلىٰ عملٍ خاصٍّ أفضلَ ، وإلا . . فالعلمُ القاصرُ بالعملِ ليسَ بأفضلَ مِنَ العملِ القاصرِ ، فنقولُ :

فائدةُ إصلاحِ العملِ إصلاحُ حالِ القلبِ ، وفائدةُ إصلاحِ حالِ القلبِ أنْ ينكشفَ لهُ جلالُ اللهِ تعالىٰ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، فأرفعُ علومِ المكاشفةِ معرفةُ اللهِ سبحانه وتعالىٰ ، وهيَ الغايةُ التي تُطلبُ لذاتِها ؛ فإنَّ السعادةَ تُنالُ بها ، بلْ هيَ عينُ السعادةِ ، ولٰكنْ قدْ لا يشعرُ القلبُ في الدنيا بأنَّها عينُ السعادةِ ، وإنَّما يشعرُ بها في الآخرةِ ، فهيَ المعرفةُ الحرَّةُ التي لا قيدَ عليها ، فلا تتقيَّدُ بغيرِها ، وكلُّ ما عداها مِنَ المعارفِ عبيدٌ وخدمٌ بالإضافةِ إليها ، فإنَّها إنَّما تُرادُ لأجلِها ، ولما كانَتْ مرادةً لأجلِها . . كانَ تفاوتُها بحسَبِ نفعِها في الإفضاءِ إلىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ بعضَ المعارفِ يفضي إلىٰ بعضٍ ؛ إمَّا بواسطةٍ وإمَّا بوسائطَ كثيرةٍ ، فكلَّما كانَتِ الوسائطُ بينَهُ وبينَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ أقلَّ . . فهيَ أفضلُ .

وأمَّا الأحوالُ . . فنعني بها أحوالَ القلبِ في تصفيتِهِ وتطهيرِهِ عنْ شوائبِ الدنيا وشواغلِ الخلقِ ، حتَّىٰ إذا طهرَ وصفا . . اتضحَ لهُ حقيقةُ الحقِّ .

فإذاً ؛ فضائلُ الأحوالِ بقدْرِ تأثيرِها في إصلاحِ القلبِ وتطهيرِهِ وإعدادِهِ لأنْ تحصلَ لهُ علومُ المكاشفةِ ، وكما أنَّ تصقيلَ المرآةِ يحتاجُ إلىٰ أنْ يتقدَّمَ علىٰ تمامِهِ أحوالٌ للمرآةِ ، بعضُها أقربُ إلى الصقالةِ مِنْ بعضٍ . . فكذٰلكَ أحوالُ القلبِ ، فالحالةُ القريبةُ أو المقرِّبةُ مِنْ صفاءِ القلبِ هيَ أفضلُ ممَّا دونَها لا محالةَ ؛ بسببِ القربِ مِنَ المقصودِ .

وهٰكذا ترتيبُ الأعمالِ ؛ فإنَّ تأثيرَها في تأكيدِ صفاءِ القلبِ وجلبِ الأحوالِ إليهِ ، وكلُّ عملٍ إمَّا أنْ يجلبَ إليهِ حالةً مانعةً مِنَ المكاشفةِ ، موجبةً لظلمةِ القلبِ ، جاذبةً إلىٰ زخارفِ الدنيا ، وإمَّا أنْ يجلبَ إليهِ حالةً مهيِّئةً للمكاشفةِ ، موجبةً صفاءَ القلبِ وقطعَ علائقِ الدنيا عنهُ ، واسمُ الأوَّلِ المعصيةُ ، واسمُ الثاني الطاعةُ .

والمعاصي مِنْ حيثُ التأثيرُ في ظلمةِ القلبِ وقساوتِهِ متفاوتةٌ ، وكذا الطاعاتُ في تنويرِ القلبِ وتصفيتِهِ ، فدرجاتُها بحسَبِ درجاتِ تأثيرِها ، وذٰلكَ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ ، وذٰلكَ أنَّا بالقولِ المطلقِ ربما نقولُ : الصلاةُ النافلةُ أفضلُ مِنْ كلِّ عبادةٍ نافلةٍ ، وإنَّ الحجَّ أفضلُ مِنَ الصدقةِ ، وإنَّ قيامَ الليلِ أفضلُ مِنْ غيرِهِ .

ولٰكنَّ التحقيقَ فيهِ : أنَّ الغنيَّ الذي معَهُ مالٌ وقدْ غلبَهُ البخلُ وحبُّ المالِ علىٰ إمساكِهِ . . فإخراجُ درهمٍ لهُ أفضلُ مِنْ

قيامِ ليالٍ وصيامِ أيامٍ ؛ لأنَّ الصيامَ يليقُ بمَنْ غلبَتْهُ شهوةُ البطنِ فأرادَ كسرَها ، أوْ منعَهُ الشبعُ عنْ صفاءِ الفكرِ في علومِ المكاشفةِ فأرادَ تصفيةَ القلبِ بالجوعِ ، فأمَّا هـٰذا المدبرُ إذا لـمْ تكنْ حالُهُ هـٰذهِ الحالَ . . فليسَ يستضرُّ بشهوةِ بطنِهِ ، ولا هوَ مشتغلٌ بنوعِ فكرٍ يمنعُهُ الشبعُ منهُ ، فاشتغالُهُ بالصومِ خروجٌ منهُ عنْ حالِهِ إلىٰ حالِ غيرِهِ ، وهوَ كالمريضِ الذي يشكو وجعَ البطنِ ، إذا استعملَ دواءَ الصداعِ . . لَمْ ينتفعْ بهِ ، بلْ حقُّهُ أنْ ينظرَ في المهلكِ الذي استولىٰ عليهِ ، والشحُّ المطاعُ مِنْ جملةِ المهلكاتِ ، ولا يزيلُ صيامُ مئةِ سنةٍ وقيامُ ألفِ ليلةٍ منهُ ذرَّةً ، بلْ لا يزيلُهُ إلا إخراجُ المالِ ، فعليهِ أنْ يتصدَّقَ بما معَهُ ، وتفصيلُ هـٰذا ممَّا ذكرناهُ في ربعِ المهلكاتِ ، فليُرجعْ إليهِ .

فإذاً ؛ باعتبارِ هـٰذهِ الأحوالِ يختلفُ ، وعندَ ذٰلكَ يعرفُ البصيرُ أنَّ الجوابَ المطلقَ فيهِ خطأٌ ؛ إذْ لوْ قالَ لنا قائلٌ : الخبزُ أفضلُ أمِ الماءُ ؟ لـمْ يكنْ فيهِ جوابٌ حقٌّ إلا أنَّ الخبزَ للجائعِ أفضلُ ، والماءَ للعطشانِ أفضلُ ، فإنِ اجتمعا . . فيُنظرُ إلى الأغلبِ ، فإنْ كانَ العطشُ هوَ الأغلبَ . . فالماءُ أفضلُ ، وإنْ كانَ الجوعُ أغلبَ . . فالخبزُ أفضلُ ، فإنْ تساويا . . فهما متساويان ، وكذا إذا قيلَ : السكنجبينُ أفضلُ أمْ شرابُ اللينوفرِ ؟[1] لـمْ يصحَّ الجوابُ عنهُ مطلقاً أصلاً

نعمْ ؛ لوْ قيلَ لنا : السكنجبينُ أفضلُ أمْ عدمُ الصفراءِ ؟ فنقولَ : عدمُ الصفراءِ ؛ لأنَّ السكنجبينَ مرادٌ لهُ ، وما يُرادُ لغيرِهِ فذٰلكَ الغيرُ أفضلُ منهُ لا محالةَ .

فإذاً ؛ في بذلِ المالِ عملٌ ، وهوَ الإنفاقُ ، ويحصلُ بهِ حالٌ ، وهوَ زوالُ البخلِ ، وخروجُ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، ويتهيَّأُ القلبُ بسببِ خروجِ حبِّ الدنيا منهُ لمعرفةِ اللهِ تعالىٰ وحبِّهِ ، فالأفضلُ المعرفةُ ، ودونَها الحالُ ، ودونَها العملُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ حثَّ الشرعُ على الأعمالِ ، وبالغَ في ذكرِ فضلِها ، حتَّىٰ طلبَ الصدقاتِ بقولِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ ، فكيفَ لا يكونُ الفعلُ والإنفاقُ هوَ الأفضلَ ؟

فاعلمْ : أنَّ الطبيبَ إذا أثنىٰ على الدواءِ . . لـمْ يدلَّ علىٰ أنَّ الدواءَ مرادٌ لعينِهِ ، أوْ علىٰ أنَّهُ أفضلُ مِنَ الصحةِ والشفاءِ الحاصلِ بهِ ، ولـٰكنَّ الأعمالَ علاجٌ لمرضِ القلوبِ ، ومرضُ القلوبِ ممَّا لا يُشعرُ بهِ غالباً ، فهوَ كبرصٍ علىٰ وجهِ مَنْ لا مرآةَ مَعَهُ ، فإنَّهُ لا يشعرُ بهِ ، ولوْ ذكرَ لهُ لا يصدِّقُ بهِ ، فالسبيلُ معَهُ المبالغةُ في الثناءِ علىٰ غسلِ الوجهِ بماءِ الوردِ مثلاً إنْ كانَ ماءُ الوردِ يزيلُ البرصَ ؛ حتَّىٰ يستحثَّهُ فرطُ الثناءِ على المواظبةِ عليهِ ، فيزولَ مرضُهُ ، فإنَّهُ لوْ ذُكِرَ لهُ أنَّ المقصودَ زوالُ البرصِ عنْ وجهِكَ . . ربما تركَ العلاجَ ، وزعمَ أنَّ وجهَهُ لا عيبَ فيهِ .

❁ ❁ ❁

ولنضربْ مثلاً أقربَ مِنْ هـٰذا فنقولُ :

مَنْ لهُ ولدٌ علَّمَهُ العلمَ والقرآنَ ، وأرادَ أنْ يثبتَ ذٰلكَ في حفظِهِ بحيثُ لا يزولُ عنهُ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ أمرَهُ بالتكرارِ والدراسةِ ليبقىٰ لهُ محفوظاً . . لقالَ : إنَّهُ محفوظٌ ، ولا حاجةَ بي إلىٰ تكرارٍ ودراسةٍ ؛ لأنَّهُ يظنُّ أنَّ ما يحفظُهُ في الحالِ يبقىٰ كذٰلكَ أبداً ، وكانَ لهُ عبيدٌ ، فأمرَ الولدَ بتعليمِ العبيدِ ، ووعدَهُ علىٰ ذٰلكَ بالجميلِ ؛ لتتوفَّرَ داعيتُهُ علىٰ كثرةِ التكرارِ بالتعليمِ ، فربما يظنُّ الصبيُّ المسكينُ أنَّ المقصودَ تعليمُ العبيدِ القرآنَ ، وأنَّهُ قدِ استخدمَ لتعليمِهِمْ ، فيشكلُ عليهِ الأمرُ

---

(١) **اللينوفر** : ويقال : النيلوفر ، لفظة فارسية ، نبات يخرج في البرك والأنهار وله زهر ، يتخذ منه شراب مبرد مرطب .

فيقولُ : ما بالي قدِ استخدمتُ لأجلِ العبيدِ وأنا أجلُّ منهُمْ وأعزُّ عندَ الوالدِ ؟ وأعلمُ أنَّ أبي لوْ أرادَ تعليمَ العبيدِ . . لقدرَ عليهِ دونَ تكليفي ؟ وأعلمُ أنَّهُ لا نقصانَ لأبي بفقدِ هـٰؤلاءِ العبيدِ فضلاً عنْ عدمِ علمِهِمْ بالقرآنِ ؟!

فربما يتكايسُ هـٰذا المسكينُ فيتركُ تعليمَهُمْ اعتماداً على استغناءِ أبيهِ وعلىٰ كرمِهِ في العفوِ عنهُ ، فينسى العلمَ والقرآنَ ، ويبقىٰ مدبراً محروماً مِنْ حيثُ لا يدري .

وقدِ انخدعَ بمثلِ هـٰذا الخيالِ طائفةٌ ، وسلكوا طريقَ الإباحةِ ، وقالوا : إنَّ اللهَ تعالىٰ غنيٌّ عنْ عبادتِنا وعنْ أنْ يستقرضَ منَّا ، فأيُّ معنىً لقولِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ولوْ شاءَ اللهُ إطعامَ المساكينِ . . لأطعمَهُمْ ؟ فلا حاجةَ بنا إلىٰ صرفِ أموالِنا إليهِمْ ، كما قالَ تعالىٰ حكايةً عنِ الكفارِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ ، وقالوا أيضاً : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ ، فانظرْ كيفَ كانوا صادقينَ في كلامِهِمْ وكيفَ هلكوا بصدقِهِمْ .

فسبحانَ مَنْ إذا شاءَ . . أهلكَ بالصدقِ ، وإذا شاءَ أسعدَ بالجهلِ ، يضلُّ بهِ كثيراً ويهدي بهِ كثيراً !!

فهـٰؤلاءِ لمَّا ظنُّوا أنَّهُمُ استخدموا لأجلِ المساكينِ والفقراءِ ، أوْ لأجلِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ قالوا : لا حظَّ لنا في المساكينِ ، ولا حظَّ للهِ فينا وفي أموالِنا ، سواءٌ أنفقنا أوْ أمسكنا . . هلكوا كما هلكَ الصبيُّ لمَّا ظنَّ أنَّ مقصودَ الوالدِ استخدامُهُ لأجلِ العبيدِ ، ولمْ يشعرْ بأنَّهُ كانَ المقصودُ منهُ ثباتَ صفةِ العلمِ في نفسِهِ ، وتأكدَهُ في قلبِهِ ، حتَّىٰ يكونَ ذٰلكَ سببَ سعادتِهِ في الدنيا ، وإنَّما كانَ ذٰلكَ مِنَ الوالدِ تلطُّفاً بهِ في استجرارِهِ إلىٰ ما فيهِ سعادتُهُ .

فهـٰذا المثالُ يبيِّنُ لكَ ضلالَ مَنْ ضلَّ مِنْ هـٰذا الطريقِ .

فإذاً ؛ المسكينُ الآخذُ لمالِكَ يستوفي بواسطةِ المالِ خبثَ البخلِ وحبَّ الدنيا مِنْ باطنِكَ ، فإنَّهُ مهلكٌ لكَ ، فهوَ كالحجَّامِ ، يستخرجُ الدمَ منكَ ليخرجَ بخروجِ الدمِ العلَّةَ المهلكَةَ مِنْ باطنِكَ ، فالحجَّامُ خادمٌ لكَ ، لا أنتَ خادمٌ للحجَّامِ ، ولا يخرجُ الحجَّامُ عنْ كونِهِ خادماً ؛ بأنْ يكونَ لهُ غرضٌ في أنْ يصنعَ شيئاً بالدمِ ، ولمَّا كانتِ الصدقاتُ مطهرةً للبواطنِ ، ومزكيةً لها عنْ خبائثِ الصفاتِ . . امتنعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أخذِها ، وانتهىٰ عنها ؛ كما نهىٰ عنْ كسبِ الحجَّامِ [١] ، وسمَّاها : أوساخَ أموالِ الناسِ ، وشرَّفَ أهلَ بيتِهِ بالصيانةِ عنها [٢]

والمقصودُ : أنَّ الأعمالَ مؤثراتٌ في القلبِ كما سبقَ في ربعِ المهلكاتِ ، والقلبُ بحسَبِ تأثيرِها يستعدُّ لقبولِ الهدايةِ ونورِ المعرفةِ ، فهـٰذا هوَ القولُ الكلِّيُّ والقانونُ الأصليُّ الذي ينبغي أنْ يُرجعَ إليهِ في معرفةِ فضائلِ الأعمالِ والأحوالِ والمعارفِ .

فلنرجعِ الآنَ إلىٰ خصوصِ ما نحنُ فيهِ مِنَ الصبرِ والشكرِ ، فنقولُ :

في كلِّ واحدٍ منهُما معرفةٌ وحالٌ وعملٌ ، فلا يجوزُ أنْ تُقابلَ المعرفةُ في أحدِهِما بالحالِ أوِ العملِ في الآخرِ ، بلْ يُقابلُ كلُّ واحدٍ منها بنظيرِهِ ، حتَّىٰ يظهرَ التناسبُ ، وبعدَ التناسبِ يظهرُ الفضلُ .

ومهما قُوبلَتْ معرفةُ الشاكرِ بمعرفةِ الصابرِ ربما رجعا إلىٰ معرفةٍ واحدةٍ ؛ إذْ معرفةُ الشاكرِ أنْ يرىٰ نعمةَ العينينِ مثلاً

---

(١) رواه النسائي (٣١٠/٧) ، وابن ماجه (٢١٦٥) .

(٢) كما روىٰ ذٰلك مسلم (١٠٧٢) .

مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةُ الصابرِ أنْ يرى العمىٰ مِنَ اللهِ ، وهما معرفتانِ متلازمتانِ ومتساويتانِ ، هـٰذا إنِ اعتُبِرَ في البلاءِ والمصائبِ ، وقدْ بيَّنَّا أنَّ الصبرَ قدْ يكونُ على الطاعةِ وعنِ المعصيةِ ، وفيهما يتَّحدُ الصبرُ والشكرُ ؛ لأنَّ الصبرَ على الطاعةِ هوَ عينُ شكرِ الطاعةِ ؛ لأنَّ الشكرَ يرجعُ إلىٰ صرفِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ ما هوَ المقصودُ منها بالحكمةِ ، والصبرَ يرجعُ إلىٰ ثباتِ باعثِ الدينِ في مقابلةِ باعثِ الهوىٰ ، فالصبرُ والشكرُ فيهِ اسمانِ لمسمّىً واحدٍ باعتبارينِ مختلفينِ ، فثباتُ باعثِ الدينِ في مقابلةِ باعثِ الهوىٰ يُسمَّىٰ صبراً بالإضافة إلىٰ باعثِ الهوىٰ ، ويُسمَّىٰ شكراً بالإضافةِ إلىٰ باعثِ الدينِ ؛ إذْ باعثُ الدينِ إنَّما خُلِقَ لهـٰذهِ الحكمةِ ، وهوَ أنْ يصرعَ بهِ باعثَ الشهوةِ ، فقدْ صرفَهُ إلىٰ مقصودِ الحكمةِ ، فهُما عبارتانِ عنْ معنىً واحدٍ ، فكيفَ يفضلُ الشيءُ علىٰ نفسِهِ ؟!

فإذاً ؛ مجاري الصبرِ ثلاثةٌ : الطاعةُ ، والمعصيةُ ، والبلايا ، وقدْ ظهرَ حكمُهُما في الطاعةِ والمعصيةِ .

وأمَّا البلاءُ . . فهوَ عبارةٌ عنْ فقْدِ نعمةٍ ، والنعمةُ إمَّا أنْ تقعَ ضروريةً ؛ كالعينينِ مثلاً ، وإمَّا أنْ تقعَ في محلِّ الحاجةِ ؛ كالزيادةِ علىٰ قدْرِ الكفايةِ مِنَ المالِ .

أمَّا العينانِ . . فصبرُ الأعمىٰ عنهُما بألا يُظهرَ الشكوىٰ ، ويظهرَ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يترخَّصَ بسببِ العمىٰ في بعضِ المعاصي ، وشكرُ البصيرِ عليهِما مِنْ حيثُ العملُ بأمرينِ :

أحدُهُما : ألا يستعينَ بهِما علىٰ معصيةٍ .

والآخرُ : أنْ يستعملَهُما في الطاعةِ .

وكلُّ واحدٍ مِنَ الأمرينِ لا يخلو عنِ الصبرِ ؛ فإنَّ الأعمىٰ كُفِيَ الصبرَ عنِ الصورِ الجميلةِ لأنَّهُ لا يراها ، والبصيرُ إذا وقعَ بصرُهُ علىٰ جميلٍ فصبرَ . . كانَ شاكراً لنعمةِ العينينِ ، وإنْ أتبعَ النظرَ . . كفرَ نعمةَ العينينِ ، فقدْ دخلَ الصبرُ في شكرِهِ .

وكذا إذا استعانَ بالعينينِ على الطاعةِ . . فلا بدَّ أيضاً فيهِ مِنْ صبرٍ على الطاعةِ ، ثمَّ قدْ يشكرُها بالنظرِ إلىٰ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، ليتوصَّلَ بهِ إلىٰ معرفةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فيكونَ هـٰذا الشكرُ أفضلَ مِنَ الصبرِ .

ولولا هـٰذا . . لكانَتْ رتبةُ شعيبٍ عليهِ السلامُ مثلاً ـ وقدْ كانَ ضريراً ـ من الأنبياءِ فوقَ رتبةِ موسىٰ عليهِما السلامُ وغيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ؛ لأنَّهُ صبرَ علىٰ فقْدِ البصرِ ، وموسىٰ عليهِ السلامُ لمْ يصبرْ مثلاً ، ولكانَ الكمالُ في أنْ يُسلبَ الإنسانُ الأطرافَ كلَّها ويُتركَ كلحمٍ علىٰ وَضَمٍ ، وذٰلكَ محالٌ جداً ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الأعضاءِ آلةٌ في الدينِ ، فيفوتُ بفواتِها ذٰلكَ الركنُ مِنَ الدينِ ، وشكرُها استعمالُها فيما هيَ آلةٌ فيهِ مِنَ الدينِ ، وذٰلكَ لا يكونُ إلا بصبرٍ .

وأمَّا ما يقعُ في محلِّ الحاجةِ ؛ كالزيادةِ على الكفايةِ مِنَ المالِ . . فإنَّهُ إذا لمْ يُؤتَ إلا قدْرَ الضرورةِ وهوَ محتاجٌ إلىٰ ما وراءَهُ . . ففي الصبرِ عنهُ مجاهدةٌ ، وهوَ جهادُ الفقراءِ ، ووجودُ الزيادةِ نعمةٌ ، وشكرُها أنْ تُصرفَ إلى الخيراتِ ، أوْ ألا تُستعملَ في المعصيةِ ، فإنْ أُضيفَ الصبرُ إلى الشكرِ الذي هوَ صرْفٌ إلى الطاعةِ . . فالشكرُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ تضمَّنَ الصبرَ أيضاً ، وفيهِ فرحٌ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، وفيهِ احتمالُ ألمٍ في صرفِهِ إلى الفقراءِ ، وترْكُ صرفِهِ إلى التنعُّمِ المباحِ ، وكانَ الحاصلُ يرجعُ إلىٰ أنَّ شيئينِ أفضلُ مِنْ شيءٍ واحدٍ ، وأنَّ الجملةَ أعلىٰ رتبةً مِنَ البعضِ ، وهـٰذا فيهِ خللٌ ، إذْ لا تصحُّ الموازنةُ بينَ الجملةِ وبينَ أبعاضِها .

وأمَّا إذا كانَ شكرُهُ بألا يستعينَ بهِ علىٰ معصيةٍ ، بلْ يصرفُهُ إلى التنعُّمِ المباحِ . . فالصبرُ ها هنا أفضلُ مِنَ الشكرِ ، والفقيرُ الصابرُ أفضلُ مِنَ الغنيِّ الممسكِ مالَهُ الصارفِ لهُ إلى المباحاتِ ، لا مِنَ الغنيِّ الصارفِ مالَهُ إلى الخيراتِ ؛ لأنَّ الفقيرَ قدْ جاهدَ نفسَهُ وكسرَ نهمتَها ، وأحسنَ الرضا علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ ، وهاذِهِ الحالةُ تستدعي ـ لا محالةَ ـ قوَّةً ، والغنيُّ أتبعَ نهمتَهُ وأطاعَ شهوتَهُ ، ولٰكنَّهُ اقتصرَ على المباحِ ، والمباحُ فيهِ مندوحةٌ عنِ الحرامِ ، ولٰكنْ لا بدَّ مِنْ قوَّةٍ في الصبرِ عنِ الحرامِ أيضاً ، إلا أنَّ القوَّةَ التي عنها يصدرُ صبرُ الفقيرِ أعلىٰ وأتمُّ مِنْ هاذِهِ القوَّةِ التي عنها يصدرُ الاقتصارُ في التنعُّمِ على المباحِ ، والشرفُ لتلكَ القوَّةِ التي يدلُّ العملُ عليها ، فإنَّ الأعمالَ لا تُرادُ إلا لأحوالِ القلوبِ ، وتلكَ القوَّةُ حالةٌ للقلبِ تختلفُ بحسَبِ قوَّةِ اليقينِ والإيمانِ ، فما دلَّ علىٰ زيادةِ قوَّةٍ في الإيمانِ فهوَ أفضلُ لا محالةَ .

وجميعُ ما وردَ مِنْ تفضيلِ أجرِ الصبرِ علىٰ أجرِ الشكرِ في الآياتِ والأخبارِ إنَّما أُريدَ بهِ هاذِهِ الرتبةُ على الخصوصِ ؛ لأنَّ السابقَ إلىٰ أفهامِ الناسِ مِنَ النعمةِ الأموالُ والغنىٰ بها ، والسابقَ إلى الأفهامِ مِنَ الشكرِ أنْ يقولَ الإنسانُ : (الحمدُ للهِ) ، ولا يستعينَ بالنعمةِ على المعصيةِ ، لا أنْ يصرفَها إلى الطاعةِ ، فإذاً ؛ الصبرُ أفضلُ مِنَ الشكرِ ؛ أي : الصبرُ الذي تفهمُهُ العامَّةُ أفضلُ مِنَ الشكرِ الذي تفهمُهُ العامَّةُ .

وإلىٰ هاذا المعنىٰ على الخصوصِ أشارَ الجنيدُ رحمَهُ اللهُ حيثُ سُئِلَ عنِ الصبرِ والشكرِ أيُّهُما أفضلُ ؟ فقالَ : (ليسَ مدحُ الغنيِّ بالوجودِ ، ولا مدحُ الفقيرِ بالعدمِ ، وإنَّما المدحُ في الاثنينِ قيامُهُما بشروطِ ما عليهِما ، فشرطُ الغنيِّ يصحبُهُ فيما عليهِ أشياءُ تلائمُ صفتَهُ وتمتعُها وتلذِّذُها ، والفقيرُ يصحبُهُ فيما عليهِ أشياءُ تلائمُ صفتَهُ وتقبضُها وتزعجُها ، فإذا كانَ الاثنانِ قائمينِ للهِ عزَّ وجلَّ بشرطِ ما عليهِما . . كانَ الذي آلمَ صفتَهُ وأزعجَها أتمَّ حالاً ممَّنْ متَّعَ صفتَهُ ونعَّمَها)[1]

والأمرُ علىٰ ما قالَهُ ، وهوَ صحيحٌ مِنْ جملةِ أقسامِ الصبرِ والشكرِ في القسمِ الأخيرِ الذي ذكرناهُ ، وهوَ لمْ يردْ سواهُ .

ويُقالُ : كانَ أبو العباسِ بنُ عطاءٍ قدْ خالفَهُ في ذٰلكَ وقالَ : (الغنيُّ الشاكرُ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ) ، فدعا عليهِ الجنيدُ ، فأصابَهُ ما أصابَهُ مِنَ البلاءِ مِنْ قتلِ أولادِهِ وإتلافِ أموالِهِ وزوالِ عقلِهِ أربعَ عشرةَ سنةً ، فكانَ يقولُ : دعوةُ الجنيدِ أصابَتْني ، ورجعَ إلىٰ تفضيلِ الفقيرِ الصابرِ على الغنيِّ الشاكرِ[2]

ومهما لاحظتَ المعانيَ التي ذكرناها . . علمتَ أنَّ لكلٍّ واحدٍ مِنَ القولينِ وجهاً في بعضِ الأحوالِ ، فربَّ فقيرٍ صابرٍ أفضلُ مِنْ غنيٍّ شاكرٍ كما سبقَ ، وربَّ غنيٍّ شاكرٍ أفضلُ مِنْ فقيرٍ صابرٍ ، وذٰلكَ هوَ الغنيُّ الذي يرىٰ نفسَهُ مثلَ الفقيرِ ، إذْ لا يمسكُ لنفسِهِ مِنَ المالِ إلا قدْرَ الضرورةِ ، والباقي يصرفُهُ إلى الخيراتِ ، أوْ يمسكُهُ على اعتقادِ أنَّهُ خازنُ المحتاجينَ والمساكينَ ، وإنَّما ينتظرُ حاجةً تسنحُ حتَّىٰ يصرفَ إليها ، ثمَّ إذا صرفَ . . لمْ يصرفْهُ لطلبِ جاهٍ وصيتٍ ، ولا لتقليدِ منَّةٍ ، بلْ أداءً لحقِّ اللهِ تعالىٰ في تفقُّدِ عبادِهِ ، فهاذا أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) قوت القلوب (٢٠١/١) .

(٢) قوت القلوب (٢٠١/١) .

فإنْ قلتَ : فهٰذا لا يثقلُ على النفسِ ، والفقيرُ يثقلُ عليهِ الفقرُ ؛ لأنَّ هٰذا يستشعرُ لذَّةَ القدرةِ ، وذاكَ يستشعرُ ألمَ الصبرِ ، فإنْ كانَ متألِّماً بفراقِ المالِ . . فينجبرُ ذٰلكَ بلذَّتِهِ في القدرةِ على الإنفاقِ .

فاعلمْ : أنَّ الذي نراهُ أنَّ مَنْ ينفقُ مالَهُ عنْ رغبةٍ وطيبِ نفسٍ أكملُ حالاً ممَّنْ ينفقُهُ وهوَ بخيلٌ بهِ ، وإنَّما يقتطعُهُ عنْ نفسِهِ قهراً ، وقدْ ذكرنا تفصيلَ هٰذا فيما سبقَ مِنْ كتابِ التوبةِ ، فإيلامُ النفسِ ليسَ مطلوباً لعينِهِ ، بلْ لتأديبِها ، وذٰلكَ يضاهي ضرْبَ كلبِ الصيدِ ، والكلبُ المتأدِّبُ أكملُ مِنَ الكلبِ المحتاجِ إلى الضرْبِ وإنْ كانَ صابراً على الضربِ ، ولذٰلكَ يحتاجُ إلى الإيلامِ والمجاهدةِ في البدايةِ ، ولا يحتاجُ إليهِما في النهايةِ ، بلِ النهايةُ أنْ يصيرَ ما كانَ مؤلماً في حقِّهِ لذيذاً عندَهُ ، كما يصيرُ التعلُّمُ عندَ الصبيِّ العاقلِ لذيذاً وقدْ كانَ مؤلماً لهُ أوَّلاً ، ولٰكنْ لمَّا كانَ الناسُ كلُّهُمْ إلا الأقلينَ في البدايةِ بلْ قبلَ البدايةِ بكثيرٍ كالصبيانِ . . أطلقَ الجنيدُ القولَ بأنَّ الذي يؤلمُ صفتَهُ أفضلُ ، وهوَ كما قالَ صحيحٌ فيما أرادَهُ مِنْ عمومِ الخلقِ .

فإذاً ؛ إذا كنتَ لا تفصِّلُ الجوابَ ، وتطلقُهُ لإرادةِ الأكثرِ . . فأطلقِ القولَ بأنَّ الصبرَ أفضلُ مِنَ الشكرِ ؛ فإنَّهُ صحيحٌ بالمعنى السابقِ إلى الأفهامِ .

فأمَّا إذا أردتَ التحقيقَ . . ففصِّلْ ، فإنَّ للصبرِ درجاتٍ أقلُّها تركُ الشكوىٰ معَ الكراهةِ ، ووراءَها الرضا ، وهوَ مقامٌ وراءَ الصبرِ ، ووراءَهُ الشكرُ على البلاءِ ، وهوَ وراءَ الرضا ، إذِ الصبرُ معَ التألُّمِ والرضا يمكنُ بما لا ألمَ فيهِ ولا فرحَ ، والشكرُ لا يمكنُ إلا علىٰ محبوبٍ مفروحٍ بهِ .

وكذٰلكَ للشكرِ درجاتٌ كثيرةٌ ، ذكرنا أقصاها ، ويدخلُ في جملتِها أمورٌ دونَها ، فإنَّ حياءَ العبدِ مِنْ تتابعِ نعَمِ اللهِ عليهِ شكرٌ ، ومعرفتُهُ بتقصيرِهِ عنِ الشكرِ شكرٌ ، والاعتذارُ مِنْ قلَّةِ الشكرِ شكرٌ ، والمعرفةُ بعظيمِ حلْمِ اللهِ وكنفِ سترِهِ شكرٌ ، والاعترافُ بأنَّ النعَمَ ابتداءٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ استحقاقٍ شكرٌ ، والعلمُ بأنَّ الشكرَ أيضاً نعمةٌ مِنْ نعمِ اللهِ وموهبةٌ منهُ شكرٌ ، وحسنُ التواضعِ للنعَمِ والتذلُّلُ فيها شكرٌ ، وشكرُ الوسائطِ شكرٌ ؛ إذْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ لمْ يشكرِ الناسَ . . لمْ يشكرِ اللهَ »[1] ، وقدْ ذكرنا حقيقةَ ذٰلكَ في كتابِ أسرارِ الزكاةِ ، وقلَّةُ الاعتراضِ وحسنُ الأدبِ بينَ يدي المنعِمِ شكرٌ ، وتلقِّي النعمِ بحسْنِ القبولِ واستعظامُ صغيرِها شكرٌ .

فما يندرجُ مِنَ الأعمالِ والأحوالِ تحتَ اسمِ الشكرِ والصبرِ لا تنحصرُ آحادُها ، وهيَ درجاتٌ مختلفةٌ ، فكيفَ يمكنُ إجمالُ القولِ بتفضيلِ أحدِهِما على الآخرِ إلا علىٰ سبيلِ إرادةِ الخصوصِ باللفظِ العامِّ كما وردَ في الأخبارِ والآثارِ ؟!

وقدْ رُويَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : رأيتُ في بعضِ الأسفارِ شيخاً كبيراً قدْ طعنَ في السنِّ ، فسألتُهُ عنْ حالِهِ ، فقالَ : إنِّي كنتُ في ابتداءِ عمري أهوى ابنةَ عمٍّ لي ، وهيَ كذٰلكَ كانَتْ تهواني ، فاتفقَ أنَّها زُوِّجَتْ منِّي ، فليلةَ زفافِها قلتُ : تعالَيْ حتَّى نحييَ هٰذهِ الليلةَ شكراً للهِ تعالىٰ علىٰ ما جمعَنا ، فصلَّينا تلكَ الليلةَ ، ولمْ يتفرَّغْ أحدُنا إلىٰ صاحبِهِ ، فلمَّا كانَتِ الليلةُ الثانيةُ . . قلنا مثلَ ذٰلكَ ، فصلينا طولَ الليلِ ، فمنذُ سبعينَ أوْ ثمانينَ سنةً نحنُ علىٰ تلكَ الحالةِ كلَّ ليلةٍ ، أليسَ كذٰلكَ يا فلانةُ ؟ قالتِ العجوزُ : هوَ كما يقولُ الشيخُ[2]

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٣١٥) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٩/١٦٣) : (وفائدة ذكر العجوز والشيخ الإعلام بأنهما داما على الاشتغال بالله من حالة الصبا إلى تلك الحالة) .

فانظرْ إليهِما لوْ صبرا علىٰ بلاءِ الفرقةِ أنْ لوْ لمْ يجمعِ اللهُ بينَهُما ، وانسبْ صبرَ الفرقةِ إلىٰ شكرِ الوصالِ علىٰ هٰذا الوجهِ . . فلا يخفىٰ عليكَ أنَّ هٰذا الشكرَ أفضلُ .

فإذاً ؛ لا وقوفَ علىٰ حقائقِ المفضلاتِ إلا بتفصيلٍ كما سبقَ ، واللهُ أعلمُ .

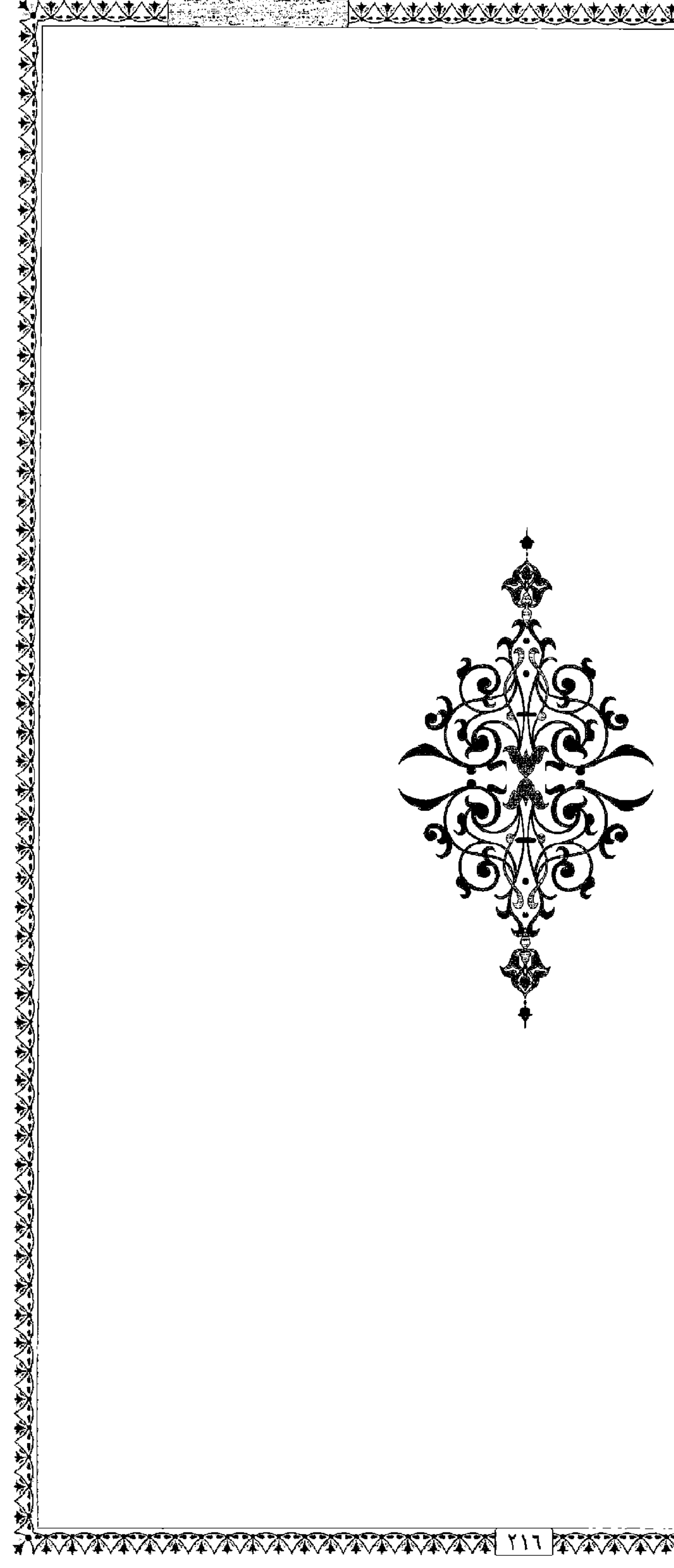


تمّ كتاب الصّبر والشّكر

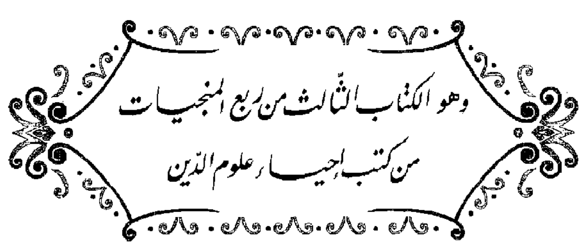
وهو الكتاب الثّاني من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

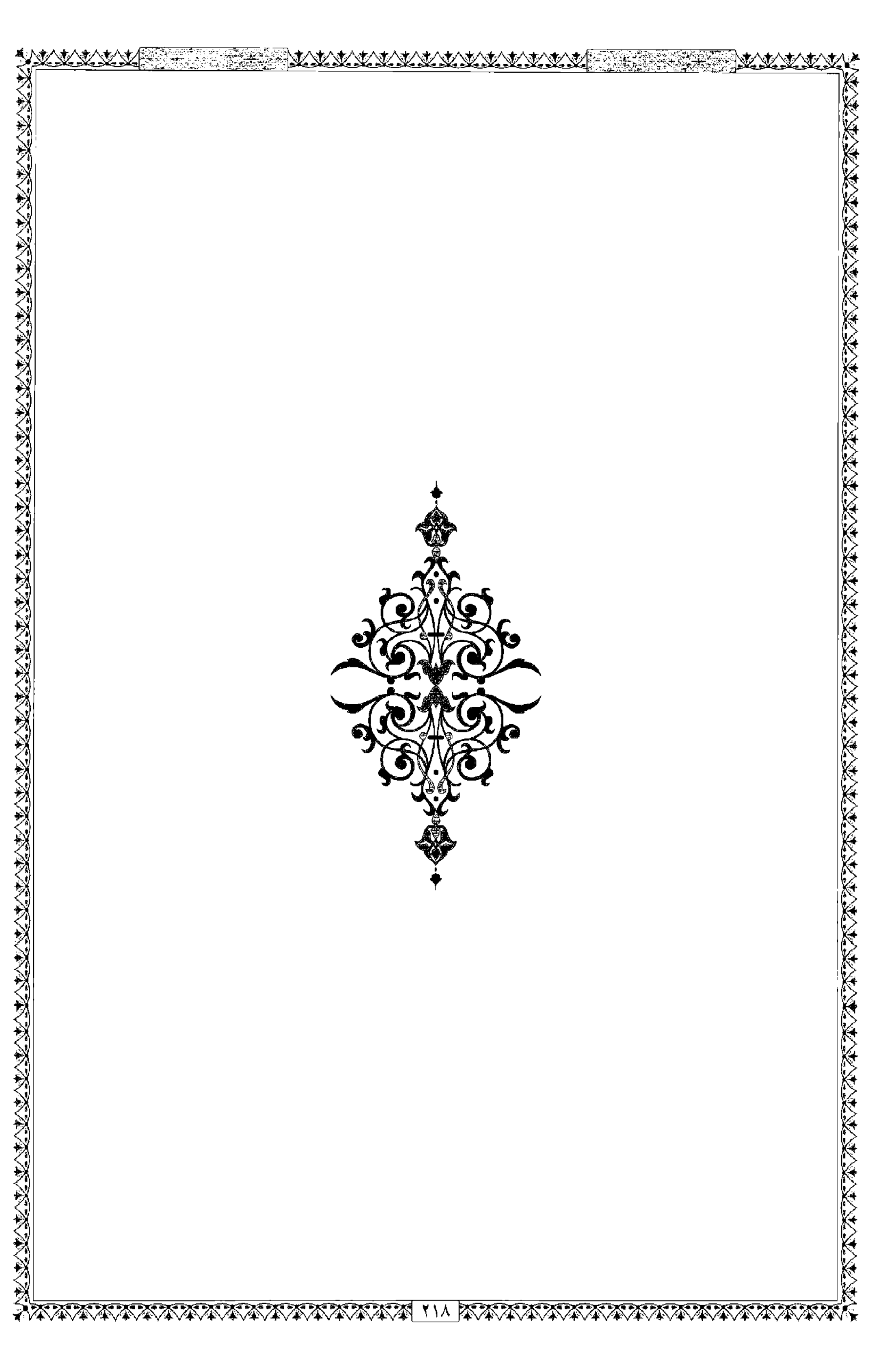
والحمد لله وحده ، وصلّى الله على نبيّنا محمّدٍ وآله أجمعين وسلّم

يتلوه كتاب الرّجاء والخوف



كتاب الرجاء والخوف





كتاب الرّجاء والخوف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ المرجوّ لطفُهُ وثوابُهُ ، المَخُوفِ مكرُهُ وعقابُهُ ، الذي عَمَرَ قلوبَ أوليائِهِ بِرَوْحِ رجائِهِ ، حتَّىٰ ساقَهُمْ بلطائفِ آلائِهِ إلى النزولِ بفِنائِهِ ، والعدولِ عنْ دارِ بلائِهِ ، التي هيَ مستقرُّ أعدائِهِ ، وصرفَ بسياطِ التخويفِ وزجرِهِ العنيفِ وجوهَ المعرضينَ عنْ حضرتِهِ إلىٰ دارِ ثوابِهِ وكرامتِهِ ، وصدَّهُمْ عنِ التعرُّضِ لِلَائِمتِهِ ، والتهدُّفِ لسخطِهِ ونقمتِهِ ، قوداً لأصنافِ الخلقِ بسلاسلِ القهرِ والعنفِ وأزمَّةِ الرفْقِ واللطفِ إلىٰ جنَّتِهِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ أنبيائِهِ وخيرِ خليقتِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ وعترتِهِ .

أما بعد :

فإنَّ الرجاءَ والخوفَ جناحانِ بهما يطيرُ المقرَّبونَ إلىٰ كلِّ مقامٍ محمودٍ ، ومطيَّتانِ بهما يُقطعُ مِنْ طرقِ الآخرةِ كلُّ عقبةٍ كؤودٍ ، فلا يقودُ إلىٰ قرْبِ الرحمـٰنِ وروحِ الجنانِ معَ كونِهِ بعيدَ الأرجاءِ ، ثقيلَ الأعباءِ ، محفوفاً بمكارهِ القلوبِ ومشاقِّ الجوارحِ والأعضاءِ . . إلا أزمَّةُ الرجاءِ ، ولا يصدُّ عنْ نارِ الجحيمِ والعذابِ المقيمِ معَ كونِهِ محفوفاً بلطائفِ الشهواتِ وعجائبِ اللذَّاتِ . . إلا سياطُ التخويفِ وسطواتُ التعنيفِ .

فلا بدَّ إذاً مِنْ بيانِ حقيقتِهما وفضيلتِهما ، وسبيلِ التوصُّلِ إلى الجمعِ بينَهُما معَ تضادِّهِما وتعانُدِهِما ، ونحنُ نجمعُ ذكرَهُما في كتابٍ واحدٍ مشتملٍ علىٰ شطرينِ :

الشطرُ الأوَّلُ : في الرجاءِ .

والشطرُ الثاني : في الخوفِ .

* * *

الشَّطْرُ الأَوَّلُ

في الرَّجاء[1]

أمَّا الشطرُ الأوَّلُ . . فيشتملُ علىٰ بيانِ حقيقةِ الرجاءِ ، وبيانِ فضيلةِ الرجاءِ ، وبيانِ دواءِ الرجاءِ ، والطريقِ الذي يُجتلبُ بِهِ الرجاءُ .

بيان حقيقة الرّجاء

اعلمْ : أنَّ الرجاءَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكينَ ، وأحوالِ الطالبينَ ، وإنَّما يُسمَّى الوصفُ مقاماً إذا ثبتَ وأقامَ ، وإنَّما يُسمَّىٰ حالاً إذا كانَ عارضاً سريعَ الزوالِ ، وكما أنَّ الصفرةَ تنقسمُ إلىٰ ثابتةٍ ؛ كصفرةِ الذهبِ ، وإلىٰ سريعةِ الزوالِ ؛ كصفرةِ الوَجَلِ ، وإلىٰ ما هوَ بينَهُما ؛ كصفرةِ المريض . . فكذٰلكَ صفاتُ القلبِ تنقسمُ هٰذهِ الأقسامَ ، فالذي هوَ غيرُ ثابتٍ يُسمَّىٰ حالاً ؛ لأنَّهُ يحولُ على القرْبِ ، وهٰذا جارٍ في كلِّ وصفٍ مِنْ أوصافِ القلبِ[2] .

وغرضُنا الآنَ حقيقةُ الرجاءِ ، فالرجاءُ أيضاً يتمُّ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، فالعلمُ سببٌ يثمرُ الحالَ ، والحالُ يقتضي العملَ ، وكأنَّ الرجاءَ اسمٌ للحالِ مِنْ جملةِ الثلاثةِ .

وبيانُهُ : أنَّ كلَّ ما يلاقيكَ مِنْ مكروهٍ ومحبوبٍ فينقسمُ إلىٰ موجودٍ في الحالِ ، وإلىٰ موجودٍ فيما مضىٰ ، وإلىٰ منتظرٍ في الاستقبالِ ، فإذا خطرَ ببالِكَ موجودٌ فيما مضىٰ . . سُمِّيَ ذكراً وتذكُّراً ، وإنْ كانَ ما خطرَ بقلبِكَ موجوداً في الحالِ . . سُمِّيَ وجداً وذوقاً وإدراكاً ، وإنَّما سُمِّيَ وجداً لأنَّها حالةٌ تجدُها مِنْ نفسِكَ[3] ، وإنْ كانَ قدْ خطرَ ببالِكَ وجودُ شيءٍ في الاستقبالِ ، وغلبَ ذٰلكَ علىٰ قلبِكَ . . سُمِّيَ انتظاراً وتوقُّعاً ؛ فإنْ كانَ المنتظرُ مكروهاً . . حصلَ منهُ ألمٌ في القلبِ يُسمَّىٰ خوفاً وإشفاقاً ، وإنْ كانَ محبوباً . . حصلَ مِنِ انتظارِهِ وتعلُّقِ القلبِ بهِ وإخطارِ وجودِهِ بالبالِ لذَّةٌ في القلبِ وارتياحٌ يُسمَّىٰ ذٰلكَ الارتياحُ رجاءً ، **فالرجاءُ** : هوَ ارتياحُ القلبِ لانتظارِ ما هوَ محبوبٌ عندَهُ .

ولٰكنْ ذٰلكَ المحبوبُ المتوقَّعُ لا بدَّ أنْ يكونَ لهُ سببٌ ، فإنْ كانَ انتظارُهُ لأجلِ حصولِ أكثرِ أسبابِهِ . . فاسمُ الرجاءِ عليهِ صادقٌ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ انتظاراً معَ انخرامِ أسبابِهِ واضطرابِها . . فاسمُ الغرورِ والحمقِ عليهِ أصدقُ مِنِ اسمِ الرجاءِ ، وإنْ لمْ تكنِ الأسبابُ معلومةَ الوجودِ ولا معلومةَ الانتفاءِ . . فاسمُ التمنِّي أصدقُ على انتظارِهِ ؛ لأنَّهُ انتظارٌ مِنْ غيرِ سببٍ .

وعلىٰ كلِّ حالٍ فلا يُطلقُ اسمُ الرجاءِ والخوفِ إلا علىٰ ما يُترَدَّدُ فيهِ ، أمَّا ما يُقطعُ بهِ . . فلا ؛ إذْ لا يُقالُ : أرجو طلوعَ الشمسِ وقتَ الطلوعِ ، وأخافُ غروبَها وقتَ الغروبِ ؛ لأنَّ ذٰلكَ مقطوعٌ بهِ ، نعمْ ، يُقالُ : أرجو نزولَ المطرِ وأخافُ انقطاعَهُ .

وقدْ علمَ أربابُ القلوبِ أنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، والقلبُ كالأرضِ ، والإيمانُ كالبذْرِ فيهِ ، والطاعاتُ جاريةٌ مجرىٰ تقليبِ الأرضِ وتطهيرِها ، ومجرىٰ حفرِ الأنهارِ وسياقةِ الماءِ إليها ، والقلبُ المستهترُ بالدنيا المستغرقُ بها كالأرضِ

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) فما يعرف وصف من أوصافه إلا وفيه حال ومقام . « إتحاف » (٩/١٦٥) .

(٣) وإنما سمي ذوقاً على التشبيه بالذوق الذي هو تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم ، وإنما سمي إدراكاً لأنه أحاط عليه علماً بكماله . « إتحاف » (٩/١٦٥) .

السَّبِخةِ التي لا ينمو فيها البذْرُ ، ويومُ القيامةِ يومُ الحصادِ ، ولا يحصدُ أحدٌ إلا ما زرعَ ، ولا ينمو زرعٌ إلا مِنْ بذْرِ الإيمانِ ، وقلَّما ينفعُ إيمانٌ معَ خبثِ القلبِ وسوءِ أخلاقِهِ ، كما لا ينمو بذرٌ في أرضٍ سَبخةٍ ، فينبغي أنْ يُقاسَ رجاءُ العبدِ المغفرةَ برجاءِ صاحبِ الزرعِ .

فكلُّ مَنْ طلبَ أرضاً طيبةً ، وألقىٰ فيها بذْراً جيداً غيرَ عفنٍ ولا مسوَّسٍ ، ثمَّ أمدَّهُ بما يحتاجُ إليهِ وهوَ سوْقُ الماءِ إليهِ في أوقاتِهِ ، ثمَّ نقَّى الأرضَ عنِ الشوكِ والحشيشِ وكلِّ ما يمنعُ نباتَ البذْرِ أوْ يفسدُهُ ، ثمَّ جلسَ منتظراً مِنْ فضْلِ اللهِ دفعَ الصواعقِ والآفاتِ المفسدةِ إلىٰ أنْ يتمَّ الزرعُ ويبلغَ غايتَهُ . . سُمِّيَ انتظارُهُ رجاءً .

وإنْ بثَّ البذْرَ في أرضٍ صلبةٍ سبخةٍ مرتفعةٍ لا ينصبُّ إليها الماءُ ، ولمْ يشتغلْ بتعهُّدِ البذْرِ أصلاً ، ثمَّ انتظرَ حصادَ الزرعِ منهُ . . سُمِّيَ انتظارُهُ حمقاً وغروراً ، لا رجاءً .

وإنْ بثَّ البذْرَ في أرضٍ طيّبةٍ ، لٰكنْ لا ماءَ لها ، وأخذَ ينتظرُ مياهَ الأمطارِ حيثُ لا تغلبُ الأمطارُ ولا تمتنعُ أيضاً . . سُمِّيَ انتظارُهُ تمنِّياً ، لا رجاءً .

فإذاً ؛ اسمُ الرجاءِ إنَّما يصدقُ على انتظارِ محبوبٍ تمهَّدَتْ جميعُ أسبابِهِ الداخلةِ تحتَ اختيارِ العبدِ ، ولمْ يبقَ إلا ما ليسَ يدخلُ تحتَ اختيارِهِ ، وهوَ فضْلُ اللهِ تعالىٰ بصرْفِ القواطعِ والمفسداتِ .

فالعبدُ إذا بثَّ بذرَ الإيمانِ ، وسقاهُ بماءِ الطاعاتِ ، وطهَّرَ القلبَ عنْ شوكِ الأخلاقِ الرديئةِ ، وانتظرَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ تثبيتَهُ علىٰ ذٰلكَ إلى الموتِ ، وحسنَ الخاتمةِ المفضيةِ إلى المغفرةِ . . كانَ انتظارُهُ رجاءً حقيقياً ، محموداً في نفسِهِ ، باعثاً لهُ على المواظبةِ والقيامِ بمقتضىٰ أسبابِ الإيمانِ في إتمامِ أسبابِ المغفرةِ إلى الموتِ .

وإنْ قطعَ عنْ بذْرِ الإيمانِ تعهُّدَهُ بماءِ الطاعاتِ ، أوْ تركَ القلبَ مشحوناً برذائلِ الأخلاقِ ، وانهمكَ في طلبِ لذَّاتِ الدنيا ، ثمَّ انتظرَ المغفرةَ . . فانتظارُهُ حمقٌ وغرورٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »[(١)] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ .

وذمَّ اللهُ تعالىٰ صاحبَ البستانِ إذْ دخلَ جنَّتَهُ وقالَ : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴾[(٢)] .

فإذاً ؛ العبدُ المجتهدُ في الطاعاتِ ، المجتنبُ للمعاصي . . حقيقٌ بأنْ ينتظرَ مِنْ فضْلِ اللهِ تمامَ النعمةِ ، وما تمامُ النعمةِ إلا بدخولِ الجنَّةِ ، وأمَّا العاصي ؛ فإذا تابَ وتداركَ جميعَ ما فرطَ منهُ مِنْ تقصيرٍ . . فحقيقٌ بأنْ يرجوَ قبولَ التوبةِ ، وأمَّا قبلَ التوبةِ إذا كانَ كارهاً للمعصيةِ ، تسوءُهُ السيئةُ وتسرُّهُ الحسنةُ ، وهوَ يذمُّ نفسَهُ ويلومُها ، ويشتهي التوبةَ ويشتاقُ إليها . . فحقيقٌ بأنْ يرجوَ مِنَ اللهِ التوفيقَ للتوبةِ ؛ لأنَّ كراهتَهُ للمعصيةِ وحرصَهُ على التوبةِ يجري مجرى السببِ الذي قدْ يفضي إلى التوبةِ ، وإنَّما الرجاءُ بعدَ تأكُّدِ الأسبابِ .

ولـٰذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ ، معناهُ : أولـٰئكَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

(٢) وروى الطبري في « تفسيره » (٣٠٢/١٥/٩) عن قتادة في وصف صاحب البستان : (كفور لنعم ربه ، مكذب بلقائه ، متمنٍّ على الله) .

يستحقُّونَ أنْ يرجوا رحمةَ اللهِ ، وما أرادَ بهِ تخصيصَ وجودِ الرجاءِ ؛ لأنَّ غيرَهُمْ أيضاً قدْ يرجو ، ولـٰكنْ خصَّصَ بهِمُ استحقاقَ الرجاءِ .

فأمَّا مَنْ ينهمكُ فيما يكرهُهُ اللهُ تعالىٰ ، ولا يذمُّ نفسَهُ عليهِ ، ولا يعزمُ علىٰ التوبةِ والرجوعِ . . فرجاؤُهُ المغفرةَ حمقٌ ؛ كرجاءِ مَنْ بثَّ البذْرَ في أرضٍ سبخةٍ وعزمَ علىٰ ألا يتعهدَهُ بسقيٍ ولا تنقيةٍ .

قالَ يحيى بنُ معاذٍ : (مِنْ أعظمِ الاغترارِ عندي : التمادي في الذنوبِ معَ رجاءِ العفوِ مِنْ غيرِ ندامةٍ ، وتوقُّعُ القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بغيرِ طاعةٍ ، وانتظارُ زرعِ الجنةِ ببذْرِ النارِ ، وطلبُ دارِ المطيعينَ بالمعاصي ، وانتظارُ الجزاءِ بغيرِ عملٍ ، والتمنِّي على اللهِ عزَّ وجلَّ معَ الإفراطِ) .

تَرْجو النَّجاةَ وَلَـمْ تَسْلُكْ مَسالِكَها ... إنَّ السَّفينَةَ لا تَجْري عَلى الْيَبَسِ[1]

فإذا عرفتَ حقيقةَ الرجاءِ ومَظِنَّتَهُ . . فقدْ علمتَ أنَّها حالةٌ أثمرَها العلمُ بجريانِ أكثرِ الأسبابِ ، وهـٰذهِ الحالةُ تثمرُ الجهدَ للقيامِ ببقيةِ الأسبابِ علىٰ حسبِ الإمكانِ ، فإنَّ مَنْ حَسُنَ بذرُهُ ، وطابَتْ أرضُهُ ، وغزرَ ماؤُهُ . . صدقَ رجاؤُهُ ، فلا يزالُ يحملُهُ صدقُ الرجاءِ علىٰ تفقُّدِ الأرضِ وتعهُّدِها ، وتنحيةِ كلِّ حشيشٍ ينبتُ فيها ، فلا يفترُ عنْ تعهُّدِها أصلاً إلىٰ وقتِ الحصادِ ، وهـٰذا لأنَّ الرجاءَ يضادُّهُ اليأسُ ، واليأسُ يمنعُ مِنَ التعهُّدِ ، فمَنْ عرفَ أنَّ الأرضَ سبخةٌ ، وأنَّ الماءَ مُعْوِزٌ[2] ، وأنَّ البذْرَ لا ينبتُ . . فيتركُ ـ لا محالةَ ـ تفقُّدَ الأرضِ والتعبَ في تعهُّدِها .

والرجاءُ محمودٌ لأنَّهُ باعثٌ ، واليأسُ مذمومٌ ـ وهوَ ضدُّهُ ـ لأنَّهُ صارفٌ عنِ العملِ ، والخوفُ ليسَ بضدٍّ للرجاءِ ، بلْ هوَ رفيقٌ لهُ كما سيأتي بيانُهُ ، بلْ هوَ باعثٌ آخرُ بطريقِ الرهبةِ ، كما أنَّ الرجاءَ باعثٌ بطريقِ الرغبةِ .

فإذاً ؛ حالُ الرجاءِ يورثُ طولَ المجاهدةِ بالأعمالِ ، والمواظبةَ على الطاعاتِ كيفما تقلَّبَتِ الأحوالُ ، ومِنْ آثارِهِ التلذُّذُ بدوامِ الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ ، والتنعُّمُ بمناجاتِهِ ، والتلطُّفُ في التملُّقِ لهُ ، فإنَّ هـٰذهِ الأحوالَ لا بدَّ وأنْ تظهرَ علىٰ كلِّ مَنْ يرجو مَلِكاً مِنَ الملوكِ أوْ شخصاً مِنَ الأشخاصِ ، فكيفَ لا يظهرُ ذٰلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ؟!

فإنْ كانَ ذٰلكَ لا يظهرُ . . فليستدلَّ بهِ على الحرمانِ عنْ مقامِ الرجاءِ ، والنزولِ في حضيضِ الغرورِ والتمنِّي .

فهـٰذا هوَ البيانُ لحالِ الرجاءِ ، ولما أثمرَهُ مِنَ العلمِ ، ولما استثمرَ منهُ مِنَ العملِ .

ويدلُّ علىٰ إثمارِهِ لهـٰذهِ الأعمالِ حديثُ زيدِ الخيلِ ؛ إذْ قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : جئتُ لأسألَكَ عنْ علامةِ اللهِ فيمَنْ يريدُ ، وعلامتِهِ فيمَنْ لا يريدُ ، فقالَ : « كيفَ أصبحتَ ؟ » قالَ : أصبحتُ أحبُّ الخيرَ وأهلَهُ ، وإذا قدرتُ علىٰ شيءٍ منهُ . . سارعتُ إليهِ وأيقنتُ بثوابِهِ ، وإذا فاتَني شيءٌ منهُ . . حزنتُ عليهِ وحننتُ إليهِ ، فقالَ : « هـٰذهِ علامةُ اللهِ فيمَنْ يريدُ ، ولوْ أرادَكَ بالأخرىٰ . . هيَّأَكَ لها ، ثمَّ لا يبالي في أيِّ أوديتِها هلكتَ »[3] ، فقدْ ذكرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علامةَ مَنْ أُريدَ بهِ الخيرُ ، فمَنِ ارتجىٰ أنْ يكونَ مراداً بالخيرِ مِنْ غيرِ هـٰذهِ العلاماتِ . . فهوَ مغرورٌ .

❋ ❋ ❋

---

(١) البيت من البحر البسيط ، وهو لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٩٤) .

(٢) **معوز** : قليل الوجود .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠٢/١٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٢/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٧٦/١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم سماه زيد الخير وغيَّر له اسمه .

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلمْ : أنَّ العملَ على الرجاءِ أعلىٰ منهُ على الخوفِ ؛ لأنَّ أقربَ العبادِ إلى اللهِ تعالىٰ أحبُّهُمْ لهُ ، والحبُّ يغلبُ بالرجاءِ .

واعتبرْ ذٰلكَ بمَلِكينِ ؛ يُخدمُ أحدُهُما خوفاً مِنْ عقابِهِ ، والآخرُ رجاءً لثوابِهِ .

ولذٰلكَ وردَ في الرجاءِ وحسنِ الظنِّ رغائبُ ، لا سيما في وقتِ الموتِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، فحرَّمَ أصلَ اليأسِ .

وفي أخبارِ يعقوبَ عليهِ السلامُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ : أتدري لِمَ فرَّقتُ بينَكَ وبينَ يوسفَ ؟ لقولِكَ : أخافُ أنْ يأكلَهُ الذئبُ وأنتمْ عنهُ غافلونَ ، لِمَ خفتَ الذئبَ ولمْ ترجُني ؟ ولِمَ نظرتَ إلىٰ غفلةِ إخوتِهِ ولمْ تنظرْ إلىٰ حفظي لهُ ؟[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يموتَنَّ أحدُكُمْ إلا وهوَ يحسنُ الظنَّ باللهِ تعالىٰ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ »[3]

ودخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ رجلٍ وهوَ في النزعِ ، فقالَ : « كيفَ تجدُكَ ؟ » فقالَ : أجدُني أخافُ ذنوبي وأرجو رحمةَ ربِّي ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اجتمعا في قلبِ عبدٍ في هٰذا الموطنِ إلا أعطاهُ اللهُ ما رجا ، وأمَّنَهُ ممَّا يخافُ »[4]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لرجلٍ أخرجَهُ الخوفُ إلى القنوطِ لكثرةِ ذنوبِهِ : (يا هٰذا ؛ يأسُكَ مِنْ رحمةِ اللهِ أعظمُ مِنْ ذنوبِكَ)[5]

وقالَ سفيانُ : (مَنْ أذنبَ ذنباً فعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قدَّرَهُ عليهِ ورجا غفرانَهُ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنبَهُ ، قالَ : لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عيَّرَ قوماً فقالَ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾)[6]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للعبدِ يومَ القيامةِ : ما منعَكَ إذْ رأيتَ المنكرَ أنْ تنكرَهُ ؟ فإنْ لقَّنَهُ اللهُ حجَّتَهُ . . قالَ : يا ربِّ ؛ رجوتُكَ وخفتُ الناسَ ، قالَ : فيقولُ اللهُ تعالىٰ : قدْ غفرتُهُ لكَ »[7]

وفي الخبرِ الصحيحِ : « أنَّ رجلاً كانَ يداينُ الناسَ فيسامحُ الغنيَّ ، ويتجاوزُ عنِ المعسرِ ، فلقيَ اللهَ ولمْ يعملْ خيراً قطُّ ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ أحقُّ بذٰلكَ منَّا ؟ فعفا عنهُ لحسنِ ظنِّهِ ورجائِهِ أنَّهُ يعفو عنهُ معَ إفلاسِهِ عنِ الطاعاتِ »[8] .

---

(١) قوت القلوب (٢١٥/١) .

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٩١/٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٣) ، وأصله في « الصحيحين » .

(٤) رواه الترمذي (٩٨٣) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٨٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٦١) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٩٤) بنحوه ، وهو بلفظه هنا في « القوت » (٢١٥/١) .

(٦) كذا في « القوت » (٢١٧/١) .

(٧) رواه ابن ماجه (٤٠١٧) .

(٨) رواه مسلم (١٥٦٠) ولفظه : « تلقَّت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : لا ، قالوا : تذكَّر ، قال :

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾

ولمَّا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً ، ولخرجتُمْ إلى الصُّعُداتِ تلدمونَ صدورَكُمْ ، وتجأرونَ إلىٰ ربِّكُمْ » ، فهبطَ جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ : إنَّ ربَّكَ يقولُ لكَ : لِمَ تقنِّطُ عبادي ؟ فخرجَ عليهِمْ فرجَّاهُمْ وشوَّقَهُمْ (١)

وفي الخبرِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : أحبَّني ، وأحبَّ مَنْ يحبُّني ، وحبِّبْني إلىٰ خلقي ، فقالَ : يا ربِّ ؛ كيفَ أحبِّبُكَ إلىٰ خلقِكَ ؟ قالَ : اذكرْني بالحسنِ الجميلِ ، واذكرْ آلائي وإحساني ، وذكِّرْهُمْ ذٰلكَ ، فإنَّهُمْ لا يعرفونَ منِّي إلا الجميلَ (٢)

ورُئِيَ أبانُ بنُ أبي عيَّاشٍ في النومِ وكانَ يكثرُ ذكرَ أبوابِ الرجاءِ ، فقالَ : أوقفَني اللهُ تعالىٰ بينَ يديهِ ، فقالَ : ما الذي حملَكَ علىٰ ذٰلكَ ؟ فقلتُ : أردتُ أنْ أحبِّبَكَ إلىٰ خلقِكَ ، فقالَ : قدْ غفرتُ لكَ (٣)

ورُئِيَ يحيى بنُ أكثمَ في النومِ بعدَ موتِهِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : أوقفَني بينَ يديهِ وقالَ : يا شيخَ السوءِ ؛ فعلتَ وفعلتَ ، قالَ : فأخذَني مِنَ الرعبِ ما يعلمُ اللهُ ، ثمَّ قلتُ : يا ربِّ ؛ ما هٰكذا حُدِّثْتُ عنكَ ، فقالَ : وما حُدِّثْتَ عنِّي ؟ فقلتُ : حدثَنا عبدُ الرزاقِ ، عنْ معمرٍ ، عنِ الزهريِّ ، عنْ أنسٍ ، عنْ نبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ عنْ جبريلَ عليهِ السلامُ : أنَّكَ قلتَ : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ » ، وكنتُ أظنُّ بكَ ألا تعذِّبَني ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : صدقَ جبريلُ ، وصدقَ نبيِّي ، وصدقَ أنسٌ ، وصدقَ الزهريُّ ، وصدقَ معمرٌ ، وصدقَ عبدُ الرزاقِ ، وصدقتَ ، قالَ : فأُلبستُ ومشىٰ بينَ يديَّ الولدانُ إلى الجنَّةِ ، فقلتُ : يا لها مِنْ فرحةٍ !! (٤)

وفي الخبرِ : أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ كانَ يقنِّطُ الناسَ ويشدِّدُ عليهِمْ ، قالَ : فيقولُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ : اليومَ أؤيسُكَ مِنْ رحمتي كما كنتَ تقنِّطُ عبادي منها (٥) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً يدخلُ النارَ ، فيمكثُ فيها ألفَ سنةٍ ينادي : يا حنَّانُ ، يا منَّانُ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ لجبريلَ : اذهبْ فأتني بعبدِي ، قالَ : فيجيءُ بهِ ، فيوقفُهُ علىٰ ربِّهِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كيفَ وجدتَ مكانَكَ ؟ فيقولُ : شرَّ مكانٍ ، قالَ : فيقولُ : ردُّوهُ إلىٰ مكانِهِ ، قالَ : فيمشي ويلتفتُ إلىٰ ورائِهِ ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إلىٰ أيِّ شيءٍ تلتفتُ ؟ فيقولُ : لقدْ رجوتُ ألا تعيدَني إليها بعدَ إذْ أخرجتَني منها ، فيقولُ اللهُ تعالى : اذهبوا بهِ إلى الجنةِ » (٦) ، فدلَّ هٰذا علىٰ أنَّ رجاءَهُ كانَ سببَ نجاتِهِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

* * *

كنت أداين الناس ، فأمر فتياني أن ينظروا المعسر ويتجوَّزوا عن الموسر ، قال : قال الله عز وجل : تجوَّزوا عنه » ، وورد مختصراً عند البخاري (٢٣٩١) .

(١) كذا في « القوت » (٢٢٠/١) ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » (١١٣) ، وليس فيه ذكر الصعدات ، وهي عند أحمد في « المسند » (١٧٣/٥) .

(٢) كذا في « القوت » (١٢٢٢/) ، وقد رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً البيهقيُّ في « الشعب » (٧٢٦٢) بنحوه ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٥) عن عبد الله بن الحارث من كلامه .

(٣) قوت القلوب (٢٢٢/١) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٢٢/١) ، ورواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٠٦/١٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩١/٦٤) .

(٥) كذا في « القوت » (٢٢٣/١) ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٥٦١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢٢/٣) عن زيد بن أسلم .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (٢٣٠/٣) ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٢١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلمْ : أنَّ هـٰذا الدواءَ يحتاج إليهِ أحدُ رجلينِ : إمَّا رجلٌ غلبَ عليهِ اليأسُ فتركَ العبادةَ ، وإمَّا رجلٌ غلبَ عليهِ الخوفُ فأسرفَ في المواظبةِ على العبادةِ حتَّىٰ أضرَّ بنفسِهِ وأهلِهِ ، وهـٰذانِ رجلانِ مائلانِ عنِ الاعتدالِ إلىٰ طرفيِ الإفراطِ والتفريطِ ، فيحتاجانِ إلىٰ علاجٍ يردُّهُما إلى الاعتدالِ .

فأمَّا العاصي المغرورُ المتمنِّي على اللهِ معَ الإعراضِ عنِ العبادةِ واقتحامِ المعاصي . . فأدويةُ الرجاءِ تنقلبُ سموماً في حقِّهِ مهلكةً ، وتنزلُ منزلةَ العسلِ الذي هوَ شفاءٌ لمَنْ غلبَ عليهِ البردُ ، وهوَ سمٌّ مهلكٌ لمَنْ غلبَ عليهِ الحرارةُ ، بلِ المغرورُ لا يُستعملُ في حقِّهِ إلا أدويةُ الخوفِ ، والأسبابُ المهيِّجةُ لهُ .

فلهـٰذا يجبُ أنْ يكونَ واعظُ الخلْقِ متلطِّفاً ، ناظراً إلىٰ مواقعِ العللِ ، معالجاً لكلِّ علَّةٍ بما يضادُّها ، لا بما يزيدُ فيها ، فإنَّ المطلوبَ هوَ العدلُ والقصْدُ في الصفاتِ والأخلاقِ كلِّها ، وخيرُ الأمورِ أوساطُها ، فإذا جاوزَ الوسطَ إلىٰ أحدِ الطرفينِ . . عُولجَ بما يردُّهُ إلى الوسطِ ، لا بما يزيدُ في ميلِهِ عنِ الوسطِ .

وهـٰذا الزمانُ زمانٌ لا ينبغي أنْ يُستعملَ فيهِ معَ الخلق أسبابُ الرجاءِ ، بلِ المبالغةُ في التخويفِ أيضاً تكادُ ألا تردَّهُمْ إلىٰ جادَّةِ الحقِّ وسننِ الصوابِ ، فأمَّا ذكرُ أسبابِ الرجاءِ . . فيهلكُهُمْ ويرديهِمْ بالكلِّيَّةِ ، ولـٰكنَّها لمَّا كانَتْ أخفَّ على القلوبِ ، وألذَّ عندَ النفوسِ ، ولمْ يكنْ غرضُ الوعَّاظِ إلا استمالةَ القلوبِ ، واستنطاقَ الخلقِ بالثناءِ كيفما كانوا . . مالوا إلى الرجاءِ ، حتَّى ازدادَ الفسادُ فساداً ، وازدادَ المنهمكونَ في طغيانِهِمْ تمادياً .

قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (إنَّما العالمُ الذي لا يقنِّطُ الناسَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يؤمِّنُهُمْ مِنْ مكرِ اللهِ)[1]

ونحنُ نذكرُ أسبابَ الرجاءِ لتُستعملَ في حقِّ الآيسِ ، أوْ فيمَنْ غلبَ عليهِ الخوفُ ؛ اقتداءً بكتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُما مشتملانِ على الخوفِ والرجاءِ جميعاً ؛ لأنَّهُما جامعانِ لأسبابِ الشفاءِ في حقِّ أصنافِ المرضىٰ ، ليستعملَهُ العلماءُ الذينَ هُمْ ورثةُ الأنبياءِ بحسَبِ الحاجةِ استعمالَ الطبيبِ الحاذقِ ، لا استعمالَ الأخرقِ الذي يظنُّ أنَّ كلَّ شيءٍ مِنَ الأدويةِ صالحٌ لكلِّ مريضٍ كيفما كانَ !!

❀ ❀ ❀

وحالُ الرجاءِ يغلبُ بشيئينِ :

أحدُهُما : الاعتبارُ .

والآخرُ : استقراءُ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ .

أمَّا الاعتبارُ[2] : فهوَ أنْ يتأمَّلَ جميعَ ما ذكرناهُ في أصنافِ النعمِ مِنْ كتابِ الشكرِ ، حتَّىٰ إذا علمَ لطائفَ نعَمِ اللهِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٢٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٧٧) بلفظ : (ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم من عذاب الله ، ولا يرخص لهم في معاصي الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلىٰ غيره ، ولا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا خير في علم لا فهم فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها) .

(٢) الاعتبار هنا : استقراء أول الوجود ، فإنك ترى الوجود من قمة العرش إلىٰ منتهى الفرش خيراً كله ، ولم يكن فيه من الشر إلا ما ينسب إلىٰ جنس المكلفين ، والمكلفون في جزء يسير من الأرض ، والأرض جزء يسير من الدنيا ، وما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه

تعالىٰ لعبادِهِ في الدنيا ، وعجائبَ حكمِهِ التي راعاها في فطرةِ الإنسانِ ، حتَّىٰ أعدَّ لهُ في الدنيا كلَّ ما هوَ ضروريٌّ لهُ في دوامِ الوجودِ ؛ كآلاتِ الغذاءِ ، وما هو محتاجٌ إليهِ كالأصابعِ والأظفارِ ، وما هوَ زينةٌ لهُ ؛ كاستقواسِ الحاجبينِ ، واختلافِ ألوانِ العينينِ ، وحمرةِ الشفتينِ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا كانَ لا ينثلمُ بفقدِهِ غرضٌ مقصودٌ ، وإنَّما كانَ يفوتُ بِهِ مزيَّةُ جمالٍ ، فالعنايةُ الإلـٰهيةُ إذاً لمْ تقصرْ عنْ عبادِهِ في أمثالِ هـٰذِهِ الدقائقِ ، حتَّىٰ لمْ يرضَ لعبادِهِ أنْ تفوتَهُمُ المزايدُ والمزايا في الزينةِ والحاجةِ . . كيفَ يرضىٰ بسياقِهِمْ إلى الهلاكِ المؤبَّدِ ؟!

بلْ إذا نظرَ الإنسانُ نظراً شافياً . . علمَ أنَّ أكثرَ الخلقِ قدْ هُيِّئَ لهُ أسبابُ السعادةِ في الدنيا ، حتَّىٰ إنَّهُ يكرهُ الانتقالَ مِنَ الدنيا بالموتِ وإنْ أُخبرَ بأنَّهُ لا يُعذَّبَ بعدَ الموتِ مثلاً أوْ لا يُحشرُ أصلاً ، فليسَتْ كراهتُهُمْ للعدمِ إلا لأنَّ أسبابَ النعمِ أغلبُ لا محالةَ ، وإنَّما الذي يتمنَّى الموتَ نادرٌ ، ثمَّ لا يتمنَّاهُ إلا في حالةٍ نادرةٍ ، وواقعةٍ هاجمةٍ غريبةٍ .

فإذا كانَ حالُ أكثرِ الخلقِ في الدنيا الغالبُ عليهِ الخيرُ والسلامةُ ، فسنَّةُ اللهِ لا تجدُ لها تبديلاً . . فالغالبُ أنَّ أمرَ الآخرةِ هـٰكذا يكونُ ؛ لأنَّ مدبّرَ الدنيا والآخرةِ واحدٌ ، وهوَ غفورٌ رحيمٌ ، لطيفٌ بعبادِهِ ، متعطِّفٌ عليهِمْ .

فهـٰذا إذا تُؤُمِّلَ حقَّ التأمُّلِ . . قويَ بهِ أسبابُ الرجاءِ .

ومِنَ الاعتبارِ أيضاً النظرُ في حكمةِ الشريعةِ وسننِها في مصالحِ الدنيا ، ووجهِ الرحمةِ للعبادِ بها ، حتَّىٰ كانَ بعضُ العارفينَ يرىٰ آيةَ المداينةِ في سورةِ (البقرةِ) مِنْ أقوىٰ أسبابِ الرجاءِ ، فقيلَ لهُ : وما فيها مِنَ الرجاءِ ؟ فقالَ : الدنيا كلُّها قليلٌ ، ورزقُ الإنسانِ منها قليلٌ ، والدينُ قليلٌ مِنْ رزقِهِ ، فانظرْ كيفَ أنزلَ اللهُ تعالىٰ فيهِ أطولَ آيةٍ ليهديَ عبدَهُ إلىٰ طريقِ الاحتياطِ في حفظِ دَينِهِ ، فكيفَ لا يحفظُ دِينَهُ الذي لا عوضَ لهُ منهُ ؟!

❁ ❁ ❁

الفنُّ الثاني : استقراءُ الآياتِ والأخبارِ : فما وردَ في الرجاءِ خارجٌ عنِ الحصرِ .

أمَّا الآياتُ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ، وفي قراءةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ولا يبالي » ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١)

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وأخبرَ تعالىٰ أنَّ النارَ أعدَّها لأعدائِهِ ، وإنَّما خوَّفَ بها أولياءَهُ فقالَ : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

في اليم ، وهـٰذا ظاهر في الاستقراء ؛ لأن عالم الآخرة أوسع من عالم الدنيا ، بل ملك من الملائكة يعدل الخلق أجمع ، فموجبات الرحمة في الوجود أكثر من موجبات الغضب ، ولذٰلك آثار كثيرة أثنىٰ بها علىٰ نفسه فقال : الرحمـٰن ، الرحيم ، الفتاح ، الكريم ، الجواد ، الأكرم ، التواب ، الوهاب ، العفو ، الغفور ، الشكور ، الصمد ، المجيب ، الودود ، البر ، الرزاق ، اللطيف ، الرؤوف ، المحسن ، المنعم ، المنان ، الرفيق ، الهادي ، مع ما يضاف إلى هـٰذا من الرضا والمحبة والذكر والمشي والهرولة ، وما أشبه هـٰذا ، فالنظر إلىٰ آثار هـٰذه الأفعال وما ورد من الأخبار في فضائل الأعمال شفاء للإياس ، وترويح للخائف ، وترغيب للمعتدل . « إتحاف » (١٧٣/٩) .

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٧) عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها سمعته صلى الله عليه وسلم يقرؤها كذا .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾

ويُقالُ : إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يزلْ يسألُ في أمَّتِهِ حتَّىٰ قيلَ لهُ : أما ترضىٰ وقدْ أنزلَتْ عليكَ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ ؟![1]

وفي تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ قالَ : « لا يرضىٰ محمدٌ وأحدٌ مِنْ أمَّتِهِ في النارِ »[2]

وكانَ أبو جعفرٍ محمدُ بنُ علِيٍّ يقولُ : أنتُمْ ـ أهلَ العراقِ ـ تقولونَ : أرجىٰ آيةٍ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ قولُهُ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآيةَ ، ونحنُ ـ أهلَ البيتِ ـ نقولُ : أرجىٰ آيةٍ في كتابِ اللهِ تعالىٰ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾[3]

❁ ❁ ❁

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ روىٰ أبو موسىٰ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أمَّتي أمةٌ مرحومةٌ ، لا عذابَ عليها في الآخرةِ ، عُجِّلَ عقابُها في الدنيا ؛ الزلازلُ والفتنُ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . دُفِعَ إلىٰ كلِّ رجلٍ مِنْ أمَّتي رجلٌ مِنْ أهلِ الكتابِ ، فقيلَ : هٰذا فداؤُكَ مِنَ النارِ »[4]

وفي لفظٍ آخرَ : « يأتي كلُّ رجلٍ مِنْ هٰذهِ الأمَّةِ بيهوديٍّ أوْ نصرانيٍّ إلىٰ جهنَّمَ فيقولُ : هٰذا فدائي مِنَ النارِ ، فيُلقىٰ فيها »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحمَّىٰ مِنْ فيحِ جهنَّمَ ، وهيَ حظُّ المؤمنِ مِنَ النارِ »[6] .

ورُوِيَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ نبيِّهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنِّي أجعلُ حسابَ أمَّتِكَ إليكَ ، قالَ : « لا يا ربِّ ، أنتَ خيرٌ لهُمْ منِّي » ، فقالَ : إذاً ؛ لا نخزيكَ فيهِمْ[7] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢١٣/١) ، وقد روى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٢١٤٥) عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هٰذه الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عقوبة الله وتجاوزه . . ما هنأ أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه . . لاتّكل كل أحد » .

(٢) رواه الخطيب في « تلخيص المتشابه » (١٧٣/١) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٧١٧٩) .

(٣) كذا في « القوت » (٢١٣/١) ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٩/٣) .

(٤) كذا في « القوت » (٢١٣/١) ، والحديث رواه أبو داوود (٤٢٧٨) دون قوله : (فإذا كان يوم القيامة . . .) ، وهٰذه رواها ابن ماجه (٤٢٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٤٠٧/٤) بلفظه هنا ، وبنحوه عند مسلم (٢٧٦٧) .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (٢٥٢/٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « الحمىٰ من كير جهنم ، فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار » .

(٧) كذا في « القوت » (٢١٣/١) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٦٢) عن الحسين بن عبد الرحمٰن ، عن شيخ من قريش . . . وذكره ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٣٩٣/٥) عن حذيفة رضي الله عنه قال : غاب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فلم يخرج حتىٰ ظننا أنه لن يخرج ، فلما خرج . . سجد سجدة ، فظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : « إن ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم ، فقلت : ما شئت أي رب ، هم خلقك وعبادك ، فاستشارني الثانية ، فقلت له كذٰلك ، فقال : لا أحزنك في أمتك يا محمد . . . » الحديث .

ورُوِي عنْ أنسٍ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَ ربَّهُ في ذنوبِ أمَّتِهِ فقالَ : « يا ربِّ ، اجعلْ حسابَهُمْ إليَّ لئلا يطلعَ علىٰ مساوئِهِمْ غيري » ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : همْ أمَّتُكَ ، وهمْ عبادي ، وأنا أرحمُ بهِمْ منكَ ، لا أجعلُ حسابَهُمْ إلىٰ غيري ؛ لئلا تنظرَ في مساوئِهِمْ أنتَ ولا غيرُكَ [1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حياتي خيرٌ لكُمْ ، وموتي خيرٌ لكم ، أمَّا حياتي . . فأَسُنُّ لكُمُ السننَ ، وأشرِّعُ لكُمُ الشرائعَ ، وأمَّا موتي . . فإنَّ أعمالَكُمْ تُعرضُ عليَّ ؛ فما رأيتُ منها حسناً . . حمدتُ اللهَ عليهِ ، وما رأيتُ منها سيئاً . . استغفرتُ اللهَ تعالىٰ لكمْ » [2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً : « يا كريمَ العفوِ » ، فقالَ جبريلُ عليهِ السلامُ : أتدري ما تفسيرُ يا كريمَ العفوِ ؟ هوَ أنْ عفا عنِ السيئاتِ برحمتِهِ ، ثمَّ بدَّلَها حسناتٍ بكرمِهِ [3]

وسمعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً يقولُ : اللهمَّ ، إنِّي أسألُكَ تمامَ النعمةِ فقالَ : « هلْ تدري ما تمامُ النعمةِ ؟ » قالَ : لا ، قالَ : « دخولُ الجنَّةِ » [4]

فقالَ العلماءُ : قدْ أتمَّ نعمتَهُ علينا برضاهُ الإسلامَ لنا ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ .

وفي الخبرِ : « إذا أذنبَ العبدُ فاستغفرَ اللهَ . . يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لملائكتِهِ : انظروا إلىٰ عبدي ، أذنبَ ذنباً ، فعلمَ أنَّ لهُ ربّاً يغفرُ الذنوبَ ويأخذُ بالذنبِ ، أشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُ » [5]

وفي الخبرِ : « لوْ أذنبَ العبدُ حتَّىٰ تبلغَ ذنوبُهُ عَنانَ السماءِ . . غفرتُها لهُ ما استغفرني ورجاني » [6]

وفي الخبرِ : « لوْ لقيني عبدي بقُرابِ الأرضِ ذنوباً . . لقيتُهُ بقِرابِ الأرضِ مغفرةً » [7]

وفي الحديثِ : « إنَّ الملكَ ليرفعُ القلمَ عنِ العبدِ إذا أذنبَ ستَّ ساعاتٍ ، فإنْ تابَ واستغفرَ . . لمْ يكتبْهُ عليهِ ، وإلا كتبَها سيئةً » ، وفي لفظٍ آخرَ : « فإذا كتبَها عليهِ وعملَ حسنةً . . قالَ صاحبُ اليمينِ لصاحبِ الشمالِ وهوَ أميرٌ عليهِ : ألقِ هٰذهِ السيئةَ حتَّىٰ ألقيَ مِنْ حسناتِهِ واحدةً مِنْ تضعيفِ العشرِ وأرفعَ لهُ تسعَ حسناتٍ ، فتُلقىٰ عنهُ هٰذه السيئةُ » [8]

---

(١) كذا في « القوت » (٢١٣/١) حيث قال : (وروينا في خبر سلمة بن وردان ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله . . .) وذكره .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٧٤/٢) ، والبزار في « مسنده » (١٩٢٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٨٦) بنحوه .

(٣) كذا في « القوت » (٢١٣/١) ، وفيه : (أنَّهُ) بدل (أنْ) المخففة ، وقد رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٨٠) عن عتبة بن الوليد قال : (سمع جبريل إبراهيم الخليل . . .) ولم يذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذا رواه البيهقي في « الشعب » (٦٦٤٣) عن بعض الرهاويين .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٢٧) ، وأحمد في « المسند » (٢٣١/٥) .

(٥) رواه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) بنحوه .

(٦) رواه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، ومطلعه : « يا بن آدم ؛ إنك ما دعوتني . . . » الحديث .

(٧) رواه مسلم (٢٦٨٧) ومطلعه : (من جاء بالحسنة . . فله عشر أمثالها . . .) الحديث .

(٨) كذا في « القوت » (٢١٤/١) بروايتيه وسياقه ، وقد رواه هناد في « الزهد » (٩٢٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « الملك الذي على اليمين أمير على الملك الذي على الشمال ، فإذا عمل حسنة . . قال لصاحب الشمال : اكتبها ، وإذا عمل سيئة . . قال له : دعها ، لا تكتبها سبع ساعات ؛ لعله يستغفر » ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٩١/٨) بنحوه وفيه : « وإذا عمل سيئة . . قال له صاحب اليمين : امكث ست ساعات ، فإن استغفر . . لم يكتب عليه ، وإلا . . أثبت عليه سيئة » ، ورواه مطولاً الطبري في « تفسيره » (١٤٧/١٣/٨) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم مع العبد من ملك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ملك على يمينك على حسناتك ، وهو أمين على الذي على الشمال ، فإذا عملت حسنة . . كتبت عشراً ، وإذا عملت سيئة . . قال الذي على الشمال للذي على اليمين : أكتبُ ؟ قال : لا ؛ لعله يستغفر الله ويتوب . . . » الحديث .

وروى أنسٌ في حديثٍ : أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « إذا أذنبَ العبدُ ذنباً . . كُتِبَ عليهِ » ، فقالَ أعرابيٌّ : فإنْ تابَ عنهُ ؟ قالَ : « مُحِيَ عنهُ » ، قالَ : فإنْ عادَ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يكتبُ عليهِ » ، فقالَ الأعرابيُّ : فإنْ تابَ ؟ قالَ : « مُحِيَ مِنْ صحيفتِهِ » ، قالَ : إلىٰ متىٰ ؟ قالَ : « إلىٰ أنْ يستغفرَ ويتوبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، إنَّ اللهَ لا يملُّ مِنَ المغفرةِ حتَّىٰ يملَّ العبدُ مِنَ الاستغفارِ ، فإذا همَّ العبدُ بحسنةٍ . . كتبَها صاحبُ اليمينِ حسنةً قبلَ أنْ يعملَها ، فإنْ عملَها . . كُتِبَتْ عشرَ حسناتٍ ، ثمَّ يضاعفُها اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ سبعِ مئةِ ضعفٍ ، وإذا همَّ بخطيئةٍ . . لمْ تُكتبْ عليهِ ؛ فإنْ عملَها . . كُتِبَتْ خطيئةً واحدةً ، ووراءَها حسْنُ عفوِ اللهِ عزَّ وجلَّ »(١)

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي لا أصومُ إلا الشهرَ لا أزيدُ عليهِ ، ولا أصلِّي إلا الخمسَ لا أزيدُ عليها ، وليسَ للهِ في مالي صدقةٌ ولا حجٌّ ولا تطوُّعٌ ، أينَ أنا إذا متُّ ؟ فتبسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « نعمْ ، معي إذا حفظتَ قلبَكَ مِنَ اثنتينِ : الغلِّ والحسدِ ، ولسانَكَ مِنَ اثنتينِ : الغيبةِ والكذبِ ، وعينيكَ مِنَ اثنتينِ : النظرِ إلىٰ ما حرَّمَ اللهُ ، وأنْ تزدريَ بهما مسلماً . . دخلتَ معيَ الجنَّةَ علىٰ راحتيَّ هاتينِ »(٢)

وفي الحديثِ الطويلِ لأنسٍ : أنَّ الأعرابيَّ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ يلي حسابَ الخلقِ ؟ فقالَ : « اللهُ تباركَ وتعالىٰ » ، قالَ : هو بنفسِهِ ؟ قالَ : « نعمْ » ، فتبسَّمَ الأعرابيُّ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ممَّ ضحكتَ يا أعرابيُّ ؟ » فقالَ : إنَّ الكريمَ إذا قدرَ . . عفا ، وإذا حاسبَ . . سامحَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صدقَ الأعرابيُّ ، ألا ولا كريمَ أكرمُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، هوَ أكرمُ الأكرمينَ » ، ثمَّ قالَ : « فَقُهَ الأعرابيُّ »(٣) ، وفيهِ أيضاً : « إنَّ اللهَ تعالىٰ شرَّفَ الكعبةَ وعظَّمَها ، ولوْ أنَّ عبداً هدمَها حجراً حجراً ثمَّ أحرقَها . . ما بلغَ جرْمَ مَنِ استخفَّ بوليٍّ مِنْ أولياءِ اللهِ تعالىٰ » ، قالَ الأعرابيُّ : ومَنْ أولياءُ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : « المؤمنونَ كلُّهُمْ أولياءُ اللهِ تعالىٰ ، أما سمعتَ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ؟ »(٤)

وفي بعضِ الأخبارِ : « المؤمنُ أفضلُ مِنَ الكعبةِ »(٥) ، و« المؤمنُ طيِّبٌ طاهرٌ »(٦) ، و« المؤمنُ أكرمُ على اللهِ تعالىٰ مِنَ الملائكةِ »(٧)

---

(١) كذا في « القوت » (٢١٤/١) ، ونعته بحديث أنس الطويل ، وستأتي قطعة منه بعد الخبر الآتي ، وقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٦٨٨) عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ؛ إني أذنبت ، قال : « استغفر ربك » ، قال : فأستغفر ثم أعود ، قال : « فإذا عدت . . فاستغفر ربك » ثلاث مرات أو أربعاً ـ شك عمر ـ فقال : « استغفر ربك حتىٰ يكون الشيطان هو المحسور » ، والحديث عن غيره متوازع معناه في الصحيح .

(٢) قوت القلوب (٢١٥/١) .

(٣) كذا في « القوت » (٢١٤/١) ، وهو قطعة من حديث أنس المنقول قبل الخبر السابق ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (١٧٩/٩) .

(٤) كذا في « القوت » (٢١٤/١) .

(٥) روى ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده ؛ لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً » .

(٦) هـٰذا الخبر والذي قبله والذي بعده في خبر مفرد عند صاحب « القوت » (٢١٥/١) ، وعند البخاري (٢٨٥) ، ومسلم (٣٧١) .

(٧) رواه ابن ماجه (٣٩٤٧) ولفظه : « المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته » ، وروىٰ وكيع في « الزهد » (٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً عليه : (المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده) . وروى البيهقي في « الشعب » (١٥١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء أكرم على الله من ابن آدم » ، قال : قيل : يا رسول الله ؛ ولا الملائكة ؟ قال : « الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » .

وفي الخبرِ : (خلقَ اللهُ تعالىٰ جهنَّمَ مِنْ فضْلِ رحمتِهِ سوطاً يسوقُ اللهُ بِهِ عبادَهُ إلى الجنَّةِ)[1]

وفي خبرٍ آخرَ : (يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّما خلقتُ الخلقَ ليربحوا عليَّ ، ولمْ أخلقْهُمْ لأربحَ عليهِمْ)[2]

وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما خلقَ اللهُ تعالىٰ شيئاً إلا جعلَ لهُ ما يغلبُهُ ، وجعلَ رحمتَهُ تغلبُ غضبَهُ »[3]

وفي الخبرِ المشهورِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ كتبَ علىٰ نفسِهِ قبلَ أنْ يخلقَ الخلقَ : إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي »[4]

وعنْ معاذِ بنِ جبلٍ وأنسِ بنِ مالكٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . دخلَ الجنَّةَ »[5] ، و« مَنْ كانَ آخرُ كلامِهِ لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . لمْ تمسَّهُ النارُ »[6] ، و« مَنْ لقيَ اللهَ لا يشركُ بِهِ شيئاً . . حُرِّمَتْ عليهِ النارُ »[7] ، و« لا يدخلُها مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ »[8]

وفي خبرٍ آخرَ : « لوْ علمَ الكافرُ سعةَ رحمةِ اللهِ . . ما أيسَ مِنْ جنَّتِهِ أحدٌ »[9]

ولمَّا تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ . . قالَ : « أتدرونَ أيَّ يومٍ هـٰذا ؟ هـٰذا يومٌ يُقالُ لآدمَ عليهِ السلامُ : قمْ فابعثْ بعثَ النارِ مِنْ ذرِّيَّتِكَ ، فيقولُ : كمْ ؟ فيُقالُ : مِنْ كلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ إلى النارِ وواحدٌ إلى الجنَّةِ » ، قالَ : فأبلسَ القومُ ، وجعلوا يبكونَ ، وتعطَّلوا يومَهُمْ عنِ الأشغالِ والعملِ ، فخرجَ عليهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « ما لكمْ لا تعملونَ ؟ » فقالوا : ومَنْ يشتغلُ بعملٍ بعدَ ما حدثْتَنا بهـٰذا ؟ فقالَ : « كم أنتُمْ في الأممِ ؟ أينَ تاويلُ وتاريسُ ومنسكُ ويأجوجُ ومأجوجُ ؟ أممٌ لا يحصيها إلا اللهُ عزَّ وجلَّ ، إنَّما أنتُمْ في سائرِ الأممِ كالشعرةِ البيضاءِ في جلدِ الثورِ الأسودِ ، وكالرقمةِ في ذراعِ الدابَّةِ »[10]

فانظرْ كيفَ كانَ يسوقُ الخلقَ بسياطِ الخوفِ ، ويقودُهُمْ بأزمَّةِ الرجاءِ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ ساقَهُمْ بسياطِ الخوفِ أوَّلاً ، فلمَّا خرجَ ذٰلكَ بهِمْ عنْ حدِّ الاعتدالِ إلىٰ إفراطِ اليأسِ . . داواهُمْ بدواءِ الرجاءِ ، وردَّهُمْ إلى الاعتدالِ والقصْدِ ، والآخِرُ

---

(١) رواه ابن بشران في « الأمالي » (١٢٧) ، ويشهد له ما في البخاري (٣٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل » .

(٢) كذا في « القوت » (٢١٩/١) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٥١) من قول داوود عليه السلام .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢٤٩/٤) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٠٧) ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢١٠١٧) عن زيد بن أسلم مرسلاً .

(٤) رواه البخاري (٧٥٥٣) ، ومسلم (٢٧٥١) .

(٥) كذا في « القوت » (٢١٩/١) مع الأخبار الثلاثة الآتية بألفاظها وسياقها ، وقد رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (١١٤١) من حديث معاذ : « اعلم أن من شهد أن لا إلـٰه إلا الله . . دخل الجنة » ، وعنده من حديث أنس عن معاذ مرفوعاً كذٰلك : « من مات يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله موقناً من قلبه . . دخل الجنة » .

(٦) رواه أبو داوود (٣١١٦) وفيه : (دخل الجنة) بدل (لم تمسه النار) .

(٧) رواه البخاري (١٢٩) عن أنس رضي الله عنه قال : ذكر لي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً . . دخل الجنة » ، وهو عند مسلم (٩٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٨) رواه أحمد في « المسند » (٤١٦/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ولفظه : « ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، وجاء عند البخاري (٧٤٤٠) ، ومسلم (١٨٣) إخراج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان أو خير من النار .

(٩) رواه البخاري (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٥) .

(١٠) رواه الترمذي (٣١٦٨) بألفاظ مقاربة ، وأصله عند البخاري (٣٣٤٨) ، ومسلم (٢٢٢) ، وليس عندهم ذكر تاويل وتاريس ومنسك ، ووقع ذكرهم عند الطبري في « تهذيب الآثار » مسند ابن عباس (٧١٤) ، والرقمة هنا : الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل ، وهما رقمتان في ذراعيها .

لَمْ يكنْ مناقضاً للأوَّلِ ، ولـٰكنْ ذكرَ في الأوَّلِ ما رآهُ سبباً للشفاءِ واقتصرَ عليهِ ، فلمَّا احتاجوا إلى المعالجةِ بالرجاءِ . . ذكرَ تمامَ الأمرِ .

فعلى الواعظِ أنْ يقتديَ بسيِّدِ الوعَّاظِ ، فيتلطَّفُ في استعمالِ أخبارِ الخوفِ والرجاءِ بحسَبِ الحاجةِ ، بعدَ ملاحظةِ العللِ الباطنةِ ، وإنْ لَمْ يراعِ ذٰلكَ . . كانَ ما يفسدُهُ بوعظِهِ أكثرَ ممَّا يصلحُهُ .

وفي الخبرِ : « لوْ لَمْ تذنبوا . . لخلقَ اللهُ خلقاً يذنبونَ ليغفرَ لهُمْ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « لذهبَ بكُمْ وجاءَ بخلقٍ آخرَ يذنبونَ فيغفرُ لهُمْ ، إنَّهُ هوَ الغفورُ الرحيمُ »[1]

وفي الخبرِ : « لوْ لَمْ تذنبوا . . لخشيتُ عليكُمْ ما هوَ شرٌّ مِنَ الذنوبِ » ، قيلَ : وما هوَ ؟ قالَ : « العُجبُ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ للهُ أرحمُ بعبدِهِ المؤمنِ مِنَ الوالدةِ الشفيقةِ بولدِها »[3]

وفي الخبرِ : « ليغفرنَّ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ مغفرةً ما خطرَتْ قطُّ علىٰ قلبِ أحدٍ ، حتَّىٰ إنَّ إبليسَ ليتطاولُ لها رجاءَ أنْ تصيبَهُ »[4]

وفي الخبرِ : « إنَّ للهِ تعالىٰ مئةَ رحمةٍ ، ادَّخرَ منها عندَهُ تسعاً وتسعينَ رحمةً ، وأظهرَ منها في الدنيا رحمةً واحدةً ، فبها يتراحمُ الخلقُ ، فتحنُّ الوالدةُ إلىٰ ولدِها ، وتعطفُ البهيمةُ علىٰ ولدِها ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . ضمَّ هـٰذهِ الرحمةَ إلى التسعِ والتسعينَ ثُمَّ بسطَها علىٰ جميعِ خلقِهِ ، وكلُّ رحمةٍ منها طباقَ السماواتِ والأرضينَ ، قالَ : فلا يهلكُ على اللهِ يومئذٍ إلا هالكٌ »[5]

وفي الخبرِ : « ما منكُمْ مِنْ أحدٍ يُدخلُهُ عملُهُ الجنَّةَ ، ولا ينجيهِ مِنَ النارِ » ، قالوا : ولا أنتَ ؟ قالَ : « ولا أنا ، إلا أنْ يتغمَّدَنيَ اللهُ برحمتِهِ »[6]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اعملوا وأبشروا ، واعلموا أنَّ أحداً لنْ ينجيَهُ عملُهُ »[7]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي اختبأتُ شفاعتي لأهلِ الكبائرِ مِنْ أمَّتي »[8] ، « أترونَها للمصفَّينَ المتقينَ ؟ بلْ هيَ للمخلِّطينَ المتلوثينَ »[9]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « بُعثتُ بالحنيفيَّةِ السمحةِ السهلةِ »[10]

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٨ ، ٢٧٤٩) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٣٦) .

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٩٣) ، وقريب منه عند ابن المبارك في « الزهد » (١٢٧٠) .

(٥) كذا في « القوت » (٢٢١/١) ، ورواه بنحوه البخاري (٦٠٠٠ ، ٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٢) .

(٦) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

(٧) قوت القلوب (٢٢١/١) .

(٨) كذا في « القوت » (٢٢١/١) ، جاء الخبر مستقلاً عما بعده ، وقد رواه البخاري (٦٣٠٤) ، ومسلم (١٩٨) بلفظ : « لكل نبي دعوة يدعوها ، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » .

(٩) كذا في « القوت » (٢٢١/١) ، ورواه ابن ماجه (٤٣١١) بنحوه ، وفي (أ) : (بل هي للمخطئين المتلوثين) .

(١٠) رواه أحمد في « المسند » (٢٦٦/٥) ، دون قوله : (السهلة) ، وهي في « القوت » (٢٢٢/١) ، ووقعت برواية الشك عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٨/٧) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أحبُّ أنْ يعلمَ أهلُ الكتابينِ أنَّ في دينِنا سماحةً »[1]

ويدلُّ علىٰ معناهُ استجابةُ اللهِ تعالىٰ للمؤمنينَ في قولِهِمْ : ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وروىٰ محمدُ ابنُ الحنفيَّةِ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهما أنَّهُ قالَ : لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ قالَ : « يا جبريلُ ؛ وما الصفحُ الجميلُ ؟ » قال عليهِ السلامُ : إذا عفوتَ عمَّنْ ظلمكَ . . فلا تعاتبْهُ ، فقالَ : « يا جبريلُ ؛ فاللهُ تعالىٰ أكرمُ مِنْ أنْ يعاتِبَ مَنْ عفا عنهُ » ، فبكىٰ جبريلُ وبكى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبعثَ اللهُ تعالىٰ إليهما ميكائيلَ عليهِ السلامُ وقالَ : إنَّ ربَّكُما يقرئُكُما السلامَ ويقولُ : كيفَ أعاتبُ مَنْ عفوتُ عنهُ ؟ هـٰذا ما لا يشبهُ كرمي[2] .

والأخبارُ الواردةُ في أسبابِ الرجاءِ أكثرُ مِنْ أنْ تحصىٰ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنْ أذنبَ ذنباً فسترَهُ اللهُ عليهِ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يكشفَ سترَهُ في الآخرةِ ، ومَنْ أذنبَ ذنباً فعوقبَ عليهِ في الدنيا . . فاللهُ تعالىٰ أعدلُ مِنْ أنْ يثنيَ عقوبتَهُ علىٰ عبدِهِ في الآخرةِ)[3]

وقالَ الثوريُّ : (ما أحبُّ أنْ يُجعلَ حسابي إلىٰ أبويَّ ؛ لأنِّي أعلمُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أرحمُ بي منهما)[4]

وقالَ بعضُ السلفِ : (المؤمنُ إذا عصى اللهَ تعالىٰ . . سترَهُ اللهُ عنْ أبصارِ الملائكةِ كي لا تراهُ فتشهدَ عليهِ)[5]

وكتبَ محمدُ بنُ مصعبٍ إلىٰ أسودَ بنِ سالمٍ بخطِّهِ : (إنَّ العبدَ إذا كانَ مسرفاً علىٰ نفسِهِ ، فرفعَ يديهِ يدعو يقولُ : يا ربِّ . . حجبَتِ الملائكةُ صوتَهُ وكذٰلكَ الثانيةُ والثالثةُ ، حتىٰ إذا قالَ الرابعةَ : يا ربِّ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : حتَّىٰ متىٰ تحجبونَ عنِّي صوتَ عبدي ؟ قدْ علمَ عبدي أنَّهُ ليسَ لهُ ربٌّ يغفرُ الذنوبَ غيري ، أشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُ)[6]

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمةُ اللهِ عليهِ : خلا ليَ الطوافُ ليلةً ، وكانَتْ ليلةً مطيرةً مظلمةً ، فوقفتُ في الملتزمِ عندَ البابِ ، فقلتُ : يا ربِّي ؛ اعصمني حتَّىٰ لا أعصيَكَ أبداً ، فهتفَ بي هاتفٌ مِنَ البيتِ : يا إبراهيمُ ؛ أنتَ تسألني العصمةَ ، وكلُّ عبادي المؤمنينَ يطلبونَ ذٰلكَ ، فإذا عصمتُهُمْ . . فعلىٰ مَنْ أتفضَّلُ ؟ ولمِنْ أغفرُ ؟[7]

وكانَ الحسنُ يقولُ : (لوْ لمْ يذنبِ المؤمنُ . . لكانَ يطيرُ في الملكوتِ ، ولـٰكنَّ اللهَ تعالىٰ قمعَهُ بالذنوبِ)[8]

---

(١) كذا في « القوت » (٢٢٢/١) ، ورواه أحمد في « المسند » (١١٦/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « لتعلم يهود أن في ديننا فسحة ، إني أرسلت بحنيفية سمحة » .

(٢) كذا في « القوت » (٢٢٣/١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » موقوفاً على علي مختصراً ، قال : الرضا بغير عتاب ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفي إسناده نظر) . « إتحاف » (١٨٥/٩) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) قوت القلوب (٢١٤/١) ، ورواه الترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) من حديثه رضي الله عنه بنحوه مرفوعاً .

(٤) قوت القلوب (٢١٣/١) .

(٥) قوت القلوب (٢١٣/١) .

(٦) قوت القلوب (٢١٤/١) .

(٧) قوت القلوب (٢٢٠/١) .

(٨) قوت القلوب (٢٢٠/١) .

وقالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إنْ بدَتْ عينٌ مِنَ الكرمِ . . ألحقَتِ المسيئينَ بالمحسنينَ)[١]

ولقيَ مالكُ بنُ دينارٍ أباناً ، فقالَ لهُ : إلىٰ كَمْ تحدِّثُ الناسَ بالرخصِ ؟ فقالَ : يا أبا يحيىٰ ؛ إنِّي لأرجو أنْ ترىٰ مِنْ عفوِ اللهِ يومَ القيامةِ ما تخرقُ لهُ كساءَكَ هـٰذا مِنَ الفرحِ[٢] .

وفي حديثِ ربعيِّ بنِ حراشٍ عنْ أخيهِ ، وكانَ مِنْ خيارِ التابعينَ ، وهوَ ممَّنْ تكلَّمَ بعدَ الموتِ ، قالَ : لمَّا ماتَ أخي . . سُجِّيَ بثوبِهِ ، وألقيناهُ علىٰ نعشِهِ ، فكشفَ الثوبَ عنْ وجهِهِ واستوىٰ قاعداً وقالَ : إنِّي لقيتُ ربِّي عزَّ وجلَّ ، فحيَّاني بروحٍ وريحانٍ ، وربٍّ غيرِ غضبانَ ، وإنِّي رأيتُ الأمرَ أيسرَ ممَّا تظنُّونَ ، ولا تغترُّوا ، وإنَّ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينتظرُني وأصحابُهُ حتَّىٰ أرجعَ إليهِمْ ، قالَ : ثمَّ طرحَ نفسَهُ ، فكأنَّها كانَتْ حصاةً وقعَتْ في طستٍ ، فحملناهُ ودفنَّاهُ[٣]

وفي الحديثِ : « أنَّ رجلينِ مِنْ بني إسرائيلَ تواخيا في اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكانَ أحدُهُما يسرفُ علىٰ نفسِهِ ، وكانَ الآخرُ عابداً ، وكانَ يعظُهُ ويزجرُهُ ، فكانَ يقولُ : دعْني وربِّي ، أبُعثتَ عليَّ رقيباً ، حتَّىٰ رآهُ ذاتَ يومٍ علىٰ كبيرةٍ ، فغضبَ ، فقالَ : لا يغفرُ اللهُ لكَ ، قالَ : فيقولُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ : أيستطيعُ أحدٌ أنْ يحظرَ رحمتي علىٰ عبادي ؟! اذهبْ أنتَ فقدْ غفرتُ لكَ ، ثمَّ يقولُ للعابدِ : وأنتَ فقدْ أوجبتُ لكَ النارَ » ، قالَ : فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لقدْ تكلَّمَ بكلمةٍ أهلكَتْ دنياهُ وآخرتَهُ[٤]

ورُوِيَ أيضاً أنَّ لصّاً كانَ يقطعُ الطريقَ في بني إسرائيلَ أربعينَ سنةً ، فمرَّ عليهِ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، وخلفَهُ عابدٌ مِنْ عبَّادِ بني إسرائيلَ مِنَ الحواريينَ ، فقالَ اللصُّ في نفسِهِ : هـٰذا نبيُّ اللهِ يمرُّ وإلىٰ جنبِهِ حواريُّهُ ، لوْ نزلتُ فكنتُ معهما ثالثاً ، قالَ : فنزلَ ، فجعلَ يريدُ أنْ يدنوَ مِنَ الحواريِّ ويزدري نفسَهُ تعظيماً للحواريِّ ويقولُ في نفسِهِ : مثلي لا يمشي إلىٰ جنبِ هـٰذا العابدِ ، قالَ : وأحسَّ بهِ الحواريُّ ، فقالَ في نفسِهِ : هـٰذا يمشي إلىٰ جانبي ، فضمَّ منهُ نفسَهُ وتقدَّمَ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، فمشىٰ إلىٰ جانبِهِ ، فبقيَ اللصُّ خلفَهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : قلْ لهما يستأنفا العملَ[٥] ، فقدْ أحبطتُ ما سلفَ مِنْ أعمالِهِما ، أمَّا الحواريُّ . . فقدْ أحبطتُ حسناتِهِ لعجْبِهِ بنفسِهِ ، وأمَّا الآخرُ . . فقدْ أحبطتُ سيئاتِهِ بما أزرىٰ علىٰ نفسِهِ ، فأخبرَهُما بذٰلكَ ، وضمَّ اللصَّ إليهِ في سياحتِهِ ، وجعلَهُ مِنْ حوارِيِّهِ[٦]

ورُوِيَ عنْ مسروقٍ : أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ كانَ ساجداً ، فوطئَ بعضُ العتاةِ عنقَهُ حتَّىٰ ألزقَ الحصىٰ بجبهتِهِ ، قالَ : فرفعَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ رأسَهُ مغضباً فقالَ : اذهبْ فلنْ يغفرَ اللهُ لكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : تتألَّىٰ عليَّ في عبادي ؟! إنِّي قدْ غفرتُ لهُ[٧]

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٦٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٦) .
(٣) قوت القلوب (١/٢٢٢) .
(٤) رواه أبو داوود (٤٩٠١) ، والقول في آخره لأبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) في (أ) : (ليستأنفا العمل) .
(٦) قوت القلوب (١/٢٢٣) .
(٧) قوت القلوب (١/٢٢٣) .

ويقربُ مِنْ هٰذا ما روى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقنتُ على المشركينَ ويلعنُهُمْ في صلاتِهِ ، فنزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ . . . ﴾ الآيةَ ، فتركَ الدعاءَ عليهِمْ ، وهدى اللهُ تعالىٰ عامَّةَ أولئكَ للإسلامِ[1]

ورُوِيَ في الأثرِ : أنَّ رجلينِ كانا مِنَ العابدينَ ، متساويينِ في العبادةِ ، قالَ : فإذا أُدخلا الجنةَ . . رُفِعَ أحدُهُما في الدرجاتِ العلا علىٰ صاحبِهِ ، فيقولُ : يا ربِّ ، ما كانَ هٰذا في الدنيا بأكثرَ منِّي عبادةً ، فرفعتَهُ عليَّ في عليينَ ، فيقولُ اللهُ سبحانَهُ : إنَّهُ كانَ يسألُني في الدنيا الدرجاتِ العلا وأنتَ كنتَ تسألُني النجاةَ مِنَ النارِ ، فأعطيتُ كلَّ عبدٍ سؤلَهُ[2]

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ العبادةَ على الرجاءِ أفضلُ ؛ لأنَّ المحبَّةَ أغلبُ على الراجي منها على الخائفِ ، فكمْ مِنْ فرْقٍ في الملوكِ بينَ مَنْ يُخدمُ اتقاءً لعقابِهِ ، وبينَ مَنْ يُخدمُ ارتجاءً لإنعامِهِ وإكرامِهِ ، ولذٰلكَ أمرَ اللهُ تعالىٰ بحسنِ الظنِّ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سلوا اللهَ الدرجاتِ العلا ؛ فإنَّما تسألونَ كريماً »[3]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا سألتُمُ اللهَ . . فأعظموا الرغبةَ ، وسلوا الفردوسَ الأعلىٰ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ »[4]

وقالَ بكرُ بنُ سليمٍ الصوافُ : دخلنا علىٰ مالكِ بنِ أنسٍ في العشيَّةِ التي قُبضَ فيها ، فقلنا : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ كيفَ تجدُكَ ؟ قالَ : لا أدري ما أقولُ لكُمْ ، إلا أنَّكُمْ ستعاينونَ مِنْ عفوِ اللهِ ما لمْ يكنْ لكمْ في حسابٍ ، ثمَّ ما برحنا حتَّىٰ أغمضناهُ[5]

وقال يحيى بنُ معاذٍ في مناجاتِهِ : (يكادُ رجائي لكَ معَ الذنوبِ يغلبُ رجائي لكَ معَ الأعمالِ ؛ لأنِّي أعتمدُ في الأعمالِ على الإخلاصِ ، وكيفَ أحرزُها وأنا بالآفةِ معروفٌ ؟! وأجدني في الذنوبِ أعتمدُ علىٰ عفوِكَ ، وكيفَ لا تغفرُها وأنتَ بالجودِ موصوفٌ ؟!)[6]

وقيلَ : إنَّ مجوسيّاً استضافَ إبراهيمَ الخليلَ عليهِ السلامُ ، فقالَ : إنْ أسلمتَ . . أضفتُكَ ، فمرَّ المجوسيُّ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : يا إبراهيمُ ؛ لمْ تطعمْهُ إلا بتغييرِ دينِهِ ونحنُ مِنْ سبعينَ سنةً نطعمُهُ علىٰ كفرِهِ ؟! فلوْ أضفتَهُ ليلةً ماذا كانَ عليكَ ؟ فمرَّ إبراهيمُ يسعىٰ خلفَ المجوسيِّ ، فردَّهُ وأضافَهُ ، فقالَ لهُ المجوسيُّ : ما السببُ فيما بدا لكَ ؟ فذكرَ لهُ : فقالَ لهُ المجوسيُّ : أهٰكذا يعاملُني ؟ ثمَّ قالَ : اعرضْ عليَّ الإسلامَ ، فأسلمَ[7]

---

(١) كذا في « القوت » (٢٢٣/١) ، ورواه البخاري (٤٠٧٠) ، ومسلم (٦٧٥) من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم .

(٢) قوت القلوب (٢٢٤/١) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٢٤/١) ، وروى الترمذي (٢٥٧١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « سلوا الله من فضله ؛ فإن الله عز وجل يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .

(٤) رواه مسلم (٢٦٧٩) ولفظه : « إذا دعا أحدكم . . فلا يقل : اللهم ؛ اغفر لي إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » ، وروى البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فإذا سألتم الله . . فاسألوه الفردوس ؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٥) ، ومن طريقه رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٤٦) .

(٦) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٦) .

(٧) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٧) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٨٩/٩) : (وجه تعلق هٰذا بالرجاء : أنه تعالىٰ يجعل الأسباب الضعيفة موصلة لغفران الذنوب العظيمة) .

ورأى الأستاذُ أبو سهلٍ الصُّعْلُوكيُّ أبا سهلٍ الزجَّاجيَّ في المنامِ[1] ، وكانَ يقولُ بوعيدِ الأبدِ[2] ، فقالَ لهُ : كيفَ حالُكَ ؟ فقالَ : وجدنا الأمرَ أسهلَ ممَّا توهمنا[3]

ورأىٰ بعضُهُمْ أبا سهلٍ الصُّعْلُوكيَّ في المنامِ علىٰ هيئةٍ حسنةٍ لا تُوصفُ ، فقالَ لهُ : يا أستاذُ ؛ بمَ نلتَ هٰذا ؟ فقالَ : بحسنِ ظنِّي بربِّي[4]

وحُكِيَ أنَّ أبا العباسِ بنَ سُريجٍ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ رأىٰ في مرضِ موتِهِ في منامِهِ كأنَّ القيامةَ قدْ قامَتْ ، وإذا الجبَّارُ سبحانَهُ يقولُ : أينَ العلماءُ ؟ قالَ : فجاؤوا ، ثمَّ قالَ : ماذا عملتُمْ فيما علمتُمْ ؟ قالَ : فقلنا : يا ربِّ ؛ قصَّرنا وأسأْنا ، قالَ : فأعادَ السؤالَ كأنَّهُ لمْ يرضَ بالجوابِ وأرادَ جواباً غيرَهُ ، فقلتُ : أمَّا أنا . . فليسَ في صحيفتي الشركُ ، وقدْ وعدتَ أنْ تغفرَ ما دونَهُ ، فقالَ : اذهبوا بهِ ، فقدْ غفرتُ لكُمْ ، وماتَ بعدَ ذٰلكَ بثلاثِ ليالٍ[5]

وقيلَ : كانَ رجلٌ شِرِّيبٌ جمعَ قوماً مِنْ ندمائِهِ ، ودفعَ إلىٰ غلامٍ لهُ أربعةَ دراهمَ ، وأمرَهُ أنْ يشتريَ شيئاً مِنَ الفواكهِ للمجلسِ ، فمرَّ الغلامُ ببابِ مجلسِ منصورِ بنِ عمَّارٍ ، وهوَ يسألُ لفقيرٍ شيئاً ويقولُ : مَنْ دفعَ إليهِ أربعةَ دراهمَ . . دعوتُ لهُ أربعَ دعواتٍ ، قالَ : فدفعَ الغلامُ الدراهمَ إليهِ ، فقالَ منصورٌ : ما الذي تريدُ أنْ أدعوَ لكَ ؟ فقالَ : لي سيِّدٌ أريدُ أنْ أتخلَّصَ منهُ ، فدعا منصورٌ ، وقالَ : الأخرىٰ ؟ فقالَ : أنْ يخلفَ اللهُ عليَّ دراهمي ، فدعا ، ثمَّ قالَ : الأخرىٰ ؟ قالَ : أنْ يتوبَ اللهُ علىٰ سيِّدي ، فدعا ، ثمَّ قالَ : الأخرىٰ ؟ فقالَ : أنْ يغفرَ اللهُ لي ولسيِّدي ولكَ وللقومِ ، فدعا منصورٌ .

فرجعَ الغلامُ ، فقالَ لهُ سيِّدُهُ : لِمَ أبطأتَ ؟ فقصَّ عليهِ القصَّةَ ، قالَ : وبمَ دعا ، فقالَ : سألتُ لنفسي العتقَ ، فقالَ لهُ : اذهبْ فأنتَ حرٌّ ، قالَ : وأيشِ الثاني ؟ قالَ : أنْ يُخلفَ اللهُ عليَّ الدراهمَ ، فقالَ : لكَ أربعةُ آلافِ درهمٍ ، وأيشِ الثالثُ ؟ قالَ : أنْ يتوبَ اللهُ عليكَ ، قالَ : تبتُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأيشِ الرابعُ ؟ قالَ : أنْ يغفرَ اللهُ لي ولكَ وللقومِ وللمذكِّرِ ، قالَ : هٰذا الواحدُ ليسَ إليَّ ، فلمَّا باتَ تلكَ الليلةَ . . رأىٰ في المنامِ كأنَّ قائلاً يقولُ لهُ : أنتَ فعلتَ ما كانَ إليكَ ، أفترىٰ أني لا أفعلُ ما إليَّ ؟! قدْ غفرتُ لكَ وللغلامِ ولمنصورِ بنِ عمارٍ وللقومِ الحاضرينَ أجمعينَ[6]

ورُوِيَ عنْ عبدِ الوهَّابِ بنِ عبدِ المجيدِ الثقفيِّ قالَ : رأيتُ جنازةً يحملُها ثلاثةٌ مِنَ الرجالِ وامرأةٌ ، قالَ : فأخذتُ مكانَ المرأةِ ، وذهبنا إلى المقبرةِ ، وصلَّينا عليها ، ودفنا الميِّتَ ، فقلتُ للمرأةِ : مَنْ كانَ هٰذا الميتُ منكِ ؟ قالتِ : ابني ، قلتُ : ولمْ يكنْ لكُمْ جيرانٌ ؟ قالَتْ : بلىٰ ، ولٰكنْ صغَّروا أمرَهُ ، فقلتُ : وأيشٍ كانَ هٰذا ؟ قالتْ : مخنَّثاً ، قالَ : فرحمتُها وذهبتُ بها إلىٰ منزلي ، وأعطيتُها دراهمَ وحنطةً وثياباً ، قالَ : فرأيتُ تلكَ الليلةَ كأنَّهُ أتاني آتٍ كأنَّهُ القمرُ ليلةَ البدرِ ، وعليهِ ثيابٌ بيضٌ ، فجعلَ يتشكَّرُ لي ، فقلتُ : مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : المخنَّثُ الذي دفنتموني اليومَ ، رحمَني ربِّي باحتقارِ الناسِ إيَّايَ[7]

---

(١) وضبطه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٨٩/٩) فقال : (الصعلوكي : بفتح الصاد وسكون العين المهملتين) .
(٢) فسوَّىٰ بين الوعد والوعيد من حيث وجوب الإنجاز ، فلو أوعد الله بعقاب . . فعنده لا بدَّ من وقوعه .
(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٤٧) .
(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٤٧) .
(٥) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٩) .
(٦) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٩) .
(٧) الرسالة القشيرية (ص ٢٥٠) .

وقالَ إبراهيمُ الأُطْروشُ : كنَّا قعوداً ببغدادَ معَ معروفٍ الكرخيِّ على دجلةَ ، إذْ مرَّ قومٌ أحداثٌ في زورقٍ يضربونَ بالدفِّ ويشربونَ ويلعبونَ ، فقالوا لمعروفٍ : أما تراهُمْ يعصونَ اللهَ تعالىٰ مجاهرينَ ؟ ادعُ اللهَ عليهِمْ ، فرفعَ يديهِ وقالَ : إلٰهي ؛ كما فرَّحتَهُمْ في الدنيا ففرِّحْهُمْ في الآخرةِ ، فقالَ القومُ : إنَّما سألناكَ أنْ تدعوَ عليهِمْ ، فقالَ : إذا فرَّحَهُمْ في الآخرةِ . . تابَ عليهِمْ (١)

وكانَ بعضُ السلفِ يقولُ في دعائِهِ : يا ربِّ ؛ وأيُّ أهلِ دهرٍ لمْ يعصوكَ ؟ ثمَّ كانَتْ نعمتُكَ عليهِمْ سابغةً ، ورزقُكَ عليهِمْ دارّاً ، سبحانَكَ ما أحلمَكَ !! وعزَّتِكَ ؛ إنَّكَ لتُعصىٰ ثمَّ تسبغُ النعمةَ وتدرُّ الرزقَ حتَّىٰ كأنَّكَ يا ربَّنا إنَّما تُطاعُ ، سبحانَكَ ما أحلمَكَ !! تُعصىٰ وتدرُّ الرزقَ وتسبغُ النعمةَ حتىٰ لكأنَّكَ يا ربَّنا لا تغضبُ (٢)

فهٰذهِ هيَ الأسبابُ التي يُجتلبُ بها روحُ الرجاءِ إلىٰ قلوبِ الخائفينَ والآيسينَ ، فأمَّا الحمقى المغرورونَ . . فلا ينبغي أنْ يسمعوا شيئاً مِنْ ذٰلكَ ، بلْ يسمعونَ ما سنوردُهُ في أسبابِ الخوفِ ، فإنَّ أكثرَ الناسِ لا يصلحُ إلا على الخوفِ ؛ كالعبدِ السوءِ والصبيِّ العَرِمِ (٣) ، لا يستقيمُ إلا بالسوطِ والعصا ، وإظهارِ الخشونةِ في الكلامِ ، وأمَّا ضدُّ ذٰلكَ . . فيُسدُّ عليهِمْ بابُ الصلاحِ في الدينِ والدنيا .

* * *

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٧٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٥١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥١/٨) .

(٣) **العرم** : الشرس .

الشَّطْرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في الخوف

وفيهِ بيانُ حقيقةِ الخوفِ ، وبيانُ درجاتِهِ ، وبيانُ أقسامِ المخاوفِ ، وبيانُ فضيلةِ الخوفِ ، وبيانُ الأفضلِ مِنَ الخوفِ والرجاءِ ، وبيانُ دواءِ الخوفِ ، وبيانُ معنىٰ سوءِ الخاتمةِ ، وبيانُ أحوالِ الخائفينَ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ والصالحينَ رحمةُ اللهِ عليهِمْ .

بيان حقيقة الخوف

اعلمْ : أنَّ الخوفَ عبارةٌ عنْ تألُّمِ القلبِ واحتراقِهِ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في الاستقبالِ ، وقدْ ظهرَ هٰذا في بيانِ حقيقةِ الرجاءِ .

ومَنْ أنسَ باللهِ ، وملكَ الحقُّ قلبَهُ ، وصارَ ابنَ وقتِهِ ، مشاهداً لجمالِ الحقّ على الدوامِ . . لمْ يبقَ لهُ التفاتٌ إلى المستقبلِ ؛ فلمْ يكنْ لهُ خوفٌ ولا رجاءٌ ، بلْ صارَ حالُهُ أعلىٰ مِنَ الخوفِ والرجاءِ ، فإنَّهُما زمامانِ يمنعانِ النفسَ عنِ الخروجِ إلىٰ رعوناتِها .

وإلىٰ هٰذا أشارَ الواسطيُّ حيثُ قالَ : (الخوفُ حجابٌ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ)[1]

وقالَ أيضاً : (إذا ظهرَ الحقُّ على السرائرِ . . لا يبقىٰ فيها فضلةٌ لرجاءٍ ولا خوفٍ)[2]

وبالجملةِ : فالمحبُّ إذا شغلَ قلبَهُ في مشاهدةِ المحبوبِ بخوفِ الفراقِ . . كانَ ذٰلكَ نقصاً في الشهودِ ، وإنَّما دوامُ الشهودِ غايةُ المقاماتِ ، ولٰكنَّا الآنَ إنما نتكلَّمُ في أوائلِ المقاماتِ ، فنقولُ :

حالُ الخوفِ ينتظمُ أيضاً مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ .

أمَّا العلمُ : فهوَ العلمُ بالسببِ المفضي إلى المكروهِ ، وذٰلكَ كمَنْ جنىٰ علىٰ ملكٍ ، ثمَّ وقعَ في يدِهِ ، فيخافُ القتلَ مثلاً ، ويجوِّزُ العفوَ أوِ الإفلاتَ ، ولٰكنْ يكونُ تألُّمُ قلبِهِ بالخوفِ بحسَبِ قوَّةِ علمِهِ بالأسبابِ المفضيةِ إلىٰ قتلِهِ ، وهوَ تفاحشُ جنايتِهِ ، وكونُ الملكِ في نفسِهِ حقوداً غضوباً منتقماً ، وكونُهُ محفوفاً بمَنْ يحثُّهُ على الانتقامِ ، خالياً عمَّنْ يتشفَّعُ إليهِ في حقِّهِ ، وكانَ هٰذا الخائفُ عاطلاً عنْ كلِّ وسيلةٍ وحسنةٍ تمحو أثرَ جنايتِهِ عندَ الملكِ .

فالعلمُ بتظاهرِ هٰذهِ الأسبابِ سببٌ لقوَّةِ الخوفِ وشدَّةِ تألُّمِ القلبِ ، وبحسَبِ ضعفِ هٰذهِ الأسبابِ يضعفُ الخوفُ .

وقدْ يكونُ الخوفُ لا عنْ سببِ جنايةٍ قارفَها الخائفُ ، بلْ عنْ صفةِ المَخُوفِ ؛ كالذي وقَعَ في مخالبِ سبعٍ ؛ فإنَّهُ يخافُ السبعَ لصفةِ ذاتِ السبعِ ، وهيَ سطوتُهُ وحرصُهُ على الافتراسِ غالباً ، وإنْ كانَ افتراسُهُ بالاختيارِ .

---

(١) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٣٣) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٧) ، وقال : (وهٰذا اللفظ فيه إشكال ، ومعناه : أن الخائف متطلع لوقت ثان ، وأبناء الوقت لا تطلع لهم في المستقبل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين)

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٩) ، وقال : (وهٰذا فيه إشكال ، ومعناه : إذا اصطلمت شواهد الحق تعالى الأسرار . . ملكتها ، فلا يبقىٰ فيها مساغ لذكر حدثان ، والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بالأحكام البشرية)

وقدْ يكونُ مِنْ صفةٍ جبليَّةٍ للمَخُوفِ منهُ ؛ كخوفِ مَنْ وقعَ في مجرىٰ سيلٍ أوْ جوارِ حريقٍ ؛ فإنَّ الماءَ يُخافُ لأنَّهُ بطبعِهِ مجبولٌ على السيلانِ والإغراقِ ، وكذا النارُ على الإحراقِ .

فالعلمُ بأسبابِ المكروهِ هوَ السببُ الباعثُ المثيرُ لاحتراقِ القلبِ وتألُّمِهِ ، وذٰلكَ الاحتراقُ هوَ الخوفُ ، فكذٰلكَ الخوفُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ تارةً يكونُ لمعرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ صفاتِهِ وأنَّهُ لوْ أهلكَ العالمينَ . . لمْ يبالِ ولمْ يمنعْهُ مانعٌ ، وتارةً يكونُ لكثرةِ الجنايةِ مِنَ العبدِ بمقارفةِ المعاصي ، وتارةً يكونُ بهما جميعاً .

وبحسَبِ معرفتِهِ بعيوبِ نفسِهِ ، ومعرفتِهِ بجلالِ اللهِ وتعاليهِ واستغنائِهِ ، وأنَّهُ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُمْ يُسألونَ . . تكونُ قوَّةُ خوفِهِ ، فأخوفُ الناسِ لربِّهِ أعرفُهُمْ بنفسِهِ وبربِّهِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا أخوفُكُمْ للهِ »[1] ، ولذٰلك قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

ثمَّ إذا كملَتِ المعرفةُ . . أورثَتْ حالَ الخوفِ واحتراقِ القلبِ ، ثمَّ يفيضُ أثرُ الحرقةِ مِنَ القلبِ على البدنِ ، وعلى الجوارحِ ، وعلى الصفاتِ .

أمَّا في البدنِ . . فبالنحولِ ، والصفارِ ، والغشيةِ ، والزعقةِ ، والبكاءِ ، وقدْ تنشقُّ بهِ المرارةُ فيفضي إلى الموتِ ، أوْ يصعدُ إلى الدماغِ فيفسدُ العقلَ ، أوْ يقوىٰ فيورثُ القنوطَ واليأسَ .

وأمَّا في الجوارحِ . . فبكفِّها عنِ المعاصي ، وتقييدِها بالطاعاتِ ؛ تلافياً لما فرطَ ، واستعداداً للمستقبلِ ، ولذٰلكَ قيلَ : (ليسَ الخائفُ مَنْ يبكي ويمسحُ عينيهِ ، بلْ مَنْ يتركُ ما يخافُ أنْ يُعاقبَ عليهِ)[2]

وقالَ أبو القاسمِ الحكيمُ : (مَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ ، ومَنْ خافَ اللهَ . . هربَ إليهِ)[3]

وقيلَ لذي النونِ : متىٰ يكونُ العبدُ خائفاً ؟ قالَ : إذا أنزلَ نفسَهُ منزلةَ السقيمِ الذي يحتمي مخافةَ طولِ السقامِ[4] .

وأمَّا في الصفاتِ . . فهوَ أنْ يقمعَ الشهواتِ ، ويكدِّرَ اللذَّاتِ ، فتصيرَ المعاصي المحبوبةُ عندَهُ مكروهةً كما يصيرُ العسلُ مكروهاً عندَ مَنْ يشتهيهِ إذا عرفَ أنَّ فيهِ سمّاً ، فتحترقُ الشهواتُ بالخوفِ ، وتتأدَّبُ الجوارحُ ، ويحصلُ في القلبِ الذبولُ ، والخشوعُ ، والذلَّةُ ، والاستكانةُ ، ويفارقُهُ الكبرُ ، والحقدُ ، والحسدُ ، بلْ يصيرُ مستوعبَ الهمِّ بخوفِهِ والنظرِ في خطرِ عاقبتِهِ ، فلا يتفرَّغُ لغيرِهِ ، ولا يكونُ لهُ شغلٌ إلا المراقبةُ ، والمحاسبةُ ، والمجاهدةُ ، والضنَّةُ بالأنفاسِ واللحظاتِ ، ومؤاخذةُ النفسِ في الخطراتِ والخطواتِ والكلماتِ ، ويكونُ حالُهُ حالَ مَنْ وقعَ في مخالبِ سبعٍ ضارٍ ، لا يدري أنَّهُ يغفُلُ عنهُ فيفلتُ ، أوْ يهجمُ عليهِ فيهلكُ ، فيكونُ ظاهرُهُ وباطنُهُ مشغولاً بما هوَ خائفٌ منهُ ، لا متسعَ فيهِ لغيرِهِ .

هٰذا حالُ مَنْ غلبَهُ الخوفُ واستولىٰ عليهِ ، وهٰكذا كانَ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ .

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الرهط الثلاثة الذين تقالُّوا عمله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . . . » الحديث ، وعند البخاري (٦١٠١) ، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها : « فوالله ؛ إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٦) من كلام إسحاق بن خلف .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٣٦) ، وأبو القاسم هو إسحاق بن محمد السمرقندي ، وليس القشيري .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٢٣٦) .

وقوَّةُ المراقبةِ والمحاسبةِ والمجاهدةِ بحسَبِ قوَّةِ الخوفِ الذي هَو تألُّمُ القلبِ واحتراقُهُ ، وقوَّةُ الخوفِ بحسَبِ قوَّةِ المعرفةِ بجلالِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وبعيوبِ النفسِ وما بينَ يديها مِنَ الأخطارِ والأهوالِ .

وأقلُّ درجاتِ الخوفِ ممَّا يظهرُ أثرُهُ في الأعمالِ أنْ يمنعَ عنِ المحظوراتِ ، ويُسمَّى الكفُّ الحاصلُ عنِ المحظوراتِ **ورعاً** ، فإنْ زادَتْ قوَّتُهُ . . كفَّ عمَّا يتطرَّقُ إليهِ إمكانُ التحريمِ ، فيكفُّ عمَّا لا يُتيقَّنُ أيضاً تحريمَهُ ، ويُسمَّىٰ ذٰلكَ **تقوىٰ**[1] ؛ إذِ التقوىٰ أنْ يتركَ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، وقدْ يحملُهُ علىٰ أنْ يتركَ ما لا بأسَ بهِ مخافةَ ما بهِ بأسٌ ، وهوَ **الصدقُ في التقوىٰ** ، فإذا انضمَّ إليهِ التجرُّدُ للخدمةِ ، فصارَ لا يبني ما لا يسكنُهُ ، ولا يجمعُ ما لا يأكلُهُ ، ولا يلتفتُ إلىٰ دنيا يعلمُ أنَّها تفارقُهُ ، ولا يصرفُ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ نَفَساً مِنْ أنفاسِهِ . . فهوَ **الصدْقُ** ، وصاحبُهُ جديرٌ بأنْ يُسمَّىٰ صدِّيقاً ، ويدخلُ في الصدقِ التقوىٰ ، ويدخلُ في التقوى الورعُ ، ويدخلُ في الورعِ **العفَّةُ** ؛ فإنَّها عبارةٌ عنِ الامتناعِ عنْ مقتضى الشهواتِ خاصةً .

فإذاً ؛ الخوفُ يؤثِّرُ في الجوارحِ بالكفِّ والإقدامِ ، ويتجدَّدُ لهُ بسببِ الكفِّ اسمُ العفَّةِ ، وهوَ كفٌّ عنْ مقتضى الشهوةِ ، وأعلَىٰ منهُ الورعُ ، فإنَّهُ أعمُّ ؛ لأنَّهُ كفٌّ عنْ كلِّ محظورٍ ، وأعلىٰ منهُ التقوىٰ ، فإنَّهُ اسمٌ للكفِّ عنِ المحظورِ والشبهةِ جميعاً ، ووراءَهُ اسمُ الصدِّيقِ والمقرَّبِ ، وتجري الرتبةُ الأخيرةُ ممَّا قبلَها مجرى الأخصِّ مِنَ الأعمِّ ، فإذا ذكرتَ الأخصَّ . . فقدْ ذكرتَ الكلَّ ، كما أنَّكَ تقولُ : الإنسانُ إمَّا عربيٌّ وإمَّا عجميٌّ ، والعربيُّ إمَّا قرشيٌّ أوْ غيرُهُ ، والقرشيُّ إمَّا هاشميٌّ أوْ غيرُهُ ، والهاشميُّ إمَّا علويٌّ أوْ غيرُهُ ، والعلويُّ إمَّا حسنيٌّ أوْ حسينيٌّ ، فإذا ذكرتَ أنَّهُ حسنيٌّ مثلاً . . فقدْ وصفتَهُ بالجميعِ ، وإنْ وصفتَهُ بأنَّهُ علويٌّ . . وصفتَهُ بما هوَ فوقَهُ ممَّا هوَ أعمُّ منهُ ، فكذٰلكَ إذا قلتَ : صدِّيقٌ . . فقدْ قلتَ : إنَّهُ متقٍ وورعٌ وعفيفٌ ، فلا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ كثرةَ هٰذهِ الأسامي تدلُّ علىٰ معانٍ كثيرةٍ متباينةٍ ، فيختلطَ عليكَ كما اختلطَ علىٰ كلِّ مَنْ طلبَ المعانيَ مِنَ الألفاظِ ، ولمْ يتبعِ الألفاظَ المعانيَ .

فهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ مجامعِ معاني الخوفِ ، وما يكتنفُهُ مِنْ جانبِ العلوِ ؛ كالمعرفةِ الموجبةِ لهُ ، ومن جانبِ السفلِ ؛ كالأعمالِ الصادرةِ منهُ كفّاً وإقداماً .

* * *

(1) وهٰذه هي الدرجة الثالثة من درجات الورع ، وهي ما لا تحرمه الفتوىٰ ولا شبهة في حلِّه ، ولٰكن يُخاف أداؤه إلىٰ محرم ، وهو ورع المتقين . « إتحاف » (١٩٩/٩) .

بيان درجات الخوف واختلافه في القوّة والضعف

اعلمْ : أنَّ الخوفَ محمودٌ ، وربما يُظنُّ أنَّ كلَّ ما هوَ محمودٌ فكلَّما كانَ أقوىٰ وأكثرَ . . كانَ أحمدَ ، وهوَ غلطٌ ، بلِ الخوفُ سوطُ اللهِ تعالىٰ يسوقُ بهِ عبادَهُ إلى المواظبةِ على العلمِ والعملِ ؛ لينالوا بهما رتبةَ القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والأصلحُ للبهيمةِ ألا تخلوَ عنْ سوطٍ ، وكذا الصبيُّ ، ولـٰكنَّ ذٰلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّ المبالغةَ في الضرْبِ محمودةٌ ، وكذٰلكَ الخوفُ لهُ قصورٌ ، ولهُ إفراطٌ ، ولهُ اعتدالٌ ، والمحمودُ هوَ الاعتدالُ والوسطُ .

فأمَّا القاصرُ منهُ . . فهوَ الذي يجري مَجرىٰ رقَّةِ النساءِ ، يخطرُ بالبالِ عندَ سماعِ آيةٍ مِنَ القرآنِ ، فيورثُ البكاءَ ، وتفيضُ الدموعُ ، وكذٰلكَ عندَ مشاهدةِ سببٍ هائلٍ ، فإذا غابَ ذٰلكَ السببُ عنِ الحسِّ . . رجعَ القلبُ إلى الغفلةِ ، فهـٰذا خوفٌ قاصرٌ قليلُ الجدوىٰ ضعيفُ النفعِ ، وهوَ كالقضيبِ الضعيفِ الذي تضربُ بهِ دابَّةً قويَّةً لا يؤلمُها ألماً مبرحاً ، فلا يسوقُها إلى المقصدِ ، ولا يصلحُ لرياضتِها .

وهـٰكذا خوفُ الناسِ كلِّهِمْ إلا العارفينَ والعلماءَ ، ولستُ أعني بالعلماءِ المترسمينَ برسومِ العلماءِ ، والمتسمينَ بأسمائِهِمْ ؛ فإنَّهُمْ أبعدُ الناسِ عنِ الخوفِ ، بلْ أعني العلماءَ باللهِ وبأيامِهِ وبأفعالِهِ ، وذٰلكَ ممَّا قدْ عزَّ وجودُهُ الآنَ .

ولذٰلكَ قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمَهُ اللهُ : (إذا قيلَ لكَ : هلْ تخافُ اللهَ : فاسكتْ ؛ فإنَّكَ إنْ قلتَ : لا . . كفرتَ ، وإنْ قلتَ : نعمْ . . كذبتَ)[1] ، وأشارَ بهِ إلىٰ أنَّ الخوفَ هوَ الذي يكفُّ الجوارحَ عنِ المعاصي ، ويقيِّدُها بالطاعاتِ ، وما لمْ يؤثِّرْ في الجوارحِ . . فهوَ حديثُ نفْسٍ وحركةُ خاطرٍ ، لا يستحقُّ أنْ يُسمَّىٰ خوفاً .

وأمَّا المفرِطُ . . فهوَ الذي يقوىٰ ويجاوزُ حدَّ الاعتدالِ حتَّىٰ يخرجَ إلى اليأسِ والقنوطِ ، وهوَ مذمومٌ أيضاً ؛ لأنَّهُ يمنعُ مِنَ العملِ ، والمرادُ مِنَ الخوفِ ما هوَ المرادُ مِنَ السوطِ ، وهوَ الحملُ على العملِ ، ولولاهُ . . لما كانَ الخوفُ كمالاً ؛ لأنَّهُ بالحقيقةِ نقصانٌ ؛ لأنَّ منشأَهُ الجهلُ والعجزُ :

أمَّا الجهلُ . . فإنَّهُ ليسَ يدري عاقبةَ أمرِهِ ، ولوْ عرفَ . . لمْ يكنْ خائفاً ؛ لأنَّ المَخُوفَ هوَ الذي يُتردَّدُ فيهِ .

وأمَّا العجزُ . . فهوَ أنَّهُ متعرضٌ لمحذورٍ لا يقدرُ علىٰ دفعِهِ .

فإذاً ؛ هوَ محمودٌ بالإضافةِ إلىٰ نقْصِ الآدميِّ ، وإنَّما المحمودُ في نفسِهِ وذاتِهِ هوَ العلمُ والقدرةُ ، وكلُّ ما يجوزُ أنْ يُوصفَ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وما لا يجوزُ وصفُ اللهِ بهِ . . فليسَ بكمالٍ في ذاتِهِ ، وإنَّما يصيرُ محموداً بالإضافةِ إلىٰ نقْصٍ أعظمَ منهُ ، كما يكونُ احتمالُ ألمِ الدواءِ محموداً ؛ لأنَّهُ أهونُ مِنْ ألمِ المرضِ والموتِ ، فما يخرجُ إلى القنوطِ فهوَ مذمومٌ .

وقدْ يخرجُ الخوفُ أيضاً إلى المرضِ والضعفِ ، وإلى الولهِ والدهشةِ وزوالِ العقلِ ، وقدْ يخرجُ إلى الموتِ ، وكلُّ ذٰلكَ مذمومٌ ، وهوَ كالضربِ الذي يقتلُ الصبيَّ ، والسوطِ الذي يهلكُ الدابَّةَ أوْ يمرضُها أوْ يكسرُ عضواً مِنْ أعضائِها ، وإنَّما ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسبابَ الرجاءِ وأكثرَ منها ليعالجَ بها صدمةَ الخوفِ المفرطِ المفضي إلى

(١) قوت القلوب (١/٢٢٦) .

القنوطِ أوْ أحدِ هـٰذهِ الأمورِ ، فكلُّ ما يرادُ لأمرٍ فالمحمودُ منهُ ما يفضي إلى المرادِ المقصودِ منهُ ، وما يقصرُ عنهُ أوْ يجاوزُهُ فهوَ مذمومٌ .

وفائدةُ الخوفِ : الحذرُ ، والورعُ ، والتقوىٰ ، والمجاهدةُ ، والعبادةُ ، والفكرُ ، والذكرُ ، وسائرُ الأسبابِ الموصلةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وكلُّ ذٰلكَ يستدعي الحياةَ معَ صحَّةِ البدنِ وسلامةِ العقلِ ، فكلُّ ما يقدحُ في هـٰذهِ الأسبابِ فهوَ مذمومٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : مَنْ خافَ فماتَ مِنْ خوفِهِ . . فهوَ شهيدٌ ، فكيفَ يكونُ حالُهُ مذموماً ؟!

فاعلمْ : أنَّ معنىٰ كونِهِ شهيداً أنَّ لهُ رتبةً بسببِ موتِهِ مِنَ الخوفِ كانَ لا ينالُها لوْ ماتَ في ذٰلكَ الوقتِ لا بسببِ الخوفِ ، فهوَ بالإضافةِ إليهِ فضيلةٌ ، فأمَّا بالإضافةِ إلىٰ تقديرِ بقائِهِ وطولِ عمرِهِ في طاعةِ اللهِ وسلوكِ سبلِهِ . . فليسَ بفضيلةٍ ، بلْ للسالكِ سبيلَ اللهِ تعالىٰ بطريقِ الفكرِ والمشاهدةِ والترقِّي في درجاتِ المعارفِ في كلِّ لحظةٍ رتبةُ شهيدٍ وشهداءَ ، ولولا هـٰذا . . لكانَتْ رتبةُ صبيٍّ يُقتلُ أوْ مجنونٍ يفترسُهُ سبعٌ أعلىٰ مِنْ رتبةِ نبيٍّ أوْ وليٍّ يموتُ حتفَ أنفِهِ ، وهوَ محالٌ ، فلا ينبغي أنْ يُظنَّ هـٰذا ، بلْ أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ ما أبطلَ العمرَ أوِ العقلَ أوِ الصحَّةَ التي يتعطَّلُ العمرُ بتعطُّلِها . . فهوَ خسرانٌ ونقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ أمورٍ ، وإنْ كانَ بعضُ أقسامِها فضيلةً بالإضافةِ إلىٰ أمورٍ أخرَ ؛ كما كانَتِ الشهادةُ فضيلةً بالإضافةِ إلىٰ ما دونَها ، لا بالإضافةِ إلىٰ درجةِ النبيِّينَ والصدِّيقينَ .

فإذاً ؛ الخوفُ إنْ لمْ يؤثِّرْ في العملِ . . فوجودُهُ كعدمِهِ ؛ مثلُ السوطِ الذي لا يزيدُ في حركةِ الدابَّةِ ، وإنْ أثَّرَ . . فلهُ درجاتٌ بحسَبِ ظهورِ أثرِهِ ، فإنْ لمْ يحملْ إلا على العفَّةِ وهيَ الكفُّ عنْ مقتضى الشهواتِ . . فلهُ درجةٌ ، فإنْ أثمرَ الورعَ . . فهوَ أعلىٰ ، وأقصىٰ درجاتِهِ أنْ يثمرَ درجاتِ الصدِّيقينَ ، وهوَ أنْ يسلبَ الظاهرَ والباطنَ عمَّا سوى اللهِ حتَّىٰ لا يبقىٰ لغيرِ اللهِ فيهِ متسعٌ ، فهـٰذا أقصىٰ ما يُحمدُ منهُ ، وذٰلكَ معَ بقاءِ الصحَّةِ والعقلِ .

فإنْ جاوزَ هـٰذا إلىٰ إزالةِ العقلِ أوِ الصحَّةِ . . فهوَ مرضٌ يجبُ علاجُهُ إنْ قدرَ عليهِ ، ولوْ كانَ محموداً . . لما وجبَ علاجُهُ بأسبابِ الرجاءِ وبغيرِهِ حتَّىٰ يزولَ ، ولذٰلكَ كانَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ يقولُ للمريدينَ الملازمينَ للجوعِ أياماً كثيرةً : (احفظوا عقولَكُمْ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنْ للهِ تعالىٰ وليٌّ ناقصُ العقلِ)[1]

❁ ❁ ❁

---

(١) قوت القلوب (١/٢٣٨) .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يُخاف منه

اعلم : أنَّ الخوفَ لا يتحقَّقُ إلا بانتظارِ مكروهٍ ، والمكروهُ إمَّا أنْ يكونَ مكروهاً في ذاتِهِ كالنارِ ، وإمَّا أنْ يكونَ مكروهاً لأنَّهُ يفضي إلى المكروهِ ؛ كما تُكرهُ المعاصي لأدائِها إلىٰ مكروهٍ في الآخرةِ ، وكما يكرهُ المريضُ الفواكهَ المضرَّةَ لأدائِها إلى الموتِ ، ولا بدَّ لكلِّ خائفٍ أنْ يتمثَّلَ في نفسِهِ مكروهاً مِنْ أحدِ القسمينِ ، ويقوى انتظارُهُ في قلبِهِ حتَّىٰ يحترقَ قلبُهُ بسببِ استشعارِهِ ذٰلكَ المكروهَ .

ومقامُ الخائفينَ يختلفُ فيما يغلبُ علىٰ قلوبِهِمْ مِنَ المكروهاتِ المحذورةِ ، فالذينَ يغلبُ علىٰ قلوبِهِمْ ما ليسَ مكروهاً لذاتِهِ بلْ لغيرِهِ ؛ كالذينَ يغلبُ عليهِمْ خوفُ الموتِ قبلَ التوبةِ ، أوْ خوفُ نقضِ التوبةِ ونكثِ العهدِ ، أوْ خوفُ ضعفِ القوَّةِ عنِ الوفاءِ بتمامِ حقوقِ اللهِ ، أوْ خوفُ زوالِ رقَّةِ القلبِ وتبدُّلِها بالقساوةِ ، أوْ خوفُ الميلِ عَنِ الاستقامةِ ، أوْ خوفُ استيلاءِ العادةِ فِي اتباعِ الشهواتِ المألوفةِ ، أوْ خوفُ أنْ يكلَهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ حسناتِهِ التي اتكلَ عليها وتعزَّزَ بها في عبادِ اللهِ ، أوْ خوفُ البطرِ بكثرةِ نعَمِ اللهِ عليهِ ، أوْ خوفُ الاشتغالِ عنِ اللهِ بغيرِ اللهِ ، أوْ خوفُ الاستدراجِ بتواترِ النعَمِ ، أوْ خوفُ انكشافِ غوائلِ طاعاتِهِ حيثُ يبدو لهُ مِنَ اللهِ ما لَمْ يكنْ يحتسبُ ، أوْ خوفُ تبعاتِ الناسِ عندَهُ في الغيبةِ والخيانةِ والغشِّ وإضمارِ السوءِ ، أوْ خوفُ ما لا يدري أنَّهُ يحدثُ في بقيَّةِ عمرِهِ ، أوْ خوفُ تعجيلِ العقوبةِ في الدنيا والافتضاحِ قبلَ الموتِ ، أوْ خوفُ الاغترارِ بزخارفِ الدنيا ، أوْ خوفُ اطلاعِ اللهِ علىٰ سريرتِهِ في حالِ غفلتِهِ عنهُ ، أوْ خوفُ الختْمِ لهُ عندَ الموتِ بخاتمةِ السوءِ ، أوْ خوفُ السابقةِ التي سبقَتْ لهُ في الأزلِ . . فهٰذهِ كلُّها مخاوفُ العَارفينَ ، ولكلِّ واحدٍ خصوصُ فائدةٍ ، وهوَ سلوكُ سبيلِ الحذرِ عمَّا يفضي إلى المَخُوفِ .

فمَنْ يخافُ استيلاءَ العادةِ عليهِ . . فيواظبُ على الفطامِ عنِ العادةِ ، والذي يخافُ مِنِ اطلاعِ اللهِ علىٰ سريرتِهِ يشتغلُ بتطهيرِ قلبِهِ عنِ الوساوسِ ، وهٰكذا إلىٰ بقيةِ الأقسامِ .

وأغلبُ هٰذهِ المخاوفِ على المتقينَ خوفُ الخاتمةِ ، فإنَّ الأمرَ فيهِ مُخْطِرٌ ، وأعلى الأقسامِ وأدلُّها علىٰ كمالِ المعرفةِ خوفُ السابقةِ ؛ لأنَّ الخاتمةَ تتبعُ السابقةُ ، وفرعٌ يتفرعُ عنها بعدَ تخلُّلِ أسبابٍ كثيرةٍ ، فالخاتمةُ تُظهرُ ما سبقَ بِهِ القضاءُ في أمِّ الكتابِ .

والخائفُ مِنَ الخاتمةِ بالإضافةِ إلى الخائفِ مِنَ السابقةِ كرجلينِ وقَّعَ الملكُ في حقِّهما بتوقيعٍ ، يحتملُ أنْ يكونَ فيهِ حزُّ الرقبةِ ، ويحتملُ أنْ يكونَ فيهِ تسليمُ الوزارةِ إليهِ ، ولَمْ يصلِ التوقيعُ إليهما بعدُ ، فيرتبطُ قلبُ أحدِهما بحالةِ وصولِ التوقيعِ ونشرِهِ ، وأنَّهُ عمَّاذا يظهرُ ، ويرتبطُ قلبُ الآخرِ بحالةِ توقيعِ الملكِ وكيفيتِهِ وأنَّهُ ما الذي خطرَ لهُ في حالِ التوقيعِ مِنْ رحمةٍ أوْ غضبٍ ، وهٰذا التفاتٌ إلى السببِ ، فهوَ أعلىٰ مِنَ الالتفاتِ إلىٰ ما هوَ فرعٌ ؛ فكذٰلكَ الالتفاتُ إلى القضاءِ الأزليِّ الذي جرىٰ بتوقيعِهِ القلمُ أعلىٰ مِنَ الالتفاتِ إلىٰ ما يظهرُ في الأبدِ .

وإليهِ أشارَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حيثُ كانَ على المنبرِ ، فقبضَ كفَّهُ اليمنىٰ ثمَّ قالَ : « هٰذا كتابُ اللهِ ، كُتبَ فيهِ أهلُ الجنَّةِ بأسمائِهِمْ وأسماءِ آبائِهِمْ ، لا يُزادُ فيهِمْ ولا ينقصُ » ، ثمَّ قبضَ كفَّهُ اليسرىٰ وقالَ : « هٰذا كتابُ اللهِ ، كُتبَ فيهِ أهلُ النارِ بأسمائِهِمْ وأسماءِ آبائِهِمْ ، لا يُزادُ فيهِمْ ولا ينقصُ ، وليعملنَّ أهلُ السعادةِ بعملِ أهلِ الشقاءِ حتَّىٰ يُقالَ كأنهُمْ منهُمْ ، بلْ هُمْ هُمْ ، ثمَّ يستنقذُهُمُ اللهُ تعالىٰ قبلَ الموتِ ولوْ بفُواقِ ناقةٍ ، وليعملنَّ أهلُ الشقاءِ بعملِ أهلِ

السعادةِ حتَّىٰ يُقالَ كأنَّهُمْ منهُمْ ، بلْ هُمْ هُمْ ، ثمَّ يستخرجُهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ قبلَ الموتِ ولوْ بفُواقِ ناقةٍ ، السعيدُ مَنْ سعدَ بقضاءِ اللهِ ، والشقيُّ مَنْ شقيَ بقضاءِ اللهِ ، والأعمالُ بالخواتيمِ »[١]

وهٰذا كانقسامِ الخائفينَ إلىٰ مَنْ يخافُ معصيتَهُ وجنايتَهُ ، وإلىٰ مَنْ يخافُ اللهَ تعالىٰ نفسَهُ لصفتِهِ وجلالِهِ وأوصافِهِ التي تقتضي الهيبةَ لا محالةَ ، فهٰذا أعلىٰ رتبةً ، ولذٰلكَ يبقىٰ خوفُهُ وإنْ كانَ في طاعةِ الصدِّيقينَ ، وأمَّا الآخَرُ . . فهوَ في عرضةِ الغرورِ ، والأمنِ إنْ واظبَ على الطاعاتِ .

فالخوفُ مِنَ المعصيةِ خوفُ الصالحينَ ، والخوفُ مِنَ اللهِ خوفُ الموحِّدينَ والصدِّيقينَ ، وهوَ ثمرةُ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، فكلُّ مَنْ عرفَهُ وعرفَ صفاتِهِ . . علمَ مِنْ صفاتِهِ ما هوَ جديرٌ بأنْ يُخافَ مِنْ غيرِ جنايةٍ ، بلِ العاصي لوْ عرفَ اللهَ حقَّ المعرفةِ . . لخافَ اللهَ ولمْ يخفْ معصيتَهُ ، ولولا أنَّهُ مَخُوفٌ في نفسِهِ . . لما سخَّرَهُ للمعصيةِ ، ويسَّرَ لهُ سبيلَها ، ومهَّدَ لهُ أسبابَها ، فإنَّ تيسيرَ أسبابِ المعصيةِ إبعادٌ ، ولمْ يسبقْ منهُ قبلَ المعصيةِ معصيةٌ استحقَّ بها أنْ يسخَّرَ للمعصيةِ ، وتجريَ عليهِ أسبابُها ، ولا سبقَ قبلَ الطاعةِ وسيلةٌ توسَّلَ بها مَنْ يُسِّرتْ لهُ الطاعاتُ ومُهِّدَ لهُ سبيلُ القرباتِ ، فالعاصي قدْ قضىٰ عليهِ بالمعصيةِ شاءَ أمْ أبىٰ ، وكذا المطيعُ ، فالذي يرفعُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أعلىٰ عليينَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ سبقَتْ منهُ قبلَ وجودِهِ ، ويضعُ أبا جهلٍ في أسفلِ سافلينَ مِنْ غيرِ جنايةٍ سبقَتْ منهُ قبلَ وجودِهِ . جديرٌ بأنْ يُخافَ لصفةِ جلالِهِ ، فإنَّ مَنْ أطاعَ اللهَ . . أطاعَ بأنْ سلَّطَ عليهِ إرادةَ الطاعةِ ، وآتاهُ القدرةَ ، وبعدَ خلقِ الإرادةِ الجازمةِ والقدرةِ التامَّةِ يصيرُ الفعلُ ضرورياً ، والذي عصىٰ . . عصىٰ لأنَّهُ سلَّطَ عليهِ إرادةً قويَّةً جازمةً ، وآتاهُ الأسبابَ والقدرةَ ، فكانَ الفعلُ بعدَ الإرادةِ والقدرةِ ضرورياً .

فليتَ شعري ؛ ما الذي أوجبَ إكرامَ هٰذا وتخصيصَهُ بتسليطِ إرادةِ الطاعاتِ عليهِ ، وما الذي أوجبَ إهانةَ الآخرِ وإبعادَهُ بتسليطِ دواعي المعصيةِ عليهِ ؟! وكيفَ يُحالُ ذٰلكَ على العبدِ ؟! وإذا كانتِ الحوالةُ ترجعُ إلى القضاءِ الأزليِّ مِنْ غيرِ جنايةٍ ولا وسيلةٍ . . فالخوفُ ممَّنْ يقضي بما يشاءُ ويحكمُ بما يريدُ حزمٌ عندَ كلِّ عاقلٍ .

ووراءَ هٰذا المعنىٰ سرُّ القدرِ الذي لا يجوزُ إفشاؤُهُ .

ولا يمكنُ تفهيمُ الخوفِ منهُ في صفاتِهِ جلَّ جلالُهُ إلا بمثالٍ لولا إذنُ الشرعِ . . لمْ يستجرئْ علىٰ ذكرِهِ ذو بصيرةٍ ، فقدْ جاءَ في الخبرِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ خفْني كما تخافُ السبعَ الضاريَ)[٢]

فهٰذا المثالُ يفهمُكَ حاصلَ المعنىٰ ، وإنْ كانَ لا يقفُ بكَ علىٰ سببِهِ ، فإنَّ الوقوفَ علىٰ سببِهِ وقوفٌ علىٰ سرِّ القدرِ ، ولا يُكشفُ ذٰلكَ إلا لأهلِهِ .

والحاصلُ : أنَّ السبعَ يُخافُ لا لجنايةٍ سبقَتْ إليهِ منكَ ، بلْ لصفتِهِ وبطشِهِ وسطوتِهِ ، وكبرِهِ وهيبتِهِ ، ولأنَّهُ يفعلُ ما يفعلُ ولا يبالي ، فإنْ قتلكَ . . لم يرقَّ قلبُهُ ولمْ يتألَّمْ بقتلِكَ ، وإن خلَّاكَ . . لمْ يخلِّكَ شفقةً عليكَ وإبقاءً علىٰ روحِكَ ،

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ومطلعه : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان ، فقال : « أتدرون ما هٰذان الكتابان ؟ . . . » ثم ساقه بنحوه .

(٢) قوت القلوب (٢٤١/١) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً ، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات ، فإنه عبر عنه بقوله : جاء في الخبر ، وكثيراً ما يعبر بذٰلك عن الإسرائيليات التي هي غير مرفوعة) « إتحاف » (٢٠٧/٩) ، وعند السيوطي في « الدر المنثور » (٢٧٠/٣) : (وأخرج ابن المنذر عن جعفر قال : أوحى الله إلىٰ داوود : خفني علىٰ كل حال . . .) .

بلْ أنتَ عندَهُ أخسُّ مِنْ أنْ يلتفتَ إليكَ حيّاً كنتَ أو ميتاً ، بلْ إهلاكُ ألفِ مثلِكَ وإهلاكُ نملةٍ عندَهُ على وتيرةٍ واحدةٍ ؛ إذْ لا يقدحُ ذلكَ في عالمِ سبعيتِهِ ، وما هوَ موصوفٌ بهِ مِنْ قدرتِهِ وسطوتِهِ ، وللهِ المثلُ الأعلىٰ .

ولـٰكنْ مَنْ عرفَهُ . . عرفَ بالمشاهدةِ الباطنةِ التي هيَ أقوىٰ وأوثقُ وأجلىٰ مِنَ المشاهدةِ الظاهرةِ أنَّهُ صادقٌ في قولِهِ : « هـٰؤلاءِ في الجنَّةِ ولا أبالي ، وهـٰؤلاءِ في النارِ ولا أبالي »(١) ، ويكفيكَ مِنْ موجباتِ الهيبةِ والخوفِ المعرفةُ بالاستغناءِ وعدمِ المبالاةِ .

الطبقةُ الثانيةُ مِنَ الخائفينَ : أن يتمثَّلَ في أنفسِهِمْ ما هوَ المكروهُ ، وذلكَ مثلُ سكراتِ الموتِ وشدَّتِهِ ، أو سؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، أوْ عذابِ القبرِ ، أوْ هولِ المُطَّلَعِ ، أوْ هيبةِ الموقفِ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، أوِ الحياءِ مِنْ كشفِ السترِ والسؤالِ عنِ النقيرِ والقطميرِ ، أوِ الخوفِ مِنَ الصراطِ وحدَّتِهِ ، وكيفيَّةِ العبورِ عليهِ ، أوالخوفِ مِنَ النارِ وأغلالِها وأهوالِها ، أوِ الخوفِ مِنَ الحرمانِ عنِ الجنَّةِ دارِ النعيمِ والملكِ المقيمِ ، وعنْ نقصانِ الدرجاتِ ، أو الخوفِ مِنَ الحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وكلُّ هـٰذهِ الأسبابِ مكروهةٌ في أنفسِها ، فهيَ ـ لا محالةَ ـ مَخُوفةٌ ، وتختلفُ أحوالُ الخائفينَ فيها ، وأعلاها رتبةً هوَ خوفُ الفراقِ والحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ خوفُ العارفينَ ، وما قبلَ ذلكَ خوفُ العابدينَ والصالحينَ والزاهدينَ وكافةِ العاملينَ .

ومَنْ لمْ تكملْ معرفتُهُ ، ولمْ تنفتحْ بصيرتُهُ . . لمْ يشعرْ بلذَّةِ الوصالِ ، ولا بألمِ البعدِ والفراقِ ، وإذا ذُكرَ لهُ أنَّ العارفَ لا يخافُ النارَ ، وإنَّما يخافُ الحجابَ . . وجدَ ذلكَ منكراً في باطنِهِ ، وتعجَّبَ منهُ في نفسِهِ ، وربَّما أنكرَ لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ لولا منعُ الشرعِ إيَّاهُ مِنْ إنكارِهِ ، فيكونُ اعترافُهُ بهِ باللسانِ عنْ ضرورةِ التقليدِ ، وإلا . . فباطنُهُ لا يصدِّقُ بهِ ؛ لأنَّهُ لا يعرفُ إلا لذَّةَ البطنِ والفرجِ ، والعينِ بالنظرِ إلى الألوانِ والوجوهِ الحسانِ ، وبالجملةِ : كلُّ لذَّةٍ تشاركُهُ البهائمُ فيها ، فأمَّا لذَّةُ العارفينَ . . فلا يدركُها غيرُهُمْ ، وتفصيلُ ذلكَ وشرحُهُ حرامٌ معَ مَنْ ليسَ أهلاً لهُ ، ومَنْ كانَ أهلاً لهُ . . استبصرَ بنفسِهِ واستغنىٰ عنْ أنْ يشرحَهُ لهُ غيرُهُ .

فإلىٰ هـٰذهِ الأقسامِ يرجعُ خوفُ الخائفينَ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ حسنَ التوفيقِ بكرمِهِ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٨٦/٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمـٰن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً .

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلمْ : أنَّ فضلَ الخوفِ تارةً يُعرفُ بالتأمُّلِ والاعتبارِ ، وتارةً بالآياتِ والأخبارِ .

أمَّا الاعتبارُ : فسبيلُهُ أنَّ فضيلةَ الشيءِ بقدْرِ غنائِهِ في الإفضاءِ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ في الآخرةِ ؛ إذْ لا مقصودَ سوى السعادةِ ، ولا سعادةَ للعبدِ إلا في لقاءِ مولاهُ والقربِ منهُ ، فكلُّ ما أعانَ عليهِ فلهُ فضيلةٌ ، وفضيلتُهُ بقدْرِ إعانتِهِ ، وقدْ ظهرَ أنَّه لا وصولَ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ في الآخرةِ إلّا بتحصيلِ محبَّتِهِ والأنسِ بِهِ فِي الدنيا ، ولا تحصلُ المحبَّةُ إلا بالمعرفةِ ، ولا تحصلُ المعرفةُ إلا بدوامِ الفكرِ ، ولا يحصلُ الأنسُ إلا بالمحبةِ ودوامِ الذكرِ ، ولا تتيسَّرُ المواظبةُ على الذكرِ والفكرِ إلا بانقلاعِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، ولا ينقلعُ ذاكَ إلا بتركِ لذَّاتِ الدنيا وشهواتِها ، ولا يمكنُ تركُ المشتهَياتِ إلا بقمعِ الشهواتِ ، ولا تنقمعُ الشهوةُ بشيءٍ كما تنقمعُ بنارِ الخوفِ ، فالخوفُ هوَ النارُ المحرقةُ للشهواتِ .

فإذاً ؛ فضيلتُهُ بقدْرِ ما يحرقُ مِنَ الشهوةِ ، وبقدْرِ ما يكفُّ عنِ المعاصي ويحثُّ على الطاعاتِ ، ويختلفُ ذٰلكَ باختلافِ درجاتِ الخوفِ كما سبق .

وكيفَ لا يكونُ الخوفُ ذا فضيلةٍ وبِهِ تحصلُ العفَّةُ ، والورعُ ، والتقوىٰ ، والمجاهدةُ ، وهيَ الأعمالُ الفاضلةُ المحمودةُ التي يُتقرَّبُ بهَا إلى اللهِ زلفىٰ ؟!

❁ ❁ ❁

وأمَّا بطريقِ الاقتباسِ مِنَ الآياتِ والأخبارِ : فما وردَ في فضيلةِ الخوفِ خارجٌ عنِ الحصرِ ، وناهيكَ دلالةً علىٰ فضيلتِهِ جمعُ اللهِ تعالىٰ للخائفينَ الهدىٰ والرحمةَ والعلمَ والرضوانَ ، وهيَ مجامعُ مقاماتِ أهلِ الجنانِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، فوصفَهُمْ بالعلمِ لخشيتِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾

وكلُّ ما دلَّ علىٰ فضيلةِ العلمِ دلَّ علىٰ فضيلةِ الخوفِ ؛ لأنَّ الخوفَ ثمرةُ العلمِ ، ولذٰلكَ جاءَ في خبرِ موسىٰ عليهِ السلامُ : (وأمَّا الخائفونَ . . فإنَّ لهُمُ الرفيقَ الأعلىٰ ، لا يُشاركونَ فيهِ)[1] ، فانظرْ كيفَ أفردَهُمْ بمرافقةِ الرفيقِ الأعلىٰ ، وذٰلكَ لأنَّهُمُ العلماءُ ، والعلماءُ لهُمْ رتبةُ مرافقةِ الأنبياءِ ؛ لأنَّهُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، ومرافقةُ الرفيقِ الأعلىٰ للأنبياءِ ومَنْ يلحقُ بهِمْ ، ولذٰلكَ لمَّا خُيِّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مرضِ موتِهِ بينَ البقاءِ في الدنيا وبينَ القدومِ على اللهِ تعالىٰ . . كانَ يقولُ : « أسألُكَ الرفيقَ الأعلىٰ »[2]

فإذاً ؛ إنْ نظرَ إلىٰ مُثمرِهِ . . فهوَ العلمُ ، وإنْ نظرَ إلىٰ ثمرتِهِ . . فالورعُ والتقوىٰ ، ولا يخفىٰ ما وردَ في فضائلِهما ، حتَّىٰ إنَّ العاقبةَ صارَتْ موسومةً بالتقوىٰ مخصوصةً بها كما صارَ الحمدُ مخصوصاً باللهِ تعالىٰ والصلاةُ برسولِ اللهِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٥) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ضمن خبر ، وفيه : « وأما الباكون من خشيتي . . فأولئك لهم الرفيق الأعلىٰ لا يشاركهم فيه أحد » .

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٠) ، ومسلم (٢١٩١ ، ٢٤٤٤) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ يُقالُ : (الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والعاقبةُ للمتقينَ ، والصلاةُ علىٰ سيِّدِنا محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ) .

وقدْ خصَّصَ اللهُ تعالى التقوىٰ بالإضافةِ إلىٰ نفسِهِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ، وإنَّما التقوىٰ عبارةٌ عنْ كفٍّ بمقتضى الخوفِ كما سبقَ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، ولذٰلكَ وصَّى اللهُ تعالى الأولينَ والآخرينَ بالتقوىٰ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، فأمرَ بالخوفِ وأوجبَهُ وشرطَهُ في الإيمانِ ، فلذٰلكَ لا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ مؤمنٌ عنْ خوفٍ وإنْ ضعفَ ، ويكونُ ضعْفُ خوفِهِ بحسَبِ ضعْفِ معرفتِهِ وإيمانِهِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في فضيلةِ التقوىٰ : « إذا جمعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ لميقاتِ يومٍ معلومٍ . . ناداهُمْ بصوتٍ يُسمِعُ أقصاهُمْ كما يُسمِعُ أدناهُمْ فيقولُ : يا أيُّها الناسُ ؛ إنِّي قدْ أنصتُّ لكُمْ منذُ خلقتُكُمْ إلىٰ يومِكُمْ هٰذا ، فأنصتوا لي اليومَ ، إنَّما هيَ أعمالُكُمْ تُردُّ عليكُمْ ، أيُّها الناسُ ؛ إنِّي قدْ جعلتُ نسباً وجعلتُمْ نسباً ، فوضعتُمْ نسبي ورفعتُمْ نسبَكُمْ ، قلتُ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، وأبيتُمْ إلا أنْ تقولوا : فلانُ بنُ فلانٍ ، وفلانٌ أغنىٰ مِنْ فلانٍ ، فاليومَ أضعُ نسبَكُمْ وأرفعُ نسبي ، أينَ المتقونَ ؟ فيُنصبُ للقومِ لواءٌ ، فيتبعُ القومُ لواءَهُمْ إلىٰ منازلِهِمْ ، فيدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ »[1]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « رأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ »[2]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لابنِ مسعودٍ : « إنْ أردتَ أنْ تلقاني . . فأكثرْ مِنَ الخوفِ بعدي »[3]

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ خافَ اللهَ . . دلَّهُ الخوفُ علىٰ كلِّ خيرٍ)[4]

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (ما خفتُ اللهَ يوماً إلا رأيتُ لهُ باباً مِنَ الحكمةِ والعبرةِ ما رأيتُهُ قطُّ)[5]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (ما مِنْ مؤمنٍ يعملُ سيئةً إلا وتلحقُهُ حسنتانِ : خوفُ العقابِ ، ورجاءُ العفوِ ، كثعلبٍ بينَ أسدينِ)[6]

وفي خبرِ موسىٰ عليه الصلاةُ والسلامُ : (وأمَّا الورعونَ . . فإنَّهُ لا يبقىٰ أحدٌ إلا ناقشتُهُ الحسابَ ، وفتشتُ عمَّا في يديهِ إلا الورعينَ ؛ فإنِّي أستحييهِمْ وأجلُّهُمْ أنْ أوقفَهُمْ للحسابِ)[7]

والورعُ والتقوىٰ أسامٍ اشتقَّتْ مِنْ معانٍ شرطُها الخوفُ ، فإنْ خلا شيءٌ منها عنِ الخوفِ . . لمْ تُسمَّ بهٰذهِ الأسامي .

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٢٥) ، ورواه الطبراني في « الصغير » (١/٢٣٠) ، و« الأوسط » (٤٥٠٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وفي « دلائل النبوة » (٥/٢٤١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ضمن خبر طويل ، وفيه : « رأس الحكم . . . » ، وتقدم أنه فاتحة الزبور ، وهو ما رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٣) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٦) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٦) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٨) .

(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٨) .

(٧) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/١٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٧) .

وكذلكَ ما وردَ في فضائلِ الذكرِ لا يخفىٰ ، وقدْ جعلَهُ اللهُ تعالىٰ مخصوصاً بالخائفينَ ، فقالَ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : وعزَّتي ؛ لا أجمعُ علىٰ عبدي خوفينِ ، ولا أجمعُ لهُ أمنينِ ، فإذا أمنَني في الدنيا . . أخفتُهُ يومَ القيامةِ ، وإذا خافَني في الدنيا . . أمَّنتُهُ يومَ القيامةِ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خافَ اللهَ تعالىٰ . . خافَهُ كلُّ شيءٍ ، ومَنْ خافَ غيرَ اللهِ . . خوَّفَهُ اللهُ مِنْ كلِّ شيءٍ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتمُّكُمْ عقلاً أشدُّكُمْ للهِ تعالىٰ خوفاً ، وأحسنُكُمْ فيما أمرَ اللهُ تعالىٰ بهِ ونهىٰ عنهُ نظراً »[3]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ، لوْ خافَ النارَ كما يخافُ الفقرَ . . دخلَ الجنةَ)[4]

وقالَ ذو النونِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (مَنْ خافَ اللهَ تعالىٰ . . ذابَ قلبُهُ ، واشتدَّ للهِ حبُّهُ ، وصحَّ لهُ لُبُّهُ)[5]

وقالَ ذو النونِ أيضاً : (ينبغي أنْ يكونَ الخوفُ أبلغَ مِنَ الرجاءِ ، فإذا غلبَ الرجاءُ . . تشوَّشَ القلبُ)[6]

وكانَ أبو الحسينِ الضريرُ يقولُ : (علامةُ السعادةِ خوفُ الشقاوةِ ؛ لأنَّ الخوفَ زمامٌ بينَ اللهِ تعالىٰ وبينَ عبدِهِ ، فإذا انقطعَ زمامُهُ . . هلكَ معَ الهالكينَ)[7]

وقيلَ ليحيى بنِ معاذٍ : مَنْ آمنُ الخلقِ غداً ؟ قالَ : أشدُّهُمْ خوفاً اليومَ[8]

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (لا تجدُ الخوفَ حتَّىٰ تأكلَ الحلالَ)[9]

وقيلَ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ : كيفَ نصنعُ بمجالسةِ أقوامٍ يخوِّفونَنا حتَّىٰ تكادُ قلوبُنا تطيرُ ؟ فقالَ : إنَّكَ واللهِ أنْ تخالطَ أقواماً يخوِّفونَكَ حتَّىٰ يدركَكَ أمنٌ . . خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تصحبَ قوماً يؤمِّنونَكَ حتَّىٰ يدركَكَ الخوفُ[10]

وقالَ أبو سليمان الداراني رحمهُ اللهُ : (ما فارقَ الخوفُ قلباً إلا خربَ)[11]

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هوَ الرجلُ يسرقُ ويزني ؟ قالَ : « لا ، بلِ الرجلُ يصومُ ويصلِّي ويتصدَّقُ ويخافُ ألا يُقبلَ منهُ »[12]

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » بإسناد معضل) . « إتحاف » (٢١١/٩) .

(٣) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (٤٥٨/١) .

(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٥/١٤) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٦) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٩) ، وبنحوه القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٨) .

(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٩) .

(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣٠) .

(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣١) .

(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣٢) .

(١٠) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٣) ، وكان السائل له المغيرة بن مخادش .

(١١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٣٧) .

(١٢) رواه الترمذي (٣١٧٥) ، وابن ماجه (٤١٩٨) .

والتشديداتُ الواردةُ في الأمنِ مِنْ مكرِ اللهِ وعذابِهِ لا تنحصرُ ، وكلُّ ذلكَ ثناءٌ على الخوفِ ؛ لأنَّ مذمَّةَ الشيءِ ثناءٌ علىٰ ضدِّهِ الذي ينفيهِ ، وضدُّ الخوفِ الأمنُ ؛ كما أنَّ ضدَّ الرجاءِ اليأسُ ، وكما دلَّتْ مذمَّةُ القنوطِ علىٰ فضيلةِ الرجاءِ فكذلكَ تدلُّ مذمَّةُ الأمنِ علىٰ فضيلةِ الخوفِ المضادِّ لهُ .

بلْ نقولُ : كلُّ ما وردَ في فضلِ الرجاءِ فهوَ دليلٌ علىٰ فضْلِ الخوفِ ؛ لأنَّهُما متلازمانِ ؛ فإنَّ كلَّ مَنْ رجا محبوباً . . فلا بدَّ وأنْ يخافَ فوتَهُ ، فإنْ كانَ لا يخافُ فوتَهُ . . فهوَ إذاً لا يحبُّهُ ، فلا يكونُ بانتظارِهِ راجياً ، فالخوفُ والرجاءُ متلازمانِ ، يستحيلُ انفكاكُ أحدِهِما عنِ الآخرِ .

نعمْ ؛ يجوزُ أنْ يغلبَ أحدُهُما على الآخرِ وهما مجتمعانِ ، ويجوزُ أنْ يشتغلَ القلبُ بأحدِهِما ولا يلتفتُ إلى الآخرِ في الحالِ لغفلةٍ عنهُ ، وهٰذا لأنَّ مِنْ شرطِ الرجاءِ والخوفِ تعلُّقَهُما بما هوَ مشكوكٌ فيهِ ؛ إذِ المعلومُ لا يُرجىٰ ولا يُخافُ .

فإذاً ؛ المحبوبُ الذي يجوزُ وجودُهُ يجوزُ عدمُهُ لا محالةَ ، فتقديرُ وجودِهِ يروِّحُ القلبَ ، وهوَ الرجاءُ ، وتقديرُ عدمِهِ يوجعُ القلبَ ، وهوَ الخوفُ ، والتقديرانِ يتقابلانِ ـ لا محالةَ ـ إذا كانَ ذلكَ الأمرُ المنتظرُ مشكوكاً فيهِ .

نعمْ ؛ أحدُ طرفَيِ الشكِّ قدْ يترجَّحُ على الآخرِ بحضورِ بعضِ الأسبابِ ، ويُسمَّىٰ ذلكَ ظنّاً ، فيكونُ ذلكَ سببَ غلبةِ أحدِهِما على الآخرِ ، فإذا غلبَ على الظنِّ وجودُ المحبوبِ . . قويَ الرجاءُ وخفيَ الخوفُ بالإضافةِ إليهِ ، وكذا بالعكسِ .

وعلىٰ كلِّ حالٍ فهما متلازمانِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ .

ولذلكَ عبَّرَ العربُ عنِ الخوفِ بالرجاءِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أيْ : لا تخافونَ[1] ، وكثيراً ما وردَ في القرآنِ الرجاءُ بمعنى الخوفِ[2] ، وذلكَ لتلازمِهِما ؛ إذْ عادةُ العربِ التعبيرُ عنِ الشيءِ بما يلازمُهُ .

بلْ أقولُ : كلُّ ما وردَ في فضْلِ البكاءِ مِنْ خشيةِ اللهِ فهوَ إظهارٌ لفضيلةِ الخشيةِ ؛ فإنَّ البكاءَ ثمرةُ الخشيةِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِن عبدٍ مؤمنٍ تخرجُ مِنْ عينيهِ دمعةٌ وإنْ كانَتْ مثلَ رأسِ الذبابِ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ ثمَّ تصيبُ شيئاً مِنْ حُرِّ وجهِهِ . . إلا حرَّمَهُ اللهُ على النارِ »[3]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا اقشعرَّ قلبُ المؤمنِ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ . . تحاتَّتْ عنهُ خطاياهُ كما يتحاتُّ مِنَ الشجرةِ ورقُها »[4]

---

(١) قال الإمام الطبري في « تفسيره » (١١٧/٢٩/١٤) : (وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال : معنىٰ ذلك : ما لكم لا تخافون لله عظمة ، وذلك أن الرجاء قد تضعه العرب إذا صحبه الجحد ـ النفي ـ في موضع الخوف) ، ثم أنشد قول أبي ذؤيب :

إذا لسعته النحل لم يرجُ لسعَها ... وخالفها في بيت نُوبٍ عواسلِ

(٢) ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ، والمعنىٰ فيها : لا يخافون

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٩٧) ، وحُرُّ الوجه : ما أقبل عليك وبدا لك منه .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (١٣٢٢) ، وابن قانع في « معجم الصحابة » (١٤٠٥) من حديث العباس رضي الله عنه ، ولفظه : « إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله عز وجل . . تحاتت خطاياه كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يلجُ النارَ أحدٌ بكىٰ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ حتَّىٰ يعودَ اللبنُ في الضَّرْعِ »[١]

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : ما النجاةُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أمسكْ عليكَ لسانَكَ ، وليسعْكَ بيتُكَ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ »[٢] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنْها : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيدخلُ أحدٌ مِنْ أمَّتِكَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ؟ قالَ : « نعمْ ، مَنْ ذكرَ ذنوبَهُ فبكىٰ »[٣]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ قطرةٍ أحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ قطرةِ دمعٍ مِنْ خشيةِ اللهِ ، أوْ قطرةِ دمٍ أُهريقَتْ في سبيلِ اللهِ سبحانَهُ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني عينينِ هطَّالتينِ تشفيانِ بذروفِ الدمعِ قبلَ أنْ تصيرَ الدموعُ دماً والأضراسُ جمراً »[٥]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » وذكرَ منهُمْ رجلاً ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناهُ[٦]

وقالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ استطاعَ أنْ يبكيَ . . فليبكِ ، ومَنْ لمْ يستطعْ . . فليتباكَ)[٧]

وكانَ محمدُ بنُ المنكدرِ إذا بكىٰ . . مسحَ وجهَهُ ولحيتَهُ مِنْ دموعِهِ ويقولُ : (بلغَني أنَّ النارَ لا تأكلُ موضعاً مسَّتْهُ الدموعُ)[٨]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهُما : (ابكوا ، فإنْ لمْ تبكوا . . فتباكَوا ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ يعلمُ العلمَ أحدُكُمْ . . لصرخَ حتَّىٰ ينقطعَ صوتُهُ ، وصلَّىٰ حتَّىٰ ينكسرَ صلبُهُ)[٩]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (ما تغرغرَتْ عينٌ بمائِها إلا لمْ يرهقْ وجهَ صاحبِها قترٌ ولا ذلةٌ يومَ القيامةِ ، فإنْ سالَتْ دموعُهُ . . أطفأَ اللهُ بأوَّلِ قطرةٍ منها بحاراً مِنَ النيرانِ ، ولوْ أنَّ رجلاً بكىٰ فِي أمَّةٍ ما عُذِّبَتْ تلكَ الأمَّةُ)[١٠] .

وقالَ أبو سليمانَ : (البكاءُ مِنَ الخوفِ ، والرجاءُ والطربُ مِنَ الشوقِ) .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : (والذي نفسي بيدِهِ ؛ لأنْ أبكيَ مِنْ خشيةِ اللهِ حتَّىٰ تسيلَ دموعي علىٰ وجنتي . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بجبلٍ مِنْ ذهبٍ)[١١]

---

(١) رواه الترمذي (١٦٣٣) ، والنسائي (١٢/٦) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٠٦) .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢١٤/٩) : (أغفله العراقي)

(٤) رواه الترمذي (١٦٦٩) .

(٥) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٤٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٩٦/٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٦) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٨٥) ، وقال : (يعني : التضرع) .

(٨) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٧١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/٥٦) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٧٨٦ ، ٧٨٧) عن علي كرم الله وجهه قال : (إذا دمعت عيناك وسالت دموعك علىٰ خدك . . فلا تكفها بثوبك ، وامسح بها وجهك حتىٰ تلقى الله بها) .

(٩) رواه الحاكم في « المستدرك » (٥٧٨/٤) .

(١٠) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢١٥/٩) .

(١١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٦٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٦٦/٥) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمروٍ رضيَ اللهُ عنهما : (لأنْ أدمعَ دمعةً مِنْ خشيةِ اللهِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بألفِ دينارٍ)[1] .

ورُوِيَ عنْ حنظلةَ قالَ : كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فوعظَنا موعظةً رقَّتْ منها القلوبُ ، وذرفَتْ منها العيونُ ، وعرفنا أنفسَنا ، فرجعتُ إلى أهلي ، فدنَتْ منِّي المرأةُ ، وجرىٰ بينَنا مِنْ حديثِ الدنيا ، فنسيتُ ما كنَّا عليهِ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأخذنا في الدنيا ، ثمَّ تذكَّرتُ ما كنتُ فيهِ ، وقلتُ في نفسي : قدْ نافقتُ حيثُ تحوَّلَ عنِّي ما كنتُ فيهِ مِنَ الخوفِ والرقَّةِ ، فخرجتُ وجعلتُ أنادي : نافقَ حنظلةُ ، فاستقبلَني أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : كلا لمْ ينافقْ حنظلةُ ، فدخلتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأنا أقولُ : نافقَ حنظلةُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلا ، لمْ تنافقْ » ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ كنَّا عندَكَ ، فوعظتَنا موعظةً وجلَتْ منها القلوبُ ، وذرفَتْ منها العيونُ ، وعرفنا أنفسَنا ، فرجعتُ إلى أهلي ، فأخذنا في حديثِ الدنيا ، ونسيتُ ما كنَّا عندَكَ عليهِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا حنظلةُ ؛ لوْ أنَّكُمْ كنتُمْ أبداً على تلكَ الحالةِ . . لصافحَتْكُمُ الملائكةُ في الطرقِ وعلى فُرُشِكُمْ ، ولٰكنْ يا حنظلةُ ساعةً وساعةً »[2]

فإذاً ؛ كلُّ ما وردَ في فضْلِ الرجاءِ والبكاءِ ، وفضلِ التقوىٰ والورعِ ، وفضلِ العلمِ ومذمَّةِ الأمنِ . . فهوَ دلالةٌ على فضْلِ الخوفِ ؛ لأنَّ جملةَ ذٰلكَ متعلقةٌ بهِ ، إمَّا تعلُّقَ السببِ ، أوْ تعلُّقَ المسبَّبِ .

* * *

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٨١٦) .
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٠) بألفاظ مقاربة .

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرّجاء أو اعتدالهما

اعلمْ : أنَّ الأخبارَ في فضْلِ الخوفِ والرجاءِ قدْ كثرَتْ ، وربما ينظرُ الناظرُ إليهما فيعتريهِ شكٌّ في أنَّ الأفضلَ أيُّهُما ؟

وقولُ القائلِ : الخوفُ أفضلُ أمِ الرجاءُ . . سؤالٌ فاسدٌ ، يضاهي قولَ القائلِ : الخبزُ أفضلُ أمِ الماءُ ، وجوابُهُ أنْ يُقالَ : الخبزُ أفضلُ للجائعِ ، والماءُ أفضلُ للعطشانِ ، فإنِ اجتمعا . . نُظِرَ إلى الأغلبِ ، فإنْ كانَ الجوعُ أغلبَ . . فالخبزُ أفضلُ وإنْ كانَ العطشُ أغلبَ . . فالماءُ أفضلُ وإنِ استويا . . فهما متساويانِ ، وهاذا لأنَّ كلَّ ما يُرادُ لمقصودٍ ففضلُهُ يظهرُ بالإضافةِ إلىٰ مقصودِهِ لا إلىٰ نفسِهِ .

والخوفُ والرجاءُ دواءانِ تُداوىٰ بهما القلوبُ ، ففضلُهُما بحَسبِ الداءِ الموجودِ ، فإنْ كانَ الغالبُ على القلبِ داءَ الأمنِ مِنْ مكرِ اللهِ والاغترارِ بهِ . . فالخوفُ أفضلُ ، وإنْ كانَ الأغلبُ هوَ اليأسَ والقنوطَ مِنْ رحمةِ اللهِ . . فالرجاءُ أفضلُ ، وكذٰلكَ إنْ كانَ الغالبُ على العبدِ المعصيةَ . . فالخوفُ أفضلُ .

ويجوزُ أنْ يُقالَ مطلقاً : الخوفُ أفضلُ ، على التأويلِ الذي يُقالُ فيهِ : الخبزُ أفضلُ مِنَ السكنجبينِ ، إذْ يُعالجُ بالخبزِ مرضُ الجوعِ ، وبالسكنجبينِ مرضُ الصفراءِ ، ومرضُ الجوعِ أغلبُ وأكثرُ ، فالحاجةُ إلى الخبزِ أكثرُ ، فهوَ أفضلُ ، فبهٰذا الاعتبارِ غلبةُ الخوفِ أفضلُ ؛ لأنَّ المعاصيَ والاغترارَ على الخلقِ أغلبُ .

وإنْ نظرَ إلىٰ مطلعِ الخوفِ والرجاءِ . . فالرجاءُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ مستقىً مِنْ بحرِ الرحمةِ ، ومستقى الخوفِ مِنْ بحرِ الغضبِ ، ومَنْ لاحظَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ما يقتضي اللطفَ والرحمةَ . . كانَتِ المحبَّةُ عليهِ أغلبَ ، وليسَ وراءَ المحبَّةِ مقامٌ ، وأمَّا الخوفُ . . فمستندُهُ الالتفاتُ إلى الصفاتِ التي تقتضي العنفَ ، فلا تمازجُهُ المحبَّةُ ممازجتَها للرجاءِ [1]

وعلى الجملةِ : فما يُرادُ لغيرِهِ ينبغي أنْ يُستعملَ فيهِ لفظُ الأصلحِ ، لا لفظُ الأفضلِ ، فنقولُ : أكثرُ الخلقِ الخوفُ لهُمْ أصلحُ مِنَ الرجاءِ ، وذٰلكَ لأجلِ غلبةِ المعاصي ، فأمَّا التقيُّ الذي تركَ ظاهرَ الإثمِ وباطنَهُ ، وخفيَّهُ وجليَّهُ . . فالأصلحُ أنْ يعتدلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، ولذٰلكَ قيلَ : (لوْ وُزِنَ خوفُ المؤمنِ ورجاؤُهُ . . لاعتدلا) [2]

ورُوِيَ أنَّ علياً رضيَ اللهُ عنهُ قالَ لبعضِ ولدِهِ : (يا بنيَّ ؛ خفِ اللهَ خوفاً ترىٰ أنَّكَ إنْ أتيتَهُ بحسناتِ أهلِ الأرضِ . . لمْ يتقبلْها منكَ ، وارجُ اللهَ رجاءً ترىٰ أنَّكَ إنْ أتيتَهُ بسيئاتِ أهلِ الأرضِ . . غفرَها لكَ) [3]

---

(١) وممن نظر إلى المطلع صالح بن عبد الكريم ، فقد أورد الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣٥) أنه قال : إن الرجاء والخوف في القلب لهما نوران ، فقيل : أيهما أشد ضياء ؟ قال : الرجاء ، فبلغ ذٰلك أبا سليمان ، فقال أبو سليمان : يا سبحان الله !! ما أعجب هٰذا الكلام !! الخوف يتشعب منه التقوىٰ والصوم والصلاة وأعمال البر ، والرجاء لا يتشعب منه هٰذه الخصال ، فكيف يكون أشد ضياء ؟! فبلغ ذٰلك صالحاً ، فقال : صدق أبو سليمان ، ولٰكن الرجاء رجع إلىٰ كرمه ، فصار أشد ضياء .

(٢) أورده كل من أبي النصر الطوسي في « اللمع » (ص ٩١) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٢٧) ، والسلمي في « درجات المعاملات » (ص ١٦٨) مرفوعاً ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٨/٢) من كلام مطرف بن عبد الله الشخير .

(٣) أورده الآبي في « نثر الدر » (١٩٠/٥) عن الحسن ، ورواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٣٢) عن داوود بن شابور من وصية لقمان لابنه بلفظ : (خف الله خوفاً يحول بينك وبين الرجاء ، وارجه رجاء يحول بينك وبين الخوف) .

ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ نوديَ : ليدخلِ النارَ كلُّ الناسِ إلا رجلاً واحداً . . لرجوتُ أنْ أكونَ أنا ذٰلكَ الرجلَ ، ولوْ نوديَ : ليدخلِ الجنَّةَ كلُّ الناسِ إلا رجلاً واحداً . . لخشيتُ أنْ أكونَ أنا ذٰلكَ الرجلَ)[١] ، وهٰذهِ عبارةٌ عنْ غايةِ الخوفِ والرجاءِ ، واعتدالِهما معَ الغلبةِ والاستيلاءِ ، ولٰكنْ علىٰ سبيلِ التقاومِ والتساوي ، فمثلُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ينبغي أنْ يساويَ خوفَهُ رجاؤُهُ ، فأمَّا العاصي إذا ظنَّ أنَّهُ الرجلُ الذي استثنيَ مِنَ الذينَ أُمروا بدخولِ النارِ . . كانَ ذٰلكَ دليلاً علىٰ اغترارِهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : مثلُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ لا ينبغي أنْ يتساوىٰ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، بلْ ينبغي أنْ يغلبَ رجاؤُهُ كما سبقَ في أوَّلِ كتابِ الرجاءِ ، وأنَّ قوَّتَهُ ينبغي أنْ تكونَ بحسَبِ قوَّةِ أسبابِهِ كما مُثِّلَ بالبذرِ والزرعِ ، ومعلومٌ أنَّ مَنْ بثَّ البذرَ الصحيحَ في أرضٍ نقيَّةٍ وواظبَ علىٰ تعهُّدِها ، وجاءَ بجميعِ شروطِ الزراعةِ . . غلبَ علىٰ قلبِهِ رجاءُ الإدراكِ ، ولمْ يكنْ خوفُهُ مساوياً لرجائِهِ ، فهٰكذا ينبغي أنْ تكونَ أحوالُ المتقينَ .

فاعلمْ : أنَّ مَنْ يأخذُ المعارفَ مِنَ الألفاظِ والأمثلةِ . . يكثرُ زللُهُ ، وذٰلكَ وإنْ أوردناهُ مثالاً ، فليسَ يضاهي ما نحنُ فيهِ مِنْ كلِّ وجهٍ ؛ لأنَّ سببَ غلبةِ الرجاءِ العلمُ الحاصلُ بالتجربةِ ، إذْ علمَ بالتجربةِ صحَّةَ الأرضِ ونقاءَها ، وصحَّةَ البذْرِ ، وصحَّةَ الهواءِ ، وقلَّةَ الصواعقِ المهلكةِ في تلكَ البقاعِ وغيرِها ، وإنَّما مثالُ مسألتِنا بذرٌ لمْ يُجرَّبْ جنسُهُ ، وقدْ بُثَّ في أرضٍ غريبةٍ لمْ يعهدْها الزارعُ ولمْ يختبرْها ، وهيَ في بلادٍ ليسَ يُدرىٰ أتكثرُ الصواعقُ بها أمْ لا ، فمثلُ هٰذا الزارعِ وإنْ أدَّىٰ كنْهَ مجهودِهِ وجاءَ بكلِّ مقدورِهِ فلا يغلبُ رجاؤُهُ علىٰ خوفِهِ .

والبذْرُ في مسألتِنا هوَ الإيمانُ ، وشروطُ صحَّتِهِ دقيقةٌ ، والأرضُ القلبُ ، وخفايا خبثِهِ وصفائِهِ مِنَ الشركِ الخفيِّ والنفاقِ والرياءِ ، وخبايا الأخلاقِ فيهِ غامضةٌ ، والآفاتُ هيَ الشهواتُ وزخارفُ الدنيا ، والتفاتُ القلبِ إليها في مستقبلِ الزمانِ وإنْ سلمَ في الحالِ ، وذٰلكَ ممَّا لا يُتحقَّقُ ولا يُعرفُ بالتجربةِ ؛ إذْ قدْ يعرضُ مِنَ الأسبابِ ما لا يُطاقُ مخالفتُهُ ، ولمْ يُجرَّبْ مثلُهُ ، والصواعقُ هيَ أهوالُ سكراتِ الموتِ ، واضطرابُ الاعتقادِ عندَهُ ، وذٰلكَ ممَّا لمْ يُجرَّبْ مثلُهُ ، ثمَّ الحصادُ والإدراكُ عندَ المنصرَفِ مِنَ القيامةِ إلى الجنَّةِ ، وذٰلكَ لمْ يُجرَّبْ .

فمَنْ عرفَ حقائقَ هٰذهِ الأمورِ ؛ فإنْ كانَ ضعيفَ القلبِ ، جباناً في نفسِهِ . . غلبَ خوفُهُ علىٰ رجائِهِ لا محالةَ ، كما سنحكي في أحوالِ الخائفينَ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ ، وإنْ كانَ قويَّ القلبِ ، ثابتَ الجأشِ ، تامَّ المعرفةِ . . استوىٰ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، فأمَّا أنْ يغلبَ رجاؤُهُ . . فلا .

❀ ❀ ❀

ولقدْ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يبالغُ في تفتيشِ قلبِهِ ، حتَّىٰ كانَ يسألُ حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ هلْ يعرفُ بهِ مِنْ آثارِ النفاقِ شيئاً ، إذْ كانَ قدْ خصَّهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعلمِ المنافقينَ ، فمَنْ ذا الذي يقدرُ علىٰ تطهيرِ قلبِهِ مِنْ خفايا النفاقِ والشركِ الخفيِّ ؟ وإنِ اعتقدَ نقاءَ قلبِهِ عنْ ذٰلكَ . . فمِنْ أينَ يأمنُ مكرَ اللهِ تعالىٰ بتلبيسِ حالِهِ عليهِ ، وإخفاءِ عيبِهِ عنهُ ؟ وإنْ وثقَ بهِ . . فمِنْ أينَ يثقُ ببقائِهِ علىٰ ذٰلكَ إلىٰ تمامِ حسنِ الخاتمةِ ؟

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥٣/١) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجنَّةِ خمسينَ سنةً ، حتَّىٰ لا يبقىٰ بينَهُ وبينَ الجنَّةِ إلا شبرٌ ـ وفي روايةٍ : إلا قدْرُ فُواقِ ناقةٍ ـ فيسبقُ عليهِ الكتابُ ، فيُختمُ لهُ بعملِ أهلِ النارِ »[1] ، وقدْرُ فواقِ الناقةِ لا يحتملُ عملاً بالجوارحِ ، إنَّما هوَ بمقدارِ خاطرٍ يختلجُ في القلبِ عندَ الموتِ ، فيقتضي خاتمةَ السوءِ ، فكيفَ يُؤمنُ ذٰلكَ ؟!

فإذاً ؛ أقصىٰ غاياتِ المؤمنِ أنْ يعتدلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، وأمَّا غلبةُ الرجاءِ في غالبِ الناسِ يكونُ مستندُهُ الاغترارَ وقلَّةَ المعرفةِ ، ولذٰلكَ جمعَ اللهُ تعالىٰ بينَهُما في وصفِ مَنْ أثنىٰ عليهِمْ ، فقالَ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ، وأينَ مثلُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ؟!

فالخلقُ الموجودونَ في هٰذا الزمانِ كلُّهُمُ الأصلحُ لهُمْ غلبةُ الخوفِ ، بشرطِ ألا يخرجَهُمْ إلى اليأسِ وتركِ العملِ ، وقطعِ الطمعِ مِنَ المغفرةِ ، فيكونُ ذٰلكَ سبباً للتكاسلِ عنِ العملِ ، وداعياً إلى الانهماكِ في المعاصي ، فإنَّ ذٰلكَ قنوطٌ وليسَ بخوفٍ ، إنَّما الخوفُ هوَ الذي يحثُّ على العملِ ، ويكدِّرُ جميعَ الشهواتِ ، ويزعجُ القلبَ عنِ الركونِ إلى الدنيا ، ويدعوهُ إلى التجافي عنْ دارِ الغرورِ ، فهوَ الخوفُ المحمودُ ، دونَ حديثِ النفسِ الذي لا يؤثِّرُ في الكفِّ والحثِّ ، ودونَ اليأسِ الموجبِ للقنوطِ .

وقدْ قالَ يحيى بنُ معاذٍ : (مَنْ عبَدَ اللهَ تعالىٰ بمحضِ الخوفِ . . غرقَ في بحارِ الأفكارِ ، ومَنْ عبدَهُ بمحضِ الرجاءِ . . تاهَ في مفازةِ الاغترارِ ، ومَنْ عبدَهُ بالخوفِ والرجاءِ . . استقامَ في محجَّةِ الأذكارِ)[2]

وقالَ مكحولٌ النسفيُّ : (مَنْ عبدَ اللهَ بالخوفِ . . فهوَ حروريٌّ ، ومَنْ عبدَهُ بالرجاءِ . . فهوَ مرجئٌ ، ومَنْ عبدَهُ بالمحبَّةِ . . فهوَ زنديقٌ ، ومَنْ عبدَهُ بالخوفِ والرجاءِ والمحبةِ . . فهوَ موحِّدٌ)[3]

فإذاً ؛ لا بدَّ مِنَ الجمعِ بينَ هٰذهِ الأمورِ ، وغلبةُ الخوفِ هوَ الأصلحُ ، ولٰكنْ قبلَ الإشرافِ على الموتِ ، فأمَّا عندَ الموتِ . . فالأصلحُ غلبةُ الرجاءِ وحسنُ الظنِّ ؛ لأنَّ الخوفَ جارٍ مَجرى السوطِ الباعثِ على العملِ ، وقدِ انقضىٰ وقتُ العملِ ، فالمشرفُ على الموتِ لا يقدرُ على العملِ ، ثمَّ لا يطيقُ أسبابَ الخوفِ ، فإنَّ ذٰلكَ يقطعُ نياطَ قلبِهِ ، ويعينُ علىٰ تعجيلِ موتِهِ ، وأمَّا رَوْحُ الرجاءِ . . فإنَّهُ يقوي قلبَهُ ، ويحبِّبُ إليهِ ربَّهُ الذي إليهِ رجاؤُهُ .

ولا ينبغي أنْ يفارقَ أحدٌ الدنيا إلا محبّاً للهِ تعالىٰ ؛ ليكونَ محبّاً للقاءِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، والرجاءُ تقارنُهُ المحبَّةُ ، فمَنِ ارتجىٰ كرمَهُ . . فهوَ محبوبٌ ، والمقصودُ مِنَ العلومِ والأعمالِ كلِّها معرفةُ اللهِ ، حتَّىٰ تثمرَ المعرفةُ المحبَّةَ ، فإنَّ المصيرَ إليهِ ، والقدومَ بالموتِ عليهِ ، ومَنْ قدمَ علىٰ محبوبِهِ . . عظمَ سرورُهُ بقدْرِ محبَّتِهِ ، ومَنْ فارقَ محبوبَهُ . . اشتدَّتْ محنتُهُ وعذابُهُ .

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٢٦) ، وهو عند مسلم (٢٦٥١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، ولفظه : « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٢٤٦٩) وفيه : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة . . . » ، وليس فيه ذكر الشبر والفواق ، بل فيه ذكر الذراع كما هو عند البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

(٢) قوت القلوب (١/٢٤٢)

(٣) كذا في « القوت » (١/٢٤٢) حيث قال : (وقال مكحول النسفي رحمه الله تعالىٰ في معناه ـ أي : معنىٰ قول يحيى بن معاذ السابق ـ إلا أنه جاوز فيه الحد . . .) وذكره ، ووقع في (أ) : (الشامي) ، وفي (س) : (الدمشقي) بدل (النسفي) ، وتصدىٰ لبيان هٰذه العبارة الإمام تقي الدين السبكي في « فتاويه » (٢/٥٥٥) ، وأورد الإمام أبو عبد الرحمٰن السلمي في « تفسيره » (٢/١٣٨) عن أحمد بن يسع السجزي نحوه .

فمهما كانَ القلبُ الغالبُ عليهِ عندَ الموتِ حبُّ الأهلِ والولدِ والمالِ والمسكنِ والعقارِ والرفقاءِ والأصحابِ . . فهٰذا رجلٌ محابُّهُ كلُّها في الدنيا ، فالدنيا جنَّتُهُ ، إذِ الجنَّةُ عبارةٌ عنِ البقعةِ الجامعةِ لجميعِ المحابِّ ، فموتُهُ خروجٌ مِنَ الجنَّةِ ، وحيلولةٌ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ، ولا يخفىٰ حالُ مَنْ يُحالُ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ .

فأمَّا إذا لمْ يكنْ لهُ محبوبٌ سوى اللهِ تعالىٰ وسوىٰ ذكرِهِ ومعرفتِهِ والفكرِ فيهِ . . فالدنيا وعلائقُها شاغلةٌ لهُ عنِ المحبوبِ ، فالدنيا إذاً سجنُهُ ؛ لأنَّ السجنَ عبارةٌ عنِ البقعةِ المانعةِ للمحبوسِ عنِ الانسراحِ إلىٰ محابِّهِ ، فموتُهُ قدومٌ علىٰ محبوبِهِ وخلاصٌ مِنَ السجنِ ، ولا يخفىٰ حالُ مَنْ أفلتَ مِنَ السجنِ وخُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ بلا مانعٍ ولا مكدِّرٍ ، فهٰذا أوَّلُ ما يلقاهُ كلُّ مَنْ فارقَ الدنيا عَقيبَ موتِهِ مِنَ الثوابِ والعقابِ ، فضلاً عمَّا أعدَّهُ اللهُ لعبادِهِ الصالحينَ ممَّا لمْ ترهُ عينٌ ولمْ تسمعْهُ أذنٌ ، ولا خطرَ عَلَىٰ قلْبِ بشرٍ ، وفضلاً عمَّا أعدَّهُ اللهُ تعالىٰ للذينَ استحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ ورضوا بها واطمأنوا إليها ؛ مِنَ الأنكالِ ، والسلاسلِ والأغلالِ ، وضروبِ الخزيِ والنكالِ ، فنسألُ اللهُ تعالىٰ أنْ يتوفَّانا مسلمينَ ، ويلحقَنا بالصالحينَ .

ولا مطمعَ في إجابةِ هٰذا الدعاءِ إلا باكتسابِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، ولا سبيلَ إليهِ إلا بإخراجِ حبِّ غيرِهِ مِنَ القلبِ ، وقطعِ العلائقِ عنْ كلِّ ما سوى اللهِ تعالىٰ مِنْ جاهٍ ومالٍ ووطنٍ ، فالأولىٰ أنْ ندعوَ بما دعا بهِ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني حبَّكَ ، وحبَّ مَنْ أحبَّكَ ، وحبَّ ما يقربُني إلىٰ حبِّكَ ، واجعلْ حبَّكَ أحبَّ إليَّ مِنَ الماءِ البارِدِ »[1]

والغرضُ أنَّ غلبةَ الرجاءِ عندَ الموتِ أصلحُ ؛ لأنَّهُ أجلبُ للمحبَّةِ ، وغلبةُ الخوفِ قبلَ الموتِ أصلحُ ؛ لأنَّهُ أحرقُ لنارِ الشهواتِ ، وأقمعُ لمحبَّةِ الدنيا عنِ القلبِ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يموتنَّ أحدُكُمْ إلا وهوَ يحسنُ الظنَّ بربِّهِ »[2]

وقالَ تعالىٰ : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ »[3]

ولمَّا حضرَتْ سليمانَ التيميَّ الوفاةُ . . قالَ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ حدِّثْني بالرُّخَصِ ، واذكرْ ليَ الرجاءَ ؛ حتَّىٰ ألقى اللهَ علىٰ حسنِ الظنِّ بهِ)[4]

وكذٰلكَ لمَّا حضرَتِ الثوريَّ الوفاةُ واشتدَّ جزعُهُ . . جمعَ العلماءَ حولَهُ يُرجُّونَهُ[5]

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ لابنِهِ عندَ الموتِ : (اذكرْ ليَ الأخبارَ التي فيها الرجاءُ وحسنُ الظنِّ)[6]

والمقصودُ مِنْ ذٰلكَ كلِّهِ أنْ يحبِّبَ اللهَ إلىٰ نفسِهِ .

ولذٰلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : أنْ حبِّبْني إلىٰ عبادي ، فقالَ : بماذا ؟ قالَ : بأنْ تذكِّرَهُمْ آلائي ونعمائي[7]

---

(١) وكان من دعاء داوود علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، كما روىٰ ذٰلك الترمذي (٣٤٩٠) .

(٢) رواه مسلم (٨٢/٢٨٧٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٩١/٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٣) ، وأصله في « الصحيحين » .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١/٣) .

(٥) قوت القلوب (٢١٩/١) .

(٦) قوت القلوب (٢١٩/١) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢/٦) ، ولٰكن عنده مما أوحى الله إلىٰ موسىٰ عليه السلام .

فإذاً ؛ غايةُ السعادةِ أنْ يموتَ العبدُ محبّاً للهِ تعالىٰ ، وإنَّما تحصلُ المحبَّةُ بالمعرفةِ ، وبإخراجِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، حتَّىٰ تصيرَ الدنيا كالسجنِ المانعِ مِنَ المحبوبِ .

ولذٰلكَ رأىٰ بعضُ الصالحينَ أبا سليمانَ الدارانيَّ في المنامِ وهوَ يطيرُ ، فسألَهُ ، فقالَ : الآنَ أفلتُّ ، فلمَّا أصبحَ . . سألَ عنْ حالِهِ ، فقيلَ لهُ : إنَّهُ ماتَ البارحةَ .

* * *

بيان الدواء الذي به يُستجلب حال الخوف

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ في دواءِ الصبرِ ، وشرحناهُ في كتابِ الصبرِ والشكرِ . . هوَ كافٍ في هـٰذا الغرضِ ؛ لأنَّ الصبرَ لا يمكنُ إلا بعدَ حصولِ الخوفِ والرجاءِ ؛ لأنَّ أوّلَ مقاماتِ الدينِ اليقينُ الذي هوَ عبارةٌ عنْ قوّةِ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ والجنةِ والنارِ ، وهـٰذا اليقينُ بالضرورةِ يهيّجُ الخوفَ مِنَ النارِ ، والرجاءَ للجنَّةِ ، والخوفُ والرجاءُ يقوّيانِ على الصبرِ ؛ فإنَّ الجنَّةَ قدْ حُفَّتْ بالمكارهِ ، فلا يُصبرُ علىٰ تحمُّلِها إلا بقوّةِ الرجاءِ ، والنارُ قدْ حُفَّتْ بالشهواتِ ، فلا يُصبرُ علىٰ قمعِها إلا بقوّةِ الخوفِ .

ولذٰلكَ قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنِ اشتاقَ إلى الجنَّةِ . . سلا عنِ الشهواتِ ، ومَنْ أشفقَ مِنَ النارِ . . رجعَ عنِ المحرَّماتِ) .

ثمَّ يؤدي مقامُ الصبرِ المستفادُ مِنَ الخوفِ والرجاءِ إلىٰ مقامِ المجاهدةِ ، والتجرُّدِ لذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والفكرِ فيهِ على الدوامِ ، ويؤدي دوامُ الذكرِ إلى الأنسِ ، ودوامُ الفكرِ إلىٰ كمالِ المعرفةِ ، ويؤدِّي كمالُ المعرفةِ والأنسُ إلى المحبَّةِ ، ويتبعُها مقامُ الرضا والتوكُّلِ ، وسائرُ المقاماتِ .

فهـٰذا هوَ الترتيبُ في سلوكِ منازلِ الدينِ ، وليسَ بعدَ أصلِ اليقينِ مقامٌ سوى الخوفِ والرجاءِ ، ولا بعدَهُما مقامٌ سوى الصبرِ ، وبهِ المجاهدةُ والتجرُّدُ للهِ باطناً وظاهراً ، ولا مقامَ بعدَ المجاهدةِ لمَنْ فُتِحَ لهُ الطريقُ إلا الهدايةُ والمعرفةُ ، ولا مقامَ بعدَ المعرفةِ إلا المحبةُ والأنسُ ، ومِنْ ضرورةِ المحبَّةِ الرضا بفعلِ المحبوبِ ، والثقةُ بعنايتِهِ ، وهوَ التوكُّلُ .

فإذاً ؛ فيما ذكرنا في علاجِ الصبرِ كفايةٌ ، ولـٰكنَّا نفردُ الخوفَ بكلامٍ جُمَلِيٍّ فنقولُ :

الخوفُ يحصلُ بطريقينِ مختلفينِ ، أحدُهُما أعلىٰ مِنَ الآخرِ ، ومثالُهُ : أنَّ الصبيَّ إذا كانَ في بيتٍ ، فدخلَ عليهِ سبُعٌ أوْ حيَّةٌ . . ربما كانَ لا يخافُ ، وربما مدَّ اليدَ إلى الحيَّةِ ليأخذَها ويلعبَ بها ، ولـٰكنْ إذا كانَ معَهُ أبوُه وهوَ عاقلٌ . . خافَ مِنَ الحيَّةِ وهربَ منها ، فإذا نظرَ الصبيُّ إلىٰ أبيهِ وهوَ ترتعدُ فرائصُهُ ، ويحتالُ في الهربِ . . قامَ معَهُ ، وغلبَ عليهِ الخوفُ ، ووافقَهُ في الهربِ ، فخوفُ الأبِ عنْ بصيرةٍ ومعرفةٍ بصفةِ الحيَّةِ وسمِّها وخاصيَّتِها ، وسطوةِ السبعِ وبطشِهِ وقلَّةِ مبالاتِهِ ، وأمَّا خوفُ الابنِ . . فإيمانٌ بمجرَّدِ التقليدِ ؛ لأنَّهُ يحسنُ الظنَّ بأبيهِ ، ويعلمُ أنَّهُ لا يخافُ إلا مِنْ سببٍ مَخُوفٍ في نفسِهِ ، فيعلمُ أنَّ السبعَ مَخُوفٌ ، ولا يعرفُ وجهَهُ .

فإذا عرفتَ هـٰذا المثالَ . . فاعلمْ أنَّ الخوفَ مِنَ اللهِ تعالىٰ علىٰ مقامينِ :

أحدُهُما : الخوفُ مِنْ عذابِهِ .

والثاني : الخوفُ منهُ في ذاتِهِ .

فأمَّا الخوفُ منهُ . . فهوَ خوفُ العلماءِ وأربابِ القلوبِ العارفينَ مِنْ صفاتِهِ ما يقتضي الهيبةَ والخوفَ والحذرَ ، المطَّلعينَ علىٰ سرِّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ .

فأمَّا الأوَّلُ : فهوَ خوفُ عمومِ الخلقِ ، وهوَ حاصلٌ بأصلِ الإيمانِ بالجنَّةِ والنارِ ، وكونِهِما جزاءينِ على الطاعةِ والمعصيةِ ، وضعفُهُ بسببِ الغفلةِ ، وبسببِ ضعفِ الإيمانِ ، وإنَّما تزولُ الغفلةُ بالوعظِ والتذكيرِ ، وملازمةِ الفكرِ في

أهوالِ القيامةِ وأصنافِ العذابِ في الآخرةِ ، وتزولُ أيضاً بالنظرِ إلى الخائفينَ ومجالستِهِمْ ، ومشاهدةِ أحوالِهِمْ ، فإنْ فاتَتِ المشاهدةُ . . فالسماعُ لا يخلو عنْ تأثيرٍ .

وأمَّا الثاني وهوَ الأعلىٰ : فأنْ يكونَ اللهُ تعالىٰ هوَ المَخُوفَ ؛ أعني : أنْ يخافَ البعدَ والحجابَ عنهُ ، ويرجوَ القربَ منهُ ، قالَ ذو النونِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (خوفُ النارِ عندَ خوفِ الفراقِ كقطرةٍ قُطِرَتْ في بحرٍ لجّيّ)[1] ، وهـٰذهِ خشيةُ العلماءِ ، حيثُ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

ولعمومِ المؤمنينَ أيضاً حظٌّ مِنْ هـٰذهِ الخشيةِ ، ولـٰكنْ هوَ بمجرَّدِ التقليدِ ، يضاهي خوفَ الصبيِّ مِنَ الحيَّةِ تقليداً لأبيهِ ، وذلكَ لا يستندُ إلىٰ بصيرةٍ ، فلا جرمَ يضعفُ ويزولُ عنْ قربٍ ، حتَّىٰ إنَّ الصبيَّ ربما يرى المعزِّمَ يقدمُ علىٰ أخذِ الحيَّةِ ، فينظرُ إليهِ ويغترُّ بهِ ، فيتجرأُ علىٰ أخذِها تقليداً لهُ ، كما احترزَ مِنْ أخذِها تقليداً لأبيهِ ، والعقائدُ التقليديَّةُ ضعيفةٌ في الغالبِ ، إلا إذا قويَتْ بمشاهدةِ أسبابِها المؤكدةِ لها على الدوامِ ، وبالمواظبةِ علىٰ مقتضاها في تكثيرِ الطاعاتِ واجتنابِ المعاصي مدَّةً طويلةً على الاستمرارِ .

فإذاً ؛ مَنِ ارتقىٰ إلىٰ ذروةِ المعرفةِ ، وعرفَ اللهَ تعالىٰ . . خافَهُ بالضرورةِ ، فلا يحتاجُ إلىٰ علاجٍ لجلبِ الخوفِ ، كما أنَّ مَنْ عرفَ السبعَ ورأىٰ نفسَهُ واقعاً في مخالبِهِ لا يحتاجُ إلىٰ علاجٍ ليجلبَ الخوفَ إلىٰ قلبِهِ ، بلْ يخافُهُ بالضرورةِ شاءَ أمْ أبىٰ .

ولـذلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : (خفْني كما تخافُ السبعَ الضاريَ)[2] ، ولا حيلةَ في جلْبِ الخوفِ مِنَ السبعِ الضاري إلا معرفةُ السبعِ ، ومعرفةُ الوقوعِ في مخالبِهِ ، فلا يحتاجُ إلىٰ حيلةٍ سواهُ ، فمَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ . . عرفَ أنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ ولا يبالي ، ويحكمُ ما يريدُ ولا يخافُ[3] ، قرَّبَ الملائكةَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ سابقةٍ ، وأبعدَ إبليسَ مِنْ غيرِ جريمةٍ سالفةٍ ، بلْ صفتُهُ ما ترجمَهُ قولُهُ تعالىٰ : « هـٰؤلاءِ في الجنَّةِ ولا أبالي ، وهـٰؤلاءِ في النارِ ولا أبالي »[4]

وإنْ خطرَ ببالِكَ أنَّهُ لا يعاقبُ إلا علىٰ معصيةٍ ، ولا يثيبُ إلا علىٰ طاعةٍ . . فتأمَّلْ أنَّهُ لِمَ يمدُّ المطيعَ بأسبابِ الطاعةِ حتَّىٰ يطيعَ شاءَ أم أبىٰ ؟ ولِمَ يمدُّ العاصيَ بدواعي المعصيةِ حتَّىٰ يعصيَ شاءَ أمْ أبىٰ ؟ فإنَّهُ مهما خلقَ الغفلةَ والشهوةَ والقدرةَ علىٰ قضاءِ الشهوةِ . . كانَ الفعلُ واقعاً بها بالضرورةِ ، فإنْ كانَ أبعدَهُ لأنَّهُ عصاهُ . . فلِمَ حملَهُ على المعصيةِ ؟

هلْ ذلكَ لمعصيةٍ سابقةٍ حتَّىٰ يتسلسلَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ؟! أوْ يقفَ ـ لا محالةَ ـ علىٰ أوَّلَ لا علَّةَ لهُ مِنْ جهةِ العبدِ ، بلْ قُضِيَ عليهِ في الأزلِ ؟

وعنْ هـٰذا المعنىٰ عبَّرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « احتجَّ آدمُ وموسىٰ عليهما الصلاةُ والسلامُ عندَ ربِّهما ، فحجَّ

---

(١) أورده أبو طالب في « القوت » (٢٢٥/١) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٣٠) وزاد : (ولا أعلم شيئاً أحمد للقلب من خوف الفراق) .

(٢) قوت القلوب (٢٤١/١) .

(٣) إذ قال من إليه الرهبوت والرغبوت : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١٨٦/٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمـٰن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٢٣/٩) : (لـٰكن يشترط في هـٰذه المعرفة أن يكون الفكر فيها بإمعان ، فإنه هو المستجلب للخوف ، وإلا . . فالفكر الخفيف لا ينضج قساوة القلب ، أرأيت لو أوقدت ناراً تحت قدر ثم أخمدت قبل الإنضاج ، ثم أوقدت ، ثم أخمدت . . ففي الوقود وما حصل الإنضاج ، فلا بد من الإقبال بكنه الهمة على الفكر المحتاج إليه حتىٰ ينضج القلب على الفور ؛ لئلا يفنى الزمان ولا يتحصل المقصود) .

آدمُ موسىٰ ، قالَ موسىٰ : أنتَ آدمُ الذي خلقَكَ اللهُ بيدِهِ ، ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ ، وأسجدَ لكَ ملائكتَهُ ، وأسكنَكَ جنَّتَهُ ، ثمَّ أهبطتَ الناسَ بخطيئتِكَ إلى الأرضِ ؟ فقالَ آدمُ : أنتَ موسى الذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ وبكلامِهِ ، وأعطاكَ الألواحَ فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ ، وقرَّبَكَ نجيّاً ، فبِكَمْ وجدتَ اللهَ كتبَ التوراةَ قبلَ أنْ أُخلقَ ؟ قالَ موسىٰ : بأربعينَ عاماً ، قالَ آدمُ : فهلْ وجدتَ فيها : وعصىٰ آدمُ ربَّهُ فغوىٰ ، قالَ : نعمْ ، قالَ : أفتلومُني علىٰ أنْ عملتُ عملاً كتبَهُ اللهُ عليَّ قبلَ أنْ أعملَهُ قبلَ أنْ يخلقَني بأربعينَ سنةً ؟! قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : فحجَّ آدمُ موسىٰ ، فحجَّ آدمُ موسىٰ »[1]

فمَنْ عرفَ السببَ في هٰذا الأمرِ معرفةً صادرةً عنْ نورِ الهدايةِ . . فهوَ مِنْ خصوصِ العارفينَ المطلعينَ علىٰ سرِّ القدرِ ، ومَنْ سمعَ هٰذا فآمنَ بهِ وصدَّقَ بمجرَّدِ السماعِ . . فهوَ مِنْ عمومِ المؤمنينَ ، ويحصلُ لكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقينِ خوفٌ ، فإنَّ كلَّ عبدٍ فهوَ واقعٌ في قبضةِ القدرةِ وقوعَ الصبيِّ الضعيفِ في مخالبِ السبعِ ، والسبعُ قدْ يغفُلُ بالاتفاقِ فيخلِّيهِ ، وقدْ يهجمُ عليهِ فيفترسُهُ ، وذٰلك بحسَبِ ما يتفقُ ، ولذٰلكَ الاتفاقِ أسبابٌ مرتبةٌ بقدَرٍ معلومٍ ، لٰكنْ إذا أُضيفَ إلىٰ مَنْ لا يعرفُهُ . . سُمِّيَ اتفاقاً ، وإنْ أُضيفَ إلىٰ علمِ اللهِ . . لمْ يجزْ أنْ يُسمَّى اتفاقاً ، والواقعُ في مخالبِ السبعِ لوْ كملَتْ معرفتُهُ . . لكانَ لا يخافُ السبعَ ؛ لأنَّ السبعَ مسخَّرٌ ؛ إنْ سلَّطَ عليهِ الجوعَ . . افترسَ ، وإنْ سلَّطَ عليهِ الغفلةَ . . خلَّىٰ وتركَ ، فإنَّما يُخافُ خالقُ السبعِ وخالقُ صفاتِهِ ، فلستُ أقولُ : (مثالُ الخوفِ مِنَ اللهِ تعالى الخوفُ مِنَ السبعِ) ، بلْ إذا كُشفَ الغطاءُ . . عُلمَ أنَّ الخوفَ مِنَ السبعِ هوَ عينُ الخوفِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، لأنَّ المهلِكَ بواسطةِ السبعِ هوَ اللهُ تعالىٰ .

فاعلمْ : أنَّ سباعَ الآخرةِ مثلُ سباعِ الدنيا ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ أسبابَ العذابِ وأسبابَ الثوابِ ، وخلقَ لكلِّ واحدٍ أهلاً ، يسوقُهُ القدرُ المتفرّعُ عنِ القضاءِ الجزمِ الأزليِّ إلىٰ ما خُلِقَ لهُ ، فخلقَ الجنَّةَ وخلقَ لها أهلاً سُخِّروا لأسبابِها شاؤوا أمْ أبَوا ، وخلقَ النارَ وخلقَ لها أهلاً سُخِّروا لأسبابِها شاؤوا أمْ أبَوا ، فلا يرىٰ أحدٌ نفسَهُ في ملتطمِ أمواجِ القدرِ إلا غلبَهُ الخوفُ بالضرورةِ .

فهٰذهِ مخاوفُ العارفينَ بسرِّ القدرِ .

فمَنْ قعدَ بهِ القصورُ عنِ الارتفاعِ إلىٰ يفاعِ الاستبصارِ . . فسبيلُهُ أنْ يعالجَ نفسَهُ بسماعِ الأخبارِ والآثارِ ، فيطالعُ أحوالَ الخائفينَ العارفينَ وأقوالَهُمْ ، وينسبُ عقولَهُمْ ومناصبَهُمْ إلىٰ مناصبِ الراجينَ المغرورينَ ، فلا يتمارىٰ في أنَّ الاقتداءَ بهِمْ أولىٰ ؛ لأنَّهُمُ الأنبياءُ والأولياءُ والعلماءُ ، وأمَّا الآمنونَ . . فهُمُ الفراعنةُ والجهَّالُ والأغبياءُ .

أمَّا رسولُنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فهوَ سيِّدُ الأولينَ والآخرينَ ، وكانَ أشدَّ الناسِ خوفاً ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّهُ كانَ يصلِّي علىٰ طفلٍ ، ففي روايةٍ : أنَّهُ سُمِعَ في دعائِهِ يقولُ : « اللهمَّ ؛ قِهِ عذابَ القبرِ وعذابَ النارِ »[2] ، وفي روايةٍ ثانيةٍ : أنَّهُ سمعَ قائلاً يقولُ : هنيئاً لكَ ، عصفورٌ مِنْ عصافيرِ الجنَّةِ ، فغضبَ وقالَ : « ما يدريكَ أنَّهُ كذٰلكَ ؟! واللهِ ؛ إنِّي رسولُ اللهِ ، وما أدري ما يُصنعُ بي ، إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الجنةَ وخلقَ لها أهلاً ، لا يُزادُ فيهِمْ ، ولا ينقصُ منهُمْ »[3]

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩) ، ومسلم (٢٦٥٢) واللفظ له .

(٢) كذا في « القوت » (٢٢٩/١) وبيَّن أن الطفل كان منفوساً ، وقد روى الطبراني في « الكبير » (١٢١/٤) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه : أن صبياً دفن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أفلت أحد من ضمة القبر . . لأفلت هٰذا الصبي » ، وعنده في « الأوسط » (٢٧٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلىٰ علىٰ صبي أو صبية فقال : « لو كان نجا أحد من ضمة القبر . . لنجا هٰذا الصبي » ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٧٠٨ ، ٣٠٤٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقوم على المنفوس من ولده الذي لم يعمل خطيئة فيقول : (اللهم ؛ أجره من عذاب القبر) ، وفي الرواية الثانية : (اللهم ؛ أجره من عذاب النار) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٢٩/١) ، وروىٰ مسلم (٢٦٦٢) نحوه .

ورويَ أنَّهُ قالَ ذٰلكَ أيضاً علىٰ جنازةِ عثمانَ بنِ مظعونٍ ـ وكانَ مِنَ المهاجرينَ والأوَّلينَ ـ لمَّا قالَتْ أمُّ سلمةَ : هنيئاً لكَ الجنَّةُ ، فكانَتْ تقولُ أمُّ سلمةَ بعدَ ذٰلكَ : واللهِ ؛ لا أزكِّي أحداً بعدَ عثمانَ[1]

وقالَ محمدُ ابنُ خولةَ الحنفيَّةِ : (واللهِ ، لا أزكِّي أحداً غيرَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا أبي الذي ولَدَني) ، قالَ : فثارتِ الشيعةُ عليهِ ، فأخذَ يذكرُ مِنْ فضائلِ عليٍّ ومناقبِهِ[2]

ورُوِيَ في حديثٍ آخرَ : أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الصفَّةِ استشهدَ ، فقالَتْ أمُّهُ : هنيئاً لكَ ، عصفورٌ مِنْ عصافيرِ الجنَّةِ ، هاجرْتَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقُتلتَ في سبيلِ اللهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما يدريكِ ؟! لعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ بما لا ينفعُهُ ، ويمنعُ ما لا يضرُّهُ ؟! »[3]

وفي حديثٍ آخرَ : أنَّهُ دخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ بعضِ أصحابِهِ وهوَ عليلٌ ، فسمعَ امرأةً تقولُ : هنيئاً لكَ الجنَّةُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ هٰذهِ المتألِّيةُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ؟! » فقالَ المريضُ : هيَ أمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ فقالَ : « وما يدريكِ ؟! لعلَّ فلاناً كانَ يتكلَّمُ بما لا يعنيهِ ، ويبخلُ بما لا يغنيهِ »[4]

وكيفَ لا يخافُ المؤمنونَ كلُّهُمْ وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « شيَّبَتْني سورةُ (هودٍ) وأخواتُها ؛ سورةُ (الواقعةِ) ، و(إذا الشمسُ كوِّرتْ) ، و(عمَّ يتساءلونَ) »[5] ، فقالَ العلماءُ : لعلَّ ذاكَ لما في سورةِ (هودٍ) مِنَ الإبعادِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ، معَ علمِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنَّهُ لوْ شاءَ اللهُ . . ما أشركوا ؛ إذْ لوْ شاءَ . . لآتىٰ كلَّ نفسٍ هداها .

وفي سورةِ (الواقعةِ) : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۞ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أيْ : جفَّ القلمُ بما هوَ كائنٌ ، وتمَّتِ السابقةُ ، حتَّىٰ نزلَتِ الواقعةُ ؛ إمَّا خافضةً قوماً كانوا مرفوعينَ في الدنيا ، وإمَّا رافعةً قوماً كانوا مخفوضينَ في الدنيا .

وفي سورةِ (التكويرِ) أهوالُ القيامةِ وانكشافُ الخاتمةِ ، وهوَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

وفي (عمَّ يتساءلونَ) : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾

والقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ مخاوفُ لمَنْ قرأَهُ بتدبُّرٍ ، ولوْ لمْ يكنْ فيهِ إلا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ . . لكانَ كافياً ؛ إذْ علَّقَ المغفرةَ علىٰ أربعةِ شروطٍ يعجزُ العبدُ عنْ آحادِها .

وأشدُّ منهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢٢٩/١) ، ورواه أحمد في « المسند » (٢٣٧/١) ولم يعين المرأة القائلة ، وعنده في « المسند » (٤٣٦/٦) ، والبخاري (٧٠٠٤) والقائلة هي أم العلاء بنت الحارث الأنصارية ، قال ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٥٥٣) بعد رواية الخبر : « اختلفت الروايات في المرأة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ؟ » حين شهدت لعثمان بن مظعون بالجنة ، وقالت له : طبت ، هنيئاً لك الجنة أبا السائب . . على ثلاث نسوة ، فقيل : كانت امرأته أم السائب ، وقيل : أم العلاء الأنصارية وكان نزل عليها ، وقيل : كانت أم خارجة بن زيد) ، وذكر في ترجمة أم العلاء أنها قد تكون أم خارجة ، بل قال ابن حجر في « الإصابة » (٤٥٦/٤) : (وهٰذا ظاهر في أن أم العلاء هي والدة خارجة ـ أحد الرواة ـ المذكور) ، وقال الحافظ العراقي : (ولم أجد فيه ذكر أم سلمة) . « إتحاف » (٢٢٥/٩) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٢٩/١) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤٩/٥٤) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٢٨/١) ، وكان المقتول غلاماً ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٠١٧) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٢٨/١) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٠) والمريض هو كعب بن عجرة رضي الله عنه .

(٥) رواه الترمذي (٣٢٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٤٣/٢) ، وكذا وقعت الرواية هنا بإثبات كلمة (سورة) في جميع النسخ إلا (ق) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا . . . ﴾ الآيتينِ[1]

وقولُهُ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ . . . ﴾ الآيتينِ[2]

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ .

وكذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ . . . ﴾ إلىٰ آخرِ السورةِ ، فهٰذهِ أربعةُ شروطٍ للخلاصِ مِنَ الخسرانِ .

وإنَّما كانَ خوفُ الأنبياءِ معَ ما فاضَ عليهِمْ مِنَ النعمِ لأنَّهُمْ لمْ يأمنوا مكْرَ اللهِ تعالىٰ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وجبريلَ عليهِ السلامُ بكيا خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فأوحى اللهُ إليهما : « لم تبكيانِ وقدْ أمَّنتُكما ؟ فقالا : ومَنْ يأمنُ مكرَكَ ؟! »[3] .

وكأنَّهُما إذْ علما أنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ علَّامُ الغيوبِ ، وأنَّهُ لا وقوفَ لهما علىٰ غايةِ الأمورِ . . لمْ يأمنا أنْ يكونَ قولُهُ : (قدْ أمَّنتُكما) ابتلاءً لهما وامتحاناً ومكراً بهما ، حتَّىٰ إنْ سكنَ خوفُهُما . . ظهرَ أنَّهُما قدْ أمنا مِنَ المكرِ ، وما وفَّيا بقولِهِما

كما أنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ لمَّا وُضِعَ في المنجنيقِ . . قالَ : (حسبيَ اللهُ) ، وكانَتْ هٰذهِ مِنَ الدعاوي العظامِ ، فامتُحنَ وعُورضَ بجبريلَ في الهواءِ ، حتىٰ قالَ : ألكَ حاجةٌ ؟ فقالَ : أمَّا إليكَ . . فلا ، فكانَ ذٰلكَ وفاءً بمقتضىٰ قولِهِ : (حسبيَ اللهُ) ، فأخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ فقالَ : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أيْ : بموجَبِ قولِهِ : (حسبيَ اللهُ)[4]

وبمثلِ هٰذا أخبرَ عنْ موسىٰ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۞ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ

---

(١) إذ قال بعدها سبحانه : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ .

(٢) إذ بعدها : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

(٣) كذا في « القوت » (٢٢٩/١) ، ورواه ضمن خبر طويل الطبراني في « الأوسط » (٢٦٠٤) ، وزاد الحافظ العراقي : (وابن شاهين في « شرح السنة » من حديث عمر ، ورويناه في مجلس من « أمالي أبي سعيد النقاش » بسند ضعيف) . « إتحاف » (٢٢٧/٩) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٢٩/١) ، وقال بعده : (ولأن الله تعالىٰ لا يدخل تحت الأحكام ، ولا يلزمه ما حكم به على الأنام ، ولا يختبر صدقه سبحانه وتعالىٰ ، ولا يجوز أن يوصف بضد الصدق وإن بدل الكلم هو بتبديل منه ؛ لأن كلامه قائم به ، فله أن يبدل ما شاء وهو الصادق في الكلامين ، العادل في الحكمين ، الحاكم في الحالين ؛ لأنه حاكم عليه ولا حكم يلزمه فيه ؛ لأنه قد جاوز العلوم والعقول التي هي أماكن للحدود من الأمر والنهي ، وفات الرسوم والمعقول التي هي أواسط الأحكام والأقدار) ، والخبر رواه الطبري في « تفسيره » (٦٠/١٧/١٠) ، وهو عند الحكيم في « نوادر الأصول » (ص ٤) .

أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، ومع هٰذا لمَّا ألقى السحرةُ سحرَهُمْ . . أوجسَ موسىٰ في نفسِهِ خيفةً ؛ إذْ لمْ يأمنْ مكرَ اللهِ ، والتبسَ الأمرُ عليهِ ، حتَّىٰ جُدِّدَ عليهِ الأمنُ وقيلَ لهُ : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1]

ولمَّا ضعفَتْ شوكةُ المسلمينَ يومَ بدرٍ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ إنْ تهلكْ هٰذهِ العصابةُ . . لمْ يبقَ علىٰ وجهِ الأرضِ أحدٌ يعبدُكَ » ، فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دعْ عنكَ مناشدتَكَ ربَّكَ ، فإنَّهُ وافٍ لكَ بما وعدَكَ[2] ، فكانَ مقامُ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ مقامَ الثقةِ بوعدِ اللهِ ، وكانَ مقامُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مقامَ الخوفِ مِنْ مكرِ اللهِ ، وهوَ أتمُّ ؛ لأنَّهُ لا يصدرُ إلا عنْ كمالِ المعرفةِ بأسرارِ اللهِ تعالىٰ وخفايا أفعالِهِ ، ومعاني صفاتِهِ التي يُعبَّرُ عنْ بعضِ ما يصدرُ عنها بالمكْرِ ، وما لأحدٍ مِنَ البشرِ الوقوفُ علىٰ كنْهِ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

ومَنْ عرفَ حقيقةَ المعرفةِ قصورَ معرفتِهِ عنِ الإحاطةِ بكنْهِ الأمورِ . . عَظُمَ خوفُهُ لا محالةَ ، ولذٰلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا قيلَ لهُ : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ . . . ﴾ الآيةَ[3] ، فوَّضَ الأمرَ إلى المشيئةِ ، وأخرجَ نفسَهُ بالكلِّيَّةِ مِنَ البينِ ؛ لعلمِهِ بأنَّهُ ليسَ لهُ مِنَ الأمرِ شيءٌ ، وأنَّ الأمورَ مرتبطةٌ بالمشيئةِ ارتباطاً يخرجُ عنْ حدِّ المعقولاتِ والمألوفاتِ ، فلا يمكنُ الحكمُ عليها بقياسٍ ، ولا حدسٍ وحسبانٍ ، فضلاً عنِ التحقيقِ والاستيقانِ .

وهٰذا هوَ الذي قطَّعَ قلوبَ العارفينَ ؛ إذِ الطامَّةُ الكبرىٰ هيَ ارتباطُ أمرِكَ بمشيئةِ مَنْ لا يبالي بكَ إنْ أهلكَكَ ، فقدْ أهلكَ مَنْ لا يحصىٰ مِنْ أمثالِكَ ، ولمْ يزلْ في الدنيا يعذِّبُهُمْ بأنواعِ الآلامِ والأمراضِ ، ويمرضُ معَ ذٰلكَ قلوبَهُمْ بالكفرِ والنفاقِ ، ثمَّ يخلِّدُ العقابَ عليهِمْ أبدَ الآبادِ ، ثمَّ يخبرُ عنهُ ويقولُ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . . ﴾ الآيةَ .

فكيفَ لا يُخافُ ما حُقَّ مِنَ القولِ في الأزلِ ولا مطمعَ في تداركِهِ ؟! ولوْ كانَ الأمرُ أُنُفاً . . لكانَتِ الأطماعُ تمتدُّ إلىٰ حيلةٍ فيهِ[4] ، ولٰكنْ ليسَ إلا التسليمُ ، واستقراءُ خفيِّ السابقةِ مِنْ جليِّ الأسبابِ الظاهرةِ على القلبِ والجوارحِ ، فمَنْ يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ الشرِّ ، وحيلَ بينَهُ وبينَ أسبابِ الخيرِ ، وأُحكِمَتْ علاقتُهُ معَ الدنيا . . فكأنَّهُ كُشِفَ لهُ على التحقيقِ سرُّ السابقةِ التي سبقَتْ لهُ بالشقاوةِ ؛ إذْ كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ .

وإنْ كانَتِ الخيراتُ كلُّها ميسَّرةً ، والقلبُ بالكلِّيَّةِ عنِ الدنيا منقطعاً ، وبظاهرِهِ وباطنِهِ على اللهِ تعالىٰ مقبلاً . . كانَ هٰذا يقتضي تخفيفَ الخوفِ لوْ كانَ الدوامُ علىٰ ذٰلكَ موثوقاً بهِ ، ولٰكنَّ خطرَ الخاتمةِ وعسرَ الثباتِ يزيدُ نيرانَ الخوفِ اشتعالاً ، ولا يمكِّنُها مِنَ الانطفاءِ .

---

(١) قوت القلوب (١/٢٣٠) ، وقال بعده : (لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغيوب التي لا نهاية لها ، وأن القول أحكام ، والحاكم لا تحكم عليه الأحكام ، كما لا تعود عليه الأحكام ، وإنما تفصل الأحكام من الحاكم العلام ، ثم تعود على المحكومات أبداً ، ولأنه ـ جلت قدرته ـ لا يلزمه ما لزم الخلق الذين هم تحت الحكم ، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً عند من عرفه ، فأجله وعظمه عن معارف من جهله) .

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣) .

(٣) قوت القلوب (١/٢٣٠) .

(٤) **والأمر الأُنُف** : المبتدأ الذي لم يسبق به علم ولا قدر من الله تعالى ، فلا تعلُّق للأمور بالمشيئة الأزلية ، وهو مذهب غلاة القدرية ، الذين زعموا أن لا قدر ، وأن الأمر أُنُف ، وقد تبرَّأ منهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كما جاء عند مسلم (٨) .

وكيفَ يُؤمنُ تغيُّرُ الحالِ وقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمٰنِ ؟! وإنَّ القلبَ أشدُّ تقلُّباً مِنَ القدرِ في غليانِها ، وقدْ قالَ مقلِّبُ القلوبِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ .

فأجهلُ الناسِ مَنْ أمنَهُ وهوَ يناديهِ بالتحذيرِ مِنَ الأمنِ ، ولولا أنَّ اللهَ لطفَ بعبادِهِ العارفينَ ؛ إذْ روَّحَ قلوبَهُمْ بِرَوْحِ الرجاءِ . . لاحترقَتْ قلوبُهُمْ مِنْ نارِ الخوفِ ، فأسبابُ الرجاءِ رحمةٌ لخواصِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأسبابُ الغفلةِ رحمةٌ علىٰ عوامِّ الخلقِ مِنْ وجهٍ ؛ إذْ لوِ انكشفَ الغطاءُ . . لزهقَتِ النفوسُ ، وتقطَّعَتِ القلوبُ مِنْ خوفِ مقلِّبِ القلوبِ[1]

قالَ بعضُ العارفينَ : (لوْ حالَتْ بيني وبينَ مَنْ عرفتُهُ بالتوحيدِ خمسينَ سنةً أسطوانةٌ فماتَ . . لمْ أقطعْ لهُ بالتوحيدِ ؛ لأنِّي لا أدري ما ظهرَ لهُ مِنَ التقليبِ)[2]

وقالَ بعضُهُمْ : (لوْ كانَتِ الشهادةُ علىٰ بابِ الدارِ والموتُ على الإسلامِ عندَ بابِ الحجرةِ . . لاخترتُ الموتَ على الإسلامِ ؛ لأنِّي لا أدري ما يعرضُ لقلبي بينَ بابِ الحجرةِ وبابِ الدارِ)[3]

وكانَ أبو الدرداءِ يحلفُ باللهِ ما أحدٌ أمِنَ علىٰ إيمانِهِ أنْ يُسلبَهُ عندَ الموتِ إلا سُلِبَهُ[4]

وكانَ سهلٌ يقولُ : (خوفُ الصديقينَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ عندَ كلِّ خطرةٍ وكلِّ حركةٍ ، وهُمُ الذينَ وصفَهُمُ اللهُ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾)[5]

ولمَّا احتضرَ سفيانُ . . جعلَ يبكي ويجزعُ ، فقيلَ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ، عليكَ بالرجاءِ ؛ فإنَّ عفوَ اللهِ أعظمُ مِنْ ذنوبِكَ ، فقالَ : أوَعلىٰ ذنوبي أبكي ؟! لوْ علمتُ أنِّي أموتُ على التوحيدِ . . لمْ أبالِ أنْ ألقى اللهَ بأمثالِ الجبالِ مِنَ الخطايا[6] .

وحُكِيَ عنْ بعضِ الخائفينَ أنَّهُ أوصىٰ بعضَ إخوانِهِ فقالَ : إذا حضرَتْني الوفاةُ . . فاقعدْ عندَ رأسي ، فإنْ رأيتَني متُّ على التوحيدِ . . فخذْ جميعَ ما أملكُهُ واشترِ بهِ لوزاً وسكراً وانثرْهُ علىٰ صبيانِ أهلِ البلدِ ، وقلْ : هٰذا عرسُ المنفلتِ ، وإنْ متُّ علىٰ غيرِ التوحيدِ . . فأعلمِ الناسَ بذٰلكَ حتَّىٰ لا يغترُّوا بشهودِ جنازتي ليحضرَ جنازتي مَنْ أحبَّ علىٰ بصيرةٍ ؛ لئلا يلحقَني الرياءُ بعدَ الوفاةِ ، قالَ : وبِمَ أعلمُ ذٰلكَ ؟ فذكرَ لهُ علامةً ، فرأىٰ علامةَ التوحيدِ عندَ موتِهِ ، فاشترى السكَّرَ واللوزَ وفرَّقَهُ[7]

وكانَ سهلٌ يقولُ : (المريدُ يخافُ أنْ يُبتلىٰ بالمعاصي ، والعارفُ يخافُ أنْ يُبتلىٰ بالكفرِ)[8] .

وكانَ أبو يزيدَ يقولُ : (إذا توجهتُ إلى المسجدِ كأنَّ في وسطي زناراً ، أخافُ أنْ يذهبَ بي إلى البيعةِ وبيتِ النارِ ، حتَّىٰ أدخلَ المسجدَ ، فينقطعُ عنِّي الزنَّارُ ، فهٰذا لي في كلِّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ)[9]

---

(١) السياق بنحوه في « القوت » (١/٢٣٠) .
(٢) قوت القلوب (١/٢٣٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/١٣٧) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٤٧) عن محمد بن مسلم أنه بلغه عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قاله .
(٥) قوت القلوب (١/٢٣٢) .
(٦) قوت القلوب (١/٢٣٣) .
(٧) قوت القلوب (١/٢٣٣) .
(٨) قوت القلوب (١/٢٢٧) .
(٩) قوت القلوب (١/٢٢٧) ، وقال : (لعلمهم بسرعة تقلب القلوب في قدرة علام الغيوب) ، وقريب من هٰذا رواه عنه القشيري في « رسالته » (ص ١٨٨) .

ورُوِيَ عنْ عيسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ أنتمْ تخافونَ المعاصيَ ، ونحنُ ـ معاشرَ الأنبياءِ ـ نخافُ الكفرَ)[١]

ورُوِيَ في أخبارِ الأنبياءِ : أنَّ نبيّاً شكا إلى اللهِ تعالى الجوعَ والقملَ والعريَ سنينَ ، وكانَ لباسُهُ الصوفَ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : عبدي ؛ أما رضيتَ أنْ عصمتُ قلبَكَ أنْ تكفرَ بي حتَّىٰ تسأَلَني الدنيا ؟! فأخذَ الترابَ فوضعَهُ علىٰ رأسِهِ وقالَ : بلىٰ ، قدْ رضيتُ يا ربِّ ، فاعصمْني مِنَ الكفرِ[٢]

فإذا كانَ خوفُ العارفينَ معَ رسوخِ أقدامِهِمْ وقوَّةِ إيمانِهِمْ مِنْ سوءِ الخاتمةِ . . فكيفَ لا يخافُهُ الضعفاءُ ؟!

ولسوءِ الخاتمةِ أسبابٌ تتقدَّمُ على الموتِ ، مثلُ البدعةِ ، والنفاقِ ، والكبرِ ، وجملةٍ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ ، ولذٰلكَ اشتدَّ خوفُ الصحابةِ مِنَ النفاقِ ، حتَّىٰ قالَ الحسنُ : (لوْ أنِّي أعلمُ أنِّي بريءٌ مِنَ النفاقِ . . كانَ أحبَّ إليَّ ممَّا طلعَتْ عليهِ الشمسُ)[٣]

وما عنوا بهِ النفاقَ الذي هوَ ضدُّ أصلِ الإيمانِ ، بلِ المرادُ بهِ ما يجتمعُ معَ أصلِ الإيمانِ ، فيكونُ مسلماً منافقاً ، ولهُ علاماتٌ كثيرةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ فهوَ منافقٌ خالصٌ ، وإنْ صامَ وصلَّىٰ وَزعمَ أنَّهُ مسلمٌ ، وإنْ كانَتْ فيهِ خصلةٌ منهُنَّ . . ففيهِ شعبةٌ مِنَ النفاقِ حتَّىٰ يدعهَا : مَنْ إذا حدَّثَ . . كذبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، و إذا اؤتمنَ . . خانَ ، وإذا خاصمَ . . فجرَ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « وإذا عاهدَ . . غدرَ »[٤]

وقدْ فسَّرَ الصحابةُ والتابعونَ النفاقَ بتفاسيرَ لا يخلو عنْ شيءٍ منهُ إلا صدِّيقٌ ، إذْ قالَ الحسنُ : (إنَّ مِنَ النفاقِ اختلافَ السرِّ والعلانيةِ ، واختلافَ اللسانِ والقلبِ ، واختلافَ المدخلِ والمخرجِ)[٥] ، ومَنِ الذي يخلو عنْ هٰذهِ المعاني ؟ بلْ صارَتْ هٰذهِ الأمورُ مألوفةً بينَ الناسِ معتادةً ، ونُسِيَ كونُها منكراً بالكلِّيَّةِ ، بلْ جرىٰ ذٰلكَ علىٰ قرْبِ عهدٍ بزمانِ النبوَّةِ ، فكيفَ الظنُّ بزمانِنا ؟!

حتَّىٰ قالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (إنْ كانَ الرجلُ ليتكلَّمُ بالكلمةِ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيصيرُ بها منافقاً ، إنِّي لأسمعُها مِنْ أحدِكُمْ في اليومِ عشرَ مرَّاتٍ)[٦]

وكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هيَ أدقُّ في أعينِكُمْ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكبائرِ)[٧]

---

(١) قوت القلوب (٢٢٧/١) .

(٢) قوت القلوب (٢٢٧/١) ، وقد روى الطبري في « تفسيره » (١٥٣/٩/٦) عن مجاهد وسيَّار أن بلعام أو بلعم كان قد أوتي النبوة ، ونقل عن السدي وغيره أنه كان يعلم اسم الله الأعظم ، وكان مجاب الدعوة ، قال الإمام أبو طالب في « قوته » (٢٣٠/١) : (قال بعض أهل التفسير في أخبار بلعم بن باعوراء : إنه أوتي النبوة ، والمشهور أنه أوتي الاسم الأكبر ، فكان سبب هلاكه) .

(٣) قوت القلوب (٢٣٤/١) ، ورواه الفريابي في « صفة المنافق » (ص ٧٣) .

(٤) رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآفات اللسان » (٤٨٣) .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (٣٩٠/٥) .

(٧) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه : (من الموبقات) بدل (من الكبائر) ، وعنده (٢٨٥/٣) بلفظه من حديث أنس رضي الله عنه .

وقالَ بعضُهُمْ : (علامةُ النفاقِ أنْ تكرهَ مِنَ الناسِ ما تأتي مثلَهُ ، وأنْ تحبَّ علىٰ شيءٍ مِنَ الجورِ ، وأنْ تبغضَ علىٰ شيءٍ مِنَ الحقِّ)[1]

وقيلَ : (مِنَ النفاقِ أنَّهُ إذا مُدِحَ بشيءٍ ليسَ فيهِ . . أعجبَهُ ذٰلكَ)[2]

وقالَ رجلٌ لابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : إنَّا ندخلُ علىٰ هٰؤلاءِ الأمراءِ فنصدِّقُهُمْ فيما يقولونَ ، فإذا خرجنا . . تكلَّمنا فيهِمْ ، فقالَ : كنَّا نعدُّ هٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3]

ورُوِيَ أنَّهُ سمعَ رجلاً يذمُّ الحجَّاجَ ويقعُ فيهِ ، فقالَ : أرأيتَ لوْ كانَ الحجَّاجُ حاضراً . . أكنتَ تتكلَّمُ بما تكلَّمتَ بهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : كنَّا نعدُّ هٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[4]

وأشدُّ مِنْ ذٰلكَ ما رُوِيَ أنَّ نفراً قعدوا علىٰ بابِ حذيفةَ ينتظرونَهُ ، فكانوا يتكلمونَ في شيءٍ مِنْ شأنِهِ ، فلمَّا خرجَ عليهِمْ . . سكتوا حياءً منهُ ، فقالَ : تكلموا فيما كنتُمْ تقولونَ ، فسكتوا ، فقالَ : كنَّا نعدُّ هٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[5]

وهٰذا حذيفةُ كانَ قدْ خُصَّ بعلمِ المنافقينَ وأسبابِ النفاقِ ، وكانَ يقولُ : (إنَّهُ يأتي على القلبِ ساعةٌ يمتلئُ بالإيمانِ حتَّىٰ لا يكونَ للنفاقِ فيهِ مغرزُ إبرةٍ ، ويأتي عليهِ ساعةٌ يمتلئُ بالنفاقِ حتَّىٰ لا يكونَ للإيمانِ فيهِ مغرزُ إبرةٍ)[6]

فقدْ عرفتَ بهٰذا أنَّ خوفَ العارفينَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ ، وأنَّ سببَهُ أمورٌ مقدَّمةٌ ، منها البدعُ ، ومنها المعاصي ، ومنها النفاقُ ، ومتىٰ يخلو العبدُ عنْ شيءٍ مِنْ جملةِ ذٰلكَ ؟! وإنْ ظنَّ أنَّهُ قدْ خلا عنهُ . . فهوَ النفاقُ ، إذْ قيلَ : (مَنْ أمِنَ النفاقَ . . فهوَ منافقٌ)[7]

وقالَ بعضُهُمْ لبعضِ العارفينَ : إنِّي أخافُ علىٰ نفسي النفاقَ ، فقالَ : لوْ كنتَ منافقاً . . لما خفتَ النفاقَ[8]

فلا يزالُ العارفُ بينَ الالتفاتِ إلى السابقةِ والخاتمةِ خائفاً منهما ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العبدُ المؤمنُ بينَ مخافتينِ ، بينَ أجلٍ قدْ مضىٰ لا يدري ما اللهُ صانعٌ فيهِ ، وبينَ أجلٍ قدْ بقيَ لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيهِ ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ ما بعدَ الموتِ منْ مستعتبٍ ، ولا بعدَ الدنيا مِنْ دارٍ إلا الجنةُ أوِ النارُ »[9] ، واللهُ المستعانُ .



(١) قوت القلوب (١/٢٣٤) .
(٢) قوت القلوب (١/٢٣٤) .
(٣) قوت القلوب (١/٢٣٤) ، ورواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٠٢) .
(٤) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٣/٢٤) ، وأصله في « البخاري » (٧١٧٨) .
(٥) قوت القلوب (١/٢٣٤) .
(٦) قوت القلوب (١/٢٣٤) .
(٧) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٣٣) عن الحسن البصري .
(٨) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٠٤) عن حذيفة رضي الله عنه ، والطبراني في « الكبير » (٩/١٨٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٩٠) عن الحسن مرسلاً ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٧) عن الحسن عن بعض الصحابة مرفوعاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٢٦١) من حديث جابر رضي الله عنه .

بيان معنى سوء الخاتمة

فإنْ قلتَ : إنَّ أكثرَ هٰؤلاءِ يرجعُ خوفُهُمْ إلىٰ سوءِ الخاتمةِ ، فما معنىٰ سوءِ الخاتمةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ سوءَ الخاتمةِ علىٰ رتبتينِ ، إحداهُما أعظمُ مِنَ الأخرىٰ .

فأمَّا الرتبةُ العظيمةُ الهائلةُ : فأنْ يغلبَ على القلبِ عندَ سكراتِ الموتِ وظهورِ أهوالِهِ إمَّا الشكُّ وإمَّا الجحودُ ، فتُقبضَ الروحُ في حالةِ غلبةِ الجحودِ أوِ الشكِّ ، فيكونَ ما غلبَ على القلبِ مِنْ عقدةِ الجحودِ حجاباً بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ أبداً ، وذٰلكَ يقتضي البعدَ الدائمَ والعذابَ المخلَّدَ .

والثانيةُ وهيَ دونَها : أنْ يغلبَ علىٰ قلبِهِ عندَ الموتِ حبُّ أمرٍ مِنْ أمورِ الدنيا ، وشهوةٍ مِنْ شهواتِها ، فيتمثَّلَ ذٰلكَ في قلبِهِ ويستغرقَهُ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ في تلكَ الحالةِ متسعٌ لغيرِهِ ، فيتفقَ قبضُ روحِهِ في تلكَ الحالِ ، فيكونَ استغراقُ قلبِهِ بهِ منكساً رأسَهُ إلى الدنيا ، وصارفاً وجهَهُ إليها ، ومهما انصرفَ الوجهُ عنِ اللهِ تعالىٰ . . حصلَ الحجابُ ، ومهما حصلَ الحجابُ . . نزلَ العذابُ ، إذْ نارُ اللهِ الموقدةُ لا تأخذُ إلا المحجوبينَ عنهُ .

فأمَّا المؤمنُ السليمُ قلبُهُ عنْ حبِّ الدنيا ، المصروفُ همُّهُ إلى اللهِ تعالىٰ . . فتقولُ لهُ النارُ : « جزْ يا مؤمنُ ؛ فإنَّ نورَكَ قدْ أطفأَ لهبي »[١]

فمهما اتفقَ قبضُ الروحِ في حالةِ غلبةِ حبِّ الدنيا . . فالأمرُ مخطرٌ ؛ لأنَّ المرءَ يموتُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ولا يمكنُ اكتسابُ صفةٍ أخرىٰ للقلبِ بعدَ الموتِ تضادُّ الصفةَ الغالبةَ عليهِ ؛ إذ لا تصرُّفَ في القلوبِ إلا بأعمالِ الجوارحِ ، وقدْ بطلَتِ الجوارحُ بالموتِ ، فبطلَتِ الأعمالُ ، فلا مطمعَ في عملٍ ، ولا مطمَعَ في رجوعٍ إلى الدنيا ليتداركَ ، وعندَ ذٰلكَ تعظمُ الحسرةُ .

إلا أنَّ أصلَ الإيمانِ وحبَّ اللهِ تعالىٰ إذا كانَ قدْ رسخَ في القلبِ مدَّةً طويلةً ، وتأكَّدَ ذٰلكَ بالأعمالِ الصالحةِ . . فإنَّهُ يمحو عنِ القلبِ هٰذهِ الحالةَ التي عرضَتْ لهُ عندَ الموتِ ، فإنْ كانَ إيمانُهُ في القوَّةِ إلىٰ حدِّ مثقالٍ . . أخرجَهُ مِنَ النارِ في زمانٍ أقربَ ، وإنْ كانَ أقلَّ مِنْ ذٰلكَ . . طالَ مكثُهُ في النارِ ، ولوْ لمْ يكنْ إلا مثقالُ حبَّةٍ . . فلا بدَّ أنْ يخرجَهُ مِنَ النارِ ولو بعدَ آلافِ سنينَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما ذكرتَهُ يقتضي أن تسرعَ النارُ إليهِ عقيبَ موتِهِ ، فما بالُهُ يُؤخَّرُ إلىٰ يومِ القيامةِ ويُمهلُ طولَ هٰذهِ المدَّةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ أنكرَ عذابَ القبرِ . . فهوَ مبتدعٌ محجوبٌ عنْ نورِ اللهِ تعالىٰ وعنْ نورِ القرآنِ ونورِ الإيمانِ ، بلِ الصحيحُ عندَ ذوي الأبصارِ ما صحَّتْ بِهِ الأخبارُ ، وهوَ أنَّ القبرَ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النيرانِ أوْ روضةٌ مِنْ رياضِ الجنانِ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/٢٥٨) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/٢٩٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/٢٣١) عن يعلى ابن منية رضي الله عنه مرفوعاً .

وأنَّهُ قدْ يُفتحُ إلىٰ قبرِ المعذَّبِ سبعونَ باباً مِنَ الجحيمِ كما وردَتْ بِهِ الأخبارُ[1] ، فلا تفارقُهُ روحُهُ إلا وقدْ نزلَ بِهِ البلاءُ إنْ كانَ قدْ شقيَ بسوءِ الخاتمةِ ، وإنَّما تختلفُ أصنافُ العذابِ باختلافِ الأوقاتِ ، فيكونُ سؤالُ مُنكَرٍ ونَكِيرٍ عندَ الوضعِ في القبرِ ، والتعذيبُ بعدَهُ ، ثمَّ المناقشةُ في الحسابِ ، والافتضاحُ علىٰ ملأٍ منَ الأشهادِ في القيامةِ[2] ، ثمَّ بعدَ ذٰلكَ خطرُ الصراطِ ، وهولُ الزبانيةِ . . . إلىٰ آخرِ ما وردَتْ بِهِ الأخبارُ[3] ، فلا يزالُ الشقيُّ مردَّداً في جميعِ أحوالِهِ بينَ أصنافِ العذابِ ، وهوَ في جملةِ الأحوالِ معذَّبٌ إلا أنْ يتغمَّدَهُ اللهُ برحمتِهِ .

❀ ❀ ❀

ولا تظنَّنَّ أنَّ محلَّ الإيمانِ يأكلُهُ الترابُ ، بلِ الترابُ يأكلُ جميعَ الجوارحِ ويبدِّدُها ، إلىٰ أن يبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، فتجتمعُ الأجزاءُ المتفرّقَةُ ، وتُعادُ إليها الروحُ التي هيَ محلُّ الإيمانِ ، وقدْ كانَتْ مِنْ وقتِ الموتِ إلى الإعادةِ إمَّا في حواصلِ طيرٍ خضْرٍ معلَّقةٍ تحتَ العرشِ إنْ كانَتْ سعيدةً ، وإمَّا علىٰ حالةٍ تضادُّ هٰذهِ الحالَ إنْ كانَتْ ـ والعياذُ باللهِ ـ شقيَّةً .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما السببُ الذي يفضي إلىٰ سوءِ الخاتمةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ أسبابَ هٰذهِ الأمورِ لا يمكنُ إحصاؤُها على التفصيلِ ، ولٰكنْ يمكنُ الإشارةُ إلىٰ مجامعِها :

أمَّا الختمُ على الشكِّ والجحودِ . . فينحصرُ سببُهُ في شيئينِ :

أحدُهُما : يُتصوَّرُ معَ تمامِ الورعِ والزهدِ ، وتمامِ الصلاحِ في الأعمالِ ؛ كالمبتدعِ الزاهدِ ، فإنَّ عاقبتَهُ مخطرةٌ جدّاً وإنْ كانَتْ أعمالُهُ صالحةً ، ولستُ أعني مذهباً فأقولُ : (إنَّهُ بدعةٌ) ؛ فإنَّ بيانَ ذٰلكَ يطولُ القولُ فيهِ ، بلْ أعني بالبدعةِ : أنْ يعتقدَ الرجلُ في ذاتِ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ خلافَ الحقِّ ، فيعتقدُهُ علىٰ خلافِ ما هوَ عليهِ ؛ إمَّا برأيِهِ ومعقولِهِ ونظرِهِ الذي بِهِ يجادلُ الخصومَ وعليهِ يعوِّلُ وبهِ يغترُّ ، وإمَّا أخذاً بالتقليدِ ممَّنْ هٰذا حالُهُ .

فإذا قربَ الموتُ ، وظهرَتْ لهُ ناصيةُ ملكِ الموتِ ، واضطربَ القلبُ بما فيهِ . . فربما ينكشفُ لهُ في حالِ سكراتِ الموتِ بطلانُ ما اعتقدَهُ جهلاً ؛ إذْ حالُ الموتِ حالُ كشْفِ الغطاءِ ، ومبادئُ سكراتِهِ منهُ ، فقدْ ينكشفُ بِهِ بعضُ الأمورِ ، فمهما بطلَ عندَهُ ما كانَ اعتقدَهُ ، وقدْ كانَ قاطعاً بِهِ متيقناً لهُ عندَ نفسِهِ . . لمْ يظنَّ بنفسِهِ أنَّهُ أخطأَ في هٰذا الاعتقادِ خاصةً ؛ لالتجائِهِ فيهِ إلىٰ رأيِهِ الفاسدِ وعقلِهِ الناقصِ ، بلْ ظنَّ أنَّ كلَّ ما اعتقدَهُ لا أصلَ لهُ ؛ إذْ لمْ يكنْ عندَهُ فرقٌ بينَ إيمانِهِ باللهِ ورسولِهِ وسائرِ اعتقاداتِهِ الصحيحةِ وبينَ اعتقادِهِ الفاسدِ ، فيكونُ انكشافُ بعضِ اعتقاداتِهِ عنِ الجهلِ سبباً لبطلانِ بقيَّةِ اعتقاداتِهِ أوْ لشكِّهِ فيها .

---

(1) روىٰ أبو داوود (٤٧٥٣) في الحديث الذي يذكر فيه عذاب القبر : « وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها . . . » الحديث ، أما ذكر السبعين . . فقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) « إتحاف » (٢٣٥/٩) .

(2) فمن ذٰلك ما رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « وأما الكفار والمنافقون . . . فينادىٰ بهم علىٰ رؤوس الخلائق : هٰؤلاء الذين كذبوا على الله » ، ومن ذٰلك ما رواه أحمد في « المسند » (٢٦/٢) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/٤٠) عنه أيضاً مرفوعاً : « من انتفىٰ من ولده ليفضحه في الدنيا . . فضحه الله يوم القيامة علىٰ رؤوس الأشهاد ، قصاص بقصاص » .

(3) فمن ذٰلك ما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٦/٨) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٧٦) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الزبانية يوم القيامة أسرع إلىٰ فسقة حملة القرآن منها إلىٰ عبدة الأوثان والنيران ، فيقولون : ليس من علم كمن لا يعلم » .

فإنِ اتفقَ زهوقُ روحِهِ في هٰذهِ الخطرةِ قبلَ أن ينيبَ ويعودَ إلىٰ أصلِ الإيمانِ[١] . . فقدْ خُتِمَ لهُ بالسوءِ ، وخرجَتْ روحُهُ على الشركِ والعياذُ باللهِ منهُ ، فهٰؤلاءِ هُمُ المرادونَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، وبقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾

وكما أنَّهُ قدْ ينكشفُ في النومِ ما سيكونُ في المستقبلِ وذٰلكَ بسببِ خفَّةِ أشغالِ الدنيا عنِ القلبِ . فكذٰلكَ ينكشفُ في سكراتِ الموتِ بعضُ الأمورِ ، إذْ شواغلُ الدنيا وشهواتُ البدنِ هيَ المانعةُ للقلبِ مِنْ أنْ ينظرَ إلى الملكوتِ ، فيطالعَ ما في اللوحِ المحفوظِ لتنكشفَ لهُ الأمورُ علىٰ ما هيَ عليهِ ، فيكونُ مثلُ هٰذهِ الحالِ سببَ الكشفِ ، ويكونُ الكشفُ سببَ الشكِّ في بقيَّةِ الاعتقاداتِ .

وكلُّ مَنِ اعتقدَ في اللهِ تعالىٰ وفي صفاتِهِ وأفعالِهِ شيئاً علىٰ خلافِ ما هوَ بهِ ؛ إمَّا تقليداً ، وإمَّا نظراً بالرأيِ والمعقولِ . . فهوَ في هٰذا الخطرِ ، والزهدُ والصلاحُ لا يكفي لدفعِ هٰذا الخطرِ ، بلْ لا ينجي منهُ إلا الاعتقادُ الحقُّ .

والبُلْهُ بمعزلٍ عنْ هٰذا الخطرِ ؛ أعني : الذينَ آمنوا باللهِ ورسولِهِ واليومِ الآخرِ إيماناً مجملاً راسخاً ؛ كالأعرابِ ، والسواديَّةِ ، وسائرِ العوامِ الذينَ لمْ يخوضوا في البحثِ والنظرِ ، ولمْ يشرعوا في الكلامِ استقلالاً ، ولا أصغَوا إلىٰ أصنافِ المتكلمينَ في تقليدِ أقاويلِهِمُ المختلفةِ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البُلْهُ »[٢] .

ولذٰلكَ منعَ السلفُ مِنَ البحثِ والنظرِ والخوضِ في الكلامِ ، والتفتيشِ عنْ هٰذهِ الأمورِ ، وأمروا الخلقَ أنْ يقتصروا علىٰ أنْ يؤمنوا بما أنزلَ اللهُ جميعاً ، وبكلِّ ما جاءَ مِنَ الظواهرِ ، معَ اعتقادِ نفيِ التشبيهِ ، ومنعوهُمْ عنِ الخوضِ في التأويلِ ؛ لأنَّ الخطرَ في البحثِ عنِ الصفاتِ عظيمٌ ، وعقباتُهُ كؤودةٌ ، ومسالكُهُ وعرةٌ ، والعقولُ عنْ دركِ جلالِ اللهِ تعالىٰ قاصرةٌ ، وهدايةُ اللهِ تعالىٰ بنورِ اليقينِ عنِ القلوبِ بما جُبلَتْ عليهِ مِنْ حبِّ الدنيا محجوبةٌ ، وما ذكرَهُ الباحثونَ ببضاعةِ عقولِهِمْ مضطربٌ ومتعارضٌ ، والقلوبُ لما أُلقيَ إليها في مبدأِ النشأةِ آلفةٌ ، وبهِ متعلِّقةٌ ، والتعصباتُ الثائرةُ بينَ الخلقِ مساميرُ مؤكدةٌ للعقائدِ الموروثةِ ، أوِ المأخوذةِ بحسنِ الظنِّ مِنَ المعلِّمينَ في أوَّلِ الأمرِ ، ثمَّ الطباعُ بحبِّ الدنيا مشغوفةٌ ، وعليها مقبلةٌ ، وشهواتُ الدنيا بمُخَنَّقِها آخذةٌ ، وعنْ تمامِ الفكرِ صارفةٌ .

فإذا فُتِحَ بابُ الكلامِ في اللهِ وفي صفاتِهِ بالرأيِ والمعقولِ ، معَ تفاوتِ الناسِ في قرائحِهِمْ ، واختلافِهِمْ في طبائعِهِمْ ، وحرصِ كلِّ جاهلٍ منهُمْ علىٰ أنْ يدَّعيَ الكمالَ أوِ الإحاطةَ بكنهِ الحقِ . . انطلقَتْ ألسنتُهُمْ بما يقعُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ ، وتعلَّقَ ذٰلكَ بقلوبِ المصغينَ إليهِمْ ، وتأكَّدَ ذٰلكَ بطولِ الإلفِ فيهِمْ ، وانسدَّ بالكلِّيَّةِ طريقُ الخلاصِ عليهِمْ ، فكانَتْ سلامةُ الخلقِ في أنْ يشتغلوا بالأعمالِ الصالحةِ ، ولا يتعرَّضوا لما هوَ خارجٌ عنْ حدِّ طاقتِهِمْ .

ولٰكنِ الآنَ قدِ استرخى العِنانُ ، وفشا الهذيانُ ، ونزلَ كلُّ جاهلٍ علىٰ ما وافقَ طبعَهُ بظنٍّ وحسبانٍ ، وهوَ يعتقدُ أنَّ ذٰلكَ علمٌ واستيقانٌ ، وأنَّهُ صفوُ الإيمانِ ، ويظنُّ أنَّ ما قَنِعَ بهِ مِنْ حدسٍ وتخمينٍ علمُ اليقينِ وعينُ اليقينِ ، ولتعلمُنَّ نبأَهُ بعدَ حينٍ .

---

(١) في غير (أ) : (يثبت) بدل (ينيب) .

(٢) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٤٣١/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٣/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه (١٣٠٣) من حديث جابر رضي الله عنه أيضاً مرفوعاً .

وينبغي أنْ يُنشدَ في هـٰؤلاءِ عندَ كشْفِ الغطاءِ[١] : [من البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

واعلمْ يقيناً أنَّ كلَّ مَنْ فارقَ الإيمانَ الساذجَ باللهِ ورسولِهِ وكتبِهِ[٢] ، وخاضَ في البحثِ . . فقدْ تعرَّضَ لهـٰذا الخطرِ ، ومثالُهُ : مَنِ انكسرَتْ سفينتُهُ وهوَ في ملتطمِ الأمواجِ ، يرميهِ موجٌ إلىٰ موجٍ ، فربما يتفقُ أنْ يلقيَهُ إلى الساحلِ ، وذٰلكَ بعيدٌ ، والهلاكُ أغلبُ عليهِ .

وكلُّ نازلٍ علىٰ عقيدةٍ تلقَّفَها مِنَ الباحثينَ ببضاعةِ عقولِهِمْ ؛ إمَّا معَ الأدلَّةِ التي حرَّرُوها في تعصباتِهِمْ ، أوْ دونَ الأدلَّةِ ؛ إنْ كانَ شاكّاً فيهِ . . فهوَ فاسدُ الدينِ ، وإنْ كانَ واثقاً بهِ . . فهوَ آمنٌ مِنْ مكْرِ اللهِ ، مغترٌّ بعقلِهِ الناقصِ ، وكلُّ خائضٍ في البحثِ فلا ينفكُّ عنْ هاتينِ الحالتينِ إلا إذا جاوزَ حدودَ المعقولِ[٣] إلىٰ نورِ المكاشفةِ الذي يشرقُ في عالمِ الولايةِ والنبوَّةِ ، وذٰلكَ هوَ الكبريتُ الأحمرُ ، وأنَّىٰ يتيسَّرُ ؟! وإنَّما يسلمُ عنْ هـٰذا الخطرِ البلْهُ مِنَ العوامِّ ، أوِ الذينَ شغلَهُمْ خوفُ النارِ بطاعةِ اللهِ ، فلمْ يخوضوا في هـٰذا الفضولِ .

فهـٰذا أحدُ الأسبابِ المخطرةِ في سوءِ الخاتمةِ .

وأمَّا السببُ الثاني : فهوَ ضَعْفُ الإيمانِ في الأصلِ ، ثمَّ استيلاءُ حبِّ الدنيا على القلبِ ، ومهما ضعفَ الإيمانُ . . ضعفَ حبُّ اللهِ ، وقويَ حبُّ الدنيا ، فيصيرُ بحيثُ لا يبقىٰ في القلبِ موضعٌ لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، إلا مِنْ حيثُ حديثُ النفسِ ، لا يظهرُ لهُ أثرٌ في مخالفةِ النفسِ والعدولِ عنْ طريقِ الشيطانِ ، فيورثُ ذٰلكَ الانهماكَ في اتباعِ الشهواتِ ، حتَّىٰ يظلمَ القلبُ ، ويقسوَ ويسودَّ ، وتتراكمَ ظلمةُ الذنوبِ على القلبِ ، فلا يزالُ يطفئُ ما فيهِ مِنْ نورِ الإيمانِ علىٰ ضعفِهِ حتَّىٰ يصيرَ طبعاً ورَيْناً .

فإذا جاءَتْ سكراتُ الموتِ . . ازدادَ ذٰلكَ الحبُّ ـ أعني : حبَّ اللهِ ـ ضعفاً ؛ لما يبدو مِنِ استشعارِ فراقِ الدنيا ، وهيَ المحبوبُ الغالبُ على القلبِ[٤] ، فيتألَّمُ القلبُ باستشعارِ فراقِ الدنيا ، ويرىٰ ذٰلكَ مِنَ اللهِ ، فيختلجُ ضميرُهُ بإنكارِ ما قدَّرَ عليهِ مِنَ الموتِ ، وكراهةِ ذٰلكَ مِنْ حيثُ إنَّهُ مِنَ اللهِ ، فيُخشىٰ أنْ يثورَ في باطنِهِ بغضٌ للهِ تعالىٰ بدلَ الحبِّ ، كما أنَّ الذي يحبُّ ولدَهُ حبّاً ضعيفاً إذا أخذَ ولدُهُ أموالَهُ التي هيَ أحبُّ إليهِ مِنْ ولدِهِ وأحرقَها . . انقلبَ ذٰلكَ الحبُّ الضعيفُ بغضاً ، فإنِ اتفقَ زهوقُ روحِهِ في تلكَ اللحظةِ التي خطرَتْ فيها هـٰذهِ الخطرةُ . . فقدْ خُتِمَ لهُ بالسوءِ ، وهلكَ هلاكاً مؤبَّداً .

والسببُ الذي يفضي إلىٰ مثلِ هـٰذهِ الخاتمة هوَ غلبةُ حبِّ الدنيا ، والركونُ إليها ، والفرحُ بأسبابِها ، معَ ضعفِ الإيمانِ الموجبِ لضعفِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ وجدَ في قلبِهِ حبَّ اللهِ أغلبَ مِنْ حبِّ الدنيا ـ وإنْ كانَ يحبُّ الدنيا أيضاً ـ فهوَ أبعدُ عنْ هـٰذا الخطرِ .

---

(١) البيتان متنازع في نسبتهما ، وهما في « ديوان سيدنا علي » (ص ١٣٢) ، و« ديوان الإمام الشافعي » (ص ٦٥) ، و« ديوان أبي العتاهية » (ص ٥٣٦) .

(٢) الساذج : يطلقه أهل الكلام علىٰ ما ليس ببرهان قاطع .

(٣) في (أ) : (العقل) بدل (المعقول) .

(٤) في (أ) : (وبقي) بدل (وهي) .

وحبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وهوَ الداءُ العضالُ ، وقدْ عمَّ أصنافَ الخلقِ ، وذلكَ كلُّهُ لقلَّةِ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، إذْ لا يحبُّهُ إلا مَنْ عرفَهُ ، ولهٰذا قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ .

فإذاً ؛ مَنْ فارقَتْهُ روحُهُ في حالةِ خَطْرةِ الإنكارِ على اللهِ تعالىٰ ببالِهِ ، وظهورِ بغضِ فعلِ اللهِ تعالىٰ بقلبِهِ في تفريقِهِ بينَهُ وبينَ أهلِهِ ومالِهِ وسائرِ محابِّهِ . . فيكونُ موتُهُ قدوماً علىٰ ما أبغضَهُ ، وفراقاً لما أحبَّهُ ، فيقدمُ على اللهِ تعالىٰ قدومَ العبدِ المبغضِ الآبقِ إذا قُدِمَ بهِ علىٰ مولاهُ قهراً ، فلا يخفىٰ ما يستحقُّهُ مِنَ الخزيِ والنَّكالِ .

وأمَّا الذي يُتوفَّىٰ على الحبِّ . . فإنَّهُ يقدمُ على اللهِ تعالىٰ قدومَ العبدِ المحسنِ المشتاقِ إلىٰ مولاهُ ، الذي تحمَّلَ مشاقَّ الأعمالِ ووعثاءَ الأسفارِ طمعاً في لقائِهِ ، فلا يخفىٰ ما يلقاهُ مِنَ الفرحِ والسرورِ بمجرَّدِ القدومِ ، فضلاً عمَّا يستحقُّهُ مِنْ لطائفِ الإكرامِ وبدائعِ الإنعامِ .

وأمَّا الخاتمةُ الثانيةُ التي هيَ دونَ الأولىٰ ، وليسَتْ مقتضيةً للخلودِ في النارِ . . فلها أيضاً سببانِ :

أحدُهُما : كثرةُ المعاصي وإنْ قويَ الإيمانُ .

والآخرُ : ضعفُ الإيمانِ وإنْ قلَّتِ المعاصي .

وذلكَ لأنَّ مقارفةَ المعاصي سببُها غلبةُ الشهواتِ ورسوخُها في القلبِ بكثرةِ الإلفِ والعادةِ ، وجميعُ ما ألفَهُ الإنسانُ في عمرِهِ يعودُ ذكرُهُ إلىٰ قلبِهِ عندَ موتِهِ ، فإنْ كانَ ميلُهُ الأكثرُ إلى الطاعاتِ . . كانَ أكثرُ ما يحضرُهُ ذكرَ طاعةِ اللهِ ، وإنْ كانَ ميلُهُ الأكثرُ إلى المعاصي . . غلبَ ذكرُها علىٰ قلبِهِ عندَ الموتِ ، فربما تُقبضُ روحُهُ عندَ غلبةِ شهوةٍ مِنْ شهواتِ الدنيا ، ومعصيةٍ مِنَ المعاصي ، فيتقيَّدُ بها قلبُهُ ، ويصيرُ محجوباً عنِ اللهِ تعالىٰ ، فالذي لا يقارفُ الذنبَ إلا الفينةَ بعدَ الفينةِ . . فهوَ أبعدُ عنْ هٰذا الخطرِ ، والذي لمْ يقارفْ ذنباً أصلاً . . فهوَ بعيدٌ جداً عنْ هٰذا الخطرِ ، والذي غلبَتْ عليهِ المعاصي ، وكانَتْ أكثرَ مِنْ طاعاتِهِ ، وقلبُهُ بها أفرحُ منهُ بالطاعاتِ . . فهٰذا الخطرُ عظيمٌ في حقِّهِ جدّاً .

ويعرفُ هٰذا بمثالٍ : وهوَ أنَّهُ لا يخفىٰ عليكَ أنَّ الإنسانَ يرىٰ في منامِهِ جملةً مِنَ الأحوالِ التي عهدَها طولَ عمرِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لا يرىٰ إلا ما يماثلُ مشاهداتِهِ في اليقظةِ ، وحتَّىٰ إنَّ المراهقَ الذي يحتلمُ لا يرىٰ صورةَ الوقاعِ إذا لَمْ يكنْ قدْ واقعَ في اليقظةِ ، ولوْ بقيَ كذٰلكَ مدةً . . لمَا رأىٰ عندَ الاحتلامِ صورةَ الوقاعِ .

ثمَّ لا يخفىٰ أنَّ الذي قضىٰ عمرَهُ في التفقُّهِ يرىٰ مِنَ الأحوالِ المتعلِّقةِ بالعلمِ والعلماءِ أكثرَ ممَّا يراهُ النجَّارُ الذي قضىٰ عمرَهُ في النجارةِ ، والنجَّارُ يرىٰ مِنَ الأحوالِ المتعلِّقةِ بأسبابِ النجارةِ أكثرَ ممَّا يراهُ الطبيبُ والفقيهُ ؛ لأنَّهُ إنَّما يظهرُ في حالةِ النومِ ما حصلَ لهُ مناسبةٌ معَ القلبِ بطولِ الإلفِ أوْ بسببٍ آخرَ مِنَ الأسبابِ .

والموتُ شبهُ النومِ ، ولٰكنَّهُ فوقَهُ ، ولٰكنَّ سكراتِ الموتِ وما يتقدَّمُهُ مِنَ الغشيةِ قريبٌ مِنَ النومِ ، فيقتضي ذٰلكَ تذكُّرَ المألوفاتِ وعودَها إلى القلبِ ، وأحدُ الأسبابِ المرجِّحةِ لحصولِ ذكرِهِ في القلبِ طولُ الإلفِ ، فطولُ الإلفِ بالمعاصي والطاعاتِ أيضاً مرجِّحٌ ؛ ولذٰلكَ أيضاً تُخالفُ مناماتُ الصالحينَ مناماتِ الفسَّاقِ ، فتكونُ غلبةُ الإلفِ سبباً لأنْ تتمثَّلَ صورةُ فاحشةٍ في قلبِهِ وتميلَ إليها نفسُهُ ، فربَّما تُقبضُ عليها روحُهُ ، فيكونُ ذٰلكَ سببَ سوءِ خاتمتِهِ ، وإنْ كانَ أصلُ الإيمانِ باقياً ، بحيثُ يُرجىٰ لهُ الخلاصُ منها .

وكما أنَّ ما يخطرُ في اليقظةِ إنَّما يخطرُ بسببٍ خاصٍّ يعلمُهُ اللهُ تعالىٰ . . فكذٰلكَ آحادُ المناماتِ لها أسبابٌ عندَ اللهِ ، نعرفُ بعضَها ولا نعرفُ بعضَها ، كما أنَّا نعلمُ أنَّ الخاطرَ ينتقلُ مِنَ الشيءِ إلىٰ ما يناسبُهُ : إمَّا بالمشابهةِ ، وإمَّا بالمضادَّةِ ، وإمَّا بالمقارنةِ ، بأنْ يكونَ قدْ وردَ على الحسِّ معَهُ .

أمَّا بالمشابهةِ : فبأنْ ينظرَ إلىٰ جميلٍ ، فيتذكَّرَ جميلاً آخرَ .

وأمَّا بالمضادَّةِ : فبأنْ ينظرَ إلىٰ جميلٍ ، فيتذكَّرَ قبيحاً ، ويتأمَّلَ في شدةِ التفاوتِ بينَهُما .

وأمَّا بالمقارنةِ : فبأنْ ينظرَ إلىٰ فرسٍ قدْ رآهُ مِنْ قبلُ معَ إنسانٍ ، فيتذكَّرَ ذٰلكَ الإنسانَ .

وقدْ ينتقلُ الخاطرُ مِنْ شيءٍ إلىٰ شيءٍ ولا يُدرىٰ وجهُ مناسبتِهِ لهُ ، وإنَّما يكونُ ذٰلكَ بواسطةٍ وواسطتينِ ، مثلَ أنْ ينتقلَ مِنْ شيءٍ إلىٰ ثانٍ ، ومنهُ إلىٰ ثالثٍ ، ثمَّ ينسى الثانيَ ولا يكونُ بينَ الثالثِ والأوَّلِ مناسبةٌ ، ولٰكنْ يكونُ بينَهُ وبينَ الثاني مناسبةٌ ، وبينَ الثاني والأوَّلِ مناسبةٌ ؛ فكذٰلكَ لانتقالاتِ الخواطرِ في المنامِ أسبابٌ مِنْ هٰذا الجنسِ ، وكذا عندَ سكراتِ الموتِ ؛ فإنَّ الخواطرَ تنتقلُ فيها في أمورٍ بعضُها مرتبطٌ بالبعضِ بأسبابٍ مختلفةٍ .

فعلىٰ هٰذا ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ منْ كانتِ الخياطةُ أكثرَ أشغالِهِ . . فإنَّكَ تراهُ يومئُ إلىٰ رأسِهِ كأنَّهُ يأخذُ إبرتَهُ ليخيطَ بها ، ويبلُّ إصبعَهُ التي لها عادةٌ بالكشتبانِ ، ويأخذُ الإزارَ منْ فوقِهِ ويقدرُهُ ويشبرُهُ كأنَّهُ يتعاطىٰ تفصيلَهُ ثمَّ يمدُّ يدَهُ إلى المقراضِ .

ومَنْ أرادَ أنْ يكفَّ خاطرَهُ عنِ الانتقالِ إلى المعاصي والشهواتِ . . فلا طريقَ لهُ إلا المجاهدةُ طولَ العمرِ في فطامِ نفسِهِ عنها ، وفي قمعِ الشهواتِ مِنَ القلبِ ، فهٰذا هوَ القدْرُ الذي يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، ويكونُ طولُ المواظبةِ على الخيرِ ، وتخليةُ الفكرِ عنِ الشرِّ . . عدَّةً وذخيرةً لحالةِ سكراتِ الموتِ ، فإنَّهُ يموتُ المرءُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ويحشرُ علىٰ ما ماتَ عليهِ .

ولذٰلكَ نُقِلَ عنْ بقَّالٍ أنَّهُ كانَ يُلقَّنُ عندَ الموتِ كلمتيِ الشهادةِ ، فيقولُ : (خمسةٌ ، ستةٌ ، أربعةٌ) ، فكانَ مشغولَ النفسِ بالحسابِ الذي طالَ إلفُهُ لهُ قبلَ الموتِ .

وقالَ بعضُ العارفينَ مِنَ السلفِ : العرشُ جوهرةٌ تتلألأُ نوراً ، فلا يكونُ العبدُ علىٰ حالٍ إلا انطبعَ مثالُهُ في العرشِ على الصورةِ التي كانَ عليها ، فإذا كانَ في سكراتِ الموتِ . . كُشِفَتْ لهُ صورتُهُ مِنَ العرشِ ، فربما يرىٰ نفسَهُ علىٰ صورةِ معصيةٍ ، وكذٰلكَ يُكشفُ لهُ يومَ القيامةِ ، فيرىٰ أحوالَ نفسِهِ ، فيأخذُهُ مِنَ الحياءِ والخوفِ ما يجلُّ عنِ الوصفِ [1]

وما ذكرَهُ صحيحٌ ، وسببُ الرؤيا الصادقةِ قريبٌ مِنْ ذٰلكَ ، فإنَّ النائمَ يدركُ ما يكونُ في المستقبلِ مِنْ مطالعةِ اللوحِ المحفوظِ ، وهيَ جزءٌ مِنْ أجزاءِ النبوَّةِ [2]

فإذاً ؛ رجعَ سوءُ الخاتمةِ إلىٰ أحوالِ القلبِ واختلاجِ الخواطرِ ، ومقلِّبُ القلوبِ هوَ اللهُ ، والاتفاقاتُ المقتضيةُ لسوءِ الخواطرِ [3] غيرُ داخلةٍ تحتَ الاختيارِ دخولاً كلِّياً وإنْ كانَ لطولِ الإلفِ فيهِ تأثيرٌ ، فلهٰذا عظمَ خوفُ العارفينَ مِنْ سوءِ

---

(١) قوت القلوب (٢٣٣/١) بتصرف .

(٢) كما روى البخاري (٦٩٨٣) ، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

(٣) في (أ ، س) : (الخاتمة) بدل (الخواطر) .

الخاتمةِ ؛ لأنَّهُ لوْ أرادَ الإنسانُ ألا يرىٰ في المنامِ إلا أحوالَ الصالحينَ وأحوالَ الطاعاتِ والعباداتِ . . عسرَ عليهِ ذٰلكَ ، وإنْ كانَتْ كثرةُ الصلاحِ والمواظبةُ عليهِ ممَّا يؤثِّرُ فيهِ ، ولـٰكنَّ اضطراباتِ الخيالِ لا تدخلُ بالكلِّيَّةِ تحتَ الضبطِ ، وإنْ كانَ الغالبُ مناسبةَ ما يظهرُ في النومِ لما غلبَ في اليقظةِ .

حتَّىٰ سمعتُ الشيخَ أبا عليٍّ الفارمْذيَّ رحمةُ اللهِ عليهِ يصفُ لي وجوبَ حسْنِ أدبِ المريدِ لشيخِهِ ، وألا يكونَ في قلبِهِ إنكارٌ لكلِّ ما يقولُهُ ، ولا في لسانِهِ مجادلةٌ عليهِ ، فقالَ : حكيتُ لشيخي أبي القاسم الكُرْكانيِّ[1] مناماً لي ، وقلتُ : رأيتُكَ قلتَ لي كذا ، فقلتُ : لِمَ ذاكَ ؟ قالَ : فهجرَني شهراً ولمْ يكلِّمْني ، وقالَ : لولا أنَّهُ كانَ في باطنِكَ تجويزُ المطالبةِ وإنكارُ ما أقولُهُ لكَ . . لما جرىٰ ذٰلكَ علىٰ لسانِكَ في المنامِ .

وهوَ كما قالَ ؛ إذْ قلَّما يرى الإنسانُ في منامِهِ خلافَ ما يغلبُ في اليقظةِ علىٰ قلبِهِ .

فهـٰذا هوَ القدْرُ الذي نسمحُ بذكرِهِ في علمِ المعاملةِ مِنْ أسرارِ أمرِ الخاتمةِ ، وما وراءَ ذٰلكَ فهوَ داخلٌ في علمِ المكاشفةِ .

وقدْ ظهرَ لكَ بهـٰذا أنَّ الأمنَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ بأنْ ترى الأشياءَ كما هيَ عليهِ مِنْ غيرِ جهلٍ ، وتزجِّيَ جميعَ العمرِ في طاعةِ اللهِ مِنْ غيرِ معصيةٍ[2] ، فإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ ذٰلكَ محالٌ أوْ عسيرٌ . . فلا بدَّ أنْ يغلبَ عليكَ مِنَ الخوفِ ما غلبَ على العارفينَ ، حتَّىٰ يطولَ بسببِهِ بكاؤُكَ ونياحتُكَ ، ويدومَ بهِ حزنُكَ وقلقُكَ ، كما سنحكيهِ مِنْ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ والسلفِ الصالحينَ ؛ ليكونَ ذٰلكَ أحدَ الأسبابِ المهيِّجةِ لنارِ الخوفِ مِنْ قلبِكَ .

وقدْ عرفتَ بهـٰذا أنَّ أعمالَ العمرِ كلَّها ضائعةٌ إنْ لمْ يسلمْ في النفَسِ الأخيرِ الذي عليهِ خروجُ الروحِ ، وأنَّ سلامتَهُ معَ اضطرابِ أمواجِ الخواطرِ مشكلٌ جداً ، ولذٰلكَ كانَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ يقولُ : (إنِّي لا أعجبُ ممَّنْ هلكَ كيفَ هلكَ ، ولـٰكنِّي أعجبُ ممَّن نجا كيفَ نجا ؟!)[3]

ولذٰلكَ قالَ حامدٌ اللفَّافُ : (إذا صعدَتِ الملائكةُ بروحِ العبدِ المؤمنِ وقدْ ماتَ على الخيرِ والإسلامِ . . تعجبَتِ الملائكةُ منهُ ، وقالوا : كيفَ نجا هـٰذا مِنْ دنيا فسدَ فيها خيارُنا ؟!)[4]

وكانَ الثوريُّ يوماً يبكي ، فقيلَ لهُ : علامَ تبكي ؟ فقالَ : بكينا على الذنوبِ زماناً ، فالآنَ نبكي على الإسلامِ[5]

وبالجملةِ : مَنْ وقعَتْ سفينتُهُ في لجَّةِ البحرِ ، وهجمَتْ عليهِ الرياحُ العاصفةُ ، واضطربَتِ الأمواجُ . . كانَتِ النجاةُ في

---

(١) وهو جدُّ أبي علي الفارمذي لأمه ، روى الحافظ السلفي في « معجم السفر » (١٣٧) عن أخي الغزالي أحمد أنه قال : (كان أبو القاسم الكركاني بطوس شيخ خراسان في عصره في التصوف . . .) ، قال العلامة ياقوت في « معجم البلدان » (٤٥٢/٤) : (كُركان : بالضم ، وآخره نون ، وإذا عرِّب . . قيل : جُرجان) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٤١/٩) : (وكان أبو علي الفارمذي قد صاهر أبا القاسم الكركاني هـٰذا ، والمصنف رحمه الله تعالىٰ قد أخذ عن كل من الفارمذي ويوسف النساج ، وهما جميعاً عن أبي القاسم الكركاني هـٰذا ، وقد دفن الكركاني والنساج كلاهما في قبر واحد بطوس ، وكل هـٰؤلاء الثلاثة من كبار مشايخ السلسلة النقشبندية ، وللكركاني في الأخذ طريقان . . .) وذكرهما .

(٢) تزجي : زجَّيت الشيء تزجية ؛ إذا دفعته برفق ، يقال : كيف تزجِّي الأيام ؟ أي : كيف تدفعها ؟ ودفعها يكون بالرضا بقوت قليل .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢٤١/٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧١/٣) عن سليمان ينصح به ابنه .

(٤) يشيرون بذٰلك إلىٰ إبليس وهاروت وماروت . « إتحاف » (٢٤١/٩) .

(٥) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٤١/٩) ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٢/٧) عن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : مات سفيان الثوري عندي ، فلما اشتد به . . جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب !! فرفع شيئاً من الأرض فقال : والله ؛ لذنوبي أهون عندي من ذا ، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت .

حقِّهِ أبعدَ مِنَ الهلاكِ ، وقلبُ المؤمنِ أشدُّ اضطراباً مِنَ السفينةِ ، وأمواجُ الخواطرِ أعظمُ التطاماً مِنْ أمواجِ البحرِ ، وإنَّما المَخُوفُ عندَ الموتِ خاطرُ سوءٍ يخطرُ فقطْ ، وهوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ خمسينَ سنةً ، حتَّىٰ لا يبقىٰ بينَهُ وبينَ الجنَّةِ إلا فُواقُ ناقةٍ ، فيُختمُ لهُ بما سبقَ بهِ الكتابُ »[١] ، ولا يتسعُ فُواقُ الناقةِ لأعمالٍ توجبُ الشقاوةَ ، بلْ هيَ الخواطرُ التي تضطربُ وتخطرُ خطورَ البرقِ الخاطفِ .

وقالَ سهلٌ : (رأيتُ كأنِّي أُدخلتُ الجنَّةَ ، فرأيتُ ثلاثَ مئةِ نبيٍّ ، فسألتُهُمْ : ما أخوفُ ما كنتُمْ تخافونَ في الدنيا ؟ قالوا : سوءُ الخاتمةِ)[٢]

ولأجلِ هٰذا الخطرِ العظيمِ كانَتِ الشهادةُ مغبوطاً عليها ، وكانَ موتُ الفجأةِ مكروهاً

أمَّا الموتُ فجأةً . . فلأنَّهُ ربما يتفقُ عندَ غلبةِ خاطرِ سوءٍ واستيلائِهِ على القلبِ ، والقلبُ لا يخلو عنْ أمثالِهِ ، إلا أنْ يُدفعَ بالكراهةِ أوْ بنورِ المعرفةِ .

وأمَّا الشهادةُ . . فلأنَّها عبارةٌ عنْ قبضِ الروحِ في حالةٍ لمْ يبقَ في القلبِ سوىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وخرجَ حبُّ الدنيا والأهلِ والمالِ ، والولدِ وجميعِ الشهواتِ عنِ القلبِ ، إذْ لا يهجمُ علىٰ صفِّ القتالِ موطِّناً نفسَهُ على الموتِ إلا حبّاً للهِ ، وطلباً لمرضاتِهِ ، وبائعاً دنياهُ بآخرتِهِ ، وراضياً بالبيعِ الذي بايعَهُ اللهُ بهِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ، والبائعُ راغبٌ عنِ المبيعِ لا محالةَ ، ومخرجٌ حبَّهُ مِنَ القلبِ ، ومجرِّدٌ حبَّ العوضِ المطلوبِ في قلبِهِ ، ومثلُ هٰذهِ الحالةِ قدْ يغلبُ على القلبِ في بعضِ الأحوالِ ، ولٰكنْ لا يتفقُ زهوقُ الروحِ فيها ، فصفُّ القتالِ سببٌ لزهوقِ الروحِ علىٰ مثلِ هٰذهِ الحالةِ ، هٰذا فيمَنْ ليسَ يقصدُ الغلبةَ والغنيمةَ وحسنَ الصيتِ بالشجاعةِ ، فإنَّ مَنْ هٰذا حالُهُ وإنْ قُتِلَ في المعركةِ فهوَ بعيدٌ عنْ مثلِ هٰذهِ الرتبةِ كما دلَّتْ عليهِ الأخبارُ[٣]

وإذْ بانَ لكَ معنىٰ سوءِ الخاتمةِ ، وما هوَ مخوفٌ فيها . . فاشتغلْ بالاستعدادِ لها ؛ فواظبْ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وأخرجْ مِنْ قلبِكَ حبَّ الدنيا ، واحرسْ عنْ فعلِ المعاصي جوارحَكَ ، وعنِ الفكرِ فيها قلبَكَ ، واحترزْ عنْ مشاهدةِ المعاصي ومشاهدةِ أهلِها جهدَكَ ، فإنَّ ذٰلكَ أيضاً يؤثِّرُ في قلبِكَ ، ويصرفُ إليهِ فكرَكَ وخواطرَكَ .

وإيَّاكَ أنْ تسوِّفَ وتقولَ : (سأستعدُّ لها إذا جاءَتِ الخاتمةُ) ، فإنَّ كلَّ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِكَ خاتمتُكَ ، إذْ يمكنُ أنْ تُختطفَ فيهِ روحُكَ ، فراقبْ قلبَكَ في كلِّ تطريفةٍ ، وإيَّاكَ أنْ تهملَهُ لحظةً ، فلعلَّ تلكَ اللحظةَ خاتمتُكَ ؛ إذْ يمكنُ أنْ تُختطفَ فيها روحُكَ ، هٰذا ما دمتَ في يقظتِكَ .

وأمَّا إذا نمتَ . . فإيَّاكَ أنْ تنامَ إلا علىٰ طهارةِ الظاهرِ والباطنِ ، وأنْ يغلبَكَ النومُ إلا بعدَ غلبةِ ذكرِ اللهِ علىٰ قلبِكَ ، لستُ أقولُ : علىٰ لسانِكَ ، فإنَّ حركةَ اللسانِ بمجرَّدِها ضعيفةُ الأثرِ .

واعلمْ قطعاً : أنَّهُ لا يغلبُ عندَ النومِ علىٰ قلبِكَ إلا ما كانَ قبلَ النومِ غالباً عليهِ ، وأنَّهُ لا يغلبُ في النومِ إلا ما كانَ

---

(١) قوت القلوب (٢٢٦/١) ، ورواه مسلم (٢٦٥١) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٤٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .
(٢) قوت القلوب (٢٢٩/١) .
(٣) إذ روى البخاري (٢٨١٠) ، ومسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرىٰ مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في سبيل الله »

غالباً قبلَ النومِ ، ولا تُبعثُ عنْ نومِكَ إلا علىٰ ما غلبَ علىٰ قلبِكَ في نومِكَ ، والموتُ والبعثُ شبهُ النومِ واليقظةِ ، فكما لا ينامُ العبدُ إلا علىٰ ما غلبَ عليهِ في يقظتِهِ ، ولا يستيقظُ إلا علىٰ ما كانَ عليهِ في نومِهِ . . فكذٰلكَ لا يموتُ المرءُ إلا علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ولا يُحشرُ إلا علىٰ ما ماتَ عليهِ .

وتحقَّقْ قطعاً ويقيناً أنَّ الموتَ والبعثَ حالتانِ مِنْ أحوالِكَ كما أنَّ النومَ واليقظةَ حالتانِ مِنْ أحوالِكَ ، وآمنْ بهٰذا تصديقاً باعتقادِ القلبِ ، إنْ لمْ تكنْ أهلاً لمشاهدةِ ذٰلكَ بعينِ اليقينِ ونورِ البصيرةِ ، وراقبْ أنفاسَكَ ولحظاتِكَ ، وإيَّاكَ أنْ تغفُلَ عنِ اللهِ طرفةَ عينٍ ، فإنَّكَ إذا فعلتَ ذٰلكَ كلَّهُ[1] كنتَ معَ ذٰلكَ في خطرٍ عظيمٍ ، فكيفَ إذا لَمْ تفعلْ ؟! فالناسُ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا المخلصونَ والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ .

واعلمْ : أنَّ ذٰلكَ لا يتيسَّرُ لكَ ما لَمْ تقنعْ مِنَ الدنيا بقدْرِ ضرورتِكَ ، وضرورتُكَ مطعمٌ وملبسٌ ومسكنٌ ، والباقي كلُّهُ فضولٌ .

والضرورةُ مِنَ المطعمِ : ما يقيمُ صلبَكَ ويسدُّ رمقَكَ ، فينبغي أنْ يكونَ تناولُكَ تناولَ مضطرٍّ كارهٍ لهُ ، ولا تكونَ رغبتُكَ فيهِ أكثرَ مِنْ رغبتِكَ في قضاءِ حاجتِكَ ، إذْ لا فرقَ بينَ إدخالِ الطعامِ في البطنِ وبينَ إخراجِهِ ، فهما ضرورتانِ في الجبلَّةِ ، وكما لا يكونُ قضاءُ الحاجةِ مِنْ همَّتِكَ التي يشتغلُ بها قلبُكَ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ تناولُ الطعامِ مِنْ همَّتِكَ ، **واعلمْ** : أنَّهُ إنْ كانَ همَّتُكَ ما يدخلُ في بطنِكَ . . فقيمتُكَ ما يخرجُ مِنْ بطنِكَ .

وإذا لمْ يكنْ قصدُكَ مِنَ الطعامِ إلا التقوّيَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ؛ كقصدِكَ مِنْ قضاءِ حاجتِكَ . . **فعلامةُ ذٰلكَ تظهرُ** في ثلاثةِ أمورٍ مِنْ مأكولِكَ : في وقتِهِ ، وقدرِهِ ، وجنسِهِ .

أمَّا الوقتُ . . فأقلُّهُ أن يكتفيَ في اليومِ والليلةِ بمرَّةٍ واحدةٍ ، فيواظبَ على الصومِ .

وأمَّا قدرُهُ . . فألا يزيدَ علىٰ ثلثِ البطنِ .

وأمَّا جنسُهُ . . فألا يطلبَ اللذائذَ مِنَ الأطعمةِ ، بلْ يقنعُ بما يتفقُ .

فإنْ قدرتَ علىٰ هٰذهِ الثلاثِ ، وسقطَتْ عنكَ مؤنةُ الشهواتِ اللذائذِ . . قدرتَ بعدَ ذٰلكَ علىٰ تركِ الشبهاتِ ، وأمكنكَ ألا تأكلَ إلا مِنْ حلِّهِ ، فإنَّ الحلالَ يعزُّ ولا يفي بجميعِ الشهواتِ .

وأمَّا ملبسُكَ : فليكنْ غرضُكَ منهُ دفعَ الحرِّ والبردِ وسترَ العورةِ ، فكلُّ ما دفعَ البردَ عنْ رأسِكَ ـ ولوْ قلنسوةً بدانقٍ ـ فطلبُكَ غيرَهُ فضولٌ منكَ ، يضيّعُ زمانَكَ ، ويلزمُكَ الشغلَ الدائمَ والعناءَ القائمَ في تحصيلِهِ بالكسبِ مرَّةً ، وبالطمعِ أخرىٰ مِنَ الحرامِ والشبهةِ ، وقسْ بهٰذا ما تدفعُ بهِ الحرَّ والبردَ عنْ بدنِكَ ، فكلُّ ما حصَّلَ مقصودَ اللِّباسِ إنْ لمْ تكتفِ بهِ في خساسةِ قدرِهِ وجنسِهِ . . لمْ يكنْ لكَ موقفٌ ومردٌّ بعدَهُ ، بلْ كنتَ ممَّنْ لا يملأُ بطنَهُ إلا الترابُ .

وكذٰلكَ المسكنُ : إنِ اكتفيتَ بمقصودِهِ . . كفتكَ السماءُ سقفاً ، والأرضُ مستقرّاً ، فإنْ غلبَكَ حرٌّ أوْ بردٌ . . فعليكَ بالمساجدِ[2] ، فإنْ طلبتَ مسكناً خاصاً . . طالَ عليكَ ، وانصرفَ إليهِ أكثرُ عمرِكَ ، وعمرُكَ هوَ بضاعتُكَ ، ثمَّ إنْ تيسَّرَ

---

(1) أي : من الإيمان القلبي ومراقبة الأنفاس واللحظات . « إتحاف » (٩/٢٤٣)

(2) في غير (ب ، ج) : (فالمساجد) بدل (فعليك بالمساجد) .

لكَ فقصدتَ مِنَ الحائطِ سوىٰ كونِهِ حائلاً بينَكَ وبينَ الأبصارِ ، ومِنَ السقفِ سوىٰ كونِهِ دافعاً للأمطارِ ، فأخذتَ ترفعُ الحيطانَ ، وتزيِّنُ السقوفَ . . فقدْ تورَّطتَ في مهواةٍ يبعدُ رقيُّكَ منها .

وهٰكذا جميعُ ضروراتِ أمورِكَ ؛ إنِ اقتصرتَ عليها . . تفرغتَ للهِ ، وقدرتَ على التزوُّدِ لآخرتِكَ ، والاستعدادِ لخاتمتِكَ ، وإنْ جاوزتَ حدَّ الضرورةِ إلىٰ أوديةِ الأمانيِّ . . تشعبَتْ همومُكَ ، ولمْ يبالِ اللهُ في أي وادٍ أهلكَكَ .

فاقبلْ هٰذهِ النصيحةَ ممَّنْ هوَ أحوجُ إلى النصيحةِ منكَ .

واعلمْ : أنَّ متسعَ التدبيرِ والتزوُّدِ والاحتياطِ هٰذا العمرُ القصيرُ ، فإذا دفعتَهُ يوماً بيومٍ في تسويفِكَ أوْ غفلتِكَ . . اختُطفتَ فجأةً في غيرِ وقتِ إرادتِكَ ، ولمْ تفارقْكَ حسرتُكَ وندامتُكَ .

فإنْ كنتَ لا تقدرُ علىٰ ملازمةِ ما أرشدتُ إليهِ لضعفِ خوفِكَ ؛ إذْ لمْ يكنْ فيما وصفناهُ مِنَ أمرِ الخاتمةِ كفايةٌ في تخويفِكَ . . فإنَّا سنوردُ عليكَ مِنْ أحوالِ الخائفينَ ما نرجو أنْ يزيلَ بعضَ القساوةِ عنْ قلبِكَ ، فإنَّكَ تتحقَّقُ أنَّ عقلَ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ وعلمَهُمْ ومكانَهُمْ عندَ اللهِ لمْ يكنْ دونَ عقلِكَ وعلمِكَ ومكانِكَ[1] ، فتأمَّلْ ـ معَ كَلالِ بصيرتِكَ وعمشِ عينِ قلبِكَ ـ في أحوالِهِمْ : لِمَ اشتدَّ بهِمُ الخوفُ ، وطالَ بهِمُ الحزنُ والبكاءُ ؟ حتَّىٰ كانَ بعضُهُمْ يصعقُ ، وبعضُهُمْ يدهشُ ، وبعضُهُمْ يسقطُ مغشيّاً عليهِ ، وبعضُهُمْ يخرُّ ميتاً إلى الأرضِ .

ولا غروَ إنْ كانَ ذٰلكَ لا يؤثِّرُ في قلبِكَ ؛ فإنَّ قلوبَ الغافلينَ مثلُ الحجارةِ أوْ أشدُّ قسوةً ، وإنَّ مِنَ الحجارةِ لما يتفجَّرُ منهُ الأنهارُ ، وإنَّ منها لما يشقَّقُ فيخرجُ منهُ الماءُ ، وإنَّ منها لما يهبطُ مِنْ خشيةِ اللهِ ، وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملونَ .

* * *

(١) في غير (أ ، ب) : (وعملهم . . . وعملك) بدل (وعلمهم . . . وعلمك) .

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

رَوَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا تغيَّرَ الهواءُ ، وهبَّتْ ريحٌ عاصفةٌ . . يتغيَّرُ وجهُهُ ، ويقومُ ويتردَّدُ في الحجرةِ ، ويدخلُ ويخرجُ ، كلُّ ذٰلكَ خوفاً مِنْ عذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ (١)

وقرأ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ آيةً في سورةِ (الحاقَّةِ) فصعقَ (٢)

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ .

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صورةَ جبريلَ عليهِ السلامُ بالأبطحِ فصعقَ (٣)

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ إذا دخلَ في الصلاةِ يُسمعُ لصدرِهِ أزيزٌ كأزيزِ المرْجَلِ (٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جاءَني جبريلُ قطُّ إلا وهوَ يُرعَدُ فرقاً مِنَ الجبَّارِ » (٥)

وقيلَ : لما ظهرَ علىٰ إبليسَ ما ظهرَ . . طفقَ جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلامُ يبكيانِ ، فأوحى اللهُ إليهما : ما لكما تبكيانِ كلَّ هٰذا البكاءِ ؟ فقالا : يا ربُّ ؛ ما نأمنُ مكرَكَ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : هٰكذا كونا ، لا تأمنا مكري (٦)

وعنْ محمدِ بنِ المنكدرِ قالَ : (لمَّا خُلقَتِ النارُ . . طارَتْ أفئدةُ الملائكةِ مِنْ أماكنِها ، فلمَّا خُلقَ بنو آدمَ . . عادَتْ) (٧)

وعنْ أنسٍ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ سألَ جبريلَ : « ما لي لا أرىٰ ميكائيلَ يضحكُ ؟ » فقالَ جبريلُ : ما ضحكَ ميكائيلُ منذُ خُلقَتِ النارُ (٨)

ويُقالُ : إنَّ للهِ تعالىٰ ملائكةً لمْ يضحكْ أحدٌ منهُمْ منذُ خُلقَتِ النارُ ؛ مخافةَ أنْ يغضبَ اللهُ عليهِمْ فيعذِّبَهُمْ بها (٩) .

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٩) ، ومسلم (٨٩٩) ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « ما يُؤمِّنِّي أن يكون فيه عذاب ؟! عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ » .

(٢) كذا في « القوت » (٢٣٨/١) ، قال : (وروى حمزة عن حمران بن أعين . . .) وذكره ، وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم قرأ أو قُرِئ عنده : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فصعق ، وأنها رواها ابن عدي في « الكامل » (٤٣٦/٢) ، وهناد في « الزهد » (٢٦٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣٢٢/١) ، والبزار في « مسنده » (٤٧١٨) ، والطبراني في « الكبير » (٥٧/١١) .

(٤) رواه أبو داوود (٩٠٤) ، والنسائي (١٣/٣) .

(٥) عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٣٥٧) من حديث أبي ذر : « والذي بعثني بالحق ؛ ما أتاني جبريل قط إلا رأيت بين عينيه مصوراً ، فقلت : يا جبريل ؛ ما لي أراك تأتيني وبين عينيك مصوراً ؟ قال : والذي بعثك بالحق وجعلني أميناً فيما بينه وبينك ؛ ما ضحكت منذ خلقت جهنم » ، وروى أبو الشيخ في « العظمة » (٣٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالىٰ تُرعَدُ فرائصه فرقاً من عذاب الله تعالىٰ ، يقول : سبحانك لا إلٰه إلا أنت ، ما عبدناك حق عبادتك ، وروى البيهقي في « الشعب » (٨٨٧) عن أبي عمران الجوني قال : بلغني أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، فقال : « ما يبكيك ؟ » ، قال : ما جفت لي عين منذ خلق الله جهنم ؛ مخافة أن أعصيه فيلقيني فيها .

(٦) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٤٠) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٣٨٣) وليس فيه ذكر إبليس .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٤) من كلام طاووس بن كيسان .

(٨) رواه أحمد في « المسند » (٢٢٤/٣) ، ورواه كذلك في حق إسرافيل عليه السلام البيهقي في « الشعب » (٨٨٥) .

(٩) فقد روى البيهقي في « الشعب » (٨٨٦) مرفوعاً : « إن لله عز وجل ملائكة تُرعَد فرائصهم من مخافته ، ما منهم ملك يقطر من عينيه دمعة إلا وقعت ملكاً قائماً يسبح » .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : خرجتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ دخلَ بعضَ حيطانِ الأنصارِ ، فجعلَ يلتقطُ مِنَ التمرِ ويأكلُ ، قالَ : فقالَ : « يا بنَ عمرَ ؛ ما لكَ لا تأكلُ ؟ » فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لا أشتهيهِ ، فقالَ : « لـٰكنِّي أشتهيهِ ، وهـٰذا صبحُ رابعةٍ مُذْ لمْ أذقْ طعاماً ولمْ أجدْهُ ، ولوْ سألْتُ ربِّي . . لأعطاني ملكَ كسرىٰ وقيصرَ ، فكيفَ بكَ ـ يا بنَ عمرَ ـ إذا بقيتَ في قومٍ يخبؤونَ رزقَ سنتِهِمْ ، ويضعفُ اليقينُ في قلوبِهِمْ ؟ » قالَ : فواللهِ ؛ ما برحنا ولا قمنا حتَّىٰ نزلَتْ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، قالَ : فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لمْ يأمرْكُمْ بكنزِ المالِ ، ولا باتباعِ الشهواتِ ، مَنْ كنزَ دنانيرَ يريدُ بها حياةً فانيةً . . فإنَّ الحياةَ بيدِ اللهِ ، ألا وإنِّي لا أكنزُ ديناراً ولا درهماً ، ولا أَخبأُ رزقاً لغدٍ »[1]

وقالَ أبو الدرداءِ : (كانَ يُسمعُ أزيزُ قلبِ إبراهيمَ خليلِ الرحمـٰنِ عليهِ السلامُ إذا قامَ في الصلاةِ مِنْ مسيرةِ ميلٍ ؛ خوفاً مِنْ ربِّه)[2]

وقالَ مجاهدٌ : بكىٰ داوودُ عليهِ السلامُ أربعينَ يوماً ساجداً لا يرفعُ رأسَهُ ، حتَّىٰ نبتَ المرعىٰ مِنْ دموعِهِ ، وحتَّىٰ غطَّىٰ رأسَهُ ، فنُوديَ : يا داوودُ ؛ أجائعٌ أنتَ فتُطعمُ ، أمْ ظمآنُ فتُسقىٰ ، أمْ عارٍ فتُكسىٰ ؟ فنَحَبَ نحبةً هاجَ العودُ فاحترقَ مِنْ حرِّ جوفِهِ ، ثمَّ أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليهِ التوبةَ والمغفرةَ ، فقالَ : يا ربِّ ، اجعلْ خطيئتي في كفِّي ، فصارَتْ خطيئتُهُ في كفِّهِ مكتوبةً ، فكانَ لا يبسطُ كفَّهُ لطعامٍ ولا لشرابٍ ولا لغيرِهِ إلا رآها فأبكتهُ ، قالَ : وكانَ يُؤتىٰ بالقدحِ ثلثاهُ ماءٌ ، فإذا تناولَهُ . . أبصرَ خطيئتَهُ ، فما يضعُهُ علىٰ شفتِهِ حتَّىٰ يفيضَ القدحُ مِنْ دموعِهِ[3]

ويُروىٰ عنهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنَّهُ ما رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ حتَّىٰ ماتَ ، حياءً مِنَ اللهِ تعالىٰ[4]

وكانَ يقولُ في مناجاتِهِ : (إلـٰهي ؛ إذا ذكرتُ خطيئتي . . ضاقَتْ عليَّ الأرضُ برُحْبِها ، وإذا ذكرتُ رحمتَكَ . . ارتدَّتْ إليَّ روحي ، سبحانَكَ إلـٰهي ، أتيتُ أطباءَ عبادِكَ ليداووا خطيئتي ، فكلُّهُمْ عليكَ يدلُّني ، فبؤساً للقانطينَ مِنْ رحمتِكَ)[5]

وقالَ الفضيلُ : بلغَني أنَّ داوودَ عليهِ السلامُ ذكرَ ذنبَهُ ذاتَ يومٍ ، فوثبَ صارخاً واضعاً يدَهُ علىٰ رأسِهِ حتَّىٰ لحقَ بالجبالِ ، فاجتمعَتْ إليهِ السباعُ ، فقالَ : ارجعوا لا أريدُكُمْ ، إنَّما أريدُ كلَّ بكَّاءٍ علىٰ خطيئتِهِ ، فلا يستقبلُني إلا بالبكاءِ ، ومَنْ لمْ يكنْ ذا خطيئةٍ . . فما يصنعُ بداوودَ الخطَّاءِ[6]

وكانَ يُعاتبُ في كثرةِ البكاءِ فيقولُ : (دعوني أبكي قبلَ خروجِ يومِ البكاءِ ، قبلَ تخريقِ العظامِ واشتعالِ الحشا ، وقبلَ أنْ يُؤمرَ بي ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمرونَ)[7]

---

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٨٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٧/٤) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١٨/٦) بنحوه .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٤) ، وهاج : يبس ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٥) .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٢) عن عثمان ابن عاتكة يحكيه .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٢٤٧/٩) .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨٣) ، وفيه : (اللحى) بدل (الحشا) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ عميرٍ : لمَّا أصابَ داوودُ الخطيئةَ . . نقصَ صوتُهُ ، فقالَ : (إلـٰهي ؛ بُحَّ صوتي في صفاءِ أصواتِ الصدِّيقينَ)[١]

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ السلامُ لمَّا طالَ بكاؤُهُ ولمْ ينفعْهُ ذٰلكَ ، فضاقَ ذرعُهُ ، واشتدَّ غمُّهُ . . قالَ : يا ربِّ ؛ أما ترحمُ بكائي ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ نسيتَ ذنبَكَ وذكرتَ بكاءَكَ ؟! فقالَ : إلـٰهي وسيِّدي ؛ كيفَ أنسىٰ ذنبي وكنتُ إذا تلوتُ الزبورَ . . كفَّ الماءُ الجاري عنْ جريِهِ ، وسكنَ هبوبُ الريحِ ، وأظلَّني الطيرُ علىٰ رأسِي ، وأنسَتِ الوحوشُ إلىٰ محرابي ؟ إلـٰهي وسيِّدي ؛ فما هـٰذهِ الوحشةُ التي بيني وبينَكَ ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ ذاكَ أنسُ الطاعةِ ، وهـٰذهِ وحشةُ المعصيةِ ، يا داوودُ ؛ آدمُ خلقٌ مِنْ خلقي ، خلقتُهُ بيدي ، ونفختُ فيهِ مِنْ روحي ، وأسجدتُ لهُ ملائكتي ، وألبستُهُ ثوبَ كرامتي ، وتوجتُهُ بتاجِ وقاري ، وشكا إليَّ الوحدةَ ، فزوجتُهُ حوَّاءَ أَمَتي ، وأسكنتُهُ جنَّتي ، عصاني ، فطردتُهُ عنْ جواري عرياناً ذليلاً ، يا داوودُ ؛ اسمعْ منِّي والحقَّ أقولُ : أطعتَنا فأطعناكَ ، وسألتَنا فأعطيناكَ ، وعصيتَنا فأمهلناكَ ، وإنْ عدتَ إلينا علىٰ ما كانَ منكَ . . قبلناكَ[٢]

وقالَ يحيى بنُ أبي كثيرٍ : بلغَنا أنَّ داوودَ عليهِ السلامُ كانَ إذا أرادَ أنْ ينوحَ . . مكثَ قبلَ ذٰلكَ سبعاً لا يأكلُ الطعامَ ، ولا يشربُ الشرابَ ، ولا يقربُ النساءَ ، فإذا كانَ قبلَ ذٰلكَ بيومٍ . . أُخرجَ لهُ منبرٌ إلى البريَّةِ ، فيأمرُ سليمانَ عليهِ السلامُ أنْ ينادِيَ بصوتٍ يستقرئُ البلادَ وما حولَها مِنَ الغياضِ والآكامِ والجبالِ والبراري والصوامعِ والبِيَعِ ، فينادي فيها : ألا مَنْ أرادَ أنْ يسمعَ نوحَ داوودَ علىٰ نفسِهِ . . فليأتِ ، قالَ : فتأتي الوحوشُ مِنَ البراري والآكامِ ، وتأتي السباعُ مِنَ الغياضِ ، وتأتي الهوامُّ مِنَ الجبالِ ، وتأتي الطيرُ مِنَ الأوكارِ ، وتأتي العذارىٰ مِنْ خدورِهِنَّ ، وتجتمعُ الناسُ لذٰلكَ اليومِ ، ويأتي داوودُ حتَّىٰ يرقىٰ على المنبرِ ، ويحيطُ بهِ بنو إسرائيلَ ، وكلُّ صنفٍ علىٰ حدتِهِ محيطونَ بهِ ، وسليمانُ عليهِ السلامُ قائمٌ علىٰ رأسِهِ ، فيأخذُ في الثناءِ علىٰ ربِّهِ ، فيضجُّونَ بالبكاءِ والصراخِ ، ثمَّ يأخذُ في ذكرِ الجنَّةِ والنارِ ، فتموتُ الهوامُّ وطائفةٌ مِنَ الوحوشِ والسباعِ والناسِ ، ثمَّ يأخذُ في أهوالِ القيامةِ ، وفي النياحةِ علىٰ نفسِهِ ، فيموتُ مِنْ كلِّ نوعٍ طائفةٌ ، فإذا رأىٰ سليمانُ كثرةَ الموتىٰ . . قالَ : يا أبتاهُ ؛ قدْ مزَّقتَ المستمعينَ كلَّ ممزَّقٍ ، وماتَتْ طوائفُ مِنْ بني إسرائيلَ ومِنَ الوحوشِ والهوامِّ ، فيأخذُ في الدعاءِ ، فبينا هوَ كذٰلكَ . . إذْ ناداهُ بعضُ عبَّادِ بني إسرائيلَ : يا داوودُ ؛ عجلْتَ بطلبِ الجزاءِ علىٰ ربِّكَ ، قالَ : فيخرُّ داوودُ مغشيّاً عليهِ ، فإذا نظرَ سليمانُ إلىٰ ما أصابَهُ . . أتىٰ بسريرٍ فحملَهُ عليهِ ، ثمَّ أمرَ منادياً ينادي : ألا مَنْ كانَ لهُ معَ داوودَ حميمٌ أوْ قريبٌ . . فليأتِ بسريرٍ فليحملْهُ ، فإنَّ الذينَ كانوا معَهُ قدْ قتلَهُمْ ذكرُ الجنَّةِ والنارِ ، فكانَتِ المرأةُ تأتي بالسريرِ وتحملُ قريبَها وتقولُ : يا مَنْ قتلَهُ ذكرُ النارِ ، يا مَنْ قتلَهُ خوفُ اللهِ ، ثمَّ إذا أفاقَ داوودُ . . قامَ ووضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ ، ودخلَ بيتَ عبادتِهِ ، وأغلقَ بابَهُ ، ويقولُ : يا إلـٰهَ داوودَ ؛ أغضبانُ أنتَ علىٰ داوودَ ؟ ولا يزالُ يناجي ربَّهُ ، فيأتي سليمانُ ويقعدُ على البابِ ، ويستأذنُ ، ثمَّ يدخلُ ومعَهُ قرصٌ مِنْ شعيرٍ ، فيقولُ : يا أبتاهُ ؛ تقوَّ بهـٰذا علىٰ ما تريدُ ، فيأكلُ مِنْ ذٰلكَ القرصِ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ يخرجُ إلىٰ بني إسرائيلَ فيكونُ بينَهُمْ[٣]

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : خرجَ داوودُ ذاتَ يومٍ بالناسِ يعظُهُمْ ويخوِّفُهُمْ ، فخرجَ في أربعينَ ألفاً ، فماتَ منهُمْ ثلاثونَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٣٩٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/٢٤٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/٢٤٨) ، ورواه السراج القاري في « مصارع العشاق » (١/٢٧٢) .

ألفاً ، وما رجعَ إلا في عشرةِ آلافٍ ، قالَ : وكانَ لهُ جاريتانِ اتخذَهُما ، حتَّىٰ إذا جاءَهُ الخوفُ ، وسقطَ فاضطربَ . . قعدتا علىٰ صدرِهِ وعلىٰ رجليهِ مخافةَ أنْ تتفرَّقَ أعضاؤُهُ ومفاصلُهُ فيموتَ (١)

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : دخلَ يحيى بنُ زكريا عليهما السلامُ بيتَ المقدسِ وهوَ ابنُ ثمانِ حججٍ ، فنظرَ إلىٰ عبَّادِهِمْ قدْ لبسوا مدارعَ الشعرِ والصوفِ ، ونظرَ إلىٰ مجتهديهِمْ قدْ خرقوا التراقيَ وسلكوا فيها السلاسلَ ، وشدُّوا أنفسَهُمْ إلىٰ أطرافِ بيتِ المقدسِ ، فهالَهُ ذٰلكَ ، فرجعَ إلىٰ أبويهِ ، فمرَّ بصبيانٍ يلعبونَ ، فقالوا لهُ : يا يحيىٰ ؛ هلمَّ بنا لنلعبَ ، فقالَ : إنِّي لمْ أُخلقْ للَّعبِ ، قالَ : فأتىٰ أبويهِ ، فسألَهُما أنْ يدرِّعاهُ الشعرَ ، ففعلا ، فرجعَ إلىٰ بيتِ المقدسِ ، وكانَ يخدمُهُ نهاراً ، ويصبحُ فيهِ ليلاً (٢) ، حتَّىٰ أتتْ عليهِ خمسَ عشرةَ سنةً ، فخرجَ ولزمَ أطوادَ الأرضِ وغيرانَ الشعابِ ، فخرجَ أبواهُ في طلبِهِ ، فأدركاهُ علىٰ بحيرةِ الأردنِّ وقدْ أنقعَ رجليهِ في الماءِ وقدْ كادَ العطشُ يذبحُهُ وهوَ يقولُ : وعزَّتِكَ وجلالِكَ ؛ لا أذوقُ باردَ الشرابِ حتَّىٰ أعلمَ أينَ مكاني منكَ ، فسألَهُ أبواهُ أنْ يفطرَ علىٰ قرْصٍ كانَ معهما مِنْ شعيرٍ ، ويشربَ مِنْ ذٰلكَ الماءِ ، ففعلَ وكفَّرَ عنْ يمينِهِ ، فمُدِحَ بالبرِّ ، فردَّهُ أبواهُ إلىٰ بيتِ المقدسِ ، فكانَ إذا قامَ يصلِّي . . بكىٰ حتَّىٰ يبكيَ معَهُ الشجرُ والمدرُ ، ويبكيَ زكريا عليهِ السلامُ لبكائِهِ ، حتَّىٰ يُغمىٰ عليهِ ، فلمْ يزلْ يبكي حتَّىٰ أحرقَتْ دموعُهُ لحمَ خدَّيهِ ، وبدَتْ أضراسُهُ للناظرينَ ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : يا بنيَّ ؛ لوْ أذنتَ لي أنْ أتخذَ لكَ شيئاً تواري بهِ أضراسَكَ عنِ الناظرينَ ، فأذنَ لها ، فعمدَتْ إلىٰ قطعتي لبودٍ فألصقَتْهُما علىٰ خدَّيهِ ، فكانَ إذا قامَ يصلِّي . . بكىٰ ، فإذا استنقعَتْ دموعُهُ في القطعتينِ . . أتتْ إليهِ أمُّهُ فعصرتهُما ، فإذا رأىٰ دموعَهُ تسيلُ علىٰ ذراعي أمِّهِ . . قالَ : اللهمَّ ؛ هٰذهِ دموعي ، وهٰذهِ أمِّي ، وأنا عبدُكَ ، وأنتُ أرحمُ الراحمينَ ، فقالَ لهُ زكريا يوماً : يا بنيَّ ؛ إنَّما سألتُ ربِّي أنْ يهبَكَ لي لتقرَّ عينايَ بكَ ، فقالَ يحيىٰ : يا أبتِ ؛ إنَّ جبريلَ أخبرَني أنَّ بينَ الجنَّةِ والنارِ مفازةً لا يقطعُها إلا كلُّ بكَّاءٍ ، فقالَ زكريا عليهِ السلامُ : فابكِ يا بنيَّ (٣)

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (معاشرَ الحواريينَ ؛ خشيةُ اللهِ وحبُّ الفردوسِ يورثانِ الصبرَ على المشقَّةِ ، ويباعدانِ مِنَ الدنيا ، وبحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ أكلَ الشعيرِ والنومَ على المزابلِ معَ الكلابِ في طلبِ الفردوسِ قليلٌ) (٤)

وقيلَ : كانَ الخليلُ عليهِ السلامُ إذا ذكرَ خطيئتَهُ . . يُغشىٰ عليهِ ، ويُسمعُ اضطرابُ قلبِهِ ميلاً في ميلٍ ، فيأتيهِ جبريلُ فيقولُ لهُ : الجبَّارُ يقرئُكَ السلامَ ويقولُ : هلْ رأيتَ خليلاً يخافُ خليلَهُ ؟ فيقولُ : يا جبريلُ ؛ إنِّي إذا ذكرتُ خطيئَتي . . نسيتُ خلَّتي (٥)

فهٰذهِ أحوالُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، فدونَكَ والتأمُّلَ فيها ؛ فإنَّهُمْ أعرفُ خلقِ اللهِ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، وعلىٰ كلِّ عبادِ اللهِ المقربينَ ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

* * *

(١) وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٩) عن ثابت البناني قال : (كان داوود نبي الله عليه السلام إذا ذكر عقاب الله . . تخلعت أوصاله ، لا يشدها إلا الأسر ، فإذا ذكر رحمة الله . . تراجعت) ، والأسر : العصب والشد ، والمراد هنا : الأعصاب والعروق لشبهها بالحبل .

(٢) أي : يسرج السرج . « إتحاف » (٢٤٨/٩) .

(٣) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢٩٤/٢) إلىٰ قوله : (وأنت أرحم الراحمين) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/١٩) عن يزيد بن أبي منصور .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٩/٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٢/٤٧) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٢٤٩/٩) .

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين في شدة الخوف

رُوِيَ أَنَّ أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ لطائرٍ : (ليتَني مثلُكَ يا طائرُ ولمْ أُخلقْ بشراً)[١]

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (وددتُ لوْ أنِّي شجرةٌ تُعضدُ)[٢] ، وكذا قالَ طلحةُ[٣]

وقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ : (وددتُ أنِّي إذا متُّ لمْ أُبعثْ)[٤]

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (وددتُ أنِّي كنتُ نسياً منسياً)[٥]

ورُوِيَ أَنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يسقطُ مِنَ الخوفِ إذا سمعَ آيةً مِنَ القرآنِ مغشيّاً عليهِ ، فكانَ يُعادُ أيّاماً[٦]

وأخذَ يوماً تبنةً مِنَ الأرضِ فقالَ : (يا ليتَني كنتُ هـٰذهِ التبنةَ ، يا ليتَني لمْ أَكُ شيئاً مذكوراً ، يا ليتَني كنتُ نسياً منسياً ، يا ليتَني لمْ تلدْني أمِّي)[٧]

وكانَ في وجهِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ خطَّانِ أسودانِ مِنَ الدموعِ[٨]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ خافَ اللهَ . . لمْ يشفِ غيظَهُ ، ومَنِ اتقى اللهَ . . لمْ يصنعْ ما يريدُ ، ولولا يومُ القيامةِ . . لكانَ غيرَ ما ترونَ)[٩]

ولمَّا قرأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ... ﴾ ، وانتهىٰ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ . . خرَّ مغشيّاً عليهِ[١٠]

ومرَّ يوماً بدارِ إنسانٍ وهوَ يصلِّي ويقرأُ سورةَ (الطورِ) فوقفَ يستمعُ ، فلمَّا بلغَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ . . نزلَ عنْ حمارِهِ ، واستندَ إلىٰ حائطٍ ، ومكثَ زماناً ، ورجعَ إلىٰ منزلِهِ ، فمرضَ شهراً يعودُهُ الناسُ ولا يدرونَ ما مرضُهُ[١١]

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ وقدْ سلَّمَ مِنْ صلاةِ الفجرِ وقدْ علاهُ كآبةٌ وهوَ يقلِّبُ يدَهُ : (لقدْ رأيتُ أصحابَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلمْ أرَ اليومَ شيئاً يشبهُهُمْ ، لقدْ كانوا يصبحونَ شعثاً صفراً غبراً ، بينَ أعينِهِمْ أمثالُ رُكَبِ المعزىٰ ،

---

(١) رواه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٧٦٩) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢) ، وذكره موقوفاً عليه رضي الله عنه .
(٣) قوت القلوب (٢٢٨/١) .
(٤) كذا في « القوت » (٢٢٨/١) ، وروى ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٧٢) عنه رضي الله عنه قال : (لو وقفت بين الجنة والنار ، فخيِّرت بين أن أصير رماداً أو أخير إلىٰ أي الدارين أصير . . لاخترت أن أكون رماداً) .
(٥) رواه البخاري (٤٧٥٣) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥١/١) .
(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) .
(٨) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٣١٨) .
(٩) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٠٥) من طريق ابن أبي الدنيا ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٨/٨)
(١٠) أورده المحب الطبري في « الرياض النضرة » (٣٧٥/٢) .
(١١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠٨/٤٤) .

قدْ باتوا للهِ سجّداً وقياماً يتلونَ كتابَ اللهِ ، يراوحونَ بينَ جباهِهِمْ وأقدامِهِمْ ، فإذا أصبحوا وذكروا اللهَ . . مادوا كما يميدُ الشجرُ في يومِ الريحِ ، وهملَتْ أعينُهُمْ الدموعَ حتَّىٰ تبلَّ ثيابَهُمْ ، واللهِ ؛ كأنِّي بالقومِ باتوا غافلينَ) ، ثمَّ قامَ فما رُئِيَ بعدَ ذٰلكَ ضاحكاً حتَّىٰ ضربَهُ ابنُ ملجمٍ[١]

وقالَ عمرانُ بنُ الحصينِ : (وددتُ أنِّي رمادٌ تسفيني الرياحُ في يومٍ عاصفٍ)[٢]

وقالَ أبو عبيدةَ ابنُ الجرَّاحِ رضيَ اللهُ عنهُ : (وددتُ أنِّي كبشٌ فيذبحُني أهلي ، فيأكلونَ لحمي ، ويحسونَ مرقي)[٣] .

وكانَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ إذا توضَّأَ . . اصفرَّ لونُهُ ، فيقولُ لهُ أهلُهُ : ما هٰذا الذي يعتادُكَ عندَ الوضوءِ ؟ فيقولُ : أتدرونَ بينَ يدي مَنْ أريدُ أنْ أقومَ ؟![٤]

وقالَ موسى بنُ مسعودٍ : كنَّا إذا جلسنا إلى الثوريِّ كأنَّ النارَ قدْ أحاطَتْ بنا ؛ لما نرىٰ مِنْ خوفِهِ وجزعِهِ[٥]

وقرأ مضرُ القارئُ يوماً : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ . . . ﴾ الآيةَ ، فبكىٰ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ حتَّىٰ غُشِيَ عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا عصيتُكَ جهدي أبداً ، فأعنّي بتوفيقِكَ علىٰ طاعتِكَ[٦]

وكانَ المسورُ بنُ مخرمةَ لا يقوىٰ أنْ يسمعَ شيئاً منَ القرآنِ لشدَّةِ خوفِهِ ، ولقدْ كانَ يُقرأُ عندَهُ الحرفُ أوِ الآيةُ فيصيحُ صيحةً فما يعقلُ أياماً ، حتَّىٰ أتىٰ عليهِ رجلٌ مِنْ خثعمٍ ، فقرأَ عليهِ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ ، فقالَ : أنا مِنَ المجرمينَ ، ولستُ مِنَ المتقينَ ، أعدْ عليَّ القولَ أيُّها القارئُ ، فأعادَها عليهِ ، فشهقَ شهقةً فلحقَ بالآخرةِ[٧]

وقُرِئَ عندَ يحيى البَكَّاءِ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ، فصاحَ صيحةً مكثَ منها مريضاً أربعةَ أشهرٍ يُعادُ مِنْ أطرافِ البصرةِ[٨]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : بينما أنا أطوفُ بالبيتِ إذْ أنا بجُويريةَ المتعبدةِ متعلقةً بأستارِ الكعبةِ وهيَ تقولُ : يا ربِّ ؛ كمْ مِنْ شهوةٍ ذهبَتْ لذَّاتُها وبقيَتْ تبعاتُها ؟! يا ربِّ ؛ أما كانَ لكَ أدبٌ وعقوبةٌ إلا النارُ ؟! وتبكي ، فما زالَ ذٰلكَ مقامُها حتَّىٰ طلعَ الفجرُ ، قالَ مالكٌ : فلمَّا رأيتُ ذٰلكَ . . وضعتُ يدي علىٰ رأسي صارخاً أقولُ : ثكلَتْ مالكاً أمُّهُ[٩]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٦/١) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٦١٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٠) .

(٣) هو ضمن الخبر المروي قبله .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٣٨) ، وابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (١٤٨) .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٤٠) .

(٦) بنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣٠/٣٧) .

(٧) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٥٢/٩) : (هٰكذا ذكره المصنف في سبب موته ، والذي ثبت من قول عمرو بن علي الفلاس أنه أصابه المنجنيق في فتنة ابن الزبير وهو يصلي في الحجر ، فمكث خمسة أيام ثم مات ، فلعل هٰذه القصة إن صحت . . كانت في أثناء هٰذه الأيام الخمسة ، أو حصل التصحيف من النساخ في صاحب القصة) .

(٨) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢١٣) .

(٩) رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٣١٩/١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣١/٥٦) ، وكذا وقع في النسخ : (المتعبدة) بالتعريف ، وعند الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٥٢/٩) : (بجويريةٍ متعبدة) .

ورُوِيَ أنَّ الفضيلَ رُئِيَ يومَ عرفةَ والناسُ يدعونَ وهوَ يبكي بكاءَ الثكلى المحترقةِ ، حتَّىٰ إذا كادَتِ الشمسُ تغربُ . . قبضَ علىٰ لحيتِهِ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقالَ : واسوءتاهُ منكَ وإنْ غفرتَ ، ثمَّ انقلبَ معَ الناسِ [(١)]

وسُئِلَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عنِ الخائفينَ ، فقالَ : (قلوبُهُمْ بالخوفِ قرحةٌ ، وأعينُهُمْ باكيةٌ ، يقولونَ : كيفَ نفرحُ والموتُ مِنْ ورائِنا ، والقبرُ أمامَنا ، والقيامةُ موعدُنا ، وعلىٰ جهنَّمَ طريقُنا ، وبينَ يدي ربِّنا موقفُنا ؟!) [(٢)] .

ومرَّ الحسنُ بشابٍّ وهوَ مستغرقٌ في ضحكِهِ وهوَ جالسٌ معَ قومٍ في مجلسٍ ، فقالَ لهُ الحسنُ : يا فتىٰ ؛ هلْ مررتَ بالصراطِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ تدري إلى الجنَّةِ تصيرُ أمْ إلى النارِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فما هـٰذا الضحكُ ؟! قالَ : فما رُئِيَ ذٰلكَ الفتىٰ بعدَها ضاحكاً [(٣)]

وكانَ حمَّادُ بنُ عبدِ ربِّهِ إذا جلسَ . . جلسَ مستوفزاً علىٰ قدميهِ ، فيُقالُ لهُ : لوِ اطمأننتَ ، فيقولُ : تلكَ جلسةُ الآمنِ ، وأنا غيرُ آمنٍ ؛ إذْ عصيتُ اللهَ عزَّ وجلَّ .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : (إنَّما جعلَ اللهُ تعالىٰ هـٰذهِ الغفلةَ في قلوبِ العبادِ رحمةً ؛ كي لا يموتوا مِنْ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ) [(٤)]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (لقدْ هممتُ إذا أنا متُّ أنْ آمرَهُمْ أنْ يقيِّدوني ويغلُّوني ، ثمَّ ينطلقوا بي إلىٰ ربِّي كما يُنطلقُ بالعبدِ الآبقِ إلىٰ سيِّدِهِ) [(٥)]

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (لا تغترَّ بموضعٍ صالحٍ ؛ فلا مكانَ أصلحُ مِنَ الجنَّةِ وقدْ لقيَ آدمُ عليهِ السلامُ فيها ما لقيَ ، ولا تغترَّ بكثرةِ العبادةِ ؛ فإنَّ إبليسَ بعدَ طولِ تعبُّدِهِ لقيَ ما لقيَ ، ولا تغترَّ بكثرةِ العلمِ ؛ فإنَّ بلعامَ كانَ يحسنُ اسمَ اللهِ الأعظمَ ، فانظرْ ماذا لقيَ ، ولا تغترَّ برؤيةِ الصالحينَ ؛ فلا شخصَ أكبرُ منزلةً عندَ اللهِ مِنَ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولمْ ينتفعْ بلقائِهِ أقاربُهُ وأعداؤُهُ) [(٦)]

وقالَ السريُّ : (إنِّي لأنظرُ إلىٰ أنفي كلَّ يومٍ مراتٍ ؛ مخافةَ أنْ يكونَ قدِ اسودَّ وجهي) [(٧)]

وقالَ أبو حفصٍ : (منذُ أربعينَ سنةً اعتقادي في نفسي أنَّ اللهَ تعالىٰ ينظرُ إليَّ نظرَ السخطِ ، وأعمالي تدلُّ علىٰ ذٰلكَ) [(٨)]

وخرجَ ابنُ المباركِ يوماً علىٰ أصحابِهِ فقالَ : (إنِّي اجترأتُ البارحةَ على اللهِ تعالىٰ ؛ سألتُهُ الجنَّةَ) [(٩)]

وقالَتْ أمُّ محمدِ بنِ كعبٍ القرظيِّ لابنِها : يا بنيَّ ؛ إنِّي أعرفُكَ صغيراً طيِّباً ، وكبيراً طيِّباً ، وكأنَّكَ أحدثتَ حدثاً

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٩٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٠/٤٨) .
(٢) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١٧٧/٣) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢٥٣/٩) .
(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٥٣/٩) .
(٥) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٨٠) بنحوه .
(٦) الرسالة القشيرية (ص ٢٤١) .
(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٦/١٠) .
(٨) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٠) ، وأبو حفص هو عمر بن مسلمة الحداد .
(٩) الرسالة القشيرية (ص ٢٤١) .

موبقاً لما أراكَ تصنعُ في ليلِكَ ونهارِكَ !!(1) فقالَ : يا أمَّاهُ ؛ ما يؤمِنُني أنْ يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ قدِ اطلعَ عليَّ وأنا علىٰ بعضِ ذنوبي فمقتَني وقالَ : وعزَّتي وجلالي ؛ لا غفرتُ لكَ ؟!(2)

وقالَ الفضيلُ : (إنِّي لا أغبطُ نبيّاً مرسلاً ، ولا ملكاً مقرباً ، ولا عبداً صالحاً ، أليسَ هٰؤلاءِ يعاينونَ يومَ القيامةِ ؟! إنَّما أغبطُ مَنْ لمْ يُخلقْ)(3)

ورُوِيَ أنَّ فتىً مِنَ الأنصارِ دخلتهُ خشيةُ النارِ ، فكانَ يبكي حتَّىٰ حبسَهُ ذٰلكَ في البيتِ ، فجاءَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فدخلَ عليهِ واعتنقَهُ ، فخرَّ ميتاً ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جهِّزوا صاحبَكُمْ ؛ فإنَّ الفَرَقَ مِنَ النارِ فتَّتَ كبدَهُ »(4)

ورُوِيَ عن أبي ميسرةَ أنَّهُ كانَ إذا أوىٰ إلىٰ فراشِهِ قالَ : يا ليتَ أمِّي لمْ تلدْني ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : يا أبا ميسرةَ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أحسنَ إليكَ ؛ هداكَ للإسلامِ ، قالَ : أجلْ ، ولٰكنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ بيَّنَ لنا أنَّا واردو النارِ ، ولمْ يبيِّنْ لنا أنا صادرونَ عنها(5)

وقيلَ لفرقدٍ السَّبَخِيِّ : أخبرْنا بأعجبِ شيءٍ بلغَكَ عنْ بني إسرائيلَ ، فقالَ : بلغَني أنَّهُ دخلَ بيتَ المقدسِ خمسُ مئةِ عذراءَ ، لباسُهُنَّ الصوفُ والمسوحُ ، فتذاكرْنَ ثوابَ اللهِ وعقابَهُ ، فمتنَ جميعاً في يومٍ واحدٍ(6) .

وكانَ عطاءٌ السَّليميُّ مِنَ الخائفينَ ، ولمْ يكنْ يسألُ اللهَ الجنَّةَ أبداً ، إنَّما كانَ يسألُ اللهَ العفوَ(7)

وقيلَ لهُ في مرضِهِ : ألا تشتهي شيئاً ؟ فقالَ : إنَّ خوفَ جهنَّمَ لمْ يدعْ في قلبي موضعاً للشهوةِ(8)

ويُقالُ : إنَّهُ ما رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ولا ضحكَ أربعينَ سنةً ، وإنَّهُ رفعَ رأسَهُ يوماً ، ففزعَ ، فسقطَ ، فانفتقَ في بطنِهِ فتقٌ(9)

وكانَ يمسُّ جسدَهُ في بعضِ الليلةِ مخافةَ أنْ يكونَ قدْ مُسِخَ(10)

وكانَ إذا أصابَتْهُمْ ريحٌ أوْ برقٌ أوْ غلاءُ طعامٍ . . قالَ : هٰذا مِنْ أجلي يصيبُهُمْ ، لوْ ماتَ عطاءٌ . . لاستراحَ الناسُ(11) .

وقالَ عطاءٌ : خرجنا معَ عتبةَ الغلامِ وفينا كهولٌ وشبَّانٌ يصلُّونَ صلاةَ الفجرِ بطهورِ العشاءِ ، قدْ تورَّمَتْ أقدامُهُمْ مِنْ طولِ القيامِ ، وغارَتْ أعينُهُمْ في رؤوسِهِمْ ، ولصقَتْ جلودُهُمْ علىٰ عظامِهِمْ ، وبقيَتِ العروقُ كأنَّها الأوتارُ ، يصبحونَ

---

(1) أي : من الاجتهاد في العبادة ، والبكاء من الخوف « إتحاف » (٢٥٣/٩) .
(2) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٤/٣) .
(3) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٨) ، ويعاينون : يشاهدون أهوالها .
(4) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٢٠) ، من زيادات نعيم بن حماد ، وأحمد في « الزهد » (٢٣٤٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٩٤/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٠٨) .
(5) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١١٨٣٧) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣١٢) ، وفي غير (ب) : (وروي عن ابن أبي ميسرة) .
(6) أورده ابن الجوزي في « المدهش » (٦١٣/٢) .
(7) روىٰ ذلك له أبو نعيم في « الحلية » (٢١٧/٦) .
(8) روىٰ ما يفيد هٰذا أبو نعيم في « الحلية » (٢١٩/٦) .
(9) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢١/٦) .
(10) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٢/٦) .
(11) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢١/٦) .

كأنَّ جلودَهُمْ قشورُ البطيخِ ، وكأنَّهُمْ قدْ خرجوا مِنَ القبورِ يخبرونَ كيفَ أكرمَ اللهُ المطيعينَ ، وكيفَ أهانَ العاصينَ ، فبينَما هُمْ يمشونَ . . إذْ مرَّ بمكانٍ ، فخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فجلسَ أصحابُهُ حولَهُ يبكونَ في يومٍ شديدِ البردِ ، وجبينُهُ يرشحُ عرقاً ، فجاؤوا بماءٍ فمسحوا وجهَهُ ، فأفاقَ ، وسألوهُ عنْ أمرِهِ ، فقالَ : إنِّي ذكرتُ أنِّي كنتُ عصيتُ اللهَ في ذلكَ المكانِ[1]

وقالَ صالحٌ المريُّ : قرأتُ على رجلٍ مِنَ المتعبدينَ : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ ، فصعقَ ، ثمَّ أفاقَ فقالَ : زدْني يا صالحُ ؛ فإنِّي أجدُ غمّاً ، فقرأتُ : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ ، فخرَّ ميتاً .

ورُوِيَ أنَّ زرارةَ بنَ أوفىٰ صلَّىٰ بالناسِ الغداةَ ، فلمَّا قرأَ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ . . خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فحُملَ ميتاً[2]

ودخلَ يزيدُ الرقاشيُّ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فقالَ : عظْني يا يزيدُ ؛ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ اعلمْ أنَّكَ لستَ أوَّلَ خليفةٍ يموتُ ، فبكىٰ ، ثمَّ قالَ : زدْني ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ليسَ بينَكَ وبينَ آدمَ أبٌ إلا ميِّتٌ ، فبكىٰ ، ثمَّ قالَ : زدْني يا يزيدُ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ليسَ بينَكَ وبينَ الجنَّةِ والنارِ منزلٌ ، فسقطَ مغشيّاً عليهِ[3]

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : لمَّا نزلَتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . . صاحَ سلمانُ الفارسيُّ ، ووضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ ، وخرجَ هارباً ثلاثةَ أيامٍ لا يقدرونَ عليهِ[4]

ورأىٰ داوودُ الطائيُّ امرأةً تبكي علىٰ رأسِ قبرِ والدِها وهيَ تقولُ : يا أبتاهُ ؛ ليتَ شعري أيُّ خديكَ بدأَ بهِ الدودُ أوَّلاً ؟ فصعقَ داوودُ وسقطَ مكانَهُ[5]

وقيلَ : مرضَ سفيانُ الثوريُّ ، فعُرِضَ بولُهُ علىٰ طبيبٍ ذميٍّ ، فقالَ : هٰذا رجلٌ قطعَ الخوفُ كبدَهُ ، ثمَّ جاءَ وجسَّ عروقَهُ ، ثمَّ قالَ : ما علمتُ أنَّ في الملةِ الحنيفيةِ مثلَهُ[6]

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمَهُ اللهُ : سألتُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يفتحَ عليَّ باباً مِنَ الخوفِ ، ففتحَ ، فخفتُ علىٰ عقلي ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ علىٰ قدْرِ ما أطيقُ ، فسكنَ قلبي[7]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ : (ابكوا ، فإنْ لمْ تبكوا . . فتباكَوا ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ يعلمُ العلمَ أحدُكُمْ . . لصرخَ حتَّىٰ ينقطعَ صوتُهُ ، وصلَّىٰ حتَّىٰ ينكسرَ صلبُهُ)[8] ، وكأنَّهُ أشارَ إلىٰ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً »[9]

---

(١) خبر أنه مرَّ بمكان فأصابه ما أصابه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٨/٦) .

(٢) رواه الترمذي (٤٤٥) بنحوه .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥١) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٢٥٥/٩) .

(٥) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٢٤) ، وعند القشيري في « الرسالة » (ص ٥٩) أن سبب زهد داوود رحمه الله تعالىٰ أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بـأيِّ خـديـك تـبـدَّى البـلـىٰ ... وأي عينيـك إذاً سـالا

(٦) الرسالة القشيرية (ص ٢٤١) .

(٧) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٢) .

(٨) رواه الحاكم في « المستدرك » (٥٧٨/٤) .

(٩) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .

وقالَ العنبريُّ : اجتمعَ أصحابُ الحديثِ على بابِ الفضيلِ بنِ عياضٍ ، فاطلعَ عليهِمْ مِنْ كوَّةٍ وهوَ يبكي ولحيتُهُ ترجفُ ، فقالَ : عليكمْ بالقرآنِ ، عليكُمْ بالصلاةِ ، ويحَكُمْ ، ليسَ هـٰذا زمانَ حديثٍ ، إنَّما هـٰذا زمانُ بكاءٍ وتضرُّعٍ واستكانةٍ ، ودعاءٍ كدعاءِ الغريقِ ، إنَّما هـٰذا زمانٌ : احفظْ لسانَكَ ، وأخفِ مكانَكَ ، وعالجْ قلبَكَ ، وخذْ ما تعرفُ ، ودعْ ما تنكرُ[1]

ورُئِيَ الفضيلُ يوماً وهوَ يمشي ، فقيلَ لهُ : إلىٰ أينَ ؟ فقالَ : لا أدري ، وكانَ يمشي والهاً مِنَ الخوفِ[2]

وقالَ ذرُّ بنُ عمرَ لأبيهِ عمرَ بنِ ذرٍّ : ما بالُ المتكلمينَ يتكلَّمونَ فلا يبكي أحدٌ ، فإذا تكلمتَ أنتَ . . سمعتُ البكاءَ مِنْ كلِّ جانبٍ ؟ فقالَ : يا بنيَّ ، ليسَتِ النائحةُ الثكلىٰ كالنائحةِ المستأجرةِ[3]

وحُكِيَ أنَّ قوماً وقفوا بعابدٍ وهوَ يبكي ، فقالوا : ما الذي يبكيكَ يرحمُكَ اللهُ ؟ قالَ : روعةٌ يجدُها الخائفونَ في قلوبِهِمْ ، قالوا : وما هيَ ؟ قالَ : روعةُ النداءِ بالعرضِ على اللهِ عزَّ وجلَّ[4]

وكانَ الخوَّاصُ يبكي ويقولُ في مناجاتِهِ : (قدْ كبرتُ وضعفَ جسمي عنْ خدمتِكَ ، فأعتقْني)[5]

وقالَ صالحٌ المرّيُّ : قدمَ علينا ابنُ السمَّاكِ مرَّةً فقالَ : أرني شيئاً مِنْ بعضِ عجائبِ عُبَّادِكُمْ ، فذهبتُ بهِ إلىٰ رجلٍ في بعضِ الأحياءِ في خُصٍّ لهُ ، فاستأذنا عليهِ ، فإذا رجلٌ يعملُ خوصاً ، فقرأتُ عليهِ : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، فشهقَ الرجلُ شهقةً وخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فخرجنا مِنْ عندِهِ وتركناهُ علىٰ حالِهِ ، وذهبنا إلىٰ آخرَ ، فدخلنا عليهِ ، فقرأتُ هـٰذهِ الآيةَ ، فشهقَ شهقةً وخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فذهبنا واستأذنا علىٰ ثالثٍ ، فقالَ : ادخلوا إنْ لمْ تشغلونا عنْ ربّنا ، فقرأتُ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ، فشهقَ شهقةً ، فبدا الدمُ مِنْ منخريهِ ، وجعلَ يتشحَّطُ في دمِهِ حتَّىٰ يبسَ ، فتركناهُ علىٰ حالِهِ وخرجنا ، فأدرتُهُ علىٰ ستَّةِ أنفسٍ ، كلٌّ نخرجُ مِنْ عندِهِ ونتركُهُ مغشيّاً عليهِ ، ثمَّ أتيتُ بهِ السابعَ ، فاستأذنا ، فإذا امرأةٌ من وراءِ الخُصِّ تقولُ : ادخلوا ، فدخلنا ، فإذا شيخٌ فانٍ جالسٌ في مصلَّاهُ ، فسلَّمنا عليهِ ، فلمْ يشعرْ بسلامِنا ، فقلتُ بصوتٍ عالٍ ، ألا إنَّ للخلقِ غداً مقاماً ، فقالَ الشيخُ : بينَ يدي مَنْ ويحَكَ ؟ ثمَّ بقيَ مبهوتاً ، فاتحاً فاهُ ، شاخصاً بصرَهُ ، يصيحُ بصوتٍ لهُ ضعيفٍ : أوْهِ أوْهِ ، حتَّى انقطعَ ذٰلكَ الصوتُ ، فقالَتِ امرأتُهُ : اخرجوا ، فإنَّكُمْ لا تنتفعونَ بهِ الساعةَ ، فلمَّا كانَ بعدَ ذٰلكَ . . سألتُ عنِ القومِ ، فإذا ثلاثةٌ قدْ أفاقوا ، وثلاثةٌ قدْ لحقوا باللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الشيخُ . . فإنَّهُ مكثَ ثلاثةَ أيامٍ علىٰ حالتِهِ مبهوتاً متحيِّراً ، لا يؤدِّي فرضاً ، فلمَّا كانَ بعدَ ثلاثٍ . . عقلَ[6]

وكانَ يزيدُ بنُ الأسودِ يُرىٰ أنَّهُ مِنَ الأبدالِ ، وكانَ قدْ حلفَ ألا يضحكَ أبداً ، ولا ينامَ مضطجعاً ، ولا يأكلَ سميناً أبداً ، فما رُئِيَ ضاحكاً ، ولا مضطجعاً ، ولا أكلَ سميناً حتَّىٰ ماتَ رحمَهُ اللهُ[7]

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩٤/٨) من طريق الحسين بن زياد قال : سمعت الفضيل يقول : (احفظ لسانك ، وأقبل علىٰ شأنك ، واعرف زمانك ، وأخف مكانك) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٥٦/٩) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١١٠/٥) .

(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢٥٧/٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٢٨٢) بنحوه .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٩/٦) .

(٧) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١١١/٦٥) من طريق ابن أبي الدنيا ، وصوَّب الزبيدي في « الإتحاف » (٢٥٧/٩) أنه الأسود بن يزيد ، ولـٰكن في النسخ والأصل المنقول عنه كما أثبت .

وقالَ الحجَّاجُ لسعيدِ بنِ جبيرٍ : بلغَني أنَّكَ لمْ تضحكْ قطُّ ، فقالَ : كيفَ أضحكُ وجهنَّمُ قدْ سُعرَتْ ، والأغلالُ قدْ نُصبَتْ ، والزبانيةُ قدْ أُعدَّتْ [١] .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ كيفَ أصبحتَ ؟ قالَ : بخيرٍ ، قالَ : كيفَ حالُكَ ؟ فتبسَّمَ الحسنُ وقالَ : تسألُني عنْ حالي ؟! ما ظنُّكَ بناسٍ ركبوا سفينةً حتَّىٰ توسَّطوا البحرَ فانكسرَتْ سفينتُهُمْ ، فتعلَّقَ كلُّ إنسانٍ منهُمْ بخشبةٍ ، علىٰ أيِّ حالٍ هُمْ ؟ قالَ الرجلُ : علىٰ حالٍ شديدةٍ ، قالَ الحسنُ : حالي أشدُّ مِنْ حالِهِمْ [٢]

ودخلَتْ مولاةٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ عليهِ ، فسلَّمَتْ عليهِ ، ثمَّ قامَتْ إلىٰ مسجدٍ في بيتِهِ ، فصلَّتْ فيهِ ركعتينِ ، وغلبَتْها عيناهَا ، فرقدَتْ ، فاستبكَتْ في منامِها [٣] ، ثمَّ انتبهتْ فقالَتْ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنِّي رأيتُ ـ واللهِ ـ عجباً ، قالَ : وما ذاكِ ؟ قالَتْ : رأيتُ النارَ وهيَ تزفرُ علىٰ أهلِها ، ثمَّ جيءَ بالصراطِ فوُضعَ علىٰ متنِها ، فقالَ : هيهِ ، قالَتْ : فجيءَ بعبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، فحُملَ عليهِ ، فما مضىٰ عليهِ إلا يسيراً حتَّى انكفأَ بهِ الصراطُ ، فهوىٰ إلىٰ جهنَّمَ ، فقالَ عمرُ : هيهِ ، قالَتْ : ثمَّ جِيءَ بالوليدِ بنِ عبدِ الملكِ ، فحُملَ عليهِ ، فما مضىٰ إلا يسيراً حتَّى انكفأَ بهِ الصراطُ ، فهوىٰ إلىٰ جهنَّمَ ، فقالَ عمرُ : هيهِ ، قالَتْ : ثمَّ جِيءَ بسليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فما مضىٰ عليهِ إلا يسيراً حتَّى انكفأَ بهِ الصراطُ ، فهوىٰ كذٰلكَ ، فقالَ عمرُ : هيهِ ، قالَتْ : ثمَّ جيءَ بكَ ـ واللهِ ـ يا أميرَ المؤمنينَ ، فصاحَ عمرُ رحمةُ اللهِ عليهِ صيحةً خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فقامَتْ إليهِ ، فجعلَتْ تنادي في أذنِهِ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنِّي رأيتُكَ ـ واللهِ ـ حتَّىٰ نجوتَ [٤] ، قالَ : وهيَ تنادي وهوَ يصيحُ ويفحصُ برجليهِ [٥]

ويُحكىٰ أنَّ أويساً القرنيَّ رحمَهُ اللهُ كانَ يحضرُ عندَ القاصِّ فيبكي مِنْ كلامِهِ ، فإذا ذكرَ النارَ . . صرخَ أويسٌ ، ثمَّ يقومُ منطلقاً ، فيتبعُهُ الناسُ ، فيقولونَ : مجنونٌ مجنونٌ .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ المؤمنَ لا تسكنُ روعتُهُ حتَّىٰ يخلِّفَ جسرَ جهنَّمَ وراءَهُ) [٦]

وكانَ طاووسٌ يفرشُ فراشَهُ ، ثمَّ يضطجعُ ويتقلَّىٰ كما تتقلَّى الحبَّةُ في المقلَىٰ ، ثمَّ يثبُ فيدرجُهُ [٧] ويستقبلُ القبلةَ حتَّى الصباحِ ، ويقولُ : (طيَّرَ ذكرُ جهنَّمَ نومَ الخائفينَ) [٨]

وقالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ : (يخرجُ مِنَ النارِ رجلٌ بعدَ ألفِ عامٍ ويا ليتَني كنتُ ذٰلكَ الرجلَ) [٩] ، وإنَّما قالَ ذٰلكَ لخوفِهِ منَ الخلودِ وسوءِ الخاتمةِ .

ورُوِيَ أنَّهُ ما ضحكَ أربعينَ سنةً ، قالَ : وكنتُ إذا رأيتُهُ قاعداً كأنَّهُ أسيرٌ قدْ قدمَ لتُضربَ عنقُهُ ، وإذا تكلَّمَ كأنَّهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٩١/٤) ضمن خبر طويل ، ولفظه : (وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين ، والطين تأكله النار) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٢٥٨/٩) .

(٣) أي : انتبهت باكية مذعورة . « إتحاف » (٢٥٨/٩) .

(٤) في (د) : (إني رأيتك والله حتىٰ نجوت ، إني رأيتك والله حتىٰ نجوت) ، وكذا في (ج) دون (حتىٰ) .

(٥) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٢٥٨/٩) .

(٦) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٩٢٧٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١/١٠) من حديث معاذ رضي الله عنه مرفوعاً .

(٧) أي : يطوي الفراش .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) ، وفيه : (العابدين) بدل (الخائفين) .

(٩) قوت القلوب (١٥٠/٢) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٢٣٠/٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ولم يذكر قول الحسن ، وساق قول الحسن من رواية أبي بكر الآجري ابنُ حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص ٣٥) .

يعاينُ الآخرةَ فيخبرُ عنْ مشاهدتِها ، فإذا سكتَ كأنَّ النارَ تُسعرُ بينَ عينيهِ ، وعُوتبَ في شدَّةِ حزنِهِ وخوفِهِ فقالَ : (ما يؤمنُني أنْ يكونَ اللهُ تعالىٰ قدِ اطلعَ عليَّ في بعضِ ما يكرهُ ، فمقتَني ، فقالَ : اذهبْ فلا غفرتُ لكَ ، فأنا أعملُ في غيرِ معملٍ ؟!)[1]

وعنِ ابنِ السمَّاكِ قالَ : وعظتُ يوماً في مجلسٍ ، فقامَ شابٌّ مِنَ القومِ فقالَ : يا أبا العباسِ ؛ لقدْ وعظتَ اليومَ بكلمةٍ ما كنَّا نبالي ألا نسمعَ غيرَها ، قلتُ : وما هيَ رحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : قولُكَ : لقدْ قطعَ قلوبَ الخائفينَ طولُ الخلودينِ ؛ إمَّا في الجنَّةِ أوْ في النارِ ، ثمَّ غابَ عنِّي ، فتفقدتُهُ في المجلسِ الآخرِ فلمْ أرَهُ ، فسألتُ عنهُ ، فأُخبرتُ أنَّهُ مريضٌ يُعادُ ، فأتيتُهُ أعودُهُ ، فقلتُ : يا أخي ، ما الذي أرىٰ بكَ ؟ فقالَ : يا أبا العباسِ ؛ ذٰلكَ مِنْ قولِكَ : لقدْ قطعَ قلوبَ الخائفينَ طولُ الخلودينِ ؛ إمَّا في الجنَّةِ أوْ في النارِ ، قالَ : ثمَّ ماتَ رحمَهُ اللهُ ، فرأيتُهُ في المنامِ ، فقلتُ : يا أخي ، ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي ورحمَني ، وأدخلَني الجنَّةَ ، قلتُ : بماذا ؟ قالَ : بالكلمةِ .

فهٰذهِ مخاوفُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ والصالحينَ ، ونحنُ أجدرُ بالخوفِ منهُمْ ، لٰكنْ ليسَ الخوفُ بكثرةِ الذنوبِ ، بلْ بصفاءِ القلوبِ وكمالِ المعرفةِ ، وإلا . . فليسَ أمنُنا لقلَّةِ ذنوبِنا وكثرةِ طاعاتِنا ، بلْ قادَتنا شهوتُنا ، وغلبَتْ علينا شقوتُنا ، وصدَّتنا عنْ ملاحظةِ أحوالِنا غفلتُنا وقسوتُنا ، فلا قرْبُ الرحيلِ ينبِّهُنا ، ولا كثرةُ الذنوبِ تحرِّكُنا ، ولا مشاهدةُ أحوالِ الخائفينَ تخوِّفُنا ، ولا خطرُ الخاتمةِ يزعجُنا ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يتداركَ بفضلِهِ وجودِهِ أحوالَنا فيصلحَنا ، إنْ كانَ تحريكُ اللسانِ بمجرَّدِ السؤالِ دونَ الاستعدادِ ينفعُنا .

ومِنَ العجائبِ أنَّا إذا أردنا المالَ في الدنيا . . زرعنا وغرسنا واتجرنا ، وركبنا البحارَ والبراريَ وخاطرنا ، وإنْ أردنا طلبَ رتبةِ العلمِ . . تفقَّهنا ، وتعبنا في حفظِهِ وتكرارِهِ وسهرنا ، ونجتهدُ في طلبِ أقواتِنا ولا نثقُ بضمانِ اللهِ لنا ، ولا نجلسُ في بيوتِنا فنقولَ : اللهمَّ ؛ ارزقْنا ، ثمَّ إذا طمحَتْ أعينُنا نحو الملكِ الدائمِ المقيمِ . . قنعنا بأنْ نقولَ بألسنتِنا : اللهمَّ ؛ اغفرْ لنا وارحمْنا ، والذي إليهِ رجاؤُنا وبهِ اعتزازُنا ينادينا ويقولُ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ ، ثمَّ كلُّ ذٰلكَ لا ينبهُنا ولا يخرجُنا عنْ أوديةِ غرورِنا وأمانينا !! فما هٰذهِ إلا محنةٌ هائلةٌ إنْ لمْ يتفضَّلِ اللهُ علينا بتوبةٍ نصوحٍ يتداركُنا بها ويجبرُنا .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يتوبَ علينا ، بلْ نسألُهُ أنْ يشوِّقَ إلى التوبةِ سرائرَ قلوبِنا ، وألا يجعلَ حركةَ اللسانِ بسؤالِ التوبةِ غايةَ حظِّنا ، فنكونَ ممَّنْ يقولُ ولا يعملُ ، ويسمعُ ولا يقبلُ ، إذا سمعنا الوعظَ . . بكينا ، وإذا جاءَ وقتُ العملِ بما سمعناهُ . . عصينا ، فلا علامةَ للخذلانِ أعظمُ مِنْ هٰذا ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يمنَّ بالتوفيقِ والرشدِ علينا بمنِّهِ وفضلِهِ .

ولنقتصرْ مِنْ حكايةِ أحوالِ الخائفينَ علىٰ ما أوردنا ، فإنَّ القليلَ مِنْ هٰذا يصادفُ القلبَ القابلَ فيكفي ، والكثيرَ منهُ وإنْ أُفيضَ على القلبِ الغافلِ . . فلا يغني .

ولقدْ صدقَ الراهبُ الذي حكىٰ عنهُ عيسى بنُ مالكٍ الخولانيُّ ـ وكانَ مِنْ خيارِ العبَّادِ ـ أنَّهُ رآهُ علىٰ بابِ بيتِ المقدسِ واقفاً كهيئةِ المحزونِ مِنْ شدَّةِ الولهِ ، ما يكادُ يرقأُ دمعُهُ مِنْ كثرةِ البكاءِ ، فقالَ عيسىٰ : لمَّا رأيتُهُ . . هالَني منظرُهُ ، فقلتُ : أيُّها الراهبُ ؛ أوصني بوصيَّةٍ أحفظُها عنكَ ، فقالَ : يا أخي ؛ بماذا أوصيكَ ؟ إنِ استطعتَ أنْ تكونَ

---

(١) قوت القلوب (٢٢٨/١) .

بمنزلةِ رجلٍ قدِ احتوشَتْهُ السباعُ والهوامُّ فهوَ خائفٌ حَذِرٌ ، يخافُ أنْ يغفُلَ فتفترسَهُ السباعُ ، أوْ يسهوَ فتنهشَهُ الهوامُّ ، فهوَ مذعورُ القلبِ وَجِلٌ ، فهوَ في المخافةِ في ليلِهِ وإنْ أمنَ المغترُّونَ ، وفي الحزنِ في نهارِهِ وإنْ فرحَ البطَّالونَ ، ثم ولَّىٰ وتركَني ، فقلتُ : لوْ زدتَني شيئاً عسىٰ أنْ ينفعَني ، فقالَ : الظمآنُ يجزئُهُ مِنَ الماءِ أيسرُهُ (1)

وقدْ صدقَ ، فإنَّ القلبَ الصافيَ يحرِّكُهُ أدنىٰ مخافةٍ ، والقلبَ الجامدَ تنبو عنهُ كلُّ المواعظِ .

وما ذكرَهُ مِنْ تقديرِهِ أنَّهُ احتوشَتْهُ السباعُ والهوامُّ فلا ينبغي أنْ يُظنَّ أنَّهُ تقديرٌ ، بلْ هوَ تحقيقٌ ، فإنَّكَ لوْ شاهدتَ بنورِ البصيرةِ باطنَكَ . . لرأيتَهُ مشحوناً بأصنافِ السباعِ وأنواعِ الهوامِّ ؛ مثلَ الغضبِ ، والشهوةِ ، والحقدِ ، والحسدِ ، والكبرِ ، والعجْبِ ، والرياءِ ، وغيرِها ، وهيَ التي لا تزالُ تفترسُكَ وتنهشُكَ إنْ غفلتَ عنها لحظةً ، إلا أنَّكَ محجوبُ العينِ عنْ مشاهدتِها ، فإذا انكشفَ الغطاءُ ، ووُضعتَ في قبرِكَ . . عاينتَها وقدْ تمثَّلَتْ لكَ بصورِها وأشكالِها الموافقةِ لمعانيها ، فترىٰ بعينِكَ العقاربَ والحيَّاتِ قدْ أحدقَتْ بكَ في قبرِكَ ، وإنَّما هيَ صفاتُكَ الحاضرةُ الآنَ ، قدِ انكشفَ لكَ صورُها ، فإنْ أردتَ أنْ تقتلَها وتقهرَها وأنتَ قادرٌ عليها قبلَ الموتِ . . فافعلْ ، وإلا . . فوطِّنْ نفسَكَ علىٰ لدغِها ونهشِها لصميمِ قلبِكَ فضلاً عنْ ظاهرِ بشرتِكَ وجسمِكَ ، والسلامُ .

❀ ❀ ❀

تمَّ كتابُ الرّجاءِ والخوف

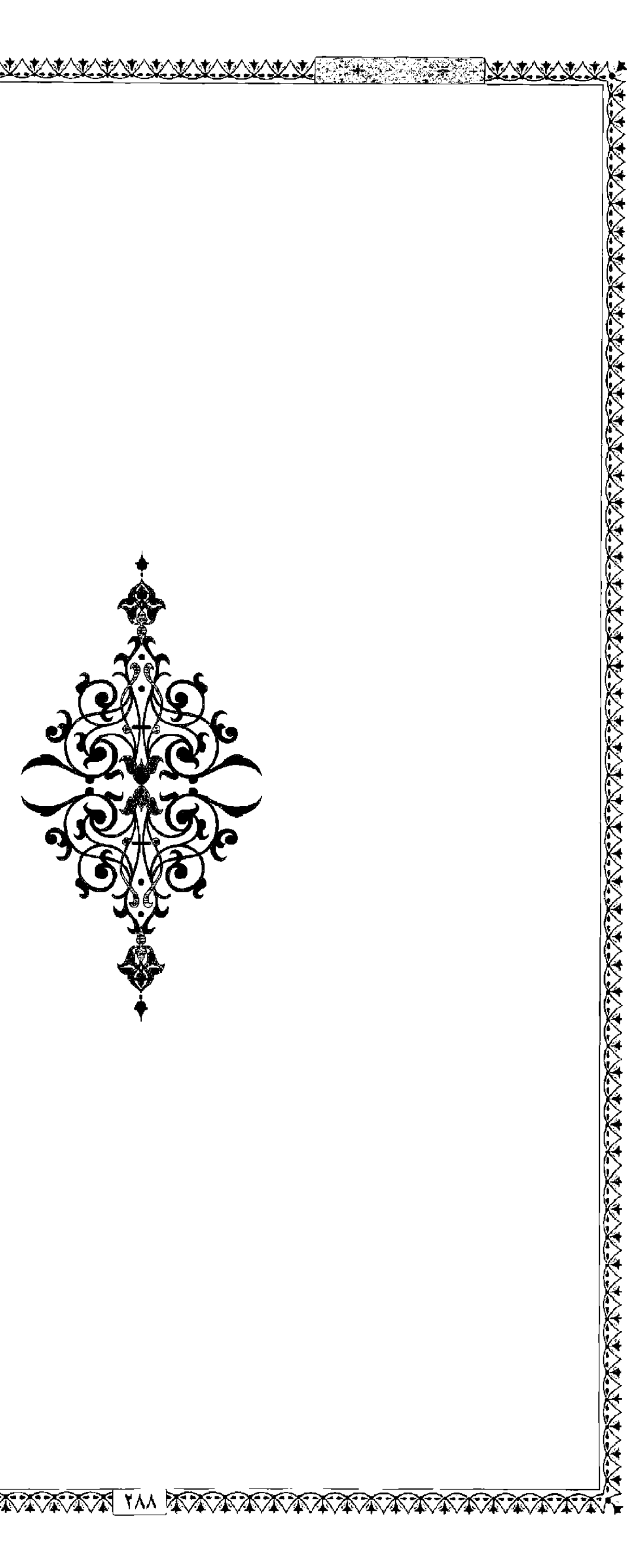
وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه وتأييده ، وصلاته على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ وآله وسلامه

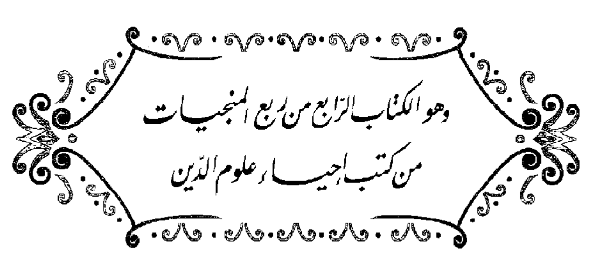
يتلوه كتاب الفقر والزّهد

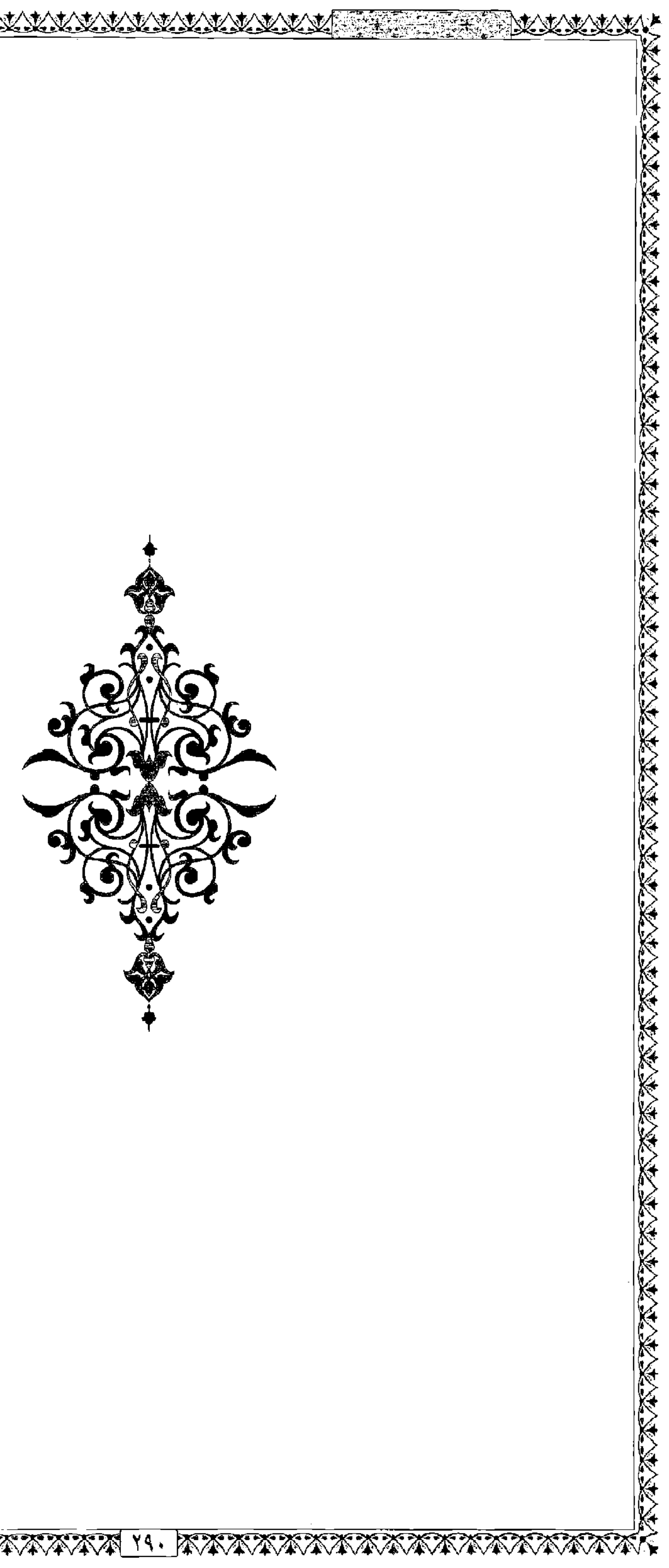
---

(1) أورده مجير الدين الحنبلي في « الأنس الجليل » (1/289) عن قاسم الزاهد بدلاً من الخولاني بنحوه .



كتاب الفقر والزهد


وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب الفقر والزهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي تسبّحُ لهُ الرمالُ ، وتسجدُ لهُ الظلالُ ، وتتدكدكُ مِنْ هيبتِهِ الجبالُ ، خلقَ الإنسانَ مِنَ الطينِ اللازبِ والصلصالِ ، وزيَّنَ صورتَهُ بأحسنِ تقويمٍ وأتمِّ اعتدالٍ ، وعصمَ قلبَهُ بنورِ الهدايةِ عنْ وَرَطاتِ الضلالِ ، وأذنَ لهُ في قرعِ بابِ الخدمةِ بالغدوِّ والآصالِ ، ثمَّ كحلَ بصيرةَ المخلصِ في خدمتِهِ بنورِ العبرةِ حتَّىٰ لاحظَ بضيائِهِ حضرةَ الجلالِ ، فلاحَ لهُ مِنَ البهجةِ والبهاءِ والكمالِ ما استقبحَ دونَ مبادي إشراقِهِ كلَّ حسنٍ وجمالٍ ، واستثقلَ كلَّ ما صرفَهُ عنْ مشاهدتِهِ وملازمتِهِ غايةَ الاستثقالِ ، وتمثَّلَ لهُ ظاهرُ الدنيا في صورةِ امرأةٍ جميلةٍ تميسُ وتختالُ ، وانكشفَ لهُ باطنُها عنْ عجوزٍ شوهاءَ عُجِنَتْ مِنْ طينةِ الخزيِ وضُرِبَتْ في قالَبِ النكالِ ، وهيَ متلفعةٌ بجلبابِها لتخفيَ قبائحَ أسرارِها بلطائفِ السحْرِ والاحتيالِ ، وقدْ نصبَتْ حبائلَها في مدارجِ الرجالِ ، فهيَ تقتنصُهُمْ بضروبِ المكرِ والاغتيالِ ، ثمَّ لا تجتزئُ معَهُمْ بالخُلْفِ في مواعيدِ الوصالِ ، بلْ تقيِّدُهُمْ معَ قطعِ الوصالِ بالسلاسلِ والأغلالِ ، وتبليهِمْ بأنواعِ البلايا والأنكالِ[1] ، فلمَّا انكشفَ للعارفينَ منها قبائحُ الأسرارِ والأفعالِ . . زهدوا فيها زهدَ المبغضِ لها فتركوها وتركوا التفاخرَ والتكاثرَ بالأموالِ ، وأقبلوا بكنْهِ هممِهِمْ علىٰ حضرةِ الجلالِ ، واثقينَ منها بوصالٍ ليسَ دونَهُ انفصالٌ ، ومشاهدةٍ أبديَّةٍ لا يعتريها فناءٌ ولا زوالٌ .

والصلاةُ علىٰ سيدِنا محمدٍ سيِّدِ الأنبياءِ وعلَىٰ آلِهِ خيرِ آلٍ .

أمَّا بعدُ :

فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ للهِ عزَّ وجلَّ ، بغرورِها ضلَّ مَنْ ضلَّ ، وبمكرِها زلَّ مَنْ زلَّ ، فحبُّها رأسُ الخطايا والسيئاتِ ، وبغضُها أمُّ الطاعاتِ وأسُّ القرباتِ ، وقدِ استقصينا ما يتعلَّقُ بوصفِها وذمِّ الحبِّ لها في كتابِ ذمِّ الدنيا مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نذكرُ فضْلَ البغضِ لها والزهدِ فيها فإنَّهُ رأسُ المنجياتِ ، فلا مطمعَ في النجاةِ إلا بالانقطاعِ عنِ الدنيا والبعدِ منها ، ولٰكنْ مقاطعتُها إمَّا أنْ تكونَ بانزوائِها عنِ العبدِ ويُسمَّىٰ ذٰلكَ فقراً ، وإمَّا بانزواءِ العبدِ عنها ويُسمَّىٰ ذٰلكَ زهداً ، ولكلٍّ واحدٍ منهُما درجةٌ في نيلِ السعاداتِ ، وحظٌّ في الإعانةِ على الفوزِ والنجاةِ .

ونحنُ الآنَ نذكرُ حقيقةَ الفقرِ والزهدِ ، ودرجاتِهِما ، وأقسامَهُما ، وشروطَهُما ، وأحكامَهُما ، ونذكرُ الفقرَ في شطرٍ مِنَ الكتابِ والزهدَ في شطرٍ آخرَ منهُ .

❁ ❁ ❁

ونبدأُ بذكرِ الفقرِ فنقولُ :

---

(١) **الأنكال** : جمع نِكْل ، وهو القيد الشديد ، أو جمع نُكلة ، وهي ما نكلت به غيرك كائناً من كان . « إتحاف » (٩/٢٦٥)

الشَّطرُ الأوّلُ مِنَ الكِتاب
في الفقر

وفيهِ : بيانُ حقيقةِ الفقرِ ، وبيانُ فضيلةِ الفقرِ مطلقاً ، وبيانُ فضيلةِ خصوصِ الفقراءِ ، وبيانُ فضلِ الفقرِ على الغنىٰ ، وبيانُ أدبِ الفقيرِ في فقرِهِ ، وبيانُ أدبِهِ في قبولِ العطاءِ ، وبيانُ تحريمِ السؤالِ بغيرِ ضرورةٍ ، وبيانُ مقدارِ الغِنَى المحرّمِ للسؤالِ ، وبيانُ أحوالِ السائلينَ ، واللهُ الموفقُ للصوابِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلمْ : أنَّ الفقرَ عبارةٌ عنْ فقدِ ما هوَ محتاجٌ إليهِ ، أمَّا فقْدُ ما لا حاجةَ إليهِ . . فلا يُسمَّىٰ فقراً ، وإنْ كانَ المحتاجُ إليهِ موجوداً مقدوراً عليهِ . . لمْ يكنِ المحتاجُ فقيراً(1)

وإذا فهمتَ هـٰذا . . لمْ تشكَّ في أنَّ كلَّ موجودٍ سوى اللهِ تعالىٰ فهوَ فقيرٌ ؛ لأنَّهُ محتاجٌ إلىٰ دوامِ الوجودِ في ثاني الحالِ ، ودوامُ وجودِهِ مستفادٌ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ وجودِهِ ، فإنْ كانَ في الوجودِ موجودٌ ليسَ وجودُهُ مستفاداً لهُ مِنْ غيرِهِ . . فهوَ الغنيُّ المطلقُ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ مثلُ هـٰذا الموجودِ إلا واحداً ، فليسَ في الوجودِ إلا غنيٌّ واحدٌ ، وكلُّ مَنْ عداهُ فإنَّهُمْ محتاجونَ إليهِ ليمدَّ وجودَهُمْ بالدوامِ ، وإلىٰ هـٰذا الحصرِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾

هـٰذا معنى الفقرِ مطلقاً .

ولـٰكنَّا لسنا نقصدُ بيانَ الفقرِ المطلقِ ، بلِ الفقرِ مِنَ المالِ على الخصوصِ ، وإلا . . ففقرُ العبدِ بالإضافةِ إلىٰ أصنافِ حاجاتِهِ لا ينحصرُ ؛ لأنَّ حاجاتِهِ لا حصرَ لها ، ومِنْ جملةِ حاجاتِهِ ما يُتوصَّلُ إليهِ بالمالِ ، وهوَ الذي نريدُ الآنَ بيانَهُ فقطْ ، فنقولُ :

كلُّ فاقدٍ للمالِ فإنَّا نسمّيهِ فقيراً بالإضافةِ إلى المالِ الذي فقدَهُ ، إذا كانَ ذٰلكَ المفقودُ محتاجاً إليهِ في حقِّهِ ، ثمَّ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ خمسةُ أحوالٍ عندَ الفقرِ ، ونحنُ نميزُها ونخصِّصُ كلَّ حالٍ باسمٍ ؛ لنتوصَّلَ بالتمييزِ إلىٰ ذكرِ أحكامِها .

الحالة الأولىٰ ـ وهيَ العليا ـ : أنْ يكونَ بحيثُ لوْ أتاهُ المالُ . . لكرهَهُ وتأذَّىٰ بهِ ، وهربَ مِنْ أخذِهِ ، مبغضاً لهُ ، ومحترزاً مِنْ شرِّهِ وشغلِهِ ، وهوَ الزهدُ ، واسمُ صاحبِهِ **الزاهدُ** .

الثانيةُ : أنْ يكونَ بحيثُ لا يرغبُ فيهِ رغبةً يفرحُ بحصولِهِ ، ولا يكرهُهُ كراهةً يتأذَّىٰ بهِ ويزهدُ فيهِ لوْ أتاهُ ، وصاحبُ هـٰذهِ الحالةِ يُسمَّىٰ راضياً

الثالثةُ : أنْ يكونَ وجودُ المالِ أحبَّ إليهِ مِنْ عدمِهِ ؛ لرغبةٍ لهُ فيهِ ، ولـٰكنْ لمْ يبلغْ مِنْ رغبتِهِ أنْ ينهضَ لطلبِهِ ، بلْ إنْ أتاهُ عفواً صفواً . . أخذَهُ وفرحَ بهِ ، وإنِ افتقرَ إلىٰ تعبٍ في طلبِهِ . . لمْ يشتغلْ بهِ ، وصاحبُ هـٰذهِ الحالةِ نسمّيهِ **قانعاً** ؛ إذْ أقنعَ نفسَهُ بالموجودِ حتَّىٰ تركَ الطلبَ معَ ما فيهِ مِنَ الرغبةِ الضعيفةِ .

---

(1) فالفقير : هو الفاقد المحتاج ، والفقر : هو الفقد والاحتياج . « إتحاف » (٩/٢٦٦) .

الرابعةُ : أنْ يكونَ تركُهُ للطلبِ لعجزِهِ ، وإلا . . فهوَ راغبٌ فيهِ رغبةً لوْ وجدَ سبيلاً إلىٰ طلبِهِ ولوْ بالتعبِ . . لطلبَهُ ، أوْ هوَ مشغولٌ بالطلبِ ، وصاحبُ هـٰذهِ الحالةِ نسمِّيهِ **الحريصَ** .

الخامسةُ : أنْ يكونَ ما فقدَهُ مِنَ المالِ مضطراً إليهِ ؛ كالجائعِ الفاقدِ للخبزِ ، والعاري الفاقدِ للثوبِ ، ويُسمَّىٰ صاحبُ هـٰذهِ الحالةِ **مضطراً** ، كيفَما كانَتْ رغبتُهُ في الطلبِ إمَّا ضعيفةً وإمَّا قويَّةً ، وقلَّما تنفكُّ هـٰذهِ الحالةُ عنِ الرغبةِ .

فهـٰذهِ خمسةُ أحوالٍ ، أعلاها الزهدُ ، والاضطرارُ إنِ انضمَّ إليهِ الزهدُ وتُصوِّرَ ذٰلكَ [١] ، **فهوَ أقصىٰ درجاتِ الزهدِ** كما سيأتي بيانُهُ .

ووراءَ هـٰذهِ الأحوالِ الخمسةِ حالةٌ هيَ أعلىٰ مِنَ الزهدِ ، وهيَ أنْ يستويَ عندَهُ وجودُ المالِ وفقدُهُ ، فإنْ وُجِدَ . . لمْ يفرحْ بهِ ولمْ يتأذَّ ، وإنْ فُقِدَ . . فكذٰلكَ ، بلْ حالُهُ كما كانَ حالُ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها ؛ إذْ أتاها مئةُ ألفِ درهمٍ مِنَ العطاءِ ، فأخذَتْها وفرقَتْها مِنْ يومِها ، فقالَتْ خادمتُها : ما استطعتِ فيما فرَّقتِ اليومَ أنْ تشتري لنا بدرهمٍ لحماً نفطرُ عليهِ ؟ فقالَتْ : لوْ ذكرتِني . . لفعلتُ [٢]

فمَنْ هـٰذا حالُهُ ؛ فلوْ كانَتِ الدنيا بحذافيرِها في يدِهِ وخزانتِهِ . . لمْ تضرَّهُ ؛ إذْ هوَ يرى الأموالَ في خزانةِ اللهِ تعالىٰ لا في يدِ نفسِهِ ، فلا يفرِّقُ بينَ أنْ تكونَ في يدِهِ أوْ في يدِ غيرِهِ ، وينبغي أنْ يُسمَّىٰ صاحبُ هـٰذهِ الحالةِ **المستغنيَ** ؛ لأنَّهُ غنيٌّ عنْ فقدِ المالِ ووجودِهِ جميعاً .

وليُفهمْ مِنْ هـٰذا الاسمِ معنىً يفارقُ اسمَ الغنى المطلقِ على اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ مَنْ كثرَ مالُهُ مِنَ العبادِ ، فإنَّ مَنْ كثرَ مالُهُ مِنَ العبادِ وهوَ يفرحُ بهِ . . فهوَ فقيرٌ إلىٰ بقاءِ المالِ في يدِهِ ، وإنَّما هوَ غنيٌّ عنْ دخولِ المالِ في يدِهِ ، لا عَنْ بقائِهِ ، فهوَ إذاً فقيرٌ مِنْ وجهٍ .

وأمَّا هـٰذا الشخصُ . . فهوَ غنيٌّ عنْ دخولِ المالِ في يدِهِ ، وعنْ بقائِهِ في يدِهِ ، وعنْ خروجِهِ مِنْ يدِهِ أيضاً ، فإنَّهُ ليسَ يتأذَّىٰ بهِ ليحتاجَ إلىٰ إخراجِهِ ، وليسَ يفرحُ بهِ ليحتاجَ إلىٰ بقائِهِ ، وليسَ فاقداً لهُ ليحتاجَ إلى الدخولِ في يدِهِ ، فغناهُ إلى العمومِ أميلُ ، فهوَ إلى الغنى الذي هوَ وصفُ اللهِ تعالىٰ أقربُ ، وإنَّما قربُ العبدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقرْبِ الصفاتِ ، لا بقربِ المكانِ .

ولـٰكنَّا لا نسمِّي صاحبَ هـٰذهِ الحالةِ غنيّاً ، بلْ مستغنياً ؛ ليبقى الغنيُّ اسماً لمَنْ لهُ الغنى المطلقُ عنْ كلِّ شيءٍ ، وأمَّا هـٰذا العبدُ فإنِ استغنىٰ عنِ المالِ وجوداً وعدماً . . فلمْ يستغنِ عنْ أشياءَ آخرَ سواهُ ، ولمْ يستغنِ عنْ مددِ توفيقِ اللهِ تعالىٰ لهُ ليبقى استغناؤُهُ الذي زيَّنَ اللهُ بهِ قلبَهُ ؛ فإنَّ القلبَ المقيَّدَ بحبِّ المالِ رقيقٌ ، والمستغنيَ عنهُ حرٌّ ، واللهُ تعالىٰ هوَ الذي أعتقَهُ مِنْ هـٰذا الرقِّ ، فهوَ محتاجٌ إلىٰ دوامِ هـٰذا العتقِ ، والقلوبُ متقلِّبةٌ بينَ الرقِّ والحريَّةِ في أوقاتٍ متقاربةٍ ؛ لأنَّها بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ، فلذٰلكَ لمْ يكنِ اسمُ الغنىٰ مطلقاً عليهِ معَ هـٰذا الكمالِ إلا مجازاً .

واعلمْ : أنَّ الزهدَ درجةٌ هيَ كمالُ الأبرارِ ، وصاحبُ هـٰذهِ الحالةِ مِنَ المقرَّبينَ ، فلا جرمَ صارَ الزهدُ في حقِّهِ نقصاناً ؛

---

(١) بأن يكون كارهاً للمال مع اضطراره . « إتحاف » (٩/٢٦٧) .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠/٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٤٧) .

إذْ حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبينَ ؛ وهـٰذا لأنَّ الكارهَ للدنيا مشغولٌ بالدنيا ، كما أنَّ الراغبَ فيها مشغولٌ بها ، والشغلُ بما سوى اللهِ تعالىٰ حجابٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، إذْ لا بعدَ بينَكَ وبينَ اللهِ حتَّىٰ يكونَ البعدُ حجاباً ؛ فإنَّهُ أقربُ إليكَ مِنْ حبلِ الوريدِ ، وليسَ هوَ في مكانٍ حتَّىٰ تكونَ السماواتُ والأرضُ حجاباً بينَكَ وبينَهُ ، فلا حجابَ بينَكَ وبينَهُ إلا شغلُكَ بغيرِهِ ، وشغلُكَ بنفسِكِ وشهواتِكَ شغلٌ بغيرِهِ ، وأنتَ لا تزالُ مشغولاً بنفسِكَ وبشهواتِ نفسِكَ ، فكذٰلكَ لا تزالُ محجوباً عنهُ ، فالمشغولُ بحبِّ نفسِهِ مشغولٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، والمشغولُ ببغضِ نفسِهِ أيضاً مشغولٌ عنِ اللهِ تعالىٰ .

بلْ كلُّ ما سوى اللهِ تعالىٰ مثالُهُ مثالُ الرقيبِ الحاضرِ في مجلسٍ جمعَ العاشقَ والمعشوقَ ، فإنِ التفتَ قلبُ العاشقِ إلى الرقيبِ ، وإلىٰ بغضِهِ واستثقالِهِ وكراهةِ حضورِهِ . . فهوَ في حالِ اشتغالِ قلبِهِ ببغضِهِ مصروفٌ عنِ التلذُّذِ بمشاهدةِ معشوقِهِ ، ولوِ استغرقَهُ العشقُ . . لغفلَ عنْ غيرِ المعشوقِ ولمْ يلتفتْ إليهِ ، فكما أنَّ النظرَ إلىٰ غيرِ المعشوقِ لحبِّهِ عندَ حضورِ المعشوقِ شركٌ في العشقِ ونقصٌ فيهِ . . فكذا النظرُ إلىٰ غيرِ المحبوبِ لبغضِهِ شركٌ فيهِ ونقصٌ ، ولـٰكنْ أحدُهُما أخفُّ مِنَ الآخرِ ، بلِ الكمالُ في ألا يلتفتَ القلبُ إلىٰ غيرِ المحبوبِ بغضاً وحبّاً ؛ فإنَّهُ كما لا يجتمعُ في القلبِ حبَّانِ في حالةٍ واحدةٍ . . فلا يجتمعُ أيضاً بغضٌ وحبٌّ في حالةٍ واحدةٍ .

فالمشغولُ ببغضِ الدنيا غافلٌ عنِ اللهِ كالمشغولِ بحبِّها ، إلا أنَّ المشغولَ بحبِّها غافلٌ وهوَ في غفلتِهِ سالكٌ في طريقِ البعدِ ، والمشغولُ ببغضِها غافلٌ وهوَ في غفلتِهِ سالكٌ في طريقِ القربِ ؛ إذْ يُرجىٰ لهُ أنْ ينتهيَ حالُهُ إلىٰ أنْ تزولَ هـٰذهِ الغفلةُ وتتبدَّلَ بالشهودِ ، فالكمالُ لهُ مرتقَبٌ ؛ لأنَّ بغضَ الدنيا مطيَّةٌ توصلُ إلى اللهِ تعالىٰ .

فالمحبُّ والمبغضُ كرجلينِ في طريقِ الحجِّ ، مشغولينِ بركوبِ الناقةِ وعلفِها وتسييرِها ، ولـٰكنْ أحدُهُما مستدبرٌ للكعبةِ ، والآخرُ مستقبلٌ لها ، فهُما سيَّانِ بالإضافةِ إلى الحالِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما محجوبٌ عنِ الكعبةِ ومشغولٌ عنها ، ولـٰكنْ حالُ المستقبلِ محمودٌ بالإضافةِ إلى المستدبرِ ؛ إذْ يُرجىٰ لهُ الوصولُ إليها ، وليسَ بمحمودٍ بالإضافةِ إلى المعتكفِ في الكعبةِ والملازمِ لها ، الذي لا يخرجُ منها حتَّىٰ يفتقرَ إلى الاشتغالِ بالدابَّةِ في الوصولِ إليها .

فلا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ بغضَ الدنيا مقصودٌ في عينِهِ ، بلِ الدنيا عائقٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، ولا وصولَ إليهِ إلا بدفعِ العائقِ .

ولذٰلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ زهدَ في الدنيا واقتصرَ عليهِ . . فقدِ استعجلَ الراحةَ ، بلْ ينبغي أنْ يشتغلَ بالآخرةِ)[1] ، فبيَّنَ أنَّ سلوكَ طريقِ الآخرةِ وراءَ الزهدِ ، كما أنَّ سلوكَ طريقِ الحجِّ وراءَ دفعِ الغريمِ العائقِ عنِ الحجِّ .

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ الزهدَ في الدنيا إنْ أُريدَ بهِ عدمُ الرغبةِ في وجودِها وعدمِها . . فهوَ غايةُ الكمالِ ، وإنْ أُريدَ بهِ الرغبةُ في عدمِها . . فهوَ كمالٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ الراضي والقانعِ والحريصِ ، ونقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ المستغني ، بلِ الكمالُ في حقِّ المالِ أنْ يستويَ عندَكَ الماءُ والمالُ ، وكثرةُ الماءِ في جوارِكَ لا تؤذيكَ بأنْ تكونَ علىٰ شاطئِ البحرِ ، ولا قلَّتُهُ تؤذيكَ إلا في قدْرِ الضرورةِ ، مع أنَّ المالَ محتاجٌ إليهِ ، كما أنَّ الماءَ محتاجٌ إليهِ ، فلا يكونُ قلبُكَ مشغولاً بالفرارِ عنْ جوارِ الماءِ الكثيرِ ، ولا ببغضِ الماءِ الكثيرِ ، بلْ تقولُ : أشربُ منهُ بقدْرِ الحاجةِ ، وأسقي منهُ عبادَ اللهِ بقدْرِ الحاجةِ ، ولا أبخلُ بهِ علىٰ أحدٍ .

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٤) بنحوه .

فهٰكذا ينبغي أنْ يكونَ المالُ ؛ لأنَّ الخبزَ والماءَ واحدٌ في الحاجةِ ، وإنَّما الفرقُ بينَهُما في قلَّةِ أحدِهِما وكثرةِ الآخرِ ، وإذا عرفتَ اللهَ تعالىٰ ، ووثقتَ بتدبيرِهِ الذي دبَّرَ بهِ العالمَ . . علمتَ أنَّ قدْرَ حاجتِكَ مِنَ الخبزِ يأتيكَ ـ لا محالةَ ـ ما دمتَ حيّاً كما يأتيكَ قدْرُ حاجتِكَ مِنَ الماءِ ، علىٰ ما سيأتي بيانُهُ في كتابِ التوكُّلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

قالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري : قلتُ لأبي سليمانَ الدارانيِّ : قالَ مالكُ بنُ دينارٍ للمغيرةِ : اذهبْ إلى البيتِ فخذِ الركوةَ التي أهديتَها لي ، فإنَّ العدوَّ يوسوسُ إليَّ أنَّ اللصَّ قدْ أخذَها ، فقالَ أبو سليمانَ : هٰذا مِنْ ضعفِ قلوبِ الصوفيَّةِ ، هوَ قدْ زهدَ في الدنيا ، ما عليهِ مِنْ أخذِها ؟![1]

فبيَّنَ أنَّ كراهيةَ كونِ الركوةِ في بيتِهِ التفاتٌ إليها سببُهُ الضعفُ والنقصانُ .



فإنْ قلتَ : فما بالُ الأنبياءِ والأولياءِ هربوا مِنَ المالِ ونفروا منهُ كلَّ النفارِ ؟

فأقولُ : كما هربوا مِنَ الماءِ علىٰ معنىٰ أنَّهُمْ ما شربوا أكثرَ مِنْ حاجتِهِمْ ، فنفروا عمَّا وراءَهُ ، ولمْ يجمعوهُ في القِرَبِ والروايا يديرونَها معَ أنفسِهِمْ ، بلْ تركوهُ في الأنهارِ والآبارِ والبراري للمحتاجينَ إليهِ ، لا أنَّهُمْ كانَتْ قلوبُهُمْ مشغولةً بحبِّهِ أوْ بغضِهِ .

وقدْ حُمِلَتْ خزائنُ الأرضِ إلىٰ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإلىٰ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، فأخذوها ووضعوها في مواضعِها ، وما هربوا منها ، إذْ كانَ قدِ استوىٰ عندَهُمُ المالُ والماءُ ، والذهبُ والحجرُ .

وما نُقِلَ عنهُمْ مِنِ امتناعٍ ؛ فإمَّا أنْ يُنقلَ عمَّنْ خافَ أنْ لوْ أخذَهُ أنْ يخدعَهُ المالُ ويقيدَ قلبَهُ ، فيدعوَهُ إلى الشهواتِ ، وهٰذا حالُ الضعفاءِ ، فلا جرمَ البغضُ للمالِ والهربُ منهُ في حقِّهِمْ كمالٌ ، وهٰذا حكمُ جميعِ الخلقِ ؛ لأنَّ كلَّهُمْ ضعفاءُ إلا الأنبياءَ والأولياءَ ، وإمَّا أنْ يُنقلَ عنْ قويٍّ بلغَ الكمالَ ، ولٰكنْ أظهرَ الفرارَ والنفارَ نزولاً إلىٰ درجةِ الضعفاءِ ؛ ليقتدوا بهِ في التركِ ، إذْ لوِ اقتدَوا بهِ في الأخذِ . . لهلكوا ، كما يفرُّ الرجلُ المعزّمُ بينَ يدي أولادِهِ مِنَ الحيَّةِ ، لا لضعفِهِ عنْ أخذِها ، ولٰكنْ لعلمِهِ أنَّهُ لوْ أخذَها . . أخذَها أولادُهُ إذا رأَوها فيهلكونَ ، والسيرُ بسيرِ الضعفاءِ ضرورةُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ .

فقدْ عرفتَ إذاً أنَّ المراتبَ ستٌّ ، وأنَّ أعلاها رتبةُ المستغني ، ثمَّ الزاهدِ ، ثمَّ الراضي ، ثمَّ القانعِ ، ثمَّ الحريصِ ، وأمَّا المضطرُّ . . فيُتصوَّرُ في حقِّهِ أيضاً الزهدُ والرضا والقناعةُ ، ودرجتُهُ تختلفُ بحسَبِ اختلافِ هٰذهِ الأحوالِ ، واسمُ الفقيرِ يُطلقُ علىٰ هٰذهِ الخمسةِ .

أمَّا تسميةُ المستغني فقيراً . . فلا وجهَ لهُ بهٰذا المعنىٰ ، بلْ إنْ سُمِّيَ فقيراً فبمعنىً آخرَ ، وهوَ معرفتُهُ بكونِهِ محتاجاً إلى اللهِ تعالىٰ في جميعِ أمورِهِ عامَّةً ، وفي بقاءِ استغنائِهِ عنِ المالِ خاصَّةً ، فيكونُ اسمُ الفقيرِ لهُ كاسمِ العبدِ لمَنْ عرفَ نفسَهُ بالعبوديَّةِ وأقرَّ بها ، فإنَّهُ أحقُّ باسمِ العبدِ مِنَ الغافلينَ وإنْ كانَ اسمُ العبدِ عامّاً للخلقِ ؛ فكذٰلكَ اسمُ الفقرِ عامٌّ ، ومَنْ عرفَ نفسَهُ بالفقرِ إلى اللهِ . . فهوَ أحقُّ باسمِ الفقيرِ ، فاسمُ الفقيرِ مشتركٌ بينَ هٰذينِ المعنيينِ .

---

(١) قوت القلوب (٢٦٧/١) ، وخبر مالك مفرداً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٤/٢) ، وليس فيه ذكر للمغيرة ، بل قالها للحارث بن نبهان .

وإذا عرفتَ هٰذا الاشتراكَ . . فهمتَ أنَّ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعوذُ بكَ مِنَ الفقرِ »[1] ، وقولَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً »[2] . . لا يناقضُ قولَهُ : « أحيني مسكيناً وأمتْني مسكيناً »[3] ؛ إذْ فقرُ المضطرِّ هوَ الذي استعاذَ منهُ ، والفقرُ الذي هوَ الاعترافُ بالمسكنةِ والذلَّةِ والافتقارِ إلى اللهِ تعالىٰ . . هوَ الذي سألَهُ في دعائِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً منْ أهلِ الأرضِ والسماءِ .

* * *

(١) رواه أبو داوود (١٥٤٤) ، والنسائي (٨/٢٦١) ، وابن ماجه (٣٨٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة . . . » .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه (٤١٢٦) .

بيان فضيلة الفقر مطلقاً

أمَّا مِنَ الآياتِ . . فيدلُّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

ساقَ الكلامَ في معرضِ المدحِ ، ثمَّ قدَّمَ وصفَهُمْ بالفقرِ علىٰ وصفِهِمْ بالهجرةِ والإحصارِ ، وفيهِ دلالةٌ ظاهرةٌ علىٰ مدْحِ الفقرِ .

وأمَّا الأخبارُ في مدحِ الفقرِ . . فأكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ؛ فقدْ قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِهِ : « أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ » فقالوا : موسرٌ من المالِ يعطي حقَّ اللهِ في نفسِهِ ومالِهِ ، فقالَ : « نعمَ الرجلُ هٰذا وليسَ بهِ » ، قالوا : فمَنْ خيرُ الناسِ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « فقيرٌ يعطي جهدَهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبلالٍ : « الْقَ الله فقيراً ، ولا تلقَهُ غنيّاً »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الفقيرَ المتعفِّفَ أبا العيالِ »[3]

وفي الخبرِ المشهورِ : « يدخلُ فقراءُ أمَّتي الجنَّةَ قبلَ أغنيائِها بخمسِ مئةِ عامٍ »[4]

وفي حديثٍ آخرَ : « بأربعينَ خريفاً »[5] أيْ : أربعينَ سنةً ، فيكونُ المرادُ بهِ تقديرَ تقدُّمِ الفقيرِ الحريصِ على الغنيِّ الحريصِ ، والتقديرُ بخمسِ مئةِ عامٍ تقديرُ تقدُّمِ الفقيرِ الزاهدِ على الغنيِّ الراغبِ ، وما ذكرناهُ مِنِ اختلافِ درجاتِ الفقرِ يعرِّفُكَ بالضرورةِ تفاوتاً بينَ الفقراءِ في درجاتِهِمْ ، وكانَ الفقيرُ الحريصُ علىٰ درجتينِ مِنْ خمسٍ وعشرينَ درجةً مِنَ الفقيرِ الزاهدِ ؛ إذْ هٰذهِ نسبةُ الأربعينَ إلىٰ خمسِ مئةٍ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ تقديرَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يجري علىٰ لسانِهِ جزافاً وبالاتفاقِ ، بلْ لا يستنطقُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا بحقيقةِ الحقِّ ، فإنَّهُ لا ينطقُ عنِ الهوىٰ ، إنْ هوَ إلا وحيٌ يُوحىٰ ، وهٰذا كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرؤيا الصالحةُ جزءٌ مِنْ ستَّةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ »[6] ، فإنَّهُ تقديرُ تحقيقٍ لا محالةَ ، ولٰكنْ ليسَ في قوَّةِ غيرِهِ أنْ يعرفَ علَّةَ تلكَ النسبةِ إلا بتخمينٍ ، فأمَّا بالتحقيقِ . . فلا ، إذْ يعلمُ أنَّ النبوَّةَ عبارةٌ عمَّا يختصُّ بهِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ويفارقُ بهِ غيرَهُ ، وهوَ يختصُّ بأنواعٍ مِنَ الخواصِّ :

---

(١) كذا في « القوت » (٢٦٣/١) ، وقد رواه الطيالسي في « مسنده » (١٨٥٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٣٨/٤) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢٦٢/٢) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١٦/٤) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٣٤١/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٤٩/١) ولفظه عندهما : « يا بلال ؛ مت فقيراً ، ولا تمت غنياً » ، قلت : وكيف ذاك ؟ قال : « ما رزقت فلا تخبأ ، وما سئلت فلا تمنع » ، فقلت : يا رسول الله ؛ كيف لي بذاك ؟ فقال : « هو ذاك أو النار » .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٢١) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٥٣) .

(٥) رواه مسلم (٢٩٧٩) .

(٦) رواه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

أحدُها : أنَّهُ يعرفُ حقائقَ الأمورِ المتعلِّقةِ باللهِ وصفاتِهِ وملائكتِهِ والدارِ الآخرةِ لا كما يعلمُهُ غيرُهُ ، بلْ مخالفاً لهُ بكثرةِ المعلوماتِ ، وبزيادةِ اليقينِ والتحقيقِ والكشفِ .

والثاني : أنَّ لهُ في نفسِهِ صفةً بها تتمُّ لهُ الأفعالُ الخارقةُ للعاداتِ ، كما أنَّ لنا صفةً بها تتمُّ الحركاتُ المقرونةُ بإرادتِنا واختيارِنا وهيَ القدرةُ ، وإنْ كانَتِ القدرةُ والمقدورُ جميعاً مِنْ فعلِ اللهِ تعالىٰ .

والثالثُ : أنَّ لهُ صفةً بها يبصرُ الملائكةَ ويشاهدُهُمْ ، كما أنَّ للبصيرِ صفةً بها يفارقُ الأعمىٰ حتَّىٰ يدركَ بها المبصراتِ .

والرابعُ : أنَّ لهُ صفةً بها يدركُ ما سيكونُ في الغيبِ ؛ إمَّا في اليقظةِ ، وإمَّا في المنامِ ، إذْ بها يطالعُ اللوحَ المحفوظَ ، فيرىٰ ما فيهِ مِنَ الغيبِ .

فهٰذهِ كمالاتٌ وصفاتٌ يُعلمُ ثبوتُها للأنبياءِ ، ويُعلمُ انقسامُ كلِّ واحدٍ منها إلىٰ أقسامٍ ، وربَّما يمكنُنا أنْ نقسمَها إلىٰ أربعينَ ، وإلىٰ خمسينَ ، وإلىٰ ستينَ ، ويمكنُنا أيضاً أنْ نتكلَّفَ تقسيمَها إلىٰ ستةٍ وأربعينَ ؛ بحيثُ تقعُ الرؤيا الصحيحةُ جزءاً واحداً مِنْ جملتِها ، ولٰكنْ تعيينُ طريقٍ واحدٍ مِنْ طرقِ التقسيماتِ الممكنةِ لا يمكنُ إلا بظنٍّ وتخمينٍ ، فلا ندري تحقيقاً أنَّهُ الذي أرادَهُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمْ لا ، وإنَّما المعلومُ مجامعُ الصفاتِ التي بها تتمُّ النبوَّةُ وأصلُ انقسامِها ، وذٰلكَ لا يرشدُنا إلىٰ معرفةِ علَّةِ التقديرِ .

وكذٰلكَ نعلمُ أنَّ الفقراءَ لهمْ درجاتٌ كما سبقَ ، فأمَّا لِمَ كانَ هٰذا الفقيرُ الحريصُ مثلاً علىٰ نصفِ سدسِ درجةِ الفقيرِ الزاهدِ[1] ، حتىٰ لمْ يقتضِ لهُ التقدُّمَ بأكثرَ مِنْ أربعينَ سنةً إلى الجنةِ ، واقتضىٰ ذٰلكَ التقدُّمَ بخمسِ مئةِ عامٍ . . فليسَ في قوَّةِ البشرِ غيرِ الأنبياءِ الوقوفُ علىٰ ذٰلكَ إلا بنوعٍ مِنَ التخمينِ ، ولا وثوقَ بهِ ، والغرضُ التنبيهُ علىٰ منهاجِ التقديرِ في أمثالِ هٰذهِ الأمورِ ؛ فإنَّ الضعيفَ الإيمانِ قدْ يظنُّ أنَّ ذٰلكَ يجري مِنْ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ سبيلِ الاتفاقِ ، وحاشا منصبَ النبوَّةِ عنْ ذٰلكَ .

ولنرجعْ إلىٰ نقلِ الأخبارِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « خيرُ هٰذهِ الأمَّةِ فقراؤُها ، وأسرعُها تضجُّعاً في الجنَّةِ ضعفاؤُها »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لي حرفتينِ اثنتينِ ، فمَنْ أحبَّهُما . . فقدْ أحبَّني ، ومَنْ أبغضَهُما . . فقدْ أبغضَني ؛ الفقرُ والجهادُ »[3]

ورُويَ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ نزلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : يا محمدُ ؛ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرأُ عليكَ السلامَ ويقولُ : أتحبُّ أنْ أجعلَ هٰذهِ الجبالَ ذهباً وتكونَ معَكَ حيثُما كنتَ ؟ فأطرقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ساعةً ثمَّ قالَ : « يا جبريلُ ؛ إنَّ الدنيا دارُ مَنْ لا دارَ لهُ ، ومالُ مَنْ لا مالَ لهُ ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ لهُ » ، فقالَ لهُ جبريلُ : يا محمدُ ؛ ثبَّتَكَ اللهُ بالقولِ الثابتِ[4]

---

(١) أي : على التقريب .

(٢) كذا في « القوت » (٢٦٣/١) ، ورواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١٣٨/٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٩٢١) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٥٣) ، ورواه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٤٣/١٧) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (١٨٢/٢) .

(٤) الخبر جامع بين حديثين ؛ **فالأول حديث** : « عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً . . . » الذي رواه الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ في سياحتِهِ برجلٍ نائمٍ ملتفٍّ في عباءةٍ ، فأيقظَهُ وقالَ : يا نائمُ ؛ قمْ فاذكرِ اللهَ تعالىٰ ، فقالَ : ما تريدُ منِّي ؟ إنِّي قدْ تركتُ الدنيا لأهلِها ، فقالَ لهُ : فنمْ إذاً حبيبي نمْ[1]

ومرَّ موسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلٍ نائمٍ على الترابِ وتحتَ رأسِهِ لبنةٌ ، ووجهُهُ ولحيتُهُ في الترابِ ، وهوَ متزرٌ بعباءةٍ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ عبدُكَ هٰذا في الدنيا ضائعٌ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا موسىٰ ؛ أما علمتَ أنِّي إذا نظرتُ إلىٰ عبدي بوجهي كلِّهِ . . زويتُ عنهُ الدنيا كلَّها[2]

وعنْ أبي رافعٍ أنَّهُ قالَ : وردَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضيفٌ ، فلمْ يجدْ عندَهُ ما يصلحُهُ ، فأرسلَني إلىٰ رجلٍ مِنْ يهودِ خيبرَ ، وقالَ : « قُلْ لهُ : يقولُ لكَ محمدٌ : أسلفْني أوْ بعْني دقيقاً إلىٰ هلالِ رجبٍ » ، قالَ : فأتيتُهُ ، فقالَ : لا واللهِ إلا برهنٍ ، فأخبرتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذٰلكَ ، فقالَ : « أما واللهِ إنِّي لأمينٌ في أهلِ السماءِ أمينٌ في أهلِ الأرضِ ، ولوْ باعَني أوْ أسلفَني . . لأدَّيتُ إليهِ ، اذهبْ بدرعي هٰذا إليهِ فارهنْهُ » ، فلمَّا خرجتُ . . نزلَتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . . ﴾ الآيةَ ؛ تعزيةً لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الدنيا[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الفقرُ أزينُ بالمؤمنِ مِنَ العذارِ الحسنِ علىٰ خدِّ الفرسِ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ منكمْ آمناً في سربِهِ ، معافىً في جسمِهِ ، عندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حيزَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها »[5]

وقالَ كعبُ الأحبارِ : قالَ اللهُ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : يا موسىٰ ؛ إذا رأيتَ الفقرَ مقبلاً . . فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ[6]

وقالَ عطاءٌ الخراسانيُّ : مرَّ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ بساحلٍ ، فإذا هوَ برجلٍ يصطادُ حيتاناً ، فقالَ : باسمِ اللهِ ، وألقىٰ شبكتَهُ ، فلمْ يخرجْ فيها شيءٌ ، ثمَّ مرَّ بآخرَ ، فقالَ : باسمِ الشيطانِ ، وألقىٰ شبكَتَهُ ، فخرجَ فيها مِنَ الحيتانِ ما كانَ يتقاعسُ مِنْ كثرتِها ، فقالَ النبيُّ : يا ربِّ ؛ ما هٰذا وقدْ علمتُ أنَّ كلَّ ذٰلكَ بيدِكَ ؟! فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ للملائكةِ : اكشفوا لعبدي عنْ منزلتيهِما ، فلمَّا رأىٰ ما أعدَّ اللهُ تعالىٰ لهٰذا مِنَ الكرامةِ ولذاكَ مِنَ الهوانِ . . قالَ : رضيتُ يا ربِّ[7]

رضي الله عنه ، والثاني : « الدنيا دار من لا دار له . . . » الذي رواه أحمد في « المسند » (٦/٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، مقتصراً علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » ، وزاد ابن أبي الدنيا في روايته له في « ذم الدنيا » (١٨٢) : « ومال من لا مال له » .

(١) كذا في « القوت » (١/٢٦٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٤٠٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٤) ، وهو عند صاحب « القوت » (١/٢٦٤) .

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٣٨٦٣) ، والطبراني في « الكبير » (١/٣٣١) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/٢٥٢) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٦٨) ، والطبراني في « الكبير » (٧/٢٩٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٢٧) .

(٥) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/٢٤٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٥) .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢١) .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلعتُ في الجنَّةِ ، فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراءَ ، واطلعتُ في النارِ ، فرأيتُ أكثرَ أهلِها الأغنياءَ والنساءَ »(١) ، وفي لفظٍ آخرَ : « فقلتُ : أينَ الأغنياءُ ؟ فقيلَ : حبسَهُمُ الجدُّ »(٢) ، وفي حديثٍ آخرَ : « فرأيتُ أكثرَ أهلِ النارِ النساءَ ، فقلتُ : ما شأنُهُنَّ ؟ فقيلَ : شغلَهُنَّ الأحمرانِ ؛ الذهبُ والزعفرانُ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحفةُ المؤمنِ في الدنيا الفقرُ »(٤)

وفي الخبرِ : « آخرُ الأنبياءِ دخولاً الجنَّةَ سليمانُ بنُ داوودَ ؛ لمكانِ ملكِهِ ، وآخرُ أصحابي دخولاً الجنَّةَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؛ لأجلِ غناهُ »(٥)

وفي حديثٍ آخرَ : « رأيتُهُ دخلَ الجنَّةَ زحفاً »(٦)

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (بشدةٍ يدخلُ الغنيُّ الجنةَ)(٧)

وفي خبرٍ آخرَ عنْ أهلِ البيتِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإذا أحبَّهُ الحبَّ البالغَ . . اقتناهُ » ، قيلَ : وما اقتناهُ ؟ قالَ : « لمْ يتركْ لهُ أهلاً ولا مالاً »(٨)

وفي الخبرِ : (إذا رأيتَ الفقرَ مقبلاً . . فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ ، وإذا رأيتَ الغنىٰ مقبلاً . . فقلْ : ذنبٌ عُجِّلتْ عقوبتُهُ)(٩)

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ مَنْ أحبَّاؤُكَ مِنْ خلقِكَ حتَّىٰ أحبَّهُمْ لأجلِكَ ؟ فقالَ : كلُّ فقيرٍ فقيرٍ(١٠) . فيمكنُ أنْ يكونَ الثاني للتأكيدِ ، ويمكنُ أنْ يُرادَ بهِ الشديدُ الضرِّ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢٤٢/١) ، ورواه أحمد في « المسند » (١٧٣/٢)

(٢) كذا في « القوت » (٢٤٢/١) ، وعند مسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما مرفوعاً : « قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجدِّ محبوسون . . . » الحديث .

(٣) قوت القلوب (٢٥٢/٢) ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٢٥٩/٥) نحوه ، وفيه : (الحرير) بدل (الزعفران) ، وعند مسلم (٢٧٣٨) مرفوعاً : « إن أقلَّ ساكني الجنة النساء » ، وذكرُ (الزعفران) جاء عند أبي نعيم في « معرفة الصحابة » (٣٤٠٢/٦) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٤٣/١) ، قال الحافظ العراقي : (رواه محمد بن خفيف الشيرازي في « شرف الفقراء » ، والديلمي في « مسند الفردوس » [٢٣٩٩] من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به) . « إتحاف » (٢٧٦/٩) .

(٥) قوت القلوب (٢٠٣/١) ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٤١٢٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « الأنبياء كلهم يدخلون الجنة قبل داوود وسليمان بألفي عام . . . » الحديث ، وروى البزار في « مسنده » (٧٠٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمـٰن بن عوف ، والذي نفس محمد بيده لن يدخلها إلا حبواً » .

(٦) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١١/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) ، ولفظه : « يا بن عوف ؛ إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً . . . » .

(٧) كذا في « القوت » (٢٥٦/١) ، وفيه : (أو قال : بعجب . . .) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٨) ولفظه : (لشدَّة ما يدخل الغني الجنة) .

(٨) كذا في « القوت » (٢٤٣/١) ، ورواه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٤٩٩) ، والدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (٤٦/١) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٦٨) كلهم من حديث أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٥/١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مقتصراً على الشطر الأخير منه .

(٩) كذا في « القوت » (١٩٤/٢) ، وتقدم قريباً عن كعب الأحبار ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(١٠) قوت القلوب (١٩٤/٢) ، واللحاق بنحوه عنده .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إنِّي لأحبُّ المسكنةَ وأبغضُ النعماءَ)[١] ، وكان أحبُّ الأسامي إليه صلواتُ اللهِ عليهِ أنْ يُقالَ لهُ : يا مسكينُ[٢]

ولـمَّا قالَ ساداتُ العربِ وأغنياؤُها للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : اجعلْ لنا يوماً ولهم يوماً ، يجيئونَ إليكَ ولا نجيءُ ، ونجيءُ إليكَ ولا يجيئونَ ، يعنونَ بذٰلكَ الفقراءَ ؛ مثلَ بلالٍ ، وسلمانَ ، وصهيبٍ ، وأبي ذرٍّ ، وخبَّابِ بنِ الأرتِّ ، وعمارِ بنِ ياسرٍ ، وأبي هريرةَ ، وأصحابِ الصُّفَّةِ مِنَ الفقراءِ ، فأجابَهُمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ ذٰلكَ ، وذٰلكَ لأنَّهُمْ شكَوا إليهِ التأذِّيَ بروائحِهِمْ ، وكانَ لباسُ القومِ الصوفَ في شدَّةِ الحرِّ ، فإذا عرقوا . . فاحَتِ الروائحُ مِنْ ثيابِهِمْ ، فاشتدَّ على الأغنياءِ ذٰلكَ ، منهُمُ الأقرعُ بنُ حابسٍ التميميُّ ، وعيينةُ بنُ حصنٍ الفزاريُّ ، وعباسُ بنُ مرداسٍ السلميُّ ، وغيرُهُمْ ، فأجابَهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألا يجمعَهُمْ وإيَّاهُمْ في مجلسٍ واحدٍ ، فنزلَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ يعني : الفقراءَ ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني : الأغنياءَ ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ يعني : الأغنياءَ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ معَ الفقراءِ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . . ﴾ الآيةَ[٣]

واستأذنَ ابنُ أمِّ مكتومٍ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَهُ رجلٌ مِنْ أشرافِ قريشٍ ، فشَقَّ ذٰلكَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ يعني ابنَ أمِّ مكتومٍ ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ يعني : هٰذا الشريفَ[٤]

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُؤتىٰ بالعبدِ يومَ القيامةِ فيعتذرُ اللهُ تعالىٰ إليهِ كما يعتذرُ الرجلُ إلى الرجلِ في الدنيا ، فيقولُ : وعزَّتي وجلالي ؛ ما زويتُ الدنيا عنكَ لهوانِكَ عليَّ ، ولٰكنْ لما أعددتُ لكَ مِنَ الكرامةِ والفضيلةِ ، اخرجْ يا عبدي إلىٰ هٰذهِ الصفوفِ ، فمَنْ أطعمَكَ فيَّ أوْ كساكَ فيَّ يريدُ بذٰلكَ وجهي . . فخذْ بيدِهِ فهوَ لكَ ، والناسُ يومئذٍ قدْ ألجمَهُمُ العرقُ ، فيتخلَّلُ الصفوفَ ، وينظرُ مَنْ فعلَ ذٰلكَ بهِ ، فيأخذُ بيدِهِ ويدخلُهُ الجنَّةَ »[٥]

---

(١) قوت القلوب (١٩٤/٢) ، وفيه : (الغنىٰ) بدل (النعماء) .

(٢) قوت القلوب (١٩٤/٢) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٢٧) ، والبزار في « مسنده » (٢١٢٩ ـ ٢١٣٠) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه بنحوه ، ومؤاذاتهم لهم بريحهم رواه الطبري في « تفسيره » (٢٩٠/١٥/٩) عن سلمان الفارسي ، قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا نبي الله ؛ إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هٰؤلاء وأرواح جبابهم ـ يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف ، ولم يكن عليهم غيرها ـ جلسنا إليك وحادثناك . . . الخبر .

(٤) رواه الترمذي (٣٣٣١) ، وروى الطبري في « تفسيره » (٦٨/٣٠/١٥) أن الشريف كان العباس رضي الله عنه ، أو عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وقيل غير ذٰلك ، وفي خطابه سبحانه له صلى الله عليه وسلم لطف ؛ إذ خاطبه بضمير الغائب ، ثم بيَّن أن خطابه إنما هو تذكرة ، وإنما سيق العتاب تعظيماً لأمر الفقراء ، وروى ابن سعد في « طبقاته » (١٩٤/٤) أنه صلى الله عليه وسلم بعد هٰذا العتاب كان يكرم ابن أم مكتوم ، واستخلفه على المدينة مرتين .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » من حديث أنس بسند ضعيف ، يقول الله عز وجل يوم القيامة : أدنوا مني أحبائي ، فتقول الملائكة : ومن أحباؤك ؟ فيقول : فقراء المسلمين ، فيدنون منه ، فيقول : أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم عليَّ ، ولٰكن أردت بذٰلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم ، فتمنَّوا عليَّ ما شئتم اليوم . الحديث ، دون آخر الحديث ، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في « الحلية » ، وسيأتي في الحديث الذي بعده) . « إتحاف » (٢٧٨/٩) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أكثروا معرفةَ الفقراءِ ، واتخذوا عندَهُمُ الأياديَ ؛ فإنَّ لهم دولةً » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وما دولتُهُمْ ؟ قالَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . قيلَ لهُمْ : انظروا مَنْ أطعمَكُمْ كسرةً وسقاكُمْ شربةً وكساكُمْ ثوباً فخذوا بيدِهِ ، ثمَّ أفيضوا بهِ إلى الجنَّةِ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دخلتُ الجنَّةَ ، فسمعتُ حركةً أمامي ، فنظرتُ فإذا بلالٌ ، ونظرتُ في أعلاها فإذا فقراءُ أمَّتي وأولادُهُمْ ، ونظرتُ في أسفلِها فإذا فيها مِنَ الأغنياءِ والنساءِ قليلٌ ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ ما شأنُهُمْ ؟ قالَ : أمَّا النساءُ . . فأضرَّ بهنَّ الأحمرانِ الذهبُ والحريرُ ، وأمَّا الأغنياءُ . . فاشتغلوا بطولِ الحسابِ ، وتفقدتُ أصحابي فلمْ أرَ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ ، ثمَّ جاءَني بعدَ ذٰلكَ وهوَ يبكي ، فقلتُ : ما خلَّفَكَ عنِّي ؟ فقالَ : أما واللهِ يا رسولَ الله ؛ ما خلصتُ إليكَ حتَّىٰ لقيتُ المشيِّباتِ ، وظننتُ أنِّي لا أراكَ ، فقلتُ : ولِمَ ، قالَ : كنتُ أُحاسبُ بمالي »[2]

فانظرْ إلىٰ هـٰذا وعبدُ الرحمـٰنِ صاحبُ السابقةِ العظيمةِ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ مِنَ العشرةِ المخصوصينَ بأنَّهُمْ مِنْ أهلِ الجنَّةِ[3] ، وهوَ مِنَ الأغنياءِ الذينَ قالَ فيهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إلا مَنْ قالَ بالمالِ هـٰكذا وهـٰكذا »[4] ، ومعَ هـٰذا فقدِ استضرَّ بالغنىٰ إلىٰ هـٰذا الحدِّ .

ودخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ رجلٍ فقيرٍ ولمْ يرَ لهُ شيئاً ، فقالَ : « لوْ قُسمَ نورُ هـٰذا علىٰ أهلِ الأرضِ . . لوسعَهُمْ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أخبرُكُمْ بملوكِ أهلِ الجنةِ ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « كلُّ ضعيفٍ مستضعفٍ أغبرَ أشعثَ ذي طمرينِ لا يؤبَهُ لهُ ، لو أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ »[6]

وقالَ عمرانُ بنُ حصينٍ : كانَتْ لي مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منزلةٌ وجاهٌ ، فقالَ : « يا عمرانُ ؛ إنَّ لكَ عندَنا منزلةً وجاهاً ، فهلْ لكَ في عيادةِ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ » فقلتُ : نعمْ ، بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، فقامَ وقمتُ معَهُ ، حتَّىٰ وقفَ ببابِ فاطمةَ ، فقرعَ البابَ وقالَ : « السلامُ عليكُمْ ، أأدخلُ ؟ » فقالَتِ : ادخلْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « أنا ومَنْ معي ؟ » قالَتْ : ومَنْ معَكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « عمرانُ » ، فقالَتْ فاطمةُ : والذي بعثَكَ بالحقِّ نبيّاً ؛ ما عليَّ إلا عباءةٌ ، قالَ : « اصنعي بها هـٰكذا وهـٰكذا » وأشارَ بيدِهِ ، فقالَتْ : هـٰذا جسدي قدْ واريتُهُ ، فكيفَ برأسي ؟ فألقىٰ إليها ملاءةً كانَتْ عليهِ خَلَقَةً فقالَ : « شدِّي بها علىٰ رأسِكِ » ، ثمَّ أذنَتْ لهُ فدخلَ ، فقالَ : « السلامُ عليكُمْ يا ابنتاهُ ، كيفَ أصبحتِ ؟ » قالَتْ : أصبحتُ ـ واللهِ ـ وجعةً ، وزادَني وجعاً علىٰ ما بي أنِّي لستُ أقدرُ علىٰ طعامٍ

---

(1) رواه بنحوه النرسي في « قضاء حوائج الإخوان » (ص ٧٧) عن أبي عبد الرحمـٰن السلمي مرسلاً .

(2) رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٢٥٩/٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٣٦/٨) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤٤٥) ، وخبر بلال رضي الله عنه مفرداً عند البخاري (٣٦٧٩) .

(3) كما روىٰ ذٰلك أبو داوود (٤٦٤٨) ، والترمذي (٣٧٤٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨١٠٠) ، وابن ماجه (١٣٤) .

(4) رواه البخاري (٢٣٨٨) ، ومسلم (٩٤) في (كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة) .

(5) روى البيهقي في « الشعب » (١٠٠٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن ملوك أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء . . لم يؤذن لهم ، وإذا طلبوا النساء . . لم ينكحوا ، وإذا قالوا الحديث . . لم ينصت لقولهم ، حاجة أحدهم تتجلجل في صدره ، لو قسم نوره بين أهل الأرض . . لوسعهم » ، وهو قريب من الحديث الآتي .

(6) رواه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) وفيهما : « ألا أخبركم بأهل الجنة . . . » ، وعند ابن ماجه (٤١١٥) من حديث معاذ رضي الله عنه : « ألا أخبرك عن ملوك الجنة . . . » ولم يقل فيه : (أشعث أغبر) .

آكلُهُ ، فقدْ أضرَّ بي الجوعُ ، فبكىٰ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « لا تجزعي يا ابنتاهُ ، فواللهِ ؛ ما ذقتُ طعاماً منذُ ثلاثٍ وإنِّي لأكرمُ على اللهِ منكِ ، ولوْ سألتُ ربِّي . . لأطعمَني ، ولـٰكنِّي آثرتُ الآخرةَ على الدنيا » ، ثمَّ ضربَ بيدِهِ علىٰ منكبِها وقالَ لها : « أبشري ، فواللهِ ؛ إنَّكِ لسيدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ » ، قالَتْ : فأينَ آسيةُ امرأةُ فرعونَ ومريمُ بنتُ عمرانَ ؟ قالَ : « آسيةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، ومريمُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وخديجةُ سيدةُ نساءِ عالمِها ، وأنتِ سيِّدةُ نساءِ عالمِكِ ، إنَّكنَّ في بيوتٍ مِنْ قصبٍ ، لا أذىٰ فيها ولا صخبَ ولا نصبَ » ، ثمَّ قالَ لها : « اقنعي بابنِ عمِّكِ ، فواللهِ ؛ لقدْ زوجتُكِ سيِّداً في الدنيا سيِّداً في الآخرةِ »(١)

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا أبغضَ الناسُ فقراءَهُمْ ، وأظهروا عمارةَ الدنيا ، وتكالبوا علىٰ جمعِ الدراهمِ . . رماهُمُ اللهُ بأربعِ خصالٍ : بالقحطِ مِنَ الزمانِ ، والجورِ مِنَ السلطانِ ، والخيانةِ مِنْ ولاةِ الأحكامِ ، والشوكةِ مِنَ الأعداءِ »(٢)

❊ ❊ ❊

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ذو الدرهمينِ أشدُّ حبساً ـ أوْ قالَ : أشدُّ حساباً ـ مِنْ ذي الدرهمِ)(٣)

وأرسلَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ سعيدِ بنِ عامرٍ بألفِ دينارٍ ، فجاءَ كئيباً حزيناً ، فقالَتِ امرأتُهُ : أحدثَ أمرٌ ؟ قالَ : أشدُّ مِنْ ذٰلكَ ، ثمَّ قالَ : أريني درعَكِ الخَلَقَ ، فشقَّهُ وجعلَهُ صرراً وفرَّقَهُ ، ثمَّ قامَ يصلِّي ويبكي إلى الغداةِ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يدخلُ فقراءُ المسلمينَ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بخمسِ مئةِ عامٍ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ مِنَ الأغنياءِ يدخلُ في غمارِهِمْ فيُؤخذُ بيدِهِ فيُستخرجُ »(٤)

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثةٌ يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ : رجلٌ يريدُ أنْ يغسلَ ثوبَهُ فلمْ يكنْ لهُ خَلَقٌ يلبسُهُ ، ورجلٌ لمْ يُنصبْ لهُ علىٰ مستوقدٍ قدرانِ ، ورجلٌ دعا بشرابِهِ فلا يُقالُ لهُ : أيَّها تريدُ ؟)(٥)

وقيلَ : جاءَ فقيرٌ إلىٰ مجلسِ الثوريِّ رحمهُ اللهُ ، فقالَ لهُ : تخطَّ ، لوْ كنتَ غنياً . . ما قرَّبتُكَ ، وكانَ الأغنياءُ مِنْ أصحابِهِ يودُّونَ أنَّهُمْ فقراءُ ؛ لكثرةِ تقريبِهِ الفقراءَ وإعراضِهِ عنِ الأغنياءِ(٦)

---

(١) رواه الآجري في « الشريعة » (١٦٠٧) ، ورواه مختصراً من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أحمد في « المسند » (٥/٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٢٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/١٢٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٢٥) ، وفيه : (علماءَهم) بدل (فقراءهم) ، وعليه فقد لا يصلح شاهداً هنا ، وقد سقط هـٰذا الحديث من جميع النسخ إلا (س) ، واستكمل من نسخة الحافظ الزبيدي (٩/٢٨٠) ، وهو في نسخة الحافظ العراقي كذٰلك ؛ إذ أثبت تخريجه في « المغني » .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٦٤) .

(٤) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/١٤٥) ، وروى المرفوع وحده بنحوه الطبراني في « الكبير » (٦/٥٨) ، ولفظ المرفوع عندهم : « يجمع الله عز وجل الناس للحساب ، فيجيء فقراء المؤمنين يزفون كما تزف الحمام ، فيقال لهم : قفوا عند الحساب ، فيقولون : ما عندنا حساب ولا آتيتمونا شيئاً ، فيقول ربهم : صدق عبادي ، فيفتح لهم باب الجنة ، فيدخلونها قبل الناس بسبعين عاماً » ، وروى (الخمس مئة عام) الترمذي (٢٣٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٥) رواه أبو بكر الدينوري في « القناعة » (٤٧) ، وكذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٩٠) ، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وعزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦٠٧٨) لأبي الشيخ في « الثواب » عن أبي سعيد رضي الله عنه .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/٢٨٢) .

وقالَ المؤملُ : (ما رأيتُ الغنيَّ أذلَّ منهُ في مجلسِ الثوريّ ، ولا رأيتُ الفقيرَ أعزَّ منهُ في مجلسِ الثوريّ رحمهُ اللهُ)[1] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ، لوْ خافَ مِنَ النارِ كما يخافُ مِنَ الفقرِ . . لنجا منهُما جميعاً ، ولوْ رغبَ في الجنَّةِ كما يرغبُ في الغنىٰ . . لفازَ بهِما جميعاً ، ولوْ خافَ اللهَ في الباطنِ كما يخافُ خلقَهُ في الظاهرِ . . لسعدَ في الدارينِ جميعاً)[2] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (ملعونٌ مَنْ أكرمَ بالغنىٰ وأهانَ بالفقرِ)[3] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (لا تحقرنَّ أحداً لخُلْقانِ ثيابِهِ ، فإنَّ ربَّكَ وربَّهُ واحدٌ) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (حبُّكَ للفقراءِ مِنْ أخلاقِ المرسلينَ ، وإيثارُكَ مجالستَهُمْ مِنْ علامةِ الصالحينَ ، وفرارُكَ مِنْ صحبتِهِمْ مِنْ علامةِ المنافقينَ) .

وفي الأخبارِ عنِ الكتبِ السالفةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : احذرْ أنْ أمقتَكَ فتسقطَ مِنْ عيني ، فأصبَّ عليكَ الدنيا صبّاً[4] .

وكانَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تفرِّقُ مئةَ ألفِ درهمٍ في يومِها ، يوجهُها إليها معاويةُ وابنُ عامرٍ وغيرُهما ، وإنَّ درعَها لمرقوعٌ ، وتقولُ لها الجاريةُ : لوِ اشتريتِ لكِ بدرهمٍ لحماً تفطرينَ عليهِ وكانَتْ صائمةً ، فقالَتْ : لوْ ذكرتيني . . لفعلتُ[5] .

وكانَ قدْ أوصاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « إنْ أردتِ اللحوقَ بي . . فعليكِ بعيشِ الفقراءِ ، وإيَّاكِ ومجالسةَ الأغنياءِ ، ولا تنزعي درعَكِ حتَّىٰ ترقِّعيهِ »[6] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ إبراهيمَ بنِ أدهمَ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، فأبىٰ عليهِ ، فطلبَ إليهِ الرجلُ قبولَها ، فقالَ إبراهيمُ : تريدُ أنْ أمحوَ اسمي مِنْ ديوانِ الفقراءِ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ؟! لا أفعلُ ذٰلكَ أبداً[7] .

❋ ❋ ❋

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٥٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٥/٦) عن قبيصة بن عقبة لا عن المؤمل بن إسماعيل .

(٢) روىٰ بعضَه عن يحيى بن معاذ الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٥/١٤) ، وأورده القشيري في « الرسالة » (ص ٢٣٦) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥٦/٦٠) .

(٤) قوت القلوب (٢٤٣/١) .

(٥) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٦٦/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٧/٢) .

(٦) رواه الترمذي (١٧٨٠) .

(٧) أورده صاحب « القوت » (١٩٥/٢) والسياق عنده ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٥٣) .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ هُدِيَ إلى الإسلامِ وكانَ عيشُهُ كفافاً وقنعَ بهِ »[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ الرضا مِنْ قلوبِكُمْ . . تظفروا بثوابِ فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا »[٢] ، فالأوَّلُ للقانعِ ، وهٰذا للراضي ، ويكادُ يشعرُ هٰذا بمفهومِهِ أنَّ الحريصَ لا ثوابَ لهُ علىٰ فقرِهِ ، ولٰكنِ العموماتُ الواردةُ في فضلِ الفقرِ تدلُّ علىٰ أنَّ لهُ ثواباً كما سيأتي تحقيقُهُ ، فلعلَّ المرادَ بعدمِ الرضا هوَ الكراهةُ لفعلِ اللهِ في حبسِ الدنيا عنهُ ، وربَّ راغبٍ في المالِ لا يخطرُ بقلبِهِ إنكارٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ ولا كراهةٌ في فعلِهِ ، فتلكَ الكراهةُ هيَ التي تحبطُ ثوابَ الفقرِ .

ورُوِيَ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لكلِّ شيءٍ مفتاحٌ ، ومفتاحُ الجنَّةِ حبُّ المساكينِ ، والفقراءُ الصبُرُ هُمْ جلساءُ اللهِ تعالىٰ يومَ القيامةِ »[٣]

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أحبُّ العبادِ إلى اللهِ الفقيرُ القانعُ برزقِهِ الراضي عنِ اللهِ تعالىٰ »[٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ كفافاً »[٥]

وقالَ : « ما مِنْ أحدٍ غنيٍّ ولا فقيرٍ إلا ودَّ يومَ القيامةِ أنَّهُ كانَ أُوتيَ قوتاً في الدنيا »[٦]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ إسماعيلَ عليهِ السلامُ : اطلبْني عندَ المنكسرةِ قلوبُهُمْ ، قالَ : ومَنْ هُمْ ؟ قالَ : الفقراءُ الصادقونَ[٧]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أحدَ أفضلُ مِنَ الفقيرِ إذا كانَ راضياً »[٨]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ : أينَ صفوتي مِنْ خلقي ؟ فتقولُ الملائكةُ : ومَنْ هُمْ يا ربَّنا ؟ فيقولُ : فقراءُ المسلمينَ القانعونَ بعطائي ، الراضونَ بقدري ، أدخلوهُمُ الجنَّةَ ، فيدخلونَها ، ويأكلونَ ويشربونَ والناسُ في الحسابِ يتردَّدونَ »[٩]

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٩) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٩٣) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وعند مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٤/٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكىٰ سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٢٨١/٤) ، وانظر « الإتحاف » (٢٨٣/٩ ، ٦٥٠) .

(٣) رواه الديلمي في « الفردوس » (٤٩٩٣) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤٥٣) .

(٤) كذا في « القوت » (١٩٤/٢) حيث قال : (وروىٰ عبد الرحمٰن بن سابط عن علي عليه السلام ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل . . .) وذكره ، وتقدم حديث : « إن الله يحب الفقير المتعفف » وهو ما رواه ابن ماجه (٤١٢١) .

(٥) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) بلفظ : « اللهم ؛ ارزق آل محمد قوتاً » ، وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٢٨٣/٩) : (وفي بعض النسخ : « رزق » بدل « قوت ») .

(٦) رواه ابن ماجه (٤١٤٠) .

(٧) قوت القلوب (١٩٢/١) .

(٨) كذا في « القوت » (١٩٢/١) حيث قال : (وفي الحديث الذي روي عن ابن الأعرابي . . .) وذكره .

(٩) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس) . « إتحاف » (٢٨٣/٩) ، وعند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٥٨) من حديثه رضي الله عنه : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : أدنوا مني أحبائي . . . » الحديث .

فهٰذا في القانعِ والراضي ، وأمَّا الزاهدُ . . فسنذكرُ فضلَهُ في الشطرِ الثاني مِنَ الكتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ في الرضا والقناعةِ . . فكثيرةٌ ، ولا يخفىٰ أنَّ القناعةَ يضادُّها الطمعُ ، وقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الطمعَ فقرٌ ، واليأسَ غنىً ، وإنَّهُ مَنْ يئسَ عمَّا في أيدي الناسِ وقنعَ . . استغنىٰ عنهُمْ)[١]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِنْ يومٍ إلا وملكٌ ينادي مِنْ تحتِ العرشِ : يا بنَ آدمَ ؛ قليلٌ يكفيكَ خيرٌ مِنْ كثيرٍ يطغيكَ)[٢]

وقال أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (ما مِنْ أحدٍ إلا وفي عقلِهِ نقصٌ ، وذٰلكَ أنَّهُ إذا أتتْهُ الدنيا بالزيادةِ . . ظلَّ فرحاً مسروراً ، والليلُ والنهارُ دائبانِ في هدمِ عمرِهِ ثمَّ لا يحزنُهُ ذٰلكَ ، ويحَ ابنِ آدمَ !! ما ينفعُ مالٌ يزيدُ وعمرٌ ينقصُ ؟!)[٣]

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : ما الغنىٰ ؟ قالَ : قلَّةُ تمنِّيكَ ، ورضاكَ بما يكفيكَ[٤]

وقيلَ : كانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ مِنْ أهلِ النعمِ بخراسانَ ، فبينَما هوَ يشرفُ مِنْ قصرٍ لهُ ذاتَ يومٍ . . إذْ نظرَ إلىٰ رجلٍ في فناءِ القصرِ وفي يدِهِ رغيفٌ يأكلُهُ ، فلمَّا أكلَ . . نامَ ، فقالَ لبعضِ غلمانِهِ : إذا قامَ . . فجئْني بهِ ، فلمَّا قامَ . . جاءَ بهِ إليهِ ، فقالَ إبراهيمُ : أيُّها الرجلُ ؛ أكلتَ الرغيفَ وأنتَ جائعٌ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فشبعتَ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : ثمَّ نمتَ طيِّباً ؟ قالَ : نعمْ ، فقالَ إبراهيمُ في نفسِهِ : فما أصنعُ أنا بالدنيا والنفسُ تقنعُ بهٰذا القدْرِ[٥]

ومرَّ رجلٌ بعامرِ بنِ عبدِ قيسٍ وهوَ يأكلُ ملحاً وبقلاً ، فقالَ لهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ أرضيتَ مِنَ الدنيا بهٰذا ؟ فقالَ : ألا أدلُّكَ علىٰ مَنْ رضيَ بشرٍّ مِنْ هٰذا ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : مَنْ رضيَ بالدنيا عوضاً عنِ الآخرةِ[٦] .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ رحمةُ اللهِ عليهِ يخرجُ خبزاً يابساً فيبلُّهُ بالماءِ ويأكلُهُ بالملحِ ويقولُ : مَنْ رضيَ مِنَ الدنيا بهٰذا . . لمْ يحتجْ إلىٰ أحدٍ[٧]

وقال الحسنُ : لعنَ اللهُ أقواماً أقسمَ اللهُ تعالىٰ لهمْ ثمَّ لمْ يصدِّقوهُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ . . . ﴾ الآيةَ[٨] .

وكانَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً جالساً في الناسِ ، فأتتْهُ امرأتُهُ فقالَتْ لهُ : أتجلسُ بينَ هٰؤلاءِ ؟! واللهِ ؛ ما في البيتِ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٠/١) .

(٢) قد روىٰ أحمد في « المسند » (١٩٧/٥) عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً : « ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس ؛ هلموا إلىٰ ربكم ؛ فإن ما قلَّ وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ . . . » الحديث .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٧٧) .

(٤) أي : عدم تعلق النفس بالآمال ، والرضا بما يسر له في الحال ، وهٰذا أحسن ما عرف به الغنىٰ . « إتحاف » (٢٨٤/٩) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨٧/٦) .

(٦) ولفظ « القوت » : (وكان عامر بن عبد قيس إذا عوتب في تقلله من الدنيا . . يقول : بل أنتم ـ والله ـ رضيتم بالقليل ، وكان غيره يقول : إذا قيل له : أزهد الناس ، فقال : أنتم أزهد مني ؛ لأني زهدت في قليل يفنىٰ ، وأنتم زهدتم في كثير يبقىٰ) . « إتحاف » (٢٨٤/٩) .

(٧) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٣/٢) نحوه .

(٨) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٥٣/٢٦/١٣) عن الحسن بلاغاً .

هَفَّةٌ ولا سُفَّةٌ ، فقالَ : يا هٰذهِ ؛ إنَّ بينَ أيدينا عقبةً كؤوداً لا ينجو منها إلا كلُّ مخفٍّ ، فرجعَتْ وهيَ راضيةٌ[١]

وقالَ ذو النونِ رحمهُ اللهُ : (أقربُ الناسِ إلى الكفرِ ذو فاقةٍ لا صبرَ لهُ)[٢]

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : ما مالُكَ ؟ فقالَ : التجمُّلُ في الظاهرِ ، والقصدُ في الباطنِ ، واليأسُ ممَّا في أيدي الناسِ .

ورُوِيَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ في بعضِ الكتبِ المنزلةِ : يا بنَ آدمَ ؛ لوْ كانَتِ الدنيا كلُّها لكَ . . لمْ يكنْ لكَ منها إلا القوتُ ، فإذا أنا أعطيتُكَ منها القوتَ ، وجعلتُ حسابَها على غيرِكَ . . فأنا محسنٌ إليكَ .

وقدْ قيلَ في القناعةِ[٣] : [من البسيط]

اِضْـرَعْ إِلَـى اللهِ لا تَـضْـرَعْ إِلَـى النَّـاسِ ... وَاقْـنَـعْ بِـيَـأْسٍ فَـإِنَّ الْـعِـزَّ فِـي الْـيـاسِ

وَاسْتَغْـنِ عَـنْ كُـلِّ ذِي قُـرْبَىٰ وَذِي رَحِـمٍ ... إِنَّ الْـغَـنِـيَّ مَـنِ اسْـتَـغْـنَىٰ عَـنِ الـنَّـاسِ

وقيلَ أيضاً[٤] : [من البسيط]

يـا جـامِـعـاً مـانِـعـاً وَالـدَّهْـرُ يَـرْمُـقُـهُ ... مُـقَـدِّراً أَيَّ بـابٍ مِـنْـهُ يُـغْـلِـقُـهُ

مُـفَـكِّـراً كَـيْـفَ تَـأْتِـيـهِ مَـنِـيَّـتُـهُ ... أَغـادِيـاً أَمْ بِـهـا يَـسْـرِي فَـتَـطْـرُقُـهُ

جَـمَـعْـتَ مـالاً فَـفَـكِّـرْ هَـلْ جَـمَـعْـتَ لَـهُ ... يـا جـامِـعَ الْـمـالِ أَيَّـامـاً تُـفَـرِّقُـهُ

اَلْـمـالُ عِـنْـدَكَ مَـخْـزُونٌ لِـوارِثِـهِ ... مـا الْـمـالُ مـالُـكَ إِلَّا يَـوْمَ تُـنْـفِـقُـهُ

أَرْفِـهْ بِـبـالِ فَـتـىً يَـغْـدُو عَـلَـىٰ ثِـقَـةٍ ... إِنَّ الَّـذِي قَـسَـمَ الأَرْزاقَ يَـرْزُقُـهُ

فَـالْـعِـرْضُ مِـنْـهُ مَـصُـونٌ مـا يُـدَنِّـسُـهُ ... وَالْـوَجْـهُ مِـنْـهُ جَـدِيـدٌ لَـيْـسَ يُـخْـلِـقُـهُ

إِنَّ الْـقَـنـاعَـةَ مَـنْ يَـحْـلُـلْ بِـسـاحَـتِـهـا ... لَـمْ يَـلْـقَ فِـي ظِـلِّـهـا هَـمّـاً يُـؤَرِّقُـهُ

* * *

(١) بنحوه رواه ابن عدي في « الكامل » (٢٧٦/٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢٥/١) ، والهفة والسفة بوزن المرة : ما يهف وما يسف ، والهِفَّة : من صغار السمك ، والسُّفَّة : حبة من السويق ، تكني عن العدم .

(٢) وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥٣/٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » .

(٣) البيتان لابن أبي حازم في « ديوانه » (ص ٦٣) .

(٤) الأبيات للمطوي . انظر « ديوانه » (ص ٨٤) ضمن مجلة المورد ، المجلد الأول (١٣٩١ ـ ١٩٧١ ـ العددان ١ و٢) ، و« شرح نهج البلاغة » (٥٥/٢٠) .

بيان فضل الفقر على الغنى

اعلمْ : أنَّ الناسَ قدِ اختلفوا في هٰذا ، فذهبَ الجنيدُ والخوَّاصُ والأكثرونَ إلىٰ تفضيلِ الفقرِ[1] ، وقالَ ابنُ عطاءٍ : (الغنيُّ الشاكرُ القائمُ بحقِّهِ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ)[2] ، ويُقالَ : إنَّ الجنيدَ دعا على ابنِ عطاءٍ لمخالفتِهِ إيَّاهُ في هٰذا ، فأصابَتْهُ محنةٌ[3] .

وقدْ ذكرنا ذٰلكَ في كتابِ الصبرِ ، ووجهَ التفاوتِ بينَ الصبرِ والشكرِ ، ومهدنا سبيلَ طلبِ الفضيلةِ في الأعمالِ والأحوالِ ، وأنَّ ذٰلك لا يمكنُ إلا بتفصيلٍ .

وأمَّا الفقرُ والغنىٰ إذا أُخذا مطلقاً . . لمْ يسترِبْ مَنْ قرأَ الأخبارَ والآثارَ في تفضيلِ الفقرِ ، ولا بدَّ فيهِ مِنْ تفصيلٍ ، فنقولُ :

إنَّما يُتصوَّرُ الشكُّ في مقامينِ :

أحدُهُما : فقيرٌ صابرٌ ليسَ بحريصٍ على الطلبِ ، بلْ هوَ قانعٌ أوْ راضٍ بالإضافةِ إلىٰ غنيٍّ منفقٍ مالَهُ في الخيراتِ ، ليسَ حريصاً علىٰ إمساكِ المالِ .

والثاني : فقيرٌ حريصٌ معَ غنيٍّ حريصٍ ؛ إذْ لا يخفىٰ أنَّ الفقيرَ القانعَ أفضلُ مِنَ الغنيِّ الحريصِ الممسكِ ، وأنَّ الغنيَّ المنفقَ مالَهُ في الخيراتِ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الحريصِ .

ـ **أمَّا الأوَّلُ** : فربَّما يُظنُّ أنَّ الغنيَّ أفضلُ مِنَ الفقيرِ ؛ لأنَّهُما تساويا في ضعفِ الحرصِ على المالِ ، والغنيُّ متقرِّبٌ بالصدقاتِ والخيراتِ والفقيرُ عاجزٌ عنهُ ، وهٰذا هوَ الذي ظنَّهُ ابنُ عطاءٍ فيما نحسبُهُ ، فأمَّا الغنيُّ المتمتِّعُ بالمالِ ـ وإنْ كانَ في مباحٍ ـ فلا يُتصوَّرُ أنْ يُفضَّلَ على الفقيرِ القانعِ .

وقدْ يشهدُ لهُ ما رُوِيَ في الخبرِ أنَّ الفقراءَ شكَوا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبقَ الأغنياءِ بالخيراتِ والصدقاتِ والحجِّ والجهادِ ، فعلَّمَهُمْ كلماتٍ في التسبيحِ وذكرَ لهُمْ أنَّهُمْ ينالونَ بها فوقَ ما نالَهُ الأغنياءُ ، فتعلَّمَ الأغنياءُ ذٰلكَ ، فكانوا يقولونَهُ ، فعادَ الفقراءُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبروه ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ذٰلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ »[4] .

وقدِ استشهدَ ابنُ عطاءٍ أيضاً لمَّا سُئِلَ عنْ ذٰلكَ فقالَ : (الغنىٰ أفضلُ لأنَّهُ وصْفُ الحقِّ)[5] .

أمَّا دليلُهُ الأوَّلُ . . ففيهِ نظرٌ ؛ لأنَّ الخبرَ قدْ وردَ مفصَّلاً تفصيلاً يدلُّ علىٰ خلافِ ذٰلكَ ، وهوَ أنَّ ثوابَ الفقيرِ في التسبيحِ يزيدُ علىٰ ثوابِ الغنيِّ ، وأنَّ فوزَهُمْ بذٰلكَ الثوابِ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ ؛ فقد روىٰ زيدُ بنُ أسلمَ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : بعثَ الفقراءُ رسولاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : إنِّي رسولُ الفقراءِ إليكَ ،

---

(١) والخواص هو إبراهيم بن أحمد ، وضع كتاباً سماه « شرف الفقراء » ، ونقل تفضيله الطوسي في « اللمع » (ص ٧٤) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٤/١) .

(٣) قوت القوب (٢٠١/١ ، ٢٦٤) .

(٤) رواه البخاري (٨٤٣) ، ومسلم (٥٩٥) .

(٥) قوت القلوب (٢٦٤/١) .

فقالَ : « مرحباً بكَ وبمَنْ جئتَ مِنْ عندِهِمْ ، جئتَ مِنْ عندِ قومٍ أحبُّهُمْ » ، قالَ : قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الأغنياءَ ذهبوا بالجنَّةِ ؛ يحجُّونَ ولا نقدرُ عليهِ ، ويعتمرونَ ولا نقدرُ عليهِ ، وإذا مرضوا . . بعثوا بفضْلِ أموالِهِمْ ذخيرةً لهُمْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلِّغْ عنِّي الفقراءَ أنَّ لمَنْ صبرَ واحتسبَ منكُمْ ثلاثَ خصالٍ ليسَتْ للأغنياءِ ، أمَّا خصلةٌ واحدةٌ : فإنَّ في الجنَّةِ غرفاً ينظرُ إليها أهلُ الجنَّةِ كما ينظرُ أهلُ الأرضِ إلىٰ نجومِ السماءِ ، لا يدخلُها إلا نبيٌّ فقيرٌ أوْ شهيدٌ فقيرٌ أوْ مؤمنٌ فقيرٌ ، والثانيةُ : يدخلُ الفقراءُ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بنصفِ يومٍ ، وهوَ خمسُ مئةِ عامٍ ، والثالثةُ : إذا قالَ الغنيُّ : سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلـٰهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ ، وقالَ الفقيرُ مثلَ ذٰلكَ . . لمْ يلحقِ الغنيُّ بالفقيرِ وإنْ أنفقَ فيها عشرةَ آلافِ درهمٍ ، وكذٰلكَ أعمالُ البرِّ كلُّها » ، فرجعَ إليهِمْ فأخبرَهُمْ بما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فقالوا : رضينا رضينا [١]

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ قولَهُ : « ذٰلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ » أيْ : مزيدُ ثوابِ الفقراءِ علىٰ ذكرِهِمْ .

وأمَّا قولُهُ : (إنَّ الغنىٰ وصفُ الحقِّ) . . فقدْ أجابَهُ بعضُ الشيوخِ فقالَ : أترىٰ أنَّ الحقَّ غنيٌّ بالأسبابِ والأعراضِ ؟! فانقطعَ ولمْ ينطقْ [٢] .

وأجابَ آخرونَ فقالوا : إنَّ التكبُّرَ مِنْ صفاتِ الحقِّ ، فينبغي أنْ يكونَ أفضلَ مِنَ التواضعِ !! ثمَّ قالوا : بلْ هـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الفقرَ أفضلُ ؛ لأنَّ صفاتِ العبوديةِ أفضلُ للعبدِ ؛ كالخوفِ والرجاءِ ، وصفاتُ الربوبيَّةِ لا ينبغي أنْ يُنازِعَ فيها ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ فيما روىٰ عنهُ نبيُّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إزاري ، فمَنْ نازعَني فيهِما . . قصمتُهُ » [٣]

وقالَ سهلٌ : (حبُّ العزِّ والبقاءِ شركٌ في الربوبيةِ ومنازعةٌ فيها ؛ لأنَّهُما مِنْ صفاتِ الربِّ تعالىٰ) [٤]

فمِنْ هـٰذا الجنسِ تكلَّموا في تفضيلِ الغنىٰ والفقرِ ، وحاصلُ ذٰلكَ : تعلُّقٌ بعموماتٍ تقبلُ التأويلَ ، وبكلماتٍ قاصرةٍ لا تبعدُ مناقضتُها ، إذْ كما يُناقضُ قولُ مَنْ فضَّلَ الغنىٰ بأنَّهُ صفةُ الحقِّ . . بالتكبُّرِ ؛ فكذٰلكَ يُناقضُ قولُ مَنْ فضَّلَ الفقرَ بأنَّهُ وصفُ العبدِ . . بالعلمِ والمعرفةِ ؛ فإنَّهُ وصفُ الربِّ تعالىٰ ، والجهلُ والغفلةُ وصفُ العبدِ ، وليسَ لأحدٍ أنْ يفضِّلَ الغفلةَ على العلمِ .

فكشفُ الغطاءِ عنْ هـٰذا هوَ ما ذكرناهُ في كتابِ الصبرِ ، وهوَ أنَّ ما لا يُرادُ لعينِهِ بلْ يُرادُ لغيرِهِ . . فينبغي أنْ يُضافَ إلىٰ مقصودِهِ ؛ إذْ بهِ يظهرُ فضلُهُ ، والدنيا ليسَتْ محذورةً لعينِها ، ولـٰكنْ لكونِها عائقةً عنِ الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا الفقرُ مطلوبٌ لعينِهِ ، لـٰكنْ لأنَّ فيهِ فقدَ العائقِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وعدمَ الشاغلِ عنهُ ، وكمْ مِنْ غنيٍّ لمْ يشغلْهُ الغنىٰ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، مثلَ سليمانَ عليهِ السلامُ ، وعثمانَ ، وعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، وكمْ مِنْ فقيرٍ شغلَهُ الفقرُ وصرفَهُ عنِ المقصدِ ، **وغايةُ المقصدِ في الدنيا هوَ حبُّ اللهِ تعالىٰ والأنسُ بهِ** ، ولا يكونُ ذٰلكَ إلا بعدَ معرفتِهِ ، وسلوكُ سبيلِ المعرفةِ معَ الشواغلِ غيرُ ممكنٍ ، والفقرُ قدْ يكونُ مِنَ الشواغلِ ؛ كما أنَّ الغنىٰ قدْ يكونُ مِنَ الشواغلِ ،

---

(١) كذا في « القوت » (٢٦٢/١) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده هـٰكذا بهـٰذا السياق ، والمعروف في هـٰذا المعنىٰ ما رواه ابن ماجه [٤١٢٤] من حديث ابن عمر : اشتكىٰ فقراء المهاجرين إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل به عليهم أغنياؤهم ، فقال : « يا معشر الفقراء ، ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم ؛ خمس مئة عام » ، وإسناده ضعيف) . « إتحاف » (٢٨٧/٩) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٤/١) .

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) .

(٤) قوت القلوب (٢٦٤/١) .

وإنَّما الشاغلُ على التحقيقِ حبُّ الدنيا ؛ إذْ لا يجتمعُ معَهُ حبُّ اللهِ في القلبِ ، والمحبُّ للشيءِ مشغولٌ بهِ سواءٌ كانَ في فراقِهِ أوْ في وصالِهِ ، وربما يكونُ شغلُهُ في الفراقِ أكثرَ ، وربما يكونُ شغلُهُ في الوصالِ أكثرَ ، والدنيا معشوقةُ الغافلينَ ، المحرومُ منها مشغولٌ بطلبِها ، والقادرُ عليها مشغولٌ بحفظِها والتمتعِ بها .

فإذاً ؛ إنْ فرضتَ فارغينِ عنْ حبِّ المالِ ؛ بحيثُ صارَ المالُ في حقِّهِما كالماءِ . . استوى الفاقدُ والواجدُ ؛ إذْ كلُّ واحدٍ غيرُ متمتِّعٍ إلا بقدْرِ الحاجةِ ، ووجودُ قدْرِ الحاجةِ أفضلُ مِنْ فقدِهِ ؛ إذِ الجائعُ يسلكُ سبيلَ الموتِ لا سبيلَ المعرفةِ .

وإنْ أخذتَ الأمرَ باعتبارِ الأكثرِ . . فالفقيرُ عنِ الخطرِ أبعدُ ؛ إذْ فتنةُ السرَّاءِ أشدُّ مِنْ فتنةِ الضرَّاءِ ، ومِنَ العصمةِ ألا يقدرَ ، ولذٰلكَ قالَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ : (بُلينا بفتنةِ الضرَّاءِ فصبرنا ، وبُلينا بفتنةِ السرَّاءِ فلمْ نصبرْ)[1] ، وهٰذهِ خِلقةُ الآدميينَ كلِّهِمْ إلا الشاذَّ الفذَّ الذي لا يُوجدُ في الأعصارِ الكثيرةِ إلا نادراً .

ولمَّا كانَ خطابُ الشرعِ معَ الكلِّ لا معَ ذٰلكَ النادرِ ، والضراءُ أصلحُ للكلِّ دونَ ذٰلكَ النادرِ . . زجرَ الشرعُ عنِ الغنىٰ وذمَّهُ ، وفضَّلَ الفقرَ ومدحَهُ ، حتىٰ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تنظروا إلىٰ أموالِ أهلِ الدنيا ، فإنَّ بريقَ أموالِهِمْ يذهبُ بنورِ إيمانِكُمْ)[2]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (تقليبُ الأموالِ يمصُّ حلاوةَ الإيمانِ)[3]

وفي الخبرِ : « لكلِّ أمةٍ عجلٌ ، وعجلُ هٰذهِ الأمَّةِ الدينارُ والدرهمُ »[4] ، وكانَ أصلُ عجلِ قومِ موسىٰ مِنْ حليةِ الذهبِ والفضةِ أيضاً .

واستواءُ المالِ والماءِ والذهبِ والحجرِ إنَّما يُتصوَّرُ للأنبياءِ والأولياءِ ، ثمَّ يتمُّ لهُمْ ذٰلكَ بعدَ فضْلِ اللهِ تعالىٰ بطولِ المجاهدةِ ، إذْ كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ للدنيا : « إليكِ عنِّي » إذْ كانَتْ تتمثَّلُ لهُ بزينتِها[5]

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (يا صفراءُ ؛ غرِّي غيري ، ويا بيضاءُ ؛ غرِّي غيري)[6] وذٰلكَ لاستشعارِهِ في نفسِهِ ظهورَ مبادي الاغترارِ بها لولا أنْ رأىٰ برهانَ ربِّهِ ، وذٰلكَ هوَ الغنى المطلقُ ، إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الغنىٰ عنْ كثرةِ العرضِ ، إنَّما الغنىٰ غنى النفسِ »[7]

وإذا كانَ ذٰلكَ بعيداً . . فإذاً الأصلحُ لكافَّةِ الخلقِ فقْدُ المالِ وإنْ تصدَّقوا بهِ وصرفوهُ إلى الخيراتِ ؛ لأنَّهُمْ لا ينفكُّونَ في القدرةِ على المالِ عنْ أُنْسٍ بالدنيا ، وتمتعٍ بالقدرةِ عليها ، واستشعارِ راحةٍ في بذلِها ، وكلُّ ذٰلكَ يورثُ الأُنْسَ بهٰذا العالمِ ، وبقدْرِ ما يأنسُ العبدُ بالدنيا يستوحشُ مِنَ الآخرةِ ، وبقدْرِ ما يأنسُ بصفةٍ مِنْ صفاتِهِ ـ سوىٰ صفةِ المعرفةِ

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢١٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (٢٦٢/١) .

(٣) قوت القلوب (٢٦٢/١) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٥٠١٩] من طريق أبي عبد الرحمٰن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة) . « إتحاف » (٢٨٩/٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٩/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨١/١) .

(٧) رواه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .

باللهِ ـ يستوحشُ مِنَ اللهِ ومِنْ حبِّهِ ، ومهما انقطعَتْ أسبابُ الأنسِ بالدنيا . . تجافى القلبُ عنِ الدنيا وزهرتِها ، والقلبُ إذا تجافىٰ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ وكانَ مؤمناً باللهِ . . انصرفَ ـ لا محالةَ ـ إلى اللهِ ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ قلبٌ فارغٌ .

وليسَ في الوجودِ إلا اللهُ تعالىٰ وغيرُهُ ، فمَنْ أقبلَ علىٰ غيرِهِ . . فقدْ تجافىٰ عنهُ ، ومَنْ أقبلَ عليهِ . . تجافىٰ عنْ غيرِهِ ، ويكونُ إقبالُهُ علىٰ أحدِهِما بقدْرِ تجافيهِ عنِ الآخرِ ، وقربُهُ مِنْ أحدِهِما بقدْرِ بعدِهِ مِنَ الآخرِ ، ومثلُهُما مثلُ المشرقِ والمغربِ ، فإنَّهُما جهتانِ ، فالمتردِّدُ بينَهُما بقدْرِ ما يقربُ مِنْ أحدِهِما يبعدُ مِنَ الآخرِ ، بلْ عينُ القرْبِ مِنْ أحدِهِما هوَ عينُ البعدِ مِنَ الآخرِ ، فعينُ حبِّ الدنيا هوَ عينُ بغضِ اللهِ تعالىٰ ، فينبغي أنْ يكونَ مطمحُ نظرِ العارفِ قلبَهُ في عزوفِهِ عنِ الدنيا وأنسِهِ بها .

فإذاً ؛ فضْلُ الفقيرِ والغنيِّ بحسَبِ تعلُّقِ قلبيهِما بالمالِ فقطْ ، فإنْ تساويا فيهِ . . تساوَتْ درجتُهُما ، إلا أنَّ هٰذا مزلَّةُ قدمٍ وموضعُ غرورٍ ؛ فإنَّ الغنيَّ ربما يظنُّ أنَّهُ منقطعُ القلبِ عنِ المالِ ويكونُ حبُّهُ دفيناً في باطنِهِ وهوَ لا يشعرُ بهِ ، وإنَّما يشعرُ بهِ إذا فقدَهُ ، فليجرِّبْ نفسَهُ بتفريقِهِ أوْ إذا سُرِقَ منهُ ، فإنْ وجدَ لقلبِهِ إليهِ التفاتاً . . فليعلمْ أنَّهُ كانَ مغروراً ، فكَمْ مِنْ رجلٍ باعَ سُرِّيَّةً لهُ لظنِّهِ أنَّهُ منقطعُ القلبِ عنها ، فبعدَ لزومِ البيعِ وتسليمِ الجاريةِ . . اشتعلَتْ مِنْ قلبِهِ النارُ التي كانَتْ مستكنَّةً فيهِ ، فتحقَّقَ بهِ أنَّهُ كانَ مغروراً ، وأنَّ العشقَ كانَ مستكنّاً في الفؤادِ استكنانَ النارِ تحتَ الرمادِ ، وهٰذا حالُ كلِّ الأغنياءِ ، إلا الأنبياءَ والأولياءَ .

وإذا كانَ ذٰلكَ محالاً أوْ بعيداً . . فلنطلقِ القولَ بأنَّ الفقرَ أصلحُ لكافَّةِ الخلقِ وأفضلُ ؛ لأنَّ علاقةَ الفقيرِ وأنسَهُ بالدنيا أضعفُ ، وبقدْرِ ضعفِ علاقتِهِ يتضاعفُ ثوابُ تسبيحاتِهِ وعباداتِهِ ، فإنَّ حركاتِ اللسانِ ليسَتْ مرادةً لأعيانِها ، بلْ ليتأكَّدَ بها الأنسُ بالمذكورِ ، ولا يكونُ تأثيرُها في إثارةِ الأنسِ في قلبٍ فارغٍ مِنْ غيرِ المذكورِ كتأثيرِها في قلبٍ مشغولٍ .

ولذٰلكَ قالَ بعضُ السلفِ : (مثلُ مَنْ تعبَّدَ وهوَ في طلبِ الدنيا مثلُ مَنْ يطفئُ النارَ بالحلفاءِ ، ومثلُ مَنْ يغسلُ يدَهُ مِنَ الغَمَرِ بالسمكِ)[1] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (تنفُّسُ فقيرٍ دونَ شهوةٍ لا يقدرُ عليها أفضلُ مِنْ عبادةِ غنيٍّ ألفَ عامٍ)[2] .

وعنِ الضحَّاكِ قالَ : (مَنْ دخلَ السوقَ ، فرأىٰ شيئاً يشتهيهِ ، فصبرَ واحتسبَ . . كانَ خيراً لهُ مِنْ ألفِ دينارٍ ينفقُها كلَّها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ) .

وقالَ رجلٌ لبشرِ بنِ الحارثِ رحمهُ اللهُ : ادعُ اللهَ لي ، فقدْ أضرَّ بي الفقرُ والعيالُ ، فقالَ : إذا قالَ لكَ عيالُكَ : ليسَ عندَنا دقيقٌ ولا خبزٌ . . فادعُ لي في ذٰلكَ الوقتِ ؛ فإنَّ دعاءَكَ أفضلُ مِنْ دعائي[3] .

وكانَ يقولُ : (مثلُ الغنيِّ المتعبِّدِ مثلُ روضةٍ علىٰ مزبلةٍ ، ومثلُ الفقيرِ المتعبِّدِ مثلُ عقدِ الجوهرِ في جيدِ الحسناءِ)[4] .

وقدْ كانوا يكرهونَ سماعَ علمِ المعرفةِ مِنَ الأغنياءِ[5] .

---

(١) قوت القلوب (٢٦٢/١) ، **والغَمَر** : ريح اللحم وزهمه .
(٢) قوت القلوب (١٩٢/٢) .
(٣) قوت القلوب (١٩٢/٢) .
(٤) قوت القلوب (١٩٢/٢) .
(٥) قوت القلوب (١٩٣/٢) .

وقدْ قالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الذلَّ عندَ النصَفِ مِنْ نفسي ، والزهدَ فيما جاوزَ الكفافَ)[(١)] ، وإذا كانَ مثلُ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ في كمالِ حالِهِ يحذرُ مِنَ الدنيا ووجودِها . . فكيفَ يُشَكُّ في أنَّ فقدَ المالِ أصلحُ مِنْ وجودِهِ ؟! هـٰذا معَ أنَّ أحسنَ أحوالِ الغنيِّ أنْ يأخذَ حلالاً ، وينفقَ طيِّباً ، ومعَ ذٰلكَ فيطولُ حسابُهُ في عرصاتِ القيامةِ ، ويطولُ انتظارُهُ ، ومَنْ نُوقشَ الحسابَ . . عُذِّبَ ، ولهـٰذا تأخَّرَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ عنِ الجنَّةِ ؛ إذْ كانَ مشغولاً بالحسابِ كما رآهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(٢)]

ولهـٰذا قالَ أبو الدرداءِ : ما أحبُّ أنَّ لي حانوتاً على بابِ المسجدِ ولا تخطئُني فيهِ صلاةٌ وذكرٌ وأربحُ كلَّ يومٍ أربعينَ ديناراً وأتصدَّقُ بها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، قيلَ : وما تكرهُ ؟ قالَ : سوءَ الحسابِ[(٣)]

ولذٰلكَ قالَ سفيانُ رحمهُ اللهُ : (اختارَ الفقراءُ ثلاثةَ أشياءَ ، واختارَ الأغنياءُ ثلاثةَ أشياءَ ؛ اختارَ الفقراءُ راحةَ النفسِ ، وفراغَ القلبِ ، وخفَّةَ الحسابِ ، واختارَ الأغنياءُ تعبَ النفسِ ، وشغلَ القلبِ ، وشدَّةَ الحسابِ) .

وما ذكرَهُ ابنُ عطاءٍ مِنْ أنَّ الغنىٰ وصفُ الحقِّ ؛ فهوَ بذٰلكَ أفضلُ . . فهوَ صحيحٌ ، ولـٰكنْ إذا كانَ العبدُ غنيّاً عنْ وجودِ المالِ وعدمِهِ جميعاً ، بأنْ يستويَ عندَهُ كلاهُما ، فأمَّا إذا كانَ غنيّاً بوجودِهِ ومفتقراً إلىٰ بقائِهِ . . فلا يضاهي غناهُ غنى اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ غنيٌّ بذاتِهِ ، لا بما يُتصوَّرُ زوالُهُ ، والمالُ يُتصوَّرُ زوالُهُ بأنْ يُسرقَ .

وما ذُكِرَ في الردِّ عليهِ مِنْ أنَّ اللهَ ليسَ غنيّاً بالأعراضِ والأسبابِ . . صحيحٌ في ذمِّ غنيٍّ يريدُ بقاءَ المالِ ، وما ذُكِرَ مِنْ أنَّ صفاتِ الحقِّ لا تليقُ بالعبدِ . . غيرُ صحيحٍ ، بلِ العلمُ مِنْ صفاتِهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ أفضلُ شيءٍ للعبدِ ، بلْ منتهى العبدِ أنْ يتخلَّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ سمعتُ بعضَ المشايخِ يقولُ : (إنَّ سالكَ الطريقِ إلى اللهِ تعالىٰ قبلَ أنْ يقطعَ الطريقَ تصيرُ الأسماءُ التسعةُ والتسعونَ أوصافاً لهُ)[(٤)] ؛ أيْ : يكونُ لهُ مِنْ كلِّ واحدٍ نصيبٌ .

وأمَّا التكبُّرُ . . فلا يليقُ بالعبدِ ، فإنَّ التكبُّرَ علىٰ مَنْ لا يستحقُّ التكبُّرَ عليهِ ليسَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا التكبُّرُ علىٰ مَنْ يستحقُّهُ ؛ كتكبُّرِ المؤمنِ على الكافرِ ، وتكبُّرِ العالمِ على الجاهلِ ، والمطيعِ على العاصي . . فيليقُ بهِ .

نعمْ ؛ قدْ يُرادُ بالتكبُّرِ الزهوُ والصلفُ والإيذاءُ ، وليسَ ذٰلكَ مِنْ وصفِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما وصفُ اللهِ تعالىٰ أنَّهُ أكبرُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، وأنَّهُ يعلمُ أنَّهُ كذٰلكَ ، والعبدُ مأمورٌ بأنْ يطلبَ أعلى المراتبِ إنْ قدرَ عليهِ ، ولـٰكنْ بالاستحقاقِ كما هوَ حقُّهُ ، لا بالباطلِ والتلبيسِ ، فعلى العبدِ أنْ يعلمَ أنَّ المؤمنَ أكبرُ مِنَ الكافرِ ، والمطيعَ أكبرُ مِنَ العاصي ، والعالمَ أكبرُ مِنَ الجاهلِ ، والإنسانَ أكبرُ مِنَ البهيمةِ والجمادِ والنباتِ ، وأقربُ إلى اللهِ تعالىٰ منها ، فلو رأىٰ نفسَهُ بهـٰذهِ الصفةِ رؤيةً محقَّقةً لا شكَّ فيها . . لكانَتْ صفةُ التكبُّرِ حاصلةً لهُ ولائقةً بهِ وفضيلةً في حقِّهِ ، إلا أنَّهُ لا سبيلَ لهُ إلىٰ معرفتِهِ ، فإنَّ ذٰلكَ موقوفٌ على الخاتمةِ ، وليسَ يدري الخاتمةَ كيفَ تكونُ ، وكيفَ تتفقُ ، فلجهلِهِ بذٰلكَ وجبَ ألا يعتقدَ لنفسِهِ رتبةً فوقَ رتبةِ الكافرِ ؛ إذْ ربما يُختمُ للكافرِ بالإيمانِ ويُختمُ لهُ بالكفرِ ، فلمْ يكنْ ذٰلكَ لائقاً بهِ ؛ لقصورِ علمِهِ عنْ معرفةِ العاقبةِ .

ولمَّا تُصوِّرَ أنْ يعلمَ الشيءَ علىٰ ما هوَ بهِ . . كانَ العلمُ كمالاً في حقِّهِ ؛ لأنَّهُ مِنْ صفاتِ اللهِ ، ولمَّا كانَتْ معرفةُ بعضِ

---

(١) قوت القلوب (١/٢٦٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/٢٣٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٠٩) .

(٤) نقله المؤلف في « المقصد الأسنىٰ » (ص ٣٠٣) عن شيخه أبي علي الفارْمَذيّ ، حكاه عن شيخه أبي القاسم الكركاني رحمهم الله تعالىٰ .

الأشياءِ قدْ تضرُّهُ . . صارَ ذٰلكَ العلمُ نقصاً في حقِّهِ ؛ إذْ ليسَ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالىٰ علمٌ يضرُّهُ ، فمعرفةُ الأمورِ التي لا ضررَ فيها هيَ التي تُتصوَّرُ في العبدِ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، فلا جرمَ هوَ منتهى الفضيلةِ ، وبهِ فضلَ الأنبياءُ والأولياءُ والعلماءُ .

فإذاً ؛ لوِ استوىٰ عندَهُ وجودُ المالِ وعدمُهُ . . فهـٰذا نوعٌ مِنَ الغنىٰ يضاهي بوجهٍ مِنَ الوجوهِ الغنى الذي يُوصفُ بِهِ اللهُ سبحانَهُ[1] ، فهوَ فضيلةٌ ، أمَّا الغنىٰ بوجودِ المالِ . . فلا فضيلةَ فيهِ أصلاً

فهـٰذا بيانُ نسبةِ حالِ الفقيرِ القانعِ إلىٰ حالِ الغنيِّ الشاكرِ .

ـ **المقامُ الثاني** : في نسبةِ حالِ الفقيرِ الحريصِ إلىٰ حالِ الغنيِّ الحريصِ :

ولنفرضْ ذٰلكَ في شخصٍ واحدٍ هوَ طالبٌ للمالِ وساعٍ فيهِ وفاقدٌ لهُ ثمَّ وجدَهُ ، فلهُ حالةُ الفقدِ وحالةُ الوجودِ ، فأيُّ حالتيهِ أفضلُ ؟

فنقولُ : ننظرُ ؛ فإنْ كانَ مطلوبُهُ ما لا بدَّ منهُ في المعيشةِ ، وكانَ قصدُهُ أنْ يسلكَ سبيلَ الدينِ ، ويستعينَ بهِ عليهِ . . فحالُ الوجودِ أفضلُ ؛ لأنَّ الفقرَ يشغلُهُ بالطلبِ ، وطالبُ القوتِ لا يقدرُ على الذكرِ والفكرِ إلا قدرةً مدخولةً بشغلٍ ، والمكفيُّ هوَ القادرُ .

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ كفافاً »[2]

وقالَ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً »[3] أي : الفقرُ معَ الاضطرارِ فيما لا بدَّ منهُ .

وإنْ كانَ المطلوبُ فوقَ الحاجةِ ، أوْ كانَ المطلوبُ قدْرَ الحاجةِ ولـٰكنْ لمْ يكنِ المقصودُ الاستعانةَ بهِ علىٰ سلوكِ سبيلِ الدينِ . . فحالةُ الفقرِ أصلحُ وأفضلُ ؛ لأنَّهُما استويا في الحرصِ وحبِّ المالِ ، واستويا في أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما ليسَ يقصدُ بهِ الاستعانةَ علىٰ طريقِ الدينِ ، واستويا في أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما ليسَ يتعرَّضُ لمعصيةٍ بسببِ الفقرِ والغنىٰ ، ولـٰكنِ افترقا في أنَّ الواجدَ يأنسُ بما وجدَهُ ، فيتأكَّدُ حبُّهُ في قلبِهِ ، ويطمئنُّ إلى الدنيا ، والفاقدُ المضطرُّ يتجافىٰ قلبُهُ عنِ الدنيا ، وتكونُ الدنيا عندَهُ مثلَ السجنِ الذي يبغي الخلاصَ منهُ .

ومهمَا استوتِ الأمورُ كلُّها ، وخرجَ مِنَ الدنيا رجلانِ ؛ أحدُهُما أشدُّ ركوناً إلى الدنيا . . فحالُهُ أشدُّ لا محالةَ ؛ إذْ يلتفتُ قلبُهُ إلى الدنيا ، ويستوحشُ مِنَ الآخرةِ بقدْرِ تأكُّدِ أنسِهِ بالدنيا ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ »[4] ، وهـٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ فراقَ المحبوبِ شديدٌ .

فينبغي أنْ تحبَّ مَنْ لا يفارقُكَ ، وهوَ اللهُ تعالىٰ ، ولا تحبَّ ما يفارقُكَ ، وهوَ الدنيا ؛ فإنَّكَ إذا أحببتَ الدنيا . . كرهْتَ لقاءَ اللهِ تعالىٰ ، فيكونُ قدومُكَ بالموتِ علىٰ ما تكرهُهُ ، وفراقُكَ لما تحبُّهُ ، وكلُّ مَنْ فارقَ محبوباً فيكونُ أذاهُ

---

(١) **يضاهي هنا** : يشاكل ويشابه ، ويقال : فلان يضاهي فلاناً ؛ أي : يتابعه .

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) بلفظ : « اللهم ؛ ارزق آل محمد قوتاً » ، وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) .

(٣) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) الشطر الأول من الحديث رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠١٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٦) ، والثاني رواه أيضاً أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

في فراقِهِ بقدْرِ حبّهِ وقدْرِ أنسِهِ بهِ ، وأنسُ الواجدِ للدنيا بالدنيا أكثرُ مِنْ أنسِ الفاقدِ لها وإنْ كانَ حريصاً عليها .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ قدِ انكشفَ بهٰذا التحقيقِ أنَّ الفقرَ هوَ الأشرفُ والأفضلُ والأصلحُ لكافَّةِ الخلقِ إلا في موضعينِ :

أحدُهُما : غنىً مثلُ غنىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، استوىٰ عندَهُ الوجودُ والعدمُ ، فيكونُ الوجودُ مزيداً لهُ ، إذْ يستفيدُ بهِ أدعيةَ الفقراءِ والمساكينِ وجمعَ هِمَمِهِمْ .

والثاني : الفقرُ عنْ مقدارِ الضرورةِ ، فإنَّ ذٰلكَ يكادُ أنْ يكونَ كفراً ، ولا خيرَ فيهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ، إلا إذا كانَ وجودُهُ يُبقي حياتَهُ ، ثمَّ يستعينُ بقوتِهِ وحياتِهِ على الكفرِ والمعاصي ، ولوْ ماتَ جوعاً . . لكانَتْ معاصيهِ أقلَّ ، فالأصلحُ لهُ أنْ يموتَ جوعاً ولا يجدَ ما يُضطرُّ إليهِ أيضاً .

فهٰذا تفصيلُ القولِ في الغنىٰ والفقرِ ، ويبقى النظرُ في فقيرٍ حريصٍ متكالبٍ علىٰ طلبِ المالِ ، ليسَ لهُ همٌّ سواهُ ، وفي غنيٍّ دونَهُ في الحرصِ علىٰ حفظِ المالِ ، ولمْ يكنْ تفجُّعُهُ بفقْدِ المالِ لوْ فقدَهُ كتفجُّعِ الفقيرِ بفقدِهِ ، فهٰذا في محلِّ النظرِ ، **والأظهرُ** : أنَّ بعدَهُما عنِ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ قوَّةِ تفجُّعِهِما لفقدِ المالِ ، وقربَهُما بقدْرِ ضعفِ تفجُّعِهِما بفقدِهِ ، والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ فيهِ .

❁ ❁ ❁

بيان آداب الفقير في فقره

اعلمْ : أنَّ للفقيرِ آداباً في باطنِهِ وظاهرِهِ ، ومخالطتِهِ وأفعالِهِ ، ينبغي أنْ يراعيَها .

فأمَّا **أدبُ باطنِهِ** : فألا يكونَ فيهِ كراهةٌ لما ابتلاهُ اللهُ تعالىٰ بهِ مِنَ الفقرِ ؛ أعني أنَّهُ لا يكونُ كارهاً فعلَ اللهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُهُ وإنْ كانَ كارهاً للفقرِ ؛ كالمحجومِ يكونُ كارهاً للحجامةِ لتألُّمِهِ بها ، ولا يكونُ كارهاً فعلَ الحجَّامِ ، ولا كارهاً للحجَّامِ ، بلْ ربما يتقلَّدُ منهُ منَّةً .

فهٰذا أقلُّ درجاتِهِ ، وهوَ واجبٌ ، ونقيضُهُ حرامٌ ومحبطٌ ثوابَ الفقرِ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ الرضا مِنْ قلوبِكُمْ . . تظفروا بثوابِ فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا »[1]

وأرفعُ مِنْ هٰذا : ألا يكونَ كارهاً للفقرِ ، بلْ يكونُ راضياً بهِ .

وأرفعُ منهُ : أنْ يكونَ طالباً لهُ ، وفرحاً بهِ ؛ لعلمِهِ بغوائلِ الغنىٰ ، ويكونَ متوكلاً في باطنِهِ على اللهِ تعالىٰ ، واثقاً بهِ في قدْرِ ضرورتِهِ أنَّهُ يأتيهِ لا محالةَ ، ويكونَ كارهاً للزيادةِ على الكفافِ .

وقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ للهِ تعالىٰ عقوباتٍ بالفقرِ ومثوباتٍ بالفقرِ ، فمِنْ علامةِ الفقرِ إذا كانَ مثوبةً أنْ يحسنَ عليهِ خلقُهُ ، ويطيعَ بهِ ربَّهُ ، ولا يشكوَ حالَهُ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ فقرِهِ ، ومِنْ علامتِهِ إذا كانَ عقوبةً أنْ يسوءَ عليهِ خلقُهُ ، ويعصيَ ربَّهُ بتركِ طاعتِهِ ، ويكثرَ الشكايةَ ، ويتسخَّطَ القضاءَ)[2]

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ كلَّ فقيرٍ فليسَ بمحمودٍ ، بلِ الذي لا يتسخَّطُ ، أوْ يرضىٰ ، أوْ يفرحُ بالفقرِ ويرضىٰ لعلمِهِ بثمرتِهِ ؛ إذْ قيلَ : (ما أُعطيَ عبدٌ شيئاً مِنَ الدنيا إلا قيلَ لهُ : خذْهُ علىٰ ثلاثةِ أثلاثٍ : شغلٍ وهمٍّ وطولِ حسابٍ)[3]

وأمَّا أدبُ ظاهرِهِ : فأنْ يظهرَ التعفُّفَ والتجمُّلَ ، ولا يظهرَ الشكوىٰ والفقرَ ، بلْ يسترُ فقرَهُ ، ويسترُ أنَّهُ يسترُهُ ؛ ففي الحديثِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ الفقيرَ المتعفِّفَ أبا العيالِ »[4]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾

وقالَ سفيانُ : (أفضلُ الأعمالِ التجمُّلُ عندَ المحنةِ)[5] .

وقالَ بعضُهُمْ : (ستْرُ الفقرِ مِنْ كنوزِ البرِّ) .

وأمَّا في أعمالِهِ : فأدبُهُ : ألا يتواضعَ لغنيٍّ لأجلِ غناهُ ، بلْ يتكبَّرُ عليهِ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (**ما أحسنَ تواضعَ الغنيِّ للفقيرِ رغبةً في ثوابِ اللهِ تعالىٰ ، وأحسنُ منهُ تيهُ الفقيرِ على الغنيِّ ثقةً باللهِ عزَّ وجلَّ**)[6]

---

(١) قوت القلوب (١٩٤/٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكىٰ سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٢٨١/٤) ، وانظر « الإتحاف » (٢٨٣/٩ ، ٦٥٠) .

(٢) قوت القلوب (١٩٣/٢) .

(٣) قوت القلوب (١٩٥/٢) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٢١) .

(٥) قوت القوت (١٩٤/٢) .

(٦) القول له في حكاية منام رآه الفتح بن شخرف ، رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٨١/١٢) .

فهٰذهِ رتبةٌ ، وأقلُّ منها : ألا يخالطَ الأغنياءَ ولا يرغبَ في مجالستِهِمْ ؛ لأنَّ ذٰلكَ مِنْ مبادي الطمعِ ، قالَ الثوريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا خالطَ الفقيرُ الأغنياءَ . . فاعلمْ أنَّهُ مراءٍ ، وإذا خالطَ السلطانَ . . فاعلمْ أنَّهُ لصٌّ)[1]

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إذا مالَ الفقيرُ إلى الأغنياءِ . . انحلَّتْ عروتُهُ ، فإذا طمعَ فيهِمْ . . انقطعَتْ عصمتُهُ ، فإذا سكنَ إليهِمْ . . ضلَّ)[2]

وينبغي ألا يسكتَ عنْ ذكرِ الحقِّ مداهنةً للأغنياءِ ، وطمعاً في العطاءِ[3]

وأمَّا أدبُهُ في أفعالِهِ : فألا يفترَ بسببِ الفقرِ عنْ عبادةٍ ، ولا يمنعَ بذلَ قليلِ ما يفضلُ عنهُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ جهدُ المقلِّ ، وفضلُهُ أكثرُ مِنْ أموالٍ كثيرةٍ تُبذلُ عنْ ظهرِ غنىً .

وروىٰ زيدُ بنُ أسلمَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « درهمٌ مِنَ الصدقةِ أفضلُ عندَ اللهِ تعالىٰ من مئةِ ألفِ درهمٍ » ، قيلَ : وكيفَ ذٰلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أخرجَ رجلٌ مِنْ عرضِ مالِهِ مئةَ ألفِ درهمٍ فتصدَّقَ بها ، وأخرجَ رجلٌ درهماً مِنْ درهمينِ لا يملكُ غيرَهُما طيبةً مِنْ نفسِهِ ، فصارَ صاحبُ الدرهمِ أفضلَ مِنْ صاحبِ المئةِ ألفٍ »[4]

وينبغي ألا يدخرَ مالاً ، بلْ يأخذُ قدْرَ الحاجةِ ويخرجُ الباقيَ ، **وفي الادخارِ ثلاثُ درجاتٍ** :

إحداها : ألا يدخرَ إلا ليومِهِ وليلتِهِ ، وهيَ درجةُ الصديقينَ .

والثانيةُ : أنْ يدخرَ لأربعينَ يوماً ، فإنَّ ما زادَ عليهِ داخلٌ في طولِ الأملِ ، وقدْ فهمَ العلماءُ ذٰلكَ مِنْ ميعادِ اللهِ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ ، ففُهِمَ منهُ الرخصةُ في أملِ الحياةِ أربعينَ يوماً ، وهيَ درجةُ المتقينَ .

والثالثةُ : أنْ يدَّخرَ لسنتِهِ ، وهيَ أقصى المراتبِ ، وهيَ رتبةُ الصالحينَ .

ومَنْ زادَ في الادخارِ علىٰ هٰذا . . فهوَ واقعٌ في غمارِ العمومِ ، خارجٌ عنْ حيِّزِ الخصوصِ بالكلِّيَّةِ ، فغنى الصالحِ الضعيفِ في طُمأنينةِ قلبِهِ في قوتِ سنةٍ ، وغنى الخصوصِ في أربعينَ يوماً ، وغنىٰ خصوصِ الخصوصِ في يومٍ وليلةٍ .

وقدْ قسمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لنسائِهِ علىٰ مثلِ هٰذهِ الأقسامِ ، فبعضُهنَّ كانَ يعطيها قوتَ سنةٍ عندَ حصولِ ما يحصلُ ، وبعضُهنَّ قوتَ أربعينَ يوماً ، وبعضُهنَّ يوماً وليلةً ؛ وهوَ قَسمُ عائشةَ وحفصةَ .

❋ ❋ ❋

(١) كذا في « القوت » (١٩٦/٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٧/٦) . وفيه : (القارئ) بدل (الفقير) .

(٢) قوت القلوب (١٩٦/٢) .

(٣) وهٰذا واجب ، روى البيهقي في « الشعب » (٧٨٨٢) من قول ابن مسعود : (من خضع لغني ، ووضع له نفسه إعظاماً له ، وطمعاً فيما قبله . . ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه) . « إتحاف » (٢٩٦/٩) .

(٤) تقدم بلفظ : « سبق درهم مئة ألف درهم . . . » ، وهو عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو ما رواه النسائي (٥٩/٥) .

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أنْ يلاحظَ الفقيرُ فيما جاءَهُ ثلاثةَ أمورٍ : نفسَ المالِ ، وغرضَ المعطي ، وغرضَهُ في الأخذِ .

أمَّا نفسُ المالِ : فينبغي أنْ يكونَ حلالاً خالياً عنِ الشبهاتِ كلِّها ، فإنْ كانَ فيهِ شبهةٌ . . فليحترزْ مِنْ أخذِهِ .

وقدْ ذكرنا في كتابِ الحلالِ والحرامِ درجاتِ الشبهةِ ، وما يجبُ اجتنابُهُ وما يُستحبُّ .

وأمَّا غرضُ المعطي : فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ غرضُهُ تطييبَ قلبِهِ وطلبَ محبَّتِهِ وهوَ الهديةُ ، أوِ الثوابَ وهوَ الصدقةُ والزكاةُ ، أوِ الذكرَ والرياءَ والسمعةَ ؛ إمَّا على التجرُّدِ ، وإمَّا ممزوجاً ببقيةِ الأغراضِ .

ـ **أمَّا الأوَّلُ وهوَ الهديةُ** : فلا بأسَ بقبولِها ، فإنَّ قبولَها سنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [1] ، ولـٰكنْ ينبغي ألا يكونَ فيها منَّةٌ ، فإنْ كانَ فيها منَّةٌ . . فالأولىٰ تركُها ، فإنْ علمَ أنَّ بعضَها ممَّا تعظمُ فيهِ المنَّةُ . . فليردَّ البعضَ دونَ البعضِ ، فقدْ أُهديَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سمنٌ وأقطٌ وكبشٌ ، فقبلَ السمنَ والأقطَ وردَّ الكبشَ [2]

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبلُ مِنْ بعضِ الناسِ ويردُّ علىٰ بعضٍ ، وقالَ : « لقدْ هممتُ ألا أتَّهبَ إلا مِنْ قرشيٍّ أوْ أنصاريٍّ أوْ ثقفيٍّ أوْ دوسيٍّ » [3] ، وفعلَ هـٰذا جماعةٌ مِنَ التابعينَ .

وجاءَتْ إلىٰ فتحٍ الموصليِّ صرَّةٌ فيها خمسونَ درهماً ، فقالَ : حدثَنا عطاءٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « منْ أتاهُ رزقٌ مِنْ غيرِ مسألةٍ فردَّهُ . . فإنَّما يردُّهُ على اللهِ » ، ثمَّ فتحَ الصرَّةَ ، فأخذَ منها درهماً وردَّ سائرَها [4]

وكانَ الحسنُ يروي هـٰذا الحديثَ أيضاً ، ولـٰكنْ حملَ إليهِ رجلٌ كيساً ورزمةً مِنْ رقيقِ ثيابِ خراسانَ ، فردَّ ذٰلكَ وقالَ : مَنْ جلسَ مجلسي هـٰذا وقبلَ مِنَ الناسِ مثلَ هـٰذا . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ وليسَ لهُ خلاقٌ [5]

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ أمرَ العالمِ والواعظِ أشدُّ في قبولِ العطاءِ .

وقدْ كانَ الحسنُ يقبلُ مِنْ أصحابِهِ [6]

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ يسألُ أصحابَهُ الدرهمَ والدرهمينِ ونحوَهُ ، ويعرضُ عليهِ غيرُهُمُ المئينَ فلا يأخذُها [7]

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٥) .

(٢) كذا في « القوت » (١٩٩/٢) ، والسياق عنده ، ورواه أحمد في « المسند » (١٧٢/٤) عن يعلى بن مرَّة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتته امرأة بابن لها قد أصابه لَمَمٌ ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « اخرج عدوَّ الله ، أنا رسول الله » ، فبرأ ، فأهدت له كبشين وشيئاً من أقط وسمن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا يعلىٰ خذ الأقط والسمن ، وخذ أحد الكبشين وردَّ عليها الآخر » .

(٣) رواه أبو داوود (٣٥٣٧) ، والترمذي (٣٩٤٥) ، وأتهب : أقبل هبة .

(٤) كذا في « القوت » (١٩٩/٢) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرسلاً هـٰكذا ، وسيأتي بعد هـٰذا بحديث ما يصحح معناه) . « إتحاف » (٢٩٧/٩) ، ومن ذٰلك ما رواه البخاري (١٤٧٣) ، ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء ، فأقول : أعطه من هو أفقر إليه مني ، فقال : « إذا جاءك من هـٰذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل . . فخذه ، وما لا . . فلا تتبعه نفسك » .

(٥) قوت القلوب (١٩٩/٢) ، والسياق عنده .

(٦) تطييباً لقلوبهم . « إتحاف » (٢٩٧/٩) .

(٧) قوت القلوب (١٩٩/٢) .

وكانَ بعضُهُمْ إذا أعطاهُ صديقُهُ شيئاً . . يقولُ : اتركْهُ عندَكَ ، وانظرْ إنْ كنتُ بعدَ قبولِهِ في قلبِكَ أفضلَ منّي قبلَ القبولِ . . فأخبرْني حتَّىٰ آخذَهُ ، وإلا . . فلا .

وأمارةُ هٰذا أنْ يشقَّ عليهِ الردُّ لوْ ردَّهُ ، ويفرحَ بالقبولِ ويرى المنَّةَ علىٰ نفسِهِ في قبولِ صديقِهِ هديَّتَهُ ، فإنْ علمَ أنَّهُ يمازجُهُ منَّةٌ . . فأخذُهُ مباحٌ ، ولٰكنَّهُ مكروهٌ عندَ الفقراءِ الصادقينَ .

وقالَ بشرٌ : ما سألتُ أحداً قطُّ شيئاً إلا سرياً السقطيَّ ؛ لأنَّهُ قدْ صحَّ عندي زهدُهُ في الدنيا ، فهوَ يفرحُ بخروجِ الشيءِ مِنْ يدِهِ ، ويتبرَّمُ ببقائِهِ عندَهُ ، فأكونُ عوناً لهُ علىٰ ما يحبُّ [(١)]

وجاءَ خراسانيٌّ إلى الجنيدِ رحمهُ اللهُ بمالٍ ، وسألَهُ أنْ يأكلَهُ ، فقالَ : أفرِّقُهُ على الفقراءِ ، فقالَ : ما أريدُ هٰذا ، فقالَ : ومتىٰ أعيشُ حتَّىٰ آكلَ هٰذا ؟! فقالَ : ما أريدُ أنْ تنفقَهُ في الخلِّ والبقلِ ، بلْ في الحلاوةِ والطيباتِ ، فقبلَ ذٰلكَ منهُ ، فقالَ الخراسانيُّ : ما أحدٌ ببغدادَ أمنَّ عليَّ منكَ ، فقالَ الجنيدُ : ولا ينبغي أنْ يُقبلَ إلا مِنْ مثلِكَ [(٢)]

ـ **الثاني : أنْ يكونَ للثوابِ المجرَّدِ وذٰلكَ صدقةٌ أوْ زكاةٌ** : فعليهِ أنْ ينظرَ في صفاتِ نفسِهِ أنَّهُ هلْ هوَ مستحقٌّ للزكاةِ ، فإنِ اشتبهَ عليهِ . . فهوَ محلُّ شبهةٍ ، وقدْ ذكرنا تفصيلَ ذٰلكَ في كتابِ أسرارِ الزكاة ، وإنْ كانَتْ صدقةً ، وكانَ يعطيهِ لدينِهِ . . فلينظرْ إلىٰ باطنِهِ ؛ فإنْ كانَ مقارفاً لمعصيةٍ في السرِّ يعلمُ أنَّ المعطيَ لوْ علمَ ذٰلكَ لنفرَ طبعُهُ ، ولما تقرَّبَ إلى اللهِ بالتصدُّقِ عليهِ . . فهٰذا حرامٌ أخذُهُ ، كما لوْ أعطاهُ لظنِّهِ أنَّهُ عالمٌ أوْ علويٌّ ولمْ يكنْ كذٰلكَ ، فإنَّ أخذَهُ حرامٌ محضٌ لا شبهةَ فيهِ .

ـ **الثالثُ : أنْ يكونَ غرضُهُ الشهرةَ والرياءَ والسمعةَ** : فينبغي أنْ يردَّ عليهِ قصدَهُ الفاسدَ ولا يقبلَهُ ، إذْ يكونُ معيناً لهُ علىٰ غرضِهِ الفاسدِ .

وكانَ سفيانُ الثوريُّ رحمَهُ اللهُ يردُّ ما يُعطىٰ ويقولُ : لوْ علمتُ أنَّهُمْ لا يذكرونَ ذٰلكَ افتخاراً بهِ . . لأخذتُ [(٣)]

وعُوتبَ بعضُهُمْ في ردِّ ما كانَ يأتيهِ مِنْ صلةٍ ، فقالَ : إنَّما أردُّ صلتَهُمْ إشفاقاً عليهِمْ ونصحاً لهُمْ ؛ لأنَّهُمْ يذكرونَ ذٰلكَ ويحبُّونَ أنْ يُعلمَ بهِ ، فتذهبُ أموالُهُمْ وتحبطُ أجورُهُمْ .

وأمَّا غرضُهُ في الأخذِ : فينبغي أنْ ينظرَ أهوَ محتاجٌ إليهِ فيما لا بدَّ لهُ منهُ أوْ هوَ مستغنٍ عنهُ ، فإنْ كانَ محتاجاً إليهِ وقدْ سلمَ مِنَ الشبهةِ والآفاتِ التي ذكرناها في المعطي . . فالأفضلُ لهُ الأخذُ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما المعطي مِنْ سعةٍ بأعظمَ أجراً مِنَ الآخذِ إذا كانَ محتاجاً » [(٤)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أتاهُ شيءٌ مِنْ هٰذا المالِ مِنْ غيرِ مسألةٍ ولا استشرافٍ . . فإنَّما هوَ رزقٌ ساقَهُ اللهُ إليهِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « فلا يردُّهُ » [(٥)]

---

(١) قوت القلوب (١٩٩/٢) .

(٢) قوت القلوب (٢٠٠/٢) .

(٣) قوت القلوب (٢٠٢/٢) .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٢٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٥/٨) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢٩٢/٢) ، (٢٢٠/٤) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مَنْ أُعطيَ ولمْ يأخذْ . . سألَ ولمْ يُعطَ)[١]

وقدْ كانَ سريٌّ السقطيُّ يوصلُ إلىٰ أحمدَ ابنِ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُما شيئاً ، فردَّهُ مرَّةً ، فقالَ لهُ السريُّ : يا أحمدُ ؛ احذَرْ آفةَ الردِّ ، فإنَّها أشدُّ مِنْ آفةِ الأخذِ ، فقالَ لهُ أحمدُ : أعدْ عليَّ ما قلتَ ، فأعادَهُ ، فقالَ أحمدُ : ما رددتُ عليكَ إلا لأنَّ عندي قوتَ شهرٍ ، فاحبسْهُ لي عندَكَ ، فإذا كانَ بعدَ شهرٍ فأنفذْهُ إليَّ[٢]

وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : يُخافُ في الردِّ معَ الحاجةِ عقوبةٌ مِنِ ابتلاءٍ بطمعٍ ، أوْ دخولٍ في شبهةٍ أوْ غيرِهِ .

فأمَّا إذا كانَ ما أتاهُ زائداً علىٰ حاجتِهِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ حالُهُ الاشتغالَ بنفسِهِ ، أوِ التكفُّلَ بأمورِ الفقراءِ والإنفاقِ عليهِمْ لما في طبعِهِ مِنَ الرفقِ والسخاءِ ، فإنْ كانَ مشغولاً بنفسِهِ . . فلا وجهَ لأخذِهِ وإمساكِهِ إنْ كانَ طالباً طريقَ الآخرةِ ، فإنَّ ذٰلكَ محضُ اتباعِ الهوىٰ ، وكلُّ عملٍ ليسَ للهِ فهوَ في سبيلِ الشيطانِ أوْ داعٍ إليهِ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، ثمَّ لهُ مقامانِ :

أحدُهُما : أنْ يأخذَ في العلانيةِ ويردَّ في السرِّ ، أوْ يأخذَ في العلانيةِ ويفرِّقَ في السرِّ ، وهٰذا مقامُ الصدِّيقينَ ، وهوَ شاقٌّ على النفسِ ، لا يطيقُهُ إلا مَنِ اطمأنَّتْ نفسُهُ بالرياضةِ .

والثاني : أنْ يتركَ ولا يأخذَ ؛ ليصرفَهُ صاحبُهُ إلىٰ مَنْ هوَ أحوجُ منهُ ، أوْ يأخذَ ويوصلَ إلىٰ مَنْ هوَ أحوجُ منهُ ، فيفعلُ كليهِما في السرِّ أوْ كليهِما في العلانيةِ .

وقدْ ذكرنا أنَّ الأفضلَ إظهارُ الأخذِ أوْ إخفاؤُهُ في كتابِ أسرارِ الزكاةِ ، معَ جملةٍ مِنْ أحكامِ الفقرِ ، فليُطلبْ مِنْ موضعِهِ .

وأمَّا امتناعُ أحمدَ ابنِ حنبلٍ عنْ قبولِ عطاءِ سريٍّ السقطيِّ رحمَهُما اللهُ . . فإنَّما كانَ لاستغنائِهِ عنهُ ؛ إذْ كانَ عندَهُ قوتُ شهرٍ ، ولمْ يرَ لنفسِهِ أنْ يشتغلَ بأخذِهِ وصرفِهِ إلىٰ غيرِهِ ، فإنَّ في ذٰلكَ آفاتٍ وأخطاراً ، والورعُ يكونُ حذراً مِنْ مظانِّ الآفاتِ ؛ إذْ لمْ يأمنْ مكيدةَ الشيطانِ علىٰ نفسِهِ .

وقالَ بعضُ المجاورينَ بمكةَ : كانَتْ عندي دراهمُ أعددتُها للإنفاقِ في سبيلِ اللهِ ، فسمعتُ فقيراً قدْ فرغَ مِنْ طوافِهِ وهوَ يقولُ بصوتٍ خفيٍّ : أنا جائعٌ كما ترىٰ ، عريانٌ كما ترىٰ ، فما ترىٰ فيما ترىٰ ، يا مَنْ يرىٰ ولا يُرىٰ ؟ فنظرتُ فإذا عليهِ خُلْقانٌ لا تكادُ تواريهِ ، فقلتُ في نفسي : لا أجدُ لدراهمي موضعاً أحسنَ مِنْ هٰذا ، فحملتُها إليهِ ، فنظرَ إليها ، ثمَّ أخذَ منها خمسةَ دراهمَ فقالَ : أربعةٌ ثمنُ مئزرينِ ، ودرهمٌ أنفقُهُ ثلاثاً ، فلا حاجةَ بي إلى الباقي ، فردَّهُ ، قالَ : فرأيتُهُ الليلةَ الثانيةَ وعليهِ مئزرانِ جديدانِ ، فهجسَ في نفسي منهُ شيءٌ ، فالتفتَ إليَّ ، فأخذَ بيدي ، فأطافَني معَهُ أسبوعاً ، كلُّ شوطٍ منها في جوهرٍ مِنْ معادنِ الأرضِ يتخشخشُ تحتَ أقدامِنا إلى الكعبينِ ، منها ذهبٌ ، وفضةٌ ، وياقوتٌ ، ولؤلؤٌ ، وجوهرٌ ، ولمْ يظهرْ ذٰلكَ للناسِ ، فقالَ : هٰذا كلُّهُ قدْ أُعطيناهُ فزهدنا فيهِ ، ونأخذُ مِنْ أيدي الخلقِ ؛ لأنَّ هٰذهِ أثقالٌ وفتنةٌ ، وذٰلكَ للعبادِ فيهِ رحمةٌ ونعمةٌ[٣]

---

(١) قوت القلوب (١٩٨/٢) .

(٢) قوت القلوب (١٩٨/٢) .

(٣) قوت القلوب (١٩٦/٢) بنحوه ، وفي آخره : (ونأخذ من أيدي الخلق أحب إلينا ؛ لأنه أحبُّ إلى الله وأخف علينا في المطالبة ، وهٰذه أثقال . . .) .

والمقصودُ منْ هٰذا : أنَّ الزيادةَ على قدْرِ الحاجةِ إنَّما تأتيكَ ابتلاءً وفتنةً ، لينظرَ اللهُ إليكَ ماذا تعملُ فيهِ ، وقدرُ الحاجةِ يأتيكَ رفقاً بكَ ، فلا تغفُلْ عنِ الفرقِ بينَ الرفقِ والابتلاءِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حقَّ لابنِ آدمَ إلا في ثلاثٍ : طعامٌ يقيمُ صلبَهُ ، وثوبٌ يواري عورتَهُ ، وبيتٌ يكنُّهُ ، فما زادَ فهوَ حسابٌ »[١]

فإذاً ؛ أنتَ في أخذِ قدرِ الحاجةِ مِنْ هٰذهِ الثلاثِ مثابٌ ، وفيما زادَ عليهِ إنْ لمْ تعصِ اللهَ متعرِّضٌ للحسابِ ، وإنْ عصيتَ اللهَ . . فأنتَ متعرِّضٌ للعقابِ .

ومِنَ الاختبارِ أيضاً أنْ تعزمَ علىٰ تركِ لذَّةٍ مِنَ اللذَّاتِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالىٰ ، وكسراً لصفةِ النفسِ ، فتأتيكَ عفواً صفواً لتمتحنَ بها قوَّةَ عقلِكَ ، فالأولى الامتناعُ عنها ، فإنَّ النفسَ إذا رُخِّصَ لها في نقضِ العزمِ . . ألِفَتْ نقضَ العهدِ ، وعادَتْ لعادتِها ، ولا يمكنُ قهرُها ، فردُّ ذٰلكَ مهمٌّ ، وهوَ الزهدُ .

فإنْ أخذتَهُ وصرفتَهُ إلىٰ محتاجٍ . . فهوَ غايةُ الزهدِ ، ولا يقدرُ عليهِ إلا الصديقونَ .

فأمَّا إذا كانَتْ حالُكَ السخاءَ والبذلَ ، والتكفُّلَ بحقوقِ الفقراءِ ، وتعهُّدَ جماعةٍ مِنَ الصلحاءِ . . فخذْ ما زادَ علىٰ حاجتِكَ ، فإنَّهُ غيرُ زائدٍ علىٰ حاجةِ الفقراءِ ، وبادرْ بهِ إلى الصرفِ إليهِمْ ، ولا تدَّخرْهُ ، فإنَّ إمساكَهُ ـ ولوْ ليلةً واحدةً ـ فيهِ فتنةٌ واختبارٌ ، فربما يحلو في قلبِكَ فتمسكُهُ ويكونُ فتنةً عليكَ .

وقدْ تصدَّىٰ لخدمةِ الفقراءِ جماعةٌ اتخذوها وسيلةً إلى التوسُّعِ في المالِ ، والتنعُّمِ في المطعمِ والمشربِ ، وذٰلكَ هوَ الهلاكُ ، ومَنْ كانَ غرضُهُ الرفقَ وطلبَ الثوابِ بهِ . . فلهُ أنْ يستقرضَ علىٰ حسنِ الظنِّ باللهِ ، لا على اعتمادِ السلاطينِ الظلمةِ ، فإنْ رزقَهُ اللهُ مِنْ حلالٍ . . قضاهُ ، وإنْ ماتَ قبلَ القضاءِ . . قضاهُ اللهُ تعالىٰ عنهُ وأرضىٰ غرماءَهُ ، وذٰلكَ بشرطِ أنْ يكونَ مكشوفَ الحالِ عندَ مَنْ يقرضُهُ ، فلا يغرُّ المقرضَ ولا يخدعُهُ بالمواعيدِ ، بلْ يكشفُ حالَهُ عندَهُ ؛ ليقدمَ علىٰ إقراضِهِ عنْ بصيرةٍ .

ودينُ مثلِ هٰذا الرجلِ واجبٌ أنْ يُقضىٰ مِنْ مالِ بيتِ المالِ ، ومِنَ الزكواتِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ ، قيلَ : معناهُ : ليبعْ أحدَ ثوبيهِ ، وقيلَ : معناهُ : فليستقرضْ بجاهِهِ ، فذٰلكَ ممَّا قدْ آتاهُ اللهُ[٢]

وقالَ بعضُهُمْ : (للهِ تعالىٰ عبادٌ ينفقونَ علىٰ قدْرِ بضائِعِهِمْ ، وللهِ عبادٌ ينفقونَ علىٰ قدْرِ حسنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ)[٣] .

وماتَ بعضُهُمْ فأوصىٰ بمالِهِ لثلاثِ طوائفَ : الأقوياءُ ، والأسخياءُ ، والأغنياءُ ، فقيلَ مَنْ هٰؤلاءِ ؟ فقالَ : أمَّا الأقوياءُ . . فهمْ أهلُ التوكُّلِ على اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الأسخياءُ . . فهُمْ أهلُ حسنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الأغنياءُ . . فهُمْ أهلُ الانقطاعِ إلى اللهِ تعالىٰ[٤] .

فإذاً ؛ مهما وُجدَتْ هٰذهِ الشروطُ فيهِ وفي المالِ وفي المعطي . . فليأخذْهُ .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٨) ، ورواه الترمذي (٢٣٤١) بنحوه .
(٢) قوت القلوب (٢/١٩٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/١٩٩) .
(٤) قوت القلوب (٢/١٩٩) .

وينبغي أنْ يرىٰ ما يأخذُهُ مِنَ اللهِ لا مِنَ المعطي ، إنَّما المعطي واسطةٌ قدْ سُخِّرَ للعطاءِ ، وهوَ مضطرٌ إليهِ بما سُلِّطَ عليهِ مِنَ الدواعي والإراداتِ والاعتقاداتِ .

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الناسِ دعا شقيقاً في خمسينَ مِنْ أصحابِهِ ، فوضعَ الرجلُ مائدةً حسنةً ، فلمَّا قعدَ . . قالَ لأصحابِهِ : إنَّ هٰذا الرجلَ يقولُ : مَنْ لمْ يرني صنعتُ هٰذا الطعامَ وقدمتُهُ . . فطعامي عليهِ حرامٌ ، فقاموا كلُّهُمْ وخرجوا إلا شاباً منهُمْ كانَ دونَهُمْ في الدرجةِ ، فقالَ صاحبُ المنزلِ لشقيقٍ : ما قصدتَ بهٰذا ؟ قالَ : أردتُ أنْ أختبرَ توحيدَ أصحابي كلِّهِمْ[1]

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ جعلتَ رزقي هٰكذا علىٰ أيدي بني إسرائيلَ ، يغدِّيني هٰذا يوماً ، ويعشِّيني هٰذا ليلةً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ ، هٰكذا أصنعُ بأوليائي ، أجري أرزاقَهُمْ علىٰ أيدي البطَّالينَ مِنْ عبادي ليؤجروا فيهِمْ[2] .

فلا ينبغي أنْ يرى المعطيَ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ مسخَّرٌ مأجورٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لما يرضاهُ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٠٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٠٠) .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة، وآداب الفقير المضطر فيه

اعلمْ : أنَّهُ قدْ وردَتْ مناهٍ كثيرةٌ في السؤالِ وتشديداتٌ ، ووردَ فيهِ أيضاً ما يدلُّ على الرخصةِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للسائلِ حقٌّ وإنْ جاءَ علىٰ فرسٍ »(١)

وفي الحديثِ : « ردُّوا السائلَ ولوْ بظلفٍ محرَّقٍ »(٢)

ولوْ كانَ السؤالُ حراماً مطلقاً . . لما جازَ إعانةُ المعتدي علىٰ عدوانِهِ ، والإعطاءُ إعانةٌ .

فالكاشفُ للغطاءِ فيهِ أنَّ السؤالَ حرامٌ في الأصلِ ، وإنَّما يُباحُ بضرورةٍ أوْ حاجةٍ مهمَّةٍ قريبةٍ مِنَ الضرورةِ ، فإنْ كانَ عنها بدٌّ . . فهوَ حرامٌ .

وإنَّما قلنا : إنَّ الأصلَ فيهِ التحريمُ ؛ لأنَّهُ لا ينفكُّ عنْ ثلاثةِ أمورٍ محرَّمةٍ :

الأوَّلُ : إظهارُ الشكوىٰ من اللهِ تعالىٰ :

إذِ السؤالُ إظهارٌ للفقرِ ، وذكرٌ لقصورِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عنهُ ، وهوَ عينُ الشكوىٰ ، وكما أنَّ العبدَ المملوكَ لوْ سألَ لكانَ سؤالُهُ تشنيعاً علىٰ سيّدِهِ . . فكذٰلكَ سؤالُ العبادِ تشنيعٌ على اللهِ تعالىٰ ، وهٰذا ينبغي أنْ يحرمَ ولا يحلَّ إلا لضرورةٍ كما تحلُّ الميتةُ .

❁ ❁ ❁

والثاني : أنَّ فيهِ إذلالَ السائلِ نفسَهُ لغيرِ اللهِ تعالىٰ :

وليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ لغيرِ اللهِ ، بلْ عليهِ أنْ يذلَّ نفسَهُ لمولاهُ ، فإنَّ فيهِ عزَّهُ ، فأمَّا سائرُ الخلقِ . . فإنَّهُمْ عبادٌ أمثالُهُ ، فلا ينبغي أنْ يذلَّ لهُمْ إلا لضرورةٍ ، وفي السؤالِ ذلٌّ للسائلِ بالإضافةِ إلى المسؤولِ .

❁ ❁ ❁

والثالثُ : أنَّهُ لا ينفكُّ عنْ إيذاءِ المسؤولِ غالباً :

لأنَّهُ ربما لا تسمحُ نفسُهُ بالبذلِ عنْ طيبةِ قلبٍ منهُ ، فإنْ بذلَ حياءً مِنَ السائلِ أوْ رياءً . . فهوَ حرامٌ على الآخذِ ، وإنْ منعَ . . ربما استحيا وتأذَّىٰ في نفسِهِ بالمنعِ ، إذْ يرىٰ نفسَهُ في صورةِ البخلاءِ ، ففي البذلِ نقصانُ مالِهِ ، وفي المنعِ نقصانُ جاهِهِ ، وكلاهما مؤذيانِ ، والسائلُ هوَ السببُ في الإيذاءِ ، والإيذاءُ حرامٌ إلا بضرورةٍ .

❁ ❁ ❁

ومهما فهمتَ هٰذهِ المحذوراتِ الثلاثَ . . فهمتَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **مسألةُ الناسِ مِنَ الفواحشِ ، ما أُحلَّ مِنَ الفواحشِ غيرُها** »(٣) ، فانظرْ كيفَ سمَّاها فاحشةً ، ولا يخفىٰ أنَّ الفاحشةَ إنَّما تُباحُ لضرورةٍ كما يُباحُ شربُ الخمرِ لمَنْ غصَّ بلقمةٍ وهوَ لا يجدُ غيرَهُ .

---

(١) رواه أبو داوود (١٦٦٥) من حديث سيدنا الحسين رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٢/٩٩٦) عن زيد بن أسلم مرسلاً : « أعطوا السائل وإن جاء علىٰ فرس » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/٤٣٥) بلفظه وتمامه ، وبنحوه هو عند أبي داوود (١٦٦٧) ، والترمذي (٦٦٥) ، والنسائي (٥/٨١) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/١٩٣) حيث قال : (وقد روينا في الخبر . . .) وذكره ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/٣٠٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سألَ عنْ غنىً . . فإنَّما يستكثرُ مِنْ جمرِ جهنَّمَ ، ومَنْ سألَ ولهُ ما يغنيهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُهُ عظمٌ يتقعقعُ ، ليسَ عليهِ لحمٌ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « كانَتْ مسألتُهُ خدوشاً وكدوحاً في وجهِهِ »[1] ، وهلذِهِ الألفاظُ صريحةٌ في التحريمِ والتشديدِ .

وبايعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قوماً على الإسلامِ ، فاشترطَ عليهِمُ السمعَ والطاعةَ ، ثمَّ قالَ لهُمْ كلمةً خفيةً : « ولا تسألوا الناسَ شيئاً »[2] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُ كثيراً بالتعفُّفِ عنِ السؤالِ ويقولُ : « مَنْ سألَنا . . أعطيناهُ ، ومَنِ استغنىٰ . . أغناهُ اللهُ »[3] ، وقالَ : « ومَنْ لمْ يسألْنا . . فهوَ أحبُّ إلينا »[4]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « استغنوا عنِ الناسِ ، وما قلَّ مِنَ السؤالِ فهوَ خيرٌ » ، قالوا : ومنكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ومنِّي »[5]

وسمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ سائلاً يسألُ بعدَ المغربِ ، فقالَ لواحدٍ مِنْ قومِهِ : عشِّ الرجلَ ، فعشَّاهُ ، ثمَّ سمعَهُ ثانيةً يسألُ ، فقالَ : ألمْ أقلْ لكَ عشِّ الرجلَ ؟! قالَ : قدْ عشَّيتُهُ ، فنظرَ عمرُ فإذا تحتَ يدِهِ مخلاةٌ مملوءةٌ خبزاً ، فقالَ : لستَ سائلاً ، ولـٰكنَّكَ تاجرٌ ، ثمَّ أخذَ المخلاةَ ونثرَهَا بينَ يدي إبلِ الصدقةِ ، وضربَهُ بالدِّرَّةِ ، وقالَ : لا تعدْ[6] . ولولا أنَّ سؤالَهُ كانَ حراماً . . لما ضربَهُ ولا أخذَ مخلاتَهُ .

ولعلَّ الفقيهَ الضعيفَ المُنَّةِ الضيّقَ الحوصلةِ يستبعدُ هلذا مِنْ فعلِ عمرَ ، ويقولُ : أمَّا ضربُهُ . . فهوَ تأديبٌ ، وقدْ وردَ الشرعُ بالتعزيرِ ، وأمَّا أخذُهُ مالَهُ . . فهوَ مصادرةٌ ، والشرعُ لمْ يردْ بالعقوبةِ بالمالِ ، فكيفَ استجازَهُ ؟

وهوَ استبعادٌ مصدرُهُ القصورُ في الفقهِ ، فأينَ يظهرُ الفقهاءُ كلُّهُمْ في حوصلةِ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ واطلاعِهِ علىٰ أسرارِ دينِ اللهِ ومصالحِ عبادِهِ ؟! أفترىٰ أنَّهُ لمْ يعلمْ أنَّ المصادرةَ بالمالِ غيرُ جائزةٍ ، أوْ علمَ ذٰلكَ ولـٰكنْ أقدمَ عليهِ غضباً في معصيةِ اللهِ وحاشاهُ ، أوْ أرادَ الزجرَ بالمصلحةِ بغيرِ طريقٍ شرعَها نبيُّ اللهِ ؟! وهيهاتَ !! فإنَّ ذٰلكَ أيضاً معصيةٌ .

---

(1) كذا في « القوت » (١٩٣/٢) ، وقد روىٰ أبو داوود (١٦٢٩) من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه مرفوعاً : « من سأل وعنده ما يغنيه . . فإنما يستكثر من النار » ، وعنده أيضاً : « من جمر جهنم » ، وعند البخاري (١٤٧٥) ، ومسلم (١٠٤٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتىٰ يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم » ، وروىٰ أبو داوود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٩٧/٥) ، وابن ماجه (١٨٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من سأل وله ما يغنيه . . جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجهه » .

(2) رواه مسلم (١٠٤٣) .

(3) كذا في « القوت » (١٩٣/٢) ، ورواه النسائي (٩٨/٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه : « من استغنىٰ . . أغناه الله ، ومن استعف . . أعفه الله عز وجل ، ومن استكفىٰ . . كفاه الله عز وجل . . . » الحديث ، ولفظ : « من سألنا . . أعطيناه » عند ابن حبان في « صحيحه » (٣٣٩٨) .

(4) هلذه الرواية رواها ابن أبي الدنيا في « القناعة والتعفف » (٧٦) .

(5) كذا في « القوت » (١٩٣/٢) ، وهو عند أحمد في « المسند » (٤٣٤/٣) من حديث حكيم بن حزام ، ولفظه : « اليد العليا خير من اليد السفلىٰ ، وليبدأ أحدكم بمن يعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً ، ومن يستغن . . يغنه الله ، ومن يستعفف . . يعفه الله » ، فقلت : ومنك يا رسول الله ؟ قال : « ومني » ، وعند البزار في « مسنده » (٤٨٢٤) ، والطبراني في « الكبير » (٤٤٤/١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « استغنوا عن الناس ولو بشوص سواك » .

(6) قوت القلوب (١٩٣/٢) .

بلِ الفقهُ الذي لاحَ لهُ فيهِ أنَّهُ رآهُ مستغنياً عنِ السؤالِ ، وعلمَ أنَّ مَنْ أعطاهُ شيئاً فإنَّما أعطاهُ على اعتقادِ أنَّهُ محتاجٌ ، وقدْ كانَ كاذباً ، فلمْ يدخلْ في ملكِهِ بأخذِهِ معَ التلبيسِ ، وعسرَ تمييزُ ذلكَ وردُّهُ إلىٰ أصحابِهِ ؛ إذْ لا يُعرفُ أصحابُهُ بأعيانِهِمْ ، فبقيَ مالاً لا مالكَ لهُ ، فوجبَ صرفُهُ إلى المصالحِ ، وإبلُ الصدقةِ وعلفُها مِنَ المصالحِ .

ويتنزَّلُ أخذُ السائلِ معَ إظهارِ الحاجةِ كاذباً كأخذِ العلويِّ بقولِهِ : إنِّي علويٌّ وهوَ كاذبٌ ؛ فإنَّهُ لا يملكُ ما يأخذُهُ ، وكأخذِ الصوفيِّ والصالحِ الذي يُعطىٰ لصلاحِهِ وهوَ في الباطنِ مقارفٌ معصيةً لوْ عرفَها المعطي . . لما أعطاهُ ، وقدْ ذكرنا في مواضعَ أنَّ ما أخذوهُ علىٰ هـٰذا الوجهِ لا يملكونَهُ ، وهوَ حرامٌ عليهِمْ ، ويجبُ عليهِمُ الردُّ إلىٰ مالكِهِ ، فاستَدِلَّ بفعلِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ صحَّةِ هـٰذا المعنى الذي يغفُلُ عنهُ كثيرٌ مِنَ الفقهاءِ ، وقدْ قررناهُ في مواضعَ ، ولا تستدلَّ بغفلتِكَ عنْ هـٰذا الفقهِ علىٰ بطلانِ فعلِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ .

فإذا عرفتَ أنَّ السؤالَ يُباحُ لضرورةٍ . . فاعلمْ أنَّ الشيءَ إمَّا أنْ يكونَ مضطراً إليهِ ، أوْ محتاجاً إليهِ حاجةً مهمَّةً ، أوْ حاجةً خفيفةً ، أوْ مستغنىً عنهُ ، فهـٰذهِ أربعةُ أحوالٍ .

أمَّا المضطرُّ إليهِ : فهوَ سؤالُ الجائعِ عندَ خوفِهِ علىٰ نفسِهِ موتاً أوْ مرضاً ، وسؤالُ العاري وبدنُهُ مكشوفٌ ليسَ معهُ ما يواريهِ ، وهوَ مباحٌ مهما وُجِدَتْ بقيَّةُ الشروطِ في المسؤولِ بكونِهِ مباحاً ، والمسؤولِ منهُ بكونِهِ راضياً في الباطنِ ، والسائلِ بكونِهِ عاجزاً عنِ الكسبِ ؛ فإنَّ القادرَ على الكسبِ وهوَ بطَّالٌ ليسَ لهُ السؤالُ إلا إذا استغرقَ طلبُ العلمِ أوقاتَهُ ، وكلُّ مَنْ لهُ خطٌّ فهوَ قادرٌ على الكسبِ بالوراقةِ .

وأمَّا المستغني . . فهوَ الذي يطلبُ شيئاً وعندَهُ مثلُهُ أوْ أمثالُهُ ، فسؤالُهُ حرامٌ قطعاً . وهـٰذانِ طرفانِ واضحانِ .

وأمَّا المحتاجُ حاجةً مهمَّةً : فكالمريضِ الذي يحتاجُ إلىٰ دواءٍ ليسَ يظهرُ خوفُهُ لوْ لمْ يستعملْهُ ولـٰكنَّهُ لا يخلو عنْ خوفٍ ، وكمَنْ لهُ جبَّةٌ ولا قميصَ تحتها في الشتاءِ وهوَ يتأذَّىٰ بالبردِ تأذِّياً لا ينتهي إلىٰ حدِّ الضرورةِ ، وكذٰلكَ مَنْ يسألُ لأجلِ الكراءِ وهوَ قادرٌ على المشيِ بمشقَّةٍ ، فهـٰذا أيضاً ينبغي أنْ تسترسلَ عليهِ الإباحةُ ؛ لأنَّها أيضاً حاجةٌ محقَّقةٌ ، ولـٰكنِ الصبرُ عليهِ أولىٰ ، وهو بالسؤالِ تاركٌ للأولىٰ ، ولا يُسمَّىٰ سؤالُهُ مكروهاً مهما صدقَ في السؤالِ وقالَ : (ليسَ تحتَ جبَّتي قميصٌ ، والبردُ يؤذيني أذىً أطيقُهُ ، ولـٰكنْ يشقُّ عليَّ) ، فإذا صدقَ . . فصدقُهُ يكونُ كفَّارةً لسؤالِهِ إنْ شاءَ اللهُ .

وأمَّا الحاجةُ الخفيفةُ : فمثلُ سؤالِهِ قميصاً ليلبسَهُ فوقَ ثيابِهِ عندَ خروجِهِ فيسترَ الخروقَ التي في ثيابِهِ عنْ أعينِ الناسِ ، وكمَنْ يسألُ لأجلِ الأدمِ وهوَ واجدٌ للخبزِ ، وكمَنْ يسألُ لكراءِ الفرسِ في الطريقِ وهوَ واجدٌ كراءَ الحمارِ ، أوْ يسألُ كراءَ المحملِ وهوَ قادرٌ على الراحلةِ ، فهـٰذا ونحوُهُ إنْ كانَ فيهِ تلبيسُ حالٍ بإظهارِ حاجةٍ غيرِ هـٰذهِ . . فهوَ حرامٌ ، وإنْ لمْ يكنْ وكانَ فيهِ شيءٌ مِنَ المحذوراتِ الثلاثةِ ؛ مِنَ الشكوىٰ ، أوِ الذلِّ ، أوْ إيذاءِ المسؤولِ . . فهوَ حرامٌ ؛ لأنَّ مثلَ هـٰذهِ الحاجةِ لا تصلحُ لأنْ تُباحَ بها هـٰذهِ المحذوراتُ ، وإنْ لمْ يكنْ فيها شيءٌ مِنْ ذٰلكَ . . فهوَ مباحٌ معَ الكراهةِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يمكنُ إخلاءُ السؤالِ عنْ هـٰذهِ المحذوراتِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الشكوىٰ تندفعُ بأنْ يظهرَ الشكرَ للهِ تعالىٰ والاستغناءَ عنِ الخلقِ ، ولا يسألَ سؤالَ محتاجٍ ، ولـٰكنْ يقولُ :

(أنا مستغنٍ بما أملكُهُ ، ولـٰكنْ تطالبُني رعونةُ النفسِ بثوبٍ فوقَ ثيابي ، وهوَ فضلةٌ عنِ الحاجةِ وفضولٌ مِنَ النفسِ) ، فيخرجُ بهِ عنْ حدِّ الشكوىٰ .

وأمَّا الذلُّ . . فأنْ يسألَ أباهُ أوْ قريبَهُ أوْ صديقَهُ الذي يعلمُ أنَّهُ لا ينقصُهُ ذٰلكَ في عينِهِ ، ولا يزدريهِ بسببِ سؤالِهِ ، أوِ الرجلَ السخيَّ الذي قدْ أعدَّ مالَهُ لمثلِ هـٰذهِ المكارمِ ، فيفرحُ بوجودِ مثلِهِ ، ويتقلَّدُ منهُ منَّةً بقبولِهِ ، فيسقطُ عنهُ الذلُّ بذٰلكَ ، فإنَّ الذلَّ لازمٌ للمنَّةِ لا محالةَ .

وأمَّا الإيذاءُ . . فسبيلُ الخلاصِ عنهُ ألا يعيِّنَ شخصاً بالسؤالِ بعينِهِ ، بلْ يلقي الكلامَ عرضاً بحيثُ لا يقدمُ على البذلِ إلا متبرِّعٌ بصدقِ الرغبةِ .

وإنْ كانَ في القومِ شخصٌ مرموقٌ لوْ لمْ يبذلْ لكانَ يُلامُ . . فهـٰذا إيذاءٌ ، فإنَّهُ ربما يبذلُ كُرهاً خوفاً مِنَ الملامةِ ، ويكونُ الأحبُّ إليهِ في الباطنِ الخلاصَ لوْ قدرَ عليهِ مِنْ غيرِ ملامةٍ .

وأمَّا إذا كانَ يسألُ شخصاً معيَّناً . . فينبغي ألا يصرِّحَ ، بلْ يعرِّضُ تعريضاً يُبقي لهُ سبيلاً إلى التغافلِ إنْ أرادَ ، فإذا لمْ يتغافلْ معَ القدرةِ عليهِ . . فذٰلكَ لرغبتِهِ ، وأنَّهُ غيرُ متأذٍّ بهِ .

وينبغي أنْ يسألَ مَنْ لا يستحيي منهُ لوْ ردَّهُ أوْ تغافلَ عنهُ ، فإنَّ الحياءَ مِنَ السائلِ يؤذي ؛ كما أنَّ الرياءَ معَ غيرِ السائلِ يؤذي .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فإذا أخذَ معَ العلمِ بأنَّ باعثَ المعطي هوَ الحياءُ منهُ أوْ مِنَ الحاضرينَ ، ولولاهُ لما ابتدأهُ بهِ . . فهوَ حلالٌ أوْ شبهةٌ ؟

فأقولُ : ذٰلكَ حرامٌ محضٌ لا خلافَ فيهِ بينَ الأمَّةِ ، وحكمُهُ حكمُ أخذِ مالِ الغيرِ بالضربِ والمصادرةِ ، إذْ لا فرقَ بينَ أنْ يضربَ ظاهرَ جلدِهِ بسياطِ الخشبِ ، أوْ يضربَ باطنَ قلبِهِ بسوطِ الحياءِ وخوفِ الملامِ ، وضربُ الباطنِ أشدُّ نكايةً في قلوبِ العقلاءِ ، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ : هوَ في الظاهرِ قدْ رضيَ بهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نحنُ نحكمُ بالظاهرِ واللهُ يتولَّى السرائرَ »[1] ؛ فإنَّ هـٰذهِ ضرورةُ القضاةِ في فصلِ الخصوماتِ ، إذْ لا يمكنُ ردُّهُمْ إلى البواطنِ وقرائنِ الأحوالِ ، فاضطروا إلى الحكمِ بظاهرِ اللسانِ معَ أنَّهُ ترجمانٌ كثيرُ الكذبِ ، ولـٰكنَّ الضرورةَ دعَتْ إليهِ ، وهـٰذا سؤالٌ عمَّا بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، والحاكمُ فيه أحكمُ الحاكمينَ ، والقلوبُ عندَهُ كالألسنةِ عندَ سائرِ الحكَّامِ ، فلا تنظرْ في مثلِ هـٰذا إلا إلىٰ قلبِكَ وإنْ أفتَوكَ وأفتَوكَ ، فإنَّ المفتيَ معلِّمُ القاضيَ والسلطانَ ليحكموا في عالمِ الشهادةِ ، ومفتي القلوبِ هُمْ علماءُ الآخرةِ ، وبفتواهُمُ النجاةُ مِنْ سطوةِ سلطانِ الآخرةِ ، كما أنَّ بفتوى الفقيهِ النجاةَ مِنْ سطوةِ سلطانِ الدنيا .

---

(١) قال الحافظ ابن الملقن في « البدر المنير » (٥٩٠/٩) : (هـٰذا الحديث غريب لا أعلم من خرجه من أصحاب الكتب المعتمدة ولا غيرها ، وسئل عنه حافظ زماننا جمال الدين المزي فقال : لا أعرفه) ، وبوّب الإمام مسلم في « صحيحه » (باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة) وساق حديث أم سلمة رضي الله عنها مرفوعاً (١٧١٣) : « إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه . . . » الحديث ، وروىٰ مسلم (١٠٦٤/١٤٤) ضمن خبر : « إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم . . . » الحديث ، قال الإمام النووي في « شرحه صحيح مسلم » (١٦٣/٧) : (معناه : إني أمرت بالحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص ٩١) .

فإذاً ؛ ما يأخذُهُ معَ الكراهةِ لا يملكُهُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، ويجبُ عليهِ ردُّهُ علىٰ صاحبِهِ ، فإنْ كانَ يستحيي مِنْ أنْ يستردَّهُ ولـمْ يستردُّهُ . . فعليهِ أنْ يثيبَهُ علىٰ ذٰلكَ بما يساوي قيمتَهُ في معرضِ الهديَّةِ والمقابلةِ ، ليتفصَّىٰ عنْ عهدتِهِ ، فإنْ لـمْ يقبلْ هديَّتَهُ . . فعليهِ أنْ يردَّ ذٰلكَ إلىٰ ورثتِهِ ، فإنْ تلفَ في يدِهِ . . فهوَ مضمونٌ عليهِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ عاصٍ بالتصرُّفِ فيهِ ، وبالسؤالِ الذي حصلَ بهِ الأذىٰ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهٰذا أمرٌ باطنٌ يعسرُ الاطلاعُ عليهِ ، فكيفَ السبيلُ فيهِ ؟ فربما يظنُّ السائلُ أنَّهُ راضٍ ولا يكونُ هوَ في الباطنِ راضياً .

فأقولُ : لهٰذا تركَ المتقونَ السؤالَ رأساً ، فما كانوا يأخذونَ مِنْ أحدٍ شيئاً أصلاً ، فكانَ بشرٌ لا يأخذُ مِنْ أحدٍ أصلاً إلا مِنَ السريِّ رحمةُ اللهِ عليهما ، وقالَ : (لأنِّي علمتُ أنَّهُ يفرحُ بخروجِ المالِ مِنْ يدِهِ ، فأنا أعينُهُ علىٰ ما يحبُّهُ)[1] .

وإنَّما عظمَ النكيرُ في السؤالِ وتأكَّدَ الأمرُ بالتعفُّفِ لهٰذا ؛ لأنَّ هٰذا الأذىٰ إنَّما يحلُّ بضرورةٍ ، وهوَ أن يكونَ السائلُ مشرفاً على الهلاكِ ، ولـمْ يبقَ لهُ سبيلٌ إلى الخلاصِ ، ولـمْ يجدْ مَنْ يعطيهِ مِنْ غيرِ كراهةٍ وأذىً ، فيُباحُ لهُ ذٰلكَ كما يُباحُ لهُ أكلُ لحمِ الخنزيرِ وأكلُ لحمِ الميتةِ ، فكانَ الامتناعُ طريقَ الورعينَ .

ومِنْ أربابِ القلوبِ مَنْ كانَ واثقاً ببصيرتِهِ في الاطلاعِ علىٰ قرائنِ الأحوالِ ، فكانوا يأخذونَ مِنْ بعضِ الناسِ دونَ البعضِ ، ومنهُمْ مَنْ كانَ لا يأخذُ إلا مِنْ أصدقائِهِ ، ومنهُمْ مَنْ كانَ يأخذُ ممَّا يعطىٰ بعضاً ويردُّ بعضاً ، كما فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الكبشِ والسمنِ والأقطِ[2] ، وكانَ هٰذا فيما يأتيهِمْ مِنْ غيرِ سؤالٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ لا يكونُ إلا عنْ رغبةٍ ، ولٰكنْ قدْ تكونُ رغبتُهُ طمعاً في جاهٍ ، أوْ طلباً لرياءٍ وسمعةٍ ، فكانوا يحترزونَ مِنْ ذٰلكَ .

فأمَّا السؤالُ . . فقدِ امتنعوا عنهُ رأساً إلا في موضعينِ :

أحدُهُما : **الضرورةُ** : فقدْ سألَ ثلاثةٌ مِنَ الأنبياءِ في موضعِ الضرورةِ ؛ سليمانُ ، وموسىٰ ، والخضرُ عليهِمُ السلامُ ، ولا شكَّ في أنَّهُمْ ما سألوا إلا مَنْ علموا أنَّهُ يرغبُ فيهِمْ .

والثاني : **السؤالُ مِنَ الأصدقاءِ والإخوانِ** : فقدْ كانوا يأخذونَ مالَهُمْ بغيرِ سؤالٍ واستئذانٍ ؛ لأنَّ أربابَ القلوبِ علموا أنَّ المطلوبَ رضا القلبِ لا نطقُ اللسانِ ، وكانوا قدْ وثقوا بإخوانِهِمْ أنَّهُمْ كانوا يفرحونَ بمباسطتِهِمْ ، فإذاً ؛ كانوا يسألونَ الإخوانَ عندَ شكِّهِمْ في اقتدارِ إخوانِهِمْ علىٰ ما يريدونَهُ ، وإلا . . فكانوا يستغنونَ عنِ السؤالِ .

وحدُّ إباحةِ السؤالِ : أنْ تعلمَ أنَّ المسؤولَ بصفةٍ لوْ علمَ ما بكَ مِنَ الحاجةِ . . لابتدأكَ دونَ السؤالِ ، فلا يكونُ لسؤالِكَ تأثيرٌ إلا في تعريفِ حاجتِكَ ، فأمَّا في تحريكِهِ بالحياءِ ، وإثارةِ داعيتِهِ بالحيلِ . . فلا .

ويتصدَّىٰ للسائلِ حالةٌ لا يشكُّ فيها في الرضا بالباطنِ ، وحالةٌ لا يشكُّ في الكراهةِ ، ويعلمُ ذٰلكَ بقرينةِ الأحوالِ ، فالأخذُ في الحالةِ الأولىٰ حلالٌ طلْقٌ ، وفي الثانيةِ حرامٌ سُحْتٌ ، ويتردَّدُ بينَ الحالتينِ أحوالٌ يشكُّ فيها ، فليستفتِ فيها قلبَهُ ، وليتركْ حزَّازَ القلبِ ، فإنَّهُ الإثمُ ، وليدعْ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، وإدراكُ ذٰلكَ بقرائنِ الأحوالِ سهلٌ علىٰ

---

(١) قوت القلوب (١٩٩/٢) .

(٢) روىٰ ذٰلك أحمد في « المسند » (١٧٢/٤) .

مَنْ قويَتْ فطنتُهُ ، وضعفَ حرصُهُ وشهوتُهُ ، فإنْ قويَ الحرْصُ وضعفَتِ الفطنةُ . . تراءَىٰ لهُ ما يوافقُ غرضَهُ ، فلا يتفطَّنُ للقرائنِ الدالَّةِ على الكراهةِ .

وبهٰذهِ الدقائقِ يُطلعُ علىٰ سرِّ قولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجلُ مِنْ كسبِهِ »(١) ، وقدْ أُوتيَ جوامعَ الكلمِ ؛ لأنَّ مَنْ لا كسبَ لهُ ، ولا مالَ ورثَهُ مِنْ كسبِ أبيهِ أوْ أحدِ قرابتِهِ ؛ فيأكلُ مِنْ أيدي الناسِ ، وإنْ أُعطيَ بغيرِ سؤالٍ . . فإنَّما يُعطىٰ بدينِهِ ، ومتىٰ يكونُ باطنُهُ بحيثُ لوِ انكشفَ . . لا يُعطىٰ بدينِهِ ؟! فيكونُ ما يأخذُهُ حراماً ، وإنْ أُعطيَ بسؤالٍ . . فأينَ مَنْ يطيبُ قلبُهُ بالعطاءِ إذا سُئِلَ ؟ وأينَ مَنْ يقتصرُ في السؤالِ علىٰ حدِّ الضرورةِ ؟

فإذا فتَّشتَ أحوالَ مَنْ يأكلُ مِنْ أيدي الناسِ . . علمتَ أنَّ جميعَ ما يأكلُهُ أوْ أكثرَهُ سحتٌ ، وأنَّ الطيِّبَ هوَ الكسبُ الذي اكتسبتَهُ بحلالِكَ أنتَ أوْ مورِّثُكَ .

فإذاً ؛ بعيدٌ أنْ يجتمعَ الورعُ معَ الأكلِ مِنْ أيدي الناسِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يقطعَ طمعَنا عنْ غيرِهِ ، وأنْ يغنيَنا بحلالِهِ عنْ حرامِهِ وبفضلِهِ عمَّنْ سواهُ ، بمنِّهِ وسعةِ جودِهِ ؛ فإنَّهُ علىٰ ما يشاءُ قديرٌ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٤١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/١٠) .

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلمْ : أنَّ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سألَ عنْ ظهرِ غنىً . . فإنَّما يسألُ جمراً ، فليستقلَّ منهُ ، أوْ ليستكثرْ »[١] صريحٌ في التحريمِ ، ولٰكنْ حدُّ الغنىٰ مشكلٌ ، وتقديرُهُ عسيرٌ ، وليسَ إلينا وضعُ المقاديرِ ، بلْ يُستدركُ ذٰلكَ بالتوقيفِ .

وقدْ وردَ في الحديثِ : « استغنوا بغنى اللهِ تعالىٰ عنْ غيرِهِ » ، قالوا : وما هوَ : قالَ : « غداءُ يومٍ وعشاءُ ليلةٍ »[٢]

وفي حديثٍ آخرَ : « مَنْ سألَ ولهُ خمسونَ درهماً أوْ عدلُها مِنَ الذهبِ . . فقدْ سألَ إلحافاً »[٣]

ووردَ في لفظٍ آخرَ : « أربعونَ درهماً »[٤]

ومهما اختلفَتِ التقديراتُ وصحَّتِ الأخبارُ . . فينبغي أنْ يُقطعَ بورودِها علىٰ أحوالٍ مختلفةٍ ، فإنَّ الحقَّ في نفسِهِ لا يكونُ إلا واحداً ، والتقديرُ ممتنعٌ ، وغايةُ الممكنِ فيهِ تقريبٌ ، ولا يتمُّ ذٰلكَ إلا بتقسيمٍ محيطٍ بأحوالِ المحتاجينَ ، فنقولُ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حقَّ لابنِ آدمَ إلا في ثلاثٍ : طعامٌ يقيمُ صلبَهُ ، وثوبٌ يواري عورتَهُ ، وبيتٌ يكنُّهُ ، فما زادَ فهوَ حسابٌ »[٥] ، فلنجعلْ هٰذهِ الثلاثَ أصلاً في الحاجاتِ لبيانِ أجناسِها ، والنظرُ في الأجناسِ والمقاديرِ والأوقاتِ .

فأمَّا الأجناسُ : فهيَ هٰذهِ الثلاثُ ، ويلحقُ بها ما في معناها ، حتَّىٰ يلحقُ بها الكراءُ للمسافرِ إذا كانَ لا يقدرُ على المشيِ ، وكذٰلكَ ما يجري مَجراهُ مِنَ المهمَّاتِ ، ويلحقُ بنفسِهِ عيالُهُ وولدُهُ ، وكلُّ مَنْ تحتَ كفالتِهِ كالدابةِ أيضاً .

وأمَّا المقاديرُ : فالثوبُ يُراعىٰ فيهِ ما يليقُ بذوي الدينِ ، وهوَ ثوبٌ واحدٌ ، وقميصٌ ، ومنديلٌ ، وسراويلُ ، ومداسٌ ، فأمَّا الثاني مِنْ كلِّ جنسٍ . . فهوَ مستغنىً عنهُ ، وليقسْ علىٰ هٰذا أثاثَ البيتِ جميعَهُ .

ولا ينبغي أنْ يطلبَ رقةَ الثيابِ ، وكونَ الأواني مِنَ النحاسِ والصفرِ فيما يكفي فيهِ الخزفُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مستغنىً عنهُ ، فيقتصرُ مِنَ العددِ علىٰ واحدٍ ، ومِنَ النوعِ علىٰ أخسِّ أجناسِهِ ما لمْ يكنْ في غايةِ البعدِ عنِ العادةِ .

وأمَّا الطعامُ . . فقدْرُهُ في اليومِ مدٌّ ، وهوَ ما قدَّرَهُ الشرعُ ، ونوعُهُ ما يُقتاتُ ولوْ كانَ مِنَ الشعيرِ ، والأدمُ على الدوامِ فضلةٌ ، وقطعُهُ بالكلِّيَّةِ إضرارٌ ، ففي طلبِهِ في بعضِ الأحوالِ رخصةٌ

وأمَّا المسكنُ . . فأقلُّهُ ما يجزئُ مِنْ حيثُ المقدارُ ، وذٰلكَ مِنْ غيرِ زينةٍ ، فأمَّا السؤالُ للزينةِ والتوسُّعِ . . فهوَ سؤالٌ عنْ ظهرِ غنىً .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٢٣١) ، وبنحوه أبو داوود (١٦٢٩) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/١٩٣) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٨٠) ، وهو عند أبي داوود (١٦٢٩) ولفظه : « من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار » ، فقالوا : وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة ؟ قال : « قدر ما يغديه ويعشيه » ، وعند أحمد في « المسند » (١/١٤٧) من حديث علي كرم الله وجهه : قالوا : وما ظهر غنىً ؟ قال : « عشاء ليلة » .

(٣) رواه أبو داوود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٥/٩٧) ، وابن ماجه (١٨٤٠) بنحوه .

(٤) رواه أبو داوود (١٦٢٧ ، ١٦٢٨) ، والنسائي (٥/٩٨) .

(٥) قوت القلوب (٢/١٩٨) ، ورواه الترمذي (٢٣٤١) بنحوه .

وأمَّا بالإضافةِ إلى الأوقاتِ : فما يحتاجُ إليهِ في الحالِ مِنَ طعامِ يومٍ وليلةٍ ، وثوبٍ يلبسُهُ ، ومأوىً يكنُّهُ . . فلا شكَّ فيهِ ، فأمَّا سؤالُهُ للمستقبلِ . . فهٰذا لهُ ثلاثُ درجاتٍ :

إحداها : ما يحتاجُ إليهِ في غدٍ .

والثانيةُ : ما يحتاجُ إليهِ في أربعينَ يوماً أوْ خمسينَ يوماً .

والثالثةُ : ما يحتاجُ إليهِ في السنةِ .

ولنقطعْ بأنَّ مَنْ معَهُ ما يكفيهِ لهُ ولعيالِهِ ـ إنْ كانَ لهُ عيالٌ ـ لسنةٍ . . فسؤالُهُ حرامٌ ؛ فإنَّ ذٰلكَ غايةُ الغنىٰ ، وعليهِ يُنزَّلُ التقديرُ بخمسينَ درهماً في الحديثِ ، فإنَّ خمسةَ دنانيرَ تكفي المنفردَ في السنةِ إذا اقتصدَ ، أمَّا المعيلُ . . فربما لا يكفيهِ ذٰلكَ .

وإنْ كانَ يحتاجُ إليهِ قبلَ السنةِ ؛ فإنْ كانَ قادراً على السؤالِ ولا تفوتُهُ فرصتُهُ . . فلا يحلُّ لهُ السؤالُ ؛ لأنَّهُ مستغنٍ في الحالِ ، وربما لا يعيشُ إلى الغدِ ، فيكونُ قدْ سألَ ما لا يحتاجُ ، فيكفيهِ غداءُ يومٍ وعشاءُ ليلةٍ ، وعليهِ يُنزَّلُ الخبرُ الذي وردَ في التقديرِ بهٰذا القدْرِ .

وإنْ كانَ يفوتُهُ فرصةُ السؤالِ ، ولا يجدُ مَنْ يعطيهِ لوْ أخَّرَ . . فيُباحُ لهُ السؤالُ ؛ لأنَّ أملَ البقاءِ سنةً غيرُ بعيدٍ ، فهوَ بتأخيرِ السؤالِ خائفٌ أنْ يبقىٰ مضطراً عاجزاً عمَّا يعينُهُ .

فإنْ كانَ خوفُ العجزِ عنِ السؤالِ في المستقبلِ ضعيفاً ، وكانَ ما لأجلِهِ السؤالُ خارجاً عنْ محلِّ الضرورةِ . . لمْ يخلُ سؤالُهُ عنْ كراهةٍ ، وتكونُ كراهتُهُ بحسَبِ درجاتِ ضعفِ الاضطرارِ وخوفِ الفوتِ وتراخي المدةِ التي فيها يُحتاجُ إلى السؤالِ .

وكلُّ ذٰلكَ لا يقبلُ الضبطَ ، وهوَ منوطٌ باجتهادِ العبدِ ونظرِهِ لنفسِهِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، فيستفتي فيهِ قلبَهُ ، ويعملُ بهِ إنْ كانَ سالكاً طريقَ الآخرةِ ، وكلَّما كانَ يقينُهُ أقوىٰ ، وثقتُهُ بمجيءِ الرزقِ في المستقبلِ أتمَّ ، وقناعتُهُ بقوتِ الوقتِ أظهرَ . . فدرجتُهُ عندَ اللهِ تعالىٰ أعلىٰ[1] ، فلا يكونُ خوفُ الاستقبالِ وقدْ آتاكَ اللهُ قوتَ يومِكَ لكَ ولعيالِكَ إلا مِنْ ضعفِ اليقينِ ، والإصغاءِ إلىٰ تخويفِ الشيطانِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ .

والسؤالُ مِنَ الفحشاءِ التي أُبيحَتْ بالضرورةِ ، وحالُ مَنْ يسألُ لحاجةٍ متراخيةٍ عنْ يومِهِ وإنْ كانَ ممَّا يحتاجُ إليهِ في السنةِ . . أشدُّ مِنْ حالِ مَنْ ملكَ مالاً موروثاً وادَّخرَهُ لحاجةٍ وراءَ السنةِ ، وكلاهما مباحانِ في الفتوى الظاهرةِ ، ولٰكنَّهُما صادرانِ عنْ حبِّ الدنيا وطولِ الأملِ ، وعدمِ الثقةِ بفضْلِ اللهِ ، وهٰذهِ الخصلةُ مِنْ أمَّهاتِ المهلكاتِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

---

(١) وهو داخل في حد قولهم : الصوفي ابن وقته ؛ أي : يقنع بما تيسر له من كل شيء في وقته ، سواء كان قوتاً ظاهرياً أو معنوياً ، ولا يعلق قلبه بما سيأتي . « إتحاف » (٩/٣١١) .

بيان أحوال السائلين

كانَ بشرٌ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (الفقراءُ ثلاثةٌ : فقيرٌ لا يسألُ ، وإنْ أُعطيَ . . لا يأخذُ ، فهٰذا معَ الروحانيينَ في عليينَ ، وفقيرٌ لا يسألُ ، وإنْ أُعطيَ . . أخذَ ، فهٰذا معَ المقرَّبينَ في جناتِ الفردوسِ ، وفقيرٌ يسألُ عندَ فاقتِهِ ، فهٰذا معَ الصادقينَ مِنْ أصحابِ اليمينِ)[1]

فإذاً ؛ قدِ اتفقَ كلُّهُمْ علىٰ ذمِّ السؤالِ ، وعلىٰ أنَّهُ معَ الفاقةِ يحطُّ المرتبةَ والدرجةَ .

وقال إبراهيمُ بنُ أدهمَ لشقيقِ بنِ إبراهيمَ حينَ قدمَ عليهِ مِنْ خراسانَ : كيفَ تركتَ الفقراءَ مِنْ أصحابِكَ ؟ قالَ : تركتُهُمْ إنْ أُعطوا . . شكروا ، وإنْ مُنعوا . . صبروا ، وظنَّ أنَّهُ لمَّا وصفَهُمْ بتركِ السؤالِ فقدْ أثنىٰ عليهِمْ غايةَ الثناءِ ، فقالَ إبراهيمُ : هٰكذا تركتُ كلابَ بلخٍ عندَنا ، فقالَ لهُ شقيقٌ : فكيفَ الفقراءُ عندكَ يا أبا إسحاقَ ؟ فقالَ : الفقراءُ عندَنا إنْ مُنعوا . . شكروا ، وإنْ أُعطوا . . آثروا ، فقبَّلَ رأسَهُ وقالَ : صدقتَ يا أستاذُ[2]

فإذاً ؛ درجاتُ أربابِ الأحوالِ في الرضا والصبرِ والشكرِ والسؤالِ كثيرةٌ ، فلا بدَّ لسالكِ طريقِ الآخرةِ مِنْ معرفتِها ، ومعرفةِ انقسامِها واختلافِ درجاتِها ، فإنَّهُ إذا لمْ يعلمْ . . لمْ يقدرْ على الترقِّي مِنْ حضيضِها إلىٰ يفاعِها ، ومِنْ أسفلِ سافلينَ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، وقدْ خُلِقَ الإنسانُ في أحسنِ تقويمٍ ، ثمَّ رُدَّ إلىٰ أسفلِ سافلينَ ، ثمَّ أُمِرَ أنْ يترقَّىٰ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، ومَنْ لا يميزُ بينَ السفلِ والعلوِ . . لا يقدرُ على الترقِّي قطعاً ، وإنَّما الشكُّ فيمَنْ عرفَ ذٰلكَ ، فإنَّهُ ربما يقدرُ عليهِ[3]

وأربابُ الأحوالِ قدْ تغلبُهُمْ حالةٌ تقتضي أنْ يكونَ السؤالُ مزيداً لهُمْ في درجاتِهِمْ ، ولٰكنْ بالإضافةِ إلىٰ حالِهِمْ ، فإنَّ مثلَ هٰذهِ الأعمالِ بالنياتِ ؛ وذٰلكَ كما رُويَ أنَّ بعضَهُمْ رأىٰ أبا الحسينِ النوريَّ رحمَهُ اللهُ يمدُّ يدَهُ ويسألُ الناسَ في بعضِ المواطنِ ، قالَ : فاستعظمتُ ذٰلكَ واستقبحتُهُ لهُ ، فأتيتُ الجنيدَ رحمهُ اللهُ فأخبرتُهُ ، فقالَ : لا يعظمْ هٰذا عليكَ ؛ فإنَّ النوريَّ لمْ يسألِ الناسَ إلا ليعطيَهُمْ ، وإنَّما سألَهُمْ ليثيبَهُمْ في الآخرةِ فيُؤجرونَ مِنْ حيثُ لا يضرُّهُمْ ـ وكأنَّهُ أشارَ بهِ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدُ المعطي هيَ العليا »[4] ، فقالَ بعضُهُمْ : يدُ المعطي هيَ يدُ الآخذِ للمالِ ؛ لأنَّهُ يعطي الثوابَ ، والقدرُ لهُ لا لما يأخذُهُ ـ ثمَّ قالَ الجنيدُ : هاتِ الميزانَ ، فوزنَ مئةَ درهمٍ ، ثمَّ قبضَ قبضةً فألقاها على المئةِ ، ثمَّ قالَ : احملْها إليهِ ، فقلتُ في نفسي : إنَّما يُوزنُ الشيءُ ليُعرفَ مقدارُهُ ، فكيفَ خلطَ بهِ مجهولاً وهوَ رجلٌ حكيمٌ ؟! واستحييتُ أنْ أسألَهُ ، فذهبتُ بالصرَّةِ إلى النوريِّ ، فقالَ : هاتِ الميزانَ ، فوزن مئةً وقالَ : ردَّها عليهِ ، وقلْ لهُ : أنا لا أقبلُ منكَ شيئاً ، وأخذَ ما زادَ على المئةِ ، قالَ : فزادَ تعجُّبي ، فسألتُهُ ، فقالَ : الجنيدُ رجلٌ حكيمٌ ، يريدُ أنْ يأخذَ الحبلَ بطرفيهِ ، وزنَ المئةَ لنفسِهِ طلباً لثوابِ الآخرةِ ، وطرحَ عليها قبضةً بلا وزنٍ للهِ عزَّ وجلَّ ، فأخذتُ ما كانَ للهِ تباركَ وتعالىٰ ، ورددتُ ما جعلَهُ لنفسِهِ ، قالَ : فرددتُها إلى الجنيدِ ، فبكىٰ وقالَ : أخذَ مالَهُ وردَّ مالَنا ، واللهُ المستعانُ[5]

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٢٥٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٠٤) بنحوه .

(٢) رواه بنحوه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٧/٨) ، وفيهما أنهما اجتمعا في مكة .

(٣) فالترقي تابع للمعرفة والتمييز . « إتحاف » (٣١٢/٩) .

(٤) رواه النسائي (٦١/٥) عن طارق المحاربي رضي الله عنه مرفوعاً .

(٥) رواه أبو طالب المكي في « القوت » (٢٠١/٢) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣١٣/٩) : (فمن كان بهٰذه المثابة من المعرفة والاستشراف على الخواطر كيف لا يكون السؤال مزيداً في درجاته ؟!) .

فانظرِ الآنَ كيفَ صفَتْ قلوبُهُمْ وأحوالُهُمْ ، وكيفَ خلصَتْ للهِ أعمالُهُمْ ، حتَّىٰ كانَ يشاهدُ كلُّ واحدٍ قلبَ صاحبِهِ مِنْ غيرِ مناطقةٍ باللسانِ ، ولـٰكنْ بتشاهدِ القلوبِ وتناجي الأسرارِ ، وذٰلكَ نتيجةُ أكلِ الحلالِ ، وخلوِّ القلبِ عنْ حبِّ الدنيا ، والإقبالِ على اللهِ تعالىٰ بكنهِ الهمَّةِ .

فمَنْ أنكرَ ذٰلكَ قبلَ تجربةِ طريقِهِ . . فهوَ جاهلٌ ؛ كمَنْ ينكرُ مثلاً كونَ الدواءِ مسهلاً قبلَ شربِهِ ، ومَنْ أنكرَهُ بعدَ أنْ طالَ اجتهادُهُ حتَّىٰ بذلَ كنْهَ مجهودِهِ ولمْ يصلْ ، فأنكرَ ذٰلكَ لغيرِهِ . . كانَ كمَنْ شربَ المسهلَ فلمْ يؤثِّرْ في حقِّهِ خاصَّةً لعلَّةٍ في باطنِهِ ، فأخذَ ينكرُ كونَ الدواءِ مسهلاً ، وهـٰذا وإنْ كانَ في الجهلِ دونَ الأوَّلِ ولـٰكنَّهُ ليسَ خالياً عنْ حظٍّ وافٍ مِنَ الجهلِ .

بلِ البصيرُ أحدُ رجلينِ :

إمَّا رجلٌ سلكَ الطريقَ فظهرَ لهُ مثلُ ما ظهرَ لهُمْ ، فهوَ صاحبُ الذوقِ والمعرفةِ ، وقدْ وصلَ إلىٰ عينِ اليقينِ .

وإمَّا رجلٌ لمْ يسلكِ الطريقَ ، أوْ سلكَ ولمْ يصلْ ، ولـٰكنَّهُ آمنَ بذٰلكَ وصدَّقَ بهِ ، فهوَ صاحبُ علم اليقينِ ، وإنْ لمْ يكنْ واصلاً إلىٰ عينِ اليقينِ ، ولعلمِ اليقينِ أيضاً رتبةٌ وإنْ كانَ دونَ عينِ اليقينِ .

ومَنْ خلا عنْ علمِ اليقينِ وعينِ اليقينِ . . فهوَ خارجٌ عنْ زمرةِ المؤمنينَ ، ويُحشرُ يومَ القيامةِ في زمرةِ الجاحدينَ المستكبرينَ ، الذينَ همْ قتلى العقولِ الضعيفةِ وأتباعُ الشياطينِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا مِنَ الراسخينَ في العلمِ ، القائلينَ : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

* * *

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في الزّهد

وفيهِ بيانُ حقيقةِ الزهدِ ، وبيانُ فضيلةِ الزهدِ ، وبيانُ درجاتِ الزهدِ وأقسامِهِ ، وبيانُ تفصيلِ الزهدِ في المطعمِ والملبسِ والمسكنِ والأثاثِ وضروراتِ المعيشةِ ، وبيانُ علامةِ الزهدِ .

بيان حقيقة الزّهد

اعلمْ : أنَّ الزهدَ في الدنيا مقامٌ شريفٌ مِنْ مقاماتِ السالكينَ ، وينتظمُ هـٰذا المقامُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ كسائرِ المقاماتِ ؛ لأنَّ أبوابَ الإيمانِ كلَّها كمَا قالَ السلفُ ترجعُ إلىٰ عقدٍ وقولٍ وعملٍ[1]

وكأنَّ القولَ لظهورِهِ أُقيمَ مقامَ الحالِ ؛ إذْ بهِ يظهرُ الحالُ الباطنُ ، وإلا . . فليسَ القولُ مراداً لعينِهِ ، وإنْ لمْ يكنْ صادراً عنْ حالٍ . . سُمّيَ إسلاماً ولمْ يُسمَّ إيماناً[2] ، والعلمُ هوَ السببُ في الحالِ ، يجري مَجرى المثمرِ ، والعملُ يجري مِنَ الحالِ مَجرى الثمرةِ ، فلنذكرِ الحالَ معَ كلا طرفيهِ مِنَ العلمِ والعملِ .

أمَّا الحالُ :

فنعني بها ما يُسمَّىٰ زهداً ، وهوَ عبارةٌ عنِ انصرافِ الرغبةِ عنِ الشيءِ إلىٰ ما هو خيرٌ منهُ ، فكلُّ مَنْ عدلَ عنْ شيءٍ إلىٰ غيرِهِ بمعاوضةٍ وبيعٍ وغيرِهِ فإنَّما عدلَ عنهُ لرغبتِهِ عنهُ ، وإنَّما عدلَ إلىٰ غيرِهِ لرغبتِهِ في غيرِهِ ، فحالُهُ بالإضافةِ إلى المعدولِ عنهُ يُسمَّىٰ زُهداً ، وبالإضافةِ إلى المعدولِ إليهِ يُسمَّىٰ رغبةً وحبّاً .

فإذاً ؛ يستدعي حالُ الزهدِ : مرغوباً عنهُ ، ومرغوباً فيهِ هوَ خيرٌ مِنَ المرغوبِ عنهُ .

وشرطُ المرغوبِ عنهُ : أنْ يكونَ أيضاً هو مرغوباً فيهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ، فمَنْ رغبَ عمَّا ليسَ مطلوباً في نفسِهِ لا يُسمَّىٰ زاهداً ، إذْ تاركُ الترابِ والحجرِ وما أشبهَهُ لا يُسمَّىٰ زاهداً ، وإنَّما يُسمَّىٰ زاهداً مَنْ تركَ الدراهمَ والدنانيرَ ؛ لأنَّ الترابَ والحجرَ ليسا في مَظِنَّةِ الرغبةِ .

وشرطُ المرغوبِ فيهِ : أنْ يكونَ عندَهُ خيراً مِنَ المرغوبِ عنهُ ، حتَّىٰ تغلبَ هـٰذهِ الرغبةُ ، فالبائعُ لا يقدمُ على البيعِ إلا والمُشترَىٰ عندَهُ خيرٌ مِنَ المبيعِ ، فيكونُ حالُهُ بالإضافةِ إلى المبيعِ زهداً فيهِ ، وبالإضافةِ إلى العوضِ عنهُ رغبةً فيهِ وحبّاً ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ معناهُ : باعوهُ ، فقدْ يُطلقُ الشراءُ بمعنى البيعِ ، ووصفَ إخوةَ يوسفَ بالزهدِ فيهِ إذْ طمعوا أنْ يخلوَ لهُمْ وجهُ أبيهِمْ ، وكانَ ذٰلكَ عندَهُمْ أحبَّ إليهمْ مِنْ يوسفَ ، فباعوهُ طمعاً في العوضِ .

فإذاً ؛ كلُّ مَنْ باعَ الدنيا بالآخرةِ . . فهوَ زاهدٌ في الدنيا ، وكلُّ مَنْ باعَ الآخرةَ بالدنيا . . فهوَ أيضاً زاهدٌ ولـٰكنْ في

---

(١) فالعقد يرجع إلى القلب ، والقول يرجع إلى اللسان ، والعمل يرجع إلى الجوارح . « إتحاف » (٣١٧/٩) .

(٢) فالعلم هو الأصل الذي هو عقد من عقود الإيمان بالله أو لله ، والحال ما ينشأ عنه من المواجيد ، والعمل هو ما تنشئه المواجيد على القلوب والجوارح من الأعمال . « إتحاف » (٣١٧/٩)

الأخرةِ ، ولٰكنَّ العادةَ جاريةٌ بتخصيصِ اسمِ الزهدِ بمَنْ يزهدُ في الدنيا ، كما خُصِّصَ اسمُ الإلحادِ بمَنْ يميلُ إلى الباطلِ خاصَّةً وإنْ كانَ هوَ للميلِ في وضعِ اللسانِ .

ولمَّا كانَ الزهدُ رغبةً عنْ محبوبٍ بالجملةِ . . لمْ يُتصوَّرْ إلا بالعدولِ إلىٰ شيءٍ هوَ أحبُّ منهُ ، وإلا . . فتركُ المحبوبِ بغيرِ الأحبِّ محالٌ [١]

والذي يرغبُ عنْ كلِّ ما سوى اللهِ حتَّى الفراديسِ ، ولا يحبُّ إلا اللهَ تعالىٰ . . فهوَ الزاهدُ المطلقُ .

والذي يرغبُ عنْ كلِّ حظٍّ يُنالُ في الدنيا ، ولمْ يزهدْ في مثلِ تلكَ الحظوظِ في الآخرةِ ، بلْ طمعَ في الحورِ والقصورِ ، والأنهارِ والفواكهِ . . فهوَ أيضاً زاهدٌ ، ولٰكنَّهُ دونَ الأوَّلِ .

والذي يتركُ مِنْ حظوظِ الدنيا البعضَ دونَ البعضِ ؛ كالذي يتركُ المالَ دونَ الجاهِ ، أوْ يتركُ التوسُّعَ في الأكلِ ولا يتركُ التجمُّلَ في الزينةِ . . فلا يستحقُّ اسمَ الزاهدِ مطلقاً ، ودرجتُهُ في الزهَّادِ درجةُ مَنْ يتوبُ عنْ بعضِ المعاصي في التائبينَ ، وهوَ زهدٌ صحيحٌ ؛ كما أنَّ التوبةَ عنْ بعضِ المعاصي صحيحةٌ ؛ فإنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ تركِ المحظوراتِ ، والزهدُ عبارةٌ عنْ تركِ المباحاتِ التي هيَ حظُّ النفسِ ، ولا يبعدُ أنْ يقدرَ علىٰ تركِ بعضِ المباحاتِ دونَ بعضٍ ، كما لا يبعدُ ذٰلكَ في المحظوراتِ ، والمقتصرُ علىٰ تركِ المحظوراتِ لا يُسمَّىٰ زاهداً وإنْ كانَ قدْ زهدَ في المحظورِ وانصرفَ عنهُ ، ولٰكنَّ العادةَ تخصِّصُ هٰذا الاسمَ بتركِ المباحاتِ .

فإذاً ؛ الزهدُ عبارةٌ عنْ رغبتِهِ عنِ الدنيا عدولاً إلى الآخرةِ ، أوْ عنْ غيرِ اللهِ تعالىٰ عدولاً إلى اللهِ تعالىٰ ، وهيَ الدرجةُ العليا .

وكما يُشترطُ في المرغوبِ فيهِ أنْ يكونَ خيراً عندَهُ . . فيُشترطُ في المرغوبِ عنهُ أنْ يكونَ مقدوراً عليهِ ، فإنَّ تركَ ما لا يُقدرُ عليهِ محالٌ ، وبالتركِ يتبيَّنُ زوالُ الرغبةِ ، ولذٰلكَ قيلَ لابنِ المباركِ : يا زاهدُ ، فقالَ : الزاهدُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ؛ إذْ جاءَتْهُ الدنيا راغمةً فتركَها ، وأمَّا أنا . . ففيماذا زهدتُ ؟ [٢]

وأمَّا العلمُ الذي هو مثمرٌ لهٰذهِ الحالِ :

فهوَ العلمُ بكونِ المتروكِ حقيراً بالإضافةِ إلى المأخوذِ ؛ كعلمِ التاجرِ بأنَّ العوضَ خيرٌ مِنَ المبيعِ ، فيرغبُ فيهِ ، وما لمْ يتحقَّقْ هٰذا العلمُ . . لا يُتصوَّرُ أنْ تزولَ الرغبةُ عنِ المبيعِ ؛ فكذٰلكَ مَنْ عرفَ أنَّ ما عندَ اللهِ باقٍ وأنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ ؛ أيْ : لذَّاتُها خيرٌ في نفسِها وأبقىٰ ، كما يكونُ الجوهرُ خيراً مِنَ الثلجِ مثلاً ، وهيَ أبقىٰ كما يكونُ الجوهرُ أبقىٰ مِنَ الثلجِ ، ولا يعسرُ علىٰ مالكِ الثلجِ بيعُهُ بالجواهرِ واللآلئِ ، فهٰكذا مثالُ الدنيا والآخرةِ ، فالدنيا كالثلجِ الموضوعِ في الشمسِ لا يزالُ في الذوبانِ إلى الانقراضِ ، والآخرةُ كالجوهرِ الذي لا فناءَ لهُ .

فبقدْرِ قوَّةِ اليقينِ والمعرفةِ بالتفاوتِ بينَ الدنيا والآخرةِ تقوى الرغبةُ في البيعِ والمعاملةِ ، حتَّىٰ إنَّ مَنْ قويَ يقينُهُ

---

(١) وبهٰذا يفارق الفقر ؛ فإن حقيقة الفقر الفقد والاحتياج . « إتحاف » (٩/٣١٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٤٩) ، وهو عند صاحب « القوت » (١/٢٤٩) . وقد روي في هٰذا الباب عن الشريف محسن بن علوي السقاف (ت ١٢٩١ هـ) لما سمع أحدهم ـ ممن لا يملك من الدنيا شيئاً ـ يقول للدنيا : (**طلقتك ثلاثاً !!**) . . فقال له : (إنك لم تطلق الدنيا ، بل الدنيا طلقتك) .

يبيعُ نفسَهُ ومالَهُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ صفقتَهُمْ رابحةٌ فقالَ : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ .

فليسَ يحتاجُ مِنَ العلمِ في الزهدِ إلا إلىٰ هـٰذا القدْرِ ، وهوَ أنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ ، وقدْ يعلمُ ذٰلكَ مَنْ لا يقدرُ علىٰ تركِ الدنيا ؛ إمَّا لضعفِ علمِهِ ويقينِهِ ، وإمَّا لاستيلاءِ الشهوةِ في الحالِ عليهِ ، وكونِهِ مقهوراً في يدِ الشيطانِ ، وإمَّا لاغترارِهِ بمواعيدِ الشيطانِ في التسويفِ يوماً بعد يومٍ إلىٰ أنْ يختطفَهُ الموتُ ، ولا يبقىٰ معَهُ إلا الحسرةُ بعدَ الفوتِ .

وإلىٰ تعريفِ خساسةِ الدنيا الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ ، وإلىٰ تعريفِ نفاسةِ الآخرةِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ، فنبَّهَ علىٰ أنَّ العلمَ بنفاسةِ الجوهرِ هوَ المرغِّبُ عنْ عوضِهِ .

ولمَّا لمْ يُتصوَّرِ الزهدُ إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ عنْ محبوبٍ في أحبَّ منهُ . . قالَ رجلٌ في دعائِهِ : اللهمَّ أرني الدنيا كما تراها ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تقلْ هـٰكذا ، ولـٰكنْ قلْ : أرني الدنيا كما أريتَها الصالحينَ منْ عبادِكَ »[1] ، وهـٰذا لأنَّ اللهَ تعالىٰ يراها حقيرةً كما هيَ ، وكلُّ مخلوقٍ فهوَ بالإضافةِ إلىٰ جلالِهِ حقيرٌ ، والعبدُ يراها حقيرةً في حقِّ نفسِهِ بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ خيرٌ لهُ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يرىٰ بائعُ الفرسِ وإنْ رغبَ عنْ فرسِهِ كما يرىٰ حشراتِ الأرضِ مثلاً[2] ؛ لأنَّهُ مستغنٍ عنِ الحشراتِ أصلاً ، وليسَ مستغنياً عنِ الفرسِ ، واللهُ تعالىٰ غنيٌّ بذاتِهِ عنْ كلِّ ما سواهُ ، فيرى الكلَّ في درجةٍ واحدةٍ بالإضافةِ إلىٰ جلالِهِ ، ويراها متفاوتةً بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ، والزاهدُ هوَ الذي يرىٰ تفاوتَهُ بالإضافةِ إلىٰ نفسِهِ لا إلىٰ غيرِهِ .

وأمَّا العملُ الصادرُ عنْ حالِ الزهدِ :

فهوَ تركٌ وأخذٌ ؛ لأنَّهُ بيعٌ ، ومعاملةٌ ، واستبدالُ الذي هوَ خيرٌ بالذي هوَ أدنىٰ ، فكما أنَّ العملَ الصادرَ عنْ عقدِ البيعِ هوَ تركُ المبيعِ وإخراجُهُ مِنَ اليدِ وأخذُ العوضِ . . فكذٰلكَ الزهدُ يوجبُ تركَ المزهودِ فيهِ بالكلِّيَّةِ ؛ وهيَ الدنيا بأسرِها ، معَ أسبابِها ومقدماتِها وعلائقِها ، فيخرجُ مِنَ القلبِ حبَّها ، ويدخلُ حبَّ الطاعاتِ ، ويخرجُ من اليدِ والعينِ ما أخرجَهُ مِنَ القلبِ ، ويوظِّفُ على اليدِ والعينِ وسائرِ الجوارحِ وظائفَ الطاعاتِ ، وإلا كانَ كمَنْ سلَّمَ المبيعَ ولمْ يأخذِ الثمنَ .

فإذا وفَّىٰ بشرطِ الجانبينِ في الأخذِ والتركِ . . فليستبشرْ ببيعِهِ الذي بايعَ بهِ ، فإنَّ الذي بايعَهُ بهـٰذا البيعِ وفَّىٰ بالعهدِ ، فمَنْ أسلمَ حاضراً في غائبٍ ، وسلَّمَ الحاضرَ وأخذَ يسعىٰ في طلبِ الغائبِ . . سُلِّمَ إليهِ الغائبُ حينَ فراغِهِ مِنْ سعيِهِ إنْ كانَ العاقدُ ممَّنْ يُوثَقُ بصدقِهِ وقدرتِهِ ووفائِهِ بالعهدِ .

وما دامَ ممسكاً للدنيا . . لا يصحُّ زهدُهُ أصلاً ، ولذٰلكَ لمْ يصفِ اللهُ تعالىٰ إخوةَ يوسفَ بالزهدِ في بنيامينَ ، وإنْ كانوا قدْ قالوا : ليوسفُ وأخوهُ أحبُّ إلىٰ أبينا منَّا ، وعزموا علىٰ إبعادِهِ كما عزموا علىٰ يوسفَ حتَّىٰ تشفَّعَ فيهِ أحدُهُمْ فتُرِكَ[3] ، ولا وصفَهُمْ أيضاً بالزهدِ في يوسفَ عندَ العزمِ علىٰ إخراجِهِ ، بلْ عندَ التسليمِ والبيعِ

---

(1) كذا في « القوت » (١٢٥٣/) ، والخبر رواه ابن فضيل في « الدعاء » (٢) عن أبي الغصين الطائي ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (١٩١٠) عن أبي العصير الكناني .

(2) كذا في (ب) ، وفي باقي النسخ : (أن يرىٰ بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه . . .)

(3) وهو يهوذا ، فشفع فيه ورحمه ومنعه ، وكان شديداً بينهم منيعاً مهيباً فيهم ، وقد قيل في السير : (إن أخاهم الأكبر روبيل هو استوهبه منهم) . « إتحاف » (٣٢١/٩) نقلاً عن « القوت » (٢٤٨/١) .

فعلامةُ الرغبةِ الإمساكُ ، وعلامةُ الزهدِ الإخراجُ ، فإنْ أخرجتَ عنِ اليدِ بعضَ الدنيا دونَ البعضِ . . فأنتَ زاهدٌ فيما أخرجتَ فقطْ ، ولستَ زاهداً مطلقاً ، وإنْ لمْ يكنْ لكَ مالٌ ولمْ تساعدْكَ الدنيا . . لمْ يُتصوَّرْ منكَ الزهدُ ؛ لأنَّ ما لا يُقدرُ عليهِ لا يُقدرُ علىٰ تركِهِ ، وربما يستهويكَ الشيطانُ بغرورِهِ ، ويخيِّلُ إليكَ أنَّ الدنيا وإنْ لمْ تأتِكَ فأنتَ زاهدٌ فيها ، فلا ينبغي أنْ تتدلَّىٰ بحبلِ غرورِهِ دونَ أنْ تستوثقَ وتستظهرَ بموثقٍ غليظٍ مِنَ اللهِ ؛ فإنَّكَ إذا لمْ تجرِّبْ حالَ القدرةِ . . فلا تثقْ بالقدرةِ على التركِ عندَها ، فكمْ مِنْ ظانٍّ بنفسِهِ كراهةَ المعاصي عندَ تعذُّرِها ، فلمَّا تيسَّرَتْ لهُ أسبابُها مِنْ غيرِ مكدِّرٍ ولا خوفٍ مِنَ الخلقِ . . وقعَ فيها ، وإذا كانَ هـٰذا غرورَ النفسِ في المحظوراتِ . . فإيَّاكَ أنْ تثقَ بوعدِها في المباحاتِ .

والموثقُ الغليظُ الذي تأخذُهُ عليها : أنْ تجرِّبَها مرَّةً بعدَ مرَّةٍ في حالِ القدرةِ ، فإذا وفَّتْ بما وعدَتْ على الدوامِ معَ انتفاءِ الصوارفِ والأعذارِ ظاهراً وباطناً . . فلا بأسَ أنْ تثقَ بها وثوقاً ما ، ولـٰكنْ تكونُ مِنْ تغيُّرِها أيضاً علىٰ حذرٍ ؛ فإنَّها سريعةُ النقضِ للعهدِ ، قريبةُ الرجوعِ إلىٰ مقتضى الطبعِ .

وبالجملةِ : فلا أمانَ منها إلا عندَ التركِ بالإضافةِ إلىٰ ما تُركَ فقطْ ، وذٰلكَ عندَ القدرةِ ، قالَ ابنُ أبي ليلىٰ لابنِ شبرمةَ : ألا ترىٰ إلىٰ هـٰذا ابنِ الحائكِ ، لا نفتي في مسألةٍ إلا ردَّ علينا !! يعني أبا حنيفةَ ، فقالَ ابنُ شبرمةَ : لا أدري أهوَ ابنُ الحائكِ أمْ ما هوَ ، لـٰكنْ أعلمُ أنَّ الدنيا غدَتْ إليهِ فهربَ منها ، وهربَتْ منَّا فطلبناها[1]

ولذٰلكَ قالَ جميعُ المسلمينَ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّا نحبُّ ربَّنا ، ولوْ علمنا في أيِّ شيءٍ محبَّتُهُ . . لفعلناهُ ، حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ ، قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتَ منهُمْ » أي : مِنَ القليلِ ، قالَ : (وما عرفتُ أنَّ فينا مَنْ يحبُّ الدنيا حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْءَاخِرَةَ ﴾)[2]

واعلمْ : أنَّهُ ليسَ مِنَ الزهدِ تركُ المالِ وبذلُهُ علىٰ سبيلِ السخاءِ والفتوَّةِ ، وعلىٰ سبيلِ استمالةِ القلوبِ ، ولا علىٰ سبيلِ الطمعِ ، فذٰلكَ كلُّهُ مِنْ محاسنِ العاداتِ ، ولـٰكنْ لا مدخلَ لشيءٍ منهُ في العباداتِ ، وإنَّما الزهدُ أنْ تتركَ الدنيا لعلمِكَ بحقارتِها بالإضافةِ إلىٰ نفاسةِ الآخرةِ ، فأمَّا كلُّ نوعٍ مِنَ التركِ . . فإنَّهُ يُتصوَّرُ ممَّنْ لا يؤمنُ بالآخرةِ ، فذٰلكَ قدْ يكونُ مروءةً وفتوَّةً وسخاءً وحسنَ خلقٍ ، ولـٰكنْ لا يكونُ زهداً ؛ إذْ حسنُ الذكرِ وميلُ القلوبِ مِنْ حظوظِ العاجلةِ ، وهيَ ألذُّ وأهنأُ مِنَ المالِ ، وكما أنَّ تركَ المالِ علىٰ سبيلِ السلمِ طمعاً في العوضِ ليسَ مِنَ الزهدِ . . فكذٰلكَ تركُهُ طمعاً في الذكرِ والثناءِ والاشتهارِ بالفتوةِ والسخاءِ ، أوِ استثقالاً لهُ لما في حفظِ المالِ مِنَ المشقَّةِ والعناءِ ، والحاجةِ إلى التذلُّلِ للسلاطينِ والأغنياءِ . . ليسَ مِنَ الزهدِ أصلاً ، بلْ هوَ استعجالُ حظٍّ آخرَ للنفسِ .

---

(١) أورده الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » (٢/٣٣٥) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٩/٣٢٢) : (فإن كلاً منهما تولىٰ قضاء الكوفة ، وأباها الإمام وضرب وامتحن لذٰلك ، ولقد أنصف ابن شبرمة في جوابه ، وأما ابن أبي ليلىٰ . . فكان يحسد الإمام دائماً ويعاديه لما يرىٰ له من القدر والمنزلة عند الخاص والعام ، سامح الله عن الجميع وجعلهم إخواناً علىٰ سرر متقابلين) .

(٢) روى الترمذي (٣٣٠٩) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله . . لعملناه ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، وقول ابن مسعود رضي الله عنه : (وما عرفت أن فينا من يحب . . .) رواه أحمد في « المسند » (١/٤٦٣) ، والطبري في « تفسيره » (٣/٤/١٦٤) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٣٣٠) .

بلِ الزاهدُ مَنْ أتتْهُ الدنيا راغمةً عفواً صفواً وهوَ قادرٌ على التنعُّمِ بها مِنْ غيرِ نقصانِ جاهٍ وقبحِ اسمٍ ولا فواتِ حظٍّ للنفسِ ، فتركَها خوفاً مِنْ أنْ يأنسَ بها ، فيكونَ آنساً بغيرِ اللهِ ، ومحبّاً لما سوى اللهِ ، ويكونَ مشركاً في حبِّ اللهِ تعالىٰ غيرَهُ ، أوْ تركَها طمعاً في ثوابِ اللهِ في الآخرةِ ، فتركَ التمتُّعَ بأشربةِ الدنيا طمعاً في أشربةِ الجنَّةِ ، وتركَ التمتُّعَ بالسراري والنسوانِ طمعاً في الحورِ العينِ ، وتركَ التفرُّجَ في البساتينِ طمعاً في بساتينِ الجنةِ وأشجارِها ، وتركَ التزيُّنَ والتجمُّلَ بزينةِ الدنيا طمعاً في زينةِ الجنَّةِ ، وتركَ المطاعمَ اللذيذةَ طمعاً في فواكهِ الجنَّةِ ، وخوفاً مِنْ أنْ يُقالَ لهُ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، فآثرَ في جميعِ ذٰلكَ ما وُعِدَ بهِ في الجنَّةِ علىٰ ما تيسَّرَ لهُ في الدنيا عفواً صفواً ؛ لعلمِهِ بأنَّ ما في الآخرةِ خيرٌ وأبقىٰ ، وأنَّ ما سوىٰ هٰذا فمعاملاتٌ دنيويَّةٌ لا جدوىٰ لها في الآخرةِ أصلاً .

❋ ❋ ❋

بيان فضيلة الزهد

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ... ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ ﴾ [1] ، فنسبَ الزهدَ إلى العلماءِ ، ووصفَ أهلَهُ بالعلمِ ، وهوَ غايةُ الثناءِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ ، وجاءَ في التفسيرِ : على الزهدِ في الدنيا [2]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، قيلَ : معناهُ : أَيُّهُمْ أزهدُ فيها [3] ، فوصفَ الزهدَ بأنَّهُ مِنْ أحسنِ الأعمالِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ، فوصفَ الكفارَ بذلكَ ، فمفهومُهُ أنَّ المؤمنَ هوَ الذي يتصفُ بنقيضِهِ ، وهوَ أنْ يستحبَّ الآخرةَ على الحياةِ الدنيا .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الأخبارُ :

فما وردَ منها في ذمِّ الدنيا كثيرٌ ، وقدْ أوردنا بعضَها في كتابِ ذمِّ الدنيا مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، إذْ حبُّ الدنيا مِنَ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نقتصرُ علىٰ فضيلةِ بغضِ الدنيا ؛ فإنَّهُ مِنَ المنجياتِ ، وهوَ المعنيُّ بالزهدِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ وهمُّهُ الدنيا . . شتَّتَ اللهُ عليهِ أمرَهُ ، وفرَّقَ عليهِ ضيعتَهُ ، وجعلَ فقرَهُ بينَ عينيهِ ، ولمْ يأتِهِ مِنَ الدنيا إلا ما كُتِبَ لهُ ، ومَنْ أصبحَ وهمُّهُ الآخرةُ . . جمعَ اللهُ لهُ همَّهُ ، وحفظَ عليهِ ضيعتَهُ ، وجعلَ غناهُ في قلبِهِ ، وأتتْهُ الدنيا وهيَ راغمةٌ » [4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا رأيتُمُ العبدَ قدْ أُعطيَ صمتاً وزهداً في الدنيا . . فاقتربوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلَقَّى الحكمةَ » [5]

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، ولذلكَ قيلَ : (مَنْ زهدَ في الدنيا أربعينَ يوماً . . أجرى اللهُ تعالىٰ ينابيعَ الحكمةِ في قلبِهِ ، وأنطقَ بها لسانَهُ) [6]

---

(١) والآيتان بتمامهما : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ .

(٢) قوت القلوب (١/٢٤٢) .

(٣) قوت القلوب (١/٢٤٢) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، وابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه .

(٥) رواه ابن ماجه (٤١٠١) .

(٦) تقدم بلفظ : « من أكل الحلال أربعين يوماً . . . » ، وهو ما أورده صاحب « القوت » (٢/٢٨٧) ، وبلفظه هنا عند ابن عدي في « الكامل » (٥/٣٠٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً .

وعنْ بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ قالَ : « كلُّ مؤمنٍ مخمومِ القلبِ صدوقِ اللسانِ » ، قلنا : يا رسولَ اللهِ ، وما مخمومُ القلبِ ؟ قالَ : « التقيُّ النقيُّ الذي لا غلَّ فيهِ ولا غشَّ ولا بغيَ ولا حسدَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ فمَنْ علىٰ أثرِهِ ؟ قالَ : « الذي يشنأُ الدنيا ويحبُّ الآخرةَ »[1] ، ومفهومُ هـٰذا : أنَّ شرَّ الناسِ الذي يحبُّ الدنيا .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنْ أردتَ أنْ يحبَّكَ اللهُ . . فازهدْ في الدنيا »[2] ، فجعلَ الزهدَ سبباً للمحبةِ ، فمَنْ أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ . . فهوَ في أعلى الدرجاتِ ، فينبغي أنْ يكونَ الزهدُ في الدنيا مِنْ أفضلِ المقاماتِ ، ومفهومُهُ أيضاً : أنَّ محبَّ الدنيا متعرِّضٌ لبغضِ اللهِ تعالىٰ .

وفي خبرٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : (الزهدُ والورعُ يجولانِ في القلوبِ كلَّ ليلةٍ ، فإنْ صادفا قلباً فيهِ الإيمانُ والحياءُ . . أقاما فيهِ ، وإلا . . ارتحلا)[3]

ولمَّا قالَ حارثةُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنا مؤمنٌ حقّاً . . قالَ : « وما حقيقةُ إيمانِكَ ؟ » قالَ : عزفَتْ نفسي عنِ الدنيا ، فاستوىٰ عندي حجرُها وذهبُها ، وكأنِّي بالجنَّةِ والنارِ ، وكأنِّي بعرشِ ربِّي بارزاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرفتَ فالزمْ ، عبدٌ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ بالإيمانِ »[4] ، فانظرْ كيفَ بدأَ في إظهارِ حقيقةِ الإيمانِ بعزوفِ النفسِ عنِ الدنيا ، وقرنَهُ باليقينِ ، وكيفَ زكَّاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « عبدٌ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ بالإيمانِ » .

ولمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ معنى الشرحِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ ، وقيلَ لهُ : ما هـٰذا الشرحُ ؟ قالَ : « إنَّ النورَ إذا دخلَ القلبَ . . انشرحَ لهُ الصدرُ وانفسحَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وهلْ لذٰلكَ مِنْ علامةٍ ؟ قالَ : « نعم ، التجافي عنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »[5] ، فانظرْ كيفَ جعلَ الزهدَ شرطاً للإسلامِ ، وهوَ التجافي عنْ دارِ الغرورِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استحيوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ » ، قالوا : إنَّا لنستحيي منهُ تعالىٰ ، فقالَ : « ليسَ كذٰلكَ ، تبنونَ ما لا تسكنونَ ، وتجمعونَ ما لا تأكلونَ !! »[6] ، فبيَّنَ أنَّ ذٰلكَ يناقضُ الحياءَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ولمَّا قدمَ عليهِ بعضُ الوفودِ . . قالوا : إنَّا مؤمنونَ ، قالَ : « وما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ » فذكروا الصبرَ عندَ البلاءِ ، والشكرَ عندَ الرخاءِ ، والرضا بمواقعِ القضاءِ ، وتركَ الشماتةِ بالمصيبةِ إذا نزلَتْ بالأعداءِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنْ كنتُمْ كذٰلكَ . . فلا تجمعوا ما لا تأكلونَ ، ولا تبنوا ما لا تسكنونَ ، ولا تنافسوا فيما عنهُ ترحلونَ »[7] ، فجعلَ الزهدَ تكملةً لإيمانِهِمْ .

وقالَ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ : خطبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « مَنْ جاءَ بلا إلـٰهَ إلا اللهُ لا يخلطُ معَها

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٥) بتمامه ، وصدره عند ابن ماجه (٤٢١٦) .

(٢) رواه ابن ماجه بنحوه (٤١٠٢) عن سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما .

(٣) كذا في « القوت » (٢٥٠/١) حيث قال : (وروينا في ذٰلك حديثاً من طريق أهل البيت . . .) وذكره ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٨١/٣) عن محمد بن علي بن الحسين بن علي يقول : (الغنىٰ والعز يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلىٰ مكان فيه التوكل . . أوطناه) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١٤) ، والبزار في « مسنده » (٦٩٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٦٦/٣) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٧٧٧/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٠٧ ـ ١٠١٠٨) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١١/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

(٦) رواه الطبراني في « الكبير » (١٧٢/٢٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٩٧/٧) عن أم الوليد بنت عمر .

(٧) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩٧/٤١) من حديث سويد بن الحارث .

غيرَها . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ » ، فقامَ إليهِ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ، ما لا يُخلطُ بها غيرُها صفْهُ لنا ، فسِّرْهُ لنا ، فقالَ : « حبُّ الدنيا طلباً لها واتباعاً لها ، وقومٌ يقولونَ قولَ الأنبياءِ ويعملونَ أعمالَ الجبابرةِ ، فمَنْ جاءَ بلا إلـٰهَ إلا اللهُ ليسَ فيها شيءٌ مِنْ هـٰذا . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ »(1)

وفي الخبرِ : « السخاءُ مِنَ اليقينِ ، ولا يدخلُ النارَ موقنٌ ، والبخلُ مِنَ الشكِّ ، ولا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ شكَّ »(2)

وقالَ أيضاً : « السخيُّ قريبٌ مِنَ اللهِ ، قريبٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ الجنَّةِ ، والبخيلُ بعيدٌ مِنَ اللهِ ، بعيدٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ النارِ »(3) ، والبخلُ ثمرةُ الرغبةِ في الدنيا ، والسخاءُ ثمرةُ الزهدِ ، والثناءُ على الثمرةِ ثناءٌ على المثمرِ لا محالةَ .

وروى ابنُ المسيَّبِ عنْ أبي ذرٍّ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ زهدَ في الدنيا . . أدخلَ اللهُ الحكمةَ قلبَهُ ، فأنطقَ بها لسانَهُ ، وعرَّفَهُ داءَ الدنيا ودواءَها ، وأخرجَهُ منها سالماً إلىٰ دارِ السلامِ »(4)

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ في أصحابِهِ بعشارٍ مِنَ النوقِ حُفَّلٍ ؛ وهيَ الحواملُ ، وكانَتْ مِنْ أحبِّ أموالِهِمْ إليهِمْ وأنفسِها عندَهُمْ ؛ لأنَّها تجمعُ الظهرَ واللحمَ واللبنَ والوبرَ ، ولعظمِها في قلوبِهِمْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ ، قالَ : فأعرضَ عنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وغضَّ بصرَهُ ، فقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذهِ أنفسُ أموالِنا ، لِمَ لا تنظرُ إليها ؟ فقالَ : قدْ نهاني اللهُ تعالىٰ عنْ ذٰلكَ ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ . . . ﴾ الآيةَ(5)

وروىٰ مسروقٌ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا تستطعمُ اللهَ فيطعمَكَ ؟ قالَتْ : وبكيتُ لما رأيتُ بهِ مِنَ الجوعِ ، فقالَ : « يا عائشةُ ؛ والذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ سألْتُ ربِّي أنْ يجريَ معيَ جبالَ الدنيا ذهباً . . لأجراها حيثُ شئتُ مِنَ الأرضِ ، ولـٰكنْ اخترتُ جوعَ الدنيا علىٰ شبعِها ، وفقرَ الدنيا علىٰ غناها ، وحزنَ الدنيا علىٰ فرحِها ، يا عائشةُ ؛ إنَّ الدنيا لا تنبغي لمحمدٍ ولا لآلِ محمدٍ ، يا عائشةُ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يرضَ لأولي العزمِ مِنَ الرسلِ إلا الصبرَ علىٰ مكروهِ الدنيا والصبرَ عنْ محبوبِها ، ثمَّ لمْ يرضَ لي إلا أنْ يكلِّفَني ما كلَّفَهُمْ فقالَ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ، واللهِ ؛ ما لي بدٌّ مِنْ طاعتِهِ ، وإنِّي ـ واللهِ ـ لأصبرنَّ كما صبروا بجهدي ولا قوَّةَ إلا باللهِ »(6)

ورُوِيَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ حينَ فُتِحَ عليهِ الفتوحاتُ قالَتْ لهُ ابنتُهُ حفصةُ رضيَ اللهُ عنها : البسْ ليِّنَ الثيابِ إذا قدمَتْ عليكَ الوفودُ مِنَ الآفاقِ ، ومُرْ بصنعةِ طعامٍ تطعمُهُ وتطعمُ مَنْ حضرَ

---

(1) رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/٢٩٠) من حديث جابر رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠١٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(2) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٥١) ، وقد قال صاحب « القوت » (١/٢٥١) : (وروينا في خبر مقطوع) وذكره .

(3) رواه الترمذي (١٩٦١) .

(4) كذا في « القوت » (١/٢٥٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٩) عن صفوان بن سليم مرسلاً .

(5) كذا في « القوت » (١/٢٥٥) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (٥/٦١٣) : (وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة : أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأىٰ من دنياهم طرفاً ، فإذا رجع إلىٰ أهله فدخل الدار . . قرأ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ، ثم يقول : الصلاة الصلاة رحمكم الله) .

(6) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٥٨٣) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٨٠٦) بنحوه ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٦٢٨) مختصراً .

فقالَ عمرُ : يا حفصةُ ؛ ألستِ تعلمينَ أنَّ أعلمَ الناسِ بحالِ الرجلِ أهلُ بيتِهِ ؟ فقالَتْ : بلىٰ .

قالَ : ناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبثَ في النبوَّةِ كذا وكذا سنةً لمْ يشبعْ هوَ ولا أهلُ بيتِهِ غدوةً إلا جاعوا عشيَّةً ، ولا شبعوا عشيَّةً إلا جاعوا غدوةً ؟[1]

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبثَ في النبوَّةِ كذا وكذا سنةً لمْ يشبعْ مِنَ التمرِ هوَ وأهلُهُ حتَّىٰ فتحَ اللهُ عليهِ خيبرَ ؟[2]

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرَّبتُمْ إليهِ يوماً طعاماً علىٰ مائدةٍ فيها ارتفاعٌ فشَقَّ ذٰلكَ عليهِ حتَّىٰ تغيَّرَ لونُهُ ، ثمَّ أمرَ بالمائدةِ فرُفعَتْ ووُضعَ الطعامُ علىٰ دونِ ذٰلكَ أوْ وُضعَ على الأرضِ ؟[3]

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ ينامُ علىٰ عباءةٍ مثنيَّةٍ ، فثُنيَتْ لهُ ليلةً أربعَ طاقاتٍ ، فنامَ عليها ، فلمَّا استيقظَ . قالَ : « منعتُموني قيامَ الليلةِ بهٰذهِ العباءةِ ، اثنوها باثنتينِ كما كنتُمْ تثنونَها » ؟[4] .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يضعُ ثيابَهُ لتُغسلَ ، فيأتيهِ بلالٌ فيؤذنُهُ بالصلاةِ ، فما يجد ثوباً يخرجُ بهِ إلى الصلاةِ حتَّىٰ تجفَّ ثيابُهُ ، فيخرجُ فيها إلى الصلاةِ ؟[5]

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ امرأةً مِنْ بني ظفرٍ صنعَتْ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كساءَينِ إزاراً ورداءً ، وبعثَتْ إليهِ بأحدِهِما قبلَ أنْ يبلغَ الآخرُ ، فخرجَ إلى الصلاةِ وهوَ مشتملٌ بهِ ليسَ عليهِ غيرُهُ ، قدْ عقدَ طرفيهِ إلىٰ عنقِهِ ، فصلَّىٰ كذٰلكَ ؟[6]

فما زالَ حتَّىٰ أبكاها ، وبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وانتحبَ حتَّىٰ ظننَّا أنَّ نفسَهُ ستخرجُ[7]

وفي بعضِ الرواياتِ زيادةٌ مِنْ قولِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وهوَ أنَّهُ قالَ : كانَ لي صاحبانِ سلكا طريقاً ، فإنْ سلكتُ غيرَ طريقِهِما . . سُلِكَ بي طريقٌ غيرُ طريقِهِما ، وإنِّي ـ واللهِ ـ سأصبرُ علىٰ عيشِهِما الشديدِ لعلِّي أدركُ معَهُما عيشَهُما الرغيدَ[8]

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لقدْ كانَ الأنبياءُ قبلي يُبتلىٰ أحدُهُمْ

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٣٦٠٦) عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، وروى الترمذي (٢٣٥٦) عن عائشة رضي الله عنها نحوه .

(٢) وقد روى ابن سعد في « طبقاته » (٣٤٩/١) عن عمر رضي الله عنه : (لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوي يومه من الجوع ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه) ، وعنده عن النعمان بن بشير : (ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع من الدقل ، وما ترضون دون ألوان التمر والزبد) .

(٣) حديث عدم أكله علىٰ خوان رواه البخاري (٦٤٥٠) .

(٤) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٤٠٠/١) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٤٦٣) .

(٥) رواه أبو بكر الدينوري في « القناعة » (٤٦) بلفظ المصنف هنا ، وروايته هٰذه تشعر بأن للحديث أصلاً بهٰذا السياق .

(٦) روى ابن ماجه (١٠٣٢) عن ثابت بن الصامت رضي الله عنه نحوه مرفوعاً ، والبزار في « مسنده » (٤١٠٥) عن أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

(٧) روي هٰذا الخبر مختصراً كما سيأتي بيانه في الحديث الآتي .

(٨) روى ابن المبارك في « الزهد » (٥٧٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١٢٣/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٨/١) عن مصعب بن سعد : أن حفصة قالت لعمر : ألا تلبس ثوباً ألين من ثوبك ، وتأكل طعاماً أطيب من طعامك هٰذا ؟ فقد فتح الله عليك الأرض وأوسع عليك الرزق ، قال : سأخصمك إلىٰ نفسك ، فذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يلقىٰ من شدة العيش ، ولم يزل يذكر حتىٰ بكت ، ثم قال عمر : لأشركنهما في مثل عيشهما الشديد ؛ لعلي أدرك معهما مثل عيشهما الرخي .

بالفقرِ ، فلا يجدُ إلا العباءةَ ، وإنْ كانَ أحدُهُمْ ليُبتلىٰ بالقملِ حتَّىٰ يقتلَهُ القملُ ، وكانَ ذٰلكَ أحبَّ إليهِمْ مِنَ العطاءِ إليكُمْ »[١]

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : (لمَّا وردَ موسىٰ عليهِ السلامُ ماءَ مدينَ . . كانَتْ خضرةُ البقلِ تُرىٰ في بطنِهِ مِنَ الهزالِ)[٢]

فهٰذا ما كانَ قدِ اختارَهُ أنبياءُ اللهِ ورسلُهُ ، وهمْ أعرفُ خلقِ اللهِ باللهِ وبطريقِ الفوزِ في الآخرةِ .

وفي حديثِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تبّاً للدنيا ، تبّاً للدينارِ والدرهمِ » ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ نهانا اللهُ عنْ كنزِ الذهبِ والفضةِ ، فأيَّ شيءٍ ندخرُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليتخذْ أحَدُكُمْ لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وزوجةً صالحةً تعينُهُ علىٰ أمرِ آخرتِهِ »[٣]

وفي حديثِ حذيفةَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ آثرَ الدنيا على الآخرةِ . . ابتلاهُ اللهُ بثلاثٍ : همٌّ لا يفارقُ قلبَهُ أبداً ، وفقرٌ لا يستغني أبداً ، وحرصٌ لا يشبعُ أبداً »[٤]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّىٰ يكونَ ألا يعرفَ أحبَّ إليهِ مِنْ أنْ يعرفَ ، وحتَّىٰ يكونَ قلَّةُ الشيءِ أحبَّ إليهِ مِنْ كثرتِهِ »[٥]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (الدنيا قنطرةٌ ، فاعبروها ولا تعمروها)[٦]

وقيلَ لهُ : يا نبيَّ اللهِ ؛ لوْ أمرتَنا أنْ نبنيَ بيتاً نعبدُ اللهَ فيهِ ، فقالَ : اذهبوا فابنوا بيتاً على الماءِ ، فقالوا : كيفَ يستقيمُ بنيانٌ على الماءِ ؟! قالَ : وكيفَ تستقيمُ عبادةٌ علىٰ حبِّ الدنيا ؟![٧]

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ عرضَ عليَّ أنْ يجعلَ لي بطحاءَ مكةَ ذهباً ، فقلتُ : لا يا ربِّ ، ولٰكنْ أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، فأمَّا اليومُ الذي أجوعُ فيهِ . . فأتضرَّعُ إليكَ وأدعوكَ ، وأمَّا اليومُ الذي أشبعُ فيهِ . . فأحمدُكَ وأثني عليكَ »[٨]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ يمشي وجبريلُ معَهُ ، فصعدَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٢٤) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٧٥/٢٠/١١) .

(٣) رواه الترمذي (٣٠٩٤) ، وابن ماجه (١٨٥٦) عن ثوبان رضي الله عنه قال : لما نزل في الفضة والذهب ما نزل . . قالوا : فأي المال نتخذ ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذٰلك ، فأوضع علىٰ بعيره فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأنا علىٰ أثره ، فقال : يا رسول الله ؛ أي المال نتخذ ؟ فقال : « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم علىٰ أمر الآخرة » .

(٤) كذا في « القوت » (٢٥٦/١) ، وقد روى الطبراني في « الكبير » (١٦٢/١٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من أشرب حب الدنيا . . التاط منها بثلاث : شقاء لا ينفد عناه ، وحرص لا يبلغ غناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه » .

(٥) كذا في « القوت » (٢٥٦/١) حيث قال : (وروينا حديثاً مرسلاً عن علي بن معبد ، عن علي بن أبي طلحة) يرسله ، وقال الحافظ العراقي (لم أجد له إسناداً ، وذكره صاحب « الفردوس » من رواية علي بن أبي طلحة مرسلاً : « لا يستكمل عبد الإيمان حتىٰ يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته ، وحتىٰ يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله » ، ولم يخرجه ولده في « مسنده » ، وعلي بن أبي طلحة أخرج له مسلم ، وروىٰ عن ابن عباس ، لٰكن روايته عنه مرسلة ، والحديث إذن معضل) . « إتحاف » (٣٣٢/٩) .

(٦) قوت القلوب (٢٥٦/١) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢) .

(٧) قوت القلوب (٢٥٦/١) .

(٨) رواه الترمذي (٢٣٤٧) .

على الصفا ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ ما أمسىٰ لآلِ محمدٍ كفُّ سويقٍ ولا سفَّةُ دقيقٍ » ، فلمْ يكنْ كلامُهُ بأسرعَ مِنْ أنْ سمعَ هدَّةً مِنَ السماءِ أفظعَتْهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمرَ اللهُ القيامةَ أنْ تقومَ ؟ » قالَ : لا ، ولـٰكنْ هـٰذا إسرافيلُ عليهِ السلامُ قدْ نزلَ إليكَ حينَ سمعَ كلامَكَ ، فأتاهُ إسرافيلُ فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سمعَ ما ذكرتَ ، فبعثَني بمفاتيحِ الأرضِ وأمرَني أنْ أعرضَ عليكَ ؛ إنْ أحببتَ أنْ أسيِّرَ معكَ جبالَ تهامةَ زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضةً . . فعلتُ ، وإنْ شئتَ نبيّاً ملكاً ، وإنْ شئتَ نبياً عبداً ، فأومأَ إليهِ جبريلُ أنْ تواضعْ للهِ ، فقالَ : « نبيّاً عبداً » ثلاثاً[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . زهَّدَهُ في الدنيا ، ورغَّبَهُ في الآخرةِ ، وبصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « ازهدْ في الدنيا . . يحبَّكَ اللهُ ، وازهدْ فيما في أيدي الناسِ . . يحبَّكَ الناسُ »[3] .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أرادَ أنْ يؤتيَهُ اللهُ علماً بغيرِ تعلُّمٍ ، وهدىً بغيرِ هدايةٍ . . فليزهدْ في الدنيا »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اشتاقَ إلى الجنَّةِ . . سارعَ إلى الخيراتِ ، ومَنْ خافَ مِنَ النارِ . . لها عنِ الشهواتِ ، ومَنْ ترقَّبَ الموتَ . . تركَ اللذَّاتِ ، ومَنْ زهدَ في الدنيا . . هانَتْ عليهِ المصيباتُ »[5]

ويروىٰ عنْ نبيِّنا وعنْ عيسىٰ صلواتُ اللهِ عليهِما وسلامُهُ : « أربعٌ لا يُدركنَ إلا بعجبٍ : الصمتُ وهوَ أوَّلُ العبادةِ ، والتواضعُ ، وكثرةُ الذكرِ ، وقلَّةُ الشيءِ »[6]

وجميعُ الأخبارِ الواردةِ في مدحِ بغضِ الدنيا وذمِّ حبِّها لا يمكنُ حصرُها ، فإنَّ الأنبياءَ ما بُعثوا إلا لصرفِ الناسِ عنِ الدنيا إلى الآخرةِ ، فإليهِ يرجعُ أكثرُ كلامِهِمْ معَ الخلقِ ، وفيما أوردناهُ كفايةٌ ، واللهُ المستعانُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ جاءَ في الأثرِ : (لا تزالُ لا إلـٰهَ إلا اللهُ تدفعُ عنِ العبادِ سخطَ اللهِ عزَّ وجلَّ ما لم يبالوا ما نقصَ مِنْ دنياهُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (ما لمْ يؤثروا صفقةَ دنياهُمْ علىٰ دينِهِمْ ، فإذا فعلوا ذٰلكَ وقالوا : لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : كذبتُمْ ، لستُمْ بها صادقينَ)[7]

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٩٣٣) ، والبيهقي في « الزهد » (٤٤٧) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٣) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٩٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، وليس عندهما (ورغبه في الآخرة) ، بل (فقهه في الدين) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٢/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٨) من حديث الحسن مرسلاً ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ أصحابه ذات يوم فقال : « هل منكم من يريد أن يؤتيه الله عز وجل علماً بغير تعلم وهدىً بغير هداية ؟ هل منكم من يريد أن يذهب الله عز وجل عنه العمىٰ ويجعله بصيراً ؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وأطال أمله فيها . . أعمى الله قلبه علىٰ قدر ذٰلك ، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها . . أعطاه الله علماً بغير تعلم وهدىً بغير هداية . . . » الحديث .

(٥) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٣٠/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٣٤) من حديث علي كرم الله وجهه مرفوعاً .

(٦) كذا في « القوت » (٢٦٦/١) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٣١١/٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥٦/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٢٨) .

(٧) كذا في « القوت » (٢٤٣/١) ، وقد رواه مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ابنُ عدي في « الكامل » (٢١٤/٢) .

وعنْ بعضِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ قالَ : (تابعنا الأعمالَ كلَّها ، فلمْ نرَ في أمرِ الآخرةِ أبلغَ مِنْ زهدٍ في الدنيا)[1] .

وقالَ بعضُ الصحابةِ لصدرٍ منَ التابعينَ : أنتُمْ أكثرُ أعمالاً واجتهاداً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهُمْ كانوا خيراً منكُمْ ، قيلَ : ولِمَ ذٰلكَ ؟ قالَ : كانوا أزهدَ في الدنيا منكُمْ[2]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (الزهادةُ في الدنيا راحةُ القلبِ والجسدِ)[3]

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (كفىٰ بهِ ذنباً أنَّ اللهَ تعالىٰ يزهِّدُنا في الدنيا ونحنُ نرغبُ فيها)[4]

وقالَ رجلٌ لسفيانَ : أشتهي أنْ أرىٰ عالماً زاهداً ، فقالَ : ويحَكَ !! تلكَ ضالَّةٌ لا تُوجدُ[5]

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : إنَّ للجنَّةِ ثمانيةَ أبوابٍ ، فإذا صارَ أهلُ الجنَّةِ إليها . . جعلَ البوَّابونَ يقولونَ : وعزَّةِ ربِّنا ؛ لا يدخلُها أحدٌ قبلَ الزاهدينَ في الدنيا والعاشقينَ للجنَّةِ .

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ رحمهُ اللهُ : إنِّي لأشتهي مِنَ اللهِ ثلاثَ خصالٍ : أنْ أموتَ حينَ أموتُ وليسَ في ملكي درهمٌ ، ولا يكونُ عليَّ دينٌ ، ولا علىٰ عظمي لحمٌ ، فأُعطيَ ذٰلكَ كلَّه .

ورُوِيَ أنَّ بعضَ الخلفاءِ أرسلَ إلى الفقهاءِ بجوائزَ فقبلوها ، وأرسلَ إلى الفضيلِ بعشرةِ آلافٍ فلمْ يقبلْها ، فقالَ لهُ بنوهُ : قدْ قبلَ الفقهاءُ وأنتَ تردُّ علىٰ حالتِكَ هٰذهِ !! فبكى الفضيلُ وقالَ : أتدرونَ ؟ ما مثلي ومثلُكُمْ إلا كمثلِ قومٍ كانَتْ لهُمْ بقرةٌ يحرثونَ عليها ، فلما هرمَتْ . . قالوا : اذبحوها وانتفعوا بجلدِها ، وكذٰلكَ أنتُمْ أردتُمْ ذبحي علىٰ كبرِ سنِّي ، موتوا يا أهلي جوعاً خيرٌ لكمْ مِنْ أنْ تذبحوا فضيلاً[6]

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ : (كانَ عيسى بنُ مريمَ عليهِ السلامُ يلبسُ الشعرَ ، ويأكلُ الشجرَ ، وليسَ لهُ ولدٌ يموتُ ، ولا بيتٌ يخربُ ، ولا يدخرُ لغدٍ ، أينَما أدركَهُ المساءُ . . نامَ)[7] .

وقالَتِ امرأةُ أبي حازمٍ لأبي حازمٍ : هٰذا الشتاءُ قدْ هجمَ علينا ، ولا بدَّ لنا مِنَ الطعامِ والثيابِ والحطبِ ، فقالَ لها أبو حازمٍ : مِنْ هٰذا كلِّهِ بدٌّ ، ولٰكنْ لا بدَّ لنا مِنَ الموتِ ، ثمَّ البعثِ ، ثمَّ الوقوفِ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثمَّ الجنَّةِ أوِ النارِ[8]

وقيلَ للحسنِ : لِمَ لا تغسلُ قميصَكَ ؟ قالَ : الأمرُ أعجلُ مِنْ ذٰلكَ[9]

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (قدْ حُجِبَتْ قلوبُنا بثلاثةِ أغطيةٍ ، فلنْ يُكشفَ للعبدِ اليقينُ حتَّىٰ تُرفعَ هٰذهِ الحُجُبُ : الفرحُ بالموجودِ ، والحزنُ على المفقودِ ، والسرورُ بالمدحِ ، فإذا فرحتَ بالموجودِ . . فأنتَ حريصٌ ، وإذا حزنتَ

---

(١) والقول لأبي واقد الليثي رضي الله عنه ، رواه له أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٩/٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٠٠) .

(٢) كذا في « القوت » (٢٤٣/١) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٠١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يخاطب صدر التابعين الأول .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩٣)

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢٤/٥) .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٢/٧) .

(٦) رواه ضمن خبر طويل فيه قصة زيارة هارون الرشيد له أبو نعيم في « الحلية » (١٠٥/٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٠٢٨) بنحوه .

(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٦٧) .

(٨) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٥١٥/٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٠) .

(٩) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٠/٦) .

على المفقودِ . . فأنتَ ساخطٌ والساخطُ معذَّبٌ ، وإذا سُررتَ بالمدحِ . . فأنتَ معجبٌ والعجْبُ يحبطُ العملَ)[1]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ركعتانِ مِنْ زاهدٍ قلبُهُ خيرٌ لهُ وأحبُّ إلى اللهِ مِنْ عبادةِ المتعبدينَ المجتهدينَ إلىٰ آخرِ الدهرِ أبداً سرمداً)[2]

وقالَ بعضُ السلفِ : (نعمةُ اللهِ علينا فيما صرفَ عنَّا أكثرُ مِنْ نعمتِهِ فيما صرفَ إلينا)[3] ، وكأنَّهُ التفتَ إلىٰ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يحمي عبدَهُ المؤمنَ الدنيا وهوَ يحبُّهُ ؛ كما تحمونَ مريضَكُمُ الطعامَ والشرابَ تخافونَ عليهِ »[4] ، فإذا فُهِمَ هـٰذا . . عُلِمَ أنَّ النعمةَ في المنعِ المؤدِّي إلى الصحةِ أكبرُ منها في الإعطاءِ المؤدِّي إلى السقمِ .

وكانَ الثوريُّ يقولُ : (الدنيا دارُ التواءٍ لا دارُ استواءٍ ، ودارُ ترحٍ لا دارُ فرحٍ ، مَنْ عرفَها . . لمْ يفرحْ برخاءٍ ، ولمْ يحزنْ علىٰ شقاءٍ)[5]

وقالَ سهلٌ : (لا يخلصُ العملُ لمتعبدٍ حتَّىٰ لا يفزعَ مِنْ أربعةِ أشياءَ : الجوعُ ، والعريُ ، والفقرُ ، والذلُّ)[6]

وقالَ الحسنُ البصريُّ : (أدركتُ أقواماً وصحبتُ طوائفَ ما كانوا يفرحونَ بشيءٍ مِنَ الدنيا أقبلَ ، ولا يأسفونَ علىٰ شيءٍ منها أدبرَ ، ولهيَ كانَتْ في أعينِهِمْ أهونَ مِنَ الترابِ ، كانَ أحدُهُمْ يعيشُ خمسينَ سنةً وستينَ سنةً لمْ يُطوَ لهُ ثوبٌ ، ولمْ يُنصبْ له قدْرٌ ، ولمْ يجعلْ بينَهُ وبينَ الأرضِ شيئاً ، ولا أمرَ مَنْ في بيتِهِ بصنعةِ طعامٍ قطُّ ، فإذا كانَ الليلُ . . فقيامٌ علىٰ أطرافِهِمْ ، يفترشونَ وجوهَهُمْ ، تجري دموعُهُمْ علىٰ خدودِهِمْ ، يناجونَ ربَّهُمْ في فكاكِ رقابِهِمْ ، كانوا إذا عملوا الحسنةَ . . دأبوا في شكرِها ، وسألوا اللهَ أنْ يتقبَّلَها ، وإذا عملوا السيئةَ . . أحزنَتْهُمْ ، وسألوا اللهَ أن يغفرَها لهُمْ ، فلم يزالوا علىٰ ذٰلكَ ، وواللهِ ما سلموا مِنَ الذنوبِ ولا نجوا إلا بالمغفرةِ)[7]

* * *

(١) كذا في « القوت » (١/٢٥٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٤) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (١/٢٦٥) حيث قال : (وروىٰ مسروق عن ابن مسعود . . .) وذكره .

(٣) قوت القلوب (١/٢٦٦) .

(٤) رواه الترمذي (٢٠٣٦) .

(٥) قوت القلوب (١/٢٦٦) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٦) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٤٥) .

(٧) رواه أحمد في « الزهد » (١٦٤٣) .

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه ، وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلمْ : أنَّ الزهدَ في نفسِهِ يتفاوتُ بحسبِ تفاوتِ قوَّتِهِ علىٰ درجاتٍ ثلاثٍ :

الدرجةُ الأولىٰ ـ وهيَ السفلىٰ منها ـ :

أنْ يزهدَ في الدنيا وهوَ لها مشتهٍ ، وقلبُهُ إليها مائلٌ ، ونفسُهُ إليها ملتفتةٌ ، ولٰكنَّهُ يجاهدُها ويكفُّها ، وهٰذا يُسمَّى المتزهِّدَ ، وهوَ مبدأُ الزهدِ في حقِّ مَنْ يصلُ إلىٰ درجةِ الزهدِ بالكسبِ والاجتهادِ .

والمتزهِّدُ يذيبُ أوَّلاً نفسَهُ ثمَّ كيسَهُ[1] ، والزاهدُ أوَّلاً يذيبُ كيسَهُ ثمَّ يذيبُ نفسَهُ في الطاعةِ ، لا في الصبرِ علىٰ ما فارقَهُ ، والمتزهِّدُ علىٰ خطرٍ ؛ فإنَّهُ ربما تغلبُهُ نفسُهُ ، وتجذبُهُ شهوتُهُ ، فيعودُ إلى الدنيا وإلى الاستراحةِ بها في قليلٍ أوْ كثيرٍ .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الثانيةُ :

الذي يتركُ الدنيا طوعاً لاستحقارِهِ إيَّاها بالإضافةِ إلىٰ ما طمعَ فيهِ ؛ كالذي يتركُ درهماً لأجلِ درهمينِ ، فإنَّهُ لا يشقُّ عليهِ ذٰلكَ وإنْ كانَ يحتاجُ إلى انتظارٍ قليلٍ ، ولٰكنْ هٰذا الزاهدُ يرىٰ ـ لا محالةَ ـ زهدَهُ ويلتفتُ إليهِ ؛ كما يرى البائعُ المبيعَ ويلتفتُ إليهِ ، فيكادُ يكونُ معجباً بنفسِهِ وبزهدِهِ ، ويظنُّ بنفسِهِ أنَّهُ تركَ شيئاً لهُ قدرٌ لما هوَ أعظمُ قدراً منهُ ، وهٰذا أيضاً نقصانٌ .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الثالثةُ ـ وهيَ العليا ـ :

أنْ يزهدَ طوعاً ، ويزهدَ في زهدِهِ ، فلا يرىٰ زهدَهُ ؛ إذْ لا يرىٰ أنَّهُ تركَ شيئاً ، إذْ عرفَ أنَّ الدنيا لا شيءَ ، فيكونُ كمَنْ تركَ خزفةً وأخذَ جوهرةً ، فلا يرىٰ ذٰلكَ معاوضةً ، ولا يرىٰ نفسَهُ تاركاً شيئاً ، والدنيا بالإضافةِ إلى اللهِ تعالىٰ ونعيمِ الآخرةِ أخسُّ مِنْ خزفةٍ بالإضافةِ إلىٰ جوهرةٍ .

فهٰذا هوَ الكمالُ في الزهدِ ، وسببُهُ كمالُ المعرفةِ ، ومثلُ هٰذا الزاهدِ آمنٌ مِنْ خطرِ الالتفاتِ إلى الدنيا ، كما أنَّ تاركَ الخزفةِ بالجوهرةِ آمنٌ مِنْ طلبِ الإقالةِ في البيعِ .

قالَ أبو يزيدَ لأبي موسىٰ : عبدُ الرحيمِ في أيِّ شيءٍ يتكلَّمُ ؟ قالَ : في الزهدِ ، قالَ : في أيِّ شيءٍ ؟ قالَ : في الدنيا ، فنفضَ يدَهُ وقالَ : ظننتُ أنَّهُ يتكلَّمُ في شيءٍ ، الدنيا لا شيءَ ، أيشٍ يزهدُ فيها ؟![2]

ومثلُ مَنْ تركَ الدنيا للآخرةِ عندَ أهلِ المعرفةِ وأربابِ القلوبِ المعمورةِ بالمشاهداتِ والمكاشفاتِ مثلُ مَنْ منعَهُ عنْ بابِ الملكِ كلبٌ علىٰ بابِهِ ، فألقىٰ إليهِ لقمةً مِنْ خبزٍ ، فشغلَهُ بنفسِهِ ، ودخلَ البابَ ونالَ القربَ عندَ الملكِ ، حتَّىٰ

---

(١) بإخراج المرغوب منه . « إتحاف » (٣٣٧/٩) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٩/١) ، وأبو موسىٰ هو هارون بن سليمان الكوفي ، وعبد الرحيم هو ابن يحيى الأسود الأرموي الدمشقي . انظر « الإتحاف » (٣٣٨/٩) .

نفذَ أمرُهُ في جميعِ مملكتِهِ ، أفترىٰ أنَّهُ يرىٰ لنفسِهِ يداً عندَ الملكِ بلقمةِ خبزٍ ألقاها إلىٰ كلبِهِ في مقابلةِ ما قدْ نالَهُ ؟

فالشيطانُ كلبٌ علىٰ بابِ اللهِ تعالىٰ يمنعُ الناسَ مِنَ الدخولِ ، معَ أنَّ البابَ مفتوحٌ والحجابَ مرفوعٌ ، والدنيا كلقمةِ خبزٍ ، إنْ أُكلَتْ . . فلذَّتُها في حالِ المضغِ ، وتنقضي على القربِ بالابتلاعِ ، ثمَّ يبقىٰ ثقلُها في المعدةِ ، ثمَّ تنتهي إلى النتنِ والقذرِ ، ثمَّ يحتاجُ بعدَ ذٰلكَ إلىٰ إخراجِ ذٰلكَ الثفلِ ، فمَنْ تركَها لينالَ عزَّ الملكِ كيفَ يلتفتُ إليها ؟!

ونسبةُ الدنيا كلِّها ـ أعني ما يسلمُ لكلِّ شخصٍ منها وإنْ عُمِّرَ مئةَ سنةٍ ـ بالإضافةِ إلىٰ نعيمِ الآخرةِ أقلُّ مِنْ لقمةٍ بالإضافةِ إلىٰ ملكِ الدنيا ؛ إذْ لا نسبةَ للمتناهي إلىٰ ما لا نهايةَ لهُ ، والدنيا متناهيةٌ على القربِ ولوْ كانَتْ تتمادىٰ ألفَ ألفِ سنةٍ صافيةً عنْ كلِّ كدرٍ . . لكانَ لا نسبةَ لها إلىٰ نعيمِ الأبدِ ، فكيفَ ومدَّةُ العمرِ قصيرةٌ ولذَّاتُ الدنيا مكدرةٌ غيرُ صافيةٍ ؟! فأيُّ نسبةٍ لها إلىٰ نعيمِ الأبدِ ؟!

فإذاً ؛ لا يلتفتُ الزاهدُ إلىٰ زهدِهِ إلا إذا التفتَ إلىٰ ما زهدَ فيهِ ، ولا يلتفتُ إلىٰ ما زهدَ فيهِ إلا لأنَّهُ يراهُ شيئاً معتدّاً بِهِ ، ولا يراهُ شيئاً معتداً بهِ إلا لقصورِ معرفتِهِ ، فسببُ نقصانِ الزهدِ نقصانُ المعرفةِ .

فهٰذا تفاوتُ درجاتِ الزهدِ ، وكلُّ درجةٍ مِنْ هٰذهِ أيضاً لها درجاتٌ ، إذْ تصبُّرُ المتزهِّدِ يختلفُ ويتفاوتُ أيضاً باختلافِ قدْرِ المشقَّةِ في الصبرِ ، وكذٰلكَ درجةُ المعجبِ بزهدِهِ في قدْرِ التفاتِهِ إلىٰ زهدِهِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا انقسامُ الزهدِ بالإضافةِ إلى المرغوبِ فيهِ . . فهوَ أيضاً علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الدرجةُ السفلىٰ :

أنْ يكونَ المرغوبُ فيهِ النجاةَ مِنَ النارِ ومِنْ سائرِ الآلامِ ؛ كعذابِ القبرِ ، ومناقشةِ الحسابِ ، وخطرِ الصراطِ ، وسائرِ ما بينَ يدي العبدِ مِنَ الأهوالِ كما وردَتْ بهِ الأخبارُ ؛ ففي الخبرِ : « إنَّ الرجلَ ليُوقفُ في الحسابِ حتىٰ لوْ وردَتْ مئةُ بعيرٍ عطاشاً علىٰ عرقِهِ . . لصدرَتْ رِواءً »[1] ، فهٰذا هوَ **زهدُ الخائفينَ** ، وكأنَّهُمْ رضوا بالعدمِ لوْ أعدموا ، فإنَّ الخلاصَ مِنَ الألمِ يحصلُ بمجرَّدِ العدمِ[2]

❁ ❁ ❁

الدرجةُ الثانيةُ :

أنْ يزهدَ رغبةً في ثوابِ اللهِ ونعيمِهِ ، واللذَّاتِ الموعودةِ في جنَّتِهِ مِنَ الحورِ والقصورِ وغيرِها ، وهٰذا **زهدُ الراجينَ** ، فإنَّ هٰؤلاءِ ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدمِ والخلاصِ مِنَ الألمِ ، بلْ طمعوا في وجودٍ دائمٍ ونعيمٍ سرمدٍ لا آخرَ لهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣٠٤/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « التقىٰ مؤمنان علىٰ باب الجنة ؛ مؤمن غني ومؤمن فقير كانا في الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة وحبس الغني ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة ، فلقيه الفقير ، فيقول : أي أخي ؛ ماذا حبسك ؟ والله لقد احتبست حتىٰ خفت عليك ، فيقول : أي أخي ؛ حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ، وما وصلت إليك حتىٰ سال مني من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلةُ حمضٍ . . لصدرت عنه رواء » ، والحمض : نبت فيه ملوحة يحمل علىٰ كثرة الشرب .

(٢) أشار الحافظ الزبيدي إلى أن العدم هنا بمعنى الفقر ؛ إذ قال في « الإتحاف » (٣٣٩/٩) : (لأن احتباس الغني إنما كان لسبب غناه) ، وما يفيده لحاق المصنف الآتي أن العدم هنا علىٰ إطلاقه .

الدرجةُ الثالثةُ ـ وهيَ العليا ـ :

ألا يكونَ لهُ رغبةٌ إلا في اللهِ وفي لقائِهِ ، فلا يلتفتُ قلبُهُ إلى الآلامِ ليقصدَ الخلاصَ منها ، ولا إلى اللذاتِ ليقصدَ نيلَها والظفرَ بها ، بلْ هوَ مستغرقُ الهمّ باللهِ تعالىٰ ، وهوَ الذي أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ ، وهوَ الموحِّدُ الحقيقيُّ الذي لا يطلبُ غيرَ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ مَنْ طلبَ غيرَ اللهِ . . فقدْ عبدَهُ ، وكلُّ مطلوبٍ معبودٌ ، وكلُّ طالبٍ عبدٌ بالإضافةِ إلىٰ مطلبِهِ ، وطلبُ غيرِ اللهِ مِنَ الشركِ الخفيِّ ، وهـٰذا زهدُ المحبِّينَ[1] ، وهمُ العارفونَ ؛ لأنَّهُ لا يحبُّ اللهَ تعالىٰ خاصَّةً إلا مَنْ عرفَهُ ، وكما أنَّ مَنْ عرفَ الدينارَ وعرفَ الدرهمَ وعلمَ أنَّهُ لا يقدرُ على الجمعِ بينَهُما . . لمْ يحبَّ إلا الدينارَ ؛ فكذٰلكَ مَنْ عرفَ اللهَ ، وعرفَ لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، وعرفَ أنَّ الجمعَ بينَ تلكَ اللذةِ وبينَ لذَّةِ التنعُّمِ بالحورِ العينِ والنظرِ إلىٰ نقشِ القصورِ وخضرةِ الأشجارِ غيرُ ممكنٍ . . فلا يحبُّ إلا لذَّةَ النظرِ ولا يؤثرُ غيرَهُ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ أهلَ الجنَّةِ عندَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ يبقىٰ للذَّةِ الحورِ والقصورِ متسعٌ في قلوبِهِمْ ، بلْ تلكَ اللذَّةُ بالإضافةِ إلىٰ لذَّةِ نعيمِ الجنَّةِ كلذَّةِ ملْكِ الدنيا والاستيلاءِ علىٰ أطرافِ الأرضِ ورقابِ الخلقِ بالإضافةِ إلىٰ لذَّةِ الاستيلاءِ علىٰ عصفورٍ واللعبِ بهِ ، والطالبونَ لنعيمِ الجنَّةِ عندَ أهلِ المعرفةِ وأربابِ القلوبِ كالصبيِّ الطالبِ للعبِ بالعصفورِ التاركِ للذَّةِ الملْكِ ، وذٰلكَ لقصورِهِ عنْ إدراكِ لذَّةِ الملكِ ، لا لأنَّ اللعبَ بالعصفورِ في نفسِهِ أعلىٰ وألذُّ مِنَ الاستيلاءِ بطريقِ الملكِ علىٰ كافَّةِ الخلقِ .

* * *

وأمَّا انقسامُهُ بالإضافةِ إلى المرغوبِ عنهُ : فقدْ كثرَتْ فيهِ الأقاويلُ ، ولعلَّ المذكورَ فيهِ يزيدُ علىٰ مئةِ قولٍ ، فلا نشتغلُ بنقلِ الأقاويلِ ، ولـٰكنْ نشيرُ إلىٰ كلامٍ محيطٍ بالتفاصيلِ ، حتَّىٰ يتضحَ أنَّ أكثرَ ما ذُكرَ فيهِ قاصرٌ عنِ الإحاطةِ بالكلِّ ، فنقولُ :

المرغوبُ عنهُ بالزهدِ لهُ إجمالٌ وتفصيلٌ ، ولتفصيلِهِ مراتبُ ، بعضُها أشرحُ لآحادِ الأقسامِ ، وبعضُها أجمعُ للجملِ .

أمَّا الإجمالُ **في الدرجةِ الأولىٰ** : فهوَ كلُّ ما سوى اللهِ ، فينبغي أنْ يزهدَ فيهِ ، حتَّىٰ يزهدَ في نفسِهِ أيضاً .

والإجمالُ **في الدرجةِ الثانيةِ** : أنْ يزهدَ في كلِّ صفةٍ للنفسِ فيها متعةٌ ، وهـٰذا يتناولُ جميعَ مقتضياتِ الطبعِ ؛ مِنَ الشهوةِ ، والغضبِ ، والكبرِ ، والرئاسةِ ، والمالِ ، والجاهِ ، وغيرِها .

وفي **الدرجةِ الثالثةِ** : أنْ يزهدَ في المالِ والجاهِ وأسبابِهِما ، إذْ إليهِما ترجعُ جميعُ حظوظِ النفسِ .

وفي **الدرجةِ الرابعةِ** : أنْ يزهدَ في العلمِ والقدرةِ ، والدينارِ والدرهمِ والجاهِ ، إذِ الأموالُ وإنْ كثرَتْ أصنافُها فيجمعُها الدينارُ والدرهمُ ، والجاهُ وإنْ كثرَتْ أسبابُهُ فيرجعُ إلى العلمِ والقدرةِ ، وأعني بهِ كلَّ علمٍ وقدرةٍ مقصودُها ملْكُ القلوبِ ، إذْ معنى الجاهِ هوَ ملكُ القلوبِ والقدرةُ عليها ، كما أنَّ معنى المالِ ملكُ الأعيانِ والقدرةُ عليها .

فإنْ جاوزتَ هـٰذا التفصيلَ إلىٰ شرحٍ وتفصيلٍ أبلغَ مِنْ هـٰذا . . فيكادُ يخرجُ ما فيهِ الزهدُ عنِ الحصرِ ، وقدْ ذكرَ اللهُ

---

(١) وصاحب هـٰذا المقام قد سباه الحب وشغفه الشوق ، فهو داخل في الخلق منفصل منهم ، غير مضيع لما ألزمه الله من حقوقهم ، فأنَّى لإبليس أن يطمع في هـٰذا ومعه من الله عصمة وتأييد ، فلولا القدر . . لرفعه إليه من حبه له . « إتحاف » (٣٤٠/٩) .

تعالىٰ في آيةٍ واحدةٍ سبعةً منها فقالَ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

ثمَّ ردَّهُ في آيةٍ أخرىٰ إلىٰ خمسةٍ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ .

ثمَّ ردَّهُ تعالىٰ في موضعٍ آخرَ إلى اثنينِ فقالَ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ .

ثمَّ ردَّ الكلَّ إلىٰ واحدٍ في موضعٍ آخرَ فقالَ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ، فالهوىٰ لفظٌ يجمعُ جميعَ حظوظِ النفسِ في الدنيا ، فينبغي أَنْ يكونَ الزهدُ فيهِ .

وإذا فهمتَ طريقَ الإجمالِ والتفصيلِ . . عرفتَ أنَّ البعضَ مِنْ هٰذهِ لا يخالفُ البعضَ ، وإنَّما يفارقُهُ في الشرحِ مرَّةً والإجمالِ أخرىٰ .

والحاصلُ : أنَّ الزهدَ عبارةٌ عنِ الرغبةِ عنْ حظوظِ النفسِ كلِّها ، ومهما رغبَ عنْ حظوظِ النفسِ . . رغبَ عنِ البقاءِ في الدنيا ، فقصرَ أملُهُ لا محالةَ ؛ لأنَّهُ إنَّما يريدُ البقاءَ ليتمتَّعَ ، ويريدُ التمتُّعَ الدائمَ بإرادةِ البقاءِ ، فإنَّ مَنْ أرادَ شيئاً . . أرادَ دوامَهُ ، ولا معنىٰ لحبِّ الحياةِ إلا حبُّ دوامِ ما هوَ موجودٌ أوْ ممكنٌ في هٰذهِ الحياةِ ، فإذا رغبَ عنها . . لمْ يردْها .

ولذٰلكَ لمَّا كُتِبَ عليهِمُ القتالُ قالوا : ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ أيْ : لستُمْ تريدونَ البقاءَ إلا لمتاعِ الدنيا ، فظهرَ عندَ ذٰلكَ الزاهدونَ ، وانكشفَ حالُ المنافقينَ .

أمَّا الزاهدونَ المحبُّونَ للهِ تعالىٰ . . فقاتلوا في سبيلِ اللهِ كأنَّهُمْ بنيانٌ مرصوصٌ ، وانتظروا إحدى الحسنيينِ ، وكانوا إذا دُعوا إلى القتالِ . . يستنشقونَ رائحةَ الجنَّةِ ، ويبادرونَ إليهِ مبادرةَ الظمآنِ إلى الماءِ الباردِ ؛ حرصاً علىٰ نصرةِ دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ أوْ نيلِ رتبةِ الشهادةِ ، وكانَ مَنْ ماتَ منهُمْ علىٰ فراشِهِ يتحسَّرُ علىٰ فوتِ الشهادةِ ، حتَّىٰ إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ لما احتضرَ للموتِ علىٰ فراشِهِ كانَ يقولُ : (كمْ غررتُ بروحي وهجمتُ على الصفوفِ طمعاً في الشهادةِ ، وأنا الآنَ أموتُ موتَ العجائزِ) ، فلمَّا ماتَ عُدَّ علىٰ جسدِهِ ثمانُ مئةِ ثقبٍ مِنْ آثارِ الجراحاتِ[1] ، هٰكذا كانَ حالُ الصادقينَ في الإيمانِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ أجمعينَ .

وأمَّا المنافقونَ . . ففرُّوا مِنَ الزحفِ خوفاً مِنَ الموتِ ، فقيلَ لهُمْ : ﴿ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ ، فإيثارُهُمُ البقاءَ على الشهادةِ استبدالُ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ ، فأولٰئكَ الذينَ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فما ربحَتْ تجارتُهُمْ وما كانوا مهتدينَ .

وأمَّا المخلصونَ . . فإنَّ اللهَ تعالى اشترىٰ منهُمْ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهُمُ الجنَّةَ ، فلما رأَوا أنَّهُمْ تركوا تمتُّعَ عشرينَ سنةً مثلاً أوْ ثلاثينَ سنةً بتمتُّعِ الأبدِ . . استبشروا ببيعِهِمُ الذي بايعوا بهِ .

فهٰذا بيانُ المزهودِ فيهِ .

---

(١) روى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٤٢) عن أبي الزناد : أن خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة . . بكىٰ وقال : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ؛ فهٰأنا أموت علىٰ فراشي حتف أنفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

وإذا فهمتَ هـٰذا . . علمتَ أن ما ذكرَهُ المتكلِّمونَ في حدِّ الزهدِ لمْ يشيروا بهِ إلا إلىٰ بعضِ أقسامِهِ ، فذكرَ كلُّ واحدٍ منهُمْ ما رآهُ غالباً علىٰ نفسِهِ أوْ علىٰ مَنْ كانَ يخاطبُهُ .

فقالَ بشرٌ رحمَهُ اللهُ تعالى : (الزهدُ في الدنيا هوَ الزهدُ في الناسِ)[١] ، وهـٰذا إشارةٌ إلى الزهدِ في الجاهِ خاصَّةً .

وقالَ قاسمٌ الجوعيُّ : (الزهدُ في الدنيا هوَ الزهدُ في الجوفِ ، فبقدْرِ ما تملكُ مِنْ بطنِكَ كذٰلكَ تملكُ مِنَ الزهدِ)[٢] ، وهـٰذا إشارةٌ إلى الزهدِ في شهوةٍ واحدةٍ ، ولعمري هيَ أغلبُ الشهواتِ على الأكثرِ ، وهيَ المهيِّجةُ لأكثرِ الشهواتِ .

وقالَ الفضيلُ : (الزهدُ في الدنيا هوَ القناعةُ)[٣] ، وهـٰذا إشارةٌ إلى المالِ خاصَّةً .

وقالَ الثوريُّ : (الزهدُ هوَ قصرُ الأملِ)[٤] ، وهـٰذا جامعٌ لجميعِ الشهواتِ ، فإنَّ مَنْ يميلُ إلى الشهواتِ يحدِّثُ نفسَهُ بالبقاءِ ، فيطولُ أملُهُ ، ومَنْ قصرَ أملُهُ . . فكأنَّهُ رغبَ عنِ الشهواتِ كلِّها .

وقالَ أويسٌ : (إذا خرجَ الزاهدُ يطلبُ . . ذهبَ الزهدُ عنهُ)[٥] ، وما قصدَ بهـٰذا حدَّ الزهدِ ، ولـٰكنْ جعلَ التوكُّلَ شرطاً في الزهدِ .

وقالَ أويسٌ أيضاً : (الزهدُ هوَ تركُ الطلبِ للمضمونِ)[٦] ، وهوَ إشارةٌ إلى الرزقِ .

وقالَ أهلُ الحديثِ : (الدنيا هوَ العملُ بالرأيِ والمعقولِ ، والزهدُ إنَّما هوَ اتباعُ العلمِ ولزومُ السنةِ)[٧] ، وهـٰذا إنْ أُريدَ بهِ الرأيُ الفاسدُ والمعقولُ الذي يُطلبُ بهِ الجاهُ في الدنيا . . فهوَ صحيحٌ ، ولـٰكنَّهُ إشارةٌ إلىٰ بعضِ أسبابِ الجاهِ خاصَّةً ، أوْ إلىٰ بعضِ ما هوَ مِنْ فضولِ الشهواتِ ، فإنَّ مِنَ العلومِ ما لا فائدةَ فيهِ في الآخرةِ ، وقدْ طوَّلوها حتَّىٰ ينقضي عمرُ الإنسانِ في الاشتغالِ بواحدٍ منها ، فشرطُ الزاهدِ أنْ يكونَ الفضولُ أوَّلَ مرغوبٍ عنهُ عندَهُ .

وقالَ الحسنُ : (الزاهدُ الذي إذا رأىٰ أحداً . . قالَ : هـٰذا أفضلُ منِّي)[٨] ، فذهبَ إلىٰ أنَّ الزهدَ هوَ التواضعُ ، وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ نفيِ الجاهِ والعجبِ ، وهوَ بعضُ أقسامِ الزهدِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (الزهدُ هوَ طلبُ الحلالِ)[٩] ، وأينَ هـٰذا ممَّنْ يقولُ : (الزهدُ هوَ تركُ الطلبِ) كما قالَ أويسٌ ؟! ولا شكَّ في أنَّهُ أرادَ بهِ تركَ طلبِ الحلالِ .

وقدْ كانَ يوسفُ بنُ أسباطٍ يقولُ : (مَنْ صبرَ على الأذىٰ ، وتركَ الشهواتِ ، وأكلَ الخبزَ مِنْ حلالٍ . . فقدْ أخذَ بأصلِ الزهدِ)[١٠]

---

(١) كذا في « القوت » (٢٥٢/١) ، ونحوه أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٢٤٦) .
(٢) قوت القلوب (٢٥٢/١) .
(٣) كذا في « القوت » (٢٥٢/١) ، ورواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٤٧) .
(٤) قوت القلوب (٢٥٢/١) .
(٥) قوت القلوب (٢٥٢/١) .
(٦) قوت القلوب (٢٦٧/١) .
(٧) قوت القلوب (٢٦٧/١) .
(٨) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٤) .
(٩) قوت القلوب (٢٦٨/١) .
(١٠) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٠٤) .

وفي الزهدِ أقاويلُ وراءَ ما نقلناهُ ، فلمْ نرَ في نقلِها فائدةً ، فإنَّ مَنْ طلبَ كشفَ حقائقِ الأمورِ مِنْ أقاويلِ الناسِ . . رآها مختلفةً ، فلا يستفيدُ إلا الحيرةَ ، وأمَّا مَنِ انكشفَ لهُ الحقُّ في نفسِهِ ، وأدركَهُ بمشاهدةٍ مِنْ قلبِهِ ، لا بتلقُّفٍ مِنْ سمعِهِ . . فقدْ وثقَ بالحقِّ ، واطلعَ على قصورِ مَنْ قصَّرَ لقصورِ بصيرتِهِ ، وعلى اقتصارِ مَنِ اقتصرَ معَ كمالِ المعرفةِ لاقتصارِ حاجتِهِ .

وهـٰؤلاءِ كلُّهُمُ اقتصروا لا لقصورٍ في البصيرةِ ، ولـٰكنَّهُمْ ذكروا ما ذكروهُ عندَ الحاجةِ ، فلا جرمَ ذكروهُ بقدْرِ الحاجةِ ، والحاجاتُ تختلفُ ، فلا جرمَ الكلماتُ تختلفُ .

وقدْ يكونُ سببُ الاقتصارِ الإخبارَ عنِ الحالةِ الراهنةِ التي هيَ مقامُ العبدِ في نفسِهِ ، والأحوالُ تختلفُ ، فلا جرمَ الأقوالُ المخبرةُ عنها تختلفُ .

وأمَّا الحقُّ في نفسِهِ . . فلا يكونُ إلا واحداً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يختلفَ ، وإنَّما الجامعُ مِنْ هـٰذهِ الأقاويلِ ، الكاملُ في نفسِهِ وإنْ لمْ يكنْ فيهِ تفصيلٌ . . ما قالَهُ أبو سليمانَ الدارانيُّ ؛ إذْ قالَ : (سمعنا في الزهدِ كلاماً كثيراً ، والزهدُ عندَنا تركُ كلِّ شيءٍ يشغلُكَ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ)[1] ، وقدْ فصَّلَ مرَّةً وقالَ : (مَنْ تزوَّجَ ، أوْ سافرَ في طلبِ المعيشةِ ، أوْ كتبَ الحديثَ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)[2] ، فجعلَ جميعَ ذٰلكَ ضدّاً للزهدِ ، وقدْ قرأَ أبو سليمانَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ فقالَ : (هوَ القلبُ الذي ليسَ فيهِ غيرُ اللهِ تعالىٰ)[3]

وقالَ : (إنَّما زهدوا في الدنيا لتفرغَ قلوبُهُمْ مِنْ همومِها للآخرةِ)[4]

فهـٰذا بيانُ انقسامِ الزهدِ بالإضافةِ إلىٰ أصنافِ المزهودِ فيهِ .

فأمَّا بالإضافةِ إلىٰ أحكامِهِ : فينقسمُ إلىٰ فرضٍ ، ونفلٍ ، وسلامةٍ ؛ كما قالَهُ إبراهيمُ بنُ أدهمَ ، فالفرضُ هوَ الزهدُ في الحرامِ ، والنفلُ هوَ الزهدُ في الحلالِ ، والسلامةُ هوَ الزهدُ في الشبهاتِ[5]

وقدْ ذكرنا تفاصيلَ درجاتِ الورعِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ ، وذٰلكَ مِنَ الزهدِ ، إذْ قيلَ لمالكِ بنِ أنسٍ : ما الزهدُ ؟ قالَ : التقوىٰ .

وأمَّا بالإضافةِ إلىٰ خفايا ما يُتركُ : فلا نهايةَ للزهدِ فيهِ ، إذْ لا نهايةَ لما تتمتَّعُ بهِ النفسُ في الخطراتِ واللحظاتِ وسائرِ الحالاتِ ، لا سيما خفايا الرياءِ ، فإنَّ ذٰلكَ لا يطلعُ عليهِ إلا سماسرةُ العلماءِ ، بلِ الأمورُ الظاهرةُ أيضاً درجاتُ الزهدِ فيها لا تتناهىٰ .

فمِنْ أقصىٰ درجاتِها زهدُ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، إذْ توسَّدَ حجراً في نومِهِ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : أما كنتَ تركتَ الدنيا ، فما الذي بدا لكَ ؟ قالَ : وما الذي تجدَّدَ ؟ قالَ : توسدتَ الحجرَ ـ أي : تنعمتَ برفعِ رأسِكَ عنِ الأرضِ في النومِ ـ فرمى الحجرَ وقالَ : خذهُ معَ ما تركتُهُ لكَ[6]

---

(١) بنحوه عند صاحب « القوت » (٢٥٢/١) .

(٢) قوت القلوب (٢٥٢/١) .

(٣) قوت القلوب (٢٥٢/١) .

(٤) قوت القلوب (٢٥٢/١) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦/٨) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) عن إسماعيل بن أبي خالد .

ورُوِيَ عنْ يحيى بنِ زكريا عليهما السلامُ أنَّهُ لبسَ المسوحَ حتَّىٰ نَقِبَ جلدُهُ ؛ تركاً للتنعُّمِ بلينِ اللباسِ ، واستراحةِ حسِّ اللمسِ ، فسألَتْهُ أمُّهُ أنْ يلبسَ مكانَها جبَّةً مِنْ صوفٍ ، ففعلَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا يحيىٰ ؛ آثرتَ عليَّ الدنيا !! فبكىٰ ونزعَ الصوفَ ، وعادَ إلىٰ ما كانَ عليهِ [1]

وقالَ أحمدُ رحمهُ اللهُ : (الزهدُ زهدُ أويسٍ ، بلغَ مِنَ العريِ إلىٰ أنْ جلسَ في قَوْصرَّةٍ) [2]

وجلسَ عيسىٰ عليهِ السلامُ في ظلِّ حائطِ إنسانٍ ، فأقامَهُ صاحبُ الحائطِ ، فقالَ : ما أقمتَني أنتَ ، إنَّما أقامَني الذي لمْ يرضَ لي أنْ أتنعَّمَ بظلِّ الحائطِ [3]

فإذاً ؛ درجاتُ الزهدِ ظاهراً وباطناً لا حصرَ لها ، وأقلُّ درجاتِهِ الزهدُ في كلِّ شبهةٍ ومحظورٍ .

وقالَ قومٌ : الزهدُ هوَ الزهدُ في الحلالِ ، لا في الشبهةِ والمحظورِ ، فليسَ ذٰلكَ مِنْ درجاتِهِ في شيءٍ ، ثمَّ رأَوا أنَّهُ لمْ يبقَ حلالٌ في أموالِ الدنيا ، فلا يُتصوَّرُ الزهدُ الآنَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : مهما كانَ الصحيحُ هوَ أنَّ الزهدَ تركُ ما سوى اللهِ . . فكيفَ يُتصوَّرُ ذٰلكَ معَ الأكلِ والشربِ واللبسِ ، ومخالطةِ الناسِ ومكالمتِهِمْ وكلُّ ذٰلكَ اشتغالٌ بما سوى اللهِ تعالىٰ ؟

فاعلمْ : أنَّ معنى الانصرافِ عنِ الدنيا إلى اللهِ تعالىٰ هوَ الإقبالُ بكلِّ القلبِ عليهِ ذكراً وفكراً ، ولا يُتصوَّرُ ذٰلكَ إلا معَ البقاءِ ، ولا بقاءَ إلا بضرورياتِ النفسِ ، فمهما اقتصرتَ منَ الدنيا علىٰ دفعِ المهلكاتِ عنِ البدنِ وكانَ غرضُكَ الاستعانةَ بالبدنِ على العبادةِ . . لمْ تكنْ مشتغلاً بغيرِ اللهِ ؛ فإنَّ ما لا يُتوصَّلُ إلى الشيءِ إلا بهِ فهوَ منهُ ، فالمشتغلُ بعلفِ الناقةِ وبسقيِها في طريقِ الحجِّ ليسَ معرضاً عنِ الحجِّ ، ولٰكنْ ينبغي أنْ يكونَ بدنُكَ في طريقِ اللهِ مثلَ ناقتِكَ في طريقِ الحجِّ ، ولا غرضَ لكَ في تنعمِ ناقتِكَ باللذاتِ ، بلْ غرضُكَ مقصورٌ علىٰ دفعِ المهلكاتِ عنها ، حتَّىٰ تسيرَ بكَ إلىٰ مقصدِكَ ؛ فكذٰلكَ ينبغي أنْ تكونَ في صيانةِ بدنِكَ عنِ الجوعِ والعطشِ المهلِكِ بالأكلِ والشربِ ، وعنِ الحرِّ والبردِ المهلكِ باللباسِ والمسكنِ ، فتقتصرُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ، ولا تقصدُ التلذُّذَ ، بلِ التقوّيَ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فذٰلكَ لا يناقضُ الزهدَ ، بلْ هوَ شرطُ الزهدِ

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : لا بدَّ وأنْ أتلذَّذَ بالأكلِ عندَ الجوعِ .

فاعلمْ : أنَّ ذٰلكَ لا يضرُّكَ إذا لمْ يكنْ قصدُكَ التلذُّذَ ؛ فإنَّ شاربَ الماءِ الباردِ قدْ يستلذُّ الشربَ ويرجعُ حاصلُهُ إلىٰ زوالِ ألمِ العطشِ ، ومَنْ يقضي حاجتَهُ . . فقدْ يستريحُ بذٰلكَ ، ولٰكنْ لا يكونُ ذٰلكَ مقصوداً عندَهُ ومطلوباً بالقصدِ ، فلا يكونُ القلبُ منصرفاً إليهِ ، فالإنسانُ قدْ يستريحُ في قيامِ الليلِ بتنسُّمِ الأسحارِ وصوتِ الأطيارِ ، ولٰكنْ إذا لمْ يقصدْ طلبَ موضعِ لهٰذهِ الاستراحةِ . . فما يصيبُهُ مِنْ ذٰلكَ بغيرِ قصدِهِ لا يضرُّهُ .

---

(١) قوت القلوب (١/٢٦٥) .

(٢) نحوه عند أحمد في « الورع » (٢٤٢) ، وهو في « القوت » (١/٢٦٧) ، **والقوصرَّة** ـ وتخفف ـ : وعاء للتمر من قصب .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/٤١٩) بنحوه .

ولقدْ كانَ في الخائفينَ مَنْ طلبَ موضعاً لا يصيبُهُ فيهِ نسيمُ الأسحارِ خيفةً مِنَ الاستراحةِ بهِ وأنسِ القلبِ معَهُ ، فيكونُ فيهِ أنسٌ بالدنيا ، ونقصانٌ في الأنسِ باللهِ بقدْرِ وقوعِ الأنسِ بغيرِ اللهِ ، ولذٰلكَ كانَ داوودُ الطائيُّ لهُ حُبٌّ مكشوفٌ فيهِ ماؤُهُ[1] ، فكانَ لا يرفعُهُ مِنَ الشمسِ ويشربُ الماءَ الحارَّ ويقولُ : مَنْ وجدَ لذَّةَ الماءِ البارِدِ . . شقَّ عليهِ مفارقةُ الدنيا[2] .

فهٰذهِ مخاوفُ المحتاطينَ ، والحزمُ في جميعِ ذٰلكَ الاحتياطُ ، فإنَّهُ وإنْ كانَ شاقّاً . . فمدتُهُ قريبةٌ ، والاحتماءُ مدَّةً يسيرةً للتنعُّمِ على التأبيدِ لا يثقلُ علىٰ أهلِ المعرفةِ القاهرينَ أنفسَهُمْ بسياسةِ الشرعِ ، المعتصمينَ بعروةِ اليقينِ في معرفةِ المضادَّةِ التي بينَ الدنيا والدينِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ أجمعينَ .

* * *

---

(١) الحُبُّ : الخابية للماء ، جمعه : حِباب وحببة .

(٢) معناه عند أبي نعيم في « الحلية » (٧/٣٤٩ ، ٣٥١) .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلمْ : أنَّ ما الناسُ منهمكونَ فيهِ ينقسمُ إلىٰ فضولٍ وإلىٰ مهمٍّ .

فالفضولُ : كالخيلِ المسوَّمةِ مثلاً ؛ إذْ غالبُ الناسِ إنَّما يقتنيها للترفُّهِ بركوبِها ، وهوَ قادرٌ على المشيِ .

والمهمُّ : كالأكلِ والشربِ .

ولسنا نقدرُ علىٰ تفصيلِ أصنافِ الفضولِ ، فإنَّ ذٰلكَ لا ينحصرُ ، وإنَّما ينحصرُ المهمُّ الضروريُّ ، والمهمُّ أيضاً يتطرَّقُ إليهِ فضولٌ في مقدارِهِ وجنسِهِ وأوقاتِهِ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِ وجهِ الزهدِ فيهِ .

والمهماتُ ستةُ أمورٍ : المطعمُ ، والملبسُ ، والمسكنُ ، وأثاثُهُ ، والمنكحُ ، والمالُ ، والجاهُ يُطلبُ لأغراضٍ ، وهٰذهِ الستةُ مِنْ جملتِها[1] ، وقدْ ذكرنا معنى الجاهِ ، وسببَ حبِّ الخلقِ لهُ ، وكيفيةَ الاحترازِ منهُ في كتابِ الرياءِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نقتصرُ علىٰ بيانِ هٰذهِ المهمَّاتِ الستةِ .

❁ ❁ ❁

الأوَّلُ : المطعمُ :

ولا بدَّ للإنسانِ مِنْ قوتٍ حلالٍ يقيمُ صلبَهُ ، ولٰكنْ لهُ طولٌ وعرضٌ ، فلا بدَّ مِنْ قبضِ طولِهِ وعرضِهِ حتَّىٰ يتمَّ بهِ الزهدُ .

فأمَّا طولُهُ . . فبالإضافةِ إلىٰ جملةِ العمرِ ؛ فإنَّ مَنْ يملكُ طعامَ يومِهِ فلا يقنعُ بهِ ، وأما عرضُهُ . . ففي مقدارِ الطعامِ وجنسِهِ ووقتِ تناولِهِ .

أمَّا طولُهُ : فلا يقصرُ إلا بقصرِ الأملِ ، وأقلُّ درجاتِ الزهدِ فيهِ الاقتصارُ علىٰ قدْرِ دفعِ الجوعِ عندَ شدَّةِ الجوعِ وخوفِ المرضِ ، ومَنْ هٰذا حالُهُ فإذا استقلَّ بما تناولَهُ . . لمْ يدَّخرْ مِنْ غدائِهِ لعشائِهِ ، وهٰذهِ هيَ **الدرجةُ العليا** .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يدخرَ لشهرٍ أوْ لأربعينَ يوماً .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يدخرَ لسنةٍ فقطْ ، وهٰذهِ رتبةُ ضعفاءِ الزهَّادِ .

ومَنِ ادخرَ لأكثرَ مِنْ ذٰلكَ . . فتسميتُهُ زاهداً محالٌ ؛ لأنَّ مَنْ أملَ بقاءَ أكثرَ مِنْ سنةٍ . . فهوَ طويلُ الأملِ جداً ، فلا يتمُّ منهُ الزهدُ إلا إذا لمْ يكنْ لهُ كسبٌ ، ولمْ يرضَ لنفسِهِ الأخذَ مِنْ أيدي الناسِ ؛ كداوودَ الطائيِّ ، فإنَّهُ ورثَ عشرينَ ديناراً ، فأمسكَها وأنفقَها في عشرينَ سنةً[2] ، فهٰذا لا يضادُّ أصلَ الزهدِ إلا عندَ مَنْ جعلَ التوكُّلَ شرطَ الزهدِ .

وأمَّا عرضُهُ . . فبالإضافةِ إلى المقدارِ : وأقلُّ درجاتِهِ في اليومِ والليلةِ نصفُ رطلٍ ، وأوسطُهُ رطلٌ ، وأعلاهُ مدٌّ واحدٌ ، وهوَ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ في إطعامِ المسكينِ في الكفَّارةِ ، وما وراءَ ذٰلكَ . . فهوَ مِنِ اتساعِ البطنِ والاشتغالِ بهِ ، ومَنْ لمْ يقدرْ على الاقتصارِ علىٰ مدٍّ . . لمْ يكنْ لهُ مِنَ الزهدِ في البطنِ نصيبٌ .

---

(١) أي : الستة من جملة الأغراض التي يطلب الجاه لأجلها ، فليس الجاه معدوداً في المهمات ، وسيجعل المصنف رحمه الله تعالى المال والجاه في مهم واحد ، وهو المهم السادس .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٧/٧) .

وأمَّا بالإضافةِ إلى الجنسِ : فأقلُّهُ كلُّ ما يقوتُ ولوِ الخبزَ مِنَ النخالةِ ، وأوسطُهُ خبزُ الشعيرِ والذرةِ ، وأعلاهُ خبزُ البرِّ غيرَ منخولٍ ، فإذا ميزَ مِنَ النخالةِ وصارَ حُوَّارَىٰ . . فقدْ دخلَ في التنعُّمِ ، وخرجَ عنْ آخرِ أبوابِ الزهدِ فضلاً عنْ أوائلِهِ .

وأمَّا الأدمُ . . فأقلُّهُ الملحُ أوِ البقلُ أوِ الخلُّ ، وأوسطُهُ الزيتُ أوْ يسيرٌ مِنَ الأدهانِ أيَّ دهنٍ كانَ ، وأعلاهُ اللحمُ أيَّ لحمٍ كانَ ، وذٰلكَ في الأسبوعِ مرَّةً أوْ مرَّتينِ ، فإنْ صارَ دائماً ، أوْ أكثرَ مِنْ مرَّتينِ في الأسبوعِ . . خرجَ مِنْ آخرِ أبوابِ الزهدِ ، فلمْ يكنْ صاحبُهُ زاهداً في البطنِ أصلاً .

وأمَّا بالإضافةِ إلى الوقتِ : فأقلُّهُ في اليومِ والليلةِ مرَّةٌ ، وهوَ أنْ يكونَ صائماً ، وأوسطُهُ أنْ يصومَ ويشربَ ليلةً ولا يأكلَ ، ويأكلَ ليلةً ولا يشربَ ، وأعلاهُ ينتهي إلىٰ أنْ يطويَ ثلاثةَ أيامٍ أوْ أسبوعاً وما زادَ عليهِ ، وقدْ ذكرنا طريقَ تقليلِ الطعامِ وكسرِ شرهِهِ في ربعِ المهلكاتِ .

ولينظرْ إلىٰ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهِمْ في كيفيَّةِ زهدِهِمْ في المطاعمِ وتركِهِمُ الأدمَ ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها : كانَتْ تأتي علينا أربعونَ ليلةً وما يُوقدُ في بيتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مصباحٌ ولا نارٌ ، قيلَ لها : فبمَ كنتُمْ تعيشونَ ؟ قالَتْ : بالأسودينِ ؛ التمرِ والماءِ[1] . وهٰذا تركُ اللحمِ والمرقةِ والأدمِ .

وقالَ الحسنُ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يركبُ الحمارَ ، ويلبسُ الصوفَ ، وينتعلُ المخصوفَ ، ويلعقُ أصابعَهُ ، ويأكلُ على الأرضِ ، ويقولُ : « إنَّما أنا عبدٌ ، آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ »[2] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (بحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّهُ مَنْ طلبَ الفردوسَ فخبزُ الشعيرِ لهُ والنومُ على المزابلِ معَ الكلابِ كثيرٌ)[3] .

وقالَ الفضيلُ : (ما شبعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منذُ قدمَ المدينةَ ثلاثةَ أيامٍ مِنْ خبزِ البرِّ)[4] .

وكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ يقولُ : (يا بني إسرائيلَ ؛ عليكمْ بالماءِ القراحِ ، والبقلِ البرِّيِّ وخبزِ الشعيرِ ، وإيَّاكُمْ وخبزَ البرِّ ؛ فإنَّكُمْ لنْ تقوموا بشكرِهِ)[5] .

وقدْ ذكرنا سيرةَ الأنبياءِ والسلفِ في المطعمِ والمشربِ في ربعِ المهلكاتِ ، فلا نعيدُهُ .

ولمَّا أتىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أهلَ قُباءَ . . أتوهُ بشربةٍ مِنْ لبنٍ مشوبةٍ بعسلٍ ، فوضعَ القدحَ مِنْ يدِهِ وقالَ : « أما إنِّي لستُ أحرِّمُهُ ، ولٰكنِّي أتركُهُ تواضعاً للهِ تعالىٰ »[6]

---

(١) روى ابن ماجه (٤١٤٥) من حديثها رضي الله عنها : لقد كان يأتي علىٰ آل محمد صلى الله عليه وسلم الشهر ما يرىٰ في بيت من بيوته الدخان ، قال أبو سلمة : قلت : فما كان طعامهم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء . . . الحديث . وعند أحمد في « المسند » (٨٦/٦) : كان يمر برسول الله صلى الله عليه وسلم هلال وهلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار .

(٢) روىٰ قول الحسن إلىٰ قوله : (ويأكل على الأرض) ابنُ سعد في « طبقاته » (٣٢٠/١) ، والشطر الثاني منه رواه أيضاً ابن سعد في « طبقاته » (٣٢٨/١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٩٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧٤/٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٩/٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٢/٤٧) .

(٤) رواه البخاري (٥٤١٦) ، ومسلم (٢٩٧٠) .

(٥) هو عند مالك في « الموطأ » (٩٣٢/٢) بلاغاً عنه عليه السلام .

(٦) قوت القلوب (٢٥٦/١) ، وروى الحكيم الترمذي في « نوادره » (٤٢٦/٢) نحوه .

وأُتِي عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بشربةٍ مِنْ ماءٍ باردٍ وعسلٍ في يومٍ صائفٍ ، فقالَ : (اعزلوا عنِّي حسابَها)[1]

وقدْ قالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ : (الزاهدُ الصادقُ قوتُهُ ما وجدَ ، ولباسُهُ ما سترَ ، ومسكنُهُ حيثُ أدركَ ، الدنيا سجنُهُ ، والقبرُ مضجعُهُ ، والخلوةُ مجلسُهُ ، والاعتبارُ فكرتُهُ ، والقرآنُ حديثُهُ ، والربُّ أنيسُهُ ، والذكرُ رفيقُهُ ، والزهدُ قرينُهُ ، والحزنُ شأنُهُ ، والحياءُ شعارُهُ ، والجوعُ إدامُهُ ، والحكمةُ كلامُهُ ، والترابُ فراشُهُ ، والتقوىٰ زادُهُ ، والصمتُ غنيمتُهُ ، والصبرُ معتمدُهُ ، والتوكُّلُ حسبُهُ ، والعقلُ دليلُهُ ، والعبادةُ حرفتُهُ ، والجنَّةُ مبلغُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ)[2]

❁ ❁ ❁

المهمُّ الثاني : الملبسُ :

وأقلُّ درجاتِهِ ما يدفعُ الحرَّ والبردَ ويسترُ العورةَ ، وهوَ كساءٌ يتغطَّىٰ بهِ ، وأوسطُهُ قميصٌ وقلنسوةٌ ونعلانِ ، وأعلاهُ أنْ يكونَ معهُ منديلٌ وسراويلُ ، وما جاوزَ هـٰذا مِنْ حيثُ المقدارُ . . فهوَ مجاوزٌ حدَّ الزهدِ .

وشرطُ الزاهدِ ألا يكونَ لهُ ثوبٌ يلبسُهُ إذا غسلَ ثوبَهُ ، بلْ يلزمُهُ القعودُ في البيتِ ، فإذا صارَ صاحبَ قميصينِ ، وسراويلينِ ومنديلينِ . . فقدْ خرجَ مِنْ جميعِ أبوابِ الزهدِ . هـٰذا مِنْ حيثُ القدْرُ .

أمَّا الجنسُ . . فأقلُّهُ المسوحُ الخشنةُ ، وأوسطُهُ الصوفُ الخشنُ ، وأعلاهُ القطنُ الغليظُ .

وأمَّا مِنْ حيثُ الوقتُ . . فأقصاهُ ما يسترُ سنةً ، وأقلُّهُ ما يبقىٰ يوماً ، حتَّىٰ رقع بعضُهُمْ ثوبَهُ بورقِ الشجرِ وإنْ كانَ يتسارعُ الجفافُ إليهِ ، وأوسطُهُ ما يتماسكُ عليهِ شهراً أوْ ما يقاربُهُ ، فطلبُ ما يبقىٰ أكثرَ مِنْ سنةٍ خروجٌ إلىٰ طولِ الأملِ ، وهوَ مضادٌّ للزهدِ ، إلا إذا كانَ المطلوبُ خشونتَهُ ، ثمَّ قدْ يتبعُ ذٰلكَ قوَّتُهُ ودوامُهُ ، فمَنْ وجدَ زيادةً مِنْ ذٰلكَ . . فينبغي أنْ يتصدَّقَ بهِ ، فإنْ أمسكَهُ . . لمْ يكنْ زاهداً ، بلْ كانَ محبّاً للدنيا .

ولينظرْ فيهِ إلىٰ أحوالِ الأنبياءِ والصحابةِ كيفَ تركوا الملابسَ ، قالَ أبو بردةَ : أخرجَتْ لنا عائشةُ رضيَ اللهُ عنها كساءً ملبّداً وإزاراً غليظاً فقالَتْ : (قُبضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هـٰذينِ)[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ المتبذِّلَ الذي لا يبالي ما لبسَ »[4]

وقالَ عمرُو بنُ الأسودِ العنسيُّ : لا ألبسُ مشهوراً أبداً ، ولا أنامُ بليلٍ علىٰ دثارٍ أبداً ، ولا أركبُ علىٰ مأثورٍ أبداً ، ولا أملأُ جوفي مِنْ طعامٍ أبداً ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : مَنْ سرَّهُ أنْ ينظرَ إلىٰ هديِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فلينظرْ إلىٰ عمرِو بنِ الأسودِ[5]

وفي الخبرِ : « ما مِنْ عبدٍ لبسَ ثوبَ شهرةٍ إلا أعرضَ اللهُ تعالىٰ عنهُ حتَّىٰ ينزعَهُ وإنْ كانَ عندَهُ حبيباً »[6]

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) .

(٢) رواه بنحوه البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٥) .

(٣) رواه البخاري (٣١٠٨) ، ومسلم (٣٥/٢٠٨٠) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٧٦٤ ـ ٥٧٦٥) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢٠٦) .

(٥) كذا في « القوت » (٢٥٨/١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥٥/٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٧/٤٥) ، وروىٰ قول عمر رضي الله عنه مفرداً أحمد في « المسند » (١٨/١) ، **والمأثور** : اللين السهل ، يقال : وثر الشيء وثارة ؛ لان وسهل ، فهو وثير ، كذا ذكر العلامة الزبيدي في « الإتحاف » (٣٥٢/٩) ، وفي « القوت » : (مأبور) بدل (مأثور) .

(٦) كذا في « القوت » (٢٥٨/١) ، ورواه ابن ماجه (٣٦٠٨) ولم يقل : (وإن كان عنده حبيباً) ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (١٩٩٧٦) عن شهر بن حوشب قال : (من لبس ثوب شهرة أو ركب مركب شهرة . . أعرض الله عنه وإن كان عليه كريماً) .

واشترىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثوباً بأربعةِ دراهمَ[1] ، وكانَ قيمةُ ثوبيهِ عشرةَ دراهمَ[2] ، وكانَ إزارُهُ أربعةَ أذرعٍ ونصفاً[3] ، واشترىٰ سراويلَ بثلاثةِ دراهمَ[4] ، وكانَ يلبسُ شملتينِ بيضاوينِ مِنْ صوفٍ ، وكانَتْ تُسمَّىٰ حُلَّةً ؛ لأنَّهُما ثوبانِ مِنْ جنسٍ واحدٍ[5] ، وربما كانَ يلبسُ بردينِ يمانيينِ أوْ سَحُوليَّينِ مِنْ هـٰذهِ الغلاظِ[6]

وفي الخبرِ : (كانَ قميصُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كأنَّهُ قميصُ زيَّاتٍ)[7]

ولبسَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً واحداً ثوباً سِيَراءَ مِنْ سندسٍ قيمتُهُ مئتا درهمٍ[8] ، فكانَ أصحابُهُ يلمسونَهُ ويقولونَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أُنزلَ عليكَ هـٰذا مِنَ الجنَّةِ ؟! تعجباً ، وكانَ قدْ أهداهُ إليهِ المقوقسُ ملكُ الإسكندريةِ ، فأرادَ أنْ يكرمَهُ بلبسِهِ ، ثمَّ نزعَهُ وأرسلَ بهِ إلىٰ رجلٍ مِنَ المشركينِ وصلَةً بهِ ، ثمَّ حرَّمَ لبسَ الحريرِ والديباجِ ، وكأنَّهُ إنَّما لبسَهُ أوَّلاً تأكيداً للتحريمِ ؛ كما لبسَ خاتماً مِنْ ذهبٍ يوماً ثمَّ نزعَهُ فحرَّمَ لبسَهُ على الرجالِ ، وكما قالَ لعائشةَ في شأنِ بريرةَ : « اشترطي لأهلِها الولاءَ » ، فلما اشترطَتْهُ . . صعدَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ المنبرَ فحرَّمَهُ ، وكما أباحَ المتعةَ ثلاثاً ثمَّ حرَّمَها لتأكيدِ أمرِ النكاحِ[9]

وقدْ صلَّىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في خميصةٍ لها علمٌ ، فلمَّا سلَّمَ . . قالَ : « شغلَتني النظرُ إلىٰ هـٰذهِ ، اذهبوا بها إلىٰ أبي جهمٍ وأْتوني بأنبجانيتِهِ »[10] ؛ يعني كساءَهُ ، فاختارَ لبسَ الكساءِ على الثوبِ الناعمِ[11]

وكانَ شراكُ نعلِهِ قدْ أخلقَ ، فأُبدلَ بسيرٍ جديدٍ ، فصلَّىٰ فيهِ ، فلمَّا سلَّمَ . . قالَ : « أعيدوا الشراكَ الخَلَقَ ، وانزعوا هـٰذا الجديدَ ؛ فإنِّي نظرتُ إليهِ في الصلاةِ »[12]

ولبسَ خاتماً مِنْ ذهبٍ ، فنظرَ إليهِ على المنبرِ نظرةً ، فرمىٰ بهِ وقالَ : « شغلَني هـٰذا عنكُمْ ، نظرةٌ إليهِ ونظرةٌ إليكُمْ »[13]

---

(1) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٨٣٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : (فاشترىٰ سراويل بأربعة دراهم) ، وسياق المصنف عند صاحب « القوت » (٢٥٩/١) .

(2) كذا في « القوت » (٢٥٩/١) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده) . « إتحاف » (٢٥٣/٩) .

(3) كذا في « القوت » (٢٥٩/١) ، وروىٰ أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٢٧٢) عن عروة بن الزبير قال : (كان طول رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعين ونصفاً ، وكان له ثوب أخضر يلبسه للوفود إذا قدموا عليه) ، وعند ابن سعد في « طبقاته » (٢١٥/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : (وكان له إزار من نسج عمان طوله أربع أذرع وشبر في ذراعين وشبر) .

(4) كذا في « القوت » (٢٥٩/١) ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢٩٣٦/٥) ، وتقدم حديث شرائه لها بأربعة دراهم .

(5) ففي حديث سلمان رضي الله عنه وقصة إسلامه التي رواها أحمد في « المسند » (٤٤١/٥) : (ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له . . .) الحديث .

(6) كذا في « القوت » (٢٥٩/١) ، وروىٰ ذٰلك البخاري (٣١٠٨) ، ومسلم (٢٠٨٠) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها بنحوه .

(7) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٣) .

(8) السِّيراء : ضرب من البرود فيه خطوط صفر .

(9) السياق بتمامه عند صاحب « القوت » (٢٥٩/١) ، ولبس الخاتم الذهب ونزعه رواه البخاري (٥٨٦٧) ، وحديث بريرة رضي الله عنها رواه البخاري (٤٥٦) ، ومسلم (١٥٠٤) ، وإباحة المتعة ثلاثاً ثم النهي عنها عند مسلم (١٤٠٥) .

(10) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٦٢/٥٥٦) .

(11) وفيه حجة علىٰ من ادعى الزهد بلبس الناعم ، وأن ذٰلك لا يضر الزاهد ولا يخرجه عن حقيقة الزهد ، وفيه إبطال لمن ادعىٰ أن النظر إلى الزينة لا يشغله ، وأن الرونق والفتنة لا تدخل عليه ؛ إذ لا يقدر أن يقول : إنه غير مقام الرسول ، فاعتبروا يا ذوي البصائر والعقول ، تمويه الراغبين بالزهد مع استعمال الفضول . « إتحاف » (٣٥٤/٩) .

(12) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) .

(13) رواه النسائي (١٩٤/٨) .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدِ احتذىٰ نعلينِ جديدينِ ، فأعجبَهُ حسنُهُما ، فخرَّ ساجداً ، وقالَ : « أعجبَني حسنُهُما فتواضعتُ لربِّي خشيةَ أنْ يمقتَني » ، ثمَّ خرجَ بهما فدفعَهُما إلىٰ أوَّلِ مسكينٍ رآهُ[١]

وعنْ سهلِ بنِ سعدٍ قالَ : حيكَتْ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جبةٌ مِنْ صوفِ أنمارٍ ، وجُعلَتْ حاشيتُها سوداءَ ، فلمَّا لبسَها . . قالَ : « انظروا ما أحسنَها ، ما ألينَها !! » قالَ : فقامَ إليهِ أعرابيٌّ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هبْها لي ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا سُئِلَ شيئاً . . لمْ يبخلْ بهِ ، قالَ : فدفعَها إليهِ ، وأمرَ أنْ يُحاكَ لهُ واحدةٌ أخرىٰ ، فماتَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهيَ في المحاكةِ[٢]

وعنْ جابرٍ قالَ : دخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ فاطمةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها وهيَ تطحنُ بالرحىٰ وعليها كساءٌ مِنْ أجلةِ الإبلِ ، فلمَّا نظرَ إليها . . بكىٰ وقالَ : « يا فاطمةُ ؛ تجرَّعي مرارةَ الدنيا لنعيمِ الأبدِ » ، فأُنزلَ عليهِ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾[٣]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ خيارِ أمَّتي فيما أنبأَني الملأُ الأعلىٰ قوماً يضحكونَ جهراً مِنْ سعةِ رحمةِ ربِّهِمْ ، ويبكونَ سرّاً مِنْ خوفِ عذابِهِ ، مؤنتُهُمْ على الناسِ خفيفةٌ وعلىٰ أنفسِهِمْ ثقيلةٌ ، يلبسونَ الخُلْقانَ ، ويتبعونَ الرهبانَ ، أجسامُهُمْ في الأرضِ وأفئدتُهُمْ عندَ العرشِ »[٤]

فهٰذهِ كانَتْ سيرةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الملابسِ ، وقدْ أوصىٰ أمَّتَهُ عامَّةً باتباعِهِ إذْ قالَ : « مَنْ أحبَّني . . فليستنَّ بسنَّتي »[٥] ، وقالَ : « عليكُمْ بسنَّتي وسنَّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ مِنْ بعدي ، عضُّوا عليها بالنواجذِ »[٦] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

وأوصىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها خاصَّةً وقالَ لها : « إنْ أردتِ اللحوقَ بي . . فإيَّاكِ ومجالسةَ الأغنياءِ ، ولا تنزعي ثوباً حتَّىٰ ترقعيهِ »[٧]

وعُدَّ علىٰ قميصٍ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ اثنتا عشرةَ رقعةً بعضُها مِنْ أدمٍ[٨]

واشترىٰ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ثوباً بثلاثةِ دراهمَ ولبسَهُ وهوَ في الخلافةِ ، وقطعَ كمَّيْهِ مِنَ الرسغينِ وقالَ : (الحمدُ للهِ الذي كساني هٰذا مِنْ رياشِهِ)[٩]

وقالَ الثوريُّ وغيرُهُ : (البسْ مِنَ الثيابِ ما لا يشهرُكَ عندَ العلماءِ ، ولا يحقرُكَ عندَ الجهَّالِ)[١٠] ، وكانَ يقولُ : (إنَّ

---

(١) قوت القلوب (٢/١٠٥) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/١٣٠) : (قال العراقي : رواه أبو عبد الله بن خفيف في « شرف الفقراء » من حديث عائشة بإسناد ضعيف) .

(٢) رواه بتمامه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٣٠٩) .

(٣) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (٤٤٥) ، وقال الحافظ السيوطي في « الدر المنثور » (٨/٥٤٣) : (أخرجه العسكري في « المواعظ » وابن مردويه ، وابن لال ، وابن النجار عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/١٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٤٩) .

(٥) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠٣٧٨) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٧٤٨) عن عبيد بن سعد مرسلاً .

(٦) رواه أبو داوود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) .

(٧) رواه الترمذي (١٧٨٠) .

(٨) رواه أحمد في « الزهد » (٦٥٤) .

(٩) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/٤٨٣) ، والجريري في « الجليس الصالح والأنيس الناصح » (٤/١٨٥) .

(١٠) كذا في « القوت » (١/٢٥٨) .

الفقيرَ ليمرُّ بي وأنا أصلِّي فأدعهُ يجوزُ ، ويمرُّ بي واحدٌ مِنْ أبناءِ الدنيا وعليهِ هـٰذهِ البِزَّةُ فأمقتُهُ ولا أدعُهُ يجوزُ)[1]

وقالَ بعضُهُمْ : (قوَّمتُ ثوبي سفيانَ ونعليهِ بدرهمٍ وأربعةِ دوانيقَ)[2] .

وقالَ ابنُ شبرمةَ : (خيرُ ثيابي ما خدمَني ، وشرُّها ما خدمتُهُ)[3]

وقالَ بعضُ السلفِ : (البسْ مِنَ الثيابِ ما يخلطُكَ بالسوقةِ ، ولا تلبسْ منها ما يشهرُكَ فيُنظرَ إليكَ)[4]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الثيابُ ثلاثةٌ : ثوبٌ للهِ وهوَ ما يسترُ العورةَ ، وثوبٌ للنفسِ وهوَ ما يُطلبُ لينُهُ ، وثوبٌ للناسِ وهوَ ما يُطلبُ جوهرُهُ وحسنُهُ)[5]

وقالَ بعضُهُمْ : (مَنْ رقَّ ثوبُهُ . . رقَّ دينُهُ)[6]

وكانَ جمهورُ العلماءِ مِنَ التابعينَ قيمةُ ثيابِهِمْ ما بينَ العشرينَ إلى الثلاثينَ درهماً[7]

وكانَ الخوَّاصُ لا يلبسُ أكثرَ مِنْ قطعتينِ ؛ قميصٍ ومئزرٍ تحتَهُ ، وربما يعطفُ ذيلَ قميصِهِ علىٰ رأسِهِ[8]

وقالَ بعضُ السلفِ : (أوَّلُ النسكِ الزيُّ)[9]

وفي الخبرِ : « البذاذةُ مِنَ الإيمانِ »[10]

وفي الخبرِ : « مَنْ تركَ ثوبَ جمالٍ وهوَ يقدرُ عليهِ تواضعاً للهِ تعالىٰ وابتغاءً لوجهِهِ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يدخرَ لهُ مِنْ عبقريِّ الجنةِ في تخاتِ الياقوتِ »[11]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : (قلْ لأوليائي : لا يلبسوا ملابسَ أعدائي ، ولا يدخلوا مداخلَ أعدائي ، فيكونوا أعدائي كما هُمْ أعدائي)[12]

ونظرَ رافعُ بنُ خديجٍ إلىٰ بشرِ بنِ مروانَ علىٰ منبرِ الكوفةِ وهوَ يعظُ فقالَ : (انظروا إلىٰ أميرِكُمْ !! يعظُ الناسَ وعليهِ ثيابُ الفسّاقِ !!)[13] ، وكانَ عليهِ ثيابٌ رقاقٌ .

وجاءَ عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ إلىٰ أبي ذرٍّ في بزَّتِهِ ، فجعلَ يتكلَّمُ في الزهدِ ، فوضعَ أبو ذرٍّ راحتَهُ علىٰ فيهِ وجعلَ

---

(١) قوت القلوب (١/٢٥٨) .
(٢) قوت القلوب (١/٢٥٨) .
(٣) قوت القلوب (١/٢٥٨) .
(٤) قوت القلوب (١/٢٥٨) .
(٥) قوت القلوب (١/٢٥٨) بنحوه وقال : (وقد يكون الثوب الواحد لله تعالىٰ وللنفس) .
(٦) قوت القلوب (١/٢٥٦) ، ورواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (٢/٨٠) عن أبي الغدير المليكي .
(٧) كذا في « القوت » (١/٢٥٩) ، ومما رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٩٦) عن الأحنف بن قيس قال : ما كذبت قط إلا مرة ، فإن عمر نظر إلي مرة فقال : بكم أخذت هـٰذا الثوب ؟ فألقيت ثلثي ثمنه ، فقال : إن رداءك هـٰذا لحسن لولا كثرة ثمنه .
(٨) قوت القلوب (١/٢٥٨) .
(٩) قوت القلوب (١/٢٥٦) .
(١٠) رواه أبو داوود (٤١٦١) ، وابن ماجه (٤١١٨) .
(١١) هو متوازع بين روايتين عند صاحب « القوت » (١/٢٥٦) ، وقد رواه بنحوه الترمذي (٢٤٨١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/١٨٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٤٧) ، والتخات : جمع تخت ، لفظة فارسية ، صندوق الملابس هنا .
(١٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٧١) عن مالك بن دينار .
(١٣) قوت القلوب (١/٢٥٦) .

يضرطُ بهِ ، فغضبَ ابنُ عامرٍ ، فشكاهُ إلى ابنِ عمرَ ، فقالَ : أنتَ صنعتَ بنفسِكَ ، تتكلَّمُ في الزهدِ بينَ يديهِ بهـٰذهِ البِزَّةِ ؟![1]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخذَ علىٰ أئمةِ الهدىٰ أنْ يكونوا في مثلِ أدنىٰ أحوالِ الناسِ ؛ ليقتديَ بهمُ الغنيُّ ، ولا يزريَ بالفقيرِ فقرُهُ)[2] ، ولمَّا عُوتِبَ في خشونةِ لباسِهِ . . قالَ : (هو أدنىٰ إلى التواضعِ ، وأجدرُ أنْ يقتديَ بهِ المسلمُ)[3]

ونهىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ التنعُّمِ وقالَ : « إنَّ عبادَ اللهِ ليسوا بالمتنعِّمينَ »[4]

ورُئِيَ فضالةُ بنُ عبيدٍ وهوَ والي مصرَ أشعثَ حافياً ، فقيلَ لهُ : أنتَ الأميرُ وتفعلُ هـٰذا ؟! فقالَ : نهانا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإرفاهِ ، وأمرَنا أنْ نحتفيَ أحياناً[5]

وقالَ عليٌّ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (إنْ أردتَ أنْ تلحقَ بصاحبيكَ . . فارقعِ القميصَ ، ونكِّسِ الإزارَ ، واخصفِ النعلَ ، وكُلْ دونَ الشبعِ)[6]

وقالَ عمرُ : (اخلولقوا واخشوشنوا ، وإيَّاكُمْ وزيَّ العجمِ ؛ كسرىٰ وقيصرَ)[7]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ تزيَّا بزيِّ قومٍ . . فهوَ منهُمْ)[8]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ شرارِ أمَّتي الذينَ غُذوا بالنعيمِ ، يطلبونَ ألوانَ الطعامِ وألوانَ الثيابِ ويتشدقونَ في الكلامِ »[9]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إزرةُ المؤمنِ إلىٰ أنصافِ ساقيهِ ، ولا جناحَ عليهِ فيما بينَهُ وبينَ الكعبينِ ، وما أسفلَ مِنْ ذٰلكَ ففي النارِ ، ولا ينظرُ اللهُ يومَ القيامةِ إلىٰ مَنْ جرَّ إزارَهُ بطراً »[10]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يلبسُ الشعرَ مِنْ أمَّتي إلا مراءٍ أوْ أحمقُ »[11]

---

(١) قوت القلوب (١/٢٥٧) ، وعند الترمذي (٢٢٢٤) عن زياد بن كسيب قال : كنت مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثياب رقاق ، فقال أبو بلال : انظروا إلىٰ أميرنا يلبس ثياب الفساق !! فقال أبو بكرة : اسكت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أهان سلطان الله في الأرض . . أهانه الله » .

(٢) قوت القلوب (١/٢٥٧) .

(٣) كذا في « القوت » (١/٢٥٧) ، وبنحوه رواه أحمد في « المسند » (١/٩١) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٧٦٦) .

(٥) رواه أبو داوود (٤١٦٠) .

(٦) كذا في « القوت » (١/٢٥٧) ، وبنحوه رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٦٤) .

(٧) قوت القلوب (١/٢٥٧) ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » (٥٤٥٤) ولفظه : (اتزروا وارتدوا وانتعلوا وارموا بالخفاف واقطعوا السراويلات ، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل ، وإياكم والتنعم وزي العجم ، وعليكم بالشمس ؛ فإنها حمام العرب ، واخشوشنوا واخلولقوا وارموا الأغراض ، وانزوا نزواً . . .) .

(٨) كذا في « القوت » (١/٢٥٧) ، وتقدم مرفوعاً خبر : « من تشبه بقوم . . فهو منهم » ، وهو ما رواه أبو داوود (٤٠٣١) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/٣١٨) .

(١٠) رواه أبو داوود (٤٠٩٣) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٦٣٢) ، وابن ماجه (٣٥٧٣) .

(١١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له إسناداً) . « إتحاف » (٩/٣٥٩) .

وقالَ الأوزاعيُّ : (لباسُ الصوفِ في السفرِ سنَّةٌ ، وفي الحضرِ بدعةٌ)[(١)]

ودخلَ محمدُ بنُ واسعٍ علىٰ قتيبةَ بنِ مسلمٍ وعليهِ جبَّةُ صوفٍ ، فقالَ لهُ قتيبةُ : ما دعاكَ إلىٰ مدرعةِ الصوفِ ؟ فسكتَ ، فقالَ : أكلِّمُكَ ولا تجيبُني ؟! فقالَ : أكرهُ أنْ أقولَ : زهداً . . فأزكِّيَ نفسي ، أوْ أقولَ : فقراً . . فأشكوَ ربِّي[(٢)] .

وقالَ أبو سليمانَ : (لما اتخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً . . أوحىٰ إليهِ أنْ وارِ عورتَكَ مِنَ الأرضِ ، وكانَ لا يتخذُ مِنْ كلِّ شيءٍ إلا واحداً سوى السراويلِ ، فإنَّهُ كانَ يتخذُ سراويلينِ ، فإذا غسلَ أحدَهُما . . لبسَ الآخرَ ؛ حتَّىٰ لا يأتيَ عليهِ حالٌ إلا وعورتُهُ مستورةٌ)[(٣)]

وقيلَ لسلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ : ما لكَ لا تلبسُ الجيِّدَ مِنَ الثيابِ ؟ فقالَ : وما للعبدِ والثوبَ الحسنَ ؟ فإذا أعتقَ . . فلهُ ـ واللهِ ـ ثيابٌ لا تبلىٰ أبداً[(٤)]

ويُروىٰ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ أنَّهُ كانَ لهُ جبَّةُ شعرٍ وكساءُ شعرٍ يلبسُهُما مِنَ الليلِ إذا قامَ يصلِّي .

وقالَ الحسنُ لفرقدٍ السبخيِّ : تحسبُ أنَّ لكَ فضلاً على الناسِ بكسائِكَ ؟ بلغَني أنَّ أكثرَ أهلِ النارِ أصحابُ الأكسيةِ نفاقاً[(٥)]

وقالَ يحيى بنُ معينٍ : رأيتُ أبا معاويةَ الأسودَ وهوَ يلتقطُ الخرقَ مِنَ المزابلِ ويغسلُها ويلفقُها ويلبسُها ، فقلتُ : إنَّكَ تُكسىٰ خيراً مِنْ هـٰذا !! فقالَ : ما ضرَّهُمْ ما أصابَهُمْ في الدنيا ، جبرَ اللهُ لهمْ بالجنَّةِ كلَّ مصيبةٍ ، فجعلَ يحيى بنُ معينٍ يحدِّثُ بهـٰذا ويبكي[(٦)]



المهمُّ الثالثُ : المسكنُ :

وللزهدِ أيضاً فيهِ ثلاثُ درجاتٍ :

أعلاها : ألا يطلبَ موضعاً خاصّاً لنفسِهِ ، فيقنعَ بزوايا المساجدِ كأصحابِ الصفَّةِ .

وأوسطُها : أنْ يطلبَ موضعاً خاصّاً لنفسِهِ ؛ مثلَ كوخٍ مبنيٍّ مِنْ سعفٍ أوْ خصٍّ أوْ ما يشبهُهُ[(٧)]

وأدناها : أنْ يطلبَ حجرةً مبنيةً ؛ إمَّا بشراءٍ أوْ إجارةٍ ، فإنْ كانَ قدْرُ سعةِ المسكنِ علىٰ قدْرِ حاجتِهِ مِنْ غيرِ زيادةٍ ،

---

(١) رواه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٩٦/١٧) بسنده إلى الأوزاعي ، وقد عقد الحافظ الإمام النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٥٨٥) باباً في كتاب الزينة بعنوان : لبس الجباب الصوف في السفر ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر وعليه جبة شامية من صوف .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٧٩) .

(٣) بعض الخبر عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٨٠٥) .

(٤) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٩٧/١) أنه رضي الله عنه كان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها ، وإذا خرج عطاؤه . . أمضاه ، ويأكل من سفيف يده .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥٦/٢) .

(٦) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٢) .

(٧) **الخُصُّ** : البيت من قصب ، وفي (أ) : (الخوص) وهو ورق النخل ، وهـٰذا الوسط كان وصف مسكن الأسوة الحسنة صلى الله عليه وسلم ، إذ لم تكن بيوت أزواجه عليه الصلاة والسلام من حجر أو لَبِن ، بل كانت من سعف وطين ، روى ابن سعد في « طبقاته » (٤٣٠/١) عن عمران بن أبي أنس قال : (أدركت حُجَر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل علىٰ أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرتُ كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ ، يأمر بإدخال حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم) .

ولـمْ يكنْ فيهِ زينةٌ . . لمْ يخرجْهُ هـٰذا القدْرُ عن آخرِ درجاتِ الزهدِ ، فإنْ طلبَ التشييدَ والتجصيصَ والسعةَ وارتفاعَ السقفِ أكثرَ مِنْ ستةِ أذرعٍ . . فقدْ جاوزَ بالكليَّةِ حدَّ الزهدِ في المسكنِ .

فاختلافُ جنسِ البناءِ بأنْ يكونَ بالجصِّ أوِ القصبِ أوْ بالطينِ أوْ بالآجرِّ ، واختلافُ قدرِهِ بالسعةِ والضيقِ ، واختلافُ طولِهِ بالإضافةِ إلى الأوقاتِ بأنْ يكونَ مملوكاً أوْ مستأجراً أوْ مستعاراً ، وللزهدِ مدخلٌ في جميعِ ذٰلكَ .

وبالجملةِ : كلُّ ما يُرادُ للضرورةِ فلا ينبغي أنْ يجاوزَ حدَّ الضرورةِ ، وقدْرُ الضرورةِ مِنَ الدنيا آلةُ الدينِ ووسيلتُهُ ، وما جاوزَ ذٰلكَ فهوَ مضادٌّ للدينِ ، والغرضُ مِنَ المسكنِ دفعُ المطرِ والبردِ ، ودفعُ الأعينِ والأيدي ، وأقلُّ الدرجاتِ فيه معلومٌ ، وما زادَ عليهِ فهوَ منَ الفضولِ ، والفضولُ كلُّهُ مِنَ الدنيا ، وطالبُ الفضولِ والساعي لهُ بعيدٌ مِنَ الزهدِ جداً .

وقدْ قيلَ : أوَّلُ شيءٍ ظهرَ مِنْ طولِ الأملِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التدريزُ والتشييدُ ، يعني بالتدريزِ : كفَّ دروزِ الثيابِ ؛ فإنَّها كانَتْ تُشلُّ شلّاً[1] ، والتشييدُ هوَ البنيانُ بالجصِّ والآجرِّ ، وإنَّما كانوا يبنونَ بالسعفِ والجريدِ[2] ، وقدْ جاءَ في الأثرِ : (يأتي على الناسِ زمانٌ يوشُّونَ بنيانَهُمْ كما تُوشَّى البرودُ اليمانيةُ)[3]

وأمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ العباسَ أنْ يهدمَ عِلِّيَّةً كانَ قدْ علا بها[4] ، ومرَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بجُنْبُذةٍ معلَّاةٍ فقالَ : « لمَنْ هـٰذهِ » ؟ فقالوا : لفلانٍ ، فلمَّا جاءَهُ الرجلُ . . أعرضَ عنهُ ، فلمْ يكنْ يقبلُ عليهِ كما كانَ ، فسألَ الرجلُ أصحابَهُ عنْ تغيُّرِ وجهِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأُخبرَ ، فذهبَ فهدمَها ، فمرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالموضعِ فلمْ يرَها ، فأُخبرَ بأنَّهُ هدمَها ، فدعا لهُ بخيرٍ[5]

وقالَ الحسنُ : (ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولمْ يضعْ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ)[6]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ شرّاً . . أهلكَ مالَهُ في الماءِ والطينِ »[7]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : مرَّ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ نعالجُ خُصّاً ، فقالَ : « ما هـٰذا ؟ » قلنا : خُصٌّ لنا قدْ وَهىٰ ، فقالَ : « أرى الأمرَ أعجلَ مِنْ ذٰلكَ »[8]

واتخذَ نوحٌ عليهِ السلامُ بيتاً مِنْ قصبٍ ، فقيلَ لهُ : لوْ بنيتَ ، فقالَ : هـٰذا كثيرٌ لمَنْ يموتُ[9]

---

(١) أي : تخاط خياطة خفيفة ، بخلاف الدرز الذي هو التدقيق فيها ، روى الحاكم في « المستدرك » (٤/١٩٥) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : لبس عمر قميصاً جديداً ثم قال : مدَّ كميَّ يا بني والزق يدك بأطراف أصابعي واقطع ما فضل عنهما ، قال : فقطعت من الكمين ، فصار فم الكمين بعضه فوق بعض ، فقلت : لو سويته بالمقص ، قال : دعه يا بني ، هـٰكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، قال ابن عمر : فما زال القميص علىٰ أبي حتىٰ تقطَّع ، وما كنا نصلي حتىٰ رأيت بعض الخيوط تتساقط علىٰ قدميه

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٦٠) والسياق عنده ، وعند البخاري (٤٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان علىٰ عهده مبنياً باللبن ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل .

(٣) كذا في « القوت » (١/٢٦٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٤٢) .

(٥) رواه أبو داوود (٥٢٣٧) وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فرأىٰ قبة مشرفة . . . الحديث ، **والجنبذة** : لفظة فارسية معربة ، أصلها : گنبد ، وهي القبة .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/١٥٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٤٠) .

(٧) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/١٨٥) من حديث جابر رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٣٥) من حديث محمد بن بشير الأنصاري .

(٨) رواه أبو داوود (٥٢٣٥) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، وابن ماجه (٤١٦٠) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٦٦) .

وقالَ الحسنُ : دخلنا علىٰ صفوانَ بن مُحْرزٍ وهوَ في بيتٍ مِنْ قصبٍ قدْ مالَ عليهِ ، فقيلَ لهُ : لوْ أصلحتَهُ ، فقالَ : كم مِنْ رجلٍ قدْ ماتَ وهـٰذا قائمٌ علىٰ حالِهِ[(١)]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بنىٰ فوقَ ما يكفيهِ . . كُلِّفَ أنْ يحملَهُ يومَ القيامةِ »[(٢)]

وفي الخبرِ : « كلُّ نفقةٍ يُؤجرُ عليها العبدُ إلا ما أنفقَهُ في الماءِ والطينِ »[(٣)]

وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ أنَّهُ الرئاسةُ والتطاولُ في البنيانِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ بناءٍ وبالٌ علىٰ صاحبِهِ يومَ القيامةِ إلا ما أكنَّ مِنْ حرٍّ وبردٍ »[(٤)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرجلِ الذي شكا إليهِ ضيقَ منزلِهِ : « اتسعْ في السماءِ » أيْ : في الجنَّةِ[(٥)]

ونظرَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في طريقِ الشامِ إلىٰ صرحٍ قدْ بُنِيَ بجصٍّ وآجرٍّ ، فكبَّرَ وقالَ : (ما كنتُ أظنُّ أنْ يكونَ في هـٰذهِ الأمَّةِ مَنْ يبني بنيانَ هامانَ لفرعونَ)[(٦)] ؛ يعني قولَ فرعونَ : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾ ؛ يعني بهِ الآجرَّ .

ويُقالُ : إنَّ فرعونَ هوَ أوَّلُ مَنْ بُنِيَ لهُ بالجصِّ والآجرِّ ، وأوَّلُ مَنْ عملَهُ هامانُ ، ثمَّ تبعَهُما الجبابرةُ ، وهـٰذا هوَ الزخرفُ[(٧)]

وذكرَ بعضُ السلفِ جامعاً في بعضِ الأمصارِ فقالَ : أدركتُ هـٰذا المسجدَ مبنياً مِنَ الجريدِ والسعفِ ، ثمَّ رأيتُهُ مبنياً مِنْ رهوصٍ ، ثمَّ رأيتُهُ الآنَ مبنياً باللَّبِنِ ، فكانَ أصحابُ السعفِ خيراً مِنْ أصحابِ الرهوصِ ، وكانَ أصحابُ الرهوصِ خيراً مِنْ أصحابِ اللَّبِنِ[(٨)]

وكانَ في السلفِ مَنْ يبني دارَهُ مراراً في مدَّةِ عمرِهِ لضعفِ بنائِهِ ، وقصرِ أملِهِ ، وزهدِهِ في إحكامِ البنيانِ ، وكانَ منهُمْ مَنْ إذا حجَّ أوْ غزا . . نزعَ بيتَهُ أوْ وهبَهُ لجيرانِهِ ، فإذا رجعَ . . أعادَهُ ، وكانَتْ بيوتُهُمْ مِنَ الحشيشِ والجلودِ ، وهيَ عادةُ العربِ الآنَ ببلادِ اليمنِ[(٩)]

وكانَ ارتفاعُ بناءِ السلفِ قامةً وبسطةً ، قالَ الحسنُ : (كنتُ إذا دخلتُ بيوتَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضربتُ بيدي إلى السقفِ)[(١٠)]

---

(١) بنحوه عند ابن سعد في « طبقاته » (٩/١٤٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٢٧) .
(٣) رواه بنحوه ابن ماجه (٤١٦٣) ففيه : « إن العبد ليؤجر في نفقته كلها إلا في التراب » أو قال : « في البناء » .
(٤) كذا في « القوت » (١/٢٦١) ، وهو عند أبي داوود (٥٢٣٧) في الحديث الذي فيه ذكر القبة المتقدم قريباً ، ولفظه : « أما إن كل بناء وبال علىٰ صاحبه إلا ما لا ، إلا ما لا » ؛ يعني : ما لا بد منه .
(٥) كذا في « القوت » (١/٢٦١) ، ورواه ابن شبة في « تاريخ المدينة » (١/٢٤٤) عن المغيرة بن عبد الرحمـٰن ، وأبو داوود في « المراسيل » (٤٨٩) عن اليسع بن المغيرة ، كلاهما مرسلاً ، ووصله الطبراني في « الكبير » (٤/١١٧) من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وهو الرجل الذي شكا ضيق مسكنه .
(٦) قوت القلوب (١/٢٦٠) .
(٧) قوت القلوب (١/٢٦٠) .
(٨) قوت القلوب (١/٢٦٠) ، والرهوص : جمع رهْص ، وهو الطين الذي يبنىٰ به ، يجعل بعضه علىٰ بعض .
(٩) قوت القلوب (١/٢٦٠) .
(١٠) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/٤٣١) ، وفيه : (كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سُقُفَها بيدي) ، وقد روىٰ (١/٤٣٠) أيضاً في وصف بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أنها من جريد قد طرِّت بالطين ، عليها مسوح شعر ، وقول

وقالَ عمرو بنُ دينارٍ : (إذا عَلّى العبدُ البناءَ فوقَ ستةِ أذرعٍ . . ناداهُ ملكٌ : إلىٰ أينَ يا أفسقَ الفاسقينَ ؟!)[1]

وقدْ نهىٰ سفيانُ عنِ النظرِ إلىٰ بناءٍ مشيدٍ وقالَ : لولا نظرُ الناسِ . . لما شيدوهُ ، فالناظرُ إليهِ معينٌ عليهِ[2]

وقالَ الفضيلُ : (إنّي لا أعجبُ ممَّنْ بنىٰ وتركَ ، ولـٰكنّي أعجبُ ممَّنْ نظرَ إليهِ ولمْ يعتبرْ !!)[3]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (يأتي قومٌ يرفعونَ الطينَ ، ويضعونَ الدينَ ، ويستعملونَ البراذينَ ، يصلُّون إلىٰ قبلتِكُمْ ، ويموتونَ علىٰ غيرِ دينِكُمْ) .

❁ ❁ ❁

المهمُّ الرابعُ : أثاثُ البيتِ :

وللزهدِ فيهِ أيضاً درجاتٌ :

أعلاها : حالُ عيسىٰ عليهِ السلامُ ؛ إذْ كانَ لا يصحبُهُ إلا مشطٌ وكوزٌ ، فرأىٰ إنساناً يمشطُ لحيتَهُ بأصابعِهِ ، فرمى المُشْطَ ، ورأىٰ آخرَ يشربُ مِنَ النهرِ بكفيهِ ، فرمى الكوزَ .

وهـٰذا حكمُ كلِّ أثاثٍ ، فإنَّهُ إنَّما يُرادُ لمقصودٍ ، فإذا استغنىٰ عنهُ . . فهوَ وبالٌ في الدنيا والآخرةِ ، وما لا يُستغنىٰ عنهُ فيقتصرُ فيهِ علىٰ أقلِّ الدرجاتِ ، وهوَ الخزفُ في كلِّ ما يكفي فيهِ الخزفُ ، ولا يبالي بأنْ يكونَ مكسورَ الطرفِ إذا كانَ المقصودُ يحصلُ بهِ .

وأوسطُها : أنْ يكونَ لهُ أثاثٌ بقدْرِ الحاجةِ صحيحٌ في نفسِهِ ، لـٰكنْ يستعملُ الآلةَ الواحدةَ في مقاصدَ ؛ كالذي معَهُ قصعةٌ يشربُ فيها ، ويأكلُ الثريدَ فيها ، ويحفظُ المتاعَ فيها ، وكانَ السلفُ يستحبُّونَ استعمالَ آلةٍ واحدةٍ في أشياءَ للتخفيفِ .

وأدناها : أنْ يكونَ لهُ بعددِ كلِّ حاجةٍ آلةٌ مِنَ الجنسِ النازلِ الخسيسِ ، فإنْ زادَ في العددِ أو في نفاسةِ الجنسِ . . خرجَ عنْ جميعِ أبوابِ الزهدِ ، وركنَ إلىٰ طلبِ الفضولِ .

ولينظرْ إلىٰ سيرةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسيرةِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، فقدْ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ ضِجاعُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الذي ينامُ عليهِ وسادةً مِنْ أدمٍ حشوُها ليفٌ)[4]

وقالَ الفضيلُ : (ما كانَ فراشُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا عباءةً مثنيَّةً ، ووسادةً مِنْ أدمٍ حشوُها ليفٌ)[5] .

أبي أمامة بن سهل يوم أدخلت في مسجده صلى الله عليه وسلم زمن الوليد : (ليتها تركت فلم تهدم ؛ حتىٰ يقصر الناس عن البناء ، ويروا ما رضي الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم ومفاتيح خزائن الدنيا بيده) ، وقول سعيد بن المسيب : (والله ؛ لوددت أنهم تركوها علىٰ حالها ينشأ ناشئ من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرىٰ ما اكتفىٰ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر) .

(١) كذا في « القوت » (٢٦٠/١) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٧٥/٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة أذرع . . ناداه مناد من السماء : أين تذهب يا أفسق الفاسقين ؟! » .

(٢) قال نحوه ليحيى بن يمان كما في « القوت » (٢٦٠/١) حين نظر إلىٰ باب مشيد ، فقال له سفيان : لا تنظر إليه ؛ إذا نظرت إليه . . كنت عوناً علىٰ بنائه ؛ لأنه إنما بناه لينظر إليه ، ولو كان كل من مر به لم ينظر إليه . . ما عمله .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٣٦٣/٩) .

(٤) رواه البخاري (٦٤٥٦) ، وأبو داوود (٤١٤٧) ، والترمذي (١٧٦١) ، وابن ماجه (٤١٥١) ، والضجاع : كالفراش لفظاً ومعنىً .

(٥) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٢٩) بنحوه عن عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ دخلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ نائمٌ علىٰ سريرٍ مرمولٍ بشريطٍ ، فجلسَ ، فرأىٰ أثرَ الشريطِ في جنبِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فدمعَتْ عينا عمرَ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الذي أبكاكَ يا بنَ الخطابِ ؟ » قالَ : ذكرتُ كسرىٰ وقيصرَ وما هما فيهِ مِنَ الملكِ ، وذكرتُكَ وأنتَ رسولُ اللهِ وحبيبُهُ وصفيُّهُ نائمٌ علىٰ سريرٍ مرمولٍ بالشريطِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما ترضىٰ يا عمرُ أنْ تكونَ لهُما الدنيا ولنا الآخرةُ ؟ » قالَ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذٰلكَ كذٰلكَ »[1]

ودخلَ رجلٌ علىٰ أبي ذرٍّ ، فجعلَ يقلِّبُ بصرَهُ في بيتِهِ ، فقالَ : يا أبا ذرٍّ ؛ ما أرىٰ في بيتِكَ متاعاً ولا غيرَ ذٰلكَ مِنَ الأثاثِ !! فقالَ : إنَّ لنا بيتاً نوجِّهُ إليهِ صالحَ متاعِنا ، فقالَ : إنَّهُ لا بدَّ لكَ مِنْ متاعٍ ما دمتَ ها هنا ، فقالَ : إنَّ صاحبَ المنزلِ لا يدعُنا فيهِ[2]

ولمَّا قدمَ عميرُ بنُ سعدٍ أميرُ حمصَ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما . . قالَ لهُ : ما معَكَ مِنَ الدنيا ؟ فقالَ : معي عصايَ أتوكَّأُ عليها ، وأقتلُ بها حيَّةً إنْ لقيتُها ، ومعي جرابي أحملُ فيهِ طعامي ، ومعي قصعتي آكلُ فيها ، وأغسلُ فيها رأسي وثوبي ، ومعي مطهرتي أحملُ فيها شرابي ووضوئي للصلاةِ ، فما كانَ بعدَ هٰذا مِنَ الدنيا فهو تبعٌ لما معي ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : صدقتَ رحمَكَ اللهُ[3]

وقدمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ سفرٍ ، فدخلَ علىٰ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ، فرأىٰ علىٰ بابِ منزلِها ستراً ، وفي يدِها قُلْبينِ مِنْ فضةٍ ، فرجعَ ، فدخلَ عليها أبو رافعٍ وهيَ تبكي ، فأخبرَتْهُ برجوعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألَهُ أبو رافعٍ ، فقالَ : « مِنْ أجلِ السترِ والسوارينِ » ، فأرسلَتْ بهِما بلالاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَتْ : قدْ تصدقتُ بهِما ، فضعْهُما حيثُ ترىٰ ، فقالَ : « اذهبْ فبعْهُ وادفعْهُ إلىٰ أهلِ الصفَّةِ » ، فباعَ القُلْبينِ بدرهمينِ ونصفٍ ، وتصدَّقَ بهِما عليهِمْ ، فدخلَ عليها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « بأبي أنتِ ، قدْ أحسنتِ »[4]

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ بابِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ستراً ، فهتكَهُ وقالَ : « كلَّما رأيتُهُ . . ذكرتُ الدنيا ، أرسلي بهِ إلىٰ آلِ فلانٍ »[5]

وفرشَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها ذاتَ ليلةٍ فراشاً جديداً ، وقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينامُ علىٰ عباءةٍ مثنيَّةٍ ، فما زالَ يتقلَّبُ ليلتَهُ ، فلما أصبحَ . . قالَ لها : « أعيدي العباءةَ الخلقةَ ونحِّي هٰذا الفراشَ عني ، قدْ أسهرَني الليلةَ »[6]

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (٣١/١٤٧٩) ، وبلفظه هنا رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١١٦٣) ، والمرمول : المنسوج ، يقال : أرملته ؛ إذا نسجته بشريطٍ من خوص أو ليف .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٢٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٦٨) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٥٧/١) ، وقد رواه ضمن خبر طويل الطبراني في « الكبير » (٥١/١٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٨/١) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٥٨/١) ، وروىٰ أبو داوود (٤٢١٣) عن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر . . كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة ، وأول من يدخل عليها إذا قدم فاطمة ، فقدم من غزاة وقد علقت مسحاً أو ستراً علىٰ بابها ، وحلَّت الحسن والحسين قُلْبين من فضة ، فقدم ، فلم يدخل ، فظنت أن ما منعه أن يدخل ما رأىٰ ، فهتكت الستر ، وفككت القلبين عن الصبيين وقطعته بينهما ، فانطلقا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان ، فأخذه منهما وقال : « يا ثوبان ؛ اذهب بهٰذا إلىٰ آل فلان ـ أهل بيت بالمدينة ـ إن هٰؤلاء أهل بيتي أكره أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، يا ثوبان ؛ اشتر لفاطمة قلادة عصب وسوارين من عاج » ، والقُلْب : السوار .

(٥) كذا في « القوت » (٢٥٩/١) ، ورواه مسلم (٨٨/٢١٠٧) من حديثها رضي الله عنها وفيه : « حوّلي هٰذا ، فإني كلما دخلت فرأيته . . ذكرت الدنيا » ، وعنده (٩١/٢١٠٧) : (ثم تناول الستر فهتكه) .

(٦) كذا في « القوت » (٢٥٩/١) ، وهو بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٤٦٣) .

وكذلكَ أتتْهُ دنانيرُ خمسةٌ أوْ ستةٌ عشاءً فبيَّتَها ، فسهرَ ليلتَهُ حتَّىٰ أخرجَها مِنْ آخرِ الليلِ ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها ، فنامَ حينئذٍ حتَّىٰ سمعتُ غطيطَهُ ، ثمَّ قالَ : « ما ظنُّ محمدٍ بربِّهِ لوْ لقيَ اللهَ وهـٰذهِ عندَهُ ؟ »[1]

وقالَ الحسنُ : (أدركتُ سبعينَ مِنَ الأخيارِ ما لأحدِهِمْ إلا ثوبُهُ ، وما وضعَ أحدُهُمْ بينَهُ وبينَ الأرضِ ثوباً قطُّ ، كانَ إذا أرادَ النومَ . . باشرَ الأرضَ بجسمِهِ ، وجعلَ ثوبَهُ فوقَهُ)[2]

❁ ❁ ❁

المهمُّ الخامسُ : المنكحُ :

وقدْ قالَ قائلونَ : لا معنىٰ للزهدِ في أصلِ النكاحِ ولا في كثرتِهِ ، وإليهِ ذهبَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ ، وقالَ : (قدْ حُبِّبَ إلىٰ سيِّدِ الزاهدينَ النساءُ ، فكيفَ نزهدُ فيهِنَّ)[3]

ووافقَهُ علىٰ هـٰذا القولِ ابنُ عيينةَ ، وقالَ : (كانَ أزهدَ الصحابةِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، وكانَ لهُ أربعُ نسوةٍ وبضعَ عشرةَ سُرِّيَّةً)[4]

والصحيحُ : ما قالَهُ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ ، إذْ قالَ : (كلُّ ما شغلَكَ عنِ اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ . . فهوَ عليكَ مشؤومٌ)[5] ، والمرأةُ قدْ تكونُ شاغلاً عنِ اللهِ .

وكشفُ الحقِّ فيهِ : أنَّهُ قدْ تكونُ العزوبةُ أفضلَ في بعضِ الأحوالِ كما سبقَ في كتابِ النكاحِ ، فيكونُ تركُ النكاحِ مِنَ الزهدِ .

وحيثُ يكونُ النكاحُ أفضلَ لدفعِ الشهوةِ الغالبةِ . . فهوَ واجبٌ ، فكيفَ يكونُ مِنَ الزهدِ تركُهُ ؟!

وإنْ لمْ يكنْ عليهِ آفةٌ في تركِهِ ولا في فعلِهِ ، ولـٰكنْ تركَ النكاحَ احترازاً مِنْ ميلِ القلبِ إليهِنَّ والأنسِ بهِنَّ ؛ بحيثُ يشتغلُ عنْ ذكرِ اللهِ . . فتركُ ذٰلكَ مِنَ الزهدِ .

وإنْ علمَ أنَّ المرأةَ لا تشغلُهُ عنْ ذكرِ اللهِ ، ولـٰكنْ تركَ ذٰلكَ احترازاً مِنْ لذَّةِ النظرِ والمضاجعةِ والمواقعةِ . . فليسَ هـٰذا مِنَ الزهدِ أصلاً ، فإنَّ الولدَ مقصودٌ لبقاءِ نسلِهِ ، وتكثيرُ أمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ القرباتِ ، واللذةُ التي تلحقُ الإنسانَ فيما هوَ مِنْ ضرورةِ الوجودِ لا تضرُّهُ إذا لمْ تكنْ هيَ المطلبَ والمقصدَ ، وهـٰذا كمَنْ تركَ أكلَ الخبزِ وشربَ الماءِ احترازاً مِنْ لذَّةِ الأكلِ والشربِ ، وليسَ ذٰلكَ مِنَ الزهدِ في شيءٍ ؛ لأنَّ في ترْكِ ذٰلكَ فواتَ بدنِهِ ، فكذٰلكَ في تركِ النكاحِ انقطاعُ نسلِهِ .

فلا يجوزُ أنْ يتركَ النكاحَ زهداً في لذَّتِهِ مِنْ غيرِ خوفِ آفةٍ أخرىٰ ، وهـٰذا ما عناهُ سهلٌ لا محالةَ ، ولأجلِهِ نكحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢٥٩/١) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٤٩/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه : « يا عائشة ؛ ما فعلتِ الذهب ؟ » فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية أو التسعة ، فجعل يقلّبها بيده ويقول : « ما ظن محمد بالله عز وجل لو لقيه وهـٰذه عنده ؟ أنفقيها » .

(٢) قوت القلوب (٢٦٧/١) .

(٣) قوت القلوب (٢٦٧/١) .

(٤) قوت القلوب (٢٦٧/١) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦٢/٣٣) .

وإذا ثبتَ هٰذا . . فمَنْ حالُهُ حالُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أنَّهُ لا يشغلُهُ كثرةُ النسوةِ ولا اشتغالُ القلبِ بإصلاحِهِنَّ والإنفاقِ عليهِنَّ . . فلا معنىً لزهدِهِ فيهِنَّ حذراً مِنْ مجرَّدِ لذَّةِ الوقاعِ والنظرِ ، ولٰكنْ أنَّىٰ يُتصوَّرُ ذٰلكَ لغيرِ الأنبياءِ والأولياءِ ؟! فأكثرُ الناسِ يشغلُهُمْ كثرةُ النسوانِ ، فينبغي أنْ يتركَ الأصلَ إنْ كانَ يشغلُهُ ، وإنْ لمْ يشغلْهُ وكانَ يخافُ مِنْ أنْ تشغلَهُ الكثرةُ منهُنَّ أوْ جمالُ المرأةِ . . فلينكحْ واحدةً غيرَ جميلةٍ ، وليراعِ قلبَهُ في ذٰلكَ .

قالَ أبو سليمانَ : (الزهدُ في النساءِ أنْ يختارَ المرأةَ الدونَ أوِ اليتيمةَ على المرأةِ الجميلةِ والشريفةِ)[1]

وقالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (أحبُّ للمريدِ المبتدئِ ألا يشغلَ قلبَهُ بثلاثٍ ، وإلا . . تغيَّرَ حالُهُ : التكسُّبُ ، وطلبُ الحديثِ ، والتزويجُ)[2]

وقالَ : (أحبُّ للصوفيِّ ألا يقرأَ ولا يكتبَ ؛ لأنَّهُ أجمعُ لهمِّهِ)[3]

فإذا ظهرَ أنَّ لذَّةَ النكاحِ كلذَّةِ الأكلِ . . فما يشغلُ عنِ اللهِ فهوَ محذورٌ فيهِما جميعاً .

❊ ❊ ❊

المهمُّ السادسُ : ما يكونُ وسيلةً إلىٰ هٰذهِ الخمسةِ ، وهوَ المالُ والجاهُ :

أمَّا الجاهُ : فمعناهُ ملكُ القلوبِ بطلبِ محلٍّ فيها ؛ ليتوصَّلَ بهِ إلى الاستعانةِ في الأغراضِ والأعمالِ ، وكلُّ مَنْ لا يقدرُ على القيامِ بنفسِهِ في جميعِ حاجاتِهِ ، وافتقرَ إلىٰ مَنْ يخدمُهُ . . افتقرَ إلىٰ جاهٍ ـ لا محالةَ ـ في قلبِ خادمِهِ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يكنْ لهُ عندَهُ محلٌّ وقدْرٌ . . لمْ يقمْ بخدمتِهِ ، وقيامُ القدرِ والمحلِّ في القلوبِ هوَ الجاهُ .

وهٰذا لهُ أوَّلٌ قريبٌ ، ولٰكنْ يتمادىٰ بهِ إلىٰ هاويةٍ لا عمقَ لها ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، وإنَّما يحتاجُ إلى المحلِّ في القلوبِ إمَّا لجلبِ نفعٍ ، أوْ لدفعِ ضرٍّ ، أوْ لخلاصٍ مِنْ ظلمٍ .

فأمَّا النفعُ . . فيغني عنهُ المالُ ، فإنَّ مَنْ يخدمُ بأجرةٍ يخدمُ وإنْ لمْ يكنْ للمستأجرِ عندَهُ قدْرٌ ، وإنَّما يُحتاجُ إلى الجاهِ في قلبِ مَنْ يخدمُ بغيرِ أجرةٍ .

وأمَّا دفعُ الضرِّ . . فيحتاجُ لأجلِهِ إلى الجاهِ في بلدةٍ لا يكملُ العدلُ فيها ، أوْ أنْ يكونَ بينَ جيرانٍ يظلمونَهُ ولا يقدرُ علىٰ دفعِ شرِّهِمْ إلا بمحلٍّ لهُ في القلوبِ ، أوْ محلٍّ لهُ عندَ السلطانِ ، وقدْرُ الحاجةِ فيهِ لا ينضبطُ ، لا سيما إذا انضمَّ إليهِ الخوفُ وسوءُ الظنِّ بالعواقبِ

والخائضُ في طلبِ الجاهِ سالكٌ طريقَ الهلاكِ ، بلْ حقُّ الزاهدِ ألا يسعىٰ لطلبِ المحلِّ في القلوبِ أصلاً ، فإنَّ اشتغالَهُ بالدينِ والعبادةِ يمهدُ لهُ مِنَ المحلِّ في القلوبِ ما يدفعُ بهِ عنهُ الأذىٰ ولوْ كانَ بينَ الكفَّارِ ، فكيفَ بينَ المسلمينَ ؟! فأمَّا التوهُّماتُ والتقديراتُ التي تحوجُ إلىٰ زيادةٍ في الجاهِ على الحاصلِ بغيرِ كسبٍ . . فهيَ أوهامٌ كاذبةٌ ؛ إذْ مَنْ طلبَ الجاهَ أيضاً لمْ يخلُ عنْ أذىً في بعضِ الأحوالِ ، فعلاجُ ذٰلكَ بالاحتمالِ والصبرِ أولىٰ مِنْ علاجِهِ بطلبِ الجاهِ .

---

(١) قوت القلوب (٢٦٧/١) ، وقال : (وذهب إلىٰ هٰذا مالك بن دينار) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٧/١) .

(٣) قوت القلوب (٢٦٧/١) .

فإذاً ؛ طلبُ المحلِّ في القلوبِ لا رخصةَ فيهِ أصلاً ، واليسيرُ منهُ داعٍ إلى الكثيرِ ، وضراوتُهُ أشدُّ مِنْ ضراوةِ الخمرِ ، فليحترزْ مِنْ قليلِهِ وكثيرِهِ .

وأمَّا المالُ : فهوَ ضروريٌّ في المعيشةِ ؛ أعني القليلَ منهُ ، فإنْ كانَ كسوباً ؛ فإذا اكتسبَ حاجةَ يومِهِ . . فينبغي أنْ يتركَ الكسبَ ، كانَ بعضُهُمْ إذا اكتسبَ حبَّتينِ . . رفعَ سفطَهُ وقامَ ؛ هاذا شرطُ الزهدِ .

فإنْ جاوزَ ذلكَ إلىٰ ما يكفيهِ أكثرَ مِنْ سنةٍ . . فقدْ خرجَ عنْ حدِّ ضعفاءِ الزهَّادِ وأقويائِهِمْ جميعاً ، وإنْ كانَتْ لهُ ضيعةٌ ولمْ يكنْ لهُ قوَّةُ يقينٍ في التوكُّلِ ، فأمسكَ منها مقدارَ ما يكفي ريعَهُ لسنةٍ واحدةٍ . . فلا يخرجُ بهاذا القدْرِ عنِ الزهدِ ، بشرطِ أنْ يتصدَّقَ بكلِّ ما يفضلُ عنْ كفايةِ سنتِهِ ، ولاكنْ يكونُ مِنْ ضعفاءِ الزهَّادِ ؛ فإنْ شُرِطَ التوكُّلُ في الزهدِ كما شرطَهُ أويسٌ القرنيُّ رحمهُ اللهُ . . فلا يكونُ هاذا مِنَ الزهَّادِ ، وقولُنا : (إنَّهُ خرجَ مِنْ حدِّ الزهَّادِ) نعني بهِ : أنَّ ما وُعِدَ للزاهدينَ في الدارِ الآخرةِ مِنَ المقاماتِ المحمودةِ لا ينالُهُ ، وإلا . . فاسمُ الزهدِ قدْ لا يفارقُهُ بالإضافةِ إلىٰ ما زُهِدَ فيهِ مِنَ الفضولِ والكثرةِ .

وأمرُ المنفردِ في جميعِ ذلكَ أخفُّ مِنْ أمرِ المعيلِ ، وقدْ قالَ أبو سليمانَ : (لا ينبغي أنْ يرهقَ الرجلُ أهلَهُ إلى الزهدِ ، بلْ يدعوهُمْ إليهِ ، فإنْ أجابوا ، وإلا . . تركَهُمْ وفعلَ بنفسِهِ ما شاءَ) ؛ معناهُ : أنَّ التضييقَ المشروطَ على الزاهدِ يخصُّهُ ولا يلزمُهُ كلُّ ذلكَ في عيالِهِ .

نعمْ ؛ لا ينبغي أنْ يجيبَهُمْ أيضاً فيما يخرجُ عنْ حدِّ الاعتدالِ ، وليتعلَّمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذِ انصرفَ مِنْ بيتِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها بسببِ سترٍ وقُلْبينِ ؛ لأنَّ ذلكَ مِنَ الزينةِ لا مِنَ الحاجةِ

فإذاً ؛ ما يُضطرُّ الإنسانُ إليهِ مِنْ جاهٍ ومالٍ ليسَ بمحذورٍ ، بلِ الزائدُ على الحاجةِ سمٌّ قاتلٌ ، والاقتصارُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ دواءٌ نافعٌ ، وما بينَهُما درجاتٌ متشابهةٌ ، فما يقربُ مِنَ الزيادةِ وإنْ لمْ يكنْ سمّاً قاتلاً . . فهوَ مضرٌّ ، وما يقربُ مِنَ الضرورةِ . . فهوَ وإنْ لمْ يكنْ دواءً نافعاً ولاكنَّهُ قليلُ الضررِ ، والسمُّ محظورٌ شربُهُ ، والدواءُ فرضٌ تناولُهُ ، وما بينَهُما مشتبهٌ أمرُهُ ، فمَنِ احتاطَ . . فإنَّما يحتاطُ لنفسِهِ ، ومَنْ تساهلَ . . فإنَّما يتساهلُ علىٰ نفسِهِ ، ومَنِ استبرأَ لدينِهِ ، وتركَ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، وردَّ نفسَهُ إلىٰ مضيقِ الضرورةِ . . فهوَ الآخذُ بالحزمِ ، وهوَ مِنَ الفرقةِ الناجيةِ لا محالةَ .

والمقتصرُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ والمهمِّ لا يجوزُ أنْ يُنسبَ إلى الدنيا ، بلْ ذلكَ القدْرُ مِنَ الدنيا هوَ عينُ الدينِ ؛ لأنَّهُ شرطُ الدينِ ، والشرطُ مِنْ جملةِ المشروطِ ، ويدلُّ عليهِ ما رُوِيَ أنَّ إبراهيمَ الخليلَ عليهِ السلامُ أصابَتْهُ حاجةٌ ، فذهبَ إلىٰ صديقٍ لهُ يستقرضُهُ شيئاً ، فلمْ يقرضْهُ ، فرجعَ مهموماً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : لوْ سألتَ خليلَكَ . . لأعطاكَ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ عرفتُ مقتَكَ للدنيا ، فخفتُ أنْ أسألَكَ منها شيئاً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : ليسَ الحاجةُ مِنَ الدنيا[1]

فإذاً ؛ قدْرُ الحاجةِ مِنَ الدينِ ، وما وراءَ ذلكَ وبالٌ في الآخرةِ ، وهوَ في الدنيا أيضاً كذلكَ ، يعرفُهُ مَنْ يخبُرُ أحوالَ الأغنياءِ ، وما عليهِمْ مِنَ المحنةِ في كسبِ المالِ وجمعِهِ وحفظِهِ واحتمالِ الذلِّ فيهِ ، وغايةُ سعادتِهِ بهِ أنْ يُسلَّمَ لورثتِهِ فيأكلونَهُ وربَّما يكونونَ أعداءً لهُ ، وقدْ يستعينونَ بهِ علىٰ المعصيةِ ، فيكونُ هوَ معيناً لهُمْ عليها .

---

(١) قوت القلوب (١/٢٤٥) .

ولذلكَ شُبِّهَ جامعُ الدنيا ومتبعُ الشهواتِ بدودِ القزِّ ، لا يزالُ ينسجُ علىٰ نفسِهِ حتَّىٰ يقتلَها ، ثمَّ يرومُ الخروجَ فلا يجدُ مخلصاً ، فيموتُ ويهلكُ بسببِ عملِهِ الذي عملَهُ بنفسِهِ ، فكذلكَ كلُّ مَنِ اتبعَ شهواتِ الدنيا فإنَّما يحكمُ علىٰ قلبِهِ بسلاسلَ تقيّدُهُ بما يشتهيهِ ، حتَّىٰ تتظاهرَ عليهِ السلاسلُ ، فيقيدَهُ المالُ ، والجاهُ ، والأهلُ ، والولدُ ، وشماتةُ الأعداءِ ، ومراءاةُ الأصدقاءِ ، وسائرُ حظوظِ الدنيا ، فلوْ خطرَ لهُ أنَّهُ قدْ أخطأَ فيهِ ، فقصدَ الخروجَ مِنَ الدنيا . . لمْ يقدرْ عليهِ ، ورأىٰ قلبَهُ مقيَّداً بسلاسلَ وأغلالٍ لا يقدرُ علىٰ قطعِها ، ولوْ تركَ محبوباً مِنْ محابِّهِ باختيارِهِ . . كادَ أنْ يكونَ قاتلاً لنفسِهِ ، وساعياً في هلاكِهِ ، إلىٰ أنْ يفرِّقَ ملكُ الموتِ بينَهُ وبينَ جميعِها دفعةً واحدةً ، فتبقى السلاسلُ مِنْ قلبِهِ معلَّقةً بالدنيا التي فاتَتْهُ وخلَّفَها ، فهيَ تجاذبُهُ إلى الدنيا ، ومخالبُ ملكِ الموتِ قدْ علقَتْ بعروقِ قلبِهِ تجذبُهُ إلى الآخرةِ ، فيكونُ أهونُ أحوالِهِ عندَ الموتِ أنْ يكونَ كشخصٍ يُنشرُ بالمنشارِ ، ويُفصلُ أحدُ جانبيهِ عنِ الآخرِ بالمجاذبةِ مِنَ الجانبينِ ، والذي يُنشرُ بالمنشارِ إنَّما ينزلُ الألمُ ببدنِهِ ، ويألمُ قلبُهُ بذلكَ بطريقِ السرايةِ مِنْ حيثُ أثرُهُ ، فما ظنُّكَ بألمٍ يتمكَّنُ أوَّلاً مِنْ صميمِ القلبِ ، مخصوصاً بِهِ لا بطريقِ السرايةِ إليهِ مِنْ غيرِهِ ؟!

فهٰذا أوَّلُ عذابٍ يلقاهُ قبلَ ما يراهُ مِنْ حسرةِ فوتِ النزولِ في أعلىٰ علِّيِّينَ ، وجوارِ ربِّ العالمينَ ، فبالنزوعِ إلى الدنيا يُحجبُ عنْ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وعندَ الحجابِ تتسلَّطُ عليهِ نارُ جهنَّمَ ؛ إذِ النارُ غيرُ مسلَّطةٍ إلا علىٰ محجوبٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الْجَحِيمِ ﴾ ، فرتَّبَ العذابَ بالنارِ علىٰ ألمِ الحجابِ ، وألمُ الحجابِ كافٍ مِنْ غيرِ علاوةِ النارِ ، فكيفَ إذا أُضيفَتِ العلاوةُ إليهِ ؟! فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يقرِّرَ في أسماعِنا ما نُفِثَ في رُوعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قيلَ لهُ : « أحببْ ما أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ »[1]

وفي معنىٰ ما ذكرناهُ مِنَ المثالِ قولُ الشاعرِ[2] : [من الطويل]

كَدُودٌ كَدُودِ الْقَزِّ يَنْسِجُ دائِماً ... وَيَهْلِكُ غَمّاً وَسْطَ ما هُوَ ناسِجُهْ

ولمَّا انكشفَ لأولياءِ اللهِ تعالىٰ أنَّ العبدَ مهلكٌ نفسَهُ بأعمالِهِ واتباعِهِ هوىٰ نفسِهِ إهلاكَ دودِ القزِّ نفسَهُ . . رفضوا الدنيا بالكلِّيَّةِ ، حتَّىٰ قالَ الحسنُ : (رأيتُ سبعينَ بدريّاً كانوا فيما أحلَّ اللهُ لهُمْ أزهدَ منكُمْ فيما حرَّمَ اللهُ عليكُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (كانوا بالبلاءِ أشدَّ فرحاً منكُمْ بالخصبِ والرخاءِ ، لوْ رأيتُموهُمْ . . قلتُمْ : مجانينَ ، ولوْ رأَوا خيارَكُمْ . . قالوا : ما لهٰؤلاءِ مِنْ خلاقٍ ، ولوْ رأَوا شرارَكُمْ . . قالوا : ما يؤمنُ هٰؤلاءِ بيومِ الحسابِ ، وكانَ أحدُهُمْ يعرضُ لهُ المالُ الحلالُ فلا يأخذُهُ ، ويقولُ : أخافُ أنْ يفسدَ عليَّ قلبي)[3]

فمَنْ كانَ لهُ قلبٌ فهوَ ـ لا محالةَ ـ يخافُ مِنْ فسادِهِ ، والذينَ أماتَ حبُّ الدنيا قلوبَهُمْ فقدْ أخبرَ اللهُ عنهُمْ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَرَضُواْ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ ، فأحالَ ذٰلكَ كلَّهُ على الغفلةِ وعدمِ العلمِ .

---

(١) كذا في النسخ : « أحبب ما » ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) بلفظ : « أحبب من » .

(٢) البيت لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص ٤١٧) ، وكدود : فعول من الكدّ ، وهو التعب .

(٣) كذا في « القوت » (١/٢٥٥) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٣٤) .

ولذلكَ قالَ رجلٌ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : احملْني معَكَ في سياحتِكَ ، فقالَ : أخرجْ مالَكَ والحقْني ، فقالَ : لا أستطيعُ ، فقالَ عليهِ السلامُ : بعجبٍ يدخلُ الغنيُّ الجنَّةَ ، أوْ قالَ : بشدةٍ[١]

وقالَ بعضُهُمْ : ما مِنْ يومٍ ذرَّ شارقُهُ إلا وأربعةُ أملاكٍ ينادونَ في الآفاقِ بأربعةِ أصواتٍ ؛ ملكانِ بالمشرقِ ، وملكانِ بالمغربِ ، يقولُ أحدُهُمْ بالمشرقِ : يا باغيَ الخيرِ هلمَّ ، ويا باغيَ الشرِّ أقصرْ ، ويقولُ الآخرُ : اللهمَّ ؛ أعطِ منفقاً خلفاً ، وأعطِ ممسكاً تلفاً ، ويقولُ أحدُ اللذينِ في المغربِ : لدوا للموتِ وابنوا للخرابِ ، ويقولُ الآخرُ : كلوا وتمتَّعوا لطولِ الحسابِ[٢]

* * *

(١) قوت القلوب (١/٢٥٦) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٨) بنحوه .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٦٢) ، وعند البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم ؛ أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم ؛ أعط ممسكاً تلفاً » ، وروىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٥١٧) نحو هـٰذا وزاد : « وملك بباب آخر ينادي : يا أيها الناس ؛ هلموا إلىٰ ربكم ، ما قلَّ وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ ، وملك بباب آخر ينادي : يا بني آدم ؛ لدوا للموت وابنوا للخراب » .

بيان علامات الزهد

اعلم : أنَّهُ قدْ يُظنُّ أنَّ تاركَ المالِ زاهدٌ ، وليسَ كذٰلكَ ، فإنَّ تركَ المالِ وإظهارَ الخشونةِ سهلٌ علىٰ مَنْ أحبَّ المدحَ بالزهدِ ، فكمْ مِنَ الرهابينِ[1] مَنْ ردُّوا أنفسَهُمْ كلَّ يومٍ إلىٰ قدْرٍ يسيرٍ مِنَ الطعامِ ، ولازموا ديراً لا بابَ لهُ ، وإنَّما مسرَّةُ أحدِهِمْ معرفةُ الناسِ حالَهُ ونظرُهُمْ إليهِ ومدحُهُمْ لهُ ، فذٰلكَ لا يدلُّ على الزهدِ دلالةً قاطعةً ، بلْ لا بدَّ مِنَ الزهدِ في المالِ والجاهِ جميعاً ؛ حتَّىٰ يكملَ الزهدُ في جميعِ حظوظِ النفسِ مِنَ الدنيا .

بل قدْ يدَّعي جماعةٌ الزهدَ معَ لبسِ الأصوافِ الفاخرةِ والثيابِ الرفيعةِ ، كما قالَ الخوَّاصُ في وصفِ المدَّعينَ إذْ قالَ : (وقومٌ ادعَوُا الزهدَ ، ولبسوا الفاخرَ مِنَ اللباسِ ، يموِّهونَ بذٰلكَ على الناسِ ليُهدىٰ إليهِمْ مثلُ لباسِهِمْ ، لئلا يُنظرَ إليهِمْ بالعينِ التي يُنظرُ بها إلى الفقراءِ فيُحتقروا ، فيُعطَوا كما تُعطى المساكينُ ، ويحتجُّون لنفوسِهِمْ باتباعِ العلمِ[2] ، وأنَّهُمْ على السنَّةِ ، وأنَّ الأشياءَ داخلةٌ عليهِمْ وهمْ خارجونَ منها ، وإنَّما يأخذونَ بعلَّةِ غيرِهِمْ ، هٰذا إذا طُولبوا بالحقائقِ وأُلجئوا إلى المضايقِ ، وكلُّ هٰؤلاءِ أكلةُ الدنيا بالدينِ ، لمْ يُعنَوا بتصفيةِ أسرارِهِمْ ، ولا بتهذيبِ أخلاقِ نفوسِهِمْ ، فظهرَتْ عليهِمْ صفاتُهُمْ ، فغلبَتْهُمْ ، فادعَوها حالاً لهُمْ ، منهُمْ مائلونَ إلى الدنيا ، متبعونَ للهوىٰ) ، فهٰذا كلُّهُ كلامُ الخوَّاصِ رحمهُ اللهُ[3] .

فإذاً ؛ معرفةُ الزهدِ أمرٌ مشكلٌ ، بلْ حالُ الزاهدِ على الزاهدِ مشكلٌ[4] ، وينبغي أنْ يعوِّلَ في باطنِهِ علىٰ ثلاثِ علاماتٍ :

العلامةُ الأولىٰ : ألا يفرحَ بموجودٍ ، ولا يحزنَ علىٰ مفقودٍ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ بالضدِّ مِنْ ذٰلكَ ، وهوَ أنْ يحزنَ بوجودِ المالِ ، ويفرحَ بفقدِهِ .

❁ ❁ ❁

والعلامةُ الثانيةُ : أنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ ، فالأوَّلُ علامةُ الزهدِ في المالِ ، والثاني علامةُ الزهدِ في الجاهِ[5] .

❁ ❁ ❁

والعلامةُ الثالثةُ : أنْ يكونَ أنسُهُ باللهِ تعالىٰ ، والغالبُ علىٰ قلبِهِ حلاوةَ الطاعةِ ، إذْ لا يخلو القلبُ عنْ حلاوةِ

---

(١) رهابين : جمع رهبان ، ورهبان لفظ يطلق على الواحد والجمع .

(٢) في « القوت » (٢٦٠/١) : (باتساع العلم) .

(٣) حكاه في كتابه « شرف الفقراء » الذي سبقت الإشارة إليه ، ونقله عنه صاحب « القوت » (٢٦٠/١) ، وقال : (وكان الخواص رحمه الله تعالىٰ لا يلبس أكثر من قطعتين ؛ إزارين ، وقميص ومئزر تحته ، يعطف ذيل قميصه علىٰ رأسه ، ويغطي به رأسه ، وكذٰلك استحب للفقير هٰذا اللباس) .

(٤) في (ق) : (وحال الزهد على الزاهد مشكل) .

(٥) وقد روى البيهقي في « الشعب » (١٠٢٨٩) عن يونس بن ميسرة الجبلاني : (ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ، ولٰكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في يدك ، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء ، وأن يكون مادحك وذامُّك في الحق سواء) .

المحبَّةِ ؛ إمَّا محبةُ الدنيا ، وإمَّا محبةُ اللهِ ، وهما في القلبِ كالماءِ والهواءِ في القدحِ ، فالماءُ إذا دخلَ . . خرجَ الهواءُ ، ولا يجتمعانِ ، وكلُّ مَنْ أنسَ باللهِ . . اشتغلَ بهِ ولمْ يشتغلْ بغيرِهِ .

ولذٰلكَ قيلَ لبعضِهِمْ : إلىٰ ماذا أفضىٰ بهِمُ الزهدُ ؟ فقالَ : إلى الأنسِ باللهِ[1]

فأمَّا الأنسُ بالدنيا وباللهِ . . فلا يجتمعانِ ، وقدْ قالَ أهلُ المعرفةِ : إذا تعلَّقَ الإيمانُ بظاهرِ القلبِ . . أحبَّ الدنيا والآخرةَ جميعاً وعملَ لهُما ، وإذا بطنَ الإيمانُ في سويداءِ القلبِ وباشرَهُ . . أبغضَ الدنيا ، فلمْ ينظرْ إليها ، ولمْ يعملْ لها[2]

ولهٰذا وردَ في دعاءِ آدمَ عليهِ السلامُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً يباشرُ قلبي)[3]

وقالَ أبو سليمانَ : (مَنْ شُغِلَ بنفسِهِ . . شُغِلَ عنِ الناسِ ، وهٰذا مقامُ العاملينَ ، ومَنْ شُغِلَ بربِّهِ . . شُغِلَ عنْ نفسِهِ ، وهٰذا مقامُ العارفينَ)[4] ، والزاهدُ لا بدَّ وأنْ يكونَ في أحدِ هٰذينِ المقامينِ ، ومقامُهُ الأوَّلُ : أنْ يشغلَ نفسَهُ بنفسِهِ ، وعندَ ذٰلكَ يستوي عندَهُ الذمُّ والمدحُ والوجودُ والعدمُ .

ولا يُستدلُّ بإمساكِهِ قليلاً مِنَ المالِ علىٰ فقْدِ زهدِهِ أصلاً

قالَ ابنُ أبي الحواري : قلتُ لأبي سليمانَ : أكانَ داوودُ الطائيُّ زاهداً ؟ قالَ : نعمْ ، قلتُ : قدْ بلغَني أنَّهُ ورثَ عنْ أبيهِ عشرينَ ديناراً ، فأنفقَها في عشرينَ سنةً ، فكيفَ كانَ زاهداً وهوَ يمسكُ الدنانيرَ ؟ فقالَ : أردتَ منهُ أنْ يبلغَ حقيقةَ الزهدِ ؟![5]

وأرادَ بالحقيقةِ الغايةَ ؛ فإنَّ الزهدَ ليسَ لهُ غايةٌ ؛ لكثرةِ صفاتِ النفسِ ، ولا يتمُّ الزهدُ إلا بالزهدِ في جميعِها ، فكلُّ مَنْ تركَ مِنَ الدنيا شيئاً معَ القدرةِ عليهِ خوفاً علىٰ قلبِهِ وعلىٰ دينِهِ . . فلهُ مدخلٌ في الزهدِ بقدْرِ ما تركَهُ ، وآخرُهُ أنْ يتركَ كلَّ ما سوى اللهِ ، حتَّىٰ لا يتوسَّدَ حجراً ؛ كما فعلَهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ[6]

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يرزقَنا مِنْ مبادِيهِ نصيباً وإنْ قلَّ ، فإنَّ أمثالَنا لا يستجرئُ على الطمعِ في غاياتِهِ ، وإنْ كانَ قطعُ الرجاءِ عنْ فضْلِ اللهِ غيرَ مأذونٍ فيهِ ، وإذا لاحظنا عجائبَ نعمِ اللهِ تعالىٰ علينا . . علمنا أنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ ، فلا بُعْدَ في أنْ نعظِّمَ السؤالَ اعتماداً على الجودِ المجاوزِ لكلِّ كمالٍ[7]

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ علامةُ الزهدِ : استواءُ الغنىٰ والفقرِ ، والعزِّ والذلِّ ، والمدحِ والذمِّ ، وذٰلكَ لغلبةِ الأنسِ باللهِ ، ويتفرَّعُ عنْ هٰذهِ العلاماتِ علاماتٌ أخرُ لا محالةَ ، مثلُ أنْ يتركَ الدنيا ولا يباليَ مَنْ أخذَها[8]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٩٢/٨) ، والسائل هو مضاء بن عيسى ، والمجيب هو سباع الموصلي .

(٢) قوت القلوب (٢٧٠/١) .

(٣) قاله عليه السلام لما أهبط إلى الأرض ؛ كما روىٰ ذٰلك الطبراني في « الأوسط » (٥٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) قوت القلوب (٢٧٠/١) .

(٥) قوت القلوب (٢٧٠/١) ، وهٰذا أيضاً يقال فيه : هو علىٰ مذهب من يشرط التوكل في الزهد ، ورواية أنه ورث عن أبيه . . . رواها القشيري في « رسالته » (ص ٥٩) ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٣٤٧/٧) : (ورث عن أبيه دنانير ، فكان ينفق فيها حتىٰ كفّن بآخرها) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (ص ٥٥٧) .

(٧) فما لا يدرك كله لا يترك كله ، ومن فاته من الكمال وبله لا يفوته طله . « إتحاف » (٣٧٤/٩) .

(٨) قاله أبو عثمان المغربي كما هو عند القشيري في « رسالته » (ص ٢١٩) .

وقيلَ : (علامتُهُ : أنْ يتركَ الدنيا كما هيَ ، ولا يقولَ : أبني رباطاً ، أوْ أعمرُ مسجداً)[1]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (علامةُ الزهدِ : السخاءُ بالموجودِ)[2]

وقالَ ابنُ خفيفٍ : (علامتُهُ : وجودُ الراحةِ في الخروجِ مِنَ الملكِ)[3]

وقالَ أيضاً : (الزهدُ هوَ عزوفُ النفسِ عنِ الدنيا بلا تكلُّفٍ)[4]

وقالَ أبو سليمانَ : (الصوفُ عَلَمٌ مِنْ أعلامِ الزهدِ ، فلا ينبغي أنْ يلبسَ صوفاً بثلاثةِ دراهمَ وفي قلبِهِ رغبةُ خمسةِ دراهمَ)[5]

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ وسفيانُ : (علامةُ الزهدِ : قصرُ الأملِ)[6]

وقالَ سريٌّ : (لا يطيبُ عيشُ الزاهدِ إذا اشتغلَ عنْ نفسِهِ ، ولا يطيبُ عيشُ العارفِ إذا اشتغلَ بنفسِهِ)[7]

وقالَ النصراباذيُّ : (الزاهدُ غريبٌ في الدنيا ، والعارفُ غريبٌ في الآخرةِ)[8]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (علامةُ الزهدِ ثلاثٌ : عملٌ بلا علاقةٍ ، وقولٌ بلا طمعٍ ، وعزٌّ بلا رئاسةٍ)[9]

وقالَ أيضاً : (الزاهدُ يسعطُكَ الخلَّ والخردلَ ، والعارفُ يشِمُّكَ المسكَ والعنبرَ)[10]

وقالَ لهُ رجلٌ : متىٰ أدخلُ حانوتَ التوكُّلِ ، وألبسُ رداءَ الزهدِ ، وأقعدُ معَ الزاهدينَ ؟ فقالَ : إذا صرتَ مِنْ رياضتِكَ لنفسِكَ في السرِّ إلىٰ حدٍّ لوْ قطعَ اللهُ عنكَ الرزقَ ثلاثةَ أيامٍ . . لمْ تضعفْ في نفسِكَ ، فأمَّا ما لمْ تبلغْ هٰذهِ الدرجةَ . . فجلوسُكَ علىٰ بساطِ الزاهدينَ جهلٌ ، ثمَّ لا آمنُ عليكَ أنْ تفتضحَ[11]

وقالَ أيضاً : (الدنيا كالعروسِ ، ومَنْ يطلبُها ماشطتُها ، والزاهدُ فيها يسخِّمُ وجهَها ، وينتفُ شعرَها ، ويخرقُ ثوبَها ، والعارفُ يشتغلُ باللهِ تعالىٰ ولا يلتفتُ إليها)[12]

وقالَ السريُّ : (مارستُ كلَّ شيءٍ مِنْ أمرِ الزهدِ ، فنلتُ منهُ ما أريدُ ، إلا الزهدَ في الناسِ ، فإنِّي لمْ أبلغْهُ ولمْ أطقْهُ)[13]

---

(١) وهو قول الأستاذ أبي علي الدقاق كما هو عند القشيري في « رسالته » (ص ٢١٩) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢١٩) ، وفيها : (الزهد يورث السخاء بالملك ، والحب يورث السخاء بالروح) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٠) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٠) دون نسبة .

(٥) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٠) .

(٦) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٠) ، والقول لهما ولعيسى بن يونس وغيرهم .

(٧) الرسالة القشيرية (ص ٢٢١) ، وفي هٰذا المعنىٰ روى البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٢٩) أنه قيل للجنيد : ما تقول في رجل ما بقي عليه من الدنيا غير مصّ النوىٰ ، هل بقي عليه من الدنيا شيء ؟ قال : نعم ، هٰكذا علمنا نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم » ، وهٰذا بخلاف العارف الذي لا شغل له عن الله تعالىٰ ، فإذا اشتغل بنفسه . . لم تطب نفسه .

(٨) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٢٠) .

(٩) الرسالة القشيرية (ص ٢٢١) .

(١٠) الرسالة القشيرية (ص ٢٢١) .

(١١) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٢)

(١٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٢) ، وبعضه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥٣/١٠) بزيادة أخرىٰ .

(١٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٢٣) .

وقالَ الفضيلُ رحمهُ اللهُ : (جعلَ اللهُ الشرَّ كلَّهُ في بيتٍ ، وجعلَ مفتاحَهُ حبَّ الدنيا ، وجعلَ الخيرَ كلَّهُ في بيتٍ ، وجعلَ مفتاحَهُ الزهدَ في الدنيا)[1]

فهـٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنْ حقيقةِ الزهدِ وأحكامِهِ ، وإذا كانَ الزهدُ لا يتمُّ إلا بالتوكُّلِ . . فلنشرعْ في بيانِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

تمّ كتاب الفقر والزّهد

وهو الكتاب الرّابع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

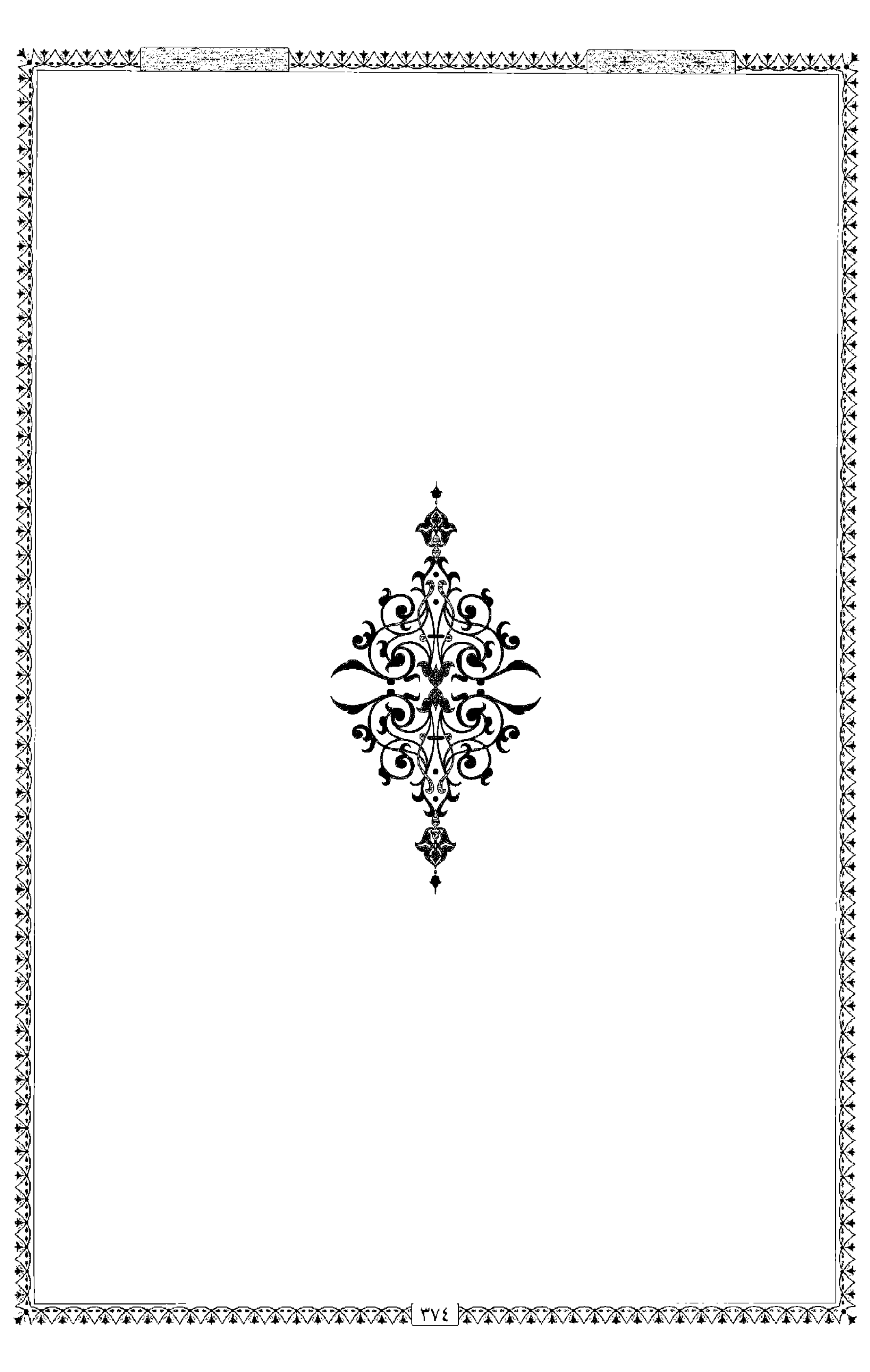
بحمد الله ومنّه ، وحسن توفيقه ، وجميل صنعه ، ولطيف كفايته

وصلاته على سيّد المرسلين محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين

يتلوه كتاب التّوحيد والتّوكّل

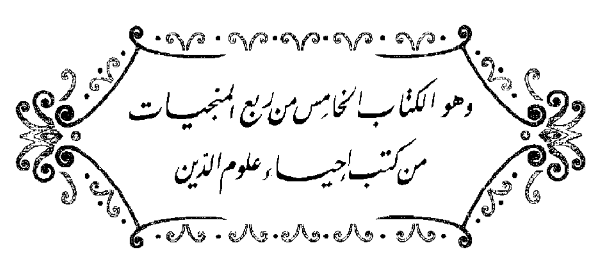
---

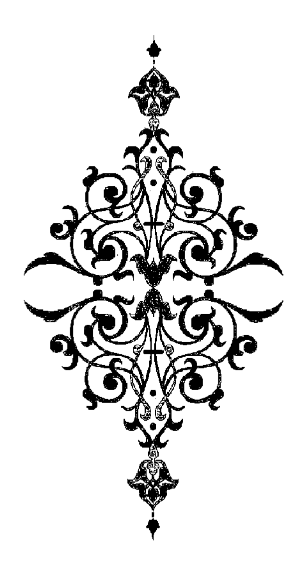
(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٢٣) ، وبه ختم باب الزهد ، وعقد الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٧٦/٩) فصولاً فيها تفصيل لما أجمله المصنف رحمه الله تعالىٰ .



كِتَابُ

التَّوحِيدِ والتَّوكُّلِ





كتاب التّوحيد والتّوكّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ المدبِّرِ للملكِ والملكوتِ ، المنفردِ بالعزَّةِ والجبروتِ ، الرافعِ للسماءِ بغيرِ عمادٍ ، المقدِّرِ فيها أرزاقَ العبادِ ، الذي صرفَ أعينَ ذوي القلوبِ والألبابِ عنْ ملاحظةِ الوسائطِ والأسبابِ إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، ورفعَ همَمَهُمْ عنِ الالتفاتِ إلىٰ ما عداهُ ، والاعتمادِ علىٰ مدبِّرٍ سواهُ ، فلمْ يعبدوا إلا إيَّاهُ ، علماً بأنَّهُ الواحدُ الفردُ الصمدُ الإلٰهُ ، وتحققاً بأنَّ جميعَ أصنافِ الخلقِ عبادٌ أمثالُهُمْ لا يُبتغىٰ عندَهُمُ الرزقُ ، وأنَّهُ ما مِنْ ذرَّةٍ إلا إلى اللهِ خلقُها ، وما مِنْ دابَّةٍ إلا على اللهِ رزقُها ، فلمَّا تحقَّقوا أنَّهُ لرزقِ عبادِهِ ضامنٌ وبهِ كفيلٌ . . توكَّلوا عليهِ وقالوا : حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ قامعِ الأباطيلِ ، الهادي إلىٰ سواءِ السبيلِ ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أمّا بعد :

فإنَّ التوكُّلَ منزلٌ مِنْ منازلِ الدينِ ، ومقامٌ مِنْ مقاماتِ الموقنينَ ، بلْ هوَ مِنْ معالي درجاتِ المقرَّبينَ ، وهوَ في نفسِهِ غامضٌ مِنْ حيثُ العلمُ ، ثمَّ هوَ شاقٌّ مِنْ حيثُ العملُ .

ووجهُ غموضِهِ مِنْ حيثُ الفهمُ : أنَّ ملاحظةَ الأسبابِ والاعتمادَ عليها شركٌ في التوحيدِ ، والتثاقلَ عنها بالكليَّةِ طعنٌ في السنةِ وقدحٌ في الشرعِ ، والاعتمادَ على الأسبابِ مِنْ غيرِ أنْ ترىٰ أسباباً تغييرٌ في وجهِ العقلِ ، وانغماسٌ في غمرةِ الجهلِ ، وتحقيقُ معنى التوكُّلِ علىٰ وجهٍ يتوافقُ فيهِ مقتضى التوحيدِ والعقلِ والشرعِ في غايةِ الغموضِ والعسرِ ، ولا يقوىٰ علىٰ كشفِ هٰذا الغطاءِ معَ شدةِ الخفاءِ إلا سماسرةُ العلماءِ ، الذينَ اكتحلوا مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ بأنوارِ الحقائقِ ، فأبصروا وتحقَّقوا ، ثمَّ نطقوا بالإعرابِ عمَّا شاهدوهُ مِنْ حيثُ استنطقوا .

ونحنُ الآنَ نبتدئُ بذكرِ فضيلةِ التوكُّلِ علىٰ سبيلِ التقدمةِ ، ثمَّ نردفُهُ بالتوحيدِ في الشطرِ الأوَّلِ مِنَ الكتابِ ، ونذكرُ حالَ التوكُّلِ وعملَهُ في الشطرِ الثاني .

* * *

بيان فضيلة التوكل

أمَّا مِنَ الآياتِ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ .

وقالَ سبحانَهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وأعظِمْ بمقامٍ موسومٍ بمحبَّةِ اللهِ سبحانَهُ صاحبُهُ ، ومضمونٍ بكفايةِ اللهِ تعالىٰ ملابسُهُ ، فمَنِ اللهُ تعالىٰ حسبُهُ وكافيهِ ، ومحبُّهُ ومراعيهِ . . فقدَ فازَ الفوزَ العظيمَ ؛ فإنَّ المحبوبَ لا يُعذَّبُ ، ولا يُبعَدُ ولا يُحجَبُ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ ، فطالبُ الكفايةِ مِنْ غيرِهِ هوَ التاركُ للتوكُّلِ ، وهوَ المكذِّبُ بهـٰذهِ الآيةِ ؛ فإنَّهُ سؤالٌ في معرضِ استنطاقٍ بالحقِّ ، كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أيْ : عزيزٌ لا يذلُّ مَنِ استجارَ بهِ ، ولا يضيعُ مَنْ لاذَ بجنابِهِ والتجأَ إلىٰ ذمارِهِ وحماهُ ، وحكيمٌ لا يقصرُ عنْ تدبيرِ مَنْ توكَّلَ علىٰ تدبيرِهِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ، بيَّنَ أنَّ كلَّ ما سوى اللهِ تعالىٰ عبدٌ مسخَّرٌ ، حاجتُهُ مثلُ حاجتِكُمْ ، فكيفَ يتَّكلُ عليهِ ؟!

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾

وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ التوحيدِ فهوَ تنبيهٌ علىٰ قطعِ الملاحظةِ عنِ الأغيارِ ، والتوكُّلِ على الواحدِ القهَّارِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ ابنُ مسعودٍ : « أُريتُ الأممَ بالموسمِ ، فرأيتُ أمَّتي قدْ ملؤوا السهلَ والجبلَ ، فأعجبَني كثرتُهُمْ وهيئتُهُمْ ، فقيلَ لي : أرضيتَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قيلَ : ومعَ هـٰؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ ، قيلَ : منْ همْ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : الذينَ لا يكتوونَ ، ولا يتطيَّرونَ ، ولا يسترقونَ ، وعلىٰ ربِّهِمْ يتوكَّلونَ » ، فقامَ عكاشةُ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يجعلَني منهُمْ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْهُ منهُمْ » ، فقامَ آخرُ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يجعلَني منهُمْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَكَ بها عكاشةُ » [1]

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٣٥٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٩٤) ، وهو عند البخاري (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّكُمْ تتوكَّلونَ على اللهِ حقَّ توكُّلِهِ . . لرزقَكُمْ كما يرزقُ الطيرَ ، تغدو خِماصاً وتروحُ بطاناً »[١]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ انقطعَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . . كفاهُ اللهُ كلَّ مؤنةٍ ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسِبُ ، ومَنِ انقطعَ إلى الدنيا . . وكلَهُ اللهُ إليها »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يكونَ أغنى الناسِ . . فليكنْ بما عندَ اللهِ تعالى أوثقَ منهُ بما في يديهِ »[٣] .

ويُروىٰ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ إذا أصابَ أهلَهُ خصاصةٌ . . قالَ : « قوموا إلى الصلاةِ » ، ويقولُ : « بهٰذا أمرَني ربِّي عزَّ وجلَّ ، قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا . . . ﴾ » الآيةَ[٤]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمْ يتوكَّلْ مَنِ استرقىٰ واكتوىٰ »[٥] ورُوِيَ أنَّهُ لمَّا قالَ جبريلُ لإبراهيمَ عليهما السلامُ وقدْ رُميَ بهِ إلى النارِ بالمنجنيقِ : ألكَ حاجةٌ ؟ قالَ : أمَّا إليكَ . . فلا . وفاءً بقولِهِ : حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ ؛ إذْ قالَ ذٰلكَ حينَ أُخذَ ليُرمىٰ بهِ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾[٦]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ ما مِنْ عبدٍ يعتصمُ بي دونَ خلقي فتكيدُهُ السماواتُ والأرضُ . . إلا جعلتُ لهُ مخرجاً)[٧]

❀ ❀ ❀

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : (لدغَتْني عقربٌ ، فأقسمَتْ عليَّ أمِّي لتسترقيَنْ ، فناولتُ الراقيَ يديَ التي لمْ تُلدغْ)[٨]

وقرأَ الخوَّاصُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ . . . ﴾ إلىٰ آخرِها ، فقالَ : (ما ينبغي للعبدِ بعدَ هٰذهِ الآيةِ أنْ يلجأَ إلىٰ أحدٍ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ)[٩]

وقيلَ لبعضِ العلماءِ في منامِهِ : (مَنْ وثقَ باللهِ تعالىٰ . . فقدْ أحرزَ قوتَهُ)[١٠]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (لا يشغلَنَّكَ المضمونُ لكَ مِنَ الرزقِ عنِ المفروضِ عليكَ مِنَ العملِ فتضيعَ أمرَ آخرتِكَ ، ولا تنالَ مِنَ الدنيا إلا ما قدْ كتبَ اللهُ لكَ)[١١]

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٣٨٣) ، و« الصغير » (١١٦/١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤٤) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢٧١/٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٨/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٦٧) .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٦/٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١١) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : (كان النبي إذا نزل بأهله الضيق . . أمرهم بالصلاة ثم قرأ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢٥١/٤) واللفظ له ، والترمذي (٢٠٥٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٥٦١) ، وابن ماجه (٣٤٨٩) .

(٦) كذا في القوت » (٢٢٩/١) ، وأما قوله عليه السلام حين ألقي في النار : (حسبي الله ونعم الوكيل) . . فقد رواه البخاري (٤٥٦٤) ، وخبره مع جبريل عليه السلام رواه بنحوه الطبري في « تفسيره » (٦٠/١٧/١٠) .

(٧) رواه تمام في « فوائده » (١٧٠٠) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً

(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٥/٤) ، وزاد : (وكرهت أن أحنثها) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « التوكل على الله » (٣٧) ، وأورده ابن منظور في « مختصر تاريخ دمشق » (١٩٦/١٠) ، **والخواص** : هو سليمان أبو أيوب .

(١٠) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣١٠/٩) .

(١١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٣٨٩/٩) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (في وجودِ العبدِ الرزقَ مِنْ غيرِ طلبٍ دلالةٌ علىٰ أنَّ الرزقَ مأمورٌ بطلبِ العبدِ)(١)

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : سألتُ بعضَ الرهبانِ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ فقال لي : ليسَ هٰذا العلمُ عندي ، ولٰكنْ سلْ ربِّي مِنْ أينَ يطعمُني(٢)

وقالَ هَرِمُ بنُ حيَّانَ لأويسٍ القرنيِّ : أينَ تأمرُني أنْ أكونَ ؟ فأومأَ إلى الشامِ ، فقالَ هرمٌ : كيفَ المعيشةُ بها ؟ قالَ أويسٌ : أفٍّ لهٰذهِ القلوبِ !! قدْ خالطَها الشكُّ فما تنفعُها الموعظةُ(٣)

وقالَ بعضُهُمْ : (متىٰ رضيتَ باللهِ وكيلاً . . وجدتَ إلىٰ كلِّ خيرٍ سبيلاً) ، نسألُ اللهَ تعالىٰ حسنَ الأدبِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٣٨٩/٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » « إتحاف » (٣٨٩/٩) .

(٣) رواه الخلال في « الحث على التجارة والصناعة والعمل » (١٢٨) ولم يذكر فيه هرماً ، ولقاء هرم بأويس رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٠٦/٣) .

الشَّطْرُ الأوَّلُ
بيانُ حقيقةِ التَّوحيدِ الَّذي هو أصلُ التَّوكُّل

اعلمْ : أنَّ التوكُّلَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، وجميعُ أبوابِ الإيمانِ لا تنتظمُ إلا بعلمٍ وحالٍ وعملٍ ، والتوكلُ كذٰلكَ ينتظمُ مِنْ علمٍ هوَ الأصلُ ، وعملٍ هوَ الثمرةُ ، وحالٍ هوَ المرادُ باسمِ التوكلِ .

فلنبدأْ ببيانِ العلمِ الذي هوَ الأصلُ ، وهوَ المسمَّىٰ إيماناً في أصلِ اللسانِ ؛ إذِ الإيمانُ هوَ التصديقُ ، وكلُّ تصديقٍ بالقلبِ فهوَ علمٌ ، وإذا قويَ . . سُمِّيَ يقيناً ، ولٰكنْ أبوابُ اليقينِ كثيرةٌ ، ونحنُ إنَّما نحتاجُ منها إلىٰ ما يُبنىٰ عليهِ التوكلُ ؛ وهوَ التوحيدُ الذي يترجمُهُ قولُكَ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ) ، والإيمانُ بالقدرةِ التي يترجمُها قولُكَ : (لهُ الملكُ) ، والإيمانُ بالجودِ والحكمةِ الذي يدلُّ عليهِ قولُكَ : (ولهُ الحمدُ) .

فمَنْ قالَ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ) . . تمَّ لهُ الإيمانُ الذي هوَ أصلُ التوكلِ ؛ أعني : أنْ يصيرَ معنىٰ هٰذا القولِ وصفاً لازماً لقلبِهِ غالباً عليهِ .

❀ ❀ ❀

فأمَّا التوحيدُ . . فهوَ الأصلُ ، والقولُ فيهِ طويلٌ ، وهوَ مِنْ علمِ المكاشفةِ ، ولٰكنْ بعضُ علومِ المكاشفاتِ تتعلَّقُ بالأعمالِ بواسطةِ الأحوالِ[1] ، ولا يتمُّ علمُ المعاملةِ إلا بها .

فإذاً ؛ لا نتعرَّضُ إلا للقدْرِ الذي يتعلَّقُ بالمعاملةِ ، وإلا . . فالتوحيدُ هوَ البحرُ الخِضَمُّ الذي لا ساحلَ لهُ ، فنقولُ :

للتوحيدِ أربعُ مراتبَ ، وهوَ ينقسمُ إلىٰ لبٍّ ، ولبِّ اللبِّ ، وإلىٰ قشرٍ ، وقشرِ القشرِ ، ولنمثِّلْ ذٰلكَ تقريباً إلى الأفهامِ الضعيفةِ بالجوزِ في قشرتِهِ العليا ، فإنَّ لهُ قشرتينِ ، ولهُ لبٌّ ، وللبِّ دهنٌ هوَ لبُّ اللبِّ .

❀ ❀ ❀

فالمرتبةُ الأولىٰ مِنَ التوحيدِ : أنْ يقولَ الإنسانُ بلسانِهِ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ) وقلبُهُ غافلٌ عنهُ ، أوْ منكرٌ لهُ ؛ كتوحيدِ المنافقينَ .

والثانيةُ : أنْ يصدِّقَ بمعنى اللفظِ قلبُهُ ، كما صدَّقَ بهِ عمومُ المسلمينَ ، وهوَ اعتقادُ[2] .

والثالثةُ : أن يشاهدَ ذٰلكَ بطريقِ الكشفِ بواسطةِ نورِ الحقِّ ، وهوَ مقامُ المقرَّبينَ ، وذٰلكَ بأنْ يرىٰ أشياءَ كثيرةً ، ولٰكنْ يراها علىٰ كثرتِها صادرةً عنِ الواحدِ القهَّارِ .

والرابعةُ : ألا يرىٰ في الوجودِ إلا واحداً ، وهوَ مشاهدةُ الصديقينَ ، وتسمِّيهِ الصوفيَّةُ الفناءَ في التوحيدِ ؛ لأنَّهُ مِنْ حيثُ لا يرىٰ إلا واحداً فلا يرىٰ نفسَهُ أيضاً ، وإذا لمْ يرَ نفسَهُ لكونِهِ مستغرقاً بالواحدِ . . كانَ فانياً عن نفسِهِ في توحيدِهِ ، بمعنىٰ أنَّهُ فنيَ عنْ رؤيةِ نفسِهِ والخلقِ .

❀ ❀ ❀

(١) فإن الأحوال هي التي تثمر الأعمال ، وهي مواجيد القلوب . « إتحاف » (٩/٣٩٠) .
(٢) كذا في جميع النسخ : (وهو اعتقادٌ) ، وهو الصحيح ، وسيأتي قريباً قوله : (وأما الثاني وهو الاعتقاد . . فهو موجود في عموم المسلمين) .

فالأَوّلُ : موحدٌ بمجرَّدِ اللسانِ ، ويعصمُ ذٰلكَ صاحبَهُ في الدنيا عنِ السيفِ والسنانِ .

والثاني : موحدٌ بمعنىٰ أنَّهُ معتقدٌ بقلبِهِ مفهومَ لفظِهِ ، وقلبُهُ خالٍ عنِ التكذيبِ بما انعقدَ عليهِ قلبُهُ ، وهوَ عقدةٌ على القلبِ ليسَ فيهِ انشراحٌ وانفتاحٌ ، ولٰكنَّهُ يحفظُ صاحبَهُ عنِ العذابِ في الآخرةِ إنْ تُوفِّيَ عليها ولمْ تضعفْ بالمعاصي عقدتُهُ ، ولهٰذا العقدِ حيلٌ يُقصدُ بها تضعيفُهُ وتحليلُهُ تُسمَّىٰ بدعةً ، ولهُ حيلٌ يُقصدُ بها دفعُ حيلةِ التحليلِ والتضعيفِ ، ويُقصدُ بها أيضاً إحكامُ هٰذهِ العقدةِ وشدُّها على القلبِ وتُسمَّىٰ كلاماً ، والعارفُ بهِ يُسمَّىٰ مُتكلِّماً ، وهوَ في مقابلةِ المبتدعِ[١] ، ومقصدُهُ دفعُ المبتدعِ عنْ تحليلِ هٰذهِ العقدةِ عنْ قلوبِ العوامِّ ، وقدْ يُخصُّ المتكلِّمُ باسمِ الموحِّدِ مِنْ حيثُ إنَّهُ يحمي بكلامِهِ مفهومَ لفظِ التوحيدِ علىٰ قلوبِ العوامِّ حتَّىٰ لا تنحلَّ عقدتُهُ .

والثالثُ : موحدٌ بمعنىٰ أنَّهُ لمْ يشاهدْ إلا فاعلاً واحداً ؛ إذْ قدِ انكشفَ لهُ الحقُّ كما هوَ عليهِ[٢] ، ولا فاعلَ بالحقيقةِ إلا واحدٌ ، وقدِ انكشفَتْ لهُ الحقيقةُ كما هيَ عليهِ ، لا أنَّهُ كلَّفَ قلبَهُ أنْ يعقدَ علىٰ مفهومِ لفظِ الحقيقةِ[٣] ؛ فإنَّ ذٰلكَ رتبةُ العوامِّ والمتكلمينَ ؛ إذْ لمْ يفارقِ المتكلِّمُ العامِّيَّ في الاعتقادِ ، بلْ في صنعةِ تلفيقِ الكلامِ الذي بهِ يدفعُ حيلَ المبتدعِ في تحليلِ هٰذهِ العقدةِ .

والرابعُ : موحدٌ بمعنىٰ أنَّهُ لمْ يحضُرْ في شهودِهِ غيرُ الواحدِ ، فلا يرى الكلَّ مِنْ حيثُ إنَّهُ كثيرٌ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ واحدٌ ، وهٰذهِ هيَ الغايةُ القصوىٰ في التوحيدِ .

❁ ❁ ❁

فالأَوّلُ كالقشرةِ العليا مِنَ الجوزِ ، والثاني كالقشرةِ السفلىٰ ، والثالثُ كاللبِّ ، والرابعُ كالدهنِ المستخرجِ مِنَ اللبِّ .

وكما أنَّ القشرةَ العليا منَ الجوزِ لا خيرَ فيها ، بلْ إنْ أُكلَ . . فهوَ مرُّ المذاقِ ، وإنْ نُظرَ إلىٰ باطنِهِ . . فهوَ كريهُ المنظرِ ، وإنِ اتُّخذَ حطباً . . أطفأَ النارَ وأكثرَ الدخانَ ، وإنْ تُركَ في البيتِ . . ضيَّقَ المكانَ ، فلا يصلحُ إلا أنْ يُتركَ مدَّةً على الجوزِ للصوانِ ثمَّ يُرمىٰ بهِ ؛ فكذٰلكَ التوحيدُ بمجرَّدِ اللسانِ دونَ التصديقِ بالقلبِ عديمُ الجدوىٰ كثيرُ الضررِ ، مذمومُ الظاهرِ والباطنِ ، لٰكنَّهُ ينفعُ مدَّةً في حفظِ القشرةِ السفلىٰ إلىٰ وقتِ الموتِ ، والقشرةُ السفلىٰ هيَ القلبُ والبدنُ ، وتوحيدُ المنافقِ يصونُ بدنَهُ عنْ سيفِ الغزاةِ ؛ فإنَّهُمْ لمْ يُؤمروا بشقِّ القلوبِ ، والسيفُ إنَّما يصيبُ جسمَ البدنِ وهوَ القشرُ ، وإنَّما يتجرَّدُ عنهُ بالموتِ ، فلا يبقىٰ لتوحيدِهِ فائدةٌ بعدَهُ .

وكما أنَّ القشرةَ السفلىٰ ظاهرةُ النفعِ بالإضافةِ إلى القشرةِ العليا ؛ فإنَّها تصونُ اللبَّ وتحرسُهُ عنِ الفسادِ عندَ الادخارِ ، وإذا فُصلَتْ . . أمكنَ أنْ ينتفعَ بها حطباً ، لٰكنَّها نازلةُ القدْرِ بالإضافةِ إلى اللبِّ ؛ فكذٰلكَ مجرَّدُ الاعتقادِ مِنْ غيرِ كشفٍ كثيرُ النفعِ بالإضافةِ إلىٰ مجرَّدِ نطقِ اللسانِ ، ناقصُ القدْرِ بالإضافةِ إلى الكشفِ والمشاهدةِ التي تحصلُ بانشراحِ الصدرِ وانفساحِهِ وإشراقِ نورِ الحقِّ فيهِ ؛ إذْ ذٰلكَ الشرحُ هوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾

وكما أنَّ اللبَّ نفيسٌ في نفسِهِ بالإضافةِ إلى القشرِ وكأنَّهُ المقصودُ ، ولٰكنَّهُ لا يخلو عنْ شوبِ عصارةٍ بالإضافةِ

---

(١) وعليه : فاصطلاح (المتكلم) عند المصنف مقتصر علىٰ أهل الحق ، ولا مشاحّة في الاصطلاح .
(٢) في غير (أ) : (إذا انكشف) بدل (إذ قد انكشف) .
(٣) في (أ ، ف) : (إلا أنه) بدل (لا أنه) .

إلى الدهنِ المستخرجِ منهُ ؛ فكذٰلكَ توحيدُ الفعلِ مقصدٌ عالٍ للسالكينَ ، ولـٰكنَّهُ لا يخلو عنْ شوبِ ملاحظةِ الغيرِ والالتفاتِ إلى الكثرةِ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ لا يشاهدُ سوى الواحدِ الحقِّ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : كيفَ يُتصوَّرُ ألا يشاهدَ إلا واحداً وهوَ يشاهدُ السماءَ والأرضَ وسائرَ الأجسامِ المحسوسةِ وهيَ كثيرةٌ ؟ فكيفَ يكونُ الكثيرُ واحداً ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا غايةُ علومِ المكاشفاتِ ، وأسرارُها لا يجوزُ أنْ تُسطرَ في كتابٍ[١] ، فقدْ قالَ العارفونَ : (إفشاءُ سرِّ الربوبيَّةِ كفرٌ)[٢] .

ثمَّ هوَ غيرُ متعلِّقٍ بعلمِ المعاملةِ ، نعمْ ، ذكرُ ما يكسرُ سورةَ استبعادِكَ ممكنٌ ، وهوَ أنَّ الشيءَ قدْ يكونُ كثيراً بنوعِ مشاهدةٍ واعتبارٍ ، ويكونُ واحداً بنوعٍ آخرَ مِنَ المشاهدةِ والاعتبارِ ، وهـٰذا كما أنَّ الإنسانَ كثيرٌ إنِ التفتَ إلىٰ روحِهِ وجسدِهِ وأطرافِهِ وعروقِهِ وعظامِهِ وأحشائِهِ ، وهوَ باعتبارٍ آخرَ ومشاهدةٍ أخرىٰ واحدٌ ؛ إذْ نقولُ : إنَّهُ إنسانٌ واحدٌ ، فهوَ بالإضافةِ إلى الإنسانيةِ واحدٌ ، وكمْ مِنْ شخصٍ يشاهدُ إنساناً ولا يخطرُ ببالِهِ كثرةُ أمعائِهِ وعروقِهِ وأطرافِهِ ، وتفصيلُ روحِهِ وجسدِهِ وأعضائِهِ ، والفرقُ بينَهُمَا ، فهوَ في حالةِ الاستغراقِ والاستهتارِ بِهِ مستغرقٌ بواحدٍ ليسَ فيهِ تفرقٌ[٣] ، وكأنَّهُ في عينِ الجمعِ ، والملتفتُ إلى الكثرةِ في تفرقةٍ .

فكذٰلكَ كلُّ ما في الوجودِ مِنَ الخالقِ والمخلوقِ لهُ اعتباراتٌ ومشاهداتٌ كثيرةٌ مختلفةٌ ، وهو باعتبارٍ واحدٍ مِنَ الاعتباراتِ واحدٌ ، وباعتباراتٍ أخرَ سواها كثيرٌ ، بعضُها أشدُّ كثرةً مِنْ بعضٍ ، ومثالُ الإنسانِ وإنْ كانَ مثالاً لا يطابقُ الغرضَ ولـٰكنَّهُ ينبِّهُ في الجملةِ علىٰ كيفيَّةِ مصيرِ الكثرةِ في حكمِ المشاهدةِ واحداً .

وتستفيدُ بهـٰذا الكلامِ تركَ الإنكارِ والجحودِ لمقامٍ لمْ تبلغْهُ وتؤمنُ بِهِ إيمانَ تصديقٍ ، فيكونُ لكَ مِنْ حيثُ إنَّكَ مؤمنٌ بهـٰذا التوحيدِ نصيبٌ وإنْ لمْ يكنْ ما آمنتَ بِهِ صفتَكَ ؛ كما أنَّكَ إذا آمنتَ بالنبوَّةِ وإنْ لمْ تكنْ نبيّاً . . كانَ لكَ نصيبٌ منهُ بقدْرِ قوَّةِ إيمانِكَ .

وهـٰذهِ المشاهدةُ التي لا يظهرُ فيها إلا الواحدُ الحقُّ تارةً تدومُ ، وتارةً تطرأُ كالبرقِ الخاطفِ وهوَ الأكثرُ ، والدوامُ نادرٌ عزيزٌ[٤] ، وإلىٰ هـٰذا أشارَ الحسينُ بنُ منصورٍ الحلَّاجُ حيثُ رأى الخوَّاصَ يدورُ في الأسفارِ فقالَ : فيماذا أنتَ ؟ فقالَ : أدورُ في الأسفارِ لأصحِّحَ حالي في التوكُّلِ ـ وقدْ كانَ مِنَ المتوكِّلينَ ـ فقالَ الحسينُ : قدْ أفنيتَ عمرَكَ في عمرانِ باطنِكَ ، فأينَ الفناءُ في التوحيدِ ؟[٥] ، فكأنَّ الخوَّاصَ كانَ في تصحيحِ المقامِ الثالثِ في التوحيدِ ، فطالبَهُ بالمقامِ الرابعِ .

---

(١) فيطلع عليه من ليس بأهل لمزاولتها ، فيقع في وحلة لا يكاد يتخلص منها . « إتحاف » (٣٩٢/٩) .

(٢) قوت القلوب (٩٠/٢) ، وقد بيَّن الإمام الغزالي معناه في « الإملاء » .

(٣) كذا في جميع النسخ ، وعند الحافظ في « الإتحاف » (٣٩٣/٩) : (والفرقُ بينهما أنه في حالة الاستغراق) ، علماً أنه لم يتقدم ذكر للتفريع صريح .

(٤) لـٰكنها إذا غابت . . بقيت آثارها ، فصاحبها بعد سكون غليانه يعيش في بركات ضيائها إلىٰ أن تلوح ثانية يزجي وقته على انتظار عودها ، ويعيش بما وجد في حين كونه . « إتحاف » (٣٩٤/٩) .

(٥) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٩٧) .

فهٰذهِ مقاماتُ الموحّدينَ في التوحيدِ على سبيلِ الإجمالِ[1]

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فلا بدَّ لهٰذا مِنْ شرحٍ بمقدارِ ما يُفهمُ كيفيةُ ابتناءِ التوكُّلِ عليهِ .

فأقولُ : أمَّا الرابعُ . . فلا يجوزُ الخوضُ في بيانِهِ ، وليسَ التوكُّلُ أيضاً مبنيّاً عليهِ ، بلْ يحصلُ حالُ التوكُّلِ بالتوحيدِ الثالثِ .

وأمَّا الأوَّلُ وهوَ النفاقُ . . فهوَ واضحٌ .

وأمَّا الثاني وهوَ الاعتقادُ . . فهوَ موجودٌ في عمومِ المسلمينَ ، وطريقُ تأكيدِهِ بالكلامِ ، ودفعُ حيلِ المبتدعةِ فيهِ مذكورٌ في علمِ الكلامِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ « الاقتصادُ في الاعتقادِ » القدْرَ المهمَّ منه .

وأمَّا الثالثُ . . فهوَ الذي يبتنى التوكلُ عليهِ ؛ إذْ مجرَّدُ التوحيدِ بالاعتقادِ لا يورثُ حالَ التوكلِ ، فلنذكرْ منهُ القدْرَ الذي يرتبطُ التوكلُ بهِ دونَ تفصيلِهِ الذي لا يحتملُهُ أمثالُ هٰذا الكتابِ .

وحاصلُهُ : أنْ ينكشفَ لكَ أنْ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالىٰ ، وأنَّ كلَّ موجودٍ مِنْ خلقٍ ورزقٍ ، وعطاءٍ ومنعٍ ، وحياةٍ وموتٍ ، وغنىً وفقرٍ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا ينطلقُ عليهِ اسمٌ[2] . . فالمنفردُ بإبداعِهِ واختراعِهِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، لا شريكَ لهُ فيهِ ، وإذا انكشفَ لكَ هٰذا . . لمْ تنظرْ إلىٰ غيرِهِ ، بلْ كانَ منهُ خوفُكَ ، وإليهِ رجاؤُكَ ، وبهِ ثقتُكَ ، وعليهِ اتكالُكَ ؛ فإنَّهُ الفاعلُ على الانفرادِ دونَ غيرِهِ ، وما سواهُ مسخرونَ لا استقلالَ لهم بتحريكِ ذرَّةٍ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وإذا انفتحَتْ لكَ أبوابُ المكاشفةِ . . اتضحَ لكَ هٰذا اتضاحاً أتمَّ مِنَ المشاهدةِ بالبصرِ .

وإنَّما يصدُّكَ الشيطانُ عنْ هٰذا التوحيدِ في مقامينِ يبتغي بهِما أنْ يطرقَ إلىٰ قلبِكَ شائبةَ الشركِ :

أحدُهُما : الالتفاتُ إلى اختيارِ الحيواناتِ .

والثاني : الالتفاتُ إلى الجماداتِ .

أمَّا الالتفاتُ إلى الجمادات . . فكاعتمادِكَ على المطرِ في خروجِ الزرعِ ونباتِهِ ونمائِهِ ، وعلى الغيمِ في نزولِ المطرِ ، وعلى البردِ في اجتماعِ الغيمِ ، وعلى الريحِ في استواءِ السفينةِ وسيرِها ، وهٰذا كلُّهُ شركٌ في التوحيدِ ، وجهلٌ بحقائقِ الأمورِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ، قيلَ : معناهُ : أنَّهُمْ يقولونَ : لولا استواءُ الريحِ . . لما نجونا .

ومَنِ انكشفَ لهُ أمرُ العالمِ كما هوَ عليهِ . . علمَ أنَّ الريحَ هوَ الهواءُ ، والهواءُ لا يتحرَّكُ بنفسِهِ ما لمْ يُحرِّكْ وكذٰلكَ محرِّكُهُ ، وهٰكذا إلىٰ أنْ ينتهيَ إلى المحرِّكِ الأوَّلِ الذي لا محرِّكَ لهُ ، ولا هوَ متحرِّكٌ في نفسِهِ عزَّ وجلَّ ، فالتفاتُ العبدِ في النجاةِ إلى الريحِ يضاهي التفاتَ مَنْ أُخذَ لتُحزَّ رقبتُهُ فكتبَ الملكُ توقيعاً بالعفوِ عنهُ وتخليتِهِ ، فأخذَ يشتغلُ بشكرِ الحبرِ والكاغدِ والقلمِ الذي بهِ كُتبَ التوقيعُ ، ويقولُ : (لولا القلمُ . . لما تخلَّصتُ) ، فيرىٰ نجاتَهُ مِنَ القلمِ لا مِنْ محرِّكِ القلمِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ ، ومَنْ علمَ أنَّ القلمَ لا حكمَ لهُ في نفسِهِ ، وإنَّما هوَ مسخَّرٌ في يدِ الكاتبِ . . لمْ

---

(١) وقد اعترض على المصنف هٰذا التقسيم ، حتىٰ إنه عقد له جواباً في « إملائه » .

(٢) في (ب) : (اسم الحادث) .

يلتفتْ إليهِ ، ولمْ يشكرْ إلا الكاتبَ ، بلْ ربَّما يدهشُهُ فرحُ النجاةِ وشكرُ الملكِ والكاتبِ عنْ أنْ يخطرَ ببالِهِ القلمُ والحبرُ والدواةُ .

فالشمسُ والقمرُ والنجومُ والمطرُ والغيمُ والأرضُ وكلُّ حيوانٍ وجمادٍ مسخراتٌ في قبضةِ القدرةِ كتسخيرِ القلمِ في يدِ الكاتبِ ، بلْ هٰذا تمثيلٌ في حقِّكَ لاعتقادِكَ أنَّ الملكَ الموقِّعَ هوَ كاتبُ التوقيعِ ، والحقُّ أنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ هوَ الكاتبُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ .

فإذا انكشفَ لكَ أنَّ جميعَ ما في السماواتِ والأرضِ مسخراتٌ علىٰ هٰذا الوجهِ . . انصرفَ عنكَ الشيطانُ خائباً ، وأيسَ مِنْ مزجِ توحيدِكَ بهٰذا الشركِ ، فيأتيكَ في المهلكةِ الثانيةِ ، **وهيَ الالتفاتُ إلى اختيارِ الحيواناتِ في الأفعالِ الاختياريةِ** ، ويقولُ : كيفَ ترى الكلَّ مِنَ اللهِ وهٰذا الإنسانُ يعطيكَ رزقَكَ باختيارِهِ ؛ فإنْ شاءَ . . أعطاكَ ، وإنْ شاءَ . . قطعَ عنكَ ؟ وهٰذا الشخصُ هوَ الذي يحزُّ رقبتَكَ بسيفِهِ وهوَ قادرٌ عليكَ ؛ إنْ شاءَ . . حزَّ رقبتَكَ ، وإنْ شاءَ . . عفا عنكَ ، فكيفَ لا تخافُهُ وكيفَ لا ترجوهُ وأمرُكَ بيدِهِ ، وأنتَ تشاهدُ ذٰلكَ ولا تشكُّ فيهِ ؟ ويقولُ لهُ أيضاً : نعمْ ، إنْ كنتَ لا ترى القلمَ لأنَّهُ مسخَّرٌ . . فكيفَ لا ترى الكاتبَ بالقلمِ وهوَ المسخِّرُ لهُ ؟

وعندَ هٰذا زلَّ أقدامُ الأكثرينَ ، إلا عبادَ اللهِ المخلصينَ ، الذينَ لا سلطانَ عليهِمْ للشيطانِ اللعينِ ، فشاهدوا بنورِ البصائرِ كونَ الكاتبِ مسخَّراً مضطرّاً كما شاهدَ جميعُ الضعفاءِ كونَ القلمِ مسخَّراً ، وعرفوا أنَّ غلطَ الضعفاءِ في ذٰلكَ كغلطِ النملةِ مثلاً لوْ كانَتْ تدبُّ على الكاغدِ فترىٰ رأسَ القلمِ يسوِّدُ الكاغدَ ، ولمْ يمتدَّ بصرُها إلى اليدِ والأصابعِ فضلاً عنْ صاحبِ اليدِ ، فغلطَتْ وظنَّتْ أنَّ القلمَ هوَ المسوِّدُ للبياضِ ، وذٰلكَ لقصورِ بصرِها عنْ مجاوزةِ رأسِ القلمِ لضيقِ حدقتِها .

فكذٰلكَ مَنْ لمْ ينشرحْ بنورِ اللهِ صدرُهُ للإسلامِ . . قصرَتْ بصيرتُهُ عنْ ملاحظةِ جبَّارِ السماواتِ والأرضِ ، ومشاهدةِ كونِهِ قاهراً وراءَ الكلِّ ، فوقفَ في الطريقِ على الكاتبِ ، وهوَ جهلٌ محضٌ .

بلْ أربابُ القلوبِ والمشاهداتِ قدْ أنطقَ اللهُ تعالىٰ في حقِّهِمْ كلَّ ذرَّةٍ في الأرضِ والسماواتِ بقدرتِهِ التي بها أنطقَ كلَّ شيءٍ ، حتَّىٰ سمعوا تقديسَها وتسبيحَها للهِ تعالىٰ ، وشهادتَها علىٰ نفسِها بالعجزِ بلسانٍ ذَلْقٍ ، تتكلَّمُ بلا حرفٍ ولا صوتٍ ، ولا يسمعُهُ الذينَ همْ عنِ السمعِ معزولونَ ، ولستُ أعني بهِ السمعَ الظاهرَ الذي لا يجاوزُ الأصواتَ ، فإنَّ الحمارَ شريكٌ فيهِ ، ولا قدْرَ لما يُشاركُ فيهِ البهائمُ ، وإنَّما أريدُ بهِ سمعاً يُدركُ بهِ كلامٌ ليسَ بحرفٍ ولا صوتٍ ، ولا هوَ عربيٌّ ولا عجميٌّ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ أعجوبةٌ لا يقبلُها العقلُ ، فصفْ لي كيفيَّةَ نطقِها ، وأنَّها كيفَ نطقَتْ ، وبماذا نطقَتْ ، وكيفَ سبَّحَتْ وقدَّسَتْ ، وكيفَ شهدَتْ علىٰ نفسِها بالعجزِ .

فاعلمْ : أنَّ لكلِّ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ معَ أربابِ القلوبِ مناجاةً في السرِّ ، وذٰلكَ ممَّا لا ينحصرُ ولا يتناهىٰ ، فإنَّها كلماتٌ تَستمدُّ مِنْ بحرِ كلامِ اللهِ تعالى الذي لا نهايةَ لهُ ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

ثمَّ إنَّها تتناجىٰ بأسرارِ الملكِ والملكوتِ ، وإفشاءُ السرِّ لؤمٌ ، بلْ صدورُ الأحرارِ قبورُ الأسرارِ ، وهلْ رأيتَ قطُّ أميناً علىٰ أسرارِ الملكِ قدْ نُوجيَ بخفاياهُ ، فنادىٰ بسرِّهِ علىٰ ملأٍ مِنَ الخلقِ ؟ ولوْ جازَ إفشاءُ كلِّ سرٍّ . . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً »[1] ، بلْ كانَ يذكرُ ذٰلكَ لهُمْ حتَّىٰ يبكونَ ولا يضحكونَ ، ولما نهىٰ عنْ إفشاءِ سرِّ القدرِ[2] ، ولما قالَ : « إذا ذُكرَ النجومُ . . فأمسكوا ، وإذا ذُكرَ القدرُ . . فأمسكوا ، وإذا ذُكرَ أصحابي . . فأمسكوا »[3] ، ولما خصَّ حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ ببعضِ الأسرارِ[4] .

فإذاً ؛ عنْ حكاياتِ مناجاةِ ذرَّاتِ الملكِ والملكوتِ لقلوبِ أربابِ المشاهداتِ مانعانِ :

أحدُهُما : استحالةُ إفشاءِ السرِّ .

والثاني : خروجُ كلماتِها عنِ الحصرِ والنهايةِ .

ولكنَّا في المثالِ الذي كنَّا فيهِ وهيَ حركةُ القلمِ نحكي مِنْ مناجاتِها قدراً يسيراً يُفهمُ بهِ على الإجمالِ كيفيةُ ابتناءِ التوكلِ عليهِ ، ونردُّ كلماتِها إلى الحروفِ والأصواتِ وإنْ لمْ تكنْ هيَ حروفاً وأصواتاً ، ولٰكنْ هٰذهِ ضرورةُ التفهيمِ ، فنقولُ : قالَ بعضُ الناظرينَ عنْ مشكاةِ نورِ اللهِ تعالىٰ[5] للكاغدِ وقدْ رآهُ اسودَّ وجهُهُ بالحبرِ : ما بالُ وجهِكَ كانَ أبيضَ مشرقاً والآنَ قدْ ظهرَ عليهِ السوادُ ، فلِمَ سوَّدتَ وجهَكَ ؟ وما السببُ فيهِ ؟

فقالَ الكاغدُ : ما أنصفتَني في هٰذهِ المطالبةِ ؛ فإنِّي ما سوَّدتُ وجهي بنفسي ، ولٰكنْ سلِ الحبرَ ، فإنَّهُ كانَ مجموعاً في المحبرةِ التي هيَ مستقرُّهُ ووطنُهُ ، فسافرَ عنِ الوطنِ ، ونزلَ بساحةِ وجهي ظلماً وعدواناً ، فقالَ : صدقتَ .

فسألَ الحبرَ عنْ ذٰلكَ فقالَ : ما أنصفتَني ، فإنِّي كنتُ في المحبرةِ وادعاً ساكناً ، عازماً علىٰ ألا أبرحَ منها ، فاعتدىٰ عليَّ القلمُ بطبعِهِ الفاسدِ[6] واختطفَني مِنْ وطني ، وأجلاني عنْ بلادي ، وفرَّقَ جمعي ، وبددَني كما ترىٰ علىٰ ساحةٍ بيضاءَ ، فالسؤالُ عليهِ لا عليَّ ، فقالَ : صدقتَ .

ثمَّ سألَ القلمَ عنِ السببِ في ظلمِهِ وعدوانِهِ ، وإخراجِ الحبرِ مِنْ أوطانِهِ ، فقالَ : سلِ اليدَ والأصابعَ ؛ فإنِّي كنتُ قصباً نابتاً علىٰ شطِّ الأنهارِ ، متنزهاً بينَ خضرةِ الأشجارِ ، فجاءَتْني اليدُ بسكينٍ ، فنحَتْ عنِّي قشري ، ومزَّقَتْ عني ثيابي ، واقتلعَتْني مِنْ أصلي ، وفصلَتْ بينَ أنابيبي ، ثمَّ برتْني وشقَّتْ رأسي ، ثمَّ غمسَتْني في سوادِ الحبرِ ومرارتِهِ ، وهيَ تستخدمُني وتمشيني علىٰ قمَّةِ رأسي ، فلقدْ نثرتَ الملحَ علىٰ جرحي بسؤالِكَ وعتابِكَ ، فتنحَّ عنِّي وسلْ مَنْ قهرَني ، فقالَ : صدقتَ .

ثمَّ سألَ اليدَ عنْ ظلمِها للقلمِ وتعديها عليهِ واستخدامِها لهُ ، فقالَتِ اليدُ : ما أنا إلا لحمٌ وعظمٌ ودمٌ ، وهلْ رأيتَ لحماً يظلمُ أوْ جسماً يتحرَّكُ بنفسِهِ ؟ وإنَّما أنا مركَبٌ مسخَّرٌ ، ركبَني فارسٌ يُقالُ لهُ : القدرةُ والقوَّةُ ، فهيَ التي تردِّدُني وتجولُ بي في نواحي الأرضِ ، أما ترى المدرَ والحجرَ والشجرَ لا يتعدَّىٰ شيءٌ منها مكانَهُ ولا يتحرَّكُ بنفسِهِ إذْ لمْ يركبْها

---

(١) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (١٠٢/٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٨٢/٦)

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩٦/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٨/٤)

(٤) روىٰ ذٰلك البخاري (٣٧٤٣) .

(٥) أي : بعين البصيرة . « إتحاف » (٤٠٢/٩) .

(٦) في غير (أ ، ب) : (بطمعه) بدل (بطبعه) .

مثلُ هـٰذا الفارسِ القويِّ القاهرِ ؟ أما ترىٰ أيديَ الموتىٰ تساويني في صورةِ اللحمِ والعظمِ والدمِ ثمَّ لا معاملةَ بينَها وبينَ القلمِ ؟ فأنا أيضاً مِنْ حيثُ أنا لا معاملةَ بيني وبينَ القلمِ ، فسلِ القدرةَ عنْ شأني ، فإنِّي مركَبٌ أزعجَني مَنْ ركبَني ، فقالَ : صدقتِ .

ثمَّ سألَ القدرةَ عنْ شأنِها في استعمالِها اليدَ واستخدامِها وكثرةِ ترديدِها ، فقالَتْ : دعْ عنكَ لومي ومعاتبتي ، فكمْ مِنْ لائمٍ ملومٌ ، وكمْ مِنْ ملومٍ لا ذنبَ لهُ ، وكيفَ خفيَ عليكَ أمري ؟ وكيفَ ظننتَ أنِّي ظلمتُ اليدَ لما ركبتُها ولقدْ كنتُ لها راكبةً قبلَ التحريكِ وما كنتُ أحرِّكُها ولا أستسخرُها ؟! بلْ كنتُ نائمةً ساكنةً نوماً ظنَّ الظانُّونَ بي أنِّي ميتةٌ أوْ معدومةٌ ؛ لأنِّي ما كنتُ أتحرَّكُ ولا أحرِّكُ ، حتَّىٰ جاءَني موكَّلٌ أزعجَني وأرهقَني إلىٰ ما تراهُ منِّي ، فكانَتْ لي قوَّةٌ علىٰ مساعدتِهِ ، ولمْ تكنْ لي قوَّةٌ علىٰ مخالفتِهِ ، وهـٰذا الموكَّلُ يُسمَّى الإرادةَ ، ولا أعرفُهُ إلا باسمِهِ وهجومِهِ وصيالِهِ ، إذْ أزعجَني مِنْ غمرةِ النومِ وأرهقَني إلىٰ ما كانَ لي مندوحةٌ عنهُ لوْ خلَّاني ورأيي ، فقالَ : صدقتِ .

ثمَّ سألَ الإرادةَ : ما الذي جرَّأَكِ علىٰ هـٰذهِ القدرةِ الساكنةِ المطمئنةِ حتَّىٰ صرفتِها إلى التحريكِ ، وأرهقتِها إليه إرهاقاً لمْ تجدْ عنهُ مخلصاً ولا مناصاً ؟ فقالَتِ الإرادةُ : لا تعجلْ عليَّ ، فلعلَّ لنا عذراً وأنتَ تلومُ ؛ فإنِّي ما انتهضتُ بنفسي ولـٰكنِّي أُنهضتُ ، وما انبعثتُ ولـٰكنِّي بُعثتُ بحكمٍ قاهرٍ وأمرٍ جازمٍ ، وقدْ كنتُ ساكنةً قبلَ مجيئِهِ ، ولـٰكنْ وردَ عليَّ مِنْ حضرةِ القلبِ رسولُ العلمِ علىٰ لسانِ العقلِ بالإشخاصِ للقدرةِ ، فأشخصتُها باضطرارٍ ، فإنِّي مسكينةٌ مسخرةٌ تحتَ قهرِ العلمِ والعقلِ ، ولا أدري بأيِّ جرمٍ وُقفتُ عليهِ وسُخِّرتُ لهُ وأُلزمتُ طاعتَهُ ، لـٰكنِّي أدري أنِّي في دعةٍ وسكونٍ ما لمْ يردْ عليَّ هـٰذا الواردُ القاهرُ ، وهـٰذا الحاكمُ العادلُ أوِ الظالمُ ، وقدْ وُقفتُ عليهِ وقفاً ، وأُلزمتُ طاعتَهُ إلزاماً ، بلْ لا يبقىٰ لي معَهُ مهما جزمَ حكمَهُ طاقةٌ على المخالفةِ ، لعمري ما دامَ هوَ في التردُّدِ علىٰ نفسِهِ والتحيُّرِ في حكمِهِ فأنا ساكنةٌ ، لـٰكنْ معَ استشعارٍ وانتظارٍ لحكمِهِ ، فإذا انجزمَ حكمُهُ . . أُزعجتُ بطبعٍ وقهرٍ تحتَ طاعتِهِ ، وأشخصتُ القدرةَ لتقومَ بموجَبِ حكمِهِ ، فسلِ العلمَ عنْ شأني ، ودعْ عنِّي عتابَكَ ؛ فإنِّي كما قالَ الشاعرُ[1] : [من البسيط]

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ... أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

فقالَ : صدقتِ .

وأقبلَ على العقلِ والعلمِ والقلبِ مطالباً لهُم ومعاتباً إيَّاهُمْ على استنهاضِ الإرادةِ وترشيحِها لإشخاصِ القدرةِ ، فقالَ العقلُ : أمَّا أنا . . فسراجٌ ما اشتعلتُ بنفسي ، ولـٰكنِّي أُشعلتُ ، وقالَ القلبُ : أمَّا أنا . . فلوحٌ ما انبسطتُ بنفسي ، ولـٰكنِّي بُسطتُ ، وقالَ العلمُ : إنَّما أنا نقشٌ نُقشتُ في بياضِ لوحِ القلبِ لمَّا أشرقَ سراجُ العقلِ ، وما انخططتُ بنفسي ، فكمْ كانَ هـٰذا اللوحُ قبلي خالياً عنِّي ، فسلِ القلمَ عنِّي ؛ لأنَّ الخطَّ لا يكونُ إلا بالقلمِ .

فعندَ هـٰذا تتعتعَ السائلُ ولمْ يقنعْهُ جوابُهُ وقالَ : قدْ طالَ تعبي في هـٰذا الطريقِ وكثرَتْ منازلي ، ولا يزالُ يحيلُني مَنْ طمعتُ في معرفةِ هـٰذا الأمرِ منهُ علىٰ غيرِهِ ، ولـٰكنِّي كنتُ أطيبَ نفساً بكثرةِ الترداد لما كنتُ أسمعُ كلاماً مقبولاً في الفؤادِ وعذراً ظاهراً في دفعِ السؤالِ ، فأمَّا قولُكَ : إنِّي خطٌّ ونقشٌ ، وإنَّما خطَّني قلمٌ . . فلستُ أفهمُهُ ، فإنِّي لا أعلمُ

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣٧٢/٣) ، والمراد منه : تعليق الأمر بالغير ورفع الملام ، فكأنه قال : إذا رحلت عن قوم قدروا علىٰ ألا ترحل بإكرامك ونزع علة سفرك . . فكأنهم هم الذين رحلوا عنك لاختيارهم رحلتك .

قلماً إلا مِنَ القصبِ ، ولا لوحاً إلا مِنَ الحديدِ أوِ الخشبِ ، ولا خطّاً إلا بالحبرِ ، ولا سراجاً إلا مِنَ النارِ ، وإنّي لأسمعُ في هٰذا المنزلِ حديثَ اللوحِ والسراجِ والخطِّ والقلمِ ولا أشاهدُ منهُ شيئاً !! أسمعُ جعجعةً ولا أرىٰ طِحْناً !!

فقالَ لهُ العلمُ : إنْ صدقتَ فيما قلتَ . . فبضاعتُكَ مزجاةٌ ، وزادُكَ قليلٌ ، ومركبُكَ ضعيفٌ .

واعلمْ : أنَّ المهالكَ في الطريقِ الذي توجهتَ إليهِ كثيرةٌ ، فالصوابُ لكَ أنْ تنصرفَ وتدعَ ما أنتَ فيهِ ، فما هٰذا بعشِّكَ فادرجْ عنهُ ، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ .

وإنْ كنتَ راغباً في استتمامِ الطريقِ إلى المقصدِ . . فألقِ سمعَكَ وأنتَ شهيدٌ ، واعلمْ أنَّ العوالمَ في طريقِكَ هٰذا ثلاثةٌ :

عالمُ الملكِ : والشهادةُ أوَّلُهُ ، ولقدْ كانَ الكاغدُ والحبرُ والقلمُ واليدُ مِنْ هٰذا العالمِ ، وقدْ جاوزتَ تلكَ المنازلَ علىٰ سهولةٍ .

والثاني : عالمُ الملكوتِ : وهوَ ورائي ، فإذا جاوزتَني . . انتهيتَ إلىٰ منازلِهِ ، وفيها المهامهُ الفيحُ ، والجبالُ الشاهقةُ ، والبحارُ المغرقةُ ، ولا أدري كيفَ تسلمُ فيها .

والثالثُ : عالمُ الجبروتِ : وهوَ بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ ، ولقدْ قطعتَ منهُ ثلاثَ منازلَ ؛ إذْ في أوَّلِهِ منزلُ القدرةِ والإرادةِ والعلمِ ، وهوَ واسطةٌ بينَ عالمِ الملكِ والملكوتِ ؛ لأنَّ عالمَ الملكِ أسهلُ منهُ طريقاً ، وعالمُ الملكوتِ أوعرُ منهُ منهجاً ، وإنَّما عالمُ الجبروتِ بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ يشبهُ السفينةَ التي هيَ في الحركةِ بينَ الأرضِ والماءِ ، فلا هيَ في حدِّ اضطرابِ الماءِ ، ولا هيَ في حدِّ سكونِ الأرضِ وثباتِها ، وكلُّ مَنْ يمشي على الأرضِ يمشي في عالمِ الملكِ والشهادةِ ، فإنْ جاوزَتْ قوتُهُ إلىٰ أنْ يقوىٰ علىٰ ركوبِ السفينةِ . . كانَ كمَنْ يمشي في عالمِ الجبروتِ ، فإنِ انتهىٰ إلىٰ أنْ يمشيَ على الماءِ مِنْ غيرِ سفينةٍ . . مشىٰ في عالمِ الملكوتِ مِنْ غيرِ تتعتعٍ .

فإنْ كنتَ لا تقدرُ على المشيِ على الماءِ . . فانصرفْ ، فقدْ جاوزتَ الأرضَ وخلفتَ السفينةَ ، ولمْ يبقَ بينَ يديكَ إلا الماءُ الصافي ، وأوَّلُ عالمِ الملكوتِ مشاهدةُ القلمِ الذي يُكتبُ بهِ العلمُ في لوحِ القلبِ ، وحصولُ اليقينِ الذي يُمْشَىٰ بهِ على الماءِ ، أما سمعتَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في عيسىٰ عليهِ السلامُ : « لوِ ازدادَ يقيناً . . لمشىٰ على الهواءِ » لما قيلَ لهُ : إنَّهُ كانَ يمشي على الماءِ ؟[1] .

فقالَ السالكُ السائلُ : قدْ تحيَّرتُ في أمري ، واستشعرَ قلبي خوفاً ممَّا وصفتَهُ مِنْ خطرِ الطريقِ ، ولستُ أدري أطيقُ قطعَ هٰذهِ المهامهِ التي وصفتَها أمْ لا ، فهلْ لذٰلكَ مِنْ علامةٍ ؟

فقالَ : نعم ، افتحْ بصرَكَ ، واجمعْ ضوءَ عينيكَ وحدِّقْهُ نحوي ، فإنْ ظهرَ لكَ القلمُ الذي بهِ اكتُتِبَ في لوحِ القلبِ . . فيشبهُ أنْ تكونَ أهلاً لهٰذا الطريقِ ، فإنَّ كلَّ مَنْ جاوزَ عالمَ الجبروتِ وقرعَ أوَّلَ بابٍ مِنْ أبوابِ الملكوتِ . . كُوشفَ بالقلمِ ، أما ترىٰ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أوَّلِ أمرِهِ كُوشفَ بالقلمِ ؛ إذْ نزلَ عليهِ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

فقالَ السالكُ : لقدْ فتحتُ بصري وحدَّقتُهُ ، فواللهِ ؛ ما أرىٰ قصباً ولا خشباً ، ولا أعلمُ قلماً إلا كذٰلكَ .

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادره » (ص ٣٠٣) ، والبيهقي في « الزهد » (٩٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٥٦/٨) .

فقالَ العلمُ : لقدْ أبعدتَ النُّجعةَ ، أما سمعتَ أنَّ متاعَ البيتِ يشبهُ ربَّ البيتِ ؟ أما علمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لا تشبهُ ذاتُهُ سائرَ الذواتِ ؟ فكذٰلكَ لا تشبهُ يدُهُ الأيديَ ولا قلمُهُ الأقلامَ ، ولا كلامُهُ سائرَ الكلامِ ، ولا خطُّهُ سائرَ الخطوطِ ، وهٰذهِ أمورٌ إلٰهيَّةٌ مِنْ عالمِ الملكوتِ ، فليسَ اللهُ تعالىٰ في ذاتِهِ بجسمٍ ، ولا هوَ في مكانٍ بخلافِ غيرِهِ ، ولا يدُهُ لحمٌ وعظمٌ ودمٌ بخلافِ الأيدي ، ولا قلمُهُ مِنْ قصبٍ ، ولا لوحُهُ مِنْ خشبٍ ، ولا كلامُهُ صوتٌ وحرفٌ ، ولا خطُّهُ رقمٌ ورسمٌ ، ولا حبرُهُ زاجٌ وعفصٌ ، فإنْ كنتَ لا تشاهدُ هٰذا هٰكذا . . فما أراكَ إلا مخنثاً بينَ فحولةِ التنزيهِ وأنوثةِ التشبيهِ ، مذبذباً بينَ هٰذا وذاكَ ، لا إلىٰ هٰؤلاءِ ولا إلىٰ هٰؤلاءِ ، فكيفَ نزَّهتَ ذاتَهُ تعالىٰ وصفاتِهِ عنِ الأجسامِ وصفاتِها ونزهتَ كلامَهُ عنْ معاني الحروفِ والأصواتِ وأخذتَ تتوقَّفُ في يدِهِ وقلمِهِ ولوحِهِ وخطِّهِ ؟!

فإنْ كنتَ قدْ فهمتَ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »[1] الصورةَ الظاهرةَ المدركةَ بالبصرِ . . فكنْ مشبِّهاً مطلقاً ؛ كما يُقالُ : كُنْ يهودياً صِرْفاً وإلا . . فلا تلعبْ بالتوراةِ .

وإنْ فهمتَ منهُ الصورةَ الباطنةَ التي تُدركُ بالبصائرِ لا بالأبصارِ . . فكنْ منزِّهاً صرفاً ومقدِّساً فحلاً ، واطوِ الطريقَ ، فإنَّكَ بالوادِ المقدَّسِ طوىً ، واستمعْ بسرِّ قلبِكَ لما يُوحىٰ ، فلعلَّكَ تجدُ على النارِ هدىً ، ولعلَّكَ مِنْ سرادقاتِ العرْشِ تُنادىٰ بما نُودي بهِ موسىٰ : إنِّي أنا ربُّكَ الأعلىٰ .

فلمَّا سمعَ السالكُ مِنَ العلمِ ذٰلكَ . . استشعرَ قصورَ نفسِهِ ، وأنَّهُ مخنَّثٌ بينَ التشبيهِ والتنزيهِ ، فاشتعلَ قلبُهُ ناراً مِنْ حدَّةِ غضبِهِ علىٰ نفسِهِ لمَّا رآها بعينِ النقصِ ، ولقدْ كانَ زيتُهُ الذي في مشكاةِ قلبِهِ يكادُ يضيءُ ولوْ لمْ تمسسْهُ نارٌ ، فلما نفخَ فيهِ العلمُ بحدَّتِهِ . . اشتعلَ زيتُهُ ، فأصبحَ نوراً علىٰ نورٍ ، فقالَ لهُ العلمُ : اغتنمِ الآنَ هٰذهِ الفرصةَ وافتحْ بصرَكَ ، فلعلَّكَ تجدُ على النارِ هدىً ، ففتحَ بصرَهُ ، فانكشفَ لهُ القلمُ الإلٰهيُّ ، فإذا هوَ كما وصفَهُ العلمُ في التنزيهِ ، ما هوَ مِنْ خشبٍ ولا قصبٍ ، ولا لهُ رأسٌ ولا ذنبٌ ، وهوَ يكتبُ على الدوامِ في قلوبِ البشرِ كلِّهِمْ أصنافَ العلومِ ، وكأنَّ لهُ في كلِّ قلبٍ رأساً ولا رأسَ لهُ ، فقضىٰ منهُ العجبَ وقالَ : نعمَ الرفيقُ العلمُ ، جزاهُ اللهُ عنِّي خيراً إذِ الآنَ ظهرَ لي صدقُ أنبائِهِ عنْ أوصافِ القلمِ ، فإنِّي أراهُ قلماً لا كالأقلامِ .

فعندَ هٰذا ودَّعَ العلمَ وشكرَهُ ، وقالَ : قدْ طالَ مقامي عندَكَ ، ومرادَّتي لكَ ، وأنا عازمٌ علىٰ أنْ أسافرَ إلىٰ حضرةِ القلمِ فأسألَهُ عنْ شأنِهِ .

فسافرَ إليهِ ، وقالَ : ما بالُكَ أيُّها القلمُ تخطُّ على الدوامِ في القلوبِ مِنَ العلومِ ما تبعثُ بهِ الإراداتِ إلىٰ إشخاصِ القدرةِ وصرفِها إلى المقدوراتِ ؟

فقالَ : لقدْ نسيتَ ما رأيتَ في عالمِ الملكِ والشهادةِ وسمعتَهُ مِنْ جوابِ القلمِ إذْ سألتَهُ فأحالَكَ على اليدِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فجوابي مثلُ جوابِهِ .

قالَ : وكيفَ وأنتَ لا تشبهُهُ ؟

قالَ القلمُ : أما سمعتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فسلْ عنْ شأني الملقبَ بيمينِ الملِكِ ؛ فإنِّي في قبضتِهِ ، هوَ الذي يردِّدُني ، وأنا مقهورٌ مسخَّرٌ ، فلا فرقَ بينَ القلمِ الإلٰهيِّ وقلمِ الآدميِّ في معنى التسخيرِ ، وإنَّما الفرقُ في ظاهرِ الصورةِ

---

(1) رواه مسلم (٢٦١٢/١١٥) .

فقالَ : ومَنْ يمينُ الملِكِ ؟ فقالَ القلمُ : أما سمعتَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ قالَ : نعمْ ، قالَ : فالأقلامُ أيضاً في قبضةِ يمينِهِ ، هوَ الذي يردِّدُها .

فسافرَ السالكُ مِنْ حضرةِ القلمِ إلىٰ حضرةِ اليمينِ حتَّىٰ شاهدَهُ ، ورأىٰ مِنْ عجائبِهِ ما يزيدُ علىٰ عجائبِ القلمِ ، ولا يجوزُ وصفُ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ولا شرحُهُ ، بلْ لا تحوي مجلداتٌ كثيرةٌ عشرَ عَشِيرِ وصفِهِ ، والجملةُ فيهِ : أنَّهُ يمينٌ لا كالأيمانِ ، ويدٌ لا كالأيدي ، وإصبعٌ لا كالأصابعِ ، فرأى القلمَ محرَّكاً في قبضتِهِ ، فظهرَ لهُ عذرُ القلمِ ، فسألَ اليمينَ عنْ شأنِهِ وتحريكِهِ للقلمِ ، فقالَ : جوابي ما سمعتَهُ مِنَ اليمينِ التي رأيتَها في عالمِ الشهادةِ ، وهوَ الحوالةُ على القدرةِ ؛ إذِ اليدُ لا حكمَ لها في نفسِها ، وإنَّما محرِّكُها القدرةُ لا محالةَ .

فسافرَ السالكُ إلىٰ عالمِ القدرةِ ، ورأىٰ فيهِ مِنَ العجائبِ ما استحقرَ عندَها ما قبلَهُ ، وسألَها عنْ تحريكِ اليمينِ ، فقالَتْ : إنَّما أنا صفةٌ ، فاسألِ القادرَ ؛ إذِ العهدةُ على الموصوفاتِ لا على الصفاتِ .

وعندَ هٰذا كادَ أنْ يزيغَ ويطلقَ بالجرأةِ لسانَ السؤالِ ، فثُبِّتَ بالقولِ الثابتِ ونُوديَ مِنْ وراءِ حجابِ سرادقاتِ الحضرةِ : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ ، فغشيَتْهُ هيبةُ الحضرةِ ، فخرَّ صعقاً يضطربُ في غشيتِهِ مدةً ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : سبحانَكَ !! ما أعظمَ شانَكَ !! تبتُ إليكَ [1] ، وتوكلتُ عليكَ [2] ، وآمنتُ بأنَّكَ الملكُ الجبَّارُ ، الواحدُ القهَّارُ ، فلا أخافُ غيرَكَ ، ولا أرجو سواكَ ، ولا أعوذُ إلا بعفوِكَ مِنْ عقابِكَ ، وبرضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وما لي إلا أنْ أسألَكَ وأتضرعَ إليكَ وأبتهلَ بينَ يديكَ ، فأقولُ : اشرحْ لي صدري لأعرفَكَ ، واحللْ عقدةً مِنْ لساني لأثنيَ عليكَ .

فنُوديَ مِنْ وراءِ الحجابِ : إيَّاكَ أنْ تطمعَ في الثناءِ ، وتزيدَ علىٰ سيِّدِ الأنبياءِ ، بلِ ارجعْ إليهِ ، فما آتاكَ فخذْهُ ، وما نهاكَ عنهُ فانتهِ عنهُ ، وما قالَهُ فقلْهُ ، فإنَّهُ ما زادَ في هٰذهِ الحضرةِ علىٰ أنْ قالَ : « سبحانَكَ !! لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ » [3]

فقالَ : إلٰهي ؛ إنْ لمْ يكنْ للسانِ جرأةٌ على الثناءِ عليكَ . . فهلْ للقلبِ مطمعٌ في معرفتِكَ ؟

فنُوديَ : إيَّاكَ وأنْ تتخطىٰ رقابَ الصدِّيقينَ ، فارجعْ إلى الصدِّيقِ الأكبرِ واقتدِ بهِ ، فإنَّ أصحابَ سيِّدِ الأنبياءِ كالنجومِ ، بأيِّهِمُ اقتديتُمْ . . اهتديتُمْ [4] ، أما سمعتَهُ يقولُ : (العجزُ عنْ دركِ الإدراكِ إدراكٌ) ؟ فيكفيكَ نصيباً مِنْ حضرتِنا أنْ تعرفَ أنَّكَ محرومٌ عنْ حضرتِنا ، عاجزٌ عنْ ملاحظةِ جمالِنا وجلالِنا .

فعندَ هٰذا رجعَ السالكُ واعتذرَ عنْ أسولتِهِ ومعاتباتِهِ [5] ، وقالَ لليمينِ والقلمِ والعلمِ والإرادةِ والقدرةِ وما بعدَها : اقبلوا عذري ؛ فإنِّي كنتُ غريباً حديثَ العهدِ بالدخولِ في هٰذهِ البلادِ ، ولكلِّ داخلٍ دهشةٌ ، فما كانَ إنكاري عليكُمْ إلا

---

(١) أي : رجعت عما كنت عازماً عليه في السؤال عن مثل هٰذه الحقائق . « إتحاف » (٤٠٩/٩) .
(٢) فلا يتم مقام التوكل إلا بعد ملاحظة عظمة شأنه وألوهيته ، والانصراف إليه بكليته . « إتحاف » (٤٠٩/٩) .
(٣) رواه مسلم (٤٨٦) .
(٤) وقد ورد هٰذا مرفوعاً ، ومن المرفوع ما رواه مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « النجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم . . أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت . . أتىٰ أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي . . أتىٰ أمتي ما يوعدون » ، وهٰذا الحديث ـ كما قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٤٣٩) ـ يؤدي بعض معنى الأثر المشهور : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم . . اهتديتم » .
(٥) كذا في جميع النسخ : (أسولته) ، وأسولة : جمع سُوَال بتسهيل الهمزة ، وهو جمع صحيح ، حكاه ابن جني .

عنْ قصورٍ وجهلٍ ، والآنَ قدْ صحَّ عندي عذرُكُمْ ، وانكشفَ لي أنَّ المنفردَ بالملكِ والملكوتِ والعزةِ والجبروتِ . . هوَ الواحدُ القهَّارُ ، فما أنتُمْ إلا مسخَّرونَ تحتَ قهرِهِ وقدرتِهِ ، مردَّدونَ في قبضتِهِ ، وهوَ الأوَّلُ والآخرُ ، والظاهرُ والباطنُ .

فلمَّا ذكرَ ذٰلكَ في عالمِ الشهادةِ . . استُبعدَ منهُ ذٰلكَ ، وقيلَ لهُ : كيفَ يكونُ هوَ الأوَّلَ والآخرَ وهما وصفانِ متناقضانِ ؟ وكيفَ يكونُ هوَ الظاهرَ والباطنَ والأوَّلُ ليسَ بآخرٍ والظاهرُ ليسَ بباطنٍ ؟

فقالَ : هوَ الأوَّلُ بالإضافةِ إلى الموجوداتِ ؛ إذْ صدرَ منهُ الكلُّ علىٰ ترتيبِهِ واحداً بعدَ واحدٍ ، وهوَ الآخرُ بالإضافةِ إلىٰ سيرِ المسافرينَ إليهِ ؛ فإنَّهُمْ لا يزالونَ مترقّينَ مِنْ منزلٍ إلىٰ منزلٍ إلىٰ أنْ يقعَ الانتهاءُ إلىٰ تلكَ الحضرةِ ، فيكونَ ذٰلكَ آخرَ السفرِ ، فهوَ آخرٌ في المشاهدةِ ، أوَّلٌ في الوجودِ .

وهوَ باطنٌ بالإضافةِ إلى العاكفينَ في عالمِ الشهادةِ ، الطالبينَ لإدراكِهِ بالحواسِّ الخمسِ ، ظاهرٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يطلبُهُ في السراجِ الذي اشتعلَ في قلبِهِ بالبصيرةِ الباطنةِ النافذةِ في عالمِ الملكوتِ[1]

فهٰذا كانَ توحيدَ السالكينَ لطريقِ التوحيدِ في الفعلِ ؛ أعني : مَنِ انكشفَ لهُ أنَّ الفاعلَ واحدٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدِ انتهىٰ هٰذا التوحيدُ إلىٰ أنْ يُبتنىٰ على الإيمانِ بعالمِ الملكوتِ ، فمَنْ لا يفهمُ ذٰلكَ أوْ يجحدُهُ . . فما طريقُهُ ؟

فأقولُ : أمَّا الجاحدُ . . فلا علاجَ لهُ إلا أنْ يُقالَ لهُ : إنكارُكَ لعالمِ الملكوتِ كإنكارِ السُّمَنيَّةِ لعالمِ الجبروتِ[2] ، وهُمُ الذينَ حصروا العلومَ في الحواسِّ الخمسِ ، فأنكروا القدرةَ والإرادةَ والعلمَ ؛ لأنَّها لا تُدركُ بالحواسِّ الخمسِ ، ولازموا حضيضَ عالمِ الشهادةِ .

فإنْ قالَ : وأنا منهُمْ ؛ فإنِّي لا أهتدي إلا إلىٰ عالمِ الشهادةِ بالحواسِّ الخمسِ ، ولا أعلمُ شيئاً سواهُ . . فيُقالُ : إنكارُكَ لما شاهدناهُ ممَّا وراءَ الحواسِّ الخمسِ كإنكارِ السوفسطائيةِ للحواسِّ الخمسِ[3] ؛ فإنَّهُمْ قالوا : ما نراهُ لا نثقُ بهِ ، فلعلَّنا نراهُ في المنامِ !!

فإنْ قالَ : وأنا مِنْ جملتِهِمْ ؛ فإنِّي شاكٌّ أيضاً في المحسوساتِ . . فيُقالُ : هٰذا شخصٌ فسدَ مزاجُهُ ، وامتنعَ علاجُهُ ، فيُتركُ أياماً قلائلَ ، فلا كلُّ مريضٍ يقوىٰ علىٰ علاجِهِ الأطباءُ .

هٰذا حكمُ الجاحدِ .

وأمَّا الذي لا يجحدُ ، ولٰكنْ لا يفهمُ . . فطريقُ السالكينَ معَهُ أنْ ينظروا إلىٰ عينِهِ التي بها يشاهدُ عالمَ الملكوتِ ، فإنْ وجدوها صحيحةً في الأصلِ ، وقدْ نزلَ فيها ماءٌ أسودُ يقبلُ الإزالةَ والتنقيةَ . . اشتغلوا بتنقيتِهِ اشتغالَ الكحَّالِ

(١) وقد اعتُرض على المصنف بسياقه لهٰذه الحكاية بجملة من الأسئلة والإشكالات ، أجاب عنها في « إملائه » بما لا غنىٰ لمن قصُرَ فهمه للعبائر هنا عنه .

(٢) السمنية : بضم السين وفتح الميم المخففة ، نسبة إلىٰ صنم عند الهنود يقال له : سومنات ، وقد اندثر ، وهم قوم من عبدة الأوثان قائلون بالتناسخ ، وبأنه لا طريق للعلم سوى الحس فقط . انظر « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » (١/٩٧٦) .

(٣) السوفسطائية : فرقة ينكرون الحسيات والبديهيات والضروريات ، فلم يكتفوا بما أنكره السمنية ، بل زادوا عليها إنكار مدرك الحس ، وهم علىٰ طوائف . انظر « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » (١/٩٥٧) .

بالأبصارِ الظاهرةِ ، فإذا استوىٰ بصرُهُ . . أُرشِدَ إلى الطريقِ ليسلكَهُ ، كما فعلَ ذٰلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بخواصِّ أصحابِهِ[1] .

وإنْ كانَ غيرَ قابلٍ للعلاجِ ، فلمْ يمكنْهُ أنْ يسلكَ الطريقَ الذي ذكرناهُ في التوحيدِ ، ولمْ يمكنْهُ أنْ يسمعَ كلامَ ذرَّاتِ الملكِ والملكوتِ بشهادةِ التوحيدِ . . كلَّموهُ بحرفٍ وصوتٍ ، وردُّوا ذروةَ التوحيدِ إلىٰ حضيضِ فهمِهِ ، فإنَّ في عالمِ الشهادةِ أيضاً توحيداً ؛ إذْ يعلمُ كلُّ أحدٍ أنَّ المنزلَ يفسدُ بصاحبينِ ، والبلدَ يفسدُ بأميرينِ ، فيُقالُ لهُ علىٰ حدِّ عقلِهِ : إلٰهُ العالمِ واحدٌ ، والمدبِّرُ واحدٌ ؛ إذْ لوْ كانَ فيهِما آلهةٌ إلا اللهُ . . لفسدتا ، فيكونُ ذٰلكَ علىٰ ذوقِ ما رآهُ في عالمِ الشهادةِ ، فينغرسُ اعتقادُ التوحيدِ في قلبِهِ بهٰذا الطريقِ اللائقِ بقدْرِ عقلِهِ ، وقدْ كُلِّفَ الأنبياءُ أنْ يكلِّموا الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، ولذٰلكَ نزلَ القرآنُ بلسانِ العربِ وعلىٰ حدِّ عادتِهِمْ في المحاورةِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فمثلُ هٰذا التوحيدِ الاعتقاديِّ هلْ يصلحُ أنْ يكونَ عماداً للتوكُّلِ وأصلاً فيهِ ؟

فأقولُ : نعمْ ، فإنَّ الاعتقادَ إذا قويَ . . عمِلَ عمَلَ الكشفِ في إثارةِ الأحوالِ ، إلا أنَّهُ في الغالبِ يضعفُ ويتسارعُ إليهِ الاضطرابُ والتزلزلُ غالباً ، ولذٰلكَ يحتاجُ صاحبُهُ إلىٰ متكلِّمٍ يحرسُهُ بكلامِهِ ، أوْ إلىٰ أنْ يتعلَّمَ هوَ الكلامَ ليحرسَ بهِ العقيدةَ التي تلقَّفَها مِنْ أستاذِهِ أوْ مِنْ أبويهِ أوْ مِنْ أهلِ بلدِهِ .

وأمَّا الذي شاهدَ الطريقَ وسلكَهُ بنفسِهِ . . فلا يُخافُ عليهِ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ ، بلْ لوْ كُشِفَ الغطاءُ . . لما ازدادَ يقيناً وإنْ كانَ يزدادُ وضوحاً ، كما أنَّ الذي يرىٰ إنساناً في وقتِ الإسفارِ لا يزدادُ يقيناً عندَ طلوعِ الشمسِ بأنَّهُ إنسانٌ ، ولٰكنْ يزدادُ وضوحاً في تفصيلِ خلقتِهِ .

وما مثالُ المكاشفينَ والمعتقدينَ إلا كسحرةِ فرعونَ معَ أصحابِ السامريِّ ، فإنَّ سحرةَ فرعونَ لمَّا كانوا مطلعينَ علىٰ منتهىٰ تأثيرِ السحرِ لطولِ مشاهدتِهِمْ وتجربتِهِمْ ، فرأَوا مِنْ موسىٰ عليهِ السلامُ ما جاوزَ حدودَ السحرِ . . انكشفَ لهُمْ حقيقةُ الأمرِ ، فلمْ يكترثوا بقولِ فرعونَ : (لأقطعَنَّ أيديَكُمْ وأرجلَكُمْ منْ خلافٍ) ، بلْ قالوا : (لنْ نؤثرَكَ علىٰ ما جاءَنا منَ البيِّناتِ والذي فطرَنا فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنَّما تقضي هٰذهِ الحياةَ الدنيا) ؛ فإنَّ البيانَ والكشفَ يمنعُ التغييرَ .

وأمَّا أصحابُ السامريِّ لمَّا كانَ إيمانُهُمْ عنِ النظرِ إلىٰ ظاهرِ الثعبانِ ، فلمَّا نظروا إلىٰ عجلِ السامريِّ وسمعوا خوارَهُ . . تغيَّروا وسمعوا قولَهُ : (هٰذا إلٰهُكُمْ وإلٰهُ موسىٰ) ، ونسوا أنَّهُ لا يرجعُ إليهِم قولاً ، ولا يملكُ لهُمْ ضرّاً ولا نفعاً .

فكلُّ مَنْ آمنَ بالنظرِ إلىٰ ثعبانٍ يكفرُ ـ لا محالةَ ـ إذا نظرَ إلىٰ عجلٍ ؛ لأنَّ كليهِما مِنْ عالمِ الشهادةِ ، والاختلافُ والتضادُّ في عالمِ الشهادةِ كثيرٌ .

وأمَّا عالمُ الملكوتِ . . فهوَ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ ، فلذٰلكَ لا تجدُ فيهِ اختلافاً وتناقضاً أصلاً .

❁ ❁ ❁

---

(١) أزال بنظره إليهم العلل الباطنة ، فأشرقت الأنوار في صدورهم وأعينهم ، ثم أرشدهم . « إتحاف » (٩/٤١٨)

فإنْ قلتَ : ما ذكرتَهُ مِنَ التوحيدِ ظاهرٌ مهما ثبتَ أنَّ الوسائطَ والأسبابَ مسخراتٌ ، وكلُّ ذٰلكَ ظاهرٌ إلا في حركاتِ الإنسانِ ، فإنَّهُ يتحرَّكُ إنْ شاءَ ، ويسكنُ إنْ شاءَ ، فكيفَ يكونُ مسخَّراً ؟[1]

فاعلمْ : أنَّهُ لوْ كانَ معَ هٰذا يشاءُ إنْ أرادَ أنْ يشاءَ ، ولا يشاءُ إنْ لمْ يردْ أنْ يشاءَ . . لكانَ هٰذا مزلَّةَ القدمِ وموقعَ الغلطِ ، ولٰكنِ اعلمْ أنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ إذا شاءَ ، ويشاءُ شاءَ أمْ لمْ يشأْ ، فليسَتِ المشيئةُ إليهِ ؛ إذْ لوْ كانَتْ إليهِ . . لافتقرَتْ إلىٰ مشيئةٍ أخرىٰ ، وتسلسلَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وإذا لمْ تكنِ المشيئةُ إليهِ ؛ فمهما وُجدَتِ المشيئةُ التي تصرفُ القدرةَ إلىٰ مقدورِها . . انصرفَتِ القدرةُ لا محالةَ ، ولمْ يكنْ لها سبيلٌ إلى المخالفةِ ، فالحركةُ لازمةٌ ضرورةً بالقدرةِ ، والقدرةُ محركةٌ ضرورةً عندَ انجزامِ المشيئةِ ، والمشيئةُ تحدثُ ضرورةً في القلبِ ، فهٰذهِ ضروراتٌ ترتبَ بعضُها علىٰ بعضٍ ، وليسَ للعبدِ أنْ يدفعَ وجودَ المشيئةِ ولا انصرافَ القدرةِ إلى المقدورِ بعدَها ، ولا وجودَ الحركةِ بعدَ بعثِ المشيئةِ للقدرةِ ، فهوَ مضطرٌّ في الجميعِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فهٰذا جبرٌ محضٌ ، والجبرُ يناقضُ الاختيارَ ، وأنتَ لا تنكرُ الاختيارَ ، فكيفَ يكونُ مجبوراً مختاراً ؟

فأقولُ : لوِ انكشفَ الغطاءُ . . لعرفتَ أنَّهُ في عينِ الاختيارِ مجبورٌ ، فهوَ إذاً مجبورٌ على الاختيارِ ، فكيفَ يفهمُ هٰذا مَنْ لا يفهمُ الاختيارَ ؟

فلنشرحِ الاختيارَ بلسانِ المتكلِّمينَ شرحاً وجيزاً يليقُ بما ذُكِرَ متطفلاً وتابعاً ، فإنَّ هٰذا الكتابَ لمْ نقصدْ بهِ إلا علمَ المعاملةِ ، ولٰكنِّي أقولُ : لفظُ الفعلِ في الإنسانِ يُطلقُ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ ؛ إذْ يُقالُ : الإنسانُ يكتبُ بالأصابعِ ، ويتنفَّسُ بالرئةِ والحَنْجَرةِ ، ويخرقُ الماءَ إذا وقفَ عليهِ بجسمِهِ ، فيُنسبُ إليهِ الخرقُ في الماءِ ، والتنفسُ ، والكتابةُ ، وهٰذهِ الثلاثةُ في حقيقةِ الاضطرارِ والجبرِ واحدٌ ، ولٰكنَّها تختلفُ وراءَ ذٰلكَ في أمورٍ ، فأُعربَ لذٰلكَ عنها بثلاثِ عباراتٍ ، فسُمِّيَ خرقُهُ للماءِ عندَ وقوعِهِ علىٰ وجهِهِ فعلاً طبيعياً ، ويُسمَّىٰ تنفسُهُ فعلاً إرادياً ، وسُمِّيَتْ كتابتُهُ فعلاً اختيارياً

والجبرُ ظاهرٌ في الفعلِ الطبيعيِّ ؛ لأنَّهُ مهما وقفَ علىٰ وجهِ الماءِ أوْ تخطَّىٰ مِنَ السطحِ الهواءَ . . انخرقَ لا محالةَ ، فيكونُ الخرقُ بعدَ التخطِّي ضرورياً .

والتنفُّسُ في معناهُ ، فإنَّ نسبةَ حركةِ الحَنْجَرةِ إلىٰ إرادةِ التنفُّسِ كنسبةِ انخراقِ الماءِ إلىٰ ثقلِ البدنِ ، فمهما كانَ الثقلُ موجوداً . . وُجِدَ الانخراقُ بعدَهُ ، وليسَ الثقلُ إليهِ ، فكذٰلكَ الإرادةُ ليسَتْ إليهِ ، ولذٰلكَ لوْ قصدَ عينَ الإنسانِ بإبرةٍ . . طبقَ الأجفانَ اضطراراً ، ولوْ أرادَ أنْ يتركَها مفتوحةً . . لمْ يقدرْ معَ أنَّ تغميضَ الأجفانِ فعلٌ إراديٌّ ، ولٰكنَّهُ إذا تمثَّلَ صورةَ الإبرةِ في مشاهدتِهِ بالإدراكِ . . حدثَتِ الإرادةُ للتغميضِ ضرورةً ، وحدثَتِ الحركةُ بها ، ولوْ أرادَ أنْ يتركَ التغميضَ . . لمْ يقدرْ عليهِ ، معَ أنَّهُ فعلٌ بالقدرةِ والإرادةِ ؛ فقدِ التحقَ هٰذا بالفعلِ الطبيعيِّ في كونِهِ ضرورياً .

وأمَّا الثالثُ وهوَ الاختياريُّ . . فهوَ مظنَّةُ الالتباسِ ، كالكتابةِ والنطقِ ، وهوَ الذي يُقالُ فيهِ : إنْ شاءَ . . فعلَ ، وإنْ شاءَ . . لمْ يفعلْ ، وتارةً يشاءُ وتارةً لا يشاءُ ، فيُظَنُّ مِنْ هٰذا أنَّ الأمرَ إليهِ ، وهوَ للجهلِ بمعنى الاختيارِ ، فلنكشفْ عنهُ .

---

(١) والتسخير يناقض الاختيار .

وبيانُهُ : أنَّ الإرادةَ تبعٌ للعلمِ الذي يحكمُ بأنَّ الشيءَ موافقٌ لكَ ، والأشياءُ تنقسمُ إلىٰ ما تحكمُ مشاهدتُكَ الظاهرةُ أوِ الباطنةُ بأنَّهُ يوافقُكَ مِنْ غيرِ تحيُّرٍ وتردُّدٍ ، وإلىٰ ما قدْ يتردَّدُ العقلُ فيهِ .

فالذي تقطعُ بهِ مِنْ غيرِ تردُّدٍ أنْ تُقصَدَ عينُكَ مثلاً بإبرةٍ أوْ بدنُكَ بسيفٍ ، فلا يكونُ في علمِكَ تردُّدٌ في أنَّ دفعَ ذٰلكَ خيرٌ لكَ وموافقٌ ، فلا جرمَ تنبعثُ الإرادةُ بالعلمِ ، والقدرةُ بالإرادةِ ، وتحصلُ حركةُ الأجفانِ بالدفعِ ، وحركةُ اليدِ بدفعِ السيفِ ، وذٰلكَ مِنْ غيرِ رويَّةٍ وفكرةٍ ، ويكونُ ذٰلكَ بالإرادةِ .

ومِنَ الأشياءِ ما يتوقَّفُ التمييزُ والعقلُ فيهِ ، فلا يُدرىٰ أنَّهُ موافقٌ أمْ لا ، فيحتاجُ إلىٰ رويَّةٍ وفكرٍ حتَّىٰ يتبيَّنَ أنَّ الخيرَ في الفعلِ أوِ التركِ ، فإذا حصلَ بالفكرِ والرويَّةِ العلمُ بأنَّ أحدَهُما خيرٌ . . التحقَ ذٰلكَ بالذي يُقطعُ بهِ مِنْ غيرِ رويَّةٍ وفكرٍ ، وانبعثَتِ الإرادةُ ها هنا كما تنبعثُ لدفعِ السيفِ والسنانِ ، فإذا انبعثَتْ لفعلِ ما ظهرَ للعقلِ أنَّهُ خيرٌ . . سُمِّيَتْ هٰذهِ الإرادةُ اختياراً ؛ مشتقاً مِنَ الخيرِ ؛ أيْ : هوَ انبعاثٌ إلىٰ ما ظهرَ للعقلِ أنَّهُ خيرٌ ، وهوَ عينُ تلكَ الإرادةِ ، ولمْ ينتظرْ في انبعاثِها إلا ما انتظرَتْ تلكَ الإرادةُ ، وهوَ ظهورُ خيريَّةِ الفعلِ في حقِّهِ ، إلا أنَّ الخيريَّةَ في دفعِ السيفِ ظهرَتْ مِنْ غيرِ رويَّةٍ ، بلْ على البديهةِ ، وهٰذا افتقرَ إلى الرويَّةِ .

فالاختيارُ عبارةٌ عنْ إرادةٍ خاصَّةٍ ، وهيَ التي انبعثَتْ بإشارةِ العقلِ فيما لهُ في إدراكِهِ توقُّفٌ ، وعنْ هٰذا قيلَ : إنَّ العقلَ يُحتاجُ إليهِ للتمييزِ بينَ خيرِ الخيرينِ وشرِّ الشرينِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ تنبعثَ الإرادةُ إلا بحكمِ الحسِّ والتخييلِ ، أوْ بحكمٍ جزمٍ مِنَ العقلِ ، ولذٰلكَ لوْ أرادَ الإنسانُ أنْ يحزَّ رقبةَ نفسِهِ مثلاً . . لمْ يمكنْهُ ، لا لعدمِ القدرةِ في اليدِ ، ولا لعدمِ السكينِ ، ولٰكنْ لفقدِ الإرادةِ الداعيةِ المشخصةِ للقدرةِ ، وإنَّما فُقدَتِ الإرادةُ لأنَّها تنبعثُ بحكمِ العقلِ أوِ الحسِّ بكونِ الفعلِ موافقاً ، وقتلُهُ نفسَهُ ليسَ موافقاً لهُ ، فلا يمكنُهُ معَ قوَّةِ الأعضاءِ أنْ يقتلَ نفسَهُ إلا إذا كانَ في عقوبةٍ مؤلمةٍ لا تُطاقُ ، فإنَّ العقلَ ها هنا يتوقَّفُ في الحكمِ ويتردَّدُ ؛ لأنَّهُ تردُّدٌ بينَ شرِّ الشرَّينِ ، فإنْ ترجَّحَ لهُ بعدَ الرويَّةِ أنَّ تركَ القتلِ أقلُّ شرّاً . . لمْ يمكنْهُ قتلُ نفسِهِ ، وإنْ حكمَ بأنَّ القتلَ أقلُّ شرّاً ، وكانَ حكمُهُ جزماً لا ميلَ فيهِ ولا صارفَ عنهُ . . انبعثَتِ الإرادةُ والقدرةُ وأهلكَ نفسَهُ ؛ كالذي يُتبعُ بالسيفِ للقتلِ ، فإنَّهُ يرمي بنفسِهِ مِنَ السطحِ مثلاً وإنْ كانَ مهلكاً ولا يبالي ، ولا يمكنُهُ ألا يرميَ نفسَهُ ، وإنْ كانَ يُتبعُ بضربٍ خفيفٍ ؛ فإنِ انتهىٰ إلىٰ طرفِ السطحِ . . حكمَ العقلُ بأنَّ الضربَ أهونُ مِنَ الرميِ ، فوقفَتْ أعضاؤُهُ ، فلا يمكنُهُ أنْ يرميَ نفسَهُ ، ولا تنبعثُ لهُ داعيةٌ ألبتةَ ؛ لأنَّ داعيةَ الإرادةِ مسخَّرةٌ لحكمِ العقلِ والحسِّ ، والقدرةُ مسخَّرةٌ للداعيةِ ، والحركةُ مسخَّرةٌ للقدرةِ ، والكلُّ يصدرُ بالضرورةِ فيهِ مِنْ حيثُ لا يدري ، فإنَّما هوَ محلٌّ ومجرىً لهٰذهِ الأمورِ ، فأمَّا أنْ يكونَ منهُ . . فكلا ولا

فإذاً ؛ معنىٰ كونِهِ **مجبوراً** : أنَّ جميعَ ذٰلكَ حاصلٌ فيهِ مِنْ غيرِهِ لا منهُ ، ومعنىٰ كونِهِ **مختاراً** : أنَّهُ محلٌّ لإرادةٍ حدثَتْ فيهِ جبراً بعدَ حكمِ العقلِ بكونِ الفعلِ خيراً محضاً موافقاً ، وحدثَ الحكمُ أيضاً جبراً ، فإذاً هوَ مجبورٌ على الاختيارِ ، ففعلُ النارِ في الإحراقِ مثلاً جبرٌ محضٌ ، وفعلُ اللهِ تعالى اختيارٌ محضٌ ، وفعلُ الإنسانِ علىٰ منزلةٍ بينَ المنزلتينِ ، فإنَّهُ جبرٌ على الاختيارِ ، فطلبَ أهلُ الحقِّ لهٰذا عبارةً ثالثةً لما كانَ فنّاً ثالثاً ، وتيمَّنوا فيهِ بكتابِ اللهِ تعالىٰ[1] ، فسمَّوهُ : كسباً ، وليسَ مناقضاً للجبرِ ولا للاختيارِ ، بلْ هوَ جامعٌ بينَهُما عندَ مَنْ فهمَهُ .

وفعلُ اللهِ تعالىٰ يُسمَّى اختياراً بشرطِ ألا يُفهمَ مِنَ الاختيارِ إرادةٌ بعدَ تحيُّرٍ وتردُّدٍ ، فإنَّ ذٰلكَ في حقِّهِ محالٌ ، وجميعُ

---

(١) في قوله عز شأنه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ، ومن تمسك بلفظ الاختيار . . لم يعب عليه

الألفاظِ المذكورةِ في اللغاتِ لا يمكنُ أنْ تُستعملَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ إلا علىٰ نوعٍ مِنَ الاستعارةِ والتجوُّزِ ، وذكرُ ذٰلكَ لا يليقُ بهٰذا العلمِ ، ويطولُ القولُ فيهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهلْ تقولُ إنَّ العلمَ ولَّدَ الإرادةَ ، والإرادةَ ولَّدَتِ القدرةَ ، والقدرةَ ولَّدَتِ الحركةَ ، وإنَّ كلَّ متأخِّرٍ حدثَ مِنَ المتقدِّمِ ؟ فإنْ قلتَ ذٰلكَ . . فقدْ حكمتَ بحدوثِ شيءٍ لا مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، وإنْ أبيتَ ذٰلكَ . . فما معنىٰ ترتُّبِ البعضِ مِنْ هٰذا على البعضِ ؟

فاعلمْ : أنَّ القولَ بأنَّ بعضَ ذٰلكَ حدثَ عنْ بعضٍ جهلٌ محضٌ ، سواءٌ عُبِّرَ عنهُ بالتولُّدِ أوْ بغيرِهِ[1] ، بلْ حوالةُ جميعِ ذٰلكَ على المعنى الذي يُعبَّرُ عنهُ بالقدرةِ الأزليَّةِ ، وهوَ الأصلُ الذي لمْ يقفْ كافَّةُ الخلقِ عليهِ إلا الراسخونَ في العلمِ فإنَّهُمْ وقفُوا علىٰ كنهِ معناهُ ، والكافةُ وقفُوا علىٰ مجرَّدِ لفظِهِ معَ نوعِ تشبيهٍ بقدرتِنا ، وهوَ بعيدٌ عنِ الحقِّ ، وبيانُ ذٰلكَ يطولُ ، ولٰكنْ بعضُ المقدوراتِ مترتِّبةٌ على البعضِ في الحدوثِ ترتُّبَ المشروطِ على الشرطِ ، فلا تصدرُ مِنَ القدرةِ الأزليَّةِ إرادةٌ إلا بعدَ علمٍ ، ولا علمٌ إلا بعدَ حياةٍ ، ولا حياةٌ إلا بعدَ محلٍّ للحياةِ .

وكما لا يجوزُ أنْ يُقالَ : الحياةُ حصلَتْ مِنَ الجسمِ الذي هوَ شرطُ الحياةِ . . فكذٰلكَ في سائرِ درجاتِ الترتيبِ ، ولٰكنْ بعضُ الشروطِ مما ظهرَ للعامَّةِ ، وبعضُها لمْ يظهرْ إلا للخواصِّ المكاشفينَ بنورِ الحقِّ ، وإلا . . فلا يتقدَّمُ متقدِّمٌ ولا يتأخَّرُ متأخِّرٌ إلا بالحقِّ واللزومِ ، وكذٰلكَ جميعُ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، ولولا ذٰلكَ . . لكانَ التقديمُ والتأخيرُ عبثاً يضاهي فعلَ المجانينِ ، تعالى اللهُ عنْ قولِ الجاهلينَ علوّاً كبيراً .

وإلىٰ هٰذا أشارَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

فكلُّ ما بينَ السماءِ والأرضِ حادثٌ علىٰ ترتيبٍ واجبٍ وحقٍّ لازمٍ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ إلا كما حدثَ ، وعلى الترتيبِ الذي وُجِدَ ، فما تأخَّرَ متأخِّرٌ إلا لانتظارِ شرطِهِ ، والمشروطُ قبلَ الشرطِ محالٌ ، والمحالُ لا يُوصفُ بكونِهِ مقدوراً[2] ، فلا يتأخَّرُ العلمُ عنِ النطفةِ إلا لفقدِ شرطِ الحياةِ ، ولا تتأخَّرُ عنها الإرادةُ بعدَ العلمِ إلا لفقدِ شرطِ العلمِ ، وكلُّ ذٰلكَ علىٰ منهاجِ الواجبِ وترتيبِ الحقِّ ، ليسَ في شيءٍ مِنْ ذٰلكَ لعبٌ واتفاقٌ ، بلْ كلُّ ذٰلكَ بحكمةٍ وتدبيرٍ .

وتفهيمُ ذٰلكَ عسيرٌ ، ولٰكنَّا نضربُ لتوقُّفِ المقدورِ معَ وجودِ القدرةِ علىٰ وجودِ الشرطِ مثالاً يقرِّبُ مبادئَ الحقِّ مِنَ الأفهامِ الضعيفةِ ، وذٰلكَ بأنْ تقدِّرَ إنساناً مُحدِثاً قدِ انغمسَ في الماءِ إلىٰ رقبتِهِ ، فالحدثُ لا يرتفعُ عنْ أعضائِهِ وإنْ كانَ الماءُ هوَ الرافعَ وهوَ ملاقٍ لهُ ، فقدْرُ القدرةِ الأزليَّةِ حاضرةٌ ملاقيةٌ للمقدوراتِ متعلِّقةٌ بها ملاقاةَ الماءِ للأعضاءِ ، ولٰكنْ لا يحصلُ بها المقدورُ كما لا يحصلُ رفعُ الحدثِ بالماءِ انتظاراً للشرطِ ، وهوَ غسلُ الوجهِ ، فإذا وضعَ الواقفُ في الماءِ وجهَهُ على الماءِ . . عملَ الماءُ في سائرِ الأعضاءِ وارتفعَ الحدثُ ، فربَّما يظنُّ الجاهلُ أنَّ الحدثَ ارتفعَ عنِ اليدِ برفعِهِ عنِ الوجهِ ؛ لأنَّهُ حدثَ عَقيبَهُ ، إذْ يقولُ : كانَ الماءُ ملاقياً ولمْ يكنْ رافعاً ، والماءُ لمْ يتغيَّرْ عمَّا كانَ ، فكيفَ

---

(١) والذين عبّروا عنه بالتولُّد وهم زعماء القائلين به في الفرق الإسلامية هم المعتزلة ، وهٰذه التحريجة وجوابها تمهيد للحديث عن العبارة المشهورة التي فاه بها المصنف : (ليس في الإمكان أبدع مما كان)

(٢) فلا يقال : إنه داخل في الإمكان ، ولو شاء الله . . لأوجده وأبدعه ؛ إذ القدرة لا تعلُّق لها بالمستحيل ، والمشروط يستحيل تصور وقوعه قبل شرطه ، ولا يجب بعد شرطه ، فهو ممكن في ذاته ، وكلام المصنف هنا هينمة لما سيأتي تفصيله .

حصلَ منهُ ما لمْ يحصلْ مِنْ قبلُ ؟! بلْ حصلَ ارتفاعُ الحدثِ عنِ اليدِ عندَ غسلِ الوجهِ[1] ، فإذاً غسلُ الوجهِ هوَ الرافعُ للحدثِ عنِ اليدِ !!

وهوَ جهلٌ يضاهي ظنَّ مَنْ يظنُّ أنَّ الحركةَ تحصلُ بالقدرةِ ، والقدرةَ بالإرادةِ ، والإرادةَ بالعلمِ ، وكلُّ ذٰلكَ خطأٌ ، بلْ عندَ ارتفاعِ الحدثِ عنِ الوجهِ ارتفعَ الحدثُ عنِ اليدِ بالماءِ الملاقي لها ، لا بغسلِ الوجهِ ، والماءُ لمْ يتغيَّرْ ، واليدُ لمْ تتغيَّرْ ، ولمْ يحدثْ فيهما شيءٌ ، ولٰكنْ حدثَ وجودُ الشرطِ ، فظهرَ أثرُ العلَّةِ[2] .

فهٰكذا ينبغي أنْ تفهمَ صدورَ المقدوراتِ مِنَ القدرةِ الأزليَّةِ معَ أنَّ القدرةَ قديمةٌ والمقدوراتِ حادثةٌ ، وهٰذا قرعُ بابٍ آخرَ لعالمٍ آخرَ مِنْ عوالمِ المكاشفاتِ .

فلنتركْ جميعَ ذٰلكَ ؛ فإنَّ مقصودَنا التنبيهُ علىٰ طريقِ التوحيدِ في الفعلِ ، فإنَّ الفاعلَ بالحقيقةِ واحدٌ ، فهوَ المخُوفُ والمرجوُّ ، وعليهِ التوكُّلُ والاعتمادُ ، ولمْ نقدرْ علىٰ أنْ نذكرَ مِنْ بحارِ التوحيدِ إلا قطرةً مِنْ بحرِ المقامِ الثالثِ مِنْ مقاماتِ التوحيدِ ، واستيفاءُ ذٰلكَ في عمرِ نوحٍ محالٌ ؛ كاستيفاءِ ماءِ البحرِ بأخذِ القطراتِ منهُ ، وكلُّ ذٰلكَ ينطوي تحتَ قولِكَ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ) ، وما أخفَّ مؤنتَهُ على اللسانِ !! وما أسهلَ اعتقادَ مفهومِ لفظِهِ على القلبِ !! وما أعزَّ حقيقتَهُ ولبَّهُ عندَ العلماءِ الراسخينَ في العلمِ !! فكيفَ عندَ غيرِهِمْ ؟!

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فكيفَ الجمعُ بينَ التوحيدِ والشرعِ ومعنى التوحيدِ أنْ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالىٰ ، ومعنى الشرعِ إثباتُ الأفعالِ للعبادِ ؟ فإنْ كانَ العبدُ فاعلاً . . فكيفَ يكونُ اللهُ تعالىٰ فاعلاً ؟ وإنْ كانَ اللهُ تعالىٰ فاعلاً . . فكيفَ يكونُ العبدُ فاعلاً ؟ ومفعولٌ بينَ فاعلينِ غيرُ مفهومٍ ؟

فأقولُ : نعمْ ، ذٰلكَ غيرُ مفهومٍ إذا كانَ للفاعلِ معنىً واحدٌ ، وإنْ كانَ لهُ معنيانِ ويكونُ الاسمُ مجملاً مردَّداً بينَهُما . . لمْ يتناقضْ ، كما يُقالُ : قتلَ الأميرُ فلاناً ، ويُقالُ : قتلَهُ الجلادُ ، ولٰكنِ الأميرُ قاتلٌ بمعنىً ، والجلادُ قاتلٌ بمعنىً آخرَ ؛ فكذٰلكَ العبدُ فاعلٌ بمعنىً ، واللهُ عزَّ وجلَّ فاعلٌ بمعنىً آخرَ ، فمعنىٰ كونِ اللهِ تعالىٰ فاعلاً : أنَّهُ المخترعُ الموجدُ ، ومعنىٰ كونِ العبدِ فاعلاً أنَّهُ المحلُّ الذي خلقَ فيهِ القدرةَ بعدَ أنْ خلقَ فيهِ الإرادةَ بعدَ أنْ خلقَ فيهِ العلمَ ، فارتبطَتِ القدرةُ بالإرادةِ والحركةُ بالقدرةِ ارتباطَ الشرطِ بالمشروطِ ، وارتبطَ بقدرةِ اللهِ ارتباطَ المعلولِ بالعلَّةِ وارتباطَ المخترَعِ بالمخترِعِ ، وكلُّ ما لهُ ارتباطٌ بقدرةٍ فإنَّ محلَّ القدرةِ يُسمَّىٰ فاعلاً لهُ كيفَما كانَ الارتباطُ ؛ كما يُسمَّى الجلادُ قاتلاً والأميرُ قاتلاً ؛ لأنَّ القتلَ ارتبطَ بقدرتِهِما ، ولٰكنْ علىٰ وجهينِ مختلفينِ ، فلذٰلكَ سُمِّيَ فعلاً لهُما ؛ فكذٰلكَ ارتباطُ المقدورِ بالقدرتينِ .

ولأجلِ توافقِ ذٰلكَ وتطابقِهِ نسبَ اللهُ تعالى الأفعالَ في القرآنِ مرَّةً إلى الملائكةِ ، ومرَّةً إلى العبادِ ، ونسبَها بعينِها

---

(١) أي ـ والكلام علىٰ لسان المعترض ـ : (بل حصل ارتفاع الحدث عن اليد بغسل الوجه) ، إذ حصوله عنده لا به هو ما سيقرره المصنف ، فالمراد بالعندية هنا عند المعترض : العلِّية .

(٢) وقد تبيَّن بهٰذا المثال بأن السابق ليس مؤثراً في اللاحق ، فتأخُّر اللاحق عنه لا يدل قطعاً علىٰ تولُّده من السابق ، بل هي قضية شرط ومشروط ، يقول المصنف في « الاقتصاد » (ص ٢٨٠) : (ومعلوم أنه يلزم من عدم الشرط عدمُ المشروط ، فإذا رأينا علْم الشخص مع حياته ، وإرادته مع علمه . . فيلزم ـ لا محالة ـ من تقدير انتفاءِ الحياة انتفاءُ العلم ، ومن تقدير انتفاء العلم انتفاءُ الإرادة ، ويعبَّر عن هٰذا بالشرط ، وهو الذي لا بد منه لوجود الشيء ، ولٰكن ليس وجود الشيء به ، بل عنده ومعه) .

مرَّةً أخرىٰ إلىٰ نفسِهِ ، فقالَ تعالىٰ في الموتِ : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ، ثمَّ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ، أضافَ الحرثَ إلينا ، ثمَّ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ، ثمَّ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ، وكانَ النافخُ جبريلَ عليهِ السلامُ .

وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ ، قيلَ في التفسيرِ : معناهُ : إذا قرأَهُ عليكَ جبريلُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ ، فأضافَ القتلَ إليهِمْ والتعذيبَ إلىٰ نفسِهِ ، والتعذيبُ هوَ عينُ القتلِ ، بلْ صرَّحَ وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ وهوَ جمعٌ بينَ النفيِ والإثباتِ ظاهراً ، ولـٰكنْ معناهُ : (وما رميتَ) بالمعنى الذي يكونُ الربُّ بهِ رامياً (إذْ رميتَ) بالمعنى الذي يكونُ العبدُ بهِ رامياً ؛ إذْ هما معنيانِ مختلفانِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ ، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في وصفِ ملكِ الأرحامِ : « إنَّهُ يدخلُ الرحمَ ، فيأخذُ النطفةَ في يدِهِ ثمَّ يُصوِّرُها جسداً فيقولُ : يا ربِّ ؛ أذكرٌ أمْ أنثىٰ ؟ أسويٌّ أمْ معوجٌّ ؟ فيقولُ اللهُ ما شاءَ ويخلقُ الملَكُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « ويُصوِّرُ الملَكُ ، ثمَّ ينفخُ فيها الروحَ بالسعادةِ أوْ بالشقاوةِ »[1]

وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : إنَّ الملكَ الذي يُقالُ لهُ : الروحُ هوَ الذي يولجُ الأرواحَ في الأجسامِ ، وأنَّهُ يتنفَّسُ بوصفِهِ ، فيكونُ كلُّ نفسٍ مِنْ أنفاسِهِ روحاً يلجُ في جسمٍ ، ولذلكَ سُمِّيَ روحاً[2] .

وما ذكرَهُ مِنْ مثلِ هـٰذا الملكِ وصفتِهِ فهوَ حقٌّ ، شاهدَهُ أربابُ القلوبِ ببصائرِهِمْ ، فأمَّا كونُ الروحِ عبارةً عنهُ . . فلا يمكنُ أنْ يُعلمَ إلا بالنقلِ ، والحكمُ بهِ دونَ النقلِ تخمينٌ مجرَّدٌ .

وكذلكَ ذكرَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ منَ الأدلَّةِ والآياتِ في الأرضِ والسماواتِ ثمَّ قالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وقالَ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فبيَّنَ أنَّهُ الدليلُ علىٰ نفسِهِ ، وذلكَ ليسَ بمتناقضٍ ، بلْ طرقُ الاستدلالِ مختلفةٌ ، فكمْ مِنْ طالبٍ عرفَ اللهَ تعالىٰ بالنظرِ إلى الموجوداتِ ، وكمْ مِنْ طالبٍ عرفَ كلَّ الموجوداتِ باللهِ تعالىٰ ؛ كما قالَ بعضُهُمْ : (عرفتُ ربِّي بربِّي ، ولولا ربِّي لما عرفتُ ربِّي)[3] ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

---

(١) كذا في « القوت » (١٣/٢) ، وقد رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣٨٧٤) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٢٧/٣) ، والآجري في « الشريعة » (٣٦٥) ، وأصله في « الصحيحين » .

(٢) قوت القلوب (١٣/٢) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥١٤) .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ نفسَهُ بأنَّهُ المحيي والمميتُ ، ثمَّ فوَّضَ الموتَ والحياةَ إلىٰ ملكينِ ، ففي الخبرِ : أنَّ ملكَ الموتِ وملكَ الحياةِ تناظرا ، فقالَ ملكُ الموتِ : أنا أميتُ الأحياءَ ، وقالَ ملكُ الحياةِ : أنا أحيي الموتىٰ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهما : كونا علىٰ عملِكُما وما سُخِّرتُما لهُ مِنَ الصنعِ ، وأنا المميتُ والمحيي ، لا مميتَ ولا محييَ سوايَ[1]

فإذاً ؛ الفعلُ يُستعملُ علىٰ وجوهٍ مختلفةٍ ، فلا تتناقضُ هـٰذهِ المعاني إذا فهمَتْ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي ناولَهُ التمرةَ : « خذْها ، لوْ لمْ تأتِها . . لأتتْكَ »[2] ، أضافَ الإتيانَ إليهِ وإلى التمرةِ ، ومعلومٌ أنَّ التمرةَ لا تأتي على الوجهِ الذي يأتي الإنسانُ إليها .

ولذلكَ لمَّا قالَ ذلكَ التائبُ : أتوبُ إلى اللهِ ولا أتوبُ إلىٰ محمدٍ . . فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عرفَ الحقَّ لأهلِهِ »[3]

فكلُّ مَنْ أضافَ الكلَّ إلى اللهِ تعالىٰ . . فهوَ المحقِّقُ الذي عرفَ الحقَّ والحقيقةَ لأهلِها ، ومَنْ أضافَهُ إلىٰ غيرِهِ . . فهوَ المتجوِّزُ المستعيرُ في كلامِهِ ، وللتجوُّزِ وجهٌ كما أنَّ للحقيقةِ وجهاً ، واسمُ الفاعلِ وضعَهُ واضعُ اللغةِ للمخترعِ ، ولـٰكنْ ظنَّ أنَّ الإنسانَ مخترعٌ بقدرتِهِ ، فسمَّاهُ فاعلاً بحركتِهِ ، وظنَّ أنَّهُ تحقيقٌ ، وتوهَّمَ أنَّ نسبتَهُ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ سبيلِ المجازِ ، مثلَ نسبةِ القتلِ إلى الأميرِ ؛ فإنَّهُ مجازٌ بالإضافةِ إلىٰ نسبتِهِ إلى الجلادِ ، فلمَّا انكشفَ الحقُّ لأهلِهِ . . عرفوا أنَّ الأمرَ بالعكسِ ، وقالوا : إنْ كانَ الفاعلُ قدْ وضعتَهُ أيُّها اللغويُّ للمخترعِ . . فلا فاعلَ إلا اللهُ ، فالاسمُ لهُ بالحقيقةِ ولغيرِهِ بالمجازِ ؛ أيْ : تُجُوِّزَ بهِ عمَّا وضعَهُ اللغويُّ لهُ .

ولما جرىٰ حقيقةُ المعنىٰ علىٰ لسانِ بعضِ الأعرابِ قصداً أوِ اتفاقاً . . صدَّقَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أصدقُ بيتٍ قالَهُ شاعرٌ قولُ لبيدٍ : أَلا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللّهَ باطِلٌ »[4]

أيْ : كلُّ ما لا قوامَ لهُ بنفسِهِ ، وإنَّما قوامُهُ بغيرِهِ . . فهوَ باعتبارِ نفسِهِ باطلٌ ، وإنَّما حقيَّتُهُ وحقيقتُهُ بغيرِهِ لا بنفسِهِ .

فإذاً ؛ لا حقَّ بالحقيقةِ إلا الحيُّ القيُّومُ الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ ؛ فإنَّهُ قائمٌ بذاتِهِ ، وكلُّ ما سواهُ قائمٌ بقدرتِهِ ، فهوَ الحقُّ ، وما سواهُ باطلٌ .

ولذلكَ قالَ سهلٌ : (يا مسكينُ ؛ كانَ ولمْ تكنْ ، ويكونُ ولا تكونُ ، فلمَّا كنتَ اليومَ . . صرتَ تقولُ : أنا وأنا ؟! كنِ الآنَ كما لمْ تكنْ ؛ فإنَّهُ اليومَ كما كانَ)[5]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ ظهرَ الآنَ أنَّ الكلَّ جبرٌ ، فما معنى الثوابِ والعقابِ ، والغضبِ والرضا ؟ وكيفَ غضبُهُ علىٰ فعلِ نفسِهِ ؟

---

(١) قوت القلوب (٢/١٣) .

(٢) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢٧٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٦) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/٤٣٥) ، والطبراني في « الكبير » (١/٢٨٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١١١) عن الأسود بن سريع رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم أُتي بأسير ، فقاله .

(٤) رواه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) .

(٥) قوت القلوب (٢/٦) .

فاعلمْ : أنَّ معنىٰ ذٰلكَ قدْ أشرنا إليهِ في كتابِ الشكرِ ، فلا نطوّلُ بإعادتِهِ .

فهٰذا هوَ القدْرُ الذي رأينا الرمزَ إليهِ مِنَ التوحيدِ الذي يورثُ حالَ التوكُّلِ ، ولا يتمُّ هٰذا إلا بالإيمانِ بالرحمةِ والحكمةِ ، فإنَّ التوحيدَ يورثُ النظرَ إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، والإيمانُ بالرحمةِ وسعتِها هوَ الذي يورثُ الثقةَ بمسبِّبِ الأسبابِ ، ولا يتمُّ حالُ التوكُّلِ كما سيأتي إلا بالثقةِ بالوكيلِ ، وطمأنينةِ القلبِ إلىٰ حسنِ نظرِ الكفيلِ .

وهٰذا الإيمانُ أيضاً بابٌ عظيمٌ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، وحكايةُ طريقِ المكاشفينَ فيهِ تطولُ ، فلنذكرْ حاصلَهُ ليعتقدَهُ الطالبُ لمقامِ التوكلِ اعتقاداً قاطعاً لا يستريبُ فيهِ :

وهوَ أنْ يصدِّقَ تصديقاً يقينياً لا ضعفَ فيهِ ولا ريبَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لوْ خلقَ الخلقَ كلَّهُمْ علىٰ عقلِ أعقلِهِمْ وعلمِ أعلمِهِمْ ، وخلقَ لهُمْ مِنَ العلمِ ما تحتملُهُ نفوسُهُمْ ، وأفاضَ عليهِمْ مِنَ الحكمةِ ما لا منتهىٰ لوصفِها ، ثمَّ زادَ مثلَ عددِ جميعِهِمْ علماً وحكمةً وعقلاً ، ثمَّ كشفَ لهُمْ عواقبَ الأمورِ ، وأطلعَهُمْ علىٰ أسرارِ الملكوتِ ، وعرَّفَهُمْ دقائقَ اللطفِ وخفايا العقوباتِ ، حتَّى اطلعوا بهِ على الخيرِ والشرِّ ، والنفعِ والضرِّ ، ثمَّ أمرَهُمْ أنْ يدبِّروا الملكَ والملكوتَ بما أُعطوا مِنَ العلومِ والحكمِ . . لما اقتضىٰ تدبيرُ جميعِهِمْ معَ التعاونِ والتظاهرِ عليهِ أنْ يُزادَ فيما دبَّرَ اللهُ سبحانَهُ الخلقَ بهِ في الدنيا والآخرةِ جناحُ بعوضةٍ ، ولا أنْ يُنقصَ منها جناحُ بعوضةٍ ، ولا أنْ يُرفعَ منها ذرَّةٌ ، ولا أنْ يُخفضَ منها ذرَّةٌ ، ولا أنْ يُدفعَ مرضٌ أوْ عيبٌ أوْ نقصٌ أوْ فقرٌ أوْ ضرٌّ عمَّنْ بُلِيَ بهِ ، ولا أنْ تُزالَ صحةٌ أوْ كمالٌ أوْ غنىً أوْ نفعٌ عمَّنْ أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ ، بلْ كلُّ ما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ السماواتِ والأرضِ إنْ رجعوا فيها البصرَ ، وطوَّلوا فيها النظرَ . . ما رأوا فيها مِنْ تفاوتٍ ولا فطورٍ .

وكلُّ ما قسمَ اللهُ تعالىٰ بينَ عبادِهِ مِنْ رزقٍ وأجلٍ ، وسرورٍ وفرحٍ ، وعجزٍ وقدرةٍ ، وإيمانٍ وكفرٍ ، وطاعةٍ ومعصيةٍ . . فكلُّهُ عدْلٌ محضٌ لا جورَ فيهِ ، وحقٌّ صِرْفٌ لا ظلمَ فيهِ ، بلْ هوَ على الترتيبِ الواجبِ الحقِّ علىٰ ما ينبغي ، وكما ينبغي ، وبالقدرِ الذي ينبغي ، **وليسَ في الإمكانِ أصلاً أحسنُ منهُ ولا أتمُّ ولا أكملُ**(١) ، ولوْ كانَ وادَّخرَهُ معَ القدرةِ ولمْ يفعلْهُ . . لكانَ بخلاً يناقضُ الجودَ ، وظلماً يناقضُ العدْلَ ، ولوْ لمْ يكنْ قادراً . . لكانَ عجزاً يناقضُ الإلٰهيةَ ، بلْ كلُّ فقرٍ وضرٍّ في الدنيا فهوَ نقصانٌ مِنَ الدنيا وزيادةٌ في الآخرةِ ، وكلُّ نقصٍ في الآخرةِ بالإضافةِ إلىٰ شخصٍ فهوَ نعيمٌ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ، إذْ لولا الليلُ . . لما عُرفَ قدْرُ النهارِ ، ولولا المرضُ . . لما تنعَّمَ الأصحاءُ بالصحةِ ، ولولا النارُ . . لما عرفَ أهلُ الجنَّةِ قدْرَ النعمةِ .

وكما أنَّ فداءَ أرواحِ الإنسِ بأرواحِ البهائمِ وتسليطَهُمْ علىٰ ذبحِها ليسَ بظلمٍ ، بلْ تقديمُ الكاملِ على الناقصِ عينُ العدْلِ . . فكذٰلكَ تفخيمُ النعمِ علىٰ سكَّانِ الجنانِ بتعظيمِ العقوبةِ علىٰ أهلِ النيرانِ فداءً لأهلِ الإيمانِ بأهلِ الكفرانِ عينُ العدْلِ ، وما لمْ يُخلقِ الناقصُ . . لا يُعرفِ الكاملُ ، ولولا خلقُ البهائمِ . . لما ظهرَ شرفُ الإنسِ ، فإنَّ الكمالَ والنقصَ يظهرُ بالإضافةِ ، فمقتضى الجودِ والحكمةِ خلقُ الكاملِ والناقصِ جميعاً .

---

(١) هٰذه هي **العبارة المجلجلة التي تلان وتقال : (ليس في الإمكان أبدع مما كان)** ، والتي تحزَّب العلماء لأجلها في حق المصنف رحمه الله أحزاباً ، **والمراد هنا : إسقاط** قول من قال بدسِّ هٰذه العبارة على المصنف ، وهو قول غريب !! إذ العبارة ليست غريبة عن سياقها ، بل سبقها ولحقها مثيل لها ؛ بنحو لفظها أو بمعناها ، ثم هي ثابتة في جميع النسخ ، بل وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٩/٤٣٠) عن نسخه التي اعتمدها : (هٰكذا نص هٰذه العبارة في سائر نسخ الكتاب ، ولا سيما وفي أواخر بعضها أنها نقلت من نسخة موثوق بها ، معتمداً علىٰ صحتها) .

وكما أنَّ قطعَ اليدِ إذا تآكلَتْ إبقاءً على الروحِ عدْلٌ ؛ لأنَّهُ فداءُ كاملٍ بناقصٍ . . فكذٰلكَ الأمرُ في التفاوتِ الذي بينَ الخلقِ في القسمةِ في الدنيا والآخرةِ ، فكلُّ ذٰلكَ عدْلٌ لا جورَ فيهِ ، وحقٌّ لا لعبَ فيهِ .

وهٰذا الآنَ بحرٌ آخرُ عظيمُ العمقِ واسعُ الأطرافِ مضطربُ الأمواجِ ، قريبٌ في السعةِ مِنْ بحرِ التوحيدِ ، فيهِ غرقَ طوائفُ مِنَ القاصرينَ ، ولمْ يعلموا أنَّ ذٰلكَ غامضٌ لا يعقلُهُ إلا العالمونَ ، ووراءَ هٰذا البحرِ سرُّ القدرِ الذي تحيَّرَ فيهِ الأكثرونَ ، ومُنعَ مِنْ إفشاءِ سرِّهِ المكاشفونَ .

والحاصلُ : أنَّ الخيرَ والشرَّ مقضيٌّ بهِ ، وقدْ صارَ ما قُضيَ بهِ واجبَ الحصولِ بعدَ سبقِ المشيئةِ ، فلا رادَّ لحكْمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، بلْ كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مستَطَرٌ ، وحصولُهُ بقدرٍ معلومٍ منتظَرٌ ، وما أصابَكَ لمْ يكنْ ليخطئَكَ ، وما أخطأَكَ لمْ يكنْ ليصيبَكَ ، ولنقتصرْ علىٰ هٰذهِ المرامزِ مِنْ علومِ المكاشفةِ التي هيَ أصولُ مقامِ التوكُّلِ ، ولنرجعْ إلىٰ علمِ المعاملةِ [1]

* * *

---

(١) وقد أجاب المصنف رحمه الله تعالىٰ في « إملائه » عن سياقه هنا عما اعترضه المعترضون بأحسن جواب ، وقد عقد الحافظ الزبيدي فصلاً طويلاً في « الإتحاف » (٩/٤٣٤) ساق فيه أقوال المعترضين والمنتصرين .

الشَّطْرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب

في أحوال التوكّل وأعماله

وفيهِ بيانُ حالِ التوكُّلِ وبيانُ ما قالَهُ الشيوخُ في حدِّ التوكلِ ، وبيانُ التوكلِ في الكسبِ للمنفردِ والمعيلِ ، وبيانُ التوكلِ بتركِ الادخارِ ، وبيانُ التوكلِ في دفعِ المضارِّ ، وبيانُ التوكلِ في إزالةِ الضررِ بالتداوي وغيرِهِ ، واللهُ الموفقُ برحمتِهِ .

بيان حال التوكّل

قدْ ذكرنا أنَّ مقامَ التوكلِ ينتظمُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، وذكرنا العلمَ .

فأمَّا الحالُ . . فالتوكلُ بالتحقيقِ عبارةٌ عنهُ ، وإنَّما العلمُ أصلُهُ ، والعملُ ثمرتُهُ ، وقدْ أكثرَ الخائضونَ في بيانِ حدِّ التوكلِ واختلفَتْ عباراتُهُمْ ، وتكلَّمَ كلُّ واحدٍ عنْ مقامِ نفسِهِ ، وأخبرَ عنْ حدِّهِ ، كما جرتْ عادةُ أهلِ التصوُّفِ بهِ ، ولا فائدةَ في النقلِ والإكثارِ .

فلنكشفِ الغطاءَ عنهُ فنقولُ :

التوكلُ مشتقٌّ مِنَ الوكالةِ ، يُقالُ : وَكَلَ أمرَهُ إلىٰ فلانٍ ؛ أي : فوَّضَهُ إليهِ واعتمدَ عليهِ فيهِ ، ويُسمَّى الموكولُ إليهِ وكيلاً ، ويُسمَّى المفوِّضُ إليهِ متكلاً عليهِ ، ومتوكلاً عليهِ ، مهما اطمأنَّتْ إليهِ نفسُهُ ووثقَ بهِ ، ولمْ يتهمْهُ فيهِ بتقصيرٍ ، ولمْ يعتقدْ فيهِ عجزاً وقصوراً .

فالتوكلُ عبارةٌ عنِ اعتمادِ القلبِ على الوكيلِ وحدَهُ ، ولنضربِ الوكيلَ في الخصومةِ مثلاً ؛ فنقولُ : منِ ادُّعِيَ عليهِ دعوىٰ باطلةً بتلبيسٍ فوكلَ للخصومةِ مَنْ يكشفُ ذٰلكَ التلبيسَ . . لمْ يكنْ متوكلاً عليهِ ولا واثقَ القلبِ مطمئنَّ النفسِ بوكيلِهِ إلا إذا اعتقدَ فيهِ أربعةَ أمورٍ : منتهى الهدايةِ ، ومنتهى القوَّةِ ، ومنتهى الفصاحةِ ، ومنتهى الشفقةِ .

أمَّا الهدايةُ . . فليعرفَ بها مواقعَ التلبيسِ حتَّىٰ لا يخفىٰ عليهِ مِنْ غوامضِ الحيلِ شيءٌ أصلاً .

وأمَّا القدرةُ والقوَّةُ . . فليستجرئَ على التصريحِ بالحقِّ ؛ فلا يداهنَ ولا يخافَ ، ولا يستحييَ ولا يجبنَ ، فإنَّهُ ربَّما يطلعُ علىٰ وجهِ تلبيسِ خصمِهِ فيمنعُهُ الخوفُ أوِ الجبنُ أوِ الحياءُ أوْ صارفٌ آخرُ مِنَ الصوارفِ المضعفةِ للقلبِ . . عنِ التصريحِ بهِ .

وأمَّا الفصاحةُ . . فهيَ أيضاً مِنَ القدرةِ ، إلا أنَّها قدرةٌ في اللسانِ على الإفصاحِ عنْ كلِّ ما استجرأَ القلبُ عليهِ وأشارَ إليهِ ، فلا كلُّ عالمٍ بمواقعِ التلبيسِ قادرٌ بذلاقةِ لسانِهِ علىٰ حلِّ عقدتِهِ .

وأمَّا منتهى الشفقةِ . . فيكونُ باعثاً لهُ علىٰ بذلِ كلِّ ما يقدرُ عليهِ في حقِّهِ مِنَ المجهودِ ، فإنَّ قدرتَهُ لا تغني دونَ العنايةِ بهِ إذا كانَ لا يهمُّهُ أمرُهُ ، ولا يبالي بهِ ظفرَ بهِ خصمُهُ أوْ لمْ يظفرْ ، هلكَ بهِ حقُّهُ أوْ لمْ يهلكْ .

فإنْ كانَ شاكّاً في هٰذهِ الأربعةِ ، أوْ في واحدةٍ منها ، أوْ جوَّزَ أنْ يكونَ خصمُهُ أكملَ في هٰذهِ الأربعةِ منهُ . . لمْ تطمئنَّ نفسُهُ إلىٰ وكيلِهِ ، بلْ يبقىٰ منزعجَ القلبِ ، مستغرقَ الهمِّ بالحيلةِ والتدبيرِ ليدفعَ ما يحذرُهُ مِنْ

قصور وكيلِهِ وسطوةِ خصمِهِ ، ويكونُ تفاوتُ أحوالِهِ في شدَّةِ الثقةِ والطُّمأنينةِ بحسبِ تفاوتِ قوَّةِ اعتقادِهِ لهٰذهِ الخصالِ فيهِ .

والاعتقاداتُ والظنونُ في القوَّةِ والضعفِ تتفاوتُ تفاوتاً لا ينحصرُ ، فلا جرمَ تتفاوتُ أحوالُ المتوكِّلِ في قوَّةِ الطُّمأنينةِ والثقةِ تفاوتاً لا ينحصرُ ، إلىٰ أنْ ينتهيَ إلى اليقينِ الذي لا ضعفَ فيهِ ، كما لوْ كانَ الوكيلُ والدَ الموكِّلِ ، وهوَ الذي يسعىٰ لجمعِ الحلالِ والحرامِ لأجلِهِ ، فإنَّهُ يحصلُ لهُ يقينٌ بمنتهى الشفقةِ والعنايةِ ، فتصيرُ خصلةٌ واحدةٌ مِنَ الخصالِ الأربعةِ قطعيةً ، وكذٰلكَ سائرُ الخصالِ يُتصوَّرُ أنْ يحصلَ القطعُ بهِ ، وذٰلكَ بطولِ الممارسةِ والتجربةِ ، وتواترِ الأخبارِ بأنَّهُ أفصحُ الناسِ لساناً ، وأقواهم بياناً ، وأقدرُهُمْ علىٰ نصرةِ الحقِّ ، بلْ علىٰ تصويرِ الحقِّ بالباطلِ والباطلِ بالحقِّ .

فإذا عرفتَ التوكلَ في هٰذا المثالِ . . فقسِ التوكلَ على اللهِ تعالىٰ عليهِ ، فإنْ ثبتَ في نفسِكَ بكشفٍ أوْ باعتقادٍ جازمٍ أنَّهُ لا فاعلَ إلا اللهُ كما سبقَ ، واعتقدتَ معَ ذٰلكَ تمامَ العلمِ والقدرةِ علىٰ كفايةِ العبادِ ، ثمَّ تمامَ العطفِ والعنايةِ والرحمةِ بجملةِ العبادِ وبالآحادِ ، وأنَّهُ ليسَ وراءَ منتهىٰ قدرتِهِ قدرةٌ ، ولا وراءَ منتهىٰ علمِهِ علمٌ ، ولا وراءَ منتهىٰ عنايتِهِ بكَ ورحمتِهِ لكَ عنايةٌ ورحمةٌ . . اتكلَ ـ لا محالةَ ـ قلبُكَ عليهِ وحدَهُ ، ولمْ يلتفتْ إلىٰ غيرِهِ بوجهٍ ، ولا إلىٰ نفسِهِ وحولِهِ وقوَّتِهِ ، فإنَّهُ لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، كما سبقَ في التوحيدِ عندَ ذكرِ الحركةِ والقدرةِ ، فإنَّ الحولَ عبارةٌ عنِ الحركةِ ، والقوَّةَ عبارةٌ عنِ القدرةِ .

فإنْ كنتَ لا تجدُ هٰذهِ الحالةَ مِنْ نفسِكَ . . فسببُهُ أحدُ أمرينِ : إمَّا ضعفُ اليقينِ بإحدىٰ هٰذهِ الخصالِ الأربعةِ ، وإمَّا ضعفُ القلبِ ومرضُهُ باستيلاءِ الجبنِ عليهِ ، وانزعاجُهُ بسببِ الأوهامِ الغالبةِ عليهِ ، فإنَّ القلبَ قدْ ينزعجُ تبعاً للوهمِ وطاعةً لهُ مِنْ غيرِ نقصانٍ في اليقينِ ؛ فإنَّ مَنْ يتناولُ عسلاً فشُبِّهَ بينَ يديهِ بالعذرةِ . . ربَّما نفرَ طبعُهُ عنهُ وتعذَّرَ عليهِ تناولُهُ ، ولوْ كُلِّفَ العاقلُ أنْ يبيتَ معَ الميتِ في قبرٍ أوْ فراشٍ أوْ بيتٍ . . نفرَ طبعُهُ وإنْ كانَ متيقناً بكونِهِ ميتاً ، وأنَّهُ جمادٌ في الحالِ ، وأنَّ سنةَ اللهِ تعالىٰ مطردةٌ بأنَّهُ لا يحشرُهُ الآنَ ولا يحييهِ وإنْ كانَ قادراً عليهِ ؛ كما أنَّها مطردةٌ بألا يقلبَ القلمَ الذي في يدِهِ حيَّةً ، ولا يقلبَ السنورَ أسداً وإنْ كانَ قادراً عليهِ ، ومعَ أنَّهُ لا يشكُّ في هٰذا اليقينِ ينفرُ طبعُهُ عنْ مضاجعةِ الميتِ في فراشٍ لهُ أوِ المبيتِ معَهُ في بيتٍ ولا ينفرُ عنْ سائرِ الجماداتِ ، وذٰلكَ جبنٌ في القلبِ ، وهوَ نوعُ ضعفٍ قلَّما يخلو الإنسانُ عنْ شيءٍ منهُ وإنْ قلَّ ، وقدْ يقوىٰ فيصيرُ مرضاً ، حتَّىٰ يخافَ أنْ يبيتَ في البيتِ وحدَهُ معَ إغلاقِ البابِ وإحكامِهِ !!

فإذاً ؛ لا يتمُّ التوكلُ إلا بقوَّةِ القلبِ وقوَّةِ اليقينِ جميعاً ؛ إذْ بهما يحصلُ سكونُ القلبِ وطمأنينتُهُ ، فالسكونُ في القلبِ شيءٌ ، واليقينُ شيءٌ آخرُ ، فكمْ مِنْ يقينٍ لا طمأنينةَ معَهُ ؛ كما قالَ تعالىٰ لإبراهيمَ عليهِ السلامُ : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ، فالتمسَ أنْ يكونَ مشاهداً إحياءَ الميتِ بعينِهِ ليثبتَ في خيالِهِ ، فإنَّ النفسَ تتبعُ الخيالَ وتطمئنُّ بهِ ولا تطمئنُّ باليقينِ في ابتداءِ أمرِهِ إلىٰ أنْ تبلغَ بالآخرةِ إلىٰ درجةِ النفسِ المطمئنَّةِ ، وذٰلكَ لا يكونُ في البدايةِ أصلاً ، وكمْ مِنْ مطمئنٍّ لا يقينَ لهُ ، كسائرِ أربابِ المللِ والمذاهبِ ؛ فإنَّ اليهوديَّ مطمئنُّ القلبِ إلىٰ تهوُّدِهِ ، وكذا النصرانيُّ ، ولا يقينَ لهُمْ أصلاً ، وإنَّما يتَّبعونَ الظنَّ وما تهوى الأنفسُ ، ولقدْ جاءَهُمْ مِنْ ربِّهِمُ الهدىٰ وهوَ سببُ اليقينِ ، إلا أنَّهُمْ معرضونَ عنهُ .

فإذاً ؛ الجبنُ والجرأةُ غرائزُ ، ولا ينفعُ اليقينُ معَها ، فهيَ أحدُ الأسبابِ التي تضادُّ حالَ التوكُّلِ ؛ كما أنَّ ضعفَ اليقينِ بالخصالِ الأربعةِ أحدُ الأسبابِ ، وإذا اجتمعَتْ هـٰذهِ الأسبابُ . . حصلَتِ الثقةُ باللهِ تعالىٰ .

وقدْ قيلَ : (مكتوبٌ في التوراةِ : ملعونٌ مَنْ ثقتُهُ إنسانٌ مثلُهُ)[1]

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اعتزَّ بالعبيدِ . . أذلَّهُ اللهُ »[2]

❋ ❋ ❋

وإذا انكشفَ لكَ معنى التوكلِ وعُلمَتِ الحالةُ التي سُمِّيَتْ توكلاً . . فاعلمْ أنَّ تلكَ الحالةَ لها في القوَّةِ والضعفِ ثلاثُ درجاتٍ :

الدرجةُ الأولىٰ : ما ذكرناهُ ، وهوَ أنْ يكونَ حالُهُ في حقِّ اللهِ تعالىٰ والثقةِ بكفالتِهِ وعنايتِهِ كحالِهِ في الثقةِ بالوكيلِ .

الثانيةُ ـ وهيَ أقوىٰ ـ : أنْ يكونَ حالُهُ معَ اللهِ تعالىٰ كحالِ الطفلِ مع أمِّهِ ، فإنَّهُ لا يعرفُ غيرَها ، ولا يفزعُ إلىٰ أحدٍ سواها ، ولا يعتمدُ إلا إيَّاها ، فإنْ رآها . . تعلَّقَ في كلِّ حالٍ بذيلِها ولمْ يخلِّها ، وإنْ نابَهُ أمرٌ في غيبتِها . . كانَ أوَّلُ سابقٍ إلىٰ لسانِهِ : (يا أمَّاهُ) ، وأوَّلُ خاطرٍ يخطرُ علىٰ قلبِهِ أمُّهُ ؛ فإنَّها مفزعُهُ ، فإنَّهُ قدْ وثقَ بكفالتِها وكفايتِها وشفقتِها ؛ ثقةً بها ليسَتْ خاليةً عنْ نوعِ إدراكٍ بالتمييزِ الذي لهُ ، ويُظنُّ أنَّهُ طبعٌ مِنْ حيثُ إنَّ الصبيَّ لوْ طُولبَ بتفصيلِ هـٰذهِ الخصالِ . . لمْ يقدرْ علىٰ تلفيقِ لفظِهِ ، ولا علىٰ إحضارِهِ مفصَّلاً في ذهنِهِ ، ولـٰكنْ كلُّ ذٰلكَ وراءَ الإدراكِ .

فمَنْ كانَ تألُّهُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ونظرُهُ إليهِ واعتمادُهُ عليهِ . . كَلِفَ بهِ كما يكلَفُ الصبيُّ بأمِّهِ ، فيكونُ متوكلاً حقّاً ، فإنَّ الطفلَ متوكِّلٌ علىٰ أمِّهِ .

والفرقُ بينَ هـٰذا وبينَ الأوَّلِ : أنَّ هـٰذا متوكِّلٌ وقدْ فنيَ في توكُّلِهِ عنْ توكُّلِهِ ؛ إذْ ليسَ يلتفتُ قلبُهُ إلى التوكلِ وحقيقتِهِ ، بلْ إلى المتوكَّلِ عليهِ فقطْ ، فلا مجالَ في قلبِهِ لغيرِ المتوكَّلِ عليهِ ، وأمَّا الأوَّلُ . . فمتوكلٌ بالتكلُّفِ والكسبِ ، وليس فانياً عنْ توكُّلِهِ ؛ لأنَّ لهُ التفاتاً[3] إلىٰ توكلِهِ وشعوراً بهِ ، وذٰلكَ شغلٌ صارفٌ عنْ ملاحظةِ المتوكَّلِ عليهِ وحدَهُ .

وإلىٰ هـٰذهِ الدرجةِ أشارَ سهلٌ حيثُ سُئِلَ عنِ التوكلِ ما أدناهُ ؟ قالَ : تركُ الأمانيِّ ، قيلَ : وأوسطُهُ ؟ قالَ : تركُ الاختيارِ ـ وهوَ إشارةٌ إلى الدرجةِ الثانيةِ ـ وسُئِلَ عنْ أعلاهُ ؟ فلمْ يذكرْهُ ، وقالَ : لا يعرفُهُ إلا مَنْ بلغَ أوسطَهُ[4]

الثالثةُ ـ وهيَ أعلاها ـ : أنْ يكونَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ في حركاتِهِ وسكناتِهِ مثلَ الميتِ بينَ يدي الغاسلِ ، لا يفارقُهُ إلا في أنَّهُ يرىٰ نفسَهُ ميتاً تحرِّكُهُ القدرةُ الأزليَّةُ كما تحرِّكُ يدُ الغاسلِ الميتَ ، وهوَ الذي قَوِيَ يقينُهُ[5] بأنَّهُ مجرى الحركةِ والقدرةِ والإرادةِ والعلمِ وسائرِ الصفاتِ ، وأنَّ كلَّهُ يحدثُ جبراً ، فيكونُ عينَ الانتظارِ لما يجري عليهِ[6] ، ويفارقُ

---

(١) كذا في « القوت » (٤/٢) عن يحيى بن أبي كثير ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٣/٩) عن ذي النون المصري .

(٢) كذا في « القوت » (٤/٢) ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » (٦٦٩/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٤/٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٥٠) .

(٣) في غير (ج) : (أي : له التفات) بدل (لأن له التفاتاً) .

(٤) قوت القلوب (٤/٢) .

(٥) في (أ) : (وهو الذي يرىٰ نفسه) .

(٦) والعبارة في « الإتحاف » (٤٦٤/٩) : (وأن كلاًّ يحدث جبراً ، فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه) .

الصبيَّ ؛ فإنَّ الصبيَّ يفزعُ إلىٰ أمِّهِ ويصيحُ ، ويتعلَّقُ بذيلِها ويعدو خلفَها ، بلْ مثالُ هٰذا مثالُ صبيٍّ علمَ أنَّهُ وإنْ لمْ يزعقْ بأمِّهِ . . فالأمُّ تطلبُهُ ، وأنَّهُ وإنْ لمْ يتعلَّقْ بذيلِ أمِّهِ . . فالأمُّ تحملُهُ ، وإنْ لمْ يسألْها اللبنَ . . فالأمُّ تفاتحُهُ وتسقيهِ (١)

وهٰذا المقامُ في التوكُّلِ يثمرُ تركَ الدعاءِ والسؤالِ منهُ ؛ ثقةً بكرمِهِ وعنايتِهِ ، وأنَّهُ يُعطي ابتداءً أفضلَ ممَّا يُسألُ ، فكمْ مِنْ نعمةٍ ابتدأَها قبلَ السؤالِ والدعاءِ وبغيرِ الاستحقاقِ .

والمقامُ الثاني لا يقتضي تركَ الدعاءِ والسؤالِ منهُ ، وإنَّما يقتضي تركَ السؤالِ مِنْ غيرِهِ فقطْ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ الأحوالُ هلْ يُتصوَّرُ وجودُها ؟

فاعلمْ : أنَّ ذٰلكَ ليسَ بمحالٍ ، ولٰكنَّهُ عزيزٌ نادرٌ ، والمقامُ الثاني والثالثُ أعزُّها ، والأوَّلُ أقربُ إلى الإمكانِ .

ثمَّ إذا وُجدَ الثاني والثالثُ . . فدوامُهُ أبعدُ منهُ ، بلْ يكادُ لا يكونُ المقامُ الثالثُ في دوامِهِ إلا كصفرةِ الوجلِ ؛ فإنَّ انبساطَ القلبِ إلىٰ ملاحظةِ الحولِ والقوَّةِ والأسبابِ طبْعٌ ، وانقباضُهُ عارضٌ ، كما أنَّ انبساطَ الدمِ إلىٰ جميعِ الأطرافِ طبعٌ وانقباضُهُ عارضٌ ، والوجلُ عبارةٌ عنِ انقباضِ الدمِ عنْ ظاهرِ البشرةِ إلى الباطنِ ، حتَّىٰ تنمحيَ عنْ ظاهرِ البشرةِ الحمرةُ التي كانَتْ تتراءىٰ مِنْ وراءِ الرقيقِ مِنْ سترِ البشرةِ ، فإنَّ البشرةَ سترٌ رقيقٌ تتراءىٰ مِنْ ورائِهِ حمرةُ الدمِ ، وانقباضُهُ يُوجبُ الصفرةَ ، وذٰلكَ لا يدومُ ، وكذٰلكَ انقباضُ القلبِ بالكليَّةِ عنْ ملاحظةِ الحولِ والقوَّةِ وسائرِ الأسبابِ الظاهرةِ لا يدومُ .

وأمَّا المقامُ الثاني . . فيشبهُ صفرةَ المحمومِ ، فإنَّهُ قدْ يدومُ يوماً ويومينِ ، والأوَّلُ يشبهُ صفرةَ مريضٍ استحكمَ مرضُهُ ، فلا يبعدُ أنْ يدومَ ، ولا يبعدُ أنْ يزولَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهلْ يبقىٰ معَ العبدِ تدبيرٌ وتعلُّقٌ بالأسبابِ في هٰذهِ الأحوالِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المقامَ الثالثَ ينفي التدبيرَ رأساً ما دامَتِ الحالةُ باقيةً ، بلْ يكونُ صاحبُها كالمبهوتِ .

والمقامُ الثاني ينفي كلَّ تدبيرٍ إلا مِنْ حيثُ الفزعُ إلى اللهِ تعالىٰ بالدعاءِ والابتهالِ ؛ كتدبيرِ الطفلِ في التعلُّقِ بأمِّهِ فقطْ .

والمقامُ الأوَّلُ لا ينفي أصلَ التدبيرِ والاختيارِ ، ولٰكنْ ينفي بعضَ التدبيراتِ ؛ كالمتوكلِ علىٰ وكيلِهِ في الخصومةِ ؛ فإنَّهُ يتركُ تدبيرَهُ مِنْ جهةِ غيرِ الوكيلِ ، ولٰكنْ لا يتركُ التدبيرَ الذي أشارَ إليهِ وكيلُهُ بهِ ، أوِ التدبيرَ الذي عرفَهُ مِنْ عادتِهِ وسنَّتِهِ دونَ صريحِ إشارتِهِ .

فأمَّا الذي يعرفُهُ بإشارتِهِ فأنْ يقولَ لهُ : لستُ أتكلَّمُ إلا في حضورِكَ ، فيشتغلُ ـ لا محالةَ ـ بالتدبيرِ للحضورِ ، ولا يكونُ هٰذا مناقضاً توكُّلَهُ عليهِ ؛ إذْ هوَ ليسَ فزعاً منهُ إلىٰ حولِ نفسِهِ وقوَّتِهِ في إظهارِ الحجَّةِ ، ولا إلىٰ حولِ غيرِهِ ، بلْ مِنْ تمامِ توكُّلِهِ عليهِ أنْ يفعلَ ما رسمَهُ لهُ ؛ إذْ لوْ لمْ يكنْ متوكلاً عليهِ ولا معتمداً لهُ في قولِهِ . . لما حضرَ بقولِهِ .

---

(١) في (أ ، ع) : (تعالجه) بدل (تفاتحه) ، وفي (ج ، ن) : (فالأم تبتدئ وترضعه) بدل (فالأم تفاتحه وتسقيه) .

وأمَّا المعلومُ مِنْ عادتِهِ واطرادِ سنَّتِهِ . . فهوَ أنْ يعلمَ مِنْ عادتِهِ أنَّهُ لا يحاجُّ الخصمَ إلا مِنَ السجلِّ ، فتمامُ توكُّلِهِ إنْ كانَ متوكلاً عليهِ أنْ يكونَ معوِّلاً علىٰ سنتِهِ وعادتِهِ ووافياً بمقتضاها ، وهوَ أنْ يحملَ السجلَّ معَ نفسِهِ إليهِ عندَ مخاصمتِهِ .

فإذاً ؛ لا يستغني عنِ التدبيرِ في الحضورِ وعنِ التدبيرِ في إحضارِ السجلِّ ، ولوْ تركَ شيئاً مِنْ ذٰلكَ . . كانَ نقصاً في توكُّلِهِ ، فكيفَ يكونُ فعلُهُ نقصاً فيهِ ؟!

نعمْ ؛ بعدَ أنْ حضرَ وفاءً بإشارتِهِ وأحضرَ السجلَّ وفاءً بسنَّتِهِ وعادتِهِ ، وقعدَ ناظراً إلىٰ محاجَّتِهِ . . فقدْ ينتهي إلى المقامِ الثاني والثالثِ في حضورِهِ ، حتَّىٰ يبقىٰ كالمبهوتِ المنتظرِ لا يفزعُ إلىٰ حولِهِ وقوَّتِهِ ، إذْ لمْ يبقَ لهُ حولٌ ولا قوَّةٌ ، وقدْ كانَ فزعُهُ إلىٰ حولِهِ وقوَّتِهِ في الحضورِ وإحضارِ السجلِّ بإشارةِ الوكيلِ وسنَّتِهِ ، وقدِ انتهىٰ نهايتَهُ ، فلمْ يبقَ إلا طُمأنينةُ النفسِ والثقةُ بالوكيلِ والانتظارُ لما يجري .

وإذا تأمَّلْتَ هٰذا . . اندفعَ عنكَ كلُّ إشكالٍ في التوكلِ ، وفهمتَ أنَّهُ ليسَ مِنْ شرطِ التوكُّلِ تركُ كلِّ تدبيرٍ وعملٍ ، وأنَّ كلَّ تدبيرٍ وعملٍ لا يجوزُ أيضاً معَ التوكلِ ، بلْ هوَ على الانقسامِ ، وسيأتي تفصيلُهُ في الأعمالِ .

فإذاً ؛ فزعُ الموكِّلِ إلىٰ حولِهِ وقوَّتِهِ في الحضورِ والإحضارِ لا يناقضُ التوكُّلَ ؛ لأنَّهُ يعلمُ أنَّهُ لولا الوكيلُ . . لكانَ حضورُهُ وإحضارُهُ باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوىٰ .

فإذاً ؛ لمْ يصرْ مفيداً مِنْ حيثُ إنَّهُ حولُهُ وقوَّتُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّ الوكيلَ جعلَهُ مفيداً لمحاجَّتِهِ ، وعرَّفَهُ ذٰلكَ بإشارتِهِ وسنَّتِهِ .

فإذاً ؛ لا حولَ ولا قوَّةَ لهُ إلا بالوكيلِ ، إلا أنَّ هٰذهِ الكلمةَ لا يكملُ معناها في حقِّ الوكيلِ ؛ لأنَّهُ ليسَ خالقَ حولِهِ وقوَّتِهِ ، بلْ هوَ جاعلٌ لهُما مفيدينِ في أنفسِهما ، ولمْ يكونا مفيدينِ لولا فعلُهُ ، وإنَّما يصدقُ ذٰلكَ في حقِّ الوكيلِ الحقِّ ، وهوَ اللهُ تعالىٰ ؛ إذْ هوَ خالقُ الحولِ والقوَّةِ كما سبقَ في التوحيدِ ، وهوَ الذي جعلَهُما مفيدينِ ؛ إذْ جعلَهُما شرطاً لما سيخلقُهُ مِنْ بعدِهِما مِنَ الفوائدِ والمقاصدِ .

فإذاً ؛ لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ حقّاً وصدقاً ، فمَنْ شاهدَ هٰذا كذٰلكَ . . كانَ لهُ الثوابُ العظيمُ الذي وردَتْ بِهِ الأخبارُ فيمَنْ يقولُ : (لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ)[1] ، وذٰلكَ قدْ يُستبعدُ فيُقالُ : كيفَ يُعطىٰ هٰذا الثوابَ كلَّهُ بهٰذهِ الكلمةِ معَ سهولتِها على اللسانِ وسهولةِ اعتقادِ القلبِ بمفهومِ لفظِها ؟!

وهيهاتَ !! فإنَّما ذٰلكَ جزاءٌ علىٰ هٰذهِ المشاهدةِ التي ذكرناها في التوحيدِ ، ونسبةُ هٰذهِ الكلمةِ وثوابِها إلىٰ كلمةِ (لا إلٰهَ إلا اللهُ) وثوابِها . . كنسبةِ معنىٰ إحداهما إلى الأخرىٰ ؛ إذْ في هٰذهِ الكلمةِ إضافةُ شيئينِ إلى اللهِ تعالىٰ فقطْ ، وهما الحولُ والقوَّةُ ، وأمَّا كلمةُ (لا إلٰهَ إلا اللهُ) . . فهوَ نسبةُ الكلِّ إليهِ ، فانظرْ إلى التفاوتِ بينَ الكلِّ وبينَ شيئينِ ؛ لتعرفَ بِهِ ثوابَ (لا إلٰهَ إلا اللهُ) بالإضافةِ إلىٰ هٰذا .

وكما ذكرنا مِنْ قبلُ أنَّ للتوحيدِ قشرينِ ولبَّينِ . . فكذٰلكَ لهٰذهِ الكلمةِ ولسائرِ الكلماتِ ، وأكثرُ الخلقِ قُيِّدوا

---

(١) فمنها : ما رواه البخاري (٦٣٨٤) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعاً : « . . . فقال : يا عبد الله بن قيس ؛ قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فإنها كنز من كنوز الجنة » ، ومنها : ما رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٥٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . . كان دواء من تسعة وتسعين داء ، أيسرها الهمُّ » ، وانظر « الإتحاف » (٩/٤٦٦) .

بالقشرين وما طرقوا إلى اللبِّين ، وإلى اللبِّينِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قالَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) صادقاً مِنْ قلبِهِ مخلصاً . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ »[1] ، وحيثُ أطلقَ مِنْ غيرِ ذكرِ الصدقِ والإخلاصِ . . أرادَ بالمطلقِ هـٰذا المقيَّدَ ، كما أضافَ المغفرةَ إلى الإيمانِ والعملِ الصالحِ في بعضِ المواضعِ ، وأضافَها إلىٰ مجرَّدِ الإيمانِ في بعضِ المواضعِ ، والمرادُ بِهِ المقيَّدُ بالعملِ الصالحِ ، فالملكُ لا يُنالُ بالحديثِ ، وحركةُ اللسانِ حديثٌ ، وعقدُ القلبِ أيضاً حديثٌ ، ولـٰكنَّهُ حديثُ نفسٍ ، وإنَّما الصدقُ والإخلاصُ وراءَهما ، ولا يُنصبُ سريرُ الملكِ إلا للمقرَّبينَ ، وهُمُ المخلصونَ .

نعمْ ؛ لمَنْ يقربُ منهُمْ في الرتبةِ مِنْ أصحابِ اليمينِ أيضاً درجاتٌ عندَ اللهِ تعالىٰ وإنْ كانتْ لا تنتهي إلى الملكِ ، أما ترىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا ذكرَ في سورةِ (الواقعةِ) المقرَّبينَ السابقينَ . . تعرَّضَ لسريرِ الملكِ فقالَ : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۞ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ ، ولما انتهىٰ إلىٰ أصحابِ اليمينِ . . ما زادَ علىٰ ذكرِ الماءِ والظلِّ والفواكِهِ والأشجارِ والحورِ العينِ ، وكلُّ ذٰلكَ مِنْ لذَّاتِ المنظورِ والمشروبِ والمأكولِ والمنكوحِ ، ويُتصوَّرُ ذٰلكَ للبهائمِ على الدوامِ ، وأينَ لذَّاتُ البهائمِ مِنْ لذةِ الملكِ والنزولِ في أعلىٰ عليينَ في جوارِ ربِّ العالمينَ ؟!

ولوْ كانَ لهـٰذِهِ اللذَّاتِ قدْرٌ . . لما وُسِّعَتْ على البهائمِ ، ولما رُفِعَ عنها درجةُ الملائكةِ .

أفترىٰ أنَّ أحوالَ البهائمِ وهيَ مسيَّبةٌ في الرياضِ ، متنعمةٌ بالمياهِ والأشجارِ وأصنافِ المأكولاتِ ، متمتعةٌ بالنزوانِ والسفادِ . . أعلىٰ وألذُّ وأشرفُ وأجدرُ بأنْ تكونَ عندَ ذوي الكمالِ مغبوطةً مِنْ أحوالِ الملائكةِ في سرورِهِمْ بالقربِ مِنْ جوارِ ربِّ العالمينَ في أعلىٰ عليينَ ؟!

هيهاتَ هيهاتَ !! ما أبعدَ عنِ التحصيلِ مَنْ إذا خُيِّرَ بينَ أنْ يكونَ حماراً أوْ يكونَ في درجةِ جبريلَ عليهِ السلامُ فيختارُ درجةَ الحمارِ علىٰ درجةِ جبريلَ !!

وليسَ يخفىٰ أنَّ شبهَ كلِّ شيءٍ منجذبٌ إليهِ ، وأنَّ النفسَ التي نزوعُها إلىٰ صنعةِ الأساكِفَةِ أكثرُ مِنْ نزوعِها إلىٰ صنعةِ الكتابةِ . . فهوَ بالأساكفةِ أشبهُ في جوهرِهِ منهُ بالكُتَّابِ[2] ، فكذٰلكَ مَنْ نزوعُ نفسِهِ إلىٰ نيلِ لذَّاتِ البهائمِ أكثرُ مِنْ نزوعِها إلىٰ نيلِ لذَّاتِ الملائكةِ . . فهوَ بالبهائمِ أشبهُ منهُ بالملائكةِ لا محالةَ ، وهـٰؤلاءِ هُمُ الذينَ يُقالُ فيهِمْ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ ، وإنَّما كانوا أضلَّ لأنَّ الأنعامَ ليسَ في قوَّتِها طلبُ درجةِ الملائكةِ ، فتركُها الطلبَ للعجزِ ، وأمَّا الإنسانُ . . ففي قوَّتِهِ ذٰلكَ ، والقادرُ علىٰ نيلِ الكمالِ أحرىٰ بالذمِّ وأجدرُ بالنسبةِ إلى الضلالِ مهما تقاعدَ عنْ طلبِ الكمالِ .

وإذا كانَ هـٰذا كلاماً معترضاً . . فلنرجعْ إلى المقصودِ ، فقدْ بيَّنا معنىٰ قولِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، ومعنىٰ قولِ : (لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ) ، ومَنْ ليسَ قائلاً بهِما عنْ مشاهدةٍ . . فلا يُتصوَّرُ منهُ حالُ التوكلِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : ليسَ في قولِكَ : (لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ) إلا نسبةُ شيئينِ إلى اللهِ ، فلو قالَ قائلٌ : السماءُ والأرضُ خلقُ اللهِ . . فهلْ يكونُ ثوابُهُ مثلَ ثوابِهِ ؟

---

(1) رواه ابن خزيمة في « التوحيد » (٥٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٢٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه كلاهما مرفوعاً بنحوه .

(2) تقدم الحديث عن القول بالمشابهة ، **والأساكفة** : جمع إسكاف ، ويطلق علىٰ كل صانع ، وهو هنا الخراز الذي يعمل في الأحذية .

فأقولُ : لا ، لأنَّ الثوابَ على قدْرِ درجةِ المثابِ عليهِ ، ولا مساواةَ بينَ الدرجتينِ ، ولا يُنظرُ إلىٰ عظمِ السماءِ والأرضِ وصغرِ الحولِ والقوَّةِ إنْ جازَ وصفُهُما بالصغرِ تجوُّزاً ، فليسَتِ الأمورُ بعظمِ الأشخاصِ ، بلْ كلُّ عاميّ يفهمُ أنَّ الأرضَ والسماءَ ليسَتَا مِنْ جهةِ الآدميينَ ، بلْ هما مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، فأمَّا الحولُ والقوَّةُ . . فقدْ أشكلَ أمرُهُما على المعتزلةِ والفلاسفةِ وطوائفَ كثيرةٍ ممَّنْ يدَّعي أنَّهُ يدقِّقُ النظرَ في الرأيِ والمعقولِ حتَّىٰ يشقُّ الشعْرَ بحدَّةِ نظرِهِ ، فهيَ مهلكةٌ مخطرةٌ ، ومزلَّةٌ عظيمةٌ ، هلكَ فيها الغافلونَ ؛ إذْ أثبتوا لأنفسِهِمْ أمراً ، وهوَ شركٌ في التوحيدِ وإثباتُ خالقٍ سوى اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ جاوزَ هـٰذهِ العقبةَ بتوفيقِ اللهِ إيَّاهُ . . فقدْ علتْ رتبتُهُ ، وعظُمَتْ درجتُهُ ، فهوَ الذي يصدقُ قولُهُ : (لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ) .

وقدْ ذكرنا أنَّهُ ليسَ في التوحيدِ إلا عقبتانِ :

إحداهما : النظرُ إلى السماءِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ والغيمِ والمطرِ وسائرِ الجماداتِ .

والثانيةُ : النظرُ إلى اختيارِ الحيواناتِ ، وهيَ أعظمُ العقبتينِ وأخطرُهُما ، وبقطعِهِما[1] كمالُ سرِّ التوحيدِ ، فلذٰلكَ عظُمَ ثوابُ هـٰذهِ الكلمةِ ؛ أعني : ثوابَ المشاهدةِ التي هـٰذهِ الكلمةُ ترجمتُها .

فإذاً ؛ رجعَ حالُ التوكلِ إلى التبرّي مِنَ الحولِ والقوَّةِ ، والتوكلِ على الواحدِ الحقّ ، وسيتضحُ ذٰلكَ عندَ ذكرِنا تفصيلَ أعمالِ التوكُّلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

(١) في النسخ (وكأنَّه) بدل (وبقطعهما) ، والمثبت من (ق) .

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكّل

اعلمْ : أنَّ شيئاً منها لا يخرجُ عمَّا ذكرناهُ ، ولـٰكنْ كلُّ واحدٍ يشيرُ إلىٰ بعضِ الأحوالِ .

فقدْ قالَ أبو موسى الدَّيْبُليُّ : قلتُ لأبي يزيدَ : ما التوكلُ ؟ فقالَ : ما تقولُ أنتَ ؟ قلتُ : إنَّ أصحابَنا يقولونَ : لوْ أنَّ السباعَ والأفاعيَ عنْ يمينِكَ ويسارِكَ . . ما تحرَّكَ لذٰلكَ سرُّكَ ، فقالَ أبو يزيدَ : نعمْ ، هـٰذا قريبٌ ، لـٰكنْ لوْ أنَّ أهلَ الجنَّةِ في الجنَّةِ يتنعَّمونَ ، وأهلَ النارِ في النارِ يُعذَّبونَ ، ثمَّ وقعَ بكَ تمييزٌ بينَهُما . . خرجتَ مِنْ جملةِ التوكلِ[1]

فما ذكرَهُ أبو موسىٰ فهوَ خبرٌ عنْ أعلىٰ أحوالِ التوكُّلِ ، وهوَ المقامُ الثالثُ ، وما ذكرهُ أبو يزيدَ عبارةٌ عنْ أعزِّ أنواعِ العلمِ الذي هوَ مِنْ أصولِ التوكُّلِ ، وهوَ العلمُ بالحكمةِ ، وأنَّ ما فعلَهُ اللهُ تعالىٰ فعلَهُ بالواجبِ[2] ، فلا تمييزَ بينَ أهلِ النارِ وأهلِ الجنَّةِ بالإضافةِ إلىٰ أصلِ العدْلِ والحكمةِ ، وهـٰذا أغمضُ أنواعِ العلمِ ، ووراءَهُ سرُّ القدرِ ، وأبو يزيدَ قلَّما يتكلَّمُ إلا عنْ أعلى المقاماتِ وأقصى الدرجاتِ .

وليسَ تركُ الاحترازِ عنِ الحيَّاتِ شرطاً في المقامِ الأوَّلِ مِنَ التوكلِ ، فقدِ احترزَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ في الغارِ ؛ إذْ سدَّ منافذَ الحيَّاتِ[3] ، إلا أنْ يُقالَ : فعلَ ذٰلكَ بيدِهِ ولمْ يتغيَّرْ بسببِهِ سرُّهُ ، أوْ يُقالَ : إنَّما فعلَ ذٰلكَ شفقةً علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا في حقِّ نفسِهِ ، وإنَّما يزولُ التوكلُ بحركةِ سرِّهِ وتغيُّرِهِ لأمرٍ يرجعُ إلىٰ نفسِهِ ، وللنظرِ في هـٰذا مجالٌ ، ولـٰكنْ سيأتي أنَّ أمثالَ ذٰلكَ وأكثرَ منهُ لا يناقضُ التوكلَ ؛ فإنَّ حركةَ السرِّ مِنَ الحيَّاتِ هوَ الخوفُ ، وحقُّ المتوكلِ أنْ يخافَ مسلِّطَ الحيَّاتِ ؛ إذْ لا حولَ للحيَّاتِ ولا قوَّةَ لها إلا باللهِ ، وإنِ احترزَ . . لمْ يكنِ اتكالُهُ علىٰ تدبيرِهِ وحولِهِ وقوَّتِهِ في الاحترازِ ، بلْ علىٰ خالقِ الحولِ والقوَّةِ والتدبيرِ .

وسُئِلَ ذو النونِ المصريُّ عنِ التوكلِ فقالَ : (خلعُ الأربابِ ، وقطعُ الأسبابِ) ، فخلعُ الأربابِ إشارةٌ إلىٰ علومِ التوحيدِ ، وقطعُ الأسبابِ إشارةٌ إلى الأعمالِ ، وليسَ فيهِ تعرُّضٌ صريحٌ للحالِ وإنْ كانَ اللفظُ يتضمَّنُهُ ، فقيلَ لهُ : زدْنا ، فقالَ : (إلقاءُ النفسِ في العبوديةِ ، وإخراجُها مِنَ الربوبيَّةِ)[4] ، وهـٰذا إشارةٌ إلى التبرِّي مِنَ الحولِ والقوَّةِ فقطْ .

وسُئِلَ حمدونُ القصارُ عنِ التوكلِ فقالَ : (إنْ كانَ لكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ وعليكَ دانقٌ دينٌ . . لمْ تأمنْ أنْ تموتَ ويبقىٰ ذٰلكَ في عنقِكَ ، ولوْ كانَ عليكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ دينٌ مِنْ غيرِ أنْ تتركَ لها وفاءً . . لا تيئسُ مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ يقضيَها عنك) ، وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ مجرَّدِ الإيمانِ بسعةِ القدرةِ ، وأنَّ في المقدوراتِ أسباباً خفيَّةً سوىٰ هـٰذهِ الأسبابِ الظاهرةِ .

وسُئِلَ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ عنِ التوكلِ فقالَ : (التعلُّقُ باللهِ تعالىٰ في كلِّ حالٍ) ، فقالَ السائلُ : زدْني ، فقالَ : (تركُ كلِّ سببٍ يوصلُ إلىٰ سببٍ حتَّىٰ يكونَ الحقُّ هوَ المتولِّيَ لذٰلكَ)[5]

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٩٥) ، ومعنىٰ (وقع بك تمييز بينهما) : بأن ميَّزت أحدهما عن الآخر ؛ يعني : اخترت لنفسك شيئاً . « إتحاف » (٤٦٩/٩) .

(٢) وهـٰذه العبارة أيضاً دائرة في فلك عبارته : (ليس بالإمكان أبدع . . .) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨٣) ، والبيهقي في « الدلائل » (٤٧٦/٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٨٠/٣٠)

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٠/٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٩٧) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص ٢٩٨) .

فالأوَّلُ عامٌ للمقاماتِ الثلاثِ ، والثاني إشارةٌ إلى المقامِ الثالثِ خاصةً ، وهوَ مثلُ توكلِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالَ لهُ جبريلُ عليهِ السلامُ : ألكَ حاجةٌ ؟ فقالَ : أمَّا إليكَ . . فلا[1] ؛ إذْ كانَ سؤالُهُ سبباً يفضي إلىٰ سببٍ ، وهوَ حفظُ جبريلَ لهُ ، فتركَهُ ثقةً بأنَّ اللهَ تعالىٰ إنْ أرادَ . . سخَّرَ جبريلَ لذٰلكَ ، فيكونُ هوَ المتولِّيَ لذٰلكَ ، وهٰذا حالُ مبهوتٍ غائبٍ عنْ نفسِهِ باللهِ تعالىٰ ، فلمْ يرَ معَهُ غيرَهُ ، وهوَ حالٌ عزيزٌ في نفسِهِ ، ودوامُهُ إنْ وُجدَ أبعدُ منهُ وأعزُّ .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : (التوكلُ اضطرابٌ بلا سكونٍ ، وسكونٌ بلا اضطرابٍ)[2] ، ولعلَّهُ يشيرُ إلى المقامِ الثاني ، فسكونُهُ بلا اضطرابٍ ؛ إشارةٌ إلىٰ سكونِ القلبِ إلى الوكيلِ وثقتِهِ بهِ ، واضطرابُهُ بلا سكونٍ إشارةٌ إلىٰ فزعِهِ إليهِ وابتهالِهِ وتضرُّعِهِ بينَ يديهِ ؛ كاضطرابِ الطفلِ ببدنِهِ إلىٰ أمِّهِ ، وسكونِ قلبِهِ إلىٰ تمامِ شفقتِها .

وقالَ أبو عليٍّ الدقاقُ : (التوكلُ ثلاثُ درجاتٍ : التوكلُ ، ثمَّ التسليمُ ، ثمَّ التفويضُ ، فالمتوكلُ يسكنُ إلىٰ وعدِهِ ، والمسلِّمُ يكتفي بعلمِهِ ، وصاحبُ التفويضِ يرضىٰ بحكمِهِ)[3] ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ تفاوتِ درجاتِ نظرِهِ بالإضافةِ إلى المنظورِ إليهِ ، فإنَّ العلمَ هوَ الأصلُ ، والوعدُ يتبعُهُ ، والحكمُ يتبعُ الوعدَ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ الغالبُ علىٰ قلبِ المتوكلِ ملاحظةَ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ .

وللشيوخِ في التوكلِ أقاويلُ سوىٰ ما ذكرناهُ ، فلا نطوِّلُ بها ، فإنَّ الكشفَ أنفعُ مِنَ الروايةِ والنقلِ .

فهٰذا ما يتعلَّقُ بحالِ التوكلِ ، واللهُ الموفقُ برحمتِهِ ولطفِهِ .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠/١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٨٤/٦) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٩٨) .

(٣) رواه القشيري عنه في « رسالته » (ص ٢٩٨) .

بيان أعمال المتوكّلين

اعلمْ : أنَّ العلمَ يورثُ الحالَ ، والحالَ يثمرُ الأعمالَ ، وقدْ يُظنُّ أنَّ معنى التوكلِ تركُ الكسبِ بالبدنِ ، وتركُ التدبيرِ بالقلبِ ، والسقوطُ على الأرضِ كالخرقةِ الملقاةِ ، وكاللحمِ على الوضمِ ، وهـٰذا ظنُّ الجهَّالِ ، فإنَّ ذٰلكَ حرامٌ في الشرعِ ، والشرعُ قدْ أثنىٰ على المتوكلينَ ، فكيفَ يُنالُ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ بمحظوراتِ الدينِ ؟!

بلْ نكشفُ الغطاءَ عنهُ ونقولُ :

إنَّما يظهرُ تأثيرُ التوكلِ في حركةِ العبدِ وسعيِهِ بعملِهِ إلىٰ مقاصدِهِ[1] ، وسعيُ العبدِ باختيارِهِ إمَّا أنْ يكونَ لأجلِ جلبِ نافعٍ هوَ مفقودٌ عندَهُ كالكسبِ ، أوْ لحفظِ نافعٍ هوَ موجودٌ عندَهُ كالادخارِ ، أوْ لدفعِ ضارٍّ لمْ ينزلْ بهِ كدفعِ الصائلِ والسارقِ والسباعِ ، أوْ لإزالةِ ضارٍّ قدْ نزلَ بهِ كالتداوي مِنَ المرضِ ، فمقصودُ حركاتِ العبدِ لا تعدو هـٰذهِ الفنونَ الأربعةَ ، وهوَ جلبُ النافعِ ، أوْ حفظُهُ ، أو دفعُ الضارِّ ، أوْ قطعُهُ ، فلنذكرْ شرطَ التوكلِ ودرجاتِهِ في كلِّ واحدٍ منها مقروناً بشواهدِ الشرعِ .

* * *

(١) في (ج ، د ، ع ، ف) : (بعلمه) بدل (بعمله) .

الفنّ الأوّل : في جلب النّافع

فنقولُ فيهِ : الأسبابُ التي بها يُجلَبُ النافعُ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ : مقطوعٌ بهِ ، ومظنونٌ ظنّاً يُوثَقُ بهِ ، وموهومٌ وهماً لا تثقُ النفسُ بهِ ثقةً تامَّةً ولا تطمئنُّ إليهِ .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الأولى : المقطوعُ بهِ :

وذٰلكَ مثلُ الأسبابِ التي ارتبطَتِ المسبباتُ بها بتقديرِ اللهِ تعالىٰ ومشيئتِهِ ارتباطاً مطرداً لا يختلفُ ؛ كما إذا كانَ الطعامُ موضوعاً بينَ يديكَ وأنتَ جائعٌ محتاجٌ ، ولٰكنَّكَ لستَ تمدُّ اليدَ إليهِ ، وتقولُ : أنا متوكِّلٌ ، وشرطُ التوكلِ تركُ السعيِ ، ومدُّ اليدِ إليهِ سعيٌ وحركةٌ ، وكذٰلكَ مضغُهُ بالأسنانِ وابتلاعُهُ بإطباقِ أعالي الحنكِ علىٰ أسافلِهِ !!

فهٰذا جنونٌ محضٌ ، وليسَ مِنَ التوكلِ في شيءٍ ، فإنَّكَ إنِ انتظرتَ أنْ يخلقَ اللهُ فيكَ شبعاً دونَ الخبزِ ، أوْ يخلقَ في الخبزِ حركةً إليكَ ، أوْ يسخِّرَ ملكاً ليمضغَهُ ويوصلَهُ إلىٰ معدتِكَ . . فقدْ جهلتَ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ .

وكذٰلكَ لوْ لمْ تزرعِ الأرضَ وطمعتَ في أنْ يخلقَ اللهُ تعالىٰ نباتاً مِنْ غيرِ بذرٍ ، أوْ تلدَ زوجتُكَ مِنْ غيرِ وقاعٍ كما ولدَتْ مريمُ عليها السلامُ ، فكلُّ ذٰلكَ جنونٌ ، وأمثالُ هٰذا ممَّا يكثرُ ولا يمكنُ إحصاؤُهُ ، فليسَ التوكلُ في هٰذا المقامِ بالعملِ ، بلْ بالحالِ والعلمِ .

أمَّا العلمُ . . فهوَ أنْ تعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الطعامَ واليدَ والأسنانَ وقوَّةَ الحركةِ ، وأنَّهُ هوَ الذي يطعمُكَ ويسقيكَ .

وأمَّا الحالُ . . فهوَ أنْ يكونَ سكونُ قلبِكَ واعتمادُكَ علىٰ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، لا على اليدِ والطعامِ ، وكيفَ تعتمدُ علىٰ صحةِ يدِكَ وربَّما تجفُّ في الحالِ وتفلجُ ؟! وكيفَ تعوّلُ علىٰ قدرتِكَ وربَّما يطرأُ عليكَ في الحالِ ما يزيلُ عقلَكَ ويبطلُ قوَّةَ حركتِكَ ؟! وكيفَ تعوّلُ علىٰ حضورِ الطعامِ وربَّما يسلِّطُ اللهُ تعالىٰ عليكَ مَنْ يغلبُكَ عليهِ ، أوْ يبعثُ حيَّةً تزعجُكَ عنْ مكانِكَ ، وتفرّقُ بينَكَ وبينَ طعامِكَ ؟!

وإذا احتُملَ أمثالُ ذٰلكَ ولمْ يكنْ لها علاجٌ إلا بفضْلِ اللهِ تعالىٰ . . فبذٰلكَ فلتفرحْ ، وعليهِ فلتعوّلْ

فإذا كانَ هٰذا حالَهُ وعلمَهُ . . فليمدَّ اليدَ ، فإنَّهُ متوكلٌ .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الثانيةُ : الأسبابُ التي ليسَتْ متيقنةً :

ولٰكنِ الغالبُ أنَّ المسبباتِ لا تحصلُ دونَها ، وكانَ احتمالُ حصولِها دونَها بعيداً ؛ كالذي يفارقُ الأمصارَ والقوافلَ ويسافرُ في البوادي التي لا يطرقُها الناسُ إلا نادراً ، ويكونُ سفرُهُ مِنْ غيرِ استصحابِ زادٍ ، فهٰذا ليسَ شرطاً في التوكلِ ، بلِ استصحابُ الزادِ في البوادي سنَّةُ الأوَّلينَ ، ولا يزولُ التوكلُ بهِ بعدَ أنْ يكونَ الاعتمادُ علىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ لا علىٰ الزادِ كما سبقَ ، ولٰكنْ فعلُ ذٰلكَ جائزٌ ، وهوَ مِنْ أعلىٰ مقاماتِ التوكلِ ، ولذٰلكَ كانَ يفعلُهُ الخوَّاصُ [1]

❀ ❀ ❀

---

(١) أي : إبراهيم الخواص رحمه الله تعالىٰ .

فإنْ قلتَ : فهٰذا سعيٌ في الهلاكِ وإلقاءِ النفسِ في التهلكةِ .

فاعلمْ : أنَّ ذٰلكَ يخرجُ عنْ كونِهِ حراماً بشرطينِ :

أحدُهُما : أنْ يكونَ الرجلُ قدْ راضَ نفسَهُ وجاهدَها ، وسوَّاها على الصبرِ عنِ الطعامِ أسبوعاً أوْ ما يقاربُهُ ، بحيثُ يصبرُ عنهُ مِنْ غيرِ ضيقِ قلبٍ وتشوُّشِ خاطرٍ وتعذُّرٍ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ .

والثاني : أنْ يكونَ بحيثُ يقوىٰ على التقوُّتِ بالحشيشِ وما يتفقُ مِنَ الأشياءِ الخسيسةِ .

فبعدَ هٰذينِ الشرطينِ لا يخلو في غالبِ الأمرِ في البوادي في كلِّ أسبوعٍ عنْ أنْ يلقاهُ آدميٌّ ، أوْ ينتهي إلىٰ حِلَّةٍ أوْ قريةٍ[1] ، أو إلىٰ حشيشٍ يزجِّي بِهِ وقتَهُ فيحيا بِهِ مجاهداً نفسَهُ ، والمجاهدةُ عمادُ التوكلِ ، وعلىٰ هٰذا كانَ يعوِّلُ الخوَّاصُ ونظراؤُهُ مِنَ المتوكلينَ .

والدليلُ عليهِ : أنَّ الخوَّاصَ كانَ لا تفارقُهُ الإبرةُ والمقراضُ والحبلُ والركوةُ ويقولُ : (هٰذا لا يقدحُ في التوكلِ)[2] ، وسببُهُ : أنَّهُ علمَ أنَّ البواديَ لا يكونُ الماءُ فيها علىٰ وجهِ الأرضِ ، وما جرتْ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ بصعودِ الماءِ مِنَ البئرِ بغيرِ دلوٍ ولا حبلٍ ، ولا يغلبُ وجودُ الحبلِ والدلوِ في البوادي كما يغلبُ وجودُ الحشيشِ ، والماءُ يحتاجُ إليهِ لوضوئِهِ كلَّ يومٍ مراتٍ ، ولعطشِهِ في كلِ يومٍ أوْ يومينِ مرَّةً ، فإنَّ المسافرَ معَ حرارةِ الحركةِ لا يصبرُ عنِ الماءِ وإنْ صبرَ عنِ الطعامِ ، وكذٰلكَ يكونُ لهُ ثوبٌ واحدٌ ، وربَّما يتخرَّقُ فتنكشفُ عورتُهُ ، ولا يوجدُ المقراضُ والإبرةُ في البوادي غالباً عندَ كلِّ صلاةٍ ، ولا يقومُ مقامَهُما في الخياطةِ والقطعِ شيءٌ ممَّا يُوجدُ في البوادي .

فكلُّ ما في معنىٰ هٰذهِ الأربعةِ أيضاً يلتحقُ بالدرجةِ الأولىٰ ؛ إلا أنَّهُ مظنونٌ ظنّاً ليسَ مقطوعاً بِهِ ؛ لأنَّهُ يحتملُ ألا يتخرَّقَ الثوبُ ، أوْ يعطيَهُ إنسانٌ ثوباً ، أوْ يجدَ علىٰ رأسِ البئرِ مَنْ يسقيهِ ، ولا يحتملُ أنْ يتحرَّكَ الطعامُ ممضوغاً إلىٰ فيهِ ، فبينَ الدرجتينِ فرقٌ ، ولٰكنِ الثاني في معنى الأوَّلِ .

ولهٰذا نقولُ : لوِ انحازَ إلىٰ شعبٍ مِنْ شعابِ الجبالِ حيثُ لا ماءَ ولا حشيشَ ، ولا يطرقُهُ طارقٌ فيهِ ، وجلسَ متوكلاً . . فهوَ آثمٌ بِهِ ، ساعٍ في إهلاكِ نفسِهِ ؛ كما رُوِيَ أنَّ زاهداً مِنَ الزهَّادِ فارقَ الأمصارَ وأقامَ في سفحِ جبلٍ سبعاً وقالَ : لا أسألُ أحداً شيئاً حتَّىٰ يأتيَني ربِّي برزقي ، فقعدَ سبعاً ، فكادَ يموتُ ولمْ يأتِهِ رزقٌ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ إنْ أحييتَني . . فأْتني برزقي الذي قسمتَ لي ، وإلا . . فاقبضْني إليكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : وعزَّتي ؛ لا رزقتُكَ حتَّىٰ تدخلَ الأمصارَ وتقعدَ بينَ الناسِ ، فدخلَ المصرَ وأقامَ ، فجاءَهُ هٰذا بطعامٍ ، وهٰذا بشرابٍ ، فأكلَ وشربَ ، وأوجسَ في نفسِهِ مِنْ ذٰلكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : أردتَ أنْ تُذهبَ حكمتي بزهدِكَ في الدنيا ؟! أما علمتَ أنِّي أنْ أرزقَ عبدي بأيدي عبادي أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أرزقَهُ بيدِ قدرتي ؟![3]

فإذاً ؛ التباعدُ عنِ الأسبابِ كلِّها مراغمةٌ للحكمة ، وجهلٌ بسنَّةِ اللهِ تعالىٰ ، والعملُ بموجَبِ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ معَ الاتكالِ على اللهِ عزَّ وجلَّ دونَ الأسبابِ لا يناقضُ التوكلَ كما ضربناهُ مثلاً في الوكيلِ بالخصومةِ مِنْ قبلُ ، ولٰكنَّ

---

(١) **الحِلَّة** : المحلة ، وهي منزل القوم .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٩٩) .

(٣) قوت القلوب (١٩٦/٢) .

الأسبابَ تنقسمُ إلىٰ ظاهرةٍ وإلىٰ خفيةٍ ، فمعنى التوكلِ : الاكتفاءُ بالأسبابِ الخفيَّةِ عنِ الأسبابِ الظاهرةِ معَ سكونِ النفسِ إلىٰ مسبِّبِ السببِ الخفيِّ لا إلى السببِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما قولُكَ في القاعدِ في البلدِ بغيرِ كسبٍ أهوَ حرامٌ أوْ مباحٌ أوْ مندوبٌ إليهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ ذٰلكَ ليسَ بحرامٍ ؛ لأنَّ صاحبَ السياحةِ في البوادي إذا لمْ يكنْ مهلكاً نفسَهُ . . فكيفَ يكونُ هٰذا مهلكاً نفسَهُ حتَّىٰ يكونَ فعلُهُ حراماً ؟ بلْ لا يبعدُ أنْ يأتيَهُ الرزقُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ ، ولٰكنْ قدْ يتأخَّرُ عنهُ ، والصبرُ ممكنٌ إلىٰ أنْ يتفقَ ، ولٰكنْ لوْ أغلقَ بابَ البيتِ علىٰ نفسِهِ بحيثُ لا طريقَ لأحدٍ إليهِ . . ففعلُهُ ذٰلكَ حرامٌ .

وإنْ فتحَ بابَ البيتِ وهوَ بطَّالٌ غيرُ مشغولٍ بعبادةٍ . . فالكسبُ والخروجُ لهُ أولىٰ ، ولٰكنْ ليسَ فعلُهُ حراماً إلىٰ أنْ يشرفَ على الموتِ ، فعندَ ذٰلكَ يلزمُهُ الخروجُ والسؤالُ والكسبُ ، وإنْ كانَ مشغولَ القلبِ باللهِ تعالىٰ ، غيرَ مستشرفٍ إلى الناسِ ، ولا متطلِّعٍ إلىٰ مَنْ يدخلُ مِنَ البابِ فيأتيهِ برزقِهِ ، بلْ تطلُّعُهُ إلىٰ فضلِ اللهِ تعالىٰ واشتغالُهُ باللهِ . . فهوَ أفضلُ ، وهوَ مِنْ مقاماتِ التوكلِ ، وهوَ أنْ يشتغلَ باللهِ تعالىٰ ولا يهتمَّ برزقِهِ ، فإنَّ الرزقَ يأتيهِ لا محالةَ ، وعندَ هٰذا يصحُّ ما قالَهُ بعضُ العلماءِ ؛ وهوَ أنَّ العبدَ لوْ هربَ مِنْ رزقِهِ . . لطلبَهُ ؛ كما لوْ هربَ مِنَ الموتِ . . لأدركَهُ[1] ، وأنَّهُ لوْ سألَ اللهَ تعالىٰ ألا يرزقَهُ . . لما استجابَ لهُ وكانَ عاصياً ، ولقالَ لهُ : يا جاهلُ ؛ كيفَ أخلقُكَ ولا أرزقُكَ ؟!

ولذٰلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (اختلفَ الناسُ في كلِّ شيءٍ إلا في الرزقِ والأجلِ ، وأجمعوا علىٰ أنْ لا رازقَ ولا مميتَ إلا اللهُ تعالىٰ)[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ توكَّلتُمْ على اللهِ حقَّ توكُّلِهِ . . لرزقَكُمْ كما يرزقُ الطيرَ ، تغدوا خِماصاً وتروحُ بِطاناً ، ولزالَتْ بدعائِكُمُ الجبالُ »[3]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (انظروا إلى الطيرِ ، لا تزرعُ ولا تحصدُ ولا تدَّخرُ ، واللهُ تعالىٰ يرزقُها يوماً بيومٍ ، فإنْ قلتُمْ : نحنُ أكبرُ بطوناً . . فانظروا إلى الأنعامِ كيفَ قيَّضَ اللهُ تعالىٰ لها هٰذا الخلقَ للرزقِ)[4]

وقالَ أبو يعقوبَ السوسيُّ : (المتوكلونَ تجري أرزاقُهُمْ علىٰ أيدي العبادِ بلا تعبٍ منهُمْ ، وغيرُهُمْ مشغولونَ مكدودونَ)[5] . وقالَ بعضُهُمْ : (العبيدُ كلُّهُمْ في رزقِ اللهِ تعالىٰ ، ولٰكنْ بعضُهُمْ يأكلُ بذلٍّ كالسؤَّالِ ، وبعضُهُمْ بتعبٍ وانتظارٍ كالتجَّارِ ، وبعضُهُمْ بامتهانٍ كالصنَّاعِ ، وبعضُهُمْ بعزٍّ كالصوفيَّةِ ، يشهدونَ العزيزَ ، فيأخذونَ رزقَهُمْ مِنْ يدِهِ ولا يرونَ الواسطةَ)[6]

❁ ❁ ❁

(١) كما روىٰ هٰذا مرفوعاً الطبراني في « الأوسط » (٤٤٤١) ، وابن عدي في « الكامل » (١٩/٦) .

(٢) قوت القلوب (١٩٧/٢) .

(٣) كذا في « القوت » (٤/٢) ، ورواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) إلىٰ قوله : (وتروح بطاناً) ، وأما زيادة : (ولزالت بدعائكم الجبال) . . فقد رواها المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٠٢) من حديث معاذ رضي الله عنه مرفوعاً : « إنكم لو عرفتم الله حق المعرفة . . لمشيتم على البحور ، ولزال بدعائكم الجبال . . . » .

(٤) قوت القلوب (٤/٢) .

(٥) قوت القلوب (٤/٢) بنحوه .

(٦) قوت القلوب (٤/٢) بزيادة تفصيل .

الدرجةُ الثالثةُ : ملابسةُ الأسبابِ التي يُتوهَّمُ إفضاؤُها إلى المسبباتِ مِنْ غيرِ ثقةٍ ظاهرةٍ :

كالذي يستقصي في التدبيراتِ الدقيقةِ في تفصيلِ الاكتسابِ ووجوهِهِ ، وذٰلكَ يخرجُ بالكليَّةِ عنْ درجاتِ التوكُّلِ كلِّها ، وهوَ الذي فيهِ الناسُ كلُّهُمْ ؛ أعني : مَنْ يكتسبُ بالحيلِ الدقيقةِ اكتساباً مباحاً لمالٍ مباحٍ ، فأمَّا أخذُ الشبهةِ أوِ الاكتسابُ بطريقٍ فيهِ شبهةٌ . . فذٰلكَ غايةُ الحرصِ على الدنيا والاتكالِ على الأسبابِ ، فلا يخفىٰ أنَّ ذٰلكَ يبطلُ التوكلَ ، وهوَ مثلُ الأسبابِ التي نسبتُها إلىٰ جلبِ النافعِ مثلُ نسبةِ الرقيةِ والطيرةِ والكيِّ بالإضافةِ إلىٰ إزالةِ الضارِّ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصفَ المتوكِّلينَ بذٰلكَ ، ولمْ يصفْهُمْ بأنَّهُمْ لا يكتسبونَ ، ولا يجلسونَ في الأمصارِ ، ولا يأخذونَ مِنْ أحدٍ شيئاً ، بلْ وصفَهُمْ بأنَّهُمْ يتعاطونَ هٰذهِ الأسبابَ ، وأمثالُ هٰذهِ الأسبابِ التي لا يُوثقُ بها في المسبَّباتِ ممَّا يكثرُ فلا يمكنُ إحصاؤُها .

وقالَ سهلٌ في التوكُّلِ : (إنَّهُ تركُ التدبيرِ)[1] ، وقالَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الخلقَ ولمْ يحجبْهُمْ عنْ نفسِهِ ، وإنَّما حجابُهُمْ تدبيرُهُمْ)[2] ، ولعلَّهُ أرادَ بهِ استنباطَ الأسبابِ البعيدةِ بالفكرِ ، فهيَ التي تحتاجُ إلى التدبيرِ دونَ الأسبابِ الجليَّةِ .

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ الأسبابَ منقسمةٌ : إلىٰ ما يخرجُ التعلُّقُ بها عنِ التوكُّلِ ، وإلىٰ ما لا يخرجُ ، وأنَّ الذي لا يخرجُ ينقسمُ : إلىٰ مقطوعٍ بهِ ، وإلىٰ مظنونٍ ، وأنَّ المقطوعَ بهِ لا يخرجُ عنِ التوكلِ عندَ وجودِ حالِ التوكلِ وعلمِهِ ، وهوَ الاتكالُ علىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، فالتوكلُ فيها بالحالِ والعلمِ ، لا بالعملِ ، وأمَّا المظنوناتُ . . فالتوكلُ فيها بالحالِ والعلمِ والعملِ جميعاً .

❁ ❁ ❁

والمتوكلونَ في ملابسةِ هٰذهِ الأسبابِ علىٰ ثلاثةِ مقاماتٍ :

الأوَّلُ : مقامُ الخوَّاصِ ونظرائِهِ : وهوَ الذي يدورُ في البوادي بغيرِ زادٍ ثقةً بفضْلِ اللهِ تعالىٰ عليهِ في تقويتِهِ على الصبرِ أسبوعاً فما فوقَهُ ، أوْ بتيسيرِ حشيشٍ لهُ أوْ قوتٍ ، أو تثبيتِهِ على الرضا بالموتِ إنْ لمْ يتيسَّرْ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ ، فإنَّ الذي يحملُ الزادَ قدْ يُؤخذُ زادُهُ أوْ يضلُّ بعيرُهُ ويموتُ جوعاً ، فذٰلكَ ممكنٌ معَ الزادِ كما أنَّهُ ممكنٌ معَ فقدِهِ .

المقامُ الثاني : أنْ يقعدَ في بيتِهِ أوْ في مسجدِهِ ولٰكنَّهُ في القرىٰ والأمصارِ : وهٰذا أضعفُ مِنَ الأوَّلِ ، ولٰكنَّهُ أيضاً متوكِّلٌ ؛ لأنَّهُ تاركٌ للكسبِ والأسبابِ الظاهرةِ ، معوِّلٌ علىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ في تدبيرِ أمرِهِ مِنْ جهةِ الأسبابِ الخفيَّةِ ، ولٰكنَّهُ بالقعودِ في الأمصارِ متعرِّضٌ لأسبابِ الرزقِ ، فإنَّ ذٰلكَ مِنَ الأسبابِ الجالبةِ ، إلا أنَّ ذٰلكَ لا يبطِلُ توكلَهُ إذا كانَ نظرُهُ إلى الذي سخَّرَ لهُ سكانَ البلدِ لإيصالِ رزقِهِ إليهِ ، لا إلىٰ سكانِ البلدِ ؛ إذْ يُتصوَّرُ أنْ يغفُلَ جميعُهُمْ عنهُ ويضيّعوهُ لولا فضْلُ اللهِ تعالىٰ بتعريفِهِمْ وتحريكِ دواعيهِم .

المقامُ الثالثُ : أنْ يخرجَ ويكتسبَ اكتساباً على الوجهِ الذي ذكرناهُ في البابِ الثالثِ والرابعِ مِنْ كتابِ آدابِ الكسبِ : وهٰذا السعيُ أيضاً لا يخرجُهُ عنْ مقاماتِ التوكلِ إذا لمْ تكنْ طُمأنينةُ نفسِهِ إلىٰ كفايتِهِ وقوتِهِ وجاهِهِ وبضاعتِهِ ، فإنَّ ذٰلكَ ربَّما يهلكُهُ اللهُ تعالىٰ جميعَهُ في لحظةٍ ، بلْ يكونُ نظرُهُ إلى الكفيلِ الحقِّ بحفظِ جميعِ ذٰلكَ

---

(١) قوت القلوب (٦/٢) .

(٢) قوت القلوب (٦/٢) .

وتيسيرِ أسبابِهِ لهُ ، بلْ يرىٰ كسبَهُ وبضاعتَهُ وكفايتَهُ بالإضافةِ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ كما يرى القلمَ في يدِ الملكِ الموقِّعِ ، فلا يكونُ نظرُهُ إلى القلمِ ، بلْ إلىٰ قلبِ الملكِ أنَّهُ بماذا يتحرَّكُ ، وإلىٰ ماذا يميلُ ، وبمَ يحكمُ ؟

ثمَّ إنْ كانَ هـٰذا المكتسِبُ مكتسباً لعيالِهِ ، أوْ ليفرِّقَ على المساكينِ . . فهوَ ببدنِهِ مكتسبٌ وبقلبِهِ عنهُ منقطعٌ ، فحالُ هـٰذا أشرفُ مِنْ حالِ القاعدِ في بيتِهِ .

والدليلُ علىٰ أنَّ الكسبَ لا ينافي حالَ التوكلِ إذا رُوعيَتْ فيهِ الشروطُ وانضافَ إليهِ الحالُ والمعرفةُ كما سبقَ ذكرُهُ . . أنَّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا بُويعَ بالخلافةِ . . أخذَ الأثوابَ تحتَ حضنِهِ والذراعُ بيدِهِ ودخلَ السوقَ ينادي ، حتَّىٰ كرهَهُ المسلمونَ وقالوا : كيفَ تفعلُ ذٰلكَ وقدْ أُقمتَ لخلافةِ النبوَّةِ ؟ فقالَ : لا تشغلوني عنْ عيالي ؛ فإنِّي إنْ أضعتُهُمْ . . كنتُ لما سواهُمْ أضيعَ ، حتَّىٰ فرضوا لهُ قوتَ أهلِ بيتٍ مِنَ المسلمينَ ، فلمَّا رضوا بذٰلكَ . . رأىٰ مساعدتَهُمْ وتطييبَ قلوبِهِمْ واستغراقَ الوقتِ بمصالحِ المسلمينَ أولىٰ[1] .

ويستحيلُ أنْ يُقالَ : لمْ يكنِ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ في مقامِ التوكلِ ، فمَنْ أولىٰ بهـٰذا المقامِ منهُ ؟! فدلَّ علىٰ أنَّهُ كانَ متوكلاً لا باعتبارِ تركِ الكسبِ والسعيِ ، بلْ باعتبارِ قطعِ الالتفاتِ إلىٰ قوتِهِ وكفايتِهِ ، والعلمِ بأنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ ميسِّرُ الاكتسابِ ومدبِّرُ الأسبابِ ، وبشروطٍ كانَ يراعيها في طريقِ الكسبِ مِنَ الاكتفاءِ بقدْرِ الحاجةِ مِنْ غيرِ استكثارٍ وتفاخرٍ وادخارٍ ، ومِنْ غيرِ أنْ يكونَ درهمُهُ أحبَّ إليهِ مِنْ درهمِ غيرِهِ ، فمَنْ دخلَ السوقَ ودرهمُهُ أحبُّ إليهِ مِنْ درهمِ غيرِهِ . . فهوَ حريصٌ على الدنيا ، ومحبٌّ لها ، ولا يصحُّ التوكلُ إلا معَ الزهدِ في الدنيا .

نعمْ ؛ يصحُّ الزهدُ دونَ التوكلِ ؛ فإنَّ التوكلَ مقامٌ وراءَ الزهدِ .

وقالَ أبو جعفرٍ الحدادُ وهوَ شيخُ الجنيدِ رحمةُ اللهِ عليهما ، وكانَ مِنَ المتوكلينَ : (أخفيتُ التوكلَ عشرينَ سنةً وما فارقتُ السوقَ ، كنتُ أكتسبُ في كلِّ يومٍ ديناراً ، ولا أبيتُ منهُ دانقاً ، ولا أستريحُ منهُ إلىٰ قيراطٍ أدخلُ بهِ الحمامَ ، بلْ أخرجُهُ كلَّهُ قبلَ الليلِ)[2]

وكانَ الجنيدُ لا يتكلَّمُ في التوكلِ بحضرتِهِ ، وكانَ يقولُ : (أستحي أنْ أتكلمَ في مقامِهِ وهوَ حاضرٌ عندي)[3]

واعلمْ : أنَّ الجلوسَ في رباطاتِ الصوفيَّةِ معَ المعلومِ بعيدٌ مِنَ التوكلِ ؛ فإنْ لمْ يكنْ معلومٌ ووقفٌ ، وأمروا الخادمَ بالخروجِ للطلبِ . . لمْ يصحَّ معَهُ التوكلُ إلا علىٰ ضعفٍ ، ولـٰكنْ يقوىٰ بالحالِ والعلمِ ؛ كتوكلِ المكتسبِ ، وإنْ لمْ يسألوا ، بلْ قنعوا بما يُحملُ إليهِمْ . . فهـٰذا أقوىٰ في توكلِهِمْ ، ولـٰكنَّهُ بعدَ اشتهارِ القومِ بذٰلكَ صارَ سوقاً ، فهوَ كدخولِ السوقِ ، ولا يكونُ داخلُ السوقِ متوكلاً إلا بشروطٍ كثيرةٍ كما سبقَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما الأفضلُ : أنْ يقعدَ في بيتِهِ ، أوْ يخرجَ ويكتسبَ ؟

---

(١) كذا في « القوت » (١٧/٢) ، وقد روىٰ نحو هـٰذا ابن سعد في « طبقاته » (١٦٨/٣) ، غير أن الصديق رضي الله عنه أوصىٰ برد ما أخذه من بيت المال بعد موته كما سبق بيانه .

(٢) قوت القلوب (١٧/٢)

(٣) قوت القلوب (١٧/٢) .

فاعلمْ : أنَّهُ إنْ كانَ يتفرَّغُ بتركِ الكسبِ لفكرٍ وذكرٍ وإخلاصٍ واستغراقِ وقتٍ بالعبادةِ ، وكانَ الكسبُ يشوّشُ عليهِ ذٰلكَ ، وهوَ معَ هٰذا لا تستشرفُ نفسُهُ إلى الناسِ في انتظارِ مَنْ يدخلُ عليهِ فيحملُ إليهِ شيئاً ، بلْ يكونُ قويَّ القلبِ في الصبرِ والاتكالِ على اللهِ تعالىٰ . . فالقعودُ لهُ أولىٰ ، وإنْ كانَ يضطربُ قلبُهُ في البيتِ ، ويستشرفُ إلى الناسِ . . فالكسبُ أولىٰ ؛ لأنَّ استشرافَ القلبِ إلى الناسِ سؤالٌ بالقلبِ ، وتركُهُ أهمُّ مِنْ تركِ الكسبِ ، وما كانَ المتوكلونَ يأخذونَ ما تستشرفُ إليهِ نفوسُهُمْ .

كانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ قدْ أمرَ أبا بكرٍ المروزيَّ أنْ يُعطيَ بعضَ الفقراءِ شيئاً فضلاً عمَّا كانَ استأجرَهُ عليهِ ، فردَّهُ ، فلمَّا ولَّىٰ . . قالَ لهُ أحمدُ : الحقْهُ وأعطِهِ ، فإنَّهُ يقبلُ ، فلحقَهُ وأعطاهُ فأخذَهُ ، فسألَ أحمدَ عنْ ذٰلكَ ، فقالَ : كانَ قدِ استشرفَتْ نفسُهُ فردَّ ، فلمَّا خرجَ . . انقطعَ طمعُهُ وأيسَ فأخذَ[1]

وكانَ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ إذا نظرَ إلىٰ عبدٍ في العطاءِ ، أوْ خافَ اعتيادَ النفسِ لذٰلكَ . . لمْ يقبلْ منهُ شيئاً[2]

وقالَ الخوَّاصُ بعدَ أنْ سُئِلَ عنْ أعجبِ ما رآهُ في أسفارِهِ : رأيتُ الخضرَ ورضيَ بصحبتي ، ولٰكنِّي فارقتُهُ خيفةَ أنْ تسكنَ نفسي إليهِ فيكونَ نقصاً في توكُّلي[3]

فإذاً ؛ المكتسبُ إذا راعىٰ آدابَ الكسبِ وشروطَ نيَّتِهِ كما سبقَ في كتابِ الكسبِ ، ولمْ يقصدِ الاستكثارَ ، ولمْ يكنِ اعتمادُهُ علىٰ بضاعتِهِ وكفايتِهِ . . كانَ متوكلاً

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما علامةُ عدمِ اتكالِهِ على البضاعةِ والكفايةِ ؟

فأقولُ : علامتُهُ : أنَّهُ إنْ سُرِقَتْ بضاعتُهُ ، أوْ خسرَتْ تجارتُهُ ، أوْ تعوَّقَ أمرٌ مِنْ أمورِهِ . . كانَ راضياً بهِ ، ولمْ تبطلْ طُمأنينتُهُ ، ولمْ يضطربْ قلبُهُ ، بلْ كانَ حالُ قلبِهِ في السكونِ قبلَهُ وبعدَهُ واحداً ، فإنَّ مَنْ لمْ يسكنْ إلىٰ شيءٍ . . لمْ يضطربْ لفقدِهِ ، ومَنِ اضطربَ لفقدِ شيءٍ . . فقدْ سكنَ إليهِ .

وكانَ بشرٌ يعملُ المغازلَ ، فتركَها ، وذٰلكَ لأنَّ البعاديَّ كاتبَهُ[4] : بلغَني أنَّكَ استعنتَ علىٰ رزقِكَ بالمغازلِ ، أرأيتَ إنْ أخذَ اللهُ سمعَكَ وبصرَكَ الرزقُ علىٰ مَنْ ؟ فوقعَ ذٰلكَ في قلبِهِ ، فأخرجَ آلةَ المغازلِ عنْ يدِهِ ، وقيلَ : تركَها لما نوَّهَتْ باسمِهِ وقُصدَ لأجلِها[5] ، وقيلَ : فعلَ ذٰلكَ لمَّا ماتَ عيالُهُ ، كما كانَ لسفيانَ خمسونَ ديناراً يتجرُ فيها ، فلمَّا ماتَ عيالُهُ . . فرَّقَها[6]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ بضاعةٌ ولا يسكنُ إليها وهوَ يعلمُ أنَّ الكسبَ بغيرِ بضاعةٍ لا يمكنُ ؟

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/١٧) .
(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٩٨) .
(٤) في (أ) : (وذلك أن فلاناً كتب إليه) ، وفي (ب ، ن ، ف) : (البعلوي) بدل (البعادي) ، وفي (ج) : (التعلوي) ، وفي (د) : (العبدي) .
(٥) فقيل : المغازل البشريَّة ، وطلبت لأجله ، وقد أشار الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٩/٤٨٥) إلىٰ نسبة الخبر لصاحب « القوت » .
(٦) قوت القلوب (٢/١٨) .

فأقولُ : بأنْ يعلمَ أنَّ الذينَ يرزقُهُمُ اللهُ تعالىٰ بغيرِ بضاعةٍ فيهِمْ كثرةٌ ، وأنَّ الذينَ كثرَتْ بضاعتُهُمْ فسُرِقَتْ وهلكَتْ فيهِمْ كثرةٌ ، وأنْ يوطِّنَ نفسَهُ علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ لا يفعلُ بهِ إلا ما فيهِ صلاحُهُ ، فإنْ أهلكَ بضاعتَهُ . . فهوَ خيرٌ لهُ ، فلعلَّهُ لوْ تركَها . . كانَ سبباً لفسادِ دينِهِ ؟ وقدْ لطفَ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وغايتُهُ أنْ يموتَ جوعاً ، فينبغي أنْ يعتقدَ أنَّ الموتَ جوعاً خيرٌ لهُ في الآخرةِ مهما قضى اللهُ عليهِ بذٰلكَ ، مِنْ غيرِ تقصيرٍ مِنْ جهتِهِ ، فإذا اعتقدَ جميعَ ذٰلكَ . . استوىٰ عندَهُ وجودُ البضاعةِ وعدمُها ؛ ففي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليهمُّ مِنَ الليلِ بأمرٍ مِنْ أمورِ التجارةِ ممَّا لوْ فعلَهُ . . لكانَ فيهِ هلاكُهُ ، فينظرُ اللهُ تعالىٰ إليهِ مِنْ فوقِ عرشِهِ ، فيصرفُهُ عنهُ ، فيصبحُ كئيباً حزيناً يتطيَّرُ بجارِهِ وابنِ عمِّهِ ، مَنْ سبقَني ؟ مَنْ دهاني ؟ وما هو إلا رحمةٌ رحمَهُ اللهُ بها »[1]

ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا أبالي أصبحتُ غنيّاً أوْ فقيراً ؛ فإنِّي لا أدري أيُّهُما خيرٌ لي)[2]

ومَنْ لمْ يتكاملْ يقينُهُ بهٰذهِ الأمورِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ التوكلُ ، ولذٰلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ لأحمدَ بنِ أبي الحواري : (لي مِنْ كلِّ مقامٍ نصيبٌ إلا مِنْ هٰذا التوكلِ المباركِ ؛ فإنِّي ما شممتُ منهُ رائحةً)[3] ، هٰذا كلامُهُ معَ علوِّ قدرِهِ ، ولمْ ينكرْ كونَهُ مِنَ المقاماتِ الممكنةِ ، ولٰكنَّهُ قالَ : ما أدركتُهُ ، ولعلَّهُ أرادَ إدراكَ أقصاهُ .

وما لمْ يكملِ الإيمانُ بأنْ لا فاعلَ إلا اللهُ ، ولا رازقَ سواهُ ، وبأنَّ كلَّ ما يقدِّرُهُ على العبدِ مِنْ فقرٍ وغنىً ، وموتٍ وحياةٍ فهوَ خيرٌ لهُ ممَّا يتمنَّاهُ العبدُ . . لمْ يكملْ حالُ التوكلِ ، فبناءُ التوكلِ علىٰ قوَّةِ الإيمانِ بهٰذهِ الأمورِ كما سبقَ ، وكذا سائرُ مقاماتِ الدينِ مِنَ الأحوالِ والأعمالِ تنبني علىٰ أصولِها مِنَ الإيمانِ .

وبالجملةِ : التوكلُ مقامٌ مفهومٌ ، ولٰكنْ يستدعي قوَّةَ القلبِ وقوَّةَ اليقينِ ، ولذٰلكَ قالَ سهلٌ : (مَنْ طعنَ على التكسُّبِ . . فقدْ طعنَ على السنَّةِ ، ومَنْ طعنَ علىٰ تركِ التكسبِ . . فقدْ طعنَ على التوحيدِ)[4]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهلْ مِنْ دواءٍ يُنتفعُ بهِ في صرفِ القلبِ عنِ الركونِ إلى الأسبابِ الظاهرةِ ، وحسنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ في تيسيرِ الأسبابِ الخفيَّةِ ؟

فأقولُ : نعمْ ، هوَ أنْ تعرفَ أنَّ سوءَ الظنِّ تلقينُ الشيطانِ ، وحسنَ الظنِّ تلقينُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ ، فالإنسانُ بطبعِهِ مشغوفٌ بسماعِ تخويفِ الشيطانِ ، ولذٰلكَ قيلَ : (الشفيقُ بسوءِ الظنِّ مولعٌ)[5]

وإذا انضمَّ إلىٰ سوءِ الظنِّ الجبنُ ، وضعفُ القلبِ ، ومشاهدةُ المتَّكلينَ على الأسبابِ الظاهرةِ والباعثينَ عليها . . غلبَ سوءُ الظنِّ وبطلَ التوكلُ بالكليَّةِ .

بلْ رؤيةُ الرزقِ مِنَ الأسبابِ الخفيَّةِ أيضاً تبطلُ التوكلَ ، فقدْ حُكِيَ عنْ عابدٍ أنَّهُ عكفَ في مسجدٍ ولمْ يكنْ لهُ

---

(١) كذا في « القوت » (١٢/٢) ، وقد رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٤/٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) روىٰ هٰذا ابن المبارك في « الزهد » (٥٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٢/١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٢) .

(٤) كذا في « القوت » (٦/٢) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٥/١٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٩٩) .

(٥) يراد منه أن ذا الشفقة يضع سوء الظن في غير موضعه .

معلومٌ ، فقالَ لهُ الإمامُ : لوِ اكتسبتَ . . لكانَ أفضلَ لكَ ، فلمْ يجبْهُ حتَّىٰ أعادَ القولَ ثلاثاً ، فقالَ في الرابعةِ : يهوديٌّ في جوارِ المسجدِ قدْ ضمنَ لي كلَّ يومٍ رغيفينِ ، فقالَ : إنْ كانَ صادقاً في ضمانِهِ . . فعكوفُكَ في المسجدِ خيرٌ لكَ ، فقالَ : يا هٰذا ؛ لوْ لمْ تكنْ إماماً تقفُ بينَ يدَيِ اللهِ وبينَ العبادِ معَ هٰذا النقصِ في التوحيدِ . . كانَ خيراً لكَ [1] ؛ أيْ : فضلتَ وعدَ يهوديٍّ علىٰ ضمانِ اللهِ تعالىٰ بالرزقِ .

وقالَ إمامُ مسجدٍ لبعضِ المصلِّينَ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ فقالَ : يا شيخُ ؛ اصبرْ حتَّىٰ أعيدَ الصلاةَ التي صلَّيتُها خلفَكَ ثمَّ أجيبُكَ [2] .

وينفعُ في حسنِ الظنِّ بمجيءِ الرزقِ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ بواسطةِ الأسبابِ الخفيَّةِ أنْ تسمعَ الحكاياتِ التي فيها عجائبُ صنعِ اللهِ تعالىٰ في وصولِ الرزقِ إلىٰ صاحبِهِ ، وفيها عجائبُ قهرِ اللهِ تعالىٰ في إهلاكِ أموالِ التجارِ والأغنياءِ وقتلِهِمْ جوعاً ، كما رُوِيَ عنْ حذيفةَ المرعشيِّ وكانَ قدْ خدمَ إبراهيمَ بنَ أدهمَ ، فقيلَ لهُ : ما أعجبُ ما رأيتَ منهُ ؟ فقالَ : بقينا في طريقِ مكَّةَ أياماً لمْ نجدْ طعاماً ، ثمَّ دخلنا الكوفةَ ، فأوينا إلىٰ مسجدٍ خرابٍ ، فنظرَ إليَّ إبراهيمُ وقالَ : يا حذيفةُ ؛ أرىٰ بكَ أثرَ الجوعِ ، فقلتُ : هوَ ما رأى الشيخُ ، فقالَ : عليَّ بدواةٍ وقرطاسٍ ، فجئتُ بهِ ، فكتبَ : بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ ، أنتَ المقصودُ إليهِ بكلِّ حالٍ ، والمشارُ إليهِ بكلِّ معنىً ، وكتبَ شعراً [3] : [من الكامل]

أَنَـا حَـامِـدٌ أَنَـا شَـاكِـرٌ أَنَـا ذَاكِـرٌ ... أَنَـا جَـائِـعٌ أَنَـا نَـائِـعٌ [4] أَنَـا عَـارِي

هِـيَ سِـتَّـةٌ وَأَنَـا الضَّـمِـينُ لِنِصْفِهَا ... فَـكُـنِ الضَّـمِـينَ لِنِصْفِهَا يَا بَـارِي

مَـدْحِـي لِغَـيْـرِكَ لَهْـبُ نَـارٍ خُضْـتُـهَا ... فَـأَجِـرْ عُـبَـيْـدَكَ مِـنْ دُخُـولِ النَّـارِ

ثمَّ دفعَ إليَّ الرقعةَ وقالَ : اخرجْ ولا تعلِّقْ قلبَكَ بغيرِ اللهِ تعالىٰ ، وادفعِ الرقعةَ إلىٰ أوَّلِ مَنْ يلقاكَ ، فخرجتُ ، فأوَّلُ مَنْ لقيَني كانَ رجلاً علىٰ بغلةٍ ، فناولتُهُ الرقعةَ ، فأخذَها ، فلمَّا وقفَ عليها . . بكىٰ وقالَ : ما فعلَ صاحبُ هٰذهِ الرقعةِ ؟ فقلتُ : هوَ في المسجدِ الفلانيِّ ، فدفعَ إليَّ صرَّةً فيها ستُّ مئةِ دينارٍ ، ثمَّ لقيتُ رجلاً آخرَ ، فسألتُهُ عنْ راكبِ البغلةِ ، فقالَ : هٰذا نصرانيٌّ ، فجئتُ إلىٰ إبراهيمَ وأخبرتُهُ بالقصَّةِ ، فقالَ : لا تمسَّها ؛ فإنَّهُ يجيءُ الساعةَ ، فلمَّا كانَ بعدَ ساعةٍ . . دخلَ النصرانيُّ وأكبَّ علىٰ رأسِ إبراهيمَ يقبِّلُهُ ، وأسلمَ [5] .

وقالَ أبو يعقوبَ الأقطعُ البصريُّ : جعتُ مرَّةً بالحرمِ عشرةَ أيامٍ ، فوجدتُ ضعفاً ، فحدثَتْني نفسي بالخروجِ ، فخرجتُ إلى الوادي لعلِّي أجدُ شيئاً يسكنُ ضعفي ، فرأيتُ سَلْجَمَةً مطروحةً [6] ، فأخذتُها ، فوجدتُ في قلبي منها وحشةً ، وكأنَّ قائلاً يقولُ لي : جعتَ عشرةَ أيامٍ وآخرُهُ يكونُ حظُّكَ سلجمةً متغيِّرةً ؟ فرميتُ بها ودخلتُ المسجدَ ، فقعدتُ ، فإذا أنا برجلٍ أعجميٍّ قدْ أقبلَ ، حتَّىٰ جلسَ بينَ يديَّ ووضعَ قمطرةً ، وقالَ : هٰذهِ لكَ ، فقلتُ : كيفَ خصصتَني بها ؟ فقالَ : اعلمْ أنَّا كنَّا في البحرِ منذُ عشرةِ أيامٍ ، وأشرفَتِ السفينةُ على الغرقِ ، فنذرتُ إنْ خلَّصَني اللهُ

---

(١) قوت القلوب (٢/١٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٥) .

(٣) البيتان الأول والثاني في « معجم الشعراء » (ص ٤٧٥) للخليع الأصفر الرقي ، والثلاثة في « المستطرف » (١/٤٥٦) لإبراهيم بن الأدهم .

(٤) **النائع** : العطشان ، وقيل : إتباع للجائع .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٠٦) واللفظ له .

(٦) **السلجمة** : واحدة السلجم بوزان جعفر ، وهو النبت المسمَّىٰ باللفت ، شبه الفجل .

تعالىٰ أنْ أتصدَّقَ بهـٰذهِ علىٰ أوَّلِ مَنْ يقعُ عليهِ بصري مِنَ المجاورينَ ، وأنتَ أوَّلُ مَنْ لقيتُهُ ، فقلتُ : افتحْها ، ففتحَها ، فإذا فيها سميدٌ مصريٌّ ، ولوزٌ مقشَّرٌ وسكرٌ كعابٌ ، فقبضتُ قبضةً مِنْ ذا وقبضةً مِنْ ذا ، وقلتُ : ردَّ الباقي إلىٰ صبيانِكَ هديةً منِّي إليكُمْ ، وقدْ قبلتُها ، ثمَّ قلتُ في نفسي : رزقُكَ يسيرُ إليكَ مِنْ عشرةِ أيامٍ وأنتَ تطلبُهُ مِنَ الوادي ؟![1]

وقالَ مِمشاذُ الدينوريُّ : كانَ عليَّ دينٌ ، فاشتغلَ قلبي بسببِهِ ، فرأيتُ في النومِ كأنَّ قائلاً يقولُ : يا بخيلُ ؛ أخذتَ علينا هـٰذا المقدارَ مِنَ الدينِ ؟! خُذْ ، عليكَ الأخذُ وعلينا العطاءُ[2] ، فما حاسبتُ بعدَ ذٰلكَ بقَّالاً ولا قصَّاباً ولا غيرَهما[3]

وحُكِيَ عنْ بنانٍ الحمَّالِ قالَ : كنتُ في طريقِ مكَّةَ أجيءُ مِنْ مصرَ ومعي زادٌ ، فجاءَتْني امرأةٌ وقالَتْ لي : يا بنانُ ؛ أنتَ حمَّالٌ تحملُ علىٰ ظهرِكَ الزادَ وتتوهَّمُ أنَّهُ لا يرزقُكَ ؟ قالَ : فرميتُ بزادي ، ثمَّ أتىٰ عليَّ ثلاثٌ لمْ آكلْ ، فوجدتُ خلخالاً في الطريقِ ، فقلتُ في نفسي : أحملُهُ حتَّىٰ يجيءَ صاحبُهُ ، فربَّما يعطيني شيئاً فأردُّهُ عليهِ ، فإذا أنا بتلكَ المرأةِ ، فقالَتْ لي : أنتَ تاجرٌ ؟ تقولُ : عسىٰ يجيءُ صاحبُهُ فآخذُ منهُ شيئاً ؟! ثمَّ رمَتْ إليَّ شيئاً مِنَ الدراهمِ وقالَتْ : أنفقْها ، فاكتفيتُ بها إلىٰ قريبٍ مِنْ مكَّةَ[4]

ويُحكىٰ أنَّ بناناً احتاجَ إلىٰ جاريةٍ تخدمُهُ ، فانبسطَ إلىٰ إخوانِهِ ، فجمعوا لهُ ثمَنَها ، وقالوا : هوَ ذا يجيءُ النفرُ فنشتري ما يوافقُ ، فلمَّا وردَ النفرُ . . اجتمعَ رأيُهُمْ علىٰ واحدةٍ ، وقالوا : إنَّها تصلحُ لهُ ، فقالوا لصاحبِها : بكمْ هـٰذهِ ؟ فقالَ : إنَّها ليسَتْ للبيعِ ، فألحُّوا عليهِ ، فقالَ : إنَّها لبنانٍ الحمالِ ، أهدتْها إليهِ امرأةٌ مِنْ سمرقندَ ، فحُمِلَتْ إلىٰ بنانٍ وذُكِرَتْ لهُ القصَّةُ[5]

وقيلَ : كانَ في الزمنِ الأوَّلِ رجلٌ في سفرٍ ومعَهُ قرصٌ ، فقالَ : إنْ أكلتُهُ . . متُّ ، فوكلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ ملكاً وقالَ : إنْ أكلَهُ فارزقْهُ ، وإنْ لمْ يأكلْهُ . . فلا تعطِهِ غيرَهُ ، فلمْ يزلِ القرصُ معَهُ إلىٰ أنْ ماتَ ولمْ يأكلْهُ ، وبقيَ القرصُ بعدَهُ[6]

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : دخلتُ الباديةَ بغيرِ زادٍ ، فأصابَتْني فاقةٌ ، فرأيتُ المرحلةَ مِنْ بعيدٍ[7] ، فسُررتُ بأنْ وصلتُ ، ثمَّ فكرتُ في نفسي أني سكنتُ واتكلتُ علىٰ غيرِهِ ، فآليتُ ألا أدخلَ المرحلةَ إلا أنْ أُحملَ إليها ، فحفرتُ لنفسي في الرملِ حفيرةً ، وواريتُ جسدي فيها إلىٰ صدري ، فسمعوا صوتاً في نصفِ الليلِ عالياً : يا أهلَ المرحلةِ ؛ إنَّ للهِ تعالىٰ وليّاً حبسَ نفسَهُ في هـٰذا الرملِ فالحقوهُ ، فجاءَ جماعةٌ فأخرجوني وحملوني إلى القريةِ[8]

ورُوِيَ أنَّ رجلاً لازمَ بابَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ عمرُ : يا هـٰذا ؛ هاجرتَ إلىٰ عمرَ أوْ إلى اللهِ تعالىٰ ؟ اذهبْ فتعلَّمِ القرآنَ ، فإنَّهُ سيغنيكَ عنْ بابِ عمرَ ، فذهبَ الرجلُ وغابَ حتَّى افتقدَهُ عمرُ ، فإذا هوَ قدِ اعتزلَ واشتغلَ بالعبادةِ ، فجاءَهُ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٢) .

(٢) في (ب) : (القضاء) بدل (العطاء) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٠٣) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٣) ، ووقع في النسخ : (قريب من مصر) ، والمثبت من (ق) و« الرسالة القشيرية » .

(٥) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٤) .

(٦) الرسالة القشيرية (ص ٣٠٤) .

(٧) المرحلة : القرية .

(٨) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٠٥) .

عمرُ فقالَ لهُ : إنِّي قدْ اشتقتُ إليكَ ، فما الذي شغلَكَ عنَّا ؟ فقالَ : إنِّي قرأتُ القرآنَ ، فأغناني عنْ عمرَ وآلِ عمرَ ، فقالَ عمرُ : رحمَكَ اللهُ ، فما وجدتَ فيهِ ؟ فقالَ : وجدتُ فيهِ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، فقلتُ : رزقي في السماءِ وأنا أطلبُهُ في الأرضِ ؟! فبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : صدقتَ ، فكانَ عمرُ بعدَ ذٰلكَ يأتيه ويجلسُ إليهِ [1]

وقالَ أبو حمزةَ الخراسانيُّ : حججتُ سنةً مِنَ السنينِ ، فبينا أنا أمشي في الطريقِ . . إذْ وقعتُ في بئرٍ ، فنازعَتْني نفسي أنْ أستغيثَ ، فقلتُ : لا واللهِ لا أستغيثُ ، فما استتممتُ هٰذا الخاطرَ حتَّىٰ مرَّ برأسِ البئرِ رجلانِ ، فقالَ أحدُهُما للآخرِ : تعالَ حتَّىٰ نسدَّ رأسَ هٰذا البئرِ لئلا يقعَ فيهِ أحدٌ ، فأتَوا بقصبٍ وباريةٍ [2] ، وطمُّوا رأسَ البئرِ ، فهممتُ أنْ أصيحَ ، فقلتُ في نفسي : إلىٰ مَنْ أصيحُ ؟ هوَ أقربُ منهُما ، وسكنتُ ، فبينا أنا بعدَ ساعةٍ إذْ أنا بشيءٍ جاءَ وكشفَ عنْ رأسِ البئرِ وأدلىٰ رجلَهُ ، وكأنَّهُ يقولُ : تعلَّقْ بي في همهمةٍ لهُ كنتُ أعرفُ ذٰلكَ ، فتعلَّقتُ بهِ فأخرجَني ، فإذا هوَ سبعٌ ، فمرَّ وهتفَ بي هاتفٌ : يا أبا حمزةَ ؛ أليس هٰذا أحسنَ ؟ نجَّيناكَ مِنَ التلفِ بالتلفِ ، فمشيتُ وأنا أقولُ [3] : [من الطويل]

نَهانِي حَيائِي مِنْكَ أَنْ أَكْتُمَ الْهَوَىٰ ... وَأَغْنَيْتَنِي بِالْفَهْمِ مِنْكَ عَنِ الْكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شاهِدِي ... إِلَىٰ غَائِبِي وَاللُّطْفُ يُدْرَكُ بِاللُّطْفِ
تَراءَيْتَ لِي بِالْغَيْبِ حَتَّىٰ كَأَنَّما ... تُبَشِّرُنِي بِالْغَيْبِ أَنَّكَ فِي الْكَفِّ
أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةٌ ... فَتُؤْنِسُنِي بِاللُّطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ
وَتُحْيِي مُحِبّاً أَنْتَ فِي الْحُبِّ حَتْفُهُ ... وَذا عَجَبٌ كَوْنُ الْحَياةِ مَعَ الْحَتْفِ

وأمثالُ هٰذهِ الوقائعِ ممَّا يكثرُ [4] ، وإذا قويَ الإيمانُ بهِ ، وانضمَّ إليهِ القدرةُ على الجوعِ قدْرَ أسبوعٍ مِنْ غيرِ ضيقِ صدرٍ ، وقويَ الإيمانُ بأنَّهُ إنْ لمْ يُسقْ إليهِ رزقُهُ في أسبوعٍ فالموتُ خيرٌ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولذٰلكَ حبسَهُ عنهُ . . تمَّ التوكُّلُ بهٰذهِ الأحوالِ والمشاهداتِ ، وإلا . . فلا يتمُّ أصلاً .

* * *

(١) كذا في « القوت » (٨/٢) ، ورواه بنحوه ابن المبارك في « الزهد » (١٣١) من زيادات نعيم بن حماد ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٧٨٩) مختصراً .

(٢) البارية : الحصير .

(٣) الأبيات لمحمد بن إبراهيم الصوفي . انظر « المحمدون من الشعراء » (ص ١٢٣) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٠٥) ، وقد اعترض على المصنف في إيراده لهٰذه القصة ، وقد أجاب عن الاعتراض رحمه الله في « إملائه » ، وكذا التمس لهٰذا عذراً القاضي ابن العربي المالكي في « أحكام القرآن » (٨٣/٣) ، والحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤٩١/٩) .

بيان توكّل المعيل

اعلمْ : أنَّ مَنْ لهُ عيالٌ فحكمُهُ يفارقُ حكمَ المنفردِ ؛ لأنَّ المنفردَ لا يصحُّ توكلُهُ إلا بأمرينِ :

أحدُهُما : قدرتُهُ على الجوعِ أسبوعاً مِنْ غيرِ استشرافٍ وضيقِ نفسٍ .

والآخرُ : أبوابٌ مِنَ الإيمانِ ذكرناها ؛ مِنْ جملتِها أنْ يطيبَ نفساً بالموتِ إنْ لَمْ يأتِهِ رزقُهُ ؛ علماً بأنَّ رزقَهُ الموتُ والجوعُ ، وهوَ وإنْ كانَ نقصاناً في الدنيا . . فهوَ زيادةٌ في الآخرةِ ، فيرىٰ أنَّهُ سيقَ إليهِ خيرُ الرزقينِ لهُ ، وهوَ رزقُ الآخرةِ ، وأنَّ هـٰذا هوَ المرضُ الذي به يموتُ ، ويكونُ راضياً بذٰلكَ ، وأنَّه كذا قُضيَ وقُدِّرَ لهُ ، فبهـٰذا يتمُّ للمنفردِ التوكلُ .

ولا يجوزُ تكليفُ العيالِ الصبرَ على الجوعِ ، ولا يمكنُ أنْ يقرِّرَ عندَهُمُ الإيمانَ بالتوحيدِ وأنَّ الموتَ على الجوعِ رزقٌ مغبوطٌ عليهِ في نفسِهِ إنِ اتفقَ ذٰلكَ نادراً ، وكذا سائرُ أبوابِ الإيمانِ ، فإذاً ؛ لا يمكنُهُ في حقِّهِمْ إلا توكلُ المكتسِبِ ، وهوَ المقامُ الثالثُ ؛ كتوكلِ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ إذْ خرجَ للكسبِ [1]

فأمَّا دخولُ البوادي وتركُ العيالِ توكلاً في حقِّهِمْ ، أوِ القعودُ عنِ الاهتمامِ بأمرِهِمْ توكلاً في حقِّهِمْ . . فهـٰذا حرامٌ ، وقدْ يفضي إلىٰ هلاكِهِمْ ، ويكونُ هوَ مؤاخذاً بِهِمْ .

بلِ التحقيقُ : أنَّهُ لا فرقَ بينَهُ وبينَ عيالِهِ ؛ فإنَّهُ إنْ ساعدَهُ العيالُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً وعلى الاعتدادِ بالموتِ على الجوعِ رزقاً وغنيمةً في الآخرةِ . . فلهُ أنْ يتوكَّلَ في حقِّهِمْ ، ونفسُهُ أيضاً عيالٌ عندَهُ ، لا يجوزُ لهُ أنْ يضيعَها إلا بأنْ تساعدَهُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً ، فإنْ كانَ لا يطيقُهُ ، ويضطربُ عليهِ قلبُهُ ، وتتشوَّشُ عبادتُهُ . . لمْ يجزْ لهُ التوكلُ .

ولذٰلكَ رُويَ أنَّ أبا ترابٍ النخشبيَّ نظرَ إلىٰ صوفيٍّ مدَّ يدَهُ إلىٰ قشرِ بطيخٍ ليأكلَهُ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ ، فقالَ لهُ : (لا يصلحُ لكَ التصوُّفُ ، الزمِ السوقَ) [2] أيْ : لا تصوُّفَ إلا معَ التوكلِ ، ولا يصحُّ التوكلُ إلا لمَنْ يصبرُ عنِ الطعامِ أكثرَ مِنْ ثلاثةِ أيامٍ .

وقالَ أبو عليٍّ الروذباريُّ : (إذا قالَ الفقيرُ بعدَ خمسةِ أيامٍ : أنا جائعٌ . . فألزموهُ السوقَ ، ومُروهُ بالعملِ والكسبِ) [3]

فإذاً ؛ بدنُهُ عيالُهُ ، وتوكلُهُ فيما يضرُّ ببدنِهِ كتوكلِهِ في عيالِهِ ، وإنَّما يفارقُهُمْ في شيءٍ واحدٍ ، وهوَ أنَّ لهُ تكليفَ نفسِهِ الصبرَ على الجوعِ ، وليسَ لهُ ذٰلكَ في عيالِهِ .

وقدِ انكشفَ لكَ مِنْ هـٰذا أنَّ التوكلَ ليسَ انقطاعاً عنِ الأسبابِ ، بلِ الاعتمادُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً ، والرضا بالموتِ إنْ تأخَّرَ الرزقُ نادراً ، وملازمةُ البلادِ والأمصارِ ، أوْ ملازمةُ البوادي التي لا تخلو عنْ حشيشٍ وما يجري مجراهُ ، فهـٰذهِ كلُّها أسبابُ البقاءِ ، ولـٰكنْ معَ نوعٍ مِنَ الأذىٰ لا يمكنُ الاستمرارُ عليهِ إلا بالصبرِ ، والتوكلُ في الأمصارِ أقربُ إلى الأسبابِ مِنَ التوكلِ في البوادي ، وكلُّ ذٰلكَ مِنَ الأسبابِ ، إلا أنَّ الناسَ عدلوا إلىٰ أسبابٍ أظهرَ منها ، فلمْ يعدُّوا تلكَ أسباباً ، وذٰلكَ لضعفِ إيمانِهِمْ ، وشدَّةِ حرصِهِمْ ، وقلَّةِ صبرِهِمْ على الأذىٰ في الدنيا لأجلِ الآخرةِ ، واستيلاءِ الجبنِ علىٰ قلوبِهِمْ بإساءةِ الظنِّ وطولِ الأملِ .

---

(١) روىٰ ذٰلك ابن سعد في « الطبقات » (١٦٨/٣) ، والمحب الطبري في « الرياض النضرة » (٢٠٢/١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤٩/١٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٧٤ ، ٣٠٢) .

(٣) رواه القشيري (ص ٢٦١ ، ٣٠٢) .

ومَنْ نظرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ . . انكشفَ لهُ تحقيقاً أنَّ اللهَ تعالىٰ دبَّرَ الملكَ والملكوتَ تدبيراً لا يجاوزُ العبدَ رزقُهُ وإنْ تركَ الاضطرابَ ، فإنَّ العاجزَ عنِ الاضطرابِ لمْ يجاوزْهُ رزقُهُ ، أما ترى الجنينَ في بطنِ أمِّهِ لمَّا أنْ كانَ عاجزاً عنِ الاضطرابِ كيفَ وصلَ سرَّتَهُ بالأمِّ حتَّىٰ تنتهيَ إليهِ فضلاتُ غذاءِ الأمِّ بواسطةِ السرَّةِ ؟ ولمْ يكنْ ذٰلكَ بحيلةِ الجنينِ ، ثمَّ لما انفصلَ . . سلَّطَ الحبَّ والشفقةَ على الأمِّ لتَكَفَّلَ بهِ شاءَتْ أمْ أبتْ ، اضطراراً مِنَ اللهِ تعالىٰ إليهِ بما أشعلَ في قلبِها مِنْ نارِ الحبِّ ، ثمَّ لمَّا لمْ يكنْ لهُ سِنٌّ يمضغُ بهِ الطعامَ . . جعلَ رزقَهُ مِنَ اللبنِ الذي لا يحتاجُ إلى المضغِ ، ولأنَّهُ لرخاوةِ مزاجِهِ كانَ لا يحتملُ الغذاءَ الكثيفَ ، فأدرَّ لهُ اللبنَ اللطيفَ في ثديِ الأمِّ عندَ انفصالِهِ علىٰ حسبِ حاجتِهِ ، أفكانَ هٰذا بحيلةِ الطفلِ أوْ بحيلةِ الأمِّ ؟! فإذا صارَ بحيثُ يوافقُهُ الغذاءُ الكثيفُ . . أنبتَ لهُ أسناناً قواطعَ وطواحنَ لأجلِ المضغِ ، فإذا كبرَ واستقلَّ . . يسَّرَ لهُ أسبابَ التعلُّمِ وسلوكِ سبيلِ الآخرةِ ، فجبنُهُ بعدَ البلوغِ جهلٌ محضٌ ؛ لأنَّهُ ما نقصَتْ أسبابُ معيشتِهِ ببلوغِهِ بلْ زادَتْ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنْ قادراً على الاكتسابِ ، والآنَ قدْ قدرَ ، فزادَتْ قدرتُهُ .

نعمْ ؛ كانَ المشفقُ عليهِ شخصاً واحداً وهوَ الأمُّ أوِ الأبُ ، وكانَتْ شفقتُهُ مفرطةً جداً ، فكانَ يسقيهِ ويطعمُهُ في اليومِ مرَّةً أوْ مرَّتينِ ، وكانَ إطعامُهُ بتسليطِ اللهِ تعالى الشفقةَ والحبَّ علىٰ قلبِهِ ، فكذٰلكَ قدْ سلَّطَ اللهُ تعالى الشفقةَ والمودةَ والرقَّةَ والرحمةَ علىٰ قلوبِ المسلمينَ وأهلِ البلدِ كافَّةً ، حتىٰ إنَّ كلَّ واحدٍ منهُمْ إذا أحسَّ بمحتاجٍ . . تألَّمَ قلبُهُ ورقَّ عليهِ ، وانبعثَتْ لهُ داعيةٌ إلىٰ إزالةِ حاجتِهِ ، فقدْ كانَ المشفقُ عليهِ واحداً ، والآنَ المشفقُ عليهِ ألفٌ وزيادةٌ ، ولقدْ كانوا لا يشفقونَ عليهِ لأنَّهُمْ رأَوهُ في كفالةِ الأمِّ والأبِ ، وهيَ مشفقٌ خاصٌّ ، فما رأَوهُ محتاجاً ، ولوْ رأَوهُ يتيماً . . لسلَّطَ اللهُ داعيةَ الرحمةِ علىٰ واحدٍ مِنَ المسلمينَ أوْ علىٰ جماعةٍ حتَّىٰ يأخذوهُ ويكفلوهُ ، فما رُئِيَ إلى الآنَ في سنيِّ الخصبِ يتيمٌ قدْ ماتَ جوعاً ، معَ أنَّهُ عاجزٌ عنِ الاضطرابِ ، وليسَ لهُ كافلٌ خاصٌّ ، واللهُ تعالىٰ كافلُهُ بواسطةِ الشفقةِ التي خلقَها في قلوبِ عبادِهِ .

فلماذا ينبغي أنْ يشغلَ قلبَهُ برزقِهِ بعدَ البلوغِ ولمْ يشتغلْ في الصبا ؟ وقدْ كانَ المشفقُ واحداً والمشفقُ الآنَ آلافٌ ؟!

نعمْ ؛ كانَتْ شفقةُ الأمِّ أقوىٰ وأخصَّ ، ولٰكنَّها واحدةٌ ، وشفقةُ آحادِ الناسِ وإنْ ضعفَتْ فيخرجُ مِنْ مجموعِها ما يفيدُ الغرضَ ، فكمْ مِنْ يتيمٍ قدْ يسَّرَ اللهُ تعالىٰ لهُ حالاً هوَ أحسنُ مِنْ حالِ مَنْ لهُ أبٌ وأمٌّ ، فينجبرُ ضعفُ شفقةِ الآحادِ بكثرةِ المشفقينَ ، وبتركِ التنعُّمِ ، والاقتصارِ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ، ولقدْ أحسنَ الشاعرُ حيثُ يقولُ[1] : [من الوافر]

جَـرَىٰ قَـلَـمُ ٱلْـقَـضَـاءِ بِـمَـا يَـكُـونُ ... فَـسِـيَّـانِ ٱلـتَّـحَـرُّكُ وَٱلـسُّـكُـونُ

جُـنُـونٌ مِـنْـكَ أَنْ تَـسْـعَـىٰ لِـرِزْقٍ ... وَيُـرْزَقُ فِـي غِـشَـاوَتِـهِ ٱلْـجَـنِـيـنُ

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : الناسُ يكفلونَ اليتيمَ لأنَّهُمْ يرونَهُ عاجزاً لصباهُ ، وأمَّا هٰذا . . فبالغٌ قادرٌ على الكسبِ ، فلا يلتفتونَ إليهِ ، ويقولونَ : هوَ مثلُنا ، فليجتهدْ لنفسِهِ .

فأقولُ : إنْ كانَ هٰذا القادرُ بطَّالاً . . فقدْ صدقوا ، فعليهِ الكسبُ ، ولا معنىٰ للتوكلِ في حقِّهِ ، فإنَّ التوكلَ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ يُستعانُ بهِ على التفرُّغِ للهِ تعالىٰ ، فما للبطَّالِ والتوكلِ ؟!

---

(١) البيتان في « تتمة يتيمة الدهر » (١٦٣/٥) لأبي الفرج بن هندو ، و« مرآة الجنان » (٣٨١/٣) لأبي الخير الواسطي .

وإنْ كانَ مشتغلاً باللهِ ، ملازماً لمسجدٍ أوْ بيتٍ ، وهوَ مواظبٌ على العلمِ والعبادةِ . . فالناسُ لا يلومونَهُ في تركِ الكسبِ ، ولا يكلِّفونَهُ ذٰلكَ ، بلِ اشتغالُهُ باللهِ تعالىٰ يقرِّرُ حبَّهُ في قلوبِ الناسِ ، حتَّىٰ يحملونَ إليهِ فوقَ كفايتِهِ ، وإنَّما عليهِ ألا يغلقَ البابَ ، ولا يهربَ إلىٰ جبلٍ مِنْ بينِ الناسِ ، وما رُئِيَ إلى الآنَ عالمٌ أوْ عابدٌ استغرقَ الأوقاتَ باللهِ تعالىٰ وهوَ في الأمصارِ فماتَ جوعاً ، ولا يُرىٰ قطُّ ، بلْ لوْ أرادَ أنْ يطعمَ جماعةً مِنَ الناسِ بقولِهِ . . لقدرَ عليهِ ، فإنَّ مَنْ كانَ للهِ تعالىٰ . . كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ ، ومَنِ اشتغلَ باللهِ عزَّ وجلَّ . . ألقى اللهُ حبَّهُ في قلوبِ الناسِ ، وسخَّرَ لهُ القلوبَ كما سخَّرَ قلبَ الأمِّ لولدِها .

فقدْ دبَّرَ اللهُ تعالى المُلْكَ والملكوتَ تدبيراً كافياً لأهلِ الملكِ والملكوتِ ، فمَنْ شاهدَ هٰذا التدبيرَ . . وثقَ بالمدبِّرِ ، واشتغلَ بهِ ، وآمنَ ونظرَ إلىٰ مدبِّرِ الأسبابِ لا إلى الأسبابِ .

نعمْ ؛ ما دبَّرَهُ تدبيراً يصلُ إلى المشتغلِ بهِ الحلواءُ والطيورُ السمانُ والثيابُ الرفيعةُ والخيولُ النفيسةُ على الدوامِ لا محالةَ ، وقدْ يقعُ ذٰلكَ أيضاً في بعضِ الأحوالِ ، لٰكنْ دبَّرَهُ تدبيراً يصلُ إلىٰ كلِّ مشتغلٍ بعبادةِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ أسبوعٍ قرصُ شعيرٍ أوْ حشيشٌ يتناولُهُ لا محالةَ ، والغالبُ أنَّهُ يصلُ أكثرُ منهُ ، بلْ يصلُ ما يزيدُ علىٰ قدرِ الحاجةِ والكفايةِ .

فلا سببَ لتركِ التوكلِ إلا رغبةُ النفسِ في التنعُّمِ على الدوامِ ، ولبسِ الثيابِ الناعمةِ ، وتناولِ الأغذيةِ اللطيفةِ ، وليسَ ذٰلكَ مِنْ طريقِ الآخرةِ ، وذٰلكَ قدْ لا يحصلُ مِنْ غيرِ اضطرابٍ ، وهوَ في الغالبِ أيضاً ليسَ يحصلُ معَ الاضطرابِ ، وإنَّما يحصلُ نادراً ، وفي النادرِ أيضاً قدْ يحصلُ بغيرِ اضطرابٍ ، فأثرُ الاضطرابِ ضعيفٌ عندَ مَنِ انفتحَتْ بصيرتُهُ ، فلذٰلكَ لا يطمئنُّ إلى اضطرابِهِ ، بلْ إلىٰ مدبِّرِ الملكِ والملكوتِ تدبيراً لا يجاوزُ عبداً مِنْ عبادِهِ رزقُهُ وإنْ سكنَ إلا نادراً ندوراً عظيماً يُتصوَّرُ مثلُهُ في حقِّ المضطربِ .

فإذا انكشفَتْ هٰذهِ الأمورُ ، وكانَ معَهُ قوَّةٌ في القلبِ وشجاعةٌ في النفسِ . . أثمرَ ما قالَهُ الحسنُ البصريُّ رحمَهُ اللهُ إذْ قالَ : (وددتُ أنَّ أهلَ البصرةِ في عيالي وأنَّ حبةً بدينارٍ)(١)

وقالَ وهيبُ بنُ الوردِ : (لوْ كانَتِ السماءُ نحاساً ، والأرضُ رصاصاً ، واهتممتُ برزقي . . لظننتُ أنِّي مشركٌ)(٢)

فإذا فهمتَ هٰذهِ الأمورَ . . فهمتَ أنَّ التوكلَ مقامٌ مفهومٌ في نفسِهِ ، ويمكنُ الوصولُ إليهِ لمَنْ قهرَ نفسَهُ ، وعلمتَ أنَّ مَنْ أنكرَ أصلَ التوكلِ وإمكانَهُ . . أنكرَهُ عنْ جهلٍ ، فإيَّاكَ أنْ تجمعَ بينَ إفلاسينِ ؛ إفلاسٍ عنْ وجودِ المقامِ ذوقاً ، وإفلاسٍ عنِ الإيمانِ بهِ علماً .

فإذاً ؛ عليكَ بالقناعةِ بالنزرِ القليلِ ، والرضا بالقوتِ ؛ فإنَّهُ يأتيكَ ـ لا محالةَ ـ وإنْ فررتَ منهُ ، وعندَ ذٰلكَ على اللهِ أنْ يبعثَ إليكَ رزقَكَ علىٰ يدي مَنْ لا تحتسبُ ، فإنِ اشتغلتَ بالتقوىٰ والتوكُّلِ . . شاهدتَ بالتجربةِ مصداقَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، إلا أنَّهُ لمْ يتكفلْ لهُ أنْ يرزقَهُ لحمَ الطيرِ ولذائذَ الأطعمةِ ، فما

(١) قوت القلوب (٢/٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/٩) .

ضمنَ إلا الرزقَ الذي تدومُ بهِ حياتُهُ ، وهـٰذا المضمونُ مبذولٌ لكلِّ مَنِ اشتغلَ بالضامنِ واطمأنَّ إلىٰ ضمانِهِ ، فإنَّ الذي أحاطَ بهِ تدبيرُ اللهِ تعالىٰ مِنَ الأسبابِ الخفيَّةِ للرزقِ أعظمُ ممَّا ظهرَ للخلقِ ، بلْ مداخلُ الرزقِ لا تُحصىٰ ، ومجاريهِ لا يُهتدىٰ إليها ، وذٰلكَ لأنَّ ظهورَهُ على الأرضِ وسببُهُ في السماءِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وأسرارُ السماءِ لا يُطلعُ عليها ، ولهـٰذا دخلَ جماعةٌ على الجنيدِ فقالوا : نطلبُ الرزقَ ، فقالَ : إنْ علمتُمْ أيُّ موضعٍ هوَ . . فاطلبوهُ ، قالوا : فنسألُ اللهَ ، قالَ : إنْ علمتُمْ أنَّهُ ينساكُمْ . . فذكِّروهُ ، فقالوا : ندخلُ البيتَ ونتوكَّلُ وننظرُ ما يكونُ ، فقالَ : التوكلُ على التجربةِ شكٌّ ، قالوا : فما الحيلةُ ؟ قالَ : تركُ الحيلةِ[1]

وقالَ أحمدُ بنُ عيسى الخرَّازُ : كنتُ في الباديةِ ، فنالَني جوعٌ شديدٌ ، فغلبَتْني نفسي أنْ أسألَ اللهَ تعالىٰ طعاماً ، فقلتُ : ليسَ هـٰذا مِنْ فعالِ المتوكلينَ ، فطالبَتْني أنْ أسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ صبراً ، فلمَّا هممتُ بذٰلكَ . . سمعتُ هاتفاً يهتفُ بي ويقولُ : [من الوافر]

وَيَزْعُمُ أَنَّهُ مِنَّا قَرِيبٌ ... وَأَنَّا لا نُضَيِّعُ مَنْ أَتَانَا
وَيَسْأَلُنَا الْقِرَىٰ جُهْداً وَصَبْراً ... كَأَنَّا لا نَرَاهُ وَلَا يَرَانَا[2]

فقدْ فهمتَ أنَّ مَنِ انكسرَتْ نفسُهُ ، وقويَ قلبُهُ ، ولمْ يضعفْ بالجبنِ باطنُهُ ، وقويَ إيمانُهُ بتدبيرِ اللهِ تعالىٰ . . كانَ مطمئنَّ النفسِ أبداً ، واثقاً باللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ أسوأَ حالِهِ أنْ يموتَ ولا بدَّ أنْ يأتيَهُ الموتُ كما يأتي مَنْ ليسَ مطمئناً .

فإذاً ؛ تمامُ التوكلِ بقناعةٍ مِنْ جانبٍ ، ووفاءٍ بالمضمونِ مِنْ جانبٍ ، والذي ضمنَ رزقَ القانعينَ بهـٰذهِ الأسبابِ التي دبَّرَها صادقٌ ، فاقنعْ وجرِّبْ . . تشاهدْ صدقَ الوعدِ تحقيقاً بما يردُ عليكَ مِنَ الأرزاقِ العجيبةِ التي لمْ تكنْ في ظنِّكَ وحسابِكَ ، ولا تكنْ في توكُّلِكَ منتظراً للأسبابِ ، بلْ لمسبِّبِ الأسبابِ ، كما لا تكونُ منتظراً لقلمِ الكاتبِ ، بلْ لقلبِ الكاتبِ ، فإنَّهُ أصلُ حركةِ القلمِ ، **والمحرِّكُ الأوَّلُ واحدٌ** ، فلا ينبغي أنْ يكونَ النظرُ إلا إليهِ ، وهـٰذا شرطُ توكلِ مَنْ يخوضُ البواديَ بلا زادٍ ، أوْ يقعدُ في الأمصارِ وهوَ خاملٌ .

وأمَّا الذي لهُ ذكرٌ بالعبادةِ والعلمِ ؛ فإذا قنعَ في اليومِ والليلةِ بالطعامِ مرَّةً واحدةً كيفَ كانَ وإنْ لمْ يكنْ مِنَ اللذائذِ ، وبثوبٍ خشنٍ يليقُ بأهلِ الدينِ . . فهـٰذا يأتيهِ مِنْ حيثُ يحتسبُ ومِنْ حيثُ لا يحتسبُ على الدوامِ ، بلْ يأتيهِ أضعافُهُ ، فتركُهُ التوكلَ واهتمامُهُ بالرزقِ غايةُ الضعفِ والقصورِ ، فإنَّ اشتهارَهُ بسببٍ ظاهرٍ يجلبُ الرزقَ إليهِ أقوىٰ مِنْ دخولِ الأمصارِ في حقِّ الخاملِ معَ الاكتسابِ .

فالاهتمامُ بالرزقِ قبيحٌ بذوي الدينِ ، وهوَ بالعلماءِ أقبحُ ؛ لأنَّ شرطَهُمُ القناعةُ ، والعالمُ القانعُ يأتيهِ رزقُهُ ورزقُ جماعةٍ كثيرةٍ إنْ كانوا معَهُ ، إلا إذا أرادَ ألا يأخذَ مِنْ أيدي الناسِ ويأكلَ مِنْ كسبِهِ ، فذٰلكَ لهُ وجهٌ لائقٌ بالعالمِ العاملِ الذي سلوكُهُ بظاهرِ العلمِ والعملِ ، ولمْ يكنْ لهُ سيرٌ بالباطنِ ، فإنَّ الكسبَ يمنعُ مِنَ السيرِ بالفكرِ الباطنِ ، فاشتغالُهُ بالسلوكِ معَ الأخذِ مِنْ يدِ مَنْ يتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بما يعطيهِ أولىٰ ؛ لأنَّهُ تفرُّغٌ للهِ عزَّ وجلَّ ، وإعانةٌ للمعطي علىٰ نيلِ الثوابِ .

---

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٠٢) ، وقد رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٣٥/٧) عن جعفر الخلدي وكان بحضرة الجنيد .
(٢) كذا الخبر عند الكلاباذي في « التعرف » (ص ١٥٠) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٠/٥)

ومَنْ نظرَ إلىٰ مجاري سنَّةِ اللهِ تعالىٰ . . علمَ أنَّ الرزقَ ليسَ علىٰ قدْرِ الأسبابِ ، ولذٰلكَ سألَ بعضُ الأكاسرةِ حكيماً عنِ الأحمقِ المرزوقِ والعاقلِ المحرومِ ، فقالَ : أرادَ الصانعُ أنْ يدلَّ علىٰ نفسِهِ ؛ إذْ لوْ رزقَ كلَّ عاقلٍ وحرمَ كلَّ أحمقَ . . لظُنَّ أنَّ العقلَ رزقَ صاحبَهُ ، فلمَّا رأَوا خلافَهُ . . علموا أنَّ الرازقَ غيرُهُمْ ، ولا ثقةَ بالأسبابِ الظاهرةِ لهُمْ .

قالَ الشاعرُ[1] : [من الطويل]

وَلَوْ كانَتِ الأَرْزاقُ تَجْرِي عَلى الْحِجا ... هَلَكْنَ إِذاً مِنْ جَهْلِهِنَّ الْبَهائِمُ

* * *

(١) البيت لأبي تمام في « ديوانه » (٣/١٧٨) .

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلمْ : أنَّ مثالَ الخلقِ معَ اللهِ تعالىٰ مثالُ طائفةٍ مِنَ السؤَّالِ وقفوا في ميدانٍ علىٰ بابِ قصرِ الملكِ وهمْ محتاجونَ إلى الطعامِ ، فأخرجَ إليهِم غلماناً كثيرةً ومعَهُمْ أرغفةٌ مِنَ الخبزِ ، وأمرَهُمْ أنْ يعطوا بعضَهُمْ رغيفينِ رغيفينِ ، وبعضَهُمْ رغيفاً رغيفاً ، ويجتهدوا في ألا يغفُلوا عنْ واحدٍ منهُمْ ، وأمرَ منادياً حتَّىٰ نادىٰ فيهِمْ : أنِ اسكنوا ولا تتعلَّقوا بغلماني إذا خرجوا إليكُمْ ، بلْ ينبغي أنْ يطمئنَّ كلُّ واحدٍ منكُمْ في موضعِهِ ، فإنَّ الغلمانَ مسخَّرونَ وهُمْ مأمورونَ بأنْ يوصلوا إليكُمْ طعامَكُمْ ، فمَنْ تعلَّقَ بالغلمانِ وآذاهُمْ وأخذَ رغيفينِ ؛ فإذا فُتحَ بابُ الميدانِ وخرجَ . . أتبعتُهُ بغلامٍ يكونُ موكلاً بهِ إلىٰ أنْ أتقدمَ لعقوبتِهِ في ميعادٍ معلومٍ عندي ولـٰكنّي أخفيهِ ، ومَنْ لمْ يؤذِ الغلمانَ وقنعَ برغيفٍ واحدٍ أتاهُ مِنْ يدِ الغلامِ وهوَ ساكنٌ . . فإنِّي أخصُّهُ بخلعةٍ سنيَّةٍ في الميعادِ المذكورِ لعقوبةِ الآخرِ ، ومَنْ ثبتَ في مكانِهِ ولـٰكنَّهُ أخذَ رغيفينِ . . فلا عقوبةَ عليهِ ولا خلعةَ لهُ ، ومَنْ أخطأهُ غلماني فما أوصلوا إليهِ شيئاً ، فباتَ الليلةَ جائعاً غيرَ متسخِّطٍ على الغلمانِ ولا قائلٍ : ليتَهُ أوصلَ إليَّ رغيفاً . . فإنّي غداً أستوزرُهُ وأفوِّضُ ملكي إليهِ .

فانقسمَ السؤَّالُ إلىٰ أربعةِ أقسامٍ :

قسمٌ غلبَتْ عليهِمْ بطونُهُمْ فلمْ يلتفتوا إلى العقوبةِ الموعودةِ ، وقالوا : مِنَ اليومِ إلىٰ غدٍ فرجٌ ، ونحنُ الآنَ جائعونَ ، فبادروا إلى الغلمانِ فآذوهُمْ وأخذوا الرغيفينِ ، فسبقَتِ العقوبةُ إليهِمْ في الميعادِ المذكورِ ، فندموا ولمْ ينفعْهُمُ الندمُ .

وقسمٌ تركوا التعلُّقَ بالغلمانِ خوفَ العقوبةِ ، ولـٰكنْ أخذوا رغيفينِ لغلبةِ الجوعِ ، فسلموا مِنَ العقوبةِ ، وما فازوا بالخلعةِ .

وقسمٌ قالوا : إنَّا نجلسُ بمرأىً مِنَ الغلمانِ حتَّىٰ لا يخطئونا ، ولـٰكنَّا لا نأخذُ إذا أعطونا إلا رغيفاً واحداً ، ونقنعُ بهِ ، فلعلَّنا نفوزُ بالخلعةِ ، ففازوا بها .

وقسمٌ رابعٌ اختفَوا في زوايا الميدانِ ، وانحرفوا عنْ مرأىٰ أعينِ الغلمانِ ، وقالوا : إنِ اتبعونا وأعطَونا . . قنعنا برغيفٍ واحدٍ ، وإنْ أخطؤونا . قاسينا شدَّةَ الجوعِ الليلةَ ، فلعلَّنا نقوىٰ علىٰ تركِ التسخُّطِ ، فننالَ رتبةَ الوزارةِ ودرجةَ القربِ عندَ الملكِ ، فما نفعَهُمْ ذٰلكَ ؛ إذْ تبعَهُمُ الغلمانُ في كلِّ زاويةٍ وأعطَوا كلَّ واحدٍ رغيفاً واحداً ، وجرىٰ مثلُ ذٰلكَ أياماً ، حتَّى اتفقَ على الندورِ أنِ اختفىٰ ثلاثةٌ في زاويةٍ ولمْ تقعْ عليهِمْ أبصارُ الغلمانِ ، وشغَلَهُمْ شغلٌ صارفٌ عنْ طولِ التفتيشِ ، فباتوا في جوعٍ شديدٍ ، فقالَ اثنانِ منهُمْ : ليتَنا تعرَّضنا للغلمانِ وأخذنا طعامَنا ، فلسنا نطيقُ الصبرَ ، وسكتَ الثالثُ إلى الصباحِ ، فنالَ درجةَ القربِ والوزارةِ

فهـٰذا مثالُ الخلقِ ، فالميدانُ هوَ الحياةُ الدنيا ، وبابُ الميدانِ الموتُ ، والميعادُ المجهولُ يومُ القيامةِ ، والوعدُ بالوزارةِ هوَ الوعدُ بالشهادةِ للمتوكلِ إذا ماتَ جائعاً راضياً مِنْ غيرِ تأخيرِ ذٰلكَ إلىٰ ميعادِ القيامةِ ؛ لأنَّ الشهداءَ أحياءٌ عندَ ربِّهِمْ يُرزقونَ ، والمتعلِّقُ بالغلمانِ هوَ المتعدِّي في الأسبابِ ، والغلمانُ المسخَّرونَ هُمُ الأسبابُ ، والجالسُ في ظاهرِ الميدانِ بمرأى الغلمانِ هُمُ المقيمونَ في الأمصارِ في الرباطاتِ والمساجدِ علىٰ هيئةِ السكونِ ، والمختفونَ في الزوايا

هُمُ السائحونَ في البوادي علىٰ هيئةِ التوكلِ ، والأسبابُ تتبعُهُمْ ، والرزقُ يأتيهِمْ إلا علىٰ سبيلِ الندورِ ، فإنْ ماتَ واحدٌ منهُمْ جائعاً راضياً . . فلهُ الشهادةُ والقربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وقدِ انقسمَ الخلقُ إلىٰ هـٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ ، فلعلَّ مِنْ كلِّ مئةٍ تعلَّقَ بالأسبابِ تسعونَ ، وأقامَ سبعةٌ مِنَ العشرةِ الباقيةِ في الأمصارِ متعرّضينَ للسببِ بمجرَّدِ حضورِهِمْ واشتهارِهِمْ ، وساحَ في البوادي ثلاثةٌ ، وتسخَّطَ منهُمُ اثنانِ ، وفازَ بالقربِ واحدٌ ، ولعلَّهُ كذٰلكَ كانَ في الأعصارِ السالفةِ ، وأمَّا الآنَ . . فالتاركُ للأسبابِ لا ينتهي إلىٰ واحدٍ مِنْ عشرةِ آلافٍ .

* * *

الفنّ الثّاني : في التعرّض لأسباب الادّخار

فمَنْ حصلَ لهُ مالٌ بإرثٍ أوْ كسبٍ أوْ سؤالٍ أوْ سببٍ مِنَ الأسبابِ . . فلهُ في ادخارِهِ ثلاثةُ أحوالٍ :

الحالةُ الأولىٰ : أنْ يأخذَ قدْرَ حاجتِهِ في الوقتِ ، فيأكلَ إنْ كانَ جائعاً ، ويلبسَ إنْ كانَ عارياً ، ويشتريَ مسكناً مختصراً إنْ كانَ محتاجاً ، ويفرّقَ الباقيَ في الحالِ ، ولا يأخذُ ولا يدَّخرُ إلا القدرَ الذي يدركُ بهِ منْ يستحقُّهُ ويحتاجُ إليهِ ، فيدخرُهُ على هٰذهِ النيَّةِ ، فهٰذا هوَ الوفاءُ بموجَبِ التوكلِ تحقيقاً ، وهيَ الدرجةُ العليا .

الحالةُ الثانيةُ المقابلةُ لهٰذهِ ، المخرجةُ لهُ عنْ حدودِ التوكلِ : أنْ يدخرَ لسنةٍ فما فوقَها ، فهٰذا ليسَ مِنَ المتوكلينَ أصلاً ، وقدْ قيلَ : (لا يدخرُ مِنَ الحيواناتِ إلا ثلاثةٌ : الفأرةُ ، والنملةُ ، وابنُ آدمَ)[1]

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يدخرَ لأربعينَ يوماً فما دونَها ، فهٰذا هلْ يوجبُ حرمانَهُ عنِ المقامِ المحمودِ الموعودِ في الآخرةِ للمتوكلينَ ؟ اختلفوا فيهِ : فذهبَ سهلٌ إلىٰ أنَّهُ يخرجُ عنْ حدِّ التوكلِ ، وذهبَ الخوَّاصُ إلىٰ أنَّهُ لا يخرجُ بأربعينَ يوماً ، ويخرجُ بما يزيدُ على الأربعينِ .

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : لا يخرجُ عنْ حدِّ التوكلِ بالزيادةِ على الأربعينَ أيضاً[2]

وهٰذا اختلافٌ لا معنىٰ لهُ بعدَ تجويزِ أصلِ الادخارِ ، نعمْ ، يجوزُ أنْ يظنَّ ظانٌّ أنَّ أصلَ الادخارِ يناقضُ التوكلَ ، فأمَّا التقديرُ بعدَ ذٰلكَ . . فلا مدركَ لهُ ، وكلُّ ثوابٍ موعودٍ علىٰ رتبةٍ فإنَّهُ يتوزعُ علىٰ تلكَ الرتبةِ وتلكَ الرتبةُ لها بدايةٌ ونهايةٌ ، ويُسمَّىٰ أصحابُ النهاياتِ السابقينَ ، وأصحابُ البداياتِ أصحابَ اليمينِ ، ثمَّ أصحابُ اليمينِ أيضاً علىٰ درجاتٍ ، وكذٰلكَ السابقونَ ، وأعالي درجاتِ أصحابِ اليمينِ تلاصقُ أسافلَ درجاتِ السابقينَ ، فلا معنىٰ للتقديرِ في مثلِ هٰذا .

بلِ التحقيقُ : أنَّ التوكلَ بتركِ الادخارِ لا يتمُّ إلا بقصرِ الأملِ ، وأمَّا عدمُ أملِ البقاءِ . . فيبعدُ اشتراطُهُ ولوْ في نَفَسٍ ؛ فإنَّ ذٰلك كالممتنعِ وجودُهُ ، وأمَّا الناسُ . . فمتفاوتونَ في طولِ الأملِ وقصرِهِ ، وأقلُّ درجاتِ الأملِ يومٌ وليلةٌ فما دونَهُ مِنَ الساعاتِ ، وأقصاهُ ما يُتصوَّرُ أنْ يكونَ عمرَ الإنسانِ ، وبينَهُما درجاتٌ لا حصرَ لها ، فمَنْ لمْ يؤمِّلْ أكثرَ مِنْ شهرٍ أقربُ إلى المقصودِ ممَّنْ يؤمِّلُ سنةً ، وتقييدُهُ بأربعينَ لأجلِ ميعادِ موسىٰ عليهِ السلامُ بعيدٌ ؛ فإنَّ تلكَ الواقعةَ ما قُصِدَ بها بيانُ مقدارِ ما يُرخَّصُ الأملُ فيهِ ، ولٰكنِ استحقاقُ موسىٰ لنيلِ الموعودِ كانَ لا يتمُّ إلا بعدَ أربعينَ يوماً لسرٍّ جرتْ بهِ وبأمثالِهِ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ في تدريجِ الأمورِ ، كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : (إنَّ اللهَ خمَّرَ طينةَ آدمَ بيدِهِ أربعينَ صباحاً)[3] لأنَّ استحقاقَ تلكَ الطينةِ للتخميرِ كانَ موقوفاً علىٰ مدَّةٍ مبلغُها ما ذُكِرَ .

فإذاً ؛ ما وراءَ السنةِ لا يُدَّخرُ لهُ إلا بحكمِ ضعفِ القلبِ ، والركونِ إلىٰ ظاهرِ الأسبابِ ، فهوَ خارجٌ عن مقامِ التوكلِ ، غيرُ واثقٍ بإحاطةِ التدبيرِ مِنَ الوكيلِ الحقِّ بخفايا الأسبابِ ، فإنَّ أسبابَ الدخلِ في الارتفاعاتِ والزكواتِ تتكرَّرُ بتكرُّرِ

---

(١) قوت القلوب (٤/٢) .

(٢) قوت القلوب (٢٠/٢) ، وقد نقل كلام سهل والخواص .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦٣/٨) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٠٩) موقوفاً علىٰ سلمان أو ابن مسعود رضي الله عنهما ، ووقع في بعض النسخ عدم رفع الحديث ، قال البيهقي عقب روايته : (وروي ذٰلك من وجه آخر ضعيف عن التيمي مرفوعاً ، وليس بشيء) .

السنينَ غالباً ، ومَنِ ادَّخرَ لأقلَّ مِنْ سنةٍ . . فلهُ درجةٌ بحسبِ قصرِ أملِهِ ، ومَنْ كانَ أملُهُ شهرينِ . . لمْ تكنْ درجتُهُ كدرجةِ مَنْ أمَّلَ شهراً ، ولا درجةِ مَنْ أمَّلَ ثلاثةَ أشهرٍ ، بلْ هوَ بينَهُما في الرتبةِ .

ولا يمنعُ مِنَ الادخارِ إلا قصرُ الأملِ ، فالأفضلُ ألا يدَّخرَ أصلاً ، فإنْ ضعُفَ قلبُهُ ؛ فكلَّما قلَّ ادخارُهُ . . كانَ فضلُهُ أكثرَ ، وقدْ رُوِيَ في الفقيرِ الذي أمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليّاً كرَّمَ اللهُ وجهَهُ وأسامةَ أنْ يغسلاهُ فغسَّلاهُ وكفَّناهُ ببردتِهِ ، فلمَّا دفنَهُ . . قالَ لأصحابِهِ : « إنَّهُ يُبعثُ يومَ القيامةِ ووجهُهُ كالقمرِ ليلةَ البدرِ ، ولولا خصلةٌ كانَتْ فيهِ . . لبُعثَ ووجهُهُ كالشمسِ الضاحيةِ » ، قلنا : وما هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « كانَ صوَّاماً قوَّاماً كثيرَ الذكرِ للهِ تعالىٰ ، غيرَ أنَّهُ كانَ إذا جاءَهُ الشتاءُ . . ادَّخرَ حُلَّةَ الصيفِ لصيفِهِ ، وإذا جاءَ الصيفُ . . ادَّخرَ حلَّةَ الشتاءِ لشتائِهِ » ، ثمَّ قالَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ . . . » الحديثَ (١)

وليسَ الكوزُ والشفرةُ وما يُحتاجُ إليهِ على الدوامِ في معنىٰ ذٰلكَ ، فادخارُهُ لا ينقصُ الدرجةَ ، وأمّا ثوبُ الشتاءِ . . فلا يُحتاجُ إليهِ في الصيفِ ، وهٰذا في حقِّ مَنْ لا ينزعجُ قلبُهُ بتركِ الادخارِ ، ولا تستشرفُ نفسُهُ إلى أيدي الخلقِ ، بلْ لا يلتفتُ قلبُهُ إلا إلى الوكيلِ الحقِّ .

فإنْ كانَ يستشعرُ في نفسِهِ اضطراباً يشغلُ قلبَهُ عنِ العبادةِ والذكرِ والفكرِ . . فالادخارُ لهُ أولىٰ ، بلْ لوْ أمسكَ ضيعةً يكونُ دخلُها وافياً بقدْرِ كفايتِهِ ، وكانَ لا يتفرَّغُ قلبُهُ إلا بهِ . . فذٰلكَ لهُ أولىٰ ؛ لأنَّ المقصودَ إصلاحُ القلوبِ لتتجرَّدَ لذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وربَّ شخصٍ يشغلُهُ وجودُ المالِ وربَّ شخصٍ يشغلُهُ عدمُهُ ، والمحذورُ ما يشغلُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وإلا . . فالدنيا في عينِها غيرُ محذورةٍ ، لا وجودُها ولا عدمُها

ولذٰلكَ بُعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى أصنافِ الخلقِ ، وفيهِمُ التجارُ والمحترفونَ وأهلُ الحرفِ والصناعاتِ ، فلمْ يأمرِ التاجرَ بتركِ تجارتِهِ ، ولا المحترفَ بتركِ حرفتِهِ ، ولا أمرَ التاركَ لهُما بالاشتغالِ بهِما ، بلْ دعا الكلَّ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأرشدَهُمْ إلىٰ أنَّ فوزَهُمْ ونجاتَهُمْ في انصرافِ قلوبِهِمْ عنِ الدنيا إلى اللهِ تعالىٰ ، وعمدةُ الاشتغالِ باللهِ عزَّ وجلَّ القلبُ ، فصوابُ الضعيفِ ادخارُ قدْرِ حاجتِهِ ، كما أنَّ صوابَ القويِّ تركُ الادخارِ ، وهٰذا كلُّهُ حكمُ المنفردِ .

فأمَّا المعيلُ . . فلا يخرجُ عنْ حدِّ التوكلِ بادخارِ قوتِ سنةٍ لعيالِهِ ؛ جبراً لضعفِهِمْ ، وتسكيناً لقلوبِهِمْ ، وادخارُ أكثرَ مِنْ ذٰلكَ مبطلٌ للتوكلِ ؛ لأنَّ الأسبابَ تتكرَّرُ عندَ تكرُّرِ السنينَ ، فادخارُ ما يزيدُ عليهِ مصدرُهُ ضعفُ قلبِهِ ، وذٰلكَ يناقضُ قوَّةَ التوكلِ ، فالمتوكلُ عبارةٌ عنْ موحدٍ قويِّ القلبِ ، مطمئنِّ النفسِ إلىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ ، واثقٍ بتدبيرِهِ دونَ وجودِ الأسبابِ الظاهرةِ .

وقدِ ادخرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعيالِهِ قوتَ سنةٍ (٢) ، ونهىٰ أمَّ أيمنَ وغيرَها أنْ تدَّخرَ لهُ شيئاً لغدٍ (٣) ، ونهىٰ بلالاً عنِ الادخارِ في كسرةِ خبزٍ ادخرَها ليفطرَ عليها ، فقالَ : « أنفقْ بلالاً ، ولا تخشَ مِنْ ذي العرشِ إقلالاً » (٤) ،

(١) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٠٣/٩) : (رواه صاحب « القوت » بسنده إلىٰ شهر بن حوشب عن أبي أمامة رضي الله عنه) .

(٢) كما في « البخاري » (٢٩٠٤) ، و« مسلم » (١٧٥٧) بلفظ : (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله علىٰ رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان ينفق علىٰ أهله نفقة سنة ، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله) ، ولفظ الترمذي (١٧١٩) : (كان يعزل نفقة أهله سنة) .

(٣) قوت القلوب (٢٠/٢) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٣٤١/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٨٠/٢) (٢٧٤/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٨٣) ، وكان المدَّخر صُبرة من تمر ، لا كسرة خبز ، وروايته بالبناء على الضم في (بلال) ، ومن نوَّنه ونصبه فلمناسبة (إقلالاً) له ، وللمزاوجة في الكلام .

وقالَ لهُ : « إذا سُئلتَ .. فلا تمنعْ ، وإذا أُعطيتَ .. فلا تخبِّئْ »[١] ، فالاقتداءُ بسيِّدِ المتوكلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وقدْ كانَ قصُرَ أملُهُ بحيثُ كانَ إذا بالَ .. تيمَّمَ معَ قربِ الماءِ ، ويقولُ : « ما يدريني ، لعلِّي لا أبلغُهُ »[٢]

وقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوِ ادَّخرَ .. لمْ ينقصْ ذٰلكَ مِنْ توكلِهِ ؛ إذْ كانَ لا يثقُ بما ادخرَهُ ، ولٰكنَّهُ تركَهُ تعليماً للأقوياءِ مِنْ أمتِهِ ، فإنَّ أقوياءَ أمَّتِهِ ضعفاءُ بالإضافةِ إلىٰ قوَّتِهِ ، وادَّخرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لعيالِهِ سنةً لا لضعفِ قلبٍ فيهِ وفي عيالِهِ ، ولٰكنْ ليسُنَّ ذٰلكَ للضعفاءِ مِنْ أمَّتِهِ ، ثمَّ أخبرَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ أنْ تُؤتىٰ رخصُهُ كما يُحبُّ أنْ تُؤتىٰ عزائمُهُ[٣] ؛ تطييباً لقلوبِ الضعفاءِ ، حتىٰ لا ينتهيَ بهِمُ الضعفُ إلى اليأسِ والقنوطِ ، فيتركونَ الميسورَ مِنَ الخيرِ عليهِمْ ؛ لعجزِهِمْ عنْ منتهى الدرجاتِ ، فما أُرسلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا رحمةً للعالمينَ كلِّهِمْ ، على اختلافِ أصنافِهِمْ ودرجاتِهِمْ .

وإذا فهمتَ هٰذا .. علمتَ أنَّ الادِّخارَ قدْ يضرُّ بعضَ الناسِ وقدْ لا يضرُّ ، ويدلُّ عليهِ ما روىٰ أبو أمامةَ الباهليُّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ بعضَ أصحابِ الصفَّةِ تُوفِّيَ ، فما وُجدَ لهُ كفنٌ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فتِّشوا ثوبَهُ » ، فوجدوا فيهِ دينارينِ في داخلِ إزارِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيَّتانِ »[٤] ، وقدْ كانَ غيرُهُ مِنَ المسلمينَ يموتُ ويخلِّفُ أموالاً ولا يقولُ ذٰلكَ في حقِّهِ ، وهٰذا يحتملُ وجهينِ ؛ لأنَّ حالَهُ يحتملُ حالينِ :

أحدهُما : أنَّهُ أرادَ (كيَّتانِ) مِنَ النارِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ، وذٰلكَ إذا كانَ حالُهُ إظهارَ الزهدِ والفقرِ والتوكلِ معَ الإفلاسِ عنهُ ، فهوَ نوعُ تلبيسٍ .

والثاني : ألا يكونَ ذٰلكَ عنْ تلبيسٍ ، فيكونَ المعنيُّ بهِ النقصانَ عنْ درجةِ كمالِهِ ؛ كما ينقصُ مِنْ جمالِ الوجهِ أثرُ كيتينِ في الوجهِ ، وذٰلكَ لا يكونُ عنْ تلبيسٍ ، فإنَّ كلَّ ما يخلِّفُهُ الرجلُ فهوَ نقصانٌ عنْ درجتِهِ في الآخرةِ ؛ إذْ لا يُؤتىٰ أحدٌ مِنَ الدنيا شيئاً إلا نقصَ بقدرِهِ مِنَ الآخرةِ .

وأمَّا بيانُ أنَّ الادخارَ معَ فراغِ القلبِ عنِ المدخرِ ليسَ مِنْ ضرورتِهِ بطلانُ التوكلِ .. فيشهدُ لهُ ما رُوِيَ عنْ بشرٍ ؛ قالَ الحسينُ المغازليُّ مِنْ أصحابِهِ : كنتُ عندَهُ ضحوةً مِنَ النهارِ ، فدخلَ رجلٌ كهلٌ أسمرُ خفيفُ العارضينِ ، فقامَ إليهِ بشرٌ ، قالَ : وما رأيتُهُ قامَ لأحدٍ غيرِهِ ، قالَ : ودفعَ إليَّ كفّاً مِنْ دراهمَ وقالَ : اشترِ لنا مِنْ أجودِ ما تقدرُ عليهِ مِنَ الطعامِ الطيِّبِ ، وما قالَ لي قطُّ مثلَ ذٰلكَ . قالَ : فجئتُ بالطعامِ ، فوضعتُهُ ، فأكلَ معَهُ وما رأيتُهُ أكلَ معَ غيرِهِ ، قالَ : فأكلنا حاجتَنا ، وبقيَ مِنَ الطعامِ شيءٌ كثيرٌ ، فأخذَهُ الرجلُ وجمعَهُ في ثوبِهِ وحملَهُ معهُ وانصرفَ ، فعجبتُ مِنْ ذٰلكَ وكرهتُهُ لهُ ، فقالَ لي بشرٌ : لعلَّكَ أنكرتَ فعلَهُ ؟ قلتُ : نعمْ ، أخذَ بقيَّةَ الطعامِ مِنْ غيرِ إذنٍ ، فقالَ : ذاكَ أخونا فتحٌ الموصليُّ ، زارَنا اليومَ مِنَ الموصلِ ، وإنَّما أرادَ أنْ يعلِّمنا أنَّ التوكلَ إذا صحَّ .. لمْ يضرَّ معَهُ الادخارُ[٥] .

* * *

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١٦/٤) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (٢٨٨/١) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٠٨/٢) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢٥٣/٥) .

(٥) قوت القلوب (١٩/٢) .

الفنّ الثالث : في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرّض للخوف [1]

اعلمْ : أنَّ الضررَ قدْ يعرضُ للخوفِ في نفسٍ أوْ مالٍ ، وليسَ من شرطِ التوكلِ تركُ الأسبابِ الدافعةِ رأساً ، أمَّا في النفسِ . . فكالنومِ في الأرضِ المَسْبَعَةِ [2] ، أوْ في مجرى السيلِ مِنَ الوادي ، أوْ تحتَ الجدارِ المائلِ والسقفِ المنكسرِ ، فكلُّ ذٰلكَ منهيٌّ عنهُ ، وصاحبُهُ قدْ عرَّضَ نفسَهُ للهلاكِ بغيرِ فائدةٍ .

نعمْ ؛ تنقسمُ هٰذهِ الأسبابُ إلىٰ مقطوعٍ بها ، وإلىٰ مظنونةٍ ، وإلىٰ موهومةٍ ، فتركُ الموهومِ منها مِنْ شرطِ التوكلِ ، وهيَ التي نسبتُها إلىٰ دفعِ الضررِ نسبةُ الكيِّ والرقيةِ ؛ فإنَّ الكيَّ والرقيةَ قدْ تقدَّمُ على المحذورِ دفعاً لما يُتوقَّعُ ، وقد يُستعملُ بعدَ نزولِ المحذورِ للإزالةِ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يصفِ المتوكلينَ إلا بتركِ الكيِّ والرقيةِ والطيرةِ ، ولمْ يصفْهُمْ بأنَّهُمْ إذا خرجوا إلىٰ موضعٍ باردٍ لمْ يلبسوا جبةً ، والجبةُ تُلبسُ دفعاً للبردِ المتوقَّعِ ، وكذٰلكَ كلُّ ما في معناها مِنَ الأسبابِ .

نعم ؛ الاستظهارُ بأكلِ الثومِ مثلاً عندَ الخروجِ إلىٰ سفرٍ في الشتاءِ تهييجاً لقوَّةِ الحرارةِ مِنَ الباطنِ . . ربَّما يكونُ مِنْ قبيلِ التعمُّقِ في الأسبابِ والتعويلِ عليها ، فيكادُ يقربُ مِنَ الكيِّ ، بخلافِ الجبَّةِ .

ولتركِ الأسبابِ الدافعةِ وإنْ كانَتْ مقطوعةً وجهٌ إذا نالَ الضررُ مِنْ إنسانٍ ، فإنَّهُ إذا أمكنَهُ الصبرُ وأمكنَهُ الدفعُ والتشفِّي . . فشرطُ التوكلِ الاحتمالُ والصبرُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وقالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وهٰذا في أذى الناسِ .

وأمَّا الصبرُ علىٰ أذى الحيَّاتِ والسباعِ والعقاربِ . . فتركُ دفعِها ليسَ مِنَ التوكلِ في شيءٍ ؛ إذْ لا فائدةَ فيهِ ، ولا يرادُ السعيُ ولا تركُ السعيِ لعينِهِ ، بلْ لإعانتِهِ على الدينِ ، وترتُّبُ الأسبابِ ها هنا كترتُّبِها في الكسبِ وجلبِ النافعِ ، فلا نطوِّلُ بالإعادةِ .

وكذٰلكَ في الأسبابِ الدافعةِ عنِ المالِ ، فلا ينقصُ التوكلُ بإغلاقِ بابِ البيتِ عندَ الخروجِ ، ولا بأنْ يعقلَ البعيرَ ؛ لأنَّ هٰذهِ أسبابٌ عُرفَتْ بسنَّةِ اللهِ تعالىٰ ؛ إمَّا قطعاً ، وإمَّا ظنّاً ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للأعرابيِّ لمَّا أنْ أهملَ البعيرَ وقالَ : توكلتُ على اللهِ : « اعقلْها وتوكلْ » [3]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ .

وقالَ في كيفيَّةِ صلاةِ الخوفِ : ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ .

وقالَ سبحانَهُ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ .

---

(١) في النسخ : (المتعرض) بدل (المعرض) ، والمثبت من (ق) .
(٢) أي : ذات سباع .
(٣) رواه الترمذي (٢٥١٧) .

وقالَ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ ، والتحصُّنُ بالليلِ اختفاءً عنْ أعينِ العدوِّ نوعُ تسبُّبٍ .

واختفىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الغارِ عنْ أعينِ الأعداءِ دفعاً للضررِ[1] .

وأخذُ السلاحِ في الصلاةِ ليسَ دافعاً قطعاً كقتلِ الحيَّةِ والعقربِ ؛ فإنَّهُ دافعٌ قطعاً ، ولٰكنْ أخذُ السلاحِ سببٌ مظنونٌ ، وقدْ بيَّنا أنَّ المظنونَ كالمقطوعِ ، وإنَّما الموهومُ هوَ الذي يقتضي التوكلُ تركَهُ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فقدْ حُكِيَ عنْ جماعةٍ أنَّ منهُمْ مَنْ وضعَ الأسدُ يدَهُ علىٰ كتفِهِ ولمْ يتحرَّكْ .

فأقولُ : وقدْ حُكِيَ عنْ جماعةٍ أنَّهُمْ ركبوا الأسدَ وسخَّروهُ ، فلا ينبغي أنْ يغرَّكَ ذٰلكَ المقامُ ، فإنَّهُ وإنْ كانَ صحيحاً في نفسِهِ فلا يصلحُ للاقتداءِ بطريقِ التعلُّمِ مِنَ الغيرِ ، بلْ ذٰلكَ مقامٌ رفيعٌ في الكراماتِ ، وليسَ ذٰلكَ شرطاً في التوكلِ ، وفيهِ أسرارٌ لا تقفُ عليها ما لمْ تنتهِ إليها .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : وهلْ مِنْ علامةٍ أعلمُ بها أنِّي قدْ وصلتُ إليهِ ؟

فأقولُ : الواصلُ لا يحتاجُ إلىٰ طلبِ العلاماتِ ، ولٰكنْ مِنَ العلاماتِ السابقةِ عليهِ أنْ يُسخَّرَ لكَ كلبٌ هوَ معكَ في إهابِكَ يُسمَّى الغضبَ ، فلا يزالُ يعضُّكَ ويعضُّ غيرَكَ ، فإنْ سُخِّرَ لكَ هٰذا الكلبُ بحيثُ إذا هُيِّجَ وأُشْلِيَ . . لمْ يستشلِ إلا بإشارتِكَ ، وكانَ مسخَّراً لكَ ، فربَّما ترتفعُ درجتُكَ إلىٰ أنْ يسخِّرَ لكَ الأسدَ الذي هوَ ملكُ السباعِ ، وكلبُ دارِكَ أولىٰ بأنْ يكونَ مسخَّراً لكَ مِنْ كلبِ البوادي ، وكلبُ إهابِكَ أولىٰ بأنْ يُسخَّرَ مِنْ كلبِ دارِكَ ، فإذا لمْ يُسخَّرْ لكَ الكلبُ الباطنُ . . فلا تطمعْ في استسخارِ الكلبِ الظاهرِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فإذا أخذَ المتوكلُ سلاحَهُ حذراً مِنَ العدوِّ ، وأغلقَ بابَهُ حذراً مِنَ اللصِّ ، وعقلَ بعيرَهُ حذراً مِنْ أنْ ينطلقَ . . فبأيِّ اعتبارٍ يكونُ متوكلاً ؟

فأقولُ : يكونُ متوكلاً بالعلمِ والحالِ .

فأمَّا العلمُ . . فهوَ أنْ يعلمَ أنَّ اللصَّ إنِ اندفعَ . . لمْ يندفعْ بكفايتِهِ في إغلاقِ البابِ ، بلْ بدفعِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ ، فكمْ مِنْ بابٍ يُغلقُ ولا ينفعُ ، وكمْ مِنْ بعيرٍ يُعقلُ ويموتُ أوْ يفلتُ ، وكمْ مِنْ آخذٍ سلاحَهُ يُقتلُ أوْ يُغلبُ !! فلا تتكلْ علىٰ هٰذهِ الأسبابِ أصلاً ، بلْ علىٰ مسبِّبِ الأسبابِ كما ضربنا المثلَ في الوكيلِ بالخصومةِ ؛ فإنَّهُ وإنْ حضرَ وأحضرَ السجلَّ . . فلا يتكلُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ سجلِّهِ ، بل علىٰ كفايةِ الوكيلِ وقوَّتِهِ .

وأمَّا الحالُ . . فهوَ أنْ يكونَ راضياً بما يقضي اللهُ تعالىٰ بهِ في بيتِهِ ونفسِهِ ، ويقولَ : اللهمَّ ؛ إنْ سلَّطتَ علىٰ ما في البيتِ مَنْ يأخذُهُ . . فهوَ في سبيلِكَ ، وأنا راضٍ بحكمِكَ ؛ فإنِّي لا أدري أنَّ ما أعطيتَني هبةٌ فلا تسترجعُها ، أوْ عاريةٌ أوْ وديعةٌ فتستردُّها ؟ ولا أدري أنَّها رزقي ، أوْ سبقَتْ مشيئتُكَ في الأزلِ بأنَّهُ رزقُ غيري ؟ وكيفَما قضيتَ . . فأنا راضٍ

---

(1) رواه البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) .

بِهِ ، وما أغلقتُ البابَ تحصُّناً مِنْ قضائِكَ وتسخُّطاً لهُ ، بلْ جرياً علىٰ مقتضىٰ سنَّتِكَ في ترتيبِ الأسبابِ ، فلا ثقةَ إلا بكَ يا مسبِّبَ الأسبابِ .

فإذا كانَ هٰذا حالَهُ ، وذٰلكَ الذي ذكرناهُ علمُهُ . . لمْ يخرجْ عنْ حدودِ التوكلِ بعقلِ البعيرِ وأخذِ السلاحِ وإغلاقِ البابِ .

ثمَّ إذا عادَ فوجدَ متاعَهُ في البيتِ . . فينبغي أنْ يكونَ ذٰلكَ عندَهُ نعمةً جديدةً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإنْ لمْ يجدْهُ ، بلْ وجدَهُ مسروقاً ؛ نظرَ إلىٰ قلبِهِ ، فإنْ وجدَهُ راضياً أوْ فرحاً بذٰلكَ عالماً أنَّهُ ما أخذَ اللهُ ذٰلكَ منهُ إلا ليزيدَ رزقَهُ في الآخرةِ . . فقدْ صحَّ مقامُهُ في التوكلِ ، وظهرَ لهُ صدقُهُ ، وإنْ تألَّمَ قلبُهُ بهِ ، ووجدَ قوَّةَ الصبرِ . . فقدْ بانَ لهُ أنَّهُ ما كانَ صادقاً في دعوى التوكلِ ؛ لأنَّ التوكلَ مقامٌ بعدَ الزهدِ ، ولا يصحُّ الزهدُ إلا ممَّنْ لا يأسفُ علىٰ ما فاتَ مِنَ الدنيا ولا يفرحُ بما يأتي ، بلْ قدْ يكونُ على العكسِ منهُ ، فكيفَ يصحُّ لهُ التوكلُ ؟!

نعمْ ؛ قدْ صحَّ لهُ مقامُ الصبرِ إنْ أخفاهُ ولمْ يظهرْ شكواهُ ، ولمْ يكثرْ سعيَهُ في الطلبِ والتجسسِ ، وإنْ لمْ يقدرْ علىٰ ذٰلكَ حتَّىٰ تأذَّىٰ بقلبِهِ ، وأظهرَ الشكوىٰ بلسانِهِ ، واستقصى الطلبَ ببدنِهِ . . فقدْ كانَتِ السرقةُ مزيداً لهُ في ذنبِهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ظهرَ لهُ قصورُهُ عن جميعِ المقاماتِ ، وكذبُهُ في جميعِ الدعاوىٰ ، فبعدَ هٰذا ينبغي أنْ يجتهدَ حتَّىٰ لا يصدِّقَ نفسَهُ في دعاويها ، ولا يتدلَّىٰ بحبلِ غرورِها ، فإنَّها خدَّاعةٌ أمَّارةٌ بالسوءِ مدعيةٌ للخيرِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يكونُ للمتوكلِ مالٌ حتَّىٰ يُؤخذَ ؟

فأقولُ : المتوكلُ لا يخلو بيتُهُ مِنْ متاعٍ ؛ كقصعةٍ يأكلُ فيها ، وكوزٍ يشربُ منهِ ، وإناءٍ يتوضَّأُ منهُ ، وجرابٍ يحفظُ بهِ زادَهُ ، وعصاً يدفعُ بها عدوَّهُ ، وغيرِ ذٰلكَ مِنْ ضروراتِ المعيشةِ مِنْ أثاثِ البيتِ ، وقدْ يدخلُ في يدِهِ مالٌ وهوَ يمسكُهُ ليجدَ محتاجاً فيصرفَهُ إليهِ ، فلا يكونُ ادخارُهُ علىٰ هٰذهِ النيَّةِ مبطلاً لتوكلِهِ ، وليسَ مِنْ شرطِ التوكلِ إخراجُ الكوزِ الذي يشربُ منهُ ، والجرابِ الذي فيهِ زادُهُ ، وإنَّما ذٰلكَ في المأكولِ ، وفي كلِّ مالٍ زائدٍ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بوصولِ الخيرِ إلى الفقراءِ المتوكلينَ في زوايا المساجدِ ، وما جرتِ السنَّةُ بتفرقةِ الكيزانِ والأمتعةِ في كلِّ يومٍ ولا في كلِّ أسبوعٍ ، والخروجُ عنْ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ ليسَ شرطاً في التوكلِ .

ولذٰلكَ كانَ الخوَّاصُ يأخذُ في السفرِ الحبلَ والركوةَ والمقراضَ والإبرةَ دونَ الزادِ(١) ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بالفرقِ بينَ الأمرينِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يُتصوَّرُ ألا يحزنَ إذا أُخذَ متاعُهُ الذي هوَ محتاجٌ إليهِ ولا يأسفَ عليهِ ؟ فإنْ كانَ لا يشتهيهِ . . فلِمَ أمسكَهُ وأغلقَ البابَ عليهِ ؟ وإن كانَ أمسكَهُ لأنَّهُ يشتهيهِ لحاجتِهِ إليهِ . . فكيفَ لا يتأذَّىٰ قلبُهُ ولا يحزنُ وقدْ حيلَ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ؟

فأقولُ : إنَّما كانَ يحفظُهُ ليستعينَ بهِ علىٰ دينِهِ ؛ إذْ كانَ يظنُّ أنَّ الخيرةَ لهُ في أنْ يكونَ لهُ ذٰلكَ المتاعُ ، ولولا أنَّ

---

(١) روىٰ ذٰلك عنه القشيري في « الرسالة » (ص ٢٩٩) .

الخيرةَ لهُ فيهِ . . لما رزقَهُ اللهُ تعالىٰ ولما أعطاهُ إيَّاهُ ، فاستدلَّ علىٰ ذلكَ بتيسيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وحسنِ الظنِ باللهِ تعالىٰ معَ ظنِّهِ أنَّ ذلكَ معينٌ لهُ علىٰ أسبابِ دينِهِ ، ولمْ يكنْ ذلكَ عندَهُ مقطوعاً بهِ ؛ إذْ يحتملُ أنْ تكونَ خيرتُهُ في أنْ يُبتلىٰ بفقدِ ذلكَ حتَّىٰ ينصبَ في تحصيلِ غرضِهِ ، ويكونَ ثوابُهُ في التعبِ والنصبِ أكثرَ ، فلمَّا أخذَهُ اللهُ تعالىٰ منهُ بتسليطِ اللصِّ . . تغيَّرَ ظنُّهُ ؛ لأنَّهُ في جميعِ الأحوالِ واثقٌ باللهِ حسنُ الظنّ بهِ ، فيقولُ : لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ علمَ أنَّ الخيرةَ لي كانَتْ في وجودِها إلى الآنَ والخيرةُ الآنَ لي في عدمِها . . لما أخذَها منّي .

فبمثلِ هٰذا الظنّ يُتصوَّرُ أنْ يندفعَ عنهُ الحزنُ ؛ إذْ بهِ يخرجُ عنْ أنْ يكونَ فرحُهُ بالأسبابِ مِنْ حيثُ إنَّها أسبابٌ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ يسَّرَها مسبِّبُ الأسبابِ عنايةً بهِ وتلطُّفاً ، وهوَ كالمريضِ بينَ يديِ الطبيبِ الشفيقِ يرضىٰ بما يفعلُهُ ، فإنْ قدَّمَ إليهِ الغذاءَ . . فرحَ وقالَ : لولا أنَّهُ عرفَ أنَّ الغذاءَ ينفعُني وقدْ قويتُ على احتمالِهِ . . لما قرَّبَهُ إليَّ ، وإنْ أخَّرَ عنهُ الغذاءَ بعدَ ذلكَ أيضاً . . فرحَ وقالَ : لولا أنَّ الغذاءَ يضرُّني ويسوقُني إلى الموتِ . . لما حالَ بيني وبينَهُ .

وكلُّ مَنْ لا يعتقدُ في لطفِ اللهِ تعالىٰ ما يعتقدُهُ المريضُ في الوالدِ المشفقِ الحاذقِ بعلمِ الطبِّ . . فلا يصحُّ منهُ التوكلُ أصلاً ، ومَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ ، وعرفَ أفعالَهُ ، وعرفَ سنَّتَهُ في إصلاحِ عبادِهِ . . لمْ يكنْ فرحُهُ بالأسبابِ ، فإنَّهُ لا يدري أيُّ الأسبابِ خيرٌ لهُ ؛ كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا أبالي أصبحتُ غنيّاً أوْ فقيراً ؛ فإنِّي لا أدري أيُّهما خيرٌ لي)[1] ، فكذٰلكَ ينبغي ألا يباليَ المتوكلُ يُسرقُ متاعُهُ أوْ لا يُسرقُ ؛ فإنَّهُ لا يدري أيُّهُما خيرٌ لهُ في الدنيا وفي الآخرةِ ، فكمْ مِنْ متاعٍ في الدنيا يكونُ سببَ هلاكِ الإنسانِ ، وكمْ مِنْ غنيٍّ يُبتلىٰ بواقعةٍ لأجلِ غناهُ يقولُ : يا ليتَني كنتُ فقيراً .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده الحارث المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٠٤/٨) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

بيان آداب المتوكلين إذا سُرق متاعهم

للمتوكلِ آدابٌ في متاعِ بيتِهِ إذا خرجَ عنهُ :

الأوَّلُ : أنْ يغلقَ البابَ ، ولا يستقصيَ في أسبابِ الحفظِ ، كالتماسِهِ مِنَ الجيرانِ الحفظَ معَ الغلقِ ، وكجمعِهِ أغلاقاً كثيرةً ، فقدْ كانَ مالكُ بنُ دينارٍ لا يغلقُ بابَهُ ، ولٰكنْ يشدُّهُ بشريطٍ ويقولُ : (لولا الكلابُ . . ما شددتُهُ أيضاً)[1]

❀ ❀ ❀

الثاني : ألا يتركَ في البيتِ متاعاً يحرِصُ عليهِ السرَّاقُ ، فيكونَ هوَ سببَ معصيتِهِمْ ؛ إذْ إمساكُهُ يكونُ سببَ هيجانِ رغبتِهِمْ ، ولذٰلكَ لمَّا أهدى المغيرةُ إلىٰ مالكِ بنِ دينارٍ ركوةً . . قالَ لهُ : خذْها ، فلا حاجةَ لي إليها ، قالَ : لِمَ ؟ قالَ : يوسوسُ إليَّ العدوُّ أنَّ اللصَّ قدْ أخذَها[2]

فكأنَّهُ احترزَ مِنْ أنْ يعصيَ السارقُ ، ومِنْ شغلِ قلبِهِ بوسواسِ الشيطانِ بسرقتِها ، ولذٰلكَ قالَ أبو سليمانَ : (هٰذا مِنْ ضعفِ قلوبِ الصوفيَّةِ ، هٰذا قدْ زهدَ في الدنيا ، فما عليهِ مِنْ أخذِها ؟!)[3]

❀ ❀ ❀

الثالثُ : أنَّ ما يُضطرُّ إلىٰ تركِهِ في البيتِ ينبغي أنْ ينويَ عندَ خروجِهِ الرضا بما يقضي اللهُ تعالىٰ فيهِ مِنْ تسليطِ سارقٍ عليهِ ، ويقولَ : ما يأخذُهُ السارقُ . . فهوَ منهُ في حلٍّ ، أوْ هوَ في سبيلِ اللهِ ، وإنْ كانَ فقيراً . . فهوَ عليهِ صدقةٌ ، وإنْ لمْ يشترطِ الفقرَ . . فهوَ أولىٰ ، ويكونَ لهُ نيَّتانِ : لوْ أخذَهُ غنيٌّ أوْ فقيرٌ :

إحداهُما : أنْ يكونَ مالُهُ مانعاً لهُ مِنَ المعصيةِ ، فإنَّهُ ربَّما يستغني بهِ فيتوانىٰ عنِ السرقةِ بعدَهُ ، وقدْ زالَ عصيانُهُ بأكلِ الحرامِ لمَّا أنْ جعلَهُ في حلٍّ .

والثانيةُ : ألا يظلمَ مسلماً آخرَ ، فيكونَ مالُهُ فداءً لمالِ مسلمٍ آخرَ ، ومهما نوىٰ حراسةَ مالِ غيرِهِ بمالِ نفسِهِ ، أوْ نوىٰ دفعَ المعصيةِ عنِ السارقِ ، أوْ تخفيفَها عليهِ . . فقدْ نصحَ للمسلمينَ ، وامتثلَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انصرْ أخاكَ ظالماً أوْ مظلوماً »[4] ، ونصرةُ الظالمِ بمنعِهِ مِنَ الظلمِ ، وعفوُهُ عنهُ إعدامٌ للظلمِ ومنعٌ لهُ .

وليتحققْ أنَّ هٰذهِ النيةَ لا تضرُّهُ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ؛ إذْ ليسَ فيها ما يسلِّطُ السارقَ ويغيِّرُ القضاءَ الأزليَّ ، ولٰكنَّهُ تتحقَّقُ بالزهدِ نيَّتُهُ ، فإنْ أُخِذَ مالُهُ . . كانَ لهُ بكلِّ درهمٍ سبعُ مئةِ درهمٍ ؛ لأنَّهُ نواهُ وقصدَهُ ، وإنْ لمْ يُؤخذْ . . حصلَ لهُ الأجرُ أيضاً ؛ كما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيمَنْ تركَ العزلَ وأقرَّ النطفةَ قرارَها أنَّ لهُ أجرَ غلامٍ وُلِدَ لهُ مِنْ ذٰلكَ الجماعِ وعاشَ فقُتلَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ وإنْ كانَ لمْ يُولدْ لهُ[5] ؛ لأنَّهُ ليسَ إليهِ مِنْ أمرِ الولدِ إلا الوقاعُ ، فأمَّا

---

(١) قوت القلوب (٣٣/٢) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٧/٢) أنه كان يقول : (من دخل بيتي فأخذ شيئاً . . فهو له حلال ، أما أنا . . فلا أحتاج إلىٰ قفل ولا إلىٰ مفتاح) .

(٢) قوت القلوب (٢٦٧/١) ، وخبر مالك مفرداً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٤/٢) ، وليس فيه ذكر للمغيرة ، بل قالها للحارث بن نبهان .

(٣) قوت القلوب (٢٦٧/١) .

(٤) رواه البخاري (٢٤٤٣) .

(٥) كذا الخبر في « القوت » (٣٣/٢) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٥١٢/٩) .

الخلقُ والحياةُ والرزقُ والبقاءُ . . فليسَ إليهِ ، فلوْ خُلِقَ . . لكانَ ثوابُهُ علىٰ فعلِهِ ، وفعلُهُ لمْ ينعدمْ ؛ فكذٰلكَ أمرُ السرقةِ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : أنَّهُ إذا وجدَ المالَ مسروقاً . . فينبغي ألا يحزنَ ، بلْ يفرحُ إنْ أمكنَهُ ويقولُ : لولا أنَّ الخيرةَ كانَتْ فيهِ . . لما سلبَهُ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ إنْ لمْ يكنْ قدْ جعلَهُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا يبالغْ في طلبِهِ وإساءةِ الظنِّ بالمسلمينَ ، وإنْ كانَ قدْ جعلَهُ في سبيلِ اللهِ . . فيتركُ طلبَهُ ، فإنَّهُ قدْ قدَّمَهُ ذخيرةً لنفسِهِ إلى الآخرةِ ، فإنْ أُعيدَ إليهِ . . فالأولىٰ ألا يقبلَهُ بعدَ أنْ كانَ قدْ جعلَهُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإنْ قبلَهُ . . فهوَ في ملكِهِ في ظاهرِ العلمِ ؛ لأنَّ الملكَ لا يزولُ بمجرَّدِ تلكَ النيَّةِ ، ولٰكنَّهُ غيرُ محبوبٍ عندَ المتوكلينَ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما سُرِقَتْ ناقتُهُ ، فطلبَها حتَّىٰ أعيا ، ثمَّ قالَ : في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، فدخلَ المسجدَ ، فصلَّىٰ ركعتينِ ، فجاءَهُ رجلٌ فقالَ : يا أبا عبدِ الرحمٰنِ ؛ إنَّ ناقتَكَ في مكانِ كذا ، فلبسَ نعلَهُ وقامَ ، ثمَّ قالَ : أستغفرُ اللهَ ، وجلسَ ، فقيلَ لهُ : ألا تذهبُ فتأخذَها ؟ فقالَ : إنِّي كنتُ قلتُ : في سبيلِ اللهِ[1]

وقالَ بعضُ الشيوخِ : رأيتُ بعضَ إخواني في النومِ بعدَ موتِهِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي وأدخلَني الجنَّةَ ، وعرضَ عليَّ منازلي فيها فرأيتُها ، قالَ : وهوَ معَ ذٰلكَ كئيبٌ حزينٌ ، فقلتُ : قدْ دخلتَ الجنَّةَ وغُفِرَ لكَ وأنتَ حزينٌ ؟! فتنفَّسَ الصعداءَ ثمَّ قالَ : نعمْ ، إنِّي لا أزالُ حزيناً إلىٰ يومِ القيامةِ ، قلتُ : ولِمَ ذٰلكَ ؟ قالَ : إنِّي لمَّا رأيتُ منازلي مِنَ الجنَّةِ . . رُفِعَتْ لي مقاماتٌ في علِّيينَ ما رأيتُ مثلَها فيما رأيتُ ، ففرحتُ بها ، فلمَّا هممتُ بدخولِها . . نادىٰ منادٍ مِنْ فوقِها : اصرفوهُ عنها ، فليسَتْ هٰذهِ لهُ ، إنَّما هٰذهِ لمَنْ أمضى السبيلَ ، فقلتُ : وما أمضى السبيلَ ؟ فقيلَ لي : كنتَ تقولُ للشيءِ إنَّهُ في سبيلِ اللهِ ، ثمَّ ترجعُ فيهِ ، فلوْ كنتَ أمضيتَ السبيلَ . . لأمضينا لكَ[2]

وحُكيَ عنْ بعضِ العبَّادِ بمكَّةَ أنَّهُ كانَ نائماً بجنبِ رجلٍ معَهُ هميانٌ ، فانتبهَ الرجلُ ففقدَ هميانَهُ ، فاتهمَهُ بهِ ، فقالَ لهُ : كمْ كانَ في هميانِكَ ؟ فذكرَهُ ، فحملَهُ إلى البيتِ ووزنَهُ مِنْ عندِهِ ، ثمَّ بعدَ ذٰلكَ أعلمَهُ أصحابُهُ أنَّهُمْ كانوا أخذوا الهميانَ مزحاً معَهُ ، فجاءَ هوَ وأصحابُهُ وردُّوا الذهبَ ، فأبىٰ وقالَ : خذْهُ حلالاً طيِّباً ، فما كنتُ لأعودَ في مالٍ أخرجتُهُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلمْ يقبلْ ، فألحُّوا عليهِ ، فدعا ابناً لهُ وجعلَ يصرُّهُ صُرراً ويبعثُ بها إلى الفقراءِ حتَّىٰ لمْ يبقَ منهُ شيءٌ[3]

فهٰكذا كانَتْ أخلاقُ السلفِ ، وكذٰلكَ مَنْ أخذَ رغيفاً ليعطيَهُ فقيراً ، فغابَ عنهُ . . كانَ يكرهُ ردَّهُ إلى البيتِ بعدَ إخراجِهِ ، فيعطيهِ فقيراً آخرَ ، وكذٰلكَ يفعلُ في الدراهمِ والدنانيرِ وسائرِ الصدقاتِ[4]

❁ ❁ ❁

الخامسُ ـ وهوَ أقلُّ الدرجاتِ ـ : ألا يدعوَ على السارقِ الذي ظلمَهُ بالأخذِ ، فإنْ فعلَ . . بطلَ توكلُهُ ، ودلَّ ذٰلكَ علىٰ كراهتِهِ وتأسُّفِهِ علىٰ مَا فاتَ ، وبطلَ زهدُهُ ، وإنْ بالغَ فيهِ . . بطلَ أيضاً أجرُهُ فيما أُصيبَ بهِ ، ففي الخبرِ : « مَنْ دعا علىٰ مَنْ ظلمَهُ . . فقدِ انتصرَ »[5]

---

(١) قوت القلوب (٣٣/٢) .

(٢) قوت القلوب (٣٤/٢) .

(٣) قوت القلوب (٣٤/٢) يرويه عن بعض الأشياخ عن شيخ كان بمكة من العبَّاد .

(٤) قوت القلوب (٣٤/٢) ، وقال بعده : (وهٰذا طريق قد عفا أثره ، ودرس خبره ، فمن عمل به . . فقد أحياه وأظهره ، وقد كان قديماً طريقاً إلى الله تعالىٰ عليه السابلة من الأولياء) .

(٥) رواه الترمذي (٣٥٥٢) .

وحُكيَ أنَّ الربيعَ بنَ خُثيمٍ سُرِقَ فرسُهُ ، وكانَ ثمنُهُ عشرينَ ألفاً ، وكانَ قائماً يصلِّي فلمْ يقطعْ صلاتَهُ ، ولمْ ينزعجْ لطلبِهِ ، فجاءَهُ قومٌ يعزُّونَهُ ، فقالَ : أما إنِّي قدْ كنتُ رأيتُهُ وهوَ يحلُّهُ ، قيلَ : وما منعَكَ أنْ تزجرَهُ ؟ قالَ : كنتُ فيما هوَ أحبُّ إليَّ مِنْ ذٰلكَ ـ يعني : الصلاةَ ـ قالَ : فجعلوا يدعونَ عليهِ ، فقالَ : لا تفعلوا وقولوا خيراً ؛ فإنِّي قدْ جعلتُها صدقةً عليهِ[1]

وقيلَ لبعضِهِمْ في شيءٍ قدْ كانَ سُرِقَ لهُ : ألا تدعو علىٰ ظالمِكَ ؟ قالَ : ما أحبُّ أنْ أكونَ عوناً للشيطانِ عليهِ ، قيلَ : أفرأيتَ لوْ رُدَّ عليكَ ؟ قالَ : لا آخذُهُ ولا أنظرُ إليهِ ؛ لأنِّي كنتُ قدْ أحللتُهُ لهُ[2]

وقيلَ لآخرَ : ادعُ اللهَ علىٰ مَنْ ظلمَكَ ، فقالَ : ما ظلمَني أحدٌ ، ثمَّ قالَ : إنَّما ظلمَ نفسَهُ ، ألا يكفيهِ المسكينَ ظلمُهُ لنفسِهِ حتَّىٰ أزيدَهُ شرّاً ؟![3]

وأكثرَ بعضُهُمْ شتمَ الحجَّاجِ عندَ بعضِ السلفِ في ظلمِهِ ، فقالَ : لا تغرقْ في شتمِهِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ ينتصفُ للحجَّاجِ ممَّنَ انتهكَ عرضَهُ كما ينتصفُ منهُ لمَنْ أخذَ مالَهُ ودمَهُ[4]

وفي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليُظلَمُ المظلمةَ ، فلا يزالُ يشتمُ ظالمَهُ ويسبُّهُ حتَّىٰ يكونَ بمقدارِ ما ظلَمَهُ ، ثمَّ يبقىٰ للظالمِ عليهِ مطالبةٌ بما زادَ عليهِ يُقتصُّ لهُ مِنَ المظلومِ »[5]

❋ ❋ ❋

السادسُ : أنْ يغتمَّ لأجلِ السارقِ وعصيانِهِ وتعرُّضِهِ لعذابِ اللهِ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ إذْ جعلَهُ مظلوماً ولمْ يجعلْهُ ظالماً ، وجعلَ ذٰلكَ نقصاناً في دنياهُ لا نقصاناً في دينِهِ ، فقدْ شكا بعضُ الناسِ إلىٰ عالمٍ أنَّهُ قُطِعَ عليهِ الطريقُ وأُخِذَ مالُهُ ، فقالَ : إنْ لمْ يكنْ غمُّكَ أنَّهُ قدْ صارَ في المسلمينَ مَنْ يستحلُّ هٰذا أكثرَ مِنْ غمِّكَ بمالِكَ . . فما نصحتَ للمسلمينَ[6]

وسُرِقَ مِنْ عليِّ بنِ الفضيلِ دنانيرُ وهوَ يطوفُ بالبيتِ ، فرآهُ أبوهُ وهوَ يبكي ويحزنُ ، فقالَ : أعلى الدنانيرِ تبكي ؟! فقالَ : لا واللهِ ، ولٰكنْ على المسكينِ أنَّهُ يُسألُ يومَ القيامةِ ولا تكونُ لهُ حجَّةٌ[7]

وقيلَ لبعضِهِمْ : ادعُ علىٰ مَنْ ظلمَكَ ، فقالَ : إنِّي مشغولٌ بالحزنِ عليهِ عنِ الدعاءِ عليهِ[8] ، فهٰذهِ أخلاقُ السلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ .

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (٢/٣٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/٣٤) .

(٣) قوت القلوب (٢/٣٤) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٧٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٢٨٤) بنحوه ، ولفظه هنا في « القوت » (٢/٣٤) .

(٥) أورده ابن بطال في « شرحه لصحيح البخاري » (١٠/١٨٦) عن عمر بن عبد العزيز بلاغاً ، ومعناه مروي عند الترمذي (٣٥٥٢) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من دعا علىٰ من ظلمه . . فقد انتصر » ، ولفظه هنا في « القوت » (٢/٣٤) .

(٦) قوت القلوب (٢/٣٤) .

(٧) قوت القلوب (٢/٣٤) .

(٨) قوت القلوب (٢/٣٤) .

الفنّ الرّابع : السّعي في إزالة الضّرر كمداواة المرض وأمثاله

اعلمْ : أنَّ الأسبابَ المزيلةَ للضررِ أيضاً تنقسمُ إلىٰ مقطوعٍ بهِ ؛ كالماءِ المزيلِ لضررِ العطشِ ، والخبزِ المزيلِ لضررِ الجوعِ ، وإلىٰ مظنونٍ ؛ كالفصدِ ، والحجامةِ ، وشربِ الدواءِ المسهلِ ، وسائرِ أبوابِ الطبِّ ؛ أعني : معالجةَ البرودةِ بالحرارةِ ، والحرارةِ بالبرودةِ ، وهيَ الأسبابُ الظاهرةُ في الطبِّ ، وإلىٰ موهومٍ ؛ كالكيِّ والرقيةِ .

أمَّا المقطوعُ بهِ . . فليسَ مِنَ التوكلِ تركُهُ ، بلْ تركُهُ حرامٌ عندَ خوفِ الموتِ .

وأمَّا الموهومُ . . فشرطُ التوكلِ تركُهُ ؛ إذْ بهِ وصفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المتوكلينَ ، وأقواها الكيُّ ، ويليهِ الرقيةُ ، والطيرةُ آخرُ درجاتِها ، والاعتمادُ عليها والاتكالُ إليها غايةُ التعمُّقِ في ملاحظةِ الأسبابِ .

وأمَّا الدرجةُ المتوسطةُ وهيَ المظنونةُ ؛ كالمداواةِ بالأسبابِ الظاهرةِ عندَ الأطباءِ . . ففعلُهُ ليسَ مناقضاً للتوكلِ ؛ بخلافِ الموهومِ ، وتركُهُ ليسَ محظوراً ؛ بخلافِ المقطوعِ بهِ ، بلْ قدْ يكونُ أفضلَ مِنْ فعلِهِ في بعضِ الأحوالِ ، وفي حقِّ بعضِ الأشخاصِ ، فهي علىٰ درجةٍ بينَ الدرجتينِ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ التداويَ غيرُ مناقضٍ للتوكلِ فعلُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقولُهُ ، وأمرُهُ بهِ .

أمَّا قولُهُ . . فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ داءٍ إلا ولهُ دواءٌ ، عرفَهُ مَنْ عرفَهُ ، وجهلَهُ مَنْ جهلَهُ ، إلا السامَ »[1] يعني : الموتَ

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تداوَوا عبادَ اللهِ ؛ فإنَّ اللهَ خلقَ الداءَ والدواءَ »[2]

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الدواءِ والرُّقىٰ : هلْ تردُّ مِنْ قدرِ اللهِ شيئاً ؟ فقالَ : « هيَ مِنْ قدرِ اللهِ »[3]

وفي الخبرِ المشهورِ : « ما مررتُ بملأٍ مِنَ الملائكةِ إلا قالوا : مُرْ أمَّتَكَ بالحجامةِ »[4]

وفي الحديثِ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أمرَ بها وقالَ : « احتجموا لسبعَ عشرةَ ، وتسعَ عشرةَ ، وإحدىٰ وعشرينَ ، لا يتبيَّغْ بكُمُ الدمُ فيقتلَكُمْ »[5] ، فذكرَ أنَّ تبيُّغَ الدمِ سببُ الموتِ ، وأنَّهُ قاتلٌ بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، وبيَّنَ أنَّ إخراجَ الدمِ خلاصٌ منهُ ؛ إذْ لا فرقَ بينَ إخراجِ الدمِ المهلكِ مِنَ الإهابِ وبينَ إخراجِ العقربِ مِنْ تحتِ الثيابِ ، وإخراجِ الحيَّةِ مِنَ البيتِ ، وليسَ مِنْ شرطِ التوكلِ تركُ ذٰلكَ ، بلْ هوَ كصبِّ الماءِ على النارِ لإطفائها ودفعِ ضررِها عندَ وقوعِها في البيتِ ، وليسَ مِنَ التوكلِ الخروجُ عنْ سنةِ الوكيلِ أصلاً

وفي خبرٍ مقطوعٍ : « مَنِ احتجمَ يومَ الثلاثاءِ لسبعَ عشرةَ مِنَ الشهرِ . . كانَ لهُ دواءً مِنْ داءِ سنةٍ »[6]

❁ ❁ ❁

(١) كذا في « القوت » (٢١/٢) ، وقد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٨٨٤) ، والطبراني في « الأوسط » (١٥٨٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٠١/٤) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٨٥٥) ، والترمذي (٢٠٣٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥٤/٢٤) .

(٣) رواه الترمذي (٢٠٦٥) ، وابن ماجه (٣٤٣٧) .

(٤) رواه الترمذي (٢٠٥٢) ، وابن ماجه (٣٤٧٩) .

(٥) رواه الترمذي (٢٠٥١) ولم يذكر التبيُّغ ، وابن ماجه (٣٤٨٦) ، والتبيُّغ : هيجان الدم حتىٰ تظهر حمرته في البدن .

(٦) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٣٨٧/١) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٠٠/٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٤٠/٩)

وأمّا أمرُهُ . . فقدْ أمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غيرَ واحدٍ مِنَ الصحابةِ بالتداوي والحميةِ [1] ، وقطعَ لسعدِ بنِ معاذٍ عرقاً ؛ أيْ : فصدَهُ [2] ، وكوىٰ سعدَ بنَ زرارةَ [3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليّ رضيَ اللهُ عنهُ وكانَ رَمِدَ العينِ : « لا تأكلْ مِنْ هـٰذا ـ يعني : الرطبَ ـ وكُلْ مِنْ هـٰذا ؛ فإنَّهُ أوفقُ لكَ » ؛ يعني : سلقاً قدْ طُبخَ بدقيقِ شعيرٍ [4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لصهيبٍ وقدْ رآهُ يأكلُ التمرَ وهوَ وجعُ العينِ : « تأكلُ تمراً وأنتَ رَمِدٌ ؟! » فقالَ : إنّي آكلُ مِنَ الجانبِ الآخرِ ، فتبسَّمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ [5] .

❁ ❁ ❁

وأمّا فعلُهُ . . فقدْ رُوِيَ في حديثٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يكتحلُ كلَّ ليلةٍ ، ويحتجمُ كلَّ شهرٍ ، ويشربُ الدواءَ كلَّ سنةٍ [6] .

وتداوىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غيرَ مرَّةٍ مِنَ العقربِ وغيرِها [7] .

ورُوِيَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنَّهُ كانَ إذا نزلَ عليهِ الوحيُ . . صُدِعَ رأسُهُ ، فكانَ يغلفُهُ بالحناءِ [8] .

وفي خبرٍ : أنَّهُ كانَ إذا خرجَتْ بهِ قرحةٌ . . جعلَ عليها حناءً [9] ، وقدْ جعلَ علىٰ قرحةٍ خرجَتْ بهِ تراباً [10] .

وما رُوِيَ في تداويهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وأمرِهِ بذٰلكَ خارجٌ عنِ الحصرِ ، وقدْ صُنِّفَ في ذٰلكَ كتابٌ وسُمِّيَ « طبَّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ » [11] .

وذكرَ بعضُ العلماءِ في الإسرائيلياتِ : أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ اعتلَّ بعلَّةٍ ، فدخلَ عليهِ بنو إسرائيلَ ، فعرفوا علَّتَهُ ، فقالوا لهُ : لوْ تداويتَ بكذا . . لبرئتَ ، فقالَ : لا أتداوىٰ حتَّىٰ يعافيَني هوَ مِنْ غيرِ دواءٍ ، فطالَتْ علَّتُهُ ، فقالوا لهُ : إنَّ دواءَ هـٰذهِ العلَّةِ معروفٌ مجرَّبٌ ، وإنَّا نتداوىٰ بهِ فنبرأُ ، فقالَ : لا أتداوىٰ ، فدامَتْ علَّتُهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : وعزَّتي ؛

---

(1) تقدم قريباً قوله صلى الله عليه وسلم : « تداووا » ، وسيأتي في قصة علي وصهيب رضي الله عنهما في الحمية .

(2) كما هو عند مسلم (٢٢٠٨) .

(3) كما هو عند ابن ماجه (٣٤٩٢) ، ثم مات رضي الله عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ميتة سوء لليهود ، يقولون : أفلا دفع عن صاحبه ، وما أملك له ولا لنفسي شيئاً » .

(4) رواه أبو داوود (٣٨٥٦) ، والترمذي (٢٠٣٧) ، وابن ماجه (٣٤٤٢) .

(5) رواه ابن ماجه (٣٤٤٣) .

(6) كذا في « القوت » (٢١/٢) ، وقد رواه من غير طريقهم ابن عدي في « الكامل » (٤٣٣/٣) .

(7) روى الطبراني في « الكبير » (٢٨٧/٢) عن جبلة بن الأزرق رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّى إلىٰ جنب جدار كثير الأحجرة صلىٰ ظهراً وعصراً ، فلما جلس في الركعتين . . خرجت عقرب فلدغته ، فغشي عليه ، فرقاه الناس ، فلما أفاق . . قال : « شفاني الله وليس برقيتكم » ، وروىٰ في « الأوسط » (١٠٩) عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكىٰ . تقمح كفاً من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً .

(8) رواه البزار في « مسنده » (٧٨٥٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٦٢٥) .

(9) رواه الترمذي (٢٠٥٤) ، وابن ماجه (٣٥٠٢) .

(10) فعند البخاري (٥٧٤٥) ، ومسلم (٢١٩٤) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح . . قال النبي صلى الله عليه وسلم بإصبعه هـٰكذا ـ ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها ـ : « باسم الله ، تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ؛ ليشفىٰ به سقيمنا بإذن ربنا » .

(11) وهما كتابان مشهوران بهـٰذا الاسم ، أحدهما للحافظ أبي بكر بن السني ، والثاني للحافظ أبي نعيم الأصبهاني . « إتحاف » (٥١٩/٩) .

لا أبرئُكَ حتَّىٰ تتداوىٰ بما ذكروهُ لكَ ، فقالَ لهُمْ : داووني بما ذكرتُمْ ، فداوَوهُ ، فبرأَ ، فأوجسَ في نفسِهِ مِنْ ذٰلكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ ، أردتَ أنْ تبطلَ حكمتي بتوكُّلِكَ عليَّ ؟! مَنْ أودعَ العقاقيرَ منافعَ الأشياءِ غيري ؟![1]

ورُوِيَ في خبرٍ آخرَ : أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ شكا علَّةً يجدُها ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : كُلِ البيضَ[2]

وشكا نبيٌّ آخرُ الضعفَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : كُلِ اللحمَ باللبنِ ؛ فإنَّ فيهِما القوَّةَ ، قيلَ : هوَ الضعفُ عنِ الجماعِ[3]

وقدْ رُوِيَ أنَّ قوماً شكَوا إلىٰ نبيِّهِمْ قبحَ أولادِهِمْ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : مُرْهُمْ أنْ يطعموا نساءَهُمْ الحبالى السفرجلَ ؛ فإنَّهُ يحسنُ الولدُ ، ويُفعلُ ذٰلكَ في الشهرِ الثالثِ والرابعِ ، إذْ فيهِ يُصوِّرُ اللهُ تعالى الولدَ ، وقدْ كانوا يطعمونَ الحبلى السفرجلَ ، والنفساءَ الرطبَ[4]

فبهٰذا تبيَّنَ أنَّ مسبِّبَ الأسبابِ أجرىٰ سنَّتَهُ بربطِ المسبَّباتِ بالأسبابِ إظهاراً للحكمةِ ، والأدويةُ أسبابٌ مسخَّرةٌ بحكمِ اللهِ تعالىٰ كسائرِ الأسبابِ ، فكما أنَّ الخبزَ دواءُ الجوعِ ، والماءَ دواءُ العطشِ . . فالسكنجبينُ دواءُ الصفراءِ ، والسقمونيا دواءُ الإسهالِ ، لا يفارقُهُ إلا في أحدِ أمرينِ :

أحدُهُما : أنَّ معالجةَ الجوعِ والعطشِ بالماءِ والخبزِ جليٌّ واضحٌ يدركُهُ كافةُ الناسِ ، ومعالجةُ الصفراءِ بالسكنجبينِ يدركُهُ بعضُ الخواصِّ ، فمَنْ أدركَ ذٰلكَ بالتجربةِ . . التحقَ في حقِّهِ بالأوَّلِ .

والثاني : أنَّ الدواءَ يسهلُ ، والسكنجبينُ يسكِّنُ الصفراءَ بشروطٍ أخرَ في الباطنِ ، وأسبابٍ في المزاجِ ، ربَّما يتعذَّرُ الوقوفُ علىٰ جميعِ شروطِها ، وربَّما يفوتُ بعضُ الشروطِ ، فيتقاعدُ الدواءُ عنِ الإسهالِ ، وأمَّا زوالُ العطشِ . . فلا يستدعي ـ سوى الماءِ ـ شروطاً كثيرةً ، وقدْ يتفقُ مِنَ العوارضِ ما يُوجبُ دوامَ العطشِ معَ كثرةِ شربِ الماءِ ، ولٰكنَّهُ نادرٌ .

واختلافُ الأسبابِ أبداً ينحصرُ في هٰذينِ الفنَّينِ ، وإلا . . فالمسبَّبُ يتلو السببَ ـ لا محالةَ ـ مهما تمَّتْ شروطُ السببِ ، وكلُّ ذٰلكَ بتدبيرِ مسبِّبِ الأسبابِ وتسخيرِهِ وترتيبِهِ بحكمِ حكمتِهِ وكمالِ قدرتِهِ ، فلا يضرُّ المتوكلَ استعمالُهُ مَعَ النظرِ إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ دونَ الطبيبِ والدواءِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ موسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : يا ربِّ ؛ ممَّنِ الدواءُ والشفاءُ ؟ فقالَ تعالىٰ : منِّي ، قالَ : فما يصنعُ الأطباءُ ؟ قالَ : يأكلونَ أرزاقَهُمْ ، ويطيّبونَ نفوسَ عبادي حتَّىٰ يأتيَ شفائِي أوْ قبضي[5]

فإذاً ؛ معنى التوكلِ معَ التداوي التوكلُ بالعلمِ والحالِ كما سبقَ في فنونِ الأعمالِ الدافعةِ للضررِ الجالبةِ للنفعِ ، وأمَّا تركُ التداوي رأساً . . فليسَ شرطاً فيهِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) قوت القلوب (٢/٢١) .
(٢) قوت القلوب (٢/٢١) .
(٣) قوت القلوب (٢/٢٢) .
(٤) قوت القلوب (٢/٢٢) .
(٥) قوت القلوب (٢/٢٢)

فإنْ قلتَ : فالكيُّ أيضاً مِنَ الأسبابِ الظاهرةِ النفعِ .

فأقولُ : ليسَ كذٰلكَ ؛ إذِ الأسبابُ الظاهرةُ مثلُ الفصدِ والحجامةِ وشربِ المسهلِ وسقيِ المبرداتِ للمحرورِ ، وأمَّا الكيُّ ؛ فلوْ كانَ مثلَها في الظهورِ .. لما خلتِ البلادُ الكثيرةُ عنهُ ، وقلَّما يُعتادُ الكيُّ في أكثرِ البلادِ ، وإنَّما ذٰلكَ عادةُ بعضِ الأتراكِ والأعرابِ ، فهوَ مِنَ الأسبابِ الموهومةِ كالرَّقْيِ[1] ، إلا أنَّهُ يتميَّزُ عنهُ بأمرٍ ، وهوَ أنَّهُ إحراقٌ بالنارِ في الحالِ معَ الاستغناءِ عنهُ ، فإنَّهُ ما مِنْ وجعٍ يُعالجُ بالكيِّ إلا ولهُ دواءٌ يغني عنهُ ليسَ فيهِ إحراقٌ ، فالإحراقُ بالنارِ جرحٌ مخرِّبٌ للبنيةِ ، محذورُ السرايةِ ، معَ الاستغناءِ عنهُ ، بخلافِ الفصدِ والحجامةِ ، فإنَّ سرايتَهُما بعيدةٌ ، ولا يسدُّ مسدَّهُما غيرُهما .

ولذٰلكَ نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الكيِّ دونَ الرَّقْيِ ، وكلُّ واحدٍ منهُما بعيدٌ عنِ التوكلِ[2]

ورُوِيَ أنَّ عمرانَ بنَ الحصينِ اعتلَّ ، فأشاروا عليهِ بالكيِّ ، فامتنعَ ، فلمْ يزالوا بهِ ، وعزمَ عليهِ الأميرُ حتَّى اكتوىٰ ، فكانَ يقولُ : (كنتُ أرىٰ نوراً وأسمعُ صوتاً ، وتسلِّمُ عليَّ الملائكةُ ، فلما اكتويتُ .. انقطعَ ذٰلكَ عنِّي)[3] ، وكانَ يقولُ : (اكتوينا كيَّاتٍ ، فواللهِ ؛ ما أفلحنَ ولا أنجحنَ)[4] ، ثمَّ تابَ مِنْ ذٰلكَ وأنابَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فردَّ اللهُ تعالىٰ عليهِ ما كانَ يجدُ مِنْ أمرِ الملائكةِ .

وقالَ لمطرفِ بنِ عبدِ اللهِ : (ألمْ ترَ إلى الكرامةِ التي كانَ أكرمَني اللهُ بها ، قدْ ردَّها عليَّ) ، بعدَ أنْ كانَ أخبرَهُ بفقدِها[5]

فإذاً ؛ الكيُّ وما يجرىٰ مجراهُ هوَ الذي لا يليقُ بالمتوكلِ ؛ لأنَّهُ يحتاجُ في استنباطِهِ إلىٰ تدبيرٍ ، ثمَّ هوَ موهومٌ ، فيدلُّ ذٰلكَ علىٰ شدَّةِ ملاحظةِ الأسبابِ وعلى التعمُّقِ فيها ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) مصدر ، يقال : رقاه رَقْياً ورُقِياً ، وعند الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٢٠/٩) جعله جمع رقية ، فهو الرُّقىٰ .

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٠) ولفظه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « الشفاء في ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنهىٰ أمتي عن الكي » .

(٣) كذا في « القوت » (٢٢/٢) ، والسياق عنده ، ورواه بنحوه أحمد في « المسند » (٤٢٧/٤) .

(٤) رواه أبو داوود (٣٨٦٥) .

(٥) كذا في « القوت » (٢٢/٢)

بيان أن ترك التداوي قد يُحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل ، وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلمْ : أنَّ الذينَ تداوَوا مِنَ السلفِ لا ينحصرونَ ، ولـٰكنْ قدْ تركَ التداويَ أيضاً جماعةٌ مِنَ الأكابرِ ، فربَّما يُظنُّ أنَّ ذٰلكَ نقصانٌ ؛ لأنَّهُ لوْ كانَ كمالاً . . لتركَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ لا يكونُ حالُ غيرِهِ في التوكلِ أكملَ مِنْ حالِهِ .

وقدْ رُوِيَ عنْ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قيلَ لهُ في مرضِهِ : لوْ دعونا لكَ طبيباً ؟ فقالَ : الطبيبُ قدْ نظرَ إليَّ وقالَ : إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ[١]

وقيلَ لأبي الدرداءِ في مرضِهِ : ما تشتكي ؟ قالَ : ذنوبي ، قيلَ : فما تشتهي ؟ قالَ : مغفرةَ ربِّي ، قالوا : ألا ندعو لكَ طبيباً ؟ قالَ : الطبيبُ أمرضَني[٢]

وقيلَ لأبي ذرٍّ وقدْ رمدَتْ عيناهُ : لوْ داويتَهُما ، قالَ : إنِّي عنهُما مشغولٌ ، فقيلَ : لوْ سألتَ اللهَ تعالىٰ أنْ يعافيَكَ ، فقالَ : أسألُهُ فيما هوَ أهمُّ عليَّ منهُما[٣]

وكانَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ أصابَهُ فالجٌ ، فقيلَ لهُ : لوْ تداويتَ ، فقالَ : قدْ هممتُ ثمَّ ذكرتُ عاداً وثمودَ وأصحابَ الرسِّ وقروناً بينَ ذٰلكَ كثيراً ، وكانَ فيهِمُ الأطباءُ ، فهلكَ المداوَىٰ والمداوِي ، ولمْ تغنِ الرُّقَىٰ شيئاً[٤]

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يقولُ : (أحبُّ لمَنِ اعتقدَ التوكلَ وسلكَ هـٰذا الطريقَ تركَ التداوي مِنْ شربِ الدواءِ وغيرِهِ)[٥] ، وكانَ بهِ عللٌ ، فلا يخبرُ المتطبِّبَ بها أيضاً إذا سألَهُ[٦]

وقيلَ لسهلٍ : متىٰ يصحُّ للعبدِ التوكلُ ؟ قالَ : إذا دخلَ عليهِ الضرُّ في جسمِهِ والنقصُ في مالِهِ . . فلمْ يلتفتْ إليهِ شغلاً بحالِهِ ، وينظرُ إلىٰ قيامِ اللهِ تعالىٰ عليهِ[٧]

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ منهُمْ مَنْ تركَ التداويَ وراءَهُ ، ومنهُمْ مَنْ كرهَهُ ، ولا يتضحُ وجهُ الجمعِ بينَ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأفعالِهِمْ إلا بحصرِ الصوارفِ عنِ التداوي ، فنقولُ : إنَّ لتركِ التداوي أسباباً :

السببُ الأوَّلُ : أنْ يكونَ المريضُ مِنَ المكاشَفينَ ، وقدْ كُوشفَ بأنَّهُ انتهىٰ أجلُهُ ، وأنَّ الدواءَ لا ينفعُهُ ، ويكونُ ذٰلكَ معلوماً عندَهُ تارةً برؤيا صادقةٍ ، وتارةً بحدسٍ وظنٍّ ، وتارةً بكشفٍ محقَّقٍ ، ويشبهُ أنْ يكونَ تركُ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ التداويَ مِنْ هـٰذا السببِ ؛ فإنَّهُ كانَ مِنَ المكاشَفينَ ، فإنَّهُ قالَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها في أمرِ الميراثِ : (إنَّما هُنَّ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٢٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٣٤) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/٢٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢١٨) .
(٣) قوت القلوب (٢/٢٣) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٠٧) .
(٥) قوت القلوب (٢/٢٢) .
(٦) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٩/٥٢٢) ، والمتطبب : متعاطي علم الطب وقد لا يعرفه معرفة جيدة .
(٧) قوت القلوب (٢/٢٣) .

أختاكِ) ، وما كانَ لها إلا أختٌ واحدةٌ ، ولٰكنْ كانَتِ امرأتُهُ حاملاً ، فولدَتْ أنثىٰ[1] ، فعُلِمَ أنَّهُ كانَ قدْ كُوشفَ بأنَّها حاملٌ بأنثىٰ ، فلا يبعدُ أنْ يكونَ قدْ كُوشفَ أيضاً بانتهاءِ أجلِهِ ، وإلا . . فلا يُظَنُّ بهِ إنكارُ التداوي وقدْ شاهدَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تداوىٰ وأمرَ بهِ .

❁ ❁ ❁

السببُ الثاني : أنْ يكونَ المريضُ مشغولاً بحالِهِ وبخوفِ عاقبتِهِ واطلاعِ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، فينسيهِ ذٰلكَ ألمَ المرضِ ، فلا يتفرَّغُ قلبُهُ للتداوي ؛ شغلاً بحالِهِ ، وعليهِ يدلُّ كلامُ أبي ذرٍّ إذْ قالَ : (إنِّي عنهُما مشغولٌ) ، وكلامُ أبي الدرداءِ إذْ قالَ : (إنَّما أشتكي ذنوبي) ، فكانَ تألُّمُ قلبِهِ خوفاً مِنْ ذنوبِهِ أكثرَ مِنْ تألُّمِ بدنِهِ بالمرضِ ، ويكونُ هٰذا كالمصابِ بموتِ عزيزٍ مِنْ أعزَّتِهِ ، أوْ كالخائفِ الذي يُحملُ إلىٰ ملكٍ مِنَ الملوكِ ليُقتلَ ، إذا قيلَ لهُ : ألا تأكلُ وأنتَ جائعٌ ؟ فيقولُ : أنا مشغولٌ عنْ ألمِ الجوعِ ، فلا يكونُ ذٰلكَ إنكاراً لكونِ الخبزِ نافعاً مِنَ الجوعِ ، ولا طعناً فيمَنْ أكلَ .

ويقربُ مِنْ هٰذا اشتغالُ سهلٍ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قيلَ لهُ : ما القوتُ ؟ فقالَ : هوَ الحيُّ القيُّومُ ، فقيلَ : إنَّما سألناكَ عنِ القوامِ ، فقالَ : القوامُ هوَ العلمُ ، قيلَ : سألناكَ عنِ الغذاءِ ، قالَ : الغذاءُ هوَ الذكرُ ، قيلَ : سألناكَ عنْ طعمةِ الجسدِ ، قالَ : ما لكَ وللجسدِ ؟! دعْ مَنْ تولاهُ أوَّلاً يتولاهُ آخراً ، إذا دخلَ عليهِ علةٌ . . فَرُدَّهُ إلىٰ صانعِهِ ، أما رأيتَ الصنعةَ إذا عابَتْ . . ردُّوها إلىٰ صانعِها حتَّىٰ يصلحَها ؟[2]

❁ ❁ ❁

السببُ الثالث : أنْ تكونَ العلَّةُ مزمنةً والدواءُ الذي يُؤمرُ بهِ بالإضافةِ إلىٰ علَّتِهِ موهومُ النفعِ ، جارٍ مجرى الكيِّ والرقيةِ ، فيتركُهُ المتوكلُ ، وإليهِ يشيرُ قولُ الربيعِ بنِ خُثيمٍ إذْ قالَ : (ذكرتُ عاداً وثمودَ وفيهِمُ الأطباءُ ، فهلكَ المداوَىٰ والمداوي) أيْ : إنَّ الدواءَ غيرُ موثوقٍ بهِ ، وهٰذا قد يكونُ كذٰلكَ في نفسِهِ ، وقدْ يكونُ عندَ المريضِ كذٰلكَ لقلَّةِ ممارستِهِ للطبِّ ، وقلَّةِ تجربتِهِ لهُ ، فلا يغلبُ علىٰ ظنِّهِ كونُهُ نافعاً ، ولا شكَّ في أنَّ الطبيبَ المجرِّبَ أشدُّ اعتقاداً في الأدويةِ مِنْ غيرِهِ ، فتكونُ الثقةُ والظنُّ بحسبِ الاعتقادِ ، والاعتقادُ بحسَبِ التجربةِ .

وأكثرُ مَنْ تركَ التداويَ مِنَ العبَّادِ والزهَّادِ هٰذا مستندُهُمْ ؛ لأنَّهُ يبقى الدواءُ عندَهُ شيئاً موهوماً لا أصلَ لهُ ، وذٰلكَ صحيحٌ في بعضِ الأدويةِ عندَ مَنْ عرفَ صناعةَ الطبِّ ، غيرُ صحيحٍ في البعضِ ، ولٰكنْ غيرُ الطبيبِ قدْ ينظرُ إلى الكلِّ نظراً واحداً ، فيرى التداويَ تعمُّقاً في الأسبابِ كالكيِّ والرَّقْيِ ، فيتركُهُ توكلاً .

❁ ❁ ❁

السببُ الرابعُ : أنْ يقصدَ العبدُ بتركِ التداوي استبقاءَ المرضِ ؛ لينالَ ثوابَ المرضِ بحسنِ الصبرِ علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ ، أوْ ليجرِّبَ نفسَهُ في القدرةِ على الصبرِ ، فقدْ وردَ في ثوابِ المرضِ ما يكثرُ ذكرُهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نحنُ معاشرَ الأنبياءِ أشدُّ الناسِ بلاءً ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ ، يُبتلى العبدُ علىٰ قدْرِ إيمانِهِ ، فإنْ كانَ صلبَ الإيمانِ . . شُدِّدَ عليهِ البلاءُ ، وإنْ كانَ في إيمانِهِ ضعفٌ . . خُفِّفَ عنهُ البلاءُ »[3]

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٧٥٢/٢) .

(٢) قوت القلوب (١٩/٢) .

(٣) كذا في « القوت » (٢٤/٢) ، ورواه بنحوه الترمذي (٢٣٩٨) ، وابن ماجه (٤٠٢٣)

وفي الخبرِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يجرِّبُ عبدَهُ بالبلاءِ كما يجرِّبُ أحدُكُمْ ذهبَهُ بالنارِ ، فمنهُمْ مَنْ يخرجُ كالذهبِ الإبريزِ ، ومنهُمْ دونَ ذٰلكَ ، ومنهُمْ مَنْ يخرجُ أسودَ محترقاً »[١]

وفي حديثٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ إذا أحبَّ عبداً . . ابتلاهُ ، فإنْ صبرَ . . اجتباهُ ، فإنْ رضيَ . . اصطفاهُ »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحبونَ أنْ تكونوا كالحمرِ الصيَّالةِ لا تمرضونَ ولا تسقمونَ ؟! »[٣]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (تجدُ المؤمنَ أصحَّ شيءٍ قلباً وأمرضَهُ جسماً ، وتجدُ المنافقَ أصحَّ شيءٍ جسماً وأمرضَهُ قلباً)[٤]

فلمَّا عظُمَ الثناءُ على المرضِ والبلاءِ . . أحبَّ قومٌ المرضَ واغتنموهُ ؛ لينالوا ثوابَ الصبرِ عليهِ ، فكانَ فيهِمْ مَنْ لهُ علَّةٌ يخفيها ولا يذكرُها للطبيبِ ، ويقاسي العلَّةَ ، ويرضىٰ بحكمِ اللهِ تعالىٰ ، ويعلمُ أنَّ الحقَّ أغلبُ علىٰ قلبِهِ مِنْ أنْ يشغلَهُ المرضُ عنهُ ، وإنَّما يمنعُ المرضُ جوارحَهُ ، وعلموا أنَّ صلاتَهُمْ قعوداً مثلاً معَ الصبرِ علىٰ قضاءِ اللهِ تعالىٰ أفضلُ مِنَ الصلاةِ قياماً معَ العافيةِ والصحةِ ، ففي الخبرِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لملائكتِهِ : اكتبوا لعبدي صالحَ ما كانَ يعملُ ؛ فإنَّهُ في وثاقي ، إنْ أطلقتُهُ . . أبدلتُهُ لحماً خيراً مِنْ لحمِهِ ، ودماً خيراً مِنْ دمِهِ ، وإنْ توفيتُهُ . . توفيتُهُ إلىٰ رحمتي »[٥] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الأعمالِ ما أُكرهَتْ عليهِ النفوسُ »[٦] ، فقيلَ : معناهُ : ما دخلَ عليها مِنَ الأمراضِ والمصائبِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ .

وكانَ سهلٌ يقولُ : (تركُ التداوي وإنْ ضعفَ عنِ الطاعاتِ وقصرَ عنِ الفرائضِ أفضلُ مِنَ التداوي لأجلِ الطاعاتِ)[٧] .

وكانَتْ بهِ علَّةٌ عظيمةٌ ، فلمْ يكنْ يتداوىٰ منها ، وكانَ يداوي الناسَ منها ، وكانَ إذا رأى العبدَ يصلِّي مِنْ قعودٍ ولا يستطيعُ أعمالَ البرِّ مِنَ الأمراضِ ، فيتداوىٰ للقيامِ في الصلاةِ والنهوضِ إلى الطاعةِ . . يعجبُ مِنْ ذٰلكَ ويقولُ : (صلاتُهُ مِنْ قعودٍ مع الرضا بحالِهِ أفضلُ مِنَ التداوي للقوَّةِ والصلاةِ قائماً)[٨]

وسُئِلَ عنْ شربِ الدواءِ ، فقالَ : (كلُّ مَنْ دخلَ في شيءٍ مِنَ الدواءِ فإنَّما هوَ سعةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ لأهلِ الضعفِ ، ومَنْ لمْ يدخلْ في شيءٍ منهُ . . فهوَ أفضلُ ؛ لأنَّهُ إنْ أخذَ شيئاً مِنَ الدواءِ ولوْ كانَ هوَ الماءَ الباردَ . . يُسألُ عنهُ لِمَ أخذتَ ؟ ومَنْ لمْ يأخذْ . . فلا سؤالَ عليهِ)[٩]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٧) ، والطبراني في « الكبير » (٨/١٦٦)

(٢) كذا في « القوت » (٢/٢٥) ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٥٤) ، وبلفظه ذكره صاحب « الفردوس » (٩٧١) من حديث علي رضي الله عنه .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٢٤) ، ورواه الروياني في « مسنده » (١٥٤٤) ، وبنحوه البيهقي في « الشعب » (٩٣٩٣) ، وقال : (وسألت عنه ـ الحمر الصيالة ـ بعض أهل الأدب ، فزعم أنه أراد حمر الوحش التي تصول ، وهو أصح الحيوانات جسماً ، وأقيمت الياء مقام الواو) .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٩٠٤) .

(٥) قوت القلوب (٢/٢٥) ، وبنحوه رواه أحمد في « المسند » (٢/١٥٩) ، وابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٦) .

(٦) قوت القلوب (٢/٢٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١٣) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١/٤٨) من قول عمر بن عبد العزيز .

(٧) قوت القلوب (٢/٢٣) .

(٨) قوت القلوب (٢/٢٣) .

(٩) قوت القلوب (٢/٢٣) .

وكان مذهبُهُ ومذهبُ البصريينَ تضعيفَ النفسِ بالجوعِ وكسرِ الشهواتِ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ ذرَّةً مِنْ أعمالِ القلوبِ مثلَ الصبرِ والرضا والتوكلِ أفضلُ مِنْ أمثالِ الجبالِ مِنْ أعمالِ الجوارحِ [١] ، والمرضُ لا يمنعُ مِنْ أعمالِ القلوبِ إلا إذا كانَ ألمُهُ غالباً مدهشاً .

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (عللُ الأجسامِ رحمةٌ ، وعللُ القلوبِ عقوبةٌ) [٢]

❁ ❁ ❁

السببُ الخامسُ : أنْ يكونَ العبدُ قدْ سبقَ لهُ ذنوبٌ وهوَ خائفٌ منها ، عاجزٌ عنْ تكفيرِها ، فيرى المرضَ إذا طالَ تكفيراً ، فيتركَ التداويَ خوفاً مِنْ أنْ يسرعَ زوالُ المرضِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تزالُ الحمَّىٰ والمليلةُ بالعبدِ حتَّىٰ يمشيَ على الأرضِ كالبردةِ ما عليهِ ذنبٌ ولا خطيئةٌ » [٣]

وفي الخبرِ : « حمَّىٰ يومٍ كفارةُ سنةٍ » [٤] ، فقيلَ : لأنَّها تهدُّ قوَّةَ سنةٍ ، وقيلَ : للإنسانِ ثلاثُ مئةٍ وستونَ مفصلاً ، فتدخلُ الحمَّىٰ في جميعِها ، ويجدُ مِنْ كلِّ واحدٍ ألماً ، فيكونُ كلُّ ألمٍ كفارةَ يومٍ [٥]

ولمَّا ذكرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كفارةَ الذنوبِ بالحمَّىٰ . . سألَ زيدُ بنُ ثابتٍ ربَّهُ عزَّ وجلَّ ألا يزالَ محموماً ، فلمْ تكنِ الحمَّىٰ تفارقُهُ حتَّىٰ ماتَ رضيَ اللهُ عنهُ [٦]

وسألَ ذٰلكَ طائفةٌ مِنَ الأنصارِ ، فكانَتِ الحمَّىٰ لا تزايلُهُمْ [٧]

ولمَّا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أذهبَ اللهُ كريمتيهِ . . لمْ يرضَ لهُ ثواباً دونَ الجنةِ » . . قالَ : فلقدْ كانَ مِنَ الأنصارِ مَنْ يتمنَّى العمىٰ [٨]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا يكونُ عالماً مَنْ لمْ يفرحْ بدخولِ المصائبِ والأمراضِ علىٰ جسدِهِ ومالِهِ لما يرجو في ذٰلكَ مِنْ كفارةِ خطاياهُ) [٩]

ورُويَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ نظرَ إلىٰ عبدٍ عظيمِ البلاءِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ ارحمْهُ ، فقالَ تعالىٰ : كيفَ أرحمُهُ ممَّا بهِ أرحمُهُ ؛ أي : بهِ أكفِّرُ ذنوبَهُ ، وأزيدُ في درجاتِهِ [١٠]

❁ ❁ ❁

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٢٤) ، ورواه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٩٤٣٣) ولفظه : « إن الحمىٰ والمليلة لا يزالان بالمؤمن وإن ذنبه مثل أحد ، فما يدعانه وعليه من ذنبه مثقال حبة من خردل » ، وعند الترمذي (٢٠٨٦) : « إنما مثل المريض إذا برأ وصحَّ كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها » ، والمليلة : حرارة يجدها المرء ، وهي حمَّىٰ في العظام .

(٤) كذا في « القوت » (٢/٢٤) ، ورواه تمام في « فوائده » (٤٧٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٦٢) .

(٥) قوت القلوب (٢/٢٤) .

(٦) كذا في « القوت » (٢/٢٤) .

(٧) منهم أبي بن كعب رضي الله عنه ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٩٤٩٧) عنه قال : (اللهم ؛ إني أسألك ألا تزال الحمىٰ مضارعة لجسد أبي بن كعب حتىٰ يلقاك ، لا تمنعه من صلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيلك) ، فارتكبته الحمىٰ مكانه ، فلم تفارقه حتىٰ مات ، وكان في ذٰلك يشهد الصلاة ويصوم ويحج ويعتمر ويغزو .

(٨) كذا في « القوت » (٢/٢٤) ، والحديث رواه الترمذي (٢٤٠١) .

(٩) قوت القلوب (٢/٢٤) .

(١٠) قوت القلوب (٢/٢٤) ، وقال الله تعالىٰ في تصديق ذٰلك : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، فأخبر أن ترك الرحمة لهم من الأمراض لطفاً بهم ورحمة بالمنة لهم . « إتحاف » (٩/٥٢٧) .

السببُ السادسُ : أنْ يستشعرَ العبدُ مِنْ نفسِهِ مبادئَ البطرِ والطغيانِ بطولِ مدَّةِ الصحةِ ، فيتركَ التداويَ خوفاً مِنْ أنْ يعاجلَهُ زوالُ المرضِ فتعاودَهُ الغفلةُ والبطرُ والطغيانُ ، أوْ طولُ الأملِ والتسويفُ في تداركِ الفائتِ وتأخيرِ الخيراتِ ؛ فإنَّ الصحةَ عبارةٌ عنْ قوَّةِ الصفاتِ ، وبها ينبعثُ الهوىٰ وتتحرَّكُ الشهواتُ ، وتدعو إلى المعاصي ، وأقلُّها أنْ تدعوَ إلى التنعُّمِ في المباحاتِ ، وهوَ تضييعٌ للأوقاتِ ، وإهمالٌ للربحِ العظيمِ في مخالفةِ النفسِ وملازمةِ الطاعاتِ .

وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . لمْ يخلِهِ عنِ التنبيهِ بالأمراضِ والمصائبِ ، ولذٰلكَ قيلَ : (لا يخلو المؤمنُ مِنْ علَّةٍ أوْ قلَّةٍ أوْ ذِلَّةٍ)[١]

وقدْ رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : (الفقرُ سجني ، والمرضُ قيدي ، أحبسُ بهِ مَنْ أحبُّ مِنْ خلقي)[٢]

فإذا كانَ في المرضِ حبسٌ عنِ الطغيانِ وركوبِ المعاصي . . فأيُّ خيرٍ يزيدُ عليهِ ؟! ولِمَ ينبغي أنْ يشتغلَ بعلاجِهِ مَنْ يخافُ ذٰلكَ على نفسِهِ ؟! فالعافيةُ في تركِ المعاصي ؛ فقدْ قالَ بعضُ العارفينَ لإنسانٍ : كيفَ كنتَ بعدي ؟ قالَ : في عافيةٍ ، قالَ : إنْ كنتَ لمْ تعصِ اللهَ . . فأنتَ في عافيةٍ ، وإنْ كنتَ قدْ عصيتَهُ . . فأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ المعصيةِ ؟! ما عُوفيَ مَنْ عصى اللهَ[٣]

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ لمَّا رأىٰ زينةَ النَّبَطِ بالعراقِ في يومِ عيدِهِمْ : ما هٰذا الذي أظهروهُ ؟ قالوا : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ هٰذا يومُ عيدٍ لهُمْ ، فقالَ : كلُّ يومٍ لا نعصي اللهَ تعالىٰ فيهِ فهوَ لنا عيدٌ[٤]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، قيلَ : العوافي ، وقالَ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ ، وكذٰلكَ إذا استغنىٰ بالعافيةِ .

وقالَ بعضُهُمْ : إنَّما قالَ فرعونُ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ لطولِ العافيةِ ؛ لأنَّهُ لبثَ أربعَ مئةِ سنةٍ لمْ يُصدَّعْ لهُ رأسٌ ، ولمْ يُحمَّ لهُ جسمٌ ، ولمْ يضربْ عليهِ عرقٌ ؛ فادَّعى الربوبيةَ لعنَهُ اللهُ ، ولوْ أخذَتْهُ الشقيقةُ كلَّ يومٍ . . لشغلَتْهُ عنِ الفضولِ فضلاً عنْ دعوى الربوبيةِ[٥]

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنْ ذكرِ هاذمِ اللذاتِ »[٦] ، وقيلَ : (الحمَّىٰ رائدُ الموتِ)[٧] ، فهيَ تذكرةٌ بهِ ، ودافعةٌ للتسويفِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، قيلَ : يفتنونَ بأمراضٍ يُختبرونَ بها[٨]

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٤) .
(٢) قوت القلوب (٢/٢٤) .
(٣) قوت القلوب (٢/٢٤) .
(٤) قوت القلوب (٢/٢٤) .
(٥) قوت القلوب (٢/٢٤) .
(٦) رواه الترمذي (٢٣٠٧) ، والنسائي (٤/٤) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٤) عن سعيد بن جبير ، ومرسلاً عن الحسن (٧٣) ، وفي (ج ، د ، ن ، ع) : (بريد) بدل (رائد) ، وهي كذٰلك في « القوت » (٢/٢٦) ، ورواها كذٰلك أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٢٩) عن أبي حفص النيسابوري .
(٨) قوت القلوب (٢/٢٦) .

ويُقالُ : إنَّ العبدَ إذا مرضَ مرضتينِ ثمَّ لمْ يتبْ . . قالَ لهُ ملكُ الموتِ : يا غافلُ ؛ جاءَكَ منِّي رسولٌ بعدَ رسولٍ فلمْ تُجبْ ؟![1]

وقدْ كانَ السلفُ لذلكَ يستوحشونَ إذا خرجَ عامٌ لم يُصابوا فيهِ بنقصٍ في نفسٍ أوْ مالٍ[2]

وقالوا : لا يخلو المؤمنُ في كلِّ أربعينَ يوماً أنْ يُروَّعَ روعةً ، أوْ يُصابَ ببليَّةٍ ، حتَّىٰ رُويَ أنَّ عمارَ بنَ ياسرٍ تزوَّجَ امرأةً ، فلمْ تكنْ تمرضُ ، فطلَّقَها[3] ، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عُرِضَتْ عليهِ امرأةٌ ، فذُكِرَ مِنْ وصفِها حتَّىٰ همَّ أنْ يتزوجَها ، فقيلَ : وإنَّها ما مرضَتْ قطُّ ، فقالَ : « لا حاجةَ لي فيها »[4]

وذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأمراضَ والأوجاعَ ؛ كالصداعِ وغيرِهِ ، فقالَ رجلٌ : وما الصداعُ ؟ ما أعرفُهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إليكَ عنِّي ، مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ النارِ . . فلينظرْ إلىٰ هٰذا »[5] ، وهٰذا لأنَّهُ وردَ في الخبرِ : أنَّ الحمَّىٰ حظُّ كلِّ مؤمنٍ مِنَ النارِ[6]

وفي حديثِ أنسٍ وعائشةَ رضيَ اللهُ عنهُما : قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ يكونُ معَ الشهداءِ يومَ القيامةِ غيرُهُمْ ؟ فقالَ : « نعمْ ، مَنْ ذكرَ الموتَ في كلِّ يومٍ عشرينَ مرَّةً » ، وفي لفظٍ آخرَ : « الذي يذكرُ ذنوبَهُ فتحزنُهُ »[7] ، ولا شكَّ في أنَّ ذكرَ الموتِ على المريضِ أغلبُ .

فلمَّا أنْ كثرَتْ فوائدُ المرضِ . . رأىٰ جماعةٌ تركَ الحيلةِ في زوالِها ؛ إذْ رأَوا لأنفسِهِمْ مزيداً فيها ، لا مِنْ حيثُ رأَوا التداويَ نقصاناً ، وكيفَ يكونُ نقصاناً وقدْ فعلَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟!

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (٢٦/٢) ، والمعنىٰ : فلم تُجبْ إلا أن آتيك بنفسي أضربك ضربة أقطع منك الوتين . « إتحاف » (٥٢٩/٩) .

(٢) قوت القلوب (٢٦/٢) .

(٣) قوت القلوب (٢٦/٢) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١٥٥/٣) .

(٥) كذا في « القوت » (٢٦/٢) ، وقد رواه أبو داوود (٣٠٨٩) ، إذ قال الرجل : وما الأسقام ؟ والله ما مرضت قط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُمْ عنا ، فلست منا » .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (ص ١٥٧) ، وعند الترمذي (٢٠٨٨) ، وابن ماجه (٣٤٧٠) أنه صلى الله عليه وسلم قال للذي وعك : « أبشر ، فإن الله يقول : هي ناري أسلطها علىٰ عبدي المؤمن في الدنيا ؛ لتكون حظه من النار في الآخرة » .

(٧) كذا بروايته في « القوت » (٢٦/٢) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها ، ولفظه أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يوم خمسة وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات علىٰ فراشه . . أعطاه الله أجر شهيد » .

بيان الرّدّ على من قال : إنّ ترك التّداوي أفضل بكلّ حال

فلوْ قالَ قائلٌ : إنَّما فعلَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليسُنَّ لغيرِهِ ، وإلا . . فهوَ حالُ الضعفاءِ ، ودرجةُ الأقوياءِ تُوجبُ التوكلَ بتركِ الدواءِ .

فيُقالُ لهُ : فينبغي أنْ يكونَ مِنْ شرطِ التوكلِ تركُ الحجامةِ والفصدِ عندَ تبيُّغِ الدمِ ، فإنْ قيلَ : إنَّ ذٰلكَ أيضاً شرطٌ . . فليكنْ مِنْ شرطِهِ أنْ تلدغَهُ العقربُ أوِ الحيةُ فلا ينحِّيَها عنْ نفسِهِ ؛ إذِ الدمُ يلدغُ الباطنَ ، والعقربُ تلدغُ الظاهرَ ، فأيُّ فرقٍ بينَهُما ؟

فإنْ قالَ : وذٰلكَ أيضاً شرطُ التوكلِ .

فيُقالُ : ينبغي ألا يزيلَ لدغَ العطشِ بالماءِ ولدغَ الجوعِ بالخبزِ ولدغَ البردِ بالجبَّةِ ، وهٰذا لا قائلَ بهِ ، ولا فرقَ بينَ هٰذهِ الدرجاتِ ؛ فإنَّ جميعَ ذٰلكَ أسبابٌ رتَّبَها مسبِّبُ الأسبابِ سبحانَهُ وتعالىٰ وأجرىٰ بها سنَّتَهُ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ ذٰلكَ ليسَ مِنْ شرطِ التوكلِ ما رُويَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وعنِ الصحابةِ في قصَّةِ الطاعونِ ، فإنَّهُمْ لمَّا قصدوا الشامَ وانتهَوا إلى الجابيةِ[1] . . بلغَهُمُ الخبرُ أنَّ بهِ موتاً ذريعاً ووباءً عظيماً ، فافترقَ الناسُ فرقتينِ ، فقالَ بعضُهُمْ : لا ندخلُ على الوباءِ فنلقيَ بأيدينا إلى التهلكةِ ، وقالَتْ طائفةٌ أخرىٰ : بلْ ندخلُ ونتوكلُ ، ولا نهربُ مِنْ قدرِ اللهِ تعالىٰ ، ولا نفرُّ مِنَ الموتِ فنكونَ كمَنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، فرجعوا إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فسألوهُ عنْ رأيِهِ ، فقالَ : نرجعُ ولا ندخلُ على الوباءِ ، فقالَ لهُ المخالفونَ في رأيِهِ : أنفرُّ مِنْ قدرِ اللهِ تعالىٰ ؟! فقالَ عمرُ : نعمْ ، نفرُّ مِنْ قدرِ اللهِ إلىٰ قدرِ اللهِ ، ثمَّ ضربَ لهُمْ مثلاً وقالَ : أرأيتُمْ لوْ كانَ لأحدِكُمْ غنمٌ ، فنزلَ بها وادياً لهُ شعبتانِ ؛ إحداهُما مخصبةٌ ، والأخرىٰ مجدبةٌ ، أليسَ إنْ رعى المخصبةَ . . رعاها بقدرِ اللهِ تعالىٰ وإنْ رعى المجدبةَ . . رعاها بقدرِ اللهِ تعالىٰ ؟ فقالوا : نعمْ ، ثمَّ طلبَ عبدَ الرحمٰنِ بنَ عوفٍ ليسألَهُ عنْ رأيِهِ وكانَ غائباً ، فلمَّا أصبحوا . . جاءَ عبدُ الرحمٰنِ ، فسألَهُ عمرُ عنْ ذٰلكَ ، فقالَ : عندي فيهِ يا أميرَ المؤمنينَ شيءٌ سمعتُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ عمرُ : اللهُ أكبرُ !! فقالَ عبدُ الرحمٰنِ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إذا سمعتُمْ بالوباءِ بأرضٍ . . فلا تقدموا عليهِ ، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتُمْ بها . . فلا تخرجوا فراراً منهُ » ، ففرحَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بذٰلكَ وحمدَ اللهَ تعالىٰ إذْ وافقَ رأيَهُ ، ورجعَ بالناسِ مِنَ الجابيةِ[2]

فإذاً ؛ كيفَ اتفقَ الصحابةُ كلُّهُمْ علىٰ تركِ التوكلِ وهوَ مِنْ أعلى المقاماتِ إنْ كانَ أمثالُ هٰذا مِنْ شروطِ التوكلِ ؟

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلِمَ نهىٰ عنِ الخروجِ مِنَ البلدِ الذي فيهِ الوباءُ وسببُ الوباءِ في الطبِّ الهواءُ ، وأظهرُ طرقِ التداوي الفرارُ مِنَ المضرِّ ، والهواءُ هوَ المضرُّ ، فلِمَ لمْ يرخصْ فيهِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ لا خلافَ في أنَّ الفرارَ عنِ المضرِّ غيرُ منهيٍّ عنهُ ؛ إذِ الحجامةُ والفصدُ فرارٌ مِنَ المضرِّ وتركُ التوكلِ في

---

(١) موضع من أعمال دمشق ، يقع في شمال حوران .

(٢) رواه بمرفوعه البخاري (٥٧٢٩) ، ومختصراً مسلم (٢٢١٩) .

أمثالِ هٰذا مباحٌ ، وهٰذا لا يدلُّ على المقصودِ ، ولٰكنَّ الذي ينقدحُ فيهِ ـ والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ ـ أَنَّ الهواءَ لا يضرُّ مِنْ حيثُ يلاقي ظاهرَ البدنِ ، بلْ مِنْ حيثُ دوامُ الاستنشاقِ لهُ ، فإنَّهُ إذا كانَ فيهِ عفونةٌ ، ووصلَ إلى الرئةِ والقلبِ وباطنِ الأحشاءِ . . أثَّرَ فيها بطولِ الاستنشاقِ ، فلا يظهرُ الوباءُ على الظاهرِ إلا بعدَ طولِ التأثيرِ في الباطنِ ، فالخروجُ مِنَ البلدِ لا يخلصُ غالباً مِنَ الأثرِ الذي استحكمَ مِنْ قبلُ ، ولٰكنَّهُ يتوهَّمُ الخلاصَ ، فيصيرُ هٰذا مِنْ جنسِ الموهوماتِ ، كالرَّقْي والطيرةِ وغيرِهما ، ولوْ تجرَّدَ هٰذا المعنىٰ . . لكانَ مناقضاً للتوكلِ ولمْ يكنْ منهيّاً عنهُ ، ولٰكنْ صارَ منهياً عنهُ ؛ لأنَّهُ انضافَ إليهِ أمرٌ آخرُ ، وهوَ أنَّهُ لوْ رخَّصَ للأصحاءِ في الخروجِ . . لما بقيَ في البلدِ إلا المرضى الذين أقعدَهَمُ الطاعونُ وانكسرَتْ قلوبُهُمْ وفقدوا المتعهّدينَ ، ولمْ يبقَ في البلدِ مَنْ يسقيهِمُ الماءَ ويطعمُهُمُ الطعامَ ، وهمْ يعجزونَ عنْ مباشرتِهما بأنفسِهِمْ ، فيكونُ ذٰلكَ سعياً في إهلاكِهِمْ تحقيقاً ، وخلاصُهُمْ منتظرٌ ، كما أَنَّ خلاصَ الأصحَّاءِ منتظرٌ ، فلوْ أقاموا . . لمْ تكنِ الإقامةُ قاطعةً بالموتِ ، ولوْ خرجوا . . لمْ يكنِ الخروجُ قاطعاً بالخلاصِ ، وهوَ قاطعٌ في إهلاكِ الباقينَ ، والمسلمونَ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً ، والمؤمنونَ كالجسدِ الواحدِ ؛ إذا اشتكىٰ منهُ عضوٌ . . تداعىٰ إليهِ سائرُ أعضائِهِ .

فهٰذا هوَ الذي ينقدحُ عندَنا في تعليلِ النهيِ ، وينعكسُ هٰذا فيمَنْ لمْ يقدمْ بعدُ على البلدِ ؛ فإنَّهُ لمْ يؤثِّرِ الهواءُ في باطنِهِمْ ، ولا بأهلِ البلدِ حاجةٌ إليهِمْ .

نعمْ ؛ لوْ لمْ يبقَ في البلدِ إلا مطعونونَ ، وافتقروا إلى المتعهدينَ ، وقدمَ عليهِمْ قومٌ . . فربَّما كانَ ينقدحُ استحبابُ الدخولِ ها هنا لأجلِ الإعانةِ ، ولا يُنهىٰ عنِ الدخولِ ؛ لأنَّهُ تعرُّضٌ لضررٍ موهومٍ علىٰ رجاءِ دفعِ ضررٍ عنْ بقيَّةِ المسلمينَ ، ولهٰذا شُبِّهَ الفرارُ مِنَ الطاعونِ في بعضِ الأخبارِ بالفرارِ مِنَ الزحفِ[1] ؛ لأنَّ فيهِ كسراً لقلوبِ بقيَّةِ المسلمينَ ، وسعياً في إهلاكِهِمْ .

فهٰذهِ أمورٌ دقيقةٌ ، فمَنْ لا يلاحظُها ، وينظرُ إلىٰ ظواهرِ الأخبارِ والآثارِ . . يتناقضُ عندَهُ أكثرُ ما يسمعُهُ ، وغلطُ العبَّادِ والزهَّادِ في مثلِ هٰذا يكثرُ ، وإنَّما شرفُ العلمِ وفضيلتُهُ لأجلِ ذٰلكَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : ففي تركِ التداوي فضلٌ كما ذكرتَ ، فلِمَ لمْ يتركْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التداويَ لينالَ الفضْلَ ؟

فنقولُ : فيهِ فضْلٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ كثرَتْ ذنوبُهُ ليكفِّرَها ، أوْ خافَ علىٰ نفسِهِ طغيانَ العافيةِ وغلبةَ الشهواتِ ، أوِ احتاجَ إلىٰ ما يذكِّرُهُ الموتَ لغلبةِ الغفلةِ ، أوِ احتاجَ إلىٰ نيلِ ثوابِ الصابرينَ لقصورِهِ عنْ مقاماتِ الراضينَ والمتوكلينَ ، أوْ قصرَتْ بصيرتُهُ عنِ الاطلاعِ علىٰ ما أودعَ اللهُ تعالىٰ في الأدويةِ مِنْ لطائفِ المنافعِ حتَّىٰ صارَ في حقِّهِ موهوماً كالرَّقْيِ ، أوْ كانَ شغلُهُ بحالِهِ يمنعُهُ عنِ التداوي ، وكانَ التداوي يشغلُهُ عنْ حالِهِ لضعفِهِ عنِ الجمعِ ، فإلىٰ هٰذهِ المعاني رجعَتِ الصوارفُ في تركِ التداوي ، وكلُّ ذٰلكَ كمالاتٌ بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الخلقِ ، ونقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، بلْ كانَ مقامُهُ أعلىٰ مِنْ هٰذهِ المقاماتِ كلِّها ؛ إذْ كانَ حالُهُ يقتضي أنْ تكونَ مشاهدتُهُ علىٰ وتيرةٍ واحدةٍ عندَ وجودِ الأسبابِ وفقدِها ، فإنَّهُ لمْ يكنْ لهُ نظرٌ في الأحوالِ إلا إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، ومَنْ كانَ هٰذا مقامَهُ . . لمْ تضرُّهُ الأسبابُ ، كما ذكرنا أنَّ الرغبةَ في المالِ نقصٌ ، والرغبةَ عنِ المالِ كراهةً لهُ وإنْ كانتْ كمالاً فهوَ أيضاً نقصٌ

---

(1) فقد روىٰ أحمد في « المسند » (٦/٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « الفار من الطاعون كالفار من الزحف » .

بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يستوي عندَهُ وجودُ المالِ وعدمُهُ ، فاستواءُ الحجرِ والذهبِ أكملُ مِنَ الهربِ مِنَ الذهبِ دونَ الحجرِ ، وكانَ حالُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استواءَ المدرِ والذهبِ عندَهُ ، وكانَ لا يمسكُهُ لتعليمِ الخلقِ مقامَ الزهدِ ، فإنَّهُ منتهىٰ قوَّتِهِمْ ، لا لخوفِهِ علىٰ نفسِهِ مِنْ إمساكِهِ ، فإنَّهُ كانَ أعلىٰ رتبةً مِنْ أنْ تغرَّهُ الدنيا ، وقدْ عُرِضَتْ عليهِ خزائنُ الأرضِ فأبىٰ أنْ يقبلَها[1] ، فكذٰلكَ يستوي عندَهُ مباشرةُ الأسبابِ وتركُها لمثلِ هٰذهِ المشاهدةِ .

وإنَّما لمْ يتركِ استعمالَ الدواءِ جرياً علىٰ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ ، وترخيصاً لأمَّتِهِ فيما تمسُّ إليهِ حاجتُهُمْ ، معَ أنَّهُ لا ضررَ فيهِ ، بخلافِ ادخارِ الأموالِ ، فإنَّ ذٰلكَ يعظمُ ضررُهُ .

نعم ؛ التداوي لا يضرُّ إلا مِنْ حيثُ رؤيةُ الدواءِ نافعاً دونَ خالقِ الدواءِ ، وهٰذا قدْ نُهيَ عنهُ ، ومِنْ حيثُ إنَّهُ قدْ يُقصدُ بهِ الصحةُ ليُستعانَ بها على المعاصي ، وذٰلكَ منهيٌّ عنهُ ، والمؤمنُ في غالبِ الأمرِ لا يقصدُ ذٰلكَ ، وأحدٌ مِنَ المؤمنينَ لا يرى الدواءَ نافعاً بنفسِهِ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ جعلَهُ اللهُ تعالىٰ سبباً للنفعِ ، كما لا يرى الماءَ مروياً ولا الخبزَ مشبعاً ، فحكمُ التداوي في مقصودِهِ كحكمِ الكسبِ ؛ فإنَّهُ إنِ اكتسبَ للاستعانةِ على الطاعةِ أوْ على المعصيةِ . . كانَ لهُ حكمُها ، وإنِ اكتسبَ للتنعُّمِ بالمباحِ . . فلهُ حكمُهُ .

فقدْ ظهرَ بالمعاني التي أوردناها أنَّ تركَ التداوي قدْ يكونُ أفضلَ في بعضِ الأحوالِ ، وأنَّ التداويَ قدْ يكونُ أفضلَ في بعضٍ ، وأنَّ ذٰلكَ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ والنيَّاتِ ، وأنَّ واحداً مِنَ الفعلِ والتركِ ليسَ شرطاً في التوكلِ ، إلا تركَ الموهوماتِ ؛ كالكيِّ والرُّقْيِ ، فإنَّ ذٰلكَ تعمُّقٌ في التدبيراتِ لا يليقُ بالمتوكلينَ .

* * *

---

(١) فقد روى الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا ربِّ ، ولٰكن أشبع يوماً وأجوع يوماً . . . » .

بيان أحوال المتوكل في إظهار المرض وكتمانه

اعلمْ : أنَّ كتمانَ المرضِ وإخفاءَ الفقرِ وأنواعِ البلاءِ مِنْ كنوزِ البرّ ، وهوَ مِنْ أعلى المقاماتِ ؛ لأنَّ الرضا بحكمِ اللهِ تعالىٰ والصبرَ علىٰ بلائِهِ معاملةٌ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، فكتمانُهُ أسلمُ عنِ الآفاتِ ، ومعَ هٰذا فالإظهارُ لا بأسَ بهِ إذا صحَّتْ فيهِ النيَّةُ والقصدُ ، ومقاصدُ الإظهارِ ثلاثةٌ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ غرضُهُ التداويَ ، فيحتاجُ إلىٰ ذكرِهِ للطبيبِ ، فيذكرُهُ لا في معرضِ الشكايةِ ، بلْ في معرضِ الحكايةِ لما ظهرَ عليهِ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، فقدْ كانَ بشرٌ يصفُ لعبدِ الرحمٰنِ المتطبِّبِ أوجاعَهُ[١] ، وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يخبرُ بأمراضٍ يجدُها ويقولُ : (إنَّما أصفُ قدرةَ اللهِ تعالىٰ فيَّ)[٢]

❀ ❀ ❀

الثاني : أنْ يصفَ لغيرِ الطبيبِ وكانَ ممَّنْ يُقتدىٰ بهِ ، وكانَ مكيناً في المعرفةِ ، فأرادَ مِنْ ذِكْرِهِ أنْ يُتعلَّمَ منهُ حسنُ الصبرِ في المرضِ ، بلْ حسنُ الشكرِ بأنْ يظهرَ أنَّهُ يرى المرضَ نعمةً فيُشكرُ عليها ، فيتحدَّثُ بهِ كما يتحدَّثُ بالنعمِ ، وقالَ الحسنُ البصريُّ : (إذا حمدَ المريضُ اللهَ تعالىٰ وشكرَهُ ، ثمَّ ذكرَ أوجاعَهُ . . لمْ يكنْ ذٰلكَ شكوىٰ)[٣]

❀ ❀ ❀

الثالثُ : أنْ يظهرَ بذٰلكَ عجزَهُ وافتقارَهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ يحسنُ ممَّنْ تليقُ بهِ القوَّةُ والشجاعةُ ويُستبعدُ منهُ العجزُ ، كما رُويَ أنَّهُ قيلَ لعليّ رضيَ اللهُ عنهُ في مرضِهِ : كيفَ أنتَ ؟ قالَ : بشرٍّ ، فنظرَ بعضُهُمْ إلىٰ بعضٍ كأنَّهُمْ كرهوا ذٰلكَ ، وظنُّوا أنَّهُ شكايةٌ ، فقالَ : أتجلَّدُ على اللهِ ؟![٤] فأحبَّ أنْ يظهرَ عجزَهُ وافتقارَهُ معَ ما عُلِمَ بهِ مِنَ القوَّةِ والصرامةِ ، وتأدَّبَ فيهِ بتأديبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إيَّاهُ ؛ حيثُ مرضَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ فسمعَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يقولُ : اللهُمَّ ؛ صبِّرْني على البلاءِ ، فقالَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ سألتَ اللهَ تعالى البلاءَ ، فسلِ اللهَ العافيةَ »[٥]

❀ ❀ ❀

فبهٰذهِ النيَّاتِ يُرخَّصُ في ذكرِ المرضِ ، وإنَّما يُشترطُ ذٰلكَ ؛ لأنَّ ذكرَهُ شكايةٌ ، والشكوىٰ مِنَ اللهِ تعالىٰ حرامٌ ؛ كما ذكرناهُ في تحريمِ السؤالِ على الفقراءِ إلا بضرورةٍ .

ويصيرُ الإظهارُ شكايةً بقرينةِ السخطِ وإظهارِ الكراهةِ لفعلِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ خلا عنْ قرينةِ التسخُّطِ وعنِ النيَّاتِ التي ذكرناها . . فلا يُوصفُ بالتحريمِ ، ولٰكنْ يُحكمُ فيهِ بأنَّ الأولىٰ تركُهُ ؛ لأنَّهُ ربَّما يوهمُ الشكايةَ ، ولأنَّهُ ربَّما يكونُ فيهِ

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٨) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٨) .

(٣) قوت القلوب (٢/٢٨) .

(٤) قوت القلوب (٢/٢٨) .

(٥) كذا في « القوت » (٢/٢٩) ، ورواه الترمذي (٣٥٢٧) ولم يذكر أن القائل هو علي رضي الله عنه ، وعيّنه (٣٥٦٤) .

تصنُّعٌ ومزيدٌ في الوصفِ على الموجودِ مِنَ العلَّةِ ، ومَنْ تركَ التداويَ توكلاً . . فلا وجهَ في حقِّهِ للإظهارِ ؛ لأنَّ الاستراحةَ إلى الدواءِ أحسنُ مِنَ الاستراحةِ إلى الإفشاءِ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ بثَّ . . لمْ يصبرْ)[1]

وقيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ : لا شكوىٰ فيهِ[2]

وقيلَ ليعقوبَ عليهِ السلامُ : ما الذي أذهبَ بصرَكَ ؟ قالَ : مُرُّ الزمانِ وطولُ الأحزانِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : تفرَّغتَ لشكوايَ إلىٰ عبادي ؟! فقالَ : يا ربِّ ؛ أتوبُ إليكَ[3]

ورُوِيَ عنْ طاووسٍ ومجاهدٍ أنَّهُما قالا : يُكتبُ على المريضِ أنينُهُ في مرضِهِ ، وكانوا يكرهونَ أنينَ المريضِ ؛ لأنَّهُ إظهارُ معنىً يقتضي الشكوىٰ ، حتَّىٰ قيلَ : ما أصابَ إبليسُ لعنَهُ اللهُ مِنَ أيوبَ عليهِ السلامُ إلا أنينَهُ في مرضِهِ ، فجُعِلَ الأنينُ حظَّهُ منهُ[4]

وفي الخبرِ : « إذا مرضَ العبدُ . . أوحى اللهُ تعالىٰ إلى الملكينِ : انظرا ما يقولُ لعوَّادِهِ ؛ فإنْ حمدَ اللهَ وأثنىٰ بخيرٍ . . دعوا لهُ ، وإنْ شكا وذكرَ شرّاً . . قالا : كذٰلكَ تكونُ »[5]

وإنَّما كرهَ بعضُ العبَّادِ العيادةَ خشيةَ الشكايةِ وخوفَ الزيادةِ في الكلامِ ، فكانَ بعضُهُمْ إذا مرضَ . . أغلقَ بابَهُ ، فلمْ يدخلْ عليهِ أحدٌ حتَّىٰ يبرأَ فيخرجَ إليهِمْ ، منهُمْ فضيلٌ ووهيبٌ وبشرٌ ، وكانَ فضيلٌ يقولُ : (أشتهي أنْ أمرضَ بلا عوَّادٍ)[6] ، وقالَ : (لا أكرهُ العلَّةَ إلا لأجلِ العوَّادِ)[7] .

❀ ❀ ❀

تم كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

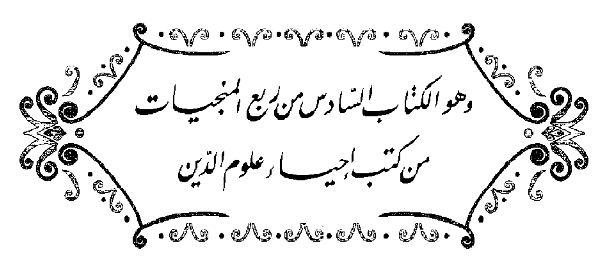
وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبي وآله الطاهرين وسلم تسليماً

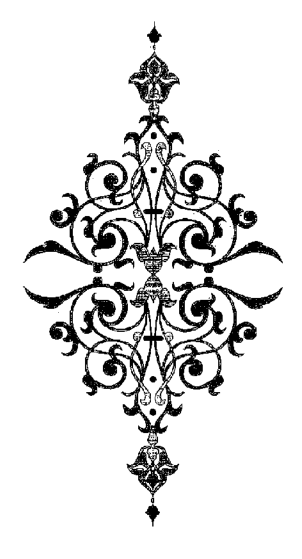
يتلوه كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٦٢/١٣/٨) عن مسلم بن يسار مرفوعاً .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٠٦/١٢/٧) عن حبان بن أبي جبلة مرفوعاً ومعه الخبر السابق .
(٣) كذا في « القوت » (٢٨/٢) ، ورواه هناد في « الزهد » (٧٨٣) .
(٤) كذا في « القوت » (٢٨/٢) ، وعن مجاهد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٩٣٥) .
(٥) قوت القلوب (٢٨/٢) ، ورواه مالك في « الموطأ » (٩٤٠/٢) عن عطاء بن يسار مرسلاً ، وأسنده موصولاً ابن عبد البر في « التمهيد » (٤٧/٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، كلهم رواه بنحوه .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩٦/٨) .
(٧) قوت القلوب (٢٨/٢) بتمام السياق .

كتاب
المحبة والشوق والأنس والرضا





كتاب المحبّة والشّوق والأنس والرّضا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي نزَّهَ قلوبَ أوليائِهِ عنِ الالتفاتِ إلىٰ متاعِ الدنيا وخضرتِهِ ، وصفَّىٰ أسرارَهُمْ عنْ ملاحظةِ غيرِ حضرتِهِ ، ثمَّ استخلصَها للعكوفِ علىٰ بساطِ عزَّتِهِ ، ثمَّ تجلَّىٰ لها بأسمائِهِ وصفاتِهِ حتَّىٰ أشرقَتْ بأنوارِ معرفتِهِ ، ثمَّ كشفَ لها عنْ سُبُحاتِ وجهِهِ حتَّى احترقَتْ بنارِ محبَّتِهِ ، ثمَّ احتجبَ عنها بكنهِ جلالِهِ حتَّىٰ تاهَتْ في بيداءِ كبريائِهِ وعظمتِهِ ، فكلَّما اهتزَّتْ لملاحظةِ كنهِ الجلالِ . . غشيَها مِنَ الدَّهَشِ ما غبَّرَ في وجهِ العقلِ وبصيرتِهِ ، وكلَّما همَّتْ بالانصرافِ آيسةً . . نُودِيَتْ مِنْ سُرادقاتِ الجمالِ : صبراً أيُّها الآيسُ عنْ نيلِ الحقِّ بجهلِهِ وعجلتِهِ ، فبقيَتْ بينَ الردِّ والقبولِ والصدِّ والوصولِ غرقَىٰ في بحرِ معرفتِهِ ، ومحترقةً بنارِ محبَّتِهِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ خاتمِ الأنبياءِ بكمالِ نبوَّتِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ سادةِ الخلقِ وأئمَّتِهِ ، وقادةِ الحقِ وأزمَّتِهِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أمَّا بعدُ :

فإنَّ المحبَّةَ للهِ تعالىٰ هيَ الغايةُ القصوىٰ مِنَ المقاماتِ ، والذروةُ العليا مِنَ الدرجاتِ ، فما بعدَ إدراكِ المحبَّةِ مقامٌ إلا وهوَ ثمرةٌ مِنْ ثمارِها ، وتابعٌ مِنْ توابعِها ؛ كالشوقِ ، والأنسِ ، والرضا ، وأخواتِها ، ولا قبلَ المحبَّةِ مقامٌ إلا وهوَ مقدِّمةٌ مِنْ مقدماتِها ؛ كالتوبةِ ، والصبرِ ، والزهدِ ، وغيرِها .

وسائرُ المقاماتِ إنْ عزَّ وجودُها . . فلمْ تخلُ القلوبُ عنِ الإيمانِ بإمكانِها ، وأمَّا محبةُ اللهِ تعالىٰ . . فقدْ عزَّ الإيمانُ بها ، حتَّىٰ أنكرَ بعضُ العلماءِ إمكانَها ، وقالَ : (لا معنىٰ لها إلا المواظبةُ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا حقيقةُ المحبَّةِ . . فمحالٌ إلا معَ الجنسِ والمثالِ) ، ولمَّا أنكروا المحبةَ . . أنكروا الأُنسَ ، والشوقَ ، ولذَّةَ المناجاةِ ، وسائرَ لوازمِ الحبِّ وتوابعِهِ ، فلا بدَّ مِنْ كشفِ الغطاءِ عنْ هٰذا الأمرِ .

ونحنُ نذكرُ في هٰذا الكتابِ بيانَ شواهدِ الشرعِ في المحبَّةِ ، ثمَّ بيانَ حقيقتِها وأسبابِها ، ثمَّ بيانَ أنْ لا مستحقَّ للمحبَّةِ إلا اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ أنَّ أعظمَ اللذاتِ لذةُ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ سببِ زيادةِ لذَّةِ النظرِ في الآخرةِ على المعرفةِ في الدنيا ، ثمَّ بيانَ الأسبابِ المقوِّيةِ لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ السببِ في تفاوتِ الناسِ في الحبِّ ، ثمَّ بيانَ السببِ في قصورِ الأفهامِ عنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ معنى الشوقِ ، ثمَّ بيانَ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ للعبدِ ، ثمَّ القولَ في علاماتِ محبَّةِ العبدِ للهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ معنى الأنسِ باللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ معنى الانبساطِ في الأنسِ ، ثمَّ القولَ في معنى الرضا وبيانَ فضيلتِهِ ، ثمَّ بيانَ حقيقتِهِ ، ثمَّ بيانَ أنَّ الدعاءَ وكراهةَ المعاصي لا تناقضُهُ ، وكذا الفرارُ مِنَ المعاصي ، ثمَّ بيانَ حكاياتٍ وكلماتٍ للمحبِّينَ متفرقةٍ .

فهٰذهِ جميعُ بياناتِ هٰذا الكتابِ .

* * *

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلمْ : أنَّ الأمَّةَ مجمعةٌ على أنَّ الحبَّ للهِ تعالى ولرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فرضٌ ، وكيفَ يُفرضُ ما لا وجودَ لهُ ؟![1] ، وكيفَ يُفسَّرُ الحبُّ بالطاعةِ والطاعةُ تبعُ الحبِّ وثمرتُهُ ؟! فلا بدَّ وأنْ يتقدَّمَ الحبُّ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يطيعُ مَنْ أحبَّ .

ويدلُّ على إثباتِ الحبِّ للهِ تعالى قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وقولُهُ تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ، وهوَ دليلٌ على إثباتِ الحبِّ ، وإثباتِ التفاوتِ فيهِ .

وقدْ جعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الحبَّ للهِ مِنْ شرطِ الإيمانِ في أخبارٍ كثيرةٍ ؛ إذْ قالَ أبو رزينٍ العُقيليُّ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الإيمانُ ؟ قالَ : « أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليكَ ممَّا سواهما »[2]

وفي حديثٍ آخرَ : « لا يؤمنُ أحدُكُمْ حتَّى يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممَّا سواهُما »[3]

وفي حديثٍ آخرَ : « لا يؤمنُ العبدُ حتَّى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ أهلِهِ ومالِهِ والناسِ أجمعينَ » ، وفي روايةٍ : « ومِنْ نفسِهِ »[4]

كيفَ وقدْ قالَ تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . . ﴾ الآيةَ ، وإنَّما أجرى ذلكَ في معرضِ التهديدِ والإنكارِ ؟!

وقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالمحبَّةِ فقالَ : « أحبُّوا اللهَ لما يغذوكُمْ بهِ مِنْ نعمِهِ ، وأحبُّوني لحبِّ اللهِ »[5] .

ويُروى أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي أحبُّكَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « استعدَّ للفقرِ » ، فقالَ : إنِّي أحبُّ اللهَ تعالى ، فقالَ : « استعدَّ للبلاءِ »[6]

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : نظرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى مصعبِ بنِ عميرٍ مقبلاً وعليهِ إهابُ كبشٍ قدْ تَنَطَّقَ بهِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انظروا إلى هذا الرجلِ الذي قدْ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ ، لقدْ رأيتُهُ بينَ أبوينِ يغذوانِهِ بأطيبِ الطعامِ والشرابِ ، فدعاهُ حبُّ اللهِ ورسولِهِ إلى ما ترونَ »[7]

---

(١) هذا إنكار على من أنكر المحبة أصلاً . « إتحاف » (٩/٥٤٦) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/١١) ، وأبو رزين هو لقيط بن عامر رضي الله عنه ، وسياق المصنف هنا عند صاحب « القوت » (٢/٥٠) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٥٠) ، وبلفظه رواه أحمد في « المسند » (٣/٢٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) من حديثه أيضاً : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . . » الحديث .

(٤) رواه البخاري (١٥) ، ومسلم (٤٤) واللفظ له ، والرواية الثانية أوردها صاحب « القوت » (٢/٥٠) بلفظ : « ومن نفسك » ، وهي عند البخاري (٦٦٣٢) ، وسيأتي الخبر تاماً .

(٥) كذا في « القوت » (٢/٥٠) ، وقد رواه الترمذي (٣٧٨٩) وتمامه : « . . . وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبّي » .

(٦) كذا في « القوت » (٢/٥٠) وقال : (والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبلي وهو الله تعالى المبتلي ، والفقر من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ذكر محبته . . أخبره بالبلاء ليصبر على أخلاقه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ ، فدل على أحكامه وبلائه ، والفقر من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ذكر محبته . . دلَّه على اتباع أوصافه ؛ ليقتفي آثاره) ، وقد روى الترمذي (٢٣٥٠) أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأحبك (ثلاث مرات) ، فقال : « إن كنت تحبني . . فأعدَّ للفقر تجفافاً ؛ فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه » ، وروى البيهقي في « الشعب » (١٣٩٧) أن رجلاً قال له صلى الله عليه وسلم : إني أحبك ، قال : « فاستعد للفاقة » .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٠٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٧٧٩) .

وفي الخبرِ المشهورِ : أنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ قالَ لملكِ الموتِ إذْ جاءَهُ لقبضِ روحِهِ : هلْ رأيتَ خليلاً يميتُ خليلَهُ ؟! فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : هلْ رأيتَ محبّاً يكرهُ لقاءَ حبيبِهِ ؟! فقالَ : يا ملكَ الموتِ الآنَ فاقبضْ [1]

وهٰذا لا يجدُهُ إلا عبدٌ يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبِهِ ، فإذا علمَ أنَّ الموتَ سببُ اللقاءِ . . انزعجَ قلبُهُ إليهِ ، ولمْ يكنْ لهُ محبوبٌ غيرَهُ حتَّىٰ يلتفتَ إليهِ .

وقدْ قالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني حبَّكَ وحبَّ مَنْ أحبَّكَ وحبَّ ما يقرِّبُني إلىٰ حبِّكَ ، واجعلْ حبَّكَ أحبَّ إليَّ مِنَ الماءِ البارِدِ » [2]

وجاءَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ متى الساعةُ ؟ فقالَ : « ما أعددتَ لها ؟ » فقالَ : ما أعددتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ، إلا أنِّي أحبُّ اللهَ ورسولَهُ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ » ، قالَ أنسٌ : فما رأيتُ المسلمينَ فرحوا بشيءٍ بعدَ الإسلامِ فرحَهُمْ بذٰلكَ [3]

وقالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ ذاقَ مِنْ خالصِ محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . شغلَهُ ذٰلكَ عنْ طلبِ الدنيا ، وأوحشَهُ عنْ جميعِ البشرِ) [4]

وقالَ الحسنُ : (مَنْ عرفَ ربَّهُ . . أحبَّهُ ، ومَنْ عرفَ الدنيا . . زهدَ فيها ، والمؤمنُ لا يلهو حتَّىٰ يغفُلَ ، فإذا تفكَّرَ . . حزنَ) [5]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إنَّ مِنْ خلقِ اللهِ خلقاً ما يشغلُهُمُ الجنانُ وما فيها مِنَ النعيمِ عنهُ ، فكيفَ يشتغلونَ عنهُ بالدنيا ؟!) [6]

ويُروىٰ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ بثلاثةِ نفرٍ قدْ نَحَلَتْ أبدانُهُمْ ، وتغيَّرَتْ ألوانُهُمْ ، فقالَ لهُمْ : ما الذي بلغَ بكُمْ ما أرىٰ ؟ فقالوا : الخوفُ مِنَ النارِ ، فقالَ : حقٌّ على اللهِ أنْ يؤمِّنَ الخائفَ ، ثمَّ جاوزَهُمْ إلىٰ ثلاثةٍ آخرينَ ، فإذا هُمْ أشدُّ نُحولاً وتغيُّراً ، فقالَ : ما الذي بلغَ بكُمْ ما أرىٰ ؟ قالوا : الشوقُ إلى الجنةِ ، فقالَ : حقٌّ على اللهِ أنْ يعطيَكُمْ ما ترجونَ ، ثمَّ جاوزَهُمْ إلىٰ ثلاثةٍ آخرينَ ، فإذا هُمْ أشدُّ نحولاً وتغيُّراً ، كأنَّ علىٰ وجوهِهِمُ المرائيَ مِنَ النورِ ، فقالَ : ما الذي بلغَ بكُمْ ما أرىٰ ؟ قالوا : نحبُّ اللهَ عزَّ وجلَّ ، فقالَ : أنتُمُ المقرَّبونَ ، أنتُمُ المقرَّبونَ [7]

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ برجلٍ نائمٍ في الثلجِ ، فقلتُ : أما تجدُ البردَ ؟ فقالَ : مَنْ شغلَهُ حبُّ اللهِ . . لمْ يجدِ البردَ [8]

وعنْ سريٍّ السقطيِّ قالَ : تُدعى الأممُ يومَ القيامةِ بأنبيائِها عليهِمُ السلامُ ، فيُقالُ : يا أمَّةَ موسىٰ ، ويا أمَّةَ عيسىٰ ،

---

(١) رواه الخلدي في « فوائده » (ص ٣٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤٨) عن محمد بن المنكدر ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/١٠) عن دكين الفزاري .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٩٠) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٩٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٩) عن بديل بن ميسرة .

(٦) رواه عبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص ١١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٨/١٠) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٠) .

(٨) وفي (أ) وحدها : (قائم) بدل (نائم) ، وقريب من هٰذا الخبر ما رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٩٦) .

ويا أمَّةَ محمدٍ ، غيرَ المحبينَ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُمْ يُنادونَ : يا أولياءَ اللهِ ؛ هلمُّوا إلى اللهِ سبحانَهُ ، فتكادُ قلوبُهُمْ تنخلعُ فرحاً[1]

وقالَ هرمُ بنُ حيانَ : (المؤمنُ إذا عرفَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ . . أحبَّهُ ، وإذا أحبَّهُ . . أقبلَ إليهِ ، وإذا وجدَ حلاوةَ الإقبالِ إليهِ . . لمْ ينظرْ إلى الدنيا بعينِ الشهوةِ ، ولمْ ينظرْ إلى الآخرةِ بعينِ الفترةِ ، وهي تحسرُهُ في الدنيا ، وتَروِّحُهُ في الآخرةِ)[2]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (عفوُهُ يستغرقُ الذنوبَ فكيفَ رضوانُهُ ؟! ورضوانُهُ يستغرقُ الآمالَ ، فكيفَ حبُّهُ ؟! وحبُّهُ يدهشُ العقولَ ، فكيفَ وُدُّهُ ؟! ووُدُّهُ ينسي ما دونَهُ ، فكيفَ لطفُهُ ؟!)[3]

وفي بعضِ الكتبِ : (عبدي ؛ أنا ـ وحقِّكَ ـ لكَ محبٌّ ، فبحقِّي عليكَ كُنْ لي محبّاً)[4] .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (مثقالُ خردلةٍ مِنَ الحبِّ أحبُّ إليَّ مِنْ عبادةِ سبعينَ سنةً بلا حبٍّ)[5]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (إلـٰهي ؛ إنِّي مقيمٌ بفِنائِكَ ، مشغولٌ بثنائِكَ ، صغيراً أخذتَني إليكَ ، وسربلتَني بمعرفتِكَ ، وأمكنتَني مِنْ لطفِكَ ، ونقلتَني في الأحوالِ ، وقلبتَني في الأعمالِ ؛ ستراً وتوبةً ، وزهداً وشوقاً ، ورضاً وحبّاً ، تسقيني مِنْ حياضِكَ ، وتهملُني في رياضِكَ ، ملازماً لأمرِكَ ، ومشغوفاً بقولِكَ ، ولما طرَّ شاربي ، ولاحَ طائلي[6] . . فكيفَ أنصرفُ اليومَ عنكَ كبيراً ، وقدْ اعتدتُ هـٰذا منكَ صغيراً ؟! فلي ما بقيتُ حولكَ دندنةٌ ، وبالضراعةِ إليكَ همهمةٌ ؛ لأنِّي محبٌّ ، وكلُّ محبٍّ بحبيبِهِ مشغوفٌ ، وعنْ غيرِ حبيبِهِ مصروفٌ) .

وقدْ وردَ في حبِّ اللهِ تعالىٰ مِنَ الأخبارِ والآثارِ ما لا يدخلُ في حصرِ حاصرٍ ، وذلكَ أمرٌ ظاهرٌ ، وإنَّما الغموضُ في تحقيقِ معناهُ ، فلنشتغلْ بهِ .

* * *

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٩) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٢)
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٢) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٩) ، والقشيري في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٢٦) .
(٥) الرسالة القشيرية (ص ٥٢٧) .
(٦) في (ق) : (ولاح طائري) بدل (ولاح طائلي) .

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلمْ : أنَّ المطلبَ مِنْ هٰذا الفصلِ لا ينكشفُ إلا بمعرفةِ حقيقةِ المحبَّةِ في نفسِها ، ثمَّ معرفةِ شروطِها وأسبابِها ، ثمَّ النظرِ بعدَ ذٰلكَ في تحقيقِ معناها في حقِّ اللهِ تعالىٰ .

فأوَّلُ ما ينبغي أنْ يُتحقَّقَ : أنَّهُ لا تُتصوَّرُ محبةٌ إلا بعدَ معرفةٍ وإدراكٍ ؛ إذْ لا يحبُّ الإنسانُ ما لا يعرفُهُ ، ولذٰلكَ لمْ يُتصوَّرْ أنْ يتصفَ بالحبِّ جمادٌ ، بلْ هوَ مِنْ خاصيَّةِ الحيِّ المدرِكِ .

ثمَّ المدركاتُ في أنفسِها تنقسمُ إلىٰ ما يوافقُ طبعَ المدرِكِ ويلائمُهُ ويلذُّهُ ، وإلىٰ ما ينافيهِ وينافرُهُ ويؤلمُهُ ، وإلىٰ ما لا يؤثِّرُ فيهِ بإيلامٍ وإلذاذٍ ، فكلُّ ما في إدراكِهِ لذةٌ وراحةٌ . . فهوَ محبوبٌ عندَ المدرِكِ ، وما في إدراكِهِ ألمٌ . . فهوَ مبغوضٌ عندَ المدرِكِ ، وما يخلو عنِ استعقابِ ألمٍ ولذَّةٍ فلا يوصَفُ بكونِهِ محبوباً ولا مكروهاً

فإذاً ؛ كلُّ لذيذٍ محبوبٌ عندَ الملتذِّ بهِ ، ومعنىٰ كونِهِ محبوباً : أنَّ في الطبعِ ميلاً إليهِ ، ومعنىٰ كونِهِ مبغوضاً : أنَّ في الطبعِ نفرةً عنهُ ، فالحبُّ : عبارةٌ عنْ ميلِ الطبعِ إلى الشيءِ المُلِذِّ ، فإنْ تأكَّدَ ذٰلكَ الميلُ وقويَ سُمِّيَ عشقاً ، والبغضُ : عبارةٌ عنْ نفرةِ الطبعِ عنِ المؤلمِ المتعبِ ، فإذا قويَ . . سُمِّيَ مقتاً ، **فهٰذا أصلٌ** في حقيقةِ معنى الحبِّ لا بدَّ مِنْ معرفتِهِ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثاني : أنَّ الحبَّ لمَّا كانَ تابعاً للإدراكِ والمعرفةِ . . انقسمَ ـ لا محالةَ ـ بحسبِ انقسامِ المدركاتِ والحواسِّ ، فلكلِّ حاسَّةٍ إدراكٌ لنوعٍ مِنَ المدركاتِ ، ولكلِّ واحدٍ منها لذةٌ في بعضِ المدركاتِ ، وللطبعِ بسببِ تلكَ اللذةِ ميلٌ إليها ، فكانَتْ محبوباتٍ عندَ الطبعِ السليمِ ، فلذةُ **العينِ** في الإبصارِ ، وإدراكِ المبصراتِ الجميلةِ ، والصورِ المليحةِ الحسنةِ المستلذَّةِ ، ولذةُ **الأذنِ** في النغماتِ الطيبةِ الموزونةِ ، ولذةُ **الشمِّ** في الروائحِ الطيبةِ ، ولذةُ **الذوقِ** في الطعومِ ، ولذةُ **اللمسِ** في اللينِ والنعومةِ .

ولمَّا كانَتْ هٰذهِ المدركاتُ بالحواسِّ ملذَّةً . . كانَتْ محبوبةً ؛ أيْ : كانَ للطبعِ السليمِ ميلٌ إليها ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكم ثلاثٌ : الطيبُ ، والنساءُ ، وجُعلَ قرةُ عيني في الصلاةِ »[1] ، فسمَّى الطيبَ محبوباً ، ومعلومٌ أنَّهُ لا حظَّ للعينِ والسمعِ فيهِ ، بلْ للشمِّ فقطْ ، وسمَّى النساءَ محبوباتٍ ، ولا حظَّ فيهنَّ إلا للبصرِ واللمسِ دونَ الشمِّ والذوقِ والسمعِ ، وسمَّى الصلاةَ قرَّةَ عينٍ ، وجعلَها أبلغَ المحبوباتِ ، ومعلومٌ أنَّهُ ليسَ تحظىٰ بها الحواسُّ الخمسُ ، بلْ حسٌّ سادسٌ مَظِنَّتُهُ القلبُ ، لا يدركُهُ إلا مَنْ كانَ لهُ قلبٌ .

ولذاتُ الحواسِّ الخمسِ تشاركُ فيها البهائمُ الإنسانَ ، فإنْ كانَ الحبُّ مقصوراً علىٰ مدركاتِ الحواسِّ الخمسِ ، حتَّىٰ يُقالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُدركُ بالحواسِّ ، ولا يُتمثَّلُ في الخيالِ ؛ فلا يُحبُّ . . فإذاً قد بطلَتْ خاصيَّةُ الإنسانِ ، وما تميَّزَ بهِ مِنَ الحسِّ السادسِ الذي يُعبَّرُ عنهُ إمَّا بالعقلِ أوْ بالنورِ أوْ بالقلبِ أوْ بما شئتَ مِنَ العباراتِ . . فلا مشاحَّةَ فيها .

---

(١) رواه النسائي (٦١/٧) ، وأحمد في « المسند » (١٢٨/٣) دون زيادة كلمة (ثلاث) ، والمصنف تبع في ذكرها صاحب « القوت » (٢٤٩/٢) ، وقد نقل الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣١١/٥) نقولاً عن الحفاظ تفيد خطأ زيادتها رواية ومعنىً ؛ إذ الصلاة ليست من الدنيا إلا على تأول شديد ، وإنما جاء الحديث بلفظ : « حُبِّبَ » مبنياً للمجهول دلالة على أن ذٰلك لم يكن من جبلته وطبعه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان مجبوراً على ذٰلك الحب رحمةً للعباد ورفقاً بهم ، كما أفاده الشارح نقلاً عن الطيبي

وهيهاتَ !! فالبصيرةُ الباطنةُ أقوىٰ مِنَ البصرِ الظاهرِ ، والقلبُ أشدُّ إدراكاً مِنَ العينِ ، وجمالُ المعاني المدركةِ بالعقلِ أعظمُ مِنْ جمالِ الصورِ الظاهرةِ للأبصارِ ، فتكونُ ـ لا محالةَ ـ لذةُ القلبِ بما يدركُهُ مِنَ الأمورِ الشريفةِ الإلـٰهيةِ التي تجلُّ عنْ أنْ تدركَها الحواسُّ . . أتمَّ وأبلغَ ، فيكونُ ميلُ الطبعِ السليمِ والعقلِ الصحيحِ إليهِ أقوىٰ ، ولا معنىٰ للحبِّ إلا الميلُ إلىٰ ما في إدراكِهِ لذةٌ كما سيأتي تفصيلُهُ ، فلا ينكِرُ إذاً حبَّ اللهِ تعالىٰ إلا مَنْ قعدَ بهِ القصورُ في درجةِ البهائمِ ، فلمْ يجاوزْ إدراكَ الحواسِّ أصلاً .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثالثُ : أنَّ الإنسانَ لا يخفىٰ أنَّهُ يحبُّ نفسَهُ ، ولا يخفىٰ أنَّهُ قدْ يحبُّ غيرَهُ لأجلِ نفسِهِ ، وهلْ يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ غيرَهُ لذاتِهِ لا لأجلِ نفسِهِ ؟ هـٰذا ممَّا قدْ يشكلُ على الضعفاءِ ، حتَّىٰ يظنونَ أنَّهُ لا يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ الإنسانُ غيرَهُ لذاتِهِ ما لمْ يرجعْ منهُ حظٌّ إلى المحبِّ سوىٰ إدراكِ ذاتِهِ ، والحقُّ أنَّ ذٰلكَ متصوَّرٌ وموجودٌ ، فلنبينْ أقسامَ المحبةِ وأسبابَها .

وبيانُهُ : أنَّ المحبوبَ الأوَّلَ عندَ كلِّ حيٍّ نفسُهُ وذاتُهُ ، ومعنىٰ حبِّهِ لنفسِهِ : أنَّ في طبعِهِ ميلاً إلىٰ دوامِ وجودِهِ ، ونفرةً عنْ عدمِهِ وهلاكِهِ ؛ لأنَّ المحبوبَ بالطبعِ هوَ الملائمُ للمحبِّ ، وأيُّ شيءٍ أتمُّ ملاءمةً لهُ مِنْ نفسِهِ ودوامِ وجودِهِ ؟ وأيُّ شيءٍ أعظمُ مضادَّةً ومنافرةً لهُ مِنْ عدمِهِ وهلاكِهِ ؟ فلذٰلكَ يحبُّ الإنسانُ دوامَ الوجودِ ، ويكرهُ الموتَ والقتلَ ، لا لمجرَّدِ ما يخافُهُ بعدَ الموتِ ، ولا لمجرَّدِ الحذرِ مِنْ سكراتِ الموتِ ، بلْ لوِ اختُطفَ مِنْ غيرِ ألمٍ ، وأُميتَ مِنْ غيرِ ثوابٍ ولا عقابٍ . . لمْ يرضَ بهِ ، وكانَ كارهاً لذٰلكَ ، ولا يحبُّ الموتَ والعدمَ المحضَ إلا لمقاساةِ ألمٍ في الحياةِ ، ومهما كانَ مبتلىً ببلاءٍ . . فمحبوبُهُ زوالُ البلاءِ ، فإنْ أحبَّ العدمَ . . لمْ يحبَّهُ لأنَّهُ عدمٌ ، بلْ لأنَّ فيهِ زوالَ البلاءِ ، فالهلاكُ والعدمُ ممقوتٌ ، ودوامُ الوجودِ محبوبٌ .

وكما أنَّ دوامَ الوجودِ محبوبٌ . فكمالُ الوجودِ أيضاً محبوبٌ ؛ لأنَّ الناقصَ فاقدٌ للكمالِ ، والنقصُ عدمٌ بالإضافةِ إلى القدْرِ المفقودِ ، وهوَ هلاكٌ بالنسبةِ إليهِ ، والهلاكُ والعدمُ ممقوتٌ في الصفاتِ وكمالِ الوجودِ ؛ كما أنَّهُ ممقوتٌ في أصلِ الذاتِ ، ووجودُ صفاتِ الكمالِ محبوبٌ ؛ كما أنَّ دوامَ أصلِ الوجودِ محبوبٌ ، وهـٰذهِ غريزةٌ في الطباعِ بحكمِ سنةِ اللهِ تعالىٰ ، ولنْ تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً .

فإذاً ؛ المحبوبُ الأوَّلُ للإنسانِ ذاتُهُ ، ثمَّ سلامةُ أعضائِهِ ، ثمَّ مالُهُ ، وولدُهُ ، وعشيرتُهُ ، وأصدقاؤُهُ ، فالأعضاءُ محبوبةٌ وسلامتُها مطلوبةٌ ؛ لأنَّ كمالَ الوجودِ ودوامَ الوجودِ موقوفٌ عليها ، والمالُ محبوبٌ لأنَّهُ أيضاً آلةٌ في دوامِ الوجودِ وكمالِهِ ، وكذا سائرُ الأسبابِ ، فالإنسانُ يحبُّ هـٰذهِ الأشياءَ لا لأعيانِها ، بلْ لارتباطِ حظِّهِ في دوامِ الوجودِ وكمالِهِ بها ، حتَّىٰ إنَّهُ ليحبُّ ولدَهُ ـ وإنْ كانَ لا ينالُهُ منهُ حظٌّ ، بلْ يتحمَّلُ المشاقَّ لأجلِهِ ـ لأنَّهُ يخلفُهُ في الوجودِ بعدَ عدمِهِ ، فيكونُ في بقاءِ نسلِهِ نوعُ بقاءٍ لهُ ، فلفرطِ حبِّهِ لبقاءِ نفسِهِ يحبُّ بقاءَ مَنْ هوَ قائمٌ مقامَهُ وكأنَّهُ جزءٌ منهُ ؛ لمَّا عجزَ عنِ الطمعِ في بقاءِ نفسِهِ أبداً .

نعمْ ؛ لوْ خُيِّرَ بينَ قتلِهِ وقتلِ ولدِهِ ، وكانَ طبعُهُ باقياً على اعتدالِهِ . . آثرَ بقاءَ نفسِهِ علىٰ بقاءِ ولدِهِ ؛ لأنَّ بقاءَ ولدِهِ يشبهُ بقاءَهُ مِنْ وجهٍ ، وليسَ هوَ بقاءَهُ المحقَّقَ .

وكذٰلكَ حبُّهُ لأقاربِهِ وعشيرتِهِ يرجعُ إلىٰ حبِّهِ لكمالِ نفسِهِ ، فإنَّهُ يرىٰ نفسَهُ كثيراً بهمْ ، قويّاً بسببِهمْ ، متجمِّلاً

بمكانِهِمْ ؛ فإنَّ العشيرةَ والمالَ والأسبابَ الخارجة كالجناحِ المكمِّلِ للإنسانِ ، وكمالُ الوجودِ ودوامُهُ محبوبٌ بالطبعِ لا محالةَ .

فإذاً ؛ المحبوبُ الأَوَّلُ عندَ كلِّ حيٍّ ذاتُهُ ، وكمالُ ذاتِهِ ، ودوامُ ذٰلكَ كلِّهِ ، والمكروهُ عندَهُ ضدُّ ذٰلكَ ، **فهٰذا هوَ أَوَّلُ الأسبابِ** .

السببُ الثاني : الإحسانُ ، فإنَّ الإنسانَ عبدُ الإحسانِ ، وقدْ جُبِلَتِ القلوبُ علىٰ حبِّ مَنْ أحسنَ إليها ، وبغضِ مَنْ أساءَ إليها .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهُمَّ ، لا تجعلْ لفاجرٍ عندي يداً فيحبَّهُ قلبي »[1] ، أشارَ إلىٰ أنَّ حبَّ القلبِ للمحسنِ اضطرارٌ لا يُستطاعُ دفعُهُ ، وهوَ جبلَّةٌ وفطرةٌ لا سبيلَ إلىٰ تغييرِها ، وبهٰذا السببِ قدْ يحبُّ الإنسانُ الأجنبيَّ الذي لا قرابةَ بينَهُ وبينَهُ ولا علاقةَ .

وهٰذا إذا حُقِّقَ . . رجعَ إلى السببِ الأَوَّلِ ، فإنَّ المحسنَ مَنْ أمدَّ بالمالِ والمعونةِ ، وسائرِ الأسبابِ الموصلةِ إلىٰ دوامِ الوجودِ وكمالِ الوجودِ ، وحصولِ الحظوظِ التي بها يتهيَّأُ الوجودُ ، إلا أنَّ الفرقَ بينَهُما أنَّ أعضاءَ الإنسانِ محبوبةٌ لأنَّ بها كمالَ وجودِهِ ، وهيَ عينُ الكمالِ المطلوبِ ، فأمَّا المحسنُ . . فليسَ هوَ عينَ الكمالِ المطلوبِ ، ولٰكنْ قدْ يكونُ سبباً لهُ ؛ كالطبيبِ الذي يكونُ سبباً في دوامِ صحَّةِ الأعضاءِ ، ففرقٌ بينَ حبِّ الصحةِ وبينَ حبِّ الطبيبِ الذي هوَ سببُ الصحَّةِ ؛ إذِ الصحةُ مطلوبةٌ لذاتِها ، والطبيبُ محبوبٌ لا لذاتِهِ ، بلْ لأَنَّهُ سببٌ للصحةِ ، وكذٰلكَ العلمُ محبوبٌ ، والأستاذُ محبوبٌ ، ولٰكنِ العلمُ محبوبٌ لذاتِهِ ، والأستاذُ محبوبٌ لكونِهِ سببَ العلمِ المحبوبِ ، وكذٰلكَ الطعامُ والشرابُ محبوبٌ ، والدنانيرُ محبوبةٌ ، لٰكنِ الطعامُ محبوبٌ لذاتِهِ ، والدنانيرُ محبوبةٌ لأنَّها وسيلةٌ إلى الطعامِ .

فإذاً ؛ يرجعُ الفرقُ إلىٰ تفاوتِ الرتبةِ ، وإلا . فكلٌّ واحدٍ يرجعُ إلىٰ محبَّةِ الإنسانِ نفسَهُ .

فكأنَّ مَنْ أحبَّ المحسنَ لإحسانِهِ فما أحبَّ ذاتَهُ تحقيقاً ، بلْ أحبَّ إحسانَهُ ، وهوَ فعلٌ مِنْ أفعالِهِ ، لوْ زالَ . . زالَ الحبُّ معَ بقاءِ ذاتِهِ تحقيقاً ، ولوْ نقصَ . . نقصَ الحبُّ ، ولوْ زادَ . . زادَ ، ويتطرَّقُ إليهِ الزيادةُ والنقصانُ بحسَبِ زيادةِ الإحسانِ ونقصانِهِ .

السببُ الثالثُ : أنْ يحبَّ الشيءَ لذاتِهِ ، لا لحظٍّ يُنالُ منهُ وراءَ ذاتِهِ ، بلْ تكونُ ذاتُهُ عينَ حظِّهِ ، وهٰذا هوَ الحبُّ الحقيقيُّ البالغُ الذي يُوثَقُ بدوامِهِ ، وذٰلكَ كحبِّ الجمالِ والحسنِ ، فإنَّ كلَّ جمالٍ فهوَ محبوبٌ عندَ مدركِ الجمالِ ، وذٰلكَ لعينِ الجمالِ ؛ لأنَّ إدراكَ الجمالِ فيهِ عينُ اللذَّةِ ، واللذَّةُ محبوبةٌ لذاتِها لا لغيرِها .

ولا تظنَّنَّ أنَّ حبَّ الصورِ الجميلةِ لا يُتصوَّرُ إلا لأجلِ قضاءِ الشهوةِ ؛ فإنَّ قضاءَ الشهوةِ لذَّةٌ أخرىٰ قدْ تُحبُّ الصورُ الجميلةُ لأجلِها ، وإدراكُ نفسِ الجمالِ أيضاً لذيذٌ ، فيجوزُ أنْ يكونَ محبوباً لذاتِهِ .

وكيفَ يُنكرُ ذٰلكَ والخضرةُ والماءُ الجاري محبوبانِ لا ليُشربَ الماءُ ولا لتُؤكلَ الخضرةُ أوْ يُنالَ منها حظٌّ سوىٰ نفسِ الرؤيةِ ؟!

---

(١) كذا في « القوت » (٤٨/٢) ، قال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسمَّ ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٢٠١١] من حديث معاذ ، وأبو موسى المديني في كتاب « تضييع العمر والأيام » من طريق أهل البيت مرسلاً ، وأسانيده ضعيفة) . « إتحاف » (١٤٨/٦) .

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعجبُهُ الخضرةُ والماءُ الجاري [1] ، والطباعُ السليمةُ قاضيةٌ باستلذاذِ النظرِ إلى الأنوارِ ، والأزهارِ ، والأطيارِ المليحةِ الألوانِ الحسنةِ النقشِ ، المتناسبةِ الشكلِ ، حتَّى إنَّ الإنسانَ لتنفرجُ عنهُ الغمومُ والهمومُ بالنظرِ إليها ، لا لطلبِ حظٍّ وراءَ النظرِ .

فهٰذهِ الأسبابُ ملذَّةٌ ، وكلُّ لذيذٍ محبوبٌ ، وكلُّ حسْنٍ وجمالٍ فلا يخلو إدراكُهُ عنْ لذَّةٍ ، ولا أحدَ ينكرُ كونَ الجمالِ محبوباً بالطبعِ ، فإنْ ثبتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ جميلٌ . . كانَ ـ لا محالةَ ـ محبوباً عندَ مَنِ انكشفَ لهُ جمالُهُ وجلالُهُ ، كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ » [2]

* * *

الأصلُ الرابعُ : في بيانِ معنى الحسنِ والجمالِ .

اعلمْ : أنَّ المحبوسَ في مضيقِ الخيالاتِ والمحسوساتِ ربَّما يظنُّ أنَّهُ لا معنىٰ للحسنِ والجمالِ إلا تناسبُ الخلقةِ والشكلِ ، وحسنُ اللونِ وكونُ البياضِ مشرباً بالحمرةِ ، وامتدادُ القامةِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا يُوصفُ مِنْ جمالِ شخصِ الإنسانِ ، فإنَّ الحسنَ الأغلبَ على الخلقِ حسنُ الإبصارِ ، وأكثرُ التفاتِهِمْ إلىٰ صورِ الأشخاصِ ، فيظنُّ أنَّ ما ليسَ مبصَراً ، ولا متخيَّلاً متشكِّلاً ، ولا متلوِّناً متقدِّراً . . فلا يُتصوَّرُ حسنُهُ ، وإذا لمْ يُتصوَّرْ حسنُهُ . . لمْ يكنْ في إدراكِهِ لذةٌ ، فلمْ يكنْ محبوباً ، وهٰذا خطأٌ ظاهرٌ ؛ فإنَّ الحسْنَ ليسَ مقصوراً علىٰ مدركاتِ البصرِ ، ولا علىٰ تناسبِ الخلقةِ وامتزاجِ البياضِ بالحمرةِ ، فإنَّا نقولُ : هٰذا خطٌّ حسنٌ ، وهٰذا صوتٌ حسنٌ ، وهٰذا فرسٌ حسنٌ ، بلْ نقولُ : هٰذا ثوبٌ حسنٌ ، وهٰذا إناءٌ حسنٌ ، فأيُّ معنىً لحسنِ الصوتِ والخطِّ وسائرِ الأشياءِ إنْ لمْ يكنِ الحسنُ إلا في الصورِ ؟!

ومعلومٌ أنَّ العينَ تستلذُّ النظرَ إلى الخطِّ الحسنِ ، والأذنُ تستلذُّ استماعَ النغماتِ الحسنةِ الطيِّبةِ ، وما مِنْ شيءٍ مِنَ المدركاتِ إلا وهوَ منقسمٌ إلىٰ حسنٍ وقبيحٍ ، فما معنى الحسنِ الذي تشتركُ فيهِ هٰذهِ الأشياءُ ؟ فلا بدَّ مِنَ البحثِ عنهُ ، وهٰذا بحثٌ يطولُ ، ولا يليقُ بعلمِ المعاملةِ الإطنابُ فيهِ ، فنصرِّحُ بالحقِّ ونقولُ : كلُّ شيءٍ فجمالُهُ وحسنُهُ في أنْ يحضرَ كمالُهُ اللائقُ بهِ الممكنُ لهُ ، فإذا كانَ جميعُ كمالاتِهِ الممكنةِ حاضرةً . . فهوَ في غايةِ الجمالِ ، وإنْ كانَ الحاضرُ بعضَها . . فلهُ مِنَ الحسنِ والجمالِ بقدْرِ ما حضرَ ، فالفرسُ الحسنُ هوَ الذي جمعَ كلَّ ما يليقُ بالفرسِ ؛ مِنْ هيئةٍ ، وشكلٍ ، ولونٍ ، وحسْنِ عدوٍ ، وتيسُّرِ كرٍّ وفرٍّ عليهِ ، والخطُّ الحسنُ كلُّ ما جمعَ ما يليقُ بالخطِّ ؛ مِنْ تناسبِ الحروفِ ، وتوازيها ، واستقامةِ ترتيبِها ، وحسنِ انتظامِها ، ولكلِّ شيءٍ كمالٌ يليقُ بهِ ، وقدْ يليقُ بغيرِهِ ضدُّهُ ، فحسنُ كلِّ شيءٍ في كمالِهِ الذي يليقُ بهِ ، فلا يحسنُ الإنسانُ بما يحسنُ بهِ الفرسُ ، ولا يحسنُ الخطُّ بما يحسنُ بهِ الصوتُ ، ولا تحسنُ الأواني بما تحسنُ بهِ الثيابُ ، وكذٰلكَ سائرُ الأشياءِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ الأشياءُ وإنْ لمْ تُدركْ جميعُها بحسنِ البصرِ ؛ مثلُ الأصواتِ والطعومِ والأرائحِ . . فإنَّها لا تنفكُّ عنْ إدراكِ الحواسِّ لها ، فهيَ محسوساتٌ ، وليسَ يُنكرُ الحسنُ والجمالُ للمحسوساتِ ، ولا يُنكرُ حصولُ اللذةِ بإدراكِ حسنِها ، وإنَّما يُنكرُ ذٰلكَ في غيرِ المدرَكِ بالحواسِّ .

---

(1) إذ روى ابن عدي في « الكامل » (٣٢٩/٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري .

(2) رواه مسلم (٩١) .

فاعلمْ : أنَّ الحسنَ والجمالَ موجودٌ في غيرِ المحسوساتِ ؛ إذْ يُقالُ : هٰذا خلقٌ حسنٌ ، وهٰذا علمٌ حسنٌ ، وهٰذهِ سيرةٌ حسنةٌ ، وهٰذهِ أخلاقٌ جميلةٌ ، وإنَّما الأخلاقُ الجميلةُ يُرادُ بها العلمُ والعقلُ والعفةُ والشجاعةُ والتقوىٰ والكرمُ والمروءةُ وسائرُ خلالِ الخيرِ ، وشيءٌ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ لا يُدركُ بالحواسِّ الخمسِ ، بلْ يُدركُ بنورِ البصيرةِ الباطنةِ ، وكلُّ هٰذهِ الخصالِ الجميلةِ محبوبةٌ ، والموصوفُ بها محبوبٌ بالطبعِ عندَ مَنْ عرفَ صفاتِهِ .

وآيةُ ذٰلكَ وأنَّ الأمرَ كذٰلكَ : أنَّ الطباعَ مجبولةٌ علىٰ حبِّ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ، وعلىٰ حبِّ الصحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ ، معَ أنَّهُمْ لمْ يُشاهدوا ، بلْ علىٰ حبِّ أربابِ المذاهبِ ؛ مثلِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ ومالكٍ وغيرِهِمْ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ قدْ يجاوزُ بِهِ حبُّهُ لصاحبِ مذهبِهِ حدَّ العشقِ ، فيحملُهُ ذٰلكَ علىٰ أنْ ينفقَ جميعَ أموالِهِ في نصرةِ مذهبِهِ والذبِّ عنهُ ، ويخاطرَ بروحِهِ في قتالِ مَنْ يطعنُ في إمامِهِ ومتبوعِهِ ، فكمْ مِنْ دمٍ أُريقَ في نصرةِ أربابِ المذاهبِ ، وليتَ شعري مَنْ يحبُّ الشافعيَّ مثلاً فلِمَ يحبُّهُ ولمْ يشاهدْ قطُّ صورتَهُ ؟! ولوْ شاهدَهُ ربَّما لمْ يستحسنْ صورتَهُ ، فاستحسانُهُ الذي حملَهُ علىٰ إفراطِ الحبِّ هوَ لصورتِهِ الباطنةِ ، لا لصورتِهِ الظاهرةِ ؛ فإنَّ صورتَهُ الظاهرةَ قدِ انقلبَتْ تراباً معَ الترابِ ، وإنَّما يحبُّهُ لصفاتِهِ الباطنةِ ؛ مِنَ الدينِ ، والتقوىٰ ، وغزارةِ العلمِ ، والإحاطةِ بمداركِ الدينِ ، وانتهاضِهِ لإفاضةِ علمِ الشرعِ ، ونشرِهِ هٰذهِ الخيراتِ في العالمِ ، وهٰذهِ أمورٌ جميلةٌ لا يُدركُ جمالُها إلا بنورِ البصيرةِ ، فأمَّا الحواسُّ . . فقاصرةٌ عنها .

وكذٰلكَ مَنْ يحبُّ أبا بكرٍ الصديقَ رضيَ اللهُ عنهُ ويفضِّلُهُ علىٰ غيرِهِ ، أوْ يحبُّ علياً رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ويفضلُهُ ويتعصَّبُ لهُ ، فلا يحبُّهُمْ إلا لاستحسانِ صورِهِمُ الباطنةِ ؛ مِنَ العلمِ ، والدينِ ، والتقوىٰ ، والشجاعةِ ، والكرمِ وغيرِهِ ، فمعلومٌ أنَّ مَنْ يحبُّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ مثلاً ليسَ يحبُّ لحمَهُ وعظمَهُ وجلدَهُ وأطرافَهُ وشكلَهُ ؛ إذْ كلُّ ذٰلكَ قدْ زالَ وتبدَّلَ وانعدمَ ، ولٰكنْ بقيَ ما كانَ الصدِّيقُ بهِ صدِّيقاً ، وهيَ الصفاتُ المحمودةُ التي هيَ مصادرُ السيَرِ الجميلةِ ، فكانَ الحبُّ باقياً ببقاءِ تلكَ الصفاتِ معَ زوالِ جميعِ الصورِ .

وتلكَ الصفاتُ ترجعُ جملتُها إلى العلمِ والقدرةِ ؛ إذْ علمَ حقائقَ الأمورِ ، وقدرَ علىٰ حملِ نفسِهِ عليها ؛ بقهرِ شهواتِهِ ، فجميعُ خلالِ الخيرِ تَتشعَّبُ عنْ هٰذينِ الوصفينِ ، وهما غيرُ مدركينِ بالحسِّ ، ومحلُّهُما مِنْ جملةِ البدنِ جزءٌ لا يتجزَّأُ ، فهوَ المحبوبُ بالحقيقةِ ، وليسَ للجزءِ الذي لا يتجزَّأُ صورةٌ وشكلٌ ولونٌ يظهرُ للبصرِ حتَّىٰ يكونَ محبوباً لأجلِهِ .

فإذاً ؛ الجمالُ موجودٌ في السيَرِ ، ولوْ صدرَتِ السيرةُ الجميلةُ مِنْ غيرِ علمٍ وبصيرةٍ . . لمْ يُوجبْ ذٰلكَ حبّاً ، فالمحبوبُ مصدرُ السيرةِ الجميلةِ ، وهيَ الأخلاقُ الحميدةُ ، والفضائلُ الشريفةُ ، وترجعُ جملتُها إلىٰ كمالِ العلمِ والقدرةِ ، وهوَ محبوبٌ بالطبعِ ، وغيرُ مدركٍ بالحواسِّ ، حتَّىٰ إنَّ الصبيَّ المخلَّىٰ وطبعَهُ إذا أردنا أنْ نحبِّبَ إليهِ غائباً أوْ حاضراً حيّاً أوْ ميتاً . . لمْ يكنْ لنا سبيلٌ إلا بالإطنابِ في وصفِهِ بالشجاعةِ والكرمِ والعلمِ وسائرِ الخصالِ الحميدةِ ، فمهما اعتقدَ ذٰلكَ . . لمْ يتمالكْ في نفسِهِ ولمْ يقدرْ ألا يحبَّهُ ، فهلْ غلبَ حبُّ الصحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ وبغضُ أبي جهلٍ وبغضُ إبليسَ لعنَهُ اللهُ إلا بالإطنابِ في وصفِ المحاسنِ والمقابحِ التي لا تُدركُ بالحواسِّ ؟

بلْ لمَّا وصفَ الناسُ حاتِماً بالسخاءِ ، ووصفوا خالداً بالشجاعةِ . . أحبَّتْهُمُ القلوبُ حبّاً ضرورياً ، وليسَ ذٰلكَ عنْ نظرٍ إلىٰ صورةٍ محسوسةٍ ، ولا عنْ حظٍّ ينالُهُ المحبُّ منهُمْ ، بلْ إذا حُكِيَ مِنْ سيرةِ بعضِ الملوكِ في بعضِ أقطارِ الأرضِ العدلُ والإحسانُ وإفاضةُ الخيرِ . . غلبَ حبُّهُ على القلوبِ معَ اليأسِ مِنِ انتشارِ إحسانِهِ إلى المحبِّينَ ؛ لبعدِ المزارِ وتنائي الديارِ .

فإذاً ؛ ليسَ حبُّ الإنسانِ مقصوراً علىٰ مَنْ أحسنَ إليهِ ، بلِ المحسنُ في نفسِهِ محبوبٌ وإنْ كانَ لا ينتهي قطُّ إحسانُهُ إلى المحبِّ ؛ لأنَّ كلَّ جمالٍ وحسنٍ فهوَ محبوبٌ ، والصورُ ظاهرةٌ وباطنةٌ ، والحسنُ والجمالُ يشملُهُما ، وتُدركُ الصورُ الظاهرةُ بالبصرِ الظاهرِ ، والصورُ الباطنةُ بالبصيرةِ الباطنةِ ، فمَنْ حُرِمَ البصيرةَ الباطنةَ . . لا يدركُها ، ولا يلتذُّ بها ، ولا يحبُّها ولا يميلُ إليها ، ومَنْ كانَتِ البصيرةُ الباطنةُ أغلبَ عليهِ مِنَ الحواسِّ الظاهرةِ . . كانَ حبُّهُ للمعاني الباطنةِ أكثرَ مِنْ حبِّهِ للمعاني الظاهرةِ ، فشتَّانَ بينَ مَنْ يحبُّ نقشاً مصوَّراً على الحائطِ لجمالِ صورتِهِ الظاهرةِ ، وبينَ مَنْ يحبُّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ لجمالِ صورتِهِ الباطنةِ .

السببُ الرابعُ[1] : المناسبةُ الخفيَّةُ بينَ المحبِّ والمحبوبِ ؛ إذْ ربَّ شخصينِ تتأكَّدُ المحبَّةُ بينَهُما لا بسببِ جمالٍ أوْ حظٍّ ، ولـٰكنْ بمجرَّدِ تناسبِ الأرواحِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ ، فما تعارفَ منها . . ائتلفَ ، وما تناكرَ منها . . اختلفَ »[2] ، وقدْ حققنا ذٰلكَ في كتابِ آدابِ الصحبةِ ، عندَ ذكرِ الحبِّ في اللهِ ، فليُطلبْ منهُ ؛ لأنَّهُ أيضاً مِنْ عجائبِ أسبابِ الحبِّ .

فإذاً ؛ ترجعُ أقسامُ الحبِّ إلىٰ خمسةِ أسبابٍ :

وهوَ حبُّ الإنسانِ وجودَ نفسِهِ وكمالِهِ وبقائِهِ .

وحبُّهُ مَنْ أحسنَ إليهِ فيما يرجعُ إلىٰ دوامِ وجودِهِ ويعينُ علىٰ بقائِهِ ودفعِ المهلكاتِ عنهُ .

وحبُّهُ مَنْ كانَ محسناً في نفسِهِ إلى الناسِ وإنْ لمْ يكنْ محسناً إليهِ .

وحبُّهُ لكلِّ ما هوَ جميلٌ في ذاتِهِ ، سواءٌ كانَ مِنَ الصورِ الظاهرةِ أو الباطنةِ .

وحبُّهُ لمَنْ بينَهُ وبينَهُ مناسبةٌ خفيَّةٌ في الباطنِ .

فلوِ اجتمعَتْ هـٰذهِ الأسبابُ في شخصٍ واحدٍ . . تضاعفَ الحبُّ لا محالةَ ؛ كما لوْ كانَ للإنسانِ ولدٌ جميلُ الصورةِ ، حسنُ الخلقِ ، كاملُ العلمِ ، حسنُ التدبيرِ ، محسنٌ إلى الخلقِ ومحسنٌ إلى الوالدِ . . كانَ محبوباً ـ لا محالةَ ـ غايةَ الحبِّ .

وتكونُ قوَّةُ الحبِّ بعدَ اجتماعِ هـٰذهِ الخصالِ بحسَبِ قوَّةِ هـٰذهِ الخلالِ في نفسِها ؛ فإنْ كانَتْ هـٰذهِ الصفاتُ في أقصىٰ درجاتِ الكمالِ . . كانَ الحبُّ ـ لا محالةَ ـ في أعلى الدرجاتِ .

فلنبيِّنِ الآنَ أنَّ هـٰذهِ الأسبابَ كلَّها لا يُتصوَّرُ كمالُها واجتماعُها إلا في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، فلا يستحقُّ المحبَّةَ بالحقيقةِ إلا اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ .

* * *

---

(١) من أسباب المحبة ، وكذا وقع العدُّ في (أ) : (الرابع) ، وفي باقي النسخ (الخامس) ، وهو مشكل ، وقول المصنف الآتي : إنها خمسة . . علىٰ تفريع السبب الثالث إلىٰ : حب الإحسان مجرداً ، وحب الجمال مجرداً ، وكلاهما مجموعان في قوله في السبب الثالث : (حب الشيء لذاته ، لا لحظ يُنال منه وراء ذاته) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٣٨) .

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأنَّ مَنْ أحبَّ غيرَ اللهِ لا مِنْ حيثُ نسبتُهُ إلى اللهِ تعالىٰ . . فذٰلكَ لجهلِهِ وقصورِهِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ حبَّ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محمودٌ ؛ لأنَّهُ عينُ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وكذا حبُّ العلماءِ والأتقياءِ ؛ لأنَّ محبوبَ المحبوبِ محبوبٌ ، ورسولَ المحبوبِ محبوبٌ ، ومحبَّ المحبوبِ محبوبٌ ، وكلُّ ذٰلكَ يرجعُ إلىٰ حبِّ الأصلِ ، فلا يجاوزُهُ إلىٰ غيرِهِ ، فلا محبوبَ بالحقيقةِ عندَ ذوي البصائرِ إلا اللهُ تعالىٰ ، ولا مستحقَّ للمحبةِ سواهُ .

وإيضاحُهُ : بأنْ نرجعَ إلى الأسبابِ الخمسةِ التي ذكرناها ، ونبيِّنَ أنَّها مجتمعةٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ بجملتِها ، ولا يُوجدُ في غيرِهِ إلا آحادُها ، وأنَّها حقيقةٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، ووجودُها في حقِّ غيرِهِ وهمٌ وتخيُّلٌ ، وهوَ مجازٌ محضٌ ، لا حقيقةَ لهُ ، ومهما ثبتَ ذٰلكَ . . انكشفَ لكلِّ ذي بصيرةٍ ضدُّ ما تخيَّلَهُ ضعفاءُ العقولِ والقلوبِ ؛ مِنِ استحالةِ حبِّ اللهِ تعالىٰ تحقيقاً ، وبانَ أنَّ التحقيقَ يقتضي ألا يُحبَّ أحدٌ غيرُ اللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

فأمَّا السببُ الأوَّلُ : **وهوَ حبُّ الإنسانِ نفسَهُ وبقاءَهُ وكمالَهُ ودوامَ وجودِهِ ، وبغضُهُ لهلاكِهِ وعدمِهِ ونقصانِهِ وقواطعِ كمالِهِ :**

فهٰذهِ جبلَّةُ كلِّ حيٍّ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ عنها ، وهٰذا يقتضي غايةَ المحبَّةِ للهِ تعالىٰ ، فإنَّ مَنْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ . . عرفَ قطعاً أنَّهُ لا وجودَ لهُ مِنْ ذاتِهِ ، وإنَّما وجودُ ذاتِهِ ودوامُ وجودِهِ وكمالُ وجودِهِ مِنَ اللهِ وباللهِ وإلى اللهِ ، فهوَ المخترعُ الموجدُ لهُ ، وهوَ المبقي لهُ ، وهوَ المكمِّلُ لوجودِهِ ؛ بخلقِ صفاتِ الكمالِ ، وخلقِ الأسبابِ الموصلةِ إليهِ ، وخلقِ الهدايةِ إلى استعمالِ الأسبابِ ، وإلا . . فالعبدُ مِنْ حيثُ ذاتُهُ لا وجودَ لهُ مِنْ ذاتِهِ ، بلْ هوَ محوٌ محضٌ وعدمٌ صرفٌ لولا فضْلُ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالإيجادِ ، وهوَ هالكٌ عقيبَ وجودِهِ لولا فضْلُ اللهِ عليهِ بالإبقاءِ ، وهوَ ناقصٌ بعدَ الوجودِ لولا فضْلُ اللهِ عليهِ بالتكميلِ لخلقتِهِ .

وبالجملةِ : فليسَ في الوجودِ شيءٌ لهُ بنفسِهِ قوامٌ إلا القيُّومُ الحيُّ الذي هوَ قائمٌ بذاتِهِ ، وكلُّ ما سواهُ قائمٌ بهِ ، فإنْ أحبَّ العارفُ ذاتَهُ ووجودُ ذاتِهِ مستفادٌ مِنْ غيرِهِ . . فبالضرورةِ يحبُّ المفيدَ لوجودِهِ والمديمَ لهُ إنْ عرفَهُ خالقاً موجداً ، ومخترعاً مبقياً ، وقيُّوماً بنفسِهِ ، ومقوِّماً لغيرِهِ ، فإنْ كانَ لا يحبُّهُ . . فهوَ لجهلِهِ بنفسِهِ وبربِّهِ ، والمحبَّةُ ثمرةُ المعرفةِ ، تنعدمُ بانعدامِها ، وتضعفُ بضعفِها ، وتقوىٰ بقوَّتِها .

ولذٰلكَ قالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (مَنْ عرفَ ربَّهُ . . أحبَّهُ ، ومَنْ عرفَ الدنيا . . زهدَ فيها)[1]

وكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ الإنسانُ نفسَهُ ولا يحبَّ ربَّهُ الذي بهِ قوامُ نفسِهِ ؟!

ومعلومٌ أنَّ المبتلىٰ بحرِّ الشمسِ لمَّا كانَ يحبُّ الظلَّ . . فيحبُّ بالضرورةِ الأشجارَ التي بها قوامُ الظلِّ ، وكلُّ ما في الوجودِ بالإضافةِ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ كالظلِّ بالإضافةِ إلى الشجرِ ، والنورِ بالإضافةِ إلى الشمسِ ؛ فإنَّ الكلَّ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، ووجودُ الكلِّ تابعٌ لوجودِهِ ، كما أنَّ وجودَ النورِ تابعٌ للشمسِ ، ووجودَ الظلِّ تابعٌ للشخصِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٩٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٩) عن بديل بن ميسرة .

بلْ هـٰذا المثالُ صحيحٌ بالإضافةِ إلىٰ أوهامِ العوامّ ؛ إذْ تخيَّلوا أنَّ النورَ أثرُ الشمسِ ، وفائضٌ منها ، وموجودٌ بها ، وهوَ خطأٌ محضٌ ؛ إذِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ انكشافاً أظهرَ مِنْ مشاهدةِ الأبصارِ أنَّ النورَ حاصلٌ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالى اختراعاً عندَ وقوعِ المقابلةِ بينَ الشمسِ وبينَ الأجسامِ الكثيفةِ ؛ كما أنَّ نورَ الشمسِ وعينَها وشكلَها وصورتَها أيضاً حاصلٌ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، ولـٰكنَّ الغرضَ مِنَ الأمثلةِ التفهيمُ ، فلا يُطلبُ فيها الحقائقُ .

فإذاً ؛ إنْ كانَ حبُّ الإنسانِ نفسَهُ ضرورياً . . فحبُّهُ لمَنْ بهِ قوامُهُ أوّلاً ودوامُهُ ثانياً ؛ في أصلِهِ وصفاتِهِ ، وظاهرِهِ وباطنِهِ وجواهرِهِ وأعراضِهِ . . أيضاً ضروريٌّ إنْ عرفَ ذٰلكَ كذٰلكَ ، ومَنْ خلا عنْ هـٰذا الحبِّ . . فلأنَّهُ اشتغلَ بنفسِهِ وشهواتِهِ ، وذهَلَ عنْ ربِّهِ وخالقِهِ ، فلمْ يعرفْهُ حقَّ معرفتِهِ ، وقَصَرَ نظرَهُ علىٰ شهواتِهِ ومحسوساتِهِ ، وهوَ عالمُ الشهادةِ الذي يشاركُهُ البهائمُ في التنعُّمِ بهِ ، والاتساعُ فيهِ دونَ عالمِ الملكوتِ الذي لا يطأُ أرضَهُ إلا مَنْ يقربُ إلىٰ شبهٍ مِنَ الملائكةِ ، فينظرُ فيهِ بقدْرِ قربِهِ في الصفاتِ مِنَ الملائكةِ ، ويقصرُ عنهُ بقدْرِ انحطاطِهِ إلىٰ حضيضِ عالمِ البهائمِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا السببُ الثاني : وهوَ حبُّهُ مَنْ أحسنَ إليهِ :

فواساهُ بمالِهِ ، ولاطفَهُ بكلامِهِ ، وأمدَّهُ بمعونتِهِ ، وانتدبَ لنصرتِهِ ، وقمعَ أعداءَهُ ، وقامَ بدفعِ شرِّ الأشرارِ عنهُ ، وانتهضَ وسيلةً إلىٰ جميعِ حظوظِهِ وأغراضِهِ في نفسِهِ وأولادِهِ وأقاربِهِ ؛ فإنَّهُ محبوبٌ ـ لا محالةَ ـ عندَهُ ، وهـٰذا بعينِهِ يقتضي ألا يحبَّ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ لوْ عرفَ حقَّ المعرفةِ . . لعلمَ أنَّ المحسنَ إليهِ هوَ اللهُ تعالىٰ فقطْ .

فأمَّا أنواعُ إحسانِهِ إلىٰ كلِّ عبيدِهِ . . فلستُ أعدُّها ؛ إذْ ليسَ يحيطُ بها حصرُ حاصرٍ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، وقدْ أشرنا إلىٰ طرفٍ منهُ في كتابِ الشكرِ ، ولـٰكنَّا نقتصرُ الآنَ علىٰ بيانِ أنَّ الإحسانَ مِنَ الناسِ غيرُ متصوَّرٍ إلا بالمجازِ ، وإنَّما المحسنُ هوَ اللهُ تعالىٰ .

ولنفرضْ ذٰلكَ فيمَنْ أنعمَ عليكَ بجميعِ خزائنِهِ ومكَّنَكَ منها لتتصرَّفَ فيها كيفَ تشاءُ ، فإنَّكَ تظنُّ أنَّ هـٰذا الإحسانَ منهُ ، وهوَ غلطٌ ؛ فإنَّهُ إنَّما تمَّ إحسانُهُ بهِ وبمالِهِ وبقدرتِهِ على المالِ وبداعيتِهِ الباعثةِ لهُ علىٰ صرفِ المالِ إليكَ ، فمَنِ الذي أنعمَ بخلقِهِ ، وخلقِ مالِهِ ، وخلقِ قدرتِهِ ، وخلقِ إرادتِهِ وداعيتِهِ ؟ ومَنِ الذي حبَّبَكَ إليهِ ، وصرفَ وجهَهُ إليكَ ، وألقىٰ في نفسِهِ أنَّ صلاحَ دينِهِ أوْ دنياهُ في الإحسانِ إليكَ ، ولولا كلُّ ذٰلكَ . . لما أعطاكَ حبَّةً مِنْ مالِهِ ؟

ومهما سلَّطَ اللهُ عليهِ الدواعيَ ، وقرَّرَ في نفسِهِ أنَّ صلاحَ دينِهِ أو دنياهُ في أنْ يسلِّمَ إليكَ مالَهُ . . كانَ مقهوراً مضطراً في التسليمِ ، لا يستطيعُ مخالفتَهُ ، فالمحسنُ هوَ الذي اضطرَّهُ وسخَّرَهُ لكَ ، وسلَّطَ عليهِ الدواعيَ الباعثةَ المرهقةَ إلى الفعلِ ، وأمَّا يدُهُ . . فواسطةٌ يصلُ بها إحسانُ اللهِ تعالىٰ إليكَ ، وصاحبُ اليدِ مضطرٌّ في ذٰلكَ اضطرارَ مجرى الماءِ في جريانِ الماءِ فيهِ ، فإنِ اعتقدتَهُ محسناً أوْ شكرتَهُ مِنْ حيثُ هوَ بنفسِهِ محسنٌ ، لا مِنْ حيثُ هوَ واسطةٌ . . كنتَ جاهلاً بحقيقةِ الأمرِ ، فإنَّهُ لا يُتصوَّرُ الإحسانُ مِنَ الإنسانِ إلا إلىٰ نفسِهِ ، أمَّا الإحسانُ إلىٰ غيرِهِ . . فمحالٌ مِنَ المخلوقينَ ؛ لأنَّهُ لا يبذُلُ مالَهُ إلا لغرضٍ لهُ في البذلِ ؛ إمَّا آجلٍ وهوَ الثوابُ ، وإمَّا عاجلٍ وهوَ المنَّةُ والاستسخارُ ، أوِ الثناءُ والصيتُ ، والاشتهارُ بالسخاءِ والكرمِ ، أوْ جذبِ قلوبِ الخلقِ إلى الطاعةِ والمحبةِ .

وكما أنَّ الإنسانَ لا يلقي مالَهُ في البحرِ ؛ إذْ لا غرضَ لهُ فيهِ . . فلا يلقيهِ في يدِ إنسانٍ إلا لغرضٍ لهُ فيهِ ، وذٰلكَ الغرضُ هوَ مطلوبُهُ ومقصدُهُ ، وأمَّا أنتَ . . فلستَ مقصوداً ، بلْ يدُكَ آلةٌ لهُ في القبضِ حتَّىٰ يحصلَ غرضُهُ مِنَ الذكرِ

والثناءِ أوِ الشكرِ أوِ الثوابِ ؛ بسببِ قبضِكَ المالَ ، فقدِ استسخرَكَ في القبضِ للتوصُّلِ إلىٰ غرضِ نفسِهِ ، فهوَ إذاً محسنٌ إلىٰ نفسِهِ ، ومعتاضٌ عمَّا بذلَهُ مِنْ مالِهِ عوضاً هوَ أرجحَ عندَهُ مِنْ مالِهِ ، ولولا رجحانُ ذٰلكَ الحظِّ عندَهُ . . لما نزلَ عنْ مالِهِ لأجلِكَ أصلاً ألبتةَ ، فإذاً ؛ هوَ غيرُ مستحقٍّ للشكرِ والحبِّ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ مضطرٌّ بتسليطِ اللهِ الدواعيَ عليهِ ، فلا قدرةَ لهُ على المخالفةِ ، فهوَ جارٍ مجرىٰ خازنِ الأميرِ ، فإنَّهُ لا يُرىٰ محسناً بتسليمِ خلعةِ الأميرِ إلىٰ مَنْ خلعَ عليهِ ؛ لأنَّهُ مِنْ جهةِ الأميرِ مضطرٌّ إلى الطاعةِ والامتثالِ لما يرسمُهُ ، ولا يقدرُ علىٰ مخالفتِهِ ، ولوْ خلاهُ الأميرُ ونفسَهُ . . لما سلَّمَ ذٰلكَ ؛ فكذٰلكَ كلُّ محسنٍ لوْ خلاهُ اللهُ ونفسَهُ . . لمْ يبذُلْ حبَّةً مِنْ مالِهِ ؛ حتَّىٰ سلَّطَ اللهُ الدواعيَ عليهِ ، وألقىٰ في نفسِهِ أنَّ حظَّهُ ديناً ودنيا في بذلِهِ ، فبذلَهُ لذٰلكَ .

والثاني : أنَّهُ معتاضٌ عمَّا بذلَهُ حظاً هوَ أوفىٰ عندَهُ وأحبُّ ممَّا بذلَهُ ، فكما لا يعدُّ البائعُ محسناً لأنَّهُ بذلَ بعوضٍ هوَ أحبُّ عندَهُ ممَّا بذلَهُ . . فكذٰلكَ الواهبُ اعتاضَ الثوابَ أوِ الحمدَ والثناءَ أوْ عوضاً آخرَ ، وليسَ مِنْ شرطِ العوضِ أنْ يكونَ عيناً متموَّلاً ، بلِ الحظوظُ كلُّها أعواضٌ تُستحقرُ الأموالُ والأعيانُ بالإضافةِ إليها ، فالإحسانُ في الجودِ ، والجودُ هوَ بذلُ المالِ مِنْ غيرِ عوضٍ وحظٍّ يرجعُ إلى الباذلِ ، وذٰلكَ محالٌ مِنْ غيرِ اللهِ تعالىٰ ، فهوَ الذي أنعمَ على العالمينَ إحساناً إليهِمْ ، ولأجلِهِمْ ، لا لحظٍّ وغرضٍ يرجعُ إليهِ ؛ فإنَّهُ يتعالىٰ عنِ الأغراضِ .

فلفظُ الجودِ والإحسانِ في حقِّ غيرِهِ كذبٌ أوْ مجازٌ ، ومعناهُ في حقِّ غيرِهِ محالٌ وممتنعٌ امتناعَ الجمعِ بينَ السوادِ والبياضِ ، فهوَ المنفردُ بالجودِ والإحسانِ ، والطَّوْلِ والامتنانِ .

فإنْ كانَ في الطبعِ حبُّ المحسنِ . . فينبغي ألا يحبَّ العارفُ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ إذِ الإحسانُ مِنْ غيرِهِ محالٌ ، فهوَ المستحقُّ لهٰذهِ المحبةِ وحدَهُ ، وأمَّا غيرُهُ . . فيستحقُّ المحبةَ على الإحسانِ بشرطِ الجهلِ بمعنى الإحسانِ وحقيقتِهِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا السببُ الثالثُ : وهوَ حبُّكَ للمحسنِ في نفسِهِ وإنْ لمْ يصلْ إليكَ إحسانُهُ :

وهٰذا أيضاً موجودٌ في الطباعِ ؛ فإنَّهُ إذا بلغَكَ خبرُ ملكٍ عالمٍ عابدٍ عادلٍ ، رفيقٍ بالناسِ ، متلطِّفٍ بهِمْ ، متواضعٍ لهُمْ ، وهوَ في قطرٍ مِنْ أقطارِ الأرضِ بعيدٌ عنكَ ، وبلغَكَ خبرُ ملكٍ آخرَ ظالمٍ متكبِّرٍ ، فاسقٍ متهتِّكٍ شريرٍ ، وهوَ أيضاً بعيدٌ عنكَ . . فإنَّكَ تجدُ في قلبِكَ تفرقةً بينَهُما ؛ إذْ تجدُ في القلبِ ميلاً إلى الأوَّلِ وهوَ الحبُّ ، ونفرةً عنِ الثاني وهوَ البغضُ ، معَ أنَّكَ آيسٌ مِنْ خيرِ الأوَّلِ وآمنٌ مِنْ شرِّ الثاني ؛ لانقطاعِ طمعِكَ عنِ التوغُّلِ إلىٰ بلادِهِما ، فهٰذا حبُّ المحسنِ مِنْ حيثُ إنَّهُ محسنٌ فقطْ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ محسنٌ إليكَ ، وهٰذا أيضاً يقتضي حبَّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ يقتضي ألا يحبَّ غيرَهُ أصلاً إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ يتعلَّقُ منهُ بسببٍ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ المحسنُ إلى الكافةِ والمتفضِّلُ علىٰ جميعِ أصنافِ الخلائقِ ؛ **أوَّلاً** : بإيجادِهِمْ ، **وثانياً** : بتكميلِهِمْ بالأعضاءِ والأسبابِ التي هيَ مِنْ ضروراتِهِمْ ، **وثالثاً** : بترفيهِهِمْ وتنعيمِهِمْ بخلقِ الأسبابِ التي هيَ في مظانِّ حاجاتِهِمْ ، وإنْ لمْ تكنْ في مظانِّ الضرورةِ ، **ورابعاً** : بتجميلِهِمْ بالمزايا والزوائدِ التي هيَ في مَظِنَّةِ زينتِهِمْ ، وهيَ خارجةٌ عنْ ضروراتِهِمْ وحاجاتِهِمْ .

ومثالُ الضروريِّ مِنَ الأعضاءِ : الرأسُ ، والقلبُ ، والكبدُ ، **ومثالُ المحتاجِ إليهِ** : العينُ ، واليدُ ، والرجْلُ ، **ومثالُ الزينةِ** : استقواسُ الحاجبينِ ، وحمرةُ الشفتينِ ، وتلوُّنُ العينينِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا لوْ فاتَ . . لمْ تنخرمْ بهِ حاجةٌ ولا ضرورةٌ .

ومثالُ الضروريّ مِنَ النعمِ الخارجةِ عنْ بدنِ الإنسانِ : الماءُ والغذاءُ ، **ومثالُ الحاجةِ** : الدواءُ ، واللحمُ ، والفواكهُ ، **ومثالُ المزايا والزوائدِ** : خضرةُ الأشجارِ ، وحسنُ أشكالِ الأنوارِ والأزهارِ ، ولذائذُ الفواكهِ والأطعمةِ التي لا تنخرمُ بعدمِها حاجةٌ ولا ضرورةٌ .

وهاذهِ الأقسامُ الثلاثةُ موجودةٌ لكلِّ حيوانٍ ، بلْ لكلِّ نباتٍ ، بلْ لكلِّ صنفٍ مِنْ أصنافِ الخلقِ مِنْ ذروةِ العرشِ إلىٰ منتهى الثرىٰ (١) .

فإذاً ؛ هوَ المحسنُ ، وكيفَ يكونُ غيرُهُ محسناً وذٰلكَ المحسنُ حسنةٌ مِنْ حسناتِ قدرتِهِ ؟! فإنَّهُ خالقُ الحسنِ ، وخالقُ المحسنِ ، وخالقُ الإحسانِ ، وخالقُ أسبابِ الإحسانِ ، فالحبُّ بهاذهِ العلَّةِ لغيرِهِ أيضاً جهلٌ محضٌ ، ومَنْ عرفَ ذٰلكَ . . لمْ يحبَّ بهاذهِ العلةِ إلا اللهَ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا السببُ الرابعُ : وهوَ حبُّ كلِّ جميلٍ لذاتِ الجمالِ ، لا لحظٍّ يُنالُ منهُ وراءَ إدراكِ الجمالِ :

فقدْ بيَّنا أنَّ ذٰلكَ مجبولٌ في الطباعِ ، وأنَّ الجمالَ ينقسمُ إلىٰ جمالِ الصورةِ الظاهرةِ المدركةِ بعينِ الرأسِ ، وإلىٰ جمالِ الصورةِ الباطنةِ المدركةِ بعينِ القلبِ ونورِ البصيرةِ ، والأوَّلُ يدركُهُ الصبيانُ والبهائمُ ، والثاني يختصُّ بدركِهِ أربابُ القلوبِ ، ولا يشاركُهُمْ فيهِ مَنْ لا يعلمُ إلا ظاهراً مِنَ الحياةِ الدنيا .

وكلُّ جمالٍ فهوَ محبوبٌ عندَ مدركِ الجمالِ ، فإنْ كانَ مدركاً بالقلبِ . . فهوَ محبوبٌ بالقلبِ ، ومثالُ هاذا في المشاهدةِ : حبُّ الأنبياءِ والعلماءِ وذوي المكارمِ السنيَّةِ والأخلاقِ المرضيَّةِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ متصوَّرٌ معَ تشوُّشِ صورةِ الوجهِ وسائرِ الأعضاءِ ، وهوَ المرادُ بحسنِ الصورةِ الباطنةِ ، والحسُّ لا يدركُهُ .

نعمْ ؛ يدركُ الحسُّ آثارَهُ الصادرةَ منهُ الدالَّةَ عليهِ ، حتَّىٰ إذا دلَّ القلبَ عليه . . مالَ القلبُ إليهِ فأحبَّهُ ، فمَنْ يحبُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أوِ الصدّيقَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ، أوِ الشافعيَّ رحمةُ اللهِ تعالىٰ عليهِ . . فلا يحبُّهُمْ إلا لحسنِ ما ظهرَ لهُ منهُمْ ، وليسَ ذٰلكَ لحسنِ صورِهِمْ ، ولا لحسنِ أفعالِهِمْ ، بلْ دلَّ حسنُ أفعالِهِمْ علىٰ حسنِ الصفاتِ التي هيَ مصدرُ الأفعالِ ، إذِ الأفعالُ آثارٌ صادرةٌ عنها ، ودالَّةٌ عليها .

فمَنْ رأىٰ حسنَ تصنيفِ المصنِّفِ ، وحسنَ شعرِ الشاعرِ ، بلْ حسنَ نقشِ النَّقاشِ وبناءِ البنَّاءِ . . انكشفَ لهُ مِنْ هاذهِ الأفعالِ صفاتُهُمُ الجميلةُ الباطنةُ التي يرجعُ حاصلُها عندَ البحثِ إلى العلمِ والقدرةِ ، وكلَّما كانَ المعلومُ أشرفَ وأتمَّ جمالاً وعظمةً . كانَ العلمُ أشرفَ وأجملَ ، وكذا المقدورُ كلَّما كانَ أعظمَ رتبةً وأجلَّ منزلةً . . كانَتِ القدرةُ عليهِ أجلَّ رتبةً وأشرفَ قدْراً .

وأجلُّ المعلوماتِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، فلا جرمَ أحسنُ العلومِ وأشرفُها معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، وكذٰلكَ ما يقاربُهُ ويختصُّ بهِ فشرفُهُ علىٰ قدْرِ تعلُّقِهِ بهِ (٢) .

فإذاً ؛ جمالُ صفاتِ الصدّيقينَ الذينَ تحبُّهُمُ القلوبُ طبعاً ترجعُ إلىٰ ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : علمُهُمْ باللهِ تعالىٰ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ وشرائعِ أنبيائِهِ .

---

(١) وفي نسخة الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٦٣/٩) : (الفرش) بدل (الثرىٰ) .

(٢) وإنما شرفه لأنه معرفة لأفعال الله تعالىٰ ، ومعرفة للطريق الذي يقرّب العبد من الله تعالىٰ ، والأمر الذي يسهل به الوصول إلىٰ معرفة الله والقرب منه ، وكل معرفة خارجة عن ذٰلك . . فليس فيها كبير شرف . « إتحاف » (٥٦٣/٩) .

والثاني : قدرتُهُمْ علىٰ إصلاحِ أنفسِهِمْ وإصلاحِ عبادِ اللهِ تعالىٰ بالإرشادِ والسياسةِ .

والثالثُ : تنزُّهُهُمْ عنِ الرذائلِ والخبائثِ والشهواتِ الغالبةِ الصارفةِ عنْ سننِ الخيرِ ، الجاذبةِ إلىٰ طريقِ الشرِّ .

وبمثلِ هـٰذا يُحبُّ الأنبياءُ والعلماءُ والخلفاءُ والملوكُ الذينَ همْ أهلُ العدلِ والكرمِ ، فانسبْ هـٰذهِ الصفاتِ إلىٰ صفاتِ اللهِ تعالىٰ .

أمَّا العلمُ : فأينَ علمُ الأوَّلينَ والآخرينَ مِنْ علمِ اللهِ تعالى الذي يحيطُ بالكلِّ إحاطةً خارجةً عنِ النهايةِ ؛ حتَّىٰ لا يعزبُ عنهُ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ ؟

وقدْ خاطبَ الخلقَ كلَّهُمْ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، بلْ لو اجتمعَ أهلُ الأرضِ والسماءِ علىٰ أنْ يحيطوا بعلمِهِ وحكمتِهِ في تفصيلِ خلقِ نملةٍ أوْ بعوضةٍ . . لمْ يطلعوا علىٰ عُشْرِ عَشِيرِ ذٰلكَ !! ولا يحيطونَ بشيءٍ مِنْ علمِهِ إلا بما شاءَ ، والقدْرُ اليسيرُ الذي علمَهُ الخلائقُ كلُّهُمْ فبتعليمِهِ علموهُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

فإنْ كانَ جمالُ العلمِ وشرفُهُ أمراً محبوباً ، وكانَ هوَ في نفسِهِ زينةً وكمالاً للموصوفِ بهِ . . فلا ينبغي أنْ يُحبَّ بهـٰذا السببِ إلا اللهُ تعالىٰ ، فعلومُ العلماءِ جهلٌ بالإضافةِ إلىٰ علمِهِ ، بلْ مَنْ عرفَ أعلمَ أهلِ زمانِهِ وأجهلَ أهلِ زمانِهِ . . استحالَ أنْ يحبَّ بسببِ العلمِ الأجهلَ ويتركَ الأعلمَ ، وإنْ كانَ الأجهلُ لا يخلو عنْ علمٍ ما بتفاصيلِ معيشتِهِ ، والتفاوتُ بينَ علمِ اللهِ وبينَ علمِ الخلائقِ أكثرُ مِنَ التفاوتِ بينَ علمِ أعلمِ الخلائقِ وأجهلِهِمْ ؛ لأنَّ الأعلمَ لا يفضلُ الأجهلَ إلا بعلومٍ معدودةٍ متناهيةٍ يُتصوَّرُ في الإمكانِ أنْ ينالَها الأجهلُ بالكسبِ والاجتهادِ ، وفضْلُ علمِ اللهِ سبحانَهُ علىٰ علومِ الخلائقِ كلِّهِمْ خارجٌ عنِ النهايةِ ؛ إذْ معلوماتُهُ لا نهايةَ لها ، ومعلوماتُ الخلقِ متناهيةٌ .

وأمَّا صفةُ القدرةِ : فهيَ أيضاً كمالٌ ، والعجزُ نقصٌ ، وكلُّ كمالٍ وبهاءٍ وعظمةٍ ومجدٍ واستيلاءٍ فإنَّهُ محبوبٌ ، وإدراكُهُ لذيذٌ ، حتَّىٰ إنَّ الإنسانَ ليسمعُ في الحكايةِ شجاعةَ عليٍّ وخالدٍ ـ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ـ وغيرِهِما مِنَ الشجعانِ ، وقدرتَهُما واستيلاءَهُما على الأقرانِ ، فيصادفُ في قلبِهِ اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرَّدِ لذَّةِ السماعِ فضْلاً عنِ المشاهدةِ ، ويورثُ ذٰلكَ حبّاً في القلبِ ضرورياً للمتصفِ بهِ ، فإنَّهُ نوعُ كمالٍ .

فانسبِ الآنَ قدرةَ الخلقِ كلِّهِمْ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، فأعظمُ الأشخاصِ قوَّةً ، وأوسعُهُمْ ملكاً ، وأقواهُمْ بطشاً ، وأقهرُهُمْ للشهواتِ ، وأقمعُهُمْ لخبائثِ النفسِ ، وأجمعُهُمْ للقدرةِ علىٰ سياسةِ نفسِهِ وسياسةِ غيرِهِ . . ما منتهىٰ قدرتِهِ ؟ وإنَّما غايتُهُ أنْ يقدرَ علىٰ بعضِ صفاتِ نفسِهِ ، وعلىٰ بعضِ أشخاصِ الإنسِ في بعضِ الأمورِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ لا يملكُ لنفسِهِ موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ولا نفعاً ولا ضرّاً ، بلْ لا يقدرُ علىٰ حفظِ عينِهِ مِنَ العمىٰ ، ولسانِهِ مِنَ الخرسِ ، وأذنِهِ مِنَ الصممِ ، وبدنِهِ مِنَ المرضِ ، ولا يُحتاجُ إلىٰ عدِّ ما يعجزُ عنهُ في نفسِهِ وغيرِهِ ممَّا هوَ على الجملةِ متعلَّقُ قدرتِهِ ، فضلاً عمَّا لا تتعلَّقُ بهِ قدرتُهُ مِنْ ملكوتِ السماواتِ وأفلاكِها وكواكبِها ، والأرضِ وجبالِها وبحارِها ورياحِها وصواعقِها ومعادنِها ونباتِها وحيواناتِها وجميعِ أجزائِها ، فلا قدرةَ لهُ علىٰ ذرَّةٍ منها

وما هوَ قادرٌ عليهِ مِنْ نفسِهِ وغيرِهِ فليسَتْ قدرتُهُ مِنْ نفسِهِ وبنفسِهِ ، بلِ اللهُ خالقُهُ وخالقُ قدرتِهِ ، وخالقُ أسبابِهِ ، والممكِّنُ لهُ مِنْ ذٰلكَ ، ولوْ سلَّطَ بعوضاً علىٰ أعظمِ ملكٍ وأقوىٰ شخصٍ مِنَ الحيواناتِ . . لأهلكَهُ ، فليسَ للعبدِ قدرةٌ إلا بتمكينِ مولاهُ ، كما قالَ في أعظمِ ملوكِ الأرضِ ذي القرنينِ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، فلمْ يكنْ جميعُ ملكِهِ وسلطنتِهِ

إلا بتمكينِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ في جزءٍ مِنَ الأرضِ ، والأرضُ كلُّها مدرةٌ بالإضافةِ إلىٰ أجسامِ العالمِ ، وجميعُ الولاياتِ التي يحظىٰ بها الناسُ مِنَ الأرضِ غبرةٌ مِنْ تلكَ المدرةِ ، ثمَّ تلكَ الغبرةُ أيضاً مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ وتمكينِهِ ، فيستحيلُ أنْ يحبَّ عبداً مِنْ عبادِ اللهِ تعالىٰ لقدرتِهِ وسياستِهِ ، وتمكُّنِهِ واستيلائِهِ وكمالِ قوَّتِهِ . . ولا يحبَّ اللهَ تعالىٰ لذٰلكَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، فهوَ الجبَّارُ القاهرُ ، والعليمُ القادرُ ، السماواتُ مطوياتٌ بيمينِهِ ، والأرضُ وما عليها في قبضتِهِ ، وناصيةُ جميعِ المخلوقاتِ في قبضةِ قدرتِهِ ، إنْ أهلكَهُمْ مِنْ عندِ آخرِهِمْ . . لمْ ينقصْ مِنْ سلطانِهِ وملكِهِ ذرَّةٌ ، وإنْ خلقَ أمثالَهُمْ ألفَ مرَّةٍ . . لمْ يعْيَ بخلقِهِ ، ولا يمسُّهُ لغوبٌ ولا فتورٌ في اختراعِهِ ، فلا قدرةَ ولا قادرَ إلا وهوَ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، فلهُ الجمالُ والبهاءُ ، والعظمةُ والكبرياءُ ، والقهرُ والاستيلاءُ ، فإنْ كانَ يُتصوَّرُ أنْ يُحبَّ قادرٌ لكمالِ قدرتِهِ . . فلا يستحقُّ الحبَّ بكمالِ القدرةِ سواهُ أصلاً .

وأمَّا صفةُ التنزُّهِ عنِ العيوبِ والنقائصِ ، والتقدُّسِ عنِ الرذائلِ والخبائثِ : فهوَ أحدُ موجباتِ الحبِّ ، ومقتضياتِ الحسنِ والجمالِ في الصورةِ الباطنةِ ، والأنبياءُ والصدِّيقونَ وإنْ كانوا منزَّهينَ عنِ العيوبِ والخبائثِ . . فلا يُتصوَّرُ كمالُ التقديسِ والتنزيهِ إلا للواحدِ الحقِّ ، الملكِ القدوسِ ، ذي الجلالِ والإكرامِ .

وأمَّا كلُّ مخلوقٍ . . فلا يخلو عنْ نقصٍ وعنْ نقائصَ ، بلْ كونُهُ عاجزاً مخلوقاً مسخَّراً مضطراً هوَ عينُ العيبِ والنقصِ ، فالكمالُ للهِ وحدَهُ ، وليسَ لغيرِهِ كمالٌ إلا بقدْرِ ما أعطاهُ اللهُ ، وليسَ في المقدورِ أنْ ينعمَ بمنتهى الكمالِ علىٰ غيرِهِ ، فإنَّ منتهى الكمالِ أقلُّ درجاتِهِ ألا يكونَ عبداً مسخَّراً لغيرِهِ وقائماً بغيرِهِ ، وذٰلكَ محالٌ في حقِّ غيرِهِ ، فهوَ المنفردُ بالكمالِ ، المنزَّهُ عنِ النقصِ ، المقدَّسُ عنِ العيوبِ ، وشرحُ وجوهِ التقديسِ والتنزيهِ في حقِّهِ عنِ النقائصِ يطولُ ، وهوَ مِنْ أسرارِ علومِ المكاشفاتِ ، فلا نطوِّلُ بذكرِهِ .

فهٰذا الوصفُ أيضاً إنْ كانَ كمالاً وجمالاً محبوباً . . فلا تتمُّ حقيقتُهُ إلا لهُ ، وكمالُ غيرِهِ وتنزُّهُهُ لا يكونُ مطلقاً ، بلْ بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ أشدُّ منهُ نقصاناً ، كما أنَّ للفرسِ كمالاً بالإضافةِ إلى الحمارِ ، وللإنسانِ كمالاً بالإضافةِ إلى الفرسِ ، وأصلُ النقصِ شاملٌ للكلِّ ، وإنَّما يتفاوتونَ في درجاتِ النقصانِ .

فإذاً ؛ الجميلُ محبوبٌ ، والجميلُ المطلقُ هوَ الواحدُ الذي لا ندَّ لهُ ، الفردُ الذي لا ضدَّ لهُ ، الصمدُ الذي لا منازعَ لهُ ، الغنيُّ الذي لا حاجةَ لهُ ، القادرُ الذي يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، العالمُ الذي لا يعزبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ ، القاهرُ الذي لا يخرجُ عنْ قبضةِ قدرتِهِ أعناقُ الجبابرةِ ، ولا ينفلتُ مِنْ سطوتِهِ وبطشِهِ رقابُ القياصرةِ ، الأزليُّ الذي لا أوَّلَ لوجودِهِ ، الأبديُّ الذي لا آخرَ لبقائِهِ ، الضروريُّ الوجودِ الذي لا يحومُ إمكانُ العدمِ حولَ حضرتِهِ ، القيُّومُ الذي يقومُ بنفسِهِ ويقومُ كلُّ موجودٍ بهِ ، جبَّارُ الأرضِ والسماواتِ ، خالقُ الجمادِ والحيوانِ والنباتِ ، المنفردُ بالعزَّةِ والجبروتِ ، المتوحِّدُ بالملكِ والملكوتِ ، ذو الفضْلِ والجلالِ ، والبهاءِ والجمالِ ، والقدرةِ والكمالِ ، الذي تتحيَّرُ في معرفةِ جلالِهِ العقولُ ، وتخرسُ في وصفِهِ الألسنةُ ، الذي كمالُ معرفةِ العارفينَ الاعترافُ بالعجزِ عنْ معرفتِهِ ، ومنتهىٰ نبوَّةِ الأنبياءِ الإقرارُ بالقصورِ عنْ وصفِهِ ، كما قالَ سيِّدُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِ وعليهِمْ أجمعينَ : « لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[١] ، وقالَ سيِّدُ الصدِّيقينَ رضيَ اللهُ عنهُ : (سبحانَ مَنْ لمْ يجعلْ للخلقِ طريقاً إلىٰ معرفتِهِ إلا بالعجزِ عنْ معرفتِهِ)[٢] ، فالعجزُ عنْ دركِ الإدراكِ إدراكٌ .

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٤٩٥) .

فليتَ شعري مَنْ ينكرُ إمكانَ حبِّ اللهِ تعالىٰ تحقيقاً ويجعلُهُ مجازاً . . أينكرُ أنَّ هٰذهِ الأوصافَ هيَ مِنْ أوصافِ الجمالِ والمحامدِ ، ونعوتِ الكمالِ والمحاسنِ ، أوْ ينكرُ كونَ اللهِ تعالىٰ موصوفاً بها ، أوْ ينكرُ كونَ الكمالِ والجمالِ والبهاءِ والعظمةِ محبوباً بالطبعِ عندَ مَنْ أدركَهُ ؟!

فسبحانَ مَنِ احتجبَ عنْ بصائرِ العميانِ غيرةً علىٰ جمالِهِ وجلالِهِ أنْ يطلعَ عليهِ إلا مَنْ سبقَتْ لهُ منهُ الحسنىٰ !! الذينَ هُمْ عنْ نارِ الحجابِ مبعدونَ ، وتركَ الخاسرينَ في ظلماتِ العمىٰ يتيهونَ ، وفي مسارحِ المحسوساتِ وشهواتِ البهائمِ يتردَّدونَ ، يعلمونَ ظاهراً مِنَ الحياةِ الدنيا ، وهُمْ عنِ الآخرةِ هُمْ غافلونَ ، الحمدُ للهِ ، بلْ أكثرُهُمْ لا يعلمونَ .

والحبُّ بهٰذا السببِ [1] أقوىٰ مِنَ الحبِّ بالإحسانِ ؛ لأنَّ الإحسانَ يزيدُ وينقصُ ، ولذٰلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (إنَّ أودَّ الأودَّاءِ إليَّ مَنْ عبدَني بغيرِ نوالٍ ، لٰكنْ ليُعطيَ الربوبيَّةَ حقَّها) [2]

وفي الزبورِ : (مَنْ أظلمُ ممَّنْ عبدَني لجنَّةٍ أوْ نارٍ ، لوْ لمْ أخلقْ جنَّةً ولا ناراً . . ألمْ أكنْ أهلاً أنْ أُطاعَ ؟!) [3]

ومرَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ طائفةٍ مِنَ العبَّادِ قدْ نحلوا ، فقالوا : نخافُ النارَ ونرجو الجنَّةَ ، فقالَ لهُمْ : مخلوقاً خفتُمْ ومخلوقاً رجوتُمْ ، ومرَّ بقومٍ آخرينَ كذٰلكَ ، فقالوا : نعبدُهُ حبّاً لهُ وتعظيماً لجلالِهِ ، فقالَ : أنتُمْ أولياءُ اللهِ حقّاً ، معَكُمْ أُمرتُ أنْ أقيمَ [4]

وقالَ أبو حازمٍ : (إنِّي لأستحيي أنْ أعبدَهُ للثوابِ والعقابِ ، فأكونَ كالعبدِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يخفْ . . لمْ يعملْ ، وكالأجيرِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يُعطَ . . لمْ يعملْ) [5]

وفي الخبرِ : « لا يكونَنَّ أحدُكُمْ كالأجيرِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يُعطَ أجراً . لمْ يعملْ ، ولا كالعبدِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يخفْ . . لمْ يعملْ » [6]

❁ ❁ ❁

وأمَّا السببُ الخامسُ للحبِّ : فهوَ المناسبةُ والمشاكلةُ :

لأنَّ شبهَ الشيءِ منجذبٌ إليهِ ، والشكلُ إلى الشكلِ أميلُ ، ولذٰلكَ ترى الصبيَّ يألفُ الصبيَّ ، والكبيرَ يألفُ الكبيرَ ، ويألفُ الطيرُ نوعَهُ ، وينفرُ مِنْ غيرِ نوعِهِ ، وأنسُ العالمِ بالعالمِ أكثرُ منهُ بالمحترفِ ، وأنسُ النجَّارِ بالنجارِ أكثرُ مِنْ أنسِهِ بالفلاحِ ، وهٰذا أمرٌ تشهدُ بهِ التجربةُ ، وتشهدُ لهُ الأخبارُ والآثارُ كما استقصيناهُ في بابِ الأخوَّةِ في اللهِ مِنْ كتابِ آدابِ الصحبةِ ، فليطلبْ منهُ .

---

(١) أي : التعرف علىٰ صفات الكمال المطلق للذات الأحدية ، مع الإقرار بالعجز المطلق عن دركها .

(٢) قوت القلوب (٥٦/٢) .

(٣) قوت القلوب (٥٦/٢) .

(٤) كذا في « القوت » (٥٦/٢) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٠) نحوه .

(٥) كذا في « القوت » (٥٦/٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٢/٣) بنحوه ، وقد رواه عن حكيم من الحكماء ابنُ المبارك في « الزهد » (٢١٩) وفيه زيادة : (ولٰكن يستخرج مني حب ربي عز وجل ما لم يستخرج مني غيره) .

(٦) كذا في « القوت » (٥٦/٢) ، حيث قال بعد إيراده لكلام أبي حازم المدني : (وقد روينا معنىٰ هٰذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يكون أحدكم كالعبد السوء ؛ إن خاف . . عمل ، ولا كالأجير السوء ؛ إن لم يعط أجراً . . لم يعمل ») ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٥٦٧/٩) .

وإذا كانَتِ المناسبةُ سببَ التحابِّ . . فالمناسبةُ قدْ تكونُ في معنىً ظاهرٍ ؛ كمناسبةِ الصبيِّ الصبيَّ في معنى الصبا ، وقدْ يكونُ خفيّاً حتَّىٰ لا يُطلعُ عليهِ ؛ كما ترىٰ مِنَ الاتحادِ الذي يتفقُ بينَ شخصينِ مِنْ غيرِ ملاحظةِ جمالٍ ، أوْ طمعٍ في مالٍ أوْ غيرِهِ ، كما أشارَ إليهِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ ، فما تعارفَ منها . . ائتلفَ ، وما تناكرَ منها . . اختلفَ »[1] ، والتعارفُ هوَ التناسبُ ، والتناكرُ هوَ التباينُ[2]

وهٰذا السببُ أيضاً يقتضي حبَّ اللهِ تعالىٰ لمناسبةٍ باطنةٍ لا ترجعُ إلى المشابهةِ في الصورِ والأشكالِ ، بلْ إلىٰ معانٍ باطنةٍ يجوزُ أنْ يُذكرَ بعضُها في الكتبِ ، وبعضُها لا يجوزُ أنْ يُسطرَ ، بلْ يُتركُ تحتَ غطاءِ الغيرةِ حتَّىٰ يعثرَ عليهِ السالكونَ للطريقِ إذا استكملوا شرطَ السلوكِ .

فالذي يُذكرُ هوَ قربُ العبدِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الصفاتِ التي أُمرَ فيها بالاقتداءِ والتخلُّقِ بأخلاقِ الربوبيَّةِ ، حتَّىٰ قيلَ : (تخلَّقوا بأخلاقِ اللهِ)[3] ، وذٰلكَ في اكتسابِ محامدِ الصفاتِ التي هيَ مِنْ صفاتِ الإلٰهيةِ ؛ مِنَ العلمِ ، والبرِّ ، والإحسانِ ، واللطفِ ، وإفاضةِ الخيرِ والرحمةِ على الخلقِ ، والنصيحةِ لهُمْ ، وإرشادِهِمْ إلى الحقِّ ، ومنعِهِمْ مِنَ الباطلِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ مكارمِ الشريعةِ ، فكلُّ ذٰلكَ يقرّبُ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، لا بمعنىٰ طلبِ القربِ بالمكانِ ، بلْ بالصفاتِ .

وأمَّا ما لا يجوزُ أنْ يُسطرَ في الكتبِ مِنَ المناسبةِ الخاصَّةِ التي اختُصَّ بها الآدميُّ . . فهيَ التي يومئُ إليها قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ، إذْ بيَّنَ أنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ خارجٌ عنْ حدِّ عقولِ الخلقِ .

وأوضحُ مِنْ ذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ، ولذٰلكَ أسجدَ لهُ ملائكتَهُ .

ويشيرُ إليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إذْ لمْ يستحقَّ آدمُ خلافةَ اللهِ تعالىٰ إلا بتلكَ المناسبةِ[4] .

وإليهِ يرمزُ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »[5] ، حتَّىٰ ظنَّ القاصرونَ أنْ لا صورةَ إلا الصورةُ الظاهرةُ المدركةُ بالحواسِّ ، فشبَّهوا وجسَّموا وصوَّروا ، تعالى اللهُ ربُّ العالمينَ عمَّا يقولُ الجاهلونَ علوّاً كبيراً .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : مرضتُ فلمْ تعدْني ، فقالَ : يا ربِّ ؛ وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : مرضَ عبدي فلانٌ فلمْ تعدْهُ ، ولوْ عدتَهُ . . لوجدتَني عندَهُ[6]

وهٰذهِ المناسبةُ لا تظهرُ إلا بالمواظبةِ على النوافلِ بعدَ إحكامِ الفرائضِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : « ولا يزالُ العبدُ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨) .

(٢) أي : ما تناسب منها في عالم الأزل . . حصل بينهما الائتلاف في عالم الشهادة ، وما تباين هناك . . أوجب حصول الاختلاف ها هنا . « إتحاف » (٥٦٨/٩) .

(٣) إذ روى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧) من حديث عثمان رضي الله عنه مرفوعاً : « لله مئة وسبعة عشر خلقاً ، من جاء بخلق منها . . أدخله الله الجنة » ، وقد قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾

(٤) لأنه أنموذج من نور الله تعالىٰ ، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة ، وإن كان لا يرقىٰ إلىٰ ذروة المساواة ، وهٰذا ربما هزَّك للتفطن لسرِّ الآية . « إتحاف » (٥٦٨/٩) .

(٥) رواه مسلم (١١٥/٢٦١٢) .

(٦) روىٰ مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم ؛ مرضت فلم تعدني ، قال : يا رب ؛ كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته . . لوجدتني عنده ؟ . . . » الحديث .

يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ ، وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ ، ولسانَهُ الذي ينطقُ بهِ »[1]

وهٰذا موضعٌ يجبُ قبضُ عنانِ القلمِ فيهِ ، فقدْ تحزَّبَ الناسُ فيهِ : إلىٰ قاصرينَ مالوا إلى التشبيهِ الظاهرِ ، وإلىٰ غالينَ مسرفينَ جاوزوا حدَّ المناسبةِ إلى الاتحادِ وقالوا بالحلولِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : (أنا الحقُّ) ، وضلَّ النصارىٰ في عيسىٰ عليهِ السلامُ فقالوا : (هوَ الإلٰهُ) ، وقالَ آخرونَ منهُمْ : (تدرَّعَ الناسوتُ باللاهوتِ) ، وقالَ آخرونَ : (اتحدَ بهِ)[2]

وأمَّا الذينَ انكشفَ لهم استحالةُ التشبيهِ والتمثيلِ ، واستحالةُ الاتحادِ والحلولِ ، واتضحَ لهُمْ معَ ذٰلكَ حقيقةُ السرِّ . . فهُمُ الأقلُّونَ ، ولعلَّ أبا الحسينِ النوريَّ عنْ هٰذا المقامِ كانَ ينظرُ ؛ إذْ غلبَهُ الوجدُ في قولِ القائلِ : [من الكامل]

لا زِلْـتُ أَنْـزِلُ مِـنْ وِدادِكَ مَـنْـزِلاً ... تَـتَـحَـيَّـرُ الأَلْـبـابُ عِـنْـدَ نُـزُولِـهِ

فلمْ يزلْ يعدو في وجدِهِ علىٰ أجمةِ قصبٍ قدْ قُطعَتْ وبقيَتْ أصولُها ، حتَّىٰ تشقَّقَتْ قدماهُ وتورَّمتا ، وماتَ مِنْ ذٰلكَ[3]

وهٰذا هوَ أعظمُ أسبابِ الحبِّ وأقواها ، وهوَ أعزُّها وأبعدُها وأقلُّها وجوداً .

فهٰذهِ هيَ المعلومةُ مِنْ أسبابِ الحبِّ ، وجملةُ ذٰلكَ متظاهرةٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ تحقيقاً لا مجازاً ، وفي أعلى الدرجاتِ لا في أدناها ، فكانَ المعقولُ المقبولُ عندَ ذوي البصائرِ حبَّ اللهِ تعالىٰ فقطْ ، كما أنَّ المعقولَ الممكنَ عندَ العميانِ حبُّ غيرِ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

ثمَّ كلُّ مَنْ يحبُّ واحداً مِنَ الخلقِ بسببٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ غيرَهُ لمشاركتِهِ إيَّاهُ في السببِ ، والشركةُ نقصانٌ في الحبِّ ، وغضٌّ مِنْ كمالِهِ ، ولا ينفردُ أحدٌ بوصفٍ محبوبٍ إلا وقدْ يُوجدُ لهُ شريكٌ فيهِ ، فإنْ لمْ يُوجدْ . . فيمكنُ أنْ يُوجدَ ، إلا اللهَ تعالىٰ ، فإنَّهُ موصوفٌ بهٰذهِ الأوصافِ التي هيَ نهايةُ الجلالِ والكمالِ ، ولا شريكَ لهُ في ذٰلكَ وجوداً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ ذٰلكَ إمكاناً ، فلا جرمَ لا يكونُ في حبِّهِ شركةٌ ، فلا يتطرَّقُ النقصانُ إلىٰ حبِّهِ ؛ كما لا تتطرَّقُ الشركةُ إلىٰ صفاتِهِ ، فهوَ المستحقُّ إذاً لأصلِ المحبةِ ولكمالِ المحبةِ استحقاقاً لا يُساهَمُ فيهِ أصلاً .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) ، وابن حبان (٣٤٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) تقدم هٰذا السياق للمصنف ، وقد ألح المصنف في معالجة هٰذه الأغلوطة في عدد من مؤلفاته ؛ كـ« المنقذ من الضلال » (ص ٧٠) ، و« المقصد الأسنىٰ » (ص ١٠٦) ، و« ميزان العمل » (ص ٢٠٧) ، و« مشكاة الأنوار » (ص ٤٢) .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/٣٤٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٤) ، وأورده الطوسي في « اللمع » (ص ٣٦٣) .

بيان أن أجلّ اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصوّر أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حُرم هذه اللذة

اعلمْ : أنَّ اللذاتِ تابعةٌ للإدراكاتِ ، والإنسانُ جامعٌ لجملةٍ مِنَ القوىٰ والغرائزِ ، ولكلِّ قوةٍ وغريزةٍ لذةٌ ، ولذتُها في نيلِها لمقتضىٰ طبعِها الذي خُلقَتْ لهُ ، فإنَّ هـٰذهِ الغرائزَ ما رُكِّبَتْ في الإنسان عبثاً ولا هزلاً ، بلْ خُلقَتْ كلُّ قوَّةٍ وغريزةٍ لأمرٍ مِنَ الأمورِ هوَ مقتضاها بالطبعِ ، فغريزةُ الغضبِ خُلقَتْ للتشفِّي والانتقامِ ، فلا جرمَ لذَّتُها في الغلبةِ والانتقامِ الذي هوَ مقتضىٰ طبعِها ، وغريزةُ شهوةِ الطعامِ مثلاً خُلقَتْ لتحصيلِ الغذاءِ الذي بهِ القوامُ ، فلا جرمَ لذَّتُها في نيلِ الغذاءِ الذي هوَ مقتضىٰ طبعِها ، وكذٰلكَ لذَّةُ السمعِ والبصرِ والشمِّ في الإبصارِ والاستماعِ والاشتمامِ ، فلا تخلو غريزةٌ مِنْ هـٰذهِ الغرائزِ عنْ ألمٍ ولذةٍ بالإضافةِ إلىٰ مدركاتِها ؛ **فكذٰلكَ في القلبِ غريزةٌ تُسمَّى النورَ الإلـٰهيَّ** ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ، وقدْ تُسمَّى العقلَ ، وقدْ تُسمَّى البصيرةَ الباطنةَ ، وقدْ تُسمَّىٰ نورَ الإيمانِ واليقينِ[1] ، ولا معنىٰ للاشتغالِ بالأسامي ؛ فإنَّ الاصطلاحاتِ مختلفةٌ ، والضعيفُ يظنُّ أنَّ الاختلافَ واقعٌ في المعاني ؛ لأنَّ الضعيفَ يطلبُ المعانيَ مِنَ الألفاظِ ، وهوَ عكسُ الواجبِ[2] .

فالقلبُ مفارقٌ لسائرِ أجزاءِ البدنِ بصفةٍ بها يدركُ المعانيَ التي ليسَتْ متخيَّلةً ولا محسوسةً ؛ كإدراكِهِ خلْقَ العالمِ ، وافتقارَهُ إلىٰ خالقٍ قديرٍ مدبِّرٍ حكيمٍ ، موصوفٍ بصفاتٍ إلـٰهيةٍ ، ولنسمِّ تلكَ الغريزةَ عقلاً ؛ بشرطِ ألا يُفهمَ مِنْ لفظِ العقلِ ما يُدركُ بِهِ طرقُ المجادلةِ والمناظرةِ ، فقدِ اشتَهرَ اسمُ العَقلِ بهـٰذا ، ولهـٰذا ذمَّهُ بعضُ الصوفيةِ ، وإلا . . فالصفةُ التي فارقَ الإنسانُ بها البهائمَ ، وبها يدركُ معرفةَ اللهِ تعالىٰ أعزُّ الصفاتِ ؛ فلا ينبغي أنْ تُذمَّ ، وهـٰذهِ الغريزةُ خُلقَتْ ليعلمَ بها حقائقَ الأمورِ كلِّها ، فمقتضىٰ طبعِها المعرفةُ والعلمُ ، وهيَ لذَّتُها ، كما أنَّ مقتضىٰ طبعِ سائرِ الغرائزِ هوَ لذَّتُها .

وليسَ يخفىٰ أنَّ في العلمِ والمعرفةِ لذةً ، حتَّىٰ إنَّ الذي يُنسبُ إلى العلمِ والمعرفةِ ولوْ في شيءٍ خسيسٍ يفرحُ بهِ ، والذي يُنسبُ إلى الجهلِ ولوْ في شيءٍ حقيرٍ يغتمُّ بهِ ، وحتَّىٰ إنَّ الإنسانَ لا يكادُ يصبرُ عنِ التحدِّي بالعلمِ والتمدُّحِ بهِ في الأشياءِ الحقيرةِ ، فالعالمُ باللعبِ بالشطرنجِ علىٰ خسَّتِهِ لا يطيقُ السكوتَ فيهِ عنِ التعليمِ ، وينطلقُ لسانُهُ بذكرِ ما يعلمُهُ ، وكلُّ ذٰلكَ لفرْطِ لذَّةِ العلمِ ، وما يستشعرُهُ مِنْ كمالِ ذاتِهِ بهِ ، فإنَّ العلمَ مِنْ أخصِّ صفاتِ الربوبيَّةِ ، وهي منتهى الكمالِ .

ولذٰلكَ يرتاحُ الطبعُ إذا أُثنيَ عليهِ بالذكاءِ وغزارةِ العلمِ ؛ لأنَّهُ يستشعرُ عندَ سماعِ الثناءِ كمالَ ذاتِهِ وكمالَ علمِهِ ، فيعجبُ بنفسِهِ ويلتذُّ بهِ .

ثمَّ ليسَ لذةُ العلمِ بالحراثةِ والخياطةِ كلذَّةِ العلمِ بسياسةِ الملكِ وتدبيرِ أمرِ الخلقِ ، ولا لذَّةُ العلمِ بالنحوِ والشعرِ كلذَّةِ العلمِ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ وملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، بلْ لذَّةُ العلمِ بقدْرِ شرفِ العلمِ ، وشرفُ العلمِ بقدْرِ شرفِ المعلومِ ، حتَّىٰ إنَّ الذي يعرفُ بواطنَ أحوالِ الناسِ ويخبُرُها . . يجدُ لهُ لذَّةً ، وإنْ جهلَهُ . . يتقاضاهُ طبعُهُ أنْ يفحصَ عنهُ .

---

(١) وكل ذٰلك تعبيرات عن عين في القلب منزهة عن نقائص العين الظاهرة . « إتحاف » (٥٧١/٩) .

(٢) فإن دائرة المعاني أوسع من دائرة الألفاظ ، فلا تكاد الألفاظ تحيط بها كما ينبغي . « إتحاف » (٥٧١/٩) .

فإنْ علمَ بواطنَ أحوالِ رئيسِ البلدِ وأسرارَ تدبيرِهِ في رئاستِهِ . . كانَ ذٰلكَ ألذَّ عندَهُ وأطيبَ مِنْ علمِهِ بباطنِ حالِ فلاحٍ أوْ حائكٍ ، فإنِ اطلعَ علىٰ أسرارِ الوزيرِ وتدبيرِهِ وما هوَ عازمٌ عليهِ في أمورِ الوزارةِ . . فهوَ أشهىٰ عندَهُ وألذُّ مِنْ علمِهِ بأسرارِ الرئيسِ ، فإنْ كانَ خبيراً بباطنِ أحوالِ الملكِ والسلطانِ الذي هوَ المستولي على الوزيرِ . . كانَ ذٰلكَ أطيبَ عندَهُ وألذَّ مِنْ علمِهِ بباطنِ أسرارِ الوزيرِ ، وكانَ تمدُّحُهُ بذٰلكَ وحرصُهُ عليهِ وعلى البحثِ عنهُ أشدَّ ، وحبُّهُ لهُ أكثرَ ؛ لأنَّ لذَّتَهُ فيهِ أعظمُ .

فبهٰذا استبانَ أنَّ ألذَّ المعارفِ أشرفُها ، وشرفُها بحسَبِ شرفِ المعلومِ ، فإنْ كانَ في المعلوماتِ ما هوَ الأجلُّ والأكملُ والأشرفُ والأعظمُ . . فالعلمُ بهِ ألذُّ العلومِ ـ لا محالةَ ـ وأشرفُها وأطيبُها .

وليتَ شعري هلْ في الوجودِ شيءٌ أجلُّ وأعلىٰ وأشرفُ وأكملُ وأعظمُ مِنْ خالقِ الأشياءِ كلِّها ، ومكمِّلِها ومرتِّبِها ، ومُبدئِها ومُعيدِها ، ومدبِّرِها ومزيِّنِها ؟ وهلْ يُتصوَّرُ أنْ تكونَ حضرةٌ في الملكِ والكمالِ والجمالِ والبهاءِ والجلالِ أعظمَ مِنَ الحضرةِ الربَّانيَّةِ التي لا يحيطُ بمبادي جلالِها وعجائبِ أحوالِها وصفُ الواصفينَ ؟!

فإنْ كنتَ لا تشكُّ في ذٰلكَ . . فلا ينبغي أنْ تشكَّ في أنَّ الاطلاعَ علىٰ أسرارِ الربوبيَّةِ والعلمَ بترتُّبِ الأمورِ الإلٰهيَّةِ المحيطةِ بكلِّ الموجوداتِ . . هوَ أعلىٰ أنواعِ المعارفِ والاطلاعاتِ وألذُّها وأطيبُها وأشهاها ، وأحرىٰ ما تستشعرُ بهِ النفوسُ عندَ الاتصافِ بهِ كمالَها وجمالَها ، وأجدرُ ما يعظمُ بهِ الفرحُ والارتياحُ والاستبشارُ .

وبهٰذا تبيَّنَ أنَّ العلمَ لذيذٌ ، وأنَّ ألذَّ العلومِ العلمُ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وتدبيرِهِ في مملكتِهِ مِنْ منتهىٰ عرشِهِ إلىٰ تخومِ الأرضينَ ، فينبغي أنْ يعلمَ أنَّ لذَّةَ المعرفةِ أقوىٰ مِنْ سائرِ اللذاتِ ؛ أعني : لذَّةَ الشهوةِ والغضبِ ولذَّةَ سائرِ الحواسِّ الخمسِ ، فإنَّ اللذاتِ **مختلفةٌ بالنوعِ** أولاً ؛ كمخالفةِ لذَّةِ الوقاعِ للذةِ السماعِ ، ولذةِ المعرفةِ للذةِ الرئاسةِ ، وهيَ **مختلفةٌ بالضعفِ والقوَّةِ** ؛ كمخالفةِ لذَّةِ الشَّبِقِ المغتلمِ مِنَ الجماعِ للذَّةِ الفاترِ الشهوةِ ، وكمخالفةِ لذَّةِ النظرِ إلى الوجهِ الجميلِ الفائقِ الجمالِ للذةِ النظرِ إلىٰ ما دونَهُ في الجمالِ ، وإنَّما تُعرفُ أقوى اللذاتِ بأنْ تكونَ مُؤْثَرَةً علىٰ غيرِها ، فإنَّ المخيَّرَ بينَ النظرِ إلىٰ صورةٍ جميلةٍ والتمتعِ بمشاهدتِها وبينَ استنشاقِ روائحَ طيبةٍ إذا اختارَ النظرَ إلى الصورةِ الجميلةِ . . علِمَ أنَّها ألذُّ عندَهُ مِنَ الروائحِ الطيبةِ ، وكذٰلكَ إذا حضرَ الطعامُ وقتَ الأكلِ واستمرَّ اللاعبُ بالشطرنجِ على اللعبِ وتركَ الأكلَ . . فيعلمُ بهِ أنَّ لذةَ الغلبةِ في الشطرنجِ أقوىٰ عندَهُ مِنْ لذةِ الأكلِ .

فهٰذا معيارٌ صادقٌ في الكشفِ عنْ ترجيحِ اللذاتِ ، فنعودُ ونقولُ :

اللذاتُ تنقسمُ إلىٰ **ظاهرةٍ** ؛ كلذَّاتِ الحواسِّ الخمسِ ، وإلىٰ **باطنةٍ** ؛ كلذَّةِ الرئاسةِ والغلبةِ والكرامةِ والعلمِ وغيرِها ؛ إذْ ليسَتْ هٰذهِ اللذَّةُ للعينِ ، ولا للأنفِ ، ولا للأذنِ ، ولا للمسِ ، ولا للذوقِ ، والمعاني الباطنةُ أغلبُ علىٰ ذوي الكمالِ مِنَ اللذاتِ الظاهرةِ فلوْ خُيِّرَ الرجلُ بينَ لذَّةِ الهريسةِ والدجاجِ المسمَّنِ واللوزينجِ وبينَ لذَّةِ الرئاسةِ وقهرِ الأعداءِ ونيلِ درجةِ الاستيلاءِ ؛ فإنْ كانَ المخيَّرُ خسيسَ الهمَّةِ ، ميِّتَ القلبِ ، شديدَ النهمةِ[1] . . اختارَ الهريسةَ والحلاوةَ ، وإنْ كانَ عاليَ الهمَّةِ ، كاملَ العقلِ . . اختارَ الرئاسةَ ، وهانَ عَليهِ الجوعُ والصبرُ عنْ ضرورةِ القوتِ أياماً كثيرةً ، فاختيارُهُ للرئاسةِ يدلُّ علىٰ أنَّها ألذُّ عندَهُ مِنَ المطعوماتِ الطيِّبةِ .

نعم ؛ الناقصُ الذي لمْ تكملْ معانيهِ الباطنةُ بعدُ ؛ كالصبيِّ ، أوِ الذي ماتَتْ قواهُ الباطنةُ كالمعتوهِ . . لا يبعدُ أنْ يؤثِرَ

(١) في (أ) : (شديد النهم) ، وفي غير (ص) : (شديد البهيمية) .

لذَّةَ المطعوماتِ على لذَّةِ الرئاسةِ ، وكما أنَّ لذَّةَ الرئاسةِ والكرامةِ أغلبُ اللذاتِ على مَنْ جاوزَ نقصانَ الصبا والعتهِ . . فلذةُ معرفةِ اللهِ تعالى ، ومطالعةِ جمالِ حضرةِ الربوبيَّةِ ، والنظرِ إلى أسرارِ الأمورِ الإلـٰهيةِ ألذُّ مِنَ الرئاسةِ التي هيَ أعلى اللذاتِ الغالبةِ على الخلقِ .

وغايةُ العبارةِ عنهُ أنْ يُقالَ : فلا تعلم نفسٌ ما أُخفيَ لهُمْ مِنْ قرَّةِ أعينٍ ، وإنَّهُ أعدَّ لهُمْ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ .

وهـٰذا الآنَ لا يعرفُهُ إلا مَنْ ذاقَ اللذتينِ جميعاً ، فإنَّهُ ـ لا محالةَ ـ يؤثرُ التبتُّلَ والتفرُّدَ والفكرَ والذكرَ ، وينغمسُ في بحارِ المعرفةِ ، ويتركُ الرئاسةَ ، ويستحقرُ الخلقَ الذينَ يرأسُهُمْ ؛ لعلمِهِ بفناءِ رئاستِهِ وفناءِ مَنْ عليهِ رئاستُهُ ، وكونِهِ مشوباً بالكدوراتِ التي لا يُتصوَّرُ الخلوُّ عنها ، وكونِهِ مقطوعاً بالموتِ الذي لا بدَّ مِنْ إتيانِهِ مهما أخذَتِ الأرضُ زخرفَها وازَّيَّنَتْ وظنَّ أهلُها أنَّهُمْ قادرونَ عليها ، فيستعظمُ بالإضافةِ إليها لذَّةَ معرفةِ اللهِ تعالى ، ومطالعةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ونظامِ مملكتِهِ مِنْ أعلى عليينَ إلى أسفلِ السافلينَ ؛ فإنَّها خاليةٌ عنِ المزاحماتِ والمكدِّراتِ ، متسعةٌ للمتواردينَ عليها ، لا تضيقُ عنهُمْ بكبرِها ، وإنَّما عرضُها مِنْ حيثُ التقديرُ السماواتُ والأرضُ ، وإذا خرجَ النظرُ عنِ المقدراتِ . . فلا نهايةَ لعرضِها ، فلا يزالُ العارفُ بمطالعتِها في جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، يرتعُ في رياضِها ، ويقطفُ مِنْ ثمارِها ، ويكرعُ في حياضِها ، وهوَ آمنٌ مِنِ انقطاعِها ؛ إذْ ثمارُ هـٰذهِ الجنَّةِ غيرُ مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ .

ثمَّ هيَ أبديَّةٌ سرمديَّةٌ ، لا يقطعُها الموتُ ؛ إذِ الموتُ لا يهدمُ محلَّ معرفةِ اللهِ تعالى ، ومحلُّها الروحُ الذي هوَ أمرٌ ربَّانيٌّ سماويٌّ ، وإنَّما الموتُ يغيِّرُ أحوالَها ، ويقطعُ شواغلَها وعوائقَها ، ويخلِّيها مِنْ حبسِها ، فأمَّا أنْ يعدمَها . . فلا ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ هـٰذا مخصوصٌ بالمقتولِ في المعركةِ ، فإنَّ للعارفِ بكلِّ نَفَسٍ درجةَ ألفِ شهيدٍ ، وفي الخبرِ : أنَّ الشهيدَ يتمنَّى في الآخرةِ أنْ يُردَّ إلى الدنيا ليقتلَ مرَّةً أخرى ؛ لعظمِ ما يراهُ مِنْ ثوابِ الشهادةِ [1] ، وأنَّ الشهداءَ يتمنونَ لوْ كانوا علماءَ [2] ؛ لما يرونَهُ مِنْ علوِّ درجةِ العلماءِ .

فإذاً ؛ جميعُ أقطارِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ميدانُ العارفِ ، يتبوَّأُ منهُ حيثُ يشاءُ ، مِنْ غيرِ حاجةٍ إلى أنْ يتحرَّكَ إليها بجسمِهِ وشخصِهِ ، فهوَ مِنْ مطالعةِ جمالِ الملكوتِ في جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، وكلُّ عارفٍ فلهُ مثلُها مِنْ غيرِ أنْ يضيقَ بعضُهُمْ على بعضٍ أصلاً ، إلا أنَّهُمْ يتفاوتونَ في سعةِ متنزَّهاتِهِمْ بقدْرِ تفاوتِهِمْ في اتساعِ نظرِهِمْ وسعةِ معارفِهِمْ ، وهمْ درجاتٌ عندَ اللهِ ، ولا يدخلُ في الحصرِ تفاوتُ درجاتِهِمْ .

فقدْ ظهرَ أنَّ لذَّةَ الرئاسةِ ـ وهيَ باطنةٌ ـ أقوى في ذوي الكمالِ مِنْ لذَّاتِ الحواسِّ كلِّها ، وأنَّ هـٰذهِ اللذَّةَ لا تكونُ لبهيمةٍ ولا لصبيٍّ ولا لمعتوهٍ ، وأنَّ لذَّةَ المحسوساتِ والشهواتِ تكونُ لذوي الكمالِ معَ لذَّةِ الرئاسةِ ، ولـٰكنْ يؤثرونَ الرئاسةَ .

فأمَّا معنى كونِ معرفةِ اللهِ تعالى وصفاتِهِ وأفعالِهِ وملكوتِ سماواتِهِ وأسرارِ ملكِهِ أعظمَ لذَّةً مِنَ الرئاسةِ . . فهـٰذا يختصُّ بمعرفتِهِ مَنْ نالَ رتبةَ المعرفةِ وذاقَها ، ولا يمكنُ إثباتُ ذٰلكَ عندَ مَنْ لا قلبَ لهُ ؛ لأنَّ القلبَ معدنُ هـٰذهِ القوَّةِ ،

---

(١) رواه البخاري (٢٧٩٥) ، ومسلم (١٨٧٧) .

(٢) عقد الإمام ابن عبد البر فصلاً في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٩/١) أورد فيه الأخبار في تفضيل العلماء على الشهداء .

كما أنَّهُ لا يمكنُ إثباتُ رجحانِ لذَّةِ الوقاعِ علىٰ لذَّةِ اللعبِ بالصولجانِ عندَ الصبيانِ ، ولا رجحانِهِ علىٰ لذةِ شمِّ البنفسجِ عندَ العنينِ ؛ لأنَّهُ فقدَ الصفةَ التي بها تُدركُ هـٰذهِ اللذةُ ، ولـٰكنْ مَنْ سلمَ مِنْ آفةِ العنَّةِ وسلمَتْ حاسَّةُ شمِّهِ . . أدركَ التفاوتَ بينَ اللذتينِ ، وعندَ هـٰذا لا يبقىٰ إلا أنْ يُقالَ : (مَن ذاقَ . . عرفَ) .

ولعمري ؛ طلابُ العلومِ وإنْ لمْ يشتغلوا بطلبِ معرفةِ الأمورِ الإلـٰهيةِ فقدِ استنشقوا رائحةَ هـٰذهِ اللذةِ عندَ انكشافِ المشكلاتِ وانحلالِ الشبهاتِ التي قويَ حرصُهُمْ علىٰ طلبِها ؛ فإنَّها أيضاً معارفُ وعلومٌ ، وإنْ كانَتْ معلوماتُها غيرَ شريفةٍ شرفَ المعلوماتِ الإلـٰهيةِ .

فأمَّا مَنْ طالَ فكرُهُ في معرفةِ اللهِ سبحانَهُ ، وقدِ انكشفَ لهُ مِنْ أسرارِ ملكِ اللهِ تعالىٰ ولوِ الشيءَ اليسيرَ . . فإنَّهُ يصادفُ في قلبِهِ عندَ حصولِ الكشفِ مِنَ الفرحِ ما يكادُ يطيرُ بهِ ، ويتعجَّبُ مِنْ نفسِهِ في ثباتِهِ واحتمالِهِ لقوَّةِ فرحِهِ وسرورِهِ ، وهـٰذا ممَّا لا يُدركُ إلا بالذوقِ ، والحكايةُ فيهِ قليلةُ الجدوىٰ .

فهـٰذا القدْرُ ينبِّهُكَ علىٰ أنَّ معرفةَ اللهِ سبحانَهُ ألذُّ الأشياءِ ، وأنَّهُ لا لذَّةَ فوقَها ، ولهـٰذا قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إنَّ للهِ تعالىٰ عباداً ليسَ يشغلُهُمْ عنِ اللهِ خوفُ النارِ ولا رجاءُ الجنَّةِ ، فكيفَ تشغلُهُمُ الدنيا عنِ اللهِ ؟!) (١)

ولذٰلكَ قالَ بعضُ إخوانِ معروفٍ الكرخيِّ لهُ : أخبرْني يا أبا محفوظٍ ؛ أيُّ شيءٍ أهاجَكَ إلى العبادةِ والانقطاعِ عنِ الخلقِ ؟ فسكتَ ، فقالَ : ذكرُ الموتِ ، فقالَ : وأيُّ شيءٍ الموتُ ؟ فقالَ : ذكرُ القبرِ والبرزخِ ، فقالَ : وأيُّ شيءٍ القبرُ ؟ فقالَ : خوفُ النارِ ورجاءُ الجنةِ ؟ فقالَ : وأيُّ شيءٍ هـٰذا ؟ إنَّ ملكاً هـٰذا كلُّهُ بيدِهِ إنْ أحببتَهُ . . أنساكَ جميعَ ذٰلكَ ، وإنْ كانَتْ بينَكَ وبينَهُ معرفةٌ . . كفاكَ جميعَ هـٰذا (٢)

وفي أخبارِ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إذا رأيتَ التقيَّ مشغوفاً في طلبِ الربِّ تعالىٰ فقدْ ألهاهُ ذٰلكَ عمَّا سواهُ) (٣)

ورأىٰ بعضُ الشيوخِ بشرَ بنَ الحارثِ في النومِ فقالَ : ما فعلَ أبو نصرٍ التمَّارُ وعبدُ الوهَّابِ الورَّاقُ ؟ فقالَ : تركتُهُما الساعةَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ يأكلانِ ويشربانِ ، قلتُ : فأنتَ ؟ قالَ : علمَ اللهُ قلَّةَ رغبتي في الأكلِ والشربِ فأعطاني النظرَ إليهِ (٤)

وعنْ عليِّ بنِ الموفقِ قالَ : رأيتُ في النومِ كأنِّي أُدخلتُ الجنةَ ، فرأيتُ رجلاً قاعداً علىٰ مائدةٍ وملكانِ عنْ يمينِهِ وشمالِهِ يلقمانِهِ مِنْ جميعِ الطيباتِ وهوَ يأكلُ ، ورأيتُ رجلاً قائماً علىٰ بابِ الجنةِ يتصفَّحُ وجوهَ الناسِ ، فيدخلُ بعضاً ويردُّ بعضاً ، قالَ : ثمَّ جاوزتُهُما إلىٰ حظيرةِ القدسِ ، فرأيتُ في سرادقِ العرشِ رجلاً قدْ شخصَ ببصرِهِ ينظرُ إلى اللهِ تعالىٰ لا يطرفُ ، فقلتُ لرضوانَ : مَنْ هـٰذا ؟ فقالَ : معروفٌ الكرخيُّ ، عبدَ اللهَ لا خوفاً مِنْ نارِهِ ولا شوقاً إلىٰ جنَّتِهِ ، بلْ حبّاً لهُ ، فأباحَهُ النظرَ إليهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وذكرَ أنَّ الآخرينِ بشرُ بنُ الحارثِ وأحمدُ ابنُ حنبلٍ (٥)

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٥٧٥/٩) .

(٢) قوت القلوب (٥٦/٢) .

(٣) قوت القلوب (٥٦/٢) .

(٤) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » في « الإتحاف » (٥٧٥/٩) وقال : (وحدثني بعض الأشياخ عن منصور الحربي وغيره أنه رأىٰ بشر بن الحارث في النوم . . .) .

(٥) قوت القلوب (٥٦/٢) .

ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ كانَ اليومَ مشغولاً بنفسِهِ . . فهوَ غداً مشغولٌ بنفسِهِ ، ومَنْ كانَ اليومَ مشغولاً بربِّهِ . . فهوَ غداً مشغولٌ بربِّهِ)[1]

وقالَ الثوريُّ لرابعةَ : ما حقيقةُ إيمانِكِ ؟ قالَتْ : ما عبدتُهُ خوفاً مِنْ نارِهِ ولا حبّاً لجنَّتِهِ فأكونَ كالأجيرِ السوءِ ، بلْ عبدتُهُ حبّاً لهُ وشوقاً إليهِ .

وقالَتْ في معنى المحبةِ نظماً[2] : [من المتقارب]

أُحِـبُّـكَ حُـبَّـيْـنِ حُـبَّ الْـهَـوَىٰ ... وَحُـبّـاً لأَنَّـكَ أَهْـلٌ لِـذاكا

فَـأَمَّـا الَّـذِي هُـوَ حُـبُّ الْـهَـوَىٰ ... فَـشُـغْـلِـي بِـذِكْـرِكَ عَـمَّـنْ سِواكا

وَأَمَّـا الَّـذِي أَنْـتَ أَهْـلٌ لَـهُ ... فَكَشْفُكَ لـيَ الْـحُـجْـبَ حَتَّىٰ أَراكا

فَـلا الْـحَـمْـدُ فِـي ذا وَلا ذاكَ لِـي ... وَلَٰكِنْ لَـكَ الْـحَـمْـدُ فِـي ذا وَذاكا

ولعلَّها أرادَتْ بحبِّ الهوىٰ حبَّ اللهِ لإحسانِهِ إليها وإنعامِهِ عليها بحظوظِ العاجلةِ ، وبحبِّهِ لما هوَ أهلٌ لهُ الحبَّ لجمالِهِ وجلالِهِ الذي انكشفَ لها ، وهوَ أعلى الحبَّينِ وأقواهُما .

ولذَّةُ مطالعةِ جمالِ الربوبيَّةِ هيَ التي عبَّر عنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ حاكياً عنْ ربِّهِ تعالىٰ : « أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[3]

وقدْ يُتعجَّلُ بعضُ هٰذهِ اللذاتِ في الدنيا لمَنِ انتهىٰ صفاءُ قلبِهِ إلى الغايةِ ، ولذٰلكَ قال بعضُهُمْ : إنِّي أقولُ : (يا ربِّ ، يا اللهُ . . فأجدُ ذٰلكَ أثقلَ علىٰ قلبي مِنَ الجبالِ ؛ لأنَّ النداءَ يكونُ مِنْ وراءِ حجابٍ ، وهلْ رأيتَ جليساً ينادي جليسَهُ) ، وقالَ : (إذا بلغَ الرجلُ في هٰذا العلمِ الغايةَ . . رماهُ الخلقُ بالحجارةِ) أيْ : يخرجُ كلامُهُ عنْ حدِّ عقولِهِمْ ، فيرونَ ما يقولُهُ جنوناً أوْ كفراً[4]

فمقصدُ العارفينَ كلِّهِمْ وصلُهُ ولقاؤُهُ فقطْ ، فهيَ قرَّةُ العينِ التي لا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لها منها ، وإذا حصلَتْ . . انمحقَتِ الهمومُ والشهواتُ كلُّها ، وصارَ القلبُ مستغرقاً بنعيمِها ، فلوْ أُلقيَ في النارِ . . لمْ يحسَّ بها لاستغراقِهِ ، ولوْ عُرِضَ عليهِ نعيمُ الجنَّةِ . . لمْ يلتفتْ إليهِ لكمالِ نعيمِهِ ، وبلوغِهِ الغايةَ التي ليسَ فوقَها غايةٌ .

وليتَ شعري مَنْ لا يفهمُ إلا حبَّ المحسوساتِ . . كيفَ يؤمنُ بلذَّةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ وما لهُ صورةٌ ولا شكلٌ ؟! وأيُّ معنىً لوعدِ اللهِ تعالىٰ بهِ عبادَهُ وذكرِهِ أنَّهُ أعظمُ النعمِ ؟

بلْ مَنْ عرفَ اللهَ . . عرفَ أنَّ اللذاتِ المفرَّقةَ بالشهواتِ المختلفةِ كلَّها تنطوي تحتَ هٰذهِ اللذَّةِ ، كما قالَ بعضُهُمْ[5] : [من البسيط]

كـانَـتْ لِـقَـلْـبِـيَ أَهْـواءٌ مُـفَـرَّقَـةٌ ... فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوائِي

---

(١) قوت القلوب (٥٧/٢) .

(٢) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٥٦/١٠) .

(٣) رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

(٤) عزاهما الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٧٨/٩) لصاحب « القوت » .

(٥) الأبيات لمحمد بن داوود الأصفهاني في « ديوانه » (ص ٣٢) ، وهي مما نسب إلى الحلاج في « ديوانه » (٨٣) .

فَصارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَىٰ مُذْ صِرْتَ مَوْلائِي

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْياهُمْ وَدِينَهُمُ ... شُغْلاً بِذِكْرِكَ يا دِينِي وَدُنْيائِي

ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ[1] : [من السريع]

وَهَجْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نارِهِ ... وَوَصْلُهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهْ

وما أرادوا بهذا إلا إيثارَ لذَّةِ القلبِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ لذةِ الأكلِ والشربِ والنكاحِ ، فإنَّ الجنَّةَ معدنُ تمتُّعِ الحواسِ ، فأمَّا القلبُ . . فلذَّتُهُ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

ومثالُ أطوارِ الخلقِ في لذَّاتِهِمْ ما نذكرُهُ : وهوَ أنَّ الصبيَّ في أوَّلِ حركتِهِ وتمييزِهِ يظهرُ فيهِ غريزةٌ بها يستلذُّ اللعبَ واللهوَ ، حتَّىٰ يكونَ ذلكَ عندَهُ ألذَّ مِنْ سائرِ الأشياءِ ، ثمَّ يظهرُ بعدَهُ لذَّةُ الزينةِ ولبسِ الثيابِ وركوبِ الدوابِّ ، فيستحقرُ معها لذةَ اللعبِ ، ثمَّ يظهرُ بعدَهُ لذَّةُ الوقاعِ وشهوةُ النساءِ ، فيتركُ بها جميعَ ما قبلَها في الوصولِ إليها ، ثمَّ تظهرُ لذَّةُ الرئاسةِ والعلوِّ والتكاثرِ ، وهيَ آخرُ لذَّاتِ الدنيا وأغلبُها وأقواها ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، ثمَّ بعدَ هذا تظهرُ غريزةٌ أخرىٰ يدركُ بها لذَّةَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ أفعالِهِ ، فيستحقرُ معها جميعَ ما قبلَها ، فكلُّ متأخِّرٍ فهوَ أقوىٰ ، وهذا هوَ الأخيرُ ، إذْ يظهرُ حبُّ اللعبِ في سنِّ التمييزِ ، وحبُّ النساءِ والزينةِ في سنِّ البلوغِ ، وحبُّ الرئاسةِ بعدَ العشرينَ ، وحبُّ العلومِ بقربِ الأربعينَ ، وهيَ الغايةُ العليا ، وكما أنَّ الصبيَّ يضحكُ علىٰ مَنْ يتركُ اللعبَ ويشتغلُ بملاعبةِ النساءِ وطلبِ الرئاسةِ . . فكذلكَ الرؤساءُ يضحكونَ علىٰ مَنْ يتركُ الرئاسةَ ويشتغلُ بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ ، والعارفونَ يقولونَ : ﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

* * *

(1) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٠/١٥٧) .

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلمْ : أنَّ المدركاتِ تنقسمُ :

إلىٰ ما يدخلُ في الخيالِ ؛ كالصورِ المتخيلةِ ، والأجسامِ المتلونةِ المتشكلةِ مِنْ أشخاصِ الحيوانِ والنباتِ .

وإلىٰ ما لا يدخلُ في الخيالِ ؛ كذاتِ اللهِ تعالىٰ ، وكلِّ ما ليسَ بجسمٍ ؛ كالعلمِ ، والقدرةِ ، والإرادة ، وغيرِها .

ومَنْ رأىٰ إنساناً ثمَّ غضَّ بصرَهُ . . وجدَ صورتَهُ حاضرةً في خيالِهِ كأنَّهُ ينظرُ إليها ، ولكنْ إذا فتحَ العينَ وأبصرَ . . أدركَ تفرقةً بينَهُما ، ولا ترجعُ التفرقةُ إلى اختلافٍ بينَ الصورتينِ ؛ لأنَّ الصورةَ المرئيةَ تكونُ موافقةً للمتخيَّلةِ ، وإنَّما الافتراقُ بمزيدِ الوضوحِ والكشفِ ، فإنَّ صورةَ المرئيِّ صارَتْ بالرؤيةِ أتمَّ انكشافاً ووضوحاً ، وهوَ كشخصٍ يُرىٰ في وقتِ الإسفارِ قبلَ انتشارِ ضوءِ النهارِ ، ثمَّ رُئِيَ عندَ تمامِ الضوءِ ، فإنَّهُ لا تفارقُ إحدى الحالتينِ الأخرىٰ إلا في مزيدِ الانكشافِ .

فإذاً ؛ الخيالُ أوَّلُ الإدراكِ ، والرؤيةُ هيَ استكمالٌ لإدراكِ الخيالِ ، وهوَ غايةُ الكشفِ ، وسُمِّيَ ذٰلكَ رؤيةً لأنَّهُ غايةُ الكشفِ ، لا لأنَّهُ في العينِ ، بلْ لوْ خلقَ اللهُ هٰذا الإدراكَ الكاملَ المكشوفَ في الجبهةِ أوِ الصدرِ مثلاً . . استحقَّ أنْ يُسمَّىٰ رؤيةً .

وإذا فهمتَ هٰذا في المتخيَّلاتِ . . فاعلمْ أنَّ المعلوماتِ التي لا تتشكَّلُ في الخيالِ أيضاً لمعرفتِها وإدراكِها درجتانِ : إحداهُما أولىٰ ، والثانيةُ استكمالٌ لها ، وبينَ الثانيةِ والأولىٰ مِنَ التفاوتِ في مزيدِ الكشفِ والإيضاحِ ما بينَ المتخيَّلِ والمرئيِّ ، فيُسمَّى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأوَّلِ مشاهدةً ولقاءً ورؤيةً ، وهٰذهِ التسميةُ حقٌّ ؛ لأنَّ الرؤيةَ سُمِّيَتْ رؤيةً لأنَّها غايةُ الكشفِ ، وكما أنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بأنَّ تطبيقَ الأجفانِ يمنعُ مِنْ تمامِ الكشفِ بالرؤيةِ ، ويكونُ حجاباً بينَ البصرِ والمرئيِّ ، ولا بدَّ مِنِ ارتفاعِ الحجابِ لحصولِ الرؤيةِ ، وما لمْ ترتفعْ كانَ الإدراكُ الحاصلُ مجرَّدَ التخيُّلِ . . فكذٰلكَ مقتضىٰ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ أنَّ النفسَ ما دامَتْ محجوبةً بعوارضِ البدنِ ومقتضى الشهواتِ ، وما غلبَ عليها مِنَ الصفاتِ البشريةِ . . فإنَّها لا تنتهي إلى المشاهدةِ واللقاءِ في المعلوماتِ الخارجة عنِ الخيالِ .

بلْ هٰذهِ الحياةُ حجابٌ عنها بالضرورةِ ؛ كحجابِ الأجفانِ عنْ رؤيةِ الأبصارِ ، والقولُ في سببِ كونِهِ حجاباً يطولُ[1] ، ولا يليقُ بهٰذا العلمِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ . وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أيْ : في الدنيا ، **والصحيحُ** : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما رأى اللهَ تعالىٰ ليلةَ المعراجِ[2]

فإذا ارتفعَ الحجابُ بالموتِ . . بقيَتِ النفسُ ملوثةً بكدوراتِ الدنيا ، غيرَ منفكةٍ عنها بالكليَّةِ ، وإنْ كانَتْ متفاوتةً ؛ فمنها ما تراكمَ عليهِ الخبثُ والصدأُ ، فصارَ كالمرآةِ التي فسدَ بطولِ تراكمِ الخبثِ جوهرُها ، فلا تقبلُ الإصلاحَ والتصقيلَ ، وهٰؤلاءِ هُمُ المحجوبونَ عنْ ربِّهِمْ أبدَ الآبادِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذٰلكَ ، ومنها ما لمْ ينتهِ إلىٰ حدِّ

---

(١) **المراد** : كون الوجود في الحياة الدنيا حجاباً .

(٢) **والمراد** من التصحيح هنا : تأكيد قضية امتناع تمام المشاهدة في الحياة الدنيا ، بل لا بد من تجاوز قنطرتها ، وهٰذا ما اختارته الصديقة عائشة رضي الله عنها كما هو عند البخاري (٣٢٣٤) ، ومسلم (١٧٧) إذ قالت : (من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأىٰ ربه . . **فقد أعظم الفرية**) ، ولمسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنَّىٰ أراه » .

الرينِ والطبعِ ، ولمْ يخرجْ عنْ قبولِ التزكيةِ والتصقيلِ ، فيُعرضُ على النارِ عرضاً يقمعُ منهُ الخبثَ الذي هوَ متدنِّسٌ بهِ ، ويكونُ العرضُ على النارِ بقدْرِ الحاجةِ إلى التزكيةِ ، وأقلُّها لحظةٌ خفيفةٌ ، وأقصاها في حقِّ المؤمنينَ كما وردَتْ بهِ الأخبارُ سبعةُ آلافِ سنةٍ .

ولنْ ترتحلَ نفسٌ عنْ هٰذا العالمِ إلا ويصحبُها غَبَرةٌ وكدورةٌ ما وإنْ قلَّتْ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ، فكلُّ نفسٍ مستيقنةٌ للورودِ على النارِ وغيرُ مستيقنةٍ للصدورِ عنها ، فإذا أكملَ اللهُ تطهيرَها وتزكيتَها ، وبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، ووقعَ الفراغُ عنْ جملةِ ما وعدَ بهِ الشرعُ مِنَ العرضِ والحسابِ وغيرِهِ ، ووافى استحقاقُ الجنَّةِ ، وذٰلكَ وقتٌ مبهمٌ لمْ يطلعِ اللهُ عليهِ أحداً مِنْ خلقِهِ ؛ فإنَّهُ واقعٌ بعدَ القيامةِ ، ووقتُ القيامةِ مجهولٌ . . فعندَ ذٰلكَ يستعدُّ بصفائِهِ ونقائِهِ عنِ الكدوراتِ ـ حيثُ لا يرهقُ وجهَهُ غَبَرةٌ ولا قَتَرةٌ ـ لأنْ يتجلَّىٰ فيهِ الحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فيتجلَّىٰ لهُ تجلِّياً يكونُ انكشافُ تجلِّيهِ بالإضافةِ إلىٰ ما علمَهُ كانكشافِ تجلِّي المرئياتِ بالإضافةِ إلىٰ ما تخيَّلَهُ ، وهٰذهِ المشاهدةُ والتجلِّي هيَ التي تُسمَّىٰ رؤيةً .

فإذاً ؛ الرؤيةُ حقٌّ بشرطِ ألا يفهمَ مِنَ الرؤيةِ استكمالَ الخيالِ في متخيَّلٍ متصوَّرٍ مخصوصٍ بجهةٍ ومكانٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ممَّا يتعالىٰ عنهُ ربُّ الأربابِ علواً كبيراً ، بلْ كما عرفتَهُ في الدنيا معرفةً حقيقيةً تامَّةً مِنْ غيرِ تخيُّلٍ وتصوُّرٍ وتقديرِ شكلٍ وصورةٍ ، فتراهُ في الآخرةِ كذٰلكَ .

بلْ أقولُ : المعرفةُ الحاصلةُ في الدنيا بعينِها هيَ التي تُستكملُ ، فتبلغُ كمالَ الكشفِ والوضوحِ وتنقلبُ مشاهدةً ، ولا يكونُ بينَ المشاهدةِ في الآخرةِ والمعلومِ في الدنيا اختلافٌ إلا مِنْ حيثُ زيادةُ الكشفِ والوضوحِ ، كما ضربنا مِنَ المثالِ في استكمالِ الخيالِ بالرؤيةِ ، فإذا لمْ يكنْ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ إثباتُ صورةٍ وجهةٍ . . فلا يكونُ في استكمالِ تلكَ المعرفةِ بعينِها وترقِّيها في الوضوحِ إلىٰ غايةِ الكشفِ أيضاً جهةٌ وصورةٌ ؛ لأنَّها هيَ بعينِها لا تفترقُ منها إلا في زيادةِ الكشفِ ، كما أنَّ الصورةَ المرئيَّةَ هيَ المتخيَّلةُ بعينِها إلا في زيادةِ الكشفِ (1)

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ ، إذْ تمامُ النورِ لا يؤثِّرُ إلا في زيادةِ الكشفِ ، ولهٰذا لا يفوزُ بدرجةِ النظرِ والرؤيةِ إلا العارفونَ في الدنيا ؛ لأنَّ المعرفةَ هيَ البذرُ الذي ينقلبُ في الآخرةِ مشاهدةً كما تنقلبُ النواةُ شجرةً ، والحبُّ زرعاً ، ومَنْ لا نواةَ في أرضِهِ . . فكيفَ يحصلُ لهُ نخلٌ وشجرٌ ؟ ومَنْ لمْ يزرعِ الحَبَّ . . فكيفَ يحصدُ الزرعَ ؟ فكذٰلكَ مَنْ لمْ يعرفِ اللهَ تعالىٰ في الدنيا . . فكيفَ يراهُ في الآخرةِ ؟!

ولمَّا كانَتِ المعرفةُ علىٰ درجاتٍ متفاوتةٍ . . كانَ التجلِّي أيضاً علىٰ درجاتٍ متفاوتةٍ ، فاختلافُ التجلِّي بالإضافةِ إلى اختلافِ المعارفِ كاختلافِ النباتِ بالإضافةِ إلى اختلافِ البذورِ ، إذْ تختلفُ ـ لا محالةَ ـ بكثرتِها وقلَّتِها وحسنِها وقوَّتِها وضعفِها .

ولذٰلكَ قالَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ اللهَ يتجلَّىٰ للناسِ عامَّةً ، ولأبي بكرٍ خاصَّةً »(2) ، فلا ينبغي أنْ يُظنَّ أنَّ غيرَ أبي بكرٍ ممَّنْ هوَ دونَهُ يجدُ مِنْ لذَّةِ النظرِ والمشاهدةِ ما يجدُهُ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، بلْ لا يجدُ إلا عُشرَ عَشيرِهِ

---

(1) هٰذه القطعة النفيسة في تحقيق معنى الرؤية لمن ليس كمثله شيء سبحانه لا تنبو قيد خاطر عما حققه المتكلمون من أهل السنة والجماعة ، غير أنها بلغة غير معهودة عندهم ، وبزيادة استبصار لا تدانيه تحقيقاتهم وكلماتهم ، بل هي وراء أسوار علم الكلام وإن تطابقا انتهاءً .

(2) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢١٦/٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٧٨/٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢/٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٩/٣٠) .

إنْ كانَتْ معرفتُهُ في الدنيا عُشْرَ عَشِيرِ معرفةِ أبي بكرٍ ، ولمَّا فضلَ الناسَ بسرٍّ وقرَ في صدرِه . . فُضِّلَ ـ لا محالةَ ـ بتجلٍّ انفردَ بهِ ، وكما أنَّكَ ترىٰ في الدنيا مَنْ يؤثِرُ لذَّةَ الرئاسةِ على المنكوحِ والمطعومِ ، وترىٰ مَنْ يؤثِرُ لذَّةَ العلمِ وانكشافَ مشكلاتِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ وسائرَ الأمورِ الإلـٰهيةِ على الرئاسةِ وعلى المنكوحِ والمطعومِ والمشروبِ جميعاً . . فكذٰلكَ يكونُ في الآخرةِ قومٌ يؤثِرونَ لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ علىٰ نعيمِ الجنَّةِ ؛ إذْ يرجعُ نعيمُها إلى المطعومِ والمنكوحِ ، وهـٰؤلاءِ بعينِهِمْ هُمُ الذينَ حالُهُمْ في الدنيا ما وصفنا مِنْ إيثارِ لذَّةِ العلمِ والمعرفةِ والاطلاعِ علىٰ أسرارِ الربوبيَّةِ علىٰ لذَّةِ المنكوحِ والمطعومِ والمشروبِ وسائرِ ما الخلقُ مشغولونَ بهِ .

ولذٰلكَ لمَّا قيلَ لرابعةَ : ما تقولينَ في الجنَّةِ ؟ فقالَتِ : الجارُ ثمَّ الدارُ . فبيَّنَتْ أنَّهُ ليسَ في قلبِها التفاتٌ إلى الجنةِ ، بل إلىٰ ربِّ الجنَّةِ .

وكلُّ مَنْ لمْ يعرفِ اللهَ في الدنيا . . فلا يراهُ في الآخرةِ ، وكلُّ مَنْ لمْ يجدْ لذَّةَ المعرفةِ في الدنيا . . فلا يجدُ لذَّةَ النظرِ في الآخرةِ ؛ إذْ ليسَ يستأنفُ لأحدٍ في الآخرةِ ما لمْ يصحبْهُ في الدنيا ، فلا يحصدُ أحدٌ إلا ما زرعَ ، ولا يُحشرُ المرءُ إلا علىٰ ما ماتَ عليهِ ، ولا يموتُ إلا علىٰ ما عاشَ عليهِ ، فما صحبَهُ مِنَ المعرفةِ هو الذي يتنعَّمُ بهِ بعينِهِ فقطْ ، إلا أنَّهُ ينقلبُ مشاهدةً بكشفِ الغطاءِ ، فتتضاعفُ اللذَّةُ بهِ كما تتضاعفُ لذَّةُ العاشقِ إذا استبدلَ بخيالِ صورةِ المعشوقِ رؤيةَ صورتِهِ ، فإنَّ ذٰلكَ هوَ منتهىٰ لذَّتِهِ ، وإنَّما طيبةُ الجنَّةِ أنَّ لكلِّ أحدٍ فيها ما يشتهي ، فمَنْ لا يشتهي إلا لقاءَ اللهِ تعالىٰ . . فلا لذَّةَ لهُ في غيرِهِ ، بلْ ربَّما يتأذَّىٰ بهِ .

فإذاً ؛ نعيمُ الجنَّةِ بقدْرِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وحبُّ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ معرفتِهِ ، فأصلُ السعاداتِ هيَ المعرفةُ التي عبَّرَ الشرعُ عنها بالإيمانِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلذَّةُ الرؤيةِ إنْ كانَتْ لها نسبةٌ إلىٰ لذَّةِ المعرفةِ . . فهيَ قليلةٌ وإنْ كانَتْ أضعافَها ؛ لأنَّ لذَّةَ المعرفةِ في الدنيا ضعيفةٌ ، فتضاعفُها إلىٰ حدٍّ قريبٍ لا ينتهي في القوَّةِ إلىٰ أنْ يُستحقرَ سائرُ لذاتِ الجنةِ فيها .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الاستحقارَ للذَّةِ المعرفةِ مصدرُهُ الخلوُّ عنِ المعرفةِ ، فمَنْ خلا عنِ المعرفةِ كيفَ يدركُ لذَّتَها ؟ وإنِ انطوىٰ علىٰ معرفةٍ ضعيفةٍ وقلبُهُ مشحونٌ بعلائقِ الدنيا . . فكيفَ يُدركُ لذَّتَها ؟

فللعارفينَ في معرفتِهِمْ وفكرتِهِمْ ومناجاتِهِمْ للهِ تعالىٰ لذَّاتٌ لوْ عُرضَتْ عليهِمُ الجنَّةُ في الدنيا بدلاً عنها . . لمْ يستبدلوا بها لذَّةَ الجنَّةِ ، ثمَّ هـٰذهِ اللذَّةُ معَ كمالِها لا نسبةَ لها أصلاً إلىٰ لذَّةِ اللقاءِ والمشاهدةِ ؛ كما لا نسبةَ للذَّةِ خيالِ المعشوقِ إلىٰ رؤيتِهِ ، ولا للذَّةِ استنشاقِ روائحِ الأطعمةِ الشهيَّةِ إلىٰ ذوقِها ، ولا للذَّةِ اللمسِ باليدِ إلىٰ لذَّةِ الوقاعِ ، وإظهارُ عظمِ التفاوتِ بينَهُما لا يمكنُ إلا بضربِ مثالٍ فنقولُ :

لذَّةُ النظرِ إلىٰ وجهِ المعشوقِ في الدنيا تتفاوتُ بأسبابٍ :

أحدُها : **كمالُ جمالِ المعشوقِ ونقصانُهُ** : فإنَّ اللذَّةَ في النظرِ إلى الأجملِ أكملُ لا محالةَ .

والثاني : **كمالُ قوَّةِ الحبِّ والشهوةِ والعشقِ** : فليسَ التذاذُ مَنِ اشتدَّ عشقُهُ كالتذاذِ مَنْ ضعفَتْ شهوتُهُ وحبُّهُ .

والثالثُ : **كمالُ الإدراكِ** : فليسَ التذاذُهُ برؤيةِ المعشوقِ في ظلمةٍ ، أوْ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ أوْ مِنْ بعدٍ كالتذاذِهِ بإدراكِهِ علىٰ قربٍ مِنْ غيرِ سترٍ ، وعندَ كمالِ الضوءِ ، ولا إدراكُ لذَّةِ المضاجعةِ معَ ثوبٍ حائلٍ كإدراكِها معَ التجرُّدِ .

والرابعُ : اندفاعُ العوائقِ المشوشةِ والآلامِ الشاغلةِ للقلبِ : فليسَ التذاذُ الصحيحِ الفارغِ المتجرّدِ للنظرِ إلى المعشوقِ . . كالتذاذِ الخائفِ المذعورِ ، أوِ المريضِ المتألّمِ ، أوِ المشغولِ قلبُهُ بمهمٍّ مِنَ المهمَّاتِ .

فقدِّرْ عاشقاً ضعيفَ العشقِ ، ينظرُ إلىٰ وجهِ معشوقِهِ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ علىٰ بعدٍ ، بحيثُ يمنعُ انكشافَ كنْهِ صورتِهِ ، في حالةٍ اجتمعَ عليهِ عقاربُ وزنابيرُ تؤذيهِ وتلدغُهُ وتشغلُ قلبَهُ ، فهوَ في هـٰذهِ الحالةِ لا يخلو عنْ لذَّةٍ ما مِنْ مشاهدةِ معشوقِهِ ، فلوْ طرأَتْ على الفجأةِ حالةٌ انهتكَ بها السترُ ، وأشرقَ بها الضوءُ ، واندفعَ عنهُ المؤذياتُ ، وبقيَ سليماً فارغاً ، وهجمَتْ عليهِ الشهوةُ القويَّةُ والعشقُ المفرطُ حتَّىٰ بلغَ أقصى الغاياتِ . . فانظرْ كيفَ تتضاعفُ اللذَّةُ حتَّىٰ لا يبقىٰ للأولىٰ إليها نسبةٌ يُعتدُّ بها .

فكذٰلكَ فافهَمْ نسبةَ لذَّةِ النظرِ إلىٰ لذَّةِ المعرفةِ ، فالسترُ الرقيقُ مثالٌ للبدنِ والاشتغالِ بهِ ، والعقاربُ والزنابيرُ مثالٌ للشهواتِ المتسلِّطةِ على الإنسانِ ؛ مِنَ الجوعِ والعطشِ والغضبِ والغمِّ والحزنِ ، وضعفُ الشهوةِ والحبِّ مثالٌ لقصورِ النفسِ في الدنيا ونقصانِها عنِ الشوقِ إلى الملأ الأعلىٰ والتفاتِها إلىٰ أسفلِ السافلينَ ، وهوَ مثلُ قصورِ الصبيِّ عنْ ملاحظةِ لذَّةِ الرئاسة والتفاتِهِ إلى اللعبِ بالعصفورِ .

والعارفُ وإنْ قويَتْ في الدنيا معرفتُهُ فلا يخلو عنْ هـٰذهِ المشوّشاتِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يخلو عنها ألبتةَ .

نعمْ ؛ قدْ تضعفُ هـٰذهِ العوائقُ في بعضِ الأحوالِ ولا تدومُ ، فلا جرمَ يلوحُ مِنْ جمالِ المعرفةِ ما يبهتُ العقلَ ، وتعظمُ لذَّتُهُ بحيثُ يكادُ القلبُ يتفطَّرُ لعظمتِهِ ، ولـٰكنْ يكونُ ذٰلكَ كالبرقِ الخاطفِ ، وقلَّما يدومُ ، بلْ يعرضُ مِنَ الشواغلِ والأفكارِ والخواطرِ ما يشوّشُهُ وينغّصُهُ ، وهـٰذهِ ضرورةٌ دائمةٌ في هـٰذهِ الحياةِ الفانيةِ ، فلا تزالُ هـٰذهِ اللذَّةُ منغَّصَةً إلى الموتِ ، وإنَّما الحياةُ الطيّبةُ بعدَ الموتِ ، وإنَّما العيشُ عيشُ الآخرةِ ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وكلُّ مَنِ انتهىٰ إلىٰ هـٰذهِ الرتبةِ . . فإنَّهُ يحبُّ لقاءَ اللهِ تعالىٰ ، فيحبُّ الموتَ ولا يكرهُهُ إلا مِنْ حيثُ ينتظرُ زيادةَ استكمالٍ في المعرفةِ ، فإنَّ المعرفةَ كالبذرِ ، وبحرُ المعرفةِ لا ساحلَ لهُ ، والإحاطةُ بكنهِ جلالِ اللهِ محالٌ ، فكلَّما كثرَتِ المعرفةُ باللهِ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ وبأسرارِ مملكتِهِ وقويَتْ . . كثُرَ النعيمُ في الآخرةِ وعظُمَ ؛ كما أنَّهُ كلَّما كثُرَ البذرُ وحسُنَ . . كثُرَ الزرعُ وحسُنَ ، ولا يمكنُ تحصيلُ هـٰذا البذرِ إلا في الدنيا ، ولا يُزرعُ إلا في صعيدِ القلبِ ، ولا حصادَ إلا في الآخرةِ .

ولهـٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ »[(١)] ، لأنَّ المعرفةَ إنَّما تكملُ وتكثرُ وتتسعُ في العمرِ الطويلِ بمداومةِ الفكرِ ، والمواظبةِ على المجاهدةِ ، والانقطاعِ عنْ علائقِ الدنيا ، والتجرُّدِ للطلبِ ، ويستدعي ذٰلكَ زماناً لا محالةَ .

فمَنْ أحبَّ الموتَ . . أحبَّهُ لأنَّهُ رأىٰ نفسَهُ واقفاً في المعرفةِ ، بالغاً إلىٰ منتهىٰ ما يُسِّرَ لهُ ، ومَنْ كرهَ الموتَ . . كرهَهُ لأنَّهُ كانَ يؤمِّلُ مزيدَ معرفةٍ تحصلُ لهُ بطولِ العمرِ ، ورأىٰ نفسَهُ مقصِّراً عمَّا تحتملُهُ قوَّتُهُ لوْ عُمِّرَ ، فهـٰذا سببُ كراهةِ الموتِ وحبِّهِ عندَ أهلِ المعرفةِ .

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٥٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، ولفظه : « السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل » ، وعند الترمذي (٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره ، وحسن عمله » .

وأمَّا سائرُ الخلقِ . . فنظرُهُمْ مقصورٌ علىٰ شهواتِ الدنيا إنِ اتسعَتْ . . أحبُّوا البقاءَ ، وإنْ ضاقَتْ . . تمنَّوُا الموتَ ، وكلُّ ذٰلكَ حرمانٌ وخسرانٌ مصدرُهُ الجهلُ والغفلةُ ، فالجهلُ والغفلةُ مغرسُ كلِّ شقاوةٍ ، والعلمُ والمعرفةُ أساسُ كلِّ سعادةٍ .

فقدْ عرفتَ بما ذكرناهُ معنى المحبَّةِ ومعنى العشقِ ؛ فإنَّهُ المحبةُ المفرطةُ القويَّةُ ، ومعنىٰ لذَّةِ المعرفةِ ، ومعنى الرؤيةِ ومعنىٰ لذَّةِ الرؤيةِ ومعنىٰ كونِها ألذَّ مِنْ سائرِ اللذاتِ عندَ ذوي الكمالِ ، وإنْ لمْ تكنْ كذٰلك عندَ ذوي النقصانِ ، كما لمْ تكنِ الرئاسةُ ألذَّ مِنَ المطعوماتِ عندَ الصبيانِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ الرؤيةُ محلُّها القلبُ أوِ العينُ في الآخرةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الناسَ قدِ اختلفوا في ذٰلكَ ، وأربابُ البصائرِ لا يلتفتونَ إلىٰ هٰذا الخلافِ ولا ينظرونَ فيهِ ، بلِ العاقلُ يأكلُ البقلَ ولا يسألُ عنِ المبقلةِ ، ومَنْ يشتهي رؤيةَ معشوقِهِ يشغلُهُ عشقُهُ عنْ أنْ يلتفتَ إلىٰ أنَّ رؤيَتَهُ هلْ تُخلقُ في عينِهِ أوْ في جبهتِهِ ؟ بلْ يقصدُ الرؤيةَ ولذَّتَها سواءٌ كانَ ذٰلكَ بالعينِ أوْ غيرِها ؛ فإنَّ العينَ محلٌّ وظرفٌ لا نظرَ إليهِ ولا حكمَ لهُ .

والحقُّ فيهِ : أنَّ القدرةَ الأزليَّةَ واسعةٌ ، فلا يجوزُ أنْ نحكمَ عليها بالقصورِ عنْ أحدِ الأمرينِ ، هٰذا في حكمِ الجوازِ ، فأمَّا الواقعُ في الآخرةِ مِنَ الجائزينِ . . فلا يُدركُ إلا بالسمعِ ، والحقُّ ما ظهرَ لأهلِ السنَّةِ والجماعةِ مِنْ شواهدِ الشرعِ أنَّ ذٰلكَ يُخلقُ في العينِ ؛ ليكونَ لفظُ الرؤيةِ والنظرِ وسائرُ الألفاظِ الواردةِ في الشرعِ يجري علىٰ ظاهرِهِ ؛ إذْ لا يجوزُ إزالةُ الظواهرِ إلا لضرورةٍ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

❊ ❊ ❊

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم : أنَّ أسعدَ الخلقِ حالاً في الآخرةِ أقواهُمْ حبّاً للهِ تعالىٰ ، فإنَّ الآخرةَ معناها القدومُ على اللهِ تعالىٰ ودركُ سعادةِ لقائِهِ ، وما أعظمَ نعيمَ المحبِّ إذا قدمَ علىٰ محبوبِهِ بعدَ طولِ شوقِهِ ، وتمكَّنَ مِنْ دوامِ مشاهدتِهِ أبدَ الآبادِ مِنْ غيرِ منغِّصٍ ومكدِّرٍ ، ومِنْ غيرِ رقيبٍ ومزاحمٍ ، ومِنْ غيرِ خوفِ انقطاعٍ !! إلا أنَّ هـٰذا النعيمَ علىٰ قدْرِ قوَّةِ الحبِّ ، فكلَّما ازدادَ الحبُّ . . ازدادَتِ اللذَّةُ ، وإنَّما يكتسبُ العبدُ حبَّ اللهِ تعالىٰ في الدنيا .

وأصلُ الحبِّ لا ينفكُّ عنهُ مؤمنٌ ؛ لأنَّهُ لا ينفكُّ عنْ أصلِ المعرفةِ ، وأمَّا قوَّةُ الحبِّ واستيلاؤُهُ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الاستهتارِ الذي يُسمَّىٰ عشقاً . . فذٰلكَ ينفكُّ عنهُ الأكثرونَ ، وإنَّما يحصلُ ذٰلكَ بسببينِ :

أحدُهُما : قطعُ علائقِ الدنيا وإخراجُ حبِّ غيرِ اللهِ مِنَ القلبِ :

فإنَّ القلبَ مثلُ الإناءِ الذي لا يتسعُ للخلِّ مثلاً ما لمْ يخرجْ منهُ الماءُ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ ، وكمالُ الحبِّ في أنْ يحبَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بكلِّ قلبِهِ ، وما دامَ يلتفتُ إلىٰ غيرِهِ . . فزاويةٌ مِنْ قلبِهِ مشغولةٌ بغيرِهِ ، فبقدْرِ ما يشتغلُ بغيرِ اللهِ ينقصُ منهُ حبُّ اللهِ ، وبقدْرِ ما يبقىٰ مِنَ الماءِ في الإناءِ ينقصُ مِنَ الخلِّ المصبوبِ فيهِ .

وإلىٰ هـٰذا التفريدِ والتجريدِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ ﴾ ، وبقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ ، بلْ هوَ معنىٰ قولِكَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ؛ أيْ : لا معبودَ ولا محبوبَ سواهُ ، وكلُّ محبوبٍ فإنَّهُ معبودٌ ، فإنَّ العبدَ هوَ المقيَّدُ ، والمعبودُ هوَ المقيَّدُ بهِ ، وكلُّ محبٍّ فهوَ مقيَّدٌ بما يحبُّهُ .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبغضُ إلـٰهٍ عُبدَ في الأرضِ الهوىٰ »(١)

ولذٰلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ مخلصاً . . دخلَ الجنةَ »(٢) ، ومعنى الإخلاصِ : أنْ يخلصَ قلبَهُ للهِ ، فلا يبقىٰ فيهِ شركةٌ لغيرِ اللهِ ، فيكونُ اللهُ محبوبَ قلبِهِ ، ومعبودَ قلبِهِ ، ومقصودَ قلبِهِ فقطْ .

ومَنْ هـٰذا حالُهُ . . فالدنيا سجنُهُ ؛ لأنَّها مانعةٌ لهُ عنْ مشاهدةِ محبوبِهِ ، وموتُهُ خلاصٌ مِنَ السجنِ ، وقدومٌ على المحبوبِ ، فما حالُ مَنْ ليسَ لهُ إلا محبوبٌ واحدٌ ، وقدْ طالَ إليهِ شوقُهُ ، وتمادىٰ عنهُ حبسُهُ ، فخُلِّيَ مِنَ السجنِ ، ومُكِّنَ مِنَ المحبوبِ ، ورُوِّحَ بالأمنِ أبدَ الآبادِ ؟!

فأحدُ أسبابِ ضعفِ حبِّ اللهِ في القلوبِ قوَّةُ حبِّ الدنيا ، ومنهُ حبُّ الأهلِ ، والمالِ ، والولدِ ، والأقاربِ ، والعقارِ ، والدوابِّ ، والبساتينِ ، والمنتزهاتِ ، حتَّىٰ إنَّ المتفرِّجَ بطيبِ أصواتِ الطيورِ ورَوْحِ نسيمِ الأسحارِ . . ملتفتٌ إلىٰ نعيمِ الدنيا ، ومتعرِّضٌ لنقصانِ حبِّ الله تعالىٰ بسببِهِ فبقدْرِ ما أنسَ بالدنيا . . فينقصُ أنسُهُ باللهِ ، ولا يُؤتىٰ أحدٌ مِنَ الدنيا شيئاً إلا وينقصُ بقدْرِهِ مِنَ الآخرةِ بالضرورةِ ، كما أنَّهُ لا يقربُ الإنسانُ مِنَ المشرقِ إلا ويبعدُ بالضرورةِ مِنَ المغربِ

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٣/٨) بنحوه

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥٤/٩) ، وتمامه عند الطبراني : قيل : وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله عز وجل »

بقدْرِه ، ولا يطيِّبُ قلبَ امرأتِهِ إلا ويضيّقُ بهِ قلبَ ضرَّتِها ، فالدنيا والآخرةُ ضرَّتانِ ، وهما كالمشرقِ والمغربِ ، وقدِ انكشفَ ذٰلكَ لذوي القلوبِ انكشافاً أوضحَ مِنَ الإبصارِ بالعينِ .

وسبيلُ قلعِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ سلوكُ طريقِ الزهدِ ، وملازمةُ الصبرِ ، والانقيادُ إليهما بزمامِ الخوفِ والرجاءِ ، فما ذكرناهُ مِنَ المقاماتِ ؛ كالتوبةِ ، والصبرِ ، والزهدِ ، والخوفِ ، والرجاءِ . . هيَ مقدماتٌ ليكتسبَ بها أحدَ ركنيِ المحبَّةِ ، وهوَ تخليةُ القلبِ عنْ غيرِ اللهِ ، وأوَّلُهُ الإيمانُ باللهِ ، واليومِ الآخرِ ، والجنةِ ، والنارِ ، ثمَّ يتشعَّبُ منهُ الخوفُ والرجاءُ ، ويتشعَّبُ منهما التوبةُ والصبرُ عليهما ، ثمَّ ينجرُّ ذٰلكَ إلى الزهدِ في الدنيا ، وفي المالِ والجاهِ ، وكلِّ حظوظِ الدنيا ، حتَّىٰ يحصلَ مِنْ جميعِهِ طهارةُ القلبِ عنْ غيرِ اللهِ فقطْ ، حتَّىٰ يتسعَ بعدَهُ لنزولِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ وحبِّهِ فيهِ .

فكلُّ ذٰلكَ مقدماتُ تطهيرِ القلبِ ، وهوَ أحدُ ركنيِ المحبَّةِ وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الطهورُ شطرُ الإيمانِ »[1] ، كما ذكرناهُ في أوَّلِ كتابِ الطهارةِ .

❀ ❀ ❀

السببُ الثاني لقوَّةِ المحبَّةِ : قوَّةُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ واتساعُها ، واستيلاؤُها على القلبِ :

وذٰلكَ بعدَ تطهيرِ القلبِ مِنْ جميعِ شواغلِ الدنيا وعلائقِها يجري مَجرىٰ وضعِ البذرِ في الأرضِ بعدَ تنقيتِها مِنَ الحشيشِ ، وهوَ الشطرُ الثاني ، ثمَّ يتولَّدُ مِنْ هٰذا البذرِ شجرةُ المحبَّةِ والمعرفةِ ، وهيَ الكلمةُ الطيّبةُ التي ضربَ اللهُ لها مثلاً حيثُ قالَ : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] ، وإليها الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ، فهيَ المعرفةُ ، ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ ، فالعملُ الصالحُ كالحمَّالِ لهٰذهِ المعرفةِ وكالخادمِ ، وإنَّما العملُ الصالحُ كلُّهُ في تطهيرِ القلبِ أوَّلاً مِنَ الدنيا ، ثمَّ في إدامةِ طهارتِهِ ، فلا يُرادُ العملُ إلا لهٰذهِ المعرفةِ .

وأمَّا العلمُ بكيفيةِ العملِ . . فيُرادُ للعملِ ، فالعلمُ هوَ الأوَّلُ وهوَ الآخرُ ، وإنَّما الأوَّلُ علمُ المعاملةِ ، وغرضُهُ العملُ ، وغرضُ المعاملةِ صفاءُ القلبِ وطهارتُهُ ؛ ليتضحَ فيهِ جليَّةُ الحقِّ ، ويتزيَّنَ بعلمِ المعرفةِ ، وهوَ علمُ المكاشفةِ .

ومهما حصلَتْ هٰذهِ المعرفةُ . . تبعَتْها المحبَّةُ بالضرورةِ ، كما أنَّ مَنْ كانَ معتدلَ المزاجِ إذا أبصرَ الجميلَ وأدركَهُ بالعينِ الظاهرةِ . . أحبَّهُ ومالَ إليهِ ، ومهما أحبَّهُ . . حصلَتِ اللذَّةُ ، فاللذَّةُ تتبعُ المحبةَ بالضرورةِ والمحبَّةُ تتبعُ المعرفةَ بالضرورةِ ، ولا يُوصلُ إلىٰ هٰذهِ المعرفةِ بعدَ انقطاعِ شواغلِ الدنيا مِنَ القلبِ إلا بالفكرِ الصافي ، والذكرِ الدائمِ ، والجدِّ البالغِ في الطلبِ ، والنظرِ المستمرِّ في اللهِ وفي صفاتِهِ ، وملكوتِ سماواتِهِ وسائرِ مخلوقاتِهِ .

والواصلونَ إلىٰ هٰذهِ الرتبةِ ينقسمونَ :

إلى الأقوياءِ ، ويكونُ أوَّلُ معرفتِهِمْ باللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بهِ يعرفونَ غيرَهُ .

وإلى الضعفاءِ ، ويكونُ أوَّلُ معرفتِهِمْ بالأفعالِ ، ثمَّ يترقونَ منها إلى الفاعلِ .

وإلى الأوَّلِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) .

(٢) فعرفنا أن لها أصلاً ثابتاً في القلوب بما أمدها به من النظر والاعتبار ، وعرفنا أن لها فروعاً تنشأ منها هي مواجيد القلوب وأحوال لها بسبب ما جبلها عليه من محبة سعادتها وكمالها . « إتحاف » (٥٨٧/٩) .

ومنْه نظرَ بعضُهُمْ حيثُ قيلَ لهُ : بمَ عرفتَ ربَّكَ ؟ فقالَ : عرفتُ ربِّي بربِّي ، ولولا ربِّي . . لما عرفتُ ربِّي [1]

وإلى الثاني الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وبقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

وهٰذا الطريقُ هوَ الأسهلُ على الأكثرينَ ، وهوَ الأوسعُ على السالكينَ ، وإليهِ أكثرُ دعوةِ القرآنِ ؛ عندَ الأمرِ بالتدبُّرِ ، والتفكُّرِ ، والاعتبارِ ، والنظرِ ؛ في آياتٍ خارجةٍ عنِ الحصرِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : كلا الطريقينِ مشكلٌ ، فأوضحْ لنا منهُما ما يُستعانُ بهِ علىٰ تحصيلِ المعرفةِ والتوصُّلِ بهِ إلى المحبةِ .

فاعلمْ : أنَّ الطريقَ الأعلىٰ وهوَ الاستشهادُ بالحقِّ سبحانَهُ علىٰ سائرِ الخلقِ . . فهوَ غامضٌ ، والكلامُ فيهِ خارجٌ عنْ حدِّ فهمِ أكثرِ الخلقِ ، فلا فائدةَ في إيرادِهِ في الكتبِ .

وأمَّا الطريقُ الأسهلُ الأدنىٰ . . فأكثرُهُ غيرُ خارجٍ عنْ حدِّ الأفهامِ ، وإنَّما قصرَتِ الأفهامُ عنهُ لإعراضِها عنِ التدبُّرِ ، واشتغالِها بشهواتِ الدنيا وحظوظِ النفسِ ، والمانعُ مِنْ ذكرِ هٰذا اتساعُهُ وكثرتُهُ ، وانشعابُ أبوابِهِ الخارجةِ عنِ الحصرِ والنهايةِ ؛ إذْ ما مِنْ ذرَّةٍ مِنْ أعلى السماواتِ إلىٰ تخومِ الأرضينَ إلا وفيها عجائبُ وآياتٌ تدلُّ علىٰ كمالِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وكمالِ حكمتِهِ ، ومنتهىٰ جلالِهِ وعظمتِهِ ، وذٰلكَ ممَّا لا يتناهىٰ ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ ، فالخوضُ فيهِ انغماسٌ في بحارِ علومِ المكاشفةِ ، فلا يمكنُ أنْ يُتطفَّلَ بهِ علىٰ علومِ المعاملةِ ، ولٰكنْ يمكنُ الرمزُ إلىٰ مثالٍ واحدٍ على الإيجازِ ؛ ليقعَ التنبيهُ لجنسِهِ ، فنقولُ :

أسهلُ الطريقينِ النظرُ إلى الأفعالِ ، فلنتكلَّمْ فيها ، ولنتركِ الأعلىٰ ، ثمَّ الأفعالُ الإلٰهيةُ كثيرةٌ ، فلنطلبْ أقلَّها وأحقرَها وأصغرَها ، ولننظرْ في عجائبِها .

فأقلُّ المخلوقاتِ هيَ الأرضُ وما عليها ؛ أعني : بالإضافةِ إلى الملائكةِ وملكوتِ السماواتِ ، فإنَّكَ إنْ نظرتَ فيها مِنْ حيثُ الجسمُ والعظمُ في الشخصِ . . فالشمسُ علىٰ ما ترىٰ مِنْ صغرِ حجمِها هيَ مثلُ الأرضِ مئةً ونيفاً وستينَ مرةً ، فانظرْ إلىٰ صغرِ الأرضِ بالإضافةِ إليها ، ثمَّ انظرْ إلىٰ صغرِ الشمسِ بالإضافةِ إلىٰ فلكِها الذي هيَ مركوزةٌ فيهِ ؛ فإنَّهُ لا نسبةَ لهَا إليهِ ، وهيَ في السماءِ الرابعةِ ، وهيَ صغيرةٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَها مِنَ السماواتِ ، ثمَّ السماواتُ السبعُ في الكرسيِّ كحلقةٍ في فلاةٍ ، والكرسيُّ في العرشِ كذٰلكَ !!

فهٰذا نظرٌ إلىٰ ظاهرِ الأشخاصِ مِنْ حيثُ المقاديرُ ، وما أحقرَ الأرضَ كلَّها بالإضافةِ إليها ، بلْ ما أصغرَ الأرضَ بالإضافةِ إلى البحارِ ، فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأرضُ في البحرِ كالإصطبلِ في الأرضِ »[2] ، ومصداقُ هٰذا عُرِفَ بالمشاهدةِ والتجربةِ ، وعُلِمَ أنَّ المكشوفَ مِنَ الأرضِ عنِ الماءِ كجزيرةٍ صغيرةٍ بالإضافةِ إلىٰ كلِّ الأرضِ .

ثمَّ انظرْ إلى الآدميِّ المخلوقِ مِنَ الترابِ الذي هوَ جزءٌ مِنَ الأرضِ ، وإلىٰ سائرِ الحيواناتِ ، وإلىٰ صغرِهِ بالإضافةِ

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥١٤) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/٥٨٩) .

إلى الأرضِ ، ودعْ عنكَ جميعَ ذٰلكَ ، فأصغرُ ما نعرفُهُ مِنَ الحيواناتِ البعوضُ والنحلُ وما يجري مجراهُ ، فانظرْ إلى البعوضِ علىٰ صغرِ قدرِهِ ، وتأمَّلْهُ بعقلٍ حاضرٍ وفكرٍ صافٍ ، فانظرْ كيفَ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ شكلِ الفيلِ الذي هوَ أعظمُ الحيواناتِ ؛ إذْ خلقَ لهُ خرطوماً مثلَ خرطومِهِ ، وخلقَ لهُ علىٰ شكلِهِ الصغيرِ سائرَ الأعضاءِ كما خلقَهُ للفيلِ بزيادةِ جناحينِ ، وانظرْ كيفَ قسمَ أعضاءَهُ الظاهرةَ ، فأنبتَ جناحَهُ ، وأخرجَ يدَهُ ورجلَهُ ، وشقَّ سمعَهُ وبصرَهُ ، ودبَّرَ في باطنِهِ مِنْ أعضاءِ الغذاءِ وآلاتِهِ ما دبَّرَهُ في سائرِ الحيواناتِ ، وركَّبَ فيها مِنَ القوى الغاذيةِ والجاذبةِ والدافعةِ والماسكةِ والهاضمةِ ما ركَّبَ في سائرِ الحيواناتِ ، هٰذا في شكلِهِ وصفاتِهِ .

ثُمَّ انظرْ إلىٰ هدايتِهِ كيفَ هداهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ غذائِهِ ، وعرَّفَهُ أنَّ غذاءَهُ دمُ الإنسانِ ، ثمَّ انظرْ كيفَ أنبتَ لهُ آلةَ الطيرانِ إلى الإنسانِ ، وكيفَ خلقَ لهُ الخرطومَ الطويلَ وهوَ محدَّدُ الرأسِ ، وكيفَ هداهُ إلىٰ مسامِّ بشرةِ الإنسانِ حتَّىٰ يضعَ خرطومَهُ في واحدٍ منها ، ثمَّ كيفَ قوَّاهُ حتَّىٰ يغرزَ فيهِ الخرطومَ ، وكيفَ علَّمَهُ المصَّ والتجرُّعَ للدمِ ، وكيفَ خلقَ الخرطومَ معَ دقَّتِهِ مجوَّفاً حتَّىٰ يجريَ فيهِ الدمُ الرقيقُ ، وينتهيَ إلىٰ باطنِهِ ، وينتشرَ في سائرِ أجزائِهِ ويغذيَهُ ، ثمَّ كيفَ عرَّفَهُ أنَّ الإنسانَ يقصدُهُ بيدِهِ ، فعلَّمَهُ حيلةَ الهربِ واستعدادَ آلتِهِ ، وخلقَ لهُ السمعَ الذي يسمعُ بهِ حفيفَ حركةِ اليدِ وهيَ بعدُ بعيدةٌ منهُ ، فيتركُ المصَّ ويهربُ ، ثمَّ إذا سكنَتِ اليدُ يعودُ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ لهُ حدقتينِ حتَّىٰ يبصرَ مواضعَ غذائِهِ ، فيقصدَهُ معَ صغرِ حجمِ وجهِهِ ، وانظرْ إلىٰ أنَّ حدقةَ كلِّ حيوانٍ صغيرٍ لمَّا لمْ تحتملْ حدقتُهُ الأجفانَ لصغرِهِ ، وكانَتِ الأجفانُ مصقلةً لمرآةِ الحدقةِ عنِ القذىٰ والغبارِ . . خلقَ للبعوضِ والذبابِ يدينِ ، فتنظرُ إلى الذبابِ فتراهُ على الدوامِ يمسحُ حدقتيهِ بيديهِ ، وأمَّا الإنسانُ والحيوانُ الكبيرُ . . فخلقَ لحدقتيهِ الأجفانَ حتَّىٰ ينطبقَ أحدُهُما على الآخرِ ، وأطرافُهُما حادةٌ ، فيجمعُ الغبارَ الذي يلحقُ الحدقةَ ويرميهِ إلىٰ أطرافِ الأهدابِ ، وخلقَ الأهدابَ السودَ لتجمعَ ضوءَ العينِ ، وتعينَ على الإبصارِ ، وتحسِّنَ صورةَ العينِ ، وتشبكَها عندَ هيجانِ الغبارِ ، فينظرَ مِنْ وراءِ شبَّاكِ الأهدابِ ، واشتباكُها يمنعُ دخولَ الغبارِ ولا يمنعُ الإبصارَ .

وأمَّا البعوضُ . . فخلقَ لها حدقتينِ مصقلتينِ مِنْ غيرِ أجفانٍ ، وعلَّمَها كيفيةَ التصقيلِ باليدينِ .

والفراشُ لأجلِ ضعفِ إبصارِها . . تراها تتهافتُ على السراجِ ؛ لأنَّ بصرَها ضعيفٌ ، فهيَ تطلبُ ضوءَ النهارِ ، فإذا رأى المسكينُ ضوءَ السراجِ بالليلِ . . ظنَّ أنَّهُ في بيتٍ مظلمٍ وأنَّ السراجَ كوَّةٌ مِنَ البيتِ المظلمِ إلى الموضعِ المضيءِ ، فلا يزالُ يطلبُ الضوءَ ويرمي بنفسِهِ إليهِ ، فإذا جاوزَهُ ورأى الظلامَ . . ظنَّ أنَّهُ لمْ يصبِ الكوَّةَ ولمْ يقصدْها على السدادِ ، فيعودُ إليهِ مرَّةً أخرىٰ إلىٰ أنْ يحترقَ .

ولعلَّكَ تظنُّ أنَّ هٰذا لنقصانِها وجهلِها ، فاعلمْ أنَّ جهلَ الإنسانِ أعظمُ مِنْ جهلِها ، بلْ صورةُ الآدميِّ في الإكبابِ علىٰ شهواتِ الدنيا صورةُ الفراشِ في التهافتِ على النارِ ؛ إذْ تلوحُ للآدميِّ أنوارُ الشهواتِ مِنْ حيثُ ظاهرُ صورتِها ، ولا يدري أنَّ تحتَها السمَّ الناقعَ القاتلَ ، فلا يزالُ يرمي نفسَهُ عليها إلىٰ أنْ ينغمسَ فيها ، ويتقيَّدَ بها ، ويهلكَ هلاكاً مؤبداً ، فليتَ كانَ جهلُ الآدميِّ كجهلِ الفراشِ ؛ فإنَّها باغترارِها بظاهرِ الضوءِ إنِ احترقَتْ . . تخلَّصَتْ في الحالِ ، والآدميُّ يبقىٰ في النارِ أبدَ الآبادِ أوْ مدَّةً مديدةً ، ولذٰلكَ كانَ ينادي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ويقولُ : « إنِّي ممسكٌ بحُجَزِكُمْ عنِ النارِ ، وأنتُمْ تتهافتونَ فيها تهافتَ الفراشِ »[1]

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

فهٰذه لمعةٌ مِنْ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ في أصغرِ الحيواناتِ ، وفيها مِنَ العجائبِ ما لوِ اجتمعَ الأوَّلونَ والآخرونَ على الإحاطةِ بكنهِها . . عجزوا عنْ حقيقتِها ، ولمْ يطلعوا علىٰ أمورٍ جليَّةٍ مِنْ ظاهرِ صورتِها ، فأمَّا خفايا معانيها . . فلا يطلعُ عليها إلا اللهُ تعالىٰ .

ثمَّ في كلِّ حيوانٍ ونباتٍ أعجوبةٌ وأعاجيبُ تخصُّهُ لا يشاركُهُ فيها غيرُهُ ، فانظرْ إلى النحلِ وعجائبِها ، وكيفَ أوحى اللهُ تعالىٰ إليها حتَّى اتخذَتْ مِنَ الجبالِ بيوتاً ومِنَ الشجرِ وممَّا يعرشونَ ، وكيفَ استخرجَ مِنْ لعابِها الشمعَ والعسلَ ، وجعلَ أحدَهُما ضياءً والآخرَ شفاءً ، ثمَّ لوْ تأمَّلتَ عجائبَ أمرِها في تناولِها الأزهارَ والأنوارَ ، واحترازِها عنِ النجاساتِ والأقذارِ ، وطاعتِها لواحدٍ مِنْ جملتِها هوَ أكبرُها شخصاً ، وهوَ أميرُها ، ثمَّ ما سخَّرَ اللهُ لهُ أميرَها مِنَ العدلِ والإنصافِ بينَها ، حتَّىٰ إنَّهُ ليقتلُ علىٰ بابِ المنفذِ كلَّ ما وقعَ منها علىٰ نجاسةٍ . . لقضيتَ منها عجباً آخرَ العجبِ إنْ كنتَ بصيراً في نفسِكَ ، وفارغاً مِنْ همِّ بطنِكَ وفرجِكَ وشهواتِ نفسِكَ في معاداةِ أقرانِكَ وموالاةِ إخوانِكَ .

ثمَّ دعْ عنكَ جميعَ ذٰلكَ ، وانظرْ إلىٰ بنائِها بيوتَها مِنَ الشمعِ ، واختيارِها مِنْ جملةِ الأشكالِ الشكلَ المسدَّسَ ، فلا تبني بيتاً مستديراً ، ولا مربعاً ، ولا مخمّساً ، بلْ مسدَّساً ؛ لخاصيَّةٍ في شكلِ المسدَّسِ يقصرُ فهمُ المهندسينَ عنْ دركِها ، وهوَ أنَّ أوسعَ الأشكالِ وأحواها المستديرةُ وما يقربُ منها ، فإنَّ المربَّعَ يخرجُ منهُ زوايا ضائعةٌ ، وشكلُ النحلِ مستديرٌ مستطيلٌ ، فتركَ المربَّعَ حتَّىٰ لا تضيعَ الزوايا فتبقىٰ فارغةً ، ثمَّ لوْ بناها مستديرةً . . لبقيتْ خارجَ البيوتِ فرجٌ ضائعةٌ ، فإنَّ الأشكالَ المستديرةَ إذا اجتمعَتْ . . لمْ تجتمعْ متراصَّةً ، ولا شكلَ في الأشكالِ ذواتِ الزوايا يقربُ في الاحتواءِ مِنَ المستديرِ ثمَّ تتراصُ الجملةُ منهُ بحيثُ لا يبقىٰ بعدَ اجتماعِها فرجةٌ . . إلا المسدَّسُ ، وهٰذهِ خاصيَّةُ هٰذا الشكلِ ، فانظرْ كيفَ ألهمَ اللهُ تعالى النحلَ علىٰ صغرِ جرمِهِ ولطافةِ قدِّهِ لطفاً بهِ وعنايةً بوجودِهِ وما هوَ محتاجٌ إليهِ ، ليتهنأَ بعيشِهِ .

فسبحانَهُ ما أعظمَ شانَهُ ، وأوسعَ لطفَهُ وامتنانَهُ .

فاعتبرْ بهٰذهِ اللمعةِ اليسيرةِ مِنْ محقَّراتِ الحيواناتِ ، ودعْ عنكَ عجائبَ ملكوتِ الأرضِ والسماواتِ ؛ فإنَّ القدرَ الذي بلغَهُ فهمُنا القاصرُ منهُ تنقضي الأعمارُ دونَ إيضاحِهِ ، ولا نسبةَ لما أحاطَ بهِ علمنا إلىٰ ما أحاطَ بهِ العلماءُ والأنبياءُ ، ولا نسبةَ لما أحاطَ بهِ علمُ الخلائقِ كلِّهِمْ إلىٰ ما استأثرَ اللهُ تعالىٰ بعلمِهِ ، بلْ كلُّ ما عرفَهُ الخلقُ لا يستحقُّ أنْ يُسمَّىٰ علماً في جنبِ علمِ اللهِ تعالىٰ .

فبالنظرِ في هٰذا وأمثالِهِ تزدادُ المعرفةُ الحاصلةُ بأسهلِ الطريقينِ ، وبزيادةِ المعرفةِ تزدادُ المحبَّةُ ، فإنْ كنتَ طالباً سعادةَ لقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فانبذِ الدنيا وراءَ ظهرِكَ ، واستغرقِ العمرَ في الذكرِ الدائمِ والفكرِ اللازمِ ، فعساكَ تحظىٰ منها بقدْرٍ يسيرٍ ، ولٰكنْ تنالُ بذٰلكَ اليسيرِ ملكاً عظيماً لا آخرَ لهُ .

❋ ❋ ❋

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلمْ : أنَّ المؤمنينَ مشتركونَ في أصلِ الحبِّ لاشتراكِهِمْ في أصلِ المحبَّةِ ، ولٰكنَّهُمْ متفاوتونَ لتفاوتِهِمْ في المعرفةِ وفي حبِّ الدنيا ؛ إذِ الأشياءُ إنَّما تتفاوتُ بتفاوتِ أسبابِها ، وأكثرُ الناسِ ليسَ لهُمْ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلا الصفاتُ والأسماءُ التي قرعَتْ سمعَهُمْ ، فتلقَّنوها وحفظوها ، وربَّما تخيَّلوا لها معانيَ يتعالىٰ عنها ربُّ الأربابِ ، وربَّما لمْ يطلعوا علىٰ حقيقتِها ولا تخيَّلوا لها معنىً فاسداً ، بلْ آمنوا بها إيمانَ تسليمٍ وتصديقٍ ، واشتغلوا بالعملِ وتركوا البحثَ ، وهٰؤلاءِ همْ أهلُ السلامةِ مِنْ أصحابِ اليمينِ والمتخيّلونَ هُمُ الضالونَ ، والعارفونَ بالحقائقِ هُمُ المقرَّبونَ .

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ حالَ الأصنافِ الثلاثةِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . . . ﴾ الآيةَ .

وإنْ كنتَ لا تفهمُ الأمورَ إلا بالأمثلةِ . . فلنضربْ لتفاوتِ الحبِّ مثالاً ، فنقولُ :

أصحابُ الشافعيِّ مثلاً يشتركونَ في حبِّ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ، الفقهاءُ منهُمْ والعوامُّ ؛ لأنَّهُمْ يشتركونَ في معرفةِ فضلِهِ ودينِهِ وحسنِ سيرتِهِ ومحامدِ خصالِهِ ، ولٰكنَّ العاميَّ يعرفُ علمَهُ مجملاً ، والفقيهُ يعرفُهُ مفصّلاً ، فتكونُ معرفةُ الفقيهِ بهِ أتمَّ ، وإعجابُهُ بهِ وحبُّهُ لهُ أشدَّ ، فمَنْ رأىٰ تصنيفَ مصنفٍ فاستحسنَهُ وعرفَ بهِ فضلَهُ . . أحبَّهُ لا محالةَ ، ومالَ إليهِ قلبُهُ ، فإن رأىٰ تصنيفاً آخرَ أحسنَ منهُ وأعجبَ . . تضاعفَ ـ لا محالةَ ـ حبُّهُ ؛ لأنَّهُ تضاعفَتْ معرفتُهُ بعلمِهِ ، وكذٰلكَ يعتقدُ الرجلُ في الشاعرِ أنَّهُ حسنُ الشعرِ فيحبُّهُ ، فإذا سمعَ مِنْ غرائبِ شعرِهِ ما عظُمَ فيهِ حذقُهُ وصنعتُهُ . . ازدادَ بهِ معرفةً ، وازدادَ لهُ حبّاً ، وكذا سائرُ الصناعاتِ والفضائلِ .

فالعاميُّ قدْ يسمعُ أنَّ فلاناً مصنِّفٌ ، وأنَّهُ حسنُ التصنيفِ ، ولٰكنْ لا يدري ما في التصنيفِ ، فيكونُ لهُ معرفةٌ مجملةٌ ، ويكونُ لهُ بحسَبِهِ ميلٌ مجملٌ ، والبصيرُ إذا فتَّشَ عنِ التصانيفِ ، واطلعَ علىٰ ما فيها مِنَ العجائبِ . . تضاعفَ حبُّهُ لا محالةَ ؛ لأنَّ عجائبَ الصنعةِ والشعرِ والتصنيفِ تدلُّ علىٰ كمالِ صفاتِ الفاعلِ والمصنفِ .

والعالَمُ بجملتِهِ صنعُ اللهِ تعالىٰ وتصنيفُهُ ، والعاميُّ يعلمُ ذٰلكَ ويعتقدُهُ ، وأمَّا البصيرُ . . فإنَّهُ يطالعُ تفصيلَ صنعِ اللهِ تعالىٰ فيهِ ، حتَّىٰ يرىٰ في البعوضِ مثلاً مِنْ عجائبِ صنعِهِ ما ينبهرُ بهِ عقلُهُ ، ويتحيَّرُ فيهِ لبُّهُ ، ويزدادُ بسببِهِ ـ لا محالةَ ـ عظمةُ اللهِ وجلالُهُ وكمالُ صفاتِهِ في قلبِهِ ، فيزدادُ لهُ حبّاً ، وكلما ازدادَ علىٰ أعاجيبِ صنعِ اللهِ اطلاعاً . . استدلَّ بذٰلكَ علىٰ عظمةِ اللهِ الصانعِ وجلالِهِ وازدادَ بهِ معرفةً ولهُ حبّاً .

وبحرُ هٰذهِ المعرفةِ ـ أعني : معرفةَ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ـ بحرٌ لا ساحلَ لهُ ، فلا جرمَ تفاوتُ أهلِ المعرفةِ في الحبِّ لا حصرَ لهُ .

وممَّا يتفاوتُ بسببِهِ الحبُّ اختلافُ الأسبابِ الخمسةِ التي ذكرناها للحبِّ ، فإنَّ مَنْ يحبُّ اللهَ تعالىٰ مثلاً لكونِهِ محسناً إليهِ ، منعماً عليهِ ، ولمْ يحبَّهُ لذاتِهِ . . ضعفَتْ محبَّتُهُ ؛ إذْ تتغيَّرُ بتغيُّرِ الإحسانِ ، فلا يكونُ حبُّهُ في حالةِ البلاءِ كحبِّهِ في حالةِ الرضا والنعماءِ ، وأمَّا مَنْ يحبُّهُ لذاتِهِ ، ولأنَّهُ مستحقٌّ للحبِّ بسببِ كمالِهِ وجمالِهِ ومجدِهِ وعظمتِهِ . . فإنَّهُ لا يتفاوتُ حبُّهُ بتفاوتِ الإحسانِ إليهِ .

فهٰذا وأمثالُهُ هوَ سببُ تفاوتِ الناسِ في المحبَّةِ ، والتفاوتُ في المحبَّةِ هوَ سببُ التفاوتِ في سعادةِ الآخرةِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

* * *

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

اعلمْ : أنَّ أظهرَ الموجوداتِ وأجلاها هوَ اللهُ تعالىٰ ، وكانَ هـٰذا يقتضي أنْ تكونَ معرفتُهُ أوَّلَ المعارفِ ، وأسبقَها إلى الأفهامِ ، وأسهلَها على العقولِ ، وترى الأمرَ بالضدِّ مِنْ ذٰلكَ فلا بدَّ مِنْ بيانِ السببِ فيهِ .

وإنَّما قلنا : إنَّهُ أظهرُ الموجوداتِ وأجلاها . . لمعنىً لا تفهمُهُ إلا بمثالٍ ، وهوَ أنَّا إذا رأينا إنساناً يكتبُ أوْ يخيطُ مثلاً . . كانَ كونُهُ حيّاً عندَنا مِنْ أظهرِ الموجوداتِ ، فحياتُهُ وعلمُهُ وقدرتُهُ وإرادتُهُ للخياطةِ أجلىٰ عندَنا مِنْ سائرِ صفاتِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ؛ إذْ صفاتُهُ الباطنةُ كشهوتِهِ وغضبِهِ وخلقِهِ وصحتِهِ ومرضِهِ وكلِّ ذٰلكَ . . لا نعرفُهُ ، وصفاتُهُ الظاهرةُ لا نعرفُ بعضَها ، وبعضُها نشكُّ فيهِ ؛ كمقدارِ طولِهِ واختلافِ لونِ بشرتِهِ وغيرِ ذٰلكَ مِنْ صفاتِهِ ، أمَّا حياتُهُ وقدرتُهُ وإرادتُهُ وعلمُهُ وكونُهُ حيواناً . . فإنَّهُ جليٌّ عندَنا مِنْ غيرِ أنْ يتعلَّقَ حسُّ البصرِ بحياتِهِ وقدرتِهِ وإرادتِهِ ، فإنَّ هـٰذهِ الصفاتِ لا تُحسُّ بشيءٍ مِنَ الحواسِّ الخمسِ ، ثمَّ لا يمكنُ أنْ نعرفَ حياتَهُ وقدرتَهُ وإرادتَهُ إلا بخياطتِهِ وحركتِهِ ، فلو نظرنا إلىٰ كلِّ ما في العالمِ سواهُ . . لمْ نعرفْ بهِ صفتَهُ ، فما عليهِ إلا دليلٌ واحدٌ ، وهوَ معَ ذٰلكَ جليٌّ واضحٌ .

ووجودُ اللهِ تعالىٰ وقدرتُهُ وعلمُهُ وسائرُ صفاتِهِ يشهدُ لهُ بالضرورةِ كلُّ ما نشاهدُهُ وندركُهُ بالحواسِّ الظاهرةِ والباطنةِ ؛ مِنْ حجرٍ ومدرٍ ، ونباتٍ وشجرٍ ، وحيوانٍ وسماءٍ ، وأرضٍ وكوكبٍ ، وبرٍّ وبحرٍ ، ونارٍ وهواءٍ ، وجوهرٍ وعرضٍ ، بلْ أوَّلُ شاهدٍ عليهِ أنفسُنا ، وأجسامُنا ، وأوصافُنا ، وتقلُّبُ أحوالِنا ، وتغيُّرُ قلوبِنا ، وجميعُ أطوارِنا في حركاتِنا وسكناتِنا .

وأظهرُ الأشياءِ في علمِنا أنفسُنا ، ثمَّ محسوساتُنا بالحواسِّ الخمسِ ، ثمَّ مدركاتُنا بالعقلِ والبصيرةِ ، وكلُّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ المدركاتِ لهُ مُدركٌ واحدٌ ، وشاهدٌ واحدٌ ، ودليلٌ واحدٌ ، وجميعُ ما في العالمِ شواهدُ ناطقةٌ وأدلةٌ شاهدةٌ بوجودِ خالقِها ومدبِّرِها ، ومصرِّفِها ومحرِّكِها ، ودالَّةٌ علىٰ علمِهِ وقدرتِهِ ، ولطفِهِ وحكمتِهِ ، والموجوداتُ المدركةُ لا حصرَ لها .

فإنْ كانَتْ حياةُ الكاتبِ ظاهرةً عندَنا ، وليسَ يشهدُ لها إلا شاهدٌ واحدٌ ، وهوَ ما أحسسنا بهِ مِنْ حركةِ يدِهِ . . فكيفَ لا يظهرُ عندَنا ما لا يُتصوَّرُ في الوجودِ شيءٌ داخلَ نفوسِنا وخارجَها إلا وهوَ شاهدٌ عليهِ ، وعلىٰ عظمتِهِ وجلالِهِ ، إذْ كلُّ ذرَّةٍ فإنَّها تنادي بلسانِ حالِها أنَّهُ ليسَ وجودُها بنفسِها ، ولا حركتُها بذاتِها ، وأنَّها تحتاجُ إلىٰ موجدٍ ومحرِّكٍ لها ، يشهدُ بذٰلكَ أوَّلاً تركيبُ أعضائِنا ، وائتلافُ عظامِنا ولحومِنا وأعصابِنا ، ومنابتُ شعورِنا ، وتشكُّلُ أطرافِنا ، وسائرُ أجزائِنا الظاهرةِ والباطنةِ ، فإنَّا نعلمُ أنَّها لمْ تأتلفْ بأنفسِها ؛ كما نعلمُ أنَّ يدَ الكاتبِ لمْ تتحرَّكْ بنفسِها ، ولـٰكنْ لمَّا لمْ يبقَ في الوجودِ شيءٌ مدرَكٌ ومحسوسٌ ومعقولٌ وحاضرٌ وغائبٌ إلا وهوَ شاهدٌ ومعرِّفٌ . . عظُمَ ظهورُهُ ، فانبهرَتِ العقولُ ودهشَتْ عنْ إدراكِهِ ، فإنَّ ما تقصرُ عنْ فهمِهِ عقولُنا فلهُ سببانِ :

أحدُهُما : خفاؤُهُ في نفسِهِ وغموضُهُ ، وذٰلكَ لا يخفىٰ مثالُهُ .

والآخرُ : ما يتناهىٰ وضوحُهُ ، وهـٰذا كما أنَّ الخفَّاشَ يبصرُ بالليلِ ولا يبصرُ بالنهارِ ؛ لا لخفاءِ النهارِ واستتارِهِ ، لـٰكنْ لشدَّةِ ظهورِهِ ؛ فإنَّ بصرَ الخفَّاشِ ضعيفٌ يبهرُهُ نورُ الشمسِ إذا أشرقَتْ ، فتكونُ قوَّةُ ظهورِهِ معَ ضعفِ بصرِهِ سبباً لامتناعِ إبصارِهِ ، فلا يرىٰ شيئاً إلا إذا امتزجَ الضوءُ بالظلامِ وضعفَ ظهورُهُ .

فكذٰلكَ عقولُنا ضعيفةٌ ، وجمالُ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ في نهايةِ الإشراقِ والاستنارةِ ، وفي غايةِ الاستغراقِ والشمولِ ، حتَّىٰ لمْ يشذَّ عنْ ظهورِهِ ذرَّةٌ مِنْ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، فصارَ ظهورُهُ سببَ خفائِهِ .

فسبحانَ مَنِ احتجبَ بإشراقِ نورِهِ ، واختفىٰ عنِ البصائرِ والأبصارِ بظهورِهِ !!

ولا يُتعجَّبُ مِن اختفاءِ ذٰلكَ بسببِ الظهورِ ؛ فإنَّ الأشياءَ تُستبانُ بأضدادِها ، وما عمَّ وجودُهُ حتَّىٰ إنَّهُ لا ضدَّ لهُ . . عسُرَ إدراكُهُ ، فلوِ اختلفَتِ الأشياءُ فدلَّ بعضُها دونَ بعضٍ . . أُدركتِ التفرقةُ علىٰ قربٍ ، ولما اشتركَتْ في الدلالةِ علىٰ نسقٍ واحدٍ . . أشكلَ الأمرُ .

ومثالُهُ : نورُ الشمسِ المشرقِ على الأرضِ ، فإنَّا نعلمُ أنَّهُ عرضٌ مِنَ الأعراضِ يحدثُ في الأرضِ ، ويزولُ عندَ غيبةِ الشمسِ ، فلوْ كانَتِ الشمسُ دائمةَ الإشراقِ لا غروبَ لها . . لـٰكنَّا نظنُّ أنْ لا هيئةَ في الأجسامِ إلا ألوانُها ، وهيَ السوادُ والبياضُ وغيرُهما ، فإنَّا لا نشاهدُ في الأسودِ إلا السوادَ ، وفي الأبيضِ إلا البياضَ ، فأمَّا الضوءُ . . فلا ندركُهُ وحدَهُ ، ولـٰكنْ لمَّا غابَتِ الشمسُ ، وأظلمَتِ المواضعُ . . أدركنا تفرقةً بينَ الحالينِ ، فعلمنا أنَّ الأجسامَ كانَتْ قدِ استضاءَتْ بضوءٍ ، واتصفَتْ بصفةٍ فارقَتْها عندَ الغروبِ ، فعرفنا وجودَ النورِ بعدمِهِ ، وما كنَّا نطلعُ عليهِ لولا عدمُهُ إلا بعسرٍ شديدٍ ، وذٰلكَ لمشاهدتِنا الأجسامَ متشابهةً غيرَ مختلفةٍ في الظلامِ والنورِ ، هـٰذا معَ أنَّ النورَ أظهرُ المحسوساتِ ؛ إذْ بهِ تُدركُ سائرُ المحسوساتِ .

فما هوَ ظاهرٌ في نفسِهِ وهوَ مظهرٌ لغيرِهِ . . انظرْ كيفَ تُصوِّرَ استبهامُ أمرِهِ بسببِ ظهورِهِ لولا طريانُ ضدِّهِ ، فاللهُ تعالىٰ هوَ أظهرُ الأمورِ ، وبهِ ظهرَتِ الأشياءُ كلُّها ، ولوْ كانَ لهُ عدمٌ أوْ غيبةٌ أوْ تغيُّرٌ . . لانهدَّتِ السماواتُ والأرضُ ، وبطلَ الملكُ والملكوتُ ، ولأُدركَتْ بذٰلكَ التفرقةُ بينَ الحالينِ ، ولوْ كانَ بعضُ الأشياءِ موجوداً بهِ وبعضُها موجوداً بغيرِهِ . . لأُدركَتِ التفرقةُ بينَ الشيئينِ في الدلالةِ ، ولـٰكنْ دلالتُهُ عامةٌ في الأشياءِ علىٰ نسقٍ واحدٍ ، ووجودُهُ دائمٌ في الأحوالِ يستحيلُ خلافُهُ ، فلا جرمَ أورثَتْ شدَّةُ الظهورِ خفاءً .

فهـٰذا هوَ السببُ في قصورِ الأفهامِ .

وأمَّا مَنْ قويَتْ بصيرتُهُ ، ولمْ تضعفْ مُنَّتُهُ . . فإنَّهُ في حالِ اعتدالِ أمرِهِ لا يرىٰ إلا اللهَ تعالىٰ ، ولا يعرفُ غيرَهُ ، ويعلمُ أنَّهُ ليسَ في الوجودِ إلا اللهُ تعالىٰ ، وأفعالُهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، فهيَ تابعةٌ لهُ ، فلا وجودَ لها بالحقيقةِ دونَهُ ، وإنَّما الوجودُ للواحدِ الحقِّ الذي بهِ وجودُ الأفعالِ كلِّها ، ومَنْ هـٰذهِ حالُهُ فلا ينظرُ في شيءٍ مِنَ الأفعالِ إلا ويرىٰ فيهِ الفاعلَ ، ويذهلُ عنِ الفعلِ مِنْ حيثُ إنَّهُ سماءٌ وأرضٌ وحيوانٌ وشجرٌ ، بلْ ينظرُ فيهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ صنعُ الواحدِ الحقِّ ، فلا يكونُ نظرُهُ مجاوزاً لهُ إلىٰ غيرِهِ ، كمَنْ نظرَ في شعرِ إنسانٍ أوْ خطِّهِ أوْ تصنيفِهِ ورأىٰ فيهِ الشاعرَ والمصنِّفَ ، ورأىٰ آثارَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ أثرُهُ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ حبرٌ وعفصٌ وزاجٌ مرقومٌ علىٰ بياضٍ ، فلا يكونُ قدْ نظرَ إلىٰ غيرِ المصنفِ .

وكلُّ العالمِ تصنيفُ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ نظرَ إليهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ ، وعرفَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ ، وأحبَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ . . لمْ يكنْ ناظراً إلا في اللهِ ، ولا عارفاً إلا باللهِ ، ولا محبّاً إلا للهِ وكانَ هوَ الموحِّدَ الحقَّ الذي لا يرىٰ إلا اللهَ ، بلْ لا ينظرُ إلىٰ نفسِهِ مِنْ حيثُ نفسُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ عبدُ اللهِ ، فهـٰذا هوَ الذي يُقالُ فيهِ : إنَّهُ فنيَ في التوحيدِ ، وإنَّهُ فنيَ عنْ نفسِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِ مَنْ قالَ : (كنَّا بنا ، ففنينا عنَّا [1] ، فبقينا بلا نحنُ) .

فهـٰذه أمورٌ معلومةٌ عندَ ذوي البصائرِ ، أشكلَتْ لضعفِ الأفهامِ عنْ دركِها ، وقصورِ قدرةِ العلماءِ بها عنْ إيضاحِها

---

(١) في (أ) : (فغبنا) بدل (ففنينا) .

وبيانِها بعبارةٍ مفهمةٍ موصلةٍ للغرضِ إلى الأفهامِ ، أوْ باشتغالِهِمْ بأنفسِهِمْ ، واعتقادِهِمْ أنَّ بيانَ ذلكَ لغيرِهِمْ ممَّا لا يعنيهِمْ .

فهلذا هوَ السببُ في قصورِ الأفهامِ عنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وانضمَّ إليهِ أنَّ المدركاتِ كلَّها التي هيَ شاهدةٌ على اللهِ إنَّما يدركُها الإنسانُ في الصبا عندَ فقدِ العقلِ ، ثمَّ تبدو فيهِ غريزةُ العقلِ قليلاً قليلاً ، وهوَ مستغرقُ الهمِّ بشهواتِهِ ، وقدْ أنِسَ بمدركاتِه ومحسوساتِهِ وألفَها [1] ، فسقطَ وقعُها عنْ قلبِهِ بطولِ الأنسِ ، ولذلكَ إذا رأىٰ علىٰ سبيلِ الفجأةِ حيواناً غريباً أوْ نباتاً غريباً أوْ فعلاً مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ خارقاً للعادةِ عجيباً . . انطلقَ لسانُهُ بالمعرفةِ طبعاً ، فقالَ : سبحانَ اللهِ !! وهوَ يرىٰ طولَ النهارِ نفسَهُ وأعضاءَهُ وسائرَ الحيواناتِ المألوفةِ وكلُّها شواهدُ قاطعةٌ ولا يحسُّ بشهادتِها ؛ لطولِ الأنسِ بها .

ولوْ فُرضَ أكمهُ بلغَ عاقلاً ، ثمَّ انقشعَتْ غشاوةُ عينِهِ ، فامتدَّ بصرُهُ إلى السماءِ والأرضِ والأشجارِ والنباتِ والحيوانِ دفعةً واحدةً علىٰ سبيلِ الفجأةِ . . لخيفَ علىٰ عقلِهِ أنْ ينبهرَ ؛ لعظمِ تعجُّبِهِ مِنْ شهادةِ هلذهِ العجائبِ لخالقِها .

فهلذا وأمثالُهُ مِنَ الأسبابِ معَ الانهماكِ في الشهواتِ هوَ الذي سدَّ على الخلقِ سبيلَ الاستضاءةِ بأنوارِ المعرفةِ ، والسباحةِ في بحارِها الواسعةِ ، فالناسُ في طلبِهِمْ معرفةَ اللهِ كالمدهوشِ الذي يُضربُ بهِ المثلُ إذا كانَ راكباً لحمارِهِ وهوَ يطلبُ حمارَهُ ، والجلياتُ إذا صارَتْ مطلوبةً . . صارَتْ معتاصةً ، فهلذا سرُّ هلذا الأمرِ ، فليُحقَّقْ ، ولذلكَ قيلَ [2] : [من البسيط]

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَما تَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ ... إِلَّا عَلَىٰ أَكْمَهٍ لا يَعْرِفُ الْقَمَرا

لَكِنْ بَطَنْتَ بِما أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً ... فَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِالْعُرْفِ قَدْ سُتِرا

* * *

(١) ولهلذا قال المصنف كما سيأتي في (بيان محبة الله للعبد ومعناها) : (الخلْقُ أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق) ، وسبب هلذا السبق هو الضعف وطول الإلف .

(٢) البيتان لذي الرمة في « ديوانه » (١١٦٣/٢) ، وانظر « طبقات الأولياء » (ص ٥١٨)

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلمْ : أنَّ مَنْ أنكرَ حقيقةَ المحبةِ للهِ تعالىٰ . . فلا بدَّ وأنْ ينكرَ حقيقةَ الشوقِ ، إذْ لا يُتصوَّرُ الشوقُ إلا إلىٰ محبوبٍ ونحنُ نثبتُ وجودَ الشوقِ إلى اللهِ تعالىٰ وكونَ العارفِ مضطراً إليهِ بطريقِ الاعتبارِ والنظرِ بأنوارِ البصائرِ ، وبطريقِ الأخبارِ والآثارِ .

❀ ❀ ❀

أمَّا الاعتبارُ :

فيكفي في إثباتِهِ ما سبقَ في إثباتِ الحبِّ ، فكلُّ محبوبٍ يُشتاقُ إليهِ في غيبتِهِ لا محالةَ ، فأمَّا الحاصلُ الحاضرُ فلا يُشتاقُ إليهِ ؛ فإنَّ الشوقَ طلبٌ وتشوُّفٌ إلىٰ نيلِ أمرٍ ، والموجودُ لا يُطلبُ .

ولكنْ بيانُهُ : أنَّ الشوقَ لا يُتصوَّرُ إلا إلىٰ شيءٍ أُدركَ مِنْ وجهٍ ولمْ يُدركْ مِنْ وجهٍ ، فأمَّا ما لا يُدركُ أصلاً . . فلا يُشتاقُ إليهِ ، فإنَّ مَنْ لمْ يرَ شخصاً ولمْ يسمعْ وصفَهُ . . لا يُتصوَّرُ أنْ يشتاقَ إليهِ ، وما أُدركَ بكمالِهِ لا يُشتاقُ إليهِ ، وكمالُ الإدراكِ بالرؤيةِ ، فمَنْ كانَ في مشاهدةِ محبوبِهِ مداوماً للنظرِ إليهِ . . لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ شوقٌ ، ولكنَّ الشوقَ إنَّما يتعلَّقُ بما أُدركَ مِنْ وجهٍ ولمْ يُدركْ مِنْ وجهٍ ، وهوَ مِنْ وجهينِ :

الأوَّلُ : هوَ أنْ يتضحَ الشيءُ اتضاحاً ما ، ولكنَّهُ محتاجٌ إلى استكمالٍ ، ولا ينكشفُ إلا بمثالٍ مِنَ المشاهداتِ ، فنقولُ مثلاً : مَنْ غابَ عنهُ معشوقُهُ وبقيَ في قلبِهِ خيالُهُ . . فيشتاقُ إلى استكمالِ خيالِهِ بالرؤيةِ ، فلوِ انمحىٰ عنْ قلبِهِ ذكرُهُ وخيالُهُ ومعرفتُهُ حتَّىٰ نسيَهُ . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يشتاقَ إليهِ ، ولوْ رآهُ . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يشتاقَ في وقتِ الرؤيةِ ، فمعنىٰ شوقِهِ : تشوُّقُ نفسِهِ إلى استكمالِ خيالِهِ ، وكذٰلكَ قدْ يراهُ في ظلمةٍ بحيثُ لا تنكشفُ لهُ حقيقةُ صورتِهِ ، فيشتاقُ إلى استكمالِ رؤيتِهِ ، وتمامُ الانكشافِ في صورتِهِ بإشراقِ الضوءِ عليهِ .

والثاني : أنْ يرىٰ وجهَ محبوبِهِ ولا يرىٰ شعرَهُ مثلاً ولا سائرَ محاسنِهِ ، فيشتاقُ لرؤيتِهِ وإنْ لمْ يرَها قطُّ ، ولمْ يثبتْ في نفسِهِ خيالٌ صادرٌ عنِ الرؤيةِ ، ولٰكنَّهُ يعلمُ أنَّ لهُ عضواً وأعضاءً جميلةً ، ولمْ يدركْ تفصيلَ جمالِها بالرؤيةِ ، فيشتاقُ إلىٰ أنْ ينكشفَ لهُ ما لمْ يرَهُ قطُّ .

والوجهانِ جميعاً متصوَّرانِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ هما لازمانِ بالضرورةِ لكلِّ العارفينَ ، فإنَّ ما اتضحَ للعارفينَ مِنَ الأمورِ الإلٰهيةِ وإنْ كانَ في غايةِ الوضوحِ فكأنَّهُ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ ، فلا يكونُ متضحاً غايةَ الاتضاحِ ، بلْ يكونُ مشوباً بشوائبِ التخيُّلاتِ ، فإنَّ الخيالَ لا يفترُ في هٰذا العالمِ عنِ التمثيلِ والمحاكاةِ لجميعِ المعلوماتِ ، وهيَ مكدراتٌ للمعارفِ ومنغصاتٌ ، وكذٰلكَ ينضافُ إليها شواغلُ الدنيا ، فإنَّما كمالُ الوضوحِ بالمشاهدةِ وتمامِ إشراقِ التجلِّي ، ولا يكونُ ذٰلكَ إلا في الآخرةِ ، وذٰلكَ بالضرورةِ يوجبُ الشوقَ ؛ فإنَّهُ منتهىٰ محبوبِ العارفينَ ، **فهٰذا هوَ أحدُ نوعيِ الشوقِ** ، وهوَ استكمالُ الوضوحِ فيما اتضحَ اتضاحاً ما .

الثاني : أنَّ الأمورَ الإلٰهيَّةَ لا نهايةَ لها ، وإنَّما ينكشفُ لكلِّ عبدٍ مِنَ العبادِ بعضُها ، وتبقىٰ أمورٌ لا نهايةَ لها غامضةٌ ، والعارفُ يعلمُ وجودَها ، وكونَها معلومةً للهِ تعالىٰ ، ويعلمُ أنَّ ما غابَ عنْ علمِهِ مِنَ المعلوماتِ أكثرُ ممَّا حضرَ ، فلا

يزالُ متشوّقاً إلىٰ أنْ يحصلَ لهُ أصلُ المعرفةِ فيما لمْ يحصلْ ممَّا بقيَ مِنَ المعلوماتِ التي لمْ يعرفْها أصلاً ، لا معرفةً واضحةً ، ولا معرفةً غامضةً .

والشوقُ الأوَّلُ ينتهي في الدارِ الآخرةِ بالمعنى الذي يُسمَّىٰ رؤيةً ولقاءً ومشاهدةً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يسكنَ في الدنيا .

وقدْ كانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ مِنَ المشتاقينَ ، فقالَ : قلتُ ذاتَ يوم : يا ربِّ ؛ إنْ أعطيتَ أحداً مِنَ المحبّينَ لكَ ما يسكنُ بهِ قلبُهُ قبلَ لقائِكَ . . فأعطني ذٰلكَ ، فقدْ أضرَّ بي القلقُ ، قالَ : فرأيتُ في النومِ أنَّهُ أوقفَني بينَ يديهِ وقالَ : يا إبراهيمُ ؛ أما استحييتَ منّي أنْ تسألَني أنْ أعطيَكَ ما يسكنُ بهِ قلبُكَ قبلَ لقائي ؟! وهلْ يسكنُ المشتاقُ قبلَ لقاءِ حبيبِهِ ؟! فقلتُ : يا ربِّ ؛ تهتُ في حبِّكَ ، فلمْ أدرِ ما أقولُ ، فاغفرْ لي ، وعلِّمْني ما أقولُ ، فقالَ : قُلِ : اللهُمَّ ؛ رضِّني بقضائِكَ ، وصبِّرْني علىٰ بلائِكَ ، وأوزعْني شكرَ نعمائِكَ !![1]

فإذاً ؛ هٰذا الشوقُ يسكنُ في الآخرةِ ، وأمَّا الشوقُ الثاني . . فيشبهُ ألا يكونَ لهُ نهايةٌ لا في الدنيا ولا في الآخرةِ ؛ إذْ نهايتُهُ أنْ ينكشفَ للعبدِ في الآخرةِ مِنْ جلالِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وحكمتِهِ وأفعالِهِ ما هوَ معلومٌ للهِ تعالىٰ ، وهوَ محالٌ ؛ لأنَّ ذٰلكَ لا نهايةَ لهُ ، ولا يزالُ العبدُ عالماً بأنَّهُ بقيَ مِنَ الجمالِ والجلالِ ما لمْ يتضحْ لهُ ، فلا يسكنُ قطُّ شوقُهُ ، لا سيما مَنْ يرىٰ فوقَ درجتِهِ درجاتٍ كثيرةً ، إلا أنَّهُ تشوَّقَ إلى استكمالِ الوصالِ معَ حصولِ أصلِ الوصالِ ، فهوَ يجدُ لذٰلكَ شوقاً لذيذاً لا يظهرُ فيهِ ألمٌ ، ولا يبعدُ أنْ تكونَ ألطافُ الكشفِ والنظرِ متواليةً إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، فلا يزالُ النعيمُ واللذَّةُ متزايداً أبدَ الآبادِ ، وتكونُ لذَّةُ ما يتجدَّدُ مِنْ لطائفِ النعيم شاغلاً عنِ الإحساسِ بالشوقِ إلىٰ ما لمْ يحصلْ ، وهٰذا بشرطِ أنْ يمكنَ حصولُ الكشفِ فيما لمْ يحصلْ فيهِ كشفٌ في الدنيا أصلاً ، فإنْ كانَ ذٰلكَ غيرَ مبذولٍ . . فيكونُ النعيمُ واقفاً علىٰ حدٍّ لا يتضاعفُ ، ولٰكنْ يكونُ مستمرّاً على الدوامِ .

وقولُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ محتملٌ لهٰذا المعنىٰ ، وهوَ أنْ ينعمَ عليهِ بإتمامِ النورِ مهما تزوَّدَ مِنَ الدنيا أصلَ النورِ ، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ إتمامَ النورِ في غيرِ ما استنارَ في الدنيا استنارةً محتاجةً إلىٰ مزيدِ الاستكمالِ والإشراقِ ، فيكونَ هوَ المرادَ بتمامِهِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّ الأنوارَ لا بدَّ وأنْ يُتزوَّدَ أصلُها في الدنيا ، ثمَّ يزدادَ في الآخرةِ إشراقاً ، فأمَّا أنْ يتجدَّدَ نورٌ . . فلا .

والحكمُ في هٰذا برجمِ الظنونِ مخطرٌ ، ولمْ ينكشفْ لنا بعدُ فيهِ ما يُوثقُ بهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يزيدَنا علماً ورشداً ، ويريَنا الحقَّ حقّاً .

فهٰذا القدْرُ مِنْ أنوارِ البصائرِ كاشفٌ لحقائقِ الشوقِ ومعانيهِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا شواهدُ الأخبارِ والآثارِ . . فأكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ :

فمما اشتهرَ مِنْ دعاءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يقولُ : « اللهُمَّ ؛ إنّي أسألُكَ الرضا بعدَ القضاءِ ، وبردَ العيشِ بعدَ الموتِ ، ولذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِكَ الكريمِ ، وشوقاً إلىٰ لقائِكَ »[2]

---

(١) كذا في « القوت » (٦١/٢) ، ورواه عنه بغير الدعاء السراج القاري في « مصارع العشاق » (٢٧٨/١) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٩١/٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٥١٦/١) ، وقد رواه أيضاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٧) .

وقالَ أبو الدرداءِ لكعبٍ : أخبِرْني عنْ أخصِّ آيةٍ ؛ يعني : في التوراةِ ، فقالَ : يقولُ اللهُ تعالىٰ : طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقائي ، وإنِّي إلىٰ لقائِهِمْ لأشدُّ شوقاً ، قالَ : ومكتوبٌ إلىٰ جانبِها : مَنْ طلبَني . . وجدَني ، ومَنْ طلبَ غيري . . لمْ يجدْني ، فقالَ أبو الدرداءِ : أشهدُ إنِّي لسمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ هـٰذا[1]

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : (يا داوودُ ؛ أبلغْ أهلَ أرضي أنِّي حبيبٌ لمَنْ أحبَّني ، وجليسٌ لمَنْ جالسَني ، ومؤنسٌ لمَنْ أنسَ بذكري ، وصاحبٌ لمَنْ صاحبَني ، ومختارٌ لمَنِ اختارَني ، ومطيعٌ لمَنْ أطاعَني ، ما أحبَّني عبدٌ أعلمُ ذٰلكَ يقيناً مِنْ قلبِهِ إلا قبلتُهُ لنفسي ، وأحببتُهُ حبّاً لا يتقدَّمُ عليهِ أحدٌ مِنْ خلقي ، مَنْ طلبَني بالحقِّ . . وجدَني ، ومَنْ طلبَ غيري . . لمْ يجدْني ، فارفضوا يا أهلَ الأرضِ ما أنتُمْ عليهِ مِنْ غرورِها ، وهلمُّوا إلىٰ كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ، وأْنسوا بي . . أؤانسْكُمْ وأسارعْ إلىٰ محبَّتِكُمْ ، فإنِّي خلقتُ طينةَ أحبائي مِنْ طينةِ إبراهيمَ خليلي وموسىٰ نجيّي ، ومحمد صفيّي ، وخلقتُ قلوبَ المشتاقينَ مِنْ نوري ، ونعَّمتُها بجلالي)[2]

ورُوِيَ عنْ بعضِ السلفِ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ الصدِّيقينَ : إنَّ لي عباداً مِنْ عبادي يحبُّونني وأحبُّهُمْ ، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهِمْ ، ويذكرونني وأذكرُهُمْ ، وينظرونَ إليَّ وأنظرُ إليهِمْ ، فإنْ حذوتَ طريقَهُمْ . . أحببتُكَ ، وإنْ عدلتَ عنهُمْ . . مقتُّكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما علامتُهُمْ ؟ قالَ : يراعونَ الظلالَ بالنهارِ كما يراعي الراعي الشفيقُ غنمَهُ ، ويحنُّونَ إلىٰ غروبِ الشمسِ كما تحنُّ الطيرُ إلىٰ أوكارِها عندَ الغروبِ ، فإذا جنَّهُمُ الليلُ ، واختلطَ الظلامُ ، وفُرشَتِ الفرشُ ، ونُصبتِ الأسرَّةُ ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ . . نصبوا لي أقدامَهُمْ ، وافترشوا لي وجوهَهُمْ وناجَوني بكلامي ، وتملَّقوا لي بإنعامي ، فبينَ صارخٍ وباكٍ ، وبينَ متأوِّهٍ وشاكٍ ، وبينَ قائمٍ وقاعدٍ ، وبينَ راكعٍ وساجدٍ ، بعيني ما يتحمَّلونَ مِنْ أجلي ، وبسمعي ما يشتكونَ مِنْ حبّي ، أوَّلُ ما أعطيهِمْ ثلاثاً : أقذفُ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ فيخبرونَ عنّي كما أخبرُ عنهُمْ ، والثانيةُ : لوْ كانَتِ السماواتُ والأرضُ وما فيهِما في موازينِهِمْ . . لاستقللتُها لهُمْ ، والثالثةُ : أقبلُ بوجهي عليهِمْ ، أفترىٰ مَنْ أقبلتُ بوجهي عليهِ . . يعلمُ أحدٌ ما أريدُ أنْ أعطيَهُ ؟![3]

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ إلىٰ كمْ تذكرُ الجنَّةَ ولا تسألُني الشوقَ إليَّ ؟! قالَ : يا ربِّ ؛ مَنِ المشتاقونَ إليكَ ؟ قالَ : إنَّ المشتاقينَ إليَّ الذينَ صفَّيتُهُمْ مِنْ كلِّ كدرٍ ، وأنبهتُهُمْ بالحذرِ ، وخرقتُ مِنْ قلوبِهِمْ إليَّ خرقاً ينظرونَ إليَّ ، وإنِّي لأحملُ قلوبَهُمْ بيدي فأضعُها علىٰ سمائي ، ثمَّ أدعو نجباءَ ملائكتي ، فإذا اجتمعوا . . سجدوا لي ، فأقولُ : إنِّي لمْ أدعُكُمْ لتسجدوا لي ، ولـٰكنِّي دعوتُكُمْ لأعرضَ عليكُمْ قلوبَ المشتاقينَ إليَّ ، وأباهي بكُمْ أهلَ الشوقِ إليَّ ، وإنَّ قلوبَهُمْ لتضيءُ في سمائي لملائكتي كما تضيءُ الشمسُ لأهلِ الأرضِ .

يا داوودُ ؛ إنِّي خلقتُ قلوبَ المشتاقينَ مِنْ رضواني ، ونعَّمتُها بنورِ وجهي ، واتخذتُهُمْ لنفسي محدثينَ ، وجعلتُ أبدانَهُمْ موضعَ نظري إلى الأرضِ ، وقطعتُ مِنْ قلوبِهِمْ طريقاً ينظرونَ بهِ إليَّ يزدادونَ في كلِّ يومٍ شوقاً .

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/٦٠٤) : (نقله صاحب « القوت » ، وأغفله العراقي ، والذي رواه أبو الدرداء مرفوعاً هو قوله : يقول الله تعالىٰ : من طلبني . . وجدني ، ومن طلب غيري . . لم يجدني) ، وحديث : « طال شوق الأبرار . . » أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقد روى المقدسي في « الترغيب في الدعاء » (١٩) عن أحمد بن مخلد الخراساني القولين مع زيادة دون رفع أو وقف .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٦٠٥) .

(٣) قوت القلوب (٢/٦٠) .

قالَ داوودُ : يا ربِّ ؛ أرني أهلَ محبَّتِكَ ، فقالَ : يا داوودُ ؛ ائتِ جبلَ لبنانَ ، فإنَّ فيهِ أربعةَ عشرَ نفساً ، فيهِمْ شبابٌ ، وفيهِمْ كهولٌ ، وفيهِمْ مشايخُ ، فإذا أتيتَهُمْ . . فأقرئْهُمْ منِّي السلامَ ، وقلْ لهُمْ : إنَّ ربَّكُمْ يقرئُكُمُ السلامَ ويقولُ لكُمْ : ألا تسألونَ حاجةً ؟ فإنَّكُمْ أحبَّائي وأصفيائي وأوليائي ، أفرحُ لفرحِكُمْ ، وأسارعُ إلىٰ محبَّتِكُمْ .

فأتاهم داوودُ عليهِ السلامُ ، فوجدَهُمْ عندَ عينٍ مِنَ العيونِ يتفكَّرونَ في عظمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلما نظروا إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ . . نهضوا ليتفرَّقوا عنهُ ، فقالَ داوودُ : إنِّي رسولُ اللهِ إليكُمْ ، جئتُكُمْ لأبلِّغَكُمْ رسالةَ ربِّكُمْ ، فأقبلوا نحوَهُ وألقَوا أسماعَهُمْ نحوَ قولِهِ ، وألقَوا أبصارَهُمْ إلى الأرضِ ، فقالَ داوودُ : إنِّي رسولُ اللهِ إليكُمْ ، وهوَ يقرئُكُمُ السلامَ ، ويقولُ لكُمْ : ألا تسألونَ حاجةً ؟ ألا تنادوني أسمعْ صوتَكُمْ وكلامَكُمْ ؟ فإنَّكُمْ أحبائي وأصفيائي وأوليائي ، أفرحُ لفرحِكُمْ ، وأسارعُ إلىٰ محبَّتِكُمْ ، وأنظرُ إليكُمْ في كلِّ ساعةٍ نظرَ الوالدةِ الشفيقةِ الرفيقةِ .

قالَ : فجرتِ الدموعُ علىٰ خدودِهِمْ .

فقالَ شيخُهُمْ : سبحانَكَ سبحانَكَ !! نحنُ عبيدُكَ وبنو عبيدِكَ ، فاغفرْ لنا ما قطعَ قلوبَنا عنْ ذكرِكَ فيما مضىٰ مِنْ أعمارِنا .

وقالَ الآخرُ : سبحانَكَ سبحانَكَ !! نحنُ عبيدُكَ وبنو عبيدِكَ ، فامنُنْ علينا بحسنِ النظرِ فيما بينَنا وبينَكَ .

وقالَ الآخرُ : سبحانَكَ سبحانَكَ !! نحنُ عبيدُكَ وبنو عبيدِكَ ، أفنجترئُ على الدعاءِ وقدْ علمتَ أنَّهُ لا حاجةَ لنا في شيءٍ مِنْ أمورِنا ؟! فأدمْ لنا لزومَ الطريقِ إليكَ ، وأتممْ بذٰلكَ المنَّةَ علينا .

وقالَ الآخرُ : نحنُ مقصرونَ في طلبِ رضاكَ ، فأعنَّا عليهِ بجودِكَ .

وقالَ الآخرُ : مِنْ نطفةٍ خلقتَنا ، ومننتَ علينا بالتفكُّرِ في عظمتِكَ ، أفيجترئُ على الكلامِ مَنْ هوَ مشتغلٌ بعظمتِكَ متفكِّرٌ في جلالِكَ ، وطلبتُنا الدنوُّ مِنْ نورِكَ ؟!

وقالَ الآخرُ : كلَّتْ ألسنتُنا عنْ دعائِكَ لعظيمِ شأنِكَ ، وقربِكَ مِنْ أوليائِكَ ، وكثرةِ منَّتِكَ علىٰ أهلِ محبَّتِكَ .

وقالَ الآخرُ : أنتَ هديتَ قلوبَنا لذكرِكَ ، وفرَّغتَنا للاشتغالِ بكَ ، فاغفرْ لنا تقصيرَنا في شكرِكَ .

وقالَ الآخرُ : قدْ عرفتَ حاجتَنا ، إنَّما هيَ النظرُ إلىٰ وجهِكَ .

وقالَ الآخرُ : كيفَ يجترئُ العبدُ علىٰ سيِّدِهِ ؟! إذْ أمرتَنا بالدعاءِ بجودِكَ . . فهبْ لنا نوراً نهتدي بهِ في الظلماتِ مِنْ أطباقِ السماواتِ .

وقالَ الآخرُ : ندعوكَ أنْ تقبلَ علينا وتديمَهُ عندَنا [1]

وقالَ الآخرُ : نسألُكَ تمامَ نعمتِكَ فيما وهبتَ لنا ، وتفضَّلتَ بهِ علينا .

وقالَ الآخرُ : لا حاجةَ لنا في شيءٍ مِنْ خلقِكَ ، فامنُنْ علينا بالنظرِ إلىٰ جمالِ وجهِكَ .

وقالَ الآخرُ : أسألُكَ مِنْ بينِهِمْ أنْ تعميَ عيني عنِ النظرِ إلى الدنيا وأهلِها ، وقلبي عنِ الاشتغالِ بالآخرةِ .

وقالَ الآخرُ : قدْ عرفتُ تباركتَ وتعاليتَ أنَّكَ تحبُّ أولياءَكَ ، فامننْ علينا باشتغالِ القلبِ بكَ عنْ كلِّ شيءٍ دونَكَ .

---

(١) في (ب) : (أن تقبل علينا بوجهك) ، وكذا في (ع) بزيادة : (وتديم رغبتنا) .

فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : قلْ لهُمْ : قدْ سمعتُ كلامَكُمْ ، وأجبْتُكمْ إلىٰ ما أحببتُمْ ، فليفارقْ كلُّ واحدٍ منكُمْ صاحبَهُ ، وليتخذْ لنفسِهِ سرباً ، فإنِّي كاشفٌ الحجابَ فيما بيني وبينَكُمْ حتَّىٰ تنظروا إلىٰ نوري وجلالي .

فقالَ داوودُ : يا ربِّ ؛ بمَ نالوا هٰذا منكَ ؟ قالَ : بحسنِ الظنِّ ، والكفِّ عنِ الدنيا وأهلِها ، والخلواتِ بي ، ومناجاتِهِمْ لي ، وإنَّ هٰذا منزلٌ لا ينالُهُ إلا مَنْ رفضَ الدنيا وأهلَها ، ولمْ يشتغلْ بشيءٍ مِنْ ذكرِها ، وفرَّغَ قلبَهُ لي ، واختارَني علىٰ جميعِ خلقي ، فعندَ ذٰلكَ أعطفُ عليهِ ، وأفرغُ نفسَهُ ، وأكشفُ الحجابَ فيما بيني وبينَهُ ، حتَّىٰ ينظرَ إليَّ نظرَ الناظرِ بعينِهِ إلى الشيءِ ، وأريَهُ كرامتي في كلِّ ساعةٍ ، وأقربَهُ مِنْ نورِ وجهي ، إنْ مرضَ . . مرَّضتُهُ كما تمرِّضُ الوالدةُ الشفيقةُ ولدَها ، وإنْ عطشَ . . أرويتُهُ ، وأذيقُهُ طعمَ ذكري ، فإذا فعلتُ ذٰلكَ بهِ يا داوودُ . . عميتُ نفسَهُ عنِ الدنيا وأهلِها ، ولمْ أحبِّبْها إليهِ ، لا يفترُ عنِ الاشتغالِ بي يستعجلُني القدومَ ، وأنا أكرهُ أنْ أميتَهُ ؛ لأنَّهُ موضعُ نظري مِنْ بينِ خلقي ، لا يرىٰ غيري ولا أرىٰ غيرَهُ ، فلوْ رأيتَهُ يا داوودُ وقد ذابَتْ نفسُهُ ، ونحلَ جسمُهُ ، وتهشَّمَتْ أعضاؤُهُ ، وانخلعَ قلبُهُ ، إذا سمعَ بذكري أباهي بهِ ملائكتي وأهلَ سماواتي . . يزدادُ خوفاً وعبادةً ، وعزَّتي وجلالي يا داوودُ ؛ لأقعدنَّهُ في الفردوسِ ، ولأشفينَّ صدرَهُ مِنَ النظرِ إليَّ حتَّىٰ يرضىٰ وفوقَ الرضا[1]

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ أيضاً : (قلْ لعبادي المتوجهينَ إلىٰ محبَّتي : ما ضرَّكُمْ إذا احتجبتُ عنْ خلقي ، ورفعتُ الحجابَ فيما بيني وبينَكُمْ حتَّىٰ تنظروا إليَّ بعيونِ قلوبِكُمْ ؟ وما ضرَّكُمْ ما زويتُ عنكُمْ مِنَ الدنيا إذا بسطتُ ديني لكُمْ ؟ وما ضرَّكُمْ مسخطةُ الخلقِ إذا التمستُمْ رضائي ؟)[2]

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ أيضاً : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ : (تزعمُ أنَّكَ تحبُّني ؟ فإنْ كنتَ تحبُّني . . فأخرجْ حبَّ الدنيا مِنْ قلبِكَ ، فإنَّ حبِّي وحبَّها لا يجتمعانِ في قلبٍ ، يا داوودُ ؛ خالصْ حبيبي مخالصةً ، وخالطْ أهلَ الدنيا مخالطةً ، ودينَكَ فقلدْنيهِ ، ولا تقلِّدْ دينَكَ الرجالَ ، أمَّا ما استبانَ لكَ ممَّا وافقَ محبَّتي . . فتمسَّكْ بهِ ، وأمَّا ما أشكلَ عليكَ . . فقلدْنيهِ ، حقّاً عليَّ أنِّي أسارعُ إلىٰ سياستِكَ وتقويمِكَ ، وأكونُ قائدَكَ ودليلَكَ أعطيكَ مِنْ غيرِ أنْ تسألَني ، وأعينُكَ على الشدائدِ ، فإنِّي قدْ حلفتُ علىٰ نفسي أنِّي لا أثيبُ عبداً إلا عبداً قدْ عرفتُ مِنْ طَلِبَتِهِ وإرادتِهِ إلقاءَ كنفِهِ بينَ يديَّ ، وأنَّه لا غنىٰ بهِ عنِّي ، فإذا كنتَ كذٰلكَ . . نزعتُ الذلَّةَ والوحشةَ عنكَ ، وأسكنتُ الغنىٰ قلبَكَ ، فإنِّي قدْ حلفتُ علىٰ نفسي أنَّهُ لا يطمئنُّ عبدٌ لي إلىٰ نفسِهِ ينظرُ إلىٰ فعالِها إلا وكلتُهُ إليها ، أضفِ الأشياءَ إليَّ ، لا تضادَّ عملَكَ فتكونَ متعنِّياً ، ولا ينتفعَ بكَ مَنْ يصحبُكَ ، ولا تحدَّ لمعرفتي حدّاً ، فليسَ لها غايةٌ ، ومتىٰ طلبتَ منِّي الزيادةَ . . أعطِكَ ، ولا تحدَّ للزيادةِ منِّي حدّاً ، ثمَّ أعلمْ بني إسرائيلَ أنَّهُ ليسَ بيني وبينَ أحدٍ مِنْ خلقي نسبٌ ، فلتعظمْ رغبتُهُمْ وإرادتُهُمْ عندي . . أبحْ لهُمْ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ ، ضعْني بينَ عينيكَ ، وانظرْ إليَّ ببصرِ قلبِكَ ، ولا تنظرْ بعينيكَ التي في رأسِكَ إلى الذينَ حجبتُ عقولَهُمْ عنِّي فأمرجوها وسختْ بانقطاعِ ثوابي عنها[3] ؛ فإنِّي حلفتُ بعزَّتي وجلالي لا أفتحُ ثوابي لعبدٍ دخلَ في طاعتي للتجربةِ والتسويفِ ، تواضعْ لِمَنْ تعلِّمُهُ ، ولا تطاولْ على المريدينَ ، فلوْ علمَ أهلُ محبَّتي منزلةَ المريدينَ عندي . . لكانوا لهُمْ أرضاً يمشونَ عليها .

---

(١) نقله صاحب « القوت » بطوله . « إتحاف » (٦٠٧/٩) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٠٧/٩) .

(٣) أمرجوها : أفسدوها ، وفي (أ) : (فأسرجوها وسمحت) ، ومعناه ظاهر ، وفي (د) : (فأمرجوها وسخطت) .

يا داوودُ ؛ لأنْ تخرِجَ مريداً مِنْ سكرةٍ هوَ فيها ، تستنقذُهُ ، فأكتبَكَ عندي جهبذاً ، ومَنْ كتبتُهُ عندي جهبذاً . . لا تكونُ عليهِ وحشةٌ ولا فاقةٌ إلى المخلوقينَ .

يا داوودُ ؛ تمسَّكْ بكلامي ، وخذْ مِنْ نفسِكَ لنفسِكَ ، لا تؤتينْ منها فأحجبَ عنكَ محبَّتي ، لا تُؤيسْ عبادي مِنْ رحمتي . . أقطعْ شهوتَكَ لي ، فإنَّما أبحتُ الشهواتِ لضَعَفَةِ خلقي ، ما بالُ الأقوياءِ أنْ ينالوا الشهواتِ فإنَّها تنقصُ حلاوةَ مناجاتي ، وإنَّما عقوبةُ الأقوياءِ عندي في موضعِ التناولِ ، أدنىٰ ما يصلُ إليهِمْ أنْ أحجبَ عقولَهُمْ عنِّي ، فإنِّي لمْ أرضَ الدنيا لحبيبي ونزهتُهُ عنها .

يا داوودُ ؛ لا تجعلْ بيني وبينَكَ عالماً يحجبُكَ بسكرِهِ عنْ محبَّتي ، أولـٰئكَ قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي المريدينَ ، استعنْ علىٰ تركِ الشهواتِ بإدمانِ الصومِ ، وإيَّاكَ والتجربةَ في الإفطارِ ، فإنَّ محبَّتي للصومِ إدمانُهُ[1]

يا داوودُ ؛ تحبَّبْ إليَّ بمعاداةِ نفسِكَ ، امنعْها الشهواتِ أنظرْ إليكَ ، وترى الحجبَ بيني وبينَكَ مرفوعةً ، إنَّما أداريكَ مداراةً لتقوىٰ علىٰ ثوابي إذا مننتُ بهِ عليكَ ، وإنِّي أحبسُهُ عنكَ وأنتَ متمسِّكٌ بطاعتي)[2]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ لوْ يعلمُ المدبرونَ عنِّي كيفَ انتظاري لهُمْ ، ورفقي بهِمْ ، وشوقي إلىٰ تركِ معاصيهِمْ . . لماتوا شوقاً إليَّ ، وتقطَّعَتْ أوصالُهُمْ مِنْ محبَّتي .

يا داوودُ ؛ هـٰذهِ إرادتي في المدبرينَ عنِّي ، فكيفَ إرادتي في المقبلينَ عليَّ ؟!

يا داوودُ ؛ أحوجُ ما يكونُ العبدُ إليَّ إذا استغنىٰ عنِّي ، وأرحمُ ما أكونُ بعبدي إذا أدبرَ عنِّي ، وأجلُّ ما يكونُ عندي إذا رجعَ إليَّ)[3]

فهـٰذهِ الأخبارُ ونظائرُها ممَّا لا يُحصىٰ تدلُّ علىٰ إثباتِ المحبَّةِ والشوقِ والأنسِ ، وأمَّا تحقيقُ معناها . . فينكشفُ بما سبقَ .

* * *

---

(١) وفي (أ) : (يعجبني من الصوم إدمانُهُ) .

(٢) ساقه صاحب « القوت » بطوله . « إتحاف » (٦٠٨/٩) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٨) .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم : أنَّ شواهدَ القرآنِ متظاهرةٌ علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ عبدَهُ ، فلا بدَّ مِنْ معرفةِ معنىٰ ذلك ، ولنقدِّمِ الشواهدَ علىٰ محبَّتِهِ .

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

ولذلكَ ردَّ سبحانَهُ علىٰ مَنِ ادعىٰ أنَّهُ حبيبُ اللهِ فقالَ : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾

وقدْ روىٰ أنسٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا أحبَّ اللهُ تعالىٰ عبداً . . لمْ يضرُّهُ ذنبٌ ، والتائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ ـ ثمَّ تلا ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ »[1] ، ومعناهُ : أنَّهُ إذا أحبَّهُ . . تابَ عليهِ قبلَ الموتِ ، فلمْ تضرُّهُ الذنوبُ الماضيةُ وإنْ كثرَتْ كما لا يضرُّ الكفرُ الماضي بعدَ الإسلامِ .

وقدِ اشترطَ اللهُ تعالىٰ للمحبَّةِ غفرانَ الذنبِ فقالَ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يعطي الدنيا مَنْ يحبُّ ومَنْ لا يحبُّ ، ولا يعطي الإيمانَ إلا مَنْ يحبُّ »[2]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تواضعَ للهِ . . رفعَهُ اللهُ ، ومَنْ تكبَّرَ . . وضعَهُ اللهُ ، ومَنْ أكثرَ ذكرَ اللهِ . . أحبَّهُ اللهُ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ . . . » الحديثَ[4]

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ليحبُّ العبدَ حتَّىٰ يبلغَ مِنْ حبِّهِ لهُ أنْ يقولَ : اعملْ ما شئتَ ؛ فقدْ غفرتُ لكَ)[5]

وما وردَ مِنْ ألفاظِ المحبَّةِ خارجٌ عنِ الحصرِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ محبَّةَ العبدِ للهِ تعالىٰ حقيقةٌ وليسَتْ بمجازٍ ؛ إذِ المحبَّةُ في وضعِ اللسانِ عبارةٌ عنْ ميلِ النفسِ إلى الشيءِ الموافقِ ، والعشقُ عبارةٌ عنِ الميلِ الغالبِ المفرطِ ، وقدْ بيَّنَّا أنَّ الإحسانَ موافقٌ للنفسِ ، والجمالَ موافقٌ أيضاً ، وأنَّ الجمالَ والإحسانَ تارةً يُدركُ بالبصرِ ، وتارةً يُدركُ بالبصيرةِ ، والحبُّ يتبعُ كلَّ واحدٍ منهُما ، فلا يختصُّ بالبصرِ .

---

(١) كذا في « القوت » (٥٠/٢) ، حيث قال قبله : (وروينا عن إسماعيل بن أبان ، عن أنس . . .) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ١٧٨) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٣٢) ، ورواه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (٥٥/١٨) من طريق القشيري ، وأما لفظ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » مفرداً . . فقد رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣٨٧/١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٣/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦٥/٤) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٧٦) بنحوه ، ودون زيادة : « ومن أكثر ذكر الله . . . » وهي عند ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٧) .

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٢) .

(٥) كذا في « القوت » (٥٠/٢) ، وأصله عند البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) واللفظ له .

فأمَّا حبُّ اللهِ تعالىٰ للعبدِ . . فلا يمكنُ أنْ يكونَ بهـٰذا المعنىٰ أصلاً ، بلِ الأسامي كلُّها إذا أُطلقَتْ على اللهِ تعالىٰ وعلىٰ غيرِ اللهِ . . لمْ تنطلقْ عليهِما بمعنىً واحدٍ أصلاً ، حتَّىٰ إنَّ اسمَ الوجودِ الذي هوَ أعمُّ الأسماءِ اشتراكاً لا يشملُ الخالقَ والخلقَ علىٰ وجهٍ واحدٍ ، بلْ كلُّ ما سوى اللهِ تعالىٰ وجودُهُ مستفادٌ مِنْ وجودِ اللهِ تعالىٰ ، فالوجودُ التابعُ لا يكونُ مساوياً للوجودِ المتبوعِ ، وإنَّما الاستواءُ في إطلاقِ الاسمِ .

نظيرُهُ : اشتراكُ الفرسِ والشجرِ في اسمِ الجسمِ ؛ إذْ معنى الجسميَّةِ وحقيقتُها متشابهٌ فيهِما مِنْ غيرِ استحقاقِ أحدِهِما لأنْ يكونَ فيهِ أصلاً ، فليسَتِ الجسميَّةُ لأحدِهِما مستفادةً مِنَ الآخرِ ، وليسَ كذٰلكَ اسمُ الوجودِ للهِ تعالىٰ ولا لخلقِهِ .

وهـٰذا التباعدُ في سائرِ الأسامي أظهرُ ؛ كالعلمِ ، والإرادةِ ، والقدرةِ ، وغيرِها ، فكلُّ ذٰلكَ لا يشبهُ فيهِ الخالقُ الخلقَ ، وواضعُ اللغةِ إنَّما وضعَ هـٰذهِ الأساميَ أوَّلاً للخلقِ ، فإنَّ الخلقَ أسبقُ إلى العقولِ والأفهامِ مِنَ الخالقِ ، فكانَ استعمالُها في حقِّ الخالقِ بطريقِ الاستعارةِ والتجوُّزِ والنقلِ .

والمحبَّةُ في وضعِ اللسانِ عبارةٌ عنْ ميلِ النفسِ إلىٰ موافقٍ ملائمٍ ، وهـٰذا إنَّما يُتصوَّرُ في نفسٍ ناقصةٍ فاتَها ما يوافقُها ، فتستفيدُ بنيلِهِ كمالاً ، فتلتذُّ بنيلِهِ ، وهـٰذا محالٌ على اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ كلَّ كمالٍ وجمالٍ وبهاءٍ وجلالٍ ممكنٌ في حقِّ الإلـٰهيَّةِ فهوَ حاضرٌ وحاصلٌ وواجبُ الحصولِ أبداً وأزلاً ، ولا يُتصوَّرُ تجدُّدُهُ ولا زوالُهُ ، فلا يكونُ لهُ إلىٰ غيرِهِ نظرٌ مِنْ حيثُ إنَّه غيرُهُ ، بلْ نظرُهُ إلىٰ ذاتِهِ وإلىٰ أفعالِهِ فقطْ ، وليسَ في الوجودِ إلا ذاتُهُ وأفعالُهُ .

ولذٰلكَ قالَ الشيخُ أبو سعيدٍ الميهنيُّ رحمَهُ اللهُ لمَّا قُرِئَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، فقالَ : (بحقٍّ يحبُّهُمْ ، فإنَّهُ ليسَ يحبُّ إلا نفسَهُ) ، علىٰ معنىٰ أنَّهُ الكلُّ ، وأنْ ليسَ في الوجودِ غيرُهُ ، فمَنْ لا يحبُّ إلا نفسَهُ وأفعالَ نفسِهِ وتصانيفَ نفسِهِ . . فلا يجاوزُ حبُّهُ ذاتَهُ وتوابعَ ذاتِهِ مِنْ حيثُ هيَ متعلِّقةٌ بذاتِهِ ، فهوَ إذاً لا يحبُّ إلا نفسَهُ .

وما وردَ مِنَ الألفاظِ في حبِّهِ لعبادِهِ . . فهوَ مؤوَّلٌ ، ويرجعُ معناهُ إلىٰ كشفِ الحجابِ عنْ قلبِهِ حتَّىٰ يراهُ بقلبِهِ ، وإلىٰ تمكينِهِ إيَّاهُ مِنَ القربِ منهُ ، وإلىٰ إرادتِهِ ذٰلكَ بهِ في الأزلِ ، فحبُّهُ لمَنْ أحبَّهُ أزليٌّ مهما أُضيفَ إلى الإرادةِ الأزليَّةِ التي اقتضتْ تمكينَ هـٰذا العبدِ مِنْ سلوكِ طرقِ القربِ ، وإذا أُضيفَ إلىٰ فعلِهِ الذي يكشفُ الحجابَ عنْ قلبِ عبدِهِ . . فهوَ حادثٌ يحدثُ بحدوثِ السببِ المقتضي لهُ ، كما قالَ اللهُ تعالىٰ : « ولا يزالُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ »[1] ، فيكونُ تقرُّبُهُ بالنوافلِ سبباً لصفاءِ باطنِهِ ، وارتفاعِ الحجابِ عنْ قلبِهِ ، وحصولِهِ في درجةِ القربِ مِنْ ربِّهِ ، وكلُّ ذٰلكَ فعلُ اللهِ تعالىٰ ولطفُهُ بهِ ، فهوَ معنىٰ حبِّهِ .

ولا يُفهمُ هـٰذا إلا بمثالٍ : وهو أنَّ الملكَ قَدْ يقرِّبُ عبدَهُ مِنْ نفسِهِ ، ويأذنُ لهُ في كلِّ وقتٍ في حضورِ بساطِهِ ؛ لميلِ الملكِ إليهِ ؛ إمَّا لينصرَهُ بقوَّتِهِ ، أوْ ليستريحَ بمشاهدتِهِ ، أوْ ليستشيرَهُ في رأيِهِ ، أوْ ليهيِّئَ أسبابَ طعامِهِ وشرابِهِ ، فيُقالُ : إنَّ الملكَ يحبُّهُ ، ويكونُ معناهُ : ميلَهُ إليهِ لما فيهِ مِنَ المعنى الموافقِ الملائمِ لهُ .

وقدْ يقرِّبُ عبداً ولا يمنعُهُ مِنَ الدخولِ عليهِ ، لا للانتفاعِ بهِ والاستنجادِ ، ولـٰكنْ لكونِ العبدِ في نفسِهِ موصوفاً مِنَ الأخلاقِ الرضيَّةِ والخصالِ الحميدةِ بما يليقُ بهِ أنْ يكونَ قريباً مِنْ حضرةِ الملكِ ، وافرَ الحظِّ مِنْ قربِهِ ، معَ أنَّ الملكَ لا

---

(١) كذا في جميع النسخ : (ولا يزال يتقرب . . .) ، وتقدم تخريجه .

غرضَ لهُ فيهِ أصلاً ، فإذا رفعَ الملكُ الحجابَ بينَهُ وبينَهُ . . يُقالُ : قدْ أحبَّهُ ، وإذا اكتسبَ مِنَ الخصالِ الحميدةِ ما اقتضىٰ رفعَ الحجابِ . . يُقالُ : قدْ توصَّلَ وحبَّبَ نفسَهُ إلى الملكِ .

فحبُّ اللهِ للعبدِ إنَّما يكونُ بالمعنى الثاني ، لا بالمعنى الأوَّلِ ، وإنَّما يصحُّ تمثيلُهُ بالمعنى الثاني بشرطِ ألا يسبقَ إلىٰ فهمِكَ دخولُ تغيُّرٍ عليهِ عندَ تجدُّدِ القربِ ، فإنَّ الحبيبَ هوَ القريبُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والقرْبُ مِنَ اللهِ تعالىٰ في البعدِ مِنْ صفاتِ البهائمِ والسباعِ والشياطينِ ، والتخلُّقِ بمكارمِ الأخلاقِ التي هيَ الأخلاقُ الإلـٰهيَّةُ ، فهوَ قربٌ بالصفةِ لا بالمكانِ ، ومَنْ لمْ يكنْ قريباً . . فصارَ قريباً ، فقدْ تغيَّرَ ، فربَّما يظنُّ بهـٰذا أنَّ القربَ لما تجدَّدَ ، فقدْ تغيَّرَ وصفُ العبدِ والربِّ جميعاً ، إذْ صارَ قريباً بعدَ أنْ لمْ يكنْ ، وهوَ محالٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ؛ إذِ التغيُّرُ عليهِ محالٌ ، بلْ لا يزالُ في نعوتِ الكمالِ والجلالِ علىٰ ما كانَ عليهِ في أزلِ الآزالِ .

ولا ينكشفُ هـٰذا إلا بمثالِ القربِ بينَ الأشخاصِ : فإنَّ الشخصينِ قدْ يتقاربانِ بتحرُّكِهما جميعاً ، وقدْ يكونُ أحدُهُما ثابتاً ، فيتحرَّكُ الآخرُ ، فيحصلُ القربُ بتغيُّرٍ في أحدِهِما مِنْ غيرِ تغيُّرٍ في الآخرِ ، بلِ القربُ في الصفاتِ أيضاً كذٰلكَ ، فإنَّ التلميذَ يطلبُ القربَ مِنْ درجةِ أستاذِهِ في كمالِ العلمِ وجمالِهِ ، والأستاذُ واقفٌ في كمالِ علمِهِ غيرُ متحرِّكٍ بالنزولِ إلىٰ درجةِ تلميذِهِ ، والتلميذُ متحرِّكٌ مترقٍّ مِنْ حضيضِ الجهلِ إلىٰ يفاعِ العلمِ ، فلا يزالُ دائباً في التغيُّرِ ، والترقِّي إلىٰ أنْ يقربَ مِنْ أستاذِهِ ، والأستاذُ ثابتٌ غيرُ متغيِّرٍ ؛ فكذٰلكَ ينبغي أنْ يُفهمَ ترقِّي العبدِ في درجاتِ القربِ ، فكلَّما صارَ أكملَ صفةً ، وأتمَّ علماً وإحاطةً بحقائقِ الأمورِ ، وأثبتَ قوَّةً في قهرِ الشيطانِ وقمعِ الشهواتِ ، وأظهرَ نزاهةً عنِ الرذائلِ . . صارَ أقربَ مِنْ درجةِ الكمالِ ، ومنتهى الكمالِ للهِ تعالىٰ ، وقربُ كلِّ واحدٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ كمالِهِ .

نعمْ ؛ قدْ يقدرُ التلميذُ على القربِ مِنَ الأستاذِ وعلىٰ مساواتِهِ وعلىٰ مجاوزتِهِ ، وذٰلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ محالٌ ، فإنَّهُ لا نهايةَ لكمالِهِ ، وسلوكُ العبدِ في درجاتِ الكمالِ متناهٍ ، ولا ينتهي إلا إلىٰ حدٍّ محدودٍ ، فلا مطمعَ لهُ في المساواةِ .

ثمَّ درجاتُ القربِ تتفاوتُ تفاوتاً لا نهايةَ لهُ أيضاً ؛ لأجلِ انتفاءِ النهايةِ عنْ ذٰلكَ الكمالِ .

فإذاً ؛ محبَّةُ اللهِ للعبدِ تقريبُهُ مِنْ نفسِهِ بدفعِ الشواغلِ والمعاصي عنهُ ، وتطهيرُ باطنِهِ عنْ كدوراتِ الدنيا ، ورفعُ الحجابِ عنْ قلبِهِ حتَّىٰ يشاهدَهُ كأنَّهُ يراهُ بقلبِهِ ، وأمَّا محبةُ العبدِ للهِ . . فهوَ ميلُهُ إلىٰ دركِ هـٰذا الكمالِ الذي هوَ مفلسٌ عنهُ فاقدٌ لهُ ، فلا جرمَ يشتاقُ إلىٰ ما فاتَهُ ، وإذا أدركَ منهُ شيئاً . . يلتذُّ بهِ ، والشوقُ والمحبَّةُ بهـٰذا المعنىٰ محالٌ على اللهِ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : محبَّةُ اللهِ تعالىٰ للعبدِ أمرٌ ملتبسٌ ، فبمَ يعرفُ العبدُ أنَّهُ حبيبُ اللهِ ؟

فأقولُ : يُستدلُ عليهِ بعلاماتِهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإذا أحبَّهُ الحبَّ البالغَ . . اقتناهُ » ، قيلَ : وما اقتناهُ ؟ قالَ : « لمْ يتركْ لهُ أهلاً ولا مالاً »[1]

(١) قوت القلوب (٢٤٣/١) ، ورواه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٤٩٩) ، والدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (٤٦/١) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٦٨) كلهم من حديث أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه مرفوعاً .

فعلامةُ محبةِ اللهِ للعبدِ أنْ يوحشَهُ مِنْ غيرِهِ ، ويحولَ بينَهُ وبينَ غيرِهِ ، قيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : لِمَ لا تشتري حماراً فتركبَهُ ؟ فقالَ : أنا أعزُّ على اللهِ تعالىٰ مِنْ أنْ يشغلَني عنْ نفسِهِ بحمارٍ (١)

وفي الخبرِ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإنْ صبرَ . . اجتباهُ ، فإنْ رضيَ . . اصطفاهُ » (٢)

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا رأيتَكَ تحبُّهُ ، ورأيتَهُ يبتليكَ . . فاعلمْ أنَّهُ يريدُ أنْ يصافيَكَ) (٣)

وقالَ بعضُ المريدينَ لأستاذِهِ : قدْ طُولعتُ بشيءٍ مِنَ المحبَّةِ ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ هلِ ابتلاكَ بمحبوبٍ سواهُ فآثرتَ عليهِ إيَّاهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فلا تطمعْ في المحبَّةِ ؛ فإنَّهُ لا يعطيها عبداً حتَّىٰ يبلوَهُ (٤)

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . جعلَ لهُ واعظاً مِنْ نفسِهِ ، وزاجراً مِنْ قلبِهِ يأمرُهُ وينهاهُ » (٥)

وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . بصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ » (٦)

فأخصُّ علاماتِهِ حبُّهُ للهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يدلُّ علىٰ حبِّ اللهِ .

وأمَّا الفعلُ الدالُّ علىٰ كونِهِ محبوباً . . فهوَ أنْ يتولَّى اللهُ تعالىٰ أمرَهُ ؛ ظاهرَهُ وباطنَهُ ، سرَّهُ وجهرَهُ ، فيكونَ هوَ المشيرَ عليهِ ، والمدبِّرَ لأمرِهِ ، والمزيِّنَ لأخلاقِهِ ، والمستعملَ لجوارحِهِ ، والمسدِّدَ لظاهرِهِ وباطنِهِ ، والجاعلَ همومَهُ همّاً واحداً ، والمبغضَ للدنيا في قلبِهِ ، والموحشَ لهُ مِنْ غيرِهِ ، والمؤنسَ لهُ بلذَّةِ المناجاةِ في خلواتِهِ ، والكاشفَ لهُ عنِ الحجبِ بينَهُ وبينَ معرفتِهِ ، فهٰذا وأمثالُهُ هوَ علامةُ حبِّ اللهِ تعالىٰ للعبدِ .

فلنذكرِ الآنَ علاماتِ محبَّةِ العبدِ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّها أيضاً علاماتُ حبِّ اللهِ للعبدِ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٢٨٥) .

(٢) كذا في « القوت » (٥٣/٢) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٧١) من حديث علي كرم الله وجهه .

(٣) قوت القلوب (٥٣/٢) .

(٤) قوت القلوب (٥٣/٢)

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ : « إذا أراد الله بعبد خيراً . . . ») . « إتحاف » (٦١٤/٩) ، ورواه معلقاً أبو نعيم في « الحلية » (٩٩/١٠) عن الحارث المحاسبي ، و(٢٦٤/٢) من كلام ابن سيرين .

(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٣) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٩٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه .

القول في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلمْ : أنَّ المحبَّةَ قدْ يدَّعيها كلُّ أحدٍ ، وما أسهلَ الدعوىٰ وما أعزَّ المعنىٰ ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ الإنسانُ بتلبيسِ الشيطانِ وخداعِ النفسِ مهما ادَّعتْ محبَّةَ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يمتحنْها بالعلاماتِ ، ولمْ يطالبْها بالبراهينِ والأدلَّةِ .

والمحبَّةُ شجرةٌ طيِّبةٌ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ ، وثمارُها تظهرُ على القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، وتدلُّ تلكَ الآثارُ الفائضةُ منها على القلبِ والجوارحِ على المحبَّةِ دلالةَ الدخانِ على النارِ ، ودلالةَ الثمارِ على الأشجارِ ، وهيَ كثيرةٌ .

❊ ❊ ❊

فمنها : حبُّ لقاءِ الحبيبِ بطريقِ الكشفِ والمشاهدةِ في دارِ السلامِ :

فلا يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ القلبُ محبوباً إلا ويحبُّ مشاهدتَهُ ولقاءَهُ ، وإذا علمَ أنَّهُ لا وصولَ إلا بالارتحالِ مِنَ الدنيا ومفارقتِها بالموتِ . . فينبغي أنْ يكونَ محبّاً للموتِ غيرَ فارٍّ منهُ ، فإنَّ المحبَّ لا يثقلُ عليهِ السفرُ عنْ وطنِهِ إلىٰ مستقرِّ محبوبِهِ ليتنعَّمَ بمشاهدتِهِ ، والموتُ مفتاحُ اللقاءِ وبابُ الدخولِ إلى المشاهدةِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ »[(١)]

وقالَ حذيفةُ عندَ الموتِ : (حبيبٌ جاءَ علىٰ فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندمَ)[(٢)]

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما مِنْ خصلةٍ أحبُّ إلى اللهِ أنْ تكونَ في العبدِ بعدَ حبِّ لقائِهِ مِنْ كثرةِ السجودِ)[(٣)] ، فقدَّمَ حبَّ لقاءِ اللهِ على السجودِ .

وقدْ شرطَ اللهُ سبحانَهُ لحقيقةِ الصدقِ في الحبِّ القتلَ في سبيلِ اللهِ حيثُ قالوا : إنَّا نحبُّ اللهَ ، فجعلَ القتلَ في سبيلِ اللهِ وطلبَ الشهادةِ علامتَهُ فقالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ .

وفي وصيَّةِ أبي بكرٍ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (الحقُّ ثقيلٌ ، وهوَ معَ ثقلِهِ مريءٌ ، والباطلُ خفيفٌ ، وهوَ معَ خفَّتِهِ وبيءٌ ، فإنْ حفظتَ وصيَّتِي . . لمْ يكنْ غائبٌ أحبَّ إليكَ مِنَ الموتِ وهوَ مدركُكَ ، وإنْ ضيَّعتَ وصيَّتِي . . لمْ يكنْ غائبٌ أبغضَ إليكَ مِنَ الموتِ ولنْ تعجزَهُ)[(٤)]

ويُروىٰ عنْ إسحاقَ بنِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ قالَ : حدَّثَني أبي أنَّ عبدَ اللهِ بنَ جحشٍ قالَ لهُ يومَ أحدٍ : ألا ندعو اللهَ تعالىٰ ، فخلَوا في ناحيةٍ ، فدعا عبدُ اللهِ بنُ جحشٍ فقالَ : يا ربِّ ؛ إنِّي أقسمتُ عليكَ إذا لقيتُ العدوَّ غداً . . فلقِّني رجلاً شديداً بأسُهُ ، شديداً حردُهُ ، أقاتلُهُ فيكَ ويقاتلُني ثمَّ يأخذُني فيجدعُ أنفي وأذني ، ويبقرُ بطني ، فإذا لقيتُكَ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٣٥٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٠٢/٤) .

(٣) قوت القلوب (٥١/٢) .

(٤) كذا في « القوت » (٥١/٢) ، ورواها بنحوها ابن المبارك في « الزهد » (٩١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٧/١) .

غداً . . قلتَ : يا عبدَ اللهِ ؛ مَنْ جدعَ أنفَكَ وأذنَكَ ؟ فأقولُ : فيكَ وفي رسولِكَ ، فتقولُ : صدقتَ ، قالَ سعدٌ : (فلقدْ رأيتُهُ آخرَ النهارِ وإنَّ أنفَهُ وأذنَهُ لمعلقتانِ في خيطٍ) ، قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (أرجو أنْ يبرَّ اللهُ آخرَ قسمِهِ كما أبرَّ أوَّلَهُ)[1]

وقدْ كانَ الثوريُّ وبشرٌ الحافي يقولانِ : (لا يكرهُ الموتَ إلا مريبٌ)[2] ؛ لأنَّ الحبيبَ علىٰ كلِّ حالٍ لا يكرهُ لقاءَ حبيبِهِ .

وقالَ البُوَيْطيُّ لبعضِ الزهَّادِ : أتحبُّ الموتَ ؟ فكأنَّهُ توقَّفَ ، فقالَ : لوْ كنتَ صادقاً . . لأحببتَهُ ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، فقالَ الرجلُ : فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يتمنينَّ أحدُكُمُ الموتَ »[3] ، فقالَ : إنَّما قالَهُ لضرٍّ نزلَ بهِ ؛ لأنَّ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ أفضلُ مِنْ طلبِ الفرارِ منهُ[4]

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فمَنْ لا يحبُّ الموتَ فهلْ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ محبّاً للهِ ؟

فأقولُ : كراهةُ الموتِ قدْ تكونُ لحبِّ الدنيا ، والتأسُّفِ علىٰ فراقِ الأهلِ والمالِ والولدِ ، وهٰذا ينافي كمالَ حبِّ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ الحبَّ الكاملَ هوَ الذي يستغرقُ كلَّ القلبِ ، ولٰكنْ لا يبعدُ أنْ يكونَ لهُ معَ حبِّ الأهلِ والولدِ شائبةٌ مِنْ حبِّ اللهِ تعالىٰ ضعيفةٌ ، فإنَّ الناسَ متفاوتونَ في الحبِّ .

ويدلُّ على التفاوتِ ما رُوِيَ أنَّ أبا حذيفةَ بنَ عتبةَ بنِ ربيعةَ بنِ عبدِ شمسٍ لمَّا زوَّجَ أختَهُ فاطمةَ مِنْ سالمٍ مولاهُ . . عاتبَتْهُ قريشٌ في ذٰلكَ وقالوا : أنكحتَ عقيلةً مِنْ عقائلِ قريشٍ لمولىً ؟! فقالَ : واللهِ ؛ لقدْ أنكحتُهُ إيَّاها وإنِّي لأعلمُ أنَّهُ خيرٌ منها ، فكانَ قولُهُ ذٰلكَ أشدَّ عليهِمْ مِنْ فعلِهِ ، فقالوا : وكيفَ وهيَ أختُكَ وهوَ مولاكَ ؟ فقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ رجلٍ يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبِهِ . . فلينظرْ إلىٰ سالمٍ »[5]

فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ لا يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبِهِ ، فيحبُّهُ ويحبُّ أيضاً غيرَهُ ، فلا جرمَ يكونُ نعيمُهُ بلقاءِ اللهِ عندَ القدومِ عليهِ علىٰ قدْرِ حبِّهِ ، وعذابُهُ بفراقِ الدنيا عندَ الموتِ علىٰ قدْرِ حبِّهِ لها .

وأمَّا السببُ الثاني للكراهةِ . . فهوَ أنْ يكونَ العبدُ في ابتداءِ مقامِ المحبَّةِ وليسَ يكرهُ الموتَ ، وإنَّما يكرهُ عجلتَهُ قبلَ أنْ يستعدَّ للقاءِ اللهِ ، فذٰلكَ لا يدلُّ علىٰ ضعفِ الحبِّ ، وهوَ كالمحبِّ الذي وصلَهُ الخبرُ بقدومِ حبيبِهِ عليهِ ، فأحبَّ أنْ يتأخَّرَ قدومُهُ ساعةً ليهيِّئَ لهُ دارَهُ ويعدَّ لهُ أسبابَهُ ، فيلقاهُ كما يهواهُ فارغَ القلبِ عنِ الشواغلِ ، خفيفَ الظهرِ عنِ العوائقِ ، فالكراهةُ بهٰذا السببِ لا تنافي كمالَ الحبِّ أصلاً ، **وعلامتُهُ** : الدُّؤوبُ في العملِ ، واستغراقُ الهمِّ في الاستعدادِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٧٦/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٨/١) مع قول ابن المسيب بعده

(٢) قوت القلوب (٥١/٢) .

(٣) رواه البخاري (٥٦٧١) ، ومسلم (٢٦٨٠) .

(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦١٧/٩) ، ونقل قوله بعده : (لأن التائب إذا صدقت توبته . . طلب الموت خشية الحول عن حاله ، فإذا كان كذٰلك . . كان هو حال التائب الذي هو حبيب الله) .

(٥) كذا في « القوت » (٥١/٢) ، وروى المرفوع منه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٧/١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولفظه : « إنه يحب الله تعالىٰ حقاً من قلبه » .

ومنها : أنْ يكونَ مؤثراً ما أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ ما يحبُّهُ في ظاهرِهِ وباطنِهِ :

فيلزمُ مشاقَّ العملِ ، ويجتنبُ اتباعَ الهوىٰ ، ويعرضُ عنْ دعةِ الكسلِ ، ولا يزالُ مواظباً علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، ومتقرّباً إليهِ بالنوافلِ ، وطالباً عندَهُ مزايا الدرجاتِ كما يطلبُ المحبُّ مزيدَ القربِ في قلبِ محبوبِهِ .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالى المحبّينَ بالإيثارِ فقالَ : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، ومَنْ بقيَ مستمرّاً علىٰ متابعةِ الهوىٰ . . فمحبوبُهُ ما يهواهُ ، بلْ يتركُ المحبُّ هوىٰ نفسِهِ لهوىٰ محبوبِهِ ، كما قيلَ [1] : [من الوافر]

أُرِيـــدُ وِصَـــالَـــهُ وَيُـــرِيـــدُ هَـجْـرِي ... فَـــأَتْـــرُكُ مَـــا أُرِيـــدُ لِـمَـا يُـــرِيـــدُ

بلِ الحبُّ إذا غلبَ . . قمعَ الهوىٰ ، فلمْ يبقَ لهُ تنعُّمٌ بغيرِ المحبوبِ ، كما رُوِيَ أنَّ زَليخا لمَّا آمنَتْ وتزوَّجَ بها يوسفُ عليهِ السلامُ . . انفردَتْ عنهُ ، وتخلَّتْ للعبادةِ ، وانقطعَتْ إلى اللهِ تعالىٰ ، فكانَ يدعوها إلىٰ فراشِهِ نهاراً فتدافعُهُ إلى الليلِ ، فإذا دعاها ليلاً سوَّفَتْهُ إلى النهارِ وقالَتْ : يا يوسفُ ؛ إنَّما كنتُ أحبُّكَ قبلَ أنْ أعرفَهُ ، فأمَّا إذْ عرفتُهُ . . فما أبقتْ محبَّتُهُ محبَّةً لسواهُ ، وما أريدُ بهِ بدلاً ، حتَّىٰ قالَ لها : إنَّ اللهَ جلَّ ذكرُهُ أمرَني بذٰلكَ ، وأخبرَني أنَّهُ مخرجٌ منكِ ولدينِ ، وجاعلُهُما نبيَّينِ ، فقالَتْ : أما إذا كانَ اللهُ تعالىٰ أمرَكَ بذٰلكَ ، وجعلَني طريقاً إليهِ . . فطاعةً لأمرِ اللهِ تعالىٰ ، فعندَها سكنَتْ إليهِ [2]

فإذاً ؛ مَنْ أحبَّ اللهَ لا يعصيهِ ، ولذٰلكَ قالَ ابنُ المباركِ فيهِ [3] : [من الكامل]

تَـعْـصِي الإِلَـٰهَ وَأَنْـــتَ تُـظْـهِـرُ حُـبَّـهُ ... هَـٰذَا لَـعَـمْـرِي فِـي الْـفِـعَـالِ بَـدِيـعُ

لَـــوْ كَـــانَ حُـبُّـكَ صَـادِقـاً لأَطَـعْـتَـهُ ... إِنَّ الْـمُـحِـبَّ لِـمَـنْ يُـحِـبُّ مُـطِـيـعُ

وفي هٰذا المعنىٰ قيلَ أيضاً [4] : [من الطويل]

وَأَتْـــرُكُ مـا أَهْـــوَىٰ لِـمَـا قَـدْ هَـوِيـتَـهُ ... وَأَرْضَـىٰ بِما تَرْضَـىٰ وَإِنْ سَخِطَتْ نَفْسِي

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (علامةُ الحبِّ إيثارُهُ علىٰ نفسِكَ) ، و(ليسَ كلُّ مَنْ عملَ بطاعةِ اللهِ صارَ حبيباً ، وإنَّما الحبيبُ مَنِ اجتنبَ المناهيَ) [5]

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ محبَّتَهُ للهِ تعالىٰ سببُ محبَّةِ اللهِ لهُ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وإذا أحبَّهُ اللهُ . . تولاهُ ونصرَهُ علىٰ أعدائِهِ ، وإنَّما عدوُّهُ نفسُهُ وشهواتُهُ ، فلا يخذلُهُ اللهُ ولا يكلُهُ إلىٰ هواهُ وشهواتِهِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فالعصيانُ هلْ يضادُّ أصلَ المحبَّةِ ؟

---

(١) البيت لابن المنجم الواعظ . انظر « فوات الوفيات » (٢/٣٠١) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨/٢٦٨) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/٥٢) .

(٣) انظر « ديوان ابن المبارك » (ص ٨٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/٥٤) .

(٥) قوت القلوب (٢/٥٤) ، وهما قولان .

فأقولُ : إنَّهُ يضادُّ كمالَها ولا يضادُّ أصلَها ، فكمْ مِنْ إنسانٍ يحبُّ نفسَهُ وهوَ مريضٌ ويحبُّ الصحَّةَ ويأكلُ ما يضرُّهُ ، معَ العلمِ بأنَّهُ يضرُّهُ ، وذٰلكَ لا يدلُّ علىٰ عدمِ حبِّهِ لنفسِهِ ، ولٰكنَّ المعرفةَ قدْ تضعفُ ، والشهوةَ قدْ تغلبُ ، فيعجزُ عنِ القيامِ بحقِّ المحبةِ .

ويدلُّ عليهِ ما رُوِيَ أنَّ نعيمانَ كانَ يُؤتىٰ بهِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ قليلٍ فيحدُّهُ في معصيةٍ يرتكبُها ، إلىٰ أنْ أُتِيَ بهِ يوماً فحدَّهُ ، فلعنَهُ رجلٌ وقالَ : ما أكثرَ ما يُؤتىٰ بهِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تلعنْهُ ؛ فإنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ »[(١)] ، فلمْ يخرجْهُ بالمعصيةِ عنِ المحبَّةِ .

نعمْ ؛ تخرجُهُ المعصيةُ عنْ كمالِ الحبِّ ، وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (إذا كانَ الإيمانُ في ظاهرِ القلبِ . . أحبَّ اللهَ تعالىٰ حبّاً متوسطاً ، فإذا دخلَ سويداءَ القلبِ . . أحبَّهُ الحبَّ البالغَ وتركَ المعاصيَ)[(٢)]

وعلى الجملةِ : في دعوى المحبَّةِ خطرٌ ، ولذٰلكَ قالَ الفضيلُ : (إذا قيلَ لكَ : أتحبُّ اللهَ تعالىٰ . . فاسكتْ ؛ فإنَّكَ إنْ قلتَ : لا . . كفرتَ ، وإنْ قلتَ : نعمْ . . فليسَ وصفُكَ وصفَ المحبِّينَ ، فاحذرِ المقتَ)[(٣)]

ولقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : (ليسَ في الجنَّةِ نعيمٌ أعلىٰ مِنْ نعيمِ أهلِ المعرفةِ والمحبَّةِ ، ولا في جهنَّمَ عذابٌ أشدَّ مِنْ عذابِ مَنِ ادعى المعرفةَ والمحبَّةَ ولمْ يتحقَّقْ بشيءٍ مِنْ ذٰلكَ)[(٤)]

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يكونَ مستهتَراً بذكرِ اللهِ تعالىٰ :

لا يفترُ عنهُ لسانُهُ ، ولا يخلو عنهُ قلبُهُ ، فمَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ بالضرورةِ ذكرَهُ ، وذكرَ ما يتعلَّقُ بهِ ، فعلامةُ حبِّ اللهِ تعالىٰ حبُّ ذكرِهِ ، وحبُّ القرآنِ الذي هوَ كلامُهُ ، وحبُّ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وحبُّ كلِّ ما يُنسبُ إليهِ ، فإنَّ مَنْ يحبُّ إنساناً يحبُّ كلبَ محلَّتِهِ ، فالمحبَّةُ إذا قويَتْ . . تعدَّتْ مِنَ المحبوبِ إلىٰ كلِّ ما يكتنفُ بالمحبوبِ ويحيطُ بهِ ويتعلَّقُ بأسبابِهِ .

وذٰلكَ ليسَ شِرْكةً في الحبِّ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ رسولَ المحبوبِ لأنَّهُ رسولُهُ ، وكلامَهُ لأنَّهُ كلامُهُ . . فلمْ يجاوزْ حبُّهُ إلىٰ غيرِهِ ، بلْ هوَ دليلُ كمالِ حبِّهِ ، ومَنْ غلبَ حبُّ اللهِ علىٰ قلبِهِ . . أحبَّ جميعَ خلقِ اللهِ ؛ لأنَّهُمْ خلقُهُ ، فكيفَ لا يحبُّ القرآنَ والرسولَ وعبادَ اللهِ الصالحينَ ؟!

وقدْ ذكرنا تحقيقَ هٰذا في كتابِ آدابِ الصحبةِ .

ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « **أحبُّوا اللهَ لما يغذوكُمْ بهِ مِنْ نعمِهِ ، وأحبُّوني لحبِّ اللهِ . . .** »[(٥)]

---

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/٥١) .

(٣) قوت القلوب (٢/٥٢) .

(٤) قوت القلوب (٢/٥٢) .

(٥) قوت القلوب (٢/٥٠) ، ورواه الترمذي (٣٧٨٩) وتمامه : « . . . وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبِّي »

وقالَ سفيانُ : (مَنْ أحبَّ مَنْ يحبُّ اللهَ تعالىٰ . . فإنَّما أحبَّ اللهَ ، ومَنْ أكرمَ مَنْ يكرمُ اللهَ تعالىٰ . . فإنَّما يكرمُ اللهَ تعالىٰ)[1]

وحُكِيَ عنْ بعضِ المريدينَ قالَ : كنتُ قدْ وجدتُ حلاوةَ المناجاةِ في شِرَّةِ الإرادةِ[2] ، فأدمنتُ قراءةَ القرآنِ ليلاً ونهاراً ، ثمَّ لحقتَنْي فترةٌ ، فانقطعتُ عنِ التلاوةِ ، قالَ : فسمعتُ قائلاً يقولُ في المنامِ : إنْ كنتَ تزعمُ أنَّكَ تحبُّني . . فلِمَ جفوتَ كتابي ؟!

أما ترىٰ ما فيهِ مِنْ لطيفِ عتابي ؟ قالَ : فانتبهتُ وقدْ أُشرِبَ في قلبي محبَّةُ القرآنِ ، فعاودتُ إلىٰ حالي[3]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (لا ينبغي أنْ يسألَ أحدُكُمْ عنْ نفسِهِ إلا القرآنَ ، فإنْ كانَ يحبُّ القرآنَ . . فهوَ يحبُّ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وإنْ لمْ يكنْ يحبُّ القرآنَ . . فليسَ يحبُّ اللهَ)[4]

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (علامةُ حبِّ اللهِ تعالىٰ حبُّ القرآنِ ، وعلامةُ حبِّ اللهِ وحبِّ القرآنِ حبُّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعلامةُ حبِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حبُّ السنَّةِ ، وعلامةُ حبِّ السنَّةِ حبُّ الآخرةِ ، وعلامةُ حبِّ الآخرةِ بغضُ الدنيا ، وعلامةُ بغضِ الدنيا ألا يأخذَ منها إلا زاداً وبلغةً إلى الآخرةِ)[5]

❀ ❀ ❀

ومنها : أنْ يكونَ أنسُهُ بالخلوةِ ومناجاةِ اللهِ تعالىٰ وتلاوةِ كتابِهِ :

فيواظبُ على التهجُّدِ ، ويغتنمُ هدوءَ الليلِ ، وصفاءَ الوقتِ بانقطاعِ العوائقِ ، فأقلُّ درجاتِ الحبِّ التلذُّذُ بالخلوةِ بالحبيبِ ، والتنعُّمُ بمناجاتِهِ ، فمَنْ كانَ النومُ والاشتغالُ بالحديثِ ألذَّ عندَهُ وأطيبَ مِنْ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ . . كيفَ تصحُّ محبَّتُهُ ؟!

قيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهَمَ وقدْ نزلَ مِنَ الجبلِ : مِنْ أينَ أقبلتَ ؟ فقالَ : مِنَ الأنسِ باللهِ[6]

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : (لا تستأنسْ إلىٰ أحدٍ مِنْ خلقي ، فإنِّي إنَّما أقطعُ عنِّي رجلينِ : رجلاً استبطأَ ثوابي فانقطعَ ، ورجلاً نسيَنِي فرضيَ بحالِهِ ، وعلامةُ ذٰلكَ أنْ أكلَهُ إلىٰ نفسِهِ ، وأنْ أدعَهُ في الدنيا حيرانَ)[7]

ومهما أنسَ بغيرِ اللهِ . . كانَ بقدْرِ أنسِهِ بغيرِ اللهِ مستوحشاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ساقطاً عنْ درجةِ محبَّتِهِ ، وفي قصَّةِ بُرْخٍ ـ وهوَ العبدُ الأسودُ الذي استسقىٰ بِهِ موسىٰ عليهِ السلامُ ـ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لموسىٰ عليهِ السلامُ : إنَّ بُرْخاً نعمَ العبدُ هوَ لي ، إلا أنَّ فيهِ عيباً ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما عيبُهُ ؟ قالَ : يعجبُهُ نسيمُ الأسحارِ فيسكنُ إليهِ ، ومَنْ أحبَّني لمْ يسكنْ إلىٰ شيءٍ[8]

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٦٢٢) .
(٢) الشِّرَّة : النشاط والحرص ، يقال : شرَّة الشباب ؛ أي : حرصه ونشاطه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ـ وهو يناسب السياق ـ : « إن لهٰذا القرآن شرَّة ، ثم إن للناس عنه فترة . . . » الحديث .
(٣) قوت القلوب (٢/٥٣) .
(٤) كذا في « القوت » (٢/٥٣) ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٧) .
(٥) قوت القلوب (٢/٥٣) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٠) .
(٧) نقله صاحب « القوت » (٩/٦٢٣) .
(٨) قوت القلوب (٢/٥٤) .

ورُوِيَ أنَّ عابداً عبدَ اللهَ تعالىٰ في غيضةٍ دهراً طويلاً ، فنظرَ إلىٰ طائرٍ قدْ عشَّشَ في شجرةٍ يأوي إليها ويصفِرُ عندَها ، فقالَ : لوْ حوَّلتُ مسجدي إلىٰ تلكَ الشجرةِ ، فكنتُ آنسُ بصوتِ هـٰذا الطائرِ ، قالَ : ففعلَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّ ذٰلكَ الزمانِ : قلْ لفلانٍ العابدِ : استأنستَ بمخلوقٍ ؟! لأحطَّنَّكَ درجةً لا تنالُها بشيءٍ مِنْ عملِكَ أبداً[1]

فإذاً ؛ علامةُ المحبَّةِ كمالُ الأنسِ بمناجاةِ المحبوبِ ، وكمالُ التنعُّمِ بالخلوةِ بهِ ، وكمالُ الاستيحاشِ مِنْ كلِّ ما ينغِّصُ عليهِ الخلوةَ ويعوِّقُ عنْ لذَّةِ المناجاةِ ، وعلامةُ الأنسِ مصيرُ العقلِ والفهمِ كلِّهِ مستغرقاً بلذَّةِ المناجاةِ ؛ كالذي يخاطبُ معشوقَهُ ويناجيهِ .

وقدِ انتهتْ هـٰذهِ اللذَّةُ ببعضِهِمْ حتَّىٰ إنَّهُ كانَ في صلاتِهِ ووقعَ الحريقُ في دارِهِ فلمْ يشعرْ بهِ ، وقُطِعَتْ رِجْلُ بعضِهِمْ بسببِ علَّةٍ أصابَتْهُ وهوَ في الصلاةِ فلمْ يشعرْ بهِ[2]

ومهما غلبَ عليهِ الحبُّ والأنسُ . . صارَتِ الخلوةُ والمناجاةُ قرَّةَ عينٍ تدفعُ جميعَ الهمومِ ، بلْ يستغرقُ الأنسُ والحبُّ قلبَهُ حتَّىٰ لا يفهمَ أمورَ الدنيا ما لمْ تُكرَّرْ علىٰ سمعِهِ مراراً ؛ مثلَ العاشقِ الولهانِ ، فإنَّهُ يكلِّمُ الناسَ بلسانِهِ وأنسُهُ في الباطنِ بذكرِ حبيبِهِ ، فالمحبُّ مَنْ لا يطمئنُّ إلا بمحبوبِهِ .

وقالَ قتادةُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ قالَ : (هشَّتْ إليهِ ، واستأنسَتْ بهِ)[3]

وقالَ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ ذاقَ مِنْ خالصِ محبَّةِ اللهِ . . شغلَهُ ذٰلكَ عنْ طلبِ الدنيا ، وأوحشَهُ عنْ جميعِ البشرِ)[4]

وقالَ مطرِّفٌ : (المحبُّ لا يسأمُ مِنْ حديثِ حبيبِهِ)[5]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (قدْ كذبَ مَنِ ادَّعىٰ محبَّتي إذا جنَّهُ الليلُ . . نامَ عنِّي ، أليسَ كلُّ محبٍّ يحبُّ لقاءَ حبيبِهِ ؟ فهـٰأنا ذا موجودٌ لمَنْ طلبَني)[6]

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ، أينَ أنتَ فأقصدَكَ ؟ فقالَ : إذا قصدتَ . . فقدْ وصلتَ[7]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (مَنْ أحبَّ اللهَ . . أبغضَ نفسَهُ) .

وقالَ أيضاً : (مَنْ لمْ تكنْ فيهِ ثلاثُ خصالٍ . . فليسَ بمحبٍّ ؛ يؤثرُ كلامَ اللهِ تعالىٰ علىٰ كلامِ الخلقِ ، ولقاءَ اللهِ تعالىٰ علىٰ لقاءِ الخلقِ ، والعبادةَ علىٰ خدمةِ الخلقِ) .



---

(١) كذا في « القوت » (٢/٥٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٩) بنحوه .

(٢) هو عروة بن الزبير ، وقد روىٰ خبره ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/٢٦١) دون تصريح أن القطع كان في الصلاة .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٦٤) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٨/١٣/١٨٣) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٥) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٦) .

(٦) قوت القلوب (٢/٦٠) بنحوه .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٣١١) بلفظ : (. . . إذا انقطعت . . فقد وصلت) .

ومنها : ألا يتأسَّفَ علىٰ ما يفوتُهُ ممَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ويعظمَ تأسُّفُهُ علىٰ فوتِ كلِّ ساعةٍ خلتْ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وطاعتِهِ :

فيكثرَ رجوعُهُ عندَ الغفلاتِ بالاستعطافِ والاستعتابِ ، والتوبةِ ، قالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّ للهِ عباداً أحبُّوهُ واطمأنُّوا إليهِ ، فذهبَ عنهُمُ التأسُّفُ على الفائتِ ، فلمْ يتشاغلوا بحظِّ أنفسِهِمْ إذْ كانَ ملْكُ مليكِهِمْ تامّاً ، وما شاءَ كانَ ، فما كانَ لهُمْ فهوَ واصلٌ إليهِمْ ، وما فاتَهُمْ فبحسنِ تدبيرِهِ لهُمْ)[1]

وحقُّ المحبِّ إذا رجعَ مِنْ غفلتِهِ في لحظتِهِ أنْ يقبلَ علىٰ محبوبِهِ ، ويشتغلَ بالعتابِ ، ويسألَهُ ويقولَ : (ربِّ ؛ بأيِّ ذنبٍ قطعتَ برَّكَ عنِّي ، وأبعدتَني عنْ حضرتِكَ ، وشغلتَني بنفسي وبمتابعةِ الشيطانِ) ، فيستخرجُ ذٰلكَ منهُ صفاءَ ذكرٍ ورقَّةَ قلبٍ يكفِّرُ عنهُ ما سبقَ مِنَ الغفلةِ ، وتكونُ هفوتُهُ سبباً لتجدُّدِ ذكرِهِ وصفاءِ قلبِهِ .

ومهما لمْ يرَ المحبُّ إلا المحبوبَ ، ولمْ يرَ شيئاً إلا منهُ . . لمْ يتأسَّفْ ولمْ يشكُ ، واستقبلَ الكلَّ بالرضا ، وعلمَ أنَّ المحبوبَ لمْ يقدرْ لهُ إلا ما فيهِ خيرتُهُ ، ويذكرُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يتنعَّمَ بالطاعةِ ولا يستثقلَها ، ويسقطَ عنهُ تعبُها :

كما قالَ بعضُهُمْ : (كابدتُ الليلَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ تنعَّمتُ بهِ عشرينَ سنةً)[2]

وقالَ الجنيدُ : (علامةُ المحبَّةِ دوامُ النشاطِ ، والدؤوبُ بشهوةٍ تفترُ بدنَهُ ولا تفترُ قلبَهُ)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (العملُ على المحبَّةِ لا يدخلُهُ الفتورُ)[4]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (واللهِ ؛ ما اشتفىٰ محبٌّ للهِ مِنْ طاعتِهِ ولوْ حلَّ بعظيمِ الوسائلِ)[5]

فكلُّ هٰذا مثالُهُ موجودٌ في المشاهداتِ[6] ؛ فإنَّ العاشقَ لا يستثقلُ السعيَ في هوىٰ معشوقِهِ ، ويستلذُّ خدمتَهُ بقلبِهِ وإنْ كانَ شاقّاً علىٰ بدنِهِ ، ومهما عجزَ بدنُهُ . . كانَ أحبُّ الأشياءِ إليهِ أنْ تعاودَهُ القدرةُ ، وأنْ يفارقَهُ العجزُ حتَّىٰ يشتغلَ بهِ .

فهٰكذا يكونُ حبُّ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ كلَّ حبٍّ صارَ غالباً . . قهرَ ـ لا محالةَ ـ ما هوَ دونَهُ ، فمَنْ كانَ محبوبُهُ أحبَّ إليهِ مِنَ الكسلِ . . تركَ الكسلَ في خدمتِهِ ، وإنْ كانَ أحبَّ إليهِ مِنَ المالِ . . تركَ المالَ في حبِّهِ .

وقيلَ لبعضِ المحبِّينَ وقدْ كانَ بذلَ مالَهُ ونفسَهُ حتَّىٰ لمْ يبقَ لهُ شيءٌ : ما كانَ سببُ حالِكَ هٰذهِ في المحبَّةِ ؟ فقالَ : سمعتُ يوماً محبّاً وقدْ خلا بمحبوبِهِ وهوَ يقولُ : أنا ـ واللهِ ـ أحبُّكَ بقلبي كلِّهِ وأنتَ معرضٌ عنِّي بوجهِكَ كلِّهِ ، فقالَ لهُ المحبوبُ : إنْ كنتَ تحبُّني . . فأيشٍ تنفقُ عليَّ ؟ فقالَ : يا سيدي ؛ أملِّكُكَ ما أملكُ ، ثمَّ أنفقُ عليكَ

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٢٤/٩)
(٢) قوت القلوب (٣٦/١) .
(٣) قوت القلوب (٥٥/٢) .
(٤) قوت القلوب (٥٥/٢) .
(٥) قوت القلوب (٥٥/٢) .
(٦) في (ف) وحدها : (فكل هٰذا وأمثاله موجود . . .) .

روحي حتَّىٰ تهلكَ ، فقلتُ : هـٰذا خلقٌ لخلقٍ ، وعبدٌ لعبدٍ ، فكيفَ بعبدٍ لمعبودٍ ؟! فكانَ هـٰذا سببَهُ [١]

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يكونَ مشفقاً علىٰ جميعِ عبادِ اللهِ ، رحيماً بهِمْ ، شديداً علىٰ جميعِ أعداءِ اللهِ وعلىٰ كلِّ مَنْ يقارفُ شيئاً ممَّا يكرهُهُ :

كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ولا تأخذُهُ لومةُ لائمٍ ، ولا يصرفُهُ عنِ الغضبِ للهِ صارفٌ ، وبهِ وصفَ اللهُ تعالىٰ أولياءَهُ إذْ قالَ : (الذينَ يكْلَفونَ بحبِّي كما يكْلَفُ الصبيُّ بالشيءِ ، ويأوونَ إلىٰ ذكري كما يأوي النسرُ إلىٰ وكرِهِ ، ويغضبونَ لمحارمي كما يغضبُ النمرُ إذا حردَ ؛ فإنَّهُ لا يبالي قلَّ الناسُ أوْ كثروا) [٢]

فانظرْ إلىٰ هـٰذا المثالِ ؛ فإنَّ الصبيَّ إذا كلفَ بالشيءِ . . لمْ يفارقْهُ أصلاً ، وإنْ أُخذَ منهُ . . لمْ يكنْ لهُ شغلٌ إلا البكاءَ والصياحَ حتَّىٰ يُردَّ إليهِ ، فإنْ نامَ . . أخذَهُ معَهُ في ثيابِهِ ، فإذا انتبهَ . . عادَ وتمسَّكَ بهِ ، ومهما فارقَهُ . . بكىٰ ، ومهما وجدَهُ . . ضحكَ ، ومَنْ نازعَهُ فيهِ . . أبغضَهُ ، ومَنْ أعطاهُ إيَّاهُ . . أحبَّهُ ، وأمَّا النمرُ . . فإنَّهُ لا يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ ، حتَّىٰ يبلغَ مِنْ شدَّةِ غضبِهِ أنْ يهلكَ نفسَهُ .

فهـٰذهِ علاماتُ المحبَّةِ ، فمَنْ تمَّتْ فيه هـٰذهِ العلاماتُ . . فقدْ تمَّتْ محبَّتُهُ وخلصَ حبُّهُ ، فصفا في الآخرةِ شرابُهُ وعذُبَ مشربُهُ ، ومَنِ امتزجَ بحبِّهِ حبُّ غيرِ اللهِ . . تنعَّمَ في الآخرةِ بقدْرِ حبِّهِ ؛ إذْ يمزجُ شرابَهُ بقدْرٍ مِنْ شرابِ المقرَّبينَ ؛ كما قالَ تعالىٰ في الأبرارِ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۞ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۞ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، فإنَّما طابَ شرابُ الأبرارِ لشوبِ الشرابِ الصرفِ الذي هوَ للمقرَّبينَ ، والشرابُ عبارةٌ عنْ جملةِ نعيمِ الجنانِ ، كما أنَّ الكتابَ عبَّرَ بهِ عنْ جميعِ الأعمالِ فقالَ : ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، فكانَ أمارةَ علوِّ كتابِهِمْ أنَّهُ ارتفعَ إلىٰ حيثُ يشهدُهُ المقرَّبونَ .

وكما أنَّ الأبرارَ يجدونَ المزيدَ في حالِهِمْ ومعرفتِهِمْ بقربِهِمْ مِنَ المقرَّبينَ ومشاهدتِهِمْ لهُمْ . . فكذٰلكَ يكونُ حالُهُمْ في الآخرةِ ، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ، ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ ، وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ أيْ : وافقَ الجزاءُ أعمالَهُمْ ، فقُوبلَ الخالصُ بالصرفِ مِنَ الشرابِ ، وقُوبلَ المشوبُ بالمشوبِ ، وشوبُ كلِّ شرابٍ علىٰ قدْرِ ما سبقَ مِنَ الشوبِ في حبِّهِ وأعمالِهِ ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ ، ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾

فمَنْ كانَ حبُّهُ في الدنيا رجاءَهُ لنعيمِ الجنَّةِ وللحورِ العينِ والقصورِ . . مُكِّنَ مِنَ الجنَّةِ ليتبوَّأَ منها حيثُ يشاءُ ، فيلعبُ معَ الولدانِ ، ويتمتَّعُ بالنسوانِ ، فهناكَ تنتهي لذَّتُهُ في الآخرةِ ؛ لأنَّهُ إنَّما يُعطىٰ كلُّ إنسانٍ في المحبةِ ما تشتهيهِ نفسُهُ وتلذُّ عينُهُ .

ومَنْ كانَ مقصدُهُ ربَّ الدارِ ومالكَ الملكِ ، ولمْ يغلبْ عليهِ إلا حبُّهُ بالإخلاصِ والصدقِ . . أُنزلَ في مقعدِ صدْقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ .

---

(١) قوت القلوب (٢/٥٥) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٢١) .

فالأبرارُ يرتعونَ في البساتينِ ، ويتنعَّمونَ في الجنانِ معَ الحورِ العينِ والولدانِ ، والمقرَّبونَ ملازمونَ للحضرةِ ، عاكفونَ بطرفِهِمْ عليها ، يستحقرونَ نعيمَ الجنانِ بالإضافةِ إلىٰ ذرَّةٍ منها ، فقومٌ بقضاءِ شهوةِ البطنِ والفرجِ مشغولونُ ، وللمجالسةِ أقوامٌ آخرونَ .

ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البلْهُ ، وعلّيونَ لذوي الألبابِ »[١]

ولمَّا قصرَتِ الأفهامُ عنْ دركِ معنىٰ علّيينَ . . عظَّمَ أمرَهُ ، فقالَ : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۞ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ .

❀ ❀ ❀

ومنها : أنْ يكونَ في حبِّهِ خائفاً متضائلاً تحتَ الهيبةِ والتعظيمِ :

وقدْ يُظنُّ أنَّ الخوفَ يضادُّ الحبَّ ، وليسَ كذٰلكَ ، بلْ إدراكُ العظمةِ يوجبُ الهيبةَ ؛ كما أنَّ إدراكَ الجمالِ يوجبُ الحبَّ ، ولخصوصِ المحبّينَ مخاوفُ في مقامِ المحبَّةِ ليسَتْ لغيرِهِمْ ، وبعضُ مخاوفِهِمْ أشدُّ مِنْ بعضٍ .

فأوَّلُها خوفُ الإعراضِ ، وأشدُّ منهُ خوفُ الحجابِ ، وأشدُّ منهُ خوفُ الإبعادِ ، وهٰذا المعنىٰ مِنْ سورةِ (هودٍ) هوَ الذي شيَّبَ سيِّدَ المحبّينَ[٢] ؛ إذْ سمعَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴾ .

وإنَّما تعظمُ هيبةُ البعدِ وخوفُهُ في قلبِ مَنْ ألفَ القربَ وذاقَهُ وتنعَّمَ بهِ ، فحديثُ البعدِ في حقِّ المبعدينَ يشيِّبُ سماعُهُ أهلَ القربِ في القربِ ، ولا يحنُّ إلى القربِ مَنْ ألفَ البعدَ ، ولا يبكي لخوفِ البعدِ مَنْ لمْ يُمكَّنْ مِنْ بساطِ القربِ .

ثمَّ خوفُ الوقوفِ وسلبُ المزيدِ : فإنَّا قدَّمنا أنَّ درجاتِ القربِ لا نهايةَ لها ، وحقُّ العبدِ أنْ يجتهدَ في كلِّ نَفَسٍ حتَّىٰ يزدادَ فيهِ قرباً ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استوىٰ يوماهُ . . فهوَ مغبونٌ ، ومَنْ كانَ يومُهُ شرّاً مِنْ أمسِهِ . . فهوَ ملعونٌ »[٣]

وكذٰلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّهُ ليغانُ علىٰ قلبي في اليومِ والليلةِ حتَّىٰ أستغفرُ اللهَ سبعينَ مرَّةً »[٤] ، وإنَّما كانَ استغفارُهُ مِنَ القدمِ الأوَّلِ ، فإنَّهُ كانَ بعداً بالإضافةِ إلى القدمِ الثاني[٥] ، ويكونُ ذٰلكَ عقوبةً لهُمْ على الفتورِ في الطريقِ ، والالتفاتِ إلىٰ غيرِ المحبوبِ ، كما رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : (إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعالمِ إذا آثرَ شهواتِ الدنيا

---

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٤٣١/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٣/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) دون زيادة : (وعليون لذوي الألباب) ، وهي عند صاحب « القوت » (١١٧/١) ، وقد روىٰ نحو هٰذه الزيادة الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » (١١٧/٢٦ ـ ١١٨) عن أحمد بن أبي الحواري رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه الترمذي (٣٢٩٧) .

(٣) هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٩١٠) من حديث علي رضي الله عنه ، وانظر « الإتحاف » (٦٢٨/٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥/٨) عن رؤيا رآها الحسن البصري وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم الموعظة فلقنه إياها ، وهو عند البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٨٧) رؤيا رآها عبد العزيز بن أبي رواد للنبي صلى الله عليه وسلم يوصيه به .

(٤) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

(٥) في (ب) : (المقام) بدل (القدم) في الموضعين .

علىٰ طاعتي أنْ أسليَهُ لذيذَ مناجاتي)[1] ، فسلبُ المزيدِ بسببِ الشهواتِ عقوبةُ العمومِ ، فأمَّا الخصوصُ . . فيحجبُهُمْ عنِ المزيدِ مجرَّدُ الدعوىٰ والعجبِ والركونِ إلىٰ ما ظهرَ مِنْ مبادي اللطفِ ، وذٰلكَ هوَ المكرُ الخفيُّ الذي لا يقدرُ على الاحترازِ منهُ إلا ذوو الأقدامِ الراسخةِ .

ثمَّ خوفُ فوتِ ما لا يُدركُ بعدَ فوتِهِ : سمعَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ قائلاً يقولُ وهوَ في سياحتِهِ وكانَ علىٰ جبلٍ[2] : [من مجزوء الرمل]

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ مَغْفُورٌ سِوَى الإِعْرَاضِ عَنِّي
قَدْ وَهَبْنَا لَكَ مَا فَاتَ بَقِي مَا فَاتَ مِنِّي

فاضطربَ وغُشيَ عليهِ ، فلمْ يفقْ يوماً وليلةً ، وطرأَتْ عليهِ أحوالٌ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ النداءَ مِنَ الجبلِ : يا إبراهيمُ ؛ كنْ عبداً ، فكنتُ عبداً واسترحتُ[3]

ثمَّ خوفُ السلوِّ عنهُ : فإنَّ المحبَّ يلازمُهُ الشوقُ والطلبُ الحثيثُ ، فلا يفترُ عنْ طلبِ المزيدِ ، ولا يتسلَّىٰ إلا بلطفٍ جديدٍ ، فإنِ تسلَّىٰ عنْ ذٰلكَ . . كانَ ذٰلكَ سببَ وقوفِهِ أوْ سببَ رجعتِهِ .

والسلوُّ يدخلُ عليهِ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ؛ كما قدْ يدخلُ عليهِ الحبُّ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، فإنَّ هٰذهِ التقلباتِ في القلبِ لها أسبابٌ خفيَّةٌ سماويَّةٌ ليسَ في قوَّةِ البشرِ الاطلاعُ عليها ، فإذا أرادَ اللهُ تعالى المكرَ بهِ واستدراجَهُ . . أخفىٰ عنهُ ما وردَ عليهِ مِنَ السلوِّ ، فيقفُ معَ الرجاءِ ، ويغترُّ بحسنِ الظنِّ أوْ بغلبةِ الغفلةِ والهوىٰ والنسيانِ ، وكلُّ ذٰلكَ مِنْ جنودِ الشيطانِ التي تغلبُ جنودَ الملائكةِ ؛ مِنَ العلمِ والعقلِ والذكرِ والبيانِ ، وكما أنَّ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالىٰ ما يظهرُ فيقتضي هيجانَ الحبِّ وهيَ أوصافُ اللطفِ والرحمةِ والحكمةِ . . فمِنْ أوصافِهِ ما يلوحُ فيورثُ السلوَّ ؛ كأوصافِ الجبريَّةِ والعزَّةِ والاستغناءِ ، وذٰلكَ مِنْ مقدماتِ المكرِ والشقاءِ والحرمانِ .

ثمَّ خوفُ الاستبدالِ بهِ بانتقالِ القلبِ مِنْ حبِّهِ إلىٰ حبِّ غيرِهِ : وذٰلكَ هوَ المقتُ والسلوُّ عنهُ مقدمةُ هٰذا المقامِ ، والإعراضُ والحجابُ مقدمةُ السلوِّ ، وضيقُ الصدرِ بالبرِّ وانقباضُهُ عنْ دوامِ الذكرِ وملالُهُ لوظائفِ الأورادِ أسبابُ هٰذهِ المعاني ومقدماتُها ، فظهورُ هٰذهِ الأسبابِ دليلٌ على النقلِ مِنْ مقامِ الحبِّ إلىٰ مقامِ المقتِ نعوذُ باللهِ منهُ ، وملازمةُ الخوفِ لهٰذهِ الأمورِ وشدَّةُ الحذرِ منها بصفاءِ المراقبةِ دليلُ صدقِ الحبِّ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً . . خافَ ـ لا محالةَ ـ فقدَهُ ، فلا يخلو المحبُّ عنْ خوفٍ إذا كانَ المحبوبُ ممَّا يمكنُ فواتُهُ .

وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (مَنْ عبدَ اللهَ تعالىٰ بمحضِ المحبَّةِ مِنْ غيرِ خوفٍ . . هلكَ بالبسطِ والإدلالِ ، ومَنْ عبدَهُ مِنْ طريقِ الخوفِ مِنْ غيرِ محبَّةٍ . . انقطعَ عنهُ بالبعدِ والاستيحاشِ ، ومَنْ عبدَهُ مِنْ طريقِ المحبَّةِ والخوفِ . . أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ ، فقرَّبَهُ ومكَّنَهُ وعلَّمَهُ)[4]

---

(1) قوت القلوب (١٤١/١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٦٠/٢) .

(2) انظر « الكشكول » (١٥٤/١) .

(3) قوت القلوب (٥٨/٢) ، وفيه : (وهبنا منك) بدل (وهبنا لك) ، وشرح لقول إبراهيم رحمه الله تعالىٰ : (كن عبداً) فقال : (لا يملكك إلا واحد تكون عبداً له حراً مما سواه ، ولا تملك شيئاً ، فإن الأشياء في خزانة مليكها) .

(4) قوت القلوب (٥٩/٢) ، وفيه (عرف) بدل (عبد) في المواضع الثلاثة .

فالمحبُّ لا يخلو عنْ خوفٍ ، والخائفُ لا يخلو عنْ محبَّةٍ ، ولٰكنِ الذي غلبَتْ عليهِ المحبَّةُ حتَّى اتسعَ فيها ، ولمْ يكنْ لهُ مِنَ الخوفِ إلا يسيرٌ . . يُقالُ : هوَ في مقامِ المحبَّةِ ، ويُعدُّ مِنَ المحبّينَ ، وكانَ شوبُ الخوفِ يسكنُ قليلاً مِنْ سكرِ الحبِّ ، فلوْ غلبَ الحبُّ واستولَتِ المعرفةُ . . لمْ تثبتْ لذٰلكَ طاقةُ البشرِ ، فإنَّما الخوفُ يعدلُهُ ويخفِّفُ وقعَهُ على القلبِ .

فقد رُويَ في بعضِ الأخبارِ : أنَّ بعضَ الصديقينَ سألَهُ بعضُ الأبدالِ أنْ يسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يرزقَهُ ذرَّةً مِنْ معرفتِهِ ، ففعلَ ذٰلكَ ، فهامَ في الجبالِ ، وحارَ عقلُهُ ، وولِهَ قلبُهُ ، وبقيَ شاخصاً سبعةَ أيامٍ لا ينتفعُ بشيءٍ ، ولا ينتفعُ بهِ شيءٌ ، فسألَ لهُ الصدّيقُ ربَّهُ تعالىٰ فقالَ : يا ربِّ أنقصْهُ مِنَ الذرَّةِ بعضَها ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّما أعطيناهُ جزءاً مِنْ مئةِ ألفِ جزءٍ مِنْ ذرَّةٍ منَ المعرفةِ ، وذٰلكَ أنَّ مئةَ ألفِ عبدٍ سألوني شيئاً مِنَ المحبَّةِ في الوقتِ الذي سألَني هٰذا ، فأخَّرتُ إجابتَهُمْ إلىٰ أنْ شفعتَ أنتَ لهٰذا ، فلما أجبتُكَ فيما سألتَ : أعطيتُهُمْ كما أعطيتُهُ ، فقسمتُ ذرَّةً مِنَ المعرفةِ بينَ مئةِ ألفِ عبدٍ ، فهٰذا ما أصابَهُ مِنْ ذٰلكَ ، فقالَ : سبحانَكَ يا أحكمَ الحاكمينَ !! أنقصْهُ ممَّا أعطيتَهُ ، فأذهبَ اللهُ عنهُ جملةَ الجزءِ ، وبقيَ معَهُ عشْرُ معشارِهِ ، وهوَ جزءٌ مِنْ عشرةِ آلافِ ألفِ جزءٍ مِنْ ذرةٍ[1] ، فاعتدلَ خوفُهُ وحبُّهُ ورجاؤُهُ ، وسكنَ وصارَ كسائرِ العارفينَ[2] .

وقدْ قيلَ في وصفِ حالِ العارفِ[3] : [من الوافر]

قَـرِيـبُ الْـوَجْـدِ ذُو مَـرْمـىً بَـعِـيـدٍ ... عـنِ الأَحْـرارِ مِـنْـهُـمْ وَ الْـعَـبِـيـدِ

غَـرِيـبُ الْـوَصْـفِ ذُو عِـلْـمٍ غَـرِيـبٍ ... كَـأَنَّ فُـؤادَهُ زُبَـرُ الْـحَـدِيـدِ

لَـقَـدْ عَـزَّتْ مَـعـانِـيـهِ فَـغـابَـتْ ... عَـنِ الأَبْـصـارِ إلا لِـلـشَّـهِـيـدِ

يَـرَى الأَعْـيـادَ فِـي الأَوْقـاتِ تَـجْـرِي ... لَـهُ فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ أَلْـفُ عِـيـدِ

وَلِـلأَحْـبـابِ أَفْـراحٌ بِـعِـيـدٍ ... وَلا يَـجِـدُ الـسُّـرُورَ لَـهُ بِـعِـيـدِ

وقدْ كانَ الجنيدُ رحمَهُ اللهُ ينشدُ أبياتاً يشيرُ بها إلىٰ أسرارِ أحوالِ العارفينَ وأنَّ ذٰلكَ لا يجوزُ إظهارُهُ ، وهيَ هٰذهِ الأبياتُ[4] : [من الطويل]

سَرتْ بِـأُنـاسٍ فِـي الْـغُـيُـوبِ قُـلُـوبُـهُـمْ ... فَـحَـلُّـوا بِـقُـرْبِ الْـمَـاجِـدِ الْـمُـتَـفَـضِّـلُ

عِـراصاً بِـقُـرْبِ اللهِ فِـي ظِـلِّ قُـدْسِـهِ ... تَـجُـولُ بِـهـا أَرْواحُـهُـمْ وَتَـنَـقَّـلُ

مَـوارِدُهُـمْ فِـيها عَلَى الْـعِـزِّ وَ النُّهَىٰ ... وَمَـصْـدَرُهُـمْ عَنْها لِـمَـا هُـوَ أَكْـمَـلُ

تَـرُوحُ بِـعِـزٍّ مُـفْـرَدٍ مِـنْ صِـفـاتِـهِ ... وَفِـي حُـلَـلِ الـتَّـوْحِـيدِ تَـمْشي وَتَـرْفُـلُ

وَمِـنْ بَـعْـدِ هَـٰذا مَـا تَـدِقُّ صِـفـاتُـهُ ... وَمَـا كَـتْـمُـهُ أَوْلَـىٰ لَـدَيْـهِ وَأَعْـدَلُ

---

(١) في (ب ، د ، ع ، ف) : (وهو جزء من ألف ألف جزء) .

(٢) قوت القلوب (٦٠/٢) .

(٣) هٰكذا أنشد هٰذه الأبيات صاحب « القوت » ، إلا أنه بتقديم البيت الأخير على الذي قبله . « إتحاف » (٦٣١/٩) .

(٤) قوت القلوب (٥٩/٢) ، الإتحاف (٦٣٢/٩) .

سَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي بِهِ ما يَصُونُهُ　　وَأَبْذُلُ مِنْهُ مَا أَرَى الْحَقَّ يَبْذُلُ

وَأُعْطِي عِبادَ اللهِ مِنْهُ حُقُوقَهُمْ　　وَأَمْنَعُ مِنْهُ ما أَرَى الْمَنْعَ يفْضُلُ

عَلَىٰ أَنَّ لِلرَّحْمَٰنِ سِرّاً يَصُونُهُ　　إِلَىٰ أَهْلِهِ فِي السِّرِّ وَ الصَّوْنُ أَجْمَلُ

وأمثالُ هٰذهِ المعارفِ التي إليها الإشارةُ لا يجوزُ أنْ يشتركَ الناسُ فيها ، ولا يجوزُ أنْ يظهرَها مَنِ انكشفَ لهُ شيءٌ منها لمَنْ لمْ ينكشفْ لهُ ، بلْ لوِ اشتركَ الناسُ فيها . . لخربَتِ الدنيا ، فالحكمةُ تقتضي شمولَ الغفلةِ لعمارةِ الدنيا .

بلْ لوْ أكلَ الناسُ كلُّهُمُ الحلالَ أربعينَ يوماً . . لخربَتِ الدنيا ؛ لزهدِهِمْ فيها ، وبطلَتِ الأسواقُ والمعايشُ .

بلْ لوْ أكلَ العلماءُ الحلالَ . . لاشتغلوا بأنفسِهِمْ ، ولوقفَتِ الألسنةُ والأقدامُ عنْ كثيرٍ ممَّا انتشرَ مِنَ العلومِ ، ولٰكنْ للهِ تعالىٰ فيما هوَ شَرٌّ في الظاهرِ أسرارٌ وحكمٌ ، كما أنَّ لهُ في الخيرِ أسراراً وحكماً ، ولا منتهىٰ لحكمتِهِ ، كما لا غايةَ لقدرتِهِ .

❀ ❀ ❀

ومنها : كتمانُ الحبِّ ، واجتنابُ الدعوىٰ ، والتوقِّي مِنْ إظهارِ الوجدِ والمحبَّةِ :

تعظيماً للمحبوبِ ، وإجلالاً لهُ ، وهيبةً منهُ ، وغيرةً علىٰ سرِّهِ ؛ فإنَّ الحبَّ سرٌّ مِنْ أسرارِ الحبيبِ ، ولأنَّهُ قدْ يدخلُ في الدعوىٰ ما يتجاوزُ حدَّ المعنىٰ ويزيدُ عليهِ ، فيكونُ ذٰلكَ مِنَ الافتراءِ ، وتعظمُ العقوبةُ عليهِ في العقبىٰ ، وتتعجَّلُ عليهِ البلوىٰ في الدنيا .

نعمْ ؛ قدْ يكونُ للمحبِّ سكرةٌ في حبِّهِ حتَّىٰ يدهشَ فيهِ ، وتضطربَ أحوالُهُ ، فيظهرَ عليهِ حبُّهُ ، فإنْ وقعَ ذٰلكَ عنْ غيرِ تمحُّلٍ أوِ اكتسابٍ . . فهوَ معذورٌ ؛ لأنَّهُ مقهورٌ .

وربَّما تشتعلُ مِنَ الحبِّ نيرانُهُ ، فلا يُطاقُ سلطانُهُ ، وقدْ يفيضُ القلبُ بهِ فلا يندفعُ فيضانُهُ فالقادرُ على الكتمانِ يقولُ :　　[من الطويل]

وَقَالُوا : قَرِيبٌ ، قلتُ : ما أَنا صانِعٌ　　بِقُرْبِ شُعاعِ الشَّمْسِ لَوْ كَانَ فِي حِجْرِي

فَمَا لِيَ مِنْهُ غَيْرُ ذِكْرٍ بِخاطِرٍ　　يُهَيِّجُ نارَ الْحُبِّ وَالشَّوْقِ فِي صَدْرِي

والعاجزُ عنهُ يقولُ :　　[من السريع]

يُخْفِي فَيُبْدِي الدَّمْعُ أَسْرارَهُ　　وَيُظْهِرُ الْوَجْدَ عَلَيْهِ النَّفَسْ

ويقولُ أيضاً[1] :　　[من الطويل]

وَمَنْ قَلْبُهُ مَعْ غَيْرِهِ كَيْفَ حالُهُ　　وَمَنْ سِرُّهُ فِي جَفْنِهِ كَيْفَ يَكْتُمُ

وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (أكثرُ الناسِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بعداً أكثرُهُمْ إشارةً بهِ)[2] ، كأنَّهُ أرادَ مَنْ يكثرُ التعريضَ بهِ في كلِّ شيءٍ ، ويظهرُ التصنُّعَ بذكرِهِ عندَ كلِّ أحدٍ ، فهوَ ممقوتٌ عندَ المحبِّينَ والعلماءِ باللهِ عزَّ وجلَّ .

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٨١/٤) .

(٢) طبقات الصوفية (ص ٧٣) ، قوت القلوب (٦٧/٢) .

ودخلَ ذو النونِ المصريُّ علىٰ بعضِ إخوانِهِ ممَّنْ كانَ يذكرُ المحبَّةَ ، فرآهُ مبتلىً ببلاءٍ ، فقالَ : لا يحبُّهُ مَنْ وجدَ ألمَ ضربِهِ ، فقالَ الرجلُ : لـٰكنِّي أقولُ : لا يحبُّهُ مَنْ لمْ يتنعَّمْ بضربِهِ ، فقالَ ذو النونِ : ولـٰكنِّي أقولُ : لا يحبُّهُ مَنْ شهرَ نفسَهُ بحبِّهِ ، فقالَ الرجلُ : أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ(١)

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : المحبَّةُ منتهى المقاماتِ ، وإظهارُها إظهارٌ للخيرِ ، فلماذا يُستنكرُ ؟

فاعلمْ : أنَّ المحبَّةَ محمودةٌ ، وظهورُها محمودٌ أيضاً ، وإنَّما المذمومُ التظاهرُ بها ؛ لما يدخلُ فيهِ مِنَ الدعوىٰ والاستكبارِ ، وحقُّ المحبِّ أنْ ينمَّ علىٰ حبِّهِ الخفيِّ أفعالُهُ وأحوالُهُ دونَ أقوالِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يظهرَ حبُّهُ مِنْ غيرِ قصدٍ منهُ إلىٰ إظهارِ الحبِّ ، ولا إلىٰ إظهارِ الفعلِ الدالِّ على الحبِّ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ قصدُ المحبِّ اطلاعَ الحبيبِ فقطْ ، فأمَّا إرادتُهُ اطلاعَ غيرِهِ . . فشركٌ في الحبِّ ، وقادحٌ فيهِ ؛ كما وردَ في الإنجيلِ : (إذا تصدقتَ . . فتصدَّقْ بحيثُ لا تعلمُ شمالُكَ ما صنعَتْ يمينُكَ ، فالذي يرى الخفيَّاتِ يجزيكَ بهِ علانيةً ، وإذا صمتَ . . فاغسلْ وجهَكَ وادهنْ رأسَكَ ؛ لئلا يعلمَ بذٰلكَ غيرُ ربِّكَ)(٢)

فإظهارُ القولِ والفعلِ كلُّهُ مذمومٌ ، إلا إذا غلبَ سكرُ الحبِّ فانطلقَ اللسانُ واضطربَتِ الأعضاءُ . . فلا يلامُ فيهِ صاحبُهُ .

حُكِيَ أنَّ رجلاً رأىٰ مِنْ بعضِ المجانينِ ما استجهلَهُ فيهِ(٣) ، فأخبرَ بذٰلكَ معروفاً الكرخيَّ رحمهُ اللهُ ، فتبسَّمَ ثمَّ قالَ : يا أخي ؛ لهُ محبُّونَ صغارٌ وكبارٌ ، وعقلاءُ ومجانينُ ، فهـٰذا الذي رأيتَهُ مِنْ مجانينِهِمْ(٤)

وممَّا يكرهُ التظاهرُ بالحبِّ بسببِهِ : أنَّ المحبَّ إنْ كانَ عارفاً ، وعرفَ أحوالَ الملائكةِ في حبِّهِمُ الدائمِ وشوقِهِمُ اللازمِ ، الذي بهِ يسبِّحونَ الليلَ والنهارَ لا يفترونَ ، ولا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمرونَ . . لاستنكفَ مِنْ نفسِهِ ومِنْ إظهارِ حبِّهِ ، وعلمَ قطعاً أنَّهُ أخسُّ المحبينَ في مملكتِهِ ، وأنَّ حبَّهُ أنقصُ مِنْ حبِّ كلِّ محبٍّ للهِ تعالىٰ .

قالَ بعضُ المكاشفينَ مِنَ المحبِّينَ : عبدتُ اللهَ تعالىٰ ثلاثينَ سنةً بأعمالِ القلوبِ والجوارحِ علىٰ بذلِ المجهودِ واستفراغِ الطاقةِ ، حتَّىٰ ظننتُ أنَّ لي عندَ اللهِ شأناً ، فذكرَ أشياءَ مِنْ مكاشفاتِ آياتِ السماواتِ في قصَّةٍ طويلةٍ قالَ في آخرِها : فبلغتُ صفّاً مِنَ الملائكةِ بعددِ جميعِ ما خلقَ اللهُ مِنْ شيءٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتمْ ؟ فقالوا : نحنُ المحبُّونَ للهِ عزَّ وجلَّ ، نعبدُهُ ها هنا منذُ ثلاثِ مئةِ ألفِ سنةٍ ، ما خطرَ علىٰ قلوبِنا قطُّ سواهُ ، ولا ذكرنا غيرَهُ ، قالَ : فاستحييتُ مِنْ أعمالي ، فوهبتُها لمَنْ حقَّ عليهِ الوعيدُ تخفيفاً عنهُمْ في جهنَّمَ(٥) .

فإذاً ؛ مَنْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ ، واستحيا منهُ حقَّ الحياءِ . . خرِسَ لسانُهُ عنِ التظاهرِ بالدعوىٰ .

نعمْ ؛ يشهدُ علىٰ حبِّهِ حركاتُهُ وسكناتُهُ وإقدامُهُ وإحجامُهُ وتردداتُهُ ؛ كما حُكِيَ عنِ الجنيدِ أنَّهُ قالَ : مرضَ أستاذُنا

---

(١) قوت القلوب (٦٧/٢) .

(٢) وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٣٦/١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (إذا أصبح أحدكم صائماً . . فليترجَّل ، وإذا تصدق بصدقة بيمينه . . فليخفها عن شماله ، وإذا صلىٰ صلاة أو صلىٰ تطوعاً . . فليصلها في داخله) .

(٣) كذا في النسخ : (استجهله فيه) ، وفي (ق) : (استجلَّهُ فيه) .

(٤) قوت القلوب (٦٧/٢) .

(٥) قوت القلوب (٦٨/٢) .

السريُّ رحمهُ اللهُ ، فلمْ نعرفْ لعلَّتِهِ دواءً ، ولا عرفنا لها سبباً ، فوُصفَ لنا طبيبٌ حاذقٌ ، فأخذنا قارورةَ مائِهِ ، فنظرَ إليهِ الطبيبُ وجعلَ ينظرُ ملياً ، ثمَّ قالَ لي : أراهُ بولَ عاشقٍ ، قالَ الجنيدُ : فصعقتُ وغُشيَ عليَّ ، ووقعتِ القارورةُ مِنْ يدي ، ثمَّ رجعتُ إلى السريِّ فأخبرتُهُ ، فتبسَّمَ ثمَّ قالَ : قاتلَهُ اللهُ ما أبصرَهُ !! قلتُ : يا أستاذُ ؛ وتبينُ المحبةُ في البولِ ؟ قالَ : نعمْ .

وقدْ قالَ السريُّ مرَّةً : (لوْ شئتُ أقولُ : ما أيبسَ جلدي علىٰ عظمي ، ولا سلَّ جسمي إلا حبُّهُ) ، ثمَّ غُشِيَ عليهِ[1] .

وتدلُّ الغشيةُ علىٰ أنَّهُ أفصحَ في غلبةِ الوجدِ ومقدماتِ الغشيةِ .

فهٰذهِ مجامعُ علاماتِ الحبِّ وثمراتِهِ .

❀ ❀ ❀

ومنها : الأنسُ والرضا : كما سيأتي .

وبالجملةِ : جميعُ محاسنِ الدينِ ومكارمِ الأخلاقِ ثمرةُ الحبِّ ، وما لا يثمرُهُ الحبُّ فهوَ اتِّباعُ الهوىٰ ، وهوَ مِنْ رذائلِ الأخلاقِ .

نعمْ ؛ قدْ يحبُّ اللهَ لإحسانِهِ إليهِ ، وقدْ يحبُّهُ لجلالِهِ وجمالِهِ وإنْ لمْ يحسنْ إليهِ ، والمحبُّونَ لا يخرجونَ عنْ هٰذينِ القسمينِ .

ولذٰلكَ قالَ الجنيدُ : (الناسُ في محبةِ اللهِ تعالىٰ عامٌّ وخاصٌّ ، فالعوامُّ نالوا ذٰلكَ بمعرفتِهِمْ في دوامِ إحسانِهِ وكثرةِ نعمِهِ ، فلمْ يتمالكوا أنْ أرضَوهُ ، إلا أنَّهُمْ تقلُّ محبتُهُمْ وتكثرُ علىٰ قدْرِ النعمِ والإحسانِ ، فأمَّا الخاصَّةُ . . فنالوا المحبَّةَ بعظمِ القدرِ والقدرةِ والعلمِ والحكمةِ والتفرُّدِ بالملكِ ، ولمَّا عرفوا صفاتِهِ الكاملةَ وأسماءَهُ الحسنىٰ . . لمْ يمتنعوا أنْ أحبُّوهُ ؛ إذِ استحقَّ عندَهُمُ المحبَّةَ بذٰلكَ لأنَّهُ أهلٌ لها ولوْ أزالَ عنهُمْ جميعَ النعمِ .

نعمْ ؛ مِنَ الناسِ مَنْ يحبُّ هواهُ وعدوَّ اللهِ إبليسَ ، وهوَ معَ ذٰلكَ يلبِّسُ علىٰ نفسِهِ بحكمِ الغرورِ والجهلِ ، فيظنُّ أنَّهُ محبٌّ للهِ عزَّ وجلَّ)[2] ، وهو الذي فُقدَتْ فيهِ هٰذهِ العلاماتُ ، أوْ يلبِّسُ بها نفاقاً ورياءً وسمعةً وغرضُهُ عاجلُ حظِّ الدنيا ، وهوَ يظهرُ مِنْ نفسِهِ خلافَ ذٰلكَ ؛ كعلماءِ السوءِ وقرَّاءِ السوءِ ، أولٰئكَ بغضاءُ اللهِ في أرضِهِ .

وكانَ سهلٌ إذا تكلَّمَ معَ إنسانٍ . . قالَ : يا دُوستُ[3] ـ أيْ : يا حبيبُ ـ فقيلَ لهُ : قدْ لا يكونُ حبيباً ، فكيفَ تقولُ هٰذا ؟! فقالَ في أذنِ القائلِ سرّاً : لا يخلو إمَّا أنَّ يكونَ مؤمناً أوْ منافقاً ، فإنْ كانَ مؤمناً . . فهوَ حبيبُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإنْ كانَ منافقاً . . فهوُ حبيبُ إبليسَ[4]

وقدْ قالَ أبو ترابٍ النخشبيُّ في علاماتِ المحبَّةِ أبياتاً ، وهيَ[5] : [من الكامل]

لا تُخْدَعَنَّ فَلِلْمُحِبِّ دَلائِلُ ... وَلَدَيهِ مِنْ تُحَفِ الْحَبِيبِ وَسائِلُ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٨٧) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (٨٢/٢) .

(٣) لفظة فارسية

(٤) قوت القلوب (٨٢/٢) .

(٥) قوت القلوب (٦٣/٢) .

مِـنْـهـا تَـنَـعُّـمُـهُ بِـمُـرِّ بَـلائِـهِ وَسُـرُورُهُ فِـي كُـلِّ مـا هُـوَ فـاعِـلُ
فَـالْـمَـنْـعُ مِـنْـهُ عَـطِـيَّـةٌ مَـقْـبُـولَـةٌ وَالْـفَـقْـرُ إِكْـرامٌ وَبِـرٌّ عـاجِـلُ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ أَنْ يُـرَىٰ مِـنْ عَـزْمِـهِ طـوعَ الْـحَـبِـيـبِ وَإِنْ أَلَـحَّ الْـعَـاذِلُ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ أَنْ يُـرَىٰ مُـتَـبَـسِّـمـاً وَالْـقَـلْـبُ فِـيـهِ مِـنَ الْـحَـبِـيـبِ بَـلابِـلُ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ أَنْ يُـرَىٰ مُـتَـفَـهِّـمـاً لِـكَـلامِ مَـنْ يَـحْـظـىٰ لَـدَيـهِ الـسَّـائِـلُ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ أَنْ يُـرَىٰ مُـتَـقَـشِّـفـاً مُـتَـحَـفِّـظـاً مِـنَ كُـلِّ مَـا هُـوَ قَـائِـلُ

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ[1] : [من الكامل]

وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ مُـشَـمِّـراً فِـي خِـرْقَـتَـيـنِ عَـلَـىٰ شُـطـوطِ الـسَّـاحِـلِ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ حُـزْنُـهُ وَنَـحِـيـبُـهُ جَـوْفَ الـظَّـلامِ فَـمـا لَـهُ مِـنْ عـاذِلِ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ مُـسـافِـراً نَـحْـوَ الْـجِـهَـادِ وَكُـلِّ فِـعْـلٍ فَـاضِـلِ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ زُهْـدُهُ فِـيـمـا يَـرَىٰ مِـنْ دارِ ذُلٍّ وَالـنَّـعِـيـمِ الـزَّائِـلِ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ بـاكِـيـاً أَنْ قَـدْ رَآهُ عَـلَـىٰ قَـبِـيـحِ فعـائـلِ[2]
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ مُـسَـلِّـمـاً كُـلَّ الأُمُـورِ إِلَـى الْـمَـلِـيـكِ الْـعـادِلِ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ راضِـيـاً بِـمَـلِـيـكِـهِ فِـي كُـلِّ حُـكْـمٍ نـازِلِ
وَمِـنَ الـدَّلائِـلِ ضِـحْـكُـهُ بَـيْـنَ الْـوَرَىٰ وَالْـقَـلْـبُ مَـحْـزُونٌ كَـقَـلْـبِ الـثـاكِـلِ

❋ ❋ ❋

(١) قوت القلوب (٢/٦٣) .
(٢) في غير (ع) : (فاعل) بدل (فعائل) ، وفي (ب) : (باطل) .

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قدْ ذكرنا أنَّ الأنسَ والخوفَ والشوقَ مِنْ آثارِ المحبَّةِ ، إلا أنَّ هٰذهِ آثارٌ مختلفةٌ ، تختلفُ على المحبِّ بحسَبِ نظرِهِ ، ومايغلبُ عليهِ في وقتِهِ ، فإذا غلبَ عليهِ التطلُّعُ مِنْ وراءِ حجبِ الغيبِ إلىٰ منتهى الجمالِ ، واستشعرَ قصورَهُ عنِ الاطلاعِ علىٰ كنْهِ الجلالِ . . انبعثَ القلبُ إلى الطلبِ ، وانزعجَ لهُ ، وهاجَ إليهِ ، وتُسمَّىٰ هٰذهِ الحالةُ في الانزعاجِ **شوقاً** ، وهوَ بالإضافةِ إلىٰ أمرٍ غائبٍ .

وإذا غلبَ عليهِ الفرحُ بالقربِ ، ومشاهدةُ الحضورِ بما هوَ حاصلٌ مِنَ الكشفِ ، وكانَ نظرُهُ مقصوراً علىٰ مطالعةِ الجمالِ الحاضرِ المكشوفِ ، غيرَ ملتفتٍ إلىٰ ما لم يدركْهُ بعدُ . . استبشرَ القلبُ بما يلاحظُهُ ، فيُسمَّى استبشارُهُ **أُنساً** .

وإنْ كانَ نظرُهُ إلىٰ صفاتِ العزِّ ، والاستغناءِ وعدمِ المبالاةِ ، وخطرِ إمكانِ الزوالِ والبعدِ . . تألَّمَ القلبُ بهٰذا الاستشعارِ ، فيُسمَّىٰ تألُّمُهُ **خوفاً** .

وهٰذهِ الأحوالُ تابعةٌ لهٰذهِ الملاحظاتِ ، والملاحظاتُ تابعةٌ لأسبابٍ تقتضيها لا يمكنُ حصرُها ، **فالأنسُ** : معناهُ استبشارُ القلبِ وفرحُهُ بمطالعةِ الجمالِ ، حتَّىٰ إنَّهُ إذا غلبَ ، وتجرَّدَ عنْ ملاحظةِ ما غابَ عنهُ ، وما يتطرَّقُ إليهِ مِنْ خطرِ الزوالِ . . عظمَ نعيمُهُ ولذَّتُهُ .

ومِنْ هنا نظرَ بعضُهُمْ حيثُ قيلَ لهُ : أنتَ مشتاقٌ ؟ فقالَ : لا ، إنَّما الشوقُ إلىٰ غائبٍ ، فإذا كانَ الغائبُ حاضراً . . فإلىٰ مَنْ يُشتاقُ ؟! [1]

وهٰذا كلامُ مستغرقٍ بالفرحِ بما نالَهُ ، غيرِ ملتفتٍ إلىٰ ما بقيَ في الإمكانِ مِنْ مزايا الألطافِ .

ومَنْ غلبَ عليهِ حالُ الأنسِ . . لمْ تكنْ شهوتُهُ إلا في الانفرادِ والخلوةِ ، كما حُكِيَ أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ نزلَ مِنَ الجبلِ ، فقيلَ لهُ : مِنْ أينَ أقبلتَ ؟ فقالَ : مِنَ الأنسِ باللهِ [2]

وذٰلكَ لأنَّ الأنسَ باللهِ يلازمُهُ التوحُّش مِنْ غيرِ اللهِ ، بلْ كلُّ ما يعوِّقُ عنِ الخلوةِ فيكونُ مِنْ أثقلِ الأشياءِ على القلبِ ، كما رُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا كلَّمَهُ ربُّهُ . . مكثَ دهراً لا يسمعُ كلامَ أحدٍ مِنَ الناسِ إلا أخذَهُ الغشيانُ [3] ؛ لأنَّ الحبَّ يُوجبُ عذوبةَ كلامِ المحبوبِ وعذوبةَ ذكرِهِ ، فيخرجُ مِنَ القلبِ عذوبةَ ما سواهُ .

ولذٰلكَ قالَ بعضُ الحكماءِ في دعائِهِ : (يا مَنْ آنسَني بذكرِهِ ، وأوحشَني مِنْ خلقِهِ) [4]

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لداوودَ عليهِ السلامُ : (كُنْ لي مشتاقاً ، وبي مستأنساً ، ومِنْ سوايَ مستوحشاً) [5]

وقيلَ لرابعةَ : بِمَ نلتِ هٰذهِ المنزلةَ ؟ قالَتْ : بتركي ما لا يعنيني ، وأُنسي بمَنْ لمْ يزلْ [6]

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٠) .

(٣) في (ع ، ص) : (أخذه الغثيان) بدل (أخذه الغشيان) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٠٧) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٠٧) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٠٧)

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ براهبٍ فقلتُ لهُ : يا راهبُ ؛ لقدْ أعجبَتْكَ الوحدةُ ؟ فقالَ : يا هـٰذا ، لوْ ذقتَ حلاوةَ الوحدةِ . . لاستوحشتَ إليها مِنْ نفسِكَ ، الوحدةُ رأسُ العبادةِ ، قلتُ : يا راهبُ ؛ ما أقلُّ ما تجدُ في الوحدةِ ؟ قالَ : الراحةُ مِنْ مداراةِ الناسِ ، والسلامةُ مِنْ شرِّهِمْ ، قلتُ : يا راهبُ ؛ متَىٰ يذوقُ العبدُ حلاوةَ الأنسِ باللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : إذا صفا الوُدُّ ، وخلصَتِ المعاملةُ ، قلتُ : ومتىٰ يصفُو الودُّ ؟ قالَ : إذا اجتمعَ الهمُّ فصارَ همّاً واحداً في الطاعةِ [1]

وقالَ بعضُ الحكماءِ : عجباً للخلائقِ كيفَ أرادوا بكَ بدلاً !! عجباً للقلوبِ كيفَ استأنسَتْ بسواكَ عنكَ !!

* * *

فإنْ قلتَ : فما علامةُ الأنسِ ؟

فاعلمْ : أنَّ علامتَهُ الخاصَّةَ ضيقُ الصدرِ مِنْ معاشرةِ الخلقِ ، والتبرُّمُ بهِمْ ، واستهتارُهُ بعذوبةِ الذكرِ ، فإنْ خالطَ . . فهوَ كمنفردٍ في جماعةٍ ، ومجتمعٍ في خلوةٍ ، وغريبٍ في حضرٍ ، وحاضرٍ في سفرٍ ، وشاهدٍ في غيبةٍ ، وغائبٍ في حضورٍ ، مخالطٌ بالبدنِ منفردٌ بالقلبِ ، مستغرقٌ بعذوبةِ الذكرِ ، كما قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ في وصفِهِمْ : (هُمْ قومٌ هجمَ بهِمُ العلمُ علىٰ حقيقةِ الأمرِ ، فباشروا روحَ اليقينِ ، واستلانوا ما استوعرَ المترفونَ ، وأنسوا بما استوحشَ منهُ الجاهلونَ ، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلقةٌ بالمحلِّ الأعلىٰ ، أولـٰئكَ خلفاءُ اللهِ في أرضِهِ ، والدعاةُ إلىٰ دينِهِ) [2]

فهـٰذا معنى الأنسِ باللهِ ، وهـٰذهِ علامتُهُ ، وهـٰذهِ شواهدُهُ .

وقدْ ذهبَ بعضُ المتكلِّمينَ إلىٰ إنكارِ الأنسِ والشوقِ والحبِّ ؛ لظنِّهِ أنَّ ذلكَ يدلُّ على التشبيهِ ، وجهلِهِ بأنَّ جمالَ المدركاتِ بالبصائرِ أكملُ مِنْ جمالِ المبصراتِ ، ولذَّةَ معرفتِها أغلبُ علىٰ ذوي القلوبِ ، ومنهُمْ أحمدُ بنُ غالبٍ ، ويُعرفُ بغلامِ الخليلِ ، أنكرَ على الجنيدِ وعلىٰ أبي الحسينِ النوريِّ والجماعةِ حديثَ الحبِّ والشوقِ والعشقِ [3] ، حتَّىٰ أنكرَ بعضُهُمْ مقامَ الرضا وقالَ : ليسَ إلا الصبرَ ، فأمَّا الرضا . . فغيرُ متصوَّرٍ ، وهـٰذا كلُّهُ كلامُ ناقصٍ قاصرٍ ، لمْ يطلعْ مِنْ مقاماتِ الدينِ إلا على القشورِ ، فظنَّ أنَّهُ لا وجودَ إلا للقشرِ ، فإنَّ المحسوساتِ وكلَّ ما يدخلُ في الخيالِ في طريقِ الدينِ قشرٌ مجرَّدٌ ، ووراءَهُ اللبُّ المطلوبُ ، فمَنْ لمْ يصلْ مِنَ الجوزِ إلا إلىٰ قشرِهِ . . يظنُّ أنَّ الجوزَ خشبٌ كلُّهُ ، ويستحيلُ عندَهُ خروجُ الدهنِ منهُ لا محالةَ ، وهو معذورٌ ، ولـٰكنَّ عذرَهُ غيرُ مقبولٍ ، وقدْ قيلَ [4] : [من البسيط]

الأُنْـــسُ بـــاللهِ لا يَـحْـويــهِ بَـطَّـالُ ... وَلَـيْـسَ يُـدْرِكُـهُ بـالْـحَـوْلِ مُـحْـتـالُ

والآنِـسُــونَ رِجــالٌ كُــلُّـهُـمْ نُـجُـبٌ ... وَكُــلُّــهُــمْ صَــفْــوَةٌ للهِ عُــمَّــالُ

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٧/١٠) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣١١) .

(٣) قوت القلوب (٦٤/٢) ، وفتنته تعرف بمحنة الصوفية ، حتىٰ رُفع أمرهم إلى القتل ، وتقدم تعليقاً ذكر قصتهم . وانظر « الحلية » (٢٥٠/١٠) .

(٤) قوت القلوب (٦٤/٢) عن بعض العارفين .

بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس

اعلمْ : أنَّ الأنسَ إذا دامَ وغلبَ واستحكمَ ، ولمْ يشوشْهُ قلقُ الشوقِ ، ولمْ ينغصْهُ خوفُ التغيُّرِ والحجابِ . . فإنَّهُ يثمرُ نوعاً مِنَ الانبساطِ في الأقوالِ والأفعالِ والمناجاةِ معَ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ يكونُ منكرَ الصورةِ لما فيهِ مِنَ الجراءةِ وقلَّةِ الهيبةِ ، ولكنَّهُ محتملٌ ممَّنْ أُقيمَ في مقامِ الأنسِ ، ومَنْ لمْ يقمْ في ذٰلكَ المقامِ ، ويتشبَّهُ بهِمْ في الفعلِ والكلامِ . . هلكَ بهِ وأشرفَ على الكفرِ .

ومثالُهُ : مناجاةُ بُرْخٍ الأسودِ الذي أمرَ اللهُ تعالىٰ كليمَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ أن يسألَهُ ليستسقيَ لبني إسرائيلَ بعدَ أنْ قحطوا سبعَ سنينَ ، وخرجَ موسىٰ عليهِ السلامُ يستسقي لهُمْ في سبعينَ ألفاً ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : كيفَ أستجيبُ لهُمْ وقدْ أظلمَتْ عليهِمْ ذنوبُهُمْ ، سرائرُهُمْ خبيثةٌ ، يدعونَني علىٰ غيرِ يقينٍ ، ويأمنونَ مكري ، ارجع إلىٰ عبدٍ مِنْ عبادي يُقالُ لهُ : بُرْخٌ ، فقلْ لهُ يخرجُ حتَّىٰ أستجيبَ لهُ ، فسألَ عنهُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فلمْ يُعرفْ ، فبينا موسىٰ ذاتَ يومٍ يمشي في طريقٍ إذا بعبدٍ أسودَ قدِ استقبلَهُ بينَ عينيهِ ترابٌ مِنْ أثرِ السجودِ ، في شملةٍ قدْ عقدَها علىٰ عنقِهِ ، فعرفَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ بنورِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فسلَّمَ عليه وقالَ لهُ : ما اسمُكَ ؟ فقالَ : اسمي بُرْخٌ ، قالَ : فأنتَ طَلِبَتُنا منذُ حينٍ ، اخرجْ فاستسقِ لنا ، فخرجَ ، فقالَ في كلامِهِ : ما هٰذا مِنْ فعالِكَ !! ولا هٰذا مِنْ حلمِكَ !! وما الذي بدا لكَ ؟! أنقصَتْ عليك عيونُكَ ؟![1] أمْ عاندَتِ الرياحُ عنْ طاعتِكَ ؟! أمْ نفدَ ما عندَك ؟! أمِ اشتدَّ غضبُكَ على المذنبينَ ؟! ألستَ كنتَ غفّاراً ؟! قبلَ خلقِ الخطَّائينَ خلقتَ الرحمةَ ، وأمرتَ بالعطفِ ، أمْ ترينا أنَّكَ ممتنعٌ ؟! أمْ تخشى الفوتَ فتعجلَ بالعقوبةِ ؟! قالَ : فما برحَ حتَّى اخضلَّتْ بنو إسرائيلَ بالقطرِ ، وأنبتَ اللهُ تعالى العشبَ في نصفِ يومٍ حتَّىٰ بلغَ الرُّكَبَ ، قالَ : فرجعَ بُرْخٌ ، فاستقبلَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ فقالَ : كيفَ رأيتَ حينَ خاصمتُ ربِّي كيفَ أنصفَني ، فهمَّ بهِ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّ بُرْخاً يضحكُني كلَّ يومٍ ثلاثَ مرَّاتٍ[2]

وعنِ الحسنِ قالَ : احترقَتْ أخصاصٌ بالبصرةِ ، فبقيَ في وسطِها خصٌّ لمْ يحترقْ ، وأبو موسىٰ يومئذٍ أميرُ البصرةِ ، فأُخبرَ بذٰلكَ ، فبعثَ إلىٰ صاحبِ الخُصِّ ، قالَ : فأُتيَ بشيخٍ ، فقالَ : يا شيخُ ؛ ما بالُ خُصِّكَ لمْ يحترقْ ؟ قالَ : إنِّي أقسمتُ علىٰ ربِّي عزَّ وجلَّ ألا يحرقَهُ ، فقالَ أبو موسىٰ رضيَ اللهُ عنهُ : إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يكونُ في أمَّتي قومٌ شعثةٌ رؤوسُهُمْ ، دنسةٌ ثيابُهُمْ ، لوْ أقسموا على اللهِ . . لأبرَّهُمْ »[3]

قالَ : ووقعَ حريقٌ بالبصرةِ ، فجاءَ أبو عبيدةَ الخوَّاصُ فجعلَ يتخطَّى النارَ ، فقالَ لهُ أميرُ البصرةِ : انظرْ ، لا تحترقْ بالنارِ !! فقالَ : إنِّي أقسمتُ علىٰ ربِّي عزَّ وجلَّ ألا يحرقَني بالنارِ ، قالَ : فاعزمْ عليها أنْ تطفأَ ، قالَ : فعزمَ عليها ، فطفئَتْ[4]

وكانَ أبو حفصٍ يمشي ذاتَ يومٍ ، فاستقبلَهُ رستاقيٌّ مدهوشٌ ، فقالَ لهُ أبو حفصٍ : ما أصابَكَ ؟ فقالَ : ضلَّ حماري

(١) في (ب) : (أنقضت عليك عهودك) ، وفي « القوت » (٢/٦٥) : (غيوثك) وهي كذٰلك في (ف) .

(٢) يشير إلىٰ أنه من ضنائن أوليائه . « إتحاف » (٩/٦٤١) ، والخبر عند صاحب « القوت » (٢/٦٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٤٢) ، والمرفوع من حديثه عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٥٧٨) ، ولفظ المصنف عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٥٩٢) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٥٩٢) .

ولا أملكُ غيرَهُ ، قالَ : فوقفَ أبو حفصٍ وقالَ : وعزَّتِكَ لا أخطو خطوةً ما لمْ تردَّ عليهِ حمارَهُ ، قالَ : فظهرَ الحمارُ في الوقتِ ، ومرَّ أبو حفصٍ رحمَهُ اللهُ[1]

فهـٰذا وأمثالُهُ يجري لذوي الأنسِ وليسَ لغيرِهِمْ أن يتشبَّهَ بهِمْ .

قالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (أهلُ الأنسِ يقولونَ في كلامِهِمْ ومناجاتِهِمْ في خلواتِهِمْ أشياءَ هيَ كفرٌ عندَ العامَّةِ) ، وقالَ مرَّةً : (لو سمعَها العمومُ . . لكفَّروهُمْ) ، وهمْ يجدونَ المزيدَ في أحوالِهِمْ بذٰلكَ ، وذٰلكَ محتمَلٌ منهُمْ ويليقُ بهِمْ ، وإليهِ أشارَ القائلُ : [من البسيط]

قَــوْمٌ تَـخـالُـجُـهُـمْ زَهْــوٌ بِـسَـيِّـدِهِـمْ ... والْـعَـبْـدُ يَـزْهُـو عَـلَـىٰ مِـقْـدارِ مَـوْلاهُ

تــاهُــوا بِــرُؤْيَــتِــهِ عَــمَّــا سِــواهُ لَــهُ ... يـا حُـسْـنَ رُؤْيَـتِـهِـمْ فـي عِـزِّ مـا تـاهُـوا

ولا تستبعدَنْ رضاهُ عنِ العبدِ بما يغضبُ بهِ علىٰ غيرِهِ مهما اختلفَ مقامُهُما ، ففي القرآنِ تنبيهاتٌ علىٰ هـٰذهِ المعاني لوْ فطنتَ وفهمتَ ، فجميعُ قصصِ القرآنِ تنبيهاتٌ لأولي البصائرِ والأبصارِ ؛ حتَّىٰ ينظروا إليها بعينِ الاعتبارِ ، وإنَّما هيَ عندَ ذوي الاغترارِ مِنَ الأسمارِ .

فأوَّلُ القصصِ قصَّةُ آدمَ عليهِ السلامُ وإبليسَ ، أما تراهُما كيفَ اشتركا في اسمِ المعصيةِ والمخالفةِ ، ثُمَّ تباينا في الاجتباءِ والعصمةِ ؛ أما إبليسُ . . فأبلسَ منْ رحمةِ اللهِ[2] ، وقيلَ : إنَّهُ مِنَ المبعدينَ ، وأمَّا آدمُ عليهِ السلامُ . . فقيلَ فيهِ : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾

وقد عاتبَ اللهُ تعالىٰ نبيَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الإعراضِ عنْ عبدٍ والإقبالِ علىٰ عبدٍ وهما في العبوديَّةِ سيَّانِ ، ولـٰكنْ في الحالِ مختلفانِ ، فقالَ : ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۞ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۞ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ ، وقالَ في الآخرِ : ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۞ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ .

وكذٰلكَ أمرَهُ بالقعودِ معَ طائفةٍ فقالَ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، وأمرَهُ بالإعراضِ عنْ غيرِهِمْ فقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ حتىٰ قالَ : ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ .

فكذا الانبساطُ والإدلالُ يُحتملُ مِنْ بعضِ العبادِ دونَ بعضٍ .

فمِنِ انبساطِ الأنسِ قولُ موسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ ، وقولُهُ في التعلُّلِ والاعتذارِ لمَّا قيلَ لهُ : اذهبْ إلىٰ فرعونَ ، فقالَ : ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ ، وهـٰذا مِنْ غيرِ موسىٰ عليهِ السلامُ مِنْ سوءِ الأدبِ ؛ لأنَّ الذي أُقيمَ مقامَ الأنسِ يُلاطفُ ويُحتملُ .

ولمْ يُحتملْ ليونسَ عليهِ السلامُ ما دونَ هـٰذا لما أُقيمَ مقامَ القبضِ والهيبةِ ، فعُوقبَ بالسجنِ في بطنِ الحوتِ في ظلماتٍ ثلاثٍ ، ونُوديَ عليهِ إلىٰ يومِ الحشرِ : ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ ، قالَ الحسنُ : (العراءُ :

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٥٩٣) .

(٢) أبلس هنا : يئس .

هوَ القيامةُ)[١] ، ونُهيَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يقتديَ بهِ وقيلَ لهُ : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ .

وهٰذهِ الاختلافاتُ بعضُها لاختلافِ الأحوالِ والمقاماتِ ، وبعضُها لما سبقَ في الأزلِ مِنَ التفاضلِ والتفاوتِ في القسمةِ بينَ العبادِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، وقالَ : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، فكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ مِنَ المفضَّلينَ ، ولإدلالِهِ سلَّمَ علىٰ نفسِهِ فقالَ : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ، وهٰذا انبساطٌ منهُ لما شاهدَ مِنَ اللطفِ في مقامِ الأنسِ ، وأمَّا يحيى بنُ زكريا عليهِما السلامُ . . فإنَّهُ أُقيمَ مقامَ الهيبةِ والحياءِ ، فلمْ ينطقْ حتَّىٰ أثنىٰ عليهِ خالقُهُ فقالَ : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ .

وانظرْ كيفَ احتملَ لإخوةِ يوسفَ عليهِ السلامُ ما فعلوهُ بيوسفَ ، وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : (قدْ عددتُ مِنْ أوَّلِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ إلىٰ رأسِ العشرينَ مِنْ إخبارهِ تعالىٰ عنْ زهدِهِمْ فيهِ نيفاً وأربعينَ خطيئةً ، بعضُها أكبرُ مِنْ بعضٍ ، وقدْ يجتمعُ في الكلمةِ الواحدةِ الثلاثُ والأربعُ ، فغفرَ لهُمْ وعفا عنهُمْ ، ولمْ يحتملْ لعزيرٍ مسألةً واحدةً سألَ عنها في القدرِ ، حتَّىٰ قيلَ : مُحيَ مِنْ ديوانِ النبوَّةِ)[٢]

وكذٰلكَ كانَ بلعمُ بن باعوراءَ مِنْ أكابرِ العلماءِ ، فأكلَ الدنيا بالدينِ ، فلمْ يُحتملْ لهُ ذٰلكَ وكانَ آصفُ مِنَ المسرفينَ ، وكانَتْ معصيتُهُ في الجوارحِ ، فعفا عنهُ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ سليمانَ عليهِ السلامُ : يا رأسَ العابدينَ ، ويا بنَ محجةِ الزاهدينَ ؛ إلىٰ كمْ يعصيني ابنُ خالتِكَ آصفُ وأنا أحلمُ عليهِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ ، فوعزتي وجلالي ؛ لئنْ أخذَتْهُ عطفةٌ مِنْ عطفاتي عليه . . لأتركنَّهُ مُثلةً لمَنْ معَهُ ، ونكالاً لمَنْ بعدَهُ ، فلمَّا دخلَ آصفُ علىٰ سليمانَ عليهِ السلامُ . . أخبرَهُ بما أوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ ، فخرجَ حتَّىٰ علا كثيباً مِنْ رملٍ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ ويديهِ نحوَ السماءِ وقالَ : إلٰهي وسيّدي ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، فكيفَ أتوبُ إنْ لم تتبْ عليَّ ، وكيفَ أستعصمُ ؛ إنْ لمْ تعصمْني . . لأعودَنْ ؟! فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : صدقتَ يا آصفُ ، أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، أستقبلُ التوبةَ إليَّ ، فقدْ تبتُ عليكَ ، وأنَا التَّوابُ الرحيمُ ، وهٰذا كلامُ مدلٍّ بهِ عليهِ ، وهاربٍ منهُ إليهِ ، وناظرٍ بهِ إليهِ[٣]

وفي الخبرِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عبدٍ تداركَهُ بعدَ أنْ كان أشفىٰ على الهَلَكَةِ : كمْ مِنْ ذنبٍ واجهتَني بهِ غفرتُهُ لكَ قدْ أهلكتُ في دونِهِ أمَّةً مِنَ الأممِ ؟![٤]

فهٰذهِ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ في عبادِهِ بالتفضيلِ ، والتقديمِ والتأخيرِ علىٰ ما سبقَتْ بهِ مشيئتُهُ الأزليَّةُ ، وهٰذهِ القصصُ وردَتْ في القرآنِ لتعرفَ بها سنَّةَ اللهِ في عبادِهِ الذينَ خلوا مِنْ قبلُ ، فما في القرآنِ شيءٌ إلا وهوَ هدىً ونورٌ ، وتعرُّفٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلىٰ خلقِهِ ، فتارةً يتعرَّفُ إليهِمْ بالتقديسِ فيقولُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ ، وتارةً يتعرَّفُ إليهِمْ بصفاتِ جلالِهِ فيقولُ : ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ ، وتارةً يتعرَّفُ إليهِمْ بأفعالِهِ المخوِّفةِ والمرجوَّةِ ، فيتلو عليهِمْ سنَّتَهُ في أنبيائِهِ وفي أعدائِهِ فيقولُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ .

---

(١) ولفظ « القوت » (٢/٦٤) ـ والسياق له ـ : (وقيل : عراء القيامة) .

(٢) سؤال عزير رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٥١) عن أبي عمران الجوني عن نوف قال : قال عزير فيما يناجي ربه عز وجل : تخلق خلقاً ؛ فتضل وتهدي من تشاء ، قال : فقيل : يا عزير ؛ أعرض عن هٰذا ، لتعرضن عن هٰذا أو لأمحونك من النبوة ، لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

(٣) قوت القلوب (٢/٦٥)

(٤) قوت القلوب (٢/٦٦) .

ولا يعدو القرآنُ هـٰذهِ الأقسامَ الثلاثةَ ؛ وهيَ الإرشادُ إلىٰ معرفةِ ذاتِ اللهِ تعالىٰ وتقديسِهِ ، أوْ معرفةِ صفاتِهِ وأسمائِهِ ، أوْ معرفةِ أفعالِهِ وسنَّتِهِ معَ عبادِهِ [1]

ولمَّا اشتملَتْ سورةُ (الإخلاصِ) علىٰ أحدِ هـٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ ؛ وهوَ التقديسُ . . وازنَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بثلثِ القرآنِ فقالَ : « مَنْ قرأَ سورةَ (الإخلاصِ) . . فقدْ قرأَ ثلثَ القرآنِ » [2] ؛ لأنَّ منتهى التقديسِ في أنْ يكونَ واحداً في ثلاثةِ أمورٍ : لا يكونُ حاصلاً منهُ مَنْ هوَ نظيرُهُ [3] وشبهُهُ ؛ ودلَّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَمۡ يَلِدۡ ﴾ ، ولا يكونُ هوَ حاصلاً ممَّنْ هوَ نظيرُهُ وشبهُهُ ؛ ودلَّ عليهِ قولُهُ : ﴿ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾ ، ولا يكونُ في درجتِهِ وإنْ لمْ يكنْ أصلاً لَهُ ولا فرعاً مَنْ هوَ مثلُهُ [4] ؛ ودلَّ عليهِ قوله : ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ ، ويجمعُ جميعَ ذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، وجملتُهُ تفصيلُ قولِكَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ .

فهـٰذهِ أسرارُ القرآنِ ، ولا تتناهىٰ أمثالُ هـٰذهِ الأسرارِ في القرآنِ ، ولا رطبَ ولا يابسَ إلا في كتابٍ مبينٍ .

ولذٰلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثوِّروا القرآنَ والتمسوا غرائبَهُ ، ففيهِ علمُ الأوَّلينَ والآخرينَ) [5] ، وهوَ كما قالَ ، ولا يعرفُهُ إلا مَنْ طالَ في آحادِ كلماتِهِ فكرُهُ ، وصفا لها فهمُهُ ، حتَّىٰ تشهدَ لهُ كلُّ كلمةٍ منهُ بأنَّهُ كلامُ جبَّارٍ قاهرٍ ، مليكٍ مقتدرٍ ، وأنَّهُ خارجٌ عنْ حدِّ استطاعةِ البشرِ .

وأكثرُ أسرارِ القرآنِ معبَّأةٌ في طيِّ القصصِ والأخبارِ ، فكنْ حريصاً على استنباطِها ؛ لينكشفَ لكَ فيها مِنَ العجائبِ ما تستحقرُ معَها العلومَ المزخرفةَ الخارجةَ عنها .

فهـٰذا ما أردنا ذكرَهُ مِنْ معنى الأنسِ والانبساطِ الذي هوَ ثمرتُهُ ، وبيانِ تفاوتِ عبادِ اللهِ فيهِ ، واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) ولذٰلك انقسم التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام : توحيد الذات ، وتوحيد الصفات ، وتوحيد الأفعال . « إتحاف » (٦٤٥/٩) .

(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٦) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وهو عن غيره عند البخاري (٥٠١٤) ، ومسلم (٨١١) بنحوه .

(٣) في غير (ب ، ص) : (نوعه) بدل (نظيره) .

(٤) والعبارة في (أ) : (ولا يكون له شبيه ونظير) أي : بعد نفي الأصل والفرع .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (١٣٥/٩) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٩٤) ولفظه : (من أراد العلم . . فليثور القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين) ، وقوله : (والتمسوا غرائبه) جاءت في المرفوع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كما رواه الحاكم في « المستدرك » (٩٣٤/٢) .

القول في معنى الرّضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

اعلمْ : أنَّ الرضا ثمرةٌ مِنْ ثمارِ المحبَّةِ ، وهوَ مِنْ أعلىٰ مقامات المقرَّبينَ ، وحقيقتُهُ غامضةٌ على الأكثرينَ ، وما يدخلُ عليهِ مِنَ التشابهِ والإيهامِ غيرُ منكشفٍ إلا لمَنْ علَّمَهُ اللهُ تعالى التأويلَ ، وفهَّمَهُ وفقَّهَهُ في الدينِ .

فقدْ أنكرَ منكرونَ تصوُّرَ الرضا بما يخالفُ الهوىٰ ، ثمَّ قالوا : إنْ أمكنَ الرضا بكلِّ شيءٍ لأنَّهُ فعلُ اللهِ . . فينبغي أن يرضىٰ بالكفرِ والمعاصي .

وانخدعَ بذٰلكَ قومٌ ، فرأَوُا الرضا بالفجورِ والفسقِ ، وتركِ الاعتراضِ والإنكارِ ؛ مِنْ بابِ التسليمِ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ .

ولوِ انكشفَتْ هٰذهِ الأسرارُ لمَنِ اقتصرَ علىٰ سماعِ ظواهرِ الشرعِ . . لما دعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ حيثُ قالَ : « اللهمَّ ؛ فقهْهُ في الدينِ ، وعلِّمْهُ التأويلَ »[1]

فلنبدأْ ببيانِ فضيلةِ الرضا ، ثمَّ بحكاياتِ أحوالِ الراضينَ ، ثم بذكر حقيقةِ الرضا وكيفيةِ تصوُّرِهِ فيما يخالفُ الهوىٰ ، ثمَّ نذكرُ ما يُظنُّ أنَّهُ مِنْ تمامِ الرضا وليسَ منهُ ؛ كتركِ الدعاءِ والسكوتِ على المعاصي .

❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (٢٦٦/١) .

بيان فضيلة الرضا

أمَّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ، ومنتهى الإحسانِ رضا اللهِ عنْ عبدِهِ ، وهوَ ثوابُ رضا العبدِ عَنِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فقدْ رفعَ اللهُ الرضا فوقَ جناتِ عدنٍ ؛ كما رفعَ ذكرَهُ فوقَ الصلاةِ حيثُ قالَ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فكما أنَّ مشاهدةَ المذكورِ في الصلاةِ أكبرُ مِنَ الصلاةِ . . فرضوانُ ربِّ الجنةِ أعلىٰ مِنَ الجنةِ ، بلْ هوَ غايةُ مطالبِ سكَّانِ الجنانِ ، وفي الحديثِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يتجلَّىٰ للمؤمنينَ ، فيقولُ : سلوني ، فيقولونَ : رضاكَ »[1] ، فسؤالُهُمُ الرضا بعدَ النظرِ نهايةُ التفضيلِ .

وأمَّا رضا العبدِ . . فسنذكرُ حقيقتَهُ .

وأمَّا رضوانُ اللهِ تعالىٰ عنِ العبدِ . . فهوَ بمعنىً آخرَ يقربُ ممَّا ذكرناهُ في حبِّ اللهِ للعبدِ ، ولا يجوزُ أنْ يُكشفَ عنْ حقيقتِهِ ، إذْ تقصرُ أفهامُ الخلقِ عنْ دركِهِ ، ومَنْ يقوىٰ عليهِ . . فيستقلُّ بإدراكِهِ مِنْ نفسِهِ .

وعلى الجملةِ : فلا رتبةَ فوقَ النظرِ إليهِ ، فإنَّما سألوا الرضا لأنَّهُ سببُ دوامِ النظرِ ، فكأنَّهُمْ رأَوا غايةَ الغاياتِ وأقصى الأمانيِّ لمَّا ظفروا بنعيمِ النظرِ ، فلمَّا أُمروا بالسؤالِ . . لم يسألوا إلا دوامَهُ ، وعلموا أنَّ الرضا هوَ سببُ دوامِ رفعِ الحجابِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ، قالَ بعضُ المفسرينَ فيهِ : يأتي أهلَ الجنَّةِ في وقتِ المزيدِ ثلاثُ تحفٍ مِنْ عند ربِّ العالمينَ ؛ إحداها : هديَّةٌ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ ليسَ عندَهُمْ في الجنانِ مثلُها ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، والثانيةُ : السلامُ عليهِمْ مِنْ ربِّهِمْ ، فيزيدُ ذلكَ على الهديةِ فضلاً ، وهوَ قولُهُ تعالىٰ ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ ، والثالثةُ : يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنِّي عنكُمْ راضٍ ، فيكونُ ذلكَ أفضلَ مِنَ الهديةِ والتسليمِ ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أيْ : مِنَ النعيمِ الذي هُمْ فيهِ[2] ، فهٰذا فضلُ رضا اللهِ تعالىٰ ، وهوَ ثمرةُ رضا العبدِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَ طائفةً مِنْ أصحابِهِ : « ما أنتُمْ ؟ » ، فقالوا : مؤمنونَ ، فقالَ : « ما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ » فقالوا : نصبرُ على البلاءِ ، ونشكرُ عندَ الرخاءِ ، ونرضىٰ بمواقعِ القضاءِ ، فقالَ : « مؤمنونَ وربِّ الكعبةِ »[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٩١) ، والطبراني في « الأوسط » (٢١٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خبر طويل ، وعند أبي يعلىٰ في « مسنده » (٤٢٢٨) من حديثه أيضاً وفيه : « ثم يقول : ماذا تريدون ؟ فيقولون : ربنا ؛ رضوانك » .

(٢) قوت القلوب (٢/٣٩) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٢٣) بنحوه .

وفي خبرٍ آخرَ أنَّهُ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حكماءُ علماءُ ، كادوا مِنْ فقهِهِمْ أنْ يكونوا أنبياءَ »[١]

وفي الخبرِ : « طوبىٰ لمَنْ هُدِيَ إلى الإسلامِ ، وكانَ رزقُهُ كفافاً ، ورضيَ بهِ »[٢]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ رضيَ مِنَ اللهِ تعالىٰ بالقليلِ مِنَ الرزقِ . . رضيَ اللهُ تعالىٰ منهُ بالقليلِ مِنَ العملِ »[٣]

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإنْ صبرَ . . اجتباهُ ، فإنْ رضيَ . . اصطفاهُ »[٤]

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . أنبتَ اللهُ تعالىٰ لطائفةٍ مِنْ أمَّتي أجنحةً ، فيطيرونَ مِنْ قبورِهِمْ إلى الجنانِ ، يسرحونَ فيها ويتنعَّمونَ كيف شاؤوا ، فتقولُ لهُمُ الملائكةُ : هلْ رأيتُمُ الحسابَ ؟ فيقولونَ : ما رأينا حساباً ، فيقولونَ : هلْ جُزتُمُ الصراطَ ؟ فيقولونَ : ما رأينا صراطاً ، فيقولونَ لهُمْ : هل رأيتُمْ جهنَّمَ ؟ فيقولونَ : ما رأينا شيئاً ، فتقولُ الملائكةُ : مِنْ أمَّةِ مَنْ أنتُمْ ؟ فيقولونَ : مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقولونَ : ناشدناكُمُ اللهَ ؛ حدِّثونا ما كانَتْ أعمالُكُمْ في الدنيا ؟ فيقولونَ : خصلتانِ كانتا فينا ، فبلَّغَنا اللهُ هاذهِ المنزلةَ بفضلِ رحمتِهِ ، فيقولونَ : وما هما ؟ فيقولونَ : كنَّا إذا خلونا . . نستحي أن نعصيَهُ ، ونرضىٰ باليسيرِ ممَّا قسمَ لنا ، فتقولُ الملائكةُ : يحقُّ لكُمْ هاذا »[٥]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ تعالى الرضا مِنْ قلوبِكُمْ . . تظفروا بثوابِ فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا »[٦]

وفي أخبارِ موسىٰ عليهِ السلامُ : أنَّ بني إسرائيلَ قالوا لهُ : سَلْ لنا ربَّكَ أمراً إذا نحنُ فعلناهُ . . يرضىٰ بهِ عنَّا ، فقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : إلـٰهي ؛ قدْ سمعتَ ما قالوا ، فقالَ : يا موسىٰ ؛ قلْ لهُمْ يرضونَ عنِّي حتَّىٰ أرضىٰ عنهُمْ[٧]

ويشهدُ لهاذا ما رُوِيَ عن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ أحبَّ أنْ يعلمَ ما لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلينظرْ ما للهِ عزَّ وجلَّ عندَهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ ينزلُ العبدَ منهُ حيثُ أنزلَهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ »[٨]

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : (ما لأوليائي والهمَّ بالدنيا ؟! إنَّ الهمَّ يذهبُ حلاوةَ مناجاتي مِنْ قلوبِهِمْ ، يا داوودُ ؛ إنَّ محبَّتي مِنْ أوليائي أنْ يكونوا روحانيينَ لا يغتمُّونَ)[٩]

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٩/٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٠/٤١) .

(٢) رواه مسلم (١٠٥٤) ، والترمذي (٢٣٤٨) ، وفيهما : (وقنع به) بدل (ورضي به) ، وانظر « قوت القلوب » (٣٩/٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٥٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٨/٥٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٤) قوت القلوب (٥٣/٢) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٧١) .

(٥) كذا في « القوت » (٣٩/٢) ، حيث قال : (وقد روينا حديثاً حسناً ، كالمسند عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك . . .) وذكره ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن حبان في « الضعفاء » ، وأبو عبد الرحمـٰن السلمي من حديث أنس مع اختلاف ، وفيه حميد بن علي القيسي ؛ ساقط هالك ، والحديث منكر مخالف للقرآن والأحاديث الصحيحة في الورود وغيره) . « إتحاف » (٦٥٠/٩) .

(٦) قوت القلوب (١٩٤/٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكىٰ سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٢٨١/٤) ، وانظر « الإتحاف » (٢٨٣/٩ ، ٦٥٠) .

(٧) قوت القلوب (٣٩/٢) .

(٨) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٥٢٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٩٤/١) .

(٩) كذا في « القوت » (٤٠/٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧٩/١٠) .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ قالَ : يا ربِّ ؛ دلَّني علىٰ أمرٍ فيهِ رضاكَ حتَّىٰ أعملَهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّ رضايَ في كرهِكَ ، وأنتَ لا تصبرُ علىٰ ما تكرهُ ، قالَ : يا ربِّ ؛ دلَّني عليهِ ، قالَ : فإنَّ رضايَ في رضاكَ بقضائي .

وفي مناجاةِ موسىٰ عليهِ السلامُ : أيْ ربِّ ؛ أيُّ خلقِكَ أحبُّ إليكَ ؟ قالَ : مَنْ إذا أخذتُ منهُ المحبوبَ . . سالمَني ، قالَ : فأيُّ خلقِكَ أنتَ عليهِ ساخطٌ ؟ قالَ : مَنْ يستخيرُني في الأمرِ ، فإذا قضيتُ لهُ . . سخطَ قضائي[1]

وقدْ رُوِيَ ما هوَ أشدُّ مِنْ ذٰلكَ ، وهوَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : (أنا اللهُ لا إلٰهَ إلا أنا ، مَنْ لمْ يصبرْ علىٰ بلائي ، ولمْ يشكرْ نعمائي ، ولمْ يرضَ بقضائي . . فليتخذْ ربّاً سوايَ)[2]

ومثلُهُ في الشدَّةِ قولُهُ تعالىٰ فيما أخبرَ عنهُ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : قدرتُ المقاديرَ ودبرتُ التدبيرَ ، وأحكمتُ الصنعَ ، فمَنْ رضيَ . . فلهُ الرضا منِّي حتَّىٰ يلقاني ، ومَنْ سخطَ . . فلهُ السخطُ منِّي حتَّىٰ يلقاني »[3]

وفي الخبرِ المشهورِ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : خلقتُ الخيرَ والشرَّ ، فطوبىٰ لمَنْ خلقتُهُ للخيرِ وأجريتُ الخيرَ علىٰ يديهِ ، وويلٌ لمَنْ خلقتُهُ للشرِّ وأجريتُ الشرَّ علىٰ يديهِ ، وويلٌ ثمَّ ويلٌ لمَنْ قالَ : لِمَ ؟ وكيفَ ؟ »[4]

وفي الأخبارِ السالفةِ : أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ شكا إلى اللهِ تعالى الجوعَ والفقرَ والقملَ عشرَ سنينَ ، فما أُجيبَ إلىٰ ما أرادَ ، ثمَّ أوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : كمْ تشكو ؟! هٰكذا كانَ بدؤُكَ عندي في أمِّ الكتابِ قبلَ أن أخلقَ السماواتِ والأرضَ ، وهٰكذا سبقَ لكَ منِّي ، وهٰكذا قضيتُ عليكَ قبلَ أنْ أخلقَ الدنيا ، أفتريدُ أنْ أعيدَ خلقَ الدنيا مِنْ أجلِكَ ؟! أمْ تريدُ أنْ أبدلَ ما قدَّرتُهُ عليكَ فيكونَ ما تحبُّ فوقَ ما أحبُّ ، ويكونَ ماتريدُ فوقَ ما أريدُ ؟! وعزَّتي وجلالي ؛ لئنْ تلجلجَ[5] هٰذا في صدرِكَ مرَّةً أخرىٰ . . لأمحونَّكَ مِنْ ديوانِ النبوَّةِ[6]

ورُوِيَ أنَّ آدمَ عليهِ السلامُ كانَ بعضُ أولادِهِ الصغارِ يصعدونَ علىٰ بدنِهِ وينزلونَ ، يجعلُ أحدُهُمْ رجلَهُ علىٰ أضلاعِهِ كهيئةِ الدرجِ ، فيصعدُ إلىٰ رأسِهِ ، ثمَّ ينزلُ علىٰ أضلاعِهِ كذٰلكَ ، وهوَ مطرقٌ إلى الأرضِ لا ينطقُ ولا يرفعُ رأسَهُ ، فقالَ لهُ بعضُ ولدِهِ : يا أبتِ ؛ أما ترىٰ ما يصنعُ هٰذا بكَ ؟! لونهيتَهُ عنْ هٰذا ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ إنِّي رأيتُ ما لم تروا ، وعلمتُ ما لمْ تعلموا ، إنِّي تحرَّكتُ حركةً واحدةً فأُهبطتُ مِنْ دارِ الكرامةِ إلىٰ دارِ الهوانِ ، ومِنْ دارِ النعيمِ إلىٰ دارِ الشقاءِ ، فأخافُ أن أتحرَّكَ حركةً أخرىٰ فيصيبَني ما لا أعلمُ[7]

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (خدمتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عشرَ سنينَ ، فما قالَ لي لشيءٍ فعلتُهُ :

---

(١) قوت القلوب (٢/٤١) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/٤١) ، وقد روي مرفوعاً كما هو عند الطبراني في « الكبير » (٢٢/٣٢٠) ، وأبو نعيم في « معجم الصحابة » (٦/٣٠٤٧) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٤١) ، وروى الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً . . ابتلاهم ؛ فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط » .

(٤) كذا في « القوت » (٢/٤١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن شاهين في « شرح السنة » من حديث أبي أمامة بسند ضعيف » ، وقد رواه دون الجملة الأخيرة منه الطبراني في « الكبير » (١٢/١٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) في (أ) : (اختلج) بدل (تلجلج)

(٦) قوت القلوب (٢/٤١) .

(٧) قوت القلوب (٢/٤١) .

لِمَ فعلتَهُ ، ولا لشيءٍ لمْ أفعلْهُ : ألا فعلتَهُ ، ولا قالَ في شيءٍ كانَ : ليتَهُ لمْ يكنْ ، ولا في شيءٍ لمْ يكنْ : ليتَهُ كانَ ، وكانَ إذا خاصمَني مخاصمٌ مِنْ أهلِهِ يقولُ : « دعوهُ ، لوْ قُضِيَ شيءٌ . . لكانَ »)[1]

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ تريدُ وأريدُ ، وإنَّما يكونُ ما أريدُ فإنْ سلَّمتَ لما أريدُ . . كفيتُكَ ما تريدُ ، وإنْ لمْ تسلِّمْ لما أريدُ . . أتعبتُكَ فيما تريدُ ، ثمَّ لا يكونُ إلا ما أريدُ)[2]

❀ ❀ ❀

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أوَّلُ مَنْ يُدعىٰ إلى الجنةِ يومَ القيامةِ الذينَ يحمدونَ اللهَ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ)[3]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (ما بقيَ لي سرورٌ إلا في مواقعِ القدرِ)[4]

وقيلَ لهُ : ما تشتهي ؟ فقالَ : ما يقضي اللهُ تعالىٰ .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (مَنْ لمْ يرضَ بالقضاءِ . . فليسَ لحمقِهِ دواءٌ)[5]

وقالَ الفضيلُ : (إنْ لمْ تصلحْ علىٰ تقديرِ اللهِ . . لمْ تصلحْ علىٰ تقديرِ نفسِكَ) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ : (ليسَ الشأنُ في أكلِ خبزِ الشعيرِ والخلِّ ، ولا في لبسِ الصوفِ والشعرِ ، ولٰكنَّ الشأنَ في الرضا عن اللهِ عزَّ وجلَّ)[6]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : (لأنْ ألحسَ جمرةً أحرقَتْ ما أحرقَتْ ، وأبقتْ ما أبقتْ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أقولَ لشيءٍ كانَ : ليتَهُ لمْ يكنْ ، أوْ لشيءٍ لمْ يكنْ : ليتَهُ كانَ)[7]

ونظرَ رجلٌ إلىٰ قرحةٍ في رجْلِ محمدِ بن واسعٍ فقالَ : إنّي لأرحمُكَ مِنْ هٰذهِ القرحةِ ، فقالَ : إنّي لأشكرُها منذُ خرجَتْ إذْ لمْ تخرجْ في عيني !![8]

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ أنَّ عابداً عبدَ اللهَ تعالىٰ دهراً طويلاً ، فرأىٰ في المنامِ : فلانةُ الراعيةُ رفيقتُكَ في الجنةِ ، فسألَ عنها إلىٰ أنْ وجدَها ، فاستضافَها ثلاثاً لينظرَ إلىٰ عملِها ، فكانَ يبيتُ قائماً وتبيتُ نائمةً ، ويظلُّ صائماً وتظلُّ مفطرةً ، فقالَ : أما لكِ عملٌ غيرَ ما رأيتُ ؟ فقالَتْ : ما هوَ ـ واللهِ ـ إلا ما رأيتَ ، لا أعرفُ غيرَهُ ، فلمْ يزلْ يقولُ : تذكَّري حتَّىٰ قالَتْ : خُصيلةٌ واحدةٌ هيَ فيَّ ؛ إنْ كنتُ في شدَّةٍ . . لمْ أتمنَّ أنْ أكونَ في رخاءٍ ، وإنْ كنتُ في مرضٍ . . لمْ أتمنَّ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٨) ، ومسلم (٢٣٠٩) إلىٰ قوله : (ألا فعلته) ، ورواه بتمامه أحمد في « المسند » (٣/٢٣١) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٦٥٣) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٥٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/٦٩) من حديثه رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٤) قوت القلوب (٢/٤٠) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٠٩) عن الحسن البصري .

(٦) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣/١٣٦) ضمن خبر له .

(٧) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٢) من زيادات نعيم بن حماد .

(٨) رواه أبونعيم في « الحلية » (٢/٣٥٢) .

أنْ أكونَ في صحَّةٍ ، وإنْ كنتُ في الشمسِ . . لمْ أتمنَّ أنْ أكونَ في الظلِّ ، فوضعَ العابدُ يدَهُ على رأسِهِ وقالَ : أهـٰذهِ خُصيلةٌ ؟! هـٰذهِ ـ واللهِ ـ خصلةٌ عظيمةٌ يعجزُ عنها العبَّادُ(١)

وعنْ بعضِ السلفِ : (أنَّ اللهَ تعالىٰ إذا قضىٰ في السماءِ قضاءً أحبَّ مِنْ أهلِ الأرضِ أنْ يرضَوا بقضائِهِ)(٢)

وقالَ أبو الدرداءِ : (ذروةُ الإيمانِ الصبرُ للحكمِ ، والرضا بالقدرِ)(٣)

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أبالي علىٰ أيِّ حالٍ أصبحتُ وأمسيتُ مِنْ شدَّةٍ أوْ رخاءٍ)(٤)

وقالَ الثوريُّ يوماً عندَ رابعةَ : اللهمَّ ؛ ارضَ عنَّا ، فقالتْ : أما تستحي مِنَ اللهِ أنْ تسألَهُ الرضا وأنتَ عنهُ غيرُ راضٍ ؟! فقالَ : أستغفرُ اللهَ ، فقالَ جعفرُ بنُ سليمانَ الضبعيُّ : فمتىٰ يكونُ العبدُ راضياً عنِ اللهِ تعالىٰ ؟ قالتْ : إذا كانَ سرورُهُ بالمصيبةِ مثلَ سرورِهِ بالنعمةِ(٥)

وكانَ الفضيلُ يقولُ : (إذا استوىٰ عندَهُ المنعُ والعطاءُ . . فقدْ رضيَ عنِ اللهِ تعالىٰ)(٦)

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواري : قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مِنْ كرمِهِ قدْ رضيَ مِنْ عبيدِهِ بما رضيَ العبيدُ مِنْ مواليهِمْ ، قلتُ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : أليسَ مرادُ العبدِ مِنَ الخلقِ أنْ يرضىٰ عنهُ مولاهُ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : فإنَّ محبةَ اللهِ مِنْ عبيدِهِ أنْ يرضَوا عنهُ(٧)

وقالَ سهلٌ : (حظُّ العبيدِ مِنَ اليقينِ علىٰ قدْرِ حظِّهِمْ مِنَ الرضا ، وحظُّهُمْ مِنَ الرضا علىٰ قدْرِ عيشِهِمْ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ)(٨)

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بحكمِهِ وجلالِهِ جعلَ الرَّوْحَ والفرحَ في الرضا واليقينِ ، وجعلَ الغمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخطِ »(٩) .

* * *

---

(١) كذا في « القوت » (٣٩/٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٣/٨) .

(٢) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٦٥٤/٩) ، وفي « القوت » (٣٩/٢) : (وقد روينا عن ابن مسعود : من رضي بما ينزل من السماء إلى الأرض . . غفر له) .

(٣) كذا في « القوت » (٣٩/٢) ، ورواه مع زيادة ابنُ المبارك في « الزهد » (١٢٣) من زيادات نعيم بن حماد .

(٤) الرعاية (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٠٤/٨) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

(٥) قوت القلوب (٤٠/٢) .

(٦) قوت القلوب (٤٠/٢) .

(٧) قوت القلوب (٤٠/٢) .

(٨) قوت القلوب (٤١/٢) .

(٩) رواه الطبراني في « الكبير » (٢١٥/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢١/٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١١٦) بنحوه ، ولفظ المصنف في « القوت » (٤١/٢) .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلمْ : أنَّ مَنْ قالَ : (ليسَ فيما يخالفُ الهوىٰ وأنواعَ البلاءِ إلا الصبرُ ، فأمَّا الرضا . . فلا يُتصوَّرُ) . . فإنَّما أُتِي مِنْ ناحيةِ إنكارِ المحبَّةِ ، فأمَّا إذا ثبتَ تصوُّرُ الحبِّ للهِ تعالىٰ ، واستغراقِ الهمِّ بهِ . . فلا يخفىٰ أنَّ الحبَّ يُورثُ الرضا بأفعالِ الحبيبِ ، ويكونُ ذٰلكَ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنْ يبطلَ الإحساسُ بالألمِ ، حتَّىٰ يجري عليهِ المؤلمُ ولا يحسُّ ، وتصيبُهُ جراحةٌ ولا يدركُ ألمَها ، ومثالُهُ : الرجلُ المحاربُ ؛ فإنَّهُ في حالِ غضبِهِ أوْ حالِ خوفِهِ قدْ تصيبُهُ جراحةٌ وهوَ لا يحسُّ بها ، حتَّىٰ إذا رأى الدمَ . . استدلَّ بهِ على الجراحةِ ، بلِ الذي يغدو في شغلٍ قريبٍ قدْ تصيبُهُ شوكةٌ في قدمِهِ ولا يحسُّ بألمِ ذٰلكَ ؛ لشغلِ قلبِهِ ، بلِ الذي يُحجَمُ أوْ يُحلقُ رأسُهُ بحديدةٍ كالَّةٍ يتألَّمُ بها ؛ فإنْ كانَ مشغولَ القلبِ بمهمٍّ مِنْ مهمَّاتِهِ . . فرغَ المزيِّنُ والحجَّامُ وهوَ لا يشعرُ بهِ ، وكلُّ ذٰلكَ لأنَّ القلبَ إذا صارَ مستغرقاً بأمرٍ مِنَ الأمورِ مستوفىً بهِ . . لمْ يدركْ ما عداهُ ، فكذٰلكَ العاشقُ المستغرقُ الهمِّ بمشاهدةِ معشوقِهِ أوْ بحبِّهِ قدْ يصيبُهُ ما كانَ يتألَّمُ بهِ أوْ يغتمُّ لهُ لولا عشقُهُ ، ثمَّ لا يدركُ غمَّهُ وألمَهُ لفرطِ استيلاءِ الحبِّ علىٰ قلبِهِ ، هٰذا إذا أصابَهُ مِنْ غيرِ حبيبِهِ ، فكيفَ إذا أصابَهُ مِنْ حبيبِهِ ؟!

وشغلُ القلبِ بالحبِّ والعشقِ مِنْ أعظمِ الشواغلِ ، وإذا تُصوِّرَ هٰذا في ألمٍ يسيرٍ بسببِ حبٍّ خفيفٍ . . تُصوِّرَ في الألمِ العظيمِ بالحبِّ العظيمِ ؛ فإنَّ الحبَّ أيضاً يُتصوَّرُ تضاعفُهُ في القوَّةِ كما يُتصوَّرُ تضاعفُ الألمِ ، وكما يقوىٰ حبُّ الصورِ الجميلةِ المدركةِ بحاسَّةِ البصرِ . . فكذا يقوىٰ حبُّ الصورِ الجميلةِ الباطنةِ المدركةِ بنورِ البصيرةِ ، وجمالُ الحضرةِ الربوبيَّةِ وجلالُها لا يُقاسُ بهِ جمالٌ ولا جلالٌ ، فمَنْ ينكشفُ لهُ شيءٌ منهُ . . فقدْ يبهرُهُ بحيثُ يدهشُ ويُغشىٰ عليهِ ، فلا يحسُّ بما يجري عليهِ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ امرأةَ فتحٍ الموصليِّ عثرَتْ فانقطعَ ظفرُها ، فضحكَتْ ، فقيلَ لها : أما تجدينَ الوجعَ ؟ فقالَتْ : إنَّ لذَّةَ ثوابِهِ أزالَتْ عنْ قلبي مرارةَ وجعِهِ [1]

وكانَ سَهلٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ به عِلَّةٌ يعالجُ غيرَهُ منها ولا يعالجُ نفسَهُ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ : فقالَ : يا دُوستُ ؛ ضربُ الحبيبِ لا يوجعُ [2]

وأمَّا الوجهُ الثاني : فهوَ أنْ يحسَّ بهِ ، ويدركَ ألمَهُ ، ولٰكنْ يكونُ راضياً بهِ ، بلْ راغباً فيهِ ، مريداً لهُ : أعني : بعقلِهِ ، وإنْ كانَ كارهاً لهُ بطبعِهِ ، كالذي يلتمسُ مِنَ الفصَّادِ الفصدَ والحجامةَ ؛ فإنَّهُ يدركُ ألمَ ذٰلكَ ، إلا أنَّهُ راضٍ بهِ وراغبٌ فيهِ ، ومتقلِّدٌ مِنَ الفصَّادِ منَّةً بفعلِهِ .

فهٰذا حالُ الراضي بما يجري عليهِ مِنَ الألمِ ، وكذٰلكَ كلُّ مَنْ يسافرُ في طلبِ الربحِ يدركُ مشقَّةَ السفرِ ، ولٰكنْ حبُّهُ لثمرةِ سفرِهِ طيَّبَ عندَهُ مشقَّةَ السفرِ ، وجعلَهُ راضياً بها ، ومهما أصابَهُ بليَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ وكانَ لهُ يقينٌ بأنَّ ثوابَهُ الذي ادُّخرَ لهُ فوقَ ما فاتَهُ . . رضيَ بهِ ، ورغبَ فيهِ وأحبَّهُ ، وشكرَ اللهَ تعالىٰ عليهِ ، هٰذا إنْ كانَ يلاحظُ الثوابَ والإحسانَ الذي يجازىٰ بهِ عليهِ .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥١٩) .

(٢) قوت القلوب (٦٧/٢) ، ودوست : حبيب ، لفظة فارسية تقدم استخدامها .

ويجوزُ أنْ يغلبَ الحبُّ بحيثُ يكونُ حظُّ المحبِ في مرادِ حبيبِهِ ورضاهُ ، لا لمعنىً آخرَ وراءَهُ ، فيكونُ مرادُ حبيبِهِ ورضاهُ محبوباً عندَهُ ومطلوباً ، وكلُّ ذٰلكَ موجودٌ في المشاهداتِ في حبِّ الخلقِ ، وقدْ تواصفَها المتواصفونَ في نظمِهِمْ ونثرِهِمْ ، ولا معنىٰ لهُ إلا ملاحظةُ جمالِ الصورةِ الظاهرةِ بالبصرِ .

فإنْ نظرَ إلى الجمالِ . . فما هوَ إلا جلدٌ علىٰ لحمٍ ودمٍ ، مشحونٌ بالأقذارِ والأخباثِ ، بدايتُهُ مِنْ نطفةٍ مذرةٍ ، ونهايتُهُ جيفةٌ قذرةٌ ، وهوَ فيما بينَ ذٰلكَ يحملُ العذرةَ .

وإنْ نظرَ إلى المدركِ للجمالِ . . فهيَ العينُ الخسيسةُ التي تغلطُ فيما ترىٰ كثيراً ، فترى الصغيرَ كبيراً ، والكبيرَ صغيراً ، والبعيدَ قريباً ، والقبيحَ جميلاً .

فإذا تُصوِّرَ استيلاءُ هٰذا الحبِّ . . فمِنْ أينَ يستحيلُ ذٰلكَ في حبِّ الجمالِ الأزليِّ الأبديِّ ، الذي لا منتهىٰ لكمالِهِ المدرَكِ بعينِ البصيرةِ التي لا يعتريها الغلطُ ولا يدورُ بها الموتُ ، بلْ تبقىٰ بعدَ الموتِ حيَّةً عندَ اللهِ ، فرحةً برزقِ اللهِ تعالىٰ ، مستفيدةً بالموتِ مزيدَ تنبُّهٍ واستكشافٍ ؟!

فهٰذا أمرٌ واضحٌ مِنْ حيثُ النظرُ بعينِ الاعتبارِ ، ويشهدُ لذٰلكَ الوجودُ وحكاياتُ أحوالِ المحبِّينَ وأقوالِهِمْ .

فقدْ قالَ شقيقٌ البلخيُّ : (مَنْ يرىٰ ثوابَ الشدَّةِ . . لا يشتهي المخرجَ منها) .

وقالَ الجنيدُ : سألتُ سريّاً السقطيَّ : هلْ يجدُ المحبُّ ألمَ البلاءِ ؟ قالَ : لا ، قلتُ : وإنْ ضُربَ بالسيفِ ، قالَ : نعمْ ، وإنْ ضُربَ بالسيفِ سبعينَ ضربةً ، ضربةً علىٰ ضربةٍ .

وقالَ بعضُهُمْ : (أحببتُ كلَّ شيءٍ بحبِّهِ ، حتَّىٰ لوْ أحبَّ النارَ . . أحببتُ دخولَ النارِ) .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : مررتُ برجلٍ وقدْ ضُرِبَ ألفَ سوطٍ في شرقيَّةِ بغدادَ ولمْ يتكلَّمْ ، ثمَّ حُمِلَ إلى الحبسِ ، فتبعتُهُ ، فقلتُ لهُ : لِمَ ضُربتَ ؟ فقالَ : لأنِّي عاشقٌ ، فقلتُ لهُ : ولِمَ سكتَّ ؟ قالَ : لأنَّ معشوقي كانَ بحذائي ينظرُ إليَّ ، فقلتُ : فلو نظرتَ إلى المعشوقِ الأكبرِ !! قالَ : فزعقَ زعقةً خرَّ ميّتاً .

وقالَ يحيى بن معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا نظرَ أهلُ الجنَّةِ إلى اللهِ تعالىٰ . . ذهبَتْ عيونُهُمْ في قلوبِهِمْ مِنْ لذَّةِ النظرِ إلى اللهِ تعالىٰ ثمانَ مئةِ سنةٍ لا ترجعُ إليهِمْ ، فما ظنُّكَ بقلوبٍ وقعَتْ بينَ جمالِهِ وجلالِهِ ، إذا لاحظَتْ جلالَهُ . . هابَتْ ، وإذا لاحظَتْ جمالَهُ . . تاهَتْ) .

وقالَ بشرٌ : قصدتُ عبَّادانَ في بدايتي ؛ فإذا أنا برجلٍ أعمىً ، مجذومٍ ، مجنونٍ قدْ صُرِعَ ، والنملُ يأكلُ لحمَهُ ، فرفعتُ رأسَهُ فوضعتُهُ في حجري وأنا أردِّدُ الكلامَ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : مَنْ هٰذا الفضوليُّ الذي يدخلُ بيني وبينَ ربِّي ؟! لوْ قطَّعَني إرْباً إرْباً . . ما ازددتُ لهُ إلا حبّاً ، قالَ بشرٌ : فما رأيتُ بعدَ ذٰلكَ نعمةً بينَ عبدٍ وبينَ ربِّهِ فأنكرتُها [1]

وقالَ أبو عمرٍو محمدُ بنُ الأشعثِ : (إنَّ أهلَ مصرَ مكثوا أربعةَ أشهرٍ لمْ يكنْ لهُمْ غذاءٌ إلا النظرَ إلىٰ وجهِ يوسفَ الصدِّيقِ عليهِ السلامُ ، كانوا إذا جاعوا . . نظروا إلىٰ وجهِهِ ، فشغلَهُمْ جمالُهُ عنِ الإحساسِ بألمِ الجوعِ) ، بلْ في القرآنِ ما هوَ أبلغُ مِنْ ذٰلكَ ، وهوَ قطعُ النسوةِ أيديَهُنَّ لاستهتارِهِنَّ بملاحظةِ جمالِهِ ، حتَّىٰ ما أحسسنَ بذٰلكَ .

---

(١) قوت القلوب (٤٣/٢) .

وقالَ سعيدُ بنُ أحمدَ : رأيتُ بالبصرةِ في خانِ عطاءِ بنِ مسلمٍ شاباً وفي يدهِ مديةٌ وهوَ ينادي بأعلىٰ صوتِهِ والناسُ حولَهُ وهوَ يقولُ[1] : [من الكامل]

يَـوْمُ الْـفِـراقِ مِـنَ الـقـيامَـةِ أَطْـوَلُ ... وَالْـمَـوْتُ مِـنْ أَلَـمِ التَّـفَـرُّقِ أَجْـمَـلُ

قـالُوا الرَّحِـيـلُ فَـقُـلْـتُ لَـسْـتُ بِـراحِـلٍ ... لَكِنَّ مُـهْـجَـتِـيَ الَّـتِـي تَـتَـرَحَّـلُ

ثمَّ بقرَ بالمديةِ بطنَهُ وخرَّ ميتاً ، فسألتُ عنهُ وعنْ أمرِهِ ، فقيلَ لي : إنَّهُ كانَ يهوىٰ فتىً لبعضِ الملوكِ حُجبَ عنهُ يوماً واحداً[2]

ويُروىٰ أنَّ يونسَ عليهِ السلامُ قالَ لجبريلَ : دلَّني علىٰ أعبدِ أهلِ الأرضِ ، فدلَّهُ علىٰ رجلٍ قدْ قطعَ الجذامُ يديهِ ورجليهِ وذهبَ ببصرِهِ ، فسمعَهُ وهوَ يقولُ : إلـٰهي ؛ متعتَني بهِما ما شئتَ أنتَ ، وسلبتَني ما شئتَ أنتَ ، وأبقيتَ لي فيكَ الأملَ ، يا برُّ يا وصولُ[3]

ويُروىٰ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما أنَّهُ اشتكىٰ لهُ ابنٌ ، فاشتدَّ وجدُهُ عليهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ القومِ : لقدْ خشينا علىٰ هـٰذا الشيخِ إنْ حدثَ بهـٰذا الغلامِ حدثٌ ، فماتَ الغلامُ ، فخرجَ ابنُ عمرَ في جنازتِهِ وما رجلٌ أبدىٰ سروراً منهُ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ ابنُ عمرَ : إنَّما كانَ حزني رحمةً لهُ ، فلمَّا وقعَ أمرُ اللهِ . . رضينا بهِ[4]

وقالَ مسروقٌ : كانَ رجلٌ بالباديةِ لهُ كلبٌ وحمارٌ وديكٌ ، فالديكُ يوقظُهُمْ للصلاةِ ، والحمارُ ينقلونَ عليهِ الماءَ ويحملُ لهُمْ خباءَهُمْ ، والكلبُ يحرسُهُمْ ، قالَ : فجاءَ الثعلبُ فأخذَ الديكَ ، فحزنوا لهُ ، وكانَ الرجلُ صالحاً ، فقالَ : عسىٰ أن يكونَ خيراً ، ثمَّ جاءَ ذئبٌ فخرقَ بطنَ الحمارِ فقتلَهُ ، فحزنوا عليهِ ، فقالَ الرجلُ : عسىٰ أن يكونَ خيراً ، ثمَّ أُصيبَ الكلبُ بعدَ ذٰلكَ ، فقالَ : عسىٰ أن يكونَ خيراً ، ثمَّ أصبحوا ذاتَ يومٍ ، فنظروا فإذا قدْ سُبِيَ مَنْ حولَهُمْ وبقوا هُمْ ، قالَ : وإنَّما أُخذوا أولـٰئكَ لما كانَ عندَهُمْ مِنْ أصواتِ الكلابِ والحميرِ والديكةِ ، وكانَتِ الخيرةُ لهـٰؤلاءِ في هلاكِ هـٰذهِ الحيواناتِ كما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ[5]

فمَنْ عرفَ خفيَّ لطفِ اللهِ تعالىٰ . . رضيَ بفعلِهِ علىٰ كلِّ حالٍ .

ويُروىٰ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ برجلٍ أعمىٰ أبرصَ مقعدٍ ، مضروبِ الجنبينِ بفالجٍ ، وقدْ تناثرَ لحمُهُ مِنَ الجذامِ ، وهوَ يقولُ : الحمدُ للهِ الذي عافاني ممَّا ابتلىٰ بهِ كثيراً مِنْ خلقِهِ ، فقالَ لهُ عيسىٰ : يا هـٰذا ؛ أيُّ شيءٍ مِنَ البلاءِ أراهُ مصروفاً عنكَ ؟ فقالَ : يا روحَ اللهِ ؛ أنا خيرٌ ممَّنْ لمْ يجعلِ اللهُ في قلبِهِ ما جعلَ في قلبي مِنْ معرفتِهِ ، فقالَ لهُ : صدقتَ ، هاتِ يدكَ ، فناولَهُ يدَهُ ، فإذا هوَ أحسنُ الناسِ وجهاً ، وأفضلُهُمْ هيئةً ، وقدْ أذهبَ اللهُ عنهُ ما كانَ بهِ ، فصحبَ عيسىٰ عليهِ السلامُ وتعبَّدَ معَهُ .

---

(١) انظر « تزيين الأسواق » (ص ١٣٨) .

(٢) أورده بلاغاً ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١١٢٥) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦٥٨/٩) : (رواه أبو محمد السراج في « مصارع العشاق ») .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٢٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٩٨) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٢٨) .

وقطعَ عروةُ بنُ الزبيرِ رِجْلَهُ مِنْ ركبتِهِ مِنْ أكلةٍ خرجَتْ بها ، ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ الذي أخذَ منّي واحدةً ، وايمُكَ ؛ لئنْ كنتَ أخذتَ . . لقدْ أبقيتَ ، ولئنْ كنتَ ابتليتَ . . لقدْ عافيتَ ، ثمَّ لمْ يدعْ وِردَهُ تلكَ الليلةَ[1]

وكانَ ابنُ مسعودٍ يقولُ : (الفقرُ والغنىٰ مطيتانِ ، ما أبالي أيَّتَهُما ركبتُ ، إنْ كانَ الفقرُ . . فإنَّ فيهِ الصبرَ ، وإنْ كانَ الغنىٰ . . فإنَّ فيهِ البذلَ)[2]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (قدْ نلتُ مِنْ كلِّ مقامٍ حالاً إلا الرضا ، فما لي منهُ إلا مشامُّ الريحِ ، وعلىٰ ذٰلكَ لوْ أدخلَ الخلائقَ كلَّهُمُ الجنةَ ، وأدخلَني النارَ . . كنتُ بذٰلكَ راضياً)[3]

وقيلَ لعارفٍ آخرَ : هلْ نلتَ غايةَ الرضا عنهُ ؟ فقالَ : أمَّا الغايةُ . . فلا ، ولٰكنْ مقامٌ مِنَ الرضا قدْ نلتُهُ ، لوْ جعلَني جسراً علىٰ جهنَّمَ يعبرُ الخلائقُ عليَّ إلى الجنَّةِ ، ثمَّ ملأَ بي جهنَّمَ تحلَّةً لقسمِهِ وبدلاً مِنْ خليقتِهِ . . لأحببتُ ذٰلكَ مِنْ حكمِهِ ، ورضيتُ بهِ مِنْ قسمِهِ[4]

وهٰذا كلامُ مَنْ علمَ أنَّ الحبَّ قدِ استغرقَ همَّهُ حتَّىٰ منعَهُ الإحساسَ بألمِ النارِ ، وإنْ بقيَ إحساسٌ فيغمرُهُ ما يحصلُ مِنْ لذَّتِهِ في استشعارِهِ حصولَ رضا محبوبِهِ بإلقائِهِ إيَّاهُ في النارِ ، واستيلاءُ هٰذهِ الحالةِ غيرُ محالٍ في نفسِهِ وإنْ كانَ بعيداً مِنْ أحوالِنا الضعيفةِ ، ولٰكنْ لا ينبغي أن يستنكرَ الضعيفُ المحرومُ أحوالَ الأقوياءِ ويظنَّ أنَّ ما هوَ عاجزٌ عنهُ يعجزُ عنهُ الأولياءُ .

وقالَ الروذباريُّ : قلتُ لأبي عبدِ اللهِ بنِ الجلاءِ الدمشقيِّ : قولُ فلانٍ : (وددتُ أنَّ جسدي قُرِضَ بالمقاريضِ وأنَّ هٰذا الخلقَ أطاعوهُ) ما معناهُ ؟ فقالَ : يا هٰذا ، إنْ كانَ هٰذا من طريقِ الإشفاقِ والنصحِ للخلقِ . . فأعرفُ ، وإنْ كانَ مِنْ طريقِ التعظيمِ والإجلالِ . . فلا أعرفُ ، قالَ : ثمَّ غُشِيَ عليهِ[5]

وقدْ كانَ عمرانُ بنُ الحصينِ قدِ استسقىٰ بطنُهُ ، فبقيَ ملقىً علىٰ ظهرِهِ ثلاثينَ سنةً لا يقومُ ولا يقعدُ ، قدْ نُقِبَ لهُ في سريرٍ مِنْ جريدٍ كانَ عليهِ موضعٌ لقضاءِ حاجتِهِ ، فدخلَ عليهِ مطرِّفٌ وأخوهُ العلاءُ[6] ، فجعلَ يبكي لما يرىٰ مِنْ حالِهِ ، فقالَ : لِمَ تبكي ؟ قالَ : لأنِّي أراكَ علىٰ هٰذهِ الحالةِ العظيمةِ ، قالَ : لا تبكِ ؛ فإنَّ أحبَّهُ إلى اللهِ تعالىٰ أحبُّهُ إليَّ ، ثمَّ قالَ : أحدِّثُكَ شيئاً لعلَّ اللهَ أنْ ينفعَكَ بهِ واكتمْ عليَّ حتَّىٰ أموتَ ، إنَّ الملائكةَ تزورُني فآنسُ بها ، وتسلِّمُ عليَّ فأسمعُ تسليمَها[7]

فأعلمَ بذٰلكَ أنَّ هٰذا البلاءَ ليسَ بعقوبةٍ ؛ إذْ هوَ سببُ هٰذه النعمةِ الجسيمةِ ، فمَنْ يشاهدُ هٰذا في بلائِهِ كيفَ لا يكونُ راضياً بهِ ؟!

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٣٨ ـ ١٣٩) ، وقوله : (وايمك) قسمٌ .
(٢) قوت القلوب (٤٠/٢) .
(٣) قوت القلوب (٤٢/٢) عن بعض العارفين ، والمشهور عن أبي يزيد رضي الله عنه أنه قال مثل هٰذا في التوكل .
(٤) قوت القلوب (٤٢/٢) .
(٥) قوت القلوب (٤٢/٢) ، والقول المذكور لزهير بن نعيم البابي ، رواه له الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٨٠) ، والضمير في (أطاعوه) عائد لله سبحانه وتعالىٰ ، فهو بقوله هٰذا يتفدَّىٰ .
(٦) عند الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦٦٠/٩) : (وفي « القوت » : « أو أخوه أبو العلاء » ، والصواب أبو العلاء ، وهو يزيد بن عبد الله الشخير العامري البصري) ، وفي مطبوعة « القوت » : (أو أخوه العلاء) ، واتفقت النسخ على المثبت .
(٧) قوت القلوب (٤٣/٢) ، ومختصراً رواه أحمد في « المسند » (٤٢٨/٤) ، والتفسير الآتي عنده .

قالَ : ودخلنا علىٰ سويدِ بنِ مثعبةَ نعودُهُ ، فرأينا ثوباً ملقىً ، فما ظنَّنا أنَّ تحتَهُ شيئاً حتَّىٰ كُشِفَ ، فقالَتْ لهُ امرأتُهُ : أهلي فداؤُكَ ، ما نطعمُكَ ؟ ما نسقيكَ ؟ فقالَ : طالَتِ الضجعةُ ، ودبرَتِ الحراقيفُ ، وأصبحتُ نضواً لا أطعمُ طعاماً ولا أسيغُ شراباً منذُ كذا ـ فذكرَ أياماً ـ وما يسرُّني أنِّي نقصتُ مِنْ هـٰذا قلامةَ ظفرٍ(١)

ولمَّا قدمَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ إلىٰ مكةَ وكانَ قدْ كُفَّ بصرُهُ . . جاءَهُ الناسُ يُهرعونَ إليهِ ، كلُّ واحدٍ يسألُهُ أنْ يدعوَ لهُ ، فيدعو لهـٰذا ولهـٰذا ، وكانَ مجابَ الدعوةِ ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ السائبِ : فأتيتُهُ وأنا غلامٌ ، فتعرَّفتُ إليهِ فعرفَني وقالَ : أنتَ قارئُ أهلِ مكةَ ؟ قلتُ : نعمْ ، فذكرَ قصَّةً قالَ في آخرِها : فقلتُ لهُ : يا عمُّ ؛ أنتَ تدعو للناسِ ، فلوْ دعوتَ لنفسِكَ فردَّ اللهُ عليكَ بصرَكَ ، فتبسَّمَ وقالَ : يا بنيَّ ؛ قضاءُ اللهِ سبحانَهُ عندي أحسنُ مِنْ بصري(٢)

وضاعَ لبعضِ الصوفيَّةِ ولدٌ صغيرٌ ثلاثةَ أيامٍ لمْ يُعرفْ لهُ خبرٌ ، فقيلَ لهُ : لوْ سألتَ اللهَ تعالىٰ أنْ يردَّهُ عليكَ ، فقالَ : اعتراضي عليهِ فيما قضىٰ أشدُّ عليَّ مِنْ ذهابِ ولدي(٣)

وعنْ بعضِ العبَّادِ أنَّهُ قالَ : إني أذنبتُ ذنباً عظيماً ، فأنا أبكي عليهِ منذُ ستينَ سنةً ، وكانَ قدِ اجتهدَ في العبادةِ لأجلِ التوبةِ مِنْ ذٰلكَ الذنبِ ، فقيلَ لهُ : وما هوَ ؟ قالَ : قلتُ مرَّةً لشيءٍ كانَ : ليتَهُ لمْ يكنْ(٤)

وقالَ بعضُ السلفِ : لوْ قُرِضَ جسمي بالمقاريضِ . . لكانَ أحبَّ إليَّ مِنْ أنْ أقولَ لشيءٍ قضاهُ اللهُ سبحانَهُ : ليتَهُ لمْ يقضِهِ(٥)

وقيلَ لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : ها هنا رجلٌ قدْ تعبَّدَ خمسينَ سنةً ، فقصدَهُ ، فقالَ لهُ : يا حبيبي ؛ أخبرْني عنكَ : هلْ قنعتَ بهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ أنستَ بهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ رضيتَ عنهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإنَّما مزيدُكَ منهُ الصومُ والصلاةُ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : لولا أنِّي أستحيي منكَ . . لأخبرتُكَ بأنَّ معاملتَكَ خمسينَ سنةً مدخولةٌ(٦)

ومعناهُ : أنَّكَ لمْ يُفتحْ لكَ بابُ القلبِ فترقىٰ إلىٰ درجاتِ القربِ بأعمالِ القلبِ ، وإنَّما أنتَ تُعدُّ في طبقةِ أصحابِ اليمينِ ؛ لأنَّ مزيدَكَ منهُ في أعمالِ الجوارحِ التي هيَ مزيدُ أهلِ العمومِ .

ودخلَ جماعةٌ مِنَ الناسِ على الشبليِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ في مارستانٍ قدْ حُبسَ فيهِ وقدْ جمعَ بينَ يديهِ حجارةً ، فقالَ : مَنْ أنتمْ ؟ فقالوا : محبُّوكَ ، فأقبلَ عليهِم يرميهِمْ بالحجارةِ ، فتهاربوا ، فقالَ : ما بالُكُمُ ادعيتُمْ محبَّتي ؟ إنْ صدقتُمْ . . فاصبروا علىٰ بلائي(٧)

وللشبليِّ رحمَهُ اللهُ(٨) : [من البسيط]

إنَّ الْـمَـحَـبَّـةَ لِلرَّحْمٰنِ أَسْـكَـرَنِـي ... وَهَـــلْ رَأَيْـــتَ مُـحِـبّـاً غَـيْـرَ سَـكْـرانِ

---

(١) كذا في « القوت » (٤٣/٢) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٦٣) ، والحراقيف : جمع حَرْقَفَة ، رأس الوَرِك .
(٢) قوت القلوب (٤٣/٢)
(٣) قوت القلوب (٤٣/٢) .
(٤) قوت القلوب (٤٣/٢) ، وفيه (ثلاثين) بدل (ستين) .
(٥) قوت القلوب (٤٣/٢) .
(٦) قوت القلوب (٤٣/٢)
(٧) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٢٥) .
(٨) انظر « ديوان الشبلي » (ص ١٢٩) .

وقالَ بعضُ عبّادِ أهلِ الشامِ : (كلُّكُمْ يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ مصدِّقاً ولعلَّهُ قدْ كذبَهُ ، وذلكَ أنَّ أحدَكُمْ لوْ كانَ لهُ إصبعٌ مِنْ ذهبٍ ظلَّ يشيرُ بها ، ولوْ كانَ بها شللٌ ظلَّ يواريها)[١] ؛ يعني بذلكَ : أنَّ الذهبَ مذمومٌ عندَ اللهِ والناسُ يتفاخرونَ بهِ ، والبلاءُ زينةُ أهلِ الآخرةِ وهمْ يستنكفونَ منهُ .

وقيلَ : إنَّهُ وقعَ الحريقُ في السوقِ ، فقيلَ للسريِّ : احترقَ السوقُ وما احترقَ دكانُكَ ، فقالَ : الحمدُ للهِ ، ثمَّ قالَ : كيفَ قلتُ : الحمدُ للهِ علىٰ سلامتي دونَ المسلمينَ ؟! فتابَ مِنَ التجارةِ ، وتركَ الحانوتَ بقيَّةَ عمرِهِ ؛ توبةً واستغفاراً مِنْ قولِهِ : الحمدُ للهِ[٢]

فإذا تأمَّلتَ هاذهِ الحكاياتِ . . عرفتَ قطعاً أنَّ الرضا بما يخالفُ الهوىٰ ليسَ مستحيلاً ، بلْ هوَ مقامٌ عظيمٌ مِنْ مقاماتِ أهلِ الدينِ ، ومهما كانَ ذلكَ ممكناً في حبِّ الخلقِ وحظوظِهِمْ . . كانَ ممكناً في حبِّ الخالقِ تعالىٰ وحظوظِ الآخرةِ قطعاً ، وإمكانُهُ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : الرضا بالألمِ لما يُتوقَّعُ مِنَ الثوابِ الموجودِ ؛ كالرضا بالفصدِ ، والحجامةِ ، وشربِ الدواءِ انتظاراً للشفاءِ .

والثاني : الرضا بهِ لا لحظٍّ وراءَهُ ، بلْ لكونِهِ مرادَ المحبوبِ ورضاً لهُ ، فقدْ يغلبُ الحبُّ بحيثُ ينغمرُ مرادُ المحبِّ في مرادِ المحبوبِ ، فيكونُ ألذُّ الأشياءِ عندَهُ سرورَ قلبِ محبوبِهِ ورضاهُ ونفوذَ إرادتِهِ ، ولوْ في هلاكِ روحِهِ ؛ كما قيلَ[٣] : [من البسيط]

فَمـا لِـجُـرْحٍ إذا أَرْضـاكُـمُ أَلَـمُ

وهـٰذا ممكنٌ معَ الإحساسِ بالألمِ .

وقدْ يستولي الحبُّ بحيثُ يدهشُ عنْ إدراكِ الألمِ ، فالقياسُ والتجربةُ والمشاهدةُ دالَّةٌ علىٰ وجودِهِ ، فلا ينبغي أنْ ينكرَهُ مَنْ فقدَهُ مِنْ نفسِهِ ، لأنَّهُ إنَّما فقدَهُ لفقدِ سببِهِ ، وهوَ فرطُ حبِّهِ ، ومَنْ لمْ يذقْ طعمَ الحبِّ . . لم يعرفْ عجائبَهُ ، فللمحبِّينَ عجائبُ أعظمُ ممَّا وصفناهُ .

وقدْ رُويَ عنْ عمرِو بنِ الحارثِ الرافقيِّ[٤] قالَ : كنتُ في مجلسٍ بالرقَّةِ عندَ صديقٍ لي ، وكانَ معنا فتىً يتعشَّقُ جاريةً مغنِّيةً ، وكانَتْ معنا في المجلسِ ، فضربَتْ بالقضيبِ وغنَّتْ : [من مجزوء المتقارب]

عَـلامَـةُ ذُلِّ الْـهَـوَىٰ ... عَـلَـى الـعـاشِـقِـيـنَ الْـبُـكـا

وَلا سِـيَّـمـا عـاشِـقٌ ... إذا لَـمْ يَـجِـدْ مُـشْـتَـكَـىٰ

فقالَ لها الفتىٰ : أحسنتِ واللهِ يا سيِّدتي ، أفتأذنينَ لي أن أموتَ ؟ فقالَتْ : مُتْ راشداً ، قالَ : فوضعَ رأسَهُ على الوسادةِ ، وأطبقَ فمَهُ ، وغمَّضَ عينيهِ ، فحرَّكناهُ فإذا هوَ ميتٌ[٥]

---

(١) قوت القلوب (٢/٤٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/٤٦) ، وقال : (وبلغني عنه أنه كان يقول : قلت كلمة فأنا أستغفر الله منها ثلاثين سنة ؛ يعني قوله : الحمد لله) .

(٣) عجز بيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/٣٧٠) ، والبيت بتمامه :

إن كان سركمُ ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم

(٤) منسوب إلى الرافقة ، مدينة جانب الرقة ، بناها المنصور وأتمها المهدي . « إتحاف » (٩/٦٦٢) .

(٥) رواه ابن الوشاء في « الموشى » (ص ٧٨) ضمن خبر عجيب ، فيه أنه مات مع الفتى القينةُ وابنة شيخ ، دفنوا بموضع واحد .

وقالَ الجنيدُ : رأيتُ رجلاً متعلِّقاً بكُمِّ صبيٍّ وهوَ يتضرَّعُ إليهِ ويظهرُ لهُ المحبَّةَ ، فالتفتَ إليهِ الصبيُّ وقالَ لهُ : إلىٰ متىٰ ذا النفاقُ الذي تظهرُ لي ؟ فقالَ : قدْ علمَ اللهُ أنِّي صادقٌ فيما أوردُهُ ، حتَّىٰ لوْ قلتَ لي : مُتْ . . لمتُّ ، فقالَ : إنْ كنتَ صادقاً . . فمُتْ : قالَ : فتنحَّى الرجلُ وغمَّضَ عينيهِ ، فوُجِدَ ميتاً[1]

وقالَ سمنونٌ المحبُّ : كانَ في جيرانِنا رجلٌ ولهُ جاريةٌ يحبُّها غايةَ الحبِّ ، فاعتلَّتِ الجاريةُ ، فجلسَ الرجلُ ليصلحَ لها حَيْساً ، فبينا هوَ يحرِّكُ القدْرَ إذْ قالتِ الجاريةُ : آهِ ، قالَ : فدهشَ الرجلُ ، وسقطتِ الملعقةُ مِنْ يدهِ ، وجعلَ يحركُ ما في القدْرِ بيدِهِ حتَّىٰ تساقطَتْ أصابعُهُ ، فقالَتِ الجاريةُ : ما هٰذا ؟! قالَ الرجلُ : هٰذا موضعُ قولِكِ : آهِ[2]

وحُكِيَ عنْ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ البغداديِّ قالَ : رأيتُ بالبصرةِ شابّاً علىٰ سطحٍ مرتفعٍ وقدْ أشرفَ على الناسِ وهوَ يقولُ : [من السريع]

مَــنْ مــاتَ عِـشْـقـاً فَـلْـيَـمُـتْ هٰكَذا ... لَا خَـيْـرَ فِـي عِـشْـقٍ بِـلا مَـوْتِ

ثمَّ رمىٰ بنفسِهِ إلى الأرضِ ، فحملوهُ ميتاً[3]

فهٰذا وأمثالُهُ قدْ يصدقُ بهِ في حبِّ المخلوقِ ، والتصديقُ بهِ في حبِّ الخالقِ أولىٰ ؛ لأنَّ البصيرةَ الباطنةَ أصدقُ مِنَ البصرِ الظاهرِ ، وجمالَ الحضرةِ الربانيَّةِ أوفىٰ مِنْ كلِّ جمالٍ ، بلْ كلُّ جمالٍ في العالمِ فهوَ حسنةٌ مِنْ حسناتِ ذٰلكَ الجمالِ .

نعم ؛ الذي فقدَ البصرَ ينكرُ جمالَ الصورِ ، والذي فقدَ السمعَ ينكرُ لذَّةَ الألحانِ والنغماتِ الموزونةِ ؛ فالذي فقدَ القلبَ لا بدَّ وأنْ ينكرَ أيضاً هٰذهِ اللَّذاتِ التي لا مَظِنَّةَ لها سوى القلبِ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص ٢٧) .
(٢) كذا عند السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص ٢٤) ، ورواه ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (٩٠٢) .
(٣) كذا عند السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص ٢٥) ، ومختصراً عند القشيري في « الرسالة » (ص ٥٢٧) .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا ، ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا

وكذٰلكَ كراهةُ المعاصي ، ومقتُ أهلِها ، ومقتُ أسبابِها ، والسعيُ في إزالتِها بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ لا يناقضُهُ أيضاً ، وقدْ غلطَ في ذٰلكَ بعضُ البطَّالينَ المغترِّينَ ، وزعموا أنَّ المعاصيَ والفجورَ والكفرَ مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ وقدرِهِ ، فيجبُ الرضا بهِ ، وهٰذا جهلٌ بالتأويلِ ، وغفلةٌ عنْ أسرارِ الشرعِ .

فأمَّا الدعاءُ :

فقدْ تُعبِّدنا بهِ ، وكثرةُ دعواتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسائرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ علىٰ ما نقلناهُ في كتابِ الدعواتِ . . تدلُّ عليهِ ، ولقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أعلى المقاماتِ مِنَ الرضا ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ علىٰ بعضِ عبادِهِ بقولِهِ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ .

وأمَّا إنكارُ المعاصي وكراهتُها وعدمُ الرضا بها :

فقدْ تعبَّدَ اللهُ تعالىٰ بهِ عبادَهُ ، وذمَّهُمْ على الرضا بهِ فقالَ : ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وفي الخبرِ المشهورِ : « مَنْ شهدَ منكراً فرضيَ بهِ . . فكأنَّهُ قدْ فعلَهُ »[1]

وفي الحديثِ : « الدالُّ على الشرِّ . . كفاعلِهِ »[2]

وعنِ ابنِ مسعودٍ : (إنَّ العبدَ ليغيبُ عنِ المنكرِ ويكونُ عليهِ مثلُ وزرِ صاحبِهِ ، قيلَ : وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : يبلغُهُ فيرضىٰ بهِ)[3]

وفي الخبرِ : « لوْ أنَّ عبداً قُتِلَ بالمشرقِ ورضيَ بقتلِهِ آخرُ بالمغربِ . . كانَ شريكاً في قتلِهِ »[4]

وقدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ بالحسدِ والمنافسةِ في الخيراتِ وتوقِّي الشرورِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حسدَ إلا في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ حكمةً فهوَ يبثُّها في الناسِ ويعلِّمُها ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فسلَّطَهُ علىٰ هلكتِهِ في الحقِّ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهوَ يقومُ بهِ آناءَ الليلِ والنهارِ ، فيقولُ الرجلُ : لوْ آتاني اللهُ مثلَ ما آتىٰ هٰذا . . لفعلتُ مثلَ ما يفعلُ »[5]

---

(١) رواه بنحوه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٧٨٥) ولفظه : « من شهد أمراً فكرهه . . كان كمن غاب عنه ، ومن غاب عن أمر فرضي به . . كان كمن شهده » .

(٢) كذا في « القوت » (٤٦/٢) ، ورواه أبو بكر الإسماعيلي في « معجم الشيوخ » (١١٨) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٣١٢١) من حديث عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما .

(٣) قوت القلوب (٤٦/٢) .

(٤) كذا في « القوت » (٤٦/٢) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً بهٰذا اللفظ ، ولابن عدي ـ في « الكامل » [٢٣٠/٧] ـ من حديث أبي هريرة : « من حضر معصية فكرهها . . فكأنما غاب عنها ، ومن غاب عنها وأحبها . . فكأنما حضرها » ، وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف) . « إتحاف » (٦٦٤/٩) .

(٥) كذا في « القوت » (٤٩/٢) بروايته ، وروى الحديث الأول منهما البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وروى الثاني منهما البخاري (٧٢٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وأمّا بغضُ الكفّارِ والفجّارِ والإنكارُ عليهِمْ ومقتُهُمْ :

فما وردَ فيهِ مِنْ شواهدِ القرآنِ والأخبارِ لا يُحصىٰ ؛ مثلَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا ﴾

وفي الخبرِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ أخذَ الميثاقَ علىٰ كلِّ مؤمنٍ أنْ يبغضَ كلَّ منافقٍ ، وعلىٰ كلِّ منافقٍ أنْ يبغضَ كلَّ مؤمنٍ)(١)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ »(٢)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أحبَّ قوماً ووالاهُمْ . . حُشِرَ معَهُمْ يومَ القيامةِ »(٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوثقُ عرى الإيمانِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ »(٤)

وشواهدُ هٰذا قدْ ذكرناها في بيانِ الحبِّ والبغضِ في اللهِ تعالىٰ مِنْ كتابِ آدابِ الصحبةِ ، وفي كتابِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، فلا نعيدُهُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ وردَتِ الآياتُ والأخبارُ بالرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ كانَتِ المعاصي بغيرِ قضاءِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ محالٌ ، وهوَ قادحٌ في التوحيدِ ، وإنْ كانَتْ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ . . فكراهتُها ومقتُها كراهةٌ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ السبيلُ إلى الجمعِ وهوَ متناقضٌ علىٰ هٰذا الوجهِ ؟ وكيفَ يمكنُ الجمعُ بينَ الرضا والكراهةِ في شيءٍ واحدٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا ممَّا يلتبسُ على الضعفاءِ القاصرينَ عنِ الوقوفِ علىٰ أسرارِ العلومِ ، وقدِ التبسَ علىٰ قومٍ حتَّىٰ رأَوُا السكوتَ عنِ المنكراتِ مقاماً مِنْ مقاماتِ الرضا ، وسمَّوهُ حسْنَ خلقٍ ، وهوَ جهلٌ محضٌ ، بلْ نقولُ : الرضا والكراهةُ يتضادانِ إذا تواردا علىٰ شيءٍ واحدٍ مِنْ جهةٍ واحدةٍ علىٰ وجهٍ واحدٍ ، فليسَ مِنَ التضادِّ في شيءٍ واحدٍ أنْ يُكرهَ مِنْ وجهٍ ويُرضىٰ بهِ مِنْ وجهٍ ؛ إذْ قدْ يموتُ عدوُّكَ الذي هوَ أيضاً عدوُّ بعضِ أعدائِكَ وساعٍ في إهلاكِهِ ، فتكرهُ موتَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ماتَ عدوُّ عدوِّكَ ، وترضاهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ماتَ عدوُّكَ ، **وكذٰلكَ المعصيةُ لها وجهانِ :**

وجهٌ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُهُ واختيارُهُ وإرادتُهُ ، فيرضىٰ بهِ مِنْ هٰذا الوجهِ ؛ تسليماً للمُلْكِ إلىٰ مالكِ المُلْكِ ، ورضاً بما يفعلُهُ فيهِ .

ووجهٌ إلى العبدِ مِنْ حيثُ إنَّهُ كسبُهُ ووصفُهُ وعلامةُ كونِهِ ممقوتاً عندَ اللهِ تعالىٰ وبغيضاً عندَهُ ، حيثُ سلَّطَ عليهِ أسبابَ البعدِ والمقتِ ، فهوَ مِنْ هٰذا الوجهِ منكرٌ ومذمومٌ .

---

(١) كذا في « القوت » (٤٧/٢) حيث قال : (وروينا في خبر) ولم يذكر رفعه ، والمعنىٰ في الآيات قبله ، ومما ورد في هٰذا المعنىٰ ما رواه مسلم (٧٨) عن علي رضي الله عنه قال : (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ؛ إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم إليَّ ألا يحبَّني إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق) .

(٢) رواه البخاري (٦١٦٩) ، ومسلم (٢٦٤١) .

(٣) كذا في « القوت » (٤٧/٢) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (١٩/٣) من حديث أبي قرصافة رضي الله عنه ، وابن عدي في « الكامل » (٣٠٣/١) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه الطيالسي في « مسنده » (٧٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٢٨٦/٤)

ولا ينكشفُ هٰذا لكَ إلا بمثالٍ :

فلنفرضْ محبوباً مِنَ الخلقِ قالَ بينَ يدي محبّيهِ : إنّي أريدُ أنْ أميزَ بينَ مَنْ يحبُّني ويبغضُني ، وأنصبَ فيهِ معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً ، وهوَ أنّي أقصدُ إلىٰ فلانٍ فأوذيهِ وأضربُهُ ضرباً يضطرُّهُ ذٰلكَ إلى الشتمِ لي ، حتَّىٰ إذا شتمَني . . أبغضتُهُ واتخذتُهُ عدوّاً لي ، فكلُّ مَنْ أحبَّهُ أعلمُ أيضاً أنَّهُ عدوّي ، وكلُّ مَنْ أبغضَهُ أعلمُ أنَّهُ صديقي ومحبّي .

ثمَّ فعلَ ذٰلكَ ، وحصلَ مرادُهُ مِنَ الشتمِ الذي هوَ سببُ البغضِ ، وحصلَ البغضُ الذي هوَ سببُ العداوةِ ، فحقٌّ علىٰ كلِّ مَنْ هوَ صادقٌ في محبّتِهِ وعالمٌ بشروطِ المحبّةِ أنْ يقولَ :

أما تدبيرُكَ في إيذاءِ هٰذا الشخصِ وضربِهِ وإبعادِهِ وتعريضُكَ إيّاهُ للبغضِ والعداوةِ . . فأنا محبٌّ لهُ وراضٍ بهِ ، فإنَّهُ رأيُكَ وتدبيرُكَ ، وفعلُكَ وإرادتُكَ ، وأمَّا شتمُهُ إيّاكَ . . فإنَّهُ عدوانٌ مِنْ جهتِهِ ؛ إذْ كانَ حقُّهُ أنْ يصبرَ ولا يشتمَ ، ولٰكنَّهُ كانَ مرادَكَ منهُ ، فإنَّكَ قصدتَ بضربِهِ استنطاقَهُ بالشتمِ الموجبِ للمقتِ ، فهوَ مِنْ حيثُ إنَّهُ حصلَ علىٰ وَفْقِ مرادِكَ وتدبيرِكَ الذي دبَّرتَهُ . . فأنا راضٍ بهِ ، ولوْ لمْ يحصلْ . . لكانَ ذٰلكَ نقصاناً في تدبيرِكَ ، وتعويقاً في مرادِكَ ، وأنا كارهٌ لفواتِ مرادِكَ ، ولٰكنَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفٌ لهٰذا الشخصِ ، وكسبٌ لهُ ، وعدوانٌ وتهجُّمٌ منهُ عليكَ علىٰ خلافِ ما يقتضيهِ جمالُكَ ، إذْ كانَ ذٰلكَ يقتضي أنْ يحتملَ منكَ الضربَ ولا يقابلَ بالشتمِ . . فأنا كارهٌ لهُ مِنْ حيثُ نسبتُهُ إليهِ ، ومِنْ حيثُ هوَ وصفٌ لهُ ، لا مِنْ حيثُ هوَ مرادُكَ ومقتضىٰ تدبيرِكَ .

وأمَّا بغضُكَ لهُ بسببِ شتمِكَ . . فأنا راضٍ بهِ ، ومحبٌّ لهُ ؛ لأنَّهُ مرادُكَ ، وأنا علىٰ موافقتِكَ أيضاً مبغضٌ لهُ ؛ لأنَّ شرطَ المحبِّ أنْ يكونَ حبيبُ المحبوبِ حبيباً ، وعدوُّهُ عدوّاً .

وأمَّا بغضُهُ لكَ . . فإنّي أرضاهُ مِنْ حيثُ إنَّكَ أردتَ أنْ يبغضَكَ ، إذْ أبعدتَهُ عنْ نفسِكَ ، وسلَّطتَ عليهِ دواعيَ البغضِ ، ولٰكني أبغضُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفُ ذٰلكَ المبغضِ وكسبُهُ وفعلُهُ ، وأمقتُهُ لذٰلكَ ، فهوَ ممقوتٌ عندي لمقتِهِ إيّاكَ ، وبغضُهُ ومقتُهُ لكَ أيضاً مكروهٌ عندي مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفُهُ ، وكلُّ ذٰلكَ مِنْ حيثُ إنَّهُ مرادُكَ . . فهوَ مرضيٌّ .

وإنَّما التناقضُ أنْ يقولَ : هوَ مِنْ حيثُ إنَّهُ مرادُكَ مرضيٌّ ، ومِنْ حيثُ إنَّهُ مرادُكَ مكروهٌ ، فأمَّا إذا كانَ مكروهاً لا مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُهُ ومرادُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفُ غيرِهِ وكسبُهُ . . فهٰذا لا تناقضَ فيهِ ، ويشهدُ لذٰلكَ كلُّ ما يُكرهُ مِنْ وجهٍ ويُرضىٰ بهِ مِنْ وجهٍ ، ونظائرُ ذٰلكَ لا تُحصىٰ .

فإذاً ؛ تسليطُ اللهِ دواعيَ الشهوةِ والمعصيةِ عليهِ حتَّىٰ يجرَّهُ ذٰلكَ إلىٰ حبِّ المعصيةِ ، ويجرَّهُ الحبُّ إلىٰ فعلِ المعصيةِ . . يضاهي ضربَ المحبوبِ للشخصِ الذي ضربناهُ مثلاً ليجرَّهُ الضربُ إلى الغضبِ ، والغضبُ إلى الشتمِ ، ومقتُ اللهِ تعالىٰ لمَنْ عصاهُ ـ وإنْ كانَتْ معصيتُهُ بتدبيرِهِ ـ يشبهُ بغضَ المشتومِ لمَنْ شتمَهُ وإنْ كانَ شتمُهُ إنَّما يحصلُ بتدبيرِهِ واختيارِهِ لأسبابِهِ .

وفعلُ اللهِ تعالىٰ ذٰلكَ بكلِّ عبدٍ مِنْ عبيدِهِ ـ أعني : تسليطَ دواعي المعصيةِ عليهِ ـ يدلُّ علىٰ أنَّهُ سبقَتْ مشيئتُهُ بإبعادِهِ ومقتِهِ ، فواجبٌ علىٰ كلِّ عبدٍ محبٍّ للهِ أنْ يبغضَ مَنْ أبغضَهُ اللهُ ، ويمقتَ مَنْ مقتَهُ اللهُ ، ويعاديَ مَنْ أبعدَهُ اللهُ عنْ حضرتِهِ ، وإنِ اضطرَّهُ بقهرِهِ وقدرتِهِ إلىٰ معاداتِهِ ومخالفتِهِ ؛ فإنَّهُ بعيدٌ مطرودٌ ملعونٌ عنِ الحضرةِ ، وإنْ كانَ بعيداً بإبعادِهِ قهراً ، ومطروداً بطردِهِ اضطراراً .

والمبعدُ عنْ درجاتِ القربِ ينبغي أنْ يكونَ مقيتاً بغيضاً إلىٰ جميعِ المحبّينَ ؛ موافقةً للمحبوبِ بإظهارِ الغضبِ علىٰ مَنْ أظهرَ المحبوبُ الغضبَ عليهِ بإبعادِهِ .

وبهٰذا يتقرَّرُ جميعُ ما وردَتْ بهِ الأخبارُ مِنَ البغضِ في اللهِ ، والحبِّ في اللهِ ، والتشديدِ على الكفَّارِ ، والتغليظِ عليهِمْ ، والمبالغةِ في مقتِهِمْ ، مع الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ إنَّهُ قضاءُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وهٰذا كلُّهُ يُستمدُّ مِنْ سرِّ القدرِ الذي لا رخصةَ في إفشائِهِ ، وهوَ أنَّ الشرَّ والخيرَ كلاهما داخلانِ في المشيئةِ والإرادةِ ، ولٰكنَّ الشرَّ مرادٌ مكروهٌ ، والخيرَ مرادٌ مرضيٌّ بهِ ، فمَنْ قالَ : ليسَ الشرُّ مِنَ اللهِ . . فهوَ جاهلٌ ، وكذا مَنْ قالَ : إنَّهُما جميعاً منهُ مِنْ غيرِ افتراقٍ في الرضا والكراهةِ . . فهوَ أيضاً مقصِّرٌ ، وكشفُ الغطاءِ عنهُ غيرُ مأذونٍ فيهِ ، فالأولى السكوتُ والتأدُّبُ بأدبِ الشرعِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القدرُ سرُّ اللهِ ، فلا تفشوهُ »[1] ، وذٰلكَ يتعلَّقُ بعلمِ المكاشفةِ ، وغرضُنا الآنَ بيانُ الإمكانِ فيما تُعبِّدَ بهِ الخلقُ مِنَ الجمعِ بينَ الرضا بقضاءِ الله تعالىٰ ومقتِ المعاصي معَ أنَّها مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ ظهرَ الغرضُ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ كشفِ السرِّ فيهِ .

وبهٰذا يُعرفُ أيضاً أنَّ الدعاءَ بالمغفرةِ ، والعصمةِ مِنَ المعاصي ، وسائرِ الأسبابِ المعينةِ على الدينِ . . غيرُ مناقضٍ للرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ اللهَ تعبَّدَ العبادَ بالدعاءِ ليستخرجَ الدعاءُ منهُمْ صفاءَ الذكرِ وخشوعَ القلبِ ورقَّةَ التضرُّعِ ، ويكونَ ذٰلكَ جلاءً للقلبِ ومفتاحاً للكشفِ ، وسبباً لتواترِ مزايا اللطفِ ؛ كما أنَّ حملَ الكوزِ وشربَ الماءِ ليسَ مناقضاً للرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ في العطشِ ، وشربُ الماءِ طلبٌ لإزالةِ العطشِ ومباشرةُ سببٍ رتَّبَهُ مسبّبُ الأسبابِ ؛ فكذٰلكَ الدعاءُ سببٌ رتَّبَهُ اللهُ تعالىٰ وأمرَ بهِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ التمسُّكَ بالأسبابِ جرياً علىٰ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ لا يناقضُ التوكُّلَ ، واستقصيناهُ في كتابِ التوكلِ ، فهوَ أيضاً لا يناقضُ الرضا ؛ لأنَّ الرضا مقامٌ يلاصقُ التوكُّلَ ويتصلُ بهِ .

نعمْ ؛ إظهارُ البلاءِ في معرضِ الشكوىٰ ، وإنكارُهُ بالقلبِ على اللهِ تعالىٰ . . مناقضٌ للرضا ، وإظهارُ البلاءِ علىٰ سبيلِ الشكرِ والكشفِ عنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ . . لا يناقضُ ، وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : مِنْ حسنِ الرضا بقضاءِ الله تعالىٰ ألا يقولَ : هٰذا يومٌ حارٌّ[2] ؛ أيْ : في معرضِ الشكايةِ ، وذٰلكَ في الصيفِ ، فأمَّا في الشتاءِ . . فهوَ شكرٌ .

والشكوىٰ تناقضُ الرضا بكلِّ حالٍ ، وذمُّ الأطعمةِ وعيبُها يناقضُ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ مذمَّةَ الصنعةِ مذمَّةٌ للصانعِ ، والكلُّ مِنْ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وقولُ القائلِ : الفقرُ بلاءٌ ومحنةٌ ، والعيالُ همٌّ وتعبٌ ، والاحترافُ كدٌّ ومشقَّةٌ . . كلُّ ذٰلكَ قادحٌ في الرضا ، بلْ ينبغي أنْ يسلِّمَ التدبيرَ لمدبِّرِهِ ، والمملكةَ لمالكِها ، ويقولَ ما قالَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا أبالي أصبحتُ غنيّاً أوْ فقيراً ، فإنِّي لا أدري أيُّهُما خيرٌ لي)[3] .

❋ ❋ ❋

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١٠٢/٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٨٢/٦) .
(٢) قوت القلوب (٤٠/٢) .
(٣) الرعاية (ص ٢٦١) ، وهو في « القوت » (٤٠/٢) .

بيان أنّ الفرار من البلاد التي هي مظانّ المعاصي ومذمّتها لا يقدح في الرّضا

اعلمْ : أنَّ الضعيفَ قدْ يظنُّ أنَّ نهيَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الخروجِ مِنْ بلدٍ ظهرَ بهِ الطاعونُ[1] يدلُّ على النهيِ عنِ الخروجِ مِنْ بلدٍ ظهرَتْ فيهِ المعاصي ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهُما فرارٌ مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ محالٌ ، بلِ العلَّةُ في النهيِ عنْ مفارقةِ البلدِ بعدَ ظهورِ الطاعونِ أنَّهُ لوْ فُتِحَ هٰذا البابُ . . لارتحلَ عنهُ الأصحَّاءُ وبقيَ فيهِ المطعونونَ مهملينَ ، لا متعهِّدَ لهُمْ ، فيهلكونَ هزالاً وضرّاً ، ولذٰلكَ شبَّهَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ الأخبارِ بالفرارِ مِنَ الزحفِ[2] ، ولوْ كانَ ذٰلكَ للفرارِ مِنَ القضاءِ . . لما أذنَ لمَنْ قاربَ البلدةَ في الانصرافِ ، وقدْ ذكرنا حكْمَ ذٰلكَ في كتابِ التوكلِ .

وإذا عُرِفَ المعنىٰ . . ظهرَ أنَّ الفرارَ مِنَ البلادِ التي هيَ مظانُّ المعاصي ليسَ فراراً مِنَ القضاءِ ، بلْ مِنَ القضاءِ الفرارُ ممَّا لا بدَّ مِنَ الفرارِ منهُ ، وكذٰلكَ مذمَّةُ المواضعِ التي تدعو إلى المعاصي ، والأسبابِ التي تدعو إليها ؛ لأجلِ التنفيرِ عنِ المعصيةِ . . ليسَ مذموماً ، فما زالَ السلفُ الصالحُ يعتادونَ ذٰلكَ ، حتَّى اتفقَ جماعةٌ علىٰ ذمِّ بغدادَ ، وإظهارِهِمْ ذٰلكَ ، وطلبِ الفرارِ منها ، فقالَ ابنُ المباركِ : قدْ طفتُ الشرقَ والغربَ فما رأيتُ بلداً شرّاً مِنْ بغدادَ ، قيلَ : وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : هوَ بلدٌ تُزدرىٰ فيهِ نعمةُ اللهِ ، وتُستصغرُ فيهِ معصيةُ اللهِ[3]

ولمَّا قدمَ خراسانَ . . قيلَ لهُ : كيفَ رأيتَ بغدادَ ؟ فقالَ : ما رأيتُ بها إلا شرطيّاً غضبانَ ، أوْ تاجراً لهفانَ ، أوْ قارئاً حيرانَ[4]

ولا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ ذٰلكَ مِنَ الغيبةِ ؛ لأنَّهُ لمْ يتعرَّضْ لشخصٍ بعينِهِ حتَّىٰ يستضرَّ ذٰلكَ الشخصُ بهِ ، وإنَّما قصدَ بذٰلكَ تحذيرَ الناسِ .

وكانَ يخرجُ إلىٰ مكَّةَ وكانَ مقامُهُ ببغدادَ ريثَ استعدادِ القافلةِ ستةَ عشرَ يوماً ، فكانَ يتصدَّقُ بستةَ عشرَ ديناراً ؛ لكلِّ يومٍ دينارٌ كفارةً لمقامِهِ[5]

وقدْ ذمَّ العراقَ جماعةٌ ؛ كعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، وكعبِ الأحبارِ ، وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما لمولىً لهُ : أينَ تسكنُ ؟ فقالَ : العراقَ ، فقالَ : فما تصنعُ بهِ ؟! بلغَني أنَّهُ ما مِنْ أحدٍ يسكنُ العراقَ إلا قيَّضَ اللهُ لهُ قريناً مِنَ البلاءِ !![6]

وذكرَ كعبُ الأحبارِ يوماً العراقَ فقالَ : فيهِ تسعةُ أعشارِ الشرِّ ، وفيهِ الداءُ العضالُ ، وقدْ قيلَ : قُسِّمَ الخيرُ عشرةَ أجزاءٍ ، فتسعةُ أعشارِهِ بالشامِ ، وعشرُهُ بالعراقِ ، وقُسِّمَ الشرُّ عشرةَ أجزاءٍ على العكسِ مِنْ ذٰلكَ[7]

وقالَ بعضُ أصحابِ الحديثِ : كنَّا يوماً عندَ الفضيلِ بنِ عياضٍ ، فجاءَهُ صوفيٌّ متدرِّعٌ بعباءةٍ فأجلسَهُ إلىٰ جانبِهِ ،

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣) ، ومسلم (٢٢١٨)

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١٤٥/٦) .

(٣) قوت القلوب (٤٩/٢) .

(٤) قوت القلوب (٤٩/٢) .

(٥) قوت القلوب (٤٩/٢) .

(٦) قوت القلوب (٤٩/٢) .

(٧) قوت القلوب (٤٩/٢) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٩/١) بنحوه .

وأقبلَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : أينَ تسكنُ ؟ فقالَ : بغدادَ ، فأعرضَ عنهُ وقالَ : يأتينا أحدُهُمْ في زيِّ الرهبانِ ، فإذا سألناهُ أينَ تسكنُ . . قالَ : في عشِّ الظلمةِ !![1]

وكانَ بشرُ بنُ الحارثِ يقولُ : (مثالُ المتعبِّدِ ببغدادَ مثالُ المتعبِّدِ في الحشِّ) .

وكانَ يقولُ : (لا تقتدوا بي في المقامِ بها ، مَنْ أرادَ أنْ يخرجَ . . فليخرجْ)[2]

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يقولُ : لولا تعلُّقُ هـٰؤلاءِ الصبيانِ بنا . . كانَ الخروجُ مِنْ هـٰذا البلدِ آثرَ في نفسي ، قيلَ : وأينَ تختارُ السكنىٰ ؟ قالَ : بالثغورِ[3]

وقالَ بعضُهُمْ وقدْ سُئِلَ عنْ أهلِ بغدادَ : (زاهدُهُمْ زاهدٌ ، وشريرُهُمْ شريرٌ) .

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ بُلِيَ ببلدةٍ تكثرُ فيها المعاصي ، ويقلُّ فيها الخيرُ . . فلا عذرَ لهُ في المقامِ بها ، بلْ ينبغي أنْ يهاجرَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ .

فإنْ منعَهُ عنْ ذٰلكَ عيالٌ أوْ علاقةٌ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ راضياً بحالِهِ ، مطمئنَّ النفسِ إليهِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ منزعجَ القلبِ منها ، قائلاً على الدوامِ : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ ، وذٰلكَ لأنَّ الظلمَ إذا عمَّ . . نزلَ البلاءُ ، ودمَّرَ على الجميعِ ، وشملَ المطيعينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ .

فإذاً ؛ ليسَ في شيءٍ مِنْ أسبابِ نقصانِ الدينِ ألبتةَ رضاً مطلقٌ إلا مِنْ حيثُ إضافتُها إلىٰ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، فأمَّا هيَ في نفسِها . . فلا وجهَ للرضا بها بحالٍ .

وقدِ اختلفَ العلماءُ في الأفضلِ مِنْ أهلِ المقاماتِ الثلاثِ : رجلٌ يحبُّ الموتَ شوقاً إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، ورجلٌ يحبُّ البقاءَ لخدمةِ المولىٰ ، ورجلٌ قالَ : لا أختارُ شيئاً ، بلْ أرضىٰ بما اختارَهُ اللهُ تعالىٰ ، ورُفِعَتْ هـٰذهِ المسألةُ إلىٰ بعضِ العارفينَ ، فقالَ : صاحبُ الرضا أفضلُهُمْ ؛ لأنَّهُ أقلُّهُمْ فضولاً[4]

واجتمعَ ذاتَ يومٍ وهيبُ بنُ الوردِ وسفيانُ الثوريُّ ويوسفُ بنُ أسباطٍ ، فقالَ الثوريُّ : كنتُ أكرهُ موتَ الفجأةِ قبلَ اليومِ ، واليومَ وددتُ أنِّي متُّ ، فقالَ لهُ يوسفُ : لِمَ ؟ قالَ : لما أتخوَّفُ مِنَ الفتنةِ ، فقالَ يوسفُ : لـٰكنِّي لا أكرهُ طولَ البقاءِ ، فقالَ سفيانُ : لِمَ ؟ قالَ : لعلي أصادفُ يوماً أتوبُ فيهِ وأعملُ صالحاً ، فقيلَ لوهيبٍ : أيشٍ تقولُ أنتَ ؟ فقالَ : أنا لا أختارُ شيئاً ، أحبُّ ذٰلكَ إليَّ أحبُّهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فقبَّلَهُ الثوريُّ بينَ عينيهِ وقالَ : روحانيَّةٌ وربِّ الكعبةِ[5]

* * *

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٧١/٩) .
(٢) نقلهما صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٧١/٩) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦٧١/٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٩) ، وقوت القلوب (٤٤/٢) .
(٥) قوت القلوب (٤٤/٢) .

بيان جملةٍ من حكايات المحبّين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيلَ لبعضِ العارفينَ : إنَّكَ محبٌّ ، فقالَ : لستُ محبّاً ، إنَّما أنَا محبوبٌ ، والمحبُّ متعوبٌ[1]

وقيلَ لهُ أيضاً : الناسُ يقولونُ : إنَّكَ واحدٌ مِنَ السبعةِ ، فقالَ : أنا كلُّ السبعةِ[2]

وكانَ يقولُ : إذا رأيتُموني . . فقدْ رأيتُمْ أربعينَ بدلاً ، قيلَ : وكيفَ وأنتَ شخصٌ واحدٌ ؟ قالَ : لأنِّي رأيتُ أربعينَ بدلاً ، وأخذتُ مِنْ كلِّ بدلٍ خلقاً مِنْ أخلاقِهِ[3]

وقيلَ لهُ : بلغَنا أنَّكَ ترى الخضرَ عليهِ السلامُ ، فتبسَّمَ وقالَ : ليسَ العجبُ ممَّنْ يرى الخضرَ ، ولـٰكنِ العجبُ ممَّنْ يريدُ الخضرُ أنْ يراهُ فيحتجبُ عنهُ[4]

ويحكىٰ عنِ الخضرِ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : (ما حدثتُ نفسي يوماً قطُّ أنَّهُ لمْ يبقَ وليٌّ للهِ تعالىٰ إلا عرفتُهُ إلا ورأيتُ في ذٰلكَ اليومِ وليّاً لمْ أعرفْهُ) .

وقيلَ لأبي يزيدَ البسطاميِّ مرَّةً : حدِّثْنا عنْ مشاهدتِكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فصاحَ ثمَّ قالَ :

ويلَكُمْ !! لا يصلحُ لكُمْ أنْ تعلموا ذٰلكَ .

قيلَ : فحدثْنا بأشدِّ مجاهدتِكَ لنفسِكَ في اللهِ تعالىٰ .

فقالَ : وهـٰذا أيضاً لا يجوزُ أنْ أطلعَكُمْ عليهِ .

قيلَ : فحدثْنا عنْ رياضةِ نفسِكَ في بدايتِكَ .

فقالَ : نعمْ ، دعوتُ نفسي إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فجمحَتْ عليَّ ، فعزمتُ عليها ألا أشربَ الماءَ سنةً ، ولا أذوقَ النومَ سنةً ، فوفَّتْ لي بذٰلكَ[5]

وحُكِيَ عنْ يحيى بنِ معاذٍ أنَّهُ رأىٰ أبا يزيدَ في بعضِ مشاهداتِهِ مِنْ بعدِ صلاةِ العشاءِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ مستوفزاً علىٰ صدورِ قدميهِ ، رافعاً أخمصَهُما معَ عقبيهِ عنِ الأرضِ ، ضارباً بذقنِهِ علىٰ صدرِهِ ، شاخصاً بعينيهِ لا يطرفُ ، قالَ : ثمَّ سجدَ عندَ السحرِ فأطالَ ، ثمَّ قعدَ فقالَ :

اللهمَّ ؛ إنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهُمُ المشيَ على الماءِ ، والمشيَ في الهواءِ ، فرضوا بذٰلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذٰلكَ .

وإنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهُمْ طيَّ الأرضِ ، فرضوا بذٰلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذٰلكَ .

وإنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهُمْ كنوزَ الأرضِ ، فرضوا بذٰلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذٰلكَ .

قالَ : حتَّىٰ عدَّ نيِّفاً وعشرينَ مقاماً مِنْ كراماتِ الأولياءِ ، ثمَّ التفتَ فرآني ، فقالَ :

---

(١) قوت القلوب (٦٩/٢) .

(٢) قوت القلوب (٦٩/٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٧/١٠) .

(٣) قوت القلوب (٦٩/٢) .

(٤) قوت القلوب (٦٩/٢) .

(٥) قوت القلوب (٧٠/٢) .

يحيىٰ !! فقلتُ : نعمْ يا سيِّدي ، فقالَ : مُذْ متىٰ أنتَ ها هنا ؟ قلتُ : منذُ حينٍ ، فسكتَ .

فقلتُ : يا سيِّدي ؛ حدِّثْني بشيءٍ ، فقالَ :

أحدِّثُكَ بما يصلحُ لكَ ، أدخلَني في الفلكِ الأسفلِ ، فدوَّرَني في الملكوتِ السفليِّ ، وأراني الأرضينَ وما تحتَها إلى الثرىٰ ، ثمَّ أدخلَني في الفلكِ العلويِّ ، فطوَّفَ بي في السماواتِ ، وأراني ما فيها مِنَ الجنانِ إلى العرشِ ، ثمَّ أوقفَني بينَ يديهِ ، فقالَ :

سلْني أيَّ شيءٍ رأيتَ حتَّىٰ أهبَهُ لكَ ، فقلتُ : يا سيِّدي ؛ ما رأيتُ شيئاً استحسنتُهُ فأسألَكَ إيَّاهُ ، فقالَ :

أنتَ عبدي حقّاً ، تعبدُني لأجلي صدقاً ، لأفعلَنَّ بكَ ولأفعلَنَّ ، فذكرَ أشياءَ .

قال يحيىٰ : فهالَني ذٰلكَ وامتلأتُ بهِ ، وعجبتُ منهُ ، فقلتُ : يا سيِّدي ؛ لِمَ لا سألتَهُ المعرفةَ بهِ وقدْ قالَ لكَ ملكُ الملوكِ : سلْني ما شئتَ ؟

قالَ : فصاحَ بي صيحةً وقالَ : اسكتْ ويلَكَ ، غرتُ عليهِ منّي ، حتَّىٰ لا أحبُّ أنْ يعرفَهُ سواهُ[1]

وحُكِيَ أنَّ أبا ترابٍ النخشبيَّ كانَ معجباً ببعضِ المريدينَ ، فكانَ يدنيهِ ، ويقومُ بمصالحِهِ ، والمريدُ مشغولٌ بعبادتِهِ ومواجيدِهِ ، فقالَ لهُ أبو ترابٍ يوماً : لوْ رأيتَ أبا يزيدَ ، فقالَ المريدُ : إنِّي عنهُ مشغولٌ .

فلمَّا أكثرَ عليهِ أبو ترابٍ مِنْ قولِهِ : لوْ رأيتَ أبا يزيدَ . . هاجَ وجْدُ المريدِ فقالَ : ويحَكَ !! ما أصنعُ بأبي يزيدَ ؟ قدْ رأيتُ اللهَ تعالىٰ فأغناني عنْ أبي يزيدَ .

قالَ أبو ترابٍ : فهاجَ طبعي ، ولمْ أملكْ نفسي ، فقلتُ : ويلَكَ !! تغترُّ باللهِ عزَّ وجلَّ ؟! لوْ رأيتَ أبا يزيدَ مرَّةً واحدةً . . كانَ أنفعَ لكَ مِنْ أنْ ترى اللهَ سبعينَ مرَّةً ، قالَ : فبهتَ الفتىٰ مِنْ قولِهِ وأنكرَهُ ، فقالَ : وكيفَ ذٰلكَ ؟

قالَ لهُ : ويلَكَ !! إنَّما ترى اللهَ تعالىٰ عندَكَ ، فيظهرُ لكَ علىٰ مقدارِكَ ، وترىٰ أبا يزيدَ عندَ اللهِ قدْ ظهرَ لهُ علىٰ مقدارِهِ ، فعرفَ ما قلتُ ، فقالَ : احملْني إليهِ ، فذكرَ قصةً قالَ في آخرِها :

فوقفنا علىٰ تلٍّ ننتظرُهُ ليخرجَ إلينا مِنَ الغيضةِ ، وكانَ يأوي إلىٰ غيضةٍ فيها سباعٌ ، قالَ : فمرَّ بنا وقدْ قلبَ فروةً علىٰ ظهرِهِ ، فقلتُ للفتىٰ : هٰذا أبو يزيدَ فانظرْ إليهِ ، فنظرَ إليهِ الفتىٰ فصعقَ ، فحركناهُ فإذا هوَ ميتٌ ، فتعاونا علىٰ دفنِهِ ، فقلتُ لأبي يزيدَ :

يا سيِّدي نظرُهُ إليكَ قتلَهُ ؟ قالَ : لا ، ولٰكنْ كانَ صاحبُكَ صادقاً ، وأُسكنَ في قلبِهِ سرٌّ لمْ ينكشفْ لهُ بوصفِهِ ، فلمَّا رآنا . . انكشفَ لهُ سرُّ قلبِهِ ، فضاقَ عنْ حملِهِ ؛ لأنَّهُ في مقامِ الضعفاءِ المريدينَ ، فقتلَهُ ذٰلكَ[2]

ولمَّا دخلَ الزنجُ البصرةَ ، فقتلوا الأنفسَ ، ونهبوا الأموالَ . . اجتمعَ إلىٰ سهلٍ إخوانُهُ ، فقالوا : لوْ سألتَ اللهَ تعالىٰ دفعَهُمْ ، فسكتَ ثمَّ قالَ :

إنَّ للهِ عباداً في هٰذهِ البلدةِ لوْ دعوا على الظالمينَ . . لمْ يصبحْ علىٰ وجهِ الأرضِ ظالمٌ إلا ماتَ في ليلةٍ واحدةٍ ، ولٰكنْ لا يفعلونَ ، قيلَ : لِمَ ؟

---

(١) قوت القلوب (٢/٧٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/٧٠) ، وقد ينكشف للمريد في صحبة العارفين والنظر إلىٰ وجوههم في لحظة واحدة ما لا ينكشف له بالاجتهاد في مدة متطاولة . « إتحاف » (٩/٦٧٤) .

قالَ : لأنَّهُمْ لا يحبُّونَ ما لا يحبُّ ، ثمَّ ذكرَ مِنْ إجابةِ اللهِ تعالىٰ أشياءَ لا يُستطاعُ ذكرُها ، حتَّىٰ قالَ : ولوْ سألوهُ ألا يقيمَ الساعةَ . . لمْ يقمْها[1]

وهـٰذهِ أمورٌ ممكنةٌ في أنفسِها ، فمَنْ لمْ يحظَ بشيءٍ منها . . فلا ينبغي أنْ يخلوَ عنِ التصديقِ والإيمانِ بإمكانِها ، فإنَّ القدرةَ واسعةٌ ، والفضلَ عظيمٌ[2] ، وعجائبَ الملكِ والملكوتِ كثيرةٌ ، ومقدوراتِ اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لها ، وفضلَهُ علىٰ عبادِهِ الذينَ اصطفىٰ لا غايةَ لهُ .

ولذٰلكَ كانَ أبو يزيدَ يقولُ : (إنْ أعطاكَ مناجاةَ موسىٰ ، وروحانيَّةَ عيسىٰ ، وخُلَّةَ إبراهيمَ عليهِمُ السلامُ . . فاطلبْ ما وراءَ ذٰلكَ ، فإنَّ عندَهُ فوقَ ذٰلكَ أضعافاً مضاعفةً ، فإنْ سكنتَ إلىٰ ذٰلكَ . . حجبَكَ بهِ ، وهـٰذا بلاءُ مثلِهِمْ ، ومَنْ هوَ في مثلِ حالِهِمْ ؛ لأنَّهُمُ الأمثلُ فالأمثلُ)[3]

وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ :

كُوشفتُ بأربعينَ حوراءَ ، رأيتُهُنَّ يتساعينَ في الهواءِ ، عليهِنَّ ثيابٌ مِنْ ذهبٍ وفضةٍ وجوهرٍ يتخشخشُ ويتثنَّىٰ معَهُنَّ ، فنظرتُ إليهِنَّ نظرةً ، فعُوقبتُ أربعينَ يوماً .

ثمَّ كُوشفتُ بعدَ ذٰلكَ بثمانينَ حوراءَ فوقَهُنَّ في الحسنِ والجمالِ ، وقيلَ لي : انظرْ إليهِنَّ ، قالَ : فسجدتُ وغمضتُ عيني في سجودي لئلا أنظرَ إليهِنَّ ، وقلتُ :

أعوذُ بكَ ممَّا سواكَ ، لا حاجةَ لي بهـٰذا ، فلمْ أزلْ أتضرَّعُ حتَّىٰ صرفَهُنَّ اللهُ عنِّي[4]

فأمثالُ هـٰذهِ المكاشفاتِ لا ينبغي أنْ ينكرَها المؤمنُ لإفلاسِهِ عنْ مثلِها ، فلوْ لمْ يؤمنْ كلُّ واحدٍ إلا بما يشاهدُهُ مِنْ نفسِهِ المظلمةِ وقلبِهِ القاسي . . لضاقَ مجالُ الإيمانِ عليهِ .

بلْ هـٰذهِ أحوالٌ تظهرُ بعدَ مجاوزةِ عقباتٍ ونيلِ مقاماتٍ كثيرةٍ ، أدناها الإخلاصُ وإخراجُ حظوظِ النفسِ وملاحظةِ الخلقِ عنْ جميعِ الأعمالِ ظاهراً وباطناً ، ثمَّ مكاتمةُ ذٰلكَ عنِ الخلقِ بسترِ الحالِ حتَّىٰ يبقىٰ متحصناً بحصنِ الخمولِ .

فهـٰذهِ أوائلُ سلوكِهِمْ ، وأقلُّ مقاماتِهِمْ ، وهيَ أعزُّ موجودٍ في الأتقياءِ مِنَ الناسِ .

وبعدَ تصفيةِ القلبِ عنْ كدورةِ الالتفاتِ إلى الخلقِ يفيضُ عليهِ نورُ اليقينِ ، وينكشفُ لهُ مبادي الحقِّ ، وإنكارُ ذٰلكَ دونَ التجربةِ وسلوكِ الطريقِ يجري مَجرىٰ إنكارِ مَنْ أنكرَ إمكانَ انكشافِ الصورةِ في الحديدةِ إذا شُكِّلَتْ ونُقِّيَتْ ، وصُقِلَتْ وصُوِّرَتْ بصورةِ المرآةِ .

فنظرَ المنكرُ إلىٰ ما في يدِهِ مِنْ زُبْرةِ حديدٍ مظلمٍ قدِ استولىٰ عليهِ الصدأُ والخبثُ ، وهوَ لا يحكي صورةً مِنَ الصورِ . . فأنكرَ إمكانَ انكشافِ المرئي فيها عندَ ظهورِ جوهرِها ، وإنكارُ ذٰلكَ غايةُ الجهلِ والضلالِ .

فهـٰذا حكمُ كلِّ مَنْ أنكرَ كراماتِ الأولياءِ ، إذْ لا مستندَ لهُ إلا قصورُهُ عنْ ذٰلكَ وقصورُ مَنْ رآهُ ، وبئسَ المستندُ ذٰلكَ في إنكارِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ .

---

(١) قوت القلوب (٧١/٢) .

(٢) في (أ) : (عميم) بدل (عظيم) .

(٣) قوت القلوب (٧٢/٢) .

(٤) قوت القلوب (٧٢/٢) .

بلْ إنَّما يَشَمُّ روائحَ المكاشفةِ مَنْ سلكَ شيئاً ولوْ مِنْ مبادي الطريقِ ؛ كما قيلَ لبشرٍ : بأيِّ شيءٍ بلغتَ هـٰذهِ المنزلةَ ؟ فقالَ : كنتُ أكاتمُ اللهَ تعالىٰ حالي .

معناهُ : أسألُهُ أنْ يكتمَ عليَّ ويُخفيَ أمري[1]

ورُوِيَ أنَّهُ رأى الخضرَ عليهِ السلامُ ، فقالَ لهُ : ادعُ اللهَ تعالىٰ لي ، فقالَ : يسَّرَ اللهُ عليكَ طاعتَهُ ، قلتُ : زدْني ، فقالَ : وسترَها عليكَ .

فقيلَ : معناهُ سترَها عنِ الخلقِ ، وقيلَ : معناهُ : سترَها عنكَ حتَّىٰ لا تلتفتَ أنتَ إليها[2]

وعنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ :

أقلقَني الشوقُ إلى الخضرِ عليهِ السلامُ ، فسألتُ اللهَ تعالىٰ مرَّةً أنْ يريَني إيَّاهُ ليعلِّمَني شيئاً كانَ أهمَّ الأشياءِ عليَّ ، قالَ : فرأيتُهُ ، فما غلبَ عليَّ همِّي ولا همَّتي إلا أنْ قلتُ لهُ :

يا أبا العباسِ ؛ علِّمْني شيئاً إذا قلتُهُ حُجبتُ عن قلوبِ الخليقةِ ، فلمْ يكنْ لي فيها قدْرٌ ، ولمْ يعرفْني أحدٌ بصلاحٍ ولا ديانةٍ ، فقالَ : قلِ :

اللهمَّ ؛ أسبلْ عليَّ كثيفَ سترِكَ ، وحُطَّ عليَّ سرادقاتِ حجُبِكَ ، واجعلْني في مكنونِ غيبِكَ ، واحجبْني عنْ قلوبِ خلقِكَ[3]

قالَ : ثمَّ غابَ فلمْ أرهُ ، ولمْ أشتقْ إليهِ بعدَ ذلكَ ، فما زلتُ أقولُ هـٰذهِ الكلماتِ في كلِّ يومٍ .

فحكىٰ أنَّهُ صارَ بحيثُ كانَ يُستذلُّ ويُمتهنُ ، حتَّىٰ كانَ أهلُ الذمَّةِ يسخرونَ بهِ ، ويستسخرونَهُ في الطرقِ يحملُ الأشياءَ لهُمْ ، لسقوطِهِ عندَهُمْ ، وكانَ الصبيانُ يُولعونَ بهِ ، فكانَتْ راحتُهُ ووجودُ قلبِهِ واستقامةُ حالِهِ في ذلِّهِ وخمولِهِ[4] .

فهـٰكذا حالُ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ، ففي أمثالِ هـٰؤلاءِ ينبغي أنْ يُطلبوا ، والمغرورونَ إنَّما يطلبونَهُمْ تحتَ المرقَّعاتِ والطيالسةِ ، وفي المشهورينَ بينَ الخلقِ بالعلمِ والورعِ والرئاسةِ ، وغيرةُ اللهِ تعالىٰ علىٰ أوليائِهِ تأبىٰ إلا إخفاءَهُمْ ، كما قالَ تعالىٰ : (أوليائي تحتَ قبابي ، لا يعرفُهُمْ غيري) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ لا يُؤبَهُ لهُ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ »[5]

وبالجملةِ : فأبعدُ القلوبِ عنْ مشامِّ هـٰذهِ المعاني القلوبُ المتكبِّرةُ ، المعجبةُ بأنفسِها ، المستبشرةُ بعملِها وعلمِها .

وأقربُ القلوبِ إليها القلوبُ المنكسرةُ ، المستشعرةُ ذلَّ نفسِها استشعاراً إذا أُذلَّ واهتُضمَ . . لمْ يحسَّ بالذلِّ ؛ كما لا يحسُّ العبدُ بالذلِّ مهما ترفَّعَ عليهِ مولاهُ .

فإذا لمْ يحسَّ بالذلِّ ، ولمْ يشعرْ أيضاً بعدمِ التفاتِهِ إلى الذلِّ ، بلْ كانَ عندَ نفسِهِ أخسَّ منزلةً مِنْ أنْ يرىٰ جميعَ

---

(١) قوت القلوب (٧٣/٢) .

(٢) قوت القلوب (٧٣/٢) ، وأوردها كذلك القشيري في « رسالته » (ص ٥٩٨) .

(٣) في غير (ع ، ف) : (واحجبني في قلوب خلقك)

(٤) قوت القلوب (٧٣/٢) .

(٥) رواه الترمذي (٣٨٥٤) ، وأصله عند مسلم (٢٦٢٢) .

أنواعِ الذلِّ ذُلّاً في حقِّهِ ، بلْ يرىٰ نفسَهُ دونَ ذٰلكَ ، حتَّىٰ صارَ التواضعُ بالطبعِ صفةَ ذاتِهِ . . فمثلُ هٰذا القلبِ يُرجىٰ لهُ أنْ يستنشقَ مباديَ هٰذهِ الروائحِ .

فإنْ فقدنا مثلَ هٰذا القلبِ ، وحُرمنا مثلَ هٰذا الروحِ . . فلا ينبغي أنْ يُطرحَ الإيمانُ بإمكانِ ذٰلكَ لأهلِهِ ، فمَنْ لا يقدرُ أنْ يكونَ مِنْ أولياءِ اللهِ . . فليكنْ محبّاً لأولياءِ اللهِ ، مؤمناً بهِمْ ، فعسىٰ أنْ يُحشرَ معَ مَنْ أحبَّ .

ويشهدُ لهٰذا ما رُويَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ قالَ لبني إسرائيلَ : أينَ ينبتُ الزرعُ ؟ قالوا : في الترابِ ، فقالَ : بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا تنبتُ الحكمةُ إلا في قلبٍ مثلِ الترابِ(١)

ولقدِ انتهى المريدونَ لولايةِ اللهِ تعالىٰ في طلبِ شروطِها بإذلالِ النفسِ إلىٰ منتهى الضعةِ والخسَّةِ .

حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ ابنَ الكَرَنْبِيِّ وهوَ أستاذُ الجنيدِ دعاهُ رجلٌ ثلاثَ مرَّاتٍ إلىٰ طعامِهِ ، ثمَّ كانَ يردُّهُ ، ثمَّ يستدعيهِ ، فيرجعُ إليهِ بعدَ ذٰلكَ ، حتَّىٰ أدخلَهُ في المرَّةِ الرابعةِ ، فسألَهُ عنْ ذٰلكَ ، فقالَ

قدْ رُضْتُ نفسي على الذلِّ عشرينَ سنةً ، حتَّىٰ صارَتْ بمنزلةِ الكلبِ ، يُطردُ فينطردُ ، ثمَّ يُدعىٰ فيُرمىٰ لهُ عظمٌ فيعودُ ، ولوْ رددتَني خمسينَ مرَّةً ثمَّ دعوتَني بعدَ ذٰلكَ . . لأجبتُ(٢)

وعنهُ أيضاً أنَّهُ قالَ :

نزلتُ في محلَّةٍ ، فعُرفتُ فيها بالصلاحِ ، فتشتَّتَ قلبي ، فدخلتُ الحمَّامَ ، وعيَّنتُ علىٰ ثيابٍ فاخرةٍ فسرقتُها ولبستُها ، ثمَّ لبستُ مرقَّعتي فوقَها وخرجتُ ، وجعلتُ أمشي قليلاً قليلاً ، فلحقوني فنزعوا مرقَّعتي ، وأخذوا الثيابَ ، وصفعوني وأوجعوني ضرباً ، فصرتُ بعدَ ذٰلكَ أُعرفُ بلصِّ الحمامِ ، فسكنَتْ نفسي(٣)

فهٰكذا كانوا يروضونَ أنفسَهُمْ حتَّىٰ يخلِّصَهُمُ اللهُ مِنَ النظرِ إلى الخلقِ ، ثمَّ مِنَ النظرِ إلى النفسِ ، فإنَّ الملتفتَ إلىٰ نفسِهِ محجوبٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وشغلُهُ بنفسِهِ حجابٌ لهُ ، فليسَ بينَ القلبِ وبينَ اللهِ حجابٌ ببعْدٍ وتخلُّلِ حائلٍ ، وإنَّما بعْدُ القلوبِ شغلُها بغيرِهِ أوْ بنفسِها ، وأعظمُ الحجبِ شغلُ النفسِ .

ولذٰلكَ حُكيَ أنَّ شاهداً عظيمَ القدْرِ مِنْ أعيانِ أهلِ بِسطامَ كانَ لا يفارقُ مجلسَ أبي يزيدَ ، فقالَ لهُ يوماً : يا أبا يزيدَ ؛ أنا منذُ ثلاثينَ سنةً أصومُ الدهرَ لا أفطرُ ، وأقومُ الليلَ لا أنامُ ، ولا أجدُ في قلبي مِنْ هٰذا العلمِ الذي تذكرُ شيئاً ، وأنا أصدِّقُ بهِ وأحبُّهُ .

فقالَ أبو يزيدَ : ولوْ صمتَ ثلاثَ مئةِ سنةٍ ، وقمتَ ليلَها . . ما وجدتَ مِنْ هٰذا ذرَّةً ، قالَ : ولِمَ ؟

قالَ : لأنَّكَ محجوبٌ بنفسِكَ ، قالَ : فلهٰذا دواءٌ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : قُلْ لي حتَّىٰ أعملَهُ ، قالَ : لا تقبلُهُ ، قالَ : فاذكرْهُ لي حتَّىٰ أعملَهُ .

قالَ : اذهبِ الساعةَ إلى المزيِّنِ فاحلقْ رأسَكَ ولحيتَكَ ، وانزعْ هٰذا اللباسَ واتَّزرْ بعباءةٍ ، وعلِّقْ في عنقِكَ مخلاةً مملوءةً جوزاً ، واجمعِ الصبيانَ حولَكَ وقُلْ :

---

(١) قوت القلوب (٧٤/٢) .

(٢) قوت القلوب (٧٤/٢) ، وبنحوه أورد القشيري في « رسالته » (ص ٤١٤) عن أبي عثمان الحيري .

(٣) كذا في « القوت » (٧٤/٢) .

كلُّ مَنْ صفعَني صفعةً . . أعطيتُهُ جوزةً ، وادخلِ السوقَ ، وطُفِ الأسواقَ كلَّها عندَ الشهودِ وعندَ مَنْ يعرفُكَ وأنتَ علىٰ ذٰلكَ .

فقالَ الرجلُ : سبحانَ اللهِ !! تقولُ لي مثلَ هـٰذا ؟! فقالَ أبو يزيدَ : قولُكَ : (سبحانَ اللهِ) شركٌ ، قالَ : وكيفَ ؟ قالَ : لأنَّكَ عظَّمتَ نفسَكَ فسبَّحتَها ، وما سبَّحتَ ربَّكَ ، فقالَ : هـٰذا لا أفعلُهُ ، ولـٰكنْ دُلَّني علىٰ غيرِهِ ، فقالَ : ابتدئْ بهـٰذا قبلَ كلِّ شيءٍ ، فقالَ : لا أُطيقُهُ ، فقالَ : قدْ قلتُ لكَ : إنَّكَ لا تقبلُ [1]

فهـٰذا الذي ذكرَهُ أبو يزيدَ هوَ دواءُ مَنِ اعتلَّ بنظرِهِ إلىٰ نفسِهِ ومرضَ بنظرِ الناسِ إليهِ ، ولا ينجي مِنْ هـٰذا المرضِ دواءٌ سوىٰ هـٰذا وأمثالِهِ .

فمَنْ لا يطيقُ الدواءَ . . فلا ينبغي أنْ ينكرَ إمكانَ الشفاءِ في حقِّ مَنْ داوىٰ نفسَهُ بعدَ المرضِ ، أوْ لمْ يمرضْ بمثلِ هـٰذا المرضِ أصلاً .

فأقلُّ درجاتِ الصحَّةِ الإيمانُ بإمكانِها ، فويلٌ لمَنْ حُرِمَ هـٰذا القدْرَ القليلَ أيضاً .

وهـٰذهِ أمورٌ جليَّةٌ في الشرعِ واضحةٌ ، وهيَ معَ ذٰلكَ مستبعدةٌ عندَ مَنْ يعدُّ نفسَهُ مِنْ علماءِ الشرعِ ، فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّىٰ تكونَ قلَّةُ الشيءِ أحبَّ إليهِ مِنْ كثرتِهِ ، وحتَّىٰ يكونَ ألا يُعرفَ أحبَّ إليهِ مِنْ أنْ يُعرفَ » [2]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ . . استكملَ إيمانَهُ : لا يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ ، ولا يرائي بشيءٍ مِنْ عملِهِ ، وإذا عُرِضَ عليهِ أمرانِ ؛ أحدُهُما للدنيا ، والآخرُ للآخرةِ . . آثرَ أمرَ الآخرةِ علىٰ أمرِ الدنيا » [3]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يكملُ إيمانُ العبدِ حتَّىٰ يكونَ فيهِ ثلاثُ خصالٍ : مَنْ إذا غضبَ . . لمْ يخرجْهُ غضبُهُ عَنْ حقٍّ ، وإذا رضيَ . . لمْ يدخلْهُ رضاهُ في باطلٍ ، وإذا قدرَ . . لمْ يتناولْ ما ليسَ لهُ » [4]

وفي حديثٍ آخرَ :

« ثلاثٌ مَنْ أُوتيَهُنَّ . . فقدْ أُوتيَ مثلَ ما أُوتيَ آلُ داوودَ : العدلُ في الرضا والغضبِ ، والقصدُ في الغنىٰ والفقرِ ، وخشيةُ اللهِ في السرِّ والعلانيةِ » [5]

فهـٰذهِ شروطٌ ذكرَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأولي الإيمانِ ، فالعجبُ ممَّنْ يدَّعي علمَ الدينِ ولا يصادفُ في نفسِهِ ذرَّةً مِنْ هـٰذهِ الشروطِ ، ثمَّ يكونُ نصيبُهُ مِنْ علمِهِ وعقلِهِ أنْ يجحدَ ما لا يكونُ إلا بعدَ مجاوزةِ مقاماتٍ عظيمةٍ عليَّةٍ وراءَ الإيمانِ .

---

(١) قوت القلوب (٧٤/٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٧٥/٢) ، حيث قال : (وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف كمال الإيمان ثلاثة أحاديث من أصول هـٰذه الأحوال ، وأساس هـٰذه الأفعال . . .) فذكرها ، وانظر « الإتحاف » (٣٣٢/٩)

(٣) كذا في « القوت » (٧٥/٢) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) كذا في « القوت » (٧٥/٢) ، وبنحوه رواه الطبراني في « الصغير » (٦١/١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٦٨/١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) كذا في « القوت » (٧٥/٢) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٣٠) ، وبنحوه رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٥٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وفي الأخبارِ :

أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ[1] : (إنَّما أتخذُ لخُلَّتي مَنْ لا يفترُ عنْ ذكري ، ولا يكونُ لهُ همٌّ غيري ، ولا يؤثرُ عليَّ شيئاً مِنْ خلقي ، وإنْ حُرِقَ بالنارِ . . لمْ يجدْ لحرْقِ النارِ وجعاً ، وإنْ قُطِّعَ بالمناشيرِ . . لمْ يجدْ لمسِّ الحديدِ ألماً)[2]

فمَنْ لمْ يبلغْ إلىٰ أنْ يغلبَهُ الحبُّ إلىٰ هـٰذا الحدِّ . . فمِنْ أينَ يعرفُ ما وراءَ الحبِّ مِنَ الكراماتِ والمكاشفاتِ ، وكلُّ ذٰلكَ وراءَ الحبِّ ، والحبُّ وراءَ كمالِ الإيمانِ ، ومقاماتُ الإيمانِ وتفاوتُهُ في الزيادةِ والنقصانِ لا حصرَ لهُ ؟!

ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أعطاكَ مثلَ إيمانِ كلِّ مَنْ آمنَ بي مِنْ أمَّتي ، وأعطاني مثلَ إيمانِ كلِّ مَنْ آمنَ بهِ مِنْ ولدِ آدمَ »[3]

وفي حديثٍ آخرَ :

« إنَّ للهِ تعالىٰ ثلاثَ مئةِ خُلُقٍ ، مَنْ لقيَهُ بخلقٍ منها معَ التوحيدِ . . دخلَ الجنَّةَ » .

فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ فيَّ خلقٌ منها ؟ فقالَ : « كلُّها فيكَ يا أبا بكرٍ ؛ وأحبُّها إلى اللهِ تعالى السخاءُ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُ ميزاناً دُلِّيَ مِنَ السماءِ ، فوُضعتُ في كفَّةٍ ، ووُضعَتْ أمَّتي في كفَّةٍ ، فرجحتُ بهم ، ووُضعَ أبو بكرٍ في كفَّةٍ وجيءَ بأمَّتي فوُضعَتْ في كفَّةٍ ، فرجحَ بهِمْ »[5]

ومعَ هـٰذا كلِّهِ فقدْ كانَ استغراقُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ باللهِ تعالىٰ بحيثُ لمْ يتسعْ قلبُهُ للخُلَّةِ معَ غيرِهِ ، فقالَ : « لوْ كنتُ متخذاً مِنَ الناسِ خليلاً . . لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، ولـٰكنْ صاحبُكُمْ خليلُ اللهِ تعالىٰ »[6] ؛ يعني : نفسَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

❋ ❋ ❋

(١) في (ع) : (أوليائه) بدل (أنبيائه) .

(٢) قوت القلوب (٧٧/٢) ، وقد قال : (وقد كان الحسن رحمه الله تعالىٰ يروي في الخلة أخباراً ، منها . . .) فذكره .

(٣) كذا في « القوت » (٧٨/٢) ، وقد رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢٧٠) من حديث علي رضي الله عنه بنحوه .

(٤) كذا في « القوت » (٧٨/٢) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠٤/٣٠) ، وجمع نحو هـٰذه الأخبار الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦٧٩/٩) .

(٥) كذا في « القوت » (٧٨/٢) ، ورواه أحمد في « المسند » (٢٥٩/٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٦) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢ ـ ٢٣٨٣) .

خاتمة الكتاب
بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قالَ سفيانُ : (المحبَّةُ اتباعُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[١]

وقالَ غيرُهُ : (دوامُ الذكرِ)[٢]

وقالَ غيرُهُ : (إيثارُ المحبوبِ)[٣]

وقالَ بعضُهُمْ : (كراهيةُ البقاءِ في الدنيا)[٤]

وهٰذا كلُّهُ إشارةٌ إلىٰ ثمراتِ المحبَّةِ ، فأما نفسُ المحبَّةِ . . فلمْ يتعرَّضوا لها .

وقالَ بعضُهُمْ : (المحبَّةُ معنىً مِنَ المحبوبِ قاهرٌ للقلوبِ ، تعجزُ القلوبُ عنْ إدراكِهِ ، وتمتنعُ الألسنُ عنْ عبارتِهِ)[٥] .

وقالَ الجنيدُ : (حرَّمَ اللهُ تعالى المحبَّةَ علىٰ صاحبِ العلاقةِ)[٦]

وقالَ : (كلُّ محبَّةٍ تكونُ بعوضٍ ، فإذا زالَ العوضُ . . زالَتِ المحبَّةُ)[٧]

وقالَ ذو النونِ : (قلْ لِمَنْ أظهرَ حبَّ اللهِ : احذرْ أنْ تذلَّ لغيرِ اللهِ)[٨]

وقيلَ للشبليِّ رحمهُ اللهُ : صفْ لنا العارفَ والمحبَّ ، فقالَ : العارفُ إنْ تكلَّمَ . . هلكَ ، والمحبُّ إنْ سكتَ . . هلكَ[٩]

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ[١٠] : [من مخلع البسيط]

يا أيُّها السَّيِّدُ الْكَريمُ ... حُبُّكَ بَيْنَ الْحَشا مُقيمُ

يا رافِعَ النَّوْمِ عَنْ جُفُوني ... أَنْتَ بِما مَرَّ بي عَليمُ

ولغيرِهِ[١١] : [من الوافر]

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ رَبِّي ... وَهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرُ ما نَسِيتُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٠) ، وسفيان هو ابن عيينة ، وسياق المصنف الآتي عنده .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٩) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٠) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٩) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٧٤) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٠) .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٣٧٣) .
(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩١) .
(١٠) ديوانه (ص ١٢٢) .
(١١) انظر « شرح نهج البلاغة » (١١/٧٩ ـ ٢٣٥) .

أَمُـوتُ إِذا ذَكَـرْتُـكَ ثُـمَّ أَحْيـا وَلَـوْلا حُـسْـنُ ظَـنِّـي مـا حَـيِيـتُ

فَـأَحْـيـا بِـالْـمُـنَـىٰ وَأَمُـوتُ شَـوْقـاً فَـكَـمْ أَحْـيـا عَـلَـيْـكَ وَكَـمْ أَمُـوتُ

شَـرِبْـتُ الْـحُـبَّ كَـأْسـاً بَـعْـدَ كَـأْسٍ فَـمـا نَـفِـدَ الـشَّـرابُ وَمـا رَوِيـتُ

فَـلَـيْـتَ خَـيـالَـهُ نَـصْـبُ لِـعَـيْـنِـي فَـإِنْ أَقْـصَـرْتُ فِـي نَـظَـرِي عَـمِـيتُ

وقالَتْ رابعةُ العدويَّةُ يوماً : مَنْ يدلُّنا علىٰ حبيبِنا ؟ فقالَتْ خادمةٌ لها : حبيبُنا معَنا ، ولٰكنَّ الدنيا قطعَتْنا عنهُ[1]

وقالَ ابنُ الجلاءِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : إنِّي إذا اطلعتُ علىٰ سرِّ عبدٍ ، فلمْ أجدْ فيهِ حبَّ الدنيا والآخرةِ . . ملأتُهُ مِنْ حُبِّي ، وتوليتُهُ بحفظي)[2]

وقيلَ : تكلَّمَ سمنونٌ يوماً في المحبَّةِ ، فإذا بطائرٍ نزلَ بينَ يديهِ ، فلمْ يزلْ ينقرُ بمنقارِهِ الأرضَ حتَّىٰ سالَ منهُ الدمُ فماتَ[3]

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (إلٰهي ؛ إنَّكَ تعلمُ أنَّ الجنَّةَ لا تزنُ عندي جناحَ بعوضةٍ في جنبِ ما أكرمتَني مِنْ محبَّتِكَ ، وآنستَني بذكرِكَ ، وفرَّغتَني للتفكُّرِ في عظمتِكَ)[4]

وقالَ السريُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ أحبَّ اللهَ . . عاشَ ، ومَنْ مالَ إلى الدنيا . . طاشَ ، والأحمقُ يغدو ويروحُ في لاشَ ، والعاقلُ عَنْ عيوبِهِ فتّاشٌ)[5]

وقيلَ لرابعةَ : كيفَ حبُّكِ للرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ فقالَتْ : واللهِ ؛ إنِّي لأحبُّهُ حبّاً شديداً ، ولٰكنْ حبُّ الخالقِ شغلَني عنْ حبِّ المخلوقينَ[6]

وسُئِلَ عيسىٰ عليهِ السلامُ عنْ أفضلِ الأعمالِ ، فقالَ : الرضا عنِ اللهِ تعالىٰ والحبُّ لهُ[7]

وقالَ أبو يزيدَ : (المحبُّ لا يحبُّ الدنيا ولا الآخرةَ ، إنَّما يحبُّ مِنْ مولاهُ مولاهُ)[8]

وقالَ الشبليُّ : (الحبُّ دهشٌ في لذَّةٍ ، وحيرةٌ في تعظيمٍ)[9]

وقيلَ : (المحبَّةُ أنْ تمحوَ أثرَكَ عنكَ حتَّىٰ لا يبقىٰ فيكَ شيءٌ راجعٌ منكَ إليكَ)[10]

وقيلَ : (المحبَّةُ قرْبُ القلبِ مِنَ المحبوبِ بالاستبشارِ والفرحِ)[11]

---

(١) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٣) .

(٢) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٣) .

(٣) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٣) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٢٥) .

(٤) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٥) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٦) ، ورواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (١٠٣١) ، ولاش : لا شيء ، وجاءت هٰكذا مراعاة للسجعة ، وهي لا تأتي كذٰلك إلا في الازدواج ونحوه ، وتقرأ الجمل مسكنة الآخر .

(٦) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٦) ، ورواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٨٨) .

(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٦) .

(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٩) .

(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٩) .

(١٠) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٠) .

(١١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٠) .

وقالَ الخوَّاصُ : (المحبَّةُ محوُ الإراداتِ ، واحتراقُ جميعِ الصفاتِ والحاجاتِ)[١]

وسُئِلَ سهلٌ عنِ المحبَّةِ فقالَ : (عطفُ اللهِ تعالىٰ بقلبِ عبدِهِ لمشاهدتِهِ بعدَ الفهمِ للمرادِ منه)[٢]

وقيلَ : (معاملةُ المحبِّ علىٰ أربعِ منازلَ : على المحبةِ ، والهيبةِ ، والحياءِ ، والتعظيمِ ، وأفضلُها التعظيمُ والمحبةُ ؛ لأنَّ هاتينِ المنزلتينِ يبقيانِ في الجنةِ معَ أهلِ الجنةِ ويُرفعُ عنهُمْ غيرُهُما)[٣]

وقالَ هَرِمُ بنُ حيَّانَ : (المؤمنُ إذا عرفَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ . . أحبَّهُ ، وإذا أحبَّهُ . . أقبلَ عليهِ ، وإذا وجدَ حلاوةَ الإقبالِ عليهِ . . لمْ ينظرْ إلى الدنيا بعينِ الشهوةِ ، ولمْ ينظرْ إلى الآخرةِ بعينِ الفترةِ ، وهيَ تحسرُهُ في الدنيا ، وتروّحُهُ في الآخرةِ)[٤]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ : سمعتُ امرأةً مِنَ المتعبداتِ تقولُ وهيَ باكيةٌ ، والدموعُ علىٰ خدِّها جاريةٌ : واللهِ ؛ لقدْ سئمتُ مِنَ الحياةِ ، حتَّىٰ لوْ وجدتُ الموتَ يُباعُ . . لاشتريتُهُ شوقاً إلى اللهِ تعالىٰ وحبّاً للقائِهِ ، قالَ : فقلتُ لها : فعلىٰ ثقةٍ أنتِ مِنْ عملِكِ ، قالَتْ : لا ، ولٰكنْ لحبّي إيَّاهُ وحسْنِ ظنّي بِهِ أفتراهُ يعذِّبُني وأنا أحبُّهُ ؟![٥]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (لوْ يعلمُ المدبرونَ عنِّي كيفَ انتظاري لهُمْ ، ورفقي بهِمْ ، وشوقي إلىٰ تركِ معاصيهِمْ . . لماتوا شوقاً إليَّ ، وتقطَّعَتْ أوصالُهُمْ مِنْ محبَّتي ، يا داوودُ ؛ هٰذهِ إرادتي في المدبرينَ عنِّي ، فكيفَ إرادتي في المقبلينَ عليَّ ؟! يا داوودُ ؛ أحوجُ ما يكونُ العبدُ إليَّ إذا استغنىٰ عنِّي ، وأرحمُ ما أكونُ بعبدي إذا أدبرَ عنِّي ، وأجلُّ ما يكونُ عندي إذا رجعَ إليَّ)[٦]

وقالَ أبو خالدٍ الصفَّارُ : (لقيَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ عابداً ، فقالَ لهُ : إنَّكُمْ معاشرَ العبَّادِ تعملونَ علىٰ أمرٍ لسنا معاشرَ الأنبياءِ نعملُ عليهِ ، أنتمْ تعملونَ على الخوفِ والرجاءِ ، ونحنُ نعملُ على المحبَّةِ والشوقِ)[٧]

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : يا داوودُ ؛ ذكري للذاكرينَ ، وجنَّتي للمطيعينَ ، وزيارتي للمشتاقينَ ، وأنا خاصَّةً للمحبِّين)[٨]

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ آدمَ عليهِ السلامُ : (يا آدمُ ؛ مَنْ أحبَّ حبيباً . . صدَّقَ قولَهُ ، ومَنْ أنسَ بحبيبِهِ . . رضيَ فعلَهُ ، ومَنِ اشتاقَ إليهِ . . جدَّ في مسيرِهِ)[٩] .

وكانَ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ يضربُ علىٰ صدرِهِ ويقولُ : (واشوقاهُ لِمَنْ يراني ولا أراهُ)[١٠]

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠١) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠١) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠١) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٢) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٨) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٨) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٩) .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٩) .
(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٠) .
(١٠) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٠) .

وقالَ الجنيدُ : بكىٰ يونسُ عليهِ السلامُ حتَّىٰ عميَ ، وقامَ حتَّى انحنىٰ ، وصلَّىٰ حتىٰ أُقعدَ ، وقالَ : وعزَّتِكَ وجلالِكَ ؛ لوْ كانَ بيني وبينَكَ بحرٌ مِنْ نارٍ . . لخضتُهُ إليكَ شوقاً منِّي إليكَ(١)

وعنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ قالَ : سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ سنَّتِهِ فقالَ : « المعرفةُ رأسُ مالي ، والعقلُ أصلُ ديني ، والحبُّ أساسي ، والشوقُ مركبي ، وذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنيسي ، والثقةُ كنزي ، والحزنُ رفيقي ، والعلمُ سلاحي ، والصبرُ ردائي ، والرضا غنيمتي ، والعجزُ فخري ، والزهدُ حرفتي ، واليقينُ قوتي ، والصدقُ شفيعي ، والطاعةُ حسبي ، والجهادُ خلقي ، وقرَّةُ عيني في الصلاةِ »(٢)

وقالَ ذو النونِ : (سبحانَ مَنْ جعلَ الأرواحَ جنوداً مجندةً !! فأرواحُ العارفينَ جلاليَّةٌ قدسيَّةٌ ؛ فلذٰلكَ اشتاقوا إلى اللهِ تعالىٰ ، وأرواحُ المؤمنينَ روحانيَّةٌ ؛ فلذٰلكَ حنُّوا إلى الجنَّةِ ، وأرواحُ الغافلينَ هوائيَّةٌ ؛ فلذٰلك مالوا إلى الدنيا)(٣)

وقالَ بعضُ المشايخِ : رأيتُ في جبلِ لكامٍ رجلاً أسمرَ اللونِ ، ضعيفَ البدنِ ، وهوَ يقفزُ مِنْ حجرٍ إلىٰ حجرٍ وهوَ يقولُ : الشوقُ والهوىٰ صيَّراني كما ترىٰ(٤)

ويُقالُ : الشوقُ نارُ اللهِ تعالىٰ ، أشعلَها في قلوبِ أوليائِهِ ، حتَّىٰ يحرقَ بها ما في قلوبِهِمْ مِنَ الخواطرِ والإراداتِ ، والعوارضِ والحاجاتِ(٥)

فهٰذا القدْرُ كافٍ في شرحِ المحبَّةِ والأنسِ والشوقِ والرضا ، فلنقتصرْ عليهِ ، واللهُ الموفّقُ للصوابِ .

❀ ❀ ❀

تم كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة على رسوله وآله ظاهراً وباطناً

يتلوه كتاب النية والإخلاص والصدق

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١١) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٢) ، وكذا أورده القاضي عياض في « الشفا » (ص ١٩١) ، وقال الحافظ العراقي : (ولم أجد له إسناداً) . « إتحاف » (٦٨٤/٩) ، وزاد : (وسئل عنه الحافظ ابن حجر في « فتاويه » فقال : لا أصل له) .

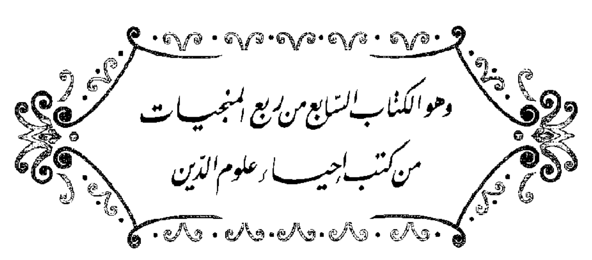
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٢) .

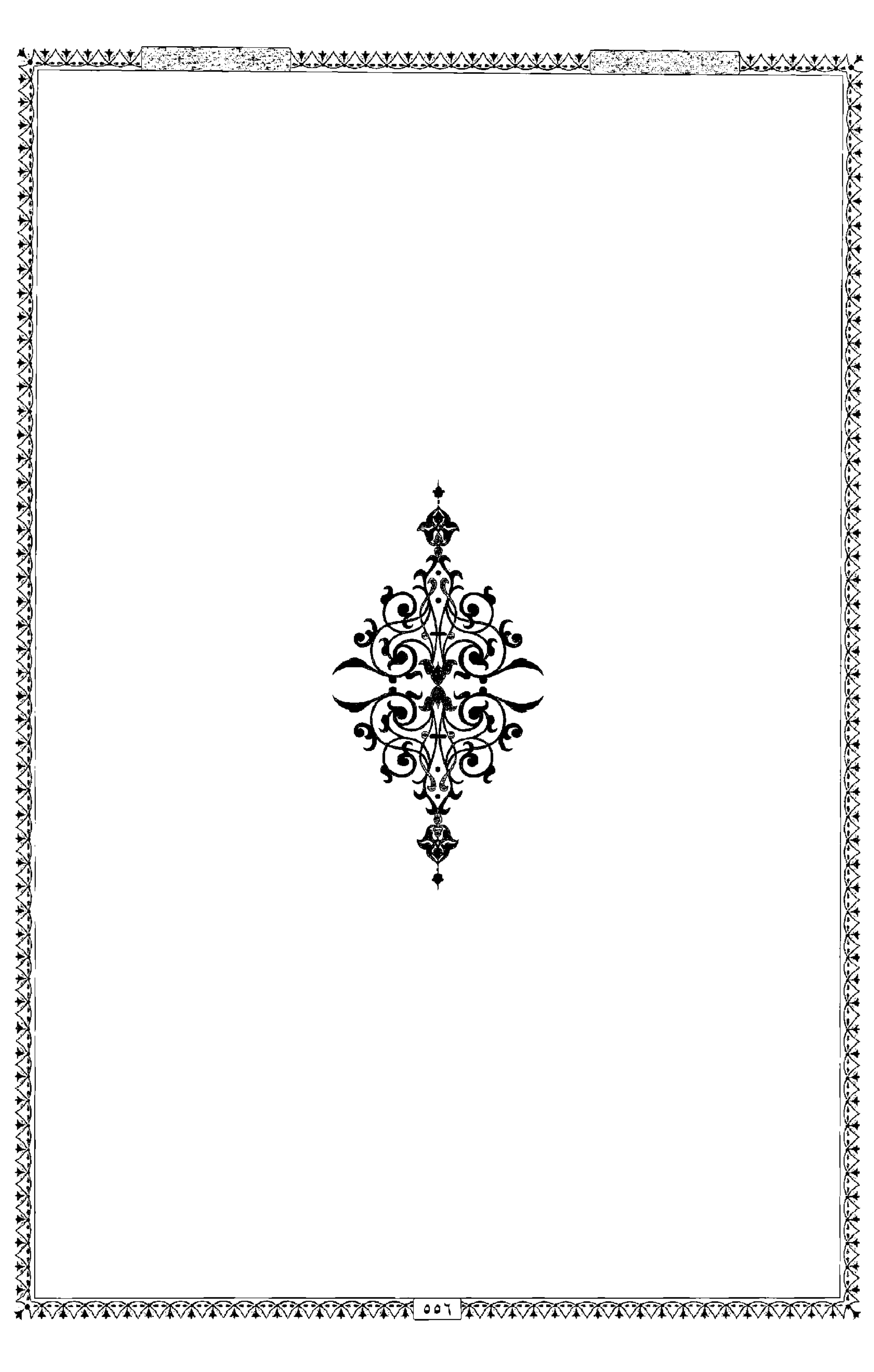
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٢) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١١٣) .

كِتَابُ

النِّيَّةِ وَالإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ


وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب النيّة والإخلاص والصّدق

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدُ اللهَ حمدَ الشاكرينَ ، ونؤمنُ بهِ إيمانَ الموقنينَ ، ونقرُّ بواحدانيتِهِ إقرارَ الصادقينَ ، ونشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ ربُّ العالمينَ ، وخالقُ السماواتِ والأرضينَ ، ومكلِّفُ الجنِّ والإنسِ والملائكةِ المقربينَ أنْ يعبدوهُ عبادةَ المخلصينَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، فما للهِ إلا الدينُ الخالصُ المتينُ ، فإنَّهُ أغنى الأغنياءِ عنْ شركةِ المشاركينَ ، والصلاةُ علىٰ نبيِّهِ محمدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وعلىٰ جميعِ النبيِّينَ ، وعلىٰ آلهِ وأصحابهِ الطيبينَ الطاهرينَ .

أما بعد :

فقدِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ ببصيرةِ الإيمانِ وأنوارِ القرآنِ أنْ لا وصولَ إلى السعادةِ إلا بالعلمِ والعبادةِ ، فالناسُ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العالمينَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العاملينَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا المخلصينَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ[1] ، فالعملُ بغيرِ نيَّةٍ عناءٌ ، والنيَّةُ بغيرِ إخلاصٍ رياءٌ ، وهوَ للنفاقِ كِفاءٌ[2] ، ومعَ العصيانِ سواءٌ ، والإخلاصُ مِنْ غيرِ صدقٍ وتحقيقٍ هباءٌ ، وقدْ قالَ تعالىٰ في كلِّ عملٍ كانَ بإرادةِ غيرِ اللهِ مشوباً مغموراً : ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ .

وليتَ شعري كيفَ يصحِّحُ نيَّتَهُ مَنْ لا يعرفُ حقيقةَ النيَّةِ ؟! أوْ كيفَ يخلصُ مَنْ صحَّحَ النيةَ إذا لمْ يعرفْ حقيقةَ الإخلاصِ ؟! أوْ كيفَ تطالبُ المخلصَ نفسُهُ بالصدقِ إذا لمْ يتحقَّقْ معناهُ ؟!

فالوظيفةُ الأولىٰ علىٰ كلِّ عبدٍ أرادَ طاعةَ اللهِ تعالىٰ أنْ يتعلَّمَ النيةَ أوَّلاً لتحصلَ المعرفةُ ، ثمَّ يصحِّحَها بالعملِ بعدَ فهمِ حقيقةِ الصدقِ والإخلاصِ ، اللذينِ هما وسيلتا العبدِ إلى النجاةِ والخلاصِ ، ونحنُ نذكرُ معانيَ الصدقِ والإخلاصِ في ثلاثةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في حقيقةِ النيَّةِ ومعناها .

البابُ الثاني : في الإخلاصِ وحقائقِهِ .

البابُ الثالثُ : في الصدْقِ وحقيقتِهِ .

* * *

---

(١) تقدم عن سهل بن عبد الله ، وفي بعض النسخ ما بعد (إلا) مرفوع .

(٢) كفاء : نظير ومثيل .

الباب الأول
في النية

وفيه بيانُ فضيلةِ النيةِ ، وبيانُ حقيقةِ النيةِ ، وبيانُ كونِ النيةِ خيراً مِنَ العملِ ، وبيانُ تفضيلِ الأعمالِ المتعلّقةِ بالنيةِ ، وبيانُ خروجِ النيةِ عنِ الاختيارِ .

بيان فضيلة النيّة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ، والمرادُ بتلكَ الإرادةِ النيةُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ ، ولكلِّ امرئٍ ما نوىٰ ، فمَنْ كانَتْ هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ . . فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ ، ومَنْ كانَتْ هجرتُهُ إلىٰ دنيا يصيبُها أو امرأةٍ يتزوَّجُها . . فهجرتُهُ إلىٰ ما هاجرَ إليهِ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ شهداءِ أمَّتي أصحابُ الفُرُشِ ، وربَّ قتيلٍ بينَ الصفينِ اللهُ أعلمُ بنيَّتِهِ »(٢)

وقال تعالىٰ : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ ، فجعلَ النيَّةَ سببَ التوفيقِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكُمْ وأموالِكُمْ ، وإنَّما ينظرُ إلىٰ قلوبِكُمْ وأعمالِكُمْ »(٣) ، وإنَّما نظرَ إلى القلوبِ لأنَّها مَظِنَّةُ النيةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعملُ أعمالاً حسنةً ، فتصعدُ بها الملائكةُ في صحفٍ مختمةٍ ، فتُلقىٰ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، فيقولُ : ألقوا هٰذهِ الصحيفةَ ، فإنَّهُ لمْ يردْ بها وجهي ، ثمَّ ينادي الملائكةَ : اكتبوا لهُ كذا ، واكتبوا لهُ كذا ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ إنَّهُ لمْ يعملْ شيئاً مِنْ ذٰلكَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّهُ نواهُ ، إنَّهُ نواهُ »(٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الناسُ أربعةٌ : رجلٌ آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ علماً ومالاً ، فهوَ يعملُ بعلمِهِ في مالِهِ ، فيقولُ رجلٌ : لو آتاني اللهُ تعالىٰ مثلَ ما آتاهُ . . لعملتُ كما يعملُ ، فهما في الأجرِ سواءٌ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ تعالىٰ مالاً ولمْ يؤتِهِ علماً ، فهوَ يتخبَّطُ بجهلِهِ في مالِهِ ، فيقولُ رجلٌ : لو آتاني اللهُ مثلَ ما آتاهُ . . عملتُ كما يعملُ ، فهما في الوزرِ سواءٌ »(٥) ، ألا ترىٰ كيفَ شركَهُ بالنيَّةِ في محاسنِ عملِهِ ومساوئِهِ ؟!

وكذٰلكَ في حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ : لمَّا خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في غزوةِ تبوكَ . . قالَ : « إنَّ بالمدينةِ أقواماً ما قطعنا وادياً ، ولا وطِئنا موطِئاً يغيظُ الكفَّارَ ، ولا أنفقنا نفقةً ، ولا أصابَتْنا مخمصةٌ . . إلا شركونا في ذٰلكَ وهُمْ بالمدينةِ » ، قالوا : وكيفَ ذٰلكَ يا رسولَ اللهِ وليسوا معنا ؟ قالَ : « حبسَهُمُ العذرُ »(٦) ، فشُركوا بحسنِ النيةِ .

---

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/٣٩٧) .

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤) .

(٤) رواه الدارقطني في « سننه » (١/٥١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٩٦) عن أبي عمران الجوني بلاغاً .

(٥) رواه الترمذي (٢٣٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٢٨) .

(٦) كذا في « القوت » (٢/١٦٠) ، رواه البخاري (٤٤٢٣) ، وأبو داوود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) .

وفي حديثِ ابنِ مسعودٍ : (مَنْ هاجرَ يبتغي شيئاً . . فهوَ لهُ ، فهاجرَ رجلٌ فتزوَّجَ امرأةً منَّا ، فكانَ يُسمَّىٰ مهاجرَ أمِّ قيسٍ)[1]

وكذٰلكَ جاءَ في الخبرِ : أنَّ رجلاً قُتلَ في سبيلِ اللهِ وكان يُدعىٰ قتيلَ الحمارِ ؛ لأنَّهُ قاتلَ رجلاً ليأخذَ سلبَهُ وحمارَهُ ، فقُتلَ علىٰ ذٰلكَ ، فأُضيفَ إلىٰ نيتِهِ[2]

وفي حديثِ عبادةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ غزا وهوَ لا ينوي إلا عقالاً . . فلهُ ما نوىٰ »[3]

وقالَ : إنِّي استعنتُ رجلاً يغزو معي ، فقالَ : لا ، حتىٰ تجعلَ لي جُعلاً ، فجعلتُ لهُ ، فذكرتُ ذٰلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ليسَ لهُ مِنْ دنياهُ وآخرتِهِ إلا ما جعلتَ لهُ »[4]

ورُويَ في الإسرائيلياتِ : أنَّ رجلاً مرَّ بكثبانٍ مِنْ رملٍ في مجاعةٍ ، فقالَ في نفسِهِ : لوْ كانَ لي هٰذا الرملُ طعاماً . . لقسمتُهُ بينَ الناسِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ أنْ قلْ لهُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ قبلَ صدقتَكَ ، وقدْ شكرَ حسنَ نيَّتِكَ ، وأعطاكَ ثوابَ ما لوْ كانَ طعاماً فتصدقتَ بهِ[5]

وقدْ وردَ في أخبارٍ كثيرةٍ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ ولمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةً »[6]

وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : « مَنْ كانَتِ الدنيا نيَّتَهُ . . جعلَ اللهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ ، وفارقَها أرغبَ ما يكونُ فيها ، ومَنْ تكنِ الآخرةُ نيَّتَهُ . . جعلَ اللهُ تعالىٰ غناهُ في قلبِهِ ، وجمعَ عليهِ ضيعتَهُ ، وفارقَها أزهدَ ما يكونُ فيها »[7]

وفي حديثِ أمِّ سلمةَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذكرَ جيشاً يُخسفُ بهمْ بالبيداءِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ يكونُ فيهِمُ المكرهُ والأجيرُ !! فقالَ : « يُحشرونَ علىٰ نيَّاتِهِمْ »[8]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّما يقتتلُ المقتتلونَ على النيَّاتِ »[9] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا التقى الصفَّانِ . . نزلَتِ الملائكةُ تكتبُ الخلقَ علىٰ مراتبِهِمْ : فلانٌ يقاتلُ للدنيا ،

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠٣/٩) .

(٢) كذا في « القوت » (١٦١/٢) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً في الموصولات ، وإنما رواه أبو إسحاق الفزاري في « السير » من وجه مرسل) . « إتحاف » (٨/١٠) .

(٣) رواه النسائي (٢٤/٦) .

(٤) كذا في « القوت » (١٦١/٢) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه الطبراني في « مسند الشاميين » ، ولأبي داوود [٢٥٢٧] بإسناد جيد من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيراً للغزو وسمّىٰ ثلاثة دنانير ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أجد له في غزوته هٰذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمّىٰ ») . « إتحاف » (٨/١٠) ، وفيه : (وقال أبيٌّ) بدل (وقال : إني) ، ومشىٰ علىٰ أن أبيّاً هنا هو ابن كعب .

(٥) قوت القلوب (١٦١/٢) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٨/١٠) : (وهو في « كتاب الإخلاص » لابن أبي الدنيا) وذكره بنحوه .

(٦) رواه البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) .

(٧) كذا في « القوت » (١٦١/٢) ، ورواه بنحوه من حديثه الحاكم في « المستدرك » (٤٤٣/٢) ولفظه : « من جعل الهموم هماً واحداً . . كفاه الله همَّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم . . لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك » ، وهو عند ابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت ، ولفظه : « من كانت الدنيا همَّهُ . . فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيتَهُ . . جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » .

(٨) رواه أبو داوود (٤٢٨٦) .

(٩) كذا في « القوت » (١٦١/٢) ، وقد رواه ابن عدي في « الكامل » (١٣٠/٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨٥/١٧) ، وفيهما : (يبعث) بدل (يقتتل) ، وعند ابن ماجه (٤٢٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إنما يبعث الناس علىٰ نياتهم » .

فلانٌ يقاتلُ حميةً ، فلانٌ يقاتلُ عصبيةً ، ألا فلا تقولوا : فلانٌ قُتلَ في سبيلِ اللهِ ، فمَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليا . . فهوَ في سبيلِ اللهِ »[1]

وعنْ جابرٍ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُبعثُ كلُّ عبدٍ علىٰ ما ماتَ عليهِ »[2]

وفي حديثِ الأحنفِ عنْ أبي بكرةَ : « إذا التقى المسلمانِ بسيفيهما . . فالقاتلُ والمقتولُ في النارِ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا القاتلُ ، فما بالُ المقتولِ ؟ قالَ : « لأنَّهُ أرادَ قتلَ صاحبِهِ »[3]

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : « مَنْ تزوَّجَ امرأةً علىٰ صداقٍ وهوَ لا ينوي أداءَهُ . . فهوَ زانٍ ، ومَنِ ادَّانَ ديناً وهوَ لا ينوي قضاءَهُ . . فهوَ سارقٌ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تطيَّبَ للهِ تعالىٰ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أطيبُ مِنَ المسكِ ، ومَنْ تطيَّبَ لغيرِ اللهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أنتنُ مِنَ الجيفةِ »[5]

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (أفضلُ الأعمالِ أداءُ ما افترضَ اللهُ تعالىٰ ، والورعُ عمَّا حرَّمَ اللهُ تعالىٰ ، وصدقُ النيةِ فيما عندَ اللهِ تعالىٰ)[6]

وكتبَ سالمُ بنُ عبدِ اللهِ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : (اعلمْ : أنَّ عونَ اللهِ تعالىٰ للعبدِ علىٰ قدْرِ النيةِ ، فمَنْ تمَّتْ نيتُهُ . . تمَّ عونُ اللهِ لهُ ، وإنْ نقصَتْ . . نقصَ بقدْرِهِ)[7]

وقالَ بعضُ السلفِ : (ربَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمُهُ النيةُ ، وربَّ عملٍ كبيرٍ تصغِّرُهُ النيةُ)[8]

وقالَ داوودُ الطائيُّ : (مَنْ كانَ أكبرُ همتِهِ التقوىٰ ، فلو تعلقَتْ جميعُ جوارحِهِ بالدنيا . . لردتهُ نيتُهُ يوماً إلىٰ نيةٍ صالحةٍ ، وكذٰلكَ الجاهلُ بعكسِ ذٰلكَ)[9]

وقالَ الثوريُّ : (كانوا يتعلَّمونَ النيةَ للعملِ كما تتعلَّمون العملَ)[10]

وقالَ بعضُ العلماءِ : (اطلبِ النيةَ للعملِ قبلَ العملِ ، وما دمتَ تنوي الخيرَ فأنتَ بخيرٍ)[11]

---

(١) كذا في « القوت » (١٦١/٢) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه ، وآخر الحديث عند البخاري (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٨) .

(٣) رواه البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٨٧٢١) بتمامه ، وآخره رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧٢) .

(٥) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٧٩٣٣) عن إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً .

(٦) قوت القلوب (١٥٨/٢) .

(٧) كذا في « القوت » (١٥٩/٢) ، ورواه ضمن خبر طويل أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٥/٥) .

(٨) قوت القلوب (١٥٩/٢) ، وأورده أيضاً (٣٦١/٢) ، وعزاه لابن المبارك .

(٩) قوت القلوب (١٥٩/٢) ، وفي (أ ، ج ، ن ، ف) : (البرُّ همتُهُ التقوىٰ . . .) بدل (من كان أكبر همته التقوىٰ) .

(١٠) قوت القلوب (١٥٩/٢) ، وفيه : (كما يتعلمون العلم) .

(١١) قوت القلوب (١٥٩/٢)

وكانَ بعضُ المريدينَ يطوفُ على العلماءِ يقولُ : مَنْ يدلُّني على عملٍ لا أزالُ فيهِ عاملاً للهِ تعالىٰ ؟ فإنّي لا أحبُّ أنْ يأتيَ عليَّ ساعةٌ مِنْ ليلٍ أوْ نهارٍ إلا وأنا عاملٌ مِنْ عمَّالِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقيلَ لهُ : قدْ وجدتَ حاجتَكَ ، فاعملِ الخيرَ ما استطعتَ ، فإذا فترتَ أوْ تركتَهُ . . فهُمَّ بعملِهِ ؛ فإنَّ الهامَّ بعملِ الخيرِ كعاملِهِ[١]

وكذٰلكَ قالَ بعضُ السلفِ : (إنَّ نعمةَ اللهِ عليكُمْ أكثرُ مِنْ أنْ تحصوها ، وإنَّ ذنوبَكُمْ أخفىٰ مِنْ أنْ تعلموها ، ولٰكنْ أصبحوا توَّابينَ ، وأمسوا توَّابينَ . . يُغفرْ لكُمْ ما بينَ ذٰلكَ)[٢]

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (طوبىٰ لعينٍ نامَتْ ولا تهمُّ بمعصيةٍ ، وانتبهَتْ إلىٰ غيرِ إثمٍ)[٣]

وقالَ أبو هريرةَ : (يُبعثونَ يومَ القيامةِ علىٰ قدْرِ نيَّاتِهِمْ)[٤]

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ إذا قرأَ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ يبكي ، ويردِّدُها ويقولُ : (إنَّكَ إنْ بلوتَنا . . فضحتَنا وهتكتَ أستارَنا)[٥]

وقالَ الحسنُ : (إنَّما خُلِّدَ أهلُ الجنةِ في الجنةِ وأهلُ النارِ في النارِ بالنيَّاتِ)[٦]

وقالَ أبو هريرةَ : (مكتوبٌ في التوراةِ : ما أُريدَ بهِ وجهي فقليلُهُ كثيرٌ ، وما أُريدَ بهِ غيري فكثيرُهُ قليلٌ) .

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (إنَّ العبدَ ليقولُ قولَ مؤمنٍ ، فلا يدعُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وقولَهُ حتَّىٰ ينظرَ في عملِهِ ، فإذا عملَ . . لمْ يدعْهُ اللهُ حتَّىٰ ينظرَ في ورعِهِ ، فإنْ تورَّعَ . . لمْ يدعْهُ حتَّىٰ ينظرَ ماذا نوىٰ ، فإنْ صلحَتِ النيةُ . . فبالحريِّ أنْ يصلحَ ما دونَ ذٰلكَ)[٧]

فإذاً ؛ عمادُ الأعمالِ النياتُ ، فالعملُ مفتقرٌ إلى النيةِ ليصيرَ بها خيراً ، والنيةُ في نفسِها خيرٌ وإنْ تعذَّرَ العملُ بعائقٍ[٨]

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (٢/١٥٩)

(٢) قوت القلوب (٢/١٥٩) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/١٥٩) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٩٠٢) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٩٢) مرفوعاً .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١١١) .

(٦) كذا في « القوت » (٢/١٦٠) من غير نسبة ، وهٰذا لأن أهل الجنة نووا طاعته ما عاشوا ، وأهل الخلود في النار نووا معصيته ما عاشوا ، فعلىٰ نيتهم حوسبوا لا علىٰ أعمالهم .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٣٠) .

(٨) وليس للشرع عناية في طاعة من الطاعات بعد الإيمان بالله أعظم من اعتنائه بالنية ؛ إذ صحة العبادات أجمعها موقوفة علىٰ وجودهما ؛ يعني : الإيمان والنية ، فهي تلي الإيمان في الرتبة . « إتحاف » (١٠/١٢) .

بيان حقيقة النية

اعلمْ : أنَّ النيةَ والإرادةَ والقصدَ عباراتٌ متواردةٌ على معنىً واحدٍ ، وهوَ حالةٌ وصفةٌ للقلبِ يكتنفُها أمرانِ : علمٌ وعملٌ ، العلمُ يقدُمُهُ لأنَّهُ أصلُهُ وشرطُهُ ، والعملُ يتبعُهُ لأنَّهُ ثمرتُهُ وفرعُهُ ، وذٰلكَ لأنَّ كلَّ عملٍ ـ أعني : كلَّ حركةٍ وسكونٍ ـ اختياريّ فإنَّهُ لا يتمُّ إلا بثلاثةِ أمورٍ : علمٍ وإرادةٍ وقدرةٍ ؛ لأنَّهُ لا يريدُ الإنسانُ ما لا يعلمُهُ ، فلا بدَّ وأنْ يعلمَ ، ولا يعملُ ما لمْ يردْ ، فلا بدَّ مِنْ إرادةٍ ، ومعنى الإرادةِ : انبعاثُ القلبِ إلىٰ ما يراهُ موافقاً للغرضِ ؛ إمَّا في الحالِ أوْ في المآلِ ، فقدْ خُلقَ الإنسانُ بحيثُ يوافقُهُ بعضُ الأمورِ ويلائمُ غرضَهُ ، ويخالفُهُ بعضُ الأمورِ ، فاحتاجَ إلىٰ جلبِ الملائمِ الموافقِ إلىٰ نفسِهِ ، ودفعِ الضارِّ المنافي عنْ نفسِهِ ، فافتقرَ بالضرورةِ إلىٰ معرفةٍ وإدراكٍ للشيءِ المضرِّ والنافعِ ، حتَّىٰ يجلبَ هٰذا ويهربَ مِنْ هٰذا ، فإنَّ مَنْ لا يبصرُ الغذاءَ ولا يعرفُهُ . . لا يمكنُهُ أنْ يتناولَهُ ، ومَنْ لا يبصرُ النارَ . . لايمكنُهُ الهربُ منها ، فخلقَ اللهُ تعالى الهدايةَ والمعرفةَ ، وجعلَ لها أسباباً ؛ وهيَ الحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ ، وليسَ ذٰلكَ مِنْ غرضِنا .

ثمَّ لوْ أبصرَ الغذاءَ وعلمَ أنَّهُ موافقٌ لهُ . . فلا يكفيهِ ذٰلكَ للتناولِ ما لمْ يكنْ فيهِ ميلٌ إليهِ ورغبةٌ فيهِ ، وشهوةٌ لهُ باعثةٌ عليهِ ؛ إذِ المريضُ يرى الغذاءَ ويعلمُ أنَّهُ موافقٌ ولا يمكنُهُ التناولُ لعدمِ الرغبةِ والميلِ ، ولفقدِ الداعيةِ المحرِّكةِ إليهِ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ لهُ الميلَ والرغبةَ والإرادةَ ، وأعني بهِ نزوعاً في نفسِهِ إليهِ ، وتوجُّهاً في قلبِهِ إليهِ .

ثمَّ ذٰلكَ لا يكفيهِ ، فكَمْ مِنْ مشاهدٍ طعاماً راغبٍ فيهِ مريدٍ تناولَهُ عاجزٌ عنهُ لكونِهِ زَمِناً ، فخُلقَتْ لهُ القدرةُ والأعضاءُ المتحرِّكةُ حتَّىٰ يتمَّ بهِ التناولُ ، والعضوُ لا يتحرَّكُ إلا بالقدرةِ ، والقدرةُ تنتظرُ الداعيةَ الباعثةَ ، والداعيةُ تنتظرُ العلمَ والمعرفةَ ، أوِ الظنَّ والاعتقادَ ، وهوَ أنْ يقوىٰ في نفسِهِ كونُ الشيءِ موافقاً لهُ ، فإذا جزمَتِ المعرفةُ بأنَّ الشيءَ موافقٌ ، ولا بدَّ أنْ يفعلَ ، وسلمَتْ عنْ معارضةِ باعثٍ آخرَ صارفٍ عنهُ . . انبعثَتِ الإرادةُ ، وتحقَّقَ الميلُ ، فإذا انبعثَتِ الإرادةُ . . انتهضَتِ القدرةُ لتحريكِ الأعضاءِ ، فالقدرةُ خادمةٌ للإرادةِ ، والإرادةُ تابعةٌ لحكمِ الاعتقادِ والمعرفةِ ، **فالنيةُ** : عبارةٌ عنِ الصفةِ المتوسطةِ ، وهيَ الإرادةُ وانبعاثُ النفسِ بحكمِ الرغبةِ والميلِ إلىٰ ما هوَ موافقٌ للغرضِ ؛ إمَّا في الحالِ ، وإمَّا في المآلِ .

فالمحرِّكُ الأوَّلُ هوَ الغرضُ المطلوبُ ، وهوَ الباعثُ ، والغرضُ الباعثُ هوَ المقصدُ المنويُّ ، والانبعاثُ هوَ القصدُ والنيةُ ، وانتهاضُ القدرةِ لخدمةِ الإرادةِ بتحريكِ الأعضاءِ هوَ العملُ ، إلا أنَّ انتهاضَ القدرةِ للعملِ قدْ يكونُ بباعثٍ واحدٍ ، وقدْ يكونُ بباعثينِ اجتمعا في فعلٍ واحدٍ ، وإذا كانَ بباعثينِ . . فقدْ يكونُ كلُّ واحدٍ بحيثُ لوِ انفردَ لكانَ ملياً بإنهاضِ القدرةِ ، وقدْ يكونُ كلُّ واحدٍ قاصراً عنهُ إلا بالاجتماعِ ، وقدْ يكونُ أحدُهُما كافياً لولا الآخرُ ، لٰكنِ الآخرُ انتهضَ عاضداً لهُ ومعاوناً ، فيخرجُ مِنْ هٰذا التقسيمِ أربعةُ أقسامٍ ، فلنذكرْ لكلِّ واحدٍ مثالاً واسماً .

❁ ❁ ❁

أمَّا الأوَّلُ : فهوَ أنْ ينفردَ الباعثُ الواحدُ ويتجرَّدَ : كما إذا هجمَ على الإنسانِ سبعٌ ، فكلَّما رآهُ . . قامَ مِنْ موضعِهِ ، فلا مزعجَ لهُ إلا غرضُ الهربِ مِنَ السبعِ ، فإنَّهُ رأى السبعَ وعرفَهُ ضاراً ، فانبعثَتْ نفسُهُ إلى الهربِ ورغبَتْ فيهِ ، فانتهضَتِ القدرةُ عاملةً بمقتضى الانبعاثِ ، فيُقالُ : نيتُهُ الفرارُ مِنَ السبعِ ، لا نيةَ لهُ في القيامِ غيرُهُ ، وهٰذهِ النيةُ

تسمَّىٰ **خالصةً** ، ويسمَّى العملُ بموجبِها **إخلاصاً** بالإضافةِ إلى الغرضِ الباعثِ ، ومعناهُ : أنَّهُ خلصَ عنْ مشاركةِ غيرِهِ وممازجتِهِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الثاني : فهوَ أنْ يجتمعَ باعثانِ كلٌّ واحدٍ مستقلٌّ بالإنهاضِ لوِ انفردَ : ومثالُهُ مِنَ المحسوسِ : أنْ يتعاونَ رجلانِ علىٰ حملِ شيءٍ بمقدارٍ مِنَ القوَّةِ كانَ كافياً في الحملِ لوِ انفردَ ، ومثالُهُ في غرضِنا : أنْ يسألَهُ قريبُهُ الفقيرُ حاجةً فيقضيَها لفقرِهِ وقرابتِهِ ، وعلمَ أنَّهُ لولا فقرُهُ . . لكانَ يقضيها بمجرَّدِ القرابةِ ، وأنَّهُ لولا قرابتُهُ . . لكانَ يقضيها بمجرَّدِ الفقرِ ، وعلمَ ذٰلكَ مِنْ نفسِهِ بأنْ يحضرَهُ قريبٌ غنيٌّ فيرغبُ في قضاءِ حاجتِهِ ، وفقيرٌ أجنبيٌّ فيرغبُ أيضاً فيهِ ، وكذٰلكَ مَنْ أمرَهُ الطبيبُ بتركِ الطعامِ ، ودخلَ عليهِ يومُ عرفةَ ، فصامَ ، وهوَ يعلمُ أنَّهُ لوْ لمْ يكنْ يومَ عرفةَ . . لكانَ يتركُ الطعامَ حميةً ، ولولا الحميةُ . . لكانَ يتركُهُ لأجلِ أنَّهُ يومُ عرفةَ ، وقدِ اجتمعا جميعاً ، فأقدمَ على الفعلِ وكانَ الباعثُ الثاني رفيقَ الأوَّلِ ، فلنسمِّ هٰذا **مرافقةَ البواعثِ** .

❁ ❁ ❁

والثالثُ : ألا يستقلَّ كلُّ واحدٍ لوِ انفردَ ، ولٰكنْ قويَ مجموعُهُما علىٰ إنهاضِ القدرةِ ، ومثالُهُ في المحسوسِ : أنْ يتعاونَ ضعيفانِ علىٰ حملِ ما لا ينفردُ أحدُهُما بهِ ، ومثالُهُ في غرضِنا : أنْ يقصدَهُ قريبُهُ الغنيُّ فيطلبُ درهماً فلا يعطيهِ ، ويقصدُهُ الأجنبيُّ الفقيرُ فيطلبُ درهماً فلا يعطيهِ ، ثمَّ يقصدُهُ الفقيرُ القريبُ فيعطيهِ ، فيكونُ انبعاثُ داعيتِهِ بمجموعِ الباعثينِ ، وهوَ القرابةُ والفقرُ ، وكذٰلكَ الرجلُ يتصدَّقُ بينَ يدي الناسِ لغرضِ الثوابِ ولغرضِ الثناءِ ، ويكونُ بحيثُ لوْ كانَ منفرداً . . لكانَ لا يبعثُهُ مجرَّدُ قصدِ الثوابِ على العطاءِ ، ولوْ كانَ الطالبُ فاسقاً لا ثوابَ في التصدُّقِ عليهِ . . لكانَ لا يبعثُهُ مجرَّدُ الرياءِ على العطاءِ ، ولمَّا اجتمعا . . أورثا بمجموعِهِما تحريكَ القلبِ ، ولنسمِّ هٰذا الجنسَ **مشاركةً** .

❁ ❁ ❁

والرابعُ : أنْ يكونَ أحدُ الباعثينِ مستقلاً لوِ انفردَ بنفسِهِ والثاني لا يستقلُّ ، ولٰكنْ لمَّا انضافَ إليهِ . . لمْ ينفكَّ عنْ تأثيرٍ بالإعانةِ والتسهيلِ ، ومثالُهُ في المحسوسِ : أنْ يعاونَ الضعيفُ الرجلَ القويَّ على الحملِ ، ولوِ انفردَ القويُّ . . لاستقلَّ ، ولوِ انفردَ الضعيفُ . . لمْ يستقلَّ ، فإنَّ ذٰلكَ بالجملةِ يسهّلُ العملَ ويؤثِّرُ في تخفيفِهِ ، ومثالُهُ في غرضِنا : أنْ يكونَ للإنسانِ وردٌ في الصلاةِ وعادةٌ في الصدقاتِ ، فاتفقَ أنْ حضرَ في وقتِها جماعةٌ مِنَ الناسِ ، فصارَ الفعلُ أخفَّ عليهِ بسببِ مشاهدتِهِمْ ، وعلمَ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ لوْ كانَ منفرداً خالياً . . لمْ يفترْ عنْ عملِهِ ، وعلمَ أنَّ عملَهُ لوْ لمْ يكنْ طاعةً . . لمْ يكنْ مجرَّدُ الرياءِ يحملُهُ عليهِ ، فهوَ شوْبٌ تطرَّقَ إلى النيةِ ، ولنسمِّ هٰذا الجنسَ **معاونةً** .

فالباعثُ الثاني إمَّا أنْ يكونَ رفيقاً ، أوْ شريكاً ، أوْ معيناً ، وسنذكرُ حكمَها في بابِ الإخلاصِ ، والغرضُ الآنَ بيانُ أقسامِ النيَّاتِ ، فإنَّ العملَ تابعٌ للباعثِ عليهِ ، فيكتسبُ الحكمَ منهُ ، ولذٰلكَ قيلَ : « إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ »[1] ، لأنَّها تابعةٌ لا حكمَ لها في نفسِها ، وإنَّما الحكمُ للمتبوعِ .

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم : « نية المؤمن خير من عمله » (١)

اعلم : أنَّهُ قدْ يُظنُّ أنَّ سببَ هـٰذا الترجيحِ أنَّ النيةَ سرٌّ لا يطلعُ عليهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، والعملَ ظاهرٌ ، ولعملِ السرِّ فضلٌ ، وهـٰذا صحيحٌ ، ولـٰكنْ ليسَ هوَ المرادَ ؛ لأنَّهُ لو نوىٰ أنْ يذكرَ اللهَ تعالىٰ بقلبِهِ أوْ يتفكَّرَ في مصالحِ المسلمينَ ، فيقتضي عمومُ الحديثِ أنْ تكونَ نيةُ التفكُّرِ خيراً مِنَ التفكُّرِ .

وقدْ يُظنُّ أنَّ سببَ الترجيحِ أنَّ النيةَ تدومُ إلىٰ آخرِ العملِ ، والأعمالَ لا تدومُ ، وهوَ ضعيفٌ ؛ لأنَّ ذٰلكَ يرجعُ معناهُ إلىٰ أنَّ العملَ الكثيرَ خيرٌ مِنَ القليلِ ، بلْ ليسَ كذٰلكَ ، فإنَّ نيةَ أعمالِ الصلاةِ قدْ لا تدومُ إلا في لحظاتٍ معدودةٍ ، والأعمالُ تدومُ ، والعمومُ يقتضي أنْ تكونَ نيتُهُ خيراً مِنْ عملِهِ .

وقدْ يقالُ : إنَّ معناهُ أنَّ النيةَ بمجرَّدِها خيرٌ مِنَ العملِ بمجرَّدِهِ دونَ النيةِ ، وهوَ كذٰلكَ ، ولـٰكنَّهُ بعيدٌ أنْ يكونَ هوَ المرادَ ؛ إذِ العملُ بلا نيةٍ أوْ على الغفلةِ لا خيرَ فيهِ أصلاً ، والنيةُ بمجرَّدِها خيرٌ ، وظاهرُ الترجيحِ للمشتركينِ في أصلِ الخيرِ (٢) .

بلِ المعنيُّ بهِ : أنَّ كلَّ طاعةٍ تنتظمُ بنيةٍ وعملٍ . . كانَتِ النيةُ مِنْ جملةِ الخيراتِ ، وكانَ العملُ مِنْ جملةِ الخيراتِ ، ولـٰكنَّ النيةَ مِنْ جملةِ الطاعةِ خيرٌ مِنَ العملِ ؛ أيْ : لكلٍّ واحدٍ منهما أثرٌ في المقصودِ ، وأثرُ النيةِ أكثرُ مِنْ أثرِ العملِ ، فمعناهُ : نيةُ المؤمنِ مِنْ جملةِ طاعتِهِ خيرٌ مِنْ عملِهِ الذي هوَ مِنْ جملةِ طاعتِهِ ، والغرضُ أنَّ للعبدِ اختياراً في النيةِ وفي العملِ ، فهما عملانِ ، والنيةُ مِنَ الجملةِ خيرُهُما ، فهـٰذا معناهُ .

وأمَّا سببُ كونِها خيراً ومترجحةً على العملِ . . فلا يفهمُهُ إلا مَنْ فهمَ مقصدَ الدينِ وطريقَهُ ومبلغَ أثرِ الطرقِ في الإيصالِ إلى المقصدِ ، وقاسَ بعضَ الآثارِ بالبعضِ ، حتَّىٰ يظهرَ لهُ بعدَ ذٰلكَ الأرجحُ بالإضافةِ إلى المقصودِ ، فمَنْ قالَ : الخبزُ خيرٌ مِنَ الفاكهةِ . . فإنَّما يعني بهِ أنَّهُ خيرٌ بالإضافةِ إلىٰ مقصودِ القوتِ والاغتذاءِ ، ولا يفهمُ ذٰلكَ إلا مَنْ فهمَ أنَّ للغذاءِ مقصداً ؛ وهوَ الصحةُ والبقاءُ ، وأنَّ الأغذيةَ مختلفةُ الآثارِ فيها ، وفهمَ أثرَ كلِّ واحدٍ ، وقاسَ بعضَها بالبعضِ ، فالطاعاتُ غذاءُ القلوبِ ، والمقصودُ شفاؤُها وبقاؤُها ، وسلامتُها في الآخرةِ وسعادتُها ، وتنعُّمُها بلقاءِ اللهِ تعالىٰ ، فالمقصدُ لذةُ السعادةِ بلقاءِ اللهِ فقطْ ، ولنْ يتنعَّمَ بلقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا مَنْ ماتَ محبّاً للهِ تعالىٰ عارفاً باللهِ ، ولنْ يحبَّهُ إلا مَنْ عرفَهُ ، ولنْ يأنسَ بهِ إلا مَنْ طالَ ذكرُهُ لهُ ، فالأنسُ يحصلُ بدوامِ الذكرِ ، والمعرفةُ تحصلُ بدوامِ الفكرِ ، والمحبةُ تتبعُ المعرفةَ بالضرورةِ ، ولنْ يتفرَّغَ القلبُ لدوامِ الذكرِ والفكرِ إلا إذا فرغَ مِنْ شواغلِ الدنيا ، ولنْ يتفرَّغَ مِنْ شواغلِها إلا إذا انقطعَ عنهُ شهواتُها ، حتَّىٰ يصيرَ مائلاً إلى الخيرِ مريداً لهُ ، نافراً عنِ الشرِّ مبغضاً لهُ ، وإنَّما يميلُ إلى الخيراتِ والطاعاتِ إذا علمَ أنَّ سعادتَهُ في الآخرةِ منوطةٌ بها ، كما يميلُ العاقلُ إلى الفصدِ والحجامةِ لعلمِهِ بأنَّ سلامتَهُ فيهما .

وإذا حصلَ أصلُ الميلِ بالمعرفةِ فإنَّما يقوىٰ بالعملِ بمقتضى الميلِ والمواظبةِ عليهِ ، فإنَّ المواظبةَ علىٰ مقتضىٰ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨٥/٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥٥/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤٤٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٣٦/٩) .

(٢) وهنا لا اشتراك . « إتحاف » (١٦/١٠) .

صفاتِ القلبِ وإرادتِها بالعملِ تجري مجرى الغذاءِ والقوتِ لتلكَ الصفةِ ، حتىٰ تترشحُ الصفةُ وتقوىٰ بسببِها ، فالمائلُ إلىٰ طلبِ العلمِ أوْ طلبِ الرئاسةِ لا يكونُ ميلُهُ في الابتداءِ إلا ضعيفاً ، فإنِ اتبعَ مقتضى الميلِ واشتغلَ بالعلمِ وتربيةِ الرئاسةِ والأعمالِ المطلوبةِ لذٰلكَ . . تأكَّدَ ميلُهُ ورسخَ ، وعسرَ عليهِ النزوعُ ، وإنْ خالفَ مقتضىٰ ميلِهِ . . ضعفَ ميلُهُ وانكسرَ ، وربما زالَ وانمحقَ ، بلِ الذي ينظرُ إلىٰ وجهٍ حسنٍ مثلاً فيميلُ إليهِ طبعُهُ ميلاً ضعيفاً لوِ اتبعَهُ وعملَ بمقتضاهُ ، فداومَ على النظرِ والمجالسةِ والمخالطةِ والمجاورةِ . . تأكَّدَ ميلُهُ حتَّىٰ يخرجَ أمرُهُ عنِ اختيارِهِ ، فلا يقدرُ على النزوعِ عنهُ ، ولوْ فطمَ نفسَهُ ابتداءً وخالفَ مقتضىٰ ميلِهِ . . لكانَ ذٰلكَ كقطعِ القوتِ والغذاءِ عنْ صفةِ الميلِ ، ويكونُ ذٰلكَ زبراً ودفعاً في وجهِهِ ، حتَّىٰ يضعفَ وينكسرَ بسببِهِ ، أوْ ينقمعَ وينمحيَ .

وهٰكذا جميعُ الصفاتِ ، والخيراتُ والطاعاتُ كلُّها هيَ التي تُرادُ بها الآخرةُ ، والشرورُ كلُّها هيَ التي تُرادُ بها الدنيا للدنيا لا للآخرةِ ، وميلُ النفسِ إلى الخيراتِ الأخرويَّةِ وانصرافُها عنِ الدنيويَّةِ هوَ الذي يفرّغُها للذكرِ والفكرِ ، ولنْ يتأكَّدَ ذٰلكَ إلا بالمواظبةِ علىٰ أعمالِ الطاعاتِ وتركِ المعاصي بالجوارحِ ؛ لأنَّ بينَ الجوارحِ وبينَ القلبِ علاقةً ، حتَّىٰ إنَّهُ يتأثرُ كلُّ واحدٍ منهُما بالآخرِ ، فترى العضوَ إذا أصابَتْهُ جراحةٌ تألَّمَ بها القلبُ ، وترى القلبَ إذا تألَّمَ بعلمِهِ بموتِ عزيزٍ مِنْ أعزَّتِهِ أوْ بهجومِ أمرٍ مَخُوفٍ . . تأثرتْ بهِ الأعضاءُ ، وارتعدَتِ الفرائصُ ، وتغيَّرَ اللونُ ، إلا أنَّ القلبَ هوَ الأصلُ المتبوعُ ، فكأنَّهُ الأميرُ والراعي ، والجوارحُ كالخدمِ والرعايا والأتباعِ ، فالجوارحُ خادمةٌ للقلبِ بتأكيدِ صفاتِها فيهِ ، فالقلبُ هوَ المقصودُ ، والأعضاءُ آلاتٌ موصلةٌ إلى المقصودِ .

ولذٰلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجسدِ مضغةً ، إذا صلحَتْ . . صلحَ لها سائرُ الجسدِ »(١)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اللهُمَّ ؛ أصلحِ الراعيَ والرعيةَ »(٢) ، وأرادَ بالراعي القلبَ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ، وهيَ صفةُ القلبِ .

فمِنْ هٰذا الوجهِ يجبُ ـ لا محالةَ ـ أنْ تكونَ أعمالُ القلبِ على الجملةِ أفضلَ مِنْ حركاتِ الجوارحِ ، ثمَّ يجبُ أنْ تكونَ النيةُ مِنْ جملتِها أفضلَ ؛ لأنَّها عبارةٌ عنْ ميلِ القلبِ إلى الخيرِ وإرادتِهِ لهُ ، وغرضُنا مِنَ الأعمالِ بالجوارحِ أنْ يُعوِّدَ القلبُ إرادةَ الخيرِ ، ويُؤكِّدَ فيهِ الميلُ إليهِ ؛ ليتفرَّغَ مِنْ شهواتِ الدنيا ، ويكبَّ على الذكرِ والفكرِ ، فبالضرورةِ يكونُ خيراً بالإضافةِ إلى الغرضِ ؛ لأنَّهُ متمكِّنٌ مِنْ نفسِ المقصودِ ، وهٰذا كما أنَّ المعدةَ إذا تألَّمَتْ فقدْ تُداوىٰ بأنْ يُوضعَ الطلاءُ على الصدرِ ، وتُداوىٰ بالشربِ والدواءِ الواصلِ إلى المعدةِ . . فالشربُ خيرٌ مِنْ طلاءِ الصدرِ ؛ لأنَّ طلاءَ الصدرِ أيضاً إنَّما أُريدَ بهِ أنْ يسريَ منهُ الأثرُ إلى المعدةِ ، فما يلاقي عينَ المعدةِ فهوَ خيرٌ وأنفعُ .

فهٰكذا ينبغي أنْ تفهمَ تأثيرَ الطاعاتِ كلِّها ؛ إذِ المطلوبُ منها تغييرُ القلوبِ وتبديلُ صفاتِها فقطْ دونَ الجوارحِ ، فلا تظنَّنَّ أنَّ في وضعِ الجبهةِ على الأرضِ غرضاً مِنْ حيثُ إنَّهُ جمعٌ بينَ الجبهةِ والأرضِ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ بحكمِ العادةِ يؤكِّدُ صفةَ التواضعِ في القلبِ ، فإنَّ مَنْ يجدُ في نفسِهِ تواضعاً فإذا استعانَ بأعضائِهِ وصوَّرَها بصورةِ التواضعِ . . تأكَّدَ تواضعُهُ ، ومَنْ وجدَ في قلبِهِ رقَّةً علىٰ يتيمٍ ، فإذا مسحَ رأسَهُ وقبَّلَهُ . . تأكَّدَتِ الرقَّةُ في قلبِهِ ، ولهٰذا لمْ يكنِ العملُ بغيرِ نيةٍ مفيداً أصلاً ؛ لأنَّ مَنْ يمسحُ رأسَ يتيمٍ وهوَ غافلٌ بقلبِهِ ، أوْ ظانٌّ أنَّهُ يمسحُ ثوباً . . لمْ يسرِ مِنْ أعضائِهِ أثرٌ إلىٰ قلبِهِ

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجده) . « إتحاف » (١٠/١٧) .

لتأكيدِ الرقَّةِ ، وكذٰلكَ مَنْ يسجدُ غافلاً وهوَ مشغولُ الهمّ بأعراضِ الدنيا . . لم يسرِ مِنْ جبهتِهِ ووضعِها على الأرضِ أثرٌ إلىٰ قلبِهِ يتأكدُ بهِ التواضعُ ، فكانَ وجودُ ذاكَ كعدمِهِ ، وما ساوىٰ وجودُهُ عدمَهُ بالإضافةِ إلى الغرضِ المطلوبِ منهُ يُسمَّىٰ باطلاً ، فيُقالُ : العبادةُ بغيرِ نيةٍ باطلٌ ، وهٰذا معناهُ إذا فُعِلَ عنْ غفلةٍ ، فإذا قُصِدَ بهِ رياءٌ أوْ تعظيمُ شخصٍ آخرَ . . لمْ يكنْ وجودُهُ كعدمِهِ ، بلْ زادَهُ شرّاً ؛ فإنَّهُ لمْ يؤكِّدِ الصفةَ المطلوبَ تأكيدُها حتَّىٰ أكَّدَ الصفةَ المطلوبَ قمعُها ، وهيَ صفةُ الرياءِ التي هيَ مِنَ الميلِ إلى الدنيا .

فهٰذا وجهُ كونِ النيةِ خيراً مِنَ العملِ ، وبهٰذا أيضاً يُعرفُ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةً »[1] ، لأنَّ همَّ القلبِ هوَ ميلُهُ إلى الخيرِ وانصرافُهُ عنِ الهوىٰ وحبِّ الدنيا ، وهوَ غايةُ الحسناتِ ، وإنَّما الإتمامُ بالعملِ يزيدُها تأكيداً ، فليسَ المقصودُ مِنْ إراقةِ دمِ القربانِ الدمَ واللحمَ ، بلْ ميلُ القلبِ عنْ حبِّ الدنيا ، وبذلِها إيثاراً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذهِ الصفةُ قدْ حصلَتْ عندَ جزمِ النيةِ والهمَّةِ وإنْ عاقَ عنِ العملِ عائقٌ ، فلنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ، ولٰكنْ ينالُهُ التقوىٰ منكُمْ ، والتقوىٰ ها هنا ، أعني القلبَ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ قوماً بالمدينةِ قدْ شركونا في جهادِنا » كما رويناه[2] ؛ لأنَّ قلوبَهُمْ في صدقِ إرادةِ الخيرِ ، وبذلِ المالِ والنفسِ ، والرغبةِ في طلبِ الشهادةِ وإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالىٰ . . كقلوبِ الخارجينَ في الجهادِ ، وإنَّما فارقوهُمْ بالأبدانِ لعوائقَ تخصُّ الأسبابَ الخارجةَ عنِ القلبِ ، وذٰلكَ غيرُ مطلوبٍ إلا لتأكيدِ هٰذهِ الصفاتِ .

وبهٰذهِ المعاني تُفهمُ جميعُ الأحاديثِ التي أوردناها في فضيلةِ النيةِ ، فاعرضْها عليها ؛ لينكشفَ لكَ أسرارُها ، فلا نطوِّلُ بالإعادةِ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) .

(٢) رواه بنحوه البخاري (٤٤٢٣) ، وأبو داوود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلمْ : أنَّ الأعمالَ وإنِ انقسمَتْ أقساماً كثيرةً ؛ مِنْ فعلٍ وقولٍ ، وحركةٍ وسكونٍ ، وجلبٍ ودفعٍ ، وفكرٍ وذكرٍ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا لا يُتصوَّرُ إحصاؤُهُ واستقصاؤُهُ . . فهيَ ثلاثةُ أقسامٍ : معاصٍ ، وطاعاتٌ ، ومباحاتٌ .

القسمُ الأوَّلُ : المعاصي :

وهيَ لا تتغيَّرُ عنْ موضوعاتِها بالنيةِ ، فلا ينبغي أنْ يفهمَ الجاهلُ ذٰلكَ مِنْ عمومِ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ »[1] فيظنَّ أنَّ المعصيةَ تنقلبُ طاعةً بالنيةِ ؛ كالذي يغتابُ إنساناً مراعاةً لقلبِ غيرِهِ ، أوْ يطعمُ فقيراً مِنْ مالِ غيرِهِ ، أوْ يبني مدرسةً أوْ مسجداً أوْ رباطاً مِنْ مالٍ حرامٍ وقصدُهُ الخيرُ ، فهٰذا كلُّهُ جهلٌ ، والنيةُ لا تؤثِّرُ في إخراجِهِ عنْ كونِهِ ظلماً وعدواناً ومعصيةً ، بلْ قصدُهُ الخيرَ بالشرِّ علىٰ خلافِ مقتضى الشرعِ شرٌّ آخرُ ، فإنْ عرفَهُ . . فهوَ معاندٌ للشرعِ ، وإنْ جهلَهُ . . فهوَ عاصٍ بجهلِهِ ؛ إذْ طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، والخيراتُ إنَّما عُرِفَ كونُها خيراتٍ بالشرعِ ، فكيفَ يمكنُ أنْ يكونَ الشرُّ خيراً ؟! هيهاتَ !! بلِ المروِّجُ لذٰلكَ على القلبِ خفيُّ الشهوةِ وباطنُ الهوىٰ ، فإنَّ القلبَ إذا كانَ مائلاً إلىٰ طلبِ الجاهِ ، واستمالةِ قلوبِ الناسِ ، وسائرِ حظوظِ النفسِ . . توسَّلَ الشيطانُ بهِ إلى التلبيسِ على الجاهلِ .

ولذٰلكَ قالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : ما عُصِيَ اللهُ تعالىٰ بمعصيةٍ أعظمَ مِنَ الجهلِ ، قيلَ : يا أبا محمدٍ ؛ هلْ تعرفُ شيئاً أشدَّ مِنَ الجهلِ ؟ قالَ : نعم ، الجهلُ بالجهلِ[2]

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ الجهلَ بالجهلِ يسدُّ بالكليَّةِ بابَ التعلُّمِ ، فمَنْ يظنُّ بالكليَّةِ بنفسِهِ أنَّهُ عالمٌ . . فكيفَ يتعلَّمُ ؟

وكذٰلكَ أفضلُ ما أُطيعَ اللهُ تعالىٰ بهِ العلمُ ، ورأسُ العلمِ العلمُ بالعلمِ ، كما أنَّ رأسَ الجهلِ الجهلُ بالجهلِ ، فإنَّ مَنْ لا يعلمُ العلمَ النافعَ مِنَ العلمِ الضارِّ . . اشتغلَ بما أكبَّ الناسُ عليهِ مِنَ العلومِ المزخرفةِ التي هيَ وسائلُهُمْ إلى الدنيا ، وذٰلكَ هوَ مادةُ الجهلِ ومنبعُ فسادِ العالمِ .

والمقصودُ أنَّ مَنْ قصدَ الخيرَ بمعصيةٍ عنْ جهلٍ . . فهوَ غيرُ معذورٍ ، إلا إذا كانَ قريبَ العهدِ بالإسلامِ ولمْ يجدْ بعدُ مهلةً للتعلُّمِ ، وقدْ قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يُعذرُ الجاهلُ على الجهلِ ، ولا يحلُّ للجاهلِ أنْ يسكتَ علىٰ جهلِهِ ، ولا للعالمِ أنْ يسكتَ علىٰ علمِهِ »[3]

ويقربُ مِنْ تقرُّبِ السلاطينِ ببناءِ المساجدِ والمدارسِ بالمالِ الحرامِ تقرُّبُ العلماءِ السوءِ بتعليمِ العلمِ للسفهاءِ والأشرارِ ، المشغولينَ بالفسقِ والفجورِ ، القاصرينَ هَمَمَهُمْ علىٰ مماراةِ العلماءِ ومباراةِ السفهاءِ ، واستمالةِ وجوهِ الناسِ ، وجمعِ حُطامِ الدنيا ، وأخذِ أموالِ السلاطينِ واليتامىٰ والمساكينِ ، فإنَّ هٰؤلاءِ إذا تعلَّموا . . كانوا قطَّاعَ طريقِ اللهِ ،

---

(١) رواه البخاري (١) ، وابن حبان (٣٨٨) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (١٥٣/٢) .

(٣) كذا في « القوت » (١٥٣/٢) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٥٣٦١) بنحوه .

وانتهضَ كلُّ واحدٍ منهُمْ في بلدتِهِ نائباً عنِ الدجَّالِ ، يتكالبُ على الدنيا ، ويتبعُ الهوىٰ ، ويتباعدُ عنِ التقوىٰ ، ويستجرئُ الناسُ بسببِ مشاهدتِهِ علىٰ معاصي اللهِ ، ثمَّ قدْ ينتشرُ ذٰلكَ العلمُ إلىٰ مثلِهِ وأمثالِهِ ، ويتخذونَهُ أيضاً آلةً ووسيلةً في الشرِّ واتباعِ الهوىٰ ، ويتسلسلُ ذٰلكَ ، ووبالُ جميعِهِ يرجعُ إلى المعلِّمِ الذي علَّمَهُ العلمَ معَ علمِهِ بفسادِ نيتِهِ وقصدِهِ ، ومشاهدتِهِ أنواعَ المعاصي مِنْ أقوالِهِ وأفعالِهِ ، وفي مطعمِهِ وملبسِهِ ومسكنِهِ ، فيموتُ هٰذا العالمُ وتبقىٰ آثارُ شرِّهِ منتشرةً في العالمِ ألفَ سنةٍ وألفي سنةٍ ، وطوبىٰ لمَنْ إذا ماتَ . . ماتَتْ معهُ ذنوبُهُ .

ثمَّ العجبُ مِنْ جهلِهِ حيثُ يقولُ : (إنَّما الأعمالُ بالنياتِ ، وقدْ قصدتُ بذٰلكَ نشرَ علمِ الدينِ ، فإنِ استعملَهُ هوَ في الفسادِ . . فالمعصيةُ منهُ لا منّي ، وما قصدتُ بهِ إلا أنْ يستعينَ بهِ على الخيرِ) ، وإنَّما حبُّ الرئاسةِ والاستتباعِ والتفاخرِ بعلوِّ العلمِ يحسِّنُ ذٰلكَ في قلبِهِ ، والشيطانُ بواسطةِ حبِّ الرئاسةِ يلبّسُ عليهِ ، وليتَ شعري ما جوابُهُ عمَّنْ وهبَ سيفاً مِنْ قاطعِ طريقٍ ، وأعدَّ لهُ خيلاً وأسباباً يستعينُ بها علىٰ مقصودِهِ ، ويقولُ : (إنَّما أردتُ البذلَ والسخاءَ ، والتخلُّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ، وقصدتُ بهِ أنْ يغزوَ بهٰذا السيفِ والخيلِ في سبيلِ اللهِ ، فإنَّ إعدادَ الخيلِ والرباطِ والقوّةِ للغزاةِ مِنْ أفضلِ القرباتِ ، فإنْ هوَ صرفَهُ إلىٰ قطعِ الطريقِ . . فهوَ العاصي) ، وقدْ أجمعَ الفقهاءُ علىٰ أنَّ ذٰلك حرامٌ ، معَ أنَّ السخاءَ هوَ أحبُّ الأخلاقِ إلى اللهِ تعالىٰ ، حتىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إن للهِ تعالىٰ ثلاثَ مئةِ خُلُقٍ ، مَنْ تقرَّبَ إليهِ بواحدٍ منها . . دخلَ الجنةَ ، وأحبُّها إليهِ السخاءُ »[1] ، فليتَ شعري لِمَ حرُمَ هٰذا السخاءُ ؟ ولِمَ وجبَ عليهِ أنْ ينظرَ إلىٰ قرينةِ الحالِ مِنْ هٰذا الظالمِ ؛ فإذا لاحَ لهُ مِنْ عادتِهِ أنَّهُ يستعينُ بالسلاحِ على الشرِّ . . فينبغي أنْ يسعىٰ في سلبِ سلاحِهِ ، لا في أنْ يمدَّهُ بغيرِهِ ؟

والعلمُ سلاحٌ يقاتلُ بهِ الشيطانُ وأعداءُ اللهِ ، وقدْ يعاونُ بهِ أعداءَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ الهوىٰ ، فمَنْ لا يزالُ مؤثراً لدنياه علىٰ دينِهِ ، ولهواهُ علىٰ آخرتِهِ ، وهوَ عاجزٌ عنها لقلَّةِ فضلِهِ . . فكيفَ يجوزُ إمدادُهُ بنوعِ علمٍ يتمكَّنُ بهِ مِنَ الوصولِ إلىٰ شهواتِهِ ؟!

بلْ لمْ يزلْ علماءُ السلفِ رحمهمُ اللهُ يتفقدونَ أحوالَ مَنْ يتردَّدُ إليهِمْ ، فلوْ رأَوا من واحدٍ منهُمْ تقصيراً في نفلٍ مِنَ النوافلِ أنكروهُ وتركوا إكرامَهُ ، وإذا رأَوا منهُ فجوراً واستحلالَ حرامٍ . . هجروهُ ونفَوهُ عنْ مجالسِهِمْ ، وتركوا تكليمَهُ فضلاً عنْ تعليمِهِ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ مَنْ تعلَّمَ مسألةً ولمْ يعملْ بها وجاوزَها إلىٰ غيرِها . . فليسَ يطلبُ إلا آلةَ الشرِّ ، وقدْ تعوَّذَ جميعُ السلفِ باللهِ مِنَ العالمِ الفاجرِ ، وما تعوَّذوا مِنَ الفاجرِ الجاهلِ .

وحُكِيَ عنْ بعضِ أصحابِ أحمدَ ابنِ حنبلٍ رحمهُ اللهُ أنَّهُ كانَ يتردَّدُ إليهِ سنينَ ، ثمَّ اتفقَ أنْ أعرضَ عنهُ أحمدُ ، وهجرَهُ وصارَ لا يكلِّمُهُ ، فلمْ يزلْ يسألُهُ عنْ تغيُّرِهِ عليهِ وهوَ لا يذكرُهُ حتىٰ قالَ لهُ : بلغَني أنَّكَ طيَّنْتَ حائطَ داركَ مِنْ جانبِ الشارعِ ، فقدْ أخذتَ قدْرَ سمكِ الطينِ ، وهوَ أنْمُلةٌ مِنْ شارعِ المسلمينَ ، فلا تصلحُ لتعلُّمِ العلمِ[2] .

فهٰكذا كانَتْ مراقبةُ السلفِ لأحوالِ طلبةِ العلمِ .

وهٰذا وأمثالُهُ ممَّا يلتبسُ على الأغبياءِ وأتباعِ الشيطانِ وإنْ كانوا أربابَ الطيالسةِ والأكمامِ الواسعةِ وأصحابَ الألسنةِ الطويلةِ والفضْلِ الكثيرِ ؛ أعني : الفضلَ مِنَ العلومِ التي لا تشتملُ على التحذيرِ مِنَ الدنيا والزجرِ عنها ، والترغيبِ في الآخرةِ

---

(١) قوت القلوب (٧٨/٢) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٩٧) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (١٦١) بنحوه .

(٢) أورده صاحب « القوت » (٦٩/١) ، ثم إن الرجل هدم حائطه وأخّره إصبعاً ثم طينه من خارج ، فأقبل عليه الإمام أحمد ، رحمهما الله تعالىٰ .

والدعاءِ إليها ، بلْ هيَ العلومُ التي تتعلَّقُ بالخلقِ ، ويُتوصَّلُ بها إلىٰ جمعِ الحُطامِ ، واستتباعِ الناسِ والتقدُّمِ على الأقرانِ .

فإذاً ؛ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ » يختصُّ مِنَ الأقسامِ الثلاثةِ بالطاعاتِ والمباحاتِ دونَ المعاصي ؛ إذِ الطاعةُ تنقلبُ معصيةً بالقصدِ ، والمباحُ ينقلبُ معصيةً وطاعةً بالقصدِ ، فأمَّا المعصيةُ . . فلا تنقلبُ طاعةً بالقصدِ أصلاً .

نعمْ ؛ للنيةِ دخلٌ فيها ، وهوَ أنَّهُ إذا انضافَ إليها قُصودٌ خبيثةٌ . . تضاعفَ وزرُها ، وعظُمَ وبالُها ، كما ذكرنا ذٰلكَ في كتابِ التوبةِ .

❀ ❀ ❀

القسمُ الثاني : الطاعاتُ :

وهيَ مرتبطةٌ بالنياتِ في أصلِ صحتِها ، وفي تضاعفِ فضلِها .

أمَّا الأصلُ . . فهوَ أنْ ينويَ بها عبادةَ اللهِ تعالىٰ لا غيرُ ، فإنْ نوى الرياءَ . . صارَتْ معصيةً .

وأمَّا تضاعفُ الفضلِ . . فبكثرةِ النياتِ الحسنةِ ، فإنَّ الطاعةَ الواحدةَ يمكنُ أنْ ينويَ بها خيراتٍ كثيرةً ، فيكونُ لهُ بكلِّ نيةٍ ثوابٌ ؛ إذْ كلُّ واحدةٍ منها حسنةٌ ، ثمَّ تضاعفُ كلُّ حسنةٍ عشرَ أمثالِها كما وردَ بهِ الخبرُ [1]

ومثالُهُ : القعودُ في المسجدِ ؛ فإنَّهُ طاعةٌ ، ويمكنُ أنْ ينويَ فيهِ نياتٍ كثيرةً حتىٰ يصيرَ مِنْ فضائلِ أعمالِ المتقينَ ، ويبلغَ بهِ درجاتِ المقربينَ :

أوَّلُها : أنْ يعتقدَ أنَّهُ بيتُ اللهِ ، وأنَّ داخلَهُ زائرٌ للهِ ، فيقصدُ بهِ زيارةَ مولاهُ رجاءً لما وعدَهُ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « مَنْ قعدَ في المسجدِ . . فقدْ زارَ اللهَ تعالىٰ ، وحقٌّ على المزورِ إكرامُ زائرِهِ » [2]

وثانيها : أنْ ينتظرَ الصلاةَ بعدَ الصلاةِ ، فيكونَ في جملةِ انتظارِهِ في الصلاةِ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ [3] .

وثالثُها : الترهُّبُ بكفِّ السمعِ والبصرِ والأعضاءِ عنِ الحركاتِ والتردُّداتِ ؛ فإنَّ الاعتكافَ كفٌّ ، وهوَ في معنى الصومِ ، وهوَ نوعُ ترهُّبٍ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رهبانيةُ أمَّتي القعودُ في المساجدِ » [4]

ورابعُها : عكوفُ الهمِّ على اللهِ ، ولزومُ السرِّ للفكرِ في الآخرةِ ، ودفعُ الشواغلِ الصارفةِ عنهُ بالاعتزالِ إلى المسجدِ .

وخامسُها : التجرُّدُ لذكرِ اللهِ ، أوْ لاستماعِ ذكرِهِ ، وللتذكيرِ بهِ ، كما رُوِيَ في الخبرِ : « مَنْ غدا إلى المسجدِ ليذكرَ اللهَ تعالىٰ أوْ يذكِّرَ بهِ . . كانَ كالمجاهدِ في سبيلِ اللهِ » [5]

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (٨٩٥) .

(٢) قوت القلوب (١٥٤/٢) ، ورواه ابن حبان في « المجروحين » (٦٢/٢) .

(٣) إذ روىٰ مسلم (٢٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ فذٰلكم الرباط » .

(٤) كذا في « القوت » (١٥٤/٢) ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١٩٥٧/٤) من حديث أنس قال : مات ابن لعثمان بن مظعون ، فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ مسجداً في داره يتعبد فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها لم تكتب علينا الرهبانية يا عثمان ، إن رهبانية أمتي في المساجد وانتظار الصلوات والحج والعمرة . . . » الحديث .

(٥) كذا في « القوت » (١٥٤/٢) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٣٥٠/٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٨٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : « من دخل مسجدنا هٰذا ليتعلَّم خيراً ، أو ليعلمه . . كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومن دخله لغير ذٰلك . . كان كالناظر إلىٰ ما ليس له » .

وسادسُها : أنْ يقصدَ إفادةَ علمٍ بأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عنْ منكرٍ ؛ إذِ المسجدُ لا يخلو عمَّنْ يسيءُ صلاتَهُ ، أوْ يتعاطىٰ ما لا يحلُّ لهُ ، فيأمرُهُ بالمعروفِ ، ويرشدُهُ إلى الدينِ ، فيكونُ شريكاً معَهُ في خيرِهِ الذي يعلمُ منهُ ، فتتضاعفُ خيراتُهُ .

وسابعُها : أنْ يستفيدَ أخاً في اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ ذٰلكَ غنيمةٌ وذخيرةٌ للدارِ الآخرةِ ، والمسجدُ مُعَشَّشُ أهلِ الدينِ المحبّينَ للهِ وفي اللهِ .

وثامنُها : أنْ يتركَ الذنوبَ حياءً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وحياءً مِنْ أنْ يتعاطىٰ في بيتِ اللهِ ما يقتضي هتكَ الحرمةِ ، وقدْ قالَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَنْ أدمنَ الاختلافَ إلى المسجدِ . . رزقَهُ اللهُ إحدىٰ سبعِ خصالٍ : أخاً مستفاداً في الله ، أوْ رحمةً مستنزلةً ، أوْ علماً مستطرفاً ، أوْ كلمةً تدلُّهُ علىٰ هدىً ، أوْ تصرفُهُ عنْ ردىً ، أوْ يتركُ الذنوبَ خشيةً أوْ حياءً »[1]

فهٰذا طريقُ تكثيرِ النياتِ ، وقسْ بهِ سائرَ الطاعاتِ والمباحاتِ ؛ إذْ ما مِنْ طاعةٍ إلا وتحتملُ نياتٍ كثيرةً ، وإنَّما تحضرُ في قلبِ العبدِ المؤمنِ بقدْرِ جدِّهِ في طلبِ الخيرِ ، وتشمُّرِهِ لهُ ، وتفكُّرِهِ فيهِ ، فبهٰذا تزكو الأعمالُ وتتضاعفُ الحسناتُ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثالثُ : المباحاتُ :

وما مِنْ شيءٍ مِنَ المباحاتِ إلا ويحتملُ نيةً أوْ نياتٍ يصيرُ بها مِنْ محاسنِ القرباتِ ، ويُنالُ بها معالي الدرجاتِ ، فما أعظمَ خسرانَ مَنْ يغفُلُ عنها ، ويتعاطاها تعاطيَ البهائمِ المهملةِ عنْ سهوٍ وغفلةٍ !!

ولا ينبغي أنْ يستحقرَ العبدُ شيئاً مِنَ الخطراتِ والخطواتِ واللحظاتِ ، فكلُّ ذٰلكَ يُسألُ عنهُ يومَ القيامةِ أنَّهُ لِمَ فعلَهُ ، وما الذي قصدَ بهِ ، هٰذا في مباحٍ محضٍ لا يشوبُهُ كراهةٌ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ »[2]

وفي حديثِ معاذِ بنِ جبلٍ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ العبدَ ليُسألُ يومَ القيامةِ عنْ كلِّ شيءٍ ، حتَّىٰ عنْ كحلِ عينيهِ ، وعنْ فتاتِ الطينةِ بإصبعيهِ ، وعنْ لمسِهِ ثوبَ أخيهِ »[3]

وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ تطيَّبَ للهِ تعالىٰ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أطيبُ مِنَ المسكِ ، ومَنْ تطيَّبَ لغيرِ اللهِ تعالىٰ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أنتنُ مِنَ الجيفةِ »[4] ، فاستعمالُ الطيبِ مباحٌ ، ولٰكنْ لا بدَّ فيهِ مِنْ نيةٍ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما الذي يمكنُ أنْ يُنوىٰ بالطيبِ وهوَ حظٌّ مِنْ حظوظِ النفسِ ؟ وكيفَ يُتطيَّبُ للهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ يتطيَّبُ مثلاً يومَ الجمعةِ وفي سائرِ الأوقاتِ يُتصوَّرُ أنْ يقصدَ التنعُّمَ بلذاتِ الدنيا ، أوْ يقصدَ بهِ

---

(١) كذا في « القوت » (١٥٥/٢) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٨٨/٣) .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٩٢) .

(٣) كذا في « القوت » (١٦٢/٢) ، وقد رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١/١٠) .

(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٧٩٣٣) عن إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً .

إظهارَ التفاخرِ بكثرةِ المالِ ليحسدَهُ الأقرانُ ، أوْ يقصدَ بهِ رياءَ الخلقِ ليقومَ لهُ الجاهُ في قلوبِهِمْ ويُذكرَ بطيبِ الرائحةِ ، أوْ ليتودَّدَ بهِ إلىٰ قلوبِ النساءِ الأجنبياتِ إذا كانَ مستحلاًّ للنظرِ إليهنَّ ، ولأمورٍ أخرَ لا تُحصىٰ ، وكلُّ هـٰذا يجعلُ التطيُّبَ معصيةً ، فبذٰلكَ يكونُ أنتنَ مِنَ الجيفةِ في القيامةِ ، إلا القصدَ الأوَّلَ ؛ وهوَ التلذُّذُ والتنعُّمُ ، فإنَّ ذٰلكَ ليسَ بمعصيةٍ ، إلا أنَّهُ يُسألُ عنهُ ، ومَنْ نُوقشَ الحسابَ . . عُذِّبَ ، ومَنْ أتىٰ شيئاً مِنْ مباحِ الدنيا . . لمْ يُعذَّبْ عليهِ في الآخرةِ ، ولـٰكنْ ينقصُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ لهُ بقدرِهِ ، وناهيكَ خسراناً بأنْ يستعجلَ ما يفنىٰ ، ويخسرَ زيادةَ نعيمٍ يبقىٰ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا النياتُ الحسنةُ . . فأنْ ينويَ بهِ اتباعَ سنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ الجمعةِ ، وأن ينويَ بذٰلكَ أيضاً تعظيمَ المسجدِ ، واحترامَ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يرىٰ أنْ يدخلَهُ زائرُ اللهِ إلا طيِّبَ الرائحةِ ، وأنْ يقصدَ بهِ ترويحَ جيرانِهِ ليستريحوا في المسجدِ عندَ مجاورتِهِ بروائحِهِ ، وأنْ يقصدَ بهِ دفعَ الروائحِ الكريهةِ عنْ نفسِهِ التي تؤدِّي إلىٰ إيذاءِ مخالطيهِ ، وأنْ يقصدَ حسمَ بابِ الغيبةِ عنِ المغتابينَ إذا اغتابوهُ بالروائحِ الكريهةِ فيعصونَ اللهَ بسببِهِ ، فمَنْ تعرَّضَ للغيبةِ وهوَ قادرٌ على الاحترازِ منها . . فهوَ شريكٌ في تلكَ المعصيةِ ، كما قيلَ[1] : [من البسيط]

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ... أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، أشارَ بهِ إلىٰ أنَّ التسبُّبَ إلى الشرِّ شرٌّ ، وأنْ يقصدَ بهِ معالجةَ دماغِهِ لتزيدَ بهِ فطنتُهُ وذكاؤُهُ ، ويسهلَ عليهِ دركُ مهمَّاتِ دينِهِ بالفكرِ ، فقدْ قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ طابَ ريحُهُ . . زادَ عقلُهُ)[2]

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنَ النياتِ لا يعجزُ الفقيهُ عنها إذا كانَتْ تجارةُ الآخرةِ وطلبُ الخيرِ غالباً علىٰ قلبِهِ ، وإذا لمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ إلا نعيمُ الدنيا . . لمْ تحضرْهُ هـٰذهِ النياتُ ، وإنْ ذُكرَتْ لهُ . . لمْ ينبعثْ لها قلبُهُ ، فلا يكونُ معهُ منها إلا حديثُ النفسِ ، وليسَ ذٰلكَ مِنَ النيةِ في شيءٍ .

والمباحاتُ كثيرةٌ ، ولا يمكنُ إحصاءُ النيَّاتِ فيها ، فقسْ بهـٰذا الواحدِ ما عداهُ ، ولهـٰذا قالَ بعضُ العارفينَ مِنَ السلفِ : (إنِّي لأستحبُّ أنْ يكونَ لي في كلِّ شيءٍ نيةٌ ، حتَّىٰ في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاءِ)[3]

وكلُّ ذٰلكَ ممَّا يمكنُ أنْ يُقصدَ بهِ وجهُ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ كلَّ ما هوَ سببٌ لبقاءِ البدنِ ، وفراغِ القلبِ مِنْ مهمَّاتِ البدنِ . . فهوَ معينٌ على الدينِ ، فمَنْ قصدُهُ مِنَ الأكلِ التقوِّي على العبادةِ ، ومِنَ الوقاعِ تحصينُ دينِهِ وتطييبُ قلبِ أهلِهِ ، والتوصلُ بهِ إلىٰ ولدٍ صالحٍ يعبدُ اللهَ تعالىٰ بعدَهُ ، فتكثرُ بهِ أمَّةُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . كانَ مطيعاً بأكلِهِ ونكاحِهِ ، وأغلبُ حظوظِ النفسِ الأكلُ والوقاعُ ، وقصدُ الخيرِ بهِما غيرُ ممتنعٍ لمَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ همُّ الآخرةِ .

ولذٰلكَ ينبغي أنْ يحسِّنَ نيتَهُ مهما ضاعَ لهُ مالٌ ويقولَ : هوَ في سبيلِ اللهِ ، وإذا بلغَهُ اغتيابُ غيرِهِ لهُ . . فليطيِّبْ قلبَهُ بأنَّهُ سيحملُ سيئاتِهِ وستُنقلُ إلىٰ ديوانِهِ حسناتُهُ ، ولْيَنْوِ ذٰلكَ بسكوتِهِ عنِ الجوابِ ، ففي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليُحاسبُ ،

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/٣٧٢) .

(٢) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/٢/١٥٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/١٨٤) عن مكحول .

(٣) كذا في « القوت » (٢/١٥٤) عن بعض العلماء ، ورواه بنحوه عن زبيد بن الحارث البيهقيُّ في « الشعب » (٦٤٨٩) .

فتبطلُ أعمالُهُ لدخولِ الآفةِ فيها حتىٰ يستوجبَ النارَ ، ثمَّ يُنشرُ لهُ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ ما يستوجبُ بِهِ الجنةَ ، فيتعجَّبُ ويقولُ : يارَبِّ ؛ هـٰذهِ أعمالٌ ما عملتُها قطُّ !! فيُقالُ : هيَ أعمالُ الذينَ اغتابوكَ وآذوكَ وظلموكَ »[1]

وفي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليوافي القيامةَ بحسناتٍ أمثالِ الجبالِ ، لوْ خلصَتْ لهُ . . لدخلَ الجنةَ ، ويأتي وقدْ ظلمَ هـٰذا ، وشتمَ هـٰذا ، وضربَ هـٰذا ، فيُقتصُّ لهـٰذا مِنْ حسناتِهِ ، ولهـٰذا مِنْ حسناتِهِ ، حتىٰ لا يبقىٰ لهُ حسنةٌ ، فتقولُ الملائكةُ : قدْ فنيَتْ حسناتُهُ وبقيَ طالبونَ ؟ فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ألقوا عليهِ مِنْ سيئاتِهِمْ ، ثم صُكُّوا لهُ صكّاً إلى النارِ »[2]

وبالجملةِ : فإيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ أنْ تستحقرَ شيئاً مِنْ حركاتِكَ ، فلا تحترزَ مِنْ غرورِها وشرورِها ، فلا تجدَ لها جواباً يومَ السؤالِ والحسابِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ مطَّلعٌ عليكَ وشهيدٌ ، وما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ .

وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : كتبتُ كتاباً ، وأردتُ أنْ أتربَهُ مِنْ منزلِ جاري ، فتحرَّجتُ ، ثمَّ قلتُ : ترابٌ وما ترابٌ ؟! فأتربتُهُ ، فهتفَ بي هاتفٌ : سيعلمُ مَنِ استخفَّ بترابٍ ما يلقىٰ غداً مِنْ سوءِ الحسابِ[3]

وصلَّىٰ رجلٌ معَ الثوريِّ ، فرآهُ مقلوبَ الثوبِ ، فعرَّفَهُ[4] ، فمدَّ يدَهُ ليصلحَهُ ، ثمَّ قبضَها فلمْ يسوِّهِ ، فسألَهُ عنْ ذٰلكَ ، فقالَ : إنِّي لبستُهُ للهِ تعالىٰ ، ولا أريدُ أنْ أسوِّيَهُ لغيرِ اللهِ[5]

وقدْ قالَ الحسنُ : إنَّ الرجلَ ليتعلَّقُ بالرجلِ يومَ القيامةِ ، فيقولُ : بيني وبينَكَ اللهُ ، فيقولُ : واللهِ ؛ ما أعرفُكَ ؟! فيقولُ : بلىٰ ، أنتَ أخذتَ تبنةً مِنْ حائطي ، وأخذتَ خيطاً مِنْ ثوبي[6]

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأخبارِ قطعَ قلوبَ الخائفينَ ، فإنْ كنتَ مِنْ أولي الحزمِ والنُّهىٰ ، ولمْ تكنْ مِنَ المغترِّينَ . . فانظرْ لنفسِكَ الآنَ ، ودقِّقِ الحسابَ علىٰ نفسِكَ قبلَ أنْ يُدقَّقَ عليكَ ، وراقبْ أحوالَكَ ، ولا تسكنْ ولا تتحرَّكْ ما لمْ تتأمَّلْ أوَّلاً أنَّكَ لِمَ تتحرَّكُ ؟ وماذا تقصدُ ؟ وما الذي تنالُ بهِ مِنَ الدنيا ؟ وما الذي يفوتُكَ بهِ مِنَ الآخرةِ ؟ وبماذا ترجِّحُ الدنيا على الآخرةِ ؟

فإذا علمتَ أنَّهُ لا باعثَ إلا الدينُ . . فأمضِ عزمَكَ وما خطرَ ببالِكَ ، وإلا . . فأمسكْ ، ثمَّ راقبْ أيضاً قلبَكَ في إمساكِكَ وامتناعِكَ ، فإنَّ تركَ الفعلِ فعلٌ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ نيةٍ صحيحةٍ ، فلا ينبغي أنْ يكونَ لداعي هوىً خفيٍّ لا يُطلعُ عليهِ .

ولا يغرَّنَّكَ ظواهرُ الأمورِ ، ومشهوراتُ الخيراتِ ، وافطنْ للأغوارِ والأسرارِ . . تخرجْ مِنْ حيِّزِ أهلِ الاغترارِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ زكريا عليهِ السلامُ أنَّهُ كانَ يعملُ في حائطٍ بالطينِ ، وكانَ أجيراً لقومٍ ، فقدَّموا لهُ رغيفينِ ؛ إذْ كانَ لا يأكلُ إلا مِنْ كسبِ يدِهِ ، فدخلَ عليهِ قومٌ ، فلمْ يدعُهُمْ إلى الطعامِ حتَّىٰ فرغَ ، فتعجَّبوا منهُ لما علموا مِنْ سخائِهِ وزهدِهِ ، وظنُّوا أنَّ

---

(١) كذا في « القوت » (١٥٢/٢) ، ورواه بنحوه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (١٩٩) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٤٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) كذا في « القوت » (١٥٣/٢) وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٧٨/١) نحوه .

(٣) كذا في « القوت » (١٦٣/٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٢٧) .

(٤) أي : عرَّف الرجلُ سفيانَ أن ثوبه مقلوب .

(٥) قوت القلوب (١٦٣/٢) .

(٦) قوت القلوب (١٥٢/٢) .

الخيرَ في طلبِ المساعدةِ في الطعامِ ، فقالَ : إنّي أعملُ لقومٍ بالأجرةِ ، وقدَّموا إليَّ الرغيفينِ لأتقوَّىٰ بهما علىٰ عملِهِمْ ، فلوْ أكلتُمْ معي . . لمْ يكفكُمْ ولمْ يكفني ، وضعفتُ عنْ عملِهِمْ[1]

فالبصيرُ هٰكذا ينظرُ إلى البواطنِ بنورِ اللهِ ، فإنَّ ضعفَهُ عنِ العملِ نقصٌ في فرضٍ ، وتركَ الدعوةِ إلى الطعامِ نقصٌ في فضلٍ ، ولا حكمَ للفضائلِ معَ الفرائضِ .

وقالَ بعضُهُمْ : دخلتُ علىٰ سفيانَ وهوَ يأكلُ ، فما كلَّمني حتَّىٰ لعقَ أصابعَهُ ، ثمَّ قالَ : لولا أنِّي أخذتُهُ بدينٍ . . لأحببتُ أنْ تأكلَ منهُ[2]

وقال سفيانُ : (مَنْ دعا رجلاً إلىٰ طعامِهِ وليسَ لهُ رغبةٌ في أنْ يأكلَ ؛ فإنْ أجابَهُ فأكلَ . . فعليهِ وزرانِ ، وإنْ لمْ يأكلْ . . فعليهِ وزرٌ واحدٌ)[3] ، وأرادَ بأحدِ الوزرينِ النفاقَ ، وبالثاني تعريضَهُ أخاهُ لما يكرهُ لوْ علمَهُ .

فهٰكذا ينبغي أنْ يتفقَّدَ العبدُ نيتَهُ في سائرِ الأعمالِ ، فلا يقدمُ ولا يحجمُ إلا بنيةٍ ، فإنْ لمْ تحضرْهُ النيةُ . . توقَّفَ ، فإنَّ النيةَ لا تدخلُ تحتَ الاختيارِ .

* * *

---

(١) كذا في « القوت » (١٥٦/٢) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٣٠) .

(٢) قوت القلوب (١٥٦/٢) ، وسفيان هنا هو ابن عبد الرحمٰن بن عاصم الثقفي .

(٣) قوت القلوب (١٥٢/٢) .

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلمْ : أنَّ الجاهلَ يسمعُ ما ذكرناهُ مِنَ الوصيةِ بتحسينِ النيةِ وتكثيرِها معَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ » ، فيقولُ في نفسِهِ عندَ تدريسِهِ أوْ تجارتِهِ أوْ أكلِهِ : نويتُ أنْ أدرِّسَ للهِ ، أوْ أتجرَ للهِ ، أوْ آكلَ للهِ ، ويظنُّ أنَّ ذٰلكَ نيةٌ ، وهيهاتَ !! فذٰلكَ حديثُ نفسٍ ، أوْ حديثُ لسانٍ أوْ فكرٍ ، أوِ انتقالٌ مِنْ خاطرٍ إلىٰ خاطرٍ ، والنيةُ بمعزلٍ عنْ جميعِ ذٰلكَ ، وإنَّما النيةُ انبعاثُ النفسِ وتوجُّهُها وميلُها إلىٰ ما ظهرَ لها أنَّ فيهِ غرضَها ؛ إمَّا عاجلاً أوْ آجلاً ، والميلُ إذا لمْ يكنْ . . لا يمكنُ اختراعُهُ واكتسابُهُ بمجرَّدِ الإرادةِ ، بلْ ذٰلكَ كقولِ الشبعانِ : نويتُ أنْ أشتهيَ الطعامَ وأميلَ إليهِ ، أوْ قولِ الفارغِ : نويتُ أنْ أعشقَ فلاناً وأحبَّهُ وأعظِّمَهُ بقلبي ، فذٰلكَ محالٌ ، بلْ لا طريقَ إلى اكتسابِ صرفِ القلبِ إلى الشيءِ ، وميلِهِ إليهِ وتوجهِهِ نحوَهُ إلا باكتسابِ أسبابِهِ ، وذٰلكَ ممَّا قدْ يقدرُ عليهِ وقدْ لا يقدرُ عليهِ ، وإنَّما تنبعثُ النفسُ إلى الفعلِ إجابةً للغرضِ الباعثِ الموافقِ للنفسِ الملائمِ لها ، وما لمْ يعتقدِ الإنسانُ أنَّ غرضَهُ منوطٌ بفعلٍ مِنَ الأفعالِ . . فلا يتوجَّهُ نحوَهُ قصدُهُ ، وذٰلكَ ممَّا لا يُقدرُ على اعتقادِهِ في كلِّ حينٍ وإذا اعتُقدَ فإنَّما يتوجَّهُ القلبُ إذا كانَ فارغاً غيرَ مصروفٍ عنهُ بغرضٍ شاغلٍ أقوىٰ منهُ ، وذٰلكَ لا يمكنُ في كلِّ وقتٍ ، والدواعي والصوارفُ لها أسبابٌ كثيرةٌ بها تجتمعُ ، ويختلفُ ذٰلكَ بالأشخاصِ وبالأحوالِ وبالأعمالِ .

فإذا غلبَتْ شهوةُ النكاحِ مثلاً ولمْ يعتقدْ غرضاً صحيحاً في الولدِ ديناً ولا دنيا . . لا يمكنُهُ أنْ يواقعَ علىٰ نيةِ الولدِ ، بلْ لا يمكنُ إلا علىٰ نيةِ قضاءِ الشهوةِ ؛ إذِ النيةُ هيَ إجابةُ الباعثِ ، ولا باعثَ إلا الشهوةُ ، فكيفَ ينوي الولدَ ؟!

وإذا لمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ أنَّ إقامةَ سنةِ النكاحِ اتباعاً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعظمُ فضلُها . . لا يمكنُ أنْ ينويَ بالنكاحِ اتباعَ السنةِ إلا أنْ يقولَ ذٰلكَ بلسانِهِ وقلبِهِ وهوَ حديثٌ محضٌ وليسَ بنيةٍ .

نعمْ ؛ طريقُ اكتسابِ هٰذهِ النيةِ مثلاً أنْ يقوِّيَ أوَّلاً إيمانَهُ بالشرعِ ، ويقوِّيَ إيمانَهُ بعظمِ ثوابِ مَنْ يسعىٰ في تكثيرِ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويدفعَ عنْ نفسِهِ جميعَ المنفِّراتِ عنِ الولدِ ؛ مِنْ ثقلِ المؤنةِ وطولِ التعبِ وغيرِهِ ، فإذا فعلَ ذٰلكَ . . ربما انبعثَتْ مِنْ قلبِهِ رغبةٌ إلىٰ تحصيلِ الولدِ للثوابِ ، فتحرِّكُهُ تلكَ الرغبةُ ، وتتحرَّكُ أعضاؤُهُ لمباشرةِ العقدِ ، فإذا انتهضَتِ القدرةُ المحرِّكةُ لِلِّسانِ بقبولِ العقدِ طاعةً لهٰذا الباعثِ الغالبِ على القلبِ . . كانَ ناوياً ، فإنْ لمْ يكنْ كذٰلكَ . . فما يقدِّرُهُ في نفسِهِ ويردِّدُهُ في قلبِهِ مِنْ قصدِ الولدِ وسواسٌ وهذيانٌ[1]

ولهٰذا امتنعَ جماعةٌ مِنَ السلفِ مِنْ جملةٍ مِنَ الطاعاتِ ؛ إذْ لمْ تحضرْهُمُ النيةُ ، فكانوا يقولونَ : ليسَ تحضرُنا فيهِ نيةٌ ، حتىٰ إنَّ ابنَ سيرينَ لمْ يصلِّ علىٰ جنازةِ الحسنِ البصريِّ ، وقالَ : ليسَ تحضرُني نيةٌ[2]

ونادىٰ بعضُهُمُ امرأتَهُ ـ وكانَ يسرِّحُ شعرَهُ ـ أنْ هاتِ المِدْرَىٰ[3] ، فقالَتْ : أجيءُ بالمرآةِ ؟ فسكتَ ساعةً ثمَّ قالَ :

---

(١) وكذا كل غرض شرعي ورد الشرع بفضله وله صوارف من جهة النفس والهوىٰ ، كمن دخل في صوم نفل ثم أمره أبواه أو أحد إخوانه بالإفطار ، فأراد أن يفطر لإدخال السرور علىٰ قلب الوالدين ، فما دامت شهوة الطعام تزاحمه . . لا تصح نيته ، فإن أفطر لاعتقاده أنه عامل لله . . فعلامة صحتها : تصغير اللقمة ، وقصر اليد ، وعدم الشره في الباطن ، والقيام قبل الشبع ، وما من حالة من الحالات إلا ويتقدمها أسباب يكتسب بها ، وتتأخر عنها علامات يعرف بها صحتها ، فليطلب علم كل حال من موضعه . « إتحاف » (١٠/ ٣٠) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٢) ، وبنحوه رواه أحمد في « العلل » (٢٧٤٨) .

(٣) المدرىٰ : قرن علىٰ هيئة المُشط يُسرَّح به الشعر .

نعمْ ؛ فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : كانَ لي في المِدْرىٰ نيةٌ ، ولم تحضرْني في المرآةِ نيةٌ ، فتوقفتُ حتىٰ هيَّأَها اللهُ تعالىٰ[1]

وماتَ حمادُ بنُ أبي سليمانَ ، وكانَ أحدَ علماءِ أهلِ الكوفةِ ، فقيلَ للثوريِّ : ألا تشهدُ جنازتَهُ ؟ فقالَ : لوْ كانَ لي نيةٌ . . لفعلتُ[2] .

وكانوا إذا سئلوا عملاً مِنْ أعمالِ البرِّ . . قالوا : إنْ رزقَنا اللهُ تعالىٰ نيةً . . فعلنا[3]

وكانَ طاووسٌ لا يحدِّثُ إلا بنيةٍ ، وكانَ يُسألُ أنْ يحدِّثَ فلا يحدِّثُ ، ولا يُسألُ فيبتدئُ فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، قالَ : أفتحبونَ أنْ أحدِّثَ بغيرِ نيةٍ ؟ إذا حضرَتْني نيةٌ . . فعلتُ[4]

وحُكِيَ أنَّ داوودَ بنَ المحبَّرِ لمَّا صنَّفَ كتابَ « العقلِ » . . جاءَهُ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ، فطلبَهُ منهُ ، فنظرَ فيهِ أحمدُ صفْحاً[5] ، فردَّهُ ، فقالَ : ما لكَ ؟ قالَ : فيهِ أسانيدُ ضعافٌ ، فقالَ لهُ داوودُ : أنا لمْ أخرِّجْهُ على الأسانيدِ فأنظرَ فيهِ بعينِ الخُبْرِ[6] ، إنَّما نظرتُ فيهِ بعينِ العملِ فانتفعتُ ، قالَ أحمدُ : فردَّهُ عليَّ حتىٰ أنظرَ فيهِ بالعينِ التي نظرتَ ، فأخذَهُ ومكثَ عندَهُ طويلاً ، ثمَّ قالَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، فقدِ انتفعتُ بهِ[7]

وقيلَ لطاووسٍ : ادعُ لنا ، فقالَ : حتىٰ أجدَ لهُ نيةً[8]

وقالَ بعضُهُمْ : (أنا في طلبِ نيةٍ لعيادةِ رجلٍ منذُ شهرٍ ، فما صحَّتْ لي بعدُ) .

وقالَ عيسى بنُ كثيرٍ : مشيتُ معَ ميمونِ بنِ مهرانَ ، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ بابِ دارِهِ . . انصرفتُ ، فقالَ لهُ ابنُهُ : ألا تعرضُ عليهِ العشاءَ ؟ قالَ : ليسَ مِنْ نيتي[9]

وهٰذا لأنَّ النيةَ تتبعُ النظرَ ، فإذا تغيَّرَ النظرُ . . تغيَّرتِ النيَّةُ ، وكانوا لا يرونَ أنْ يعملوا عملاً إلا بنيةٍ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ النيةَ روحُ الأعمالِ ، وأنَّ العملَ بغيرِ نيةٍ صادقةٍ رياءٌ وتكلُّفٌ ، وهوَ سببُ مقتٍ لا سببُ قربٍ ، وعلموا أنَّ النيةَ ليسَتْ هيَ قولَ القائلِ بلسانِهِ : نويتُ ، بلْ هوَ انبعاثُ القلبِ يجري مجرى الفتوحِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فقدْ تتيسَّرُ في بعضِ الأوقاتِ ، وقدْ تتعذَّرُ في بعضِها .

نعمْ ؛ مَنْ كانَ الغالبُ علىٰ قلبِهِ أمرَ الدينِ . . تيسَّرَ عليهِ في أكثرِ الأحوالِ إحضارُ النيةِ للخيراتِ ، فإنَّ قلبَهُ مائلٌ بالجملةِ إلىٰ أصلِ الخيرِ ، فينبعثُ إلى التفاصيلِ غالباً ، ومَنْ مالَ قلبُهُ إلى الدنيا وغلبَتْ عليهِ . . لمْ يتيسَّرْ لهُ ذٰلكَ ،

---

(١) قوت القلوب (١٦٣/٢) .

(٢) قوت القلوب (١٥٢/٢) .

(٣) قوت القلوب (١٥٢/٢) .

(٤) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص ٥٨٤) .

(٥) قلَّب أوراقه ونظر فيها دون تأمُّل .

(٦) أي : مختبراً له .

(٧) قوت القلوب (١٥٢/٢) ، وداوود مع اتفاق أهل صنعة الحديث علىٰ تركه لم يكن مطعون الديانة ، ونقل الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » (٥٧٠/١) عن ابن معين قوله : (ليس بكذاب ، وقد كتبت عن أبيه المحبَّر ، وكان داوود ثقة ، ولٰكنه جفا الحديث ، وكان يتنسَّك) .

(٨) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠٨) .

بلْ لا يتيسَّرُ لهُ في الفرائضِ إلا بجهدٍ جهيدٍ ، وغايتُهُ أنْ يتذكَّرَ النارَ ويحذِّرَ نفسَهُ عقابَها ، أوْ نعيمَ الجنَّةِ ويرغِّبَ نفسَهُ فيها ، فربما تنبعثُ لهُ داعيةٌ ضعيفةٌ ، فيكونُ ثوابُهُ بقدْرِ رغبتِهِ ونيتِهِ .

وأمَّا الطاعةُ على نيةِ إجلالِ اللهِ تعالىٰ لاستحقاقِهِ الطاعةَ والعبوديةَ . . فلا تتيسَّرُ للراغبِ في الدنيا ، وهٰذهِ أعزُّ النياتِ وأعلاها ، ويعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يفهمُها فضلاً عمَّنْ يتعاطاها .

ونيَّاتُ الناسِ في الطاعاتِ أقسامٌ ؛ إذْ منهُمْ مَنْ يكونُ عملُهُ إجابةً لباعثِ الخوفِ ، فإنَّهُ يتقي النارَ ، ومنهُمْ مَنْ يعملُ إجابةً لباعثِ الرجاءِ ، وهوَ الرغبةُ في الجنةِ ، وهٰذا وإنْ كانَ نازلاً بالإضافةِ إلىٰ قصدِ طاعةِ اللهِ وتعظيمِهِ لذاتِهِ ولجلالِهِ لا لأمرٍ سواهُ . . فهوَ مِنْ جملةِ النياتِ الصحيحةِ ؛ لأنَّهُ ميلٌ إلى الموعودِ في الآخرةِ وإنْ كانَ مِنْ جنسِ المألوفاتِ في الدنيا ، وأغلبُ البواعثِ باعثُ الفرجِ والبطنِ ، وموضعُ قضاءِ وطرِهِما الجنةُ ، فالعاملُ لأجلِ الجنةِ عاملٌ لبطنِهِ وفرجِهِ ؛ كالأجيرِ السوءِ ، ودرجتُهُ درجةُ البُلْهِ ، وإنَّهُ لينالُها بعملِهِ ؛ إذْ أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ .

وأمَّا عبادةُ ذوي الألبابِ . . فلا تجاوزُ ذكرَ اللهِ تعالىٰ والفكرَ فيهِ ؛ حبّاً لجمالِهِ وجلالِهِ ، وسائرُ الأعمالِ تكونُ مؤكداتٍ وروادفَ ، وهٰؤلاءِ أرفعُ درجةً مِنَ الالتفاتِ إلى المنكوحِ والمطعومِ في الجنةِ ؛ فإنَّهُمْ لمْ يقصدُوها ، بلْ هُمُ الذينَ يدعونَ ربَّهُمْ بالغداةِ والعشيِّ يريدونَ وجهَهُ فقطْ ، وثوابُ الناسِ بقدْرِ نياتِهِمْ ، فلا جرمَ يتنعَّمونَ بالنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، ويسخرونَ ممَّنْ يلتفتُ إلىٰ وجوهِ الحورِ العينِ كما يسخرُ المتنعِّمُ بالنظرِ إلى الحورِ العينِ ممَّنْ يتنعَّمُ بالنظرِ إلىٰ وجهِ الصورِ المصنوعةِ مِنَ الطينِ ، بلْ أشدُّ ، فإنَّ التفاوتَ بينَ جمالِ حضرةِ الربوبيَّةِ وجمالِ الحورِ العينِ أشدُّ وأعظمُ كثيراً مِنَ التفاوتِ بينَ جمالِ الحورِ العينِ والصورِ المصنوعةِ مِنَ الطينِ ، بلِ استعظامُ النفوسِ البهيميةِ الشهوانيةِ لقضاءِ الوطرِ ومخالطةِ الحسانِ وإعراضُها عنْ جمالِ وجهِ اللهِ الكريمِ يضاهي استعظامَ الخنفساءِ لصاحبتِها وإلفَها لها وإعراضَها عنِ النظرِ إلىٰ جمالِ وجوهِ النساءِ ، فعمىٰ أكثرِ القلوبِ عنْ إبصارِ جمالِ اللهِ وجلالِهِ يضاهي عمى الخنفساءِ عنْ إدراكِ جمالِ النساءِ ؛ فإنَّها لا تشعرُ بهِ أصلاً ، ولا تلتفتُ إليهِ ، ولوْ كانَ لها عقلٌ وذُكِرْنَ لها . . لاستخفَّتْ عقلَ مَنْ يلتفتُ إليهِنَّ ، ولا يزالونَ مختلفينَ ، كلُّ حزبٍ بما لديهِمْ فرحونَ ، ولذٰلكَ خلقَهُمْ .

حُكِيَ أنَّ أحمدَ بنَ خضرويهِ رأىٰ ربَّهُ تعالىٰ في المنامِ ، فقالَ لهُ : كلُّ الناسِ يطلبونَ منِّي الجنةَ إلا أبا يزيدَ ، فإنَّهُ يطلبُني[1]

ورأىٰ أبو يزيدَ ربَّهُ في المنامِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ كيفَ الطريقُ إليكَ ؟ فقالَ : اتركْ نفسَكَ وتعالَ إليَّ[2]

ورُئِيَ الشبليُّ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : لمْ يطالبْني على الدعاوىٰ بالبرهانِ إلا علىٰ قولٍ واحدٍ ، قلتُ يوماً : أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسرانِ الجنةِ ؟ فقالَ : أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسرانِ لقائي ؟![3]

والغرضُ أنَّ هٰذهِ النيَّاتِ متفاوتةٌ بتفاوتِ الدرجاتِ ، ومَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ واحدةٌ منها . . ربما لا يتيسَّرُ لهُ العدولُ إلىٰ غيرِها .

ومعرفةُ هٰذهِ الحقائقِ تورثُ أعمالاً وأفعالاً يستنكرُها الظاهريونَ مِنَ الفقهاءِ ، فإنَّا نقولُ : مَنْ حضرَتْ لهُ نيةٌ في

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦٠٨) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦٠٨) .

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦١٠) .

مباحٍ ، ولمْ تحضرْ في فضيلةٍ . . فالمباحُ أولىٰ ، وانتقلَتِ الفضيلةُ إليهِ[1] ، وصارَتِ الفضيلةُ في حقِّهِ نقيصةً ؛ لأنَّ الأعمالَ بالنياتِ ، وذٰلكَ مثلُ العفوِ ، فإنَّهُ أفضلُ مِنَ الانتصارِ في الظلمِ ، وربما تحضرُهُ نيةٌ في الانتصارِ دونَ العفوِ ، فيكونُ ذٰلكَ أفضلَ .

ومثلُ أنْ يكونَ لهُ نيةٌ في الأكلِ والشربِ والنومِ ليريحَ نفسَهُ ويتقوَّىٰ على العبادةِ في المستقبلِ ، وليسَ تنبعثُ نيتُهُ في الحالِ للصومِ والصلاةِ ، فالأكلُ والنومُ هوَ الأفضلُ لهُ ، بلْ لوْ ملَّ العبادةَ لمواظبتِهِ عليها ، وسكنَ نشاطُهُ ، وضعفَتْ رغبتُهُ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ ترفَّهَ ساعةً بلهوٍ وحديثٍ عادَ نشاطُهُ . . فاللهوُ والحديثُ أفضلُ لهُ مِنَ الصلاةِ ، قالَ أبو الدرداءِ : (إنِّي لأستجمُّ نفسي بشيءٍ من اللهوِ ، فيكونُ ذٰلكَ عوناً لي على الحقِّ)[2] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (روِّحوا القلوبَ ، فإنَّها إذا أُكرهَتْ . . عميَتْ)[3]

وهٰذهِ دقائقُ لا يدركُها إلا سماسرةُ العلماءِ ، دونَ الحشْويةِ منهُمْ ، بلِ الحاذقُ بالطبِّ قدْ يعالجُ المحرورَ باللحمِ معَ حرارتِهِ ، ويستبعدُهُ القاصرُ في الطبِّ ، وإنَّما يبتغي بِهِ أنْ يعيدَ أوَّلاً قوَّتَهُ ليحتملَ المعالجةَ بالضدِّ ، والحاذقُ في لعبِ الشطرنجِ مثلاً قدْ ينزلُ عنِ الرُّخِّ والفرسِ مجاناً ليتوصَّلَ بذٰلكَ إلى الغلبةِ ، والضعيفُ البصيرةِ قدْ يضحكُ بِهِ ، ويتعجَّبُ منهُ ، وكذٰلكَ الخبيرُ بالقتالِ قدْ يفرُّ بينَ يدي قرينِهِ ، ويولِّيهِ دبرَهُ حيلةً منهُ ؛ ليستجرَّهُ إلىٰ مضيقٍ فيكرَّ عليهِ فيقهرَهُ .

فكذٰلكَ سلوكُ طريقِ اللهِ تعالىٰ كلُّهُ قتالٌ معَ الشيطانِ ، ومعالجةٌ للقلبِ ، والبصيرُ الموفَّقُ يقفُ فيها علىٰ لطائفَ مِنَ الحيلِ يستبعدُها الضعفاءُ ، فلا ينبغي للمريدِ أنْ يضمرَ إنكاراً علىٰ ما يراهُ مِنْ شيخِهِ ، ولا للمتعلِّمِ أنْ يعترضَ علىٰ أستاذِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يقفَ عندَ حدِّ بصيرتِهِ ، وما لا يفهمُهُ مِنْ أحوالِهِما يسلِّمُهُ لهما إلىٰ أنْ ينكشفَ لهُ أسرارُ ذٰلكَ ؛ بأنْ يبلغَ رتبتَهُما ، وينالَ درجتَهُما ، ومنَ اللهِ حسنُ التوفيقِ[4]

* * *

(١) أي : انتقل المعنىٰ فصار المباح هو الفضيلة . « إتحاف » (٣٣/١٠) .

(٢) أورده ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠١/٤٦) ، والسياق عند صاحب « القوت » (١٥٣/٢) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧١٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٨٣/٢) بنحوه .

(٤) أتى الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٤/١٠) علىٰ مزيد من تفصيل القول في النية معتمداً علىٰ « القوت » ، و« شرح التقريب » للحافظ العراقي ، و« إدراك الأمنية في النية » للشهاب القرافي ، و« منتهى الآمال » للسيوطي .

الباب الثاني
في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

وقالَ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ ، نزلَتْ فيمَنْ يعملُ للهِ ويحبُّ أنْ يُحمدَ عليهِ (١) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ رجلٍ مسلمٍ : إخلاصُ العملِ للهِ . . . » الحديث (٢) .

وعنْ مصعبِ بنِ سعدٍ عنْ أبيهِ قالَ : ظنَّ أبي أنَّ لهُ فضلاً على مَنْ دونَهُ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما نصرَ اللهُ عزَّ وجلَّ هٰذهِ الأمَّةَ بضعفائِها ودعوتِهِمْ وإخلاصِهِمْ وصلاتِهِمْ » (٣) .

وعنِ الحسنِ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالى : الإخلاصُ سرٌّ مِنْ سرّي ، استودعتُهُ قلبَ مَنْ أحببتُ مِنْ عبادي » (٤) .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : لا تهتمُّوا لقلةِ العملِ ، واهتمُّوا للقبولِ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لمعاذِ بنِ جبلٍ : « أخلصِ العملَ . . يجزئْكَ منهُ القليلُ » (٥) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما مِنْ عبدٍ يخلصُ العملَ للهِ أربعينَ يوماً إلا ظهرَتْ ينابيعُ الحكمةِ مِنْ قلبِهِ على لسانِهِ » (٦) .

---

(١) روىٰ ذٰلك الحاكم في « المستدرك » (١١١/٢) .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٨) ، ويَغِلّ : هو من الغِلّ ؛ الضغينة والحقد ، ويروىٰ : يُغِلُّ ؛ من الخيانة ، ويروىٰ : يَغِلُ بالتخفيف ؛ من وَغَل وغولاً ، دخل في الشرّ .

(٣) رواه النسائي (٤٥/٦) ، وهو عند البخاري (٢٨٩٦) بلفظ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » ، وبتمام لفظ المصنف رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٧٩) ، وأبو مصعب هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٤) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٧٩) عن الحسن مرسلاً ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٦٠) مسنداً مسلسلاً بالسؤال عن الإخلاص عن الحسن عن حذيفة رضي الله عنه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٥١٣) من حديث علي وابن عباس رضي الله عنهم .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٢) بتمامه ، وحديث معاذ رضي الله عنه رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٦١٦٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٦/٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٤/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤٤٣) بلفظ : « أخلص دينك . . يكفك القليل من العمل » .

(٦) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٥) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٦٣) من قول مكحول .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أوَّلُ مَنْ يُسألُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ : رجلٌ آتاهُ اللهُ العلمَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ماذا صنعتَ فيما علمتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ كنتُ أقومُ بهِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ عالمٌ ، ألا فقدْ قيلَ ذٰلكَ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : لقدْ أنعمتُ عليكَ ، فماذا صنعتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ كنتُ أتصدَّقُ بهِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ جوادٌ ، ألا فقدْ قيلَ ذٰلكَ ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ماذا صنعتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ أُمرتَ بالجهادِ ، فقاتلتُ حتىٰ قُتلتُ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ شجاعٌ ، ألا فقدْ قيلَ ذٰلكَ » ، قالَ أبو هريرةَ : ثمَّ خطَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ فخذي وقالَ : « يا أبا هريرةَ ؛ أولئكَ أوَّلُ خلقٍ تُسعرُ بهمْ نارُ جهنَّمَ يومَ القيامةِ » ، فدخلَ راوي الحديثِ علىٰ معاويةَ[1] ، ورویٰ لهُ ذٰلكَ ، فبكىٰ حتَّىٰ كادَتْ نفسُهُ تزهقُ ، ثمَّ قالَ : صدقَ اللهُ إذْ قالَ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . . ﴾ الآيةَ[2]

وفي الإسرائيلياتِ : أنَّ عابداً كانَ يعبدُ اللهَ عزَّ وجلَّ دهراً طويلاً ، فجاءَهُ قومٌ فقالوا : إنَّ ها هنا قوماً يعبدونَ شجرةً مِنْ دونِ اللهِ تعالىٰ ، فغضبَ لذٰلكَ ، وأخذَ فأسَهُ علىٰ عاتقِهِ ، وقصدَ الشجرةَ ليقطعَها ، فاستقبلَهُ إبليسُ في صورةِ شيخٍ ، فقالَ : أينَ تريدُ رحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : أريدُ أنْ أقطعَ هٰذهِ الشجرةَ ، قالَ : وما أنتَ وذاكَ ، تركتَ عبادتَكَ واشتغالَكَ بنفسِكَ وتفرَّغتَ لغيرِ ذٰلكَ ، فقالَ : إنَّ هٰذا مِنْ عبادتي ، قالَ : فإنِّي لا أتركُكَ أنْ تقطعَها ، فقاتلَهُ ، فأخذهُ العابدُ فطرحَهُ إلى الأرضِ وقعدَ علىٰ صدرِهِ ، فقالَ لهُ إبليسُ : أطلقْني حتَّىٰ أكلِّمَكَ ، فقامَ عنهُ ، فقالَ لهُ إبليسُ : يا هٰذا ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أسقطَ عنكَ هٰذا ولمْ يفرضْهُ عليكَ ، وما تعبدُها أنتَ ، وما عليكَ مِنْ غيرِكَ ، وللهِ تعالىٰ أنبياءُ في أقاليمِ الأرضِ ، ولوْ شاءَ . . لبعثَهُمْ إلىٰ أهلِها وأمرَهُمْ بقطعِها ، فقالَ العابدُ : لا بدَّ لي مِنْ قطعِها ، فنابذَهُ القتالَ ، فغلبَهُ العابدُ وصرعَهُ ، وقعدَ علىٰ صدرِهِ ، فعجزَ إبليسُ ، فقالَ لهُ : هلْ لكَ في أمرٍ فصْلٍ بيني وبينَكَ ، وهوَ خيرٌ لكَ وأنفعُ ؟ قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : أطلقْني حتَّىٰ أقولَ لكَ ، فأطلقَهُ ، فقالَ لهُ إبليسُ : أنتَ رجلٌ فقيرٌ لا شيءَ لكَ ، إنَّما أنتَ كَلٌّ على الناسِ يعولونَكَ ، ولعلَّكَ تحبُّ أنْ تتفضَّلَ علىٰ إخوانِكَ ، وتواسيَ جيرانَكَ ، وتشبعَ وتستغنيَ عنِ الناسِ ، قالَ : نعمْ ، قالَ : فارجعْ عنْ هٰذا الأمرِ ولكَ عليَّ أنْ أجعلَ عندَ رأسِكَ في كلِّ ليلةٍ دينارينِ ، إذا أصبحتَ . . أخذتَهما فأنفقتَ علىٰ نفسِكَ وعيالِكَ ، وتصدقتَ علىٰ إخوانِكَ ، فيكونُ ذٰلكَ أنفعَ لكَ وللمسلمينَ مِنْ قطعِ هٰذهِ الشجرةِ التي يُغرسُ مكانُها ولا يضرُّهُمْ قطعُها شيئاً ، ولا ينفعُ إخوانَكَ المؤمنينَ قطعُكَ إيَّاها ، فتفكَّرَ العابدُ فيما قالَ ، وقالَ : صدقَ الشيخُ ، لستُ بنبيٍّ فيلزمَني قطعُ هٰذهِ الشجرةِ ، ولا أمرني اللهُ أنْ أقطعَها فأكونَ عاصياً بتركِها ، وما ذكرَهُ أكثرُ منفعةً ، فعاهدَهُ على الوفاءِ بذٰلكَ ، وحلفَ لهُ ، فرجعَ العابدُ إلىٰ متعبَّدِهِ فباتَ ، فلمَّا أصبحَ رأىٰ دينارينِ عندَ رأسِهِ ، فأخذَهُما ، وكذٰلكَ الغدُ ، ثمَّ أصبحَ اليومَ الثالثَ وما بعدَهُ فلمْ يرَ شيئاً ، فغضبَ وأخذَ فأسَهُ علىٰ عاتقِهِ ، فاستقبلَهُ إبليسُ في صورةِ شيخٍ ، فقالَ : إلىٰ أينَ ؟ قالَ : أقطعُ تلكَ الشجرةَ ، فقالَ : كذبتَ واللهِ ، ما أنتَ بقادرٍ علىٰ ذٰلكَ ، ولا سبيلَ لكَ إليها ، قالَ : فتناولَهُ العابدُ ليفعلَ بهِ كما فعلَ أوَّلَ مرَّةٍ ، فقالَ : هيهاتَ !! فأخذَهُ إبليسُ وصرعَهُ ، فإذا هوَ كالعصفورِ بينَ رجليهِ ، وقعدَ إبليسُ علىٰ صدرِهِ وقالَ : لتنتهينَّ عنْ هٰذا الأمرِ أوْ لأذبحنَّكَ ، فنظرَ العابدُ ، فإذا لا طاقةَ لهُ بهِ ، قالَ : يا

---

(١) وهو شُفَيٌّ الأصبحي .

(٢) الخبر بتمامه هنا رواه البغوي في « شرح السنة » (٤١٤٢) ، والمرفوع رواه مسلم (١٩٠٥) ، والترمذي (٢٣٨٢) .

هـٰذا غلبتَني فخلِّ عنِّي ، وأخبرْني كيفَ غلبتُكَ أوّلاً وغلبتَني الآنَ ؟ فقالَ : لأنَّكَ غضبتَ أوَّلَ مرَّةٍ للهِ ، وكانَتْ نيتُكَ الآخرةَ ، فسخَّرَني اللهُ لكَ ، وهـٰذهِ المرَّةُ غضبتَ لنفسِكَ وللدنيا فصرعتُكَ [1]

وهـٰذهِ الحكايةُ تصديقُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، إذْ لا يتخلَّصُ العبدُ مِنَ الشيطانِ إلا بالإخلاصِ .

ولذٰلكَ كانَ معروفٌ الكرخيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ يضربُ نفسَهُ ويقولُ : (يا نفسُ ؛ أخلِصي وتخلَّصي) [2]

وقالَ أبو يعقوبَ المكفوفُ : (المخلصُ مَنْ يكتمُ حسناتِهِ كما يكتمُ سيئاتِهِ) [3]

وقال أبو سليمانَ : (طوبىٰ لمَنْ صحَّتْ لهُ خطوةٌ واحدةٌ لا يريدُ بها إلا اللهَ تعالىٰ) [4]

وكتبَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ : (مَنْ خلصَتْ نيتُهُ . . كفاهُ اللهُ تعالىٰ ما بينَهُ وبينَ الناسِ) [5]

وكتبَ بعضُ الأولياءِ إلىٰ أخٍ لهُ : (أخلصِ النيةَ في أعمالِكَ . . يكفِكَ القليلُ مِنَ العملِ) [6]

وقال أيوبُ السِّخْتياني : (تخليصُ النياتِ على العمَّالِ أشدُّ عليهم مِنْ جميعِ الأعمالِ) [7]

وكانَ مطرِّفٌ يقولُ : (مَنْ صفا . . صُفِيَ لهُ ، ومَنْ خلَّطَ . . خُلِّطَ عليهِ) [8] .

ورُئِيَ بعضُهُمْ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : كيفَ وجدتَ أعمالَكَ ؟ فقالَ : كلُّ شيءٍ عملتُهُ للهِ وجدتُهُ ، حتىٰ حبَّةِ رمانٍ لقطتُها مِنْ طريقٍ ، وحتىٰ هرَّةٍ ماتَتْ لنا فرأيتُها في كِفَّةِ الحسناتِ ، وكانَ في قلنسوتي خيطٌ مِنْ حريرٍ ، فرأيتُهُ في كِفَّةِ السيئاتِ ، وكانَ قدْ نفقَ حمارٌ لي قيمتُهُ مئةُ دينارٍ ، فما رأيتُ لهُ ثواباً ، فقلتُ : موتُ سِنَّورٍ في كِفَّةِ الحسناتِ ، وموتُ حمارٍ ليسَ فيها !! فقيلَ لي : إنَّهُ قدْ وُجِّهَ حيثُ بعثتَ بهِ ، فإنَّهُ لما قيلَ لكَ : قدْ ماتَ . . قلتَ : في لعنةِ اللهِ ، فبطلَ أجرُكَ فيهِ ، ولوْ قلتَ : في سبيلِ اللهِ . . لوجدتَهُ في حسناتِكَ [9]

وفي روايةٍ : قالَ : وكنتُ قدْ تصدقتُ بصدقةٍ بينَ الناسِ ، فأعجبَني نظرُهُمْ إليَّ ، فوجدتُ ذٰلكَ لا عليَّ ولا لي ، قالَ سفيانُ لمَّا سمعَ هـٰذا : ما أحسنَ حالَهُ !! إذْ لمْ يكنْ عليهِ . . فقدْ أحسنَ إليهِ [10]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (الإخلاصُ يميزُ العملَ مِنَ العيوبِ كتمييزِ اللبنِ مِنَ الفرثِ والدمِ) [11]

---

(١) قوت القلوب (١٦٢/٢) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٥) ، ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٩٤/٢/١) .

(٣) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٧/٢) وأبو يعقوب : هو يوسف بن أحمد البغدادي المكفوف أحد أصحاب ذي النون المصري ، كما جاء مصرحاً باسمه في أحد أسانيد أبي نعيم في « الحلية » (٣٦٤/٩) ، والله أعلم .

(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٤٧/١٠) .

(٥) رواه هناد في « الزهد » (٨٥٩) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٩٦) .

(٦) قوت القلوب (١٥٩/٢) وفيه : (وكتب بعض الأدباء) .

(٧) قوت القلوب (١٥٩/٢) .

(٨) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٤٠) .

(٩) قوت القلوب (١٥١/٢)

(١٠) قوت القلوب (١٥٢/٢) .

(١١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٠) .

وقيلَ : كانَ رجلٌ يخرجُ في زيّ النساءِ ويحضرُ كلَّ موضعٍ يجتمعُ فيهِ النساءُ مِنْ عرسٍ أوْ مأتمٍ ، فاتفقَ أنْ حضرَ يوماً موضعاً فيهِ مجمعٌ للنساءِ ، فسُرقَتْ دُرَّةٌ ، فصاحوا أن أغلقوا البابَ حتىٰ نفتّشَ ، فكانوا يفتشونَ واحدةً واحدةً ، حتىٰ بلغَتِ النوبةُ إليهِ وإلى امرأةٍ معَهُ ، فدعا اللهَ تعالىٰ بالإخلاصِ وقالَ : إنْ نجوتُ مِنْ هـٰذهِ الفضيحةِ . . لا أعودُ إلىٰ مثلِ هـٰذا ، فوُجدَتِ الدرَّةُ معَ تلكَ المرأةِ ، فصاحوا أنْ أطلقوا الحرَّةَ ؛ فقد وجدنا الدُّرَّةَ[1]

وقالَ بعضُ الصوفيةِ : كنتُ قائماً معَ أبي عبيدٍ البُسْريِّ وهوَ يحرثُ أرضَهُ بعدَ العصرِ مِنْ يومِ عرفةَ ، فمرَّ بهِ بعضُ إخوانِهِ مِنَ الأبدالِ ، فسارَّهُ بشيءٍ ، فقالَ أبو عبيدٍ : لا ، فمرَّ كالسحابِ يمسحُ الأرضَ حتىٰ غابَ عنْ عيني ، فقلتُ لأبي عبيدٍ : ما قالَ لكَ ؟ فقالَ : سألَني أنْ أحجَّ معَهُ ، فقلتُ : لا ، قلتُ : فهلا فعلتَ ، قالَ : ليسَ لي في الحجِّ نيةٌ ، وقدْ نويتُ أنْ أتمِّمَ هـٰذهِ الأرضَ العشيةَ ، فأخافُ إنْ حججتُ معَهُ لأجلِهِ . . تعرضتُ لمقتِ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنِّي أدخلُ في عملِ اللهِ تعالىٰ شيئاً غيرَهُ ، فيكونُ ما أنا فيهِ أعظمَ عندي مِنْ سبعينَ حجةً[2]

ويُروىٰ عنْ بعضِهِمْ قالَ : غزوتُ في البحرِ ، فعرضَ بعضُنا مخلاةً ، فقلتُ : أشتريها فأنتفعُ بها في غزوتي ، فإذا دخلتُ مدينةَ كذا . . بعتُها فربحتُ فيها ، فاشتريتُها ، فرأيتُ تلكَ الليلةَ في النومِ كأن شخصينِ قدْ نزلا مِنَ السماءِ فقالَ أحدُهُما لصاحبِهِ : اكتبِ الغزاةَ ، فأملىٰ عليهِ : خرجَ فلانٌ متنزّهاً ، وفلانٌ مرائياً ، وفلانٌ تاجراً ، وفلانٌ في سبيلِ اللهِ ، ثمَّ نظرَ إليَّ وقالَ : اكتب خرجَ فلانٌ تاجراً ، فقلتُ : اللهَ اللهَ في أمري ، فواللهِ ؛ ما خرجتُ أتجرُ ، ولا معي تجارةٌ أتجرُ فيها ، ما خرجتُ إلا للغزوِ ، فقال لي : يا شيخُ ؛ قدِ اشتريتَ أمسِ مخلاةً تريدُ أنْ تربحَ فيها ، فبكيتُ وقلتُ : لا تكتبوني تاجراً ، فنظرَ إلىٰ صاحبِهِ وقال : ما ترىٰ ؟ فقالَ : اكتبْ : خرجَ فلانٌ غازياً إلا أنَّهُ اشترىٰ في طريقِهِ مخلاةً ليربحَ فيها ، حتَّىٰ يحكمَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ بما يرىٰ[3]

وقالَ سريٌّ السقطيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (لأنْ تصليَ ركعتينِ في خلوةٍ تخلصُهُما خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تكتبَ سبعينَ حديثاً أوْ سبعَ مئةٍ بعلوِ إسنادٍ)[4]

وقالَ بعضُهُمْ : (في إخلاصِ ساعةٍ نجاةُ الأبدِ ، ولـٰكنِ الإخلاصُ عزيزٌ)[5]

ويُقالُ : (العلمُ بذرٌ ، والعملُ زرعٌ ، وماؤُهُ الإخلاصُ)[6]

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا أبغضَ اللهُ عبداً . . أعطاهُ ثلاثاً ، ومنعَهُ ثلاثاً ، أعطاهُ صحبةَ الصالحينَ ، ومنعَهُ القبولَ منهُمْ ، وأعطاهُ الأعمالَ الصالحةَ ، ومنعَهُ الإخلاصَ فيها ، وأعطاهُ الحكمةَ ، ومنعَهُ الصدقَ فيها)[7]

وقالَ السوسيُّ : (مرادُ اللهِ تعالىٰ مِنْ عملِ الخلقِ الإخلاصُ فقط)[8]

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٠) .

(٢) قوت القلوب (١٥٢/٢) ، ورواه مختصراً القشيري في « رسالته » (ص ٩٠) ، والبُسْري : نسبة إلىٰ قرية بُصرىٰ بحوران ، وأبدلت الصاد بالسين ، انظر « الأنساب » (٣٥٠/١) .

(٣) قوت القلوب (١٥٥/٢) .

(٤) قوت القلوب (١٦٤/٢) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٣) .

(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٦) .

(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٦)

(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٦) .

وقالَ الجنيدُ : (إنَّ للهِ عباداً عقلوا ، فلمَّا عقلوا . . عملوا ، فلمَّا عملوا . . أخلصوا ، فاستدعاهمُ الإخلاصُ إلىٰ أبوابِ البرِّ أجمعَ)[1]

وقالَ محمدُ بنُ سعيدٍ المروزيُّ : (الأمرُ كلُّهُ يرجعُ إلىٰ أصلينِ : فعلٌ منهُ بكَ ، وفعلٌ منكَ لهُ ، فترضىٰ ما فعلَ ، وتخلصُ فيما تعملُ ، فإذا أنتَ قدْ سعدتَ بهـٰذينِ . . فزتَ في الدارينِ)[2]

* * *

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٦) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٧) .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلمْ : أنَّ كلَّ شيءٍ يُتصوَّرُ أنْ يشوبَهُ غيرُهُ ، فإذا صفا عنْ شوبِهِ وخلصَ عنهُ . . سُمِّيَ خالصاً ، ويُسمَّى الفعلُ المصفَّى المخلَصُ إخلاصاً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ ، وإنَّما خلوصُ اللبنِ ألا يكونَ فيهِ شوبٌ مِنَ الدمِ والفرثِ ، ومِنْ كلِّ ما يمكنُ أنْ يمتزجَ بهِ .

والإخلاصُ يضادُّهُ الإشراكُ[1] ، فمَنْ ليسَ مخلصاً . . فهوَ مشركٌ ، إلا أنَّ للشركِ درجاتٍ ، فالإخلاصُ في التوحيدِ يضادُّهُ التشريكُ في الإلـٰهيةِ ، والشركُ منهُ خفيٌّ ومنهُ جليٌّ ، وكذا الإخلاصُ ، فالإخلاصُ وضدُّهُ يتواردانِ على القلبِ ، فمحلُّهُ القلبُ ، وإنَّما يكونُ ذٰلكَ في القصودِ والنياتِ ، وقدْ ذكرنا حقيقةَ النيةِ ، وأنَّها ترجعُ إلىٰ إجابةِ البواعثِ ، فمهما كانَ الباعثُ واحداً على التجرُّدِ . . سُمِّيَ الفعلُ الصادرُ عنهُ إخلاصاً بالإضافةِ إلى المنويِّ ، فمَنْ تصدَّقَ وغرضُهُ محضُ الرياءِ . . فهوَ مخلصٌ ، ومَنْ كانَ غرضُهُ محضَ التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مخلصٌ ، ولـٰكنَّ العادةَ جاريةٌ بتخصيصِ اسمِ الإخلاصِ بتجريدِ قصدِ التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ عنْ جميعِ الشوائبِ ؛ كما أنَّ الإلحادَ عبارةٌ عنِ الميلِ ، ولـٰكنْ خصَّصَتْهُ العادةُ بالميلِ عنِ الحقِّ .

ومَنْ كانَ باعثُهُ مجرَّدَ الرياءِ . . فهوَ معرَّضٌ للهلاكِ ، ولسنا نتكلَّمُ فيهِ ؛ إذْ قدْ ذكرنا ما يتعلَّقُ بهِ في كتابِ الرياءِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، وأقلُّ أمورِهِ ما وردَ في الخبرِ مِنْ أنَّ المرائيَ يُدعىٰ يومَ القيامةِ بأربعِ أسامٍ : يا مرائي ، يا مخادعُ ، يا مشركُ ، يا كافرُ[2] ، وإنَّما نتكلَّمُ الآنَ فيمَنِ انبعثَ لقصدِ التقرُّبِ ، ولـٰكنِ امتزجَ بهـٰذا الباعثِ باعثٌ آخرُ ؛ إمَّا مِنَ الرياءِ ، أوْ مِنْ غيرِهِ مِنْ حظوظِ النفسِ .

ومثالُ ذٰلكَ : أنْ يصومَ لينتفعَ بالحميةِ الحاصلةِ بالصومِ معَ قصدِ التقرُّبِ ، أوْ يعتقَ عبداً ليتخلَّصَ مِنْ مؤنتِهِ وسوءِ خُلُقِهِ ، أوْ يحجَّ ليصحَّ مزاجُهُ بحركةِ السفرِ ، أوْ ليتخلَّصَ مِنْ شرٍّ يعرضُ لهُ في بلدِهِ ، أوْ ليهربَ عنْ عدوٍّ لهُ في منزلِهِ ، أوْ يتبرَّمَ[3] بأهلِهِ وولدِهِ أوْ بشغلٍ هوَ فيهِ فأرادَ أنْ يستريحَ منهُ أياماً ، أوْ يغزوَ ليمارسَ الحربَ ويتعلَّمَ أسبابَهُ ويقدرَ بِهِ علىٰ تهيئةِ العساكرِ وجرِّها ، أوْ يصلِّيَ بالليلِ ولهُ غرضٌ في دفعِ النعاسِ عنْ نفسِهِ بهِ ليراقبَ أهلَهُ أوْ رحلَهُ ، أوْ يتعلَّمَ العلمَ ليسهلَ عليهِ طلبُ ما يكفيهِ مِنَ المالِ ، أوْ ليكونَ عزيزاً بينَ العشيرةِ ، أوْ ليكونَ عقارُهُ ومالُهُ محروساً بعزِّ العلمِ عنِ الأطماعِ ، أوِ اشتغلَ بالدرسِ والوعظِ ليتخلَّصَ عنْ كربِ الصمتِ ويتفرَّجَ بلذَّةِ الحديثِ ، أوْ تكفَّلَ بخدمةِ العلماءِ أوِ الصوفيةِ لتكونَ حرمتُهُ وافرةً عندَهُمْ وعندَ الناسِ ، أوْ لينالَ بهِ رِفْقاً في الدنيا[4] ، أوْ كتبَ مصحفاً ليجوّدَ بالمواظبةِ على الكتابةِ خطَّهُ ، أوْ حجَّ ماشياً ليخفِّفَ عنْ نفسِهِ الكراءَ ، أوْ توضَّأَ ليتنظَّفَ أوْ يتبرَّدَ ، أوِ اغتسلَ لتطيبَ رائحتُهُ ، أوْ روى الحديثَ ليُعرفَ بعلوِّ الإسنادِ ، أوِ اعتكفَ في المسجدِ ليخفِّفَ عليهِ كراءَ المسكنِ ، أوْ صامَ ليخفِّفَ عنْ نفسِهِ التردُّدَ في طبخِ الطعامِ ، أوْ ليتفرَّغَ لأشغالِهِ فلا يشغلُهُ الأكلُ عنها ، أوْ تصدَّقَ على السائلِ ليقطعَ إبرامَهُ في السؤالِ عنْ

---

(١) وهو أن يشترك باعثان . « إتحاف » (٤٩/١٠) .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٦١٩) بنحوه .

(٣) يتبرَّم : يملُّ ويضجر .

(٤) الرِّفْق هنا : اسم لما يستعان به من مال أو متاع ونحوه .

نفسِهِ ، أوْ يعودَ مريضاً ليُعادَ إذا مرضَ ، أوْ يشيِّعَ جنازةً لتُشيَّعَ جنائزُ أهلِهِ ، أوْ يفعلَ شيئاً مِنْ ذٰلكَ ليُعرفَ بالخيرِ ويُذكرَ بِهِ ويُنظرَ إليهِ بعينِ الصلاحِ والوقارِ .

فمهما كانَ باعثُهُ هوَ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولٰكنِ انضافَ إليهِ خطرةٌ مِنْ هٰذهِ الخطراتِ حتىٰ صارَ العملُ أخفَّ عليهِ بسببِ هٰذهِ الأمورِ . . فقدْ خرجَ عملُهُ عنْ حدِّ الإخلاصِ ، وخرجَ عنْ أنْ يكونَ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، وتطرَّقَ الشركُ إليهِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : « أنا أغنى الشركاءِ عنِ الشركِ »[1]

وبالجملةِ : كلُّ حظٍّ مِنْ حظوظِ الدنيا تستريحُ إليهِ النفسُ ، ويميلُ إليهِ القلبُ ، قلَّ أمْ كثُرَ ، إذا تطرَّقَ إلى العملِ . . تكدَّرَ بِهِ صفوُهُ ، وزالَ بِهِ إخلاصُهُ .

والإنسانُ مرتبطٌ في حظوظِهِ ، منغمسٌ في شهواتِهِ ، قلَّما ينفكُّ فعلٌ مِنْ أفعالِهِ وعبادةٌ مِنْ عباداتِهِ عنْ حظوظٍ وأغراضٍ عاجلةٍ مِنْ هٰذهِ الأجناسِ ، فلذٰلكَ قيلَ : (مَنْ سلمَ لهُ في عمرِهِ خطوةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ . . نجا)[2] ، وذٰلكَ لعزَّةِ الإخلاصِ ، وعسْرِ تنقيةِ القلبِ عنْ هٰذهِ الشوائبِ ، بلِ الخالصُ هوَ الذي لا باعثَ عليهِ إلا طلبُ القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذهِ الحظوظُ إنْ كانَتْ هيَ الباعثةَ وحدَها . . فلا يخفىٰ شدَّةُ الأمرِ علىٰ صاحبِهِ فيها ، وإنَّما نظرُنا فيما إذا كانَ القصدُ الأصليُّ هوَ التقرُّبَ وانضافَتْ إليهِ هٰذهِ الأمورُ ، ثمَّ هٰذهِ الشوائبُ إمَّا أنْ تكونَ في رتبةِ الموافقةِ ، أوْ في رتبةِ المشاركةِ ، أوْ في رتبةِ المعاونةِ كما سبقَ في بيانِ النيةِ .

وبالجملةِ : فإمَّا أنْ يكونَ الباعثُ النفسيُّ مثلَ الباعثِ الدينيِّ ، أوْ أقوىٰ منهُ ، أوْ أضعفَ ، ولكلٍّ واحدٍ حكمٌ آخرُ كما سنذكرُهُ ، وإنَّما الإخلاصُ تخليصُ العملِ عنْ هٰذهِ الشوائبِ كلِّها ، قليلِها وكثيرِها ؛ حتىٰ يتجرَّدَ فيهِ قصدُ التقرُّبِ ، فلا يكونُ فيهِ باعثٌ سواهُ .

وهٰذا لا يُتصوَّرُ إلا مِنْ محبٍّ للهِ تعالىٰ مستهتَرٍ بهِ ، مستغرقِ الهمِّ بالآخرةِ ، بحيثُ لمْ يبقَ لحبِّ الدنيا في قلبِهِ قرارٌ ، حتىٰ لا يحبَّ الأكلَ والشربَ أيضاً ، بلْ تكونُ رغبتُهُ فيهِ كرغبتِهِ في قضاءِ الحاجةِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ضرورةُ الجبلةِ ، فلا يشتهي الطعامَ لأنَّهُ طعامٌ ، بلْ لأنَّهُ يقوِّيهِ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، ويتمنَّىٰ أنْ لوْ كُفيَ شرَّ الجوعِ ؛ حتىٰ لا يحتاجَ إلى الأكلِ ، فلا يبقىٰ في قلبِهِ حظٌّ مِنَ الفضولِ الزائدةِ على الضرورةِ ، ويكونُ قدْرُ الضرورةِ مطلوباً عندَهُ ؛ لأنَّهُ ضرورةُ دينِهِ ، فلا يكونُ لهُ همٌّ إلا اللهَ تعالىٰ .

فمثلُ هٰذا الشخصِ لوْ أكلَ أوْ شربَ أوْ قضىٰ حاجتَهُ . . كانَ خالصَ العملِ صحيحَ النيةِ في جميعِ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، فلوْ نامَ مثلاً ليريحَ نفسَهُ فيتقوَّىٰ على العبادةِ بعدَهُ . . كانَ نومُهُ عبادةً ، وكانَ لهُ درجةُ المخلصينَ فيهِ ، ومَنْ ليسَ كذٰلكَ . . فبابُ الإخلاصِ في الأعمالِ كالمسدودِ عليهِ إلا على الندورِ ، وكما أنَّ مَنْ غلبَ عليهِ حبُّ اللهِ وحبُّ الآخرةِ ، فاكتسبَتْ حركاتُهُ الاعتياديَّةُ صفةَ همِّهِ وصارَتْ إخلاصاً . . فالذي يغلبُ علىٰ نفسِهِ حبُّ الدنيا والعلوُّ والرئاسةُ ، وبالجملةِ : غيرُ اللهِ تعالىٰ . . فقدِ اكتسبَتْ جميعُ حركاتِهِ تلكَ الصفةَ ، فلا تسلمُ لهُ عباداتُهُ مِنْ صومٍ وصلاةٍ وغيرِ ذٰلكَ إلا نادراً .

فإذاً ؛ علاجُ الإخلاصِ كسرُ حظوظِ النفسِ ، وقطعُ الطمعِ عنِ الدنيا ، والتجرُّدُ للآخرةِ ؛ بحيثُ يغلبُ ذٰلكَ على القلبِ ، فإذْ ذاكَ يتيسَّرُ الإخلاصُ .

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) .

(٢) تقدم قريباً بنحوه قول أبي سليمان ، وهو : (طوبىٰ لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالىٰ) .

وكَمْ مِنْ أعمالٍ يتعبُ الإنسانُ فيها ويظنُّ أنَّها خالصةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، ويكونُ فيها مغروراً ؛ لأنَّهُ لا يدري وجهَ الآفةِ فيها ؛ كما حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : (قضيتُ صلاةَ ثلاثينَ سنةً كنتُ صلَّيتُها في المسجدِ في الصفِّ الأوَّلِ ؛ لأنِّي تأخَّرتُ يوماً لعذرٍ ، فصليتُ في الصفِّ الثاني ، فاعترَتْني خجلةٌ مِنَ الناسِ حيثُ رأوني في الصفِّ الثاني ، فعرفتُ أنَّ نظرَ الناسِ إليَّ في الصفِّ الأوَّلِ كانَ مسرَّتي وسببَ استراحةِ قلبي مِنْ حيثُ لا أشعرُ) .

وهٰذا دقيقٌ غامضٌ ، قلَّما تسلمُ الأعمالُ مِنْ أمثالِهِ ، وقلَّ مَنْ يتنبَّهُ لهُ إلا مَنْ وفَّقَهُ اللهُ تعالىٰ ، والغافلونَ عنهُ يرونَ حسناتِهِمْ كلَّها في الآخرةِ سيئاتٍ ، وهُمُ المرادونَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ۞ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وأشدُّ الخلقِ تعرُّضاً لهٰذهِ الفتنةِ العلماءُ ، فإنَّ الباعثَ للأكثرينَ علىٰ نشرِ العلمِ لذَّةُ الاستيلاءِ ، والفرحُ بالاستتباعِ ، والاستبشارُ بالحمدِ والثناءِ ، والشيطانُ يلبِّسُ عليهِمْ ذٰلكَ ، ويقولُ : إنَّما غرضُكُمْ نشرُ دينِ اللهِ ، والنضالُ عنِ الشرعِ الذي شرعَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وترى الواعظَ يمنُّ على اللهِ تعالىٰ بنصحِهِ للخلقِ ووعظِهِ للسلاطينِ ، ويفرحُ بقبولِ الناسِ قولَهُ وإقبالِهِمْ عليهِ ، وهوَ يدَّعي أنَّهُ يفرحُ بما يُسِّرَ لهُ مِنْ نصرةِ الدينِ ، ولوْ ظهرَ مِنْ أقرانِهِ مَنْ هوَ أحسنُ منهُ وعظاً ، وانصرفَ الناسُ عنهُ وأقبلوا عليهِ . . ساءَهُ ذٰلكَ وغمَّهُ ، ولوْ كانَ باعثُهُ الدينَ . . لشكرَ اللهَ تعالىٰ ؛ إذْ كفاهُ اللهُ تعالىٰ هٰذا المهمَّ بغيرِهِ ، ثمَّ الشيطانُ معَ ذٰلكَ لا يخلِّيهِ ، ويقولُ : إنَّما غمُّكَ لانقطاعِ الثوابِ عنكَ ، لَا لانصرافِ وجوهِ الناسِ عنكَ إلىٰ غيرِكَ ؛ إذْ لوِ اتعظوا بقولِكَ . . لكنتَ أنتَ المثابَ ، واغتمامُكَ لفوتِ الثوابِ محمودٌ ، ولا يدري المسكينُ أنَّ انقيادَهُ للحقِّ ، وتسليمَهُ الأمرَ للأفضلِ[1] . . أجزلُ ثواباً ، وأعودُ عليهِ في الآخرةِ مِنِ انفرادِهِ .

وليتَ شعري لوِ اغتمَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بتصدي أبي بكرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ للإمامةِ . . أكانَ غمُّهُ محموداً أوْ مذموماً ؟ ولا يستريبُ ذو دينٍ أنْ لوْ كانَ ذٰلكَ . . لكانَ مذموماً ؛ لأنَّ انقيادَهُ للحقِّ وتسليمَهُ الأمرَ إلىٰ مَنْ هوَ أصلحُ منهُ . . أعودُ عليهِ في الدينِ مِنْ تكفُّلِهِ بمصالحِ الخلقِ ، معَ ما فيهِ مِنَ الثوابِ الجزيلِ ، بلْ فرحَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ باستقلالِ مَنْ هوَ أولىٰ منهُ بالأمرِ[2] ، فما بالُ العلماءِ لا يفرحونَ بمثلِ ذٰلكَ ؟!

وقدْ ينخدعُ بعضُ أهلِ العلمِ بغرورِ الشيطانِ ، فيحدِّثُ نفسَهُ بأنَّهُ لوْ ظهرَ مَنْ هوَ أولىٰ منهُ بالأمرِ . . لفرحَ بهِ ، وإخبارُهُ بذٰلكَ عنْ نفسِهِ قبلَ التجربةِ والامتحانِ محضُ الجهلِ والغرورِ ، فإنَّ النفسَ سهلةُ القيادِ في الوعدِ بأمثالِ ذٰلكَ قبلَ نزولِ الأمرِ ، ثمَّ إذا دهاهُ الأمرُ تغيَّرَ ورجعَ ، ولمْ يفِ بالوعدِ ، وذٰلكَ لا يعرفُهُ إلا مَنْ عرفَ مكايدَ الشيطانِ والنفسِ ، وطالَ اشتغالُهُ بامتحانِها .

فمعرفةُ حقيقةِ الإخلاصِ والعملُ بهِ بحرٌ عميقٌ ، يغرقُ فيهِ الجميعُ ، إلا الشاذَّ النادرَ والفردَ الفذَّ ، وهوَ المستثنىٰ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، فليكنِ العبدُ شديدَ التفقُّدِ والمراقبةِ لهٰذهِ الدقائقِ ، وإلا . . التحقَ بأتباعِ الشياطينِ وهوَ لا يشعرُ .

* * *

---

(١) أي : تسليمه أمر الوعظ ودعوة الخلق لمن هو أعلم وأفضل وأقدر علىٰ نفعهم وجلب قلوبهم للحق ، وإنما هو مشارك له ، منطوٍ تحت جناحه .

(٢) كما دلَّ علىٰ ذٰلك الآثار الواردة في قصة البيعة . « إتحاف » (١٠/٥٣) .

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قالَ السوسيُّ : (الإخلاصُ فقْدُ رؤيةِ الإخلاصِ ؛ لأنَّ مَنْ شاهدَ في إخلاصِهِ الإخلاصَ . . فقدِ احتاجَ إخلاصُهُ إلىٰ إخلاصٍ)[١]

وما ذكرَهُ إشارةٌ إلىٰ تصفيةِ العملِ عنِ العجبِ بالعملِ ، فإنَّ الالتفاتَ إلى الإخلاصِ والنظرَ إليهِ عجبٌ ، وهوَ مِنْ جملةِ الآفاتِ ، والخالصُ ما صفا عنْ جميعِ الآفاتِ ، فهـٰذا تعرُّضٌ لآفةٍ واحدةٍ[٢]

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ تعالى : (الإخلاصُ أنْ يكونَ سكونُ العبدِ وحركاتُهُ للهِ تعالىٰ خاصَّةً)[٣]

وهـٰذهِ كلمةٌ جامعةٌ محيطةٌ بالغرضِ ، وفي معناهُ قولُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ : (الإخلاصُ صدقُ النيةِ معَ اللهِ تعالىٰ)[٤] .

وقيلَ لسهلٍ : أيُّ شيءٍ أشدُّ على النفسِ ؟ فقالَ : الإخلاصُ ؛ إذْ ليسَ لها فيهِ نصيبٌ[٥]

وقالَ رويمٌ : (الإخلاصُ في العملِ هوَ ألا يريدَ صاحبُهُ عليهِ عوضاً في الدارينِ)[٦]

وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ حظوظَ النفسِ آفةٌ آجلاً وعاجلاً ، والعابدُ لأجلِ تنعُّمِ النفسِ بالشهواتِ في الجنةِ معلولُ العبادةِ ، بلِ الحقيقةُ ألا يُرادَ بالعملِ إلا وجهُ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ إخلاصِ الصدِّيقينَ ، وهوَ الإخلاصُ المطلقُ ، فأمَّا مَنْ يعملُ لرجاءِ الجنةِ وخوفِ النارِ . . فهوَ مخلصٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يطلبُ الحظوظَ العاجلةَ ، وإلا . . فهوَ في طلبِ حظِّ البطنِ والفرجِ ، وإنَّما المطلوبُ الحقُّ لذوي الألبابِ وجهُ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

وقولُ القائلِ : لا يتحرَّكُ الإنسانُ إلا لحظٍّ ، والبراءةُ مِنَ الحظوظِ صفةُ الإلـٰهيَّةِ ، ومَنِ ادعىٰ ذٰلكَ . . فهوَ كافرٌ[٧] ، وقدْ قضى القاضي أبو بكرٍ الباقلانيُّ بتكفيرِ مَنْ يدعي البراءةَ مِنَ الحظوظِ ، وقالَ : (هـٰذا منْ صفاتِ الإلـٰهيةِ) ؟

وما ذكرَهُ حقٌّ ، ولـٰكنَّ القومَ إنَّما أرادوا بهِ البراءةَ عمَّا يسميهِ الناسُ حظوظاً ، وهيَ الشهواتُ الموصوفةُ في الجنةِ فقطْ ، فأمَّا التلذُّذُ بمجرَّدِ المعرفةِ والمناجاةِ والنظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ . . فهـٰذا حظُّ هـٰؤلاءِ ، وهـٰذا لا يعدُّهُ الناسُ حظّاً ، بلْ يتعجَّبونَ منهُ ، وهـٰؤلاءِ لوْ عُوِّضوا عمَّا هُمْ فيهِ مِنْ لذَّةِ الطاعةِ والمناجاةِ وملازمةِ الشهودِ للحضرةِ الإلـٰهيةِ سرّاً وجهراً جميعَ نعيمِ الجنةِ . . لاستحقروهُ ، ولمْ يلتفتوا إليهِ ، فحركتُهُمْ لحظٍّ ، وطاعتُهُمْ لحظٍّ ، ولـٰكنْ حظُّهُمْ معبودُهُمْ فقطْ دونَ غيرِهِ .

وقالَ أبو عثمانَ : (الإخلاصُ نسيانُ رؤيةِ الخلقِ بدوامِ النظرِ إلى الخالقِ)[٨]

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٠) .
(٢) أي : فلا تكون حقيقته جامعة لأفراده . « إتحاف » (١٠/٥٤) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٠) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٠) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٦٢) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨١) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٦٢) .
(٧) لأنه قد أشرك بالله في صفة من صفاته المختصة به . « إتحاف » (١٠/٥٥) .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨١) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٦٢) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٧٥) ، وأبو عثمان هو سعيد بن إسماعيل الحيري .

وهٰذا إشارةٌ إلىٰ آفةِ الرياءِ فقطْ ، ولذٰلكَ قالَ بعضُهُمْ : (الإخلاصُ في العملِ ألا يطلعَ عليهِ شيطانٌ فيفسدَهُ ، ولا ملكٌ فيكتبَهُ)[1] ، وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ مجرَّدِ الإخفاءِ .

وقدْ قيلَ : (الإخلاصُ ما استترَ عنِ الخلائقِ ، وصفا عنِ العلائقِ)[2] ، وهٰذا أجمعُ للمقاصدِ .

وقالَ المحاسبيُّ : (الإخلاصُ هوَ إخراجُ الخلقِ عنْ معاملةِ الربِّ)[3] ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ مجرَّدِ نفيِ الرياءِ .

وكذٰلكَ قولُ الخوَّاصِ : (مَنْ شربَ مِنْ كأسِ الرئاسةِ . . فقدْ خرجَ عنْ إخلاصِ العبوديةِ)[4]

وقالَ الحواريونَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : ما الخالصُ مِنَ الأعمالِ ؟ فقالَ : الذي يعملُ العملَ للهِ تعالىٰ لا يحبُّ أنْ يحمدَهُ عليهِ أحدٌ[5]

وهٰذا أيضاً تعرُّضٌ لتركِ الرياءِ ، وإنَّما خصَّهُ بالذكرِ لأنَّهُ أقوى الأسبابِ المشوشةِ للإخلاصِ .

وقالَ الجنيدُ : (الإخلاصُ تصفيةُ الأعمالِ مِنَ الكدوراتِ)[6]

وقالَ الفضيلُ : (تركُ العملِ مِنْ أجلِ الناسِ رياءٌ ، والعملُ مِنْ أجلِ الناسِ شركٌ ، والإخلاصُ أنْ يعافيَكَ اللهُ تعالىٰ منهُما)[7]

وقيلَ : (الإخلاصُ دوامُ المراقبةِ ونسيانُ الحظوظِ كلِّها)[8]

وهٰذا هوَ البيانُ الكاملُ ، والأقاويلُ في هٰذا كثيرةٌ ، ولا فائدةَ في تكثيرِ النقلِ بعدَ انكشافِ الحقيقةِ ، وإنَّما البيانُ الشافي بيانُ سيِّدِ الأولينَ والآخرينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ سُئِلَ عنِ الإخلاصِ فقالَ : « أنْ تقولَ : ربِّيَ اللهُ ، ثُمَّ تستقيمُ كما أُمرتَ »[9] أيْ : لا تعبدُ هواكَ ونفسَكَ ، ولا تعبدُ إلا ربَّكَ ، وتستقيمُ في عبادتِهِ كما أمرتَ ، وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ قطعِ كلِّ ما سوى اللهِ عنْ مجرى النظرِ ، وهوَ الإخلاصُ حقّاً .

❋ ❋ ❋

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨١) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨١)
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨١) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٣) .
(٥) كذا في « القوت » (١٥٦/٢) ، و« تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٤) ، وقد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٥) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٥) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٥) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٦٢) .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٥) .
(٩) كذا أورد هٰذا الحديث الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٥) والمصنف تبع له ، وروى الترمذي (٢٤١٠) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ حدثني بأمر أعتصم به ، قال : « قل : ربي الله ، ثم استقم . . . » الحديث ، وبلفظه هنا قال الحافظ العراقي : (لم أره بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (٥٧/١٠) .

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلمْ : أنَّ الآفاتِ المشوشةَ للإخلاصِ بعضُها جليٌّ ، وبعضُها خفيٌّ ، وبعضُها ضعيفٌ معَ الجلاءِ ، وبعضُها قويٌّ معَ الخفاءِ ، ولا يُفهمُ اختلافُ درجاتِها في الخفاءِ والجلاءِ إلا بمثالٍ ، وأظهرُ مشوشاتِ الإخلاصِ الرياءُ ، فلنذكرْ منهُ مثالاً فنقولُ :

الشيطانُ يدخلُ الآفةَ على المصلِّي مهما كانَ مخلصاً في صلاتِهِ ، ثمَّ نظرَ إليهِ جماعةٌ ، أوْ دخلَ عليهِ داخلٌ ، فيقولُ لهُ : حسِّنْ صلاتَكَ حتىٰ ينظرَ إليكَ هـٰذا الحاضرُ بعينِ الوقارِ والصلاحِ ، ولا يزدريَكَ ولا يغتابَكَ ، فتخشعُ جوارحُهُ ، وتسكنُ أطرافُهُ ، وتحسنُ صلاتُهُ ، وهـٰذا هوَ الرياءُ الظاهرُ ، ولا يخفىٰ ذٰلكَ على المبتدئينَ مِنَ المريدينَ [1]

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الثانية : أنْ يكونَ المريدُ قدْ فهمَ هـٰذهِ الآفةَ وأخذَ منها حذرَهُ ، فصارَ لا يطيعُ الشيطانَ فيها ، ولا يلتفتُ إليهِ ، ويستمرُّ في صلاتِهِ كما كانَ ، فيأتيهِ في معرضِ الخيرِ ، ويقولُ : أنتَ متبوعٌ ومقتدىً بكَ ، ومنظورٌ إليكَ ، وما تفعلُهُ يُؤْثَرُ عنكَ ، ويتأسَّىٰ بكَ غيرُكَ ، فيكونُ لكَ ثوابُ أعمالِهِمْ إنْ أحسنتَ ، وعليكَ الوزرُ إنْ أسأتَ ، فأحسنْ عملَكَ بينَ يديهِ ، فعساهُ يقتدي بكَ في الخشوعِ وتحسينِ العبادةِ .

وهـٰذا أغمضُ مِنَ الأوَّلِ ، وقدْ ينخدعُ بهِ مَنْ لا ينخدعُ بالأوَّلِ ، وهوَ أيضاً عينُ الرياءِ ، ومبطلٌ للإخلاصِ ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ يرى الخشوعَ وحسنَ العبادةِ خيراً لا يرضىٰ لغيرِهِ تركَهُ . . فلِمَ لمْ يرتضِ لنفسِهِ ذٰلكَ في الخلوةِ ؟ ولا يمكنُ أنْ تكونَ نفسُ غيرِهِ أعزَّ عليهِ مِنْ نفسِهِ ، فهـٰذا محضُ التلبيسِ ، بلِ المُقتدىٰ بهِ هوَ الذي استقامَ في نفسِهِ واستنارَ قلبُهُ ، فانتشرَ نورُهُ إلىٰ غيرِهِ ، فيكونُ لهُ ثوابٌ عليهِ ، فأمَّا هـٰذا . . فمحضُ النفاقِ والتلبيسِ ، فمَنِ اقتدىٰ بهِ . . أُثيبَ عليهِ ، وأمَّا هوَ . . فيُطالبُ بتلبيسِهِ ، ويُعاقبُ علىٰ إظهارِهِ مِنْ نفسِهِ ما ليسَ متصفاً بهِ .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الثالثةُ ـ وهيَ أدقُّ ممَّا قبلَها ـ : أنْ يجرِّبَ العبدُ نفسَهُ في ذٰلكَ ، ويتنبَّهَ لكيدِ الشيطانِ ، ويعلمَ أنَّ مخالفتَهُ بينَ الخلوةِ والمشاهدةِ للغيرِ محضُ الرياءِ ، ويعلمَ أنَّ الإخلاصَ في أنْ تكونَ صلاتُهُ في الخلوةِ مثلَ صلاتِهِ في الملأ ، ويستحييَ مِنْ نفسِهِ ومِنْ ربِّهِ أنْ يتخشَّعَ لمشاهدةِ خلقِهِ تخشُّعاً زائداً علىٰ عادتِهِ ، فيقبلُ علىٰ نفسِهِ في الخلوةِ ، ويحسِّنُ صلاتَهُ على الوجهِ الذي يرتضيهِ في الملأ ، ويصلي في الملأ أيضاً كذٰلكَ ، فهـٰذا أيضاً مِنَ الرياءِ الغامضِ ؛ لأنَّهُ حسَّنَ صلاتَهُ في الخلوةِ لتحسُنَ في الملأ ، فلا يكونُ قدْ فرَّقَ بينَهُما ، فالتفاتُهُ في الخلوةِ والملأ إلى الخلقِ ، بلِ الإخلاصُ أنْ تكونَ مشاهدةُ البهائمِ لصلاتِهِ ومشاهدةُ الخلْقِ علىٰ وتيرةٍ واحدةٍ ، فكأنَّ نفسَ هـٰذا ليسَتْ تسمحُ بإساءةِ الصلاةِ بينَ أظهرِ الناسِ ، ثمَّ يستحي مِنْ نفسِهِ أنْ يكونَ في صورةِ المرائينَ ، ويظنُّ أنَّ ذٰلكَ يزولُ بأنْ تستويَ صلاتُهُ في الخلاءِ والملأ ، وهيهاتَ !! بلْ زوالُ ذٰلكَ بألا يلتفتَ إلى الخلقِ كما لا يلتفتُ إلى الجماداتِ في الخلاءِ والملأ جميعاً ، وهـٰذا مِنْ شخصٍ مشغولِ الهمِّ بالخلقِ في الملأ والخلاءِ جميعاً ، وهـٰذا مِنَ المكايدِ الخفيَّةِ للشيطانِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) وهـٰذه هي الدرجة الأولىٰ .

الدرجةُ الرابعةُ ـ وهيَ أدقُّ وأخفىٰ ـ : أنْ ينظرَ إليهِ الناسُ وهوَ في صلاتِهِ ، فيعجزَ الشيطانُ عنْ أنْ يقولَ لهُ : اخشعْ لأجلِهِمْ ؛ فإنَّهُ قدْ عرفَ أنَّهُ تفطَّنَ لذٰلكَ ، فيقولُ لهُ الشيطانُ : تفكَّرْ في عظمةِ اللهِ وجلالِهِ ، ومَنْ أنتَ واقفٌ بينَ يديهِ ، واستحيِ مِنْ أنْ ينظرَ اللهُ إلىٰ قلبِكَ وهوَ غافلٌ عنهُ ، فيحضرُ بذٰلكَ قلبُهُ ، وتخشعُ جوارحُهُ ، ويظنُّ أنَّ ذٰلكَ عينُ الإخلاصِ ، وهوَ عينُ المكرِ والخداعِ ، فإنَّ خشوعَهُ لوْ كانَ لنظرِهِ إلىٰ جلالِهِ . . لكانَتْ هٰذهِ الخطرةُ تلازمُهُ في الخلوةِ ، ولكانَ لا يختصُّ حضورُها بحالةِ حضورِ غيرِهِ .

وعلامةُ الأمنِ مِنْ هٰذهِ الآفةِ : أنْ يكونَ هٰذا الخاطرُ ممَّا يألفُهُ في الخلوةِ كما يألفُهُ في الملأ ، ولا يكونَ حضورُ الغيرِ هوَ السببَ في حضورِ الخاطرِ ؛ كما لا يكونُ حضورُ بهيمةٍ سبباً ، فما دامَ يفرِّقُ في أحوالِهِ بينَ مشاهدةِ إنسانٍ ومشاهدةِ بهيمةٍ . . فهوَ بعدُ خارجٌ عنْ صفوِ الإخلاصِ ، مدنسُ الباطنِ بالشركِ الخفيِّ مِنَ الرياءِ ، وهٰذا الشركُ أخفىٰ في قلبِ ابنِ آدمَ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ على الصخرةِ الصماءِ كما وردَ بهِ الخبرُ[1] ، ولا يسلمُ مِنَ الشيطانِ إلا مَنْ دقَّ نظرُهُ ، وسعِدَ بعصمةِ اللهِ وتوفيقِهِ وهدايتِهِ ، وإلا . . فالشيطانُ ملازمٌ للمتشمّرينَ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ ، لا يغفُلُ عنهُمْ لحظةً حتىٰ يحملَهُمْ على الرياءِ في كلِّ حركةٍ مِنَ الحركاتِ ، حتىٰ في كحْلِ العينِ ، وقصِّ الشاربِ ، وطيبِ يومِ الجمعةِ ، ولبسِ الثيابِ ، فإنَّ هٰذهِ سننٌ في أوقاتٍ مخصوصةٍ ، وللنفسِ فيها حظٌّ خفيٌّ ؛ لارتباطِ نظرِ الخلقِ بها ، ولاستئناسِ الطبعِ بها ، فيدعو الشيطانُ إلىٰ فعلِ ذٰلكَ ، ويقولُ : هٰذهِ سنةٌ لا ينبغي أنْ تتركَها ، ويكونُ انبعاثُ القلبِ باطناً لها لأجلِ تلكِ الشهواتِ الخفيَّةِ ، أوْ مشوبةً بها شوباً يخرجُ عنْ حدِّ الإخلاصِ بسببِهِ .

وما لا يسلمُ مِنْ هٰذهِ الآفاتِ كلِّها فليسَ بخالصٍ ، بلْ مَنْ يعتكفُ في مسجدٍ معمورٍ نظيفٍ حسنِ العمارةِ يأنسُ الطبعُ بهِ ، فالشيطانُ يرغِّبُهُ فيهِ ، ويكثرُ عليهِ مِنْ فضائلِ الاعتكافِ ، وقد يكونُ المحرِّكُ الخفيُّ في سرِّهِ هوَ الأنْسَ بحسنِ صورةِ المسجدِ ، واستراحةَ الطبعِ إليهِ ، ويتبيَّنُ ذٰلكَ في ميلِهِ إلىٰ أحدِ المسجدينِ أوْ أحدِ الموضعينِ إذا كانَ أحسنَ مِنَ الآخرِ ، وكلُّ ذٰلكَ امتزاجٌ بشوائبِ الطبعِ وكدوراتِ النفسِ ، ومبطلٌ حقيقةَ الإخلاصِ .

لعمري ؛ الغشُّ الذي يُمزجُ بخالصِ الذهبِ لهُ درجاتٌ متفاوتةٌ ، فمنها ما يغلبُ ، ومنها ما يقلُّ ولٰكنْ يسهلُ دركُهُ ، ومنها ما يدقُّ بحيثُ لا يدركُهُ إلا الناقدُ البصيرُ ، وغشُّ القلبِ ودَغَلُ الشيطانِ وخبثُ النفْسِ أغمضُ مِنْ ذٰلكَ وأدقُّ كثيراً ، ولهٰذا قيلَ : (ركعتانِ مِنْ عالمٍ أفضلُ مِنْ عبادةِ سنةٍ مِنْ جاهلٍ)[2] ، وأُريدَ بهِ العالمُ البصيرُ بدقائقِ آفاتِ الأعمالِ ، حتىٰ يخلصَ عنها ، فإنَّ الجاهلَ نظرُهُ إلىٰ ظاهرِ العبادةِ واغترارُهُ بها كنظرِ السواديِّ إلىٰ حمرةِ الدينارِ المموَّهِ واستدارتِهِ ، وهوَ مغشوشٌ زائفٌ في نفسِهِ ، وقيراطٌ مِنَ الخالصِ الذي يرتضيهِ الناقدُ خيرٌ مِنْ دينارٍ يرتضيهِ الغِرُّ الغبيُّ .

فهٰكذا يتفاوتُ أمرُ العباداتِ ، بلْ أشدُّ وأعظمُ ، ومداخلُ الآفاتِ المتطرقةِ إلىٰ فنونِ الأعمالِ لا يمكنُ حصرُها وإحصاؤُها ، فلنقنعْ بما ذكرناهُ مثالاً ، والفطنُ يغنيهِ القليلُ عنِ الكثيرِ ، والبليدُ لا يغنيهُ التطويلُ أيضاً ، فلا فائدةَ في التفصيلِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢٩١/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٦٨/٨) .

(٢) وقد روي في المرفوع نحوه ، روىٰ ابن النجار عن موسى بن جعفر ، عن أبيه ، عن جده : « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » رواه الشيرازي في « الألقاب » من طريق مالك بن دينار ، عن الحسن ، عن أنس ، عن علي رفعه : « ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله » ، وروىٰ أبو نعيم من حديث أنس ـ وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٢٣٤) ـ : « ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط » . « إتحاف » (٥٩/١٠) .

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلمْ : أنَّ العملَ إذا لَمْ يكنْ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، بلِ امتزجَ بهِ شوبٌ مِنَ الرياءِ أو حظوظِ النفسِ . . فقدِ اختُلفَ في أنَّ ذٰلكَ هلْ يقتضي ثواباً ، أمْ يقتضي عقاباً ، أمْ لا يقتضي شيئاً أصلاً ، فلا يكونُ لهُ ولا عليهِ ؟

أمَّا الذي لمْ يُردْ بهِ إلا الرياءَ . . فهوَ عليهِ قطعاً ، وهوَ سببُ المقتِ والعقابِ ، وأمَّا الخالصُ لوجهِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ سببُ الثوابِ ، وإنَّما النظرُ في المشوبِ ، وظاهرُ الأخبارِ تدلُّ علىٰ أنَّهُ لا ثوابَ لهُ (١) ، وليسَ تخلو الأخبارُ عنْ تعارضٍ فيهِ .

والذي ينقدحُ لنا فيهِ ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ : أنْ ينظرَ إلىٰ قدْرِ قوَّةِ البواعثِ ، فإنْ كانَ الباعثُ الدينيُّ مساوياً للباعثِ النفسيِّ . . تقاوما وتساقطا ، وصارَ العملُ لا لهُ ولا عليهِ ، وإنْ كانَ باعثُ الرياءِ أغلبَ وأقوىٰ . . فهوَ ليسَ بنافعٍ ، بل هوَ معَ ذٰلكَ مضرٌّ ومقتضٍ للعقابِ .

نعم ؛ العقابُ الذي فيهِ أخفُّ مِنْ عقابِ العملِ الذي تجرَّدَ للرياءِ ولَمْ يمتزجْ بهِ شائبةُ التقرُّبِ .

وإنْ كانَ قصدُ التقرُّبِ أغلبَ بالإضافةِ إلى الباعثِ الآخرِ . . فلهُ ثوابٌ بقدْرِ ما فضلَ مِنْ قوَّةِ الباعثِ الدينيِّ ، وهٰذا لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ، فلا ينبغي أنْ يضيعَ قصدُ الخيرِ ، بلْ إنْ كانَ غالباً علىٰ قصدِ الرياءِ . . حبطَ منهُ القدْرُ الذي يساويهِ وبقيَتْ زيادةٌ ، وإنْ كانَ مغلوباً . . أُسقطَ بسببِهِ شيءٌ مِنْ عقوبةِ القصدِ الفاسدِ .

وكشفُ الغطاءِ عنْ هٰذا : أنَّ الأعمالَ تأثيرُها في القلوبِ بتأكيدِ صفاتِها ، فداعيةُ الرياءِ مِنَ المهلكاتِ ، وإنَّما غذاءُ هٰذا المهلكِ وقوتُهُ العملُ علىٰ وَفْقِهِ ، وداعيةُ الخيرِ مِنَ المنجياتِ ، وإنَّما قوَّتُها بالعملِ علىٰ وَفْقِها ، فإذا اجتمعَتِ الصفتانِ في القلبِ . . فهما متضادتانِ ، فإذا عملَ علىٰ وَفْقِ مقتضى الرياءِ . . فقدْ قوَّىٰ تلكَ الصفةَ ، وإذا كانَ العملُ علىٰ وَفْقِ مقتضى التقرُّبِ . . فقدْ قوَّىٰ أيضاً تلكَ الصفةَ ، وأحدُهُما مهلكٌ والآخرُ منجٍ ، فإنْ كانَ تقويةُ هٰذا بقدْرِ تقويةِ الآخرِ . . فقدْ تقاوما ، فكانَ كالمستضرِّ بالحرارةِ إذا تناولَ ما يضرُّهُ ، ثمَّ تناولَ مِنَ المبرداتِ ما يقاومُ قدْرَ قوَّتِهِ ، فيكونُ بعدَ تناولِهما كأنَّهُ لمْ يتناولْهُما ، وإنْ كانَ أحدُهُما غالباً . . لمْ يخلُ الغالبُ عنْ أثرٍ ، فكما لا يضيعُ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الطعامِ والشرابِ والأدويةِ ، ولا ينفكُّ عنْ أثرٍ في الجسدِ بحكمِ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ . . فكذٰلكَ لا يضيعُ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الخيرِ

(١) منها ما رواه النسائي (٦/٢٥) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ما له ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ، فأعادها ثلاث مرات ، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ، ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغي به وجهُهُ » ، ومما ظاهره المعارضة ما رواه الترمذي (٢٣٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ الرجل يعمل العمل فيسرُّه ، فإذا اطلع عليه . . أعجبه ذٰلك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « له أجران ؛ أجر السر ، وأجر العلانية » ، وقد بيَّن المصنف فيما سبق أن لا تعارض ، ومنها أيضاً ما رواه أحمد في « المسند » (٤/١٧٩) من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه وقد سأله أبو الدرداء رضي الله عنه عِظَةً ، فقال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فقدمت ، فجاء رجل منهم فجلس في المجلس الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرجل إلىٰ جنبه : لو رأيتنا حين التقينا نحن والعدو ، فحمل فلان فطعن فقال : خذها وأنا الغلام الغفاري ، كيف ترىٰ في قوله ؟ قال : ما أُراه إلا قد أبطل أجره ، فسمع ذٰلك آخر ، فقال : ما أرىٰ بذٰلك بأساً ، فتنازعا حتىٰ سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « سبحان الله !! لا بأس أن يُحمد ويُؤجر » .

والشرّ ، ولا ينفكُّ عنْ تأثيرٍ في إنارةِ القلبِ أوْ تسويدِهِ ، وفي تقريبِهِ مِنَ اللهِ أوْ إبعادِهِ ، فإذا جاءَ بما يقرِّبُهُ شبراً معَ ما يبعدُهُ شبراً . . فقدْ عادَ إلىٰ ما كانَ ، فلمْ يكنْ لهُ ولا عليهِ ، وإنْ كانَ الفعلُ ممَّا يقرِّبُهُ شبرينِ والآخرُ يبعدُهُ شبراً واحداً . . فضلَ لهُ ـ لا محالةَ ـ شبرٌ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ . . تمحُها »[1] ، فإذا كانَ الرياءُ المحضُ يمحوهُ الإخلاصُ المحضُ عقيبَهُ ؛ فإذا اجتمعا جميعاً . . فلا بدَّ وأنْ يتدافعا بالضرورةِ .

ويشهدُ لهـٰذا إجماعُ الأمَّةِ علىٰ أنَّ مَنْ خرجَ حاجّاً ومعَهُ تجارةٌ صحَّ حجُّهُ وأُثيبَ عليهِ ، وقدِ امتزجَ بهِ حظٌّ مِنْ حظوظِ النفسِ[2] .

نعمْ ؛ يمكنُ أنْ يقالَ : إنَّما يُثابُ علىٰ أعمالِ الحجِّ عندَ انتهائِهِ إلىٰ مكَّةَ ، وتجارتُهُ غيرُ موقوفةٍ عليهِ ، فهوَ خالصٌ ، وإنَّما المشتركُ طولُ المسافةِ ، ولا ثوابَ فيهِ مهما قصدَ تجارةً ، ولـٰكنَّ الصوابَ أنْ يُقالَ : مهما كانَ الحجُّ هوَ المحرِّكَ الأصليَّ ، وكانَ غرضُ التجارةِ كالمعينِ والتابعِ . . فلا ينفكُّ نفسُ السفرِ عنْ ثوابٍ ، وما عندي أنَّ الغزاةَ لا يدركونَ في أنفسِهِمْ تفرقةً بينَ غزوِ الكفارِ في جهةٍ تكثرُ فيها الغنائمُ وبينَ جهةٍ لا غنيمةَ فيها[3] ، ويبعدُ أنْ يُقالَ : إدراكُ هـٰذهِ التفرقةِ يحبطُ بالكليَّةِ ثوابَ جهادِهِمْ ، بلِ العدلُ أنْ يُقالَ : إذا كانَ الباعثُ الأصليُّ والمزعجُ القويُّ هوَ إعلاءَ كلمةِ اللهِ ، وإنَّما الرغبةُ في الغنيمةِ علىٰ سبيلِ التبعيةِ . . فلا يحبطُ بهِ الثوابُ .

نعمْ ؛ لا يساوي ثوابُهُ ثوابَ مَنْ لا يلتفتُ قلبُهُ إلى الغنيمةِ أصلاً ، فإنَّ هـٰذا الالتفاتَ نقصانٌ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فالآياتُ والأخبارُ تدلُّ علىٰ أنَّ شوبَ الرياءِ محبطٌ للثوابِ ، وفي معناهُ شوبُ طلبِ الغنيمةِ والتجارةِ وسائرِ الحظوظِ ، فقدْ روىٰ طاووسٌ وعدَّةٌ مِنَ التابعينَ : أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ يصطنعُ المعروفَ ـ أوْ قالَ : يتصدَّقُ ـ فيحبُّ أن يُحمدَ ويُؤجرَ ، فلمْ يدرِ ما يقولُ لهُ حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[4] ، وقدْ قصدَ الأجرَ والحمدَ جميعاً .

وروىٰ معاذٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أدنى الرياءِ شركٌ »[5]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُقالُ لمَنْ أشركَ في عملِهِ : خذْ أجرَكَ ممَّنْ عملتَ لهُ »[6]

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧) .

(٢) وقد روى البخاري (٢٠٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت عكاظٌ ومَجَنَّةُ وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فلما كان الإسلام . . تأثَّموا من التجارة فيها ، فأنزل الله : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج) ، قرأ ابن عباس كذا .

(٣) فالتفرقة بينهما حاصلة ، و(ما) في صدر الجملة نافية ، والعبارة في (ب) : (وما عندي إلا أن الغزاة يدركون في أنفسهم . . .) ، والجملتان بمعنىً .

(٤) رواه من حديث طاووس مرسلاً ابنُ المبارك في « الجهاد » (١٢) ، وأشار إلىٰ هـٰذه الرواية البيهقي في « الشعب » (٦٤٣٨) بعد أن رواه عن طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه ، ولفظه : قال رجل : يا رسول الله ؛ إني أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يرىٰ موطني ؟ فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ نزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٢٧٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٣٦) .

(٦) أورده الحارث المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وروىٰ نحوه الترمذي (٣١٥٤) ، وابن ماجه (٤٢٠٣) عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله عنه ، وعند مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً : « قال الله تبارك وتعالىٰ : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري . . تركته وشركه » .

ورُوِيَ عنْ عبادةَ بنِ الصامتِ : (أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : أنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركةِ ، مَنْ عملَ لي عملاً فأشركَ معي غيري . . ودعتُ نصيبي لشريكي)[1]

وروىٰ أبو موسىٰ : أنَّ أعرابياً أتىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يقاتلُ حميةً ، والرجلُ يقاتلُ شجاعةً ، والرجلُ يقاتلُ ليُرىٰ مكانُهُ ، فمَنْ في سبيلِ اللهِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليا . . فهوَ في سبيلِ اللهِ »[2]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تقولونَ : فلانٌ شهيدٌ ، ولعلَّهُ أنْ يكونَ قدْ ملأَ دفتي راحلتِهِ وَرِقاً)[3]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ هاجرَ يبتغي شيئاً مِنَ الدنيا . . فهوَ لهُ »[4]

فنقولُ : هٰذهِ الأحاديثُ لا تناقضُ ما ذكرناهُ ، بلِ المرادُ بها مَنْ لمْ يردْ بذٰلكَ إلا الدنيا ؛ كقولِهِ : « مَنْ هاجرَ يبتغي شيئاً مِنَ الدنيا . . . » ، وكانَ ذٰلكَ هوَ الأغلبَ علىٰ همِّهِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ ذٰلكَ عصيانٌ وعدوانٌ ، لا لأنَّ طلبَ الدنيا حرامٌ ، ولٰكنْ طلبُها بأعمالِ الدينِ حرامٌ ؛ لما فيهِ مِنَ الرياءِ وتغييرِ العبادةِ عنْ وضعِها .

وأمَّا لفظُ الشركةِ حيثُ وردَ . . فمطلقُهُ للتساوي ، وقدْ بينَّا أنَّهُ إذا تساوى القصدانِ . . تقاوما ، ولمْ يكنْ لهُ ولا عليهِ ، فلا ينبغي أنْ يُرجىٰ عليهِ ثوابٌ .

ثمَّ إنَّ الإنسانَ عندَ الشركةِ أبداً في خطرٍ ، فإنَّهُ لا يدري أيُّ الأمرينِ أغلبُ علىٰ قصدِهِ ، فربما يكونُ عليهِ وبالاً ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ أيْ : لا يُرجى اللقاءُ معَ الشركةِ التي أحسنُ أحوالِها التساقطُ .

ويجوزُ أنْ يُقالَ أيضاً : منصبُ الشهادةِ لا يُنالُ إلا بالإخلاصِ في الغزوِ ، وبعيدٌ أنْ يُقالَ : مَنْ كانَتْ داعيتُهُ الدينيَّةُ بحيثُ تزعجُهُ إلىٰ مجرَّدِ الغزوِ وإنْ لمْ تكنْ غنيمةٌ ، وقدرَ علىٰ غزوِ طائفتينِ مِنَ الكفارِ ؛ إحداهما غنيةٌ ، والأخرىٰ فقيرةٌ ، فمالَ إلىٰ جهةِ الأغنياءِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالىٰ وللغنيمةِ . . لا ثوابَ لهُ علىٰ غزوِهِ ألبتةَ ، ونعوذُ باللهِ أنْ يكونَ الأمرُ كذٰلكَ ، فإنَّ هٰذا حرجٌ في الدينِ ، ومدخلٌ لليأسِ على المسلمينَ ؛ لأنَّ أمثالَ هٰذهِ الشوائبِ التابعةِ قطُّ لا ينفكُّ الإنسانُ عنها إلا على الندورِ ، فيكونُ تأثيرُ هٰذا في نقصانِ الثوابِ ، فأمَّا أنْ يكونَ في إحباطِهِ . . فلا .

نعمْ ؛ الإنسانُ فيهِ علىٰ خطرٍ عظيمٍ ؛ لأنَّهُ ربما يظنُّ أنَّ الباعثَ الأقوىٰ هوَ قصدُ التقرُّبِ إلى اللهِ ، ويكونُ الأغلبُ علىٰ سرِّهِ الحظَّ النفسيَّ ، وذٰلكَ ممَّا يخفىٰ غايةَ الخفاءِ ، فلا يحصلُ الأمنُ إلا بالإخلاصِ ، والإخلاصُ قلَّما يستيقنُهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ وإنْ بالغَ في الاحتياطِ .

فلذٰلكَ ينبغي أنْ يكونَ أبداً بعدَ كمالِ الاجتهادِ متردِّداً بينَ الردِّ والقبولِ ، خائفاً أنْ تكونَ في عبادتِهِ آفةٌ يكونُ وبالُها

---

(١) كذا هو عند المحاسبي في « الرعاية » (ص ١٦٦ ، ٢٣٨) ، ورواه هناد في « الزهد » (٨٥١) ، وفيه : (فمن كان له معي شريك . . فهو له كله ، لا حاجة لي فيه) ، وودعت : تركت .

(٢) رواه البخاري (٧٤٥٨) ، ومسلم (١٩٠٤/١٥٠) .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٣٢/٦) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠٣/٩) .

أكثرَ مِنْ ثوابِها فلا تقاومُها ، وهٰكذا كانَ الخائفونَ مِنْ ذوي البصائرِ ، وهٰكذا ينبغي أنْ يكونَ كلُّ ذي بصيرةٍ .

ولذٰلكَ قالَ سفيانُ رحمهُ اللهُ : (لا أعتدُّ بما ظهرَ مِنْ عملي)[١]

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ : (جاورتُ هٰذا البيتَ ستينَ سنةً ، وحججتُ ستينَ حجةً ، فما دخلتُ في شيءٍ مِنْ أعمالِ اللهِ تعالىٰ إلا وحاسبتُ نفسي ، فوجدتُ نصيبَ الشيطانِ أوفىٰ مِنْ نصيبِ اللهِ ، ليتَهُ لا لي ولا عليَّ)[٢]

ومعَ هٰذا فلا ينبغي أنْ يُتركَ العملُ عندَ خوفِ الآفةِ والرياءِ ، فإنَّ ذٰلكَ منتهىٰ بغيةِ الشيطانِ منه ، إذِ المقصودُ ألا يفوتَ الإخلاصُ ، ومهما تُرِكَ العملُ . . فقدْ ضُيّعَ العملُ والإخلاصُ جميعاً .

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الفقراءِ كانَ يخدمُ أبا سعيدٍ الخرَّازَ ويخفُّ في أعمالِهِ ، فتكلَّمَ أبو سعيدٍ يوماً في إخلاصِ الحركاتِ ، فأخذَ الفقيرُ يتفقَّدُ قلبَهُ عندَ كلِّ حركةٍ ويطالبُهُ بالإخلاصِ ، فتعذَّرَ عليهِ قضاءُ الحوائجِ ، واستضرَّ الشيخُ بذٰلكَ ، فسألَهُ عنْ أمرِهِ ، فأخبرَهُ بمطالبتِهِ نفسَهُ بحقيقةِ الإخلاصِ ، وأنَّهُ يعجزُ عنها في أكثرِ أعمالِهِ فيتركُها ، فقالَ أبو سعيدٍ : لا تفعلْ ؛ إنَّ الإخلاصَ لا يقطعُ المعاملةَ ، فواظبْ على العملِ ، واجتهدْ في تحصيلِ الإخلاصِ ، فما قلتُ لكَ : اتركِ العملَ ، وإنَّما قلتُ لكَ : أخلصِ العملَ[٣]

وقدْ قالَ الفضيلُ : (تركُ العملِ بسببِ الخلقِ رياءٌ ، وفعلُهُ لأجلِ الخلقِ شركٌ)[٤] .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/١٥٧) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/٢٩١) ضمن خبرين .

(٣) قوت القلوب (٢/١٦٣) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٥) ، ورواه القشيري في « الرسالة » (ص ٣٦٢) .

الباب الثالث
في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ ، والبرَّ يهدي إلى الجنةِ ، وإنَّ الرجلَ ليصدقُ حتىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ صدِّيقاً ، وإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النارِ ، وإنَّ الرجلَ ليكذبُ حتىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّاباً »[١]

ويكفي في فضيلةِ الصدقِ أنَّ الصدِّيقَ مشتقٌّ منهُ ، واللهُ تعالىٰ وصفَ بهِ الأنبياءَ في معرضِ المدحِ والثناءِ فقالَ : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾

وقالَ : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴾ .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أربعٌ مَنْ كنَّ فيهِ . . فقدْ ربحَ : الصدقُ ، والحياءُ ، وحسنُ الخلُقِ ، والشكرُ)[٢]

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ عاملَ اللهَ بالصدقِ . . استوحشَ مِنَ الناسِ)[٣]

وقالَ أبو عبدِ اللهِ الرمليُّ : رأيتُ منصوراً الدينوريَّ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي ، ورحمَني ، وأعطاني ما لمْ أؤمِّلْ ، فقلتُ لهُ : أحسنُ ما توجَّهَ العبدُ بهِ إلى اللهِ ماذا ؟ قالَ : الصدقُ ، وأقبحُ ما توجَّهَ بهِ الكذبُ[٤]

وقالَ أبو سليمانَ : (اجعلِ الصدقَ مطيَّتَكَ ، والحقَّ سيفَكَ ، واللهَ تعالىٰ غايةَ طِلْبَتِكَ)[٥]

وقالَ رجلٌ لحكيمٍ : ما رأيتُ صادقاً ، فقالَ لهُ : لوْ كنتَ صادقاً . . لعرفتَ الصادقينَ[٦]

وعنْ محمدِ بنِ عليٍّ الكتانيِّ قالَ : (وجدنا دينَ اللهِ تعالىٰ مبنيّاً علىٰ ثلاثةِ أركانٍ : على الحقِّ ، والصدقِ ، والعدلِ ، فالحقُّ على الجوارحِ ، والعدلُ على القلوبِ ، والصدقُ على العقولِ)[٧]

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٠) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤٧/٨) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٨٩) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٠) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٠) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٠) ، والحق على الجوارح بأن يكون استعمالها في الطاعة علىٰ صريح الحق مما يطابق السنة ، والعدل في القلوب بأن تستوي في المعرفة علىٰ سبيل الاعتدال ، والصدق في العقول بأن تصدق في الملاحظ فلا تخالف السريرة العلانية . « إتحاف » (٦٩/١٠) .

وقالَ النوريُّ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ ، قالَ : هُمُ الذينَ ادعَوا محبَّةَ اللهِ تعالىٰ ولمْ يكونوا فيها صادقينَ (١)

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ مَنْ صدقَني في سريرتِهِ . . صدقتُهُ عندَ المخلوقينَ في علانيتِهِ) (٢)

وصاحَ رجلٌ في مجلسِ الشبليِّ ، ورمىٰ بنفسِهِ في دجلةَ ، فقالَ الشبليُّ : إنْ كانَ صادقاً . . فاللهُ تعالىٰ ينجيهِ كما أنجىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ ، وإنْ كانَ كاذباً . . فاللهُ تعالىٰ يغرقُهُ كما أغرقَ فرعونَ (٣)

وقالَ بعضُهُمْ : (أجمعَ الفقهاءُ والعلماءُ علىٰ ثلاثِ خصالٍ أنَّها إذا صحَّتْ . . ففيها النجاةُ ، ولا يتمُّ بعضُها إلا ببعضٍ : الإسلامُ الخالصُ عنِ البدعةِ والهوىٰ ، والصدقُ للهِ تعالىٰ في الأعمالِ ، وطيبُ المطعمِ) (٤)

وقالَ وهْبُ بنُ منبهٍ : (وجدتُ علىٰ حاشيةِ التوراةِ اثنينِ وعشرينَ حرفاً ، كانَ صلحاءُ بني إسرائيلَ يجتمعونَ فيقرؤونَها ويتدراسونَها وهي : لا كنزَ أنفعُ مِنَ العلمِ ، ولا مالَ أربحُ مِنَ الحلمِ ، ولا حسبَ أرفعُ مِنَ الأدبِ ، ولا نسبَ أوضعُ مِنَ الغضبِ ، ولا قرينَ أزينُ مِنَ العقلِ ، ولا رفيقَ أشينُ مِنَ الجهلِ ، ولا شرفَ أعزُّ مِنَ التقوىٰ ، ولا كرمَ أوفىٰ مِنْ تركِ الهوىٰ ، ولا عملَ أفضلُ مِنَ الفكرِ ، ولا حسنةَ أعلىٰ مِنَ الصبرِ ، ولا سيئةَ أخزىٰ مِنَ الكبْرِ ، ولا دواءَ أليَنُ مِنَ الرفقِ ، ولا داءَ أوجعُ مِنَ الخُرْقِ ، ولا رسولَ أعدلُ مِنَ الحقِّ ، ولا دليلَ أنصحُ مِنَ الصدقِ ، ولا فقرَ أذلُّ مِنَ الطمعِ ، ولا غنىٰ أشقىٰ مِنَ الجمعِ ، ولا حياةَ أطيبُ مِنَ الصحةِ ، ولا معيشةَ أهنأُ مِنَ العفَّةِ ، ولا عبادةَ أحسنُ مِنَ الخشوعِ ، ولا زهدَ خيرٌ مِنَ القُنوعِ ، ولا حارسَ أحفظُ مِنَ الصمتِ ، ولا غائبَ أقربُ مِنَ الموتِ) (٥)

وقالَ محمدُ بنُ سعيدٍ المروزيُّ : (إذا طلبتَ اللهَ تعالىٰ بالصدقِ . . أفادَكَ اللهُ تعالىٰ مرآةً بيدِكَ حتىٰ تبصرَ كلَّ شيءٍ مِنْ عجائبِ الدنيا والآخرةِ) (٦)

وقالَ أبو بكرٍ الورَّاقُ : (احفظِ الصدقَ فيما بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، والرفقَ فيما بينَكَ وبينَ خلقِ اللهِ) (٧)

وقيلَ لذي النونِ : هلْ للعبدِ إلىٰ صلاحِ أمورِهِ سبيلٌ ؟ فقالَ (٨) : [من الخفيف]

قَدْ بَقِينا مُذَبْذَبِينَ حَيارَىٰ ... نَطْلُبُ الصِّدْقَ ما إِلَيْهِ سَبِيلُ

فَدَعاوَى الْهَوَىٰ تَخِفُّ عَلَيْنا ... وَخِلافُ الْهَوَىٰ عَلَيْنا ثَقِيلُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٠) ، وفي (أ ، ب ، ج) : (الثوري) بدل (النوري) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩١) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٦٨) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩١) ، وفيه : (فرمىٰ به في دجلة) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٢) ، والقول لأبي القاسم بن الختلي الفقيه .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٤) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤٢/٢٦) ، والخُرْق : قلة العقل ، وسوء التصرف في الأمور ، والقنوع : ضدٌّ ، والمراد هنا الرضا ، وعند الخركوشي : (أوضح) بدل (أنصح) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٦) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٧) .
(٨) البيتان للسهروردي في « ديوانه » (ص ٥٤) .

وقيل لسهلٍ : ما أصلُ هٰذا الأمرِ الذي نحنُ عليهِ ؟ فقالَ : الصدقُ ، والسخاءُ ، والشجاعةُ ، فقيلَ : زدْنا ، فقالَ : التقىٰ ، والحياءُ ، وطيبُ الغذاءِ [1]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سُئِلَ عنِ الكمالِ ، فقالَ : « قولُ الحقِّ ، والعملُ بالصدقِ » [2]

وعنِ الجنيدِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ ، قالَ : يسألُ الصادقينَ عندَ أنفسِهِمْ عنْ صدقِهِمْ عندَ ربِّهِمْ ، وهٰذا أمرٌ علىٰ خطرٍ [3]

* * *

---

(1) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٩) .

(2) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٩) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٠/٧٠) .

(3) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٩) .

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلمْ : أنَّ لفظَ الصدقِ يُستعملُ في ستةِ معانٍ : صدقٌ في القولِ ، وصدقٌ في النيةِ والإرادةِ ، وصدقٌ في العزمِ ، وصدقٌ في الوفاءِ بالعزمِ ، وصدقٌ في العملِ ، وصدقٌ في تحقيقِ مقاماتِ الدينِ كلِّها ، فمَنِ اتصفَ بالصدقِ في جميعِ ذٰلكَ . . فهوَ صدِّيقٌ ؛ لأنَّهُ مبالغةٌ في الصدقِ ، ثمَّ همْ أيضاً علىٰ درجاتٍ ، ومَنْ كانَ لهُ حظٌّ في الصدقِ في شيءٍ مِنَ الجملةِ . . فهوَ صادقٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فيهِ صدقُهُ .

❁ ❁ ❁

الصدقُ الأوَّلُ : صدقُ اللسانِ :

وذٰلكَ لا يكونُ إلا في الإخبارِ ، أوْ فيما يتضمَّنُ الإخبارَ وينبِّهُ عليهِ[1] ، والخبرُ إمَّا أنْ يتعلَّقَ بالماضي أوْ بالمستقبلِ ، وفيهِ يدخلُ الوفاءُ بالوعدِ والخلفُ فيهِ ، وحقٌّ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يحفظَ ألفاظَهُ ، فلا يتكلَّمَ إلا بالصدقِ ، وهٰذا هوَ أشهرُ أنواعِ الصدقِ وأظهرُها ، فمَنْ حفظَ لسانَهُ عنِ الإخبارِ عنِ الأشياءِ علىٰ خلافِ ما هيَ عليهِ . . فهوَ صادقٌ ، ولٰكنْ لهٰذا الصدقِ كمالانِ :

أحدُهُما : **الاحترازُ عنِ المعاريضِ** : فقدْ قيلَ : (في المعاريضِ مندوحةٌ عنِ الكذبِ)[2] ، وذٰلكَ لأنَّها تقومُ مقامَ الكذبِ ، إذِ المحذورُ مِنَ الكذبِ تفهيمُ الشيءِ علىٰ خلافِ ما هوَ عليهِ في نفسِهِ ، إلا أنَّ ذٰلكَ ممَّا تمسُّ إليهِ الحاجةُ ، وتقتضيهِ المصلحةُ في بعضِ الأحوالِ ، وفي تأديبِ الصبيانِ والنسوانِ ومَنْ يجري مجراهُمْ ، وفي الحذرِ عنِ الظلمةِ ، وفي قتالِ الأعداءِ والاحترازِ عنِ اطلاعِهِمْ علىٰ أسرارِ الملكِ ، فمَنِ اضطرَّ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذٰلكَ . . فصدقُهُ فيهِ أنْ يكونَ نطقُهُ فيهِ للهِ تعالىٰ فيما يأمرُهُ الحقُّ بهِ ويقتضيهِ الدينُ ، فإذا نطقَ بهِ . . فهوَ صادقٌ وإنْ كانَ كلامُهُ مفهماً غيرَ ما هوَ عليهِ ؛ لأنَّ الصدقَ ما أُريدَ لذاتِهِ ، بلْ للدلالةِ على الحقِّ والدعاءِ إليهِ ، فلا ينظرُ إلىٰ صورتِهِ بلْ إلىٰ معناهُ .

نعمْ ؛ في مثلِ هٰذا الموضعِ ينبغي أنْ يعدلَ إلى المعاريضِ ما وجدَ إليهِ سبيلاً ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا توجَّهَ إلىٰ سفرٍ . . ورَّىٰ بغيرِهِ[3] ، وذٰلكَ كي لا ينتهيَ الخبرُ إلى الأعداءِ فيُقصدَ ، وليسَ هٰذا مِنَ الكذبِ في شيءٍ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ بكذَّابٍ مَنْ أصلحَ بينَ اثنينِ ، فقالَ خيراً أوْ نمىٰ خيراً »[4]

ورخَّصَ في النطقِ علىٰ وَفْقِ المصلحةِ في ثلاثةِ مواضعَ : مَنْ أصلحَ بينَ اثنينِ ، ومَنْ كانَ لهُ زوجتانِ ، ومَنْ كانَ في مصالحِ الحربِ[5]

---

(١) أي : بالعرض لا بالقصد الأول ، فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والأمر والدعاء ، وذٰلك أن قول القائل : أزيدٌ في الدار . . في ضمنه إخبار بكونه جاهلاً بحال زيد ، وكذٰلك إذا قال : واسني . . في ضمنه أنه محتاج إلى المواساة ، وإذا قال : لا تؤذني . . في ضمنه أنه يؤذيه . « إتحاف » (٧٢/١٠) .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٩٩/١٠) عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً .

(٣) رواه البخاري (٢٩٤٧) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

(٤) رواه البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) .

(٥) روىٰ ذٰلك أبو داوود (٤٩٢١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٠٧٥) .

والصدقُ ها هنا يتحوَّلُ إلى النيةِ ، فلا يُراعىٰ فيهِ إلا صدقُ النيةِ وإرادةُ الخيرِ ، فمهما صحَّ قصدُهُ وصدقَتْ نيَّتُهُ وتجرَّدَتْ للخيرِ إرادتُهُ . . كانَ صادقاً وصدِّيقاً كيفَما كانَ لفظُهُ .

ثمَّ التعريضُ فيهِ أولىٰ ، وطريقُهُ ما حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ كانَ يطلبُهُ بعضُ الظلمةِ وهوَ في دارِهِ ، فقالَ لزوجتِهِ : خُطِّي بإصبعِكِ دائرةً ، وضعي الإصبعَ عليها ، وقولي : ليسَ هوَ ها هنا[1] . واحترزَ بذلكَ عنِ الكذبِ ، ودفعَ الظالمَ عنْ نفسِهِ ، فكانَ قولُهُ صدقاً ، وأفهمَ الظالمَ أنَّهُ ليسَ في الدارِ .

فالكمالُ الأوَّلُ في اللفظِ : أنْ يحترزَ عنْ صريحِ اللفظِ وعنِ المعاريضِ أيضاً إلا عندَ الضرورةِ .

والكمالُ الثاني : أنْ يراعيَ معنى الصدقِ في ألفاظِهِ التي يناجي بها ربَّهُ عزَّ وجلَّ : كقولِهِ : (وجهتُ وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ) ، فإنَّ قلبَهُ إنْ كانَ منصرفاً عنِ اللهِ تعالىٰ ، مشغولاً بأمانيِّ الدنيا وشهواتِها . . فهوَ كاذبٌ ، وكقولِهِ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقولِهِ : أنا عبدُ اللهِ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يتصفْ بحقيقةِ العبوديةِ ، وكانَ لهُ مطلبٌ سوى اللهِ . . لمْ يكنْ كلامُهُ صدقاً ، ولوْ طُولِبَ يومَ القيامةِ بالصدقِ في قولِهِ : أنا عبدُ اللهِ . . لعجزَ عنْ تحقيقِهِ ، فإنَّهُ إنْ كانَ عبداً لنفسِهِ أوْ عبداً لدنيا ، أوْ عبداً لشهواتِهِ . . لمْ يكنْ صادقاً في قولِهِ .

وكلُّ ما تقيَّدَ العبدُ بهِ فهوَ عبدٌ لهُ ، كما قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا عبيدَ الدنيا)[2] ، وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعسَ عبدُ الدينارِ ، تعسَ عبدُ الدرهمِ ، وعبدُ الحلَّةِ ، وعبدُ الخميصةِ »[3] ، سمَّىٰ كلَّ مَنْ تقيَّدَ قلبُهُ بشيءٍ عبداً لهُ ، وإنَّما العبدُ الحقُّ للهِ عزَّ وجلَّ مَنْ عتقَ أوَّلاً عنْ غيرِ اللهِ تعالىٰ ، فصارَ حرّاً مطلقاً ، فإذا تقدمَتْ هٰذهِ الحريَّةُ . . صارَ القلبُ فارغاً ، فحلَّتْ فيهِ العبوديةُ للهِ ، فتشغلُهُ باللهِ وبمحبتِهِ ، وتقيِّدُ باطنَهُ وظاهرَهُ بطاعتِهِ ، فلا يكونُ لهُ مرادٌ إلا اللهَ تعالىٰ .

ثمَّ قدْ يجاوزُ هٰذا إلىٰ مقامٍ آخرَ أسنىٰ منهُ يُسمَّى الحريةَ ، وهوَ أنْ يعتقَ أيضاً عنْ إرادتِهِ للهِ مِنْ حيثُ هوَ ، بلْ يقنعُ بما يريدُ اللهُ تعالىٰ لهُ مِنْ تقريبٍ أوْ إبعادٍ ، فتفنىٰ إرادتُهُ في إرادةِ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذا عبدٌ عتقَ عنْ غيرِ اللهِ فصارَ حرّاً ، ثمَّ عادَ وعتقَ عنْ نفسِهِ فصارَ حرّاً ، وصارَ مفقوداً لنفسِهِ موجوداً لسيِّدِهِ ومولاهُ ، إنْ حرَّكَهُ . . تحرَّكَ ، وإنْ سكَّنَهُ . . سكنَ ، وإنِ ابتلاهُ . . رضيَ ، لمْ يبقَ فيهِ متسعٌ لطلبٍ والتماسٍ واعتراضٍ ، بلْ هوَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ كالميتِ بينَ يدي الغاسلِ ، وهٰذا منتهى الصدقِ في العبوديةِ للهِ تعالىٰ ، فالعبدُ الحقُّ هوَ الذي وجودُهُ لمولاهُ لا لنفسِهِ ، وهٰذهِ درجةُ الصدِّيقينَ ، وأمَّا الحريَّةُ عنْ غيرِ اللهِ . . فدرجاتُ الصادقينَ ، وبعدَها تتحقَّقُ العبوديةُ للهِ تعالىٰ ، وما قبلَ هٰذا فلا يستحقُّ صاحبُهُ أنْ يُسمَّىٰ صادقاً ولا صدِّيقاً ، فهٰذا هوَ معنى الصدقِ في القولِ .

❁ ❁ ❁

الصدقُ الثاني : في النيةِ والإرادةِ :

ويرجعُ ذٰلكَ إلى الإخلاصِ ، وهوَ ألا يكونَ لهُ باعثٌ في الحركاتِ والسكناتِ إلا اللهَ تعالىٰ ، فإنْ مازجَهُ شوبٌ مِنْ حظوظِ النفسِ . . بطلَ صدقُ النيةِ ، وصاحبُهُ يجوزُ أنْ يُسمَّىٰ كاذباً ؛ كما روينا في فضيلةِ الإخلاصِ مِنْ حديثِ الثلاثةِ ،

---

(١) أورده النووي في « الأذكار » (ص ٦١٣) عن الشعبي .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦٠/٤٧) (٦٤/٦٨) ضمن خبر طويل .

(٣) رواه البخاري (٦٤٣٥) .

حينَ يُسألُ العالمُ : « ما عملتَ فيما علمتَ ؟ فقالَ : فعلتُ كذا وكذا ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ عالمٌ »[1] ، فإنَّهُ لمْ يكذبْهُ ولمْ يقلْ لهُ : لمْ تعملْ ، ولـٰكنْ كذَّبهُ في إرادتِهِ ونيتِهِ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (الصدقُ صحةُ التوجُّهِ في القصدِ)[2]

وكذٰلكَ قولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ، وقدْ قالوا : إنَّكَ لرسولُ اللهِ ، وهـٰذا صدقٌ ، ولـٰكنْ كذَّبَهُمْ لا مِنْ حيثُ نطقُ اللسانِ ، بلْ مِنْ حيثُ ضميرُ القلبِ ، وكانَ التكذيبُ يتطرَّقُ إلى الخبرِ ، وهـٰذا القولُ يتضمَّنُ إخباراً بقرينةِ الحالِ ؛ إذْ صاحبُهُ يظهرُ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ يعتقدُ ما يقولُ ، فكُذِّبَ في دلالتِهِ بقرينةِ الحالِ علىٰ ما في قلبِهِ ؛ فإنَّهُ كذبَ في ذٰلكَ وإنْ لمْ يكذبْ فيما يلفظُ بهِ ، فيرجعُ أحدُ معاني الصدقِ إلىٰ خلوصِ النيةِ ، وهوَ الإخلاصُ ، فكلُّ صادقٍ فلا بدَّ وأنْ يكونَ مخلصاً .

❁ ❁ ❁

الصدقُ الثالثُ : صدقُ العزمِ :

فإنَّ الإنسانَ قدْ يقدِّمُ العزمَ على العملِ ، فيقولُ في نفسِهِ : إنْ رزقَني اللهُ مالاً . . تصدقتُ بجميعِهِ أوْ بشطرِهِ ، أوْ إنْ لقيتُ عدواً في سبيلِ اللهِ تعالىٰ . . قاتلتُ ولمْ أبالِ وإنْ قُتلتُ ، وإنْ أعطاني اللهُ تعالىٰ ولايةً . . عدلتُ فيها ولمْ أعصِ اللهَ تعالىٰ بظلمٍ وميلٍ إلىٰ خلقٍ .

فهـٰذهِ العزيمةُ قدْ يصادفُها مِنْ نفسِهِ ، وهيَ عزيمةٌ جازمةٌ صادقةٌ ، وقدْ يكونُ في عزمِهِ نوعُ ميلٍ وتردُّدٍ وضعفٍ يضادُّ الصدقَ في العزيمةِ ، فكانَ الصدقُ ها هنا عبارةً عنِ التمامِ والقوَّةِ ؛ كما يُقالُ : لفلانٍ شهوةٌ صادقةٌ ، ويُقالُ : هـٰذا المريضُ شهوتُهُ كاذبةٌ ؛ مهما لمْ تكنْ شهوتُهُ عنْ سببٍ ثابتٍ قويٍّ أوْ كانَتْ ضعيفةً ، فقدْ يُطلقُ الصدقُ ويُرادُ بهِ هـٰذا المعنىٰ ، فالصادقُ والصدِّيقُ هوَ الذي تُصادَفُ عزيمتُهُ في الخيراتِ كلِّها قويَّةً تامَّةً ، ليسَ فيها ميلٌ ولا ضعفٌ ولا تردُّدٌ ، بلْ تسخو نفسُهُ أبداً بالعزمِ المصممِ الجازمِ على الخيراتِ .

وهوَ كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أُقدَّمَ فتُضربَ عنقي في غيرِ حدٍّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتأمَّرَ علىٰ قومٍ فيهِمْ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ)[3] ، فإنَّهُ قدْ وجدَ مِنْ نفسِهِ العزمَ الجازمَ والمحبَّةَ الصادقةَ بأنَّهُ لا يتأمَّرُ معَ وجودِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، وأكَّدَ ذٰلكَ بما ذكرَهُ مِنَ القتلِ .

ومراتبُ الصدِّيقينَ في العزائمِ تختلفُ ، فقدْ يصادفُ العزمَ ولا ينتهي بهِ إلىٰ أنْ يرضىٰ بالقتلِ فيهِ ، ولـٰكنْ إذا خُلِّيَ ورأيَهُ . . لمْ يقدمْ ، ولوْ ذُكِرَ لهُ حديثُ القتلِ لانتقضَ عزمُهُ[4] ، بلْ في الصادقينَ والمؤمنينَ مَنْ لوْ خُيِّرَ بينَ أنْ يُقتلَ هوَ أوْ أبو بكرٍ . . كانَتْ حياتُهُ أحبَّ إليهِ مِنْ حياةِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) ، والترمذي (٢٣٨٢) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩١) ، وفي (ج ، د) : (صحة التوحيد) بدل (صحة التوجه) .

(٣) رواه البخاري (٦٨٣٠) ضمن خبر طويل .

(٤) وفي (ج ، ص) : (لم ينقض) بدل (لانتقض) ، **وعليه يكون المعنىٰ** : ذكر حديث القتل لا ينقضُ عزمه ، ولكن لو طولب بالقتل . . لاحتاج إلىٰ صدق آخر ، هو صدق الوفاء بالعزم .

الصدقُ الرابعُ : في الوفاءِ بالعزمِ :

فإنَّ النفسَ قدْ تسخو بالعزمِ في الحالِ ، إذْ لا مشقَّةَ في الوعدِ والعزمِ ، والمؤنةُ فيهِ خفيفةٌ ، فإذا حقَّتِ الحقائقُ وحصلَ التمكُّنُ ، وهاجَتِ الشهواتُ . . انحلَّتِ العزيمةُ ، وغلبَتِ الشهواتُ ، ولمْ يتفقِ الوفاءُ بالعزمِ ، وهـٰذا يضادُّ الصدقَ فيهِ .

ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ، فقدْ رُوِيَ عنْ أنسٍ : أنَّ عمَّهُ أنسَ بنَ النضرِ لمْ يشهدْ بدراً معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فشقَّ ذٰلكَ علىٰ قلبِهِ ، وقالَ : أوَّلُ مشهدٍ شهدَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غبتُ عنهُ !! أما واللهِ لئنْ أراني اللهُ مشهداً معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . ليرينَّ اللهُ ما أصنعُ ، فشهدَ أحداً من العامِ القابلِ ، فاستقبلَهُ سعدُ بنُ معاذٍ ، فقالَ : يا أبا عمرو ؛ إلىٰ أينَ ؟[1] فقالَ : واهاً لريحِ الجنةِ !! إنِّي أجدُها دونَ أحدٍ ، فقاتلَ حتىٰ قُتِلَ ، فوُجِدَ في جسدِهِ بضعٌ وثمانونَ ، ما بينَ رميةٍ وضربةٍ وطعنةٍ ، فقالَتْ أختُهُ بنتُ النضرِ[2] : ما عرفتُ أخي إلا ببنانِهِ ، ونزلَتْ هـٰذهِ الآيةُ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[3]

ووقفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ مصعبِ بنِ عميرٍ وقدْ سقطَ علىٰ وجهِهِ يومَ أحدٍ شهيداً ، وكانَ صاحبَ لواءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾[4]

وقالَ فضالةُ بنُ عبيدٍ : سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « الشهداءُ أربعةٌ : رجلٌ مؤمنٌ جيِّدُ الإيمانِ ، لقيَ العدوَّ فصدقَ اللهَ حتىٰ قُتِلَ ، فذٰلكَ الذي يرفعُ الناسُ إليهِ أعينَهُمْ يومَ القيامةِ هـٰكذا ـ ورفعَ رأسَهُ حتَّىٰ وقعَتْ قلنسوتُهُ ، قالَ الراوي : فلا أدري قلنسوةَ عمرَ أوْ قلنسوةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ ورجلٌ جيِّدُ الإيمانِ إذا لقيَ العدوَّ . . فكأنَّما يُضربُ وجهُهُ بشوكِ الطلحِ ، أتاهُ سهمٌ عائرٌ فقتلَهُ ، فهوَ في الدرجةِ الثانيةِ ، ورجلٌ مؤمنٌ خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، لقيَ العدوَّ فصدقَ اللهَ تعالىٰ حتىٰ قُتِلَ ، فذٰلكَ في الدرجةِ الثالثةِ ، ورجلٌ مؤمنٌ أسرفَ علىٰ نفسِهِ ، لقيَ العدوَّ فصدقَ اللهَ حتىٰ قُتِلَ ، فذاكَ في الدرجةِ الرابعةِ »[5]

وقالَ مجاهدٌ : (رجلانِ خرجا علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ قعودٍ ، فقالا : إنْ رزقَنا اللهُ تعالىٰ مالاً . . لنصَّدَّقَنَّ فرُزقوا ، فبخلوا بهِ ، فنزلَتْ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[6]

وقالَ بعضُهُمْ : إنَّما هوَ شيءٌ نووهُ في أنفسِهِمْ لمْ يتكلَّموا بهِ[7] ، فقالَ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ ، فجعلَ العزمَ عهداً ، وجعلَ الخلْفَ فيهِ كذباً والوفاءَ بهِ صدقاً .

(١) السائل هو أنس بن النضر رضي الله عنه ، وأبو عمرو هي كنية سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وسياق المصنف موهم أن السائل هو سعد ، وأنس لم ينتظر جواب سعد ، بل سرد كلامه .
(٢) هي الرُّبَيِّع بنت النضر رضي الله عنها .
(٣) رواه البخاري (٢٨٠٦) ، ومسلم (١٩٠٣) ، والترمذي (٣٢٠٠) واللفظ له .
(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢٤٨/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٧/١) عن عبيد بن عمير مرسلاً .
(٥) رواه الترمذي (١٦٤٤) ، **وسهم عائر** : لا يعلم من أين هو ولا من رماه .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥١٩) ، والطبري في « تفسيره » (٢٣٩/١٠/٦) .
(٧) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٤٢/١٠/٦) عن سعيد بن ثابت .

وهٰذا الصدقُ أشدُّ مِنَ الصدقِ الثالثِ ؛ فإنَّ النفسَ قدْ تسخو بالعزمِ ثمَّ تكيعُ[1] عندَ الوفاءِ لشدَّتِهِ عليها ، ولهيجانِ الشهواتِ عندَ التمكُّنِ وحصولِ الأسبابِ ، ولذٰلكَ استثنىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : (لأنْ أُقدَّمَ فتُضربَ عنقي أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتأمَّرَ علىٰ قومٍ فيهِمْ أبو بكرٍ ، اللهمَّ إلا أنْ تسوّلَ لي نفسي عندَ القتلِ شيئاً لا أجدُهُ الآنَ ؛ لأنّي لا آمنُ أنْ يثقلَ عليها ذٰلكَ فتتغيَّرَ عنْ عزمِها)[2] ، أشارَ بذٰلكَ إلىٰ شدَّةِ الوفاءِ بالعزمِ .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : رأيتُ في المنامِ كأنَّ ملكينِ نزلا مِنَ السماءِ فقالا لي : ما الصدقُ ؟ قلتُ : الوفاءُ بالعهدِ ، فقالا لي : صدقتَ ، وعرجا إلى السماءِ[3]

❀ ❀ ❀

الصدقُ الخامسُ : في الأعمالِ :

وهوَ أنْ يجتهدَ حتىٰ لا تدلَّ أعمالُهُ الظاهرةُ علىٰ أمرٍ في باطنِهِ لا يتصفُ هوَ بهِ ، لا بأنْ يتركَ الأعمالَ ، ولٰكنْ بأنْ يستجرَّ الباطنَ إلىٰ تصديقِ الظاهرِ ، وهٰذا يخالفُ ما ذكرناهُ مِنْ تركِ الرياءِ ؛ لأنَّ المرائيَ هوَ الذي يقصدُ ذٰلكَ لأجلِ الخلقِ ، وربَّ واقفٍ علىٰ هيئةِ الخشوعِ في صلاتِهِ ليسَ يقصدُ بهِ مشاهدةَ غيرِهِ ، ولٰكنْ قلبُهُ غافلٌ عنِ الصلاةِ ، فمَنْ ينظرُ إليهِ يراهُ قائماً بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بالباطنِ قائمٌ في السوقِ بينَ يدي شهوةٍ مِنْ شهواتِهِ ، فهٰذهِ أعمالٌ تعربُ بلسانِ الحالِ عنِ الباطنِ إعراباً هوَ فيهِ كاذبٌ ، وهوَ مطالبٌ بالصدقِ في الأعمالِ .

وكذٰلكَ قدْ يمشي الرجلُ علىٰ هيئةِ السكونِ والوقارِ وليسَ باطنُهُ موصوفاً بذٰلكَ الوقارِ ، فهٰذا غيرُ صادقٍ في عملِهِ وإنْ لمْ يكنْ ملتفتاً إلى الخلقِ ولا مرائياً إيَّاهُمْ ، ولا ينجو مِنْ هٰذا إلا باستواءِ السريرةِ والعلانيةِ ؛ بأنْ يكونَ باطنُهُ مثلَ ظاهرِهِ أوْ خيراً مِنْ ظاهرِهِ .

ومِنْ خيفةِ ذٰلكَ اختارَ بعضُهُمْ تشويشَ الظاهرِ ، ولبسَ ثيابِ الأشرارِ ؛ كي لا يُظنَّ بهِ الخيرُ بسببِ ظاهرِهِ ، فيكونَ كاذباً في دلالةِ الظاهرِ على الباطنِ .

فإذاً ؛ مخالفةُ الظاهرِ للباطنِ إنْ كانَتْ عنْ قصدٍ . . سُمِّيَتْ رياءً ، ويفوتُ بها الإخلاصُ ، وإنْ كانَ عنْ غيرِ قصدٍ . . فيفوتُ بها الصدقُ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ سريرتي خيراً مِنْ علانيتي ، واجعلْ علانيتي صالحةً »[4]

وقالَ زُبيدُ بنُ الحارثِ : (إذا استوَتْ سريرةُ العبدِ وعلانيتُهُ . . فذٰلكَ النَّصَفُ ، وإنْ كانَتْ سريرتُهُ أفضلَ مِنْ علانيتِهِ . . فذٰلكَ الفضلُ ، وإنْ كانَتْ علانيتُهُ أفضلَ مِنْ سريرتِهِ . . فذٰلكَ الجورُ)[5]

وأنشدوا[6] : [من الطويل]

إذا السِّرُّ وَ الإِعْلانُ في الْمُؤْمِنِ اسْتَوىٰ   فَقَدْ عَزَّ فِي الدَّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ الثَّنا

---

(١) تكيع : تجبن وتتلكأ .

(٢) رواه البخاري (٦٨٣٠) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٣) .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٨٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٤٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٣/١) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٥٨٤) ، ووقع في النسخ : (زيد) بدل (زبيد) .

(٦) انظر « الكشكول » (٣٨٣/٢) .

فَــإِنْ خــالَـفَ الإِعْــلانُ سِـرّاً فَـمَـا لَـهُ ... عَلَىٰ سَعْيِهِ فَضْلٌ سِوَى الْكَدِّ وَالْعَنا

كَمَا خالِصُ الدِّينارِ فِي السُّوقِ نافِقٌ ... وَمَغْشُوشُهُ الْمَرْدُودُ لا يَقْتَضِي الْمُنَىٰ

وقالَ عقبةُ بنُ عبدِ الغافرِ : (إذا وافقَتْ سريرةُ المؤمنِ علانيتَهُ . . باهى اللهُ بهِ ملائكتَهُ ، يقولُ : هٰذا عبدي حقّاً)[١] .

وقالَ معاويةُ بنُ قرّةَ : (مَنْ يدلُّني علىٰ بكّاءٍ بالليلِ بسّامٍ بالنهارِ ؟)[٢]

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : (كانَ الحسنُ إذا أمرَ بشيءٍ . . كانَ مِنْ أعملِ الناسِ بهِ ، وإذا نهىٰ عنْ شيءٍ . . كانَ مِنْ أتركِ الناسِ لهُ ، ولمْ أرَ أحداً قطُّ أشبهَ سريرةً بعلانيةٍ منهُ)[٣]

وكانَ أبو عبدِ الرحمٰنِ الزاهدُ يقولُ : (إلٰهي ؛ عاملتُ الناسَ فيما بيني وبينَهُمْ بالأمانةِ ، وعاملتُكَ فيما بيني وبينَكَ بالخيانةِ) ويبكي .

وقالَ أبو يعقوبَ النهرجوريُّ : (الصدقُ موافقةُ الحقِّ في السرِّ والعلانيةِ)[٤]

فإذاً ؛ مساواةُ السريرةِ للعلانيةِ أحدُ أنواعِ الصدقِ .

❁ ❁ ❁

الصدقُ السادسُ ـ وهوَ أعلى الدرجاتِ وأعزُّها ـ : الصدقُ في مقاماتِ الدينِ :

كالصدقِ في الخوفِ ، والرجاءِ ، والتعظيمِ ، والزهدِ ، والرضا ، والحبِّ ، والتوكُّلِ ، وسائرِ هٰذهِ الأمورِ ، فإنَّ هٰذهِ الأمورَ لها مبادٍ ينطلقُ الاسمُ بظهورِها ، ثمَّ لها غاياتٌ وحقائقُ ، والصادقُ المحقِّقُ مَنْ نالَ حقيقتَها .

وإذا غلبَ الشيءُ وتمَّتْ حقيقتُهُ . . سُمِّيَ صاحبُهُ صادقاً فيهِ ، كما يُقالُ : فلانٌ صدقَ القتالَ[٥] ، ويقالُ : هٰذا هوَ الخوفُ الصادقُ ، وهٰذهِ هيَ الشهوةُ الصادقةُ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾

وسُئِلَ أبو ذرٍّ عنِ الإيمانِ ، فقرأَ هٰذهِ الآيةَ ، فقيلَ لهُ : سألناكَ عنِ الإيمانِ !! فقالَ : سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإيمانِ ، فقرأَ هٰذهِ الآيةَ[٦]

ولنضربْ للخوفِ مثلاً ، فما مِنْ عبدٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ إلا وهوَ خائفٌ مِنَ اللهِ خوفاً ينطلقُ عليهِ الاسمُ ، ولٰكنَّهُ خوفٌ غيرُ صادقٍ ؛ أيْ : غيرُ بالغٍ درجةَ الحقيقةِ ، أما تراهُ إذا خافَ سلطاناً أوْ قاطعَ طريقٍ في سفرِهِ كيفَ يصفرُّ لونُهُ ،

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٦١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٥١) ، ووقع في النسخ : (عطية) بدل (عقبة) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٩٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٨٣) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٤٧) عن خالد بن صفوان ، وهو عند ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (ص ٩١) من وصية الحسن نفسه .

(٤) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٨٦) .

(٥) يقال : فلان صدقَ القتالَ ؛ إذا بذل الجد ، وكذَّب عنه ؛ إذا جبن .

(٦) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٤٠٨ ـ ٤٠٩) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (١/٤١٠) (أخرجه ابن أبي حاتم وصححه) ، وساق له روايات عن غير أبي ذر رضي الله عنه .

وترتعدُ فرائصُهُ ، ويتنغَّصُ عليهِ عيشُهُ ، ويتعذَّرُ عليهِ أكلُهُ ونومُهُ ، وينقسمُ عليهِ فكرُهُ حتَّىٰ لا ينتفعُ بهِ أهلُهُ وولدُهُ ، وقدْ ينزعجُ عنِ الوطنِ فيستبدلُ بالأنسِ الوحشةَ ، وبالراحةِ التعبَ والمشقَّةَ والتعرُّضَ للأخطارِ ، كلُّ ذٰلكَ خوفاً مِنْ دَرْكِ المحذورِ ، ثمَّ إنَّهُ يخافُ النارَ ، ولا يظهرُ عليهِ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ عندَ جريانِ معصيةٍ عليهِ ، ولذٰلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمْ أرَ مثلَ النارِ نامَ هاربُها ، ولا مثلَ الجنةِ نامَ طالبُها »[1]

فالتحقيقُ في هٰذهِ الأمورِ عزيزٌ جداً ، ولا غايةَ لهٰذهِ المقاماتِ حتىٰ يُنالَ تمامُها ، ولٰكنْ لكلِّ عبدٍ منهُ حظٌّ بحسَبِ حالِهِ ؛ إمَّا ضعيفٌ وإمَّا قويٌّ ، فإذا قويَ . . سُمِّيَ صادقاً فيهِ .

فمعرفةُ اللهِ تعالىٰ وتعظيمُهُ والخوفُ منهُ لا نهايةَ لهُ ، ولذٰلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لجبريلَ : « أحبُّ أنْ أراكَ في صورتِكَ التي هيَ صورتُكَ » ، فقالَ : لا تطيقُ ذٰلكَ ، قالَ : « بلىٰ ، أرني » ، فواعدَهُ البقيعَ في ليلةٍ مقمرةٍ ، فأتاهُ ، فنظرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فإذا هوَ بهِ قدْ سدَّ الأفقَ ـ يعني : جوانبَ السماءِ ـ فوقعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مغشيّاً عليهِ ، فأفاقَ وقدْ عادَ جبريلُ لصورتِهِ الأولىٰ ، فقال النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ظننتُ أنَّ أحداً مِنْ خلقِ اللهِ هٰكذا » ، قالَ : كيفَ لوْ رأيتَ إسرافيلَ ؟ إنَّ العرشَ لعلىٰ كاهلِهِ ، وإنَّ رجليهِ قدْ مرقتا تخومَ الأرضينَ السفلىٰ ، وإنَّهُ ليتصاغرُ مِنْ عظمةِ اللهِ تعالىٰ حتىٰ يصيرَ كالوَصَعِ ؛ يعني : كالعصفورِ الصغيرِ[2]

فانظرْ ما الذي يغشاهُ مِنَ العظمةِ والهيبةِ حتىٰ يرجعَ إلىٰ ذٰلكَ الحدِّ ، وسائرُ الملائكةِ ليسوا كذٰلكَ ؛ لتفاوتِهِمْ في المعرفةِ ، فهٰذا هوَ الصدقُ في التعظيمِ .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررتُ ليلةَ أُسريَ بي وجبريلَ بالملأ الأعلىٰ كالحِلْسِ البالي مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ »[3] ؛ يعني الكساءَ الذي يُلقىٰ علىٰ ظهر البعيرِ .

وكذٰلكَ الصحابةُ كانوا خائفينَ ، وما كانوا بلغوا خوفَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولذٰلكَ قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : (لنْ يبلغَ الرجلُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ يرى الناسَ كلَّهُمْ حمقىٰ في دينِ اللهِ)[4]

وقالَ مطرِّفٌ : (ما مِنَ الناسِ أحدٌ إلا وهوَ أحمقُ فيما بينَهُ وبينَ ربِّهِ ، إلا أنَّ بعضَ الحمقِ أهونُ مِنْ بعضٍ)[5]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يبلغُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتىٰ ينظرَ إلى الناسِ كالأباعرِ في جنبِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ يرجعَ إلىٰ نفسِهِ فيجدَها أحقرَ حقيرٍ »[6]

فالصادقُ إذاً في جميعِ هٰذهِ المقاماتِ عزيزٌ ، ثمَّ درجاتُ الصدقِ لا نهايةَ لها ، وقدْ يكونُ للعبدِ صدقٌ في بعضِ الأمورِ دونَ بعضٍ ، فإنْ كانَ صادقاً في الجميعِ . . فهوَ الصدِّيقُ حقّاً ، قالَ سعدُ بنُ معاذٍ : (ثلاثةٌ أنا فيهنَّ قويٌّ ، وفيما

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٠١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٨/٨) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٢١) عن ابن شهاب مرسلاً ، والثعلبي في « تفسيره » (١٤٢/١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم رأىٰ جبريل عليه السلام علىٰ صورته مرتين ، وهو ما رواه البخاري (٤٨٥٥) ، ومسلم (١٧٧) .

(٣) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٦٣٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٦٧٦) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٠٦/٦) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٨) ، وابن المبارك في « الزهد » (١٤٩٧) .

(٦) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٧٤) مرفوعاً ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٢/٥) من طريقه عن خالد بن معدان ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٦) عن أبي الدرداء رضي الله عنه : (لا تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الناس في جنب الله ، ثم ترجع إلىٰ نفسك فتكون أشد لها مقتاً) .

سواهُنَّ ضعيفٌ : ما صليتُ صلاةً قطُّ منذُ أسلمتُ فحدثتُ نفسي حتَّىٰ أفرغَ منها ، ولا شيَّعتُ جنازةً فحدثتُ نفسي بغيرِ ما هيَ قائلةٌ وما هوَ مقولٌ لها حتىٰ يُفرغَ مِنْ دفنِها ، وما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ قولاً إلا علمتُ أنَّهُ حقٌّ) ، فقالَ ابنُ المسيَّبِ : (ما ظننتُ أنَّ هـٰذهِ الخصالَ تجتمعُ إلا في النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ)[(١)]

فهـٰذا صدقٌ في هـٰذهِ الأمورِ ، وكمْ مِنْ جِلَّةِ الصحابةِ قدْ أدوُا الصلاةَ واتبعوا الجنائزَ ولمْ يبلغوا هـٰذا المبلغَ !!

فهـٰذهِ هيَ درجاتُ الصدقِ ومعانيهِ ، والكلماتُ المأثورةُ عنِ المشايخِ في حقيقةِ الصدقِ في الأغلبِ لا تتعرَّضُ إلا لآحادِ هـٰذهِ المعاني .

نعمْ ؛ قدْ قالَ أبو بكرٍ الورَّاقُ : (الصدقُ ثلاثةٌ : صدقُ التوحيدِ ، وصدقُ الطاعةِ ، وصدقُ المعرفةِ ، فصدقُ التوحيدِ لعامَّةِ المؤمنينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ ، وصدقُ الطاعةِ لأهلِ العلمِ والورعِ ، وصدقُ المعرفةِ لأهلِ الولايةِ الذينَ هُمْ أوتادُ الأرضِ)[(٢)] .

وكلُّ هـٰذا يدورُ علىٰ ما ذكرناهُ في الصدقِ السادسِ ، ولـٰكنَّهُ ذكرُ أقسامِ ما فيهِ الصدقُ ، وهوَ أيضاً غيرُ محيطٍ بجميعِ الأقسامِ .

وقالَ جعفرٌ الصادقُ : (الصدقُ هوَ المجاهدةُ ، وألا تختارَ على اللهِ غيرَ اللهِ ؛ كما لمْ يخترْ عليكَ غيرَكَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾)[(٣)]

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (إنِّي إذا أحببتُ عبداً . . ابتليتُهُ ببلايا لا تقومُ بها الجبالُ ؛ لأنظرَ كيفَ صدقُهُ ، فإنْ وجدتُهُ صابراً . . اتخذتُهُ وليّاً وحبيباً ، وإنْ وجدتُهُ جزوعاً يشكوني إلىٰ خلقي . . خذلتُهُ ولمْ أبالِ)[(٤)]

فإذاً ؛ مِنْ علاماتِ الصدقِ كتمانُ المصائبِ والطاعاتِ جميعاً ، وكراهةُ اطلاعِ الخلقِ عليها ، واللهُ أعلمُ .

❁ ❁ ❁

تمَّ كتابُ النيَّةِ والإخلاصِ والصدقِ

وهو الكتابُ السابعُ من ربعِ المنجياتِ من كتبِ إحياءِ علومِ الدِّينِ

ولله الحمدُ والمنَّةُ ، وصلَّى اللهُ على خيرِ خلقِه محمَّدٍ النبيِّ وآلهِ الطَّاهرينَ وسلَّمَ تسليماً

يتلوه كتابُ المراقبةِ والمحاسبةِ

---

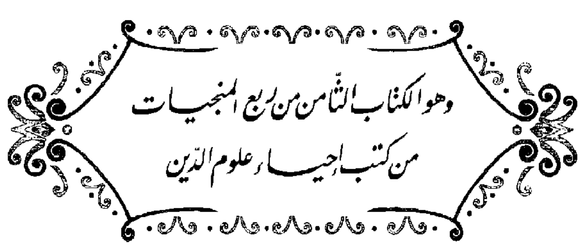
(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٨٩٤) ، وقول سعيد بن المسيب عنده من قول الزهري ، وعنده أيضاً (٢٨٩٥) من قول ابن عباس رضي الله عنهما .

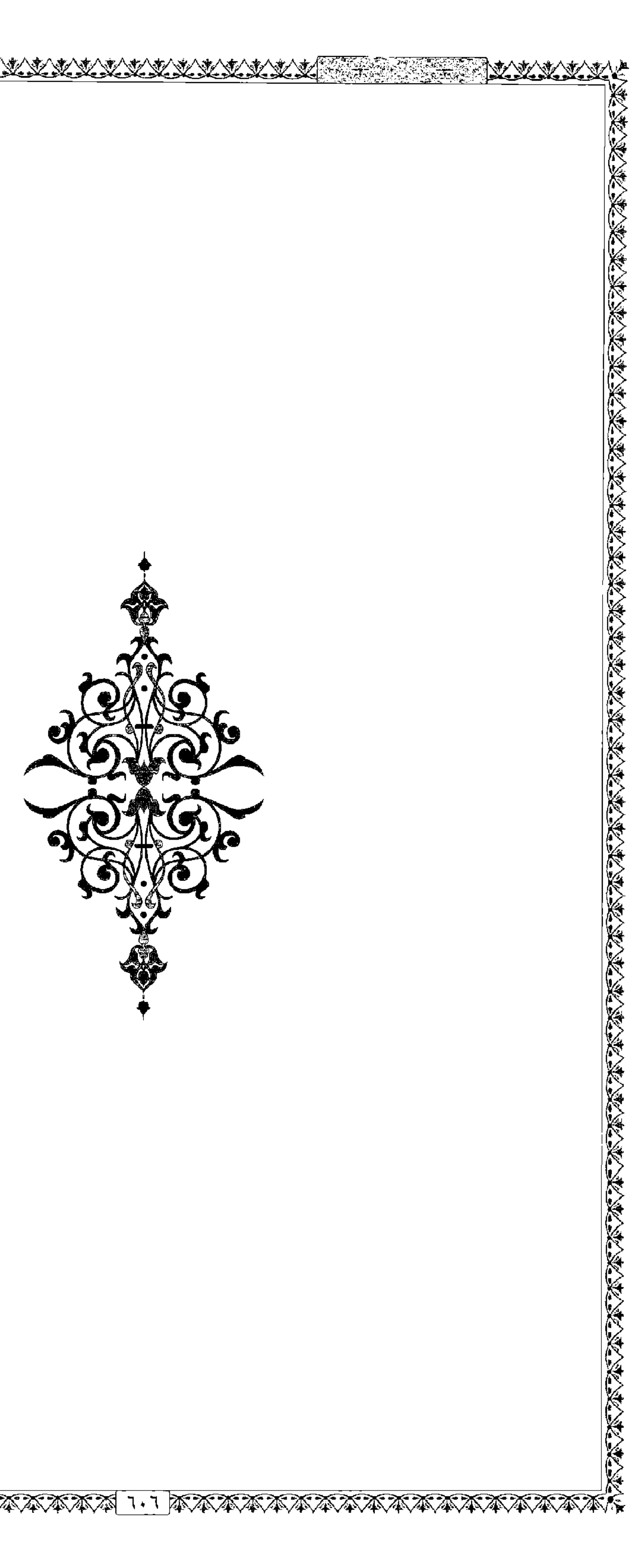
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٦) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٦) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٩٨) .

كتاب المراقبة والمحاسبة





كتاب المراقبة والمحاسبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ القائمِ علىٰ كلِّ نفْسٍ بما كسبَتِ ، الرقيبِ علىٰ كلِّ جارحةٍ بما اجترحَتِ ، المطَّلعِ علىٰ ضمائرِ القلوبِ إذا هجسَتِ ، الحسيبِ علىٰ خواطرِ عبادِهِ إذا اختلجَتِ ، الذي لا يعزبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ تحرَّكَتْ أو سكنَتِ ، المحاسبِ على النقيرِ والقطميرِ والقليلِ والكثيرِ مِنَ الأعمالِ وإنْ خفيَتِ ، المتفضِّلِ بقبولِ طاعاتِ العبادِ وإنْ صغرَتِ ، المتطوِّلِ بالعفوِ عنْ معاصيهِمْ وإنْ كثرَتْ ، وإنَّما يحاسبُهُمْ لتعلمَ كلُّ نفْسٍ ما أحضرَتْ ، وتنظرَ فيما قدَّمَتْ وأخَّرَتْ ، فتعلمَ أنَّهُ لولا لزومُها للمراقبةِ والمحاسبةِ في الدنيا . . لشقيَتْ في صعيدِ القيامةِ وهلكَتْ ، وبعدَ المجاهدةِ والمحاسبةِ والمراقبةِ لولا فضْلُ اللهِ بقبولِ بضاعتِها المزجاةِ . . لخابَتْ وخسرَتْ ، فسبحانَ مَنْ عمَّتْ نعمتُهُ كافَّةَ العبادِ وشمَلَتْ ، واستغرقَتْ رحمتُهُ الخلائقَ في الدنيا والآخرةِ وغمرَتْ ، فبنفحاتِ فضلِهِ اتسعَتِ القلوبُ للإيمانِ وانشرحَتْ ، وبيُمْنِ توفيقِهِ تقيَّدَتِ الجوارحُ بالعباداتِ وتأدَّبَتْ ، وبحسنِ هدايتِهِ انجلَتْ عنِ القلوبِ ظلماتُ الجهلِ وانقشعَتْ ، وبتأييدِهِ ونصرتِهِ انقطعَتْ مكايدُ الشيطانِ واندفعَتْ ، وبلطفِ عنايتِهِ تترجَّحُ كِفَّةُ الحسناتِ إذا ثقلَتْ ، وبتيسيرِهِ تيسَّرَتْ مِنَ الطاعاتِ ما تيسَّرَتْ ، فمنهُ العطاءُ والجزاءُ ، والإبعادُ والإدناءُ ، والإسعادُ والإشقاءُ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ الأنبياءِ ، وعلىٰ آلِهِ سادةِ الأصفياءِ ، وعلىٰ أصحابِهِ قادةِ الأتقياءِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ .

فعرفَ أربابُ البصائرِ مِنْ جملةِ العبادِ أنَّ اللهَ تعالىٰ لهُمْ بالمرصادِ ، وأنهُمْ سيُناقشونَ في الحسابِ ، ويُطالبونَ بمثاقيلِ الذرِّ مِنَ الخطراتِ واللحظاتِ ، وتحقَّقوا أنَّهُ لا ينجيهِمْ مِنْ هٰذهِ الأخطارِ إلا لزومُ المحاسبةِ ، وصدْقُ المراقبةِ ،

ومطالبةُ النفسِ في الأنفاسِ والحركاتِ ، ومحاسبتُها في الخطراتِ واللحظاتِ ، فمَنْ حاسبَ نفسَهُ قبلَ أَنْ يُحاسبَ . . خفَّ في القيامةِ حسابُهُ ، وحضرَ عندَ السؤالِ جوابُهُ ، وحسُنَ منقلبُهُ ومآبُهُ ، ومَنْ لمْ يحاسبْ نفسَهُ . . دامَتْ حسراتُهُ ، وطالَتْ في عرصاتِ القيامةِ وقفاتُهُ ، وقادَتْهُ إلى الخزيِ والمقتِ سيئاتُهُ .

فلمَّا انكشفَ لهُمْ ذٰلكَ . . علموا أنَّهُ لا ينجيهِمْ منهُ إلا طاعةُ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ أمرَهُمْ بالصبرِ والمرابطةِ فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ ، فرابطوا أنفسَهُمْ أوَّلاً بالمشارطةِ ، ثمَّ بالمراقبةِ ، ثمَّ بالمحاسبةِ ، ثمَّ بالمعاقبةِ ، ثمَّ بالمجاهدةِ ، ثمَّ بالمعاتبةِ ، فكانَ لهُمْ في المرابطةِ ستُّ مقاماتٍ ، ولا بدَّ مِنْ شرحِها وبيانِ حقيقتِها وفضيلتِها ، وتفصيلِ الأعمالِ فيها ، وأصلُ ذٰلكَ المحاسبةُ ، ولٰكنْ كلُّ حسابٍ فبعدَ مشارطةٍ ومراقبةٍ ، ويتبعُهُ عندَ الخسرانِ معاتبةٌ ومعاقبةٌ ، فلنذكرْ شرحَ هٰذهِ المقاماتِ ، وباللهِ التوفيقُ .

* * *

المقامُ الأوّلُ مِنَ المرابطة
المشارطة

اعلمْ : أنَّ مطلبَ المتعاملينَ في التجاراتِ ، المشتركينَ في البضائعِ عندَ المحاسبةِ . . سلامةُ الربحِ ، وكما أنَّ التاجرَ يستعينُ بشريكِهِ فيسلِّمُ إليهِ المالَ حتىٰ يتَّجرَ ثمَّ يحاسبُهُ . . فكذٰلكَ العقلُ هوَ التاجرُ في طريقِ الآخرةِ[1] ، وإنَّما مطلبُهُ وربحُهُ تزكيةُ النفسِ إذْ بِهِ فلاحُها .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ، وإنَّما فلاحُها بالأعمالِ الصالحةِ ، والعقلُ يستعينُ بالنفسِ في هٰذهِ التجارةِ ، إذْ يستعملُها ويستسخرُها فيما يزكِّيها ؛ كما يستعينُ التاجرُ بشريكِهِ وغلامِهِ الذي يتَّجرُ في مالِهِ .

وكما أنَّ الشريكَ يصيرُ خصماً منازعاً يجاذبُهُ في الربحِ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يشارطَهُ أوّلاً ، ويراقبَهُ ثانياً ، ويحاسبَهُ ثالثاً ، ويعاتبَهُ أو يعاقبَهُ رابعاً . . فكذٰلكَ العقلُ يحتاجُ إلىٰ مشارطةِ النفسِ أوّلاً ، فيوظِّفُ عليها الوظائفَ ، ويشرطُ عليها الشروطَ ، ويرشدُها إلىٰ طريقِ الفلاحِ ، ويجزمُ عليها الأمرَ بسلوكِ تلكَ الطريقِ ، ثمَّ لا يغفُلُ عنْ مراقبتِها لحظةً ، فإنَّهُ لوْ أهملَها . . لمْ يرَ منها إلا الخيانةَ وتضييعَ رأسِ المالِ ؛ كالعبدِ الخائنِ إذا خلا لهُ الجوُّ وانفردَ بالمالِ .

ثمَّ بعدَ الفراغِ ينبغي أنْ يحاسبَها ويطالبَها بالوفاءِ بما شرطَ عليها ، فإنَّ هٰذهِ تجارةٌ ربحُها الفردوسُ الأعلىٰ ، وبلوغُ سدرةِ المنتهىٰ معَ الأنبياءِ والشهداءِ ، فتدقيقُ الحسابِ في هٰذا معَ النفسِ أهمُّ كثيراً مِنْ تدقيقِهِ في أرباحِ الدنيا ، معَ أنَّها محتقرةٌ بالإضافةِ إلىٰ نعيمِ العقبىٰ ، ثمَّ كيفما كانَتْ فمصيرُها إلى التصرُّمِ والانقضاءِ ، ولا خيرَ في خيرٍ لا يدومُ ، بلْ شرٌّ لا يدومُ خيرٌ مِنْ خيرٍ لا يدومُ ؛ لأنَّ الشرَّ الذي لا يدومُ إذا انقطعَ . . بقيَ الفرحُ بانقطاعِهِ دائماً وقدِ انقضى الشرُّ ، والخيرُ الذي لا يدومُ يبقى الأسفُ على انقطاعِهِ دائماً وقدِ انقضى الخيرُ ، ولذٰلكَ قيلَ[2] : [من الوافر]

أَشَــدُّ الْـغَـمِّ عِـنْـدِي فِـي سُـرُورٍ … تَـيَـقَّـنَ عَـنْـهُ صَـاحِـبُـهُ انْـتِـقَـالا

فحتمٌ علىٰ كلِّ ذي حزمٍ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ألا يغفُلَ عنْ محاسبةِ نفسِهِ ، والتضييقِ عليها في حركاتِها وسكناتِها ، وخطراتِها وخطواتِها ؛ فإنَّ كلَّ نفَسٍ مِنْ أنفاسِ العمرِ جوهرةٌ نفيسةٌ لا عوضَ لها ، يمكنُ أنْ يُشترىٰ بها كنزٌ مِنَ الكنوزِ لا يتناهىٰ نعيمُهُ أبدَ الآبادِ ، فانقضاءُ هٰذهِ الأنفاسِ ضائعةً أوْ مصروفةً إلىٰ ما يجلبُ الهلاكَ خسرانٌ عظيمٌ هائلٌ ، لا تسمحُ بهِ نفسُ عاقلٍ .

فإذا أصبحَ العبدُ وفرغَ مِنْ فريضةِ الصبحِ . . ينبغي أنْ يفرغَ قلبَهُ ساعةً لمشارطةِ النفسِ ؛ كما أنَّ التاجرَ عندَ تسليمِ البضاعةِ إلى الشريكِ العاملِ يفرغُ المجلسَ لمشارطتِهِ ، فيقولُ للنفسِ : ما لي بضاعةٌ إلا العمرُ ، ومهما فنيَ . . فقدْ فنيَ رأسُ المالِ ، ووقعَ اليأسُ عنِ التجارةِ وطلبِ الربحِ ، وهٰذا اليومُ الجديدُ قدْ أمهلَنِي اللهُ تعالىٰ فيهِ ، وأنسأَني أجلي[3] ، وأنعمَ عليَّ بهِ ، ولوْ توفَّاني . . لكنتُ أتمنَّىٰ أنْ يرجعَني إلى الدنيا يوماً واحداً حتىٰ أعملَ فيهِ صالحاً ، فاحسبي أنَّكِ

---

(١) في (ب) زيادة : (ورأس ماله إنما هو العمر) .

(٢) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/٢٢٤) .

(٣) يقال : أنسأه الله أجله ونسأه في أجله بمعنىً ؛ أخّره وفسح له فيه .

قدْ تُوفيتِ ، ثمَّ رُددتِ ، فإيَّاكِ ثمَّ إيَّاكِ أنْ تضيِّعي هـٰذا اليومَ ، فإنَّ كلَّ نفسٍ مِنَ الأنفاسِ جوهرةٌ لا قيمةَ لها ، واعلمي يا نفسُ ؛ أنَّ اليومَ والليلةَ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، وقدْ وردَ في الخبرِ أنَّهُ يُنشرُ للعبدِ بكلِّ يومٍ وليلةٍ أربعٌ وعشرونَ خزانةً مصفوفةً ، فيُفتحُ لهُ منها خزانةٌ ، فيراها مملوءةً نوراً مِنْ حسناتِهِ التي عملَها في تلكَ الساعةِ ، فينالُهُ مِنَ الفرحِ والسرورِ والاستبشارِ بمشاهدةِ تلكَ الأنوارِ التي هيَ وسيلةٌ عندَ الملكِ الجبارِ ما لوْ وُزِّعَ علىٰ أهلِ النارِ . . لأدهشَهُمْ ذٰلكَ الفرحُ عنِ الإحساسِ بألمِ النارِ ، ويُفتحُ لهُ خزانةٌ أخرىٰ سوداءُ مظلمةٌ ، يفوحُ نَتْنُها ، ويتغشاهُ ظلامُها ، وهيَ الساعةُ التي عصى اللهَ تعالىٰ فيها ، فينالُهُ مِنَ الهولِ والفزعِ ما لوْ قُسمَ علىٰ أهلِ الجنةِ لتنغَّصَ عليهم نعيمُها ، ويُفتحُ لهُ خزانةٌ أخرىٰ فارغةٌ ليسَ فيها ما يسرُّهُ ولا ما يسوءُهُ ، وهي الساعةُ التي نامَ فيها ، أوْ غفَلَ ، أوِ اشتغلَ بشيءٍ مِنْ مباحاتِ الدنيا ، فيتحسَّرُ علىٰ خلوِّها ، وينالُهُ مِنْ غبنِ ذٰلكَ ما ينالُ القادرَ على الربحِ الكثيرِ والملكِ الكبيرِ إذا أهملَهُ وتساهلَ فيهِ حتىٰ فاتَهُ ، وناهيكَ بهِ حسرةً وغبناً ، وهـٰكذا تُعرضُ عليهِ خزائنُ أوقاتِهِ طولَ عمرِهِ[1]

فيقولُ لنفسِهِ : اجتهدي اليومَ في أنْ تعمُري خزانتَكِ ، ولا تدعيها فارغةً عنْ كنوزِكِ التي هيَ أسبابُ ملكِكِ ، ولا تميلي إلى الكسلِ والدعةِ والاستراحةِ فيفوتَكِ مِن درجاتِ علِّيينَ ما يدركُهُ غيرُكِ ، وتبقىٰ عندَكِ حسرةٌ لا تفارقُكِ وإنْ دخلتِ الجنةَ ، فألمُ الغبنِ والحسرةِ لا يُطاقُ وإنْ كانَ دونَ ألمِ النارِ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : هبْ أنَّ المسيءَ قدْ عُفِيَ عنهُ ؛ أليسَ قدْ فاتَهُ ثوابُ المحسنينَ ؟![2] أشارَ بهِ إلى الغبنِ والحسرةِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ .

فهـٰذهِ وصيتُهُ لنفسِهِ في أوقاتِهِ .

ثمَّ ليستأنفْ لها وصيةً في أعضائِهِ السبعةِ ؛ وهيَ العينُ ، والأذنُ ، واللسانُ ، والبطنُ ، والفرجُ ، واليدُ ، والرجْلُ ، ويسلِّمُها إليها ؛ فإنَّها رعايا خادمةٌ لنفسِهِ في هـٰذهِ التجارةِ ، وبها تتمُّ أعمالُ هـٰذهِ التجارةِ ، وإنَّ لجهنَّمَ سبعةَ أبوابٍ ، لكلِّ بابٍ منهُمْ جزءٌ مقسومٌ ، وإنَّما تتعيَّنُ تلكَ الأبوابُ لمَنْ عصى اللهَ تعالىٰ بهـٰذهِ الأعضاءِ ، فيوصيها بحفظِها عنْ معاصيها .

أمَّا العينُ : فيحفظُها عنِ النظرِ إلىٰ وجهِ مَنْ ليسَ لهُ بمحرمٍ ، أوْ إلىٰ عورةِ مسلمٍ ، أوِ النظرِ إلىٰ مسلمٍ بعينِ الاحتقارِ ، بلْ عنْ كلِّ فضولٍ مستغنىً عنهُ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يسألُ عبدَهُ عنْ فضولِ النظرِ كما يسألُهُ عنْ فضولِ الكلامِ[3]

ثمَّ إذا صرفَها عنْ هـٰذا لمْ تقنعْ بهِ حتىٰ يشغلَها بما فيهِ نجاتُها وربحُها ، وهوَ ما خُلقَتْ لهُ مِنَ النظرِ إلىٰ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ بعينِ الاعتبارِ ، والنظرِ إلىٰ أعمالِ الخيرِ للاقتداءِ ، والنظرِ في كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنةِ رسولِهِ ، ومطالعةِ كتبِ الحكمةِ للاتعاظِ والاستفادةِ .

---

(١) كذا بألفاظ مقاربة في « القوت » (١٠٦/١) ، ولم يذكر رفعه ، بل قال : (ويقال . . .) ، ورواه مختصراً البيهقي في « الشعب » (٥٠٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا تحسَّر عليها يوم القيامة » ، وعنده (٥٠٩ ، ٥١٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً أيضاً : « ليس يتحسَّر أهل الجنة إلا علىٰ ساعة مرَّت بهم لم يذكروا الله فيها » ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٤١/٦) عن الأوزاعي : (ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة ، يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، ولا تمرُّ به ساعة لم يذكر الله تعالىٰ فيها إلا تقطَّعت نفسه عليها حسرات ، فكيف إذا مرت به ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم ، وليلة مع ليلة ؟!) .

(٢) كذا في « القوت » (١٠٦/١) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٦٩) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٧٤) .

(٣) كذا أورده المحاسبي في « رسالة المسترشدين » (ص ١٧٩) عن داوود الطائي بلاغاً ، قال : (وقال داوود الطائي لرجل وقد أحدَّ النظر إلىٰ بعض من ينظر إليه : يا هـٰذا ؛ اردد نظرك عليك ؛ فإنه بلغني أن الرجل يسأل عن فضول نظره كما يسأل عن فضول عمله) .

وهٰكذا ينبغي أنْ يفصِّلَ الأمرَ عليها في عضوٍ عضوٍ ، لا سيما اللسانُ والبطنُ .

أمَّا اللسانُ : فلأنَّهُ منطلقٌ بالطبعِ ، ولا مؤنةَ عليهِ في الحركةِ ، وجنايتُهُ عظيمةٌ بالغيبةِ ، والكذبِ ، والنميمةِ ، وتزكيةِ النفسِ ، ومذمَّةِ الخلْقِ والأطعمةِ ، واللعنِ ، والدعاءِ على الأعداءِ ، والمماراةِ في الكلامِ ، وغيرِ ذٰلكَ ممَّا ذكرناهُ في كتابِ آفاتِ اللسانِ ، فهوَ بصددِ ذٰلكَ كلِّهِ ، معَ أنَّهُ خُلِقَ للذكرِ والتذكيرِ ، وتكرارِ العلمِ والتعليمِ ، وإرشادِ عبادِ اللهِ إلىٰ طريقِ اللهِ ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ ، وسائرِ خيراتِهِ ، فليشترطْ علىٰ نفسِهِ ألا يحرِّكَ اللسانَ طولَ نهارِهِ إلا في الذكرِ ، فنطْقُ المؤمنِ ذكرٌ ، ونظرُهُ عبرةٌ ، وصمتُهُ فكرةٌ ، وما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ .

وأمَّا البطنُ : فيكلِّفُهُ تركَ الشرهِ ، وتقليلَ الأكلِ مِنَ الحلالِ ، واجتنابَ الشبهاتِ ، ويمنعُهُ مِنَ الشهواتِ ، ويقتصرُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ، ويشرطُ علىٰ نفسِهِ أنَّها إنْ خالفَتْ شيئاً مِنْ ذٰلكَ . . عاقبَها بالمنعِ عنْ شهواتِ البطنِ ؛ ليفوتَها أكثرَ ممَّا نالَتْهُ بشهوتِها .

وهٰكذا يشترطُ عليها في جميعِ الأعضاءِ ، واستقصاءُ ذٰلكَ يطولُ ، ولا تخفىٰ معاصي الأعضاءِ وطاعاتُها .

ثمَّ يستأنفُ وصيَّتَها في وظائفِ الطاعاتِ التي تتكرَّرُ عليهِ في اليومِ والليلةِ ، ثمَّ في النوافلِ التي يقدرُ عليها ، ويقدرُ على الاستكثارِ منها ، ويرتِّبُ لها تفصيلَها ، وكيفيتَها وكيفيةَ الاستعدادِ لها بأسبابِها .

وهٰذهِ شروطٌ يفتقرُ إليها في كلِّ يومٍ ، ولٰكنْ إذا تعوَّدَ الإنسانُ شرْطَ ذٰلكَ علىٰ نفسِهِ أياماً ، وطاوعتْهُ نفسُهُ في الوفاءِ بجميعِها . . استغنىٰ عنِ المشارطةِ فيها ، وإنْ أطاعَ في بعضِها . . بقيَتِ الحاجةُ إلىٰ تجديدِ المشارطةِ فيما بقيَ ، ولٰكن لا يخلو كلُّ يومٍ عنْ مهمٍّ جديدٍ ، وواقعةٍ حادثةٍ لها حكمٌ جديدٌ ، وللهِ عليهِ في ذٰلكَ حقٌّ ، ويكثرُ هٰذا علىٰ مَنْ يشتغلُ بشيءٍ مِنْ أعمالِ الدنيا ؛ مِنْ ولايةٍ ، أوْ تجارةٍ ، أوْ تدريسٍ ؛ إذْ قلَّما يخلو يومٌ عنْ واقعةٍ جديدةٍ يحتاجُ إلىٰ أنْ يقضيَ حقَّ اللهِ فيها ، فعليهِ أنْ يشترطَ علىٰ نفسِهِ الاستقامةَ فيها ، والانقيادَ للحقِّ في مجاريها ، ويحذِّرَها مغبَّةَ الإهمالِ ، ويعظَها كما يُوعظُ العبدُ الآبقُ المتمرِّدُ ؛ فإنَّ النفسَ بالطبعِ متمردةٌ عنِ الطاعاتِ ، مستعصيةٌ عنِ العبوديةِ ، ولٰكنَّ الوعظَ والتأديبَ يؤثِّرُ فيها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فهٰذا وما يجرىٰ مجراهُ هوَ أوَّلُ مقامِ المرابطةِ معَ النفسِ ، وهيَ المحاسبةُ قبلَ العملِ ، والمحاسبةُ تارةً تكونُ بعدَ العملِ ، وتارةً قبلَهُ للتحذيرِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ ، وهٰذا للمستقبلِ .

وكلُّ نظرٍ في كثرةٍ ومقدارٍ لمعرفةِ زيادةٍ ونقصانٍ فإنَّهُ يُسمَّىٰ محاسبةً ، فالنظرُ فيما بينَ يدي العبدِ في نهارِهِ ليعرفَ زيادتَهُ مِنْ نقصانِهِ مِنَ المحاسبةِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ ، ذكرَ ذٰلكَ تحذيراً وتنبيهاً للاحترازِ منهُ في المستقبلِ .

وروىٰ عبادةُ بنُ الصامتِ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ لرجلٍ سألَهُ أنْ يوصيَهُ ويعظَهُ : « إذا أردتَ أمراً . . فتدبَّرْ عاقبتَهُ ؛ فإنْ كانَ رشداً . . فأمضِهِ ، وإنْ كانَ غيّاً . . فانْتهِ عنهُ »[1]

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١) عن أبي جعفر عبد الله بن مسور الهاشمي مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٣٥٩) عن أبي جعفر ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنت مستوصٍ إن أوصيتك ؟ » قلت : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر . . فتدبر عاقبته ؛ فإن كان رشداً . . فأمضه ، وإن كان غيّاً . . فانته » .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا أردتَ أنْ يكونَ العقلُ غالباً للهوىٰ . . فلا تعملْ بقضاءِ الشهوةِ حتىٰ تنظرَ العاقبةَ ، فإنَّ مكثَ الندامةِ في القلبِ أكثرُ مِنْ مكثِ خفةِ الشهوةِ) .

وقالَ لقمانُ : (إنَّ المؤمنَ إذا أبصرَ العاقبةَ . . أمنَ الندامةَ) .

وروىٰ شدادُ بنُ أوسٍ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »[1] ، دانَ نفسَهُ ؛ أيْ : حاسبَها ، ويومُ الدينِ هوَ يومُ الحسابِ ، وقولُهُ : ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أيْ : لمحاسبونَ .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (حاسبوا أنفسَكُمْ قبلَ أنْ تُحاسبوا ، وزنوها قبلَ أنْ تُوزنوا ، وتهيَّؤوا للعرضِ الأكبرِ)[2]

وكتبَ إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ : (حاسبْ نفسَكَ في الرخاءِ قبلَ حسابِ الشدَّةِ)[3]

وقالَ لكعبِ الأحبارِ : كيفَ تجدُنا في كتابِ اللهِ ـ يعني التوراةَ ـ ؟ قالَ : ويلٌ لديَّانِ الأرضِ مِنْ ديَّانِ السماءِ ، فعلاهُ بالدِّرَّةِ وقالَ : إلا مَنْ حاسبَ نفسَهُ ، فقالَ كعبٌ : واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّها إلىٰ جنبِها في التوراةِ ، ما بينَهُما حرفٌ : إلا مَنْ حاسبَ نفسَهُ[4]

وهـٰذا كلُّهُ إشارةٌ إلى المحاسبةِ للمستقبلِ ؛ إذْ قالَ : « مَنْ دانَ نفسَهُ فعملَ لما بعدَ الموتِ » ، ومعناهُ : وزنَ الأمورَ أوَّلاً ، وقدَّرَها ، ونظرَ فيها ، وتدبَّرَها ، ثمَّ أقدمَ عليها فباشرَها .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٢/١) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٦٢) ، وفيه : (إلىٰ بعض عمَّاله) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٩/٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٠٠٨) دون قوله : (كيف تجدنا) ، وسؤاله عن نفسه : (كيف تجدني) عند أبي داوود (٤٦٥٦) .

المُرابطة الثّانية

المراقبة

إذا أوصى الإنسانُ نفسَهُ ، وشرطَ عليها ما ذكرناهُ . . فلا يبقى إلا المراقبةُ لها عندَ الخوضِ في الأعمالِ ، وملاحظتُها بالعينِ الكالئةِ ؛ فإنَّها إنْ تُركَتْ . . طغَتْ وفسدَتْ .

❀ ❀ ❀

ولنذكرْ فضيلةَ المراقبةِ ثمَّ درجاتِها

فضيلة المراقبة[1]

أمّا الفضيلةُ : فقدْ سألَ جبريلُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإحسانِ ، فقالَ : « أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ »[2]

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾

وقالَ ابنُ المباركِ لرجلٍ : راقبِ اللهَ تعالىٰ ، فسألَهُ عنْ تفسيرِهِ ، فقالَ : كُنْ أبداً كأنَّكَ ترى اللهَ عزَّ وجلَّ[3]

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : (إذا كانَ سيِّدي رقيباً عليَّ . . فما أبالي بغيرِهِ)[4]

وقالَ أبو عثمانَ المغربيُّ : (أفضلُ ما يُلزِمُ الإنسانُ نفسَهُ في هـٰذهِ الطريقةِ المحاسبةُ والمراقبةُ ، وسياسةُ عملِهِ بالعلمِ)[5] .

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (أفضلُ الطاعاتِ مراقبةُ الحقِّ علىٰ دوامِ الأوقاتِ)[6]

وقالَ الجريريُّ : (أمرُنا هـٰذا مبنيٌّ علىٰ أصلينِ : أنْ تلزمَ نفسَكَ المراقبةَ للهِ عزَّ وجلَّ ، ويكونَ العلمُ علىٰ ظاهرِكَ قائماً)[7]

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) ، وفي غير (أ) و(ج) جاء السياق : « . . . كأنك تراه » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه . . فإنه يراك » ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٠٢) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٣) ، وسياق المصنف عنده .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٣) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٣٥) .

(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٣٥) .

(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٣٥) .

وقالَ أبو عثمانَ : قالَ لي أبو حفصٍ : (إذا جلستَ للناسِ . . فكُنْ واعظاً لنفسِكَ وقلبِكَ ، ولا يغرَّنَّكَ اجتماعُهُمْ عليكَ ؛ فإنَّهُمْ يراقبونَ ظاهرَكَ ، واللهُ رقيبٌ علىٰ باطنِكَ)(١)

وحُكِيَ أنَّهُ كانَ لبعضِ مشايخِ هٰذهِ الطبقةِ تلميذٌ شابٌّ ، وكانَ يكرمُهُ ويقدمُهُ ، فقالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ : كيفَ تكرمُ هٰذا وهوَ شابٌّ ونحنُ شيوخٌ ؟! فدعا بعدَّةِ طيورٍ ، وناولَ كلَّ واحدٍ منهُمْ طائراً وسكِّيناً وقالَ : ليذبحْ كلُّ واحدٍ منكُمْ طائرَهُ في موضعٍ بحيثُ لا يراهُ أحدٌ ، ودفعَ إلى الشابِّ مثلَ ذٰلكَ ، وقالَ : اذبحْهُ حيثُ لا يراكَ أحدٌ ، فرجعَ كلُّ واحدٍ بطائرِهِ مذبوحاً ، ورجعَ الشابُّ والطائرُ حيٌّ في يدِهِ ، فقالَ : ما لكَ لمْ تذبحْ وقدْ ذبحَ أصحابُكَ ؟ فقالَ : لمْ أجدْ موضعاً لا يراني فيهِ أحدٌ ؛ إذِ اللهُ مطَّلعٌ عليَّ في كلِّ مكانٍ ، فاستحسنوا منهُ مراقبتَهُ ، وقالوا : حُقَّ لكَ أنْ تُكرمَ(٢)

وحُكِيَ أنَّ زليخا لمَّا خلَتْ بيوسفَ عليهِ السلامُ . . قامَتْ فغطَّتْ وجهَ صنمِها ، فقالَ يوسفُ : ما لكِ ، أتستحيينَ مِنْ مراقبةِ جمادٍ ولا أستحيي مِنْ مراقبةِ الملكِ الجبَّارِ ؟!(٣)

وحُكِيَ عنْ بعضِ الأحداثِ أنَّهُ راودَ جاريةً عنْ نفسِها ، فقالَتْ لهُ : ألا تستحيي ؟ فقالَ : ممَّنْ أستحيي وما يرانا إلا الكواكبُ ؟ قالَتْ : وأينَ مُكَوْكِبُها ؟!(٤)

وقالَ رجلٌ للجنيدِ : بِمَ أستعينُ علىٰ غضِّ البصرِ ؟ قالَ : بعلمِكَ أنَّ نظرَ الناظرِ إليكَ أسبقُ مِنْ نظرِكَ إلى المنظورِ إليهِ(٥)

وقالَ الجنيدُ : (إنَّما يتحقَّقُ بالمراقبةِ مَنْ يخافُ علىٰ فوتِ حظِّهِ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ)(٦)

وعنْ مالكِ بنِ دينارٍ قالَ : جنَّاتُ عدنٍ مِنْ جنَّاتِ الفردوسِ ، وفيها حورٌ خُلقنَ مِنْ وردِ الجنةِ ، قيلَ لهُ : ومَنْ يسكنُها ؟ قالَ : يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّما يسكنُ جنَّاتِ عدنٍ الذينَ إذا همُّوا بالمعاصي . . ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنَتْ أصلابُهُمْ مِنْ خشيتي ، وعزَّتي وجلالي ؛ إنِّي لأهُمُّ بعذابِ أهلِ الأرضِ ، فإذا نظرتُ إلىٰ أهلِ الجوعِ والعطشِ مِنْ مخافتي . . صرفتُ عنهُمُ العذابَ(٧)

وسُئِلَ المحاسبيُّ عنِ المراقبةِ فقالَ : أوَّلُها علمُ القلبِ بقرْبِ الربِّ تعالىٰ(٨)

وقالَ المرتعشُ : (المراقبةُ مراعاةُ السرِّ بملاحظةِ الغيبِ معَ كلِّ لحظةٍ ولفظةٍ)(٩)

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لملائكتِهِ : أنتمْ موكَّلونَ بالظواهرِ ، وأنا الرقيبُ على البواطنِ(١٠)

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ : (اجعلْ مراقبتَكَ لمَنْ لا تغيبُ عنْ نظرِهِ إليكَ ، واجعلْ شكرَكَ لمَنْ لا تنقطعُ نعمُهُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٣٤) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) ، ورواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٨٣) .
(٥) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٦) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٦) .
(٧) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٦٥٩٤) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٦) .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٧) .
(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٧) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٣٥) .
(١٠) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) .

عنكَ ، واجعلْ طاعتَكَ لمَنْ لا تستغني عنهُ ، واجعلْ خضوعَكَ لمَنْ لا تخرجُ عنْ ملكِهِ وسلطانِهِ)[١]

وقالَ سهلٌ : (لمْ يتزيَّنِ القلبُ بشيءٍ أفضلَ ولا أشرفَ مِنْ علمِ العبدِ بأنَّ اللهَ شاهدُهُ حيثُ كانَ)[٢]

وسُئِلَ بعضُهُمْ عنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ ، فقالَ : معناهُ : ذٰلكَ لمَنْ راقبَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ ، وحاسبَ نفسَهُ ، وتزوَّدَ لمعادِهِ[٣]

وسُئِلَ ذو النونِ : بمَ ينالُ العبدُ الجنةَ ؟ فقالَ : بخمسٍ : استقامةٌ ليسَ فيها روغانٌ ، واجتهادٌ ليسَ معهُ سهوٌ ، ومراقبةُ اللهِ تعالىٰ في السرِّ والعلانيةِ ، وانتظارُ الموتِ بالتأهُّبِ لهُ ، ومحاسبةُ نفسِكَ قبلَ أنْ تُحاسبَ[٤]

وقدْ قيلَ[٥] : [من الطويل]

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْماً فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَٰكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ ساعَةً ... وَلَا أَنَّ ما تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْيَوْمَ أَسْرَعُ ذاهِبٍ ... وَأَنَّ غَداً لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبُ

وقالَ حميدٌ الطويلُ لسليمانَ بنِ عليٍّ : عظْني ، فقالَ : لئنْ كنتَ إذا عصيتَ اللهَ خالياً ظننتَ أنَّهُ يراكَ . . لقدِ اجترأْتَ علىٰ أمرٍ عظيمٍ ، ولئنْ كنتَ تظنُّ أنَّهُ لا يراكَ . . فلقدْ كفرتَ[٦]

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (عليكَ بالمراقبةِ ممَّنْ لا تخفىٰ عليهِ خافيةٌ ، وعليكَ بالرجاءِ ممَّنْ يملكُ الوفاءَ ، وعليكَ بالحذرِ ممَّنْ يملكُ العقوبةَ)[٧]

وقالَ فرقدٌ السبخيُّ : (إنَّ المنافقَ ينظرُ ، فإذا لمْ يرَ أحداً . . دخلَ مدخلَ السوءِ ، وإنَّما يراقبُ الناسَ ولا يراقبُ اللهَ تعالىٰ) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ دينارٍ : خرجتُ معَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ مكَّةَ ، فعرَّسْنا في بعضِ الطريقِ ، فانحدرَ علينا راعٍ مِنَ الجبلِ ، فقالَ لهُ : يا راعي ؛ بعني شاةً مِنْ هٰذهِ الغنمِ ، فقالَ : إنِّي مملوكٌ ، فقالَ : قلْ لسيِّدِكَ : أكلَها الذئبُ ، قالَ : فأينَ اللهُ ؟! قالَ : فبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ثمَّ غدا إلى المملوكِ فاشتراهُ مِنْ مولاهُ وأعتقَهُ ، وقالَ : أعتقتْكَ في الدنيا هٰذهِ الكلمةُ ، وأرجو أنْ تعتقَكَ في الآخرةِ[٨]

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٥/١٠) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١١٧/١٠) .

(٥) الأبيات متنازع في نسبتها وهي في « روضة العقلاء » (١٢٣/١) ، وانظر تخريجها ثمة .

(٦) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٩٢/٤) ، وسليمان بن علي يومها والي البصرة .

(٧) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩٨/١٠) .

(٨) روى الخبر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أبو داوود في « الزهد » (٣٠٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٦٣/١٢) .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلمْ : أنَّ حقيقةَ المراقبةِ هيَ ملاحظةُ الرقيبِ ، وانصرافُ الهمِّ إليهِ ، فمَنِ احترزَ مِنْ أمرٍ مِنَ الأمورِ بسببِ غيرِهِ يُقالُ : إنَّهُ يراقبُ فلاناً ويراعي جانبَهُ ، ونعني بهٰذهِ المراقبةِ حالةً للقلبِ يثمرُها نوعٌ مِنَ المعرفةِ ، وتثمرُ تلكَ الحالةُ أعمالاً في الجوارحِ وفي القلبِ .

أمَّا الحالةُ . . فهيَ مراعاةُ القلبِ للرقيبِ ، واشتغالُهُ بهِ ، والتفاتُهُ إليهِ ، وملاحظتُهُ إيَّاهُ ، وانصرافُهُ إليهِ .

وأمَّا المعرفةُ التي تثمرُ هٰذهِ الحالةَ . . فهوَ العلمُ بأنَّ اللهَ مطلعٌ على الضمائرِ ، عالمٌ بالسرائرِ ، رقيبٌ علىٰ أعمالِ العبادِ ، قائمٌ علىٰ كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ ، وأنَّ سرَّ القلبِ في حقِّهِ مكشوفٌ ؛ كما أنَّ ظاهرَ البشرةِ للخلقِ مكشوفٌ ، بلْ أشدُّ مِنْ ذٰلكَ ، فهٰذهِ المعرفةُ إذا صارَتْ يقيناً ؛ أعني : أنَّها خلَتْ عنِ الشكِّ ، ثمَّ استولَتْ بعدَ ذٰلكَ على القلبِ وقهرَتْهُ ، فربَّ علمٍ لا شكَّ فيهِ لا يغلبُ على القلبِ ؛ كالعلمِ بالموتِ ، فإذا استولَتْ على القلبِ . . استجرَّتِ القلبَ إلىٰ مراعاةِ جانبِ الرقيبِ ، وصرفَتْ همَّهُ إليهِ .

والموقنونَ بهٰذهِ المعرفةِ هُمُ المقرَّبونَ ، وهمْ ينقسمونَ إلى الصدِّيقينَ ، وإلىٰ أصحابِ اليمينِ ، فمراقبتُهُمْ علىٰ درجتينِ :

الدرجةُ الأولىٰ : مراقبةُ المقرَّبينَ مِنَ الصدِّيقينَ :

وهيَ مراقبةُ التعظيمِ والإجلالِ ، وهوَ أنْ يصيرَ القلبُ مستغرقاً بملاحظةِ ذٰلكَ الجلالِ ، ومنكسراً تحتَ الهيبةِ ، فلا يبقىٰ فيهِ متسعٌ للالتفاتِ إلى الغيرِ أصلاً ، وهٰذهِ مراقبةٌ لا نطوِّلُ النظرَ في تفصيلِ أعمالِها ؛ فإنَّها مقصورةٌ على القلبِ ، أمَّا الجوارحُ . . فإنَّها تتعطَّلُ عنِ الالتفاتِ إلى المباحاتِ فضلاً عنِ المحظوراتِ ، وإذا تحرَّكَتْ بالطاعاتِ . . كانَتْ كالمستعملةِ بها ، فلا تحتاجُ إلىٰ تدبيرٍ وتثبيتٍ في حفظِها علىٰ سننِ السدادِ ، بلْ يسدِّدُ الرعيةَ مَنْ ملكَ كلِّيَّةَ الراعي ، والقلبُ هوَ الراعي ، فإذا صارَ مستوفىً بالمعبودِ . . صارَتِ الجوارحُ كلُّها مستعملةً جاريةً على السدادِ والاستقامةِ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ .

وهٰذا هوَ الذي صارَ همُّهُ همّاً واحداً ، فكفاهُ اللهُ سائرَ الهمومِ ، ومَنْ نالَ هٰذهِ الدرجةَ . . فقدْ يغفُلُ عنِ الخلقِ ، حتىٰ لا يبصرُ مَنْ يحضرُ عندَهُ وهوَ فاتحٌ عينيهِ ، ولا يسمعُ ما يُقالُ لهُ معَ أنَّه لا صممَ بهِ ، وقدْ يمرُّ على ابنِهِ مثلاً فلا يكلِّمُهُ ، حتىٰ كانَ بعضُهُمْ يجري عليهِ مثلُ ذٰلكَ ، فقالَ لمَنْ عاتبَهُ : إذا مررتَ بي . . فحرِّكْني [١]

ولا تستبعدْ هٰذا ؛ فإنَّكَ تجدُ نظيرَ هٰذا في القلوبِ المعظِّمةِ لملوكِ الأرضِ ، حتىٰ إنَّ خدمَ الملوكِ قدْ لا يحسُّونَ بما يجري عليهِمْ في مجالسِ الملوكِ لشدَّةِ استغراقِهِمْ بهِمْ ، بلْ قدْ يشتغلُ القلبُ بمهمٍّ حقيرٍ مِنْ مهمَّاتِ الدنيا ، فيغوصُ الرجلُ في الفكرِ فيهِ ويمشي ، فربَّما يخطئُ الموضعَ الذي قصدَهُ ، وينسى الشغلَ الذي نهضَ لهُ .

وقدْ قيلَ لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : هلْ تعرفُ في زمانِكَ هٰذا رجلاً قدِ اشتغلَ بحالِهِ عنِ الخلقِ ؟ فقالَ : ما أعرفُ [٢]

---

(١) أورده المحاسبي في « القصد والرجوع إلى الله » والمطبوع باسم « الوصايا » (ص ٣١٤) .

(٢) في كل النسخ : (ما أعرفه) ، والمثبت من (ق) .

إلا رجلاً واحداً سيدخلُ عليكُمُ الساعةَ ، فما كانَ إلا سريعاً حتىٰ دخلَ عتبةُ الغلامُ ، فقالَ لهُ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مِنْ أينَ جئتَ يا عتبةُ ؟ فقالَ : مِنْ موضعِ كذا ، وكانَ طريقُهُ على السوقِ ، فقالَ : مَنْ لقيتَ في الطريقِ ؟ فقالَ : ما رأيتُ أحداً (١)

ورُوِيَ عنْ يحيى بنِ زكريا عليهما السلامُ : أنَّهُ مرَّ بامرأةٍ ، فدفعَها ، فسقطَتْ علىٰ وجهِها ، فقيلَ لهُ : لمَ فعلتَ هٰذا ؟ فقالَ : ما ظننتُها إلا جداراً (٢)

وحُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : مررتُ بجماعةٍ يترامونَ وواحدٌ جالسٌ بعيداً منهُمْ ، فتقدمتُ إليهِ ، فأردتُ أنْ أكلِّمَهُ ، فقالَ : ذكرُ اللهِ تعالىٰ أشهىٰ ، فقلتُ : أنتَ وحدَكَ ؟ فقالَ : معي ربّي وملكايَ ، فقلتُ : مَنْ سبقَ مِنْ هٰؤلاءِ ؟ فقالَ : مَنْ غفرَ اللهُ تعالىٰ لهُ ، فقلتُ : أينَ الطريقُ ؟ فأشارَ نحوَ السماءِ ، وقامَ ومشىٰ وقالَ : أكثرُ خلقِكَ شاغلٌ عنكَ (٣)

فهٰذا كلامُ مستغرقٍ بمشاهدةِ اللهِ تعالىٰ ، لا يتكلَّمُ إلا منهُ ، ولا يسمعُ إلا فيهِ ، فهٰذا لا يحتاجُ إلىٰ مراقبةِ لسانِهِ وجوارحِهِ ، فإنَّها لا تتحرَّكُ إلا بما هوَ فيهِ .

ودخلَ الشبليُّ علىٰ أبي الحسينِ النوريِّ وهوَ معتكفٌ ، فوجدَهُ ساكناً حسنَ الاجتماعِ ، لا يتحرَّكُ مِنْ ظاهرِهِ شيءٌ ، فقالَ لهُ : مِنْ أينَ أخذتَ هٰذهِ المراقبةَ والسكونَ ؟ فقالَ : مِنْ سنَّورٍ كانَتْ لنا ، فكانَتْ إذا أرادَتِ الصيدَ . . رابطَتْ رأسَ الجُحْرِ لا تتحرَّكُ لها شعرةٌ .

وقالَ أبو عبدِ اللهِ بنُ خفيفٍ : خرجتُ مِنْ مصرَ أريدُ الرملةَ للقاءِ أبي عليٍّ الروذباريِّ ، فقالَ لي عيسى بنُ يونسَ المصريُّ المعروفُ بالزاهدِ : إنَّ في صورَ شابّاً وكهلاً قد اجتمعا علىٰ حالِ المراقبةِ ، فلو نظرتَ إليهما نظرةً لعلَّكَ تستفيدُ منهما ، فدخلتُ صورَ وأنا جائعٌ عطشانُ ، وفي وسطي خرقةٌ ، وليسَ علىٰ كتفي شيءٌ ، فدخلتُ المسجدَ ، فإذا بشخصينِ قاعدينِ مستقبلي القبلةِ ، فسلمتُ عليهما ، فما أجاباني ، فسلمتُ ثانيةً وثالثةً ، فلمْ أسمعِ الجوابَ ، فقلتُ : نشدتُكُما باللهِ إلا رددتُما عليَّ السلامَ ، فرفعَ الشابُّ رأسَهُ مِنْ مرقعتِهِ ، فنظرَ إليَّ وقالَ : يا بنَ خفيفٍ ؛ الدنيا قليلٌ ، وما بقيَ مِنَ القليلِ إلا قليلٌ ، فخذْ مِنَ القليلِ الكثيرَ ، يا بنَ خفيفٍ ؛ ما أقلَّ شغلَكَ حتىٰ تتفرَّغَ إلىٰ لقائِنا !! قالَ : فأخذ بكليَّتي ، فنظرَ إليَّ ثمَّ طأطأَ رأسَهُ في المكانِ ، فبقيتُ عندَهُما حتىٰ صلَّينا الظهرَ والعصرَ ، فذهبَ جوعي وعطشي وعنائي ، فلمَّا كانَ وقتُ العصرِ . . قلتُ : عظْني ، فرفعَ رأسَهُ إليَّ وقالَ : يا بنَ خفيفٍ ؛ نحنُ ـ أصحابَ المصائبِ ـ ليسَ لنا لسانُ العظةِ ، فبقيتُ عندَهُما ثلاثةَ أيامٍ لا آكلُ ولا أشربُ ولا أنامُ ، ولا رأيتُهُما أكلا شيئاً ولا شربا ولا ناما ، فلمَّا كانَ في اليومِ الثالثِ . . قلتُ في سرِّي : أُحلِّفُهُما أنْ يعظاني لعلِّي أنْ أنتفعَ بعظتِهِما ، فرفعَ الشابُّ رأسَهُ وقالَ لي : يا بنَ خفيفٍ ؛ عليكَ بصحبةِ مَنْ تذكِّرُكَ اللهَ رؤيتُهُ ، وتقعُ هيبتُهُ علىٰ قلبِكَ ، يعظُكَ بلسانِ فعلِهِ ، ولا يعظُكَ بلسانِ قولِهِ والسلامُ ، قمْ عنّا (٤)

فهٰذهِ درجةُ المراقبينَ الذينَ غلبَ علىٰ قلوبِهِمُ الإجلالُ والتعظيمُ ، فلمْ يبقَ فيهِمْ متَّسعٌ لغيرِ ذٰلكَ .

❀ ❀ ❀

(١) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٣١٤) واللفظ له ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٣٣) .

(٢) أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٣١٤) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) .

(٤) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) .

الدرجةُ الثانيةُ : مراقبةُ الورعينَ مِنْ أصحابِ اليمينِ :

وهُمْ قومٌ غلبَ يقينُ اطلاعِ اللهِ علىٰ ظاهرِهِمْ وباطنِهِمْ علىٰ قلوبِهِمْ ، ولـٰكنْ لمْ تدهشْهُمْ ملاحظةُ الجلالِ ، بلْ بقيتْ قلوبُهُمْ علىٰ حدِّ الاعتدالِ ، متسعةً للتلفُّتِ إلى الأحوالِ والأعمالِ ، إلا أنَّها معَ ممارسةِ الأعمالِ لا تخلو عنِ المراقبةِ .

نعمْ ؛ غلبَ عليهِمُ الحياءُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فلا يقدمونَ ولا يحجمونَ إلا بعدَ التثبُّتِ فيهِ ، ويمتنعونَ عنْ كلِّ ما يفتضحونَ بهِ في القيامةِ ، فإنَّهُمْ يرونَ اللهَ سبحانه في الدنيا مطَّلِعاً عليهِمْ ، فلا يحتاجونَ إلى انتظارِ القيامةِ .

وتعرفُ اختلافَ الدرجتينِ بالمشاهداتِ ، فإنَّكَ في خلوتِكَ قدْ تتعاطىٰ أعمالاً ، فيحضرُكَ صبيٌّ أوِ امرأةٌ ، فتعلمُ أنَّهُ مطلعٌ عليكَ ، فتستحيي منهُ ، فتحسنُ جلوسَكَ ، وتراعي أحوالَكَ ، لا عنْ إجلالٍ وتعظيمٍ ، بلْ عنْ حياءٍ ، فإنَّ مشاهدتَهُ وإنْ كانَتْ لا تدهشُكَ ولا تستغرقُكَ فإنَّها تهيِّجُ الحياءَ منكَ ، وقدْ يدخلُ عليكَ ملكٌ مِنَ الملوكِ ، أوْ كبيرٌ مِنَ الأكابرِ ، فيستغرقُكَ التعظيمُ حتىٰ تتركَ كلَّ ما أنتَ فيهِ شغلاً بهِ ، لا حياءً منهُ ، فهـٰكذا تختلفُ مراتبُ العبادِ في مراقبةِ اللهِ تعالىٰ .

ومَنْ كانَ في هـٰذهِ الدرجةِ فيحتاجُ إلىٰ أنْ يراقبَ جميعَ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، وخطراتِهِ ولحظاتِهِ ، وبالجملةِ : جميعَ اختياراتِهِ ، ولهُ فيها نظرانِ : نظرٌ قبلَ العملِ ، ونظرٌ في العملِ .

❁ ❁ ❁

أمَّا قبلَ العملِ :

فلينظرْ أنَّ ما ظهرَ لهُ وتحرَّكَ بفعلِهِ خاطرُهُ : أهوَ للهِ خاصَّةً ، أوْ هوَ في هوى النفسِ ومتابعةِ الشيطانِ ؟ فيتوقفُ فيهِ ويتثبَّتُ حتىٰ ينكشفَ لهُ ذٰلكَ بنورِ الحقِّ ؛ فإنْ كانَ للهِ تعالىٰ . . أمضاهُ ، وإنْ كانَ لغيرِ اللهِ . . استحيا مِنَ اللهِ وانكفَّ عنهُ ، ثمَّ لامَ نفسَهُ علىٰ رغبتِها فيهِ ، وهمِّها بهِ ، وميلِها إليهِ ، وعرَّفَها سوءَ فعلِها ، وسعيَها في فضيحتِها ، وأنَّها عدوَّةُ نفسِها إنْ لمْ يتداركْها اللهُ بعصمتِهِ ، وهـٰذا التوقُّفُ في بدايةِ الأمورِ إلىٰ حدِّ البيانِ واجبٌ محتومٌ لا محيصَ لأحدٍ عنهُ ، فإنَّ في الخبرِ أنَّهُ يُنشرُ للعبدِ في كلِّ حركةٍ مِنْ حركاتِهِ وإنْ صغُرَتْ ثلاثةُ دواوينَ الديوانُ الأوَّلُ : لِمَ ، والثاني : كيفَ ، والثالثُ : لمَنْ ، ومعنىٰ لِمَ ؛ أيْ : لِمَ فعلتَ هـٰذا ؟ أكانَ عليكَ أنْ تفعلَهُ لمولاكَ أوْ ملتَ إليهِ بشهوتِكَ وهواكَ ؟ فإنْ سلمَ منهُ بأنْ كانَ عليهِ أنْ يعملَ ذٰلكَ لمولاهُ . . سُئِلَ عنِ الديوانِ الثاني ، فقيلَ : كيفَ فعلتَ هـٰذا ؟ فإنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ عملٍ شرطاً وحكماً لا يُدركُ قدرُهُ ووقتُهُ وصفتُهُ إلا بعلمٍ ، فيُقالُ لهُ : كيفَ فعلتَ ؟ أبعلمٍ محقَّقٍ ، أمْ بجهلٍ وظنٍّ ؟ فإنْ سلمَ مِنْ هـٰذا . . نُشرَ الديوانُ الثالثُ ، وهوَ المطالبةُ بالإخلاصِ ، فيُقالُ : لمَنْ عملتَ ؟ ألوجهِ اللهِ خالصاً وفاءً بقولِكَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، فيكونَ أجرُكَ على اللهِ ؟ أوْ لمراءاةِ خلْقٍ مثلِكَ ، فخذْ أجرَكَ منهُ ؟ أمْ عملتَهُ لتنالَ عاجلَ دنياكَ ، فقد وفَّيناكَ نصيبَكَ مِنَ الدنيا ؟ أمْ عملتَهُ بسهوٍ وغفلةٍ ، فقدْ سقطَ أجرُكَ ، وحبطَ عملُكَ ، وخابَ سعيُكَ ؟ وإنْ عملتَ لغيري . . فقدِ استوجبتَ مقتي وعقابي ؛ إذْ كنتَ عبداً لي ، تأكلُ رزقي ، وتترفَّهُ بنعمتي ، ثمَّ تعملُ لغيري ، أما سمعتَني أقولُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ ويحَكَ !! أما سمعتَني أقولُ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [1]

---

(١) كذا في « القوت » (٨٠/١) ، ولم يذكره مرفوعاً ، بل قال : (وبلغني) ، وقد تقدم حديث : « الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر ، وديوان لا يترك » ، وهو ما رواه أحمد في « المسند » (٢٤٠/٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٧٥/٤) .

فإذا عرفَ العبدُ أنَّهُ بصددِ هٰذهِ المطالباتِ والتوبيخاتِ . . طالبَ نفسَهُ قبلَ أنْ تُطالبَ ، وأعدَّ للسؤالِ جواباً ، وللجوابِ صواباً ، فلا يبدي ولا يعيدُ إلا بعدَ التثبُّتِ ، ولا يحرِّكُ جفناً ولا أَنْمُلةً إلا بعدَ التأمُّلِ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمعاذٍ : « إنَّ الرجلَ ليُسأَلُ عنْ كحلِ عينيهِ ، وعنْ فتِّهِ الطينَ بإصبعيهِ ، وعنْ لمسِهِ ثوبَ أخيهِ »[١]

وقالَ الحسنُ : (كانَ أحدُهُمْ إذا أرادَ أنْ يتصدَّقَ بصدقةٍ . . نظرَ وتثبَّتَ ، فإنْ كانَ للهِ . . أمضاهُ)[٢]

وقالَ الحسنُ : (رحمَ اللهُ تعالىٰ عبداً وقفَ عندَ همِّهِ ، فإنْ كانَ للهِ . . مضىٰ ، وإنْ كانَ لغيرِهِ . . تأخَّرَ)[٣]

وقالَ في حديثِ سعدٍ حينَ أوصاهُ سلمانُ : (اتقِ اللهَ عندَ همِّكَ إذا هممتَ)[٤]

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ : (إنَّ المؤمنَ وَقَّافٌ متأنٍّ ، يقفُ عندَ همِّهِ ، ليسَ كحاطبِ ليلٍ)[٥]

فهٰذا هوَ النظرُ الأوَّلُ في هٰذهِ المراقبةِ ، ولا يخلِّصُ مِنْ هٰذا إلا العلمُ المتينُ ، والمعرفةُ الحقيقيَّةُ بأسرارِ الأعمالِ وأغوارِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، فمتىٰ لمْ يعرفْ نفسَهُ وربَّهُ وعدوَّهُ إبليسَ ، ولمْ يعرفْ ما يوافقُ هواهُ ، ولمْ يميِّزْ بينَهُ وبينَ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ في نيَّتِهِ ، وهمَّتِهِ وفكرتِهِ ، وسكونِهِ وحركتِهِ . . فلا يسلمُ في هٰذهِ المراقبةِ ، بلِ الأكثرونَ يرتكبونَ الجهلَ فيما يكرهُهُ اللهُ تعالىٰ وهمْ يحسبونَ أنَّهُمْ يحسنونَ صنعاً .

ولا تظنَّنَّ أنَّ الجاهلَ بما يقدرُ على التعلُّمِ فيهِ يُعذرُ بالجهلِ هيهاتَ !! بلْ طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، ولهٰذا كانَتْ ركعتانِ مِنْ عالمٍ أفضلَ مِنْ ألفِ ركعةٍ مِنْ غيرِ عالمٍ[٦] ؛ لأنَّهُ يعلمُ آفاتِ النفوسِ ومكايدَ الشيطانِ ومواضعَ الغرورِ ، فيتقي ذٰلكَ ، والجاهلُ لا يعرفُهُ ، فكيفَ يحترزُ منهُ ، فلا يزالُ الجاهلُ في تعبٍ ، والشيطانُ منهُ في فرحٍ وشماتةٍ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الجهلِ والغفلةِ ، فهوَ رأسُ كلِّ شقاوةٍ ، وأساسُ كلِّ خسرانٍ .

فحكمُ اللهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يراقبَ نفسَهُ عندَ همِّهِ بالفعلِ وسعيِهِ بالجارحةِ ، فيتوقَّفُ عندَ الهمِّ وعندَ السعيِ حتىٰ ينكشفَ لهُ بنورِ العلمِ أنَّهُ للهِ تعالىٰ فيمضيَهُ ، أوْ هوَ لهوى النفسِ فيتقيَهُ ، ويزجرَ القلبَ عنِ الفكرِ فيهِ ، وعنِ الهمِّ بهِ ، فإنَّ الخطرةَ الأولىٰ في الباطلِ إذا لمْ تدفعْ . . أورثَتِ الرغبةَ ، والرغبةُ تورثُ الهمَّ ، والهمُّ يورثُ جزْمَ القصدِ ، والقصدُ يورثُ الفعلَ ، والفعلُ يورثُ البوارَ والمقتَ ، فينبغي أنْ تحسمَ مادةُ الشرِّ مِنْ منبعِهِ الأوَّلِ ، وهوَ الخاطرُ ، فإنَّ جميعَ ما وراءَهُ يتبعُهُ .

ومهما أشكلَ على العبدِ ذٰلكَ ، وأظلمَتِ الواقعةُ فلمْ ينكشفْ لهُ . . فليتفكرْ في ذٰلكَ بنورِ العلمِ ، ويستعذْ باللهِ مِنْ مكرِ الشيطانِ بواسطةِ الهوىٰ ، فإنْ عجزَ عنِ الاجتهادِ والفكرِ بنفسِهِ . . فليستضئْ بنورِ علماءِ الدينِ ، وليفرَّ مِنَ العلماءِ

---

(١) قوت القلوب (١٦٢/٢) ، ورواه ابن ابي حاتم في « تفسيره » (١٧١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١/١٠) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠٣/١٠) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠٣/١٠) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١٧/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩١٠) ولفظه : (يا سعدُ ؛ اذكر الله عند همّك إذا هممت ، وعند يدك إذا أقسمت ، وعند حكمك إذا حكمت) .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٥٠/٨) ، ونحوه عند البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٣٠) .

(٦) وذلك فيما رواه ابن النجار عن موسى بن جعفر ، عن أبيه ، عن جده : « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » رواه الشيرازي في « الألقاب » من طريق مالك بن دينار ، عن الحسن ، عن أنس ، عن علي رفعه : « ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله » ، وروىٰ أبو نعيم من حديث أنس ـ وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٢٣٤) ـ : ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط » . « إتحاف » (٥٩/١٠) .

المضلِّينَ المقبلينَ على الدنيا فرارَهُ مِنَ الشيطانِ ، بلْ أشدَّ ، فقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ لا تسألْ عنِّي عالماً أسكرَهُ حبُّ الدنيا فيقطعَكَ عنْ محبَّتي ، أولـٰئكَ قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي)[١] ، فالقلوبُ المظلمةُ بحبِّ الدنيا وشدَّةِ الشرهِ والتكالبِ عليها محجوبةٌ عنْ نورِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ مستضاءَ أنوارِ القلوبِ حضرةُ الربوبيَّةِ ، فكيفَ يستضيءُ بها مَنِ استدبرَها ، وأقبلَ علىٰ عدوِّها ، وعشقَ بغيضَها ومقيتَها وهيَ شهواتُ الدنيا ؟!

فلتكنْ همَّةُ المريدِ أوَّلاً في إحكامِ العلمِ ، أوْ في طلبِ عالمٍ معرضٍ عنِ الدنيا ، أوْ ضعيفِ الرغبةِ فيها إنْ لمْ يجدْ مَنْ هوَ عديمُ الرغبةِ فيها ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ البصرَ النافذَ عندَ ورودِ الشبهاتِ ، والعقلَ الكاملَ عندَ هجومِ الشهواتِ »[٢] ، جمعَ بينَ الأمرينِ ، وهما متلازمانِ حقّاً ، فمَنْ ليسَ لهُ عقلٌ وازعٌ عنِ الشهواتِ . . فليسَ لهُ بصرٌ نافذٌ في الشبهاتِ .

ولذٰلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قارفَ ذنباً . . فارقَهُ عقلٌ لا يعودُ إليهِ أبداً »[٣] ، فما قدْرُ العقلِ الضعيفِ الذي سعدَ الآدميُّ بهِ حتىٰ يعمدَ إلىٰ محوهِ ومحقِهِ بمقارفةِ الذنوبِ ؟!

ومعرفةُ آفاتِ الأعمالِ قدِ اندرسَتْ في هـٰذهِ الأعصارِ ، فإنَّ الناسَ كلَّهُمْ قدْ هجروا هـٰذهِ العلومَ ، واشتغلوا بالتوسُّطِ بينَ الخلقِ في الخصوماتِ الثائرةِ مِنِ اتباعِ الشهواتِ ، وقالوا : هـٰذا هوَ الفقهُ ، وأخرجوا هـٰذا العلمَ الذي هوَ فقهُ الدينِ عنْ جملةِ العلومِ ، وتجرَّدوا لفقهِ الدنيا الذي ما قُصِدَ بهِ إلا دفعُ الشواغلِ عنِ القلوبِ ليُتفرَّغَ لفقهِ الدينِ ، فكانَ فقهُ الدنيا مِنَ الدينِ بواسطةِ هـٰذا الفقهِ ، وفي الخبرِ : (أنتمُ اليومَ في زمانٍ خيرُكُمْ فيهِ المسارعُ ، وسيأتي عليكُمْ زمانٌ خيرُكُمْ فيهِ المتثبِّتُ)[٤]

ولهـٰذا توقَّفَ طائفةٌ مِنَ الصحابةِ في القتالِ معَ أهلِ العراقِ وأهلِ الشامِ لما أشكلَ عليهِمُ الأمرُ ؛ كسعدِ بنِ أبي وقاصٍ ، وعبدِ اللهِ بنِ عمرَ ، وأسامةَ ، ومحمدِ بنِ مسلمةَ ، وغيرِهِمْ[٥]

فمَنْ لمْ يتوقَّفْ عندَ الاشتباهِ . . كانَ متبعاً لهواهُ ، معجباً برأيِهِ ، وكانَ ممَّنْ وصفَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « فإذا رأيتَ شحّاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ . . فعليكَ بخاصَّةِ نفسِكَ »[٦]

وكلُّ مَنْ خاضَ في شبهةٍ بغيرِ تحقيقٍ . . فقدْ خالفَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ، وقولَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إيَّاكُمْ والظنَّ ؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ »[٧] ، وأرادَ بهِ ظنّاً بغيرِ دليلٍ ؛ كما يستفتي بعضُ العوامِّ قلبَهُ فيما أشكلَ عليهِ ويتبعُ ظنَّهُ ، ولصعوبةِ هـٰذا الأمرِ وعظمِهِ كانَ دعاءُ الصديقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (اللَّهم ؛ أرني الحقَّ حقّاً وارزقْني اتباعَهُ ، وأرني الباطلَ باطلاً وارزقْني اجتنابَهُ ، ولا تجعلْهُ متشابهاً عليَّ فأتبعَ الهوىٰ)[٨]

---

(١) قوت القلوب (١٤١/١) ، ورواه يحيى بن الحسين بن إسماعيل الشجري في « الأمالي الشجرية » (٦٣/١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٩/٦) مختصراً ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٨١) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٩٥٤) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٢٣١/٧) .

(٤) قوت القلوب (١٦١/١) ، وهو من كلام ابن مسعود رضي الله عنه .

(٥) انظر تفصيل ذلك في « الإتحاف » (١٠٥/١٠) .

(٦) رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

(٧) رواه البخاري (٦٧٢٤) ، ومسلم (٢٥٦٣) .

(٨) كذا في « القوت » (٧٩/١) ، وسياق المصنف بنحوه عنده .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (الأمورُ ثلاثةٌ : أمرٌ استبانَ رشدُهُ فاتبعْهُ ، وأمرٌ استبانَ غيُّهُ فاجتنبْهُ ، وأمرٌ أشكلَ عليكَ فكلْهُ إلىٰ عالمِهِ)(١)

وقدْ كانَ مِنْ دعاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أقولَ في الدينِ بغيرِ علمٍ »(٢) ، فأعظمُ نعمةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ هوَ العلمُ ، وكشفُ الحقِّ ، والإيمانُ عبارةٌ عنْ نوعِ كشفٍ وعلمٍ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالى امتناناً علىٰ عبدِهِ : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ، وأرادَ بهِ العلمَ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ ، وقالَ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الهوىٰ شريكُ العمىٰ ، ومِنَ التوفيقِ التوقُّفُ عندَ الحيرةِ ، ونعمَ طاردُ الهمِّ اليقينُ ، وعاقبةُ الكذبِ الندمُ ، وفي الصدقِ السلامةُ ، ربَّ بعيدٍ أقربُ مِنْ قريبٍ ، وغريبٌ مَنْ لمْ يكنْ لهُ حبيبٌ ، والصديقُ مَنْ صدقَ غيبُهُ ، ولا يعدمْكَ مِنْ حبيبٍ سوءُ الظنِّ ، نعمَ الخُلُقُ التكرُّمُ ، والحياءُ سببٌ إلىٰ كلِّ جميلٍ ، وأوثقُ العرى التقوىٰ ، وأوثقُ سببٍ أخذتَ بهِ سببٌ بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، إنَّما لكَ مِنْ دنياكَ ما أصلحتَ بهِ مثواكَ ، والرزقُ رزقانِ : رزقٌ تطلبُهُ ، ورزقٌ يطلبُكَ ، فإنْ لمْ تأتِهِ . . أتاكَ ، وإنْ كنتَ جازعاً علىٰ ما أفلتَ مِنْ يديكَ . . فلا تجزعْ علىٰ ما لمْ يصلْ إليكَ ، واستدلَّ علىٰ ما لمْ يكنْ بما كانَ ؛ فإنَّما الأمورُ أشباهٌ ، والمرءُ يسرُّهُ دركُ ما لمْ يكنْ ليفوتَهُ ، ويسوءُهُ فوتُ ما لمْ يكنْ ليدركَهُ ، فما نالَكَ مِنْ دنياكَ فلا تكثرَنْ بهِ فرحاً ، وما فاتَكَ منها فلا تتبعْهُ نفسَكَ أسفاً ، وليكنْ سرورُكَ بما قدَّمتَ وأسفُكَ علىٰ ما خلَّفتَ ، وشغلُكَ لآخرتِكَ ، وهمُّكَ فيما بعدَ الموتِ)(٣) ، وغرضُنا مِنْ نقلِ هٰذهِ الكلماتِ قولُهُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ومِنَ التوفيقِ التوقُّفُ عندَ الحيرةِ) .

فإذاً ؛ النظرُ الأوَّلُ للمراقبِ نظرُهُ في الهمِّ والحركةِ : أهيَ للهِ أمْ للهوىٰ ؟ وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ استكملَ إيمانَهُ : لا يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ ، ولا يرائي بشيءٍ مِنْ عملِهِ ، وإذا عرضَ لهُ أمرانِ ؛ أحدُهُما للدنيا ، والآخرُ للآخرةِ . . آثرَ الآخرةَ على الدنيا »(٤) .

وأظهرُ ما ينكشفُ لهُ في حركاتِهِ أنْ يكونَ مباحاً ولٰكنْ لا يعنيهِ ، فيتركُهُ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ حسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ »(٥)

❀ ❀ ❀

النظرُ الثاني للمراقبةِ عندَ الشروعِ في العملِ :

وذٰلكَ بتفقُّدِ كيفيةِ العملِ ليقضيَ حقَّ اللهِ تعالىٰ فيهِ ، ويحسنَ النيةَ في إتمامِهِ ، ويكمِّلَ صورتَهُ ، ويتعاطاهُ علىٰ أكملِ ما يمكنُهُ ، وهٰذا ملازمٌ لهُ في جميعِ أحوالِهِ ، فإنَّهُ لا يخلو في جميعِ أحوالِهِ عنْ حركةٍ وسكونٍ ، فإذا راقبَ اللهَ تعالىٰ في جميعِ ذٰلكَ . . قدرَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ فيها بالنيةِ ، وحسنِ الفعلِ ، ومراعاةِ الأدبِ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣١٨/١٠) .

(٢) أورده الإمام أبو طالب في « قوته » (٧٩/١) من دعاء علي رضي الله عنه ، وقال سبحانه في حق النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ .

(٣) قوت القلوب (٧٦/١) إلىٰ قوله : (الأمور أشباه) ، وهو ضمن خطبة عند العسكري في « المواعظ » كما في « كنز العمال » (٤٤٢١٥) .

(٤) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/٣٨) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢٧٠/٤) ، والطبراني في « الكبير » (٣٢٠/١٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٧٢/٧) .

فإنْ كانَ قاعداً مثلاً . . فينبغي أنْ يقعدَ مستقبلَ القبلةِ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ المجالسِ ما استُقبلَ بِهِ القبلةُ »[1] ، ولا يجلسُ متربّعاً ؛ إذْ لا يُجالسُ الملوكُ كذٰلكَ ، وملكُ الملوكِ مطلعٌ عليهِ ، قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : جلستُ مرَّةً متربعاً ، فسمعتُ هاتفاً يقولُ : هٰكذا تُجالَسُ الملوكُ ؟! فلمْ أجلسْ بعدَ ذٰلكَ متربعاً .

وإنْ كانَ ينامُ . . فينامُ على اليدِ اليمنىٰ مستقبلَ القبلةِ ، معَ سائرِ الآدابِ التي ذكرناها في مواضعِها ، فكلُّ ذٰلكَ داخلٌ في المراقبةِ ، بلْ لوْ كانَ في قضاءِ الحاجةِ . . فمراعاتُهُ لآدابِها وفاءٌ بالمراقبةِ .

فإذاً ؛ لا يخلو العبدُ إمَّا أنْ يكونَ في طاعةٍ ، أوْ معصيةٍ ، أوْ مباحٍ ، فمراقبتُهُ في الطاعةِ بالإخلاصِ ، والإكمالِ ، ومراعاةِ الأدبِ وحراستِها عنِ الآفاتِ ، وإنْ كانَ في معصيةٍ . . فمراقبتُهُ بالتوبةِ ، والندمِ ، والإقلاعِ ، والحياءِ ، والاشتغالِ بالتكفيرِ ، وإنْ كانَ في مباحٍ . . فمراقبتُهُ بمراعاةِ الأدبِ ، ثمَّ بشهودِ المنعمِ في النعمةِ ، وبالشكرِ عليها .

ولا يخلو العبدُ في جملةِ أحوالِهِ عنْ بليةٍ لا بدَّ لهُ مِنَ الصبرِ عليها ، ونعمةٍ لا بدَّ لهُ مِنَ الشكرِ عليها ، وكلُّ ذٰلكَ مِنَ المراقبةِ ، بلْ لا ينفكُّ العبدُ في كلِّ حالٍ مِنْ فرضٍ للهِ تعالىٰ عليهِ : إمَّا فعلٍ يلزمُهُ مباشرتُهُ ، أوْ محظورٍ يلزمُهُ تركُهُ ، أوْ ندبٍ حثَّهُ عليهِ ليسارعَ بهِ إلىٰ مغفرةِ اللهِ تعالىٰ ، ويسابقَ بهِ عبادَ اللهِ ، أوْ مباحٍ فيهِ صلاحُ جسمِهِ وقلبِهِ ، وفيهِ عونٌ لهُ علىٰ طاعتِهِ ، ولكلِّ واحدٍ مِنَ ذٰلكَ حدودٌ لا بدَّ مِنْ مراعاتِها بدوامِ المراقبةِ ، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ .

فينبغي أنْ يتفقَّدَ العبدُ نفسَهُ في جميعِ أوقاتِهِ في هٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ ، فإذا كانَ فارغاً مِنَ الفرائضِ ، وقدرَ على الفضائلِ . . فينبغي أنْ يلتمسَ أفضلَ الأعمالِ ليشتغلَ بها ، فإنَّ مَنْ فاتَهُ مزيدُ ربحٍ وهوَ قادرٌ علىٰ دَرْكِهِ . . فهوَ مغبونٌ ، والأرباحُ تُنالُ بمزايا الفضائلِ ، فبذٰلكَ يأخذُ العبدُ مِنْ دنياهُ لآخرتِهِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وكلُّ ذٰلكَ إنَّما يمكنُ بصبرِ ساعةٍ واحدةٍ ، فإنَّ الساعاتِ ثلاثٌ : ساعةٌ مضَتْ لا تعبَ فيها على العبدِ كيفَما انقضَتْ ، في مشقةٍ أوْ في رفاهيةٍ ، وساعةٌ مستقبلةٌ لمْ تأتِ بعدُ ، لا يدري العبدُ أيعيشُ إليها أمْ لا ، ولا يدري ما يقضي اللهُ فيها ، وساعةٌ راهنةٌ ينبغي أنْ يجاهدَ فيها نفسَهُ ، ويراقبَ فيها ربَّهُ ، فإنْ لمْ تأتِهِ الساعةُ الثانيةُ . . لمْ يتحسَّرْ علىٰ فواتِ هٰذهِ الساعةِ ، وإنْ أتتْهُ الساعةُ الثانيةُ . . استوفىٰ حقَّهُ منها كما استوفىٰ مِنَ الأولىٰ ، ولا يطوّلْ أملَهُ خمسينَ سنةً فيطولَ عليهِ العزمُ على المراقبةِ فيها ، بلْ يكونُ ابنَ وقتِهِ ؛ كأنَّهُ في آخرِ أنفاسِهِ ، فلعلَّهُ آخرُ أنفاسِهِ وهوَ لا يدري .

وإذا أمكنَ أنْ يكونَ آخرَ أنفاسِهِ . . فينبغي أنْ يكونَ علىٰ وجهٍ لا يكرهُ أنْ يدركَهُ الموتُ وهوَ علىٰ تلكَ الحالةِ ، وتكونَ جميعُ أحوالِهِ مقصورةً علىٰ ما رواهُ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ مِنْ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يكونُ المؤمنُ ظاعناً إلا في ثلاثٍ : تزوُّدٍ لمعادٍ ، أوْ مَرَمَّةٍ لمعاشٍ ، أوْ لذةٍ في غيرِ محرَّمٍ »[2] ، وما رُوِيَ عنهُ أيضاً في معناهُ : « وعلى العاقلِ أنْ تكونَ لهُ أربعُ ساعاتٍ : ساعةٌ يناجي فيها ربَّهُ ، وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَهُ ، وساعةٌ يفكِّرُ فيها في

(١) رواه بلفظه هنا أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٣٥/٢ ، ٣٢٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٩٠١) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، وهو عند الطبراني في « الأوسط » (٨٣٥٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣٧٦/٢) بلفظ : « أكرم المجالس . . . » ، وروى البخاري في « الأدب المفرد » (١١٣٧) عن سفيان بن منقذ عن أبيه قال : (كان أكثر جلوس عبد الله بن عمر وهو مستقبل القبلة) ، وروى الحاكم في « المستدرك » (٢٦٩/٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « إن لكل شيء شرفاً ، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة . . . » .

(٢) كذا في « القوت » (٨٩/١) ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦٦/١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٤/٢٣) بلفظ : « وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً . . . » ، ومرمة : إصلاح .

صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وساعةٌ يخلو فيها للمطعمِ والمشربِ ، فإنَّ في هـٰذهِ الساعةِ عوناً لهُ علىٰ بقيَّةِ الساعاتِ »[1]

ثمَّ هـٰذهِ الساعةُ التي هوَ فيها مشغولُ الجوارحِ بالمطعمِ والمشربِ لا ينبغي أنْ يخلوَ عنْ عملٍ هوَ أفضلُ الأعمالِ ، وهوَ الذكرُ والفكرُ ، فإنَّ الطعامَ الذي يتناولُهُ مثلاً فيهِ مِنَ العجائبِ ما لوْ تفكَّرَ فيهِ وفطنَ لهُ . . كانَ ذٰلكَ أفضلَ مِنْ كثيرٍ مِنْ أعمالِ الجوارحِ .

والناسُ فيهِ أقسامٌ :

قسمٌ ينظرونَ إليهِ بعينِ التبصُّرِ والاعتبارِ ، فينظرونَ في عجائبِ صنعتِهِ ، وكيفيةِ ارتباطِ قوامِ الحيواناتِ بهِ ، وكيفيةِ تقديرِ اللهِ تعالىٰ لأسبابِهِ ، وخلقِ الشهوةِ الباعثةِ عليهِ ، وخلقِ الآلاتِ المسخرةِ للشهوةِ فيهِ ؛ كما فصَّلنا بعضَهُ في كتابِ الشكرِ ، وهـٰذا مقامُ ذوي الألبابِ .

وقسمٌ ينظرونَ فيهِ بعينِ المقتِ والكراهةِ ، ويلاحظونَ وجهَ الاضطرارِ إليهِ ويودِّهِمْ لوِ استغنوا عنهُ ، ولـٰكنْ يرونَ أنفسَهُمْ مقهورينَ فيهِ ، مسخرينَ لشهواتِهِ ، وهـٰذا مقامُ الزاهدينَ .

وقسمٌ يرونَ في الصنعةِ الصانعَ ، ويترقونَ منها إلىٰ صفاتِ الخالقِ ، فتكونُ مشاهدةُ ذٰلكَ سبباً لتذكُّرِ أبوابٍ مِنَ الفكرِ تنفتحُ عليهِمْ بسببِهِ ، وهوَ أعلى المقاماتِ ، وهوَ مِنْ مقاماتِ العارفينَ وعلاماتِ المحبِّينَ ؛ إذِ المحبُّ إذا رأىٰ صنعةَ حبيبِهِ وكتابَهُ وتصنيفَهُ . . نسيَ الصنعةَ ، واشتغلَ قلبُهُ بالصانعِ ، وكلُّ ما يتردَّدُ العبدُ فيهِ هوَ صنعُ اللهِ تعالىٰ ، فلهُ في النظرِ منهُ إلى الصانعِ مجالٌ رحبٌ إنْ فُتحَتْ لهُ أبوابُ الملكوتِ ، وذٰلكَ عزيزٌ جداً .

وقسمٌ رابعٌ ينظرونَ إليهِ بعينِ الرغبةِ والحرصِ ، فيتأسَّفونَ علىٰ ما فاتَهُمْ منهُ ، ويفرحونَ بما حضرَهُمْ مِنْ جملتِهِ ، ويذمُّونَ منهُ ما لا يوافقُ هواهُمْ ، ويعيبونَهُ ويذمُّونَ فاعلَهُ ، فيذمُّون الطبيخَ والطبَّاخَ ، ولا يعلمونَ أنَّ الفاعلَ للطبيخِ والطبَّاخِ ولقدرتِهِ ولعلمِهِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، وأنَّ مَنْ ذمَّ شيئاً مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ بغيرِ إذنِ اللهِ فقد ذمَّ اللهَ ، ولذٰلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسبُّوا الدهرَ ؛ فإنَّ اللهَ هوَ الدهرُ »[2]

فهـٰذه هيَ المرابطةُ الثانيةُ بمراقبةِ الأعمالِ على الدوامِ والاتصالِ ، وشرحُ ذٰلكَ يطولُ ، وفيما ذكرناهُ تنبيهٌ على المنهاجِ لمَنْ أحكمَ الأصولَ .

❋ ❋ ❋

(١) كذا في « القوت » (٨٩/١) ، وهو ضمن الحديث السابق

(٢) رواه مسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (٤٨٢٦) من حديثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسبُّ الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » .

المرابطة الثالثة
محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكرْ فضيلةَ المحاسبةِ ثمَّ حقيقتَها :

فضيلة المحاسبة[1]

أمَّا الفضيلةُ : فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ ، وهٰذهِ إشارةٌ إلى المحاسبةِ علىٰ ما مضىٰ مِنَ الأعمالِ .

ولذٰلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (حاسبوا أنفسَكُمْ قبلَ أنْ تُحاسبوا ، وزنوها قبلَ أنْ تُوزنوا)[2]

وفي الخبرِ : أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ جاءَهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : « أمستوصٍ أنتَ ؟ » ، قالَ : نعمْ ، فقالَ : « إذا هممتَ بأمرٍ . . فتدبَّرْ عاقبتَهُ ، فإنْ كانَ رشداً . . فأمضِهِ ، وإنْ كانَ غيّاً . . فانتهِ عنهُ »[3]

وفي الخبرِ : « وينبغي للعاقلِ أنْ يكونَ لهُ أربعُ ساعاتٍ . . ساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَهُ » .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ، والتوبةُ نظرٌ في الفعلِ بعدَ الفراغِ منهُ بالندمِ عليهِ .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأستغفرُ اللهَ تعالىٰ وأتوبُ إليهِ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ »[4]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّهُ كانَ يضربُ قدميهِ بالدِّرَّةِ إذا جنَّهُ الليلُ ويقولُ لنفسِهِ : ماذا عملتِ اليومَ ؟

وعنْ ميمونِ بنِ مهرانَ أنَّهُ قالَ : (لا يكونُ العبدُ مِنَ المتقينَ حتىٰ يحاسبَ نفسَهُ أشدَّ مِنْ محاسبةِ شريكِهِ)[5] ، والشريكانِ يتحاسبانِ بعدَ العملِ .

ورُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ أبا بكرٍ رضوانُ اللهِ عليهِ قالَ لها عندَ الموتِ : ما أحدٌ مِنَ الناسِ أحبَّ إليَّ مِنْ عمرَ ، ثمَّ قالَ لها : كيفَ قلتُ ؟ فأعادَتْ عليهِ ما قالَ ، فقالَ : لا ، ما أحدٌ أعزَّ عليَّ مِنْ عمرَ[6] ، فانظرْ كيفَ نظرَ بعدَ الفراغِ مِنَ الكلمةِ ، فتدبَّرَها وأبدَلَها بكلمةٍ غيرِها .

وحديثُ أبي طلحةَ حينَ شغلَهُ الطائرُ في صلاتِهِ ، فتدبَّرَ ذٰلكَ ، فجعلَ حائطَهُ صدقةً للهِ تعالىٰ ندماً ورجاءً للعوضِ ممَّا فاتَهُ[7]

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٥٢) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١) عن عبد الله بن مسور أبي جعفر مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٣٥٩) عن أبي جعفر ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنت مستوصٍ إن أوصيتك ؟ » قلت : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر . . فتدبر عاقبته ؛ فإن كان رشداً . . فأمضه ، وإن كان غيّاً . . فانته » .
(٤) رواه مسلم (٢٧٠٢) وأبو داوود (١٥١٥) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٧) .
(٦) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/٢٤٧) .
(٧) رواه مالك في « الموطأ » (١/٩٨) .

وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ : أنَّهُ حملَ حزمةً مِنْ حطبٍ ، فقيلَ لهُ : يا أبا يوسفَ ؛ قدْ كانَ في بنيكَ وغلمانِكَ مَنْ يكفيكَ هاذا ، فقالَ : أردتُ أنْ أجرِّبَ نفسي هلْ تنكرُهُ ؟[1]

وقالَ الحسنُ : (المؤمنُ قوَّامٌ علىٰ نفسِهِ يحاسبُها للهِ ، وإنَّما خفَّ الحسابُ علىٰ قومٍ حاسبوا أنفسَهُمْ في الدنيا ، وإنَّما شقَّ الحسابُ يومَ القيامةِ علىٰ قومٍ أخذوا هاذا الأمرَ مِنْ غيرِ محاسبةٍ) ، ثمَّ فسَّرَ المحاسبةَ فقالَ : (إنَّ المؤمنَ يفجؤُهُ الشيءُ يعجبُهُ ، فيقولُ : واللهِ ؛ إنَّكَ لتعجبُني ، وإنَّكَ لمنْ حاجتي ، ولاكنْ هيهاتَ !! حيلَ بيني وبينَكَ) ، وهاذا حسابٌ قبلَ العملِ ، ثمَّ قالَ : (ويفرطُ منهُ الشيءُ ، فيرجعُ إلىٰ نفسِهِ فيقولُ : ماذا أردتُ بهاذا ؟ واللهِ لا أعذرُ بهاذا ، واللهِ لا أعودُ لهاذا أبداً إنْ شاءَ اللهُ)[2]

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً وقدْ خرجتُ معَهُ حتىٰ دخلَ حائطاً ، فسمعتُهُ يقولُ وبيني وبينَهُ جدارٌ وهوَ في الحائطِ : (عمرُ بنُ الخطابِ أميرُ المؤمنينَ !! بخٍ بخٍ ، واللهِ ؛ لتتقيَنَّ اللهَ أوْ ليعذِّبَنَّكَ)[3]

وقالَ الحسنُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال : (لا يُلقى المؤمنُ إلا يعاتبُ نفسَهُ ؛ ماذا أردتُ بكلمتي ؟ ماذا أردتُ بشربتي ؟ ماذا أردتُ بأكلتي ؟ والفاجرُ يمضي قدماً لا يعاتبُ نفسَهُ)[4]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (رحمَ اللهُ عبداً قالَ لنفسِهِ : ألستِ صاحبةَ كذا ؟ ألستِ صاحبةَ كذا ؟ ثمَّ ذمَّها ، ثمَّ خطمَها ، ثمَّ ألزمَها كتابَ اللهِ تعالىٰ فكانَ لهُ قائداً)[5] ، وهاذا مِنْ معاتبةِ النفسِ كما سيأتي في موضعِهِ .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (التقيُّ أشدُّ محاسبةً لنفسِهِ مِنْ سلطانٍ غاشمٍ ، ومِنْ شريكٍ شحيحٍ)[6]

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (مثَّلتُ نفسي في الجنةِ ، آكلُ مِنْ ثمارِها ، وأشربُ مِنْ أنهارِها ، وأعانقُ أبكارَها ، ثمَّ مثلتُ نفسي في النارِ ، آكلُ مِنْ زقُّومِها ، وأشربُ مِنْ صديدِها ، وأعالجُ سلاسلَها وأغلالَها ، فقلتُ لنفسي : يا نفسُ ؛ أيَّ شيءٍ تريدينَ ؟ فقالَتْ : أريدُ أنْ أُردَّ إلى الدنيا فأعملَ صالحاً ، قلتُ : فأنتِ في الأمنيَّةِ فاعملي)[7]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (سمعتُ الحجَّاجَ يخطبُ وهوَ يقولُ : رحمَ اللهُ امرأً حاسبَ نفسَهُ قبلَ أنْ يصيرَ الحسابُ إلىٰ غيرِهِ ، رحمَ اللهُ امرأً أخذَ بعنانِ عملِهِ فنظرَ ماذا يريدُ بهِ ، رحمَ اللهُ امرأً نظرَ في مكيالِهِ ، رحمَ اللهُ امرأً نظرَ في ميزانِهِ ، فما زالَ يقولُ : رحمَ اللهُ امرأً ، رحمَ اللهُ امرأً حتىٰ أبكاني)[8]

وحكىٰ صاحبٌ للأحنفِ بنِ قيسٍ قالَ : (كنتُ أصحبُهُ ، فكانَ عامَّةُ صلاتِهِ بالليلِ الدعاءَ ، وكانَ يجيءُ إلى المصباحِ فيضعُ إصبعَهُ فيهِ حتىٰ يحسَّ بالنارِ ، ثمَّ يقولُ لنفسِهِ : يا حنيفُ ؛ ما حملَكَ علىٰ ما صنعتَ يومَ كذا ؟ ما حملَكَ علىٰ ما صنعتَ يومَ كذا ؟)[9] .

❋ ❋ ❋

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤١٦/٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣٣/٢٩) ، ولفظه عند صاحب « الرعاية » (ص ٤١٣) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٥٧) .
(٣) رواه مالك في « الموطأ » (٩٩٢/٢) ، وابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٣) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٤) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٨) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٩) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٠) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٣) ، وفيه : (فيضع إصبعه فيه ثم يقول : حسّ . . .) ، وهو اسم صوت يقال لمن تألم من نحو جمرة .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلمْ : أنَّ العبدَ كما يكونُ لهُ وقتٌ في أوَّلِ النهارِ يشارطُ فيهِ نفسَهُ علىٰ سبيلِ التوصيةِ بالحقِّ . . فينبغي أنْ يكونَ لهُ في آخرِ النهارِ ساعةٌ يطالبُ فيها النفسَ ويحاسبُها علىٰ جميعِ حركاتِها وسكناتِها ؛ كما يفعلُ التجارُ في الدنيا مع الشركاءِ في آخرِ كلِّ سنةٍ أوْ شهرٍ أوْ يومٍ ؛ حرصاً منهُمْ على الدنيا ، وخوفاً مِنْ أنْ يفوتَهُمْ منها ما لوْ فاتَهُمْ . . لكانَتِ الخيرةُ لهم في فواتِهِ ، ولوْ حصلَ ذٰلكَ لهُمْ . . فلا يبقىٰ إلا أياماً قلائلَ ، فكيفَ لا يحاسبُ العاقلُ نفسَهُ فيما يتعلَّقُ بِهِ خطرُ الشقاوةِ والسعادةِ أبدَ الآبادِ ؟! ما هٰذهِ المساهلةُ إلا عنِ الغفلةِ والخذلانِ وقلَّةِ التوفيقِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذٰلكَ .

ومعنى المحاسبةِ معَ الشريكِ : أنْ ينظرَ في رأسِ المالِ ، وفي الربحِ والخسرانِ ؛ ليتبيَّنَ لهُ الزيادةُ مِنَ النقصانِ ، فإنْ كانَ مِنْ فضْلٍ حاصلٍ . . استوفاهُ وشكرَهُ ، وإنْ كانَ مِنْ خسرانٍ . . طالبَهُ بضمانِهِ وكلَّفَهُ تداركَهُ في المستقبلِ ؛ فكذٰلكَ رأسُ مالِ العبدِ في دينِهِ الفرائضُ ، وربحُهُ النوافلُ والفضائلُ ، وخسرانُهُ المعاصي ، وموسمُ هٰذهِ التجارةِ جملةُ النهارِ ، ومعاملةُ نفسِهِ الأمارةِ بالسوءِ ، فيحاسبُها على الفرائضِ أوَّلاً ، فإنْ أدَّاها علىٰ وجهِها . . شكرَ اللهَ تعالىٰ عليهِ ، ورغَّبَها في مثلِها ، وإنْ فوَّتَها مِنْ أصلِها . . طالبَها بالقضاءِ ، وإنْ أدَّاها ناقصةً . . كلَّفَها الجبرانَ بالنوافلِ ، وإنِ ارتكبَ معصيةً . . اشتغلَ بعقابِها وتعذيبِها ومعاتبتِها ؛ ليستوفي منها ما يتداركُ بِهِ ما فرطَ ، كما يصنعُ التاجرُ بشريكِهِ .

وكما أنَّهُ يفتِّشُ في حسابِ الدنيا عنِ الحبَّةِ والقيراطِ ، فيحفظُ مداخلَ الزيادةِ والنقصانِ ؛ حتىٰ لا يُغبنَ في شيءٍ منها . . فينبغي أنْ يتقيَ غبينةَ النفسِ ومكرَها ، فإنَّها خدَّاعةٌ ملبِّسةٌ مكَّارةٌ ، فليطالبْها أوَّلاً بتصحيحِ الجوابِ عنْ جميعِ ما تكلَّمَ بهِ طولَ نهارِهِ ، وليتكفَّلْ بنفسِهِ مِنَ الحسابِ ما سيتولَّاهُ غيرُهُ في صعيدِ القيامةِ ، وهٰكذا عنْ نظرِهِ ، بلْ عنْ خواطرِهِ وأفكارِهِ ، وقيامِهِ ، وقعودِهِ ، وأكلِهِ وشربِهِ ونومِهِ ، وحتىٰ عنْ سكوتِهِ أنَّهُ لِمَ سكتَ ؟ وعنْ سكونِهِ لِمَ سكنَ ؟ فإذا عرفَ مجموعَ الواجبِ على النفسِ ، وصحَّ عندَهُ قدْرٌ أدى الواجبَ فيهِ . . كانَ ذٰلكَ القدْرُ محسوباً لهُ ، فيظهرُ لهُ الباقي علىٰ نفسِهِ ، فليثبتْهُ عليها ، وليكتبْهُ علىٰ صحيفةِ قلبِهِ كما يكتبُ الباقي الذي علىٰ شريكِهِ علىٰ قلبِهِ وفي جريدةِ حسابِهِ .

ثمَّ النفسُ غريمٌ يمكنُ أنْ يُستوفىٰ منهُ الديونُ ، أمَّا بعضُها . . فبالغرامةِ والضمانِ ، وبعضُها بردِّ عينِهِ ، وبعضُها بالعقوبةِ لها علىٰ ذٰلكَ ، ولا يمكنُ شيءٌ مِنْ ذٰلكَ إلا بعدَ تحقيقِ الحسابِ ، وتمييزِ الباقي مِنَ الحقِّ الواجبِ عليهِ ، فإذا حصلَ ذٰلكَ . . اشتغلَ بعدَهُ بالمطالبةِ والاستيفاءِ .

ثمَّ ينبغي أنْ يحاسبَ النفسَ علىٰ جميعِ العمرِ يوماً يوماً ، وساعةً ساعةً ، في جميعِ الأعضاءِ الظاهرةِ والباطنةِ ، كما نُقِلَ عنْ توبةَ بنِ الصمَّةِ وكانَ بالرقَّةِ ، وكانَ محاسباً لنفسِهِ ، فحسَبَ يوماً فإذا هوَ ابنُ ستينَ سنةً ، فحسبَ أيَّامَها فإذا هيَ أحدٌ وعشرونَ ألفَ يومٍ وخمسُ مئةِ يومٍ ، فصرخَ وقالَ : يا ويلتي !! ألقى الملكَ بأحدٍ وعشرينَ ألفَ ذنبٍ ؟! كيفَ وفي كلِّ يومٍ عشرةُ آلافِ ذنبٍ ؟! ثمَّ خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فإذا هوَ ميتٌ ، فسمعوا قائلاً يقولُ : يا لكِ ركضةً إلى الفردوسِ الأعلىٰ !![1]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٧٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩١٦) .

فهٰكذا ينبغي أنْ يحاسبَ نفسَهُ على الأنفاسِ ، وعلىٰ معصيتِهِ بالقلبِ والجوارحِ في كلِّ ساعةٍ ، ولوْ رمى العبدُ بكلِّ معصيةٍ حجراً في دارِهِ . . لامتلأَتْ دارُهُ في مدَّةٍ يسيرةٍ قريبةٍ مِنْ عمرِهِ ، ولٰكنَّهُ يتساهلُ في حفظِ المعاصي ، والملكانِ يحفظانِ عليهِ ذٰلكَ ، ﴿ أَحْصَنهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ .

* * *

المرابطة الرابعة
في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسبَ نفسَهُ ، فلمْ تسلمْ عنْ مقارفةِ معصيةٍ ، وارتكابِ تقصيرٍ في حقِّ اللهِ تعالىٰ . . فلا ينبغي أنْ يهملَها ، فإنَّه إنْ أهملَها . . سهُلَ عليهِ مقارفةُ المعاصي ، وأنسَتْ بها نفسُهُ ، وعسُرَ عليهِ فطامُها ، وكانَ ذٰلكَ سببَ هلاكِها ، بلْ ينبغي أنْ يعاقبَها ، فإذا أكلَ لقمةَ شبهةٍ بشهوةِ نفسٍ . . فينبغي أنْ يعاقبَ البطنَ بالجوعِ ، وإذا نظرَ إلىٰ غيرِ مَحْرمٍ ينبغي أنْ يعاقبَ العينَ بمنعِ النظرِ ، وكذٰلكَ يعاقبُ كلَّ طرفٍ من أطرافِ بدنِهِ بمنعِهِ عنْ شهواتِهِ ، هٰكذا كانَتْ عادةُ سالكي طريقِ الآخرةِ .

فقدْ رُويَ عنْ منصورِ بنِ إبراهيمَ : أنَّ رجلاً مِنَ العبَّادِ كلَّمَ امرأةً ، فلمْ يزلْ حتىٰ وضعَ يدَهُ علىٰ فخذِها ، ثمَّ ندمَ ، فوضعَ يدَهُ على النارِ حتىٰ نشَّتْ[1]

ورُوِيَ أنَّهُ كانَ في بني إسرائيلَ رجلٌ يتعبَّدُ في صومعتِهِ ، فمكثَ كذٰلكَ زماناً طويلاً ، فأشرفَ ذاتَ يومٍ فإذا هوَ بامرأةٍ ، فافتتنَ بها ، وهمَّ بها ، فأخرجَ رجلَهُ لينزلَ إليها ، فأدركَهُ اللهُ بسابقةٍ ، فقالَ : ما هٰذا الذي أريدُ أنْ أصنعَ ؟! فرجعَتْ إليهِ نفسُهُ وعصمَهُ اللهُ ، فندمَ ، فلمَّا أرادَ أنْ يعيدَ رجلَهُ إلى الصومعةِ . . قالَ : هيهاتَ هيهاتَ !! رجْلٌ خرجَتْ تريدُ أنْ تعصيَ اللهَ تعودُ معي في صومعتي ؟! لا يكونُ واللهِ ذٰلكَ أبداً ، فتركَها معلَّقةً في الصومعةِ تصيبُها الأمطارُ والرياحُ والثلجُ والشمسُ حتىٰ تقطَّعَتْ فسقطَتْ ، فشكرَ اللهُ تعالىٰ لهُ ذٰلكَ ، وأنزلَ في بعضِ كتبِهِ ذكرَهُ[2]

ويُحكىٰ عنِ الجنيدِ قالَ : سمعتُ ابنَ الكَرَنْبيِّ يقولُ : أصابَتْني ليلةً جنابةٌ ، فاحتجتُ أنْ أغتسلَ ، وكانَتْ ليلةً باردةً ، فوجدتُ في نفسي تأخُّراً وتقصيراً ، فحدثَتْني نفسي بالتأخيرِ حتىٰ أصبحَ وأسخنَ الماءَ أوْ أدخلَ الحمَّامَ ولا أعينُ علىٰ نفسي ، فقلتُ : واعجباهُ !! أنا أعاملُ اللهَ تعالىٰ في طولِ عمري ، فيجبُ لهُ عليَّ حقٌّ ، فلا أجدُّ في المسارعةِ ، وأجدُ الوقوفَ والتأخُّرَ ؟! آليتُ ألا أغتسلَ إلا في مرقعتي هٰذهِ ، وآليتُ ألا أنزعَها ولا أعصرَها ولا أجففَها في الشمسِ[3]

ويُحكىٰ أنَّ غزوانَ وأبا موسىٰ كانا في بعضِ مغازيهِمْ ، فتكشَّفَتْ جاريةٌ ، فنظرَ إليها غزوانُ ، فرفعَ يدَهُ فلطمَ عينَهُ حتىٰ نفرَتْ وقالَ : إنَّكِ للحَّاظةٌ إلىٰ ما يضرُّكِ[4]

ونظرَ بعضُهُمْ نظرةً واحدةً إلى امرأةٍ ، فجعلَ علىٰ نفسِهِ ألا يشربَ الماءَ الباردَ طولَ حياتِهِ ، فكانَ يشربُ الماءَ الحارَّ لينغِّصَ علىٰ نفسِهِ العيشَ[5]

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٣٩) ، وابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٢) ، ونشَّت : يبست ، والخبر عن منصور بن المعتمر عن إبراهيم النخعي ، ولٰكن في النسخ ما أثبت ، والله أعلم .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٣) .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/٤١٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٦١) عن عتبة بن غزوان الرقاشي قال : قال لي أبو موسى الأشعري : ما لي أرىٰ عينك نافرة ؟ فقلت : إني التفت التفاتة ، فرأيت جارية لبعض الجيش ، فلحظتها لحظة ، فصككتها صكة ، فنفرت ، فصارت إلىٰ ما ترىٰ ، فقال : استغفر ربك ، ظلمت عينك ؛ إن لها أول نظرة وعليك ما بعدها .

(٥) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣/١٤١) ، وصاحب الخبر هو ضيغم بن مالك الراسبي ، والد مالك بن ضيغم الآتي ذكره .

ويُحكىٰ أنَّ حسانَ بنَ أبي سنانٍ مرَّ بغرفةٍ فقالَ : متىٰ بنيَتْ هـٰذهِ ؟ ثـمَّ أقبلَ علىٰ نفسِهِ فقالَ : تسألينَ عمَّا لا يعنيكِ ؟! لأعاقبنَّكِ بصومِ سنةٍ ، فصامَها [١]

وقالَ مالكُ بنُ ضيغمٍ : جاءَ رباحٌ القيسيُّ يسألُ عنْ أبي بعدَ العصرِ ، فقلنا : إنَّهُ نائمٌ ، فقالَ : نومٌ هـٰذهِ الساعةَ ؟! أهذا وقتُ نومٍ ؟! ثمَّ ولَّىٰ منصرفاً ، فأتبعناهُ رسولاً وقلنا : ألا نوقظُهُ لكَ ، فجاءَ الرسولُ وقالَ : هوَ أشغلُ مِنْ أنْ يفهمَ عنِّي شيئاً ، أدركتُهُ وهوَ يدخلُ المقابرَ وهوَ يعاتبُ نفسَهُ ويقولُ : أقُلْتِ : نومٌ هـٰذهِ الساعةَ ؟ أفكانَ هـٰذا عليكِ ؟ ينامُ الرجلُ متىٰ شاءَ ، وما يدريكِ أنَّ هـٰذا ليسَ وقتَ نومٍ ؟! تتكلمينَ بما لا تعلمينَ ، أما إنَّ للهِ عليَّ عهداً لا أنقضُهُ أبداً ؛ لا أوسِّدُكِ الأرضَ لنومٍ حولاً إلا لمرضٍ حائلٍ ، أوْ لعقلٍ زائلٍ ، سوءةً لكِ سوءةً لكِ ، أما تستحينَ ؟! كمْ تُوبَّخينَ ، وعنْ غيِّكِ لا تنتهينَ ؟! قالَ : وجعلَ يبكي وهوَ لا يشعرُ بمكاني ، فلمَّا رأيتُ ذٰلكَ . . انصرفتُ وتركتُهُ [٢]

ويُحكىٰ أنَّ تميماً الداريَّ نامَ ليلةً لمْ يقمْ فيها يتهجَّدُ ، فقامَ سنةً لمْ ينمْ فيها عقوبةً للذي صنعَ [٣]

وعنْ طلحةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : انطلقَ رجلٌ ذاتَ يومٍ فنزعَ ثيابَهُ وتمرَّغَ في الرمضاءِ ، وكانَ يقولُ لنفسِهِ : ذوقي ، نارُ جهنَّمَ أشدُّ حرّاً ، أجيفةٌ بالليلِ بطَّالةٌ بالنهارِ ؟! قالَ : فبينا هوَ كذٰلكَ . . إذْ أبصرَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في ظلِّ شجرةٍ ، فأتاهُ فقالَ : غلبَتْني نفسي ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألمْ يكنْ لكَ بدٌّ مِنَ الذي صنعتَ ؟ أما لقدْ فُتحَتْ لكَ أبوابُ السماءِ ، ولقدْ باهى اللهُ بكَ الملائكةَ » ، ثمَّ قالَ لأصحابِهِ : « تزوَّدوا مِنْ أخيكُمْ » ، فجعلَ الرجلُ يقولُ لهُ : يا فلانُ ؛ ادعُ لي ، يا فلانُ ؛ ادعُ لي ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عُمَّهُمْ » ، فقالَ : اللهمَّ ، اجعلِ التقوىٰ زادَهُمْ ، واجمعْ على الهدىٰ أمرَهُمْ ، فجعلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « اللهمَّ ، سدِّدْهُ » ، فقالَ الرجلُ : اللهمَّ ، اجعلِ الجنَّةَ مآبَهُمْ [٤]

وقالَ حذيفةُ بنُ قتادةَ : قيلَ لرجلٍ : كيفَ تصنعُ بنفسِكَ في شهواتِها ؟ فقالَ : ما علىٰ وجهِ الأرضِ نفسٌ أبغضَ إليَّ منها ، فكيفَ أعطيها شهواتِها ؟! [٥]

ودخلَ ابنُ السمَّاكِ علىٰ داوودَ الطائيِّ حينَ ماتَ وهوَ في بيتِهِ على الترابِ ، فقالَ : يا داوودُ ؛ سجنتَ نفسَكَ قبلَ أنْ تُسجنَ ، وعذَّبتَ نفسَكَ قبلَ أنْ تُعذَّبَ ، فاليومَ ترىٰ ثوابَ مَنْ كنتَ تعملُ لهُ [٦]

وعنْ وهبِ بنِ منبهٍ : أنَّ رجلاً تعبَّدَ زماناً ، ثـمَّ بدتْ لهُ إلى اللهِ تعالىٰ حاجةٌ ، فصامَ سبعينَ سبتاً يأكلُ في كلِّ سبتٍ إحدىٰ عشرةَ تمرةً ، ثـمَّ سألَ حاجتَهُ ، فلمْ يُعطَها ، فرجعَ إلىٰ نفسِهِ وقالَ : منكِ أتيتُ ، لوْ كانَ فيكِ خيرٌ . .

---

(١) روه أبو نعيم في « الحلية » (٣/١١٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٤) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٣٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٧) ، إذ رواه عن ليث بن أبي سليم عن طلحة ، ولم يعيّن ، فإن كان الصحابي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه . . فالحديث منقطع ، فليث لم يدركه ، وإن كان هو طلحة بن مصرف . . فالحديث مرسل ، إذ روايته عن الصحابة وكبار التابعين ، انظر بيان هـٰذا في « الإتحاف » (١٠/١١٧) ، والحديث رواه عن بريدة رضي الله عنه الروياني في « مسنده » (١) ، والطبراني في « الكبير » (٢/٢٢) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/٤٣٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٦٨) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/٣٤٠) .

لأُعطيتِ حاجتَكِ ، فنزلَ إليهِ ملكٌ وقالَ : يا بنَ آدمَ ؛ ساعتُكَ هـٰذهِ خيرٌ مِنْ عبادتِكَ التي مضَتْ ، وقدْ قضى اللهُ حاجتَكَ [١]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ قيسٍ : كنَّا في غزاةٍ لنا ، فحضرَ العدوُّ ، فصيحَ في الناسِ ، فقاموا إلى المصافِّ في يومٍ شديدِ الريحِ ، وإذا رجلٌ أمامي وهوَ يخاطبُ نفسَهُ ويقولُ : أيْ نفسي ؛ ألمْ أشهدْ مشهدَ كذا وكذا فقلتِ لي : أهلَكَ وعيالَكَ ، فأطعتُكِ ورجعتُ ، ألمْ أشهدْ مشهدَ كذا وكذا ، فقلتِ لي : أهلَكَ وعيالَكَ ، فأطعتُكِ ورجعتُ ، واللهِ ؛ لأعرضنَّكِ اليومَ على اللهِ أخذَكِ أوْ تركَكِ ، فقلتُ : لأرمقنَّهُ اليومَ ، فرمقتُهُ ، فحملَ الناسُ علىٰ عدوِّهِمْ ، فكانَ في أوائلِهِمْ ، ثمَّ إنَّ العدوَّ حملَ على الناسِ فانكشفوا ، فكانَ في موضعِهِ حتى انكشفوا مرَّاتٍ وهوَ ثابتٌ يقاتلُ ، فواللهِ ؛ ما زالَ ذاكَ دأبَهُ حتىٰ رأيتُهُ صريعاً ، فعددتُ بهِ وبدابتِهِ ستينَ أوْ أكثرَ مِنْ ستينَ طعنةً [٢]

وقدْ ذكرنا حديثَ أبي طلحةَ لمَّا اشتغلَ قلبُهُ في الصلاةِ بطائرٍ في حائطِهِ ، فتصدَّقَ بالحائطِ كفَّارةً لذٰلكَ [٣] ، وأنَّ عمرَ كانَ يضربُ قدميهِ بالدِّرَّةِ كلَّ ليلةٍ ويقولُ : ماذا عملتِ اليومَ ؟

وعنْ مجمعٍ أنَّهُ رفعَ رأسَهُ إلى السطحِ ، فوقعَ بصرُهُ على امرأةٍ ، فجعلَ علىٰ نفسِهِ ألا يرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ما دامَ في الدنيا [٤]

وكانَ الأحنفُ بنُ قيسٍ لا يفارقُهُ المصباحُ بالليلِ ، فكانَ يضعُ إصبعَهُ عليهِ ويقولُ لنفسِهِ : ما حملَكِ علىٰ أنْ صنعتِ يومَ كذا كذا ؟ [٥]

وأنكرَ وهيبُ بنُ الوردِ شيئاً علىٰ نفسِهِ ، فنتفَ شعراتٍ علىٰ صدرِهِ حتىٰ عظُمَ ألمُهُ ، ثمَّ جعلَ يقولُ لنفسِهِ : ويحَكِ !! إنَّما أريدُ بكِ الخيرَ [٦]

ورأىٰ محمدُ بنُ بشرٍ داوودَ الطائيَّ وهوَ يأكلُ عندَ إفطارِهِ خبزاً بغيرِ ملحٍ ، فقالَ لهُ : لوْ أكلتَهُ بملحٍ ، فقالَ : إنَّ نفسي لتدعوني إلى الملحِ منذُ سنةٍ ، ولا ذاقَ داوودُ ملحاً ما دامَ في الدنيا [٧]

فهـٰكذا كانَتْ عقوبةُ أولي الحزمِ لأنفسِهِمْ ، والعجبُ أنَّكَ تعاقبُ عبدَكَ وأمتَكَ وأهلَكَ وولدَكَ علىٰ ما يصدرُ منهُمْ مِنْ سوءِ خلقٍ وتقصيرٍ في أمرٍ ، وتخافُ أنَّكَ لوْ تجاوزتَ عنهُمْ . . لخرجَ أمرُهُمْ عنِ الاختيارِ وبغوا عليكَ ؛ ثمَّ تهملُ نفسَكَ وهيَ أعظمُ عدوٍّ لكَ ، وأشدُّ طغياناً عليكَ ، وضررُكَ مِنْ طغيانِها أعظمُ مِنْ ضررِكَ مِنْ طغيانِ أهلِكَ ، فإنَّ غايتَهُمْ أنْ يشوِّشوا عليكَ معيشةَ الدنيا ، ولوْ عقلتَ . . لعلمتَ أنَّ العيشَ عيشُ الآخرةِ ؛ وأنَّ فيهِ النعيمَ المقيمَ الذي لا آخرَ لهُ ؛ ونفسُكَ هيَ التي تنغِّصُ عليكَ عيشَ الآخرةِ ، فهيَ بالمعاقبةِ أولىٰ مِنْ غيرِها .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٦٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٧٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٢٥) .
(٣) رواه مالك في « الموطأ » (٩٨/١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » . « إتحاف » (١١٨/١٠) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٣) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » . « إتحاف » (١١٩/١٠) .
(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤٩/٧) .

المرابطة الخامسة
المجاهدة

وهوَ أنَّهُ إذا حاسبَ نفسَهُ فرآها قدْ قارفَتْ معصيةً . . فينبغي أنْ يعاقبَها بالعقوباتِ التي مضَتْ ، وإنْ رآها تتوانىٰ بحكمِ الكسلِ في شيءٍ مِنَ الفضائلِ أوْ وردٍ مِنَ الأورادِ . . فينبغي أنْ يؤدِّبَها بتثقيلِ الأورادِ عليها ، ويلزمَها فنوناً مِنَ الوظائفِ جبراً لما فاتَ منهُ ، وتداركاً لما فرطَ ، فهٰكذا كانَ يعملُ عمَّالُ اللهِ تعالىٰ .

فقدْ عاقبَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ نفسَهُ حينَ فاتَتْهُ صلاةُ العصرِ في جماعةٍ بأنْ تصدَّقَ بأرضٍ كانَتْ لهُ قيمتُها مئتا ألفِ درهمٍ .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما إذا فاتَتْهُ صلاةٌ في جماعةٍ . . أحيا تلكَ الليلةَ [1] ، وأخَّرَ ليلةً صلاةَ المغربِ حتىٰ طلعَ كوكبانِ ، فأعتقَ رقبتينِ [2]

وفاتَ ابنَ أبي ربيعةَ ركعتا الفجرِ ، فأعتقَ رقبةً [3]

وكانَ بعضُهُمْ يجعلُ علىٰ نفسِهِ صومَ سنةٍ ، أوِ الحجَّ ماشياً ، أوِ التصدُّقَ بجميعِ مالِهِ ، كلُّ ذٰلكَ مرابطةٌ للنفسِ ومؤاخذةٌ لها بما فيهِ نجاتُها

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : إنْ كانَتْ نفسي لا تطاوعُني على المجاهدةِ والمواظبةِ على الأورادِ . . فما سبيلُ معالجتِها ؟

فأقولُ : سبيلُكَ في ذٰلكَ أنْ تسمعَها ما وردَ في الأخبارِ مِنْ فضلِ المجتهدينَ [4] ، ومِنْ أنفعِ أسبابِ العلاجِ : أنْ تطلبَ صحبةَ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ مجتهدٍ في العبادةِ ، فتلاحظَ أحوالَهُ ، وتقتديَ بهِ ، كانَ بعضُهُمْ يقولُ : (كنتُ إذا اعترتْني فترةٌ في العبادةِ . . نظرتُ إلىٰ محمدِ بنِ واسعٍ وإلى اجتهادِهِ ، فعملتُ علىٰ ذٰلكَ أسبوعاً) [5]

إلا أنَّ هٰذا علاجٌ قدْ تعذَّرَ ؛ إذْ قدْ فُقِدَ في هٰذا الزمانِ مَنْ يجتهدُ في العبادةِ اجتهادَ الأوَّلينَ ، فينبغي أنْ يعدلَ مِنَ المشاهدةِ إلى السماعِ ، فلا شيءَ أنفعُ مِنْ سماعِ أحوالِهِمْ ، ومطالعةِ أخبارِهِمْ ، وما كانوا فيهِ مِنَ الجهدِ الجهيدِ ، وقدِ انقضىٰ تعبُهُمْ ، وبقيَ ثوابُهُمْ ونعيمُهُمْ أبدَ الآبادِ لا ينقطعُ ، فما أعظمَ ملكَهُمْ !! وما أشدَّ حسرةَ مَنْ لا يقتدي بهِمْ !! فيمتِّعُ نفسَهُ أياماً قلائلَ بشهواتٍ مكدَّرةٍ ، ثمَّ يأتيهِ الموتُ ، ويُحالُ بينَهُ وبينَ كلِّ ما يشتهيهِ أبدَ الآبادِ ، نعوذُ باللهِ تعالىٰ مِنْ ذٰلكَ .

ونحنُ نوردُ مِنْ أوصافِ المجتهدينَ وفضائلِهِمْ ما يحرِّكُ رغبةَ المريدِ في الاجتهادِ ؛ اقتداءً بهِمْ :

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٣/١) أنه كان إذا فاتته صلاة العشاء في جماعة . . أحيا تلك الليلة .

(٢) قوت القلوب (٢٦/١) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤٧٨٠) .

(٤) كذا في جميع النسخ ، وصُحِّفتْ في نسخة الحافظ العراقي إلى (المتهجدين) ، فأورد أخباراً في فضائل التهجد ، انظر « الإتحاف » (١٢٠/١٠) ، أما أخبار المجتهدين . . فسيوردها المصنف قريباً

(٥) كذا في « القوت » (٢١٩/٢) ، والقائل هو جعفر بن سليمان ، وعنه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤٧/٢) قال : (كنت إذا وجدت من قلبي قسوة . . نظرت إلىٰ وجه محمد بن واسع نظرة ، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع . . حسبت أن وجهه وجه ثكلىٰ) .

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ أقواماً يحسبُهُمُ الناسُ مرضىٰ وَمَا هُمْ بمرضىٰ » ، قالَ الحسنُ : أجهدَتْهُمُ العبادةُ[(١)]

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ ، قالَ الحسنُ : يعملونَ ما عملوا مِنْ أعمالِ البرِّ ، ويخافونَ ألا ينجيَهُمْ ذٰلكَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ طالَ عمرُهُ وحسُنَ عملُهُ »[(٢)]

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لملائكتِهِ : ما بالُ عبادي مجتهدينَ ؟ فيقولونَ : إلٰهنا ؛ خوَّفتَهُمْ شيئاً فخافوهُ ، وشوَّقتَهُمْ إلىٰ شيءٍ فاشتاقوا إليهِ ، فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : فكيفَ لوْ رآني عبادي ؛ لكانوا أشدَّ اجتهاداً[(٣)]

وقالَ الحسنُ : (أدركتُ أقواماً وصحبتُ طوائفَ منهُمْ ما كانوا يفرحونَ بشيءٍ مِنَ الدنيا أقبلَ ، ولا يتأسَّفونَ علىٰ شيءٍ منها أدبرَ ، ولهي كانَتْ أهونَ في أعينِهِمْ مِنْ هٰذا الترابِ الذي تطؤونَهُ بأرجلِكُمْ ، إنْ كانَ أحدُهُمْ ليعيشُ عمرَهُ كلَّهُ ما طُوِيَ لهُ ثوبٌ ، ولا أمرَ أهلَهُ بصنعةِ طعامٍ قطُّ ، ولا جعلَ بينَهُ وبينَ الأرضِ شيئاً قطُّ ، وأدركتُهُمْ عاملينَ بكتابِ ربِّهِمْ وسنةِ نبيِّهِمْ ، إذا جنَّهُمُ الليلُ . . فقيامٌ علىٰ أطرافِهِمْ ، يفترشونَ وجوهَهُمْ ، تجري دموعُهُمْ علىٰ خدودِهِمْ ، يناجونَ ربَّهُمْ في فكاكِ رقابِهِمْ ، إذا عملوا الحسنةَ . . فرحوا بها ، ودأبوا في شكرِها ، وسألوا اللهَ أنْ يتقبَّلَها ، وإذا عملوا السيئةَ . . أحزنَتْهُمْ ، وسألوا اللهَ أنْ يغفرَها لهُمْ ، واللهِ ؛ ما زالوا كذٰلكَ وعلىٰ ذٰلكَ ، وواللهِ ، ما سلموا مِنَ الذنوبِ ولا نجوا إلا بالمغفرةِ)[(٤)]

ويُحكىٰ أنَّ قوماً دخلوا علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ يعودونَهُ في مرضِهِ ، وإذا فيهِمْ شابٌّ ناحلُ الجسمِ ، فقالَ لهُ عمرُ : يا فتىٰ ؛ ما الذي بلغَ بكَ ما أرىٰ ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ : أسقامٌ وأمراضٌ ، فقالَ : سألتُكَ باللهِ إلا صدقتَني ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ذقتُ حلاوةَ الدنيا فوجدتُها مرَّةً ، وصغُرَ عندي زهرتُها وحلاوتُها ، واستوىٰ عندي ذهبُها وحجرُها ، وكأني أنظرُ إلىٰ عرشِ ربِّي والناسُ يُساقونَ إلى الجنةِ والنارِ ، فأظمأتُ لذٰلكَ نهاري ، وأسهرتُ لهُ ليلي ، وقليلٌ حقيرٌ كلُّ ما أنا فيهِ في جنبِ ثوابِ اللهِ تعالىٰ وعقابِهِ[(٥)]

وقالَ أبو نعيمٍ[(٦)] : كانَ داوودُ الطائيُّ يشربُ الفتيتَ ، ولا يأكلُ الخبزَ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : (بينَ مضْغِ الخبزِ وشربِ الفتيتِ قراءةُ خمسينَ آيةً) ، ودخلَ رجلٌ عليهِ يوماً فقالَ : إنَّ في سقفِ بيتِكَ جذْعاً مكسوراً ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ إنَّ لي في البيتِ منذُ عشرينَ سنةً ما نظرتُ إلى السقفِ ، وكانوا يكرهونَ فضولَ النظرِ كما يكرهونَ فضولَ الكلامِ[(٧)]

---

(١) كذا روى ابنُ المبارك في « الزهد » (٩٢) المرفوع مرسلاً من قول الحسن وعقبه قول الحسن هنا ، وفيه : (قوماً) بدل (أقواماً) .

(٢) رواه ابن الجعد في « مسنده » (٣٥٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١١/٦) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه مرفوعاً ، وروى الترمذي (٢٣٣٠) عن أبي بكرة رضي الله عنه نحوه مرفوعاً

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٢١/١٠) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٦٠/٤) عن وهب بن منبه ، والمعنىٰ في حديث البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) ، وفيه : « وكيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك . . كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً وتحميداً ، وأكثر لك تسبيحاً . . . » الحديث .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (١٦٤٣) .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٦٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩١/٦٨) .

(٦) هو الفضل بن دكين ، لا صاحب « الحلية » .

(٧) الخبر بتمامه رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٦) عن أبي إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي ، عن أبي نعيم الفضل بن دكين ، والجملة الأخيرة رويت له مفردة أيضاً ، ونحوها عند أبي نعيم في « الحلية » (٣٥٢/٧) .

وقالَ محمدُ بنُ عبدِ العزيزِ : جلسنا إلىٰ أحمدَ بنِ رزينٍ مِنْ غدوةٍ إلى العصرِ ، فما التفتَ يمنةً ولا يسرةً ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ العينينِ لينظرَ بهما العبدُ إلىٰ عظمةِ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ مَنْ نظرَ بغيرِ اعتبارٍ . . كُتبَتْ عليهِ خطيئةٌ[1]

وقالَتْ امرأةُ مسروقٍ : ما كانَ يوجدُ مسروقٌ إلا وساقاهُ منتفختانِ مِنْ طولِ الصلاةِ ، وقالَتْ : واللهِ ؛ إنْ كنتُ لأجلسُ خلفَهُ فأبكي رحمةً لهُ[2]

وقالَ أبو الدرداءِ : (لولا ثلاثٌ . . ما أحببتُ العيشَ يوماً واحداً : الظمأُ للهِ بالهواجرِ ، والسجودُ للهِ في جوفِ الليلِ ، ومجالسةُ أقوامٍ ينتقونَ أطايبَ الكلامِ كما يُنتقىٰ أطايبُ الثمرِ)[3]

وكانَ الأسودُ بنُ يزيدَ يجتهدُ في العبادةِ ، ويصومُ في الحرِّ ، حتىٰ يخضرَّ جسدُهُ ويصفرَّ ، وكانَ علقمةُ بنُ قيسٍ يقولُ لهُ : لِمَ تعذِّبُ نفسَكَ ؟ فيقولُ : كرامتَها أريدُ[4]

وكانَ يصومُ حتىٰ يخضرَّ جسدُهُ ، ويصلِّي حتىٰ يسقطَ ، فدخلَ عليهِ أنسُ بنُ مالكٍ والحسنُ ، فقالا لهُ : إنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ لمْ يأمرْكَ بكلِّ هٰذا ، فقالَ : إنَّما أنا عبدٌ مملوكٌ ، لا أدعُ مِنَ الاستكانةِ شيئاً إلا جئتُ بهِ[5]

وكانَ بعضُ المجتهدينَ يصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ حتىٰ أقعدَ مِنْ رجليهِ[6] ، فكانَ يصلِّي جالساً ألفَ ركعةٍ ، فإذا صلَّى العصرَ . . احتبىٰ ثمَّ قالَ : (عجبتُ للخليقةِ كيفَ أرادَتْ بكَ بدلاً منكَ !! عجبتُ للخليقةِ كيفَ أنسَتْ بسواكَ !! بلْ عجبتُ للخليقةِ كيفَ استنارَتْ قلوبُها بذكرِ سواكَ !!)[7]

وكانَ ثابتٌ البنانيُّ قدْ حُبِّبَ إليهِ الصلاةُ ، فكانَ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ أذنتَ لأحدٍ أنْ يصليَ لكَ في قبرِهِ . . فأذَنْ لي أنْ أصلِّيَ في قبري)[8]

وقالَ الجنيدُ : (ما رأيتُ أعبدَ مِنَ السريِّ ، أتَتْ عليهِ ثمانٌ وتسعونَ سنةً ما رُئِيَ مضطجعاً إلا في علَّةِ الموتِ)[9] .

وقالَ الحارثُ بنُ سعدٍ : مرَّ قومٌ براهبٍ ، فرأَوا ما يصنعُ بنفسِهِ مِنْ شدَّةِ اجتهادِهِ ، فكلَّموهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : وما هٰذا عندَ ما يُرادُ بالخلقِ مِنْ ملاقاةِ الأهوالِ وهمْ غافلونَ ؟! قدِ اعتكفوا علىٰ حظوظِ أنفسِهِمْ ، ونسوا حظَّهُمُ الأكبرَ مِنْ ربِّهِمْ ، فبكى القومُ عنْ آخرِهِمْ .

وعنْ أبي محمدٍ المغازليِّ قالَ : جاورَ أبو محمدٍ الجريريُّ بمكةَ سنةً ، فلمْ ينمْ ، ولمْ يتكلَّمْ ، ولمْ يستندْ إلىٰ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٣) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٥) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٧٧) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٦٦) .

(٥) الضمير في قوله : (وكان) يومئ أن صاحب الخبر هو الأسود بن يزيد ، وإنما صاحبه هو العلاء بن زياد ؛ كما رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٤٣) .

(٦) منهم عامر بن عبد الله بن عبد قيس ؛ كما روىٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٩٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١٠) ، ومنهم كهمس بن الحسن كما سيأتي قريباً .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/١٩٥) عن بعضهم .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١٨) .

(٩) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٢) .

عمودٍ ولا إلىٰ حائطٍ ، ولمْ يمدَّ رجليهِ ، فعبرَ عليهِ أبو بكرٍ الكتَّانيُّ ، فسلَّمَ عليهِ وقالَ لهُ : يا أبا محمدٍ ؛ بِمَ قدرتَ علىٰ اعتكافِكَ هـٰذا ؟ فقالَ : عَلِمَ صدْقَ باطني ، فأعانَني علىٰ ظاهري ، فأطرقَ الكتانيُّ ومشىٰ مفكِّراً[1]

وعنْ بعضِهِمْ قالَ : دخلتُ علىٰ فتحٍ الموصليِّ ، فرأيتُهُ قدْ مدَّ كفيهِ يبكي حتىٰ رأيتُ الدموعَ تنحدرُ مِنْ بينِ أصابعِهِ ، فدنوتُ منهُ ، فإذا دموعُهُ قدْ خالطَها صفرةٌ ، فقلتُ لهُ : باللهِ يا فتحُ ؛ بكيتَ الدمَ ؟ فقالَ : لولا أنَّكَ حلَّفتَني باللهِ ما أخبرتُكَ ، نعمْ ، بكيتُ دماً ، فقلتُ لهُ : علىٰ ماذا بكيتَ الدموعَ ؟ فقالَ : علىٰ تخلُّفي عنْ واجبِ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، وبكيتُ الدمَ علىٰ الدموعِ لئلا يكونَ لمْ تصحَّ ليَ الدموعُ[2] ، قالَ : فرأيتُهُ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : ما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي ، فقلتُ لهُ : فماذا صنعَ في دموعِكَ ؟ فقالَ : قرَّبَني ربِّي عزَّ وجلَّ وقالَ لي : يا فتحُ ؛ الدمعُ علىٰ ماذا ؟ قلتُ : يا ربِّ ؛ علىٰ تخلُّفي عنْ واجبِ حقِّكَ ، فقالَ : والدمُ علىٰ ماذا ؟ قلتُ : علىٰ دموعي ألا تصحَّ لي ، فقالَ لي : يا فتحُ ؛ ما أردتَ بهـٰذا كلِّهِ ؟ وعزَّتي وجلالي ؛ لقدْ صعدَ حافظاكَ أربعينَ سنةً بصحيفتِكَ ما فيها خطيئةٌ[3]

وقيلَ : إنَّ قوماً أرادوا سفراً ، فحادوا عنِ الطريقِ ، فانتهوا إلىٰ راهبٍ منفردٍ عنِ الناسِ ، فنادَوْهُ ، فأشرفَ عليهِمْ مِنْ صومعتِهِ ، فقالوا : يا راهبُ ؛ إنَّا قدْ أخطأنا الطريقَ ، فكيفَ هوَ الطريقُ ؟ قالَ : فأومأَ برأسِهِ إلى السماءِ ، فعلمَ القومُ ما أرادَ ، فقالوا : يا راهبُ ؛ إنَّا سائلوكَ ، فهلْ أنتَ مجيبُنا ؟ فقالَ : سلوا ولا تكثروا ؛ فإنَّ النهارَ لنْ يرجعَ ، والعمرَ لا يعودُ ، والطالبَ حثيثٌ ، فعجبَ القومُ مِنْ كلامِهِ ، فقالوا : يا راهبُ ؛ علامَ الخَلْقُ غداً عندَ مليكِهِمْ ؟ فقالَ : علىٰ نيَّاتِهِمْ ، فقالوا : أوصِنا ، فقالَ : تزودوا علىٰ قدْرِ سفرِكُمْ ، فإنَّ خيرَ الزادِ ما بلَّغَ البغيةَ ، ثمَّ أرشدَهُمْ إلى الطريقِ ، وأدخلَ رأسَهُ في صومعتِهِ[4]

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ بصومعةِ راهبٍ مِنْ رهبانِ الصينِ ، فناديتُهُ : يا راهبُ ؛ فلمْ يجبْني ، فناديتُهُ الثانيةَ ، فلمْ يجبْني ، فناديتُهُ الثالثةَ ، فأشرفَ عليَّ وقالَ : يا هـٰذا ؛ ما أنا براهبٍ ، إنَّما الراهبُ مَنْ رهبَ اللهَ في سمائِهِ ، وعظَّمَهُ في كبريائِهِ ، وصبرَ علىٰ بلائِهِ ، ورضيَ بقضائِهِ ، وحمدَهُ علىٰ آلائِهِ ، وشكرَهُ علىٰ نعمائِهِ ، وتواضعَ لعظمتِهِ ، وذلَّ لعزَّتِهِ ، واستسلمَ لقدرتِهِ ، وخضعَ لمهابتِهِ ، وفكَّرَ في حسابِهِ وعقابِهِ ، فنهارُهُ صائمٌ ، وليلُهُ قائمٌ ، قدْ أسهرَهُ ذكرُ النارِ ، ومسألةُ الجبَّارِ ، فذٰلكَ هوَ الراهبُ ، وأمَّا أنا . . فكلبٌ عقورٌ ، حبستُ نفسي في هـٰذهِ الصومعةِ عنِ الناسِ لئلا أعقرَهُمْ ، فقلتُ : يا راهبُ ؛ فما الذي قطعَ الخلقَ عنِ اللهِ بعدَ أنْ عرفوهُ ؟ فقالَ : يا أخي ؛ لمْ يقطعِ الخلقَ عنِ اللهِ تعالىٰ إلا حبُّ الدنيا وزينتِها ؛ لأنَّها محلُّ المعاصي والذنوبِ ، فالعاقلُ مَنْ رمىٰ بها عنْ قلبِهِ ، وتابَ إلى اللهِ مِنْ ذنبِهِ ، وأقبلَ علىٰ ما يقرِّبُهُ مِنْ ربِّهِ .

وقيلَ لداوودَ الطائيِّ : لو سرَّحتَ لحيتَكَ ، فقالَ : إنِّي إذاً لفارغٌ[5]

وكانَ أويسٌ القرنيُّ يقولُ : هـٰذهِ ليلةُ الركوعِ ، فيحيي الليلَ كلَّهُ في ركعةٍ ، وإذا كانَتِ الليلةُ الآتيةُ . . قالَ : هـٰذهِ ليلةُ السجودِ ، فيحيي الليلَ كلَّهُ في سجدةٍ[6]

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٩٨/٥) .

(٢) أي : خوفاً من أن تكون دموعي ضاعت سدىً ، وفي غير (ب) : (صحَّت) بدل (لم تصحَّ) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٢٧/٢/٢)

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٢٦) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٣٩/٧) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨٧/٢)

وقيلَ : لمَّا تابَ عتبةُ الغلامُ كانَ لا يتهنَّأُ بالطعامِ والشرابِ ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : لوْ رفقتَ بنفسِكَ ، فقالَ : الرفقَ أطلبُ ، دعيني أتعبُ قليلاً وأتنعَّمُ طويلاً[(١)]

وقيلَ : حجَّ مسروقٌ ، فما نامَ قطُّ إلا ساجداً[(٢)]

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ ، وعندَ المماتِ يحمدُ القومُ التقىٰ)[(٣)]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ داوودَ : (كانَ أحدُهُمْ إذا بلغَ أربعينَ سنةً . . طوىٰ فراشَهُ)[(٤)] أيْ : كانَ لا ينامُ طولَ الليلِ .

وكانَ كهمسُ بنُ الحسنِ يصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ ، ثمَّ يقولُ لنفسِهِ : قومي يا مأوىٰ كلِّ شرٍّ ، فلمَّا ضعُفَ . . اقتصرَ علىٰ خمسِ مئةٍ ، ثمَّ كانَ يبكي ويقولُ : ذهبَ نصفُ عملي[(٥)]

وكانَتِ ابنةُ الربيعِ بنِ خُثيمٍ تقولُ لهُ : يا أبةِ ؛ ما لي أرى الناسَ ينامونَ وأراكَ لا تنامُ ؟ فيقولُ : يا بُنتاهُ ؛ إنَّ أباكِ يخافُ البياتَ[(٦)]

ولمَّا رأَتْ أمُّ الربيعِ ما يلقى الربيعُ مِنَ البكاءِ والسهرِ . . نادتْهُ : يا بنيَّ ؛ لعلَّكَ قتلتَ قتيلاً ؟! فقالَ : نعمْ يا أماهُ ، قالَتْ : فمَنْ هوَ حتىٰ نطلبَ أهلَهُ فيعفوا عنكَ ، فواللهِ ؛ لوْ يعلمونَ ما أنتَ فيهِ . . لرحموكَ وعفَوا عنكَ ، فيقول : يا والدتي ؛ هيَ نفسي[(٧)]

وعنْ عمرَ ابنِ أختِ بشرِ بنِ الحارثِ قالَ : سمعتُ خالي بشرَ بنَ الحارثِ يقولُ لأمِّي[(٨)] : يا أختي ؛ جوفي وخواصري تضربُ عليَّ ، فقالَتْ لهُ أمِّي : يا أخي ؛ تأذنُ لي حتىٰ أصلحَ لكَ قليلَ حساءٍ بكفِّ دقيقٍ عندي تتحسَّاهُ يرمُّ جوفَكَ ؟ فقالَ لها : ويحكِ !! أخافُ أنْ يقولَ : مِنْ أينَ لكَ هـٰذا الدقيقُ ؟ فلا أدري أيشٍ أقولُ لهُ ، فبكَتْ أمِّي ، وبكىٰ معَها ، وبكَيتُ معهُمْ ، قالَ عمرُ : ورأَتْ أمِّي ما ببشرٍ مِنْ شدَّةِ الجوعِ ، وجعلَ يتنفَّسُ نفساً ضعيفاً ، فقالَتْ لهُ أمِّي : يا أخي ؛ ليتَ أمَّكَ لمْ تلدْني ؛ فقدْ واللهِ تقطَّعَتْ كبدي ممَّا أرىٰ بكَ ، فسمعتُهُ يقولُ لها : وأنا فليتَ أمَّكِ لمْ تلدْني ، وإذْ ولدَتْني لمْ يدرَّ ثديُها عليَّ ، قالَ عمرُ : وكانَتْ أمِّي تبكي عليهِ الليلَ والنهارَ[(٩)]

---

(١) بنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٣٦) ، والناصح له هو عبد الواحد بن زيد .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٩٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٥) عن أبي كريمة الكلبي ؛ من عباد أهل الشام ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/١٢٧) : (رواه البيهقي في « الشعب » ، وأبو نعيم في « الحلية ») .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٧) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢١١) مختصراً .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/١١٤) ، والبيات : أن يفجأه العدو ليلاً فيوقع به ، واتفق رسم النسخ : (يا أبة) بالمربوطة ، وهي علىٰ لغة من يقلبها هاءً في الوقف ، وبها قرأ ابن كثير وابن عامر قوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا . . . ﴾ الآية .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١١٤) .

(٨) أخوات بشر هنَّ مضغةٌ ، وهي أكبرهن وأكبر من بشر ، وكانت أنيسه ، ومخةٌ ، وهي صاحبة سؤال ابن حنبل في الغزل ، وزبدةٌ ، ولها روايات عنه ، وكلهنَّ من الخيِّرات الزاهدات ، انظر طرفاً من خبرهن عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/٤٣٧) .

(٩) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/١٢٨) : (رواه أبو الحسن بن جهضم) وذكر إسناده ، ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/٢/١٩٩) .

وقالَ الربيعُ : أتيتُ أويساً ، فوجدتُه جالساً قدْ صلَّى الفجرَ ، ثمَّ جلسَ فجلستُ ، فقلتُ : لا أشغلُهُ عنِ التسبيحِ ، فمكثَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى الظهرَ ، ثمَّ قامَ إلى الصلاةِ حتىٰ صلَّى العصرَ ، ثمَّ جلسَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى المغربَ ، ثمَّ ثبتَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى العشاءَ ، ثمَّ ثبتَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى الصبحَ ، ثمَّ جلسَ ، فغلبتْهُ عيناهُ فقالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عينٍ نوَّامةٍ ، ومِنْ بطنٍ لا تشبعُ ، فقلتُ : حسبي هـٰذا منهُ ، ثمَّ رجعتُ[1]

ونظرَ رجلٌ إلىٰ أويسٍ فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما لي أَرَاكَ كأنَّكَ مريضٌ ؟ فقالَ : وما لأويسٍ ألا يكونَ مريضاً ، يطعمُ المريضُ وأويسٌ غيرُ طاعمٍ ، وينامُ المريضُ وأويسٌ غيرُ نائمٍ ؟! وقالَ أحمدُ بنُ حربٍ : يا عجباً لِمَنْ يعرفُ أنَّ الجنةَ تُزيَّنُ فوقَهُ ، وأنَّ النارَ تُسعرُ تحتَهُ . . كيفَ ينامُ بينَهُما ؟!

وقالَ رجلٌ مِنَ النسَّاكِ : أتيتُ إبراهيمَ بنَ أدهمَ ، فوجدتُهُ قدْ صلَّى العشاءَ ، فقعدتُ أرقُبُهُ ، فلفَّ نفسَهُ بعباءةٍ ، ثمَّ رمىٰ بنفسِهِ ، فلمْ ينقلبْ مِنْ جنبٍ إلىٰ جنبٍ الليلَ كلَّهُ حتىٰ طلعَ الفجرُ وأذَّنَ المؤذِّنُ ، فوثبَ إلى الصلاةِ ولمْ يحدثْ وضوءاً ، فحاكَ ذٰلكَ في صدري ، فقلتُ لهُ : رحمَكَ اللهُ ، قدْ نمتَ الليلَ كلَّهُ مضطجعاً ، ثمَّ لمْ تجدِّدِ الوضوءَ ؟ فقالَ : كنتُ الليلَ كلَّهُ جائلاً في رياضِ الجنةِ أحياناً ، وفي أوديةِ النارِ أحياناً ، فهلْ في ذٰلكَ نومٌ ؟!

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : (أدركتُ رجالاً كانَ أحدُهُمْ يصلِّي ، فيعجزُ حتىٰ ما يأتي فراشَهُ إلا حبواً)[2]

وقيلَ : مكثَ أبو بكرِ بنُ عياشٍ أربعينَ سنةً لا يضعُ جنبَهُ علىٰ فراشٍ[3]

ونزلَ الماءُ في إحدىٰ عينيهِ ، فمكثَ عشرينَ سنةً لا يعلمُ بهِ أهلُهُ[4]

وقيلَ : كانَ وِرْدُ سمنونٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مئةِ ركعةٍ[5]

وعنْ أبي بكرٍ المُطَّوِّعيِّ قالَ : كانَ وردي في شبيبتي كلَّ يومٍ وليلةٍ أقرأُ فيهِ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) إحدىٰ وثلاثينَ ألفَ مرَّةٍ ، أوْ أربعينَ ألفَ مرَّةٍ ، شكَّ الراوي[6]

وكانَ منصورُ بنُ المعتمرِ إذا رأيتَهُ . . قلتَ : رجلٌ أُصيبَ بمصيبةٍ ، منكسرُ الطرْفِ ، منخفضُ الصوتِ ، رطْبُ العينينِ ، إنْ حرَّكتَهُ . . جاءَتْ عيناهُ بأربعٍ[7] ، ولقدْ قالَتْ لهُ أمُّهُ : ما هـٰذا الذي تصنعُ بنفسِكَ ؟ تبكي الليلَ عامَّتَهُ لا تسكتُ ؟! لعلَّكَ يا بنيَّ أصبتَ نفساً ، لعلَّكَ قتلتَ قتيلاً ؟ فيقولُ : يا أمَّهْ ؛ أنا أعلمُ بما صنعتُ بنفسي[8]

وقيلَ لعامرِ بنِ عبدِ اللهِ : كيفَ صبرُكَ علىٰ سهرِ الليلِ وظمأ الهواجرِ ؟ فقالَ : هلْ هوَ إلا أنِّي صرفتُ طعامَ النهارِ إلى الليلِ ، ونومَ الليلِ إلى النهارِ ؟! وليسَ في ذٰلكَ خطيرُ أمرٍ !!

وكانَ يقولُ : ما رأيتُ مثلَ الجنةِ نامَ طالبُها ، وما رأيتُ مثلَ النارِ نامَ هاربُها ، وكانَ إذا جاءَ الليلُ . . قالَ : أذهبَ حرُّ

---

(١) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (١٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/٤٤٣) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٧) من زيادات نعيم بن حماد .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/٣٨٢) .

(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/٣٨٣) .

(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/٢٣٤) .

(٦) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/٢٩١) .

(٧) لغزارة دمعه ، فهو يسيل من اللحظين والموقين ، وانظر « أساس البلاغة » (ر ب ع) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٩٠) ولم يذكر صدره ، وبتمامه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/١/٥٥) .

النارِ النومَ ، فما ينامُ حتىٰ يصبحَ ، فإذا جاءَ النهارُ . . قالَ : أذهبَ حرُّ النارِ النومَ ، فما ينامُ حتىٰ يمسي ، فإذا جاءَ الليلُ . . قالَ : مَنْ خافَ . . أدلجَ ، عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ(١)

وقالَ بعضُهُمْ : صحبتُ عامرَ بنَ عبدِ قيسٍ أربعةَ أشهرٍ ، فما رأيتُهُ نامَ بليلٍ ولا نهارٍ(٢)

ويُروىٰ عنْ رجلٍ مِنْ أصحابِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : صلَّيتُ خلفَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ الفجرَ ، فلمَّا سلَّمَ . . انفتلَ عنْ يمينِهِ وعليهِ كآبةٌ ، فمكثَ حتىٰ طلعَتِ الشمسُ ، ثُمَّ قلَّبَ يدَهُ وقالَ : واللهِ ؛ لقدْ رأيتُ أصحابَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما أرى اليومَ شيئاً يشبهُهُمْ ، كانوا يصبحونَ شعثاً غبراً صفراً ، قدْ باتوا للهِ سُجَّداً وقياماً ، يتلونَ كتابَ اللهِ ، يراوحونَ بينَ أقدامِهِمْ وجباهِهِمْ ، وكانوا إذا ذكروا اللهَ . . مادوا كما يميدُ الشجرُ في يومِ الريحِ ، وهملَتْ أعينُهُمْ حتىٰ تبلَّ ثيابَهُمْ ، وكأنَّ القومَ باتوا غافلينَ ؛ يعني مَنْ كانَ حولَهُ(٣)

وكانَ أبو مسلمٍ الخولانيُّ قدْ علَّقَ سوطاً في مسجدِ بيتِهِ يخوِّفُ بهِ نفسَهُ ، وكانَ يقولُ لنفسِهِ : قومي ، فواللهِ ؛ لأزحفنَّ بكِ زحفاً حتىٰ يكونَ الكللُ منكِ لا مني ، فإذا دخلَتْهُ الفترةُ . . تناولَ سوطَهُ وضربَ بهِ ساقَهُ ويقولُ : أنتِ أولىٰ بالضربِ مِنْ دابتي(٤)

وكانَ يقولُ : أيظنُّ أصحابُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يستأثروا بهِ دونَنا ، كلا ، واللهِ ؛ لنزاحمنَّهُمْ عليهِ زحاماً حتىٰ يعلموا أنَّهُمْ قدْ خلَّفوا وراءَهُمْ رجالاً(٥)

وكانَ صفوانُ بنُ سليمٍ قدْ تعقَّدَتْ ساقاهُ مِنْ طولِ القيامِ ، وبلغَ مِنَ الاجتهادِ ما لوْ قيلَ لهُ : يومُ القيامةِ غداً . . ما وجدَ متزيَّداً(٦)

وكانَ إذا جاءَ الشتاءُ . . اضطجعَ على السطحِ ليضرَّ بهِ البردُ ، وإذا كانَ في الصيفِ . . اضطجعَ داخلَ البيوتِ ليجدَ الحرَّ والغمَّ فلا ينامُ ، وإنَّهُ ماتَ وهوَ ساجدٌ(٧)

وكانَ يقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أحبُّ لقاءَكَ فأحبَّ لقائي(٨)

وقالَ القاسمُ بنُ محمدٍ : غدوتُ يوماً ، وكنتُ إذا غدوتُ . . بدأتُ بعائشةَ رضيَ اللهُ عنها أسلِّمُ عليها ، فغدوتُ يوماً إليها ، فإذا هيَ تصلِّي صلاةَ الضحىٰ وهيَ تقرأُ : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ وتبكي وتدعو وتردِّدُ الآيةَ ، فقمتُ حتىٰ مللتُ وهيَ كما هيَ ، فلمَّا رأيتُ ذٰلكَ . . ذهبتُ إلى السوقِ ، فقلتُ : أفرغُ مِنْ حاجتي ثُمَّ أرجعُ ففرغتُ مِنْ حاجتي ثُمَّ رجعتُ وهيَ كما هيَ تردِّدُ الآيةَ وتدعو وتبكي(٩)

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٥٧) عن عامر بن عبد الله بن عبد قيس ، وهو الآتي ذكره .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٥٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٦/١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٢٧/٢) .

(٥) أورده ابن الجوزي في « التبصرة » (٥٠٠/١) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥٩/٣) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٥٩/٣) بنحوه ضمن خبرين .

(٨) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣٥/٢٤) .

(٩) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٥/٢/١) ، وعزاه لابن أبي الدنيا ابنُ رجب في « فتح الباري » (٢٤٧/٤) .

وقالَ محمدُ بنُ إسحاقَ : لمَّا وردَ علينا عبدُ الرحمـٰنِ بنُ الأسودِ حاجّاً . . اعتلَّتْ إحدىٰ قدميهِ ، فقامَ يصلِّي علىٰ قدمٍ واحدةٍ حتىٰ صلَّى الصبحَ بوضوءِ العشاءِ [1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (ما أخافُ مِنَ الموتِ إلا مِنْ حيثُ يحولُ بيني وبينَ قيامِ الليلِ) [2] .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (سيما الصالحينَ صفرةُ الألوانِ مِنَ السهرِ ، وعمشُ العيونِ مِنَ البكاءِ ، وذبولُ الشفاهِ مِنَ الصومِ ، عليهِمْ غبرةُ الخاشعينَ) [3] .

وقيلَ للحسنِ : ما بالُ المتهجدينَ أحسنُ الناسِ وجوهاً ؟ فقالَ : إنَّهُمْ خلوا بالرحمـٰنِ ، فألبسَهُمْ نوراً مِنْ نورِهِ [4] .

وكانَ عامرُ بنُ عبدِ قيسٍ يقولُ : إلـٰهي ؛ خلقتَني ولمْ تؤامرْني ، وتميتُني ولا تعلمُني ، وخلقتَ معي عدوّاً ، وجعلتَهُ يجري منِّي مجرى الدمِ ، وجعلتَهُ يراني ولا أراهُ ، ثمَّ قلتَ لي : استمسكْ ، إلـٰهي ؛ كيفَ أستمسكُ إنْ لمْ تمسكْني ؟ إلـٰهي ؛ في الدنيا الهمومُ والأحزانُ ، وفي الآخرةِ العقابُ والحسابُ ، فأينَ الراحةُ والفرحُ ؟ [5]

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : كانَ عتبةُ الغلامُ يقطعُ الليلَ بثلاثِ صيحاتٍ ، كانَ إذا صلَّى العتمةَ وضعَ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ يتفكَّرُ ، فإذا مضىٰ ثلثُ الليلِ . . صاحَ صيحةً ثمَّ يضعُ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ يتفكَّرُ ، فإذا مضىٰ ثلثُ الليلِ . . صاحَ صيحةً ثمَّ يضعُ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ يتفكَّرُ ، فإذا كانَ السحرُ . . صاحَ صيحةً ، قالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : فحدثتُ بهِ بعضَ البصريينَ ، فقالَ : لا تنظرْ إلىٰ صياحِهِ ، ولـٰكنِ انظرْ إلىٰ ما كانَ فيهِ بينَ الصيحتينِ حتىٰ صاحَ [6] .

وعنِ القاسمِ بنِ راشدٍ الشيبانيِّ قالَ : كانَ زمعةُ نازلاً عندنا بالمحصَّبِ ، وكانَ لهُ أهلٌ وبناتٌ ، وكانَ يقومُ فيصلِّي ليلاً طويلاً ، فإذا كانَ السحرُ . . نادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : أيُّها الركبُ المعرسونَ ؛ أكلَّ هـٰذا الليلِ ترقدونَ ؟! أفلا تقومونَ فترحلونَ ؟ فيتواثبونَ ، فيُسمعُ مِنْ ها هنا باكٍ ، ومِنْ ها هنا داعٍ ، ومِنْ ها هنا قارئٌ ، ومِنْ ها هنا متوضئٌ ، فإذا طلعَ الفجرُ . . نادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ [7] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنَّ للهِ عباداً أنعمَ عليهِمْ فعرفوهُ ، وشرحَ صدورَهُمْ فأطاعوهُ ، وتوكَّلوا عليهِ فسلَّموا الخلقَ والأمرَ إليهِ ، فصارَتْ قلوبُهُمْ معادنَ لصفاءِ اليقينِ ، وبيوتاً للحكمةِ ، وتوابيتَ للعظمةِ ، وخزائنَ للقدرةِ ، فهُمْ بينَ الخلائقِ مقبلونَ ومدبرونَ ، وقلوبُهُمْ تجولُ في الملكوتِ ، وتلوذُ بمحجوبِ الغيوبِ ، ثمَّ ترجعُ ومعها طرائفُ مِنْ لطيفِ الفوائدِ ما لا يمكنُ واصفاً أنْ يصفَهُ ، فهُمْ في باطنِ أمورِهِمْ كالديباجِ حسناً ، وهمْ في الظاهرِ مناديلُ مبذولونَ لِمَنْ أرادَهُمْ تواضعاً) ، وهـٰذهِ طريقةٌ لا يبلغُ إليها بالتكلُّفِ ، وإنَّما هوَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ .

وقالَ بعضُ الصالحينَ : بينَما أنا أسيرُ في بعضِ جبالِ بيتِ المقدسِ ، إذْ هبطتُ إلىٰ وادٍ هنالكَ ، فإذا أنا بصوتٍ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٠٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/٢٣١) .

(٢) فقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٧٥) عن أبي سليمان الداراني قوله : (لأهل الطاعة بالهمّ ألذ من أهل اللهو بلهوهم ، ولولا الليل . . ما أحببت البقاء في الدنيا) .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/٨٦) عن مجاهد قال : (شيعة علي الحلماء العلماء ، الذبل الشفاه ، الأخيار الذين يعرفون بالرهبانية من أثر العبادة) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٨)

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٨٧) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٣٤) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٦٨) .

قدْ علا ، وإذا تلكَ الجبالُ تجيبُهُ لها دويٌّ عالٍ ، فاتبعتُ الصوتَ ، فإذا أنا بروضةٍ عليها شجرٌ ملتفٌّ ، وإذا أنا برجلٍ قائمٍ فيها يردِّدُ هٰذهِ الآيةَ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ ، قالَ : فجلستُ خلفَهُ أسمعُ كلامَهُ وهوَ يردِّدُ هٰذهِ الآيةَ ؛ إذْ صاحَ صيحةً خرَّ منها مغشياً عليهِ ، فقلتُ : وا أسفاهُ ، هٰذا لشقائي ، ثمَّ انتظرتُ إفاقتَهُ ، فأفاقَ بعدَ ساعةٍ ، فسمعتُهُ وهوَ يقولُ : أعوذُ بكَ مِنْ مقامِ الكذَّابينَ ، أعوذُ بكَ مِنْ أعمالِ البطَّالينَ ، أعوذُ بكَ مِنْ إعراضِ الغافلينَ ، ثمَّ قالَ : لكَ خشعَتْ قلوبُ الخائفينَ ، وإليكَ فزعَتْ آمالُ المقصرينَ ، ولعظمتِكَ ذلَّتْ قلوبُ العارفينَ ، ثمَّ نفضَ يدَهُ فقالَ : ما لي وللدنيا ، وما للدنيا ولي ؟! عليكِ يا دنيا بأبناءِ جنسِكِ ، وأُلَّافِ نعيمِكِ ، إلىٰ محبيكِ فاذهبي ، وإيَّاهُمْ فاخدعي ، ثمَّ قالَ : أينَ القرونُ الماضيةُ ، وأهلُ الدهورِ السالفةِ ؟ في الترابِ يبلونَ ، وعلى الزمانِ يفنونَ ، فناديتُهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ أنا منذُ اليومِ خلفَكَ أنتظرُ فراغَكَ ، فقالَ : وكيفَ يفرغُ مَنْ يبادرُ الأوقاتَ وتبادرُهُ ، يخافُ سبقَها بالموتِ إلىٰ نفسِهِ ؟! أمْ كيفَ يفرغُ مَنْ ذهبتْ أيامُهُ وبقيَتْ آثامُهُ ؟! ثمَّ قالَ : أنتَ لها ولكلِّ شدَّةٍ أتوقَّعُ نزولَها ، ثمَّ لها عنِّي ساعةً وقرأَ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، ثمَّ صاحَ صيحةً أخرىٰ أشدَّ مِنَ الأولىٰ ، فخرَّ مغشياً عليهِ ، فقلتُ : قدْ خرجَتْ نفسُهُ ، فدنوتُ منهُ ، فإذا هوَ يضطربُ ، ثمَّ أفاقَ وهوَ يقولُ : مَنْ أنا ؟ ما خطري ؟ هبْ لي إساءتي مِنْ فضلِكَ ، وجلِّلْني بسترِكَ ، واعفُ عنْ ذنوبي بكرمِ وجهِكَ إذا وقفتُ بينَ يديكَ ، فقلتُ لهُ : بالذي ترجوهُ لنفسِكَ وتثقُ بهِ إلا كلَّمتَني ، فقالَ : عليكَ بكلامِ مَنْ ينفعُكَ كلامُهُ ، ودعْ كلامَ مَنْ أوبقتْهُ ذنوبُهُ ، إنِّي لفي هٰذا الموضعِ مُذْ شاءَ اللهُ أجاهدُ إبليسَ ويجاهدُني ، فلمْ يجدْ عوناً عليَّ ليخرجَني ممَّا أنا فيهِ غيرَكَ ، فإليكَ عنِّي يا مخدوعُ ، فقدْ عطَّلتَ عليَّ لساني ، وميَّلتَ إلىٰ حديثِكَ شعبةً مِنْ قلبي ، فأنا أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكَ ، ثمَّ أرجو أنْ يعيذَني مِنْ سخطِهِ ، ويتفضَّلَ عليَّ برحمتِهِ ، قالَ : فقلتُ : هٰذا وليٌّ للهِ ؛ أخافُ أنْ أشغلَهُ فأُعاقبَ في موضعي هٰذا ، فانصرفتُ وتركتُهُ .

وقالَ بعضُ الصالحينَ : بينَما أنا أسيرُ في مسيرٍ لي إذ ملتُ إلىٰ شجرةٍ لأستريحَ تحتَها ، فإذا أنا بشيخٍ قدْ أشرفَ عليَّ ، فقالَ لي : يا هٰذا ؛ قُمْ ، فإنَّ الموتَ لمْ يمتْ ، ثمَّ هامَ علىٰ وجهِهِ ، فاتبعتُهُ ، فسمعتُهُ وهوَ يقولُ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، اللهمَّ ؛ باركْ لي في الموتِ ، فقلتُ : وفيما بعدَ الموتِ[1] ، فقالَ : مَنْ أيقنَ بما بعدَ الموتِ شمَّرَ مئزرَ الحذرِ ، ولمْ يكنْ لهُ في الدنيا مستقرٌّ ، ثمَّ قالَ : يا مَنْ لوجهِهِ عنتِ الوجوهُ ؛ بيِّضْ وجهي بالنظرِ إليكَ ، واملأْ قلبي مِنَ المحبةِ لكَ ، وأجرني مِنْ ذلَّةِ التوبيخِ غداً عندَكَ ، فقدْ آنَ لي الحياءُ منكَ ، وحانَ لي الرجوعُ عنِ الإعراضِ عنكَ ، ثمَّ قالَ : لولا حلمُكَ . . لمْ يسعْني أجلي ، ولولا عفوُكَ . . لمْ ينبسطْ فيما عندَكَ أملي ، ثمَّ مضىٰ وتركَني .

وقدْ أنشدوا في هٰذا المعنىٰ : [من الوافر]

نَحِيلُ الْجِسْمِ مُكْتَئِبُ الْفُؤادِ ... تَراهُ بِقُنَّةٍ أَوْ بَطْنِ وادِي

يَنُوحُ عَلَىٰ مَعاصٍ فادِحاتٍ ... يُكَدِّرُ ثِقْلُها صَفْوَ الرُّقادِ

فَإِنْ هاجَتْ مَخاوِفُهُ وَزادَتْ ... فَدَعْوَتُهُ أَغِثْنِي يا عِمادِي

فَأَنْتَ بِما أُلاقِيهِ عَلِيمٌ ... كَثِيرُ الصَّفْحِ عَنْ زَلَلِ الْعِبادِ

---

(١) إذ روى الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يوم خمساً وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات على فراشه ، أعطاه الله أجر شهيد » .

وقيلَ أيضاً[1] : [من الوافر]

أَلَـــذُّ مِـــنَ الــتَّـــلَـــذُّذِ بِــالْــغَــوانِــي ... إِذا أَقْــبَــلْــنَ فِــي حُــلَــلٍ حِــسـانِ
مُــنِــيــبٌ فَــرَّ مِـــنْ أَهْـــلٍ وَمـــالٍ ... يَــسِــيــحُ إِلَـــىٰ مَــكــانٍ مِـــنْ مَــكـانِ
لِــيُــخْــمِــلَ ذِكْـــرَهُ وَيَــعِــيــشَ فَـــرْداً ... وَيَــظْــفَــرَ فِــي الْــعِــبــادَةِ بِــالأَمــانِــي
تَــلَـــذُّذُهُ الــتِّــلاوَةُ أَيْـــنَ وَلَّـــىٰ ... وَذِكْـــرٌ بِــالْــفُــؤادِ وَبِــالــلِّــســانِ
وَعِـــنْـــدَ الْــمَـــوْتِ يَــأْتِــيــهِ بَــشِــيــرٌ ... يُــبَــشِّــرُ بِــالــنَّــجــاةِ مِــنَ الْــهَــوانِ
فَـــيُــدْرِكُ مــا أَرادَ وَمـــا تَــمَــنَّــىٰ ... مِــنَ الــرَّاحــاتِ فِــي غُــرَفِ الْــجِــنــانِ

وكانَ كُرزُ بنُ وبرةَ يختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ ثلاثَ مرَّاتٍ ، ويجاهدُ نفسَهُ في العباداتِ غايةَ المجاهدةِ ، فقيلَ لهُ : قدْ أجهدتَ نفسَكَ ، فقالَ : كمْ عمرُ الدنيا ؟ فقيلَ : سبعةُ آلافِ سنةٍ ، فقالَ : كمْ مقدارُ يومِ القيامةِ ، فقيلَ : خمسونَ ألفَ سنةٍ ، فقالَ : كيفَ يعجزُ أحدُكُمْ أنْ يعملَ سُبُعَ يومٍ حتىٰ يأمنَ ذٰلكَ اليومَ ؟! يعني : أنَّكَ لوْ عشتَ عمرَ الدنيا ، واجتهدتَ سبعةَ آلافِ سنةٍ ، وتخلَّصتَ مِنْ يومٍ واحدٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ . . لكانَ ربحُكَ كثيراً ، وكنتَ بالرغبةِ فيهِ جديراً ، فكيفَ وعمرُكَ قصيرٌ والآخرةُ لا غايةَ لها ؟![2]

فهٰكذا كانَتْ سيرةُ السلفِ الصالحينَ في مرابطةِ النفسِ ومراقبتِها ، فمهما تمرَّدَتْ نفسُكَ عليكَ ، وامتنعَتْ مِنَ المواظبةِ على العبادةِ . . فطالعْ أحوالَ هٰؤلاءِ ؛ فإنَّهُ قدْ عزَّ الآنَ وجودُ مثلِهِمْ ، ولوْ قدرتَ علىٰ مشاهدةِ مَنِ اقتدىٰ بهِمْ . . فهوَ أنجعُ في القلبِ ، وأبعثُ على الاقتداءِ ، فليسَ الخبرُ كالمعاينةِ ، وإذا عجزتَ عنْ هٰذا . . فلا تغفُلْ عنْ سماعِ أحوالِ هٰؤلاءِ ، فإنْ لمْ تكنْ إبلٌ . . فمعزىً .

وخيِّرْ نفسَكَ بينَ الاقتداءِ بهِمْ والكونِ في زمرتِهِمْ وغمارِهِمْ وهُمُ العقلاءُ والحكماءُ وذوو البصائرِ في الدينِ ، وبينَ الاقتداءِ بالجهلةِ الغافلينَ مِنْ أهلِ عصرِكَ ، ولا ترضَ لها أنْ تنخرطَ في سلكِ الحمقىٰ ، وتقنعَ بالتشبُّهِ بالأغبياءِ ، وتؤثرَ مخالفةَ العقلاءِ .

فإنْ حدثَتْكَ نفسُكَ بأنَّ هٰؤلاءِ رجالٌ أقوياءُ لا يُطاقُ الاقتداءُ بهِم . . فطالعْ أحوالَ النساءِ المجتهداتِ وقلْ لها : يا نفسُ ؛ ألا تستنكفي أنْ تكوني أقلَّ مِنِ امرأةٍ ؟! فأخسسْ برجلٍ يقصرُ عنِ امرأةٍ في أمرِ دينِها ودنياها !!

❁ ❁ ❁

ولنذكرِ الآنَ نبذةً مِنْ أحوالِ المجتهداتِ :

فقدْ رُوِيَ عنْ حبيبةَ العدويَّةِ أنَّها كانَتْ إذا صلَّتِ العتمةَ . . قامَتْ علىٰ سطحٍ لها ، وشدَّتْ عليها درعَها وخمارَها ، ثمَّ قالَتْ : إلٰهي ؛ قدْ غارَتِ النجومُ ، ونامَتِ العيونُ ، وغلَّقَتِ الملوكُ أبوابَها ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ ، وهٰذا مقامي بينَ يديكَ ، ثمَّ تقبلُ علىٰ صلاتِها ، فإذا كانَ السحرُ وطلعَ الفجرُ . . قالَتْ : إلٰهي ؛ هٰذا الليلُ قدْ أدبرَ ، وهٰذا النهارُ

---

(١) انظر « الكشكول » (٢٧٤/١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤١٨) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٥٨) ، وكونه يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٥٧) .

قدْ أسفَر ، فليتَ شعري أقبلتَ منّي ليلتي فأهنأَ ، أمْ رددتَها عليّ فأُعزّىٰ ؟ وعزّتِكَ ؛ لهٰذا دأبي ودأبُكَ ما أبقيتَني ، وعزتِكَ ؛ لوِ انتهرتَني عَنْ بابِكَ . . ما برحتُ ؛ لما وقعَ في نفسي مِنْ جودِكَ وكرمِكَ[1]

ويُروىٰ عنْ عَجْرَدَةَ أنَّها كانَتْ تحيي الليلَ ، وكانَتْ مكفوفةَ البصرِ ، فإذا كانَ في السحرِ . . نادَتْ بصوتٍ لها محزونٍ : إليكَ قطعَ العابدونَ دجى الليالي ، يستبقونَ إلىٰ رحمتِكَ وفضْلِ مغفرتِكَ ، فبكَ يا إلٰهي أسألُكَ لا بغيرِكَ أنْ تجعلَني في أوَّلِ زمرةِ السابقينَ ، وأنْ ترفعَني لديكَ في عليينَ في درجةِ المقرَّبينَ ، وأنْ تلحقَني بعبادِكَ الصالحينَ ، فأنتَ أرحمُ الرحماءِ ، وأعظمُ العظماءِ ، وأكرمُ الكرماءِ يا كريمُ ، ثمَّ تخرُّ ساجدةً فيُسمعُ لها وَجْبةٌ ، ثمَّ لا تزالُ تدعو وتبكي إلى الفجرِ[2]

وقالَ يحيى بنُ بسطامٍ : كنتُ أشهدُ مجلسَ شَعْوانةَ ، فكنتُ أرىٰ ما تصنعُ مِنَ النياحةِ والبكاءِ ، فقلتُ لصاحبٍ لي : لوْ أتيناها إذا خلتْ فأمرناها بالرفقِ بنفسِها ، فقالَ : أنتَ وذاكَ ، قالَ : فأتيناها ، فقلتُ لها : لوْ رفقتِ بنفسِكِ وأقصرتِ عنْ هٰذا البكاءِ شيئاً ، فكانَ أقوىٰ لكِ علىٰ ما تريدينَ ، قالَ : فبكَتْ ثمَّ قالَتْ : واللهِ ، لوددتُ أنّي أبكي حتىٰ تنفدَ دموعي ، ثمَّ أبكي دماً حتىٰ لا تبقىٰ قطرةٌ مِنْ دمٍ في جارحةٍ مِنْ جوارحِي ، وأنَّىٰ لي بالبكاءِ ، وأنَّىٰ لي بالبكاءِ ؟! فلمْ تزلْ تردِّدُ : (وأنَّىٰ لي بالبكاءِ) حتىٰ غُشِيَ عليها[3]

وقالَ محمدُ بنُ معاذٍ : حدثَتْني امرأةٌ مِنَ المتعبِّداتِ قالَتْ : رأيتُ في منامي كأنّي أُدخلتُ الجنةَ ، فإذا أهلُ الجنَّةِ قيامٌ علىٰ أبوابِهِمْ ، فقلتُ : ما شأنُ أهلِ الجنةِ قيامٌ ؟ فقالَ لي قائلٌ : خرجوا ينظرونَ إلىٰ هٰذهِ المرأةِ التي زُخرفَتِ الجنانُ لقدومِها ، فقلتُ : ومَنْ هٰذهِ المرأةُ ؟ فقيلَ : أمةٌ سوداءُ مِنْ أهلِ الأُبُلَّةِ يُقالُ لها شَعْوانةُ ، قالَتْ : فقلتُ : أختي واللهِ ، قالَتْ : فبينا أنا كذٰلكَ . . إذْ أُقبلَ بها علىٰ نجيبةٍ تطيرُ بها في الهواءِ ، فلما رأيتُها . . ناديتُ : يا أختي ؛ أما ترينَ مكاني مِنْ مكانِكِ ، فلوْ دعوتِ لي مولاكِ فألحقَني بكِ ، قالَتْ : فتبسَّمَتْ إليَّ وقالَتْ : لمْ يأْنِ لقدومِكِ ، ولٰكنِ احفظي عنّي اثنتينِ : ألزمي الحزنَ قلبَكِ ، وقدِّمي محبَّةَ اللهِ علىٰ هواكِ ، ولا يضرُّكِ متىٰ متِّ[4]

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ الحسنِ : كانَتْ لي جاريةٌ روميَّةٌ ، وكنتُ بها معجباً ، فكانَتْ في بعضِ الليالي نائمةً إلىٰ جنبي ، فانتبهَتْ ، فالتمستُها[5] ، فلمْ أجدْها ، فقمتُ أطلبُها ، فإذا هيَ ساجدةٌ وهيَ تقولُ : بحبِّكَ لي إلا ما غفرتَ لي ذنوبي ، فقلتُ لها : لا تقولي : بحبِّكَ لي ، ولٰكنْ قولي : بحبِّي لكَ ، فقالَتْ : لا يا مولايَ ، بحبِّهِ لي أخرجَني مِنَ الشركِ إلى الإسلامِ ، وبحبِّهِ لي أيقظَ عيني وكثيرٌ مِنْ خلقِهِ نيامٌ[6]

وقالَ أبو هاشمٍ القرشيُّ : قدمَتْ علينا امرأةٌ مِنْ أهلِ اليمنِ يُقالُ لها سريةُ ، فنزلَتْ في بعضِ ديارِنا ، قالَ : فكنتُ أسمعُ لها مِنَ الليلِ أنيناً وشهيقاً ، فقلتُ يوماً لخادمٍ لي : أشرفي علىٰ هٰذهِ المرأةِ فانظري ماذا تصنعُ ، قالَ : فأشرفَتْ عليها ، فما رأتْها تصنعُ شيئاً غيرَ أنَّها لا تردُّ طرفَها عنِ السماءِ وهيَ مستقبلةٌ القبلةَ تقولُ : خلقتَ سريةَ ، ثمَّ غذَّيتَها

---

(١) رواه السلمي في « ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات » (ص ٩٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤٥) ، وعجردة هي العمية ، ذكرها السلمي في « المتعبدات الصوفيات » (ص ٥٣) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣٣/٢/٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا « إتحاف » (١٣٩/١٠)

(٥) أي : طلبتها ، وفي غالب النسخ : (لمستها) .

(٦) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٠٩/١٠) ، وعبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري قاضي البصرة

بنعمتِكَ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ ، وكلُّ أحوالِكَ لها حسنةٌ ، وكلُّ بلائِكَ عندَها جميلٌ ، وهيَ معَ ذٰلكَ متعرِّضةٌ لسخطِكَ بالتوثُّبِ علىٰ معاصيكَ فلتةً بعدَ فلتةٍ ، أتراها تظنُّ أنَّكَ لا ترىٰ سوءَ فعالِها وأنتَ عليمٌ خبيرٌ ، وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ؟![1] .

وقالَ ذو النونِ المصريُّ : خرجتُ ليلةً مِنْ وادي كنعانَ ، فلمَّا علوتُ الواديَ . . إذا سوادٌ مقبلٌ عليَّ وهوَ يقولُ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ويبكي ، فلمَّا قرُبَ منِّي السوادُ . . إذا هيَ امرأةٌ عليها جبَّةُ صوفٍ ، وبيدِها ركوةٌ ، فقالَتْ لي : مَنْ أنتَ ؟ غيرَ فازعةٍ منِّي ، فقلتُ : رجلٌ غريبٌ ، فقالَتْ : يا هٰذا ؛ وهلْ يُوجدُ معَ اللهِ غربةٌ ، قالَ : فبكيتُ لقولِها ، فقالَتْ لي : ما الذي أبكاكَ ؟ فقلتُ : وقعَ الدواءُ علىٰ داءٍ قدْ قرحَ ، فأسرعَ في نجاحِهِ ، قالَتْ : فإنْ كنتَ صادقاً . . فلمَ بكَيتَ ؟ قلت : يرحمُكِ اللهُ ، والصادقُ لا يبكي ؟ قالَتْ : لا ، قلتُ : ولِمَ ذاكَ ؟ قالَتْ : لأنَّ البكاءَ راحةُ القلبِ ، فسكتُّ متعجباً مِنْ قولِها[2] .

وقالَ أحمدُ بنُ عليٍّ : استأْذنَّا علىٰ عفيرةَ[3] ، فحجبَتْنا ، فلازمنا البابَ ، فلمَّا علمَتْ ذٰلكَ . . قامَتْ لتفتحَ البابَ لنا ، فسمعتُها وهيَ تقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ ممَّنْ جاءَ يشغلُني عنْ ذكرِكَ ، ثمَّ فتحَتِ البابَ ودخلنا عليها ، فقلنا لها : يا أمةَ اللهِ ؛ ادعي لنا ، فقالَتْ : جعلَ اللهُ قراكُمْ في بيتي المغفرةَ ، ثمَّ قالَتْ لنا : مكثَ عطاءٌ السلميُّ أربعينَ سنةً لا ينظرُ إلى السماءِ ، فحانَتْ منهُ نظرةٌ ، فخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فأصابَهُ فتقٌ في بطنِهِ ، فيا ليتَ عُفيرةَ إذْ رفعَتْ رأسَها . . لمْ تعصِ ، ويا ليتَها إذْ عصَتْ . . لمْ تعدْ[4] .

وقالَ بعضُ الصالحينَ : خرجتُ يوماً إلى السوقِ ومعي جاريةٌ حبشيةٌ ، فاحتبستُها في موضعٍ بناحيةِ السوقِ ، وذهبتُ في بعضِ حوائجي ، وقلتُ : لا تبرحي حتىٰ أنصرفَ إليكِ ، قالَ : فانصرفتُ ، فلمْ أجدْها في الموضعِ ، فانصرفتُ إلىٰ منزلي وأنا شديدُ الغضبِ عليها ، فلمَّا رأتْني . . عرفَتِ الغضبَ في وجهي ، فقالَتْ لي : يا مولايَ ؛ لا تعجلْ عليَّ ، إنَّكَ أجلستَني في موضعٍ لمْ أرَ فيهِ ذاكراً للهِ تعالىٰ ، فخفتُ أنْ يُخسفَ بذٰلكَ الموضعِ ، فعجبتُ لقولِها وقلتُ لها : أنتِ حرَّةٌ ، فقالَتْ : ساءَ ما صنعتَ ، كنتُ أخدمُكَ فيكونُ لي أجرانِ ، وأمَّا الآنَ . . فقدْ ذهبَ عنِّي أحدُهُما[5] .

وقالَ ابنُ العلاءِ السعديُّ : كانَتْ لي ابنةُ عمٍّ يُقالُ لها بريرةُ ، تعبَّدَتْ ، وكانَتْ تكثرُ القراءةَ في المصحفِ ، فكلَّما أتَتْ علىٰ آيةٍ فيها ذكرُ النارِ . . بكَتْ ، فلمْ تزلْ تبكي حتىٰ ذهبَتْ عيناها مِنَ البكاءِ ، فقالَ بنو عمِّها : انطلقوا بنا إلىٰ هٰذهِ المرأةِ حتىٰ نعذلَها في كثرةِ البكاءِ ، قالَ : فدخلنا عليها فقلنا لها : يا بريرةُ ؛ كيفَ أصبحتِ ؟ فقالَتْ : أصبحنا أضيافاً منيخينَ بأرضِ غربةٍ ننتظرُ متىٰ نُدعىٰ فنجيبُ ، فقلنا لها : كمْ هٰذا البكاءُ ؟! قدْ ذهبَتْ

---

(١) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٨٢/٢/١) ، والمتعبدة عنده اسمها (سوية) ، وتمام الخبر : (ثم صرخت وسقطت ، فنزلت الجارية فأخبرتني بسقطتها ، فلما أصبحنا . . نظرنا فإذا هي قد ماتت) ، وعند السلمي في « المتعبدات الصوفيات » (ص ١١٧) متعبدة اسمها سُرَيرة الشرقية ، ووقع في (ف) : (سريرة) بدل (سرية) .

(٢) رواه مع زيادة أبو نعيم في « الحلية » (٣٤١/٩) .

(٣) انظر بعض أخبارها عند ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢٠/٤/٢) ، وعند السلمي في « المتعبدات الصوفيات » (ص ٣٩) عابدة باسم (عُفيرة) ، وهي في بعض نسخ أشار إليها الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٤٠/١٠) .

(٤) رواه مختصراً أبو نعيم في « الحلية » (٢٢١/٦) .

(٥) روىٰ ما يقربه البيهقي في « الشعب » (٢٩٦٣) .

عيناكِ منهُ فقالَتْ : إنْ يكنْ لعينيَّ عندَ اللهِ خيرٌ . . فما يضرُّهما ما ذهبَ منهُما في الدنيا ، وإنْ كانَ لهما عندَ اللهِ شرٌّ . . فسيزيدُهما بكاءً أطولَ مِنْ هـٰذا ، وأعرضَتْ ، قالَ : فقالَ القومُ : قوموا بنا ، فهيَ واللهِ في شيءٍ غيرِ ما نحنُ فيهِ [١] .

وكانَتْ معاذةُ العدويَّةُ إذا جاءَ النهارُ . . تقولُ : هـٰذا يومي الذي أموتُ فيهِ ، فما تطعمُ حتىٰ تمسي ، فإذا جاءَ الليلُ . . تقولُ : هـٰذهِ الليلةُ التي أموتُ فيها ، فتصلِّي حتىٰ تصبحَ [٢] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : بتُّ ليلةً عندَ رابعةَ ، فقامَتْ إلىٰ محرابٍ لها ، وقمتُ أنا إلىٰ ناحيةٍ مِنَ البيتِ ، فلمْ تزلْ قائمةً إلى السحرِ ، فلمَّا كانَ السحرُ . . قلتُ : ما جزاءُ مَنْ قوَّانا علىٰ قيامِ هـٰذهِ الليلةِ ؟ قالَتْ : جزاؤُهُ أنْ تصومَ لهُ غداً [٣] .

وكانَتْ شَعْوانةُ تقولُ في دعائِها : (إلـٰهي ؛ ما أشوقَني إلىٰ لقائِكَ ، وأعظمَ رجائي لجزائِكَ !! وأنتَ الكريمُ الذي لا يخيبُ لديكَ أملُ الآملينَ ، ولا يبطلُ عندَكَ شوقُ المشتاقينَ .

إلـٰهي ؛ إنْ كانَ دنا أجلي ، ولمْ يقرِّبْني منكَ عملي . . فقدْ جعلتُ الاعترافَ بالذنبِ وسائلَ عِلَلي ، فإنْ عفوتَ . . فمَنْ أولىٰ منكَ بذٰلكَ ؟! وإنْ عذَّبتَ . . فمَنْ أعدلُ منكَ هنالكَ ؟!

إلـٰهي ؛ قدْ جرتُ علىٰ نفسي في النظرِ لها ، وبقيَ لها حسنُ نظرِكَ ، فالويلُ لها إنْ لمْ تسعدْها .

إلـٰهي ؛ إنَّكَ لمْ تزلْ بي برّاً أيامَ حياتي ، فلا تقطعْ عنِّي برَّكَ بعدَ مماتي ، ولقدْ رجوتُ ممَّنْ تولَّاني في حياتي بإحسانِهِ أنْ يشفعَهُ عند مماتي بغفرانِهِ .

إلـٰهي ؛ كيفَ أيئَسُ مِنْ حسنِ نظرِكَ بعدَ مماتي ولمْ تولني إلا الجميلَ في حياتي ؟!

إلـٰهي ؛ إنْ كانَتْ ذنوبي قدْ أخافَتْني . . فإنَّ محبَّتي لكَ قدْ أجارَتْني ، فتولَّ مِنْ أمري ما أنتَ أهلُهُ ، وعُدْ بفضلِكَ علىٰ مَنْ غرَّهُ جهلُهُ .

إلـٰهي ؛ لوْ أردتَ إهانتي . . لما هديتَني ، ولوْ أردتَ فضيحتي . . لمْ تسترْني ، فمتعْني بما لهُ هديتَني ، وأدمْ لي ما بهِ سترتَني .

إلـٰهي ؛ ما أظنُّكَ تردُّني في حاجةٍ أفنيتُ فيها عمري .

إلـٰهي ؛ لولا ما قارفتُ مِنَ الذنوبِ . . ما خفتُ عقابَكَ ، ولولا ما عرفتُ مِنْ كرمِكَ . . ما رجوتُ ثوابَكَ) [٤] .

وقالَ الخوَّاصُ : دخلنا علىٰ زُجْلةَ العابدةِ [٥] ، وكانَتْ قدْ صامَتْ حتى اسودَّتْ وبكَتْ حتىٰ عميَتْ ، وصلَّتْ حتىٰ أُقعدَتْ ، وكانَتْ تصلِّي قاعدةً ، فسلَّمنا عليها ، ثمَّ ذكرناها شيئاً مِنَ العفوِ ليهونَ عليها الأمرُ ، قالَ : فشهقَتْ ثمَّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (١٠/١٤١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٨١) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٩٦٩) ، ولـٰكن عزاه لجعفر بن سليمان ، لا لأبي سليمان الداراني .

(٤) عزا رواية الخبر الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/١٤٢) لابن أبي الدنيا .

(٥) **زُجْلة** : بزاي مضمومة وجيم ، مولاة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أو مولاة لعاتكة بنت معاوية ، روت عن أم الدرداء . انظر « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » (٢/٥٩٧) .

قالَتْ : علمي بنفسي قرّحَ فؤادي وكلمَ كبدي ، واللهِ ؛ لوددتُ أنَّ اللهَ لمْ يخلقْني ولمْ أكُ شيئاً مذكوراً ، ثمَّ أقبلَتْ علىٰ صلاتِها[1] .

فعليكَ إنْ كنتَ مِنَ المرابطينَ المراقبينَ لنفسِكَ أنْ تطالعَ أحوالَ الرجالِ والنساءِ مِنَ المجتهدينَ ؛ لينبعثَ نشاطُكَ ، ويزيدَ حرصُكَ ، وإيَّاكَ أنْ تنظرَ إلىٰ أهلِ عصرِكَ ؛ فإنَّكَ إنْ تطعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يضلُّوكَ عنْ سبيلِ اللهِ .

وحكاياتُ المجتهدينَ غيرُ محصورةٍ ، وفيما ذكرناهُ كفايةٌ للمعتبرِ ، وإنْ أردتَ مزيداً . . فعليكَ بالمواظبةِ علىٰ مطالعةِ كتابِ « حليةُ الأولياءِ »[2] ، فهوَ مشتملٌ علىٰ شرحِ أحوالِ الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بعدَهُمْ ، وبالوقوفِ عليهِ يستبينُ لكَ بعْدُكَ وبعْدُ أهلِ عصرِكَ مِنْ أهلِ الدينِ .

فإنْ حدَّثتْكَ نفسُكَ بالنظرِ إلىٰ أهلِ زمانِك ، وقالَتْ : إنَّما تيسَّرَ الخيرُ في ذٰلكَ الزمانِ لكثرةِ الأعوانِ ، والآنَ فإنْ خالفتَ أهلَ زمانِكَ . . رأوكَ مجنوناً ، وسخروا بكَ ، فوافقْهُمْ فيما هُمْ فيهِ وعليهِ ، فلا يجري عليكَ إلا ما يجري عليهِمْ ، والمصيبةُ إذا عمَّتْ . . طابَتْ ؛ فإيَّاكَ أنْ تتدلَّىٰ بحبلِ غرورِها ، وتنخدعَ بتزويرِها ، وقلْ لها : أرأيتِ لوْ هجمَ سيلٌ جارفٌ يغرقُ أهلَ البلدِ ، وثبتوا علىٰ مواضعِهِمْ ، ولمْ يأخذوا حذرَهُمْ لجهلِهِمْ بحقيقةِ الحالِ ، وقدرتِ أنتِ علىٰ أنْ تفارقيهِمْ وتركبي في سفينةٍ تتخلَّصي بها مِنَ الغرقِ . . فهلْ يختلجُ في نفسِكِ أنَّ المصيبةَ إذا عمَّتْ . . طابَتْ ؟ أمْ تتركينَ موافقتَهُمْ ، وتستجهلينَهُمْ في صنيعِهِمْ ، وتأخذينَ حذرَكِ ممَّا دهاكِ ؟ فإذا كنتِ تتركينَ موافقتَهُمْ خوفاً مِنَ الغرقِ وعذابُ الغرقِ لا يتمادىٰ إلا ساعةً . . فكيفَ لا تهربينَ مِنْ عذابِ الأبدِ وأنتِ متعرضةٌ لهُ في كلِّ حالٍ ؟ ومِنْ أينَ تطيبُ المصيبةُ إذا عمَّتْ ولأهلِ النارِ شغلٌ شاغلٌ عنِ الالتفاتِ إلى العمومِ والخصوصِ ، ولمْ يهلكِ الكفَّارُ إلا بموافقةِ أهلِ زمانِهِمْ حيثُ قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ؟!

فعليكَ إذا اشتغلتَ بمعاتبةِ نفسِكَ أوْ بحملِها على الاجتهادِ فاستعصَتْ ألا تتركَ معاتبتَها وتوبيخَها ، وتقريعَها وتعريفَها سوءَ نظرِها لنفسِها ، فعساها تنزجرُ عنْ طغيانِها .

* * *

(١) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢٥/٢/٢) .

(٢) للإمام الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، المتوفىٰ سنة (٤٣٠ هـ) ، قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٤٥٩/١٧) : (وكانوا يقولون : لما صنّف كتاب « الحلية » . . حمل إلىٰ نيسابور حال حياته ، فاشتروه بأربع مئة دينار) .

المرابطة السادسة
في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلمْ : أنَّ أعدىٰ عدوِّكَ نفسُكَ التي بينَ جنبيكَ ، وقدْ خُلِقَتْ أمَّارةً بالسوءِ ، ميَّالةً إلى الشرِّ ، فرارةً مِنَ الخيرِ ، وأُمرتَ بتزكيتِها وتقويمِها ، وقودِها بسلاسلِ القهرِ إلىٰ عبادةِ ربِّها وخالقِها ، ومنعِها عنْ شهواتِها ، وفطامِها عنْ لذَّاتِها ، فإنْ أهملتَها . . جمحَتْ وشردَتْ ، ولمْ تظفرْ بها بعدَ ذٰلكَ ، وإنْ لازمتَها بالتوبيخِ والمعاتبةِ ، والعذلِ والملامةِ . . كانَتْ نفسُكَ هيَ النفسَ اللوَّامةَ التي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بها ، ورجوتَ أنْ تصيرَ النفسَ المطمئنةَ ، المدعوةَ إلىٰ أنْ تدخلَ في زمرةِ عبادِ اللهِ راضيةً مرضيةً ، فلا تغفُلَنْ ساعةً عنْ تذكيرِها ومعاتبتِها ، ولا تشتغلَنْ بوعظِ غيرِكَ ما لمْ تشتغلْ أوَّلاً بوعظِ نفسِكَ .

أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا بنَ مريمَ ؛ عظْ نفسَكَ ؛ فإنِ اتعظَتْ . . فعظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحيِ منِّي)[1]

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وسبيلُكَ أنْ تُقبلَ عليها فتقرِّرَ عندَها جهلَها وغباوتَها ، وأنَّها أبداً تتعزَّزُ بفطنتِها وهدايتِها ، ويشتدُّ أنفُها واستنكافُها إذا نُسِبَتْ إلى الحمقِ ، فتقولُ لها :

يا نفسُ ؛ ما أعظمَ جهلَكِ !! تدَّعينَ الحكمةَ والذكاءَ والفطنةَ وأنتِ أشدُّ الناسِ غباوةً وحمقاً ؟! أما تعرفينَ ما بينَ يديكِ مِنَ الجنةِ والنارِ ، وأنَّكِ صائرةٌ إلىٰ إحداهُما على القربِ ؟ فما لكِ تفرحينَ وتضحكينَ ، وتشتغلينَ باللهوِ وأنتِ مطلوبةٌ لهٰذا الخطبِ الجسيمِ ، وعساكِ اليومَ تُختطفينَ أوْ غداً ؟! فأراكِ ترينَ الموتَ بعيداً ويراهُ اللهُ قريباً ، أما تعلمينَ أنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، وأنَّ البعيدَ ما ليسَ بآتٍ ؟ أما تعلمينَ أنَّ الموتَ يأتي بغتةً مِنْ غيرِ تقديمِ رسولٍ ، ومِنْ غيرِ مواعدةٍ ومواطأةٍ ، وأنَّهُ لا يأتي في شيءٍ دونَ شيءٍ ، ولا في شتاءٍ دونَ صيفٍ ، ولا في صيفٍ دونَ شتاءٍ ، ولا في نهارٍ دونَ ليلٍ ، ولا في ليلٍ دونَ نهارٍ ، ولا يأتي في الصبا دونَ الشبابِ ، ولا في الشبابِ دونَ الصبا ، بلْ كلُّ نَفَسٍ مِنَ الأنفاسِ يمكنُ أنْ يكونَ فيهِ الموتُ فجأةً ، فإنْ لمْ يكنِ الموتُ فجأةً . . فيكونُ المرضُ فجأةً ، ثمَّ يفضي إلى الموتِ ؟! فما لكِ لا تستعدينَ للموتِ وهوَ أقربُ إليكِ مِنْ كلِّ قريبٍ ؟! أما تتدبرينَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ !! إنْ كانَتْ جراءتُكِ علىٰ معصيةِ اللهِ لاعتقادِكِ أنَّ اللهَ لا يراكِ . . فما أعظمَ كفرَكِ !! وإنْ كانَ معَ علمِكِ باطلاعِهِ عليكِ . . فما أشدَّ وقاحتَكِ وأقلَّ حياءَكِ !

ويحَكِ يا نفسُ !! لوْ واجهَكِ عبدٌ مِنْ عبيدِكِ ، بلْ أَخٌ مِنْ إخوانِكِ بما تكرهينَهُ كيفَ كانَ غضبُكِ عليهِ ومقتُكِ لهُ ؟! فبأيِّ جسارةٍ تتعرَّضينَ لمقتِ اللهِ وغضبِهِ وشديدِ عقابِهِ ؟! أفتظنِّينَ أنَّكِ تطيقينَ عذابَهُ ؟ هيهاتَ هيهاتَ !! جرِّبي نفسَكِ إنْ ألهاكِ البطرُ عنْ أليمِ عذابِهِ ؛ فاحتبسي ساعةً في الشمسِ ، أوْ في بيتِ الحمَّامِ ، أوْ قرِّبي إصبعَكِ مِنَ النارِ ؛

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٨٢/٢) .

ليتبيَّنَ لكِ قدْرُ طاقتِكِ ، أمْ تغترّينَ بكرمِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ ، واستغنائِهِ عنْ طاعتِكِ وعبادتِكِ ، فما لكِ لا تعوّلينَ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ في مهمّاتِ دنياكِ ؟! فإذا قصدكِ عدوٌّ . . فلِمَ تستنبطينَ الحيلَ في دفعِهِ ولا تكلينَهُ إلىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ ؟! وإنْ أرهقَتْكِ حاجةٌ إلىٰ شهوةٍ مِنْ شهواتِ الدنيا ممَّا لا ينقضي إلا بالدينارِ والدرهمِ . . فما لكِ تنزعينَ الروحَ في طلبِها وتحصيلِها مِنْ وجوهِ الحيلِ ؟! فلِمَ لا تعوّلينَ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ حتىٰ يعثرَ بكِ علىٰ كنزٍ ، أوْ يسخِّرَ عبداً مِنْ عبيدِهِ فيحملَ إليكِ حاجتَكِ مِنْ غيرِ سعيٍ منكِ ولا طلبٍ ؟! أفتحسبينَ أنَّ اللهَ كريمٌ في الآخرةِ دونَ الدنيا وقدْ عرفتِ أنَّ سنةَ اللهِ لا تبديلَ لها ، وأنَّ ربَّ الدنيا والآخرةِ واحدٌ ، وأنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سعىٰ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ !! ما أعجبَ نفاقَكِ ودعاويَكِ الباطلةَ !! فإنَّكِ تدعينَ الإيمانَ بلسانِكِ وأثرُ النفاقِ ظاهرٌ عليكِ ، ألمْ يقلْ لكِ سيِّدُكِ ومولاكِ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وقال في أمرِ الآخرةِ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فقدْ تكفَّلَ لكِ بأمرِ الدنيا خاصةً ، وصرفَكِ عنِ السعيِ فيها ، فكذبتِهِ بأفعالِكِ ، وأصبحتِ تتكالبينَ علىٰ طلبِها تكالبَ المدهوشِ المستهترِ ، ووكلَ أمرَ الآخرةِ إلىٰ سعيكِ ، فأعرضتِ عنها إعراضَ المغرورِ المستحقرِ !! ما هٰذا مِنْ علاماتِ الإيمانِ ، لوْ كانَ الإيمانُ باللسانِ . . فلماذا كانَ المنافقونَ في الدرْكِ الأسفلِ مِنَ النارِ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ !! كأنَّكِ لا تؤمنينَ بيومِ الحسابِ ، وتظنِّينَ أنَّكِ إذا متِّ . . انفلتِّ وتخلصتِ ، وهيهاتَ !! أتحسبينَ أنَّكِ تُتركينَ سدىً ، ألمْ تكوني نطفةً مِنْ منيٍّ يُمنىٰ ، ثمَّ كنتِ علقةً فخلقَ فسوَّىٰ ، أليسَ ذٰلكَ بقادرٍ علىٰ أنْ يحييَ الموتىٰ ؟! فإنْ كانَ هٰذا إضمارَكِ . . فما أكفرَكِ وأجهلَكِ !! أما تتفكَّرينَ أنَّهُ مِنْ ماذا خلقَكِ ؟ مِنْ نطفةٍ خلقَكِ فقدَّرَكِ ، ثمَّ السبيلَ يسَّرَكِ ، ثمَّ أماتَكِ فأقبرَكِ ، أفتكذِّبينَهُ في قولِهِ : ثمَّ إذا شاءَ أنشرَكِ ؟ ، فإنْ لمْ تكوني مكذبةً . . فما لكِ لا تأخذينَ حذرَكِ ؟! ولوْ أنَّ يهودياً أخبرَكِ في ألذِّ أطعمتِكِ بأنَّهُ يضرُّكِ في مرضِكِ . . لصبرتِ عنهُ وتركتِهِ وجاهدتِ نفسَكِ فيهِ ، أفكانَ قولُ الأنبياءِ المؤيَّدينَ بالمعجزاتِ وقولُ اللهِ تعالىٰ في كتبِهِ المنزلةِ أقلَّ عندَكِ تأثيراً مِنْ قولِ يهوديٍّ يخبرُكِ عنْ حدسٍ وتخمينٍ وظنٍّ ، معْ نقصانِ عقلٍ وقصورِ علمٍ ؟! والعجبُ أنَّهُ لوْ أخبرَكِ طفلٌ بأنَّ في ثوبِكِ عقرباً . . لرميتِ ثوبَكِ في الحالِ مِنْ غيرِ مطالبةٍ لهُ بدليلٍ وبرهانٍ ، أفكانَ قولُ الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ وكافَّةِ الأولياءِ أقلَّ عندَكِ مِنْ قولِ صبيٍّ مِنْ جملةِ الأغبياءِ ؟! أمْ صارَ حرُّ جهنَّمَ ، وأغلالُها وأنكالُها ، وزقُّومُها ومقامعُها ، وصديدُها وسمومُها ، وأفاعيها وعقاربُها . . أحقرَ عندَكِ مِنْ عقربٍ لا تحسينَ بألمِها إلا يوماً أوْ أقلَّ منهُ ؟! ما هٰذا أفعالَ العقلاءِ ، بلْ لوِ انكشفَ للبهائمِ حالُكِ . . لضحكوا منكِ ، وسخروا مِنْ عقلِكِ .

فإنْ كنتِ يا نفسُ قدْ عرفتِ جميعَ ذٰلكَ وآمنتِ بهِ . . فما لكِ تسوِّفينَ العملَ والموتُ لكِ بالمرصادِ ، ولعلَّهُ يختطفُكِ مِنْ غيرِ مهلةٍ ؟! فبماذا أمنتِ استعجالَ الأجلِ ؟! وهبْكِ أنَّكِ وُعدتِ بالإمهالِ مئةَ سنةٍ ؛ أفتظنينَ أنَّ مَنْ يُطعمُ الدابَّةَ في حضيضِ العقبةِ يفلحُ ويقدرُ علىٰ قطعِ العقبةِ بها ؟ إنْ ظننتِ ذٰلكَ . . فما أعظمَ جهلَكِ !! أرأيتِ لوْ سافرَ رجلٌ ليتفقَّهَ في الغربةِ ، فأقامَ فيها سنينَ متعطِّلاً بطَّالاً ، يَعِدُ نفسَهُ بالتفقُّهِ في السنةِ الأخيرةِ عندَ رجوعِهِ إلىٰ وطنِهِ . . هلْ كنتِ تضحكينَ مِنْ عقلِهِ وظنِّهِ أنَّ تفقيهَ النفسِ ممَّا يطمعُ فيهِ بمدَّةٍ قريبةٍ أوْ حسبانَهُ أنَّ مناصبَ الفقهاءِ تُنالُ مِنْ غيرِ تفقُّهٍ اعتماداً علىٰ كرمِ اللهِ سبحانَهُ ؟! ثمَّ هبْ أنَّ الجهدَ في آخرِ العمرِ نافعٌ ، وأنَّهُ موصلٌ إلى الدرجاتِ العلا ؛ فلعلَّ اليومَ آخرُ عمرِكِ ، فلِمَ لا تشتغلينَ فيهِ بذٰلكَ ؟ فإنْ أُوحيَ إليكِ بالإمهالِ . . فما المانعُ لكِ مِنَ المبادرةِ ، وما الباعثُ لكِ على التسويفِ ؟ هلْ لهُ سببٌ إلا عجزُكِ عنْ مخالفةِ شهوتِكِ لما فيه مِنَ التعبِ والمشقةِ ؟ أفتنتظرينَ يوماً يأتيكِ لا

تعسرُ فيهِ مخالفةُ الشهواتِ ، هٰذا يومٌ لمْ يخلقْهُ اللهُ قطُّ ، ولا يخلقُهُ ، فلا تكونُ الجنةُ قطُّ إلا محفوفةً بالمكارهِ ، ولا تكونُ المكارهُ قطُّ خفيفةً على النفوسِ ، وهٰذا محالٌ وجودُهُ ، أما تتأمَّلينَ مذْ كمْ تَعِدِينَ نفسَكِ وتقولينَ : غداً وغداً ؟! فقدْ جاءَ الغدُ وصارَ يوماً ، فكيفَ وجدتِهِ ؟ أما علمتِ أنَّ الغدَ الذي جاءَ وصارَ يوماً كانَ لهُ حكمُ الأمسِ ؟! لا بلْ ما تعجزينَ عنهُ اليومَ فأنتِ غداً عنهُ أعجزُ وأعجزُ ؛ لأنَّ الشهوةَ كالشجرةِ الراسخةِ التي تُعبِّدَ العبدُ بقلعِها ، فإذا عجزَ العبدُ عنْ قلعِها للضعفِ وأخَّرَها . . كانَ كمَنْ عجزَ عنْ قلعِ شجرةٍ وهوَ شابٌّ قويٌّ ، فأخَّرَها إلىٰ سنةٍ أخرىٰ ، معَ العلمِ بأنَّ طولَ المدَّةِ يزيدُ الشجرةَ قوةً ورسوخاً ، ويزيدُ القالعَ ضعفاً ووهناً ، فما لا يقدرُ عليهِ في الشبابِ فلا يقدرُ عليهِ قطُّ في المشيبِ ، بلْ مِنَ العناءِ رياضةُ الهَرِمِ ، ومِنَ التعذيبِ تهذيبُ الذيبِ ، والقضيبُ الرطْبُ يقبلُ الانحناءَ ، فإذا جفَّ وطالَ عليهِ الزمانُ . . لمْ يقبلْ ذٰلكَ .

فإذا كنتِ أيَّتُها النفسُ لا تفهمينَ هٰذهِ الأمورَ الجليَّةَ وتركنينَ إلى التسويفِ . . فما لكِ تدَّعينَ الحكمةَ ؟! وأيةُ حماقةٍ تزيدُ علىٰ هٰذهِ الحماقةِ ؟!

ولعلَّكِ تقولينَ : (ما يمنعُني عنِ الاستقامةِ إلا حرصي علىٰ لذَّةِ الشهواتِ ، وقلَّةُ صبري على الآلامِ والمشقَّاتِ) ، فما أجهلَكِ وأقبحَ اعتذارَكِ !! إنْ كنتِ صادقةً في ذٰلكَ . . فاطلبي التنعُّمَ بالشهواتِ الصافيةِ عنِ الكدوراتِ الدائمةِ أبدَ الآبادِ ، ولا مطمعَ في ذٰلكَ إلا في الجنةِ ، فإنْ كنتِ ناظرةً لشهوتِكِ . . فالنظرُ لها في مخالفتِها ، فربَّ أكلةٍ تمنعُ أكَلاتٍ ، وما قولُكِ في عقلِ مريضٍ أشارَ عليهِ الطبيبُ بتركِ الماءِ الباردِ ثلاثةَ أيامٍ ليصحَّ ويهنأَ بشربِهِ طولَ عمرِهِ ، وأخبرَهُ أنَّهُ إنْ شربَ ذٰلكَ . . مرضَ مرضاً مزمناً ، وامتنعَ عليهِ شربُهُ طولَ العمرِ ، فما مقتضى العقلِ في قضاءِ حقِّ الشهوةِ : أيصبرُ ثلاثةَ أيامٍ ليتنعَّمَ طولَ العمرِ ، أمْ يقضي شهوتَهُ في الحالِ خوفاً مِنْ ألمِ المخالفةِ ثلاثةَ أيامٍ حتىٰ يلزمَهُ ألمُ المخالفةِ ثلاثَ مئةِ يومٍ ، وثلاثةَ آلافِ يومٍ ، وجميعُ عمرِكِ بالإضافةِ إلى الأبدِ الذي هوَ مدَّةُ نعيمِ أهلِ الجنةِ وعذابِ أهلِ النارِ أقلُّ مِنْ ثلاثةِ أيامٍ بالإضافةِ إلىٰ جميعِ العمرِ وإنْ طالَتْ مدَّتُهُ ؟

وليتَ شعري ألمُ الصبرِ عنِ الشهواتِ أعظمُ شدَّةً وأطولُ مدَّةً ، أوْ ألمُ النارِ في دركاتِ جهنَّمَ ؟! فمَنْ لا يطيقُ الصبرَ علىٰ ألمِ المجاهدةِ كيفَ يطيقُ ألمَ عذابِ اللهِ ؟!

ما أراكِ تتوانينَ عنِ النظرِ لنفسِكِ إلا لكفرٍ خفيٍّ أوْ لحمقٍ جليٍّ :

أمَّا الكفرُ الخفيُّ . . فهوَ ضعفُ إيمانِكِ بيومِ الحسابِ ، وقلَّةُ معرفتِكِ بعظمِ قدْرِ الثوابِ والعقابِ .

وأمَّا الحمقُ الجليُّ . . فاعتمادُكِ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ وعفوِهِ مِنْ غيرِ التفاتٍ إلىٰ مكرِهِ واستدراجِهِ ، واستغنائِهِ عنْ عبادتِكِ ، معَ أنَّكِ لا تعتمدينَ علىٰ كرمِهِ في لقمةٍ مِنَ الخبزِ ، أوْ حبَّةٍ مِنَ المالِ ، أوْ كلمةٍ واحدةٍ تسمعينَها مِنَ الخلقِ ، بلْ تتوصَّلينَ إلىٰ غرضِكِ في ذٰلكَ بجميعِ الحيلِ ، وبهٰذا الجهلِ تستحقينَ لقبَ الحماقةِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « الكيسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ الأمانيَّ »[1]

ويحَكِ يا نفسُ !! لا ينبغي أنْ تغرَّكِ الحياةُ الدنيا ، ولا يغرنَّكِ باللهِ الغرورُ ، فانظري لنفسِكِ ؛ فما أمرُكِ بمهمٍّ

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وعندهما (والعاجز) بدل (والأحمق) .

لغيرِكِ ، ولا تضيّعي أوقاتَكِ ، فالأنفاسُ معدودةٌ ، فإذا مضىٰ منكِ نَفَسٌ . . فقدْ ذهبَ بعضُكِ ، فاغتنمي الصحةَ قبلَ السقمِ ، والفراغَ قبلَ الشغلِ ، والغنىٰ قبلَ الفقرِ ، والشبابَ قبلَ الهرمِ ، والحياةَ قبلَ الموتِ ، واستعدي للآخرةِ علىٰ قدْرِ بقائِكِ فيها .

يا نفسُ ؛ أما تستعدِّينَ للشتاءِ بقدْرِ طولِ مدَّتِهِ ؛ فتجمعينَ لهُ القوتَ والكسوةَ والحطبَ وجميعَ الأسبابِ ، ولا تتكلينَ في ذٰلكَ علىٰ فضْلِ اللهِ وكرمِهِ حتىٰ يدفعَ عنكِ البردَ مِنْ غيرِ جبَّةٍ ولِبْدٍ وحطبٍ وغيرِ ذٰلكَ ؛ فإنَّهُ قادرٌ علىٰ ذٰلكَ ، أفتظنينَ أيَّتُها النفسُ أنَّ زمهريرَ جهنَّمَ أخفُّ برداً أوْ أقصرُ مدَّةً مِنْ زمهريرِ الشتاءِ ؟! أفتظنينَ أنَّ العبدَ ينجو منها بغيرِ سعيٍ ؟! هيهاتَ !! كما لا يندفعُ بردُ الشتاءِ إلا بالجبَّةِ والنارِ وسائرِ الأسبابِ . . فلا يندفعُ حرُّ النارِ وبردُها إلا بحصنِ التوحيدِ وخندقِ الطاعاتِ ، وإنَّما كرمُ اللهِ تعالىٰ في أنْ عرَّفَكِ طريقَ التحصُّنِ ، ويسَّرَ لكِ أسبابَهُ ، لا في أنْ يدفعَ عنكِ العذابَ دونَ حصنِهِ ، كما أنَّ كرمَ اللهِ تعالىٰ في دفعِ بردِ الشتاءِ أنْ خلقَ النارَ ، وهداكِ لطريقِ استخراجِها مِنْ بينِ حديدةٍ وحجرٍ حتىٰ تدفعي بها بردَ الشتاءِ عنْ نفسِكِ ، وكما أنَّ شراءَ الحطبِ والجبةِ ممَّا يستغني عنهُ خالقُكِ ومولاكِ ، وإنَّما تشتريهِ لنفسِكِ ؛ إذْ خلقَهُ سبباً لاستراحتِكِ . . فطاعاتُكِ ومجاهداتُكِ أيضاً هوَ مستغنٍ عنها ، وإنَّما هيَ طريقُكِ إلىٰ نجاتِكِ ، فمَنْ أحسنَ . . فلنفسِهِ ، ومَنْ أساءَ . . فعليها ، واللهُ غنيٌّ عنِ العالمينَ .

ويحَكِ يا نفسُ ؛ انزعي عنْ جهلِكِ ، وقيسي آخرتَكِ بدنياكِ ، فما خلقُكُمْ ولا بعثُكُمْ إلا كنفسٍ واحدةٍ ، وكما بدأْنا أولَ خلقٍ نعيدُهُ ، وكما بدأَكُمْ تعودونَ ، وسنةُ اللهِ تعالىٰ لا تجدينَ لها تبديلاً ولا تحويلاً .

ويحَكِ يا نفسُ !! ما أراكِ إلا ألفتِ الدنيا وأنستِ بها ، فعسرَ عليكِ مفارقتُها وأنتِ مقبلةٌ علىٰ مقاربتِها ، وتؤكدينَ في نفسِكِ مودَّتَها ، فاحسبي أنَّكِ غافلةٌ عنْ عقابِ اللهِ وثوابِهِ ، وعنْ أهوالِ القيامةِ وأحوالِها ، فما أنتِ مؤمنةٌ بالموتِ المفرِّقِ بينَكِ وبينَ محابِّكِ ؟ أفتري أنَّ مَنْ يدخلُ دارَ ملكٍ ليخرجَ مِنَ الجانبِ الآخرِ ، فمدَّ بصرَهُ إلىٰ وجهٍ مليحٍ يعلمُ أنَّهُ يستغرقُ ذٰلكَ قلبَهُ ، ثمَّ يضطرُّ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ مفارقتِهِ . . أهوَ معدودٌ مِنَ العقلاءِ أمْ مِنَ الحمقىٰ ؟

أما تعلمينَ أنَّ الدنيا دارٌ لملكِ الملوكِ ، وما لكِ فيها إلا مجازٌ ، وكلُّ ما فيها لا يصحبُ المجتازينَ بها بعدَ الموتِ ، ولذٰلكَ قالَ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ[1] ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ ، وعشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميتٌ »[2]

ويحَكِ يا نفسُ !! أما تعلمينَ أنَّ كلَّ مَنْ يلتفتُ إلىٰ ملاذِّ الدنيا ، ويأنسُ بها معَ أنَّ الموتَ مِنْ ورائِهِ . . فإنَّما يستكثرُ مِنَ الحسرةِ عندَ المفارقةِ ، وإنَّما يتزوَّدُ مِنَ السمِّ المهلكِ وهوَ لا يدري ؟! أوما تنظرينَ إلى الذينَ مضوا كيفَ بنوا وعلَوا ، ثمَّ ذهبوا وخلوا ، وكيفَ أورثَ اللهُ أرضَهُمْ وديارَهُمْ أعداءَهُمْ ، أما ترينَهُمْ[3] كيفَ يجمعونَ ما لا يأكلونَ ، ويبنونَ ما لا يسكنونَ ويؤملونَ ما لا يدركونَ ، يبني كلُّ واحدٍ قصراً مرفوعاً إلىٰ جهةِ السماءِ ، ومقرُّهُ قبرٌ محفورٌ تحتَ الأرضِ ، فهلْ في الدنيا حمقٌ وانتكاسٌ أعظمُ مِنْ هٰذا ؟! يعمُرُ الواحدُ دنياهُ وهوَ مرتحلٌ عنها يقيناً ، ويخرِّبُ آخرتَهُ وهوَ صائرٌ إليها قطعاً !! أما تستحيينَ يا نفسُ مِنْ مساعدةِ هٰؤلاءِ الحمقىٰ علىٰ حماقتِهِمْ .

---

(١) في غير (ص) : (ما) بدل (من) .
(٢) روىٰ لفظ : « إن روح القدس نفث في روعي » عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠١٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٧) ، وتتمة الحديث رواها أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .
(٣) في جميع النسخ : (أما تراهم) ، والمثبت من (ق) .

واحسبي أنَّكِ لستِ ذاتَ بصيرةٍ تهتدي إلىٰ هـٰذهِ الأمورِ ، وإنَّما تميلينَ بالطبعِ إلى التشبُّهِ والاقتداءِ ، فقيسي عقلَ الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ بعقلِ هـٰؤلاءِ المكبّينَ على الدنيا ، واقتدي مِنَ الفريقينِ بمَنْ هوَ أعقلُ عندَكِ إنْ كنتِ تعتقدينَ في نفسِكِ العقلَ والذكاءَ .

يا نفسُ ؛ ما أعجبَ أمرَكِ وأشدَّ جهلَكِ وأظهرَ طغيانَكِ !! عجباً لكِ !! كيفَ تعمينَ عنْ هـٰذهِ الأمورِ الواضحةِ الجليَّةِ ولعلَّكِ يا نفسُ أسكرَكِ حبُّ الجاهِ ، وأدهشَكِ عنْ فهمِها ، أوَما تتفكرينَ أنَّ الجاهَ لا معنىٰ لهُ إلا ميلُ القلوبِ مِنْ بعضِ الناسِ إليكِ ؟ فاحسبي أنَّ كلَّ مَنْ علىٰ وجهِ الأرضِ سجدَ لكِ وأطاعَكِ ، أفما تعرفينَ أنَّهُ بعدَ خمسينَ سنةً لا تبقينَ أنتِ ولا أحدٌ ممَّنْ علىٰ وجهِ الأرضِ ممَّنْ عبدَكِ وسجدَ لكِ ، وسيأتي زمانٌ لا يبقىٰ ذكرُكِ ولا ذكرُ مَنْ ذكرَكِ ؛ كما أتىٰ على الملوكِ الذينَ كانوا مِنْ قبلِكِ ، فـ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ، فكيفَ تبيعينَ يا نفسُ ما يبقىٰ أبدَ الآبادِ بما لا يبقىٰ أكثرَ مِنْ خمسينَ سنةً إنْ بقيَ ؟! هـٰذا إنْ كنتِ ملكاً مِنْ ملوكِ الأرضِ ، سلمَ لكِ الشرقُ والغربُ ، حتىٰ أذعنَتْ لكِ الرقابُ ، وانتظمَتْ لكِ الأسبابُ ، كيفَ ويأبىٰ إدبارُكِ وشقاوتُكِ أنْ يسلمَ لكِ أمرُ محلتِكِ ، بلْ أمرُ دارِكِ فضلاً عنْ محلتِكِ ؟! فإنْ كنتِ يا نفسُ لا تتركينَ الدنيا رغبةً في الآخرةِ لجهلِكِ وعمىٰ بصيرتِكِ . . فما لكِ لا تتركينَها ترفُّعاً عنْ خسَّةِ شركائِها ، وتنزُّهاً عنْ كثرةِ عنائِها ، وتوقِّياً مِنْ سرعةِ فنائِها ؟! أمْ ما لكِ لا تزهدينَ في قليلِها بعدَ أنْ زهدَ فيكِ كثيرُها ؟! وما لكِ تفرحينَ بدنيا إنْ ساعدَتْكِ . . فلا تخلو بلدُكِ عنْ جماعةٍ مِنَ اليهودِ والمجوسِ يسبقونَكِ بها ، ويزيدونَ عليكِ في نعيمِها وزينتِها ، فأفٍّ لدنيا يسبقُكِ بها هـٰؤلاءِ الأخسَّاءُ ، فما أجهلَكِ وأخسَّ همَّتَكِ وأسقطَ رأيَكِ !! إذْ رغبتِ عنْ أنْ تكوني في زمرةِ المقرَّبينَ مِنَ النبيينَ والصدِّيقينَ في جوارِ ربِّ العالمينَ أبدَ الآبدينِ ؛ لتكوني في صفِّ النعالِ مِنْ جملةِ الحمقى الجاهلينَ أياماً قلائلَ ، فيا حسرةً عليكِ إذْ خسرتِ الدنيا والدينَ .

فبادري ـ ويحَكِ يا نفسُ ـ فقدْ أشرفتِ على الهلاكِ ، واقتربَ الموتُ ، ووردَ النذيرُ ، فمَنْ ذا يصلِّي عنكِ بعدَ الموتِ ، ومَنْ ذا يصومُ عنكِ بعدَ الموتِ ، ومَنْ ذا يترضَّىٰ عنكِ ربَّكِ بعدَ الموتِ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ !! ما لكِ إلا أيامٌ معدودةٌ هيَ بضاعتُكِ ، إنِ اتجرتِ فيها وقدْ ضيَّعتِ أكثرَها ؛ فلوْ بكيتِ بقيةَ عمرِكِ علىٰ ما ضيَّعتِ منها . . لكنتِ مقصرةً في حقِّ نفسِكِ ، فكيفَ إذا ضيَّعتِ البقيةَ وأصررتِ علىٰ عادتِكِ ؟!

أما تعلمينَ يا نفسُ أنَّ الموتَ موعدُكِ ، والقبرَ بيتُكِ ، والترابَ فراشُكِ ، والدودَ أنيسُكِ ، والفزعَ الأكبرَ بينَ يديكِ ، أما علمتِ يا نفسُ أنَّ عسكرَ الموتىٰ علىٰ بابِ البلدِ ينتظرونَكِ ، وقدْ آلوا كلُّهُمْ علىٰ أنفسِهِمْ بالأيمانِ المغلَّظةِ أنَّهُمْ لا يبرحونَ مِنْ مكانِهِمْ ما لمْ يأخذوكِ معَهُمْ .

أما تعلمينَ يا نفسُ أنَّهُمْ يتمنَّونَ الرجعةَ إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتداركِ ما فرطَ منهُمْ ، وأنتِ في أمنيَّتِهِمْ ، ويومٌ مِنْ عمرِكِ لوْ بيعَ منهم بالدنيا بحذافيرِها . . لاشتروهُ لوْ قدروا عليهِ ، وأنتِ تضيعينَ أيَّامَكِ في الغفلةِ والبطالةِ .

ويحَكِ يا نفسُ !! أما تستحيينَ ؟! تزيِّنينَ ظاهرَكِ للخلقِ ، وتبارزينَ اللهَ في السرِّ بالعظائمِ ، أفتستحيينَ مِنَ الخلقِ ولا تستحيينَ مِنَ الخالقِ ؟! ويحَكِ !! أهوَ أهونُ الناظرينَ عليكِ ؟! أتأمرينَ الناسَ بالخيرِ وأنتِ متلطِّخةٌ بالرذائلِ ، تدعينَ إلى البرِّ وأنتِ منهُ فارَّةٌ ، وتذكرينَ باللهِ وأنتِ لهُ ناسيةٌ ، أما تعلمينَ يا نفسُ أنَّ المذنبَ أنتنُ مِنَ العذرةِ ، وأنَّ العذرةَ لا تطهِّرُ غيرَها ؟! فلِمَ تطمعينَ في تطهيرِ غيرِكِ وأنتِ غيرُ طيِّبةٍ في نفسِكِ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ !! لوْ عرفتِ نفسَكِ حقَّ المعرفةِ . . لظننتِ أنَّ الناسَ ما يصيبُهُمْ بلاءٌ إلا بشؤمِكِ .

ويحَكِ يا نفسُ !! قدْ جعلتِ نفسَكِ حماراً لإبليسَ يقودُكِ إلىٰ حيثُ يريدُ ، ويسخرُ بكِ ، ومعَ هـٰذا فتعجبينَ بعملِكِ وفيهِ مِنَ الآفاتِ ما لوْ نجوتِ منها رأساً برأسٍ . . لكانَ الربحُ في يديكِ ، وكيفَ تعجبينَ بعملِكِ معَ كثرةِ خطاياكِ وزلَلِكِ ، وقدْ لعنَ اللهُ إبليسَ بخطيئةٍ واحدةٍ بعدَ أنْ عبدَهُ مئتي ألفِ سنةٍ ، وأخرجَ آدمَ مِنَ الجنةِ بخطيئةٍ واحدةٍ معَ كونِهِ نبيَّهُ وصفيَّهُ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ !! ما أغدَرَكِ !!

ويحَكِ يا نفسُ !! ما أوقحَكِ !!

ويحَكِ يا نفسُ !! ما أجهلَكِ وما أجرأَكِ على المعاصي !!

ويحَكِ كمْ تعقدينَ فتنقضينَ !!

ويحَكِ كمْ تعهدينَ فتغدرينَ !!

ويحَكِ يا نفسُ !! أتشتغلينَ معَ هـٰذهِ الخطايا بعمارةِ دنياكِ كأنَّكِ غيرُ مرتحلةٍ عنها ؟! أما تنظرينَ إلىٰ أهلِ القبورِ كيفَ كانوا جمعوا كثيراً ، وبنَوا مشيداً ، وأمَّلوا بعيداً ، فأصبحَ جمعُهُمْ بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملُهُمْ غروراً ؟!

ويحَكِ يا نفسُ !! أما لكِ بهِمْ عبرةٌ ؟! أما لكِ إليهِمْ نظرةٌ ؟! أتظنينَ أنَّهُمْ دعوا إلى الآخرةِ وأنتِ مِنَ المخلَّدينَ ؟! هيهاتَ هيهاتَ !! ساءَ ما تتوهَّمينَ ، ما أنتِ إلا في هدمِ عمرِكِ منذُ سقطتِ مِنْ بطنِ أمِّكِ ، فابني علىٰ وجهِ الأرضِ قصرَكِ ، فإنَّ بطنَها عنْ قليلٍ يكونُ قبرَكِ !! أما تخافينَ إذا بلغَتِ النفسُ منكِ التراقيَ أنْ تبدوَ رسلُ ربِّكِ منحدرةً إليكِ بسوادِ الألوانِ ، وكلَحِ الوجوهِ ، وبشرى العذابِ ؟! فهلْ ينفعُكِ حينئذٍ الندمُ ، أوْ يُقبلُ منكِ الحزنُ ، أوْ يُرحمُ منكِ البكاءُ ؟

والعجبُ كلُّ العجبِ منكِ يا نفسُ أنَّكِ معَ هـٰذا تدَّعينَ البصيرةَ والفطنةَ ، ومِنْ فطنتِكِ أنَّكِ تفرحينَ كلَّ يومٍ بزيادةِ مالِكِ ، ولا تحزنينَ بنقصانِ عمرِكِ ، وما نفعُ مالٍ يزيدُ وعمرٍ ينقصُ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ !! تعرضينَ عنِ الآخرةِ وهيَ مقبلةٌ عليكِ ، وتقبلينَ على الدنيا وهيَ معرضةٌ عنكِ ، فكمْ مِنْ مستقبلٍ يوماً لمْ يستكملْهُ ، وكمْ مِنْ مؤمِّلٍ لغدٍ لمْ يبلغْهُ ، فأنتِ تشاهدينَ ذٰلكَ في إخوانِكِ وأقاربِكِ وجيرانِكِ ، وترينَ تحسُّرَهُمْ عندَ الموتِ ، ثمَّ لا ترجعينَ عنْ جهالتِكِ !!

فاحذري أيَّتُها النفسُ المسكينةُ يوماً آلى اللهُ فيهِ علىٰ نفسِهِ ألا يتركَ عبداً أمرَهُ في الدنيا ونهاهُ حتىٰ يسألَهُ عنْ عملِهِ ؛ دقيقِهِ وجليلِهِ ، سرِّهِ وعلانيتِهِ ، فانظري يا نفسُ بأيِّ بدنٍ تقفينَ بينَ يدي اللهِ ؟ وبأيِّ لسانٍ تجيبينَ ؟ وأعدِّي للسؤالِ جواباً ، وللجوابِ صواباً ، واعملي بقيَّةَ عمرِكِ في أيامٍ قصارٍ لأيامٍ طوالٍ ، وفي دارِ زوالٍ لدارِ مُقامةٍ ، وفي دارِ حزنٍ ونصَبٍ لدارِ نعيمٍ وخلودٍ ، اعملي قبلَ ألا تعملي ، اخرجي مِنَ الدنيا اختياراً خروجَ الأحرارِ قبلَ أنْ تخرجي منها على الاضطرارِ ، ولا تفرحي بما يساعدُكِ مِنْ زهراتِ الدنيا ، فربَّ مسرورٍ مغبونٌ ، وربَّ مغبونٍ لا يشعرُ ، فويلٌ لمَنْ لهُ الويلُ ثمَّ لا يشعرُ ، يضحكُ ويفرحُ ، ويلهو ويمرحُ ، ويأكلُ ويشربُ ، وقدْ حقَّ لهُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ أنَّهُ مِنْ وقودِ النارِ !!

فليكنْ نظرُكِ يا نفسُ إلى الدنيا اعتباراً ، وسعيُكِ لها اضطراراً ، ورفضُكِ لها اختياراً ، وطلبُكِ للآخرةِ ابتداراً ، ولا تكوني ممَّنْ يعجزُ عنْ شكرِ ما أُوتيَ ، ويبتغي الزيادةَ فيما بقيَ ، وينهى الناسَ ولا ينتهي .

واعلمي يا نفسُ أنَّهُ ليسَ للدينِ عوضٌ ، ولا للإيمانِ بدلٌ ، ولا للجسدِ خلفٌ ، ومَنْ كانَتْ مطيَّتُهُ الليلَ والنهارَ . . فإنَّهُ يُسارُ بهِ وإنْ لمْ يسرْ .

فاتعظي يا نفسُ بهٰذهِ الموعظةِ ، واقبلي هٰذهِ النصيحةَ ، فإنَّ مَنْ أعرضَ عنِ الموعظةِ . . فقدْ رضيَ بالنارِ ، وما أراكِ بها راضيةً ، ولا لهٰذهِ الموعظةِ واعيةً ، فإنْ كانَتِ القساوةُ تمنعُكِ عنْ قبولِ الموعظةِ . . فاستعيني عليها بدوامِ التهجُّدِ والقيامِ ؛ فإنْ لمْ تزلْ . . فبالمواظبةِ على الصيامِ ، فإنْ لمْ تزلْ . . فبقلةِ المخالطةِ والكلامِ ، فإنْ لمْ تزلْ . . فبصلةِ الأرحامِ ، واللطفِ بالأيتامِ ، فإنْ لمْ تزلْ . . فاعلمي أنَّ اللهَ قدْ طبعَ علىٰ قلبِكِ وأقفلَ عليهِ ، وأنَّهُ قدْ تراكمَتْ ظلمةُ الذنوبِ علىٰ ظاهرِهِ وباطنِهِ ، فوطِّني نفسَكِ على النارِ ، فقدْ خلقَ اللهُ الجنةَ وخلقَ لها أهلاً ، وخلقَ النارَ وخلقَ لها أهلاً ، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ ، فإنْ لمْ يبقَ فيكِ مجالٌ للوعظِ . . فاقنطي مِنْ نفسِكِ ، والقنوطُ كبيرةٌ مِنَ الكبائرِ نعوذُ باللهِ مِنْ ذٰلكَ ، فلا سبيلَ لكِ إلى القنوطِ ، ولا سبيلَ لكِ إلى الرجاءِ معَ انسدادِ طرقِ الخيرِ عليكِ ، فإنَّ ذٰلكَ اغترارٌ وليسَ برجاءٍ ، فانظري الآنَ هلْ يأخذُكِ حزنٌ علىٰ هٰذهِ المصيبةِ التي ابتليتِ بها ؟ وهلْ تسمحُ عينُكِ بدمعةٍ رحمةً منكِ علىٰ نفسِكِ ، فإنْ سمحَتْ . . فمستقى الدمعِ مِنْ بحرِ الرحمةِ ، فقدْ بقيَ فيكِ موضعٌ للرجاءِ ، فواظبي على النياحةِ والبكاءِ ، واستغيثي بأرحمِ الراحمينَ ، واشتكي إلىٰ أكرمِ الأكرمينَ ، وأدمني الاستغاثةَ ، ولا تملِّي طولَ الشكايةِ ؛ لعلَّهُ أنْ يرحمَ ضعفَكِ ويغيثَكِ ، فإنَّ مصيبتَكِ قدْ عظمَتْ ، وبليتَكِ قدْ تفاقمَتْ ، وتماديَكِ قدْ طالَ ، وقدِ انقطعَتْ منكِ الحيلُ ، وراحَتْ عنكِ العللُ ، فلا مذهبَ ولا مطلبَ ، ولا مستغاثَ ولا مهربَ ، ولا ملجأَ ولا منجىٰ إلا إلىٰ مولاكِ ، فافزعي إليهِ بالتضرُّعِ ، واخشعي في تضرُّعِكِ علىٰ قدْرِ عظمِ جهلِكِ وكثرةِ ذنوبِكِ ؛ لأنَّهُ يرحمُ المتضرِّعَ الذليلَ ، ويغيثُ الطالبَ المتلهِّفَ ، ويجيبُ دعوةَ المضطرِّ .

وقدْ أصبحتِ واللهِ إليهِ اليومَ مضطرةً ، وإلىٰ رحمتِهِ محتاجةً ، وقدْ ضاقَتْ بكِ السبلُ ، وانسدَّتْ عليكِ الطرقُ ، وانقطعَتْ منكِ الحيلُ ، ولمْ تنجعْ فيكِ العظاتُ ، ولمْ يكسرْكِ التوبيخُ ، فالمطلوبُ منهُ كريمٌ ، والمسؤولُ جوادٌ ، والمستغاثُ بهِ برٌّ رؤوفٌ ، والرحمةُ واسعةٌ ، والكرمُ فائضٌ ، والعفوُ شاملٌ ، وقُولي : (يا أرحمَ الراحمينَ ، يا رحمانُ ، يا رحيمُ ، يا حليمُ ، يا عظيمُ ، يا كريمُ ؛ أنا المذنبُ المصرُّ ، أنا الجريءُ الذي لا أقلعُ ، أنا المتمادي الذي لا أستحي ، هٰذا مقامُ المتضرِّعِ المسكينِ ، والبائسِ الفقيرِ ، والضعيفِ الحقيرِ ، والهالكِ الغريقِ ؛ فعجِّلْ إغاثتي وفرجي ، وأرني آثارَ رحمتِكَ ، وأذقْني بردَ عفوِكَ ومغفرتِكَ ، وارزقْني قوَّةَ عصمتِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ) اقتداءً بأبيكِ آدمَ عليهِ السلامُ ، فقدْ قالَ وهبُ بنُ منبهٍ : لما أهبطَ اللهُ عزَّ وجلَّ آدمَ إلى الأرضِ مِنَ الجنةِ . . مكثَ لا ترقأُ لهُ دمعةٌ ، فاطلعَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ في اليومِ السابعِ وهوَ محزونٌ كئيبٌ كظيمٌ منكِّسٌ رأسَهُ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا آدمُ ؛ ما هٰذا الجهدُ الذي أرىٰ بكَ ؟ قالَ : يا ربِّ ؛ عظمَتْ مصيبتي ، وأحاطَتْ بي خطيئتي ، وأُخرجتُ مِنْ ملكوتِ ربِّي ، فصرتُ في دارِ الهوانِ بعدَ الكرامةِ ، وفي دارِ الشقاءِ بعدَ السعادةِ ، وفي دارِ النصبِ بعدَ الراحةِ ، وفي دارِ البلاءِ بعدَ العافيةِ ، وفي دارِ الزوالِ بعدَ القرارِ ، وفي دارِ الموتِ والفناءِ بعدَ الخلودِ والبقاءِ ، فكيفَ لا أبكي علىٰ خطيئتي ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا آدمُ ؛ ألمْ أصطفِكَ لنفسي ، وأحللتُكَ داري ، وخصصتُكَ بكرامتي ، وحذَّرتُكَ سخطي ؟ ألمْ أخلقْكَ بيدي ، ونفختُ فيكَ مِنْ روحي ، وأَسجدتُ لكَ ملائكتي ، فعصيتَ أمري ، ونسيتَ عهدي ، وتعرَّضتَ لسخطي ، فوعزَّتي وجلالي ؛ لوْ ملأتُ الأرضَ رجالاً كلُّهُمْ مثلَكَ ، يعبدونَني ويسبِّحونَني ثمَّ عصوني . . لأنزلتُهُمْ منازلَ العاصينَ ، فبكىٰ آدمُ عليهِ السلامُ عندَ ذٰلكَ ثلاثَ مئةِ عامٍ [1]

---

(١) رواه ابن قدامة في « التوابين » (ص ٩) ، وروى ابن سعد في « طبقاته » (١/١٥) عن الحسن : (بكىٰ آدم على الجنة ثلاث مئة سنة) .

وكانَ عبيدُ اللهِ البجليُّ كثيرَ البكاءِ[1] ، يقولُ في بكائِهِ طولَ ليلِهِ : (إلـٰهي ؛ أنا الذي كلَّما طالَ عمري . . زادَتْ ذنوبي ، أنا الذي كلَّما هممتُ بتركِ خطيئةٍ . . عرضَتْ لي شهوةٌ أخرىٰ ، وا عبيداهُ ؛ خطيئةٌ لمْ تبلَ وصاحبُها في طلبِ أخرىٰ !! وا عبيداهُ ؛ إنْ كانَتِ النارُ لكَ مقيلاً ومأوىً ، وا عبيداهُ ؛ إنْ كانَتِ المقامعُ لرأسِكَ تهيَّأُ ، وا عبيداهُ ؛ قُضيَتْ حوائجُ الطالبينَ ولعلَّ حاجتَكَ لا تُقضىٰ) .

وقالَ منصورُ بنُ عمَّارٍ : سمعتُ في بعضِ الليالي بالكوفةِ عابداً يناجي ربَّهُ وهوَ يقولُ : (يا ربِّ ؛ وعزَّتِكَ ما أردتُ بمعصيتِكَ مخالفتَكَ ، ولا عصيتُكَ إذْ عصيتُكَ وأنا بمكانِكَ جاهلٌ ، ولا لعقوبتِكَ متعرِّضٌ ، ولا لنظرِكَ مستخفٌّ ، ولـٰكنْ سوَّلَتْ لي نفسي ، وأعانَني علىٰ ذٰلكَ شِقوتي ، وغرَّني سترُكَ المرخيُّ عليَّ ، فعصيتُكَ بجهلي ، وخالفتُكَ بفعلي ، فمِنْ عذابِكَ الآنَ مَنْ يستنقذُني ، أوْ بحبلِ مَنْ أعتصمُ إنْ قطعتَ حبلَكَ عنِّي ؟ وا سوءتاهُ مِنَ الوقوفِ بينَ يديكَ غداً إذا قيلَ للمخفِّينَ : جوزوا ، وقيلَ للمثقلينَ : حُطُّوا ، أمعَ المخفِّينَ أجوزُ أمْ معَ المثقلينَ أحطُّ ؟ ويلي !! كلَّما كبرَتْ سنِّي . . كثرَتْ ذنوبي ، ويلي !! كلَّما طالَ عمري . . كثرَتْ معاصيَّ ، فمِنْ كمْ أتوبُ ؟ وفي كمْ أعودُ ؟ أما آنَ لي أنْ أستحييَ مِنْ ربِّي ؟)[2]

فهـٰذهِ طرقُ القومِ في مناجاةِ مولاهُمْ ، وفي معاتبةِ نفوسِهِمْ ، وإنَّما مطلبُهُمْ مِنَ المناجاةِ الاسترضاءُ ، ومقصدُهُمْ مِنَ المعاتبةِ التنبيهُ والاسترعاءُ ، فمَنْ أهملَ المعاتبةَ والمناجاةَ . . لمْ يكنْ لنفسِهِ مراعياً ، ويوشكُ ألا يكونَ اللهُ تعالىٰ عنهُ راضياً ، والسلامُ .

❁ ❁ ❁

تمَّ كتابُ المراقبةِ والمحاسبةِ

وهوَ الكتابُ الثامنُ من ربعِ المنجياتِ من كتبِ إحياءِ علومِ الدِّين

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ أجمعين

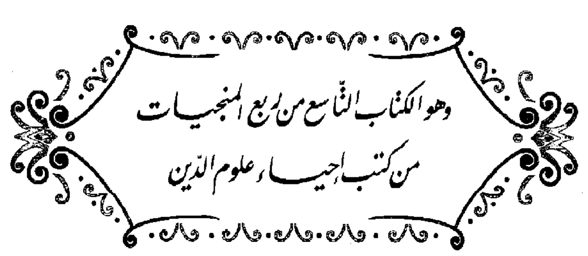
يتلوهُ كتابُ التفكُّر

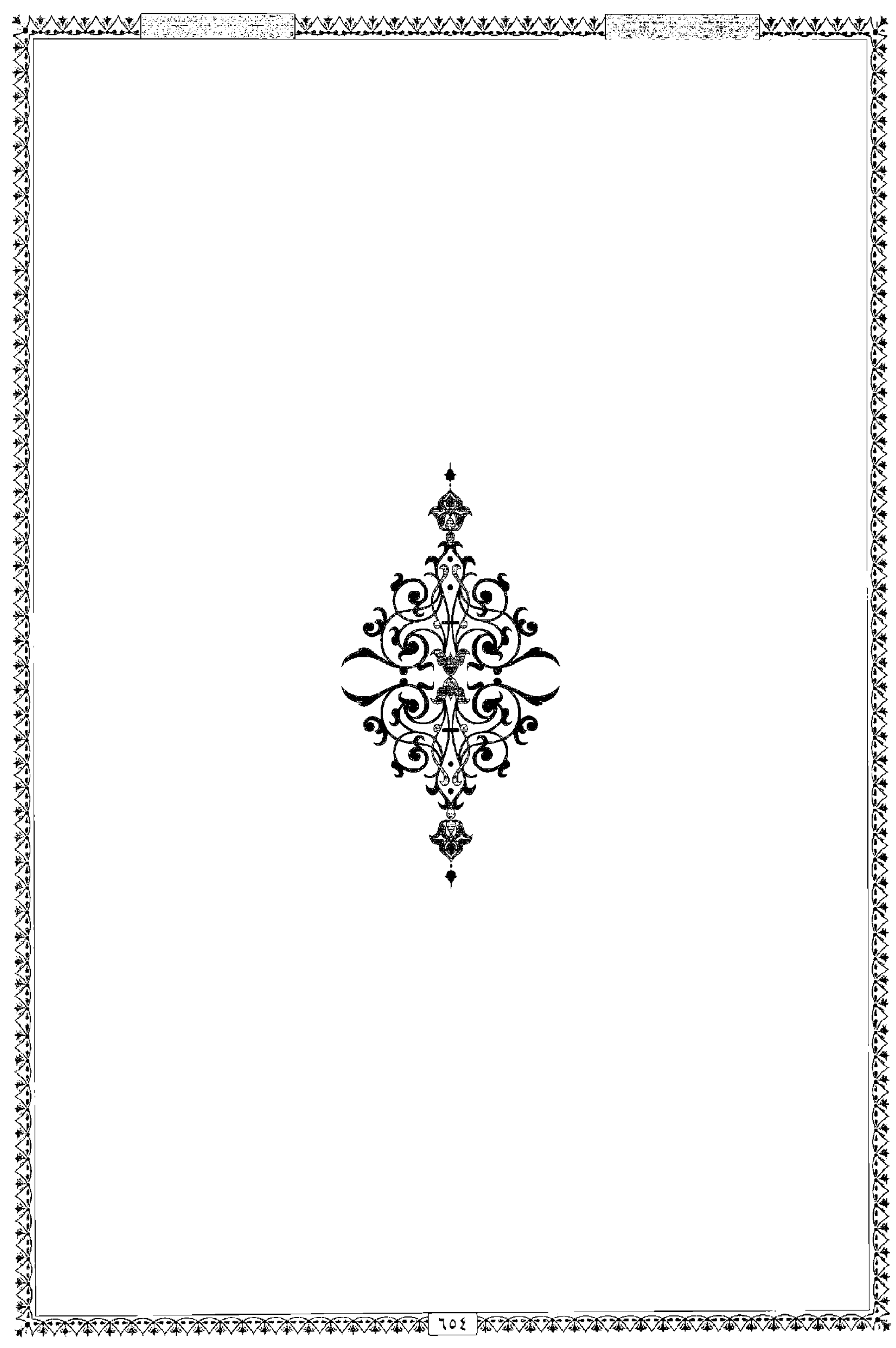
---

(١) في غير (ف) : (عبد الله) بدل (عبيد الله) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/٣٢٨) ، وفي (ج ، ص) : (فإلىٰ متىٰ أتوب ؟ وإلىٰ متىٰ أعود ؟) بدل (فمن كم أتوب ؟ وفي كم أعود ؟) .

كتاب
التفكر





كتاب التفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي لمْ يقدرْ لانتهاءِ عزَّتِهِ نحواً ولا قُطراً[1] ، ولمْ يجعلْ لمراقي أقدامِ الأوهامِ ومرمىٰ سهامِ الأفهامِ إلىٰ حمىٰ عظمتِهِ مجرىً ، بلْ تركَ قلوبَ الطالبينَ في بيداءِ كبريائِهِ والهةً حيرىٰ ، كلَّما اهتزَّتْ لنيلِ مطلوبِها . . ردَّتْها سُبُحاتُ الجلالِ قسراً ، وإذا همَّتْ بالانصرافِ آيسةً . . نُودِيَتْ مِنْ سرادقاتِ الجمالِ صبراً صبراً ، ثمَّ قيلَ لها : أجيلي في ذلِّ العبوديةِ منكِ فكراً ؛ لأنَّكِ لوْ تفكَّرتِ في جلالِ الربوبيَّةِ . . لمْ تقدري لهُ قدْراً ، وإنْ طلبتِ وراءَ التفكُّرِ في صفاتِكِ أمراً . . فانظري في نعمِ اللهِ تعالىٰ وأياديهِ كيفَ توالَتْ عليكِ تترىٰ ، وجدِّدي لكلِّ نعمةٍ منها ذكراً وشكراً ، وتأمَّلي في بحارِ المقاديرِ كيفَ فاضَتْ على العالمينَ خيراً وشرّاً ، ونفعاً وضُراً ، وعسراً ويسراً ، وفوزاً وخُسراً ، وجبراً وكسراً ، وطيّاً ونشراً ، وإيماناً وكفراً ، وعرفاناً ونُكراً ، فإنْ جاوزتِ النظرَ في الأفعالِ إلى النظرِ في الذاتِ . . فقدْ حاولتِ أَمراً إِمْراً ، وخاطرتِ بنفسكِ مجاوزةً حدَّ طاقةِ البشريَّةِ ظلماً وجوراً ، فقدِ انبهرَتِ العقولُ دونَ مبادي إشراقِهِ وانتكصَتْ علىٰ أعقابِها اضطراراً وقهراً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ ولدِ آدمَ وإنْ كانَ لمْ يعدَّ سيادتَهُ فخراً[2] ، صلاةً تبقىٰ لنا في عرصاتِ القيامةِ عُدَّةً وذخراً ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ الذينَ أصبحَ كلُّ واحدٍ منهُمْ في سماءِ الدينِ بدراً ، ولطوائفِ المسلمينَ صدراً ، وسلِّمْ تسليماً كثيراً .

أمَّا بعد :

فقدْ وردَتِ السنَّةُ بأنَّ تفكُّرَ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ سنةٍ[3] ، وكثُرَ الحثُّ في كتابِ اللهِ تعالىٰ على التدبُّرِ والاعتبارِ ، والنظرِ والافتكارِ ، ولا يخفىٰ أنَّ الفكرَ هوَ مفتاحُ الأنوارِ ، ومبدأُ الاستبصارِ ، وهوَ شبكةُ العلومِ ، ومصيدةُ المعارفِ والفهومِ ، وأكثرُ الناسِ قدْ عرفوا فضلَهُ ورتبتَهُ ، ولٰكنْ جهلوا حقيقتَهُ وثمرتَهُ ، ومصدرَهُ وموردَهُ ، ومجراهُ ومسرحَهُ ، وطريقَهُ وكيفيتَهُ ، ولمْ يعلمْ أنَّهُ كيفَ يتفكَّرُ ؟ وفيماذا يتفكَّرُ ؟ ولماذا يتفكَّرُ ؟ وما الذي يُطلبُ بهِ ؟ أهوَ مرادٌ لعينِهِ ، أمْ لثمرةٍ تُستفادُ منهُ ؟ فإنْ كانَ لثمرةٍ . . فما تلكَ الثمرةُ ؟ أهيَ مِنَ العلومِ ، أوْ مِنَ الأحوالِ ، أوْ منهُما جميعاً ؟

وكشفُ جميعِ ذٰلكَ مهمٌّ ، ونحنُ نذكرُ أوّلاً فضيلةَ التفكُّرِ ، ثمَّ حقيقةَ التفكُّرِ وثمرتَهُ ، ثمَّ مجاريَ الفكرِ ومسارحَهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❋ ❋ ❋

---

(١) أي : لم يجعل لغلبته الآتية علىٰ كل الظاهر والباطن جهة ولا ناحية . « إتحاف » (١٠/١٦٠) .

(٢) إذ روى الترمذي (٣١٤٨) ، وابن ماجه (٤٣٠٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

(٣) إذ روىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه : « تفكُّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة » ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٨) ، وهناد في « الزهد » (٩٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٠٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة) .

فضيلة التفكر

قدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ بالتفكُّرِ والتدبُّرِ في كتابِهِ العزيزِ في مواضعَ لا تُحصىٰ ، وأثنىٰ على المتفكرينَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ .

وقدْ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : إنَّ قوماً تفكَّروا في اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تفكَّروا في خلْقِ اللهِ ، ولا تتفكَّروا في اللهِ ؛ فإنَّكُمْ لنْ تقدروا قدرَهُ »[1]

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ خرجَ علىٰ قومٍ ذاتَ يومٍ وهُمْ يتفكَّرونَ ، فقالَ : « ما لكمْ لا تتكلَّمونَ ؟ » فقالوا : نتفكَّرُ في خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ : « فكذٰلكَ فافعلوا ، تفكَّروا في خلقِهِ ، ولا تتفكَّروا فيهِ ، فإنَّ بهٰذا المغربِ أرضاً بيضاءَ ، نورُها بياضُها أو بياضُها نورُها مسيرةَ الشمسِ أربعينَ يوماً ، بها خلقٌ مِنْ خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ لمْ يعصوا اللهَ طرفةَ عينٍ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ فأينَ الشيطانُ منهُمْ ؟ قالَ : « ما يدرونَ خُلِقَ الشيطانُ أم لا » ، قالوا : مِنْ ولدِ آدمَ ؟ قالَ : « لا يدرونَ خُلِقَ آدمُ أمْ لا »[2]

وعنْ عطاءٍ قالَ : انطلقتُ يوماً أنا وعبيدُ بنُ عميرٍ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فكلَّمتْنا وبينَنا وبينَها حجابٌ ، فقالَتْ : يا عبيدُ ؛ ما يمنعُكَ مِنْ زيارتِنا ؟ قالَ : قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زُرْ غبّاً تزددْ حبّاً »[3] ، قالَ ابنُ عميرٍ : فأخبرينا بأعجبِ شيءٍ رأيتِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فبكَتْ وقالَتْ : كلُّ أمرِهِ كانَ عجباً ، أتاني في ليلتي ، حتىٰ مسَّ جلدُهُ جلدي ، ثمَّ قالَ : « ذريني أتعبَّدْ لربِّي عزَّ وجلَّ » ، فقامَ إلى القربةِ فتوضَّأَ منها ، ثمَّ قامَ يصلِّي ، فبكىٰ حتىٰ بلَّ لحيتَهُ ، ثمَّ سجدَ حتىٰ بلَّ الأرضَ ، ثمَّ اضطجعَ علىٰ جنبِهِ حتىٰ أتىٰ بلالٌ يؤذنُهُ بصلاةِ الصبحِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يبكيكَ وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟ فقالَ : « ويحَكَ يا بلالُ !! وما يمنعُني أنْ أبكيَ وقدْ أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليَّ في هٰذهِ الليلةِ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ » ، ثمَّ قالَ : « ويلٌ لمَنْ قرأَها ولمْ يتفكَّرْ فيها »[4]

فقيلَ للأوزاعيِّ : ما غايةُ التفكُّرِ فيهنَّ ؟ قالَ : يقرؤُهُنَّ ويعقلُهُنَّ[5]

وعنْ محمدِ بنِ واسعٍ : أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ البصرةِ ركبَ إلىٰ أمِّ ذرٍّ بعدَ موتِ أبي ذرٍّ ، فسألَها عنْ عبادةِ أبي ذرٍّ ، فقالَتْ : كانَ نهارَهُ أجمعَ في ناحيةِ البيتِ يتفكَّرُ[6]

---

(١) كذا رواه الخركوشي بسنده في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٣) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٢٧١ ، ٣٨٩) ، ورواه من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه أبو نعيم في « الحلية » (٦٦/٦) ، ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما البيهقي في « الشعب » (١١٩) .

(٢) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٣) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٩٥٣) عن بعض أئمة الكوفة يرفعه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٧٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن الجوزي في « المنتظم » (٦١/١) عن عثمان بن أبي دهرس بلاغاً .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣٤٧/٣) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٤) ، ورواه كذلك ابن أبي الدنيا في « التفكر » كما أشار الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٦٣/١٠) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٤) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٦٣/١٠) .

(٦) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٤/١) .

وعنِ الحسنِ قالَ : (تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ)(١)

وعنِ الفضيلِ قالَ : (الفكر مرآةٌ تريكَ حسناتِكَ وسيئاتِكَ)(٢)

وقيلَ لإبراهيمَ : إنَّكَ تطيلُ الفكرةَ ، فقالَ : الفكرةُ مخُّ العقلِ(٣)

وكانَ سفيانُ بنُ عيينةَ كثيراً ما يتمثَّلُ ويقولُ(٤) : [من المتقارب]

إذا الْـمَـرْءُ كَـانَـتْ لَـهُ فِـكْـرَةٌ ... فَـفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ عِـبْـرَةٌ

وعنْ طاووسٍ قالَ : قالَ الحواريُّونَ لعيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ : يا روحَ اللهِ ؛ هلْ على الأرضِ اليومَ مثلُكَ ؟ فقالَ : نعمْ ، مَنْ كانَ منطقُهُ ذكراً ، وصمتُهُ فكراً ، ونظرُهُ عبرةً . . فإنَّهُ مثلي(٥)

وقالَ الحسنُ : (مَنْ لمْ يكنْ كلامُهُ حكمةً . . فهوَ لغوٌ ، ومَنْ لمْ يكنْ سكوتُهُ تفكُّراً . . فهوَ سهوٌ ، ومَنْ لمْ يكنْ نظرُهُ اعتباراً . . فهوَ لهوٌ)(٦)

وفي قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، قالَ : أمنعُ قلوبَهُمُ التفكُّرَ في أمري(٧)

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعطوا أعينَكُمْ حظَّها مِنَ العبادةِ » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وما حظُّها مِنَ العبادةِ ؟ قالَ : « النظرُ في المصحفِ والتفكُّرُ فيهِ ، والاعتبارُ عندَ عجائبِهِ »(٨)

وعنِ امرأةٍ كانَتْ تسكنُ الباديةَ قريباً مِنْ مكةَ أنَّها قالَتْ : (لوْ تطالعَتْ قلوبُ المتقينَ بفكرِها إلىٰ ما قدْ ذُخِرَ لها في حجبِ الغيوبِ مِنْ خيرِ الآخرةِ . . لمْ يصفُ لهُمْ في الدنيا عيشٌ ، ولمْ تقرَّ لهُمْ في الدنيا عينٌ)(٩)

وكانَ لقمانُ يطيلُ الجلوسَ وحدَهُ ، فكانَ يمرُّ بهِ مولاهُ فيقولُ : يا لقمانُ ؛ إنَّكَ تديمُ الجلوسَ وحدَكَ ، فلوْ جلستَ معَ الناسِ كانَ آنسَ لكَ ، فيقولُ لقمانُ : إنَّ طولَ الوحدةِ أفهمُ للفكرِ ، وطولُ الفكرةِ دليلٌ علىٰ طريقِ الجنةِ(١٠)

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (ما طالَتْ فكرةُ امرئٍ قطُّ إلا علمَ ، وما علمَ امرؤٌ قطُّ إلا عملَ)(١١)

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٥) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٧١/٦) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٥) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٨/٨) عن الفضيل عن الحسن من قوله .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٥) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠٨/٨) مع الخبر السابق .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٥) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٠٦/٧) ، وانظر « المدهش » (٣٦٨/١) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٦٤/١٠) .

(٦) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٦٤/١٠) .

(٧) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٥) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (١١) عن الفريابي .

(٨) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٦٤/١٠) : (قال العراقي : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » ، ومن طريقه أبو الشيخ في « العظمة » [١٢] بإسناد ضعيف ، انتهى ، قلت : ورواه أيضاً الحكيم في « النوادر » [ص ٣٣٣] ، والبيهقي في « الشعب » [٢٠٣٠] وضعفه) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٥) .

(٩) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٦) ، ورواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٧) .

(١٠) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٦) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٦٤/١٠) .

(١١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٦) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٥٦) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : (الفكرةُ في نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ أفضلِ العبادةِ)[١]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ يوماً لسهلِ بنِ عليٍّ ورآهُ ساكتاً متفكِّراً : أينَ بلغتَ ؟ قالَ : الصراطَ[٢]

وقالَ بشرٌ : (لوْ تفكَّرَ الناسُ في عظمةِ اللهِ تعالىٰ . . ما عصَوُا اللهَ عزَّ وجلَّ)[٣]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ركعتانِ مقتصدتانِ في تفكُّرٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ بلا قلبٍ)[٤]

وبينا أبو شريحٍ يمشي . . إذْ جلسَ فتقنَّعَ بكسائِهِ ، فجعلَ يبكي ، فقلنا : ما يبكيكَ ؟ قالَ : تفكَّرتُ في ذهابِ عمري ، وقلَّةِ عملي ، واقترابِ أجلي[٥]

وقالَ أبو سليمانَ : (عوِّدوا أعينَكُمُ البكاءَ ، وقلوبَكُمُ التفكُّرَ)[٦]

وقالَ أبو سليمانَ : (الفكرُ في الدنيا حجابٌ عنِ الآخرةِ ، وعقوبةٌ لأهلِ الولايةِ ، والفكرُ في الآخرةِ يورثُ الحكمةَ ، ويحيي القلوبَ)[٧]

وقالَ حاتمٌ : (مِنَ العبرةِ يزيدُ العلمُ ، ومِنَ الذكرِ يزيدُ الحبُّ ، ومِنَ التفكُّرِ يزيدُ الخوفُ)[٨]

وقالَ ابنُ عباسٍ : (التفكُّرُ في الخيرِ يدعو إلى العملِ بهِ ، والندمُ على الشرِّ يدعو إلىٰ تركِهِ)[٩]

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ في بعضِ كتبِهِ : « إنِّي لستُ أقبلُ كلامَ كلِّ حكيمٍ ، ولٰكنْ أنظرُ إلىٰ همِّهِ وهواهُ ، فإذا كانَ همُّهُ وهواهُ لي . . جعلتُ صمتَهُ تفكُّراً ، وكلامَهُ حمداً وإنْ لمْ يتكلَّمْ »[١٠]

وقالَ الحسنُ : (إنَّ أهلَ العقلِ لمْ يزالوا يعودونَ بالذكرِ على الفكرِ ، وبالفكرِ على الذكرِ ، حتى استنطقوا قلوبَهُمْ ، فنطقَتْ بالحكمةِ)[١١]

وقالَ إسحاقُ بنُ خلفٍ : كانَ داوودُ الطائيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ سطحٍ في ليلةٍ قمراءَ ، فتفكَّرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ وهوَ ينظرُ إلى السماءِ ويبكي حتىٰ وقعَ في دارِ جارٍ لهُ ، قالَ : فوثبَ صاحبُ الدارِ مِنْ فراشِهِ عرياناً وبيدِهِ سيفٌ ، وظنَّ أنَّهُ لصٌّ ، فلمَّا نظرَ إلىٰ داوودَ . . رجعَ ووضعَ السيفَ وقالَ : مَنْ ذا الذي طرحَكَ مِنَ السطحِ ؟ قالَ : ما شعرتُ بذٰلكَ[١٢]

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/١٦٤) .
(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/١٦٤) .
(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٣٧) .
(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٦) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٨٨) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤) .
(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٦) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « العمر والشيب » (٢٢) .
(٦) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٧٤) ، وأبو سليمان هو الداراني .
(٧) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٧٨) ضمن خبر طويل .
(٨) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/١٦٥) .
(٩) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٧) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/١٦٥) .
(١٠) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٧) ، ورواه الدارمي في « سننه » (٢٥٨) عن المهاصر بن حبيب مرسلاً ، وفيه : (جعلت صمته حمداً لي ووقاراً وإن لم يتكلم) .
(١١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩) ، وزاد في رواية : (وورثوا السر) .
(١٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣٥٨) .

وقالَ الجنيدُ : (أشرفُ المجالسِ وأعلاها الجلوسُ معَ الفكرةِ في ميدانِ التوحيدِ ، والتنسُّمُ بنسيمِ المعرفةِ ، والشربُ بكأسِ المحبَّةِ مِنْ بحرِ الودادِ ، والنظرُ بحسنِ الظنِّ للهِ عزَّ وجلَّ) ، ثمَّ قالَ : (يا لها مِنْ مجالسَ ما أجلَّها !! ومِنْ شرابٍ ما ألذَّهُ !! طوبىٰ لمَنْ رُزِقَهُ)[1]

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (استعينوا على الكلامِ بالصمتِ ، وعلى الاستنباطِ بالفكرِ)[2]

وقالَ أيضاً : (صحَّةُ النظرِ في الأمورِ نجاةٌ مِنَ الغرورِ ، والعزمُ في الرأيِ سلامةٌ مِنَ التفريطِ والندمِ ، والرويةُ والفكرُ يكشفانِ عنِ الحزمِ والفطنةِ ، ومشاورةُ الحكماءِ ثباتٌ في النفسِ وقوَّةٌ في البصيرةِ ، ففكِّرْ قبلَ أنْ تعزمَ ، وتدبَّرْ قبلَ أنْ تهجمَ ، وشاوِرْ قبلَ أنْ تقدمَ)[3]

وقالَ أيضاً : (الفضائلُ أربعٌ : إحداها : الحكمةُ ، وقوامُها الفكرةُ ، والثانيةُ : العفَّةُ ، وقوامُها في الشهوةِ ، والثالثةُ : القوةُ ، وقوامُها في الغضبِ ، والرابعةُ : العدْلُ ، وقوامُهُ في اعتدالِ قوى النفسِ)[4]

فهٰذهِ أقاويلُ العلماءِ في الفكرةِ ، وما شرعَ أحدٌ منهُمْ في ذكرِ حقيقتِها وبيانِ مجاريها .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٨) .

(٢) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٥١/٢/١) .

(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » . « إتحاف » (١٦٥/١٠) .

(٤) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » . « إتحاف » (١٦٥/١٠) .

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلمْ : أنَّ معنى الفكرِ هوَ إحضارُ معرفتينِ في القلبِ ليستثمرَ منهُما معرفةً ثالثةً .

ومثالُهُ : أنَّ مَنْ مالَ إلى العاجلةِ ، وآثرَ الحياةَ الدنيا ، وأرادَ أنْ يعرفَ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ مِنَ العاجلةِ . . فلهُ طريقانِ :

أحدُهُما : أنْ يسمعَ مِنْ غيرِهِ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ مِنَ العاجلةِ ، فيقلِّدَهُ ويصدِّقَهُ مِنْ غيرِ بصيرةٍ بحقيقةِ الأمرِ ، فيميلُ بعملِهِ إلىٰ إيثارِ الآخرةِ اعتماداً علىٰ مجرَّدِ قولِهِ ، وهـٰذا يُسمَّىٰ تقليداً ، ولا يُسمَّىٰ معرفةً .

والطريقُ الثاني : أنْ يعرفَ أنَّ الأبقىٰ أولىٰ بالإيثارِ ، ثمَّ يعرفَ أنَّ الآخرةَ أبقىٰ ، فيحصلُ لهُ مِنْ هاتينِ المعرفتينِ معرفةٌ ثالثةٌ ، وهوَ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ ، ولا يمكنُ تحقُّقُ المعرفةِ بأنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ إلا بالمعرفتينِ السابقتينِ ، فإحضارُ المعرفتينِ السابقتينِ في القلبِ للتوصُّلِ بهِ إلى المعرفةِ الثالثةِ يُسمَّىٰ تفكُّراً واعتباراً ، وتذكُّراً ونظراً ، وتأمُّلاً وتدبراً .

أمَّا التدبُّرُ والتأمُّلُ والتفكُّرُ . . فعباراتٌ مترادفةٌ علىٰ معنىً واحدٍ ، ليسَ تحتها معانٍ مختلفةٌ .

وأمَّا اسمُ التذكُّرِ والاعتبارِ والنظرِ . . فهيَ مختلفةُ المعاني ، وإنْ كانَ أصلُ المسمَّىٰ واحداً ؛ كما أنَّ اسمَ الصارمِ والمهنَّدِ والسيفِ يتواردُ علىٰ شيءٍ واحدٍ ولـٰكنْ باعتباراتٍ مختلفةٍ ، فالصارمُ يدلُّ على السيفِ مِنْ حيثُ هوَ قاطعٌ ، والمهنَّدُ يدلُّ عليهِ مِنْ حيثُ نسبتُهُ إلىٰ موضعِهِ ، والسيفُ يدلُّ دلالةً مطلقةً مِنْ غيرِ إشعارٍ بهـٰذهِ الزوائدِ ؛ فكذٰلكَ الاعتبارُ ينطلقُ علىٰ إحضارِ المعرفتينِ مِنْ حيثُ إنَّهُ يعبرُ منهُما إلىٰ معرفةٍ ثالثةٍ ، فإنْ لمْ يقعِ العبورُ ، ولمْ يكنْ إلا الوقوفُ على المعرفتينِ . . فينطلقُ عليهِ اسمُ التذكُّرِ ، لا اسمُ الاعتبارِ .

وأمَّا النظرُ والتفكُّرُ . . فيقعُ عليهِ مِنْ حيثُ إنَّ فيهِ طلبَ معرفةٍ ثالثةٍ ، فمَنْ ليسَ يطلبُ المعرفةَ الثالثةَ لا يُسمَّىٰ ناظراً ، فكلُّ متفكِّرٍ فهوَ متذكِّرٌ ، وليسَ كلُّ متذكِّرٍ متفكراً .

وفائدةُ التذكارِ تكرارُ المعارفِ على القلبِ لتترسَّخَ وتثبتَ ولا تنمحيَ عنِ القلبِ ، وفائدةُ التفكُّرِ تكثيرُ العلمِ واستجلابُ معرفةٍ ليسَتْ حاصلةً ، فهـٰذا هوَ الفرقُ بينَ التذكُّرِ والتفكُّرِ .

والمعارفُ إذا اجتمعَتْ في القلبِ وازدوجَتْ علىٰ ترتيبٍ مخصوصٍ . . أثمرَتْ معرفةً أخرىٰ ، فالمعرفةُ نتاجُ المعرفةِ ، فإذا حصلَتْ معرفةٌ وازدوجَتْ معَ معرفةٍ أخرىٰ . . حصلَ مِنْ ذٰلكَ نتاجٌ آخرُ ، وهـٰكذا يتمادى النتاجُ وتتمادى العلومُ ، ويتمادى الفكرُ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وإنَّما تنسدُّ طريقُ زيادةِ المعارفِ بالموتِ أوِ العوائقِ ، هـٰذا لمَنْ يقدرُ على استثمارِ العلومِ ويهتدي إلىٰ طريقِ التفكُّرِ .

وأما أكثرُ الناسِ . . فإنَّما مُنعوا الزيادةَ في العلومِ لفقدِهِمْ رأسَ المالِ ، وهوَ المعارفُ التي منها تُستثمرُ العلومُ ؛ كالذي لا بضاعةَ لهُ ، فإنَّهُ لا يقدرُ على الربحِ ، وقدْ يملكُ البضاعةَ ولـٰكنْ لا يحسنُ صنعةَ التجارةِ ، فلا يربحُ شيئاً ؛ فكذٰلكَ قدْ يكونُ معَهُ مِنَ المعارفِ ما هوَ رأسُ مالِ العلومِ ، ولـٰكنَّهُ ليسَ يحسنُ استعمالَها وتأليفَها ، وإيقاعَ الازدواجِ المفضي إلى النتاجِ فيها .

ومعرفةُ طريقِ الاستعمالِ والاستثمارِ تارةً تكونُ بنورٍ إلهيٍّ في القلبِ يحصلُ بالفطرةِ ؛ كما كان للأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ ، وذلكَ عزيزٌ جداً ، وقدْ تكونُ بالتعلُّمِ والممارسةِ ، وهوَ الأكثرُ .

ثمَّ المتفكِّرُ قدْ تحضرُهُ هٰذهِ المعارفُ ، وتحصلُ لهُ الثمرةُ وهوَ لا يشعرُ بكيفيةِ حصولِها[1] ، ولا يقدرُ على التعبيرِ عنها لقلَّةِ ممارستِهِ لصناعةِ التعبيرِ والإيرادِ[2] ، فكمْ مِنْ إنسانٍ يعلمُ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ علماً حقيقياً ، ولوْ سُئِلَ عنْ سببِ معرفتِهِ . . لمْ يقدرْ علىٰ إيرادِهِ والتعبيرِ عنهُ ، معَ أنَّهُ لمْ تحصلْ معرفتُهُ إلا عنِ المعرفتينِ السابقتينِ ، وهوَ أنَّ الأبقىٰ أولىٰ بالإيثارِ ، وأنَّ الآخرةَ أبقىٰ مِنَ الدنيا ، فتحصلُ لهُ معرفةٌ ثالثةٌ ، وهوَ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ ، فرجعَ حاصلُ حقيقةِ الفكرِ إلىٰ إحضارِ معرفتينِ للتوصلِ بهما إلىٰ معرفةٍ ثالثةٍ .

وأمَّا ثمرةُ الفكرِ . . فهيَ العلومُ والأحوالُ والأعمالُ ، ولٰكنْ ثمرتُهُ الخاصَّةُ العلمُ لا غيرُ .

نعمْ ؛ إذا حصلَ العلمُ في القلبِ . . تغيَّرَ حالُ القلبِ ، وإذا تغيَّرَ حالُ القلبِ . . تغيَّرَتْ أعمالُ الجوارحِ ، فالعملُ تابعُ الحالِ ، والحالُ تابعُ العلمِ ، والعلمُ تابعُ الفكرِ ، فالفكرُ إذاً هوَ المبدأُ والمفتاحُ للخيراتِ كلِّها ، وهٰذا هوَ الذي يكشفُ لكَ عنْ فضيلةِ التفكُّرِ ، وأنَّهُ خيرٌ مِنَ الذكرِ والتذكُّرِ ؛ لأنَّ في الفكرِ ذكراً وزيادةً ، وذكرُ القلبِ خيرٌ مِنْ عملِ الجوارحِ ، بلْ شرُفَ العملُ لما فيهِ مِنَ الذكرِ .

فإذاً ؛ التفكُّرُ أفضلُ مِنْ جملةِ الأعمالِ ، ولذٰلكَ قيلَ : « تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ سنةٍ »[3] ، فقيلَ : هوَ الذي ينقلُ مِنَ المكارهِ إلى المحابِّ ، ومِنَ الرغبةِ والحرصِ إلى الزهدِ والقناعةِ[4] .

وقيلَ : هوَ الذي يحدِثُ مشاهدةً وتقوىٰ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[5] .

وإنْ أردتَ أنْ تعرفَ كيفيةَ تغيُّرِ الحالِ بالفكرِ . . فمثالُهُ ما ذكرناهُ مِنْ أمرِ الآخرةِ ؛ فإنَّ الفكرَ فيهِ يعرِّفُنا أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ ، فإذا رسخَتْ هٰذهِ المعرفةُ يقيناً في قلوبِنا . . تغيَّرَتِ القلوبُ إلى الرغبةِ في الآخرةِ ، والزهدِ في الدنيا ، وهٰذا ما عنيناهُ بالحالِ ؛ إذْ كانَ حالُ القلبِ قبلَ هٰذهِ المعرفةِ حبَّ العاجلةِ والميلَ إليها ، والنفرةَ عنِ الآخرةِ وقلَّةَ الرغبةِ فيها ، وبهٰذهِ المعرفةِ تغيَّرَ حالُ القلبِ ، وتبدَّلَتْ إرادتُهُ ورغبتُهُ ، ثمَّ أثمرَ تغيُّرُ الإرادةِ أعمالَ الجوارحِ في اطِّراحِ الدنيا ، والإقبالِ علىٰ أعمالِ الآخرةِ ، فها هنا خمسُ درجاتٍ :

أولاها : التذكُّرُ ؛ وهوَ إحضارُ المعرفتينِ في القلبِ .

وثانيتُها : التفكُّرُ ؛ وهوَ طلبُ المعرفةِ المقصودةِ منهما .

والثالثةُ : حصولُ المعرفةِ المطلوبةِ ، واستنارةُ القلبِ بها .

---

(1) لأن ذٰلك الحصول عبارة عن انتقال القلب بسرعة من معرفة إلىٰ معرفة ، فربما لا يحس به صاحبه ، ويظن أنه واقف عند المعرفة الأولىٰ . « إتحاف » (١٠/١٦٨) .

(2) في (ص) وحدها : (في الإيراد) بدل (والإيراد) .

(3) روىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٩٧) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « تفكُّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة » ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٨) ، وهناد في « الزهد » (٩٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٠٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (تفكر ساعة خير من قيام ليلة) .

(4) قوت القلوب (١/١٤) .

(5) قوت القلوب (١/١٤) .

والرابعةُ : تغيُّرُ حالِ القلبِ عمَّا كانَ بسببِ حصولِ نورِ المعرفةِ .

والخامسةُ : خدمةُ الجوارحِ للقلبِ بحسَبِ ما تجدَّدَ لهُ مِنَ الحالِ .

فكما يُضربُ الحجرُ على الحديدِ فيخرجُ منهُ نارٌ يستضيءُ بها الموضعُ ، فتصيرُ العينُ مبصرةً بعدَ أنْ لمْ تكنْ مبصرةً ، وتنتهضُ الأعضاءُ للعملِ . . فكذٰلكَ زنادُ نورِ المعرفةِ هوَ الفكرُ ، فيجمعُ بينَ المعرفتينِ كما يُجمعُ بينَ الحجرِ والحديدِ ، ويؤلِّفُ بينَهما تأليفاً مخصوصاً كما يُضربُ الحجرُ على الحديدِ ضرباً مخصوصاً ، فينبعثُ نورُ المعرفةِ كما تنبعثُ النارُ مِنَ الحديدِ ، ويتغيَّرُ القلبُ بسببِ هٰذا النورِ حتىٰ يميلَ إلىٰ ما لمْ يكنْ يميلُ إليهِ كما يتغيَّرُ البصرُ بنورِ النارِ ، فيرىٰ ما لمْ يكنْ يراهُ ، ثمَّ تنتهضُ الأعضاءُ للعملِ بمقتضىٰ حالِ القلبِ كما ينتهضُ العاجزُ عنِ العملِ بسببِ الظلمةِ للعملِ عندَ إدراكِ البصرِ ما لمْ يكنْ يبصرُهُ .

فإذاً ؛ ثمرةُ الفكرِ العلومُ والأحوالُ ، والعلومُ لا نهايةَ لها ، والأحوالُ التي تُتصوَّرُ أنْ تتقلَّبَ على القلبِ لا يمكنُ حصرُها ، ولهٰذا لوْ أرادَ مريدٌ أنْ يحصرَ فنونَ الفكرِ ومجاريَهُ ، وأنَّهُ فيماذا يتفكَّرُ . . لمْ يقدرْ عليهِ ؛ لأنَّ مجاريَ الفكرِ غيرُ محصورةٍ ، وثمراتِهِ غيرُ متناهيةٍ .

نعمْ ؛ نحنُ نجتهدُ في ضبطِ مجاريهِ بالإضافةِ إلىٰ مهماتِ العلومِ الدينيَّةِ ، وبالإضافةِ إلى الأحوالِ التي هيَ مقاماتُ السالكينَ ، ويكونُ ذٰلكَ ضبطاً جُمليّاً ؛ فإنَّ تفصيلَ ذٰلكَ يستدعي شرحَ العلومِ كلِّها ، وجملةُ هٰذهِ الكتبِ كالشرحِ لبعضِها ، فإنَّها مشتملةٌ علىٰ علومٍ ، تلكَ العلومُ تُستفادُ مِنْ أفكارٍ مخصوصةٍ ، فلنشرْ إلىٰ ضبطِ المجامعِ ؛ فبهِ يحصلُ الوقوفُ علىٰ مجاري الفكرِ .

❋ ❋ ❋

بيان مجاري الفكر

اعلمْ : أنَّ الفكرَ قدْ يجري في أمرٍ يتعلَّقُ بالدينِ ، وقدْ يجري فيما يتعلَّقُ بغيرِ الدينِ ، وإنَّما غرضُنا ما يتعلَّق بالدينِ ، فلنتركِ القسمَ الآخرَ .

ونعني بالدينِ : المعاملةَ التي بينَ العبدِ وبينَ الربِّ تعالىٰ ، فجميعُ أفكارِ العبدِ إمَّا أنْ تتعلَّقَ بالعبدِ وصفاتِهِ وأحوالِهِ ، وإمَّا أنْ تتعلَّقَ بالمعبودِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، لا يمكنُ أنْ يخرجَ عنْ هـٰذينِ القسمينِ .

وما يتعلَّقُ بالعبدِ إمَّا أنْ يكونَ نظراً فيما هوَ محبوبٌ عندَ الربِّ تعالىٰ ، أوْ فيما هوَ مكروهٌ ، ولا حاجةَ إلى الفكرِ في غيرِ هـٰذينِ القسمينِ .

وما يتعلَّقُ بالربِّ تعالىٰ إمَّا أنْ يكونَ نظراً في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ الحسنىٰ ، وإمَّا أنْ يكونَ في أفعالِهِ وملكِهِ وملكوتِهِ ، وجميعِ ما في السماواتِ والأرضِ وما بينَهما .

وينكشفُ لكَ انحصارُ الفكرِ في هـٰذهِ الأقسامِ بمثالٍ ، وهوَ أنَّ حالَ السائرينَ إلى اللهِ تعالىٰ والمشتاقينَ إلىٰ لقائِهِ يضاهي حالَ العشَّاقِ ، فلنتخذِ العاشقَ المستهتَرَ مثالَنا ، فنقولُ : العاشقُ المستغرقُ الهمِّ بعشقِهِ لا يعدو فكرُهُ مِنْ أنْ يتعلَّقَ بمعشوقِهِ ، أوْ يتعلَّقَ بنفسِهِ ، فإنْ تفكَّرَ في معشوقِهِ . . فإمَّا أنْ يتفكَّرَ في جمالِهِ وحسنِ صورتِهِ في ذاتِهِ ؛ ليتنعَّمَ بالفكرِ فيهِ وبمشاهدتِهِ ، وإمَّا أنْ يتفكَّرَ في أفعالِهِ اللطيفةِ الحسنةِ الدالَّةِ علىٰ أخلاقِهِ وصفاتِهِ ؛ ليكونَ ذٰلكَ مضعفاً للذَّتِهِ ومقوياً لمحبتِهِ ، وإنْ تفكَّرَ في نفسِهِ . . فيكونُ فكرُهُ في صفاتِهِ التي تسقطُهُ مِنْ عينِ محبوبِهِ حتىٰ يتنزَّهَ عنها ، أوْ في الصفاتِ التي تقرِّبُهُ منهُ وتحبِّبُهُ إليهِ حتىٰ يتصفَ بها ، فإنْ تفكَّرَ في شيءٍ خارجٍ عنْ هـٰذهِ الأقسامِ . . فذٰلكَ خارجٌ عنْ حدِّ العشقِ ، وهوَ نقصانٌ فيهِ ؛ لأنَّ العشقَ التامَّ الكاملَ ما يستغرقُ العاشقَ ويستوفي القلبَ ، حتىٰ لا يتركَ فيهِ متسعاً لغيرِهِ ، فمحبُّ اللهِ تعالىٰ ينبغي أنْ يكونَ كذٰلكَ ، فلا يعدو نظرُهُ وتفكُّرُهُ محبوبَهُ ، ومهما كانَ تفكُّرُهُ محصوراً في هـٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ . . لمْ يكنْ خارجاً عنْ مقتضى المحبَّةِ أصلاً .

❁ ❁ ❁

فلنبدأْ **بالقسمِ الأوَّلِ** :

وهوَ تفكُّرُهُ في صفاتِ نفسِهِ وأفعالِ نفسِهِ ؛ ليميزَ المحبوبَ منها عنِ المكروهِ ، فإنَّ هـٰذا الفكرَ هوَ الذي يتعلَّقُ بعلمِ المعاملةِ الذي هوَ مقصودُ هـٰذا الكتابِ ، وأمَّا القسمُ الآخرُ [1] . . فيتعلَّقُ بعلمِ المكاشفةِ .

ثمَّ كلُّ واحدٍ ممَّا هوَ مكروهٌ عندَ اللهِ تعالىٰ أوْ محبوبٌ ينقسمُ إلىٰ ظاهرٍ ؛ كالطاعاتِ والمعاصي ، وإلىٰ باطنٍ ؛ كالصفاتِ المنجياتِ والمهلكاتِ التي محلُّها القلبُ ، وذكرنا تفصيلَها في ربعِ المهلكاتِ والمنجياتِ .

والطاعاتُ والمعاصي تنقسمُ إلىٰ ما يتعلَّقُ بالأعضاءِ السبعةِ ، وإلىٰ ما يُنسبُ إلىٰ جميعِ البدنِ ؛ كالفرارِ مِنَ الزحفِ ، وعقوقِ الوالدينِ ، والسكنىٰ في المسكنِ الحرامِ .

❁ ❁ ❁

(١) وهو التفكر في ذاته سبحانه وصفاته وأفعاله ، وسيأتي ، ولوّح لمبادیه المصنف في كتابه « المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ » .

ويجبُ في كلِّ واحدٍ مِنَ المكارهِ التفكُّرُ في ثلاثةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : التفكُّرُ في أنَّهُ هلْ هوَ مكروهٌ عندَ اللهِ أمْ لا ؟ فربَّ شيءٍ لا يظهرُ كونُهُ مكروهاً ، بلْ يُدركُ بدقيقِ النظرِ .

والثاني : التفكُّرُ في أنَّهُ إنْ كانَ مكروهاً . . فما طريقُ الاحترازِ عنهُ ؟

والثالثُ : أنَّ هٰذا المكروهَ هلْ هوَ متصفٌ بهِ في الحالِ فيتركَهُ ؟ أوْ هوَ متعرِّضٌ لهُ في الاستقبالِ فيحترزَ عنهُ ؟ أوْ قارفَهُ فيما مضىٰ مِنَ الأحوالِ فيحتاجَ إلىٰ تداركِهِ ؟

* * *

وكذٰلكَ كلُّ واحدٍ مِنَ المحبوباتِ ينقسمُ هٰذهِ الانقساماتِ ، فإذا جُمعَتْ هٰذهِ الأقسامُ . . زادَتْ مجاري الفكرِ في هٰذهِ الأقسامِ علىٰ مئةٍ ، والعبدُ مدفوعٌ إلى التفكُّرِ إمَّا في جميعِها ، أوْ في أكثرِها ، وشرحُ آحادِ هٰذهِ الأقسامِ يطولُ ، ولٰكنِ انحصرَ هٰذا القسمُ في أربعةِ أنواعٍ : الطاعاتُ ، والمعاصي ، والصفاتُ المهلكاتُ ، والصفاتُ المنجياتُ ، فلنذكرْ في كلِّ نوعٍ مثالاً ليقيسَ بهِ المريدُ سائرَها ، وينفتحَ لهُ بابُ الفكرِ ، ويتسعَ عليهِ طريقُهُ .

* * *

النوعُ الأوَّلُ : المعاصي :

ينبغي أنْ يفتِّشَ العبدُ صبيحةَ كلِّ يومٍ جميعَ أعضائِهِ السبعةِ تفصيلاً ، ثمَّ بدنَهُ على الجملةِ ؛ هلْ هوَ في الحالِ ملابسٌ لمعصيةٍ بها فيتركَها ؟ أوْ لابَسَها بالأمسِ فيتداركَها بالتركِ والندمِ ، أوْ هوَ متعرِّضٌ لها في نهارِهِ فيستعدَّ للاحترازِ والتباعدِ عنها ؟

فينظرُ في اللسانِ ويقولُ : إنَّهُ متعرِّضٌ للغيبةِ ، والكذبِ ، وتزكيةِ النفسِ ، والاستهزاءِ بالغيرِ ، والمماراةِ ، والممازحةِ ، والخوضِ فيما لا يعني ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ المكارهِ ، فيقرِّرُ أوَّلاً في نفسِهِ أنَّها مكروهةٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ويتفكَّرُ في شواهدِ القرآنِ والسنةِ علىٰ شدَّةِ العذابِ فيها ، ثمَّ يتفكَّرُ في أحوالِهِ أنَّهُ كيفَ يتعرَّضُ لها مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، ثمَّ يتفكَّرُ أنَّهُ كيفَ يحترزُ منهُ ؟ ويعلمُ أنَّهُ لا يتمُّ لهُ ذٰلكَ إلا بالعزلةِ والانفرادِ ، أوْ بألا يجالسَ إلا صالحاً تقيّاً ينكرُ عليهِ مهما تكلَّمَ بما يكرهُهُ اللهُ تعالىٰ ، أوْ يضعُ حجراً في فيهِ إذا جالسَ غيرَهُ ؛ حتىٰ يكونَ ذٰلكَ مذكِّراً لهُ ، فهٰكذا يكونُ الفكرُ في حيلةِ الاحترازِ .

ويتفكَّرُ في سمعِهِ أنَّهُ يصغي بهِ إلى الغيبةِ ، والكذبِ ، وفضولِ الكلامِ ، وإلى اللهوِ ، والبدعةِ ، وأنَّ ذٰلكَ إنَّما يسمعُهُ مِنْ زيدٍ وعمرٍو ، وأنَّهُ كيفَ ينبغي أنْ يحترزَ عنهُ بالاعتزالِ ، أوْ بالنهيِ عنِ المنكرِ مهما سمعَ ذٰلكَ .

ويتفكرُ في بطنِهِ أنَّهُ إنَّما يعصي اللهَ تعالىٰ فيهِ بالأكلِ والشربِ ؛ إمَّا بكثرةِ الأكلِ مِنَ الحلالِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مكروهٌ عندَ اللهِ ، ومقوٍّ للشهوةِ التي هيَ سلاحُ الشيطانِ عدوِّ اللهِ ، وإمَّا بأكلِ الحرامِ أوِ الشبهةِ ، فينظرُ مِنْ أينَ مطعمُهُ وملبسُهُ ومسكنُهُ ؟ وما مكسبُهُ ؟ ويتفكَّرُ في طرقِ الحلالِ ومداخلِهِ ، ثمَّ يتفكَّرُ في وجوهِ الحيلةِ في الاكتسابِ منهُ والاحترازِ مِنَ الحرامِ ، ويقرِّرُ علىٰ نفسِهِ أنَّ العباداتِ كلَّها ضائعةٌ معَ أكلِ الحرامِ ، وأنَّ أكلَ الحلالِ هوَ أساسُ العباداتِ كلِّها ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يقبلُ صلاةَ عبدٍ في ثمنِ ثوبِهِ درهمٌ حرامٌ كما وردَ في الخبرِ [1]

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٩٨) .

فهٰكذا يتفكَّرُ في أعضائِهِ ، ففي هٰذا القدْرِ كفايةٌ عنِ الاستقصاءِ ، فمهما حصلَ بالتفكُّرِ حقيقةُ المعرفةِ بهٰذهِ الأحوالِ . . اشتغلَ بالمراقبةِ طولَ النهارِ حتىٰ يحفظَ الأعضاءَ عنها .

❁ ❁ ❁

وأمَّا النوعُ الثاني ، وهوَ الطاعاتُ :

فينظرُ أوّلاً في الفرائضِ المكتوبةِ عليهِ أنَّهُ كيفَ يؤدّيها ؟ وكيفَ يحرسُها عنِ النقصانِ والتقصيرِ ؟ أوْ كيفَ يجبرُ نقصانَها بكثرةِ النوافلِ ؟ ثمَّ يرجعُ إلىٰ عضوٍ عضوٍ فيتفكَّرُ في الأفعالِ التي تتعلَّقُ بها ممَّا يحبُّهُ اللهُ تعالىٰ ، فيقولُ مثلاً :

إنَّ العينَ خُلقَتْ للنظرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ عبرةً ، ولتُستعملَ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وتنظرَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأنا قادرٌ علىٰ أنْ أشغلَ العينَ بمطالعةِ القرآنِ والسنةِ ، فلِمَ لا أفعلُهُ ؟ وأنا قادرٌ علىٰ أنْ أنظرَ إلىٰ فلانٍ المطيعِ بعينِ التعظيمِ فأدخلَ السرورَ علىٰ قلبِهِ ، وأنظرَ إلىٰ فلانٍ الفاسقِ بعينِ الازدراءِ فأزجرَهُ بذٰلكَ عنْ معصيتِهِ ، فلِمَ لا أفعلُهُ ؟

وكذٰلكَ يقولُ في سمعِهِ : إنِّي قادرٌ على استماعِ كلامِ ملهوفٍ ، أوِ استماعِ حكمةٍ وعلمٍ ، أوِ استماعِ قراءةٍ وذكرٍ ، فما لي أعطِّلُهُ وقدْ أنعمَ اللهُ تعالىٰ عليَّ بهِ ، وأودعنيهِ لأشكرَهُ ، فما لي أكفرُ نعمةَ اللهِ فيهِ بتضييعِهِ أوْ تعطيلِهِ ؟

وكذٰلكَ يتفكَّرُ في اللسانِ ويقولُ : إنِّي قادرٌ علىٰ أنْ أتقرَّبَ إلى اللهِ تعالىٰ بالتعليمِ والوعظِ والتودُّدِ إلىٰ قلوبِ أهلِ الصلاحِ ، وبالسؤالِ عنْ أحوالِ الفقراءِ ، وإدخالِ السرورِ علىٰ قلبِ زيدٍ الصالحِ وعمروٍ العالمِ بكلمةٍ طيِّبةٍ ، وكلُّ كلمةٍ طيبةٍ فإنَّها صدقةٌ .

وكذٰلكَ يتفكَّرُ في مالِهِ فيقولُ : أنا قادرٌ علىٰ أنْ أتصدَّقَ بالمالِ الفلانيِّ ؛ فإنِّي مستغنٍ عنهُ ، ومهما احتجتُ إليهِ . . رزقَني اللهُ تعالىٰ مثلَهُ ، وإنْ كنتُ محتاجاً الآنَ . . فأنا إلىٰ ثوابِ الإيثارِ أحوجُ منِّي إلىٰ ذٰلكَ المالِ .

وهٰكذا يفتِّشُ عنْ جميعِ أعضائِهِ ، وجملةِ بدنِهِ وأموالِهِ ، بلْ عنْ دوابِّهِ وغلمانِهِ وأولادِهِ ، فإنَّ كلَّ ذٰلكَ أدواتُهُ وأسبابُهُ ، ويقدرُ علىٰ أنْ يطيعَ اللهَ تعالىٰ بها ، فيستنبطُ بدقيقِ الفكرِ وجوهَ الطاعاتِ الممكنةِ بها ، ويتفكَّرُ فيما يرغِّبُهُ في البدارِ إلىٰ تلكَ الطاعاتِ ، ويتفكَّرُ في إخلاصِ النيَّةِ فيها ، ويطلبُ لها مظانَّ الاستحقاقِ حتىٰ يزكوَ بها عملُهُ ، وقسْ علىٰ هٰذا سائرَ الطاعاتِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا النوعُ الثالثُ : فهيَ الصفاتُ المهلكةُ التي محلُّها القلبُ :

فيعرفُها ممَّا ذكرناهُ في ربعِ المهلكاتِ ، وهيَ استيلاءُ الشهوةِ ، والغضبِ ، والبخلِ ، والكبرِ ، والعجبِ ، والرياءِ ، والحسدِ ، وسوءِ الظنِّ ، والغفلةِ ، والغرورِ ، وغيرِ ذٰلكَ ، ويتفقَّدُ مِنْ قلبِهِ هٰذهِ الصفاتِ ، فإنْ ظنَّ أنَّ قلبَهُ منزَّهٌ عنها . . فيتفكَّرُ في كيفيَّةِ امتحانِهِ ، والاستشهادِ بالعلاماتِ عليهِ ؛ فإنَّ النفسَ أبداً تعدُ بالخيرِ مِنْ نفسِها وتخلفُ ، فإذا ادَّعَتِ التواضعَ والبراءةَ مِنَ الكبرِ . . فينبغي أنْ تُجرَّبَ بحملِ حزمةِ حطبٍ في السوقِ ، كما كانَ الأوَّلونَ يجرّبونَ بهِ أنفسَهُمْ ، وإذا ادَّعَتِ الحلمَ . . تُعرَّضُ لغضبٍ ينالُهُ مِنْ غيرِهِ ، ثمَّ يجرِّبُها في كظمِ الغيظِ ، وكذٰلكَ في سائرِ الصفاتِ .

وهٰذا تفكُّرٌ في أنَّهُ هلْ هوَ موصوفٌ بالصفةِ المكروهةِ أمْ لا ؟ ولذٰلكَ علاماتٌ ذكرناها في ربعِ المهلكاتِ ، فإذا

دلَّتِ العلامةُ علىٰ وجودِها . . فكَّرَ في الأسبابِ التي تقبِّحُ تلكَ الصفاتِ عندَهُ[1] ، وتبيَّنَ أنَّ منشأَها مِنَ الجهلِ والغفلةِ وخبْثِ الدُّخْلةِ ؛ كما لوْ رأىٰ في نفسِهِ عُجْباً بالعملِ ، فيتفكَّرُ ويقولُ : إنَّما عملي ببدني وجارحتي ، وبقدرتي وإرادتي ، وكلُّ ذٰلكَ ليسَ منِّي ولا إليَّ ، وإنَّما هوَ مِنْ خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ وفضلِهِ عليَّ ، فهوَ الذي خلقَني ، وخلقَ جارحتي ، وخلقَ قدرتي وإرادتي ، وهوَ الذي حرَّكَ أعضائي بقدرتِهِ ، وأقدرَني وأرادَ إرادتي ، فكيفَ أعجبُ بعملي أوْ بنفسي ولا قوامَ لنفسي بنفسي ؟!

وإذا أحسَّ في نفسِهِ بالكبرِ . . قرَّرَ علىٰ نفسِهِ ما فيهِ مِنَ الحماقةِ ، ويقولُ لها : لِمَ ترينَ نفسَكِ أكبرَ والكبيرُ مَنْ هوَ عندَ اللهِ كبيرٌ ؟ وذٰلكَ ينكشفُ بعدَ الموتِ ، وكمْ مِنْ كافرٍ في الحالِ يموتُ مقرَّباً إلى اللهِ تعالىٰ بنزوعِهِ عنِ الكفرِ ، وكمْ مِنْ مسلمٍ يموتُ شقيّاً بتغيُّرِ حالِهِ عندَ الموتِ بسوءِ الخاتمةِ !! فإذا عرفَ أنَّ الكبرَ مهلكٌ ، وأنَّ أصلَهُ الحماقةُ . . فيتفكَّرُ في علاجِ إزالةِ ذٰلكَ ؛ بأنْ يتعاطىٰ أفعالَ المتواضعينَ .

وإذا وجدَ في نفسِهِ شهوةَ الطعامِ وشرهَهُ . . تفكَّرَ في أنَّ هٰذهِ صفةُ البهائمِ ، ولوْ كانَ في شهوةِ الطعامِ والوقاعِ كمالٌ . . لكانَ ذٰلكَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِ الملائكةِ ؛ كالعلمِ والقدرةِ ، ولما اتصفَ بهِ البهائمُ ، ومهما كانَ الشرهُ عليهِ أغلبَ . . كانَ بالبهائمِ أشبهَ ، وعنِ الملائكةِ المقرَّبينَ أبعدَ .

وكذٰلكَ يقرِّرُ علىٰ نفسِهِ في الغضبِ ، ثمَّ يتفكَّرُ في طريقِ العلاجِ ، وكلُّ ذٰلكَ ذكرناهُ في هٰذهِ الكتبِ ، فمَنْ يريدُ أنْ يتسعَ لهُ طريقُ الفكرِ . . فلا بدَّ لهُ مِنْ تحصيلِ ما في هٰذهِ الكتبِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا النوعُ الرابعُ ، وهوَ المنجياتُ :

فهوَ التوبةُ ، والندمُ على الذنوبِ ، والصبرُ على البلاءِ ، والشكرُ على النعماءِ ، والخوفُ والرجاءُ ، والزهدُ في الدنيا ، والإخلاصُ والصدقُ في الطاعاتِ ، ومحبةُ اللهِ تعالىٰ وتعظيمُهُ ، والرضا بأفعالِهِ ، والشوقُ إليهِ ، والخشوعُ والتواضعُ لهُ وكلُّ ذٰلكَ ذكرناهُ في هٰذا الربعِ ، وذكرنا أسبابَهُ وعلاماتِهِ : فليتفكَّرِ العبدُ كلَّ يومٍ في قلبِهِ ما الذي يعوزُهُ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ التي هيَ المقرِّبةُ إلى اللهِ تعالىٰ ؟ فإذا افتقرَ إلىٰ شيءٍ منها . . فليعلمْ أنَّها أحوالٌ لا يثمرُها إلا علومٌ ، وأنَّ العلومَ لا يثمرُها إلا أفكارٌ .

فإذا أرادَ أنْ يكتسبَ لنفسِهِ حالَ التوبةِ والندمِ . . فليفتِّشْ ذنوبَهُ أوَّلاً ، وليتفكَّرْ فيها ، وليجمعْها علىٰ نفسِهِ ، وليعظِّمْها في قلبِهِ ، ثمَّ لينظرْ في الوعيدِ والتشديدِ الذي وردَ في الشرعِ فيها ، وليتحقَّقْ عندَ نفسِهِ أنَّهُ متعرِّضٌ لمقتِ اللهِ تعالىٰ ؛ حتىٰ ينبعثَ لهُ حالُ الندمِ .

وإذا أرادَ أنْ يستثيرَ مِنْ قلبِهِ حالَ الشكرِ . . فلينظرْ في إحسانِ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وأياديهِ عليهِ ، وفي إرسالِهِ جميلَ سترِهِ عليهِ ، علىٰ ما شرحنا بعضَهُ في كتابِ الشكرِ ، فليطالعْ ذٰلكَ .

وإذا أرادَ حالَ المحبَّةِ والشوقِ . . فليتفكَّرْ في جلالِ اللهِ تعالىٰ وجمالِهِ ، وعظمتِهِ وكبريائِهِ ، وذٰلكَ بالنظرِ في عجائبِ حكمتِهِ وبدائعِ صنعِهِ ، كما سنشيرُ إلىٰ طرفٍ يسيرٍ منهُ في القسمِ الثاني مِنَ الفكرِ

---

(1) في بعض النسخ يحتمل قراءة (تقبّح) : (تنتجُ) ، وهو معنىً لا يبعد .

وإذا أرادَ حالَ الخوفِ . . فلينظرْ أوّلاً في ذنوبِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، ثمَّ لينظرْ في الموتِ وسكراتِهِ ، ثمَّ فيما بعدَهُ مِنْ سؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، وعذابِ القبرِ ، وحيَّاتِهِ وعقاربِهِ وديدانِهِ ، ثمَّ في هولِ النداءِ عندَ نفخةِ الصورِ ، ثمَّ في هولِ المحشرِ عندَ جمعِ الخلائقِ علىٰ صعيدٍ واحدٍ ، ثمَّ في المناقشةِ في الحسابِ ، والمضايقةِ في النقيرِ والقطميرِ ، ثمَّ في الصراطِ ودقتِهِ وحدَّتِهِ ، ثمَّ في خطرِ الأمرِ عندَهُ أنَّهُ يُصرفُ إلى الشمالِ فيكونُ مِنْ أصحابِ النارِ ، أوْ يُصرفُ إلى اليمينِ فينزلُ دارَ القرارِ ، ثمَّ ليحضِرْ بعدَ أهوالِ القيامةِ في قلبِهِ صورةَ جهنَّمَ ودركاتِها ، ومقامعِها وأهوالِها ، وسلاسلِها وأغلالِها ، وزقُّومِها وصديدِها ، وأنواعِ العذابِ فيها ، وقبحِ صورةِ الزبانيةِ الموكَّلينَ بها ، وأنَّهُمْ كلَّما نضجَتْ جلودُهُمْ بُدِّلَتْ جلوداً غيرَها ، وأنَّهُمْ كلَّما أرادوا أنْ يخرجوا منها . . أُعيدوا فيها ، وأنَّهم إذا رأَوْها مِنْ مكانٍ بعيدٍ . . سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً ، وهلُمَّ جرّاً إلىٰ جميعِ ما وردَ في القرآنِ مِنْ شرحِها .

وإذا أرادَ أنْ يستجلبَ حالَ الرجاءِ . . فلينظرْ إلى الجنَّةِ ونعيمِها ، وأشجارِها وأنهارِها ، وحورِها وولدانِها ، ونعيمِها المقيمِ ، وملكِها الدائمِ .

فهٰكذا طريقُ الفكرِ الذي تُطلبُ بِهِ العلومُ التي تثمرُ اجتلابَ أحوالٍ محبوبةٍ ، أوِ التنزُّهَ عنْ صفاتٍ مذمومةٍ ، وقدْ ذكرنا في كلِّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الأحوالِ كتاباً مفرداً يُستعانُ بِهِ علىٰ تفصيلِ الفكرِ .

أمَّا بذكرِ مجامعِهِ . . فلا يُوجدُ فيهِ أنفعُ منْ قراءةِ القرآنِ بالتفكُّرِ ، فإنَّهُ جامعٌ لجميعِ المقاماتِ والأحوالِ ، وفيهِ شفاءٌ للعالمينَ ، وفيهِ ما يورثُ الخوفَ والرجاءَ ، والصبرَ والشكرَ ، والمحبةَ والشوقَ ، وسائرَ الأحوالِ ، وفيهِ ما يزجرُ عنْ سائرِ الصفاتِ المذمومةِ ، فينبغي أنْ يقرأَهُ العبدُ ويردِّدَ الآيةَ التي هوَ محتاجٌ إلى التفكُّرِ فيها مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، ولوْ مئةَ مرَّةٍ[1] ، فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وفهمٍ خيرٌ مِنْ ختمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وفهمٍ ، وليتوقَّفْ في التأمُّلِ فيها ولوْ ليلةً واحدةً ، فإنَّ تحتَ كلِّ كلمةٍ منها أسراراً لا تنحصرُ ، ولا يُوقفُ عليها إلا بدقيقِ الفكرِ عنْ صفاءِ القلبِ بعدَ صدقِ المعاملةِ .

وكذٰلكَ مطالعةُ أخبارِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُ قد أُوتيَ جوامعَ الكلمِ ، وكلُّ كلمةٍ مِنْ كلماتِهِ بحرٌ مِنْ بحورِ الحكمةِ ، لوْ تأمَّلَها العالمُ حقَّ التأمُّلِ . . لمْ ينقطعْ فيها نظرُهُ طولَ عمرِهِ .

وشرحُ آحادِ الآياتِ والأخبارِ يطولُ ، فانظرْ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ ، وعِشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميتٌ ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بِهِ »[2] ، فإنَّ هٰذهِ الكلماتِ جامعةٌ حكمَ الأولينَ والآخرينَ ، وهيَ كافيةٌ للمتأمِّلينَ فيها طولَ العمرِ ، إذْ لوْ وقفوا علىٰ معانيها ، وغلبَتْ علىٰ قلوبِهِمْ غلبةَ يقينٍ . . لاستغرقَتْهُمْ ، ولحالَ ذٰلكَ بينَهُمْ وبينَ التلفُّتِ إلى الدنيا بالكليَّةِ .

فهٰذا هوَ طريقُ الفكرِ في علومِ المعاملةِ وصفاتِ العبدِ مِنْ حيثُ هيَ محبوبةٌ عندَ اللهِ تعالىٰ أوْ مكروهةٌ ، والمبتدئُ ينبغي أنْ يكونَ مستغرقَ الوقتِ في هٰذهِ الأفكارِ ؛ حتىٰ يعمرَ قلبَهُ بالأخلاقِ المحمودةِ والمقاماتِ الشريفةِ ، وينزِّهَ باطنَهُ وظاهرَهُ عنِ المكارهِ .

وليعلمْ أنَّ هٰذا معَ أنَّهُ أفضلُ مِنْ سائرِ العباداتِ فليسَ هوَ لهُ غايةَ المطلبِ ، بلِ المشغولُ بِهِ محجوبٌ عنْ مطلبِ

---

(١) حتىٰ يعثر علىٰ مقصوده منها ، ومتىٰ دام العبد علىٰ ذٰلك . . طهُر قلبه وغزر علمه . « إتحاف » (١٠/١٧٥) .

(٢) رویٰ لفظ : « إن روح القدس نفث في روعي » عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠١٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٦) ، وتتمة الحديث رواها أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) ، وتقدم هٰذا الحديث قريباً (ص ٦٤٨) .

الصدِّيقينَ ، وهوَ التنعُّمُ بالفكرِ في جلالِ اللهِ تعالىٰ وجمالِهِ ، واستغراقِ القلبِ بحيثُ يفنىٰ عنْ نفسِهِ ؛ أيْ : ينسىٰ نفسَهُ وأحوالَهُ ، ومقاماتِهِ وصفاتِهِ ، فيكونُ مستغرقَ الهمّ بالمحبوبِ ، كالعاشقِ المستهتَرِ عندَ لقاءِ الحبيبِ ؛ فإنَّهُ لا يتفرَّغُ للنظرِ في أحوالِ نفسِهِ وأوصافِها ، بلْ يبقىٰ كالمبهوتِ الغافلِ عنْ نفسِهِ ، وهوَ منتهىٰ لذَّةِ العشَّاقِ .

فأمَّا ما ذكرناهُ . . فهوَ تفكُّرٌ في عمارةِ الباطنِ ليصلحَ للقرْبِ والوصالِ ، فإذا ضيَّعَ جميعَ عمرِهِ في إصلاحِ نفسِهِ . . فمتىٰ يتنعَّمُ بالقرْبِ ؟!

ولذٰلكَ كانَ الخوَّاصُ يدورُ في البوادي ، فلقيَهُ الحسينُ بنُ منصورٍ ، وقالَ : فيمَ أنتَ ؟ قالَ : أدورُ في البوادي أصحِّحُ حالي في التوكُّلِ ، فقالَ الحسينُ : أفنيتَ عمرَكَ في عمرانِ باطنِكَ ، فأينَ الفناءُ في التوحيدِ ؟![1]

فالفناءُ في الواحدِ الحقّ هوَ غايةُ مقصدِ الطالبينَ ، ومنتهىٰ نعيمِ الصدِّيقينَ ، وأمَّا التنزُّهُ عنِ الصفاتِ المهلكاتِ . . فيجري مجرى الخروجِ عنِ العدَّةِ في النكاحِ ، وأمَّا الاتصافُ بالصفاتِ المنجياتِ وسائرِ الطاعاتِ . . فيجري مجرىٰ تهيئةِ المرأةِ جهازَها ، وتنظيفِها وجهَها ، ومشطِها شعرَها ؛ لتصلحَ بذٰلكَ للقاءِ زوجِها ، فإنِ استغرقَتْ جميعَ عمرِها في تبرئةِ الرحمِ وتزيينِ الوجهِ . . كانَ ذٰلكَ حجاباً لها عنْ لقاءِ المحبوبِ .

فهٰكذا ينبغي أنْ تفهمَ طريقَ الدينِ إنْ كنتَ مِنْ أهلِ المجالسةِ .

وإنْ كنتَ كالعبدِ السوءِ ، لا يتحرَّكُ إلا خوفاً مِنَ الضربِ ، وطمعاً في الأجرةِ . . فدونَكَ وإتعابَ البدنِ بالأعمالِ الظاهرةِ ، فإنَّ بينَكَ وبينَ القلبِ حجاباً كثيفاً ، فإذا قضيتَ حقَّ الأعمالِ . . كنتَ مِنْ أهلِ الجنةِ ، ولٰكنْ للمجالسةِ أقوامٌ آخرونَ[2]

وإذا عرفتَ مجالَ الفكرِ في علومِ المعاملةِ التي بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ . . فينبغي أنْ تتخذَ ذٰلكَ عادتَكَ وديدنَكَ صباحاً ومساءً ، فلا تغفُلُ عنْ نفسِكَ ، وعنْ صفاتِكَ المبعدةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وأحوالِكَ المقرِّبةِ إليهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، بلْ كلُّ مريدٍ فينبغي أنْ يكونَ لهُ جريدةٌ يثبتُ فيها جملةَ الصفاتِ المهلكاتِ ، وجملةَ الصفاتِ المنجياتِ ، وجملةَ المعاصي والطاعاتِ ، ويعرضُ نفسَهُ عليها كلَّ يومٍ .

ويكفيهِ مِنَ المهلكاتِ النظرُ في عشرةٍ ، فإنَّهُ إنْ سلمَ منها . . سلمَ مِنْ غيرِها ؛ وهيَ البخلُ ، والكبرُ ، والعجبُ ، والرياءُ ، والحسدُ ، وشدَّةُ الغضبِ ، وشرهُ الطعامِ ، وشرهُ الوقاعِ ، وحبُّ المالِ ، وحبُّ الجاهِ .

ومِنَ المنجياتِ عشرةٌ ؛ الندمُ على الذنوبِ ، والصبرُ على البلاءِ ، والرضا بالقضاءِ ، والشكرُ على النعماءِ ، واعتدالُ الخوفِ والرجاءِ ، والزهدُ في الدنيا ، والإخلاصُ في الأعمالِ ، وحسنُ الخُلُقِ معَ الخلْقِ ، وحبُّ اللهِ تعالىٰ ، والخشوعُ لهُ .

فهٰذهِ عشرونَ خصلةً ، عشرةٌ مذمومةٌ ، وعشرةٌ محمودةٌ ، فمهما كُفِيَ مِنَ المذموماتِ واحدةً . . فيخطُّ عليها في جريدتِهِ ، ويدعُ الفكرَ فيها ، ويشكرُ اللهَ تعالىٰ علىٰ كفايتِهِ إيَّاها ، وتنزيهِهِ قلبَهُ عنها ، ويعلمُ أنَّ ذٰلكَ لمْ يتمَّ إلا بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ وعونِهِ ، ولوْ وكلَهُ إلىٰ نفسِهِ . . لمْ يقدرْ علىٰ محوِ أقلِّ الرذائلِ عنْ نفسِهِ ، فيقبلُ على التسعةِ الباقيةِ ،

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٢٩٧) .

(٢) في (ب) زيادة : (وهو معنىٰ قوله : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾) .

وهٰكذا يفعلُ حتىٰ يخطَّ على الجميع ، وكذا يطالبُ نفسَهُ بالاتصافِ بالمنجياتِ ، فإذا اتصفَ بواحدةٍ منها ؛ كالتوبةِ والندم مثلاً . . خطَّ عليها ، واشتغلَ بالباقي ، وهٰذا يحتاجُ إليهِ المريدُ المشمِّرُ .

وأمَّا أكثرُ الناسِ مِنَ المعدودينَ مِنَ الصالحينَ . . فينبغي أنْ يثبتوا في جرائِدِهِمُ المعاصيَ الظاهرةَ ؛ كأكلِ الشبهةِ ، وإطلاقِ اللسانِ بالغيبةِ والنميمةِ والمراءِ والثناءِ على النفسِ ، والإفراطِ في معاداةِ الأعداءِ وموالاةِ الأولياءِ ، والمداهنةِ معَ الخلقِ في تركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، فإنَّ أكثرَ مَنْ يعدُّ نفسَهُ مِنْ وجوهِ الصالحينَ لا ينفكُّ عنْ جملةٍ مِنْ هٰذهِ المعاصي في جوارحِهِ .

وما لمْ تطهرِ الجوارحُ عنِ الآثامِ . . لا يمكنُ الاشتغالُ بعمارةِ القلبِ وتطهيرِهِ ، بلْ كلُّ فريقٍ مِنَ الناسِ يغلبُ عليهِمْ نوعٌ مِنَ المعصيةِ ، فينبغي أنْ يكونَ تفقُّدُهُمْ لها وتفكُّرُهُمْ فيها لا في معاصٍ هُمْ بمعزلٍ عنها .

مثالُهُ : العالمُ الورعُ ، فإنَّهُ لا يخلو في غالبِ الأمرِ عنْ إظهارِ نفسِهِ بالعلمِ وطلبِ الشهرةِ ، وانتشارِ الصيتِ ؛ إمَّا بالتدريسِ أوْ بالوعظِ ، ومَنْ فعلَ ذٰلكَ . . تصدَّىٰ لفتنةٍ عظيمةٍ ، لا ينجو منها إلا الصدِّيقونَ ، فإنَّهُ إنْ كانَ كلامُهُ مقبولاً حسنَ الوقْعِ في القلوبِ . . لمْ ينفكَّ عنِ الإعجابِ والخيلاءِ ، والتزيُّنِ والتصنُّعِ ، وذٰلكَ مِنَ المهلكاتِ ، وإنْ رُدَّ كلامُهُ . . لمْ يخلُ عنْ أنفةٍ وغيظٍ وحقدٍ علىٰ مَنْ يردُّهُ وهوَ أكثرُ مِنْ غيظِهِ علىٰ مَنْ يردُّ كلامَ غيرِهِ ، وقدْ يلبِّسُ الشيطانُ عليهِ ويقولُ : إنَّ غيظَكَ مِنْ حيثُ إنَّهُ ردَّ الحقَّ وأنكرَهُ ، فإنْ وجدَ تفرقةً بينَ أنْ يُردَّ عليهِ كلامُهُ أوْ يُردَّ علىٰ عالمٍ آخرَ . . فهوَ مغرورٌ وضُحْكةٌ للشيطانِ .

ثمَّ مهما كانَ لهُ ارتياحٌ بالقبولِ ، وفرحٌ بالثناءِ ، واستنكافٌ مِنَ الردِّ أوِ الإعراضِ . . لمْ يخلُ عنْ تكلُّفٍ وتصنُّعٍ لتحسينِ اللفظِ والإيرادِ ؛ حرصاً على استجلابِ الثناءِ ، واللهُ لا يحبُّ المتكلِّفينَ ، والشيطانُ قدْ يلبِّسُ عليهِ ويقولُ : إنَّما حرصُكَ علىٰ تحسينِ الألفاظِ والتكلُّفِ فيها لينتشرَ الحقُّ ، ويحسُنَ موقعُهُ في القلبِ إعلاءً لدينِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ كانَ فرحُهُ بحسنِ ألفاظِهِ وثناءِ الناسِ عليهِ أكثرَ مِنْ فرحِهِ بثناءِ الناسِ علىٰ واحدٍ مِنْ أقرانِهِ . . فهوَ مخدوعٌ ، وإنَّما يدندنُ حولَ طلبِ الجاهِ ، وهوَ يظنُّ أنَّ مطلبَهُ الدينُ .

ومهما اختلجَ ضميرُهُ بهٰذهِ الصفاتِ . . ظهرَ علىٰ ظاهرِهِ ذٰلكَ ، حتىٰ يكونَ للموقِّرِ لهُ المعتقدِ لفضلِهِ أكثرَ احتراماً ، ويكونَ بلقائِهِ أشدَّ فرحاً واستبشاراً ممَّنْ يغلو في موالاةِ غيرِهِ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ الغيرُ مستحقاً للموالاةِ ، وربما ينتهي الأمرُ بأهلِ العلمِ إلىٰ أنْ يتغايروا تغايرَ النساءِ ، فيشقُّ علىٰ أحدِهِمْ أنْ يختلفَ بعضُ تلامذتِهِ إلىٰ غيرِهِ ، وإنْ كانَ يعلمُ أنَّهُ منتفعٌ بغيرِهِ ومستفيدٌ منهُ في دينِهِ !!

وكلُّ هٰذا رشحُ الصفاتِ المهلكاتِ المستكنَّةِ في سرِّ القلبِ ، التي قدْ يظنُّ العالمُ النجاةَ منها وهوَ مغرورٌ فيها ، وإنَّما ينكشفُ ذٰلكَ بهٰذهِ العلاماتِ ، ففتنةُ العالمِ عظيمةٌ ، وهوَ إمَّا مالكٌ وإمَّا هالكٌ ، ولا مطمعَ لهُ في سلامةِ العوامِّ[1] ، فمَنْ أحسَّ في نفسِهِ بهٰذهِ الصفاتِ . . فالواجبُ عليهِ الانفرادُ والعزلةُ وطلبُ الخمولِ ، والمدافعةُ للفتاوىٰ مهما سُئِلَ ، فقدْ كانَ المسجدُ يحوي في زمنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ جمعاً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كلُّهُمْ مفتونَ ، وكانوا يتدافعونَ الفتوىٰ ، وكلُّ مَنْ كانَ يفتي كانَ يودُّ أنْ يكفيَهُ غيرُهُ[2]

---

(١) فإن العوام قد يعذرون ، بخلاف العالم . « إتحاف » (١٠/١٧٨) .

(٢) فقد روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/٨٧) ـ عن تدافع الصحابة للفتوىٰ ـ عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ قال : (أدركت عشرين

وعندَ هـٰذا ينبغي أنْ يتقيَ شياطينَ الإنسِ إذا قالوا : لا تفعلْ هـٰذا ؛ فإنَّ هـٰذا البابَ لوْ فُتحَ . . لاندرسَتِ العلومُ مِنْ بينِ الخلقِ ، وليقلْ لهُمْ : إنَّ دينَ الإسلامِ مستغنٍ عنِّي ؛ فإنَّهُ قدْ كانَ معموراً قبلي ، وكذٰلكَ يكونُ بعدي ، ولوْ متُّ . . لمْ تنهدمْ أركانُ الإسلامِ ، فإنَّ الدينَ مستغنٍ عنِّي ، وأنا لستُ بمستغنٍ عنْ إصلاحِ قلبي ، وأمَّا أداءُ ذٰلكَ إلى اندراسِ العلمِ . . فخيالٌ يدلُّ على غايةِ الجهلِ ، فإنَّ الناسَ لوْ حُبسوا في السجنِ ، وقُيِّدوا بالقيودِ ، وتُوعِّدوا بالنارِ على طلبِ العلمِ . . لكانَ حبُّ العلوِّ والرئاسةِ يحملُهُمْ على كسرِ القيودِ ، وهدمِ حيطانِ الحصونِ والخروجِ منها ، والاشتغالِ بطلبِ العلمِ ، فالعلمُ لا يندرسُ ما دامَ الشيطانُ يحبِّبُ إلى الخلقِ الرئاسةَ ، والشيطانُ لا يفترُ عنْ عملِهِ إلى يومِ القيامةِ ، بلْ ينتهضُ لنشرِ العلمِ أقوامٌ لا نصيبَ لهُمْ في الآخرةِ ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يؤيِّدُ هـٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ »[1] ، « وإنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هـٰذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ »[2] ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ العالمُ بهـٰذهِ التلبيساتِ فيشتغلَ بمخالطةِ الخلقِ ، حتى يتربَّى في قلبِهِ حبُّ الجاهِ والثناءِ والتعظيمِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ بذرُ النفاقِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ الجاهِ والمالِ ينبتُ النفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ »[3] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ذئبانِ ضاريانِ أرسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ إفساداً فيها مِنْ حبِّ الجاهِ والمالِ في دينِ المرءِ المسلمِ »[4]

ولا ينقلعُ حبُّ الجاهِ مِنَ القلبِ إلا بالاعتزالِ عنِ الناسِ ، والهربِ مِنْ مخالطتِهِمْ ، وتركِ كلِّ ما يزيدُ جاهَهُ في قلوبِهِمْ ، فليكنْ فكرُ العالمِ في التفطُّنِ لخفايا هـٰذهِ الصفاتِ مِنْ قلبِهِ ، وفي استنباطِ طريقِ الخلاصِ منها ، وهـٰذهِ وظيفةُ العالمِ المتقي .

فأمَّا أمثالُنا . . فينبغي أنْ يكونَ تفكُّرُنا فيما يقوي إيمانَنا بيومِ الحسابِ ؛ إذْ لوْ رآنا السلفُ الصالحونَ . . لقالوا قطعاً : إنَّ هـٰؤلاءِ لا يؤمنونَ بيومِ الحسابِ ، فما أعمالُنا أعمالَ مَنْ يؤمنُ بالجنةِ والنارِ ، فإنَّ مَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ ، ومَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، وقدْ علمنا أنَّ الهربَ مِنَ النارِ بتركِ الشبهاتِ والحرامِ وبتركِ المعاصي ونحنُ منهمكونَ فيها ، وأنَّ طلبَ الجنةِ بتكثيرِ نوافلِ الطاعاتِ ونحنُ مقصرونَ في الفرائضِ منها ، فلمْ يحصلْ لنا مِنْ ثمرةِ العلمِ إلا أنَّهُ يُقتدى بنا في الحرصِ على الدنيا والتكالبِ عليها ، ويُقالُ : لوْ كانَ هـٰذا مذموماً . . لكانَ العلماءُ أحقَّ وأولى باجتنابِهِ منَّا ، فليتَنا كنَّا كالعوامِّ ؛ إذا متنا . . ماتَتْ معنا ذنوبُنا ، فما أعظمَ الفتنةَ التي تعرَّضْنا لها لوْ تفكَّرنا !! فنسألُ اللهَ تعالى أنْ يصلحَنا ويصلحَ بنا ، ويوفِّقَنا للتوبةِ قبلَ أنْ يتوفَّانا ؛ إنَّهُ الكريمُ اللطيفُ بنا ، المنعمُ علينا .

فهـٰذهِ مجاري أفكارِ العلماءِ والصالحينَ في علمِ المعاملةِ ، فإنْ فرغوا منها . . انقطعَ التفاتُهُمْ عنْ أنفسِهِمْ ، وارتقوا

ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها هـٰذا إلى هـٰذا ، وهـٰذا إلى هـٰذا ، حتى ترجع إلى الأول) ، وروى مسلم عن أبي المنهال أنه قال : سألت البراء بن عازب عن الصرف فقال : سل زيد بن أرقم ؛ فهو أعلم ، فسألت زيداً فقال : سل البراء ؛ فإنه أعلم ، ثم قالا : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الورق بالذهب ديناً . وروى ابن سعد في « الطبقات » (٢٣٠/٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٨٦/٣٦) ـ عن تمنّي أحدهم لو يكفيه الآخر الفتيا ـ عن عبد الرحمـٰن بن أبي ليلى قال : (لقد أدركت في هـٰذا المسجد عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أحد منهم يحدث حديثاً إلا ودّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولا يُسأل عن فتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا) .

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرى » (٨٨٣٣) .

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٤٤/٨) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٧٦) عن كعب بن مالك رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كلاهما مرفوعاً .

منها إلى التفكُّرِ في جلالِ اللهِ وعظمتِهِ ، والتنعُّمِ بمشاهدتِهِ بعينِ القلبِ ، ولا يتمُّ ذٰلكَ إلا بعدَ الانفكاكِ مِنْ جميعِ المهلكاتِ ، والاتصافِ بجميعِ المنجياتِ ، وإنْ ظهرَ شيءٌ منهُ قبلَ ذٰلكَ . . كانَ مدخولاً معلولاً ، مكدّراً مقطوعاً ، وكانَ ضعيفاً كالبرقِ الخاطفِ ، لا يثبتُ ولا يدومُ ، ويكونُ كالعاشقِ الذي خلا بمعشوقِهِ ، ولٰكنْ تحتَ ثيابِهِ حيَّاتٌ وعقاربُ تلدغُهُ مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، فتنغِّصُ عليهِ لذةَ المشاهدةِ ، ولا طريقَ لهُ في إكمالِ التنعُّمِ إلا بإخراجِ العقاربِ والحيَّاتِ مِنْ ثيابِهِ ، وهٰذهِ الصفاتُ المذمومةُ عقاربُ وحيَّاتٌ ، وهيَ مؤذياتٌ ومشوشاتٌ ، وفي القبرِ يزيدُ ألمُ لدغِها علىٰ لدغِ العقاربِ والحيَّاتِ ، فهٰذا القدْرُ كافٍ في التنبيه علىٰ مجاري فكرِ العبدِ في صفاتِ نفسِهِ المحبوبةِ والمكروهةِ عندَ ربِّهِ تعالىٰ .



القسمُ الثاني : الفكرُ في جلالِ اللهِ وعظمتِهِ وكبريائِهِ ، وفيهِ مقامانِ :

المقامُ الأعلى : الفكرُ في ذاتِهِ وصفاتِهِ ومعاني أسمائِهِ : وهٰذا ممَّا مُنِعَ منهُ ، حيثُ قيلَ : « تفكَّروا في خلقِ اللهِ تعالىٰ ولا تتفكَّروا في ذاتِ اللهِ »[1] ، وذٰلكَ لأنَّ العقولَ تتحيَّرُ فيهِ ، فلا يطيقُ مدَّ البصرِ إليهِ إلا الصدِّيقونَ ، ثمَّ لا يطيقونَ دوامَ النظرِ ، بلْ سائرُ الخلقِ أحوالُ أبصارِهِمْ بالإضافةِ إلىٰ جلالِ اللهِ تعالىٰ كحالِ بصرِ الخُفَّاشِ بالإضافةِ إلىٰ نورِ الشمسِ ، فإنَّهُ لا يطيقُهُ ألبتةَ ، بلْ يختفي نهاراً ، وإنَّما يتردَّدُ ليلاً لينظرَ في بقيةِ نورِ الشمسِ إذا وقعَ على الأرضِ ، وأحوالُ الصدِّيقينَ كحالِ الإنسانِ في النظرِ إلى الشمسِ ، فإنَّهُ يقدرُ على النظرِ إليها ولا يطيقُ دوامَهُ ، ويُخشىٰ علىٰ بصرِهِ لوْ أدامَ النظرَ ، ونظرُهُ المختطفُ إليها يورثُ العمشَ ويفرّقُ البصرَ ، وكذٰلكَ النظرُ إلىٰ ذاتِ اللهِ تعالىٰ يورثُ الحيرةَ والدَّهَشَ واضطرابَ العقلِ ، فالصوابُ إذاً ألَّا يُتعرَّضَ لمجاري الفكرِ في ذاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ ، فإنَّ أكثرَ العقولِ لا تحتملُهُ .

بلِ القدْرُ اليسيرُ الذي صرَّحَ بهِ بعضُ العلماءِ ، وهوَ أنَّ اللهَ تعالىٰ مقدَّسٌ عنِ المكانِ ، ومنزَّهٌ عنِ الأقطارِ والجهاتِ ، وأنَّهُ ليسَ داخلَ العالمِ ولا خارجَهُ ، ولا هوَ متصلٌ بالعالمِ ولا هوَ منفصلٌ عنهُ ، قدْ حيَّرَ عقولَ أقوامٍ حتىٰ أنكروهُ إذْ لمْ يطيقوا سماعَهُ ومعرفتَهُ ، بلْ ضعفَتْ طائفةٌ عنِ احتمالِ أقلَّ مِنْ هٰذا ؛ إذْ قيلَ لهُمْ : إنَّهُ يتعاظمُ ويتعالىٰ عنْ أنْ يكونَ لهُ رأسٌ ورجْلٌ ويدٌ وعينٌ وعضوٌ ، وأنْ يكونَ جسماً مشخصاً لهُ مقدارٌ وحجمٌ ، فأنكروا هٰذا ، وظنُّوا أنَّ ذٰلكَ قدْحٌ في عظمةِ اللهِ وجلالِهِ ، حتىٰ قالَ بعضُ الحمقىٰ مِنَ العوامِّ : إنَّ هٰذا وصفُ بطيخٍ هنديٍّ لا وصفُ الإلٰهِ ؛ لظنِّ المسكينِ أنَّ الجلالةَ والعظمةَ في هٰذهِ الأعضاءِ ، وهٰذا لأنَّ الإنسانَ لا يعرفُ إلا نفسَهُ ، فلا يستعظمُ إلا نفسَهُ ، فكلُّ ما لا يساويهِ في صفاتِهِ . . فلا يفهمُ العظمةَ فيهِ !!

نعمْ ؛ غايتُهُ أنْ يقدِّرَ نفسَهُ جميلَ الصورةِ ، جالساً علىٰ سريرٍ ، وبينَ يديهِ غلمانٌ يمتثلونَ أمرَهُ ، فلا جرمَ غايتُهُ أنْ يقدِّرَ ذٰلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ وتقدَّسَ حتَّىٰ يفهمَ العظمةَ ، بلْ لوْ كانَ للذبابِ عقلٌ وقيلَ لهُ : ليسَ لخالقِكَ جناحانِ ، ولا يدٌ ولا رجْلٌ ، ولا لهُ طيرانٌ . . لأنكرَ ذٰلكَ وقالَ : كيفَ يكونُ خالقي أنقصَ منِّي ؟! أفيكونُ مقصوصَ الجناحِ ؟! أوَيكونُ زمناً لا يقدرُ على الطيرانِ ؟! أوَيكونُ لي آلةٌ وقدرةٌ لا يكونُ لهُ مثلُها وهوَ خالقي ومصوِّري ؟!

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٣) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٢٧١ ، ٣٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦٦/٦) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (١١٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، كلهم مرفوعاً .

وعقولُ أكثرِ الخلقِ قريبٌ مِنْ هٰذا العقلِ ، وإنَّ الإنسانَ لجهولٌ ظلومٌ كفَّارٌ ، ولذٰلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : (لا تخبرْ عبادي بصفاتي فينكروني ، ولٰكنْ أخبرْهُمْ عنِّي بما يفهمونَ)[1]

❁ ❁ ❁

ولمَّا كانَ النظرُ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ مخطراً مِنْ هٰذا الوجهِ . . اقتضىٰ أدبُ الشرعِ وصلاحُ الخلقِ ألا يُتعرَّضَ لمجاري الفكرِ فيهِ ، لٰكنَّا نعدلُ إلىٰ **المقامِ الثاني ، وهوَ النظرُ في أفعالِهِ ، ومجاري قدرِهِ ، وعجائبِ صنعِهِ وبدائعِ أمرِهِ في خلقِهِ** ، فإنَّها تدلُّ علىٰ جلالِهِ وكبريائِهِ ، وتقدُّسِهِ وتعاليهِ ، وتدلُّ علىٰ كمالِ علمِهِ وحكمتِهِ ، وعلىٰ نفاذِ مشيئتِهِ وقدرتِهِ ، فينظرُ إلىٰ صفاتِهِ مِنْ آثارِ صفاتِهِ ؛ فإنَّا لا نطيقُ النظرَ إلىٰ صفاتِهِ ؛ كما أنَّا لا نطيقُ النظرَ إلى الشمسِ ، فننظرُ إلى الأرضِ مهما استنارَتْ بنورِ الشمسِ ، ونستدلُّ بذٰلكَ علىٰ عظمِ نورِ الشمسِ بالإضافةِ إلىٰ نورِ القمرِ وسائرِ الكواكبِ ؛ لأنَّ نورَ الأرضِ مِنْ آثارِ نورِ الشمسِ ، والنظرُ في الأثرِ يدلُّ على المؤثِّرِ دلالةً ما ، وإنْ كانَ لا يقومُ مقامَ النظرِ في نفسِ المؤثِّرِ ، وجميعُ موجوداتِ الدنيا أثرٌ مِنْ آثارِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، ونورٌ مِنْ أنوارِ ذاتِهِ ، بلْ لا ظلمةَ أشدُّ مِنَ العدمِ ، ولا نورَ أظهرُ مِنَ الوجودِ ، ووجودُ الأشياءِ كلِّها نورٌ مِنْ أنوارِ ذاتِهِ تعالىٰ وتقدَّسَ ؛ إذْ قوامُ وجودِ الأشياءِ بذاتِهِ القيُّومِ بنفسِهِ ، كما أنَّ قوامَ نورِ الأجسامِ بنورِ الشمسِ المضيئةِ بنفسِها ، ومهما انكشفَ بعضُ الشمسِ . . فقدْ جرَتِ العادةُ بأَنْ يُوضعَ طستُ ماءٍ حتىٰ تُرى الشمسُ فيهِ ، ويمكنُ النظرُ إليها ، فيكونُ الماءُ واسطةً يغضُّ قليلاً مِنْ نورِ الشمسِ حتىٰ يُطاقَ النظرُ إليها ؛ فكذٰلكَ الأفعالُ واسطةٌ نشاهدُ فيها صفاتِ الفاعلِ ولا يبهرُنا نورُ الذاتِ بعدَ أنْ تباعدنا عنها بواسطةِ الأفعالِ ، فهٰذا سرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تفكَّروا في خلقِ اللهِ ، ولا تتفكَّروا في ذاتِ اللهِ تعالىٰ » .

❁ ❁ ❁

---

(١) وقد بوَّب إمام المحدثين البخاري في « صحيحه » لهٰذا المعنىٰ حيث قال : (باب من خَصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا) ، وعلَّق قول سيدنا علي رضي الله عنه : (حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟!) .

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى

اعلمْ : أنَّ كلَّ ما في الوجودِ ممَّا سوى اللهِ تعالىٰ فهوَ فعلُ اللهِ وخلقُهُ ، وكلُّ ذرَّةٍ مِنَ الذرَّاتِ ؛ مِنْ جوهرٍ وعرضٍ ، وصفةٍ وموصوفٍ . . ففيها عجائبُ وغرائبُ تظهرُ بها حكمةُ اللهِ وقدرتُهُ ، وجلالُهُ وعظمتُهُ ، وإحصاءُ ذٰلكَ غيرُ ممكنٍ ؛ لأنَّهُ لوْ كانَ البحرُ مداداً لذٰلكَ . . لنفدَ البحرُ قبلَ أنْ ينفدَ عُشْرُ عَشِيرِهِ ، ولـٰكنَّا نشيرُ إلىٰ جملٍ منهُ ؛ ليكونَ ذٰلكَ كالمثالِ لما عداهُ ، فنقولُ : الموجوداتُ المخلوقةُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا يُعرفُ أصلُها ، فلا يمكنُنا التفكُّرُ فيها ، وكمْ مِنَ الموجوداتِ التي لا نعلمُها ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وإلىٰ ما يُعرفُ أصلُها وجملتُها ولا يُعرفُ تفصيلُها فيمكنُنا أنْ نتفكَّرَ في تفصيلِها ، وهيَ منقسمةٌ إلىٰ ما أدركناهُ بحسِّ البصرِ ، وإلىٰ ما لا ندركُهُ بالبصرِ .

أمَّا الذي لا ندركُهُ بالبصرِ . . فكالملائكةِ ، والجنِّ ، والشياطينِ ، والعرشِ ، والكرسيِّ ، وغيرِ ذٰلكَ ، ومجالُ الفكرِ في هـٰذهِ الأشياءِ ممَّا يضيقُ ويغمضُ ، فلنعدلْ إلى الأقربِ إلى الأفهامِ ، وهيَ المدركاتُ بحسِّ البصرِ ، وتلكَ هيَ السماواتُ السبعُ والأرضُ وما بينَهُما

فالسماواتُ مشاهدةٌ بكواكبِها ، وشمسِها وقمرِها ، وحركتِها ودورانِها في طلوعِها وغروبِها ، والأرضُ مشاهدةٌ بما فيها مِنْ جبالِها ومعادنِها ، وأنهارِها وبحارِها ، وحيوانِها ونباتِها ، وما بينَ السماءِ والأرضِ وهوَ الجوُّ مدركٌ بغيومِها ، وأمطارِها وثلوجِها ، ورعدِها وبرقِها ، وصواعقِها وشهُبِها وعواصفِ رياحِها ، فهـٰذهِ هيَ الأجناسُ المشاهدةُ مِنَ السماواتِ والأرضِ وما بينَهما ، وكلُّ جنسٍ منها ينقسمُ إلىٰ أنواعٍ ، وكلُّ نوعٍ ينقسمُ إلىٰ أقسامٍ ، ويتشعَّبُ كلُّ قسمٍ إلىٰ أصنافٍ ، ولا نهايةَ لانشعابِ ذٰلكَ وانقسامِهِ في اختلافِ صفاتِهِ وهيئاتِهِ ومعانيهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، وجميعُ ذٰلكَ مجالُ الفكرِ ، فلا تتحرَّكُ ذرَّةٌ في السماواتِ والأرضِ ؛ مِنْ جمادٍ ونباتٍ وحيوانٍ ، وفلكٍ وكوكبٍ . . إلا واللهُ تعالىٰ هوَ محرِّكُها ، وفي حركتِها حكمةٌ أوْ حكمتانِ ، أوْ عشرٌ ، أوْ ألفُ حكمةٍ ، كلُّ ذٰلكَ شاهدٌ للهِ تعالىٰ بالوحدانيةِ ، ودالٌّ علىٰ جلالِهِ وكبريائِهِ ، وهيَ الآياتُ الدالَّةُ عليهِ .

وقدْ وردَ القرآنُ بالحثِّ على التفكُّرِ في هـٰذهِ الآياتِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ، مِنْ أوَّلِ القرآنِ إلىٰ آخرِهِ ، فلنذكرْ كيفيةَ الفكرِ في بعضِ الآياتِ

❀ ❀ ❀

فمِنْ آياتِهِ : الإنسانُ المخلوقُ مِنَ النطفةِ ، وأقربُ شيءٍ إليكَ نفسُكَ ، وفيكَ مِنَ العجائبِ الدالَّةِ علىٰ عظمةِ اللهِ تعالىٰ ما تنقضي الأعمارُ في الوقوفِ علىٰ عُشْرِ عَشِيرِهِ ، وأنتَ غافلٌ عنهُ ، فيا مَنْ هوَ غافلٌ عنْ نفسِهِ وجاهلٌ بها ؛ كيفَ تطمعُ في معرفةِ غيرِكَ ؟ وقدْ أمرَكَ اللهُ تعالىٰ بالتدبُّرِ في نفسِكَ في كتابِهِ العزيزِ فقالَ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

وذكرَ أنَّكَ مخلوقٌ مِنْ نطفةٍ قذرةٍ فقالَ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۞ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۞ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

وقالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ .

ثم ذكرَ كيفَ جعلَ النطفةَ علقةً ، والعلقةَ مضغةً ، والمضغةَ عظاماً فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً . . . ﴾ الآية .

فتكريرُ ذكرِ النطفةِ في الكتابِ العزيزِ ليسَ ليُسمعَ لفظُهُ ويُتركَ التفكُّرُ في معناهُ ، فانظرِ الآنَ إلى النطفةِ وهيَ قطرةٌ مِنَ الماءِ قذرةٌ ، لوْ تُركَتْ ساعةً ليضربها الهواءُ . . فسدَتْ وأنتنَتْ ، كيفَ أخرجَها ربُّ الأربابِ مِنَ الصلبِ والترائبِ ، وكيفَ جمعَ بينَ الذكرِ والأنثىٰ ، وألقى الألفةَ والمحبَّةَ في قلوبِهِمْ ، وكيفَ قادَهُمْ بسلسلةِ المحبةِ والشهوةِ إلى الاجتماعِ ، وكيفَ استخرجَ النطفةَ مِنَ الرجلِ بحركةِ الوقاعِ ، وكيفَ استجلبَ دمَ الحيضِ مِنْ أعماقِ العروقِ وجمعَهُ في الرحمِ ، ثمَّ كيفَ خلقَ المولودَ مِنَ النطفةِ ، وسقاهُ بماءِ الحيضِ ، وغذَّاهُ حتىٰ نما وربا وكبرَ ، وكيفَ جعلَ النطفةَ وهيَ بيضاءُ مشرقةٌ علقةً حمراءَ ، ثمَّ كيفَ جعلَها مضغةً ، ثمَّ كيفَ قسمَ أجزاءَ النطفةِ وهيَ متشابهةٌ متساويةٌ إلى العظامِ ، والأعصابِ ، والعروقِ ، والأوتارِ ، واللحمِ ، ثمَّ كيفَ ركَّبَ مِنَ اللحومِ والأعصابِ والعروقِ الأعضاءَ الظاهرةَ ، فدوَّرَ الرأسَ ، وشقَّ السمعَ والبصرَ والأنفَ والفمَ وسائرَ المنافذِ ، ثمَّ مدَّ اليدَ والرِّجْلَ ، وقسمَ رؤوسَها بالأصابعِ ، وقسمَ الأصابعَ بالأناملِ ، ثمَّ كيفَ ركَّبَ الأعضاءَ الباطنةَ مِنَ القلبِ ، والمعدةِ ، والكبدِ ، والطحالِ ، والرئةِ ، والرحمِ ، والمثانةِ ، والأمعاءِ ، كلٌّ واحدٍ علىٰ شكلٍ مخصوصٍ ، ومقدارٍ مخصوصٍ ، لعملٍ مخصوصٍ ، ثمَّ كيفَ قسمَ كلَّ عضوٍ مِنْ هٰذهِ الأعضاءِ بأقسامٍ أخرَ ، فركَّبَ العينَ مِنْ سبعِ طبقاتٍ ؛ لكلِّ طبقةٍ وصْفٌ مخصوصٌ وهيئةٌ مخصوصةٌ ، لوْ فُقدَتْ طبقةٌ منها ، أوْ زالَتْ صفةٌ مِنْ صفاتِها . . تعطَّلَتِ العينُ عنِ الإبصارِ !!

فلوْ ذهبنا نصفُ ما في آحادِ هٰذهِ الأعضاءِ مِنَ العجائبِ والآياتِ . . لانقضىٰ فيهِ الأعمارُ ، فانظرِ الآنَ إلى العظامِ وهيَ أجسامٌ قويَّةٌ صلبةٌ كيفَ خلقَها مِنْ نطفةٍ سخيفةٍ رقيقةٍ ، ثمَّ جعلَها قواماً للبدنِ وعماداً لهُ ، ثمَّ قدَّرَها بمقاديرَ مختلفةٍ وأشكالٍ مختلفةٍ ؛ فمنهُ صغيرٌ وكبيرٌ ، وطويلٌ ومستديرٌ ، ومجوَّفٌ ومصمتٌ ، وعريضٌ ودقيقٌ .

ولمَّا كانَ الإنسانُ محتاجاً إلى الحركةِ بجملةِ بدنِهِ وببعضِ أعضائِهِ مفتقراً للتردُّدِ في حاجاتِهِ . . لمْ يجعلْ عظمَهُ عظماً واحداً ، بلْ عظاماً كثيرةً بينَها مفاصلُ ؛ حتىٰ تتيسَّرَ بها الحركةُ ، وقدَّرَ شكلَ كلِّ واحدٍ منها علىٰ وَفْقِ الحركةِ المطلوبةِ بها ، ثمَّ وصلَ مفاصلَها ، وربطَ بعضَها بالبعضِ بأوتارٍ أنبتَها مِنْ أحدِ طرفي العظمِ ، وألصقَهُ بالطرفِ الآخرِ كالرباطِ لهُ ، ثمَّ خلقَ في أحدِ طرفي العظمِ زوائدَ خارجةً منهُ ، وفي الآخرِ حفراً غائصةً فيهِ موافقةً لشكلِ الزوائدِ ؛ لتدخلَ فيها وتنطبقَ عليها ، فصارَ العبدُ إنْ أرادَ تحريكَ جزءٍ مِنْ بدنِهِ . . لمْ يمتنعْ عليهِ ، ولولا المفاصلُ . . لتعذَّرَ عليهِ ذٰلكَ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ عظامَ الرأسِ ، وكيفَ جمعَها وركَّبَها ، وقدْ ركَّبَها مِنْ خمسةٍ وخمسينَ عظماً مختلفةَ الأشكالِ والصورِ ، فألَّفَ بعضَها إلىٰ بعضٍ بحيث استوتْ بهِ كرةُ الرأسِ كما تراهُ ؛ فمنها ستةٌ تخصُّ القحْفَ ، وأربعةَ عشرَ للَّحيِ الأعلىٰ ، واثنانِ للَّحيِ الأسفلِ ، والبقيةُ هيَ الأسنانُ ، بعضُها عريضةٌ تصلحُ للطحنِ ، وبعضُها حادَّةٌ تصلحُ للقطعِ ، وهيَ الأنيابُ والأضراسُ والثنايا .

ثمَّ جعلَ الرقبةَ مركباً للرأسِ ، وركَّبَها مِنْ سبعِ خرزاتٍ مجوَّفاتٍ مستديراتٍ ، فيها تحريفاتٌ وزياداتٌ ونقصاناتٌ [1] ؛ لينطبقَ بعضُها علىٰ بعضٍ ، ويطولُ ذكرُ وجهِ الحكمةِ فيها .

ثمَّ ركَّبَ الرقبةَ على الظهرِ ، وركَّبَ الظهرَ مِنْ أسفلِ الرقبةِ إلىٰ منتهىٰ عظمِ العجزِ مِنْ أربعٍ وعشرينَ خرزةً ، وركَّبَ عظمَ العجزِ مِنْ ثلاثةِ أجزاءٍ مختلفةٍ ، ويتصلُ بهِ مِنْ أسفلِهِ عظْمُ العُصْعُصِ ، وهوَ أيضاً مؤلَّفٌ مِنْ ثلاثةِ أجزاءٍ ، ثمَّ وصلَ عظامَ الظهرِ بعظامِ الصدرِ ، وعظامِ الكتفِ ، وعظامِ اليدينِ ، وعظامِ العانةِ ، وعظامِ العجزِ ، ثمَّ رتَّبَ عظامَ الفخذينِ والساقينِ وأصابعِ الرجلينِ ، فلا نطوِّلُ بذكرِ عددِ ذٰلكَ .

ومجموعُ عددِ العظامِ في بدنِ الإنسانِ مئتا عظمٍ وثمانيةٌ وأربعونَ عظماً ، سوى العظامِ الصغيرةِ التي حُشِيَ بها خللُ المفاصلِ ، فانظرْ كيفَ خلقَ جميعَ ذٰلكَ مِنْ نطفةٍ سخيفةٍ رقيقةٍ !!

وليسَ المقصودُ مِنْ ذكرِ أعدادِ العظامِ أنْ نعرفَ عددَها ؛ فإنَّ هٰذا علمٌ قريبٌ يعرفُهُ الأطباءُ والمشرِّحونَ ، وإنَّما الغرضُ أنْ ننظرَ منها في مدبِّرِها وخالقِها أنَّهُ كيفَ قدَّرَها ودبَّرَها ، وخالفَ بينَ أشكالِها وأقدارِها ، وخصَّصَها بهٰذا العددِ المخصوصِ ؛ لأنَّهُ لوْ زادَ عليها واحداً . . لكانَ وبالاً على الإنسانِ يحتاجُ إلىٰ قلعِهِ ، ولوْ نقصَ منها واحداً . . لكانَ نقصاناً يحتاجُ إلىٰ جبرِهِ ، فالطبيبُ ينظرُ فيها ليعرفَ وجهَ العلاجِ في جبرِها ، وأهلُ البصائرِ ينظرونَ فيها ليستدلُّوا بها علىٰ جلالةِ خالقِها ومصوِّرِها ، فشتانَ بينَ النظرينِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ اللهُ تعالىٰ آلاتٍ لتحريكِ العظامِ ، وهيَ العضلاتُ ، فخلقَ في بدنِ الإنسانِ خمسَ مئةِ عضلةٍ وتسعاً وعشرينَ عضلةً ، والعضلةُ هيَ المركبةُ مِنْ لحمٍ وعصبٍ ، ورُبُطٍ وأغشيةٍ ، وهيَ مختلفةُ المقاديرِ والأشكالِ بحسَبِ اختلافِ مواضعِها وقدرِ حاجاتِها ، فأربعٌ وعشرونَ عضلةً منها هيَ لتحريكِ حدقةِ العينِ وأجفانِها ، لوْ نقصَتْ واحدةٌ مِنْ جملتِها . . اختلَّ أمرُ العينِ ، وهٰكذا لكلِّ عضوٍ عضلاتٌ بعددٍ مخصوصٍ وقدْرٍ مخصوصٍ .

وأمرُ الأعصابِ والعروقِ والأوردةِ والشرايينِ ، وعددِها ومنابتِها وانشعاباتِها . . أعجبُ مِنْ هٰذا كلِّهِ ، وشرحُهُ يطولُ ، فللتفكُّرِ مجالٌ في آحادِ هٰذهِ الأجزاءِ ، ثمَّ في آحادِ هٰذهِ الأعضاءِ ، ثمَّ في جملةِ البدنِ .

فكلُّ ذٰلكَ نظرٌ إلىٰ عجائبِ أجسامِ البدنِ ، وعجائبُ المعاني والصفاتِ التي لا تُدركُ بالحواسِّ أعظمُ ، فانظرِ الآنَ إلىٰ ظاهرِ الإنسانِ وباطنِهِ ، وإلىٰ بدنِهِ وصفاتِهِ ، فترىٰ فيهِ مِنَ العجائبِ والصنعةِ ما يُقضىٰ بهِ العجبُ ، وكلُّ ذٰلكَ صنعُ اللهِ عزَّ وجلَّ في قطرةِ ماءٍ قذرةٍ ، فترىٰ مَنْ هٰذا صنعُهُ في قطرةِ ماءٍ . . فما صنعُهُ في ملكوتِ السماواتِ وكواكبِها ؟ وما حكمتُهُ في أوضاعِها وأشكالِها ، ومقاديرِها وأعدادِها ، واجتماعِ بعضِها وتفرُّقِ بعضِها ، واختلافِ صورِها وتفاوتِ مشارقِها ومغاربِها ؟

---

(١) في (أ ، ب) : (تجويفات) بدل (تحريفات) .

فلا تظنَّنَّ أنَّ ذرَّةً مِنْ ملكوتِ السماواتِ تنفكُّ عنْ حكمةٍ وحكمٍ ، بلْ هي أحكمُ خلقاً ، وأتقنُ صنعاً ، وأجمعُ للعجائبِ مِنْ بدنِ الإنسانِ ، بلْ لا نسبةَ لجميعِ ما في الأرضِ إلىٰ عجائبِ السماواتِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾

فارجعِ الآنَ إلى النطفةِ وتأمَّلْ حالَها أوَّلاً ، وما صارَتْ إليهِ ثانياً ، وتأمَّلْ أنَّهُ لوِ اجتمعَ الجنُّ والإنسُ علىٰ أنْ يخلقوا للنطفةِ سمعاً أوْ بصراً أوْ عقلاً أوْ قدرةً أوْ علماً أوْ روحاً ، أو يخلقوا فيها عظماً أوْ عرقاً أوْ عصباً أوْ جلداً أوْ شعراً . . هلْ يقدرونَ علىٰ ذٰلكَ ؟! بلْ لوْ أرادوا أنْ يعرفوا كُنْهَ حقيقتِهِ ، وكيفيَّةَ خلقتِهِ بعدَ أنْ خلقَ اللهُ تعالىٰ ذٰلكَ . . لعجزوا عنهُ .

فالعجبُ منكَ !! لوْ نظرتَ إلىٰ صورةِ إنسانٍ مصوَّرٍ علىٰ حائطٍ تأنَّقَ النقَّاشُ في تصويرِها حتَّىٰ قرُبَ ذٰلكَ مِنْ صورةِ الإنسانِ ، وقالَ الناظرُ إليها : كأنَّهُ إنسانٌ . . عظُمَ تعجُّبُكَ من صنعةِ النقَّاشِ وحذقِهِ ، وخفَّةِ يدِهِ ، وتمامِ فطنتِهِ ، وعظُمَ في قلبِكَ محلُّهُ ، معَ أنَّكَ تعلمُ أنَّ تلكَ الصورةَ إنَّما تمَّتْ بالصبغِ والقلمِ وبالحائطِ وباليدِ وبالقدرةِ وبالعلمِ وبالإرادةِ ، وشيءٌ مِنْ ذٰلكَ ليسَ مِنْ فعلِ النقَّاشِ ولا خلقِهِ ، بلْ هوَ مِنْ خلقِ غيرِهِ ، وإنَّما منتهىٰ فعلِهِ الجمعُ بينَ الصبغِ والحائطِ علىٰ ترتيبٍ مخصوصٍ ، فيكثرُ تعجُّبُكَ منهُ وتستعظمُهُ وأنتَ ترى النطفةَ القذرةَ كانَتْ معدومةً ، فخلقَها خالقُها في الأصلابِ والترائبِ ، ثمَّ أخرجَها منها وشكَّلَها فأحسنَ تشكيلَها ، وقدَّرَها فأحسنَ تقديرَها ، وصوَّرَها فأحسنَ تصويرَها ، وقسَّمَ أجزاءَها المتشابهةَ إلىٰ أجزاءٍ مختلفةٍ ، فأحكمَ العظامَ في أرجائِها ، وحسَّنَ أشكالَ أعضائِها ، وزيَّنَ ظاهرَها وباطنَها ، ورتَّبَ عروقَها وأعصابَها ، وجعلَها مجرىً لغذائِها ؛ ليكونَ ذٰلكَ سببَ بقائِها ، وجعلَها سميعةً بصيرةً ، عالمةً ناطقةً ، فخلقَ لها الظهرَ أساساً لبدنِها ، والبطنَ حاوياً لآلاتِ غذائِها ، والرأسَ جامعاً لحواسِّها .

ففتحَ العينينِ ورتَّبَ طبقاتِها ، وأحسنَ شكلَها ولونَها وهيئاتِها ، ثمَّ حماها بالأجفانِ لتسترَها ، وتحفظَها وتصقلَها ، وتدفعَ الأقذاءَ عنها ، ثمَّ أظهرَ في مقدارِ عدسةٍ منها صورةَ السماواتِ معَ اتساعِ أكنافِها وتباعدِ أقطارِها ، فهوَ ينظرُ إليها .

ثمَّ شقَّ أذنيهِ وأودعَهُما ماءً مرّاً ليحفظَ سمعَها ، ويدفعَ الهوامَّ عنها ، وحوَّطَها بصدفةِ الأذنِ لتجمعَ الصوتَ فتردَّهُ إلىٰ صماخِها ، ولتحسَّ بدبيبِ الهوامِّ إليها ، وجعلَ فيها تحريفاتٍ واعوجاجاتٍ لتكثرَ حركةُ ما يدبُّ فيها[1] ، ويطولَ طريقُهُ ، فيتنبَّهَ عنِ النومِ صاحبُها إذا قصدَها دابَّةٌ في حالِ النومِ .

ثمَّ رفعَ الأنفَ مِنْ وسطِ الوجهِ ، وأحسنَ شكلَهُ ، وفتحَ منخريهِ ، وأودعَ فيهِ حاسَّةَ الشمِّ ليستدلَّ باستنشاقِ الروائحِ علىٰ مطاعمِهِ وأغذيتِهِ ، وليستنشقَ بمنفذِ المنخرينِ روحَ الهواءِ غذاءً لقلبِهِ ، وترويحاً لحرارةِ باطنِهِ

وفتحَ الفمَ وأودعَهُ اللسانَ ناطقاً وترجماناً ومعرباً عمَّا في القلبِ ، وزيَّنَ الفمَ بالأسنانِ ، ولتكونَ آلةً للطحنِ والكسرِ والقطعِ ، فأحكمَ أصولَها ، وحدَّدَ رؤوسَها ، وبيَّضَ لونَها ، ورتَّبَ صفوفَها ، متساويةَ الرؤوسِ ، متناسقةَ الترتيبِ كأنَّها الدرُّ المنظومُ .

وخلقَ الشفتينِ وحسَّنَ لونَها وشكلَها ؛ لتنطبقَ على الفمِ فتسدَّ منفذَهُ ، وليتمَّ بها حروفُ الكلامِ .

وخلقَ الحنجرةَ وهيَّأَها لخروجِ الأصواتِ ، وخلقَ للسانِ قدرةَ الحركاتِ والتقطيعاتِ ، لتُقطِّعَ الصوتَ في مخارجَ مختلفةٍ تختلفُ بها الحروفُ ؛ ليتسعَ بها طريقُ النطقِ بكثرتِها .

---

(١) في غير (ص) : (تجويفات) بدل (تحريفات) .

ثمَّ خلقَ الحناجرَ مختلفةَ الأشكالِ في الضيقِ والسعةِ ، والخشونةِ والملاسةِ ، وصلابةِ الجوهرِ ورخاوتِهِ ، والطولِ والقصرِ ، حتى اختلفَتْ بسببِها الأصواتُ ، فلا يتشابهُ صوتانِ ، بلْ يظهرُ بينَ كلِّ صوتينِ فُرقانٌ ، حتىٰ يميزَ السامعُ بعضَ الناسِ عنْ بعضٍ بمجرَّدِ الصوتِ في الظلمةِ .

ثمَّ زيَّنَ الرأسَ بالشعورِ والأصداغِ ، وزيَّنَ الوجهَ باللحيةِ والحاجبينِ ، وزيَّنَ الحاجبَ برقَّةِ الشعرِ واستقواسِ الشكلِ ، وزيَّنَ العينينِ بالأهدابِ .

ثمَّ خلقَ الأعضاءَ الباطنةَ ، وسخَّرَ كلَّ واحدٍ لفعلٍ مخصوصٍ ، فسخَّرَ المعدةَ لنضجِ الغذاءِ ، والكبدَ لإحالةِ الغذاءِ إلى الدمِ ، والطحالَ والمرارةَ والكليةَ لخدمةِ الكبدِ ، فالطحالُ يخدمُها بجذبِ السوداءِ عنها ، والمرارةُ تخدمُها بجذبِ الصفراءِ عنها ، والكليةُ تخدمُها بجذبِ المائيةِ عنها ، والمثانةُ تخدمُ الكليةَ بقبولِ الماءِ عنها ، ثمَّ تخرجُهُ في طريقِ الإحليلِ ، والعروقُ تخدمُ الكبدَ في إيصالِ الدمِ إلىٰ سائرِ أطرافِ البدنِ .

ثمَّ خلقَ اليدينِ وطوَّلَهما لتمتدَّ إلى المقاصدِ ، وعرَّضَ الكفَّ ، وقسَّمَ الأصابعَ الخمسَ ، وقسَّمَ كلَّ إصبعٍ بثلاثِ أناملَ ، ووضعَ الأربعةَ في جانبٍ والإبهامَ في جانبٍ ؛ لتدورَ الإبهامُ على الجميعِ ، ولوِ اجتمعَ الأوَّلونَ والآخرونَ علىٰ أنْ يستنبطوا بدقيقِ الفكرِ وجهاً آخرَ في وضعِ الأصابعِ سوىٰ ما وُضعَتْ عليهِ مِنْ بعدِ الإبهامِ عنِ الأربعةِ ، وتفاوتِ الأربعةِ في الطولِ ، وترتيبِها في صفٍّ واحدٍ . . لمْ يقدروا عليهِ ؛ إذْ بهـٰذا الترتيبِ صلحَتِ اليدُ للقبضِ والإعطاءِ ، فإنْ بسطَها . . كانَتْ لهُ طبقاً يضعُ عليها ما يريدُ ، وإنْ جمعَها . . كانَتْ لهُ آلةً للضربِ ، وإنْ ضمَّها ضمّاً غيرَ تمامٍ . . كانَتْ مغرفةً لهُ ، وإنْ بسطَها وضمَّ أصابعَها . . كانَتْ مجرفةً لهُ ، ثمَّ خلقَ الأظفارَ علىٰ رؤوسِها زينةً للأناملِ ، وعماداً لها مِنْ ورائِها حتىٰ لا تنقطعَ ، وليلتقطَ بها الأشياءَ الدقيقةَ التي لا تتناولُها الأناملُ ، وليحكَّ بها بدنَهُ عندَ الحاجةِ ، فالظفرُ الذي هوَ أخسُّ الأعضاءِ لوْ عدمَهُ الإنسانُ وظهرَ بهِ حكَّةٌ . . لكانَ أعجزَ الخلقِ وأضعفَهُمْ ، ولمْ يقمْ أحدٌ مقامَهُ في حكِّ بدنِهِ ، ثم هدى اليدَ إلىٰ موضعِ الحكِّ ؛ حتىٰ تمتدَّ إليهِ ولوْ في النومِ والغفلةِ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ طلبٍ ، ولوِ استعانَ بغيرِهِ . . لمْ يعثرْ علىٰ موضعِ الحكِّ إلا بعدَ تعبٍ طويلٍ .

ثمَّ خلقَ هـٰذا كلَّهُ مِنَ النطفةِ ، وهيَ في داخلِ الرحمِ في ظلماتٍ ثلاثٍ ، ولوْ كُشفَ الغطاءُ والغشاءُ ، وامتدَّ البصرُ إليهِ . . لكانَ يرى التخطيطَ والتصويرَ يظهرُ عليها شيئاً فشيئاً ، ولا يرى المصوِّرَ ولا آلتَهُ ، فهلْ رأيتَ مصوِّراً أو فاعلاً لا يمسُّ آلتَهُ ومصنوعَهُ ولا يلاقيهِ وهوَ يتصرَّفُ فيهِ ؟! فسبحانَهُ ما أعظمَ شأنَهُ وأظهرَ برهانَهُ !!

ثمَّ انظرْ معَ كمالِ قدرتِهِ إلىٰ تمامِ رحمتِهِ ، فإنَّهُ لما ضاقَ الرحمُ عنِ الصبيِّ لمَّا كبرَ كيفَ هداهُ السبيلَ حتىٰ تنكَّسَ وتحرَّكَ ، وخرجَ مِنْ ذٰلكَ المضيقِ ، وطلبَ المنفذَ كأنَّهُ عاقلٌ بصيرٌ بما يحتاجُ إليهِ .

ثمَّ لمَّا خرجَ واحتاجَ إلى الغذاءِ كيفَ هداهُ إلى التقامِ الثدي ، ثمَّ لمَّا كانَ بدنُهُ سخيفاً لا يحتملُ الأغذيةَ الكثيفةَ كيفَ دبَّرَ لهُ في خلقِ اللبنِ اللطيفِ ، واستخرجَهُ مِنْ بينِ الفرثِ والدمِ سائغاً خالصاً ، وكيفَ خلقَ الثديينِ وجمعَ فيهما اللبنَ ، وأنبتَ منهما حَلَمتينِ علىٰ قدْرِ ما ينطبقُ عليهِ فمُ الصبيِّ ، ثمَّ فتحَ في حَلَمةِ الثدي ثقباً ضيِّقاً جدّاً حتىٰ لا يخرجَ اللبنُ منهُ إلا بعدَ المصِّ تدريجاً ، فإنَّ الطفلَ لا يطيقُ منهُ إلا القليلَ ، ثمَّ كيفَ هداهُ للامتصاصِ حتىٰ يستخرجَ مِنْ ذٰلكَ المضيقِ اللبنَ الكثيرَ عندَ شدَّةِ الجوعِ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ عطفِهِ ورحمتِهِ ورأفتِهِ كيفَ أخَّرَ خلْقَ الأسنانِ إلىٰ تمامِ الحولينِ ؛ لأنَّهُ في الحولينِ لا يتغذَّىٰ إلا باللبنِ ،

فيستغني عنِ السنِّ ، وإذا كبرَ . . لمْ يوافقْهُ اللبنُ السخيفُ ، ويحتاجُ إلىٰ طعامٍ غليظٍ ، ويحتاجُ الطعامُ إلى المضغِ والطحنِ ، فأنبتَ لهُ الأسنانَ عندَ الحاجةِ ، لا قبلَها ولا بعدَها ، فسبحانَهُ كيفَ أخرجَ تلكَ العظامَ الصلبةَ في تلكَ اللِّثاتِ اللينةِ !!

ثمَّ حنَّنَ قلوبَ الوالدينِ عليهِ للقيامِ بتدبيرِهِ في الوقتِ الذي كانَ عاجزاً عنْ تدبيرِ نفسِهِ ، فلوْ لمْ يسلِّطِ اللهُ تعالى الرحمةَ علىٰ قلوبِهما . . لكانَ الطفلُ أعجزَ الخلقِ عنْ تدبيرِ نفسِهِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ رزقَهُ القدرةَ والتمييزَ والعقلَ والهدايةَ تدريجاً حتىٰ بلغَ وتكاملَ ؛ فصارَ مراهقاً ، ثمَّ شابّاً ، ثمَّ كهلاً ، ثمَّ شيخاً ، إمَّا كفوراً أوْ شكوراً ، مطيعاً أوْ عاصياً ، مؤمناً أو كافراً ؛ تصديقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۞ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

فانظرْ إلى اللطفِ والكرمِ ، ثمَّ إلى القدرةِ والحكمةِ . . تبهرْكَ عجائبُ الحضرةِ الربانيةِ .

فالعجبُ كلُّ العجبِ ممَّنْ يرىٰ خطّاً حسناً أوْ نقشاً حسناً علىٰ حائطٍ فيستحسنُهُ ، فينصرفُ جميعُ همِّهِ إلى التفكُّرِ في النقَّاشِ والخطَّاطِ ، وأنَّهُ كيفَ نقشَهُ وخطَّهُ ، وكيفَ اقتدرَ عليهِ ، ولا يزالُ يستعظمُهُ في نفسِهِ ويقولُ : ما أحذقَهُ !! وما أكملَ صنعتَهُ وأحسنَ قدرتَهُ !! ثمَّ ينظرُ إلىٰ هٰذهِ العجائبِ في نفسِهِ وفي غيرِهِ ، ثمَّ يغفُلُ عنْ صانعِهِ ومصوِّرِهِ ، فلا تدهشُهُ عظمتُهُ ، ولا يحيِّرُهُ جلالُهُ وحكمتُهُ !!

فهٰذهِ نبذةٌ مِنْ عجائبِ بدنِكَ التي لا يمكنُ استقصاؤُها ، فهوَ أقربُ مجالٍ لفكرِكَ ، وأجلىٰ شاهدٍ علىٰ عظمةِ خالقِكَ ، وأنتَ غافلٌ عنْ ذٰلكَ ، مشغولٌ ببطنِكَ وفرجِكَ ، لا تعرفُ مِنْ نفسِكَ إلا أنْ تجوعَ فتأكلَ ، وتشبعَ فتنامَ ، وتشتهيَ فتجامعَ ، وتغضبَ فتقاتلَ ، والبهائمُ كلُّها تشاركُكَ في معرفةِ ذٰلكَ ، وإنَّما خاصِّيَّةُ الإنسانِ التي حُجِبَتِ البهائمُ عنها معرفةُ اللهِ تعالىٰ بالنظرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وعجائبِ الآفاقِ والأنفسِ ؛ إذْ بها يدخلُ العبدُ في زمرةِ الملائكةِ المقرَّبينَ ، ويُحشرُ في زمرةِ النبيِّينَ والصدِّيقينَ مقرَّباً مِنْ حضرةِ ربِّ العالمينَ ، وليسَتْ هٰذهِ المنزلةُ للبهائمِ ، ولا لإنسانٍ رضيَ مِنَ الدنيا بشهواتِ البهائمِ ، فإنَّهُ شرٌّ مِنَ البهيمةِ بكثيرٍ ؛ إذْ لا قدرةَ للبهيمةِ علىٰ ذٰلكَ ، وأمَّا هوَ . . فقدْ خلقَ اللهُ لهُ القدرةَ ، ثمَّ عطَّلَها ، وكفرَ نعمةَ اللهِ فيها ، فأولٰئكَ كالأنعامِ بلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً .

وإذا عرفتَ طريقَ الفكرِ في نفسِكَ . . فتفكَّرْ في الأرضِ التي هيَ مقرُّكَ ، ثمَّ في أنهارِها وبحارِها ، وجبالِها ومعادنِها ، ثمَّ ارتفعْ منها إلىٰ ملكوتِ السماواتِ .

❁ ❁ ❁

أمَّا الأرضُ . . فمِنْ آياتِهِ : أنْ خلقَ الأرضَ فراشاً ومهاداً ، وسلكَ فيها سبلاً فجاجاً ، وجعلَها ذلولاً لتمشوا في مناكبِها ، وجعلَها قارَّةً لا تتحرَّكُ ، وأرسىٰ فيها الجبالَ أوتاداً لها تمنعُها مِنْ أنْ تميدَ ، ثمَّ وسَّعَ أكنافَها حتىٰ عجزَ الآدميونَ عنْ بلوغِ جميعِ جوانبِها وإنْ طالَتْ أعمارُهُمْ وكثُرَ تطوافُهُمْ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ .

وقدْ أكثرَ في كتابِهِ العزيزِ مِنْ ذكرِ الأرضِ ليُتفكَّرَ في عجائبِها ، فظهرُها مقرٌّ للأحياءِ ، وبطنُها مرقدٌ للأمواتِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ .

فانظرْ إلى الأرضِ وهيَ ميتةٌ ، فإذا أنزلَ عليها الماءَ اهتزَّتْ وربَتْ ، واخضرَّتْ وأنبتَتْ عجائبَ النباتِ ، وخرجَتْ منها أصنافُ الحيواناتِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ أحكمَ جوانبَ الأرضِ بالجبالِ الراسياتِ ، الشوامخِ الصمِّ الصلابِ ، وكيفَ أودعَ المياهَ تحتَها ، ففجَّرَ العيونَ ، وأسالَ الأنهارَ تجري علىٰ وجهِها ، وأخرجَ مِنَ الحجارةِ اليابسةِ ومِنَ الترابِ الكدرِ ماءً رقيقاً ، عذباً صافياً زلالاً ، وجعلَ بهِ كلَّ شيءٍ حيٍّ ، فأخرجَ بهِ فنونَ الأشجارِ والنباتِ ؛ مِنْ حبٍّ ، وعنبٍ وقضْبٍ ، وزيتونٍ ونخلٍ ورمانٍ وفواكهَ كثيرةٍ لا تُحصىٰ ، مختلفةَ الأشكالِ والألوانِ ، والطعومِ والصفاتِ والروائحِ ، يفضِّلُ بعضَها علىٰ بعضٍ في الأُكُلِ ، تُسقىٰ جميعُها بماءٍ واحدٍ ، وتخرجُ مِنْ أرضٍ واحدةٍ .

وإنْ قلتَ : إنَّ اختلافَها باختلافِ بذورِها وأصولِها . . فمتىٰ كانَ في النواةِ نخلةٌ مطوَّقةٌ بعناقيدِ الرطبِ ؟ ومتىٰ كانَ في حبَّةٍ واحدةٍ سبعُ سنابلَ ، في كلِّ سنبلةٍ مئةُ حبَّةٍ ؟!

ثمَّ انظرْ إلىٰ أرضِ البوادي ، وفتِّشْ ظاهرَها وباطنَها ، فتراها تراباً متشابهاً ، فإذا أنزلَ عليها الماءَ . . اهتزَّتْ وربَتْ ، وأنبتَتْ مِنْ كلِّ زوجٍ بهيجٍ ، ألواناً مختلفةً ، ونباتاً متشابهاً وغيرَ متشابهٍ ، لكلِّ واحدٍ طعمٌ وريحٌ ولونٌ وشكلٌ يخالفُ الآخرَ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ كثرتِها ، واختلافِ أصنافِها ، وكثرةِ أشكالِها ، ثمَّ اختلافِ طبائعِ النباتِ وكثرةِ منافعِهِ ، وكيفَ أودعَ اللهُ تعالى العقاقيرَ المنافعَ الغريبةَ ، فهـٰذا النباتُ يغذِّي ، وهـٰذا يقوِّي ، وهـٰذا يحيي ، وهـٰذا يقتلُ ، وهـٰذا يبرِّدُ ، وهـٰذا يسخِّنُ ، وهـٰذا إذا حصلَ في المعدةِ . . قمعَ الصفراءَ مِنْ أعماقِ العروقِ ، وهـٰذا يستحيلُ إلى الصفراءِ ، وهـٰذا يقمعُ البلغمَ والسوداءَ ، وهـٰذا يستحيلُ إليهما ، وهـٰذا يصفِّي الدمَ ، وهـٰذا يستحيلُ دماً ، وهـٰذا يفرحُ ، وهـٰذا ينوِّمُ ، وهـٰذا يقوِّي ، وهـٰذا يضعِفُ ، فلمْ تنبتْ مِنَ الأرضِ ورقةٌ ولا نبتةٌ إلا وفيها منافعُ لا يقوى البشرُ على الوقوفِ علىٰ كنهِها .

وكلُّ واحدٍ مِنْ هـٰذا النباتِ يحتاجُ الفلاحُ في تربيتِهِ إلىٰ عملٍ مخصوصٍ ؛ فالنخلُ تُؤَبَّرُ ، والكرمُ يكسحُ [1] ، والزرعُ ينقَّىٰ عنهُ الحشيشُ والدَّغَلُ ، وبعضُ ذٰلكَ يُستنبتُ ببثِّ البذرِ في الأرضِ ، وبعضُهُ بغرسِ الأغصانِ ، وبعضُهُ يُركَّبُ في الشجرِ ، ولوْ أردنا أنْ نذكرَ اختلافَ أجناسِ النباتِ وأنواعِهِ ومنافعِهِ وأحوالِهِ وعجائبِهِ . . لانقضَتِ الأيَّامُ في وصفِ ذٰلكَ ، فيكفيكَ مِنْ كلِّ جنسٍ نبذةٌ يسيرةٌ تدلُّكَ علىٰ طريقِ الفكرِ ، فهـٰذهِ عجائبُ النباتِ .

❁ ❁ ❁

ومِنْ آياتِهِ : الجواهرُ المودعةُ تحتَ الجبالِ ، والمعادنُ الحاصلةُ مِنَ الأرضِ ، ففي الأرضِ قطعٌ متجاوراتٌ مختلفةٌ ، فانظرْ إلى الجبالِ كيفَ يخرجُ منها الجواهرُ النفيسةُ ؛ مِنَ الذهبِ ، والفضةِ ، والفيروزجِ ، واللعلِ [2] وغيرِها ، بعضُها منطبعةٌ تحتَ المطارقِ ؛ كالذهبِ والفضةِ والنحاسِ والرصاصِ والحديدِ ، وبعضُها لا ينطبعُ ؛ كالفيروزجِ واللعلِ ، وكيفَ هدى اللهُ تعالى الناسَ إلى استخراجِها وتنقيتِها ، واتخاذِ الأواني والآلاتِ والنقودِ والحليِّ منها .

---

(١) أي : يقطع وينقىٰ ويقلَّم . « إتحاف » (١٠/٢٠٠) .

(٢) وهو حجر أحمر شبه الياقوت ، يجلب من معادن أرض بذخشان . « إتحاف » (١٠/٢٠١) .

ثـمَّ انظرْ إلىٰ معادنِ الأرضِ ؛ مِنَ النفطِ ، والكبريتِ ، والقارِ ، وغيرِها ، وأقلُّها الملحُ ، ولا يُحتاجُ إليهِ إلا لتطييبِ الطعامِ ، ولوْ خلتْ عنهُ بلدةٌ . . لتسارعَ الهلاكُ إليها ، فانظرْ إلىٰ رحمةِ اللهِ تعالىٰ كيفَ خلقَ بعضَ الأراضي سبخةً بجوهرِها ، بحيثُ يجتمعُ فيها الماءُ الصافي مِنَ المطرِ فيستحيلُ ملحاً مالحاً محرقاً ، لا يمكنُ تناولُ مثقالٍ منهُ ؛ ليكونَ ذٰلكَ تطييباً لطعامِكَ إذا أكلتَهُ ، فيهنأَ عيشُكَ .

وما مِنْ جمادٍ ولا حيوانٍ ولا نباتٍ إلا وفيهِ حكمةٌ وحكمٌ مِنْ هـٰذا الجنسِ ، ما خُلِقَ شيءٌ منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً ، بلْ خُلِقَ الكلُّ بالحقِّ ، وكما ينبغي وعلى الوجهِ الذي ينبغي ، وكما يليقُ بجلالِهِ وكرمِهِ ولطفِهِ ، ولذٰلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

❀ ❀ ❀

ومِنْ آياتِهِ : أصنافُ الحيواناتِ وانقسامُها إلىٰ ما يطيرُ وإلىٰ ما يمشي ، وانقسامُ ما يمشي إلىٰ ما يمشي علىٰ رجْلينِ ، وإلىٰ ما يمشي علىٰ أربعٍ ، وعلىٰ عشرٍ ، وعلىٰ مئةٍ كما يُشاهدُ في بعضِ الحشراتِ ، ثـمَّ انقسامُها في المنافعِ والصورِ والأشكالِ والأخلاقِ والطباعِ .

فانظرْ إلىٰ طيورِ الجوِّ ، وإلىٰ وحوشِ البرِّ ، وإلى البهائمِ الأهليةِ ، ترىٰ فيها مِنَ العجائبِ ما لا تشكُّ معهُ في عظمةِ خالقِها وقدرةِ مقدِّرِها ، وحكمةِ مصوِّرِها ، وكيفَ يمكنُ أنْ يُستقصىٰ ذٰلكَ ؟! بلْ لوْ أردنا أنْ نذكرَ عجائبَ البقَّةِ أوِ النملةِ أوِ النحلةِ أوِ العنكبوتِ وهيَ مِنْ صغارِ الحيواناتِ ؛ في بنائِها بيتَها ، وفي جمعِها غذاءَها ، وفي إلفِها لزوجِها ، وفي ادخارِها لنفسِها ، وفي حذقِها في هندسةِ بيتِها ، وفي هدايتِها إلىٰ حاجاتِها . . لمْ نقدرْ علىٰ ذٰلكَ .

فترى العنكبوتَ يبني بيتَهُ علىٰ طرفِ طريقٍ أوْ نهرٍ ، فيطلبُ أوّلاً موضعينِ متقاربينِ بينَهُما فرجةٌ بمقدارِ ذراعٍ فما دونَهُ ، حتىٰ يمكنَهُ أنْ يصلَ بالخيطِ بينَ طرفيهِ ، ثـمَّ يبتدئُ فيلقي اللعابَ الذي هوَ خيطُهُ علىٰ جانبٍ ليلتصقَ بهِ ، ثـمَّ يغدو إلى الجانبِ الآخرِ فيحكمُ الطرفَ الآخرَ مِنَ الخيطِ ، ثـمَّ كذٰلكَ يتردَّدُ ثانياً وثالثاً ، ويجعلُ بعْدَ ما بينَهُما متناسباً تناسباً هندسياً ، حتىٰ إذا أحكمَ معاقدَ القِمْطِ ، ورتَّبَ الخيوطَ كالسَّدىٰ . . اشتغلَ باللحمةِ ، فيضعُ اللحمةَ على السَّدىٰ ، ويضيفُ بعضَهُ إلىٰ بعضٍ ، ويحكمُ العقدَ علىٰ موضعِ التقاءِ اللحمةِ بالسَّدىٰ ، ويرعىٰ في جميعِ ذٰلكَ تناسبَ الهندسةِ ، ويجعلُ ذٰلكَ شبكةً يقعُ فيها البقُّ والذبابُ ، ويقعدُ في زاويةٍ مترصِّداً لوقوعِ الصيدِ في الشبكةِ ، فإذا وقعَ الصيدُ . . بادرَ إلىٰ أخذِهِ وأكلِهِ ، فإنْ عجزَ عنِ الصيدِ كذٰلكَ . . طلبَ لنفسِهِ زاويةً مِنْ حائطٍ ، ووصلَ بينَ طرفي الزاويةِ بخيطٍ ، ثـمَّ علَّقَ نفسَهُ منها بخيطٍ آخرَ ، وبقي منتكساً في الهواءِ ينتظرُ ذبابةً تطيرُ ، فإذا طارَ ذبابٌ . . رمىٰ بنفسِهِ إليهِ فأخذَهُ ، ولفَّ خيطَهُ علىٰ رجليهِ وأحكمَهُ ثـمَّ أكلَهُ .

وما مِنْ حيوانٍ صغيرٍ ولا كبيرٍ إلا وفيهِ مِنَ العجائبِ ما لا يُحصىٰ ، أفترىٰ أنَّهُ تعلَّمَ هـٰذهِ الصنعةَ مِنْ نفسِهِ ، أوْ تكوَّنَ بنفسِهِ ، أوْ كوَّنَهُ آدميٌّ وعلَّمَهُ ، أوْ لا هاديَ لهُ ولا معلِّمَ ؟!

أفيشكُّ ذو بصيرةٍ في أنَّهُ مسكينٌ ضعيفٌ عاجزٌ ، بلِ الفيلُ العظيمُ شخصُهُ الظاهرةُ قوتُهُ عاجزٌ عنْ أمرِ نفسِهِ ، فكيفَ هـٰذا الحيوانُ الضعيفُ ؟! أفلا يشهدُ هوَ بشكلِهِ وصورتِهِ وحركتِهِ وهدايتِهِ وعجائبِ صنعتِهِ لفاطرِهِ الحكيمِ ، وخالقِهِ القادرِ العليمِ ؟!

فالبصيرُ يرىٰ في هـٰذا الحيوانِ الصغيرِ مِنْ عظمةِ الخالقِ المدبّرِ وجلالِهِ ، وكمالِ قدرتِهِ وحكمتِهِ . . ما تتحيَّرُ فيهِ الألبابُ والعقولُ ، فضلاً عنْ سائرِ الحيواناتِ .

وهـٰذا البابُ أيضاً لا حصرَ لهُ ؛ فإنَّ الحيواناتِ وأشكالَها وأخلاقَها وطباعَها غيرُ محصورةٍ ، وإنَّما سقطَ تعجُّبُ القلوبِ منها لأنسِها بكثرةِ المشاهدةِ .

نعمْ ؛ إذا رأىٰ حيواناً غريباً ولوْ دوداً . . تجدَّدَ تعجُّبُهُ ، وقالَ : سبحانَ اللهِ ما أعجبَهُ !! والإنسانُ أعجبُ الحيواناتِ وليسَ يتعجَّبُ مِنْ نفسِهِ ، بلْ لوْ نظرَ إلى الأنعامِ التي ألفَها ، ونظرَ إلىٰ أشكالِها وصورِها ، ثمَّ إلىٰ منافعِها وفوائدِها ؛ مِنْ جلودِها ، وأصوافِها ، وأوبارِها ، وأشعارِها ، التي جعلَها اللهُ لباساً لخلقِهِ ، وأكناناً لهُمْ في ظعنِهِمْ وإقامتِهِمْ ، وآنيةً لأشربتِهِمْ ، وأوعيةً لأغذيتِهِمْ ، وصواناً لأقدامِهِمْ ، وجعلَ ألبانَها ولحومَها أغذيةً لهُمْ ، ثمَّ جعلَ بعضَها زينةً للركوبِ ، وبعضَها حاملةً للأثقالِ ، قاطعةً للبوادي والمفازاتِ البعيدةِ . . لأكثرَ الناظرُ التعجُّبَ مِنْ حكمةِ خالقِها ومُصوِّرِها ؛ فإنَّهُ ما خلقَها إلا بعلمٍ محيطٍ بجميعِ منافعِها ، سابقٍ علىٰ خلقِهِ إيَّاها .

فسبحانَ مَنِ الأمورُ مكشوفةٌ في علمِهِ مِنْ غيرِ تفكُّرٍ ، ومِنْ غيرِ تأمُّلٍ وتدبُّرٍ ، ومِنْ غيرِ استعانةٍ بوزيرٍ أوْ مشيرٍ !! فهوَ العليمُ الخبيرُ ، الحكيمُ القديرُ ، فلقدِ استخرجَ بأقلِّ القليلِ ممَّا خلقَهُ صدْقَ الشهادةِ مِنْ قلوبِ العارفينَ بتوحيدِهِ ، فما للخلقِ إلا الإذعانُ لقهرِهِ وقدرتِهِ ، والاعترافُ بربوبيتِهِ ، والإقرارُ بالعجزِ عنْ معرفةِ جلالِهِ وعظمتِهِ ، فمَنْ ذا الذي يُحصي ثناءً عليهِ ؟! بلْ هوَ كما أثنىٰ علىٰ نفسِهِ ، وإنَّما غايةُ معرفتِنا الاعترافُ بالعجزِ عنْ معرفتِهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يكرمَنا بهدايتِهِ بمنِّهِ ورأفتِهِ .

❁ ❁ ❁

ومِنْ آياتِهِ : البحارُ العميقةُ المكتنفةُ لأقطارِ الأرضِ التي هيَ قطعٌ مِنَ البحرِ الأعظمِ المحيطِ بجميعِ الأرضِ ، حتىٰ إنَّ جميعَ المكشوفِ مِنَ البوادي والجبالِ عنِ الماءِ بالإضافةِ إلى الماءِ كجزيرةٍ صغيرةٍ في بحرٍ عظيمٍ ، وبقيةُ الأرضِ مستورةٌ بالماءِ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأرضُ في البحرِ كالإصطبلِ في الأرضِ »(١) ، فانسبْ إصطبلاً إلىٰ جميعِ الأرضِ ، واعلمْ أنَّ الأرضَ بالإضافةِ إلى البحرِ مثلُهُ ، وقدْ شاهدتَ عجائبَ الأرضِ وما فيها ، فتأمَّلِ الآنَ عجائبَ البحرِ ، فإنَّ عجائبَ ما فيهِ مِنَ الحيوانِ والجواهرِ أضعافُ عجائبِ ما تشاهدُهُ علىٰ وجهِ الأرضِ ، كما أنَّ سعتَهُ أضعافُ سعةِ الأرضِ .

ولعظمِ البحرِ كانَ فيهِ مِنَ الحيواناتِ العظامِ ما تُرىٰ ظهورُها في البحرِ فتُظنُّ أنَّها جزيرةٌ ، فينزلُ الركَّابُ عليها ، فربَّما تحسُّ بالنيرانِ إذا اشتعلَتْ فتتحرَّكَ ، فيُعلمُ أنَّها حيوانٌ ، وما مِنْ صنفٍ مِنْ أصنافِ حيوانِ البرِّ ؛ مِنْ فرسٍ ، أوْ طيرٍ ، أوْ بقرٍ ، أوْ إنسانٍ . . إلا وفي البحرِ أمثالُهُ وأضعافُهُ ، وفيهِ أجناسٌ لا يُعهدُ لها نظيرٌ في البرِّ ، وقدْ ذُكرَتْ أوصافُها في مجلَّداتٍ ، وجمعَها أقوامٌ عُنوا بركوبِ البحرِ وجمْعِ عجائبِهِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى اللؤلؤَ ودوَّرَهُ في صدفِهِ تحتَ الماءِ ، وانظرْ كيفَ أنبتَ المرجانَ مِنْ صمِّ الصخورِ تحتَ الماءِ ، وإنَّما هوَ نباتٌ علىٰ هيئةِ شجرٍ ينبتُ مِنَ الحجرِ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/٥٨٩) .

ثمَّ تأمَّلْ ما عداهُ مِنَ العنبرِ وأصنافِ النفائسِ التي يقذفُها البحرُ وتُستخرجُ منهُ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ عجائبِ السفنِ كيفَ أمسكَها اللهُ تعالىٰ علىٰ وجهِ الماءِ ، وسيَّرَ فيها التجارَ وطلابَ الأموالِ وغيرَهُمْ ، وسخَّرَ لهُمُ الفلكَ لتحملَ أثقالَهُمْ ، ثمَّ أرسلَ الرياحَ لتسوقَ السفنَ ، ثمَّ عرَّفَ الملَّاحينَ مواردَ الرياحِ ومهابَّها ومواقيتَها .

ولا يُستقصىٰ على الجملةِ عجائبُ صنعِ اللهِ في البحرِ في مجلداتٍ .

وأعجبُ مِنْ ذٰلكَ كلِّهِ ما هوَ أظهرُ مِنْ كلِّ ظاهرٍ ، وهوْ كيفيةُ قطرةِ الماءِ ، وهوَ جسمٌ رقيقٌ لطيفٌ سيَّالٌ مُشِفٌّ ، متصلُ الأجزاءِ كأنَّهُ شيءٌ واحدٌ ، لطيفُ التركيبِ ، سريعُ القبولِ للتقطيعِ كأنَّهُ منفصلٌ ، مسخَّرٌ للتصرُّفِ ، قابلٌ للانفصالِ والاتصالِ ، بهِ حياةُ كلِّ ما علىٰ وجهِ الأرضِ مِنْ حيوانٍ ونباتٍ ، فلوِ احتاجَ العبدُ إلىٰ شربةِ ماءٍ ومُنِعَ منها . . لبذلَ جميعَ خزائنِ الأرضِ وملكِ الدنيا في تحصيلِها لوْ ملكَ ذٰلكَ ، ثمَّ إذا شربَها ومُنعَ مِنْ إخراجِها . . لبذلَ جميعَ خزائنِ الأرضِ وملكِ الدنيا في إخراجِها ، فالعجبُ مِنَ الآدميِّ كيفَ يستعظمُ الدينارَ والدرهمَ ونفائسَ الجواهرِ ويغفُلُ عنْ نعمةِ اللهِ تعالىٰ في شربةِ ماءٍ إذا احتاجَ إلىٰ شربِها أوِ الاستفراغِ عنها . . بذلَ جميعَ الدنيا فيها !!

فتأمَّلْ في عجائبِ المياهِ والأنهارِ ، والآبارِ والبحارِ ، ففيها متسعٌ للفكرِ ومجالٌ .

وكلُّ ذٰلكَ شواهدُ متظاهرةٌ ، وآياتٌ متناصرةٌ ، ناطقةٌ بلسانِ حالِها ، مفصحةٌ عنْ جلالِ بارئِها ، معربةٌ عنْ كمالِ حكمتِهِ فيها ، مناديةٌ أربابَ القلوبِ بنغماتِها ، قائلةٌ لكلِّ ذي لبٍّ : أما تراني وترىٰ صورتي وتركيبي وصفاتي ، ومنافعي واختلافَ حالاتي وكثرةَ فوائدي ؟ أتظنُّ أنِّي تكوَّنتُ بنفسي أوْ خلقَني أحدٌ مِنْ جنسي ؟! أوَما تستحيي أنْ تنظرَ في كلمةٍ مرقومةٍ مِنْ ثلاثةِ أحرفٍ ، فتقطعَ بأنَّها صنعةُ آدميٍّ عالمٍ قادرٍ مريدٍ متكلِّمٍ ، ثمَّ تنظرَ إلىٰ عجائبِ الخطوطِ الإلٰهيةِ المرقومةِ علىٰ صفحاتِ وجهي بالقلمِ الإلٰهي الذي لا تدركُ الأبصارُ ذاتَهُ ولا حركتَهُ ولا اتصالَهُ بمحلِّ الخطِّ . . ثمَّ ينفكَّ قلبُكَ عنْ جلالةِ صانعِهِ ؟!

وتقولُ النطفةُ لأربابِ السمعِ والقلبِ ، لا للذينَ هُمْ عنِ السمعِ معزولونَ : توهمْني في ظلمةِ الأحشاءِ مغموسةً في دمِ الحيضِ ، في الوقتِ الذي يظهرُ التخطيطُ والتصويرُ علىٰ وجهي ، فينقشُ النقَّاشُ حدقتي ، وأجفاني وجبهتي ، وخدي وشفتي ، فترى النقوشَ تظهرُ شيئاً فشيئاً على التدريجِ ، ولا ترىٰ داخلَ النطفةِ نقَّاشاً ولا خارجَها ، ولا داخلَ الرحمِ ولا خارجَها ، ولا خبرَ منها للأمِّ ولا للأبِ ، ولا للنطفةِ ولا للرحمِ ، أفما هٰذا النقاشُ بأعجبَ ممَّنْ تشاهدُهُ ينقشُ بالقلمِ صورةً عجيبةً لوْ نظرتَ إليها مرَّةً أوْ مرتينِ لتعلمتَها[1] ، فهلْ تقدرُ علىٰ أنْ تتعلَّمَ هٰذا الجنسَ مِنَ النقشِ والتصويرِ الذي يعمُّ ظاهرَ النطفةِ وباطنَها وجميعَ أجزائِها ، مِنْ غيرِ ملامسةٍ للنطفةِ ، ومِنْ غيرِ اتصالٍ بها لا مِنْ داخلٍ ولا مِنْ خارجٍ ؟!

فإنْ كنتَ لا تتعجبُ مِنْ هٰذهِ العجائبِ ، ولا تفهمُ منها أنَّ الذي صوَّرَ ونقشَ وقدَّرَ لا نظيرَ لهُ ، ولا يساويهِ سبحانَهُ نقَّاشٌ ولا مصوِّرٌ ، كما أنَّ نقشَهُ وصنعَهُ لا يساويهِ نقشٌ وصنعٌ ، فبينَ الفاعلينِ مِنَ المباينةِ والتباعدِ ما بينَ الفعلينِ ، فإنْ كنتَ لا تتعجَّبُ مِنْ هٰذا . . فتعجَّبْ مِنْ عدمِ تعجُّبِكَ ؛ فإنَّهُ أعجبُ مِنْ كلِّ عجبٍ ، فإنَّ الذي أعمىٰ بصيرتَكَ معَ هٰذا الوضوحِ ومنعَكَ اليقينَ معَ هٰذا البيانِ . . جديرٌ بأنْ تتعجَّبَ منهُ .

فسبحانَ مَنْ هدىٰ وأضلَّ ، وأغوىٰ وأرشدَ ، وأشقىٰ وأسعدَ ، وفتحَ بصائرَ أحبابِهِ فشاهدوهُ في جميعِ ذرَّاتِ العالمِ

---

(١) في غير (ب) : (لتعلمته) بدل (لتعلمتها) .

وأجزائِهِ ، وأعمىٰ قلوبَ أعدائِهِ واحتجبَ عنهُمْ بعزِّهِ وعلائِهِ !! فلهُ الخلقُ والأمرُ ، والامتنانُ والفضلُ ، واللطفُ والقهرُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ .

❀ ❀ ❀

ومِنْ آياتِهِ : الهواءُ اللطيفُ المحبوسُ بينَ مقعَّرِ السماءِ ومحدَّبِ الأرضِ ، يُدركُ بحسِّ اللمسِ عندَ هبوبِ الرياحِ جسمُهُ ، ولا يُرىٰ بالعينِ شخصُهُ ، وجملتُهُ مثلُ البحرِ الواحدِ ، والطيورُ محلِّقةٌ في جوِّ السماءِ ومستبقةٌ ، سباحةٌ فيهِ بأجنحتِها كما تسبحُ حيواناتُ البحرِ في الماءِ ، وتضطربُ جوانبُهُ وأمواجُهُ عندَ هبوبِ الرياحِ كما تضطربُ أمواجُ البحرِ ، فإذا حرَّكَ اللهُ الهواءَ وجعلَهُ ريحاً هابَّةً ؛ فإنْ شاءَ . . جعلَهُ بشراً بينَ يدَيْ رحمتِهِ ؛ كما قالَ سبحانَهُ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ ، فيصلُ بحركتِهِ رَوْحُ الهواءِ إلى الحيواناتِ والنباتاتِ ، فتستعدُّ للنماءِ ، وإنْ شاءَ . . جعلَهُ عذاباً على العصاةِ مِنْ خليقتِهِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۞ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ لطفِ الهواءِ ، ثمَّ شدَّتِهِ وقوَّتِهِ مهما ضغطَ في الماءِ ، فالزقُّ المنفوخُ يتحاملُ عليهِ الرجلُ القويُّ ليغمسَهُ في الماءِ فيعجزُ عنهُ ، والحديدُ الصلبُ تضعُهُ علىٰ وجهِ الماءِ فيرسبُ فيهِ ، فانظرْ كيفَ ينقبضُ الهواءُ مِنَ الماءِ بقوَّتِهِ معَ لطافتِهِ !! وبهـٰذهِ الحكمةِ أمسكَ اللهُ تعالى السفنَ علىٰ وجهِ الماءِ ، وكذٰلكَ كلُّ مجوَّفٍ فيهِ هواءٌ لا يغوصُ في الماءِ ؛ لأنَّ الهواءَ ينقبضُ عنِ الغوصِ في الماءِ ، فلا ينفصلُ عنِ السطحِ الداخلِ مِنَ السفينةِ ، فتبقى السفينةُ الثقيلةُ معَ قوَّتِها وصلابتِها معلَّقةً مِنَ الهواءِ اللطيفِ ، كالذي يقعُ في بئرٍ فيتعلَّقُ بذيلِ رجلٍ قويٍّ ممتنعٍ عنِ الهويِّ في البئرِ ، فالسفينةُ بمقعَّرِها تتشبَّثُ بأذيالِ الهواءِ القويِّ حتىٰ تمتنعَ مِنَ الهويِّ والغوصِ في الماءِ ، فسبحانَ مَنْ علَّقَ المركبَ الثقيلَ في الهواءِ اللطيفِ مِنْ غيرِ علاقةٍ تُشاهدُ وعقدةٍ تُشدُّ !!

ثمَّ انظرْ إلىٰ عجائبِ الجوِّ وما يظهرُ فيهِ مِنَ الغيومِ ، والرعودِ والبروقِ ، والأمطارِ والثلوجِ ، والشهبِ والصواعقِ ، فهيَ عجائبُ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، وقدْ أشارَ القرآنُ إلىٰ جملةِ ذٰلكَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ ، وهـٰذا هوَ الذي بينَهُما ، وأشارَ إلىٰ تفصيلِهِ في مواضعَ شتىٰ حيثُ قالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وحيثُ تعرَّضَ للرعدِ والبرقِ ، والسحابِ والمطرِ ، فإذا لمْ يكنْ لكَ حظٌّ مِنْ هـٰذهِ الجملةِ إلا أنْ ترى المطرَ بعينِكَ ، وتسمعَ الرعدَ بأذنِكَ . . فالبهيمةُ تشاركُكَ في هـٰذهِ المعرفةِ ، فارتفعْ مِنْ حضيضِ عالمِ البهائمِ إلىٰ عالمِ الملأ الأعلىٰ ، فقدْ فتحتَ عينَكَ فأدركتَ ظاهرَها ، فغمِّضْ عينَكَ الظاهرةَ وانظرْ ببصيرتِكَ الباطنةِ لترىٰ عجائبَ باطنِها وغرائبَ أسرارِها .

وهـٰذا أيضاً بابٌ يطولُ الفكرُ فيهِ ، ولا مطمعَ في استقصائِهِ ، فتأمَّلِ السحابَ الكثيفَ المظلمَ كيفَ تراهُ يجتمعُ في جوٍّ صافٍ لا كدورةَ فيهِ ، وكيفَ يخلقُهُ اللهُ تعالىٰ إذا شاءَ ومتىٰ شاءَ ، وهوَ معَ رخاوتِهِ حاملٌ للماءِ الثقيلِ ، وممسكٌ لهُ في جوِّ السماءِ ، إلىٰ أنْ يأذنَ اللهُ في إرسالِ الماءِ وتقطيعِ القطراتِ ، كلُّ قطرةٍ بالقدْرِ الذي أرادَهُ اللهُ تعالىٰ ، وعلى الشكلِ الذي شاءَهُ ، فترى السحابَ يرشُّ الماءَ على الأرضِ ، ويرسلُهُ قطراتٍ متفاصلةً لا تدركُ قطرةٌ منها قطرةً ، ولا تتصلُ واحدةٌ بأخرىٰ ، بلْ تنزلُ كلُّ واحدةٍ في الطريقِ الذي رُسِمَ لها لا تعدلُ عنهُ ، فلا يتقدَّمُ المتأخِّرُ ، ولا يتأخَّرُ المتقدِّمُ ، حتىٰ يصيبَ الأرضَ قطرةً قطرةً ، فلوِ اجتمعَ الأوَّلونَ والآخرونَ علىٰ أنْ يخلقوا منها قطرةً ، أوْ يعرفوا عددَ ما ينزلُ منها في بلدةٍ واحدةٍ ، أو قريةٍ واحدةٍ . . لعجزَ حسابُ الجنِّ والإنسِ عنْ ذٰلكَ ، فلا يعلمُ عددَها إلا الذي أوجدَها .

ثُمَّ كلُّ قطرةٍ منها عُيِّنَتْ لكلِّ جزءٍ مِنَ الأرضِ مخصوصٍ ، ولكلِّ حيوانٍ فيها مِنْ طيرٍ ووحشٍ وجميعِ الحشراتِ والدوابِّ ، مكتوبٌ علىٰ تلكَ القطرةِ بخطٍّ إلـٰهيٍّ لا يُدركُ بالبصرِ الظاهرِ أنَّها رزقُ الدودةِ الفلانيَّةِ التي في ناحيةِ الجبلِ الفلانيِّ ، تصلُ إليها عندَ عطشِها في الوقتِ الفلانيِّ ، هـٰذا معَ ما في انعقادِ البرَدِ الصلبِ مِنَ الماءِ اللطيفِ ، وفي تناثرِ الثلوجِ كالقطنِ المندوفِ مِنَ العجائبِ التي لا تُحصىٰ .

كلُّ ذٰلكَ فضْلٌ مِنَ الجبارِ القادرِ ، وقهرٌ مِنَ الخلَّاقِ القاهرِ ، ما لأحدٍ مِنَ الخلقِ فيهِ شِرْكٌ ولا مدخلٌ ، بلْ ليسَ للمؤمنينَ مِنْ خلقِهِ إلا الاستكانةُ والخضوعُ تحتَ جلالِهِ وعظمتِهِ[1] ، ولا للعميانِ الجاحدينَ إلا الجهلُ بكيفيتِهِ ، ورجمُ الظنونِ بذكرِ سببِهِ وعلَّتِهِ ، فيقولُ الجاهلُ المغرورُ : إنَّما ينزلُ الماءُ لأنَّهُ ثقيلٌ بطبعِهِ ، وإنَّما هـٰذا سببُ نزولِهِ ، ويظنُّ أنَّ هـٰذهِ معرفةٌ انكشفَتْ لهُ ، ويفرحُ بها ، ولوْ قيلَ لهُ : ما معنى الطبعِ ؟ وما الذي خلقَهُ ؟ وما الذي خلقَ الماءَ الذي طبعُهُ الثقلُ ؟ وما الذي رقَّى الماءَ المصبوبَ في أسافلِ الشجرِ إلىٰ أعالي الأغصانِ وهوَ ثقيلٌ بطبعِهِ ؟ فكيفَ هوىٰ إلىٰ أسفلَ ثُمَّ ارتفعَ إلىٰ فوقٍ في داخلِ تجاويفِ الأشجارِ شيئاً شيئاً بحيثُ لا يُرىٰ ولا يُشاهدُ حتىٰ ينتشرَ في جميعِ أطرافِ الأوراقِ ، فيغذِّيَ كلَّ جزءٍ مِنْ كلِّ ورقةٍ ، ويجريَ إليها في تجاويفِ عروقٍ شعريَّةٍ صغارٍ ، يُرىٰ منهُ العرقُ الذي هوَ أصلُ الورقةِ ، ثمَّ ينتشرَ مِنْ ذٰلكَ العرقِ الكبيرِ الممدودِ في طولِ الورقةِ عروقٌ صغارٌ ، فكأنَّ الكبيرَ نهرٌ ، وما انشعبَ عنهُ جداولُ ، ثمَّ ينشعبَ مِنَ الجداولِ سواقٍ أصغرُ منها ، ثمَّ ينتشرَ منها خيوطٌ عنكبوتيَّةٌ دقيقةٌ تخرجُ عنْ إدراكِ البصرِ ، حتىٰ تنبسطَ في جميعِ عرضِ الورقةِ ، فيصلَ الماءُ في أجوافِها إلىٰ سائرِ أجزاءِ الورقةِ ليغذيَها وينميَها ويزينَها ، وتبقىٰ طراوتُها ونضارتُها ، وكذٰلكَ إلىٰ سائرِ أجزاءِ الفواكهِ ، فإنْ كانَ الماءُ يتحرَّكُ بطبعِهِ إلىٰ أسفلَ . . فكيفَ تحرَّكَ إلىٰ فوقٍ ؟ فإنْ كانَ ذٰلكَ بجذبِ جاذبٍ . . فما الذي سخَّرَ ذٰلكَ الجاذبَ ؟ فإنْ كانَ ينتهي بالآخرةِ إلىٰ خالقِ السماواتِ والأرضِ ، وجبَّارِ الملكِ والملكوتِ . . فلِمَ لا يُحالُ عليهِ في أوَّلِ الأمرِ ؟! فنهايةُ الجاهلِ بدايةُ العاقلِ .

❁ ❁ ❁

ومِنْ آياتِهِ : ملكوتُ السماواتِ ، وما فيها مِنَ الكواكبِ ، وهوَ الأمرُ كلُّهُ ، ومَنْ أدركَ الكلَّ وفاتَهُ عجائبُ السماواتِ . . فقدْ فاتَهُ الكلُّ تحقيقاً ؛ فالأرضُ والبحارُ والهواءُ وكلُّ جسمٍ سوى السماواتِ بالإضافةِ إلى السماواتِ . . كقطرةٍ في بحرٍ وأصغرَ . ثمَّ انظرْ كيفَ عظَّمَ اللهُ تعالىٰ أمرَ السماواتِ والنجومِ في كتابِهِ ، فما مِنْ سورةٍ إلا وتشتملُ علىٰ تفخيمِها في مواضعَ ، وكمْ مِنْ قَسَمٍ في القرآنِ بها ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

فقدْ علمتَ أنَّ عجائبَ النطفةِ القذرةِ عجزَ عنْ معرفتِها الأولونَ والآخرونَ ، وما أقسمَ اللهُ بها ، فما ظنُّكَ بما أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وأحالَ الأرزاقَ عليهِ ، وأضافها إليهِ ؟ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

وأثنىٰ على المتفكِّرينَ فيهِ فقالَ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ويلٌ لمَنْ قرأَ هـٰذهِ الآيةَ ثمَّ مسحَ بها سبلتَهُ »[2] ؛ أيْ : تجاوزَها مِنْ غيرِ فكرٍ .

---

(١) في جميع النسخ : (تحت جماله وعظمته) ، والمثبت من (ق) .

(٢) قوت القلوب (١/٢٥٤) ، وروى ابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) نحوه .

وذمَّ المعرضينَ عنها فقالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ .

فأيُّ نسبةٍ لجميعِ البحارِ والأرضِ إلى السماءِ ، وهيَ متغيّراتٌ على القرْبِ والسماواتُ صلابٌ شدادٌ ، محفوظاتٌ عنِ التغيُّرِ إلىٰ أنْ يبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، ولذٰلكَ سمَّاهُ اللهُ تعالىٰ محفوظاً فقالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ ؟!

فانظرْ إلى الملكوتِ لترىٰ عجائبَ العزِّ والجبروتِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ معنى النظرِ إلى الملكوتِ بأنْ تمدَّ البصرَ إليهِ ، فترىٰ زرقةَ السماءِ وضوءَ الكواكبِ وتفرُّقَها ، فإنَّ البهائمَ تشاركُكَ في هٰذا النظرِ ، فإنْ كانَ هٰذا هوَ المرادَ . . فلِمَ مدحَ اللهُ تعالىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ بقولِهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؟! لا بلْ كلُّ ما يُدركُ بحاسَّةِ البصرِ فالقرآنُ يعبّرُ عنهُ بالملكِ والشهادةِ ، وما غابَ عنِ الأبصارِ فيعبّرُ عنهُ بالغيبِ والملكوتِ ، واللهُ تعالىٰ عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، وجبَّارُ الملكِ والملكوتِ ، ولا يحيطُ أحدٌ بشيءٍ مِنْ علمِهِ إلا بما شاءَ ، وهوَ عالمُ الغيبِ فلا يظهرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلا مَنِ ارتضىٰ مِنْ رسولٍ .

فأطلْ أيُّها العاقلُ فكرَكَ في الملكوتِ ، فعسىٰ يُفتحُ لكَ أبوابُ السماءِ ، فتجولَ بقلبِكَ في أقطارِها ، إلىٰ أنْ يقومَ قلبُكَ بينَ يدي عرشِ الرحمٰنِ ، فعندَ ذٰلكَ ربَّما يُرجىٰ لكَ أنْ تبلغَ رتبةَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (رأىٰ قلبي ربِّي) ، وهٰذا لأنَّ بلوغَ الأقصىٰ لا يكونُ إلا بعدَ مجاوزةِ الأدنىٰ ، وأدنىٰ شيءٍ إليكَ نفسُكَ ، ثمَّ الأرضُ التي هيَ مقرُّكَ ، ثم الهواءُ المكتنفُ لكَ ، ثمَّ النباتُ والحيوانُ وما علىٰ وجهِ الأرضِ ، ثمَّ عجائبُ الجوِّ وهوَ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، ثمَّ السماواتُ السبعُ بكواكبِها ، ثمَّ الكرسيُّ ، ثمَّ العرشُ ، ثمَّ الملائكةُ الذينَ هُمْ حملةُ العرشِ وخزَّانُ السماواتِ ، ثمَّ منهُ تجاوزْ إلى النظرِ إلىٰ ربِّ العرشِ والكرسيِّ والسماواتِ والأرضِ وما بينَهُما ، فبينَكَ وبينَهُ هٰذهِ المفاوزُ الفيحُ ، والمسافاتُ الشاسعةُ ، والعقباتُ الشاهقةُ ، وأنتَ بعدُ لمْ تفرغْ مِنَ العقبةِ القريبةِ النازلةِ ، وهي معرفةُ ظاهرِ نفسِكَ ، ثمَّ صرتَ تطلقُ اللسانَ بوقاحتِكَ وتدَّعي معرفةَ ربِّكَ ، وتقولُ : قدْ عرفتُهُ وعرفتُ خلقَهُ ، ففيماذا أتفكَّرُ ؟! وإلىٰ ماذا أتطلَّعُ ؟!

فارفعِ الآنَ رأسَكَ إلى السماءِ ، وانظرْ فيها وفي كواكِبها ، وفي دورانِها ، وطلوعِها وغروبِها ، وشمسِها وقمرِها ، واختلافِ مشارقِها ومغاربِها ، ودؤوبِها في الحركةِ على الدوامِ مِنْ غيرِ فتورٍ في حركتِها ، ومِنْ غيرِ تغيُّرٍ في مسيرِها ، بلْ تجري جميعاً في منازلَ مرتبةٍ ، بحسابٍ مقدَّرٍ ، لا يزيدُ ولا ينقصُ ، إلىٰ أنْ يطويَها اللهُ تعالىٰ طيَّ السجلِ للكتابِ .

وتدبَّرْ عددَ كواكبِها وكثرتِها واختلافِ ألوانِها ، فبعضُها يميلُ إلى الحمرةِ ، وبعضُها إلى البياضِ ، وبعضُها إلى اللونِ الرصاصيِّ .

ثمَّ انظرْ كيفيةَ أشكالِها ، فبعضُها علىٰ صورةِ العقربِ ، وبعضُها علىٰ صورةِ الحملِ والثورِ والأسدِ والإنسانِ ، وما مِنْ صورةٍ في الأرضِ إلا ولها مثالٌ في السماءِ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ مسيرِ الشمسِ في فلكِها في مدَّةِ سنةٍ ، ثمَّ هيَ تطلعُ في كلِّ يومٍ وتغربُ بسيرٍ آخرَ سخَّرَها لهُ خالقُها ، ولولا طلوعُها وغروبُها . لما اختلفَ الليلُ والنهارُ ، ولمْ تُعرفِ المواقيتُ ، ولأطبقَ الظلامُ على الدوامِ ، أوِ الضياءُ على الدوامِ ، وكانَ لا يتميَّزُ وقتُ المعاشِ عنْ وقتِ الاستراحةِ .

فانظرْ كيفَ جعلَ اللهُ تعالى الليلَ لباساً ، والنومَ سباتاً ، والنهارَ معاشاً ، وانظرْ إلىٰ إيلاجِهِ الليلَ في النهارِ ، والنهارَ في الليلِ ، وإدخالِهِ الزيادةَ والنقصانَ عليهما علىٰ ترتيبٍ مخصوصٍ .

وانظرْ إلىٰ إمالتِهِ مسيرَ الشمسِ عنْ وسطِ السماءِ[١] حتى اختلفَ بسببِهِ الصيفُ والشتاءُ ، والربيعُ والخريفُ ، فإذا انخفضَتِ الشمسُ مِنْ وسطِ السماءِ في سيرِها . . بردَ الهواءُ ، وظهرَ الشتاءُ ، وإذا استوَتْ في وسطِ السماءِ . . اشتدَّ القيظُ ، وإذا كانَتْ فيما بينَهُما . . اعتدلَ الزمانُ .

وعجائبُ السماواتِ لا مطمعَ في إحصاءِ عُشْرِ عَشِيرِ جزءٍ مِنْ أجزائِها ، وإنَّما هـٰذا تنبيهٌ علىٰ طريقِ الفكرِ .

واعتقدْ على الجملةِ أنَّهُ ما مِنْ كوكبٍ مِنَ الكواكبِ إلا وللهِ تعالىٰ حكمٌ كثيرةٌ في خلقِهِ ، ثمَّ في مقدارِهِ ، ثمَّ في شكلِهِ ، ثمَّ في لونِهِ ، ثمَّ في وضعِهِ مِنَ السماءِ وقربِهِ مِنْ وسطِ السماءِ وبعْدِهِ ، وقربِهِ مِنَ الكواكبِ التي بجنبِهِ وبعْدِهِ ، وقسْ ذٰلكَ بما ذكرناهُ مِنْ أعضاءِ بدنِكَ ؛ إذْ ما مِنْ جزءٍ إلا وفيهِ حكمةٌ بلْ حكمٌ كثيرةٌ ، وأمرُ السماءِ أعظمُ ، بلْ لا نسبةَ لعالمِ الأرضِ إلىٰ عالمِ السماءِ ، لا في كبرِ جسمِهِ ، ولا في كثرةِ معانيهِ ، وقسِ التفاوتَ الذي بينَهما في كثرةِ المعاني بما بينَهُما مِنَ التفاوتِ في كبرِ الأرضِ ، فأنتَ تعرفُ مِنْ كبرِ الأرضِ واتساعِ أطرافِها أنَّهُ لا يقدرُ آدميٌّ علىٰ أنْ يدركَها ويدورَ بجوانبِها .

وقدِ اتفقَ الناظرونَ علىٰ أنَّ الشمسَ مثلُ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ ونيِّفاً وستينَ مرةً ، وفي الأخبارِ ما يدلُّ علىٰ عظمِها[٢] ، والكواكبُ التي تراها أصغرُها مثلُ الأرضِ ثمانيَ مرَّاتٍ ، وأكبرُها ينتهي إلىٰ قريبٍ مِنْ مئةٍ وعشرينَ مرَّةً مثلَ الأرضِ ، وبهـٰذا تعرفُ ارتفاعَها وبعدَها ؛ إذْ للبعدِ صارتْ تُرىٰ صغاراً ، ولذٰلكَ أشارَ تعالىٰ إلىٰ بعدِها فقالَ : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ ، وفي الأخبارِ أنَّ بينَ كلِّ سماءٍ إلى الأخرىٰ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ[٣]

فإذا كانَ هـٰذا مقدارَ كوكبٍ واحدٍ مِنَ الأرضِ . . فانظرْ إلىٰ كثرةِ الكواكبِ ، ثمَّ انظرْ إلى السماءِ التي الكواكبُ مركوزةٌ فيها وإلىٰ عظمِها ، ثمَّ انظرْ إلىٰ سرعةِ حركتِها وأنتَ لا تحسُّ بحركتِها فضلاً عنْ أنْ تدركَ سرعتَها ، لـٰكنْ لا تشكُّ في أنَّها في لحظةٍ تسيرُ مقدارَ عرضِ كوكبٍ ؛ لأنَّ الزمانَ مِنْ طلوعِ أوَّلِ جزءٍ مِنْ كوكبٍ إلىٰ تمامِهِ يسيرٌ ، وذٰلكَ الكوكبُ هوَ مثلُ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ وزيادةً ، فقدْ دارَ الفلكُ في هـٰذهِ اللحظةِ مثلَ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ ، وهـٰكذا يدورُ على الدوامِ وأنتَ غافلٌ عنهُ .

وانظرْ كيفَ عبَّر جبريلُ عليهِ السلامُ عنْ سرعةِ حركتِهِ إذْ قالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ زالَتِ الشمسُ ؟ » فقالَ : لا نعمْ ، فقالَ : « كيفَ تقولُ : لا نعمْ ؟ » فقالَ : مِنْ حينَ قلتُ : لا إلىٰ أنْ قلتُ : نعمْ . . سارَتِ الشمسُ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ[٤]

فانظرْ إلىٰ عظمِ شخصِها ، ثمَّ إلىٰ خفَّةِ حركتِها .

---

(١) والمراد بوسط السماء : المجرة المسماة بأم النجوم ، وهي دائرة متصلة اتصال الطوق ، وتسمىٰ أيضاً : منطقة الفلك . « إتحاف » (٢١٣/١٠) .

(٢) منها ما رواه أحمد في « المسند » (٢٠٧/٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت ، فقال : « في نار الله الحامية ، لولا ما يزعها من أمر الله . . لأهلكت ما على الأرض » .

(٣) رواه الترمذي (٢٥٤٠) .

(٤) كذا في « القوت » (٢٥/١) ، وفيه : (قطعت في الفلك خمسين ألف فرسخ) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٢١٥/١٠) .

ثُمَّ انظرْ إلىٰ قدرةِ الفاطرِ الحكيمِ كيفَ أثبتَ صورتَها معَ اتساعِ أكنافِها في حدقةِ العينِ معَ صغرِها ، حتىٰ تجلسَ على الأرضِ وتفتحَ عينيكَ نحوهَا فترىٰ جميعهَا .

فهٰذهِ السماءُ بعظمِها وكثرةِ كواكبِها لا تنظرُ إليها ، بلِ انظرْ إلىٰ بارئِها كيفَ خلقَها ، ثُمَّ أمسكَها مِنْ غيرِ عمدٍ ترونَها ، ومِنْ غيرِ علاقةٍ مِنْ فوقِها تتدلَّىٰ بها ، وكلُّ العالمِ كبيتٍ واحدٍ والسماءُ سقفُهُ ، فالعجبُ منكَ أنَّكَ تدخلُ بيتَ غنيٍّ فتراهُ مزوَّقاً بالصبغِ ، مموَّهاً بالذهبِ ، فلا ينقطعُ تعجُّبُكَ منهُ ، ولا تزالُ تذكرُهُ وتصفُ حسنَهُ طولَ عمرِكَ ، وأنتَ أبداً تنظرُ إلىٰ هٰذا البيتِ العظيمِ ، وإلىٰ أرضِهِ ، وإلىٰ سقفِهِ ، وإلىٰ هوائِهِ ، وإلىٰ عجائبِ أمتعتِهِ ، وغرائبِ حيواناتِهِ ، وبدائعِ نقوشِهِ ، ثمَّ لا تتحدَّثُ فيهِ ، ولا تلتفتُ بقلبِكَ إليهِ ، فما هٰذا البيتُ دونَ ذٰلكَ البيتِ الذي تصفُهُ ، بلْ ذٰلكَ البيتُ هوَ أيضاً جزءٌ مِنَ الأرضِ التي هيَ أخسُّ أجزاءِ هٰذا البيتِ ، ومعَ هٰذا فلا تنظرُ إليه !! ليسَ لهُ سببٌ إلا أنَّهُ بيتُ ربِّكَ ، هوَ الذي انفردَ ببنائِهِ وترتيبِهِ ، وأنتَ قدْ نسيتَ نفسَكَ وربَّكَ وبيتَ ربِّكَ ، واشتغلتَ ببطنِكَ وفرجِكَ ، ليسَ لكَ همٌّ إلا شهوتَكَ أوْ حشمتَكَ ، وغايةُ شهوتِكَ أنْ تملأَ بطنَكَ ، ولا تقدرُ علىٰ أنْ تأكلَ عُشْرَ ما تأكلُهُ بهيمةٌ ، فتكونُ البهيمةُ فوقَكَ بعشرِ درجاتٍ ، وغايةُ حشمتِكَ أنْ تقبلَ عليكَ عشرةٌ أوْ مئةٌ مِنْ معارفِكَ فينافقونَ بألسنتِهِمْ بينَ يديكَ ، ويضمرونَ خبائثَ الاعتقاداتِ عليكَ ، وإنْ صدقوكَ في مودَّتِهِمْ إيَّاكَ . . فلا يملكونَ لكَ ولا لأنفسِهِمْ ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، وقدْ يكونُ في بلدِكَ مِنْ أغنياءِ اليهودِ والنصارىٰ مَنْ يزيدُ جاهُهُ علىٰ جاهِكَ ، وقدِ اشتغلتَ بهٰذا الغرورِ ، وغفلتَ عنِ النظرِ في جمالِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، ثمَّ غفلتَ عنِ التنعُّمِ بالنظرِ إلىٰ جلالِ مالكِ الملكوتِ والملكِ .

وما مثلُكَ ومثلُ عقلِكَ إلا كمثلِ النملةِ تخرجُ مِنْ جحرِها الذي حفرتْهُ في قصرٍ مشيدٍ مِنْ قصورِ الملكِ ، رفيعِ البنيانِ ، حصينِ الأركانِ ، مزيَّنٍ بالجواري والغلمانِ ، وأنواعِ الذخائرِ والنفائسِ ، فإنَّها إذا خرجَتْ مِنْ جحرِها ، ولقيَتْ صاحبتَها . . لمْ تتحدَّثْ ـ لوْ قدرَتْ على النطقِ ـ إلا عنْ بيتِها وغذائِها ، وكيفيةِ ادخارِها ، فأمَّا حالُ القصرِ والملكِ الذي في القصرِ . . فهيَ بمعزلٍ عنهُ وعنِ التفكُّرِ فيهِ ، بلْ لا قدرةَ لها على المجاوزةِ بالنظرِ عنْ نفسِها وغذائِها وبيتِها إلىٰ غيرِها .

وكما غفلَتِ النملةُ عنِ القصرِ وعنْ أرضِهِ وسقفِهِ وحيطانِهِ وسائرِ بنيانِهِ ، وغفلَتْ أيضاً عنْ سكَّانِهِ . . فأنتَ أيضاً غافلٌ عنْ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، وعنْ ملائكتِهِ الذينَ هُمْ سكَّانُ سماواتِهِ ، فلا تعرفُ مِنَ السماءِ إلا ما تعرفُهُ النملةُ مِنْ سقفِ بيتِكَ ، ولا تعرفُ مِنْ ملائكةِ السماواتِ إلا ما تعرفُهُ النملةُ منكَ ومِنْ سكَّانِ بيتِكَ !!

نعمْ ؛ ليسَ للنملةِ طريقٌ إلىٰ أنْ تعرفَكَ وتعرفَ عجائبَ قصرِكَ وبدائعَ صنعةِ الصانعِ فيهِ ، وأمَّا أنتَ . . فلكَ قدرةٌ علىٰ أنْ تجولَ في الملكوتِ وتعرفَ من عجائبِهِ ما الخلقُ غافلونَ عنهُ .

ولنقبضْ عِنانَ الكلامِ عنْ هٰذا النمطِ ، فإنَّهُ مجالٌ لا آخرَ لهُ ، ولوِ استقصينا أعماراً طويلةً . . لمْ نقدرْ علىٰ شرحِ ما تفضَّلَ اللهُ تعالىٰ علينا بمعرفتِهِ ، وكلُّ ما عرفناهُ قليلٌ نزْرٌ حقيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ جملةُ العلماءِ والأولياءِ ، وما عرفوهُ قليلٌ نزْرٌ حقيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ ، وجملةُ ما عرفوهُ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ نبيُّنا محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وما عرفَهُ الأنبياءُ كلُّهُمْ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ الملائكةُ المقرَّبونَ ؛ كإسرافيلَ وجبريلَ وغيرِهما ، ثمَّ جميعُ علومِ الملائكةِ والجنِّ والإنسِ إذا أضيفَ إلىٰ علمِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ لمْ يستحقَّ أنْ يُسمَّىٰ علماً ، بلْ هوَ إلىٰ أنْ يُسمَّىٰ دهشاً وحيرةً وقصوراً وعجزاً أقربُ .

فسبحانَ مَنْ عرَّفَ عبادَهُ ما عرَّفَ ، ثمَّ خاطبَ جميعَهُمْ فقالَ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

فهـٰذا بيانُ معاقدِ الجملِ التي يجولُ فيها فكرُ المتفكِّرينَ في خلقِ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ فيها فكرٌ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ ، ولـٰكنْ يُستفادُ مِنَ الفكرِ في الخلقِ ـ لا محالةَ ـ معرفةُ الخالقِ وعظمتِهِ ، وجلالِهِ وقدرتِهِ ، وكلما استكثرتَ مِنْ معرفةِ عجيبِ صنْعِ اللهِ تعالىٰ . . كانَتْ معرفتُكَ بجلالِهِ وعظمتِهِ أتمَّ ، وهـٰذا كما أنَّكَ تعظِّمُ عالماً بسببِ معرفتِكَ بعلمِهِ ، فلا تزالُ تطلعُ علىٰ غريبةٍ غريبةٍ مِنْ تصنيفِهِ أوْ شعرِهِ فتزدادُ بهِ معرفةً ، وتزدادُ محبَّةً لهُ وتوقيراً وتعظيماً واحتراماً ، حتىٰ إنَّ كلَّ كلمةٍ مِنْ كلماتِهِ ، وكلَّ بيتٍ عجيبٍ مِنْ أبياتِ شعرِهِ . . يزيدُهُ محلاًّ في قلبِكَ ، ويستدعي التعظيمَ لهُ في نفسِكَ .

فهـٰكذا تأمَّلْ في خلقِ اللهِ تعالىٰ وتصنيفِهِ وتأليفِهِ ، وكلُّ ما في الوجودِ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ وتصنيفِهِ ، والنظرُ والفكرُ فيهِ لا يتناهىٰ أبداً ، وإنَّما لكلِّ عبدٍ منهُ بقدْرِ ما رُزِقَ ، فلنقتصرْ علىٰ ما ذكرناهُ ، ولنضفْ إلىٰ هـٰذا ما فصَّلناهُ في كتابِ الشكرِ ، فإنَّا نظرنا في ذٰلكَ الكتابِ في فعلِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ هوَ إحسانٌ إلينا وإنعامٌ علينا ، وفي هـٰذا الكتابِ نظرُنا فيهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

وكلُّ ما نظرنا فيهِ فإنَّ الطبيعيَّ [1] ينظرُ فيهِ ويكونُ نظرُهُ سببَ ضلالِهِ وشقاوتِهِ ، والموفَّقُ ينظرُ فيهِ فيكونُ سببَ هدايتِهِ وسعادتِهِ ، وما مِنْ ذرَّةٍ في السماءِ والأرضِ إلا واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ يضلُّ بها مَنْ يشاءُ ، ويهدي بها مَنْ يشاءُ ، فمَنْ نظرَ في هـٰذهِ الأمورِ مِنْ حيثُ إنَّها فعلُ اللهِ تعالىٰ وصنعُهُ . . استفادَ منهُ المعرفةَ بجلالِ اللهِ تعالىٰ وعظمتِهِ واهتدىٰ بهِ ، ومَنْ نظرَ فيها قاصراً للنظرِ عليها مِنْ حيثُ تأثيرُ بعضِها في بعضٍ ، لا مِنْ حيثُ ارتباطُها بمسبِّبِ الأسبابِ . . فقدْ شقيَ وارتدىٰ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الضلالِ ، ونسألُهُ أنْ يجنبَنا مزلَّةَ أقدامِ الجهَّالِ بمنِّهِ وكرمِهِ وفضلِهِ ، وجودِهِ ورحمتِهِ .

❁ ❁ ❁

تمَّ كتابُ التفكُّر

وهو الكتابُ التاسعُ من ربعِ المنجياتِ من كتبِ إحياءِ علومِ الدين

والحمدُ للهِ أوَّلاً وآخراً ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّه وآلِه باطناً وظاهراً

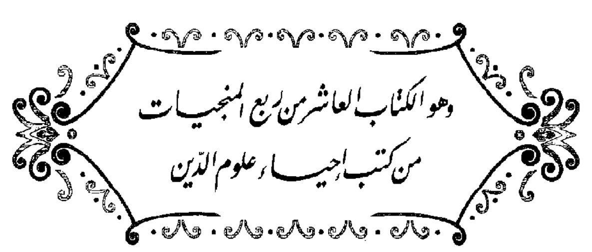
يتلوه كتابُ ذكرِ الموتِ وما بعده

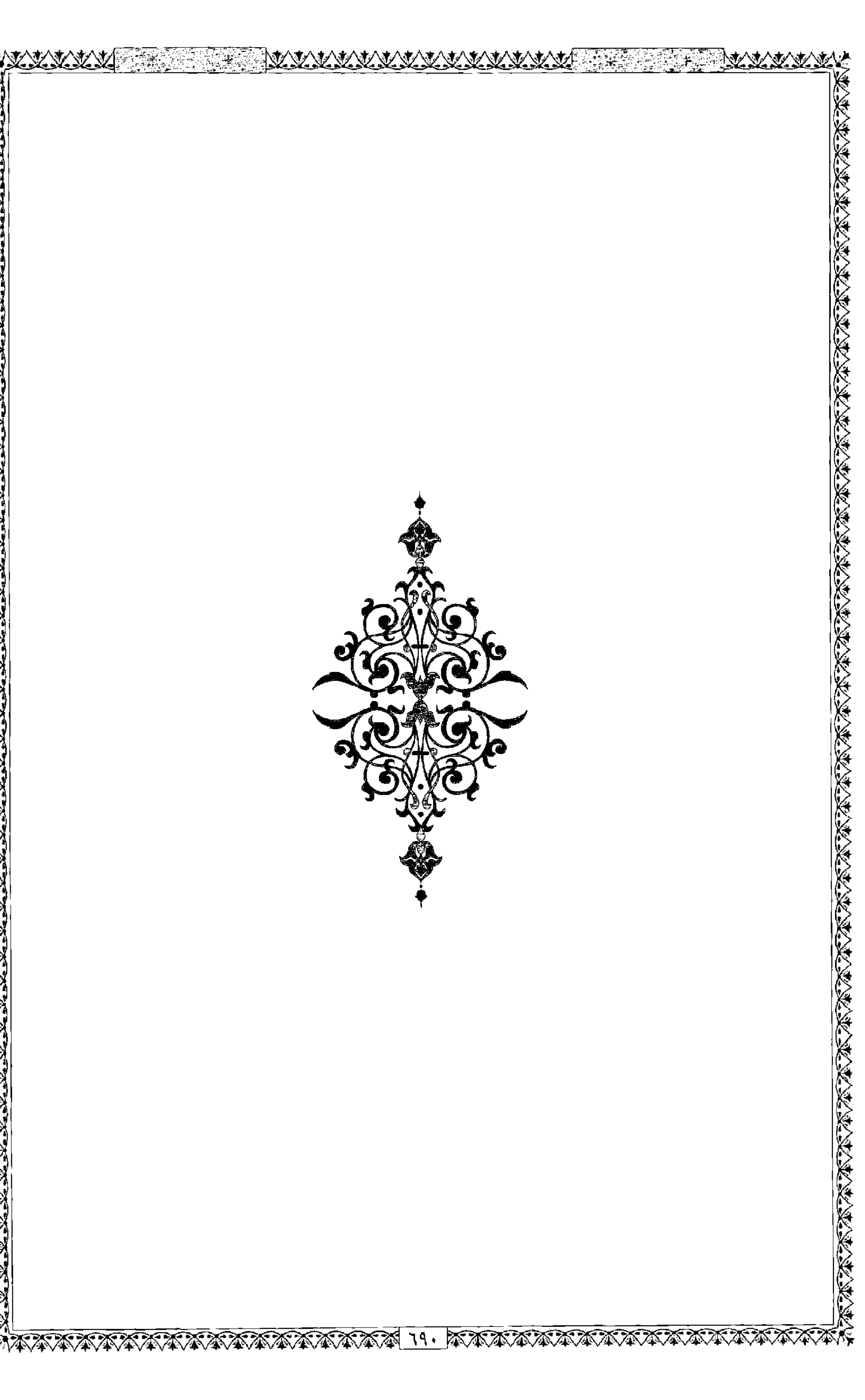
---

(١) الذي يذهب إلىٰ تأثير الطبائع في الأشياء . « إتحاف » (٢١٩/١٠) .

كتاب

ذكر الموت وما بعده


وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب ذكر الموت وما بعده

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي قصمَ بالموتِ رقابَ الجبابرةِ ، وكسرَ بهِ ظهورَ الأكاسرةِ ، وقصرَ بهِ آمالَ القياصرةِ ، الذينَ لمْ تزلْ قلوبُهُم عنْ ذكرِ الموتِ نافرةً ، حتىٰ جاءَهَمُ الوعدُ الحقُّ فأرداهُمْ في الحافرةِ ، فنُقلوا مِنَ القصورِ إلى القبورِ ، ومِنْ ضياءِ المهودِ إلىٰ ظلمةِ اللحودِ ، ومِنْ ملاعبةِ الجواري والغلمانِ إلىٰ مصاحبةِ الهوامِّ والديدانِ ، ومِنَ التنعُّمِ بالطعامِ والشرابِ إلى التمرُّغِ في الترابِ ، ومِنْ أُنْسِ العشرةِ إلىٰ وحشةِ الوحدةِ ، ومِنَ المضجعِ الوثيرِ إلى المصرعِ الوبيلِ ، فانظرْ هلْ وجدوا مِنَ الموتِ حصناً وعزّاً ، أوِ اتخذوا مِنْ دونِهِ حجاباً وحرزاً ؟! وانظرْ هلْ تحسُّ منهُمْ مِنْ أحدٍ أَوْ تسمعُ لهُمْ ركْزاً ؟!

فسبحانَ مَن تفرَّدَ بالقهرِ والاستيلاءِ ، واستأثرَ باستحقاقِ البقاءِ ، وأذلَّ أصنافَ الخلقِ بما كتبَ عليهِمْ مِنَ الفناءِ ، ثمَّ جعلَ الموتَ مخلصاً للأتقياءِ ، وموعداً في حقِّهِمْ لِلِّقاءِ ، وجعلَ القبرَ سجناً للأشقياءِ ، وحبساً ضيقاً عليهِمْ إلىٰ يومِ الفصلِ والقضاءِ !! فلهُ الإنعامُ بالنعمِ المتظاهرةِ[1] ، ولهُ الانتقامُ بالنقمِ القاهرةِ ، ولهُ الشكرُ في السماواتِ والأرضِ ، ولهُ الحمدُ في الأولىٰ والآخرةِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ ذي المعجزاتِ الظاهرةِ ، والآياتِ الباهرةِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فجديرٌ بمَنِ الموتُ مصرعُهُ ، والترابُ مضجعُهُ ، والدودُ أنيسُهُ ، ومُنْكَرٌ ونَكِيرٌ جليسُهُ ، والقبرُ مقرُّهُ ، وبطنُ الأرضِ مستقرُّهُ ، والقيامةُ موعدُهُ ، والجنَّةُ أوِ النارُ موردُهُ . . ألَّا يكونَ لهُ فكرٌ إلَّا في الموتِ ، ولا ذكرٌ إلَّا لهُ ، ولا استعدادٌ إلَّا لأجلِهِ ، ولا تدبيرٌ إلَّا فيهِ ، ولا تطلُّعٌ إلَّا إليهِ ، ولا تعريجٌ إلَّا عليهِ ، ولا اهتمامٌ إلَّا بهِ ، ولا حومٌ إلَّا حولَهُ ، ولا انتظارٌ وتربُّصٌ إلَّا لهُ ، وحقيقٌ بأنْ يعُدَّ نفسَهُ مِنَ الموتىٰ ويراها في أصحابِ القبورِ ؛ فإنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، والبعيدُ ما ليسَ بآتٍ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ »[2] ، ولنْ يتيسَّرَ الاستعدادُ للشيءِ إلَّا عندَ تجدُّدِ ذكرِهِ على القلبِ ، ولا يتجدَّدُ ذكرُهُ إلَّا عندَ التذكُّرِ بالإصغاءِ إلى المذكِّراتِ لهُ ، والنظرِ في المنبِّهاتِ عليهِ .

ونحنُ نذكرُ مِنْ أمرِ الموتِ ومقدماتِهِ ولواحقِهِ ، وأحوالِ الآخرةِ والقيامةِ ، والجنَّةِ والنارِ . . ما لا بدَّ للعبدِ مِنْ تذكارِهِ على التكرارِ ، وملازمتِهِ بالافتكارِ والاستبصارِ ؛ ليكونَ ذٰلكَ مستحثاً على الاستعدادِ فقدْ قرُبَ لما بعدَ الموتِ الرحيلُ ، فما بقيَ مِنَ العمرِ إلَّا قليلٌ ، والخلقُ عنهُ غافلونَ ، ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، ونحنُ نذكرُ ما يتعلَّقُ بالموتِ في شطرينِ .

* * *

(١) أي : العديدة المعاونة بعضها بعضاً . « إتحاف » (٢٢١/١٠) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شدّاد بن أوس رضي الله عنه .

الشَّطْرُ الأَوَّلُ
في مقدّمات الموت وتوابعه إلى نفخة الصّور
وفيه ثمانية أبواب

البابُ الأوَّلُ : في فضلِ ذكرِ الموتِ والترغيبِ فيهِ .

البابُ الثاني : في ذكرِ طولِ الأملِ وقصرِهِ .

البابُ الثالثُ : في سكراتِ الموتِ وشدَّتِهِ ، وما يُستحبُّ مِنَ الأحوالِ عندَ الموتِ .

البابُ الرابعُ : في وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والخلفاءِ الراشدينَ مِنْ بعدِهِ .

البابُ الخامسُ : في كلامِ المحتضرينَ مِنَ الخلفاءِ والأمراءِ والصالحينَ .

البابُ السادسُ : في أقاويلِ العارفينَ على الجنائزِ والمقابرِ ، وحكمِ زيارةِ القبورِ .

البابُ السابعُ : في حقيقةِ الموتِ وما يلقاهُ الميِّتُ في القبرِ إلى نفخةِ الصورِ .

البابُ الثامنُ : فيما عُرِفَ مِنْ أحوالِ الموتى بالمكاشفةِ في المنامِ .

❋ ❋ ❋

الباب الأول
في فضل ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلمْ : أنَّ المنهمكَ في الدنيا ، المكبَّ علىٰ غرورِها ، المحبَّ لشهواتِها . . يغفُلُ قلبُهُ ـ لا محالةَ ـ عنْ ذكرِ الموتِ فلا يذكرُهُ ، وإذا ذُكِّرَ بهِ . . كرهَهُ ونفرَ منهُ ، أولـٰئكَ همُ الذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِمْ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ثمَّ الناسُ إمَّا منهمكٌ ، أو تائبٌ مبتدئٌ ، أوْ عارفٌ منتهٍ .

❀ ❀ ❀

أمَّا المنهمكُ : فلا يذكرُ الموتَ ، وإنْ ذكرَهُ . . فيذكرُهُ للتأسُّفِ علىٰ دنياهُ ، ويشتغلُ بمذمَّتِهِ ، وهـٰذا يزيدُهُ ذكرُ الموتِ مِنَ اللهِ بعداً .

❀ ❀ ❀

وأمَّا التائبُ : فإنَّهُ يكثرُ ذكرَ الموتِ ؛ لينبعثَ بهِ مِنْ قلبِهِ الخوفُ والخشيةُ ، فيفيَ بتمامِ التوبةِ ، وربَّما يكرهُ الموتَ خيفةً مِنْ أَنْ يختطفَهُ قبلَ تمامِ التوبةِ وقبلَ إصلاحِ الزادِ ، وهوَ معذورٌ في كراهةِ الموتِ ، ولا يدخلُ هـٰذا تحتَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كرِهَ لقاءَ اللهِ . . كرِهَ اللهُ لقاءَهُ »[1] ، فإنَّ هـٰذا ليسَ يكرهُ الموتَ ولقاءَ اللهِ ، وإنَّما يخافُ فوتَ لقاءِ اللهِ لقصورِهِ وتقصيرِهِ ، وهو كالذي يتأخَّرُ عنْ لقاءِ الحبيبِ مشتغلاً بالاستعدادِ للقائِهِ علىٰ وجهٍ يرضاهُ ، فلا يُعدُّ كارهاً للقائِهِ ، وعلامةُ هـٰذا : أنْ يكونَ دائمَ الاستعدادِ لهُ ، لا شغلَ لهُ سواهُ ، وإلا . . التحقَ بالمنهمكِ في الدنيا .

❀ ❀ ❀

وأمَّا العارفُ : فإنَّهُ يذكرُ الموتَ دائماً ؛ لأنَّهُ موعدُ لقائِهِ بحبيبِهِ ، والمحبُّ لا ينسىٰ قطُّ موعدَ لقاءِ الحبيبِ ، وهـٰذا في غالبِ الأمرِ يستبطئُ مجيءَ الموتِ ويحبُّ مجيئَهُ ؛ ليتخلَّصَ مِنْ دارِ العاصينَ ، وينتقلَ إلىٰ جوارِ ربِّ العالمينَ ، كما رُوِيَ عنْ حذيفةَ : أنَّهُ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ . . قالَ : (حبيبٌ جاءَ علىٰ فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندمَ ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ الفقرَ أحبُّ إليَّ مِنَ الغنىٰ ، والسقمَ أحبُّ إليَّ مِنَ الصحةِ ، والموتَ أحبُّ إليَّ مِنَ الحياةِ . . فسهِّلْ عليَّ الموتَ حتىٰ ألقاكَ)[2]

فإذاً ؛ التائبُ معذورٌ في كراهةِ الموتِ ، وهـٰذا معذورٌ في حبِّ الموتِ وتمنِّيهِ ، وأعلىٰ منهما رتبةً مَنْ فوَّضَ أمرَهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فصارَ لا يختارُ لنفسِهِ موتاً ولا حياةً ، بلْ يكونُ أحبُّ الأشياءِ إليهِ أحبَّها إلىٰ مولاهُ ، فهـٰذا قدِ انتهىٰ بفرطِ الحبِّ والولاءِ إلىٰ مقامِ التسليمِ والرضا ، وهوَ الغايةُ والمنتهىٰ[3]

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٢/١) بنحوه .

(٣) لأنه لا يتصور وقوع ذلك إلا بعد كمال المحبة ، فلو تمنىٰ أهل النهىٰ من أولي الألباب غاية الأماني ، فكونت لهم علىٰ ما تمنوا . . لكان

وعلىٰ كلِّ حالٍ : ففي ذكرِ الموتِ ثوابٌ وفضلٌ ؛ فإنَّ المنهمكَ أيضاً يستفيدُ بذكرِ الموتِ التجافيَ عنِ الدنيا ؛ إذْ يتنغَّصُ عليهِ نعيمُهُ ، ويتكدَّرُ عليهِ صفوُ لذَّتِهِ ، وكلُّ ما يكدِّرُ على الإنسانِ اللذاتِ والشهواتِ . . فهوَ مِنْ أسبابِ النجاةِ .

❋ ❋ ❋

رضاهم عن الله في تدبيره ومعرفتهم بحسن تقديره خيراً لهم من تحري أمانيهم ، وأفضل لهم عند الله من قِبَلِ أن الله أحكم الحاكمين . « إتحاف » (١٠/٢٢٣) .

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنْ ذكرِ هاذمِ اللذَّاتِ »[1] أي : نغِّصوا بذكرِهِ اللذاتِ حتىٰ ينقطعَ ركونُكُمْ إليها ، فتقبلوا على اللهِ تعالىٰ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ تعلمُ البهائمُ مِنَ الموتِ ما يعلمُ ابنُ آدمَ . . ما أكلتُمْ منها سميناً »[2]

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ يُحشرُ معَ الشهداءِ أحدٌ ؟ قالَ : « نعمْ ؛ مَنْ يذكرُ الموتَ في اليومِ والليلةِ عشرينَ مرَّةً »[3]

وإنَّما سببُ هـٰذهِ الفضيلةِ كلِّها أنَّ ذكرَ الموتِ يوجبُ التجافيَ عنْ دارِ الغرورِ ، ويتقاضى الاستعدادَ للآخرةِ ، والغفلةُ عنِ الموتِ تدعو إلى الانهماكِ في شهواتِ الدنيا .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحفةُ المؤمنِ الموتُ »[4] .

وإنَّما قالَ هـٰذا لأنَّ الدنيا سجنُ المؤمنِ ؛ إذْ لا يزالُ فيها في عناءٍ مِنْ مقاساةِ نفسِهِ ، ورياضةِ شهواتِهِ ، ومدافعةِ شيطانِهِ ، فالموتُ إطلاقٌ لهُ مِنْ هـٰذا العذابِ ، والإطلاقُ تحفةٌ في حقِّهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الموتُ كفارةٌ لكلِّ مسلمٍ »[5]

وأرادَ بهـٰذا المسلمَ حقّاً ، المؤمنَ صدقاً ، الذي سلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ ، وتحقَّقَتْ فيهِ أخلاقُ المؤمنينَ ، ولم يتدنَّسْ مِنَ المعاصي إلا باللممِ والصغائرِ ، فالموتُ يطهِّرهُ منها ويكفِّرُها بعدَ اجتنابِهِ الكبائرَ ، وإقامتِهِ الفرائضَ[6]

وقالَ عطاءٌ الخراسانيُّ : مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمجلسٍ قدِ استعلاهُ الضحكُ ، فقالَ : « شُوبوا مجلسَكمْ بذكرِ مكدِّرِ اللذَّاتِ » ، قالوا : وما مكدِّرُ اللذَّاتِ ؟ قالَ : « الموتُ »[7]

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٧) ، والنسائي (٤/٤) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٣) عن أم صُبَيَّة الجهنية رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) ولفظه : أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يوم خمسة وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك لي في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات على فراشه . . أعطاه الله أجر شهيد » .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٣١٩/٤) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، والتحفة : ما أُطرف به الرجل من البر واللطف ، فالموت خير تحفة يهديها الحق سبحانه لعباده المؤمنين .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢١/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٢٠٩) : (وصححه أبو بكر ابن العربي ، وقال العراقي في « أماليه » : إنه ورد من طرق يبلغ بها رتبة الحسن) .

(٦) أو يحمل الحديث على موت مخصوص ، كما روى البخاري (٢٨٣٠) ، ومسلم (١٩١٦) من حديث أنس رضي الله عنه أيضاً مرفوعاً : « الطاعون شهادة لكل مسلم » .

(٧) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » هـٰكذا مرسلاً ، ورويناه في « أمالي الخلال » من حديث أنس ، ولا يصح) . « إتحاف » (٢٢٨/١٠) ، وقد روى نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢٥٢/٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٢) من حديث أنس رضي الله عنه قال : مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم يضحكون أو يمزحون ، فقال : « أكثروا ذكر هاذم اللذات » .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنْ ذكرِ الموتِ ؛ فإنَّهُ يمحِّصُ الذنوبَ ويزهِّدُ في الدنيا »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفىٰ بالموتِ مفرِّقاً »(٢)

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كفىٰ بالموتِ واعظاً »(٣)

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى المسجدِ ؛ فإذا قومٌ يتحدَّثونَ ويضحكونَ ، فقالَ : « اذكروا الموتَ ، أما والذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً »(٤)

وذُكِرَ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ ، فأحسنوا الثناءَ عليهِ ، فقالَ : « كيفَ ذكرُ صاحبِكُمْ للموتِ ؟ » قالوا : ما كنَّا نكادُ نسمعُهُ يذكرُ الموتَ ، قالَ : « فإنَّ صاحبَكُمْ ليسَ هناكَ »(٥)

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أتيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عاشرَ عشرةٍ ، فقالَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ : مَنْ أكيسُ الناسِ وأكرمُ الناسِ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « أكثرُهُمْ ذكراً للموتِ ، وأشدُّهُمُ استعداداً لهُ ، أولئكَ هُمُ الأكياسُ ، ذهبوا بشرفِ الدنيا وكرامةِ الآخرةِ »(٦)

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : فضحَ الموتُ الدنيا ، فلمْ يتركْ لذي لبٍّ فرحاً(٧)

وقالَ الربيعُ بنُ خُثَيمٍ : ما غائبٌ ينتظرُهُ المؤمنُ خيراً لهُ مِنَ الموتِ(٨) ، وكانَ يقولُ : لا تشعروا بي أحداً ، وسلُّوني إلىٰ ربِّي سلاًّ(٩)

وكتبَ بعضُ الحكماءِ إلىٰ رجلٍ مِنْ إخوانِهِ : يا أخي ؛ احذرِ الموتَ في هـٰذهِ الدارِ قبلَ أنْ تصيرَ إلىٰ دارٍ تتمنَّىٰ فيها الموتَ فلا تجدُهُ(١٠) .

وكانَ ابنُ سيرينَ إذا ذُكِرَ عندَهُ الموتُ . . ماتَ كلُّ عضوٍ منهُ(١١)

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » بإسناد ضعيف جداً) . « إتحاف » (٢٢٨/١٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٢٨) ، والحارث بن أبي أسامة في « مسنده » (٩٠٨) .

(٣) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٨) من زيادات نعيم بن حماد موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٤) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف) . « إتحاف » (٢٢٩/١٠) ، ورواه تمام في « فوائده » (٤٨٤) من حديثه أيضاً .

(٥) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٩) ، وابن عدي في « الكامل » (١٥٣/٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (٤١٧/١٢) ، ورواه مختصراً ابن ماجه (٤٢٥٩) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤٩/٢) .

(٨) رواه ابن أبي شيبة (٣٥٩٨٩) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٧٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٤/٢) .

(٩) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٣٣) ، وفي (أ) : (إذا أنا متُّ . . فلا تشعروا . . .) .

(١٠) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٢٣١/١٠) .

(١١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٢/٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥٧ ـ ٥٥٨) .

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يجمعُ كلَّ ليلةٍ الفقهاءَ ، فيتذاكرونَ الموتَ والقيامةَ والآخرةَ ، ثمَّ يبكونَ حتىٰ كأنَّ بينَ أيديهِمْ جنازةً(١)

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : شيئانِ قطعا عنِّي لذاذةَ الدنيا : ذكرُ الموتِ ، والوقوفُ بينَ يديِ اللهِ تعالىٰ(٢)

وقالَ كعبٌ : مَنْ عرفَ الموتَ . . هانَتْ عليهِ مصائبُ الدنيا وهمومُها(٣)

وقالَ مطرِّفٌ : رأيتُ فيما يرى النائمُ كأنَّ قائلاً يقولُ في وسَطِ مسجدِ البصرةِ : قطعَ ذكرُ الموتِ قلوبَ الخائفينَ ، فواللهِ ؛ ما تراهُمْ إلَّا والهينَ(٤)

وقالَ أشعثُ : كنَّا ندخلُ على الحسنِ ؛ فإنَّما هوَ النارُ ، وأمرُ الآخرةِ ، وذكرُ الموتِ(٥)

وقالَتْ صفيَّةُ رضيَ اللهُ عنها : (إنَّ امرأةً شكَتْ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قساوةَ قلبِها ، فقالَتْ : أكثري ذكرَ الموتِ . . يرقَّ قلبُكِ ، ففعلَتْ ، فرقَّ قلبُها ، فجاءَتْ تشكرُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها)(٦)

وكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ إذا ذُكِرَ الموتُ عندَهُ . . يقطرُ جلدُهُ دماً(٧)

وكانَ داوودُ عليهِ السلامُ إذا ذكرَ الموتَ والقيامةَ . . بكىٰ حتىٰ تنخلعَ أوصالُهُ ، فإذا ذكرَ الرحمةَ . . رجعَتْ إليهِ نفسُهُ(٨)

وقالَ الحسنُ : (ما رأيتُ عاقلاً قطُّ إلا أصبتُهُ مِنَ الموتِ حَذِراً ، وعليهِ حزيناً)(٩)

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لبعضِ العلماءِ(١٠) : عظْني ، فقالَ : أنتَ أوَّلُ خليفةٍ يموتُ ؟! قالَ : زدْني ، قالَ : ليسَ مِنْ آبائِكَ أحدٌ إلىٰ آدمَ إلا ذاقَ الموتَ ، وقدْ جاءَتْ نوبتُكَ ، فبكىٰ عمرُ لذٰلكَ(١١)

وكانَ الربيعُ بنُ خُثَيمٍ قدْ حفرَ قبراً في دارِهِ ، فكانَ ينامُ فيهِ كلَّ يومٍ مرَّاتٍ ، يستديمُ بذٰلكَ ذكرَ الموتِ(١٢) ، وكانَ يقولُ : لوْ فارقَ ذكرُ الموتِ قلبي ساعةً واحدةً . . لفسدَ(١٣)

وقالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشخِّيرِ : إنَّ هٰذا الموتَ قد نغَّصَ علىٰ أهلِ النعيمِ نعيمَهُم ، فاطلبوا نعيماً لا موتَ فيهِ(١٤)

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣٩/٤٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨٨/٥) عن عبد الأعلى التيمي .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤٤/٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٥/٦) ، قاله لعبد العزيز بن سلمان ، فخرَّ مغشياً عليه .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠٧/٥٣) يقارن حاله بحال ابن سيرين ، وقوله : (فإنما هو النار) أي : في ذكرها وذكر أحوالها .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » . « إتحاف » (٢٣١/١٠) .

(٧) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦٨/٤٧) عن أبي عمر الضرير بلاغاً .

(٨) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٨/٢) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » . « إتحاف » (٢٣٢/١٠) .

(١٠) هو يزيد الرقاشي رحمه الله تعالىٰ .

(١١) رواه البيهقي في « الزهد » (٥٥١) .

(١٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » . « إتحاف » (٢٣٢/١٠) .

(١٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٨٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٦/٢) .

(١٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٤/٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥٥) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لعنبسةَ : أكثرْ ذكرَ الموتِ ؛ فإنْ كنتَ واسعَ العيشِ . . ضيَّقَهُ عليكَ ، وإنْ كنتَ ضيّقَ العيشِ . . وسَّعَهُ عليكَ [١]

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : قلتُ لأمِّ هارونَ : أتحبِّينَ الموتَ ؟ قالَتْ : لا ، قلتُ : ولِمَ ؟ قالَتْ : لوْ عصيتُ آدميّاً . . ما اشتهيتُ لقاءَهُ ، فكيفَ أحبُّ لقاءَهُ وقدْ عصيتُهُ ؟! [٢]

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٦٤) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥٣) .
(٢) رواه عبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص ١١٢) .

بيان الطّريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

اعلم : أنَّ الموتَ هائلٌ ، وخطرَهُ عظيمٌ ، وغفلةُ الناسِ عنهُ لقلَّةِ فكرِهِمْ فيهِ وذكرِهِمْ لهُ ، ومَنْ يذكرُهُ ليسَ يذكرُهُ بقلبٍ فارغٍ ، بلْ بقلبٍ مشغولٍ بشهواتِ الدنيا . . فلا ينجعُ ذكرُ الموتِ في قلبِهِ[1] ، فالطريقُ فيهِ أنْ يفرّغَ العبدُ قلبَهُ عنْ كلِّ شيءٍ إلا عنْ ذكرِ الموتِ الذي هوَ بينَ يديهِ ، كالذي يريدُ أنْ يقطعَ مفازةً مخطرةً ، أوْ يركبَ البحرَ ؛ فإنَّهُ لا يتفكَّرُ إلا فيهِ ، فإذا باشرَ ذكرُ الموتِ قلبَهُ . . فيوشكُ أنْ يؤثّرَ فيهِ ، وعندَ ذٰلكَ يقلُّ فرحُهُ وسرورُهُ بالدنيا ، وينكسرُ قلبُهُ

وأوقعُ **طريقٍ فيهِ** : أنْ يكثرَ ذكرَ أشكالِهِ وأقرانِهِ الذينَ مضوا قبلَهُ ، فيتذكَّرَ موتَهُمْ ومصارعَهُمْ تحتَ الترابِ ، ويتذكَّرَ صورَهُمْ في مناصبِهِمْ وأحوالِهِمْ ، ويتأمَّلَ كيفَ محا الترابُ الآنَ حسنَ صورِهِمْ ، وكيفَ تبدَّدَتْ أجزاؤُهُمْ في قبورِهِمْ ، وكيفَ أرملوا نساءَهُمْ ، وأيتموا أولادَهُمْ ، وضيَّعوا أموالَهُمْ ، وخلَتْ منهُمْ مساجدُهُمْ ومجالسُهُمْ ، وانقطعَتْ آثارُهُمْ .

فمهما تذكَّرَ رجلٌ رجلاً ، وفصَّلَ في قلبِهِ حالَهُ وكيفيةَ موتِهِ ، وتوهَّمَ صورتَهُ ، وتذكَّرَ نشاطَهُ وتردُّدَهُ ، وتأمُّلَهُ للعيشِ والبقاءِ ، ونسيانَهُ للموتِ ، وانخداعَهُ بمواتاةِ الأسبابِ ، وركونَهُ إلى القوَّةِ والشبابِ ، وميلَهُ إلى الضحكِ واللهوِ ، وغفلتَهُ عمَّا بينَ يديهِ مِنَ الموتِ الذريعِ والهلاكِ السريعِ ، وأنَّهُ كيفَ كانَ يتردَّدُ والآنَ قدْ تهدَّمَتْ رجْلاهُ ومفاصلُهُ ، وكيفَ كانَ ينطقُ وقدْ أكلَ الدودُ لسانَهُ ، وكيفَ كانَ يضحكُ وقدْ أكلَ الترابُ أسنانَهُ ، وكيف كانَ يدبّرُ لنفسِهِ ما لا يحتاجُ إليهِ إلىٰ عشرِ سنينَ في وقتٍ لمْ يكنْ بينَهُ وبينَ الموتِ إلا شهرٌ وهوَ غافلٌ عما يُرادُ بهِ ، حتىٰ جاءَهُ الموتُ في وقتٍ لمْ يحتسبْهُ ، فانكشفَ لهُ صورةُ الملكِ ، وقرعَ سمعَهُ النداءُ إمَّا بالجنةِ أو بالنارِ . . فعندَ ذٰلكَ ينظرُ في نفسِهِ أنَّهُ مثلُهُمْ ، وغفلتَهُ كغفلتِهِمْ ، وستكونُ عاقبتُهُ كعاقبتِهِمْ .

قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا ذكرتَ الموتىٰ . . فعدَّ نفسَكَ كأحدِهِمْ)[2]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (السعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيرِهِ)[3]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : ألا ترونَ أنَّكُمْ تجهِّزونَ كلَّ يومٍ غادياً أوْ رائحاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، تضعونَهُ في صدعٍ مِنَ الأرضِ ، قدْ توسَّدَ الترابَ ، وخلَّفَ الأحبابَ ، وقطعَ الأسبابَ ؟![4]

فملازمةُ هٰذهِ الأفكارِ وأمثالِها معَ دخولِ المقابرِ ومشاهدةِ المرضىٰ . . هوَ الذي يجدِّدُ ذكرَ الموتِ في القلبِ ، حتىٰ يغلبَ عليهِ بحيثُ يصيرُ نصبَ عينيهِ ، فعندَ ذٰلكَ يوشكُ أنْ يستعدَّ لهُ ، ويتجافىٰ عنْ دارِ الغرورِ ، وإلا . . فالذكرُ بظاهرِ القلبِ وعذبةِ اللسانِ قليلُ الجدوىٰ في التحذيرِ والتنبيهِ .

ومهما طابَ قلبُهُ بشيءٍ مِنَ الدنيا . . ينبغي أنْ يتذكَّرَ في الحالِ أنَّهُ لا بدَّ لهُ مِنْ مفارقتِهِ .

---

(١) يقال : نجع الوعظ والخطاب في فلان ، مجازٌ ؛ أي : عمل فيه ودخل فأثّر .
(٢) رواه أبو داوود في « الزهد » (٢٢٦) ضمن قول له رضي الله عنه
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٧٤/٣) ، ورفعه من حديثه القضاعي في « مسند الشهاب » (٧٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٦/٥) .

نظرَ ابنُ مطيعٍ ذاتَ يومٍ إلىٰ دارِهِ ، فأعجبَهُ حسنُها ، فبكىٰ ثمَّ قالَ : واللهِ ؛ لولا الموتُ . . لكنتُ بكِ مسروراً ، ولولا ما نصيرُ إليهِ مِنْ ضيقِ القبورِ . . لقرَّتْ بالدنيا أعينُنا ، ثمَّ بكىٰ بكاءً شديداً حتى ارتفعَ صوتُهُ[1] .

* * *

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٧٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٨٣) ، وابن مطيع : هو عبد الله بن مطيع بن الأسود القرشي العدوي المدني .

البَابُ الثَّاني
في طول الأمل ، وفضيلة قِصَر الأمل ، وسبب طوله ، وكيفيّة معالجته

فضيلة قِصَر الأمل

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : « إذا أصبحتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالمساءِ ، وإذا أمسيتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالصباحِ ، وخذْ مِنْ حياتِكَ لموتِكَ ، ومِنْ صحَّتِكَ لسقمِكَ ؛ فإنَّكَ يا عبدَ اللهِ لا تدري ما اسمُكَ غداً »[١]

وروىٰ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ أشدَّ ما أخافُ عليكُمْ خصلتانِ : اتباعُ الهوىٰ ، وطولُ الأملِ ، فأمَّا اتباعُ الهوىٰ . . فإنَّهُ يعدلُ عنِ الحقِّ ، وأمَّا طولُ الأملِ . . فإنَّهُ الحبُّ للدنيا » ، ثمَّ قالَ : « ألا إنَّ اللهَ تعالىٰ يعطي الدنيا مَنْ يحبُّ ويبغضُ ، وإذا أحبَّ عبداً . . أعطاهُ الإيمانَ ، ألا إنَّ للدينِ أبناءً ، وللدنيا أبناءً ، فكونوا مِنْ أبناءِ الدينِ ، ولا تكونوا مِنْ أبناءِ الدنيا ، ألا إنَّ الدنيا قدِ ارتحلَتْ موليةً ، ألا إنَّ الآخرةَ قدِ ارتحلَتْ مقبلةً ، ألا وإنَّكُمْ في يومِ عملٍ ليسَ فيهِ حسابٌ ، ألا وإنَّكُمْ توشكونَ في يومِ حسابٍ ليسَ فيهِ عملٌ »[٢]

وقالَتْ أمُّ المنذرِ : اطلعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ عشيةٍ إلى الناسِ فقالَ : « أيُّها الناسُ ؛ أما تستحيونَ مِنَ اللهِ ؟! » قالوا : وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « تجمعونَ ما لا تأكلونَ ، وتأملونَ ما لا تدركونَ ، وتبنونَ ما لا تسكنونَ ؟! »[٣]

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : اشترىٰ أسامةُ بنُ زيدٍ مِنْ زيدِ بنِ ثابتٍ وليدةً بمئةِ دينارٍ إلىٰ شهرٍ ، فسمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ألا تعجبونَ مِنْ أسامةَ المشتري إلىٰ شهرٍ ؟! إنَّ أسامةَ لطويلُ الأملِ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما طرفَتْ عينايَ . . إلا ظننتُ أنَّ شُفْرَيَّ لا يلتقيانِ حتىٰ يقبضَ اللهُ روحي ، ولا رفعتُ طرفي فظننتُ أنِّي واضعُهُ حتىٰ أُقبضَ ، ولا لَقِمْتُ لُقْمَةً . . إلا ظننتُ أنِّي لا أُسِيغُها حتىٰ أَغَصَّ بها مِنَ الموتِ » ثمَّ قالَ : « يا بني آدمَ ؛ إنْ كنتُمْ تعقلونَ . . فعدُّوا أنفسَكُمْ مِنَ الموتىٰ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ ما تُوعدونَ لآتٍ ، وما أنتُمْ بمعجزينَ »[٤]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يخرجُ يُهَرِيقُ الماءَ فيتمسَّحُ بالترابِ ، فأقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الماءَ منكَ قريبٌ ؛ فيقولُ : « ما يدريني ، لعلِّي لا أبلغُهُ »[٥]

---

(١) رواه بهذا اللفظ مرفوعاً الروياني في « مسنده » (١٤١٨) ، وعبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص ٩٦) ، ورواه موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٦٤١٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣) ، وروىٰ بعده نحوه من حديث جابر رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٥) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٨) ، وأم المنذر : هي سلمىٰ بنت قيس الأنصارية رضي الله عنها ، ورواه عن أم الوليد بنت عمر رضي الله عنها الطبرانيُّ في « الكبير » (١٧٢/٢٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٩٧/٧) بنحوه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (١٥٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩١/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٨٠) .

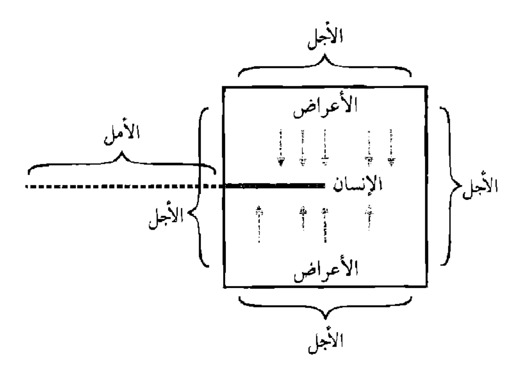
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (٢٨٨/١) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .

ورُوِيَ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أخذَ ثلاثةَ أعوادٍ ، فغرزَ عوداً بينَ يديهِ ، والآخرَ إلىٰ جنبهِ ، وأمَّا الثالثُ . فأبعدَهُ ، فقالَ : « هلْ تدرونَ ما هـٰذا ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « هـٰذا الإنسانُ ، وهـٰذا الأجلُ ، وذاكَ الأملُ يتعاطاهُ ابنُ آدمَ ويختلجُهُ الأجلُ دونَ الأملِ »[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مُثِّلَ ابنُ آدمَ وإلىٰ جنبِهِ تسعٌ وتسعونَ منيَّةً ، إنْ أخطأَتْهُ المنايا . . وقعَ في الهرمِ حتىٰ يموتَ »[2]

قالَ ابنُ مسعودٍ : (هـٰذا المرءُ ، وهـٰذهِ الحتوفُ حولَهُ شوارعُ إليهِ ، والهرمُ وراءَ الحتوفِ ، والأملُ وراءَ الهرمِ ، فهوَ يؤمِّلُ وهـٰذهِ الحتوفُ شوارعُ إليهِ ، فأيُّها أُمِرَ بهِ . . أخذَهُ ، فإنْ أخطأَتْهُ الحتوفُ . . قتلَهُ الهرمُ ، وهو ينظرُ إلى الأملِ)[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ : خطَّ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خطّاً مربعاً ، وخطَّ وسطَهُ خطّاً ، وخطَّ خطوطاً إلىٰ جنبِ الخطِّ ، وخطَّ خطّاً خارجاً وقالَ : « أتدرونَ ما هـٰذا ؟ » قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « هـٰذا الإنسانُ » للخطِّ الذي في الوسطِ ، « وهـٰذا الأجلُ محيطٌ بهِ ، وهـٰذهِ الأعراضُ » للخطوطِ التي حولَهُ « تنهشُهُ ، إنْ أخطأَهُ هـٰذا . . نهشَهُ هـٰذا ، وذاكَ الأملُ » للخطِّ الخارجِ[4]



وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يهرمُ ابنُ آدمَ ويبقىٰ معَهُ اثنتانِ : الحرصُ والأملُ » ، وفي روايةٍ : « وتشبُّ منهُ اثنتانِ : الحرصُ على المالِ ، والحرصُ على العمرِ »[5]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نجا أَوَّلُ هـٰذهِ الأمَّةِ باليقينِ والزهدِ ، ويهلكُ آخرُ هـٰذهِ الأمةِ بالبخلِ والأملِ »[6]

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٧/٣) ، والرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١١/٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤٥٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٤) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٠) من رواية أبي المتوكل الناجي مرسلاً ، واللفظ له ، ورواه أيضاً (١١) عنه عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه الترمذي (٢١٥٠ ، ٢٤٥٦) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣) واللفظ له ، ويجوز في « مثل » أن يكون مبنياً للمجهول ، أو اسماً مرفوعاً على الابتداء وما بعده مخفوض ، والتقدير : مثل ابن آدم مثل الذي يكون إلىٰ جنبه تسعة وتسعون منية ، فكأن في الكلام حذفاً ، وانظر « فيض القدير » (٥١٦/٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٤) .

(٤) رواه البخاري (٦٤١٧) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣) ، والرسم المثبت من (أ) ، ونحوه في باقي النسخ .

(٥) رواهما ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨ ـ ١٩) ، وبالرواية الثانية رواه مسلم (١٠٤٧) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٦) .

وقيلَ : بينَما عيسىٰ عليهِ السلامُ جالسٌ وشيخٌ يعملُ بمسحاةٍ يثيرُ بها الأرضَ ؛ فقالَ عيسى : اللهمَّ ؛ انزعْ منهُ الأملَ ، فوضعَ الشيخُ المسحاةَ واضطجعَ ، فلبثَ ساعةً ، فقالَ عيسى : اللهمَّ ؛ اردُدْ إليهِ الأملَ ، فقامَ ، فجعلَ يعملُ ، فسألَهُ عيسىٰ عنْ ذٰلكَ ، فقالَ : بينَما أنا أعملُ ؛ إذْ قالَتْ لي نفسي : إلىٰ متىٰ تعملُ وأنتَ شيخٌ كبيرٌ ؟ فألقيتُ المسحاةَ واضطجعتُ ، ثمَّ قالَتْ لي نفسي : واللهِ ؛ لا بدَّ لكَ مِنْ عيشٍ ما بقيتَ ، فقمتُ إلىٰ مسحاتي [١]

وقالَ الحسنُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكلُّكُمْ يحبُّ أنْ يدخلَ الجنَّةَ ؟ » قالوا : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « قصِّروا مِنَ الأملِ ، وثبِّتوا آجالَكُمْ بينَ أبصارِكُمْ ، واستحيوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ » [٢]

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ دنيا تمنعُ خيرَ الآخرةِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ حياةٍ تمنعُ خيرَ المماتِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ أملٍ يمنعُ خيرَ العملِ » [٣] .

❁ ❁ ❁

الآثار :

قالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ : لو علمتُ متىٰ أجلي . . لخشيتُ علىٰ ذهابِ عقلي ، ولٰكنَّ اللهَ تعالىٰ مَنَّ علىٰ عبادِهِ بالغفلةِ عنِ الموتِ ، ولولا الغفلةُ . . ما تهنَّؤوا بعيشٍ ، ولا قامَتْ بينَهُمُ الأسواقُ [٤]

وقالَ الحسنُ : السهوُ والأملُ نعمتانِ عظيمتانِ علىٰ بني آدمَ ، ولولاهُما . . ما مشى المسلمونَ في الطرقِ [٥]

وقالَ الثوريُّ : بلغَني أنَّ الإنسانَ خُلِقَ أحمقَ ، ولولا ذٰلكَ . . لَمْ يهنأْهُ العيشُ [٦]

وقالَ سعيدُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ : إنَّما عُمِّرَتِ الدنيا بقلَّةِ عقولِ أهلِها [٧]

وقالَ سلمانُ الفارسيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثٌ أعجبَتْني حتىٰ أضحكَتْني : مؤمِّلُ الدنيا والموتُ يطلبُهُ ، وغافلٌ وليسَ يُغفَلُ عنهُ ، وضاحكٌ ملءَ فيهِ ولا يدري أساخطٌ ربُّ العالمينَ عليهِ أمْ راضٍ ، وثلاثٌ أحزنَتْني حتىٰ أبكَتْني : فراقُ الأحبَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وحزبِهِ ، وهولُ المطلعِ ، والوقوفُ بينَ يدي ربِّي ولا أدري إلى الجنَّةِ يُؤمرُ بي أو إلى النَّارِ) [٨]

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ زرارةَ بنَ أبي أوفىٰ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقلتُ : أيُّ الأعمالِ أبلغُ عندَكُمْ ؟ قالَ : التَّوكلُ وقصرُ الأملِ [٩]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣١) عن الحسن مرسلاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٤٦) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٠/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٠) بلفظ : « وجدت الغفلة التي ألقى الله عز وجلَّ في قلوب الصديقين من خلقه رحمة رحمهم بها ، ولو ألقىٰ في قلوبهم من الخوف علىٰ قدر معرفتهم به . . ما هنأهم العيش » .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٤/٦) .

(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣١) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٧) .

(٨) رواه أحمد في « الزهد » (٨٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٧/١) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٠) .

وقالَ الثوريُّ : الزُّهدُ في الدنيا قِصرُ الأملِ ، ليسَ بأكلِ الغليظِ ولا لبسِ العباءةِ [1]

وسأَلَ المفضَّلُ بنُ فضالةَ ربَّهُ أنْ يرفعَ عنهُ الأملَ ، فذهبَتْ عنهُ شهوةُ الطعامِ والشرابِ ، ثمَّ دعا ربَّهُ فردَّ عليه الأملَ ، فرجعَ إلى الطعامِ والشرابِ [2]

وقيلَ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ ألا تغسلُ قميصَكَ ؟! فقالَ : الأمرُ أعجلُ مِنْ ذٰلكَ [3]

وقالَ الحسنُ : الموتُ معقودٌ بنواصِيكُمْ ، والدنيا تُطوىٰ مِنْ ورائِكُمْ [4]

وقالَ بعضُهُمْ : أنا كرجلٍ مادٍّ عنقَهُ والسيفُ عليهِ ينتظرُ متىٰ تُضربُ عنقُهُ [5]

وقالَ داوودُ الطَّائيُّ : لو أمَّلتُ أن أعيشَ شهراً . . لرأيتُني قدْ أتيتُ عظيماً ، وكيفَ أؤمِّلُ ذٰلكَ وأرى الفجائعَ تغشى الخلائقَ في ساعاتِ الليلِ والنَّهارِ ؟! [6]

وحُكيَ أنَّهُ جاءَ شقيقٌ البلخيُّ إلىٰ أستاذٍ لهُ يُقالُ لهُ : أبو هاشمٍ الرمانيُّ وفي طرفِ كسائِهِ شيءٌ مصرورٌ ، فقالَ لهُ أستاذُهُ : أيشٍ هٰذا الذي معَكَ ؟ فقالَ : لوزاتٌ دفعَهَا إليَّ أخٌ لي وقالَ : أحبُّ أنْ تفطرَ عليهَا ، فقالَ : يا شقيقُ ؛ وأنتَ تحدِّثُ نفسَكَ أنَّكَ تبقىٰ إلى الليلِ ؟! لا كلَّمْتُكَ أبداً ، قالَ : فأغلقَ في وجهي البابَ ودخلَ [7]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ في خطبتِهِ : إنَّ لكلِّ سفرٍ زاداً لا محالةَ ، فتزوَّدُوا لسفرِكُمْ مِنَ الدنيا إلى الآخرةِ التَّقوىٰ ، وكونوا كمَنْ عاينَ ما أعدَّ اللهُ مِنْ ثوابِهِ وعقابِهِ . . ترغبُوا وترهبُوا ، ولا يطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ فتقسوَ قلوبُكُمْ ، وتنقادُوا لعدوِّكُمْ ؛ فإنَّهُ واللهِ ؛ ما بُسطَ أملُ مَنْ لا يدري لعلَّهُ لا يصبحُ بعدَ مسائِهِ ولا يمسي بعدَ صباحِهِ ، وربَّما كانتْ بينَ ذٰلكَ خطفاتُ المنايا ، وكم رأيتُ ورأيتُمْ مَنْ كانَ بالدنيا مغترّاً ، وإنَّما تقرُّ عينُ مَنْ وثقَ بالنَّجاةِ مِنْ عذابِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما يفرحُ مَنْ أمِنَ مِنْ أهوالِ القيامةِ ، فأمَّا مَنْ لا يداوي كَلْماً إلَّا أصابَهُ جرحٌ مِنْ ناحيةٍ أخرىٰ . . فكيفَ يفرحُ ؟! أعوذُ باللهِ مِنْ أنْ آمرَكُمْ بما أنهىٰ عنهُ نفسي ، فتخسرَ صفقتي وتظهرَ عيبتي ، وتبدوَ مسكنتي في يومٍ يبدو فيهِ الغنىٰ والفقرُ ، والموازينُ فيهِ منصوبةٌ ، لقَدْ عُنيتُمْ بأمرٍ لو عُنيَتْ بِهِ النُّجومُ . . لانكدرَتْ ، ولو عُنيَتْ بِهِ الجبالُ . . لذابَتْ ، ولو عُنيَتْ بِهِ الأرضُ . . لتشقَّقَتْ ، أمَا تعلمونَ أنَّهُ ليسَ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ منزلةٌ ، وأنَّكُمْ صائرونَ إلىٰ إحداهُما ؟! [8]

وكتبَ رجلٌ إلىٰ أخٍ لهُ : **أمَّا بعدُ** : فإنَّ الدنيا حلمٌ ، والآخرةَ يقظةٌ ، والمتوسطَ بينَهُما الموتُ ، ونحنُ في أضغاثِ أحلامٍ ، والسَّلامُ [9]

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٣) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٧٠) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٧١) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٤١) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٤٢) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » . « إتحاف » (١٠/٢٤١) .
(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٩١ ـ ٢٩٢) ، وفيه : (عيلتي) بدل (عيبتي) .
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٥٢) .

وكتبَ آخرُ إلىٰ أخٍ لهُ : إنَّ الحزنَ على الدنيا طويلٌ ، والموتَ مِنَ الإنسانِ قريبٌ ، وللنَّقصِ في كلِّ يومٍ منهُ نصيبٌ ، وللبلىٰ في جسمِهِ دبيبٌ ، فبادِرْ قبلَ أنْ تُنادَىٰ بالرَّحيلِ ، والسلامُ[(١)]

وقالَ الحسنُ : كانَ آدمُ عليهِ السَّلامُ قبلَ أنْ يُخطِئَ أملُهُ خلفَ ظهرِهِ ، وأجلُهُ بينَ عينَيْهِ ، فلمَّا أصابَ الخطيئةَ . . حُوِّلَ فجُعِلَ أملُهُ بينَ عينَيْهِ ، وأجلُهُ خلفَ ظهرِهِ[(٢)]

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ شميطٍ : سمعتُ أبي يقولُ : أيُّها المغترُّ بطولِ صحتِهِ ، أمَا رأيتَ ميتاً قَطُّ مِنْ غيرِ سقمٍ ؟! أيُّها المغترُّ بطولِ المهلةِ ؛ أمَا رأيتَ مأخوذاً قطُّ مِنْ غيرِ عدةٍ ؟! إنَّكَ لو فكَّرتَ في طولِ عمرِكَ . . لنسيتَ ما قدْ تقدَّمَ مِنْ لذَّاتِكَ ، أبالصِّحَّةِ تغترونَ ، أمْ بطولِ العافيةِ تمرحونَ ، أمِ الموتَ تأمنونَ ، أمْ علىٰ ملكِ الموتِ تجترئُونَ ؟! إنَّ ملكَ الموتِ إذا جاءَ . . لا يمنعُهُ منكَ ثروةُ مالِكَ ، ولا كثرةُ احتشادِكَ ، أما علمتَ أنَّ ساعةَ الموتِ ذاتُ كربٍ وغصصٍ وندامةٍ على التفريطِ ؟! ثمَّ يقولُ : رحمَ اللهُ عبداً عملَ لما بعدَ الموتِ ، رحمَ اللهُ عبداً نظرَ لنفسِهِ قبلَ نزولِ الموتِ[(٣)]

وقالَ أبو زكريا التيميُّ : بينَما سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ في المسجدِ الحرامِ ؛ إذ أُتِيَ بحجرٍ منقورٍ ، فطلبَ مَنْ يقرؤُهُ ، فأُتِيَ بوهبِ بنِ منبِّهٍ ؛ فإذا فيهِ : ابنَ آدمَ ؛ إنَّكَ لو رأيتَ قربَ ما بقيَ مِنْ أجلِكَ . . لزهدتَ في طولِ أملِكَ ، ولرغبتَ في الزيادةِ مِنْ عملِكَ ، ولقصرتَ مِنْ حرصِكَ وحيلِكَ ، وإنَّما يلقاكَ غداً ندمُكَ لوْ قدْ زلَّتْ بكَ قدمُكَ ، وأسلمَكَ أهلُكَ وحشمُكَ ، وفارقَكَ الولدُ والقريبُ ، ورفضَكَ الوالدُ والنَّسيبُ ، فلا أنتَ إلىٰ دنياكَ عائدٌ ، ولا في حسناتِكَ زائدٌ ، فاعملْ ليومِ القيامةِ قبلَ الحسرةِ والنَّدامةِ ، قالَ : فبكىٰ سليمانُ بكاءً شديداً[(٤)]

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ كتاباً مِنْ محمَّدِ بنِ يوسفَ إلىٰ عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ يوسفَ : سلامٌ عليكَ ، فإنِّي أحمدُ اللهَ إليكَ الذي لا إلـٰهَ إلَّا هوَ ، أمَّا بعدُ : فإنِّي أحذِّرُكَ متحوَّلَكَ مِنْ دارِ مُهلتِكَ إلىٰ دارِ إقامتِكَ وجزاءِ أعمالِكَ ، فتصيرُ في قرارِ باطنِ الأرضِ بعدَ ظاهرِهَا ، فيأتيكَ منكرٌ ونكيرٌ فيقعدانِكَ وينتهرانِكَ ، فإنْ يكنِ اللهُ معَكَ . . فلَا بأسَ ولَا وحشةَ ولَا فاقةَ ، وإنْ يكنْ غيرُ ذٰلكَ . . فأعاذَني اللهُ وإياكَ مِنْ سوءِ مصرَعٍ ، وضيقِ مضجعٍ ، ثمَّ تبلغُكَ صيحةُ الحشرِ ونفخُ الصُّورِ ، وقيامُ الجبَّارِ جلَّ جلالُهُ لفصلِ قضاءِ الخلائقِ ، وخلاءِ الأرضِ مِنْ أهلِهَا ، والسماواتِ مِنْ سُكَّانِها ، فباحَتِ الأسرارُ ، وأُسعِرَتِ النَّارُ ، ووُضِعَتِ الموازينُ ، وجِيءَ بالنبيِّينَ والشهداءِ ، وقُضِيَ بينَهُمْ بالحقِّ ، وقيلَ : الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، فكمْ مِنْ مفتضَحٍ ومستورٍ ؟! وكمْ مِنْ هالكٍ وناجٍ ؟! وكمْ مِنْ معذَّبٍ ومرحومٍ ؟! فيا ليتَ شِعري !! ما حالي وحالُكَ يومَئذٍ ؟! ففي هـٰذا ما هدمَ اللذاتِ ، وسلَّىٰ عنِ الشَّهواتِ ، وقصَّرَ عنِ الأملِ ، وأيقظَ النائمينَ ، وحذَّرَ الغافلينَ ، أعانَنا اللهُ وإياكَ علىٰ هـٰذا الخطرِ العظيمِ ، وأوقعَ الدنيا والآخرةَ مِنْ قلبي وقلبِكَ موقعَهُمَا مِنْ قلوبِ المتقينَ ؛ فإنَّما نحنُ بِهِ ولهُ ، والسَّلامُ[(٥)] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٧ ـ ١٨) وفيه : (وللنفس) بدل (وللنقص) ، وبعد قوله : (بالرحيل) : (واجتهد في العمل في دار الممر قبل أن ترحل إلىٰ دار المقر) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٢٦٢) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦٧) ، وفي غير (ف) : (عبد الله بن شميط) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٦٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٣٦) .

وخطبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ وقالَ : (أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّكُم لمْ تُخلقوا عبثاً ولنْ تُتركُوا سدىً ، وإنَّ لكمْ معاداً يجمعُكُمُ اللهُ فيهِ للحكمِ والفصلِ فيما بينَكُمْ ، فخابَ وشقيَ عبدٌ أخرجَهُ اللهُ مِنْ رحمتِهِ التي وسعَتْ كلَّ شيءٍ ، وجنَّتِهِ التي عرضُها السَّماواتُ والأرضُ ، وإنَّما يكونُ الأمانُ غداً لمَنْ خافَ واتقىٰ ، وباعَ قليلاً بكثيرٍ ، وفانياً بباقٍ ، وشقوةً بسعادةٍ ، ألا ترونَ أنَّكُم في أسلابِ الهالكينَ ، وسيخلفُهُ بعدَكُم الباقونَ ؟! ألا ترونَ أنَّكُم في كلِّ يومٍ تشيِّعونَ غادياً ورائحاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، قدْ قضىٰ نحبَهُ وانقطعَ أملُهُ ، فتضعونَهُ في بطنِ صدعٍ مِنَ الأرضِ غيرَ موسَّدٍ ولا ممهَّدٍ ، قدْ خلعَ الأسبابَ وفارقَ الأحبابَ وواجَهَ الحسابَ ؟! وايمُ اللهِ ؛ إنِّي لأقولُ مقالتي هٰذهِ ولا أعلمُ عندَ أحدِكُمْ مِنَ الذنوبِ أكثرَ مما أعلمُ مِنْ نفسي ، ولٰكنَّها سننٌ مِنَ اللهِ عادلةٌ ، أمرَ فيها بطاعتِهِ ، ونهىٰ فيها عنْ معصيتِهِ ، وأستغفرُ اللهَ) ، ووضعَ كمَّهُ علىٰ وجهِهِ وبكىٰ حتىٰ بلَّت دموعُهُ لحيتَهُ ، وما عادَ إلىٰ مجلسِهِ حتىٰ ماتَ[1]

وقالَ القعقاعُ بنُ حكيمٍ : (قدِ استعددتُ للموتِ منذُ ثلاثينَ سنةً ، فلوْ أتاني . . ما أحببتُ تأخيرَ شيءٍ عَنْ شيءٍ)[2]

وقالَ الثوريُّ : (رأيتُ شيخاً في مسجدِ الكوفةِ يقولُ : أنا في هٰذا المسجدِ منذُ ثلاثينَ سنةً أنتظرُ الموتَ أنْ ينزلَ بي ، لوْ أتاني . . ما أمرتُهُ بشيءٍ ولا نهيتُهُ عنْ شيءٍ ، ولا لي علىٰ أحدٍ شيءٌ ، ولا لأحدٍ عندي شيءٌ)[3]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ ثعلبةَ : (تضحكُ ولعلَّ أكفانَكَ قدْ خرجَتْ مِنْ عندِ القصَّارِ ؟!)[4]

وقالَ أبو محمَّدٍ بنُ عليٍّ الزاهدُ : (خرجنا في جنازةٍ بالكوفةِ ، وخرجَ فيها داوودُ الطَّائيُّ فانتبذَ فقعدَ ناحيةً وهيَ تُدفنُ ، فجئتُ فقعدتُ قريباً منهُ ، فتكلَّمَ فقالَ : مَنْ خافَ الوعيدَ . . قصرَ عليهِ البعيدُ ، ومَنْ طالَ أملُهُ . . ضعفَ عملُهُ ، وكلُّ ما هوَ آتٍ قريبٌ) .

واعلمْ يا أخي : أنَّ كلَّ شيءٍ يشغلُكَ عنْ ربِّكَ . . فهوَ عليكَ مشؤومٌ .

واعلمْ : أنَّ أهلَ الدنيا جميعاً مِنْ أهلِ القبورِ ، إنَّما يندمونَ علىٰ ما يخلفونَ ، ويفرحونَ بما يقدِّمونَ ، فما ندمَ عليهِ أهلُ القبورِ . . أهلُ الدنيا عليهِ يقتتلونَ ، وفيهِ يتنافسونَ ، وعليهِ عندَ القضاةِ يختصمونَ[5]

ورُوِيَ أنَّ معروفاً الكرخيَّ رحمةُ اللهِ عليهِ أقامَ الصلاةَ ، قالَ محمدُ بنُ أبي توبةَ : فقالَ لي : تقدَّمْ ، فقلتُ : إنِّي إنْ صلَّيتُ بكُمْ هٰذهِ الصلاةَ . . لمْ أصلِّ بكُمْ غيرَها ، فقالَ معروفٌ : وأنتَ تحدِّثُ نفسَكَ أنْ تصلِّيَ صلاةً أخرىٰ ؟! نعوذُ باللهِ مِنْ طولِ الأملِ ، فإنَّهُ يمنعُ خيرَ العملِ[6]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ في خطبتِهِ : (إنَّ الدنيا ليسَتْ بدارِ قرارِكُمْ ، دارٌ كتبَ اللهُ عليها الفناءَ ، وكتبَ علىٰ أهلِهَا الظعنَ مِنْها ، فكَمْ مِنْ عامرٍ موثقٍ عمَّا قليلٍ يخربُ ؟! وكَمْ مِنْ مقيمٍ مغتبطٍ عمَّا قليلٍ يظعنُ ؟!

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٩٥/٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧٩) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٦/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٤) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٧/٧) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٠٢) .

فأحسنوا رحمَكُمُ اللهُ منهَا الرِّحلةَ بأحسنِ ما يحضرُكُمْ مِنَ النقلةِ ، وتزوَّدوا ؛ فإنَّ خيرَ الزادِ التقوىٰ ، إنَّما الدنيا كفيءِ ظلالٍ قلصَ فذهبَ ، بينا ابنُ آدمَ في الدنيا ينافسُ وهو بها قريرُ العينِ ؛ إذْ دعاهُ اللهُ بقدرِهِ ، ورماهُ بيومِ حتفِهِ فسلبَهُ آثارَهُ ودنياهُ ، وصيَّرَ لقومٍ آخرينَ مصانعَهُ ومغناهُ ، إنَّ الدنيا لا تسرُّ بقدرِ ما تضرُّ ، إنَّها تسرُّ قليلاً وتحزنُ طويلاً)[1]

وعنْ أبي بكرٍ الصِّديقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : أنَّهُ كانَ يقولُ في خطبتِهِ : (أينَ الوضاءةُ الحسنةُ وجوهُهُم المعجبونَ بشبابِهِم ؟! أينَ الملوكُ الذينَ بنَوُا المدائنَ وحصَّنوها بالحيطانِ ؟! أينَ الذينَ كانوا يُعطونَ الغلبةَ في مواطنِ الحربِ ؟! قَدْ تضعضعَ بهِمُ الدهرُ فأصبحوا في ظلماتِ القبورِ ، الوحا الوحا ، ثمَّ النَّجا النَّجا)[2]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٩٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٢٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١١١) ، وقوله : (**الوحا الوحا**) أي : السرعة السرعة .

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلمْ : أنَّ طولَ الأملِ لهُ سببانِ : أحدُهما : الجهلُ ، والآخرُ : حبُّ الدنيا .

أمّا حبُّ الدنيا : فهوَ أنَّهُ إذا أنسَ بها وبشهواتِهَا ولذَّاتِها وعلائقِها . . ثقلَ على قلبِهِ مفارقتُها ، فامتنعَ قلبُهُ عنِ الفكرِ في الموتِ الذي هوَ سببُ مفارقتِها ، وكلُّ مَنْ كرهَ شيئاً . . دفعَهُ عن نفسِهِ ، والإنسانُ مشغوفٌ بالأماني الباطلةِ ، فيمنّي نفسَهُ أبداً بما يوافقُ مرادَهُ ، وإنَّما يوافقُ مرادَهُ البقاءُ في الدنيا ، فلا يزالُ يتوهمُهُ ويقدرُهُ في نفسِهِ ، ويقدرُ توابعَ البقاءِ وما يحتاجُ إليهِ مِنْ مالٍ وأهلٍ ودارٍ وأصدقاءَ ودوابَّ ، وسائرِ أسبابِ الدنيا ، فيصيرُ قلبُهُ عاكفاً على هٰذا الفكرِ ، موقوفاً عليهِ ، فيلهو عنْ ذكرِ الموتِ ولا يقدِّرُ قربَهُ .

فإنْ خطرَ لهُ في بعضِ الأحوالِ أمرُ الموتِ والحاجةُ إلى الاستعدادِ لهُ . . سوَّفَ ووعدَ نفسَهُ وقالَ : الأيامُ بينَ يديكَ فإلى أنْ تكبَرَ ثمَّ تتوبَ ، وإذا كبِرَ . . فيقولُ : إلى أنْ تصيرَ شيخاً ، فإذا صارَ شيخاً . . قالَ : إلى أنْ تفرغَ مِنْ بناءِ هٰذهِ الدارِ وعمارةِ هٰذهِ الضيعةِ ، أو ترجعَ مِنْ هٰذهِ السفرةِ ، أو تفرغَ مِنْ تدبيرِ هٰذا الولدِ وجهازِهِ وتدبيرِ مسكنٍ لهُ ، أو تفرغَ مِنْ قهرِ هٰذا العدوِّ الذي يشمتُ بكَ ، فلا يزالُ يسوِّفُ ويؤخِّرُ ، ولا يخوضُ في شغلٍ إلَّا ويتعلَّقُ بإتمامِ ذٰلكَ الشغلِ عشرةُ أشغالٍ أُخرَ ، وهٰكذا على التدريجِ يؤخِّرُ يوماً بعدَ يومٍ ، ويفضي بهِ شغلٌ إلى شغلٍ ، بل إلى أشغالٍ إلى أن تختطفَهُ المنيَّةُ في وقتٍ لا يحتسبُهُ ، فتطولُ عندَ ذٰلكَ حسرتُهُ .

وأكثرُ أهلِ النارِ صياحُهُم مِنْ سوفَ ، يقولونَ : واحزناهُ مِنْ سوفَ !! والمسوِّفُ المسكينُ لا يدري أنَّ الذي يدعوهُ إلى التسويفِ اليومَ هوَ معَهُ غداً ، وإنَّما يزدادُ بطولِ المدةِ قوةً ورسوخاً ، ويظنُّ أنَّهُ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ للخائضِ في الدنيا والحافظِ لها فراغٌ قطُّ ، وهيهاتَ !! ما فرغَ منْها إلَّا مَنِ اطَّرحَها .

فَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَمَا انْتَهَى أَرَبٌ إِلَّا إِلَى أَرَبِ [1]

وأصلُ هٰذهِ الأماني كلِّها : حبُّ الدنيا والأنسُ بها ، والغفلةُ عنْ معنى قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبِبْ ما أحببتَ ؛ فإنَّكَ مفارقُهُ » [2]

❀ ❀ ❀

وأمَّا الجهلُ : فهوَ أنَّ الإنسانَ قدْ يعوِّلُ على شبابِهِ فيستبعدُ قربَ الموتِ معَ الشبابِ ، وليسَ يتفكَّرُ المسكينُ أنَّ مشايخَ بلدِهِ لو عُدُّوا . . لكانوا أقلَّ مِنْ عُشرِ رجالِ البلدِ ؛ وإنَّما قلُّوا لأنَّ الموتَ في الشبابِ أكثرُ ، فإلى أنْ يموتَ شيخٌ يموتُ ألفُ صبيٍّ وشابٍّ ، وقدْ يستبعدُ الموتَ لصحتِهِ ، ويستبعدُ الموتَ فجأةً ، ولا يدري أنَّ ذٰلكَ غيرُ بعيدٍ ، وإنْ كانَ ذٰلكَ بعيداً . . فالمرضُ فجأةً غيرُ بعيدٍ ، وكلُّ مرضٍ فإنَّما يقعُ فجأةً ، وإذا مرضَ . . لم يكنِ الموتُ بعيداً .

ولو تفكَّرَ هٰذا الغافلُ وعلمَ أنَّ الموتَ ليسَ لهُ وقتٌ مخصوصٌ مِنْ شبابٍ وشيبٍ وكهولةٍ ، ومِنْ صيفٍ وشتاءٍ ، وخريفٍ وربيعٍ ، ومِنْ ليلٍ ونهارٍ . . لعظُمَ استشعارُهُ واشتغلَ بالاستعدادِ لهُ ، ولٰكنَّ الجهلَ بهٰذهِ الأمورِ وحبَّ الدنيا

---

(١) البيت من البسيط ، وهو للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٩٥/١) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣٢٥/٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) عن سهل بن سعد رضي الله عنه .

دعوَاهُ إلىٰ طولِ الأملِ ، وإلى الغفلةِ عَنْ تقديرِ الموتِ القريبِ ، فهو أبداً يظنُّ أنَّ الموتَ يكونُ بينَ يديهِ ولا يقدِّرُ نزولَهُ بهِ ووقوعَهُ فيهِ ، وهو أبداً يظنُّ أنَّهُ يشيِّعُ الجنائزَ ولا يقدِّرُ أنْ تُشيَّعَ جنازتُهُ ؛ لأنَّ هٰذا قد تكررَ عليهِ وألفَهُ وهوَ مشاهدةُ موتِ غيرِهِ ، فأمَّا موتُ نفسِهِ . . فلمْ يألفْهُ ، ولَا يُتصورُ أنْ يألفَهُ ؛ فإنَّهُ لا يقعُ ، وإذا وقعَ . . لمْ يقعْ دفعةً أخرىٰ بعدَهُ ، فهو الأوَّلُ وهوَ الآخرُ .

وسبيلُهُ : أنْ يقيسَ نفسَهُ بغيرِهِ ، ويعلمَ أنَّهُ لا بدَّ وأنْ تُحملَ جنازتُهُ ويُدفنَ في قبرِهِ ، ولعلَّ اللبِنَ الذي يُغطَّىٰ بهِ لحدُهُ قدْ ضُرِبَ وفُرِغَ منهُ وهُوَ لا يدري ، فتسويفُهُ جهلٌ محضٌ .

وإذا عرفتَ أنَّ سببَهُ الجهلُ وحبُّ الدنيا . . فعلاجُهُ دفعُ سببِهِ .

أمَّا الجهلُ . . فيُدفعُ بالفكرِ الصَّافي مِنَ القلبِ الحاضرِ ، وسماعِ الحكمةِ البالغةِ مِنَ القلوبِ الطَّاهرةِ .

وأمَّا حبُّ الدنيا . . فالعلاجُ في إخراجِهِ مِنَ القلبِ شديدٌ ، وهوَ الدَّاءُ العضالُ الذي أعيا الأوَّلينَ والآخرينَ علاجُهُ ، ولا علاجَ لهُ إلَّا الإيمانُ باليومِ الآخرِ ، وبما فيهِ مِنْ عظيمِ العقابِ وجزيلِ الثَّوابِ ، ومهما حصلَ لهُ اليقينُ بذٰلكَ . . ارتحلَ عنْ قلبِهِ حُبُّ الدنيا ، فإنَّ حبَّ الخطيرِ هوَ الذي يمحو عنِ القلبِ حبَّ الحقيرِ ، فإذا رأىٰ حقارةَ الدنيا ونفاسةَ الآخرةِ . . استنكفَ أنْ يلتفتَ إلى الدنيا كلِّها وإنْ أُعطيَ ملكَ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ ، فكيفَ وليسَ لكلِّ عبدٍ مِنَ الدنيا إلَّا قدرٌ يسيرٌ مكدَّرٌ منغَّصٌ ؟! فكيفَ يفرحُ بهَا أو يترسخُ في القلبِ حبُّها معَ الإيمانِ بالآخرةِ ؟! فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يرِيَنا الدنيا كما أراها الصالحينَ مِنْ عبادِهِ .

ولا علاجَ في تقريرِ الموتِ في القلبِ مثلُ النظرِ إلىٰ مَنْ ماتَ مِنَ الأقرانِ والأشكالِ ، وأنَّهُمْ كيفَ جاءَهُمُ الموتُ في وقتٍ لم يحتسبوا ، أمَّا مَنْ كانَ مستعدّاً . . فقدْ فازَ فوزاً عظيماً ، وأمَّا مَنْ كانَ مغروراً بطولِ الأملِ . . فقدْ خسرَ خُسراناً مبيناً .

فلينظرِ الإنسانُ كلَّ ساعةٍ في أطرافِهِ وأعضائِهِ ، وليتدبَّرْ أنَّها كيفَ تأكلُها الديدانُ لا محالةَ ، وكيفَ تتفتَّتُ عظامُها ، وليتفكرْ أنَّ الدودَ يبدأُ بحدقتِهِ اليمنىٰ أوَّلاً أو باليسرىٰ ؟ فما علىٰ بدنِهِ شيءٌ إلَّا وهوَ طُعمةٌ للدودِ ، وما لهُ مِنْ نفسِهِ إلَّا العلمُ والعملُ الخالصُ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، وكذٰلك يتفكَّرُ فيما سنوردُهُ مِنْ عذابِ القبرِ ، وسؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، ومِنَ الحشرِ والنشرِ وأهوالِ القيامةِ ، وفزعِ النداءِ يومَ العرضِ الأكبرِ ، فأمثالُ هٰذهِ الأفكارِ هيَ التي تجدِّدُ ذكرَ الموتِ علىٰ قلبِهِ ، وتدعوهُ إلى الاستعدادِ لهُ .

❋ ❋ ❋

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم : أنَّ الخلقَ في ذٰلكَ يتفاوتونَ .

فمنهُمْ : مَنْ يأملُ البقاءَ ويشتهي ذٰلكَ أبداً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ يأملُ البقاءَ إلى الهرمِ ـ وهو أقصى العمرِ الذي شاهدَهُ ورآهُ ـ وهوَ الذي يحبُّ الدنيا حبّاً شديداً ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الشيخُ شابٌّ في حبِّ طلبِ الدنيا وإنِ التفَّتْ ترقُوتاهُ مِنَ الكبرِ ، إلَّا الذينَ اتقوا وقليلٌ ما هُمْ »(١)

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ يأملُ إلىٰ سنةٍ ، فلا يشتغلُ بتدبيرِ ما وراءَ ذٰلكَ ، فلا يقدرُ لنفسِهِ وجوداً في عامٍ قابلٍ ، ولٰكن هٰذا يستعدُّ في الصيفِ للشتاءِ ، وفي الشتاءِ للصيفِ ، فإذا جمعَ ما يكفيهِ لسنتِهِ . . اشتغلَ بالعبادةِ .

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ يأملُ مدةَ الصيفِ أوِ الشتاءِ ، فلا يدخرُ في الصيفِ ثيابَ الشتاءِ ، ولا في الشتاءِ ثيابَ الصيفِ

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ يرجعُ أملُهُ إلىٰ يومٍ وليلةٍ ، فلا يستعدُّ إلَّا لنهارِهِ ، وأمَّا للغدِ . . فلا ، قالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : لا تهتموا برزقِ غدٍ ، فإنْ يكنْ غدٌ مِنْ آجالِكُمْ . . فستأتي فيهِ أرزاقُكُمْ معَ آجالِكُمْ ، وإنْ لمْ يكنْ مِنْ آجالِكُمْ . . فلا تهتموا لآجالِ غيرِكُمْ(٢)

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ لا يجاوزُ أملُهُ ساعةً كما قالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ اللهِ ، إذا أصبحتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالمساءِ ، وإذا أمسيتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالصباحِ »(٣)

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ لا يقدِّرُ البقاءَ أيضاً ساعةً ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتيمَّمُ معَ القدرةِ على الماءِ قبلَ مضيِّ ساعةٍ ويقولُ : « لعلِّي لا أبلغُهُ »(٤)

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً ، وانظر « الإتحاف » (١٠/٢٥١) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » عن سفيان بنحوه . « إتحاف » (١٠/٢٥١) ، وفي (أ) : (لأرزاق) بدل (لآجال) .

(٣) رواه بهٰذا اللفظ مرفوعاً الروياني في « مسنده » (١٤١٨) ، وعبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص ٩٦) ، ورواه موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٦٤١٦) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (١/٢٨٨) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .

ومنهُمْ : مَنْ يكونُ الموتُ نصبَ عينيهِ كأنَّهُ واقعٌ بهِ ، فهوَ ينتظرُهُ ، وهـٰذا الإنسانُ هوَ الذي يصلي صلاةَ مودِّعٍ ، وفيهِ وردَ ما نُقلَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا سألَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ حقيقةِ إيمانِهِ فقالَ : (ما خطوتُ خطوةً إلَّا ظننتُ أنّي لا أُتبعُها أخرىٰ)[1] ، وكما نُقلَ عنِ الأسودِ وهوَ حبشيٌّ أنَّهُ كانَ يصلّي ليلاً ويلتفتُ يميناً وشمالاً ، فقالَ لهُ قائلٌ : ما هـٰذا ؟! قالَ : أنتظرُ ملكَ الموتِ من أيِّ جهةٍ يأتيني .

❁ ❁ ❁

فهـٰذه مراتبُ الناسِ ، ولكلٍّ درجاتٌ عندَ اللهِ ، وليسَ مَنْ أملُهُ مقصورٌ علىٰ شهرٍ كمنْ أملُهُ شهرٌ ويومٌ ، بلْ بينَهما تفاوتٌ في الدرجةِ عندَ اللهِ ؛ فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ ، ومنْ يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً . . يرهُ .

ثمَّ يظهرُ أثرُ قصرِ الأملِ في المبادرةِ إلى العملِ ، وكلُّ إنسانٍ يدَّعي أنَّهُ قصيرُ الأملِ وهو كاذبٌ ، وإنَّما يظهرُ ذٰلكَ بأعمالِهِ ؛ فإنَّه يعتني بأسبابٍ ربَّما لا يحتاجُ إليها في سنةٍ ، فيدلُّ ذٰلكَ علىٰ طولِ أملِهِ ، وإنَّما علامةُ التوفيقِ أنْ يكونَ الموتُ نصبَ العينِ لا يغفلُ عنهُ ساعةً ، فيستعدَّ للموتِ الذي يردُ عليهِ في الوقتِ ، فإنْ عاشَ إلى المساءِ . . شكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ طاعتِهِ ، وفرحَ بأنَّهُ لم يضيّعْ نهارَهُ ، بلِ استوفىٰ منهُ حظَّهُ وادَّخرَهُ لنفسِهِ ، ثمَّ يستأنفُ مثلَه إلى الصباحِ ، وهـٰكذا إذا أصبحَ ، ولا يتيسَّرُ هـٰذا إلَّا لمَنْ فرَّغَ القلبَ عنِ الغدِ وما يكونُ فيهِ ، فمثلُ هـٰذا إذا ماتَ . . سعدَ وغنمَ ، وإنْ عاشَ . . سُرَّ بحسنِ الاستعدادِ ولذةِ المناجاةِ ، فالموتُ لهُ سعادةٌ ، والحياةُ لهُ مزيدٌ .

فليكنِ الموتُ علىٰ بالِكَ يا مسكينُ ؛ فإنَّ السيرَ حادٍ بكَ وأنتَ غافلٌ عنْ نفسِكَ ، ولعلَّكَ قدْ قاربتَ المنزلَ وقطعتَ المسافةَ ، ولا تكونُ كذٰلكَ إلَّا بمبادرةِ العملِ اغتناماً لكلِّ نَفَسٍ أُمهلتَ فيهِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٢/١)

بيان المبادرة إلى العمل ، وحذر آفة التأخير

اعلمْ : أنَّ مَنْ لهُ أخوانِ غائبانِ ينتظرُ قدومَ أحدِهما في غدٍ ، وينتظرُ قدومَ الآخرِ بعدَ شهرٍ أو سنةٍ . . فلا يستعدُّ للذي يقدمُ إلىٰ شهرٍ أوْ سنةٍ ، وإنَّما يستعدُّ للذي ينتظرُ قدومَهُ غداً ، فالاستعدادُ نتيجةُ قربِ الانتظارِ ، فمَنِ انتظرَ مجيءَ الموتِ بعدَ سنةٍ . . اشتغلَ قلبُهُ بالمدَّةِ ونسيَ ما وراءَ المدَّةِ ، ثمَّ يصبحُ كلَّ يومٍ وهوَ منتظرٌ للسَّنةِ بكمالِهَا لا يُنقِصُ مِنْها اليومَ الذي مضىٰ ، وذٰلك يمنعُهُ مِنْ مبادرةِ العملِ أبداً ؛ فإنَّهُ أبداً يرىٰ لنفسِهِ متَّسعاً في تلكَ السنةِ ، فيؤخرُ العملَ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ينتظرُ أحدُكُم مِنَ الدنيا إلَّا غنىً مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنّداً ، أو موتاً مجهزاً ، أوِ الدجالَ فالدجالُ شرُّ غائبٍ يُنتظرُ ، أو الساعةَ والساعةُ أدهىٰ وأمرُّ »[1]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ وهوَ يعظُهُ : « اغتنمْ خمساً قبلَ خمسٍ : شبابَكَ قبلَ هرمِكَ ، وصحتَكَ قبلَ سقمِكَ ، وغِناكَ قبلَ فقرِكَ ، وفراغَكَ قبلَ شغلِكَ ، وحياتَكَ قبلَ موتِكَ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصحةُ ، والفراغُ »[3] أي : أنَّهُ لا يغتنمُهُما ، ثمَّ يعرفُ قدرَهُما عندَ زوالِهِما .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خافَ . . أدلجَ ، ومَنْ أدلجَ . . بلغَ المنزلَ ، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ ، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ الجنَّةُ »[4]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاءَتِ الراجفةُ تتبعُهَا الرادفةُ ، جاءَ الموتُ بما فيهِ »[5]

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا آنسَ مِنْ أصحابِهِ غفلةً أو غرةً . . نادىٰ فيهِمْ بصوتٍ رفيعٍ : « أتتْكُمُ المنيةُ راتبةً لازمةً ، إمَّا بشقاوةٍ وإمَّا بسعادةٍ »[6] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا النذيرُ ، والموتُ المغيرُ ، والساعةُ الموعدُ »[7]

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والشمسُ علىٰ أطرافِ السَّعفِ فقالَ : « ما بقيَ مِنَ الدنيا إلَّا مثلُ ما بقيَ مِنْ يومِنَا هٰذا في مثلِ ما مضىٰ منه »[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ الدنيا مثلُ ثوبٍ شُقَّ مِنْ أولِهِ إلىٰ آخرِهِ فبقيَ متعلقاً بخيطٍ في آخرِهِ ، فيوشكُ ذٰلكَ الخيطُ أنْ ينقطعَ »[9]

وقالَ جابرٌ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا خطبَ فذكرَ الساعةَ . . رفعَ صوتَهُ ، واحمرَّتْ وجنتاهُ كأنَّهُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣٠٦/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٦٧) .

(٣) رواه البخاري (٦٤١٢) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٥٠) .

(٥) رواه الترمذي (٢٤٥٧) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٨٤) عن زيد السلمي مرسلاً .

(٧) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١١٨)

(٨) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٤٤/٢) ، وأحمد في « المسند » (١٣٣/٢) ، وانظر « الإتحاف » (٢٥٥/١٠) .

(٩) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٣١/٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥٩) .

منذرُ جيشٍ يقولُ : صبَّحَتْكُمْ ومسَّتْكُم ثمَّ يقولُ : « بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتينِ » وقرنَ بينَ إصبعيهِ[1]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ النورَ إذا دخلَ الصدرَ . . انفسحَ » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ تُعرفُ ؟ قالَ : « نعم ، التجافي عنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »[2]

وقالَ السديُّ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أيْ : أيُّكُم أكثرُ للموتِ ذكراً ، وأحسنُ لهُ استعداداً ، وأشدُّ منهُ خوفاً وحذراً[3]

وقالَ حذيفةُ : ما مِنْ صباحٍ ولا مساءٍ . . إلَّا ومنادٍ ينادي : أيُّها الناسُ ؛ الرحيلَ الرحيلَ ، وتصديقُ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۞ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۞ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أي : في الموتِ[4]

وقالَ سحيمٌ مولىٰ بني تميمٍ : جلستُ إلىٰ عامرِ بنِ عبدِ اللهِ وهوَ يصلي ، فأوجزَ في صلاتِهِ ثمَّ أقبلَ عليَّ فقالَ : أرحْني بحاجتِكَ ؛ فإني أبادرُ ، قلتُ : وما تبادرُ ؟ قالَ : ملكَ الموتِ رحمَكَ اللهُ ، قالَ : فقمتُ عنهُ وقامَ إلىٰ صلاتِهِ[5] .

ومرَّ داوودُ الطائيُّ فسألَهُ رجلٌ عنْ حديثٍ فقالَ : دعْني إنَّما أبادرُ خروجَ نفسِي[6]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (التُّؤدةُ في كلِّ شيءٍ خيرٌ إلَّا في أعمالِ الآخرةِ)[7]

وقالَ المنذرُ : سمعتُ مالكَ بنَ دينارٍ يقولُ لنفسِهِ : ويحَكِ !! بادري قبلَ أن يأتيَكِ الأمرُ ، ويحَكِ !! بادري قبلَ أن يأتيَكِ الأمرُ . . . حتىٰ كرَّرَ ذلكَ ستينَ مرةً أسمعُهُ ولَا يراني[8]

وكانَ الحسنُ يقولُ في موعظتِهِ : المبادرةَ المبادرةَ ؛ فإنَّما هيَ الأنفاسُ لوْ حُبِسَتِ . . انقطعَتْ عنكُمْ أعمالُكُم التي تقربونَ بها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، رحمَ اللهُ امرأً نظرَ لنفسِهِ وبكىٰ علىٰ ذنوبِهِ ، ثمَّ قرأَ هٰذهِ الآيةَ : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ يعني : الأنفاسَ ، آخرُ العددِ خروجُ نفسكَ ، آخرُ العددِ فراقُ أهلِكَ ، آخرُ العددِ دخولُكَ في قبرِكَ[9]

واجتهدَ أبو موسى الأشعريُّ قبلَ موتِهِ اجتهاداً شديداً ، فقيلَ لهُ : لو أمسكتَ ورفقتَ بنفسِكَ بعضَ الرفقِ ، فقالَ : (إنَّ الخيلَ إذا أُرسلَتْ فقاربَتْ رأسَ مجراها . . أخرجَتْ جميعَ ما عندها ، والذي بقيَ مِنْ أجلي أقلُّ مِن ذلكَ) ، قالَ : فلم يزلْ علىٰ ذلكَ حتىٰ ماتَ ، وكانَ يقولُ لامرأتِهِ : (شدِّي رحلَكِ ؛ فليسَ علىٰ جهنَّمَ معبرٌ)[10]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٢٤) ، ونحوه عند مسلم (٨٦٧) ، وفي (أ) : (عيناه) بدل (وجنتاه) وهي موافقة لما في « مسلم » ، وفي (ج) : (صبحتُكم ومسيتُكم) بدل (صبحتكم ومسَّتْكم) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١١) ، وابن أبي شيبة (٣٥٤٥٦) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٠١) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٦) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣٣٥ ـ ٣٣٦) .

(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٦٩) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٩) عن عمر رضي الله عنه موقوفاً ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (١/٦٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩٤) من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٤٤) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٤٦) .

(١٠) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٥١) .

وقالَ بعضُ الخلفاءِ علىٰ منبرِهِ[(١)] : (عبادَ اللهِ ؛ اتقوا اللهَ ما استطعتُمْ ، وكونوا قوماً صيحَ بهم فانتبهوا ، وعلموا أنَّ الدنيا ليسَتْ لهم بدارٍ فاستبدلوا ، واستعِدُّوا للموتِ ، فقدْ أظلَّكُم ، وترحَّلوا ؛ فقدْ جَدَّ بكُمْ ، وإنَّ غايةً تنقصُها اللحظةُ وتهدِمُها الساعةُ لجديرةٌ بقصرِ المدةِ ، وإنَّ غائباً يجدُّ بِهِ الجديدانِ الليلُ والنَّهارُ لحريٌّ بسرعةِ الأوبةِ ، وإنَّ قادماً يحلُّ بالفوزِ أو الشقوةِ لمستحقٌّ لأفضلِ العدَّةِ ، فالتقيُّ عندَ ربِّهِ مَنْ ناصَحَ نفسَهُ ، وقدَّمَ توبتَهُ وغلَبَ شهوتَهُ ، فإنَّ أجلَهُ مستورٌ عنهُ ، وأملَهُ خادعٌ لهُ ، والشيطانَ موكَّلٌ بهِ ، يمنِّيهِ التوبةَ ليسوِّفَها ، ويزينُ لهُ المعصيةَ ليرتكبَهَا ، حتىٰ تهجمَ منيَّتُهُ عليهِ أغفلَ ما يكونُ عنهَا ، وإنَّهُ ما بينَ أحدِكُمْ وبينَ الجنَّةِ أو النَّارِ إلا الموتُ أن ينزلَ به ، فيا لها مِن حسرةٍ علىٰ ذي غفلةٍ أنْ يكونَ عمرُهُ عليهِ حجةً وأن ترديَهُ أيامُهُ إلىٰ شقوةٍ !! جعلَنا اللهُ وإيَّاكُم ممَّنْ لا تبطرُهُ نعمةٌ ، ولا تقصرُ بِهِ عنْ طاعةِ اللهِ معصيةٌ ، ولا يحلُّ بِهِ بعدَ الموتِ حسرةٌ ، إنَّهُ سميعُ الدعاءِ ، وإنَّهُ بيدِهِ الخيرُ دائماً فعَّالٌ لما يشاءُ)[(٢)]

وقالَ بعضُ المفسرينَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال : بالشهواتِ واللذَّاتِ ، ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ قالَ : بالتوبةِ ، ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ قالَ : شككتُم ، ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ قالَ : الموتُ ، ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ قالَ : الشيطانُ[(٣)]

وقالَ الحسنُ : (تصبَّروا وتشدَّدوا ؛ فإنَّما هيَ أيامٌ قلائلُ ، وإنَّما أنتُمْ ركبٌ وقوفٌ يوشكُ أنْ يُدعى الرجلُ منكم فيجيبَ ولا يلتفتَ ، فانتقلوا بصالحِ ما بحضرتِكُمْ)[(٤)]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ أصبحَ . . إلَّا وهوَ ضيفٌ ومالُهُ عاريةٌ ، والضيفُ مرتحلٌ والعاريةُ مؤدَّاةٌ)[(٥)]

وقالَ أبو عبيدةَ النَّاجيُّ : دخلنا على الحسنِ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ فقالَ : (مرحباً بكُم وأهلاً ، وحيَّاكُمُ اللهُ بالسَّلامِ ، وأحلَّنا وإيَّاكُم دارَ المقامِ ، هـٰذهِ علانيةٌ حسنةٌ إن صبرتُم وصدقتُم واتقيتُم ، فلا يكنْ حظُّكُم مِنْ هـٰذا الخبرِ ـ رحمَكُمُ اللهُ ـ أنْ تسمعوهُ بهـٰذهِ الأذنِ وتخرجوهُ من هـٰذهِ الأذنِ ؛ فإنَّهُ مَنْ رأىٰ محمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فقد رآهُ غادياً ورائحاً لم يضع لبنةً علىٰ لبنةٍ ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ ، ولـٰكنْ رُفع لهُ علمٌ فشمَّرَ إليهِ ، الوحا الوحا ، النجا النجا ، علامَ تُعرِّجونَ ؟ أتيتُم وربِّ الكعبةِ كأنَّكم والأمرَ معاً ، رحمَ اللهُ عبداً جعلَ العيشَ عيشاً واحداً ، فأكلَ كسرةً ، ولبسَ خَلَقاً ، ولزقَ بالأرضِ ، واجتهدَ في العبادةِ ، وبكىٰ على الخطيئةِ ، وهربَ مِنَ العقوبةِ ، وابتغى الرحمةَ حتىٰ يأتيَهُ أجلُهُ وهوَ علىٰ ذٰلكَ)[(٦)]

وقالَ عاصمٌ الأحولُ : قالَ لي فضيلٌ الرقاشيُّ وأنا أسائلُهُ : (يا هـٰذا ؛ لا يشغلَنَّكَ كثرةُ الناسِ عن نفسِكَ ؛ فإنَّ الأمرَ يخلصُ إليكَ دونَهُم ، ولا تقلْ : أذهبُ ها هنا وها هنا فينقطعَ عنكَ النَّهارُ في لا شيءَ ، فإنَّ الأمرَ محفوظٌ عليكَ ، ولم ترَ شيئاً قطُّ أحسنَ طلباً ولا أسرعَ إدراكاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قديمٍ)[(٧)]

❊ ❊ ❊

---

(١) وهو سيدنا علي رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٦١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٦٦) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٦٣) .
(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠١/٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٤/١)
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٧٦) ، وابن حبان في « الثقات » (٣٢٧/٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٥٤/٢) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢٠/٣) .

الباب الثالث
في سكرات الموت، وشدته، وما يستحب من الأحوال عند الموت

اعلمْ : أنَّه لو لمْ يكنْ بينَ يدي العبدِ المسكينِ كربٌ ولَا هولٌ ولا عذابٌ سوىٰ سكراتِ الموتِ بمجرَّدها . . لكانَ جديراً بأن يتنغصَ عليهِ عيشُهُ ، ويتكدَّرَ عليهِ سرورُهُ ، ويفارقَهُ سهوُهُ وغفلتُهُ [1] ، وحقيقاً بأن تطولَ فيه فكرتُهُ ، ويعظمَ لهُ استعدادُهُ ، لا سيما وهو في كلِّ نفسٍ بصددِهِ ؛ كما قالَ بعضُ الحكماءِ : (كربٌ بيدِ سواكَ لا تدري متىٰ يغشاكَ) .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ أمرٌ لا تدري متىٰ يلقاكَ . . استعدَّ لهُ قبلَ أنْ يفجاكَ) .

والعجبُ أنَّ الإنسانَ لو كانَ في أعظمِ اللذَّاتِ وأطيبِ مجالسِ اللهوِ فانتظرَ أن يدخلَ عليهِ جنديٌّ فيضربهُ خمسَ خشباتٍ . . لتكدرَتْ عليهِ لذَّتُهُ وفسدَ عليهِ عيشُهُ ، وهوَ في كلِّ نفَسٍ بصددِ أن يدخلَ عليهِ ملكُ الموتِ بسكراتِ النزعِ وهوَ عنهُ غافلٌ !! فما لهٰذا سببٌ إلَّا الجهلُ والغرورُ .

❊ ❊ ❊

واعلمْ : أنَّ شدةَ الألمِ في سكراتِ الموتِ لا يعرفُها بالحقيقةِ إلَّا مَنْ ذاقَها ، ومَنْ لم يذقْها . . فإنَّما يعرفُها إمَّا بالقياسِ إلى الآلامِ التي أدركَها ، وإمَّا بالاستدلالِ بأحوالِ الناسِ في النزعِ علىٰ شدةِ ما هم فيهِ .

فأمَّا القياسُ الذي يشهدُ لهُ . . فهوَ أنَّ كلَّ عضوٍ لا روحَ فيهِ فلا يحسُّ بالألمِ ، فإذا كانَ فيهِ الروحُ . . فالمدركُ للألمِ هوَ الروحُ ، فمهما أصابَ العضوَ جرحٌ أو حريقٌ . . سرى الأثرُ إلى الروحِ ، فبقدرِ ما يسري إلى الروحِ يتألمُ ، والمؤلمُ يتفرقُ على اللحمِ والدمِ وسائرِ الأجزاءِ ، فلا يصيبُ الروحَ إلَّا بعضُ الألمِ ، فإنْ كانَ في الآلامِ ما يباشرُ نفسَ الروحِ ولا يلاقي غيرَهُ . . فما أعظمَ ذٰلكَ الألمَ وما أشدَّهُ !! والنَّزعُ عبارةٌ عن مؤلمٍ نزلَ بنفسِ الروحِ فاستغرقَ جميعَ أجزائِهِ ، حتىٰ لمْ يبقَ جزءٌ من أجزاءِ الروحِ المنتشرِ في أعماقِ البدنِ إلَّا وقدْ حلَّ بهِ الألمُ ، فلو أصابَتْهُ شوكةٌ . . فالألمُ الذي يجدُهُ إنَّما يجري في جزءٍ مِنَ الروحِ يلاقي ذٰلكَ الموضعَ الذي أصابَتْهُ الشوكةُ .

وإنَّما يعظمُ أثرُ الاحتراقِ لأنَّ أجزاءَ النَّارِ تغوصُ في سائرِ أجزاءِ البدنِ ، فلا يبقىٰ جزءٌ مِنَ العضوِ المحترقِ ظاهراً وباطناً إلَّا وتصيبُهُ النَّارُ ، فتحسُّهُ الأجزاءُ الروحانيَّةُ المنتشرةُ في سائرِ أجزاءِ اللحمِ .

وأمَّا الجراحةُ . . فإنَّما تصيبُ الموضعَ الذي مسَّهُ الحديدُ فقطْ ، فكانَ لذٰلكَ ألمُ الجرحِ دونَ ألمِ النَّارِ .

فألمُ النزعِ يهجمُ علىٰ نفسِ الروحِ ويستغرقُ جميعَ أجزائِهِ ؛ فإنَّهُ المنزوعُ المجذوبُ مِنْ كلِّ عرقٍ مِنَ العروقِ ، وعصبٍ من الأعصابِ ، وجزءٍ مِنَ الأجزاءِ ، ومفصلٍ مِنَ المفاصلِ ، ومِنْ أصلِ كلِّ شعرةٍ وبشرةٍ مِنَ الفَرْقِ إلى القدمِ ، فلا تسألْ عَنْ كربِهِ وألمِهِ ، حتىٰ قالوا : إنَّ الموتَ لأشدُّ مِنْ ضربٍ بالسيفِ ونشرٍ بالمناشيرِ وقرضٍ بالمقاريضِ ؛ لأنَّ قطعَ البدنِ بالسيفِ إنَّما يؤلمُ لتعلقِهِ بالروحِ ، فكيفَ إذا كانَ المتناولُ المباشرُ نفسَ الروحِ ؟!

---

(١) في (أ ، ب ، د) : (شهوته) بدل (سهوه) .

وإنَّما يستغيثُ المضروبُ ويصيحُ لبقاءِ قوَّتِهِ في قلبِهِ وفي لسانِهِ ، وإنَّما انقطعَ صوتُ الميتِ وصياحُهُ مَعَ شدةِ ألمِهِ ؛ لأنَّ الكربَ قدْ بالغَ فيهِ وتصاعدَ علىٰ قلبِهِ ، وغلبَ كلَّ موضعٍ منهُ ، فهدَّ كلَّ قوةٍ ، وضَعَّفَ كلَّ جارحةٍ ، فلمْ يتركْ لهُ قوةَ الاستغاثةِ .

أمَّا العقلُ . . فقد غشيَهُ وشوشَهُ ، وأمَّا اللسانُ . . فقدْ أبكمَهُ ، وأمَّا الأطرافُ . . فقد ضعَّفَها ، ويودُّ لوْ قدَرَ على الاستراحةِ بالأنينِ والصِّياحِ والاستغاثةِ ، ولـٰكنَّهُ لا يقدرُ علىٰ ذٰلكَ ، فإنْ بقيَتْ فيهِ قوةٌ . . سمعتَ لهُ عندَ نزعِ الروحِ وجذبِهَا خُواراً وغرغرةً مِنْ حلقِهِ وصدرِهِ ، وقدْ تغيَّرَ لونُهُ واربدَّ حتىٰ كأنَّهُ ظهرَ منهُ الترابُ الذي هوَ أصلُ فطرتِهِ ، وقد جُذِبَ منهُ كلُّ عرقٍ علىٰ حيالِهِ ، فالألمُ منتشرٌ في داخلِهِ وخارجِهِ حتىٰ ترتفعَ الحدقتانِ إلىٰ أعالي أجفانِهِ ، وتتقلصَ الشفتانِ ويتقلصَ اللسانُ إلىٰ أصلِهِ ، وترتفعَ الأنثيانِ إلىٰ أعالي موضعِهما ، وتخضرَّ أناملُهُ ، فلا تسألْ عن بدنٍ يُجذبُ منهُ كلُّ عرقٍ مِنْ عروقِهِ !! ولوْ كانَ المجذوبُ عرقاً واحداً . . لكانَ ألمُهُ عظيماً ، فكيفَ والمجذوبُ نفسُ الروحِ المتألِمِ لا مِنْ عرقٍ واحدٍ ، بل مِنْ جميعِ العروقِ ؟!

ثمَّ يموتُ كلُّ عضوٍ مِنْ أعضائِهِ تدريجاً ، فتبردُ أولاً قدماهُ ، ثمَّ ساقاهُ ، ثم فخذاهُ ، ولكلِّ عضوٍ سكرةٌ بعدَ سكرةٍ وكربةٌ بعدَ كربةٍ ، حتىٰ يبلغَ بها إلى الحلقومِ ، فعندَ ذٰلكَ ينقطعُ نظرُهُ عنِ الدنيا وأهلِها ، ويُغلقُ دونَهُ بابُ التوبةِ ، وتحيطُ بهِ الحسرةُ والندامةُ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تُقبلُ توبةُ العبدِ ما لم يغرغرْ »[١]

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ قالَ : (إذا عاينَ الرسلَ . . فعندَ ذٰلكَ تبدو لهُ صفحةُ وجهِ ملكِ الموتِ ، فلا تسألْ عَنْ طعمِ مرارةِ الموتِ وكربِهِ عندَ ترادفِ سكراتِهِ !!) .

ولذٰلكَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ هوِّنْ علىٰ محمَّدٍ سكراتِ الموتِ »[٢]

والنَّاسُ إنَّما يستعيذونَ منهُ ولا يستعظمونَهُ لجهلِهِم بهِ[٣] ؛ فإنَّ الأشياءَ قبلَ وقوعِها إنَّما تُدركُ بنورِ النبوةِ والولايةِ ، ولذٰلكَ عظمَ خوفُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ والأولياءِ مِنَ الموتِ ، حتىٰ قالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ ادعوا اللهَ تعالىٰ أن يهوِّنَ عليَّ هٰذهِ السكرةَ ؛ يعني الموتَ ، فقد خفتُ الموتَ مخافةً أوقفَني خوفي مِنَ الموتِ على الموتِ)[٤]

ورُوِيَ أنَّ نفراً من بني إسرائيلَ مروا بمقبرةٍ ، فقالَ بعضُهُم لبعضٍ : لو دعوتُمُ اللهَ تعالىٰ أن يخرجَ لكُمْ مِنْ هٰذهِ المقبرةِ ميتاً تسألونَهُ ، فدعوُا اللهَ تعالىٰ ؛ فإذا هُمْ برجلٍ قدْ قامَ وبينَ عينيهِ أثرُ السجودِ قدْ خرجَ مِنْ قبرٍ مِنَ القبورِ ، فقالَ : يا قومِ ؛ ما أردتُم منِّي ؟ لقدْ ذقتُ الموتَ منذُ خمسينَ سنةً ما سكنَتْ مرارةُ الموتِ مِنْ قلبي[٥]

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٣) .

(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، وعند البخاري (٦٥١٠) نحوه .

(٣) في (ف ، ص) : (إنما لا يستعيذون) ، وكلاهما بمعنىً .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٠) .

(٥) رواه عبد بن حميد في « المنتخب » (١١٥٧) ، وأحمد في « الزهد » (٨٨) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لا أغبطُ أحداً يهونُ عليهِ الموتُ بعدَ الذي رأيتُ مِنْ شدَّةِ موتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[١]

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ كانَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ إنَّكَ تأخذُ الروحَ مِنْ بينِ العصبِ والقصبِ والأناملِ ، اللهمَّ ؛ فأعنِّي على الموتِ وهوِّنْهُ عليَّ »[٢]

وعنِ الحسنِ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذكرَ الموتَ وغصتَهُ وألَمَهُ فقالَ : « هوَ قدرُ ثلاثِ مئةِ ضربةٍ بالسَّيْفِ »[٣]

وسُئلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنِ الموتِ وشدَّتِهِ فقالَ : « إنَّ أهونَ الموتِ بمنزلةِ حسكةٍ في صوفٍ ، فهل تخرجُ الحسكةُ مِنَ الصوفِ إلَّا ومعَها صوفٌ »[٤]

ودخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على مريضٍ ثمَّ قالَ : « إنِّي أعلمُ ما يلقى ، ما منهُ عرقٌ إلَّا ويألَمُ للموتِ على حدَتِهِ »[٥]

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يحضُّ على القتالِ ويقولُ : (إنْ لم تُقتلوا . . تموتوا ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ لألفُ ضربةٍ بالسيفِ أهونُ مِنْ موتٍ على فراشٍ)[٦]

وقالَ الأوزاعيُّ : (بلغَنا أنَّ الميتَ يجدُ ألَمَ الموتِ ما لَمْ يُبعثْ مِنْ قبرِهِ)[٧]

وقالَ شدادُ بنُ أوسٍ : (الموتُ أفظعُ هولٍ في الدنيا والآخرةِ على المؤمنِ ، وهوَ أشدُّ مِنْ نشرٍ بالمناشيرِ وقرضٍ بالمقاريضِ وغليٍ في القدورِ ، ولوْ أنَّ الميتَ نُشرَ فأخبرَ أهلَ الدنيا بألمِ الموتِ . . ما انتفعوا بعيشٍ ولا لذُّوا بنومٍ)[٨] .

وعَنْ زيدِ بنِ أسلمَ عَنْ أبيهِ قالَ : (إذا بقيَ على المؤمنِ مِنْ درجاتِهِ شيءٌ لم يبلغْها بعملِهِ . . شُدِّدَ عليهِ الموتُ ؛ ليبلغَ بسكراتِ الموتِ وكربِهِ درجتَهُ في الجنَّةِ ، وإذا كانَ للكافرِ معروفٌ لم يُجزَ بِهِ في الدنيا . . هُوِّنَ عليهِ في الموتِ ؛ ليستكملَ ثوابَ معروفِهِ فيصيرَ إلى النَّارِ)[٩]

وعَنْ بعضِهِم أنَّهُ كانَ يسألُ كثيراً مِنَ المرضى : كيفَ تجدونَ الموتَ ؟ فلمَّا مرضَ . . قيلَ لهُ : فأنتَ كيفَ تجدُهُ ؟ فقالَ : (كأنَّ السماواتِ مطبقةٌ على الأرضِ ، وكأنَّ نفسي تخرجُ مِنْ ثقبِ إبرةٍ)[١٠]

---

(١) رواه الترمذي (٩٧٩) ، وعند البخاري (٤٤٤٦) نحوه .

(٢) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » من حديث طعمة بن غيلان الجعفي ، وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي) . « إتحاف » (٢٦٠/١٠) .

(٣) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » هكذا مرسلاً ورجاله ثقات) . « إتحاف » (٢٦٠/١٠) .

(٤) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » من رواية شهر بن حوشب مرسلاً) . « إتحاف » (٢٦٠/١٠) ، **والحَسَك** : نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٦٩/٦) ، والبزار في « مسنده » (٢٥١٢) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٦١/١٠) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٦١/١٠) ، وروى أبو نعيم في « الحلية » (٤٤/٦) عن كعب قال : (لا يذهب عن الميت ألم الموت ما دام في قبره وإنه لأشدُّ ما يمر على المؤمن ، وأهون ما يصيب الكافر) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٦١/١٠) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » ، وفيه : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، فالمراد بأبيه هو زيد بن أسلم ، والضمير راجع إلى عبد الرحمن ، وفي سياق المصنف خطأ ، ولو قال : عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه . . لأصاب . « إتحاف » (٢٦١/١٠) .

(١٠) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٥٤/٣ ـ ٤٥٥) ، وابن سعد في « الطبقات » (٨١/٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « موتُ الفجأةِ راحةٌ للمؤمنِ ، وأسفٌ على الفاجرِ »[(١)]

ورُويَ عن مكحولٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لوْ أنَّ شعرةً منْ شعرِ الميتِ وُضِعَتْ علىٰ أهلِ السماواتِ والأرضِ . . لماتوا بإذنِ اللهِ ، لأنَّ في كلِّ شعرةٍ الموتَ ، ولا يقعُ الموتُ بشيءٍ إلَّا ماتَ »[(٢)]

ويُروىٰ : (لوْ أنَّ قطرةً مِنْ ألمِ الموتِ وُضعَتْ علىٰ جبالِ الأرضِ كلِّها . . لذابَتْ)[(٣)]

ورُوِيَ أنَّ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ لمَّا ماتَ . . قالَ اللهُ تعالىٰ لهُ : كيفَ وجدتَ الموتَ يا خليلي ؟ فقالَ : (كسفُّودٍ جُعلَ في صوفٍ رطبٍ ثم جُذِبَ ، فقالَ : أما إنَّا قد هوَّنا عليكَ)[(٤)]

ورُوِيَ عَنْ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : أنَّهُ لمَّا صارَتْ روحُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . . قالَ لَهُ ربُّهُ : يا موسىٰ ؛ كيفَ وجدتَ الموتَ ؟ قالَ : وجدتُ نفسي كالعصفورِ حينَ يُقلىٰ على المِقْلىٰ ، لا يموتُ فيستريحَ ، ولا ينجو فيطيرَ[(٥)]

ورُوِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ : وجدتُ نفسي كشاةٍ حيةٍ تُسلخُ بيدِ القصابِ[(٦)]

ورُوِيَ عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنَّهُ كانَ عندهُ قدحٌ مِنْ ماءٍ عندَ الموتِ ، فجعلَ يدخلُ يدَهُ في الماءِ ثمَّ يمسحُ بها وجهَهُ ويقولُ : « اللهمَّ ؛ هوِّنْ عليَّ سكراتِ الموتِ »[(٧)] وفاطمةُ رضيَ اللهُ عنها تقولُ : واكرباهُ لكربِكَ يا أبتاهُ !! وهوَ يقولُ : « لا كربَ علىٰ أبيكِ بعدَ اليومِ »[(٨)]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لكعبِ الأحبارِ : يا كعبُ ؛ حدِّثْنا عنِ الموتِ ، فقالَ : (نعمْ يا أميرَ المؤمنينَ ، الموتُ كغصنٍ كثيرِ الشوكِ أُدخلَ في جوفِ رجلٍ ، وأخذَتْ كلُّ شوكةٍ بعرقٍ ، ثمَّ جذبَهُ رجلٌ شديدُ الجذبِ ، فأخذَ ما أخذَ وأبقىٰ ما أبقىٰ)[(٩)]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعالِجُ كربَ الموتِ وسكراتِ الموتِ ، وإنَّ مفاصلَهُ ليسلِّمُ بعضُها علىٰ بعضٍ تقولُ : عليكَ السَّلامُ ، تفارقُني وأفارقُكَ إلىٰ يومِ القيامةِ »[(١٠)]

❁ ❁ ❁

فهٰذهِ سكراتُ الموتِ علىٰ أولياءِ اللهِ وأحبابِه ، فما حالُنا ونحنُ المنهمكونَ في المعاصي ، وتتوالىٰ علينا معَ سكراتِ الموتِ بقيةُ الدواهي ؟! فإنَّ دواهيَ الموتِ ثلاثةٌ :

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٣٦/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٤٠) .

(٢) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » ، وفيه : « لو أن ألم شعرة ») . « إتحاف » (٢٦٢/١٠) .

(٣) روىٰ أبو بكر المروزي في « الجنائز » عن أبي ميسرة رفعه : « لو أن قطرة من ألم الموت وضعت علىٰ أهل السماء والأرض . . لماتوا جميعاً ، وإن في القيامة لساعة تضعف علىٰ شدة الموت سبعين ضعفاً » . « إتحاف » (١٠/٢٦٢) .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٤١٠) ، وفيه : (وجدت نفسي تنزع بالبلاء) بدل (كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب) ، وسفود ، كتنور : حديدة ذات شعب مُعقَّفة يشوىٰ بها .

(٥) رواه أحمد في « الزهد » . « إتحاف » (٢٦٢/١٠) .

(٦) رواه أيضاً أحمد في « الزهد » . « إتحاف » (٢٦٢/١٠) .

(٧) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، وعند البخاري (٦٥١٠) نحوه .

(٨) رواه ابن حبان (٦٦٢٢) ، وأصل الحديث في « البخاري » (٤٤٦٢)

(٩) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٧٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٦٥/٥) .

(١٠) رواه الديلمي في « الفردوس » (٦٥٩٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٠) .

الأولىٰ : شدَّةُ النزعِ كما ذكرناهُ .

❁ ❁ ❁

الداهيةُ الثانيةُ : مشاهدةُ صورةِ ملكِ الموتِ ، ودخولُ الروعِ والخوفِ منهُ على القلبِ ، فلوْ رأىٰ صورتَهُ التي يقبضُ عليها روحَ العبدِ المذنبِ أعظمُ الرجالِ قوةً . . لمْ يطقْ رؤيتَهُ ؛ فقد رُويَ عَنْ إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السَّلامُ : أنَّهُ قالَ لملكِ الموتِ : هلْ تستطيعُ أن تريَني صورتَكَ التي تقبضُ فيها روحَ الفاجرِ ؟ قالَ : لا تطيقُ ذٰلكَ ، قالَ : بلىٰ ، قالَ : فأعرِضْ عنِّي ، فأعرضَ عنهُ ، ثمَّ التفتَ ؛ فإذا هوَ برجلٍ أسودَ قائمِ الشعرِ ، منتنِ الرِّيحِ أسودِ الثيابِ ، يخرجُ مِنْ فيهِ ومناخرِهِ لهيبُ النَّارِ والدخانِ ، فغُشيَ علىٰ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ ، ثمَّ أفاقَ وقدْ عادَ ملكُ الموتِ إلىٰ صورتِهِ الأولىٰ ، فقالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ لوْ لمْ يلقَ الفاجرُ عندَ موتِهِ إلَّا صورةَ وجهِكَ . . لكانَ حسبَهُ[1]

ورویٰ أبو هريرةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنَّ داوودَ عليهِ السَّلامُ كانَ رجلاً غيوراً ، وكانَ إذا خرجَ . . غلَّقَ الأبوابَ ، فأغلقَ ذاتَ يومٍ وخرجَ ، فأشرفَتِ امرأتُهُ ؛ فإذا هيَ برجلٍ في الدارِ ، فقالَتْ : مَنْ أدخلَ هـٰذا الرجلَ ؟ لئنْ جاءَ داوودُ . . ليلقيَنَّ منهُ عتباً ، فجاءَ داوودُ عليهِ السَّلامُ فرآهُ فقالَ : مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : أنا الذي لا أهابُ الملوكَ ولا يمنعُ مني الحجّابُ ، فقالَ : فأنتَ واللهِ إذاً ملكُ الموتِ ، وزمَّلَ داوودُ عليهِ السَّلامُ مكانَهُ »[2]

ورُويَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ مرَّ بجمجمةٍ فضربَها برجلِه ، فقالَ : تكلَّمي بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، فقالَتْ : يا روحَ اللهِ ؛ أنا ملكُ زمانِ كذا وكذا ، بينا أنا جالسٌ في ملكي عليَّ تاجي وحولي جنودي وحشمي علىٰ سريرِ ملكي ؛ إذ بدا لي ملكُ الموتِ ، فزالَ مني كلُّ عضوٍ علىٰ حيالِهِ ، ثمَّ خرجَتْ نفسي إليه ، فيا ليتَ ما كانَ مِنْ تلكَ الجموعِ كانَ فرقةً !! ويا ليتَ ما كانَ مِنْ ذٰلك الأنسِ كانَ وحشةً !![3] .

فهـٰذهِ داهيةٌ يلقاها العصاةُ ويُكفاها المطيعونَ ؛ فقدْ حكى الأنبياءُ مجردَ سكرةِ النزعِ دونَ الروعةِ التي يدركُها مَنْ يشاهدُ صورةَ ملكِ الموتِ كذٰلكَ ، ولوْ رآها في منامِهِ ليلةً . . لتنغصَ عليهِ بقيةُ عمرِهِ ، فكيفَ برؤيتِهِ في مثلِ تلكَ الحالِ ؟!

وأمَّا المطيعُ . . فإنَّهُ يراهُ في أحسنِ صورةٍ وأجملِها ؛ فقدْ رویٰ عكرمةُ عنِ ابنِ عباسٍ : (أنَّ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ كانَ رجلاً غيوراً ، وكانَ لهُ بيتٌ يتعبَّدُ فيهِ ، فإذا خرجَ . . أغلقَهُ ، فرجعَ ذاتَ يومٍ ؛ فإذا برجلٍ في جوفِ البيتِ ، فقالَ : مَنْ أدخلَكَ داري ؟ فقالَ : أدخلَنيها ربُّها ، فقالَ : أنا ربُّها ، فقالَ : أدخلَنيها مَنْ هوَ أملكُ بها منِّي ومنْكَ ، فقالَ : فمَنْ أنتَ مِنَ الملائكةِ ؟ قالَ : أنا ملكُ الموتِ ، قالَ : هلْ تستطيعُ أنْ تريَني الصورةَ التي تقبضُ فيها روحَ المؤمنِ ؟ قالَ : نعم ، فأعرِضْ عنِّي ، فأعرضَ عنه ، ثمَّ التفتَ ؛ فإذا هوَ بشابٍّ فذكرَ مِنْ حسنِ وجهِهِ وحسنِ ثيابِهِ وطيبِ ريحِهِ ، فقالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ لوْ لمْ يلقَ المؤمنُ عندَ الموتِ إلَّا صورتَكَ . . كانَ حسبَهُ)[4]

ومنها : مشاهدةُ الملكينِ الحافظينِ ، قالَ وهيبٌ : بلغَنا أنَّهُ ما مِنْ ميتٍ يموتُ حتىٰ يتراءىٰ لهُ ملكاهُ الكاتبانِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٣) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/٤١٩) بنحوه ، وابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٤) ، وفي (ي) : (عنتاً) بدل (عتباً) ، وزمَّل : غطَّىٰ ؛ أي : غطَّى نفسه في ذٰلك المكان .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٩) بنحوه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٥) .

عملَهُ ، فإنْ كانَ مطيعاً . . قالا لهُ : جزاكَ اللهُ عنا خيراً ؛ فربَّ مجلسِ صدقٍ أجلستَنا ، وعملٍ صالحٍ أحضرتَنا ، وإنْ كانَ فاجراً . . قالا لهُ : لا جزاكَ اللهُ عنا خيراً ؛ فربَّ مجلسِ سوءٍ قدْ أجلستَنا ، وعملٍ غيرِ صالحٍ قدْ أحضرتَنا ، وكلامٍ قبيحٍ قدْ أسمعتَنا ، فلا جزاكَ اللهُ عنا خيراً ، فذلكَ شخوصُ بصرِ الميتِ إليهما ولا يرجعُ إلى الدنيا أبداً(١)

❁ ❁ ❁

الداهيةُ الثالثةُ : مشاهدةُ العصاةِ مواضعَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وخوفُهم قبلَ المشاهدةِ ؛ فإنَّهم في حالِ السكراتِ وقد تخاذلَتْ قواهمْ ، واستسلمَتْ للخروجِ أرواحُهُمْ ، ولنْ تخرجَ أرواحُهُمْ ما لمْ يسمعوا نغمةَ ملكِ الموتِ بإحدى البُشريينِ ؛ إمَّا : أبشرْ يا عدوَّ اللهِ بالنَّارِ ، أو : أبشرْ يا وليَّ اللهِ بالجنَّةِ ، وعنْ هٰذا كانَ خوفُ أربابِ الألبابِ .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لنْ يخرجَ أحدُكُمْ مِنَ الدنيا حتىٰ يعلمَ أينَ مصيرُهُ ، وحتىٰ يرىٰ مقعدَهُ مِنَ الجنَّةِ أوِ النَّارِ »(٢)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، ومَنْ كرهَ لقاءَ اللهِ . . كرهَ اللهُ لقاءَهُ » فقالوا : كلُّنا نكرهُ الموتَ ، قالَ : « ليسَ ذاكَ بذاكَ ، إنَّ المؤمنَ إذا فُرِجَ لهُ عما هوَ قادمٌ عليهِ . . أحبَّ لقاءَ اللهِ وأحبَّ اللهُ لقاءَهُ »(٣)

ورُوِيَ أنَّ حذيفةَ بنَ اليمانِ قالَ لأبي مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ لما بِهِ مِن آخرِ الليلِ : قمْ فانظرْ أيُّ ساعةٍ هٰذهِ ، فقامَ أبو مسعودٍ ثمَّ جاءَهُ فقالَ : قدْ طلعَتِ الحمراءُ ، فقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : أعوذُ باللهِ مِنْ صباحٍ إلى النَّارِ(٤)

ودخلَ مروانُ علىٰ أبي هريرةَ فقالَ مروانُ : اللهمَّ ؛ خفِّفْ عنهُ ، فقالَ أبو هريرةَ : اللهمَّ ؛ اشددْ ، ثمَّ بكىٰ أبو هريرةَ وقالَ : (واللهِ ؛ ما أبكي حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقِكُمْ ، ولٰكن أنتظرُ إحدى البشريينِ مِنْ ربي ؛ بجنَّةٍ أمْ بنارٍ)(٥)

ورُوِيَ في الحديثِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ إذا رضيَ عَنْ عبدٍ . . قالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ اذهبْ إلىٰ فلانٍ فأتني بروحِهِ لأريحَهُ ، حسبي مِنْ عملِهِ ، قدْ بلوتُهُ فوجدتُهُ حيثُ أحبُّ ، فينزلُ ملكُ الموتِ ومعَهُ خمسُ مئةٍ مِنَ الملائكةِ معَهم قضبانُ الريحانِ وأصولُ الزعفرانِ ، كلُّ واحدٍ منهم يبشرُهُ ببشارةٍ سوىٰ بشارةِ صاحبِهِ ، وتقومُ الملائكةُ صفينِ لخروجِ روحِهِ معَهم الريحانُ ، فإذا نظرَ إليهِمْ إبليسُ . . وضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ ثمَّ صرخَ ، قالَ : فيقولُ لهُ جنودُهُ : ما لكَ يا سيِّدَنا ؟ فيقولُ : أما ترونَ ما أُعطيَ هٰذا العبدُ مِنَ الكرامةِ ؟! أينَ كنتُم عَنْ هٰذا ؟ قالوا : قد جهدنا بهِ فكانَ معصوماً »(٦)

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/١٥١ ـ ١٥٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٦) .
(٣) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٤) بنحوه .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (١٠٩٨٢) ، والطبراني في « الكبير » (٣/١٦٣) ، وفي النسخ : (لابن مسعود . . . فقام ابن مسعود) ، والتصويب من المصادر ، وانظر « الإتحاف » (١٠/٢٦٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٧) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٧) .

وقالَ الحسنُ : (لا راحةَ للمؤمنِ إلَّا في لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، ومَنْ كانَتْ راحتُهُ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فيومُ الموتِ يومُ سرورِهِ وفرحِهِ ، وأمنِهِ وعزِّهِ وشرفِهِ)[1]

وقيلَ لجابرِ بنِ زيدٍ عندَ الموتِ : ما تشتهي ؟ قالَ : نظرةً إلى الحسنِ ، فلمَّا دخلَ عليهِ الحسنُ . . قيلَ لهُ : هٰذا الحسنُ ، فرفعَ طرفَهُ إليهِ ثمَّ قالَ : يا إخوتاهُ ؛ الساعةَ واللهِ أفارقُكُمْ إلى النَّارِ أو إلى الجنَّةِ[2]

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ عندَ الموتِ : (يا إخوتاهُ ؛ عليكمُ السَّلامُ ، إلى النَّارِ أو يعفوَ اللهُ)[3]

وتمنَّىٰ بعضُهم أنْ يبقىٰ في النزعِ أبداً ولا يُبعثَ لثوابٍ ولا عقابٍ .

فخوفُ سوءِ الخاتمةِ قطعَ قلوبَ العارفينَ ، وهيَ مِنَ الدواهي العظيمةِ عندَ الموتِ ، وقدْ ذكرنَا معنىٰ سوءِ الخاتمةِ وشدةَ خوفِ العارفينَ منهُ في كتابِ الخوفِ والرجاءِ ، وهو لائقٌ بهٰذا الموضعِ ، ولٰكنَّا لا نطولُ بذكرِهِ وإعادتِهِ .

* * *

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٨٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٣/٨) بنحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال الزبيدي في « الإتحاف » (٢٧٠/١٠) : (قال السخاوي : ورفعه بعضهم واستشهد له بحديث عائشة : « من أحب لقاء الله . . أحب الله لقاءه ») .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨٩/٣) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤٨/٢) .

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلمْ : أنَّ المحبوبَ عندَ الموتِ مِنْ صورةِ المحتضرِ هوَ الهدوءُ والسكونُ ، ومِنْ لسانِهِ أنْ يكونَ ناطقاً بالشهادةِ ، ومِنْ قلبِهِ أن يكونَ حسنَ الظنِّ باللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

أمَّا الصورةُ : فقد رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ارقبوا الميتَ عندَ ثلاثٍ : إذا رشحَ جبينُهُ ، وذرفَتْ عيناهُ ، ويبسَتْ شفتاهُ . . فهيَ مِنْ رحمةِ اللهِ قدْ نزلَتْ بهِ ، وإذا غطَّ غطيطَ المخنوقِ ، واحمرَّ لونُهُ ، وأزبدَتْ شفتاهُ . . فهوَ مِنْ عذابِ اللهِ قدْ نزلَ بهِ »[(١)]

❁ ❁ ❁

وأمَّا انطلاقُ لسانِهِ بكلمةِ الشهادةِ : فهيَ علامةُ الخيرِ .

قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقِّنوا موتاكُمْ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ »[(٢)] ، وفي روايةِ حذيفةَ : « فإنَّها تهدمُ ما قبلها مِنَ الخطايا »[(٣)]

وقالَ عثمانُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ وهوَ يعلمُ أنَّهُ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ . . دخلَ الجنَّةَ »[(٤)] ، وقالَ عبيدُ اللهِ : « وهوَ يشهدُ »[(٥)]

وقالَ عثمانُ : (إذا احتضرَ الميتُ . . فلقِّنوهُ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ؛ فإنَّهُ ما مِنْ عبدٍ يُختمُ لهُ بها عندَ موتِهِ إلَّا كانَتْ زادَهُ إلى الجنَّةِ)[(٦)]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (احضروا موتاكُم وذكِّروهم ؛ فإنَّهُم يرونَ ما لا ترونَ ، ولقِّنوهُم : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ)[(٧)]

وقالَ أبو هريرةَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « حضرَ ملكُ الموتِ رجلاً يموتُ ، فنظرَ في قلبِهِ فلم يجدْ فيهِ شيئاً ، ففكَّ لحييهِ فوجدَ طرفَ لسانِهِ لاصقاً بحنكِهِ يقولُ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، فغُفرَ له بكلمةِ الإخلاصِ »[(٨)] .

وينبغي للملقِّنِ ألَّا يلحَّ في التلقينِ ، ولـٰكنْ يتلطَّفُ ؛ فربَّما لا ينطلقُ لسانُ المريضِ فيشقُّ عليهِ ذٰلكَ ، ويؤدي إلى استثقالِهِ التلقينَ وكراهيتِهِ للكلمةِ ، ويُخشىٰ أنْ يكونَ ذٰلكَ سببَ سوءِ الخاتمةِ ، وإنَّما معنىٰ هـٰذهِ الكلمةِ أنْ يموتَ الرجلُ وليسَ في قلبِهِ شيءٌ غيرُ اللهِ ، فإذا لم يبقَ لهُ مطلوبٌ سوى الواحدِ الحقِ . . كانَ قدومُهُ بالموتِ علىٰ محبوبِهِ غايةَ النعيمِ في حقِّهِ .

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٢٥) .
(٢) رواه مسلم (٩١٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢) .
(٤) رواه مسلم (٢٦) .
(٥) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٨٨٦) ، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » (٢٢٩/٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧) من حديث معاذ رضي الله عنه .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨) .
(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٤) .

وإنْ كانَ القلبُ مشغوفاً بالدنيا ملتفتاً إليها متأسِّفاً على لذَّاتِها ، وكانَتِ الكلمةُ على رأسِ اللسانِ ولم ينطوِ القلبُ على تحقيقِها . . وقعَ الأمرُ في خطرِ المشيئةِ ، فإنَّ مجردَ حركةِ اللسانِ قليلُ الجدوىٰ إلَّا أنْ يتفضَّلَ اللهُ تعالىٰ بالقبولِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا حسنُ الظنِّ : فهوَ مستحبٌّ في هٰذا الوقتِ ، وقدْ ذكرنا ذٰلكَ في كتابِ الرجاءِ .

وقدْ وردَتِ الأخبارُ بفضلِ حسنِ الظنِّ باللهِ ، دخلَ واثلةُ بنُ الأسقعِ علىٰ مريضٍ فقالَ : أخبرْني كيفَ ظنُّكَ باللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : أغرقَتْني ذنوبٌ لي وأشفيتُ علىٰ هلكةٍ ، ولٰكنِّي أرجو رحمةَ ربي ، فكبَّرَ واثلةُ ، وكبَّرَ أهلُ البيتِ بتكبيرِهِ ، وقالَ : اللهُ أكبرُ ، سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ »[1]

ودخلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ شابٍّ وهوَ يموتُ فقالَ : « كيفَ تجدُكَ ؟ » فقالَ : أرجو اللهَ وأخافُ ذنوبي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اجتمعا في قلبِ عبدٍ في مثلِ هٰذا الموطنِ إلَّا أعطاهُ اللهُ الذي يرجو ، وآمنَهُ مِنَ الذي يخافُ »[2]

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : كانَ شابٌّ بهِ حدةٌ ، وكانَتْ لهُ أمٌّ تعظُهُ كثيراً وتقولُ لهُ : يا بنيَّ ؛ إنَّ لكَ يوماً فاذكرْ يومَكَ ، فلمَّا نزلَ بهِ أمرُ اللهِ تعالىٰ . . أكبَّتْ عليهِ أمُّهُ وجعلَتْ تقولُ لهُ : يا بنيَّ ؛ قدْ كنتُ أحذِّرُكَ مصرعَكَ هٰذا وأقولُ : إنَّ لكَ يوماً ، فقالَ : يا أمَّهْ ؛ إنَّ لي ربّاً كثيرَ المعروفِ ، وإنِّي لأرجو ألَّا يعدمَني اليومَ بعضَ معروفِهِ ، قالَ ثابتٌ : فرحمَهُ اللهُ تعالىٰ بحسنِ ظنِّهِ بربِّهِ[3]

وقالَ جابرُ بنُ وداعةَ : كانَ شابٌّ بهِ زهوٌ فاحتُضرَ ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : يا بنيَّ ؛ توصي بشيءٍ ؟ قالَ : نعمْ ، خاتمي لا تسلبينيهِ ؛ فإنَّ فيهِ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، فلعلَّ اللهَ أنْ يرحمَني ، فلمَّا دُفنَ . . رُئيَ في المنامِ فقالَ : أخبروا أمي أنَّ الكلمةَ قد نفعَتْني ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ غفرَ لي[4]

ومرضَ أعرابيٌّ فقيلَ لهُ : إنَّكَ تموتُ ، فقالَ : أينَ يُذهبُ بي ؟ قالوا : إلى اللهِ تعالىٰ ، قالَ : فما كراهتي أنْ أذهبَ إلىٰ من لا يُرى الخيرُ إلَّا منهُ[5]

وقالَ المعتمرُ بنُ سليمانَ : قالَ أبي حينَ حضرَتْهُ الوفاةُ : يا معتمرُ ؛ حدِّثْني بالرُّخَصِ لعلِّي ألقى اللهَ عزَّ وجلَّ وأنا حسنُ الظنِّ بهِ[6]

وكانوا يستحبُّونَ أن يُذكرَ للعبدِ محاسنُ عملِهِ عندَ موتِهِ ؛ لكي يحسنَ ظنَّهُ بربِّهِ[7]

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٦) ، وأحمد في « المسند » (٣/٤٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥) .

(٢) رواه الترمذي (٩٨٣) ، وابن ماجه (٤٢٦١) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٣٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٢٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٣٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٥) ، وفيه وفي (ق) : (رهق) بدل (زهو) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٧) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٧) ، وفي (أ) : (أحسنُ) بدل (حسن) وهي موافقة لما في « الحلية » .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٣٠) .

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يُعرب لسان الحال عنها

قالَ أشعثُ بنُ أسلمَ : سألَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ ملكَ الموتِ ـ واسمهُ عزرائيلُ ، وله عينانِ : عينٌ في وجههِ وعينٌ في قفاهُ ـ فقالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ ما تصنعُ إذا كانَ نفسٌ بالمشرقِ ونفسٌ بالمغربِ ، ووقعَ الوباءُ بأرضٍ والتقى الزحفانِ . . كيفَ تصنعُ ؟ قال : أدعو الأرواحَ بإذنِ اللهِ تعالىٰ فتكونُ بينَ إصبعيَّ هاتينِ ، وقالَ : قدْ دُحيَتْ لهُ الأرضُ فتُركَتْ مثلَ الطَّسْتِ بينَ يديهِ ، يتناولُ منها حيثُ يشاءُ ، قالَ : وهوَ الذي بشَّرَهُ بأنَّهُ خليلُ اللهِ عزَّ وجلَّ[1]

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ لملكِ الموتِ عليه السَّلامُ : ما لي لا أراكَ تعدلُ بينَ النَّاسِ ، تأخذُ هٰذا وتدعُ هٰذا ؟! قالَ : ما أنا بذٰلكَ بأعلمَ منكَ ، إنَّما هيَ صحفٌ أو كتبٌ تُلقىٰ إليَّ فيها أسماءٌ[2]

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : كانَ ملكٌ مِنَ الملوكِ أرادَ أنْ يركبَ إلىٰ أرضٍ فدعا بثيابٍ ليلبسَها فلم تعجبْهُ ، فطلبَ غيرَها حتىٰ لبسَ ما أعجبَهُ بعدَ مرَّاتٍ ، وكذٰلكَ طلبَ دابةً فأُتيَ بها فلمْ تعجبْهُ حتىٰ أُتيَ بدوابَّ فركبَ أحسنَها ، فجاءَ إبليسُ فنفخَ في منخرِهِ نفخةً فملأهُ كبراً ، ثمَّ سارَ وسارَتْ معَهُ الخيولُ وهوَ لا ينظرُ إلى النَّاسِ كبراً ، فجاءَهُ رجلٌ رثُّ الهيئةِ فسلَّمَ عليهِ فلمْ يردَّ عليهِ السَّلامَ ، فأخذَ بلجامِ دابتِهِ فقالَ : أرسلِ اللجامَ ؛ فقدْ تعاطيتَ أمراً عظيماً ، فقالَ : إنَّ لي إليكَ حاجةً ، قالَ : اصبرْ حتىٰ أنزلَ ، قالَ : لا ، الآنَ ، فقهرَهُ علىٰ لجامِ دابتِهِ ، فقالَ : اذكرْها ، قالَ : هوَ سرٌّ ، فأدنىٰ لهُ رأسَهُ ، فسارَّهُ وقالَ : أنا ملكُ الموتِ ، فتغيَّرَ لونُ الملكِ واضطربَ لسانُهُ ، ثمَّ قالَ : دعْني حتىٰ أرجعَ إلىٰ أهلي فأقضيَ حاجتي وأودِّعَهم ، قالَ : لا ، واللهِ ؛ لا ترىٰ أهلَكَ وثقَلَكَ أبداً[3] ، فقبضَ روحَهُ ، فخرَّ كأنَّهُ خشبةٌ ، ثمَّ مضىٰ فلقيَ عبداً مؤمناً في تلكَ الحالِ ، فسلَّمَ عليهِ فردَّ عليهِ السَّلامَ ، فقالَ : إنَّ لي حاجةً أذكرُها في أذنِكَ ، فقالَ : هاتِ ، فسارَّهُ وقالَ : أنا ملكُ الموتِ ، فقالَ : مرحباً وأهلاً بمَنْ طالَتْ غيبتُهُ عليَّ ، فواللهِ ؛ ما كانَ في الأرضِ غائبٌ أحبَّ إليَّ أنْ ألقاهُ مِنْكَ ، فقالَ لهُ ملكُ الموتِ : اقضِ حاجتَكَ التي خرجتَ لها ، فقالَ : ما لي حاجةٌ أكبرُ عندي ولا أحبُّ إليَّ مِنْ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ : فاخترْ علىٰ أيِّ حالٍ شئتَ أنْ أقبضَ روحَكَ ، فقالَ : وتقدرُ علىٰ ذٰلكَ ؟ قالَ : نعمْ ، إنِّي أُمرتُ بذٰلكَ ، قالَ : فدعْني حتىٰ أتوضأَ وأُصليَ فاقبضْ روحي وأنا ساجدٌ ، فقبضَ روحَهُ وهوَ ساجدٌ[4]

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : جمعَ رجلٌ مِنْ بني إسرائيلَ مالاً ، فلمَّا أشرفَ على الموتِ . . قالَ لبنيهِ : أروني أصنافَ أموالي ، فأُتيَ بشيءٍ كثيرٍ مِنَ الخيلِ والإبلِ والرقيقِ وغيرِها ، فلمَّا نظرَ إليهِ . . بكىٰ تحسُّراً عليهِ ، فرآهُ ملكُ الموتِ وهو يبكي فقالَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فوالذي خوَّلَك ؛ ما أنا بخارجٍ مِن منزلِكَ حتىٰ أفرِّقَ بينَ روحِكَ وبدنِكَ ، قالَ : فالمهلةَ حتىٰ أفرِّقَهُ ، قالَ : هيهاتَ !! انقطعَتْ عنكَ المهلةُ ، فهلَّا كانَ ذٰلكَ قبلَ حضورِ أجلِكَ ؟! فقبضَ روحَهُ[5]

ورُوِيَ أنَّ رجلاً جمعَ مالاً فأوعىٰ ، ولم يدَعْ صنفاً مِنَ المالِ إلَّا اتخذَهُ ، وابتنىٰ قصراً ، وجعلَ عليهِ بابينِ وثيقينِ ، وجمعَ عليهِ حرساً من غلمانِهِ ، ثمَّ جمعَ أهلَهُ وصنعَ لهم طعاماً ، وقعدَ علىٰ سريرِهِ ورفعَ إحدىٰ رجليهِ على الأخرىٰ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٧٩/١٠) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٤٠٨) .

(٣) الثَّقَلُ : متاع المسافر وحشمه وكل شيء نفيس مصون

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٨٠/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢/٦ ـ ٢٠٣) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٨١/١٠) .

وهم يأكلونَ ، فلمَّا فرغوا . . قالَ : يا نفسُ ؛ انعمي لسنينَ ؛ فقدْ جمعتُ لكِ ما يكفيكِ ، فلم يفرغْ مِنْ كلامِهِ حتىٰ أقبلَ إليهِ ملكُ الموتِ في هيئةِ رجلٍ عليهِ خُلقانٌ مِنَ الثيابِ ، في عنقِهِ مخلاةٌ يتشبَّهُ بالمساكينِ ، فقرعَ البابَ بشدةٍ عظيمةٍ قرعاً أفزعَهُ وهوَ علىٰ فراشِهِ ، فوثبَ إليهِ الغلمانُ وقالوا : ما شأنُكَ ؟ فقالَ : ادعوا لي مولاكم ، فقالوا : وإلىٰ مثلِكَ يخرجُ مولانا ؟! قالَ : نعمْ ، فأخبَرُوهُ بذٰلكَ ، فقالَ : هلَّا فعلتُمْ بهِ وفعلتُمْ ، فقرعَ البابَ قرعةً أشدَّ مِنَ الأولىٰ ، فوثبَ إليهِ الحرسُ ، فقالَ : أخبروهُ أنِّي ملكُ الموتِ ، فلمَّا سمعوهُ . . أُلقيَ عليهِمُ الرعبُ ، ووقعَ علىٰ مولاهمُ الذلُّ والتخشعُ ، فقالَ : قولوا لهُ قولاً ليناً ، وقولوا لهُ : هلْ تأخذُ بهِ أحداً ؟ فدخلَ عليهِ وقالَ : اصنعْ في مالِكَ ما أنتَ صانعٌ ؛ فإنِّي لستُ بخارجٍ منها حتىٰ أخرجَ نفسَكَ ، فأمرَ بمالِهِ حتىٰ وُضِعَ بينَ يديهِ ، فقالَ حينَ رآهُ : لعنَكَ اللهُ مِنْ مالٍ ؛ أنتَ شغلتَني عَنْ عبادةِ ربي ، ومنعتَني أنْ أتخلَّىٰ لربي ، فأنطقَ اللهُ المالَ فقالَ : لِمَ تسبُّني وقدْ كنتَ تدخلُ على السُّلطانِ بي ويُردُّ المتَّقونَ عَنْ بابِهِ ، وكنتَ تنكحُ المتنعماتِ بي ، وتجلسُ مجالسَ الملوكِ بي ، وتردُّ المتقينَ ، وتنفقُني في سبيلِ الشرِّ فلَا أمتنعُ منكَ ، ولوْ أنفقتَني في سبيلِ الخيرِ . . نفعتُكَ ؟! خُلقتُ وابنَ آدمَ مِنْ ترابٍ ، فمنطلقٌ ببرٍّ ومنطلقٌ بإثمٍ ، ثمَّ قبضَ ملكُ الموتِ روحَهُ فسقطَ (١)

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : قبضَ ملكُ الموتِ روحَ جبارٍ مِنَ الجبابرةِ ما في الأرضِ مثلُهُ ، ثمَّ عرجَ إلى السماءِ ، فقالتِ الملائكةُ : لمَنْ كنتَ أشدَّ رحمةً ممَّنْ قبضتَ روحَهُ ؟ قالَ أُمرتُ بقبضِ نفسِ امرأةٍ في فلاةٍ مِنَ الأرضِ ، فأتيتُها وقد ولدَتْ مولوداً ، فرحمتُها لغربتِها ورحمتُ ولدَها لصغرِهِ وكونِهِ في الفلاةِ لا متعهدَ لهُ بها ، فقالتِ الملائكةُ : الجبارُ الذي قبضتَ الآنَ روحَهُ هوَ ذٰلكَ المولودُ الذي رحمتَهُ ، فقالَ ملكُ الموتِ : سبحانَ اللطيفِ لما يشاءُ !! (٢)

وقالَ عطاءُ بنُ يسارٍ : إذا كانَ ليلةُ النصفِ من شعبانَ . . دُفعَ إلىٰ ملكِ الموتِ صحيفةٌ فيُقالُ : اقبضْ في هٰذهِ السنةِ مَنْ في هٰذهِ الصحيفةِ ، قالَ : فإنَّ العبدَ ليغرسُ الغراسَ وينكحُ الأزواجَ ويبني البنيانَ وإنَّ اسمَهُ في تلكَ الصحيفةِ وهوَ لا يدري (٣)

وقالَ الحسنُ : ما مِنْ يومٍ إلَّا وملكُ الموتِ يتصفحُ كلَّ بيتٍ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فمَنْ وجدَهُ منهم قدِ استوفىٰ رزقَهُ وانقضىٰ أجلُهُ . . قبضَ روحَهُ ، فإذا قبضَ روحَهُ . . أقبلَ أهلُهُ برنةٍ وبكاءٍ ، فيأخذُ ملكُ الموتِ بعضادتيِ البابِ فيقولُ : واللهِ ؛ ما أكلتُ لهُ رزقاً ، ولا أفنيتُ له عمراً ، ولا انتقصتُ لهُ أجلاً ، وإنَّ لي فيكم لعودةً ثمَّ عودةً حتىٰ لا أبقيَ منكم أحداً ، قالَ الحسنُ : فواللهِ ؛ لو رأَوا مقامَهُ وسمعوا كلامَهُ . . لذهلوا عَنْ ميتِهِمْ ، ولبَكَوا علىٰ أنفسِهِم (٤)

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : بينما جبَّارٌ مِنَ الجبابرةِ مِنْ بني إسرائيلَ جالسٌ في منزلِهِ قدْ خلَا ببعضِ أهلِهِ ؛ إذْ نظرَ إلىٰ شخصٍ قدْ دخلَ مِنْ بابِ بيتِهِ ، فثارَ إليهِ فزعاً مُغضَباً ، فقالَ : مَنْ أنتَ ؟ ومَنْ أدخلَكَ داري ؟ فقالَ : أمَّا الذي أدخلَني الدارَ . . فربُّها ، وأمَّا أنا . . فالذي لا يمنعُني الحجابُ ، ولا أستأذنُ على الملوكِ ، ولا أخافُ صولةَ المتسلِّطينَ ، ولا يمتنعُ مني كلُّ جبارٍ عنيدٍ ولا شيطانٍ مريدٍ ، قالَ : فسُقِطَ في يدِي الجبارِ وأُرعدَ حتىٰ سقطَ منكبّاً لوجهِهِ ، ثمَّ رفعَ إليه

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٨١/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٠/٥ ـ ٢٤١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٨١/١٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٨١/١٠) ، ويؤيده ما رواه الديلمي في « الفردوس » (٢٤١٠) : « تقطع الآجال من شعبان إلىٰ شعبان حتىٰ إن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتىٰ » .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٢٨٢/١٠) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤١) .

رأسَهُ مستعطفاً متذللاً لهُ ، فقالَ لهُ : أنتَ إذاً ملكُ الموتِ ، قالَ : أنا هوَ ، قالَ : فهل أنتَ ممهلي حتىٰ أحدثَ عهداً ؟ قالَ : هيهاتَ !! انقطعَتْ مدتُكَ ، وانقضَتْ أنفاسُكَ ، ونفِدَتْ ساعاتُكَ ، فليسَ إلىٰ تأخيرِكَ سبيلٌ ، قالَ : فإلىٰ أينَ تذهبُ بي ؟ قالَ : إلىٰ عملِكَ الذي قدَّمتَهُ ، وإلىٰ بيتِكَ الذي مهَّدتَهُ ، قالَ : فإنِّي لمْ أقدِّمْ عملاً صالحاً ، ولم أمهِّدْ بيتاً حسناً ، قالَ : فإلىٰ لظىٰ نزاعةً للشوىٰ ، ثمَّ قبضَ روحَهُ ، فسقطَ ميتاً بينَ أهلِهِ ، فمِنْ بينِ صارخٍ وباكٍ .

قالَ يزيدُ الرقاشيُّ : لوْ يعلمونَ سوءَ المنقلبِ . . كانَ العويلُ علىٰ ذٰلكَ أكثرَ [1]

وعنِ الأعمشِ عَنْ خيثمةَ قالَ : دخلَ ملكُ الموتِ علىٰ سليمانَ بنِ داوودَ عليهما السَّلامُ ، فجعلَ ينظرُ إلىٰ رجلٍ من جلسائِهِ يديمُ النظرَ إليهِ ، فلمَّا خرجَ . . قالَ : الرجلُ مَنْ هٰذا ؟ قال : هٰذا ملكُ الموتِ ، قالَ : لقدْ رأيتُهُ ينظرُ إليَّ كأنَّهُ يريدُني ، قالَ : فماذَا تريدُ ؟ قالَ : أريدُ أنْ تخلِّصَني منهُ فتأمرَ الريحَ حتىٰ تحملَني إلىٰ أقصى الهندِ ، ففعلَتِ الريحُ ذٰلكَ .

ثمَّ قالَ سليمانُ لملكِ الموتِ بعدَ أنْ أتاهُ ثانياً : رأيتُكَ تديمُ النظرَ إلىٰ واحدٍ من جلسائي ، قالَ : نعمْ ، كنتُ أتعجبُ منهُ ؛ لأنِّي كنتُ أُمرتُ أنْ أقبضَهُ بأقصى الهندِ في ساعةٍ قريبةٍ ، وكانَ عندَكَ فعجبتُ مِنْ ذٰلكَ [2]

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٨٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٤٠٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١١٨) .

البَابُ الرّابِعُ
في وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والخلفاء الرّاشدين من بعده

وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

اعلمْ : أنَّ في رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسوةً حسنةً حيّاً وميتاً ، وفعلاً وقولاً ، وجميعُ أحوالِهِ عبرةٌ للنَّاظرينَ وتبصرةٌ للمستبصرينَ [1] ؛ إذْ لمْ يكنْ أحدٌ أكرمَ على اللهِ تعالىٰ منهُ ؛ إذْ كانَ خليلَ اللهِ وحبيبَهُ ونجيَّهُ ، وكانَ صفيَّهُ ورسولَهُ ونبيَّهُ ، فانظرْ هلْ أمهلَهُ ساعةً عندَ انقضاءِ مدتِهِ ؟ وهلْ أخَّرَهُ لحظةً بعدَ حضورِ منيَّتِهِ ؟ لا ، بلْ أرسلَ إليهِ الملائكةَ الكرامَ الموكَّلينَ بقبضِ أرواحِ الأنامِ ، فجدُّوا بروحِهِ الزكيَّةِ الكريمةِ لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عنْ جسدِهِ الطاهرِ إلىٰ رحمةٍ ورضوانٍ وخيراتٍ حسانٍ ، بلْ إلىٰ مقعدِ صدقٍ في جوارِ الرحمـٰنِ ، فاشتدَّ معَ ذلكَ في النزعِ كربُهُ وظهرَ أنينُهُ ، وترادفَ قلقُهُ وارتفعَ حنينُهُ ، وتغيَّرَ لونُهُ وعرقَ جبينُهُ ، واضطربَتْ في الانقباضِ والانبساطِ شمالُهُ ويمينُهُ ، حتىٰ بكىٰ لمصرعِهِ مَنْ حضرَهُ ، وانتحبَ لشدَّةِ حالِهِ مَنْ شاهدَ منظرَهُ ، فهلْ رأيتَ منصبَ النبوَّةِ دافعاً عنهُ مقدوراً ؟! أوْ هلْ راقبَ الملكُ فيهِ أهلاً وعشيراً ؟! وهلْ سامحَهُ إذْ كانَ للحقِّ نصيراً ، وللخلقِ بشيراً ونذيراً ؟! هيهاتَ !! بلِ امتثلَ ما كانَ بهِ مأموراً ، واتبعَ ما وجدَهُ في اللوحِ مسطوراً .

فهـٰذا كانَ حالَهُ وهوَ عندَ اللهِ ذو المقامِ المحمودِ والحوضِ المورودِ ، وهوَ أوَّلُ مَنْ تنشقُّ عنهُ الأرضُ ، وهوَ صاحبُ الشفاعةِ يومَ العرضِ ، فالعجبُ أنَّا لا نعتبرُ بهِ !! ولسنا علىٰ ثقةٍ فيما نلقاهُ ، بلْ نحنُ أُسَراءُ الشهواتِ ، وقرناءُ المعاصي والسيئاتِ ، فما بالُنا لا نتَّعِظُ بمصرعِ محمَّدٍ سيّدِ المرسلينَ وإمامِ المتقينَ وحبيبِ ربِّ العالمينَ ؟!

لعلَّنا نظنُّ أنَّا مُخلَّدونَ ، أو نتوهمُ أنَّا معَ سوءِ أفعالِنا عندَ اللهِ مُكْرَمونَ ، هيهاتَ هيهاتَ !! بلْ نتيقنُ أنَّا جميعاً على النارِ واردونَ ، ثمَّ لا ينجو منها إلَّا المتقونَ ، فنحنُ للورودِ مستيقنونَ ، وللصَّدَرِ عنها متوهِّمونَ ، لا ، بلْ ظلمنا أنفسَنا إنْ كنَّا لذٰلكَ لغالبِ الظنِّ منتظرينَ ، فما نحنُ واللهِ مِنَ المتقينَ وقدْ قالَ اللهُ ربُّ العالمينَ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

فلينظرْ كلُّ عبدٍ إلىٰ نفسِهِ أنَّه إلى الظالمينَ أقربُ أمْ إلى المتقينَ ؟ فانظرْ إلىٰ نفسِكَ بعدَ أنْ تنظرَ إلىٰ سيرةِ السلفِ الصالحينَ ؛ فلقدْ كانوا معَ ما وُفِّقوا لهُ من الخائفينَ ، ثمَّ انظرْ إلىٰ سيِّدِ المرسلينَ ؛ فإنَّهُ كانَ مِنْ أمرِهِ علىٰ يقينٍ ؛ إذْ كانَ سيِّدَ النبيينَ وقائدَ المتقينَ ، واعتبرْ كيفَ كانَ كربُهُ عندَ فراقِ الدنيا ، وكيفَ اشتدَّ أمرُهُ عندَ الانقلابِ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ .

قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلنا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بيتِ أمِّنا عائشةَ رضيَ اللهُ عنها حينَ دنا الفراقُ ، فنظرَ إلينا فدمعَتْ عيناهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ قالَ : « مرحباً بكُمْ ، حيَّاكمُ اللهُ ، آواكمُ اللهُ ، نصرَكمُ اللهُ ، أوصيكُمْ بتقوى اللهِ ، وأوصي بكمُ اللهَ ، إنّي لكم منهُ نذيرٌ مبينٌ ألَّا تعلوا على اللهِ في عبادِهِ وبلادِهِ ، وقدْ دنا الأجلُ

(1) في (د ، ص) : (وبصيرة) .

والمنقلبُ إلى اللهِ ، وإلىٰ سدرةِ المنتهىٰ وإلىٰ جنَّةِ المأوىٰ وإلى الكأسِ الأوفىٰ ، فاقْرؤُوا علىٰ أنفسِكُمْ وعلىٰ من دخلَ في دينِكُم بعدي مني السَّلامَ ورحمةَ اللهِ »[١]

ورُوِيَ أنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لجبريلَ عليهِ السَّلامُ عندَ موتِهِ : « مَنْ لأمَّتي بعدي ؟ » فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ جبريلَ أنْ بشِّرْ حبيبي أنِّي لا أخذلُهُ في أمَّتِهِ ، وبشِّرْهُ بأنَّهُ أسرعُ الناسِ خروجاً مِنَ الأرضِ إذا بُعثوا ، وسيِّدُهُم إذا جُمعوا ، وأنَّ الجنَّة محرمةٌ على الأممِ حتىٰ تدخلَها أمَّتُهُ ، فقالَ : « الآنَ قرَّتْ عيني »[٢]

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أمرَنَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ نغسلَهُ بسبعِ قربٍ من سبعةِ آبارٍ ، ففعلنا ذٰلكَ ، فوجدَ راحةً فخرجَ فصلَّىٰ بالنَّاسِ ، واستغفرَ لأهلِ أحدٍ ودعا لهم ، وأوصىٰ بالأنصارِ فقالَ : « أمَّا بعدُ : يا معشرَ المهاجرينَ ؛ فإنَّكم تزيدونَ وأصبحَتِ الأنصارُ لا تزيدُ علىٰ هيئتِها التي هيَ عليها اليومَ ، وإنَّ الأنصارَ عيبتي التي آويتُ إليها[٣] ، فأكرِمُوا كريمَهم ـ يعني : محسنَهُم ـ وتجاوزوا عن مسيئِهم » ثمَّ قالَ : « إنَّ عبداً خُيِّرَ بينَ الدنيا وبينَ ما عندَ اللهِ فاختارَ ما عندَ اللهِ » ، فبكىٰ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وظنَّ أنَّهُ يريدُ نفسَهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علىٰ رِسلِكَ يا أبا بكرٍ ، سدُّوا هٰذهِ الأبوابَ الشوارعَ في المسجدِ إلَّا بابَ أبي بكرٍ ؛ فإنِّي لا أعلمُ امرأً أفضلَ عندي في الصحبةِ مِنْ أبي بكرٍ »[٤]

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (فقُبِضَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بيتي ، وفي يومي ، وبينَ سحري ونحري ، وجمعَ اللهُ بينَ ريقي وريقِهِ عندَ الموتِ ، فدخلَ عليَّ أخي عبدُ الرحمٰنِ وبيدِهِ سواكٌ ، فجعلَ ينظرُ إليهِ ، فعرفتُ أنه يعجبُهُ ذٰلكَ ، فقلتُ : آخذُهُ لكَ ، فأومأَ برأسِهِ أنْ نعمْ ، فناولتُهُ إيَّاهُ ، فأدخلَهُ في فيهِ ، فاشتدَّ عليهِ ، فقلتُ : أليِّنُهُ لكَ ، فأومأَ برأسِهِ أنْ نعمْ ، فليَّنتُهُ ، وكانَ بينَ يديهِ ركوةٌ فيها ماءٌ ، فجعلَ يدخلُ يدَهُ فيها ويمسحُ بها وجهَهُ ويقولُ : « لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، إنَّ للموتِ لسكراتٍ » ثمَّ نصبَ يدَهُ يقولُ : « الرفيقَ الأعلى ، الرفيقَ الأعلىٰ » فقلتُ : إذاً واللهِ لا يختارُنا)[٥]

وروىٰ سعيدُ بنُ عبدِ اللهِ عَنْ أبيهِ قالَ : لمَّا رأتِ الأنصارُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزدادُ ثقلاً . . أطافوا بالمسجدِ ، فدخلَ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأعلمَهُ بمكانِهم وإشفاقِهِمْ ، ثمَّ دخلَ عليهِ الفضلُ فأعلمَهُ بمثلِ ذٰلكَ ، ثمَّ دخلَ عليهِ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ فأعلمَهُ بمثلِهِ ، فمدَّ يدَهُ وقالَ : « ها » فتناولوه ، فقال : « ما يقولونَ ؟ » قالوا : يقولونَ : نخشىٰ أنْ تموتَ ، وتصايحَ نساؤُهم لاجتماعِ رجالِهم إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فثارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فخرجَ متوكِّئاً علىٰ عليٍّ والفضلِ ، والعباسُ أمامَهُ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معصوبُ الرأسِ يخطُّ برجليهِ ، حتىٰ جلسَ علىٰ أسفلِ مرقاةٍ مِنَ المنبرِ وثابَ الناسُ إليهِ ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ وأثنىٰ عليهِ وقالَ : « أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّهُ بلغَني أنَّكم تخافونَ عليَّ الموتَ كأنَّهُ استنكارٌ منكُم للموتِ ، وما تنكرونَ مِنْ موتِ نبيِّكُم ؟! أَلَمْ أُنعَ إليكُم وتُنعَ إليكُم أنفسُكُم ؟! هلْ خُلِّدَ نبيٌّ قبلي فيمَنْ بُعثَ فأُخلَّدَ فيكم ؟! ألا إنِّي لاحقٌ بربِّي وإنَّكم لاحقونَ بهِ ، وإنِّي أوصيكُم بالمهاجرينَ الأولينَ خيراً ، وأوصي المهاجرينَ فيما بينَهُم ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۞

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٢٠٢٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٠٠٨) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٥٨/٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٧/٤) .

(٣) عيبتي : أي : موضع سري .

(٤) رواه الدارمي في « مسنده » (٨٢) ، وأصل الحديث عند البخاري (١٩٨ ، ٣٦٥٥) .

(٥) رواه البخاري (٤٤٤٩) واللفظ له ، ومسلم (٢٤٤٤) .

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . ﴾ إلىٰ آخرها ، وإنَّ الأمورَ تجري بإذنِ اللهِ ، فلا يحملنَّكُمُ استبطاءُ أمرٍ علىٰ استعجالِهِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يعجَلُ لعجلةِ أحدٍ ، ومَنْ غالبَ اللهَ . . غلبَهُ ، ومَنْ خادعَ اللهَ . . خدعَهُ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ ؟!

وأُوصيكم بالأنصارِ خيراً ؛ فإنَّهمُ الذينَ تبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ قبلِكُمْ ؛ أنْ تحسنوا إليهم ، أَلَمْ يشاطروكمُ الثمارَ ؟! أَلَمْ يوسّعوا عليكُم في الديارِ ؟! أَلَمْ يؤثروكُمْ علىٰ أنفسِهِم وبهِمُ الخصاصةُ ؟! أَلَا فمَنْ وليَ أنْ يحكمَ بينَ رجلينِ . . فليقبلْ مِنْ محسنِهِم وليتجاوزْ عَنْ مسيئِهِم ، أَلَا ولا تستأثروا عليهِمْ ، أَلا وإنّي فرطٌ لكُمْ وأنتُم لاحقونَ بي ، أَلَا وإنَّ موعدَكمُ الحوضُ ، حوضي أعرضُ ممَّا بين بصرى الشامِ وصنعاءِ اليمنِ ، يصبُّ فيهِ ميزابُ الكوثرِ ماءً أشدَّ بياضاً مِنَ اللَّبَنِ ، وألينَ مِنَ الزبدِ ، وأحلىٰ مِنَ الشهدِ ، مَنْ شربَ منهُ . . لمْ يظمأْ أبداً ، حصباؤُهُ اللؤلؤُ ، وبطحاؤُهُ مِنْ مسكٍ ، مَنْ حُرِمَهُ في الموقفِ غداً . . حُرِمَ الخيرَ كلَّهُ ، أَلَا فمَنْ أحبَّ أنْ يَرِدَهُ عليَّ غداً . . فليكففْ لسانَهُ ويدَهُ إلَّا ممَّا ينبغي » .

فقالَ العباسُ : يا نبيَّ اللهِ ؛ أوصِ بقريشٍ ، فقالَ : « إنَّما أُوصي بهـٰذا الأمرِ قريشاً ، والناسُ تبعٌ لقريشٍ ، برُّهم لبرِّهم وفاجرُهم لفاجرِهِم ، فاستوصوا آلَ قريشٍ بالنَّاسِ خيراً ، يا أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّ الذنوبَ تغيِّرُ النعمَ وتبدِّلُ القسمَ ، فإذا برَّ الناسُ . . برَّهم أئمتُهُم ، وإذا فجرَ الناسُ . . عقُّوهم ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ »[1]

وروى ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « سلْ يا أبا بكرٍ » فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ دنا الأجلُ ؟ فقالَ : « قدْ دنا الأجلُ وتدلَّىٰ » فقالَ : ليهنِكَ يا نبيَّ اللهِ ما عندَ اللهِ ، فليتَ شعري عنْ منقلبِنا ، فقالَ : « إلى اللهِ تعالىٰ وإلىٰ سدرةِ المنتهىٰ ، ثمَّ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ والفردوسِ الأعلىٰ ، والكأسِ الأوفىٰ والرفيقِ الأعلىٰ ، والحظِّ والعيشِ المهنا » فقالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ مَنْ يلي غسلَكَ ؟ قالَ : « رجالٌ مِنْ أهلِ بيتي الأدنىٰ فالأدنىٰ » قالَ : ففيمَ نكفنُكَ ؟ قالَ : « في ثيابي هـٰذهِ ، وفي حُلَّةٍ يمانيةٍ ، وفي بياضِ مصرَ » فقالَ : كيفَ الصلاةُ عليكَ منَّا ؟ وبكينا وبكىٰ ثمَّ قالَ : « مهلاً غفرَ اللهُ لكُم ، وجزاكُمْ عَنْ نبيِّكُم خيراً ، إذا غسَّلتُموني وكفَّنتُموني . . فضعوني علىٰ سريري في بيتي هـٰذا علىٰ شفيرِ قبري ، ثمَّ اخرجوا عنِّي ساعةً ؛ فإنَّ أوَّلَ مَنْ يصلِّي عليَّ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ ، ثمَّ يأذنُ للملائكةِ في الصلاةِ عليَّ ، فأولُ مَنْ يدخلُ عليَّ مِنْ خلقِ اللهِ ويصلِّي عليَّ جبريلُ ، ثمَّ ميكائيلُ ، ثمَّ إسرافيلُ ، ثمَّ ملكُ الموتِ معَ جنودٍ كثيرةٍ ، ثمَّ الملائكةُ بأجمعِها صلَّى اللهُ عليهِم أجمعينَ ، ثمَّ أنتُم ، فادخلوا عليَّ أفواجاً فصلُّوا عليَّ أفواجاً زمرةً زمرةً ، وسلِّموا تسليماً ولا تؤذوني بتزكيةٍ ولا صيحةٍ ولا رنةٍ ، وليبدأْ منكمُ الإمامُ وأهلُ بيتي الأدنىٰ فالأدنىٰ ، ثمَّ زمرُ النساءِ ، ثمَّ زمرُ الصبيانِ » قالَ : فمَنْ يدخلُكَ القبرَ ؟ قالَ : « زمرٌ مِنْ أهلِ بيتي الأدنىٰ فالأدنىٰ معَ ملائكةٍ كثيرةٍ لا ترونَهُم وهُمْ يرونَكُمْ ، قوموا فأدُّوا عنِّي إلىٰ مَنْ بعدي »[2]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ زمعةَ : (جاءَ بلالٌ في أولِ شهرِ ربيعٍ الأولِ فأذَّنَ بالصلاةِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مروا أبا بكرٍ يصلي بالناسِ » فخرجتُ فلم أرَ بحضرةِ البابِ إلَّا عمرَ في رجالٍ ليسَ فيهم أبو بكرٍ ، فقلتُ : قمْ يا عمرُ

---

(١) قال العراقي : (هو مرسل ضعيف وفيه نكارة ، ولم أجد له أصلاً) ، وقال الزبيدي : (أسنده سيف بن عمر في كتاب « الفتوح » هـٰكذا ، وأورده الفاكهاني في « الفجر المنير ») . انظر « الإتحاف » (١٠/٢٩٠) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٢٠٢٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٠٠٨) ، وابن سعد في « الطبقات » (٢/٢٢٤ ـ ٢٢٥) وفيه : (وليبتدئ بالصلاة عليَّ رجال من أهلي ثم نساؤهم ثم أنتم) .

فصلِّ بالناسِ ، فقامَ عمرُ ، فلمَّا كبرَ وكانَ رجلاً صيتاً . . سمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صوتَهُ بالتكبيرِ فقالَ : « أينَ أبو بكرٍ ؟ يأبى اللهُ ذٰلكَ والمسلمونَ ـ قالها ثلاثَ مراتٍ ـ مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ » ، فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ أسيفٌ ، إذا قامَ في مقامِكَ . . غلبَهُ البكاءُ ، فقالَ : « مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ » فقالَتْ عائشةُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيقُ القلبِ ، إذا قامَ في مقامِكَ . . غلبَهُ البكاءُ ، فقالَ : « إنَّكُنَّ صويحباتُ يوسفَ ، مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ » قالَ : فصلىٰ أبو بكرٍ بعد الصلاةِ التي صلَّىٰ عمرُ)[1]

وكانَ عمرُ يقولُ لعبدِ اللهِ بنِ زمعةَ بعدَ ذٰلكَ : (ويحَكَ !! ماذا صنعتَ بي ؟! واللهِ ؛ لولا أنِّي ظننتُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَكَ . . ما فعلتُ) ، فيقولُ عبدُ اللهِ : (إنِّي لمْ أرَ أحداً أولىٰ بذٰلكَ منكَ)[2]

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (وما قلتُ ذٰلكَ ولا صرفتُهُ عَنْ أبي بكرٍ إلَّا رغبةً بهِ عَنِ الدنيا ، ولمَا في الولايةِ مِنَ المخاطرةِ والهلكةِ إلَّا ما سلَّمَ اللهُ ، وخشيتُ أيضاً ألَّا يكونَ الناسُ يحبونَ رجلاً صلَّىٰ في مقامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ حيٌّ أبداً إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ يحسدونَهُ ويبغونَ إليهِ ، ويتشاءمونَ بهِ ، فإذا الأمرُ أمرُ اللهِ ، والقضاءُ قضاؤُهُ ، وعصمَهُ اللهُ مِنْ كلِّ ما تخوَّفتُ عليهِ من أمرِ الدنيا والدينِ)[3]

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فلمَّا كانَ اليومُ الذي ماتَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . رأَوْا منهُ خفةً في أولِ النَّهارِ ، فتفرَّقَ عنهُ الرجالُ إلىٰ منازلِهم وحوائجِهم مستبشرينَ ، وأخلوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالنساءِ ، فبينا نحنُ علىٰ ذٰلكَ لمْ نكنْ علىٰ مثلِ حالِنا في الرجاءِ والفرحِ قبلَ ذٰلكَ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اخرجنَ عنِّي ، هٰذا الملكُ يستأذنُ عليَّ » فخرجَ مَنْ في البيتِ غيري ، ورأسُهُ في حجري ، فجلسَ وتنحَّيتُ في ناحيةِ البيتِ ، فناجى الملكَ طويلاً ، ثمَّ إنَّهُ دعاني فأعادَ رأسَهُ في حجري ، وقالَ للنسوةِ : « ادخلنَ » فقلتُ : ما هٰذا بحسِّ جبريلَ عليهِ السلامُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أجلْ يا عائشةُ ؛ هٰذا ملكُ الموتِ ، جاءَني فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرسلَني وأمرَني ألَّا أدخلَ عليكَ إلَّا بإذنٍ ، فإنْ لمْ تأذنْ لي . . أرجعُ ، وإنْ أذنتَ لي . . دخلتُ ، وأمرَني ألَّا أقبضَ روحَكَ حتىٰ تأمرَني ، فماذا أمرُكَ ؟ فقلتُ : اكففْ حتىٰ يأتيَني جبريلُ عليهِ السلامُ ، فهٰذهِ ساعةُ جبريلَ » .

فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فاستقبلَنا بأمرٍ لم يكنْ لهُ عندَنا جوابٌ ولا رأيٌ ، فوَجَمْنا وكأنَّما ضُربنا بصاخَّةٍ ما نحيرُ إليهِ شيئاً[4] ، وما يتكلمُ أحدٌ مِنْ أهلِ البيتِ إعظاماً لذٰلكَ الأمرِ ، وهيبةً ملأَتْ أجوافَنَا .

قالَتْ : وجاءَ جبريلُ في ساعتِهِ ، فسلَّمَ فعرفتُ حسَّهُ ، وخرجَ أهلُ البيتِ ، فدخلَ فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرأُ عليكَ السَّلامَ ويقولُ : كيفَ تجدُكَ ؟ وهوَ أعلمُ بالذي تجدُ منكَ ، ولٰكنْ أرادَ أنْ يزيدَكَ كرامةً وشرفاً ، وأنْ يتمَّ كرامتَكَ وشرفَكَ على الخلقِ ، وأن تكونَ سنَّةً في أمتِكَ[5] ، فقالَ : « أجدُني وجعاً » قالَ : أبشِرْ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أرادَ أن يبلِّغَكَ ما أعدَّ لكَ .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٦٦٠) ، وأصله في « البخاري » (٦٦٤ ، ٦٧٨) ، و« مسلم » (٤١٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/٣٢٢) .

(٣) رواه البخاري (٤٤٤٥) بلفظ : « فقالت : لقد راجعته وما حملني علىٰ كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أنه يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً ، ولا كنت أرىٰ أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأردت أن يعدل ذٰلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر » . « إتحاف » (١٠/٢٩٢) .

(٤) **الصاخة** : المصيبة الشديدة ، **ونحير** : نرجع .

(٥) أي : إذا دخلوا على المريض فيقولون كذٰلك . « إتحاف » (١٠/٢٩٢) .

فقالَ : « يا جبريلُ ؛ إنَّ ملكَ الموتِ استأذنَ عليَّ . . . » وأخبرَهُ الخبرَ فقالَ جبريلُ : يا محمدُ ؛ إنَّ ربَّكَ إليكَ مشتاقٌ ، ألمْ أُعلمْكَ الذي يريدُ بكَ ؟! لا واللهِ ما استأذنَ ملكُ الموتِ على أحدٍ قطُّ ولا يستأذنُ عليهِ أبداً ، إلَّا أنَّ ربَّكَ متمٌّ شرفَكَ ، وهوَ إليكَ مشتاقٌ ، قالَ : « فلا تبرحْ إذاً حتى يجيءَ »[١]

وأذنَ للنساءِ فقالَ : « ادني يا فاطمةُ » فأكبَّتْ عليهِ فناجاها ، فرفعَتْ رأسَها وعيناها تذرفانِ وما تُطيقُ الكلامَ ، ثمَّ قالَ : « أدني مني رأسَكِ » فأكبَّتْ عليهِ فناجاها ، فرفعَتْ رأسَها وهيَ تضحكُ وما تُطيقُ الكلامَ ، فكانَ الذي رأينا منها عجباً ، فسألْنَها بعدَ ذلكَ فقالَتْ : أخبرَني وقالَ : « إني ميتٌ اليومَ » فبكيتُ ، ثمَّ قالَ : « إنِّي دعوتُ اللهَ تعالى أنْ يُلحقَكِ بي في أولِ أهلي ، وأنْ يجعلَكِ معي » فضحكتُ[٢] ، وأدنتِ ابنيها منهُ فشمَّهُما[٣]

قالَتْ : وجاءَ ملكُ الموتِ ، فسلَّمَ واستأذنَ ، فأذنَ لهُ ، فقالَ الملكُ : ما تأمرُ يا محمدُ ؟ قالَ : « ألحقْني بربِّي الآنَ » فقالَ : بلى مِنْ يومِكَ هذا ، أمَا إنَّ ربَّكَ إليكَ مشتاقٌ ، ولم يترددْ عن أحدٍ ترددَهُ عنكَ ، ولم ينهني عن الدخولِ على أحدٍ إلا بإذنِ غيرِكَ ، ولكنْ ساعتُكَ أمامَكَ ، وخرجَ .

قالَتْ : وخرجَ جبريلُ فقالَ : عليكَ السلامُ يا رسولَ اللهِ ، هذا آخرُ ما أنزلُ فيه إلى الأرضِ أبداً ، طُويَ الوحيُ ، وطُويَتِ الدنيا ، وما كانت لي في الأرضِ حاجةٌ غيرَكَ ، وما لي فيها حاجةٌ إلَّا حضورُكَ ثمَّ لزومُ موقفي ، قالت : لا والذي بعثَ محمداً بالحقِّ ؛ ما في البيتِ أحدٌ يستطيعُ أن يحيرَ إليهِ في ذلكَ كلمةً ، ولا يبعثَ إلى أحدٍ من رجالِهِ ؛ لعظمِ ما يسمعُ مِنْ حديثِهِ ووجدِنا وإشفاقِنا[٤]

قالَتْ : فقمتُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتى أضعَ رأسَهُ بينَ ثدييَّ وأمسكتُ بصدرِهِ ، وجعلَ يُغمى عليهِ حتى يغلبَ[٥] وجبهتُهُ ترشحُ رشحاً ما رأيتُهُ مِنْ إنسانٍ قطُّ ، فجعلتُ أسلتُ ذلكَ العرقَ وما وجدتُ رائحةَ شيءٍ قطُّ أطيبَ منهُ ، فكنتُ أقولُ لهُ إذا أفاقَ : بأبي وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتُكَ مِنَ الرشحِ ، فقالَ : « يا عائشةُ ؛ إنَّ نفسَ المؤمنِ تخرجُ بالرشحِ ، ونفسَ الكافرِ تخرجُ مِنْ شدقِهِ كنفسِ الحمارِ »[٦]

فعندَ ذلكَ ارتعنا ، وبعثنا إلى أهلينا ، فكانَ أولُ رجلٍ جاءَنا ولم يشهدْهُ أخي ، بعثَهُ إليَّ أبي ، فماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يجيءَ أحدٌ ، وإنَّما صدَّهمُ اللهُ عنهُ لأنَّهُ ولاهُ جبريلَ وميكائيلَ .

وجعلَ إذا أُغميَ عليهِ قالَ : « بلِ الرفيقَ الأعلى » كأنَّ الخيرةَ تُعادُ عليهِ[٧]

فإذا أطاقَ الكلامَ . . قالَ : « الصلاةَ الصلاةَ ، إنَّكم لا تزالونَ متماسكينَ ما صليتُم جميعاً ، الصلاةَ الصلاةَ » كانَ يُوصي بها حتى ماتَ وهوَ يقولُ : « الصلاةَ الصلاةَ »[٨]

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٥٨/٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٦/٤) بنحوه .

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٣) ، ومسلم (٢٤٥٠) .

(٣) في (ب) : (وأذن لها فدنت منه فشمَّها) ، وفي (ص) : (وأدنت ابنتها منه فشمَّها) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢٩/٣) بنحوه .

(٥) وفيه جواز الإغماء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال ابن حجر في « شرح الشمائل » : لكن قيده الشيخ أبو حامد من أئمتنا بغير الطويل ، وجزم به البلقيني ، قال السبكي : ليس كإغماء غيرهم لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم ؛ لأنها إذا عصمت من النوم الأخف فالإغماء أولى . « إتحاف » (٢٩٣/١٠) .

(٦) رواه الطبراني (١٧٥/٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٣٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً .

(٧) رواه البخاري (٤٤٣٧) ، ومسلم (٢٤٤٤) .

(٨) رواه أبو داوود (٥١٥٦) ، وابن ماجه (٢٦٩٨) من حديث عليٍّ رضي الله عنه .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ ارتفاعِ الضُّحىٰ وانتصافِ النهارِ يومَ الاثنينِ)[1]

قالَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما لقيتُ مِنْ يومِ الاثنينِ ؟! واللهِ ؛ لا تزالُ الأمةُ تُصابُ فيهِ بعظيمةٍ) .

وقالَتْ أمُّ كلثومٍ يومَ أُصيبَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ بالكوفةِ مثلَها : (ما لقيتُ مِنْ يومِ الاثنينِ ؟! ماتَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وفيهِ قُتل بَعلي عمرُ ، وفيهِ قُتلَ أبي ، فما لقيتُ مِنْ يومِ الاثنينِ ؟!) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لمَّا ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . اقتحمَ النَّاسُ حينَ ارتفعتِ الرنةُ ، وسجِّيَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الملائكةُ بثوبِهِ ، فاختلفوا ، فكذَّبَ بعضُهم بموتِهِ ، وأُخرس بعضُهم فما تكلَّمَ إلَّا بعدَ البعدِ ، وخلطَ آخرونَ فلاثوا الكلامَ بغيرِ بيانٍ ، وبقيَ آخرونَ ومعَهم عقولُهم ، وأُقعدَ آخرونَ ، فكانَ عمرُ بنُ الخطابِ فيمَنْ كذَّبَ بموتِهِ ، وعليٌّ فيمَنْ أُقعدَ ، وعثمانُ فيمَنْ أُخرسَ ، فخرجَ عمرُ على النَّاسِ وقالَ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لم يمتْ ، وليرجعَنَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وليقطعَنَّ أيديَ رجالٍ وأرجلَهُمْ مِنَ المنافقينَ يتمنَّونَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الموتَ ، إنَّما واعدَهُ ربُّهُ عزَّ وجلَّ كما واعدَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ ، وهوَ آتيكُمْ ـ وفي روايةٍ أنَّهُ قالَ : يا أيُّها النَّاسُ ؛ كفُّوا ألسنتَكُم عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّهُ لمْ يمتْ ، واللهِ ؛ لَا أسمعُ أحداً يذكرُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدْ ماتَ إلَّا علوتُهُ بسيفي هـٰذا ـ وأمَّا عليٌّ . . فإنَّهُ أُقعدَ فلمْ يبرحْ في البيتِ ، وأمَّا عثمانُ . . فجعلَ لا يكلِّمُ أحداً ، يُؤخذُ بيدِهِ فيُجاءُ بِهِ ويُذهبُ بِهِ ، ولم يكنْ أحدٌ مِنَ المسلمينَ في مثلِ حالِ أبي بكرٍ والعباسِ ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عزمَ لهما بالتوفيقِ والسَّدادِ وإنْ كانَ النَّاسُ لَمْ يرعووا إلَّا بقولِ أبي بكرٍ ، ثمَّ جاءَ العباسُ فقالَ : واللهِ الذي لا إلـٰهَ إلَّا هوَ ؛ لقدْ ذاقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الموتَ ، ولقدْ قالَ وهوَ بينَ أظهرِكُم : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾)[2]

وبلغَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الخبرُ وهوَ في بني الحارثِ بنِ الخزرجِ ، فجاءَ ودخلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فنظرَ إليهِ ثمَّ أكبَّ عليهِ فقبَّلَهُ ثمَّ قالَ : بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، ما كانَ اللهُ ليذيقَكَ الموتَ مرَّتينِ ، فقد واللهِ توفيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ خرجَ إلى النَّاسِ فقالَ : أيُّها النَّاسُ ؛ مَنْ كانَ يعبدُ محمداً . . فإنَّ محمداً قد ماتَ ، ومَنْ كانَ يعبدُ ربَّ محمدٍ . . فإنَّهُ حيٌّ لا يموتُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، فكأنَّ النَّاسَ لم يسمعوا هـٰذهِ الآيةَ إلا يومئذٍ)[3]

وفي روايةٍ : أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا بلغَهُ الخبرُ . دخلَ بيتَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يصلي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعيناهُ تهملانِ ، وغُصَصُهُ ترتفعُ كقصعِ الجرَّةِ[4] ، وهوَ في ذٰلكَ جلدُ الفعلِ والمقالِ ، فأكبَّ عليهِ ، فكشفَ الثوبَ عَنْ وجهِهِ وقبَّلَ جبينَهُ وخدَّيهِ ومسحَ وجهَهُ ، وجعلَ يبكي ويقولُ : (بأبي أنتَ وأمي ونفسي وأهلي ، طبتَ حيّاً وميتاً ، انقطعَ لموتِكَ ما لمْ ينقطعْ لموتِ أحدٍ مِنَ الأنبياءِ ، وهوَ النبوَّةُ ، فعظمتَ عنِ الصفةِ وجللتَ

---

(١) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٢٣٨/٢) ، وفيه : (يوم الاثنين حين زاغت الشمس) .

(٢) قال العراقي : (هـٰذا السياق بطوله منكر لم أجد له أصلاً) قال الحافظ الزبيدي : (قلت : بل رواه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، وعزاه صاحب « المواهب » لابن المنير) ، وأما قول عمر رضي الله عنه . . فرواه ابن حبان (٦٨٧٥) ، وأصله عند البخاري (٣٦٧٠) . انظر « الإتحاف » (٢٩٨/١٠) .

(٣) رواه البخاري (١٢٤٢) .

(٤) في (ج) ونسخة الحافظ الزبيدي : (كقطع) . « إتحاف » (٢٩٩/١٠) .

عنِ البكاءِ ، وخصصتَ حتىٰ صرتَ مسلاةً[1] ، وعممتَ حتىٰ صرنا فيكَ سواءً ، ولولا أنَّ موتَكَ كانَ اختياراً منكَ . . لجدنا لحزنِكَ بالنفوسِ ، ولولا أنَّكَ نهيتَ عنِ البكاءِ . . لأنفذنا عليكَ ماءَ الشؤونِ[2] ، فأمَّا ما لا نستطيعُ نفيَهُ عنَّا . . فكمدٌ وادكارٌ محالفانِ لا يبرحانِ ، اللهمَّ ؛ فأبلغْهُ عنَّا ، اذكرْنا يا محمَّدُ صلَّى اللهُ عليكَ عندَ ربِّكَ ، ولنكنْ مِنْ بالِكَ ، فلولا ما خلفتَ مِنَ السكينةِ . . لمْ يقمْ أحدٌ لِما خلفتَ مِنَ الوحشةِ ، اللهمَّ ؛ أبلغْ نبيَّكَ عنَّا واحفظْهُ فينا)[3]

وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (أنهُ لما دخلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ البيتَ وصلَّىٰ وأثنىٰ . . عجَّ أهلُ البيتِ عجيجاً سمعَهُ أهلُ المصلَّىٰ ، كلَّما ذكرَ شيئاً . . ازدادوا ، فما سكَّنَ عجيجَهُم إلَّا تسليمُ رجلٍ على البابِ صيتٍ جلدٍ قالَ : السَّلامُ عليكم يا أهلَ البيتِ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ . . . ﴾ الآيةَ ، إنَّ في اللهِ خلفاً مِنْ كلِّ أحدٍ ، ودركاً لكلِّ رغبةٍ ، ونجاةً مِنْ كلِّ مخافةٍ ، فاللهَ فارجوا وبهِ فثِقوا وعليهِ فتوكَّلوا ؛ فإنَّما المصابُ مَنْ حُرِمَ الثوابَ ، فاستمعوا لهُ وأنكروهُ وقطعوا البكاءَ ، فلمَّا انقطعَ البكاءُ . . فُقِدَ صوتُهُ ، فاطَّلعَ أحدُهم فلمْ يرَ أحداً ، ثمَّ عادوا فبكَوا ، فناداهم منادٍ آخرُ لا يعرفونَ صوتَهُ : يا أهلَ البيتِ ؛ اذكروا اللهَ واحمدوه علىٰ كلِّ حالٍ . . تكونوا مِنَ المخلصينَ ، إنَّ في اللهِ عزاءً مِنْ كلِّ مصيبةٍ ، وعوضاً مِنْ كلِّ رغيبةٍ ، فاللهَ فأطيعوا ، وبأمرِهِ فاعملوا ، فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : هـٰذا الخضرُ واليسعُ عليهما السَّلامُ ، حضرا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[4]

واستوفى القعقاعُ بنُ عمرٍو حكايةَ خطبةِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : (قامَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ في الناسِ خطيباً حيثُ قضى النَّاسُ عبراتِهم بخطبةٍ جلُّها الصلاةُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فحمدَ اللهَ علىٰ كلِّ حالٍ وأثنىٰ عليهِ وقالَ : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ ، صدقَ وعدَهُ ونصرَ عبدَهُ ، وغلبَ الأحزابَ وحدَهُ ، فللهِ الحمدُ وحدَهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ وخاتمُ أنبيائِهِ ، وأشهدُ أنَّ الكتابَ كما نزلَ ، وأنَّ الدينَ كما شرعَ ، وأنَّ الحديثَ كما حدَّثَ ، وأنَّ القولَ كما قالَ ، وأنَّ اللهَ هوَ الحقُّ المبينُ .

اللهمَّ ؛ فصلِّ علىٰ محمَّدٍ عبدِكَ ورسولِكَ ونبيِّكَ وحبيبِكَ وأمينِكَ وخيرتِكَ وصفوتِكَ بأفضلِ ما صلَّيتَ بهِ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِكَ .

اللهمَّ ؛ واجعلْ صلواتِكَ ومعافاتَكَ ورحمتَكَ وبركاتِكَ علىٰ سيِّدِ المرسلينَ وخاتمِ النبيِّينَ وإمامِ المتقينَ ؛ محمَّدٍ قائدِ الخيرِ وإمامِ الخيرِ ورسولِ الرحمةِ .

اللهمَّ ؛ قرِّبْ زلفتَهُ وعظِّمْ برهانَهُ وكرِّمْ مقامَهُ ، وابعثْهُ مقاماً محموداً يغبطُهُ بهِ الأولونَ والآخرونَ ، وانفعْنا بمقامِهِ المحمودِ يومَ القيامةِ ، واخلفْهُ فينا في الدنيا والآخرةِ ، وبلِّغْهُ الدرجةَ والوسيلةَ مِنَ الجنَّةِ .

اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آلِ محمَّدٍ ، وبارِكْ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آلِ محمَّدٍ ، كما صلَّيتَ وباركتَ علىٰ إبراهيمَ ؛ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ .

---

(١) أي : بحيث يتسلون بك . « إتحاف » (١٠/٢٩٩) .

(٢) أي : مدامع العيون . « إتحاف » (١٠/٢٩٩) .

(٣) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « العزاء » من حديث ابن عمر بسند ضعيف) قال الحافظ الزبيدي : (وفيه : « ما لم ينقطع لموت أحدٍ من الناس » ولم يقل : « وهو النبوة ») . « إتحاف » (١٠/٣٠٠) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٥٧ ـ ٥٨) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٤/٦٠) ، قال العراقي : (لم أجد فيه ذكر اليسع) ، وقال الحافظ الزبيدي (هـٰكذا أخرجه سيف بن عمر التميمي في كتاب « الردة » له عن سعيد بن عبد الله عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وفيه : « هـٰذا الخضر وإلياس قد حضرا وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ») . انظر « الإتحاف » (١٠/٣٠٠) .

أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّهُ مَنْ كانَ يعبدُ محمداً . . فإنَّ محمداً قدْ ماتَ ، ومَنْ كانَ يعبدُ اللهَ . . فإنَّ اللهَ حيٌّ لم يمتْ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ قد تقدَّمَ إليكم في أمرِهِ فلا تدعوه جزعاً ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدِ اختارَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما عندَهُ علىٰ ما عندَكم ، وقبضَهُ إلىٰ ثوابِهِ ، وخلفَ فيكم كتابَهُ وسنةَ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فمَنْ أخذَ بهما . . عرفَ ، ومَنْ فرقَ بينَهما . . أنكرَ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ولا يشغلَنَّكم الشيطانُ بموتِ نبيِّكم ، ولا يفتنَنَّكُم عنْ دينِكم ، وعاجلوا الشيطانَ بالخيرِ . . تعجزوه ، ولا تستنظروه . . فيلحقَ بكُمْ ويفتنَكُمْ)[1]

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (لمَّا فرغَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ خطبتِهِ . . قالَ : يا عمرُ ؛ أنتَ الذي بلغَني أنَّكَ تقولُ : ما ماتَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! أما ترىٰ أنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ يومَ كذا : كذا وكذا ، ويومَ كذا : كذا وكذا ، وقالَ اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ؟! فقالَ : واللهِ ؛ لكأنِّي لمْ أسمعْ بها في كتابِ اللهِ تعالىٰ قبلَ الآنَ ؛ لما نزلَ بنا ، أشهدُ أنَّ الكتابَ كما نزلَ ، وأنَّ الحديثَ كما حدَّثَ ، وأنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ ، إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، وصلواتُ اللهِ علىٰ رسولِهِ ، وعندَ اللهِ نحتسبُ رسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ جلسَ إلىٰ أبي بكرٍ)[2] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لمَّا اجتمعوا لغسلِهِ . . قالوا : واللهِ ؛ لا ندري كيفَ نغسلُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أنجردُهُ عَنْ ثيابِهِ كما نصنعُ بموتانا أم نغسلُهُ في ثيابِهِ ؟ قالَتْ : فأرسلَ اللهُ عليهمُ النَّومَ حتىٰ ما بقيَ مِنْهُم رجلٌ إلَّا واضعٌ لحيتَهُ علىٰ صدرِهِ نائماً ، ثمَّ قالَ قائلٌ لا ندري مَنْ هوَ : اغسلوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعليهِ ثيابُهُ ، فانتبهوا ففعلوا ذٰلكَ ، فغُسلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قميصِهِ ، حتىٰ إذا فرغوا من غسلِهِ . . كُفنَ)[3]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أردنا خلعَ قميصِهِ ، فنُودينا : لا تخلعوا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثيابَهُ ، فأقررناهُ ، فغسلناهُ في قميصِهِ كما نغسلُ موتانا مستلقياً ما نشاءُ أن يُقلبَ لنا منهُ عضوٌ لم نبالغْ فيهِ إلَّا قُلبَ لنا حتىٰ نفرغَ منهُ ، وإنَّ معَنا لحفيفاً في البيتِ كالريحِ الرُّخاءِ ، ويصوتُ بنا : ارفقوا برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّكُم ستُكفونَ) .

فهٰكذا كانَتْ وفاةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولم يتركْ سبَداً ولا لبَداً إلَّا دُفِنَ معَهُ[4] ، قالَ أبو جعفرٍ : فُرشَ لحدُهُ بمفرشِهِ وقطيفتِهِ ، وفُرشَتْ ثيابُهُ عليها التي كانَ يلبسُ يقظانَ[5] على القطيفةِ والمفرشِ ، ثمَّ وُضعَ عليها في أكفانِهِ[6]

فلم يتركْ بعدَ وفاتِهِ مالاً ، ولا بنىٰ في حياتِهِ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا وضعَ قصبةً علىٰ قصبةٍ ، ففي وفاتِهِ عبرةٌ تامةٌ ، وللمسلمينَ بهِ أسوةٌ حسنةٌ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه بطوله سيف بن عمر التميمي في كتاب « الفتوح » له عن عمرو بن تمام عن أبيه عن القعقاع . « إتحاف » (١٠/٣٠٢) .

(٢) رواه البخاري (٤٤٥٢) بنحوه ، وفيه : « والله ؛ لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل الآية حتىٰ تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع أحداً من الناس إلا يتلوها » .

(٣) رواه أبو داوود (٣١٤١) .

(٤) أي : قليلاً أو كثيراً .

(٥) أي : التي كان يلبسها في حياته .

(٦) رواه مسلم (٩٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : (جعل في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة حمراء) ، وانظر « الإتحاف » (١٠/٣٠٤) .

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

لمَّا احتُضرَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ . . جاءَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها فتمثَّلَتْ بهـٰذا البيتِ[1] : [من الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّراءُ عَنِ الْفَتىٰ ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضاقَ بِها الصَّدْرُ

فكشفَ عنْ وجهِهِ وقالَ : (ليسَ كذلكَ ، ولـٰكنْ قولي : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ انظروا ثوبيَّ هـٰذينِ فاغسلوهما وكفِّنوني فيهما ؛ فإنَّ الحيَّ إلى الجديدِ أحوجُ مِنَ الميتِ)[2] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها عندَ موتِهِ[3] : [من الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمامُ بِوَجْهِهِ ... رَبِيعَ الْيَتامىٰ عِصْمَةً لِلأَرامِلِ

فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ذاكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[4]

ودخلوا عليهِ في مرضِهِ فقالوا : ألا ندعو لكَ طبيباً ينظرُ إليكَ ؟ قالَ رضيَ اللهُ عنهُ : (قدْ نظرَ إليَّ طبيبي وقالَ : إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ)[5]

ودخلَ عليهِ سلمانُ الفارسيُّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ يعودُهُ ، فقالَ : يا أبا بكرٍ ؛ أوصنا فقالَ : (إنَّ اللهَ فاتحٌ عليكمُ الدنيا ؛ فلا تأخذنَّ منها إلا بلاغَكَ ، واعلمْ أنَّ مَنْ صلَّىٰ صلاةَ الصبحِ . . فهوَ في ذمةِ اللهِ تعالىٰ ، فلا تخفرَنَّ اللهَ في ذمَّتِهِ فيكبَّكَ في النَّارِ علىٰ وجهِكَ)[6]

ولمَّا ثقلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ وأرادَ الناسُ منهُ أن يستخلفَ . . فاستخلفَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ الناسُ لهُ : استخلَفتَ علينا فظّاً غليظاً ، فماذا تقولُ لربِّكَ ؟ فقالَ : (أقولُ استخلفتُ علىٰ خلقِكَ خيرَ خلقِكَ) ، ثُمَّ أرسلَ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فجاءَ فقالَ : (إنّي موصيكَ بوصيةٍ ، اعلم : أنَّ للهِ حقّاً في النهارِ لا يقبلُهُ في الليلِ ، وأنَّ لهُ حقّاً في الليلِ لا يقبلُهُ في النهارِ ، وأنَّهُ لا يقبلُ النافلةَ حتىٰ تُؤدَّى الفريضةُ ، وإنَّما ثقلَتْ موازينُ مَنْ ثقلَتْ موازينُهُم يومَ القيامةِ باتباعِهِمُ الحقَّ في الدنيا وثقلِهِ عليهِمْ ، وحُقَّ لميزانٍ لا يُوضعُ فيهِ إلَّا الحقُّ أن يثقلَ ، وإنَّما خفَّتْ موازينُ مَنْ خَفَّتْ موازينُهُم يومَ القيامةِ باتباعِهِمُ الباطلَ وخفَّتِهِ عليهِمْ ، وحُقَّ لميزانٍ لا يُوضعُ فيهِ إلَّا الباطلُ أن يخفَّ ، وإنَّ اللهَ ذكرَ أهلَ الجنَّةِ بأحسنِ أعمالِهِمْ ، وتجاوزَ عن سيِّئاتِهِم ، فيقولُ القائلُ : أنا دونَ هـٰؤلاءِ ، ولا أبلغُ مبلغَ هـٰؤلاءِ ، وإنَّ اللهَ ذكرَ أهلَ النَّارِ بأسوأ أعمالِهِم ، وردَّ عليهِم صالحَ الذي عملوا ، فيقولُ القائلُ : أنا أفضلُ مِنْ هـٰؤلاءِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ ذكرَ آيةَ الرحمةِ وآيةَ العذابِ ؛ ليكونَ المؤمنُ راغباً راهباً ، ولا يلقي بيدِهِ إلى التَّهلكةِ ، ولا يتمنَّىٰ على اللهِ غيرَ الحقِّ ، فإنْ

---

(١) البيت لحاتم الطائي في « ديوانه » (ص ٢١٠) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٥٦٣) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٣٦) .

(٣) البيت لأبي طالب في « ديوانه » (ص ٧٥) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٧/١) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٢٦٥٩١) .

(٥) رواه أحمد في « الزهد » (٥٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤/١) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٥٨١) ، وفي (ب) : (الطبيب) بدل (طبيبي) .

(٦) الشطر الأول من الحديث رواه أحمد في « الزهد » (٨٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٩٦/١) من حديث سلمان رضي الله عنه في وفاته ، والشطر الثاني منه : رواه ابن ماجه (٣٩٤٥) ، وعند مسلم (٦٥٧) من حديث جندب رضي الله عنه نحوه . وانظر « الإتحاف » (٣٠٧/١٠) .

حفظتَ وصيَّتي هـٰذهِ . . فلا يكونَنَّ غائبٌ أحبَّ إليكَ مِنَ الموتِ ولا بدَّ لكَ منهُ ، وإنْ ضيعتَ وصيَّتي . . فلا يكونَنَّ غائبٌ أبغضَ إليكَ مِنَ الموتِ ولا بدَّ لكَ منهُ ولستَ بمعجزِهِ)[١]

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : لمَّا احتُضرَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ . . أتاهُ ناسٌ مِنَ الصحابةِ فقالوا : يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؛ زوِّدْنا ؛ فإنَّا نراكَ لما بكَ ، فقالَ أبو بكرٍ : مَنْ قالَ هـٰؤلاءِ الكلماتِ ثمَّ ماتَ . . جعلَ اللهُ روحَهُ في الأفقِ المبينِ ، قالوا : وما الأفقُ المبينُ ؟ قالَ : قاعٌ بينَ يديِ العرشِ ، فيه رياضٌ وأنهارٌ وأشجارٌ ، يغشاهُ كلَّ يومٍ مئةُ رحمةٍ ، فمَنْ قالَ هـٰذا القولَ . . جعلَ اللهُ روحَهُ في ذٰلكَ المكانِ :

اللهمَّ ؛ إنَّكَ ابتدأتَ الخلقَ مِنْ غيرِ حاجةٍ بكَ إليهِمْ ، ثمَّ جعلتَهُم فريقينِ : فريقاً للنعيمِ ، وفريقاً للسعيرِ ، فاجعلْني للنعيمِ ولا تجعلْني للسعيرِ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقتَ الخلقَ فرقاً ، وميزتَهُم قبلَ أنْ تخلقَهُمْ ، فجعلتَ منهم شقيّاً وسعيداً ، وغويّاً ورشيداً ، فلا تشقني بمعاصيكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ علمتَ ما تكسبُ كلُّ نفسٍ قبلَ أنْ تخلقَها ، فلا محيصَ لها ممَّا علمتَ ، فاجعلْني ممَّنْ تستعملُهُ بطاعتِكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّ أحداً لا يشاءُ حتىٰ تشاءَ ، فاجعلْ مشيئتَكَ أنْ أشاءَ ما يقرِّبُني إليكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ قد قدَّرتَ حركاتِ العبادِ فلا يتحرَّكُ شيءٌ إلَّا بإذنِكَ ، فاجعلْ حركاتي في تقواكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقتَ الخيرَ والشرَّ وجعلتَ لكلِّ واحدٍ منهما عاملاً يعملُ به ، فاجعلْني مِنْ خيرِ القسمينِ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقتَ الجنَّةَ والنَّارَ وجعلتَ لكلِّ واحدةٍ منهما أهلاً ، فاجعلْني مِنْ سكانِ جنَّتِكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ أردتَ بقومٍ الإيمانَ وشرحتَ لهُ صدورَهُم ، وأردتَ بقومٍ الضلالَ وضيَّقتَ بهِ صدورَهُم ، فاشرحْ صدري للإيمانِ وزيِّنْهُ في قلبي .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ دبَّرتَ الأمورَ فجعلتَ مصيرَها إليكَ ، فأحيني بعدَ الموتِ حياةً طيِّبةً ، وقرِّبْني إليكَ زلفىٰ .

اللهمَّ ؛ مَنْ أصبحَ وأمسىٰ ثقتُهُ ورجاؤُهُ غيرُكَ . . فأنتَ ثقتي ورجائي ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ .

قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : هـٰذا كلُّهُ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢]

* * *

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٢١١) .

(٢) أورده المتقي الهندي في « كنز العمال » (٣٥٧٣٠) وعزاه لابن أبي الدنيا في « الدعاء » .

وفاة عمر رضي الله عنه

قالَ عمرُو بنُ ميمونٍ : كنتُ قائماً غداةَ أُصيبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ما بيني وبينَهُ إلَّا عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، وكانَ إذا مرَّ بينَ الصَّفينِ . . قامَ بينَهما ، فإذا رأىٰ خللاً . . قالَ : استووا حتىٰ إذا لم يرَ فيهم خللاً . . تقدَّمَ فكبَّرَ ، قالَ : وربَّما قرأَ سورةَ (يوسفَ) أو (النحلِ) أو نحوَ ذٰلكَ في الركعةِ الأولىٰ حتىٰ يجتمعَ الناسُ .

فما هوَ إلَّا أنْ كبَّرَ . . فسمعتُهُ يقولُ : قتلَني . . أوْ أكلَني الكلبُ ، حينَ طعنَهُ أبو لؤلؤةَ وطارَ العلجُ بسكينٍ ذاتِ طرفينِ لا يمرُّ علىٰ أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلَّا طعنَهُ حتىٰ طعنَ ثلاثةَ عشرَ رجلاً ، فماتَ منهُم تسعةٌ ، وفي روايةٍ : سبعةٌ ، فلمَّا رأىٰ ذٰلكَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ . . طرحَ عليهِ برنساً ، فلمَّا ظنَّ العلجُ أنَّهُ مأخوذٌ . . نحرَ نفسَهُ .

وتناولَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ عبدَ الرحمٰنِ بنَ عوفٍ فقدَّمَهُ ، فأمَّا مَنْ كانَ يلي عمرَ . . فقدْ رأىٰ ما رأيتُ ، وأمَّا نواحي المسجدِ . . فلا يدرونَ ما الأمرُ ، غيرَ أنَّهم فقدوا صوتَ عمرَ وهم يقولونَ : سبحانَ اللهِ ، سبحانَ اللهِ ، فصلَّىٰ بهم عبدُ الرحمٰنِ صلاةً خفيفةً ، فلمَّا انصرفوا . . قالَ : يا بنَ عباسٍ ؛ انظرْ مَنْ قتلَني .

قالَ : فجالَ ساعةً ثمَّ جاءَ فقالَ : غلامُ المغيرةِ بنِ شعبةَ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قاتلَهُ اللهُ ، لقدْ كنتُ أمرتُ بهِ معروفاً .

ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ الذي لمْ يجعلْ منيَّتي بيدِ رجلٍ مسلمٍ ، قدْ كنتَ أنتَ وأبوكَ تحبَّانِ أنْ يكثرَ العلوجُ بالمدينةِ ، وكانَ العباسُ أكثرَهُم رقيقاً ، فقالَ ابنُ عباسٍ : إنْ شئتَ . . فعلتُ ـ أيْ : إنْ شئتَ . . قتلناهم ـ قالَ : بعدما تكلمُوا بلسانِكم ، وصلَّوا إلىٰ قبلتِكُمْ ، وحجوا حجَّكُم ؟! فاحتُملَ إلىٰ بيتِهِ فانطلقنا معَهُ .

قالَ : وكأنَّ الناسَ لمْ تصبْهم مصيبةٌ قبلَ يومئذٍ ، فقائلٌ يقولُ : أخافُ عليهِ ، وقائلٌ يقولُ : لا بأسَ ، فأُتيَ بنبيذٍ فشربَ منهُ فخرجَ مِنْ جوفِهِ ، ثمَّ أُتيَ بلبنٍ فشربَ منهُ فخرجَ مِنْ جوفِهِ[1] ، فعرفوا أنَّهُ ميِّتٌ .

قالَ : فدخلنا عليهِ وجاءَ الناسُ يثنونَ عليهِ ، وجاءَ رجلٌ شابٌّ فقالَ : أبشرْ يا أميرَ المؤمنينَ ببشرىٰ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ قد كانَ لكَ مِنْ صحبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقِدَمٍ في الإسلامِ ما قدْ علمتَ ، ثمَّ وليتَ فعدلتَ ، ثمَّ شهادةٍ ، فقالَ : وددتُ أنَّ ذٰلكَ كانَ كفافاً لا عليَّ ولا لي ، فلمَّا أدبرَ الرجلُ ؛ إذا إزارُهُ يمسُّ الأرضَ ، فقالَ : ردُّوا عليَّ الغلامَ ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ ارفعْ ثوبَكَ ؛ فإنَّهُ أبقىٰ لثوبِكَ وأتقىٰ لربِّكَ .

ثمَّ قالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ انظرْ ما عليَّ مِنَ الدَّيْنِ ، فحسبوهُ فوجدوهُ ستةً وثمانينَ ألفاً أوْ نحوَهُ ، فقالَ : إنْ وفَّىٰ بهِ مالُ آلِ عمرَ . . فأدِّهِ مِنْ أموالِهِمْ ، وإلَّا فسلْ في بني عديِّ بنِ كعبٍ ، فإنْ لمْ تفِ أموالُهُم . . فسلْ في قريشٍ ، ولا تعْدُهُم إلىٰ غيرِهم وأدِّ عنِّي هٰذا المالَ ، انطلقْ إلىٰ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ فقلْ : عمرُ يقرأُ عليكِ السلامَ ، ولا تقلْ : أميرُ المؤمنينَ ؛ فإنِّي لستُ اليومَ للمؤمنينَ أميراً ، وقلْ : يستأذنُ عمرُ بنُ الخطابِ أنْ يُدفنَ معَ صاحبيهِ .

فذهبَ عبدُ اللهِ فسلَّمَ واستأذنَ ، ثمَّ دخلَ عليها فوجدَها قاعدةً تبكي ، فقالَ : يقرأُ عليكِ عمرُ بنُ الخطابِ السَّلامَ ، ويستأذنُ أنْ يُدفنَ معَ صاحبيهِ ، فقالَتْ : كنتُ أريدُهُ لنفسي ، ولأوثرَنَّهُ اليومَ علىٰ نفسي ، فلمَّا أقبلَ . . قيلَ : هٰذا

---

(1) في (ب) و(ص) : (جرحه) وهي إحدىٰ روايات البخاري .

عبدُ اللهِ بنُ عمرَ قدْ جاءَ ، فقالَ : ارفعوني ، فأسندَهُ رجلٌ إليهِ ، فقالَ : ما لديكَ ؟ قالَ : الذي تحبُّ يا أميرَ المؤمنينَ ، قدْ أذنَتْ ، قالَ : الحمدُ للهِ ، ما كانَ شيءٌ أهمَّ إليَّ مِنْ ذٰلكَ ، فإذا أنا قُبضتُ . . فاحملوني ، ثمَّ سلِّم وقلْ : يستأذنُ عمرُ ، فإنْ أذنَتْ لي . . فأدخلوني ، وإن ردَّتْني . . ردُّوني إلى مقابرِ المسلمينَ .

وجاءَتْ أُمُّ المؤمنينَ حفصةُ رضيَ اللهُ عنها والنساءُ يسترنَها ، فلمَّا رأيناها . . قمنا ، فولجَتْ عليهِ ، فبكَتْ عندَهُ ساعةً ، واستأذنَ الرجالُ فولجَتْ داخلاً ، فسمعنا بكاءَها مِنَ الداخلِ ، فقالوا : أوصِ يا أميرَ المؤمنينَ واستخلِفْ ، قالَ : ما أرىٰ أحقَّ بهٰذا الأمرِ مِنْ هٰؤلاءِ النفرِ الذينَ تُوفيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ عنْهم راضٍ ، فسمَّىٰ عليّاً وعثمانَ والزبيرَ وطلحةَ وسعداً وعبدَ الرحمٰنِ ، وقالَ : يشهدُكم عبدُ اللهِ بنُ عمرَ وليسَ لهُ مِنَ الأمرِ شيءٌ ـ كهيئةِ التعزيةِ لهُ ـ فإنْ أصابَتِ الإمارةُ سعداً . . فذاكَ ، وإلَّا . . فليستعِنْ بهِ أيُّكم أُمِّرَ ؛ فإنِّي لم أعزلْهُ مِنْ عجزٍ ولا خيانةٍ .

وقالَ : أُوصي الخليفةَ مِنْ بعدي بالمهاجرينَ الأولينَ أنْ يعرفَ لهم حقَّهم ، ويحفظَ لهُمْ حرمتَهُم ، وأوصيهِ بالأنصارِ خيراً ، الذين تبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ قبلِهم ؛ أنْ يقبلَ مِنْ محسنِهم ، وأنْ يعفوَ عَنْ مسيئِهم ، وأوصيهِ بأهلِ الأمصارِ خيراً ؛ فإنَّهم ردءُ الإسلامِ وجباةُ المالِ وغيظُ العدوِّ ، وألَّا يأخذَ مِنْهم إلَّا فضلَهم عَنْ رضاً مِنْهم ، وأوصيهِ بالأعرابِ خيراً ؛ فإنَّهم أصلُ العربِ ومادةُ الإسلامِ ؛ أنْ يأخذَ مِنْ حواشي أموالِهم ويردَّ علىٰ فقرائِهم ، وأوصيهِ بذمَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وذمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ أنْ يوفيَ لهُمْ بعهدِهم ، وأنْ يقاتلَ مِنْ ورائِهم ، ولا يُكلَّفوا إلَّا طاقتَهُم .

قالَ : فلمَّا قُبضَ . . خرجنا بهِ فانطلقنا نمشي ، فسلَّمَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ وقالَ : يستأذنُ عمرُ بنُ الخطابِ ، فقالَتْ : أدخلوهُ ، فأُدخلَ فوُضعَ هنالكَ معَ صاحبيهِ . . . الحديثَ [١]

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « قالَ لي جبريلُ عليهِ السَّلامُ : ليبكِ الإسلامُ علىٰ موتِ عمرَ » [٢]

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما قالَ : (وُضِعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ سريرِهِ فتكنَّفَهُ الناسُ [٣] يدعونَ ويصلونَ قبلَ أنْ يُرفعَ وأنا فيهم . . فلم يرُعْني إلَّا رجلٌ قد أخذَ بمنكبي ، فالتفتُّ ؛ فإذا هوَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فترحَّمَ علىٰ عمرَ وقالَ : ما خلَّفتَ أحداً أحبَّ إليَّ أنْ ألقى اللهَ بمثلِ عملِهِ منكَ ، وايمُ اللهِ ؛ إنْ كنتُ لأظنُّ أنْ يجعلَكَ اللهُ مَع صاحبيكَ ؛ وذٰلكَ أني كنتُ كثيراً أسمعُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ذهبتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ ، ودخلتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ ، وخرجتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ » فإنِّي كنتُ لأرجو أوْ لأظنُّ أنْ يجعلَكَ اللهُ معَهما) [٤]

❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري (٣٧٠٠) وفيه : (تسير معها) بدل (يسترنها) .
(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٥٢٣) ، والآجري في « الشريعة » (١٣٩١) .
(٣) أي : أحاطوا به . « إتحاف » (١٠/٣١٥) .
(٤) رواه البخاري (٣٦٨٥) ، ومسلم (٢٣٨٩) .

وفاة عثمان رضي الله عنه

الحديثُ في قتلِهِ مشهورٌ[1] ، وقدْ قالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ : أتيتُ أخي عثمانَ لأسلمَ عليهِ وهوَ محصورٌ ، فدخلتُ عليهِ فقالَ : مرحباً بأخي ، رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الليلةَ في هـٰذهِ الخوخةِ ـ وهي خوخةٌ في البيتِ ـ فقالَ : « يا عثمانُ ، حصروكَ ؟ » قلتُ : نعمْ ، قالَ : « عطشوكَ ؟ » قلتُ : نعمْ ، فأدلىٰ إليَّ دلواً فيهِ ماءٌ فشربتُ حتىٰ رويتُ ، حتىٰ إني لأجدُ بردَهُ بينَ ثدييَّ وبينَ كتفيَّ ، وقالَ لي : « إنْ شئتَ . . نُصرتَ عليهمْ ، وإنْ شئتَ . . أفطرتَ عندَنا » فاخترتُ أنْ أُفطرَ عندَهُ ، فقُتلَ ذٰلكَ اليومَ رضيَ اللهُ عنهُ[2]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ لمَنْ حضرَ تشحُّطَ عثمانَ في الموتِ حينَ جُرِحَ : ماذا قالَ عثمانُ وهوَ يتشحَّطُ ؟ قالوا : سمعناهُ يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجمعْ أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) ثلاثاً ، قالَ : والذي نفسي بيدِهِ ؛ لو دعا اللهَ ألَّا يجتمعوا أبداً . . ما اجتمعوا إلىٰ يومِ القيامةِ[3]

وعَنْ ثمامةَ بنِ حزنٍ القشيريِّ قالَ : شهدتُ الدارَ حينَ أشرفَ عليهم عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : ائتوني بصاحبيكُمُ اللذينِ ألَّباكُمْ عليَّ ، قالَ : فجيءَ بهما كأنَّهما جملانِ أوْ حمارانِ ، فأشرفَ عليهِمْ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : أنشدُكمْ باللهِ والإسلامِ ؛ هلْ تعلمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدمَ المدينةَ وليسَ بها ماءٌ يُستعذبُ غيرَ بئرِ رومةَ فقالَ : « مَنْ يشتري بئرَ رومةَ يجعلُ دلوَهُ معَ دلاءِ المسلمينَ بخيرٍ لهُ مِنْها في الجنَّةِ ؟ » فاشتريتُها مِنْ صلبِ مالي ، فأنتُمُ اليومَ تمنعوني أنْ أشربَ منها ومِنْ ماءِ البحرِ ؟ قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قالَ : أنشدُكمُ اللهَ والإسلامَ ؛ هلْ تعلمونَ أنَّ المسجدَ كانَ قدْ ضاقَ بأهلِهِ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يشتري بقعةَ آلِ فلانٍ فيزيدُها في المسجدِ بخيرٍ مِنْها في الجنَّةِ ؟ » فاشتريتُها مِنْ صلبِ مالي ، فأنتُمُ اليومَ تمنعوني أنْ أُصليَ فيها ركعتينِ ؟ قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قالَ : أنشدُكُمُ اللهَ والإسلامَ ؛ هلْ تعلمونَ أنِّي جهزتُ جيشَ العسرةِ مِنْ مالي ؟ قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قالَ : أنشدُكمُ اللهَ والإسلامَ ؛ هلْ تعلمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ علىٰ ثبيرٍ بمكةَ ومعَهُ أبو بكرٍ وعمرُ وأنا ، فتحرَّكَ الجبلُ حتىٰ تساقَطَتْ حجارتُهُ بالحضيضِ ، قالَ : فركضَهُ برجلِهِ وقالَ : « اسكنْ ثبيرُ ، فإنَّما عليكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدانِ ؟ » قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قال : اللهُ أكبرُ ، شهدوا لي وربِّ الكعبةِ أنِّي شهيدٌ[4]

ورُويَ عَنْ شيخٍ مِنْ ضبةَ : أنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ حينَ ضُربَ والدماءُ تسيلُ علىٰ لحيتِهِ . . جعلَ يقولُ : (لا إلـٰهَ إلَّا أنتَ سبحانَكَ إنِّي كنتُ مِنَ الظالمينَ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أستعديكَ عليهِمْ ، وأستعينُكَ علىٰ جميعِ أموري ، وأسألُكَ الصبرَ علىٰ ما ابتليتَني)[5]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٦٨/٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٧/٣٩ ـ ٤٠٨) ، وانظر « الإتحاف » (٣١٥/١٠ ـ ٣١٦) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨٦/٣٩) ، والحارث في « مسنده » كما في « بغية الباحث » (٩٧٩) ، وعند أحمد في « المسند » (٧٢/١) ، والبزار في « مسنده » (٣٤٧) : « اصبر ؛ فإنك تفطر عندنا الليلة » .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٢/٣٩) .

(٤) رواه الترمذي (٣٧٠٣) ، والنسائي (٢٣٥/٦) ، وفيه : (تمنعوني أن أشرب منها حتىٰ أشرب من ماء البحر) بدل (تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠١/٣٩) .

وفاة سيدنا علي رضي الله عنه

قالَ الأصبغُ الحنظليُّ : لمَّا كانتِ الليلةُ التي أُصيبَ فيها عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ . . أتاهُ ابنُ النبَّاحِ حينَ طلعَ الفجرُ يؤذنُهُ بالصلاةِ وهو مضطجعٌ متثاقلٌ ، فعادَ الثانيةَ وهوَ كذٰلكَ ، ثمَّ عادَ الثالثةَ ، فقامَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يمشي وهوَ يقولُ [1] : [من الهزج]

أُشْدُدْ حَيازِيمَكَ [2] لِلْمَوْتِ فَإِنَّ الْمَوْتَ لاقِيكا

وَلا تَجْزَعْ مِنَ الْمَوْتِ إِذا حَلَّ بِوادِيكا

فلمَّا بلغَ البابَ الصغيرَ . . شدَّ عليهِ ابنُ ملجمٍ فضربَهُ ، فخرجَتْ أُمُّ كلثومِ ابنةُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنها فجعلَتْ تقولُ : ما لي ولصلاةِ الغداةِ ؟! قُتلَ زوجي أميرُ المؤمنينَ صلاةَ الغداةِ ، وقُتلَ أبي صلاةَ الغداةِ [3]

وعَنْ شيخٍ مِنْ قريشٍ : أنَّ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا ضربَهُ ابنُ ملجمٍ . . قالَ : (فزتُ وربِّ الكعبةِ) [4]

وعَنْ محمدِ بنِ عليٍّ أنَّهُ لمَّا ضُرِبَ أوصىٰ بنيهِ ، ثمَّ لم ينطقْ إلَّا بـ (لا إلٰهَ إلَّا اللهُ) حتىٰ قُبضَ [5]

وفاة الحسن رضي الله عنه [6]

ولمَّا ثقلَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما . . دخلَ عليهِ الحسينُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : يا أخي ؛ لأيِّ شيءٍ تجزعُ ؟! تقدمُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وهما أبواكَ ، وعلىٰ خديجةَ بنتِ خويلدٍ وفاطمةَ بنتِ محمدٍ وهما أماكَ ، وعلىٰ حمزةَ وجعفرٍ وهما عمَّاكَ ، قالَ : يا أخي ، أقدمُ علىٰ أمرٍ لم أقدمْ علىٰ مثلِهِ [7]

وفاة الحسين رضي الله عنه [8]

وعَنْ محمَّدِ بنِ الحسنِ قالَ : لمَّا نزلَ القومُ بالحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ وأيقنَ أنَّهم قاتلوه . . قامَ في أصحابِهِ خطيباً ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ وأثنىٰ عليه ثمَّ قالَ : (قَدْ نزلَ مِنَ الأمرِ ما ترونَ ، وإنَّ الدنيا قدْ تغيَّرَتْ وتنكَّرَتْ ، وأدبرَ معروفُها ، وانشمرَتْ حتىٰ لم يبقَ منها إلا كصبابةِ الإناءِ ، إلَّا خسيسُ عيشٍ كالمرعى الوبيلِ ، ألا ترونَ الحقَّ لا يُعملُ بهِ والباطلَ لا يُتناهىٰ عنهُ ؟! ليرغبِ المؤمنُ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وإنِّي لا أرى الموتَ إلَّا سعادةً ، والحياةَ معَ الظالمينَ إلَّا جرماً) [9] .

* * *

---

(١) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ٣٦٤) .

(٢) **الحيزوم** : ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع الفؤاد ، وما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥٥/٤٢) ، والأبيات رواها عنه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٥٥٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٥/١) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦١/٤٢) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥٣) ، والطبراني في « الكبير » (٩٧/١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦٢/٤٢) .

(٦) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٧) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨٦/١٣) ، وانظر « الإتحاف » (٣٢٠/١٠) .

(٨) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٩) رواه الطبراني في « الكبير » (١١٤/٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٩/٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١٧/١٤ ـ ٢١٨) .

البَابُ الخَامِسُ

في كلام المحتضَرين من الخلفاء والأمراء والصّالحين

لمَّا حضرَتْ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ الوفاةُ . . قالَ : أقعدوني ، فأُقعدَ ، فجعلَ يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ ويذكرُهُ ، ثمَّ بكىٰ وقالَ : تذكرُ ربَّكَ يا معاويةُ بعدَ الهرمِ والانحطاطِ ، ألا كانَ هـٰذا وغصنُ الشبابِ نضرٌ ريّانُ ؟! وبكىٰ حتىٰ علا بكاؤُهُ وقالَ : يا ربِّ ؛ ارحمِ الشيخَ العاصيَ ذا القلبِ القاسي ، اللهمَّ ؛ أقلِ العثرةَ واغفرِ الزلَّةَ ، وعُدْ بحلمِكَ علىٰ مَنْ لمْ يرجُ غيرَكَ ولم يثقْ بأحدٍ سواكَ[1]

ورُويَ عَنْ شيخٍ مِنْ قريشٍ : أنَّهُ دخلَ معَ جماعةٍ عليهِ في مرضِهِ ، فرأوا في جلدِهِ غضوناً ، فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ثمَّ قالَ : (**أمَّا بعدُ** : فهلِ الدنياأجمعُ إلا ما جرَّبنا ورأينا ؟! أما واللهِ ؛ لقدِ استقبلنا زهرتَها بجدتِنا ، وباستلذاذِنا بعيشِنا ، فما لبثَتْنا الدنيا أنْ نقضَتْ ذٰلكَ منَّا حالاً بعدَ حالٍ وعروةً بعدَ عروةٍ ، فأصبحَتِ الدنيا وقدْ وتَرَتْنا وأخلقَتْنا ، واستلأمَتْ إلينا ، فأفٍّ للدنيا مِنْ دارٍ !! ثمَّ أفٍّ لها مِنْ دارٍ !!)[2]

ويُروىٰ أنَّ آخرَ خطبةٍ خطبَها معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ قالَ : (أيُّها النَّاسُ ؛ إنِّي مِنْ زرعٍ قدِ استحصدَ ، وإنِّي قد وُليتكُم ولنْ يليَكُم أحدٌ بعدي إلَّا وهوَ شرٌّ مني كما كانَ مَنْ قبلي خيراً منِّي ، ويا يزيدُ إذا وفَّىٰ أجلي . . فولِّ غسلي رجلاً لبيباً ؛ فإنَّ اللبيبَ مِنَ اللهِ بمكانٍ ، فلينعمِ الغسلَ وليجهرْ بالتكبيرِ ، ثمَّ اعمدْ إلىٰ منديلٍ في الخزانةِ فيهِ ثوبٌ مِنْ ثيابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقراضةٌ من شعرِهِ وأظفارِهِ ، فاستودعِ القراضةَ أنفي وفمي وأذني وعيني ، واجعلِ الثوبَ علىٰ جلدي دونَ أكفاني ، ويا يزيدُ ؛ احفظْ وصيةَ اللهِ في الوالدينِ ، فإذا أدرجتُموني في جريدَتي ووضعتُموني في حفرتي . . فخلوا معاويةَ وأرحمَ الراحمينَ)[3]

وقالَ محمدُ بنُ عقبةَ : لمَّا نزلَ بمعاويةَ الموتُ . . قالَ : (يا ليتَني كنتُ رجلاً مِنْ قريشٍ بذي طوىً ، وأنِّي لم ألِ مِنْ هـٰذا الأمرِ شيئاً)[4]

ولمَّا حضرَتْ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ الوفاةُ . . نظرَ إلىٰ غسالٍ بجانبِ دمشقَ يلوي ثوباً بيدِهِ ، ثمَّ يضربُ بهِ المغسلةَ ، فقالَ عبدُ الملكِ : واللهِ ليتَني كنتُ غسالاً آكلُ منْ كسبِ يدي يوماً بيومٍ ، ولمْ ألِ مِنْ أمرِ النَّاسِ شيئاً ، فبلغَ ذٰلكَ أبا حازمٍ فقالَ : الحمدُ للهِ الذي جعلَهم إذا حضرَهُمُ الموتُ يتمنَّونَ ما نحنُ فيهِ ، وإذا حضرَنا الموتُ لمْ نتمنَّ ما هم فيهِ[5]

وقيلَ لعبدِ الملكِ بنِ مروانَ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ : كيفَ تجدُكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : أجدُني كما قالَ اللهُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/٢٢٧) ، وفيه : تمثل معاوية عند موته :
هو الموت لا منجىٰ من الموت والذي حاذر بعد الموت أدهىٰ وأفظع

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٦٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٦٥) ، وفي (ص) : (جديدي) بدل (جريدتي) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/٢٢٣) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/١٥٨) .

تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ . . . ﴾ الآيةَ [(١)] ، وماتَ .

وقالَتْ فاطمةُ بنتُ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ امرأةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ : كنتُ أسمعُ عمرَ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ يقولُ : اللهمَّ ؛ أخفِ عليهِم موتي ولوْ ساعةً مِنْ نهارٍ ، فلمَّا كانَ اليومُ الذي قُبِضَ فيهِ . . خرجتُ مِنْ عندِهِ ، فجلستُ في بيتٍ آخرَ بيني وبينَهُ بابٌ ، وهوَ في قبةٍ لهُ ، فسمعتُهُ يقولُ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، ثمَّ هدأَ ، فجعلتُ لا أسمعُ لهُ حركةً ولا كلاماً ، فقلتُ لوصيفٍ لهُ : انظرْ أنائمٌ هوَ ؟ فلمَّا دخلَ . . صاحَ ، فوثبتُ ؛ فإذا هوَ ميتٌ [(٢)]

وقيلَ لهُ لمَّا حضرَهُ الموتُ : اعهدْ يا أميرَ المؤمنينَ ، قالَ : أحذِّرُكم مثلَ مصرعي هٰذا ؛ فإنَّهُ لا بدَّ لكم منهُ [(٣)]

ورُويَ أنَّهُ لما ثقلَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ . . دُعيَ لهُ طبيبٌ ، فلمَّا نظرَ إليهِ . . قالَ : أرى الرجلَ قدْ سُقيَ السمَّ ، ولَا آمنُ عليهِ الموتَ ، فرفعَ عمرُ بصرَهُ إليهِ وقالَ : ولا تأمنُ الموتَ أيضاً علىٰ مَنْ لمْ يُسقَ السمَّ ، قالَ الطبيبُ : هل أحسستَ بذٰلكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعمْ ، قدْ عرفتُ ذٰلكَ حينَ وقعَ في بطني ، قالَ : فتعالجْ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فإنِّي أخافُ أنْ تذهبَ نفسُكَ ، قالَ : ربي خيرُ مذهوبٍ إليهِ ، واللهِ ؛ لوْ علمتُ أنَّ شفائي عندَ شحمةِ أذني . . ما رفعتُ يدي إلىٰ أذني فتناولتُه ، اللهمَّ ؛ خِرْ لعمرَ في لقائِكَ ، فلمْ يلبثْ إلَّا أياماً حتىٰ ماتَ [(٤)]

وقيلَ : لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! أبشرْ ؛ فقدْ أحيا اللهُ بكَ سنناً ، وأظهرَ بكَ عدلاً ، فبكىٰ ثمَّ قالَ : أليسَ أُوقفُ فأُسألُ عَنْ أمرِ هٰذا الخلقِ ، فواللهِ ؛ لوْ عدلتُ فيهم . . لخفتُ علىٰ نفسي ألَّا تقومَ بحجتِها بينَ يدي اللهِ تعالىٰ إلَّا أنْ يلقِّنَها اللهُ حجَّتَها ، فكيفَ بكثيرٍ ممَّا ضيَّعنا ؟! وفاضَتْ عيناهُ ، فلمْ يلبثْ إلَّا يسيراً حتىٰ ماتَ [(٥)]

ولمَّا قربَ وقتُ موتِهِ . . قالَ : أجلسوني ، فأجلسوهُ ، فقالَ : أنا الذي أمرتَني فقصَّرتُ ، ونهيتَني فعصَيتُ ـ ثلاثَ مراتٍ ـ ولٰكنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، ثمَّ رفع رأسَهُ فأحدَّ النظرَ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ فقالَ : إنِّي لأرىٰ حضرةً [(٦)] ما هم بإنسٍ ولا جنٍّ ، ثمَّ قُبضَ رحمةُ اللهِ عليهِ [(٧)]

وحُكيَ عنْ هارونَ الرشيدِ أنَّهُ انتقىٰ أكفانَهُ عندَ الموتِ بيدِهِ ، وكانَ ينظرُ إليها ويقولُ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ .

وفرشَ المأمونُ رماداً واضطجعَ عليهِ وكانَ يقولُ : يا مَنْ لا يزولُ ملكُهُ ؛ ارحمْ مَنْ قدْ زالَ ملكُهُ [(٨)]

وكانَ المعتصمُ يقولُ عندَ موتِهِ : لوْ علمتُ أنَّ عمري هٰكذا قصيرٌ . . ما فعلتُ ما فعلتُ [(٩)]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/١٥٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٣٥) ، وابن المبارك في « الزهد » (٨٨٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨٨) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨٩) .

(٦) في (أ ، ن ، ف) : (خضرة) بدل (حضرة) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٣٥) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٩٠) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١١٧) عن بعض الملوك ، وفي (أ) : (وحكي عن الواثق أنه فرش) بدل (وفرش المأمون) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٩٩) .

وكانَ المنتصرُ يضطربُ علىٰ نفسِهِ عندَ موتِهِ ، فقيلَ لهُ : لا بأسَ عليكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : ليسَ إلَّا هـٰذا ، لقدْ ذهبَتِ الدنيا وأقبلتِ الآخرةُ[1]

وقالَ عمرُو بن العاصِ في الوفاةِ ـ وقد نظرَ إلىٰ صناديقَ ـ لبنيهِ : مَنْ يأخذُها بما فيها ؟ ليتَهُ كانَ بعراً[2]

وقالَ الحجاجُ عندَ موتِهِ : اللهمَّ اغفرْ لي ؛ فإنَّ النَّاسَ يقولونَ : إنَّكَ لا تغفرُ لي ، فكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ تعجبُهُ هـٰذهِ الكلمةُ منهُ ويغبطُهُ عليها ، ولمَّا حُكيَ ذٰلكَ للحسنِ قالَ : أقالَها ؟ قيلَ : نعمْ ، قالَ : عسىٰ[3]

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٠٠) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٤٥٣) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٠٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٤٥) ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١٥) .

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضرَتْ معاذاً رضيَ اللهُ عنهُ الوفاةُ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ إنِّي قد كنتُ أخافُكَ ، وأنا اليومَ أرجوكَ ، اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنِّي لمْ أكنْ أحبُّ الدنيا وطولَ البقاءِ فيها لجري الأنهارِ ولا لغرسِ الأشجارِ ، ولكنْ لظمأ الهواجرِ ومكابدةِ الساعاتِ ، ومزاحمةِ العلماءِ بالركبِ عندَ حلقِ الذكرِ)(١)

ولمَّا اشتدَّ بهِ النزعُ ، ونزعَ نزعاً لم ينزعْهُ أحدٌ . . فكانَ كلَّما أفاقَ مِنْ غمرةٍ فتحَ طرفَهُ ثمَّ قالَ : (ربِّ اخنقْني خنقَكَ ، فوعزَّتِكَ ؛ إنَّكَ لتعلمُ أنَّ قلبي يحبُّكَ)(٢)

ولمَّا حضرَتْ سلمانَ الوفاةُ . . بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : (ما أبكي جزعاً على الدنيا ، ولكنْ عهدَ إلينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ تكونَ بلغةُ أحدِنا مِنَ الدنيا كزادِ الرَّاكبِ ، فلمَّا ماتَ سلمانُ . . نُظرَ في جميعِ ما تركَ ؛ فإذا قيمتُهُ بضعةَ عشرَ درهماً)(٣)

ولمَّا حضرَتْ بلالاً الوفاةُ . . قالَتْ امرأتُهُ : وا حزناهُ !! فقالَ : (بلْ وا طرباهُ ، غداً نلقى الأحبَّةَ ؛ محمداً وحزبَهُ)(٤)

وقيلَ : فتحَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ عينَهُ عندَ الوفاةِ وضحكَ وقالَ : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾(٥)

ولمَّا حضرَتْ إبراهيمَ النخعيَّ الوفاةُ . . بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : أنتظرُ مِنَ اللهِ رسولاً يبشرُني بالجنَّةِ أوِ بالنَّارِ(٦)

ولمَّا حضرَتِ ابنَ المنكدرِ الوفاةُ بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : واللهِ ؛ ما أبكي لذنبٍ أعلمُ أنِّي أتيتُهُ ، ولكنْ أخافُ أنِّي أتيتُ شيئاً حسبتُهُ هيِّناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ(٧)

ولمَّا حضرَتْ عامرَ بنَ عبدِ قيسٍ الوفاةُ . . بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : ما أبكي جزعاً مِنَ الموتِ ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولكِنْ أبكي علىٰ ما يفوتُني مِنْ ظمأ الهواجرِ ، وعلىٰ قيامِ الليلِ في الشتاءِ(٨)

ولمَّا حضرَتْ فضيلاً الوفاةُ . . غُشِيَ عليهِ ، ثمَّ فتحَ عينيهِ وقالَ : وا بُعدَ سفري !! وا قلةَ زادي !!(٩)

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٠١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٣٩/١) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٢٧) ، وفيه : (لكري الأنهار) بدل (لجري الأنهار) وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣٢٨/١٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٤٠/١) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٢٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤٣٨/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٩٦/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩١٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٩٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠١) .

(٥) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠١) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٤/٤) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٤٨) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٣٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٨٤) .

(٨) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨٨/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٦٤٨) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : (ما أبكي علىٰ دنياكم ، ولكن أبكي علىٰ بعد سفري وقلة زادي ؛ فإني أمسيت في صعود مهبطة علىٰ جنة ونار ولا أدري أيتهما يؤخذ بي) ، وفي (ن) : (وا بعد سفراه ، وقلة زاداه) .

ولمَّا حضرَتِ ابنَ المباركِ الوفاةُ . . قالَ لنصرٍ مولاهُ : اجعلْ رأسي على الترابِ ، فبكىٰ نصرٌ ، فقالَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : ذكرتُ ما كنتَ فيهِ مِنَ النعيمِ ، وأنتَ هوَ ذا تموتُ فقيراً غريباً ، قالَ : اسكتْ ؛ فإنِي سألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يحييَني حياةَ الأغنياءِ ، وأنْ يميتَني موتَ الفقراءِ ، ثمَّ قالَ لهُ : لقِّنِّي ، ولا تعدْ عليَّ ما لم أتكلمْ بكلامٍ ثانٍ[1]

وقالَ عطاءُ بنُ يسارٍ : تبدَّىٰ إبليسُ لرجلٍ عندَ الموتِ فقالَ لهُ : نجوتَ ، فقالَ : مَا أمنتُكَ بعدُ[2]

وبكىٰ بعضُهم عندَ الموتِ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : آيةٌ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ؛ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3]

ودخلَ الحسنُ علىٰ رجلٍ يجودُ بنفسِهِ فقالَ : إنَّ أمراً هـٰذا أولُهُ لجديرٌ أنْ يُتَّقىٰ آخرُهُ ، وإنَّ أمراً هـٰذا آخرُهُ لجديرٌ أنْ يُزهدَ في أولِهِ[4] .

وقالَ الجريريُّ : كنتُ عندَ الجنيدِ في حالِ نزعِهِ ، وكانَ يومَ الجمعةِ ويومَ النيروزِ ، وهوَ يقرأُ القرآنَ ، فختمَ فقلتُ لهُ : في هـٰذه الحالةِ يا أبا القاسمِ ؟ فقالَ : ومَنْ أولىٰ بذٰلكَ منِّي ، وهوَ ذا تُطوىٰ صحيفتي ؟![5]

وقالَ رويمٌ : حضرتُ وفاةَ أبي سعيدٍ الخرَّازِ وهوَ يقولُ[6] : [من الطويل]

حَنِينُ قُلوبِ الْعارِفِينَ إِلَى الذِّكْرِ ... وَتَذْكارُهُمْ وَقْتَ الْمُناجاةِ لِلسِّرِّ

أُدِيرَتْ كُؤُوسٌ لِلْمَنايا عَلَيْهِمُ ... فَأَغْفَوْا عَنِ الدُّنْيا كَإِغْفاءِ ذِي السُّكْرِ

هُمُومُهُمْ جَوَّالَةٌ بِمُعَسْكَرٍ ... بِهِ أَهْلُ وُدِّ للهِ كَالأَنْجُمِ الزُّهْرِ

فَأَجْسامُهُمْ فِي الأَرْضِ قَتْلَىٰ بِحُبِّهِ ... وَأَرْواحُهُمْ فِي الْحُجْبِ نَحْوَ الْعُلَا تَسْرِي

فَما عَرَّسُوا إِلَّا بِقُرْبِ حَبِيبِهِمْ ... وَما عَرَجُوا مِنْ مَسِّ بُؤْسٍ وَلا ضُرِّ

وقيلَ للجنيدِ : إنَّ أبا سعيدٍ الخرازَ كانَ كثيرَ التواجدِ عندَ الموتِ ، فقالَ : لمْ يكنْ بعجبٍ أنْ تطيرَ روحُهُ اشتياقاً[7]

وقيلَ لذي النُّونِ عندَ موتِهِ : ما تشتهي ؟ قالَ : أنْ أعرفَهُ قبلَ موتي بلحظةٍ[8]

وقيلَ لبعضِهم وهوَ في النزعِ : قلِ : اللهُ ، فقالَ : إلىٰ متىٰ تقولونَ : اللهُ وأنا محترقٌ باللهِ[9]

وقالَ بعضُهم : كنتُ عندَ ممشاذَ الدينوريِّ ، فقدمَ فقيرٌ وقالَ : السَّلامُ عليكم ، هلْ ها هنا موضعٌ نظيفٌ يمكنُ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٨٧) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٢٩) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣٠٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٧٩) .
(٤) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٤٤) بنحوه .
(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٩٨٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٠) .
(٦) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠١ ـ ٥٠٢) ، وانظر الأبيات في « بحر الدموع » (ص ٧١) .
(٧) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٢) .
(٨) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٢) ، والمعنىٰ : أن ذا النون رأىٰ نفسه مقصراً عن القيام بحقّ معرفته ، فعدَّ معرفته كلا معرفة ، فطلب أن يستغرق في جلال الله وكماله بحسب ما علمه من ذٰلك . « إتحاف » (٣٤١/١٠) .
(٩) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٢) .

الإنسانَ أَنْ يموتَ فيهِ ، قالَ : فأشاروا إليهِ بمكانٍ ، وكانَ ثَمَّ عينُ ماءٍ ، فجددَ الفقيرُ الوضوءَ ، وركعَ ما شاءَ اللهُ ومضىٰ إلىٰ ذٰلكَ المكانِ ، ومدَّ رجليهِ وماتَ (١)

وكانَ أبو العباسِ الدينوريُّ يتكلمُ في مجلسِهِ يوماً ، فصاحَتِ امرأةٌ تواجداً ، فقالَ لها : موتي ، فقامتِ المرأةُ : فلمَّا بلغَتْ بابَ الدارِ . . التفتَتْ إليهِ وقالَتْ : قدْ متُّ ، ووقعَتْ ميتةً (٢)

ويُحكىٰ عَنْ فاطمةَ أختِ أبي عليٍّ الروذباريِّ قالَتْ : لمَّا قربَ أجلُ أبي عليٍّ الروذباريِّ وكانَ رأسُهُ في حجري . . فتحَ عينيهِ وقالَ : هٰذهِ أبوابُ السماءِ قدْ فُتحَتْ ، وهٰذهِ الجنانُ قدْ زُيِّنَتْ ، وهٰذا قائلٌ يقولُ : يا أبا عليٍّ ؛ قدْ بلَّغناكَ الرتبةَ القصوىٰ وإنْ لمْ تردْها ، ثمَّ أنشأَ يقولُ (٣) : [من الوافر]

وَحَقِّكَ لا نَظَرْتُ إِلَىٰ سِواكا ... بِعَيْنِ مَوَدَّةٍ حَتَّىٰ أَراكا

أَراكَ مُعَذِّبِي بِفُتُورِ لَحْظٍ ... وَبِالْخَدِّ الْمُوَرَّدِ مِنْ جَناكا (٤)

وقيلَ للجنيدِ : قلْ : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، فقالَ : ما نسيتُهُ فأذكرَهُ (٥)

وسألَ جعفرُ بنُ نصيرٍ بكرانَ الدينوريَّ خادمَ الشبليِّ : ما الذي رأيتَ منهُ ؟ فقالَ : قالَ : عليَّ درهمُ مظلمةٍ ، وقدْ تصدقتُ عنْ صاحبِهِ بألوفٍ ، فما علىٰ قلبي شغلٌ أعظمَ منهُ ، ثمَّ قالَ : وضِّئْني للصلاةِ ، ففعلتُ ، فنسيتُ تخليلَ لحيتِهِ وقدْ أمسكَ علىٰ لسانِهِ ، فقبضَ علىٰ يدي وأدخلَها في لحيتِهِ ثمَّ ماتَ ، فبكىٰ جعفرٌ وقالَ : ما تقولونَ في رجلٍ لم يفتْهُ في آخرِ عمرِهِ أدبٌ مِنْ آدابِ الشريعةِ ؟! (٦)

وقيلَ لبشرِ بنِ الحارثِ لمَّا احتُضرَ وكانَ يشقُّ عليهِ : كأنَّكَ تحبُّ الحياةَ ، فقالَ : القدومُ على اللهِ تعالىٰ شديدٌ (٧) .

وقيلَ لصالحِ بنِ مسمارٍ : ألا توصي بابنِكَ وعيالِكَ ؟ فقالَ : إنِّي لأستحيي مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ أوصيَ بهمْ إلىٰ غيرِهِ (٨) .

ولمَّا احتُضرَ أبو سليمانَ الدارانيُّ . . أتاهُ أصحابُهُ فقالوا : أبشرْ ؛ فإنَّكَ تقدمُ علىٰ ربٍّ غفورٍ رحيمٍ ، فقالَ لهُم : ألا تقولونَ : احذرْ ؛ فإنَّكَ تقدمُ علىٰ ربٍّ يحاسبُكَ بالصغيرِ ويعاقبُكَ بالكبيرِ ؟! (٩)

ولمَّا احتُضرَ أبو بكرٍ الواسطيُّ . . قيلَ لهُ : أوصنا ، فقالَ : احفظوا مرادَ الحقِّ فيكم (١٠)

واحتُضرَ بعضُهم فبكَتِ امرأتُهُ ، فقالَ لها : ما يبكيكِ ؟ فقالَتْ : عليكَ أبكي ، فقالَ : إنْ كنتِ باكيةً . . فابكي علىٰ نفسِكِ ، فلقدْ بكيتُ لهٰذا اليومِ أربعينَ سنةً .

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٢) .
(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٢) .
(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٣) ، وانظر « طبقات الأولياء » (ص ٥٢) .
(٤) في (ق) : (حياكا) بدل (جناكا) .
(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٥) .
(٦) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٥) .
(٧) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠١) .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٣٤) .
(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٣٤) .
(١٠) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٣٥) .

وقالَ الجنيدُ : دخلتُ علىٰ سريِّ السقطيِّ أعودُهُ في مرضِ موتِهِ ، فقلتُ : كيفَ تجدُكَ ؟ فأنشأَ يقولُ : [من الخفيف]

كَـيْـفَ أَشْـكُـو إِلَـىٰ طَـبِـيـبِـيَ مـا بِـي ... وَالَّــذِي بِـي أَصـابَـنِـي مِـنْ طَـبِـيـبِـي

فأخذتُ المروحةَ لأروِّحَهُ فقالَ : كيفَ يجدُ ريحَ المروحةِ مَنْ جوفُهُ يحترقُ ؟! ثمَّ أنشأَ يقولُ[1] : [من البسيط]

الْـقَـلْـبُ مُـحْـتَـرِقٌ وَالـدَّمْـعُ مُـسْـتَـبِـقٌ ... وَالْـكَـرْبُ مُـجْـتَـمِـعٌ وَالـصَّـبْـرُ مُـفْـتَـرِقُ

كَـيْـفَ الْـقَـرارُ عَـلَـىٰ مَـنْ لا قَـرارَ لَـهُ ... مِـمّـا جَـنـاهُ الْـهَـوَىٰ وَالـشَّـوْقُ وَالْـقَـلَـقُ

يـا رَبِّ إِنْ يَـكُ شَـيْءٌ فِـيـهِ لِـي فَـرَجٌ ... فَـامْـنُـنْ عَـلَـيَّ بِـهِ مـا دامَ بِـي رَمَـقُ

وحُكِيَ أنَّ قوماً مِنْ أصحابِ الشبليِّ رحمةُ اللهِ عليهِ دخلوا عليهِ وهوَ في الموتِ ، فقالوا لهُ : قلْ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، فأنشأَ يقولُ[2] : [من المديد]

إِنَّ بَـيْـتـاً أَنْـتَ سـاكِـنُـهُ ... غَـيْـرُ مُـحْـتـاجٍ إِلَـى الـسُّـرُجِ

وَجْـهُـكَ الْـمَـأْمُـولُ حُـجَّـتُـنـا ... يَـوْمَ يَـأْتِـي الـنّـاسُ بِـالْـحُـجَـجِ

لا أَتـاحَ اللهُ لِـي فَـرَجـاً ... يَـوْمَ أَدْعُـو مِـنْـكَ بِـالْـفَـرَجِ

وحُكيَ أنَّ أبا العباسِ بنَ عطاءٍ دخلَ على الجنيدِ في وقتِ نزعِهِ ، فسلَّمَ عليهِ فلمْ يجبْهُ ، ثمَّ أجابَ بعدَ ساعةٍ وقالَ : اعذرْني ؛ فإنِّي كنتُ في وردي ، ثمَّ ولَّىٰ وجهَهُ إلى القبلةِ وكبرَ وماتَ[3] .

وقيلَ للكتانيِّ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ : ما كانَ عملُكَ ؟ فقالَ : لوْ لمْ يقربْ أجلي . . ما أخبرتُكُم بِهِ ، وقفتُ علىٰ بابِ قلبِي أربعينَ سنةً ، فكلَّما مرَّ فيهِ غيرُ اللهِ . . حجبتُهُ عنهُ[4]

وحُكِيَ عَنِ المعتمرِ قالَ : كنتُ فِيمَنْ حضرَ الحكمَ بنَ عبدِ الملكِ حينَ جاءَهُ الحقُّ ، فقلتُ : اللهمَّ ؛ هوِّنْ عليهِ سكراتِ الموتِ ؛ فإنَّهُ كانَ وكانَ . . فذكرتُ محاسنَهُ ، فأفاقَ فقالَ : مَنِ المتكلمُ ؟ فقلتُ : أنا ، فقالَ : إنَّ ملكَ الموتِ عليهِ السَّلامُ يقولُ لي : إني بكلِّ سخيٍّ رفيقٌ ، ثمَّ طُفِئَ[5] .

ولمَّا حضرَتْ يوسفَ بنَ أسباطٍ الوفاةُ شهدَهُ حذيفةُ فوجدَهُ قلقاً ، فقالَ : يا أبا محمدٍ ؛ هـٰذا أوانُ القلقِ والجزعِ ؟! فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ وكيفَ لا أقلقُ ولا أجزعُ وإني لا أعلمُ أنِّي صدقتُ اللهَ تعالىٰ في شيءٍ مِنْ عملي ، فقالَ حذيفةُ : وا عجباهُ لهـٰذا الرجلِ الصالحِ !! يحلفُ عندَ موتِهِ أنَّهُ لا يعلمُ أنَّهُ صدقَ اللهَ تعالىٰ في شيءٍ مِنْ عملِهِ[6]

وعَنِ المغازليِّ قالَ : دخلتُ علىٰ شيخٍ لي مِنْ أصحابِ هـٰذهِ القصةِ وهوَ عليلٌ ، وهوَ يقولُ : يمكنُكَ أنْ تعملَ ما تريدُ فارفقْ بي[7]

---

(١) انظر « المنتظم » (٦٣/٧) ، و« بغية الطلب » (٤٢٢٦/٩) .

(٢) ديوانه (ص ١٣٩) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤١) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤١) ، وفي « الإتحاف » (٣٤٣/١٠) : (الحكم بن المطلب) وهو موافق لما في « مكارم الأخلاق » (٤٨٢) ، و« المؤتلف والمختلف » (٦٧٥/٢) .

(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤١) .

(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٢) .

ودخلَ بعضُ المشايخِ علىٰ ممشاذَ الدينوريِّ في وقتِ وفاتِهِ فقالَ لهُ : فعلَ اللهُ تعالىٰ وصنعَ مِنْ بابِ الدعاءِ ، فضحكَ ثمَّ قالَ : منذُ ثلاثينَ سنةً تُعرضُ عليَّ الجنَّةُ بما فيها فما أعرتُها طرفي [1]

وقيلَ لرويمٍ عندَ الموتِ : قلْ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، فقالَ : لا أحسنُ غيرَهُ [2]

ولمَّا حضرَتِ النُّوريَّ الوفاةُ . . قيلَ لهُ : قلْ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، فقالَ : أليسَ ثَمَّ أمرٌ ؟! [3]

ودخلَ المزنيُّ على الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ في مرضِهِ الذي تُوفيَ فيهِ ، فقالَ لهُ : كيفَ أصبحتَ يا أبا عبدِ اللهِ ؟ فقالَ : أصبحتُ مِنَ الدنيا راحلاً ، وللإخوانِ مفارقاً ، ولسوءِ عملي ملاقياً ، وبكأسِ المنيَّةِ شارباً ، وعلى اللهِ تعالىٰ وارداً ، ولا أدري أروحي تصيرُ إلى الجنَّةِ فأهنيَها ، أم إلى النَّارِ فأعزيَها ؟ ثمَّ أنشأَ يقولُ [4] : [من الطويل]

وَلـمّـا قَـسا قَـلْـبِي وَضـاقَـتْ مَـذاهِـبِي ... جَـعَـلْـتُ رَجـائِـي نَـحْـوَ عَـفْـوِكَ سُـلَّـما

تَـعـاظَـمَـنِـي ذَنْـبِـي فَـلَـمّـا قَـرَنْـتُـهُ ... بِـعَـفْـوِكَ رَبِّـي كـانَ عَـفْـوُكَ أَعْـظَـما

فَما زِلْـتَ ذا عَفْـوٍ عَـنِ الـذَّنْـبِ لَـمْ تَـزَلْ ... تَـجُـودُ وَتَـعْـفُـو مِـنَّـةً وَتَـكَـرُّمـا

وَلَـوْلاكَ لَـمْ يُـغْـوَ بِـإِبْـلِـيسَ عـابِـدٌ ... فَـكَـيْـفَ وَقَـدْ أَغْـوَىٰ صَـفِـيَّـكَ آدَمـا

ولمَّا حضرَتْ أحمدَ بنَ خضرويهِ الوفاةُ . . سُئلَ عَنْ مسألةٍ ، فدمعَتْ عيناهُ وقالَ : يا بنيَّ ؛ بابٌ كنتُ أدقُّهُ خمساً وتسعينَ سنةً هو ذا يُفتحُ لي الساعةَ ، لا أدري أيُفتحُ بالسعادةِ أو بالشقاوةِ ، فأنَّىٰ لي أوانُ الجوابِ ؟! [5]

فهـٰذهِ أقاويلُهُم ، وإنَّما اختلفَتْ بحسبِ اختلافِ أحوالِهِمْ ، فغلبَ علىٰ بعضِهِمُ الخوفُ ، وعلىٰ بعضِهِمُ الرجاءُ ، وعلىٰ بعضِهِمُ الشوقُ والحبُّ ، فتكلَّمَ كلُّ واحدٍ علىٰ مقتضىٰ حالِهِ ، والكلُّ صحيحٌ بالإضافةِ إلىٰ أحوالِهِمْ .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٢) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٢) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٤) .

(٤) ديوانه (ص ١١٩) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤٢/١٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٧١ ـ ٧٢) .

البَابُ السَّادِسُ
في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

اعلمْ : أنَّ الجنازةَ عبرةٌ للبصيرِ ، وفيها تنبيهٌ وتذكيرٌ ، إلَّا لأهلِ الغفلةِ ؛ فإنَّها لا تزيدُهم مشاهدتُها إلَّا قساوةً ؛ لأنَّهم يظنُّونَ أنَّهم أبداً إلىٰ جنازةِ غيرِهم ينظرونَ ، ولا يحسبونَ أنَّهم لا محالةَ على الجنائزِ يُحملونَ ، أو يحسبونَ ذٰلكَ ولٰكنَّهم على القربِ لا يقدِّرونَ[1] ، ولا يتفكَّرونَ أنَّ المحمولينَ على الجنائزِ كلَّهم هٰكذا كانوا يحسبونَ ، فبطلَ حسبانُهُم ، وانقرضَ على القربِ زمانُهُمْ ، فلا ينظرُ عبدٌ إلىٰ جنازةٍ إلَّا ويقدِّرُ نفسَهُ محمولاً عليها ، فإنَّهُ محمولٌ عليها على القربِ وكأنْ قدِ ، ولعلهُ في غدٍ أو بعدَ غدٍ .

فيُروىٰ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ كانَ إذا رأىٰ جنازةً . . قالَ : (امضوا ؛ فإنَّا على الأثرِ)[2]

وكانَ مكحولٌ الدمشقيُّ إذا رأىٰ جنازةً . . قالَ : اغدوا ؛ فإنَّا رائحونَ ، موعظةٌ بليغةٌ وغفلةٌ سريعةٌ ، يذهبُ الأولُ والآخرُ لا عقلَ لهُ[3]

وقالَ أسيدُ بنُ حضيرٍ : ما شهدتُ جنازةً فحدَّثتُ نفسي بشيءٍ سوىٰ ما هوَ مفعولٌ بهِ ، وما هوَ صائرٌ إليهِ[4]

ولمَّا ماتَ أخو مالكِ بنِ دينارٍ . . خرجَ مالكٌ في جنازتِهِ يبكي ويقولُ : واللهِ ؛ لا تقرُّ عيني حتىٰ أعلمَ إلىٰ ماذا صرتَ ، ولا أعلمُ ما دمتُ حيّاً[5]

وقالَ الأعمشُ : كنَّا نشهدُ الجنائزَ فلا ندري مَنْ نعزي ؛ لحزنِ الجميعِ[6]

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : كنَّا نشهدُ الجنائزَ فلا نرىٰ إلَّا متقنعاً باكياً[7]

فهٰكذا كانَ خوفُهم مِنَ الموتِ ، والآنَ لا ننظرُ إلىٰ جماعةٍ يحضرونَ جنازةً إلَّا وأكثرُهُم يضحكونَ ويلهونَ ، ولا يتكلَّمونَ إلَّا في ميراثِهِ وما خلَّفَهُ لورثتِهِ ، ولا يتفكَّرُ أقرانُهُ وأقاربُهُ إلَّا في الحيلةِ التي بها يتناولُ بعضَ ما خلَّفَهُ ، ولا يتفكَّرُ واحدٌ منهم ـ إلَّا ما شاءَ اللهُ ـ في جنازةِ نفسِهِ ، وفي حالِهِ إذا حُمِلَ عليها ، ولا سببَ لهٰذهِ الغفلةِ إلَّا قسوةُ القلوبِ بكثرةِ المعاصي والذنوبِ ، حتىٰ نسينا اللهَ تعالىٰ واليومَ الآخرَ والأهوالَ التي بينَ أيدينا ، فصرنا نلهو ونغفلُ ونشتغلُ بما لا يعنينا ، فنسألُ اللهَ تعالى اليقظةَ مِنْ هٰذهِ الغفلةِ ؛ فإنَّ أحسنَ أحوالِ الحاضرينَ على الجنائزِ بكاؤُهم على الميتِ ، ولوْ عقلوا . . لبكوا علىٰ أنفسِهِم لا على الميتِ .

---

(١) أي : لا يقدرونَ الموت علىٰ أنفسهم قريباً . « إتحاف » (٣٤٨/١٠) .
(٢) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٢٥٥/٥) ، وهناد بن السري في « الزهد » (٥٠٧) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٣/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٣٥٢/٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٨٨/٣) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٤٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (٣٤٩/١٠) .
(٦) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٢٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٠/٥) .
(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٢/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٣٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٨٤١) .

نظرَ إبراهيمُ الزياتُ إلىٰ أناسٍ يترحَّمونَ على الميتِ فقالَ : لو ترحَّمونَ علىٰ أنفسِكُمْ . . لكانَ خيراً لكم ؛ إنَّهُ نجا مِنْ أهوالٍ ثلاثةٍ : وجهُ ملكِ الموتِ وقدْ رأىٰ ، ومرارةُ الموتِ وقدْ ذاقَ ، وخوفُ الخاتمةِ وقدْ أمنَ[1]

وقالَ أبو عمرِو بنُ العلاءِ : جَلستُ إلىٰ جريرٍ وهو يملي علىٰ كاتبِهِ شعراً ، فاطلعَتْ جنازةٌ فأمسَكَ وقالَ : شيَّبَتْني واللهِ هٰذهِ الجنائزُ ، وأنشأَ يقولُ[2] : [من الوافر]

تُـــرَوِّعُـــنـــا الْـجَـنـــائِـزُ مُـقْـبِـلاتٍ ... وَنَـلْـهُـو حِـيـنَ تَـذْهَـبُ مُـدْبِـراتِ

كَـــرَوْعَـــةِ ثُـلَّــةٍ لِـمَـغـارِ ذِئْـــبٍ[3] ... فَـلَـمّـا غـابَ عـــادَتْ راتِـعـاتِ

فمِنْ آدابِ حضورِ الجنائزِ : التفكُّرُ والتنبُّهُ والاستعدادُ ، والمشيُ أمامَها علىٰ هيئةِ التواضعِ كما ذكرنا آدابَهُ وسننَهُ في فنِّ الفقهِ .

ومِنْ آدابِهِ : حسنُ الظنِّ بالميتِ وإنْ كانَ فاسقاً ، وإساءةُ الظنِّ بالنفسِ وإنْ كانَ ظاهرُها الصلاحَ ؛ فإنَّ الخاتمةَ مخطرةٌ لا تُدرىٰ حقيقتُها ، ولذٰلكَ رُويَ عَنْ عمرَ بنِ ذرٍّ : أنَّهُ ماتَ واحدٌ مِنْ جيرانِهِ وكانَ مسرفاً علىٰ نفسِهِ ، فتجافىٰ كثيرٌ مِنَ الناسِ عنْ جنازتِهِ ، فحضرَها هوَ وصلَّىٰ عليها ، فلمَّا دُليَ في قبرِهِ . . وقفَ علىٰ قبرِهِ وقالَ : يرحمُكَ اللهُ يا أبا فلانٍ ؛ فلقدْ صحبتَ عمرَكَ بالتوحيدِ ، وعفرتَ وجهَكَ بالسجودِ وإنْ قالوا : مذنبٌ وذو خطايا ؛ فمَنْ منَّا غيرُ مذنبٍ وغيرُ ذي خطايا ؟![4]

ويُحكىٰ أنَّ رجلاً مِنَ المنهمكينَ في الفسادِ ماتَ في بعضِ نواحي البصرةِ ، فلمْ تجدِ امرأتُهُ مَنْ يعينُها علىٰ حملِ جنازتِهِ ؛ إذْ لمْ يدْرِ بها أحدٌ مِنْ جيرانِهِ لكثرةِ فسقِهِ ، فاستأجرَتْ حمَّالينَ وحملَتْها إلى المصلَّىٰ ، فما صلىٰ عليه أحدٌ ، فحملَتْها إلى الصحراءِ للدفنِ ، فكانَ علىٰ جبلٍ قريبٍ مِنَ الموضعِ زاهدٌ مِنَ الزهادِ الكبارِ ، فرأَتْهُ كالمنتظرِ للجنازةِ ، فقصدَ أنْ يصليَ عليها ، فانتشرَ الخبرُ في البلدِ بأنَّ الزاهدَ قدْ نزلَ ليصليَ علىٰ فلانٍ ، فخرجَ أهلُ البلدِ فصلَّى الزاهدُ وصلَّوا عليهِ ، وتعجَّبَ الناسُ مِنْ صلاةِ الزاهدِ عليهِ ، فقالَ : قيلَ لي في المنامِ : انزلْ إلىٰ موضعِ فلانٍ ترىٰ فيهِ جنازةً ليسَ معَها إلّا امرأةٌ ، فصلِّ عليهِ ، فإنَّهُ مغفورٌ لهُ ، فزادَ تعجُّبُ الناسِ ، فاستدعى الزاهدُ امرأتَهُ وسألَها عنْ حالِهِ ، وأنَّهُ كيفَ كانَتْ سيرتُهُ ، قالَتْ : كما عُرفَ ، كانَ طولَ نهارِهِ في الماخورِ مشغولاً بشربِ الخمرِ[5] ، فقالَ : انظري ، هلْ تعرفينَ مِنهُ شيئاً مِنْ أعمالِ الخيرِ ؟ قالَتْ : نعم ، ثلاثةَ أشياءَ : كانَ كلَّ يومٍ يفيقُ مِنْ سكرِهِ وقتَ الصبحِ فيبدِّلُ ثيابَهُ ويتوضأُ ويصلي الصبحَ في جماعةٍ ، ثمَّ يعودُ إلى الماخورِ ويشتغلُ بالفسقِ ، **والثانيةُ** : أنَّهُ كانَ أبداً لا يخلو بيتُهُ عَنْ يتيمٍ أو يتيمينِ ، وكانَ إحسانُهُ إليهم أكثرَ مِنْ إحسانِهِ إلىٰ أولادِهِ ، وكانَ شديدَ التفقُّدِ لهُمْ ، **والثالثةُ** : أنَّهُ كانَ يفيقُ في أثناءِ سكرِهِ في ظلامِ الليلِ فيبكي ويقولُ : يا ربِّ ؛ أيَّ زاويةٍ مِنْ زوايا جهنَّمَ تريدُ أنْ تملأَها بهٰذا الخبيثِ ؟! يعني نفسَهُ ، فانصرفَ الزاهدُ وقدِ ارتفعَ إشكالُهُ مِنْ أمرِهِ[6]

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١١٦) .

(٢) ديوانه (١٠٢٤/٢) ، كما نسبت إلىٰ عروة بن أذينة في « ديوانه » (ص ٣٠٩) .

(٣) **ثلة** : جماعة الغنم ، **المغار** : الإغارة .

(٤) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٦٢) .

(٥) **الماخور** : بيت الخمر .

(٦) حكاها الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٥٩ ـ ١٦٠) .

وعَنْ صلةَ بنِ أشيمَ وقدْ دُفنَ أخٌ لهُ فقالَ علىٰ قبرِهِ[1] :		[من الطويل]

فَـإِنْ تَـنْـجُ مِنْـها تَـنْـجُ مِـنْ ذِي عَـظِيـمَةٍ		وَإِلَّا فَـإِنِّـي لا إِخـالُـكَ نـاجِـيا

❋ ❋ ❋

(١) البيت في « طبقات فحول الشعراء » (١/١٨٢) للفرزدق ، وليس في « ديوانه » ، و« البيان والتبيين » (١/٣٦٧) للأسود بن سريع ، و« المحاسن والمساوئ » (ص ٣٥٤) لذي الرمة ، وهو في « ديوانه » (٣/١٩٢٤) .

بيان حال القبر وأقاويلهم على القبور

قالَ الضحاكُ : قالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أزهدُ النَّاسِ ؟ قالَ : « مَنْ لمْ ينسَ القبرَ والبلىٰ ، وتركَ فضلَ زينةِ الدنيا ، وآثرَ ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ ، ولمْ يعدَّ غداً من أيامِهِ ، وعدَّ نفسَهُ مِنْ أهلِ القبورِ »(١)

وقيلَ لعليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : ما شأنُك جاورتَ المقبرةَ ؟ قالَ : (إنِّي أجدُهم خيرَ جيرانٍ ، إنِّي أجدُهم جيرانَ صدقٍ ؛ يكفُّونَ الألسنةَ ، ويُذكِّرونَ الآخرةَ)(٢)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما رأيتُ منظراً إلَّا والقبرُ أفظعُ منهُ »(٣)

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : خرجنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى المقابرِ ، فجلسَ إلىٰ قبرٍ وكنتُ أدنى القومِ منهُ ، فبكىٰ وبكيتُ وبكَوا ، فقالَ : « ما يبكيكُمْ ؟ » قلنا : بكينا لبكائِكَ ، قالَ : « هـٰذا قبرُ أمي آمنةَ بنتِ وهبٍ ، استأذنتُ ربِّي في زيارتِها فأذنَ لي ، فاستأذنْتُهُ في أنْ أستغفرَ لها فأبىٰ عليَّ ، فأدركَني ما يدركُ الولدَ مِنَ الرِّقةِ »(٤)

وكانَ عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ إذا وقفَ علىٰ قبرٍ . . بكىٰ حتىٰ يبلَّ لحيتَهُ ، فسُئِلَ عَنْ ذٰلكَ وقيلَ لهُ : تذكرُ الجنَّةَ والنَّارَ فلا تبكي ، وتبكي إذا وقفتَ علىٰ قبرٍ ؟! فقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ القبرَ أولُ منازلِ الآخرةِ ، فإنْ نجا منهُ صاحبُهُ . . فما بعدَهُ أيسرُ منهُ ، وإنْ لمْ ينجُ منهُ . . فما بعدَهُ أشدُّ »(٥)

وقيلَ : إنَّ عمرَو بنَ العاصِ نظرَ إلى المقبرةِ ، فنزلَ وصلَّىٰ ركعتينِ ، فقيلَ لهُ : هـٰذا شيءٌ لم تكنْ تصنعُهُ ؟ فقالَ : (ذكرتُ أهلَ القبورِ وما حِيلَ بينَهم وبينَهُ ، فأحببتُ أنْ أتقربَ إلى اللهِ تعالىٰ بهما)(٦)

وقالَ مجاهدٌ : أولُ ما يكلمُ ابنَ آدمَ حفرتُهُ فتقولُ : أنا بيتُ الدودِ ، وبيتُ الوحدةِ ، وبيتُ الغربةِ ، وبيتُ الظلمةِ ، هـٰذا ما أعددتُ لكَ ، فما أعددتَ لي ؟!(٧)

وقالَ أبو ذرٍّ : (ألا أخبرُكم بيومِ فقري ؟ يومَ أُوضعُ في قبري)(٨)

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٨١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٥٩) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٧١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٥٥) وفيه : (السيئة) بدل (الألسنة) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٣١/٤) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٣٥٥/٥) بنحو لفظ المصنف من حديث بريدة رضي الله عنه ، وهو مختصر عند مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد ألف العلماء الكثير من المصنفات في تحقيق نجاة الأبوين الكريمين ، ونجاة آباء المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم الكرام ، الذين ماتوا في فترة الجاهلية ولم تبلغهم الدعوة ، وأثبتوا أنهم من أهل الجنة ، وأقاموا علىٰ ذٰلك الأدلة الناصعة والبراهين الساطعة ، فلتراجع .

(٥) رواه الترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) .

(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٧) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٩٦/٤٢) عن علي رضي الله عنه من طريق مجاهد ، وقد رواه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .

(٨) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٠) .

وكانَ أبو الدرداءِ يجلسُ إلى القبورِ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ فقالَ : (أجلسُ إلىٰ قومٍ يذكِّروني معادي ، وإن قمتُ . . لم يغتابوني)[١]

وكانَ جعفرُ بنُ محمدٍ يأتي القبورَ ليلاً ويقولُ : يا أهلَ القبورِ ؛ ما لي إذا دعوتُكم لا تجيبوني ؟! ثمَّ يقولُ : حِيلَ واللهِ بينَهم وبينَ جوابي ، وكأنِّي بي أكونُ مثلَهُم ، ثمَّ يستقبلُ الصلاةَ إلىٰ طلوعِ الفجرِ[٢]

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ لبعضِ جلسائِهِ : يا فلانُ ؛ لقدْ أرقتُ الليلةَ تفكراً في القبرِ وساكنِهِ ، إنَّكَ لوْ رأيتَ الميتَ بعدَ ثلاثةٍ في قبرِهِ . . لاستوحشتَ مِنْ قربِهِ بعدَ طولِ الأنسِ منكَ بهِ ، ولرأيتَ بيتاً تجولُ فيه الهوامُّ ، ويجري فيهِ الصديدُ ، وتخترقُهُ الديدانُ ، معَ تغيرِ الريحِ وبلى الأكفانِ بعدَ حسنِ الهيئةِ وطيبِ الريحِ ونقاءِ الثوبِ ، قالَ : ثمَّ شهقَ شهقةً خرَّ مغشيّاً عليهِ[٣]

وكانَ يزيدُ الرقاشيُّ يقولُ : أيُّها المقبورُ في حفرتِهِ ، والمتخلي في القبرِ بوحدتِهِ ، المستأنسُ في بطنِ الأرضِ بأعمالِهِ ؛ ليتَ شعري !! بأيِّ أعمالِكَ استبشرتَ ؟! وبأيِّ إخوانِكَ اغتبطْتَ ؟! ثمَّ يبكي حتىٰ يبلَّ عمامتَهُ ، ثمَّ يقولُ : استبشرَ واللهِ بأعمالِهِ الصالحةِ ، واغتبطَ واللهِ بإخوانِهِ المتعاونينَ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وكانَ إذا نظرَ إلى القبورِ . . خارَ كما يخورُ الثورُ[٤]

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : مَنْ مرَّ بالمقابرِ فلم يتفكَّرْ لنفسِهِ ولم يدعُ لهم . . فقدْ خانَ نفسَهُ وخانَهُم[٥]

وكانَ بكرٌ العابدُ يقولُ : يا أمَّاهُ ؛ ليتَكِ كنتِ بي عقيماً !! إنَّ لابنِكِ في القبرِ حبساً طويلاً ، ومِنْ بعدِ ذٰلكَ منهُ رحيلاً[٦]

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : يا بنَ آدمَ ؛ دعاكَ ربُّكَ إلىٰ دارِ السَّلامِ فانظرْ مِنْ أينَ تجيبُهُ ، إنْ أجبتَهُ مِنْ دنياكَ واشتغلتَ بالرحلةِ إليه . . دخلتَها ، وإنْ أجبتَهُ مِنْ قبركَ . . مُنعتَها[٧]

وكانَ الحسنُ بنُ صالحٍ إذا أشرفَ على المقابرِ . . يقولُ : ما أحسنَ ظواهرَكِ !! إنَّما الدواهي في بواطنِكِ[٨]

وكانَ عطاءٌ السلميُّ إذا جنَّ عليهِ الليلُ . . خرجَ إلى المقبرةِ فوقفَ ثمَّ يقولُ : يا أهلَ القبورِ ؛ متُّم فيا موتاهُ !! وعاينتُم أعمالَكُم فوا عملاهُ !! ثمَّ يقولُ : غداً عطاءٌ في القبرِ ، غداً عطاءٌ في القبرِ ، فلا يزالُ ذٰلكَ دأبَهُ حتىٰ يصبحَ[٩]

وقالَ سفيانُ : مَنْ أكثرَ ذكرَ القبرِ . . وجدَهُ روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، ومَنْ غفلَ عنْ ذكرِهِ . . وجدَهُ حفرةً منْ حفرِ النَّارِ[١٠]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٣) .
(٢) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٦٨)
(٤) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٤ ـ ١٩٥) .
(٥) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٥) .
(٦) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٥) .
(٧) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٥) .
(٨) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٥) .
(٩) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٢٣) .
(١٠) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٥ ـ ١٩٦) .

وكانَ الربيعُ بنُ خيثمٍ قدْ حفرَ في دارِهِ قبراً ، فكانَ إذا وجدَ في قلبِهِ قساوةً . . دخلَ فيهِ فاضطجعَ ومكثَ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ يقولُ : ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۞ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ يردِّدُها ، ثمَّ يردُّ على نفسِهِ : يا ربيعُ : قدْ رجعتُكَ فاعملْ (١)

وقالَ أحمدُ بنُ حربٍ : تتعجَّبُ الأرضُ مِنْ رجلٍ يمهِّدُ مضجعَهُ ويسوي فراشَهُ للنَّومِ فتقولُ : يا بنَ آدمَ ؛ لِمَ لا تذكرُ طولَ بلاكَ وما بيني وبينَكَ شيءٌ ؟!(٢)

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ خرجتُ معَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ إلى المقبرةِ ، فلمَّا نظرَ إلى القبورِ . . بكىٰ ، ثمَّ أقبلَ عليَّ فقالَ : يا ميمونُ ؛ هـٰذهِ قبورُ آبائي بني أميَّةَ ، كأنَّهمْ لمْ يشاركوا أهلَ الدنيا في لذاتِهِمْ وعيشِهِمْ ، أما تراهم صرعىٰ قدْ حلَّتْ بهمُ المثُلاتُ ، واستحكمَ فيهمُ البلىٰ ، وأصابَتِ الهوامُّ مقيلاً في أبدانِهم ؟! ثمَّ بكىٰ وقالَ : واللهِ ؛ ما أعلم أحداً أنعمَ ممَّن صارَ إلىٰ هـٰذهِ القبورِ وقدْ أمنَ مِنْ عذابِ اللهِ (٣)

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : دخلتُ المقابرَ ، فلمَّا قصدتُ الخروجَ منها ؛ فإذا بصوتِ قائلٍ يقولُ : يا ثابتُ ؛ لا يغرَّنَّكَ صموتُ أهلِها ، فكمْ مِنْ نفسٍ مغمومةٍ فيها (٤)

ويُروىٰ أنَّ فاطمةَ بنتَ الحسينِ نظرَتْ إلىٰ جنازةِ زوجِها الحسنِ بنِ الحسنِ ، فغطَّتْ وجهَها وقالَتْ (٥) : [من الطويل]

وَكَـانُـوا رَجَـاءً ثُـمَّ أَمْـسَـوْا رَزِيَّـةً ... لَـقَـدْ عَـظُـمَـتْ تِـلْـكَ الـرَّزايـا وَجَـلَّـتِ

وقيلَ : إنَّها ضربَتْ علىٰ قبرِهِ فسطاطاً واعتكفَتْ عليهِ سنةً ، فلمَّا مضتِ السَّنةُ . . قلعوا الفسطاطَ ودخلَتِ المدينةَ ، فسمعُوا صوتاً مِنْ جانبِ البقيعِ : هلْ وجدُوا ما فقدُوا ؟ فسمعُوا مِنَ الجانبِ الآخرِ بل يئسُوا فانقلبُوا (٦)

وقالَ أبو موسى التميميُّ : تُوفيَتِ امرأةُ الفرزدقِ ، فخرجَ في جنازتِها وجوهُ البصرةِ وفيهِمُ الحسنُ ، فقالَ لهُ الحسنُ : يا أبا فراسٍ ؛ ماذا أعددتَ لهـٰذا اليومِ ؟ فقالَ : شهادةُ أنْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ منذُ ستينَ سنةً ، فلمَّا دُفنَتْ . . أقامَ الفرزدقُ علىٰ قبرِها فقالَ (٧) : [من الطويل]

أَخـافُ وَراءَ الْـقَـبْـرِ إِنْ لَـمْ تُـعافِـنِـي ... أَشَـدَّ مِـنَ الْـقَـبْـرِ الْـتِـهـاباً وَأَضْـيَـقـا

إِذَا جـاءَنِـي يَـوْمَ الْـقِـيـامَـةِ قـائِـدٌ ... عَـنِـيـفٌ وَسَـوَّاقٌ يَـسُـوقُ الْـفَـرَزْدَقـا

لَـقَـدْ خـابَ مِـنْ أَوْلادِ آدَمَ مَـنْ مَـشَـىٰ ... إِلَـى الـنّـارِ مَـغْـلُـولَ الْـقِـلادَةِ أَزْرَقـا

وقدْ أنشدوا في أهلِ القبورِ (٨) : [من الكامل]

قِـفْ بِـالْـقُـبُـورِ وَقُـلْ عَـلَـىٰ ساحاتِـها ... مَـنْ مِـنْـكُـمُ الْـمَـغْـمُـومُ فِـي ظُـلُـماتِـها

وَمَـنِ الْـمُـكَـرَّمُ مِـنْـكُـمُ فِـي قَـعْـرِهـا ... قَـدْ ذاقَ بَـرْدَ الأَمْـنِ مِـنْ رَوْعـاتِـهـا

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣١١/١١) .
(٢) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٩/٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣٢/٤٥) .
(٤) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٩) .
(٥) البيت لسليمان بن قتة . انظر « التعازي والمراثي » (ص ٧٩) .
(٦) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/٧٠ ـ ٢٠) .
(٧) ديوانه (٩٠/٢) .
(٨) انظر « بستان الواعظين » (ص ٢٧٥) .

أَمَّــا الـسُّـكُـونُ لِـذِي الْـعُـيُـونِ فَـواحِـدٌ ... لا يَـسْـتَـبِـينُ الْـفَـضْـلُ فِـي دَرَجـاتِـهـا

لَــوْ جــاوَبُــوكَ لأَخْـبَـرُوكَ بِـأَلْـسُـنٍ ... تَـصِـفُ الْـحَـقـائِـقَ بَـعْـدُ مِـنْ حـالاتِـهـا

أَمَّــا الْـمُـطِـيـعُ فَـنـازِلٌ فِـي رَوْضَــةٍ ... يُـفْـضِـي إِلَـىٰ ما شـاءَ مِـنْ راحـاتِـهـا

وَالْـمُـجْـرِمُ الـطَّـاغِـي بِـهـا مُـتَـقَـلِّـبٌ ... فِـي حُـفْـرَةٍ يَـأْوِي إِلَـىٰ حَـيَّـاتِـهـا

وَعَــقـارِبٌ تَـسْـعَـىٰ إِلَـيْـهِ فَـرُوحُـهُ ... فـي شِـدَّةِ الـتَّـعْـذِيـبِ مِـنْ لَـدَغـاتِـهـا

ومرَّ داوودُ الطائيُّ على امرأةٍ تبكي علىٰ قبرٍ وهيَ تقولُ : [من المتقارب]

عَـدِمْـتُ الْـحَـيـاةَ وَلا نِـلْـتُـهـا ... إِذا أَنْـتَ فـي الْـقَـبْـرِ قَـدْ أَلْـحَـدُوكـا

فَـكَـيْـفَ أَذُوقُ لَـذِيـذَ الْـكَـرَىٰ ... وَأَنْـتَ بِـيُـمْـنـاكَ قَـدْ وَسَّـدُوكـا

ثمَّ قالَتْ : يا أبتاهُ[1] ؛ ليتَ شعري !! بأيِّ خدَّيكَ بدأَ الدُّودُ ؟! فصَعقَ داوودُ مكانَهُ وخرَّ مغشيّاً عليهِ[2]

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : مررتُ بالمقبرةِ فانشأتُ أقولُ : [من المتقارب]

أَتَـيْـتُ الْـقُـبُـورَ فَـنـادَيْـتُـهـا ... فَـأَيْـنَ الْـمُـعَـظَّـمُ وَالْـمُـحْـتَـقَـرْ

وَأَيْـنَ الْـمُـذِلُّ بِـسُـلْـطـانِـهِ ... وَأَيْـنَ الْـمُـزَكِّـي إِذا مـا افْـتَـخَـرْ

قالَ : فنُوديتُ مِنْ بينِهم أسمعُ صوتاً ولا أرىٰ شخصاً وهوَ يقولُ : [من المتقارب]

تَـفـانَـوا جَـمِـيـعـاً فَـمـا مُـخْـبِـرٌ ... وَمـاتُـوا جَـمِـيـعـاً وَمـاتَ الْـخَـبَـرْ

وَسـارُوا إِلَـىٰ مـالِـكٍ قـاهِـرٍ ... عَـزِيـزٍ مُـطـاعٍ إِذا مـا أَمَـرْ

لَـقَـدْ قَـلَّـدَ الْـقَـوْمَ أَعْـمـالَـهُـمْ ... فَـإِمّـا نَـعِـيـمٌ وَإِمّـا سَـقَـرْ

تَـرُوحُ وَتَـغْـدُوا بَـنـاتُ الـثَّـرَىٰ ... فَـتَـمْـحُـو مَـحـاسِـنَ تِـلْـكَ الـصُّـوَرْ

فَـيـا سـائِـلِـي عَـنْ أُنـاسٍ مَـضَـوْا ... أَمـا لَـكَ فِـيـمـا تَـرَىٰ مُـعْـتَـبَـرْ

قالَ : فرجعتُ وأنا باكٍ[3]

* * *

(١) في (ب ، ج) : (ابناه) .

(٢) انظر « عيون الأخبار » (٣٠٢/٢) ، والخبر حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٩٥) ، وأورد القشيري في « الرسالة » (ص ٥٩) : أن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بـأي خـدَّيـك تـبـدى الـبـلـىٰ ... وأي عـيـنـيـك إذاً سـالا

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٨٨) ، وانظر « عيون الأخبار » (٣٠٢/٢ ـ ٣٠٣)

أبياتٌ وُجِدت مكتوبةً على القبور

وُجِدَ مكتوباً علىٰ قبرٍ[1] : [من الطويل]

تُـناجِـيـكَ أَجْـداثٌ وَهُـنَّ سُـكـوتُ ... وَسُـكّـانُـهـا تَـحْـتَ الـتُّـرابِ خُـفُـوتُ

أَيـا جـامِـعَ الـدُّنْـيـا لِـغَـيْـرِ بَـلاغِـهِ ... لِـمَـنْ تَـجْـمَـعُ الـدُّنْـيـا وَأَنْـتَ تَـمُـوتُ

ووُجدَ مكتوباً علىٰ قبرٍ آخرَ[2] : [من الطويل]

أَبـا غـانِـمٍ أَمّـا ذُراكَ فَـواسِـعٌ ... وَقَـبْـرُكَ مَـعْـمُـورُ الْـجَـوانِـبِ مُـحْـكَـمُ

وَمـا يَـنْـفَـعُ الْـمَـقْـبُـورَ عُـمْـرانُ قَـبْـرِهِ ... إِذا كـانَ فِـيـهِ جِـسْـمُـهُ يَـتَـهَـدَّمُ

وقالَ ابنُ السماكِ : مررتُ بالمقابرِ ؛ فإذا علىٰ قبرٍ مكتوبٌ[3] : [من الوافر]

يَـمُـرُّ أَقـارِبـي جَـنَـبـاتِ قَـبْـرِي ... كَـأَنَّ أَقـارِبـي لَـمْ يَـعْـرِفُـونِـي

ذَوُو الْـمِـيـراثِ يَـقْـتَـسِـمُـونَ مـالِـي ... وَمـا يَـأْلُـونَ أَنْ جَـحَـدُوا دُيُـونِـي

وَقَـدْ أَخَـذُوا سِـهـامَـهُـمُ وَعـاشُـوا ... فَـيـا للهِ أَسْـرَعَ مـا نَـسُـونِـي

وَوُجِدَ علىٰ قبرٍ مكتوباً[4] : [من البسيط]

إِنَّ الْـحَـبِـيـبَ مِـنَ الأَحْـبـابِ مُـخْـتَـلَـسٌ ... لا يَـمْـنَـعُ الْـمَـوْتَ بَـوّابٌ وَلا حَـرَسُ

فَـكَـيْـفَ تَـفْـرَحُ بِـالـدُّنْـيـا وَلَـذَّتِـهـا ... يـا مَـنْ يُـعَـدُّ عَـلَـيْـهِ الـلَّـفْـظُ وَالـنَّـفَـسُ

أَصْـبَـحْـتَ يـا غـافِـلاً فِـي الـنَّـقْـصِ مُـنْـغَـمِـساً ... وَأَنْـتَ دَهْـرَكَ فِـي الـلَّـذاتِ مُـنْـغَـمِـسُ

لا يَـرْحَـمُ الْـمَـوْتُ ذا جَـهْـلٍ لِـغِـرَّتِـهِ ... وَلا الَّـذِي كـانَ مِـنْـهُ الْـعِـلْـمُ يُـقْـتَـبَـسُ

كَـمْ أَخْـرَسَ الْـمَـوْتُ فِـي قَـبْـرٍ وَقَـفْـتَ بِـهِ ... عَـنِ الْـجَـوابِ لِـسـانـاً مـا بِـهِ خَـرَسُ

قَـدْ كـانَ قَـصْـرُكَ مَـعْـمُـوراً لَـهُ شَـرَفٌ ... فَـقَـبْـرُكَ الْـيَـوْمَ فـي الأَجْـداثِ مُـنْـدَرِسُ

ووُجِدَ علىٰ قبرٍ مكتوباً : [من الطويل]

فَـأَضْـحَـوْا رَمِـيـمـاً فِـي الـتُّـرابِ وَعُـطِّـلَـتْ ... مَـجـالِـسُ مِـنْـهُـمْ أَقْـفَـرَتْ وَمَـقـاصِـرُ

وحَـلُّـوا بِـدارٍ لا تَـزاوُرَ بَـيْـنَـهُـمْ ... وَكَـيْـفَ لِـسُـكّـانِ الْـقُـبُـورِ تَـزاوُرُ

فَـمـا إِنْ تَـرَىٰ أَجْـداثَـهُـمْ قَـدْ تَـوَوْا بِـهـا ... مُـشَـحَّـطَـةً تَـسْـفِـي عَـلَـيْـهـا الأَعـاصِـرُ

---

(١) أوردها الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٩١٤) .

(٢) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٣٥) .

(٣) ذكرها ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٦) .

(٤) ذكرها ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٦ ـ ٣٥٧) .

فَهُمْ فِي بُطُونِ الأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِها ... مَحاسِنُهُمْ فِيها بَوالٍ دَواثِرُ

ووُجِدَ علىٰ قبرٍ آخرَ مكتوباً[1] : [من الوافر]

وَقَفْتُ عَلَى الأَحِبَّةِ حِينَ صُفَّتْ ... قُبُورُهُمُ كَأَفْراسِ الرِّهانِ

فَلَمَّا أَنْ بَكَيْتُ وَفاضَ دَمْعِي ... رَأَتْ عَيْنايَ بَيْنَهُمُ مَكانِي

ووُجِدَ علىٰ قبرِ طبيبٍ مكتوباً[2] : [من السريع]

قَدْ قُلْتُ لَمَّا قالَ لِي قائِلٌ ... قَدْ صارَ بُقْراطُ إِلَىٰ رَمْسِهِ

فَأَيْنَ ما يُوصَفُ مِنْ طِبِّهِ ... وَحَذْقِهِ فِي الْماءِ مَعَ جَسِّهِ

هَيْهاتَ لا يَدْفَعُ عَنْ غَيْرِهِ ... مَنْ كانَ لا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ

ووُجِدَ علىٰ قبرٍ آخرَ مكتوباً[3] : [من المنسرح]

يا أَيُّها النَّاسُ كانَ لِي أَمَلٌ ... قَصَّرَ بِي عَنْ بُلُوغِهِ الأَجَلُ

فَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ رَجُلٌ ... أَمْكَنَهُ فِي حَياتِهِ الْعَمَلُ

ما أَنا وَحْدِي نُقِلْتُ حَيْثُ تَرَىٰ ... كُلٌّ إِلَىٰ مِثْلِهِ سَيَنْتَقِلُ

فهٰذهِ أبياتٌ كُتِبَتْ على القبورِ ؛ لتقصيرِ سكَّانِها عنِ الاعتبارِ قبلَ الموتِ ، والبصيرُ : هوَ الذي ينظرُ إلىٰ قبرِ غيرِهِ فيرىٰ مكانَهُ بينَ أظهرِهم ، فيستعدُّ للحوقِ بهِمْ ، ويعلمُ أنَّهم لا يبرحونَ مِنْ مكانِهم ما لمْ يلحقْ بهِمْ ، وليتحقَّقْ أنَّهُ لوْ عُرِضَ عليهِمْ يومٌ واحدٌ مِنْ أيامِ عمرِهِ الذي هوَ مضيِّعٌ لهُ . . لكانَ ذٰلكَ أحبَّ إليهِمْ مِنَ الدنيا بحذافيرِها ؛ لأنَّهُمْ عرفوا قدرَ الأعمارِ[4] ، وانكشفَتْ لهُمْ حقائقُ الأمورِ ، فإنَّما حسرتُهُم علىٰ يومٍ مِنَ العمرِ ؛ ليتداركَ المقصِّرُ بِهِ تقصيرَهُ فيتخلَّصَ مِنَ العقابِ ، وليستزيدَ الموفَّقُ بِهِ رتبتَهُ فيتضاعفَ لهُ الثوابُ ؛ فإنَّهُمْ إنَّما عرفوا قدرَ العمرِ بعدَ انقطاعِهِ ، فحسرتُهُم علىٰ ساعةٍ مِنَ الحياةِ وأنتَ قادرٌ علىٰ تلكَ الساعةِ ، ولعلكَ تقدرُ علىٰ أمثالِها ، ثمَّ أنتَ مضيِّعٌ لها ، فوطِّنْ نفسَكَ على التحسُّرِ علىٰ تضييعِها عندَ خروجِ الأمرِ مِنَ الاختيارِ إنْ لمْ تأخذْ نصيبَكَ مِنْ ساعتِكَ علىٰ سبيلِ الابتدارِ ، فقدْ قالَ بعضُ الصالحينَ : رأيتُ أخاً لي في اللهِ فيما يرى النائمُ ، فقلتُ : يا فلانُ ؛ عشتَ ؟ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، قالَ : لأَنْ أقدرَ علىٰ أَنْ أقولَها ـ يعني : الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ـ أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها ، ثمَّ قال : ألمْ ترَ حيثُ كانوا يدفنوني ؟! فإنَّ فلاناً قدْ قامَ فصلَّىٰ ركعتينِ ؛ لأَنْ أكونَ أقدرُ علىٰ أَنْ أصليَهُما . . أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها[5]

* * *

(1) ذكرها الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٢٠٥) .

(2) الأبيات لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ١٣٦) ، والخبر أورده ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٧) .

(3) انظر « بهجة المجالس » (١/١٥٤) والخبر حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٢٠٥) . وانظر « وفيات الأعيان » (٥/١٧٣) .

(4) في النسخ : (الأعمال) بدل (الأعمار) ، والمثبت من (ق) .

(5) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/١٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٦٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٧٣) .

بيان أقاويلهم عند موت الولد

حقٌّ علىٰ مَنْ ماتَ ولدُهُ أوْ قريبٌ مِنْ أقاربِهِ أنْ ينزلَهُ في تقدُّمِهِ عليهِ في الموتِ منزلةَ ما لوْ كانا في سفرٍ فسبقَهُ ولدُهُ إلى البلدِ الذي هوَ مستقرُّهُ ووطنُهُ ؛ فإنَّهُ لا يعظمُ عليهِ تأسُّفُهُ ، لعلمِهِ أنَّهُ لاحقٌ بهِ على القربِ وليسَ بينَهُما إلَّا تقدُّمٌ وتأخُّرٌ ، وهٰكذا الموتُ ؛ فإنَّ معناهُ السَّبقُ إلى الوطنِ إلىٰ أنْ يلحقَ المتأخِّرُ ، وإذا اعتقدَ هٰذا . . قلَّ جزعُهُ وحزنُهُ ، لا سيَّما وقدْ وردَ في موتِ الولدِ مِنَ الثوابِ ما يُعزَّىٰ بهِ كلُّ مصابٍ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ أقدمَ سقطاً . . أحبُّ إليَّ مِنْ أن أخلِّفَ مئةَ فارسٍ كلُّهم يقاتلُ في سبيلِ اللهِ »[1] وإنَّما ذكرَ السقطَ تنبيهاً بالأدنىٰ على الأعلىٰ ، وإلَّا . . فالثَّوابُ علىٰ قدرِ محلِّ الولدِ مِنَ القلبِ .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : (تُوفيَ ابنٌ لداوودَ عليهِ السَّلامُ ، فحزنَ عليهِ حزناً شديداً ، فقيلَ لهُ : ما كانَ عدلُهُ عندَكَ ؟ قالَ : ملءُ الأرضِ ذهباً ، قيلَ لهُ : فإنَّ لكَ مِنَ الأجرِ في الآخرةِ مثلَ ذٰلكَ)[2]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يموتُ لأحدٍ مِنَ المسلمينَ ثلاثةٌ مِنَ الولدِ فيحتسبُهُم إلَّا كانوا لهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ » فقالتِ امرأةٌ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوِ اثنانِ ؟ قالَ : « أوِ اثنانِ »[3]

ولْيخلصِ الوالدُ الدُّعاءَ لولدِهِ عندَ الموتِ ؛ فإنَّهُ أرجىٰ دعاءٍ وأقربُهُ إلى الإجابةِ .

وقفَ محمَّدُ بنُ سليمانَ علىٰ قبرِ ولدِهِ فقال : اللهمَّ ؛ إنِّي أصبحتُ أرجوكَ لهُ ، وأخافُكَ عليهِ ، فحقِّقْ رجائي وآمنْ خوفي[4]

ووقفَ أبو سنانٍ علىٰ قبرِ ابنِهِ فقالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ غفرتُ لهُ ما وجبَ لي عليهِ ، فاغفرْ لهُ ما وجبَ لكَ عليهِ ؛ فإنَّكَ أجودُ وأكرمُ[5]

ووقفَ أعرابيٌّ علىٰ قبرِ ابنِهِ فقال : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ وهبتُ لهُ ما قصَّرَ فيه مِنْ برِّي ، فهبْ له ما قصَّرَ فيهِ مِنْ طاعتِكَ[6]

ولمَّا ماتَ ذرُّ بنُ عمرَ بنِ ذرٍّ . . قامَ أبوه عمرُ بنُ ذرٍّ بعدَ ما وُضعُ في لحدِهِ فقالَ : يا ذرُّ ؛ لقدْ شغلَنَا الحزنُ لكَ عَنِ الحزنِ عليكَ ، فليتَ شعري !! ماذا قلتَ وماذا قيلَ لكَ ؟! ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنَّ هٰذا ذرٌّ متَّعتَني به ما متَّعتَني ، ووفيتَهُ أجلَهُ ورزقَهُ ولم تظلِمْهُ ، اللهمَّ ؛ وقدْ كنتَ ألزمتَهُ طاعتَكَ وطاعتِي ، اللهمَّ ؛ وما وعدتَني عليهِ مِنَ الأجرِ في مصيبتي . . فقدْ وهبتُ لهُ ذٰلكَ ، فهبْ لي عذابَهُ ولا تعذِّبْهُ ، فأبكى الناسَ ، ثمَّ قالَ عندَ انصرافِهِ : ما علينا بعدَكَ مِنْ خصاصةٍ يا ذرُّ ، وما بنا إلىٰ إنسانٍ معَ اللهِ حاجةٌ ؛ فلقدْ مضينا وتركناكَ ، ولو أقمنا . . ما نفعناكَ[7]

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٣٠٢) مرسلاً ، وابن ماجه (١٦٠٧) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠١٤١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٣٠٨) .

(٣) رواه البخاري (١٢٥٠) ، ومسلم (٢٦٣٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٦٠) .

(٦) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٣٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٠٣) .

(٧) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/١٠٨) بنحوه

ونظرَ رجلٌ إلى امرأةٍ بالبصرةِ فقالَ : ما رأيتُ مثلَ هـٰذهِ النضارةِ ، وما ذاك إلَّا مِنْ قلَّةِ الحزنِ ، فقالَتْ : يا عبدَ اللهِ ؛ إنِّي لفي حزنٍ ما يشركُني فيهِ أحدٌ ، قالَ : وكيفَ ؟! قالَتْ : إنَّ زوجي ذبحَ شاةً في يومِ الأضحىٰ ، وكانَ لي صبيَّانِ مليحانِ يلعبانِ ، فقالَ أكبرُهُما للآخَرِ : أتريدُ أنْ أريَكَ كيفَ ذبحَ أبي الشاةَ ؟ قالَ : نعمْ ، فأخذَهُ وذبحَهُ ، فما شعرنا بهِ إلَّا متشحِّطاً في دمِهِ ، فلمَّا ارتفعَ الصُّراخُ . . هربَ الغلامُ فلجأَ إلىٰ جبلٍ ، فرهقَهُ ذئبٌ فأكلَهُ ، وخرجَ أبوه يطلبُهُ فماتَ عطشاً مِنْ شدَّةِ الحرِّ ، قالَتْ : فأفردَني الدهرُ كما ترىٰ[1]

فأمثالُ هـٰذهِ المصائبِ ينبغي أنْ تُتذكرَ عندَ موتِ الأولادِ ليُتسلَّىٰ بها عَنْ شدةِ الجزعِ ، فما مِنْ مصيبةٍ إلَّا ويُتصوَّرُ ما هو أعظمُ منها ، وما يدفعُهُ اللهُ تعالىٰ في كلِّ حالٍ . . فهوَ الأكثرُ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العزاء » . « إتحاف » (١٠/٣٦٠) .

بيان زيارة القبور والدّعاء للميّت وما يتعلّق به

زيارةُ القبورِ مستحبَّةٌ على الجملةِ للتذكرِ والاعتبارِ ، وزيارةُ قبورِ الصالحينَ مستحبةٌ لأجلِ التبرُّكِ معَ الاعتبارِ .

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنْ زيارةِ القبورِ ثمَّ أذنَ في ذٰلك بعدُ ؛ فقدْ رُوِيَ عنْ عليّ رضِيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « كنتُ نهيتُكم عنْ زيارةِ القبورِ ، فزوروها ؛ فإنَّها تذكِّرُكمُ الآخرةَ ، غيرَ أَلَّا تقولوا هُجْراً »[1]

وزارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبرَ أمِّهِ في ألفِ مقنعٍ ، فلمْ يُرَ باكياً أكثرَ مِنْ يومئذٍ ، وفي هٰذا اليومِ قالَ : « أُذِنَ لي في الزيارةِ دونَ الاستغفارِ »[2] كما روينا مِنْ قبلُ .

وقالَ ابنُ أبي مليكةَ : أقبلَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها يوماً مِنَ المقابرِ ، فقلتُ : يا أمَّ المؤمنينَ ؛ مِنْ أينَ أقبلتِ ؟ قالَتْ : (مِنْ قبرِ أخي عبدِ الرَّحمٰنِ) فقلتُ : أليسَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنها ؟! قالَتْ : (نعم ثمَّ أمرَ بها)[3]

ولا ينبغي أن يُتمسكَ بهٰذا فيُؤذنَ للنساءِ في الخروجِ إلى المقابرِ ؛ فإنَّهنَّ يكثرْنَ الهُجْرَ علىٰ رؤوسِ المقابرِ ، فلا يفي خيرُ زيارتِهنَّ بشرِّها ، ولا يخلونَ في الطريقِ عنْ تكشُّفٍ وتبرُّجٍ ، وهٰذهِ عظائمُ والزيارةُ سنةٌ ، فكيفَ يُحتملُ ذٰلكَ لأجلِها ؟!

نعمْ ؛ لا بأسَ بخروجِ المرأةِ في ثيابٍ بذلةٍ تردُّ أعينَ الرجالَ عنْها ، وذٰلكَ بشرطِ الاقتصارِ على الدعاءِ ، وتركِ الحديثِ علىٰ رأسِ القبرِ .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زُرِ القبورَ . . تذكرْ بها الآخرةَ ، واغسلِ الموتىٰ ؛ فإنَّ معالجةَ جسدٍ خاوٍ موعظةٌ بليغةٌ ، وصلِّ على الجنائزِ لعلَّ ذٰلكَ أنْ يحزنَكَ ؛ فإنَّ الحزينَ في ظلِّ اللهِ تعالىٰ »[4]

وقالَ ابنُ أبي مليكةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زوروا موتاكم وسلِّموا عليهم وصلُّوا عليهم ؛ فإنَّ لكمْ فيهمْ عبرةً »[5]

وعنْ نافعٍ : أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ لا يمرُّ بقبرٍ واحدٍ إلَّا وقفَ عليهِ وسلَّم عليهِ[6]

وعنْ جعفرِ بنِ محمدٍ عنْ أبيهِ : أنَّ فاطمةَ بنتَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَتْ تزورُ قبرَ عمِّها حمزةَ في الأيامِ ، فتصلي وتبكي عندَهُ[7]

---

(١) رواه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ، والنسائي (٨٩/٤) ، **والهجر** : القول الفاحش الذي ينافي مقام التذكر والعبرة عند الزيارة .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣٥٥/٥) ، وهو عند مسلم (٩٧٦) بنحوه .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧٨/٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٧٥/١)

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣٧٧/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٥١) .

(٥) رواه الديلمي في « الفردوس » (٣٣٤١) مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٩٥/٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٩٠٨) .

(٧) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧٨/٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٧٦/١) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارَ قبرَ أبويهِ أوْ أحدِهما في كلِّ جمعةٍ . . غُفرَ لهُ وكُتبَ بَرّاً »[1]

وعنِ ابنِ سيرينَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليموتُ والداهُ وهوَ عاقٌّ لهما ، فيدعو اللهَ لهما مِنْ بعدِ موتِهما ، فيكتبُهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ البارِّينَ »[2]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارَ قبري . . فقدْ وجَبَتْ لهُ شفاعتي »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارَني بالمدينةِ محتسباً . . كنتُ لهُ شفيعاً وشهيداً يومَ القيامةِ »[4]

وقالَ كعبُ الأحبارِ : (مَا مِنْ فجرٍ يطلعُ إلَّا نزلَ سبعونَ ألفاً مِنَ الملائكةِ حتىٰ يحفوا بالقبرِ[5] ، يضربونَ بأجنحتِهِمْ ويصلُّونَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتىٰ إذا أمسوا . . عرجوا وهبطَ مثلُهم فصنعوا مثلَ ذٰلكَ ، حتىٰ إذا انشقَّتِ الأرضُ . . خرجَ في سبعينَ ألفاً مِنَ الملائكةِ يوقِّرونَهُ)[6]

والمستحبُّ في زيارةِ القبورِ أنْ يقفَ مستدبرَ القبلةِ مستقبلاً لوجهِ الميتِ ، وأن يسلِّمَ ولا يمسحَ القبرَ ولا يقبِّلَهُ ولا يمسَّهُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ عادةِ النصارىٰ .

قالَ نافعٌ : كانَ ابنُ عمرَ ـ رأيتُه مئةَ مرةٍ أو أكثرَ ـ يجيءُ إلى القبرِ فيقولُ : (السَّلامُ على النبيِّ ، السَّلامُ علىٰ أبي بكرٍ ، السَّلامُ علىٰ أبي) وينصرفُ[7]

وعنْ أبي أمامةَ قالَ : (رأيتُ أنسَ بنَ مالكٍ أتىٰ قبرَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فوقفَ ، فرفعَ يديهِ حتىٰ ظننتُ أنَّهُ افتتحَ الصلاةَ ، فسلَّمَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ انصرفَ)[8]

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ رجلٍ يزورُ قبرَ أخيهِ ويجلسُ عندَهُ إلَّا استأنسَ بهِ وردَّ عليهِ حتىٰ يقومَ »[9]

وقالَ سليمانُ بنُ سحيمٍ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النَّومِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰؤلاءِ الذينَ يأتونَكَ ويسلِّمونَ عليكَ أتفقهُ سلامَهُم ؟ قالَ : « نعمْ ، وأردُّ عليهِمْ »[10]

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦١١٠) مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٢٢) معضلاً من حديث محمد بن النعمان .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٣) .

(٣) رواه الدارقطني (٢٧٨/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٨٦٢) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٥٩) .

(٥) أي : بقبره صلى الله عليه وسلم . « إتحاف » (٣٦٤/١٠) .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٩٠/٥) .

(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٩١٥) .

(٨) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٦٧) .

(٩) رواه ابن عبد البر في « الاستذكار » (١٨٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وحكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٢١١) .

(١٠) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٦٨) ، وعند أبي داوود (٢٠٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « ما من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتىٰ أرد عليه السلام » .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا مرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ يعرفُهُ فسلَّمَ عليهِ . . ردَّ عليهِ السَّلامَ وعرفَهُ ، وإذا مرَّ بقبرٍ لا يعرفُهُ فسلَّمَ عليهِ . . ردَّ عليهِ السَّلامَ)(١)

وقالَ رجلٌ مِنْ آلِ عاصمٍ الجحدريِّ : رأيتُ عاصماً في منامي بعدَ موتِهِ بسنتينِ ، فقلتُ : أليسَ قَدْ مِتَّ ؟ قالَ : بلىٰ ، قلتُ : فأينَ أنتَ ؟ فقالَ : أنا واللهِ في روضةٍ مِنْ رياضِ الجنَّةِ أنا ونفرٌ مِنْ أصحابي ، نجتمعُ كلَّ ليلةِ جمعةٍ وصبيحتِها إلىٰ أبي بكرِ بنِ عبدِ اللهِ المزنيِّ ، فنتلاقىٰ أخبارَكم ، قلتُ : أجسامُكُم أمْ أرواحُكُم ؟ قالَ : هيهاتَ !! بليَتِ الأجسامُ ، وإنَّما تتلاقى الأرواحُ ، قالَ : قلتُ : فهلْ تعلمونَ بزيارتِنا إيَّاكم ؟ قالَ : نعمْ ، نعلمُ بها عشيَّةَ الجمعةِ ، ويومَ الجمعةِ كلَّهُ ، ويومَ السبتِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ، قلتُ : وكيفَ ذٰلكَ دونَ الأيامِ كلِّها ؟ قالَ : لفضلِ يومِ الجمعةِ وعظمِهِ(٢)

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ يزورُ يومَ الجمعةِ ، فقيلَ لهُ : لوْ أخَّرتَ إلىٰ يومِ الاثنينِ ، فقالَ : بلغَني أنَّ الموتىٰ يعلمونَ بزوَّارِهم يومَ الجمعةِ ويوماً قبلَهُ ويوماً بعدَهُ(٣)

وقالَ الضحاكُ : مَنْ زارَ قبراً يومَ السبتِ قبلَ طلوعِ الشمسِ . . علمَ الميتُ بزيارتِهِ ، قيلَ : وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : لمكانِ يومِ الجمعةِ(٤)

وقالَ بشرُ بنُ منصورٍ : لمَّا كانَ زمنُ الطاعونِ . . كانَ رجلٌ يختلفُ إلى الجبَّانةِ فيشهدُ الصلاةَ على الجنائزِ ، فإذا أمسىٰ . . وقفَ علىٰ بابِ المقابرِ فقالَ : آنسَ اللهُ وحشتَكُم ، ورحمَ غربتَكُم ، وتجاوزَ عنْ سيئاتِكم ، وقبلَ اللهُ حسناتِكُم ، لا يزيدُ علىٰ هٰذهِ الكلماتِ ، قالَ الرجلُ : فأمسيتُ ذاتَ ليلةٍ ، فانصرفتُ إلىٰ أهلي ولمْ آتِ المقابرَ فأدعوَ كما كنتُ أدعو ، فبينَما أنا نائمٌ ؛ إذا أنا بخلقٍ كثيرٍ قدْ جاؤوني ، فقلتُ : ما أنتُمْ ؟ وما حاجتُكُم ؟ قالوا : نحنُ أهلُ المقابرِ ، قلتُ : ما جاءَ بكم ؟ قالوا : إنَّكَ كنتَ عوَّدتَنا منكَ هديةً عندَ انصرافِكَ إلىٰ أهلِكَ ، قلتُ : وما هيَ ؟ قالوا : الدعواتُ التي كنتَ تدعو لنا بها ، قلتُ : فإنِّي أعودُ لذٰلكَ ، فما تركتُها بعدَ ذٰلكَ(٥)

وقالَ بشارُ بنُ غالبٍ النجرانيُّ : رأيتُ رابعةَ العدويةَ العابدةَ في منامي ، وكنتُ كثيرَ الدعاءِ لها ، فقالَتْ لي : يا بشارَ بنَ غالبٍ ؛ هداياكَ تأتينا علىٰ أطباقٍ مِنْ نورٍ ، مخمَّرةً بمناديلِ الحريرِ ، قلتُ : وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَتْ : وهٰكذا دعاءُ المؤمنينَ الأحياءِ إذا دعوا للموتىٰ فاستُجيبَ لهمُ . . جُعلَ ذٰلكَ الدعاءُ علىٰ أطباقِ النورِ ، وخُمِّرَ بمناديلِ الحريرِ ، ثمَّ أُتيَ بهِ الميتَ ، فقيلَ لهُ : هٰذهِ هديةُ فلانٍ إليكَ(٦)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الميتُ في قبرِهِ إلَّا كالغريقِ المتغوِّثِ ، ينتظرُ دعوةً تلحقُهُ مِنْ أبيهِ أوْ أخيهِ أوْ صديقٍ لهُ ، فإذا لحقَتْهُ . . كانَتْ أحبَّ إليهِ مِنَ الدنيا وما فيها ، وإنَّ هدايا الأحياءِ للأمواتِ الدعاءُ والاستغفارُ »(٧)

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٧) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦١) ، وفي (ب) : (بسنين) بدل (بسنتين) وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/٣٦٧) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٢) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٣) ، وفي (أ) : (لبركة) بدل (لمكان) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٩) .

(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٠) .

(٧) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٥) ، والديلمي في « الفردوس » (٦٣٢٣) .

وقالَ بعضُهم : ماتَ أخٌ لي ، فرأيتُهُ في المنامِ فقلتُ : ما كانَ حالُكَ حينَ وُضعتَ في قبرِكَ ؟ قالَ : أتاني آتٍ بشهابٍ مِنْ نارٍ ، فلولا أنَّ داعياً دعا لي . . لرأيتُ أنَّهُ سيضربُني به [١]

وعن هٰذا يُستحبُّ تلقينُ الميتِ بعدَ الدفنِ والدعاءُ لهُ ، قالَ سعيدُ بنُ عبدِ اللهِ الأوديُّ [٢] : شهدتُ أبا أمامةَ الباهليَّ وهوَ في النزعِ ، فقالَ : يا سعيدُ ؛ إذا متُّ . . فاصنعوا بي كما أمرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « إذا ماتَ أحدُكُمْ فسوَّيتُم عليهِ الترابَ . . فليقمْ أحدُكُم علىٰ رأسِ قبرِهِ وليقلْ : يا فلانَ بنَ فلانةَ ؛ فإنَّهُ يسمعُ ولا يجيبُ ، ثمَّ ليقلْ : يا فلانَ بنَ فلانةَ ؛ الثانيةَ ؛ فإنَّهُ يستوي قاعداً ، ثمَّ ليقلْ : يا فلانَ بنَ فلانةَ ؛ الثالثةَ ؛ فإنَّهُ يقولُ : أرشدْنا يرحمُكَ اللهُ ، ولٰكنْ لا تسمعونَ ، فيقولُ لهُ : اذكرْ ما خرجتَ عليهِ مِنَ الدنيا : شهادةَ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، وأنَّكَ رضيتَ باللهِ رباً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبياً ، وبالقرآنِ إماماً ؛ فإنَّ منكراً ونكيراً يتأخرُ كلُّ واحدٍ مِنْهما فيقولُ : انطلقْ بنا ما يقعدُنا عندَ هٰذا وقدْ لُقِّنَ حجَّتَهُ ؟! ويكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ حجيجَهُ دونَهُما » فقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ فإنْ لمْ يعرفِ اسمَ أمِّهِ ؟ قالَ : « فلينسبْهُ إلىٰ حواءَ » [٣]

ولا بأسَ بقراءةِ القرآنِ على القبورِ ، رُويَ عنْ عليِّ بنِ موسى الحدادِ قالَ : كنتُ معَ أحمدَ ابنِ حنبلٍ في جنازةٍ ومحمدُ بنُ قدامةَ الجوهريُّ معَنا ، فلمَّا دُفنَ الميتُ . . جاءَ رجلٌ ضريرٌ يقرأُ عندَ القبرِ ، فقالَ لهُ أحمدُ : يا هٰذا ؛ إنَّ القراءةَ عندَ القبرِ بدعةٌ ، فلمَّا خرجنا مِنَ المقابرِ . . قالَ محمدُ بنُ قدامةَ لأحمدَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما تقولُ في مبشرِ بنِ إسماعيلَ الحلبيِّ ؟ قالَ : ثقةٌ ، قالَ : هلْ كتبتَ عنهُ شيئاً ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : أخبرَني مبشرُ بنُ إسماعيلَ عنْ عبدِ الرحمٰنِ بنِ العلاءِ بنِ اللجلاجِ عنْ أبيهِ : أنَّهُ أوصىٰ إذا دُفنَ أنْ يُقرأَ عندَ رأسِهِ بفاتحةِ (البقرة) وخاتمتِها ، وقالَ : سمعتُ ابنَ عمرَ يوصي بذٰلكَ ، فقالَ لهُ أحمدُ : فارجعْ إلى الرجلِ فقلْ لهُ يقرأُ [٤]

وقالَ محمدُ بنُ أحمدَ المروروذي : سمعتُ أحمدَ ابنَ حنبلٍ يقولُ : إذا دخلتُمُ المقابرَ . . فاقرؤوا بـ (فاتحةِ الكتابِ) ، و(المعوِّذتينِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) واجعلوا ثوابَ ذٰلكَ لأهلِ المقابرِ ؛ فإنَّهُ يصلُ إليهم [٥]

وقالَ أبو قلابةَ : أقبلتُ مِنَ الشامِ إلى البصرةِ فنزلتُ الخندقَ ، فتطهرتُ وصلَّيتُ ركعتينِ بليلٍ ، ثمَّ وضعتُ رأسي علىٰ قبرٍ فنمتُ ، ثمَّ انتبهتُ ؛ فإذا صاحبُ القبرِ يشتكيني ويقولُ : لقد آذيتَني منذُ الليلةِ ، ثمَّ قالَ : إنَّكم لا تعلمونَ ونحنُ نعلمُ ولا نقدرُ على العملِ ، ثمَّ قالَ : للركعتانِ اللَّتانِ ركعتَهما خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ، ثمَّ قالَ : جزى اللهُ أهلَ الدنيا عنَّا خيراً ، أقرئْهمُ السَّلامَ ؛ فإنَّهُ قدْ يدخلُ علينا مِنْ دعائِهم نورٌ أمثالُ الجبالِ [٦]

فالمقصودُ مِنْ زيارةِ القبورِ للزائرِ الاعتبارُ بها ، وللمزورِ الانتفاعُ بدعائِهِ ، فلا ينبغي أنْ يغفلَ الزائرُ عنِ الدعاءِ لنفسِهِ وللميتِ ، ولا عنِ الاعتبارِ بِهِ .

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٨٢) ، وفي (د) : (سيحرقني) بدل (سيضربني) .

(٢) كذا في (ج ، د ، ي) ، وفي البقية : (الأزدي) ، وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/٣٦٨) .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/٢٤٩) .

(٤) حكى القصة هكذا أبو بكر الخلال في « القراءة عند القبور » (ص ٤) ، وروى الأثر الطبراني في « الكبير » (١٩/٢٢٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/٥٦) .

(٥) أورده ابن أبي يعلىٰ في « طبقات الحنابلة » (٢/٢٢٤) .

(٦) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٧/٤٠) بنحوه عن ابن ميناء .

وإنَّما يحصلُ له الاعتبارُ بأن يصورَ في قلبِهِ الميتَ كيفَ تفرقَتْ أجزاؤُهُ ، وكيفَ يُبعثُ مِنْ قبرِهِ ، وأنَّهُ على القربِ سيلحقُ بهِ ، كما رُوِيَ عنْ مطرِّفِ بنِ أبي بكرٍ الهذليِّ قالَ : كانَتْ عجوزٌ في عبدِ القيسِ متعبدةٌ ، فكانَ إذا جاءَ الليلُ . . تحزمَتْ ثمَّ قامَتْ إلى المحرابِ ، وإذا جاءَ النهارُ . . خرجَتْ إلى القبورِ ، فبلغَني أنَّها عُوتبَتْ في كثرةِ إتيانِها المقابرَ ، فقالَتْ : إنَّ القلبَ القاسيَ إذا جفا . . لمْ يلينْهُ إلَّا رسومُ البلىٰ ، وإنِّي لآتي القبورَ فكأنِّي أنظرُ وقدْ خرجوا مِنْ بينِ أطباقِها ، وكأنِّي أنظرُ إلىٰ تلكَ الوجوهِ المتعفِّرةِ ، وإلىٰ تلكَ الأجسامِ المتغيِّرةِ ، وإلىٰ تلكَ الأكفانِ الدسمةِ ، فيا لها مِنْ نظرةٍ لوْ أشربَها العبادُ قلوبَهُم ، ما أنكلَ مرارتَها للأنفسِ ، وأشدَّ تلفَها للأبدانِ !! (١)

بلْ ينبغي أن يُحضرَ مِنْ صورةِ الميتِ ما ذكرَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ حيثُ دخلَ عليهِ فقيهٌ فتعجَّبَ مِنْ تغيُّرِ صورتِهِ لكثرةِ الجهدِ والعبادةِ ، فقالَ لهُ : يا فلانُ ؛ كيفَ لوْ رأيتَني بعدَ ثلاثٍ وقدْ أُدخلتُ قبري ، وقدْ خرجَتِ الحدقتانِ فسالَتا على الخدَّينِ ، وتقلَّصَتِ الشفتانِ على الأسنانِ ، وخرجَ الصديدُ مِنَ الفمِ ، وانفتحَ الفمُ ونتأَ البطنُ فعلا على الصدرِ ، وخرجَ الصلبُ مِنَ الدبرِ ، وخرجَ الدودُ والصديدُ مِنَ المناخرِ . . لرأيتَ أعجبَ ممَّا تراهُ الآنَ (٢)

ويُستحبُّ أيضاً الثناءُ على الميتِ ، وألَّا يُذكرَ إلَّا بالجميلِ ؛ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ صاحبُكم . . فدعوهُ ولا تقعوا فيهِ » (٣)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسبُّوا الأمواتَ ؛ فإنَّهم قدْ أفضَوا إلىٰ ما قدَّموا » (٤)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تذكروا موتاكم إلَّا بخيرٍ ؛ فإنَّهم إنْ يكونوا مِنْ أهلِ الجنَّةِ . . تأثموا ، وإنْ يكونوا مِنْ أهلِ النَّارِ . . فحسبُهُمْ ما هُمْ فيهِ » (٥) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : مرَّتْ جنازةٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأثنَوْا عليها شرّاً ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « وجبَتْ » ومرُّوا بأخرىٰ ، فأثنَوْا عليها خيراً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجبَتْ » فسألَهُ عمرُ عنْ ذٰلكَ فقالَ : « إنَّ هٰذا أثنيتُم عليهِ خيراً فوجبَتْ لهُ الجنَّةُ ، وهٰذا أثنيتمْ عليهِ شرّاً فوجبَتْ لهُ النَّارُ ، وأنتم شهداءُ اللهِ في الأرضِ » (٦)

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليموتُ فيثني عليهِ القومُ الثناءَ يعلمُ اللهُ تعالىٰ منهُ غيرَهُ . . فيقولُ اللهُ تعالىٰ لملائكتِهِ : أشهدُكم أنِّي قدْ قبلتُ شهادةَ عبيدي علىٰ عبدي ، وتجاوزتُ عنْ علمي في عبدي » (٧)

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٧٤) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٣٩) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٨٩٩) ، وفي (د) : (فدعوه لا تقعوا فيه) ، وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/٣٧٤) .
(٤) رواه البخاري (١٣٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » هكذا . « إتحاف » (١٠/٣٧٤) ، ورواه النسائي (٤/٥٢) مقتصراً على الجملة الأولىٰ بلفظ : (هلكاكم) ، وفي الباب عند أبي داوود (٤٩٠٠) ، والترمذي (١٠١٩) : « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » .
(٦) رواه البخاري (١٣٦٧) ، ومسلم (٩٤٩) .
(٧) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٨٤) ، وأوله : « ما من عبد مسلم يموت يشهد له ثلاثة أبيات من جيرانه الأدنين بخير . . . » .

الباب السّابع
في حقيقة الموت، وما يلقاه الميّت في القبر إلى نفخة الصّور

بيان حقيقة الموت

اعلمْ : أنَّ للناسِ في حقيقةِ الموتِ ظنوناً كاذبةً قدْ أخطؤوا فيها ، فظنَّ بعضُهم أنَّ الموتَ هوَ العدمُ ، وأنَّهُ لا حشرَ ولا نشرَ ، ولا عاقبةَ للخيرِ والشرِّ ، وأنَّ موتَ الإنسانِ كموتِ الحيواناتِ وجفافِ النباتِ ، وهـٰذا رأيُ الملاحدةِ وكلِّ مَنْ لا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ .

وظنَّ قومٌ أنَّهُ ينعدمُ بالموتِ ، ولا يتألمُ بعقابٍ ، ولا يتنعَّمُ بثوابٍ ما دامَ في القبرِ إلىٰ أنْ يُعادَ في وقتِ الحشرِ .

وقالَ آخرونَ : إنَّ الروحَ باقيةٌ لا تنعدمُ بالموتِ ، وإنَّما المثابُ والمعاقبُ هيَ الأرواحُ دونَ الأجسادِ ، وإنَّ الأجسادَ لا تُبعثُ ولا تُحشرُ أصلاً .

وكلُّ هـٰذهِ الظنونِ فاسدةٌ ومائلةٌ عن الحقِّ ، بلِ الذي تشهدُ له طرقُ الاعتبارِ وتنطقُ بهِ الآياتُ والأخبارُ أنَّ الموتَ معناهُ : تغيُّرُ حالٍ فقط ، وأنَّ الروحَ باقيةٌ بعدَ مفارقةِ الجسدِ إمَّا معذَّبةً وإمَّا منعَّمةً .

ومعنىٰ مفارقتِها للجسدِ : انقطاعُ تصرفِها عنِ الجسدِ بخروجِ الجسدِ عن طاعتِها ؛ فإنَّ الأعضاءَ آلاتٌ للروحِ تستعملُها ، حتىٰ إنَّها لتبطشُ باليدِ وتسمعُ بالأذنِ وتبصرُ بالعينِ ، وتعلمُ حقيقةَ الأشياءِ بالقلبِ ، والقلبُ ها هنا عبارةٌ عنِ الروحِ ، فالروحُ تعلمُ الأشياءَ بنفسِها مِنْ غيرِ آلةٍ ، ولذٰلكَ قدْ يتألَّمُ بنفسِهِ بأنواعِ الحزنِ والغمِّ والكمدِ ، ويتنعمُ بأنواعِ الفرحِ والسرورِ ، وكلُّ ذٰلك لا يتعلَّقُ بالأعضاءِ ، فكلُّ ما هوَ وصفٌ للروحِ بنفسِها فيبقىٰ معَها بعدَ مفارقةِ الجسدِ ، وما هوَ لها بواسطةِ الأعضاءِ فيتعطَّلُ بموتِ الجسدِ إلىٰ أنْ تُعادَ الروحُ إلى الجسدِ ، ولا يبعدُ أنْ تُعادَ الروحُ إلى الجسدِ في القبرِ ، ولا يبعدُ أنْ تُؤخَّرَ إلىٰ يومِ البعثِ ، واللهُ أعلمُ بما حكمَ بهِ علىٰ كلِّ عبدٍ مِنْ عبادِهِ .

وإنَّما تعطُّلُ الجسدِ بالموتِ يضاهي تعطُّلَ أعضاءِ الزَّمِنِ بفسادِ مزاجٍ يقعُ فيهِ ، وبشدةٍ تقعُ في الأعصابِ تمنعُ نفوذَ الروحِ فيها ، فتكونُ الروحُ العالمةُ العاقلةُ المدركةُ باقيةً مستعملةً لبعضِ الأعضاءِ ، وقدِ استعصىٰ عليها بعضُها ، والموتُ عبارةٌ عنِ استعصاءِ الأعضاءِ كلِّها ، وكلُّ الأعضاءِ آلاتٌ ، والروحُ هيَ المستعملةُ لها .

وأعني بالروحِ : المعنى الذي يدركُ مِنَ الإنسانِ العلومَ والآلامَ والغمومَ[1] ولذاتِ الأفراحِ ، ومهما بطلَ تصرُّفُها في الأعضاءِ . . لمْ تبطلْ مِنْها العلومُ والإدراكاتُ ، ولا بطلَ مِنْها الأفراحُ والغمومُ ، ولا بطلَ مِنْها قبولُها للآلامِ واللذَّاتِ .

والإنسانُ بالحقيقةِ هوَ المعنى المدركُ للعلومِ وللآلامِ واللذَّاتِ ، وذٰلكَ لا يموتُ ؛ أيْ : لا ينعدمُ .

ومعنى الموتِ : انقطاعُ تصرفِهِ عَنِ البدنِ ، وخروجُ البدنِ عنْ أنْ يكونَ آلةً لهُ ، كما أنَّ معنى الزمانةِ خروجُ اليدِ عنْ أنْ تكونَ آلةً مستعملةً ، فالموتُ زمانةٌ مطلقةٌ في الأعضاءِ كلِّها ، وحقيقةُ الإنسانِ نفسُهُ وروحُهُ ، وهيَ باقيةٌ .

نعمْ ؛ تغيُّرُ حالِهِ مِنْ وجهينِ :

---

(١) في (ن) : (وآلام الغموم) .

أحدُهُما : أنَّهُ سلبَ منهُ عينَهُ وأذنَهُ ولسانَهُ ويدَهُ ورجلَهُ وجميعَ أعضائِهِ ، وسلبَ منهُ أهلَهُ وولدَهُ وأقاربَهُ وسائرَ معارفِهِ ، وسلبَ منهُ خيلَهُ ودوابَّهُ وغلمانَهُ ودُورَهُ وعقارَهُ وسائرَ أملاكِهِ .

ولا فرقَ بينَ أنْ تُسلبَ هٰذهِ الأشياءُ مِنَ الإنسانِ وبينَ أنْ يُسلبَ الإنسانُ مِنْ هٰذهِ الأشياءِ ؛ فإنَّ المؤلمَ هو الفراقُ ، والفراقُ يحصلُ تارةً بأنْ يُنهبَ مالُ الرجلِ ، وتارةً بأنْ يُسبَى الرجلُ عنِ الملكِ والمالِ ، والألمُ واحدٌ في الحالينِ .

وإنَّما معنى الموتِ : سلبُ الإنسانِ عنْ أموالِهِ بإزعاجِهِ إلىٰ عالمٍ آخرَ لا يناسبُ هٰذا العالمَ ؛ فإنْ كانَ لهُ في الدنيا شيءٌ يأنسُ بهِ ويستريحُ إليهِ ويعتدُّ بوجودِه . . فيعظمُ تحسُّرُهُ عليهِ بعدَ الموتِ ، ويصعبُ شقاؤُهُ في مفارقتِهِ ، بلْ يلتفتُ قلبُهُ إلىٰ واحدٍ واحدٍ من مالِهِ وجاهِهِ وعقارِهِ ، حتىٰ إلىٰ قميصٍ كانَ يلبسُهُ مثلاً ويفرحُ بهِ ، وإنْ لمْ يكنْ يفرحُ إلَّا بذكرِ اللهِ تعالىٰ ولمْ يأنسْ إلَّا بهِ . . عظمَ نعيمُهُ وتمَّتْ سعادتُهُ ؛ إذْ خُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ ، وقُطعَتْ عنهُ العوائقُ والشواغلُ ؛ إذْ جميعُ أسبابِ الدنيا شاغلةٌ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فهٰذا أحدُ وجهي المخالفةِ بينَ حالِ الموتِ وحالِ الحياة .

والثاني : أنَّهُ ينكشفُ لهُ بالموتِ ما لمْ يكنْ مكشوفاً لهُ في الحياةِ ؛ كما ينكشفُ للمتيقِّظِ ما لمْ يكنْ مكشوفاً في النومِ ، والناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا ، وأولُ ما ينكشفُ لهُ ما يضرُّهُ وينفعُهُ مِنْ حسناتِهِ وسيئاتِهِ ، وقدْ كانَ ذٰلكَ مسطوراً في كتابٍ مطويٍّ في سرِّ قلبِهِ ، وكانَ يشغلُهُ عنِ الاطلاعِ عليهِ شواغلُ الدنيا ؛ فإذا انقطعَتِ الشواغلُ . . انكشفَ له جميعُ أعمالِهِ ، فلا ينظرُ إلىٰ سيئةٍ إلَّا ويتحسَّرُ عليها تحسُّراً يؤثرُ أنْ يخوضَ غمرةَ النارِ للخلاصِ مِنْ تلكَ الحسرةِ ، وعندَ ذٰلك يُقالُ لهُ : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

وينكشفُ كلُّ ذٰلكَ عندَ انقطاعِ النفسِ وقبلَ الدفنِ ، وتشتعلُ فيهِ نيرانُ الفراقِ ؛ أعني : فراقَ ما كانَ يطمئنُّ إليهِ مِنْ هٰذه الدنيا الفانيةِ دونَ ما أرادَ مِنْها لأجلِ الزادِ والبلغةِ ؛ فإنَّ مَنْ طلبَ الزادَ للبلغةِ : فإذا بلغَ المقصدَ . . فرحَ بمفارقتِهِ بقيةَ الزادِ ؛ إذْ لمْ يكنْ يريدُ الزادَ لعينِهِ ، وهٰذا حالُ مَنْ لمْ يأخذْ مِنَ الدنيا إلَّا بقدرِ الضرورةِ ، وكانَ يودُّ أنْ تنقطعَ ضرورتُهُ ، ليستغنيَ عنهُ ؛ فقدْ حصلَ ما كانَ يودُّهُ واستغنىٰ عنهُ .

وهٰذهِ أنواعٌ مِنَ العذابِ والآلامِ عظيمةٌ ، تهجمُ عليهِ قبلَ الدفنِ ، ثمَّ عندَ الدفنِ قد تُردُّ روحُهُ إلى الجسدِ لنوعٍ آخرَ مِنَ العذابِ ، وقدْ يُعفىٰ عنهُ ، ويكونُ حالُ المتنعمِ بالدنيا المطمئنِّ إليها كحالِ مَنْ تنعَّمَ عندَ غيبةِ ملكٍ مِنَ الملوكِ في دارِهِ وملكِهِ وحريمِهِ اعتماداً علىٰ أنَّ الملكَ يتساهلُ في أمرِهِ ، أوْ علىٰ أنَّ الملكَ ليسَ يدري ما يتعاطاهُ مِنْ قبيحِ أفعالِهِ ، فأخذَهُ الملكُ بغتةً ، وعرضَ عليهِ جريدةً قدْ دُوِّنَتْ فيها جميعُ فواحشِهِ وجناياتِهِ ذرَّةً ذرَّةً ، وخطوةً خطوةً ، والملكُ قاهرٌ متسلِّطٌ ، وغيورٌ علىٰ حرمِهِ ، ومنتقمٌ مِنَ الجناةِ علىٰ ملكِهِ ، وغيرُ ملتفتٍ إلىٰ مَنْ يتشفعُ إليهِ في العصاةِ عليهِ ، فانظرْ إلىٰ هٰذا المأخوذِ كيفَ يكونُ حالُهُ قبلَ نزولِ عذابِ الملكِ بهِ مِنَ الخوفِ ، والخجلةِ والحياءِ ، والتحسُّرِ والتندُّمِ .

فهٰذا حالُ الميتِ الفاجرِ المغترِّ بالدنيا المطمئنِّ إليها قبلَ نزولِ عذابِ القبرِ بهِ ، بلْ عندَ موتِهِ نعوذُ باللهِ منهُ ؛ فإنَّ الخزيَ والافتضاحَ وهتكَ السترِ أعظمُ مِنْ كلِّ عذابٍ يحلُّ بالجسدِ مِنَ الضربِ والقطعِ وغيرِهما .

فهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ حالِ الميتِ عندَ الموتِ شاهدَها أولو البصائرِ بمشاهدةٍ باطنةٍ أقوىٰ مِنْ مشاهدةِ العينِ ، وشهدَ لذٰلكَ شواهدُ الكتابِ والسنةِ .

نعمْ ؛ لا يمكنُ كشفُ الغطاءِ عنْ كنهِ حقيقةِ الموتِ ؛ إذْ لا يعرفُ الموتَ مَنْ لا يعرفُ الحياةَ ، ومعرفةُ الحياةِ بمعرفةِ حقيقةِ الروحِ في نفسِها ، وإدراكِ ماهيةِ ذاتِها ، ولمْ يُؤذنْ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يتكلمَ فيها ، ولا أنْ يزيدَ

علىٰ أنْ يقولَ : ﴿ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، فليسَ لأحدٍ مِنْ علماءِ الدينِ أنْ يكشفَ عنْ سرِّ الروحِ وإنِ اطَّلعَ عليهِ ، وإنَّما المأذونُ فيهِ ذكرُ حالِ الروحِ بعدَ الموتِ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ الموتَ ليسَ عبارةً عنِ انعدامِ الروحِ وانعدامِ إدراكِها آياتٌ وأخبارٌ كثيرةٌ .

❁ ❁ ❁

أمَّا الآياتُ : فما وردَ في الشهداءِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ ﴾ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا ما وردَ في الشرعِ : فلمَّا قُتلَ صناديدُ قريشٍ يومَ بدرٍ . . ناداهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « يا فلانُ ، يا فلانُ ، يا فلانُ ؛ قدْ وجدتُ ما وعدَني ربي حقاً ، فهلْ وجدتُم ما وعدَ ربُّكم حقاً ؟ » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أتناديهم وهمْ أمواتٌ ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِه ؛ إنَّهم لأسمعُ لهٰذا الكلامِ منكم ، إلَّا أنَّهُمْ لا يقدرونَ على الجوابِ »[1] فهٰذا نصٌّ في بقاءِ روحِ الشقيِّ ، وبقاءِ إدراكِها ومعرفتِها ، والآيةُ نصٌّ في أرواحِ الشهداءِ ، ولا يخلو الميتُ عنْ سعادةٍ أو شقاوةٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القبرُ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النَّارِ ، أوْ روضةٌ مِنْ رياضِ الجنَّةِ »[2] وهٰذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ الموتَ معناهُ تغيُّرُ حالٍ فقطْ ، وأنَّ ما سيكونُ مِنْ شقاوةِ الميتِ وسعادتِهِ يتعجَّلُ عندَ الموتِ مِنْ غيرِ تأخُّرٍ ، وإنَّما يتأخرُ بعضُ أنواعِ العذابِ والثوابِ دونَ أصلِهِ .

وروىٰ أنسٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « الموتُ القيامةُ ، فمَنْ ماتَ . . فقدْ قامَتْ قيامتُهُ »[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ أحدُكُم . . عُرِضَ عليهِ مقعدُهُ غدوةً وعشيةً ، إنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ . . فمِنْ أهلِ الجنَّةِ ، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ . . فمِنْ أهلِ النَّارِ ، يُقالُ : هٰذا مقعدُكَ حتىٰ يبعثَكَ اللهُ يومَ القيامةِ »[4] وليسَ يخفىٰ ما في مشاهدةِ المقعدينِ مِنْ عذابٍ ونعيمٍ في الحالِ .

وعنْ أبي قيسٍ قالَ : كنَّا معَ علقمةَ في جنازةٍ فقالَ : أمَّا هٰذا . . فقدْ قامَتْ قيامتُهُ[5]

وقالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ : (حرامٌ علىٰ نفسٍ أنْ تخرجَ مِنَ الدنيا حتىٰ تعلمَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ هيَ أمْ مِنْ أهلِ النَّارِ)[6]

وقالَ أبو هريرةَ رضي الله عنه : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ مريضاً . . ماتَ شهيداً ، ووُقيَ فتَّانيِ القبرِ ، وغُديَ وريحَ عليهِ برزقِهِ مِنَ الجنَّةِ »[7]

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٥) ، وفيه ذكرُ أسمائهم .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٦٠) بتقديم الجملة الثانية على الأولىٰ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/٣٨٠) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١١١٧) ، وفي (ب) : (القيامة الأولىٰ) .

(٤) رواه البخاري (١٣٧٩) ، ومسلم (٢٨٦٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٥) رواه الطبري في « تهذيب الآثار » (٢٤٠) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/٣٨١) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٦٧٥٠) .

(٧) رواه ابن ماجه (١٦١٥) ، وفي (ب) : (من مات غريباً) ، وقال الحافظ السيوطي في « شرح الصدور » (ص ٢٩٩) (إنما هو : « من مات مرابطاً » لا « من مات مريضاً ») ، وانظر « الإتحاف » (١٠/٣٨١ ـ ٣٨٢) .

وقالَ مسروقٌ : (ما غبطتُ أحداً ما غبطتُ مؤمناً في اللحدِ ؛ قدِ استراحَ مِنْ نصَبِ الدنيا ، وأمنَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالىٰ)[1]

وقالَ يعلى بنُ الوليدِ : كنتُ أمشي يوماً معَ أبي الدرداءِ ، فقلتُ لهُ : ما تحبُّ لمَنْ تحبُّ ؟ قالَ : الموتُ ، قلتُ : فإنْ لمْ يمتْ ؟ قالَ : يقلُّ مالُه وولدُهُ[2]

وإنَّما أحبَّ الموتَ لأنَّهُ لا يحبُّهُ إلَّا المؤمنُ ، والموتُ إطلاقُ المؤمنِ مِنَ السجنِ ، وإنَّما أحبَّ قلةَ المالِ والولدِ لأنَّهُ فتنةٌ وسببٌ للأنسِ بالدنيا ، والأنسُ بمَنْ لا بدَّ مِنْ فراقِهِ غايةُ الشقاوةِ ، وكلُّ ما سوى اللهِ وذكرِهِ والأنسِ بهِ . . فلا بدَّ مِنْ فراقِهِ عندَ الموتِ لا محالةَ .

ولهٰذا قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّما مثلُ المؤمنِ حينَ تخرجُ نفسُهُ أوْ روحُهُ مثلُ رجلٍ كانَ في سجنٍ فأُخرجَ منهُ ، فهوَ يتفسحُ في الأرضِ ويتقلَّبُ فيها)[3]

وهٰذا الذي ذكرَهُ حالُ مَنْ تجافىٰ عنِ الدنيا وتبرَّمَ بها ، ولمْ يكنْ لهُ أنسٌ إلَّا بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وكانَتْ شواغلُ الدنيا تحبسُهُ عنْ محبوبِهِ ، ومقاساةُ الشهواتِ تؤذيهِ ، فكانَ في الموتِ خلاصُهُ مِنْ جميعِ المؤذياتِ ، وانفرادُهُ بمحبوبِهِ الذي كانَ بهِ أنسُهُ مِنْ غيرِ عائقٍ ولا دافعٍ ، وما أجدرَ ذٰلكَ بأنْ يكونَ منتهى النعيمِ واللذاتِ .

وأكملُ اللذاتِ للشهداءِ الذين قُتلوا في سبيلِ اللهِ ؛ لأنَّهم ما أقدموا على القتالِ إلَّا قاطعينَ التفاتَهُمْ عَنْ علائقِ الدنيا ، مشتاقينَ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، راضينَ بالقتلِ في طلبِ مرضاتِهِ ، فإنْ نظرَ إلى الدنيا . . فقدْ باعَها طوعاً بالآخرةِ ، والبائعُ لا يلتفتُ قلبُهُ إلى المبيعِ ، وإنْ نظرَ إلى الآخرةِ . . فقدِ اشتراها وتشوَّقَ إليها ، فما أعظمَ فرحَهُ بما اشتراهُ إذا رآهُ ، وما أقلَّ التفاتَهُ إلىٰ ما باعَهُ إذا فارقَهُ ، وتجردُ القلبِ لحبِّ اللهِ تعالىٰ قدْ يتَّفقُ في بعضِ الأحوالِ ، ولٰكنْ لا يدركُهُ الموتُ عليهِ فيتغيرُ[4] ، والقتالُ سببُ الموتِ ، فكانَ سبباً لإدراكِ الموتِ علىٰ مثلِ هٰذهِ الحالةِ ، فلهٰذا عظمَ النعيمُ ؛ إذْ معنى النعيمِ : أنْ ينالَ الإنسانُ ما يريدُهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ فكانَ هٰذا أجمعَ عبارةٍ لمعاني لذاتِ الجنَّةِ .

وأعظمُ العذابِ أنْ يُمنعَ الإنسانُ عنْ مرادِهِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىَ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ فكانَ هٰذا أجمعَ عبارةٍ لعقوباتِ أهلِ جهنمَ .

وهٰذا النعيمُ يدركُهُ الشهيدُ كما انقطعَ نفسُهُ مِنْ غيرِ تأخيرٍ ، وهٰذا أمرٌ انكشفَ لأربابِ القلوبِ بنورِ اليقينِ ، وإنْ أردتَ عليهِ شهادةً مِنْ جهةِ السمعِ . . فجميعُ أحاديثِ الشهداءِ تدلُّ عليه ، وكلُّ حديثٍ يشتملُ على التعبيرِ عنْ منتهىٰ نعيمِهِمْ بعبارةٍ أخرىٰ ، فقدْ رُويَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لجابرٍ : « ألا أبشرُكَ يا جابرُ ؟! » وكانَ قدِ استُشهدَ أبوهُ يومَ أحدٍ ، قالَ : بلىٰ ، بشَّرَكَ اللهُ بالخيرِ ، قالَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أحيا أباكَ وأقعدَهُ بينَ يديهِ وقالَ : تمنَّ عليَّ عبدي ما شئتَ أعطيكَهُ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ ما عبدتُكَ حقَّ عبادتِكَ ، أتمنَّىٰ عليكَ أن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/٣٨٢) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٧٤) ، وبنحوه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٠١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٩٧) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٤٣) ، وأحمد في « الزهد » (٧٤٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٩٢) ، وابن المبارك في « الزهد » (٥٩٧) .

(٤) فليس للموت سلطان على الحب الذي تجرد له القلب ، بل يبقىٰ في القلب بعد الموت ، وينعم به صاحبه أعظم نعيم .

تردَّني إلى الدنيا فأقاتلَ معَ نبيّكَ فأُقتلَ فيكَ مرةً أخرىٰ ، قالَ لهُ : إنَّهُ قدْ سبقَ منِّي أنَّكَ إليها لا ترجعُ »[1]

وقالَ كعبٌ : يُوجدُ رجلٌ في الجنَّةِ يبكي ، فقيلَ لهُ : لمَ تبكي وأنتَ في الجنَّةِ ؟! قالَ : أبكي لأنِّي لمْ أُقتلْ في اللهِ إلَّا قتلةً واحدةً ، وكنتُ أشتهي أنْ أُردَّ فأُقتلَ فيهِ قتلاتٍ[2]

* * *

واعلمْ : أنَّ المؤمنَ ينكشفُ لهُ عقيبَ الموتِ مِنْ سعةِ جلالِ اللهِ ما تكونُ الدنيا بالإضافةِ إليه كالسجنِ والمضيقِ ، ويكونُ مثالُهُ كالمحبوسِ في بيتٍ مظلمٍ فُتحَ لهُ بابٌ إلىٰ بستانٍ واسعِ الأكنافِ لا يبلغُ طَرْفُهُ أقصاه ، فيهِ أنواعُ الأشجارِ والأزهارِ والثمارِ والطيورِ ، فلا يشتهي العودَ إلى السجنِ المظلمِ .

وقدْ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لهُ مثلاً فقالَ لرجلٍ ماتَ : « أصبحَ هـٰذا مرتحلاً مِنَ الدنيا وتركَها لأهلِها ؛ فإنْ كانَ قدْ رضيَ . . فلا يسرُّهُ أنْ يرجعَ إلى الدنيا كما لا يسرُّ أحدَكُم أنْ يرجعَ إلىٰ بطنِ أمِّهِ »[3] فعرَّفَكَ بهـٰذا أنَّ نسبةَ سعةِ الآخرةِ إلى الدنيا كنسبةِ سعةِ الدنيا إلىٰ ظلمةِ الرحمِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مثلَ المؤمنِ في الدنيا كمثلِ الجنينِ في بطنِ أمِّهِ ، إذا خرجَ مِنْ بطنِها . . بكىٰ علىٰ مخرجِهِ ، حتىٰ إذا رأى الضوءَ ورضعَ . . لمْ يحبَّ أنْ يرجعَ إلىٰ مكانِهِ ، وكذٰلكَ المؤمنُ يجزعُ مِنَ الموتِ ، فإذا أفضىٰ إلىٰ ربِّه . . لمْ يحبَّ أنْ يرجعَ إلى الدنيا ؛ كما لا يحبُّ الجنينُ أنْ يرجعَ إلىٰ بطنِ أمِّهِ »[4]

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلاناً قدْ ماتَ ، فقالَ : « مستريحٌ أو مستراحٌ منه »[5] أشارَ بالمستريحِ إلى المؤمنِ ، وبالمستراحِ منهُ إلى الفاجرِ ؛ إذْ يستريحُ أهلُ الدنيا منهُ .

وقالَ أبو عمرَ صاحبُ السقيا : مرَّ بنا ابنُ عمرَ ونحنُ صبيانٌ ، فنظرَ إلىٰ قبرٍ ؛ فإذا جمجمةٌ باديةٌ ، فأمرَ رجلاً فواراها ثمَّ قال : (إنَّ هـٰذهِ الأبدانَ ليسَ يضرُّها هـٰذا الثَّرىٰ شيئاً ، وإنَّما الأرواحُ التي تُعاقبُ وتُثابُ إلىٰ يومِ القيامةِ)[6]

وعنْ عمرِو بن دينارٍ قالَ : ما مِنْ ميتٍ يموتُ إلَّا وهوَ يعلمُ ما يكونُ في أهلِهِ بعدَهُ ، وإنَّهم ليغسِّلونَهُ ويكفِّنونَهُ وإنَّهُ لينظرُ إليهِمْ[7]

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : بلغَني أنَّ أرواحَ المؤمنينَ مرسلةٌ تذهبُ حيثُ شاءَتْ[8]

---

(١) رواه الترمذي (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) ، وفيه : (يا عبدي تمنَّ عليَّ . . أعطك ، قال : يا رب ؛ تحييني فأقتل فيك ثانية ، قال الربُّ عز وجل : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤٤/٦) ، وفيه : (فأقتل فيه ثلاث قتلات) .

(٣) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلاً ورجاله ثقات) « إتحاف » (٣٨٤/١٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (٣٨٤/١٠) ، وفي (ف ، ص ، ي) : (رجع) بدل (رضع) ، وسقطت من باقي النسخ ، والمثبت من نسخة الحافظ الزبيدي . انظر « الإتحاف » (٣٨٤/١٠) .

(٥) رواه البخاري (٦٥١٢) ، ومسلم (٩٥٠) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (٣٨٤/١٠) ، وقال العلامة اللقاني في « الزهر المنثور » كما في هامش « شرح الصدور » (ص ٣٨١) : (الذي عليه الأكثر والمعظم : أن العذاب على الروح والجسد جميعاً ، والنعيم كذلك ، خلافاً لابن عمر وابن حزم الظاهري وابن هبيرة ، وابن عمر انفرد بهـٰذا دون الصحابة والجمهور) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤٩/٣) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٣٨٥/١٠) .

وقالَ النعمانُ بنُ بشيرٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على المنبرِ يقولُ : « ألا إنَّهُ لمْ يبقَ مِنَ الدنيا إلَّا مثلُ الذبابِ تمورُ في جوِّها ، فاللهَ اللهَ في إخوانِكُمْ مِنْ أهلِ القبورِ ، فإنَّ أعمالَكُم تُعرضُ عليهِمْ »[1]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تفضحوا موتاكُمْ بسيئاتِ أعمالِكُمْ ؛ فإنَّها تُعرضُ علىٰ أوليائِكُمْ مِنْ أهلِ القبورِ »[2]

ولذٰلكَ قالَ أبو الدرداءِ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أعملَ عملاً أُخزىٰ بهِ عندَ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ)[3] وكانَ قدْ ماتَ ، وهوَ خالُهُ .

وسُئلَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بن العاصِ عنْ أرواحِ المؤمنينَ إذا ماتوا أينَ هيَ ؟ قالَ : (في صورِ طيرٍ بيضٍ في ظلِّ العرشِ ، وأرواحُ الكافرينَ في الأرضِ السَّابعةِ)[4]

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ الميتَ يعرفُ مَنْ يغسِّلُهُ ومَنْ يحملُهُ ، ومَنْ يدلِّيهِ في قبرِهِ »[5]

وقالَ صالحٌ المريُّ : بلغَني أنَّ الأرواحَ تتلاقىٰ عندَ الموتِ ، فتقولُ أرواحُ الموتىٰ للروحِ التي تخرجُ إليهِمْ : كيفَ كانَ مأواكِ ؟ وفي أيِّ الجسدينِ كنتِ ؟ في طيبٍ أو خبيثٍ ؟[6]

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ : أهلُ القبورِ يتوكَّفونَ الأخبارَ ، فإذا أتاهمُ الميتُ . . قالوا : ما فعلَ فلانٌ ؟ فيقولُ : ألمْ يأتِكُمْ ، أوَما قدمَ عليكُمْ ؟ فيقولونَ : إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، سُلكَ بهِ غيرُ سبيلِنا[7]

وعنْ جعفرٍ ، عنْ سعيدٍ قالَ : إذا ماتَ الرجلُ . . استقبلَهُ ولدُهُ كما يُستقبلُ الغائبُ[8]

وقالَ مجاهدٌ : إنَّ الرجلَ ليُبشَّرُ بصلاحِ ولدِهِ في قبرِهِ[9]

وروىٰ أبو أيوبَ الأنصاريُّ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ نفسَ المؤمنِ إذا قُبضَتْ . . تلقَّاها أهلُ الرحمةِ مِنْ عبادِ اللهِ كما يُتلقَّى البشيرُ في الدنيا يقولونَ : أنظِروا أخاكُمْ حتىٰ يستريحَ ؛ فإنَّهُ كانَ في كربٍ شديدٍ ، فيسألونَهُ : ماذا فعلَ فلانٌ ؟ وماذا فعلَتْ فلانةُ ؟ وهلْ تزوجَتْ فلانةُ ؟ فإذا سألوهُ عَنْ رجلٍ ماتَ قبلَهُ وقالَ : ماتَ قبلي . . قالوا : إنَّا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ ، ذُهبَ بهِ إلىٰ أمِّهِ الهاويةِ »[10]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٧/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٦١) .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٣٥٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » من رواية نعيم بن حماد (١٦٥) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » من رواية نعيم بن حماد (١٦٤) ، وفي (أ) : (حواصل) بدل (صور) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (٣٩٣/١٠) .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧١/٣) وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦١٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٧٤) ، ويتوكفون : يتوقعون ويسألون عن الأخبار .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٥) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٦) .

(١٠) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٢٩/٤) .

بيان كلام القبر للميت

وكلامُ الموتىٰ إمَّا بلسانِ المقالِ ، أو بلسانِ الحالِ التي هيَ أفصحُ في تفهيمِ الموتىٰ مِنْ لسانِ المقالِ في تفهيمِ الأحياءِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ القبرُ للميتِ حينَ يُوضعُ فيهِ : ويحَكَ يا بنَ آدمَ ؛ ما غرَّكَ بي ؟! ألمْ تعلمْ أنِّي بيتُ الفتنةِ وبيتُ الظلمةِ ، وبيتُ الوحدةِ ، وبيتُ الدودِ ؟! ما غرَّكَ بي إذْ كنتَ تمرُّ بي فدَّاداً ؟! فإنْ كانَ مصلحاً . . أجابَ عنهُ مجيبُ القبرِ فيقولُ : أرأيتَ إنْ كانَ يأمرُ بالمعروفِ وينهىٰ عنِ المنكرِ ، فيقولُ القبرُ : إني إذاً أتحولُ عليهِ خضراً ، ويعودُ جسدُه نوراً ، وتصعدُ روحُهُ إلى اللهِ تعالى »[1] ، و(الفدَّادُ) : هوَ الذي يقدِّمُ رجلاً ويؤخِّرُ أخرىٰ ، كذٰلك فسَّرَه الراوي[2]

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ الليثيُّ : ليسَ مِنْ ميتٍ يموتُ إلَّا نادَتْهُ حفرتُهُ التي يُدفنُ فيها : أنا بيتُ الظلمةِ والوحدةِ والانفرادِ ، فإنْ كنتَ في حياتِكَ مطيعاً للهِ . . كنتُ عليكَ اليومَ رحمةً ، وإنْ كنتَ عاصياً . . فأنا اليومَ عليكَ نقمةٌ ، أنا الذي مَنْ دخلَني مطيعاً . . خرجَ مسروراً ، ومَنْ دخلَني عاصياً . . خرجَ مثبوراً[3]

وقالَ محمدُ بنُ صبيحٍ : بلغَنا أنَّ الرجلَ إذا وُضعَ في قبرِهِ فعُذِبَ وأصابَهُ بعضُ ما يكرهُ . . ناداه جيرانُهُ مِنَ الموتىٰ : أيُّها المخلَّفُ في الدنيا بعدَ إخوانِهِ وجيرانِهِ ؛ أما كانَ لكَ فينا معتبرٌ ؟! أما كانَ لكَ في تقدُّمِنا إيَّاكَ فكرةٌ ؟! أما رأيتَ انقطاعَ أعمالِنا عنَّا وأنتَ في المهلةِ ، فهلَّا استدركتَ ما فاتَ إخوانَكَ ؟! وتناديهِ بقاعُ الأرضِ : أيُّها المغترُّ بظاهرِ الدنيا ؛ هلَّا اعتبرتَ بمَنْ غُيِّبَ مِنْ أهلِكَ في بطنِ الأرضِ ممَّن غرَّتْهُ الدنيا قبلَكَ ، ثمَّ سبقَ بهِ أجلُهُ إلى القبورِ وأنتَ تراهُ محمولاً تهاداه أحبَّتُهُ إلى المنزلِ الذي لا بدَّ لهُ منهُ[4]

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : بلغَني أنَّ الميتَ إذا وُضعَ في قبرِهِ . . احتوشَتْهُ أعمالُهُ ، ثمَّ أنطقَها اللهُ تعالىٰ فقالَتْ : أيُّها العبدُ المنفردُ في حفرتِهِ ؛ انقطعَ عنكَ الأخلاءُ والأهلونَ فلا أنيسَ لكَ اليومَ غيرُنا[5]

وقالَ كعبٌ : إذا وُضعَ العبدُ الصَّالحُ في القبرِ . . احتوشَتْهُ أعمالُهُ الصالحةُ ؛ الصلاةُ والصيامُ والحجُّ والجهادُ والصدقةُ ، قالَ : وتجيءُ ملائكةُ العذابِ مِنْ قِبَلِ رجليهِ ، فتقولُ الصلاةُ : إليكُمْ عنهُ ، فلا سبيلَ لكمْ عليهِ : فقدْ أطالَ بيَ القيامَ للهِ عليهما ، فيأتونَهُ مِنْ قِبلِ رأسِهِ ، فيقولُ الصيامُ : لا سبيلَ لكُمْ عليهِ ؛ فقدْ أطالَ ظمأَهُ للهِ في دارِ الدنيا ، فلا سبيلَ لكمْ عليهِ ، فيأتونَهُ مِنْ قبلِ جسدِهِ ، فيقولُ الحجُّ والجهادُ : إليكُمْ عنهُ ؛ فقدْ أنصبَ نفسَهُ وأتعبَ بدنَهُ وحجَّ وجاهدَ للهِ ، فلا سبيلَ لكُمْ عليهِ ، قالَ : فيأتونَهُ مِنْ قِبلِ يديهِ ، فتقولُ الصدقةُ : كفُّوا !! خلُّوا عنْ صاحبي ؛ فكمْ مِنْ صدقةٍ خرجَتْ مِنْ هاتينِ اليدينِ حتىٰ وقعَتْ في يدِ اللهِ تعالى ابتغاءَ وجهِهِ ، فلا سبيلَ لكُمْ عليهِ .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣٧٧/٢٢) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦٧٤٨) .

(٢) أي : الذي يمشي مشية المتبختر .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (٣٩٦/١٠) ، وأورده الحافظ ابن رجب الحنبلي في « أهوال القبور » (ص ٤٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (٣٩٦/١٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (٣٩٦/١٠) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٤٢٠/٣) .

قالَ : فيُقالُ لهُ : هنيئاً ، طبتَ حيّاً وطبتَ ميتاً ، قالَ : وتأتيه ملائكةُ الرحمةِ ، فتفرشُ لهُ فراشاً مِنَ الجنَّةِ ، ودثاراً مِنَ الجنَّةِ ، ويُفسحُ لهُ في قبرِهِ مدَّ بصرِهِ ، ويُؤتىٰ بقنديلٍ مِنَ الجنَّةِ فيستضيءُ بنورِهِ إلىٰ يومِ يبعثُهُ اللهُ مِنْ قبرِهِ [1]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عبيدِ بنِ عميرٍ في جنازةٍ : بلغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ الميتَ يقعدُ وهوَ يسمعُ خطوَ مشيِّعيهِ ، فلا يكلِّمُهُ شيءٌ إلَّا قبرُهُ يقولُ : ويحَكَ ابنَ آدمَ !! أليسَ قدْ حُذِّرتَني وحُذِّرتَ ضيقي ونتني ، وهَوْلي ودودي ؟! فماذا أعددتَ لي ؟ » [2]

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده هٰكذا الحافظ ابن رجب الحنبلي في « أهوال القبور » (ص ٥٨) ، ورواه هناد في « الزهد » (٣٣٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢١٨٨) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » ، وابن المبارك في « الزهد » من رواية نعيم بن حماد (١٦٣) ، ولم يرفعه . انظر « الإتحاف » (٣٩٧/١٠) .

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير[1]

قالَ البراءُ بنُ عازبٍ : خرجنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جنازةِ رجلٍ مِنَ الأنصارِ ، فجلسَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ قبرهِ منكساً رأسَهُ ثمَّ قالَ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عذابِ القبرِ » ثلاثاً ، ثمَّ قالَ : « إنَّ المؤمنَ إذا كانَ في قبلٍ مِنَ الآخرةِ[2] . . بعثَ اللهُ إليهِ ملائكةً كأنَّ وجوهَهُمُ الشمسُ معَهُم حنوطُهُ وكفنُهُ ، فيجلسونَ مدَّ بصرِهِ ، فإذا خرجَتْ روحُه . . صلَّىٰ عليهِ كلُّ ملكٍ بينَ السماءِ والأرضِ وكلُّ ملكٍ في السماءِ ، وفُتحَتْ أبوابُ السماءِ ، فليسَ منها بابٌ إلَّا يحبُّ أنْ يدخلَ بروحِهِ منهُ ، فإذا صعدَ بروحِهِ . . قيلَ : أيْ ربِّ ؛ عبدُكَ فلانٌ ، فيقولُ : ارجعوهُ فأروهُ ما أعددتُ لهُ مِنَ الكرامةِ ؛ فإنِّي وعدتُهُ : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وإنَّهُ ليسمعُ خفقَ نعالِهِمْ إذا ولَّوا مدبرينَ ، حتىٰ يُقالُ : يا هـٰذا ؛ مَنْ ربُّك ؟ وما دينُك ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟ فيقولُ : ربيَ اللهُ ، وديني الإسلامُ ، ونبيِّي محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فينتهرانِهِ انتهاراً شديداً ـ وهيَ آخرُ فتنةٍ تُعرضُ على الميتِ ـ فإذا قالَ ذٰلكَ . . نادىٰ منادٍ : أنْ صدقتَ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ . . . ﴾ الآيةَ .

ثمَّ يأتيهِ آتٍ حسنُ الوجهِ طيبُ الريحِ حسنُ الثيابِ فيقولُ : أبشرْ برحمةٍ مِنْ ربِّكَ وجنَّاتٍ فيها نعيمٌ مقيمٌ ، فيقولُ : وأنتَ فبشَّرَكَ اللهُ بخيرٍ ، مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ الصَّالحُ ، واللهِ ؛ ما علمتُ إن كنتَ لسريعاً في طاعةِ اللهِ ، بطيئاً عنْ معصيةِ اللهِ ، فجزاكَ اللهُ خيراً ، قالَ : ثمَّ ينادي منادٍ : أنِ افرشوا لهُ مِنْ فرشِ الجنَّةِ ، وافتحوا لهُ باباً إلى الجنَّةِ ، فيُفرشُ لهُ فرشٌ مِنَ الجنَّةِ ، ويُفتحُ لهُ بابٌ إلى الجنَّةِ ، فيقولُ : اللهمَّ ؛ عجِّلْ قيامَ الساعةِ ، حتىٰ أرجعَ إلىٰ أهلي ومالي .

قالَ : وأما الكافرُ . . فإنَّهُ إذا كانَ في قبلٍ مِنَ الآخرةِ وانقطاعٍ مِنَ الدنيا . . نزلَتْ عليهِ ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ ، معَهُم ثيابٌ مِنْ نارٍ وسرابيلُ مِنْ قطرانٍ ، فيحتوشونَهُ ؛ فإذَا خرجَتْ نفسُهُ . . لعنَهُ كلُّ ملكٍ بينَ السماءِ والأرضِ وكلُّ ملكٍ في السماءِ ، وغُلِّقَتْ أبوابُ السماءِ ، فليسَ منها بابٌ إلَّا يكرهُ أنْ يدخلَ بروحِهِ منهُ ، فإذا صعدَ بروحِهِ . . نُبذَ ، وقيلَ : أيْ ربِّ ؛ عبدُكَ فلانٌ لمْ تقبلْهُ سماءٌ ولا أرضٌ ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : ارجعوهُ فأروهُ ما أعددتُ لهُ من الشرِّ ؛ إنِّي وعدتُهُ : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وإنَّهُ ليسمعُ خفقَ نعالِهِم إذا ولَّوا مدبرينَ ، حتىٰ يُقالُ لهُ : يا هـٰذَا ؛ مَنْ ربُّكَ ؟ وما دينُكَ ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟ فيقولُ : لا أدري ، فيُقالُ : لا دريتَ .

ثمَّ يأتيهِ آتٍ قبيحُ الوجهِ منتنُ الريحِ قبيحُ الثيابِ فيقولُ : أبشرْ بسخطٍ مِنَ اللهِ وبعذابٍ أليمٍ مقيمٍ ، فيقولُ : بشَّرَكَ اللهُ بشرٍّ ، مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ الخبيثُ ، واللهِ ؛ إنْ كنتَ لسريعاً في معصيةِ اللهِ بطيئاً عنْ طاعةِ اللهِ ، فجزاكَ اللهُ شرّاً ، فيقولُ : وأنتَ فجزاكَ اللهُ شرّاً ، ثم يُقيَّضُ لهُ أصمُّ أعمىٰ أبكمُ ، معهُ مرزبَّةٌ مِنْ حديدٍ لوِ اجتمعَ عليها الثقلانِ علىٰ أنْ يقلُّوها . . لمْ يستطيعوا ، لوْ ضُربَ بها جبلٌ . . صارَ تراباً ، فيضربُهُ بها ضربةً فيصيرُ تراباً ، ثمَّ تعودُ فيهِ الروحُ ،

---

(١) قال الحافظ السيوطي في « شرح الصدور » (ص ٣٥٠) : (قال العلماء : **عذاب القبر** هو عذاب البرزخ ، أضيف إلى القبر ؛ لأنه الغالب ، وإلا . . فكل ميت أراد الله تعذيبه . . ناله ما أراد به ، قُبر أم لم يُقبر ، ولو صلب ، أو غرق في البحر ، أو أكلته الدواب ، أو حرق حتىٰ صار رماداً وذرّي في الريح ، **ومحله** : الروح والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة ، وكذا القول في النعيم) .

(٢) **قبل** : أي : إقبال منها .

فيضربُ بها عينيهِ ضربةً يسمعُها مَنْ على الأرضِ ليسَ الثقلين ، قالَ : ثمَّ ينادي منادٍ : أنِ افرشوا لهُ لوحينِ مِنْ نارٍ ، وافتحوا لهُ باباً إلى النَّارِ ، فيُفرشُ لهُ لوحانِ مِنْ نارٍ ، ويُفتحُ لهُ بابٌ إلى النَّارِ »[1]

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ : ما مِنْ ميتٍ يموتُ إلَّا مُثِّلَ لهُ عندَ الموتِ أعمالُهُ الحسنةُ وأعمالُهُ السيئةُ ، قالَ : فيشخصُ إلىٰ حسناتِهِ ، ويطرق عنْ سيئاتِهِ[2]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المؤمنَ إذا احتُضرَ . . أتتْهُ الملائكةُ بحريرةٍ فيها مسكٌ وضبائرُ الريحانِ[3] ، فتسلُّ روحَهُ كما تُسلُّ الشعرةُ مِنَ العجينِ ، ويُقالُ : أيَّتُها النفسُ المطمئنةُ ؛ اخرجي راضيةً ومرضياً عنكِ إلىٰ روحِ اللهِ وكرامتِهِ ؛ فإذا خرجَتْ روحُهُ . . وُضعتَ علىٰ ذٰلكَ المسكِ والريحانِ ، وطُويَتْ عليها الحريرةُ وبُعثَ بها إلىٰ عليينَ ، وإنَّ الكافرَ إذا احتُضرَ . . أتتْهُ الملائكةُ بمسحٍ فيهِ جمرةٌ[4] ، فتنزعُ روحَهُ انتزاعاً شديداً ، ويُقالُ : أيَّتُها النفسُ الخبيثةُ ؛ اخرجي ساخطةً ومسخوطاً عليكِ إلىٰ هوانِ اللهِ وعذابِهِ ، فإذا خرجَتْ روحُهُ . . وُضعَتْ علىٰ تلكَ الجمرةِ وإنَّ لها نشيشاً ، ويُطوىٰ عليها المسحُ ويُذهبُ بها إلىٰ سجينٍ »[5]

وعنْ محمدِ بن كعبٍ القرظيِّ : أنهُ كانَ يقرأُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ ، قالَ : أيَّ شيءٍ تريدُ ؟ في أيِّ شيءٍ ترغبُ ؟ أتريدُ أنْ ترجعَ لتجمعَ المالَ وتغرسَ الغراسَ ، وتبنيَ البنيانَ وتشققَ الأنهارَ ؟ قالَ : لا ، لعلي أعملُ صالحاً فيما تركتُ ، قالَ : فيقولُ الجبارُ : ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ أيْ : ليقولَنَّها عندَ الموتِ[6]

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ في قبرِهِ في روضةٍ خضراءَ ، ويُرحبُ لهُ في قبرِهِ سبعونَ ذراعاً ، ويضيءُ لهُ حتىٰ يكونَ كالقمرِ ليلةَ البدرِ ، هلْ تدرونَ فيماذا أنزلت : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « عذابُ الكافرِ في قبرِهِ ، يُسلَّطُ عليهِ تسعةٌ وتسعونَ تنيناً ، هلْ تدرونَ ما التنينُ ؟ تسعةٌ وتسعونَ حيةً ، لكلِّ حيَّةٍ سبعةُ رؤوسٍ يخدشونَهُ ويلحسونَهُ وينفخونَ في جسمِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ »[7]

ولا ينبغي أنْ يُتعجبَ مِنْ هٰذا العددِ على الخصوصِ ؛ فإنَّ أعدادَ هٰذهِ الحيَّاتِ والعقاربِ بقدرِ أعدادِ الأخلاقِ المذمومةِ مِنَ الكبرِ والرياءِ والحسدِ ، والغلِّ والحقدِ وسائرِ الصفاتِ ؛ فإنَّ لها أصولاً معدودةً ، ثمَّ تتشعبُ منها فروعٌ معدودةٌ ، ثمَّ تنقسمُ فروعُها بأقسامٍ ، وتلكَ الصفاتُ بأعيانِها هيَ المهلكاتُ ، وهيَ بأعيانِها تنقلبُ عقاربَ وحيَّاتٍ ، فالقويُّ منها يلدغُ لدْغَ التنينِ ، والضعيفُ يلدغُ لدْغَ العقربِ ، وما بينَهما يؤذي إيذاءَ الحيَّةِ .

وأربابُ القلوبِ والبصائرِ يشاهدونَ بنورِ البصيرةِ هٰذهِ المهلكاتِ وانشعابَ فروعِها ، إلَّا أنَّ مقدارَ عددِها لا يُوقفُ

(١) رواه بطوله أحمد في « المسند » (٤/٢٩٥ ـ ٢٩٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٣٧ ـ ٣٨) ، وبنحوه عند أبي داوود (٤٧٥٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٤٠١) .

(٣) ضبائر : جمع ضِبارة : الجماعات في تفرقة .

(٤) مِسح : قطعة من الكساء الأسود .

(٥) رواه البزار في « مسنده » (٩٥٤١) ، ونحوه عند النسائي (٤/٨) ، والنشيش : صوت الماء إذا غلىٰ .

(٦) رواه الطبري في « جامع البيان » (١٠/١٨/٦٦) .

(٧) رواه ابن حبان (٣١٢٢) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٦٦٤٤) .

عليهِ إلا بنورِ النبوَّةِ ، فأمثالُ هـٰذهِ الأخبارِ لها ظواهرُ صحيحةٌ وأسرارٌ خفيَّةٌ ، ولـٰكنَّها عندَ أربابِ البصائرِ واضحةٌ ، فمَنْ لم تنكشفْ لهُ حقائقُها . . فلا ينبغي أنْ ينكرَ ظواهرَها ، بل أقلُّ درجاتِ الإيمانِ التصديقُ والتسليمُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فنحنُ نشاهدُ الكافرَ في قبرِهِ مدةً ونراقبُهُ ولا نشاهدُ شيئاً مِنْ ذٰلكَ ، فما وجهُ التصديقِ علىٰ خلافِ المشاهدةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ لكَ ثلاثَ مقاماتٍ في التصديقِ بأمثالِ هـٰذا :

أحدُها ـ وهوَ الأظهرُ والأصحُّ والأسلمُ ـ : أنْ تصدِّقَ بأنَّها موجودةٌ ، وهيَ تلدغُ الميتَ ولـٰكنَّكَ لا تشاهدُ ذٰلكَ ؛ فإنَّ هـٰذهِ العينَ لا تصلحُ لمشاهدةِ الأمورِ الملكوتيَّةِ ، وكلُّ ما يتعلقُ بالآخرةِ فهوَ مِنْ عالمِ الملكوتِ ، أما ترى الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهم كيفَ كانوا يؤمنونَ بنزولِ جبريلَ عليهِ السَّلامُ وما كانوا يشاهدونَهُ ، ويؤمنونَ بأنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ يشاهدُهُ ؟!

فإنْ كنتَ لا تؤمنُ بهـٰذا . . فتصحيحُ أصلِ الإيمانِ بالملائكةِ والوحيِ أهمُّ عليكَ .

وإنْ كنتَ آمنتَ بهِ وجوَّزتَ أنْ يشاهدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما لا تشاهدُهُ الأمَّةُ . . فكيفَ لا تجوِّزُ هـٰذا في الميتِ ؟!

وكما أنَّ الملكَ لا يشبهُ الآدميينَ والحيواناتِ فالحيَّاتُ والعقاربُ التي تلدغُ في القبرِ ليسَتْ مِنْ جنسِ حيَّاتِ عالمِنا ، بلْ هيَ جنسٌ آخرُ ، وتُدركُ بحاسَّةٍ أخرىٰ .

المقامُ الثاني : أن تتذكرَ أمرَ النائمِ ، وأنَّهُ قدْ يرىٰ في نومِهِ حيةً تلدغُهُ ، وهوَ يتألَّمُ بذٰلكَ حتىٰ تراهُ في نومِهِ يصيحُ ، ويعرقُ جبينُهُ ، وقدْ ينزعجُ مِنْ مكانِهِ ، كلُّ ذٰلك يدركُهُ مِنْ نفسِهِ ويتأذَّىٰ بهِ كما يتأذَّى اليقظانُ ، وهوَ يشاهدُهُ وأنتَ ترىٰ ظاهرَهُ ساكناً ، ولا ترىٰ حواليهِ حيةً ، والحيَّةُ موجودةٌ في حقِّهِ ، والعذابُ حاصلٌ ولـٰكنهُ في حقِّكَ غيرُ مشاهدٍ ، وإذا كانَ العذابُ في ألمِ اللدغِ . . فلا فرقَ بينَ حيةٍ تُتخيلُ أو تُشاهدُ .

المقامُ الثالثُ : أنَّك تعلمُ أنَّ الحيَّةَ بنفسِها لا تؤلمُ ، بلِ الذي يلقاكَ منها وهوَ السمُّ ، ثمَّ السمُّ ليسَ هوَ الألمَ ، بلْ عذابُكَ في الأثرِ الذي يحصُلُ فيكَ مِنَ السمِّ ، فلوْ حصلَ مثلُ ذٰلكَ الأثرِ مِنْ غيرِ سمٍّ . . لكانَ العذابُ قدْ توفرَ ، وكانَ لا يمكنُ تعريفُ ذٰلكَ النوعِ مِنَ العذابِ إلَّا بأنْ يُضافَ إلى السببِ الذي يفضي إليهِ في العادةِ ؛ فإنَّهُ لو خُلقَ في الإنسانِ لذةُ الوقاعِ مثلاً مِنْ غيرِ مباشرةِ صورةِ الوقاعِ . . لمْ يمكنْ تعريفُها إلَّا بالإضافةِ إليه ؛ لتكونَ الإضافةُ للتعريفِ بالسببِ ، وتكونَ ثمرةُ السببِ حاصلةً وإنْ لمْ تحصلْ صورةُ السببِ ، والسببُ يُرادُ لثمرتِهِ لا لذاتِهِ .

وهـٰذهِ الصفاتُ المهلكاتُ تنقلبُ مؤذياتٍ ومؤلماتٍ في النفسِ عندَ الموتِ ، فتكونُ آلامُها كآلامِ لدغِ الحيَّاتِ مِنْ غيرِ وجودِ حيَّاتٍ ، وانقلابُ الصفةِ مؤذيةً يضاهي انقلابَ العشقِ مؤذياً عندَ موتِ المعشوقِ ؛ فإنَّهُ كانَ لذيذاً ، فطرأَتْ حالةٌ صارَ اللَّذيذُ بنفسِهِ مؤلماً ، حتىٰ نزلَ بالقلبِ مِنْ أنواعِ العذابِ ما يتمنَّىٰ معهُ أنَّهُ لمْ يكنْ قدْ تنعَّمَ بالعشقِ والوصالِ ، بلْ هـٰذا بعينِهِ هوَ أحدُ أنواعِ عذابِ الميتِ ؛ فإنَّهُ قدْ سلَّطَ العشقَ في الدنيا علىٰ نفسِهِ ، فصارَ يعشقُ مالَهُ وعقارَهُ وجاهَهُ ، وولدَهُ وأقاربَهُ ومعارفَهُ ، ولوْ أخذَ جميعَ ذٰلكَ في حياتِهِ مَنْ لا يرجو استرجاعَهُ منهُ . . فماذا ترىٰ يكونُ حالُهُ ؟! أليسَ

يعظمُ شقاؤُهُ ، ويشتدُّ عذابُهُ ، ويتمنَّىٰ ويقولُ : ليتَهُ لَمْ يكنْ لي مالٌ قطُّ ، ولا جاهٌ قطُّ فكنتُ لا أتأذىٰ بفراقِهِ ؟! فالموتُ عبارةٌ عنْ مفارقةِ المحبوباتِ الدنيويةِ كلِّها دفعةً واحدةً .

مـا حـالُ مَـنْ كـانَ لَـهُ واحِـدٌ   غُـيِّـبَ عَـنْـهُ ذٰلِكَ الْـواحِـدُ [1]

فما حالُ مَنْ لا يفرحُ إلّا بالدنيا ، فتُؤخذُ منهُ الدنيا وتُسلَّمُ إلىٰ أعدائِهِ ، ثمَّ ينضافُ إلىٰ هٰذا العذابِ تحسُّرُهُ علىٰ ما فاتَهُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ ، والحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ حبَّ غيرِ اللهِ يحجبُهُ عنْ لقاءِ اللهِ والتنعُّمِ بهِ ، فيتوالىٰ عليهِ ألمُ فراقِ جميعِ محبوباتِهِ ، وحسرتُهُ علىٰ ما فاتَهُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ أبدَ الآبادِ ، وذلُّ الردِّ والحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وذٰلكَ هوَ العذابُ الذي يُعذَّبُ بهِ ؛ إذْ لا يتبعُ نارَ الفراقِ إلّا نارُ جهنَّمَ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ .

وأمَّا مَنْ لمْ يأنسْ بالدنيا ولمْ يحبَّ إلا اللهَ ، وكانَ مشتاقاً إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فقدْ تخلَّصَ مِنْ سجنِ الدنيا ومقاساةِ الشهواتِ فيها ، وقدمَ علىٰ محبوبِهِ ، وانقطعَتْ عنهُ العوائقُ والصوارفُ ، وتوفرَ عليهِ النعيمُ معَ الأمنِ عنِ الزوالِ أبدَ الآبادِ ، ولمثلِ ذٰلكَ فليعملِ العاملونَ .

والمقصودُ : أنَّ الرجلَ قدْ يحبُّ فرسَهُ بحيثُ لو خُيِّرَ بينَ أنْ يُؤخذَ منهُ وبينَ أنْ تلدغَهُ عقربٌ . . آثرَ الصبرَ علىٰ لدغِ العقربِ .

فإذاً ؛ ألمُ فراقِ الفرسِ عندَهُ أعظمُ مِنْ لدغِ العقربِ ، وحبُّهُ للفرسِ هوَ الذي يلدغُهُ إذا أُخذَ منهُ فرسُهُ ، فليستعدَّ لهٰذهِ اللَّدغاتِ ؛ فإنَّ الموتَ يأخذُ منهُ فرسَهُ ومركبَهُ ، ودارَهُ وعقارَهُ ، وأهلَهُ وولدَهُ ، وأحبابَهُ ومعارفَهُ ، ويأخذُ منهُ جاهَهُ وقبولَهُ ، بلْ يأخذُ منهُ سمعَهُ وبصرَهُ وأعضاءَهُ ، وييئسُ مِنْ رجوعِ جميعِ ذٰلكَ إليهِ ، فإذا لمْ يحبَّ سواه وقدْ أخذَ جميعَ ذٰلكَ منهُ . . فذٰلكَ أعظمُ عليهِ مِنَ العقاربِ والحيَّاتِ ، وكما لوْ أخذَ ذٰلكَ منهُ وهوَ حيٌّ فيعظمُ عقابُهُ . . فكذٰلكَ إذا ماتَ ؛ لأنَّا قد بيَّنَّا أنَّ المعنى الذي هوَ المدركُ للآلامِ واللذاتِ لمْ يمتْ ، بلْ عذابُهُ بعدَ الموتِ أشدُّ ؛ لأنَّهُ في الحياةِ يتسلَّىٰ بأسبابٍ يشغلُ بها حواسَّهُ مِنْ مجالسةٍ ومحادثةٍ ، ويتسلَّىٰ برجاءِ العودِ إليهِ ، ويتسلَّىٰ برجاءِ العوضِ منهُ ، ولا سلوةَ بعدَ الموتِ ؛ إذْ قدِ انسدَّ عليهِ طرقُ التسلي وحصلَ اليأسُ ، فإذا كلُّ قميصٍ لهُ ومنديلٍ قدْ أحبَّهُ بحيثُ كانَ يشقُّ عليهِ لوْ أُخذَ منهُ . . فإنَّهُ يبقىٰ متأسِّفاً عليهِ ومعذَّباً بهِ ، فإنْ كانَ مخِفّاً في الدنيا . . سلمَ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِم : نجا المخِفُّونَ ، وإنْ كانَ مثقلاً . . عظمَ عذابُهُ [2]

وكما أنَّ حالَ مَنْ يُسرقُ منهُ دينارٌ أخفُّ مِنْ حالِ مَنْ يُسرقُ منهُ عشرةُ دنانيرَ . . فكذٰلكَ حالُ صاحبِ الدرهمِ أخفُّ مِنْ حالِ صاحبِ الدرهمينِ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبُ الدرهمِ أخفُّ حساباً مِنْ صاحبِ الدرهمينِ » [3]

وما مِنْ شيءٍ مِنَ الدنيا يتخلَّفُ عنكَ عندَ الموتِ إلّا وهوَ حسرةٌ عليكَ بعدَ الموتِ ، فإنْ شئتَ . . فاستكثرْ ، وإنْ شئتَ . . فاستقللْ ، فإنِ استكثرتَ . . فلستَ مستكثراً إلّا مِنَ الحسرةِ ، وإنِ استقللتَ . . فلستَ تخففُ إلّا

---

(1) البيت من السريع ، وانظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١١) .

(2) روى الحاكم في « المستدرك » (٥٧٣/٤) والبيهقي في « الشعب » (٩٩٢٣) : « إن أمامكم عقبة كؤوداً لا يجوزها المثقلون » ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٨٣/٢) : « لا يجاوزها إلا كل ضامر مخف » .

(3) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٠/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٦٥) .

عَنْ ظهرِكَ ، وإنَّما تكثرُ الحيَّاتُ والعقاربُ في قبورِ الأغنياءِ الذينَ استحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ ، وفرحوا بها واطمأنُّوا إليها .

فهٰذهِ مقاماتُ الإيمانِ في حيَّاتِ القبرِ وعقاربِهِ وفي سائرِ أنواعِ عذابِهِ .

رأىٰ أبو سعيدٍ الخرازُ ابناً لهُ قدْ ماتَ في المنامِ ، فقالَ لهُ : يا بنيَّ ؛ عظْني ، قالَ : لا تخالفِ اللهَ تعالىٰ فيما يريدُ ، قالَ : يا بنيَّ ؛ زدْني ، قالَ : يا أبتِ ؛ لا تطيقُ ، قالَ : قلْ ، قالَ : لا تجعلْ بينَكَ وبينَ اللهِ قميصاً ، قالَ : فما لبسَ قميصاً ثلاثينَ سنةً [1]

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما الصحيحُ مِنْ هٰذهِ المقاماتِ الثلاثِ ؟

فاعلمْ : أنَّ في الناسِ مَنْ لمْ يثبتْ إلَّا الأولَ وأنكرَ ما بعدَهُ ، ومنهُمْ مَنْ أنكرَ الأولَ وأثبتَ الثانيَ ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يثبتْ إلَّا الثالثَ ، وإنَّما الحقُّ الذي انكشفَ لنا بطريقِ الاستبصارِ : أنَّ كلَّ ذٰلكَ في حيزِ الإمكانِ ، وأنَّ مَنْ ينكرُ بعضَ ذٰلكَ فهوَ لضيقِ حوصلتِهِ ، وجهلِهِ باتساعِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وعجائبِ تدبيرِهِ ، فينكرُ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يأنسْ بهِ ويألفْهُ ، وذٰلكَ جهلٌ وقصورٌ ، بلْ هٰذهِ الطرقُ الثلاثةُ في التعذيبِ ممكنةٌ ، والتصديقُ بها واجبٌ ، وربَّ عبدٍ يُعاقبُ بنوعٍ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأنواعِ ، وربَّ عبدٍ تُجمعُ عليهِ هٰذهِ الأنواعُ الثلاثةُ ، نعوذُ باللهِ مِنْ عذابِ اللهِ قليلِهِ وكثيرِهِ .

هٰذا هوَ الحقُّ فصدِّقْ بهِ تقليداً ، فيعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يعرفُ ذٰلك تحقيقاً ، والذي أوصيكَ بهِ ألَّا تكثرَ نظرَكَ في تفصيلِ ذٰلكَ ، ولا تشتغلَ بمعرفتِهِ ، بلِ اشتغِلْ بالتدبيرِ في دفعِ العذابِ كيفَما كانَ ، فإنْ أهملتَ العملَ والعبادةَ واشتغلتَ بالبحثِ عنْ ذٰلكَ . . كنتَ كمَنْ أخذَهُ سلطانٌ وحبسَهُ ليقطعَ يدَهُ ويجدعَ أنفَهُ ، فأخذَ طولَ الليلِ يتفكَّرُ في أنَّهُ هلْ يقطعُهُ بسكينٍ أو بسيفٍ أو بموسىٰ ؟ وأهملَ طريقَ الحيلةِ في دفعِ أصلِ العذابِ عنْ نفسِهِ ، وهٰذا غايةُ الجهلِ ؛ فقدْ عُلِمَ على القطعِ أنَّ العبدَ بعدَ الموتِ لا يخلو عنْ عذابٍ عظيمٍ أو نعيمٍ مقيمٍ ، فينبغي أنْ يكونَ الاستعدادُ لهُ .

فأمَّا البحثُ عنْ تفصيلِ العقابِ والثوابِ . . ففضولٌ وتضييعُ زمانٍ .

❁ ❁ ❁

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١٥) ، وفي غير (د) : (الخدري) بدل (الخراز) .

بيان سؤال منكر ونكير ، وصورتهما ، وضغطة القبر وبقيّة القول في عذاب القبر

قالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ العبدُ . . أتاهُ ملكانِ أسودانِ أزرقانِ يُقالُ لأحدِهما : منكرٌ وللآخرِ : نكيرٌ ، فيقولانِ لهُ : ما كنتَ تقولُ في النبيِّ ؟ فإنْ كانَ مؤمناً . . قالَ : هوَ عبدُ اللهِ ورسولُهُ ، أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، فيقولانِ : إنْ كنَّا لنعلمُ أنَّكَ تقولُ ذٰلكَ ، ثمَّ يُفسحُ لهُ في قبرِهِ سبعونَ ذراعاً في سبعينَ ذراعاً ، ويُنوَّرُ لهُ في قبرِهِ ثمَّ يُقالُ لهُ : نمْ ، فيقولُ : دعوني أرجعُ إلىٰ أهلي فأخبرُهُمْ ، فيُقالُ لهُ : نمْ ، فينامُ كنومةِ العروسِ الذي لا يوقظُهُ إلَّا أحبُّ أهلِهِ إليهِ حتىٰ يبعثَهُ اللهُ مِنْ مضجعِهِ ذٰلكَ ، وإنْ كانَ منافقاً . . قالَ : لا أدري ، كنتُ أسمعُ الناسَ يقولونَ شيئاً وكنتُ أقولُهُ ، فيقولانِ : إنْ كنَّا لنعلمُ أنَّكَ تقولُ ذٰلكَ ، ثمَّ يُقالُ للأرضِ : التئمي عليهِ ، فتلتئمُ عليهِ حتىٰ تختلفَ فيها أضلاعُهُ ، فلا يزالُ معذَّباً حتىٰ يبعثَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ مضجعِهِ ذٰلكَ »[1]

وعنْ عطاءِ بنِ يسارٍ قالَ : (قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : « يا عمرُ ؛ كيفَ بكَ إذا أنتَ متَّ فانطلقَ بكَ قومُكَ فقاسوا لكَ ثلاثةَ أذرعٍ في ذراعٍ وشبرٍ ، ثمَّ رجعوا إليكَ فغسَّلوكَ وكفَّنوكَ وحنَّطوكَ ، ثمَّ احتملوكَ حتىٰ يضعوكَ فيهِ ، ثمَّ يهيلوا عليكَ الترابَ ويدفنوكَ ، فإذا انصرفوا عنكَ . . أتاكَ فتَّانا القبرِ منكرٌ ونكيرٌ ، أصواتُهما كالرعدِ القاصفِ ، وأبصارُهما كالبرقِ الخاطفِ ، يجرَّانِ أشعارَهما ويحثيانِ القبرَ بأنيابهما فتلتلاكَ وترتراكَ ؟! كيفَ بكَ عندَ ذٰلكَ يا عمرُ ؟! » فقالَ عمرُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ويكونُ معي مثلُ عقليَ الآنَ ؟ قالَ : « نعمْ » قالَ : إذاً أكفيكَهُما)[2]

وهٰذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ العقلَ لا يتغيرُ بالموتِ ، إنَّما يتغيرُ البدنُ والأعضاءُ ، فيكونُ الميتُ عاقلاً مدركاً ، عالماً بالآلامِ واللذاتِ كما كانَ ، لا يتغيَّرُ مِنْ عقلِهِ شيءٌ ، وليسَ العقلُ المدركُ هٰذهِ الأعضاءَ ، بلْ هوَ شيءٌ باطنٌ ليسَ لهُ طولٌ ولا عرضٌ ، بلِ الذي لا ينقسمُ في نفسِهِ هوَ المدركُ للأشياءِ ، ولو تناثرَتْ أعضاءُ الإنسانِ كلُّها ولم يبقَ إلَّا الجزءُ المدركُ الذي لا يتجزأُ ولا ينقسمُ . . لكانَ الإنسانُ العاقلُ بكمالِهِ قائماً باقياً ، وهوَ كذٰلكَ بعدَ الموتِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ الجزءَ لا يحلُّهُ الموتُ ، ولا يطرأُ عليهِ العدمُ .

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : بلغَني أنَّ الكافرَ يُسلَّطُ عليهِ في قبرِهِ دابَّةٌ عمياءُ صماءُ ، في يدِها سوطٌ مِنْ حديدٍ في رأسِهِ مثلُ غربِ الجملِ ، تضربُهُ بهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، لا تراهُ فتتقيَهُ ، ولا تسمعُ صوتَهُ فترحمَهُ[3]

وقالَ أبو هريرةَ : (إذا وُضعَ الميتُ في قبرِهِ . . جاءَتْ أعمالُهُ الصالحةُ فاحتوشَتْهُ ، فإنْ أتاهُ مِنْ قبلِ رأسِهِ . . جاءَ قراءتُهُ القرآنَ ، وإنْ أتاهُ مِنْ قبلِ رجليهِ . . جاءَ قيامُهُ ، وإنْ أتاهُ مِنْ قبلِ يديهِ . . قالتِ اليدانِ : واللهِ ؛ لقدْ كانَ يبسطُني للصدقةِ والدعاءِ ، لا سبيلَ لكمْ عليهِ ، وإنْ جاءَ مِنْ قبلِ فيه . . جاء ذكْرُهُ وصيامُهُ ، وكذٰلكَ تقفُ الصلاةُ والصبرُ ناحيةً ،

---

(١) رواه الترمذي (١٠٧١) .

(٢) رواه الآجري في « الشريعة » (٨٦١) ، والبيهقي في « إثبات عذاب القبر » (١٠٣) مرسلاً ، وفيه : (ثلاثة أذرع وشبراً في ذراع وشبر) ، **وتلتلاك وترتراك** : زعزعاك وأقلقاك وأزعجاك . « إتحاف » (٤١٤/١٠) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣٥٣/٦) من رواية ابن المنكدر عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما مرفوعاً ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي : (عرف الجمل) بدل (غرب الجمل) .

فيقولُ : أما إنِّي لوْ رأيتُ خللاً . . لكنتُ أنا صاحبَهُ ـ قالَ سفيانُ : تجاحشُ عنهُ أعمالُه الصالحةُ كما يجاحشُ الرجلُ عنْ أخيهِ وأهلِهِ وولدِهِ ـ ثمَّ يُقالُ لهُ عندَ ذٰلكَ : باركَ اللهُ لكَ في مضجعِكَ ، فنِعمَ الأخلَّاءُ أخلاؤُكَ ، ونعمَ الأصحابُ أصحابُكَ)[1]

وعنْ حذيفةَ قالَ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جنازةٍ ، فجلسَ علىٰ رأسِ القبرِ ثمَّ جعلَ ينظرُ فيهِ ، ثمَّ قالَ : « يُضغطُ المؤمنُ في هٰذا ضغطةً تردَّىٰ منها حمائلُهُ »[2]

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للقبرِ ضغطةً ، ولوْ سلمَ أوْ نجا منها أحدٌ . . لنجا سعدُ بنُ معاذٍ »[3]

وعنْ أنسٍ قالَ : تُوفِّيَتْ زينبُ بنتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكانَتِ امرأةً مسقامةً ، فتبعَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فساءَنا حالُهُ ، فلمَّا انتهينا إلى القبرِ فدخلَهُ . . التمعَ وجهُهُ صفرةً ، فلمَّا خرجَ . . أسفرَ وجهُهُ ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ رأينا منكَ شأناً فممَّ ذٰلكَ ؟ قالَ : « ذكرتُ ضعفَ ابنتي وشدةَ عذابِ القبرِ ، فأتيتُ فأُخبرتُ أنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ خفَّفَ عنها ، ولقدْ ضُغطَتْ ضغطةً سمعَ صوتَها ما بينَ الخافقينِ »[4]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (٤١٩/١٠) ، ولم يقل : (قال سفيان) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٩٤٣٤) ، ونحوه عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢١٨٨) ، وهناد في « الزهد » (٣٣٨) ، **تجاحش** : تدافع .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤٠٧/٥) ، **والحمائل هنا** : عروق الأنثيين ، ويحتمل أن يراد موضع حمائل السيف ؛ أي : عواتقه وصدره وأضلاعه . « إتحاف » (٤٢٢/١٠) .

(٣) رواه ابن حبان (٣١١٢) ، وأحمد في « المسند » (٥٥/٦) .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٥٧/١) ، **ومسقامة** : كثيرة الأمراض .

الباب الثامن
فيما عُرِف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلمْ : أنَّ أنوارَ البصائرِ المستفادةَ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومِنْ مناهجِ الاعتبارِ . . تعرِّفُنا أحوالَ الموتىٰ على الجملةِ ، وانقسامَهُمْ إلىٰ سعداءَ وأشقياءَ ولـٰكنْ حالُ زيدٍ وعمرٍو بعينِهِ فلا ينكشفُ بهِ أصلاً ؛ فإنَّا إنْ عوَّلنا علىٰ إيمانِ زيدٍ وعمرٍو . . فلا ندري علىٰ ماذا ماتَ وكيفَ خُتمَ لهُ ، وإنْ عوَّلنا علىٰ صلاحِهِ الظاهرِ . . فالتقوىٰ محلُّهُ القلبُ ، وهوَ غامضٌ يخفىٰ علىٰ صاحبِ التقوىٰ فكيفَ علىٰ غيرِهِ ؟! فلا حكمَ لظاهرِ الصلاحِ دونَ التقوى الباطنِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فلا يمكنُ معرفةُ حكمِ زيدٍ وعمرٍو إلَّا بمشاهدتِهِ ومشاهدةِ ما يجري عليهِ ، وإذا ماتَ . . فقدْ تحوَّلَ مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، فلا يُرىٰ بالعينِ الظاهرةِ ، وإنَّما يُرىٰ بعينٍ أخرىٰ ، خُلقَتْ تلكَ العينُ في قلبِ كلِّ إنسانٍ ، ولـٰكنَّ الإنسانَ جعلَ عليها غشاوةً كثيفةً مِنْ شهواتِهِ وأشغالِهِ الدنيويةِ فصارَ لا يبصرُ بها ، ولا يُتصورُ أنْ يبصرَ بها شيئاً مِنْ عالمِ الملكوتِ ما لمْ تنقشعْ تلكَ الغشاوةُ عنْ عينِ قلبِهِ .

ولمَّا كانتِ الغشاوةُ منقشعةً عنْ أعينِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ . . فلا جرمَ نظروا إلى الملكوتِ وشاهدوا عجائبَهُ ، والموتىٰ في عالمِ الملكوتِ ، فشاهدوهم وأخبروا ، ولذٰلكَ رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضغطةَ القبرِ في حقِّ سعدِ بنِ معاذٍ[1] ، وفي حقِّ زينبَ ابنتِهِ[2] ، وكذٰلكَ حالُ أبي جابرٍ لمَّا استُشهدَ ؛ إذْ أخبرَهُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أقعدَهُ بينَ يديهِ ليسَ بينَهما سترٌ[3]

ومثلُ هـٰذهِ المشاهدةِ لا مطمعَ فيها لغيرِ الأنبياءِ والأولياءِ الذين تقربُ درجتُهُمْ منهم .

وإنَّما الممكنُ مِنْ أمثالِنا مشاهدةٌ أخرىٰ ضعيفةٌ ، إلَّا أنَّها أيضاً مشاهدةٌ نبويَّةٌ ، وأعني بها المشاهدةَ في المنامِ ، وهيَ مِنْ أنوارِ النبوةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرؤيا الصالحةُ جزءٌ مِنْ ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ »[4]

وهوَ أيضاً انكشافٌ لا يحصلُ إلَّا بانقشاعِ الغشاوةِ عن القلبِ ، فلذٰلكَ لا يُوثقُ إلَّا برؤيا الرجلِ الصَّالحِ الصَّادقِ ، ومَنْ كثرَ كذبُهُ . . لمْ تصدقْ رؤياهُ ، ومَنْ كثرَ فسادُهُ ومعاصيهِ . . أظلم قلبُهُ ، فكانَ ما يراه أضغاثَ أحلامٍ ، ولذٰلكَ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالطهارةِ عندَ النومِ[5] ؛ لينامَ طاهراً ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ طهارةِ الباطنِ أيضاً ؛ فهوَ الأصلُ ، وطهارةُ الظاهرِ بمنزلةِ التتمَّةِ والتكملةِ لها

ومهما صفا الباطنُ . . انكشفَ في حدقةِ القلبِ ما سيكونُ في المستقبلِ كما انكشفَ دخولُ مكةَ لرسولِ اللهِ

---

(١) كما رواه ابن حبان (٣١١٢) ، وأحمد في « المسند » (٦/٥٥) .

(٢) كما رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/٢٥٧) .

(٣) كما رواه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠) .

(٤) رواه البخاري (٦٩٨٩) ، ومسلم (٢٢٦٤) .

(٥) كما رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما بلفظ : « إذا أتيت مضجعك . . فتوضأ وضوءك للصلاة . . .) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النَّومِ ، حتىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾[1]

وقلما يخلو الإنسانُ عنِ مناماتٍ دلَّتْ علىٰ أمورٍ فوجدَها صحيحةً .

والرؤيا ومعرفةُ الغيبِ في النومِ مِنْ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وبدائعِ فطرةِ الآدميِّ ، وهوَ مِنْ أوضحِ الأدلةِ علىٰ عالمِ الملكوتِ ، والخلقُ غافلونَ عنهُ كغفلتِهِمْ عنْ سائرِ عجائبِ القلبِ وعجائبِ العالمِ .

والقولُ في حقيقةِ الرؤيا مِنْ دقائقِ علومِ المكاشفةِ ، فلا يمكنُ ذكرُهُ علاوةً علىٰ علمِ المعاملةِ ، ولـٰكنَّ القدرَ الذي يمكنُ ذكرُهُ ها هنا مثالٌ يفهمُكَ المقصودَ ، وهوَ أنْ تعلمَ أنَّ القلبَ مثالُهُ مثالُ مرآةٍ تتراءىٰ فيها الصُّورُ وحقائقُ الأمورِ ، وأنَّ كلَّ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ مِنِ ابتداءِ خلقِ العالمِ إلىٰ آخرِهِ مسطورٌ ومثبَتٌ في خلقٍ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، يُعبَّرُ عنهُ تارةً باللَّوحِ ، وتارةً بالكتابِ المبينِ ، وتارةً بإمامٍ مبينٍ ؛ كما وردَ في القرآنِ ، فجميعُ ما جرىٰ في العالمِ وما سيجري مكتوبٌ فيه ، ومنقوشٌ عليهِ نقشاً لا يُشاهَدُ بهـٰذهِ العينِ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ذلكَ اللوحَ مِنْ خشبٍ أو حديدٍ أو عظمٍ ، وأنَّ الكتابَ مِنْ كاغَدٍ أوْ رقٍّ ، بلْ ينبغي أنْ تفهمَ قطعاً أنَّ لوحَ اللهِ لا يشبهُ لوحَ الخلقِ ، وكتابَ اللهِ لا يشبهُ كتابَ الخلقِ ، كما أنَّ ذاتَهُ وصفاتِهِ لا تشبهُ ذاتَ الخلقِ وصفاتِهِمْ ، بلْ إنْ كنتَ تطلبُ لهُ مثالاً يقربُهُ إلىٰ فهمِكَ . . فاعلمْ : أنَّ ثبوتَ المقاديرِ في اللوحِ يضاهي ثبوتَ كلماتِ القرآنِ وحروفِهِ في دماغِ حافظِ القرآنِ وقلبِهِ ؛ فإنَّهُ مسطورٌ فيهِ ، حتىٰ كأنَّهُ حيثُ يقرؤُهُ ينظرُ إليهِ ، ولوْ فتَّشتَ دماغَهُ جزءاً جزءاً . . لمْ تشاهدْ مِنْ ذلكَ الخطِّ حرفاً وإنْ كانَ ليسَ هناكَ خطٌّ يُشاهدُ ، ولا حرفٌ يُنظَرُ .

فمِنْ هـٰذا النَّمطِ ينبغي أنْ تفهمَ كونَ اللوحِ منقوشاً بجميعِ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ وقضاهُ ، واللوحُ في المثالِ كمرآةٍ ظهرَ فيها الصورُ ، فلو وُضِعَ في مقابلةِ المرآةِ مرآةٌ أخرىٰ . . لكانَتْ صورةُ تلكَ المرآةِ تتراءىٰ في هـٰذهِ إلَّا أنْ يكونَ بينَهما حجابٌ ، فالقلبُ مرآةٌ تقبلُ رسومَ العلومِ ، واللوحُ مرآةٌ رسومُ العلومِ كلُّها موجودةٌ فيها ، واشتغالُ القلبِ بشهواتِهِ ومقتضىٰ حواسِّهِ حجابٌ مرسلٌ بينَهُ وبينَ مطالعةِ اللوحِ الذي هوَ مِنْ عالمِ الملكوتِ ، فإنْ هبَّتْ ريحٌ حرَّكَتْ هـٰذا الحجابَ ورفعَتْهُ . . تلألأَ في مرآةِ القلبِ شيءٌ مِنْ عالمِ الملكوتِ كالبرقِ الخاطفِ ، وقدْ يثبتُ ويدومُ ، وقدْ لا يدومُ وهوَ الغالبُ .

وما دامَ متيقظاً . . فهوَ مشغولٌ بما توردُهُ الحواسُّ عليهِ مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، وهوَ حجابٌ عنْ عالمِ الملكوتِ .

ومعنى النَّومِ : أنْ تركدَ الحواسُّ فلا تُوردَ على القلبِ ، فإذا تخلَّصَ منهُ ومِنَ الخيالِ وكانَ صافياً في جوهرِهِ . . ارتفعَ الحجابُ بينَهُ وبينَ اللوحِ المحفوظِ ، فوقعَ في قلبِهِ شيءٌ ممَّا في اللوحِ كما تقعُ الصورةُ مِنْ مرآةٍ في مرآةٍ إذا ارتفعَ الحجابُ بينَهما ، إلَّا أنَّ النومَ مانعٌ سائرَ الحواسِّ عنِ العملِ ، وليسَ مانعاً للخيالِ عنْ عملِهِ وعنْ تحركِهِ ، فما يقعُ في القلبِ يبتدرُهُ الخيالُ فيحاكيهِ بمثالٍ يقاربُهُ ، وتكونُ المتخيلاتُ أثبتَ في الحفظِ مِنْ غيرِهَا ، فيبقى الخيالُ في الحفظِ ، فإذا انتبهَ . . لم يتذكرْ إلَّا الخيالَ ، فيحتاجُ المعبِّرُ أنْ ينظرَ أنَّ هـٰذا الخيالَ حكايةُ أيِّ معنىً مِنَ المعاني فيرجعَ إلى المعاني بالمناسبةِ التي بينَ المتخيلِ والمعاني .

---

(1) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٤/١٦٤) من رواية مجاهد مرسلاً .

وأمثلةُ ذٰلكَ ظاهرةٌ عندَ مَنْ نظرَ في علمِ التعبيرِ ، ويكفيكَ مثالٌ واحدٌ ؛ وهوَ أنَّ رجلاً قالَ لابنِ سيرينَ : رأيتُ كأنَّ بيدي خاتماً أختمُ بهِ أفواهَ الرجالِ وفروجَ النساءِ ، فقالَ : أنتَ مؤذنٌ تؤذنُ قبلَ الصبحِ في رمضانَ ، قالَ : صدقتَ[1] .

فانظرْ أنَّ روحَ الختمِ هوَ المنعُ ، ولأجلِهِ يُرادُ الختمُ ، وإنَّما ينكشفُ للقلبِ حالُ الشخصِ مِنَ اللوحِ المحفوظِ كما هوَ عليهِ ، وهوَ كونُهُ مانعاً للناسِ مِنَ الأكلِ والشربِ ، ولٰكنَّ الخيالَ ألفَ المنعَ عندَ الختمِ بالخاتمِ ، فتمثَّلَهُ بالصورةِ الخياليةِ التي تتضمَّنُ روحَ المعنىٰ ، ولا يبقىٰ في الحفظِ إلَّا الصورةُ الخياليةُ .

فهٰذهِ نبذةٌ يسيرةٌ مِنْ بحرِ علمِ الرؤيا الذي لا تنحصرُ عجائبُهُ ، وكيفَ لا وهوَ أخو الموتِ ؟!

وإنَّما الموتُ هو عجبٌ مِنَ العجائبِ ، وهٰذا لأنَّهُ يشبهُهُ مِنْ وجهٍ ضعيفٍ أثَّرَ في كشفِ الغطاءِ عنْ عالمِ الغيبِ ، حتىٰ صارَ النَّائمُ يعرفُ ما سيكونُ في المستقبلِ ، فماذا ترىٰ في الموتِ الذي يخرقُ الحجابَ ، ويكشفُ الغطاءَ بالكليَّةِ ، حتىٰ يرى الإنسانُ عندَ انقطاعِ النفسِ مِنْ غيرِ تأخيرٍ نفسَهُ إمَّا محفوفاً بالأنكالِ والمخازي والفضائحِ نعوذُ باللهِ مِنْ ذٰلكَ ، وإمَّا مكنوفاً بنعيمٍ مقيمٍ وملكٍ كبيرٍ لا آخرَ لهُ ؟! وعندَ هٰذا يُقالُ للأشقياءِ وقدِ انكشفَ الغطاءُ : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ، ويُقالُ : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وإليهمُ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ .

فأعلمُ العلماءِ وأحكمُ الحكماءِ ينكشفُ له عقيبَ الموتِ مِنَ العجائبِ والآياتِ ما لمْ يخطرْ قطُّ ببالِهِ ، ولا اختلجَ بهِ ضميرُهُ ، فلو لمْ يكنْ للعاقلِ همٌّ وغمٌّ إلَّا الفكرةُ في خطرِ تلكَ الحالِ أنَّ الحجابَ عمَّاذا يرتفعُ ، وما الذي ينكشفُ عنهُ الغطاءُ مِنْ شقاوةٍ لازمةٍ أمْ سعادةٍ دائمةٍ . . لكانَ ذٰلكَ كافياً في استغراقِ جميعِ العمرِ .

والعجبُ مِنْ غفلتِنا وهٰذهِ العظائمُ بينَ أيدينا ، وأعجبُ مِنْ ذٰلكَ فرحُنا بأموالِنا وأهلينا وبأسبابِنا وذوينا ، بلْ بأعضائِنا وسمعِنا وبصرِنا معَ أنَّا نعلمُ مفارقةَ جميعِ ذٰلكَ يقيناً .

ولٰكنْ أينَ مَنْ ينفثُ روحُ القدسِ في روعِهِ فيقولُ لهُ ما قالَ لسيِّدِ النبيينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ ، وعشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميتٌ ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ »[2] ، فلا جرمَ لمَّا كانَ ذٰلكَ مكشوفاً لهُ بعينِ اليقينِ . . كانَ في الدنيا كعابرِ سبيلٍ ؛ لمْ يضعْ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ[3] ، ولمْ يخلِّفْ ديناراً ولا درهماً[4] ، ولمْ يتخذْ حبيباً ولا خليلاً .

نعمْ ؛ قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، ولٰكنْ صاحبُكُم خليلُ الرحمٰنِ »[5] فبيَّنَ أنَّ خلةَ الرحمٰنِ تخلَّلَتْ باطنَ قلبِهِ ، وأنَّ حبَّهُ تمكَّنَ مِنْ حبةِ قلبِهِ ، فلمْ يتركْ فيهِ متسعاً لخليلٍ ولا حبيبٍ .

وقدْ قالَ عزَّ وجلَّ لأمَّتِهِ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، فإنَّما أمتُهُ مَنِ اتبعَهُ ، وما اتبعَهُ إلَّا مَنْ أعرضَ

---

(١) منتخب الكلام في تفسير الأحلام (٢/١٤٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

(٣) كما رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٢٦٥) .

(٤) كما رواه البخاري (٤٤٦١) ، ومسلم (١٦٣٥) .

(٥) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢) .

عنِ الدنيا وأقبلَ على الآخرةِ ؛ فإنَّه ما دعا إلَّا إلى اللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ ، وما صرفَ إلَّا عنِ الدنيا والحظوظِ العاجلةِ ، فبقدرِ ما أعرضتَ عنِ الدنيا وأقبلتَ على الآخرةِ . . فقدْ سلكتَ سبيلَهُ الذي سلكَهُ ، وبقدرِ ما سلكتَ سبيلَهُ . . فقدِ اتبعتَهُ ، وبقدرِ ما اتبعتَهُ . . فقدْ صرتَ مِنْ أمَّتِهِ ، وبقدرِ ما أقبلتَ على الدنيا . . عدلتَ عنْ سبيلِهِ ورغبتَ عنْ متابعتِهِ ، والتحقتَ بالذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهم : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

فلوْ خرجتَ مِنْ مكمنِ الغرورِ وأنصفتَ نفسَكَ يا رجلُ ـ وكلُّنا ذٰلكَ الرجلُ ـ لعلمتَ أنَّكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي لا تسعىٰ إلَّا في الحظوظِ العاجلةِ ، ولا تتحركُ ولا تسكنُ إلا لعاجلِ الدنيا ، ثمَّ تطمعُ في أنْ تكونَ غداً مِنْ أمَّتِهِ وأتباعِهِ ؟! ما أبعدَ ظنَّكَ ؛ وما أبردَ طمعَكَ !! ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ .

ولنرجعْ إلىٰ ما كنَّا فيهِ وبصددِهِ ، فقدِ امتدَّ عنانُ الكلامِ إلىٰ غيرِ مقصدِهِ ، ولنذكرِ الآنَ مِنَ المناماتِ الكاشفةِ لأحوالِ الموتىٰ ما يعظمُ الانتفاعُ به ، إذْ ذهبتِ النبوَّةُ وبقيَتِ المبشِّراتُ ، وليسَ ذٰلكَ إلَّا المناماتِ .

* * *

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فمِنْ ذلكَ : رؤيا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « مَنْ رآني في المنامِ . . فقدْ رآني حقاً ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّلُ بي »(١)

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فرأيتُهُ لا ينظرُ إليَّ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما شأني ؟ فالتفتَ إليَّ وقالَ : « ألستَ المقبِّلَ وأنتَ صائمٌ ؟ » قالَ : فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لا أُقبِّلُ امرأةً وأنا صائمٌ أبداً)(٢)

وقالَ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كنتُ وِدّاً لعمرَ ، فاشتهيتُ أنْ أراهُ في المنامِ ، فما رأيتُهُ إلَّا عندَ رأسِ الحولِ ، فرأيتُهُ يمسحُ العرقَ عنْ جبينِهِ وهوَ يقولُ : هٰذا أوانُ فراغي ، إنْ كادَ عرشي ليُهدُّ لولا أنِّي لقيتُهُ رؤوفاً رحيماً)(٣) .

وقالَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهما : (قالَ لي عليٌّ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سنحَ لي الليلةَ في منامي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما لقيتُ مِنْ أمَّتِكَ ؟! قالَ : « ادعُ عليهِم » فقلتُ : اللهمَّ ؛ أبدلْني بهمِ مَنْ هوَ خيرٌ لي منهمْ ، وأبدلْهم بي مَنْ هوَ شرٌّ لهمْ منِّي ، فخرجَ فضربَهُ ابنُ ملجمٍ)(٤)

وقالَ بعضُ الشيوخِ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ استغفرْ لي ، فأعرضَ عنِّي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ سفيانَ بنَ عيينةَ حدثَنا عنْ محمدِ بنِ المنكدرِ ، عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، أنَّكَ لمْ تُسألْ شيئاً قطُّ فقلتَ : لا ، فأقبلَ عليَّ فقالَ : « غفرَ اللهُ لكَ »(٥)

ورُوِيَ عنِ العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ قالَ : (كنتُ مؤاخياً لأبي لهبٍ مصاحباً لهُ ، فلمَّا ماتَ وأخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ بما أخبرَ . . حزنتُ عليهِ ، وأهمَّني أمرُهُ ، فسألتُ اللهَ تعالىٰ حولاً أنْ يريَني إيَّاهُ في المنامِ ، قالَ : فرأيتهُ يلتهبُ ناراً ، فسألتُهُ عنْ حالِهِ فقالَ : صرتُ إلى النَّارِ في العذابِ ، لا يُخفَّفُ عنِّي ولا يُروَّحُ إلَّا ليلةَ الاثنينِ في كلِّ الليالي والأيامِ ، قلتُ : وكيفَ ذٰلكَ ؟ قالَ : وُلِدَ في تلكَ الليلةِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فجاءَتْني أميمةُ فبشَّرَتْني بولادةِ آمنةَ إيَّاهُ ، ففرحتُ بهِ ، وأعتقتُ وليدةً لي فرحاً بهِ ، فأثابَني اللهُ بذٰلكَ أنْ رفعَ عني العذابَ في كلِّ ليلةِ اثنينِ)(٦)

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : خرجتُ حاجّاً ، فصحبَني رجلٌ كانَ لا يقومُ ولا يقعدُ ولا يتحركُ ولا يسكنُ إلَّا صلَّىٰ على النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألتُهُ عنْ ذٰلكَ فقالَ : أخبرُكَ عنْ ذٰلكَ ، خرجتُ أوَّلَ مرةٍ إلىٰ مكةَ ومعي أبي ، فلمَّا انصرفنا . . نمتُ في بعضِ المنازلِ ، فبينا أنا نائمٌ ؛ إذْ أتاني آتٍ فقالَ لي : قمْ ؛ فقدْ أماتَ اللهُ أباكَ وسوَّدَ وجهَهُ ، قالَ : فقمتُ مذعوراً ، فكشفتُ الثوبَ عنْ وجهِهِ ؛ فإذا هوَ ميتٌ أسودُ الوجهِ ، فداخلَني مِنْ ذٰلكَ رعبٌ ، فبينا أنا في ذٰلكَ

---

(١) رواه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٢٢٦٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤٥/١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٣٢/٤) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٣) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣٤٨/٣) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١١٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١١٤) ، والحديث المذكور رواه البخاري (٦٠٣٤) ، ومسلم (٢٣١١) .

(٦) كذا أورده في « قوت القلوب » (٨٤/٢) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٦٣) .

الغمّ ؛ إذْ غلبَتْني عيني فنمتُ ؛ فإذا علىٰ رأسِ أبي أربعةُ سودانٍ معَهم أعمدةُ حديدٍ ؛ إذْ أقبلَ رجلٌ حسنُ الوجهِ بينَ ثوبينِ أخضرينِ ، فقالَ لهم : تنحَّوا ، فمسحَ وجهَهُ بيدِهِ ، ثمَّ أتاني فقالَ لي : قمْ فقدْ بيَّضَ اللهُ وجهَ أبيكَ ، فقلتُ لهُ : مَنْ أنتَ بأبي أنتَ وأمي ؟ فقالَ : أنا محمَّدٌ ، قالَ : فقمتُ فكشفتُ الثوبَ عنْ وجهِ أبي ؛ فإذا هوَ أبيضُ ، فما تركتُ الصَّلاةَ بعدَ ذٰلكَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1]

وعنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ قالَ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهما جالسانِ عندَهُ ، فسلَّمتُ وجلستُ ، فبينا أنا جالسٌ ؛ إذْ أُتيَ بعليٍّ ومعاويةَ رضيَ اللهُ عنهما فأُدخلا بيتاً وأُجيفَ عليهما البابُ وأنا أنظرُ[2] ، فما كانَ بأسرعَ أنْ خرجَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يقولُ : قُضيَ لي وربِّ الكعبةِ ، وما كانَ بأسرعَ أنْ خرجَ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ أثرِهِ وهوَ يقولُ : غُفرَ لي وربِّ الكعبةِ[3]

واستيقظَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما مِنْ نومِهِ مرةً فاسترجَعَ وقالَ : (قُتِلَ الحسينُ واللهِ) وكانَ ذٰلكَ قبلَ قتلِهِ ، فأنكرَهُ أصحابُهُ ، فقالَ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعَهُ زجاجةٌ مِنْ دمٍ فقالَ : « ألا تعلمُ ما صنعَتْ أمَّتي مِنْ بعدي ؟! قتلوا ابنيَ الحسينَ وهٰذا دمُهُ ودماءُ أصحابِهِ أرفعُها إلى اللهِ تعالىٰ » فجاءَ الخبرُ بعدَ أربعةٍ وعشرينَ يوماً بقتلِهِ في اليومِ الذي رآهُ[4]

ورُئيَ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ فقيلَ لهُ : إنَّكَ كنتَ تقولُ أبداً في لسانِكَ : (هٰذا أوردَني المواردَ) فما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : قلتُ بهِ : لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، فأوردَني الجنَّةَ[5]

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١١٨) .

(٢) أجيف الباب : أي : رُدَّ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٢٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٢٩) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٧) ، وأما قوله : « أوردني الموارد » . . فرواه مالك في « الموطأ » (٢/٩٨٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٣٦) .

بيان منامات المشايخ رضي الله عنهم

قالَ بعضُ المشايخِ : رأيتُ متمماً الدورقيَّ في المنامِ ، فقلتُ : يا سيِّدي ؛ ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : ديرَ بي في الجنانِ ، فقيلَ لي : يا متممُ ؛ هلِ استحسنتَ فيها شيئاً ؟ قلتُ : لا يا سيِّدي ، فقالَ : لوِ استحسنتَ منْها شيئاً . . لوكلتُكَ إليهِ ، ولمْ أوصلْكَ إليَّ (١)

ورُئيَ يوسفُ بنُ الحسينِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي ، قيلَ : بماذا ؟ قالَ : ما خلطتُ جداً بهزلٍ قطُّ (٢)

وعنْ منصورِ بنِ إسماعيلَ قالَ : رأيتُ عبدَ اللهِ البزازَ في النومِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : أوقفَني بينَ يديهِ ، فغفرَ لي كلَّ ذنبٍ أقررتُ بهِ إلَّا ذنباً واحداً ؛ فإنِّي استحييتُ أنْ أقرَّ بهِ ، فأوقفَني في العرقِ حتىٰ سقطَ لحمُ وجهي ، فقلتُ : ما كانَ ذٰلكَ الذنبُ ؟ قالَ : نظرتُ إلىٰ غلامٍ جميلٍ فاستحسنتُهُ ، فاستحييتُ مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ أذكرَهُ (٣)

وقالَ أبو جعفرٍ الصيدلانيُّ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النومِ وحولَهُ جماعةٌ مِنَ الفقراءِ ، فبينا نحنُ كذٰلكَ ؛ إذِ انشقَّتِ السماءُ ونزلَ ملكانِ أحدُهُما بيدِه طستٌ وبيدِ الآخرِ إبريقٌ ، فوضعَ الطستَ بينَ يدي رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فغسلَ يدَهُ ثمَّ أمرَ حتىٰ غسلوا أيديَهُمْ ، ثمَّ وُضعَ الطستُ بين يديَّ ، فقالَ أحدُهما للآخرِ : لا تصبَّ علىٰ يدِهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ منهم ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أليسَ قدْ رُويَ عنكَ أنَّكَ قلتَ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ » ؟! قالَ : « بلىٰ » قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ فإنِّي أحبُّكَ وأحبُّ هٰؤلاءِ الفقراءَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « صبَّ علىٰ يدِهِ ، فإنَّهُ منهمْ » (٤)

وقالَ الجنيدُ : رأيتُ في المنامِ كأنِّي أتكلَّمُ على النَّاسِ ، فوقفَ عليَّ ملكٌ فقالَ : أقربُ ما تقرَّبَ بهِ المتقربونَ إلى اللهِ تعالىٰ ماذا ؟ فقلتُ : عملٌ خفيٌّ بميزانٍ وفيٍّ ، فولَّى الملكُ وهوَ يقولُ : كلامٌ موفَّقٌ واللهِ (٥)

ورُئيَ مجمِّعٌ في النومِ ، فقيلَ لهُ : كيفَ رأيتَ الأمرَ ؟ فقالَ : رأيتُ الزاهدينَ في الدنيا ذهبوا بخيرِ الدنيا والآخرةِ (٦) .

وقالَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشامِ للعلاءِ بنِ زيادٍ : رأيتُكَ في النومِ كأنَّكَ في الجنَّةِ ، فنزلَ عنْ مجلسِهِ وأقبلَ عليهِ ثمَّ قالَ : لعلَّ الشيطانَ أرادَ أمراً فعُصمتُ منهُ ، فأشخصَ رجلاً يقتلُني (٧)

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ : الرؤيا تسرُّ المؤمنَ ولا تغرُّهُ (٨) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٥) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١١) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٦٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٢) وفيها : (أبو عبد الله الزراد) بدل (عبد الله البزاز) وهو ما صوبه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/٤٣٣) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٦ ـ ٨٤٧) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٢) ، والحديث المذكور رواه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤١) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٧ ـ ٨٤٨) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٣) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٣٤) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٨) .

(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٨) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٣) .

(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٨) .

وقالَ صالحُ بنُ بشيرٍ : رأيتُ عطاءً السلميَّ في النومِ ، فقلتُ لهُ : رحمَكَ اللهُ ؛ لقدْ كنتَ طويلَ الحزنِ في الدنيا ، فقالَ : أما واللهِ ؛ لقد أعقبَني ذلكَ راحةً طويلةً وفرحاً دائماً ، فقلتُ : في أيِّ الدرجاتِ أنتَ ؟ فقالَ : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ . . . ﴾ الآيةَ[1]

وسُئِلَ زرارةُ بنُ أبي أوفىٰ في المنامِ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ عندَكُم ؟ فقالَ : الرضا وقصرُ الأملِ[2]

وقالَ يزيدُ بنُ مذعورٍ : رأيتُ الأوزاعيَّ في المنامِ ، فقلتُ : يا أبا عمرٍو ؛ دلَّني علىٰ عملٍ أتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالىٰ ، قالَ : ما رأيتُ هناكَ درجةً أرفعَ مِنْ درجةِ العلماءِ ، ثمَّ درجةِ المحزونينَ ، قالَ : وكانَ يزيدُ شيخاً كبيراً ، فلمْ يزلْ يبكي حتىٰ أظلمَتْ عيناهُ[3]

وقالَ ابنُ عيينةَ : رأيتُ أخي في المنامِ ، فقلتُ : يا أخي ؛ ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : كلُّ ذنبٍ استغفرتُ منهُ . . غُفرَ لي ، وما لمْ أستغفرْ منهُ . . لمْ يُغفرْ لي[4]

وقالَ عليٌّ الطلحيُّ : رأيتُ في المنامِ امرأةً لا تشبهُ نساءَ الدنيا ، فقلتُ : مَنْ أنتِ ؟ فقالَتْ : حوراءُ ، فقلتُ : زوِّجيني نفسَكِ ، قالَتْ : اخطبْني إلىٰ سيِّدي وأمهرْني ، قلتُ : وما مهرُكِ ؟ قالَتْ : حبسُ نفسِكَ عنْ آفاتِها[5]

وقالَ إبراهيمُ بنُ إسحاقَ الحربيُّ : رأيتُ زبيدةَ في المنامِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكِ ؟ قالَتْ : غفرَ لي ، فقلتُ لها : بما أنفقتِ في طريقِ مكةَ ؟ قالَتْ : أمَّا النفقاتُ التي أنفقتُها . . فرجعَتْ أجورُها إلىٰ أربابِها ، وغُفِرَ لي بنيَّتي[6]

ولمَّا ماتَ سفيانُ الثوريُّ . . رُئي في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : وضعتُ أولَ قدميَّ على الصراطِ ، والثانيَ في الجنَّةِ[7]

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواري : رأيتُ فيما يرى النَّائمُ جاريةً ما رأيتُ أحسنَ منها ، وكانَ يتلألأُ وجهُها نوراً ، فقلتُ لها : مماذا ضوءُ وجهِكِ ؟ قالَتْ : تذكرُ تلكَ الليلةَ التي بكيتَ فيها ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَتْ : أخذتُ دمعَكَ فمسحتُ بهِ وجهي ، فمِنْ ثَمَّ ضوءُ وجهي كما ترىٰ[8]

وقالَ الكتانيُّ : رأيتُ الجنيدَ في المنامِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : طاحَتْ تلكَ الإشاراتُ ، وذهبَتْ تلكَ العباراتُ ، وما حصلنا إلَّا علىٰ ركعتينِ كنَّا نصلِّيهما في الليلِ[9]

ورُئيَتْ زبيدةُ في المنامِ ، فقيلَ لها : ما فعلَ اللهُ بكِ ؟ قالَتْ : غفرَ لي بهٰذهِ الكلماتِ الأربعِ : لا إلٰهَ إلا اللهُ أفني بها عمري ، لا إلٰهَ إلَّا اللهُ أدخلُ بها قبري ، لا إلٰهَ إلَّا اللهُ أخلو بها وحدي ، لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ألقىٰ بها ربِّي[10]

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٨ ـ ٨٤٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٧٢/٦) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٤٩) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٥٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢٩/٣٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٦٨) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٠) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٠) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٠ ـ ٨٥١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٤) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٤) .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٤) .
(٩) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥١ ـ ٨٥٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٠) .
(١٠) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٢) .

ورُئيَ بشرٌ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ : قالَ : رحمَني ربِّي عزَّ وجلَّ وقالَ : يا بشرُ ؛ أما استحييتَ منِّي كنتَ تخافُني كلَّ ذٰلكَ الخوفِ ؟!(١)

ورُئيَ أبو سليمانَ في النومِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : رحمَني ، وما كانَ شيءٌ أضرَّ عليَّ مِنْ إشاراتِ القومِ إليَّ (٢)

وقالَ أبو بكرٍ الكتانيُّ : رأيتُ في النومِ شاباً لمْ أرَ أحسنَ منهُ ، فقلتُ لهُ : مَنْ أنتَ ؟ قالَ : التقوىٰ ، قلتُ : فأينَ تسكنُ ؟ قالَ : كلَّ قلبٍ حزينٍ ، ثمَّ التفتُّ ؛ فإذا امرأةٌ سوداءُ كأوحشِ ما يكونُ ، فقلتُ : مَنْ أنتِ ؟ قالَتْ : أنا السقمُ ، قلتُ : فأينَ تسكنينَ ؟ قالَتْ : كلَّ قلبٍ فرحٍ مرحٍ ، قالَ : فانتبهتُ واعتقدتُ ألَّا أضحكَ إلَّا غلبةً (٣)

وقالَ أبو سعيدٍ الخرازُ : رأيتُ في المنامِ كأنَّ إبليسَ وثبَ عليَّ ، فأخذتُ العصا لأضربَهُ فلمْ يفزعْ منها ، فهتفَ بي هاتفٌ : إنَّ هٰذا لا يخافُ مِنْ هٰذهِ ، وإنَّما يخافُ مِنْ نورٍ يكونُ في القلبِ (٤)

وقالَ المسوحيُّ : رأيتُ إبليسَ في النومِ يمشي عرياناً ، فقلتُ : ألا تستحي مِنَ النَّاسِ ؟! فقالَ : باللهِ ؛ هٰؤلاءِ ناسٌ ؟ لوْ كانوا مِنَ الناسِ . . ما كنتُ ألعبُ بهم طرفي النَّهارِ كما يتلاعبُ الصبيانُ بالكرةِ ، بلِ الناسُ قومٌ غيرُ هٰؤلاءِ ، قد أسقموا جسمي ، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ أصحابِنا الصوفيَّةِ (٥)

وقالَ أبو سعيدٍ الخرازُ : كنتُ في دمشقَ ، فرأيتُ في المنامِ كأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جاءَني متكئاً علىٰ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما ، فجاءَ فوقفَ عليَّ وأنا أقولُ شيئاً مِنَ الأصواتِ ، وأدقُّ في صدري فقالَ : « شرُّ هٰذا أكثرُ مِنْ خيرِهِ » (٦)

وعنِ ابنِ عيينةَ قالَ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في النومِ كأنَّهُ في الجنَّةِ يطيرُ مِنْ شجرةٍ إلىٰ شجرةٍ يقولُ : لمثلِ هٰذا فليعملِ العاملونَ ، فقلتُ لهُ : أوصني ، قالَ : أقللْ مِنْ معرفةِ الناسِ (٧)

وروىٰ أبو حاتمٍ الرازيُّ عنْ قبيصةَ بنِ عقبةَ قالَ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في المنامِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ (٨) : [من الطويل]

نَظَرْتُ إِلَىٰ رَبِّي كِفَاحاً فَقَالَ لِي ... هَنِيئاً رِضَائِي عَنْكَ يَا بْنَ سَعِيدِ
فَقَدْ كُنْتَ قَوَّاماً إِذَا أَظْلَمَ الدُّجَىٰ ... بِعَبْرَةِ مُشْتَاقٍ وَقَلْبِ عَمِيدِ
فَدُونَكَ فَاخْتَرْ أَيَّ قَصْرٍ أَرَدْتَهُ ... وَزُرْنِي فَإِنِّي مِنْكَ غَيْرُ بَعِيدِ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٤) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٤) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٥ ـ ٨٥٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٥) ، **واعتقدت** : عزمت .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٦) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٦) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٦) ، وقوله : (**من الأصوات**) أي : من الأنغام المعروفة . « إتحاف » (١٠/٤٣٦) .
(٧) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٧) .
(٨) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٧٤) ، وانظر « مرآة الجنان » (١/٣٤٧) .

ورُئيَ الشبليُّ بعدَ موتِهِ بثلاثةِ أيامٍ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : ناقشَني حتىٰ أيستُ ، فلمَّا رأىٰ يأسي . . تغمَّدَني برحمتِهِ [١]

ورُئيَ مجنونُ بني عامرٍ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي وجعلَني حجةً على المحبينَ [٢] .

ورُئيَ الثوريُّ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : رحمَني ، فقيلَ لهُ : ما حالُ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ ؟ فقالَ : هوَ ممَّن يلجُ علىٰ ربِّهِ في كلِّ يومٍ مرتينِ [٣]

ورُئيَ بعضُهم فسُئلَ عنْ حالِهِ فقالَ [٤] : [من مجزوء الخفيف]

حـاسَـبُـونـا فـدقَّـقـوا ... ثـمَّ مـنُّـوا فـأعـتـقـوا

ورُئيَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمةُ اللهِ عليهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي بكلمةٍ كانَ يقولُها عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ عندَ رؤيةِ الجنازةِ : (سبحانَ الحيِّ الذي لا يموتُ) [٥]

ورُئيَ في الليلةِ التي ماتَ فيها الحسنُ البصريُّ رحمةُ اللهِ عليهِ كأنَّ أبوابَ السماءِ مفتحةٌ ، وكأنَّ منادياً ينادي : ألا إنَّ الحسنَ البصريَّ قدمَ على اللهِ تعالىٰ وهوَ عنهُ راضٍ [٦]

ورُئيَ الجاحظُ فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ [٧] : [من الوافر]

وَلا تَـكْـتُـبْ بِـخَـطِّـكَ غَـيْـرَ شَـيْءٍ ... يَـسُـرُّكَ فِـي الْـقِـيَـامَـةِ أَنْ تَـرَاهُ

ورأى الجنيدُ إبليسَ في المنامِ عرياناً ، فقالَ : ألا تستحي مِنَ الناسِ ؟! فقالَ : وهٰؤلاءِ ناسٌ ؟! الناسُ أقوامٌ في مسجدِ الشونيزيةِ ، قدْ أضنَوا جسدي ، وأحرقوا كبدي ، قالَ الجنيدُ : فلمَّا انتبهتُ . . غدوتُ إلى المسجدِ ، فرأيتُ جماعةً قدْ وضعوا رؤوسَهُمْ علىٰ ركبِهِمْ يتفكرونَ ، فلمَّا رأوني . . قالوا : لا يغرنَّكَ حديثُ الخبيثِ [٨] .

ورُئيَ النَّصراباذي بمكةَ بعدَ وفاتِهِ في النومِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : عُوتبتُ عتابَ الأشرافِ ، ثمَّ نُوديتُ : يا أبا القاسمِ ؛ أبعدَ الاتصالِ انفصالٌ ؟ فقلتُ : لا يا ذا الجلالِ ، فما وُضعتُ في اللحدِ حتىٰ لحقتُ بالأحدِ [٩]

ورأىٰ عتبةُ الغلامُ حوراءَ في المنامِ علىٰ صورةٍ حسنةٍ ، فقالَتْ لهُ : يا عتبةُ ؛ أنا لكَ عاشقةٌ ، فانظرْ لا تعملْ مِنَ الأعمالِ شيئاً يُحالُ بهِ بيني وبينَكَ ، فقالَ لها عتبةُ : طلَّقتُ الدنيا ثلاثاً ، لا رجعةَ لي عليها حتىٰ ألقاكِ [١٠]

وقيلَ : رأىٰ أيوبُ السختيانيُّ جنازةَ عاصٍ ، فدخلَ الدهليزَ لئلَّا يصليَ عليها ، فرأىٰ بعضُهمُ الميتَ في المنامِ ، فقالَ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٧) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٦١٥) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٧) .
(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٠٨) .
(٤) انظر « البصائر والذخائر » (٩٢/٣) ، والخبر أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٠٩) .
(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٠٩) .
(٦) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٠٩) .
(٧) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٠٩) .
(٨) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٠٩) .
(٩) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٠٩) .
(١٠) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١٠) .

لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي وقالَ لي : قلْ لأيوبَ : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ [(١)]

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ في الليلةِ التي ماتَ فيها داوودُ الطائيُّ نوراً ، وملائكةً نزولاً وملائكةً صعوداً ، فقلتُ : أيُّ ليلةٍ هٰذهِ ؟ فقالوا : ليلةٌ ماتَ فيها داوودُ الطائيُّ ، وقدْ زُخرفَتِ الجنةُ لقدومِ روحِهِ [(٢)]

وقالَ أبو سعيدٍ الشحامُ : رأيتُ سهلاً الصُّعلوكيَّ في المنامِ ، فقلتُ : أيُّها الشيخُ ، قالَ : دعِ التشييخَ ، قلتُ : تلكَ الأحوالُ التي شاهدتُها ، فقالَ : لمْ تغنِ عنَّا شيئاً ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي بمسائلَ كانَ يسألُ عنها العُجزُ [(٣)]

وقالَ أبو بكرٍ الرشيديُّ : رأيتُ محمداً الطوسيَّ المعلمَ في النومِ ، فقالَ لي : قلْ لأبي سعيدٍ الصَّفارِ المؤدِّبِ [(٤)] : [من الطويل]

وَكُنَّا عَلَىٰ أَلَّا نَحُولَ عَنِ الْهَوَىٰ ... فَقَدْ وَحَياةِ الْحِبِّ حُلْتُمْ وَما حُلْنا

قالَ : فانتبهتُ ، فذكرتُ ذٰلكَ لهُ ، فقالَ : كنتُ أزورُ قبرَهُ كلَّ جمعةٍ ، فلمْ أزرْهُ هٰذهِ الجمعةَ [(٥)]

وقالَ ابنُ راشدٍ : رأيتُ ابنَ المباركِ في النومِ بعدَ موتِهِ ، فقلتُ : أليسَ قدْ متَّ ؟! قالَ : بلىٰ ، قلتُ : فما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي مغفرةً أحاطَتْ بكلِّ ذنبٍ ، قلتُ : فسفيانُ الثوريُّ ؟ قالَ : بخٍ بخٍ !! ذاكَ ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ . . . ﴾ الآيةَ [(٦)]

وقالَ الربيعُ بنُ سليمانَ : رأيتُ الشافعيَّ رحمةُ اللهِ عليهِ بعدَ وفاتِهِ في المنامِ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ، ما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : أجلسَني علىٰ كرسيٍّ مِنْ ذهبٍ ، ونثرَ عليَّ اللؤلؤَ الرطبَ [(٧)]

ورأىٰ رجلٌ مِنْ أصحابِ الحسنِ البصريِّ ليلةَ ماتَ الحسنُ كأنَّ منادياً ينادي : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ واصطفى الحسنَ بن أبي الحسنِ البصريَّ علىٰ أهلِ زمانِهِ [(٨)]

وقالَ أبو يعقوبَ القاريُّ الدقيقيُّ : رأيتُ في منامي رجلاً آدمَ طُوالاً والناسُ يتبعونَهُ ، فقلتُ : مَنْ هٰذا ؟ قالوا : أويسٌ القرنيُّ ، فاتبعتُهُ فقلتُ : أوصني رحمَكَ اللهُ ، فكلحَ في وجهي ، فقلتُ : مسترشدٌ فأرشدْني أرشدَكَ اللهُ ، فأقبلَ عليَّ وقالَ : اتبع رحمةَ ربِّك عندَ محبتِهِ ، واحذرْ نقمتَهُ عندَ معصيتِهِ ، ولا تقطعْ رجاءَكَ منهُ في خلالِ ذٰلكَ ، ثمَّ ولَّىٰ وتركَني [(٩)]

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١١) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١١) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١٢) ، وفيها : (يسأل عنها العجز فأجبتهم عنها) ، والعجز : جمع عاجز ؛ يعني باسم العوام من الناس ، وفيه دلالة علىٰ فضيلة المفتي للعوام فيما يحتاجون إلىٰ معرفة الأحكام . « الإتحاف » (٤٣٨/١٠) .

(٤) البيت لأبي بكر الشبلي في « ديوانه » (ص ١٣٠) .

(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١٢) ، وفيها تتمة الأبيات وهي :

تشاغلتمُ عنَّا بصحبةِ غيرنا ... وأظهرتُمُ الهجرانَ ما هٰكذا كنّا

لعلَّ الذي يقضي الأمورَ بعلمِهِ ... سيجمعنا بعدَ المماتِ كما كنّا

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٦٣) .

(٧) انظر « مختصر تاريخ دمشق » لابن منظور (٤١٣/٢١) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٥٩) .

(٩) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٦٦) .

وقالَ أبو بكرِ بنُ أبي مريمَ : رأيتُ وفاءَ بنَ بشرٍ الحضرميَّ ، فقلتُ : ما فعلتَ يا وفاءُ ؟ قالَ : نجوتُ بعدَ كلِّ جهدٍ ، قلتُ : فأيُّ الأعمالِ وجدتُموها أفضلَ ؟ قالَ : البكاءُ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ(١)

وقالَ يزيدُ بنُ نعامةَ : هلكَتْ جاريةٌ في الطاعونِ الجارفِ ، فرآها أبوها في المنامِ ، فقالَ لها : يا بنيةُ ؛ أخبريني عنِ الآخرةِ ، قالَتْ : يا أبتِ ؛ قدمنا علىٰ أمرٍ عظيمٍ ، نعلمُ ولا نعملُ وتعملونَ ولا تعلمونَ ، واللهِ ؛ لتسبيحةٌ أو تسبيحتانِ أوْ ركعةٌ أوْ ركعتانِ في فسحةِ عملٍ . . أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها(٢)

وقالَ بعضُ أصحابِ عتبةَ الغلامِ : رأيتُ عتبةَ في المنامِ ، فقلتُ : ما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : دخلتُ الجنَّةَ بتلكَ الدعوةِ المكتوبةِ في بيتِكَ ، قالَ : فلمَّا أصبحتُ . . جئتُ إلىٰ بيتي ؛ فإذا خطُّ عتبةَ الغلامِ في حائطِ البيتِ مكتوبٌ : يا هاديَ المضلينَ ، ويا راحمَ المذنبينَ ، ويا مقيلَ عثراتِ العاثرينَ ؛ ارحمْ عبدَكَ ذا الخطرِ العظيمِ والمسلمينَ كلَّهم أجمعينَ ، واجعلْنا مَعَ الأحياءِ المرزوقينَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ مِنَ النبيينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، آمينَ ربَّ العالمينَ(٣)

وقالَ موسى بنُ حمادٍ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في المنامِ في الجنَّةِ ، يطيرُ مِنْ نخلةٍ إلىٰ نخلةٍ ، ومِنْ شجرةٍ إلىٰ شجرةٍ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ بِمَ نلتَ هـٰذا ؟ فقالَ : بالورعِ ، قلتُ : فما بالُ عليِّ بنِ عاصمٍ ؟ قالَ : ذاكَ لا يكادُ يُرىٰ إلَّا كما يُرى الكوكبُ(٤)

ورأىٰ رجلٌ مِنَ التابعينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ عظْني ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « نعمْ ، مَنْ لمْ يتفقدِ النقصانَ . . فهوَ في نقصانٍ ، ومَنْ كانَ في نقصانٍ . . فالموتُ خيرٌ لهُ »(٥)

وقالَ الشافعيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : دهمَني في هـٰذهِ الأيامِ أمرٌ أمضَّني وآلمَني ، ولمْ يطَّلعْ عليهِ غيرُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلمَّا كانَ البارحةُ . . أتاني آتٍ في منامي فقالَ : يا محمدَ بنَ إدريسَ ؛ قلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ولا أستطيعُ أنْ آخذَ إلَّا ما أعطيتَني ، ولا أتقيَ إلَّا ما وقيتَني ، اللهمَّ ؛ فوفِّقْني لما تحبُّ وترضىٰ مِنَ القولِ والعملِ في عافيةٍ ، فلمَّا أصبحتُ . . أعدتُ ذلكَ ، فلمَّا ترحلَ النَّهارُ . . أعطاني اللهُ عزَّ وجلَّ طلبتي ، وسهَّلَ ليَ الخلاصَ ممَّا كنتُ فيهِ ، فعليكمْ بهـٰذهِ الدعواتِ لا تغفلوا عنها(٦)

فهـٰذهِ جملةٌ مِنَ المكاشفاتِ تدلُّ علىٰ أحوالِ الموتىٰ ، وعلى الأعمالِ المقرِّبةِ إلى اللهِ تعالىٰ زلفىٰ ، فلنذكرْ بعدَها ما بينَ يديِ الموتىٰ مِن ابتداءِ نفخةِ الصورِ إلىٰ آخرِ القرارِ ، إمَّا في الجنَّةِ أو في النَّارِ ، والحمدُ للهِ حمدَ الشاكرينَ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٧١) ، وفي غير (د ، ف) : (ورقاء) بدل (وفاء) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٨٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٣٨/٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٧٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٨٦) .

(٦) أورده ابن الصلاح في « طبقات الفقهاء الشافعية » (١/١٤٤ ـ ١٤٥) .

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ كتَابِ ذِكرِ المَوتِ

في أحوال الميّت من وقت نفخة الصّور إلى آخر الاستقرار في الجنّة أو النّار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار

وفيهِ بيانُ نفخةِ الصورِ ، وصفةِ أرضِ المحشرِ وأهلِهِ ، وصفةِ عرقِ أهلِ المحشرِ .

وصفةِ طولِ يومِ القيامةِ ، وصفةِ يومِ القيامةِ ودواهيها وأساميها .

وصفةِ المساءلةِ عنِ الذنوبِ ، وصفةِ الميزانِ ، وصفةِ الخصماءِ وردِّ المظالمِ .

وصفةِ الصراطِ ، وصفةِ الشفاعةِ ، وصفةِ الحوضِ .

وصفةِ جهنَّمَ وأهوالِها ، وأنكالِها وحيَّاتِها وعقاربِها .

وصفةِ الجنَّةِ وأصنافِ نعيمِها ، وعددِ الجنانِ وأبوابِها وغرفِها وحيطانِها ، وأنهارِها وأشجارِها ، ولباسِ أهلِها وفرشِهم وسررِهم ، وصفةِ طعامِهم ، وصفةِ الحورِ العينِ والولدانِ .

وصفةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ .

وبابٌ في سعةِ رحمةِ الله تعالىٰ ، وبهِ ختمُ الكتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .



صفة نفخ الصّور

قدْ عرفتَ فيما سبقَ شدةَ أحوالِ الميتِ في سكراتِ الموتِ ، وخطرَهُ في خوفِ العاقبةِ ، ثمَّ مقاساتَهُ لظلمةِ القبرِ وديدانِهِ ، ثمَّ لمنكرٍ ونكيرٍ وسؤالِهِما ، ثمَّ لعذابِ القبرِ وخطرِهِ إنْ كانَ مغضوباً عليهِ ، وأعظمُ مِنْ ذٰلكَ كلِّهِ الأخطارُ التي بينَ يديهِ ؛ مِنْ نفخِ الصورِ ، والبعثِ يومَ النُّشورِ ، والعرضِ على الجبارِ ، والسؤالِ عنِ القليلِ والكثيرِ ، ونصبِ الميزانِ لمعرفةِ المقاديرِ ، ثمَّ جوازِ الصراطِ معَ دقَّتِهِ وحدَّتِهِ ، ثمَّ انتظارِ النداءِ عندَ فصلِ القضاءِ إمَّا بالإسعادِ وإمَّا بالإشقاءِ .

فهٰذهِ أحوالٌ وأهوالٌ لا بدَّ لكَ مِنْ معرفتِها ، ثمَّ الإيمانِ بها على سبيلِ الجزمِ والتصديقِ ، ثمَّ تطويلِ الفكرِ فيها ؛ لينبعثَ مِنْ قلبِكَ دواعي الاستعدادِ لها .

وأكثرُ الناسِ لمْ يدخلِ الإيمانُ باليومِ الآخرِ صميمَ قلوبِهِم ، ولمْ يتمكَّنْ مِنْ سويداءِ أفئدتِهِم ، ويدلُّ على ذٰلكَ شدةُ تشمُّرِهِم واستعدادِهِم لحرِّ الصيفِ وبردِ الشتاءِ ، وتهاونِهِم بحرِّ جهنَّمَ وزمهريرِها ، معَ ما تكتنفُهُ مِنَ المصاعبِ والأهوالِ .

نعمْ ؛ إذا سُئلوا عنِ اليومِ الآخرِ . . نطقَتْ بهِ ألسنتُهم ثمَّ غفلَتْ عنهُ قلوبُهُم ، ومَنْ أُخبرَ بأنَّ ما بينَ يديهِ مِنَ الطعامِ مسمومٌ ، فقالَ لصاحبِهِ الذي أخبرَهُ : صدقتَ ، ثمَّ مدَّ يدَهُ لتناولِهِ . . كانَ مصدِّقاً بلسانِهِ ومكذِّباً بعملِهِ ، وتكذيبُ العملِ أبلغُ مِنْ تكذيبِ اللسانِ .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : شتمَني ابنُ آدمَ وما ينبغي لهُ أنْ يشتمَني ، وكذَّبَني وما ينبغي لهُ أنْ يكذِّبَني ؛ أمَّا شتمُهُ إيايَ . . فيقولُ : إنَّ لي ولداً ، وأمَّا تكذيبُهُ . . فقولُه : لن يعيدَني كما بدأَني »[1] .

وإنَّما فتورُ البواطنِ عنْ قوةِ اليقينِ والتصديقِ بالبعثِ والنشورِ لقلةِ الفهمِ في هٰذا العالمِ لأمثالِ تلكَ الأمورِ .

ولوْ لمْ يشاهدِ الإنسانُ توالدَ الحيواناتِ وقيلَ لهُ : إنَّ صانعاً يصنعُ مِنَ النطفةِ القذرةِ مثلَ هٰذا الآدميِّ المصوَّرِ العاقلِ المتكلمِ المتصرفِ . . لاشتدَّ نفورُ باطنِهِ عنِ التصديقِ بهِ ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ .

ففي خلقِ الآدميِّ ـ معَ كثرةِ عجائبِهِ واختلافِ تركيبِ أعضائِهِ ـ أعاجيبُ تزيدُ على الأعاجيبِ في بعثِهِ وإعادتِهِ ، فكيفَ ينكرُ ذٰلكَ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وحكمتِهِ مَنْ يشاهدُ ذٰلكَ في صنعتِهِ وقدرتِهِ ؟!

فإنْ كانَ في إيمانِكَ ضعْفٌ . . فقوِّ الإيمانَ بالنظرِ في النشأةِ الأولىٰ ؛ فإنَّ الثانيةَ مثلُها وأسهلُ منها .

وإنْ كنتَ قويَّ الإيمانِ بها . . فأشعرْ قلبَكَ تلكَ المخاوفَ والأخطارَ ، وأكثرْ فيها التفكُّرَ والاعتبارَ ؛ لتسلبَ عنْ قلبِكَ الراحةَ والقرارَ ، فتشتغلَ بالتشمُّرِ للعرضِ على الجبارِ .

وتفكَّرْ أولاً فيما يقرعُ سمعَ سكانِ القبورِ مِنْ شدةِ نفخِ الصورِ ؛ فإنَّها صيحةٌ واحدةٌ تنفرجُ بها القبورُ عنْ رؤوسِ الموتىٰ ، فيثورونَ دفعةً واحدةً ، فتوهَّمْ نفسَكَ وقدْ وثبتَ متغيراً وجهُكَ ، مغبَّراً بدنُكَ مِنْ فرقِكَ إلىٰ قدمِكَ مِنْ ترابِ قبرِكَ ، مبهوتاً مِنْ شدةِ الصعقةِ ، شاخصَ العينِ نحوَ النداءِ ، وقدْ ثارَ الخلقُ ثورةً واحدةً مِنَ القبورِ التي طالَ فيها

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٣) .

بلاؤهمْ ، وقد أزعجَهمُ الفزعُ والرعبُ مضافاً إلىٰ ما كانَ عندَهمُ مِنَ الهمومِ والغمومِ ، وشدةِ الانتظارِ لعاقبةِ الأمرِ ، كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۞ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۞ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ .

فلوْ لمْ يكنْ بينَ يدي الموتىٰ إلَّا هولُ تلكَ النفخةِ . . لكانَ ذٰلكَ جديراً بأنْ يُتقىٰ ؛ فإنَّها نفخةٌ وصيحةٌ يُصعقُ بها مَنْ في السماواتِ والأرضِ ؛ أيْ : يموتونَ بها إلَّا مَنْ شاءَ اللهُ وهُمْ بعضُ الملائكةِ ، ولذٰلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيفَ أنعمُ وصاحبُ الصورِ قدِ التقمَ القرنَ ، وحنى الجبهةَ وأصغىٰ بالأذنِ ، ينتظرُ متىٰ يُؤمرُ فينفخُ ؟! »[(١)]

قالَ مقاتلٌ : (الصورُ : هو القرنُ ، وذٰلكَ أنَّ إسرافيلَ عليهِ السلامُ واضعٌ فاهُ على القرنِ كهيئةِ البوقِ ، ودائرةُ رأسِ القرنِ كعرضِ السماواتِ والأرضِ ، وهوَ شاخصٌ ببصرِهِ نحوَ العرشِ ، ينتظرُ متىٰ يُؤمرُ فينفخُ النفخةَ الأولىٰ ، فإذا نفخَ . . صعقَ مَنْ في السماواتِ والأرضِ ؛ أيْ : ماتَ كلُّ حيوانٍ مِنْ شدَّةِ الفزعِ إلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ؛ وهوَ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ ، ثمَّ يأمرُ ملكَ الموتِ أنْ يقبضَ روحَ جبريلَ ، ثمَّ روحَ ميكائيلَ ، ثمَّ روحَ إسرافيلَ ، ثمَّ يأمرُ ملكَ الموتِ فيموتَ ، ثمَّ يلبثُ الخلقُ بعدَ النفخةِ الأولىٰ في البرزخِ أربعينَ سنةً ، ثمَّ يحيي اللهُ إسرافيلَ ، فيأمرُهُ أنْ ينفخَ الثانيةَ ، فذٰلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ على أرجلِهم ينظرونَ إلى البعثِ)[(٢)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حينَ بُعثَ إليَّ . . بُعثَ إلىٰ صاحبِ الصورِ فأهوىٰ بهِ إلىٰ فيهِ ، وقدَّمَ رجلاً وأخَّرَ أخرىٰ ينتظرُ متىٰ يُؤمرُ بالنفخِ ، ألا فاتقوا النفخةَ »[(٣)]

فتفكَّرْ في الخلائقِ وذلِّهم وانكسارِهم واستكانتِهم عندَ الانبعاثِ ؛ خوفاً مِنْ هٰذهِ الصعقةِ وانتظاراً لما يُقضىٰ عليهِمْ مِنْ سعادةٍ أو شقاوةٍ ، وأنتَ فيما بينَهُمْ منكسرٌ كانكسارِهِمْ ، متحيّرٌ كتحيرِهِمْ ، بلْ إنْ كنتَ في الدنيا مِنَ المترفِّهينَ والأغنياءِ المتنعمينَ . . فملوكُ الأرضِ في ذٰلكَ اليومِ هُمْ أذلُّ أهلِ أرضِ الجمعِ وأصغرُهُمْ وأحقرُهُمْ ، يُوطؤونَ بالأقدامِ مثلَ الذرِّ .

وعندَ ذٰلكَ تقبلُ الوحوشُ مِنَ البراري والجبالِ منكسةً رؤوسَها ، مختلطةً بالخلائقِ بعدَ توحشِها ، ذليلةً ليومِ النشورِ مِنْ غيرِ خطيئةٍ تدنَّسَتْ بها ، ولٰكنْ حشَرَهُمْ شدةُ الصعقةِ وهولُ النفخةِ ، وشغلَهُمْ ذٰلكَ عنِ الهربِ مِنَ الخلقِ والتوحشِ منْهم ، وذٰلكَ قولُه تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾

ثمَّ أقبلَتِ الشياطينُ المردةُ بعدَ تمرُّدِها وعتوِّها ، وأذعنَتْ خاشعةً مِنْ هيبةِ العرضِ على اللهِ تعالىٰ ؛ تصديقاً لقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ ، فتفكَّرْ في حالِكَ وحالِ قلبِكَ هنالِكَ .

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٤٣١) ، وعند ابن ماجه (٤٢٧٣) : « إن صاحبي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران »
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٦٨٥/٣ ـ ٦٨٧) .
(٣) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤٥٣/١٠) : (رواه عبد بن حميد في « تفسيره » من حديث ابن عمر بلفظ : « لما بعث إليَّ . . بعث إلىٰ صاحب الصور . . . ») .

صفة أرض المحشر وأهله

ثمَّ انظرْ كيفَ يُساقونَ بعدَ البعثِ والنشورِ حفاةً عراةً غرلاً إلىٰ أرضِ المحشرِ ؛ أرضٍ بيضاءَ ، قاعٍ صفصفٍ ، لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً ، ولا ترىٰ عليها ربوةً يختفي الإنسانُ وراءَها ، ولا وهدةً ينخفضُ عنِ الأعينِ فيها ، بلْ هوَ صعيدٌ واحدٌ بسيطٌ لا تفاوتَ فيهِ ، يُساقونَ إليهِ زمراً ، فسبحانَ مَنْ جمعَ الخلائقَ على اختلافِ أصنافِهِمْ مِنْ أقطارِ الأرضِ ؛ إذْ ساقَهم بالراجفةِ تتبَعُها الرادفةُ ، والراجفةُ هيَ النفخةُ الأولىٰ ، والرادفةُ هيَ الثانيةُ .

وحقيقٌ لتلكَ القلوبِ أنْ تكونَ يومَئذٍ واجفةً ، ولتلكَ الأبصارِ أنْ تكونَ خاشعةً .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ علىٰ أرضٍ بيضاءَ عفراءَ ، كقرصةِ النقيِّ ، ليسَ فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ »[1]

قالَ الراوي : و(العفرةُ) : بياضٌ ليسَ بالناصعِ ، و(النقيُّ) : هوَ النقيُّ عنِ القشرِ والنخالةِ ، و(لا معلمٌ) أيْ : لا بناءٌ يستُرُ ، ولا تفاوتٌ يردُّ البصرَ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ تلكَ الأرضَ مثلُ أرضِ الدنيا ، بلْ لا تساويها إلَّا في الاسمِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ .

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (يُزادُ فيها ويُنقصُ ، وتذهبُ أشجارُها وجبالُها وأوديتُها وما فيها ، وتُمدُّ مدَّ الأديمِ العكاظيِّ ، أرضٌ بيضاءُ مثلُ الفضةِ ، لمْ يُسفكْ عليها دمٌ ، ولم يُعملْ عليها خطيئةٌ ، والسماواتُ تذهبُ شمسُها وقمرُها ونجومُها)[2]

فانظرْ يا مسكينُ في هولِ ذٰلكَ اليومِ وشدَّتِهِ ، فإنَّهُ إذا اجتمعَ الخلائقُ علىٰ هٰذا الصعيدِ . . تناثرَتْ مِنْ فوقِهِم نجومُ السماءِ ، وطُمسَتِ الشمسُ والقمرُ ، وأظلمَتِ الأرضُ ؛ لخمودِ سراجِها ، فبينا أنتَ كذٰلكَ ؛ إذْ دارَتْ السماءُ مِنْ فوقِ رؤوسِهِم ، وانشقَّتْ معَ غلظِها وشدَّتِها خمسَ مئةِ عامٍ ، والملائكةُ قيامٌ علىٰ حافَّاتِها وأرجائِها ، فيا هولَ صوتِ انشقاقِها في سمعِكَ !!

ويا هيبةَ ليومٍ تنشقُّ فيهِ السماءُ مع صلابتِها وشدَّتِها ، ثمَّ تنهارُ وتسيلُ كالفضةِ المذابةِ تخالطُها صفرةٌ فصارَتْ وردةً كالدهانِ ، وصارتِ السماءُ كالمهلِ ، وصارتِ الجبالُ كالعهنِ ، واشتبكَ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ وهمْ عراةٌ حفاةٌ مشاةٌ !!

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُبعثُ الناسُ حفاةً عراةً غرلاً ، قدْ ألجمَهُمُ العرقُ وبلغَ شحومَ الآذانِ » قالَتْ سودةُ زوجُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ راويةُ الحديثِ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ وا سوءتاهُ !! ينظرُ بعضُنا إلىٰ بعضٍ ؟! فقالَ : « شُغلَ الناسُ عنْ ذٰلكَ ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ »[3]

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢١) ، ومسلم (٢٧٩٠) .

(٢) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٨٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٣٤٨/٤) ، والبزار في « المسند » (١٨٥٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً في تفسير الآية : « أرض بيضاء كأنها فضة ، لم يعمل عليها خطيئة ولم يسفك فيها دم حرام » .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٥١٥/٢) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٣٤/٢٤) ، وعند البخاري (٦٥٢٧) ، ومسلم (٢٨٥٩) نحوه من حديث عائشة رضي الله عنها .

فأعظِمْ بيومٍ تنكشفُ فيهِ العوراتُ ، ويُؤمنُ فيهِ معَ ذٰلكَ مِنَ النظرِ والالتفاتِ ، كيفَ وبعضُهُم يمشونَ علىٰ بطونِهِمْ ووجوهِهِمْ ، ولا قدرةَ لهمْ على الالتفاتِ إلىٰ غيرِهِمْ .

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ ثلاثةَ أصنافٍ : ركباناً ، ومشاةً ، وعلىٰ وجوهِهِمْ » فقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ يمشونَ علىٰ وجوهِهِمْ ؟ قالَ : « الذي أمشاهُمْ علىٰ أقدامِهِمْ قادرٌ علىٰ أنْ يُمشيَهمْ علىٰ وجوهِهِمْ »[1]

وفي طبعِ الآدميِّ إنكارُ كلِّ ما لمْ يأنسْ بهِ ، ولوْ لمْ يشاهدِ الإنسانُ الحيَّةَ وهيَ تمشي علىٰ بطنِها كالبرقِ الخاطفِ . . لأنكرَ تصوُّرَ المشيِ مِنْ غيرِ رجلٍ ، والمشيُ بالرجلِ أيضاً مستبعدٌ عندَ مَنْ لمْ يشاهدْ ذٰلكَ ، فإيَّاكَ أنْ تنكرَ شيئاً مِنْ عجائبِ يومِ القيامةِ لمخالفتِها قياسَ ما في الدنيا ؛ فإنَّكَ لوْ لمْ تكنْ قدْ شاهدتَ عجائبَ الدنيا ثمَّ عُرضَتْ عليكَ قبلَ المشاهدةِ . . لكنتَ أشدَّ إنكاراً لها .

فأحضرْ في قلبِكَ صورتَكَ وأنتَ واقفٌ عارياً مكشوفاً ، ذليلاً مدحوراً ، متحيراً مبهوتاً ، منتظراً لما يجري عليكَ مِنَ القضاءِ بالسعادةِ أو بالشقاوةِ ، وأعظمْ هٰذهِ الحالةَ ؛ فإنَّها عظيمةٌ .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣١٤٢) .

صفة العرق

ثمَّ تفكَّرْ في ازدحامِ الخلائقِ واجتماعِهِمْ حتى ازدحمَ على الموقفِ أهلُ السماواتِ السبعِ والأرضينَ السبعِ ؛ مِنْ ملكٍ وجنٍّ وإنسٍ وشيطانٍ ، ووحشٍ وسبعٍ وطيرٍ ، فأشرقَتْ عليهِمُ الشمسُ وقدْ تضاعفَ حرُّها ، وتبدَّلَتْ عمَّا كانَتْ عليهِ مِنْ خفةِ أمرِها ، ثمَّ أُدنيَتْ مِنْ رؤوسِ العالمينَ قابَ قوسينِ ، فلمْ يبقَ على الأرضِ ظلٌّ إلَّا ظلُّ عرشِ ربِّ العالمينَ ، ولمْ يُمكَّنْ مِنَ الاستظلالِ بهِ إلَّا المقربونَ ، فمِنْ بينِ مستظلٍّ بالعرشِ وبينِ ضاحٍ لحرِّ الشمسِ قدْ صهرَتْهُ بحرِّها ، واشتدَّ كربُهُ وغمُّهُ مِنْ وهجِها ، ثمَّ تدافعَتِ الخلائقُ ، ودفعَ بعضُهم بعضاً ؛ لشدَّةِ الزحامِ واختلافِ الأقدامِ ، وانضافَ إليهِ شدَّةُ الخجلةِ والحياءِ مِنَ الافتضاحِ والاختزاءِ عندَ العرضِ على جبارِ السماءِ ، فاجتمعَ وهجُ الشمسِ وحرُّ الأنفاسِ ، واحتراقُ القلوبِ بنارِ الحياءِ والخوفِ ، ففاضَ العرقُ مِنْ أصلِ كلِّ شعرةٍ حتى سالَ على صعيدِ القيامةِ ، ثمَّ ارتفعَ إلى أبدانِهِم على قدرِ منازلِهِمْ عندَ اللهِ ، فبعضُهم بلغَ العرقُ ركبتيهِ ، وبعضُهم حقويهِ ، وبعضُهم إلى شحمةِ أذنيهِ ، وبعضُهم كادَ يغيبُ فيهِ .

قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حتى يغيبَ أحدُهُم في رشحِهِ إلى أنصافِ أذنيهِ »(١)

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يعرقُ الناسُ يومَ القيامةِ حتى يذهبَ عرقُهُم في الأرضِ سبعينَ ذراعاً ، ويلجمُهم ويبلغُ آذانَهُمْ » كذا رواه البخاريُّ ومسلمٌ في الصحيحِ(٢)

وفي حديثٍ آخرَ : « قياماً شاخصةً أبصارُهُمْ أربعينَ سنةً إلى السماءِ ، فيلجمُهمُ العرقُ مِنْ شدَّةِ الكربِ »(٣)

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : (قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تدنو الشمسُ مِنَ الأرضِ يومَ القيامةِ ، فيعرقُ الناسُ ؛ فمِنَ الناسِ مَنْ يبلغُ عرقُهُ عقبَهُ ، ومنهم مَنْ يبلغُ نصفَ ساقِهِ ، ومنهم مَنْ يبلغُ ركبتيهِ ، ومنهم مَنْ يبلغُ فخذَهُ ، ومنهم مَنْ يبلغُ خاصرتَهُ ، ومنهم مَنْ يبلغُ فاهُ ـ وأشارَ بيدِهِ فألجمَها فاهُ ـ ومنهم مَنْ يغطِّيهِ عرقُهُ » وضربَ بيدِهِ على رأسِهِ هكذا)(٤)

فتأمَّلْ يا مسكينُ في عرقِ أهلِ المحشرِ وشدَّةِ كربِهِمْ ، وإنَّ فيهم مَنْ ينادي فيقولُ : يا ربِّ ؛ أرحْني مِنْ هذا الكربِ والانتظارِ ولوْ إلى النَّارِ ، وكلُّ ذلكَ ولمْ يلقَوا بعدُ حساباً ولا عقاباً ؛ فإنَّكَ واحدٌ منهم ، ولا تدري إلى أينَ يبلغُكَ العرقُ .

واعلمْ : أنَّ كلَّ عرقٍ لمْ يخرجْهُ التعبُ في سبيلِ اللهِ مِنْ حجٍّ وجهادٍ وصيامٍ وقيامٍ ، وتردُّدٍ في قضاءِ حاجةِ مسلمٍ ، وتحمُّلِ مشقةٍ في أمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عنْ منكرٍ . . فسيخرجُهُ الحياءُ والخوفُ في صعيدِ القيامةِ ، ويطولُ فيهِ الكربُ .

ولوْ سلمَ ابنُ آدمَ مِنَ الجهلِ والغرورِ . . لعلمَ أنَّ تعبَ العرقِ في تحمُّلِ مصاعبِ الطاعاتِ أهونُ أمراً وأقصرُ زماناً مِنْ عرقِ الكربِ والانتظارِ في القيامةِ ؛ فإنَّهُ يومٌ عظيمةٌ شدَّتُهُ ، طويلةٌ مدَّتُهُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (٤٩٣٨) ، ومسلم (٢٨٦٢) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٢) ، ومسلم (٢٨٦٣) .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣٦١/٩) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٥٧/٥) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١٥٧/٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٧١/٤) .

صفة طول يوم القيامة

يومٌ تقفُ فيهِ الخلائقُ شاخصةً أبصارُهم ، منفطرةً قلوبُهم ، لا يُكلَّمونَ ولا يُنظرُ في أمورِهم ، يقفونَ ثلاثَ مئةِ عامٍ لا يأكلونَ فيهِ أكلةً ولا يشربونَ فيهِ شربةً ، ولا يجدونَ فيهِ روحَ نسيمٍ .

قالَ كعبٌ وقتادةُ : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قالَ : يقومونَ مقدارَ ثلاثِ مئةِ عامٍ [١]

بلْ قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هٰذهِ الآيةَ ثمَّ قالَ : « كيفَ بكم إذا جمعَكُمُ اللهُ كما تُجمعُ النبلُ في الكنانةِ خمسينَ ألفَ سنةٍ لا ينظرُ إليكمْ » [٢]

وقالَ الحسنُ : ما ظنُّكَ بقومٍ قاموا علىٰ أقدامِهمْ [٣] مقدارَ خمسينَ ألفَ سنةٍ لمْ يأكلوا فيها أكلةً ولم يشربوا فيها شربةً ، حتىٰ إذا انقطعَتْ أعناقُهُمْ عطشاً ، واحترقَتْ أجوافُهُم جوعاً . . انصُرفَ بهِمْ إلى النَّارِ ، فسُقوا مِنْ عينٍ آنيةٍ قدْ آنَ حرُّها واشتدَّ لفحُها ، فلمَّا بلغَ المجهودُ منهمْ ما لا طاقةَ لهم بهِ . . كلَّمَ بعضُهُمْ بعضاً في طلبِ مَنْ يكرمُ علىٰ مولاهُ ؛ ليشفعَ في حقِّهِمْ ، فلمْ يتعلَّقوا بنبيٍّ إلَّا دفعَهُمْ وقالَ : (دعوني ، نفسي نفسي ، شغلَني أمري عنْ أمرِ غيري) ، واعتذرَ كلُّ واحدٍ بشدةِ غضبِ اللهِ تعالىٰ ، وقالوا : (قدْ غضبَ اليومَ ربُّنا غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولا يغضبُ بعدَهُ مثلَهُ) حتىٰ يشفعَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَنْ يُؤذنُ لهُ فيهِ ، لا يملكونُ الشفاعةَ إلَّا مَنْ أذنَ لهُ الرحمٰنُ ورضيَ لهُ قولاً [٤] .

فتأمَّلْ في طولِ هٰذا اليومِ وشدَّةِ الانتظارِ فيهِ ؛ حتىٰ يخفَّ عليكَ انتظارُ الصبرِ عنِ المعاصي في عمرِكَ المختصرِ .

واعلمْ : أنَّ مَنْ طالَ انتظارُهُ في الدنيا للموتِ ؛ لشدَّةِ مقاساتِهِ للصبرِ عنِ الشهواتِ . . فإنَّهُ يقصرُ انتظارُهُ في ذٰلكَ اليومِ خاصةً ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا سُئلَ عنْ طولِ ذٰلكَ اليومِ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّهُ ليُخففُ على المؤمنِ حتىٰ يكونَ أهونَ عليهِ مِنْ صلاةٍ مكتوبةٍ يصليها في الدنيا » [٥]

فاجتهدْ أنْ تكونَ مِنْ أولئكَ المؤمنينَ ، فما دامَ يبقىٰ لكَ نفسٌ مِنْ عمرِكَ فالأمرُ إليكَ والاستعدادُ بيديكَ ، فاعملْ في أيامٍ قصارٍ لأيامٍ طوالٍ . . تربحْ ربحاً لا منتهىٰ لسرورِهِ ، واستحقرْ عمرَكَ ، بلْ عمرَ الدنيا وهو سبعةُ آلافِ سنةٍ ؛ فإنَّكَ لوْ صبرتَ سبعةَ آلافِ سنةٍ مثلاً لتتخلصَ مِنْ يومٍ مقدارُهُ خمسونَ ألفَ سنةٍ . . لكانَ ربحُكَ كثيراً وتعبُكَ يسيراً .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده السيوطي في « الدر المنثور » (٤٤٣/٨) وعزا قول كعب إلى ابن المنذر ، وقول قتادة إلى عبد بن حميد .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٥٧١/٤) من حديث عبد الله بن عمرو .

(٣) في (د ، ص) : (ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦١٣) ، وأما اعتذار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وشفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . فرواه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٧٥/٣) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١٣٩٠) ، وفي غير (ب) : (أهون عليه من الصلاة المكتوبة) .

صفة يوم القيامة ، ودواهيها ، وأساميها

فاستعدَّ يا مسكينُ لهـٰذا اليومِ العظيمِ شأنُهُ ، المديدِ زمانُهُ ، القاهرِ سلطانُهُ ، القريبِ أوانُهُ ، يومٌ ترى السماءَ فيهِ قدِ انفطرَتْ ، والكواكبَ مِنْ هولِهِ قدِ انتثرَتْ ، والنجومَ الزواهرَ قدِ انكدرَتْ ، والشمسَ فيهِ قدْ كُوِّرَتْ ، والجبالَ قد سُيِّرَتْ ، والعشارَ قدْ عطِّلَتْ ، والوحوشَ قدْ حُشرَتْ ، والبحارَ قدْ سُجِّرَتْ ، والنفوسَ إلى الأبدانِ قدْ زُوِّجَتْ ، والجحيمَ قدْ سُعِّرَتْ ، والجنَّةَ قدْ أُزلفَتْ ، والجبالَ قدْ نُسفَتْ ، والأرضَ قدْ مُدَّتْ .

يومٌ ترى الأرضَ قدْ زُلزلَتْ فيهِ زلزالَها ، وأخرجَتِ الأرضُ أثقالَها ، يومَئذٍ يصدرُ الناسُ أشتاتاً ليُروا أعمالَهُمْ .

يومٌ حُمِلَتْ فيهِ الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دكَّةً واحدةً ، فيومَئذٍ وقعَتِ الواقعةُ ، وانشقَّتِ السماءُ فهي يومَئذٍ واهيةٌ ، والملكُ علىٰ أرجائِها ويحملُ عرشَ ربِّكَ فوقَهمْ يومَئذٍ ثمانيةٌ ، يومَئذٍ تُعرضونَ لا تخفىٰ منكم خافيةٌ .

يومٌ تُسيَّرُ فيهِ الجبالُ وترى الأرضَ بارزةً .

يومٌ رُجَّتْ الأرضُ فيهِ رجّاً ، وبُسَّتِ الجبالُ بسّاً ، فكانَتْ هباءً منبثاً .

يومٌ يكونُ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ ، وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ .

يومٌ تذهلُ فيهِ كلُّ مرضعةٍ عمَّا أرضعَتْ ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها ، وترى الناسَ سُكارىٰ وما همْ بسُكارىٰ ، ولـٰكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ .

يومٌ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ ، وبرزوا للهِ الواحدِ القهارِ .

يومٌ تُنسفُ فيهِ الجبالُ نسفاً ، فتُتركُ قاعاً صفصفاً ، لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً .

يومٌ ترى الجبالَ تحسبُها جامدةً وهيَ تمرُّ مرَّ السحابِ .

يومٌ انشقَّتْ فيهِ السماءُ فكانَتْ وردةً كالدِّهانِ ، فيومَئذٍ لا يُسألُ عنْ ذنبِهِ إنسٌ ولا جانٌّ .

يومٌ يُمنعُ فيهِ العاصي مِنَ الكلامِ ، ولا يُسألُ فيهِ عنِ الإجرامِ ، بلْ يُؤخذُ بالنواصي والأقدامِ .

يومٌ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملَتْ مِنْ خيرٍ محضراً ، وما عملَتْ مِنْ سوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بينَها وبينَهُ أمداً بعيداً .

يومٌ تعلمُ فيهِ كلُّ نفسٍ ما أحضرَتْ ، وتشهدُ ما قدَّمَتْ وأخَّرَتْ .

يومٌ تخرسُ فيهِ الألسنُ وتنطقُ الجوارحُ .

يومٌ شيَّبَ ذكرُهُ سيِّدَ المرسلينَ ؛ إذْ قالَ لهُ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : أراكَ قدْ شبتَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « شيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها : الواقعةُ ، والمرسلاتُ ، وعمَّ يتساءلونَ ، وإذا الشمسُ كُوِّرَتْ »(١)

فيا أيُّها القارئُ العاجزُ ؛ إنَّما حظُّكَ مِنْ قراءتِكَ أن تمجمجَ القرآنَ وتحركَ بهِ اللسانَ ، ولوْ كنتَ متفكِّراً فيما تقرؤُهُ . . لكنتَ جديراً بأنْ تنشقَّ مرارتُكَ فيما شابَ منهُ شعرُ سيِّدِ المرسلينَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ، وإذا قنعتَ بحركةِ اللسانِ . . فقدْ حُرمتَ ثمرةَ القرآنِ ؛ فالقيامةُ أحدُ ما ذُكرَ فيها .

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٩٧) .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ بعضَ دواهيها وأكثرَ أساميَها ؛ لتقفَ بكثرةِ أساميها علىٰ كثرةِ معانيها ، فليسَ المقصودُ بكثرةِ الأسامي تكريرَ الأسامي والألقابِ ، بلِ الغرضُ تنبيهُ أولي الألبابِ ؛ فتحتَ كلِّ اسمٍ مِنْ أسماءِ القيامةِ سرٌّ ، وفي كلِّ نعتٍ مِنْ نعوتِها معنىً ، فاحرصْ علىٰ معرفةِ معانيها ، ونحنُ الآنَ نجمعُ لكَ أساميَها :

فهيَ يومُ القيامةِ ، ويومُ الحسرةِ ، ويومُ النَّدامةِ ، ويومُ المحاسبةِ ، ويومُ المساءلةِ ، ويومُ المسابقةِ ، ويومُ المناقشةِ ، ويومُ المنافسةِ ، ويومُ الزَّلزلةِ ، ويومُ الدَّمدمةِ ، ويومُ الصَّاعقةِ ، ويومُ الواقعةِ ، ويومُ القارعةِ ، ويومُ الرَّاجفةِ ، ويومُ الرَّادفةِ ، ويومُ الغاشيةِ ، ويومُ الدَّاهيةِ ، ويومُ الآزفةِ ، ويومُ الحاقَّةِ ، ويومُ الطَّامَّةِ ، ويومُ الصَّاخَّةِ ، ويومُ التَّلاقِ ، ويومُ الفراقِ ، ويومُ المساقِ ، ويومُ القصاصِ ، ويومُ التَّنادِ ، ويومُ الحسابِ ، ويومُ المآبِ ، ويومُ العذابِ ، ويومُ الفرارِ ، ويومُ القرارِ ، ويومُ اللقاءِ ، ويومُ البقاءِ ، ويومُ القضاءِ ، ويومُ الجزاءِ ، ويومُ البلاءِ ، ويومُ البكاءِ ، ويومُ الحشرِ ، ويومُ الوعيدِ ، ويومُ العرضِ ، ويومُ الوزنِ ، ويومُ الحقِّ ، ويومُ الحكمِ ، ويومُ الفصلِ ، ويومُ الجمعِ ، ويومُ البعثِ ، ويومُ الفتحِ ، ويومُ الخزيِ ، ويومٌ عظيمٌ ، ويومٌ عقيمٌ ، ويومٌ عسيرٌ ، ويومُ الدِّينِ ، ويومُ اليقينِ ، ويومُ النُّشورِ ، ويومُ المصيرِ ، ويومُ النفخةِ ، ويومُ الصَّيحةِ ، ويومُ الرَّجفةِ ، ويومُ الرَّجَّةِ ، ويومُ الزَّجرةِ ، ويومُ السَّكرةِ ، ويومُ الفزعِ ، ويومُ الجزعِ ، ويومُ المنتهىٰ ، ويومُ المأوىٰ ، ويومُ الميقاتِ ، ويومُ الميعادِ ، ويومُ المرصادِ ، ويومُ القلقِ ، ويومُ العرقِ ، ويومُ الافتقارِ ، ويومُ الانكدارِ ، ويومُ الانتشارِ ، ويومُ الانشقاقِ ، ويومُ الوقوفِ ، ويومُ الخروجِ ، ويومُ الخلودِ ، ويومُ الوعيدِ ، ويومُ التغابنِ ، ويومٌ عبوسٌ ، ويومٌ معلومٌ ، ويومٌ موعودٌ ، ويومٌ مشهودٌ ، ويومٌ لا ريبَ فيهِ ، ويومٌ تُبلى السرائرُ .

ويومٌ لا تجزي نفسٌ عنْ نفسٍ شيئاً ، ويومٌ تشخصُ فيهِ الأبصارُ ، ويومٌ لا يغني مولىً عنْ مولىً شيئاً ، ويومٌ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، ويومٌ يُدعُّون إلىٰ نارِ جهنَّمَ دعّاً ، ويومٌ يُسحبونَ في النارِ علىٰ وجوهِهِمْ ، ويومٌ تُقلَّبُ وجوهُهُمْ في النَّارِ ، ويومٌ لا يجزي والدٌ عن ولدِهِ شيئاً ، ويومٌ يفرُّ المرءُ مِنْ أخيهِ وأمِّهِ وأبيهِ ، ويومٌ لا ينطقونَ ولا يُؤذنُ لهم فيعتذرونَ ، ويومٌ لا مردَّ لهُ مِنَ اللهِ ، ويومٌ همْ بارزونَ ، ويومٌ هم على النارِ يُفتنونَ ، ويومٌ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ ، ويومٌ لا تنفعُ الظالمينَ معذرتُهُمْ ولهمُ اللعنةُ ولهمْ سوءُ الدارِ ، ويومٌ رُدَّتْ فيهِ المعاذيرُ وبُليَتِ السرائرُ وظهرَتِ الضمائرُ وكُشفَتِ الأستارُ ، ويومٌ خشعَتِ الأبصارُ وسكنَتِ الأصواتُ وقلَّ الالتفاتُ وبرزَتِ الخفيَّاتُ وظهرَتِ الخطيئاتُ ، ويومٌ يساقُ العبادُ ومعَهمُ الأشهادُ ، وشابَ الصغيرُ وسكرَ الكبيرُ ، فيومَئذٍ وُضعَتِ الموازينُ ونُشرَتِ الدواوينُ ، وبُرِّزَتِ الجحيمُ وأُغليَ الحميمُ ، وزفرَتِ النارُ ويئسَ الكفارُ ، وسُعِّرَتِ النيرانُ وتغيَّرَتِ الألوانُ ، وخرسَ اللسانُ ونطقَتْ جوارحُ الإنسانِ .

فيا أيُّها الإنسانُ ؛ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريمِ حيثُ أغلقتَ الأبوابَ وأرخيتَ الستورَ ، واستترتَ عنِ الخلائقِ فقارفتَ الفجورَ ؟! فماذا نفعَكَ وقدْ شهدَتْ عليكَ جوارحُكَ ؟!

فالويلُ كلُّ الويلِ لنا معاشرَ الغافلينَ ، يرسلُ اللهُ لنا سيِّدَ المرسلينَ وينزِّلُ عليهِ الكتابَ المبينَ ، ويخبرُنا بهـٰذهِ الصفاتِ مِنْ نعوتِ يومِ الدينِ ، ثمَّ يعرِّفُنا غفلتَنا ويقولُ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ، ثمَّ يعرِّفُنا قربَ القيامةِ فيقولُ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ ، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ثمَّ يكونُ أحسنُ أحوالِنا أن نتخذَ دراسةَ هـٰذا القرآنِ عملاً ، فلا نتدبرُ معانيَهُ ، ولا ننظرُ في كثرةِ أوصافِ هـٰذا اليومِ وأساميهِ ، ولا نستعدُّ للفرارِ مِنْ دواهيهِ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ هـٰذهِ الغفلةِ إنْ لمْ يتداركْنا اللهُ بواسعِ رحمتِهِ .

❋ ❋ ❋

صفة المساءلة

ثمَّ تفكَّرْ يا مسكينُ بعدَ هٰذهِ الأهوالِ فيما يتوجَّهُ عليكَ مِنَ السؤالِ شفاهاً مِنْ غيرِ ترجمانٍ ، فتُسألُ عنِ القليلِ والكثيرِ ، والنقيرِ والقطميرِ ، فبينا أنتَ في كربِ القيامةِ وعرقِها وشدَّةِ عظائمِها ؛ إذْ نزلَتْ ملائكةٌ مِنْ أرجاءِ السماءِ بأجسامٍ عظامٍ وأشخاصٍ ضخامٍ ، غلاظٌ شدادٌ ، أُمروا أنْ يأخذوا بنواصي المجرمينَ إلىٰ موقفِ العرضِ على الجبَّارِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملكاً ما بينَ شفري عينيهِ مسيرةُ مئةِ عامٍ »[1] فما ظنُّكَ بنفسِكَ إذا شاهدتَ مثلَ هٰؤلاءِ الملائكةِ أُرسلوا إليكَ ليأخذوكَ إلىٰ مقامِ العرضِ ، وتراهمْ علىٰ عظمِ أشخاصِهِمْ منكسرينَ لشدَّةِ اليومِ ، مستشعرينَ ممَّا بدا مِنْ غضبِ الجبارِ علىٰ عبادِهِ ، وعندَ نزولِهِمْ لا يبقىٰ نبيٌّ ولا صديقٌ ولا صالحٌ إلَّا ويخرُّونَ لأذقانِهِمْ خوفاً مِنْ أنْ يكونوا همُ المأخوذينَ ، فهٰذا حالُ المقرَّبينَ ، فما ظنُّكَ بالعصاةِ المجرمينَ ؟!

وعندَ ذٰلكَ يبادرُ أقوامٌ مِنْ شدةِ الفزعِ فيقولونَ للملائكةِ : أفيكم ربُّنا ؟ وذٰلكَ لعظمِ موكبِهِمْ وشدةِ هيبتِهِمْ ، فتفزعُ الملائكةُ مِنْ سؤالِهِمْ إجلالاً لخالقِهِمْ عنْ أنْ يكونَ فيهِمْ ، فنادوا بأصواتِهِم منزِّهين لمليكِهِمْ عمَّا توهَّمَهُ أهلُ الأرضِ وقالوا : سبحانَ ربِّنا ما هوَ فينا ، ولٰكنَّهُ آتٍ مِنْ بعدُ .

وعندَ ذٰلكَ تقومُ الملائكةُ صفاً محدقينَ بالخلائقِ مِنَ الجوانبِ ، وعلىٰ جميعِهِمْ شعارُ الذلِّ والخضوعِ وهيئةُ الخوفِ والمهابةِ ؛ لشدَّةِ اليومِ .

وعندَ ذٰلكَ يصدقُ اللهُ تعالىٰ قولَهُ : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ ، وقولَهُ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

فيبدأُ سبحانَهُ بالأنبياءِ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ، فيا لشدَّةِ يومٍ تذهلُ فيهِ عقولُ الأنبياءِ ، وتنمحي علومُهُمْ مِنْ شدَّةِ الهيبةِ ؛ إذْ يُقالُ لهمْ : ماذا أُجبتُم وقدْ أُرسلتُم إلى الخلائقِ ، وكانوا قدْ علموا ، فتدهشُ عقولُهُمْ فلا يدرونَ بماذا يجيبونَ ، فيقولونَ مِنْ شدَّةِ الهيبةِ : لا علمَ لنا إنَّكَ أنتَ علَّامُ الغيوبِ !! وهمْ في ذٰلكَ الوقتِ صادقونَ ؛ إذْ طارَتْ فيهِ العقولُ وانمحَتِ العلومُ إلىٰ أنْ يقويَهُمُ اللهُ تعالىٰ .

فيُدعىٰ نوحٌ عليهِ السَّلامُ فيُقالُ لهُ : هلْ بلَّغتَ ؟ فيقولُ : نعمْ ، فيُقالُ لأمَّتِهِ : هلْ بلَّغَكُمْ ؟ فيقولونَ : ما أتانا مِنْ نذيرٍ .

ويُؤتىٰ بعيسىٰ عليهِ السَّلامُ فيقولُ اللهُ تعالىٰ لهُ : أأنتَ قلتَ للنَّاسِ اتخذوني وأمِّيَ إلٰهينِ مِنْ دونِ اللهِ ؟ فيبقىٰ متشحطاً تحتَ هيبةِ هٰذا السؤالِ سنينَ ، فيا لعظمِ يومٍ تُقامُ فيهِ السِّياسةُ على الأنبياءِ بمثلِ هٰذا السؤالِ !!

ثمَّ تقبلُ الملائكةُ فينادونَ واحداً واحداً : يا فلانُ بنَ فلانةَ ؛ هلمَّ إلىٰ موقفِ العرضِ ، وعندَ ذٰلكَ ترتعدُ الفرائصُ ، وتضطربُ الجوارحُ ، وتبهتُ العقولُ ، ويتمنَّىٰ أقوامٌ أنْ يُذهبَ بهم إلى النَّارِ ولا تُعرضَ قبائحُ أعمالِهِمْ على الجبَّارِ ، ولا يُكشفَ سترُهم علىٰ ملأ الخلائقِ .

وقبلَ الابتداء بالسؤالِ يظهرُ نورُ العرشِ ، وأشرقَتِ الأرضُ بنورِ ربِّها ، وأيقنَ كلُّ عبدٍ بإقبالِ الجبارِ لمساءلةِ العبادِ ، وظنَّ كلُّ واحدٍ أنَّهُ ما يُرادُ أحدٌ سواهُ ، وأنَّهُ المقصودُ بالأخذِ والسؤالِ دونَ مَنْ عداهُ ، فيقولُ الجبارُ سبحانَهُ وتعالىٰ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أره بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٠/٤٦٥) ، وشفري عينيه : أي : طرفيهما .

عندَ ذٰلكَ : يا جبريلُ ؛ ائتني بالنَّارِ ، فيأتيها جبريلُ ويقولُ لها : يا جهنَّمُ ؛ أجيبي خالقَكِ ومليكَكِ ، فيصادفُها جبريلُ علىٰ غيظِها وغضبِها ، فلمْ يلبثْ بعدَ ندائِهِ أنْ ثارَتْ وفارَتْ ، وزفرَتْ إلى الخلائقِ وشهقَتْ ، وسمعَ الخلائقُ تغيُّظَها وزفيرَها ، وانتهضَتْ خُزَّانُها متوثبةً إلى الخلائقِ غضباً علىٰ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ وخالفَ أمرَهُ .

فأخطرْ ببالِكَ وأحضرْ في قلبِكَ حالةَ قلوبِ العبادِ وقدِ امتلأَتْ فزعاً ورعباً ، فتساقطوا جثيّاً علىٰ ركبِهِمْ ، وولَّوا مدبرينَ ، يومَ ترىٰ كلَّ أمةٍ جاثيةً ، وسقطَ بعضُهُم على الوجوهِ منكبينَ ، ويُنادي الظالمونَ والعصاةُ بالويلِ والثبورِ ، وينادي الصديقونَ : نفسي نفسي .

فبينَما همْ كذٰلكَ ؛ إذْ زفرَتِ النارُ زفرتَها الثانيةَ ، فتضاعفَ خوفُهُم ، وتخاذلَتْ قواهم ، وظنُّوا أنَّهم مأخوذونَ ، ثمَّ زفرَتِ الثالثةَ ، فتساقطَ الخلائقُ لوجوهِهِمْ ، وشخصوا بأبصارِهِمْ ينظرونَ مِنْ طرفٍ خفيٍّ خاشعٍ ، وانهضمَتْ عندَ ذٰلكَ قلوبُ الظالمينَ فبلغَتْ لدى الحناجرِ كاظمينَ ، وذهلَتِ العقولُ مِنَ السعداءِ والأشقياءِ أجمعينَ .

وبعدَ ذٰلكَ أقبلَ اللهُ تعالىٰ على الرسلِ وقالَ : ماذا أُجبتُم ، فإذا رأوا ما قدْ أُقيمَ مِنَ السِّياسةِ على الأنبياءِ . . اشتدَّ الفزعُ على العصاةِ ، ففرَّ الوالدُ مِنْ ولدِهِ ، والأخُ مِنْ أخيهِ ، والزوجُ مِنْ زوجتِهِ ، وبقيَ كلُّ واحدٍ منتظراً لأمرِهِ .

ثمَّ يُؤخذُ واحدٌ واحدٌ ، فيسألُهُ اللهُ تعالىٰ شفاهاً عنْ قليلِ عملِهِ وكثيرِهِ ، وعنْ سرِّهِ وعلانيتِهِ ، وعنْ جميعِ جوارحِهِ وأعضائِهِ

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالوا : يا رسولَ اللهِ ، هلْ نرىٰ ربَّنا يومَ القيامةِ ؟ فقالَ : « هلْ تضارونَ في رؤيةِ الشمسِ في الظهيرةِ ليسَتْ في سحابةٍ ؟ » قالوا : لا ، قالَ : « فهلْ تضارونَ في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البدرِ ليسَ في سحابةٍ ؟ » قالوا : لا ، قالَ : « فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لا تضارونَ في رؤيةِ ربِّكم ؛ فيلقى العبدَ فيقولُ لهُ : ألَمْ أكرمْكَ وأسوِّدْكَ وأزوجْكَ ، وأسخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ ، وأذرْكَ ترأسُ وتربعُ ؟! فيقولُ العبدُ : بلىٰ ، فيقولُ : أفظننتَ أنَّكَ ملاقيَّ ؟ فيقولُ : لا ، فيقولُ تعالىٰ : فإنِّي أنساكَ كما نسيتَني »[١]

فتوهمْ نفسَكَ يا مسكينُ وقدْ أخذَتِ الملائكةُ بعضديكَ ، وأنتَ واقفٌ بينَ يديِ اللهِ تعالىٰ يسألُكَ شفاهاً فيقولُ لكَ : ألَمْ أنعمْ عليكَ بالشبابِ ؟! ففي ماذا أبليتَهُ ؟! ألَمْ أمهلْ لكَ في العمرِ ؟! ففي ماذا أفنيتَهُ ؟! ألَمْ أرزقْكَ الأموالَ ؟! فمِنْ أينَ اكتسبتَ ؟! وفي ماذا أنفقتَ ؟! ألَمْ أكرمْكَ بالعلمِ ؟! فماذا عملتَ فيما علمتَ ؟!

فكيفَ ترىٰ حياءَكَ وخجلتَكَ وهوَ يعدُّ عليكَ إنعامَهُ ومعاصيَكَ وأياديَهُ ومساويَكَ ؟

فإنْ أنكرتَ . . شهدَتْ عليكَ جوارحُكَ ، قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فضحكَ ثمَّ قالَ : « أتدرونَ ممَّ أضحكُ ؟ » قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « مِنْ مخاطبةِ العبدِ ربَّهُ ، يقولُ : يا ربِّ ؛ ألَمْ تجرْني مِنَ الظلمِ ؟ قالَ : يقولُ : بلىٰ ، قالَ : فيقولُ : فإنِّي لا أجيزُ علىٰ نفسي إلا شاهداً مني ، فيقولُ : كفىٰ بنفسِكَ اليومَ عليكَ حسيباً ، وبالكرامِ الكاتبينَ شهوداً ، قالَ : فيُختمُ علىٰ فيهِ ويُقالُ لأركانِهِ : انطقي ، قالَ : فتنطقُ بأعمالِهِ ، ثمَّ يُخلَّىٰ بينَهُ وبينَ الكلامِ فيقولُ لأعضائِهِ : بعداً لكُنَّ وسحقاً !! فعنكُنَّ كنتُ أناضلُ »[٢]

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧٤) ، ومسلم (٢٩٦٨) واللفظ له ، وتربع : تنال من الأموال وتكون مطاعاً ، وفي (ج ، ص) : (ترتع) بدل (تربع) وهي رواية أشار لها الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٨/١٠٣ ـ ١٠٤) .
(٢) رواه مسلم (٢٩٦٩)

فنعوذُ باللهِ مِنَ الافتضاحِ على ملأ الخلقِ بشهادةِ الأعضاءِ ، إلَّا أنَّ اللهَ تعالى وعدَ المؤمنَ بأنْ يسترَ عليهِ ، ولا يطلعَ عليهِ غيرَهُ .

سألَ ابنَ عمرَ رجلٌ فقالَ لهُ : كيفَ سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في النَّجوى ؟ فقالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدنو أحدُكُمْ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ حتى يضعَ كنفَهُ عليهِ فيقولُ : عملتَ كذا وكذا ؟! فيقولُ : نعمْ ، فيقولُ : عملتَ كذا وكذا ؟! فيقولُ : نعمْ ، ثمَّ يقولُ : إنِّي سترتُها عليكَ في الدنيا ، وأنا أغفرُها لكَ اليومَ »[1]

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سترَ على مؤمنٍ عورتَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ يومَ القيامةِ »[2] فهٰذا إنَّما يُرجى لعبدٍ مؤمنٍ سترَ على النَّاسِ عيوبَهُم ، واحتملَ في حقِّ نفسِهِ تقصيرَهُم ، ولمْ يحرِّكْ لسانَهُ بذكرِ مساويهِمْ ، ولمْ يذكرْهمْ في غيبتِهِمْ بما يكرهونَ لوْ سمعوهُ ، فهوَ جديرٌ بأنْ يُجازى بمثلِهِ في القيامةِ .

وهبْ أنَّهُ قدْ سترَهُ عنْ غيرِكَ ، أليسَ قدْ قرعَ سمعَكَ النداءُ إلى العرضِ ؟! فيكفيكَ تلكَ الروعةُ جزاءً عنْ ذنوبِكَ ؛ إذْ يُؤخذُ بناصيتِكَ فتُقادُ وفؤادُكَ مضطربٌ ولبُّكَ طائرٌ ، وفرائصُكَ مرتعدةٌ وجوارحُكَ مضطربةٌ ، ولونُكَ متغيِّرٌ والعالمُ عليكَ مِنْ شدَّةِ الهولِ مظلمٌ ، فقدِّر نفسَكَ وأنتَ بهٰذهِ الصفةِ تتخطى الرقابَ وتخرقُ الصفوفَ ، وتُقادُ كما تُقادُ الفرسُ المجنوبُ[3] ، وقدْ رفعَ الخلائقُ إليكَ أبصارَهُم .

فتوهَّمْ نفسَكَ أنَّكَ في أيدي الموكلينَ بكَ على هٰذهِ الصفةِ ، حتى انتُهيَ بكَ إلى عرشِ الرحمٰنِ فرموكَ مِنْ أيديهِمْ ، وناداكَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى بعظيمِ كلامِهِ : يا بنَ آدمَ ؛ ادنُ منِّي ، فدنوتَ منهُ بقلبٍ خافقٍ محزونٍ وَجِلٍ ، وطرفٍ خاشعٍ ذليلٍ ، وفؤادٍ منكسرٍ ، وأُعطيتَ كتابَكَ الذي لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها ، فكمْ مِنْ فاحشةٍ نسيتَها فتذكرتَها ؛ وكمْ مِنْ طاعةٍ غفلتَ عنْ آفاتِهَا فانكشفَ لكَ عنْ مساويها !!

فكمْ لكَ مِنْ خجلٍ وجبنٍ !! وكمْ لكَ مِنْ حصرٍ وعجزٍ !!

فليتَ شعري بأيِّ قدمٍ تقفُ بينَ يديهِ ؟! وبأيِّ لسانٍ تجيبُ ؟! وبأيِّ قلبٍ تعقلُ ما تقولُ ؟!

ثمَّ تفكَّرْ في عظمِ حيائِكَ إذا ذكَّرَكَ ذنوبَكَ شفاهاً ؛ إذْ يقولُ : يا عبدي ؛ أما استحييتَ منِّي فبارزتَني بالقبيحِ ، واستحييتَ مِنْ خلقي فأظهرتَ لهمُ الجميلَ ؟! أكنتُ أهونَ عليكَ مِنْ سائرِ عبادي ؟!

أستخففتَ بنظري إليكَ فلمْ تكترثْ ، واستعظمتَ نظرَ غيري ؟!

ألمْ أنعمْ عليكَ ؟! فماذا غرَّكَ بي ؟! أظننتَ أنِّي لا أراكَ وأنَّكَ لا تلقاني ؟!

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما منكمْ مِنْ أحدٍ إلَّا ويسألُهُ اللهُ ربُّ العالمينَ ليسَ بينَهُ وبينَهُ حجابٌ ولا ترجمانٌ »[4]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليقفنَّ أحدُكُم بينَ يدي اللهِ تعالى ليسَ بينَهُ وبينَهُ حجابٌ ، فيقولُ لهُ : ألمْ أنعمْ عليكَ ، ألمْ أوتِكَ مالاً ؟! فيقولُ : بلى ، فيقولُ : ألمْ أرسلْ إليكَ رسولاً ؟! فيقولُ : بلى ، ثمَّ ينظرُ عنْ يمينِهِ

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦) ، وعند البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) : « ومن ستر مسلماً . . ستره الله يوم القيامة » .

(٣) المجنوب : المجرور في الموكب .

(٤) رواه البخاري (٦٥٣٩) ، ومسلم (١٠١٦/٦٧) .

فلا يرىٰ إلَّا النَّارَ ، ثمَّ ينظرُ عنْ شمالِهِ فلا يرىٰ إلا النَّارَ ، فليتَّقِ أحدُكمُ النَّارَ ولو بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ يجدْ . . فبكلمةٍ طيبةٍ »[1]

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما منكُم مِنْ أحدٍ إلَّا سيخلو اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ كما يخلو أحدُكُمْ بالقمرِ ليلةَ البدرِ ، ثمَّ يقولُ :

يا بنَ آدمَ ، ما غرَّكَ بي ؟!

يا بنَ آدمَ ؛ ماذا عملتَ فيما علمتَ ؟!

يا بنَ آدمَ ؛ ماذا أجبتَ المرسلينَ ؟!

يا بنَ آدمَ ؛ ألمْ أكنْ رقيباً علىٰ عينِكَ وأنتَ تنظرُ بها إلىٰ ما لا يحلُّ لكَ ؟! ألمْ أكنْ رقيباً علىٰ أذنيكَ . . .) وهٰكذا حتىٰ عدَّ سائرَ الأعضاءِ[2]

وقالَ مجاهدٌ : لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ مِنْ بينِ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ حتىٰ يسألَهُ عنْ أربعِ خصالٍ : عنْ عمرِهِ فيما أفناهُ ، وعنْ علمِهِ ما عملَ فيهِ ، وعنْ جسدِهِ فيما أبلاهُ ، وعنْ مالِهِ مِنْ أينَ اكتسبَهُ وفيما أنفقَهُ[3]

فأعظمْ يا مسكينُ بحيائِكَ عندَ ذٰلكَ وبخطرِكَ ؛ فإنَّكَ بينَ أنْ يُقالَ لكَ : سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرُها لكَ اليومَ ، فعندَ ذٰلكَ يعظمُ سرورُكَ وفرحُكَ ، ويغبطُكَ الأولونَ والآخرونَ ، وإمَّا أنْ يُقالَ للملائكةِ : خذوا هٰذا العبدَ السوءَ فغلُّوه ، ثمَّ الجحيمَ صلُّوهُ ، وعندَ ذٰلكَ لوْ بكتْ عليكَ السماواتُ والأرضُ . . لكانَ ذٰلكَ جديراً بعظمِ مصيبتِكَ ، وشدَّةِ حسرتِكَ علىٰ ما فرَّطتَ فيهِ مِنْ طاعةِ اللهِ ، وعلىٰ ما بعتَ بهِ آخرتَكَ مِنْ دنيا دنيَّةٍ لمْ تبقَ معكَ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (١٤١٣) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠٣/٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣١/١) مختصراً .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠٢/١١) ، وبنحوه الترمذي (٢٤١٧) مرفوعاً من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .

صفة الميزان

ثمَّ لا تغفلْ عنِ الفكرِ في الميزانِ ، وتطايرِ الكتبِ إلى الأيمانِ والشمائلِ ؛ فإنَّ الناسَ بعدَ السؤالِ ثلاثُ فرقٍ :

فرقةٌ ليسَ لهمْ حسنةٌ ، فيخرجُ مِنَ النَّارِ عنقٌ أسودُ فيلقطُهُم لقطَ الطيرِ الحبَّ ، وينطوي عليهم ويلقيهم في النَّارِ ، فتبتلعُهمُ النَّارُ ، ويُنادىٰ عليهم بشقاوةٍ لا سعادةَ بعدَها .

وقسمٌ آخرُ لا سيئةَ لهُمْ ، فينادي منادٍ : ليقمِ الحمَّادونَ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ ، فيقومونَ ويسرحونَ إلى الجنَّةِ ، ثمَّ يُفعلُ ذٰلكَ بأهلِ قيامِ الليلِ ، ثمَّ بمَنْ لمْ تشغلْهُ تجارةُ الدنيا ولا بيعُها عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويُنادىٰ عليهِمْ بسعادةٍ لا شقاوةَ بعدَها .

ويبقىٰ قسمٌ ثالثٌ وهمُ الأكثرونَ ، خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، وقدْ يخفىٰ عليهِم ولا يخفىٰ على اللهِ تعالىٰ أنَّ الغالبَ حسناتُهُمْ أوْ سيئاتُهُمْ ، ولـٰكنْ يأبى اللهُ تعالىٰ إلَّا أنْ يعرِّفَهُم حقيقةَ ذٰلكَ ؛ ليبيِّنَ فضلَهُ عندَ العفوِ وعدلَهُ عندَ العقابِ ، فتتطايرُ الصحفُ والكتبُ منطويةً على الحسناتِ والسيئاتِ ، ويُنصبُ الميزانُ ، وتشخصُ الأبصارُ إلى الكتبِ ، أتقعُ في اليمينِ أوْ في الشمالِ ؟ ثمَّ إلىٰ لسانِ الميزانِ أيميلُ إلىٰ جانبِ السيئاتِ أوْ إلىٰ جانبِ الحسناتِ ؟ وهـٰذهِ حالةٌ هائلةٌ تطيشُ فيها عقولُ الخلائقِ .

روى الحسنُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ رأسُهُ في حجرِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فنعَسَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذكرَتِ الآخرةَ فبكَتْ حتىٰ سالَتْ دموعُها علىٰ خدِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فانتبهَ فقالَ : « ما يبكيكِ يا عائشةُ ؟ » قالَتْ : ذكرتُ الآخرةَ ، هلْ تذكرُونَ أهليكمْ يومَ القيامةِ ؟ قالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ، في ثلاثةِ مواطنَ فإنَّ أحداً لا يذكرُ إلَّا نفسَهُ : إذا وُضعَتِ الموازينُ ووُزنَتِ الأعمالُ حتىٰ ينظرَ ابنُ آدمَ أيخفُّ ميزانُهُ أمْ يثقلُ ، وعندَ الصحفِ حتىٰ ينظرَ أبيمينِهِ يأخذُها أمْ بشمالِهِ ، وعندَ الصِّراطِ »(١)

وعنْ أنسٍ قالَ : (يُؤتىٰ بابنِ آدمَ يومَ القيامةِ حتىٰ يُوقفَ بينَ كفَّتَيِ الميزانِ ، ويُوكلَ بهِ ملكٌ : فإنْ ثقلَ ميزانُهُ . . نادى الملكُ بصوتٍ يسمعُ الخلائقَ : سعدَ فلانٌ سعادةً لا يشقىٰ بعدَها أبداً ، وإنْ خفَّ ميزانُهُ . . نادىٰ بصوتٍ يسمعُ الخلائقَ : شقيَ فلانٌ شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً)(٢)

وعندَ خفَّةِ كفَّةِ الحسناتِ تقبلُ الزبانيةُ وبأيديهِمْ مقامعُ مِنْ حديدٍ ، عليهِمْ ثيابٌ مِنْ نارٍ ، فيأخذونَ نصيبَ النَّارِ إلى النَّارِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في يومِ القيامةِ : « إنَّهُ يومٌ ينادي اللهُ تعالىٰ فيهِ آدمَ عليهِ السَّلامُ فيقولُ لهُ : قمْ يا آدمُ فابعثْ بعْثَ النَّارِ ، فيقولُ : وكمْ بعْثُ النَّارِ ؟ فيقولُ : مِنْ كُلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ في النارِ وواحدٌ في الجنَّةِ » فلمَّا سمعَ الصحابةُ ذٰلكَ . . أبلسوا حتىٰ ما أوضحوا بضاحكةٍ ، فلمَّا رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما عندَ أصحابِهِ . . قالَ : « اعملوا وأبشروا ، فوَالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ؛ إنَّ معَكُمْ لخليقتينِ ما كانتا معَ أحدٍ قطُّ إلَّا كثَّرَتاهُ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٥٥) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٤/٦) مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه .

معَ مَنْ هلكَ مِنْ بني آدمَ وبني إبليسَ » قالوا : وما هما يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « يأجوجُ ومأجوجُ » قالَ : فسُرِّيَ عنِ القومِ ، فقالَ : « اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ، ما أنتُمْ في النَّاسِ يومَ القيامةِ إلَّا كالشامةِ في جنبِ البعيرِ ، أوْ كالرقمةِ في ذراعِ الدابةِ »[1]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الترمذي بهٰذا اللفظ (٣١٦٩) ، وأصله عند البخاري (٦٥٣٠) ، ومسلم (٢٢٢) .

صفة الخصماء وردّ المظالم

قدْ عرفتَ هولَ الميزانِ وخطرَهُ ، وأنَّ الأعينَ شاخصةٌ إلىٰ لسانِ الميزانِ ، فمَنْ ثقلَتْ موازينُهُ . . فهوَ في عيشةٍ راضيةٍ ، وأمَّا مَنْ خفَّتْ موازينُهُ . . فأمُّهُ هاويةٌ ، وما أدرَاكَ ما هيهْ ؟ نارٌ حاميةٌ .

واعلمْ : أنَّهُ لا ينجو مِنْ خطرِ الحسابِ والميزانِ إلَّا مَنْ حاسبَ في الدنيا نفسَهُ ، ووزنَ فيها بميزانِ الشرعِ أعمالَهُ وأقوالَهُ ، وخطراتِهِ ولحظاتِهِ ، كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه : (حاسبوا أنفسَكُمْ قبلَ أن تُحاسبوا ، وزنوها قبلَ أنْ تُوزنوا)[1]

وإنَّما حسابُهُ لنفسِهِ أنْ يتوبَ عنْ كلِّ معصيةٍ قبلَ الموتِ توبةً نصوحاً ، ويتداركَ ما فرَّطَ مِنْ تقصيرِهِ في فرائضِ اللهِ تعالىٰ ، ويردَّ المظالمَ حبةً بعدَ حبةٍ ، ويستحلَّ كلَّ مَنْ تعرَّضَ لهُ بلسانِهِ ويدِهِ وسوءِ ظنِّهِ بقلبِهِ ، ويطيِّبَ قلوبَهُمْ ؛ حتىٰ يموتَ ولمْ يبقَ عليهِ مظلمةٌ ولا فريضةٌ ، فهـٰذا يدخلُ الجنةَ بغيرِ حسابٍ .

وإنْ ماتَ قبلَ ردِّ المظالمِ . . أحاطَ بهِ خصماؤُهُ ، فهـٰذا يأخذُ بيدِهِ ، وهـٰذا يقبضُ علىٰ ناصيتِهِ ، وهـٰذا يتعلقُ بتلبيبِهِ ، هـٰذا يقولُ : ظلمتَني ، وهـٰذا يقولُ : شتمتَني ، وهـٰذا يقولُ : استهزأتَ بي ، وهـٰذا يقولُ : ذكرتَني في الغيبةِ بما يسوءُني ، وهـٰذا يقولُ : جاورتَني فأسأتَ جواري ، وهـٰذا يقولُ : عاملتَني فغششتَني ، وهـٰذا يقولُ : بايعتَني فغبنتَني وأخفيتَ عنِّي عيبَ متاعِكَ ، وهـٰذا يقولُ : كذبتَ في سعرِ متاعِكَ ، وهـٰذا يقولُ : رأيتَني محتاجاً وكنتَ غنياً فما أطعمتَني ، وهـٰذا يقولُ : وجدتَني مظلوماً وكنتَ قادراً علىٰ دفعِ الظلمِ عنِّي ، فداهنتَ الظالمَ وما راعيتَني .

فبينا أنتَ كذٰلكَ وقدْ أنشبَ الخصماءُ فيكَ مخالبَهُمْ ، وأحكموا في تلابيبِكَ أيديَهم ، وأنتَ مبهوتٌ متحيرٌ مِنْ كثرتِهِمْ ، حتىٰ لمْ يبقَ في عمرِكَ أحدٌ عاملتَهُ علىٰ درهمٍ أوْ جالستَهُ في مجلسٍ إلَّا وقدِ استحقَّ عليكَ مظلمةً بغيبةٍ أوْ خيانةٍ ، أوْ نظرٍ بعينِ استحقارٍ ، وقدْ ضعفتَ عنْ مقاومتِهِمْ ، ومددتَ عنقَ الرجاءِ إلىٰ سيِّدِكَ ومولاكَ لعلَّهُ يخلصُكَ مِنْ أيديهِمْ ؛ إذْ قرعَ سمعَكَ نداءُ الجبارِ جلَّ جلالُهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ فعندَ ذٰلكَ ينخلعُ قلبُكَ مِنَ الهيبةِ ، وتوقنُ نفسُكَ بالبوارِ ، وتتذكرُ ما أنذرَكَ اللهُ تعالىٰ بهِ علىٰ لسانِ رسولِهِ حيثُ قالَ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

فما أشدَّ فرحَكَ اليومَ بتمضمضِكَ بأعراضِ النَّاسِ وتناولِكَ أموالَهُمْ !! وما أشدَّ حسراتِكَ في ذٰلكَ اليومِ إذا وُقِفَ بكَ علىٰ بساطِ العدلِ ، وشُوفهتَ بخطابِ السياسةِ وأنتَ مفلسٌ فقيرٌ ، عاجزٌ مهينٌ ، لا تقدرُ علىٰ أنْ تردَّ حقّاً أو تظهرَ عذراً !!

فعندَ ذٰلكَ تُؤخذُ حسناتُكَ التي أفنيتَ فيها عمرَكَ ، وتُنقلُ إلىٰ خصمائِكَ عوضاً عنْ حقوقِهِمْ .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ تدرونَ مَنِ المفلسُ ؟ » قالوا : المفلسُ فينا ـ يا رسولَ اللهِ ـ : مَنْ لا درهمَ لهُ ولا متاعَ ، فقالَ : « المفلسُ مِنْ أُمَّتي : مَنْ يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتي وقدْ شتمَ هـٰذا

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٦٣٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٠) .

وقذفَ هـٰذا ، وأكلَ مالَ هـٰذا وسفكَ دمَ هـٰذا وضربَ هـٰذا ، فيُعطىٰ هـٰذا مِنْ حسناتِهِ وهـٰذا مِنْ حسناتِهِ ، وإنْ فنيَتْ حسناتُهُ قبلَ أنْ يقضيَ ما عليهِ . . أُخِذَ مِنْ خطاياهُمْ فطُرِحَتْ عليهِ ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ »[1]

فانظرْ إلىٰ مصيبتِكَ في مثلِ هـٰذا اليومِ ؛ إذْ ليسَ يسلمُ لكَ حسنةٌ مِنْ آفاتِ الرياءِ ومكايدِ الشيطانِ ، فإنْ سلمَتْ حسنةٌ واحدةٌ في كلِّ مدةٍ طويلةٍ . . ابتدرَها خصماؤُكَ وأخذوها .

ولعلَّكَ لوْ حاسبتَ نفسَكَ وأنتَ مواظبٌ علىٰ صيامِ النهارِ وقيامِ الليلِ . . لعلمتَ أنَّهُ لا ينقضي عنكَ يومٌ إلَّا ويجري علىٰ لسانِكَ مِنْ غيبةِ المسلمينَ ما يستوفي جميعَ حسناتِكَ ، فكيفَ ببقيَّةِ السيئاتِ مِنْ أكلِ الحرامِ والشبهاتِ والتقصيرِ في الطاعاتِ ؟!

وكيفَ ترجو الخلاصَ مِنَ المظالمِ في يومٍ يُقتصُّ فيهِ للجمَّاءِ مِنَ القرناءِ ؟! فقدْ روىٰ أبو ذرٍّ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأىٰ شاتينِ تنتطحانِ فقالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ أتدري فيمَ تنتطحانِ ؟ » قلتُ : لا ، قالَ : « ولـٰكنَّ ربَّكَ يدري ، وسيقضي بينَهما يومَ القيامةِ »[2]

وقالَ أبو هريرةَ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ : (إنَّهُ يُحشرُ الخلقُ كلُّهم يومَ القيامةِ ؛ البهائمُ والدوابُّ والطيرُ وكلُّ شيءٍ ، فيبلغُ مِنْ عدلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يأخذَ للجمَّاءِ مِنَ القرناءِ ثمَّ يقولَ : كوني تراباً ، فذٰلكَ حينَ يقولُ الكافرُ : ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾)[3]

فكيفَ أنتَ يا مسكينُ في يومٍ ترىٰ صحيفتَكَ خاليةً عنْ حسناتٍ طالَ فيها تعبُكَ ، فتقولُ : أينَ حسناتي ؟ فيُقالُ : نُقلَتْ إلىٰ صحيفةِ خصمائِكَ ، وترىٰ صحيفتَكَ مشحونةً بسيئاتٍ طالَ في الصبرِ عنها نصبُكَ ، واشتدَّ بسببِ الكفِّ عنها عناؤُكَ ، فتقولُ : يا ربِّ ؛ هـٰذهِ سيئاتٌ ما قارفتُها قطُّ ، فيُقالُ : هـٰذهِ سيئاتُ القومِ الذينَ اغتبتَهُمْ وشتمتَهُمْ وقصدتَهُمْ بالسوءِ ، وظلمتَهُمْ في المبايعةِ والمجاورةِ والمخاطبةِ ، والمناظرةِ والمذاكرةِ والمدارسةِ وسائرِ أصنافِ المعاملةِ ؟!

قالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ قدْ يئسَ أنْ تُعبدَ الأصنامُ بأرضِ العربِ ، ولـٰكنْ سيرضىٰ منْكُمْ بما هوَ دونَ ذٰلكَ ؛ بالمحقَّراتِ وهيَ الموبقاتُ ، فاتقوا الظلمَ ما استطعتُم ؛ فإنَّ العبدَ ليجيءُ يومَ القيامةِ بأمثالِ الجبالِ مِنَ الطاعاتِ فيرىٰ أنهنَّ سينجينَهُ ، فما يزالُ عبدٌ يجيءُ فيقولُ : يا ربِّ ؛ إنَّ فلاناً ظلمَني بمظلمةٍ ، فيقولُ : امحُ مِنْ حسناتِهِ ، فما يزالُ كذٰلكَ حتىٰ لا يبقىٰ لهُ مِنْ حسناتِهِ شيءٌ ، وإنَّ مثلَ ذٰلكَ مثلُ سفرٍ نزلوا بفلاةٍ مِنَ الأرضِ ليسَ معَهُمْ حطبٌ ، فتفرَّقَ القومُ فحطبوا ، فلمْ يلبثوا أنْ أعظموا نارَهم وصنعوا ما أرادوا ، وكذٰلكَ الذنوبُ »[4]

ولمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قالَ الزبيرُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُكرَّرُ علينا ما كانَ بينَنا في الدنيا معَ خواصِّ الذنوبِ ؟ قالَ : « نعمْ ، ليُكرَّرَنَّ عليكم حتىٰ تؤدُّوا إلىٰ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ » فقالَ الزبيرُ : واللهِ ؛ إنَّ الأمرَ لشديدٌ[5]

فأعظمْ بشدَّةِ يومٍ لا يُسامحُ فيهِ بخطوةٍ ، ولا يُتجاوزُ فيهِ عنْ لطمةٍ ولا عنْ كلمةٍ ، حتىٰ يُنتقمَ للمظلومِ مِنَ الظالمِ .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/١٦٢) ، والطيالسي في « مسنده » (٤٨٠) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٣١٧)

(٤) رواه أبو يعلىٰ في « المسند » (٥١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٧٧) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (١/١٦٧) ، وعند الترمذي (٣٢٣٦) نحوه .

قالَ أنسٌ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يحشرُ اللهُ العبادَ عراةً غبراً بُهماً » قالَ : قلنا : ما بُهماً ؟ قالَ : « ليسَ معَهُم شيءٌ ، ثمَّ يناديهم ربُّهم تعالىٰ بصوتٍ يسمعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يسمعُهُ مَنْ قربَ : أنا الملكُ ، أنا الدَّيَّانُ ، لا ينبغي لأحدٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ أنْ يدخلَ الجنَّةَ ولأحدٍ مِنْ أهلِ النَّارِ عليهِ مظلمةٌ حتىٰ أقتصَّهُ منهُ ، ولا لأحدٍ مِنْ أهلِ النَّارِ أنْ يدخلَ النَّارَ ولأحدٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ عندَهُ مظلمةٌ حتىٰ أقتصَّهُ منهُ حتى اللطمةُ » قلنا : وكيفَ وإنَّما نأتي اللهَ عزَّ وجلَّ عراةً غبراً بهماً ؟ فقالَ : « بالحسناتِ والسيئاتِ »[1]

فاتَّقوا اللهَ عبادَ اللهِ ، ومظالمَ العبادِ بأخذِ أموالِهِمْ ، والتعرُّضِ لأعراضِهِمْ ، وتضييقِ قلوبِهِمْ ، وإساءةِ الخلقِ في معاشرتِهِمْ ؛ فإنَّ ما بينَ العبدِ وبينَ اللهِ خاصةً فالمغفرةُ إليهِ أسرعُ .

ومَنِ اجتمعَتْ عليهِ مظالمُ وقدْ تابَ عنها ، وعسرَ عليهِ استحلالُ أربابِ المظالمِ . . فليكثرْ مِنْ حسناتِهِ ليومِ القصاصِ ، وليسرَّ ببعضِ الحسناتِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ بكمالِ الإخلاصِ بحيثُ لا يطلعُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالىٰ ، فعساهُ يقرِّبُهُ ذٰلكَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فينالَ بهِ لطفَهُ الذي ادَّخرَهُ لأحبابِهِ المؤمنينَ في دفعِ مظالمِ العبادِ عنهُمْ ؛ كما رُويَ عنْ أنسٍ أنَّهُ قالَ : بينَما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالسٌ ؛ إذْ رأيناهُ ضحكَ حتىٰ بدَتْ ثناياهُ ، فقالَ عمرُ : ما يضحكُكَ يا رسولَ اللهِ بأبي أنتَ وأمِّي ؟ قالَ : « رجلانِ مِنْ أُمَّتي جثيا بينَ يديْ ربِّ العزَّةِ ، فقالَ أحدُهُما : يا ربِّ ؛ خذْ لي مظلمَتي مِنْ أخي ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : أعطِ أخاكَ مظلمتَهُ ، فيقولُ : يارَبِّ ؛ لمْ يبقَ مِنْ حسناتي شيءٌ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ للطالبِ : كيفَ تصنعُ ولمْ يبقَ مِنْ حسناتِهِ شيءٌ ؟! قالَ : يا ربِّ ؛ يتحمَّلُ عني مِنْ أوزاري » قالَ : وفاضَتْ عينا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالبكاءِ ثمَّ قالَ : « إنَّ ذٰلكَ ليومٌ عظيمٌ ، يومٌ يحتاجُ الناسُ إلىٰ أنْ يُحملَ عنهم مِنْ أوزارِهِمْ » ، قالَ : « فقالَ اللهُ تعالىٰ للطالبِ : ارفعْ رأسَكَ ، فانظرْ في الجنانِ ، فرفعَ رأسَهُ فقالَ : يا ربِّ ؛ أرىٰ مدائنَ مِنْ فضةٍ مرتفعةً ، وقصوراً مِنْ ذهبٍ مكللةً باللؤلؤِ ، لأيِّ نبيٍّ هـٰذا ؟ أوْ لأيِّ صدِّيقٍ هـٰذا ؟ أوْ لأيِّ شهيدٍ هـٰذا ؟ قالَ : لمَنْ أعطى الثَّمنَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ ومَنْ يملكُ ثمنَهُ ؟! قالَ : أنتَ تملكُهُ ، قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : عفوُكَ عنْ أخيكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ إنِّي قدْ عفوتُ عنهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : خُذْ بيدِ أخيكَ فأدخلْهُ الجنَّةَ » ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ ذٰلكَ : « اتَّقوا اللهَ وأصلحوا ذاتَ بينِكُمْ ؛ فإنَّ اللهَ يصلحُ بينَ المؤمنينَ »[2]

وهـٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ ذٰلكَ إنَّما يُنالُ بالتخلُّقِ بأخلاقِ اللهِ ، وهوَ إصلاحُ ذاتِ البينِ وسائرُ الأخلاقِ .

فتفكَّرِ الآنَ في نفسِكَ إنْ خلَتْ صحيفتُكَ عنِ المظالمِ ، أوْ تلطَّفَ لكَ حتىٰ عفا عنكَ وأيقنتَ بسعادةِ الأبدِ . . كيفَ يكونُ سرورُكَ في منصرفِكَ مِنْ مفصلِ القضاءِ وقدْ خلعَ عليكَ خلعةَ الرضا ، وعُدتَ بسعادةٍ ليسَ بعدَها شقاءٌ ، وبنعيمٍ لا يدورُ بحواشيهِ الفناءُ وعندَ ذٰلكَ طارَ قلبُكَ سروراً وفرحاً ، وابيضَّ وجهُكَ واستنارَ ، وأشرقَ كما يشرقُ القمرُ ليلةَ البدرِ ؟!

فتوهَّمْ تبخترَكَ بينَ الخلائقِ رافعاً رأسَكَ ، خالياً عَنِ الأوزارِ ظهرُكَ ، ونضرةُ نسيمِ النعيمِ وبردُ الرضا يتلألأُ مِنْ جبينِكَ ، وخلقُ الأولينَ والآخرينَ ينظرونَ إليكَ وإلىٰ حالِكَ ، ويغبطونَكَ في حسنِكَ وجمالِكَ ، والملائكةُ يمشونَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤٩٥/٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٧٤/٤) من حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ، وهو ما صوبه الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤٧٨/١٠) ، وفي غير (أ ، ص) : (وإنما نأتي الله عراةً غرلاً بهماً) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٧٦/٤) .

بينَ يديكَ ومِنْ خلقِكَ ، وينادونَ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ : هٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، رضيَ اللهُ عنهُ وأرضاهُ ، وقدْ سعدَ سعادةً لا يشقىٰ بعدَها أبداً ، أفترىٰ أنَّ هٰذا المنصبَ ليسَ بأعظمَ مِنَ المكانةِ التي تنالُها في قلوبِ الخلقِ في الدنيا بريائِكَ ومداهنتِكَ وتصنُّعِكَ وتزيُّنِكَ ؟

فإنْ كنتَ تعلمُ أنَّهُ خيرٌ منهُ ، بلْ لا نسبةَ لهُ إليهِ . . فتوسَّلْ إلىٰ إدراكِ هٰذهِ الرتبةِ بالإخلاصِ الصافي ، والنيَّةِ الصادقةِ في معاملتِكَ معَ اللهِ تعالىٰ ، فلنْ تدركَ ذٰلكَ إلَّا بهِ .

وإنْ تكنِ الأخرىٰ ـ والعياذُ باللهِ ـ بأنْ خرجَتْ مِنْ صحيفتِكَ جريمةٌ ، كنتَ تحسبُها هيِّنةً وهيَ عندَ اللهِ عظيمةٌ ، فمقتَكَ لأجلِها فقالَ عزَّ وجلَّ : عليكَ لعنتي يا عبدَ السوءِ ، لا أتقبلُ منكَ عبادتَكَ . . فلا تسمعُ هٰذا النداءَ إلَّا ويسودُّ وجهُكَ ، ثمَّ تغضبُ الملائكةُ لغضبِ اللهِ تعالىٰ فيقولونَ : وعليكَ لعنتُنا ولعنةُ الخلائقِ أجمعينَ .

وعندَ ذٰلكَ تنثالُ إليكَ الزَّبانيةُ وقدْ غضبَتْ لغضبِ خالقِها ، فأقدمَتْ عليكَ بفظاظتِها وزعارَّتِها وصورِها المنكرةِ [1] ، فأخذوا بناصيتِكَ يسحبونَكَ علىٰ وجهِكَ علىٰ ملأ الخلقِ وهمْ ينظرونَ إلىٰ سوادِ وجهِكَ ، وإلىٰ ظهورِ خزيِكَ ، وأنتَ تنادي بالويلِ والثبورِ ، وهمْ يقولونَ لكَ : لا تدعُ اليومَ ثبوراً واحداً وادعُ ثبوراً كثيراً .

وتنادي الملائكةُ ويقولونَ : هٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، كشفَ اللهُ عنْ فضائِحِهِ ومخازيهِ ، ولعنَهُ بقبائحِ مساويهِ ، فشقيَ شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً .

وربَّما يكونُ ذٰلكَ بذنبٍ أذنبتَهُ خيفةً مِنْ عبادِ اللهِ ، أوْ طلباً للمكانةِ في قلوبِهِمْ ، أوْ خوفاً مِنَ الافتضاحِ عندَهم ، فما أعظمَ جهلَكَ إذْ تحترزُ مِنَ الافتضاحِ عندَ طائفةٍ يسيرةٍ مِنْ عبادِ اللهِ في الدنيا المنقرضةِ ، ثمَّ لا تخشىٰ مِنَ الافتضاحِ العظيمِ في ذٰلكَ الملأ العظيمِ معَ التعرُّضِ لسخطِ اللهِ تعالىٰ وعقابِهِ الأليمِ ، والسياقِ بأيدي الزبانيةِ إلىٰ سواءِ الجحيمِ !!

فهٰذهِ أحوالُكَ وأنتَ بعدُ لمْ تشعرْ بالخطرِ الأعظمِ ، وهوَ خطرُ الصِّراطِ .

❋ ❋ ❋

(١) **زعارَّتها** : شراسة الخُلُق .

صفة الصراط

ثمَّ تفكَّرْ بعدَ هـٰذهِ الأهوالِ في قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ ، وفي قولهِ تعالىٰ : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ .

فالنَّاسُ بعدَ هـٰذهِ الأهوالِ يُساقونَ إلى الصِّراطِ ، وهوَ جسرٌ ممدودٌ علىٰ متنِ النَّارِ ، أحدُّ مِنَ السيفِ وأدقُّ مِنَ الشَّعْرِ ، مَنِ استقامَ في هـٰذا العالمِ على الصراطِ المستقيمِ . . خفَّ علىٰ صراطِ الآخرةِ ونجا ، ومَنْ عدلَ عنِ الاستقامةِ في الدنيا وأثقلَ الظهرَ بالأوزارِ وعصىٰ . . تعثَّرَ في أولِ قدمٍ مِنَ الصراطِ وتردَّىٰ .

فتفكَّرِ الآنَ فيما يحلُّ مِنَ الفزعِ بفؤادِكَ إذا رأيتَ الصراطَ ودقَّتَهُ ، ثمَّ وقعَ بصرُكَ علىٰ سوادِ جهنَّمَ مِنْ تحتِهِ ، ثمَّ قرعَ سمعَكَ شهيقُ النَّارِ وتغيُّظُها ، وقدْ كُلِّفتَ أن تمشيَ على الصراطِ معَ ضعفِ حالِكَ ، واضطرابِ قلبِكَ ، وتزلزلِ قدمِكَ ، وثقلِ ظهرِكَ بالأوزارِ المانعةِ لكَ عنِ المشيِ علىٰ بساطِ الأرضِ فضلاً عنْ حدَّةِ الصراطِ ، فكيفَ بكَ إذا وضعتَ عليهِ إحدىٰ رجليكَ فأحسستَ بحدَّتِهِ ، واضطررتَ إلىٰ أنْ ترفعَ القدمَ الثانيةَ والخلائقُ بينَ يديكَ يزلُّونَ ويتعثَّرونَ ، وتتناولُهُمْ زبانيةُ النارِ بالخطاطيفِ والكلاليبِ ، وأنتَ تنظرُ إليهِمْ كيفَ يتنكسونَ فتتسفَّلُ إلىٰ جهةِ النارِ رؤوسُهُمْ وتعلو أرجلُهُمْ ؟! فيا لَهُ مِنْ منظرٍ ما أفظعَهُ ، ومرتقىً ما أصعبَهُ ، ومجازٍ ما أضيقَهُ !!

فانظرْ إلىٰ حالِكَ وأنتَ ترجفُ عليهِ وتصعدُ إليهِ وأنتَ مثقلُ الظهرِ بأوزارِكَ ، تلتفتُ يميناً وشمالاً إلى الخلقِ وهمْ يتهافتونَ في النارِ ، والرسولُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ يقولُ : « يا ربِّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ » والزعقاتُ بالويلِ والثبورِ قدِ ارتفعَتْ إليكَ مِنْ قعرِ جهنَّمَ ؛ لكثرةِ مَنْ زلَّ عنِ الصِّراطِ مِنَ الخلائقِ .

فكيفَ بكَ لوْ زلَّتْ قدمُكَ ، ولم ينفعْكَ ندمُكَ ، وقلتَ : وا ويلاهُ ، هـٰذا ما كنتُ أخافُهُ ، فيا ليتَني قدَّمتُ لحياتي ، يا ليتَني اتخذتُ معَ الرسولِ سبيلاً ، يا ويلتا ليتَني لمْ أتخذْ فلاناً خليلاً ، يا ليتَني كنتُ تراباً ، يا ليتَني كنتُ نسياً منسيّاً ، يا ليتَ أمِّي لمْ تلدْني ؟!

وعندَ ذٰلكَ تختطفُكَ النيرانُ والعياذُ باللهِ ، وينادي المنادي : اخسؤوا فيها ولا تكلِّمونِ ، فلا يبقىٰ سبيلٌ إلَّا الصياحُ والأنينُ والتنفسُ والاستغاثةُ .

فكيفَ ترى الآنَ عقلَكَ وهـٰذهِ الأخطارُ بينَ يديكَ ، فإنْ كنتَ غيرَ مؤمنٍ بذٰلكَ . . فما أطولَ مقامَكَ معَ الكفَّارِ في دركاتِ جهنَّمَ !!

وإنْ كنتَ بهِ مؤمناً وعنهُ غافلاً ، وبالاستعدادِ لهُ متهاوناً . . فما أعظمَ خسرانَكَ وطغيانَكَ !!

وماذا ينفعُكَ إيمانُكَ إذا لمْ يبعثْكَ على السعيِ في طلبِ رضا اللهِ بطاعتِهِ وتركِ معاصيهِ ؟!

فلوْ لمْ يكنْ بينَ يديكَ إلَّا هولُ الصراطِ وارتياعُ قلبِكَ مِنْ خطرِكَ في الجوازِ عليهِ وإنْ سلمتَ . . فناهيكَ بهِ هولاً وفزعاً ورعباً .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُضربُ الصِّراطُ بينَ ظهراني جهنَّمَ ، فأكونُ أوَّلَ مَنْ يجيزُ بأمَّتِهِ مِنَ الرسلِ ، ولا يتكلمُ يومَئذٍ إلَّا الرسلُ ، ودعوى الرسلِ يومَئذٍ : اللهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، وفي جهنَّمَ كلاليبُ مثلُ شوكِ السعدانِ ، هلْ

رأيتُمْ شوكَ السعدانِ ؟ » قالوا : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فإنَّها مثلُ شوكِ السعدانِ ، غيرَ أنَّهُ لا يعلمُ قدرَ عظمِها إلَّا اللهُ تعالىٰ ، تختطفُ الناسَ بأعمالِهِم ، فمنهم مَنْ يُوبقُ بعملِهِ ، ومنهم مَنْ يُخردلُ ثمَّ ينجو »(١)

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يمرُّ الناسُ علىٰ جسرِ جهنَّمَ وعليهِ حسكٌ وكلاليبُ وخطاطيفُ تختطفُ الناسَ يميناً وشمالاً ، وعلىٰ جنبتيهِ ملائكةٌ يقولونَ : اللهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ يمرُّ مثلَ البرقِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالريحِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالفرسِ المُجْرَىٰ ، ومنهم مَنْ يسعىٰ سعياً ، ومنهم مَنْ يمشي مشياً ، ومنهم مَنْ يحبو حبواً ، ومنهم مَنْ يزحفُ زحفاً ، فأمَّا أهلُ النَّارِ الذين همْ أهلُها . . فلا يموتونَ ولا يحيَوْنَ ، وأمَّا أناسٌ . . فيُؤخذونَ بذنوبٍ وخطايا فيحترقونَ فيكونونَ فحماً ، ثمَّ يُؤذنُ في الشفاعةِ . . . » الحديثَ(٢)

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يجمعُ اللهُ تعالى الأولينَ والآخرينَ لميقاتِ يومٍ معلومٍ قياماً أربعينَ سنةً ، شاخصةً أبصارُهُمْ إلى السماءِ ، ينتظرونَ فصلَ القضاءِ . . . » وذكرَ الحديثَ إلىٰ أنْ ذكرَ وقتَ سجودِ المؤمنينَ ، قالَ : « ثمَّ يقولُ للمؤمنينَ : ارفعوا رؤوسَكم ، فيرفعونَ رؤوسَهم ، فيعطيهم نورَهم علىٰ قدرِ أعمالِهِم ، فمنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ مثلَ الجبلِ العظيمِ يسعىٰ بينَ يديهِ ، ومنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ أصغرَ مِنْ ذٰلكَ ، ومنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ مثلَ النخلةِ بيمينِهِ ، ومنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ أصغرَ مِنْ ذٰلكَ ، حتىٰ يكونَ آخرُهُم رجلاً يُعطىٰ نورَهُ علىٰ إبهامِ قدمِهِ فيضيءُ مرةً ويطفأُ مرةً ، فإذا أضاءَ . . قدَّمَ قدمَهُ فمشىٰ ، وإذا طَفِئَ . . قامَ » .

ثمَّ ذكرَ مرورَهم على الصِّراطِ علىٰ قدرِ نورِهِم ، فمنهم مَنْ يمرُّ كطرفِ العينِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالبرقِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالسحابِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كانقضاضِ الكوكبِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالريحِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كشدِّ الفرسِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كشدِّ الرجلِ ، حتىٰ يمرَّ الذي أُعطي نورَهُ علىٰ إبهامِ قدمِهِ يحبو علىٰ وجهِهِ ويديهِ ورجليهِ ، يجرُّ يداً ويعلقُ يداً ، ويجرُّ رجلاً ويعلقُ رجلاً ، وتصيبُ جوانبَهُ النَّارُ ، قالَ : « فلا يزالُ كذٰلكَ حتىٰ يخلصَ ، فإذا خلصَ . . وقفَ عليها ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ ؛ لقد أعطاني اللهُ ما لم يُعطِ أحداً ؛ إذْ نجاني منها بعدَ إذْ رأيتُها ، فيُنطلقُ بهِ إلىٰ غديرٍ عندَ بابِ الجنَّةِ فيغتسلُ »(٣) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « الصِّراطُ كحدِّ السيفِ ـ أو كحدِّ الشعرةِ ـ وإنَّ الملائكةَ ينجُّونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ ، وإنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ لآخذٌ بحجزتي وإنِّي لأقولُ : يا ربِّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، فالزَّالّونَ والزَّالّاتُ يومَئذٍ كثيرٌ »(٤)

فهٰذهِ أهوالُ الصراطِ وعظائمُهُ ، فطوِّلْ فيهِ فكرَكَ ؛ فإنَّ أسلمَ الناسِ مِنْ أهوالِ يومِ القيامةِ مَنْ طالَ فيهِ فكرُهُ في الدنيا ؛ **فإنَّ اللهَ لا يجمعُ علىٰ عبدِهِ خوفينِ ، فمَنْ خافَ هٰذهِ الأهوالَ في الدنيا . . أمنَها في الآخرةِ .**

ولسْتُ أعني بالخوفِ رقَّةً كرقَّةِ النساءِ تدمعُ عينُكَ ويرقُّ قلبُكَ حالَ السماعِ ، ثمَّ تنساهُ على القربِ وتعودُ إلىٰ لهوِكَ ولعبِكَ ، فما ذٰلكَ مِنَ الخوفِ في شيءٍ ، بلْ مَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ ، ومَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، فلا ينجيكَ إلَّا خوفٌ يمنعُكَ عنْ معاصي اللهِ تعالىٰ ويحثُّكَ علىٰ طاعتِهِ .

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) ، والسعدان : نبت بالبادية شوكه مفرطح . « إتحاف » (٤٨٢/١٠) .

(٢) رواه ابن حبان (٧٣٧٩) ، وأحمد في « المسند » (٢٥/٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٤١٧/٩ ـ ٤١٨) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٦١)

وأبعدُ مِنْ رقَّةِ النساءِ خوفُ الحمقىٰ ؛ إذا سمعوا الأهوالَ . . سبقَتْ ألسنتُهُمْ إلى الاستعاذةِ فقالَ أحدُهُمْ : استعنتُ باللهِ ، نعوذُ باللهِ ، اللَّهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، وهمْ معَ ذٰلكَ مصرُّونَ على المعاصي التي هي سببُ هلاكِهِم ، فالشيطانُ يضحكُ منِ استعاذتِهِمْ ؛ كما يُضحكُ علىٰ مَنْ يقصدُهُ سبعٌ ضارٍ في صحراءَ ووراءَهُ حصنٌ ، فإذا رأىٰ أنيابَ السبعِ وصولتَهُ مِنْ بُعدٍ . . قالَ بلسانِهِ : أعوذُ بهٰذا الحصنِ الحصينِ ، وأستعينُ بشدَّةِ بنيانِهِ وإحكامِ أركانِهِ ، فيقولُ ذٰلكَ بلسانِهِ وهوَ قاعدٌ في مكانِهِ ، فأنَّىٰ يغني ذٰلكَ عنهُ مِنَ السبعِ ؟!

وكذٰلكَ أهوالُ الآخرةِ ليسَ لها حصنٌ إلَّا قولُ : (لا إلٰهَ إلَّا اللهُ) صادقاً ، ومعنىٰ صدقِهِ : ألَّا يكونَ لهُ مقصودٌ سوى اللهِ تعالىٰ ، ولا معبودٌ غيرَهُ ، وأمَّا مَنِ اتخذَ إلٰههُ هواهُ . . فهوَ بعيدٌ عنِ الصدقِ في توحيدِهِ ، وأمرُهُ مخطرٌ في نفسِهِ .

فإنْ عجزتَ عَنْ ذٰلكَ كلِّهِ . . فكنْ محبّاً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حريصاً علىٰ تعظيمِ سنَّتِهِ ، متشوِّقاً إلىٰ مراعاةِ قلوبِ الصالحينَ مِنْ أمَّتِهِ ، ومتبرّكاً بأدعيتِهِمْ ، فعساكَ تنالُ منْ شفاعتِهِ أو شفاعتِهِمْ ، فتنجوَ بالشفاعةِ إنْ كنتَ قليلَ البضاعةِ .

* * *

صفة الشفاعة

اعلمْ : أنَّهُ إذا حقَّ دخولُ النارِ علىٰ طوائفَ مِنَ المؤمنينَ . . فإنَّ اللهَ تعالىٰ بفضلِهِ يقبلُ فيهم شفاعةَ الأنبياءِ والصديقينَ ، بلْ شفاعةَ العلماءِ والصالحينَ .

وكلُّ مَنْ لهُ عندَ اللهِ تعالىٰ جاهٌ بحسنِ معاملةٍ . . فإنَّ لهُ شفاعةً في أهلِهِ وقرابتِهِ ، وأصدقائِهِ ومعارفِهِ .

فكنْ حريصاً علىٰ أنْ تكتسبَ لنفسِكَ عندَهم رتبةَ الشفاعةِ ؛ وذٰلكَ بألَّا تحقرَ آدمياً أصلاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خبأَ ولايتَهُ في عبادِهِ ، فلعلَّ الذي تزدريهِ عينُكَ هوَ وليُّ اللهِ ، ولا تستصغرْ معصيةً أصلاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خبأَ غضبَهُ في معاصيهِ ، فلعلَّ مقتَ اللهِ فيهِ ، ولا تستحقرْ طاعةً أصلاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خبأَ رضاهُ في طاعتِهِ ، فلعلَّ رضا اللهِ فيهِ ولوِ الكلمةَ الطيبةَ ، أو اللقمةَ أو النيَّةَ الحسنةَ ، أو ما يجري مجراهُ .

وشواهدُ الشفاعةِ في القرآنِ والأخبارِ كثيرةٌ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ .

روىٰ عمرُو بنُ العاصِ : (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلا قولَهُ تعالىٰ إخباراً عَنْ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وقولَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ثمَّ رفعَ يديهِ وقالَ : « أمَّتي أمَّتي » ثمَّ بكىٰ ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا جبريلُ ؛ اذهبْ إلىٰ محمَّدٍ فسلْهُ : ما يبكيكَ ؟ فأتاهُ جبريلُ فسألَهُ ، فأخبرَهُ واللهُ أعلمُ بهِ ، فقالَ : يا جبريلُ ؛ اذهبْ إلىٰ محمَّدٍ فقلْ لهُ : إنَّا سنرضيكَ في أمَّتِكَ ولا نسوءُكَ)[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُعطيتُ خمساً لمْ يُعطهنَّ أحدٌ قبلي : نُصرتُ بالرعبِ مسيرةَ شهرٍ ، وأُحلَّتْ ليَ الغنائمُ ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي ، وجُعلَتْ ليَ الأرضُ مسجداً وترابُها طهوراً ، فأيُّما رجلٍ مِنْ أمَّتي أدركَتْهُ الصلاةُ . . فليصلِّ ، وأُعطيتُ الشفاعةَ ، وكلُّ نبيٍّ بُعثَ إلىٰ قومِهِ خاصَّةً ، وبُعثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . كنتُ إمامَ النَّبيِّينَ ، وخطيبَهُمْ وصاحبَ شفاعتِهِمْ مِنْ غيرِ فخرٍ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ ، وأنا أوَّلُ مَنْ تنشقُّ الأرضُ عنهُ ، وأنا أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مشفَّعٍ ، بيدي لواءُ الحمدِ تحتَهُ آدمُ فمَنْ دونَهُ »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ ، فأريدُ أنْ أختبئَ دعوتي شفاعةً لأمَّتي يومَ القيامةِ »[5]

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وهو ما صوَّبه الحافظان العراقي والزبيدي في « الإتحاف » (٤٨٧/١٠) .

(٢) رواه البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) .

(٣) رواه الترمذي (٣٦١٣) ، وابن ماجه (٤٣١٤) .

(٤) رواه الترمذي (٣٦١٥) ، وابن ماجه (٤٣٠٨) ، وعند مسلم (٢٢٧٨) نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري (٦٣٠٤) ، ومسلم (١٩٨) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُنصبُ للأنبياءِ منابرُ مِنْ ذهبٍ ، فيجلسونَ عليها ويبقىٰ منبري لا أجلسُ عليهِ قائماً بينَ يديْ ربِّي منتصباً ؛ مخافةَ أنْ يُبعثَ بي إلى الجنَّةِ وتبقىٰ أمَّتي بعدي ، فأقولُ : يا ربِّ ؛ أمَّتي ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا محمدُ ؛ وما تريدُ أنْ أصنعَ بأمَّتِكَ ؟ فأقولُ : يا ربِّ ؛ عجِّلْ حسابَهُمْ ، فما أزالُ أشفعُ حتىٰ أُعطىٰ صكاكاً برجالٍ قدْ بُعثَ بِهِمْ إلى النَّارِ ، وحتىٰ إنَّ مالكاً خازنَ النارِ يقولُ : يا محمدُ ؛ ما تركتَ للنارِ لغضبِ ربِّكَ في أمَّتِكَ مِنْ بقيَّةٍ »(١)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأشفعُ يومَ القيامةِ لأكثرَ ممَّا علىٰ وجهِ الأرضِ مِنْ حجرٍ ومدرٍ »(٢)

وقالَ أبو هريرةَ أُتيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بلحمٍ ، فرُفعَ إليهِ الذراعُ وكانَتْ تعجبُهُ ، فنهسَ منها نهسةً ثمَّ قالَ : « أنا سيِّدُ النَّاسِ يومَ القيامةِ ، وهلْ تدرونَ ممَّ ذٰلكَ ؟ يجمعُ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ في صعيدٍ واحدٍ ، يُسمِعُهُمُ الداعي وينفذُهُمُ البصرُ ، وتدنو الشمسُ فيبلغُ النَّاسَ مِنَ الغمِّ والكربِ ما لا يطيقونَ ولا يحتملونَ ، فيقولُ النَّاسُ بعضُهُمْ لبعضٍ : ألا ترونَ ما قدْ بلغَكُمْ ؟! ألا تنظرونَ مَنْ يشفعُ لكمْ إلىٰ ربِّكم ؟!

فيقولُ بعضُ النَّاسِ لبعضٍ : عليكُمْ بآدمَ عليهِ السَّلامُ ، فيأتونَ آدمَ فيقولونَ لهُ : أنتَ أبو البشرِ ، خلقَكَ اللهُ بيدِهِ ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ ، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لكَ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! ألا ترىٰ إلىٰ ما قدْ بلغَنا ؟! فيقولُ لهُمْ آدمُ عليهِ السَّلامُ : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنَّهُ قدْ نهاني عنِ الشجرةِ فعصيتُهُ ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ نوحٍ .

فيأتونَ نوحاً عليهِ السَّلامُ فيقولونَ : يا نوحُ ؛ أنتَ أوَّلُ الرسلِ إلىٰ أهلِ الأرضِ ، وقد سمَّاكَ اللهُ عبداً شكوراً ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنَّهُ قدْ كانَتْ لي دعوةٌ دعوتُها علىٰ قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ إبراهيمَ خليلِ اللهِ .

فيأتونَ إبراهيمَ خليلَ اللهِ عليهِ السَّلامُ فيقولونَ : أنتَ نبيُّ اللهِ وخليلُهُ مِنْ أهلِ الأرضِ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ لهم : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنِّي كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذباتٍ ـ ويذكرُها ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ موسىٰ .

فيأتونَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ فيقولونَ : يا موسىٰ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ فضَّلَكَ اللهُ برسالتِهِ وبكلامِهِ على النَّاسِ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنِّي قتلتُ نفساً لمْ أُومرْ بقتلِها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ .

فيأتونَ عيسىٰ فيقولونَ : يا عيسىٰ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلىٰ مريمَ وروحٌ منهُ ، وكلَّمتَ النَّاسَ في المهدِ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : إنَّ ربِّي غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ـ ولمْ يذكرْ ذنباً ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٦٥ ـ ٦٦) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٩٥٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/٣٤٧) من حديث بريدة رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (٥٣٥٦) من حديث أنيس الأنصاري رضي الله عنه .

فيأتوني فيقولونَ : يا محمَّدُ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وخاتمُ النَّبيّينَ ، وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟!

فأنطلقُ فآتي تحتَ العرشِ ، فأقعُ ساجداً لربِّي ، ثمَّ يفتحُ اللهُ لي مِنْ محامدِهِ وحسنِ الثناءِ عليهِ شيئاً لمْ يفتحْهُ علىٰ أحدٍ قبلي ، ثمَّ يُقالُ : يا محمَّدُ ؛ ارفعْ رأسَكَ ، سلْ تُعطَ ، واشفعْ تُشفَّعْ ، فأرفعُ رأسي فأقولُ : أمَّتي أمَّتي يا ربِّ ، فيُقالُ : يا محمَّدُ ؛ أدخلْ مِنْ أمَّتِكَ مَنْ لا حسابَ عليهم مِنَ البابِ الأيمنِ مِنْ أبوابِ الجنَّةِ ، وهمْ شركاءُ الناسِ فيما سوىٰ ذٰلكَ مِنَ الأبوابِ » ، ثمَّ قالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ بينَ المصراعينِ مِنْ مصاريعِ الجنَّةِ كما بينَ مكَّةَ وحِمْيَرَ ، أوْ كما بينَ مكةَ وبصرىٰ »(1)

وفي حديثٍ آخرَ : هٰذا السياقُ بعينِهِ معَ ذكرِ خطايا إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ وهوَ قولُهُ في الكواكبِ : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ، وقولُهُ لآلهتِهِمْ : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾(2)

فهٰذهِ شفاعةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولآحادِ أمَّتِهِ مِنَ العلماءِ والصالحينَ شفاعةٌ أيضاً حتىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدخلُ الجنَّةَ بشفاعةِ رجلٍ منْ أمَّتي أكثرُ مِنْ ربيعةَ ومضَرَ »(3)

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُقالُ للرجلِ : قمْ يا فلانُ فاشفعْ ، فيقومُ الرجلُ فيشفعُ للقبيلةِ ولأهلِ البيتِ ، وللرجلِ والرجلينِ ؛ علىٰ قدرِ عملِهِ »(4)

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الجنَّةِ يشرفُ يومَ القيامةِ علىٰ أهلِ النَّارِ ، فيناديهِ رجلٌ مِنْ أهلِ النَّارِ ويقولُ : يا فلانُ ؛ هلْ تعرفُني ؟ فيقولُ : لا واللهِ ؛ ما أعرفُكَ ، مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا الذي مررتَ بي في الدنيا فاستسقيتَني شربةَ ماءٍ فسقيتُكَ ، قالَ : قدْ عرفتُ ، قالَ : فاشفعْ لي بها عندَ ربِّكَ ، فيسألُ اللهَ تعالىٰ ذكرُهُ ويقولُ : أيْ ربِّ ؛ إنِّي أشرفتُ علىٰ أهلِ النَّارِ فناداني رجلٌ مِنْ أهلِها فقالَ : هلْ تعرفُني ؟ فقلتُ : لا ، مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : أنا الذي استسقيتَني في الدنيا فسقيتُكَ ، فاشفعْ لي بها عندَ ربِّكَ ، فشفِّعْني فيه ، فيشفِّعُهُ اللهُ فيهِ ، فيُؤمرُ بهِ فيُخرجُ منَ النَّارِ »(5)

وعَنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا أوَّلُ النَّاسِ خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا خطيبُهُمْ إذا وفدوا ، وأنا مبشِّرُهم إذا يئسوا ، لواءُ الحمدِ يومَئذٍ بيدي ، وأنا أكرمُ ولدِ آدمَ علىٰ ربِّي ولا فخرَ »(6)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي أقومُ بينَ يدَي ربِّي عزَّ وجلَّ فأُكسىٰ حُلةً مِنْ حُللِ الجنَّةِ ، ثمَّ أقومُ عنْ يمينِ العرشِ ليسَ أحدٌ مِنَ الخلائقِ يقومُ ذٰلكَ المقامَ غيري »(7)

---

(1) رواه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) ، وفي غير (أ ، د ، ن) : (فنهش منها نهشة) بدل (فنهس منها نهسة) وهي رواية أبي ذر الهروي لـ « صحيح البخاري » ، والمعنىٰ : قبض عليها وتناولها بمقدم أسنانه ، وقال ثعلب : بالمهملة يكون بأطراف الأسنان ، وبالمعجمة بها وبالأضراس . انظر « الإتحاف » (١٠/٤٨٩)

(2) رواه مسلم (١٩٤/٣٢٨) .

(3) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٤٠٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٠٠٩) عن الحسن مرسلاً .

(4) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/١٠٥) ، وعند الترمذي (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة » .

(5) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٩٠) .

(6) رواه الترمذي (٣٦١٠) .

(7) رواه الترمذي (٣٦١١) ، وأول الحديث : « أنا أول من تنشق عنه الأرض . . . » .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : جلسَ ناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينتظرونَهُ ، فخرجَ ، حتىٰ إذا دنا منهم . . سمعَهُمْ يتذاكرونَ ، فسمعَ حديثَهُمْ ، فقالَ بعضُهم : عجباً !! إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ اتخذَ مِنْ خلقِهِ خليلاً ؛ اتخذَ إبراهيمَ خليلاً ، وقالَ آخرُ : ماذا بأعجبَ مِنْ كلامِ موسىٰ !! كلَّمَهُ تكليماً ، وقالَ آخرُ : فعيسىٰ كلمةُ اللهِ وروحُهُ ، وقالَ آخرُ : آدمُ اصطفاهُ اللهُ ، فخرجَ عليهِمْ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسلَّمَ وقالَ : « قدْ سمعتُ كلامَكُمْ وعجبَكُمْ ، إنَّ إبراهيمَ خليلُ اللهِ وهوَ كذٰلكَ ، وموسىٰ نجيُّ اللهِ وهوَ كذٰلكَ ، وعيسىٰ روحُ اللهِ وكلمتُهُ وهوَ كذٰلكَ ، وآدمُ اصطفاهُ اللهُ وهوَ كذٰلكَ ، ألا وأنا حبيبُ اللهِ ولا فخرَ ، وأنا حاملُ لواءِ الحمدِ يومَ القيامةِ ولا فخرَ ، وأنا أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مشفَّعٍ يومَ القيامةِ ولا فخرَ ، وأنا أوَّلُ مَنْ يحرِّكُ حلقَ الجنَّةِ فيفتحُ اللهُ لي فأدخلُها ومعي فقراءُ المؤمنينَ ولا فخرَ ، وأنا أكرمُ الأولينَ والآخرينَ ولا فخرَ »[(١)]

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٦١٦) .

صفة الحوض

اعلمْ : أنَّ الحوضَ مكرمةٌ عظيمةٌ خصَّ اللهُ بها نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدِ اشتملَتِ الأخبارُ على وصفِهِ ، ونحنُ نرجو أنْ يرزقَنا اللهُ تعالىٰ في الدنيا علمَهُ ، وفي الآخرةِ ذوقَهُ ؛ فإنَّ مِنْ صفاتِهِ أنَّ مَنْ شربَ منهُ لمْ يظمأْ أبداً .

قالَ أنسٌ : أغفىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إغفاءَةً ، فرفعَ رأسَهُ متبسماً ، فقالوا لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لمَ ضحكتَ ؟ فقالَ : « آيةٌ أُنزلَتْ عليَّ آنفاً » وقرأَ : بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ... ﴾ حتىٰ ختمَها ثمَّ قالَ : « هلْ تدرونَ ما الكوثرُ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « إنَّهُ نهرٌ وعدَنيهِ ربِّي عزَّ وجلَّ في الجنَّةِ ، عليهِ خيرٌ كثيرٌ ، عليهِ حوضٌ تردُ عليهِ أمَّتي يومَ القيامةِ ، آنيتُهُ عددُ نجومِ السماءِ »(١)

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينما أنا أسيرُ في الجنَّةِ ؛ إذا أنا بنهرٍ حافتاهُ قبابُ اللؤلؤِ المجوَّفِ ، قلتُ : ما هٰذا يا جبريلُ ؟ قالَ : هٰذا الكوثرُ الذي أعطاكَ ربُّكَ ، فضربَ الملكُ بيدِهِ ؛ فإذا طينُهُ مسكٌ أذفرُ »(٢)

وقالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما بينَ لابتي حوضي مثلُ ما بينَ المدينةِ وصنعاءَ ، أو مثلُ ما بينَ المدينةِ وعمَّانَ »(٣)

وروى ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ نهرٌ في الجنَّةِ ، حافتاهُ مِنْ ذهبٍ ، شرابُهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللَّبنِ وأحلىٰ مِنَ العسلِ ، وأطيبُ ريحاً مِنَ المسكِ ، يجري علىٰ جنادلِ اللؤلؤِ والمرجانِ »(٤)

وقالَ ثوبانُ مولىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ حوضي ما بينَ عدنَ إلىٰ عمَّانَ البلقاءِ ، ماؤُهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللبنِ وأحلىٰ مِنَ العسلِ ، وأكوابُهُ عددُ نجومِ السماءِ ، مَنْ شربَ مِنْهُ شربةً . . لمْ يظمأْ بعدَها أبداً ، أولُ النَّاسِ وروداً عليهِ فقراءُ المهاجرينَ » فقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : ومَنْ هُمْ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « همُ الشعثُ رؤوساً ، الدُّنسُ ثياباً ، الذينَ لا ينكحونَ المتنعِّماتِ ، ولا تُفتحُ لهمْ أبوابُ السددِ » ، فقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : واللهِ ؛ لقدْ نكحتُ المتنعِّماتِ فاطمةَ بنتَ عبدِ الملكِ ، وفُتحَتْ لي أبوابُ السددِ ، إلَّا أنْ يرحمَني اللهُ تعالىٰ ، لا جرمَ لا أدهنُ رأسي حتىٰ يشعثَ ، ولا أغسلُ ثوبي الذي علىٰ جسدي حتىٰ يتَّسخَ(٥)

وعنْ أبي ذرٍّ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما آنيةُ الحوضِ ؟ قالَ : « والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ؛ لآنيتُهُ أكثرُ مِنْ عددِ نجومِ السماءِ وكواكبِها في الليلةِ المظلمةِ المصحيةِ ، مَنْ شربَ منهُ . . لمْ يظمأْ آخرَ ما عليهِ ، يشخبُ فيهِ ميزابانِ مِنَ الجنَّةِ ، عرضُهُ مثلُ طولِهِ ما بينَ عُمانَ وأيلةَ ، ماؤُهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللبنِ وأحلىٰ مِنَ العسلِ »(٦)

---

(١) رواه مسلم (٤٠٠) ، وفي (أ ، ب ، ن) : (عدد الكواكب) .
(٢) رواه البخاري (٦٥٨١) .
(٣) رواه مسلم (٢٣٠٣) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (١١٢/٢) ، وعند الترمذي (٣٣٦١) نحوه .
(٥) رواه الترمذي (٢٤٤٤) ، وابن ماجه (٤٣٠٣) .
(٦) رواه مسلم (٢٣٠٠) .

وعنْ سمرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضاً ، وإنَّهُمْ يتباهونَ أيُّهم أكثرُ واردةً ، وإنِّي لأرجو أنْ أكونَ أكثرَهُمْ واردةً »[1]

فهٰذا رجاءُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فليرجُ كلُّ عبدٍ أنْ يكونَ في جملةِ الواردينَ ، وليحذرْ أنْ يكونَ متمنياً ومغترّاً وهوَ يظنُّ أنَّهُ راجٍ ؛ فإنَّ الراجيَ للحصادِ مَنْ بثَّ البذرَ ، ونقَّى الأرضَ وسقاها الماءَ ، ثمَّ جلسَ يرجو فضلَ اللهِ تعالىٰ بالإنباتِ ودفعِ الصواعقِ إلىٰ أوانِ الحصادِ ، فأمَّا مَنْ تركَ الحراثةَ والزراعةَ وتنقيةَ الأرضِ وسقيَها ، وأخذَ يرجو مِنْ فضلِ اللهِ أنْ ينبتَ لهُ الحبَّ والفاكهةَ . . فهٰذا مغترٌّ ومتمنٍّ ، وليسَ مِنَ الراجينَ في شيءٍ ، وهٰكذا رجاءُ أكثرِ الخلقِ ، وهوَ غرورُ الحمقىٰ ، نعوذُ باللهِ مِنَ الغرورِ والغفلةِ ؛ فإنَّ الاغترارَ باللهِ أعظمُ مِنَ الاغترارِ بالدنيا ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٤٤٣) .

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يا أيُّها الغافلُ عنْ نفسِهِ ، المغرورُ بما هوَ فيهِ منْ شواغلِ هـٰذهِ الدنيا المشرفةِ على الانقضاءِ والزوالِ ؛ دعِ التفكُّرَ فيما أنتَ مرتحلٌ عنهُ ، واصرفِ الفكرَ إلىٰ موردِكَ ؛ فإنَّكَ أُخبرتَ بأنَّ النَّارَ موردٌ للجميعِ إذْ قيلَ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ فأنتَ مِنَ الورودِ علىٰ يقينٍ ، ومِنَ النجاةِ علىٰ شكٍّ .

فاستشعرْ في قلبِكَ هولَ ذٰلكَ الموردِ ، فعساكَ تستعدُّ للنجاةِ منهُ بالتشمُّرِ لأعمالِها ، وتأمَّلْ في حالِ الخلائقِ وقدْ قاسَوا مِنْ دواهي القيامةِ ما قاسَوا ، فبينَما هُمْ في كروبِها وأهوالِها واقفينَ ينتظرونَ حقيقةَ أنبائِها وتشفيعَ شفعائِها ؛ إذْ أحاطَتْ بالمجرمينَ ظلماتٌ ذاتُ شعبٍ ، وأظلَّتْ عليهِمْ نارٌ ذاتُ لهبٍ ، وسمعوا لها زفيراً وجرجرةً تفصحُ عنْ شدَّةِ الغيظِ والغضبِ .

فعندَ ذٰلكَ أيقنَ المجرمونَ بالعطبِ ، وجثَتِ الأممُ على الركبِ ، حتىٰ أشفقَ البرآءُ مِنْ سوءِ المنقلبِ ، وخرجَ المنادي مِنَ الزَّبانيةِ قائلاً : أينَ فلانُ بنُ فلانٍ المسوِّفُ نفسَهُ في الدنيا بطولِ الأملِ ، المضيِّعُ عمرَهُ في سوءِ العملِ ؟ فيبادرونَهُ بمقامعَ مِنْ حديدٍ ، ويستقبلونَهُ بعظائمِ التهديدِ ، ويسوقونَهُ إلى العذابِ الشديدِ ، وينكسونَهُ في قعرِ الجحيمِ ، ويقولونَ لهُ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ .

فأُسكنوا داراً ضيقةَ الأرجاءِ ، مظلمةَ المسالكِ مبهمةَ المهالكِ ، يخلدُ فيها الأسيرُ ويؤبدُ فيها السَّعيرُ ، شرابُهُم فيها الحميمُ ومستقرُّهُمُ الجحيمُ ، الزبانيةُ تقمعُهُمْ والهاويةُ تجمعُهُم ، أمانيهِمْ فيها الهلاكُ وما لهمْ مِنْها فكاكٌ ، قدْ شُدَّتْ أقدامُهُمْ إلى النَّواصي ، واسودَّتْ وجوهُهُمْ مِنْ ظلمةِ المعاصي ، ينادونَ مِنْ أكنافِها ويصيحونَ في نواحيها وأطرافِها : يا مالكُ ؛ قدْ حقَّ علينا الوعيدُ ، يا مالكُ ؛ قدْ أثقلَنا الحديدُ ، يا مالكُ ؛ قدْ نضجَتْ منَّا الجلودُ ، يا مالكُ ؛ أخرجْنا منها فإنَّا لا نعودُ .

فتقولُ الزَّبانيةُ : هيهاتَ !! لاتَ حينَ أمانٍ ، ولا خروجَ لكُمْ مِنْ دارِ الهوانِ ، فاخسؤوا فيها ولا تكلِّمونِ ، ولوْ أُخرجتُم منها . . لكنتُم إلىٰ ما نُهيتُمْ عنهُ تعودونَ ، فعندَ ذٰلكَ يقنطُونَ ، وعلىٰ ما فرَّطوا في جنبِ اللهِ يتأسفونَ ، ولا ينجيهِمُ النَّدمُ ولا يغنيهِمُ الأسفُ ، بلْ يُكَبُّونَ علىٰ وجوهِهِم مغلولينَ ، النَّارُ مِنْ فوقِهِمْ ، والنَّارُ مِنْ تحتِهِم ، والنَّارُ عَنْ أيمانِهِمْ ، والنَّارُ عَنْ شمائلِهِمْ ، فهمْ غرقىٰ في النَّارِ ، طعامُهُمْ نارٌ ، وشرابُهُمْ نارٌ ، ولباسُهُمْ نارٌ ، ومهادُهُمْ نارٌ .

فهمْ بينَ مقطعاتِ النيرانِ وسرابيلِ القطرانِ ، وضربِ المقامعِ وثقلِ السلاسلِ ، فهمْ يتجلجلونَ في مضايقِها ، ويتحطمونَ في دركاتِها ، ويضطربونَ بينَ غواشيها ، تغلي بهِمُ النَّارُ كغليِ القدورِ ، ويهتفونَ بالويلِ والعويلِ ، ومهما دعوا بالثبورِ . . صُبَّ مِنْ فوقِ رؤوسِهِمُ الحميمُ ، يُصهرُ بهِ ما في بطونِهِمْ والجلودُ ، ولهمْ مقامعُ منْ حديدٍ تُهشمُ بها جباهُهُمْ ، فيتفجرُ الصديدُ مِنْ أفواهِهِمْ ، وتنقطعُ مِنَ العطشِ أكبادُهُمْ ، وتسيلُ على الخدودِ أحداقُهُمْ ، ويسقطُ مِنَ الوجناتِ لحومُهَا ، ويتمعطُ مِنَ الأطرافِ شعورُها[1] ، بلْ جلودُها ، وكلَّما نضجَتْ جلودُهم . . بدَّلنَاهُم جلوداً غيرَها ،

---

(١) يتمعط : يتساقط .

قدْ عريَتْ مِنَ اللحمِ عظامُهُمْ ، فبقيَتِ الأرواحُ منوطةً بالعروقِ وعلائقِ العصبِ ، وهيَ تنشُّ في لفحِ تلكَ النيرانِ[1] ، وهمْ معَ ذٰلكَ يتمنَّونَ الموتَ فلا يموتونَ .

فكيفَ بكَ لوْ نظرتَ إليهم وقد اسودَّتْ وجوهُهُم أشدَّ سواداً مِنَ الحممِ ، وأُعميَتْ أبصارُهُمْ ، وأُبكِمَتْ ألسنتُهُمْ ، وقُصِمَتْ ظهورُهُمْ ، وكُسِرَتْ عظامُهُمْ ، وجُدِعَتْ آذانُهُمْ ، ومُزّقَتْ جلودُهُمْ ، وغُلَّتْ أيديهمْ إلىٰ أعناقِهِمْ ، وجُمعَ بينَ نواصيهِمْ وأقدامِهِمْ ، وهمْ يمشونَ على النَّارِ بوجوهِهِمْ ، ويطؤونَ حسكَ الحديدِ بأحداقِهِمْ ، فلهيبُ النَّارِ سارَ في بواطنِ أجزائِهِمْ ، وحيَّاتُ الهاويةِ وعقاربُها متشبّثةٌ بظواهرِ أعضائِهِمْ ؟!

هٰذهِ جملةُ أحوالِهِمْ ، فانظرِ الآنَ في تفصيلِ أهوالِهِمْ .

وتفكَّرْ أوَّلاً في أوديةِ جهنَّمَ وشعابِها .

فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في جهنَّمَ سبعينَ ألفَ وادٍ ، في كلِّ وادٍ سبعونَ ألفَ شعبٍ ، في كلِّ شعبٍ سبعونَ ألفَ ثعبانٍ وسبعونَ ألفَ عقربٍ ، لا ينتهي الكافرُ والمنافقُ حتىٰ يواقعَ ذٰلكَ كلَّهُ »[2]

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعوَّذوا باللهِ مِنْ جبِّ الحزنِ أو وادي الحزنِ » قيلَ : يا رسولَ اللهِ ، وما وادي الحزنِ أو جبُّ الحزنِ ؟ قالَ : « وادٍ في جهنَّمَ تتعوذُ منهُ جهنَّمُ كلَّ يومٍ سبعينَ مرةً ، أعدَّهُ اللهُ تعالىٰ للقراءِ المرائينَ »[3]

فهٰذهِ سعةُ جهنَّمَ وانشعابُ أوديتِها ، وهيَ بحسبِ عددِ أوديةِ الدنيا وشهواتِها ، وعددُ أبوابِها بعددِ الأعضاءِ السبعةِ التي بها يعصي العبدُ ، بعضُها فوقَ بعضٍ ، الأعلىٰ جهنَّمُ ، ثمَّ سقرُ ، ثمَّ لظىٰ ، ثمَّ الحطمةُ ، ثمَّ السعيرُ ، ثمَّ الجحيمُ ، ثمَّ الهاويةُ .

فانظرِ الآنَ في عمقِ الهاويةِ ؛ فإنَّهُ لا حدَّ لعمقِها كما لا حدَّ لعمقِ شهواتِ الدنيا ، فكما لا ينتهي أربٌ مِنَ الدنيا إلَّا إلىٰ أربٍ أعظمَ منهُ . . فلا تنتهي هاويةٌ مِنْ جهنَّمَ إلَّا إلىٰ هاويةٍ أعمقَ منها .

قالَ أبو هريرةَ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إذ سمعنا وجبةً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتدرونَ ما هٰذا ؟ » قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « هٰذا حجرٌ أُرسلَ في جهنَّمَ منذُ سبعينَ عاماً ، الآنَ حينَ انتهىٰ إلىٰ قعرِها »[4]

ثمَّ انظرْ إلىٰ تفاوتِ الدركاتِ ؛ فإنَّ الآخرةَ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً ، فكما أنَّ إكبابَ النَّاسِ على الدنيا متفاوتٌ ؛ فمِنْ منهمكٍ مستكثرٍ كالغريقِ فيها ، ومِنْ خائضٍ فيها إلىٰ حدٍّ محدودٍ . . فكذٰلكَ تناولُ النَّارِ لهمْ متفاوتٌ ؛ فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ ، فلا تترادفُ أنواعُ العذابِ علىٰ كلِّ مَنْ في النَّارِ كيفَ كانَ ، بلْ لكلِّ واحدٍ حدٌّ معلومٌ علىٰ قدرِ عصيانِهِ وذنبِهِ ، إلَّا أنَّ أقلَّهم عذاباً لوْ عُرضَتْ عليهِ الدنيا بحذافيرِها . . لافتدىٰ بها مِنْ شدَّةِ ما هوَ فيهِ .

---

(١) تنش : تيبس .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٩٧) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣٥٠٩) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٨٣) ، وابن ماجه (٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه مسلم (٢٨٤٤) . والوجبة : السقطة .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أدنىٰ أهلِ النارِ عذاباً ينتعلُ بنعلينِ مِنْ نارٍ ، يغلي دماغُهُ مِنْ حرارةِ نعليهِ »[(١)]

فانظرِ الآنَ إلىٰ مَنْ خُفِّفَ عليهِ ، واعتبرْ بهِ مَنْ شُدِّدَ عليهِ ، ومهما شككتَ في شدَّةِ عذابِ النَّارِ . . فقرِّبْ إصبعَكَ مِنَ النَّارِ ، وقسْ ذٰلكَ بهِ ، ثمَّ اعلمْ أنَّكَ أخطأتَ في القياسِ ؛ فإنَّ نارَ الدنيا لا تناسبُ نارَ جهنَّمَ ، ولـٰكنْ لمَّا كانَ أشدَّ عذابٍ في الدنيا عذابُ هـٰذهِ النَّارِ . . عُرِفَ عذابُ جهنَّمَ بها ، وهيهاتَ !!

لوْ وجدَ أهلُ الجحيمِ مثلَ هـٰذهِ النَّارِ . . لخاضوها طائعينَ هرباً ممَّا هُمْ فيه ، وعنْ هـٰذا عُبِّرَ في بعضِ الأخبارِ حيثُ قيلَ : إنَّ نارَ الدنيا غُسلَتْ بسبعينَ ماءً مِنْ مياهِ الرحمةِ حتىٰ أطاقَها أهلُ الدنيا[(٢)]

بلْ صرَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بصفةِ نارِ جهنَّمَ فقالَ : « أُوقدَتْ تلكَ النَّارُ ألفَ عامٍ حتى احمرَّتْ ، ثمَّ أُوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتى ابيضَّتْ ، ثمَّ أُوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتى اسودَّتْ ، فهيَ سوداءُ مظلمةٌ »[(٣)]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اشتكتِ النارُ إلىٰ ربِّها فقالَتْ : يا ربِّ ؛ أكلَ بعضي بعضاً ، فأذنَ لها بنفسَينِ ، نفسٍ في الشِّتاءِ ، ونفسٍ في الصيفِ ، فأشدُّ ما تجدونَهُ في الصَّيفِ مِنْ حرِّها ، وأشدُّ ما تجدونَهُ في الشتاءِ مِنْ زمهريرِها »[(٤)] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (يُؤتىٰ بأنعمِ النَّاسِ في الدنيا مِنَ الكفَّارِ فيُقالُ : اغمسوهُ في النَّارِ غمسةً ، ثمَّ يُقالُ لهُ : هلْ رأيتَ نعيماً قطُّ ؟ فيقولُ : لا ، ويُؤتىٰ بأشدِّ النَّاسِ ضراً في الدنيا فيُقالُ : اغمسوهُ في الجنَّةِ غمسةً ، ثمَّ يُقالُ لهُ : هلْ رأيتَ ضراً قطُّ ؟ فيقولُ : لا)[(٥)]

وقالَ أبو هريرةَ : (لوْ كانَ في المسجدِ مئةُ ألفٍ أوْ يزيدونَ ، ثمَّ تنفسَ رجلٌ مِنْ أهلِ النَّارِ . . لماتوا)[(٦)]

وقد قالَ بعضُ العلماءِ في قولِهِ : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ : إنَّها لفحَتْهم لفحةً واحدةً ، فما أبقتْ لحماً علىٰ عظمٍ إلَّا ألقتْهُ عندَ أعقابِهِمْ[(٧)]

ثمَّ انظرْ بعدَ هـٰذا في نتنِ الصديدِ الذي يسيلُ مِنْ أبدانِهِمْ حتىٰ يغرقوا فيهِ ، وهوَ الغساقُ .

قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّ دلواً مِنْ غساقِ جهنَّمَ أُلقيَ في الدنيا . . لأنتنَ أهلُ الأرضِ »[(٨)] فهـٰذا شرابُهُمْ إذا استغاثوا مِنَ العطشِ ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

---

(١) رواه مسلم (٢١١) .

(٢) روى ابن ماجه (٤٣١٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ناركم هـٰذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين . . ما انتفعتم بها ، وإنها لتدعو الله عز وجل ألا يعيدها فيها » ، وانظر « الإتحاف » (١٠/٥١٣) .

(٣) رواه الترمذي (٢٥٩١) .

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٠) ، ومسلم (٦١٧) .

(٥) رواه بهـٰذا اللفظ موقوفاً ابن المبارك في « الزهد » (٦١١) ، وأصله عند مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً

(٦) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٦٧٠) ، والبزار في « المسند » (٩٦٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٧) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٣٦٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٢٥٨) .

(٨) رواه الترمذي (٢٥٨٤) .

ثـمَّ انظرْ إلىٰ طعامِهِـمْ وهـوَ الزقومُ ؛ كما قـالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ ، وقـالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ ، وقـالَ تـعـالىٰ : ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ ، وقـالَ تـعـالىٰ : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّ قطرةً مِنَ الزقومِ قُطِرَتْ في بحارِ الدنيا . . لأفسدَتْ علىٰ أهلِ الدنيا معايشَهُمْ ، فكيفَ مَنْ يكونُ طعامُهُ ذٰلكَ ؟! »[1]

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ارغبوا فيما رغَّبَكُمُ اللهُ ، واحذروا وخافوا ما خوَّفَكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ عذابِهِ وعقابِهِ ومِنْ جهنَّمَ ؛ فإنَّها لوْ كانَتْ قطرةٌ مِنَ الجنَّةِ معَكُمْ في دنياكُمُ التي أنتُمْ فيها . . طيبَتْها لكُمْ ، ولوْ كانَتْ قطرةٌ مِنَ النَّارِ معَكُمْ في دنياكُمُ التي أنتُمْ فيها . . خبثَتْها عليكُمْ »[2]

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُلقىٰ علىٰ أهلِ النارِ الجوعُ حتىٰ يعدلَ ما هُمْ فيهِ مِنَ العذابِ ، فيستغيثونَ بالطعامِ ، فيُغاثونَ بطعامٍ مِنْ ضريعٍ لا يسمنُ ولا يغني مِنْ جوعٍ ، ويستغيثونَ بالطعامِ ، فيُغاثونَ بطعامٍ ذي غُصَّةٍ ، فيذكرونَ أنَّهم كانوا يجيزونَ الغصصَ في الدنيا بالشرابِ ، فيستغيثونَ بالشرابِ ، فيُرفعُ إليهِمُ الحميمُ بكلاليبِ الحديدِ ، فإذا دنَتْ مِنْ وجوهِهِمْ . . شوَتْ وجوهَهُمْ ، فإذا دخلَتْ بطونَهُمْ . . قطَّعَتْ ما في بطونِهِمْ ، فيقولونَ : ادعوا خزنةَ جهنَّمَ ، قالَ : فيدعونَ خزنةَ جهنَّمَ أنِ ادعوا ربَّكُمْ يخففْ عنَّا يوماً مِنَ العذابِ ، فيقولونَ : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ ، قالَ : فيقولونَ : ادعوا مالكاً ، فيدعونَ فيقولونَ : ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ، قالَ : فيجيبُهُمْ : ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ ـ قالَ الأعمشُ : أُنبئتُ : أنَّ بينَ دعائِهِمْ وبينَ إجابةِ مالكٍ إيَّاهُم ألفَ عامٍ ـ قالَ : فيقولونَ : ادعوا ربَّكُمْ فلا أحدَ خيرٌ مِنْ ربِّكُمْ ، فيقولونَ : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ ، قالَ : فيجيبُهُمْ : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، قالَ : فعندَ ذٰلكَ يئسوا مِنْ كلِّ خيرٍ ، وعندَ ذٰلكَ أخذوا في الزفيرِ والحسرةِ والويلِ »[3]

وقالَ أبو أُمامةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ قالَ : « يُقرَّبُ إليهِ فيكرهُهُ ، فإذا أُدنيَ منهُ . . شوىٰ وجهَهُ ووقعَتْ فروةُ رأسِهِ ، فإذا شربَهُ . . قطَّعَ أمعاءَهُ حتىٰ يخرجَ منْ دبرِهِ » يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾[4]

فهٰذا طعامُهُمْ وشرابُهُمْ عندَ جوعِهِمْ وعطشِهِمْ .

فانظرِ الآنَ إلىٰ حيَّاتِ جهنَّمَ وعقاربِها ، وإلىٰ شدَّةِ سمومِها وعظمِ أشخاصِها ، وفظاعةِ منظرِها ، وقدْ سُلِّطَتْ علىٰ أهلِها وأُغريَتْ بهمْ ، فهيَ لا تفترُ عنِ النَّهشِ واللدغِ ساعةً واحدةً .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٥) ، وابن ماجه (٤٣٢٥) .

(٢) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٥٣٢) .

(٣) رواه الترمذي (٢٥٨٦) .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٨٣) .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فلمْ يؤدِّ زكاتَهُ . . مُثِّلَ لهُ يومَ القيامةِ شجاعاً أقرعَ لهُ زبيبتانِ يُطوِّقُهُ يومَ القيامةِ ، ثمَّ يأخذُ بِلِهْزِمتيهِ ـ يعني : شدقيهِ ـ فيقولُ : أنا مالُكَ ، أنا كنزُكَ » ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ[1]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في النَّارِ لحيَّاتٍ مثلَ أعناقِ البختِ ، يلسعْنَ اللسعةَ فيجدُ حموتَها أربعينَ خريفاً[2] ، وإنَّ فيها لعقاربَ كالبغالِ المؤكفةِ ، يلسعْنَ اللسعةَ فيجدُ حموتَها أربعينَ خريفاً »[3]

وهـٰذهِ الحيَّاتُ والعقاربُ إنَّما تُسلَّطُ علىٰ مَنْ سُلِّطَ عليهِ في الدنيا البخلُ وسوءُ الخلقِ وإيذاءُ الناسِ ، ومَنْ وُقِيَ ذٰلكَ . . وُقِيَ هـٰذهِ الحيَّاتِ فلمْ تُمثَّلْ لهُ .

ثمَّ تفكَّرْ بعدَ هـٰذا كلِّهِ في تعظيمِ أجسامِ أهلِ النَّارِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يزيدُ في أجسامِهِمْ طولاً وعرضاً ؛ حتىٰ يتزايدَ عذابُهُمْ بسببِهِ ، فيحسونَ بلفحِ النَّارِ ولدغِ العقاربِ والحيَّاتِ مِنْ جميعِ أجزائِها دفعةً واحدةً على التوالي .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ضرسُ الكافرِ في النَّارِ مثلُ أحدٍ ، وغلظُ جلدِهِ مسيرةُ ثلاثٍ »[4]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شفتُهُ السفلىٰ ساقطةٌ علىٰ صدرِهِ ، والعليا قالصةٌ قدْ غطَّتْ وجهَهُ »[5]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الكافرَ ليجرُّ لسانَهُ في سجينٍ يومَ القيامةِ يتوطؤُهُ الناسُ »[6]

ومعَ عظمِ الأجسامِ كذٰلكَ تحرقُهُمُ النَّارُ مرَّاتٍ فتُجدَّدُ جلودُهُم ولحومُهُم .

وقالَ الحسنُ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ قالَ : تأكلُهُمُ النَّارُ كلَّ يومٍ سبعينَ ألفَ مرةٍ ، كلَّما أكلَتْهُم . . قيلَ لهُم : عودوا ، فيعودونَ كما كانوا[7]

ثمَّ تفكَّرِ الآنَ في بكاءِ أهلِ النَّارِ وشهيقِهِمْ ، ودعائِهِمْ بالويلِ والثبورِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يُسلَّطُ عليهِمْ في أوَّلِ إلقائِهِمْ في النَّارِ[8]

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤْتىٰ بجهنَّمَ يومَئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ ، معَ كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ »[9]

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُرسلُ علىٰ أهلِ النَّارِ البكاءُ ، فيبكونَ حتىٰ تنقطعَ الدموعُ ، ثمَّ

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (٩٨٨/٢٧) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) حموتها : حرارتها .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٩١/٤) ، وابن حبان (٧٤٧١) .

(٤) رواه مسلم (٢٨٥١) .

(٥) رواه الترمذي (٣١٧٦) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تشويه النار فتقلص شفته العالية حتىٰ تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلىٰ حتىٰ تضرب سرته » .

(٦) رواه الترمذي (٢٥٨٠) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (١١٦) ، وأحمد في « الزهد » (١٥٢٦) .

(٨) في النسخ : (في أول لقائهم النار) ، والمثبت من (ق) .

(٩) رواه مسلم (٢٨٤٢) .

يبكونَ الدمَ حتىٰ يُرىٰ في وجوهِهِمْ كهيئةِ الأخدودِ لوْ أُرسلَتْ فيها السفنُ . . لجرَتْ »[1]

وما دامَ يُؤذنُ لهمْ في البكاءِ والشهيقِ والزفيرِ والدعوةِ بالويلِ والثبورِ . . فلهمْ فيهِ مستروحٌ ، ولـٰكنَّهم يُمنعونَ أيضاً مِنْ ذٰلكَ .

قالَ محمدُ بنُ كعبٍ : لأهلِ النَّارِ خمسُ دعواتٍ يجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ في أربعةٍ ، فإذا كانَتِ الخامسةُ . . لم يتكلَّموا بعدَها أبداً ، فيقولونَ : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ فيقولُ اللهُ تعالىٰ مجيباً لهُم : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾ ، ثمَّ يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ فيجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴾ ، فيقولونَ : ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ ﴾ فيجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ ، ثمَّ يقولونَ : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فيجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، فلا يتكلَّمونَ بعدَها أبداً ، وذٰلكَ غايةُ شدةِ العذابِ[2]

قالَ مالكُ بنُ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (قالَ زيدُ بنُ أسلمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾ قالَ : صبروا مئةَ سنةٍ ، ثمَّ جزعوا مئةَ سنةٍ أخرىٰ ، ثمَّ قالوا : سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص)[3]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنَّهُ كبشٌ أملحُ ، فيُذبحُ بينَ الجنةِ والنارِ ، ويقالُ : يا أهلَ الجنَّةِ ؛ خلودٌ بلا موتٍ ، ويا أهلَ النَّارِ ؛ خلودٌ بلا موتٍ »[4]

وعنِ الحسنِ قالَ : يخرجُ مِنَ النَّارِ رجلٌ بعدَ ألفِ عامٍ ، وليتَني كنتُ ذٰلكَ الرجلَ !![5]

ورُئيَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ جالساً في زاويةٍ وهوَ يبكي ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ يطرحَني في النَّارِ ولا يبالي[6]

فهـٰذهِ أصنافُ عذابِ جهنَّمَ على الجملةِ ، وتفصيلُ غمومِها وأحزانِها ومحنِها وحسراتِها لا نهايةَ لهُ ، فأعظمُ الأمورِ عليهِمْ معَ ما يلاقونَهُ مِنْ شدَّةِ العذابِ حسرةُ فوتِ نعيمِ الجنَّةِ ، وفوتِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وفوتِ رضاهُ معَ علمِهِمْ بأنَّهم باعوا كلَّ ذٰلكَ بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ ؛ إذْ لم يبيعوا ذٰلكَ إلَّا بشهواتٍ حقيرةٍ في الدنيا أياماً قصيرةً ، وكانَتْ غيرَ صافيةٍ ، بلْ كانَتْ مكدَّرةً منغَّصةً .

فيقولونَ في أنفسِهِمْ : وا حسرتاهُ !! كيفَ أهلكْنا أنفسَنا بعصيانِ ربِّنا ؟! وكيفَ لمْ نكلِّفْ أنفسَنا الصبرَ أياماً قلائلَ ؟! ولوْ صبرنا . . لكانَتْ قدِ انقضَتْ عنَّا أيامُهُ ، وبقينا الآنَ في جوارِ الرحمـٰنِ متنعمينَ بالرِّضا والرِّضوانِ ، فيا لحسرةِ هـٰؤلاءِ وقدْ فاتَهُمْ ما فاتَهُمْ ، وبُلوا بما بُلوا بِهِ ، ولمْ يبقَ معَهُمْ شيءٌ مِنْ نعيمِ الدنيا ولذاتِها !!

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٣٢٤) .

(٢) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٥٨٦) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٢٥١) ، وفيهما في الدعوة الثانية ليقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ بدل ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٣/٣) بنحوه .

(٤) رواه البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) بنحوه .

(٥) كذا في « القوت » (١٥٠/٢) ، وساقه من رواية أبي بكر الآجري ابنُ حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص ٣٥) .

(٦) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٢٧/٣) .

ثمَّ إنَّهم لوْ لمْ يشاهدوا نعيمَ الجنةِ . . لمْ تعظمْ حسرتُهُمْ ، لـٰكنَّها تُعرضُ عليهِمْ ؛ فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤمرُ يومَ القيامةِ بناسٍ منَ النارِ إلى الجنَّةِ ، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتَها ونظروا إلىٰ قصورِها وإلىٰ ما أعدَّ اللهُ لأهلِها فيها . . نُودوا أنِ اصرفوهمْ عنها لا نصيبَ لهمْ فيها ، فيرجعونَ بحسرةٍ ما رجعَ الأوَّلونَ والآخرونَ بمثلِها ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ لوْ أدخلتَنا النَّارَ قبلَ أنْ ترينا ما أريتَنا مِنْ ثوابِكَ وما أعددتَ فيها لأوليائِكَ . . كانَ أهونَ علينا ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ذاكَ أردتُ بكُمْ ، كنتُم إذا خلوتُم . . بارزتُموني بالعظائمِ ، وإذا لقيتُمُ النَّاسَ . . لقيتُموهُمْ مخبتينَ ، تراؤونَ النَّاسَ بخلافِ ما تعطوني مِنْ قلوبِكُمْ ، هبتُمُ النَّاسَ ولمْ تهابوني ، وأجللتُمُ النَّاسَ ولمْ تجلُّوني ، وتركتُمْ للنَّاسِ ولمْ تتركوا لي ، فاليومَ أذيقُكُمُ العذابَ الأليمَ مَعَ ما حرمتُكُمْ مِنَ الثوابِ المقيمِ »[1]

قالَ أحمدُ بنُ حربٍ : إنَّ أحدَنا يؤثرُ الظلَّ على الشمسِ ، ثمَّ لا يؤثرُ الجنَّةَ على النَّارِ ؟!

وقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : كمْ مِنْ جسدٍ صحيحٍ ووجهٍ صبيحٍ ولسانٍ فصيحٍ ؛ غداً بينَ أطباقِ النَّارِ يصيحُ !!

وقالَ داوودُ : إلـٰهي ؛ لا صبرَ لي علىٰ حرِّ شمسِكَ ، فكيفَ صبري علىٰ حرِّ نارِكَ ؟! ولا صبرَ لي علىٰ صوتِ رحمتِكَ ، فكيفَ صبري علىٰ صوتِ عذابِكَ ؟![2]

فانظرْ يا مسكينُ في هـٰذهِ الأهوالِ ، واعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ النَّارَ بأهوالِها وخلقَ لها أهلاً لا يزيدونَ ولا ينقصونَ ، وأنَّ هـٰذا أمرٌ قدْ قُضيَ وفُرغَ منهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولعمري الإشارةُ بهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ولـٰكنْ ما قُضيَ الأمرُ يومَ القيامةِ ، بلْ في أزلِ الأزلِ ، ولـٰكنْ أُظهرَ يومَ القيامةِ ما سبقَ بهِ القضاءُ .

فالعجبُ منكَ حيثُ تضحكُ وتلهو ، وتشتغلُ بمحقراتِ الدنيا ولستَ تدري أنَّ القضاءَ بماذا سبقَ في حقِّكَ .

فإنْ قلتَ : فليتَ شعري ماذا موردي ؟ وإلىٰ ماذا مآلي ومرجعي ؟ وما الذي سبقَ بهِ القضاءُ في حقِّي ؟

فلكَ علامةٌ تستأنسُ بها ، وتصدِّقُ رجاءَكَ بسببِها ، وهوَ أنْ تنظرَ إلىٰ أحوالِكَ وأعمالِكَ ؛ فإنَّ كلّاً ميسرٌ لما خُلِقَ لهُ ، فإنْ كانَ قدْ يُسِّرَ لكَ سبيلُ الخيرِ . . فأبشرْ فإنَّكَ مبعدٌ عنِ النَّارِ ، وإنْ كنتَ لا تقصدُ خيراً إلَّا وتحيطُ بكَ العوائقُ فتدفعُهُ ، ولا تقصدُ شرّاً إلَّا وتتيسَّرُ لكَ أسبابُهُ . . فاعلمْ أنَّكَ مقضيٌّ عليكَ ؛ فإنَّ دلالةَ هـٰذا على العاقبةِ كدلالةِ المطرِ على النباتِ ، ودلالةِ الدخانِ على النَّارِ ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ فاعرضْ نفسَكَ على الآيتينِ ، وقدْ عرفتَ مستقرَّكَ مِنَ الدارينِ ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/٨٥ ـ ٨٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١٢٥) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٣٦٨) ، وابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٢٢٣) .

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلمْ : أنَّ تلكَ الدارَ التي عرفتَ غمومَها وهمومَها تقابلُها دارٌ أُخرىٰ ، فتأمَّلْ نعيمَها وسرورَها ؛ فإنَّ مَنْ بَعُدَ مِنْ إحداهُما استقرَّ لا محالةَ في الأخرىٰ ، فاستثرِ الخوفَ مِنْ قلبكَ بطولِ الفكرِ في أهوالِ الجحيمِ ، واستثرِ الرجاءَ بطولِ الفكرِ في النعيمِ المقيمِ الموعودِ لأهلِ الجنانِ ، وسُقْ نفسَكَ بسوطِ الخوفِ ، وقدْها بزمامِ الرجاءِ إلى الصِّراطِ المستقيمِ ، فبذٰلكَ تنالُ الملكَ العظيمَ ، وتسلمُ مِنَ العذابِ الأليمِ .

فتفكَّرْ في أهلِ الجنَّةِ وفي وجوهِهِم نضرةُ النعيمِ ، يُسقونَ مِنْ رحيقٍ مختومٍ ، جالسينَ علىٰ منابرَ مِنَ الياقوتِ الأحمرِ في خيامٍ مِنَ اللؤلؤِ الرطبِ الأبيضِ ، فيها بسطٌ مِنَ العبقريِّ الأخضرِ ، متَّكئينَ علىٰ أرائكَ منصوبةٍ علىٰ أطرافِ أنهارٍ مطَّردةٍ بالخمرِ والعسلِ ، محفوفةٍ بالغلمانِ والولدانِ ، مزيَّنةٍ بالحورِ العينِ مِنَ الخيراتِ الحسانِ ، كأنَّهنَّ الياقوتُ والمرجانُ ، لم يطمثْهنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ ، يمشينَ في درجاتِ الجنانِ ، إذا اختالَتْ إحداهُنَّ في مشيِها . . حملَ أعطافَها سبعونَ ألفاً مِنَ الولدانِ ، عليها مِنْ طرائفِ الحريرِ الأبيضِ ما تتحيَّرُ فيهِ الأبصارُ ، مكلَّلاتٌ بالتيجانِ المرصعةِ باللؤلؤِ والمرجانِ ، شكلاتٌ غنجاتٌ عطراتٌ ، آمناتٌ مِنَ الهرمِ والبؤسِ ، مقصوراتٌ في الخيامِ ، في قصورٍ مِنَ الياقوتِ بُنيَتْ وسطَ روضاتِ الجنانِ ، قاصراتُ الطرفِ عينٌ .

ثمَّ يُطافُ عليهِمْ وعليهِنَّ بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ مِنْ معينٍ ، بيضاءَ لذَّةٍ للشاربينَ ، ويطوفُ عليهِم خدامٌ وولدانٌ كأمثالِ اللؤلؤِ المكنونِ جزاءً بما كانوا يعملونَ ، في مقامٍ أمينٍ ، في جنَّاتٍ وعيونٍ ، في جنَّاتٍ ونهَرٍ ، في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ ، ينظرونَ فيها إلىٰ وجهِ الملكِ الكريمِ ، وقدْ أشرقَتْ في وجوهِهِمْ نضرةُ النَّعيمِ ، لا يرهقُهم قترٌ ولا ذلَّةٌ ، بلْ عبادٌ مكرمونَ ، وبأنواعِ التُّحفِ مِنْ ربِّهِمْ يتعاهدونَ ، فهُمْ فيما اشتهتْ أنفسُهُمْ خالدونَ ، لا يخافونَ فيها ولا يحزنونَ ، وهمْ مِنْ ريبِ المنونِ آمنونَ ، فهُمْ فيها يتنعَّمونَ ، ويأكلونَ مِنْ أطعمتِها ، ويشربونَ مِنْ أنهارِها لبناً وخمراً وعسلاً في أنهارٍ أرضُها فضةٌ ، وحصباؤُها مرجانٌ ، وعلىٰ أرضِ ترابِها مسكٌ أذفرُ ، ونباتُها زعفرانٌ ، ويُمطرونَ مِنْ سحابٍ فيها مِنْ ماءِ النسرينِ علىٰ كثبانِ الكافورِ .

ويُؤتونَ بأكوابٍ وأيِّ أكوابٍ !! أكوابٍ مِنْ فضَّةٍ مرصَّعةٍ بالدرِّ والياقوتِ والمرجانِ ، كوبٌ فيهِ مِنَ الرحيقِ المختومِ ، ممزوجٌ بهِ السلسبيلُ العذبُ ، كوبٌ يشرقُ نورُهُ مِنْ صفاءِ جوهرِهِ يبدو الشرابُ مِنْ ورائِهِ برقَّتِهِ وحمرتِهِ ، لمْ يصنعْهُ آدميٌّ فيقصِّرَ في تسويةِ صنعتِهِ وتحسينِ صياغتِهِ ، في كفِّ خادمٍ يحكي ضياءُ وجهِهِ الشمسَ في إشراقِها ، ولٰكنْ مِنْ أينَ للشمسِ حلاوةٌ مثلُ حلاوةِ صورتِهِ ، وحسنِ أصداغِهِ وملاحةِ أحداقِهِ !!

فيا عجباً لمَنْ يؤمنُ بدارٍ هٰذهِ صفتُها ، ويوقنُ بأنَّهُ لا يموتُ أهلُها ، ولا تحلُّ الفجائعُ بمَنْ نزلَ بفنائِها ، ولا تنظرُ الأحداثُ بعينِ التغييرِ إلىٰ أهلِها ، كيفَ يأنسُ بدارٍ قدْ أذنَ اللهُ تعالىٰ في خرابِها ، ويتهنأُ بعيشٍ دونَها ؟!

واللهِ ؛ لوْ لمْ يكنْ فيها إلَّا سلامةُ الأبدانِ معَ الأمنِ مِنَ الموتِ والجوعِ والعطشِ وسائرِ أصنافِ الحدثانِ . . لكانَ جديراً بأنْ يهجرَ الدنيا بسببِها ، وألَّا يؤثرَ عليها ما التصرُّمُ والتنغُّصُ مِنْ ضرورتِها ، كيفَ وأهلُها ملوكٌ آمنونَ ، وفي أنواعِ السرورِ ممتَّعونَ ، لهمْ فيها كلُّ ما يشتهونَ ، وهمْ في كلِّ يومٍ بفناءِ العرشِ يحضرونَ ، وإلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ ينظرونَ ،

وينالونَ بالنَّظرِ مِنَ اللذَّةِ ما لا ينظرونَ معَهُ إلىٰ سائرِ نعيمِ الجنانِ ولا يلتفتونَ ، وهمْ على الدوامِ بينَ أصنافِ هـٰذهِ النِّعمِ يترددونَ ، وهمْ مِنْ زوالِها آمنونَ ؟!

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينادي منادٍ : إنَّ لكُمْ أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تشِبُّوا فلا تهرموا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذٰلكَ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ »[1]

ومهما أردتَ أنْ تعرفَ صفةَ الجنَّةِ . . فاقرأ القرآنَ ، فليسَ وراءَ بيانِ اللهِ تعالىٰ بيانٌ ، واقرأْ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ . . . ﴾ إلىٰ آخرِ سورةِ (الرحمـٰنِ) ، واقرأْ سورةَ (الواقعةِ) وغيرَها مِنَ السورِ .

وإنْ أردتَ أنْ تعرفَ تفصيلَ صفاتِها مِنَ الأخبارِ . . فتأمَّلِ الآنَ تفصيلَها بعدَ أنِ اطَّلعتَ علىٰ جملتِها .

وتأمَّلْ أوَّلاً عددَ الجنانِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ قالَ : « جنَّتانِ مِنْ فضَّةٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وجنَّتانِ مِنْ ذهبٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وما بينَ القومِ وبينَ أنْ ينظروا إلىٰ ربِّهم إلَّا رداءُ الكبرياءِ علىٰ وجهِهِ في جنَّةِ عدنٍ »[2]

ثمَّ انظرْ إلىٰ أبوابِ الجنَّةِ ؛ فإنَّها كثيرةٌ بحسبِ أصولِ الطاعاتِ ، كما أنَّ أبوابَ النَّارِ بحسبِ أصولِ المعاصي .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أنفقَ زوجينِ مِنْ مالِهِ في سبيلِ اللهِ . . دُعيَ مِنْ أبوابِ الجنةِ ، وللجنةِ أبوابٌ ، فمنْ كانَ منْ أهلِ الصلاةِ . . دُعيَ مِنْ بابِ الصلاةِ ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الصيامِ . . دُعِيَ مِنْ بابِ الريَّانِ ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الصدقةِ . . دُعيَ مِنْ بابِ الصدقةِ ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الجهادِ . . دُعيَ مِنْ بابِ الجهادِ » فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : واللهِ ؛ ما علىٰ أحدٍ مِنْ ضرورةٍ مِنْ أيِّها دُعيَ ، فهلْ يُدعىٰ أحدٌ منها كلِّها ؟ قال : « نعمْ ، وأرجو أنْ تكونَ منهم »[3]

وعنْ عاصمِ بنِ ضمرةَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أنَّهُ ذكرَ النَّارَ فعظمَ أمرَها ذكراً لا أحفظُهُ .

ثمَّ قالَ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ حتىٰ إذا انتهوا إلىٰ بابٍ مِنْ أبوابِها وجدوا عندَهُ شجرةً يخرجُ مِنْ تحتِ ساقِها عينانِ تجريانِ ، فعمدوا إلىٰ إحداهما كأنَّما أُمروا بِهِ فشربوا منها ، فأذهبَتْ ما في بطونِهِمْ مِنْ أذىً أوْ بأسٍ ، ثمَّ عمدوا إلى الأخرىٰ فتطهَّروا منها ، فجرتْ عليهِم نضرةُ النَّعيمِ ، فلمْ تتغيرْ أشعارُهُمْ بعدَها أبداً ، ولا تشعثُ رؤوسُهم كأنَّما دهنوا بالدهانِ ، ثمَّ انتهوا إلى الجنَّةِ فقالَ لهمْ خزنتُها : سلامٌ عليكُمْ طبتُمْ فادخلوها خالدينَ ، ثمَّ تلقاهُمُ الولدانُ يطيفونَ بهِمْ كما تطيفُ ولدانُ أهلِ الدنيا بالحميمِ يقدمُ عليهِمْ مِنْ غيبةٍ ، يقولونَ لهُ : أبشرْ ؛ أعدَّ اللهُ لكَ مِنَ الكرامةِ كذا .

قالَ : ثمَّ ينطلقُ غلامٌ مِنْ أولـٰئِكَ الولدانِ إلىٰ بعضِ أزواجِهِ مِنَ الحورِ العينِ فيقولُ : قدْ جاءَ فلانٌ ـ باسمهِ الذي كانَ يُدعىٰ بهِ في الدنيا ـ فتقولُ : أنتَ رأيتَهُ ؟ فيقولُ : أنا رأيتُهُ وهوَ بأثري ، فيستخفُّ إحداهنَّ الفرحُ حتىٰ تقومَ إلىٰ أسكفةِ بابِها ، فإذا انتهىٰ إلىٰ منزلِهِ . . نظرَ إلىٰ أساسِ بنيانِهِ ؛ فإذا جندلُ اللؤلؤِ فوقَهُ صرحٌ أحمرُ وأخضرُ وأصفرُ ؛ مِنْ كلِّ لونٍ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧) .

(٢) رواه البخاري (٤٨٧٨) ، ومسلم (١٨٠) .

(٣) رواه البخاري (١٨٩٧) ، ومسلم (١٠٢٧) .

ثمَّ يرفعُ رأسَهُ فينظرُ إلىٰ سقفِهِ ؛ فإذا مثلُ البرقِ ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ قدره . . لألَمَّ أنْ يذهبَ بصرُهُ ، ثمَّ يطأطئُ رأسَهُ ؛ فإذا أزواجُهُ ، وأكوابٌ موضوعةٌ ونمارقُ مصفوفةٌ وزرابيُّ مبثوثةٌ ، ثمَّ اتكأَ فقالَ : الحمدُ للهِ الذي هدانا لهـٰذا ، وما كنَّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا اللهُ ، ثمَّ ينادي منادٍ : تحيونَ فلا تموتونَ أبداً ، وتقيمونَ فلا تظعنونَ أبداً ، وتصحُّونَ فلا تمرضونَ أبداً)[1]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آتي يومَ القيامةِ بابَ الجنَّةِ ، فأستفتحُ فيقولُ الخازنُ : مَنْ أنتَ ؟ فأقولُ : محمَّدٌ ، فيقولُ : بكَ أُمرتُ ألَّا أفتحَ لأحدٍ قبلَكَ »[2]

ثمَّ تأمَّلِ الآنَ في غرفِ الجنَّةِ ، واختلافِ درجاتِ العلوِّ فيها ؛ فإنَّ الآخرةَ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً ، وكما أنَّ بينَ الناسِ في الطَّاعاتِ الظاهرةِ والأخلاقِ الباطنةِ المحمودةِ تفاوتاً ظاهراً . . فكذٰلكَ فيما يُجازَوْنَ بِهِ تفاوتٌ ظاهرٌ ، فإنْ كنتَ تطلبُ أعلى الدرجاتِ . . فاجتهدْ ألَّا يسبقَكَ أحدٌ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ؛ فقدْ أمرَكَ اللهُ بالمسابقةِ والمنافسةِ فيها فقالَ تعالىٰ : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ .

والعجبُ أنَّهُ لوْ تقدَّمَ عليكَ أقرانُكَ أوْ جيرانُكَ بزيادةِ درهمٍ أوْ بعلوِّ بناءٍ . . ثقلَ عليكَ ذٰلكَ ، وضاقَ بِهِ ذرعُكَ ، وتنغَّصَ بسببِ الحسدِ عيشُكَ !! وأحسنُ أحوالِكَ أنْ تستقرَّ في الجنَّةِ وأنتَ لا تسلمُ فيها مِنْ أقوامٍ يسبقونَكَ بلطائفَ لا توازيها الدنيا بحذافيرِها ؛ فقدْ قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليتراءَوْنَ أهلَ الغرفِ فوقَهُمْ كما تتراءَوْنَ الكوكبَ الغابرَ في الأفقِ مِنَ المشرقِ والمغربِ ؛ لتفاضلِ ما بينَهُمْ » قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرُهمْ ؟ قالَ : « بلىٰ ، والذي نفسي بيدِهِ ، رجالٌ آمنوا باللهِ وصدَّقوا المرسلينَ »[3]

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ أهلَ الدرجاتِ العلا ليراهُمْ مَنْ تحتَهُمْ كما ترونَ النَّجمَ الطالعَ في أفقٍ مِنْ آفاقِ السماءِ ، وإنَّ أبا بكرٍ وعمرَ منهُمْ وأنْعَما »[4] .

وقالَ جابرٌ : قالَ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أحدثُكُمْ بغرفِ أهلِ الجنَّةِ ؟ » قالَ : قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ بأبينا أنتَ وأمِّنا ، قالَ : « إنَّ في الجنَّةِ غرفاً مِنْ أصنافِ الجوهرِ كلِّهِ ، يُرىٰ ظاهرُها مِنْ باطنِها وباطنُها مِنْ ظاهرِها ، وفيها مِنَ النَّعيمِ واللذَّاتِ والسرورِ ما لا عينٌ رأَتْ ولا أذنٌ سمعَتْ ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ » قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ولِمَنْ هـٰذهِ الغرفُ ؟ قالَ : « لمَنْ أفشى السَّلامَ ، وأطعمَ الطعامَ ، وأدامَ الصيامَ ، وصلَّىٰ بالليلِ والناسُ نيامٌ » قالَ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ومَنْ يطيقُ ذٰلكَ ؟ قالَ : « أمَّتي تطيقُ ذٰلكَ ، وسأخبرُكُمْ عَنْ ذٰلكَ ؛ مَنْ لقيَ أخاهُ فسلَّمَ عليهِ أوْ ردَّ عليهِ . . فقدْ أفشى السَّلامَ ، ومَنْ أطعمَ أهلَهُ وعيالَهُ مِنَ الطعامِ حتىٰ يشبعَهُمْ . . فقدْ أطعمَ الطعامَ ، ومَنْ صامَ شهرَ رمضانَ ومِنْ كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ . . فقدْ أدامَ الصيامَ ، ومَنْ صلَّى العشاءَ الآخرةَ وصلَّى الغداةَ في جماعةٍ . . فقدْ صلَّىٰ بالليلِ والنَّاسُ نيامٌ » يعني : اليهودَ والنصارىٰ والمجوسَ[5]

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٥٠) ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٧) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٢٣٦) .

(٢) رواه مسلم (١٩٧) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٢٦/١٠) عند قول الخازن : من أنت ؟ : (أجاب بالاستفهام ، وأكده بالخطاب تلذذاً بمناجاته ، وإلَّا . . فأبواب الجنة شفافة ، وهو العلَمُ الذي لا يشتبه ، والمتميز الذي لا يلتبس ، وقد رآه الخازن قبل ذٰلك وعرفه أتم معرفة ، ومن ثم اكتفىٰ بقوله : « فأقول : محمد ») .

(٣) رواه البخاري (٣٢٥٦) ، ومسلم (٢٨٣١) .

(٤) رواه الترمذي (٣٦٥٨) ، وابن ماجه (٩٦) ، **وأنعما** : زادا في الرتبة وتجاوزا تلك المنزلة .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٦/٢) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٣) .

وسُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ قالَ : « قصورٌ مِنْ لؤلؤٍ ، في كلِّ قصرٍ سبعونَ داراً مِنْ ياقوتةٍ حمراءَ ، في كلِّ دارٍ سبعونَ بيتاً مِنْ زمردٍ أخضرَ ، في كلِّ بيتٍ سريرٌ ، على كلِّ سريرٍ سبعونَ فراشاً مِنْ كلِّ لونٍ ، على كلِّ فراشٍ زوجةٌ مِنَ الحورِ العينِ ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ مائدةً ، على كلِّ مائدةٍ سبعونَ لوناً مِنَ الطعامِ ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ وصيفةً ، ويُعطى المؤمنُ في كلِّ غداةٍ ـ يعني مِنَ القوةِ ـ ما يأتي على ذٰلكَ أجمعَ »[1]

* * *

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٥) ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٧٧) ، والبزار في « مسنده » (٣٥٦٣) إلا أن فيهما : (في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً . . .) والباقي سواء .

صفة حائط الجنة وأرضها وأشجارها وأنهارها

تأمَّلْ في صورةِ الجنَّةِ ، وتفكَّرْ في غبطةِ سكانِها ، وفي حسرةِ مَنْ حُرِمَها ؛ لقناعتِهِ بالدنيا عوضاً عنها[1]

فقدْ قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ حائطَ الجنَّةِ لبنةٌ مِنْ فضةٍ ولبنةٌ مِنْ ذهبٍ ، ترابُها زعفرانٌ ، وطينُها مسكٌ »[2]

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ تربةِ الجنَّةِ فقالَ : « دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مسكٌ خالصٌ »[3]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يسقيَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ الخمرَ في الآخرةِ . . فليتركْها في الدنيا ، ومَنْ سرَّهُ أنْ يكسوَهُ اللهُ الحريرَ في الآخرةِ . . فليتركْهُ في الدنيا ، أنهارُ الجنَّةِ تتفجَّرُ مِنْ تحتِ تلالِ ـ أو تحتِ جبالِ ـ المسكِ ، ولوْ كانَ أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ حليةً عُدلَتْ بحليةِ أهلِ الدنيا جميعِها . . لكانَ ما يحليهِ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ في الآخرةِ أفضلَ مِنْ حليةِ أهلِ الدنيا جميعِها »[4]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مئةَ عامٍ لا يقطعُها ، اقرؤوا إنْ شئتُمْ : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ »[5]

وقالَ أبو أُمامةَ : كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ينفعُنا بالأعرابِ ومسائِلِهِم ؛ أقبلَ أعرابيٌّ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ قدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ شجرةً مؤذيةً ، وما كنتُ أرىٰ أنَّ في الجنَّةِ شجرةً تؤذي صاحبَها ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما هيَ ؟ » قالَ : السدرُ ؛ فإنَّ لها شوكاً ، فقالَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ يخضدُ اللهُ شوكَهُ فيجعلُ مكانَ كلِّ شوكةٍ ثمرةً ، ثمَّ تنفتقُ الثمرةُ منها عنِ اثنينِ وسبعينَ لوناً مِنَ الطعامِ ما منها لونٌ يشبهُ الآخرَ »[6]

وقالَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ : (نزلنا الصفاحَ ؛ فإذا رجلٌ نائمٌ تحتَ شجرةٍ قدْ كادَتِ الشمسُ أنْ تبلغَهُ ، فقلتُ للغلامِ : انطلقْ بهـٰذا النطعِ فأظِلَّهُ ، فانطلقَ فأظلَّهُ ، فلمَّا استيقظَ ؛ فإذا هوَ سلمانُ ، فأتيتُهُ أسلِّمُ عليهِ ، فقالَ : يا جريرُ ؛ تواضعْ للهِ ؛ فإنَّ مَنْ تواضعَ للهِ في الدنيا . . رفعَهُ اللهُ يومَ القيامةِ ، هلْ تدري ما الظلماتُ يومَ القيامةِ ؟ قلتُ : لا أدري ، قالَ : ظلمُ الناسِ بينَهُم ، ثمَّ أخذَ عويداً لا أكادُ أراهُ مِنْ صغرِهِ فقالَ : يا جريرُ ؛ لوْ طلبتَ في الجنَّةِ مثلَ هـٰذا . . لمْ تجدْهُ ، قلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ فأينَ النخلُ والشجرُ ؟ قالَ : أصولُها اللؤلؤُ والذهبُ ، وأعلاها الثمرُ)[7]

❋ ❋ ❋

---

(1) في غير (ج ، ص) : (ثمناً عنها) بدل (عوضاً عنها) .

(2) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٧) ، وعند الترمذي (٢٥٢٥) نحوه .

(3) رواه مسلم (٢٩٢٨) ، والدرمكة : الدقيق الخالص البياض مع لين ونعومة .

(4) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٥٥) ، وعند الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٨٧٣ ـ ٨٨٧٤) نحوه .

(5) رواه البخاري (٤٨٨١) ، ومسلم (٢٨٢٦) .

(6) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٧٦/٢) ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٠٥) .

(7) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢/١) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٢٧٦) .

صفة لباس أهل الجنّة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، والآياتُ في تفصيلِ ذٰلكَ كثيرةٌ .

وأمَّا تفصيلُهُ في الأخبارِ . . فقدْ روىٰ أبو هريرةَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ يدخلُ الجنَّةَ ينعمُ لا يبأسُ ؛ لا تبلىٰ ثيابُهُ ، ولا يفنىٰ شبابُهُ ، في الجنَّةِ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[1]

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ أخبرْنا عنْ ثيابِ أهلِ الجنَّةِ ، أخلقٌ تخلقُ ، أم نسجٌ تنسجُ ؟ فسكتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وضحكَ بعضُ القومِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ممَّ تضحكونَ ؟ مِنْ جاهلٍ سألَ عالماً ؟! » ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلْ تشقَّقُ عنها ثمرُ الجنَّةِ مرتينِ »[2]

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أوَّلَ زمرةٍ تلجُ الجنَّةَ صورتُهُمْ علىٰ صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ ، لا يبصقونَ فيها ولا يمتخطونَ ولا يتغوَّطونَ ، آنيتُهُمْ وأمشاطُهُمْ مِنَ الذهبِ والفضةِ ، ورشحُهُمُ المسكُ ، ولكلِّ واحدٍ منهمْ زوجتانِ يُرىٰ مخُّ ساقِهما منْ وراءِ اللحمِ مِنَ الحسنِ ، لا اختلافَ بينَهُمْ ولا تباغضَ ، قلوبُهُمْ علىٰ قلبٍ واحدٍ يُسبِّحونَ اللهَ بكرةً وعشيةً »[3] ، وفي روايةٍ : « علىٰ كلِّ زوجةٍ سبعونَ حلةً »[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ قالَ : « إنَّ عليهِمُ التيجانَ ، إنَّ أدنىٰ لؤلؤةٍ فيها لتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ »[5]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الخيمةُ درَّةٌ مجوَّفةٌ طولُها في السماءِ ستونَ ميلاً ، في كلِّ زاويةٍ منها للمؤمنِ أهلٌ لا يراهُمُ الآخرونَ » رواهُ البخاريُّ في « الصحيحِ »[6]

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (الخيمةُ درَّةٌ مجوَّفةٌ فرسخٌ في فرسخٍ ، لها أربعةُ آلافِ مصراعٍ مِنْ ذهبٍ)[7]

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قالَ : « ما بينَ الفراشينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ »[8]

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤١٦/٢) ، وعند مسلم (٢٨٣٦) نحوه .
(٢) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (٥٨٤١) .
(٣) رواه البخاري (٣٢٤٥) ، ومسلم (٢٨٣٤) .
(٤) رواها الترمذي (٢٥٣٤) .
(٥) رواه الترمذي (٢٥٦٢) .
(٦) صحيح البخاري (٣٢٤٣) .
(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٣١٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥١٩٧) .
(٨) رواه الترمذي (٢٥٤٠) .

صفة طعام أهل الجنة

بيانُ طعامِ أهلِ الجنَّةِ مذكورٌ في القرآنِ ؛ مِنَ الفواكهِ والطيورِ السِّمانِ ، والمنِّ والسلوىٰ ، والعسلِ واللبنِ ، وأصنافٍ كثيرةٍ لا تُحصىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ .

وذكرَ اللهُ تعالىٰ شرابَ أهلِ الجنَّةِ في مواضعَ كثيرةٍ ، وقدْ قالَ ثوبانُ مولىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : (كنتُ قائماً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فجاءَهُ حبرٌ مِنْ أحبارِ اليهودِ ، فذكرَ أسئلةً إلىٰ أنْ قالَ : فمَنْ أوَّلُ الناسِ إجازةً ؟ ـ يعني على الصراطِ ـ فقالَ : « فقراءُ المهاجرينَ » ، قالَ اليهوديُّ : فما تحفتُهُمْ حينَ يدخلونَ الجنَّةَ ؟ قالَ : « زيادةُ كبدِ النونِ » ، قالَ : فما غذاؤُهُمْ علىٰ أثرِها ؟ قالَ : « يُنحرُ لهمْ ثورُ الجنَّةِ الذي كانَ يأكلُ مِنْ أطرافِها » ، قالَ : فما شرابُهُمْ عليهِ ؟ قالَ : « مِنْ عينٍ فيها تُسمَّىٰ سلسبيلاً » ، فقالَ : صدَقتَ)[1]

وقالَ زيدُ بنُ أرقمَ : جاءَ رجلٌ مِنَ اليهودِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : يا أبا القاسمِ ؛ ألستَ تزعمُ أنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلونَ فيها ويشربونَ ؟ وقالَ لأصحابِهِ : إنْ أقرَّ لي بهٰذهِ . . خصمتُهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلىٰ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ أحدَهُمْ ليُعْطىٰ قوةَ مئةِ رجلٍ في المطعمِ والمشربِ والجماعِ » ، فقالَ اليهوديُّ : فإنَّ الذي يأكلُ ويشربُ يكونُ لهُ الحاجةُ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حاجتُهُمْ عرقٌ يفيضُ مِنْ جلودِهِمْ مثلُ المسكِ ، فإذا البطنُ قدْ طهرَ »[2]

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكَ لتنظرُ إلى الطيرِ في الجنَّةِ فتشتهيهِ . . فيخرُّ بينَ يديكَ مشويّاً »[3]

وقالَ حذيفةُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ طيراً أمثالَ البخاتيِّ » قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّها لناعمةٌ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أنعمُ منها مَنْ يأكلُها ، وأنتَ ممَّنْ يأكلُها يا أبا بكرٍ »[4]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو في قولهِ تعالىٰ : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ قالَ : (يُطافُ عليهم بسبعينَ صحفةً مِنْ ذهبٍ ، كلُّ صحفةٍ فيها لونٌ ليسَ في الأخرىٰ مثلُهُ)[5]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ قالَ : (يُمزجُ لأصحابِ اليمينِ ، ويشربُها المقربونَ صرفاً)[6]

---

(١) رواه مسلم (٣١٥) .

(٢) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١١٤١٤) ، وفيه : (فإذا بطنه قد ضمر) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٠٠) ، والبزار في « مسنده » (٢٠٣٢)

(٤) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٠٨) ، وعند الإمام أحمد في « المسند » (٢٢١/٣) نحوه من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣١٠) ، ونحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (٣٨٠/٥) ، وفيه وفي (ب) : (بسبعين ألف صحفة) بدل (بسبعين صحفة) .

(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٢٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٢٢٦) ، وفي (ب) : (يشرب بها) بدل (يشربها) .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ قالَ : (هوَ شرابٌ أبيضُ مثلُ الفضةِ ، يختمونَ بهِ آخرَ شرابِهِمْ ، لوْ أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الدنيا أدخلَ يدَهُ فيهِ ثمَّ أخرجَها . . لمْ يبقَ ذو روحٍ إلَّا وجدَ ريحَ طيبِها) [١]

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٢٤) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٧٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣١٩) .

صفة الحور العين والولدان

قدْ تكرَّرَ في القرآنِ أوصافُهُمْ ، ووردَتِ الأخبارُ بزيادةِ شرحٍ فيهِ .

روىٰ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « غدوةٌ في سبيلِ اللهِ أو روحةٌ خيرٌ منَ الدنيا وما فيها ، ولقابُ قوسِ أحدِكُمْ أوْ موضعُ قدمِهِ مِنَ الجنَّةِ خيرٌ منَ الدنيا وما فيها ، ولوْ أنَّ امرأةً مِنْ نساءِ أهلِ الجنَّةِ اطَّلعَتْ إلى الأرضِ . . لأضاءَتْ ولملأَتْ ما بينَهُما رائحةً ، ولنصيفُها علىٰ رأسِها خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ؛ يعني الخمارَ »(١)

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ قالَ : « ينظرُ إلىٰ وجهِها في خدرِها أصفىٰ منَ المرآةِ ، وإنَّ أدنىٰ لؤلؤةٍ عليها لتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ ، وإنَّهُ يكونُ عليها سبعونَ ثوباً ينفذُها بصرُهُ حتىٰ يُرىٰ مخُّ ساقِها مِنْ وراءِ ذٰلكَ »(٢)

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمَّا أُسريَ بي . . دخلتُ الجنَّةَ موضعاً يُسمَّى البيدخَ ، عليهِ خيامُ اللؤلؤِ والزبرجدِ الأخضرِ والياقوتِ الأحمرِ ، فقلنَ : السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، فقلتُ : يا جبريلُ ؛ ما هٰذا النداءُ ؟ قالَ : هٰؤلاءِ المقصوراتُ في الخيامِ ، استأذنَّ ربَّهُنَّ في السَّلامِ عليكَ فأذنَ لهنَّ ، فطفقنَ يقلنَ : نحنُ الراضياتُ فلا نسخطُ أبداً ، ونحنُ الخالداتُ فلا نظعنُ أبداً » وقرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾(٣)

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ قالَ : منَ الحيضِ والغائطِ والبولِ ، والبصاقِ والنخامةِ ، والمنيِّ والولدِ(٤)

وقالَ الأوزاعيُّ : ﴿ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ قالَ : شغلُهُم : افتضاضُ الأبكارِ(٥)

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيباضعُ أهلُ الجنَّةِ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يُعطى الرجلُ منْهم منَ القوةِ في اليومِ الواحدِ أفضلَ مِنْ سبعينَ منْكُم »(٦)

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ : (إنَّ أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ منزلةً مَنْ يسعىٰ مَعَهُ ألفُ خادمٍ ، كلُّ خادمٍ علىٰ عملٍ ليس عليهِ صاحبُهُ)(٧)

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ليُزوَّجُ خمسَ مئةِ حوراءَ ، وأربعةَ آلافِ بكْرٍ ، وثمانيةَ آلافِ ثيِّبٍ ، يعانقُ كلَّ واحدةٍ منهنَّ مقدارَ عمرِهِ في الدنيا »(٨)

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤٧٥/٢) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٢٨) ، وعند أحمد في « المسند » (٧٥/٣) نحوه .

(٣) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٢٩) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٤٣) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٥٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٦٤) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٥١) .

(٦) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٩٧٢/٢ ـ ٩٧٣) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٥٤) .

(٧) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٢) .

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٦٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٤) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ سوقاً ما فيها بيعٌ ولا شراءٌ إلَّا الصورُ منَ الرجالِ والنساءِ ، فإذا اشتهى الرجلُ صورةً . . دخلَ فيها ، وإنَّ فيها مجتمعاً للحورِ العينِ ، يرفعنَ بأصواتٍ لمْ تسمعِ الخلائقُ مثلَها يقلنَ : نحنُ الخالداتُ فلا نبيدُ ، ونحنُ الناعماتُ فلا نبأسُ ، ونحنُ الرَّاضياتُ فلا نسخطُ ، فطوبىٰ لمَنْ كانَ لنا وكنَّا لهُ »[1]

وقالَ يحيى بنُ أبي كثيرٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قالَ : السماعُ في الجنَّةِ[2]

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحورَ في الجنَّةِ يتغنَّينَ يقلنَ : نحنُ الحورُ الحسانُ ، خُبِّئنا لأزواجٍ كرامٍ »[3] .

وقالَ أبو أمامةَ الباهليُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ يدخلُ الجنَّةَ إلَّا ويجلسُ عندَ رأسِهِ وعندَ رجليهِ ثنتانِ مِنَ الحورِ العينِ ، يغنيانِهِ بأحسنِ صوتٍ سمعَهُ الإنسُ والجنُّ ، وليسَ بمزمارِ الشيطانِ ، ولٰكنْ بتحميدِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتقديسِهِ »[4]

* * *

---

(١) رواه بتمامه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٤٤) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٧) ، وهو عند الترمذي مجموع حديثين الأول (٢٥٥٠) ، والثاني (٢٥٦٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٦٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٤٩) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٩) ، وعند الطبراني في « الأوسط » (٤٩١٤) نحوه .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/١١٣) .

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت الأخبار بها

روىٰ أسامةُ بنُ زيدٍ : (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأصحابِهِ : « ألا هلْ مشمرٌ للجنَّةِ ؟ إنَّ الجنَّةَ لا خطرَ لها[1] ، هيَ وربِّ الكعبةِ نورٌ يتلألأُ وريحانةٌ تهتزُّ ، وقصرٌ مشيدٌ ونهرٌ مطَّردٌ ، وفاكهةٌ كثيرةٌ نضيجةٌ ، وزوجةٌ حسناءُ جميلةٌ ، في حبرةٍ ونعمةٍ في مقامٍ أبداً ، ونضرةٍ في دارٍ عاليةٍ بهيَّةٍ سليمةٍ » قالوا : نحنُ المشمِّرونَ لها يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « قولوا : إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ » ثمَّ ذكرَ الجهادَ وحضَّ عليهِ)[2]

وجاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ في الجنَّةِ خيلٌ ؛ فإنَّها تعجبُني ؟ قالَ : « إنْ أحببتَ ذٰلكَ . . أُتيتَ بفرسٍ مِنْ ياقوتةٍ حمراءَ ، فتطيرُ بكَ في الجنةِ حيثُ شئتَ » ، وقالَ لهُ رجلٌ آخرُ : إنَّ الإبلَ تعجبُني ، فهلْ في الجنَّةِ مِنْ إبلٍ ؟ فقالَ : « يا عبدَ اللهِ ؛ إنْ أُدخلتَ الجنَّةَ . . فلكَ فيها ما اشتهَتْ نفسُكَ ولذَّتْ عيناكَ »[3]

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ليُولدُ لهُ الولدُ كما يشتهي ، يكونُ حملُهُ وفصالُهُ وشبابُهُ في ساعةٍ واحدةٍ »[4]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا استقرَّ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ . . اشتاقَ الإخوانُ إلى الإخوانِ ، فيسيرُ سريرُ ذا إلىٰ سريرِ ذا ، فيلتقيانِ ، فيتحدثانِ ما كانَ بينَهُما في دارِ الدنيا ، فيقولُ : يا أخي ؛ تذكرُ يومَ كذا في مجلسِ كذا ، فدعونا اللهَ عزَّ وجلَّ فغفرَ لنا »[5]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أهلُ الجنَّةِ جردٌ مردٌ ، بيضٌ جعادٌ مكحلونَ[6] ، أبناءُ ثلاثٍ وثلاثينَ ، علىٰ خلقِ آدمَ ؛ طولُهُمْ ستونَ ذراعاً في عرضِ سبعةِ أذرعٍ »[7]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ الذي لهُ ثمانونَ ألفَ خادمٍ ، واثنتانِ وسبعونَ زوجةً ، ويُنصبُ لهُ قبةٌ مِنْ لؤلؤٍ وزبرجدٍ وياقوتٍ كما بينَ الجابيةِ إلىٰ صنعاءَ ، وإنَّ عليهِمُ التيجانَ ، وإنَّ أدنىٰ لؤلؤةٍ منها لتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ »[8]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نظرتُ إلى الجنَّةِ ؛ فإذا الرمَّانةُ مِنْ رمَّانِها كجلدِ البعيرِ المقتَّبِ ، وإذا طيرُها كالبختِ ،

---

(١) **الخَطَر** : القَدْر .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٣٣٢) .

(٣) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٨٣) ، وعند الترمذي (٢٥٤٣) نحوه .

(٤) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٦٥٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٨٦) ، وعند الترمذي (٢٥٦٣) ، وابن ماجه (٤٣٣٨) نحوه .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤٩/٨) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٨٨) ، وعند البزار في « مسنده » (٦٦٦٨) نحوه .

(٦) **الجعاد** : جمع جعد ، وهو المجتمع الخَلْق .

(٧) رواه أحمد في « المسند » (٢٩٥/٢) ، ورواه الترمذي (٢٥٤٥) مختصراً

(٨) رواه الترمذي (٢٥٦٢) .

وإذا فيها جاريةٌ ، فقلتُ : يا جاريةُ ؛ لِمَنْ أنتِ ؟ فقالَتْ : لزيدِ بنِ حارثةَ ، وإذا في الجنَّةِ ما لا عينٌ رأَتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ »(١)

وقالَ كعبٌ : (خلقَ اللهُ تعالىٰ آدمَ عليهِ السَّلامُ بيدِهِ ، وكتبَ التوراةَ بيدِهِ ، وغرسَ الجنَّةَ بيدِهِ ، ثمَّ قالَ لها : تكلَّمِي ، فقالَتْ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾)(٢)

فهٰذهِ صفاتُ الجنَّةِ ذكرناها جملةً ثمَّ نقلناها تفصيلاً .

وقدْ ذكرَ الحسنُ البصريُّ رحمةُ اللهُ جملتَها فقالَ : (إنَّ رمَّانَها مثلُ الدلاءِ ، وإنَّ أنهارَها لَمِنْ ماءٍ غيرِ آسنٍ(٣) ، وأنهارٌ منْ لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُهُ ، وأنهارٌ مِنْ عسلٍ مصفىً لمْ يصفِّهِ الرجالُ ، وأنهارٌ مِنْ خمرٍ لذَّةٍ للشاربينَ ، لا تسفِّهُ الأحلامَ ولا تصدعُ منها الرؤوسُ .

وإنَّ فيها ما لا عينٌ رأَتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ ، ملوكٌ ناعمونَ ، أبناءُ ثلاثٍ وثلاثينَ في سنٍّ واحدٍ ، طولُهُمْ ستونَ ذراعاً في السماءِ ، كحلٌ جردٌ مردٌ ، قدْ أمنوا العذابَ واطمأنَّتْ بهمُ الدارُ .

وإنَّ أنهارَها لتجري على رضراضٍ مِنْ ياقوتٍ وزبرجدٍ(٤) ، وإنَّ عروقَها ونخلَها وكرمَها اللؤلؤُ ، وثمارَها لا يعلمُ علمَها إلَّا اللهُ تعالىٰ ، وإنَّ ريحَها ليُوجدُ مِنْ مسيرةِ خمسِ مئةِ سنةٍ .

وإنَّ لهُمْ فيها خيلاً وإبلاً هفافةً(٥) ، رحالُها وأزمَّتُها وسروجُها منْ ياقوتٍ ، يتزاورونَ فيها .

وأزواجُهُمُ الحورُ العينُ ؛ كأنَّهنَّ بيضٌ مكنونٌ ، وإنَّ المرأةَ لتأخذُ بينَ إصبعيها سبعينَ حلةً فتلبسُها ، فيُرىٰ مخُّ ساقِها مِنْ وراءِ تلكَ السبعينَ حلةً .

قدْ طهَّرَ اللهُ الأخلاقَ مِنَ السوءِ ، والأجسادَ مِنَ الموتِ ، لا يمتخطونَ فيها ولا يبولونَ ولا يتغوَّطونَ ، وإنَّما هوَ جشاءٌ ورشحُ مسكٍ ، لهم رزقُهُمْ فيها بكرةً وعشياً ، أما إنَّهُ ليسَ ليلٌ يكرُّ ، الغدوُّ على الرواحِ ، والرواحُ على الغدوِّ .

وإنَّ آخرَ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ وأدناهُم منزلةً ليُمدُّ لهُ في بصرِهِ وملكِهِ مسيرةَ مئةِ عامٍ ، في قصورِ الذهبِ والفضةِ وخيامِ اللؤلؤِ ، ويُفسحُ لهُ في بصرِهِ حتىٰ ينظرَ إلىٰ أقصاهُ كما ينظرُ إلىٰ أدناهُ .

يُغدىٰ عليهِم بسبعينَ ألفَ صحفةٍ مِنْ ذهبٍ ، ويُراح عليهِمْ بمثلِها ، في كلِّ صحفةٍ لونٌ ليسَ في الأخرىٰ مثلُهُ ، ويجدُ طعمَ آخرِهِ كما يجدُ طعمَ أوَّلِهِ .

وإنَّ في الجنَّةِ لياقوتةً فيها سبعونَ ألفَ دارٍ ، في كلِّ دارٍ سبعونَ ألفَ بيتٍ ، ليسَ فيها صدعٌ ولا ثقبٌ) .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٠٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/٣٧٢) ، والمقتب : عظيم الأقتاب وهي الأمعاء .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٥٨) ، وروى الحاكم في « المستدرك » (٢/٣٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده فقال لها : تكلمي ، فقالت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ » .

(٣) أي : غير متغير ، ليس كمياه الدنيا . « إتحاف » (١٠/٥٥١) .

(٤) **الرضراض** : الحصى الصغار .

(٥) **هفافة** : سريعة السير .

وقالَ مجاهدٌ : إنَّ أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ منزلةً لمَنْ يسيرُ في ملكِهِ ألفَ سنةٍ ، يرىٰ أقصاهُ كما يرىٰ أدناهُ ، وأرفعَهُمُ الذي ينظرُ إلىٰ ربِّهِ بالغداةِ والعشيِّ (١) .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : ليسَ أحدٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ إلَّا وفي يدِهِ ثلاثةُ أسورةٍ ، سوارٌ مِنْ ذهبٍ ، وسوارٌ مِنْ لؤلؤٍ ، وسوارٌ مِنْ فضةٍ (٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : (إنَّ في الجنَّةِ حوراءَ يُقالُ لها : العيناءُ ، إذا مشَتْ . . مشىٰ عن يمينِها ويسارِها سبعونَ ألفَ وصيفةٍ وهيَ تقولُ : أينَ الآمرونَ بالمعروفِ والنَّاهونَ عنِ المنكرِ ؟) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : تركُ الدنيا شديدٌ ، وفوتُ الجنَّةِ أشدُّ ، وتركُ الدنيا مهرُ الآخرةِ .

وقالَ أيضاً : في طلبِ الدنيا ذلُّ النُّفوسِ ، وفي طلبِ الآخرةِ عزُّ النُّفوسِ ، فيا عجباً لمَنْ يختارُ المذلةَ في طلبِ ما يفنىٰ ، ويتركُ العزَّ في طلبِ ما يبقىٰ !!

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٢١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٧٧) ، ورواه الترمذي (٣٣٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » . « إتحاف » (١٠/٥٥٢) .

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تعالى

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

وهـٰذهِ الزيادةُ هيَ النظرُ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، وهيَ اللذَّةُ الكبرى التي يُنسىٰ فيها نعيمُ الجنَّةِ ، وقدْ ذكرنا حقيقتَها في كتابِ المحبةِ ، وقدْ شهدَ لها الكتابُ والسنةُ علىٰ خلافِ ما يعتقدُهُ أهلُ البدعةِ .

قالَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ البجليُّ : كنَّا جلوساً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فرأى القمرَ ليلةَ البدرِ فقالَ : « إنَّكم سترونَ ربَّكم كما ترونَ هـٰذا القمرَ لا تضامونَ في رؤيتِهِ ؛ فإنِ استطعتُم ألَّا تُغلبوا علىٰ صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ غروبِها . . فافعلوا » ثمَّ قرأَ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وهوَ مُخرَّجٌ في « الصحيحينِ »[1] .

وروىٰ مسلمٌ في « الصحيحِ » عنْ صهيبٍ قالَ : قرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قالَ : « إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ . . نادىٰ منادٍ : يا أهلَ الجنَّةِ ؛ إنَّ لكم عندَ اللهِ موعداً يريدُ أنْ ينجزَكُموهُ ، قالوا : ما هـٰذا الموعدُ ؟! ألمْ يثقلْ موازينَنا ويبيضْ وجوهَنا ، ويدخلْنا الجنَّةَ ويجرْنا مِنَ النَّارِ ؟! قالَ : فيُرفعُ الحجابُ وينظرونَ إلىٰ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهمْ مِنَ النَّظرِ إليهِ »[2]

وقدْ روىٰ حديثَ الرؤيةِ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ ، وهـٰذهِ هيَ غايةُ الحسنىٰ ونهايةُ النعمىٰ ، وكلُّ ما فصَّلناهُ مِنَ النِّعمِ عندَ هـٰذهِ النعمةِ يُنسىٰ ، وليسَ لسرورِ أهلِ الجنَّةِ عندَ سعادةِ اللقاءِ منتهىً ، بلْ لَا نسبةَ لشيءٍ مِنْ لذَّاتِ الجنَّةِ إلىٰ لذَّةِ اللقاءِ ، وقدْ أوجزنا الكلامَ ها هنا لما فصَّلناهُ في كتابِ المحبةِ والشوقِ والرضا ، فلا ينبغي أنْ تكونَ همةُ العبدِ مِنَ الجنَّةِ شيئاً سوىٰ لقاءِ المولىٰ ، فأمَّا سائرُ نعيمِ الجنَّةِ . . فإنَّهُ يشاركُ فيهِ البهيمةَ المسرحةَ في المرعىٰ .

* * *

(١) صحيح البخاري (٥٥٤) ، صحيح مسلم (٦٣٢) .
(٢) صحيح مسلم (١٨١) .

بابٌ في سعة رحمة الله تعالى نختتم به الكتاب على سبيل التفاؤل بذلك

فقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعجبُهُ الفألُ[1] ، وليسَ لنا مِنَ الأعمالِ ما نرجو بهِ المغفرةَ ، فنقتدي برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في التفاؤلِ ، ونرجو أنْ يختمَ عاقبتَنا بالخيرِ في الدنيا والآخرةِ ، كما ختمنا الكتابَ بذكرِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ .

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ونحنُ نستغفرُ اللهَ تعالىٰ مِنْ كلِّ ما زلَّتْ بهِ القدمُ ، أو طغىٰ بهِ القلمُ في كتابِنا هٰذا وفي سائرِ كتبِنا .

ونستغفرُهُ منْ أقوالِنا التي لا توافقُها أعمالُنا .

ونستغفرُهُ ممَّا ادَّعيناهُ وأظهرناهُ مِنَ العلمِ والبصيرةِ بدينِ اللهِ تعالىٰ معَ التقصيرِ فيهِ .

ونستغفرُهُ مِنْ كلِّ علمٍ وعملٍ قصدنا بهِ وجهَهُ الكريمَ ثمَّ خالطَهُ غيرُهُ .

ونستغفرُهُ مِنْ كلِّ وعدٍ وعدناهُ بهِ مِنْ أنفسِنا ثمَّ قصَّرنا في الوفاءِ بهِ .

ونستغفرُهُ مِنْ كلِّ نعمةٍ أنعمَ بها علينا فاستعملناها في معصيتِهِ .

ونستغفرُهُ منْ كلِّ تصريحٍ وتعريضٍ بنقصانِ ناقصٍ وتقصيرِ مقصرٍ كنَّا متصفينَ بهِ .

ونستغفرُهُ منْ كلِّ خطرةٍ دعتْنا إلىٰ تصنُّعٍ وتكلُّفٍ تزيُّناً للنَّاسِ في كتابٍ سطرناهُ ، أوْ كلامٍ نظمناهُ ، أو علمٍ أفدناهُ أوِ استفدناهُ .

ونرجو بعدَ الاستغفارِ منْ جميعِ ذٰلكَ كلِّهِ لنا ولمَنْ طالعَ كتابَنا هٰذا أو كتبَهُ أو سمعَهُ . . أنْ يكرمَهُ اللهُ تعالىٰ بالمغفرةِ والرحمةِ والتَّجاوزِ عَنْ جميعِ السيئاتِ ظاهراً وباطناً ؛ فإنَّ الكرمَ عميمٌ ، والرحمةَ واسعةٌ ، والجودَ علىٰ أصنافِ الخلائقِ فائضٌ ، ونحنُ خلقٌ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، لا وسيلةَ لنا إليهِ إلَّا فضلُهُ وكرمُهُ ؛ فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ مئةَ رحمةٍ ، أنزلَ منها رحمةً واحدةً بينَ الجنِّ والإنسِ والطيرِ والبهائمِ والهوامِّ ؛ فبها يتعاطفونَ وبها يتراحمونَ ، وأخَّرَ تسعاً وتسعينَ رحمةً يرحمُ بها عبادَهُ يومَ القيامةِ »[2]

ويُروىٰ أنَّهُ إذا كانَ يومُ القيامةِ . . أخرجَ اللهُ تعالىٰ كتاباً مِنْ تحتِ العرشِ فيهِ : إنَّ رحمتي سبقَتْ غضبي ، وأنا أرحمُ الراحمينَ ، فيخرجُ مِنَ النَّارِ مثلَ أهلِ الجنَّةِ[3]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يتجلَّى اللهُ عزَّ وجلَّ لنا يومَ القيامةِ ضاحكاً فيقولُ : أبشروا معشرَ

---

(١) رواه البخاري (٥٧٥٦) ، ومسلم (٢٢٢٤) .

(٢) رواه مسلم (٦٤٦٩) ، وعند البخاري (٦٠٠٠) نحوه .

(٣) رواه عبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٨٥٨) ، وروى البخاري (٧٤٢٢) ، ومسلم (١٥/٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق . . كتب عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .

المسلمينَ ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنكم أحدٌ إلَّا وقدْ جعلتُ مكانَهُ في النَّارِ يهودياً أو نصرانياً »[1]

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُشفِّعُ اللهُ تعالىٰ آدمَ يومَ القيامةِ مِنْ جميعِ ذريَّتِهِ في مئةِ ألفِ ألفٍ وعشرةِ آلافِ ألفٍ »[2]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ : هلْ أحببتُم لقائي ؟

فيقولونَ : نعمْ يا ربَّنا ، فيقولُ : لِمَ ؟ فيقولونَ : رجَونا عفوَكَ ومغفرتَكَ ، فيقولُ : قدْ أوجبتُ لكمْ مغفرتي »[3]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أخرجوا منَ النَّارِ مَنْ ذكرَني يوماً أوْ خافَني في مقامٍ »[4]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا اجتمعَ أهلُ النَّارِ في النَّارِ ومَنْ شاءَ اللهُ معَهُمْ منْ أهلِ القبلةِ . . قالَ الكفارُ للمسلمينَ : ألمْ تكونوا مسلمينَ ؟! قالوا : بلىٰ .

قالوا : ما أغنىٰ عنْكُم إسلامُكُمْ إذْ أنتُمْ معَنا في النَّارِ ، فيقولونَ : كانَتْ لنا ذنوبٌ فأُخذنا بها .

فيسمعُ اللهُ عزَّ وجلَّ ما قالوا ، فيأمرُ بإخراجِ مَنْ كانَ في النَّارِ مِنْ أهلِ القبلةِ ، فيُخرجونَ ؛ فإذا رأىٰ ذٰلكَ الكفارُ . . قالوا : يا ليتَنا كنَّا مسلمينَ فنخرجَ كما أُخرجوا » .

وقرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[5]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أرحمُ بعبدِهِ المؤمنِ مِنَ الوالدةِ الشفيقةِ بولدِها »[6]

وقالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : (مَنْ زادَتْ حسناتُهُ علىٰ سيئاتِهِ يومَ القيامةِ . . فذاكَ الذي يدخلُ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ، ومَنِ استوَتْ حسناتُهُ وسيئاتُهُ . . فذاكَ الذي يُحاسَبُ حساباً يسيراً ثمَّ يدخلُ الجنَّةَ ، وإنَّما شفاعةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَنْ أوبقَ نفسَهُ وأثقلَ ظهرَهُ)[7]

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ لموسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا موسى ؛ استغاثَ بكَ قارونُ فلمْ تغثْهُ ، وعزَّتي وجلالي ؛ لوِ استغاثَ بي . . لأغثتُهُ وعفوتُ عنهُ)[8]

وقالَ سعدُ بنُ بلالٍ[9] : يُؤمرُ يومَ القيامةِ بإخراجِ رجلينِ مِنَ النَّارِ ، فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : ذٰلكَ بما قدَّمَتْ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/٤٠٧ ـ ٤٠٨) ، وروىٰ مسلم (٢٧٦٧) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة . . دفع الله عز وجل إلىٰ كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول : هـٰذا فكاكك من النار » .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٨٣٦) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٣٨) .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٩٤) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٢٤٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وعند النسائي في « الكبرىٰ » (١١٢٠٧) نحوه من حديث جابر رضي الله عنه .

(٦) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

(٧) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧/٤١٣) .

(٨) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/٩٨) .

(٩) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/٥٦١) : (كذا في بعض النسخ ، وفي بعضها : سعيد بن بلال ، وكل منهما خطأ ، والصواب : بلال بن سعد ، هو ابن تميم الأشعري أو الكندي ، أبو عمرو أو أبو زرعة الدمشقي العابد الفاضل . . .) .

أيديكما وما أنا بظلامٍ للعبيدِ ، ويأمرُ بردِّهما إلى النَّارِ ، فيعدو أحدُهُما في سلاسلِهِ حتىٰ يقتحمَها ، ويتلكَّأُ الآخرُ ، فيُؤمرُ بردِّهما ويسألُهُما عن فعلِهما .

فيقولُ الذي عدا إلى النَّارِ : قدْ ذقتُ مِنْ وبالِ المعصيةِ ما لمْ أكنْ أتعرَّضُ لسخطِكَ ثانيةً .

ويقولُ الذي تلكَّأَ : حسْنُ ظنِّي بكَ كانَ يشعرُني ألَّا تردَّني إليها بعدَما أخرجتَني مِنْها ، فيأمرُ بهما إلى الجنَّةِ [1]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينادي منادٍ مِنْ تحتِ العرشِ يومَ القيامةِ : يا أمَّةَ محمَّدٍ ؛ أمَّا ما كانَ لي قِبَلَكُمْ . . فقدْ وهبتُه لكُمْ ، وبقيَتِ التبعاتُ فتواهبوها ، وادخلوا الجنَّةَ برحمتي » [2]

ويُروىٰ أنَّ أعرابياً سمعَ ابنَ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقرأُ : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ فقالَ الأعرابيُّ : واللهِ ؛ ما أنقذَهُم مِنْها وهوَ يريدُ أنْ يوقعَهُم فيها .

فقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (خذوها مِنْ غيرِ فقيهٍ) [3]

وقالَ الصنابحيُّ : دخلتُ علىٰ عبادةَ بنِ الصامتِ وهوَ في مرضِ الموتِ ، فبكيتُ ، فقالَ : مهلاً ؛ لِمَ تبكي ؟ فواللهِ ، ما مِنْ حديثٍ سمعتُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لكم فيهِ خيرٌ . . إلَّا حدثتُكموهُ إلَّا حديثاً واحداً ، وسوفَ أحدِّثُكموهُ اليومَ وقدْ أُحيطَ بنفسي ، سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ شهدَ أنْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ . . حرَّمَ اللهُ عليهِ النَّارَ » [4]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ سيخلصُ رجلاً مِنْ أمَّتي علىٰ رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ ، فينشرُ عليهِ تسعةً وتسعينَ سجلاً ، كلُّ سجلٍّ مثلُ مدِّ البصرِ .

ثمَّ يقولُ : أتنكرُ مِنْ هـٰذا شيئاً ؟ أظلمَكَ كتبَتي الحافظونَ ؟ فيقولُ : لا يا ربِّ .

فيقولُ : أفلكَ عذرٌ ؟ فيقولُ : لا يا ربِّ .

فيقولُ : بلىٰ ، إنَّ لكَ عندَنا حسنةً ، وإنَّهُ لا ظلمَ عليكَ اليومَ ، فيخرجُ بطاقةً فيها : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، فيقولُ : يا ربِّ ؛ ما هـٰذهِ البطاقةُ معَ هـٰذهِ السجلَّاتِ ؟! فيُقالُ : إنَّكَ لا تُظلمُ .

قالَ : فتُوضعُ السجلَّاتُ في كفَّةٍ والبطاقةُ في كفَّةٍ ، فطاشَتِ السجلَّاتُ وثقلَتِ البطاقةُ ، فلا يثقلُ معَ اسمِ اللهِ شيءٌ » [5]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في آخرِ حديثٍ طويلٍ يصفُ فيهِ القيامةَ والصِّراطَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للملائكةِ : مَنْ وجدتُمْ في قلبهِ مثقالَ دينارٍ مِنْ خيرٍ . . فأخرجُوهُ مِنَ النَّارِ ، فيخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثمَّ يقولونَ : ربَّنا ؛

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٢٦) من حديث بلال بن سعد .

(٢) رواه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٨٨٧١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٠٧) .

(٤) رواه مسلم (٢٩) .

(٥) رواه الترمذي (٢٦٣٩) ، وابن ماجه (٤٣٠٠) .

لَمْ نذرْ فيها أحداً ممَّنْ أمرتَنا بهِ ، ثمَّ يقولُ : ارجعوا ، فمَنْ وجدتُم في قلبِهِ مثقالَ نصفِ دينارٍ مِنْ خيرٍ . . فأخرجوهُ ، فيخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثمَّ يقولونَ : ربَّنا ؛ لَمْ نذرْ فيها أحداً ممَّنْ أمرتَنا ، ثمَّ يقولُ : ارجعوا ، فمَنْ وجدتُم في قلبِهِ مثقالَ ذرَّةٍ مِنْ خيرٍ . . فأخرجوهُ ، فيخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثمَّ يقولونَ : ربَّنا ؛ لَمْ نذرْ فيها خيراً » .

فكانَ أبو سعيدٍ الخدريُّ يقولُ : إنْ لم تصدقُوني بهٰذا الحديثِ . . فاقرؤوا إنْ شئتُمْ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ .

« فيقولُ اللهُ تعالىٰ : شفعَتِ الملائكةُ ، وشفعَ النبيُّونَ ، وشفعَ المؤمنونَ ، ولم يبقَ إلَّا أرحمُ الراحمينَ ، فيقبضُ قبضةً فيخرجُ منها قوماً لمْ يعملوا خيراً قطُّ قدْ عادوا حمماً ، فيلقيهمْ في نهرٍ في أفواهِ الجنَّةِ يُقالُ لهُ : نهرُ الحياةِ ، فيخرجونَ منهُ كما تخرجُ الحِبَّةُ في حميلِ السيلِ ، ألا ترونَها تكونُ ممَّا يلي الحجرَ أو الشجرَ ، ما يكونُ إلى الشمسِ أصفرُ وأخضرُ ، وما يكونُ مِنْها إلى الظلِّ أبيضُ » .

فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ كأنَّكَ كنتَ ترعىٰ بالباديةِ .

قالَ : « فيخرجونَ كاللؤلؤِ في رقابِهِمْ الخواتيمُ ، يعرفُهُمْ أهلُ الجنَّةِ يقولونَ : هٰؤلاءِ عتقاءُ اللهِ الذينُ أدخلَهُمُ اللهُ الجنَّةَ بغيرِ عملٍ عملوهُ ولا خيرٍ قدَّموهُ ، ثمَّ يقولُ : ادخلوا الجنَّةَ ، فما رأيتُم . . فهوَ لكُمْ .

فيقولونَ : ربَّنا ؛ أعطيتَنا ما لمْ تعطِ أحداً مِنَ العالمينَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : لكُمْ عندي أفضلُ مِنْ هٰذا ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ أيُّ شيءٍ أفضلُ مِنْ هٰذا ؟!

فيقولُ : رضائي عنْكُم فلا أسخطُ عليكُمْ بعدَهُ أبداً » رواه البخاريُّ ومسلمٌ في « صحيحيهما »(١)

وروى البخاريُّ أيضاً عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ فقالَ : « عُرِضَتْ عليَّ الأممُ ، يمرُّ النبيُّ معَهُ الرجلُ ، والنبيُّ معَهُ الرجلانِ ، والنبيُّ ليسَ معَهُ أحدٌ ، والنبيُّ معهُ الرهطُ ، فرأيتُ سواداً كثيراً فرجوتُ أنْ تكونَ أمَّتي ، فقيلَ لي : هٰذا موسىٰ وقومُهُ ، ثمَّ قيلَ لي : انظرْ ، فرأيتُ سواداً كثيراً قدْ سدَّ الأفقَ ، فقيلَ لي : انظرْ هٰكذا وهٰكذا ، فرأيتُ سواداً كثيراً ، فقيلَ لي : هٰؤلاءِ أمَّتُكَ ، ومعَ هٰؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ » .

فتفرَّقَ النَّاسُ ولمْ يبيِّنْ لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فتذاكرَ ذٰلكَ أصحابُهُ فقالوا : أمَّا نحنُ . . فوُلدنا في الشِّركِ ، ولٰكنَّا آمنَّا باللهِ ورسولِهِ ، هٰؤلاءِ هم أبناؤُنا ، فبلغَ ذٰلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « همُ الذينَ لا يكتوون ، ولا يسترقونَ ، ولا يتطيَّرونَ ، وعلىٰ ربِّهِمْ يتوكَّلونَ » .

فقامَ عكَّاشةُ فقالَ : أنا مِنْهُم يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « نعمْ » ثمَّ قامَ آخرُ فقالَ : أنا مِنْهم يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « سبقَكَ بِها عكَّاشةُ »(٢)

وعَنْ عمرِو بنِ حزمٍ الأنصاريِّ قالَ : تغيَّبَ عنَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثاً لا يخرجُ إلَّا لصلاةٍ مكتوبةٍ ثمَّ يرجعُ ، فلمَّا كانَ اليومُ الرابعُ . . خرجَ إلينا ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ احتبستَ عنَّا حتىٰ ظنَنَّا أنَّهُ قدْ حدثَ حدثٌ ،

---

(١) صحيح البخاري (٧٤٣٩) ، صحيح مسلم (١٨٣) .
(٢) صحيح البخاري (٥٧٥٢) .

قالَ : « لمْ يحدثْ إلَّا خيرٌ ، إنَّ ربي عزَّ وجلَّ وعدَني أنْ يدخلَ مِنْ أُمَّتي الجنَّةَ سبعينَ ألفاً لا حسابَ عليهِمْ ، وإنِّي سألتُ ربي في هٰذهِ الثلاثةِ الأيامِ المزيدَ ، فوجدتُ ربي ماجداً واجداً كريماً ، فأعطاني معَ كلِّ واحدٍ مِنَ السبعينَ ألفاً سبعينَ ألفاً » .

قالَ : « قلتُ : يا ربِّ ؛ وتبلغُ أُمَّتي هٰذا ؟ قالَ : أُكملُ لكَ العددَ مِنَ الأعرابِ »[1] .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرضَ لي جبريلُ في جانبِ الحرَّةِ فقالَ : بشِّرْ أُمَّتَكَ أنَّهُ مَنْ ماتَ لا يشركُ باللهِ شيئاً دخلَ الجنَّةَ ، فقلتُ : يا جبريلُ ؛ وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ ؟ قالَ : نعمْ ، وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ ، قلتُ : وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ ؟ قالَ : وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ ، قلتُ : وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ ؟ قالَ : وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ وإن شربَ الخمرَ »[2]

وقالَ أبو الدرداءِ : قرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلتُ : وإنْ زنىٰ وإنْ سرقَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلتُ : وإنْ زنىٰ وإنْ سرقَ ؟ فقالَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلتُ : وإنْ زنىٰ وإنْ سرقَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وإنْ رغِمَ أنفُ أبي الدرداءِ »[3]

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . دُفعَ إلىٰ كلِّ مؤمنٍ رجلٌ مِنْ أهلِ المللِ فقيلَ لهُ : هٰذا فداؤُكَ مِنَ النَّارِ »[4]

وروىٰ مسلمٌ في « الصحيحِ » عنْ أبي بردةَ : أنَّهُ حدَّثَ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ عنْ أبيهِ أبي موسىٰ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لا يموتُ رجلٌ مسلمٌ إلَّا أدخلَ اللهُ تعالىٰ مكانَهُ النَّارَ يهودياً أو نصرانياً » .

فاستحلفَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : باللهِ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ ثلاثَ مرَّاتٍ ؛ أنَّ أباهُ حدَّثَهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فحلفَ لهُ[5]

ورُوي أنَّهُ وقفَ صبيٌّ في بعضِ المغازي يُنادىٰ عليه فيمَنْ يزيدُ في يومٍ صائفٍ شديدِ الحرِّ ، فبصرَتْ بهِ امرأةٌ في خباءِ القومِ ، فأقبلَتْ تشتدُّ ، وأقبلَ أصحابُهَا خلفَها ، حتىٰ أخذَتِ الصبيَّ وألصقَتْهُ إلىٰ بطنِها ، ثمَّ ألقَتْ ظهرَها على البطحاءِ وجعلَتْهُ علىٰ بطنِها تقيهِ الحرَّ وقالَتْ : ابني ابني ، فبكى النَّاسُ وتركوا ما هُمْ فيهِ ، فأقبلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتىٰ وقفَ عليهِمْ ، فأخبروهُ الخبرَ ، فسُرَّ برحمتِهِمْ ثمَّ بشَّرَهُمْ فقالَ : « أعجبتُمْ منْ رحمةِ هٰذهِ لابنِها ؟ » قالوا : نعمْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فإنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ أرحمُ بكُمْ جميعاً مِنْ هٰذهِ بابنِها » .

فتفرَّقَ المسلمونَ علىٰ أفضلِ السرورِ وأعظمِ البشارةِ[6]

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٢٩/١) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٤٣) ، ومسلم (٣٣/٩٤) .

(٣) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١١٤٩٧) ، وفي (ب) : (أبو ذر) بدل (أبو الدرداء) وهي رواية البخاري (٥٨٢٧) ومسلم (٩٤) ولفظهما : « ما من عبد قال : لا إلٰه إلا الله ثم مات علىٰ ذلك . . إلَّا دخل الجنة » ، قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : « وإن زنىٰ وإن سرق » ، قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : « وإن زنىٰ وإن سرق » ، قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : « وإن زنىٰ وإن سرق علىٰ رغم أنف أبي ذرّ » .

(٤) رواه مسلم (٢٧٦٧) بنحوه .

(٥) صحيح مسلم (٥٠/٢٧٦٧) .

(٦) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع اختلاف .

فهٰذهِ الأحاديثُ وما أوردناهُ في كتابِ الرجاءِ ، يبشِّرُنا بسعةِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، فنرجو اللهَ تعالىٰ ألَّا يعاملَنا بما نستحقُّهُ ، ويتفضَّلَ علينا بما هوَ أهلُهُ بمنِّهِ وسعةِ جودِهِ ورحمتِهِ .

❁ ❁ ❁

تم كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو آخر ربع المنجيات وآخر كتاب إحياء علوم الدين

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً

والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً

وقد ختم المصنف كتابه بهٰذا الحديث العظيم الوقع في القلوب لأمور : منها : اتفاق البخاري ومسلم على إخراجه في كتابيهما ؛ ففيه نوع تبرك ، ومنها : أنه أعظم دليل على سعة رحمة الله تعالىٰ ، ولله در القائل :   [من السريع]

لم لا نرجّي العفو من ربنا ... أم كيف لا نطمع في حلمه

وفي الصحيحين أتىٰ أنَّهُ ... بعبده أرأفُ من أمِّهِ

ومنها : حصول ذٰلك لعامة المؤمنين ، أو لعامة الخلق ، ومنها : التلميح بقوله : « فتفرق المسلمون » إلىٰ ختم الكتاب ؛ فإنه إذا فرغ من شيء . . تفرق عنه ، ومنها : حسن التفاؤل بقوله : « أفضل السرور وأعظم البشارة » فيكون حال مطالع هٰذا الكتاب وكاتبه وخادمه مختتماً بأفضل السرور ، منتهياً بأعظم البشارة . « إتحاف » (١٠/٥٧١) .

مصادر التحقيق[1]

١ ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، **للإمام المحدث** عبيد الله بن محمد العكبري المعروف بـ **ابن بطة** (ت ٣٨٧ هـ) ، تحقيق سيد عمران ، ط ١ ، (٢٠٠٦ م) ، دار الحديث ، مصر .

٢ ـ أبو العتاهية أشعاره وأخباره ، **للشاعر المبدع المولد** إسماعيل بن القاسم بن سويد المعروف بـ **أبي العتاهية** (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق شكري فيصل ، ط ١ ، (١٩٦٤ م) ، دار الملاح ، سورية .

٣ ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، **للإمام الكبير الشريف** محمد بن محمد الزَّبيدي الحسيني المعروف بـ **مرتضى الزبيدي** (ت ١٢٠٥ هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٤ م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٤ ـ إتحاف القاري بمعرفة جهود أعمال العلماء على صحيح البخاري ، **للشريف محمد عصام عرار الحسني** ، ط ١ ، (١٩٨٧ م) ، دار اليمامة ، سورية .

٥ ـ الآحاد والمثاني ، **للإمام الحافظ الرحلة** أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني المعروف بـ **ابن أبي عاصم** (ت ٢٨٧ هـ) ، تحقيق الدكتور باسم الجوابرة ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، دار الراية ، السعودية .

٦ ـ الأحاديث الطوال ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠ هـ) ، حققه حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ٢ ، (١٩٩٨ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

٧ ـ الأحاديث المختارة ، المسمى « المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما » ، **للإمام الحافظ ضياء الدين** محمد بن عبد الواحد **المقدسي** (ت ٦٤٣ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الملك بن عبد الله دهيش ، ط ٤ ، (٢٠٠١ م) ، دار خضر ، لبنان .

٨ ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، المسمى « المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها » ، **للإمام الحافظ** علي **بن بَلبان** الفارسي المصري (ت ٧٣٩ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط ٣ ، (١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٩ ـ أحكام القرآن ، **للإمام الحافظ القاضي** محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المعروف بـ **ابن العربي المالكي** (ت ٥٤٣ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط ٣ ، (٢٠٠٢ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٠ ـ أحكام القرآن ، **للإمام الفقيه** أحمد بن علي الرازي **الجصاص** (ت ٣٧٠ هـ) ، تحقيق محمد الصادق قمحاوي ، ط ١ ، (١٩٩٢ م) ، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ، لبنان .

١١ ـ أخبار القضاة وتواريخهم ، المسمى « طبقات القضاة » ، **للقاضي المؤرخ** محمد بن خلف بن حيَّان الضبي المعروف بـ **وكيع** (ت ٣٠٦ هـ) ، عني به عبد العزيز مصطفى المَرَاغي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة عن نشرة لدى عالم الكتب ، لبنان .

١٢ ـ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، **للعلامة المؤرخ** محمد بن إسحاق بن العباس **الفاكهي** (ت بعد ٢٧٢ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الملك بن عبد الله دهيش ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ) ، دار خضر ، لبنان .

١٣ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، **للإمام المؤرخ** محمد بن عبد الله بن أحمد **الأزرقي** (ت ٢٥٠ هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، اسم المؤلف وتاريخ وفاته ، اسم المحقق ، رقم الطبعة ، تاريخ طبع الكتاب ، اسم الدار الناشرة ومقرها .

١٤ ـ أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بـ **أبي الشيخ** (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد الإسكندراني ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

١٥ ـ أخلاق حملة القرآن ، **للإمام الحافظ** محمد بن الحسين **الآجري** (ت ٣٦٠ هـ) ، ويليه : « آداب تلاوة القرآن وتأليفه » للإمام السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، ط ١ ، (١٩٨٧ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

١٦ ـ الإخوان ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٧ ـ آداب الشافعي ومناقبه ، **للإمام الحافظ الكبير** عبد الرحمـٰن بن محمد بن إدريس الرازي المعروف بـ **ابن أبي حاتم** (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق عبد الغني عبد الخالق ، ط ٣ ، (٢٠٠١ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

١٨ ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية ، **للإمام العلامة الفقيه** محمد بن **مفلح** المقدسي الحنبلي (ت ٧٦٣ هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، دار البيان ، سورية .

١٩ ـ آداب الصحبة ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين بن محمد الأزدي المعروف بـ **أبي عبد الرحمـٰن السُّلَمي** (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، دار الصحابة للتراث ، مصر .

٢٠ ـ آداب النفوس ، **للإمام الأصولي الصوفي الحارث** بن أسد **المحاسبي** (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ٢ ، (١٩٩١ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٢١ ـ أدب الدنيا والدين ، **للإمام الفقيه الأصولي المفسر** علي بن محمد بن حبيب **الماوردي** (ت ٤٥٠ هـ) ، تحقيق ياسين محمد السواس ، ط ٣ ، (٢٠٠٢ م) ، دار ابن كثير ، سورية .

٢٢ ـ الأدب المفرد ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت ٢٥٦ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ٤ ، (١٩٩٧ م) ، نسخة مصورة لدىٰ دار البشائر الإسلامية عن طبعة المكتبة السلفية ، لبنان .

٢٣ ـ أدب النديم ، **للشاعر الأديب المنشئ** محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك الرملي المعروف بـ **كشاجم** (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ، ط ١ ، (١٩٨٧ م) ، مطبعة التقدم ، مصر .

٢٤ ـ الأذكار من كلام سيد الأبرار ، المسمىٰ « حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار » ، **للإمام الحافظ المجتهد** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦ هـ) ، عني به صلاح الدين الحمصي وعبد اللطيف أحمد عبد اللطيف ومحمد شعبان ، ط ١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

٢٥ ـ الأذكياء ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق محمد عبد الكريم النمري ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٢٦ ـ إرشاد الساري إلىٰ شرح صحيح البخاري ، **للإمام العلامة** أحمد بن محمد بن أبي بكر **القَسْطَلاني** (ت ٩٢٣ هـ) ، وبهامشه صحيح مسلم وشرح النووي عليه ، ط ٦ ، (١٣٠٤ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة بولاق لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٢٧ ـ الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، **لإمام الحرمين** عبد الملك بن عبد الله بن يوسف **الجويني** (ت ٤٧٨ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد يوسف موسىٰ وعلي عبد المنعم عبد الحميد ، ط ٣ ، (٢٠٠٢ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٢٨ ـ الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله تعالىٰ وتلاوة كتابه العزيز وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين ، **للإمام العلامة المحدث** عبد الله بن أسعد بن علي **اليافعي** (ت ٧٦٨ هـ) ، عني به أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

٢٩ ـ الأزمنة والأمكنة ، **للعلامة الأديب** أحمد بن محمد بن الحسن **المرزوقي** (ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد نايف الدليمي ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، عالم الكتب ، لبنان .

٣٠ ـ أساس البلاغة ، **للإمام البارع شيخ العرب والعجم محمود بن عمر الزمخشري** (ت ٥٣٨ هـ) ، ط ٣ ، (١٩٨٥ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

٣١ ـ الاستذكار الجامع لمذهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه « الموطأ » من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت ٤٦٣ هـ) ، وثق أصوله الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، دار قتيبة ودار الوعي ، سورية .

٣٢ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق عادل مرشد ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار الأعلام ، الأردن .

٣٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، **للعلامة** علي بن محمد الشيباني المعروف بـ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، ط ١ ، (١٩٧٠ م) ، دار الشعب ، مصر .

٣٤ ـ الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور عز الدين علي السيد ، ط ١ ، (١٩٨٤ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٣٥ ـ الأسماء والصفات ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

٣٦ ـ الإشراف في منازل الأشراف ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق الدكتور نجم عبد الرحمٰن خلف ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

٣٧ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، وبهامشه « الاستيعاب في أسماء الأصحاب » ، ط ١ ، (١٣٥٩ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، لبنان .

٣٨ ـ إصلاح المال ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٣٩ ـ اعتلال القلوب ، **للإمام الحافظ الحجة** محمد بن جعفر بن محمد بن سهل السامري **الخرائطي** (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق حمدي الدمرداش ، ط ٢ ، (٢٠٠٠ م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

٤٠ ـ الأعلام ، وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، **للأديب الكبير خير الدين بن محمود بن محمد الزِّرِكلي** (ت ١٣٩٦ هـ) ، ط ١٢ ، (١٩٩٧ م) ، دار العلم للملايين ، لبنان .

٤١ ـ الأقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة ، **للإمام المحدث الشريف محمد بن جعفر الكتاني** الحسني (ت ١٣٤٥ هـ) ، تحقيق الشريف العلامة محمد الفاتح محمد المكي الكتاني والشريف محمد عصام يوسف عرار الحسني ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، نشره محققه ، سورية .

٤٢ ـ الاقتصاد في الاعتقاد ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط ١ ، (٢٠٠٨ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

٤٣ ـ اقتضاء العلم العمل ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط ٥ ، (١٩٨٤ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

٤٤ ـ آكام المرجان في أحكام الجان ، **للعلامة المحدث الفقيه** محمد بن عبد الله **الشبلي** (ت ٧٦٩ هـ) ، تحقيق رضوان جامع رضوان ، ط ١ ، (٢٠٠٩ م) ، دار الحرم للتراث ، مصر .

٤٥ ـ إكمال المعلم بفوائد مسلم ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ) ، تحقيق الدكتور يحيىٰ إسماعيل ، ط ٢ ، (٢٠٠٤ م) ، دار الوفاء ، مصر .

٤٦ ـ الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ) ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط ٣ ، (٢٠٠٤ م) ، مكتبة دار التراث ، مصر .

٤٧ ـ الأم ، **لإمام الدنيا** محمد بن إدريس **الشافعي** (ت ٢٠٤ هـ) ، تحقيق الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، دار الوفاء ، مصر .

٤٨ ـ أمالي ابن الشجري ، **للإمام الأديب اللغوي** هبة الله بن علي بن محمد الحسني المعروف بـ **ابن الشَّجري** (ت ٥٤٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي ، ط ١ ، (١٩٩٢ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٤٩ ـ الأمالي في آثار الصحابة ، **للإمام الحافظ** عبد الرزاق بن همام **الصنعاني** (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط ١ ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر

٥٠ ـ الأمالي ، **لإمام اللغة والأدب والشعر** إسماعيل بن القاسم بن عيذون المعروف بـ **أبي علي القالي** (ت ٣٥٦ هـ) ، عني به محمد عبد الجواد الأصمعي ، ط ١ ، (١٩٨٠ م) ، دار الآفاق الجديدة ، لبنان .

٥١ ـ الإمامة والسياسة ، **لإمام الأدب واللغة القاضي** عبد الله بن مسلم المعروف بـ **ابن قتيبة الدِّينَوَري** (ت ٢٧٦ هـ) ، ط ٢ ، (٢٠٠٦ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٥٢ ـ الإمتاع والمؤانسة ، **لفيلسوف الأدباء** علي بن محمد بن العباس المعروف بـ **أبي حيان التوحيدي** (ت نحو ٤٠٠ هـ) ، تحقيق الدكتور مرسل فالح العجمي ، ط ١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار سعد الدين ، سورية .

٥٣ ـ أمثال الحديث ، **للإمام الحافظ** الحسن بن عبد الرحمٰن بن خلاد **الرامهرمزي** (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأعظمي ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، الدار السلفية ، الهند .

٥٤ ـ الأمثال في الحديث النبوي ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بـ **أبي الشيخ** (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأعظمي ، ط ١ ، (١٩٨٢ م) ، الدار السلفية ، الهند .

٥٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، صلاح بن عايض الشلاحي ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٥٦ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، **للإمام المحدث المفسر اللغوي** أحمد بن محمد بن هارون **الخلال** الحنبلي (ت ٣١١ هـ) ، تحقيق مشهور حسن محمود سلمان وهشام بن إسماعيل السقا ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان

٥٧ ـ الأموال ، **أبو عبيد** بن قاسم بن **سلام** (ت ٢٢٤ هـ) ، تحقيق سيد بن رجب ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، دار الهدي النبوي ودار الفضيلة ، مصر والسعودية .

٥٨ ـ الأموال ، **للإمام الحافظ** حَميد بن مخلد بن قتيبة النسائي المعروف بـ **ابن زنجويه** (ت ٢٥١ هـ) ، تحقيق الدكتور شاكر ذيب فياض ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، السعودية .

٥٩ ـ الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

٦٠ ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، **للعلامة القاضي** عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الرحمٰن العليمي المعروف بـ **مجير الدين الحنبلي** (ت ٩٢٨ هـ) ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة بدون اسم ناشر .

٦١ ـ أنساب الأشراف ، **للعلامة المؤرخ النسابة** أحمد بن يحيى بن جابر **البلاذري** (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، دار الفكر ، لبنان .

٦٢ ـ الأنساب ، **للإمام الحافظ** عبد الكريم بن محمد **السمعاني** (ت ٥٦٢ هـ) ، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار الفكر ، لبنان .

٦٣ ـ الأنوار لأعمال الأبرار ، **للإمام الفقيه يوسف** بن إبراهيم الهلابادي **الأردبيلي** (ت ٧٧٦ أو ٧٩٩) ، ومعه حاشية الكمثرئ وحاشية الحاج إبراهيم ، ط ١ ، (١٩٦٩ م) ، مؤسسة الحلبي ، مصر .

٦٤ ـ أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور ، **للإمام الحافظ الفقيه** عبد الرحمـٰن بن أحمد السلامي البغدادي المعروف بـ **ابن رجب الحنبلي** (ت ٧٩٥ هـ) ، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي ، ط ٣ ، (١٩٩٤ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

٦٥ ـ الأولياء ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٦٦ ـ أوهام الحاكم ، **للإمام الحافظ النسابة** عبد الغني بن سعيد **الأزدي** (ت ٤٠٩ هـ) ، تحقيق مشهور حسن محمود سلمان ، ط ١ ، (١٤٠٧ هـ) ، مكتبة المنار ، الأردن .

٦٧ ـ بحر الدموع ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق إبراهيم باجس عبد المجيد ، ط ٤ ، (٢٠٠٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٦٨ ـ البحر الزخار ، المسمىٰ « مسند البزار » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو **البزار** (ت ٢٩٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمـٰن زين الله ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .

٦٩ ـ بداية الهداية ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به محمد غسان نصوح عزقول وفريقه ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

٧٠ ـ البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ، **للإمام الحافظ** عمر بن علي المعروف بـ **ابن الملقن** (ت ٨٠٤ هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار الهجرة ، السعودية .

٧١ ـ البدع والنهي عنها ، **للإمام الحافظ** محمد بن وضاح **القرطبي** (ت ٢٨٦ هـ) ، تحقيق محمد أحمد **دهمان** ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، دار الصفا ، مصر .

٧٢ ـ بذل المجهود في حل أبي داوود ، **للعلامة المحدث** خليل بن أحمد **السهارنفوري** (ت ١٣٤٦ هـ) ، وتعليق العلامة محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

٧٣ ـ البر والصلة ، **للإمام** الحسين بن الحسن بن حرب **المروزي** (ت ٢٤٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد سعيد بخاري ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ) ، دار الوطن ، السعودية .

٧٤ ـ البرهان في أصول الفقه ، **لإمام الحرمين** عبد الملك بن عبد الله بن يوسف **الجويني** (ت ٤٧٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب ، ط ١ ، (١٣٩٩ هـ) ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر .

٧٥ ـ بستان الواعظين ورياض السامعين ، **للإمام الحافظ المؤرخ** عبد الرحمـٰن بن علي بن محمد البغدادي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور السيد الجميلي ، ط ١ ، (١٤٠٣ هـ) ، دار الريان للتراث ، مصر .

٧٦ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، **للإمام اللغوي** محمد بن يعقوب **الفيروزآبادي** (ت ٨١٧ هـ) ، تحقيق محمد علي النجار ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى المكتبة العلمية ، لبنان .

٧٧ ـ البصائر والذخائر ، **لفيلسوف الأدباء** علي بن محمد بن العباس المعروف بـ **أبي حيان التوحيدي** (ت نحو ٤٠٠ هـ) ، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، ط ١ ، (١٩٥٣ م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر .

٧٨ ـ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ، **للإمام الحافظ نور الدين** علي بن أبي بكر **الهيثمي** (ت ٨٠٧ هـ) ، تحقيق الدكتور حسين أحمد صالح الباكري ، ط ١ ، (١٩٩٢ م) ، مركز خدمة السنة النبوية بالتعاون مع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، السعودية .

٧٩ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله **النمري** المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، ط ٢ ، (١٩٨١ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٨٠ ـ البيان والتبين ، لكبير أئمة الأدب عمرو بن بحر بن محبوب الليثي المعروف بـ **الجاحظ** (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، ط ٧ ، (١٩٩٨ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٨١ ـ تاج العروس من جواهر القاموس ، **للإمام الكبير الشريف** محمد بن محمد الزَّبيدي الحسيني المعروف بـ **مرتضى الزبيدي** (ت ١٢٠٥ هـ) ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وجماعة من أئمة التحقيق ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

٨٢ ـ تاريخ أصبهان ، المسمىٰ « ذكر أخبار أصبهان » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٨٣ ـ تاريخ الأدب العربي ، **للمستشرق كارل بروكلمان** ، عني به وأشرف علىٰ ترجمته الدكتور محمود فهمي حجازي ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

٨٤ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عمر بن عبد السلام تدمري ، ط ١ ، (١٩٨٧ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

٨٥ ـ تاريخ الطبري ، المسمىٰ « تاريخ الأمم والملوك » ، **للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري** (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، (١٩٦٧ م) ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .

٨٦ ـ التاريخ الكبير ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت ٢٥٦ هـ) ، عني به مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ٢ ، (٢٠٠٨ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٨٧ ـ تاريخ المدينة المنورة ، للعلامة **المحدث المؤرخ** عمر **بن شبة** النميري البصري (ت ٢٦٢ هـ) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط ٢ ، (١٣٤٨ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الفكر ، إيران .

٨٨ ـ تاريخ بغداد ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٨٩ ـ تاريخ جرجان ، **للإمام الحافظ المؤرخ** حمزة بن يوسف بن إبراهيم **الجرجاني** (ت ٣٤٥ هـ) ، تحقيق محمد عبد المعين خان ، ط ٣ ، (١٩٨١ م) ، عالم الكتب ، لبنان .

٩٠ ـ تاريخ داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، **للقاضي** عبد الجبار بن عبد الله **الخولاني** المعروف بـ **ابن المهنا** (ت بعد ٣٦٥ هـ) ، تحقيق العلامة سعيد الأفغاني ، ط ٢ ، (١٩٨٤ م) ، دار الفكر ، سورية .

٩١ ـ تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، **للإمام الحافظ** علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بـ **ابن عساكر** (ت ٥٧١ هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة **العَمْروي** ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، لبنان .

٩٢ ـ التبصرة ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٩٣ ـ تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى المكتبة العلمية ، لبنان .

٩٤ ـ التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، **للإمام الأصولي المتكلم** شاهفور بن طاهر بن محمد الشافعي المعروف بـ **أبي المظفر الإسفراييني** (ت ٤٧١ هـ) ، تحقيق محمد بن زاهد الكوثري ، ط ١ ، (١٣٥٩ هـ) ، المكتبة الأزهرية للتراث ، مصر .

٩٥ ـ التبيان في آداب حملة القرآن ، **للإمام الحافظ المجتهد** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦ هـ) ، تحقيق محمد شادي مصطفىٰ عربش ، ط ١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

٩٦ ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، **للإمام الحافظ** علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بـ **ابن عساكر** (ت ٥٧١ هـ) ، عني به حسام الدين القدسي ، ط ٤ ، (١٩٩١ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

٩٧ ـ التحف والأنوار المنتخب من البلاغات والأشعار ، **لإمام اللغة والأدب** عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (٢٠٠٩ م) ، دار مجدلاوي ، الأردن .

٩٨ ـ تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق ، **للإمام الحافظ** علي بن بَلْبان بن عبد الله الفارسي المعروف بـ **ابن بلبان** (ت ٧٣٩ هـ) ، بدون تاريخ ، مكتبة دار التراث ، السعودية .

٩٩ ـ تحفة المحتاج بشرح المنهاج ، **للإمام العلامة** أحمد بن محمد **ابن حجر الهيتمي** (ت ٩٧٤ هـ) ، ومعها حواشي العلامة عبد الحميد الشرواني (ت ١٣٠١ هـ) وحواشي العلامة أحمد بن قاسم العبادي (ت ٩٢٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٥ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار صادر ، لبنان .

١٠٠ ـ تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري ، **للإمام المحدث الفقيه** عبد الله بن يوسف بن محمد **الزيلعي** (ت ٧٦٢ هـ) ، تحقيق سلطان بن فهد الطبيشي ، ط ٢ ، (٢٠٠٩ م) ، دار ابن خزيمة ، مصر .

١٠١ ـ التدوين في أخبار قزوين ، **للإمام الفقيه المحدث** عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم **الرافعي** (ت ٦٢٣ هـ) ، تحقيق عزيز الله العطاردي ، ط ١ ، (١٩٨٧ م) ، دار الباز ، السعودية .

١٠٢ ـ التذكرة الحمدونية ، **للإمام الأديب الإخباري** محمد بن الحسن بن محمد بن علي **بن حمدون** (ت ٥٦٢ هـ) ، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، دار صادر ، لبنان .

١٠٣ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ) ، عني به محمد سالم هاشم ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٠٤ ـ الترغيب في الدعاء ، **للإمام الحافظ عبد الغني** بن عبد الواحد **المقدسي** (ت ٦٠٠ هـ) ، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

١٠٥ ـ الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذٰلك ، **للإمام الحافظ** عمر بن أحمد عثمان **ابن شاهين** (ت ٣٨٥ هـ) ، تحقيق صالح أحمد مصلح الوعيل ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

١٠٦ ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، **للإمام الحافظ** عبد العظيم بن عبد القوي **المنذري** (ت ٦٥٦ هـ) ، تحقيق محيي الدين مستو وسمير العطار ويوسف بديوي ، ط ٣ ، (١٩٩٩ م) ، دار ابن كثير ، سورية .

١٠٧ ـ تصحيفات المحدثين ، **للإمام الحافظ الفقيه أبي أحمد** الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل **العسكري** (ت ٣٨٢ هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، المطبعة العربية الحديثة ، مصر .

١٠٨ ـ التعازي والمراثي ، **للإمام البليغ** محمد بن يزيد المعروف بـ **المبرِّد** (ت ٢٨٦ هـ) ، تحقيق محمد الديباجي ، ط ٢ ، (١٩٩٢ م) ، دار صادر ، لبنان .

١٠٩ ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ، **للإمام المحدث الصوفي** محمد بن إبراهيم بن يعقوب **الكلاباذي** (ت ٣٨٠ هـ) ، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، دار الإيمان ، سورية .

١١٠ ـ التعريفات ، **للعلامة السيد** علي بن محمد بن علي **الجرجاني** (ت ٨١٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمٰن المرعشلي ، ط ١ ، (٢٠٠٣ م) ، دار النفائس ، لبنان .

١١١ ـ تعزية المسلم ، **للإمام الحافظ المحدث** القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بـ **ابن عساكر** ، ابن صاحب التاريخ (ت ٦٠٠ هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط ١ ، (١٤١١ هـ) ، مكتبة الصحابة ، السعودية .

١١٢ ـ تعظيم قدر الصلاة ، **للإمام الحافظ** محمد بن نصر **المروزي** (ت ٨٩٤ هـ) ، تحقيق أحمد أبو المجد ، ط ١ ، (٢٠٠٣ م) ، دار العقيدة ، مصر .

١١٣ ـ **تغليق التعليق على صحيح البخاري ، للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن **حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق سعيد عبد الرحمٰن موسى القزقي ، ط ٢ ، (١٩٩٩ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

١١٤ ـ **تفسير ابن عطية** ، المسمى « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » ، **للإمام الفقيه المفسر** عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن الغرناطي المعروف بـ **ابن عطية** (ت ٥٤٦ هـ) ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١١٥ ـ تفسير البيضاوي ، المسمىٰ « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » ، **للإمام القاضي المفسر** عبد الله بن عمر بن محمد **البيضاوي** (ت ٦٨٥أو٦٩١ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، دار صادر ، لبنان .

١١٦ ـ تفسير التستري ، **للإمام المتكلم الصوفي** سهل بن عبد الله بن يونس **التستري** (ت ٢٨٣ هـ) ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١١٧ ـ تفسير الثعلبي ، المسمى « الكشف والبيان » ، **للإمام المفسر** أحمد بن محمد **الثعلبي** (ت ٤٢٧ هـ) ، تحقيق الشيخ أبو محمد بن عاشور ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان

١١٨ ـ **تفسير الطبري** ، المسمىٰ « **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** » ، **للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري** (ت ٣١٠ هـ) ، عني به مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار ابن حزم ودار الأعلام ، لبنان والأردن .

١١٩ ـ تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، **للإمام الحافظ الكبير** عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي المعروف بـ **ابن أبي حاتم** (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

١٢٠ ـ تفسير القرآن العظيم ، **للإمام الحافظ إسماعيل** بن عمر الدمشقي المعروف بـ **ابن كثير** (ت ٧٧٤ هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط ١ ، (١٩٦٩ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

١٢١ ـ تفسير القرآن ، **للإمام المحدث المفسر** منصور بن محمد بن عبد الجبار **السمعاني** (ت ٤٩٨ هـ) ، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار الوطن ، السعودية .

١٢٢ ـ تفسير القرطبي ، المسمى « الجامع لأحكام القرآن » ، **للإمام المفسر** محمد بن أحمد بن أبي بكر **القرطبي** (ت ٦٧١ هـ) ، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني ، ط ٢ ، (١٩٨٥ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

١٢٣ ـ التفسير الكبير ، المسمى « البحر المحيط » ، **للإمام النحوي** محمد بن يوسف بن علي الأندلسي المعروف بـ **أبي حيان** (ت ٧٤٥ هـ) ، وبهامشه « تفسير النهر الماد من البحر » للمؤلف و« الدر اللقيط من البحر المحيط » لابن مكتوم (ت ٧٤٩ هـ) ، ط ٢ ، (١٩٩٠ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

١٢٤ ـ التفسير الكبير ، المسمىٰ « مفاتيح الغيب » ، **للإمام المفسر فخر الدين** محمد بن عمر **الرازي** (ت ٦٠٦ هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط ٣ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

١٢٥ ـ تفسير مقاتل بن سليمان ، **للإمام المفسر مقاتل بن سليمان** بن بشير الأزدي (ت ١٥٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاته ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

١٢٦ ـ تقريب التهذيب ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن **حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط ٨ ، (٢٠٠٩ م) ، دار اليسر ودار المنهاج ، السعودية .

١٢٧ ـ تلبيس إبليس ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، ط ٥ ، بدون تاريخ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

١٢٨ ـ التلخيص الحبير ، المسمى « التمييز في تلخيص تخريج أحاديث شرح الوجيز » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن **حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، عني به الدكتور محمد الثاني موسىٰ ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

١٢٩ ـ تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق سكينة الشهابي ، ط ١ ، (١٩٨٥ م) ، دار طلاس ، سورية .

١٣٠ ـ التمثيل والمحاضرة ، **لإمام اللغة والأدب** عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ط ٢ ، (١٩٨٣ م) ، الدار العربية للكتاب ، مصر .

١٣١ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ١ ، (١٩٦٧ م) ، وزارة الأوقاف ، المغرب .

١٣٢ ـ تنبيه الغافلين ، **للعلامة** نصر بن محمد **السمرقندي** (ت ٣٧٣ هـ) ، تحقيق يوسف علي بديوي ، ط ٣ ، (٢٠٠٠ م) ، دار ابن كثير ، سورية .

١٣٣ ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ، **للعلامة الفقيه** علي بن محمد **ابن عراق الكناني** (ت ٩٦٣ هـ) ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق الغُماري ، ط ٢ ، (١٩٨١ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٣٤ ـ تهافت الفلاسفة ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، ط ٨ ، (٢٠٠٠ م) ، دار المعارف ، مصر .

١٣٥ ـ التهجد وقيام الليل ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن **أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصلح بن جزاء بن فدغوش الحارثي ، ط ٢ ، (٢٠٠٠ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

١٣٦ ـ تهذيب الأسرار ، **للإمام الحافظ الفقيه** عبد الملك بن محمد بن إبراهيم **الخركوشي** (ت ٤٠٧ هـ) ، تحقيق بسام محمد بارود ، ط ١ ، (٢٠٠٨ م) ، الساحة الخزرجية ، الإمارات العربية المتحدة .

١٣٧ ـ تهذيب الأسماء واللغات ، **للإمام الحافظ المجتهد** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦ هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط ١ ، (٢٠٠٦ م) ، دار الفيحاء ودار المنهل ، سورية .

١٣٨ ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الرحمـٰن **المِزّي** (ت ٧٤٢ هـ) ، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، ط ١ ، (١٩٨٠ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

١٣٩ ـ تهذيب اللغة ، **لإمام اللغة والأدب** محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي المعروف بـ **الأزهري** (ت ٣٧٠ هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الصادق ، إيران .

١٤٠ ـ التوابين ، **للإمام الفقيه** عبد الله بن أحمد بن محمد الجماعيلي الحنبلي المعروف بـ **ابن قدامة المقدسي** (ت ٦٢٠ هـ) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط ٢ ، (١٩٦٩ م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .

١٤١ ـ التواضع والخمول ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق لطفي محمد الصغير ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار الاعتصام ، مصر .

١٤٢ ـ التوبة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط ١ ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .

١٤٣ ـ التوبيخ والتنبيه ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بـ **أبي الشيخ** (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق حسن بن أمين الندوة ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ) ، مكتبة التوعية الإسلامية ، مصر .

١٤٤ ـ التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، **للإمام الحافظ** محمد بن إسحاق **بن خزيمة** (ت ٣١١ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، دار الرشد ، السعودية .

١٤٥ ـ التيسير بشرح الجامع الصغير ، **للإمام العلامة** محمد عبد الرؤوف بن علي **المناوي** (ت ١٠٣١ هـ) ، ط ١ ، (١٢٨٦ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة بولاق لدىٰ مكتبة الإمام الشافعي ، السعودية .

١٤٦ ـ الثقات ، **للإمام الحافظ** محمد **بن حِبَّان** البُسْتي (ت ٣٥٤ هـ) ، عني به إبراهيم شمس الدين وتركي فرحان المصطفىٰ ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٤٧ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، **للإمام الحافظ اللغوي** المبارك بن محمد بن محمد المعروف بـ **ابن الأثير** (ت ٦٠٦ هـ) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط ١ ، (١٩٦٩ م) ، مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ومكتبة دار البيان ، سورية .

١٤٨ ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن أحمد المعروف بـ **ابن رجب الحنبلي** (ت ٧٥٩ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس ، ط ١٠ ، (٢٠٠٤ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

١٤٩ ـ جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن ، **للإمام الحافظ** إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي الدمشقي المعروف بـ **ابن كثير** (ت ٧٧٤ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٩٩٤ م) ، دار الفكر ، لبنان .

١٥٠ ـ جامع بيان العلم وفضله ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري ، ط ١ ، (١٩٩٤ م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

١٥١ ـ الجامع في الحديث ، **للإمام الحافظ** عبد الله **بن وهب** القرشي (ت ١٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور مصطفىٰ حسن أبو الخير ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

١٥٢ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

١٥٣ ـ الجامع لشعب الإيمان ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

١٥٤ ـ الجرح والتعديل ، **للإمام الحافظ الكبير** عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي المعروف بـ **ابن أبي حاتم** (ت ٣٢٧ هـ) ، عني به عبد الرحمٰن يحيى المعلمي اليماني ، ط ١ ، (١٩٥٢ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد الدَّكَن بالهند لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

١٥٥ ـ جزء الحميري ، **للإمام الحافظ** علي بن محمد بن هارون بن زياد **الحميري** (ت ٣٢٣ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العزيز بن سليمان بن إبراهيم البعيمي ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

١٥٦ ـ جزء محمد بن عاصم ، **للإمام الحافظ** محمد بن عاصم الثقفي **الأصفهاني** (ت ٢٦٢ هـ) ، تحقيق مفيد خالد عيّد ، ط ١ ، (١٤٠٩ هـ) ، دار العاصمة ، السعودية .

١٥٧ ـ جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام علىٰ محمد خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الحافظ** محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بـ **ابن قيم الجوزية** (ت ٧٥١ هـ) ، تحقيق محيي الدين ديب مستو ، ط ٣ ، (١٩٩٦ م) ، دار الكلم الطيب ودار ابن كثير ، سورية .

١٥٨ ـ الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، **للأديب الفقيه** المعافى بن زكريا **الجريري** (ت ٣٩٠ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، عالم الكتب ، لبنان .

١٥٩ ـ الجمع بين الصحيحين ، **للإمام المحدث** محمد بن فتوح **الحميدي** (ت ٤٨٨ هـ) ، تحقيق الدكتور علي حسين البواب ، ط ٢ ، (٢٠٠٢ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

١٦٠ ـ جمهرة الأمثال ، **للعلامة الأديب** الحسن بن عبد الله بن سهل المعروف بـ **أبي هلال العسكري** (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد عبد السلام ومحمد سعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٦١ ـ الجهاد ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن المبارك بن واضح **المروزي** (ت ١٨١ هـ) ، تحقيق الدكتور نزيه حماد ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار المطبوعات الحديثة ، السعودية .

١٦٢ ـ جوامع السيرة النبوية ، **للإمام الفقيه** علي بن أحمد بن سعيد المعروف بـ **ابن حزم الظاهري** (ت ٤٥٦ هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٦٣ ـ الجوع ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ٢ ، (٢٠٠٠ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

١٦٤ ـ الحاوي للفتاوي ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٢ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٦٥ ـ الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار علىٰ من يدعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذٰلك ، **للإمام** أحمد بن محمد **الخلال** البغدادي الحنبلي (ت ٣١١ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، سورية .

١٦٦ ـ الحجة للقراء السبعة ، **للإمام الحافظ النحوي** الحسن بن عبد الغفار **الفارسي** (ت ٣٧٧ هـ) ، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي ، ط ١ ، (١٩٨٤ م) ، دار المأمون للتراث ، سورية .

١٦٧ ـ حسن الظن بالله ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق عبد الحميد شانوحة ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

١٦٨ ـ حقائق التفسير ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين بن محمد الأزدي المعروف بـ **أبي عبد الرحمٰن السُّلَمي** (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق سيد عمران ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

١٦٩ ـ الحلم ، ويليه « كتاب التوكل على الله » ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .

١٧٠ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠ هـ) ، ط ٥ ، (١٩٨٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧ هـ) لدىٰ دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، مصر ولبنان .

١٧١ ـ الحماسة المغربية (مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب) ، **للشاعر الأديب** أحمد بن عبد السلام **الجراوي** (ت ٦٠٩ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، ط ٢ ، (٢٠٠٥ م) ، دار الفكر ، سورية .

١٧٢ ـ حياة الإمام النووي ، المسمى « الاهتمام بترجمة الإمام النووي شيخ الإسلام » ، **للإمام الحافظ الناقد** محمد بن عبد الرحمٰن **السخاوي** (ت ٩٠٢ هـ) ، عني به الدكتور مصطفىٰ ديب البغا ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار العلوم الإنسانية ، سورية .

١٧٣ ـ حياة الحيوان الكبرىٰ ، **للإمام العلامة الفقيه** الأديب محمد بن موسى بن عيسى **الدميري** (ت ٨٠٨ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار البشائر ، سورية .

١٧٤ ـ خاص الخاص ، **لإمام اللغة والأدب** عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت ٤٢٩ هـ) ، عني به الشيخ محمود السمكري ، ط ١ ، (١٣٢٦ هـ) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

١٧٥ ـ ختم الأولياء ، **للإمام الولي** محمد بن علي المعروف بـ **الحكيم الترمذي** (ت ٣١٨ هـ) ، تحقيق عثمان إسماعيل يحيىٰ ، ط ١ ، (١٩٦٥ هـ) ، المطبعة الكاثوليكية ، لبنان .

١٧٦ ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، **لعلامة الأدب والتاريخ** عبد القادر بن عمر **البغدادي** (ت ١٠٩٣ هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ ، (١٩٧٩ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

١٧٧ ـ الخطط المقريزية ، المسمى « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، **لمؤرخ الديار المصرية** أحمد بن علي بن عبد القادر المعروف بـ **تقي الدين المقريزي** (ت ٨٤٥ هـ) ، ط ١ ، (١٢٧٠ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار صادر ، لبنان .

١٧٨ ـ الخلاصة ، المسمىٰ « خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر » ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به الدكتور أمجد رشيد محمد علي ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

١٧٩ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، **للعلامة المؤرخ** محمد أمين بن فضل بن محب الله **المحبي** (ت ١١١١ هـ) ، ط ١ ، (١٢٨٤ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الوهبية لدىٰ دار صادر ، لبنان .

١٨٠ ـ خلاصة البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ، **للإمام الحافظ** عمر بن علي المعروف بـ **ابن الملقن** (ت ٨٠٤ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٨٩ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

١٨١ ـ خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفىٰ ، **للعلامة المحدث المحقق الشريف** علي بن عبد الله الحسني **السمهودي** (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط ١ ، (٢٠٠٦ م) ، مكتبة الثقافة الإسلامية ، مصر .

١٨٢ ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، **للإمام المفسر عالم العربية** أحمد بن يوسف المعروف بـ السمين **الحلبي** (ت ٧٥٦ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط ، ط ١ ، (١٩٨٧ م) ، دار القلم ، سورية .

١٨٣ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار الفكر ، لبنان .

١٨٤ ـ الدعاء ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد سعيد محمد حسن البخاري ، ط ١ ، (٢٠٠٨ م) ، مكتبة الرشد ناشرون ، السعودية .

١٨٥ ـ الدعاء ، **للإمام القاضي** الحسين بن إسماعيل بن محمد **المحاملي** (ت ٣٣٠ هـ) ، تحقيق الدكتور سعيد القزقي ، ط ١ ، (١٩٩٢) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

١٨٦ ـ الدعوات الكبير ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق بدر بن عبد الله البدر ، ط ١ ، (٢٠٠٩ م) ، دار غراس ، الكويت .

١٨٧ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، دار الريان ، مصر .

١٨٨ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، **للإمام العالم** إبراهيم بن علي المالكي المعروف بـ ابن **فرحون** (ت ٧٩٩ هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط ١ ، (٢٠٠٣ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

١٨٩ ـ ديوان ابن أبي حصينة بسماع وشرح أبي العلاء المعري ، **للشاعر الأمير** الحسن بن عبد الله المَعَرِّي المعروف بـ **ابن أبي حُصينة** (ت ٤٥٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أسعد طلس ، ط ٢ ، (١٩٩٩ م) ، دار صادر ، لبنان .

١٩٠ ـ ديوان ابن الجهم ، **للشاعر الأديب علي بن الجَهْم** بن بدر السامي (ت ٢٤٩ هـ) ، تحقيق خليل مردم بك ، ط ٣ ، (١٩٩٦ م) ، دار صادر ، لبنان .

١٩١ ـ ديوان ابن الرومي ، **للشاعر الكبير** علي بن العباس بن جريج المعروف بـ **ابن الرومي** (ت ٢٨٣ هـ) ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، ط ٣ ، (٢٠٠٣ م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، مصر .

١٩٢ ـ ديوان أبي الأسود الدؤلي برواية أبي سعيد الحسن السكري ، **للتابعي الجليل واضع علم النحو** ظالم بن عمرو بن سفيان الكناني المعروف بـ **أبي الأسود الدؤلي** (ت ٦٩ هـ) ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار ومكتبة الهلال ، لبنان .

١٩٣ ـ ديوان أبي بكر الصديق ، **للصحابي الجليل سيدنا أبي بكر** عبد الله بن عثمان **الصديق رضي الله عنه** (ت ١٣ هـ) ، تحقيق راجي الأسمر ، ط ٢ ، (٢٠٠٣ م) ، دار صادر ، لبنان .

١٩٤ ـ ديوان أبي طالب بن عبد المطلب ، **لشيخ قريش ورئيس مكة في زمانه أبي طالب عبد مناف** بن عبد المطلب بن هاشم (**ت نحو ٣ ق هـ**) ، رواية الإخباري **اللغوي أبو هِفان عبد الله** بن أحمد المهزمي البصري (ت ٢٥٧ هـ) ورواية الأديب الناقد علي بن حمزة البصري التميمي (ت ٣٧٥ هـ) ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، ط ١ ، (٢٠٠٩ م) ، مكتبة الهلال ، لبنان .

١٩٥ ـ ديوان أبي الفتح البستي ، **لشاعر عصره** علي بن محمد بن الحسين بن يوسف البستي (ت ٤٠٠ هـ) ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ، ط ١ ، (١٩٨٩ م) ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، سورية .

١٩٦ ـ ديوان أبي نواس ، **لشاعر العراق في عصره** الحسن بن هانئ بن عبد الأول المعروف بـ **أبي نُوَاس** (ت ١٩٨ هـ وقيل غير ذلك) ، تحقيق محمود أفندي واصف ، ط ١ ، (١٨٩٨ م) ، إسكندر آصاف ، **مصر** .

١٩٧ ـ ديوان أبي نواس برواية الصولي ، **لشاعر العراق في عصره** الحسن بن هانئ بن عبد الأول المعروف بـ **أبي نُوَاس** (ت ١٩٨ هـ) ، تحقيق الدكتور بهجت عبد الغفور الحديثي ، ط ١ ، (٢٠١٠ م) ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ، الإمارات العربية المتحدة .

١٩٨ ـ ديوان أحيحة ، **للشاعر الجاهلي الداهية أحيحة** بن الحجاج بن الحريش الأوسي (ت نحو ١٣٠ ق هـ) ، تحقيق الدكتور حسن باجودة ، ط ١ ، (١٩٧٩ م) ، نادي الطائف الأدبي ، السعودية .

١٩٩ ـ ديوان الأعشى ، **للشاعر الجاهلي صاحب المعلقة** ميمون بن قيس بن جندل المعروف بـ أعشى قيس وأعشى بكر **والأعشى الكبير** (ت ٧ هـ) ، شرح وتحقيق الدكتور محمد محمد حسين ، ط ٧ ، (١٩٨٣ م) ، **مؤسسة الرسالة** ، سورية .

٢٠٠ ـ ديوان الإمام عبد الله بن المبارك ، **للإمام الحافظ الرحلة عبد الله بن المبارك** بن واضح المروزي (ت ١٨١ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور مجاهد مصطفى بهجت ، ط ٣ ، (١٩٩٢ م) ، دار الوفاء ، مصر .

٢٠١ ـ ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، المسمى « أنوار العقول لوصي الرسول صلى الله عليه وسلم » ، **لأمير المؤمنين وأحد المبشرين بالجنة سيدنا علي بن أبي طالب** بن عبد المطلب الهاشمي القرشي رضي الله عنه (ت ٤٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد همو ، ط ١ ، (٢٠١٠ م) ، دار صادر ، لبنان .

٢٠٢ ـ ديوان التلعفري ، **للشاعر الجوال المفلق** محمد بن يوسف بن مسعود **التَّلَّعْفَري** (ت ٦٧٥ هـ) ، تحقيق الدكتور رضا رجب ، ط ٢ ، (٢٠٠٤ م) ، دار الينابيع ، سورية .

٢٠٣ ـ ديوان الثعالبي ، **لإمام اللغة والأدب** عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود عبد الله الجادر ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، وزارة الثقافة والإعلام ، العراق .

٢٠٤ ـ ديوان الحلاج ويليه « أخباره وطواسينه » ، **للشاعر الحكيم** الحسين بن منصور **الحلاج** (ت ٣٠٩ هـ) ، قدم له الدكتور سعدي ضنّاوي ، ط ٢ ، (٢٠٠٣ م) ، دار صادر ، لبنان .

٢٠٥ ـ ديوان الشافعي وحكمه وكلماته السائرة ، **لإمام الدنيا** محمد بن إدريس **الشافعي** (ت ٢٠٤ هـ) ، جمع وضبط يوسف علي بديوي ، ط ١ ، (٢٠٠٠ م) ، مكتبة دار الفجر ، سورية .

٢٠٦ ـ ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ، **للشاعر المخضرم الشماخ** بن ضرار بن حرملة الذبياني (ت ٢٢ هـ) ، تحقيق صلاح الدين الهادي ، ط ١ ، (١٩٧٧ م) ، دار المعارف ، السعودية .

٢٠٧ ـ ديوان الصاحب بن عباد ، **للوزير الأديب** إسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني المعروف بـ **الصاحب** (ت ٣٨٥ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بدون تاريخ ، دار القلم ومكتبة النهضة ، لبنان والعراق .

٢٠٨ ـ ديوان العباس بن الأحنف ، **لشاعر الغزل الرقيق العباس بن الأحنف** بن الأسود اليمامي (ت ١٩٢ هـ) ، تحقيق عاتكة الخزرجي ، ط ١ ، (١٩٥٤ م) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، مصر .

٢٠٩ ـ ديوان العباس بن مرداس ، **للشاعر الصحابي ابن الخنساء العباس بن مرداس** بن أبي عامر **السلمي** (ت نحو ١٨ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٢١٠ ـ ديوان العطوي (ضمن مجلة المورد) ، جمع وتحقيق **الأستاذ** محمد جبار **المعيبد** ، ط ١ ، (١٩٧١ م) ، مجلة المورد ، العراق .

٢١١ ـ ديوان الفرزدق ، **للشاعر النبيل** همَّام بن غالب بن صعصعة المعروف بـ **الفرزدق** (ت ١١٠ هـ) ، عني به مجيد طراد ، ط ٣ ، (١٩٩٩ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

٢١٢ ـ ديوان المعاني ، **للعلامة الأديب** الحسن بن عبد الله بن سهل المعروف بـ **أبي هلال العسكري** (ت ٣٩٥ هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، عالم الكتب ، لبنان .

٢١٣ ـ ديوان النابغة الذبياني ، **للشاعر الجاهلي** زياد بن معاوية بن ضباب المعروف بـ **النابغة الذُّبْيَاني** (ت نحو ١٨ ق هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٣ ، (١٩٩٠ م) ، دار المعارف ، مصر .

٢١٤ ـ ديوان الهذليين ، جمع **الأستاذ الشنقيطي الكبير** محمد محمود بن أحمد بن محمد التركزي المعروف بـ **ابن التلاميد** (ت ١٣٢٢ هـ) ، عني به أحمد الزين ، ط ٣ ، (٢٠٠٣ م) ، دار الكتب والوثائق المصرية ، مصر .

٢١٥ ـ ديوان الوزير الزيات ، **لإمام اللغة والأدب البليغ** محمد بن عبد الملك بن أبان المعروف بـ **ابن الزيات** (ت ٢٣٢ هـ) ، شرح وتحقيق الدكتور جميل سعيد ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، المجمع الثقافي ، الإمارات العربية المتحدة .

٢١٦ ـ ديوان الوليد بن يزيد ، **للشاعر الخليفة الوليد بن يزيد** بن عبد الملك **الأموي** (ت ١٢٦ هـ) ، جمعه وحققه الدكتور واضح الصمد ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

٢١٧ ـ ديوان جحظة البرمكي ، **للشاعر الأديب النديم المغني** أحمد بن جعفر بن موسى بن الوزير يحيى بن خالد البرمكي المعروف بـ **جحظة** (ت ٣٢٤ هـ) ، تحقيق جان توما ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، دار صادر ، لبنان .

٢١٨ ـ ديوان حاتم الطائي ، **للشاعر الجاهلي الفارس الجواد حاتم** بن عبد الله بن سعد بن الحشرج **الطائي** (ت ٤٦ ق هـ) ، صنعة يحيى بن مدرك الطائي رواية هشام الكلبي ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٢١٩ ـ ديوان حسان بن ثابت ، **للصحابي الجليل حسان** بن **ثابت رضي الله عنه** (ت ٤٠ هـ) ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، ط ١ ، (١٩٧٤ م) ، دار صادر ، لبنان .

٢٢٠ ـ ديوان ديك الجن الحمصي ، **للشاعر** عبد السلام بن رَغبان الكلبي المعروف بـ **ديك الجن الحمصي** (ت ٢٣٦ هـ) ، تحقيق مظهر الحجي ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، اتحاد الكتاب العرب ، سورية .

٢٢١ ـ ديوان ذي الرمة ، **للشاعر الفحل** غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي المعروف بـ **ذي الرمة** (ت ١١٧ هـ) ، شرح الإمام الأديب أحمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي (ت ٢٣١ هـ) ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، ط ٤ ، (٢٠٠٧ م) ، دار الرشيد ومؤسسة الإيمان ، سورية ولبنان .

٢٢٢ ـ ديوان سلم الخاسر ، ضمن (شعراء عباسيون لـ « غرونباوم ») ، **للشاعر الماجن سلم** بن عمرو بن حماد البصري المعروف بـ **الخاسر** (ت ١٨٦ هـ) ، ترجمة محمد يوسف نجم ، ومراجعة الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٥٩ م) ، دار مكتبة الحياة ، لبنان .

٢٢٣ ـ ديوان شيخ الإشراق ، **للعلامة الحكيم** يحيى بن حبش بن أميرك الزنجاني المعروف بـ **الشهاب السُّهْرَوردي** (ت ٥٨٧ هـ) ، جمع وتحقيق أحمد مصطفى الحسين ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار بيبليون ، فرنسة .

٢٢٤ ـ ديوان عدي بن زيد ، **للشاعر الجاهلي الداهية عدي بن زيد** بن حماد بن زيد **العبادي** (ت نحو ٣٥ هـ) ، تحقيق محمد جبار المعيبد ، ط ١ ، (١٩٦٥ م) ، وزارة الثقافة والإرشاد ، العراق .

٢٢٥ ـ ديوان عروة بن أُذينة ، **للشاعر الأموي الفقيه المحدث عروة بن يحيىٰ (أُذينة)** بن مالك بن الحارث الليثي (ت نحو ١٣٠ هـ) ، عني به لجنة الدار ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، دار صادر ، لبنان .

٢٢٦ ـ ديوان عمارة بن عقيل ، **للشاعر المقدم الفصيح عمارة بن عقيل** بن بلال بن جرير **اليربوعي** (ت ٢٣٩ هـ) ، تحقيق شاكر العاشور ، ط ١ ، (١٩٧٣ م) ، مطبعة البصرة ، العراق .

٢٢٧ ـ ديوان قيس لبنىٰ ، **للشاعر المتيم الأموي قيس بن ذريح** بن سنة بن حذافة الكناني (ت ٦٨ هـ) ، جمع وتحقيق حسين نصار ، ط ١ ، (١٩٦٠ م) ، دار مصر للطباعة ، مصر .

٢٢٨ ـ ديوان مجنون ليلىٰ ، لشاعر الغزل قيس بن **الملوح** بن مزاحم العامري المعروف بـ **مجنون ليلىٰ** (ت ٦٨ هـ) ، جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار مصر للطباعة ، مصر .

٢٢٩ ـ ديوان محمد بن حازم ، **للشاعر الهجّاء المطبوع محمد بن حازم** بن عمر الباهلي (ت نحو ٢١٥ هـ) ، تحقيق محمد خير البقاعي ، ط ١ ، (١٩٨٢ م) ، دار قتيبة ، سورية .

٢٣٠ ـ ديوان محمود الوراق ، **للشاعر الواعظ محمود** بن الحسن **الوراق** (ت نحو ٢٢٥ هـ) ، تحقيق الدكتور وليد القصاب ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، مؤسسة الفنون نشره محققه ، الإمارات العربية المتحدة .

٢٣١ ـ الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ، **للعلامة الأديب الحكيم** الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني المعروف بـ **الراغب الأصفهاني** (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق الدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، دار السلام ، مصر .

٢٣٢ ـ ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين **السُّلَمي** (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٢٣٣ ـ ذم الدنيا ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٢٣٤ ـ ذم الكلام وأهله ، **للإمام الحافظ المؤرخ** عبد الله بن محمد بن علي **الهروي** (ت ٤٨١ هـ) ، تحقيق عبد الله الأنصاري ، ط ١ ، بدون تاريخ ، مكتبة الغرباء الأثرية ، السعودية .

٢٣٥ ـ ذم المسكر ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق ياسين محمد السواس ، ط ١ ، (١٩٩٢ م) ، دار البشائر ، سورية .

٢٣٦ ـ ذم الهوىٰ ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي ، ط ١ ، (٢٠٠٩ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

٢٣٧ ـ ذيل مرآة الزمان ، **للعلامة المؤرخ** موسى بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦ هـ) ، عني به وزارة التحقيقات الحكمية الهندية ، ط ٢ ، (١٩٩٢ م) ، طبعة مصورة عن نشرة وزارة المعارف بحيدر آباد الدَّكَن لدىٰ دار الكتاب الإسلامي ، مصر .

٢٣٨ ـ ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ، **للإمام البارع شيخ العرب والعجم** محمود بن عمر **الزمخشري** (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الذخائر ، إيران .

٢٣٩ ـ الرحلة في طلب الحديث ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور نور الدين عتر ، ط ١ ، (١٩٧٥ م) ، نشره محققه ، سورية .

٢٤٠ ـ الرخصة في تقبيل اليد ، **للإمام الحافظ** محمد بن إبراهيم **بن المقري** (ت ٣٨١ هـ) ، تحقيق محمود محمد الحداد ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ) ، دار العاصمة ، السعودية .

٢٤١ ـ الرد علىٰ من يحب السماع ، **للإمام القاضي الفقيه** طاهر بن عبد الله بن عمر المعروف بـ **أبي الطيب الطبري** (ت ٤٥٠ هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، دار الصحابة للتراث ، مصر .

٢٤٢ ـ الرسالة القشيرية ، **لزين الإسلام الإمام عبد الكريم** بن هوازن **القشيري** (ت ٤٦٥ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف ، ط ٢ ، (١٩٨٩ م) ، دار الشعب ، مصر .

٢٤٣ ـ رسالة المسترشدين ، **للإمام الأصولي الصوفي الحارث** بن أسد **المحاسبي** (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ١٠ ، (٢٠٠٠ م) ، دار السلام ، مصر .

٢٤٤ ـ الرسالة ، لإمام الدنيا محمد بن إدريس **الشافعي** (ت ٢٠٤ هـ) ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، ط ١ ، (١٩٣٩ م) ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .

٢٤٥ ـ الرضا عن الله بقضائه ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق ضياء الحسن السلفي ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، الدار السلفية ، الهند .

٢٤٦ ـ الرعاية لحقوق الله ، **للإمام الأصولي الصوفي الحارث** بن أسد **المحاسبي** (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ٤ ، بدون تاريخ ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٢٤٧ ـ الرقة والبكاء ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٢٤٨ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، **للعلامة المفتي الشريف محمود الآلوسي** (ت ١٢٧٠ هـ) ، عنيت به إدارة المطبعة المنيرية بإذن من ورثة المؤلف ، ط ٤ ، (١٩٨٥ م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٢٤٩ ـ الروض البسام بترتيب وتخريج فوائد تمام ، **للأستاذ جاسم** بن سليمان **الفهيد الدوسري** ، ط ١ ، (١٩٨٧ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

٢٥٠ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، **للإمام الحافظ** محمد **بن حِبَّان** البُسْتي (ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد الرزاق حمزة ومحمد حامد الفقي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدئ دار الكتب العلمية ، لبنان .

٢٥١ ـ روضة العقلاء ، **للإمام الحافظ** محمد **بن حِبَّان** البُسْتي (ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق عبد العليم محمد الدرويش ، ط ١ ، (٢٠٠٩ م) ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، سورية .

٢٥٢ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة ، **للإمام الحافظ الفقيه** أحمد بن عبد الله بن محمد الشافعي المعروف بـ **محب الدين الطبري** (ت ٦٩٤ هـ) ، ط ٢ ، (٢٠٠٣ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٢٥٣ ـ الزهد الكبير ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط ٣ ، (١٩٩٦ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٢٥٤ ـ الزهد والرقائق برواية المروزي ، **للإمام الحافظ عبد الله بن المبارك** بن واضح المروزي (ت ١٨١ هـ) ، ويليه زيادات رواية نُعيم بن حمّاد عليه ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدئ دار الكتب العلمية ، لبنان .

٢٥٥ ـ الزهد ، **للإمام الحافظ أبي داوود** سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس ، ط ٢ ، (٢٠١٠ م) ، مؤسسة أبي عبيدة ، مصر .

٢٥٦ ـ الزهد ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو المعروف بـ **ابن أبي عاصم** (ت ٢٨٧ هـ) ، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (١٤٠٨ هـ) ، دار الريان للتراث ، مصر .

٢٥٧ ـ الزهد ، **للإمام الحافظ أحمد** بن محمد **بن حنبل** الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٢٥٨ ـ الزهد ، **للإمام الحافظ الجهبذ وكيع** بن الجراح بن مليح الرؤاسي (ت ١٩٧ هـ) ، تحقيق عبد الرحمٰن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط ٢ ، (١٩٩٤ م) ، دار الصميعي ، السعودية .

٢٥٩ ـ الزهد ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، دار ابن كثير ، سورية .

٢٦٠ ـ الزهد ، **للإمام الحافظ هَنَّاد** بن السَّرِي بن مصعب الدارمي الكوفي (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد الرحمـٰن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .

٢٦١ ـ زهر الآداب وثمرة الألباب ، **للأديب النقَّاد** إبراهيم بن علي الحُصْري **القيرواني** (ت ٤٥٤ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ٢ ، (١٩٦٩ م) ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

٢٦٢ ـ الزهرة ، **للأديب المناظر الشاعر** محمد بن داوود بن علي الطاهري **الأصبهاني** (ت ٢٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي ، ط ١ ، (١٩٧٥ م) ، مكتبة الزرقاء ، الأردن .

٢٦٣ ـ الزواجر عن اقتراف الكبائر ، **للإمام العلامة** أحمد بن محمد **ابن حجر الهيتمي** (ت ٩٧٤ هـ) ، عني به محمد خير طعمة حلبي وخليل مأمون شيحا ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار المعرفة ، لبنان .

٢٦٤ ـ سراج الملوك ، **للعلامة الفقيه** محمد بن الوليد المعروف بـ **أبي بكر الطرطوشي** (ت ٥٢٠ هـ) ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، ط ٢ ، (٢٠٠٦ م) ، الدار المصرية اللبنانية ، مصر .

٢٦٥ ـ السماع ، **للإمام الحافظ** محمد بن طاهر بن علي **القيسراني** (ت ٥٠٧ هـ) ، تحقيق أبو الوفا المراغي ، ط ١ ، (١٩٩٤ م) ، وزارة الأوقاف ، مصر .

٢٦٦ ـ السنة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو المعروف بـ **ابن أبي عاصم** (ت ٢٨٧ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٢٦٧ ـ سنن ابن ماجه ، **للإمام الحافظ** محمد بن يزيد القزويني المعروف بـ **ابن ماجه** (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، (١٩٥٤ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

٢٦٨ ـ سنن أبي داوود ، **للإمام الحافظ أبي داوود** سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، وبهامشه « معالم السنن » للخطابي ، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٢٦٩ ـ سنن الترمذي ، المسمى « الجامع الصحيح » ، **للإمام الحافظ** محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي** (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، ط ١ ، (١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٢٧٠ ـ سنن الدارقطني ، **للإمام الحافظ** علي بن عمر **الدارقطني** (ت ٣٨٥ هـ) ، وبذيله التعليق المغني على الدارقطني ، عني به عبد الله هاشم يماني ، ط ١ ، (١٩٦٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

٢٧١ ـ السنن الصغير ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٩٨٩ م) ، جامعة الدراسات الإسلامية ، باكستان .

٢٧٢ ـ السنن الكبرىٰ ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، بعناية السيد هاشم الندوي ، وبذيله « الجوهر النقي » لابن التركماني ، ط ١ ، (١٣٥٦ هـ) ، طبعة مصورة عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

٢٧٣ ـ سنن النسائي (المجتبىٰ) ، **للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائي** (ت ٣٠٣ هـ) ، ومعه « زهر الربا على المجتبىٰ » للسيوطي ، وبذيله « حاشية الإمام السندي » ، ط ١ ، (١٣١٢ هـ) ، نسخة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي عن طبعة المطبعة الميمنية ، لبنان .

٢٧٤ ـ **سير أعلام النبلاء** (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين) ، **للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي** (ت ٧٤٨ هـ) ، إشراف شعيب الأرناؤوط ، ط ١١ ، (١٩٩٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٢٥٩ ـ الزهد ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، دار ابن كثير ، سورية .

٢٦٠ ـ الزهد ، **للإمام الحافظ هَنَّاد** بن السَّرِي بن مصعب الدارمي الكوفي (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد الرحمٰن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .

٢٦١ ـ زهر الآداب وثمرة الألباب ، **للأديب النقَّاد** إبراهيم بن علي الحُصْري **القيرواني** (ت ٤٥٤ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ٢ ، (١٩٦٩ م) ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

٢٦٢ ـ الزهرة ، **للأديب المناظر الشاعر** محمد بن داوود بن علي الطاهري **الأصبهاني** (ت ٢٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي ، ط ١ ، (١٩٧٥ م) ، مكتبة الزرقاء ، الأردن .

٢٦٣ ـ الزواجر عن اقتراف الكبائر ، **للإمام العلامة** أحمد بن محمد **ابن حجر الهيتمي** (ت ٩٧٤ هـ) ، عني به محمد خير طعمة حلبي وخليل مأمون شيحا ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار المعرفة ، لبنان .

٢٦٤ ـ سراج الملوك ، **للعلامة الفقيه** محمد بن الوليد المعروف بـ **أبي بكر الطرطوشي** (ت ٥٢٠ هـ) ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، ط ٢ ، (٢٠٠٦ م) ، الدار المصرية اللبنانية ، مصر .

٢٦٥ ـ السماع ، **للإمام الحافظ** محمد بن طاهر بن علي **القيسراني** (ت ٥٠٧ هـ) ، تحقيق أبو الوفا المراغي ، ط ١ ، (١٩٩٤ م) ، وزارة الأوقاف ، مصر .

٢٦٦ ـ السنة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو المعروف بـ **ابن أبي عاصم** (ت ٢٨٧ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٢٦٧ ـ سنن ابن ماجه ، **للإمام الحافظ** محمد بن يزيد القزويني المعروف بـ **ابن ماجه** (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، (١٩٥٤ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

٢٦٨ ـ سنن أبي داوود ، **للإمام الحافظ أبي داوود** سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، وبهامشه « معالم السنن » للخطابي ، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٢٦٩ ـ سنن الترمذي ، المسمى « الجامع الصحيح » ، **للإمام الحافظ** محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي** (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، ط ١ ، (١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٢٧٠ ـ سنن الدارقطني ، **للإمام الحافظ** علي بن عمر **الدارقطني** (ت ٣٨٥ هـ) ، وبذيله التعليق المغني على الدارقطني ، عني به عبد الله هاشم يماني ، ط ١ ، (١٩٦٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

٢٧١ ـ السنن الصغير ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٩٨٩ م) ، جامعة الدراسات الإسلامية ، باكستان .

٢٧٢ ـ السنن الكبرىٰ ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، بعناية السيد هاشم الندوي ، وبذيله « الجوهر النقي » لابن التركماني ، ط ١ ، (١٣٥٦ هـ) ، طبعة مصورة عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

٢٧٣ ـ سنن النسائي (المجتبىٰ) ، **للإمام الحافظ** أحمد بن شعيب **النسائي** (ت ٣٠٣ هـ) ، ومعه « زهر الربا على المجتبىٰ » للسيوطي ، وبذيله « حاشية الإمام السندي » ، ط ١ ، (١٣١٢ هـ) ، نسخة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي عن طبعة المطبعة الميمنية ، لبنان .

٢٧٤ ـ سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين) ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨ هـ) ، إشراف شعيب الأرناؤوط ، ط ١١ ، (١٩٩٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٢٩١ ـ شرح مشكل الآثار ، **للإمام الحافظ** أحمد بن محمد بن سلامة **الطحاوي** (ت ٣٢١ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط ١ ، (١٩٩٤ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٢٩٢ ـ شرح نهج البلاغة ، **للإمام الأديب المؤرخ** عبد الحميد بن هبة الله بن محمد المعتزلي المعروف بـ **ابن أبي الحديد** (ت ٦٥٦ هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

٢٩٣ ـ شرف أصحاب الحديث ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد سعيد خطيب أوغلي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، كلية الإلـٰهيات ـ جامعة أنقرة ، تركية .

٢٩٤ ـ الشريعة ، **للإمام الحافظ** محمد بن الحسين **الآجري** (ت ٣٦٠ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٨ م) ، مؤسسة الريان ، لبنان .

٢٩٥ ـ شعر الخوارج ، جمع وتقديم **الدكتور إحسان عباس** (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ٢ ، (١٩٧٤ م) ، دار الثقافة ، لبنان .

٢٩٦ ـ شعر بكر بن النطاح ، **لشاعر الغزل الفارس** بكر بن **النطاح** الحنفي (ت ١٩٢ هـ) ، صنعة الأستاذ حاتم صالح الضامن ، ط ١ ، (١٩٧٥ م) ، مطبعة المعارف ، العراق .

٢٩٧ ـ شعر دعبل ، **لشاعر الهجاء دِعْبِل** بن علي بن رزين **الخزاعي** (ت ٢٤٦ هـ) ، جمع وتحقيق عبد الكريم الأشتر ، ط ٢ ، (١٩٨٣ م) ، مجمع اللغة العربية ، سورية .

٢٩٨ ـ شعر زياد الأعجم ، **للشاعر الأموي زياد** بن سليمان **الأعجم** (ت نحو ١٠٠ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور يوسف حسين بكار ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، وزارة الثقافة ، سورية .

٢٩٩ ـ شعر عبد الله بن الزبير الأسدي ، **للصحابي الفارس الخليفة عبد الله** بن **الزبير** بن العوام الأسدي رضي الله عنه (ت ٧٣ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (١٩٧٤ م) ، دار الحرية ، العراق .

٣٠٠ ـ شعر عبد الله بن معاوية ، **لشاعر الطالبيين عبد الله بن معاوية** بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ١٢٩ هـ) ، جمع عبد الحميد الراضي ، ط ١ ، (١٩٧٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٣٠١ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الحافظ القاضي عِيَاض** بن موسى **اليَحْصُبي** (ت ٥٤٤ هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط ١ ، (٢٠٠٠ م) ، مكتبة الغزالي ودار الفيحاء ، سورية .

٣٠٢ ـ شفاء السقام في زيارة خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الفقيه** علي بن عبد الكافي المعروف بـ **تقي الدين السبكي** (ت ٧٥٦ هـ) ، عني به حسين محمد علي شكري ، ط ١ ، (٢٠٠٨ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٣٠٣ ـ الشكر ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، عني به أحمد محمد طاحون ، بدون تاريخ ، السعودية .

٣٠٤ ـ الشمائل الشريفة ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق حسين بن عبيد باحبيشي ، بدون تاريخ ، دار طائر العلم ، مصر .

٣٠٥ ـ الشمائل المحمدية ، **للإمام الحافظ** محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي** (ت ٢٧٩ هـ) ، ومعه « المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية » للإمام الفقيه إبراهيم الباجوري (ت ١٢٧٧ هـ) ، عني بهما العلامة محمد عوَّامة ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، نشره محققه ، لبنان .

٣٠٦ ـ صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا ، **للأديب المؤرخ البحَّاثة** أحمد بن علي بن أحمد **القَلْقَشَندي** (ت ٨٢١ هـ) ، ط ١ ، (١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدى المؤسسة المصرية العامة ، مصر .

٣٠٧ ـ الصحاح ، المسمىٰ « تاج اللغة وصحاح العربية » ، **للإمام العلامة** إسماعيل بن حماد **الجوهري** (ت ٣٩٣ هـ) ، ومعه حواشي **الإمام اللغوي النابه عبد الله بن برّي** (ت ٥٨٢ هـ) و« الوشاح وتثقيف الرماح في رد توهيم المجد الصحاح » للتادلي ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٣٠٨ ـ صحيح البخاري ، المسمى « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » (الطبعة السلطانية العثمانية) ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت ٢٥٦ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ) ، دار طوق النجاة ، لبنان .

٣٠٩ ـ صحيح مسلم ، المسمى « الجامع الصحيح » ، **للإمام الحافظ مسلم** بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، (١٩٥٤ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

٣١٠ ـ الصداقة والصديق ، **لفيلسوف الأدباء** علي بن محمد بن العباس المعروف بـ **أبي حيان التوحيدي** (ت ٤١٤ هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني ، ط ٤ ، (٢٠٠٨ م) ، دار الفكر ، سورية .

٣١١ ـ صفة الجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، مكتبة ابن تيمية ، مصر .

٣١٢ ـ صفة الصفوة ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، صنع فهرسه عبد السلام هارون ، ط ٢ ، (١٩٩٢ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٣١٣ ـ صفة النار ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٣١٤ ـ صفة النفاق وذم المنافقين ، **للإمام الحافظ** جعفر بن محمد بن الحسن **الفريابي** (ت ٣٠١ هـ) ، تحقيق عبد الرقيب بن علي ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، دار ابن زيدون ، لبنان .

٣١٥ ـ صفوة التصوف ، **للإمام الحافظ الجوال الرحال** محمد بن طاهر المقدسي المعروف بـ **ابن القيسراني** (ت ٥٠٧ هـ) ، تحقيق غادة المقدم عدرة ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، دار المنتخب العربي ، لبنان .

٣١٦ ـ الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو المعروف بـ **ابن أبي عاصم** (ت ٢٨٧ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار المأمون للتراث ، سورية .

٣١٧ ـ الصمت وآداب اللسان ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

٣١٨ ـ الضعفاء ومن نسب إلى الكذب ووضع الحديث ومن غلب على حديثه الوهم ومن يتهم في بعض حديثه ومجهول روى ما لا يتابع عليه وصاحب بدعة يغلو فيها ويدعو إليها وإن كانت حاله في الحديث مستقيمة ، **للإمام الحافظ** محمد بن عمرو بن موسى بن حماد **العُقَيلي** (ت ٣٢٢ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار الصميعي ، السعودية .

٣١٩ ـ طبقات الأولياء ، **للإمام الحافظ** عمر بن علي بن أحمد المعروف بـ **ابن الملقن** (ت ٨٠٤ هـ) ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط ١ ، (١٩٧٣ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٣٢٠ ـ طبقات الحنابلة ، **للإمام الفقيه المؤرخ** محمد بن محمد بن الحسين الفراء المعروف بـ **ابن أبي يعلى** (ت ٥٢٦ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، دار الملك عبد العزيز ، السعودية .

٣٢١ ـ طبقات الشافعية الكبرى ، **للإمام القاضي** عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي المعروف بـ **تاج الدين السبكي** (ت ٧٧١ هـ) ، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، ط ١ ، (١٣٩٦ هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

٣٢٢ ـ طبقات الصوفية ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين بن محمد الأزدي المعروف بـ **أبي عبد الرحمن السُّلَمي** (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط ٢ ، (١٩٨٦ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المحقق سنة (١٩٥٣ م) لدى دار الكتاب النفيس ، سورية .

٣٢٣ ـ طبقات الفقهاء الشافعية ، **للإمام الحافظ** عثمان بن عبد الرحمٰن الشَّهْرَزوري المعروف بـ **ابن الصلاح** (ت ٦٤٣ هـ) ، هذبه ورتبه واستدرك عليه **الإمام الحافظ المجتهد** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦ هـ) وبيض أصوله ونقَّحه **الإمام الحافظ** يوسف بن عبد الرحمٰن **المِزّي** (ت ٧٤٢ هـ) ، تحقيق محيي الدين علي نجيب ، ط ١ ، (١٩٩٢ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

٣٢٤ ـ طبقات الفقهاء الشافعيين ، **للإمام الحافظ** إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بـ **ابن كثير** (ت ٧٧٤ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد عمر هاشم والدكتور محمد زينهم محمد عزب ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

٣٢٥ ـ الطبقات الكبرى ، المسماة : « لواقح الأنوار في طبقات الأخيار » ، **للإمام المجدد عبد الوهاب** بن أحمد بن علي **الشعراني** (ت ٩٧٣ هـ) ، بعناية الشيخ أحمد سعد علي ، ط ١ ، (١٩٥٤ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مصطفى البابي الحلبي سنة (١٩٥٤ م) لدئ دار الفكر ، لبنان .

٣٢٦ ـ الطبقات الكبير ، **للإمام الحافظ المؤرخ** محمد بن سعد بن منيع البصري المعروف بـ **ابن سعد** (ت ٢٣٠ هـ) ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٣٢٧ ـ طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بـ **أبي الشيخ** (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق عبد الغفور عبد الحق حسين البَلوشي ، ط ٢ ، (١٩٩٢ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٣٢٨ ـ طبقات فحول الشعراء ، **لإمام الأدب** محمد بن سلَّام **الجُمَحي** (ت ٢٣١ هـ) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط ٢ ، (١٩٧٣ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المحقق لدئ دار المدني ، السعودية .

٣٢٩ ـ طرح التثريب في شرح التقريب ، وهو شرح لكتاب « تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين المعروف بـ **أبي زرعة العراقي** (ت ٨٢٦ هـ) ، عني به محمود حسن ربيع ، ط ١ ، (١٩٩٢ م) ، طبعة مصورة لدئ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٣٣٠ ـ الطهور ، **للإمام المحدث الفقيه الأديب** القاسم بن سلَّام الهروي المعروف بـ **أبي عُبيد** (ت ٢٢٤ هـ) ، تحقيق مشهور حسن آل سلمان ، ط ١ ، (١٩٩٤ م) ، مكتبة الصحابة ، السعودية .

٣٣١ ـ الطيوريات ، وهي مما انتخبه الإمام الحافظ أحمد بن محمد السِّلفي من كتب الإمام الثقة المبارك بن عبد الجبار المعروف بـ **ابن الطُّيوري** (ت ٥٠٠ هـ) ، تحقيق دسمان معالي وعباس الحسن ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

٣٣٢ ـ عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي ، **للإمام القاضي** محمد بن عبد الله المعروف بـ **ابن العربي المالكي** (ت ٥٤٣ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٥٤ هـ) ، طبعة مصورة لدئ دار الكتاب العربي ، لبنان .

٣٣٣ ـ العاقبة في ذكر الموت ، **للإمام الحافظ عبد الحق** بن عبد الرحمٰن **الإشبيلي** (ت ٥٨٢ هـ) ، تحقيق خضر محمد خضر ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، مكتبة دار الأقصى ، الكويت .

٣٣٤ ـ عجائب المقدور في أخبار تيمور ، **للمؤرخ الرحالة الأديب** أحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بـ **ابن عربشاه** (ت ٨٥٤ هـ) ، تحقيق أحمد فايز الحمصي ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٣٣٥ ـ العزلة والانفراد ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار الوطن ، السعودية .

٣٣٦ ـ العزلة ، **للإمام الحافظ** حَمْد بن محمد بن إبراهيم البستي **الخطابي** (ت ٣٨٨ هـ) ، تحقيق محمد منير الدمشقي ، ط ١ ، (١٣٥٢ هـ) ، إدارة الطباعة المنيرية ، مصر .

٣٣٧ ـ العزيز شرح الوجيز ، المسمى « الشرح الكبير » ، **للإمام الفقيه المحدث** عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم **الرافعي** (ت ٦٢٣ هـ) ، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٣٣٨ ـ العظمة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بـ **أبي الشيخ** (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري ، ط ٢ ، (١٩٩٨ م) ، دار العاصمة ، السعودية .

٣٣٩ ـ العقد الفريد ، **للعلامة الأديب** أحمد بن محمد **بن عبد** ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) ، تحقيق أحمد الأمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، ط ٢ ، (١٩٤٠ م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر .

٣٤٠ ـ عقلاء المجانين ، للعلامة الحسن بن محمد **بن حبيب** النيسابوري (ت ٤٠٦ هـ) ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ٢ ، (١٩٩٨ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٣٤١ ـ العقوبات ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٣٤٢ ـ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الشيخ خليل الميس ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٣٤٣ ـ العلل الواردة في الأحاديث النبوية ، **للإمام الحافظ** علي بن عمر **الدارقطني** (ت ٣٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمٰن زين الله ومحمد صالح الدباسي ، ط ٣ ، (٢٠٠٣ م) ، دار طيبة ودار ابن الجوزي ، السعودية .

٣٤٤ ـ العلل ومعرفة الرجال ، **للإمام الحافظ أحمد** بن محمد **بن حنبل الشيباني** (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق الدكتور وصي الله بن محمد عباس ، ط ٢ ، (٢٠٠١ م) ، دار الخاني ، السعودية .

٣٤٥ ـ عمدة الطالب في نسب آل أبي طالب ، **للشريف المؤرخ النسابة** أحمد بن علي بن حسين الداوودي الحسني المعروف بـ **ابن عِنَبَة** (ت ٨٢٨ هـ) ، تحقيق السيد يوسف بن عبد الله جمل الليل ، ط ١ ، (٢٠٠٣ م) ، مكتبة التوبة ، السعودية .

٣٤٦ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، **للإمام العلامة** محمود بن أحمد **العيني** (ت ٨٥٥ هـ) ، ط ١ ، (١٣٤٨ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة السلفية لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٣٤٧ ـ العمر والشيب ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق الدكتور نجم عبد الرحمٰن خلف ، ط ١ ، (١٩٩٢ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

٣٤٨ ـ عمل اليوم والليلة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن شعيب **النسائي** (ت ٣٠٣ هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٣٤٩ ـ عمل اليوم والليلة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن محمد الدينوري المعروف بـ **ابن السني** (ت ٣٦٤ هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط ٣ ، (١٩٩٤ م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .

٣٥٠ ـ عوارف المعارف ، **للإمام المُحَدِّث شيخ الصوفية** عمر بن محمد بن عبد الله **السُّهْرَوردي** (ت ٦٣٢ هـ) ، ومعه « غنية العارف بتخريج أحاديث عوارف المعارف » للسيد أحمد الغماري ، تحقيق أديب الكمداني ومحمد محمود المصطفىٰ ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، المكتبة المكية ، السعودية .

٣٥١ ـ العيال ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق الدكتور نجم عبد الرحمٰن خلف ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار الوفاء ، مصر .

٣٥٢ ـ عيون الأخبار ، **لإمام الأدب واللغة القاضي** عبد الله بن مسلم المعروف بـ **ابن قتيبة الدِّينَوَري** (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق ثلة من أهل العلم ، ط ١ ، (١٩٣٠ م) ، دار الكتب المصرية ، مصر .

٣٥٣ ـ غريب الحديث ، **للإمام الحافظ الأديب** إبراهيم بن إسحاق بن بشير **الحربي** (ت ٢٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتور سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد ، ط ١ ، (١٩٨٥ م) ، جامعة أم القرى ، السعودية .

٣٥٤ ـ غريب الحديث ، **للإمام المحدث الفقيه الأديب** القاسم بن سلَّام الهروي المعروف بـ **أبي عُبيد** (ت ٢٢٤ هـ) ، بعناية الدكتور محمد عبد المعيد خان ، ط ١ ، (١٩٦٤ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، لبنان .

٣٥٥ ـ الغريبين في القرآن والحديث ، **للإمام اللغوي** أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني المعروف بـ **أبي عُبيد الهروي** (ت ٤٠١ هـ) ، تحقيق أحمد فريد المزيدي ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

٣٥٦ ـ الغيبة والنميمة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن **أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٣٥٧ ـ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، **للمؤرخ الرحالة الأديب** أحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بـ **ابن عربشاه** (ت ٨٥٤ هـ) ، تحقيق أيمن عبد الجابر البحيري ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، دار الآفاق العربية ، مصر .

٣٥٨ ـ فتاوىٰ ومسائل ابن الصلاح في التفسير والحديث والأصول والفقه ، ومعه « أدب المفتي والمستفتي » ، كلاهما **للإمام الحافظ** عثمان بن عبد الرحمن الشَّهْرَزوري المعروف بـ **ابن الصلاح** (ت ٦٤٣ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، دار المعرفة ، لبنان .

٣٥٩ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ مكتبة الغزالي ، سورية .

٣٦٠ ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن أحمد البغدادي المعروف بـ **ابن رجب الحنبلي** (ت ٧٩٥ هـ) ، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد ، ط ٣ ، (١٤٢٥ هـ) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

٣٦١ ـ الفتن ، **للإمام الحافظ نعيم بن حمّاد** بن معاوية المروزي (ت ٢٢٩ هـ) ، تحقيق أحمد شعبان أحمد ومحمد عيادي عبد الحليم ، ط ١ ، (٢٠٠٣ م) ، مكتبة الصفا ، مصر .

٣٦٢ ـ الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية ، **للإمام الفقيه المحدث محمد علي بن علان** بن إبراهيم الصديقي (ت ١٠٥٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٨ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٣٦٣ ـ الفرج بعد الشدة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن **أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٣٦٤ ـ الفردوس بمأثور الخطاب ، **للإمام الحافظ** شيرويه بن شهردار **الديلمي** (ت ٥٠٩ هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٣٦٥ ـ فضائح الباطنية (المستظهري) ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق إبراهيم بسيوني نور الدين ، ط ١ ، (٢٠٠٨ م) ، دار الفاروق ، مصر .

٣٦٦ ـ فضائل الخلفاء الأربعة وغيرهم ، **للإمام الحافظ المؤرخ الثقة** أحمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بـ **أبي نعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق صالح بن محمد العقيل ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار البخاري ، السعودية .

٣٦٧ ـ فضائل الصحابة ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد **بن حنبل الشيباني** (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق وصي الله بن محمد عباس ، ط ٤ ، (١٤٣٠ هـ) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

٣٦٨ ـ فضائل القرآن وما أُنزل من القرآن بمكة وما أُنزل بالمدينة ، **للإمام الحافظ** محمد بن أيوب بن يحيى **بن الضُّرَيس** (ت ٢٩٥ هـ) ، تحقيق الدكتور مسفر بن سعيد دماس الغامدي ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، دار حافظ ، السعودية .

٣٦٩ ـ فضائل القرآن ، **للإمام الحافظ** جعفر بن محمد بن الحسن **الفريابي** (ت ٣٠١ هـ) ، تحقيق رمضان أيوب ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، مجموعة الكمال المتحدة ، سورية .

٣٧٠ ـ فضائل القرآن ، **للإمام المحدث الفقيه الأديب** القاسم بن سلّام الهروي المعروف بـ **أبي عُبيد** (ت ٢٢٤ هـ) ، تحقيق مروان العطية ومحسن خرابة ووفاء تقي الدين ، ط ٢ ، (١٩٩٩ م) ، دار ابن كثير ، سورية .

٣٧١ ـ فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، للإمام إسماعيل **بن إسحاق الجهضمي** (ت ٢٨٢ هـ) ، ط ٣ ، (١٩٧٧ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

٣٧٢ ـ الفقيه والمتفقه ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط ٢ ، (١٤٢١ هـ) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

٣٧٣ ـ فوائد أبي بكر الشاشي ، **للإمام المفلق رئيس الشافعية ببغداد** محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر **الشاشي القفال** (ت ٥٠٧ هـ) ، تحقيق سمير بن حسين ولد سعدي الحسني ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

٣٧٤ ـ الفوائد المنتخبة العوالي عن الشيوخ الثقات ، المسمى « الغيلانيات » ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي **البزاز** (ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق حلمي كامل عبد الهادي ، بدون تاريخ ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

٣٧٥ ـ فوات الوفيات والذيل عليها ، **للعلامة المؤرخ الأديب** محمد بن شاكر **الكتبي** (ت ٧٦٤ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٧٣ م) ، دار صادر ، لبنان .

٣٧٦ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، **للإمام العلامة** محمد عبد الرؤوف بن علي **المناوي** (ت ١٠٣١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٧ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

٣٧٧ ـ القراءة عند القبور ، **للإمام المحدث المفسر اللغوي** أحمد بن محمد بن هارون **الخلال** الحنبلي (ت ٣١١ هـ) ، تحقيق الدكتور يحيىٰ مراد ، ط ١ ، (٢٠٠٣ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٣٧٨ ـ قصر الأمل ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٣٧٩ ـ قضاء الحوائج ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٣٨٠ ـ القناعة والتعفف ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٣٨١ ـ قوت القلوب في معاملة المحبوب ، **للإمام الفقيه** محمد بن علي بن عطية المعروف بـ **أبي طالب المكي** (ت ٣٨٦ هـ) ، وبهامشه « سراج القلوب وعلاج الذنوب » للعلامة علي الفناني و« حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب » للعلامة عماد الدين الأموي (ت ٧٦٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٠ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار صادر ، لبنان

٣٨٢ ـ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الحافظ الناقد** محمد بن عبد الرحمٰن **السخاوي** (ت ٩٠٢ هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، مؤسسة الريان ، السعودية .

٣٨٣ ـ القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد ، **للإمام الحافظ الحجة** أحمد بن علي بن محمد الكناني المعروف بـ **ابن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق عبد الله محمد الدرويش ، ط ١ ، (١٩٨٥ م) ، دار اليمامة ، سورية .

٣٨٤ ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن عدي **الجرجاني** (ت ٣٦٥ هـ) ، الطبعة الأولىٰ بتحقيق الدكتور سهيل زكار والثالثة يحيىٰ مختار غزاوي ، ط ٣ ، (١٩٨٨ م) ، دار الفكر ، لبنان .

٣٨٥ ـ الكامل ، **لإمام العربية** محمد بن يزيد بن عبد الأكبر **المُبَرِّد** (ت ٢٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٣٨٦ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس ، **للعلامة المحدث** إسماعيل بن محمد **العجلوني** (ت ١١٦٢ هـ) ، ط ٣ ، (١٣٥١ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٣٨٧ ـ كشف المحجوب ، **للإمام العلامة** علي بن عثمان **الهجويري الأفغاني** (ت بعد ٤٦٥ هـ) ، ترجمة محمود أحمد ماضي أبو العزائم ، تحقيق الدكتور أحمد السايح وتوفيق وهبة ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

٣٨٨ ـ الكشكول ، **للعلامة الاثني عشري الأديب** محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي المعروف بـ **بهاء الدين العاملي** (ت ١٠٣١ هـ) ، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة ، لبنان .

٣٨٩ ـ الكفاية في علم الرواية ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، عني به زكريا **عميرات** ، ط ١ ، (٢٠٠٦ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٣٩٠ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، **للإمام الحافظ** علي بن حسام الدين المعروف بـ **البرهان فوري** (ت ٩٧٥ هـ) ، عني به بكري حيَّاني وصفوة السقا ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٣٩١ ـ الكنىٰ والأسماء ، **للإمام الحافظ الوراق** محمد بن أحمد بن حماد بن سعد بن مسلم **الدولابي** (ت ٣١٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣٢٢ هـ) ، مجلس دائرة المعارف النظامية ، الهند .

٣٩٢ ـ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١ هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

٣٩٣ ـ لباب الآداب ، **للأمير الشجاع الأديب المؤرخ** أسامة بن مرشد بن علي المعروف بـ **ابن منقذ** (ت ٥٨٤ هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط ١ ، (١٩٣٥ م) ، المطبعة الرحمانية ، مصر .

٣٩٤ ـ لسان العرب ، **للإمام اللغوي الحجة** محمد بن مكرم **بن منظور الإفريقي** (ت ٧١١ هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٢ م) ، دار صادر ، لبنان .

٣٩٥ ـ لسان الميزان ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

٣٩٦ ـ لطائف الإشارات ، **لزين الإسلام الإمام** عبد الكريم بن هوازن **القشيري** (ت ٤٦٥ هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني ، ط ٢ ، (١٩٨١ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

٣٩٧ ـ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن أحمد المعروف بـ **ابن رجب الحنبلي** (ت ٧٩٥ هـ) ، تحقيق ياسين محمد السواس ، ط ٦ ، (٢٠٠١ م) ، دار ابن كثير ، سورية .

٣٩٨ ـ اللمع ، **للإمام الزاهد** عبد الله بن علي السراج المعروف بـ **أبي نصر الطوسي** (ت ٣٧٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، ط ١ ، (١٩٦٠ م) ، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنىٰ ، مصر والعراق .

٣٩٩ ـ المؤتلف والمختلف ، **للإمام الحافظ الحجة** علي بن عمر بن أحمد بن مهدي **الدارقطني** (ت ٣٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتور موفق بن عبد الله بن عبد القادر ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

٤٠٠ ـ ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين (ذم القضاء وتقلد الأحكام وذم المكس) ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، دار الصحابة ، مصر .

٤٠١ ـ المتحابين في الله ، **للإمام الفقيه** عبد الله بن أحمد بن محمد الجماعيلي الحنبلي المعروف بـ **ابن قدامة المقدسي** (ت ٦٢٠ هـ) ، تحقيق خير الله الشريف ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، دار الطباع ، سورية .

٤٠٢ ـ المتفق والمفترق ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد صادق آيدن الحامدي ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار القادري ، سورية .

٤٠٣ ـ المتمنين ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٤٠٤ ـ مجابو الدعوة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق عبد الله عبد العزيز أمين ، ط ١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار الرسالة ، مصر .

٤٠٥ ـ المجالسة وجواهر العلم ، **للعلامة الفقيه المحدث** أحمد بن مروان بن محمد **الدِّينوري** (ت ٣٣٣ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٤٠٦ ـ المجروحين من المحدثين ، **للإمام الحافظ** محمد **بن حِبَّان البُسْتي** (ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار الصميعي ، السعودية .

٤٠٧ ـ مجمع الأمثال ، **للعلامة الأديب البحَّاثة** أحمد بن محمد بن أحمد **الميداني** (ت ٥١٨ هـ) ، تحقيق الدكتور جان عبد الله توما ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار صادر ، لبنان .

٤٠٨ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، **للإمام الحافظ** نور الدين علي بن أبي بكر **الهيثمي** (ت ٨٠٧ هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ مكتبة المعارف ، لبنان .

٤٠٩ ـ المجموع شرح المهذب ، **للإمام الحافظ المجتهد** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، دار الفكر ، لبنان .

٤١٠ ـ مجموع فيه مصنفات أبي جعفر ابن البختري ، **للإمام الحافظ** محمد بن عمرو بن **البختري** البغدادي الرزاز (ت ٣٣٩ هـ) ، تحقيق نبيل سعد الدين جرَّار ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

٤١١ ـ محاسبة النفس ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .

٤١٢ ـ المحاسن والمساوئ ، **للإمام** إبراهيم بن محمد **البيهقي** (ت قرن ٥ هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٤ م) ، دار بيروت ، لبنان .

٤١٣ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، **للعلامة الأديب الحكيم** الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني المعروف بـ **الراغب الأصفهاني** (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق الدكتور رياض عبد الحميد مراد ، ط ٢ ، (٢٠٠٦ م) ، دار صادر ، لبنان .

٤١٤ ـ المحتضرين ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٤١٥ ـ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، **للإمام الحافظ** الحسن بن عبد الرحمـٰن بن خلاد **الرامهرمزي** (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط ٣ ، (١٩٨٤ م) ، دار الفكر ، لبنان .

٤١٦ ـ المحلىٰ ، **للإمام الفقيه** علي بن أحمد بن سعيد المعروف بـ **ابن حزم الظاهري** (ت ٤٥٦ هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الجيل ، لبنان .

٤١٧ ـ المحن ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد **التميمي** (ت ٣٣٣ هـ) ، تحقيق الدكتور يحيىٰ وهيب الجبوري ، ط ٢ ، (١٩٨٨ م) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

٤١٨ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، **للإمام الحافظ** محمد بن مُكَرَّم المعروف بـ **ابن منظور** (ت ٧١١ هـ) ، عني به مجموعة من المحققين ، ط ١ ، (١٩٨٤ م) ، دار الفكر ، سورية .

٤١٩ ـ مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق صبري بن عبد الخالق ، ط ٣ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٤٢٠ ـ مداراة الناس ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

٤٢١ ـ المدخل إلى السنن الكبرىٰ ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد ضياء الرحمـٰن الأعظمي ، ط ٢ ، (١٤٢٠ هـ) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

٤٢٢ ـ المدخل إلى الصحيح ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بـ **الحاكم** (ت ٤٠٥ هـ) ، تحقيق الدكتور ربيع هادي عمير المدخلي ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٤٢٣ ـ المدهش ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، عني به عبد الكريم تتان وخلدون مخلوطة ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار القلم ، سورية .

٤٢٤ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، **للإمام العلامة المحدث** عبد الله بن أسعد بن علي **اليافعي** (ت ٧٦٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٣٧ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دائرة المعارف بحيدر آباد الدَّكِن لدىٰ دار الكتاب الإسلامي ، مصر .

٤٢٥ ـ المراسيل ، **للإمام الحافظ أبي داوود** سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله مساعد الزهراني ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، دار الصميعي ، السعودية .

٤٢٦ ـ مراقي الفلاح شرح متن نور الإيضاح ، **للعلامة الفقيه** الحسن بن عمار المصري **الشرنبلالي** (ت ١٠٦٩ هـ) ، تحقيق عبد السلام شنار ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار البيروتي ، سورية .

٤٢٧ ـ المرض والكفارات ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق عبد الوكيل الندوي ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، الدار السلفية ، الهند .

٤٢٨ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، **للإمام العلامة** علي بن محمد الهروي المعروف بـ **ملا علي القاري** (ت ١٠١٤ هـ) ، تحقيق جمال عيتاني ، ويليه « الإكمال في أسماء الرجال » للخطيب التبريزي (ت ٧٤١ هـ) ، ط ٢ ، (٢٠٠٧ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٤٢٩ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، **للمؤرخ البحّاثة** علي بن الحسين بن علي **المسعودي** (ت ٣٤٦ هـ) ، تصحيح شارك بلا ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ) ، انتشارات الشريف الرضي ، إيران .

٤٣٠ ـ المسامرة بشرح المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة ، **للإمام الحافظ الفقيه** محمد بن محمد المقدسي المعروف بـ **ابن أبي شريف** (ت ٩٠٥ هـ) ، تحقيق صلاح الدين الحمصي ، ط ١ ، (٢٠٠٩ م) ، نشره محققه ، سورية .

٤٣١ ـ مساوئ الأخلاق وطرائق مكروهها ، **للإمام المحدث** محمد بن جعفر **الخرائطي** (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عطا ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٤٣٢ ـ المستدرك على الصحيحين ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بـ **الحاكم** (ت ٤٠٥ هـ) ، وبذيله : « تلخيص المستدرك » للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٣٥ هـ) ، نسخة مصورة لدىٰ دار المعرفة عن طبعة دائرة المعارف النظامية في الهند بحيدر آباد الدكن ، لبنان .

٤٣٣ ـ المستصفىٰ من علم الأصول ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، ومعه : « فواتح الرحموت بشرح مسلَّم الثبوت » للعلامة عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار البصائر ، مصر .

٤٣٤ ـ المستطرف من كل فن مستظرف ، **للأديب الخطيب** محمد بن أحمد بن منصور **الأبشيهي** (ت ٨٥٠ هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد قميحة ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٤٣٥ ـ مسند ابن الجعد ، **للإمام الحافظ** علي بن الجعد بن عبيد **الجوهري** (ت ٢٣٠ هـ) ، تحقيق عبد المهدي بن عبد القادر بن عبد الهادي ، ط ١ ، (١٩٨٥ م) ، مكتبة الفلاح ، الكويت .

٤٣٦ ـ مسند أبي داوود الطيالسي ، **للإمام الحافظ** سليمان بن داوود بن الجارود المعروف بـ **أبي داوود الطيالسي** (ت ٢٠٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٢١ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

٤٣٧ ـ مسند أبي يعلى الموصلي ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن المثنى المعروف بـ **أبي يعلى الموصلي** (ت ٣٠٧ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ٢ ، (١٩٨٩ م) ، دار المأمون للتراث ودار الثقافة العربية ، سورية .

٤٣٨ ـ مسند إسحاق بن راهويه ، **للإمام الحافظ** إسحاق بن إبراهيم المروزي المعروف بـ **ابن راهويه** (ت ٢٣٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الغفور البلوشي ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، مكتبة الإيمان ، السعودية .

٤٣٩ ـ مسند الإمام أبي حنيفة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق نظر محمد الفاريابي ، ط ١ ، (١٩٩٤ م) ، مكتبة الكوثر ، السعودية .

٤٤٠ ـ مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، **للإمام الحافظ أحمد** بن محمد **بن حنبل** الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٤٤١ ـ مسند الإمام الشافعي ، **لإمام الدنيا** محمد بن إدريس **الشافعي** (ت ٢٠٤ هـ) ، تحقيق أيوب أبو خشريف ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار الثقافة العربية ، سورية .

٤٤٢ ـ مسند الدارمي ، المسمىٰ « سنن الدارمي » ، **للإمام الحافظ عبد الله** بن عبد الرحمـٰن **الدارمي** (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار المغني ، السعودية .

٤٤٣ ـ مسند الروياني ، **للإمام الحافظ** محمد بن هارون **الروياني** (ت ٣٠٧ هـ) ، عني به أيمن علي أبو يماني ، ط ١ ، (١٤١٦ هـ) ، مؤسسة قرطبة ، مصر

٤٤٤ ـ مسند السرّاج ، **للإمام الحافظ** محمد بن إسحاق **السرّاج** (ت ٣١٣ هـ) ، تحقيق إرشاد الحق الأثري ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، إدارة العلوم الأثرية ، باكستان .

٤٤٥ ـ مسند الشاميين ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٨٩ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٤٤٦ ـ مسند الشهاب ، المسمىٰ « شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب » ، **للإمام القاضي** محمد بن سلامة **القُضاعي** (ت ٤٥٤ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٨٥ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٤٤٧ ـ مسند عبد بن حميد ، **للإمام الحافظ** عبد بن حميد **بن نصر الكَشي** (ت ٢٤٩ هـ) ، عني به صبحي البدري السامرائي ومحمود خليل الصعيدي ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، مكتبة السنة ، مصر .

٤٤٨ ـ المسند ، **للإمام الحافظ** الهيثم بن كليب **الشاشي** (ت ٣٣٥ هـ) ، تحقيق محفوظ الرحمـٰن زين الله ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .

٤٤٩ ـ مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٣٣ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة فاس لدىٰ دار التراث ، مصر .

٤٥٠ ـ المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي ، **للعلامة السيد** محمد بن أبي بكر **الشِّلِّي** باعلوي (ت ١٠٩٣ هـ) ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبع علىٰ نفقة من يعلمه الله ويراه ، مصر .

٤٥١ ـ مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق عبد العزيز السيروان ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، دار الإيمان ، سورية .

٤٥٢ ـ المصاحف ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن سليمان المعروف بـ **ابن أبي داوود** (ت ٣١٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محب الدين عبد السبحان واعظ ، ط ٢ ، (٢٠٠٢ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

٤٥٣ ـ مصارع العشاق ، **للحافظ الأديب** جعفر بن أحمد المعروف بـ **السَّرَّاج القارئ** (ت ٥٠٠ هـ) ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

٤٥٤ ـ المصنف ، **للإمام الحافظ عبد الرزاق** بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق حبيب الرحمـٰن الأعظمي ، ومعه : « الجامع » للإمام معمر الأزدي (ت ١٥٣ هـ) ، ط ٢ ، (١٩٨٣ م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، لبنان .

٤٥٥ ـ المصنف ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد **بن أبي شيبة** (ت ٢٣٥ هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوّامة ، ط ٢ ، (٢٠٠٦ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

٤٥٦ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن **حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق أيمن أبو يماني وأشرف علي ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، مؤسسة قرطبة والمكتبة المكية ، مصر والسعودية .

٤٥٧ ـ مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار ، **للإمام المحدث المؤرخ** محمد المهدي بن أحمد بن علي **الفاسي** (ت ١١٠٩ هـ) ، ط الأخيرة ، (١٩٧٠ م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

٤٥٨ ـ معارج القدس في مدارج النفس ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، ط ٢ ، (١٩٧٥ م) ، دار الآفاق الجديدة ، لبنان .

٤٥٩ ـ المعارف ، **لإمام الأدب واللغة القاضي** عبد الله بن مسلم المعروف بـ **ابن قتيبة الدِّينَوَري** (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط ١ ، (١٩٦٠ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار الكتب بمصر لدىٰ دار الشريف الرضي ، إيران .

٤٦٠ ـ المعجم (معجم شيوخ) ، **للإمام المحدث المؤرخ** أحمد بن محمد بن زياد بن بشر البصري المعروف بـ **ابن الأعرابي** (ت ٣٤٠ هـ) ، تحقيق عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

٤٦١ ـ معجم الأدباء ، المسمىٰ « إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب » ، **للعلامة المؤرخ الأديب ياقوت** بن عبد الله الرومي **الحَمَوي** (ت ٦٢٦ هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، مؤسسة المعارف ، لبنان .

٤٦٢ ـ المعجم الأوسط ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط ١ ، (١٩٨٥ م) ، مكتبة المعارف ، السعودية .

٤٦٣ ـ معجم البلدان ، **للعلامة المؤرخ الأديب ياقوت** بن عبد الله الرومي **الحَمَوي** (ت ٦٢٦ هـ) ، عني به المستشرق وستنفيلد ، ط ٢ ، (١٩٩٥ م) ، دار صادر ، لبنان .

٤٦٤ ـ معجم السَّفر ، **للإمام الحافظ الرحلة** أحمد بن محمد الجرواءاني المعروف بـ **أبي طاهر السِّلفي** (ت ٥٧٦ هـ) ، تحقيق عبد الله عمر البارودي ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، دار الفكر ، لبنان .

٤٦٥ ـ معجم الشعراء ، **للعلامة الإخباري الأديب** محمد بن عمران بن موسى **المَرْزُباني** (ت ٣٨٤ هـ) ، تحقيق الدكتور فاروق اسليِم ، ط ١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار صادر ، لبنان .

٤٦٦ ـ معجم الشيوخ (المعجم الكبير) ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، مكتبة الصديق ، السعودية .

٤٦٧ ـ معجم الصحابة ، **للإمام الحافظ القاضي** عبد الباقي **بن قانع** بن مرزوق بن واثق الأموي البغدادي (ت ٣٥١ هـ) ، تحقيق خليل إبراهيم قوتلاي وحمدي الدمرداش محمد ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

٤٦٨ ـ معجم الصحابة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن عبد العزيز **البغوي** (ت ٣١٧ هـ) ، تحقيق محمد الأمين الجنكي ، ط ١ ، (٢٠٠٠ م) ، مكتبة دار البيان ، الكويت .

٤٦٩ ـ المعجم الصغير ومعه « غنية الألمعي » للعظيم آبادي ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠ هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

٤٧٠ ـ المعجم الكبير ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠ هـ) ، ومعه « الأحاديث الطوال » ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٤٧١ ـ معجم المؤلفين ، **للأستاذ المؤرخ عمر رضا كحالة** (ت ١٤٠٨ هـ) ، عني به مكتب تحقيق الدار ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

٤٧٢ ـ المعجم ، **للإمام الحافظ** محمد بن إبراهيم بن علي الأصبهاني المعروف بـ **ابن المقرئ** (ت ٣٨١ هـ) ، تحقيق عادل بن سعد ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، مكتبة الرشد وشركة الرياض للنشر ، السعودية .

٤٧٣ ـ معرفة السنن والآثار ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، دار قتيبة ودار الوعي ودار الوفاء ، سورية ومصر .

٤٧٤ ـ معرفة الصحابة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار الوطن ، السعودية .

٤٧٥ ـ معرفة علوم الحديث ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بـ **الحاكم** (ت ٤٠٥ هـ) ، عني به الدكتور الشريف معظم حسين ، ط ٢ ، (١٩٧٧ م) ، المكتبة العلمية (النمنكاني) ، السعودية .

٤٧٦ ـ المعرفة والتاريخ رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه ، **للإمام الحافظ الحجة** يعقوب بن سفيان بن جُوَّان **البسوي** (ت ٢٧٧ هـ) ، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ) ، مكتبة الدار ، السعودية .

٤٧٧ ـ المعمرون والوصايا ، **للعلامة اللغوي** سهل بن محمد عثمان المعروف بـ **أبي حاتم السجستاني** (ت ٢٥٠ هـ) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط ١ ، (١٩٦١ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

٤٧٨ ـ المغازي ، **للقاضي المؤرخ** محمد بن عمر **الواقدي** (ت ٢٠٧ هـ) ، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ، ط ١ ، (١٩٦٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ مؤسسة الأعظمي للمطبوعات ، لبنان .

٤٧٩ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، **لإمام العربية** عبد الله بن يوسف الأنصاري المعروف بـ **ابن هشام** (ت ٧٦١ هـ) ، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، ط ٥ ، (١٩٩٤ م) ، طبعة مصورة لدىٰ مؤسسة الصادق ، إيران .

٤٨٠ ـ مغني المحتاج إلىٰ معرفة معاني المنهاج ، **للإمام الفقيه** محمد بن أحمد الخطيب **الشربيني** (ت ٩٧٧ هـ) ، اعتنىٰ به محمد خليل عيتاني ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار المعرفة ، لبنان .

٤٨١ ـ المغني ، **للإمام** عبد الله بن أحمد بن محمد **بن قدامة المقدسي** (ت ٦٢٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح محمد الحلو ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، هجر للطباعة ، مصر .

٤٨٢ ـ مفتاح دار السعادة ومنشورات ولاية العلم والإرادة ، **للإمام الحافظ** محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بـ **ابن قيم الجوزية** (ت ٧٥١ هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .

٤٨٣ ـ مفردات ألفاظ القرآن ، **للعلامة** الحسين بن محمد المعروف بـ **الراغب الأصفهاني** (ت ٤٢٥ هـ) ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، ط ٣ ، (٢٠٠٢ م) ، دار القلم ، سورية .

٤٨٤ ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، **للإمام الحافظ الناقد** محمد بن عبد الرحمٰن **السخاوي** (ت ٩٠٢ هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط ٢ ، (١٩٩١ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٤٨٥ ـ مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح ، **للإمام الحافظ** عثمان بن عبد الرحمٰن الشَّهْرَزوري المعروف بـ **ابن الصلاح** (ت ٦٤٣ هـ) وللإمام الحافظ عمر بن رسلان البلقيني المصري (ت ٨٠٥ هـ) ، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن ، ط ١ ، (١٩٨٩ م) ، دار المعارف ، مصر .

٤٨٦ ـ المقدمة في التصوف ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين بن محمد الأزدي المعروف بـ **أبي عبد الرحمٰن السُّلَمي** (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق الدكتور يوسف زيدان ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، دار الجيل ، لبنان .

٤٨٧ ـ المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق محمود بيجو ، ط ١ ، (١٩٩٩ م) ، مطبعة الصباح ، سورية .

٤٨٨ ـ مكارم الأخلاق ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٧ م) ، دار المشاريع ، لبنان .

٤٨٩ ـ مكارم الأخلاق ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط ١ ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .

٤٩٠ ـ المكاسب ، **للإمام الأصولي الصوفي الحارث** بن أسد **المحاسبي** (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، (١٩٨٧ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٤٩١ ـ المناسك ، **للإمام سعيد بن أبي عروبة** العدوي (ت ١٥٦ هـ) ، تحقيق الدكتور عامر حسن صبري ، ط ١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

٤٩٢ ـ مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق محمد زاهد الكوثري وأبو الوفاء النعماني ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ) ، لجنة إحياء المعارف النعمانية ، الهند .

٤٩٣ ـ مناقب الإمام أحمد ابن حنبل ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي والدكتور علي محمد عمر ، ط ١ ، (١٩٧٩ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٤٩٤ ـ مناقب الشافعي ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط ١ ، (١٩٧١ م) ، مكتبة دار التراث ، مصر .

٤٩٥ ـ المنامات ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط ١ ، (١٩٨٩ م) ، مكتبة القرآن ، مصر .

٤٩٦ ـ منتخب الكلام في تفسير الأحلام ، **للإمام المحدث الفقيه** محمد **بن سيرين** البصري (ت ١١٠ هـ) ، بدون تاريخ ، دار الفكر ، لبنان .

٤٩٧ ـ المنتخب من كتاب الزهد والرقائق ، ويليه « طرق حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في ترائي الهلال » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور عامر حسن صبري ، ط ١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

٤٩٨ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ، للإمام **الحافظ** عبد الرحمٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، لبنان .

٤٩٩ ـ المنتقىٰ من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها للخرائطي ، انتقاء **الإمام الحافظ الرحلة** أحمد بن محمد الجرواءاني المعروف بـ **أبي طاهر السِّلفي** (ت ٥٧٦ هـ) ، تحقيق محمد مطيع الحافظ وغزوة بدير ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، دار الفكر ، سورية .

٥٠٠ ـ منتهى السول علىٰ « وسائل الوصول إلىٰ شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم » للعلامة النبهاني ، **للعلامة الفقيه** عبد بن سعيد بن محمد عبادي **اللَّحجي** (ت ١٤١٠ هـ) ، عني بضبطه عبد الجليل العطا البكري ، ط ٤ ، (٢٠٠٨ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

٥٠١ ـ المنخول من تعليقات الأصول ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد حسن هيتو ، ط ٣ ، (١٩٩٨ م) ، دار الفكر ، سورية .

٥٠٢ ـ المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي ، **للشاعر المجيد** الحسن بن علي بن وكيع **الضبي** التنيسي (ت ٣٩٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، ط ١ ، (١٩٩٢ م) ، دار صادر ، لبنان .

٥٠٣ ـ المنقذ من الضلال ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق محمود بيجو ، ط ٢ ، (١٩٩٢ م) ، مطبعة الصباح ، سورية .

٥٠٤ ـ منهاج العابدين إلىٰ جنة رب العالمين ، **لحجة الإسلام محمد** بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به بوجمعة عبد القادر مكري ، ط ١ ، (٢٠٠٦ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

٥٠٥ ـ المهذب في فقه الإمام الشافعي ، **للإمام الفقيه المناظر** إبراهيم بن علي بن يوسف **الشيرازي** (ت ٤٧٦ هـ) ، وبذيله « النظم المستعذب في شرح غريب المهذب » للعلامة الفقيه محمد بن أحمد ابن بطال الركبي (ت نحو٦٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٥٠٦ ـ مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ، **للإمام الفقيه** محمد بن محمد بن عبد الرحمـٰن الرعيني المعروف بـ **الحطاب** (ت ٩٥٤ هـ) ، تحقيق زكريا عميرات ، ط (١) ، (٢٠٠٣ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة لدىٰ دار عالم الكتب ، لبنان .

٥٠٧ ـ موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، **للعلامة الباحث** محمد علي بن القاضي محمد حامد الفاروقي **التهانوي** (ت بعد ١١٥٨ هـ) ، عني به الدكتور رفيق العجم ، ط ١ ، (١٩٩٦ م) ، مكتبة لبنان ، لبنان .

٥٠٨ ـ الموشىٰ أو الظرف والظرفاء ، **للإمام الأديب** محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى **الوشاء** (ت ٣٢٥ هـ) ، تحقيق كمال مصطفىٰ ، ط ٣ ، (١٩٩٣ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٥٠٩ ـ موضح أوهام الجمع والتفريق ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، ط ١ ، (١٩٥٩ م) ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند .

٥١٠ ـ الموضوعات ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، عني به توفيق حمدان ، ط ١ ، (١٩٩٥ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٥١١ ـ الموطأ ، **لإمام المدينة مالك بن أنس** بن مالك بن نافع الأصبحي (ت ١٧٩ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

٥١٢ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ١ ، (١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

٥١٣ ـ ميزان العمل ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، ط ١ ، (١٩٦٤ م) ، دار المعارف ، مصر .

٥١٤ ـ نثر الدر ، **للوزير الأديب المؤرخ** منصور بن الحسين **الآبي** (ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق محمد علي قرنة وآخرون ، ط ١ ، (١٩٨٤ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

٥١٥ ـ نزهة الحفاظ ، **للإمام الحافظ** محمد بن عمر بن أحمد الأصبهاني المديني (ت ٥٨١ هـ) ، تحقيق عبد الراضي محمد عبد المحسن ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

٥١٦ ـ نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ، المسمىٰ « كفاية المعتقد ونكاية المنتقد » ، **للإمام العلامة المحدث** عبد الله بن أسعد بن علي **اليافعي** (ت ٧٦٨ هـ) ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، ط ٢ ، (١٩٩٠ م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

٥١٧ ـ النشر في القراءات العشر ، **للإمام الحافظ** محمد بن محمد بن محمد **بن الجزري** (ت ٨٣٣ هـ) ، عني به الشيخ علي محمد الضباع ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

٥١٨ ـ نهاية المطلب في دراية المذهب ، **لإمام الحرمين** عبد الملك بن عبد الله بن يوسف **الجويني** (ت ٤٧٨ هـ) ، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمود الديب ، ط ٢ ، (٢٠١٠ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

٥١٩ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، **للإمام الحافظ اللغوي** المبارك بن محمد بن محمد المعروف بـ **ابن الأثير** (ت ٦٠٦ هـ) ، تحقيق محمود الطناحي والطاهر الزاوي ، ط ١ ، (١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

٥٢٠ ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، المسمىٰ « سلوة العارفين وبستان الموحدين » ، **للإمام الولي** محمد بن علي المعروف بـ**الحكيم الترمذي** (ت ٣١٨ هـ) ، ويليه : « مرقاة الوصول حواشي نوادر الأصول » لابن إسماعيل الإمام ، ط ١ ، (١٢٩٣ هـ) ، طبعة مصورة عن نسخة الأستانة لدىٰ دار صادر ، لبنان .

٥٢١ ـ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، **للعلامة الشريف عبد القادر** بن شيخ بن عبد الله **العيدروس** (ت ١٠٣٨ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط وأكرم البوشي ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، دار صادر ، لبنان .

٥٢٢ ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، **لعالِم الكتب البحاثة** إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم **البغدادي** (ت ١٣٣٩ هـ) ، ط ١ ، (١٣٦٤ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

٥٢٣ ـ الهم والحزن ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ**ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، دار السلام ، مصر .

٥٢٤ ـ هواتف الجِنَّان ، **للإمام المحدث** محمد بن جعفر **الخرائطي** (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (٢٠٠١ م) ، دار البشائر ، سورية .

٥٢٥ ـ الوافي بالوفيات ، **للعلامة المؤرخ الأديب صلاح الدين** خليل بن أيبك **الصفدي** (ت ٧٦٤ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ٢ ، (١٩٩١ م) ، دار فرانز شتاينر ، ألمانيا .

٥٢٦ ـ الوجيز في ذكر المجاز والمجيز ، **للإمام الحافظ الرحلة** أحمد بن محمد الجرواءاني المعروف بـ**أبي طاهر السِّلفي** (ت ٥٧٦ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الغفور عبد الحق البلوشي ، ط ١ ، (١٩٩٤ م) ، مكتبة دار الإيمان ، السعودية .

٥٢٧ ـ الورع ، **للإمام الحافظ أحمد** بن محمد **بن حنبل** الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، عني به الدكتورة زينب إبراهيم القاروط ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٥٢٨ ـ الورع ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ**ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار الجفان والجابي ودار ابن حزم ، لبنان .

٥٢٩ ـ الوسيط في المذهب ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥ هـ) ، وبهامشه « التنقيح في شرح الوسيط » للإمام النووي (ت ٦٧٦ هـ) ، و« شرح مشكل الوسيط » للإمام ابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ) ، و« شرح مشكلات الوسيط » للإمام الحموي (ت ٦٧٠ هـ) ، و« تعليقة على الوسيط » للإمام ابن أبي الدم (ت ٦٤٢ هـ) ، تحقيق أحمد محمود إبراهيم ومحمد محمد تامر ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار السلام ، مصر .

٥٣٠ ـ الوصايا (النصائح الدينية والنفحات القدسية ، القصد والرجوع إلى الله ، بدء من أناب إلى الله ، فهم الصلاة ، التوهم) ، **للإمام الأصولي الصوفي الحارث** بن أسد **المحاسبي** (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

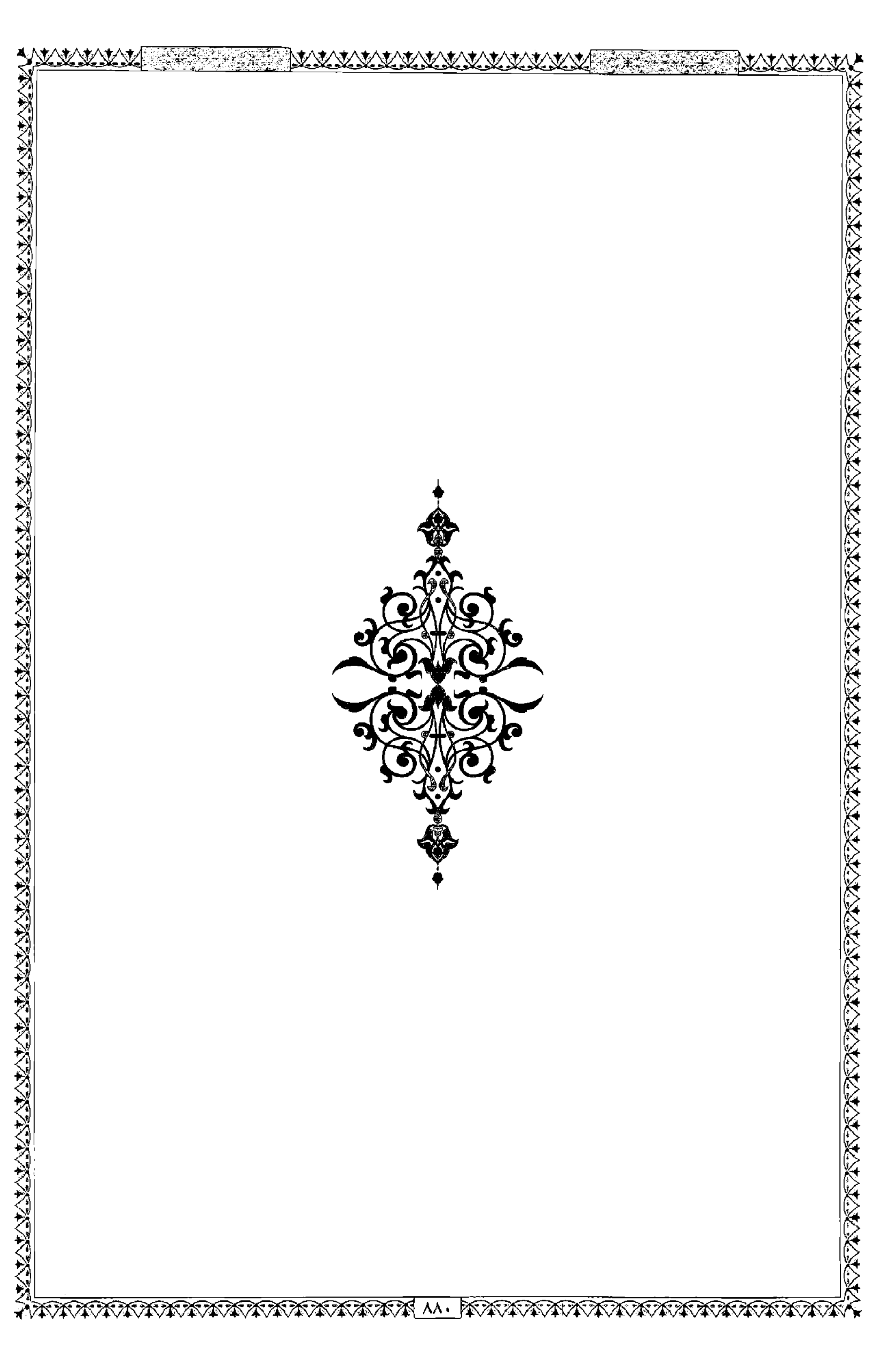
٥٣١ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، **للإمام المؤرخ أحمد بن محمد ابن خلكان** (ت ٦٨١ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٦٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

٥٣٢ ـ وقعة صفين ، **للمؤرخ الاثني عشري** نصر بن مزاحم بن سيار **المنقري** (ت ٢١٢ هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٣ ، (١٩٨١ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

٥٣٣ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، **للعلامة اللغوي** عبد الملك بن محمد المعروف بـ**أبي منصور الثعالبي** (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

٥٣٤ ـ اليقين ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ**ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق ياسين محمد السواس ، ط ١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

❋ ❋ ❋



محتوى الكتاب

ربع المنجيات

كتاب التفكر ٦٥٣